ممتاز

العربي

صفر ١٤٠١هـ - يناير ١٩٨١م



القوازق .. المسلمون الرُحّل

هدية العدد :

خرائط رحلة عالم الإسلام

المفتاح المثالي لأعمالك في الكويت والخليج



بنك الكويت الوطني أول بنك تأسس في الكويت منذ ٣٥ سنة.

بنك الكويت الوطني البنك الذي ساهم في الكويت لتلبية النهضة الاقتصادية والعمرانية.

بنك الكويت الوطني يقدم جميع الخدمات الاستثمارية والتجارية والاستشارات المصرفية.

بنك الكويت الوطني شبكة من المراسلين في جميع أنحاء العالم. [illegible]

القسم المصرفي الاستثماري والتجاري

تلفون ٤٢٢٠١١ ، تلكس ٢٠٤٣/٢٥٥١/٢٧٠٤ كويت.

قسم البريد الخاص ، تلفون ٤٤١٠٠٨/٩ ، تلكس ٣٣٢٧/٣٢٢٧ كويت.

بنك الكويت الوطني ش م ك

ص.ب ٩٥ ، الصفاة ، تلكس ٢٠٤٣ الكويت ، تلفون ٤٢٢٠١١ (الفرع الرئيسي)

عزيزي القارئ

رحلة هذا العدد من « العربي » قد تكون أطول مما توقع القارىء وربما أطول مما ينبغي . فهي ـ من ناحية ـ تحاول أن تغطي رقعة تمتد من أقصى الأرض الى اقصاها . من قضية الساعة في الولايات المتحدة الامريكية وما تفجره من اشارات الى تحولات عالمية مرتقبة ، الى واقع المسلمين في الصين ، مرورا بأبرز الاحداث الثقافية في ثلاث عواصم اوروبية ، لندن وباريس وبون .

وهي على صعيد ، آخر تحاول أن تغطي مساحة تمتد فيا بين الف ليلة وليلة والكوميدي فرانسيز وجائزة نوبل للادب ، مرورا بمذكرات تولستوي الصادرة في موسكو ، واكتشاف بصمات الثقافة الاسلامية في الكوميديا الالهية ، التي كتبها دانتي الايطالي .

وعلى صعيد ثالث ، يحاول هذا العدد ان يصحب القارىء مع آخر انجاز علمي ضخم : وصول سفينة الفضاء الى كوكب زحل بعد المشتري ـ وأغرب ظاهرة اجتماعية في اوروبا : استمرار وجود العشائرية المتمثلة في اسرة ما فوق المائة شخص ـ واخطر ظاهرة رياضية : تحكم السياسة فيها ، الذي بلغ ذروته في أوليمبياد موسكو لعام ٨٠ .

وعلى صعيد رابع يصحب هذا العدد من العربي قارئه في رحلة تمتد فيا بين دمشق عاصمة الأمويين ، وأول عاصمة لدولة الاسلام خارج الجزيرة العربية ، وميناء رأس الزور الكويتي أحدث « مواليد » عصر النفط . وفي المسافة بين دمشق وام سعود ، يجد القارىء نفسه في سفرة خاطفة مع الفن العربي الاندلسي ، الباقية علاماته المميزة الى الآن . ثم مع رحلة عالم الاسلام التي تسجل « هدية العربي » ابرز علاماتها في مجموعة من الخرائط الشاملة .

ثم ـ على صعيد خامس ـ يطرح هذا العدد في ساحة الحوار مجموعة من القضايا الحيوية حول موقف الاسلاميين من القومية ، والسر وراء التضخم الذي يجتاح العالم ، واحتمال ان يصبح « الجدري » ـ الذي أعلن رسميا عن القضاء عليه ـ هو سلاح حرب الجراثيم ؟

وبعد هذا كله ، يظل في العدد الكثير مما يقرأ ويمتع ، في ابواب العلم واللغة والتسلية .

الم نقل انها رحلة قد تكون اطول مما توقع القارىء ، وربما اطول مما ينبغي ؟

لكن الذي لم نقله أن العربي قد بدأت في هذا الشهر عامها الثالث والعشرين ، وانها لم تجد وسيلة للاحتفال بتلك المناسبة إلا أن تقدم للقارىء هذا العدد الممتاز على هذه الصورة .. مرسلة بين سطوره تهنئة له بالعام الجديد .

(المحرر)



صورة الغلاف

● هذه السيدة التي تطل من باب « بيتها » المتنقل هي واحدة من نساء القازاق المسلمات ، اللاتي ينتقلن مع ازواجهن وابنائهن بين سهول وجبال غرب الصين .. وفي بيوت المسلمين الصينيين كان استطلاع الشهر [انظر ص ١١٦]

قضايا عامة

قضايا حيوية

عروبة واسلام

طب وعلوم

اجتماع

آداب وفنون

شخصيات

استطلاعات مصورة

متنوعات

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير: أحمد بهاء الدين
مدير التحرير: فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ١١٠ فلوس ، الخليج العربي ريالان قطريان ، البحرين ٢٠٠ فلس بحريني ، العراق ١٢٠ فلسا ، سوريا ١٠٠ قرش ، لبنان ١٠٠ قرش ، الاردن ١٠٠ فلس ، السعودية ريالان سعوديان ، السودان ١٠ قروش ، ج . م . ع ١٠ قروش ، تونس ٢٥٠ مليا ، الجزائر ٢,٥ دينار ، المغرب ٢,٥ درهم ، اليمن ٢,٥ ريال ، ليبيا ١٥٠ درهما ، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ٢٠٠ فلس .

الاشتراكات : يراجع طالب الاشتراك :

١ ـ الشركة العربية للتوزيع وعنوانها : ص . ب (٤٢٢٨) بيروت/لبنان .

٢ ـ مؤسسة توزيع بالأخبار وعنوانها : ٧ شارع الصحافة/القاهرة/مصر .

« للمشتركين في جمهورية مصر العربية »

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراسلات : باسم رئيس التحرير

عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤١

تلغرافيا « العربي »

AL-ARABI — No. 266 — January 1981

P.O. Box 748 — KUWAIT

العالم يتحوّل

من اكثر الكلمات التي لعبت ـ وتلعب ـ دورا في الحياة السياسية في العالم ، خلال القرنين الاخيرين تقريبا ، كلمتا : اليمين واليسار ...

ذلك انهما كلمتان تتحكم فيهما « النسبية » الى حد بعيد ولذلك ، لا يستطيع المرء أن يجد ، في اى قاموس سياسي ، شرحا كافيا لمعنى أى كلمة منهما .

وحكاية ان التسمية بدأت حين جلس نواب الحكم على المقاعد اليمين في برلمان انجلترا او فرنسا ، ونواب المعارضة جلسوا على اليسار .. لم تعد تدل على شيء . فقد يكون اليمين في الحكم واليسار في المعارضة . وقد يكون العكس . مهما حدث من تبادل المقاعد .

انهما كلمتان تتحكم فيهما النسبية الى حد بعيد ، بمعنى أن وصف مجموعة من الناس بأنهم من أهل اليمين او من اهل اليسار ، يختلف باختلاف الزمان . فما كان يعد يمينا او يسارا في عصره ، غيره في عصر آخر .

ويختلف باختلاف المكان . فما قد يسمى يمينا او يسارا في قطر ، يختلف عما يحمل هذه المسميات في قطر آخر .

بل انه في التيار الواحد او الحزب الواحد في بلد تتعدد فيه الاحزاب .. يوجد في كل حزب يمين ويسار . دنيس هيلى مثلا في نطاق حزب العمال يسمى يمينيا ، وانطونى بن يسمى يساريا . وان وقف الاثنان منذ اسابيع متجاورين على عربة لورى واحدة يخطبان في آلاف العمال المتعطلين في ليفربول .

يتولى الرئيس الامريكي ريجان منصب الرئاسه يوم ٢٠ من هذا الشهر ومهما كانت الآراء فيه فسوف يعيش مع العالم أربع سنوات مقبلة على الأقل . البعض يرى أن نجاحه ليس ظاهرة منفصلة ، ولهذا الموضوع خصصنا هذا الجزء من المجلة .

الى اليمين ..!

بقلم : أحمد بهاء الدين

وكثيرا ما يتفرع هذا التقسيم الاساسي الى تقسيمات فرعية ، ففي البلاد التي تزداد فيها حدة الروح الفردية ، كايطاليا وفرنسا ، نجد عدة درجات : اليمين المتطرف ، ثم اليمين ، ثم يمين الوسط ثم الوسط نفسه ، ثم يسار الوسط ، ثم اليسار فقط ، ثم اليسار المتطرف .

سبعة الوان او سبع درجات لونية متجاورة ، مثل قوس قزح !

ومن يتابع اخبار دولة تتغير الحكومات فيها كثيرا ـ مثل فرنسا قبل ديجول ، او ايطاليا حاليا ، يجد ان الحزب الديمقراطي المسيحي مثلا يحكم ايطاليا دون انقطاع منذ الحرب العالمية الثانية . وهو حزب وسط . ولكن الوزارات تسقط وتقوم ايضا دون انقطاع . فقط يتغير اشخاص من نفس الحزب فيقال ان هذه حكومة « يمين الوسط » وتلك حكومة « يسار الوسط » الى آخره .

وبينما نجد « تنج هيساو بنج » يحاكم ارملة ماوتسى تونج بتهمة « التطرف اليسارى » ، فان تنج هسياو بنج نفسه لا يمكن ان يعتبر في اى بلد آخر الا انه « متطرف يسارى » .

وليس معنى ذلك انه لا يوجد ـ بوجه عام ـ علامات مشتركة مميزة لكل ما يسمى يسارا ، وعلامات اخرى مشتركة مميزة لكل ما يسمى يمينا .

متغيرات حدثت في العالم والمذاهب

انما لا بد ان نسجل اكثر من حقيقة اساسية ، سوف ينازعنا فيها اهل اليمين واهل اليسار جميعا ...

هذه الحقيقة هي ان القوالب المذهبية المحددة ، قد تمزقت الى حد بعيد ، بحكم تطور الحياة والظروف ، تطورات لم تكن مرئية ولا محسوبة عند الذين وضعوا هذه القوالب منذ اكثر من قرن . فصارت لدينا عشرات الاشكال والانواع والاجتهادات في كل يسار وكل يمين .

الحقيقة الثانية ، ان النظريات الايديولوجية قد نزلت عن عرشها في العقدين الاخيرين الى حد بعيد . فبعد ان كان ـ في مرحلة ما ـ الحرص على سلامة التطبيق النظرى الايديولوجى هو الهم الاول للسلطة ، صار التجاوب مع الواقع العملى هو الهم الاول للسلطة ، ويأتي تبرير ذلك نظريا في المقام الثاني ...

وها نحن نرى ، انه اذا كان القرن التاسع عشر ونصف القرن العشرين الأول هو عصر حروب وصراعات الدول الرأسمالية .. فان النصف الثاني للقرن العشرين تكاد تغلب عليه حروب وصراعات المعسكر الاشتراكى (الصين وروسيا ـ روسيا وتشيكوسلوفاكيا ـ روسيا وبولندا ـ الصين وفيتنام ـ فيتنام وكمبوديا ـ يوغسلافيا محايدة بين الجميع ـ البانيا عنيفة ضد الجميع !)

الحقيقة الثالثة ، ان النظم اليسارية او اليمينية على السواء ، تلاقحت في التطبيق العملى ، وحاول كل منها ان يستفيد من بعض ملامح الاخر .. وربما هذا هو الذى أوجد اكثر من يمين واكثر من يسار ...

فالافكار الخاصة مثلا بالتأمين الاجتماعي او ضد البطالة وتدخل الدولة في الاقتصاد افكار اخذها اليمين من اليسار . ولم يكن رجل مثل « آدم سميث » ، الاسكتلندى ابو علم الاقتصاد والنظريات الرأسمالية ، ليتصورها او تخطر له على بال .

كذلك فان اكثر التطبيقات يسارية ، لم تجد مفرا في التطبيق من ان تعود الى الاعتراف ببعض « قوانين السوق » التى هي اساس الفكر الاقتصادى اليمينى ، مع استحالة « تخطيط » كل شيء كما يدعو الفكر اليسارى المتطرف .. كسماح الاتحاد السوفيتي ـ مثلا ـ لكل فلاح بان يحتفظ في المزرعة الجماعية بقطعة ارض خاصة به يستثمرها لحسابه وخارج اى تخطيط . وقد صارت هذه الاراضي الخاصة على قلتها احد اكبر مصادر التموين الغذائي في روسيا . وبعض دول شرق اوروبا تسمح بملكية فردية اوسع في الاراضي الزراعية ، اعترافا بفاعلية « الحافز المادى » في نشاط الفرد وانتاجيته .

ثوابت في التمييز بين اليمين واليسار

ولكن ، رغم هذه التداخلات ، ورغم نزول الايديولوجيات عن عروشها المقدسة ، ورغم تعدد انواع اشكال اليمين واليسار ، ورغم نسبية كل منهما .. الا انه تبقى افكار اساسية ، هي حتى الان العلامات المميزة بين اهل اليمين واهل اليسار ...

فاليمينيون ، او المحافظون ، بوجه عام .. هم الذين يؤمنون اساسا بان الانسان الفرد ولد حرا وهو مسئول عن نفسه . مسئول عن ثرائه اذا أثرى ومسئول عن فقره اذا افتقر . وان الناس متساوون ، بمعنى المساواة امام القانون ، وليس بمعنى المساواة في الحظوظ والارزاق . واى محاولة للاخذ من الغنى للانفاق على الفقير ، معناها فرض ضريبة على الكفء والذكى والمجتهد ، لحساب الخامل والكسول والبليد . وليس بمثل هذا تتقدم الامم .

وهم يؤمنون بان الحافز المادى الفردى هو الاساس في عملية التقدم والنمو . ذلك انه اذا سعى كل فرد في المجتمع لتحقيق مصلحته ، فسيكون مجموع ذلك هو مصلحة المجتمع ككل ، وبمساهمة من كل العناصر النشيطة ، في حين ان الدولة لو حاولت ان تتدخل ، وترسم لكل فرد ما يفعله بحياته ، فهي انما تعطل نشاطه ، وتعرقل الاندفاع المتسارع نحو الرخاء .لان الدولة قادرة فقط على اتخاذ قرارات عليا . ولكنها عاجزة باى معيار عن اتخاذ ملايين القرارات التي يتخذها ملايين الناس كل يوم .. من صاحب المصنع الى صاحب البقالة الصغير .

والامر الثالث المقدس هو ضرورة الاذعان لما يسمى « قانون السوق » الذى يحدد تلقائيا في ساحة السوق نفسها وبكفاءة تامة سعر السلعة ، ونوع السلعة المطلوبة وغير المطلوبة ، واى مزاج للمستهلك في اى موسم . والمال الباحث عن الربح سيتجه الى اكثر المجالات تحقيقا للربح ، فاذا « تشبع » هذا المجال ، تحركت اسراب المال باحثة عن مجال آخر . وبالتالي فمحاولات الدولة في « دعم » بعض السلع بان تجعل ثمنها غير حقيقي ، او استخدام الضرائب والرسوم الجمركية ـ دعك من التخطيط الاقتصادي ـ للتأثير على السوق ، محاولات تربك السوق ولا تخدمه ، وتعرقل النمو ولا تسرع به .

على عكس هذه الامور الاساسية ، التي يتميز بها تفكير اليمين بوجه عام ، وهي كما نرى تنطلق من حقوق « الفرد » .. نجد ان القضايا الاساسية التي يتميز بها اليسار بوجه عام ، تنطلق من نظرة « اجتماعية » في الدرجة الاولى ، مقدمة ـ بوجه عام ـ مصلحة المجتمع على مصلحة الفرد : فاذا كانت النزعة الأولى ترى أنه لو كل فرد حقق مصلحته فستتحقق مصلحة المجتمع .. فان النزعة الثانية ترى انه لو حققنا مصلحة المجتمع فسوف تتحقق مصلحة كل فرد .

وهذا الكلام طبعا ، اسوقه في مجال التبسيط الشديد ..

وبالتالي فان احد اساسيات افكار اليسار ـ مثلا ـ هو الاخذ في الحياة الاقتصادية بنظام التخطيط ، الذى يدرس ويحلل ويحدد مقدما نوعا من الاهداف العامة للمجتمع ، يتجه اليها النشاط الاقتصادى ، ولا يترك ذلك لقوانين السوق التى لا حافز لها الا الربح .

ومن الافكار الاساسية ايضا ان الفرد مهما طلب منه ان يكون مسئولا عن نفسه ، فان المجتمع ايضا مسئول عنه . لان المساواة امام القانون ليست كافية ، اذ هى اقل من المساواة امام حقائق الحياة . فمن يبدأ حياته دون فلس واحد ليست لديه نفس فرصة من يبدأها بمليون دينار . وليس صحيحا ان كل فقير مسئول عن فقره ، انه اما غبي او كسول اوبليد . وبالتالي فعلى الدولة ان

تضع وسائل لتضمن للفرد حدا ادنى من اشياء معينة : من اجر العمل ، ومن تأمين ضد البطالة او الشيخوخة او العجز . وان تضع قوانين تحدد حدا أعلى لساعات العمل . كما تسن ضرائب تصاعدية فيدفع الغنى اكثر من الفقير ، الى آخره .

ومنذ انطلقت الثورة الصناعية بدءا من اوروبا ، وما يمكن ان نسميه اجمالا بتفكير اليمين ، كان هو السائد .

وكما خلق هذا التفكير ثورة صناعية واسعة ، واندفاعا من الدول الصناعية الى استعمار العالم ، وتراكم ثروات هائلة في عواصم الدول المتقدمة .. خلق هذا التفكير ذاته تعاسات هائلة : وصلت ساعات العمل الى اربع عشرة ساعة في اليوم ، وكان الاطفال يعملون في المناجم لعدم وجود اى قوانين تحميهم ، وكان نهب ثروات المستعمرات يتم دون رادع ، وحتى خطف الزنوج ونقلهم بالقوة الى قارات بعيدة يعملون فيها عبيدا ، يعد امرا مقبولا ، طالما ان « قانون السوق » وسياسة عدم التدخل من الدولة صار معناها ببساطة : ان البقاء للاقوى .

تحولات ما بعد الحرب الثانية

ولكن الحرب العالمية الثانية ـ بوجه عام ـ وضعت نهاية لهذا الاتجاه السائد بلا منازع .

وحتى من قبل ذلك ، اضطربت اوروبا في القرن التاسع عشر بالثورات الاجتماعية . وعرفت الولايات المتحدة حربا اهلية مريرة للقضاء على نظام الرق . ووقع سنة ١٩٣٠ وما بعدها اكبر انهيار اقتصادى في امريكا ، ارض الوفرة والتقدم ، وعرفت امريكا البطالة ، وطوابير الواقفين في الشوارع امام عربات توزع الحساء مجانا على الجائعين . وكان فرانكلين روزفلت بطل تلك اللحظة ، فاكتسح انتخابات الرئاسة . واعلن مرحلة المائة يوم التي اصدر فيها عددا هائلا من القوانين ، في نطاق المنطق الرأسمالي ، ولكنها كانت ضربة عنيفة للفكر اليمني المتطرف . وبعد ان كان الاصل قبل روزفلت ان يحكم الحزب الجمهورى في امريكا ، صار الاصل منذ روزفلت ان يحكم الحزب الديمقراطي . وبدأت امريكا تعرف لاول مرة من يسمون « بالليبراليين » .

وكان التحول الآخر الكبير ، بعد الحرب العالمية الثانية ،وازاء التحدى الهائل الذى طرحه تعاظم قوة روسيا السوفيتية والمعسكر الشرقي وثورات الاستقلال في العالم الثالث ، اذ تحرك بندول التاريخ ، بدءا من حكومة العمال ـ برئاسة كليمنت اتلى في انجلترا ، اذا أسقط الناخبون الانجليز بطل الحرب ونستون تشرشل في سبيل عدالة اجتماعية اكثر .

وبوجه عام ، صارت الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية ـ يسار الوسط ـ هى التي تفوز بالسلطة في غرب اوروبا . وعرف العالم لهم نموذج « دولة الرفاهية » التي قيل انها ترعى المواطن من المهد الى اللحد : العمال لهم اجور اعلى ، واجازات اطول ، وعلاج مجاني ، وتأمينات ضد كل خطر ممكن . والرأسماليون : احيانا يخضعون لقواعد التخطيط . واحيانا التأميم ، ودائما الضرائب التصاعدية التي تصل الى ٩٠٪ فوق حد معين .

وصار الفكر الذى يسمى في بعض بلاد الغرب اليسار ، وفي بعضها الآخر بالليبرالى ، هو الفكر السائد والمحتوم .

وصار الفكر اليمني او المحافظ ، يحارب متقهقرا ، ولا يعبر عن آرائه الا على استحياء .. ولكن ، مرة اخرى ، تحرك بتدول الاحداث في السنوات الثلاث الاخيرة ، الى اليمين هذه المرة ....

ترك الحزب الاشتراكي الحكم في السويد لاول مرة بعد ستة وثلاثين عاما .

وفازت مرجريت تاتشر اولا برئاسة حزب المحافظين ثم برئاسة الحكومة على اساس فكر يميني متطرف .

واكتسح « كارنيرو » الزعيم اليميني المتطرف الانتخابات البرتغالية ، بعد سنوات قليلة من ثورة ذات طابع يسارى (مات منذ اسابيع في حادث سقوط طائرة) .

وتمزق اليسار الفرنسي ، وضعف ، وبدأ جيسكار ديستان ـ يمين الوسط ـ يخاف من اليمين المطلق في الانتخابات المقبلة ، وليس من اليسار كما هى العادة ...

بل في البلاد الشيوعية ، نجد ان تنج هسياوبنج يحاول تحديث الصين عن طريق الخبرة الاجنبية وايقاظ الحافز الفردى . وفي بولندا وقف العمال جميعا ضد الحزب الشيوعي الحاكم الذى يسمى نفسه حزب الطبقة العاملة !

وقد توج هذا التيار بالفوز الكاسح الذى احرزه رونالد ريجان في الولايات المتحدة رغم شهرته بانه اكثر ممثلي اليمين يمينية ...

ولكن ، الا يتبادل هؤلاء الزعماء مراكزهم عادة . فما هو الجديد في الامر ، ولماذا نقول ان هناك تيارا حادا نحو اليمين ؟

الفرق هذه المرة ، في الدرجة ...

اليمين عائد على موجة شبه عقائدية

فكما ذكرنا قبل ذلك ، عن « تلاقح » الاتجاهين : ضاقت في الواقع المسافة بين ادوارد هيث مثلا زعيم المحافظين السابق وبين خصمه في ذلك الوقت هارولد ويلسون زعيم حزب العمال . وضاقت المسافة في امريكا بين نيكسون الجمهورى وخليفته كارتر الديمقراطي .

ولكن هذه المرة نجد ان هناك درجة اعمق في الاستقطاب وهوة اوسع بين الطرفين .

هذه المرة يعود اليمين على موجة شبة عقائدية ، متطرفة ، رافضة لاربعين سنة من تنامى فكر « دولة الرفاهية » ، راغبة في العودة الى الحجج الاولى للفكر اليمينى القديم .

وقد ايد الناخبون هذا الاتجاه بشكل قوى ...

وكما يقول احد المفكرين السياسيين بحق : ان مجموع الناخبين في اى بلد ، لا يذهبون الى صناديق الانتخاب ، بعد ان يكونوا قد قرأوا الكتب والمراجع في النظريات السياسية والاقتصادية المختلفة . ولكنهم يذهبون الى صناديق الاقتراع ، تحت تأثير حالة نفسية وذهنية معينة ، كونتها لهم مجموعة من الاعتبارات ، الحقائق المحيطة بهم .. ومن الآمال والمخاوف التي تساورهم ...

ففي امريكا مثلا : لو ان الامريكان ذهبوا لانتخاب رئيس الجمهورية بعد حادث اعتقال الرهائن الامريكيين باسبوع ، لانتخبوا كارتر باغلبية ساحقة ، ولكنهم بعد شهور طويلة مملة من مشهد عجز بلادهم وخوفهم من انحدار هيبتها ،انتخبوا من يرون انه سيتخذ سياسة عنيفة ، وهو رونالد ريجان . وقد يغيرون رأيهم بعد سنة من ممارسة ريجان للحكم ، اذا وجدوا انه سيغامر بهم اكثر من اللازم ..

بهذا المعنى ، يمكن القول ان نظم « دولة الرفاهية » ، ذات المنطلقات اليسارية او الليبرالية .. بعد سيادة اتجاهاتها حوالي ثلث قرن ، اخذ الناس مزاياها على انها بديهية ، وبدأوا يحملونها مسئولية المشاكل الجديدة ...

● كان اكثر ما يزعج الناس ومازال هو التضخم الهائل ، الذى تتآكل معه قيمة العملة الورقية التي يحملونها .. دون بادرة حل في الافق ..

● وفئات العمال والخريجين الجدد ، بدأوا يواجهون الارقام المتزايدة للبطالة ... التى وصلت احيانا ـ كالحال في انجلترا ـ الى ارقام لم تصل اليها منذ خمسين سنة ..

● وتصاعد النقد ضد برامج الرعاية الاجتماعية ذاتها ، من علاج وتأمين وغيره ، اذ ان جزءا كبيرا من المال المخصص لها تستهلكه بيروقراطية حكومية متضخمة باستمرار ، على حساب المنتجين الحقيقيين في المجتمع ، من شتى الفئات .

● وفي نظام الاقتصاد الحر ، ظهر نظام الاقتصاد المختلط ، الذى يتجاوز فيه القطاع العام والقطاع الخاص . ولكن الحكومات ـ لاسباب انتخابية ـ كانت تهرع الى تأميم الشركات المهددة بالخسارة ، فتحاول انقاذها بضمها اليها . وبالتالي بدا ان الدولة تتحمل خسائر فادحة من صناعات متقهقرة ، وذلك من اموال دافعي الضرائب بوجه عام .

● وتصاعد الانفاق الحكومي ، لكل الاسباب السابقة ، ادى الى تصاعد هائل في الضرائب . والفرد لا يحس بشيء اذا عولج مجانا مثلا . ولكنه يثور اذا انقطع من دخله جزء اكبر للضرائب . فقامت ثورة عارمة من دافعي الضرائب ، بدأت في كاليفورنيا مثلا منذ سنوات ، واندلعت في انحاء امريكا ...

● وفي حالات اخرى ـ كانجلترا ـ شهد الناس قوة الاتحاد العام لنقابات العمال تتعاظم حتى صارت النقابات هي التي تسقط الحكومات وليس البرلمان . وقام جدل واسع في انجلترا حول ظاهرة انتقال السلطة من ايدى ممثلي الشعب بوجه عام في البرلمان ، الى ايدى ممثلي فئة من الشعب



ميلتون فريدمان

وهي النقابات . لان النقابات تستطيع اغلاق الموانيء والمطارات وايقاف السكك الحديدية ، ومنع وصول الطعام والوقود الى المستهلكين . وبالتالي صارت القرارات الهامة تتخذ في هذه المجالات وليس في مجالها المألوف منذ قرون ، اي في البرلمان .

فريدمان وتلاميذه الثلاثة

وفي هذا الجو ، ظهر مفكرو الاتجاهات اليمينية ، وقد شعروا بان حركة البندول تتغير وان فرصة الهجوم المضاد مواتية . وكما ان هناك في امريكا جامعات ليبرالية مثل هارفارد فان هناك جامعات محافظة مثل شيكاغو وستانفورد . وقاد الحملة اقتصادى مشهور من مجموعة شيكاغو ، ومن ظلوا متمسكين بارائهم ، ونال جائزة نوبل منذ سنوات في الاقتصاد ، وهو ميلتون فريدمان ...

وميلتون فريدمان له الان ثلاثة تلاميذ مباشرون ، يحكمون في ثلاثة بلاد : ريجان في امريكا ، ومرجريت تاتشر في انجلترا ، ومناحم بيجن في اسرائيل ...

وآخر قنبلة اطلقها ميلتون فريدمان في الشهور الاخيرة كتاب يحمل اسم : « FREE TO CHOOSE حرية الاختيار » ، سرعان ما تحول الى حلقات تليفزيونية واحاديث صحفية ، وظل يتصدر قائمة اكثر الكتب توزيعا شهورا طويلة ...

وميلتون فريدمان يعود الى كل مبادىء علم الاقتصاد الاول كما ولد على يد « آدم سميث » ...

الحرية ؟ نعم . انها حرية الانسان في السعي الى السعادة ، بتحقيق ذاته . وكل نوع من التدخل الحكومي في الاقتصاد هو حد من حرية الفرد . حرية الفرد الاقتصادية تساوى حريته السياسية تماما . وحرمانه من جنى ثمرات عمله واختيار نوع عمله .. هو حرمانه من اهم حرية ...

المساواة ؟ نعم . ارادها واضعو اول وثيقة لحقوق الانسان ـ توماس جيفرسون وزملاؤه في الثورة الامريكية ـ بمعنى المساواة امام الله . وليس في المساواة في ناتج العمل . بدليل ان جفرسون نفسه كان يملك عددا من الرقيق !

ولو اراد الله المساواة بمعنى اقتصادى ، لخلق الناس جميعا على نفس الدرجة من الذكاء والنشاط والقدرة على العمل . ولكنهم خلقوا متفاوتين في الاخلاق والمواهب والكفاءات .

اخذوا فريدمان ـ على شاشة التليفزيون ـ الى بلد في امريكا الجنوبيةورأى اطفالا يعملون في المناجم في ظروف قاسية وبأجور ظالمة .. فقال : عظيم .. فلو وضعنا قوانين وقيودا ، لكانوا الآن متعطلين . وعملهم في هذه الظروف معناه انهم يفضلون ذلك على الجوع والبطالة !

ودخل في المعركة الانتخابية ـ في امريكا بالذات ـ المحافظون بقضايا اخرى ، جاءت بمثابة رد فعل ضد المجتمع الاباحي الذى استشرى في العشرين سنة الماضية ... دخلوا بشعار الغاء القوانين التي تسمح للمرأة بالاجهاض ..

وبشعار ضرورة تدريس الدين في المدارس ...

وبضرورة تخفيض الضرائب بشكل حاد ، ٣٠٪ تعهد بها ريجان ، لكي تحتفظ الشركات بارباحها التي توزعها أو تعيد استثمارها ..

وبالغاء القرار الذي يجبر البيض على الركوب في نفس الاتوبيسات المدرسية التي يركبها السود ، وجعل ذلك اختياريا ...

وفي انجلترا قالوا لمرجريت تاتشر ماذا عن تزايد البطالة ؟ قالت : معنى هذا ان الزيادة كلها « شحم » يجب ان يزول عن الجسم ليصبح صحيحا سليما !

●

طبعا ، لم يثبت حتى الان ان هذه العلاجات سوف تصلح ...

ذلك ان هناك سببا لكل مشاكل الدول الصناعية المتقدمة ، لا تريد ان تعترف لنفسها به ...

لقد سادت نفسية الترف والاستهلاك والانانية المادية بشكل هائل . بحيث صارت تلك المجتمعات تعيش واقعيا فوق مستوى قدرتها على العمل والكسب . وصارت تتعرض لمنافسة عاتية من شعوب اقل ترفا واكثر جهدا ، مثل اليابان التي تهاجم اكبر الدول الصناعية في عقر دارها ، وتنازلها في اسواقها ...

هذا هو المأزق الاكبر الذي يواجه اليمين واليسار على السواء في اوروبا وامريكا .

ولكن ، من سيكون ذلك الزعيم الذي يعلق الجرس في رقبة القط ، ويطالب المجتمع ككل ان يستهلك اقل ويعمل اكثر ؟

هذا هو السؤال . ■■

احمد بهاء الدين



رونالد ريجان

جيمي كارتر

لعبة السنة الكبيسة !

بقلم الدكتور فؤاد زكريا

منذ عشرين عاما لم ينجح اى رئيس امريكي في تجديد مدة رئاسته .. هل هو عيب النظام ؟

هل هو قلق الشعب الامريكي وسخطه على رؤسائه ؟ .. ام ماذا ؟

في كل سنة « كبيسة » ـ والسنة الكبيسة ، كما يعلم القارىء ، لا تقع الا كل اربعة اعوام وفي العام الذى يقبل القسمة على اربعة ـ تتكرر لعبة الانتخابات الرئاسية في امريكا ، ويحبس العالم انفاسه ـ أول الامر ـ في انتظار نتيجة الترشيح لكل من الحزبين الديمقراطى والجمهورى وتمتلىء شوارع الولايات المتحدة وجدرانها بصور « الحمار » و« الفيل » ، وهما شعارا الحزبين العتيدين .

وحين يستقر الحزبان على مرشحين ، بعد معارك حامية ومساومات مضنية ، تبدأ المعركة الحقيقية ، والتصفية النهائية التي سيفوز الرابح فيها بالغنيمة الكبرى ، ويصبح عن جدارة « اقوى رجل في العالم » . وخلال هذه المعركة ، يبدو العالم كله كما لو كان معلقا او مرتكزا على رجل واحدة ، ويتعطل كل شيء في انتظار « النتيجة » ، وعندما تظهر تلك « النتيجة » تتغير أشياء لاحصر لها في العالم ، وخاصة اذا كان الفائز رئيسا جديدا . فالرئيس الجديد يحتاج الى بداية جديدة ، ومجموعة جديدة من المساعدين بعقليات مختلفة واساليب مغايرة . وهو حين يبدأ فترة جديدة يظل مقيدا طوال سنواته الاربعة : فهو في السنة الاولى يدرس ويتعلم ويكتسب الخبرة ، وفي السنة الثانية تجرى الانتخابات التصفية للكونجرس ، وعليه ان يعمل حسابا لها في سياسته حتى يضمن انتخاب أعضاء جدد لايعوقون سياسته ، وفي السنة الثالثة تكون قد اقتربت فترة الترشيح الحزبي والاستعداد لمعركة السنة القادمة . وفي الفترة الثانية وحدها ، لو اعيد انتخابه ، تبدأ شخصية الرئيس الحقيقية في الظهور ، ويتخذ القرارات التي يود ان يذكرها له التاريخ ـ وكل ذلك في حدود معينة بطبيعة الحال ـ لانه يعلم ان هذه هي فرصته الاخيرة في ممارسة الحكم .

هذه اللعبة التي تجرى كل سنة كبيسة ، تقدم الينا كما لو كانت اروع نماذج الديمقراطية .ألا تتم الانتخابات دائما في موعدها المحدد ، وتجرى وفقا لضوابط دستورية دقيقة ؟ ألا تتاح لكل مرشح فرصة كاملة لكي يعرض برنامجه على الناخبين ، دون اى تمييز بين رئيس يمسك بزمام السلطة ومنافس يريد أن ينتزعها منه ؟ اليس الناخب ذاته حرا في الاختيار ، بلاضغط او ارهاب او تزييف في عملية الانتخاب او في نتائجها ؟ هل سمع احد ان رئيسا امريكيا قد اقترب من نسبة (الخمس تسعات) التي هي نعمة ينفرد بها حكام العالم الثالث ؟ هل شكا احد من ان صندوقا وضع محل صندوق ، او ان عدد الموافقين اكبر من عدد الناخبين ، او ان ناخبين من الاموات قد قالوا « نعم » ؟

ومع ذلك فانني ارى في الانتخابات الامريكية مظهرا لازمة خطيرة في الديمقراطية واخطر ما في هذه الازمة هو ان الامور كلها تسير كما لو كان كل شيء على مايرام ، والشكل الخارجي للعملية الانتخابية يوحى بان كل شروط الحرية والاختيار السليم وتكافؤ الفرص قد استكملت ، ومع ذلك فمن وراء هذا الشكل الخارجي السليم يكمن خلل اساسي ، ويستطيع اى شخص يتعمق في تحليل الاحداث ان يلمح ممارسات لاصلة لها على الاطلاق بجوهر الديمقراطية كما ينبغي ان يكون .

الدلالة السلبية أقوى

وحتى لايكون حكمنا السابق حكما مجردا لايقوم على دليل ملموس ، لنبدأ بتحليل ما حدث في الانتخابات الاخيرة بالذات ، وهي مازالت قريبة العهد ، لكي ننتقل منها بعد ذلك الى طبيعة العملية الانتخابية الامريكية بوجه عام ، وننتهي في آخر مقالنا بالبحث في صدى هذا كله على بلادنا ، وما الذى ينبغي ان يكون عليه موقفنا من « هزة السنوات الاربع » التي تزلزل العالم في كل سنة تقبل القسمة على اربعة .

ان العالم كله يتحدث عن مفاجأة التحول الكاسح الى اليمين في الانتخابات الاخيرة ، ويرى في شخصية المرشح الذى فاز ، وفي ماضيه الذى كان حافلا ـ منذ ان كان ممثلا سينمائيا من الدرجة الثانية ـ بمظاهر اليمينى ، يرى في ذلك دليلا على ان مزاج الناخبين الامريكيين قد تحول بصورة مفاجئة وعنيفة من « ليبرالية » الديمقراطيين الى الجناح المحافظ من الجمهوريين . ومع ذلك فانني لا اعتقد ان نتائج

الانتخابات الاخيرة تحمل هذه الدلالة ، ولا اظن انها تكشف عن تحـول في اى اتجـاه بعينـه .ذلك لان الانتخابـات الامـريكية تعبـر ، في رأيي ، عما لايريده الناخبون ، اكثر مما تعبر عما يريدونه . فدلالتها السلبية اقوى ، في تصوري ، من دلالتها الايجابية بما لايقاس . وحين نحلل نتائج اية انتخابات كهذه سوف تجد في دراسة سياسة المرشح الذى سقط معلومات اعظم فائدة بكثير مما تجده عند دراسة مبادىء المرشح الذى نجح .

ذلك اولا لان مبادىء المرشح الناجح هي ، قبل كل شيء ، دعاية انتخابية لم تتح لها بعد فرصة التحقق الفعلي ، على حين ان سياسة المرشح الفاشل (الذى كان رئيسا لمدة اربعة اعوام) كانت شيئا واقعيا حدث بالفعل ، ولمس الجميع نتائجه . ومن جهة اخرى فقد كان الناخبون يعبرون ـ كما جاء في احصاءات كثيرة نشرتها الصحف الامريكية بعد الانتخابات ـ عن استيائهم من ممارسات الرئيس القديم اكثر مما يعبرون عن اعجابهم بالمبادىء التي يبشرهم بها المرشح الجديد .

رؤساء فاشلون

لقد ارتكب الرئيس الذى اسقطته الانتخابات مجموعة من الاخطاء ادت الى اذلال الشعب الامريكي بحق : ففي عهده سقط شاه ايران ، وقيل ان من اسباب سقوطه احجام الحكومة الامريكية عن مساعدته عمدا ، ولم يثبت العهد الجديد في ايران ، حتى اللحظة الاخيرة ، اى ميل نحو امريكا ، بل على العكس احتجز كل من كانوا في سفارتها ، اى احتجز رمز امريكا ذاتها ، اكثر من عام ، وتخبطت ردود الفعل الامريكية ما بين السلبية العاجزة والايجابية الخائبة (في مغامرة صحراء « طبس » الفاشلة) ، ولم تكن بوادر التسوية التي ظهرت قبل يومين من اجراء الانتخابات سوى دليل آخر على عجز الادارة الامريكية القائمة وسلبيتها . وفي عهده مرت البلاد باكثر من ازمة بترولية ، ووزع هذا الوقود الحيوى ، في احيان كثيرة ، بالبطاقات . اما القرارات الخاصة بالسياسة الخارجية ، التي كانت تصدر ثم تسحب ، فكانت علامة ضعف وتردد لايتوقعه احد من رئيس اقوى دولة في العالم . وعلى اية حال فان هذا الرئيس الذى جاء لينتشل بلاده من الانهيار الاخلاقي والفوضى السياسية ، قد ترك بلاده في وضع اسوأ بكثير من ذلك الذى تسلمها فيه .

على ان كارتر لم يكن ، في الواقع ، سوى حلقة واحدة في سلسلة طويلة من الرؤساء الفاشلين او المخيبين للآمال .

والحق اننا لو استعرضنا تاريخ الرئاسات الامريكية منذ الستينات الاولى ، لما وجدنا رئيسا واحدا استطاع ان يكمل المدتين اللتين يسمح بهما الدستور : فجون كنيدى قد قتل قبل عام من خوض انتخابات الاعادة التي كان فوزه فيها مؤكدا (وبعده بقليل قتل شقيقه روبرت كيندى ، الذى كان بدوره مرشحا محتملا مضمون الفوز) . وعندما جاء جونسون لم يستطع ان يرشح نفسه لمدة ثانية بعد تورطه المشين في حرب فيتنام . وحين بدأ نيكسون مدته الثانية وظن انه سينفذ خططه السياسية آمنا ، جاءت فضيحة ووترجيت فاقصته عن الحكم في منتصف الطريق . وعندما خلفه نائبه فورد ليكمل مدته ، لم يستطع ان ينجح في اول انتخابات اجريت بعد توليه . وعندما تعلقت الآمال بجيمي كارتر ، ذلك المرشح المتدين الآتي من صميم الريف والذى يعظ الناس بضرورة العودة الى القيم الاخلاقية الاصيلة والتحرر من الانحلال والتدهور المعنوى ، لم يلبث ان انكشف ضعفه وعجزه امام العالم ، ووصل ببلاده الى حالة من الاذلال لم يعتدها ذلك الشعب الذى بنى حياته منذ البداية على القوة ، ومازال معظم افراده يؤمنون بان القدرة على استخدام العنف هي التي تعطى الانسان الحق في الوجود . واخيرا ، فها هو ذا ريجان ينجح ، ولكن يعلن كل من حوله انه لن يحكم اكثر من فترة واحدة ، وبعدها يصبح عجوزا لايصلح للحكم . انه نمط واحد متكرر ذلك الذى نصل اليه عندما نستعرض الرئاسات الامريكية طوال أكثر من عشرين عاما ، هو نمط التغيير المستمر للرؤساء الذين عجز اى واحد منهم عن اكمال مدتين كاملتين في الرئاسة .

ازمة النظام

ومن جهة اخرى فان التغير المستمر في الرئاسات الامريكية يكشف عن نمط آخر ، هو الانتقال من رئيس الى نقيضه : فقد جاء جون كيندى بسياسة ليبرالية بعد سيطرة تحالف الصناعة والجيش في عهد ايزنهاور . وجاء جونسون ليعود بالبلاد الى الطابع المحافظ المغامر بغير حساب لاية قوة اخرى ماعدا القوة الامريكية ، فاسقطته قوة صغرى ظهرت من قاع العالم الثالث هي فيتنام ، وجاء نيكسون لتحل سياسة الصفقات والمساومات واسترداد الارض المفقودة محل سياسة المغامرات الطائشة غير المحسوبة ، وبعده جاء كارتر ممثلا لرغبة عارمة في احلال قدر من الاخلاقية والاستقامة في ادارة اثبتت فضيحة « ووترجيت » انها لاتتورع عن الالتجاء الى اخس الاساليب اللااخلاقية في سبيل

المحافظة على بقائها . واخيرا جاء ريجان معبرا عن سأم الشعب الامريكي من التردد وضعف العزيمة في الخارج ، فضلا عن البطالة والتضخم في الداخل ، فاكتسح الانتخابات حين قدم الى الناس صورة المرشح الحازم الذي لا يساوم على مصالح بلاده الحيوية ويلوح امام خصومها بقبضة حديدية ويؤمن بان بلده هي اقوى بلاد العالم وينبغي ان تسلك في جميع تصرفاتها على هذا الاساس حتى لايخدش كرامتها احد .

قد يكون هذا تصويرا مبسطا لنمط التغيرات على الرئاسة الامريكية في السنوات العشرين الاخيرة ، اذ ان صورة الرئيس امام الشعب ليست هي كل شيء ، ولاجدال في ان هناك قوى وطبقات متباينة تتناوب السيطرة في كل عهد من العهود ، وتأتي برجالها الى السلطة ، ولكن يظل من الصحيح مع ذلك ان الممارسات الخاطئة تلعب دورا كبيرا في حشد القوى المضادة واعطائها فرصة اكبر للانتصار في المرة القادمة .

فعلى اى شيء يدل هذا النمط المزدوج الذي ظلت الانتخابات الامريكية تسير عليه قرابة ربع قرن ؟ ما الذي تستنتجه من انتخابات لايعاد فيها ـ في اغلب الاحيان ـ انتخاب الرئيس ، وتأتي في كل مرة برئيس يؤكد للناس ، في دعايته الانتخابية ، انه سيسير في طريق مضاد لذلك الذي كان يسير فيه الرئيس السابق ؟ في رأيي ان هذا النمط يدل على ازمة عميقة يعاني منها نظام الحكم الامريكي ، وعلى احساس غامض ، غير متبلور ، لدى الجماهير بان ثمة شيئا مختلا في العملية الديمقراطية كلها .

وحين اقول ان هذا الاحساس غامض وغير متبلور فانا لا اقصد من ذلك استخدام تعبيرات غيبية او اسلوب غير عقلاني ، بل ان ما اعنيه هو ان الشعب الامريكي يحس في كل مرة بانه خدع ، وخاب امله في الرئيس المنتخب ، ولكنه لايدرك بالضبط اسباب الخداع والعوامل التي ساعدت عليه ، لان ادراك هذه الحقائق الاخيرة يقتضي نقدا للجذور التي يقوم عليها النظام الديمقراطي الامريكي بأسره ، وهو امر يحتاج الى وعي لايتوافر لدى الغالبية الساحقة من الناخبين الامريكيين .

ماذا يفعل الامريكي ؟

ان المواطن الامريكي العادي ضعيف الوعي من الناحية السياسية والاجتماعية ، واستطيع أن اجزم بان وعي الانسان العادي بهذه المسائل ، في معظم بلاد العالم الثالث ، انضج من وعي نظيره الامريكي بكثير ، وذلك على الاقل لان الفقر الذي يعانيه انسان العالم الثالث ، وشعوره الحاد بمشكلات مجتمعه التي تحيط به منذ مولده حتى آخر لحظات حياته ، يعطيه احساسا واضحا بالاخطاء التي ترتكبها انظمة الحكم : ومثل هذا الاساس لايمكن ان يتوافر لدى انسان يعيش في مجتمع يتسم عموما بالوفرة ، وتدور عجلة الانتاج اليومي فيه بسرعة لاتمنح الانسان مجرد فرصة للتفكير في المشكلات المحيطة به . ولذلك كان تفكير المواطن الامريكي العادي منصبا ، في الاغلب ، على السطح الخارجي لمشكلات المجتمع ، لاعلى جذورها العميقة .

فماذا يفعل انسان يشعر بان هناك اخطاء اساسية يرتكبها القائمون بالحكم ، ويخيب أمله في وعودهم باستمرار ، ولكنه لايملك من الوعي ما يمكنه من ان يرد هذه الاخطاء الى جذورها ، ولايصل ادراكه الى حد الاعتراض على « اللعبة » باكملها ، وادراك ماتنطوي عليه عناصر الخداع ؟

ان كل ما يملكه مثل هذا الانسان هو ان يغير الرؤساء في كل مرة ، ويأتي في كل انتخابات برئيس يقدم وعودا مضادة للسياسات التي كانت سائدة طوال السنوات الاربع السابقة . انه لايملك ان يعبر عن سخطه ازاء ما هو موجود الا باختيار ما يعتقد انه نقيضه ، وسيظل يدور في هذه الحلقة بلا انقطاع ، الى ان يدرك يوما ما ـ وما اظن ان هذا اليوم سيحل قريبا ـ ان هناك شيئا ما غير صحيح في العملية الانتخابية ذاتها ، وفي كل الاسس التي تقوم عليها . وعلى اساس هذا التحليل أتوقع أن يأتي الشعب الامريكي ، بعد نهاية حكم ريجان ، برئيس يقدم اليه مبادىء سياسية مضادة لمبادىء سلفه ، ولا اتوقع ان يكون هذا « الدوران الى اليمين » اتجاها دائما او حتى طويل الامد في السياسة الامريكية .

أية ديمقراطية ؟ ؟

اما ما اقصده بقولي ان « اللعبة » باكملها خادعة وتحتاج الى تغيير جذري ، فسأحاول ان اشرحه للقارىء في سطور قلائل . وان كان الكلام عنه يحتاج الى مجلدات كاملة : ذلك لان المرء لايملك الا ان يعجب حين يرى امة عظيمة كالامة الامريكية يصل بها العقم الى حد ان تعجز عن تقديم اى مرشحين للرئاسة افضل من كارتر وريجان ، او نيكسون وروكفلر او جونسون وجولد وتر ، او غيرهم من الازواج العجيبة من المرشحين الذين تعاقبوا على الانتخابات الامريكية في ربع القرن الاخير . هل خلا هذا الشعب العظيم ، الذي غزا العالم بتكنولوجيته المتفوقة وترك

طابعه على جميع معالم القرن العشرين ـ هل خلا من اى صاحب مبادىء صالحة للتطبيق عمليا ، ومن اى سياسة يفكر قادر على ادخال بلاده ، في عصر جديد ، واستغلال طاقات شعبها وارضها الهائلة من اجل مجتمع افضل في الداخل ، وعالم افضل في الخارج ؟ هل هذه « العينات » هي وحدها التي تسفر عنها مسابقات التصفية المتتالية ، التي يجريها النظام الديمقراطى على مستويات متعددة ، حتى ينتهي آخر الامر الى اختيار « الافضل » ؟

الحق انني لا املك الا الاعراب عن دهشتي العميقة حين اجد ريجان ، الذى رأيته بنفسي يقدم برنامجا اسبوعيا يشتمل كله على فقرات استعراضية وهزلية في التليفزيون الامريكي في اواخر الخمسينات واوائل الستينات ، يفوز بهذه الاغلبية الكاسحة . ولامفر للمرء الا ان يتساءل : اية ديمقراطية هذه التي تسفر في النهاية عن اختيار شعب كبير ضخم الانجازات لممثل من الدرجة الثانية لكي يتحكم في مصيره ، وربما في مصير العالم باسره اربع سنوات كاملة ؟ واية ديمقراطية هذه التي تستطيع ان تفرض اى شخص على الناس من خلال وسائل الاعلام ذات القدرات الهائلة ، التي تجمل القبيح وتعمق السطحى ، ومن خلال الاجهزة الحزبية التي تختار في النهاية اقدر الناس على تلبية المصالح الكبرى ، لامصالح الانسان العادى او العالم ككل ؟

الا يوجد خلل اساسى في تلك الديمقراطية التي توهم الناس ، كل سنوات اربع ، انهم يمارسون حريتهم المطلقة في الاختيار حيث لايكون هناك في الواقع اى اختيار حقيقى ، وحيث يتشابه المرشحان في كل شيء ماعدا بعض التفاصيل الفرعية ؟ الا يوجد عيب جذرى في تلك الديمقراطية التي لا تعرض على الناس بدائل سياسية واجتماعية حقيقية ، وتقيم مع ذلك « مهرجانا » لا اول له ولا آخر ، يوهم العالم باجمعه بان الحرية تعيش في لحظات الانتخابات هذه اعظم ايامها ؟ الا يحتاج هذا المجتمع العظيم الى وعى جديد ، يقنعه بان « اللعبة » باكملها لاتستحق ان تؤخذ بكل هذه الجدية ، وبان قواعدها الاساسية في حاجة الى تغيير شامل ؟

هذا ، على اية حال ، شأن المجتمع الامريكي ، وكل ما يعنينا هاهنا هو ان ننتبه جيدا الى ابعاد هذه اللعبة حتى لانتجرف في تيارها . فمن العبث ان نقطع انفاسنا ونقف على اطراف اصابعنا في كل سنة « كبيسة » انتظارا لما تسفر عنه عملية الاقتراع في الرابع من نوفمبر . ومن العبث ان نتصور ان « شخص » الرئيس الامريكي يلعب اى دور اساسى في سياسة بلاده ، اذ ان « الشخص » هنا ليس الا ناطقا بلسان قوى ومصالح ضخمة هي التي « توسمت » فيه القدرة على ان يخدمها على افضل وجه . وهذه القوى الكبرى لها سياسات واستراتيجيات ثابتة ، لايتغير منها في كل مرة سوى بعض « تكتيكاتها » التفصيلية .

ان واجبنا ، في العالم العربي ، ان نحتفظ باستقلالنا ازاء مايدور في هذه اللعبة . ذلك لأننا لو ربطنا مصيرنا ، وقضايانا الحيوية ، بالتغييرات الموسمية التي تأتي بها هذه اللعبة ، ولو اعطينا اللاعبين الرئيسيين المشتركين فيها دورا اساسيا في مشكلاتنا المصيرية ، لكان علينا ان ننتظر في العام الاول من الرئاسة حتى يقوم الرئيس بالدراسة الكافية وننتظر في العام الثانى حتى تمر انتخابات الكونجرس النصفية ، ولانتوقع منه في العام الثالث والرابع اى تصرف جدى لانه يضع عينيه على التجديد في الانتخابات القادمة ، ونظل خلال ذلك نحلم بان يتحرر من هذا كله ، ويقوم بالعمل الذى نتمناه في الفترة الثانية من ولايته ، ثم تجيء الانتخابات كما حدث مرارا في السنوات العشرين الاخيرة ـ برئيس جديد ، وتخيب آمالنا وتوقعاتنا ، ومع ذلك لانتردد في ان ندور مع الدوامة من جديد .

أليس من واجبنا تجاه انفسنا ، وتجاه شعوبنا ، أن نتعلم من درس فيتنام ، وان نمضى في طريقنا الخاص بغض النظر عن مهرجان الانتخابات الامريكية ، وعندئذ قد تكون النتيجة هي أن تخضع الانتخابات الامريكية ذاتها لارادتنا ، بدلا من من أن تكون ارادتنا العربية صغرى تدور في فلك اللعبة الكبرى ، لعبة السنة الكبيسة ؟ ■■

فؤاد زكريا

رجاء

● وقف بطرس الاكبر قيصر الروس على قبر ريشيليو وزير الفرنسيين يقول :
« ليتك حيا فاعطيك نصف ممالكي لاتعلم منك كيف أسوس النصف الثاني » .



الإنتخابات الأمريكية والعالم العربي ..

بقلم الدكتور : جورج طعمه

ظاهرة انتخاب رئيس امريكي جديد بنجاح كاسح غير متوقع ليست جديدة في الحياة الديمقراطية الاميركية . فلقد عرفنا في حياتنا أمثلة كثيرة عليها .

جربنا ذلك حين رشح الحاكم الجمهوري لولاية نيويورك ديوى ضد ترومان الديمقراطي ، فقد اشارت كل التوقعات الى نجاح باهر لديوى وفشل مريع لترومان لكن ترومان نجح بشكل اذهل جميع الخبراء وخيب جميع التوقعات .

وهزم ايزنهاور الجمهورى منافسه ستيفنسون الديمقراطي هزيمة شنعاء رغم تأييد الاخير لاسرائيل في حملته الانتخابية تاييدا قويا منقطع النظير جعله أساس حملته . وتغلب جونسون الديمقراطي على جولدوتر الجمهوري بحيث خرج الاخير يجر اذيال الفشل المرير . وتغلب بدوره نيكسون الجمهوري على ماكجوفرن الديمقراطي غلبة قبل في حينها انها اكبر ما عرفته امريكا في انتخاباتها الرئاسية حتى ذلك الوقت . وهذا ريجان الجمهوري ينجح ضد الرئيس كارتر الديمقراطي وهو في مركز الرئاسة نجاحا فاق توقعات ريجان نفسه وتوقعات معظم الخبراء والاستفتاءات التي تنبأت بانه سباق الند للند وكأنه سباق فرسين متساويين في القوة ـ فاذا النتائج تسفه جميع الحسابات والتوقعات .

الفترات التي تعقب مثل هذه النتائج غير المتوقعة تتميز دوما بالانفعال والحماس ثم تحمل الاسابيع والشهور معها هدوءا ورصانة لتفسح بذلك مجالا للتأمل والتفكير في مايشبه الاحداث التاريخية . فما الذي كان وراء نجاح ريجان وما الذي ادى الى هذا الظفر غير المتوقع له ؟ أهل احس الشعب الاميركي حقا ان ريجان اعطى حسا تاريخيا مرهفا بحيث انه سوف يأتي لبلده المرهق

بمشاكله الداخلية اولا والخارجية ثانيا بحلول سحرية تقلب الاوضاع رأسا على عقب بين عشية وضحاها او بين رئاسته ونهاية عهده ! عشرات بل مئات المقالات كتبت وستكتب في الرد على هذه التساؤلات ، لكن الساحة الاميركية ليست محصورة ضيقة بل هي تشمل قارة باكملها . والعوامل متداخلة متشابكة بعضها ببعض بحيث ان كل تبسيط لها هو مجازفة تعرض صاحبها لمخاطر السطحية . ومع تكرر ظاهرة نجاح كاسح وفشل ذريع لكن التاريخ لايعيد نفسه بوتيرة واحدة ولكل حادث اسبابه الخفية ـ بل عشرات الاسباب ـ التي تجعله مختلفا ومغايرا للحادث الذي يظهر انه مماثل له .

٣ أسباب وراء التغيير

ويبدو لي ان هنالك عوامل ثلاثة اقرب لان تكون خفية غير ظاهرة ادت الى هذا التغير الجذري في قرار المجتمع السياسي الاميركي .

ودخل كارتر التاريخ يحمل التوراة بيمناه وحقوق الانسان بيسراه ، وخرج منه معلما مبشرا فاشلا يعج بالتناقضات ويضيق نفسا بما لايستطيع فهمه او الاحاطة به ، يمثل في مرحلة تاريخية معينة النسر الهرم وقد شلت قوادمه وخوافيه وصلع رأسه وتهدل جناحاه . وبعد ان رفع الكأس متلعثما ليشرب نخب شاه ايران اصبح خجلا ان يمشي في جنازة صديقه . واصبحت الرهائن الاميركية في ايران رمزا لهذا التقهقر التي بدأت اميركا تختبره .

نصيب العالم العربي

واذن فاميركا والعالم ونحن في مرحلة انتقالية فما هي ميزتها الاساسية ؟

يجيب الكثيرون انها موجة محافظة . وقد تكون كذلك . فعلى الجهة الاخرى من الاطلسي جاءت تاتشر رمزا آخر للمد اليميني ومظهرا لتيار غربي محافظ شديد يريد العودة الى كبرياء انسان الغرب وشعوره بالتفوق ، ومحاولاته الخفية والظاهرة الى العودة لبسط سيطرته من جديد . لكنها محافظة الى جانب انها دافع ملح في التغير والتغير السريع تحت ضغط احداث العالم . واما وجه هذه الموجة المحافظ ، فهو يعبر الى جانب مايعبر عنه عن تعب الانسان ويأسه وكآبته العميقين من الاكتساح المادي للعالم وان ماحققته هذه الحضارة المادية من معجزات لم تجعل الانسان المعاصر اسعد اليوم مما كان عليه البارحه . وان جميع مآثره واكتشافاته وغزوته للفضاء جعلته يصل الى نهاية طريق مسدودة فلا يجد فيها الانفسه ولايجد الاضجره والمه . فكان طبيعيا ان يتحول ببصره وجهة اخرى وجهة الروح التي اهملها طويلا فاهملته ونسيها فنسيته . وها هو يعود اليها متعبا مكدودا يتلمس طريقا جديدة فهل يجدها ؟ .

والانسان العربي يتساءل بحق بل من واجبه ان يتساءل عن الاخطار التي قد تهدده من هذه التوجهات . فالحضارة الصناعية لاتعرف غير النفع ولاتسعى الاوراء النفع . اما الشعوب والمجتمعات الاخرى فهي مجرد وسائط ومراكز للموارد الطبيعية الرخيصة ليبنى عليها الغرب حضارته الصناعية تلك الحضارة التي تحمل معها القدرة الذاتية ابدا ودائما لسد نقصها على اساس من الفهم والنقد الذاتي العميقين .

فما نصيب العالم العربي من هذه التغيرات البعيدة والعميقة ؟

وفي الاجابة على هذا السؤال سأكتفي فقط بالردود الاساسية .

١ ـ ان مجرد طرح السؤال على هذا الشكل يفضح جهلنا بحقيقة لعبة القوى الدولية . انها لعبة قوة بالدرجة الاولى يتحكم فيها من يعرف قوانينها . انها معادلة رياضية لامكان فيها للاخلاق والتبشير . انها تجرد الانسان من انسانيته لتجعله آلة حاسبه .

اما النتيجة في الشق الثاني من المعادلة فلا يمكن ان تزيد او تنقص عن الارقام او « المداخيل » التي تضعها في شق المعادلة الاولى . فاذا صحت المعادلة بمنطق رياضي قاهر كان الخاسر فيها هو الذي لايريد ان يعرف ان النتائج لايمكن الا ان تكون مساوية الا للمقدمات .

اولا ـ بالرغم من الاجماع او شبه الاجماع بان العامل الامريكي الداخلي ـ وخاصة العامل الاقتصادي ـ قد لعب الدور الاول ، لكن هنالك مايحيط بهذا العمل ليعطيه اولويته : وهو ان اميركا بل والعالم اجمع يجتازان مرحلة انتقالية . وكشأن جميع المراحل الانتقالية في التاريخ يتميز المجتمع البشري خلالها بالقلق والخوف ويتطلع الى وجوه جديدة ـ يكفي ان تكون جديدة ـ لتأتي وفقا لهواجسه بالحلول المنشودة المرتقبة . ففي الغرب والشرق على السواء وفي الشمال والجنوب تهب رياح جديدة ويتطلع الناس معها الى نظام جديد : نظام اقتصادي اجتماعي سياسي بل ربما دولي جديد . وانت واجد ذلك حيثما تطلعت في العالم . اميركا ، اوروبا

الغربية ، بولونيا وايران والصين ، في امريكا اللاتينية واقسام كبيرة في العالم الثالث . وقد يكون التيار المحافظ هو اكثر ما يميز هذه المرحلة الانتقالية لكنه حتما ليس طابعها الاخير وليس هو وحده الميزة الاساسية .

ثانيا ـ المشكلة الاقتصادية بقدر ماهي مشكلة بطالة عن العمل بلغت ارقاما في امريكا وانكلترا لم تبلغها من قبل قط . وبقدر ما هي مشكلة غلاء وتضخم بالغبن ، يقول اكبر خبراء الاقتصاد العالمي انهم لايعرفون متى وكيف واين ستتوقف ـ بقدر ما هي كل ذلك واكثر من ذلك جعلت الفرد الاميركي الذي عاش في اكبر بحبوحة عرفها التاريخ البشري وفي حضارة المتعة والرفاه والكماليات يقف حائرا مشدوها خائفا من يومه الذي انتهى ومن غده الذي لم يأت بعد . ومع ذلك كله ـ وهنا بيت القصيد ـ ان عهد الاكتفاء الذاتي الذي ضمنه له المجتمع الاميركي الزاخر بخيراته الطافحة وبموارده الطبيعية المتكاملة قد انتهى .. انتهى الى غير رجعه . وليس النفط وحده موردا طبيعيا آيلا للنضوب ، بل حتى الماء هذا الماء الذي تعج به انهار امريكا الكبيرة وآلاف بحيراتها ومنابعها قد اصبح مهددا بالقلة وعدم الكفاية . وعلى الافق البعيد في العالم الثالث المترامي الاطراف ستمائة مليون جائع ـ العدد المتوقع حتى نهاية القرن ـ يعيشون على درجة الكفاف . كان الشعور بالاكتفاء الذاتي وغنى المجتمع الاميركي هو عصب النظرة التقليدية الامريكية . اما اليوم فقد اصبح هذا الشعور من صور الماضي الاميركي لا من حقائق حاضره .

ثالثا : الشعور بان دور امريكا القيادي قد آل الى الأفول . ولم يكن كارتر سببا في هذا الانحسار ، بقدر ما جعلته الظروف التاريخية التي واكبته والاحداث الجسيمة التي رافقته معبرا عن هذا الانحسار وصورة له . فقد كان يجري وراء الاحداث لاهثا متعبا مكدودا يحاول عبثا ان يرتفع الى مستواها دون جدوى . فالتردد والتناقض الذي ميز موقفه كان انعكاسا تاريخيا صادقا ـ كائنا هو انعكاس في مرآة ـ لسلسلة متعاقبة من الاحداث التي هزت تباعا المجتمع الاميركي . ففضائح ووترجيت وتلك الجوقة من الفهود الاميركية التي تحولت الى ثعالب والصقور التي انقلبت الى قرود . وجراح فيتنام الدامية ، وما تركته من عشرات الالاف المشوهين في اول هزيمة عسكرية شنعاء عرفتها امريكا .

٢ ـ ليس ما هو حق في ذاته وبغير حاجة الى اقامة الدليل عليه بالنسبة لصاحب الحق المؤمن به ، هو بالضرورة حق بالنسبة للشخص الاخر . وبديهي ايضا انه ليس كذلك بالنسبة للخصم المغتصب . « الجحيم هو الاخرون » . الحق ليس فيه سحر صوفي ذاتي اشعره في داخلي فقط واتعجب مندهشا كيف لايرى وضوحه ولمعانه الاخرون . انه كذلك فقط بالنسبة الي .

خلال التاريخ الانساني بكامله لم يقدم اي غاصب لحق الحق لصاحبه على صحن من الفضة او الذهب . لكنه قدم له سيفا ذا حدين في الماضي او قنابل النابالم والقنابل الفوسفورية والعنقودية او قنبلة او رصاصا من مسدس كاتم للصوت من مستحدثات الحضارة الصناعية والتكنولوجيا المشتراة من الشركات عبر القارات .

٣ ـ اصبحت المعادلة الجديدة في مايتعلق بالعرب واسرائيل ان يصرح آخر رئيس اميركي قبل ان يترك سدة الرئاسة ان ما قدمه لاسرائيل من مساعدات مالية وعسكرية واسلحة فتاكة بالعرب يساوي جميع ما قدمه الرؤساء السابقون مجتمعين . فعل ذلك كارتر وفورد قبله ونيكسون قبل فورد وجونسون قبل نيكسون . وسيفعله ويقوله ريجان عندما تنتهي رئاسته . ويجب ان تظل اسرائيل بملايينها الثلاثة متفوقة بالقوة العسكرية على المائة واربعين مليون عربي بدولهم ال ٢٢ استضعاف العرب واذلالهم رمز قوة لكل رئيس اميركي دون استثناء جمهوريا كان ام ديمقراطيا . كيف تضع اسرائيل اسس الاستعمار الاستيطاني عبر اقامة مستوطناتها ، وان تقيم المزيد منها شهرا بعد شهر وان تصادر الاراضي العربية وتطرد سكانها العرب ليحل محلهم مهاجرون صهيونيون جدد من شرق الارض وغربها بدعم اميركي منقطع النظير ـ ذلك هو رمز هذه المرحلة التي ستمتد حتما الى عهد رئاسة ريجان وما وراءه .

٤ ـ المصداقية العربية : باي شكل وبأية قوى قابلنا وتقابل الاستعمار الاستيطاني تحت ابصارنا وهو امتداد واستمرار للمعركة ؟

اننا نعرف المسافة الشاسعة بين القرارات العربية وبين تنفيذها .. الأمر الذي يؤدي ـ في استمراريته ـ الى تلاشي المصداقية العربية لدى الأخرين تماما . وفي هذا لا نلوم الا أنفسنا ..

نشكو الزمان وما أتى بجناية
ولو استطاع تكلما لشكانا

■■

د . جورج طعمه

ريجان..
رئيس أمريكا الجديد !

بقلم : منير نصيف

في اليوم العشرين من هذا الشهر ، وبعد مضي ٧٧ يوما على وجه التحديد ، بقيت امريكا خلالها بين رئيسين ، احدهما مهزوم ولكنه ما زال يسكن بيت الرئاسة .. والثاني هو الساكن الجديد الذي ينتظر ويستعد .

هكذا يلتزمون بالدستور الامريكي الذي ينص على انقضاء هذه الفترة الطويلة بين انتخاب الرئيس الجديد واستلامه لعمله .. هذا الدستور الذي مضى عليه أكثر من قرنين من الزمان ، والذي ترتفع اليوم اصوات كثيرة مطالبة بتغييره لكي يتمشى مع العصر ومتطلباته ولكي يكون دستورا ملائما للتكوين الأمريكي ، او تركيب الامة الامريكية .

ليس هذا موضوع حديثنا اليوم على اية حال .. فالسؤال الذي يشغل العالم الخارجي : « من هو الرجل الذي اختاره الأمريكيون خلفا للرئيس الامريكي جيمي كارتر ؟ كيف يفكر ، وكيف سيعمل ، وكيف سيواجه المشاكل الخطيرة الملحة التي تعيشها امريكا ويعيشها العالم من حولها ، معها أو بدونها ؟ »

وهو سؤال صعب فلا احد حتى الآن يعرف او حتى يستطيع ان يقول انه يعرف ماذا يدور في رأس الرئيس الامريكي الجديد رونالد ريجان الذي احتفل في شهر ديسمبر الماضي بعيد ميلاده السبعين وبذلك يكون اكبر الرؤساء الامريكيين سنا لأن الحكم على الرجل من خلال تصريحاته واحاديثه في المعركة الانتخابية لا يمكن ان يكون مقياسا دقيقا لما سوف تكون عليه سياسته بعد وصوله الى كرسي الرئاسة بالفعل .

كل ما يمكن ان يفعله الكتاب والمعلقون والصحفيون هو البحث في ماضي الرجل ، وفي تاريخه وحياته الخاصة والعامة ، لعلهم خلال هذه الرحلات يعثرون على شيء قد يفيد في فهم حقيقة الرجل واسلوبه في العمل أو التفكير .

وهذه محاولة صغيرة من واقع ما قاله هو عن نفسه وما قيل عنه ، وعن المرأة التي تقف وراءه ... زوجته الثانية نانسي التي مضى على زواجه بها ٢٨ عاما . وقد لعبت نانسي أهم دور في حياته فهو مدين لها بالانتقال من حياة الفقر الى الثراء الذي عاش ينعم به خلال السنوات العشرين الاخيرة .. هي التي دفعته الى الوقوف في صفوف اغنياء امريكا وربما هي ايضا التي كانت وراء اشتغاله بالسياسة منذ عام ١٩٦٦ عندما رشح نفسه لاول مرة لمنصب حاكم ولاية كاليفورنيا . حقيقة كان لشقيقه نيل ريجان ، دور هام في اقناعه بدخول معركة انتخاب حاكم الولاية فقد كان يرى فيه


U.S

بعض مؤهلات الرجل السياسي ، وهو شيء لم يره ريجان في نفسه ولم يكن يرغب فيه . فقد بذلت محاولات من جانب بعض اعضاء الحزب الجمهوري من اصدقائه في كاليفورنيا لاقناعه بترشيح نفسه بعد ان سمعوه وهو يلقى اكثر من مثنى خطاب سياسي مؤيدا المرشح الجمهوري ريتشارد نيكسون في انتخابات الرئاسة الامريكية عام ١٩٦٠ .. وكان ريجان حتى ذلك الوقت ينتمي الى الحزب الديمقراطي .. وكان يبدأ كل خطاب يلقيه بنفس العبارة التي لم تتغير « صوت ديموقراطي من أجل نيكسون . » ... ولكن نيكسون خسر المعركة وفاز منافسه جون كيندي بالرئاسة .

ولكن حماس ريجان في خطبه للمرشح الجمهوري ، وهو الديموقراطي ، لم يكسبه فقط احترام بعض معارضيه وانما اكسبه مزيدا من الاصوات من الجمهوريين انفسهم ، وما لبث العضو الديموقراطي ان اعلن انضمامه الى الحزب الآخر .. وقال يومها مازحا : « لقد اكتشفت ان التنقل على ظهر الفيل امتع بكثير من ركوب الحمار » !

صوت للجنرال

ولم يكن هذا الاكتشاف جديدا .. ولا جاء صدفة ، ويروى ريجان القصة يقول « في عام ١٩٥٢ احتفلت بزواجي الثاني من نانسي بعد ان طلبت زوجتي الاولى جين وايمان ـ وقد كانت ممثله مشهورة في ذلك الوقت ـ الطلاق ، وفي نهاية هذا العام كانت انتخابات الرئاسة الامريكية بين دوايت ايزنهاور مرشحا عن الحزب الجمهوري ، وبين أدلاي ستيفنسون الديموقراطي ، وفي طريقنا الى صناديق الاقتراع ، نانسي وانا ، سألتني زوجتي من هو رجلك ؟ قلت على الفور أيزنهاور » . قالت ولكنه جمهوري قلت انا اعطي صوتي للجنرال ايزنهاور ! .. فهو لم ينس البدلة العسكرية التي لم يكن له شرف ارتدائها فقد عاش سني الحرب يعاني خيبة امل مريرة عندما اكتشفوا ان الشاب رونالد ريجان لا يصلح للجندية كان مصابا منذ طفولته بقصر النظر ، فهو لا يستطيع ان يميز بين الأشياء عن البعد .

واكتفى ريجان بقضاء سنوات الحرب بعيدا عن صوت المعركة . وكان يجد السلوى في تمثيل دور جندى البحرية والطيران على الشاشة ..

كان ريجان ممثلا سينمائيا ، وكذلك كانت زوجته الاولى جين ، ثم نانسي ولكنه كان سيىء الحظ ، فلم ينجح في دور واحد ، في فيلم واحد في اكثر من خمسين فيلما .

ولعل النجاح الوحيد الذي اصابه عندما انتخبوه رئيسا لنقابة الممثلين .. وكان معروفا عنه في ذلك الوقت المبكر من حياته التي كان يسير فيها بخطوات مترددة ، لا يعرف على وجه التحديد ماذا يريد بها ، انه ديموقراطي ، ثم ليبرالي يميل الى اليسار ، او على الاقل ، كما وصفه ريتشارد نيكسون وكان احد اعضاء لجنة التحقيق التابعة للكونجرس الأمريكي ، في النشاط المعادي لامريكا ايام موجة « الرعب المكارثية » . « كان مدافعا قويا عن اليسار ، والفكر اليساري » .

شهادة ريجان

استدعته اللجنة « كشاهد » في عام ١٩٤٧ ، عندما كانت تحقق في نشاط اليسار داخل نقابة الممثلين التي يرأسها ، ووقف ريجان يستنكر نشاط الشيوعيين في صناعة السينما ولكنه في الوقت نفسه كان مدافعا قويا عن حق هؤلاء الشيوعيين في حرية الخطابة ، مهاجما بشدة وعنف عملية اصطياد زملائه من الممثلين والكتاب .

« ولكن يا مستر ريجان ، هل تستطيع ان تقول ان هذه المجموعة من اليساريين لا تريد ان تسيطر على النقابة ؟ » .

● المسألة واضحة ياسيدي وبسيطة ، فهم في محاولتهم فرض وجهات نظرهم بالنسبة لبعض المسائل موضع البحث ، اعتقد ان من العدل ان نقول أننا ـ نحن ايضا ـ من جانبنا نحاول ان نسيطر على الموقف أيضا ، لاننا نقاتل وبقوة لفرض وجهات نظرنا . لقد قمنا بتقليص نشاط هؤلاء الأفراد ، ولكن مهما كان الامر ، فلا بد ان نعترف بهم كحزب سياسي ، انني كمواطن اشعر بتردد كبير في النظر الى اى حزب باعتباره خارجا على القانون ، بسبب ايديولوجيته السياسية ، ولكن اذا ثبت ان مثل هذه المنظمة هي في واقع الامر عميلة لدولة اجنبية فهذه مسألة اخرى .

الفشل موت !

في الخمسينات بدأت الديون تتراكم على ريجان ، وهو يرى الفشل الذي منيت به كل محاولاته لتقديم عمل ناجح للسينما حتى انه اضطر الى رهن بيته ومزرعته ولم يعد افلاس ريجان سرا ... لكنه لم يعترف يوما بالفشل .. لانه يؤمن كما يقول اصدقاؤه بان الفشل موت .. وما دام هو لم يمت بعد ، فهو لم يفشل وكان يحلم

وعيناه مفتوحتان ، وتحقق حلمه اخيرا في الخروج من الضائقة المالية التي يعانيها ، واختارته شركة جنرال الكتريك اكبر شركات صناعة الادوات الكهربائية في امريكا للعمل في « مسرحها » وهو برنامج تلفزيوني يعرض مرة كل اسبوع للدعاية لمنتجات الشركة . ولاول مرة يكتشف ريجان ان سنوات عمله الطويلة في السينما قد اعطته شيئا .. لقد قالها له مدير الشركة بوضوح : « لقد اخترناك انت بالذات لهذه الوظيفة لانك كنت ممثلا ، لا لأنك رجل تحمل رسالة » ولكن ريجان ما لبث ان وجد لنفسه رسالة بعد ذلك .. وهي محاربة تدخل « الحكومة الكبيرة » في شئون الآخرين واعمالهم وحياتهم الخاصة . وكان يسخر بصفة خاصة من مبالغة الحكومة الفيدرالية في مساعداتها الخارجية « لدول بعيدة عنا لا تظهر اى شعور بالامتنان نحونا » .. ونجح ريجان في شد اهتمام رجل الشارع اليه .. فقد وجد المواطن الحائر في امريكا رجلا يتحدث بصراحة عن العبء الذي يحني ظهره ، وهو يدفع ويدفع لتسديد الضرائب ...

دعاية وسياسة

ولم يكن ريجان بطبيعة الحال ، يتحدث في مثل هذه الامور في برنامج الشركة التلفزيوني ، فقد كان يدخر هذه المسائل « السياسية » للخطب التي كان يلقيها خلال تنقلاته بين الولايات الامريكية وسط حملات الدعاية التي يقوم بها لترويج منتجات الشركة التي اختارته لهذه الوظيفة مقابل مبلغ لا يقل عن ١٧٥ الف دولار سنويا لمدة ثماني سنوات .. خلال هذه الفترة ولد « السياسي » ريجان .. وان كان هو نفسه لم يشعر بهذا الميلاد .. واصبح له جمهور كبير يستمع اليه ، ويتسابق في الوصول الى المكان الذي سيلقي فيه خطابه .. حتى اصبح يتقاضى خمسة آلاف دولار عن كل خطاب يلقيه لمن يريد ان يقدم شيئا جديدا للسوق الامريكية ...

وعندما توقف « مسرح » جنرال الكتريك .. بدأ التلفزيون يعرض برنامجا آخر بعنوان « أيام وادي الموت » ، يقدمه شقيقه نيل الذي كان وقتها نائبا لرئيس احدى شركات الدعاية الكبرى .. اما صاحب البرنامج فقد كان شركة « بوراكس » الامريكية لصناعة الصابون .. ويقول نيل : « لقد وجدت أن البرنامج في حاجة إلى رجل معروف تستضيفه وعرضت الامر على شقيقي ريجان ، فوافق على الفور » .

واتفق ريجان مع شركة الصابون ، وبدأ عرض البرنامج ، الذي شاركته فيه بعض ربات البيوت ، .. وكان يقدم لهن الصابون .. ثم يجلسن ويستمعن اليه وهو يتكلم ويشرح لهن مزايا « صابون بوراكس » ، حتى اذا ما انتهى البرنامج .. التففن حوله وقلن في آن واحد : « سوف نشترى أى شيء من هذا الرجل » .

الجواد الجديد

وانقضت بضع سنوات ، قبل ان ينجح نيل شقيقه في اقناع العديد من اصحاب الملايين من الحزب الجمهورى بالعمل من اجل ظهور ريجان على شاشة التلفزيون .. ويقول نيل : « شرحت لهم وجهة نظرى .. قلت إن ريجان سيكون مؤثرا وفعالا فقد جربته من قبل مع الصابون » . وكان ذلك عام ١٩٦٤ ، في الأسابيع الاخيرة من المعركة الانتخابية الدائرة بين بارى جولد وتر وليندون جونسون ..

وظهر ريجان على الشاشة الصغيرة وراح يدعو الى المرشح الجمهورى الذي كان التلويح باستخدام القنبلة الذرية في رأس سياسته الخارجية .. ولكن الجمهوريين فشلوا في ادخال المرشح « المدمر » كما كانوا يسمونه ، البيت الابيض .. بينما نجحوا ـ ربما عن غير قصد في وضع ريجان على بداية الطريق الذي أوصله في النهاية الى البيت الابيض ..

واصبح ريجان في نظر « صانعي الملوك » اصحاب الملايين الجمهوريين ، هو « الجواد الجديد » لا لانتخابات الولايه فحسب ، فقد بدأوا يعدونه منذ ذلك اليوم لدخول « السباق الكبير » الى البيت الابيض ، .. ولو ان وصوله جاء متأخرا . لقد استطاع السياسي ريجان ان يقف ندا قويا لمنافسه الديموقراطي بات براون بعد ذلك بعام واحد .. اى في عام ١٩٦٥ .. فلم يكن بات فوق مستوى الشبهات .. ولكن احد الناخبين اراد ان يعرف رأى ريجان في منافسه ، فقال يسأله « ماذا في رأيك افضل شيء يمكن أن تذكره لبات أمامنا ؟ » .

(لا شيء او كل شيء)

واجاب ريجان في هدوء وهو يبتسم : انا اعرف عنه انه يحب كل افراد اسرته ، ويتفانى في خدمتهم .. لانني اكتشفت ان اسماء عدد كبير منهم في كشوفات الموظفين الرسميين في الولاية !! ودوت كلمات ريجان في الولاية كلها ، وعندما ظهرت الانتخابات وفاز الممثل بالمنصب كحاكم لولاية كاليفورنيا ، وانتهوا من فرز الاصوات ،

وجدوا ان الفارق بين المرشحين مليون صوت .

ولـم يكن حظ ريجـان في انتخابات الرئاسة عام ١٩٨٠ ، اقل من حظه في عام ١٩٦٥ .. فقد كان فوزه على كارتر ايضا كاسحا . فالحياة عنده إما لا شيء او كل شيء !

ماذا صنع بكاليفورنيا وهو حاكم لها ؟ هل نستطيع من خلال بعض مواقفه ان نعرف شيئا عن سياسته ؟ ربما !

ـ لم يكن قديسا ولم يكن شيطانا ، فهو لم يلغ المساعدات الخيرية ، ولم يستطع وقف زيادة نفقات الحكومة فقد ضاعف المساعدات التي تقدم للمدارس وتضاعفت نفقات الولاية ، وارتفعت الضرائب بمقدار النصف خلال المدتين اللتين امضاهما في الحكم ولكنه استطاع ان يوازن الميزانية في النهاية .

ـ استطاع ان ينظف البيت ، فقضى على كل ما يحمل رائحة الرشوة والفساد .

ـ ثار في وجه طلب جامعة كاليفورنيا ، محاولا ان يثنيهم عن الاستمرار في مظاهراتهم ضد التورط الامريكي في فيتنام ، واشتبك في معارك مع سلطات الجامعة ، حول كيفية ادارة الحرم الجامعي ولجأ الى الضغط عليها فرفض اقامة المباني الجديدة ، وخفض ميزانيتها ، واجبر المسؤولين على رفع المصاريف الدراسية ..

ـ وقع القانون الخاص ، باباحة الاجهاض ، ثم ما لبث ان قال معتذرا : « لم اكن اتصور انه سوف يفسر بمثل هذه الحرية . » .

ـ عين اثنين من السود في مجلس نقابة الحلاقين . وهم يذكرون له عندما كان طالبا في الثانوي انه دعا ثلاثة من لاعبي الكرة السود ، وكانوا ينتمون الى فريق البيسبول الذي يلعب هو فيه ، بالاقامة معه في بيته عندما رأى صاحب الفندق الذي ارادوا ان يمضوا فيه ليلتهم مصرا أن يطردهم من فندقه لانهم سود !

وكان يحب عمله وهو حاكم للولاية ويحرص على مواعيده ويواظب على الحضور الى مكتبه في الصباح حتى اذا انتهى العمل في الخامسة بعد الظهر استقل سيارته وعاد الى البيت .. إلى « نانسي » ، التي كانت دائما هناك في انتظار عودته .. والى مقعده أمام شاشة التلفزيون .

روني لا ينام

يقول ريجان ، او روني » وهو اسم الدلع الذي كانت تناديه به زوجته : « كانت سنوات عملي كحاكم للولاية ، تجربة كبيرة .. ولكنني استمتعت بها .. لعل الشيء الوحيد الذي افتقدته خلال تلك الاعوام هو النوم بعد الظهر .. فقد كنت اقدس هذه « الغفوة » بعد تناول طعام الغداء .. بدونها لم اكن اتصور انني استطيع ان استمر في عملي .. انها اعظم شيء في حياة الناس .. فهي بمثابة ملء للبطاريات التي مضت تعمل طول الصباح حتى فرغت .. انها تساعد العقل على التفكير في أحسن حالاته . »

هل يستطيع العودة الى النوم بعد الغداء في البيت الابيض واذا كان قد أحس بانه افتقد غفوة بعد الظهر منذ اربعة عشر عاما ، فلا شك انه سوف يشعر بحاجته اليها اكثر واكثر اليوم بعد ان جاوز السبعين .. ويقول اصدقاؤه : « لا تظن انه سينعم بالنوم كثيرا وهو يرى على مكتبه تلك التقارير « المخيفة » التي اعدها له مستشاروه عن احوال امريكا في الداخل والخارج .. التضخم ، البطالة ، الطاقة ، التفرقة العنصرية التي عادت تطل بوجهها القبيح من جديد ، الاقتصاد الامريكي المهلهل في ظل الارقام التي تقول ان الولايات المتحدة قد تحولت الى مزرعة كبرى لليابان تصدر اليها القمح وفول الصويا والاخشاب ، والقطن ، والفحم وتستورد منها احدث ما تنتجه المصانع اليابانية سيارات ودراجات بخارية وراديوهات واجهزة الفيديو !! حتى خرج الكاتب الساخر ارت بوخوالد باقتراحه الشهير بانتخاب رجل ياباني ليكون نائبا للرئيس الامريكي الجديد ، اذا أرادت الولايات المتحدة ان تستعيد مكانتها الصناعية امام المنافسة اليابانية الخطيرة .

ثم مشاكل العالم في الخارج .. الوفاق .. اتفاقية سولت ، الأمن الأوروبي ، العرب واسرائيل ثم ازمة الرهائن الامريكيين في ايران التي قد تحل اولا تحل قبل توليه الرئاسة رسميا ، وما تجره وراءها من مشاكل اخرى حول علاقة امريكا بالدولة التي استطاعت ان تعرضها لقدر كبير من الاذلال امام اعين العالم كله .

حديث الوسادة

هل يستطيع ريجان العجوز ان يحتمل كل هذا

العب، الكبير . يقول اطباؤه ان قلبه سليم مائة في المائة ، وانه يحرص على الا يزيد وزنه عن ال ٧٥ كيلو جراما ، وهو يمارس الالعاب الرياضية كل صباح ويهوى تربية الخيول .

حقيقة ان أباه مات بالسكته القلبية قبل ان يبلغ عامه الستين الا أن امه ماتت عن ٨٠ عاما ، انهم يستطيعون ان يعطوه عشرة اعوام اخرى ، وربما اكثر ، لانه زوج سعيد .. وهو يصف هذه السعادة التي يعيشها مع زوجته نانسي بقوله : « يكفي ان انظر الى عينيها المبتسمتين دائما ، فاقرأ على الفور قصة حياتي وكفاحنا معا منذ عام ١٩٥٢ الى اليوم .. انها زوجتي وصديقتي التي اتبادل معها، حديث الوسادة » في كل مشكلة صادفتني خلال النهار ، قبل ان تغمض اعيننا وتستسلم للنوم ! »

وريجان اب لاربعة ابناء واكبر بناته هي مورين (٣٩ سنة) من زوجته الاولى جين ، وقد فشلت في زواجها مرتين ، وتبنى ولدا اسمه مايكل في الخامسة والثلاثين اليوم وهو متزوج ، وقد أنجبا اخيرا طفلا ، وهكذا اصبح ريجان جدا لاول مرة . اما نانسي فقد اعطته طفلين باتي ٢٨ سنة ، ورون ٢٢ سنة .. ولم تكن حياة الابناء دائما سعيدة ، فقد سببوا له آلاما نفسية في وقت او في آخر خلال رحلته الطويلة مع الحياة ..



نانسي

ماما نانسي

ومنذ ثلاثين عاما ، عندما كانت نانسي دافيز فتاة في السابعة والعشرين من عمرها ـ فهي اليوم جاوزت السابعة والخمسين ـ وعندما وقفت امام آلات التصوير في هوليوود مدينة السينما ، صاح احد كبار المخرجين في شركة مترو جولدوين ماير : « انها احسن من يقوم بدور الام » ! واصبح اسمها الجديد « ماما » وما زالت حتى اليوم تقوم بدورها الذي اختاروه لها ، وما زال زوجها ريجان يناديها « ماما » ، وما زالت عينا ماما الواسعتان الجميلتان تحدقان في وجه الرجل الذي اختارها من بين كل النساء ليعدها لهذا الدور الكبير الذي ستقوم به .. دور سيدة امريكا الاولى .. اذا تكلم اتجهت بعينيها الى شفتيه .. واذا ضحك ، ابتسمت له في هدوء ، حتى لو لم تكن تعرف لماذا يضحك ، واذا وقف ساكتا مستمعا ، اكتفت بالنظر اليه والحديث معه بعينيها !

ولكن وراء هذه الابتسامة الحلوه ، نجد هناك امرأة تعرف كيف « تقرص » وأين تكون هذه القرصة اكثر وجعا في الوقت المناسب !



روزالين كارتر

انها ليست مثل روزالين كارتر ولا يمكن ان تكون .

انها تختلف .. فهي مثلا لا تفكر في اقتحام قاعة الاجتماعات التي امتلأت بدخان السجائر لتكمل حديثا بدأه زوجها الرئيس او تقوم برحلة كان من المفروض ان يقوم بها رئيس الجمهورية لالقاء كلمة يشرح فيها وجهة نظره للمواطنين الذين ينتظرون سماع رأى الرئيس في بعض المشاكل التي يعيشها الامريكيون وهي كثيرة .

مستشار الرئيس

وهي لاتفكر مثلا في ان تكون مستشارا للرئيس ، تقول له رأيها ، كما يفعل المستشارون الرسميون الذين اختارهم لهذه المهمة ، حتى لو كانت القضية قضيتها . كما حدث اثناء الحملة الانتخابية عندما اتهموا ريجان بانه ضد حقوق المرأة ! فهي لم تتصد لهذا الاتهام ، ولكنها اكتفت بان همست في اذنه بكلام سمعه وحده ، ولم يعلق عليه ، وبعد بضعة ايام ، كان له لقاء مع الصحفي الانجليزي كينيث هاريس مراسل صحيفة « الاوبزرفر » وقال كينيث : « ان نقادك يقولون انك تعادي المرأة وانك ضد تمتعها بحقوقها كاملة ، وانهم يتوقعون ان يفوز كارتر باغلبية اصوات الناخبات في أمريكا ! ! »

واجاب ريجان : « لماذا لا تسألهم عن اسباب اعتقادهم بانني اريد ان احرم المرأة من حقوقها ، واذا فعلت فلا تنس ان تذكرهم بالقانون الذي وقعته عندما كنت حاكما لولاية كاليفورنيا والذي يحرم التفرقة في المعاملة على اساس الجنس او العنصر .. ليس هذا فحسب ، بل لقد ضاعف القانون ، وكان من اقوى القوانين التي صدرت في كل الولايات الامريكية ، من عقوبة الاغتصاب ، وتقديم مزيد من التسهيلات لكل زوجة ترغب في الثراء بالتقسيط المريح ، ومزيد من الرعاية للاطفال في سن الرضاعة لتتمكن الامهات من العمل . »

الكلمة الاخيرة .. لمن ؟

ان وجود نانسي في اى اجتماع يتحدث فيه ريجان ، يضمن له النجاح ، فهو يتحدث بثقة عندما ينظر اليها ويرى تلك الابتسامة الناعمة على وجهها الذي تحرص صاحبته على ان يكون قريبا منه في الصف الثاني او الثالث مثلا دون ان يشعر احد غيره بوجودها فيه .

هذه السيدة الرشيقة التي لا يزيد طولها على ١٦٠ سنتيمترا وتزن اقل من خمسين كيلو جراما ، والتي تحسدها عارضات الازياء في العالم ، لا تنوى ان تحيط نفسها بمثل هذا العدد الهائل من السكرتيرات والمساعدات اللواتي يعملن مع روزالين كارتر ، وهن يزدن عن ٢٠ سيدة في البيت الابيض ! « ان مهمة الزوجة هي اولا رعاية زوجها وتوفير الجو الملائم الذي يمكن ان يعمل فيه بهدوء .. وهو عمل لا يمكن ان تشاركها فيه امرأة اخرى .. هناك أعمال صغيرة يمكن لاى سيدة اخرى أن تقوم بها ، اذا وجدت الزوجة انها في حاجة الى مساعدة ! » هكذا ترى دورها كزوجة للرئيس ! ■■

منير نصيف

أقوال السبعينات

اقوال السبعينات ، كتاب جديد صدر في لندن ، جمع فيه الناشر بعض ما قيل خلال العام الاخير الذي يسبق ١٩٨١ .. اصحاب هذه (الاقوال) شخصيات ـ معروفة) ...

■ كم اتمني ان اذهب في اجازة طويلة . (شاه ايران)

■ من حق كل مواطن ان يعمل ، ومن حق كل مواطن ان يمر عبر اى خطر يصطف فيه رجال البوليس . (جيمس كا لاجان)

■ مقارنة الناس الذين يضربون عن العمل ، بالارهابيين ، هراء .. يحمل معه خطرا كبيرا . (لين موراى) رئيس اتحاد العمال البريطاني

■ لو كنت « دكتاتورا » لاصدرت قانونا يحرم على كل فتاة تحمل سفاحا ، ان تتزوج قبل ان تنجب مولودها وبعد مرور عام على الاقل على مولد طفلها .
« جورج بيكر » (رئيس المحكمة العليا لشئون الاسرة)

■ كلمة السر التي تفتح جميع الخزائن .. هي كلمة الحب .
(لافتة في مكاتب حكومة المانيا الاتحادية)

■ القطاع الخاص هو جزء من الاقتصاد تسيطر عليه الحكومة ، والقطاع العام هو الجزء الاخر الذي لايسيطر عليه احد . (سير جيمس جلود سميث)

■ أن من يتصور ان « الدولة اليهودية » في عام ١٩٨٠ تستطيع السيطرة على مليون وربع مليون عربي بالمدافع الرشاشة وبفرض حظر التجول انما يقود اسرائيل الى كارثة . (موشى ديان)

■ اتمنى لكل افراد الشعب البولندى ان ينعموا بالوحدة والحرية والسيادة التي تستحقها بلادهم . (بابا الفاتيكان البولندى)

■ اذا دخل كيندى معركة الرئيس فسوف اضرب مؤخرته بالسباط !!
(الرئيس المهزوم جيمي كارتر)

■ لن يغفر لنا « الله » اذا فشلت جهودنا في التوصل الى اتفاق حول نزع السلاح . (من رسالة بريجنيف الى كارتر)

■ السلام لايمكن ان يتحقق بالتسول كما لا يمكن تجنب الحرب بالاستسلام .
(هوا رئيس الصين)

■ وجهي اجمل وجه في العالم . (عيدى امين)

■ في جميع انحاء واشنطون الناس يحاولون أن يقرأوا القرآن . (هنرى فيرلي)



الدكتور زكي نجيب محمود يكتب

رؤية صحراوية

كان من اعجب ما علمته عن طبيعة الصحراء وتأثيرها في الانسان رؤية ورأيا ، ملاحظات سمعتها نقلا عن رحالة اخترق الصحراء الافريقية الكبرى . فمن ملاحظاته تلك ، انه اذا ما انبسطت الارض مستوية امام المسافر ، استحال على ذلك المسافر ان يعرف ـ فيما يشاهده في الافق البعيد من معالم ـ ايها اقرب اليه من ايها ؟ .. فاوضحت الفكرة لنفسي قائلا ان الامر هنا شبيه بمن ينظر الى انجم السماء ، فلا تدله العين وحدها اي النجوم ابعد وايها اقرب ، ولابد ـ لمعرفة ذلك ـ من اجهزة فلكية ، يستدل بها علماء الفلك على ابعادها .

وملاحظة ثانية استوقفت سمعي مما اورده رحالة الصحراء ، وهي ان المعادن لاتصدأ مهما طال بقاؤها ، وذلك لشدة الجفاف ، فلقد رأى كومة من علب الصفيح الفارغة ، وكان قد مر عليها اكثر من عشرين عاما ملقاة في مكانها ، فما وجد عليها اثرا لصدأ يعتم بريقها تحت اشعة الشمس ، وكأنها خرجت لتوها من مصانعها .

وقليل من تأمل هاتين الملاحظتين ـ اذا صدقتا ـ ينتهي بالتأمل الى نتيجة ذات اهمية بالغة عند من تشغله الخصائص الثقافية التي تميز الشعوب ؟ وتلك النتيجة هي ان ساكن الصحراء قمين ان يخلص من بيئته برؤية تميل به نحو الغاء « المكان » و« الزمان » من حسابه ؟ اى انه ـ بعبارة اخرى ـ لايعول كثيرا في احكامه على تباعد الامكنة ، ولا على تفاوت الازمنة ، بعضهاعن بعض . فما يصلح لمكان ما ، يصلح لكل مكان آخر ، وكذلك ، ما يصلح لزمان معين ، يصلح لكل زمان جاء قبله او يجيء بعده . او قل ـ بعبارة ثالثة ـ ان ساكن الصحراء يجاوز ببصره وبصيرته معا ، حدود المفردات الجزئية ، ليصل من ورائها الى « المطلق » الذى لايحده مكان ولازمان ، والذى لايتحول ولايتبدل .

والاهمية التي نعلقها على هذه النتيجة ـ اذا صدقت ـ انما تكمن في كون الامة العربية من اقصاها في المشرق الى اقصاها في المغرب ، انما هي ساكنة صحراء ، فاذا رأينا وديانها قد اخضرت بالزرع هنا او

هناك ، فما تلك الوديان الخضراء بأكثر من « واحات » في قلب محيط صحراوى عظيم ، واذا كان هذا هكذا ، كان من حقنا بالتالي ـ ان نزعم للامة العربية تلك الخصيصة الادراكية فتكون لها رؤية خاصة تميزها من سواها ، ثم تأتي بعد ذلك تفصيلات الفكر العربي ، والذوق العربي تفريعات من ذلك الاصل المبدئي العميق .

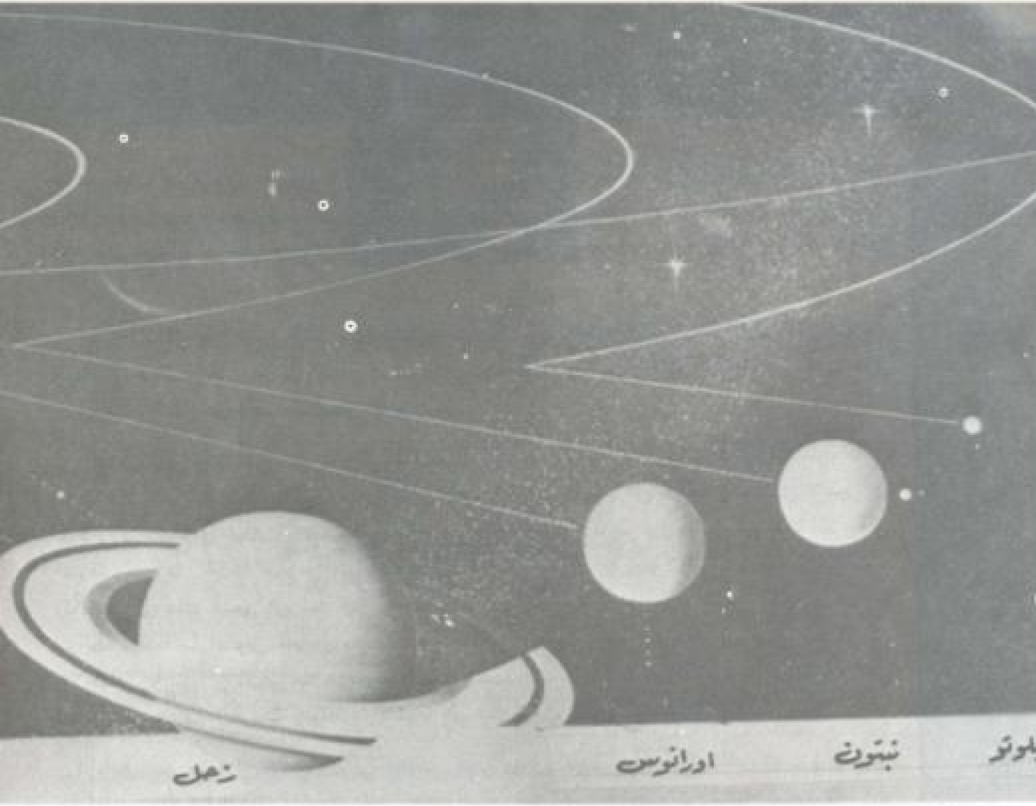
على ان مثل هذا القول ليس بذي فائدة تذكر ، ما لم نستطع ان نفهم تراثنا العربي على ضوئه ، فنزداد بجوهره وضوحا ، وما لم نستطع كذلك ان نهتدى بضوئه في رسم الطريق الثقافي الذي يجب علينا السير فيه ، لنظل عربا لهم خصائص العرب .

اما ان نفهم تراثنا على ضوء تلك الرؤية المتميزة بطيرانها فوق رؤس الجزئيات المحدودة ـ سواء كانت اشياء مكانية ، ام فترات زمانية ـ مستهدفة في طيرانها ذاك ، وصولها الى « المطلق » الذي لايتجزأ في نقاط ، ولا يتقطع في لحظات ، فاحسب ان ذلك امر وارد وقريب . فانظر اول ماتنظر الى لغتنا العربية في اصولها وجذورها ، تجدها تجمع مفرداتها عناقيد يبدأ كل عنقود منها الى اصل ثلاثي « في معظم الحالات » وكأنما هي في ذلك تسعى الى جد كبير واحد يضم تحت جناحيه افراد اسرته اللغوية كلها في مجموعة مترابطة ، فاذا ما استوثق العربي من ذلك الجد الكبير ، سهل عليه بعد ذلك ان يشتق منه الاولاد والاحفاد ، وأعني ان الاهم هنا هو معرفة الاصل المجرد البسيط ، لانه هو الكفيل بتوليد الفروع التي تتناسب مع مختلف الظروف والمواقف والاشياء كلما استحدثت لنا الايام منها جديدا .

وانظر بعد ذلك الى الادب العربي الخالد ـ شعرا ونثرا ـ لترى كيف ارتكز ذلك الادب في صميمه على اساس الفكرة المطلقة المجردة ، فهي عنده اجدى من تعقب التفصيلات الجزئية الكثيرة فاذا اراد الاديب العربي وصفا « للانسان » ، كان سبيله الى ذلك الغوص الى لباب حقيقته ليصوغها في عبارة مكثفة قليلة الالفاظ يسهل حفظها في الذاكرة كما يكثر دورانها على الالسنة . فهذا الايجاز المركز الغزير ـ في رأيه ادوم بقاء من اوصاف جزئية ينثرها كاتب روائي في مئات الصفحات . ليصور بها فردا واحدا من الناس ، وربما جاز لنا أن نقول ان الأديب العربي الأصل ، يستند في رؤيته على « البصيرة » ، بينما يستند زميله صاحب التفصيلات ، على « البصر » وحتى لو ساق لنا اديب عربي من القدماء فكرته فيما يشبه القصص حرص على ان يجيء ذلك القصص رامزا الى حقائق مطلقة ومجردة .

وبعد ذلك فانظر الى الفن التصويرى عند العرب الاولين تجده في كثير من حالاته وحدات هندسية ، اى وحدات رياضية ، يراد بها ما يراد من التفكير الرياضي كله من وصول الى حقيقة لا تتعلق بمكان معين بالضرورة ، ولابزمان معين بالضرورة .، فحقيقة المثلث او المربع او الدائرة تظل حقيقة عقلية ، حتى ولو لم تشهد الارض على وجهها رسما واحدا لشكل من تلك الاشكال الهندسية ، وفي الموضع التي لم يلجأ الفنان العربي فيها الى الوحدات الهندسية ورسم نباتا او حيوانا فانه راعى اهمال التفصيلات ، لان هذه التفصيلات تتعلق « بأفراد » ، والافراد زائلون ، وهو انما ينشد تصوير المعاني العقلية في تجريدها واطلاقها .

الرؤية الصحراوية مدارها الوصول الى حق ثابت يدوم على الدهر ، فلماذا لانستثمر هذه الرؤية الجادة العميقة في حياتنا الثقافية اليوم ؟ ■■

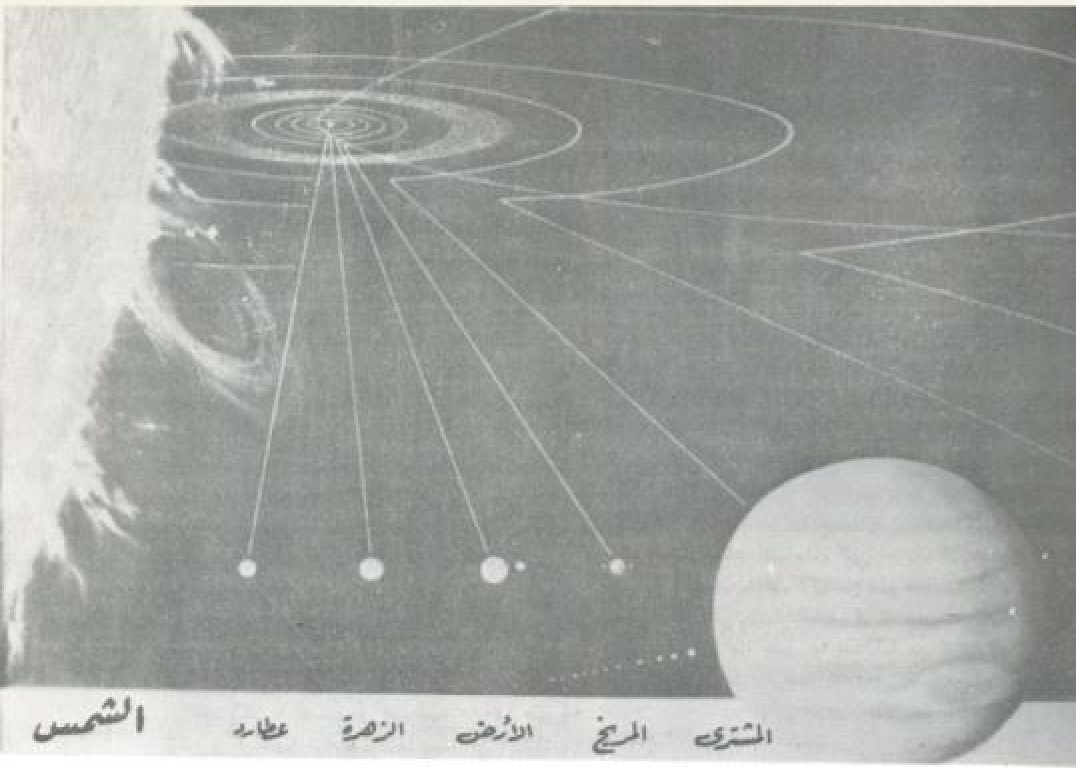


الزحف إلى زحل ..

بقلم الدكتور : عبد القوى عياد

بنفقات تزيد على ٣٤٥ مليون دولار ، غير ما تكلفته الصواريخ الضخمة ومحطات المتابعة الارضية ، اطلقت الولايات المتحدة الامريكية اول سفينتين فضائيتين من برنامج فويجير Voyager لاستكشاف الكواكب العملاقة واقمارها . ويمثل كوكب المشترى اول محطة واول هدف نظرا لقربه من الارض ، ثم بعده جاء دور زحل ، ومن بعده يورانوس ونبتون . ولعل المشترى من ناحية اخرى اهم هذه الكواكب . فكتلته البالغه ٣١٨ مرة مثل كتلة الارض تزيد على ثلثي كواكب المجموعة الشمسية كلها . وهو بذلك يؤثر في دينا ميكية المجموعة الشمسيه بما فيها المذنبات والكويكبات والنيازك ، وحتى الغازات . كما تحيط بهذا الكوكب اسرار كثيرة ، مثل ماثبت من وجود منابع حرارية باطنية تعمل على زيادة درجة حرارة غلافه الجوى عما يقتضيه بعده عن الشمس ، مصدر الدفء في كل المجموعة الكوكبية .

لقد اكتشف الفلكيون حديثا نجوما مزدوجة كتلة احد افرادها في حدود كتلة المشترى . واختلط الامر ، فبعض الكواكب ، مثل المشترى ، ذات اشعاع ذاتي ، وبعض النجوم صغيرة الكتلة . ترى هل مثل هذه النجوم كواكب عملاقة أم أن شبيهات المشترى من



المجموعة الشمسية وكواكبها التسعة

بعد إكتشاف المشترى

الكواكب العملاقة ، نجوم مازال في طور الانكماش ؟ ومادامت النجوم بعيدة ، فليس امامنا الا تجميع مزيد من المعلومات من قريب للكواكب العملاقه مستعينين بتكنولوجيا غزو الفضاء . ولعل في دراسة مثل تلك المعلومات ما يميط اللثام عن بعض اسرار الكون الواسع .

وقبل ان نخوض في سرد المعلومات العديده التي توصل اليها الباحثون من تحليل الصور المرسله بواسطة السفينتين ، نلقى اولا نظرة سريعة على سير المشروع .

مراحل المشروع

في العشرين من شهر اغسطس عام ١٩٧٧ انطلقت فويجير ـ ٢ مبتدئة رحلتها الطويلة الى المشترى وبعدها باسبوعين غادرت فويجير ـ ١ محطة الاطلاق . واسرعت الاخيرة لتسبق اختها بحوالى اربعة اشهر في الطواف بالكوكب العملاق وفي اداء برنامجها على النحو المبين في الجدول .

وقد اتاح فارق الزمن ، في الوصول الى مدار حول المشترى ، وقتا لعلماء المتابعة الارضية امكنهم فيه ادخال التعديلات على برنامج السفينة الثانية حسب النتائج الاولية التي وصلت ، ولاول مره ، من فويجير ـ ١ . وبذلك تكاملت نتائج تجارب الرحلتين . فمن بين ١٨٠٠٠ صوره ارسلتها السفينة الاولى ، اتضح وجود براكين هائجه على سطح القمر « يو » . فتم تعديل مسار السفينة الثانية بحيث تمر على مسافة أقرب من ذلك

القمر بما يتيح التقاط صور واضحة لمسافات كبيرة من سطحه تكفي للحكم على نشاطه البركاني . كما ارشدت فويجير ـ ١ العلماء الى وجود حلقة على شكل حزام استوائي حول المشترى ، فكان لزاما لتحديد ابعاد تلك الحلقة أن تمر فويجير ـ ٢ بميل مناسب على المستوى الاستوائي للمشترى اثناء دورانها حوله .

والآن وبعد أن تركت السفينتان كوكب المشترى وتوابعه ، اخذتا طريقهما الى زحل وتوابعه ، حيث طافتا حوله في نوفمبر من العام المنقضي (١٩٨٠) ، تمهيدا لطواف آخر في اغسطس ١٩٨١ بفارق تسعة اشهر . وفي حالة استمرار نجاح البرنامج فسوف تستطيع فويجير ـ ٢ المرور بالكوكب العملاق الثالث ، يورانوس ، عام ١٩٨٦ . وفي انتظار اكتشافات جديدة ، نعود الى الوراء لنستعرض سويا مع فريق العلماء معلوماتنا عن المشترى وما استجد عليها .

الطبقة السحابية

لقد اكد ما يصل في مجموعه ١٥٠٠٠ صورة للمشترى ارسلتها فويجير ـ٢ ما سبق ان اكتشفته فويجير ـ ١ من طبقات سحابيه وتيارات وخلايا حمل ودوامات وامواج وعواصف في الغلاف الجوى للكوكب . ومما اثار دهشة المراقبين ، على وجه الخصوص ، سرعة التغيير في هذه التكوينات السحابية .

ولعل مما ظل يميز سطح كوكب المشترى في المناظير الارضية ، تلك البقعة الحمراء الكبيرة المعروفه منذ عام ١٦٦٦ ، وكلمة بقعة هنا بالطبع نسبيه . فمساحتها تبلغ حوالي ٦٤٠ مليون كيلو متر مربع اى لاتقل عن مساحة دائرة نصف قطرها ١٤٠٠٠ كيلو متر . وقد اختفت هذه البقعه مرات عن الانظار ، الا انها ظلت منذ عام ١٨٧٨ ظاهرة على حالتها الحالية ، التي توحى بثباتها لفترة ... ١٠٠٫٠٠٠ سنه اخرى .

وعلى خلاف هذا الثبات الطويل ، اظهرت الصور التي التقطتها مركبتا الفضاء تغييرا في اقل من اربعة شهور . كما ثبت من خلال الصور المتتابعة التي ارسلتها فويجير ـ ٢ على وجه الخصوص حدوث تغييرات كثيرة وحركة دورانيه في عكس اتجاه عقارب الساعة تكتمل دورة لها كل ٦ أيام . كما شوهدت ايضا سحب صغيرة تمر بالبقعة الكبيرة من الشرق الى الغرب وقد تدور حولها لبعض الوقت . ولعل هذا يشير الى ان مصدر هذه البقعة وغيرها حركات تيارات حمل صاعدة وهابطة في الغلاف السحابي للكوكب ومتأثرة برياح سطحية . لكن السبب الحقيقي في تكوين تلك البقعه بالذات واتجاه دورانها المحدد غير معروف حتى الآن .

من تلك الصور الكثيرة اتضح كذلك ان مجريات الطقس في المناطق القريبه من القطبين ، ليست ناتجه فقط عن حركات صاعدة وهابطه في الغلاف الجوى وانما لرياح شرقيه غربيه تصل سرعاتها الى ٦٠٠ كيلومتر في الساعة ، وتبدو في الصور على شكل كتل هوائية متحركة وذات احجام مختلفة . وبهذا فان ظروف مناخ المشترى تتأثر بالدوامات الناشئة من ينابيع الدفء الداخلي على عكس الارض التي تعتمد مجريات الطقس فيها ، غالبا ، على الاشعاع الحرارى الشمسي وحده . ومما يؤكد الاثر الكبير لتلك المنابع الحراريه الداخلية في كوكب المشترى تلك القياسات التي اجريت للاشعاع المرتد من الكوكب . فقد تاكد من هذه القياسات ان كمية الطاقة التي يبثها المشترى في الفضاء المحيط به تبلغ حوالى ١٫٩ مرة مثل ما يستقبله من الاشعاع الشمسي . كما توجد بقع فوق المشترى تصل درجات حرارتها الى ٣٥ درجة مئوية فوق الصفر بدلا من ١٤٥ درجة تحت الصفر حسب ما تقتضيه المسافة بين الكوكب والشمس .

الغلاف الجوى للمشترى

يقدر ارتفاع الغلاف الجوى للمشترى ، كما اتضح من برنامج غزو الفضاء بحوالي ١٦٠٠٠ كيلو متر . وهذا الغلاف مكون في الغالب من الهيدروجين . ويسود الاعتقاد بوجود طبقة من الهيدروجين السائل اسفل هذا الغلاف الغازى وتحت السائل نواة صلبة من الحديد ومركبات السيليكون . اما نسبة الهليوم الى الهيدروجين في الغلاف الغازى فقد قدرتها مجسات فويجير بحوالي ١١ في المائة .

وتدل الالوان المختلفة للسحب على وجود مركبات بذاتها في جو المشترى مثل الامونيا والميثان وبخار الماء والاستيلين ومركبات الفوسفور . وقد ظن علماء المتابعه ان براكين القمر « يو » ، التي صورتها السفينة الاولى ، يمكن ان تبث الكبريت في غلاف الكوكب . الا ان النتيجة السلبية التي توصلت اليها السفينه الثانية تشير الى استهلاك الكبريت في تفاعلات تحدث في الطبقات العالية جدا من الغلاف الجوى للكوكب .

وقد اظهرت القياسات الحراريه التي تمت اثناء طواف السفينتين بالكوكب ان درجة الحراره تقل عموما



سطح المشتري في ٢٤ يناير ١٩٧٩ من مسافة ٤٠ مليون كيلومتر .



سطح المشتري في ٩ مايو ١٩٧٩ من مسافة ٤٦٫٣ مليون كيلومتر .

في الغلاف الجوى كلما زاد البعد عن سطح الكوكب . كما توجد طبقة ايونو سفير تزداد فيها درجة الحراره بالارتفاع .

وفي هذا يتشابه تركيب الغلاف الجوى للمشترى مع غلاف الارض الجوى . وتدل زيادة اعلى درجة حراره قاستها فويجير ـ ١ لطبقة الايونوسفير (٨٢٧ درجة مئوية) على ما قاسته من قبل سفن بيونير ، على تغييرات حرارية تعترى كل او اجزاء من الغلاف الجوى للمشترى .

ومن مكتشفات السفينتين ايضا ظواهر رعدية وشفق قطبي على ارتفاعات من ٧٠٠ الى ٢٣٠٠ كيلومتر فوق الحدود العليا للسحب ، الامر الذى يدل على وجود تفريغ كهربائى في معظم اجزاء الغلاف الجوى للكوكب .

طبقة الماجنيتو سفير

كان من نتائج مرور سفينتى الفضاء فويجير ـ ١ ، وفويجير ـ ٢ بغلاف المشترى ان تأكد ما سبق ان اكتشفته مركبتا بيونير ـ ١٠ ، وبيونير ـ ١١ من وجود طبقة ماجنيتو سفير تمتد بعيدا عن سطح الكوكب الى نحو ١٠٠ مرة مثل نصف قطره . والمشترى وان كان يتفق شكلا مع الارض في وجود هذه الطبقه المغنطه ، الا ان امتداد ماجنيتو سفير الارض لايزيد على ١٢ مرة فقط مثل نصف قطرها . وشدة ألمجال المغناطيسى في ماجنيتو سفير المشترى تبلغ من ٢٠ ـ ٣٠ مرة مثل شدة المجال المغناطيسي لماجنيتو سفير الارض . وفوق الطبقه السحابيه مباشرة تبلغ شدة المجال المغناطيسى للمشترى من ٣ ـ ١٤ جاوس .

وعلى ضوء نتائج رحلتى فويجير يمكن تقسيم ماجنيتو سفير هذا الكوكب العملاق الى ثلاث مناطق . فاما المنطقة الداخلية فهي على شكل حلقه حول الكوكب شبيهة الى حد كبير بماجنيتو سفير الارض ولكن كثافة الجسيمات المشحونه في حالة المشترى اعلى بكثير . وفي هذه المنطقة توجد احزمة اشعاعيه مثل احزمة فان الن في جو الارض . ومدارات القمر « اوروبا » والاقمار الاخرى القريبه من الكوكب العملاق تقع في داخل المنطقة الداخلية من الماجنيتو سفير . اما المنطقة الوسطى من ماجنيتو سفير المشترى فلا نظير لها في حالة الارض . وهي عبارة عن طبقة من الجسيمات المشحونه مليئة بالدوامات التي تعمل على تشويه المجال المغناطيسي للكوكب . وتمثل الطبقة الخارجية حلقة اتصال بين الكوكب والبلازما الشمسيه في الوسط البين كوكبي .

حلقات المشترى

اثارت بعض دراسات ما قبل غزو الفضاء نوعا من التكهنات حول وجود حلقات للمشترى مكونه من

جسيمات صلبه او غازيه . الا ان آراء اخرى كانت تستبعد ذلك لسببين ، اولهما ان جسيمات متبقية بعد تكوين المشترى لابد ان تتطاير بين مجموعة الكواكب تحت تأثير مكانس الرياح الشمسيه . اما السبب الثاني فيعتمد على ان اى جسيمات ثلجيه لم تكن لتستطيع ان تتكثف بعد تكوين الكوكب نظرا لسخونته وينابيع الدفء التى مازالت به حتى الان .

ولم تتمكن المراصد الارضية من الفصل بين الرأيين . ولهذا كانت حلقات المشترى احدى المهام العلمية لبرنامج فويجير ، الذى نجح فى الاثبات القاطع لوجود حلقات يصل سمكها حوالى ٣٠ كيلو متر وتمتد الى حوالى ١٢٨٠٠٠ كيلومتر من مركز الكوكب او حوالى ٥٧٠٠٠ كيلومتر من اعلى غطاء السحب . وبذلك فان ابعد مسافة لهذه الحلقات اقرب الى الكوكب بحوالى ٥٣٠٠٠ كيلومتر عن مدار القمر « ماليتا » (اقرب اقمار الكوكب اليه قبل برنامج فويجير كما سيأتي بعد) .

وبالدراسة الفاحصه لهذه الحلقة من الصور العديده اتضح انها مكونه من اربعة مناطق ، فالمنطقة (أ) تمثل حزاما لامعا ضيقا يتراوح عرضه بين ٧٥٠ الى ٨٥٠ كيلومتر ونصف قطره الداخلى ١٫٧ مثل نصف قطر الكوكب . والمنطقة (ب) على شكل حزام اخفت عرضه حوالى ٦٠٠٠ كيلو متر ونصف قطره الداخلى ١٫٦٨ مثل نصف قطر الكوكب . والمنطقة (جـ) خافته جدا وتبدو كشريط متصل من مادة متناثرة ، يحتمل ان تكون ممتدة حتى الكوكب . اما المنطقة (د) فتمثل الحافة الخارجية للحلقات الثلاث السابقة واكثرها خفوتا ، وتمتد هذه المنطقة الخارجية حتى مسافة ١٫٨ مثل نصف قطر المشترى .

ولو قارنا ابعاد هذه الحلقات مع نظيراتها فى حالة زحل (ابعد حلقة على مسافة ٢٫٢٨ مثل نصف قطر الكوكب) وفى حالة يورانوس (أبعد حلقة على مسافة ٢٫٦ مثل نصف قطر الكوكب) لوجدنا ان حلقات المشترى اقرب الى كوكبها بكثير . وقد يكون هذا دليلا على ارتفاع كثافة حلقات زحل عن كثافة حلقات الكواكب الاخرى . ولكن لماذا لايظهر لها ظل على المشترى اسوة بحلقات زحل ويورانوس ؟ . ومن ناحية اخرى نجد عرض حلقات المشترى وسطا بين حلقات يورانوس الضيقة (اقل من ١٠٠٠ كيلو متر) وحلقات زحل العريضة (من ١٧٠٠٠ الى ٢٥٠٠٠ كيلو متر) .

ويبدو ان هذه الحلقات تمثل نظاما ثابتا من جسيمات صغيرة تتحرك ناحية الكوكب بالقرب من مستوى استوائه ، وربما يتم تغذية هذه الحلقات من حطام المذنبات ونواتج ارتطام النيازك على القمر الداخلى « جو ـ ١ » وبراكين القمر « يو » .

واذا كان المشترى هو ثالث كوكب يتم اكتشاف حلقات له ، فهل وجود مثل هذه الحلقات امرا شائعا بين الكواكب ؟ واذا كانت كثافة حلقات المشترى اكبر من مثيلاتها للكواكب الاخرى فلماذا لايظهر لها ظل على الكوكب ؟ ام تراها مكونة من مادة ذات خصائص ضوئية مختلفة عن مادة حلقات الكواكب الاخرى ؟ ان هذه واسئلة اخرى كثيرة لتبقى واجبات لبرامج فضائية اخرى ستجلب لنا بالتأكيد تساؤلات جديده لتستمر الابحاث وتتوالى الاكتشافات .

تابعان جديدان

كان من نتائج رحلة فويجير ـ١ ، وفويجير ـ٢ ايضا اكتشاف قمرين جديدين اطلق عليهما ١٩٧٩ جو ـ ١ (1979 J 1) و ١٩٧٩ جو ـ٢ (1979 J2) .

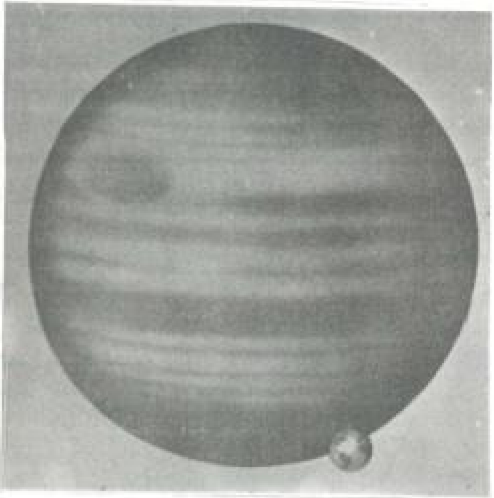
يبلغ قطر جو ـ ١ من ٣٠ الى ٤٠ كيلو متر ويدور حول الكوكب مرة كل ٧ ساعات واربع دقائق على مسافة ١٫٧٩ مثل نصف قطر المشترى . ويبلغ قطر جو ـ ٢ من ٧٠ الى ٨٠ كيلو مترا ويدور حول الكوكب مرة كل ٦ ساعات و١٥ دقيقة على مسافة تبلغ ٣٫١٢ مثل نصف قطر المشترى . وبهذا ارتفع عدد اقمار المشترى الى ١٥ بعد ان كان تعدادها ١٣ فقط منذ عام ١٩٧٤ . ومازال النزاع قائما حول قمر آخر ربما يصبح السادس عشر تناقلت اخباره بعض الاوساط الفلكية عام ١٩٧٦ . واصبح ترتيب توابع المشترى حسب بعدها عن الكوكب الأم على النحو التالى :

هذا عرض سريع لاهم المعلومات التي امدتنا بها رحلتان فقط لسفينتين من برنامج فويجير طافتا حول المشترى ، ذلك الكوكب العملاق ، وقريبا من اقماره المعروفة . واذا كانت التكاليف تبدو باهظه ، فان ماتم انجازه فقط فى الكشف عن خفايا نظام كوكب المشترى وتوابعه ، ليشير الى نجاح باهر فى برنامج سفينتي الفضاء على وجه الخصوص وبرنامج فويجير بصفة عامة .

ولننتظر ما تجيء به الرحلة الى زحل .. ■■

د . عبد القوى زكي عياد
قسم الفلك ـ علوم القاهرة

موعد ولقاء مع زحل



● الكرة الصغيرة التي ترى هي الكرة الارضية .. والكرة الكبيرة هي كوكب المشتري .. اكبر كواكب المجموعة الشمسية .. انه يبلغ من الحجم اضعاف ما تبلغه الارض ١٣١٦ ضعفا .. ولعل في الرسم ما يساعدك على تصور هذا الفارق الهائل . وهو فارق حجم لا فارق كتلة .

● سماه الرومان « ساتورن » ، واعتبروه الها .. اله الزراعة والخصوبة ؛ واطلقوا اسم (ساتورناليا) على اعياد تحول الفصول التي احيوها في (٢١) ديسمبر من كل عام .. واشتهر بالكوكب الذهبي ، منذ القدم نظرا للالوان الزاهية التي غلبت على سحبه والتي غلب عليها اللون الذهبي احيانا .. اما الان فلا يعدو كونه كوكب زحل فحسب ، وقد اقتربت منه سفينة الفضاء فويجير (١) في الثاني عشر من شهر نوفمبر الماضي واستطلعت ألغازه وكشفت النقاب عن خفاياه .

وهكذا تبين لنا أن زحل ، اكبر كواكب المجموعة الشمسية بعد المشترى ، ليس الا كتلة ، بل كرة غازية هائلة .. ولا يعرف بعد ما اذا كان لهذه الكرة نواة معدنية او سائلة ، او انها بلا نواة .

ولكن الثابت هو أن قوام زحل غازان : غاز الهيدروجين وغاز الهليوم .. فهو اذن كالشمس الصغيرة ، وان كانت مطفأة .. صغيرة بالنسبة الى الشمس طبعا لا الى الارض .. فحجم زحل يبلغ ٨١٥ ضعف حجم الكرة الارضية .. ومطفأة بالنسبة الى الشمس ايضا ، والى لهيبها الوضاء ، الذى طالما اشع ضوءا وحرارة منذ الاف الملايين من السنين ..

ذلك ان زحل ذو حرارة ذاتية تخرج من أعماقه .. حقا انها ضئيلة نسبيا ولكنها اكثر بكثير مما يصل الى الكوكب من الحرارة الشمسية .. فنصيبه من هذه الحرارة لا يكاد يبلغ ١٪ من نصيب كرتنا الارضية منها .. وما ذلك الا للمسافة الشاسعة التي تفصل بين الشمس وزحل وهي تبلغ ١٫٤٠٠ مليون كيلومتر . ولولا حرارة هذا الكوكب الذاتية لكان اكثر برودة مما هو الان ...اذ تهبط حرارته الى ١٣٥ درجة مئوية تحت الصفر او دون ذلك فالكوكب اذن لا يتمتع بالدفء الضرورى للحياة ، كما نعرفها ...

أضف الى ذلك انه عاصف الجو شديد الرياح كالمشترى ... الا ان رياح زحل اسرع كثيرا من رياح المشترى .. ولا تقل سرعتها عن ١٥٠٠ كيلو متر في الساعة ..

وبينت لنا سفينة الفضاء ايضا بقعتين حمراوين على سطح زحل ، لا بقعة واحدة عملاقة ، كما هي الحال في المشتري . وتقع احدى البقعتين في نصف الكرة الشمالي من زحل وتقع الثانية في النصف الجنوبي .. ولا يزيد قطر الواحدة على ١٢٠٠٠ كيلومتر .

اما الحلقات التي تلف زحل كالاساور والتي طالما اشتهر بها الكوكب منذ القدم .. فليست ست حلقات كما اعتقد الفلكيون ، حتى الامس القريب ، وانما ٥٠٠ او ١٠٠٠ حلقة او تزيد . وهي تطوق الكوكب على ارتفاع لا يقل عن ٨٠,٠٠٠ كيلومتر وهي بعرض ١ـ٣ كم لكل منها ، ولكل من الفراغات التي تفصل بينها .

والعجيب ان هذه الحلقات المكونة من قطع ثلجية وجليدية ، بحجم سيارة الركاب الصغيرة ، تبقى معلقة حيث هي .. فلا تنطلق في الفضاء، ولا يشدها الكوكب العملاق بقوة جاذبيته الهائلة .

وتبين ايضا ان حلقات زحل ذات قوة كهرومغناطيسية جبارة ، تبث موجات الراديو بطاقة خارقة ، تبلغ مليون ضعف ما في البرق من طاقة كهربائية .

وتختلف هذه الحلقات فيما بينها ، فيبدو بعضها ادكن من بعضها الاخر . وقد ثبت ان هذا الاختلاف انما يعزى الى الفوارق في درجات الحرارة .. لا الى الاختلاف بين انماط الرياح ، كما اعتقد العلماء في السابق .

ولم تقف سفينة الفضاء فويجير (١) عند استطلاع الكوكب .. دون اقماره .. فاقتربت من تيتان وسائر الاقمار وكشفت عن ان هذه ليست ١٢ قمرا فحسب وانما ١٥ قمرا ، على الاقل .. اي انها اكتشفت ٣ اقمار جديدة .. ما زالت تحمل ارقاما .. ريثما يسمونها باسماء من الاساطير الاغريقية اسوة بأشقائها ..

وكشفت فويجير (١) ايضا عن حجم القمر تيتان الحقيقي . فقد ساد الاعتقاد ، ومازال ، ان تيتان هو اكبر اقمار زحل ، بل واكبر اقمار المجموعة الشمسية قاطبة ..

وان قطره يبلغ ٣٦٢٢ ميلا والحقيقة هي ان قطره لا يزيد على ٣١٩٠ ميلا وان قمرا اخر من اقمار المشترى (Ganymede) هو اكبر اقمار الكوكب والمجموعة الشمسية .. ويبلغ قطره ٣٢٧٥ ميلا ..

بيد ان السحب المتلبدة التي تلف جو تيتان حجبت سطحه تماما ، وحالت بينه وبين الكاميرات التلفازية النفاذة التي تحملها فويجير .. هذا بالرغم من اقتراب السفينة من القمر مسافة ٤٠٠٠ كيلو متر فحسب ..

ولكن سفينة الفضاء مجهزة بضروب شتى من الاجهزة العلمية المتمقة .. وقد تمكنت احداها من اختراق الغيوم الى « جوتيتان » وسطحه وموافاتنا بالمعلومات التي اغنتنا عن الصور ، ولو الى حين .

وهكذا عرفنا ان قوام جو تيتان ليس الميثان كما شاع بين العلماء ، وانما هو بخار النيتروجين . ولا يشكل الميثان سوى ١٪ ، او دون ذلك ، من محتويات جوه ، وهي في الغالب هيدروكربونات كالبروبان والأثيلين والايثان والاستيلين .

اما سطح تيتان فعبارة عن بحر شامل .. ولكنه بحر من النيتروجين السائل لا الماء .

ولا يخفى ان هذه ظروف ملائمة لظهور الحياة وتشبه كثيرا الظروف التي سادت الكرة الارضية قبل نحو ٣٠٠٠ مليون سنة كما يقول العلماء ...

بيد ان تيتان ما زال يفتقر الى الدفء الذي تتطلبه الحياة كما نعرفها .. شأنه في ذلك كشأن زحل نفسه . ذلك أن برودة تيتان تهبط الى ١٣٥ درجة مئوية تحت الصفر .

ومن يدري .. فلعل المستقبل كفيل بتحقيق الدفء المطلوب وظهور الحياة على سطح تيتان بحيث يصبح لنا اقرباء على سطح تلك الاجرام النائية .. فتعمرها مخلوقات ذكية كالانسان او تشبه الانسان . ■■

يوسف زعبلاوي

محتالون ولكن شرفاء !

بقلم الدكتور علي الراعي

تصف الف ليلة وليلة المحتالة بانها « صاحبة حيل وخداع ومناصف [1] ، » وتضيف : انها كانت تتحايل على الثعبان حتى تطلعه من وكره . وكان ابليس يتعلم منها المكر » .

وقد كان للعجوز الماكرة عز وجاه ذات يوم . كان زوجها مقدما سابقا لبغداد ، وكان ايضا براجا عند الخليفة ، يربي الحمام الزاجل ويتعهده لسيده لقاء راتب قدره الف دينار في الشهر . ويبدو أن هذا العز قد زايل دليلة وزوجها . لهذا ما أن يتردد صوت المنادي في بغداد معلنا ان الميمنة في عاصمة الرشيد قد اصبحت من نصيب احمد الدنف وان الميسرة قد صارت لحسن شومان ، حتى تلسع الكلمات ابنة دليلة الطموح زينب فتقول لامها : « انظري يا أمي . هذا أحمد جاء من مصر مطرودا ولعب مناصفا في بغداد الى ان تقرب عند الخليفة وبقي مقدم الميمنة ، وهذا الولد الاقرع حسن شومان مقدم الميسرة ، وله سماط في الغداء وسماط في العشاء ولهما (جوامك) (مخصصات) لكل واحد منهما الف دينار في كل شهر ، ونحن معطلون في هذا البيت لا مقام لنا ولا حرمة وليس لنا من يسأل عنا . »

ومن ثم تهيب زينب بأمها أن تقوم من فورها وتصطنع الحيل والمناصف ، لعل صيتها يشيع في بغداد من جديد فتكون لها جامكيه الوالد المعزول .

وتقبل دليلة العرض في التو وتعد ابنتها بأن تلعب في بغداد مناصف اقوى من مناصف احمد الدنف وحسن شومان . ومن ثم تظل شهرزاد تسرد على مسامع مولاها الملك شهريار مغامرات هذه السيدة العجيبة ابتداء من الليلة السابعة والثلاثين بعد السبعمائة ، فينشأ بهذا شيء جديد في الادب الشعبي العربي ، اذ يجد المحتال قصة ممتدة تسع مغامراته جميعا بعد أن كان نشاطه محدودا بحدود المقامة الواحدة على ايام البديع والحريري .

ما لم تفعله المقامة

ومع المجال الفسيح ، تأخذ شخصيته بعض البعد ، وتتضح له نوايا واغراض غير مجرد الاحتيال . فهذه دليلة وابنتها زينب لا تقومان بالاحتيال لوجه الاحتيال ولكن : استردادا لعز غابر ، ورغبة في تحدي حيل الرجال .

---

(١) مقالب أو حيل . .

ما لم تفعله المقامة في أيام البديع والحريري . فعله القاص الشعبي المصري . اعطى المحتال القصة المتصلة وامكانية التطور . ولو كان الأدب الرسمي ، احسن استقبال الف ليلة ، فلربما تطورت القصة في المقامة هي الأخرى ، ولم تقف عند الحد الذي بلغته ايام منشئيها الكبيرين ، والذي ما لبث ان تجمدت عنده ثم اخذت في الانحدار .

لو أن الأدب الرسمي لم ينظر الى الف ليلة على انها عمل سوقي لا يرضى الا أراذل الناس ولا يستأهل حتى مجرد النظر فيه ، ما احتاج الأدب العربي الرسمي أن ينتظر عدة قرون ، حتى يهل القرن العشرون ، فيأخذ محمد المويلحي على استحياء يحول المقامة الى رواية ، تظهر فيها شخصية المحتال داخل سلسلة من المغامرات ، وان لم ينفرد المحتال بالرواية كلها كما حدث في الغرب .

ولننظر بشيء من التدقيق في واحدة من المغامرات الفائقة الحيوية التي تقدم عليها كل من دليلة وابنتها زينب . ردا لاعتبارها الاجتماعي وتحديا لمكر الرجال وصلفهم .

تجرد دليلة زوجة شابة عاقرا من حليها وملابسها ، بعد أن تعدها ان ترتب لها زيارة للشيخ ابي الحملات الذي يستطيع وحده ان يشفيها من عقمها .

وتفعل الشيء ذاته بابن التاجر ، الذي تقدم له الزوجة على انها ابنتها ، وتعده بالزواج منها ثم تصحب الاثنين الى بيت الصباغ ، فتوهم الاخير ان الشابة والشاب هما ابنتها وابنها ، وانها ترغب في السكن المؤقت بدار الصباغ ، حتى تصلح من شأن دارها ايلة للسقوط .

وترسل دليلة الصباغ في طلب الطعام ، ثم تحتال على حمار فتلقي في روعه ان المعلم صاحب المصبغة هو ابنها وأنه قد لحقه الافلاس ، وان من مصلحته تجريد المصبغة من كل ما فيها قبل أن يأتي الكشاف مندوب القاضي فيثبت ما يجده فيها ويصادره . ويصدق الحمار هذا الذي قالته له دليلة ، ويحمل اشياء الصباغ على حماره ويعطي الكل لدليلة . التي تمضي بغنيمتها من فورها ، مخلفة وراءها ضحاياها الاربعة : الزوجة والتاجر الشاب ، عراة ـ بعد أن أخذت دليلة ملابسها وحليها ـ والصباغ الذي نهبت مصبغته ، والحمار الذي فقد حماره .

امرأة مباركة

ولكي تنجح دليلة في مغامرتها هذه ، اعتمدت على قدرة تمثيلية واضحة لديها ، وخيالا خصبا ينسج الاقاصيص من فوره ، ثم لبست ملابس الدور الذي تقمصته .

وتصف الف ليلة هذه الملابس على النحو التالي :

« قامت فضربت لثاما ولبست لباس الفقراء من الصوفية ، ولبست لباسا نازلا لكعبها ، وجبة صوف وتحزمت بمنطقة عريضة ، وأخذت ابريقا وملأته ماء لرقبته ، وحطت في فمه ثلاثة دنانير وغطت فم الابريق بليفة عريضة وتقلدت بسبحة قدر حملة حطب وأخذت راية في يدها وفيها شراميط وصارت تلمع لمنصف تلعبه في البلد ، فسارت من زقاق الى زقاق حتى وصلت الى زقاق مكنوس مرشوش .

وهنا هداها ذكاؤها الوقاد الى أن هذا المكان يصلح مسرحا لطاقتها التمثيلية . وفعلا تطل الزوجة الشابة التي تقدم ذكرها من طاقة في البيت فتبدو لدليلة عروسا عليها كنز من المصاغ فتقرر العمل على الفور .

يسألها البواب البركة ، ويطلب شربة ماء من ابريقها ، فتطوح الابريق في الهواء وتهزيدها حتى تسقط عنه الليفة ، فتنزل الدنانير الثلاثة على الأرض ويلتقطها البواب ويحاول اعلانها لصاحبتها فتقول هذه : ابعدها عني فاني من ناس لايشتغلون بدنيا ابدا ، خذها ووسع بها على نفسك عوضا عن الذى لك عند الامير (صاحب القصر وزوج الشابة وكان لم يدفع للبواب راتبه شهورا عدة .)

وبهذا يثبت للنظارة : الزوجة والبواب والجارية ان هذه امرأة مباركة ، وانها ممن حباهم الله عطفه وكشف عنهم الغطاء ، فينفسح المجال طويلا وعريضا امام ما تزمع دليلة القيام به من احتيال .

اما زينب النصابة ابنة دليلة ، فإنها تقرر هي الاخرى الا تكون اقل شطارة من امها ، ولا من احمد الدنف وحسن شومان .

محتالة من نوع آخر

وهي شابة جميلة وغندورة ، ولهذا يأخذ التمثيل عندها طابع استعراض جمالها واتخاذه وسيلة للايقاع بالخصوم . وفي سطور تشع بالبهجة وتتفجر بالحيوية ، تصف الف ليلة كيف تخرج زينب الى مغامرتها الاولى :

(خرجت تشق البلد ، فلما رآها الناس صاروا يتعشقون فيها وهي توعد وتخلف ، وتسمع وتسطح ،

وسارت من سوق الى سوق حتى رأت عليا المصرى مقبلا عليها فزاحته بكتفها ، والتفتت وقالت : الله يحيى اهل النظر ، فقال لها ما احسن شكلك . لمن انت ؟ فقالت للفندور الذي مثلك . فقال لها : هل انت متزوجة او عازبة ، فقالت متزوجة . فقال لها عندى او عندك . فقالت انا بنت تاجر وزوجي تاجر وعمري ماخرجت الا في هذا اليوم وما ذاك الا لاني طبخت طعاما وأردت أن آكل فما لقيت لي نفسا ولما رأيتك وقعت محبتك في قلبي فهل يمكن ان تقصد جبر قلبي وتأكل عندى لقمة ؟ فقال لها من دعي فليجب . ومشت وتبعها من زقاق الى زقاق . »

هذه محتالة من نوع آخر . هي المرأة الغزلة المتصدية ، التي لاتتردد في استخدام جمالها شركا توقع خصومها في احابيله . كما لاتتردد في الكذب ، ولكنها تشارك امها في الخيال الخصب الخلاق ، فتنسج على الفور قصة سهلة التصديق ، لانها تتسق مع شخصيتها وطابعها : امرأة مدللة ، ابنة تاجر وزوجة تاجر ما خرجت إلا اليوم . اذن هي قليلة الخبرة . وهي صاحبة مزاج تطبخ الطبيخ ثم لاتجد لها شهية فتخرج تبحث عمن يؤنسها ويشاركها الطعام .

ويتبعها علي الزيبق ، بعد أن وقع في الشرك . يحاول محاولة ضعيفة أن يرد عنه سحر اغرائها فيعطيها دينارا ، ويطلب تأجيل اللقاء الى يوم آخر فتأبى وتصمم أن تضيفه في البيت الذي تزعم أنه لها . وحين يرفض فتح الضبة تكشف الازرار عن وجهها فينظر اليها نظرة تثبته في القيد الاسر . ثم يدخلان وتخلع زينب الازرار ويميل عليها يأخذ قبلة من خدها ، فتضع كفها على خدها وتقول : ما صفاء الا في الليل .

ثم تأتي التمثيلية الرئيسية في هذه المغامرة . فبعد الطعام والشراب . تدق زينب صدرها وتقول : ان زوجها كان عنده خاتم رهنه البعض لديه لقاء خمسمائة دينار فلبسته فوجدته اوسع من اصبعها فضيقته بقليل من الشمع ، واذ هي تسحب الماء من البئر ليغسل علي المصرى يديه ، سقط الخاتم في البئر .!

موقف محرج لزينب ولعلي معا . على زينب ان تسترد الخاتم باية وسيلة . وهي تعلم ان علي قد يتردد بين أن يتركها وشأنها وبين أن يعرض الغوص في البئر لمحاولة استرداد الخاتم .. وهنا يسعفها ذكاؤها باقتراح يقطع الطريق على حرج علي . تقول له : التفت جهة الباب حتى اتعرى وانزل البئر لأجيء به فيقول لها علي : عيب ان تنزلي وانا موجود فما ينزل الا انا .

وهنا يقع علي حرفيا في الفخ فتتركه زينب داخل البئر ، وتمضي بملابسه ، ذاهبة الى امها لتحكي لها ما قامت به من مغامرة .

رأينا فيما تقدم كيف تطورت شخصية المحتال حين اتسع امامه المجال ، واعطاه الفنان قصة متصلة الأحداث ، عوضا عن القصة الواحدة التي كانت تحويها المقامة .

ورأينا كذلك كيف تمايزت شخصية المحتال من فرد الى آخر . فهي عند دليلة العجوز تعتمد على الذكاء والمكر وسرعة الخاطر ، وهي عند زينب تعتمد ، فوق هذا كله على الجمال والدلال والغنج وحب الحياة .

يقول زريق ، خال زينب تعليقا على رغبة علي الزيبق في ان يخطب زينب الى نفسه :

ان زينب حالفة ان لايركب صدرها الا الذى يجيء لها ببدلة قمر بنت عزرا اليهودى ، وكذلك التاج والحياصة والناموسة الذهب » .

وهكذا تضع زينب لجمالها وقلبها ثمنا باهظا تتمسك به ، وتثبت انها المرأة الغزلة بكل ما في الكلمة من معنى . على خطيبها ان يركب الاخطار ، ويتعرض للموت المؤكد ، قبل ان تسمح له بان يغزو قلبها ويستمتع بجمالها .

ويرد علي الزيبق على منصف زينب ردا يتفق مع شخصيته المتميزة . يقتحم من فوره دار دليلة المحتالة ، متنكرا في زى طاهيها فيحتال حتى يثق به الجميع ، رغم شكوك دليلة القوية والذكية في أن هذا الطاهي الاسود اللون إن هو علي الزيبق قد جاء متنكرا .

ولكن عليا يثبت انه يعرف الدار وما فيها خير معرفة فتقبله دليلة على انه طاهيها ـ تقبله وهي كارهة . ومن ثم ينتظر علي حتى آخر الليل ، فيمضي فيسمم الكلاب وينبج العبد ودليلة وزينب معهم ، ثم يأخذ ثياب الجميع ، وكذلك الحمام الزاجل الذى تعتز به دليلة ويخرج من الدار ويسير لا يلوى على شيء الى ان يصل الى قاعة حسن شومان فيحكي له ما فعل ، ويتلقى تهانيه .

وتفيق دليلة من الخدر في الصباح فيفاجئها هذا الذى حدث . فتخلع ملابس الفتوة ، وتلبس ملابس النساء ثم تمضي الى قاعة شومان تطلب الحمام وبقية الغنائم . وبعد تمنع ، يقول شومان تعطيك الحمام شريطة ان تزوجي علي ابنتك زينب . وهنا تقول العجوز ان امر

زينب بيد خالها المقدم السابق والسماك الحالي : زريق .

وتعلم زينب بخطبة علي لها ، لانها قدرت فيه عفته . فقد كان بوسعه ان يفعل ما هو اكثر من الاستيلاء على ملابسها ، وهي نائمة فاقدة الرشد والقدرة . لهذا احبته لشهامته وحسن تقديره .

وهنا تقوم امامنا شخصية محتال من نوع مغاير الى حد واضح لشخصيتي دليلة وزينب ان هدف المرأتين من «الاحتيال هو - كما تقدم - اثبات الذات والانتقام من الرجال اما مغامرات علي الزيبق اللاحقة ، فكلها موجهة لاثبات جدارته بقلب زينب وحبها . والطابع العام لهذه المغامرات هو الشهامة والفروسية ، وتحدي الممنوع ومحاولة بلوغ المستحيل .. وهذا هو الذي يصبغ مغامرات علي مع زريق السماك ، الذي يعلق في دكانه كنزا من الذهب يتحدى به شباب بغداد وشطارها فلا يفلح احدهم ابدا في الحصول عليه . اما علي فانه يفشل مرات في الاستيلاء على الكنز وحين ينجح مرة لا يلبث زريق ان يسترد الكنز بحيلة من حيله العديدة وحين يقع الكنز اخيرا في يد علي ، يهبه صاحبه في مقابل ان يوافق على زواجه من زينب . فيوافق السماك ، ولكنه يذكر بالقسم الذي اقسمته زينب وجعلته ثمنا لوصلها .

ومن ثم يدخل علي في سلسلة مغامرات اخرى ، تحديا لليهودي عزرا ، ورغبة في الحصول على غنائمه كي يجعلها مهرا لزينب .

قصد شريف

المحتالون الثلاثة هنا كلهم ذوو قصد شريف العجوز تعيد لضحاياها ما سلبتهم من اشياء ، ويشهد لها حسن شومان في محضر الخليفة بانها « ما عملت هذه الملاعب طمعا في حوائج الناس ولكن لبيان شطارتها وشطارة بنتها لأجل ان ترتب لها راتب زوجها ولبنتها مثل ابيها . »

وزينب ايضا يحدوها القصد ذاته وهي في مغامراتها تحرص على ان تثبت سحر جمالها واثره في الضحايا ، اكثر من حرصها على الغنائم . تظهر زينب هذا الحرص في مغامرتها مع الواحد والاربعين رجلا الذين دخلوا قاعتها المستأجرة فاكلوا وشربوا وخدرتهم هي واستولت على ثيابهم بعد ان وقع الكل اسرى جمالها كما تظهره مع علي الزيبق كما مر بنا .

أما علي الزيبق فهو متحايل اكثر منه محتال وهو على كل حال ليس نصابا بالمعنى المتعارف عليه . وانما هو يتوسل بالخداع ، والايهام ، وتلبس الشخصيات المختلفة كي يصل الى كنز زريق السماك . بل انه يقع ضحية لاحتيال غيره عليه حين يعطيه الحلواني قطعة من الحلوى تحوي مخدرا ، ثم يستولي منه على كنوز اليهودي ويلوذ بالفرار .

وهكذا طور الخيال الشعبي في الف ليلة وليلة شخصية المحتال كما اظهرته مقامات بديع والحريري : فقيرا مسحوقا ، حاقدا على الناس والزمان ، يسلبهم اشياءهم بمكره واحتياله ويفرك كفيه سعادة وجذلا لدى وقوع كل ضحية في أحابيله ويمدح نفسه وفنه الاحتيالي في كل مناسبة ، وينظر من علياء ذكائه فلا يجد الناس الا حميرا يستأهلون الخداع ، ولا يستأهلون ما بين ايديهم من مال .

يطور الخيال الشعبي هذه الصورة التي تنفح بالمرارة والثورة المكبوتة والمعلنة فيجعل المحتال اكثر شهامة وفروسية ، ويجعل من احتياله وسيلة لاستعادة مكانته في المجتمع كسبا لحق قد كان له وليس سلبا لحق هو ملك الغير .

وهي اضافة طيبة القلب ، جديرة بما يعمر الف ليلة من حب للحياة والاحياء ، وان لم تؤثر في التطورات اللاحقة لشخصية المحتال كما عرفتها اوروبا فيما بعد . بدءا بادب الاحتيال الاسباني الذي ما لبث ان شمل غرب اوروبا ، وانتقل من بعد الى امريكا . ■■

علي الراعي

جيل اليوم

● شوهد صبي في العاشرة من عمره .. يجلس وحده في قاعة محكمة للاحوال الشخصية بامريكا . ولما سئل الصبي عن سبب وجوده هناك اجاب :

« لقد ضقت ذرعا بالحياة مع ابي وامي .. فجئت اطلب الطلاق منهما »

إرفعوا أيديكم عن الإسلام !

بقلم : فهمي هويــدي

ليس من حق أحد أن يقف أمام الملأ ويقول : انا الاسلام !

ليس من حق احد ان يتحصن بكتاب الله ، ثم يعلن علينا من ورائه أن من نصره وأيده فقد دخل في زمرة المؤمنين الصالحين ، ومن خذله وعارضه فقد خرج على كتاب الله ، وصار من أعداء الاسلام المارقين !

ليس من حق احد ان يزعم بانه يتمتع بحصانه اسلامية خصته بها السماء من دون كل المسلمين ، فرفعته فوق الرؤوس ، ونزهته عن النقد والسؤال ، واحاطته بسياج من العصمة والقداسة .

لكنهم في زماننا يقولون ذلك ، بغير تردد او مواربه . يختلفون في امور الدنيا ، ويتبادلون الاتهامات هنا وهناك . ثم نفاجأ بمن يلقي قفاز الاسلام في وجه الجميع ، فتنقلب موازين العراك وأسلحته . ويتحول الأمر من قبول او رفض للاجتهاد السياسي ، ليصبح ايمانا بالله او كفرا به ، ودعما للاسلام أو طعنا فيه .

والاسلام بريء مما يفترون !

فالذي تعلمه عن الاسلام الذي أنزله الله في كتابه انه يرفض « التجميد » في الاشخاص والاشياء ، كما يرفض « التحديد » في الازمنه والامكنه .

ما نعرفه عن الاسلام أنه يرسي مجموعة من القيم ، حيثما وجدت وجد معها الاسلام ، واذا ما غابت غاب معها الاسلام . ما نعرفه عن الاسلام أنه يرفض بشكل قاطع ان تثبت رايته على جبين فرد او سلالة او جنس ، فضلا عن بناية او مدينة او « هيكل » .

ان القداسة والعصمه ـ بنص القرآن ـ من الصفات المطلقة لله وحده (الملك القدوس) واضفاء هذه الصفة او تلك على احد من البشر فيه شبهة الشرك بالله ، اما اضفاؤها على مكان بذاته فهو الوثنية بعينها .

ومعركة الاسلام الاساسية ، والابديه ، هي ضد كل صور الشرك والوثنية .

●

ان هذا « التجريد » لقيم الدين وتعاليمه سمة اصيلة في الاسلام . واي اخلال بها انما هو ابتداع في الدين وعبث من صنع البشر . تحركه النزوات والاهواء ، واحلام السلطان الزمني او الروحي .

النبي في الاسلام ليس « ابن الله » . ومحمد عليه الصلاة والسلام هو في القرآن الكريم « بشرا رسولا » (لاحظ الترتيب : بشر اولا ثم رسول ثانيا) وهو في قوله عليه السلام : « أنا ابن امرأة كانت تاكل القديد في مكة » ، اصطفاه الله سبحانه ليؤدي امانة تبليغ الرساله . وعندما وصفه القرآن الكريم بانه « لا ينطق عن

الهوى » ، لم يشأ البيان الالهي ان يترك الحكم مطلقا وانما اضاف على الفور وفي الآية التي تليها مباشرة : « ان هو الا وحي يوحى » .

فالعصمة هنا ليست مطلقة ، وانما هي مرتبطة بالوحي الالهي ، وفي حدود تبليغ الرسالة والدعوة الى الله سبحانه وتعالى . محمد « الرسول » هو الذي تلقى بالوحي قبسا من عصمة الله سبحانه ، اما محمد « البشر » ، فهو الذي نكن له اعظم الحب والاجلال لانه رسول الله ، لكنه في غير اطار الوحي والدعوة والتبليغ يظل بشرا يصيب ويخطىء . وهو المعنى الذي ادركه الصحابه جيدا ، الأمر الذي دفع احدهم في غزوة بدر لان يستفسر من رسول الله عندما اختار موضعا الى جوار بئر ليعسكر فيه المسلمون ، ويسأله : أهو منزل أنزلكه الله ، ام هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فيقول عليه السلام : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ! .. عندئذ يطرح الصحابي رأيا مخالفا لرأي رسول الله ، ويرشح موضعا آخر ، لان الامر هنا خرج من دائرة الوحي الالهي ، الى دائرة الاجتهاد الانساني ، وكان المتكلم هو محمد « البشر » ، وليس محمدا « الرسول » .

محمد البشر هو الذي كان يستشير المسلمين في امورهم قائلا : أشيروا علي ايها الناس . وهو الذي انحاز الى راي ابي ابكر الصديق في مصير اسرى بدر ، معارضا بذلك رأي عمر بن الخطاب ثم نزل القرآن مؤيدا لرأي عمر . وهو الذي انتصر في غزوات وانهزم في احد ، وهو الذي عاتبه الله سبحانه في القرآن لانه : « عبس وتولى ، أن جاءه الاعمى » . وهو الذي لم يحالفه التوفيق عندما نصح المسلمين في قصة تلقيح النخل ، وعندما عادوا اليه يخبرونه بما اصاب النخيل من جراء تلك النصيحه ، قال لهم بوضوح شديد : انتم اعلم بشئون دنياكم !

●

ومحمد رسول الله كان يعلم ان اهله بشر مثل آحاد الناس ، وهو الذي رفض ان يضفي اي قدر ـ من القداسة او التميز للسلالة ، واعلن امام الجميع : والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ! وهو القائل بمنتهى الوضوح : يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا ، وهو المحذر لأهله : لا يأتيني الناس باعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم .

وهي حكمة الهية جديرة بالتأمل والنظر ، ان يكون للنبي عليه السلام ابناء ثلاثة من الذكور ، ابراهيم والطاهر والقاسم ، ثم يشاء الله ان يموت الثلاثه في حياته . وينجب اربعا من الاناث ، فاطمة وام كلثوم ورقيه وزينب ، فيموت ثلاث منهن في حياته ايضا ، وتبقى فاطمه لشهور قليله بعد مماته عليه السلام .

تشاء حكمة الله البالغه ان لا يخلف رسوله اولادا ذكورا بعد رحيله ، حتى لا يظن احدهم ان له حقا في خلافة النبي وقيادة المسلمين . وهو ظن ليس بعيدا ، لان الذي حدث بعد وفاة النبي يطرح الاحتمال بقوة . فاذا كان هناك من دعا الى ان تظل الخلافة في بيت رسول الله ، وهو موقف تبنته السيدة فاطمة ودفع علي بن ابي طالب الى الامتناع عن بيعة ابي بكر يوم السقيفه . اذا كانت هذه الحجة قد اثيرت فعلا واقتنعت بها بنت النبي وابن عمه علي ، فما بالكم لو ان لرسول الله ولدا عاش بعده ، ورأى في الخلافة ما رآه بعض آل بيت النبي ؟ .. اي تحول في مسار الدعوة ، بل في تاريخ المسلمين ، كان يمكن ان يحدثه هذا التطور المثير ؟

وتشاء حكمة الله البالغه ان تموت بنات النبي الثلاث من غير أن ينجبن ، فلا تتسع دائرة ذرية الرسول ، مما قد يفتح الباب لمحاذير ومثالب ، الاسلام في غنى عنها . ثم تبقى واحدة فقط ، السيدة فاطمة ام الحسن والحسين ، لتكون الخيط الرفيع الذي يسمح للسلاله بالاستمرار في نطاق ضيق .. وهي التي ينتسب اليها ـ بالحق وبالباطل ـ هذا الحشد الهائل من « الاشراف » و « السادة » ، والمنتشر في بلاد العرب والعجم !

الا يعني موت ابناء النبي الثلاثة بوجه اخص ، وبناته الثلاث بعد ذلك ، ان ارادة الله سبحانه شاءت ان يغلق باب وراثة الاسلام ، حتى من جانب آل بيت رسول الله ؟

الا يعزز ذلك فكرة رفض تجسيد الاسلام في اي كائن حي ، حتى ولو كان ابن رسول الله ، او سلالته عليه السلام ؟

●

وفي سياق الحرص على « التجريد » ، ورفض « التجسيد » ، يسوق لنا قصص القرآن مثلا آخر من عهد ابي الانبياء ، ابراهيم عليه السلام : ففي حوار شديد التركيز والوضوح ، يسجل البيان الالهي قول الله سبحانه تعالى لسيدنا ابراهيم في سورة البقرة (من الآية ١٢٤) : « اني جاعلك للناس اماما » .

فيعقب ابو الانبياء بقوله : « ومن ذريتي » ؟

ويكون الرد قاطعا ، اذ يقول الله سبحانه : « لا ينال عهدي الظالمين » !

فسيدنا ابراهيم هنا يطرح قضية وراثة الامامه والقيادة في ذريته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يوجه الحوار الى مسار آخر ، يطرح قيمة العدل ، في ادانة واضحة للظلم والظالمين .

والدلالة هنا ليست بحاجة الى مزيد من البيان . اذ المسألة كما يطرحها القرآن الكريم ، ليست في ان تكون الامامه في ذرية ابراهيم اولا تكون ، ولكن جوهر القضية هو : هل يقف هؤلاء مع العدل ام مع الظلم !

ان « القيمة » هنا هي حجر الزاوية ومربط الفرس . اما السلالة والقبيله والعرق ، فتلك اعتبارات تالية في الاهمية والترتيب ، بل لا مكان لها على الاطلاق اذا ارتبطت بالظلم والجور .

●

اننا اذا تتبعنا مسيرة التاريخ الاسلامي في هذا الصدد ، فسوف تستوقفنا ملاحظتان هامتان :

● الملاحظة الاولى ان فكرة ربط الاشخاص بالدين ، في المنصب او في اللقب ، لم تظهر الا في عصور الضعف التي مهدت لعصور الانحطاط .

● الملاحظة الثانية ان هذا الاتجاه ثبت واستقر حتى تطور الى انشاء ما يسمى بالمؤسسة الدينية ، على ايدي المسلمين العجم وليس العرب .

لقد رفض ابو بكر الصديق ، اول الخلفاء الراشدين لقب « خليفة الله » ، واصر على ان يكون لقبه « خليفة رسول الله » ، وهو تعبير صادق وامين عن الحقيقه . وجاء بعده « امير المؤمنين » عمر بن الخطاب ، الذي في عهده تم وضع التقويم الاسلامي ، واتفق على ان يبدأ التقويم بهجرة رسول الله ، وليس بتاريخ ميلاده . وربط التقويم بالهجره يكشف عن فهم واع لقيم الاسلام . فهجرة الرسول الى المدينة كانت رفضا للظلم والهوان الذي كان يمارسه كفار قريش ضد المسلمين في مكة ، فضلا عن انها كانت خطوة في اتجاه الانتقال بالاسلام من مرحلة الدعوة الى مرحلة تأسيس الدولة .

ربط التقويم الاسلامي بالهجرة ، هو اذن تاكيد لقيمة واعتزاز بحركه . هو التزام بمنطق التجريد دون التجسيد .

اما القائلون بربط التقويم الاسلامي بميلاد النبي عليه السلام ، فان هذا البعد يغيب عن اذهانهم . انهم يريدون ان يربطوا التاريخ الاسلامي بشخص رسول الله ، وليس بحركة للاسلام والمسلمين . وهم في ذلك لم يختلفوا عن الغربيين الذين يرفضون استخدام كلمة المسلمين ، لانهم عاجزون عن استيعاب معناها ، ويصرون على استخدام كلمة « المحمديين » .

وذلك تصور غريب على روح الاسلام ، ناشز عن طبيعته ، متأثر الى حد كبير بالتفكير « المسيحي » ، الذي يقوم على اعتبار المسيح ابن الله ، اعلاء لمنطق التجسيد ، وربط الدين بشخصية السيد المسيح (علما بان القرآن لم يستخدم ايا من تلك التخريجات المشتقه من اسم المسيح عليه السلام . ولم يتجاوز في اشاراته حدود « القيمة » ، واستخدم كلمتي : النصرانيه والنصارى) ويتفق مع هذا المنطق ان يبدأ التاريخ بميلاد المسيح .

ويتداعى التجسيد حتى يصل الى تنصيب شخص له قدّاسته مثل البابا او البطريرك ، ومكان له قداسته مثل الفاتيكان والكنيسة .

وتسجل كتب التاريخ الاسلامي ان ربط كلمة الدين باشخاص ذوي المناصب ، تمجيدا او احتفاء او تبركا ، حدث في اواخر العصر العباسي الاول . وهو العصر الذي اتسم بتقلص النفوذ العربي وتزايد تأثيرات اعاجم المسلمين ، فضلا عن التدهور السياسي والفكري الذي شهدته تلك المرحله ، والذي بلغ حد الانحطاط في العصر العباسي الثاني .

ويذكر محمد كرد علي (الاسلام والحضاره الغربيه ج ٢) ان اول من لقب بالدين في الاسلام بهاء الدوله ابن بويه ركن الدين ، وذلك في القرن الرابع الهجري ، وسرت هذه الالقاب الى العامة والخاصة ، ولم تخل منها الا الاندلس ، لان دولهم بقيت على عربيتها (ظلت الاندلس اموية بعد قيام الدولة العباسية) . ويضيف ان الترك درجوا على ذلك ، حتى استشرت الظاهرة ، وصار « اذا ولد لاحدهم مولود لا يقدر ان يكنيه بفلان الدين الا بامر يخرج من السلطنه . فكانوا يعطون على ذلك الاموال (يتقاضون اموالا باهظه) حتى يسمى ولد احدهم بفلان الدين » .

منذ تلك العصور ، تسرب التجسيد في شكل جديد الى الواقع الاسلامي ، بتأثيرات العجم الذين لم يكونوا قد تخلصوا تماما من آثار الوثنية والكسروية القديمة . وظهرت في قاموس اوصاف الزعماء والقادة ، خصوصا في مناطق خراسان والهند وما وراء النهر ، القاب مثل تاج الملة وفخر الدوله ، ومجد الملة وكهف الامة ، وبهاء الدولة وضياء الملة .. وهكذا .

وبعد ذلك عرفت في المناطق الفارسية وعند العثمانيين القاب اخرى مثل بادشاه الاسلام ، وشيخ الاسلام ، ومفتي الاسلام . الى آخر تلك اللافتات التي لم يعرفها لا الاسلام ولا العرب !

واستقرت « البابوية الاسلامية » في العصر العثماني ، حينما اصبح هناك كيان ملموس للمؤسسة الدينية ، لاول مرة ، وهي التي ضمت القضاة الشرعيين ورجال الافتاء والعلماء البارزين واصبح هؤلاء جميعا موظفين لدى السلطنة ، يتقاضون رواتب شهرية ، ويؤجرون ـ واحيانا يستأجرون ـ من السلطان .

●

واسقاط العصمه والقداسة عن « الاشخاص » ، أولى به في منطق الاسلام كل « الاشياء » ايا كان شكلها او وظيفتها .

واذا كانت صفة القداسة لم ترتبط بشخص في القرآن الكريم ، بل العكس هو الصحيح اذ ادان القرآن بشده فكرة اعتبار المسيح ابن الله . الا ان ذلك الوصف (القداسة) لم يطلق على اي من الامكنه الا في سياق القصص القرآني ، وبالتحديد اثناء سرد قصة موسى عليه السلام ، عندما كلم الله في « الوادي المقدس » ، الذي قيل انه جبل الطور في سيناء . وعندما دعا قومه الى دخول « الارض المقدسة » ، التي قيل انها فلسطين ، في امتحان لصلابة ايمانهم بالله سبحانه . والقداسة في الموضعين لم تكن مطلقه ، ولكنها ارتبطت بعله معينة وموقوته بظروفها . فقداسة الوادي استمدت من انه كان « المسرح الذي جرى عليه

كلام الله سبحانه لنبيه موسى . وقداسة الارض في الحالة الثانية مستمدة من كونها تطهرت من الوثنية لما بعث الله فيها من الانبياء دعاة التوحيد ، كما يقول الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار (جـ ١) الذي يشير الى ان المقصود بالارض المقدسة هنا ، الارض « المباركة » .

في غير هذين الموضعين ، وخارج السياق التاريخي ، فلن القرآن الكريم لم يذكر كلمة القداسة مرتبطة بمكان على الاطلاق . وكل اشاراته بعد ذلك الى خصوصيه وتميز اماكن او اشياء بذاتها استخدمت مشتقات لفظ « الحرمة » ـ وهو اختيار دقيق له دلالته ـ مثل الشهر الحرام والبيت الحرام والمسجد الحرام .

وحتى هذه الحرمة ، فليست مطلقه . فالقتال في الشهر الحرام (رجب) محظور الا اذا تخلله عدوان على المسلمين ، فيجب ان يردوا ويصدوا متحللين من حرمة الشهر .

وذلك ايضا شأن البيت الحرام ، فانه اذا وضع في كفة ، ووضعت كرامة المسلمين في كفة اخرى ، فالرجحان عند الله من نصيب تلك الكفه الثانيه . وهذا ما تقوله بوضوح الآية ٢١٧ من سورة البقرة : « يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، واخراج اهله منه اكبر عند الله .. الى آخر الآية » .

هنا حرمة نسبيه ، وليست قداسة مطلقه ، لمكان واحد يرمز الى تلك القيمة العظمى : عبادة الله سبحانه اذ هو اول بيت اقيم لعبادة الله في تاريخ الاسلام ، على يد ابي الانبياء ، ابراهيم عليه السلام .

في غير هذه الحالة الفريدة والنادرة ، والمبررة ، فليس في التصور الاسلامي مكان « حرام » ، وان تعددت الاماكن واجبة الاجلال والاحترام !

لقد عاش المسلمون ثلاثة عشر عاما في بدء الدعوة ، دون ان يكون لهم مسجد ـ بالمعنى الشائع ـ يقيمون فيه صلواتهم ، حتى اقيم مسجد « قباء » في يثرب (المدينة فيما بعد) . ولم يقل احد ان اسلام هؤلاء الرواد العظام كان ناقصا ، او ان عبادتهم شابها قصور .

ان شمولية التصور الاسلامي التي اعتبرت كل حركة للانسان خالصه لله بمثابة عبادة يفوق بعضها صلاة النوافل ، هي ذاتها التي اعتبرت الارض كلها مسجدا ، اذ المسجد دينا ولغة هو كل مكان يصلح للسجود عليه (جعلت لي الارض مسجدا ، وتربتها طهورا ـ حديث شريف) . كما انها ذاتها التي اعتبرت ان ابواب السماء مفتوحه في كل اتجاه (ولله المشرق والمغرب ، فاينما تولوا فثم وجه الله ـ البقره ، ١١٥) .

لم يكن للمبنى والهيكل ـ ما بالكم بالضريح ؟ ! ـ اعتبار او دور ، عند قوم خاضوا اول معاركهم ضد الهياكل والاصنام !

●

قد يحن الانسان الى « الطوطم » الذي كانت تتعلق به قبيلته الاولى ، لكن ذلك حنين لا يجد له مكانا الا عندما تفرغ القلوب من الايمان بالله سبحانه وتعالى . عندما تنحنى رؤوس العباد للعباد ، لاهيه او ذاهله عن رب العباد !

وهنا تكمن المشكله ، ومن هنا ينبغي ان ينطلق الحل !

وفي التصور الاسلامي ، اذا كان هناك مخلوق مقدس ـ اذا جاز التعبير ـ فهو الانسان بكل تاكيد .. ذلك الكائن الذي كرمه الله ونفخ فيه من روحه ، وسجدت له الملائكه ، وسخر الكون لاجله . لكنها تظل قداسة نسبية ، ومعلقة على شرط هو : الايمان بالله واحسان القول والعمل . ■■

(وقف الشاعر على
شجرة من اشجار
القات فماذا بها تقول)

أوراقي



في غصني الأملود اوراق مدللة غريره
خضراء او سمراء او حمراء .. اطياف مثيره
قد هام فيها العاشقون الصيد افواجا غفيره
وتلهوا حبا وذاقوا ذلة العشق المريره
ما قيس ليلى حين يشكو الوجد او يصلي سعيره
مثل « الموالعة » (١) الكرام تألبوا وقت الظهيره
حول « المقوت » (٢) وهو يجلوها عليهم في الحظيره
وقد اشرأبت نحوه الاعناق كالأبل المغيره
ورنت اليه الأعين الرعناء مهطعة حسيره
وامتدت الايدي طوالا بعد ان كانت قصيره
سمحاء جادت بالدنانير المنمنمة الطريره
سحت وكم تسخو الأكف اذا الهوى املى سطوره

●

من قال قد كزت ولم تحفل بأجنحة صغيره (٣)
قبعت بقاع العش تهفو للطوى زغبا كسيره
من قال ان طعامها نزر وحاجتها كثيره
من قال للعشاق ان العشق قد يعمي البصيره
من قال سلطان الهوى جور وخطته عسيره
لولاه هبت امة من نومها ونضت ستوره
لولاه شادت مجدها بيد محنكة قديره
تبني وترفع ما تشاء من الصروح المستنيره



اوراقي اللدن المزنقة المؤطرة النضيره
ياتيهها فوق النمارق والزرابي الوثيره
حيث انتفاضات البطولة في الأحاديث الشهيره
حيث الأماني الجسام تنال بالدعوى الجسوره
حيث الغواني بزت الابطال من سعد العشيره [٤]
تحت الدروع [٥] الخضر قد اطلقن في النادي بخوره

من قال لم نقطع الى العلياء اشواطا كبيره
اوراقي السمر الندية في الأماليد المثيره
اولى بآمال الشعوب والانطلاقات الخطيره

صنعاء ـ د . محمد عبده غانم

(١) كلمة يمنية دارجة تطلق على مدمني القات .

(٢) كلمة يمنية دارجة تطلق على بائع القات .

(٣) اشارة الى اطفال ماضغي القات الفقراء الذين يكون شراء القات على حساب قوتهم .

(٤) قبيلة كبيرة من قبائل مذحج اليمنية .

(٥) جمع درع وهو يطلق في اليمن على ثوب فضفاض تلبسه المرأة وقد ذكره امرؤ القيس في معلقته ـ « اذا ما اسبكرت بين درع ومجول » .

لابد ان نعيد النظر في تعاملنا مع الحياة من حولنا ، ونوقف هذا الغيث اليومي بها .

نصف الساعة الأخير !

حدود العالم أضيق مما نتصور !

بقلم الدكتور : حازم الببلاوي

« معجزة الحياة » ، هذه واحدة من العبارات التي تتكرر كثيرا على اسماعنا في ظروف متعددة ، حتى كادت تفقد معناها وسحرها . ولكني لا زلت اذكر تلك المرة التي تكرر الحديث عنها فبدت أمامي كما لو كانت كشفا جديدا لم يسبق اليه أحد . كان ذلك في احدى الندوات العامة في فرنسا في بداية الستينات حين كنت لا أزال طالبا للعلم في باريس . وكان المتحدث استاذا في كلية الطب ـ ولعل اسمه فيما أعتقد مورياك على اسم الكاتب الفرنسي الكبير ـ وقد أنشأ « معهدا للحياة » يهدف الى جذب كبار العلماء والفلاسفة والمثقفين للدفاع عن كل مظاهر الحياة والحيلولة ضد كل ما يتهددها . وبدأ حديثه بالاشارة الى بداية ظهور فكرة المعهد في رأسه . وقد كان ذلك عندما وجد نفسه في احدى الامسيات الى جوار سيدة جميلة في احدى حفلات الاستقبال وقد كان من الطبيعي ـ كانسان مهذب اجتماعيا ثم كفرنسي ـ الا يتجاهل وجود هذه السيدة الجميلة الى جواره .

وهكذا بدأ الحديث بينهما لتسأله عما يفعله في الحياة . وبسرعة قدر ان التوقف عند ذكر مهنته كاستاذ بكلية الطب سيكون أقل الاشياء اثارة لانتباهها . ولذلك فقد اختار أن يحدثها عن « معجزة الحياة » وكيف أن ما نراه يوميا من مظاهر الحياة المختلفة لدى الانسان أو الحيوان أو النبات انما هي معجزة لا مثيل لها في الاتقان والجمال . وكيف ان الكون يكاد يتفاعل بأكمله من أجل الحفاظ على الحياة ونموها . فارتفاع درجة الحرارة على الارض بواقع درجتين أو انخفاضها بدرجتين كفيل بالقضاء على الحياة أو على الاقل تعطيلها . ففي الحالة الاولى قد يؤدى مثل هذا الارتفاع الطفيف في درجات الحرارة الى ذوبان الجليد في القطبين الشمالي والجنوبي ومن ثم غمر البسيطة كلها بالمياه . كذلك فان انخفاضا محسوسا في درجات الحرارة قد يعني عودة العصور الجليدية واختفاء حياة الانسان المعاصر

تحدى قوانين الطبيعة

ثم لم يلبث محدثنا ان انتقل بها بعد ذلك الى ظروف نشأة الحياة على الارض وما احتاجته من ملايين السنين في تطور بطيء من اشكال بدائية الى انواع أكثر تعقيدا حتى ظهر الانسان . وكيف ارتبط ذلك بتوفير ظروف مناخية استثنائية وتوفير للعناصر بنسب محددة لازمة للحياة وكيف أن أي اختلال فيها بزيادة أو بنقص كان يعني اختفاء الحياة بأكملها .

بل انه ذهب الى القول بأنه يبدو أن الحياة في مجملها تمثل تحديا لقوانين الطبيعة من حيث انها تمثل اتجاها نحو مزيد من التنظيم والترتيب في عالم يخضع لقانون « الانتروبيا » وذلك بالاتجاه نحو الفوضى أي عدم

التنظيم . فقد جاء القانون الثاني للترموديناميكا مقررا بأن هناك اتجاها عاما للتطور نحو مزيد من الفوضى وعدم التنظيم . وذلك في الوقت الذي تمثل فيه الحياة تطورا نحو مزيد من التعقيد في التنظيم . فالمادة الحية تتميز عن المادة غير الحية بكثرة تعقيداتها وتنظيماتها . بل ان صور الحياة نفسها تتجه نحو مزيد من التعقيد والتنظيم من الخلايا البسيطة في الأميبا الى صور الحياة الاكثر تعقيدا . وقد دعاه ذلك ـ رغبة في مزيد من التأثير على جارته الجميلة ـ الى الحديث عن افكار الفس تيلاردى شردان عن تطور المادة نحو الحياة في اتجاه متعاظم من التعقيد والتنظيم وهو ما يتعارض مع قوانين الطبيعة . فالحياة ليست « طبيعية » بهذا المعنى ولكنها معجزة وتحد للطبيعة .

ومن هذه العموميات بدأ استاذنا يحدثها عن المادة الحية وسلوكها ووظائف الاجهزة المختلفة واعجازها واستمر على هذا المنوال ، واذا بالسهرة تنتهى ليس فقط بانبهار سيدتنا الجميلة بجارها المثقف ، وانما باكتشاف الطبيب نفسه لأهمية الحياة وكأن حديثه مع جارته الحسناء كان كشفا جديدا عليه أدى الى تفتح عينيه وذلك قبل أن يكون حديث سهرة لكسب اعجاب جارته الجميلة .

وهكذا بدأت فكرة معهد الحياة تختمر في رأسه حتى انشأه ليسعى عبر جهود اعضائه من المثقفين في فرنسا وغيرها للتكاتف من اجل العمل على حماية الحياة ، وبوجه خاص وضع بعض القيود الادبية على العلماء في ابحاثهم بحيث يتوقفون عن الاستمرار في هذه الابحاث فيما لو قدروا أن نتائج هذه الابحاث يمكن ان تستخدم فيما بعد لما فيه شقاء البشرية . وهو أمر تعرف أنه يؤرق عددا كبيرا من العلماء . ومثال « الفرد نوبل » ليس بالبعيد عن الاذهان حين عذبه ضميره بعد اكتشافه للديناميت وما أدركه لما يمكن أن تؤذى منه البشرية . كذلك الحال مع « أوبنهيمر » حين توقف في منتصف الطريق لتصنيع القنبلة الهيدروجينية لادراكه مدى ما يمكن ان يصيب البشرية من ورائها .

وقد قصدت من سرد هذه الواقعة القصيرة أن ابين كيف يمكن ان يتجاهل الانسان في بساطة ـ أو قل ربما في لا مسئولية ـ بعض الحقائق الاولية والاساسية فهذا استاذ في كلية الطب يتعامل يوميا مع الحياة ويدرسها لطلبته ، ومع ذلك لم يكتشف خطورتها وأهميتها الا من خلال صدفة عابرة . وأخشى أن تكون جميعا كذلك . فاننا في عيشنا اليومي بالحياة لا نهدد فقط حياة الآخرين وراحتهم بتهورنا وتزقنا ، بل اننا قد نهدد الحياة نفسها . ان التوازن الضروري بين الانسان والبيئة ليس أمرا مطلوبا فقط لحياة أفضل ولكنه قد يكون مطلوبا لاستمرار الحياة ذاتها . واستمرار التخريب والعبث في البيئة المحيطة قد يعني في النهاية القضاء على معجزة الحياة كلها بحيث تعود الارض لبارئها خامدة صماء .

تماثل غريب

ولعله من سخرية القدر أن نجد تقابلا غريبا بين عقلية الانسان البدائي وعقلية الانسان الحالي في علاقتهما مع حدود الطبيعة . فالانسان البدائي يعيش في احساس دائم بالحدود ، فالقرية أو المدينة هي نهاية العالم وكل من ورائها مجهول أو غير طبيعي . وقد ظل هذا الاحساس ملازما للحضارات القديمة ، فهي لا ترى ما وراء حدودها الجغرافية والدينية والعنصرية واللغوية . فلم يكن غريبا أن تنظر كافة الحضارات الى الأجنبي بنظرة ريبة وشك بل انها في كثير من الاحوال لا تراه جديرا بالآدمية . فالقانون الروماني ـ وحتى وقت متأخر ـ كان ينظر الى الاجانب باعتبارهم « أشياء » لا « أفرادا » ومن ثم يرد عليهم ما يرد على الاشياء من ملكية واستغلال . واذا نظرنا الى الانسان الحديث فاننا نجده على العكس قد حطم كافة الحدود ، فلم تعد للحدود الجغرافية أو الفروق المذهبية والدينية أو الاختلافات اللغوية والعنصرية ما كان لها من قدسية في الماضي . وأصبح الانسان يعيش ـ كما قيل ـ في « قرية عالمية » ، صغيرة وكبيرة في نفس الوقت ولم يكتف الانسان بازالة الحدود في عالمه وانما اصبح يتطلع الى الفضاء ليملكه ايضا . وأمام هذا التطور الكبير في تحرير الانسان من القيود التي يفرضها على نفسه ، اذا بنا نجد أن حدود الطبيعة تفرض نفسها عليه بصورة متزايدة . فبعد أن كان الانسان يعتقد أن معظم الاشياء يمكن أن تصل ـ مع حسن الحظ ـ الى وفرة الماء والهواء اذ به يكتشف أنه حتى الماء والهواء ليسا متوافرين بلا حدود . فالهواء النقي والماء النظيف أصبحا مهددين بشكل يمكن أن يؤثر على

حياة الانسان والكائنات الأخرى . فتلوث الهواء بعوادم المصانع وما تخرجه يوميا من سموم وما تفرزه الات الانسان (مثل السيارات) كفيلة بافساد الهواء الذي تتنفسه يوميا . فاذا اضفنا الى ذلك ما يمكن ان تتركه الانفجارات النووية على الجو من غبار قاتل لأدركنا كم هو نادر ذلك الهواء النقي العليل . واصبح من العادى أن نرى الانسان الحديث يهرب من المدن الكبيرة سعيا الى الريف « وبحثا » عن الهواء الذي لم يعد متوفرا . كذلك فان ما أصاب مياه البحار والانهار من تلوث مستمر نتيجة ما يلقيه الانسان فيها من عوادم ـ أصبح يهدد الكثير من الكائنات الحية بعد أن انقرضت بالفعل أو كادت أقل الكائنات مقاومة . ومن هنا فقد اصبح البحث في وسائل حماية البحار واحدا من الاهتمامات الحديثة في تنظيم قوانين البحار .

وهكذا تتضح لنا أزمة الانسان المعاصر ، فهو حين استطاع ان يتخلص من القيود التي فرضها على آفاقه ورؤيته أصبحت حدود الطبيعة اكثر اقترابا فالانسان البدائي كان محدودا بآفاقه طليقا في بيئته ؛ في حين أن الانسان المعاصر وقد تحرر تماما أو كاد ، من قيوده الذهنية قد وقع فريسة لحدود الطبيعة .

هذا العالم المحدود

والتوازن بين الانسان والبيئة أو الحياة والطبيعة كان شاغلا للمفكرين منذ وقت ليس بالقريب . ولعل أشهر الامثلة على ذلك ما ذاع عن « مالتس » القس الانجليزي في حديثه عن السكان . فقد كان يرى أن هناك توازنا بين الانسان والبيئة متمثلا في علاقة معينة بين نمو السكان ونمو الغذاء . ورأى ان نمو الغذاء يخضع لقانون طبيعي محدد في حين أن نمو السكان يجاوز ذلك بما يخلق اوضاعا لا يتناسب فيها عدد السكان مع حجم الموارد الغذائية المتاحة . وقد تعرض مالتس لهجوم بالغ من معظم المفكرين في عصره . وساعد على ذلك الهجوم ان صاحبت أقوال مالتس الثورة الصناعية التي تميزت بقدرة الانسان البالغة على السيطرة على الطبيعة مما ساعد على زيادة الموارد وليس نقصها . كما ارتبط النقد ايضا بغير قليل من التبسيط لافكاره واحيانا التشويه لها . ولم يمض قرن وربع قرن من الزمان على أقوال مالتس الاولى حتى وجدنا حدود الطبيعة تواجهنا في اكثر من مكان . وأصبح الحديث عن أزمة الطاقة وأزمة الغذاء من الامور العادية في الربع الاخير من هذا القرن . ويبدو أن الحديث عن أزمة أخرى للماء لن تكون أقل قسوة فضلا عن احتمال ظهور سلسلة من أزمات المواد الاولية . ولذلك لم يكن غريبا أن يخرج كتاب « حدود النمو » في ١٩٧٢ ليدق ناقوس الخطر من جديد أمام حدود النمو ويحذر من ان العالم لا يستطيع أن يستمر في نموه بلا حدود ، ولا بد أجلا أو عاجلا أن تفرض هذه الحدود نفسها على الانسان .. وهو ما سبق أن عبر عنه الفيلسوف الفرنسي بول فاليرى حين قال بأن « عصر العالم المحدود قد بدأ » .

ويبدو ان الانسان في تاريخه الطويل وفي علاقته مع نفسه والوسط المحيط قد تناسى بعض الحقائق الاولية . فلا شيء على هذه الارض بلا ثمن ولا تضحية . فعندما أخرج آدم من الجنة كتب عليه أن يشقى ، وقال الرب لآدم « بالتعب تأكل منها كل ايام حياتك وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الارض بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود الى الارض التي أخذت منها » (سفر التكوين ، الاصحاح الثالث) .

فقدر الانسان ان يدفع ثمنا لما يأخذه من الطبيعة . وفي كثير من الاحيان نجد أن الحساب يكون متأخرا . فالطبيعة ايضا تمهل ولا تهمل . وربما تكون قصة الانسان مع الطاقة مثيرة في هذا الصدد . فقوة الانسان العضلية جد محدودة ، ولذلك فقد استعان الانسان منذ وقت مبكر بقوى الطبيعة من اندفاع المياه أو انجراف الرياح أو حتى قوى الحيوان بل والانسان . فبعد أن استعبد الانسان أخاه الانسان في ظل نظام العبودية أخضع الحيوان ثم قوى الطبيعة من رياح ومياه . واذا بالبشرية تقفز قفزة هائلة للامام مع استخدام البخار وتزيد قدرات الانسان بشكل كبير . وقد ارتبطت ثورة البخار باستخدام الوقود المستخرج من المناجم والمحاجر ، من الفحم أولا ثم من النفط . وعندما بدأ الانسان يعتقد في خطورة ما حققه من انجاز ومن قدرات نتيجة لاشكال الطاقة الجديدة اذا به يكتشف أن موارده من النفط على وشك النضوب . واذا به يكتشف في نفس الوقت أن ما حققه من كسب في قدراته مع الطاقة الاستخراجية انما يفقده في عمرها القصير المتاح له . فالنفط اتاح للانسان قدرة وسرعة فائقة لم يكن يحلم بها انسان الأمس ، ولكنها أيضا فترة قصيرة من عمره ينضب من بعدها النفط أو على الاقل يصعب استخراجه .

بين المعجزة والمأساة

ومن الحقائق الاخرى الاولية والاساسية ان المادة لا تنشأ ولا تفنى . فالانتاج والاستهلاك لا يخلق المادة ولا

يفنيها ، وانما هو تحويل لاشكال المادة من شكل الى آخر . وبقدر ما ينتج الانسان بقدر ما يترك ويعدم . هناك دائما انتاج وهناك دائما عوادم ونفايات وبقايا . وكان الانسان يعتقد أن العالم مستودع بلا قرار لالقاء عوادمه وبقاياه ، فاذا به يكتشف أن هناك حدودا لامكانيات استيعاب بقايا الانتاج . ومن هنا فان حدود البيئة لم تظهر فقط في محدودية ما تستطيع أن تقدمه للانسان بل ايضا في محدودية ما تستطيع أن تستوعبه من بقاياه وقاذوراته . ولعلنا نذكر كيف تواجه الدول المشاكل في التخلص من النفايات الذرية ، بل انه على مستوى أقل كيف أصبحت نظافة المدن الكبيرة مشكلة رهيبة تواجهها الدول المتقدمة والمتخلفة على السواء .

كل هذا حديث معروف ولكن أهميته لدول العالم وخاصة العالم الثالث لا يمكن التهوين من شأنها في العصر الحديث . وتزداد هذه الاهمية مع مرور الزمن . فكما أشار مؤلفو كتاب « حدود النمو » أن هناك مشكلة « النصف الساعة الأخير » فالمشاكل تتضاعف بشكل مستمر بما يعني أنها تأخذ ابعادا رهيبة كلما تقدم الوقت . فقد تضاعف السكان على سبيل المثال ، خلال الخمس والثلاثين سنة الاخيرة ، وهو ما يعني ان الزيادة في عدد السكان خلال هذه الفترة القصيرة تعادل كل الزيادة في عدد السكان منذ آدم وحواء . ويكفي أن نقارن هذه الخمسة والثلاثين عاما بتاريخ الانسان منذ بدء الخلق . وهذه مشكلة « النصف ساعة الأخير » . ولا تقتصر هذه الظاهرة على نمو السكان وانما تمتد الى معظم مناحي الحياة . ففي خلال فترة تتراوح بين خمس عشرة وأربعين سنة استهلك الانسان من النفط والحديد والرصاص وأهدر من الغابات ولوث من البحار ما يعادل ما فعله الانسان في عمره الطويل منذ آدم وحواء .

ومشكلة الدول النامية بالنسبة للتوازن بين الحياة والبيئة تتضمن كل ما تعرفه من سوءات المجتمعات المتقدمة مضافا اليها ما تعانيه تلك الدول من اهمال واهدار وتبذير تعرفه جميعا من خصائص الدول النامية . على أن اخطر ما تعرضه الدول النامية للحياة هو اسرافها اللامسئول في زيادة السكان وقد يصل الوقت الذي يصبح فيه اكبر تهديد لحياة الانسان هو ذلك الافراط في اعدادهم . ان قضية الانفجار السكاني في الدول النامية قد تعني في النهاية اهدار الحياة ذاتها . فالزيادة المستمرة في سكان العالم ليست فقط تهديدا لموارده المتاحة بل هي نذير انهيار للتنظيم الاجتماعي نفسه وهو اساس وجود الحياة . ان الحياة معجزة حقا ، ولكنها ستكون مأساة ان تهدد الحياة بمزيد من الحياة . ان قضية الانفجار السكاني في دول العالم الثالث ليست قضية تنمية أو رفاهية ، وانما قد تصبح قضية وجود أو عدم . فلنحاول ان نصبح اكثر حرصا على هذه الحياة فهي أغلى من أن نفرط فيها بالاكثار منها . ■■

د . حازم الببلاوي

حكمة من طفل

● بينما كان طفل يشاهد رواية (كابتن كيد) في احدى دور السينما مع والدته سألها :

« لماذا يتقاتل كل هؤلاء الرجال يا امي ؟ »

للاستيلاء على الكنز

ـ وما هو الكنز ؟

انه ذهب وفضة وجواهر .

ـ ولكن هل سيموت بعض هؤلاء في سبيل الحصول على الكنز ؟

لابد من ذلك ياولدى

ـ فلماذا اذن لايصبحون اصدقاء ـ ويقتسموا الكنز فيما بينهم ؟



من التراث الحديث

في الذوق

بقلم : الدكتور طه حسين

سنة ١٩٤٧

يقال ان الذوق ملاك الحضارة المترفة ، ويقال من أجل ذلك إنه يوجد ويقوى ويشيع حيث يتاح للحضارة أن ترقى وتترف وتبسط سلطانها على النفوس . ويقال انه من أجل ذلك يوجد في المدن أكثر مما يوجد في القرى ، ويوجد في العواصم اكثر مما يوجد في مدن الأقاليم ، ويوجد في القصور أكثر مما يوجد في الدور ، ويوجد في الدور اكثر مما يوجد في الاكواخ !

يقال هذا ويقال شيء كثير غير هذا حول الذوق . فالذوق يكون في الأدب والفن ، والذوق يكون في الحياة الاجتماعية اليومية ، والذوق يكون خصلة من خصال الفرد المترف الممتاز ، ويكون خصلة من خصال الجماعة المثقفة المهذبة ، ويكون خصلة من خصال الشعب الذي عظم حظه من الحضارة وإمعانه فيها .. ويظهر ان المصريين قد سبقوا غيرهم من الشعوب الى الحضارة وضروب الترف ، فكان حظهم من الذوق عظيما ، وقسطهم منه موفوراً .. يقول المصري عن المصري اذا أراد أن يمدحه : انه صاحب ذوق ، ويقول المصري عن المصري اذا أراد أن يمدحه أيضا انه « رجل ذوق » بالاضافة ، ورجل ذوق بالوصف ! ويقول المصرى عن المصرى اذا أراد أن يعيبه انه قليل الذوق ، وعديم الذوق ، ويقول الرجل من أهل القاهرة لصاحبه اذا فعل أو هم أن يفعل شيئا لا يليق : « استذوق » يريد أن يقول له اصطنع الذوق وتجنب ما من شأنه أن يغض من ذوقك أو من امتيازك في الحضارة المترفة المهذبة التي تتيح للناس أن يعاشروا الناس ، وأن يجدوا في معاشرتهم راحة ولذة وسرورا !

ويعرف بعض المعاجم الذوق بأنه ملكة طبيعية تسبق التفكير وتعين على تمييز الجيد من الرديء ، والحسن من القبيح ، وما يليق مما لا يليق .

ويقول هذا المعجم : إن لكل انسان من هذا الذوق حظاً . ولكن هذا الحظ يقوى ويضعف باختلاف ما يكون عليه الانسان من ثقافة وحضارة واتراف في العقل والقلب والضمير .. ويقال كذلك إن الذوق يتغير بما يصيب الحضارة من تطور فيفسد بعد صلاح ، ويقبح بعد حسن ، ويشيع فساده وقبحه بمقدار ما يصيب الحضارة من ضعف وانحطاط !

واكثر ما يفسد الذوق حين يطرأ على الحضارة المستقرة المطمئنة التي بعد بها العهد وألفتها النفوس وتوارثتها الأجيال ، طارىء عارض عنيف يغير من سيرة الناس في حياتهم المادية أولا ، ثم في حياتهم العقلية بعد ذلك .

فالرجل المترف من أهل القاهرة في أول هذا القرن كان قد ورث عن أسرته ألوانا من الأخلاق والعادات تأثرت بها سيرته فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين أهله ، وفيما بينه وبين الناس . فهو لا يظهر لأهله إلا في لون معين من لبسة المتفضل ، وهو لا يتحدث اليهم إلا بألفاظ مختارة منتقاة ، ثم هو لا يظهر للناس إلا في زينة أنيقة معتدلة قد لاءم بين دقائقها ملاءمة شديدة الاتساق والانسجام . وهو لا يتحدث الى الناس إلا بألفاظ عذاب رقاق ، وفي صوت معتدل لا يرتفع فيؤذي الآذان ، ولا يسرف في الانخفاض فيشق على النفوس . وهو رفيق رقيق متأنق في إشارته وفي حركاته . وهو حين يخرج من داره الى عمله ، أو الى زيارة صديق يتخذ عربته تلك المترفة ، يجرها الجواد المترف ، ويسوقها السائق الأنيق !

فلما تقدم القرن شيئا ، تغيرت الدنيا وهجمت الحضارة الغربية هجوما جعل يزداد عنفا من يوم الى يوم ، ثم بلغ أقصى غايات العنف بعد الحرب العالمية الأولى .. فأخذ المترفون من المصريين يتركون ترفهم القديم الأنيق الذي كانوا يعرفونه ويألفونه ويحسنون تنسيقه والتأنق فيه ، الى الترف الغربي الجديد الذي لم يعرفوه ولم يألفوه . ولم يتح لهم ان يفتنوا فيه ، وانما أخذوه كما هو واندفعوا فيه غير متحفظين ، فكانوا محدثين ! وقد تغير تصورهم للحياة بتغير ما يحيط بهم من الأداة فاضطربت أحكامهم على الأشياء ، وساء تقديرهم للظروف ، وتغير ذوقهم شيئا فشيئا .

وقل مثل هذا بالقياس الى الحياة العقلية . فقد كان المصريون الى أوائل هذا القرن أميل الى المحافظة في ثقافتهم ، يغذون عقولهم بالتراث العربي اكثر مما يغذونها بالتراث الاجنبي . ثم هجمت الثقافة الاجنبية هجوما لم يكن أقل عنفا من هجوم الحضارة الاجنبية ، فاضطربت لهجومها العقول ، واختلطت له الأمور ، وتأثرت به الاخلاق ، وتغير به الذوق ، وكانت الموقعة الهائلة بين الأدب القديم ، والأدب الجديد !

ثم كانت الحرب العالمية الثانية فأقبلت معها حضارة مادية عنيفة . ولم تكد تنقضي حتى كان كل شيء قد اضطرب في حياة المصريين المادية ، والعقلية ، والخلقية جميعا . وكان اضطراب الذوق بعد هذا كله ، وبتأثير هذا كله ، شيئا لابد منه ولا سبيل الى اتقائه !

وربما كان أخص ما يمتاز به هذا الهجوم الذي غير الحضارة المصرية فغير الذوق المصري تغييرا عنيفا خطيرا ، أنه تأثر بالعنصر الامريكي اكثر مما تأثر بالعناصر الاوربية .. فقد صحبنا الحضارة الاوربية منذ أول القرن الماضي بل منذ اواسط القرن الثامن عشر ، وتأثرنا بمصاحبتها وتغيرت لها اخلاقنا وأذواقنا وحياتنا تغيرا شديدا ، ولكن هذا التغير تم في اعتدال لم يعنف بنا ولم يخرجنا عن اطوارنا بمقدار ما عنف هذا التغير الطارىء بين الحربين ، ومنذ اثيرت الحرب الثانية بنوع خاص ، ومنذ انقضت هذه الحرب الثانية بنوع أخص !

وليس لهذا كله مصدر فيما أظن غير هجوم الحضارة الامريكية المادية والثقافة الامريكية اليسيرة التي لاتعرف التعمق ولا التمحيص ولا الاناة ، والتي تؤثر السرعة والمعرفة الخاطفة . ويمكن أن يقال إننا مدينون لها بهذا الاضطراب الخلقي العنيف الذي ينعم به الجيل الناشىء ، ويشقى به الجيل المنقرض ، وتتعرض به مصر لخطر عظيم !

فاذا رأيت قيم الاشياء تتغير الى هذا الحد الذي نشهده ، وإذا رأيت الشباب لايحفلون بشيء ، ولا يتحرجون من شيء ، ولا يتحفظون في قول أو عمل ، وإذا رأيت الصحف تخوض فيما لم تتعود ان تخوض فيه من قبل ، وعلى نحو مجاف لكل ما ألفنا من سماحة الخلق ، وسجاحة الطبع ، وصفاء النفوس ورقة الأذواق ، فاحمل هذا كله غير متردد ولا متهيب على هذه الحضارة الطارئة التي غزتنا بها امريكا ، فكانت بعيدة الاثر في حياتنا المادية والاقتصادية والادبية ، ومع ذلك تهافت الناس عليها تهافتا عنيفا وهم لايشعرون !

وقد تسألني عما حملني على ان أتحدث اليك في الذوق ، وفي معناه ، وفي تطوره وفي فساده ؟ ! فسل نفسك عما تقرأ ، وعما ترى ، فستجد في نفسك وستجد في نفس غيرك الجواب على هذا السؤال !!

من الذى يصنع التضخم ؟

بقلم : حافظ أحمد أمين

تتعرض الدول الغربية ، منذ أوائل سبعينات هذا القرن ، لظاهرة اقتصادية خطيرة وغريبة ، أطلقوا عليها اسم (التضخم) ، تتلخص في صعوبة تصريف المنتجات ، وتزايد نسبة البطالة ، مع ارتفاع أسعار السلع والخدمات بمعدلات مذهلة ، وهي مظاهر تبدو متعارضة ، لا تتفق مع منطق الأمور ، أو مع النظريات الاقتصادية المعروفة .

وجاء المفسرون يشرحون أسباب التضخم ، فكانت التفسيرات أحيانا ضيقة شديدة الضيق ، وأحيانا واسعة شديدة الاتساع .

في عامي ٧٤ و١٩٧٥ مثلا ، ساد تفسير لظاهرة التضخم ، أخذ حكام الدول الغربية يرددونه ، ووسائل الاعلام فيها تذيعه وتنشره على أوسع نطاق ، يتخلص في أن العرب هم المسئولون عن التضخم ، بسبب رفعهم لأسعار البترول أثناء الحرب مع اسرائيل . ورغم اقتناع أكثر الناس وقتئذ ـ وربما حتى الآن ـ بذلك التفسير ، الا انه لا يتفق مع المنطق السليم ، فأسعار كثير من المواد الخام والسلع الغذائية تضاعفت قبل أن تتضاعف أسعار النفط ، مما يدل على أن ظاهرة التضخم قد بدأت قبل حرب العرب مع اسرائيل ، ثم ان ردود أفعال الدولتين العظمتين لذلك القرار العربي لم تكن جادة بالدرجة التي توقف أثره ، بل ان ردود الأفعال هذه أدت الى اصدار قرارات أخرى من بلاد كثيرة ، ساهمت في زيادة شدة التضخم .

هذا مثال للتفسيرات شديدة الضيق ، أما التفسيرات شديدة الاتساع فمن بينها التفسير بأن التضخم بداية أزمة في دورة من الدورات الاقتصادية المعروفة ، وأن هذه الدورات ، لا يستطيع الانسان تغييرها أو تأجيلها ، وأن قوانين الحياة ستفرض على العالم أزمة اقتصادية في الثمانينات كما فرضتها في الثلاثينات ، ذلك أن هذه الدورات تتكرر كل نصف قرن حسب قول البعض ، وكل ربع قرن حسب قول آخرين ، فما التضخم في رأيهم اذن الا بداية الأزمة ، التي ليس للانسان فيها حول ولا قوة .

سياسة مرسومة

التضخم اذن ليس أكبر من الانسان ، لأنه سياسة مرسومة من الانسان ، ولكنه في نفس الوقت مفروض على الانسان ، اذا أراد أن يعالج المشكلات التي ظهرت وتفاقمت في أواخر الستينات ، تلك المشكلات التي نتجت عن تقسيم العالم ـ خلال الخمسينات والستينات ـ الى دول غنية وأخرى فقيرة ، بحيث تستولى البلاد الغنية على معظم الثراء ، ويعم الرخاء كل مواطنيهم ، ويقوم بالأعمال الدنيا أفراد يأتون من البلاد الفقيرة ، يتقاضون عليها أجورا زهيدة ، وتعيش الطبقة العليا في ثراء لم يعرفه العالم من قبل ، وتنعم الطبقة الوسطى بقدر من الرخاء لا تنعم بنصفه أو ربعه الطبقة العليا في أى بلد من البلاد الفقيرة .

وفي أواخر الستينات ، بدأت في الظهور نتائج هذه السياسة ، التي لاتتفق مع ناموس الطبيعة

ففي الدول الغنية ، كان ثراء الطبقة الوسطى سببا لكثير من الكوارث والاضطرابات ، اذ وقع كثير من أفراد هذه الطبقة في براثن الانحلال ، وزادت بينهم ـ وبسبب ثرائهم ـ نسبة الجرائم والشذوذ والفساد ، ومشاعر السلبية واللامبالاة ، وذاعت فنون العبث واللامعقول . وقام آخرون ـ وعلى رأسهم طلبة الجامعات ـ يرفضون هذا النوع من الحياة ، ويقاومون النظام ، ويصفون

المجتمع بأنه مجتمع استهلاكي ذو قيم فاسدة ، وانتشرت الاضرابات ، وذاعت فنون الرفض والغضب .

كذلك تنبه الكثيرون الى أن تزايد الفجوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة أمر خطير للغاية ، وأن المخاطر التى ستقع على الدول الغنية ـ بسبب اتساع الفجوة ـ أكبر كثيرا من تلك التى ستقع على الدول الفقيرة ، فالدول كلها ـ فقيرها وغنيها ـ ليست الا قطارا واحدا يسير نحو غاية واحدة ، وان اختلفت درجات القاطرات والركاب ، أو مصنعا واحدا تتفق أهداف مديريه مع أهداف العمال والموظفين ، وان اختلفت المهارات والكفاءات . وعلى ذلك فان زيادة التخلف لدى المتخلفين تعوق تقدم وتفوق المتفوقين ، حتى وان كانت هذه الزيادة في التخلف زيادة نسبية ، تماما كما تعوق العجلات الرديئة انطلاق السيارة مهما بلغت قوة المحرك .

لهذا كانت بداية السبعينات بداية لسياسة اقتصادية جديدة ، وضعت لتعالج المشكلات التي نتجت عن تطبيق سياسة بدأت مع نهاية الحرب العالمية الثانية ودامت حوالى ربع قرن ، حتى ثبت فشلها في نهاية الستينات . فقد ظهر أن تقسيم العالم الى دول غنية وأخرى فقيرة يخلق فسادا واضطرابا في الدول الغنية ، كما يخلق فجوة مخيفة بين دول ركبت سفينة واحدة . فكان لا بد في هذا الصدد من العودة للنظام القديم : وهو تقسيم كل دولة ـ وليس تقسيم العالم ـ الى فئات غنية وأخرى فقيرة ، وهذا النظام الجديد القديم ، هو الذى أنتج الظواهر الاقتصادية التي نلاحظها الان ونطلق عليها اسم (التضخم) ، والتي يمكن تلخيصها في (الرجوع الى النظام الطبقي القديم في ظل امكانات تكنولوجية حديثة ضخمة) .

الاغنياء والفقراء

وهذا التفسير للتضخم ، تفسير يزيل من أنفسنا كثيرا من الحيرة الناتجة من تضارب عناصر الظاهرة وتعارضها . فتزايد البطالة وصعوبة تصريف المنتجات في البلاد الغنية كان من المفروض أن يتبعها تخفيض للأسعار وليس ارتفاعها ، لولا أن ظهرت أسواق جديدة وعمالة جديدة في الدول الفقيرة ، والدول الاشتراكية ، تفسر لنا هذا الارتفاع .

ومن بين الأخطاء في السياسة الاقتصادية التي سادت خلال الخمسينات والستينات : اغفال طاقة الطبيعة في تجديد مواردها ، وطاقة الكرة الأرضية في سد حاجة هذه الأعداد من بني الانسان ، وطاقة البيئة في تحمل التلوث ، فلما أدرك المسئولون عن العالم ـ في أواخر الستينات ـ ان احراق البترول بهذا المعدل وبهذه الصورة ، يحمل تهديدا خطيرا لمستقبل البشرية ، وان تزايد السكان في الدول الفقيرة مع تناقص نسبة الوفيات ، سيؤدي الى كوارث عديدة ، وأن هذا التقدم الهائل في التكنولوجيا ، وهذا المعدل المتزايد في استنزاف موارد الطبيعة بلوثان البيئة بصورة مخيفة ، كان لابد من إعادة النظر في أسعار الخامات والمنتجات ، وفي نوع التكنولوجيا المستعملة ، وفي توزيع الناس والأموال والمؤسسات الانتاجية في العالم ، وكان من نتائج اعادة الدراسة في هذه الأمور أن رسمت سياسة اقتصادية جديدة ، أدت الى ما نراه الآن من مظاهر التضخم .

وعلى هذا فان ما نقرأة عن التضخم بأنه شر كله ، وأنه لا يؤدي إلا الى القلق وفقدان الأمان ، والى المعاناة والفوضى الاقتصادية ، وأنه من فعل أفراد أشرار ، أو أنه أزمة مريرة من أزمات الطبيعة ... هذا النوع من الكتابة يبعدنا كثيرا عن ادراك حقيقة التضخم .

« التضخم سياسة يفرضها الانسان كما تفرضها الطبيعة ، يفرضها الانسان لانها نتيجة تخطيط علمي واع منه ، وتفرضها الطبيعة لأن الانسان لا يمكن إغفال امكاناتها ونواميسها ، ولعل هذا هو التعريف الذي يفسر لنا ما قد يبدو متناقضا في هذه الظواهر .

وكما تواجه الآن الدول الغنية مشكلة الغضب والرفض والانحلال والفساد في طبقتها المتوسطة ، ومشكلة تزايد الفجوة بينها وبين الدول الفقيرة ، ستواجه الدول الفقيرة ـ في السنوات القليلة القادمة ـ مشكلة تزايد الفجوة بين الأغنياء والفقراء فيها ، مما يهدد الوحدة الوطنية ، بل ويهدد التنمية نفسها .

لهذا فإن من أهم الأهداف التي يجب أن يضعها قادة الدول الفقيرة أمام أعينهم ـ في المرحلة القادمة (مرحلة التضخم) ـ تضييق الفجوة بين الأغنياء والفقراء ، وذلك بالعمل الجاد على النهوض بالمتخلفين ، وإزالة أسباب التخلف .

قضايا حيوية

هل يصبح الجدري سلاح الحرب الجرثومية

بقلم الدكتور : جوزيف قريط *

هل يصبح الجدري هو سلاح الغد في الحرب الجرثومية ؟

هذا السؤال طرحته صحيفة « لوموند » الفرنسية في دراسة بالغة الاهمية ، ترجح ، بل تؤكد ، ان العلم سوف يعمد يوما الى استخدام فيروس الجدري كسلاح بيولوجي . خصوصا بعد اعلان منظمة الصحة العالمية عن القضاء على الجدري في العالم ، واهمال تحصين الناس ضد هذا الوباء .

لقد اثار الموضوع في البداية احد اساتذة كلية الطب بجامعة باريس ، البروفيسور جان بوابيه ، الذي حذر السلطات الفرنسية من هذا الاحتمال اكثر من مرة . ثم عاد اثنان من اساتذة معهد باستر بباريس ، هما ماركوفيش ومولاريه ، واثارا القضية من جديد على صفحات لوموند ، منبهين ومحذرين .

لقد جاء اعلان منظمة الصحة العالمية عند اجتثاث مرض الجدري واختفاء جرثومته المسببة في ٨ مايو (ايار) من العالم الماضي (١٩٨٠) . الامر الذي دعا المنظمة الدولية الى ان توعز للدول المختلفة باهمال المرض حيث لم يعد محل لذلك . خصوصا في ضوء المضاعفات الخطيرة التي تحدث نتيجة للتطعيم في حالات نادرة ، فضلا عن تكاليف عملية التطعيم التي بلغت سنويا مليار دولار .

ومايؤكده الاستاذان الفرنسيان هو ان القطع باختفاء الجدري ، هو من قبيل الفرضيات العلمية التي يتعذر تعميمها على الحاضر والمستقبل ذلك انه لايزال ممكنا من الناحية العلمية تخليق فيروس وبائي للانسان ، من فصائل اخرى غير وبائية او قليلة الفعالية تحملها الحيوانات ، خصوصا وان هذه الظاهرة لابد وان تكون قد حدثت في الماضي اثناء رحلة تطور الانسان .

وقد بدأت منظمة الصحة العالمية برنامجها للقضاء على الجدري في عام ١٩٦٧ .

* استاذ مساعد بقسم الكيمياء الحيوية بجامعة الملك محمد الخامس ـ المغرب .

ووضعت لهذا المرض خطة شملت ٤٠بلدا في انحاء العالم . وكان مجموع الاصابات التي احصيت في ذلك العالم عشرة ملايين اصابة منها مليون اصابة قاتلة . واستغرقت المعركة الاخيرة ضد الجدري ١٤ عاما وكان جنودها ٢٠٠٠ من الفنيين الصحيين ، الذين استعملوا ، مليارا و ٤٠٠ مليون عبوة من اللقاح ، وبلغت تكاليف العلمية كلها ٣١٣ مليون دولار .

وكانت آخر اصابة قد ظهرت في الصومال في ٢٦ اكتوبر (تشرين اول) عام ١٩٧٧ ،انتظرت منظمةالصحة العالمية بعدها مدة تزيد على سنتين قبل اعلانها نبأ اجتثاث المرض ، فهذه المدة تعتبر كافية لتنعدم فعالية الفيروس الذي قد يوجد في الشقوق او في ادوات المجدورين .

لكن اختفاء الفيروس من العالم الطبيعي يطرح قضية اخرى خطيرة ، هي امكانية امتلاكه وتخزينه

ذلك ان الباحث العالمي لايهون عليه ضياع نوع ما ، فهذا يعني التجرد ليس فقط من مجال المعرفة ، ولكن ايضا من مجال استعمال خيري محتمل الحدوث لهذا السبب اقترحت منظمة الصحة العالمية حفظ الفيروس من قبل مختبرات معينة ليصبح ، ان اتت المناسبة ، مادة للدراسة تحت مراقبة شديدة ووقع الاختيار على ست دول لتقوم بهذه المهمة هي : جنوب افريقيا ،الصين ، الولايات المتحدة الامريكية ، انجلترا ، هولندا ، والاتحاد السوفياتي . لكن هذا الوضع يطرح مجموعة من الاسئلة ، في مقدمتها : لماذا تم اختيار هذه الدول دون غيرها ؟ وكيف ستنسق تلك المختبرات العمل مع مختلف مراكز بحث الجراثيم ، الجامعية وغير الجامعية ؟ وماهي صيغة العلاقة التي سترتبط فيما بين تلك المختبرات والمراكز ، وبين الوسط العالمي ؟ .. ثم كيف ستتم مراقبة تلك المختبرات ، ومن الذي سيتولى هذه المهمة ؟

ماهو الضمان ؟

وهناك نقطة اخرى ، هي ان اقتراح المنظمة يفترض ان تتخلى عن الفيروس البلاد غير المصرح لها بامتلاكه . وهذا ما فعلته فرنسا ، ولكن اى ضمان غير الثقة وحسن الظن يمكن الاعتماد عليه للتأكد من ان كافة الدول تخلصت مما لديها من فيروس الجدري ، ان اى مختبر ، بل اى باحث لايجد صعوبة في الاحتفاظ بذلك الفيروس في زجاجات صغيرة بحجم قمع الخياطة .

نعم ، هناك افتراضات واقتراحات تطرح لتوفير ذلك الضمان ، مثل انشاء هيئات امن تملك صلاحيات واسعة ، وفرض رقابة بوليسية للتدقيق في الالتزام بالحظر المفروض على امتلاك الفيروس خارج تلك الدول الست . ولكننا اذا سلمنا بجدوى هذه الاحتياطات ، فهل هناك ضمان لكي لايتسرب فيروس الجدري من داخل تلك الدول الست ذاتها ؟ هل تحول تعليمات منظمة الصحة العالمية واوامرها المشددة ، دون تسريب الفيروس وحفظه سرا في مكان او آخر ؟!

ان الاستعانة بالعناصر الوبائية في الحروب ليس ضربا من الخيال ، وحرب الميكروبات تحتل مكانها الان في تاريخ الانسان . فوباء الطاعون الذي اجتاح اوربا في العصور الوسطى وقضى على ٢٥ مليون نسمة خلال عامين (١٣٤٨ ـ ١٣٥٠) ، وكان هؤلاء هم نصف العالم في ذلك الوقت . هذا الوباء نتج عن القاء جثث المرضى من فوق حوائط سوق الجنويين في كفا (تسمى حاليا فيودوزى على البحر الاسود) اثناء محاصرة المغول لها وعند عودة الجنويين الى اوربا وصل الطاعون معهم وذلك في اكتوبر (تشرين اول) عام ١٣٤٧ ، ولم ينقك عن اجتياحها منذ ذلك الحين حتى نهاية القرن الثامن عشر . وفي عام ١٩٥٠ ، امر الليفتنان جنرال سيمبونوتز في سلاح المدفعية البولونية باستعمال كرات مملوءة بلعاب كلاب مسعورة وبمواد اخرى يمكنها ان تسبب الاوبئة .

اذا ، فمصائب السلاح البيولوجي كأداة قتل جماعي لها حسيتها واسبقيتها . وبالنسبة لفيروس الجدري فانه يمكن انتاجه بسهولة وبكميات وافرة ، بانشاء مزارع في بعض صالات مهيئة من المختبر في اى مكان كان

قضايا حيوية

وبكلفة ضئيلة . فالتجهيزات اللازمة بسيطة ورخيصة الثمن وسهلة الاعداد . اما المعرفة التقنية فالبدئية منها تكفي لذلك . اذن ، فهو على مستوى الدولة سلاح الفقير او سلاح القسر او حتى سلاح الفرد الواحد . سهل الاختفاء كما ان نقله لايطرح اية صعوبة يوما .

هذا السلاح الخطر

ولكل ذلك ، فمن الصواب اعتبار فيروس الجدري السلاح البيولوجي « الجيد » بين احسن هذه الاسلحة . فتحضيره يسير ، واخفاؤه يسير الضمان ، والاصابه به يمكن ان تتم عن طريق نثره من الجو اثناء أي عملية حربية اوارهابية ، كما يمكن نشره بالاحتكاك المباشر مع ادوات ملوثة ، فالفيروس يتحمل جيدا الشروط الخارجية . اما تحصين الاشخاص المكلفين بالاعتداء فهو تطبيق بسيط لايلفت النظر طالما المكلفون يستمرون في حفظ السر . ومن ناحية الفعالية يتجاوز معدل الوفيات نسبة ٢٥٪ وتدوم العدوى عن طريق المرضى حتى موتهم ، وتستمر بعد الموت عن طريق الثياب واسرة النوم ، الخ .

اخيرا فان الجدري يصمد امام كل علاج متداول في الوقت الحاضر ، والحماية الوحيدة منه تتم عن طريق التحصين المسبق الذى يعتبر الوسيلة المنفرده ذات الفعالية في مجال الحرب البيولوجية . فضلا عن انه سهل التطبيق ودائم التأثير . وبما ان فيروس الجدري يصبح عديم التأثير . في حالة الحصانه ضد المرضى ، فانه يصبح بدون نقاش السلاح المفضل عند اهمال التحصين وزوال مناعته .

ان هناك تجارب قريبة يجب ان تظل ماثلة في الأذهان ففي يوغسلافيا عام ١٩٧٢ ، لم تحصر حملة التلقيح موجه الوباء التي انتشرت بادخال فيروس الجدري على مسافر قدم من العراق الا بعد ٣٥ وفاة من بين ١٧٥ اصابة . كما ان التخلي عن التطعيم بمصل الجدرى لعدة سنوات يؤدى الى تراجع المناعة اللقاحية ، وهذا ما ثبت في مختبر مختص في انجلترا . اذ تعاقب ظهور الجدري . امام الباحثين في المختبر خلال الاعوام ١٩٤٩ و ١٩٧٣ و ١٩٧٨ .

ان موقف منظمة الصحة العالمية ، ودعوتها لاهمال الحصانة ضد الجدرى بعد اعلان القضاء عليه ، يشوبه خطأ فادح وخطير . فحتى اذا لم يستخدم الفيروس في حرب الجراثيم وهو احتمال راجح كما قلنا ، فان رفع الرقابة الصارمة على هذا الوباء الخطر وتعمد نسيانه ، قد يؤديان الى مفاجآت مفجعة . فتأخر تشخيص المرض ، واعادة الاستعدادات الادارية البطيئة والمعقدة الى ما كانت وتنشيط التشكيلات الصحية ، هذا كله سوف يتطلب وقتا قد يهيىء الفرصة لانتشار الوباء . وحتى تتكون المناعة مجددا ، كم من الاموات والعميان سيكونون ضحايا تلك الكارثة ؟

يجب التفتيش عن حلول وسطية ، ، بين التمسك بالتحصين وتركه تماما ، والحد الادنى لهذه الحلول ، ان يحظى العاملون في المختبرات المصرح لها بالاحتفاظ بالفيروس كما ينبغي ان يحصن السكان المجاورين لتلك المختبرات ، وان يراقب كل احتكاك بين اولئك العاملين بالمختبرات وبين غيرهم ، وان يحصن كذلك رجال الصحة المكلفون بالامر ، ورجال الجيش كلهم او بعضهم .

وخارج هذه الدائرة ، فينبغي الحذر والانتباه خصوصا في المناطق ذات الكثافة السكانية العالية ، والمعرضة للاصابة بالاوبئة . كما ينبغي الا توقف البحوث التي تستهدف توفير دواء فعال وقليل التكلفة لعلاج الاصابة بالجدرى .

ان القضاء على الجدرى شيء ، واهمال التحصين ضده شيء آخر . واستمرار هذا الاهمال من جانب منظمة الصحة العالمية ، والجهات المعنية الاخرى يوفر للحرب الجرثومية سلاحا فتاكا جديدا ، يضاف الى ما لديها من وسائل تخريب حياة الانسان . ■■

(عن صحيفة لوموند الفرنسية بتصرف)

اقتران القومية بالعلمانية مصدر شكوك الإسلاميين

بقلم : الدكتور محمد فتحي عثمان

ترددت كثيرا في كتابة هذا التعليق اليسير على المعالجة الصريحة العميقة التي نفذت الى لب موضوع العلاقة بين العروبة والاسلام من قلم الصديق الاستاذ الدكتور احمد كمال ابو المجد (عدد ذى القعدة ١٤٠٠هـ /اكتوبر ١٩٨٠) .

ترددت اولا لأني اتفق معه في جوهر الموضوع بل في معظم تفاصيله ان لم يكن كلها ، وترددت ثانيا لأنني مرة اخرى في غضون شهور قليلة اتدخل لأحاور الصديق الأعز على صفحات« العربي » الأغر ، ولقد خشيت ان يخال بعض القراء أن هذا المورد الثقافي الفياض العذب « كثير الزحام » من جانب القراء العرب والمسلمين غير العرب الذين يعرفون العربية ، قد اراد له أحد الكتاب ان يغدو «ندوة » خاصة لحوار صديقين يجمعهما مجال الفكر الى جانب روابط الصداقة .

ولكني آثرت اخيرا ان أبدى هذا الايضاح في ايجاز .

ان « الحركة القومية » قد اقترنت في اوروبا ـ كما يعلم جيدا المفكر الصديق ـ « بالدولة العلمانية » حتى أصبح من الخصائص المميزة لهذه « الدولة القومية » National state انها « علمانية » ولقد يقال ان من ركائز « القومية » ومقوماتها عند بعض المفكرين « الثقافة المشتركة » Culture وليس « اللغة المشتركة » فحسب ، وان « الدين » يمكن ان يكون من مكونات الثقافة المشتركة بغير جدال . ولكن الواقع « التاريخي » يشهد بأن « الحركة القومية » استهدفت قيام دولة لاتتجاوز الحدود القومية لأى علة ، فقد ضاق القوميون بأى توسع امبراطوري ، سواء أكان لأجل الدنيا او لأجل الدين ، وقد وقرت في اذهانهم اهوال الصراع الأمبراطوري بين الأباطرة لأجل التوسع ، والصراع الديني بين الكنيسة الكاثوليكية والخارجين عليها ، والصراع بين الملوك والبابوات ..... وأرادوا ان تكون دولتهم القومية محكومة « بقيصر » وحده ، تأثرا بتعاليم « الانجيل »او توقيا لعثرات « الواقع » الكنسي .

حتى لا تضطرب الرؤية

وجاءت « الحركة القومية » في العالم العربي متأثرة بل متابعة لهذا الاتجاه التاريخي الأوروبي ....وأعان على ذلك ما كان بين دعاة « القومية الطورانية »و« القومية العربية » في الدولة العثمانية من تصادم بل اقتتال ، ولست في هذه العجالة في معرض تحليل عوامل هذا التصادم وتحديد المخطىء من المصيب . وأحسب ان كثيرا من « التعاطف » او

« العاطفية » تجاه الساسة العثمانيين تفيض به مقالات الكتاب العرب ودراساتهم في الآونة الأخيرة ، تأثرا بمعاداة القوى الاستعمارية التي تضافرت على الاجهاز على « الرجل المريض » ، او بمعاداة الحركة الصهيونية ويحسب من مزايا الدولة العثمانية احيانا انها لم تفسح لأمانيها ومكائدها موضعا ولم تتح لها ثغرة تنفذ منها ، في حين أعطتها السلطة البريطانية المنتدبة على فلسطين عندما خلفت العثمانيين ما أتاح للصهيونية اقامة دولتها على الأرض العربية . على ان مشاعر « التعاطف » او « العاطفية » التي عززتها النزعة الاسلامية اخيرا ، ينبغي الاتحجب عن أبصارنا وعقولنا حقائق التاريخ ، فلا تتحول مما نحسبه « تجنيا » على الدولة العثمانية الام ما قد يكون « محاباة » لها ، ولاتنتقل من « عين السخط » الى « عين الرضا » فتضطرب الرؤية وتهتز الحقيقة ،بل تشتد قبضتنا على ميزان العدل والانصاف « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والأقربين .... فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا ، وان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » (النساء/ ١٣٥) .

وأعود فأقول انه في سياق تصادم « حركة القومية العربية » مع « الدولة العثمانية » التي كانت ايضا دولة « الخلافة الاسلامية » ، وبمتابعة الاتجاه التاريخي لحركة القومية في اوربا ، حدث ذلك « الانفصام » الواقعي بين حركة القومية العربية والدعوة الى اقامة الدولة الاسلامية في البلاد العربية ، وبخاصة في الآونة المتأخرة للحركةالقومية العربية بعد طلائعها أيام الكواكبي وأيام المؤتمر العربي المنعقد في باريس ، وكان من اعضائه علماء الدين ، وقد تكون من عوامل الانفصام فيما بعد مشانق جمال باشا الوالي العثماني على الشام ...... وهكذا بلغت هذه الحركة سن النضج او قاربته في مناخ يصرفها عن أي « قابلية » لمحتوى ايديولوجي أو حضاري اسلامي .. وتعانقت أقلام غير المسلمين من ابناء العروبة مع أقلام المسلمين انفسهم من دعاة الحركة القومية العربية لتكرس الانفصام وتعمق جذوره ...... ويشهد واقع تاريخ الحركة القومية العربية المتأخر « بعلمانية » دعاتها واحزابها وقادتها المناضلين ، لاتكاد تستثني من ذلك الا النادر الذي يؤكد القاعدة العامة ، وحتى الشخص الذي يمكن أن يكون محلا للاستثناء تراه متدينا في مشاعره الشخصية التي قد تندى كتابته حين يعالج « مقومات الشخصية » القومية ، لكنها لاتتجاوز هذا الحد قط الى مستوى « الدولة » في كيانها الواقعي وسياستها العملية ، فهي « دولة علمانية » خالصة عند جميع القوميين . ولعل الأخ الدكتور ابو المجد يعلم جيدا ان تفسيره وتفسير مثل الاستاذين اكرم زعيتر ومن قبله شكيب ارسلان « للرسالة الخالدة » التي صارت عقيدة وتاريخا ، الخصيصة المميزة « للأمة العربية » ـ هذا التفسير الجلي المعقول الذي تشهد به حقائق التاريخ والواقع ، ليس مع الأسف هو التفسير المقبول من زعماء الحركة القومية في واقعها السياسي العملي .

الاسلاميون والعروبة

بل اكاد اقول ان التاريخ العربي المعاصر قد يكون شهد من تفتح الاسلاميين على العروبة ، اكثر مماشهد من تفتح دعاة الحركة القومية العربية على الاسلام .... ولعل الحاضر والمستقبل يبددان الشكوك ويذهبان « أزمة الثقة » بسلوك جديد لايجمد على ما كان ، فآفتنا الكبرى اننا لا نساير المتغيرات المتسارعة من حولنا !!

اني لمع الأخ الدكتور فيما خلص اليه من ان « الكل ـ اى دعاة الاسلام ودعاة القومية العربية جميعا ـ مدعوون لأن يطوروا رؤيتهم لهذه المقولات كلها على هدى التغيرات التي تنتاب الدنيا كلها من حولنا ... وحرام في العقل والنقل جميعا أن تضاف الى (بلايا واقعنا) معركة عقيمة حول أهداف لاتزال غامضة المعالم بعيدة المنال . وأولى من هذا ان يشتغل الساسة المؤمنون بالقومية بطرح جديد (للتوحد العربي) يقوم على أسس موضوعية من المصالح المشتركة ويضع صيغة جديدة بدلا من الصيغة الرومانسية (للوحدة الاندماجية) ... وأولى بالدعاة الى الاسلام ان يوجهوا جهودهم الى ترشيد حركة (الصحوة الاسلامية) واستشراف مهامها الجديدة في المستقبل القريب والبعيد والى تصفية القضايا المنهجية المعلقة في سمائها حتى تكون حركتها تقدما ويكون نموها رحمة .. وعلى الله قصد السبيل »

أسأل الله ان يستجيب للدعاء ويهدينا الى الرشد ، وارجو ان يجيب قومي الدعوة للتأمل والتبصر والتفكر في نهج آخر أقوم وأبلغ . ■■

اعداد : يوسف زعبلاوي

معلومات جديدة جمعتها طائرات أواكس الاستطلاعية

منذ مطلع شهر اكتوبر الماضي وطائرات الاواكس (Awacs) تواصل رقابة اجواء الخليج ليل نهار .. اربع طائرات تتناوب اداء المهمة وتتقاسم ساعات اليوم الاربعة والعشرين بالتساوي .. على ان مهمتها ليست مهمة هجوم او دفاع .. وانما مهمة استكشاف واستطلاع وانذار مبكر .. فهي ليست طائرات حربية ، من قريب ولا من بعيد .. انها رادار متطور وطائر فحسب .. تستطيع اجهزتها اكتشاف الطائرة المعادية (او الصديقة) وهي ماتزال بعيدة على بعد ٥٥٠ كيلو مترا او يزيد .. وتستطيع تلك الاجهزة ايضا تحديد سرعة تلك الطائرة وارتفاعها واتجاهها بالرغم من بعدها الهائل .. وتستطيع كذلك تحديد نوعها وطرازها .. وما اسرع ماتنتقل هذه المعلومات الى المحطات الارضية لاجراء اللازم .

على ان طائرة الاواكس نفسها ليست سوى طائرة عادية تجارية من طراز بوينغ ٧٠٧ ، تحلق على ارتفاع ٣٠,٠٠٠ قدم .. فالسر اذن انما هو في الاجهزة الاضافية التي جهزت بها تلك الطائرة لتصبح « شبكة طائرة للانذار والرقابة Airborne Warning & Control System او Awacs اذا اردنا الايجاز .

وتشمل تلك الاجهزة قبة الرادار الكبيرة الدوارة .. تشبه الفطر شكلا ، ويبلغ قطرها ٣٠ قدما .. ولعلها ابرز مميزات الطائرة نظرا لوجودها على سطحها ولكونها بالتالي اول مايرى من طائرة الاواكس . بيد ان اكثر تلك الاجهزة يوجد داخل الطائرة وهي في الغالب اجهزة الكترونية وكمبيوترات متطورة معقدة ...

وتجدر الاشارة الى ان مهمة هذه الاجهزة لاتقتصر على جمع المعلومات « الساخنة » ، وموافاة المحطات الارضية بالانذارات المبكرة .. فهي تقوم ايضا ، وبالاضافة الى ذلك ، بجمع المعلومات « العامة » عن كل ما يمكن رصده ضمن نطاق فاعلية الطائرة البالغ ٥٥٠ كيلو مترا او يزيد ، كما أسلفنا . وما اشبهها في ذلك بالاقمار الصناعية .

ونذكر فيما يلي امثلة من هذه المعلومات « العامة » التي ارسلتها طائرات اواكس عن حرب الخليج أبان الاسابيع الخمسة الماضية ..

ظهرت الطائرة المتطورة ف ١٤ ـ وهي متوفرة لدى ايران ـ عدة مرات في سماء المعركة ، الا ان السلاح الرئيسي الذي تعتمد عليه هذه الطائرة ، وهو صاروخ فونكس الفعّال Phoenix ، لم يستعمل على الاطلاق .. وقد يكون سبب ذلك هو الافتقار الى قطع الغيار او غياب الفنيين المدربين على استعمال ذلك الصاروخ .

ـ اكثر الطائرات التي اسقطت للفريقين لم يتم اسقاطها في معارك جوية ، ولا بصواريخ ارض ـ جو ، المتوفرة لها ، وهي من طراز رامبير Rapier البريطاني عند

الايرانيين ، ومن طراز سام Sam الروسي عند العراقيين . ذلك ان المدافع المضادة للطائرات وما اليها من مقاومات تقليدية هي التي اسقطت تلك الطائرات ،

بقي ان تذكر ان سلاح الجو الامريكي نفسه لايملك من طائرات الاواكس الا ١٩ طائرة .. منها الطائرات الاربع العاملة في منطقة الخليج .

الضوضاء عدو الانسان الاول بعد التلوث

● منذ مدة غير قصيرة والدول المتقدمة تكافح الضوضاء باعتبارها وجها من وجوه تلوث البيئة . ولعل الضجة او الضوضاء هي مصدر الازعاج الاكبر للناس في بيوتهم . ولو ذكرنا انها تسبب الصمم الدائم احيانا وتؤدي الى الموت احيانا اخرى لادركنا قيمة الجهود التي تبذلها دول الغرب في هذا الصدد .

ويجدر بنا ، قبل التعرض لهذه الجهود ، ان نشير الى ان الضجة لا تختلف عن الموسيقى الا في انها ذبذبات غير منتظمة بينا الموسيقى ذبذبات منتظمة ... فكلتاهما صوت .. ينتقل الى الاذن عبر وسط غازي او سائل او صلب فتهتز طبلتها وفقا لذبذبته ثم تنقل الاعصاب تلك الاهتزازات الى الدماغ الذي يترجمها الى اصوات ... والذبذبات غير المنتظمة او الضجة تحدث ضغطا على الاذن وازعاجا لصاحبها .. وقد اصطلح العلماء على قياس هذا الضغط بوحدة ديسبل decibel وهي مشتقة من وحدة القوة بل bel وتبلغ عشرها ...

فأخفتُ صوت تستطيع سماعه الاذن البشرية يعتبر بلا ديسبل .. اى صفره يليه صوت الطبيعة في ليلة من ليالى الريف الساكنة = ١٠ ديسبل . اما الهمس في الاذن فيبلغ عشرين ديسبل ، والحديث العادى ٣٠ ـ ٤٠ ديسبل .. والى هذا الحد لا يكون الصوت ضجيجا ولا يسبب ازعاجا ... اما اذا بلغ ضغط الصوت ٧٠ ديسبل ، ويحدث ذلك في حالة تضخيم صوت الراديو الى حده الاعلى ، او ٩٠ ديسبل ، وهو الضغط الذي يحدثه زامور السيارة الكبيرة فمن هنا يبدأ الازعاج وتبدأ الخطورة . ومن هنا أيضا تبدأ الجهود الرامية في الغرب الى الحد من هذه الضجة .. وتعدد فيا يلي بعض مصادر الضوضاء التي تستهدفها تلك الجهود والتي يبلغ ضغط ضجتها ٩٠ ديسبل فيا فوق :

القطار الارضي (المترو) ٩٠ ديسبل
الدراجة النارية ١٠٠ ديسبل
آلة حفر الطرق وتكسير الحجارة ١١٠ ديسبل
الطائرة على ارتفاع ٢٠ قدما ١٢٠ ديسبل
آلة التبشيم (Riveter) ١٣٠ ديسبل
عيارات نارية وانفجارات ١٤٠ ديسبل

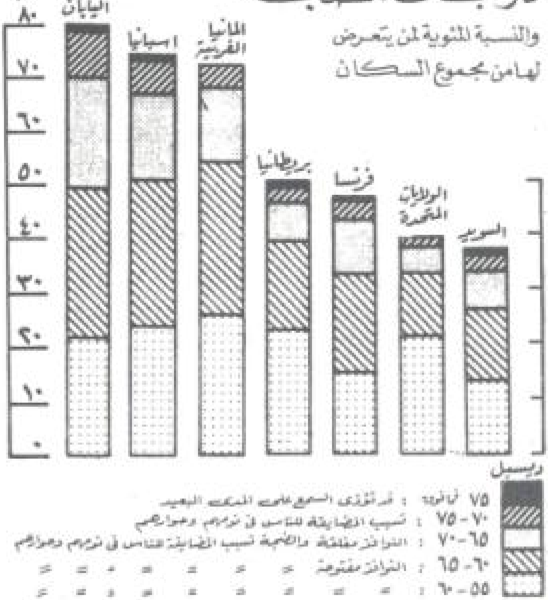
ويحدث الصمم الدائم اذا طال تعرض الاذن لضجة يبلغ ضغطها ١٥٠ ديسبل .. وقد تحدث الوفاة اذا بلغ ضغط هذه الضجة ٢٠٠ ديسبل .. ! وهي كفيلة باحداث ثقوب في بعض الاجسام الصلبة ، على كل حال .

ومن طريف ما يذكر هنا ان العلماء الامريكيين نجحوا في احداث مثل هذه الضجة في المختبر .. احدثوها سنة ١٩٦٥ في ولاية الباما ، وذلك بواسطة بوق صنعوه من الفولاذ والاسمنت .. وبلغ ضغط تلك الضجة المخبرية ٢١٠ ديسبل .

نستطيع الآن العودة الى الحديث عن الجهود التي تبذلها الدول المتقدمة في سبيل الحد من الضوضاء وانقاذ مواطنيها من المخاطر المترتبة عليها . واول ما يذكر هنا ان هذه الجهود

درجات الضجة

والنسبة المئوية لمن يتعرض لها من مجموع السكان



تركزت اكثر ما تركزت على ضجة الطائرات والمطارات .. وبلغت درجة ملحوظة في اليابان وفرنسا ومدينة لوس انجلوس في كاليفورنيا والى حد ما في بريطانيا .

فقد انفقت اليابان سنة ١٩٧٩ مبلغ ٦٣ مليون دولار في سبيل اعادة اسكان العائلات ، وقد تعرضت لضوضاء المطارات التي بلغت ٧٧ ديسبل او يزيد .

وعملت فرنسا على ادخال المواد العازلة للصوت على شتى المباني القائمة قرب المطارات والتي يتعرض سكانها لما يزيد على ٧٣ ديسبل .. وذلك منذ سنة ١٩٧٣ ومقابل نفقات بلغت بمجموعها ٣٣ مليون دولار .

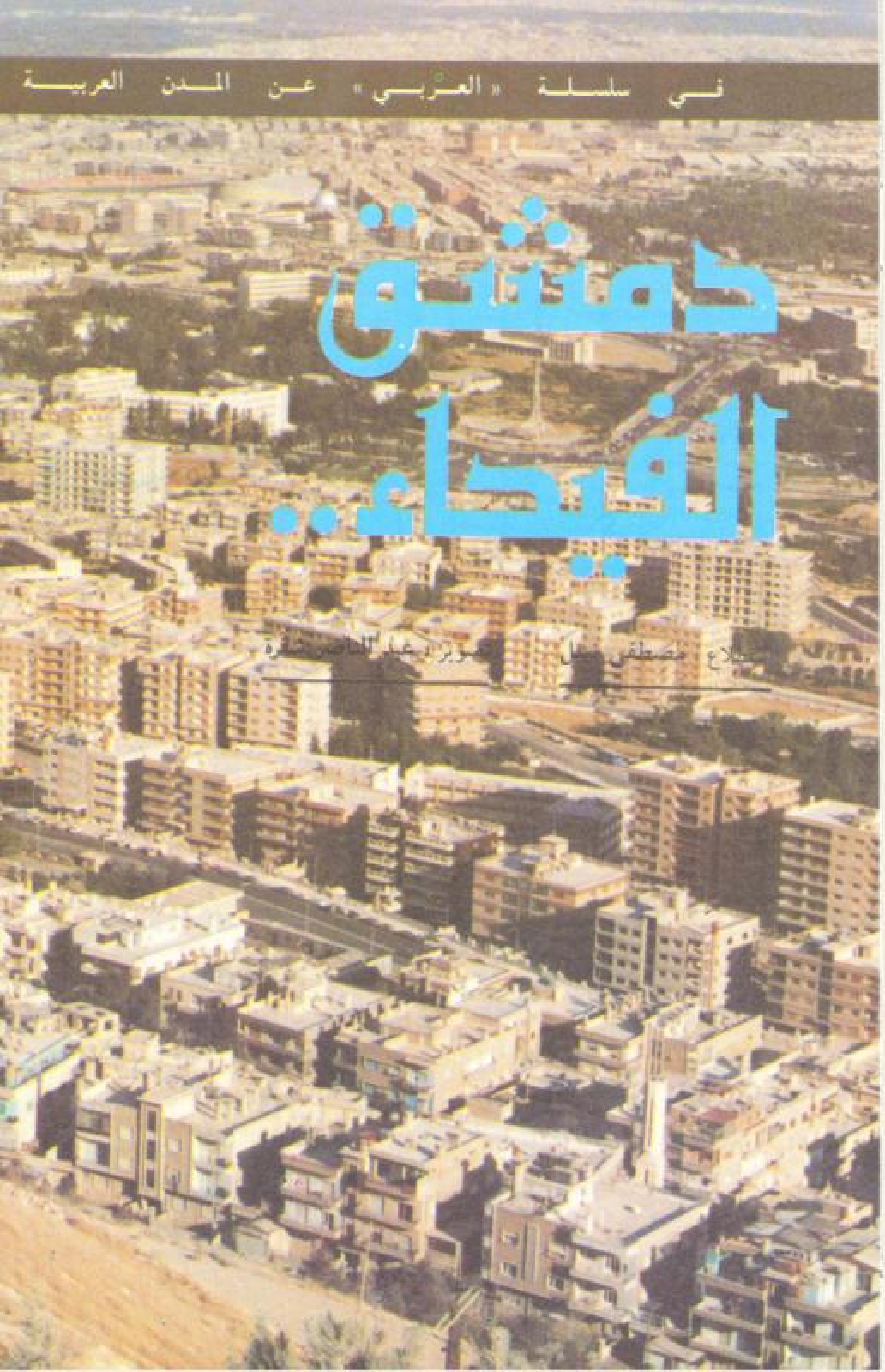
اما بريطانيا فتبلغ التعويضات المثوى دفعها للمتضررين بسبب التعرض لضجة المطارات ٦٥ ـ ٧٥ مليون دولار ... هذا بالاضافة الى نحو ٤٠ مليون دولار تنوى سلطات المطار انفاقها في سبيل التحسينات المرغوبة حول مطار لندن ... وقد بلغ ما انفقته بالفعل من هذا المبلغ حوالى ٧,٦ مليون دولار .

وتتضاءل هذه المبالغ جميعا لو ذكرنا ان ما انفقته مدينة لوس انجلس الامريكية وحدها في مكافحة ضجة المطارات قد بلغ ٣٠٠ مليون دولار ... ذلك ان هذه الملايين لم تنفق على تحسينات ادخلت على المباني القائمة وانما في سبيل شراء هذه المباني من اصحابها .

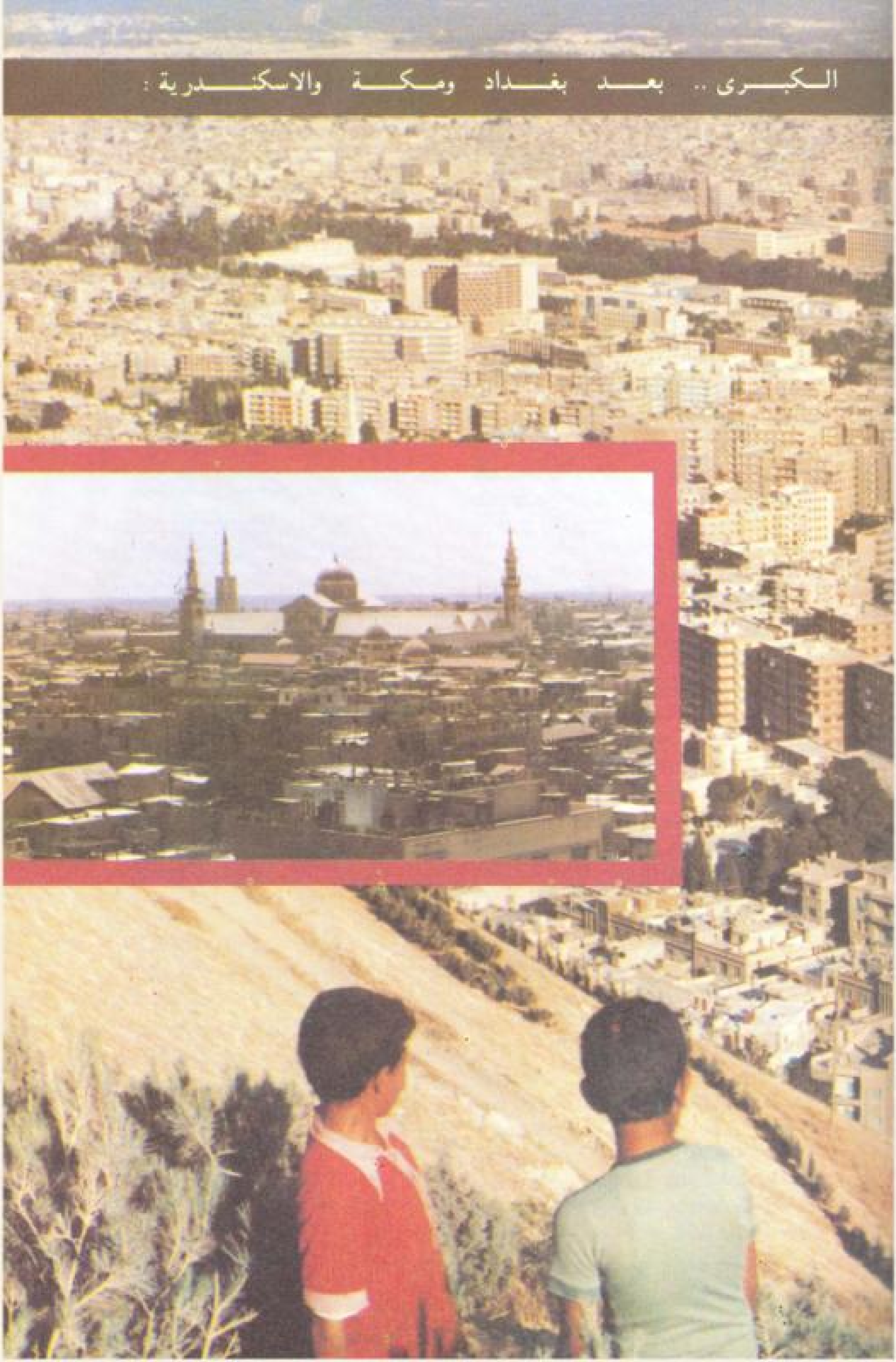
على ان الطائرات ليست مصدر الضجة الوحيد او الاهم ... فهناك السكك الحديدية ومحطاتها .. وهناك المصانع المنتشرة هنا وهناك والتي كان ضجيجها سببا في صمم نسبة كبيرة من عمالها . ولعل شوارع المدن وطرقها وما تزخر به من سيارات وشاحنات هي مصدر الضوضاء الاول .. وقد بلغ عدد المتضررين بضجتها (٢٠) ضعف المتضررين بضجة الطائرات ... هذا في اوروبا .. اما في امريكا فتهبط النسبة الى (٣ : ١)

ولا يفوتنا ان نذكر ان هولنده هي الدولة الاولى في العالم من حيث تطبيق اجراءات مكافحة الضجة والسكون الذي حققته تبعا لذلك .

بقي ان نشير الى شهادات الضجة ، بل الخلو منها .. التي ينتظر ان تصدرها منظمة الأياتا الدولية وفي المستقبل القريب .. لتصبح هذه الشهادات بمثابة اذن هبوط في شتى المطارات في العالم ... فما لم تحمل الطائرات مثل هذه الشهادات فيحظر هبوطها في مختلف مطارات العالم .


في سلسلة «العربي» عن المدن العربية
دمشق الفيحاء

الكبرى .. بعد بغداد ومكة والاسكندرية :



هذه اذن دمشق ..

القلب والرمز معا ، التي مر بها صلاح الدين في طريقه الى صد الغزو الصليبي القادم من الغرب ، ومر بها الظاهر بيبرس عندما واجه الغزو المغولي القادم من الشرق

دمشق البشر والحضارة والثقافة والتاريخ ، هى التي ذهبت ابحث عنها ، تلك التي كانت عاصمة الدولة الاسلامية في النصف الاول من القرن الاول الهجرى . الدولة التي امتدت من مشارف الصين وحتى جنوب فرنسا ..

الكثير من الدروب تقود الى دمشق ، قول قديم تردد صداه وانا في طريقي اليها ، وعندما كنت اتنقل في شوارعها وبين احيائها ، وأقف متأملا آثارها ، واستنشق عبير غوطتها ، فكم شهدت من الحوادث والخطوب ..؟!

وتماوجت الصور امام مخيلتي ..

فهذه « دمشق » المدينة والرمز لجيل عربي ، عاش معارك الاستقلال والتحرر ، وداعب احلامه « مشروع عربي » يعود فيه للعرب دورهم كاصحاب رسالة وحضارة ، ويتعاملون مع العالم بالاخذ والعطاء ، وليس مجرد مستهلكين للبضائع والافكار .. !

وتتلاحق مسرعة صور التاريخ القريب ..

● قادة الثورة العربية معلقون على اعواد المشانق في ساحة المرجه بعد ثورتهم على العثمانيين .

● اول مؤتمر يعقده نواب الشام وفلسطين وشرق الاردن ولبنان كنواب دولة واحدة بعد دخول فيصل الاول الى دمشق .

● عدد قليل من الجيش العربي يواجه القوات الفرنسية الغازية في معركة ميسلون .

● صورة اهل الشام متوجهين الى دمشق لاستقبال عبد الناصر ويحتفون به ويحملون آمالا عريضة في المستقبل .

الحركة لا تنقطع في دمشق ، ولا تكاد ترى فيها ركنا ينعم بالهدوء ، يحتل ابناء العاصمة بروحهم المرحة المقبلة على الحياة اماكنهم على المقاهي ، والسيارات متزاحمة وسط المدينة ، الاطفال يلعبون في الازقة ، ولا تنتهي الحركة ولا تسكن الضوضاء الا مع سكون الليل ..

ان مجرد جولة في انحاء دمشق تكشف معالم « عبقرية » موقعها ، والذى يحدده كل من جبل قاسيون ونهر بردى وبساتين الغوطة ..

من فوق ربوة عالية في جبل قاسيون تظهر دمشق كلها ، بمساجدها التي تبلغ ٢٥٠ مسجدا في منظر خلاب مع الساعات الاولى للصباح ، ترى المدينة تستيقظ والحركة تدب فيها مع خيوط الشمس الذهبية ، وتظهر لوحة عناصرها احياء المدينة المختلفة واسواقها ومساجدها تلتحم ببساتين الغوطه ، ويظهر الفرق والحوار المتصل بين القديم والجديد ..

ويأتي جبل قاسيون عند الدمشقيين بعد جبل عرفات ، فعنده تتكسر الرياح الباردة ، وهو لدمشق كتاج من الماس فوق رأسها ، والتي يمتد جسمها بين امواج متلاحمة من البيوت والاشجار ..

ومن موقع آخر المس الى اى حد تدين دمشق بوجودها الى تلك الواحة الفيحاء التي تحيطها من طريق دمشق ـ بيروت ، الذى يخترق غوطة دمشق وبساتينها ، والتي تنتشر فيها المطاعم والمقاهي فوق الربى والى جانب شلالات بردى ، ويقضي فيها الدمشقيون عطلاتهم يحتسون القهوة ويدخنون النرجيله ويلعبون الطاولة في الهواء الطلق ، وترى كيف توفر الغوطة الارض المزروعة ـ على شكل هلال ـ لدمشق حاجتها من الغذاء ؟!

ان موقع دمشق قد خطه التاريخ والجغرافيا معا ..

يصفه الدكتور جمال حمدان بقوله .. « تقع على هامش الصحراء على نقطة بين الرمل والطين ، بين البدو والحضر ، بين اللامعمور والمعمور ، مما جعلها سوقا للتبادل بين البدو والزراع ، وهي شامة على خد الصحراء السورية ، كونها نهر بردى الذى أقام اكبر واحة في الشام ، مما وفر القاعدة لمدينة خالدة ، وتقع في اهم محورين للحركة التاريخية والتجارية في الشام ، وهما المحور الطولى على طول اقدام المرتفعات الشرقية ابتداء من آسيا الصغرى حتى الجزيرة العربية والى اليمن ، والمحور العرضى الذى يتوسط ويحتل اخطر فتحة جلية موضعا ، وهى فتحة بيروت / دمشق التي تسهل الاتصال بالساحل والداخل عن طريق هذا الممر الجبلي ،

ومن هنا كانت ميناء صحراويا هاما منذ وقت مبكر ، وكانت بحق بوابة صحراء الشام وصحراء العرب ، وبوابة بغداد بوجه خاص ، وهي في هذا كانت مدينة القوافل الشمالية ، وكانت التجارة عنصرا محوريا في نشأتها وازدهارها .. »

ورغم انها ليست الوسط الجغرافي لسوريا ، فهي تتطرف نحو الركن الجنوبي الغربي ، الا انها تتوسط قلب المعمور ..

وقد ادرك الكاتب البريطاني باتريك سيل هذه الاهمية لوضعها الجغرافي السياسي ، فقال : « ان الذى يقود الشرق الاوسط لا بد له من السيطرة على سوريا ، لاسباب عديدة ، منها موقع سوريا الاستراتيجي الذى يشرف على الممرات الشمالية الموصلة الى مصر ، وعلى الطريق البرى بين العراق والبحر الأبيض المتوسط ، وعلى شمال الجزيرة العربية والحدود الشمالية للعالم العربي ، فسوريا مركز مراقبة جيد ، يمكن منه رصد سياسات الدول الكبرى ! »

دمشق داخل الاسوار

في دمشق القديمة مجد العربي ذاته ..

ودمشق القديمة التي يحيط بها السور يتراكم ويتداخل فيها تاريخ خمسة عشر قرنا ، فيها تعاقبت الحضارات ، والتحم المحاربون ، والتقت الامبراطوريات القديمة والحديثة لقاءالصراع والدم ..

ومازالت علامات دمشق العتيقة قائمة:السور وابواب دمشق وقلعتها والجامع الاموى والمساجد التي تعود الى عصور متتابعة ، والاسواق العربية وحمامات دمشق الشهيرة ، فالقلب القديم مازال ينبض بالحركه والحياة ، في المقاهي والمطاعم والاسواق ..

والقلب يقاوم الحصار والزحف القادم من كل مكان ، زحف الشوارع الواسعة والبنايات الخرسانية الحديثة ، ويتشبث اهل دمشق ببقايا التاريخ ..

ويخفق القلب لهذه البقعة التي استمرت بملامحها على مر التاريخ بارادة تاريخية لاتقهر ، وهي التي تهز الوجدان وتعيد للاذهان خلود دمشق ومجدها ، وتسمع حتى همسات جدرانها القديمة ، ولسان حالها يقول ، هنا متحف حي يحفظ جزءا هاما من البقية الباقية من الحضارة العربية ..

وتكاد تكون دمشق هذه نموذجا يحمل كل ملامح المدينة الاسلامية ، ومن اغنى المدن العربية بالفن العربي والطابع العربي ، ولقد كان للمثل الذى يجرى على السنة اهل دمشق معنى خاص ، والذى يقول باللهجة الشامية « اللى مالو عتيق .. مالو جديد .. »

والقلب ، اقصد دمشق القديمة تقوم على ربوة عالية من اربعة تلال صغيرة ، يقوم على إحداها الجامع الاموى ، فيفرض هيمنته ودلالته التاريخية على دمشق كلها ، وتحيطه الاسواق واحياء التجار والحرفيين ، ثم الضواحي التي تحولت الى احياء بعد تراكم الوافدين اليها والتي كانت في الماضي محطات للقوافل ..

ولايفوت زائر دمشق القديمة هذا الخيط الذى يربطها بايام الامويين ..

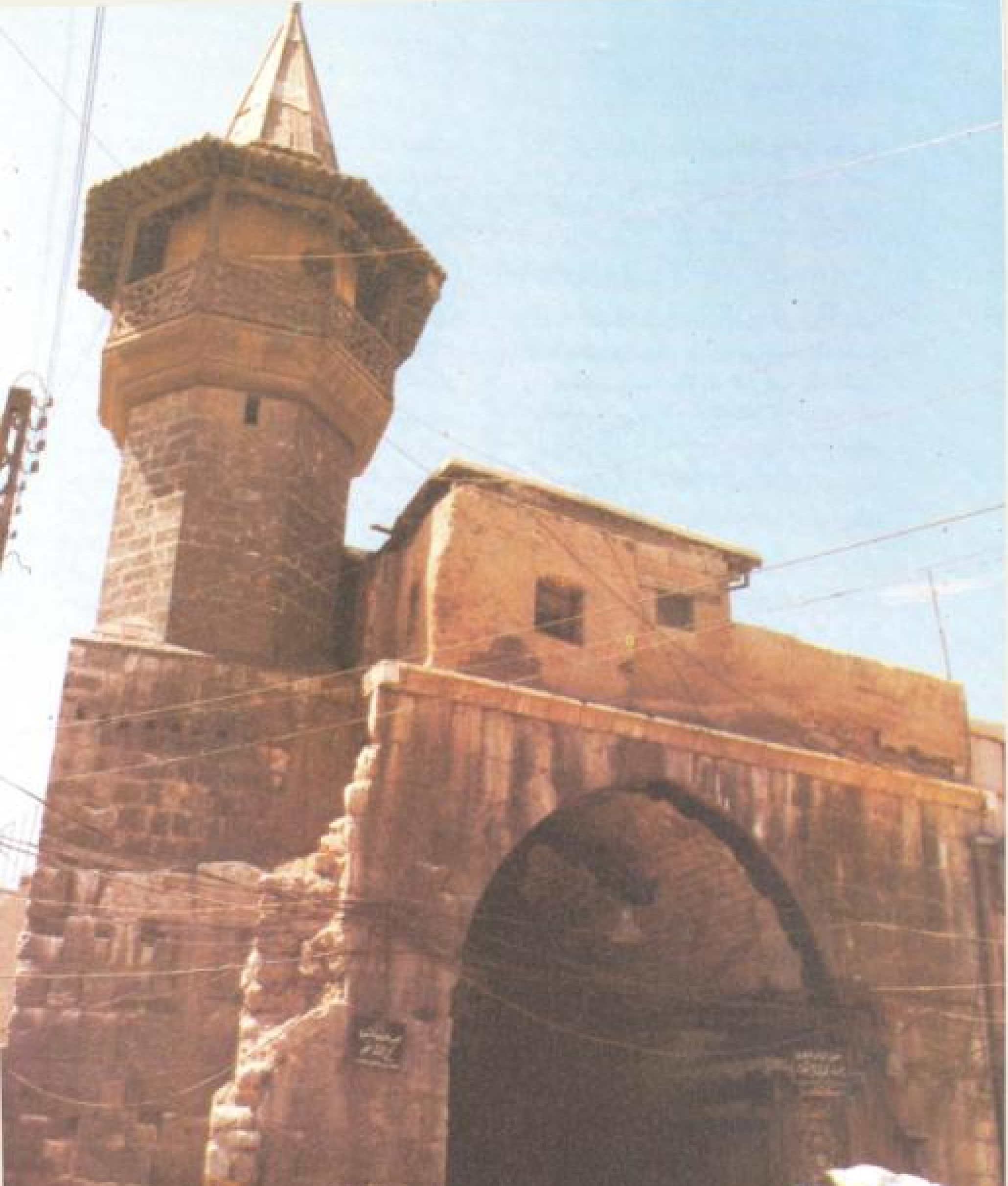
فمازال يقطع دروبها الضيقة المسقوفة « الشامي » بسراويله الفضفاضة وعمامته المميزة ، يسير الى جانبه بدوى لوحته الشمس وقد غطى رأسه بكوفيه وعقال يقطع هذا التناسق ازياء اوربية حديثة يرتديها عدد من المارة ، والنساء السافرات يعبرن الطريق جنبا الى جنب مع المحجبات بزيهن القديم ، وتغير الفارس الذي كان يمتطى صهوة جواده ، واصبح يقود سيارته « السوزوكي » اليابانية .

ومازال جو دمشق له طعم خاص ومعبق بروائح مميزة ، ومازالت دمشق القديمة تقسم الى حارات واحياء ، ولكن لم يعد التقسيم كما كان على اسس قبلية .

ومازالت الاحياء القديمة تضم مسجدا وحماما وأسواقا وبابا يغلق خلال الليل ، لكل حي شيخ وحارس ، ومازالت هذه الاحياء حافلة بلمحات من العمارة العربية ، والشوارع الرئيسية مازالت لاتنفذ الى المساكن ، بل تتفرع الى دروب وهذه تتفرع الى ازقة او دخلات تصلك في النهاية الى البيت الدمشقي ، ومازالت الاحياء القديمة تختلط بالاسواق بعد ان ضاقت المدينة القديمة بسكانها ، ومازالت الاسواق مقسمة ، سوق للخيل في الناحية الشمالية ، وسوق الفحم في الناحية الجنوبية ..

وكثيرا ماتستوقف المتجول في دمشق القديمة صور كأنها من القرون الوسطى ، مثلا ، باب ضخم لزقاق البرغل ، أوترى بيوت الحى وقد تقاربت مشربياتها حتى تكاد تتلامس وتحجب الشمس عن الزقاق ..

يخيل الى ان كل الازقة تقود الى اسواق دمشق .



احد ابواب دمشق العتيقة في حي الشاغور



جلسة هادئة مع النرجيلة والقهوة في احد مقاهي دمشق .

المصنوعات النحاسية التي تزخر بها اسواق دمشق القديمة .



وتنتهي بك عند الجامع الأموي ، وهذه الاسواق لها نفس ملامح الاسواق الشرقيه والعربية الاخرى ، سوق للعطارين وآخر للخياطين وثالث للعطارين ، وسوق الجمال ، والصاغة .. وهكذا .

وبنيت هذه الاسواق مسقوفة ، واضاف اليها العثمانيون القباب ، وتمتليء الاسواق بكل مانفاخر به دمشق من السيوف المحلاة بآيات من القرآن واشعار كتبت بماء الذهب ، والمنسوجات الدمشقيه الشهيرة مثل البروكار واجود انواع الحرير الدمشقي ، والمنتجات الدمشقيه الخشبية المطعمة بالصدف ..

ولم تفلت هذه الاسواق من زحف المنتجات الحديثه ، الصوف الانجليزى والاجهزة الألكترونية والصابون من فرنسا وادوات التجميل من ألمانيا .. وهكذا ..

وانسب وقت لزيارة سوق الحميدية ، ايام الحج ، عندما يتوقف الحجاج في دمشق ، وهم في طريقهم الى بيت الله الحرام ، ومازال بعض الافغان والأتراك والباكستانيين بدمشق في طريقهم البرى الى الحج والبائعون مهرة في اغرائك بالشراء ..

واستمرت اسواق دمشق على مر العصور تجذب اهتمام زوارها ، فوصفوها وسجلتها لوحاتهم ، ومازالت الصورة التي رسمها السائح البريطاني بورتر في القرن التاسع عشر قائمة ، يقول : « من الممتع التجول بين هذه الاسواق ومشاهدة البضائع المتعددة ، وامام كل حانوت مصطبه ، التجار يجلسون عليها بين بضائعهم ، ويمارسون عمليات البيع بحذق ومهاره ، وحقا تستحق هذه الاسواق زيارة الاجنبي الذي يشاهد الازياء العديدة والمعروضات الثمينه من السيوف الدمشقية ، والبورسلين القديم ، والدروع والاسلحة المطعمة بالذهب والفضة ، والقباب الموشاة بالذهب ، وانواع السجاد الشرقي الثمينه » .

البيت الدمشقي

ونواة دمشق العتيقه ووحدتها الرئيسية هي البيت الدمشقي ، والذي قادني اليه تلك القاعات التي التقيت فيها بعدد من المسئولين ، والتي قيل انها على نسق البيت الدمشقي القديم ، وتحول عدد من هذه البيوت الى مزارات ومتاحف وزرت منها بيت العظم ، والبيت الذي اعد ليكون متحفا يضم كل الصور واللوحات التي رسمت او التقطت لدمشق على مر العصور . والبيت الثالث الذى زرته هو بيت النعمان عند باب شرقي والذي اقيم عام ١٨٦٥ ، وتراكمت فيه الفنون العربية من ازمنة مختلفة .

ويشعر اهل دمشق بالحزن والاسى عندما تضرب المعاول احد هذه البيوت الباقية وفيه يكمن كل عناصر الجمال والفن العربي ، وهو عالم كامل صغير ، اذا تجولت فيه ادركت ان منزل الدمشقي هو قلعته وليس منزل البريطاني كما درج عليه المثل الانجليزي ، فلكل بيت بهو داخلي تتوسطه نافورة حولها اشجار البرتقال والليمون والتمرحنة ..

وطرازه هو خلاصة الفنون التي ارتقت مع الزمن ، وترجع اغلب البيوت القائمة حاليا الى ايام العثمانيين ، وليس له شكل خارجي جذاب ، فقد اقيم لساكنه ، وهو عالي الجدران مفتوح القلب ، وهو مثل غيره من البيوت العربية في بغداد او القاهره ، به باحات واسعة ، تطل غرفه عليها من الداخل ، وتظلل باحته الاشجار والرياحين ، وبه ايوانات وقاعات مزخرفة ، يقودك مدخله الى الصحن المزين بالاقواس والزخارف الحجرية وغيرها من العناصر الفنية ، ويتكون من طابقين ، تمضى العائلات الشتاء في الطابق العلوي الذى يكون دافئا لتعرضه للشمس ، وتمضى الصيف في الطابق الاول الذى يكون رطبا معتدلا ..

وحتى الشرفات تتجه الى داخل البيت ، اما اذا كانت الى الخارج فتكون على شكل مشربيات تحجب سكان البيت عن اعين الفضوليين ! ، ولم يكن يرتفع مبنى وسط هذه المنازل سوى مآذن المساجد وترى داخله الفنون الدمشقيه ، الآيات القرآنية والاشعار والحكم العربية تتعشق مع النحاس وعروق الفضة ، وتتعشق عروق الياسمين مع خشب السلم ، وترى اعمالا فنية بديعة من الصدف والموازييك والفسيفساء ..

وزود البيت الدمشقي منذ زمن بعيد بمياه جارية تصل اليه في نظام محكم ساعد عليه جريان بردى ونبع الفيجه وطبوغرافية دمشق ، وتأتى المياه من المرتفعات المجاورة في الغرب ، وتمر مياه بردى في كل دار ومسجد ومدرسة ، والتي تتميز بعذوبتها وبرودتها حتى في اشد ايام القيظ !

وتصل الى « عالم » البيت الدمشقي ، عبر منعطفات ضيقه ، ومن خلال بوابات تغلق في المساء ، فاى امن وسكينة يشعر به ساكنه ..!!



باب زقاق البرغل ، بالقرب من باب الجابية



الفن داخل البيت الدمشقي

• ويرجع نظام توزيع المياه إلى ايام الامويين ، ومازال اسم يزيد يطلق على القناة المتصلة بنهر بردى والتي شقت في عهده ، وتوجد بعض الحمامات القديمة التي تشهد على هذا النظام ، وتشهد ايضا على الحياة الاجتماعية الغنية التي كانت تعيشها دمشق ..

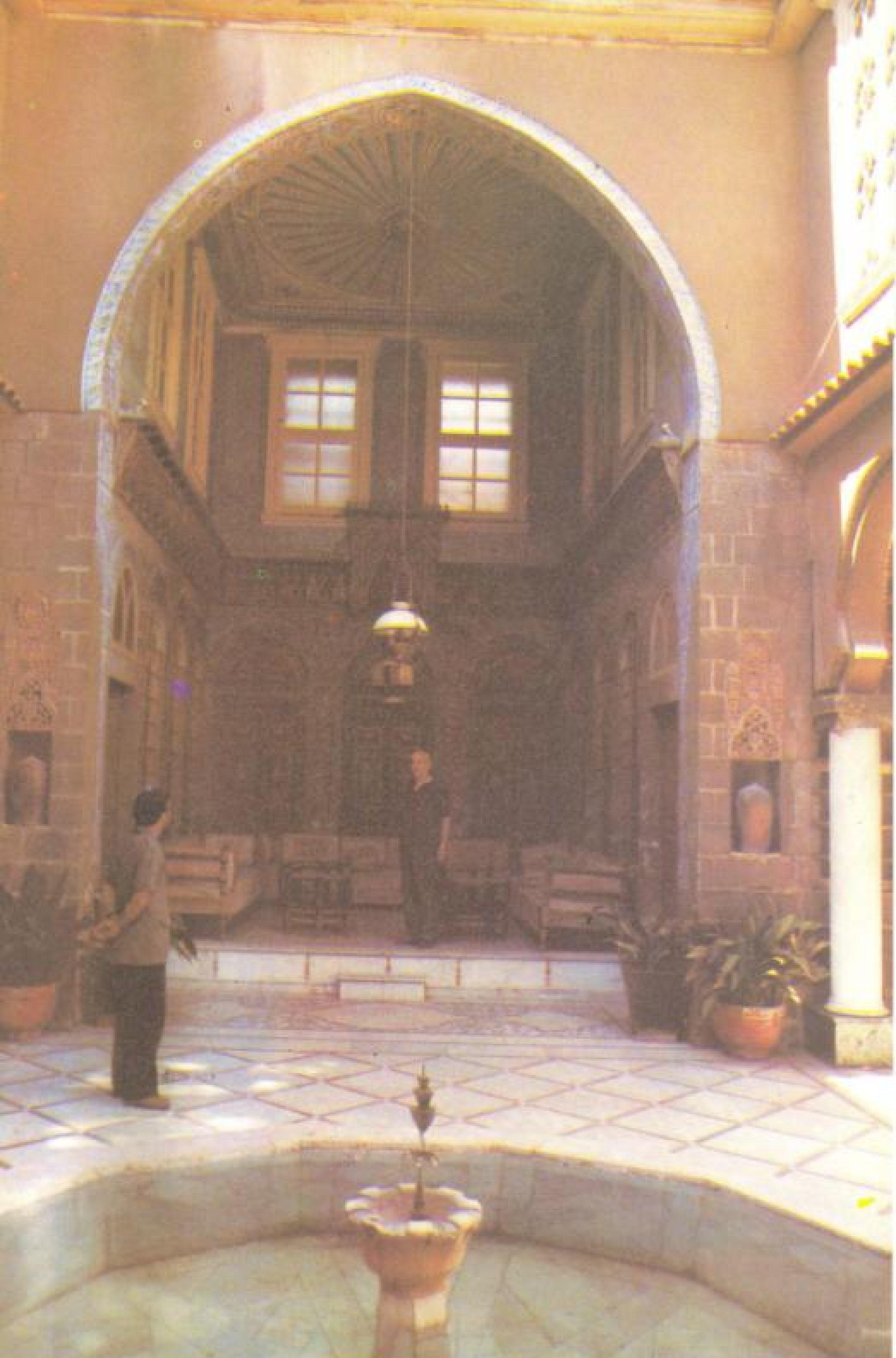
عندما لم يكن مألوفا ما يعرفه الناس اليوم من الاستحمام في المنازل ، بل تقتصر الحمامات الخاصة على بيوت الحكام والامراء ، وينقل احمد حلمي العلاف في كتابه دمشق في مطلع القرن العشرين صورة معبرة عن مكانة الحمام في الحياة الاجتماعية يقول : « تدعو ام العروس اقاربها واقارب العريس الى الحمام ، وتأخذ الحمام كله لحسابها ، لا يدخله سوى المدعوين من اقارب الزوجين ، ويقيم فيه الجميع (السماط) ، وهو طعام خاص لكافة المستحمات ، حتى اذا كان العصر ، خرجت العروس وحولها الجميع ترتفع اصواتهن بالزغاريد حتى دار ابيها ، بعد ان يعد اهل العروس من القريبات والصديقات للعروس مرتفعا تجلس عليه ، وتأتي « الماشطة » ترجل شعرها وتشبكه بامشاط مختلفة اللون والشكل خاصة بالعروس ، وكلها مزركشة بالاحجار الكريمة ، ثم « تحفف » وجهها ويديها ورجليها ، وتضع عليها المساحيق والعطور ، ثم تأتي بدهن اسود تلون به حاجبي العروس ، ثم تضفي على وجهها مسحوقا ذراته لامعه يسمى (عرق الستات) ، فاذا انتهت مهمة الماشطة تقدمت الخياطة فالبستها ، ووضعوا عليها ستارا شفافا وامروها ان لاتتحرك ولا تنظر الى اطرافها ولا تبتسم ..!

اما العريس فبدوره يستأجر الحمام لحسابه ويذهب اليه مع ذويه واصدقائه ، ويستدعى الحلاق فيصلح شأنه ويعطيه « حلوان » حلاقة العريس .. » ويمضي يروي المناسبات المتعددة التي يشهدها حمام ذلك الزمان ، وقد استمر الحمام يقوم بوظيفته كملتقى اجتماعي في المناسبات المختلفة حتى عهد قريب .

وقد كان آخر احصاء لحمامات دمشق عام ١٩٤٠ يصل الى سبعين حماما ، على ما ذكر المهندس الفرنسي ايكوشار ، بعد ان الف كتابا من جزأين عن حمامات دمشق وعمارتها،وسجلت الاثار تسعة حمامات كمبان اثرية يمنع هدمها ..

الجامع الاموى

وكل دروب دمشق القديمه تقود الى الجامع الاموى ،



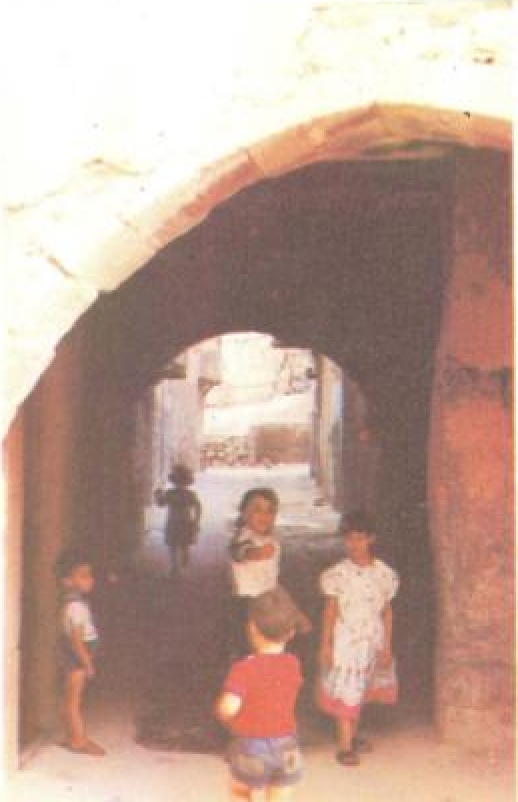


الصناديق الخشبية بزخارفها والتي تزين اغلب بيوت دمشق القديمة .

لقطة من بيت النعسان احد البيوت الدمشقية ، وتظهر النافورة والنوافذ واحدى القاعات وتظهر روعة الصنعة ودقة الزخرف .



احد الابواب المطعمة بالصدف



عدد من الاطفال في ازقة حي الميدان بطابعه المميز .

فيها يلاحقك التاريخ اينما ذهبت ، واهم اثر اموى ، هو المسجد الجامع الذى تجولنا فيه ، والذى ينقلك مشهده الى لوحة تتزاحم فيها جحافل الفاتحين ، وقوافل التجار والبنائين ، وحلقات العلماء العرب والمفكرين والشعراء ..

وللعرب قول مشهور : لاشيء ابقى ذكرا من البناء ، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكرا .. »

والمسجد الاموى اثر باق ، يمثل التعبير الفني والحضارى عن دمشق الاموية ، يقودنى اليه طريق قديم ، يضيق ويحن ويزدحم بمرور الاعوام ، اقف وجها لوجه امام علامة تاريخية هامة ..

وفي هذه البقعة الصغيرة التي لا تتجاوز مساحتها ٢٠٠ ياردة ، توجد آثار ، ثلاثة عصور ، وثلاث حضارات تاريخية متميزة ، ما تبقى من معبد جوبيتر والمسجد الاموى وضريح يوحنا المعمدان ..

أدخل الى المسجد الاموى ، انتقل من صخب المدينة الى صمت عميق ، لا يسمع فيه سوى ايقاع وبلاغة والوان عمارة المسجد الاموى ، ابواب المسجد الضخمة كأنها ابواب التاريخ ،اول ما يشد انتباهك عجلة خشبية كبيرة من العصر العثماني في باحة المسجد ..

ها هو المسجد الاموى الذى ابقى عليه الزمن في حالة جيدة ، وهذه هي نقطة البداية لمعظم التطورات المعمارية الاسلامية اللاحقة ، انتقل نمطه الى جميع ارجاء العالم الاسلامي .

وهو شقيق المسجد الاقصى ومسجد قبة الصخرة في القدس ، وتمتد تأثيرات عمارته الى المساجد في رحلة طويلة خلال القرون الأربعة عشر الماضية ، من الصين وحتى المحيط الاطلسي ، ويأتي هذا المسجد بعد مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس من حيث المكانة التاريخية ، وقد اقيم في العهد الاموى جامع سيدى عقبة في القيروان وجامع الزيتونة في تونس ، ويتكامل الجامع الاموى في دمشق مع جامع قرطبة في الاندلس مع جامع ابن طولون وجامع الازهر في مصر ..

واهم ما يميز الجامع الاموى تلك اللوحات التي رسمها الفنان العربي فوق جدرانه وعلى اعمدته ، وهي لوحات من الفسيفساء تمثل القرى والمدن التي تحف بها الاشجار والرياض والانهار ، والتي كانت تغطي سائر جدران الجامع واقواسه ، وما بقي منها ثروة فنية كبيرة ، هذا الفن الذى ولد وسط النهار وازدهر تحت انظار سكان دمشق ، واعتمد على مصادر جديدة للابداع ، واستمد إيحاءه من عالم النبات ، وعالم الكائنات الحيه ، وعالم الاشكال الهندسية ، وعالم الحرف الذى كتب به القرآن الكريم ..

وتعددت النظريات حول لوحات المسجد الاموى ، فبعضها يقول ، انها مشاهد من مدينة دمشق على مر العصور ، والبعض يرى انها تمثل مشاهد النعيم كما جاءت في القرآن ، فقد صور الفنان العربي القصور التي تجرى من تحتها الانهار ، ونظرية ثالثة تذهب الى انها تسجيل عدد من المدن والاحداث التاريخية كما يراها اهل ذلك الزمان . وتمضي هذه النظرية قائلة ان اللوحة في الرواق الغربي تصور احداث انطاكية ، واخرى تنقل ما شهدته القسطنطينية ، والثالثة تصور القدس ومبانيها وشوارعها واسوارها ، ولوحة هامة فوق برج تراكمت عليه مراحل التاريخ المتعددة ..

وتظهر هذه الرسوم مذهبة ومرصعة بالاحجار الكريمة ، وقد ترك لنا العالم الجغرافي المقدسي وصفا لتلك اللوحات التي لم تقو على مغالبة الزمن ، وكان احد الحكام قد سترها بطلاء من طين ، وبقيت محجوبة الى ان كشف عنها عام ١٩٢٨ ، وقد طليت عندما تغلبت النظرة المتخلفة للفن والتي صاحبت عصور الانحطاط والتدهور في التاريخ العربي .. !

اضافات للعمارة العربية

وقد ابتكر هذا الجامع العديد من العلامات التي اصبحت تميز العمارة العربية ، العقود التي تشبه حدوة الفرس محمولة على الدعائم والاعمدة والتي تصل الى مائة نافذة محيطه بالصحن ، ـ نافذتان داخل كل قوس ، والمآذن والمحاريب ، ووحدات النقش والزخرف .. والجامع بكامله يتجه نحو القبلة ، ويحتل قسمه الشمالى صحن مكشوف عليه قبتان جميلتا العمد والتيجان ، ووسط المصلى تقطع اروقته الثلاثة رواق مرتفع اطلق عليه اسم « النسر » تشكل القبة رأسه ، والرواق القاطع جسمه ، والأروقة عن يمين وشمال جناحيه ، وتعرف هذه القبة بقبة النصر ..

ووسط المصلى بناء صغير هو ضريح النبي يحيى بن زكريا ـ يوحنا المعمدان ، والذى ايدت الروايات التاريخية وجود رأسه مدفونا في هذا المكان من الجامع ..

والواقف في باحة المسجد الاموى تتلاحق امامه الصور التاريخية ، ومن هذه الصور التي حفظتها ذاكرتي ، موكب موسى بن نصير بعد انتصاره في

الاندلس ، ذلك الموكب الذي احتفلت به دمشق ، فقد كان يضم اربعمائة من افراد العائلات الحاكمة القوطية ، تزين رؤوسهم التيجان ، وتطوق خصورهم الاحزمة الذهبية ، وفي اثرهم جموع الاسرى يحملون نفائس الغنائم ..

وشهد المسجد الاموي يوما مشهودا ، فلم يسبق ان شوهد مثل العدد من امراء الغرب والاسرى الاوربيين ذوى الشعور الصهباء ، « وتلك الايام نداولها بين الناس » .

تطرح عمارة المسجد الاموي قضية ، كانت موضع بحث لدى المستشرقين ، وهي محاولة التأكيد على ان كل اضافة فنية تمتد الى مدارس الفن التي سبقتها ، فهل هي تعود الى الفن البيزنطي او الساساني ، وكأن لسان حال المستشرقين يقول : كيف يتحول عرب الصحراء الى اعظم بنائين في عصرهم ..؟ ويستبعدون امكانية خلق آراء هندسية ذات مفاهيم فنية دقيقة على العرب ..!

وقد كان من العسير على اغلبهم ادراك الطاقة الحضارية التي جاء بها الاسلام ، والتي جعلت الفنان العربي قادرا على امتصاص كل ما سبقه ، وابداع اشكال فنية جديدة تتفق مع القيم الجديدة والحاجات المتجددة ، وان هذه القدرة انعكست على الفنون وعلى غيرها من نواحي الحياة ..

هل معنى ذلك صحة الرأى الاخر الذي ينفي عن الفن العربي اي تأثيرات خارجية ..؟

على العكس تماما ، فمعيار ازدهار الحضارة وما تبدعه من فنون يقاس بمدى قدرتها على التفاعل الخلاق مع ما سبقها ، التعامل المصحوب بالقدرة على الانتقاء والهضم ..

ان هذا ما ينطق به « اول نجاح معماري في الاسلام » ، فقد كان جديدا تكرار وحدات فنية بغير نهاية ، وابتكار اشكال هندسية متلاحقة توحي بحياة الصحراء ، ورتابتها ، ترى في الاقواس والاعمدة والقباب شبها قويا مع تقوس النخيل في الصحراء ، واطراد النسق الايقاعي في الزخرف بالنسبة للعين الشرقية مثل اللحن للاذن الغربية ، فهذا الفن القائم في المسجد الاموي احد نتائج التفاعل بين عقيدة ونظام حياة ..

ماذا بقي من الامويين ..؟

اخذت ابحث في دمشق القديمة ، في طرقاتها وبين اثارها ، وفي بطون مكتباتها عن المجد التاريخي الذي عاشته يوم كانت عاصمة لأقوى دولة في عصرها ، تلك الدولة التي قامت بعد الانتقال بالعرب من الوضع القبلي الى الدولة الواحدة ، والتي حملت المضمون الحضاري والانساني الذي جاء به الاسلام ، المرحلة التي عاشت انتقال الرسالة من الثورة الى الدولة ..

ودمشق كانت ايام الامويين اجمل مدن العالم ، وحاضرة العالم الاسلامي ، وكانت قبل الاسلام ، مدينة مزدهرة ، ومقرا للحاكم الروماني ، وقامت عاصمة بني امية على انقاض الدولتين الساسانية والبيزنطية ، وكانت فترة حكم دمشق فترة التجربة الكبرى في التاريخ العربي ، وعند قيامها كانت عربية لم يدخلها بعد جماعات قومية متعددة ، يوم ان كان الاسلام يطمح في ان يوحد العالم كله تحت رايته ...

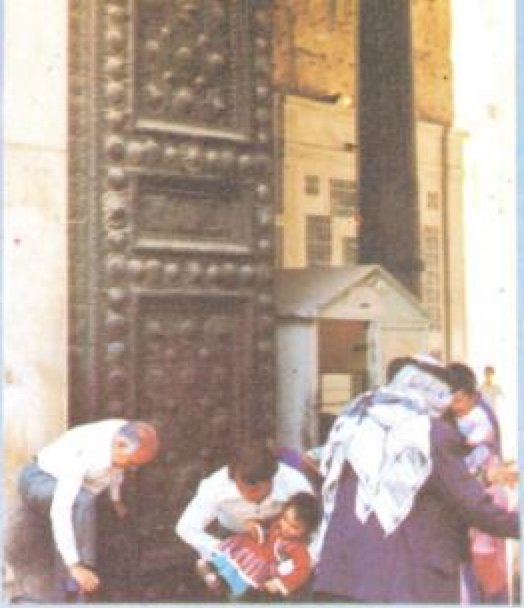
واقصى طموح هذا الاستطلاع ان يقدم قراءة عصرية لهذه الحقبة التاريخية ، كما يتناولها « الرحالة » وليس كما يتناولها المؤرخون ، ساعيا لربط الحاضر بذلك الجزء من الماضي الذي ما زال حيا ينبض ، نرى بعض وقائعه بنظرة القرن الخامس عشر الهجرى ..

وجاذبية هذه القراءة تأتي من ان العديد من الظواهر السائده اليوم تمتد الى هذه الفترة التاريخية ، وان العديد من القضايا التي اثيرت والصراعات التي نشبت مازالت مفتوحة ..! وكثيرا ما يوجد بين ما يجرى من احداث وبين هذه التي يدور رحاها اليوم خيط يمتد على طول القرون الاربعة عشر الماضية .

اذن فهي قراءة عصرية في ملف قديم لم يغلق بعد ..

قراءة تلتقط من الدراسات والمخطوطات « العبرة » ، من وسط الصراع الذي تشابكت فيه الافكار مع السيوف والجياد في نسيج واحد ، عندما اصطدمت وتصارعت شخصيات كبيرة عملاقة ، كل منها له دوره ومكانه الخاص في فجر الرسالة الاسلامية ، عندما كان جانب من هذه الاحداث يجرى في دمشق ، بل وتتناول هذه القراءة شخصيات اضفى عليها دورها السابق على الصراع قداسة خاصة ، ورغم كل هذه المكانة فقد كان على اهل ذلك الزمان ، ان يحددوا اختيارات شاقة ومواقف حاسمة ..

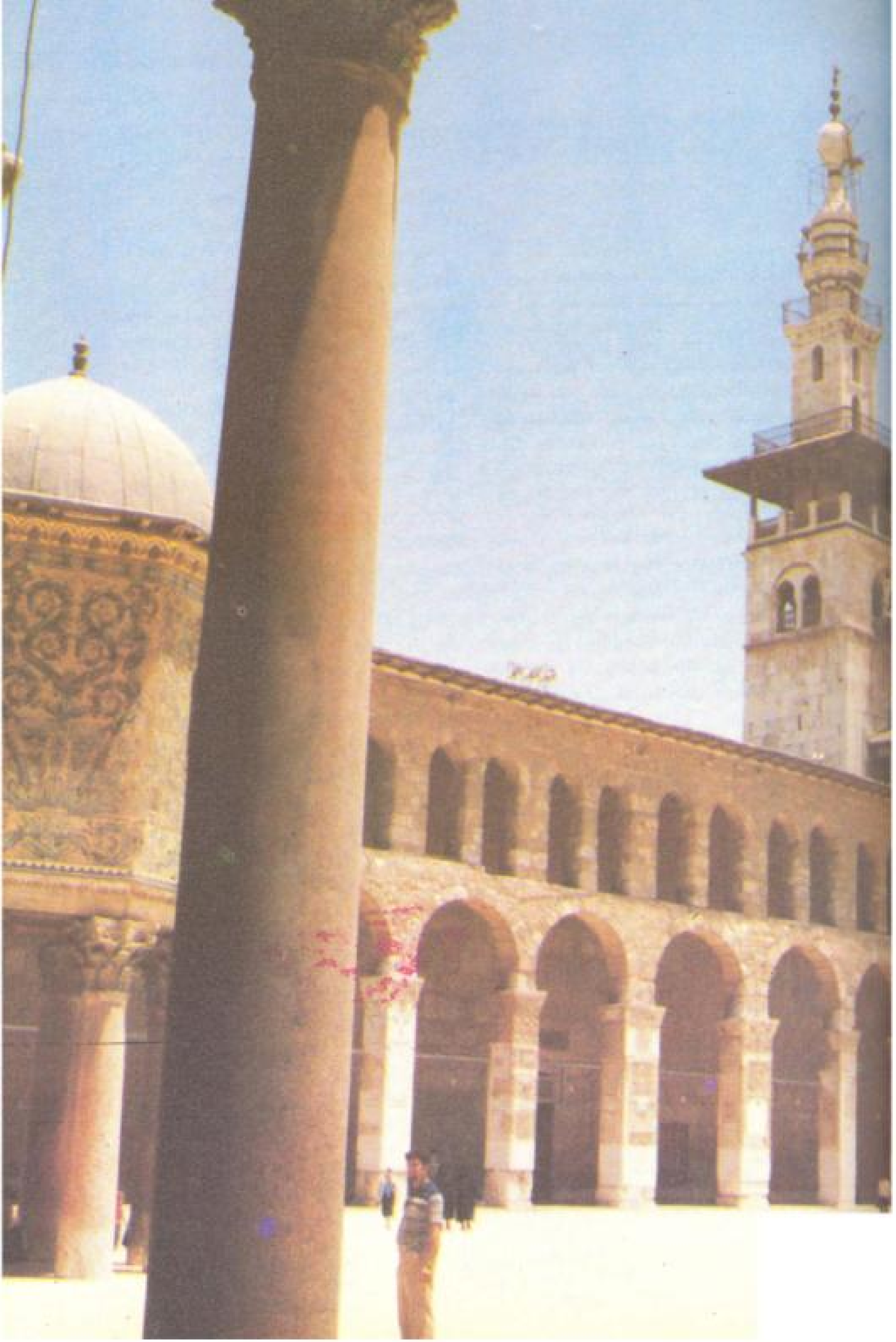
وامامنا مصدران لهذه الفترة ، احدهما ما رواه المؤرخون ، والاخر ما كتبه الادباء من مؤلفات مثل



باب الجامع الاموى الذي صنع من النحاس المضغوط وحلي بالمسامير الزخرفية .

لقطة للجامع الاموى وتظهر مئذنة العروس والرواق الشمالي وجزء من اللوحات الجدارية





كتاب الاغاني ، والعقد الفريد ، الذي ينقل تفاصيل الحياة الاجتماعية لهذه الحقبة التاريخية ..

ولم اكن ابحث عن احكام اخلاقية ، او اتبرع بشهادات بالبراءة ، بل ابحث في موازين القوى وتطور الاحداث في سياقها التاريخي ..

وتزخر الكتابات القديمة بأحكام بالادانة على قتلة حفيد رسول الله ، وهؤلاء الذين ضربوا الكعبة الشريفة بالمنجنيق ، واخرى كتبت في العصر العباسي متأثرة باهواء الخلفاء العباسيين ..

ولم يعد يجدي ـ اليوم ـ احكام البراءة او الادانة ، ولم يعد يجدي تأجج صراعات مضى عليها كل هذه السنوات ، والتي انقسم خلالها المسلمون الى سنة وشيعة وخوارج ومرجئة وغيرها من المذاهب التي مازالت قائمة !

ولقد كان لانتقال عاصمة الدولة الاسلامية من المدينة الى الكوفة ، ثم من الكوفة الى دمشق ارتباط وثيق بهذه الاحداث ، فالمدن مثل الانهار ، كم تجري فيها من احداث ؟ ، فهل يكفي اتساع دولة الاسلام سببا لانتقال العاصمة وتحرك الوسط الجغرافي ؟.. ان السياق التاريخي يحكي القصة ..

فبعد ان بويع علي بن ابي طالب بالخلافة نقل عاصمة الخلافة وبيت المال من المدينة الى الكوفة ، وخلال « الفتنة الكبرى » تنازعت العاصمة مراكز ثلاثة :

احدها : دمشق وبيت المقدس ، والثاني ، الكوفة والبصرة ، والثالث ، مكة والمدينة ، وكانت اقلهم حظا مكة والمدينة ، عندما بدا وكأن الجزيرة العربية قدمت الى الانسانية رسالة ونبيا وجيشا مقاتلا ، ثم عادت تلعب دورا معنويا باحتضان مكة والمدينة المقدسات الاسلامية ، وعددا متزايدا من العلماء والفقهاء والصحابة وابنائهم ..

واستمر الصراع بين الكوفة وبين دمشق ، حتى تولى معاوية الخلافة عام ٤١ هـ ـ ٦٦١م في بيت المقدس ، ونقلت عاصمة الخلافة الى دمشق ، ولم تصبح القدس العاصمة لقربها من البادية اما دمشق فتوفرت لها الشروط التي منها بعدها عن البحر ، عندما لم يكن العرب قد القوه بعد ، ووقوعها بين الحضر والصحراء ..

واختار معاوية مقر حكمه بين عرب الشام ، بعد ان تولاها عشرين سنة عندما عينه عمر واليا عليها .. وبعد ان انتزع عمرو بن العاص مصر من شيعة علي ، واستمر الحجاز فاترا في علاقته بالخليفة الجديد ، اما العراق فوقف الى جانب الحسن بن علي ..

وانتقل مركز العالم الاسلامي بالفعل الى خارج الجزيرة العربية ، واصبحت سوريا قاعدة الدولة ، واعتبر معاوية وارث مجدها القديم ..

معاوية في الميزان !

من يكتب عن دمشق لابد له ان يتوقف عند شخصية معاوية ، فكانت شخصيته نقطة تحول في التاريخ العربي كله ، وارتبط اسمه بدمشق ، ومازال قبره عند الباب الصغير جنوب دمشق العتيقة ..

وقد استمر معاوية مثل سواه من الشخصيات التاريخيه محل خلاف شديد على مر العصور ، وكان توليه الخلافة حدثا بالغ الخطورة ، وانظر في العبارة التي جاءت في تاريخ الخلفاء للسيوطي عن الامام ابن حنبل انه سأل اباه عن علي ومعاوية ، فقال : « اعلم ان عليا كان كثير الاعداء ، ففتش له أعداؤه عيبا فلم يجدوا ، فجاءوا الى رجل قد حاربه وقاتله فاطروه كيدا منهم له ..!! وهي عبارة تكشف ذلك الصراع التاريخي الذي بدأه معاوية بحق الثأر من قتلة عثمان ، ووصل به الى الحكم عن طريق خدعة التحكيم ، وبحجة انه ابن عم الخليفة المقتول ، وصاحب الحق في الثأر لمقتله ..!

هذا ، بعد ان ظل معاوية واليا على الشام عشرين عاما ، فلم يعزله عمر على كثرة ما كان يغير العمال ، ثم جاء عثمان وغير عمال عمر جميعا الا معاوية ، وكان قد ورث عن ابي سفيان قوته وقسوته وكيده ودهاءه ومرونته ..

وولد معاوية بمكة قبل البعثة النبوية بخمس سنين ، واسلم يوم فتح مكة مع ابيه واخيه يزيد وامه هند ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنه ..

ووصفه معاصروه بانه « ابيض جميل طويل احلج ، وقد اصابته لوقة في آخر عمره فكان يستر وجهه ، وعرف عنه السمنة وكبر العجزين ، ولم يزل يفرط في مأكله من اللحوم والحلوى والفاكهة حتى ترهل وعجز عن القيام طويلا ، فكان يخطب على المنبر وهو جالس ، وكان اول من جلس في خطبة منبرية ..

اما عن صفاته فقد لخصها عباس العقاد في عبارةواحدة : « راس الدولة الاموية كان رجلا قديرا ، ولكنه لم يكن بالرجل العظيم .. » وعلى العكس يضعه

ابن خلدون في صف الخلفاء الراشدين ويقدم له المعاذير في اسناد ولاية العهد الى ابنه يزيد ، في حين يشكك عدد من المؤرخين في اسلامية دولته ، بعد ان قامت على الغصب والقهر ..

وتتوالى الاحكام ، فيقول عنه صاحب الفخري : « كان معاوية عاقلا في دنياه ، لبيبا ، عالما ، حليا ، ملكا ، قويا ، جيد السياسة ، حسن التدبير لامور الدنيا عاقلا حكيا فصيحا ، بليغا ، يحلم في موضع الحلم ، ويشتد في موضع الشدة ، الا ان الحلم كان اغلب عليه ، وكان كريما باذلا للمال محبا للرياسه شغوفا بها .. »

ويحدد المستشرق نيكلسون معالم شخصيته بقوله : « كان سياسيا محنكا ، لا يقل في مضمار السياسة عن ريشيليو ، وقد مكنته معرفته التامة بالطبائع البشرية من ان يجذب اليه الرجال ذوي الاراء المعتدلة في جميع القوى المعارضة .. »

اما اوسبرن فيقسو عليه في الحكم ، بقوله : « كان اول الخلفاء الامويين داهية مذبذبا ، قاسي القلب ، لا يحجم عن اية جريمة يكون اقترافها ضروريا لتأمين سلطانه ، وكان القتل طريقته المعتادة في التخلص من اعدائه فهو الذي حرض على دس السم لحفيد الرسول ، وعلى قتل الاشتر النخعي مالك بن الحارث ، احد قواد على الابطال بالطريقه ذاتها ..

ولكي يضمن انتقال الخلافة من بعده الى ابنه يزيد لم يتردد في ان ينكث بالعهد الذي قطعه للحسين بن علي ، ومع ذلك فقد كان بعيد النظر ، حكم دولة المسلمين ، وبقيت الخلافة في عائلته قرابة تسعين سنة .. »

ماله وما عليه

ويبقى السؤال الذي تردد على طول التاريخ ، وهو هل يعتبر العهد الأموي ضمن دولة الاسلام ام انه خروج عليها ..؟

وكانت ايسر الاجابات ان مجرد تحول الحكم الى الوراثة هو خروج عن دولة الاسلام . وهي نظرة من يرى الامور بين الابيض والاسود ، ويتجاهل مشات الالوان بينها ، فبعد ان مضى عصر النبوة والخلفاء الراشدين ، ومع اتساع الدولة الاسلامية ودخول جماعات مختلفة قومية ودينية ، انتقل الاسلام من مرحلة الثورة الى مرحلة الدولة ، وعاد الى الظهور من جديد الصراع الانساني بين المثل العليا والطموحات البشرية !

وفي حياة معاوية دليل على ما أقول ، فهي حياة تزخر بماله وما عليه :

■ في عهده شهدت الدولة الاموية الموجة الثانية من الفتوحات ، والتي اعقبت الموجة الاولى في عهد الخلفاء الراشدين ، وجاءت بعد ذلك الموجة الثالثة في ايام العثمانيين ..

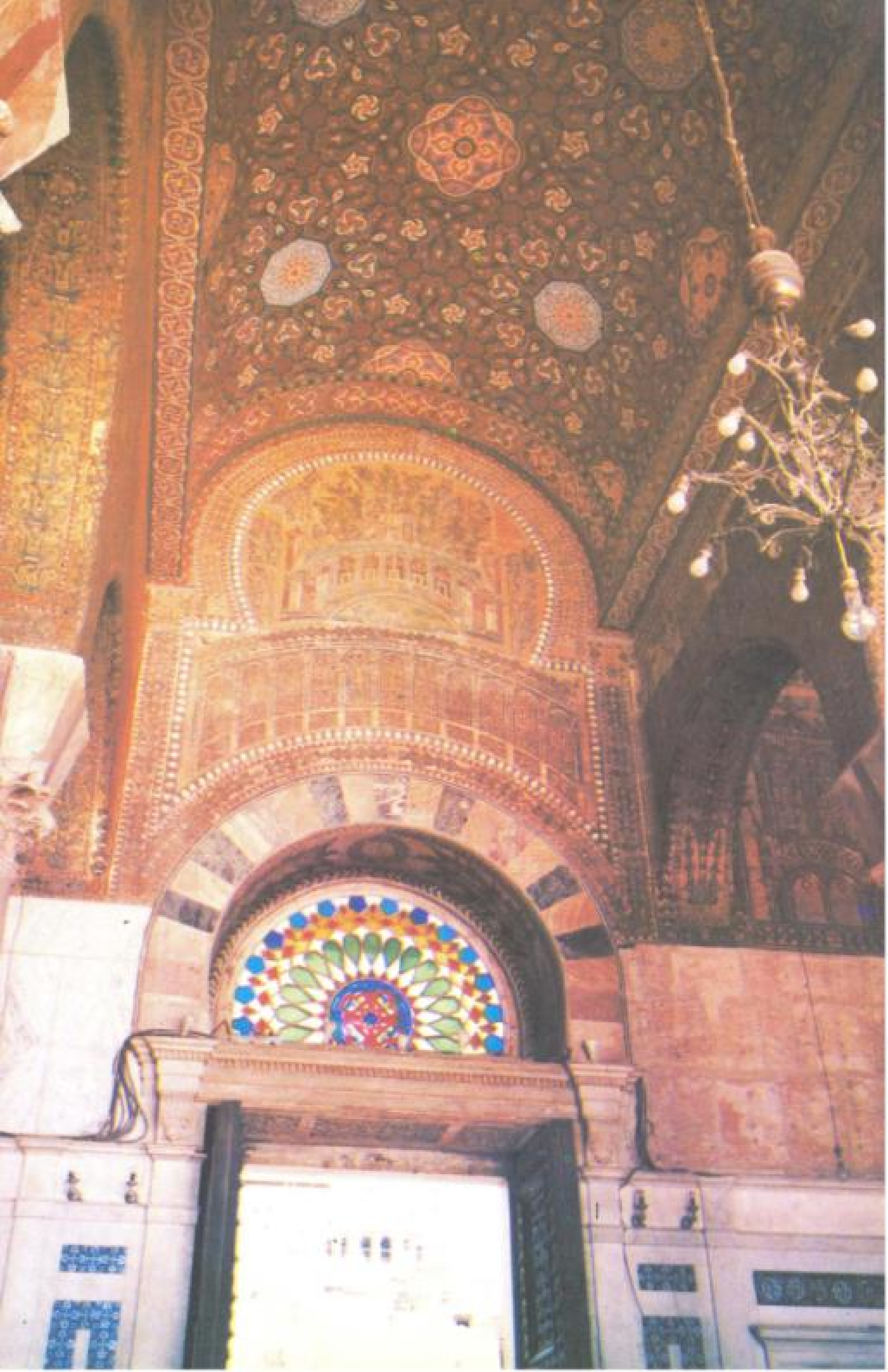
وقد قام معاوية طوال مدة حكمه بمحاربة الروم في البر والبحر في همة وبلا انقطاع ، مما لانجده عند من جاء بعده ، وقد طرق عاصمة اعدائه « القسطنطينية » مرتين .

■ وفي عهده وخلال حكم الامويين ، تم وضع الاطار العام لمجتمع عربي اسلامي ، وظهر تفكير تشريعي فقهي اسلامي ، وظهرت وظيفة المحتسب الذي يوكل اليه مراعاة الاخلاق والسلوك العام ، وقدم الاسلام للعالم تنظيا جديدا لحياة الناس ، وتبقى دائما فجوة تتسع او تضيق بين النظرية والممارسة الفعلية .

■ وانتعش في عهده كتب السير والتاريخ ، فكان معاوية يشغف الى سماع سير الابطال وتاريخ الشعوب ، ويروي المسعودي عن معاوية ، انه كان يستمر الى ثلث الليل في اخبار العرب وايامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من اخبار الامم السالفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم ويحضر الدفاتر التي بها سير الملوك واخبارها ، والحروب والمكايد ، ويقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الاخبار والسير والاثار وانواع السياسات ..

وقد استخدم قصاصا من اقاصي اليمن هو عبيد الجرهمي ليحدثه باخبار السابقين ، والذي الف كتاب « الملوك واخبار الماضين .. »

■ استطاع معاوية ، بعطاياه ومواهبه ، ان يكسب العديد من خصومه السابقين ، وكان يجادلهم ويسمع بصبر كلامهم القاسي ، وكان يقول : يابني اميه ، فارقوا قريشا بالحلم ، فوالله لقد كنت القى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتما واوسعه حلما ، فارجع وهو لي صديق ، ان استنجدته انجدني ، واثور به فيثور معي ، وما وضع الحلم عن شريف شرفه . وفي العقد الفريد .. قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة (٤٠ هـ) فدخل دار عثمان بن عفان ، فصاحت عائشة ابنة عثمان وبكت ونادت اباها ، فقال معاوية : يابنة اخي ، ان الناس







الحقت الزلازل والحرائق على مر الزمان اضرارا فـ
بدمشق ، وبقيت هذه الفسيفساء تكسو الجدرا

لوحة جدارية من الفن الاموى عاشت مع الزمن تنقل
الينا روعة الفن العربي



السقوف واللوحات الجدارية والزجاج الملون والزخرف الذي يظهر من داخل المسجد الاموى .

اعطونا طاعة واعطيناهم امانا ، واظهرنا لهم حلما تحت غضب ، واظهروا لنا ذلا تحته حقد ، ومع كل انسان سيفه ، ويرى موضع اصحابه ، فان نكثناهم نكثوا بنا ، ولا ندرى اعلينا تكون ام لنا ، ولان تكوني ابنة عم امير المؤمنين خير من تكوني امرأة من عرض الناس .. »

■ وكان من عادات معاوية ان يجتمع بعد صلاة الجمعة في المسجد الى رؤوس القوم يباحثهم من على المنبر ، الذي كان بالنسبة اليه منصة للحكم ..

وكانت ممارسات معاوية السياسية درسا في الحكم والسياسة ، يفوق ما جاء في كتاب « الامير » لميكيافيلي ، وكان لايلجأ الى القوة الا كارها ، ولم تظهر في الدولة فتنة الا كانت جرثومتها سياسة التفرقة التي اتبعها ، وكان لايطيق ان يرى رجلين ذوى خطر على وفاق ، ويقول : « اني لاحول بين الناس وبين السنتهم مالم يحولوا بيننا وبين ملكنا » ، وايامه شهد المسلمون مجموعة من التغيرات السياسية العاصفة ، وخرج الامر من ورع الخلافه الى ابهة الملك ، وكان الخلاف حول ظاهرة السلطة وفلسفة الحكم ، اول خلاف ، واعظم خلاف ، واطول خلاف ..

وسانده في سياساته فلسفة القضاء والقدر لدعم نظريته السياسية ، وكان ظهور الفكر الجبري تبريرا لانتقال السلطة ، وتغير طبيعتها ، اذ كان معاوية يقول : « ولو لم يرني ربي اهلا لهذا الامر ماتركني واياه ، ولو كره الله ما نحن فيه لغيره ، وانا خازن من خزان الله تعالى ، اعطى من اعطاه الله ، وامنع من منعه الله ، ولو كره الله امرا لغيره ..!!

وجاء الرد من العالم الفطن حسن البصري (١١٠هـ ٧٢٨م) بعد ذلك في عهد عبدالملك بن مروان ، والذي انكر تعارض القدر مع حرية الانسان ، واحتج على ظلم الولاة الذين يبررون أعمالهم بالقدر .. !

وترك لنا التاريخ حكما على معاوية من اولئك الذين اسقطوا الدولة الامويه ، من العباسيين ، فبعد القضاء على الاحياء من البيت الاموى ، في مذبحة تشبه مذبحة المماليك ، عندما دعوا الى مأدبة صلح مزعوم ،واجهز خلالها عليهم جميعا ، ولم يسلم حتى الاموات من الخلفاء السابقين ، فنبشت قبورهم ، وجلد بعضهم قصاصا من ثأر قديم ..

ومع كل هذا العنف ، وفي ظل هذه العاصفه الهوجاء ، لم يمس كل من قبر معاوية بن ابى سفيان ، والخليفة العادل عمر بن عبد العزيز..

المتحف المسكون

تعود الى دمشق ، تعود الى المتحف المسكون ، الى البقعة التاريخية التي يحيطها السور في العديد من اجزائها ، ويروي جانبا من تاريخ المدينة العريقة ، والتي تكملها ابوابها التسعة والتي لم يبق منها سوى سبعة ابواب ليس من بينها باب النصر ..!

بدأت جولتي مع السور عند باب توما ، الذي يرتفع عنده السور باحجاره الضخمة ويصل الى ما يزيد على خمسة امتار ، ويختلط السور في العديد من اجزائه بمباني المدينة ، وعلى يمين باب توما تشاهد احد احياء دمشق المتواضعة ، والذي رأيته من أجمل مناطق دمشق ، بيوت دمشق القديمة تطل على نهر بردي في محاذاة السور ، ولكل بيت جسر خاص يصله بالطريق ، ويتلوى السور ويتعرج مع النهر في منظر خلاب ، يختلط فيه الجمال بالتاريخ .. وعلى هذا الجانب من السور كان النهر يستخدم كخندق للدفاع عن المدينة .. وتتبعت السور ما وسعني ذلك ، بعد ان تغيرت العديد من اجزائه ، وقد حمى نهر بردي هذا الجانب من السور ..

وعاش السور مع دمشق ايام سعدها وايام شقائها ، فتهدمت اجزاء منه عام ١٣٢ هـ عند هجوم العباسيين على المدينة ، واعيد تحصينه في عهد نور الدين عام ٥٤٩ هـ ، واقيمت له ابواب لم تكن قائمة مثل باب الفرج وباب النصر وباب السلام ، واقيم فوقه ابراج دائرية ، وبقيت من ابراجه برج نور الدين الواقع جنوب باب الجابية في خان السنانية ، وبرج الملك الصالح ايوب الواقع شرق باب توما ، واستفاد المجددون من ابوابه القديمة فاصلحوها واستعملوا بعضها ، ومنها البابان اللذان يصلان الى طرفي الشارع المستقيم الذى يقطع محور دمشق ويصل الباب الشرقي بالباب الغربي ..واعيد ترميم السور مع توالي العصور .

وقال لي محافظ دمشق ، انه تم تشكيل هيئة فنية جديدة لاعادة ترميم وبناء ماتهدم من السور ..

وتظهر قلعة دمشق شامخة من مواقع متعددة ، وقد تعذر زيارتها بعد ان تحولت من اثر تاريخي الى احد السجون ، وهى تقع في الزاوية الشمالية الغربية من دمشق القديمة ، وتمتد من باب الفرج في السور الشمالي الى محل باب النصر عند مدخل سوق الحميديه ..

وتحكي القلعة حقبة . تاريخية هامة من تاريخ دمشق ، فقد عاصرت مواجهة الغزو الصليبي والمغول ، وفيها اقام نور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس من

حكام مصر والشام ، ومن هذه القلعة قاد صلاح الدين جيوشه الى حطين وانطلق منها الظاهر بيبرس لتطهير البلاد من التتار ، وهل يجوز ان تبقى هذه القلعة التاريخية مجرد « سجن » .. ! ؟ رغم انها مازالت تحتفظ باكثر ابراجها واسوارها ، واقيم محل الخندق بعض اسواق دمشق التي تحجب اكثر معالمها ، وقد اثرت مع محافظ دمشق ضرورة الحفاظ على القلعة كاثر تاريخي هام ، ووعد المحافظ ان تعود القلعه الى مسئولية الاثار ، بعد ان تم اقامة سجن جديد سينقل اليه سجن القلعة ..

كل يوم ثوب جديد ..

ابتعد عن مجال دمشق القديمه ، وادخل الى دمشق الجديدة ، دمشق العمارات الشاهقه والشوارع العريضة ، اجوس في احيائها ، واجلس في فنادقها ، واتجول في اسواقها ..

ودمشق هنا في تغير مستمر ، ولها كل يوم ثوب جديد ، تنمو بسرعة تفوق اى توقع ، ويظهر حزام وراء حزام من الاحياء الجديدة ، ومن علامات تغيرها ، الجسور التي تقام فوق مفارق الطرق المزدحمة ، والمباني الحكوميه الجديده .

اما الاحياء الجديدة والتي تمتد في حي المزة ، وتقيمها جمعيات البناء التعاونية ، وينتقل اليها اثرياء دمشق الجدد ، فيتوفر لها الشوارع العريضة والمتنزهات والمباني الفاخرة ..

وعندما التقيت باحد العائدين الى دمشق والذي قضى عشر سنوات يعمل في الخارج ، وعاد اخيرا ليستقر ويتزوج ، قال لي : « اني لا اكاد اتعرف على دمشق الجديدة ، كل ما الفته تغير ومنذ وصولي الى المطار ، عندما لم اجد مطار المزة القديم ، بل اصبح المطار الجديد يبعد عن دمشق ١٦ كيلو مترا ، ثم هناك ما احدثه التوسع العمراني والتهامه للمنطقة الخصبة من غوطة دمشق كان يمكن ان تمتد الاحياء الجديده نحو الشمال الشرقي لدمشق او على روابي المزة التي تمتد نحو الجنوب الغربي ! . »

واخذني احد ابناء دمشق في جولة بالسياره ، وكانت هذه المرة في الاحياء التي تقع بين دمشق القديمه ، وتلك الاحياء الجديده ، انها الاحياء التي تقف بين القديم والجديد ، ويشتد فيها الحوار بين القديم والجديد ، بدأت الجوله من حى المهاجرين الذى يقوم تحت سفح جبل قاسيون في الطرف الغربي من الصالحيه ، والذى نزله قديما المهاجرون من مسلمي كريت ، واستمر نقطه جذب للاسر الدمشقية الموسرة ، ثم انتقلت الى احياء الجسر وعرنوس والشهداء ، وهذه الاحياء اقامتها الجالية الفرنسية ايام الاستعمار ، وهي تمتد بين الصالحيه ودمشق القديمة ، وقد اقامها الفرنسيون على الطراز الغربي ولكنها لا تخلو من نفحات الطراز الشرقي ..

اما السوق الحديث فقد اقيم في شارع الصالحيه ، والذى فيه احدث الموديلات وكافة المنتجات ، وانتقل الى هذا الشارع المؤسسات الحكومية والتجارية واصبح حي الاعمال ، ويقطع حي الصالحيه عدة شوارع مثل شارع ابو رمانه ، شارع السفارات الاجنبيه . وارستقراطية دمشق التي بدأت تغادره الى الاحياء الجديده ، بعد ازدحامه وانتقال الشركات والاجانب اليه ، حتى يصل شارع الصالحيه الى الاحياء الواقعه على سفوح قاسيون ..

ويمضي مرافقي شارحا .. « في الوقت الذى اقيمت فيه احياء المهاجرين والاكراد على سفوح جبل قاسيون ، ترعرع حي الميدان جنوب دمشق ، والذى تميز بطابعه الديني والتجاري ، واسمه يعود الى ايام الامويين ، فقد كان اسمه قديما « ميدان الحصى » ميدان فسيح لسباق الخيل ، وقد تكون من قدوم مهاجرين عرب من المغاربة في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، هربا من الاستعمار الفرنسي والايطالي ، وقد اقاموا خان المغاربة ، والذى اخذ يمتد طوليا ، ونزل هذا الحي ايضا عدد من تجار نجد ، واقاموا فيه سوق الجمال ، وسكنه ايضا جنود ابراهيم باشا بعد عودته الى مصر عام ١٨٤٠ ، وعرف حيهم بحي المصاروه ..

ويعرف هذا الحي بمواقفه الوطنية ، وقد هدم الفرنسيون جزءا منه عند اشتداد الثورة ، ومازال هذا الحي يحمل طابع القدم والعراقه ، وما زال يجذب ابناء الريف القادمين الى العاصمة ، وجميع حاراته وازقته متشابهة ، ضيقة ومتعرجه ، وينتهي جنوبا عند باب مصر ، الذى كان ينطلق منه المسافرون الى مصر والحجاز ..

اما اذا اتجهت شرقا في الطريق المؤدى الى حلب ، فستقابل حي القصاع ، وهو الحي الذى مازال يقطنه الارمن بالقرب من باب شرقي ..

سكان دمشق

« مدينة دمشق كانت تشبه لوحه من الفسيفساء ،



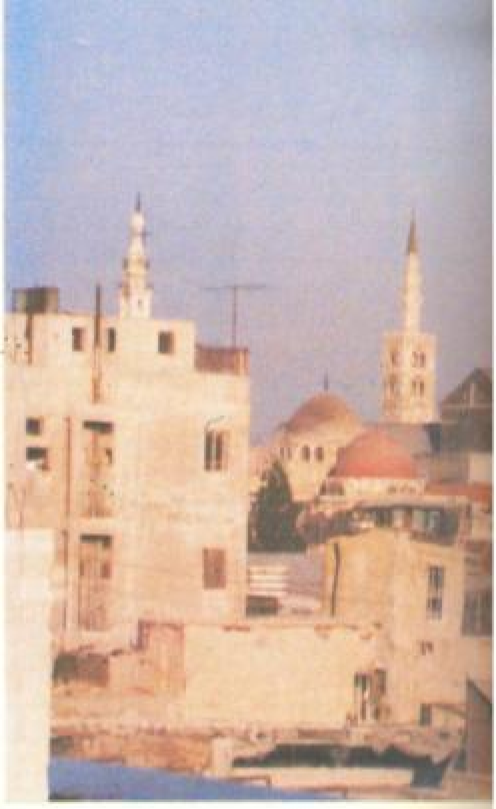
منظر عام تظهر فيه القلعة والمسجد الاموي

لقطة للحياة العربية التي ما زال طعمها قائما في الكثير من احياء دمشق

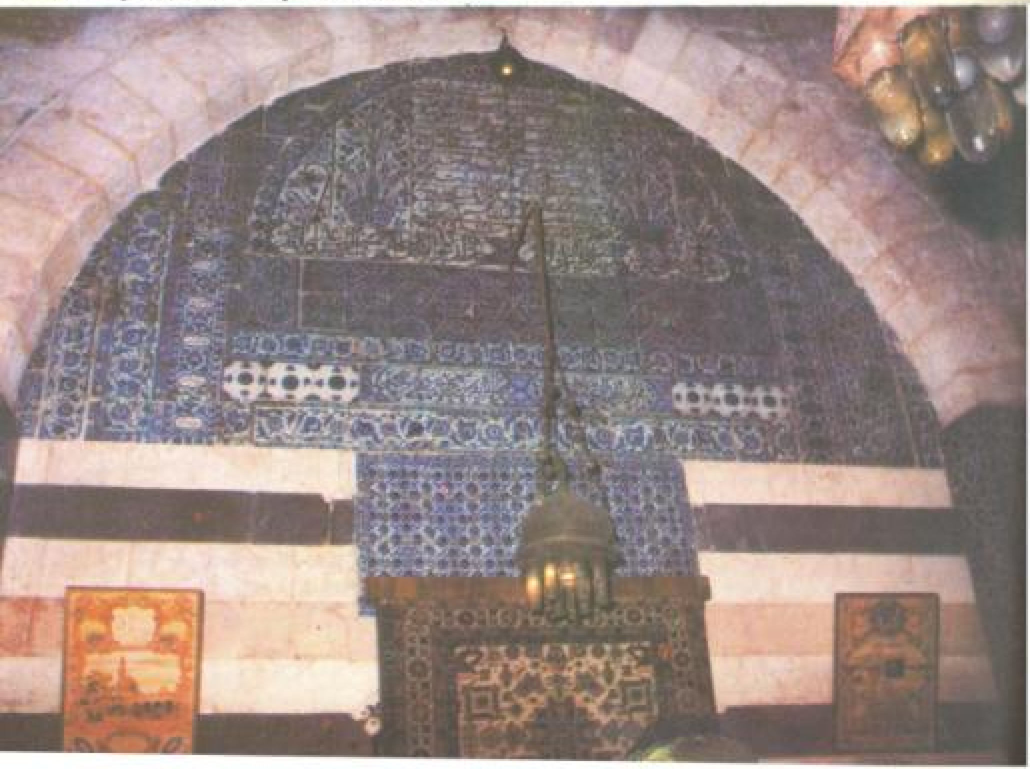


قطعة فنية اخرى من مقبرة صلاح الدين الايوبي ، وتحتضن دمشق كلا من قبر صلاح الدين والظاهر بيبرس





بعض بيوت دمشق التي تطل على نهر بردى في محاذاة السور



تعددت الوانها ، وتنوعت مصادرها ، اما دمشق الجديدة ، فلم تعد تقيم وزنا لهذا التركيب القديم ، بل تصهر المجموعات المختلفة في بوتقه واحدة ..» هذا ما يقول الدكتور صفوت خير ، وهو ما تلحظه عندما تسير في دروبها ، وتسمع من الرواة قصص الاحياء التي يقطنونها ..

ودائما كانت الباديه والريف مناطق طرد بشرية الى دمشق ، يتراكمون في إحياء على اطرافها ، حول نواة من القادمين الاوائل ، فمثلا تركز المسلمون الشيعة في حي الشيعة في محلتي الخراب والجوره ، اما الاسماعيليون فيسكنون في الجزماتيه وزقاق الخشاشه في حي الميدان ، والدروز يسكنون في زقاق التيامنه في حي الميدان ، ويسكن أقليات دينية اخرى في شرق المدينه ، المسيحيون في القصاع وباب توما وباب شرقي ، وفي الجنوب من باب شرقي يقوم حي اليهود .. وكذلك حال الأقليات الاخرى ، فرغم تفرقها في ارجاء المدينة ، لا تزال الاحياء التي سكنتها في الماضي تحمل اسمها الى اليوم ، وهكذا تجد على سفوح جبل قاسيون حي الشركس وحي الأكراد ..!

ومن المبادرات الجاده لعلاج مشاكل العاصمه والحفاظ على طابعها القديم ، وخلق توازن بين القديم والحديث ، قامت جمعية اصدقاء دمشق واسست عام ١٩٧٧ ، وتتكون من عدد من الشخصيات الدمشقيه ، ويتولى رئاستها المهندس صبحي كحاله ، وتضم عدنان الخطيب والدكتور عفيف بهنسي ومحمد جميل وهشام ديار ..

وفي حديث طويل مع أحد اعضاء الجمعية ، قال : تراقب باسي التغيرات السريعة التي تقع في دمشق ، المباني العاليه التي تطاول السحاب ، الفنادق الكبيرة التي تفتح ـ افتتح حديثا فندق المريديان وفندق الشيراتون ـ ، وحمامات السباحه التي انتشرت وارى الحياة العصرية تهدد الحياة ذات الطابع الخاص التي كانت تميز دمشق .. »

ويتم هذا التوسع دون دراسة كافية لاثاره ، وفي ظل فوضى التخطيط ، وتضارب مدارسة ، فمثلا ادخل الفرنسيون الميادين الواسعه والشوارع العريضه ، ثم اخذت دمشق عن النظام الامريكي فكرة فصل منطقة العمل عن منطقة السكن ، ومن النظام الالماني اخذت فكرة فصل مناطق العمل والانتاج الصناعي عن الاسواق ودور السكن ، وبالفعل نقلت الكثير من المصانع الى القابون وباب شرقي ، والذى فات واضعي المخطط العام اهمية الحفاظ على الشخصية الدمشقية الخاصة ، والنتيجة عدم الالتزام بالمخطط العام ، والذى سبق وحدد المنطقة الخضراء ، ولم يلتزم به احد ، وقد وضع عام ١٩٦٨ وساهم في وضعه المهندس العالمي الفرنسي ايكوشار وخبير ياباني هو يون شويا ، ووضع هذا المخطط أخذا في اعتباره التغيرات المتوقعه حتى عام ٢٠٠٠ ، ولكن سرعان ما تغيرت كل اسسه فمثلا بالنسبة لعدد سكان دمشق ، توقع المخطط العام ان يصل عددهم الى مليون ونصف عام ٢٠٠٠ ولكنهم وصلوا عام ١٩٨٠ الى ٢٫٥ مليون نسمه ، يضاف اليهم نصف مليون يدخلون دمشق نهارا للعمل ، اى ضعف تقدير المخطط العام ، ومن ناحية اخرى حدد المخطط العام ، مناطق التوسع العمراني عند اطراف المدينه ، وعلى سفوح الهضاب المحيطه بدمشق ، ولكن الاحياء السكنية التهمت مساحات كبيرة من الارض المزروعه .. »

وكل ما نستطيع ان تفعله في جمعية اصدقاء دمشق ان نلقى المحاضرات ونقدم الدراسات ونخلق الوعي عند محبي دمشق وساكنيها » .

●

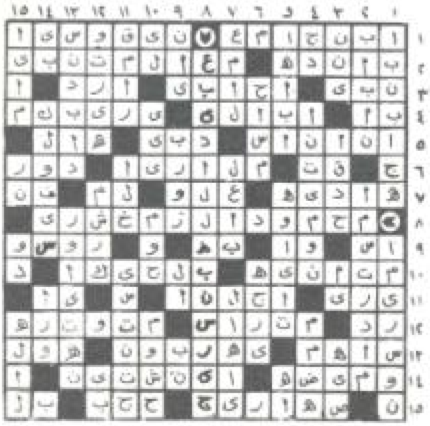
وتلك المشاكل التي تواجهها دمشق هي في الواقع نفس المشاكل التي تعاني منها اغلب العواصم العربية والتي تبدأ من مشاكل الهوية والطراز ومواجهة النمط الغربي الغلاب في تطوير المدن ، الزيادة الكبيرة لسكان العواصم ، والضغط على المرافق والخدمات وما يتبعه من مشاكل التموين والانتقال والمرور والهاتف ، واخيرا الارتفاع المتصل في الاسعار ..

وقال لي محمد السيوفي محافظ دمشق : ان هناك العديد من الحلول لمشاكل دمشق ، فمثلا بالنسبة للمرور ، هناك مشروع شبكة طرق « شعاعية » اى تخرج من مركز المدينه ، وعدد آخر من الطرق الدائرية حول دمشق .. وقد بدأ العمل في عدد من هذه الطرق والجسور ، جسر ونفق عند فندق الشيراتون ، وطريق من شمال المدينة الى جنوبها على جسر يصل بين نهاية شارع ابو رمانه عند قصر الضيافة وحتى منطقة البرامكه عند جامعة دمشق .

واخيرامازالت هناك سطور كثيرة ناقصة عن دمشق .. اتركها الى حديث آخر . ■■

مصطفى نبيل .

● حل مسابقة العدد ٢٦٣ ●



أفقياً :

محمود الزمخشري

رأسياً :

عبيد الله بن سريج

(٨) أفقيا : محمود الزمخشري . ولد في زمخشر . امام عصره في اللغة والنحو والبيان والتفسير . أطلقوا عليه جار الله ، لأنه جاور بمكة ـ كان معتزلي الاعتقاد . من كتبه « أساس البلاغة » ، و « أطواق الذهب » ، و « المفصل في النحو » .

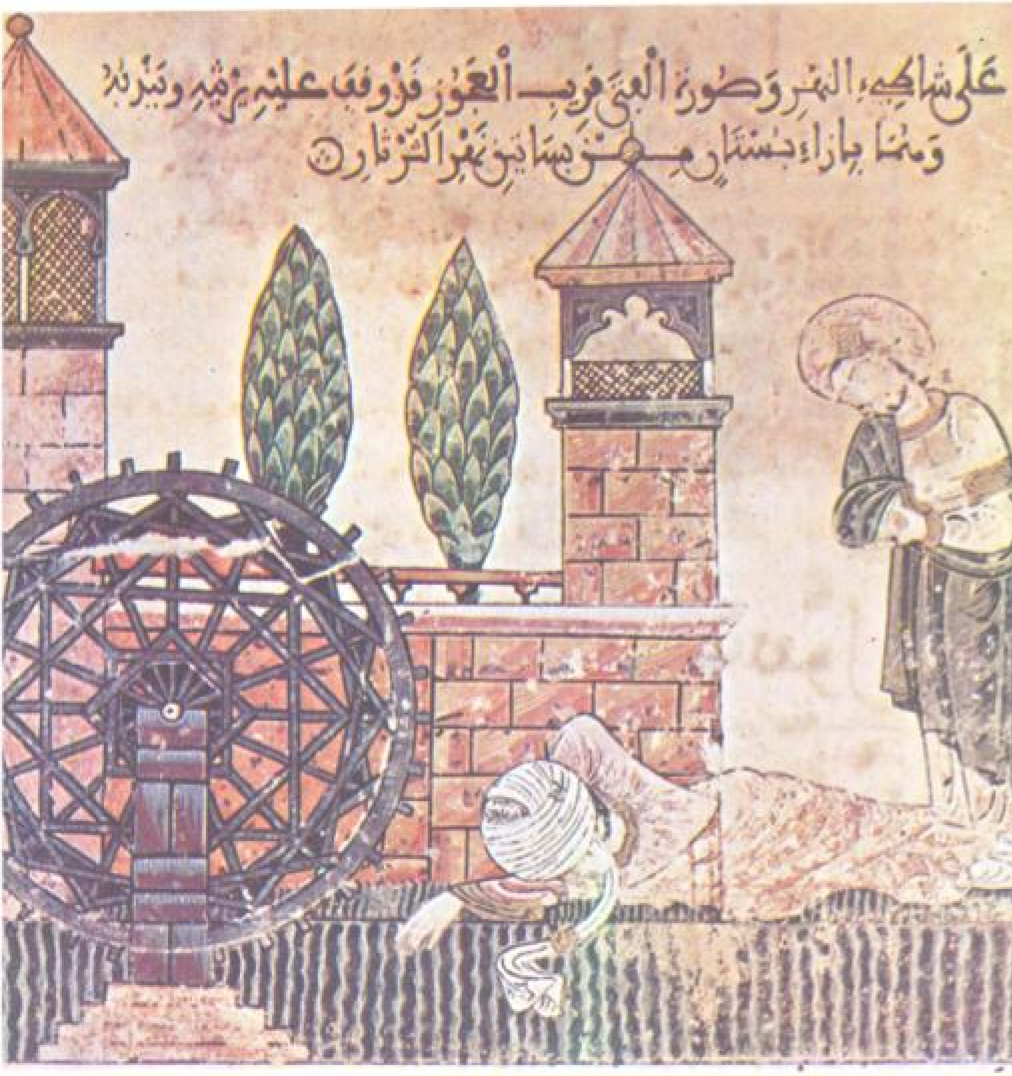
(٨) رأسيا : عبيد الله بن سريج . ولد بمكة وتوفي بها عام ٧٢٤ م . كان أول من أدخل العود الفارسي الى مكة ، وقد تعلم الضرب به من صناع الفرس الذين أعادوا بناء الكعبة . اشتهر بصياغة الالحان .

الفائزون بالجوائز

- الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فازت بها : ميسون محمد شركس ـ عمان / الاردن
- الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : غنان محمد ـ الناظور / المغرب
- الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : محمد محمود قصاص ـ حلب / سوريا

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

١ ـ عبد العظيم محمود السعدني ـ الزقازيق/مصر
٢ ـ أحمد محمد غضبان ـ بيروت/لبنان
٣ ـ محمد حسن سليم معيد ـ المدينة المنورة/السعودية
٤ ـ حافظ الشيخ الزاكي ـ ام درمان/السودان
٥ ـ علي ابراهيم محمد الصايغ ـ الدعية/الكويت
٦ ـ عدوية احمد جعفر ـ بغداد/العراق
٧ ـ جعفر عبده احمد الكوري ـ تعز/اليمن الشمالي
٨ ـ محمد خليل جاد ابراهيم ـ مسقط/عمان



بياض مغمى عليه على شاطيء النهر الى جوار الناعورة بينما الواقف الى جواره يبدي تأثره مما وصلت اليه حاله

الرسم العربي في اسبانيا

بقلم : الدكتور عبد المجيد وافي

اذا كان التصوير العربي في شرق البلاد العربية قد ترك نماذج عديدة ومختلفة على العمارة ، وفي صفحات المخطوطات ، أو على النسيج ، أو غير ذلك من الخامات كالتحف الصغيرة والأواني الخزفية ، ممثلا لمدارس متتابعة أو معاصرة لبعضها ، تمكن الدارس الأثري من تحديد العصور ، والمقارنة بين المدارس المختلفة ، وتساعد الفنان التشكيلي على تبين الخصائص الفنية ، من عناصر التكوين ، أو أساليب تشكيله بالخطوط والألوان ، وعناصر تكوين الألوان وأساليب مزجها ، سواء أكانت أكاسيد أو أصباغا ، ثم معرفة المواد الحاملة للالوان على العمارة أو صفحات الكتب ، من سوائل مائية أو مثبتات صمغية أو زلالية .

فان التصوير في المغرب العربي ، وخاصة « الحقبة الأندلسية » يتسم بندرة النماذج وعدم تعددها أو حتى تنوعها ، مما لا يتيح الفرصة ، لمثيل من الدراسات التي تنوعت وأتيحت لمدارس التصوير العربي في المشرق .



وذلك على رغم تعدد وكثرة النماذج المجسمة من الرخام أو الحفر على الاخشاب أو العاج ، وكذلك التحف المعدنية أو الخزفية ، والتي عاشت عبر الزمان ، وسلمت رغم الحوادث ، عاصرت الحقبة الخليفية أو الأموية ، وما أعقبها من عصور الطوائف ، ثم مخلفات العصر الغرناطي الذي يمثل دولة بني نصر بن الاحمر ، ولا يدخل في الحساب مخلفات عصري المرابطين والموحدين وذلك لما شاع في هذين العصرين من تجنب صناعة التشكيلات البارزة أو صناعة التماثيل .

ولقد تقرب المنصور ابن أبي عامر « نهاية الرابع الهجري » في عهده الى الفقهاء بتحطيم مثل هذه المجسمات ، وذلك استنادا الى تحريم الاسلام للصور والتماثيل التي تعرضت للتصوير .

الا أن وجود مثل هذه التحف الرخامية أو المعدنية أو العاجية أو المحفورة على الأخشاب ، والخزفيات الحافلة بالرسوم والزخارف ، قد تكون عاملا مساعدا على تصور النهضة الفنية ـ التي يعد التصوير بأنواعه فرعا من فروعها وأثرا من آثارها .

وربما ساعد على تقريب هذه الحقيقة ، وما وصل اليه مستوى التصوير وقتئذ ، ما نراه في نماذج التصوير المدجنة كاستمرار للتأثيرات الفنية الواقعة من الحقبة السابقة .

وذلك على سبيل القياس على ما حدث من تأثيرات معمارية أو زخرفية على الفنون المعمارية أو الزخرفية المدجنة أو الفنون المستعربة »

محاولات للتشكيك

وقد شكك بعض الباحثين بصورة أو بأخرى ، في وجود فن التصوير في اسبانيا إبان عصر الامارة والخلافة الاموي وما تبعه من عصر الطوائف ، اعتمادا على ندرة الامثلة . الا ان مثل هذا الرأي لا يستقيم اذا ووجه بالنماذج الباقية من مصنوعات الرخام او العاج او المعدنيات ، والتي تنسب في اغلبها الى دار الصناعة التي كانت في قصور الزهراء ـ التي اسست في عصر عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ ثم انتقلت الى الزاهرة ـ التي اسسها الحاجب المنصور بن ابي عامر ٣٦٨ ـ ٣٩٢ هـ . ثم احتذى حذوها ملوك الطوائف ، حيث تعطينا تصورا حقيقيا لوجود فن التصوير .

كما قام الدليل على وجود هذا الفن فعلا مما هو حاصل من الامثلة التالية :

أ ـ في قاعة الملوك المفتوحة على ساحة السباع المشهورة بحمراء غرناطة ، حيث توجد ثلاث لوحات مرسومة على سقوف محنيات ثلاث للقاعة ، تمثل احداها عشرة من الشيوخ في زي عربي « عمائم وطيالس وسيوف تعلقت حمائلها في رقاب الشيوخ كعادة القواد العرب منذ ما قبل الاسلام ، بينما تمثل الاخريان مناظر صيد وصراع بين فرسان عرب وغير عرب « قوطيين » ونساء في القصور والخمائل .

واللوحات الثلاث مستطيلات الابعاد مستديرة الاطراف ، والتكوينات فيها غريبة التوزيع عن نماذج التصوير العربي المشرقي والتصوير الغربي المعاصر على السواء . حيث يمتد في وسط التكوينات شريط من نجوم زرقاء على ارضية مذهبة أو مذهبة على ارضية حمراء ، ويستدير حول هذه النجوم تتابع التكوين بينما تتميز الملامح الفنية لكل لوحة بما يمكن أن يحدد المدرسة الفنية التي تنتمي اليها يد الفنان صاحب هذه اللوحة .

المدرسة البغدادية

فلوحة الشيوخ ـ او الملوك على رأي من يؤكد ان الشيوخ هم عشرة من ملوك بني نصر على التتابع ـ مثلا تنتمي حركات الاشخاص فيها الى اساليب المدرسة البغدادية ، كما رأيناها في صور المقامات وما عاصرها من مخطوطات مع ميل الى التسطيح اللوني في الثياب ، والاعتماد على تأثير الخطوط في بيان طيات الثياب ، مع تعبير صادق لملامح كل شخصية من الجالسين العشرة ، وامانة التفاصيل في طراز الثياب وطيات العمائم وطريقة العرب في توشح حمائل السيف الملتفة من اعلى العاتق ليتدلى السيف الى جانب حامله يسارا ، بحيث يسهل امتشاقه من غمده في مثل لمح البصر عند اللزوم ، وحركة اليد اليمنى احيانا على اطراف اللحى ، وهي عادة عربية خلال التفكير او الحديث .

كما تصور بعض اجزاء الصورتين الاخريين مبارزة بالرماح بين فارس عربي وآخر قوطي اتقى فيها العربي رمح خصمه بالترس بينما يصيب مقتلا من غريمه برمحه ، وحركات الخيل لا تختلف في شيء عن حركات طراد الخيل العربية في مدارس التصوير المشرقي ، وهي حركة الارخاء في التعبير العربي ، بينما تعثر حصان الفارس الاسباني .

وفي جزء آخر من هذه الترحة فارس نصري

« عربي » في حركة انقضاض بالرمح على حيوان بري ، قريب في شكله من سباع نافورة السباع في الساحة امام القاعة . بينما حركة الانقضاض لا تختلف في تفاصيلها عما عرف من حركات الفرسان في منمنمات مخطوطات الشاهنامة والمخطوطات المعاصرة .

بينما جلست بعض الاميرات تلعب الشطرنج في حديقة القصر تحت شجرة امتلأت اغصانها بالطيور الملونة . الا ان ثياب الاميرات والوان شعورهن ـ كذا التفاصيل المعمارية ـ تعطي جوا غير عربي .

ب ـ في بيت صغير يطل على حديقة وبركة البرطل ، مجاور للبرج المعروف باسم برج السيدات عملية من عمليات الترميم المستمرة في بقايا قصور الحمراء ، في اوائل هذا القرن ظهرت على الجدران ـ بين طبقات الملاط ـ اثار رسوم جدارية بألوان صمغية ، وذلك عندما ازيلت الطبقة العليا من الملاط التي كانت تغطي هذه الرسوم ، وتمثل هذه الرسوم صفوفا متتالية فوق بعضها البعض لمجموعات من الجند العربي الراكب في عدته وسلاحه ثم مجموعات من الفرسان في رحلات صيد معهم كلابهم . كما يمثل احد هذه الصفوف المتعاقبة خياما منصوبة بداخلها بعض السيدات وحيوانات الحمل ، جمالا وبغالا في استرخاء او تأهب ، وارتفاع الرسوم في كل صف لا يزيد عن ثماني بوصات ـ ٢٠ سم ، وينسب اغلب الكاتبين ـ ومنهم الدكتور جمال محرز رحمه الله ـ هذه الصور والرسوم الى النصف الاول من القرن الرابع عشر الميلادي ، بين ١٣٠٠ ـ ١٣٥٠ اي نهاية السابع وبداية الثامن الهجريين ، وذلك قبيل سقوط غرناطة في يدي الملكين الكاثوليكيين بأكثر من قرن ونصف .

ميزتان واضحتان

ورغم سوء حالة تلك الرسوم الا انها قد اشتملت على ما يقرب من اثني عشر لونا ، عدا اللون الذهبي ، كما امتازت بميزتين واضحتين : الميزة الاولى : انها مثلث واقع الحياة المعاصرة يومئذ في غرناطة ، وطرز الثياب وسروج الخيل وادوات الاستعمال اليومية وذلك كما رأينا في بعض اجزاء لوحات السقف في قاعة الملوك المطلة على ساحة السباع .

وهي ظاهرة تميزت بها الامثلة المحدودة ـ المعروفة ـ من التصوير الاسلامي الاسباني ، حتى اننا لنستطيع ـ اعتمادا على تلك الرسوم ، تحديد اشكال العمائم والوانها ، والثياب وطريقة ارتدائها ، وزخارف سروج الخيل وتنوعها وعادة من عادات القوم وهي ذيول الخيول المعقودة كعادة من عادات فرسان الاندلس ، فهي رسوم صادقة التعبير عن العصر تمام الصدق .

الميزة الثانية : تختلف هذه الرسوم ، ذات المجموعات الست ـ عن رسوم سقف رواق الملوك ، في معالجة الوان الثياب واظهار ثنياتها وذلك باستخدام تموجات اللون ـ ذلك الاسلوب الذي عرفته المدرستان السورية والبغدادية ، الا ان تعبيرات الوجوه بسيطة ، لا تمثل لونا من الوان الانفعال الذي اشتهرت به المدارس الشرقية ـ ولذلك يقول انريك سوردو Enrique Sordo « هناك دلائل واضحة على تأثر هذه الرسوم بالمدارس الفارسية المعاصرة والمدرسة السورية القديمة للرسم بالميناء على الزجاج ، هذا بالاضافة الى ما للمنمنمات المسيحية الاسبانية من تأثير خاص » .

وواضح ان الجزء الاخير لا يمثل جزءا من الحقيقة التي يمثلها الجزء الاول من الرأي ، لان المنمنمات المسيحية يومئذ كانت في طور الاقتباس لا في طور الاعطاء شأنها شأن كل المعالم الحضارية التي ادت الى ظهور النهضة الاوربية .

وقد اشترك في هذا الرأي ريتشارد ايتنجهاوس Richard Ettinghausen بل انه ردد نفس المضمون في قالب تعبيري مخالف الا ان ايتنجهاوس اسند رأيه الى احد مؤرخي الفنون الاسبانية هو ليوبولدتوريس بالباس صاحب كتاب : Historia Uniuersal del Arte Hispanico. Madrid. 1949 فكشف بذلك مصدر انريك سوردو الذي اورد اسم توريس بالباس وكتابه كمرجع من المراجع دون ان يحدد عبارته التي اقتبسها .

ج ـ المثال الثالث : مخطوطة مصورة تحت رقم ٣٦٨ عربي ـ محفوظة في مكتبة الفاتيكان غير مكتملة الصفحات بحيث لا يمكن للباحث ان يتعرف على تمام الموضوع او بدايته ، كما لا يستطيع تحديد المؤلف والنساخ ـ الكاتب ـ وتاريخ المخطوطة ، وان كان السياق الذي يفهم من الاجزاء الباقية يحتوي على اطراف من قصة حب عذري بين فتى اسمه بياض وجارية اسمها رياض يتخللها مواقف مما يلم بالعاشقين من وجد وعذاب وضنى وفراق وهيام وبكاء .. الخ ، ومن السياق يفهم ان احداث القصة وقعت في منطقة الفرات حيث شاطيء نهر « الثرثار » احد روافد الفرات في الشمال لكن المخطوطة كتبت بخط مغربي اندلسي وحوت لوحات مصورة حملت في ثنايا تكويناتها عناصر معمارية اندلسية مثل النوافذ التوأمية ـ المزدوجة ـ وعقود حدوة

الفرس والسواقي الكبيرة التي كانت منتشرة على شواطيء الوادي الكبير في قرطبة تدير الطواحين ، وما زال بعضها حتى الآن ماثلا .

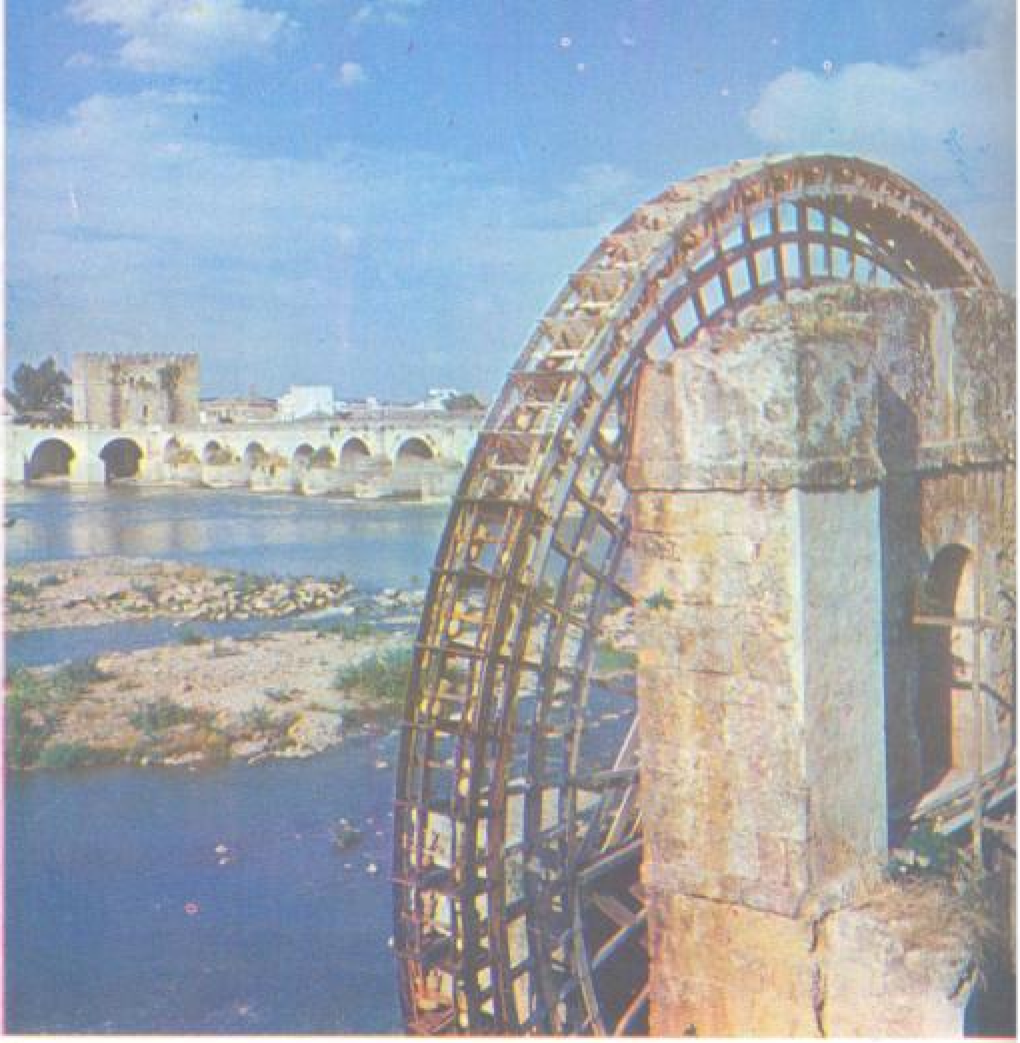
البيئة الأندلسية

ورغم ان حالة المخطوط والغالبية من لوحاته ومنمنماته الباقية سيئة للغاية الا انه من الممكن دراسة مكونات هذه اللوحات وخصائص اسلوب المصور كالتكوينات والتخطيطات وطريقة التلوين وعناصر التعبير ، وقد حاول السيد ـ ريتشارد ايتنجهاوس ـ ان يناقش اصل هذه المنمنمات في كتابه « التصوير العربي » ، فقال « انه لا دليل ـ مع احتمال الافتراض جدلا ـ على ان مخطوط رياض وبياض صور في المغرب او اسبانيا نفسها » لكنه عندما حاول ان يحدد عصر المخطوط ومنمنماته ، مستعينا بأسلوب المقارنة مع المخطوطات المعاصرة . من مقامات محفوظة في أماكن مختلفة من مكتبات العالم ، مقابلا أساليب المصورين بصور مخطوطة الفاتيكان ، وطريقة فنانها في توزيع الاشخاص والوانه وخطوطه ، ورسمه للعمارة والنبات وثياب الاشخاص قال : كل ذلك لا يؤكد فقط ان المخطوطة من القرن الثالث عشر الميلادي ـ ٧ هجري فحسب ، بل ويؤكد انها مشرقية صورت بريشة مصور مغربي ، ينتمي الى تقاليد فنية مشرقية انتماء شديدا حيث اعطى طابعا محليا في ملامح وتأثيرات مغربية .

ولا شك ان هناك عاملا يفتقده السيد ايتنجهاوس ليصحح حكمه الذي يبدو متضاربا ، هذا العامل هو عامل البيئة الذي يحكم تأثيره على عمل الفنان واسلوبه في تمثل الموضوع المصور وبروز اثر هذين العاملين في فنه .

مجلس الغناء في الحديقة والمغني بياض ترى مَن بين الفتيات هي محبوبته رياض « منمنمة من مخطوط الفاتيكان » .





ناعورة شاطىء نهر الوادي الكبير ، التي تأثر بها مصور قصة بياض ورياض في خلفية موضوعة .

ولعل ما تراه في اعمال الفنان الفلمنكي رمبرانت حينما صور بعض موضوعات الكتاب المقدس ، خير دليل على ذلك التأثير ، حيث كانت صور رمبرانت تحمل معالم عصره هو واسلوبه التخيلي بعيدا تماما عن عصر احداث الكتاب المقدس وشعبه .

ولذلك رأينا مصور قصة رياض وبياض وهو يصور مخطوطة كتبت قطعا في المغرب او الاندلس - بدليل قلم الكتابة المغربي - لا يلتفت الى بيئة احداث القصة - وهي منطقة الفرات الشمالي في العراق ، وانما يوقع عناصر اندلسية واضحة تتمثل في النوافذ التوأمية وعقودها - عقد حدوة الفرس - وسقوفها المقرمدة ، بل انه عندما اراد تصوير موقف اغماء اصاب الفتى بياض على شاطىء نهر الثرثار - وهو نهر عراقي - صور الفتى ملقى بجوار ناعورة قرطبية - ما تزال شبيهتها ماثلة على شاطىء الوادي الكبير الى يومنا ، وكانت تدير طاحون كليت - من طواحين الماء الاندلسية .

هذا الى ما تبرزه ملامح الثياب الاندلسية ، وخاصة العمائم فضلا عن الاشتراك مع مصورات سقف رواق الملوك في طريقة التفاف العمائم وارتداء الثياب . ومع مصورات البرطل في حركات الاشخاص وملامح

الوجوه ـ التي تختلف تماما عن وجوه اشخاص المنمنمات المشرقية .

فضلا عن ان هذه المصورات ـ ويشاركها صور رواق الملوك والبرطل ـ في صدق تعبيرها عن البيئة الاندلسية او المغربية وتميزها بعنصر فني واضح ، وهو صراحة الخط المحدد الذي يؤكد شخصية الفنان وجرأته في تحديد شخوصه ، واستغلاله لعنصر اللون المتباين لتمييز أوضاع الأشخاص ، مع دقة وتناسب بين احجام الأشخاص وحركاتهم .

فنان واقعي

هذا الى تميز واقعية هذا الفنان المصور في ايماءات الاشخاص تظهر في ارتماء بياض مغمى عليه وارتخاء أطرافه وطرف عمامته في الماء ويده الأخرى تحت رأسه كأنه حاول ان يتقي الأرض عند سقوطه وقبل أن يستغرقه الاغماء .

بينا تمثل حركة شمول ـ وسيط التراسل .. وهي تناوله الرسالة بيد بينا تخفي وجهها بطرف ثوبها أو عباءتها في حياء ظاهر ، ولعل أدق ما في هذه الصور حركات الاصابع التي تنم عن رقة واضحة وسلامة التناسب التشريحي لأعضاء الاجسام البشرية .

وما نلحظه من تأثر سيدة المجلس في الحديقة بغناء الفتى بياض ، ويدها التي ترد على خادمها الذي يقدم لها زجاجة الشراب بالرفض ، بينا لم تحول عينيها عن المغني ، ويشاركها في ذلك فتياتها الجالسات ممسكات بأكواب الشراب ، حاسرات الرؤوس عدا سيدتهن التي تعتم بعمامة تكاد تشبه التاج ، وتغاير حركة جلوس السيدة وقد مدت رجلا وضمت الأخرى مع حركات جلوس الفتيات .

ولا أشارك ايتنجهاوس رأيه في تشابه اغصان هذا المصور ونباتاته باغصان اشجار الواسطي المصور في مخطوطة مقامات الحريري بمكتبة باريس الأهلية حيث أن مصور « بياض ورياض » صريح الخطوط في رسومه ، تناسقت أوراقه على الاغصان ، مؤكدة تمكن المصور وانفراده باسلوبه .

كما لا أشاركه في تشابه وجوه الأشخاص وعيونهم مع اساليب المشارقة في تصوير ملامح الوجوه ، حيث امتازت وجوه مصور بياض ورياض بتعبيرات وجدانية تشارك التكوين في اداء وظيفته ، حيث توزعت الشخوص دون تداخل مركب حتى في صورة مجلس الغناء في الحديقة ، وهذا في عرف المصورين يدل على رسوخ قدم المصور الذي لا يعجزه ازدحام تكوينه بالاشخاص ، أن ينوع ويفارق في الحركات والايماءات دون تداخل .

ثلاثة نماذج

وهكذا نرى أننا أمام نماذج ثلاثة ، وجدت اثنتان منها في حمراء غرناطة بالاندلس ، وأخرى تحمل موشحات ترجع اندلسيتها وهي مخطوطة الفاتيكان .

أ ـ صور عربية خالصة التعبير منفردة الاسلوب لا تحمل تأثيرات غربية .

بل تميزت الى حد ما عن معاصراتها من المصورات المشرقية ، بملامح فنية مستقلة تلك هي صور مخطوطة بياض ورياض .

ب ـ صور عربية جدارية حملت اسلوب مصوري الكتب في تعبيرها ، وأخذت ببعض الحلول التشكيلية الغربية المعاصرة مع وضوح الاستقلال التعبيري كفن عربي خالص ، وهي صور برج السيدات في حديقة البرطل .

جـ ـ صور جمعت بين عناصر عربية ، وعناصر غربية في التكوين وايقاع توزيع المجاميع ، ومحاولة احترام البعد المنظوري ، ملامح المدرسة الايطالية المبكرة ـ ١٢ ـ ١٣ م ـ ظاهرة ، وملامح المدارس الشرقية واضحة في حركة الطيور على الأغصان ، وحركات الفرسان على الخيول وطريقة الطعان ، بين مدرسة التصوير البغدادية واعمال الميناء على صناعات الزجاج السوري ، وانفردت بالثياب وعدة القتال كتعبير عن العصر الاسباني .

وبهذا نرى أن التأثيرات الغربية أو المسيحية ، انفردت بها لوحات رواق الملوك دون النموذجين الآخرين بين عناصر عربية الاداء والتعبير .

بقي علينا أن نناقش مدى انتساب هذه الاعمال إلى العرب الاسبان أو انتمائها الى غيرهم أو وقوع تأثيرات مؤكدة من طبيعة العصر على هذه النماذج .

ولم يختلف النقاد على عروبة مصور بياض ورياض ، وان اختلفوا في انه مشرقي أم مغربي أندلسي ، وقد ناقشت ذلك وبينت ترجيح الرأي في أنها لمصور مغربي وربما أندلسي ، مع اعترافي ـ من واقع وحدة الفنون الاسلامية ـ باشتراك فناني المسلمين في

حل التأثيرات لمختلف مدارسهم ، وانفراد كل مدرسة بعد ذلك بأسلوب مستقل .

التأثر بحركات الخيول

واختلف النقاد الى حد ما في رسوم البرطل ، واقصى ما قيل ان هذا الفنان الذي رسمها قد تأثر الى حد ما بحركات الخيول في صور المنمنمات المسيحية المعاصرة، وقد رجحت استقلال ذلك الفنان الذي أساء الى عمله ، تغطيته بالملاط وتشوه ما بقي من رسومه ـ رغم ذلك فقد بقيت اعماله صريحة ملامح الوجوه العربية وحركة الفرسان وطريقة ركوب الخيول وثياب الرجال والنساء ، مستخدما في عمله وسائل واساليب الرسم على الورق .

ومن الواضح أن المصور قد اجاد تصوير السلاح العربي وطهام الخيل وزينتها وألوان الخيام وطريقة انتصابها وعمائم الفرسان وعباءاتهم الاندلسية .

أما لوحات رواق الملوك ، فان احداها وهي لوحة الملوك ـ أو الشيوخ ـ اذا عزلت عن شقيقتيها تنفرد بعروبة التعبير والاسلوب .

وتبقى بعدها الأخريان حيث امتزجت المؤثرات الغربية بالعربية في العمل الواحد ، وربما كان تداخل العلاقات في عصر بني نصر مع الممالك الكاثوليكية المجاورة على شبه الجزيرة ، والتي استردت كثيرا من المدن الاسلامية ، وحصرت المسلمين في غرناطة ومالقة وما حولها له تأثيره ، مما جعل ابن خلدون ولسان الدين الخطيب ينعيان على المسلمين الاندلسيين يومئذ تحللهم من تقاليدهم وتقليدهم لأساليب الحياة الغربية وثيابها وسلاحها .

فلا غرابة أن نرى في اللوحة الواحدة من وجهة نظر فنية بحتة ـ تباين العناصر المسيحية والعربية متجاورة في العمل الواحد ، بينما هي في الواقع الحياتي غير متباينة لتجاورها في البيئة ، ولا غرابة في أن يضع الفنان ذلك كله دون أن يحس أنه قد أتى أمرا غريبا .

وليس هناك ما يمنع اطلاع الفنان على بعض أساليب المدارس الغربية المعاصرة في فلورنسة وغيرها من منابع الفن الايطالي ، وتأثره بذلك في تفاصيله المعمارية ، بينما صاغ طيوره واغصانها وأوراقها باسلوب مشرقي عربي خالص .

صور للحيوان والنبات والانسان

واذا كانت الأمثلة المؤكدة لوجود مدرسة للتصوير العربي في اسبانيا قليلة ، فان نماذج الحفر المصور على العاج والخشب والمعادن ، ونماذج التصوير على الخزف والنسيج ، قد جمعت بين صور للحيوان والنبات والانسان ، في تشكيلات واقعية أو ايقاعات زخرفية ، وهي كثيرة قد امتلأت بها كنائس الاندلس وايطاليا ومتاحفها وهي في جملتها تؤكد وجود فنون تصويرية رفيعة ومتقدمة ، يرجع بعضها الى عصر الامارة الأموية ثم عصر الخلافة الأموية ، ولم تكن اعمالا فردية متفرقة أو نادرة ، بل كانت انتاج مدارس ومصانع ، وجد بعضها في قصور الخلافة أولا ثم في قصور المنصور بن أبي عامر ، ثم انتقلت تقاليدها وصناعتها الى قصور ملوك الطوائف،والحضارة التي تحتفظ لنا المتاحف والمجموعات العامة منها والخاصة بمثل هذه النماذج الفريدة في روعة التشكيل البارز أو المسطح ، دون ما تقصير في تنسب الانسان أو الحيوان ، أو حركاتها وتعبيرها ، مع قدرة فنية على استغلال الخامات المختلفة وسهولة تشكيلها ، وبراعة صانعيها براعة لا تقل عما رأيناه من قدرة معمارية فائقة في المسجد الجامع بقرطبة ، وما أظهرته حفريات مدينة الزهراء ، من روعة الحفر في الزخارف الرخامية ، مثل هذه الحضارة لا يمكن أن تهمل التعبير بالرسوم المسطحة ، وقد برزت قدرة فنانيها وبراعتهم في الحفر والتشكيل ، وربما كانت عوادي الزمان مسئولة عن اختفاء صور جدارية أخرى ـ كصور البرطل ـ ضاعت أو فنيت أو ما زالت مختفية تحت سطوح الملاط ، قد يكشف عنها المستقبل كما كشفت المصادفة وحدها عن رسوم برج السيدات في حديقة البرطل .

ولعل الاساليب الحديثة من التصوير بالأشعة ، قد تكشف لنا عن مثيل لرسوم البرطل مختفيا تحت الطلاء الظاهر .

كما أن صور مخطوطة « بياض ورياض » تنبيء عن مثيلات ما تزال بعد مختفية وراء ظهر الغيب ، قد يظهرها الغد أو ما بعد الغد ، ربما لا تقل روعة وجمالا عن منمنمات بياض ورياض ، ورسوم البرطل ولوحات قاعة الملوك .

المدارس الشرقية

وقد حملت لنا التحف الفنية أسماء بعض الفنيين ، واسماء من عملت من أجلهم هذه المصنوعات ، فحددت بذلك تاريخ صناعتها ، وهي في جملتها متقدمة ـ بتاريخ صناعتها ـ عن صور بياض ورياض بقرنين من الزمان ثم عن صور البرطل ورواق الملوك بثلاثة قرون ، وقد

كان المألوف أن يتجاور التصوير البارز والمسطح عبر مراحل ما عرف من تاريخ الفنون ، ومن خلال الدراسة المقارنة يمكن أن نحدد بعضا من ملامح ذلك التصوير المفقود .

ومن خلال النماذج الموجودة من التصوير البارز ، نرى سريان كثير من تقاليد المدارس الشرقية أول الأمر ثم استقلت مدرسة الصناعات في قصور الزهراء في قرطبة ، وبرع فنانوها في ابتكار خصائص برزت بها اعمالهم مع خصوبة في الخيال الفني .

ولقد كانت هذه الخصائص التي بذرها فنان الزهراء « صاحب سمورة » ثم « خلف » من بعده ، ومن بعدهم ولدي زيان في عصر ملوك الطوائف ، عنوانا على فنون متميزة باسلوبها ، فائقة في روعتها ، فالحفر فيها دقيق وعميق من خلال تنسيق واضح لعناصر التشكيل الفني ، حيث توسطت الأشكال الحيوانية الزخارف النباتية والهندسية ، دون اخلال بالتوازن الجمالي والشكل العام .

وذلك يدل على تقاليد فنية عريقة تلتزم بها مدرسة ، لم يقتصر انتاجها على خامة بعينها ولكن تعددت خامات الانتاج بين عاج وخشب ومعادن نفيسة وفضة ونحاس وخزف .

وهذه الروائع التي حفظها التاريخ من الضياع ، انما تعتبر دليلا غير مباشر على وجود مدارس التصوير الاسباني التي لم تكن معروفة ، بقدر ما كانت دليلا مباشرا على مدارس الصناعات الدقيقة التي عمرت أكثر من خمسة قرون ـ منتصف القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي ـ الى نهاية القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر الميلادي ـ بدأت وجودها في رحاب قصور الخلافة وظلت متنقلة في ربوع الاندلس حتى غربت شمس الاسلام من ذلك الافق البعيد ، فانتقلت تأثيراتها الى العصر المسيحي الذي تبع خروج المسلمين واختلطت فيه التأثيرات الاسلامية بالعناصر القوطية ، وتكونت مدارس المدجنين ، التي عمرت قرنين من الزمان بعد تمام الاستيلاء المسيحي على أرض الاسلام في الاندلس حتى غطت مرحلة الباروك مع اتساع النهضة الغربية .

وليس من المنطقي أن يقال ان التصوير الاسلامي أو العربي في اسبانيا ـ من خلال نماذج الرسوم الجدارية بالبرطل ، أو سقوف رواق الملوك ـ قد وقعت تحت تأثيرات مسيحية ، لأن الصور المسيحية التي بقيت بين مخطوطات الكنائس ، لا يمكن مقارنة مستواها الفني بهذه الرسوم العربية ، لفارق الوضوح في اساليب التكوين والتلوين والتعبير وملامح الاشخاص .

معاملة التراث الاسلامي العربي

والحقيقة أن التراث الاسلامي العربي عومل معاملتين متباينتين :

أ ـ العداء الكامل لكل المظاهر الثقافية المدونة تمثل ذلك في الاحراق والاغراق لآلاف المدونات العربية الاسلامية استمر منذ بدء حركة ما يسميه الكاثوليك بالاسترداد ـ أي استرجاع الأرض من ايدي المسلمين ـ والتي اتسمت بالحقد العقائدي والابادة للبشر والثقافة على الاطلاق ، حملت وزرها محاكم التحقيق بتوجيه كنسي ظاهر .

ب ـ الاقتناء والحفاظ على المخلفات الصناعية والفنية من التحف والطرائف تسابقت الى اقتنائها كثير من الكنائس في ارجاء اسبانيا ، ووصل بعضها الى ايطاليا ، نظرا لما حوته من جوهر ونفيس معدن ، لا لما حوته من دقيق صنعة وفن .

ولقد كانت صناديق المجوهرات بما نقش عليها من آيات وأدعية تنقل الى مذابح الكاتدرائيات لتحفظ فيها بعض المتلكات المقدسة للكنائس رمزا للغلبة والانتصار .

ورغم ندرة ما وصلنا من نماذج فنية تصويرية ، فقد اعطانا صورة صادقة وان لم تكن كاملة عن فن لو عرفت كل مقوماته والكثير من نماذجه ، لكان حريا أن يقارن بالفخر والاعتزاز بفنون مماثلة في المشرق العربي ، كما قورن الأدب والشعر وعلوم الطب والفلك والهندسة والفلسفة وعلوم الشريعة والتصوف من التراث الانساني للوجود العربي الاسلامي في اسبانيا .

ولقد سبق الدكتور حسين مؤنس ـ الذي قضى فترة طويلة مديرا للمركز الثقافي الاسلامي في مدريد ـ فاعلن أنه قد توصل الى الكثير من هذه الصور العربية ، وأنه بصدد نشر بحث عنها ـ مجلة العربي العدد ٨٩ ابريل ١٩٦٦ .

وقد مضت أعوام ولم نر هذا البحث أو لم نعلم ما يلم به ، ولعل أملنا يصل الى شاطيء البيان ■■

أبو ظبي : د . عبد المجيد وافي



رسالة.. رسالة..

موت صحيفة

لندن - مجدي نصيف

ثلاث كوارث صحفية ، حدثت في بريطانيا في اسبوع واحد جعلت حمى المناقشات تتصاعد حول ازمة الصحافة البريطانية وازمة الديمقراطية لوسائل الاعلام . الاولى عرض صحف التايمز للبيع والثانية اغلاق « الايفننج نيوز» اللندنية المسائية ، والثالثة تعرض مجلة « انكاونتر » الثقافية لازمة مالية حادة قد تؤدى الى اغلاقها .

اليوم الاخير من شهر اكتوبر ، كان ايضا هو اليوم الاخير في حياة صحيفة بريطانية لندنية مسائية عريقة هى « الايفننج نيوز » . المحزن ان الصحيفة كانت تستعد للاحتفال بمرور قرن كامل على تأسيسها ، الا ان اصحابها « لم يعودوا يتحملون خسائرها اكثر من ذلك ، فقرروا دفنها قبل تسعة اشهر من بلوغها عامها المائة » .

ورغم ان الاعلان عن موعد اغلاقها تم قبل عدة اشهر ، الا ان اليوم الذى ودعت فيه « فليت ستريت » ، كان يوما مشحونا بمشاعر الحزن والالم ، اذ صحب ذلك طرد العاملين فيها من صحفيين وموظفين وعمال يبلغ عددهم ١٧٥٠ ، هذا الى جانب ان موت صحيفة استطاعت ان تصمد طوال هذا العمر ، كان نذير شؤم للصحف الاخرى في « فليت ستريت » لا سيما ان صحفا اخرى اغلقت ابوابها بالفعل ، بينما يحوم شبح الموت حول « صحيفة التايمز» البريطانية ، اعرق الصحف في العالم ، ذلك ان اصحابها قرروا اما بيعها ، او اغلاقها ، اذا لم يتقدم احد لشرائها حتى مارس القادم ، بشروط معقولة .

ولقد اصبح سقوط الصحف احدى ظواهر شارع الصحافة البريطاني ، ذلك ان هذه الصناعة لم تسلم بدورها من الكساد الذى اصاب سائر جوانب الحياة الاقتصادية الاخرى .

وصدر العدد الاخير من « الايفننج نيوز » وعنوانه الرئيسي « وداعا يالندن » .

وكتب رئيس التحرير يقول ، لقد كان موت الصحيفة هو خبر اليوم في شارع الصحافة ، فلا اقل من ان نجعله الموضوع الرئيسي في الصفحة الاولى . لقد اردنا ان نخرج في جنازة الصحيفة مرفوعي الرؤوس .

وقصة الايفننج نيوز هي قصة الصعود الى القمة ثم الهبوط الى الهاوية لاسباب عديدة يدرسها خبراء الصحافة والاعلام ورجال الاعمال من مالكي الصحف . فقد كانت الصحيفة يوما ما اكثر الصحف انتشارا في بريطانيا ، حيث كانت توزع ١,٧ مليون نسخة ، وهو رقم كبير ايضا بالنسبة لصحيفة مسائية . وكانت الصحيفة في ذروة شعبيتها تتميز بروح الدعابة التي

تروق للطبقات العاملة وسكان الأحياء الشعبية والفقيرة والمتحدثين بلغة الكوكني ، وكانت خفيفة في نفس الوقت ، ليس فيها شيء دسم على الاطلاق ، لذلك كان الناس يشترونها وقت عودتهم الى المنازل مساء ، ويلقي بها كثيرون ويتركونها على مقاعد المترو قبل نزولهم .

لكن توزيع الصحيفة بدا منذ بضع سنوات يهبط تدريجيا الى ان وصل الى اقل من نصف مليون نسخة !! وتراكمت خسائرها عاما بعد عام . هنا قرر اصحابها التخلص منها ، فاشتراها اصحاب الصحيفة المسائية الاخرى : الايفننج ستاندرد ، ليغيروا اسمها الجديد وتصبح « النيو ستاندرد » .

وحاولت الصحيفة تحقيق رقم قياسي في توزيع العدد الاول الجديد ، لكن « الفرحة لم تتم » . اذ ضرب هذا الحلم مرض « فليت ستريت » الخبيث ، اذ فوت عليها اضراب عمالي فرصة العمر . كان اصحابها يتوقعون بعد ان اصبحت هي الصحيفة المسائية الوحيدة توزيع ٧١٢ الف نسخة لكن التوزيع هبط الى النصف ، ولم توزع اكثر من ٤٠٠ الف . ورغم هذا النزاع العمالي ، الا انها استطاعت ان تتجاوز رقم توزيعها المعتاد وهو ٣٧١ الف نسخة . علق اللورد روزمير رئيس مجموعة الصحف التي تصدر من الايفننج ستاندارد من بين ما تصدر على ما حدث بقوله :

ـ يبدو ان فليت ستريت مصمم على الانتحار .

صحف التايمز

وفي نفس الاسبوع الذي شيعت فيه « جنازة » الايفننج نيوز ، انفجرت قنبلة اخرى في « فليت ستريت » ، اتت هذه المرة من الصحيفة البريطانية العريقة : التايمز : اعلن اللورد طومسون صاحب الصحيفة عن بيع « التايمز » و « الصنداى تايمز » وما يصدر عنها من ملاحق ثقافية وادبية وتعليمية واقتصادية . القنبلة كانت مفاجئة اصابت الجميع بالذهول .

« مؤسسة طومسون البريطانية » وصاحبها رجل اعمال كندى ، وهي مالكة صحف التايمز ، القت بمسئولية هذا البيع على عاتق « الخلافات العمالية » ، فقالت ان صحف التايمز قد خسرت هذا العام ما يقرب من ١٥ مليونا من الجنيهات ، واعلنت انها قد قررت بناء على هذا طرح المؤسسة للبيع في شهر مارس ١٩٨١ .

رأى النقابات العمالية لخصه جوويد من « نقابة عمال الجرافيك » :

ـ ان هذا ليس تكرارا كما حدث في العام ١٩٧٨ ، عندما وجهت النقابات بانذار من الادارة ، فاغلقت الصحف لمدة احد عشر شهرا . وها نحن نواجه بانذار آخر وان كان قد اتخذ شكلا مختلفا . ان اغلاق الصحيفة غير ضرورى ، ومن الواضح بعد الصراع المرير الطويل السابق ان الثقة قد اصبحت مفقودة بين العمال والادارة . لكننا حاولنا تغيير هذا الوضع . وحقيقة الامر اننا كنا على وشك التوصل الى اتفاق نهائي بخصوص ادخال التكنولوجيا الجديدة بطريقة تؤدى الى ضمان حقوق الجميع .

اقتراح يستحق المناقشة اتى من جانب وليم ريس موج رئيس تحرير التايمز اليومية ، قدمه خلال ابلاغه قرار البيع للصحفيين ، وهو محاولة تكوين « كونسورتيوم » يدير الصحف ، يتعاون معه الصحفيون ، والاتجاه السائد عموما هو فصل « التايمز » عن « الصنداى تايمز » .

لكن المؤكد ان مؤسسة طومسون قد القت بالقفاز في « شارع الصحافة » في وجه العمال والصحفيين ، العمال الذين يعارضون ـ حتى الان ـ اى اجراء يؤدى الى الالقاء بهم الى قارعة الطريق بالعشرات ، والصحفيون الذين قاموا ـ لاول مرة في تاريخ صحف التايمز ـ باضراب منذ شهرين لرفع اجورهم !

ويشير العمال وعدد من الصحفيين الى نقطتين هامتين :

الاولى : ان طريقة الاعلان عن بيع صحف التايمز قد جاءت بصورة توحي بان اللورد طومسون يريد قتلها وليس بيعها . فقد افاضت الادارة في الحديث عن خسائر التايمز التي بلغت على حد تعبير اللورد طومسون حوالي ٧٠ مليون جنيه ، وعن استنزاف الصحيفة لموارد المؤسسة المالية التي تعتبر واحدة من اكبر الامبراطوريات المالية في العالم . لكن السؤال هنا ، اذا كانت المؤسسة تريد طرح الصحف للبيع ، فهل من المناسب ان يتم « تحقيرها » بهذه الطريقة ؟

الثانية : لاحظ عديدون من قراء صحف التايمز بعد عودتها الى الصدور مرة اخرى في شهر نوفمبر من العام

الماضي ، انه قد طرأ على خطها السياسي شيء طفيف من التغيير ، يعتبر جوهريا بالنسبة للتايمز . لقد كانت شهرة التايمز ـ رغم انها محافظة ـ انها تحافظ على شخصيتها المستقلة ، وهي الصفة التي اكسبتها احتراما عالميا واسع النطاق ، وخلعت عليها طابعا خاصا تتفرد به بين كل الصحف البريطانية ، بل والعالمية . والذى يبدو من عملية البيع بهذه الطريقة انه يراد به تغيير خطها السياسي . وبعد عودتها للصدور لم تعد تلك الصحيفة المشهورة باستقلالها استقلالا كاملا . لقد طرأ عليها شيء من الميل نحو تأييد السياسة الامريكية بصفة عامة ، والى تركيز الاضواء على كل من يسير في ركب واشنطن .

.. واينكاونتر

وتواجه اينكاونتر « الشهيرة » الثقافية Encounter ، ازمة مالية حادة ، ولقد ظلت على مدى ربع قرن مجلة كل مثقفي الغرب ، وهي التي واجهت احلك اوقاتها في بداية الستينات ، عندما نشر ان وكالة المخابرات المركزية الامريكية احد مصادر تمويلها الاساسية . وقد تأسست في لندن في العام ١٩٥٣ ، لكن المجلة برئاسة ملفين لاسكي تخطت كل العقبات ، وتوزع ١٩ الف نسخة (تطبع ٢٢ الفا) توزع الثلاثة آلاف نسخة الباقية بعد ستة اشهر ، ونصف هذه الكمية تذهب الى الولايات المتحدة الامريكية وتباع خمسة آلاف نسخة اخرى في بريطانيا والباقي في بقية انحاء العالم .

وهي الان في وضع مالي سيىء بسبب اسعار الطباعة المرتفعة وقيمة الدولار المتدنية بالنسبة للجنيه الاسترليني على وجه الخصوص . وقد حاول رئيس التحرير حل المشكلة عن طريق الاعلانات وشركات التليفزيون ، فاذا لم ينجح في هذا ، فستتوقف المجلة خلال اشهر .

صحيح ان رئيس التحرير تدور حوله الكثير من الاقوال والشائعات ، مثل الجملة التي قالها عنه وزير الثقافة في المانيا الشرقية : « انه مخبر بوليس من النوع الفاشستي ـ التروتسكى القديم » ، لكن المجلة نفسها كانت متنفسا للكتاب الليبراليين .

ويأمل رئيس التحرير في تخطى العقبات المالية ، وان لم يجزم بذلك ، لكنه يقول انه ما زالت هناك مجلات ثقافية في اوربا تعتمد على المجهود الفردي ، مثل وير-مونات التي تصدر في برلين الغربية ، وكان هو الذى اسسها في اكتوبر من العام ١٩٤٨ خلال فترة الحصار السوفيتي لبرلين ، وقد عادت للظهور بعد ان توقفت عدة سنوات . وفي باريس يقوم رايموند آرون بنشر وكمينتير Commentaire ، وهي خليفة مجلة بريف Prves الشقيقة السابقة لانكاونتر بالفرنسية . وهناك ايضا مجلات مماثلة في دول اسكنديناوة .

فهل يمكن لانكاونتر ان تتخطى الازمة ؟

قد تتخطاها ببعض المجهودات . لكن السمة العامة هي موات هذا النوع من المجلات الثقافية ، بل « قتل » عدد من الصحف الرابحة فالمسألة ان الحضارة الغربية الرأسمالية تعتبر كل هذه « المواد » الاعلامية والثقافية ، سلعا تخضع لقوانين السوق التقليدية ، قوانين العرض والطلب ، والمكسب والخسارة ، وبالتالي تنطبق عليها هذه القوانين .

فهذه الصحف والمجلات الثلاث تطرح هذه القضية بوضوح : « ان صناعة الصحافة والثقافة والاعلام ، مثلها مثل اى صناعة رأسمالية اخرى تتجه في المرحلة الحالية من تطور المجتمعات الغربية الى التركز والتمركز ، نحو التملك بواسطة الشركات المتعددة الجنسيات العملاقة القابضة على العديد من النشاطات الاخرى ، وهو ما يشكل خطورة على الديمقراطية الغربية .

وصراع التايمز بالذات جوهرى ، فهو يمثل ذلك الصراع بكافة جوانبه . انه صراع بين العمال واصحاب الاعمال ، واذ ما حسمت المعركة لحساب اى من الجانبين ، فان هذا سيحسم الصراع على المستوى القومي في بريطانيا . من هنا حدة هذا الصراع ، فاصحاب الاعمال يعاملون الصحف كسلعة ، ويريدون ادخال التكنولوجيا الحديثة لتحقيق المزيد من الارباح ، على حساب عدد من العمال بطردهم ليقفوا في طوابير العاطلين ، وعلى حساب مستويات معيشة العمال .

والعمال والنقابات لا يعارضون في ادخال التكنولوجيا الحديثة ، كما تروج صحف اصحاب الاعمال لكن رأيهم ان هذا يجب ان يحدث لمصلحة المجتمع كله ، وليس لمصلحة طبقة وعلى حساب طبقة اخرى ، بمعنى انه يجب ان يتم لتطوير العمل والعمال معا ، وليستفيد صاحب العمل ايضا . فالناس اهم من الماكينات ، والتكنولوجيا يجب ان تستخدم لمصلحة الناس وسعادتهم ، والا اصبحت كالقنبلة الذرية .

وهذا هو شكل الخطورة في ازمة هذا الشهر في بريطانيا ! ■■

لندن ـ مجدى نصيف

عودة البؤساء



باريس ـ محمد صالح القمودى

نادرة هي الروايات التي حققت انتشارا كالذى حققته رواية (البؤساء) للاديب الفرنسي الشهير (فيكتور هوجو) . لقد ترجمت الى كافة اللغات المكتوبة في المعمورة ، ولم يعد احد بقادر اليوم على تقديم احصاء دقيق لطبعاتها المتلاحقة في كافة ارجاء الارض . بؤساء هوجو اكتسحوا باريس عشرات المرات منذ ولادتهم في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، وها هم أولاء قد عادوا الى باريس مرة اخرى .. لكنهم هذه المرة يغنون ويرقصون ، في مسرحية غنائية من اخراج روبين حسين ❋ ، يستمتع بها يوميا ثلاثة آلاف مشاهد .

شهادة المؤرخ

ثمة مؤرخ فرنسي اجتهد منذ سنوات طويلة لبعث الحياة في اوصال التاريخ ، عبر الشاشة الصغيرة ، من خلال برنامج يقدمه بمفرده مستخدما براعة الراوية العربي في شد الانتباه : انه (آلان ديكو) الذى حقق نجاحا باهرا ادخله الى المجتمع الفرنسي . عن البؤساء ، يقول هذا المؤرخ :

ـ لن أنسى ما حييت المشهد الختامي ، من مسرحية (احدب الكنيسة) ـ التي شاركت في اعدادها واخرجها حسين ـ عندما تتراكم الجثث امام الكنيسة ، ويلحق الاحدب بمعشوقته في عالم الاموات .. فيعلم المشاهدون انها النهاية ويستعدون للخروج ، لكن دائرة من الضوء الاخضر تسلط على باب الكنيسة الذى ينفرج في بطء ليفسح المجال لشيخ ابيض الشعر ، طويل اللحية ، يتكىء على عصاه متوجها في حنو الى الناجين من العسف ، وفيهم الاعرج والاعمى والاكتع .. وكلهم من البؤساء والمتسولين ، حيث يفتح لهم ذراعيه وكأنه سيحتضنهم احتضانه لاطفاله . في تلك اللحظة يتفجر التصفيق من كافة ارجاء القاعة الفسيحة : لقد تعرف ثلاثة الآف مشاهد على (فيكتور هوجو) . شاهدت مسرحية (احدب الكنيسة) عدة مرات وأؤكد ان الظاهرة قد تكررت في كل مرة : تعرف المشاهدون على (فيكتورهوجو) وصفقوا له بحرارة ولم يفز بها نجم رياضة اوفن او سياسة . وساءلت نفسي : هل يفوز كاتب فرنسي أخر بمثل هذه الحظوة ؟ ! واستعرضت الاسماء الشهيرة .. راسين ، فولتير ، بالزاك ، شاتو بريان ، زولا .. لا احد يرتقي الى مكانة (هوجو) . لقد بث في اعماله من الصدق والحرارة ما جعل القارىء يربطه بشخصياته الخيالية ، وبالتالي يتعرف عليه من خلالها . لقد فطم ابناء فرنسا على اشعاره ، ومهما تقدمت بهم السن .. فانهم لن يعثروا في ادبهم على من يهز مشاعرهم مثله .. وهو يتحدث عن البؤس والظلم . كما يهز مشاعرهم وهو يتغنى بجمال الكون ويصف خرير

❋ انظر مقال : في المسرح الفرنسي ظاهرة اسمها حسين ! عدد يونيو ١٩٨٠ من (العربي) .

الجداول وحفيف الاوراق . وعندما كبر ابناء فرنسا .. تعرفوا على انفسهم في نضاله السياسي ، اذ ناصر الحق ، وحارب الظلم ، وتغنى بالولايات المتحدة العالمية حيث يسود الوئام بين البشر في كنف العدل والحرية . حتى التناقضات الفرنسية تجسمت فيه : انه الرجل الذى ولد وعاش في الثراء ، لكن احدا لم يماثله في الاحساس بعذاب البؤساء والمحرومين ، وفي المطالبة بازالة الظلم الاجتماعي . وعندما توفي (فيكتور هوجو) شارك مليون من سكان باريس في تشييع جنازته ، كما تطوع مائة ألف منهم للسهر طوال الليل حول نعشه المعروض تحت قوس النصر .. عرفانا لاديب صادق رحيم .

للرواية قصة

آه من السياسة ! كم من رجل عظيم اكتوى بنارها . انها الالة الجهنمية التي لاتعرف الرحمة .

انها العشواء التي تخبط بلا تمييز .. فتسحق الزهر والحنظل ، وتخنق البلبل والغراب .

عندما نفت السياسة (فيكتور هوجو) وعزلته في بلدة نائية .. اقسم لينتقمن من السياسة شر انتقام ، وليفضحن اساليبها وحيلها ، وليبشرن بمجتمع رحيم ، سعيد ، عادل ، تسود فيه المودة والاخوة . وهكذا قبل (هوجو) التحدي ، وخاض المعركة بسلاح الاديب : القلم ، مستهدفا تحريك الصامتين وايقاظ الضمائر . كلما تقدم في مشروعه ، دون في ملاحظاته :

ـ في قالب روائي ، ستكون (البؤساء) ملحمة اجتماعية للبؤس تفضح اعداء الانسان : الجهل ، والانانية ، والنفاق ، والظلام . ان جنة الاغنياء في اوروبا .. مصنوعة من جحيم الفقراء .

وصدرت الرواية في (بروكسيل) سنة ١٨٦٢م ، فاذا بها ملحمة للمعذبين في الارض ، واذا بمداها يفوق ما حلم به المؤلف .. فقد انتشرت في كافة الاوساط ، وتأثر بها المترف والمعوز ، الامير والفقير ، الحاكم والمحكوم اليمين واليسار . يقول (هوجو) :

ـ ان البصيرة لن تعثر على موضع يجمع بين الضوء الساطع والظلام الدامس مثل اعماق الانسان .

ثمة مشهد اعظم من البحر ، هو السماء ، وثمة مشهد اعظم من السماء هو أعماق الانسان .

واخترقت رواية (البؤساء) كافة الحواجز : من نقد ورقابة وحسد .. وتربعت على رأس امهات الكتب الفرنسية . اما شخصياتها ، فقد اصبحت اسطورية تغرس جذورها في اعماق الشعب الفرنسي . لقد نحتها الاديب الكبير من عذاب مواطنيه ، وغسلها بدموعه الرحيمة .. حانيا عليها في خيرها وشرها ، قائلا :

ـ البشرية ذات ، والطين أصل والموت فرض .. غير ان الجهل اذا امتزج بالطين سوده ، فاذا ماسرى السواد الى اعماق النفس ، تحول الى شر .

وهكذا جمع (هوجو) في روايته حصيلة افكاره الهادفة الى ايجاد مجتمع فاضل يقوم على العدل والرحمة ، فتحولت الافكار الى صرخة يخشاها القوى الظالم ، ويرددها الضعيف المظلوم .

رواية شعبية

الفطرة الشعبية .. سباقة دائما في التأثر بالاعمال الصادقة . اكبر دليل على ذلك ماحدث لرواية (البؤساء) . لقد اقبلت عليها الاوساط الشعبية بتدفق منقطع النظير ، على الرغم من جفاء الكتاب والصحفيين في مطلع الستينات من القرن الماضي .

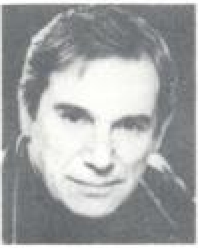
ـ فلوبير كان ساخطا ،
ـ لامرتين كان ناقما على مايراه سوقيا في الرواية ،
ـ بودلير كان يؤكد ابتذالها ،

ـ سانت بوف كان يصيح مذهولا : « رواية البؤساء تضرب رقما قياسيا في الانتشار وهذا يدل على ان ذوق الجمهور سقيم » .

ومع ذلك فقد واصل الجمهور اقباله على الرواية ، واحتضنها الشعب الفرنسي ، فتركت لعامته طيلة قرن من الزمان ، لايقربها الجامعيون . في سنة ١٩٥١م ، لاحظ الاديب (أراجون) ان الطبعة الصينية من (البؤساء) قد اصدرت مليونها الخامس . اما (اندرى مالرو) ، « فقد ذكر انه خلال رحلاته العديدة عبر القارات .. عثر على الرواية في الهند ، وفي افريقيا ، وفي امريكا اللاتينية .



هوجو



حسين

وتحولت الرواية الى مسرحية . اول من قام بهذا العمل هو (شارل هوجو) . ما ان قرأ مخطوط والده ، حتى اعده للمسرح في ١٦ لوحة . حكومة نابليون الثالث منعت عرض المسرحية في فرنسا . عرضت المسرحية في (بروكسيل) اعتبارا من ٣ يناير ١٨٦٣م ، وانتظرت ١٥ سنة السماح لها بالعرض في باريس . وهكذا صعد (البؤساء) لاول مرة على مسارح العاصمة الفرنسية سنة ١٨٧٨م ، ثم عاودوا الصعود سنة ١٨٩٩ ، الى ان كانت سنة ١٩٥٧م عندما اقتحم (البؤساء) مسرح (الكوميدى فرانسيز) الشهير بوقاره وبمستواه الرفيع .

وتحولت الرواية ايضا الى شريط سينمائي . وهنا لابد من الاشارة الى ظاهرة حقيقية اسمها (البؤساء في السينما) .

منذ سنة ١٩٦٢م ، لاحظ مؤرخ السينما (جورج سادول) وجود ١٤ شريطا مأخوذا من (البؤساء) ، ثم تعمق (جان كلود رومر) في دراسة الظاهرة ، فاحصى ٢٦ شريطا مأخوذا من الرواية . والغريب ان هذه الاشرطة صورت وانتجت في بلدان مختلفة مثل : فرنسا واليابان وتركيا والهند ومصر وغيرها . يقول المعد المرئي (مارسيل ابلوبل) :

ـ ان هذه الظاهرة تجد تفسيرها في القوة الصادقة التي شحن بها (هوجو) مشاهده ، وفي البراعة الفائقة التي ادار بها حواره ، وفي الحركية المطلقة التي زود بها افكاره .

رأى المخرج

هذه ثالث مسرحية يخرجها (روبير حسين) من تأليف (فيكتور هوجو) ، فقد سبق وان اخرج له (هيرناني) و (احدب الكنيسة) .. لكن (البؤساء) في قالبها الغنائي الراقص ، تجربة جديدة على المخرج الشعبي الاول في فرنسا . يقول في ذلك :

ـ القيود التي تفرضها المسرحية الغنائية الراقصة .. لاتثقل علي كثيرا ، ذلك ان التدفق الحيوي في الرواية يخفف من وطأة كل القيود ، غير انه يفرض تناسقا بين كافة العناصر التي تشكل العرض . ولذلك ، فان هذا العرض تطلب مني جهدا أكبر من سواه ، وجعلني أحول كل لوحة الى عمل قائم بذاته وكأنه قطعة من الفسيفساء . كل شخصية تقوم بالدور الاول في لوحة من اللوحات ، وهكذا صنع المؤلف اذ منح كل شخصية فرصتها .

بالاضافة الى المخاطرة التي اقدم عليها المخرج بحصر رواية شعبية معروفة وضخمة في ١٨ لوحة ، فقد اجتهد في نقل افكار الاديب الكبير في امانة مستهدفا ايقاظ الناس من غفلتهم وانتزاعهم من انانيتهم . يقول حسين :

ـ خلال عمره البائس ، يلتقي (جان فالجان) بالعديد من المقيدين وبالقليل من الاحرار . واذا كان هو قد استقام اخيرا وحطم قيوده بعد جهد عنيف ، فقد استمر الباقون في قيودهم ، وهذا ما حاولت التعبير عنه عندما اظهرتهم طوال العرض مقيدى المعاصم .

ويضيف المخرج حسين :

ـ ان كل ما يقوله (فيكتور هوجو) عن البؤس والالم مازال سائدا في عالمنا الحالي . ان البشرية لم تحقق بعد ثورتها السلمية الاخوية كما كان يحلم بها مؤلف ديوان (التأملات) . ان صرخة الاديب الكبير مازالت تدوى وستظل حتى تتحقق لكل انسان في المعمورة الكرامة والحرية .

.. وترتفع الستارة

وتتلاحق المشاهد طيلة ساعتين ونصف ساعة ، وتتوالى الرقصات والاغاني .. يؤديها ٥٨ ممثلا وممثلة ، اغلبهم من الوجوه الجديدة والمواهب الأصيلة .. اكتشفها المخرج وانتشلها من البطالة التي كانت تعاني منها ، فقدم بذلك خدمة للفن كبيرة .

هندسة المناظر يمكن ان توصف بانها من نوع (السهل الممتنع) .. تبدو بسيطة للغاية .. المنظر الاول مثلا .. سلم ضخم يتقدمة سياج كبير من قضبان .. انه يصور مدخل المصنع وبابه الحديدى ذا القضبان ، وهو يرمز للاستغلال المسلط على العاملين والعاملات . وينتهي المشهد ، ويأتي ذكر عربة سقطت على صاحبها .. فتنشق السلالم امام المشاهد ، لتظهر العربة . وهكذا تستمر المناظر سهلة ممتنعة الى ان تبلغ ذروة الاتقان في لوحة المتاريس ، عندما يثور شعب باريس

على الطغاة ويقاوم جحافلهم بقوة السلاح .. ويبلغ التأثر قمته ، عندما يقتل رصاص الطغيان الصبي (قافروشن) وهو مازال يترنم باهزوجة ثورية متحديا الرماة ، ملتقطا الرصاص الذى يسقط منهم ليزود به الثوار .

وحتى يتحول عرضه الى حصيلة للاعمال الفنية التي تأثرت بالرواية الخالدة ، فقد عمد المخرج الى ايقاف حركة الممثلين في لحظات معينة ، ولمدة ثواني معدودة يتعرف خلالها المشاهد على تجسيم للعديد من اللوحات التي طالما تأملها في المتاحف او في الكتب المتخصصة .

وكعادته ، تجاوز المخرج النهاية التقليدية للرواية لم ينهها بموت (جان فالجان) بل انهاها بانتصابه المفاجىء العنيف ، وسط قصف هائل للرعود ، وبصرخة منه فيها دعاء الى الله ان يرحم البؤساء .

نقد واطراء

شاهدت المسرحية واعجبتني . واشهد ان الجمهور صفق لها الى ان شبع الممثلون من التصفيق واسدلت عليهم الستارة .. غير ان الامانة تفرض علي نقل اهم الاراء حولها وان اختلفت معها . وهذه الاراء فيها النقد اللاذع ، والاطراء المادح .

يقول الناقد (ماثيو جالى) في مجلة (الاخبار الادبية) :

ـ انه مرة اخرى الفراق بين النقد والجمهور . ما فائدة القول بان هذه الاعمال التي يقبل ثلاثة آلاف انسان على مشاهدتها يوميا .. تافهة وسطحية ؟ ما فائدة ان يقف ناقد وحده في مواجهة ظاهرة اجتماعية فنية جارفة كالسيل ؟ لقد جاءت هذه الاعمال في وقتها المناسب استجابة لحاجة في نفوس الناس . ان الاعداد المسرحي الغنائي لرواية (البؤساء) ساذج ، وتافه .. يرزح تحت المشاعر الطيبة البريئة ، التي تشبه زهرا بلاشوك .. انه يتغنى بالعدالة والحرية وبثورة غائمة المعالم بشكل يجعلها مقبولة من قبل الجميع ، سواء كان موقعهم في اليمين او في اليسار . ان الجمهور الذى يصفق للعرض كل ليلة .. كان مستعدا للتصفيق حتى من قبل ان يشترى تذكرة الدخول .

يقول الناقد (كلود فلوتر) في صحيفة (لوموند) :

ـ واخيرا شاهدنا (البؤساء) في اعداد غنائي راقص قدم الينا وكأنه انشودة جمعت بين اليأس والعنف والعواطف الملتهبة لتدعو الناس الى الاخوة والمودة . ان هذا العرض يؤرخ لحدث هام : اول نجاح كامل للمسرحية الغنائية في فرنسا . التكامل واضح بين كافة العناصر في هذا العرض ، ان الشاعر الذى كتب الاغاني ، والملحن الذى وضع الانغام ، والممثلين الذين لعبوا الادوار .. قد انقادوا جميعا خلف المخرج الذى بعث في المشاهد حيويته المعتادة ، مستخدما الخبرة التي اكتسبها في السينما ، دافعا باللقطة النابضة خلف اللقطة ، راسما اللوحات بدقة فنان عظيم ، مستثمرا الميزانية الضخمة التي رصدت للمسرحية في تقديم عمل لاخدعة فيه . انها حقا ملحمة نابضة بالصدق النابع من اعماق القلوب الكبيرة .

... وبعد ،

ان الفقرة التي قدم بها (فيكتور هوجو) روايته والقاها حسين بصوته عند بداية عرضه .. تلخص العمل كله .وهذه الفقرة تقول :

ـ كلما بقيت قوانين واخلاقيات ولعنة اجتماعية تخلق صناعيا ، وفي صميم الحضارة ، جحيما يعقد الفطرة الالهية .. ومالم تحل المشكلات الثلاثة التي يعاني منها العصر وهي : استعباد الانسان باغراقه في البؤس ، واذلال المرأة باغراقها في الجوع ، وتعويق الطفل باغراقه في ظلام الجهل .. وفي اطار اشمل ، فانه مابقيت فوق كوكب الارض جهالة وبؤس وكبت اجتماعي .. فان مثل هذه الاعمال الادبية ستكون ذات فائدة .

ويحق لمثلي ان يتساءل :

ـ الا توجد صلة بين التعاليم الاسلامية وبين الافكار الرحيمة التي يطرحها (هوجو) في رواية (البؤساء) ؟ !

ثمة صلة اكيدة بينهما . دليل ذلك قصيدة المدح التي نظمها (فيكتور هوجو) في محمد صلى الله عليه وسلم .. لكن هذا حديث آخر ، ولكل مقام مقال ، ولكل حادث حديث . ■■

محمد صالح القمودى

رسالة .. رسالة ..

الكتاب صامد

أمام الفيديو !

بون - عبد المقصود حبيب

مع الزيادة الهائلة في أدوات الاتصال ، وانشاء مراكز المعلومات والمعارف ، واستخدام العقول الالكترونيه لحفظها وتبويبها واخراجها عند الطلب في لحظات .. مع كل ذلك .. يتخوف الناس على مستقبل الكتاب ويتوقعون له الكساد في مواجهة التلفزيون والمذياع وأجهزة الفيديو ، وذلك الكمبيوتر الصغير الذى يجمع الافا مؤلفة من المعلومات .

ولكن الواقع لايزال يكذب هذه التخوفات ويرد عليها بانتصار الكتاب رغم كل ذلك .. فللكتاب مكانته التى لاتتزعزع بل هو يتقدم ويفوق في تقدمه ذلك التقدم الهائل في وسائل الاتصالات وزيادة الابتكارات فيها .

فلا تزال الكلمة المطبوعة ـ وستظل ـ اهم وسائل الاتصال ، بل ويؤكد الباحثون أن السنوات القادمة ستحمل معها اعتمادا أكبر على الكلمة المطبوعة واتساعا لنطاق تأثيرها باتساع جماهير القراء وزيادة المعلومات وأبواب المعرفة ، تلك الزيادة الكبيرة التي نراها في هذا العصر بالذات تؤدى الى مضاعفة انتاج المطبوعات والتوسع في شبكات توزيعها .

وعلى الجانب الاخر ، فزيادة رقعة التعليم في كل بلاد العالم بلا استثناء والانتصار المستمر ـ ولوحثيثا ـ على الامية وتقلصها في البلاد التى كانت تعتبر الامية من أمراضها المزمنة .. كل ذلك يوسع من دائرة انتشار الكتاب وزيادة الاهتمام به طباعة وفنا وتأليفا وتوزيعا .

وكذلك تداخل اللغات المختلفة أو بمعنى آخر زيادة تعلمها ، والترجمات المتبادلة بين هذه اللغات جعل القارىء اليوم لم يعد يقرأ فقط لغة بلاده أو مطبوعاتها وينتهى الامر به عند ذلك الحد ، بل أصبح يقرأ انتاج بلده وانتاج البلاد الاخرى سواء كان مترجما الى لغة بلده أو لغاته الاصلية .

ولقد أصبحت سمة من سمات غزو اللغات للبلاد المختلفة أن نرى مثلا الكتب باللغة اليابانية أو الفارسية أو الصينية تنتشر اليوم في أوروبا ، وقد كانت من قبل سنوات قليلة لايمثلها في أوروبا كتاب واحد الا عن طريق الترجمة الى اللغات الاوروبية .. أما اليوم فمن أيسر الامور أن يذهب المرء الى معظم المكتبات فيجد فيها المعاجم الخاصة بهذه اللغات وعددا كبيرا من كتبها ، وربما كان ذلك من نتائج اقامة المعارض الدولية للكتاب واشتراك الدول المختلفة فيها بكتب في لغاتها الاصلية وأيضا بكتب مترجمة منها الى اللغات الاجنبية .

لذلك فان فكرة اقامة المعارض الدولية للكتاب تعتبر الجسر القوى في تبادل المعلومات عن الانتاج الفكرى والثقافى في البلدان المختلفة ، ووسيلة للاتصال عن طريق المعرفة المطبوعة بين القراء والمثقفين ومؤلفى الكتاب وصانعيه وعقد الاتفاقيات بين دور النشر المختلفة لتبادل نشر الكتب وترجمتها وتسويقها .

واذا ذكر في مجال المعارض الدولية للكتاب معرض موسكو ووارسو ولايبزج والرياض والقاهرة والكويت ولندن ونيويورك .. فان معرض الكتاب الذى يقام سنويا في مدينة فرنكفورت منذ اثنين وثلاثين عاما يعتبر أشهر المعارض الدولية للكتاب واكبرها بصفة عامة .

رسالة.. رسالة..



الكاتبة السنغالية مريام باي

وهو يهدف الى التعارف والبيع والتوزيع والعرض والتمثيل معا . وتبرز أهميته في ضخامة عدد المشتركين فيه وتزايده عاما بعد عام ، وفي جائزته السنوية باسم جائزة السلام لتجارة الكتب الالمانية وتبلغ قيمتها ٢٥ ألف مارك ألماني غربي ، وفي الشعار الذي يركز عليه العرض مرة كل عامين وتعطى فيه جائزة عالمية .

وقد أقيمت دورته الثانية والثلاثون في الفترة من الثامن الى الثالث عشر من اكتوبر/ تشرين ١٩٨٠ وافتتحتها السيدة هامبروشر وزيرة الدولة بوزارة الخارجية الالمانية ، التي دعت في كلمة الافتتاح الى تعميق العلاقات الثقافية بين ألمانيا الاتحادية ودول العالم الثالث ، التي تمثل افريقيا جزءا كبيرا منه . كما دعت الى توسيع نطاق التبادل الثقافي والتفاهم بين هذه الدول والدول المتقدمة بنظرة جديدة تؤيد التحرر ولا تقوم على العنصرية والامبريالية .

١ مليون زائر

والدليل على زيادة الاقبال على المعرض الدولي للكتاب في فرانكفورت يتمثل في زيادة عدد زواره فقد زاره هذا العام مليون ونصف المليون زائر (وهذا العدد حسب الاحصائيات الرسمية هو عدد الذين دفعوا تذكرة الدخول) ، ولا يتضمن الذين دخلوا المعرض مجانا وعددهم كبير أيضا .. وكذلك في زيادة عدد المشتركين والكتب المعروضة . فمثلا في العام الماضي في دورته الحادية والثلاثين كان عدد العناوين التي عرضت فيه تقدر بحوالي ٥٠٠ر٢٧٠ عنوان قام بعرضها ٥٠٢٠ دار نشر تنتمي الى ٨٤ دولة . أما في هذه الدورة (الثانية والثلاثين) فقد بلغ عدد العناوين التي عرضت ٧٠٠ر٢٨٦ عنوان من بينها ما يتألف من ٢٠ جزءا كدوائر المعارف مثل الانسكلوبيديا البريطانية ، وبروكهاوس الالمانية ، ومنها ما يتراوح ما بين الجزأين والستة أجزاء ، وقدم هذه الالاف من الكتب ٥١٠٠ دار نشر تمثل ٩٥ دولة .

ولقد كان التركيز في هذه الدورة على أدب قارة افريقيا وأصبح شعارها (افريقيا السوداء) ولذلك شاركت فيها ٣٢ دولة من جنوب الصحراء في افريقيا السوداء ، ورصدت مجموعة دور النشر اليابانية (كوندانشا) جائزة (نوما) لأول مرة لمن يقع عليه الاختيار من كتب أدباء افريقيا السوداء المطبوعة في افريقيا ذاتها ، وكما ذكرت مجلة « بورزن بلات » الصادرة عن اتحاد أصحاب المكتبات ودور النشر الالمانية أن الهدف من التركيز على الادب الافريقي وتخصيص جائزة له دعم الثقافة الافريقية في ثلاثة مجالات : أولها دعم الكتاب الشبان في افريقيا لتشجيع حركة التأليف الناشئة ، والثاني تشجيع العلماء الافارقة على نشر أبحاثهم الفكرية والعلمية فضلا عن توجيه الاهتمام الى المنشورات المخصصة للاطفال والناشئة في البلدان الافريقية ، والثالث يستهدف تشجيع الكتاب والعلماء الافارقة على نشر مؤلفاتهم عن طريق دور النشر الافريقية ذاتها بدلا من اللجوء الى دور النشر في أوروبا .

وتبعا لذلك كانت المشاركة كبيرة من الدول الافريقية السوداء في جنوب الصحراء الافريقية التي بلغ عددها ٣٢ دولة اتخذت لها قاعة العرض رقم٧ من ثلاثة طوابق وكان من بين هذه الدول السودان والسنجال واثيوبيا ومالي وموريتانيا وسيراليون والصومال وساحل العاج وكينيا ونيجيريا والكونغو وتانزانيا وغيرها .

ومنحت الجائزة التي خصصت لاول مرة في معرض فرانكفورت للادب الافريقي الى الكاتبة السنغالية مرياما باي وقيمتها ٣٠٠٠ جنيه استرليني على كتابها الاول (رسالة طويلة جدا) المنشور في العاصمة داكار وهو رواية تدور حول تحرير المرأة .. وقد ترجمت هذه الرواية الى الالمانية والسويدية والانجليزية والهولندية والروسية .

عن الوجود العربي

ولعدد من الدول العربية مشاركة في هذا المعرض تمثلها دور النشر في جمهورية مصر العربية منذ عام ١٩٦٦ مثل دار المعارف والهيئة العامة للكتاب ومؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع ، وكذلك المملكة العربية السعودية منذ عام١٩٧٥ ويشترك منها دور نشر خاصة مثل عكاظ ، والمريخ ، ، بجانب مؤسسات حكومية مثل وزارة المعارف ووزارة التعليم العالى وجامعة الرياض ، ولبنان الذى يشترك منذ عام ١٩٦٥ ولم ينقطع اشتراكه حتى بسبب الحرب الدامية فيه ، الى جانب العراق وسوريا وليبيا وتونس والمغرب .

وتمثيل الكتاب العربى في هذا المعرض الدولى ، ذلك التمثيل الذى يزداد سنة بعد أخرى (عرض منه هذا العام ٢٠٠٠ عنوان) عمل طيب ومثمر فآلاف العرب المغتربين والمقيمين في أنحاء أوروبا ، يحرص معظمهم على ألا تفوته فرصة زيارته وشراء ما يمكن شراؤه .. الا أن هذه المشاركة في حاجة الى التطوير ، فالمشاركون العرب يعتبرون قمة النجاح في هذا المجال تنحصر في الحصول على جناح يعرضون فيه نسخا وحيدة من كل كتاب أو على الاكثر نسختين فلايجد من يريد الشراء بغيته . فكثير من الزوار كانوا يريدون الشراء وبالطبع لم يتمكنوا لعدم وجود النسخ .

ومن أبرز ملامح معرض فرانكفورت للكتاب حضور المؤلفين لالقاء محاضرات عن آداب بلادهم واجراء المناقشات حول كتبهم ، بل وأكثر من ذلك محاولة زيادة تسويقها بالتوقيع على نسخها التى تباع في المعرض .. أما بالنسبة للكتاب العرب ، فلم يحضر أحد منهم رغم ان الكتب العربية التي عرضت لم تكن قليله .

ولكم سألنى أشخاص ألمان لماذا لايحضر أحد الكتاب العرب الى المعرض كى يتيح لجمهوره الفرصة المباشرة لسماع اللغة العربية شعرا ونثرا ومناقشة المؤلفات العربية بشكل عام .. وهو فى الحقيقة سؤال لم أجد له جوابا غير أنه قد يحدث في الاعوام المقبلة ونرى أحد كتابنا أو شعرائنا يلقي قصائده ويقرأ فصولا من كتبنا كما يفعل الآخرون .

وللنشر وتجارة الكتب في ألمانيا الغربية تقاليد عريقة .. فقد امكن اعادة بنائها في ألمانيا الغربية من جديد بعد دمار الحرب العالمية الثانية وفصل مدينة لايبزج التي كانت مركزها القديم .. وحققا بذلك أهمية ثقافية بالغة لابالنسبة الى ألمانيا وحدها بل أيضا بالنسبة الى الدول الاخرى التى تربطها مع ألمانيا صداقات واتفاقات للتبادل العلمى والثقافى والفنى .

ويحتل انتاج الكتب في ألمانيا اليوم المركز الثالث في العالم بعد الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي ، فالمواطن الالمانى حريص على تخصيص جزء من دخله الشهرى لشراء الكتب للاطلاع عليها وتزويد مكتبته الخاصة بها والتى لايخلو منها منزل واحد ، حتى يمكن للمرء أن يقول ان الكتاب بالنسبة الى المواطن الالمانى يعادل تماما ـ وبنفس الدرجة ـ لقمة العيش . وكما يقول أحدهم (لاغرو في ذلك ولاعجب فمن أين يحصل الانسان على غذائه العقلى والروحى الا عن طريق الكتاب ، بل ومن أين يعرف مجتمعه ويعرف ما حوله ويزداد علما بكل مايدور على وجه الارض الا عن طريق الكتاب .. ذلك الصديق الرفيق الذى يسعد الانسان برفقته وقتما يريد وحيثما يشاء) وكأنى به يترجم قول الجاحظ (لاأعلم جارا أبر ، ولاخليطا أنصف ، ولارفيقا أطوع ، ولا معلما أخضع ، ولاصاحبا أظهر كفاية واقل جناية ولا أقل املالا وابراما ولا أقل خلافا واجراما ولا أزهد في جدال ولا اكف عن قتال من كتاب)

وهناك مدن ألمانية معينة تتقاسم اليوم المركز القيادى في نشر الكتب وطباعتها على مختلف موضوعاتها من ثقافية وعلمية وفنية وأدبية وشعر وفنون الى غير ذلك .. ومن هذه المدن تأتى في الطليعة ميونيخ وشتوتجارت وبرلين الغربية وهامبورج وكولونيا وفرانكفورت التى هى مقر المعرض الدولى للكتاب منذ اثنين وثلاثين عاما ، كما يزيد عدد هيئات توزيع الكتب على خمس وعشرين هيئة في ثلاثين مدينة .

بون ـ عبد المقصود حبيب



أندلسية

فاضل خلف

رأى الشاعر في ضاحية من ضواحي مدينة قرطبة حسناء أندلسية تضع على عينيها نظارة سوداء ، علم بعد ذلك أنها كفيفة .. وأنها مدرسة في الجامعة فقال :

لو كُنتِ يا حسناءُ مُبْصِرَةً ... لرأيت وجهك يزدهي حُسْنَاً
إني وأمثالي نهيم به ... ونسبحُ الله الذي مَنَّا
لو سُقْتُ من إشراقه قبسا ... لطرحت عن قسماته الحزنا
النور في مغناك منبلج ... رغم الضنى والمقلة الوسنا
إن الذين بعلمك انتفعوا ... عَبُّوا شآبيب الهوى لحنا
أنت المنى يا بنت قرطبة ... والشعر في ركب الهوى غَنَّى
أرجاؤك الفيحاء من زمن ... تشدو بلحن الحب والمغنى
غَنَّى ابن زيدون عرائسها ... وتنزلت ولادةُ مُزنا
وهوى ابن عباد بأندلس ... أضحى لأرباب الهوى فَنَّا
وبمثل حسنك تزدهي صورٌ ... للشعر في مَغْنىً وفي مَبْنَى

اعطيت جائزة نوبل للأدب هذه السنة للشاعر البولندي « ميلوش » .. هل اعطاها له شعره وفنه ؟ ام اعطاها له اضراب العمال البولنديين في جدانسك ؟.. هل ما زالت جائزة نوبل تتحكم فيها السياسة ؟ الشاعر ذاته يقول : انا لست كاتبا سياسيا .

القصائد التي

بقلم : د . جمال الدين سيد محمد *

ان منح جائزة نوبل للآداب عن هذا العام للشاعر البولندي تشيسلاف ميلوش يعد عيدا للأدب البولندي . انه عيد كبير وشهادة تقدير وامتياز لان ميلوش في الوقت الراهن هو اعظم شاعر بولندي حي . ولا شك كذلك ان تشيسلاف ميلوش من الاسماء المشهورة اللامعة في سماء االشعر العالمي .

وحصول تشيسلاف على جائزة نوبل ليس مفاجأة بالنسبة لم يعرفون الاداب السلوفانية ولمن يعرفون ان شعر ميلوش يتربع منذ عدة سنوات على قمة الشعر العالمي . ومع ذلك فالشاعر البولندي مجهول وغير معروف بالنسبة للرأي العام العالمي المثقف . وهذا لم يحدث نتيجة لتحفظ شخصي من جانب ميلوش وانما جاء نتيجة لما عاناه في حياته الدرامية ولمصيره غير العادي . وكل هذا لم يؤثر فحسب في شعره بل وفي الكتيبات والمقالات التي كان يكتبها بحب شديد ، وكذلك في رواياته التي تحمل في اغلب الاحيان طابع المذكرات المخضبة بذكرياته عن وطنه الذي تركه منذ ثلاثين عاما بعد اختياره الغربة طواعية .

وهذه هي رابع سنة لا تترك هذه الجائزة القارة الاوروبية . ففي عام ١٩٧٧ حصل عليها الأديب الاسباني فيسنت الكسندر ، وفي عام ١٩٧٨ البولندي اليهودي اسحق سنجر ، ثم في عام ١٩٧٩ الأديب اليوناني اوديسي اليتي . واخيرا في عام ١٩٨٠ البولندي المهاجر تشيسلاف ميلوش الذي يعيش في الولايات المتحدة الامريكية منذ عشرين عاما تقريبا ويعد علامة شرف وامتياز بين اهل وطنه البولنديين الذين يعيشون في المهجر بعيدا عن وطنهم .

ودائما كانت جا[illegible] نوبل للآداب ترتبط ارتباطا كبيرا بالسياسة وهي [illegible] هذه المرة ترتبط دون ادنى شك بالسياسة وذلك [illegible] تشيسلاف ـ كما قلنا ـ بولندي مهاجر . ولا ريب [illegible] هذا الامر بالذات سيثير الكثير من الزوابع وسيكو[illegible] مصدرا لمختلف التعليقات والمناقشات

---

* حاصل على شهادة الدكتوراه في الادب اليوغوسلافي .



لا تهزم!

وقد يثير لدى البعض قليلا من المقت والاشمئزاز . ولا شك بل ومن المؤكد انه سيتم الربط بينه وبين الاحداث والاضطرابات والاضرابات الاخيرة في بولندا . وقد يكون كل هذا ضمن الباعث الذي الهم اعضاء اكاديمية العلوم الملكية بالسويد والذين يبلغ عددهم مائتين ـ ان يمنحوا هذا الشرف والجائزة البالغة ٨٠٠ الف كرونا الى مؤلف ابيات الشعر عن وارسو المهدمة . وهي ابيات الشعر التي تعد حتى يومنا هذا افضل ما قرضه ميلوش من الشعر .

والدليل على ان هذه الاقاويل لم تذكر من قبيل المصادفة ان ميلوش رد عليها بحسم قائلا : « انا لست كاتبا سياسيا » . وقد فهم الجميع الملحوظة على انها رد على كل الاقاويل التي تقال حول الدوافع التي دفعت مجلس ستكهولم الى مثل هذا الاختيار . ولكي تكتمل القصة فقد نشرت الصحافة الامريكية تصريحا لاحد الصحفيين البولنديين قال فيه بلا لف او دوران ان « تشيسلاف ميلوش يدين بجائزته الى عمال السفن في جدانيسكي . واذا كان هذا كله صحيحا فهو امر يحتاج الى وقفة والى تفكير عميقين » .

ليس معروفا في بلاده

وعلاوة على ذلك فقد اعتادت الأكاديمية بالسويد منذ زمن على ان تمنح جائزتها الى ادباء غير مرموقين خارج حدود بلادهم ولغتهم . ولكنها قررت في هذه المرة ان تكافيء اديبا ليس معروفا معرفة كبيرة في بلاده ذاتها .. اديبا هجر وطنه بل وفقد جمهوره الذي سيقرأ له مؤلفاته بلغته الاصلية .

والاديب البولندي تشيسلاف ميلوش مولود في ٣٠ يونيو ١٩١١ بمدينة فيلن التي تتبع اليوم ليتوانيا السوفيتية . وفي عام ١٩١٣ سافر مع والديه الى سيبريا وكان ابوه يعمل مهندسا في اعمال البناء بجانب نهر نيسي . ومنذ عام ١٩١٤ وحتى ١٩١٨ ووالد تشيسلاف يعمل مهندسا عسكريا في الجيش الروسي ، وكانت عائلته ترافقه طوال فترة الحرب . وبعد انتهاء العلميات الحربية مباشرة عادت عائلة ميلوش الى ليتوانيا الى فيلن حيث بدأ تشيسلاف الصغير تعليمه وانتهى منه في عام ١٩٣٤ .

وبين الحربين العالميتين كانت فيلن تتبع بولندا وكانت مجموعة الشباب من الشعراء البولنديين الذين كانوا يقرضون الشعر في فيلن ـ هي احدى المجموعات البارزة في بولندا آنذاك . وكان اكثر الشعراء موهبة في هذه المجموعة هو تشيسلاف بالذات . وقد بدأ ينشر قصائده في عام ١٩٣٠ . ونشر له اول ديوان شعر في عام ١٩٣٣ تحت عنوان « قصائد عن الوقت المتجمد » ونتيجة

لتنبؤاته القاتمة اطلق عليه لقب « شاعر الفواجع » وبعد اعداده لكتاب مقتطفات مختارة من الشعر الاجتماعي مع الشاعر زبجنيف فوليفسكي ونشره في فيلن ايضا في عام ١٩٣٣ اكتسب كذلك لقب « الشاعر اليساري » . وقد كان هذا هو وقت التجارب-الطليعية في الشعر البولندي ، وهذه التجارب تتصل اتصالا وثيقا بالحركة الاجتماعية العامة . ودفع اللقب الثاني الشاعر الشاب الى ترك بلدته الصغيرة والذهاب الى العاصمة وارسو التي لم يكن فيها احد يلتفت او يهتم في ذلك الحين بالالقاب سواء اكانت شعرية أم سياسية .

واثار تشيسلاف الانتباه اليه بديوانه الثاني « ثلاث فصول شتاء » الذي نشر في عام ١٩٣٦ . ويتضمن هذا الديوان اتجاها متناقضا ، فالشاعر الطليعي يعود الى القيم الكلاسيكية دون ان ينسى تجارب التجديد . وسيظل هذا التناقض الواضح سمة جوهرية من سمات شعر تشيسلاف ميلوش وهي السمة التي سيعتبرها النقاد ـ وهم على حق في ذلك ـ مثالا نادرا للربط والجمع الناجح بين عناصر التقليدية وعناصر التجديد في تاريخ الشعر في القرن العشرين . ولا ريب ان هذا الديوان يمثل لحظة من اشرق لحظات الشعر البولندي .

تحت الاحتلال الالماني

ومنذ ذلك الحين بدأ صعود نجم ميلوش الشاعر ونجم شعره الذي يشبه الرموز في دلالاتها وهو ما كان يسعى اليه ميلوش الذي كان يسبح في بحر من الوان الطيف كالجسر بين الشباب وبين فترة النضوج . غير ان صعود الشاعر الشاب الذي تنبأ بالكارثة والفاجعة سيتوقف بكارثة فعلية ، الا وهي الحرب والاحتلال الالماني لبولندا .

وقد استمر الاحتلال الالماني لبولندا ست سنوات مليئة بالفزع وبالموت وبالخراب والدمار . ثم قبيل نهاية الحرب اخمد الالمان ثورة وارسو التي اشترك فيها كل شباب مدينة المليون نسمة واشترك فيها عدد لا بأس به من السكان القادرين على القتال . وماتت زهرة الشباب البولندي ودمرت وارسو تماما وتحولت الى بحر من الانقاض والاطلال . واقتيد الجزء الاكبر من باقي السكان الاحياء الى الاستعباد .

وكان تشيسلاف الشاعر الشاب منضما الى صفوف الوطنيين البولنديين ومشتركا في حركة المقاومة البولندية ، وكان يسعى الى وضع كل امكانياته وقدراته وكفاءاته في خدمة الوطن البولندي . وطبعت له في المطابع السرية لحركة المقاومة في عام ١٩٤٠ تحت اسم مستعار مجموعة قصائد بعنوان « ابيات من الشعر » تغنى فيها بشجاعة الشعب البولندي وبشوقه الى الحرية . وفي عام ١٩٤٢ نشر ميلوش سرا ايضا مقتطفات شعرية بعنوان « القصائد التي لا تهزم » وقد ساهمت هذه الاشعار في تدعيم روح الفنانين والمثقفين والمواطنين البولنديين .

وكان يمكن في ذلك الحين برغم كل هذه المآسي ان ترى البسمة تعتلي شفتي ميلوش وذلك لان اليأس والامل ، كانا هما الموضوعين الرئيسيين اللذين يفضل ميلوش كتابة الشعر عنهما . وخلال سنوات الحرب واجه الشاعر الشاب الذي كان يسعى الى التوحيد بين الشعر الطليعي وبين التراث الكلاسيكي للشعر البولندي ـ الكوارث الحقيقية للتاريخ وهزيمة الانسان وتقاليده الانسانية امام غزو الطغاة . ويصبح تشيسلاف شاعرا ناضجا وانسانا ناضجا كذلك . ويعبر عن هذا النضوج الشعري والانساني في قصائده بديوان « الانقاذ » الذي صدر في عام ١٩٤٥ بكراكوف . وهذا الديوان هو احد الكتب الاولى التي تم نشرها في بولندا بعد التحرر من الاحتلال الالماني . وهو في نفس الوقت الديوان الذي ثبت نهائيا سمعة وشهرة تشيسلاف ميلوش باعتباره واحدا من اهم الشعراء البولنديين . وهو كذلك الديوان الذي خلد فيه تشيسلاف المأساة القومية البولندية تحت نير الاحتلال الالماني ، وهو قمة شعرية وشهادة تدين الحرب بأهوالها ، وهو حديث شعري عاطفي مع رفاقه المستشهدين ووعد من الامة البولندية بأنها لن تنسى تضحيتهم وسقوطهم في ميدان الشرف والقتال .

ومنذ عام ١٩٤٥ اي بعد انتهاء الحرب وحتى عام ١٩٥١ اشتغل تشيسلاف في السلك الديبلوماسي لبولندا المستقلة . وحينذاك بدأ عهد الشك الذي سيصل ذروته في عام ١٩٥١ حينما ظهرت انحرافات ستالين وهجومه على القوى الحرة في عالم ذلك الحين . وقرر ميلوش ان يهاجر الى باريس حيث قضى عشر سنوات . ونظرا لانه لم يوافق على انحرافات ستالين فقد ثار وناضل ضدها وكتب المقالات والكتيبات ضد ستالين ونشرها في باريس في عام ١٩٥٣ تحت عنوان « العقل المأسور » وهذا الجزء من عمل ميلوش يعتبر الآن من اهم اعماله لكونه مستندا وادبا ملتزما من الناحية السياسية وله قيمة ادبية عالية ، وبعد نشر هذا الكتاب اعلن ميلوش ان موضوعه هو تحليل الحيل الذهنية البارعة لاولئك المثقفين الذين يسعون الى التكيف ومسايرة الستالينية .

وفي ذلك الحين ظهرت رواية ميلوش الرائعة « وادي عيسى » في ١٩٥٥ ومن الجلي ان ميلوش كان يعالج نفسه وهو يكتب هذه الرواية لانه عبر بالشعر عن طفولته في ليتوانيا . ومثل هذه الرواية يتشوق كل اديب الى كتابتها خاصة وان الطفولة هي العالم الجميل البريء الذي يحلم به الانسان بعد . غير ان ليتوانيا هذه التي يصفها الشاعر ميلوش في هذه الرواية ـ موجودة في مكان ناء في نهاية العالم بين الغابات وبجانب الانهار العذبة وبعيدة عن جميع المدن . انها ببساطة مدينة تسلب لب القاريء ببساطتها وجمالها ورقتها . انها صورة مصغرة من الجنة .

الاستيلاء على السلطة

وهناك كتاب آخر يتحدث فيه عن ايام الحرب وما تلاها وهي رواية « الاستيلاء على السلطة » وليس من العسير ان نتعرف في هذه الرواية على عناصر الكتابة عن السيرة الذاتية . ثم تلت ذلك مؤلفات اخرى لميلوش منها القصائد والروايات والمقالات والترجمات فقد ترجم الى البولندية مقالات سيمون لي . ومن اجل ترجماته من الشعر البولندي الى الانجليزية سيحصل في عام ١٩٧٤ على جائزة « نادي بن » البولندي .

وبعد التغيرات السياسية في بولندا فقد الصراع السياسي فعاليته لدى ميلوش . وكانت اهم نقطة تحول في حياته هي زيارته للولايات المتحدة في عام ١٩٦٠ . وحيث انه كان معروفا بصفته متخصصا في الادب البولندي فقد ذهب لالقاء محاضرة بجامعة كاليفورنيا وظل بها عشرين عاما حتى يومنا هذا يعمل استاذا للادب البولندي . واثناء اشتغاله في كاليفورنيا كتب بعضا من اعماله الادبية ونشر اربعة دواوين للشعر اهمها ديوان « من اين تشرق الشمس ومن اين تغرب » ونشر عدة كتب جمع فيها مقالاته وكتابا عن قصة حياته تحت عنوان غريب وهو « بلدة اولرو » في عام ١٩٧٧ . والف لطلابه الامريكيين كتابا باللغة الانجليزية عن تاريخ الادب البولندي ، وهو كتاب يتجاوز من حيث حجمه ومن حيث اسلوب كتابته حدود وقيمة الكتاب الجامعي المألوف . وهذه المقالات عن الادب البولندي كانت بالنسبة لميلوش نفسه تمحيصا وتصنيفا لما هو في ادبه اصلي قومي محصور وما هو اوروبي وعالمي .

وبالتدريج اخذت قصائده ورواياته ومقالاته تحصل وتكتسب ذلك النوع من الشهرة الهادئة التي كان المعاصرون يحسدون عليها باسترناك . وكانوا يطلقون عليها اسم الشهرة السرية (دون ان يقصدوا معناها السياسي) . انها الشهرة التي تنتشر داخل دائرة محصورة من المعارف . الشهرة التي نادرا ما تصل الى اضواء المسرح الا انها شهرة اكيدة ومضمونة . ووضع النقاد تشيسلاف في صف اليوت بسبب كلاسيكيته ووضعوه كذلك في صف مونتاليو واونجارتي بسبب انغلاقه الخفي . وفي النهاية يعترفون بما لا يدع مجالا للشك ان ميلوش شاعر لا قرين معاصر له وانه فريد وحيد .

ومن حيث مؤلفاته الادبية يتبع ميلوش الادب البولندي ويتمتع بين قرنائه من الادباء والمثقفين البولنديين بسمعة مشرفة وخبرة عملية كبيرة . كما ان الامريكيين يقدرونه تمام التقدير . وتطبع الآن قصائد ميلوش بعد اجراء تعديلات مختلفة عليها في المقتطفات الادبية المختارة من الشعر البولندي التي تطبع في مختلف انحاء العالم . واصبح اليوم ميلوش الذي كان فيما سبق ينشر الكتيبات السياسية حكيما هادئا ومفكرا عميقا ونبيا ملهما في شعره . ■■

القاهرة ـ د . جمال الدين سيد محمد

معقول

× كنت احكي لحفيدي الصغير قصة الاميرة والضفدع .. وقلت عندما انقذ الضفدع الصغير كرة الاميرة الذهبية من البئر انها شكرته كثيرا وسمحت له بقضاء الليلة ونظرت الى حفيدتي في شك فسألتها : الا تصدقين هذه الحكاية ؟

فاجابت الطفلة : كلا .. واراهن ان امها ايضا لم تصدقها .



● القوازق .. هؤلاء الرحل ●

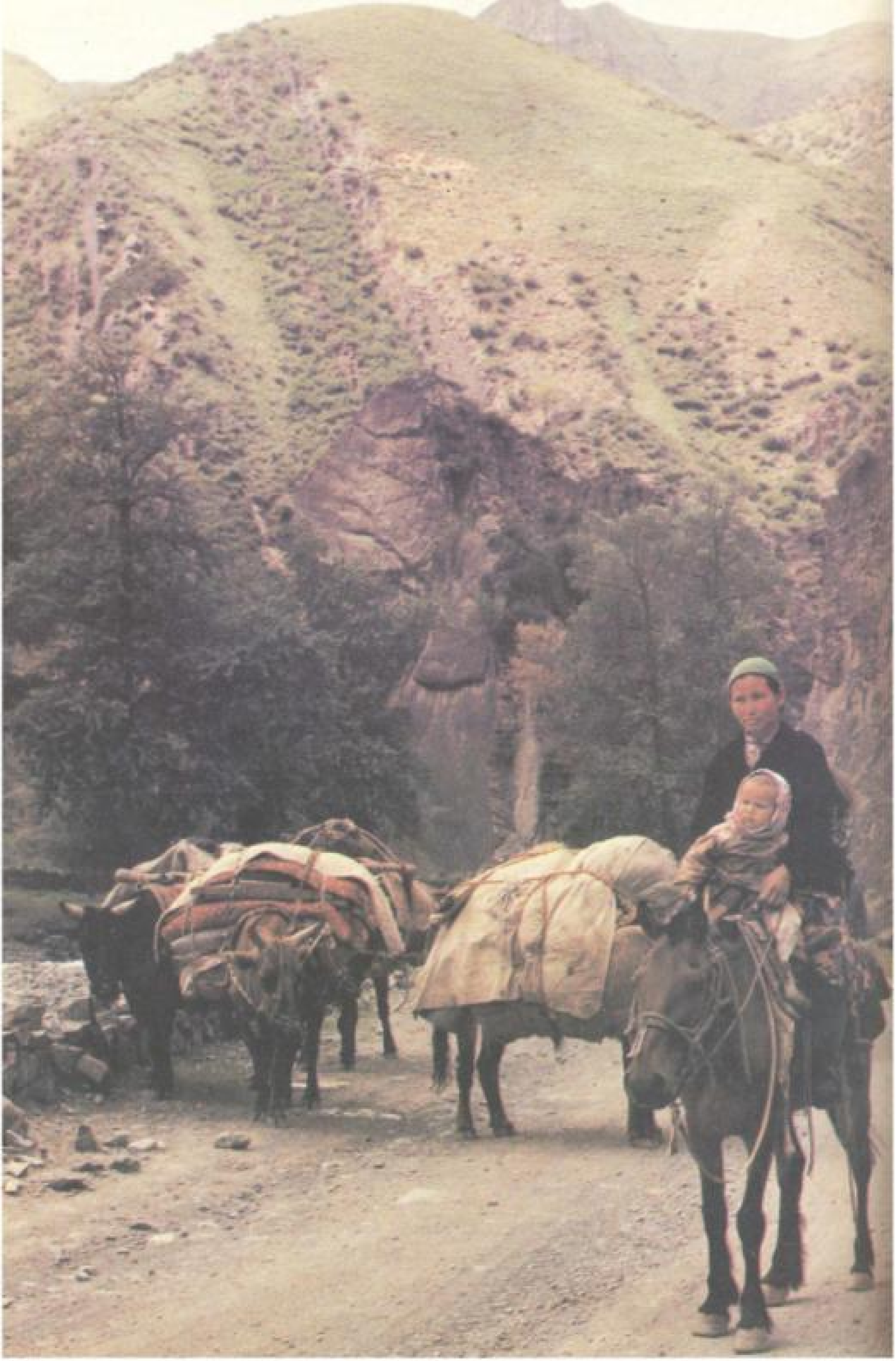
في بيوت مسلمي الصين ..

استطلاع : فهمي هويدي

تصوير : اوسكار متري

ـ خيام القوازق ، الراحلون ابدا ، وفي الصورة السفلى لقطة من الداخل لاحدى خيام القوازق ، مليئة بالنقوش الزاهية والمشغولات الدقيقة والجميلة





في مجتمع مسلمي الصين ترى وتسمع العجب .

يهون الامر اذا ما اختلط ما هو سني بما هو شيعي ، او ما هو عربي بما هو فارسي .. لكن الدهشة تتسرب الى الذهن عندما تكتشف ان بقايا الطرق الصوفية مازالت باقية الى الان ، وان اسلام المرء صار يتجسد في امتناعه عن اكل لحم الخنزير الذى بات هو الحد الفاصل بين الاسلام والكفر ، وان في قطاعات كبيرة منهم يحمل الرجل او المرأة اسمين ، احدهما اسم الصين والثاني اسم الدين ... و .. و .. و .. الى آخر تلك المعالم التي ترسم صورة بالغة العجب والحزن .

ولنبدأ القصة من اولها ......

فهم من أهل السنة في غالبيتهم العظمى يتبعون المذهب الحنفي ، لكن بصمات التأثير الشيعي واضحة في ثقافتهم وممارساتهم ! وهناك نسبة ضئيلة للغاية من الشيعة الاسماعيلية (يقال انهم ٢٠ الفا فقط) ينتمون الى قومية الطاجيك ، ويتوزعون على الحدود الصينية الافغانية .

لكن اكثر المسلمين لا يعرفون شيئا عن المذهب الحنفي ، ولا يدركون أن في ثقافتهم وممارساتهم خلطا بين ما هو سني وما هو شيعي ، ولا بين ما هو عربي أو فارسي . فقد أراحوا انفسهم ـ عن غير قصد ـ من الجدل الذى يمكن ان تثيره هذه القضايا .

وقد نشأت التأثيرات الشيعية والفارسية نتيجة الصلات القديمة ، التي كان لتجاور بلاد فارس دور كبير فيها . وهناك نسبة ملحوظة من الاثار الاسلامية الباقية حتى منذ عهد اسرة تانج (بين القرنين السابع والعاشر) تحمل كتابات فارسية الى جانب العربيه .

وقد مر بنا ان بعض كتب الفقه الحنفي المتداولة هناك ، مكتوبة باللغة الفارسية . ليس هذا فقط ، بل ان الصلاة وما يرتبط بها ، ومسميات الفرائض الخمس كلها فارسية . فالصلاة « نماز » والاذان « بانك » والوضوء « أبديس » . والصبح « بام بداد » . والظهر « بيشين » « والعصر « دكر » والمغرب « شام » والعشاء « خوفتن » .. وهكذا .

وهم يترقبون المهدى المنتظر (الامام الغائب) في جنوب الصين . ويفضلون اللون الاخضر لون عمامة « السادة » عند الشيعه ، وقد كانت الجبة الخضراء هى الزى المميز للفقهاء في الماضي ، ويحتفلون بذكرى السيدة فاطمة ، ويعظمون الامام (الذى يرتبط باسم علي بن ابي طالب) اكثر من لقب الخليفة ، فيعتبرون الأستاذ اماما ، وتلاميذه خلفاء .

الأغرب من ذلك انه لا تزال بينهم بقايا للطرق الصوفية ، وكان ابن بطوطة قد اشار الى وجود هذه الطرق عند زيارته للصين قبل ستة قرون . وهذه البقايا متمركزة في مناطق تجمع المسلمين ، سينكيانج في الشمال الغربي التي تضم اكبر كثافة سكانية مسلمة في الوقت الراهن . ويونان في الجنوب ، التي كانت معقل النشاط الاسلامي في الماضي ، قبل تفريغها من سكانها .

خوفية وجهرية

لا يزال هناك من ينتمي الى الطريقة الخوفيه (القريبه من النقشبندية) ، والطريقة الجهرية (الاقرب الى القادرية) . الخوفيه ، الذين يتلون القرآن الكريم بصوت منخفض ، وهم موجودون في قانصو وسينكيانج .

والجهرية ، الذين يقرأون القرآن بصوت عال ، ويعظمون الاولياء ويقيمون الاضرحة او المزارات



حياتهم شاقة ، ولكنهم اعتادوها ، هم هنا ينقلون الأخشاب
عبر مجرى الماء ، بينما تتحمل الخيول اكثر العبء

لشيوخهم ، وهم موجودون في نينج شاه وقانصو ، واشهر مزاراتهم في قرية شاجو بمقاطعة قانصو . وهناك قرية باكملها تتبع الطريقة الجهرية في مقاطعة يونسان الجنوبية ، اسمها طاهوى سون ، اوسوق هوى الكبير ، وهوى قوميه المسلمين الاشهر في الصين .

وغير الخوفيه والجهرية فهناك السلفيون والمحدثون .

وكل من هذين الوصفين له مدلول مختلف عما هو معروف في عالمنا العربي . فالسلفيون او القدامى هم المتمسكون بكل التقاليد القديمة والمتوارثة ، مثل قراءة القرآن باجر ، والتلحين في التلاوة والصوم على التقويم الصيني ، غير مظاهر اخرى تتعلق بصلاة الجنازة ورفع الاصبع اثناء قراءة الشهادة في الصلاة ..

اما المحدثون ، وهم امتداد « للاخوان » الوهابيين واطلق عليهم السلفيون ذلك الوصف للتشهير بهم ، فهم ضد الاضرحة ، وضد التدخين ، وضد ارتداء ثياب الحداد ، ومع الصوم بناء على رؤية الهلال ، وقراءة القرآن بغير اجر وبغير تجويد .

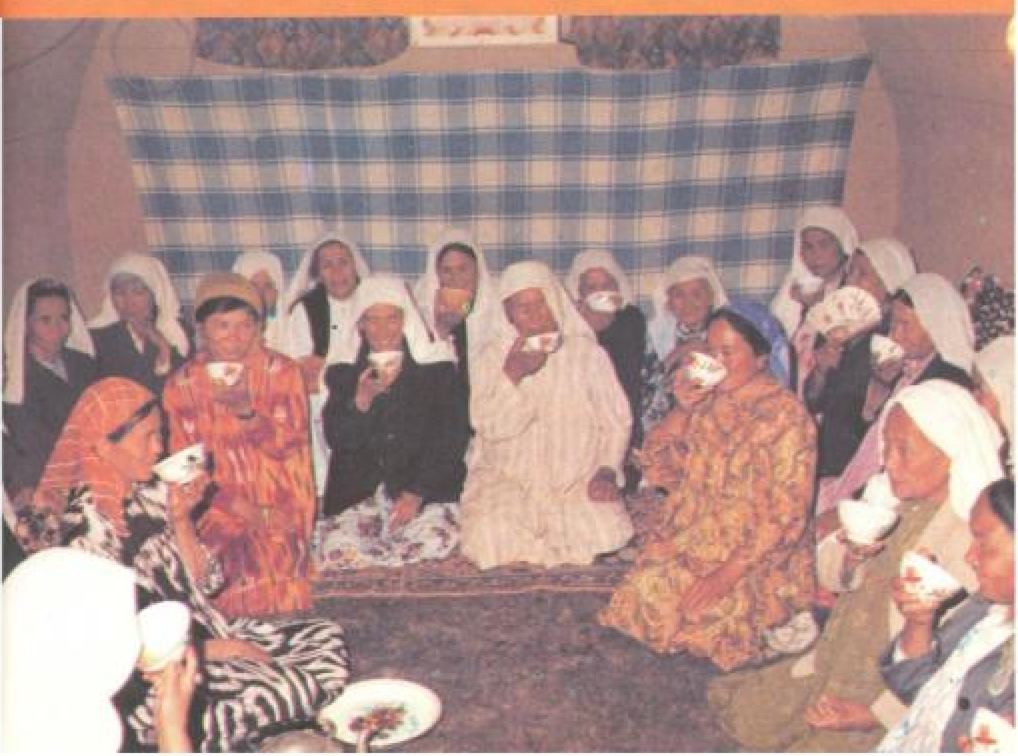
وفي ولايات ومحافظات الشمال الغربي أيضا تنتشر الأضرحه ، التي حطم الكثير منها أثناء الثورة الثقافية . لكن بعض المسلمين لا يزالون يتعلقون بها .

ففي بلدة جيرى تشيه مزار شيد باسم الشيخ صوفيان . واشهر الاضرحه في كاشغر باسم « حظرت ابا جوجان . وفي محافظة كوشار مزار للشيخ غريباني ، وفي طورفان ضريح توبو غوخوجان الذى هدم ولم يرمم والذى يقام له « مولد » في ابريل من كل عام . والى هذه الاضرحة وغيرها يتوافد المسلمون باستمرار ، حيث يفعلون بالضبط كل ما يفعله عامة المسلمين في العالم العربي والاسلامي ، وما يستنكره الدين وتنهى عنه الاحاديث النبوية !

•



ـ في عرس أورموش ، الرجال يدعون الله للعروسين ، بعد خطبة النكاح ، والنساء يشربن الشاي « في صحة » العروسين





صورة تذكارية للعروس ـ تتوسط الواقفات ـ امام صندوق ثيابها ، وهي في الطريق الى بيت الزوجية



فرحة الاهل ، بالرقص والغناء والموسيقى أمام بيت العريس

اسم الصين واسم الدين

وفي قاموس اللغة الصينية المتداولة فان الاسلام يشار اليه بتعبير : تشنج تشن ، او الصفاء الحق . فهم لا يعرفونه بذاته ، انه دين الاسلام مثلا ، ولكنهم يعرفونه ببعض من صفاته وهي طريقة في التعبير متأثرة بتعاليم كونفوشيوس القديمة ، التي تخاطب الناس بلغة القيم الاجتماعية والسلوكية ، دون ان تكترث بالغيب او بما وراء الطبيعة . وهو اول ما يتبادر الى الذهن اذا استخدمت كلمة « دين » مثلا .

والشائع بين المسلمين أن أعمدة الدين الاربعة هم : الامام والخطيب والمؤذن وخادم المسجد . والامام غير الخطيب في كثير من المساجد . بحيث يلقى الخطيب خطبته يوم الجمعة مثلا ، ولكن الامام هو الذي يقوم ليؤم الصلاة .

والامام له وضع خاص ومتميز في مجتمعات المسلمين . وله دوره عندما يولد الشخص ، وعندما يتزوج ، وعندما يموت ، وحتى تخرج جنازته ويدفن !

فمجرد ان يولد الطفل يدعى الامام ، ليتلو الى جواره بعضا من آيات القرآن الكريم والادعية . ثم يلقى « البانك » - الاذان - في اذنه ، حسب التقليد الشائع عند المسلمين ، فيكون اول ما اخترق اذنه هو اذان الصلاة . ثم يقوم الامام باختيار اسم للمولود ذكرا كان ام انثى .

وفي قومية هوى - المسلمون ذوو الاصول العربية والفارسية - فان المسلم له اسمان كقاعدة ، اسم الصين واسم الدين ، كما يقولون . الأول هو الاسم الرسمي ، المدون في شهادة الميلاد والاوراق والوثائق الرسميه ، وهو عادة ذو منطوق وتركيب صيني ، في شكله على الاقل اما اسمه الديني فهو احد الاسماء المتداولة في مجتمعات المسلمين ، محمد او محمود او علي او حسين ، او فاطمة ومريم وسليمة وخديجة .. الى آخر تلك الاسماء . وهم الاكثر اقبالا على الاسماء المعروفة في سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد مر بنا من قبل أن المسلمين الذين ينتمون الى هذه الاصول العربية والفارسية ، قاموا فوق ذلك بتصيين » الأسماء العربية ، حتى أصبحت محمد « مو » ومحمود « ما » ويحيى » « يي » ونصر الدين « نا » .. وهكذا .

هذا بين مسلمي قومية هوى . اما المسلمون ذوو الاصول التركيه الذين يعيشون في الشمال الغربي (سينكيانج) فللواحد منهم اسم اسلامي صريح ، هو وابوه وعائلته ، واسمه العرفي هو اسمه الرسمي المسجل في شهادة الميلاد ، وكافة وثائقه . وليس هناك اسم للدين وآخر للصين ، او قل ان اسم الدين هو السائد ، ولا مكان لاسمه الصيني في تلك المناطق .

وتفسير هذه الظاهرة مفهوم . لان هؤلاء المسلمين ينتمون في اصولهم الى الارض التي يقيمون عليها ، التي كانت تركستان في الماضي ، بل ان العنصر التركي هو الاصل في قبائل وسط آسيا . وهم من هذه الناحية افضل حالا من اخوانهم « الهويين » ، اذ لم يكونوا مضطرين الى المجاملة والتخفي والمداراه . لان هذه الخلفية التاريخية منحتهم شجاعة اكثر في اعلان اسمائهم الاسلامية صريحة وبغير تحريف . يضاف الى ذلك انهم يعيشون منذ مئات السنين وحتى الآن في مجتمع اسلامي ، بعكس الهويين ، الذين قدموا على غير ارض او موطن ، فانتشروا وسط الاخرين ، وتاهوا - او غرقوا - في المحيط الكبير .

بسبب هذه الملابسات ، فان مسلمي الاويغور لا يحملون فقط اسماء صريحة ، ولكن ظاهرة وجود المآذن فوق مساجدهم ملحوظة ايضا ، على عكس مساجد المسلمين في بقية انحاء الصين .

وتقليديا فان الطفل المسلم يختتن بعد اربع سنوات . مستشفيات المدن تقوم بهذه العملية ، وفي القرى يفضلون ان يقوم بها واحد من ذوى الخبرة والمجربين . مثل « حلاق الصحة » في بلادنا . وفي العادة فانه بعد العملية تطعم الام طفلها بيضا بالسكر ، استرضاء له ، وتمسكا بتقليد لا يعرف مصدره .

وفي سن الخامسة يلقن الطفل الشهادتين وفاتحة الكتاب . ومثل هذه الاعمال « الهامشية » يقوم بها الوالدان ، لكن الامام يظهر على المسرح بعد ذلك في مرحلة تعليم الطفل وتحفيظه القرآن ، وهو ما كان يتم في المسجد حتى فترة ما قبل الثورة الثقافية ، وتقام له احتفالات التهنئة والتكريم .

خطبة النكاح

وللامام دور آخر في زواج المسلم او المسلمة .

وتقليد زواج المسلم من فتاة تنتمي الى قوميته ، وليس دينه فقط ، هو القاعدة . ونظام الزواج المدني هو السائد طبقا للقوانين الصينية بطبيعة الحال . لكن

المسلمين يصرون على ان يعقدوا عقدا شرعيا يتولاه الامام بنفسه ، ويسمونه في شمال غرب الصين « الاجابة » لان العروس تجيب فيه بالموافقة على الزواج .

فبعد التسجيل في مكتب الزواج . يقيم الاهل احتفالا في المنزل يدعى اليه الاقارب والاصدقاء ، ويتصدره الامام ، الذي يبدأ بقراءة بعض الأدعية بصوت اقرب الى الغناء ، ثم يتلو آيات من القرآن الكريم ، ويقف ليلقي « خطبة النكاح » ، التي يفترض انها موعظة للزوجين اللذين يتزوجان على سنة الله ورسوله .

وبعد الخطبة يتوجه الامام الى العروس ويسألها هل قبلت ؟ عندئذ يتعين عليها ان ترد بكلمة « كردم » وهي كلمة فارسية معناها قبلت !

سألت امام مسجد سيأن الشيخ محمد يونس : ، كم تبلغ قيمة المهر ؟

قال : المسأله رمزية طبعا . وبعد « التحرير » صار المهر يتراوح فيما بين ٢ و ٥ يوانات (الدولار الامريكي يعادل يوان وربع) . وقد كان العريس في الماضي يهدى عروسه خاتما ذهبيا ولكنه يهديها الآن ساعة ، لانه لا توجد محلات للمجوهرات في الصين ، والمصنوعات والمشغولات الذهبية خواتم او حلقان تباع فقط للاجانب ، وفي الاسواق الحرة ، واضاف مرافقي ، وهو من يونان اصلا ، انهم في يونان يقدمون ٢ يوان فضه مهرا للعروس .

وتتم حفلات الزواج بهدوء وبغير صخب في بيوت المسلمين بمختلف انحاء الصين ، باستثناء الاطراف ، مثل الشمال الغربي . حيث العرس فيها شرقي كالذي تعرفه واكثر !

وقد حضرت زفافا من هذا النوع في « طورفان » بمقاطعة سينكيانج ، كان العريس فيه اسماعيل عبد الرقيب والعروس مريم حبيب الله ، والاثنان من اسرة واحدة ، وقومية واحدة (الاويغور) وفي « فيلق » زراعي واحد .

كان ذلك يوم احد ، وفرصة العطلة دفعت بالناس الى الشوارع وملأت بهم الاسواق ، حتى الذين في القرى ، جاءوا في قوافل بالعربات التي تجرها الحمير والخيول أحيانا . كل أسرة فوق عربة ، الجدات وضعن خمارا ابيض غطى الرأس والكتفين ، والامهات عصبن رؤوسهن بمناديل ملونة . والفتيات عقدن المنديل الملون في آخر ضفيرة الشعر ، وكبار السن كلهم ملتحون ، ولا اثر للبدله الصينية الزرقاء .

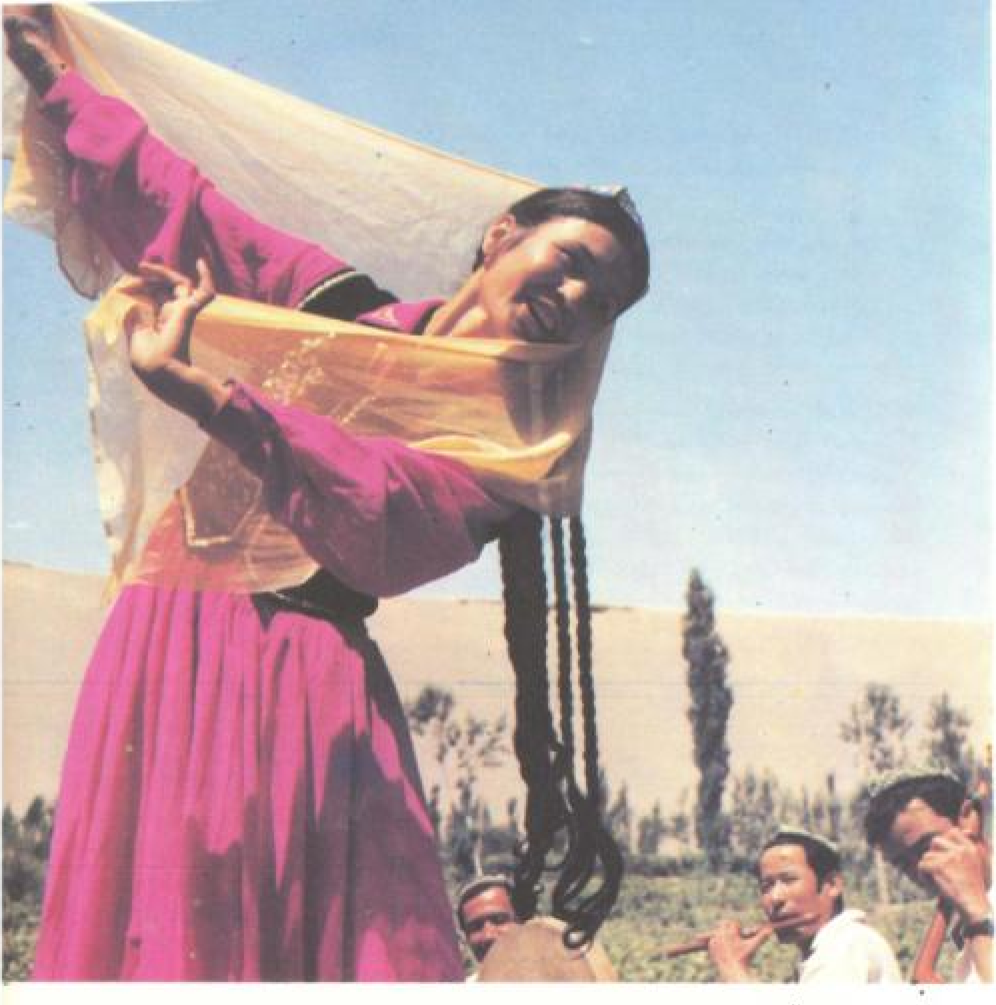
ولم يكن الأحد يوم عطله فقط ، ولكنه وافق فترة انتهاء موسم « المشمش » الذي جاء بمحصول جيد ، منافسا محصول العنب والتفاح الغنيين في طورفان ، وربما كان ذلك سببا في تعدد حفلات العرس في ذلك اليوم .

موسيقى الاويغور كانت تتردد اصداؤها القوية في سماء القرية . والعازفون وقفوا امام البيت ، « الطبلات » وضعت فوق مقطورة معاره من الكوميونه ، وبقية الآلات المحلية تناثر حاملوها ما بين المقطورة وارضية الشارع . وناس الحي اجتمعوا ، يتنافسون في الرقص على الانغام . رجال وعجائز وشبان وفتيات صغيرات ، جميعا تناوبوا الرقص في الحلبه التي يكسوها التراب . دامت رقصاتهم طوال اليوم ، من الصباح حتى دخل الليل ، في بيت العريس ، وحتى الظهر في بيت العروس ، أي حتى حان موعد رحيلها الى بيت زوجها .

البيت كان مكدسا بالبشر ، النساء في جانب والرجال في جانب . مع الرجال جلسنا ، حيث قدم فنجان شاي الى الامام حاجي امين بن اسلام ، اكبر الشيوخ سنا في البلدة ، رشف الرجل منه رشفة ثم دار الفنجان على الجميع ، كل واحد اخذ رشفه ، تيمنا وتبركا ، كيف ؟ لايهم ، فبهذا تقضي التقاليد .

قال الامام موعظته ، وانشد ، ورفع كفيه بالدعاء . ثم القي خطبة النكاح ، وناب الابوان عن العروسين ، اللذين احتجبا حياء وخجلا . وجاءت اطباق الارز واللحم ، حيث وضعت امامنا ونحن جلوس فوق « القرن » سرير الاسرة المبني بالطوب والذي يجنب النائمين شتاء المنطقة القارس . في الختام وضع الاب « فوطة » صغيرة بحجم المنديل أمام كل واحد من قراء القرآن ، الذين زاد عددهم على عشرة ودس في كل فوطة « يوان » ، اجرا لهم ، وهو ما يشجعه القدامى (السلفيون) ويرفضه المحدثون .

غادرتهم والرقص لم يتوقف امام المنزل ، بينما اصوات المغنيات بالتركية تتردد رخيمة حلوة ، لا يقطع وقعها سوى دقات الطبول ، الاقرب الى طبول الحرب ، لان الرقص الشعبي عند الاتراك هو في الاساس نوع من القتال الناعم !



ـ الويغور محبون للغناء والرقص ، في كل مناسبة وفي كل مكان ، يرقصون بثيابهم التقليدية مرددين اغانيهم ذات المفردات التركية الغلابه





وعندما ينصرف الامام ، فان ذلك ايذان بانصراف المدعوين ، واشارة الى الاهل والاصدقاء القريبين جدا بان يرفعوا التكليف ، ويرقصوا ويغنوا بغير حرج .

وفي الوفاة ايضا

وكما هو « نجم » حفل الزواج ، فان الامام يظل نجما في الوفاة ايضا !

الغسل يتم تحت اشرافه ، ويتولاه خادم المسجد ، الذي ياخذ بعضا من ملابس المتوفى كجزء من اجرته وفي الجنوب توضع على رأس الميت عمامة بيضاء كتب « لا اله الا الله » وفي الشمال تكتب العبارة على قبره . ويعطر الكفن بماء الورد في الاغلب ، ثم يوضع في نعش مصنوع من خشب الجوز او الزنك المطلي باللون الاصفر الغامق . وعندما يخرجون الى الجنازة ، فان الامام يقف في صدارتها ، واهل الميت يعصبون رؤوسهم بطاقيات او قطع من القماش الابيض . ويوضع الجثمان في لحد مستطيل الشكل ، ربما نثر على ارضيته المسك والعنبر . ويتم الوضع بحيث يكون الرأس متجها الى الشمال ، والقدمان الى الجنوب ، والوجه مقابل للكعبة الشريفة .

ويحتفل بذكرى الميت في اليوم الثالث لوفاته ، ثم بعد اسبوع ، وبعد اسبوعين ، وفي الذكرى الاربعين . وتقام له الذكرى السنوية ، وعندما تمر عشر سنوات يقام عزاء كبير ، يتناوب فيه القراء تلاوة القرآن ، وهو ما يتكرر بقدر اقل في كل من هذه المناسبات .

وفي الاعياد تتم الاحتفالات في افنية المساجد . واحتفال مسلمي الجنوب (يونان) بعيد الفطر اكبر من احتفالهم بالاضحى ، على عكس مسلمي الشمال ، الذين يهتمون اكثر باحتفالات عيد الاضحى . وفي الحالتين يكون الاحتفال بالغناء ، والرقص ثم الولائم .

والتقليد في الشمال ان كل سبعة من الرجال والنساء يذبحون بقرة ، وكل بالغ يذبح ماعزا ، يسمونها « قربة » . وذبح الابقار والماعز يتم في فناء المسجد ، بعيدا عن مكان الصلاة .

وفي العادة يحتفل بعيد الفطر ليوم واحد ، اما في عيد الاضحى فيحتفلون لمدة ثلاثة ايام (العطلة الرسمية يوم واحد) وابتهالاتهم لا تتوقف في ذكرى الاسراء والمعراج ، اما في ليلة القدر فانهم لاينامون الليل !

ويوم الجمعه هو يوم الامام بغير منازع ، وان كان الامر يتوقف على موقع المسجد ومرتبته ، اي ما اذا كان المسجد في احدى مناطق الكثافة السكانية الاسلامية ، ام فقط في احد احياء المسلمين بالمدن . ثم ما اذا كان « المسجد الجامع » اي الرئيسي ، ام مسجدا عاديا . هذه كلها اعتبارات تؤثر في حجم « جمهور » المسجد ، وجمهور الامام بالتالي .

وليس هناك احصاء معلن لعدد المساجد ، وان كانت مجلة « بناء الصين » الرسمية قد ذكرت في عددها رقم واحد لسنة ٨٠ ان ١٩٠٠ مسجد اعيد فتحها في سينكيانج وحدها بعد الثورة الثقافية ، اي فيما بين سنتي ٧٨ و ٨٠ . وحتى اذا افترضنا ان هذه هي كل مساجد المقاطعة ، فان الرقم يظل كبيرا ولا يستهان به . والمرجح ان مساجد سينكيانج لم تفتح كلها ، لان السياسة المتبعة تقضي بان يتم اعادة فتح المساجد تدريجيا ، لا سيما وان بعضها ـ في مناطق الكثافة الاسلامية على الاخص ـ تعرض لعمليات هدم اثناء الثورة الثقافية ، وترميمه يحتاج الى وقت ليس قصيرا .

في المطعم الاسلامي

ما من مسئول لقيته في بكين وشنغهاي ، وناقشته في موضوع المسلمين الا وحاول ، بعد سب عصابة الاربعة ، ان يدلك على التزام الحزب والدولة بسياسة حرية الاعتقاد ، بثلاثة اشياء : ان المساجد يعاد فتحها تدريجيا ، وان المطاعم الاسلامية منتشرة في كل مكان ، وان تقاليد تشييع موتى المسلمين ودفنهم تؤخذ بعين الاعتبار .

وكنت مستعدا لفهم اهمية موضوع المساجد ، وموضوع دفن الموتى في بلد اعتاد ان يحرق موتاه ، لكن الذي ظل مستعصيا على فهمي في البداية هو مسألة المطاعم الاسلامية ، متجاوزا مؤقتا عن علاقة حرية الاعتقاد بدفن الموتى ، وهو ما لا يحتاج لاكثر من قطعة ارض في الخلاء ، تقام عليها قبور المسلمين .

ولاحظت ان برنامج زيارتي للمدن الثلاث الاساسيه بكين وشنغهاي وكانتون ، تضمن فقرة ثابته هي : عشاء في مطعم اسلامي . واضيفت الى البرنامج في شنغهاي زيارة مصنع للحلويات الاسلامية . وكانت هذه هي المرة الاولى التي اسمع فيها عن حلويات اسلاميه واخرى غير اسلامية .

وبمنطق ان الاسلام يخاطب القلب والعقل قبل البطن ، ظللت رافضا فكرة الربط بينه وبين المطاعم

والحلويات ، حتى تبين لي ان للمسأله ابعادا عميقه ، ودلالات بالغة الاهمية .

ذلك ان قضية الطعام تشكل منذ قرون عديدة احدى عناصر الخلاف بين المسلمين وبين غيرهم من الصينيين . فالصينيون من قومية الهان ذات الاغلبية الساحقة (٥٠٠ مليون) فانهم ، ربما لاعتبارات تتعلق بانهم يعيشون في حالة طوارىء دائمة بسبب العدد ، لا يمتنعون عن اكل شيء ، في البر والبحر والجو ، من الابقار والاغنام الى الحمير والكلاب ، والخيول ، الى القطط والحيات حتى ان المدن الصينيه ربما كانت الوحيدة في العالم التي تخلو شوارعها من القطط والكلاب !

وازاء ذلك ، فقد كان طبيعيا ان يستقل المسلمون بذبائحهم ومطاعمهم ، حتى اشتهر المسلمون بانهم يشتغلون بالجزارة وصناعة الاطعمه ، حتى اصبح من المقولات التي يسخر بها الآخرون من المسلمين ترديدهم « ان المسلم لا يملك الا سكينين ، واحدة لذبح الابقار ، والأخرى لتقطيع الحلوى » !

وارتبطت هذه الصفات بالمسلمين ، حتى صار الحي الذي يسكنون فيه بالعاصمة بكين يعرف باسم حي « السلخانة » ، بينما الشارع الرئيسي في الحي ، الذي يقع فيه مقر الجمعية الاسلامية الصينية ، يطلق عليه رسميا « شارع البقر » !

وتأصل هذا الموقف في اعماق مجتمع المسلمين ، حتى اصبحت قضية الطعام ، ولحم الخنزير بوجه اخص ، نقطة خلاف جوهرية بينهم وبين الآخرين .

وبسبب غيبة الفهم الصحيح للاسلام ، وبسبب عملية التجهيل المتصلة ، فقد تبلور ايمان المسلم وتعبيره عن هذا الايمان في مسألة الامتناع عن اكل لحم الخنزير ، بالدرجة الاولى . ونما هذا الفهم بمضى الوقت ، حتى اصبح المسلمون مستعدين لقبول اى شيء من المسلم ، الا ان ياكل لحم الخنزير .

وبات « الخنزير » هو الحد الفاصل بين الايمان والكفر ، في مناطق وسط الصين !

فآكل الخنزير « كافر » ، يسبه المسلمون ويهينونه ، ويرفضون تزويجه من بناتهم . واذا امتنع عن اكله ، وفعل اى شيء آخر فهو عاص فقط !

والمطاعم الاسلامية يقدم اكثرها البيرة والويسكي والشمبانيا ، لكنها تمتنع عن اكل ذلك الطبق الملعون : الخنزير !

شكرا للخنزير !

المدهش في الامر ، انه بسبب الخنزير ، حافظ المسلمون من قومية هوى على انفسهم ، ولم يذوبوا في الآخرين !

وهي مفارقه غريبة ، ان يسهم الخنزير الذي لا يطيق المسلمون سماع اسمه ، حتى طلب قائد الجيش الاحمر من جنوده اثناء مسيرة ماو الكبرى ، الامتناع عن نطق الكلمه امام المسلمين تقديرا لشعورهم ، هذا الخنزير اسهم في حماية مجتمع الهويين ونقاء عرقهم !

ذلك أن المسلمين من أبناء قومية هوى يرفضون الزواج من بنات الآخرين ، كما انهم يرفضون تزويج بناتهم لشبابهم ، لا لشيء الا بسبب تعاطيهم لحم الخنزير ، وحالات الزواج النادرة التي تتم لا يقبل بها الاباء الا اذا تعهدت الزوجة او الزوج من قومية الهان بالامتناع عن اكل الخنزير . والا فالقطيعه الأبدية تستمر بين الاهل والابن الذي يتزوج متجاوزا عن هذا الشرط .

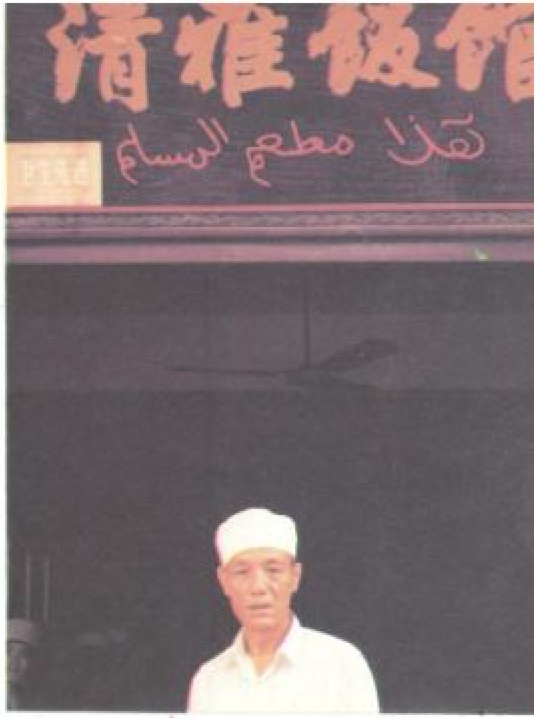
وكان نتيجة التطبيق الصارم لذلك الشرط ، ان اقيم من الناحية العملية جدار سميك عزل المسلمين الهويين عن غيرهم من قومية الهان عبر التاريخ ، الامر الذي حفظ لهؤلاء المسلمين كيانهم وانقذهم من الذوبان والغرق في بحر الملايين من شعب الهان الذي يحيط بهم ، والمؤهل لابتلاعهم خلال سنوات قليلة ، اذا سقط هذا الحاجز الذي يحتمون به .

لقد ساير المسلمون الهويون تقاليد شعب الهان في عمارتهم وأزيائهم وعوائدهم كلها ، لكن الشيء الذي لم يفرطوا فيه واصروا على رفضه هو امتناعهم عن لحم الخنزير .

وكما تبلور فهم هؤلاء للتعبير عن الايمان والاسلام في هذه الحدود ، فقد اعتبر الحزب والحكومة ان الاهتمام البالغ بمطاعم وحلويات المسلمين ، هو احد اعمدة سياسة « حماية الحرية بالدينية » فضلا عن ان هذا التوجه يعد آمنا ومريحا من وجهة نظر اى سلطة . فاذا انتقل « النشاط » الاسلامي الى المطاعم والحلويات ، فتلك حدود مقبولة ومحتملة ، وربما كانت مطلوبة ايضا !

لذلك فان كل حي او شارع يتواجد فيه مسلمون ، لابد ان يتوفر مطعم اسلامي او اكثر تثبت على واجهته لافتة مكتوب عليها بالصينية كلمتا « تشن جان » ، اى الله العظيم . وحيث تكتب هذه الكلمات ، دون اى ايضاحات اخرى فلابد ان تكون اشارة الى وجود مطعم





أ ـ مطعم المسلم والدكان الاسلامي للحلاوة والفطائر في
بكين .. بلا تعليق







ب ـ وجه أوزبكي ، وأسرة من الاوزبك في جلسة العصر بعد نهاية عمل اليوم

جـ ـ تنتشر صناعة السجاد في غرب الصين ، والويغور يعتبرون سجادهم منافسا للسجاد الصيني



اسلامي . وبالاضافة الى ذلك فان بعض هذه المحال تضيف كتابات بالعربية ، امعانا في الاعلان عن الالتصاق بالاسلام ، مثل : الدكان الاسلامي للحلاوة والفطائر ـ وهذا مطعم المسلم ، ومطعم السلق والخبز بلحم البقر والغنم للمسلم ، الى آخر مثل هذه العبارات . حتى بلغ عدد المطاعم التى من هذا النوع ٣٠ مطعما في بكين ، و٥٥ في شنغهاي .

وأيضا فإن أي وحدة عمل فيها عشرة مسلمين فاكثر ، يجب ان يخصص لهم مطعم خاص منفصل عن مطعم الاخرين ، لايقدم لحم الخنزير ولا يطبخ بشحمه .

ولضمان الذبح الشرعي ، فان الجمعية الاسلامية الصينية وفروعها في المدن ، توفد موظفا من قبلها يوميا الى المسلخ ، ليقرأ على كل ذبيحه عبارتي « بسم الله الرحمن الرحيم ـ الله اكبر » ، المنصوص عليهما في شعائر الذبح .

ولقد لقيت واحدا من هؤلاء في كانتون ، وهو موظف في الاربعين من عمره ، اسمه الاسلامي عبد الله واسمه الصيني « خومين » ، وهو يتقاضى راتبا شهريا قدره ٥٠ يوان (حوالى ٣٥ دولارا) مقابل وظيفته هذه ، التي لا يمارس غيرها . يذهب الى مسلخ المدينة كل يوم في الساعة الثامنة صباحا ، ليقف امام كل ذبيحه ويردد اثناء قطع رقبتها : بسم الله الرحمن الرحيم الله اكبر .

وهو يقضي ساعتين في عمله هذا يوميا ، ثم يعود الى مقر الجمعية الاسلامية ، « ليستريح » بعض الوقت من عناء مهمته ، ويعود الى منزله مرتاح الضمير !

كم عددهم ؟

بقي بعد ذلك سؤال ! كم عدد المسلمين في الصين ؟

ربما كان هو اكثر الاسئلة شيوعا ، بين مايطرح من استفهامات حول اوضاع المسلمين هناك .

ورغم كثرة ترديد السؤال بين الكتاب والباحثين في الشرق والغرب ، فان احدا لم يستطع أن يعثر له على اجابة محددة ، حتى جاءت التقديرات متضاربة في كل مرة ، بحسب اجتهاد كل باحث ، وتفاؤله او تشاؤمه ، وربما بحسب مصلحته وغرضه .

وازعم ان هذه الصفحة من ملف مسلمي الصين ، هي من اكثر صفحاته ابهاما وغموضا ، وان لم تكن اكثرها اهمية او خطرا . فثمة اعتبارات عملية تحول دون الوقوف على حقيقة عدد المسلمين هناك لعدة اسباب في مقدمتها ان الاحصاء في الصين لايعني بتصنيف الناس بحسب دياناتهم ، وانما يصنفهم فقط تبعا لقومياتهم التي ينتمون اليها ، وهو امر ينسجم مع منطق دولة لا دينية منذ فجر التاريخ ، وقبل الشيوعية بقرون بعيدة . وذلك يعني انه ليس هناك رقم رسمي يحدد عدد المسلمين ، وانما ثمة تقدير يقوم على احصاء تعداد القوميات التى ثبت انحيازها للاسلام منذ قرون عديدة .

في مصلحة شئون الاديان ببكين حاولت ان اتعرف على التقديرات الرسمية . قال لي رئيس المصلحة شاوشين فان ـ وهو بدرجة وزير ـ انه لايوجد احصاء دقيق لاتباع كل دين ، « فالايمان في القلب ولا يمكن احصاؤه » . ولكن ثمة تقديرات تقريبية مستقرة في ابحاث وعند خبراء شئون الاديان ، وهى تشير الى أن في الصين « خمسة اديان » ، يمكن ترتيبها بحسب عدد اتباع كل منها على النحو التالى :

ـ البوذية (دعوة الانعتاق الذاتي تخليصا للجنس البشرى) وقد كانت اكبر « الاديان » اثرا في القديم ، منذ قدمت من الخارج (الهند) . والبوذيون أرقامهم غير معروفة ، ولكن عدد رهبانهم في الصين عشية التحرير كان نصف مليون راهب وراهبة .

ـ « دين » التاو (صوفية صينية تدعو الى عبادة الروح والطبيعة والآلهة) ، وهؤلاء ايضا لاتعرف لهم عددا سوى ان كهنتهم عشية التحرير كانوا في حدود ٨ الاف كاهن وكاهنة . غير ان اعدادهم في تناقص مستمر .

والبوذية والتاوية هما تقليديا ديانتا قومية الهان ، ذات الاغلبية الساحقه في الصين .

ـ الاسلام ، والمسلمون وصل عددهم في سنة ٨٠ حسب تقديراتنا ، الى ١٣ مليون نسمة .

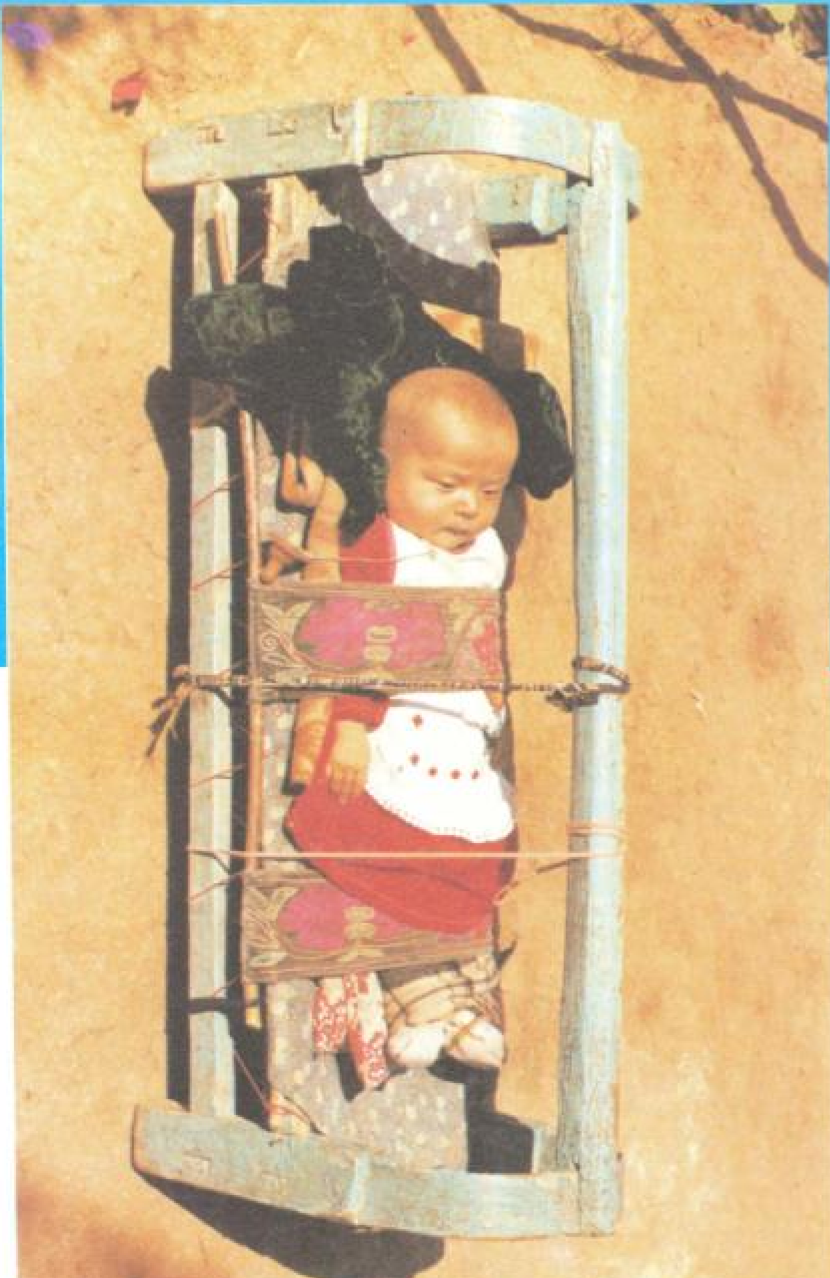
ـ الكاثوليكيه ، وتشير احصاءات عام ١٩٤٩ الى انهم كانوا في ذلك الوقت ٣ ملايين نسمة .

ـ البروتستانتيه : واتباعها في تقديرات عام التحرير في حدود ٧٠٠ الف نسمة .

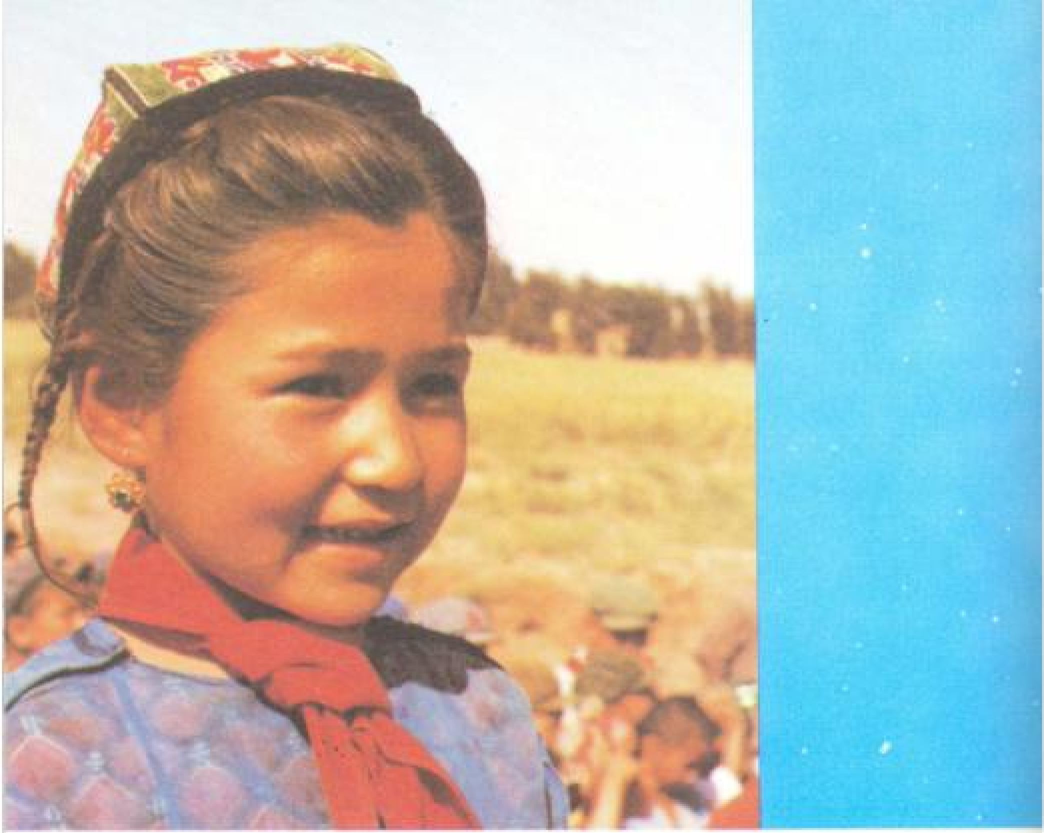
وقال ان لمختلف الاديان منظماتها الدينية الوطنية : الجمعية البوذية الصينية ، والجمعية التاويه الصينية ، والجمعية الاسلامية الصينية ، والجمعية الكاثوليكية الوطنية الصينية ، والهيئة الوطنية للكنائس البرتستانتيه .



الاوزبك ، ثيابهم والحانهم وآلاتهم الموسيقية واحدة ، في الصين وجمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية .



في هذا المهد الخشبي واليدوي البسيط يقضي الطفل شهور عمره الاولى بين مسلمي غرب الصين



عائدة من المدرسة في تورفان واسرة ذاهبه الى السوق
يوم الاحد لقضاء حاجاتهم من مركز المدينة



ثم اضاف ان اليهودية اندثرت من الصين ولم يعد لها وجود الآن . وقد كان اليهود قلة من الأجانب لاتذكر متمركزة في شنغهاي . منذ كانت معقلا لرأس المال الأجنبي ؛ كان لهم كنيس في المدينة . هدم الآن)

١٥ مليونا .. ربما !

متغاضيا عن خلطه بين ماهو دين سماوى وما هو ابتكار وفلسفات من صنع البشر ـ اذ الامر سيان عند من لا يؤمنون بالله ـ وعن اعتباره الكاثوليكية دينا متميزا عن البروتستانتيه . قلت له :

فيما يتعلق بعدد المسلمين ، فان رئيس الوزراء شواين لاى اعلن اثناء مناقشات مؤتمر عدم الانحياز الذي عقد في باندونج باندونيسيا عام ٥٤ انه يتكلم باسم عشرة ملايين مسلم ، وكان تعداد الصين وقتئذ ٦٠٠ مليون نسمه . واذا سلمنا بصحة هذا التقدير وقارنا بين نسبة الزيادة في اعداد المسلمين ، وبين نسبتها في مجموع الصين ، فاننا سنكتشف خللا بحاجة الى تصحيح .

واذا كان تعداد الصين في صيف ٨٠ ، هو ٩٨٠ مليون نسمه ، فذلك يعني ان سكان الصين زادوا في الفترة بين عامي ٥٤ و ٨٠ بما يزيد على ٥٠٪ . واذا سلمنا بان المسلمين صاروا ١٣ مليونافي عام ٨٠ ، فذلك يعني انهم زادوا في الفترة ذاتها بنسبة ١٣٪ فقط . والخلل الذي اعنيه له شقان : الاول ان سكان الصين كلهم زادوا بمعدل واحد ، بينما زاد المسلمون بمعدل اقل ، وهو أمر غير منطقي . اذا وضعنا في الاعتبار الامر الثاني ، وهو ان المسلمين هم اكثر تناسلا من غيرهم في كل انحاء الكرة الارضيه ، حيث يعتبر اكثرهم ان الانجاب توجيها اسلاميا . فضلا عن ان الكتابات الصينية ذاتها تقول ان الاستجابة لبرامج تحديد النسل فاترة او منعدمة بين مجتمعات المسلمين .

وقلت : من الناحيه المنطقيه ، فان اعداد المسلمين اذا لم تكن قد زادت بنسب اعلى من مجموع الصينيين ، فهم على اسوأ الفروض يكونون قد زادوا بنفس معدلات زيادة الاخرين . اى ان عددهم لايقل عن ١٥ مليونا باى حال

قال مسئول شئون الاديان . لااعتراض على هذا المنطق ، ولا على النتيجة التي انتهيت اليها ، لان احصاءات اصحاب الاديان عندنا ليست دقيقة ، وهي تقريبية في الاغلب . بل أضيف أن افتقادنا لمثل هذه الاحصاءات الدقيقه لاينصب على المسلمين وحدهم . وانما ينسحب على الكاثوليك ايضا . وبعض الناس في الخارج لايفهمون لماذا لاتصنف الصين سكانها بحسب اديانهم . ويستسهلون بعض الخرافات التي راجت في الخمسينات . والتي تزعم أن النظام الشيوعي أقام مذابح للمتدينين .

١٠ قوميات مسلمة

قلت لمسئول الجمعية الاسلامية الصينية . اذا كانت اجابتكم قد توفرت على السؤال : كم ؟ فقد بقى عندى سؤالان في هذه النقطة . هما : من؟ واين؟

قالوا في صوت واحد ، وبمنتهى التهذيب والابتسام : هذا من اختصاص مصلحة القوميات .

في اليوم التالي كنت في مكتب مدير مصلحة القوميات ، الذي فتح ملفا امامه ودخل في الموضوع مبتدئا بالديباجة المقررة : ان شرور عصابة الاربعة امتدت الى تخريب السياسة القومية ايضا غير مكتفية بما احدثته من تخريب في السياسات الاخرى . واعاد الى مسامعي ما سبق ان حفظته عن شرور اللاعبين الاربعه ، والشمس التي اشرقت على الصين بعد « سحقهم » ثم قال :

في الصين ٥٦ قومية . تتنوع اصولها بتنوع شعوب واجناس القارة الآسيوية ، وقومية الهان هي اكبر القوميات ، وهي العمود الفقري الذي تقوم عليه الصين ، وتلتف حوله بقية شعوبها . وتعداد شعب الهان حوالى ٩١٥ مليون نسمه ، كلهم ينتمون الى اصل واحد ، وعرق واحد . ويعيشون على مساحة ٤٥٪ من ارض الصين الحالية . والباقون وعددهم ٦٥ مليون نسمة موزعون بين بقية القوميات ، التي تعيش على مساحة ٥٥٪ تقريبا من ارض البلاد . اى ان الاقليات تمثل ٦٪ من شعب الصين .

وفيما يتعلق بالمسلمين فانهم موزعون بين ١٠ قوميات هي : هوى ـ اويغور ـ قازاق ـ اوزبيك ـ قرغيز ـ تتار ـ تاجيك ـ سالا ـ تونجسيان ـ باوأن .

ودخلنا اكثر في التفاصيل ..

فاغلبية المسلمين من ابناء قومية « هوى » وهو الشعب الذي ينتمي الى اصول عربية وفارسية ، ويقدر عدد هؤلاء الهويين بستة ملايين ونصف مليون نسمه ، اما الويغوريون ذوو الاصول التركية فهم في حدود خمسة ملايين ونصف مليون ، والقومية الثالثة في

الترتيب هم القازاق وهم اقل قليلاً من مليون شخص . اما الباقون فاعدادهم قليله ، مجرد الوف متناثرة هنا وهناك .

وابناء قومية هوى منتشرون في انحاء الصين ، في الجنوب والوسط والشمال ، ويتركزون في مقاطعات نينغ شاه ، ويونان ، وخنان ، وقانصوه .

والويغوريون والقازاق والقرغيز والطاجيك والاوزبك والتتار ، جميعا في مناطق الغرب .

أوول شرورى أمان !

كنت اول صحفي عربي أو مسلم دخل مقاطعة سينكيانج ، التي فتحت للاجانب عام ٧٨ فقط ، ولاول مرة منذ عام ١٩٤٩ .

قبل عام ٧٨ لم تر عيون الناس وجها لاجنبي ، الامر الذي بسببه يظل الاجنبي طوال زيارته موضع استغراب شديد ، حيث يعامله الناس باعتباره احد الكائنات العجيبة .

ولاتنفك عيونهم تلاحقه وترصد تحركاته ، برغم الكثافة النسبية التي تزحف بها افواج السياح الاجانب على تلك المنطقة المتميزة عن بقية انحاء الصين ، في الشكل والمضمون .

ذلك ان سنوات الانغلاق التي عاشتها ، ٣٠ سنة تقريبا ، ساعدت في الابقاء على المسحة الخاصة للمقاطعه ، رغم محاولات تغيير معالمها .

فانت في سينكيانج في مجتمع مسلم شديد الوضوح ، لايتميز ـ في الشكل ـ عن اى بلد اسلامي . واذا كانت عمليات تهجير ابناء قومية الهان ليعيشوا وسط الويغوريين قد حاولت ان تغير من معالم هذه المسحه الخاصة ، الا ان تلك العمليات لم تفلح الا في تحقيق قدر من هدفها في العاصمه اورومتشي وحدها . اما في القرى المنتشره في الصحارى الواسعه ، فلازالت الحياة فيها كما هي ، لم يتغير في ظاهر حياة الناس شيء عما كانوا عليه في عهد تركستان الاسلامية الشرقية .. حتى معدلات الانجاب العادية ، واسر الستة والثمانية اطفال لاتزال كما هي !

ورغم ان سكان المقاطعه عددهم ١٢ مليونا ، بينهم سبعة ملايين مسلم ، الا ان الملايين الخمسة الاخرى ـ وهم نتاج عمليات الزرع والتهجير ـ يعيشون في مجتمع منفصل ، سواء تمثل في قرى مستقلة ، او احياء مستقلة في القرى المسلمة .

ولان مسلمي سينكيانج الويغوريين شديدو التمسك بتقاليدهم الاسلامية ، تماما مثل مسلمي يونان الهويين ، فقد فشلت عمليات التهجير ، برغم حجمها الكبير نسبيا ، في ان تحقق هدف خلخلة هذه المجتمعات الاسلامية المتماسكة .

حقا لقد اصبح مسلمو يونان « القلة » في المقاطعة ، بسبب التهجير من ناحية ونتيجة للمذابح وعمليات الابادة التي جرت من ناحية اخرى ، ولكن تدهور اعدادهم ، لم يؤثر على تمسكهم بالتقاليد الاسلامية الراسخة في اعماقهم .

واحدى ميزات التواجد في سينكيانج انه يتيح الفرصة للاقتراب من القوميات الاسلامية الاخرى ، وابرزها قومية « القازاق » التي تضم حوالي مليون مسلم ، يعيشون كرعاة مقرهم الرئيسي سفوح جبال التاي في اقصى نقطة شمال غربي الصين . ولانهم رعاة ، فهم كثيرو التنقل بخيامهم اللبادية ، وبخيولهم واغنامهم ، يحطون رحالهم حيث يوجد العشب الاخضر . ومراعي التاي لها سمعة ممتازة ، واغنامها اكبر الغنم واغناها باللحم والشحم . فحجم الخروف ليس اقل من حجم العجل العادي ، واذا سقطت احدى رؤوس الغنم على الارض ، فانها لاتستطيع ان تنهض الا بمساعدة احد ، بسبب ضخامة « الالية » .

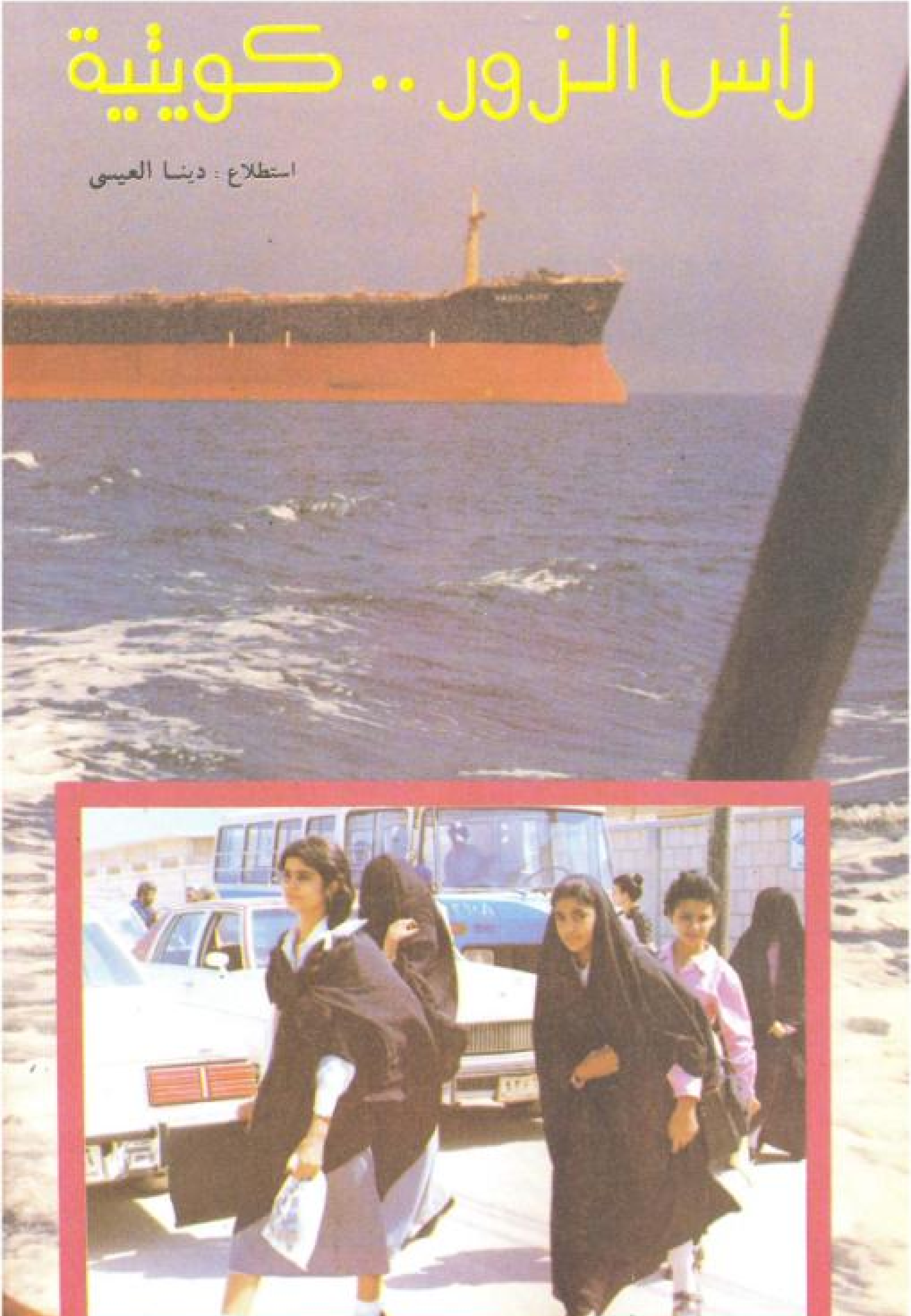
وهم في اغلبيتهم مسلمون اسيا ، وفي كل جماعة راحلة احد الشيوخ ، هو الذى يحال اليه كل ما يتعلق باسلام الجماعة ، وهو الذى يدعوهم الى صلاة الجمعة ، ليقفوا وراءه صامتين بين يدى الله ومظاهر إسلامهم محصورة في صلاة الجمعة والاحتفال بعيدى الفطر والاضحى . والاضحى عندهم اهم بسبب الذبائح التي تتم فيه ، وهم اهلها واولى بها .

لكن كل ما يشغلهم هو البحث عن الخضرة ، ومطاردة الذئاب التي تهدد الغنم . وكل من يقتل ذئبا مكافأته معززان . والقازاقي يحيى زميله لابقوله السلام عليكم ، ولا حتى كيف حالك ولكنه يسأله على الفور : اوول شرورى امان ؟

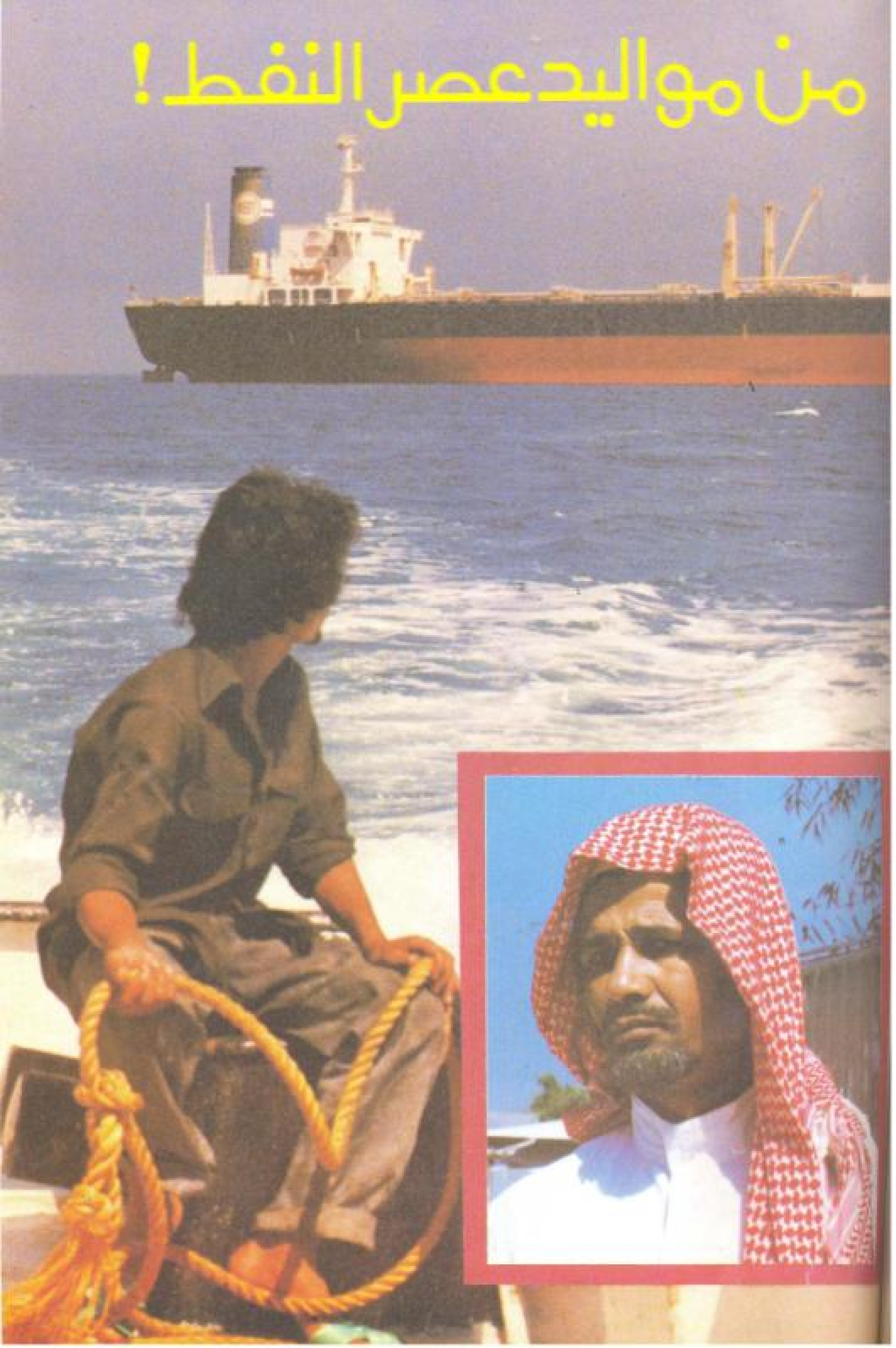
واوول معناها الخيمة ، وشرورى تطلق على الماشية ، وامان تعرفها بطبيعة الحال . ذلك انه اذا كانت الخيمة بخير ، والماشيه بخير ، فقد تم المراد من رب العباد !

رأس الزور .. كويتية

استطلاع : دينا العيسى



من مواليد عصر النفط!



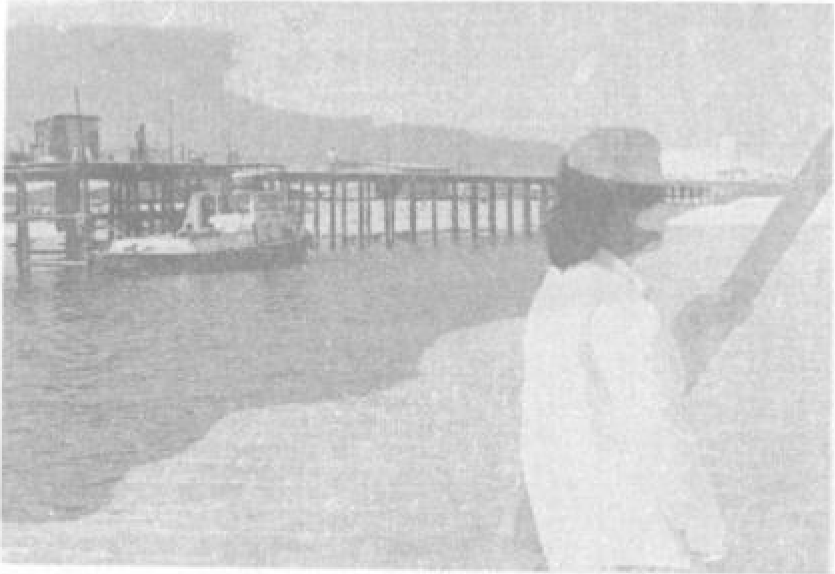
اذا كانت مدن الحدود لها طابعها الخاص في كل مكان ، فان مدينة راس الزور الكويتية ذات طابع اشد خصوصية . فهي ليست فقط ذات تركيبة بشرية مختلطه وقسمات متعددة الالوان ، ولكنها ايضا ابنة شرعية لعصر النفط .. شهادة ميلادها محررة بتاريخ شحن اول كمية من الزيت الخام من المنطقة المحايدة في فبراير ١٩٥٥ ، وتاريخ اكتسابها الجنسية الكويتية دخل عامه الحادي عشر .

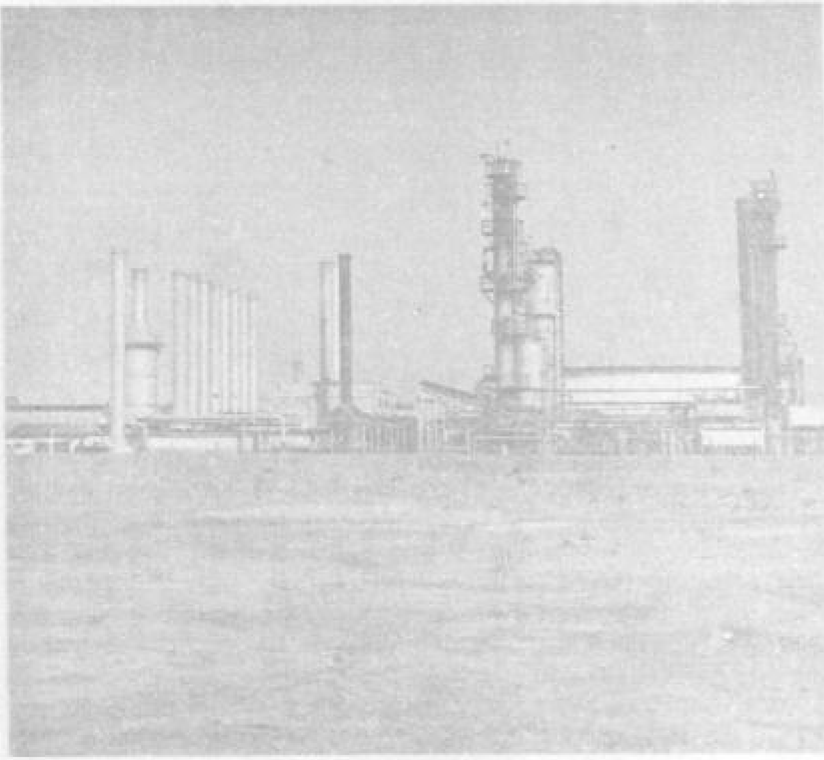
في شهادة الميلاد كان اسمها : ميناء سعود ، على اسم العاهل السعودي ، ومنذ اكتسبت الجنسية الكويتية صار اسمها : راس الزور ، على اسم الموقع والطبيعة الجغرافية للمنطقة ..

ولتلك الرحلة لها قصة ..

بعد سقوط الدولة العثمانية تقاسمت الدول الكبرى تركة « الرجل المريض » . وكان ظهور دول تحت الوصاية واخرى تحت الحماية هو احد نتائج هذه النهاية في تلك الفترة ، عام ١٩١٣ ، تم الاتفاق بين انجلترا وتركيا على تخطيط الحدود السعودية الكويتية في مشروع اتفاقية بين الطرفين . ولكن حالت الحرب العالمية الاولى دون تنفيذ هذا الاتفاق . وبعد ان وضعت الحرب اوزارها ظهرت مشاكل الحدود بين الدول ، وكان بينها مسألة الحدود بين الكويت والسعودية . ولما كانت الكويت في ذلك الوقت تحت الحماية البريطانية ، فقد تم اتفاق بين الجانبين السعودي برئاسة الملك عبد العزيز بن سعود والجانب البريطاني برئاسة سير بيرسي كوكس المقيم السياسي البريطاني في الخليج ووقعت اتفاقية العقير ، في ٢ ديسمبر عام ١٩٢٢ . والتي تحددت

المرسى القديم وهناك مرسى أخر ، جديد في طور الانشاء .





مصفاة رأس الزور ضرورة من ضرورات القطاع النفطي .

يقتضاها المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية بمساحة قدرها ٦٠٠٠م ٢ .

ولقد كانت اتفاقية عقير بمثابة حل مؤقت لاستغلال موارد المنطقة المحايدة بالتساوي الى ان يتم الاتفاق النهائي . وفي عام ١٩٦٣ اي بعد اكثر من اربعين عاما ، وفي ظل الاوضاع المتغيرة واكتشاف حقول وآبار جديدة للنفط ، ابدت الحكومتان السعودية والكويتية رغبتهما في تقسيم المنطقة المحايدة . وتوصل الطرفان لعقد اتفاقية الطائف عام ١٩٦٥ التي تقسم الارض بموجبها مناصفة ، بحيث تدير كل دولة الجزء الخاص بها ، ما عدا النفط ، يبقى تقسيمه كما هو . ويمارس كل طرف سيادة خالصة ويتولى امور الدفاع والتشريع في الجزء الخاص به .

وفي عام ١٩٧٠ تم تقسيم الارض مناصفة وتسلمت الكويت ادارة الجزء الشمالي من المنطقة المحايدة ويضم رأس الزور ومنطقة الوفرة .

ومن الثابت أن السبب في نشأة مدينة الزور هو وجود خط لانابيب البترول من مركز التجميع في منطقة الوفرة الى ميناء الزور . هذا بالاضافة لكونها جغرافيا تطل على البحر مما جعل منها ميناء طبيعيا لنقل البترول .

ففي عام ١٩٤٨ وقعت الكويت اتفاقية مع شركة النفط الامريكية المستقلة حصلت الشركة بمقتضاها على امتياز التنقيب عن البترول لمدة ستين سنة يشمل نصف المنطقة المحايدة .

وفي فبراير من عام ١٩٤٩ وقعت السعودية اتفاقية مماثلة مع شركة الزيت « الباسيفيك وسترن » (تغير اسمها الى شركة جيتي عام ١٩٥٦) . واتفقت الشركتان على العمليات المشتركة والتعاون في الانشطة البترولية في المنطقة المحايدة .

وفي عام ١٩٥٤ بدأت شركة جيتي التابعة



الطريق من البيت للمدرسة .. صورتان لجيل واحد .

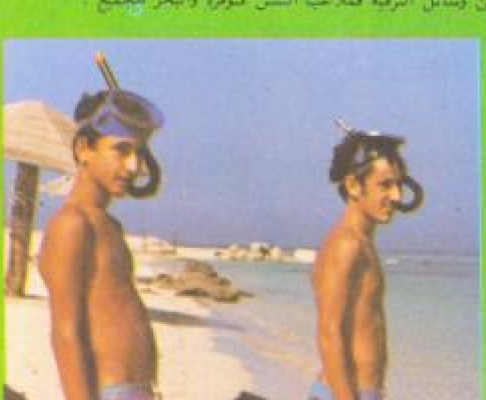




عيون تنظر للمستقبل .. ترى كيف تنظر كلاهما للمستقبل ؟

مزاولة الانشطة الرياضية والسباحة ضرورة ووسيلة من وسائل الترفيه فملاعب التنس متوفرة والبحر للجميع .







سكان الحي القديم يزرعون للاستهلاك المحلي.

السعودية بانتاج الزيت بكميات تجارية وتم شحن اول شحنة من الزيت الخام من ميناء الزور في فبراير ١٩٥٥. ومنذ ذلك التاريخ بدأ ظهور تلك المدينة الصغيرة. اذ بحكم اعمال الحفر والتنقيب واكتشاف البترول في منطقة الوفرة كان لابد من وجود ميناء يقوم بنقل البترول من مركز التجميع في الوفرة، حيث ظل الامتياز في منطقة الوفرة مشتركا للآن تملكه الامنتويل التابعة للكويت، وشركة جيتي التابعة للمملكة العربية السعودية، والتي اشترت كامل اسهمها مؤخرا. ولقد تم التركيز على استغلال الموارد متواصلة في هذه المنطقة.

ميناء الزور

ويستقبل ميناء الزور شهريا من خمس الى سبع بواخر اي بمتوسط ٧٠ باخرة سنويا. وتتم عملية تعبئة البواخر وناقلات النفط بواسطة انابيب ممتدة تحت سطح الماء. ويوجد اربعة خطوط لنقل البترول ومرسيان للسفن ولقد بلغ عدد الناقلات التي رست في ميناء الزور خلال عام ١٩٧٨ خمسا وستين ناقلة معظمها تحمل العلم الليبيري وبعضها من اليابان واخرى من سنغافورة واليونان وايطاليا. وكانت اكبر ناقلة رست في الميناء حتى الآن هي ناقلة النفط الكويتية « الفيحاء »، وتبلغ حمولتها مائتين وثلاثة وستين الف طن. وقد رست يوم ٢٥ يناير ١٩٧٩ للتزود بالوقود فقط حيث تم شحنها باثني عشر الف طن من زيت الوقود.

أما عن كمية الزيت الذي يشحن سنويا من ميناء الزور فتصل من ٢٩ الى ٣٠ مليون طن سنويا. ومعظم الكميات تصدر الى الولايات المتحدة واليابان وكوريا الجنوبية. وتوجد مصفاة واحدة في الميناء. وقد بلغ معدل انتاج المصفاة اليومي ٣٧٫٧٩٠ برميلا خلال عام ١٩٧٨. اما عن الانتاج السنوي من البترول فيلاحظ ان الانتاج منذ ١٩٥٤ الى ١٩٦٢ كان في تزايد مستمر ثم بعد ١٩٦٢ بدأ بالتذبذب بين الزيادة والنقصان وقد وصل مجموع الانتاج المشترك في المنطقة المحايدة عام ١٩٧٨ ما مقداره ٥٦٫٠٠٨٫٨٩٤.

ويبلغ عدد العاملين في شركة جيتي وميناء الزور ٨٥٠ موظفا وعاملا، اغلبهم من السعوديين.

خليط من الاجناس

قيل لنا الامريكيين ان الكيلومتر المربع يسكنه

اكثر من ١٤ جنسية .. وما زالت ارض الامريكتين مركزا لخليط من الاجناس من اوروبيين واستراليين وافريقيين وهنود حمر واقليات اخرى من اجناس عديدة .

وعلى ارض الكويت نجد وضعا مشابها للامريكتين ، من حيث كون ارض الكويت مركز جذب للسكان من مختلف الاجناس من اشقاء عرب واصدقاء هنود وباكستانيين وايرانيين ، وغيرهم وامريكان وانجليز وكوريين ، كلهم جاءوا من اجل العمل والكسب . وفي مدينة الزور حيث يبلغ عدد سكانها ٥٠٨٣ نسمة (وفق احصاء ٨٠) فهي ايضا تحوى مزيجا من مختلف الجنسيات اذ ان فيها من الكويتيين ٣٥٦ نسمة ، ومن غير الكويتيين ٤٧٢٧ ، وغالبية هؤلاء من الاشقاء السعوديين والمصريين والفلسطينيين ، ويشكل عدد سكان مدينة الزور نسبة ٦ر٢ من جملة عدد سكان الكويت البالغ عددهم ٨٢٧ر٣٥٥ر١ .

ايضا ، فانت لا تشعر بالغربة في مدينة الزور . فالعربي التقليدي الذي يفتح لك باب بيته ، ويدعوك لمشاركته الطعام ، ويرحب بك دائما ، ويعينك قدر ما يستطيع .. هذا العربي لا يزال موجودا بمروءته وشهامته في الزور . تجده في الشوارع وامام البيوت المتواضعة التي بناها بعضهم بنفسه منذ ٢٠ عاما .. واضاف اليها مكيف الهواء فقط خلال تلك السنوات .

وسوق المدينة ليس مكانا للبيع والشراء فقط . ولكنه مثل اسواق العرب القديمة ، مكان للقاء ومنتدى للاصدقاء . نعم هناك عشر بقالات متناثرة تبيع كل ما يحتاج الناس من خضر وفاكهة ومعلبات . ومحلات أخرى تبيع الثياب الجاهزة ، ولكن المقهيين الشعبيين والمطاعم الشعبية هي ساحة اللقاء على مدار اليوم .

رغم ان « الزور » تعد من المناطق النائية ـ نسبيا ـ في الكويت ، الا ان الخدمات والمرافق متوفرة لها الى حد كبير . فيها اربع مدارس موزعة مناصفة بين البنين والبنات ، فضلا عن مركز طبي يتناوب العمل فيه ستة اطباء ، وصيدلية واحدة .

سألناهم في « الزور » لماذا اخترتم هذه المدينة التي تبعد ٧٠ كيلومترا عن الكويت العاصمة ، وكان الجواب يأتينا صريحا ، الاسباب ثلاثة هي : البعد عن ضوضاء المدينة وازعاجها اولا وانخفاض تكاليف المعيشة ثانيا والارتباط بمصدر الرزق ثالثا .

نزهة في فناء منطقة البيوت الحديثة .



اطفال الحي القديم يلعبون ويمرحون في الساحات الترابية .



الاجتماع وتبادل الرأي والمشورة في الهواء الطلق (تصوير طالب الحسيني)





السوق المركزي من متطلبات الحياة العصرية .

وقمنا بجولة في انحاء المدينة ..

ابرز ما يميزها هو هذه الازدواجية الواضحة فيا بين القديم والحديث . القديم بمبانيه البسيطة يعكس صورة الماضي لمجتمع بسيط لم تفسده المدنية . وحتى الحديث العصري ايضا يعكس حب مجتمع تلك المدينة البسيطة وكرههم للتعقيدات . طيبة خيرة ، اذ لا يزال المجتمع متمسكا بقيم وتقاليد اصيلة وبصفات واخلاق لم يفسدها مرور النفط ولا زحف المدنية ولا دخول المكيفات والتلفزيونات والسيارات . وعلى سبيل المثال ، فانه عندما تحين الصلاة ، وعندما يرتفع صوت المؤذن « الله اكبر » ، فانك في لحظات لاتجد احدا من المارة في الطريق حتى في المحال التجارية . انهم يتركون كل شيء على ما هو عليه بما في ذلك محلاتهم التجارية وبقالاتهم مفتوحة دون حارس او رقيب ، يتوجهون الى المسجد ثم يعودون في هدوء وامان .

ادوات العصر تزحف

وكما ان للقديم حظه الوافر في مدينة الزور ، فان الحديث له مكان وموقع في مدينة الزور . فالمساكن المتواضعة والبسيطة التي بناها الناس بايديهم منذ سنين ، تجاورها ، في الجزء الشرقي من المدينة ، مجموعات سكنية مبنية على الطراز الحديث ومجهزة بكل ادوات وخدمات العصر ، يسكنها موظفو شركة البترول ، وتطل بهم على اجمل شواطيء البحر .

وسط هذه المساكن الحديثة ، تتناثر الحدائق الخضراء ، وملاعب التنس ، ومركز الاتصال بالعالم الخارجي ، ومركز بث افلام « الفيديوتيب » مباشرة الى المنازل ، وهو مصمم وفق احدث نظام يكفل توصيل تلك الخدمات الترفيهية لسكان تلك المنطقة القابعة وسط الصحراء .. والى جانب هذا وذاك ، اقيم سوق مركزي (سوبر ماركت) ـ وفق احدث النظم ايضا ـ لتغطية كافة احتياجات السكان .

ان اكثر ما يميز راس الزور ، ليس فقط الهدوء الشديد ، ولا الشاطيء البديع ، ولا البساطة التي تتسم بها المدينة .. ولكن سر جمال تلك المدينة هو ذلك الشعور بالقناعة الذي تحس به وانت تنظر في عيون ابنائها . ■■

دينا العيسى

ونحن على ابواب القرن ٢١ الميلادى

العائلات العشائرية

موجودة فى أوروبا !



صورة جماعية لعائلة ١١٧ فردا ، التي ليس هناك من ينافسها في اوربا .

صدق اولا تصدق : لا تزال العائلات العشائرية ذات المائة فرد فصاعدا موجودة في اوروبا ... برئيسها الاكبر ، ومجلس الاسرة وشبابها وفتياتها الذين يتوزعون على مختلف المهام والادوار ، وتؤمن لهم العائلة كل احتياجاتهم !

اذا لم تصدق فاقرأ هذه الرسالة التي كتبها من يوغسلافيا البروفيسور محمد موفاكو الالباني الاصل والاستاذ بجامعة بريشتنا .



كنا ١١٣ والآن اصبحنا ١١٧ .. ليس سهلا ان نقود اسرة بهذا الحجم .

بقلم : محمد موفاكو

اوربا هي اوربا ، قارة المتناقضات ، حتى في الربع الاخير من القرن العشرين . ففي حين تكاد العائلة الحديثة ، التي تتكون من ٣ ـ ٤ اشخاص ، تلفظ انفاسها في غرب القارة ، نجد في بلقان تلك القارة نمطا أخر مثيرا من العائلة يكافح في سبيل استمرار وجوده ، الا وهو نمط العائلة الكبيرة ، التي يتجاوز عدد افرادها المائة احيانا ! وهذا النمط اثار وما يزال يثير اهتمام الكثير من الاوساط العلمية ، نظرا لما يتمتع به هذا النمط العائلي من علاقات متميزة على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي ، بحيث انه يشكل مؤسسة مستقلة لها قوانينها وانظمتها الخاصة ، التي حافظت عليها منذ القرون الوسطى والتي تحاول الحفاظ عليها حتى الآن ، في الربع الاخير من القرن العشرين . ومع كثرة الاهتمام بهذه المؤسسة العائلية ، نجد ايضا كثرة في التعابير التي تطلق عليها (العائلة الكبيرة ، العائلة البطريكالية ، العائلة الجماعية الخ) ، ونحن نفضل ان نطلق عليها هنا العائلة الجماعية .

لماذا الألبان ؟

لقد كان هذا النمط من العائلة منتشرا بشكل او بآخر في كل اوربا خلال القرون الوسطى ، الا انه بدأ يتفكك مع انهيار الاقطاعية وانتشار البرجوازية ، التي حملت معها نمطها العائلي الخاص ، الذي يتكون على الغالب من الاب والام واولادهما . ومع ذلك ، فقد استمر وجود العائلات الكبيرة في بعض مناطق اوربا ، التي كانت متخلفة عن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي لحقت بالغرب الاوربي . ومن هذه المناطق لدينا البلقان ، الذي استمر به وجود هذه العائلات الجماعية حتى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين لدى مختلف الشعوب القاطنة فيه كالصربيين والكرواتيين والسلوفينيين والبلغاريين والالبانيين الخ ، الا ان هذه العائلات انقرضت تقريبا لدى هذه الشعوب في تلك الفترة ، واستمرت فقط لدى الالبانيين على اختلاف اماكن وجودهم . وفيما لو اخذنا اليوم يوغسلافيا ، كجماعة شعوب وقوميات مختلفة ، نجد ان العائلات الجماعية ما زالت مستمرة باعداد كبيرة في ثلاث مناطق فقط ، في اقليم كوسوفا وفي مقدونيا والجبل الاسود ، اي في المناطق التي يعيش فيها الالبانيون .

ومن الطبيعي ان يتساءل المرء ، لماذا استمرت هذه العائلات الجماعية عند الالبانيين فقط ؟

والجواب على هذا يمكن ان يتمحور حول ثلاثة امور :

اولا ـ العائلة الجماعية قامت بالاساس على دوافع اقتصادية ، لدى الجماعات التي لا تملك مساحات كبيرة من الاراضي ، وذلك بهدف استغلال افضل لمساحة الارض الصغيرة لكي تكفي الافواه الكثيرة . ومن المعروف ان الالبانيين عموما يفتقرون الى الاراضي الكبيرة ، وذلك بسبب مساحة مناطقهم المحدودة ونسبة نموهم التي تعتبر من اعلى النسب في اوربا ، الشيء الذي ادى الى كثافة سكانية في الكيلو متر المربع لا مثيل لها في اوربا (١١٤ شخصا في الكيلو متر المربع) . فمثلا لدينا اليوم عائلات جماعية تمتلك فقط ٢٠ ـ ٣٠ هكتارا على حين انها تتكون من ١٥ ـ ٢٠ عائلة صغيرة (حوالي ١٠٠ فرد) . وفيما لو انفصلت هذه العائلة الجماعية ، سيخص كل عائلة صغيرة حوالي هكتار أو اكثر بقليل ، الشيء الذي لن يكفي قطعا احتياجات عائلة صغيرة مؤلفة من ٦ ـ ٨ اشخاص .



الحقل للرجال والغزل في البيت للنساء المسلمات .

ثانيا ـ العائلة الجماعية مرتبطة عند الالبانيين بتقاليدهم العشائرية القوية ، التي حافظت على تأثيرها منذ القرون الوسطى . وهذه التقاليد قوانينها واعرافها عند الالبانيين التي تتمركز كلها في قانون دوكا جيني العشائري kanuni i lek dukagjinits الذي خضع له الالبانيون على مر العصور ، مع انه كان يتعارض في كثير من الامور مع القوانين الشرعية والوضعية التي عاش تحت ظلها الالبانيون من مسلمين ومسيحيين ، فمثلا ، حتى الان لم تسجل في تاريخ الالبانيين حادثة زواج الباني من ابنة عم له او من أية فتاة تمت ولو بصلة واهية الى عائلته ! وهذا القانون ينظم بصورة دقيقة العائلة الجماعية وما يجب ان يحكمها من علاقات مختلفة ، ومن هنا فقد ساهم هذا القانون بما له من تأثير في استمرار هذا النمط من العائلة الالبانية .

ثالثا ـ استمرار العائلة الجماعية عند الالبانيين ارتبط ايضا بالظروف الامنية والسياسية التي احاطت بالالبانيين . فقد عاش الالبانيون في منطقة كان يحكمها منطق القوة ، السيف اولا والبندقية فيما بعد . ولذا فقد كانت العائلة تستمر بقدر ما هي كبيرة وبقدر ما فيها من رجال وشباب يستطيعون ان يدافعوا عنها . ولذلك نجد ان العائلات الكبيرة عاشت وما زالت تعيش في بيوت اشبه بالحصون ، التي لا يمكن اقتحامها بسهولة . كما ان الاضطهاد القومي الشديد الذي عانى منه الالبانيون خلال يوغسلافيا القديمة ١٩١٨ ـ ١٩٤٥ ، دفعهم الى ان يحتموا اكثر بمؤسستهم التقليدية ، العائلة الجماعية ، التي كانوا يجدوا فيها استمرار وجودهم القومي امام سياسة التصفية القومية لهم .

رب العائلة

والآن ، بعد ان عرفنا شيئا عن وجود هذه المؤسسة العائلية ، نرى من المناسب ان نعرف بهذه المؤسسة نفسها .

العائلة الجماعية هي اجماع طوعي لعدد من العائلات الصغيرة على تقاسم العمل والعيش سويا . وهذه العائلات الصغيرة تنحدر عادة من جد واحد ، اي انها بكاملها عبارة عن احفاد جد انفصل قبل ٢٠٠ ـ ٣٠٠ سنة او اكثر عن عائلته لسبب من الاسباب ، ليشكل في مكان آخر عائلة اخرى باسمه . فالعادة ان تحمل العائلة الكبيرة اسم الجد الاكبر الذي اسسها ، ولكن مع ذلك ، هناك حالات نادرة تجتمع فيها عائلة تملك الارض ولا تملك الرجال والشباب مع عائلة لا تملك الارض ولكنها تملك الرجال والشباب ، ليشكلا بذلك عائلة مشتركة تصبح كبيرة مع مرور الزمن وتتمتع كافة العائلات الصغيرة بحقوق وواجبات متساوية في وسط العائلة الجماعية ، اذ لا توجد هناك امتيازات ما لعائلة دون اخرى . وعادة يتوزع رجال وشباب العائلة الجماعية على الاعمال المختلفة ، حسب مؤهلاتهم وحاجات العائلة لهم ، فبعضهم يعمل في الزراعة وبعضهم يعمل في الرعي ، على حين ان بعضهم يجمع الى ذلك بعض الاعمال الحرفية . وفي هذا الشكل تكاد العائلة الجماعية ان تشكل ايضا مؤسسة اقتصادية متكاملة ، تنتج فيها معظم حاجياتها من أدوات العمل والطبخ واللباس الخ ، بحيث انها لا تشتري من السوق الا الحاجيات التي لا يمكن ان تنتجها كالسكر والملح الخ ، الا ان هذه الاستقلالية قد خفت كثيرا في السنوات الاخيرة ، مع انتشار القيم الاستهلاكية .

وعلى رأس هذه المؤسسة هناك رب العائلة Zoti i shtepise الذي يكون له عادة مساعد او مساعدان ، وحسب العادة ، فان رب العائلة يكون اكبر افرادها سنا ، ولكن قد يكون من هو أصغر سنا منه اذا كان يتمتع بمؤهلات اكثر وعادة ينتخب رب البيت من قبل « مجلس العائلة » الذي يتألف من رجال العائلة

وشبابها البالغين ، ويتم هذا الانتخاب لفترة غير محدودة ، وفي الحقيقة يتمتع رب العائلة بصلاحيات واسعة للغاية ، فهو اولا يمثل العائلة بكاملها امام المجتمع ويستطيع ان يقضي باسمها كل الامور المتعلقة بها ، كما ان له الحق فقط في شراء ما يريد وفي بيع ما يريد ، حيث انه يملك مفاتيح الصندوق المالي للعائلة .

الا ان هناك صفة يفترضها القانون العشائري في رب العائلة هي العدالة في تسييره لشؤون العائلة ، اذ ان انعدام العدالة يؤدي الى عدم الرضى والى الخلاف ، وبالتالي الى الانفصال ، وكما قلنا ، فالعائلة الجماعية تقوم على اجماع طوعي ، وبالتالي من حق كل عائلة صغيرة فيها ان تطلب الانفصال ....

تأمين كل الحاجيات

وفي المقابل ، لدينا في هذه المؤسسة ست البيت Bacica التي تنحصر مسؤوليتها في شؤون المطبخ ، وهي بالتالي لا تتدخل في شؤون الرجال ، وعادة تكون ست البيت من اكبر النساء سنا ، كما تكون لها مساعدة ، او اكثر من نساء البيت الاخريات وتقوم سلطة ست البيت على جمع مشتقات الحيوانات من حليب وجبن وسمن الخ والاحتفاظ بها ، ومن ثم تقدم فقط ما يلزم لكل مناسبة . ومن صلاحيات ست البيت ان تقرر نوع الاكل الذي يعد للغداء او للعشاء . ولكن حين يأتي ضيوف للعائلة ، يقوم رب العائلة بالتشاور مع ست البيت حول ما يجب اعداده ، حسب اهمية الضيوف .

وهناك في هذه المؤسسة الشباب والرجال ، وحسب قوانين هذه المؤسسة تقوم العائلة الجماعية بتأمين كل حاجيات هؤلاء من طعام ولباس ، كما يمنح بدل خاص للذين يدخنون منهم ، او يعطون في كل شهر كمية معينة من الدخان فيما لو كانت العائلة تزرع الدخان في اراضيها ، كما تلتزم العائلة الجماعية بنفقات زواج كل شاب فيها . وعادة يكون الزواج حسب الدور ، اي يتزوج الاكبر فالاصغر سنا وهكذا . وبعد الزواج ، تخصص للشاب المتزوج غرفة خاصة في البيت له ولزوجته . وفي المقابل ، يقوم هؤلاء الشباب والرجال بالعمل حسب المهمات التي تتوزع فيما بينهم يوميا ، ويقدمون كل ما يكسبونه من نقود الى الصندوق المالي للعائلة ، ومن هذا الصندوق يعودون ليأخذوا النفقات الطارئة التي يحتاجون اليها .

وفي مقابل هؤلاء في العائلة الجماعية لدينا الفتيات والنساء ، ويختلف عادة عمل النساء حسب بعض الاعراف المحلية وحسب التوزع الديني ايضا ، فلدى العائلات الالبانية المسيحية تتساوى المرأة مع الرجل فيما يتعلق بالعمل ، وبالتالي فهي تشاركه حتى في السقي والحصاد الخ . اما لدى العائلات الالبانية المسلمة ، فالمرأة غالبا تبقى في البيت . وتنحصر هنا عمل النساء في حلب الحيوانات واعداد المشتقات المختلفة من الحليب ، واعداد الطعام ، والاهتمام بالبيت والاطفال ، ولكن هذه الاعمال ايضا تتوزع بين النساء بشكل ديموقراطي . فكل امرأة تقوم باعداد الخبز لكل العائلة لمدة ٤ ـ ٥ ايام في الشهر ، وذلك حسب عدد النساء في العائلة وبعد هذه تهتم لمدة ٤ ـ ٥ ايام بنظافة غرفة الرجال (غرفة الضيوف) فقط ، وبعد هذه تصبح حرة وتلتفت فقط الى اعمالها الخاصة ، التي تتعلق بها وبزوجها وبأولادها ، اما بالنسبة للفتيات ، فيشتغلن في اعمال بسيطة للمساعدة في بعض الامور الى ان يأتي من يخطبهن . والعادة هنا ايضا ان تخطب الكبرى فالصغرى ، فلا يمكن ان تخطب فتاة في العائلة طالما ان هناك من هي اكبر منها . وعادة يجتمع « مجلس العائلة » للتقرير في قبول او عدم قبول الخاطب وبعد الخطبة ، تتحرر الفتاة من اي عمل وتتفرغ للاعداد لجهازها التي ستأخذه معها الى بيت زوجها .

في البيت والحقل

كيف يمكن ان نتصور الحياة اليومية في حياة عائلة جماعية كهذه ؟

لقد اتيحت لنا الفرصة لان نعيش اياما كثيرة مع عدة عائلات جماعية لنتعرف بشكل ميداني على اوضاعها ومشاكلها .

في العائلة الجماعية يبدأ كل يوم في مساء اليوم الذي يسبقه ، ففي كل مساء يجتمع عند العشاء شباب ورجال البيت الكبير ، حيث يتحدثون في الاعمال المطلوبة لليوم التالي . وهناك يقومون باقتسام وتوزيع هذه الأعمال فيما بينهم بشكل يجمع الجميع بشكل متساو بما في ذلك رب العائلة ، الذي لا يتورع عن الخروج والعمل في الحقل كغيره . وفي الصباح تدب الحياة في هذه العائلة كما في خلية نحل . فكل فرد يتوجه الى عمله المتفق عليه مسبقا ، سواء في الحقل او في المرعى أو في المعمل او لدى دوائر الدولة ، حيث ان بعض افراد العائلة يمكن ان يكونوا عمالا او موظفين ايضا ، وفي هذه الحالة يخلو البيت من الشباب والرجال لتبقى فيه النساء فقط ، الا ان العادة تقضي ان يبقى احد الكبار المسنين في البيت لطاريء ما أو لاستقبال احد الضيوف فيما لو جاء على

حين غرة . وخلال هذه الفترة ، تنصرف النساء الى اعمالهن البيتية الى حين الغداء حيث يعود بعض الرجال من اعمالهم ، على حين يتأخر البعض الآخر الى الغروب . وفي المساء يلتئم شمل الشباب والرجال ثانية في غرفة الرجال ، التي هي ايضا عبارة عن غرفة الضيوف . وفي العادة تبدد الزيارات في القرية بعض الفراغ في المساء ، الا ان التلفاز الآن اصبح يلعب دوره في استمرار بقاء الشباب والرجال في البيت ، إذ أن الزيارات غالبا ما يقوم بها احد افراد العائلة الجماعية باسم كل العائلة . وعلى كل حال ، تبقى سهرة الشباب والرجال قصيرة ، لان عليهم ان يستيقظوا باكرا في صباح اليوم التالي . ولا يميز الان هذه الحياة اليومية في العائلة الجماعية الا التلاميذ والطلاب فيما لو وجدوا ، وهم يتمتعون باستقلال كبير ، اذ انهم يعفون غالبا من الاعمال اليدوية ليتفرغوا الى دراستهم ، وكما نرى ، فالحياة اليومية في العائلة الجماعية شاقة وخاصة في الصيف والخريف ، على حين انها تصبح سهلة ومملة الى حد ما في الشتاء ، حين يغطي الثلج الحقول ويقضي الشباب والرجال معظم اوقاتهم في البيت ، حيث يبدد قسم كبير من الوقت في الزيارات داخل القرية او خارجها .

ولكن مع ما تقدمه العائلة الكبيرة من حل بالنسبة الى المجموعات التي تمتلك مساحة صغيرة من الاراضي الزراعية ، فان هذه المؤسسة قد تعرضت الى هزات قوية تهدد استمرارها في الثلاثين سنة الاخيرة ، حيث قد انخفض بشكل واضح عدد العائلات الجماعية خلال تلك الفترة ومع ان المرء قد يفترض العكس ، حيث ان مؤسسة كهذه تقوم على العلاقات الجماعية الاشتراكية يمكن ان تتطور اكثر في مجتمع اشتراكي ، الا ان الواقع الحالي يدل بوضوح على ان هذه العائلات الجماعية قد دخلت مرحلة تفككها الى عائلات صغيرة في هذه المرحلة الاشتراكية بالذات . ويرجع السبب في هذا بشكل اساسي الى انتشار التعليم وانفتاح المناطق التي يعيش فيها الالبانيون على المشاريع الصناعية . فقد ادى مثلا انتشار التعليم ، بعد ان كان الالبانيون محرومين منه تماما ، الى رد فعل تمثل في غزو المدارس لتعويض ما فات من الزمن . وقد ادى هذا الى تحول قسم كبير من افراد العائلة الجماعية الى شريحة استهلاكية ، تأكل وتنفق ولا تنتج . ففي بعض العائلات الجماعية يصل عدد التلاميذ والطلاب الى حوالي ٣٠ ـ ٤٠ ، وهم يشكلون عبئا كبيرا على صندوق العائلة الذي يلتزم بالانفاق عليهم دون ان يقدموا شيئا ، حتى بعد انتهاء دراستهم ، فالطلاب الذين يتابعون دراستهم الجامعية يضطرون للبقاء في المدن للعمل بشهاداتهم الجامعية حيث ان القرية لا يمكن ان تستوعبهم بأعمال تتناسب مع اختصاصاتهم ، ومع الزمن يتزوج هؤلاء في المدينة ، وينفصلون بالتالي الى عائلتهم الصغيرة .

كما ان انتشار المعامل والمشاريع الصناعية المختلفة ادى بسبب الفائض في الايدي والحاجة المادية ، بقسم من افراد العائلات الجماعية الى العمل في المدن القريبة من القرى . وقد حل بهؤلاء ايضا ما حل بالخريجين الجامعيين ، حيث استقروا في المدن التي انتقلوا اليها وانفصلوا مع الزمن عن عائلاتهم الكبيرة ، ومما يؤسف له في هذه الفترة ان تمركز المعامل في المدن دون القرى ، والشهوة التي حفزت الكثيرين للعمل في اية مؤسسة للدولة ، قد احدثت هجرة واسعة باتجاه المدن القريبة مما ضاعف عدد سكان بعض المدن حوالي ٥ مرات خلال ثلاثين سنة فقط ، والاهم من هذا ان هذه الشهوة للعمل في المدينة قد صاحبها نظرة احتقار للعمل الزراعي في القرية ، الشيء الذي ادى الى ارتباكات واختناقات في التطور الاقتصادي .

تأثير سلبي

ومما يؤسف له ايضا ان هذه الفترة شهدت موقفا فوقيا تجاه العائلة الجماعية ، على اعتبارها مؤسسة رجعية من الماضي ، وبالتالي كان هذا الموقف يرتاح الى نسف هذه المؤسسة عوضا عن تطويرها من الداخل لتصبح اكبر ديمقراطية ، كنواة للعلاقات الانتاجية الجماعية ، الشيء الذي يجب ان يقوم عليه اصلا المجتمع الاشتراكي وفي هذا الاتجاه ، ربما تجدر الاشارة الى ان الجماعية قد انقرضت تماما في البانيا كنتيجة لتطبيق الاجراءات الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية .

ومع هذا وذاك ، فالعائلة الجماعية ما زالت تكافح في سبيل استمرار وجودها وسط المصاعب التي تواجهها . ومع أن عدد العائلات الجماعية قد انخفض بشكل واضح لدى الالبانيين في الفترة الاخيرة ، الا ان عدد هذه العائلات لا يزال كبيرا بالمقارنة مع انعدام وجودها لدى المحيط البلقاني والاوربي بشكل عام . ولكن فيما لو استمر تفكك هذه العائلات على هذا الشكل الذي تشهده اليوم ، فقد يكون من المشكوك به ان تستمر بعض هذه العائلات الى نهاية هذا القرن . ولكن من يدري ، فربما تنتعش هذه العائلات ثانية ، اذ اننا نشهد في غرب اوربا عودة للاهتمام بالريف ، وبالعلاقات الجماعية ، وهذه ليست مجرد موضة هذه المرة . ■■

يوغسلافيا ـ محمد موفاكو



موسى بن نصير

مأساة فاتح عظيم !

بقلم : الدكتور محمد جبر

هم ثلاثة من عظماء المجاهدين والفاتحين في التاريخ الاسلامي ، قدر لهم ان ينتهوا اسوأ نهاية ، وان يواجهوا من النكران والبخس والدس مالم يخطر لهم على بال : محمد بن القاسم الثقفي ، وقتيبه بن مسلم ، وموسى بن نصير .. من يصدق ؟

وهنا نتحدث عن ثالثهم ، موسى بن نصير ، فاتح افريقية والاندلس ، واحد الفاتحين العرب الذين غيروا مجرى التاريخ بجهادهم العظيم .

لقد جمع القدر الثلاثة في حقبة زمنية واحدة ، ويجدهم التاريخ في زمن واحد ، ويبكي عليهم في عهد امير واحد !

لقد جمعت بين هؤلاء العظماء ملابسات متحدة في الجهاد والبسالة . وقاربت بينهم ظروف متشابهة في النشأة والخاتمة فكل واحد منهم بنى مجده بيده ، وارتكز في اعماله على صدقه وشجاعته وصبره ، دون ظهير في الكفاية الشخصية والمرانة ، وكل منهم صادف تنكرا لاعماله ، وبخسا حيث ينتظر أن يتبوأ ـ بما قدم ـ مكانا عاليا في قلب الامير ، ولئن وقعت المحنة والمأساة لهؤلاء العظماء على يد واحدة هي يد سليمان بن عبد الملك مما سنعرض للحديث عنه ـ فقد شاء القدر أن يذوق كل واحد من هؤلاء الابطال الكأس مترعة ليعرف أي ذنب أسلف ، ومهما اختلفت النوازع فقد جمع بينهم التاريخ جمعا مأساويا .

كان سليمان بن عبد الملك حانقا على الحجاج بن يوسف الثقفي في حكم العراق . وعلى موسى بن نصير في حكم افريقية والاندلس . وقد وقع خلاف بينه وبين الأول لما سمعه من تدبير امور عزله من الخلافه بعد اخيه وتولية يزيد بدلا منه . فتداركه الموت ايام الوليد ونجا من بطش سليمان ولكن هنالك قائدان ظل حقده عليهما الأول محمد بن القاسم الثقفي فاتح الهند العظيم وهو الفتى الغض الذي استلم زمام القيادة وباشر الفتح ولم يبلغ من العمر السادسة عشرة والثاني هو من هز امبراطورية الصين وفرض عليها الجزية وقرع ابوابها بحوافر خيله ... قتيبة بن مسلم العبقري .

الوليمة الحاقدة

وأما ما وقع لموسى بن نصير كما ينسبه ـ ابن قتيبه ـ في السياسة والامامة فهو ماحمله من الغنائم والاسلاب والهدايا والخراج ليقدمها للوليد بدمشق وكان الوليد في دور الاحتضار ، فأرسل سليمان سرا الى موسى بالابطاء في السير حتى يصل مقر الخلافة بعد موت الوليد فرفض موسى هذا الطلب لولائه للقيادة العليا . وبلغ موسى دمشق والوليد على فراش المرض ، فتحامل على نفسه وجلس على منبر المسجد فقدم اليه ما أتى به موسى من يواقيت وجواهر وكساء منسوج بالذهب والفضة وقدم معها الاسرى وأبناء الملوك والبربر والاسبان في اجمل رداء وأحسن ثياب .. ورآهم الوليد فبهت مما رأى . وصلى الوليد بالناس ، ولما فرغ جلس ودعا بموسى واجازه ، وفرض لولده ومواليه ، وأحسن جوائز الباقين . ولم تمض على ذلك أيام قليلة حتى مات الوليد . ولما استخلف سليمان ، ارسل الى عمر بن عبد العزيز فحضر ، وقال له : إني صالب موسى غدا ، فسكت عمر .. وأراد بكلماته أن يبدأ بوليمته الحاقدة بموسى وبعث عمر الى موسى ، فلما وافاه انبأه قائلا : « يا ابن نصير اني احبك لاربع : الاول ـ بعد أثرك في سبيل الله ، وجهادك لعدو الله والثانية حبك لآل محمد ص ـ والثالثة ـ حبك عياض بن عتبة لما تعلم من حسن رأيي فيه ـ . والرابعة أن لأبي عندك يدا وصنيعة ، وانا احب أن تتم يده . وصنيعته حيث كانت .

واستطرد عمر : وقد سمعت امير المؤمنين يذكر انه صالبك غدا ؟ ... فاحدث عهدك وانظر فيما انت فيه ناظر من امرك . فاجابه موسى : « قد فعلت وأسندت ذلك اليك . »

فقال عمر : لو قبلت ذلك من أحد قبلت منك ، ولكن اسند الى من أحببت » فانصرف . وأصبح موسى فاغتسل وتحنط وذهب الى دار الخلافة وهو موقن بالصلب فلما انتصف النهار واشتد القيظ ، وكان الوقت في لهيب الصيف وحره ، دعاه سليمان وكان بجانبه عمر بن عبد العزيز . فادخل عليه متعبا ، وكان جسيما به سقم لا يزال يعرض له فلما وقف بادره سليمان بالوعيد والتهديد وختم بقوله : « قاتلني الله ان لم أقتلك » . ودار نقاش طويل ، وكان مما اجابه موسى : أما والله يا أمير المؤمنين ما هذا بلائي ولا قدر جزائي ، اني البعيد الاثر في سبيل الله العظيم ، اما والله لمن في بطن الارض أحب الي ممن على ظهرها ، مروان وعبد الملك والوليد أخوك وعبد العزيز عمك ، وما أنت بفاعل يا أمير المؤمنين ، اني لا أرجو ان يكرم موسى بهوان امير المؤمنين .

وموسى حينئذ قائم في الشمس وقد ارتفع نفسه وعظم بهره . والتفت سليمان الى ابن عمه عمر بن عبد العزيز وقال : ما أرى يميني الا قد برئت يا عمر ، وقال عمر في روايته ، فاغتنمتها منه ولم أبال أن يحنث باحياء رجل من المسلمين فأجبته : اجل يا أمير المؤمنين ، امرؤ كبرت سنه وكثر لحمه وبه سقم ، فما أراه الا ميتا وادار سليمان نظره في جلسائه ، وقال : من يأخذ هذا الشيخ فيستخرج منه هذه الاموال ؟ فتصدى يزيد بن المهلب قائلا أنا يا أمير المؤمنين قال : فخذه ولا تمسه ، وضع العذاب على ابنيه مروان وعبد الاعلى . وخرج به يزيد فحمله على دابة ابنه ، ثم انصرف به الى منزله وبره فلما انفردا

وحدهما أشار عليه يزيد باجابة امير المؤمنين الى مقاضاته عن نفسه وبنيه . فرد عليه موسى : أما اذا كنت أنت صاحب هذا الشأن ، فانا غير مخبرك فيما صنعت لامير المؤمنين ، وأيم الله .. لو أمر سواك بي وكلفه البسط علي لكان احب الي أن القى الله عز وجل واقرب الي من أن يأخذ مني دينارا واحدا ، أديا يابني عن نفسيكما وابيكما .

وغدا يزيد بن المهلب الى سليمان فاعلمه بما تم الاتفاق عليه وبرضاء موسى بمقاضاته على أن لا يعزل ابنه عبد الله عن افريقية ومن جميع عمله سنتين . وان كل ما جباه وابنه عبد العزيز بالاندلس يبقى لموسى وأن يدفع اليه بمولاه ـ طارق بن زياد ، ولم يوافق سليمان على الشرط الاخير وأبقى طارقا تحت العقوبة . وتمت المقاضاة والتراضي .

وفي خلال هذه الفترة نقل جواسيس الى سليمان أن عبد العزيز بن موسى يتكلم في حقه بما تدفعه الحمية العربية لما صنع بابيه على حسن بلائه ، فخاف سليمان أن يخلعه فينادى لنفسه أو لأبيه بالخلافة على الاندلس فدبر مؤامرة مع بعض رجاله لقتله ـ رباه كم ابتليت هذه الامة بحاقدين ـ ؟ . وأرسل مع رجال المؤامرة كتابا الى عبد العزيز ليلحقهم به ويدعم بهم جيشه في خدمة الدولة واستتباب الامن . ولقوا في طريقهم ايوب بن حبيب بن اخت موسى فحرضوه على الحضور معهم والقيام بمهمة الاغتيال على أن يبايعوه مكان عبد العزيز ، فقبل وذهب معهم . وكان أول من قابلهم عبد الله بن عبد الرحمن الغافقي ، وكان سيد أهل الاندلس صلاحا وفضلا ، فاعلموه بمهمتهم ، فقال لهم : انكم تعلمون يد موسى عند جميعكم ـ صغيركم وكبيركم ـ وان ما بلغ أمير المؤمنين امر كذب عليه فيه ، والرجل لم ينزع يدا من الطاعة ، ولم يخالف فيستوجب القتل ، وأنتم ترون ، وأمير المؤمنين لا يرى . فاطيعوني ودعوا هذا الامر . فأبوا بنفوسهم الحاقدة ، وأصروا على رأيهم بجهل أعمى مجمعين على قتله .

بين يدي الامير

ووقفوا له ، فلما خرج لصلاة الصبح ، ودخل القبلة وأحرم ضربه ابن حبيب ضربة قاتلة .. وابن حبيب ابن عمته ـ ليس في التاريخ بورتس واحد !! ؟؟ ـ وحزوا رأسه وعادوا به الى سليمان . فلما أذن لهم ووضعوا الرأس بين يديه ، بعث الى موسى فأتاه وجلس وراء القوم وهو لا يعلم بما حدث . فقال له سليمان بعد أن استنفرت كل ـ السادية ـ في خلاياه بدون استثناء وقد كشف عن رأس الشهيد : أتعرف هذا الرأس يا موسى .. ؟ . فنظر موسى فاذا برأس عبد العزيز ، فقال في ثبات أل العزم .. وصبر أيوب : نعم هذا رأس عبد العزيز بن موسى . وقام بعض رجال الوفد ممن باعوا انفسهم للشيطان في سبيل ارضاء السلطان فتكلم بما تكلم به طعنا في عبد العزيز الشهيد الطاهر وقام موسى بعدهم فحمد الله ثم قال : وهذه الرأس رأس عبد العزيز بين يديك يا أمير المؤمنين ، فرحمة الله عليه ، فلعمر الله ما علمته نهاره الا صواما وليله الا قواما ، شديد الحب لله ورسوله ، بعيد الاثر في سبيله ، حسن الطاعة لامير المؤمنين شديد الرأفة بمن وليه من المسلمين ، فان يك عبد العزيز قد قضى نحبه فليغفر الله ذنبه ، فوالله ما كان بالحياة شحيحا ، ولا من الموت هائبا ، وليعز على عبد الملك ، وعبد العزيز والوليد أن يصرعوه هذا المصرع ، ويفعلوا به ما أراك تفعل ..

فرد عليه سليمان : بل ابنك المارق من الدين ، والشاق على المسلمين ، المنابذ لامير المؤمنين ، فمهلا أيها الشيخ الخرف .

فقال موسى : والله ما بي من خرف ولا أنا عن الحق بذي جنف ، ولن ترد مجاورة مواضع الحمام ، وأنا أقول كما قال العبد الصالح ـ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ـ فاذن برأسه يا أمير المؤمنين .

واغرورقت عيناه بالدموع .

فقال له سليمان : نعم فخذه . فقام موسى فاخذه ، وجعله في طرف قميصه الذي كان عليه ، ثم أدبر في السماطين فوقع الطرف الآخر عن منكبيه ، وهو يجر ولا يحفل به ولا يرفعه ، فقال له أحد الجالسين : ارفع ثوبك يا ابن نصير ، فالتفت موسى اليه وقال : ما أنت وذاك ؟ . واعترض سليمان قائلا : دعه حسبه ما فعلناه به . وتوارى موسى ، فقال سليمان : ان في الشيخ لبقية بعد .

ولم يلبث أن تبين فيما بعد أن جثة قد جيفت في زوايا احدى المساجد لم يدر بها أحد لولا رائحتها وهي جثة فاتح كبير يقف تاريخه شامخا على مر الزمن !

وهكذا طويت صفحة عظيم بمأساة تقشعر لها الضمائر وتهتز لها النفوس . ■■

حلب ـ د . محمد جبر



المسرح الفرنسي هو رمز انتصار فرنسا

نابليون بونابرت

الكوميدى فرانسيز

أطفأت الشمعة رقم ٣٠٠ من عمرها

بقلم : سعد اردش

دخلت فرقة الكوميدى فرانسيز قرنها الرابع ، منذ اطفأت في ٢١ اكتوبر الماضي الشمعة الثلاثمائة من عمرها الجديد .

هذه المناسبة ، تفجر كثيرا من القضايا ، والذكريات ، وتدعو الى الكثير من التأمل ، لا في فرنسا وحدها ، بل في انحاء العالم . لقد كان مسرح الكوميدى فرانسيز منذ تأسيسه في ٢١ اكتوبر ١٦٨٠ مثلا يحتذى في تأسيس الفرق الرسمية (القومية) ، لما تتسم به تشريعاتها وتقاليدها من وضوح ورصانة ، سواء من ناحية التخطيط الثقافي او الاقتصادي او الادارى ، أو من ناحية علاقاتها بالجماهير الباريسية او الفرنسية او العالمية ، او بأجيال الممثلات والممثلين الذين عملوا تحت اضواء خشباتها ـ منذ كانت المسارح تضاء بالشموع وحتى آخر صرخة للتكنولوجيا الحديثة فيما بعد اختراع الكهرباء ـ او بكتاب المسرح ، او بالمسارح المنافسة .

وتظل الكوميدى فرانسيز ايضا مضرب الامثال للمشروعات المسرحية والثقافية من حيث ظروف التحدي التي اجتازتها دائما بالصبر والتضحية ، والايمان برسالة المسرح قبل الجماهير ، وقبل الدولة ، كما تظل تقدم التجربة الحية الثرية للمشاركة الايجابية بين الدولة والفنان المسرحي بقصد التعبير الثقافي ، من خلال الاهتمام المتبادل ، والالتزام المتبادل بين الطرفين برسم السياسة المستقبلية التي تضع في حسبانها البناء والتطوير .

قبل التأسيس

مع اوائل القرن السابع عشر كانت قبضة رجال الكنيسة في فرنسا قد بدأت تنحسر عن المسرح ، واخذت مسرحيات الاسرار الدينية في الانكماش ثم اختفت لتحل محلها مسرحيات دنيوية من نوع الفارى Faree في الغالب ، وكانت هذه المسرحيات في معظم الاحيان تقليدا لسيناريوهات فرق الكوميديا الايطالية التي كانت تعمر المسارح الفرنسية منذ اواخر القرن السادس عشر ، وكانت

هذه العروض المسرحية الهزيلة تستهوى جماهير الطبقات العاملة وبعض البرجوازية الصغيرة .

ولكن تباشير عصر النهضة من ناحية ، والارستقراطية النامية في بلاط الملك من ناحية اخرى مهدتا الارض لغزو التراجيديا ، فبدأ كبار الممثلين الفرنسيين ، وبوجه خاص في باريس ، يضيفون الاعمال التراجيدية الارسطاطليسية الى برامجهم من مسرحيات الفارى .

وكان بييركورل اول الشعراء التراجيديين الذى صعدوا الى المسرح في القرن السابع عشر (١٦٠٦ ـ ١٦٨٦) ، ثم تلاه جان راسين (١٦٣٩ ـ ١٦٩٩) ، وجان بابتيست بوكلان الذى عرف على المسرح باسم موليير (١٦٢٢ ـ ١٦٧٣) ليقدم التراجيديا لفترة ما ، قبل ان يقتنع بانه الموهبة الفذة في الكوميديا .

كان الاول يقوم من خلال فرقة مسرح الهوتيل دى بورجوني ، والثاني من خلال فرقة مسرح الماريه اما الثالث فقد ورث مسرح البتي بوربون الذى كانت تقدم عليه فرقة فناني الكوميديا الايطالية عروضها منذ ١٦٥٨ .

وبلغ من ازدهار الحركة المسرحية (حركة الاحياء الكلاسيكي) ان شمل الملك لويس الرابع عشر او الملك الشمس (١٦٦١ ـ ١٧١٥) برعايته مسرح الهوتيل دى بورجوني ، ثم تسابق الامراء والوزراء في بسط رعايتهم على الفرق المختلفة ، واصبحت الحياة المسرحية جزءا لا يتجزأ من حياة البلاط . بل ان كلتيهما أصبحت مرآة للاخرى ، فالممثلون يقتبسون من اساليب وطرائق سلوك الارستقراطية ، والارستقراطية تتمثل سلوك الشخصيات المسرحية التراجيدية وطبائعها . اما موديلات الازياء فقد اصبحت عالما مشتركا بين الشخصيات المسرحية وحاشية القصر ، وبوجه خاص بين الممثلات وسيدات البلاط .

على ان هذا الازدهار المسرحي ، وهذه القرابة الوطيدة بين اهل المسرح والقصر والبلاط كانا لابد ان يؤديا الى سلسلة من التناقضات ، في مناخ ما يزال يحكمه التناقض بين الكنيسة والقصر ، وبوجه خاص في اطار التنازع بين سلطات الكنيسة والسلطات الزمنية .[١]

بل ان التناقضات قد تجاوزت السياسة العليا للسلطتين ـ بما يدخل تحت هذا المعنى من صراعات مع الفكر المسرحي الانساني الجديد الى العلاقات الشخصية والاسرية داخل الارستقراطية ذاتها ، فلقد تعددت بطبيعة الحال العلاقات العاطفية بين هذه الطبقة واهل الفن ، وكثرت الحواديت والقصص ، واصبحت مادة تسلية في الصالونات التي اشتهر بها ذلك العصر ، وتضمنت المذكرات الشخصية لهؤلاء واولئك كثيرا من الاسرار والفضائح ، واشتعل مناخ التنافس بين الفرق المختلفة ، ليس فقط على ارض الابداع الفني ، بل ـ وهذا هو الاهم ـ على ارض القيل والقال[٢] . ويضاف الى كل هذه التناقضات صعوبات اقتصادية دائمة بالنسبة لكل الفرق ، تصل احيانا الى طرد الفرقة من الدار المسرحية بناء على انذار ، الامر الذى دفع الملك الشمس الى اتخاذ القرار بانشاء الفرقة الرسمية حماية للمسرح من التبديد والضياع . وربما تخفيفا لعوامل التنافس بين عديد من الفرق ، وحسما للصراعات الناتجة عن انضواء كل من هذه الفرق تحت رعاية واحد او جناح من الارستقراطية . فلا شك ان اختصاص فرقة جديدة بالصفة القومية والرسمية يعطيها شرعية التفوق والسبق والاحترام ، وبوجه خاص اذا كان مرسوم انشائها صادرا من الملك ، فضلا عما في القرار من حماية للمسرح والمسرحيين من عداوات الكنيسة ، وعما يتضمنه القرار من الارادة الملكية الراعية التي تتجه الى المحافظة على المؤسسة المسرحية وتهيئة كافة السبل لبقائها وتطورها على مدى الزمان .

مرسوم الملك

الكوميدي فرانسيز[٣] . كما اسبقنا ـ تأسست بمرسوم ملكي صادر عن الملك لويس السابع عشر في ٢١

(١) لم تكن الكنيسة الكاثوليكية قد صفحت بعد عن المسرح الدنيوى ، وكان الممثلون ما يزالون محرومين من رعاية الكنيسة في حياتهم وبعد مماتهم حتى من الدفن في ارض مسيحية .

(٢) ليست المسئولية هنا في الواقع مسئولية المسرح واهله ولكنها طبيعة التكامل الحضارى للعصر ذاته ، بكل ما يحمله العصر من مقومات .

(٣) اعتمدت في هذا الباب على مؤلف كلود الاسير ، الكوميدي فرانسيز في القرن ١٨ للناشر مولوكد باريس ١٩٦٧ ، مع كثير من التصرف .

اكتوبر ١٦٨٠ ، وان كان الامر قد صدر شفويا قبل ذلك في ١٨ اغسطس ١٦٨٠ ، بعد سبع سنوات من موت موليير ، ولقد انهى القرار الملكي معركة طويلة الامد بين فرقة موليير وفرقة الممثلين الملكيين بالهوتيل دى بورجوني ـ وكانت فرقة موليير قد اندمجت قبل ذلك في فرقة قصر الماريه وبذلك يعتبر القرار ادماجا للفرق الثلاثة .

وفي ٢٥ أغسطس ١٦٨٠ قدمت الفرقتان المندمجتان أول عرض مشترك ، وقد تضمن العرض مسرحيتين « فيدر » لراسين ، و « مريض رغم انفه » لموليير . وقد حقق العرض نجاحا فنيا ودخلا وافرا ، وكان عدد الحاضرين ١٠٤٥ متفرجا دفعوا ثمنا لتذاكرهم ١٤٢٤ جنيها و ٥ شلنات ، وهو ما يعده المؤرخون دخلا ممتازا اذا قيس بمستوى المعيشة في ذلك العصر .

ولعله من المفيد ان نورد هنا نص المرسوم الملكي :

« حيث انه بامر الملك لجلالة الملك ، ان اندماج الفرقتين القائمتين بمسرح الهوتيل دى بروجوني ومسرح شارع جينجود في باريس ، في فرقة واحدة ، يحقق مزيدا من الانضباط في العروض المسرحية عن طريق الممثلين والممثلات اعضاء الفرقة ، فان جلالته قد اصدر امره بان يستمر اندماج هاتين الفرقتين في المستقبل ليكونا فرقة واحدة من الممثلين الفرنسيين ، وتشكل هذه الفرقة من الممثلين والممثلات الواردة اسماؤهم في هذا المرسوم الملكي ، وتمنح لهم كل الوسائل التي تمكنهم من تطوير فنهم على الدوام ويريد جلالة الملك ان تتمكن الفرقة المذكورة من عرض اعمالها في باريس ، وان يحال دون تأسيس فرق اخرى من الممثلين الفرنسيين في المدينة المذكورة ، وضواحيها بغير امر صريح من جلالته . ولقد اصدر جلالته تكليفا للسيد دى لا رينشي ، مدير عام البوليس ، بالاشراف على تنفيذ هذا المرسوم .

صدر في فرساي في ٢١ اكتوبر ١٦٨٠
توقيع لويس . »

وقد تضمنت قائمة الممثلين ٢٦ ممثلا وممثلة ، يملكون عشرين سهما وربع السهم (بواقع ١٠٠٠ جنيه للسهم) على الوجه التالي :

١٦ ممثلا لكل منهم سهم كامل ، و٧ ممثلين لكل منهم نصف سهم وثلاثة ممثلين لكل منهم ربع سهم .

وقد اصدر مجلس ادارة الفرقة في ٥ يناير ١٦٨١ قرارا اداريا قانونيا لتنفيذ المرسوم يتضمن النقاط التالية :



ادرين ليكوفرير في ملابس الخروج

ـ تترتب للاعضاء حقوقهم اعتبارا من ٢٦ اغسطس ١٦٨٠ .

ـ تدفع المرتبات في مقر الفرقة ، فاذا لم يبادر العضو الى قبض معاشه يعلق باسمه .

عند وفاة احد الممثلين تدفع الفرقة ١٠٠٠ جنيه للزوجة او ـ في حالة عدم وجودها للورثة ـ ولا يجوز حجز هذا المبلغ للدائنين .

ـ كل ممثل جديد يلتحق بالفرقة يدفع ١٥٠٠ جنيه كمعاش للفرقة او للممثل الذي حل محله ، اذا طلب الاخير ذلك .

ـ الممثلون الذين يتقرر لهم معاش (اذا احالتهم الفرقة الى المعاش او طلبوا ذلك بانفسهم بناء على شروط مقررة) يتقاضون معاشا قدره ١٠٠٠ جنيه في العام ، سواء كان لهم سهم كامل او نصف سهم أو ربع سهم .

ـ لايجوز الحجز على انصبة الممثلين لحساب الدائنين .

ـ كل ممثل جديد يلتحق بالفرقة يجب ان يوقع هذا العقد

ولم يشأ الملك ان يترك الفرقة الرسمية للاقدار الاقتصادية المتقلبة ، فخصص لها اعانة سنوية قدرها ١٢٠٠٠ جنيه ، ظلت تدفع بانتظام حتى سنة ١٧٩٠ .

ولعله من المفيد ايضا ان نتناول بالتحليل بعض المبادىء التأسيسية التي قام عليها المرسوم الملكي . وكذلك اللائحة التنفيذية التي اصدرها مجلس ادارة الفرقة ، ومناط الفائدة ـ في اعتقادي ـ قد يتحقق في عقد المقارنة بين ظروف تأسيس الكوميدى فرانسيز وظروف المسرح العربي ، على ما بين المسرحين من فارق زماني وحضاري كبير ، اذا قدرنا ما وقع بالفعل في ثلاثمائة عام

من تطور في المفاهيم وفي بنية المجتمع ، وفي التطورات الاقتصادية والعلمية ، وفي المتغيرات التي تحكم زماننا :

في عاصمة النور

● فالنص على ان تظل باريس مقر الفرقه ، اريد به ان تتحول العاصمة ـ عاصمة النور ـ الى مركز اشعاع من ناحية ، وان تصبح موقعا سياحيا من ناحيةاخرى ، يؤمه الفرنسيون وغيرهم من شعوب العالم ، ليرتادوا هذه المنشأة الثقافية وغيرها ، وهو ما تحقق بالفعل منذ استقرار الكوميدى فرانسيز في باريس . على ان القرار بالاضافة الى هذا يكشف عن القيمة الكبيرة المتميزة التي يراد تحقيقها لهذه الفرقة ، بالمقارنة مع غيرها من الفرق التي يمكن ان تؤدي نفس الوظيفة في انحاء فرنسا ، ولعله بهذه الوسيلة تكون لكل مدينة ولكل مقاطعة فرقها ومراكزها الثقافية . ولو لم تكن هذه نية الملك لما حرم على الفرق الاخرى ان ترتاد مسارح باريس الا باذن خاص من جلالته ولقد كسرت الكوميدى فرانسيز هذه القاعدة فيما بعد ـ خلال القرن التاسع عشر فيما اعتقد ـ ، فبدأت تقوم بسفارات متباعدة عبر العالم ، بعد ان استقرت احوالها ، واصبحت بمنجى من الازمات والعواصف ، واصبح لها من الرصيد المسرحي الكلاسيكي عشرات المسرحيات من عيون الادب ، وبعد ان استقرت سمعتها في العالم كواحدة من اعرق البيوت المسرحية ذات التقاليد الراسخة .

● ومبدأ المشاركة في رأس المال والارباح اريد به تثبيت اقدام الفرقه ، عن طريق اعتبار اعضائها شركاء بالاسهم ، عن ان توفير التأمينات والمعاشات للفنان في ذلك الوقت المبكر ، اريد به كفالة الاستقرار والضمان النسبي لحياة الفنان في المستقبل .

● مبدأ احتكار الكوميدى فرانسيز لباريس ، وحمايتها من المنافسات فانه يقوم في الواقع على اساسين :

١ ـ تحديد مستوى عروض الفرقة ، ومن المعروف انها كانت تقصر برامجها على الكتاب الفرنسيين الراسخين ـ الكلاسيكيين ـ وعلى وجه التحديد كورنى وراسين وموليير ثم بو مارشيه وما ريفو ، وبمعنى آخر فانه قد اريد للفرقة منذ اللحظة الاولى ان تقتصر عروضها على المآسي العظيمة والملاهي العظيمة ، وان تبتعد عن كل ما عدا هذا من النوعيات فتتركها لغيرها من الفرق الخاصة او التجارية .

ولقد حافظت الكوميدى فرانسيز دائما على هذا التقليد ، ولم تتأثر بالموجات الجديدة او التجريبية على مدى القرون الثلاثة . لقد كانت سياستها وكان منهاجها منذ البداية تحاشي الموجات الطليعية من ناحية ، وتحاشي الشيخوخة والهرم من ناحية اخرى . وان وظيفتها هي تكريس الكتاب الراسخين وتخليدهم ، وغالبا ما يكون هذا بعد موتهم . استثناءات قليلة جدا وقعت في الستينيات من زماننا بالنسبة لمونترلان واوديبرتي ويونسكو . فقد قدمت للاول « كاردينال اسبانيا » في ١٩٦٠ ، وللثاني « النملة داخل الجسم » في ١٩٦٢ ، وللثالث « العطش والجوع » في ١٩٦٦ ، لانهم من الكتاب الفرنسيين الواسعي الانتشار في العالم ولانهم فرضوا انفسهم على خشبات المسارح العالمية في حياتهم . ومع ذلك فقد اثار هذا من الغضب بين محبي الكوميدى فرانسيز ومؤيديها ، وعرضها لموجات شديدة من النقد .

٢ ـ والاساس الثاني يعتبر في الواقع ضرورة لتثبيت الاساس الاول والدفاع عنه ، وهو حماية الفرقة على الاقل حتى يشتد عودها ـ من منافسة الفرق التجارية التي قد تلجأ الى اغراء الجماهير بنوعيات غثة ، كالفودفيل والميلادراما وغيرها من النوعيات الكثيرة الانتشار في ايامنا ، مما يستهدف بالدرجة الاولى مداعبة غرائز المتفرج واستثارة ضحكاته بالقبح والغثاثة .

ولكن هذه الحماية لم تدم طويلا ، فلقد عاد المسرح التجاري الى باريس مع اوائل القرن الثامن عشر ، مما اضطر لويس الخامس عشر الى التدخل لحماية الفرقة في ١٧٥٧ بكثير من المعونات المالية وبتشريعات جديدة .

مدرسة لفن الممثل

اول دار مسرحية شغلتها الفرقة عند تأسيسها كانت تقع في شارع جينجو ، وهي الدار التي كانت تشغلها فرقة المارية قبل ان تندمج في فرقة الهوتيل دى بورجوني .

ومنذ ١٦٨٩ حتى ١٧٧٠ اقامت في دار مسرحية جديدة في شارع فوسيه سان جرمان على الشاطىء الايسر لنهر السين ، وقد اطلق على هذا الشارع فيما بعد « شارع الكوميديا القديمة » .

وفي ٩ ابريل ١٧٨٢ لعبت الكوميدى فرانسيز للمرة الاولى في مسرح جديد شيد خصيصا لها بالقرب من

قصر من قصر لوكسمبرج هو مسرح الاوديون ، وهو يعرف اليوم باسم المسرح الفرنسي ، صالة لوكسمبرج » . وخلال الثورة الفرنسية انقسمت الفرقة الى فريقين : احدهما اعلن انتماءه للثورة تحت اسم « مسرح الجمهورية » ، ولكنه انحل في ١٧٩٩ ، والاخر انتهج التيار المعارض ، واعتنق الولاء للملكية ، ولكنه انحل ايضا في اعقاب فترة الرعب ، بعد ان قدم عرضا يحابي الملكية ، وانتهى الامر بالقبض على جميع الممثلين ونادى البعض بتقديمهم الى المقصلة ، ولكن احدا منهم لم يصافح المقصلة لحسن الحظ .

وقد اعيد تأسيس الكوميدى فرانسيز بعد انتصار الثورة ، وفي هذه المرة خطط « نابليون بونابرت » نفسه مشروع تأسيسها ولوائح عملها بالتفصيل ، واصدر امر التأسيس « بدكريتو » صادر في موسكو عام ١٨١٢ . وعادت الفرقة الى الدار التي كانت تشغلها منذ ١٧٩٩ ، والتي تقع في « قصر ريشيلو » وما تزال الفرقة تقيم فيها حتى اليوم .

وكما تمنى الملك الشمس ، ورغم الازمات الكثيرة التي تعرضت لها الفرقة في مراحل مختلفة ، فقد تأسست في هذا البيت المسرحي الكبير مدرسة لفن الممثل وقطعت اشواطا بعيدة من التطور عبر الزمان ، وخلال اجيال متعاقبة من الممثلين والممثلات .

وقد وضعت الفرقة في اعتبارها منذ تأسيسها ان تحقق هدفين هامين ، اولهما المحافظة على تقاليد الاداء الكلاسيكي في التراجيديا والكوميديا ، وثانيهما البحث والتطوير في اساليب الاداء دون الخروج على الاسس الكلاسيكية ، وبوجه خاص جمال وشاعرية الصيغة صوتا وحركة .

ويحفل سجل الكوميدي فرانسيز باسماء العشرات من كبار الممثلين والممثلات وتحفل كتابات نقاد العصر باساليب ابداعهم في الاداء :

فديكلو كان مشغوفا بالتركيز على حلاوة صوته ، مبرزا كل القيم الموسيقية في اوزان الشعر ، ثابتا في وقفته ، غير ملق بالا للحركة ، اما الممثلة الشهيرة ادرين ليكوفرير فقد كانت حركتها تتميز بالرشاقة الطبيعية ، ولم تكن تركز على القيم الشعرية بل على امكانيات التعبير عن العواطف وكوينولت ديفرسن فكانت سيدات البلاط يعشقنه كاجمل الرجال ، كان يقوم نفسه دائما كعاشق فرنسي ، وسيد متحضر . اما ليكان ، اعظم من ادى شخصيات مسرح فولتير ، فقد كان مناط الاعجاب في انحاء فرنسا لانه استطاع ان يخترع حاجز التقاليد الجامدة ، وان يعبر بشكل مباشر عن عواطف شخصياته .

ولقد اوحى هذا التيار المتجدد دائما في فن الممثل للكاتب والفيلسوف المنظر الفرنسي دينس ديدرو ان يكتب في ١٧٧٣ دراسته الحوارية حول فن الممثل ، تحت عنوان « التناقض الرئيسي في فن الممثل » ، وهو يؤكد ان اداء الممثل النيوكلاسيكي هو بلا منازع ما يجب ان يكون .

الابواب مفتوحة للخالدين

لقد فتحت الكوميدي فرانسيز ابوابها للخالدين من كتاب المسرح العالمي في الآونة الاخيرة ، تسليما بدورهم الريادي في تطوير المسرح ومواكبته للحركات الثورية في عصرنا ، ولكنها لا تقدم الاحياء منهم ـ باستثناء وحيد حتى الآن بالنسبة لمسرحية « في انتظار جودو » لصمويل بيكيت ، وقد قدمت الفرقة بالفعل اعمالا لأنطون تشيكوف ، وبرنارد شو ، وبرتولدبر يخت ولويجي بيراندللو ، اى انها اختات بالفعل اكبر الكبار في روسيا وايرلاندا والمانيا وايطاليا في القرن العشرين . ولعل في هذا الدليل على ان الفرقة لا تحبس نفسها في اطار متحجر من التقاليد ، بل تستجيب في مرونة للاحداث المسرحية البارزة سواء في فرنسا او في العالم .

لقد حاولت ان اقدم صورة ملخصة لتاريخ فرقة من اقدم الفرق الرسمية في المسرح العالمي ، وان القى الضوء على ما في هذا التاريخ من اهتمام فرنسا منذ القرن السابع عشر بالبنية الثقافية كواجهة لبنيتها الحضارية . ولا اظنني بحاجة لان اضع النقاط فوق الحروف في قضية اهمية المسرح في النسيج الحضارى لشعب من الشعوب ، او لدولة من الدول .

ويبقى ان اقول ان فرنسا قد اقامت ـ بمناسبة العيد الثلاثمائة للكوميدى فرانسيز ، معرضا في مركز بومبيدو يجسد الحياة اليومية لهذه الفرقة العتيدة منذ انشائها ، ويستمر حتى ١٢ يناير ١٩٨١ ، وربما انتقل المعرض الى ديارنا عن قريب .

ولا يسعني في الختام الا ان اسجل قول نابليون بونابرت : « ان المسرح الفرنسي هو رمز انتصار فرنسا ، وهو الذي يعبر بوضوح عن عظمتها . » ■■

سعد أردش



السياسة تطارد الرياضة

منذ ثلاثة آلاف عام !

بقلم : عادل شريف

في دنيا الرياضة ، فان اخطر احداث عام ١٩٨٠ ، هو اتساع نطاق المقاطعة العالمية للدورة الاوليمبية الثانية والعشرين ، التي اقيمت في موسكو في الفترة من ١٩ يوليو الى ٣ اغسطس الماضيين . وهو ما يعد ذروة الالتحام بين السياسة والرياضة ، وشاهدا جديدا على جناية السياسة على الرياضة والرياضيين .

ورغم ان الرياضيين وعشاق الرياضة هم اكثر الناس تأثرا بما حدث في صيف العام الماضي ، الا ان ذلك لم يحجب اهتمام واحدة من اعمق المجلات الثقافية بهذا الحدث الهام ، فقد نشرت مجلة « كوميت » الامريكية الشهيرة على غلاف عددها الصادر في يوليو (تموز) الماضي ، يقول : « دبلي طومسون اعظم رياضي بريطاني معاصر ، يتحدى المقاطعة الاوليمبية » .

والعلاقة بين السياسة والرياضة قديمة ، بل موغلة في القدم .

فالأصل في الرياضة انها مستقلة كل الاستقلال ، ولا تخضع لاية مؤثرات ، وانها تمارس على اسس متكاملة من النزاهة والعدالة وعدم التحيز .. من اجل الترويح والتسلية والمتعة البريئة والصحة الطيبة لاهل الارض كلهم . وعلى اساس ان المنافسة الشريفة في مجالها ، تأمل تحقيق اكثر احلام البشرية جموحا ـ وهي ان تكون هذه

المنافسة ، البديل للحروب والاقتتال . أي إنجاز المحال !

وتقوم فلسفة الرياضة على غرس الحب والسلام والصداقة والاخوة والتفاهم والاحترام ـ او محاولة دعمها بين شعوب الدنيا ... كلها !

بل يقول المتطرفون في احلامهم الوردية ان أكثر هذه الاحلام جموحا يتصاعد الى حد تحقيق « الوحدة العالمية » بين اهل كوكب الارض ، بعد تخطي اصعب الموانع وهو « القومية » والتعصب الشديد لها .

ولعل اقدم محاولة بشرية على هذا الدرب الصعب .. هي « الهدنة المقدسة » التي استهدفت « الفصل » بين السياسة والرياضة ـ ولو لفترة محددة ـ وتجنيب الرياضة وممارسيها وعشاقها بعض ويلات السياسة .. وهي الحروب ، التي تسبب تأصيل البغضاء والدمار .

وكانت الحروب هي الامر اليومي المألوف بين دويلات الاغريق (اليونان القديمة) قبل الف عام من الميلاد ... بسبب المنازعات السياسية بينها ورغبة كل دويلة في السيطرة على كل ارض هيلاس (اليونان) ، ولكن تكريما للالعاب الاوليمبية القديمة ولمكانتها السامية الرفيعة .. عقدت في عام ٨٨٤ ق.م « ايكيشيريا » اى « هدنة » مقدسة بين ايفيتوس ملك ايليس .. وكلو ستينيز ملك بيزا .. وليكورجوس ملك اسبارطه . ونصت المعاهدة على ايقاف كل الاعمال العدوانية على مدى ثلاثة شهور تتوسطها فترة اقامة الالعاب الاوليمبية .. لضمان الامان للاعبين والمشاهدين الذين كانوا يقصدون « اوليمبيا » من كل الدويلات في ذلك الوقت ، ومن كل اطراف الامبراطورية الاغريقية فيما بعد .

وتوقفت الحروب .. على مضض ، وتسيد الرياضيون الموقف مئات السنين .. وان تخللتها بعض الانتهاكات المؤقتة .. لان السياسيين لم يصبروا على دوام السلام ولو مؤقتا وما يفرضه ذلك على اطماعهم من قيود .

وبينما صانت « الهدنةالمقدسة » الالعاب القديمة .. الغت حروب القرن العشرين ثلاث دورات للالعاب الاوليمبية الحديثة .

بين التثبيت والتدويل

وفي عام ٣٩٣ ميلادية وأد الامبراطور الروماني تيودوسيوس الالعاب الاوليمبية القديمة بفرمان ديكتاتوري بحجة انها تشكل بقايا وثنية لا تليق بامبراطورية اصبح دينها الرسمي هو المسيحية .

وفي عام ١٨٨٦ نجح البارون الفرنسي بيير دي كوبيرتان في بعث الالعاب الاوليمبية بعد طول رقاد . وواكب ذلك الانجاز التاريخي الخلاق اعنف صراع شهده البعث الجديد لما يسمى « اعظم مهرجان رياضي في الكرة الأرضية » . فقد بدأت حملة ضارية شنها الاثرياء والاقوياء سياسيا من آل زاپاس استهدفت « تثبيت » الالعاب الاوليمبية الحديثة في ارض « هيلاس » مهد الالعاب القديمة ومقرها الدائم . ولكن دي كوبيرتان حقق اول فوز اوليمبي عندما نجح في « تدويل » مكان اقامة الالعاب وتحريكه .. بحيث تقام مرة كل اربع سنوات في دولة مختلفة .. وذلك نشر للحركة الاوليمبية وفكرتها وفلسفتها وتعميق وتنمية ودعم لها .

وعلى مدى تاريخ الالعاب الاوليمبية الحديثة الذى لا يزيد على أربعة وثمانين عاما ، فانها لم تسلم من « مداعبات » السياسة الثقيلة وتدخلها .

ولعل اهم ظاهرة في حقبة السبعينات هي تجدد محاولات « تثبيت » اقامة الالعاب الاوليمبية بصفة دائمة في الارض اليونانية لتخليص الرياضة . من قبضة السياسة . وترمي الفكرة الجديدة التي تتلقى تأييد شخصيات رياضية بارزة في الكثير من البلدان . وليس فقط في اليونان . الى العودة « الى اوليمبيا » وذلك عن طريق انشاء مدينة « دولية » قريبة من اوليمبيا القديمة حيث نشأت واقيمت كل الالعاب الاوليمبية القديمة على ساحل البحر ... تكون حرة من كل قيد .. ومتحررة من التأثيرات السياسية .. ومفتوحة للجميع ـ مثل الفاتيكان في قلب روما ـ بشرط ان تكون تحت سيطرة اللجنة الاوليمبية الدولية .. وان يكون ميناؤها مفتوحا لاية سفينة .. ومياهها الاقليمية محترمة من الجميع .. وملاعبها ملكا لكل عشاق الرياضة من الأنام على مدار العام ، بغض النظر عن السن واللون والدين والمذهب الفكري وبذلك تكون « اوليمبيا الجديدة » بمثابة جنة رياضية مثالية ومنتجعا صحيا وترويحيا للجميع حيث يسود مبدأ « الرياضية للرياضة » . ومن اجل الحد من تدخل السياسة وغلواء التعصب القومي يرى انصار « الفردوس المرجو » و « المدينة الفاضلة الرياضية » تحريم استخدام الاعلام والاناشيد « القومية » والفرق القومية .. لتعود الالعاب « فردية » كما كانت في الايام الخوالي .. ليسود السلام الحقيقي والحب والتفاهم والروح الرياضية الاصيلة . والاخلاق الكريمة النبيلة .



ويبالغ المتطرفون الى حد المناداة بدخول « اوليمبيا الجديدة » بدون جوازات وتأشيرات .. ليفوتوا على السياسيين ما سبق ان مارسوه من ضغوط عندما كانوا يحرمون لاعبي دول معينة من دخول بلادهم التي التي تنظم لقاءات رياضية دولية .. بسبب خلافات سياسية مع دول هؤلاء اللاعبين المعنيين .. على اساس ان الدنيا منذ عرفت الحدود والتأشيرات .. شحب فيها الحب وتصاعدت الصراعات .. وتدخلت السياسة في الرياضة .

ولكن من يضع يده في جيبه ويقدم عن طيب خاطر ، خمسمائة مليون جنيه استرليني ، هي الحد الادنى لاقامة « يوتوبيا الرياضة ؟ » بل ويسارع الى ذلك قبل ان يرفع التضخم المالي تلك التكاليف الى الضعف ؟

ويؤكد انصار « أوليمبيا الجديدة » ان التمويل يتذيل قائمة العقبات ، بينما تتصدرها موافقة المجتمع الدولي على تلك الفكرة العبقرية .

فهم يصرون على ان التبرعات والهبات من الافراد والهيئات والشركات ستغطي النفقات .. ويدللون على ذلك بان « ما كدونالد » ، صاحب سلسلة محلات الشطائر الشهيرة تبرع باحد عشر مليون دولار لاقامة حمام سباحة سيستخدم في العاب لوس انجلوس الاوليمبية ١٩٨٤ ... ولم يشترط هذا « البليونير الكريم » سوى .. وضع اسمه على بوابة الحمام ..

ويؤكدون ان كل ثري او مؤسسة تجارية ، لو تبرع ببناء ملعب ، او منزل .. لما كلفت قطعة الارض التي سيقدمها رئيس جمهورية اليونان السيد كارامانليس - وهو احد اصحاب فكرة التثبيت منذ كان رئيسا لوزارة هيلاس (اليونان) لبناء كل هذه المنازل والملاعب .

ويقول اصحاب « اوليمبيا الجديدة » ان « الجنة الرياضية المثالية » هي السبيل الاوحد لانقاذ الرياضة من نار السياسة .. فقد عاشت الالعاب الاوليمبية القديمة اكثر من الف سنة بلا مشاكل تقريبا ، بينما تعثرت الالعاب الحديثة في مناورات السياسة وعانت منها رغم انها في ربيعها الرابع والثمانين .

وهيا معا نستعرض بعض تلك المداعبات الثقيلة التي مارستها السياسة بحق الرياضة .

أنت ملـون

يطلقون على سياسة الفصل او التمييز العنصري

كلمة « الابارتهايد » في جنوب افريقيا .. ولكم عانت الرياضة من هذه السياسة اللعينة التي تمارسها حكومة جنوب افريقيا العنصرية . ولكم عانت هذه الحكومة صاحبة هذه السياسة المحمومة من « بيترهين » ، رغم ان بيترهين جنوب افريقي .. ابيض . ولكنه يؤمن بحقوق الانسان ، وان الناس سواسية كاسنان المشط . نظم بيت مظاهرات وحملات طاردة بها كل فرق بلده التي تلعب في الخارج . ونجحت حملاته في اوروبا الى حد ان تفقات الامن في مباراة كريكيت واحدة في لندن في صيف ١٩٦٩ بلغت .. خمسة الاف جنيه استرليني واضطرت اللجنة الاوليمبية الدولية وبعض الاتحادات الرياضية الدولية الى فصل جنوب افريقيا من عضويتها .

وفي كل صيف على مدى العشرين سنة الماضية التقي كاتب هذه السطور مع شيخ هندي مسلم هاجر من جنوب افريقيا الى لندن لبناء المساجد ونشر الاسلام ... واسمه الحاج حسين بهجباي وكان في شبابه (٧٧ سنة حاليا) بطل جنوب افريقيا « غير المتوج » في لعبة التنس بعد ان حرمته « الابارتهايد » من اللعب ضد مواطنيه البيض لانه « ملون » . والطريف ان الابطال البيض « العلنيين » كانوا يلعبون معه سرا .. وكان يهزمهم جميعا سرا . وفي عام ١٩٧٤ وصلت الهند بفضل الاشقاء الثلاثة من ال امريتراج وهم : اناند (السعادة في اللغة الأوردية) وفيجاي (النصر) واشوك (الحكمة » ، الى نهائي كأس ديفيز للتنس وهي بطولة العالم لفرق الرجال .. وكان خصمهم هو فريق جنوب افريقيا . وفي تضحية نادرة تحمل الاشقاء الثلاثة قرار حكومتهم بالانسحاب من اللقاء ، احتجاجا على سياسة التفرقة العنصرية التي تمارسها جنوب افريقيا . وكان خبراء ونقاد العالم يؤكدون ان فوز الهند بالكأس لاول مرة في التاريخ كان مضمونا واستيقظ ضمير كليف درايزويل بطل جنوب افريقيا « الابيض » وهاجر من وطنه وانضم الى الحملة العالمية التي تندد بسياسة ، الابارتهايد ، وكسب بيتر هين نصرا شهيرا ..

سجل التدخل السياسي

واطلت السياسة برأسها منذ ألعاب لندن الاوليمبية ١٩٠٨ عندما تعمد الفريق الفنلندي عدم استخدام علم روسيا القيصرية التي كانت تبسط نفوذها على « دوقية » فنلندا .. وبعد انتهاء تلك الدورة سار رياضيو امريكا في شوارع نيويورك وهم يسحبون اسدا لفوه في علم بريطانيا احتجاجا على تعصب الحكام الرياضيين الانجليز ضدهم في الدورة ... ونشبت ازمة عنيفة بين البلدين .

● وفي العاب ستكهلم الاوليمبية ١٩١٢ تمردت بعثات فنلندا وبوهيميا والمجر .. وطالبت الاولى بالاستقلال عن روسيا والثانية والثالثة بالاستقلال عن الامبراطورية النمساوية .. وحبس الامريكيون البيض عداءهم الأسود « هوارد درو » ليتيحوا الفرصة لمواطن « ابيض » ليحرز الميدالية الذهبية التي كانت مضمونة لهوارد في سباق المائة متر !

● وبعد قيام الحرب العالمية الاولى تطوع بيير دي كوبير تان في الجيش الفرنسي واستقال من رئاسة اللجنة الاوليمبية الدولية حتى لا يقال ان « عسكريا » يسيطر على اللجنة .

● وبعد انتهاء الحرب تجاهل منظمو العاب انفرس ١٩٢٠ دعوة المانيا وحلفائها بسبب العداء السياسي والتعصب القومي .

● وفي اثناء العاب باريس الاوليمبية ١٩٢٤ ندد مكسيم جوركي الكاتب الروسي الشهير باستخدام « البورجوازية » للرياضة كوسيلة دعاية .. وفي عام ١٩٥٨ نشرت « برافدا » وهي الجريدة الناطقة باسم الحزب الشيوعي السوفيتي في احدى افتتاحياتها ان « رحلة ناجحة للرياضيين السوفيت تعتبر خير دعاية لروسيا في داخل البلاد الرأسمالية .

● وفي ١٩٣٦ حول هتلر واعوانه العاب برلين الاوليمبية الى اعظم دعاية لنظام الحكم السياسي النازي و « الرايخ الثالث » واعلن هملر ـ وهو من اشهر اعوان هتلر ـ ان « علينا رفع المستوى البدني لجنسنا والا فشلنا في خلق المانيا العظمى » . وكان يقصد الجنس النوردي تجاوبا مع قائمة هتلر العنصرية التي صنفت شعوب العالم الى فئات يتصدرها الالمان ويتذيلها الزنوج ـ ولذلك تعمد هتلر عدم مصافحة جيسي اوينز الامريكي « الزنجي » نجم برلين ١٩٣٦ و الأوحد الذي فاز باربع ميداليات ذهبية . وان صافح خضر التوني الرباع المصري المغمور الذي قهر جميع ابطال العالم وعلى رأسهم ايزماير وفاجنر الالمانيين في وزن المتوسط .

● والى العاب هلسنكي » جاء لاعبو روسيا بعد طول غياب . وبدأ الصراع الايديولوجي ينعكس بقوة على دنيا الرياضة . فقد انتهت الحرب الساخنة في ١٩٤٥ لتبدأ الحرب الباردة .. وليحتدم النزاع بين المعسكرين

الغربي والشرقي حول تعريف « الهواية » وهي الشرط الاساسي للاشتراك في الالعاب الاوليمبية . فالغرب يقول ان لاعبي الكتلة الشرقية ليسوا « هواة » ولاحق لهم بالتالي في الاشتراك في الالعاب الاوليمبية .. بينما يقول الشرق ان لاعبي الغرب « الهواة » يتمتعون بالمنح الدراسية والتدريب المنتظم ومصروفات سرية تدفع !

● ومن الطريف ان الروس كانوا اول من قاطع الامريكيين رياضيا ، فاحتجاجا على اشتراك امريكا في حرب فيتنام قاطع الروس لقاء ثنائيا مع أمريكا في العاب القوى .. وقاطعت بلدان المعسكر الشرقي العاب دورة ١٩٦٧ الجامعية بسبب الاختلاف على تسمية كوريا الشمالية والصراع بين شقي المانيا الشرقي والغربي الذى انتهى بتمثيل كل منهما بفريق مستقل في المباريات الدولية والاوليمبية .

● ومن المتناقضات ان الازمة السياسية بين امريكا والصين الشعبية لم تنفرج الابعد زيارة الفريق القومي الامريكي لتنس الطاولة للصين الشعبية .. رغم تواضع مستواه في لعبة يتسيدها اصحاب العيون الضيقة .

● وفي غمار الصراع العقائدي بين الكتلتين الشرقية والغربية .. نص دستور المانيا الشرقية على رعاية الرياضة ، الى حد يفوق كل خيال .. وعلى ان « الرياضة » للجميع « من المهد الى اللحد ، كطلب العلم . وحققت هذه الدولة الصغيرة (١٨ مليون نسمة) انتصارات كبيرة في دنيا الرياضة .

● واستغل ابطال امريكا السود منصة الفوز في العاب مكسيكوسيتي الاليمبية ١٩٦٨ في عرض قضايا السود السياسية بتأثير من « حركة القوة السوداء » .

● ووجد الفدائيون الفلسطينيون في العاب ميونخ الاوليمبية ١٩٧٢ انسب ساحة لعرض قضيتهم .. وأن ادى ذلك الى وقوع الاحداث الدامية المعروفة ، حتى وصفتهم مجلة « وورلد سبورت » الانجليزية ، بلقب الارهابيين .. فصحح لها كاتب هذه السطور تسميتها تلك الى « فدائيين » ولكن المجلة تمسكت برأيها مستعينة بما ورد في قواميس اللغة من تعريف لكلمة « ارهابي » .

● وفي العاب ملبورن الاوليمبية ١٩٥٦ بدأ سلاح المقاطعة يظهر على الساحة الرياضية .. فاحتجاجا على اشتراك انجلترا في العدوان الثلاثي على مصر قاطعت كل الشقيقات العربيات تلك الدورة ، وانضمت اليها بعض البلاد الافريقية والاوروبية .

● وفي ١٩٦٩ قامت حرب فعلية بين السلفادور وهندوراس راح ضحيتها الآلاف بسبب نتيجة مباراة في تصفيات بطولة كأس العالم لكرة القدم .

● واطلت السياسة على العاب ميونخ الأولمبية ١٩٧٢ عندما هددت الدول العربية والافريقية بمقاطعة الالعاب لو اشتركت فيها روديسيا العنصرية التي اصبحت زيمبابوى بعد استقلالها في صيف ١٩٨٠حتى حرمت روديسيا من الاشتراك في الدورة .

● وفي ١٩٧٦ انسحبت من العاب مونتريال الاليمبية الكثير من الدول العربية والافريقية ، احتجاجا على اشتراك نيوزيلاندا التي كانت تقيم علاقات رياضية مع جنوب افريقيا العنصرية .

ثم وقعت الواقعة ، وشهدت « موسكو ٨٠ » اضخم حركة مقاطعة في التاريخ الاوليمبي احتجاجا على الغزو السوفيتي لافغانستان ، رغم محاولة بعض وسائل الاعلام التخفيف من الامر ، عندما اطلقت على الغزو كلمتي « الوجود » او « التدخل » . وكانت المملكة العربية السعودية أول بلد عربي اعلن مقاطعة العاب موسكو الاوليمبية رسميا .. وتلاها في ذلك اكثر من سبعين بلدا كان اهمها رياضيا امريكا والمانيا الغربية واليابان وكندا .. مما اضعف مستوى بعض المسابقات .. وضيع بهجة وحرارة المنافسات ، وبالتالي متعة المشاهدين من عشاق الرياضة .

اسئلة صعبة

وعلى السطح يطفو سؤال يردد في الحاح : الى متى يستمر تدخل السياسة في الرياضة ؟ وكيف يمكن الفصل بين الرياضة . والحرب الباردة بين الدول ذات المذاهب الفكرية المتباينة ؟ وهل انتهى عهد الجنتلمان « السيد المهذب » الخالص الهواية وتحول الى ادارة دعائية لسياسة بلده ؟ وهل يمكن تخليص الرياضة من قبضة السياسة ؟ وهل التحمت السياسة بالرياضة .. بلا فكاك ؟ وهل ستنجح الحركة الاوليمبية الدولية في الحفاظ على استقلالها ؟

يردد المتفائلون من انصار « اوليمبيا الجديدة » ان الامل قائم ، والنصر قادم . بينما يؤكد الواقعيون ان الامل شاحب وقاتم ، وان كل مؤيد للجنة الرياضية المثالية واهم وحالم !!! ■■

عادل شريف

زاد عليه ، وزاد عنه

يستعمل الفعل « زاد » متعديا ولازما . فهو يتعدى بنفسه الى مفعول به واحد ، مثل « زدت ايمانا » ومثله « ازددت ايمانا » والاية « ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا » ويتعدى لمفعولين ـ وهكذا استعمل ماضيا ومضارعا وامرا في القرآن الكريم نحو عشرين مرة ـ مثل : « والذين اهتدوا زادهم هدى » ، و « يزدكم قوة الى قوتكم » « وقل : رب ، زدني علما » وقد اجتمع متعديا بنفسه الى واحد ، والى اثنين في قول الشاعر :

يزيد سفاهة ، وازيد حلما
كعود زاده الاحراق طيبا

ويكون لازما ، مثل : زاد السحاب وقد يكون لازما ، فيتعدى بـ « على » ـ وهذا اكثر استعمالا ـ كقول حكيمنا الجاهلي ذي الاصبع العدواني من قصيدة مشهورة :

وانتم معشر زيد على مئة
فأجمعوا امركم طرا ، فكيدوني

روى « زيد » ـ بفتح الزاي وكسرها ، كما في قولنا « ما تحركت قيد شعرة » (بفتح القاف وكسرها) ومثله في القرآن الكريم « اوزد عليه ، ورتل القرآن ترتيلا »

وقد يتعدى بـ « في » كما في القرآن الكريم « من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه » وينكر بعض اللغويين استعماله متعديا بـ « عن » بحجة انه لم يرد في المعاجم ، ولكن حسبنا انه ورد في قول شاعرنا الجاهلي قبيصة الطائي مفتخرا بقومه

لعمر ابيك لا ينفك منا
اخو ثقة يعاش به متين

يزيد نبالة عن كل شيء
ونافلة ، وبعض القوم دون [1]

والجواب « لا » فمن سنن العرب في لغتهم حمل لفظ على آخر في استعماله اذا كان مرادفه او مقابلا له او ضده في المعنى ، ولدينا الفعل « افضل » وهو يرادف « زاد » يقال : « افضلت عليه » و « افضلت عنه » ، كقول ذي الاصبع العدواني (وهو من القصيدة التي منها بيته السابق) يعاتب بعض بني عمومته :

لاه ابن عمك ، لا افضلت في حسب
عني ، ولا انت دياني فتخزوني [2]

ولدينا ايضا الفعل « نقص » وهو يقابل الفعل « زاد » في معناه ، تقول : هو ينقص عني شهورا « ونحمل عليه « زاد » فنقول : « انا ازيد عنه شهورا » وهذا كثير شائع في العربية ، لا في باب تعدية الافعال ولزومها فحسب ، بل في ابواب كثيرة ، منها مجاورة اللفظين ، ومنها المزاوجة بينهما ، مثل « الغدايا والعشايا » فان « العشايا » جمع قياسي للاسم « عشية » الرباعي (من باب فعيلة وفعائل) واما غدوة فثلاثي جمعه « غدوات » ولكنه جمع مكسرا على « غدايا » حملا له على « عشايا » حين يتزاوجان بذكرهما معا [3] .

وقريب من هذا جمعهم « زاد » الثلاثية ـ بمعنى المزاد الذي يوضع فيه الطعام ـ على « ازودة » حملا له على كلمة رباعية بمعناه ، وهي « وعاء » فكما قالوا « وعاء ، واوعية » ـ قالوا « زاد ، وازودة » [4] على غير قياس لان الجمع القياسي له هو « ازواد » وقد جاء الجمع « ازودة » في الحديث « أمعكم من ازودتكم شيء ؟ » . ومن هنا نعرف امثلة على ان روح لغتنا ومنطقها اوسع من قواعدها التي يتقيد بها علماؤنا ومن يتابعونهم مقلدين . ■■

---

(١) شعراء النصرانية ، للأب لويس شيخو ٩٧/١

(٢) لسان العرب : مادة « فضل » .

(٣) فقه اللغة للثعالبي : ص ٤٨٣ ـ ٤ طبعة مصر ١٩٣٣ و « أدب الكاتب » لابن قتيبة ص ٤٥٥ ، ٤٨٦ طبعة مصر سنة ١٣٤٦ هـ .

(٤) لسان العرب : مادة « زود » .

سفينة نوح

قرأت في العربي الصغير مقالا تحت عنوان « البحث عن سفينة نوح » ذكر فيه قسم من الناس من الذين حاولوا العثور على حطام سفينة نوح ولكن محاولاتهم باءت بالفشل وعجبت . فهناك محاولة لم تذكر في هذا المقال وهي سوفيتية بحثت ثم عثرت على حطام سفينة نوح وكان لهذا الاكتشاف دويه الكبير .

في تموز ١٩٥١ كان جماعة من العلماء السوفيت يتعقبون في منطقة « وادي قاف » وكانوا مختصين بالاثار القديمة فعثروا على قطع متناثرة من اخشاب قديمة متسوسة فزاد حب الاستطلاع لديهم . ونقبوا اكثر فعثروا على كثير من الخشب المتحجر والمتسوس . ولكن الدهشة الكبرى التي حدثت* جاءت عند عثورهم على خشبة بشكل مستطيل لم يصبها التسوس . وفي اواخر عام ١٩٥٢ اكتمل التحقيق في هذه الاثار . فظهر ان اللوحة التي لم تتسوس كانت ضمن سفينة نوح . وكذلك جميع الخشب المتسوس ما هو الا من حطام لسفينة نوح ، ولوحظ ان تلك اللوحة قد نقشت عليها بعض الحروف الغريبة ، وبعد الانتهاء في التنقيب والحفر عام ١٩٥٣ شكلت الحكومة السوفيتية لجنة مكونة من سبعة علماء ذوي خبرة في اللغات القديمة للبحث ، وقد انتهوا الى انها صنعت من نفس الخشب الذي صنعت منه سفينة نوح . واتفق الجميع ايضا ان اللوحة كان منقوشا عليها حروف باللغة السامانية . وقد ترجمها الى اللغة الانجليزية العالم البريطاني ايف ماكس استاذ الالسن القديمة في جامعة مانشستر .

هاشم الحسيني ـ الكويت

الاسلام والعروبة

تعقيبا على المقال الذي نشره العربي في عدد اكتوبر / ٨٠ للدكتور احمد كمال ابو المجد تحت عنوان بل الاسلام والعروبة معا نقول ان العنوان مقنع وضروري . والمقال حوله مناقشة .

اذ يقول الكاتب : ان عالمية الدعوة الاسلامية لا تقتضي بالضرورة وحدة الدولة الاسلامية .

واقول : ان هذا المنطق من منطلق حسن النية ، فهو سليم ومعقول ، ولكن حسن النية في عصرنا هذا بمشاكله وتشابكه وصراعاته لا يقبل ولا ينبغي ان يكون . فان عالمية اية دعوة معاصرة لن يقبل انصارها غير الوحدة ، وهذا ما فعلته الشيوعية وما هي الصهيونية ، بغض النظر عن الوسائل والغايات . فما بالنا بالدعوة الاسلامية التي خسر انصارها كل شيء بتركهم وحدتهم ، وقد ترخصوا في قوله تعالى « ان هذه امتكم امة واحدة » .

ثم يقول الكاتب : ان دعاة القومية العربية في عصرنا هذا لا يرفعون دعوتهم القومية في مواجهة الجامعة الاسلامية ، وانما يرفع القوميون دعوتهم في وجه الدعوة الى الاقليمية وانحصارها داخل حدود الدولة المجزأة .

واقول : انه لا زال الكاتب يسلك خط حسن النية المرفوضة في عصرنا ، فان اكثر دعاة القومية العربية يتبنون مواقف مناقضة للاتجاه الاسلامي .

وأحب ان اقول ان الذي يرفع لواء القومية ليضيع الفرصة على الوحدة الاسلامية لن يصرح بنواياه ولن يكشف نفسه ، حتى لو تحققت اماله ، حرصا منه على النجاح المستمر في تخطيطه وتنظيمه .

اما الدعوة الى القومية بحجة الدفاع عن العروبة والاسلام ، فالاجدر في ذلك ان يكون الدفاع باسم الاسلام والافضل والاكرم ان تنضوي العروبة باسم الاسلام .

سليمان ابراهيم سليمان
المجلس الاعلى للفنون والاداب ـ القاهرة

ابواب القدس القديمة

● ان ما صححته ابنة القدس المحتلة غ . ط لتصحيح التصحيح في باب حوار القراء في العدد ٢٥٩ شهر حزيران ١٩٨٠ قد بدا لي انه يحتاج الى تصحيح آخر فأبواب سور القدس القديمة ثمانية ابواب وبعدة أسماء وليست سبعة . وهي كما يلي

١ ـ باب الساهرة او باب هيرودوس والذى يؤدى الى حي الساهرة خارج السور .

٢ ـ باب الاسباط او باب ستنا مريم او باب ستيفن والذى يؤدى الى حي رأس العامود ومدينة اريحا .

٣ ـ الباب الذهبي الذى اقفل ابان الحكم العثماني لوجود المقبرة الاسلامية في الخارج ولوجود بناء باب الرحمة او باب التوبة داخل ساحة الحرم الشريف ، كما يوجد قبر القائد شداد بن اوس الملاصق للسور في الخارج والذى يبعد عن الباب الذهبي الى الشمال ٧٣ مترا .

٤ ـ باب النبي داوود والذى يؤدى الى مقام سيدنا داوود عليه السلام والى حي الدجانية .

٥ ـ باب المغاربة والذي يؤدي الى بلدة سلوان .

٦ ـ باب الخليل او باب يافا حيث يوجد شارع ملاصق للباب يقال انه فتح من السور القديم في عهد السلطان عبد الحميد عام ١٩١٢ ليمر موكب امبراطور المانيا ويلهلم لزيارة الاماكن المقدسة .

٧ ـ الباب الجديد يقال انه فتح من السور القديم ابان حكم السلطان عبد الحميد سنة ١٩١٢ ايضا والذى يؤدي الى الشارع الجديد انذاك خارج السور ويسمى (بطلعة المنزل) ويؤدى ايضا الى المستشفى الافرنسي .

٨ ـ باب العامود او باب دمشق والذى يؤدى شمالا الى حي الشيخ جراح والى مدينتي رام الله والبيرة .

عبد الرحمن رصاص
جبل عمان / الاردن

●

حصاد هذه الأمة

● لو جمعنا الثمن الذى دفعته الدول العربية من الارواح والسلاح في معاركها ضد بعضها البعض .. لادركنا الهول .. لان نصف هذا الثمن كان كافيا للقضاء على اسرائيل ، ومع هذا ما زالت هذه الامة تسدد فواتير الجهل من ارواح ابنائها وقوت شعوبها لقتال بعضها البعض .

اللهم تدارك هذه الامة ..... التي لم تحصد حتى اليوم الا الريح !

عبد الغني ياقوت
ليبيا

استطلاع صور

قرأت بشوق الاستطلاع الخاص بمدينة صور اللبنانية والذي نشر بعدد العربي ٢٦٣ اكتوبر ١٩٨٠ . وقد عايشت الاشقاء الاعزاء سكان صور وانا اقرأ الموضوع الشائق . وتمنيت ان يكون لي شرف القيام برحلة الى الجنوب اللبناني لأعيش مع هؤلاء الابطال كبارا وصغارا من الجنسين ، ودعواتي لله العلي القدير ان ينصر لبنان العربي على كل اعداء الانسانية من بني اسرائيل فهم حقا مجردون من كل القيم الانسانية والاخلاقية .. وحبذا لو قامت العربي باكثر من رحلة داخل اكثر من مدينة لبنانية حتى يمكننا معايشة اشقائنا اللبنانيين من خلال الصور والكلمات .

ممدوح محمد شعث
دمنهور ـ مصر

●

استطلعوا الجزائر

لا احد ينكر الخدمات الجليلة التي تقدمها مجلة « العربي » الى قرائها من ابناء الوطن العربي الكبير ، بما تحتويه صفحاتها من شتى العلوم والمعارف : ولعل من الموضوعات الهامة التي يتطلع اليها القارىء العربي بشوق منقطع النظير الاستطلاعات ، التي تقدم من حين لآخر ، عن الاماكن الاثرية والسياحية

والاستراتيجية ، التي يزخر بها وطننا الكبير ، وهنا اتساءل لماذا لا تقوم مجلة « العربي » باستطلاع عن الجزائر . والاماكن التاريخية والسياحية في الجزائر اكثر من ان تحصى أو تعد ولا تجد من يرفع عنها الستار والمواطن العربي يجهلها او يكاد .

عباسي عبد الحميد
جامعة الجزائر

●

رحلة الادب العربي في المهاجر الاميركية

في عدد / ٢٥٨ من العربي مقال بعنوان : (رحلة الادب العربي في المهاجر الاميركية) للاديب الدكتور عيسى الناعوري ـ ذكر فيه ان مدرسة المهجر كانت مدرستين مختلفتين : مدرسة الشمال التي تتمثل في الرابطة القلمية برئاسة جبران خليل جبران . ومدرسة الجنوب التي تتمثل اكثر ما تتمثل في العصبة الاندلسية التي تعاقب على رئاستها ثلاثة شعراء هم ميشال معلوف ، ثم الشاعر القروي ثم شفيق المعلوف . ولكن المقال المذكور اغفل ناحيتين ، نذكرهما للايضاح .

١ ـ لم يشر الدكتور الناعوري الى (المنتدى الزحلي) في سان باولو الذي كان برئاسة الشاعرُ المرحوم فوزي المعلوف . والذي سبق تأسيسه العصبة الاندلسية التي ولدت ـ كما يقول الدكتور الناعوري ـ في بداية عام ١٩٣٣ .

٢ ـ ذكر الدكتور الناعوري في حديثه عن اعضاء الرابطة القلمية ان ايليا ابا ماضي كان شاعر الرابطة كما قال عنه : « وكان ايليا ابو ماضي شاعرا فقط .. » . ولم يدرج اسمه بين كتاب النثر . ولم يشر من قريب او بعيد الى مجلته (السمير) بين المجلات التي ذكرها في الشمال والجنوب .

حسين علي حيدر
جبلة سورية

الباكون على الشباب

نشرت العربي في عددها ٢٦٢ مقالا بعنوان (الباكون على الشباب) لاستاذنا الدكتور احسان النص ، عرض فيه نماذج شعرية جاهلية واموية وعباسية لشعراء بكوا الشباب ، وذكر الاستاذ في مقاله ان البكاء على الشباب اكثر ما تجلى عند شعراء العصر العباسي ، لان هذا العصر توافرت فيه اسباب التنعيم والرخاء ، ونحن نضيف الى مقال استاذنا نماذج من البكاء على الشباب عند شاعرين كبيرين من شعراء العصر العباسي هما : ابو تمام والمتنبي ، حيث تألم كلاهما من فقدان الشباب وتبرما من المشيب .

فأبو تمام يبين لنا انه شابٌ وهو ابن ست وعشرين :

ابدت اسى ان رأتني مخلس القصب
وآل ما كان من عجب الى عجب
ست وعشرون تدعوني فاتبعها
الى المشيب ولم تظلم ولم تحب

اما ابو الطيب المتنبي فما اكثر ما شكا من المشيب هذا الضيف الثقيل الذي الم برأسه من دون استئذان . وضرب السيف في مفرقه أخف وقعا منه . ورغم ان لون الشيب البياض فان الشاعر يراه شؤما أسود من الظلام .

ضيف ألم برأسي غير محتشم
السيف احسن وقعا منه في اللمم
أبعد بعدت بياضا لا بياض له
لأنت اسود في عيني من الظلم

حسين علي حيدر
سورية

حبال السأم

فاروق خورشيد

وأكتب من جديد .. كلمات وكلمات .. ثم اضع القلم .. وامد بصري الى لا شيء ، واعود به مرة اخرى الى لا شيء .. وافتح الكتاب واقرأ من جديد .. كلمات وكلمات ... ثم اغلق الكتاب .. وامد بصري الى لا شيء ، واعود به مرة اخرى الى لا شيء ....

نفس الكلمات التي اكتبها من جديد ، كتبتها من قبل ، المنهج ، الحضارة ، الكلمة ، البحث الجاد ... ونفس الكلمات التي اقرؤها من جديد ، قرأتها من قبل ، الحب ، الحقد ، الانتقام ، الرغبة ، الحلم .. السعادة ..

وأضع القلم ، واغلق الكتاب ، وانظر من جديد ولا أرى ، واغمض البصر من جديد ، ولا ارى ايضا .. ولست ادري اين ولا متى ، ولا في اي منعطف من الطريق فقدت القدرة على الرؤية التي تبرز فجأة وسط الظلام فتحط نفسها فوق الورق ، او تلمع الجديد بين سطور الكتاب الذي اقرأ فينور بفكرة جديدة كالشهاب اللماح اللامع .. ولكنني فقدت هذه القدرة ، ووهن القلم ، ووهن القلب .. ووهن الذهن ، فكل شيء يزيد عليه عبء السنين التي مرت ، والايام راحت دون ثمن ، ودون معنى ....

طوى قارىء الجريدة ، صفحاتها في ملل ، ثم تثاءب ، وصفق بيديه ، وتلفت حوله ، ولم يجبه احد ، فتثاءب من جديد ، ثم وضع الجريدة على حافة المنضدة ، وركن مرفقه الى المنضدة ، وخلع نظارته وطواها بعناية فائقة ، ووضعها في حافظتها الجلدية ، ثم في جيبه ، وعاد يتثاءب ، ثم نظر حوله مرة ومرة ، واستقر بصره على لا شيء ، وسكن هناك ، وقد نسي أنه صفق وانه طلب « الجرسون » ، وان الجريدة الى جواره .. نسي كل شيء ، وعاد يتثاءب ، ثم يسند رأسه الى مرفقه ، وينتظر في فراغ غريب حدوده حافة النافذة ، والجدار ،



و (نصبة) القهوة في ماع المقهى البعيد . ومضى ينتظر وأسراب من ذباب تحوم حوله في اصرار عنيد . وهو قد تعب من كثرة ما ابعد هذه الاسراب مرة . ومرة ، ومرات . فتركها ومضى يسمعها ويرقبها في صمت واستسلام ...

ماذا يهم ان جاء . . . ن او لم يجيء ، ماذا يهم ان شرب القهوة او لم يشربها ! وماذا يهم ان حامت حوله اسراب الذباب او ابتعدت . هو لا يعجب الا انه ما زال يشم رائحة القهوة . ويسمع طنين الذباب . ويحس بمرفقه يضغط على حافة المنضدة . وبرأسه يضغط على كفه ..

ولكن الجرسون جاء . ووضع امامه قدح القهوة فارغا . ثم مضى في مهارة وسرعة يصب القهوة من وعائها النحاسي اللامع في قدحه . ثم وضع كوب الماء المثلج امامه . وانحنى انحناءة طبيعية كأنها جزء من كيانه . ومضى .. ترى كم من الرجال في كم من المقاهي . في كم من البلاد . فعلوا هذا تماما ! حملوا الصينية الصغيرة فوقها الوعاء والقدح والكوب . ثم وقفوا امام منضدة يجلس عليها انسان . ثم رفعوا القدح ووضعوه . ثم صبوا فيه القهوة في مهارة . ووضعوا الى جواره كوب الماء المثلج . وانحنوا .. كم وفي كم من السنين والايام فعلوا هذا ؟ وفي النهاية كفوا عن كل انحناء ومهارة . ومدوا اجسادهم المتعبة . ثم ناموا الى الابد في قبور يجهلها كل الناس . كل الذين شربوا القهوة كل الذين صفقوا يستدعونهم من أجل الطلبات . وكل من ردوا على انحناءاتهم الطيعة . بابتسامات طيعة لا معنى لها . ولا صوت ...

وارتفع في الطريق صوت اجش متقطع « لموتور » خرب . ودفقات صوت قوية حزينة كأن شيئا ينفجر على دفعات .. ومرت امامه سيارة قديمة الطراز تئن وتصرخ وتنفجر . والدخان يتصاعد من مقدمتها . ومن بين عجلاتها الخلفية . وهي تهتز وتسير . وتئن وتسير . وكأن

كل جزء منها يريد ان ينفصل عن باقي اجزائها ، وكأن مجرد وجوده ملتصقا بباقي الاجزاء التي التصق بها عبر عديد من السنين قد ملأه بالاشمئزاز والقرف من وجوده حيث هو ، يكون جزءا ما من العربة المهتزة ، المرتجفة التي يئن موتورها كأنه شيء مشروخ الحنجرة ينعي وجوده نفسه .

وارتفعت صيحات صبية في الطريق*، وقفوا يشيرون بأذرعتهم وصيحاتهم وقفزاتهم الى العربة المتهالكة التي تئن في الطريق .. هل وجوههم حقا قذرة جدا ؟ ام ان شيئا معتما يمر امام عينيه يجعله يرى في كل شيء آثارا من تراب قبيح اللون ، عفن الرائحة .. والعربة تئز وتسير بطيئة ، بطيئة ، ومتهالكة .. وقفت فتاة تضحك وتحني رأسها لتلعب النسمة بخصلات شعرها وهي تشير الى العربة وتضغط على عضلات ساعد صديقها ، الاسمر الطويل المليء بالفتوة والشباب .. ويهمس شيئا في أذنها فيضحكان من جديد ...

وهذه العربة المتهالكة كانت يوما قرة عين شوارع القاهرة تتبعها كل عين بحسد واعجاب ، ويجلس فيها ـ ربما شابان كهذين ، فتاة يداعب النسيم خصلات شعرها ، بينما هي ، تضغط على عضلات ساعد خطيبها الاسمر الطويل المليء بالقوة والشباب ، ويهمس بشيء في اذنها ، ويضحكان ، وزهوهما بالعربة الجديدة ، والثروة والشباب يملأ عروقهما بدفق دماء حية ، يجعلهما يحسان بالتفوق لانهما قد اتيا جديدا لا يعرفه كثيرون ، انها طليعة تغيير يتم في عادات من تعودوا على ركوب العربات والحمير ، وتغيير يتم في شكل شوارع القاهرة ، وارصفتها وطبيعة رصفها ، واتساعها ..

ويضحك الصبية ، والعربة تهتز وكأنما تجر عبئا ثقيلا يصعّد خطاها مع كل حركة ..

وتنهد في نفور ، هل يستطيع احد ان يقبض على قطعة من الزمن ليعيدها امامه من جديد كما فعل خياله الآن ؟ ابدا ، الخيال وحده والخيال الذي يخلق من بقايا الذكريات . اما الزمن فيمر ، ويمضي بلا عودة ، واما العربة فهي بقايا مزق وأشلاء جمعها عنيد يريد ان يتحدى مر الزمن ، لم يره ، لم يلمح وجهه ، ربما كان مثله لا يكاد يحس نظرات الصبية ، وضحكات الشابة يلعب النسيم بخصلات شعرها وتمر متعلقة بالذراع المفتول للشاب الاسمر المليء بالفتوة والحياة .

الماء يتفجر من عيون الخزان يضرب الهواء برذاذه ، ويلمع في اشعة الشمس متحديا الوجود والحياة ، ثم يضرب في سطح النهر ليدفعه الى امام في قوة ، تفجر رذاذا عند الصخور ، وتدفع امامها قطعا من الصخر تخصب الارض ، ويمور حول كل عقبة كأنما يزرقها بحيويته الدافقة التي لا تعرف حدودا لقوتها وفتوتها ولمعانها كالفضة وسط اشعة الشمس الساطعة .. هذه القطرات الثائرة الفوارة تتعلم طوال الطريق كيف تتلمس طريقها كالقطيع تسير في طريق لا تستطيع ان تحيد عنه ، كلها متشابهه ، تسير ، من اول الطريق ، من عند الخزان الى نهاية الطريق حيث تذوب كلها في البحر ، بعضها تبتلعه الاسماك في الطريق ، وبعضها تمتصه الانابيب لتحمل المياه الى المدن ، وبعضها يملأ جرار الفلاحات عند أطراف القرى ، ولكنها كلها تمتلىء بالاوساخ والبقايا التي تتساقط فوقها على طول الطريق ، وهي تسير لامبالية رتيبة غبية صماء .. حتى يبتلعها البحر عند نهاية المطاف .. وبعضها تلتقطها اشعة الشمس الحارقة لتبخرها وتذيبها لتتصاعد الى السماء كالملائكة بعض حين ثم تعود لتهطل باكية نهايتها الفاجعة وتغوص في رمال حارقة تبتلعها الى الابد في جوفها السحيق ..

ومد يده الى قدح القهوة في تراخ .. باردة القدح ، وباردة القهوة ، وهو لا يريدها .. ولكنه مع هذا رفعها الى فمه وشرب القدح المر دفعة واحدة ، يحب هو ذاتها الا يهرب من قدحه المر وان يشربه كاملا ، ومرة واحدة ، ثم يروح يدير مرارته فوق لسانه وعند حلقه ، قبل ان يشعل سيجارته ويرقب دخانها يدور في حلقات في الهواء ثم يختفي ..

وتحركت حوله الاشياء الصغيرة ، بائع اليانصيب ، وماسح الاحذية ، وحوار حول المعاشات بين مجموعة من بقايا الدواوين والمكاتب ، وتعطيل الملفات ، وزجر السعاة ، ونهر اصحاب المصالح ، والانحناء لسيادة الوكيل .. والراديو يملؤه صوت اجوف لا معنى له ولا حس فيه ، يحكي اخبارا سمعها من قبل تتغير اسماء الاشياء ، واسماء الاعلام ، ولكن الاخبار هي هي لا تتغير ابدا ، ولا تتبدل ويسدل عليها الستار بعد حين ، ليرفع في مكان آخر بأسماء اخرى للاماكن والاشخاص في مسرحية باهتة اخرى ، مليئة ايضا بالاطماع والشهوات ، والغرور والخبث ، والدماء والقتل ، والجوع ، والعرى ، والكلمات التي يكررها كل شيء صغير ، في كل حدث صغير ، في كل جمع صغير ، كل حين صغير من زمن .. والجرسون رفع قدح القهوة الفارغ وكوب الماء ومضى ...

حـاول ان يتـذكر شيئـا ، اي شيء ، ماذا حدث لذاكرته ؟ لا يدري ... الصور لا تتثال عليها ، ولا حتى تقترب منها ، هنا عند هذه النافذة كانت تتداعى الى ذهنه صور وصور . وهنا عند هذه النافذة كان دائما يمسك بقلمه يكتب كالمحموم ، كان به سعار ، كان شيء فيه يحترق .. ثم احترق الشيء .. وانتهى السعار وضاعت الحمى ، وهو هنا عند النافذة بلا قلم ولا ورق ، ولا حتى اي شيء يتذكره ، لا شيء ابدا .. ابدا .. ابدا .. لا شيء ..

ماذا تريد ؟ كلمة رثاء مثلا ام نظرة اشفاق ..؟.. لا شيء يا سيد ، لا شيء ، فالكل لاهـون بما هم فيه ، يعرفون ان يومهم يريدهم ، فهم يعطون اليوم ما يريد .. وما فات فات ، والامس انقضى ، وصفحة طويت ..

ضحكت الفتاة ومالت على صاحبها قائلة :

ـ هذا العجوز عند نافذة المقهى .

ومر الفتى بيده على ظهرها وهو يقول في شفتيها .

ـ ماله ؟

فاهتزت وتأودت وعادت تضحك وهي تقول :

ـ ينظر الي .

عبر الفتى بنظره الطريق كله الى ان استقر عند النافذة ، وهز كتفيه وهو يقول :

ـ أهو ابوك او عمك ..!

ضحكت واهتزت وقالت :

ـ لا .. انا لا اعرفه ، لقد خفت في البدء ان يكون واحدا من اقاربي العواجيز ولكني رغم ان شكله مألوف لا اعرفه ، وليس احدا من اقاربي .

ابتسم الفتى وعاد يربت على ظهرها ويقول :

ـ كأنه صورة من مجلة قديمة .. لا تنظري اليه فلا شأن له بنا .

اهتزت الفتاة ، وطوحت بشعرها في الهواء وهمست في اذن الفتى وفي صوتها عطر معبد قديم ..

ـ انه ينظر الي ، وفي عينيه شيء نفاذ افهمه ، ولكني لا اعرف كيف تشعه هاتان العينان .

●●

وضحك الفتـى في استهتـار .. ولا مبـالاة ، ومس خصلة نافرة من شعره وقال :

ـ هو ..؟.. انه عجوز .. كيف ؟

وازداد عطر المعبد القديم يفوح من حول الفتـاة ، وقد غشيت عينيها سحابة غامضة تهمس :

ـ لست ادري .. هذا شيء احسه .. ولا افهمه .

وضحك الفتى من جديد ، ومد يده يضم كتفيها في عنف وهمس عند حافة اذنها :

ـ هل يعجبك ؟

وكأنما افاقت من حلم ، رفعت الفتاة عينيها اليه ، ومرت بيدها على خصلات شعرها ، وهمست :

ـ من ؟

ـ هو ؟

ـ كيف ؟

وابتسمت .. ثم نظرت حولها وهزت جسدهـا كلـه ومضت ..

وابتسم هو في صمت ـ كل هذه الاهتزازات عرفها من قبل .. وكل شيء فيها وفي مثيلاتها منذ خمسين عاما او ربع قرن .. ما الفرق .. كلهن يهتززن ، مثل هذه الاهتزازات ، والصدر والبطن والعجز..... ثم ..

ما اتعس هذا .. هل تحيل كل شيء الى روائح العفن ؟ انت الذي هذا حتى تتأسى ، حتى تنسى ، حتى تبرر العجز .

صاح « الجرسون » بالطلبات ، دق ماسح الاحذية فوق صندوقه الخشبي ، ولوح بائع الجرائد بجرائده في يده ، ومرت بائعة اليانصيب في صمت تعرض وريقاتها الملونة ، والمرأة ذات الثوب الاسود واليد الممدودة بعلب الكبريت ، والرجل الاعرج يحجل فوق ساق خشبية ، وبنت تقود امرأة فوق عينيها نظارة سوداء ، كأنها عمياء وجسدها يرغم الاعمى من وراء الثوب الاسود على الرؤية والنظر .. ثم دوى صوت جرس الترام .. وصياح ديوان سيارات في الميدان ، وهمود من جديد ..

وعاد يمسك القلم ..

هل يقوى على ان يكتب من جديد ..؟.. الصخب هو هو ما حوله ، وما يحيطه .. ولكن الصخب همد داخل نفسه ، فلا ثورة ، ولا رغبة ولا انفعال ..

ويطوي الصفحات ، ويغلق القلم .. كل ما حوله لا يصنع ما يمكن ان يكتبه ، فقد مات شيء في داخله .. التفت حوله حبال السأم فخنقته ومات . ■■

فاروق خورشيد

« حينما أخلو الى نفسي ترتسم أمامي شرائح من ماضي حياتي ومعظم هذه الشرائح مرتبط بأبي ، لانه كان أحب الناس الي . وغالبا ما تختلط علي الاحداث فلا أستطيع ربطها بالاحداث السابقة أو اللاحقة ، والاكثر من ذلك أنني أجد نفسي عاجزة عن معرفة زمن حدوثها . ولكن ذلك كله لا يمنعني من أن أرى كل شيء بوضوح لكأنه حدث البارحة .. فلأترك لهذه الاحداث الحرية تتداعى الى ذاكرتي .. »

تولستوي في مذكرات

هكذا تبدأ تاتيانا لفوفنا تولستويا ابنة الاديب الروسي الكبير ليون نيقولايفيتش تولستوي مذكراتها عن والدها . وفي مقدمة هذه المذكرات التي صدرت في موسكو في شهر أيلول من عام ١٩٨٠ عن دار « الادب الروائي » كتب الناقد السوفيتي المعاصر شيفهان يقول : ظلت صاحبة هذه المذكرات ، تاتيانا تولستويا ، على مدى نصف قرن تقريبا ، أي حتى وفاة أبيها ، واحدا من أقرب الناس اليه ، ليس من حيث صلة القربى فحسب ، بل ومن حيث الصلة الروحية أيضا . وقد ازداد هذا التقارب في السنوات الاخيرة من حياة الكاتب . حينما كان بأمس الحاجة الى الحب والفهم .

وتعود أهمية « مذكرات » تاتيانا إلى أنها عاشت تحت سقف منزل أسرتها خمسة وثلاثين عاما . وإلى أنها لم تكن شاهدا غريبا على هذه الحياة ، بل كانت شريكا فيها ، ومما يزيد في أهميتها أن تاتيانا ليست فقط ذات ذاكرة جيدة بل وذات موهبة أدبية جلية .

بدأت تاتيانا كتابة مذكراتها منذ سن الرابعة عشرة ، واستمرت في كتابتها على مدى أربعين عاما . وكان والدها قد اطلع على هذه المذكرات اكثر من مرة .

عرض وتقديم :
هاشم حمادي

إبنته



تاتيانا ابنة تولستوي

إن مذكرات تاتيانا مكرسة بكاملها لتولستوي . وهنا بالذات تكمن أهميتها الأساسية ، فهي تعطي صورة حية للحياة في منزل تولستوي الكبير في « ياسنايا باليانا » في الستينات والسبعينات من القرن الماضي . وتتحدث عن اضطرار الأسرة للانتقال إلى موسكو في الثمانينات كي يتمكن الأبناء وعددهم ثلاثة عشر من متابعة تحصيلهم العلمي .

لقد جاءت مذكرات تاتيانا فأغنت معارفنا عن تولستوي بشكل عام وعن مرحلة حياته الموسكوفية بشكل خاص ـ الانتقال إلى موسكو ، البيت الموسكوفي ، ضيوف الاديب واصدقاؤه ، نشاطه الاجتماعي والادبي ، تزايد اتساع الهوة بينه وبين زوجته ، وتخليه عن كل أملاكه ، وأخيرا مأساة السنوات الأخيرة ..

إن تاتيانا ترسم في مذكراتها صورة حية لحياة أبيها اليومية ـ في أثناء العمل وفي أثناء الاختلاط بالاقرباء والاصدقاء وبعامة الشعب . واذا كان معظم من كتب المذكرات عن تولستوي قد صوره بشكل يكاد يكون مثاليا فان تاتيانا قد رسمته في مذكراتها إنسانا حيا « أرضيا » نشيطا مرحا ومحبا للحياة » .

وسط الكارثة الشعبية

وفي حديثها عن أبيها في جو الاسرة وفي علاقته بزوجته وأبنائه وأقربائه لا تنسى تاتيانا طبيعة أبيها البالغة التعقيد والتناقض ، فتقول : « لقد كان في صراع دائم مع رغباته ، غارقا في التحليل الذاتي ، يقاضي نفسه دون رحمة .. وفي نفس الوقت كان غاية في التفاؤل ، لا يعرف الشكوى ويجد أبدا المخرج اللازم من الوضع الصعب ولا يكف يبحث باستمرار عن الحلول الناجعة لكل مشكلة » .

كانت تاتيانا قد اكتشفت عبقرية أبيها الأدبية وهي بعد صغيرة ، فكانت تكن له كل تقدير وتقديس . وبدوره كان تولستوي يشاطر ابنته المحببة خططه ويحدثها عن مشاريعه الجديدة ويكلفها باعادة نسخ المخطوطات ... وكتابة الرسائل الجوابية . هكذا بدأت تاتيانا ، منذ أن كانت في سن الشباب تشارك أباها في نشاطه الابداعي ، وظلت مواظبة على ذلك حتى وفاته .

وبين طيات مذكرات تاتيانا نعثر على وصف حي لولادة عدد من روائع تولستوي ـ « حكم الجهل » « رسائل عن الجوع » « البعث » « الحاج مراد » وغيرها .

وتشير تاتيانا في مذكراتها إلى أن عمل أبيها الأدبي كان على ارتباط وثيق بنشاطه الاجتماعي ، فهي تتحدث باسهاب عن عمل تولستوى في دار نشر « الوسيط » التي كانت تصدر الآداب المبسطة الشعبية . وكان تولستوى قد استقطب أفضل الاقلام لترجمة واعداد عيون الادب العالمي . وقام بتعريف جماهير القراء على أفكار سقراط وافلاطون وأعمال جان جاك روسو وفكتور هيجو وأناتول فرانس وموباسان .

وفي مذكراتها تتحدث تاتيانا عن تجولها مع أبيها في الريف الروسي في عامي ١٨٩١ ـ ١٨٩٢ ، أي في فترة الوباء الرهيب ، الذي اجتاح العديد من الاقاليم الروسية ـ وباء الجوع .

ان هذه الكارثة الشعبية ، التي حلت بالعديد من الاقاليم الروسية واشتراك تولستوى في مساعدة المحتاجين ـ احدى الصفحات الرائعة في سيرة حياة الكاتب التي تكشف عنها تاتيانا في مذكراتها . فقد اندفع تولستوى عبر لجة الجائعين يخفف عنهم « يقدم لهم كل مساعدة ممكنة ، ولم يكن وحيدا في هذه المرحلة القاسية ، بل كانت ترافقه كل أسرته ـ زوجته صوفيا اندريفنا وولداه سيرغي وليون وبناته بمن فيهن تاتيانا ـ فهنا يفتتح المطاعم الشعبية وهنا يعلم الفلاحين كيفية صنع الخبز من بقايا البطاطا والشمندر .. » .

وبعد الحديث عن طفولتها وشبابها في ياسنايا باليانا تنتقل بنا تاتيانا إلى الحديث عن « أصدقاء ياسنايا باليانا وضيوفها » ـ عن اللقاءات مع إيفان تورغينيف والفنان نيقولاي غي وغيرهما .

ومن المعروف أن العلاقات بين تولستوى وتورغينيف لم تكن جيدة ، فلم تكد هاتان الركيزتان الأدبيتان تتعارفان حتى وجد كل منهما نفسه في طرف « الهوة » وعلى الرغم من الرغبة الصادقة في إصلاح ذات البين بينهما فانهما لم يتمكنا من تجاوز هذه الهوة ، وذلك بسبب الاختلاف البين في طبيعتيهما وشخصيتيهما وتفكيرهما ..

ولكن تاتيانا لم تشهد ذروة الصراع بين هذين العملاقين ، بل شهدت تلك المرحلة التي كان فيها تورغينيف يتردد على ياسنايا باليانا من أجل ردم « الهوة » الماضية . وتنقلنا مذكراتها إلى جو اللقاءات الاخيرة بين تولستوى وتورغينيف « ذلك الجو المفعم بالحرارة والحب والاحترام العميق المتبادل والمشوب في الوقت نفسه بالحرج والحذر والرغبة في تجنب كل ما من شأنه أن يعكر صفو الصداقة المنتعشة » . ويطالعنا تورغينيف في هذه المذكرات بحبه للحياة ، للشبيبة ، بتصوراته المثالية عن الحب والنساء ، بحبه للطبيعة ، وبأسلوبه المهذب في التعامل مع الآخرين .

وتتضمن تاتيانا مذكراتها مجموعة من رسائل تورغينيف لأبيها بما فيها رسالته التي تحمل تاريخ ١٨٥٦ ، التي توضح الاسباب الكامنة وراء الخصام الدائم بين هذين العملاقين . يقول تورغينيف في رسالته مخاطبا تولستوى : « .. سأبقى مدى الحياة محبا لك فخورا بصداقتك ، على الرغم من أن كلا منا ـ والذنب في ذلك هو ذنبي على الارجح ـ سيظل يشعر ببعض الحرج كلما ضمنا مجتمع . إنك أنت الانسان الوحيد الذي حدث بيني وبينه سوء تفاهم . وقد حدث ذلك لانني لم أكن اريد أن تقتصر علاقتي بك على علاقة الصداقة العادية . بل أردت أن تزداد بعدا وعمقا ، ولكنني قمت بذلك بشكل غير حذر فأسأت اليك . ولم أكد اشعر بخطئي حتى تراجعت ، ويبدو أنني تسرعت في ذلك . وهكذا ظهرت هذه « الهوة » بيننا .

ان نقاط الالتقاء بيننا تقتصر على ما يسمى بالمصالح الادبية ، ان حياتك كلها تهفو نحو المستقبل بينما تقوم حياتي كلها على الماضي » ...

وتشير تاتيانا في مذكراتها الى أن أصل الخلاف القائم بين ابيها وبين تورغينيف يعود الى أن تورغينيف لم يكن يرى في تولستوى الا تولستوى الكاتب ولا شيء آخر وكان يريد من تولستوى « أن يكرس كل حياته للادب فقط ، وكان يغضب من أبي لانه لا يستمع الى نصائحه » .

حادثتان

وفي مذكراتها تورد تاتيانا الحادثتين الطريفتين من حياة أبيها :

في فصل الخريف كانت أمي تسافر الى موسكو مع أخوتي التلاميذ . وكنت أنا وأبي واختي نبقى في ياسنايا باليانا . وكنا نعيش مثل روبنسون فنحاول خدمة أنفسنا بأنفسنا ، دون حاجة الى الخدم ...

وفي ذات مرة عرفنا أن خالتنا تنوى زيارتنا .. وكنا نعرف مدى حبها للطعام الشهي وللحم بشكل خاص . وما العمل ؟ هل نعد لها « جثة » ؟ (هكذا كنا نسمي اللحم) ولكن مجرد التفكير بذلك أثار مشاعر الرهبة

لدينا . وبينما كنا نناقش هذه المسألة مع اختي دخل والدي ، ولم نكد نطلعه على المشكلة حتى قال :

ـ فليكن الطعام كالمعتاد .

وفي النهار وصلت خالتي . كانت ، كعادتها ، جميلة مرحة ونشيطة .

وحل موعد الغداء ، فدخلنا غرفة الطعام .. على الصحن المخصص لخالتي كانت ترقد سكين مطبخ ضخمة ، والى قائمة الكرسي ربطت دجاجة حية . كان الطائر المسكين يحاول عبثا التخلص من هذه الورطة جارا الكرسي وراءه .

وقال أبي مخاطبا ضيفتنا :

ـ لما كنا نعرف مدى حبك لتناول الكائنات الحية فقد أعددنا لك هذا الكتكوت . ولكن ايا منا لا يستطيع قتله ، ولذا فقد وضعنا لك هذه الآلة المميتة . فافعلي ذلك بنفسك ...

اما الحادثة الثانية فقد روتها تاتيانا على الوجه التالي .

تبعد ياسنايا باليانا عن موسكو حوالي ٢٠٠ كم . وفي بعض الاحيان كان والدي يقطع هذه المسافة سيرا على قدميه . فقد كان يحب ان يكون حاجا ، فكان يسير وكيسه على ظهره ، يخالط أبناء السبيل .. وغالبا ما كانت هذه الرحلة تستغرق أياما خمسة . وفي الطريق كان يتوقف للنوم أو لسد رمقه في بيت ريفي ما أو في الخان . واذا ما صادف محطة للقطارات كان يرتاح في صالة الانتظار المخصصة لركاب الدرجة الثالثة .

وفي إحدى هذه الرحلات قرر التجول على الرصيف ، حيث يقف قطار للركاب ، على أهبة الانطلاق . وعلى حين غرة سمع أحدا يصرخ به :

ـ ايها العجوز ، أيها العجوز . اجر حالا الى تواليت النساء واحضر لي حقيبتي التي نسيتها هناك .

وهرع والدي ينفذ الطلب ، ولحسن الحظ أنه عثر على الحقيبة .

وقالت المرأة : ـ شكرا جزيلا ، خذ . ومدت له يدها بقطعة نقدية نحاسية من فئة لخمسة كوبيكات . وبكل هدوء اسقطها والدي في جيبه .

وقال رفيق السيدة :

ـ هل تعرفين هذا الشيخ ؟ انه ليون نيقولا يفيتش تولستوى .

وصاحت السيدة : يا إلهي ، ماذا فعلت .. ، ليون نيقولا يفتش .. ليون نيقولا يفيتش أستحلفك بالله أن تسامحني ... ، كم كنت حمقاء اذ ارتكبت ذلك ، يا الهي ، ماذا فعلت .

وأجاب والدي : ـ عبثا تشعرين بالقلق . فانك لم تأت منكرا ... أما هذه الكوبيكات الخمسة فقد كسبتها بعملي وسأحتفظ بها .

وتحرك القطار تودعه نظرات والدي ..

تراجيديا الزوجة

وتخصص تاتيانا أكثر من خمسين صفحة من مذكراتها للحديث « عن موت والدي وبعض أسباب رحيله » .

والواقع أن تاتيانا ليست أول من يتعرض لمسألة « رحيل تولستوى » بل سبقها الى ذلك الكثيرون ، ولكن كل من تناول هذه المسألة لم يتناولها الا من وجهة نظره الخاصة . أما معالجة تاتيانا لها فقد جاءت غاية في الموضوعية والاصالة .

ويشير شيفهان في مقدمته الى هذه الناحية بالذات ، مؤكدا ان البعض قد اعتبر أن أسباب هذا « الرحيل » أسباب دينية ، نابعة ، من اسس تعاليم تولستوى الروحية (تشيرتكوف في كتابه « رحيل تولستوى ») بينما أعاده البعض الآخر الى « استسلام » تولستوى و« ندمه » وبحثه عن الموت في آخر حياته .. وقد ركز هؤلاء وأولئك على الخلاف العائلي والقوا بكامل المسؤولية على زوجته صوفيا اندريفنا .

ويتابع شيفهان : ثم اننا لا نعثر على المعالجة الموضوعية لهذه المشكلة في مذكرات بعض أبناء تولستوى وخاصة في كتاب ل . ل . تولستوى « في ياسنايا باليانا . الحقيقة عن أبي وعن حياته » (صدر في براغ في عام ١٩٢٣) وفي كتاب ا . ل تولستوى « الاب » (نيويورك ١٩٥٣) . أما تاتيانا مثلها مثل أخيها سيرغى في كتابه « لمحات من الماضي » (تولا ١٩٧٥) فانها ـ بالاختلاف عنهما ـ تعطى لوحة دقيقة لتراجيديا ياسنايا باليانا وتقوم بتحليل أسبابها تحليلا موضوعيا عميقا .

ففي مذكرات تاتيانا تطالعنا صوفيا أندريفنا كام ممتازة وزوجة مخلصة وسيدة بيت كبير « زجاجي مفتوح أمام الجميع » .

كانت صوفيا اندريفنا ذات الثلاثة عشر ولدا والخمسة والعشرين حفيدا لا تعرف الراحة والهدوء . فبالاضافة الى ذلك كانت هناك مشاغل المزرعة الكبيرة والغابات والحقول الشاسعة . وعدا عن ذلك كله مشاغلها مع زوجها ـ نسخ مخطوطاته والاشراف على شؤون النشر والتوزيع والرد على الرسائل العديدة » .

ولم تكن ياسنايا باليانا محط انظار الشخصيات البارزة فقط من كتاب وفنانين وعلماء وموسيقيين ، بل كان يؤمها الاف من عامة الناس ، من الجهلة ، ومن ذوي المطامع ـ « الدهماء » وكانت صوفيا أندريفنا تبذل قصارى جهدها من أجل انقاذ زوجها من الزوار غير المرغوب فيهم ، أولئك الذين « كانوا يعيقونه عن العمل ويسممون حياته » .

والواقع ان تراجيديا صوفيا اندريفنا الشخصية تكمن « في أنها كانت تهفو بكل كيانها نحو فهم زوجها ومشاطرته افكاره ، ولكنها فشلت في ذلك » .

وفي الحديث عن النزاع العائلي تتحدث تاتيانا عن الاختلاف في طبيعة أبويها وفي نمط تفكيرهما .. وعلى الرغم من هذا التناقض الصارخ فقد كانا كما تؤكد تاتيانا « على ارتباط وثيق ببعضهما » ، وبالفعل فقد كان تولستوي يكن لزوجته كل حب ، ليس فقط في سنوات الخطبة والزواج بل وحتى آخر حياته . وعلى ذلك تدل رسالته التي تركها في ليلة الرحيل عن ياسنايا باليانا التي تحمل تاريخ ٨ تموز (يوليو) ١٨٩٧ ، والتي تم العثور عليها بعد وفاة تولستوي : « عزيزتي صوفيا .. ان رحيلي عنك لا يعني أنني لم أكن راضيا عنك انني أعرف أنك لم تستطيعي ، تماما لم تتمكني وليس بوسعك أن ترى وتشعري كما أرى وأشعر ، ولذا فلم تتمكني وليس بوسعك أن تغيري حياتك وتضحي من أجل ما لا تفهمين . ولهذا فلست الومك ، على العكس ، انني أتذكر بالحب والامتنان الاعوام الخمسة والثلاثين الطويلة من حياتنا ... لقد اعطيتني وأعطيت العالم مابوسعك .. ولكننا افترقنا في المرحلة الاخيرة من حياتنا،في السنوات الخمس عشرة الماضية،ليس بوسعي الاعتقاد أن الذنب ذنبي لانني أعرف أنني لم أتغير من أجل نفسي ومن أجل الناس ، بل لانني لم اتمكن من السير في طريق آخر ، وليس بوسعي أن الومك لانك لم



تولستوي

تقتفي أثري ، بل أشكرك وبكل حب أتذكر وسأظل أتذكر ماقدمت لي . وداعا يا عزيزتي صوفيا .

ليف تولستوي الذي يكن لك كل الحب ،
٨ ـ تموز/يوليو ١٨٩٧

رحيل الاب

ولكن رحيل تولستوي لم يتم في ذلك العام ، بل بعد ثلاثة عشر عاما . كان يبدو تولستوي خلالها وكأنه ينتظر حدوث شيء ما ينقذه من التناقض الذي لا يطاق ، ولكن شيئا من هذا القبيل لم يحدث ، بل على العكس ، فقد استمر الأبناء في الحياة المستقلة التي لا مكان فيها لافكار والدهم . اما « أمي فلم تعرف الاطمئنان بعد المصيبة التي رزئنا بها (تقصد تاتيانا موت أخيها فانيشكا ذي السبعة أعوام ، والذي تعتبره احد أهم اسباب مرض والدتها) كانت تبحث عن السلوى في كل مكان ، ولكن ليس في المكان اللازم ـ كانت تفتقر الى القوة المعنوية اللازمة .. لقد قامت بخطوة غير صائبة اذ رفضت السير في أثر زوجها . ومنذ ذلك الحين ازداد ضلالها .. فقد رفضت أمي نسخ مخطوطات والدي ، وبالطبع فقد أمكن العثور على من يقوم بهذا العمل »

وهنا جن جنونها ». اذن يحاولون ابعادي ، اذن لم يعد أحد بحاجة الى ... » وتشير تاتيانا الى ان أباها كان يعتبر زوجته مريضة بينما كان الكثيرون من المحيطين به ، بمن فيهم الدكتور ماكوفيتسكي يعتقدون أنها تمثل كوميديا . وانها في صحة جيدة ، أما الهستيريا المفتعلة فهي اسلوبها المفضل للوصول الى غرضها .. »

ان دراما تولستوي تكمن كما يرى شيفهان . وكما ترى تاتيانا أيضا في أن أسرته لم تقتف أثره بعد ان توصل الى ضرورة تغيير نمط حياته والتخلي عن املاكه فقد قال : « لا أستطيع المشاركة في تربية أبنائي في ظروف أعتبرها مدمرة بالنسبة لهم . لم يعد بوسعي أن املك بيتا ومزرعة . ان كل خطوة أخطوها في هذه الحياة عذاب لايطاق .. اما أن أرحل واما أن نغير حياتنا : فنوزع املاكنا ونعيش بعرق جبيننا كما يعيش سائر الفلاحين .

وبموضوعية الباحث تتبع تاتيانا دراما والدها منذ بدئها حتى نهايتها التراجيدية . وفي معالجتها لهذه الدراما نلمس تفهمها لموقف ابيها ونشعر باحترامها لافكاره وتأييدها لنواياه . وفي نفس الوقت تؤكد بصدق أن رفض صوفيا أندريفنا الرحيل مع زوجها كان نزيها « لقد كان ذلك مصيبة بالنسبة لها وليس ذنبا » . فلم تستطع ، وهي التي تربت في الاسرة النبيلة أن تتخطى ذاتها وتتخلى عن نمط الحياة المعتاد . وكانت تعتقد أن التخلي عن حقوق زوجها الادبية سيزيد من ثراء الناشرين التهمين ويحرم أبناءها واحفادها من قوت يومهم . أضف الى ذلك أن نوباتها العصبية قد ازدادت حدة في أواخر حياتها . وتشير تاتيانا في مذكراتها الى أن امها كانت تجيب على اقتراح زوجها بتوزيع الاملاك على الفلاحين والانتقال للسكن في البيت الفلاحي ، وعلى تهديده بالرحيل بقولها : « اذا مارحلت قتلت نفسي ، لانني لا يمكن أن أعيش بدونك . اما بالنسبة لتغيير نمط الحياة فلست قادرة على ذلك ، ولا أوافق عليه ، ثم انني لا أفهم ، ما الداعي الى تدمير حياتنا السعيدة في شتى المجالات من أجل حثالة الناس » .

وبالفعل فلم تكد أمي تعرف برحيل أبي حتى القت بنفسها في بركة الماء . ولكننا تمكنا من انقاذها ، وبعد ذلك قامت بأكثر من محاولة انتحار فاشلة

وتضمن تاتيانا مذكراتها وصف الليلة الاخيرة ، ليلة الرحيل بقلم تولستوي نفسه : « ٢٨ تشرين أول (اكتوبر) عام ١٩١٠ استلقيت في منتصف الثانية عشرة وبقيت حتى الثالثة صباحا . استيقظت ، كما في الليالي المنصرمة على صوت الابواب تفتح ووقع خطوات .. انها صوفيا أندريفنا تبحث من جديد يبدو أنها تقرأ .. ومن جديد أسمع وقع الخطوات ، واغلاق الابواب بحذر .. لست أدري لماذا أثار ذلك مشاعر التقزز والاستنكار لدي ، حاولت النوم فاستعصى على ، تقلبت حوالي ساعة ، أشعلت الشمعة ثم جلست . ويفتح الباب ، وتدخل صوفيا اندريفنا وتسأل « عن صحتي » وتعرب عن دهشتها للضوء في غرفتي . ويزداد شعوري بالتقزز والاستنكار ، وأشعر أنني أكاد أختنق .. وفجأة أتخذ قراري النهائي بالرحيل » .

في النهاية تقول تاتيانا :

لم يكن أحد عدا أختي الكسندرا يعرف مكان وجود والدي . وسافرت السكندرا اليه واعدة أن تخبرنا في حال مرضه .. وبعد عدة أيام من سفرها عرفنا انه مريض ولكننا لم تعرف مكانه .. لكم أن تتصوروا أية ليلة رهيبة قضيتها بعد ذلك النبأ . فوالدي يحتضر في مكان ما قريب .. وليس بوسعي أن اعتني به ، ومن يدري فقد لاأراه بعد الان . وفي اليوم التالي تلقينا برقية من مراسل صحيفة « الكلمة الروسية » أرلوف ، لن أنسى جميله مدى الحياة : « ليف نيقولايفيتش في أستابوفا لدى رئيس المحطة . حرارته ٤٠ » .

وتتحدث تاتيانا عن سفرها مع والدتها واخوتها الى هناك ، حيث بدأوا يعيشون في عربة خاصة بالقرب من منزل رئيس المحطة ، « وكيلا تصر والدتي على زيارته أعلنا أننا لن نزوره نحن أيضا . كنا نديتها ، ولم يكن بوسعنا أن لا نعتبرها سبب ذلك كله . ولما كنا لا نلمس لديها مشاعر الندم فلم يكن بوسعنا أن نسامحها « لست أدرى كيف عرف والدي بوجودي فاستدعاني .. كنت أشعر برغبة جارفة في أن يستدعي والدتي .. أن يصالحها قبل الموت ، وكانت الكسندرا تشاطرني نفس الشعور .. ولكن كان يبدو واضحا أنه يخشى هذا اللقاء ...

في السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) نادى والدي « سيريوجا » ولما اقترب سيريوجا منه قال له بصوت خافت : سيريوجا . انني أحب الحقيقة .. أحب الحقيقة .. كثيرا » . كانت تلك كلماته الاخيرة . ■■■

موسكو ـ هاشم حمادي

الثقافة الإسلامية والكوميديا الإلهية

تأليف الدكتور : صلاح فضل

عرض : عبد السميع المصري

« تأثير الثقافة الاسلامية في الكوميديا الالهية لدانتي » . دراسة جادة في الأدب المقارن « تعطي لنا دفعة قوية من الثقة المدعمة بالبراهين العلمية في ثقافتنا القومية وتحفزنا الى الاعتزاز الواعي بتراثنا وتساعدنا على التخلص من حساسية المتخلف الذي يخشى عواقب الاتصال الفكري على أصالته مع أنه شرط جوهري لتغذيتها وانمائها » .

وليس أدل على ضخامة الجهد الذي بذل في هذا الكتاب من قول مؤلفه الدكتور صلاح فضل في مقدمته « من هنا تثبت ضرورة هذا البحث الذي حاول أن يستوعب بشكل مباشر المادة العلمية المقارنة التي استخدمت في الدراسات الاوربية ـ على سعتها ـ ويطلع على نصوصها العربية الأصيلة ـ على كثرتها ـ ثم يقدم اعادة ترجمة وعرض لوثيقة المعراج التي اصبحت البرهان الاخير في القضية . ويبحث عن نماذج لنظائرها في التراث متفرقة حتى يعثر عليها مجتمعة » .

وقد مهد المؤلف لبحثه بفصل عن الأدب المقارن عرف فيه هذا الأدب بقوله انه « العلم المنهجي الذي ينشد دراسة روابط التشابه والقرابة والتأثير بين الأدب ومظاهر المعرفة الانسانية الأخرى أو بين النصوص الادبية نفسها ، مما قد يبدو للوهلة الأولى متباعدا في الزمان او المكان ، بشرط أن ينتمي الى لغات أو ثقافات عديدة ، حتى ولو كانت تدين لتراث مشترك واحد ، وتنحو هذه الدراسة الى وصف ظواهر الالتقاء الأدبي وفهمها وتذوقها بأكبر قدر من التعمق والاستبصار ، مما يجعلها تتخذ منهج الوصف التحليلي والمقارنة المنظمة التي لا تلغي الفروق بين الاشياء ، بل تبرزها وتؤولها كظواهر أدبية تقوم بين اللغات والثقافات المختلفة استجابة لعوامل تاريخية ونقدية وفلسفية . كل هذا بهدف النفاذ الى فهم الأدب ووظائفه الحيوية في خدمة الروح الانساني العام » .

لكنه يسارع الى التحذير من البحث عن المكاسب والانتصارات الفنية للعمل المؤثر نتيجة لسبقه الزمني فحسب ويطالبنا بافتراض مجرد التوافق العفوي لا سيما ونحن نعالج أثر الثقافة الاسلامية في واحدة من قمم الابداع الأوربي في العصور الوسطى .. فلا نغرق في البحث عن عوامل الفخر القومي أو الحماس لمؤثراتنا فيه .

ثم يدعونا في هذا الفصل الى عدم التخوف أو الاعراض عن التراث الانساني والتأثر به الذي يختلف عن التقليد « لأن الشعوب لا تثري على أساس القروض الشكلية وانما اعتمادا على استصفاء المبادىء التي تجدد حياتها الفكرية وامتصاصها بروية وتمهل وعندما يحدث تماس بين حضارتين مختلفتين ويبتل ريق شعب بحلاوة الآخر فان المزيج الذي يتكون منهما لا يدانيه شيء في قوته المخصبة الخلاقة لكن عندما يقتصر الأمر على مجرد التقليد فانه لا ينبت من ذلك سوى الازهار الصناعية المفتعلة » .

واذا أثبتت الدراسة التي بين أيدينا مدى تأثر دانتي بالثقافة العربية والاسلامية .. ودانتي هذا هو الذي تدين له الآداب الاوربية في العصر الوسيط بالشيء الكثير .. لاتضح لنا مدى اتصال التراث الانساني وتشابك علاقاته مما يدعونا لأن نكون أكثر حرية في الأخذ من هذا التراث اليوم دون أدنى حساسية .

ثم يفرد الدكتور صلاح بعد ذلك فصلا لتاريخ اتصال دانتي بالثقافة الاسلامية وتأثره بها فيروي كيف أن المستشرق الاسباني أسين بالاثيوس (١٨٧١ ـ ١٩٤٤) هو أول من تعرض لهذا الموضوع منذ ستين عاما باعتباره فرضا علميا قضى سنوات عديدة يجمع الادلة والبراهين لاثباته . لكنه لم يستطع ان يحسم الامر لافتقاده الدليل المادي الذي يثبت اطلاع دانتي على التراث العربي لكن بعد وفاته بخمس سنوات ظهرت ترجمة قديمة لرواية مطولة عن معراج الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة اسرى به من مكة الى بيت المقدس كتبت باللاتينية والفرنسية القديمة مما رجح اطلاع دانتي

عليها . ومنذ ذلك التاريخ اصبح الموضوع مسلما به في الادب المقارن كنموذج واضح للتأثير الاسلامي في الأدب الأوربي وأصبحت القضية كلها مسلما بها ومفروغا منها في الاوساط العلمية والأدبية في العالم كله .

وفي عام ١٩٤٩ قام كل من الباحث الاسباني مونيوث سنديو والباحث الايطالي اريكو تشيرولي بنشر الترجمات اللاتينية والفرنسية لوثيقة « معراج محمد » دون اتفاق مسبق بينهما من مخطوطات مكتبات اكسفورد بانجلترا والمكتبة الوطنية بباريس ومكتبة الفاتيكان وغيرها من دور الكتب .

كما عرف العالم من هذه الوثيقة ان ملك اسبانيا ألفونسو العاشر كان قد أمر ابراهام الحكيم الطبيب اليهودي الذي كان يعمل في بلاطه بترجمة قصة المعراج الاسلامية من العربية الى القشتالية عام ١٢٦٣ وكانت هذه الترجمة أصلا لترجمة اخرى الى اللاتينية والفرنسية قام بها بونا فينتورا دي سينا الموثق الايطالي الذي كان يعمل ايضا في بلاط الفونسو سنة ١٢٦٤ أي قبل ميلاد دانتي بسنة واحدة .

وفي الفصل التالي من الكتاب المعنون « عوامل التأثير ومستوياته » يحاول الدكتور صلاح تقديم المزيد من الادلة ليؤيد قضيته الثقافية فيمهد لذلك بقوله « ان الثقافة انما هي كل معقد متشابك يشمل المعارف والمعتقدات والفنون والاخلاق والقوانين والعادات وجميع مظاهر الخلق التي يبدعها الانسان ويكتسبها في مجتمع من المجتمعات ومن هنا فان الآداب سواء كانت رسمية أو شعبية والمعتقدات سواء كانت دينية او اسطورية .. مسجلة كتابة او متداولة شفاها .. كل ذلك يدخل من باب الثقافة العريض .. وفي ضوء هذا المفهوم نرى بوضوح ان المؤثرات الاسلامية في الكوميديا الالهية ذات طابع ثقافي شامل ، فهي لا تقتصر على نصوص ادبية بذاتها ولا على الافكار الدينية المعتد بها ، بل تخللتها عناصر فولكلورية شعبية ، لعب خيال الناس فيها دورا هاما وأشبعها بقدر كبير من المبالغة والتحرر »

ويضيف أن معرفة دانتي للتراث الاسلامي وتصور المسلمين لمجالي العالم الآخر حفزته الى اتخاذ نموذج الرحلة الى عالم الغيب قالبا فنيا لعمله ، خاصة عندما بهرته المشاهد الاسلامية بما تحفل به من تنظيم دقيق وصور فنية ولم تكن محاكاة النماذج القديمة شيئا معيبا في عصر دانتي بل كانت قانون الكلاسيكية العام وروحها الغالب .. تكتسب بها الاعمال الفذة لونا من مشروعية الوجود وتبرير النهج » .

ومن المسلم به ان قنوات الاتصال بين أوربة والعالم الاسلامي التي سهلت التبادل الثقافي بينهما وساعدت على تأثر الأدب الاوربي بصفة خاصة بالثقافة الاسلامية .. هذه القنوات بدأت تتفتح منذ القرن الثامن الميلادي متمثلة في الحركة التجارية المتنامية ثم حركة الحجيج من اوربة الى بيت المقدس ثم الحروب الصليبية وما أدت اليه من انشاء امارات مسيحية يحكمها أوربيون في قلب الشرق الادنى .. ثم منارات العلم الاسلامي في صقلية والاندلس على سبيل المثال والتي كانت قبلة لكل راغب في العلم من اهل اوربة .. ثم ذلك الدور المنقطع النظير الذي قامت به الاندلس الاسلامية سواء في الترجمة او احتضان وفود الدارسين من انحاء أوربة ونقل التراث الاسلامي اليها مترجما ...

ولقد حفظ التاريخ كثيرا من الترجمات التي تمت في تلك الفترة الثرية لاسيما ما بين القرن الحادي عشر الميلادي والقرن الثالث عشر عندما بلغت حركة الترجمة قمة ازدهارها في عهد الفونسو العاشر ملك قشتالة ، الذي كان يسمى بالعالم لاهتمامه الشخصي الكبير بترجمة العلوم الاسلامية والتي كان من بينها مؤلفات الخوارزمي والفرغاني وابن سينا والزرقالي وغيرهم ، حتى فاض العلم الاسلامي على أوربة وملأها خصبا .

واذا كان دانتي منذ ولد عام ١٢٦٥ وكتب الجزء الأول من الكوميديا الالهية عام ١٣٠٧ في وقت كانت الترجمات اللاتينية والفرنسية لقصة المعراج لها شهرتها في الاوساط الادبية ، فلا شك أنه قد وجد الفرصة للاطلاع عليها ودراستها الدراسة التي تركت بصماتها على عمله العظيم ولا سيما اذا علمنا أن كثيرا من رواد الترجمة كانوا يكثرون من التردد على ايطاليا وخاصة فلورنسا موطن دانتي والحوار والمشافهة كانت وما زالت من عوامل انتشار الثقافة .

كما ان هناك قسيسا يدعى سان بدرو باسكوال معاصرا لدانتي وعاش في فلورنسا له مؤلف بعنوان « تفنيد مزاعم الطائفة المحمدية » اورد فيه قصة المعراج بالتفصيل ، وقد اشتهر كتابه هذا في جميع الاوساط المسيحية الاوربية وكان في متناول دانتي مما يرجع لدى بعض الباحثين ان هذا الكتاب كان الوسيلة التي تعرف دانتي من خلالها على القصة الاسلامية .

كل هذه المراجع والاتصالات الشخصية بين دانتي ومعاصريه من المهتمين بالعلوم الاسلامية والتوافق التام بين كثير من عناصر الكوميديا وقصة المعراج ،

جعل المفكرين الايطاليين انفسهم يؤكدون أنه لم يعد هناك مجال لأي شك في اطلاع دانتي على قصة المعراج التي كانت مترجمة بثلاث لغات أوربية هي لغات العلم في عصره .. وتأثره بها ..

« الكوميديا » ورسالة الغفران

ولا يكتفي الدكتور صلاح فضل بهذه الادلة فيقدم لنا مقارنات طريفة ممتعة بين الكوميديا « ورسالة الغفران » التي كتبها أبو العلاء المعري في اوائل القرن الحادي عشر الميلادي ، والتي تعتبر من أنضج نماذج الثقافة الاسلامية والعالمية .

ورسالة الغفران ـ وكذلك الكوميديا الالهية ـ رحلة للعالم الآخر تتميز بخلوها من عناصر الخوارق والمعجزات التي تحفل بها روايات الاسراء والمعراج الاخرى .

« فباستثناء الفكرة الاساسية للرحلة ـ التي تقع في نطاق المعجزات ـ تمضي الحوادث بعد ذلك على نسق أقرب ما يكون الى منطق الحياة المألوفة .. فالمسافر عند أبي العلاء ليس نبيا ولا وليا ولا من كبار الابطال ، ولكنه مجرد انسان عادي يقترف الذنوب ويسعى في الارض مثله في ذلك مثل دانتي بطل الكوميديا . كما ان الشخصيات التي تقوم بالادوار الثانوية ليست في معظمها من الانبياء او القديسين وانما هم أناس عاديون منهم المؤمن والكافر مثل الذين نجدهم أيضا عند الشاعر الايطالي . وعلى هذا فان الخاصية الانسانية الواقعية الارضية في الكوميديا تجد سابقتها الادبية الكبرى عند شاعر المعرة العربي » .

ويتفق دانتي مع ابي العلاء في معاني التسامح وسعة الافق في معاملة الارواح وفي خروج بعضها الى الجنة بعد رحلة التطهر .

بل ان التشابه في بعض اجزاء العملين يصل الى درجة التطابق فنجد في رسالة الغفران قصة لقاء ابن القارح بحوريتين من الحور العين يبهره جمالها ، فيقبل كل واحدة منها ويرتشف رضابها ويتمثل في حسنها بأبيات لامريء القيس فتستغرقان في الضحك وتقول احداهما « أتدري من أنا يا علي بن منصور ؟ فيقول أنت من حور الجنان اللاتي خلقهن الله جزاء للمتقين .. فتقول ، أنا كذلك بانعام الله العظيم ، غير أني كنت في الدار العاجلة أعرف بحمدونة وأسكن في باب العراق بحلب وأبي صاحب رحى وتزوجني رجل يبيع " ثم طلقني لرائحة كرهها من في ، وكنت من أقبح نساء حلب فلما عرفت ذلك زهدت في الدنيا الغرارة وتوفرت على العبادة فصيرني ذلك الى ما ترى » .

وبعيدا عن اسلوب المعري الساخر في هذه القصة نرى الشبه الكبير بينها وبين بعض الوقائع عند دانتي كلقائه مع بياسينا في المطهر ومع بيكاردا الفلورنسية في سماء القمر . والأولى تنعي حظها التعس وشقاءها مع زوجها مثل حمدونة أما بيكاردا فتبدو رائعة الحسن رغم دمامتها في الدنيا وكلاهما تذكر لدانتي قصتها في الدنيا وموطنها واسمها الدنيوي .

وغير ذلك من التشابه الذي يبلغ درجة التطابق بين الكوميديا ورسالة الغفران كثير مما ذكره الدكتور صلاح ولا سيما صور العبور على الصراط يوم القيامة .

وبعد ذلك ينتقل الدكتور صلاح في رياض كتابه ليحدثنا عن العناصر الصوفية في الكوميديا الالهية فيقول « ان الكوميديا الالهية ـ طبقا لهذا الفهم ـ تعبير مجازي عن حياة دانتي الشخصية وعن خلاص البشرية . فدانتي نموذج للانسان الذي أضله الجهل وأعمته الشهوات لكنه يستطيع أن يتحرر من عبودية الشر بهداية من عقله وفضل من الله تعالى ، وذلك عن طريق التطهر والتوبة من الذنوب ، هذا التطهر الذي يرمز اليه بالرحلة الى الجحيم والمطهر . وعندما يظفر بهذا الكمال الخلقي يصعد ـ عن طريق التأمل وبنعمة من الله ـ الى السعادة الخالدة التي تتمثل في لذة الاستمتاع برؤية الذات العلية ... فدانتي اذن مثل المتصوفة المسلمين عامة وابن عربي بصفة خاصة يستخدم معراج الانسان الى السماوات ، ليرمز به الى الدراما الصوفية للتجدد الاخلاقي للأرواح بالايمان والكمال والصلاح » .

ثم يفرد الدكتور صلاح بعد ذلك أطول فصول الكتاب « للتحليل المقارن لأجزاء الكوميديا الالهية » ولما كان الكتاب رحلة في العالم الآخر فان دانتي يبدأ رحلته من « الليمبو » أي الاعراف التي ورد ذكرها في القرآن الكريم . ويحددها دانتي بأنها منطقة تقع فوق الجحيم مباشرة أي انها البهو المفضي اليه وتنقسم الى شطرين أولها ما يلي الجحيم وتسكنه أرواح الأطفال ومن ماتوا دون أن يعملوا خيرا أو شرا .

أما الشطر الثاني فهو سهل عميق تحف به الاشجار وتحميه من حوله جدول جميل وفيه تسكن أرواح من ماتوا على الفطرة قبل الاديان وأرواح الحكماء والفلاسفة والابطال ممن لم يعتنقوا المسيحية عند دانتي بالرغم من نبلهم وحكمتهم . ولا يعاني هؤلاء من العذاب سوى الحرمان من الجنة والشوق الذي لا يحدوه أمل .

وظهور الأعراف في الفكر المسيحي بدأ بدانتي . ومعنى ذلك أن المصدر الوحيد له في تصورها هو الثقافة الاسلامية ، التي تفننت كتبها في رسم صور شائقة للأعراف ومكانها ونوع العذاب الوحيد الذي يعانيه سكانها وهو شوقهم الى الجنة وحرمانهم منها اذ لم يدخلوها وهم يطمعون .

كما يجمع الباحثون على أن « كل أوصاف الجحيم الواردة في العهد القديم ـ التوراة ـ والأدب الكلاسيكي وفي العصور الوسطى الأولى السابقة لدانتي كانت اوصافا بسيطة مبهمة لا لون لها . ولا تشبه بحال تلك الصورة الفنية المجسمة التشكيلية الواضحة التي رسمها دانتي للجحيم ... لذلك أدركوا عند اكتشاف تأثير الثقافة الاسلامية عند دانتي أنها هي المصدر الحقيقي الذي نهل منه دانتي كثيرا من أوصافه دون أن يطعن ذلك في مدى أصالته أو يقلل من قيمته ... » .

ولقد اتبع دانتي أيضا النموذج الاسلامي الذي يقسم الجحيم الى طبقات عامة تحتوي على تقسيمات فرعية تخدم الهدف الاخلاقي للقصة .. وقد سمّى شراح دانتي هذا التقسيم بالبناء الاخلاقي للجحيم .

كما تتطابق أوصاف « مينوس » خازن النار عند دانتي وحواره معه مع ما جاء في قصة معراج الرسول صلى الله عليه وسلم عن لقائه مع مالك خازن النار وحديثه معه .

عن رحلة المطهر

ثم يمضي الدكتور صلاح متتبعا فصول الرحلة فصلا فصلا وما فيها من وصف لأنواع العذاب التي يسامها المذنبون والعصاة مظهرا ما فيها من تطابق أو تقارب شديد مع القصة الاسلامية .. حتى عذاب رجال الدين والعلماء يكاد يتطابق مع ما جاء في صحيح البخاري من حديث « يجاء بالرجل يوم القيامة فيطرح في النار فيدور فيها كما يدور الحمار بالرحى فيطوف به أهل النار فيقولون : أي فلان .. ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه » .

ويختتم الدكتور صلاح هذا الفصل بقوله « بهذا يتضح لنا أن كثيرا من المواد الأولية التي صاغ منها دانتي صوره وتصوراته عن الجحيم مستقاة من التراث الاسلامي واذا كانت القدرة الشعرية تعتمد أولا على عبقرية الصياغة والسياق الفلسفي والفكري الجديد ، فان هذا التأثير لا يقلل بحال من قيمة الشاعر الايطالي بل يوضح طبيعة ابداعه ومدى أصالته » .

لكن الدكتور صلاح يعود بعد ذلك ليفرد فصلا شائقا عن رحلة المطهر في الكوميديا وهي الرحلة التي يقطعها دانتي بعد خروجه من الجحيم عبر جبل المطهر الذي ينقسم الى سبع درجات متصلة فيما بينها تسكنها أرواح بريئة من الكبائر وذنوبها مما تسعه رحمة الله تعالى .. وفي هذا الجبل ترعاها الملائكة وتقودها في دروبه الى الصعود التدريجي حتى تصل الى السماء بعد أن تكون قد تطهرت بالصلاة والابتهال والدعاء وقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة » ويمضي الدكتور صلاح في دراسته المقارنة لرحلة المطهر حتى يصل الى لقاء دانتي مع بياتريس حبيبته السابقة في الدنيا التي تأخذ بيده وترافقه باقي رحلته .. وهو أمر ترفضه الكنيسة لمجافاته لروحها في التهوين من شأن العلاقات العاطفية واتهامها بالمادية .

لذا فالدكتور صلاح يرى « ان هذا الحب الفردوسي المثالي الذي غذى خيال دانتي مدين بدوره للتصور العربي الاسلامي للحب العذري كما تبلور لدى الشعراء والمفكرين العرب في المشرق والمغرب وانتقل عن طريق الاندلس وصقلية والحروب الصليبية الى أوربة » .

ثم يسهب الدكتور صلاح في وصف هذا اللقاء ، وما جاء من اوصاف الحور العين في الروايات الاسلامية وما يقابلها او يشبهها في كوميدية دانتي ليؤكد الحضور القوي لهذا العالم الذي صورته المأثورات الاسلامية في خيال دانتي عندما كتب رائعته .

وأخيرا فاني أتساءل مع الدكتور صلاح فضل :

لماذا أثمر هذا التراث الخصب من المأثورات الدينية والادبية والشعبية واحدة من أهم الملاحم الدينية في الآداب الاوربية وأثمر شيئا قريبا من ذلك في الملاحم الفارسية من سنائي الى اقبال ثم عقم الأدب العربي عن احتضان هذه الجواهر والافادة منها ؟ ثم ألا سبيل أمامنا للافادة الرشيدة من هذا التراث العظيم بكل طاقاته الروحية وامكاناته الشعرية وقدرته الهائلة على تجسيد الوجدان الشعبي في أعمال فنية فذة ؟ ■■

عبد السميع المصري

نزهة العقل الذكي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة » .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العدد بقطعها منه .. اما الكوبون المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

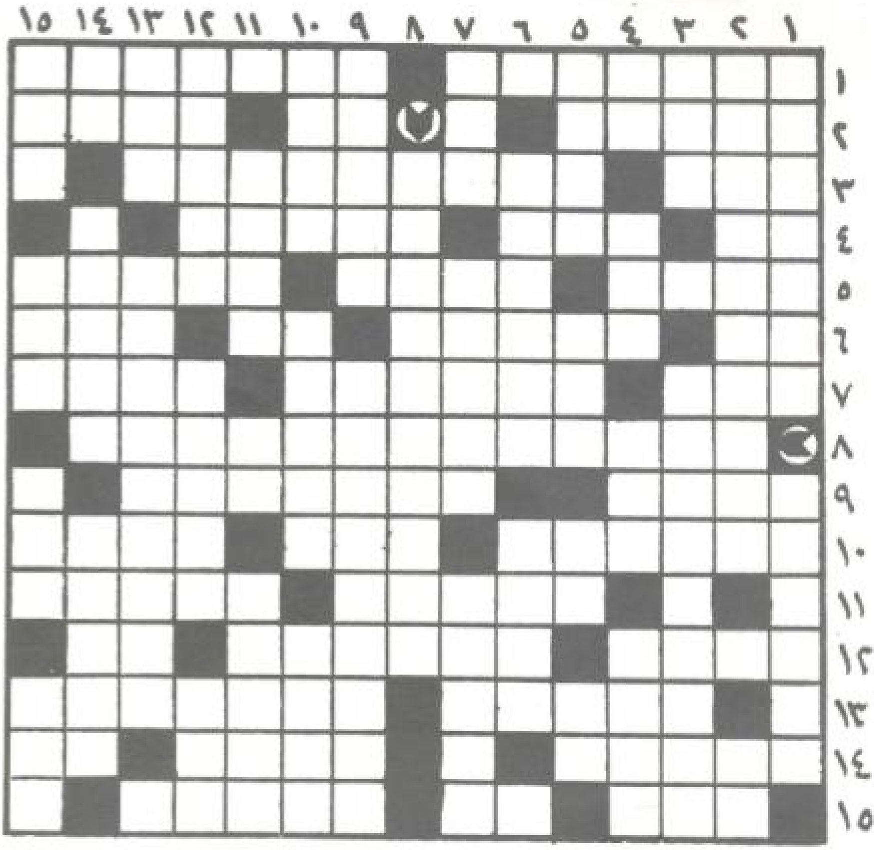
ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد » ٢٦٦ ـ وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول مارس (١٩٨١) .

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم احد الانبياء الذي له لقب ابو المؤمنين . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم مؤسس الاسرة القاجارية بايران .

كلمات أفقية :

١ ـ من العناصر الكيميائية ـ دولة أوربية .
٢ ـ أجرب ـ من المقامات الموسيقية ـ يضاف الى الطعام .
٣ ـ ثمر النخيل ـ عالم فلكي انجليزي من القرن السادس عشر .
٤ ـ بسط ـ قطعا ـ زعيم هندي راحل .
٥ ـ نقصي ـ حائط ـ يدعم .
٦ ـ أنية ـ مشاركة ـ حرف نصب ـ عند .
٧ ـ أحب ـ مفترسة ـ قاطع .
٨ ـ أبو المؤمنين .
٩ ـ متعب ـ تمرينات .
١٠ ـ أوله ـ صفقة ـ سارع .
١١ ـ وحدة قياس زمن ـ آلة نفخ موسيقية .
١٢ ـ حامي ـ مكان لقاء اجتماعي ـ نصف كلمة (عاون) .
١٣ ـ صاحبي ـ دولة عنصرية .
١٤ ـ من الزهور ـ ضلت ـ ضمير .



١٥ ـ جشع ـ حرفان متشابهان ـ قليلا وبين الحين والحين .

كلمات رأسية :

١ ـ عاصمة نيبال ـ خلاّقون .

٢ ـ بحار عربي قديم اعتمد عليه فاسكودي جاما في رحلته ـ عمر .

٣ ـ بيت ـ من الآثار الدينية بالقدس .

٤ ـ نصف كلمة (مورد) ـ جذبا ـ موت ـ عملة معدنية عربية .

٥ ـ يناسب ـ ارتفع ـ نصف كلمة (تالف) ـ نصف كلمة (أمين) .

٦ ـ تصدّت له ـ من أوجه القمر .

٧ ـ عقيدة ـ عالجت ـ مريضة .

٨ ـ مؤسس الاسرة القاجارية بايران .

٩ ـ في الآخرة ـ هزم العرب في موقعة تور .

١٠ ـ لا يتحرك ـ صلاحية ـ استمرار .

١١ ـ سمين ـ نصف كلمة (خير) ساندها .

١٢ ـ شيطان ـ طيور مفردة ـ يكمل .

١٣ ـ مجرى مائي ـ من الامراض .

١٤ ـ للنداء ـ برابرة كانوا يعيشون في شمال المانيا ـ في متناول اليد .

١٥ ـ أجيب ـ مكان للتعبد ـ عدو ـ للاستفهام .

كوبون مسابقة العدد ٢٦٦

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

يناير - كانون ٢
١٩٨١ م

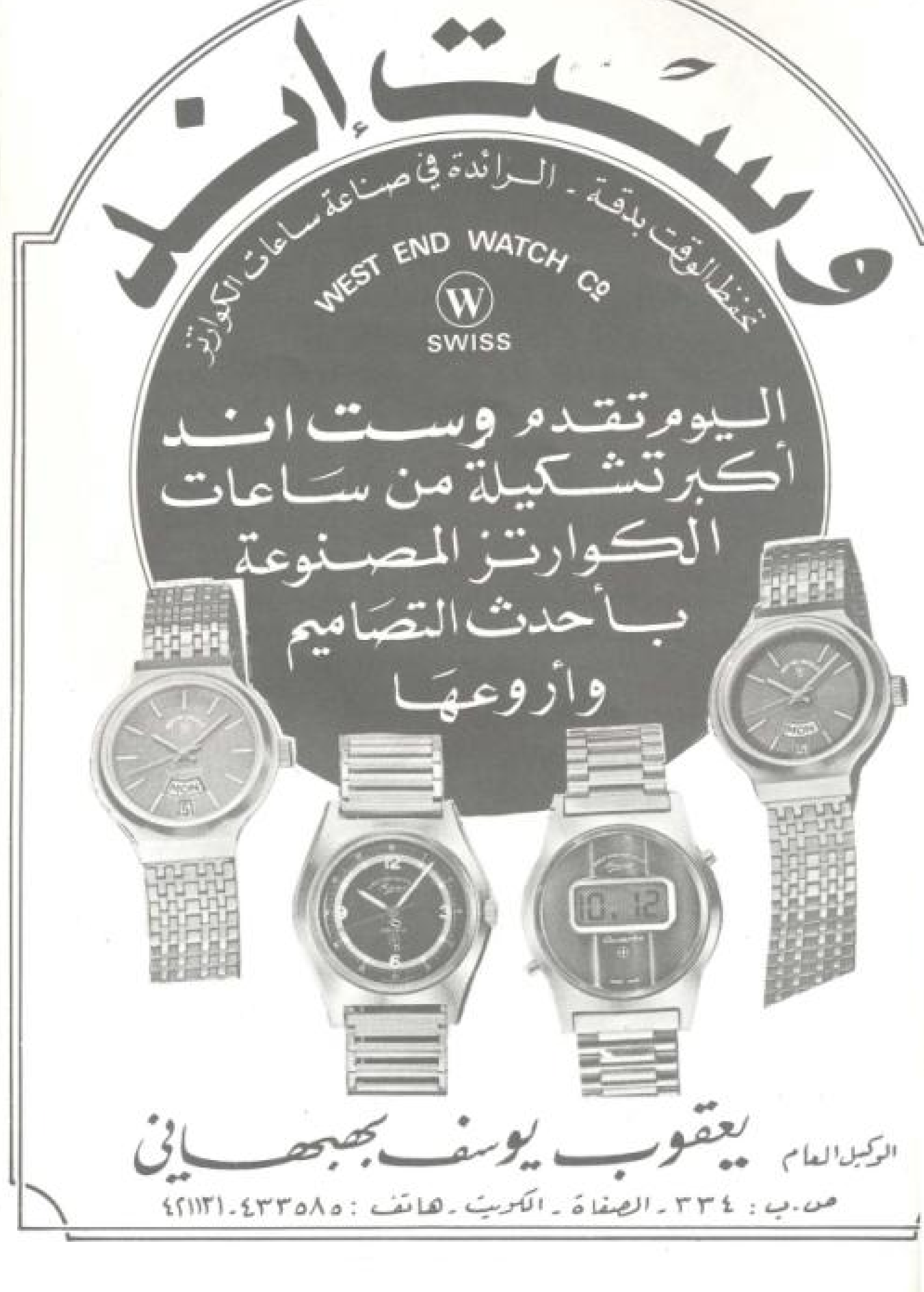
المساجد

تأليف : د. حسين مؤنس

٢٥٠ فلساً

الكتاب السابع والثلاثون

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت


وست إند
تضبط الوقت بدقة ـ الرائدة في صناعة ساعات الكوارتز
WEST END WATCH Co
W
SWISS
اليوم تقدم وست اند
أكبر تشكيلة من ساعات
الكوارتز المصنوعة
بأحدث التصاميم
وأروعها
10.12
الوكيل العام يعقوب يوسف بهبهاني
ص.ب: ٣٣٤ ـ الصفاة ـ الكويت ـ هاتف: ٤٣٣٥٨٥ ـ ٤٢١١٣١

كلية «سانت اولديتس» أكسفورد
متخصصة في الالتحاق بالجامعات والدراسات المهنية

تعتبر سانت اولديتس من اكبر كليات اكسفورد المستقلة للتعليم العالي ، متخصصة في دراسات الـ «جي . سي . إي» المستوى المتقدم «"A"-Level» . على الرغم من ان التركيز في الكلية ينصب على دراسات المستوى المتقدم «"A"-Level» ، إلا انها تتيح الفرصة للدارسين للحصول على المستوى العادي «"O"-Level» بحثا وراء الحصول على درجات أعلى لدخول الجامعات او لغرض تخصص ما

تقع الكلية في قلب اكسفورد وهي مختلطة متعددة الثقافات ومعترف بها كمركز امتحانات لاربع هيئات ممتحنة لشهادة الـ «جي . سي . إي» والحد الادنى الطبيعي للدخول هو ١٧ عاما .

والهدف من تركيز كلية «سانت اولديتس» على دراسات المستوى المتقدم «"A"-Level» هو مساعدة الطلبة للحصول على اعلى الدرجات (مع الاعداد الاضافي للمستوى العادي «"O"-Level» اذا لزم الأمر) وكذلك اتاحة كافة التسهيلات للطلبة للاستمتاع بالفرص الثقافية الفريدة من نوعها التي تقدمها اكسفورد .

سياسة الكلية هي ان لا يزيد عدد الدارسين في الفصل عن ١٠ طلبة وبذلك يضمن نجاح جميع المتقدمين في الامتحانات كما يعطي الحافز للطلبة للاستفادة بجميع المميزات والتسهيلات التي تمنحها كلية «سانت اولديتس» من منح دراسية وسعة نضج في أفق التفكير .

يسرنا موافاتكم بنشرة معلومات لـ «جي . سي . إي» في حال طلبها .
الدراسة باللغة الانجليزية . وكذلك جميع المراسلات يجب ان تكون باللغة الانجليزية .

St. Aldates College, Oxford

Principal B. Mendes B.Sc. (Econ.) F.C.A.
(Dept 42) Rose Place, Oxford. OX1 1SB. England.



مِنَ المسرح العالمى

سلسلة ثقافية

تصدرها فى مطلع كل شهر

وزارة الإعلام فى الكويت

أول يناير ١٩٨١

١٣٦

لورنزاتشو

تأليف : الفريد دى موسيه

ترجمة وتقديم : ميخائيل بشاى

مراجعة : يوسف شاهين


أورينت تذكّرك بالوقت.. على أنغام الموسيقى
ORIENT
QUARTZ
12:00 00
MUSIC ALARM
إليك آخر ما توصّلت إليه أورينت. ساعة
كوارتز رقمية جديدة مع ضوابط تنبيه متعددة
الإستعمالات وسهلة التحكم. نغمات معدودة مثل
"أماريليس" كتنبيه أول. وإذا رغبت، هناك نغمات
مُلحّة أكثر، أو موسيقى دائمة - كل ساعة. هذا مثال
آخر على التقنية الخلاقة لساعة أورينت، أول ساعة
في العالم بمنبه موسيقي. هناك مجموعة كاملة من
ساعات أورينت كوارتز لتختار منها. وكل ساعة
منها تعطيك أكثر بكثير من مجرد الوقت. بنعومة و رقة.
ORIENT اورينت
Manufacturers: ORIENT WATCH CO., LTD.
Official & Exclusive Exporters and Distributors to the Middle East:
JAPAN OVERSEAS CORPORATION
7-8-4, Minami-Aoyama, Minato-Ku, Tokyo. TEL:407-5901, TLX:J26896 TIMETEST

الآن في المكتبات

لماذا «مجلة افتح يا سمسم»

«مجلة افتح يا سمسم» تزوّد الطفل بالمعرفة في إطار المتعة والترفيه والفعالية. فيها يرسم، يقص، يلعب ويضحك. فيها يتعلم تصنيف الأشياء، يعرف الأرقام والحروف ويقرأ الكلمات المألوفة.

فيها ما يرضي نزعاته الوجدانية من حب الله وحب الطبيعة والإنسان. مجلة «افتح يا سمسم» تعتمد على أهداف منهجية فيما تنشره وفق خطة واضحة تمتد إلى سنوات. مجلة «افتح يا سمسم» رفيقة الطفل في كل بيت.



افتح ياسمسم

قسيمة اشتراك

التاريخ / / ١٩٨٠

أرجو قبول اشتراكي لمدة عام واحد (١٠ أعداد) بمجلة «افتح يا سمسم».

الاسم الثلاثي ______ العمر ______

العنوان ______

ص. ب. ______ المدينة ______

الدولة ______

١ ـ قص عند الخط المنقط ـ أرفق مع القسيمة ثمن الاشتراك السنوي حسب التسعيرة المخصصة لبلدك وذلك كما هو مبين في الجدول على القسيمة.

٢ ـ أودع القسيمة وثمن الاشتراك السنوي في حساب «مجلة افتح يا سمسم» لدى البنك المذكور.

٣ ـ يرجى من المشترك في العراق وقطر أو البلدان الأخرى أن يرفق مع قسيمته حوالة بريدية أو مصرفية محررة لأمر «مجلة افتح يا سمسم» ويرسلها إلى «مجلة افتح يا سمسم» ص. ب. ٤٤٢٤٧ حولي ـ الكويت.

٤ ـ لا ترسل قيمة الاشتراك نقدًا وذلك لتفادي ضياع نقودك بالبريد.

٥ ـ يرجى أن تمهلنا مدة ٤ إلى ٦ أسابيع من وصول قسيمتك إلينا إلى يوم تسلمك الأعداد المطلوبة.

ثمن الاشتراك السنوي		يرسل الى:
البحرين	٨,٥٥٠ دنانير	بنك البحرين الوطني جميع فروعه رقم الحساب ٩٩٤٦٨٣٩٨
السعودية	٧٦ ريالا	البنك الأهلي التجاري جميع فروعه رقم الحساب ٤٤٦٤٨
الامارات	٨٥,٥٠ درهما	بنك عُمان المحدود جميع فروعه رقم الحساب ١٧٠٦٨٣٢
الكويت	٥,٧٠٠ دنانير	بنك الكويت الوطني جميع فروعه رقم الحساب ٥٠٠٨٩٠٥
العراق	٦,٦٥٠ دنانير	افتح ياسمسم مجلة افتح يا سمسم ص. ب. ٤٤٢٤٧ حولي ـ الكويت
قطر	٨٥,٥٠ ريالا	
البلدان الاخرى	٢٢,٧٥ دولارًا أمريكيا	

PAA

مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

مدير التحرير
عبد العزيز السلامه

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ١٢٥٫٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - بيبليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٤٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١- كتاب **التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية)** . ١٩٧٩ .
٢- كتاب **آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش)** . ١٩٧٩ .
٣- كتاب **حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي)** . ١٩٧٩ .
٤- كتاب **الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل)** ١٩٨٠ .
٥- **دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي)** ١٩٨٠ .

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها : -

الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .



توشيبا تضيف اتجاهاً جديداً على الموسيقى النقالة

التسجيل ذاتي الانعكاس وكذلك الاستعادة

AUTO REVERSE

مسجلات راديو كاسيت - توشيبا - النقالة والخفيفة جعلت الاستماع أكثر متعة. حيث أنك لم تعد بحاجة إلى أن تقلب الكاسيت عندما يصل الشريط الى نهايته، ذلك لأن كل جهاز مسجل كاسيت مزود بخاصية الانعكاس الذاتي (أوتو ريفرس) التي ابتكرتها "توشيبا" رائدة هذا الانجاز. ففي حالتي التسجيل والاستعادة، تنوب عنك هذه الأجهزة الثلاثة بتغيير الاتجاه اوتوماتيكياً، وتوفر طريقة مستحدثة تمكنك من الاستماع الى الموسيقى دون توقف. اما مجال الاختيار فيشمل راديو بأربع موجات ومؤشرات LED دقيقة، مما يعطيك صوتاً واضحاً أينما كنت. اصطحب معك إينما احدث ثورة - وما يزال - في دنيا الأجهزة السمعية، طوال المئة سنة الأخيرة... توشيبا.



RT-8590S
إستقبال إذاعي:
٤ موجات (إف إم، متوسطة قصيرة١ قصيرة٢ قصيرة٣
خرج القدرة: ١٢ واط

RT-8290S
إستقبال إذاعي:
٤ موجات (إف إم، متوسطة قصيرة١ قصيرة٢
خرج القدرة: ١٩ واط

RT-6540
إستقبال إذاعي:
٤ موجات (إف إم، متوسطة قصيرة١ قصيرة٢
خرج القدرة: ٥ واط

Toshiba TOSHIBA | توشيبا



سانيو «بلس سيريز»

الآن ستسمع كل شيء

تقنية التسجيل في الاستديوهات اليوم تطبع الأصوات على الاسطوانة بشكل لا تستطيع إعادة اخراجه أغلب أنظمة الستيريو المنزلية. وهكذا عوض أن تسمع كل شيء طبع فعلاً أثناء التسجيل، تفوتك الفوارق الدقيقة اللطيفة التي تعطي للموسيقى حياتها.

التقنية الفائقة لمجموعات سانيو "بلس سيريز" تجعلك تسمع كل فارقة خفقت في تسجيلاتك دون أي تحريف أو تلوين أو صوت حسي يفسد الاحساس بحياة الموسيقى وأنفاسها. وللاثبات ما تقدم، تعرّف على المزايا الفريدة لأنظمة "بلس سيريز".

نظام "سوبر D" لهدأ الصوت لرفع معدّل الـ S/N ٤٠ dB وتوسيع المدى الديناميكي ١٠٠ ضعف • نظام انتقاء آلي للموسيقى ليجد الكتروني المقطع المختار من الموسيقى على شريط الكاسيت • ذاكرة تنغيم "سينثيسايزر" PLL كوارتز في منغم الـFM/AM ستيريو • مضخم مُمدّد في الصوت مع مجموعة دارات "A" عريضة ثنائية "DC" • مضخم للطاقة بإنتاجية ١٠٠ وات للقنال إلى ٨ أوم مع معدل ٠,٠٠٩٪ THD فقط • "بيك أب" مع محرك مستقل "DC" للذراع • مؤقت صوتي مبرمج كومبيوتريا مع "ميكرو بروسيسور" ذاتي.

SANYO سانيو

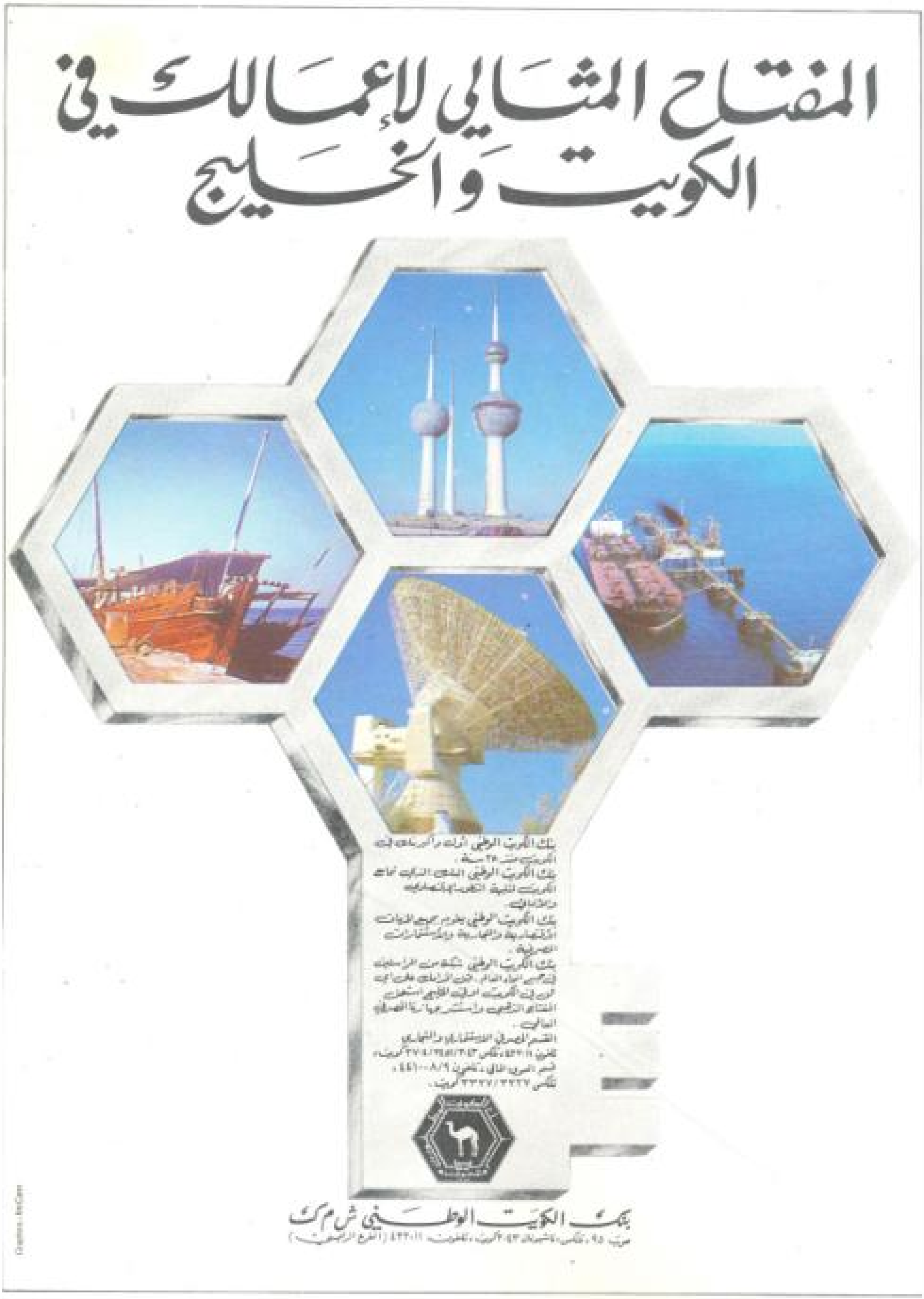
العربي

ربيع أول ١٤٠١ هـ - فبراير ١٩٨١ م



مجاويش .. جوهرة بين الرمال

الكويت سنة ٢٠٠٠


المفتاح المثالي لأعمالك في
الكويت والخليج
بنك الكويت الوطني ش م ك

عزيزي القارئ

عيدان تحتفل بهما الكويت هذا الشهر : العيد الوطني الخامس والعشرين ، وعودة الحياة النيابية الى البلاد ، بعد غيبة استمرت اربع سنوات . وهي مصادفة لها دلالتها البالغة ، ان تتلازم المناسبتان في شهر فبراير . ذلك ان الديمقراطيه في الكويت كانت قرينة الاستقلال ، بقدر ما ان مفهوم الاستقلال اكتسب مضمونه الحقيقي بالممارسة الديمقراطيه .

ولقد كان الانجاز الكبير الذي حققته الكويت فور اعلان الاستقلال هو محاولة ترسيخ الشرعيه والاسراع في بناء الدولة الحديثه ، وكان الدستور ثم الحياة النيابيه ، ثم كل ما تفرع عن هذا المنطلق من مؤسسات وابنيه ، كانت هذه هي الخطى الطبيعيه التي خطتها الكويت وهي تحاول ان تكرس معنى الاستقلال الحق .

ومما هو ايجابي ايضا ، وجدير بالتسجيل ، انه عندما تقرر تعليق بعض مواد الدستور ، وتعطيل الحياة النيابيه بالتالي ، فانه اعلن وقتئذ (عام ٧٦) ان هناك ضرورات اقتضت ذلك ، وان هذا التعليق سوف يستمر لفترة محدودة (٤ سنوات) ريثما يعاد النظر في الثغرات التي تخللت التجربة ، واصلاحها ، ثم تستكمل المسيرة الديمقراطيه رحلتها .

وقد أوفت الكويت بما اعلنته على جماهيرها ، والتزمت بالموعد الذي حددته ، ثم فتح الباب لانتخابات مجلس الامة ، التي ستجري يوم ٢٣ فبراير الحالي .

لقد كان بوسع دولة الكويت ان تؤجل قرار اعادة الحياة النيابيه ، وكان هناك العديد من الاسباب التي يمكن التعلل بها في ذلك ، بل ان بعض هذه الاسباب معقول ومنطقي ، لكن قيادة دولة الكويت كانت عند كلمتها ، وعند قناعتها بانه لا بديل عن العودة الى الديمقراطيه .

وهي بقرارها هذا اسفرت عن رؤية واعية ونظر ثاقب ، واستحقت وساما على صدرها ، بقدر الاشراق الذي اعادته الى وجه الكويت .

وعندما يحل يوم الخامس والعشرين من فبراير ـ العيد الوطني ـ يكون مجلس الامة الكويتي قد تم تشكيله بعد الانتخابات التي تجري في الثالث والعشرين من الشهر ذاته .. ويكتسب الاحتفال بالعيد الوطني طعما ومذاقا جديدين .

وتعرف الكويت عيدا حقيقيا ، في زمن عربي غلبت عليه الاحزان والنكسات !

(المحرر)



صورة الغلاف

● سائحة اجنبية قطعت آلاف الاميال ، لتستمتع بمناظر البحر الاحمر ، وتقضي أجازتها على رمال « مجاويش » ، وتحت شمسها الدافئة ، وتقضي ساعة كل صباح تشاهد العالم المسحور في أعماق البحر الاحمر ، عن طريق غواصة صغيرة ، فمتى يصبح ساحل البحر الاحمر والصحراء الشرقية كلها تتمتع بما تتمتع به قرية « مجاويش » السياحية ... ؟

[الاستطلاع ص ١١٦]

قضايا عامة

عروبة واسلام

قضايا حيوية

أدب وفنون

طب وعلوم

استطلاعات مصرة

شخصيات وتاريخ

اجتماع

أبواب ثابتة

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير: أحمد بهاء الدين
مدير التحرير: فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ١١٠ فلوس ، الخليج العربي ريالان قطريان ، البحرين ٢٠٠ فلس بحريني ، العراق ١٢٠ فلسا ، سوريا ١٠٠ قرش ، لبنان ١٠٠ قرش ، الاردن ١٠٠ فلس ، السعودية ريالان سعوديان ، السودان ١٠ قروش ، ج . م . ع ١٠ قروش ، تونس ٢٥٠ مليما ، الجزائر ٢,٥ دينار ، المغرب ٢,٥ درهم ، اليمن ٢,٥ ريال ، ليبيا ١٥٠ درهما ، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ٢٠٠ فلس .

الاشتراكات : يراجع طالب الاشتراك :

١ ـ الشركة العربية للتوزيع وعنوانها : ص . ب (٤٢٢٨) بيروت/لبنان .

٢ ـ مؤسسة توزيع الأخبار وعنوانها : ٧ شارع الصحافة/القاهرة/مصر .

« للمشتركين في جمهورية مصر العربية »

الاعـــلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراســـلات : باسم رئيس التحرير

عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤١

تلغرافيا « العـــربي »

AL-ARABI — No. 267 — February 1981

P.O. Box 748 — KUWAIT

حديث الشهر

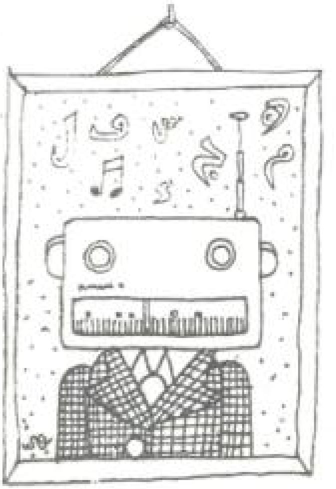
رحل نبي العصر الإلكتروني !

في أول يوم من أيام السنة الجديدة ، اول يناير الماضي ، مات أحد أهم مفكري وفلاسفة العصر الحديث ، واسمه غير المشهور - في العالم العربي - هو « مارشال ماكلوهان »

وقد تعود الناس أن يفهموا من كلمة فيلسوف ، ان يكون رجلا يبحث في القضايا العليا : أصل الخليقة ، الله ، الوجود والعدم ، المادة والجوهر ، الى آخره . كما تعودوا ان يفهموا من كلمة « مفكر » ان يكون انسانا يبتكر نظريات عن الوجود والحياة والمهات وعلوم الجمال والابداع وغيرها ...

ولكن هذا الرجل « مارشال ماكلوهان » ، الذى ولد في براري كندا الشاسعة الصامتة التي لا آخر لها ، ومات عن تسعة وستين عاما ، والف عشرات الكتب ، يستحق لقب المفكر والفيلسوف . رغم أنه تصدى لشرح أحدث وأخطر ما يؤثر في حياتنا المعاصرة ، بل لهذا السبب بالذات .. ولانه حاول ان يجعلنا نفهم اكثر واكثر ، جوهر وأثر هذا الجديد والخطير في حياتنا المعاصرة .

اما هذا الشيء الذى تفرغ له مارشال ماكلوهان ، فهو شرح وتفسير وتحليل آثار ما يسمى في اللغات الاخرى بكلمة MEDIA ولست اعرف ترجمة مباشرة عربية دقيقة لهذه الكلمة . ولا أصلها اذا كان لاتينيا او يونانيا . ولكن الكلمة تشمل كل ما نسميه « وسائل الاعلام » باوسع معانيها : من الكتاب الى الجريدة والمجلة والسينما والمسرح في عصر ما قبل العصر الالكتروني .. ثم الاذاعة والتليفزيون ونقل الصور بالاقمار الصناعية ، ونقل صور صفحات الجريدة عبر تليفون خاص يبعد آلاف الأميال ، فيمكن طبع نفس الجريدة في نفس الوقت في عدة أنحاء متباعدة على سطح الارض ، والفيديو والكاسيت ، وشاشة التليفزيون التي تضعها في بيتك او مكتبك فتعرف منها ، بالضغط على أزرار معينة أسعار البورصة في نيويورك ، أو مواعيد اقلاع الطائرات في مطارما ، او



بقلم : أحمد بهاء الدين

« تخزن » فيها كل ما تريد ان تتذكره في وقته : تواريخ ميلاد عائلتك ومواعيد أقساط التأمين أو أقساط المدارس او إيجار الشقة او حسابك في البنك .. الى آخره ، فيذكرك الجهاز بضغطه على الزر بكل ما عليك هذا اليوم أو هذا الاسبوع ... إلى آخر تلك العجائب التي يمطرنا بها العصر الالكتروني صباح مساء .

وقد كان يبرر تركيزه على هذه القضية بأن معظم الناس ، الذين لا يدركون هذا ، إنما يعيشون في حقيقة الأمر في عصور مضت . في حين أن المعرفة الكافية بهذا الموضوع تجعلنا نعيش العصر الذى نحن فيه .

كان الانسان دائما هو صانع الآلة ...

ولكن الانسان صنع بعض الآلات والأجهزة ، التي لم يلبث أن أصبح الانسان نفسه « من صنعها » .

نحن في عصر ليس له اسم أدق من أنه « عصر المعلومات » .

كان الانسان قديما يتأثر في تكوينه وفي شتى مراحل حياته بالأسرة ، والبيئة والمدرسة ، والوطن ، وكل ما يشب عليه ....

لكن الثغرة الاولى التي فتحت في هذا الجدار ، كانت يوم أخترعت المطبعة : وظهر الكتاب ، والجريدة ، والمجلة . أى الكلمة المطبوعة بشكل عام .

مهما كان المرء بعيدا ، فهناك احتمال أن تتدرج اليه ، حيث هو موجود ، قطرات من تأثيرات خارجة عنه ، متسربة اليه ولو شفاها ، من كتب ومطبوعات تصدر في أماكن بعيدة ...

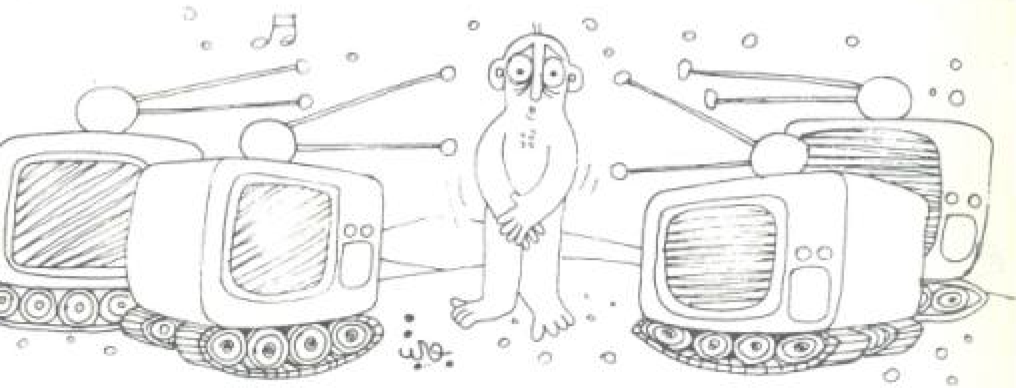
ولكن الثورة الالكترونية التي تفجرت في الثلاثين سنة الماضية ، غيرت الانسان باكثر مما غيره أي شيء آخر طوال ثلاثة آلاف سنة .

الانسان اخترع السيارة والطائرة والدبابة والمدفع وآلاف الأدوات . وقد أثرت هذه الادوات بالتأكيد في حياة العالم ، فقامت دول وانهارت دول ، وقصرت المسافات ، إلى آخر ما يمكن أن يقال ـ وهو معروف ـ في هذا المجال . ولكن هذه الادوات ، حتى التليفون والكهرباء وغيرها ، ظلت أدوات في يد الانسان ، يستخدمها الانسان ولا تستخدمه .

إلا عصر الاختراعات الالكترونية ..

هذه الأدوات الهائلة العجيبة ، التي أشرنا إليها سابقا ، صارت لأول مرة هي التي تؤثر في الانسان ، وليس العكس . بل إنها في الواقع تصنع نوعا جديدا من البشر ، دون أن ندري بذلك ...

على المستوى العالمي ، ألف مارشال ماكلوهان كتابا اسمه « القرية العالمية THE GLOBAL VILLAGE » . فأنت تعرف بما يحدث في آخر الدنيا ، قبل أن تعرف ما حدث في طرف آخر من القرية التي تسكنها وتعيش فيها وتعرف كل فرد من افرادها . وأنت لا تشهد بالضرورة جريمة قتل وقعت في بلدة تعيش فيها ، ولكنك تعرف ـ وتشاهد بالالوان الطبيعية على شاشة التليفزيون ـ اغتيال جون كيندي في أمريكا . أو الحرب بين العراق وايران ، أو المؤتمر



الصحفي الذي يعقده كارتر في واشنطن ، أو حفل تنصيب ريجان رئيسا للجمهورية .. أو محاكمة أرملة ماوتسي تونج في بكين . بل إن الكاميرا التي تنقل لك هذا تدخل الى البيوت ، وتسير في الشوارع .

الاخطر من ذلك أن هذا كله يأتيك في عقر دارك . ودون أي مجهود ، تراه وأنت متمدد في فراشك ، أو جالسا على مقعد وثير ، أو بأي صورة تناسبك ... الامر الذي يجعل كل مسام الجسم وحواسه مفتوحة للتأثر ، مهما كانت مقاومة المرء لما يرى ويسمع .

ليست العين وحدها ، أو العقل وحده هو الذي يتأثر كما هي الحال بالنسبة للكلمة المطبوعة . فالتليفزيون يقدم صوتا ، وصورة ، وألوانا ، وأحكاما ، وموسيقى وديكور . وهو يتحدث دون انقطاع عن كل شيء يخطر على البال : لعب الاطفال ، طريقة طبخ الطعام ، وتفصيل الثياب ، وذوق الألوان ، وجاذبية المباريات الرياضية ، والاعلانات عن تفاصيل كل شيء من قطعة الصابون الى السيارة الى فرشاة الاسنان ...

خطورة التليفزيون مثلا ليس في أنه يتكلم عن كل هذا : ولكن في أن كل هذا متجمع ، نابض ، حي .. وخارج من صندوق صغير واحد . يخاطب العين والأذن والعقل والعاطفة والشعور واللاشعور والغرائز والدوافع ، وكل ما في تكوين الانسان من جوانب مادية ومعنوية تجعله « انسانا » .. إذن فهي تدخل في « إعادة تصنيع الانسان » . خصوصا الاجيال التي بدأت طفولتها مع التليفزيون ، وستنتهي الى شيخوختها مع التليفزيون .

ونحن عادة نتحدث عن هذه الأجهزة الالكترونية ، معلقين على نوع إنتاجها . هذا برنامج جيد وذاك برنامج سخيف . هذه أخبار صحيحة وتلك أخبار مضللة . هذه دعاية حكومية وتلك وقائع حقيقية .

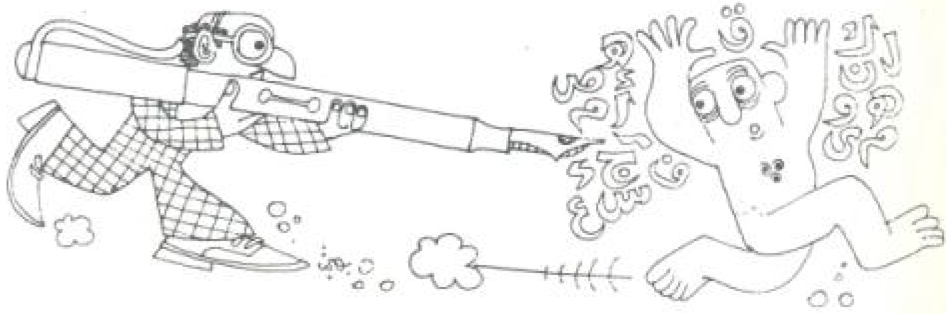
ولكن مارشال ماكلوهان يصل الى غير هذا .

اننا حين نتحدث عن نوع الرسالة التي يوجهها التليفزيون ، إنما نتحدث عن شيء جانبي . هو يقول أن التليفزيون نفسه هو الرسالة . أو أن الاعلام نفسه هو الرسالة .

كان ذلك في أحد أشهر كتبه باسم « الاعلام هو الرسالة » « THE MEDIA IS THE MESSAGE » أي أن المشكلة الأساسية ، ليست في نوع الرسالة ، ولكن في « الاداة » نفسها إنها هي الجديد . إنها هي الهدف . إنها هي القوة الطاغية التي تشكل الانسان ، بصرف النظر عن نوع أو مستوى ما تقوله .

فهذه الوسيلة ـ التليفزيون مثلا ـ ليست محايدة على الاطلاق . ولا تستطيع ان تكون كذلك مهما حاولت ـ انها تأخذ بتلابيب الفرد ، تحدثه بلا إنقطاع ، تحطمه ، أو تدلله وتهدهده ، تلقنه ، تقدم له الاشياء . انها الأداة نفسها مصدر الخطر . لانها عبر سنوات وسنوات ، من هذه المطاردة للفرد ، تمحو الكثير من شخصيته ، وتعيد تشكيل هذه الشخصية الى حد بعيد .. بالصوت واللون والصورة والحركة والتكرار والالحاح والجاذبية وعدم اجهاد الانسان « المتلقي » لكل هذا .

صارت هذه الأدوات امتدادا للانسان كما صار الانسان امتدادا لها .



كما كانت « العجلة » عند اكتشافها ، امتدادا لأرجل الانسان وتمكينا لها من السير أسرع ، وكما كانت جدران المنزل مكانا للانسان أوسع من (جلده) فهذه الأجهزة الالكترونية وسعت ، وغيرت ، كل حواس الانسان ، وسعت آفاق العين ، والاذن ، والعقل ، والذوق ، والشعور واللاشعور ، صارت أجزاء واطرافا جديدة من الانسان لا غنى له عنها ، وصار الانسان يتحرك ويتصرف متأثرا ومربوطا بهذه الأدوات ولا يستطيع الخلاص من وجودها في كل خلية من خلايا كيانه .

وقد تنبه مارشال ماكلوهان بالطبع الى استخدام الجهات ذات السلطة أو القوة أو المال لكل هذا في « اعادة صياغة » الفرد والتأثير عليه . ولكن لا أعرف أنه ركز على هذه القضية الخطيرة . ولا أعرف انه اقترح حلولا لها ...

انه فقط وصف كتاباته بأنها « محاولة لفهم العصر الالكتروني حتى نقلل اخطاره » ولكنه لم يقترح حلولا ..

ومن يدري ؟

ربما كان « الفيديو » و « الكاسيت » الذي يختاره الفرد ، خطوة في طريق التحرر من عنصر « الجبر والالزام » الذي يخضع له الفرد إزاء ما ترسله تلك الأجهزة . وقد يأتي العلم نفسه بمخترعات تفك الانسان من أسر الالكترونات ، بعد أن استعبدته تلك الالكترونات ؟ ■■

احمد بهاء الدين



الدكتور زكي نجيب محمود يكتب

حقيقة المبادىء

لكلمة « مبادىء » في احاديث الناس سحر خلاب ، فاذا قيل عن فرد أنه ذو مبادىء ، كان ذلك وحده كفيلا بمنزلة سامية عند السامع ، دون أن يسأل هذا السامع عن تلك المبادىء ماهي ؟ فالكلمة وحدها مكتفية بذاتها ، كأنها وردة تفوح بعطرها . واغلب ظني هو ان لهذه اللفظة العجيبة بسلطانها على عقول المتحدثين وقلوبهم ، دورانا على السنة العرب ، اكثر جدا مما اجدها جارية على السنة المتحدثين في أمم أخرى مما رأيت ، وربما كان ذلك نتيجة لحقيقة حضارية تميز العرب عمن سواهم بعض التمييز ، وهي أن الأولوية عند العربي لمبادىء الأخلاق ؟ وقد تكون الاولوية عند غيره « للاشياء » . فاذا تعارض مبدأ اخلاقي معترف به ، مع تحصيل مال او عقار او ما شئت كان الرأى الحاسم عند العربي هو ان يحافظ على المبدأ وان يضحي بما يتعارض معه . وقد تجد من أبناء الثقافات الأخرى ما يعكس هذا الترتيب ، فاكتساب الاشياء يجيء اولا ، ثم يبنى المبادىء على هذا الاساس ، بحيث يصبح معيار العمل الاخلاقي مقدار ما يترتب عليه من نفع .

اقول انه ربما جاء سحر كلمة « مبادىء » في مسمع العربي ، ناشئا عن كون تلك المبادىء مرتبطة اساسا بالحياة الخلقية ، وناشئا بعد ذلك عن كون الحياة الخلقية في نظرة العربي ذات اولوية على سواها ، ولعلك تلحظ في لفظة « مبدأ » نفسها ما يدل على النقطة التي « نبدأ » منها السير ، او التي نبدأ منها التفكير ، انك حين تأخذ في مناشط حياتك اليومية ، لابد لك ان « تبدأ » من دارك ساعيا الى حيث تسعى . واذا ماهممت برحلة ترتحلها ، كان محتوما ان « تبدأ » رحلتك من محطة القيام ، وهكذا الامر في رحلة الحياة بأسرها ، فهي تريد منك مجموعة مبادىء ، اى انها تريد اسسا راسية راسخة بادىء ذي بدء ، حتى يتاح لك ان تقيم عليها ما شئت من بناء .

هذه المكانة المحورية التي تكون للمبادىء في تنظيم مسالك حياتنا جعلنا لها في انفسنا هذا السلطان ، وليس في هذه الوقفة الحضارية شيء يعاب ، بل انها لوقفة تدعونا الى الزهو والفخار . لولا ما قد يترتب عليها

ـ اذا ما ضاقت تلك المبادىء عن مناشط الحياة الجديدة ـ من جمود يقعد باصحابها عن ملاحقة التطور بالسرعة المطلوبة ، ولشرح ذلك أقول :

لنترك الحياة العملية الآن جانبا ، ولننظر الى العلوم كيف تبنى على « مبادىء » لكي نرى الطريقة التي تجمع بها النظرة العلمية ، بين ضرورة أن تقيم بنيانها على « مبادىء » دون ان تستعبد نفسها لتلك المبادىء ، وبعدئذ نستطيع ان نحاكي تلك النظرة العلمية ، في مجال حياتنا العملية ، فنجمع في ساحتها بين ضرورة المبادىء وامكان تغييرها في آن معا .

ففي العلوم الرياضية ، لابد للعالم الرياضي ان يقدم بفكره حقائق يجعلها مسلمات لا تخضع للمناقشة فهي بحكم افتراضها واجبة القبول ، ومنها « تبدأ » تفكيرنا الرياضي لنستخرج به ما امكن استخراجه من نتائج تترتب على تلك المسلمات ، لكن ماذا لو وجدنا تلك النتائج غير ذات نفع لنا في دنيا التطبيق ؟ هنا يعود الرياضي فيقدم لفكره مجموعة من مسلمات اخرى ، ويستولدها نتائجها ، وهكذا نرى انه بينا وضع « المبادىء » الاولية شرط ضروري لحركة السير ، فان لنا حرية تغيير تلك المبادىء بسواها ابتغاء الوصول الى ما هو اجدى .

وكذلك الأمر في العلوم الطبيعية ، فها هنا ايضا يبدأ الباحث بما يسمونه « فرضا » او « فرضية » يستخلصها الباحث من المعلومات الجزئية التي جمعها عن موضوع بحثه ، ثم يستدل من تلك الفرضية ما استطاع استدلاله من نتائج صالحة للتطبيق على الواقع العملي ؟ لكننا نسأل مرة اخرى : ماذا لو وجدنا تلك النتائج غير صالحة للتطبيق العملي ؟ جواب ذلك هو : يعود الباحث الى وضع فرضية أخرى عساها أن تجيء مواتية . فها هنا ايضا نرى جميعا بين ضرورة ان يبدأ السير من « مبدأ » هو الفرضية المقترحة ، من جهة ، وامكان استبدال غيرها بها اذا وجدناها غير ذات نفع لنا ، من جهة اخرى .

ونعود الآن الى حياتنا العملية وما تقوم عليه من « مبادىء » لنقول ان الامر في هذه الحالة لا يختلف ـ او قل انه لا يجوز ان يختلف ـ عن الامر في ميدان العلوم بشطريها : الرياضي والطبيعي على حد سواء . بين ايدينا في الحياة العملية « مبادىء » ليس منها بد اذا اردنا لتلك الحياة ان تكون على هدى فقد يكون المبدأ ـ مثلا ـ انه اذا اصطدمت رغبة ما عند فرد معين برأي عام يخالفها ، وجب الاخذ بالرأي العام على حساب الرغبة الفردية ، فمبدأ كهذا من شأنه ان ينظم علاقات التعامل بين الناس في مجتمع واحد ، تماما كما توضع القواعد لمرور السيارات في الطريق العام ، كأن يقال ـ مثلا ـ للقادم من اليمين أولوية المرور ، منعا لتصادم السيارات القادمة من جهات متعارضة .

لكننا نلقي السؤال نفسه الذي القيناه في مجال التفكير العلمي ، ونقول ماذا لو وجد الناس بين ايديهم مبدأ سلوكيا لم يعد يصلح لظروف الحياة في عصرنا ؟ الجواب هنا هو نفسه الجواب هناك ، وهو : اننا عندئذ نستبدل به مبدأ آخر يكون اكثر صلاحية : فافرض أن من مبادئنا في اكرام الضيف ، انه اذا لم يكن الطعام المتاح كافيا لاهل الدار وللضيف معا ، وجب تقديمه للضيف ، وعلى اهل الدار ان يبيتوا على الطوى ، فهذا مبدأ كانت له ضرورة حياة مضت ، ولم تعد ظروف حياتنا الراهنة تستلزمه ، بل ربما لو ظل قائما انتج الضرر ، فلا ضير علينا اذا نحن احللنا محله مبدأ آخر .

نعم لا بد لتنظيم الحياة من « مبادىء » لكن لابد لتطوير الحياة من تغيير المبدأ المعوق للسير لتقيم مكانه مبدأ اصلح ، فلا فرق من حيث المهمة التي تؤديها المبادىء في حياتنا ، بين موقفنا منها في مجال العلوم وموقفنا منها في مجال الحياة العلمية ، ففي كلتا الحالتين هي ضرورية للبدء ولتنظيم السير ، وفي كلتا الحالتين ايضا ، يجب تغييرها كلما رأيناها اضيق من أن تساير حركة الحياة ، واليوم الذي يجعل الناس فيه لتلك المبادىء قداسة يحرم تغييرها ، هو نفسه اليوم الذي يقضون فيه على انفسهم بالجمود فالفناء .

اكتشاف افيونات المخ ..

ثورة جديدة في علاج آلام الانسان

بقلم : الدكتور السيد عمار

كما ان الافيون قد ترك بصمات واضحة على العلاج وتاريخ الشعوب فان الكشف عن افيونات المخ سيؤدى حتما الى ثورة اخرى في علاج الآلام والكشف عن اسرار الجهاز العصبي .

لقد عرف الانسان الافيون الذى يستخرج من نبات الخشخاش منذ اربعة آلاف عام قبل الميلاد . وفي خلال أربعة الأعوام الماضية حقق العلم اكتشافات عظيمة في مجال افيونات المخ الحيواني والبشري . فقد ثبت أن المخ يصنع العديد من الافيونات التي تتشابه في مفعولها مع افيون النبات .

والافيون الذى عرفه الانسان منذ ستة آلاف عام يستخرج من نبات الخشخاش او ابو النوم واسمه العلمي (Papaver Somniferum) وهو نبات موطنه الشرق الاوسط والهند وجنوب شرق أسيا في بورما ولاوس وتايلاند كما انه كان يزرع في الصين . والافيون يستخرج من كبسولات نبات الخشخاش خلال فترة معينه لا تتعدى عشرة ايام في العام ، حيث تشرح الكبسولات دائريا بسكين فينساب منها عصير لبنى ، يتحول عندما يجف الى مادة بنية اللون لزجة هي الامنون . واسم الامنون ربما يكون مشتقا من الانجليزية ابيوم (Opium) المشتق من اليونانية ، من ابيون واوبيوس بمعنى عصير . وقد استعمل قدماء المصريين الافيون في العلاج وورد ذكره في بردية ايبرز ، كما استعمله الرومان والاغريق .

العرب استخدموه للعلاج

وقد استعمله المداوون العرب بنجاح عظيم ونقل عنهم الى أوروبا . ويرجع الفضل الى العالم باراسيلسوس في تعريف اوروبا بمنافع الافيون في العلاج . وفي العصور الوسطى استعمل الافيون على شكل صبغة الافيون في الكحول لازالة الآلام ولاحداث حالة الانسجام والشعور بالارتفاع عن الواقع .

وبدأ تحضير الادوية المسجلة من الافيون في القرن التاسع عشر ، حيث استعملت مستحضرات الافيون في علاج الام التسنين عند الاطفال وعلاج الكحة والاسهال والدوسنتاريا والام الروماتيزم . وقد كان



نبات الافيون

الافيون هو دواء القرن التاسع عشر وبدونه لتوقف فن العلاج والمداواة .

ولقد صاحب استعمال الافيون طبيا استعماله للترفيه والانسجام فأدمنه كثير من الادباء والفنانين من انجلترا امثال توماس دي كوينسي الذي اشتهر باعترافات آكل افيون انجليزي واليزابيث براوننج وصمويل كوليردج الذي قال ان الافيون كان السبب في قلة انتاجه كما كان السبب في اهماله عائلته في أواخر ايامه . وبالطبع فقد ادمن الافيون ايضا الكثير من المشتغلين بالطب والعلاج في هذه الفترة .

وللافيون قصة مثيرة ومحزنة مع الصين فقد أدخل للصين منذ حوالي الف عام بعد الميلاد واحتكر تدخينه طبقة الصفوة في البلاد . وكان نبات الخشخاش يزرع في الهند ويهرب الى الصين عن طريق كانتون . واحتكرت شركة الهند الشرقية زراعة وتجارة الافيون الذي كان مصدر ربح عظيم للشركة وللتجار الاوروبيين والصينيين . وعندما انتشر ادمان الافيون بين الشعب الصيني عين الامبراطور حاكما جديدا لكانتون وقام الحاكم الجديد عام ١٨٣٨م باغراق واتلاف كل الافيون الموجود على السفن الانجليزية . وفي مرة واحدة اتلف ٢,٦٤٠,٠٠٠ رطل وقد تسبب ذلك في خسارة شركة الهند الشرقية ، وادى الى قيام حرب الافيون بعد عام واحد حيث تمكنت القوات البريطانية بمساعدة اقوى اسطول بحري في العالم في ذلك الوقت من هزيمة ٣٥٠ مليون صيني . وتنازل الامبراطور للانجليز عن جزيرة هونج كونج واعطاهم تعويضات كبيرة كما تمتعوا بحقوق عريضة من التجارة وبالذات تجارة الافيون . وبعد عشر سنوات اخرى قامت حرب الافيون الثانية حيث اخضعت الصين تماما لقوة الاوروبين ، وراح الشعب الصيني ضحية لادمان الافيون الى ان تنبه الوطنيون الى ذلك وحاربوا الافيون حتى قضوا عليه تماما بعد الحرب العالمية الثانية .

بديل الافيون !

ويحتوى الافيون الخام على العديد من المواد الفعالة التي تعرف باسم اشباه القلويات حيث تكون املاحا مع الاحماض . وفي عام ١٨٠٦ حقق الصيدلي الالماني فردريك سيرتيورنر نصرا علميا عظيما فقد فصل لاول مرة في التاريخ مادة دوائية نقية من الافيون الخام وهي مادة بيضاء سميت باسم المورفين نسبة الى اله الاحلام عند الاغريق مورفيوس . وتبع ذلك اكتشاف العديد من المواد الفعالة من الافيون مثل الكودايين والذى يستعمل في علاج الكحة ، ومازال يحتل مكانة عظيمة حتى الآن في معظم ادوية الكحة . كما يحتوى الافيون ايضا على مادة النوسكابين الذى يستعمل في علاج الكحة والبابافرين الذى يستعمل في علاج المغص الكلوى .

ودخل المورفين الاستعمال الطبي منذ عام ١٨٣٠م وبعد اختراع الحقن والابر عام ١٨٥٣م استعمل المورفين عن طريق الحقن في الوريد او تحت الجلد وشاع ادمانه بطريقة الحقن لدرجة ان ادمان المورفين شاع بين الجنود اثناء الحرب الاهلية الامريكية والحرب البروسية الفرنسية ، وسمى ذلك باسم مرض الجنود .

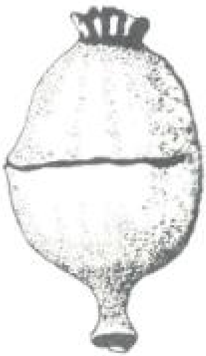
وفي محاولة العلماء للتخلص من ادمان الافيون

اخترعوا بديلا عنه عبارة عن ثنائي خلات المورفين ويحضر بمعالجة المورفين بحمض الخليك وسمى هذا الدواء الجديد باسم هيروين من الكلمة الانجليزية هيرو (Hero) اي البطل . وللاسف لم يكن الهيروين بطلا وانما كان عقارا اشد فتكا ووبالا من المورفين ، وزاد من الادمان عن طريق شمه او حقنه ولم يستعمل طبيا . وما زال استعماله للكيف والمزاج يسبب اضرارا صحية واجتماعية جسيمة حتى الآن .

وفي مرحلة تالية تم تخليق العديد من المركبات الكيميائية التي لها مفعول المورفين مثل الميثادون والباثيون والديمرول والسوسيجون وغيرها وتعرف جميعا باسم مجموعة الافيونات . وتتميز جميعها بان لها مفعولا على الجهاز العصبي والجهاز الدوري والتنفسي والهضمي يشبه مفعول المورفين . فالافيونات جميعا تزيل الآلام الشديدة وتقلل من درجة احساس المخ بالالم كما انها تهبط الجهاز العصبي وتحدث حالة الانسجام النفسي والشعور باعتدال المزاج وتؤدي الى الادمان . وتسبب الافيونات فقد القدرة على التحكم العضلي وتسبب النعاس والنوم . وتقلل الافيونات من سرعة ضربات القلب ، وفي حالة التسمم بها يتوقف التنفس والقلب . كما تؤثر الافيونات على الجهاز الهضمي فتقلل من حركة المعدة والامعاء ومن افراز العصارة الهضمية وتزيد من تقلص عضلات الامعاء الغليظة وعضلة الشرج مما يسبب الامساك . كما ان للافيونات خاصية تضييق انسان العين . ويمكن معرفة مدمن الافيون بالنظر الى انسان عينه حيث يكون ضيقا جدا مثل سن الدبوس ولايتسع انسان العين اذا تعرض للضوء كما يحدث للعين الطبيعية . والجرعة العلاجية للمورفين حوالى ١٦ مليجراما من سلفات المورفين .

بحث في المخ

وتتميز الافيونات بان لها خاصية احداث التحمل والادمان من مجرد الاستعمال لفترة قصيرة حيث يحتاج المدمن الى كميات اكثر للشعور بنفس الاحساس . كما يعتمد المدمن جسمانيا ونفسيا على الافيون حيث لايستطيع ان يعمل او يفكر او يؤدي وظائفه الفسيولوجية دون تعاطي الافيون كما انه يفكر دائما في ايجاد الوسيلة التي تمكنه من الحصول على الافيونات وغالبا ما يؤدي ذلك الى العنف والجريمة . وعند انقطاع الافيونات عن المدمن تحدث اعراض شديدة تسمى



اعراض انقطاع الافيون وتشمل رشح الانف ، تقلص العضلات ، تدميع العينين ، الام عامة بالجسم ، قيء ، اسهال ، عرق ، انخفاض في درجة حرارة الجسم ، زيادة في ضربات القلب وارتفاع في ضغط الدم ـ هستيريا ، نوبات من التشنج والصرع . ويعالج ادمان الافيون في مصحات خاصة بدواء افيوني آخر هو الميثادون . وفي حالات التسمم بالافيونات يستعمل دواء النالوكسون (Naloxone) المضاد للافيون حيث انه قادر على تنشيط التنفس ومضادة تأثيرات الافيون .

ونظرا للخصائص المميزة للافيونات على مخ الانسان فقد دأب العلماء على بحث كيفية احداث الافيونات هذه الآثار على المخ وتوصلوا الى الكشف عن وجود متقبلات افيونية بخلايا المخ وهذه المتقبلات ترتبط بالافيون ويحدث نتيجة لذلك التأثير المزيل للآلام . وقد امكن تحديد هذه المتقبلات الافيونية ميكروسكوبيا . كما امكن فصلها كيميائيا والتعرف عليها وعلى كيفية اتحاد الافيونات معها .

ولقد كان الكشف عن هذه المتقبلات الافيونية الضوء الذي قاد العلماء الى كشف حقائق افيونات المخ والجهاز العصبي ، خلال الاعوام الاربعة الماضية .

وبدأ السؤال عن أسباب وجود هذه المتقبلات الافيونية من المخ وهل توجد في المخ مواد افيونية تتحد بها كما يحدث مع المواد الكيميائية الناقلة في المخ مثل الادرينالين والاستيل كولين حيث توجد لها متقبلات خاصة بها . كذلك هل يمكن ان تكون هذه المواد الافيونية مواد ناقلة في الجهاز العصبي مثل السيروتونين وحمض جاما انيوبيوتريك وحمض جلوتاميك ومواد اخرى عديدة .

وقد اجابت على هذه الاسئلة تجارب فاركولوجية معملية .

تجربة على الفئران

فمن المعروف ان الحث الكهربائي لبعض أجزاء المخ يؤدي الى حالة عدم الاحساس بالالم . واتضح ان هذه الحالة يمكن معادلتها بدواء النالوكسون المضاد للافيون . وقد اجريت هذه التجربة على مخ الفأر المعملي . وقد قوى ذلك الافتراض القائل بوجود مواد افيونية في المخ . وفي تجربة اخرى ثبت ان حقن خلاصة مخ الحيوانات في حيوانات التجارب يحدث تأثيرات مماثلة للافيون . ودعم ذلك نظرية وجود افيونات بالمخ .

وفي عام ١٩٧٦ جاء العالم هيوز وزملاؤه بالدليل القاطع حيث نشروا اكتشافهم لمادتين ببتيدتين في مخ الخنزير لها مفعول افيوني قوي وقد سميت هذه المواد الافيونية المخية باسم الانكفالينات (Enke pha lins) وهي تتكون من مجموعة ببتيدية من خمسة احماض امينية وهي نوعان ميت انكفالين وليوانكفالين طبقا لاحتوائها على حمض اميني ميثيونين او ليوسين . وعرف بعد ذلك ان هذه الافيونات المخية تشتق من بروتين تفرزه الغدة النخامية في المخ اسمه بيتا ليبوتروبتين (B-Lipotropin) وكان قد سبق للعالم « لي » ان فصل هذا البروتين من المخ قبل ذلك بعشر سنوات . وبعد اكتشاف الانكفالينات اكتشفت مواد ببتيدية اخرى في المخ عرفت باسم الاندورفينات (Endorphins) وهي ثلاثة انواع الفا اندورفين وتتكون من (١٦) حمض أمينيا ، وبيتا اندورفين وتتكون من (١٧) حمضا امينيا وجاما اندورفين من (٣١) حمضا امينيا وكلها ذات مفعول افيوني على المخ .

وفي العام الماضي تم فصل مادة افيونية اخرى من المخ تسمى دينورفين Dynorphin وعند حقن الافيونات المخية في الحيوان والانسان وجد انها تشبه المورفين في مفعولها وانها لاتحدث مفعولا في الحيوانات التي ادمنت المورفين . وقد تم مؤخرا فصل هذه الافيونات المخية من السائل المخي الشوكي . كما تأكد وجود الانكفالينات والاندورفينات عن الجهاز العصبي للحيوانات الفقارية كما وجدت ايضا في الجهاز الهضمي ، مما يؤكد أن لها دورا في عمله وتؤثر عليه بنفس طريقة المورفين حيث تقلل من حركته وتسبب انقباض الامعاء . كما تأكد ان الافيونات المخية تزيل الآلام وتهبط الجهاز العصبي .

والببتيدات الافيونية مفعولها سريع وقصير حيث تتكسر في الجسم بواسطة خمائر تعرف بالببتيداز Peptidases وتحولها الى احماض امينية .

والمفترض الان ان الانكفالينات والاندورفينات تقوم بدور في الجهاز العصبي لتقليل الاحساس بالآلام وازالة الآلام وانها تعادل مفعول مادة « بي » (P) في النخاع الشوكي والتي تسبب الاحساس بالالم . كما انه من المعتقد ان مجموعة المورفين تحدث مفعولها الدوائي من خلال افيونات المخ .

وهناك نظرية تربط بين ادمان الافيون واعراض انقطاعه وبين الافيونات المخية . وتقول هذه النظرية انه تحت تأثير الاستعمال الدائم للمورفين يمتنع تكوين الافيونات المخية طبقا لنظرية التغذية العكسية . وبالتالي فانه عند انقطاع المورفين تحدث حالة فراغ وانعدام لافيونات المخ مما يسبب الاعراض الخطيرة لانقطاع الافيون عند المدمنين .

●

ويتجه التفكير الآن الى اكتشاف ادوية تمنع الخمائر التي تكسر الافيونات المخية وبالتالي تزيد من كميتها ومفعولها وقد يمكن الاستعاضة بها عن حقن المورفين اذ ستكون الانكفالينات والاندورفينات هي الافيون الداخلي للجسم . وقد لايسبب ذلك حالة الادمان الذي يسببها الافيون . واذا اخذنا في الاعتبار ان خلاصة الكبد تستعمل في علاج الانيميا والضعف فلربما يأتي الوقت الذي تستعمل فيه خلاصة المخ لعلاج الآلام والادمان . وحينئذ سيختفي المخ من الاسواق ويوضع في قائمة المخدرات !! ■■

د . السيد عمار
استاذ الادوية بجامعة ولاية اوهايو
الولايات المتحدة الامريكية

فتح باب الاجتهاد يقتضي ضمان حريات المجتهدين !

الفكر الإسلامي ومسئوليات قرن جديد

التعميم لم يعد كافيا .. والتعامل مع العصر بحاجة إلى صياغة جديدة ..

بقلم : الدكتور محمد فتحي عثمان

المسلمون مدعوون لأن يستقبلوا هذا القرن الجديد بنهج ايجابي يزيد من حيويتهم وقدراتهم وفعاليتهم ، فلا يقنعوا بالتحسر على الماضي المجيد ، ولا يقنطوا من تغيير الحاضر المتخلف والامل في مستقبل افضل .

والفكر الاسلامي احوج ما يكون الى النهوض والانطلاق ... فلم يعد يكفي العقول تلك التعميمات والاطلاقات التي تؤكد ان الاسلام صالح لكل زمان ومكان ، بل لا بد من تفصيل وتدقيق لتبيين ان الاسلام صالح لعلاج مشكلات زماننا ومجتمعاتنا ... واذا كانت التعميمات قد فعلت شيئا فيما مضى لاعادة ثقة المسلمين في دينهم وانفسهم حين تعرض كيانهم المتداعي للهجمات الضروس ، وحين بلغ منهم اليأس مبلغه ورأى بعضهم أمل الانقاذ في الانسلاخ من تاريخهم وشخصيتهم ومتابعة « الغرب » المظفر في كل شيء « ما نحب منه وما نكره » وانقياد اكثرهم لهذا الرأي ، فان العبارات الساذجة المتفائلة لم تعد تغني العقل الاسلامي المعاصر فضلا عن غيره ، وهو يحتاج الى معالجة اكثر تعمقا لمشكلات المسلم ـ والانسان بوجه عام ـ في القرن الجديد .

من التعميم الى التحديد

ويتندر البعض للاقوال المجملة المتفائلة عن الاسلام بان هذه طبيعة « الدين » الذي يخاطب به منزل الكتاب مختلف العقول افرادا وجماعات في مختلف العصور والبيئات ... ولا ينكر احد طبيعة « الدين » ورسالته العامة الخالدة ، ولكن واجب المسلمين في كل عصر ومصر ان يحيلوا المبادىء العامة الى صيغ اكثر تحديدا ، تعالج المشكلات القائمة معالجة خاصة ، وتخاطب الناس بما يفهمون وتبين لهم طريق الخلاص مما يعانون بالذات ، ولا تضيع في تيه التعميمات السطحية التي لا تحدد الداء او الدواء ، ولعلها تقنع بترداد أن الداء العياء هو غفلة الناس عن ربهم وان الدواء الفرد هو رجوعهم اليه !! .. وليس ثمة اختلاف في ان هذا هو الاصل العام بالنسبة لدعاة اي دين ، ولكن يبقى بعد ذلك واجب « المفكر » الذي يختلف عن واجب « الواعظ » ، وهو ان يبرز « المشكلة » في الانحراف عن الدين ، ويحدد « العلاج » في تعاليم الدين ، في بيان مفصل دقيق .

ومهمة « المفكر » بطبيعتها محدودة بحدود زمانه ومكانه ، فينبغي الا يخشى الخطأ والقصور ، وينبغي الا يخشى الحوار والنقاش ، ولا يحسبن ان اختلاف الاراء مما يذهب بروعة الدين ووحدة المؤمنين ... ان مهمة المفكرين ليست ان يصوغوا دينا عاما خالدا تقبله الانسانية في

جميع عصورها ومجتمعاتها فهذا ما استأثر به رب الناس اله الناس الذي نزل الكتاب « تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » ... وانما مهمة المفكرين ان يقدموا « فكرا بشريا » واجتهادا انسانيا يستلهم مبادىء الدين واصوله لبصوغ تعاليم الدين الخالدة في قوالب اكثر تحديدا وتفصيلا واقرب لمعالجة الواقع الذي يعايشه الناس وابعد عن التجريد والتعميم .. وهي بطبيعة ملامسة الواقع وتفصيل القول ادعى لاختلاف وجهات النظر واولى بموالاة التعديل ابتغاء الافضل والاكثر ملاءمة للواقع المتغير دائما ... ومن ثم فلا حرج في ان تختلف الاراء في شأن من الشئون وان كانت كلها تستلهم مصدرا واحدا ، بل لاحرج ان يختلف رأى المفكر الواحد من وقت لآخر ، فيصدر منه رأيان متباينان وفقا لتغير نظره ، فيكون ذاك على ما « قضى » وهذا ما « يقضى » ... وتشهد بهذه « الدينامية » الرائعة ذخائر الفكر الاسلامي منذ عهد رسول الاسلام صلوات الله عليه الذي علم امته بمحكم قوله « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، الا فزوروها ... » « كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الاضاحي ، انما كان ذلك لاجل الدافة .. » . وسواء اكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم اجتهادا بالرأى تغير ، أم كان تشريعا موحى به نسخ ، فان الحقيقة تبقى قائمة تعلم المسلمين كيف يواجهون الظروف بالاحكام المتباينة ، وكيف يواجهون بحركة الفكر و « ديالكتيكتيه » ، حركة المادة والاحياء في هذا الكون « وديناميته » ... ثم تتوالى الشواهد على هذه الدينامية في احكام الخليفة الراشد عمر واجتهاداته ، وفي فقه مالك الاخذ بالمصلحة المعتبرة المرسلة ، وفقه ابى حنيفة الاخذ بالاستحسان ، وفقه الشافعى المتنقل من القديم للجديد بحسب ما تغير من ظروف الامام المجتهد ومن ظروف الناس ، وفقه مجتهدى الاسلام رضى الله عنهم اجمعين

العالم يتطور

ولبأخذ المسلمون ومفكروهم من تطور الفكر العالمي خلال القرن العشرين الميلادى وحده العبرة والمثال ... فالليبرالية « الكلاسيكية » المطلقة المعروفة منذ الثورة الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر (الميلادى) ، والتي لا ترى قيدا على حرية الفرد أكثر من واجب ضمان حريات الافراد الآخرين ، قد تعرضت لتعديلات وتعديلات في المجالات الاقتصادية والسياسة ... فاضطرت الولايات المتحدة الامريكية ازاء كساد الثلاثينات من القرن العشرين الى (سياسة النيوديل New Deal) التي تعلن ضرورة التدخل الحكومي في مجال التنظيم الاقتصادي ، وتعلن بذلك خطأ نظرية « التوازن الميكانيكي » المفروض في السوق بالنسبة للعرض والطلب ، وفي غير ذلك من صور « الاتساق » الطبيعي المزعوم في المجالات الاقتصادية ... واضطرت بريطانيا ازاء ازمات الحرب العالمية الاخيرة وما بعدها الى صور متزايدة من التدخل الحكومي لضمان عدالة التوزيع والتأمين الاجتماعي ، وارتأى الاقتصادي البريطاني المعروف « كينز » في « الانفاق الحكومي » ضرورة لتعديل المسيرة الاقتصادية ومواجهة الانكماش والبطالة ، ولم يعد « سعر الفائدة » وحده هو العصا السحرية التي تعدل ميزان الاقتصاد .. وتزايدت اهمية العمال الفنيين الخبراء ، ناهيك « بالتأميم » لبعض مرافق الانتاج والخدمات تحت حكم العمال ، الى جانب الضرائب التصاعدية على الدخول المتطورة والمعقدة نتيجة التقدم التكنولوجي الهائل فغدوا قوة ضاغطة لها وزنها وحسابها ازاء قوة رأس المال ، ولم يعودوا مجرد « ناخبين » كل قوتهم في أصواتهم ، بل مارسوا حقوقهم النقابية وسائر حقوقهم في الاجتماع والتظاهر والاضراب ، بل استخدموا العنف في بريطانيا ، موطن الديمقراطية الكلاسيكية ، حتى شكت الحكومة العمالية من ان العنف العمالي يهدد حقوق السلطة التشريعية والنظام البرلماني الحزبي العريق في بريطانيا .. وارتأت فرنسا بعد حركات الطلاب في الستينات ان تعدل عن فكرة « رئيس الدولة » (الرمز) الذى يملك ولا يحكم ، واستشعرت منذ زعامة ديجول حاجتها الى الرئيس (الزعيم) الذي يحكم ويتدخل ويسعى لتعديل الموازين بين الاحزاب وبين الحكومة والبرلمان .

حدث هذا في العالم الرأسمالي ... وحدث في الكتلة الشرقية الماركسية ما يعرفه الجميع من انشقاق تروتسكي عن لينين في الاتحاد السوفيتي ومن اختلاف خروشوف عن سياسة سلفه ستالين بالدعوة الى « التعايش السلمي » Co - existence بدلا من الحرب المحتومة بين العالم الاشتراكي والعالم الرأسمالي وبتقرير ان انتصار الاشتراكية قد يأتي عن طريق ما تعانيه الرأسمالية من تناقضات داخلها وتكلم ليبرمان عن ضرورة الحوافز الاقتصادية للعمال ، وتكلم غيره عن وجوب مراعاة مطالب المستهلكين كما حدث تطور في « الشيوعية الاوربية Euro Communism منذ ايام (تولياتسي) الاخيرة في زعامة الحزب الشيوعي الايطالي ، فاعلنت ايمانها بالنهج الديمقراطي وعدم ضرورة اعتبار العنف الثوري ودكتاتورية البروليتاريا النهج الاوحد لتحقيق الاشتراكية ... كذلك حدث الانقسام والخلاف الخطير بين يوغسلافيا والاتحاد السوفيتي ، ثم الانقسام والخلاف

الاخطر بين الصين والاتحاد السوفيتي .

خشية التيه والضلال

فاذا كانت هذه حصيلة التطور واخــل كل من الايدولوجيات العالمية في مدى قرن من الزمان .. فما احوج الفكر الاسلامي الى التطور وقد جمد طيلة قرون متتابعة ... ولا يقال هنا : ان الدين الهي خالد لا يحتاج ليتطور كما تتطور افكار البشر . فانما الحاجة هنا الى تطور الفكر الانساني المتجدد المستمد من المبادىء والاصول الالهية الخالدة . والى الاجتهاد في الفهم والاستنباط من النصوص وفي الحكم فيما لا نص فيه . كما لا يقال هنا : ان الخلاف والانقسام والشقاق نذير موت لا امارة حياة . فان اختلاف الآراء ظاهرة صحية اذا توافرت له الشروط المنهجية والاخلاقية . فلا يصدر عن هوى وفتنة بل يكون تمحيصا رشيدا . وحوارا بناء مثريا للفكر معينا على تلمس وجه الحق .

ان المسلمين اثبتوا ازاء دورات الزمن وما واجهوه من اهوال ومحن جسام قدرتهم على الصمود والبقاء . وقدرتهم على التحرك من حين الى حين للخروج من ربقة الاستعمار والاستبداد . ولكن بقي ان يثبت المسلمون قدراتهم في مجالات الوجود الفكري والحركة الفكرية .

لقد مضى القرن المنصرم والمسلمون يلحون على فتح باب الاجتهاد . وينعون على اغلاقه وعلى الذين اغلقوه ... ولكن ما يكاد آحاد يحكون رؤوسهم ويعملون اذهانهم ويقدمون للناس رأيا ـ صوابا او خطأ ـ حتى تنقض عليهم الغالبية العظمى من متعلمين وغير متعلمين بحجارة المروق والضلال واحيانا الزندقة والكفر . وتصب عليهم اسواط عذاب لهم وارهاب لمن قد يتأثر بهم . ولعل المسلمين مع اطلالة القرن الجديد يعون حق الوعي ان فتح باب الاجتهاد يقتضي ضمان حريات المجتهدين وحرماتهم اصابوا ام اخطأوا . ويستلزم الحفاظ على الحق في الخطأ غير العمدي . وما اروع حديث المعصوم صلوات الله عليه الذي ضمن للمجتهد المخطىء اجرا حين قرر للمصيب اجرين !! . ولعل المسلمين قد تبينوا ان الاجتهاد ممارسة عملية . وان تقرير اباحة الاجتهاد او وجوب الاجتهاد لن يخرج مجتهدين . وانما يكون المجتهد الذي استكمل ادوات الاجتهاد وعدته ومقوماته وشرائطه بممارسة الاجتهاد فعلا والوقوع في الخطأ الى جانب ادراك الصواب .

وامام المفكرين المسلمين مجالات واسعة متعددة لتقديم صيغ اسلامية لمقتضيات العصر وحصيلة التطور الانساني الجاد والمنجزات التي حققها البشر بكد الفكر وكفاح البدن .

مجالات واسعة للحركة

نعم ما احوج المسلمين في القرن الجديد الى صياغة اسلامية لمقتضيات العصر وقضاياه على هدى الاسلام ووفقا لمناهجه واساليبه : حقوق الانسان وحرياته العامة (وفي مقدمتها حرية الرأي والتعبير . وحرية الاجتماع وما ينبثق عنها ويترتب عليها . وحرية اقامة الجمعيات ومنها الاحزاب ... الخ) . متوازنة مع واجبات الفرد والتزاماته ازاء الافراد الآخرين وازاء الجماعة والدولة .. المؤسسات السياسية وطبيعة وضعها ومهامها وحقوقها وواجباتها .. المساواة الدستورية والقانونية والاقتصادية : طبيعتها وحدودها ضماناتها وفعالياتها في مجال التطبيق وبخاصة بالنسبة للمرأة ولغير المسلم ... المؤسسات الاقتصادية في مجالات الانتاج والخدمات والنشاط الرأسمالي والفعاليات الممكنة للقطاعين العام والخاص ومناشط المؤسسات المصرفية ومؤسسات التأمين حكومية وأهلية ...

ولن يقنع اولي الالباب في القرن الجديد بين المسلمين وفي العالم اجمع . ان يقال ان حقوق الانسان تكفي في بيانها وتفصيلها اية من القرآن ذكرت كرامة بني ادم ـ وان بقيت الآية الاصل الجامع الخالد الذي تتفجر منه صيغ غير متناهية تتوالى بتوالي الازمان وتباين الحاجات والافهام لتفصيل ما يحقق كرامة الانسان وما يضمن انفاذ الحقوق المقررة ... ولن يقنع احدا من الذين يعقلون ان في الآيتين اللتين ذكرتا الشورى في القرآن غناء عن معالجة طبيعة هذه الشورى وحدودها ومجالاتها والاجهزة القائمة على تحقيقها ... ولم يعد مقنعا ان يذكر تحريم الربا بنصوص محدودة معدودة من القرآن والسنة دون نفاذ الى تطوره التاريخي وصور المعاملات الواقعية التي ورد عليها التحريم وحكمة التحريم بالنسبة لتلك المعاملات في اطار الاوضاع الاقتصادية السائدة وقتذاك . ودون متابعة للتطور الاقتصادي واثاره بالنسبة لقيام المؤسسات الرأسمالية والمصرفية والتأمينية ومناشطها . حتى تتمكن المقارنة عن بينة ويصدر الحكم بقبول معاملة معاصرة او رفضها او تعديلها بناء على البحث المستوعب والمتعمق . ولن يقبل المسلمون اليوم ما يكون بعضهم قد قبله بالامس وما يكون افراد منهم قد افتتنوا به فيما مضى من تصيد شيء من النصوص تعالج بالتأويل السطحي لتتسع للتأميم والاشتراكية تارة . او لتوجه لنقيض ذلك تارة اخرى !

ان المسلمين في القرن الجديد حري بهم ان يرشدوا عن نزعات الرفض المطلق لكل مؤسسات العصر السياسية والاقتصادية ولكل صور معاملاته واجتهاداته الفكرية والعلمية . مثلما شرع مسلمو هذا القرن يرشدون عن نزعات القبول والمتابعة باطلاق لكل مؤسسات العصر ومعاملاته واجتهاداته .. ان التقليد مذموم في كل حال ، والاصالة مطلوبة بالنسبة لمعالجة اجتهادات المعاصرين من غير المسلمين واجتهادات الاسلاف المسلمين سواء بسواء . والرد الى كتاب الله وسنة رسوله بالنسبة للقديم والجديد يقتضي التمحيص والتعمق والحكم بعد قيام الدليل الناصع المبين .

المسلمون والآخرون

وحري بالمسلمين في القرن الجديد كذلك ، وقادة الحركات الاسلامية منهم بوجه خاص ، ان يتوصلوا الى صيغ لملائمة التعامل مع العاملين على اساس المصلحة الوطنية وحدها ، مع اصحاب النزعات القومية بصورة من صورها .. فليس كل من اعتبر النطاق الوطني او المجال القومي منطلقا للعمل السياسي زنديقا لا يتعامل معه الاسلاميون وكأنه انكر معلوما من الدين بالضرورة .. وانما تعالج القضية بحوار منير لابعادها ، بوضوح المكاسب والخسائر في كل حال ، والمسلمون مدعوون لان يفرقوا بين تعاليم الاسلام في التآلف والتعاون وبين تصور لدولة الاسلام الشرعية وكأنما ينبغي ان تكون دولة عالمية واحدة ، وان يفرقوا بين « الخلافة » باعتبارها صورة تطبيقية تاريخية ، وبين التعاون الدولي العالمي الاسلامي كهدف يمكن ان يتحقق في صور متباينة وفقا لتباين الظروف في العصور المتوالية ، وان يتبينوا ان « الخلافة » باعتبارها صورة للدولة الاسلامية العالمية الواحدة لم تعش طويلا وان التطلع الى مثل هذه الدولة على انها امل بعيد منشود مثلما يتطلع مفكرون اخرون الى الحكومة العالمية الواحدة ـ مثل هذا التطلع شيء، والقول بوجوب المبادرة الى تحقيقه فورا ورفض كل ما عداه شيء آخر !!

ولا تزال نظرة المسلمين الى علاقاتهم الدولية مع العالم المعاصر الذي يعيشون فيه تحتاج الى تأمل ومراجعة ... فاذا كان المسلمون قد عانوا من استعمار الغرب وسيطرة عمالقته في مختلف المجالات ، وواجهوا في حضارة الغرب وايديولوجياته السائدة ما يخالف قيمهم ومبادئهم ، فلا يعني هذا الرفض المطلق لعالم اليوم والعزلة عن التعامل مع دوله القائمة ... ولا يعني الخلاف السياسي او الايديولوجي نكولا عن التعاون الدولي واعلانا للعزلة .. ان الولايات المتحدة الدولة العملاقة شبه القارية قد فشلت سياستها في النزوع الى العزلة ... ودول العالم كلها محتاجة الى التعاون والتعامل .. وعزلة المسلمين تزيدهم ضعفا وتزيد غيرهم فيهم شكا وبدينهم جهلا ومنهم ومن دينهم نفورا ... وتقسيم العالم الى (دار اسلام) و « دار حرب » ليس هو التقسيم الثابت المطرد الصحيح ، ولم يرد به كتاب او سنة ، وانما قال به بعض الفقهاء، وارتأى آخرون ان يضاف الى الدارين « دار العهد » ، وغير هؤلاء، واولئك من قال بالتقسيم الى « امة الاسلام » و « امة الدعوة » ، ولم يذكر الحرب على الاطلاق .

ان على المسلمين في القرن الجديد ان يعيشوا بفكرهم وعقيدتهم في عصرهم ، وان يتعاملوا مع الناس من حولهم ، في بلدانهم وفي عالمهم .. وان يعوا جيدا ان دعوتهم انما تعيش في اطار من العلاقات الانسانية ، وانها تجد طريقها حين تقام الجسور وتتوافر الموصلات الجيدة امامها ، وانهم يقطعون السبيل على فكرهم ودعوتهم في بلدان الاسلام وفي العالم اجمع بالعزلة والرفض والانطواء !

ان الاسلام فتح الطريق للتواصل الانساني والحوار الفكري المنير حتى حين تضيع الثقة وتتعطل الكلمة ويمتشق الحسام . فهتف كتاب الاسلام بالمؤمن المجاهد والمعلن للحرب ان يحكم الكلمة والحجة عند اول فرصة تتاح لذلك بين قعقعة السلاح ، فقال عز من قائل : « وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه . ذلك بانهم قوم لا يعلمون » . (التوبة/٦)

وهكذا يفعل الواثقون بانفسهم ودينهم وحجتهم .. الواثقون بالانسان الذي فطره الله عاقلا مميزا بصيرا ، وعلمه البيان من جهة ، والاستماع الى القول وتفهمه وتمييزا حسنه واعطاه الارادة لمتابعة هذا الاحسن من جهة اخرى .

وهكذا يكسب المسلمون لأنفسهم ودينهم كلما عاشوا في العالم وتعاملوا مع الانسان ، وتواصلوا مع غيرهم على الحفاظ على حقوقه وكرامته ، واخلصوا للتعاون العالمي على اساس العدالة الدولية « فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه . اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولوا الالباب » (الزمر/١٧ ـ ١٨) صدق الله العظيم ■■

الرياض ـ د . محمد فتحي عثمان

في مذكرات الزعيم المصري محمد فريد

مشكلات طرحت منذ خمسين عاماً.. ولم تجد حلاً !

بقلم : فتحي رضوان

خلال سنة ١٩٧٨ أصدر مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر التابع لهيئة الكتاب المجلد الاول لما أسماه أوراق محمد فريد ، ومحمد فريد ، المقصود هنا ، هو الزعيم الوطني الذي زامل صديقه الزعيم مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني المصري ، وقد ولد مصطفى كامل في ١٤ اغسطس سنة ١٨٧٤ وتوفي في ١٠ من فبراير سنة ١٩٠٨ ، وهو مشغول بالعمل الوطني المصري وتحرير صحف هذا الحزب ، وبعد وفاته خلفه في زعامته محمد فريد ، وواصل الجهاد بعده في مصر ثم في تركيا واوروبا ، حتى توفاه الله في الخامس عشر من نوفمبر سنة ١٩١٩ .

واوراق محمد فريد التي عثر عليها بعد وفاته ، تتكون من ثلاثة اقسام : قسم يتضمن تاريخا للفترة من سنة ١٨٩١ مسيحية (اي ميلادية) حتى سنة ١٨٩٧ ، وهي لا تعد مذكرات لمحمد فريد ، تروي احداث حياته ، وتجاربه السياسية ، والاجتماعية ولكنها لما تضمنته من تعليقاته على الامور التي اوردها في هذا التاريخ تتميز بمذاق شخصي ، يكشف بوضوح عن اتجاهات محمد فريد ، ونظراته السياسية ، التي اعتنقها كمبادئ ، دافع عنها ، دفاع المستميت حتى لقي ربه . وقد وصف محمد فريد نفسه هذا القسم بالمذكرات احيانا وبالمفكرات احيانا اخرى .

اما القسم الثاني فقد اسماه محمد فريد « مذكراتي بعد الهجرة » . وهذا القسم هو بلا شك « مذكرات » بالمعنى الفني ، فقد كادت تكون يوميات ، يحررها صاحبها يوما بيوم ، ويسجل فيها مشاعره وتأثراته ، ويضمنها تعليقاته على مجريات الامور ، وعلى الشخصيات التي تلعب الدور الرئيسي في هذه الاحداث

أما القسم الثالث وهو الذي يعنيني هنا ، وهو الذي يتكون من مذكرات محمد فريد او يومياته في المدة من سنة ١٩٠٤ حتى سنة ١٩١٩ ، فهو في الواقع لا يبدأ الا في سنة ١٩١٣ ، ففي هذه السنة بدأ يتابع تحرير ما يكاد يكون يوميات . اما ما كتبه عن المدة السابقة على هذه السنة فقد كان من قبيل الذكريات التي تتعلق به شخصيا وتروي وقائع نشاطه ، واتصالاته ، وتنقلاته ، وتسجل أراءه وتعليقاته وتصويره الحي للأحداث والاشخاص ، بلغة فياضة بالاحساس ، متميزة بالصراحة وبالوضوح ، وبالثبات على الفكرة ، والاصرار على المقاومة والمعارضة .

وقد بدأ محمد فريد كتابة هذا القسم الثمين ـ كما قلت ـ في سنة ١٩١٣ ، اي بعد هجرته من مصر في ٢٧ من مارس ١٩١٢ ، بعد ان اشتد عليه تضييق السلطة



في مصر متمثلة في الاحتلال العسكري البريطاني ، ثم في الخديوي عباس حلمي الثاني ، وثالثا في السلطة التنفيذية من وزراء ، واجهزة امن ورقابة ، تأتمر بأمر هاتين الجبهتين اللتين وان كانت لها مصالح متعارضة ، الا انها التقتا واتفقتا على خنق الحركة الوطنية ، التي تجسدت في الحزب الوطني ، بزعامة محمد فريد الصلبة

بدء المقاومة المصرية

وما يعنيني في هذا البحث ، هو هذا القسم الاخير ، الذي بدأه محمد فريد الزعيم الوطني المصري ، في المنفى الاختياري الذي فرضه على نفسه ، نجاة بعقيدته ومذهبه من طغيان وبطش الاحتلال البريطاني الذي بدأ في مصر في ١٤ من سبتمبر (ايلول) ١٨٨٢ . فقد تحول هذا الاحتلال من اطالة الصبر على المقاومة المصرية له ، حينما اقتصرت في عهد مصطفى كامل ، على التهيئة والاهابة والايقاظ بالكلمة المكتوبة في جريدة اللواء التي صدرت في الثالث من يناير سنة ١٩٠٠ ، واستمرت بعد ذلك اكثر من عشر سنوات في نظام واستقرار ، كجريدة يومية ذائعة الصيت لا في مصر وحدها ، بل في العالم العربي ، ثم في العالم الاسلامي وفي عدد من الصحف اليومية والاسبوعية والشهرية اصدرها الزعيم مصطفى كامل بالعربية والانجليزية والفرنسية ، وعدد من الصحف والمجلات الاخرى التي اصدرها اتباع مصطفى كامل وتلاميذه كجريدة « الدستور » التي اصدرها العالم الاسلامي الكبير محمد فريد وجدي ، وجريدة « مصر الفتاة » ، والقطر المصري التي اصدرها احمد حلمي ومجلة المجلات التي اخرجها وحررها محمود حسيب .

أما الكلمة المنطوقة فقد كانت تتمثل في خطب مصطفى كامل في القاهرة والاسكندرية وعواصم اوروبا كلها عاصمة عاصمة ، فمن لندن الى فينا ، الى باريس وبروكسل وبودابست وبرلين .

صبر الانجليز على الحركة الوطنية المصرية في مرحلة التكوين والتجمع التي كانت الخطابة والكتابة وسيلتها الاساسية . فلما اختار الله مصطفى كامل لجواره وهو بعد في ريعان شبابه اذ توفاه الله وهو في الرابعة والثلاثين من عمره ، وخلفه محمد فريد في الزعامة ـ كانت الحركة الوطنية قد شبت عن الطوق ، واشتد ساعدها ، واتسع نطاقها ، ودخل فيها الى جانب طلبة المدارس العليا ، طائفة كبيرة من اصحاب المهن الحرة كالمحامين والاطباء والعمال .

ثم دفعت حادثة قتل بطرس غالي باشا رئيس الوزراء في فبراير سنة ١٩١٠ برصاص احد شباب الحزب الوطني ، فادرك الاحتلال البريطاني ، ان اللين واغماض العين عن نشاط الحزب الوطني ، حين اقتصر على الكتابة والخطابة ، وتكوين الفروع واللجان ، وحضور المؤتمرات الدولية للاشتراكيين وحركات مقاومة الاضطهاد العنصري المنعقدة في جنيف وبروكسل وعواصم اخرى في اوروبا ـ لم يعد جائزا في شرعه ، فقد تبين الاحتلال ان هذه الوسائل السلمية اخرجت جيلا جديدا يرفض الاذعان له ، وان هذا الجيل الجديد مستعد الى الذهاب الى ابعد من الهتاف ضده ، وتنظيم الصفوف الشعبية لمقاومته والتخلص من نيره . انه مستعد لاستعمال الحديد والنار ، وتنظيم الخلايا السرية لقتل اعوانه وجنوده ومن ثم فان السلطات المصرية التابعة للاحتلال البريطاني ، والخاضعة لاوامره ، قد لاحقت محمد فريد بالتحقيق والمحاكمة ، وحبسته فعلا مرة لمدة ستة اشهر ، واحس الزعيم انه لن يترك خارج السجن ، فاثر ان يفر بفكرته وعقيدته الى استانبول ، عاصمة الخلافة الاسلامية آنذاك . وقد كانت مصر في تلك الفترة ، تابعة من الناحية الرسمية لتركيا صاحبة الولاية الشرعية (الاسمية) على الرغم من قيام الاحتلال البريطاني على حكمها ولذلك كان التنقل بين القاهرة و الاستانة فوق ذلك مقصد الاف من المصطافين وطالبي الراحة والاستجمام من أعيان المصريين . وكان كل ما يجري في استانبول يجد صداه فورا في مصر ، وكل ما يجري في مصر يجد اثره في الحال في استانبول . فقد اعتقد محمد فريد ان هجرته الى تركيا ، لن تحول بينه وبين قيادة ادارة العمل الوطني في مصر ، وانه سيبقى على اتصال بما يحدث في وطنه ، وان اخوانه وتلاميذه ، سيفدون اليه في منفاه الاختياري ، ينقلون اليه الاخبار ، ويتلقون منه الاوامر ، وان تصريحاته وخطبه وبياناته ستقرأ في بلاده ، وسيضاعف من اثرها ، انها صادرة من بعيد ، ومن زعيم منفي .

لماذا هاجر فريد ؟ !

ولم يكن احد يعلم ان الحرب العالمية الاولى ، وان كثرت نذرها في الافق ، ستقع ، بعد هجرة الزعيم ، بنحو عامين ، وانها ستطول لاربع سنوات حسوما ، وان تركيا ستخوض معامعها ، الى جانب المانيا عدوة بريطانيا ، صاحبة الاحتلال في مصر ، وان الدائرة ستدور على تركيا والمانيا ، وان بريطانيا ستوطد اقدامها في ارض الكنانة ، وان فريدا سيمنع من العودة الى بلاده حتى بعد ان تضع الحرب اوزارها وانه سيبقى في المنفى ، بعيدا عن الاهل والاصدقاء ، والاعوان والانصار ، وبلا مال ، ولا رجاء في انكشاف قريب للغمة بعد ان فقد الصحة ، وتحالفت ضده العلل كل هذا كان غيبا من الغيب ، ولا يعلم الغيب الا الله ..

في هذه الفترة الحافلة بالتطورات العالمية في ميادين السياسة والحرب ، وبحركة الجيوش على اضخم ما عرفت الانسانية من مستويات المجازر والوقائع التي التهمت نيرانها مئات الالوف من شباب اوروبا وتركيا ، عدا التهام المباني والقصور والجسور والمتاحف والمعاهد ، والذخائر الفنية ، والنفائس الأثرية من كل صنف ولون ، في هذه الفترة كتب محمد فريد يومياته أو مذكراته ، فكانت ـ الى جانب مذكرات او يوميات سعد زغلول ـ المذكرات بالمعنى الفني لكلمة مذكرات في تاريخ مصر السياسي ، ذلك لان أكثر الذين ظهروا على مسرح العمل العام في مصر ، لم يعنوا بتدوين مذكراتهم ، يوما بعد يوم ، ليسجلوا مجريات حياتهم ، فيعبروا عما خالج نفوسهم عند وقوع تلك المجريات ، من سرور أو غضب ، او اهتياج أو احتجاج ، والقلة التي عنيت بكتابة ذكريات حياتها ، وفي مقدمتها الدكتور حسين هيكل باشا واسماعيل صدقي باشا ، ومحمد علي علوبة باشا ، كتبت هذه الذكريات بعد عشرات من السنين ، من وقوع حوادث ووقائع هذه الذكريات ، ومن ثم فان هذا هو الجانب المميز ليوميات محمد فريد ، والجانب الثاني هو ان ما عاناه وعايشه ، محمد فريد من امور السياسة والحرب ، لم يظفر بمعايشته والمشاركة فيه زعيم مصري او عربي آخر .

لم يكن محمد فريد في اوروبا ميدان المعارك الكبرى ، وساحة الوقائع الحاسمة فحسب ، وانما كان قريبا غاية القرب من الذين يشكلون أحداث هذه الحرب ، وما يترتب عليها ، وينجم عنها من مشكلات السياسة ، وقراراتها ، وكان يتجول في اوروبا ، كما يتنقل صاحب الدار في حجرات بيته : يخرج من حجرة الى حجرة ، وكان يلقي في هذه ت وزراء الحرب ووزراء السياسة ، وكان يقابل ويناقش السفراء من مختلف الدول ، وكان على مقربة من ملك مصر المعزول ، الخديوي عباس حلمي الذي كان الانجليز والفرنسيون اي معسكر (الحلفاء) يراقبونه ويتوجسون منه ، ويعدونه شخصية ذات خطر ونفوذ ، وحنكة ودهاء ، وكان محمد فريد ، زعيم مصر الشعبي ، وكان في مصر ما

يدل على أن تحت رمادها ، وهج نار ثورة ، تتهيأ للانفجار والاندلاع . فكان محمد فريد بهذه المثابة ، مخوفا ومرغوبا فيه في كسب صداقته او على الاقل حياده . لولا انه ثبت للحلفاء (الانجليز والفرنسيين) انه رجل قوي المراس ، لا يهادن ولا يساوم ، ولا يبيع ذرة من مبدئه بمال الدنيا كلها ، ولا بعروشها كافة .

على اني لا انوي مناقشة او تحليل هذه المذكرات جميعها ، اذ أن قصدي قد اتجه الى اختيار بعض فقرات منها ، تتناول علاقات دولة الاتراك بوصفها دولة الخلافة ـ انذاك ـ مع العالم العربي . وموقف العرب منهـا ، خلال سني السلم والحرب . فهذه العلاقات ، في واقع الامر ، هي موضوع الساعة ، ولو ان الخلافة الاسلامية انهيت بقرار من كمال اتاتورك ـ في يناير سنة ١٩٢٤ ـ ولم يقم مقامهـا خلافـة اخرى ، ولا مؤسسة تؤدي وظائفها ، فتتزعم المسلمين ، وتصدر لأمرائهم وملوكهم ، وزعمائهم ورؤسائهم ، توجيهات عامة ، في المواقف التي تهمهم كافة .

هذا ـ بالاضافة الى ان النزعات الشعوبية ، والعصبيات القومية ، التي حالت دون قيام وحدة اسلامية في ظل الخلافة ، لا يزال اوارها متأججا ، وسعيرها متقدا . مما يجعل التأمل في خواطر محمد فريد المكتوبة في مذكراته من نحو سبعين عاما الا قليلا ـ اي ثمانية وستين عاما ـ ضرورة سياسية ، وفكرية ، لا يمكن تجاهلها .

أمثلة من المذكرات

وسأورد هذه الخواطر ، نقلا عن المذكرات ، غير ملتزم نظاما بعينه ، الا حسب ورودها في المذكرات ، ثم سأتبع هذا النقل التعليق العام عليها .

قال في يومية ٢ من ديسمبر ١٩١٦ :

« كنت ذات ليلة أتمشى مع حسني بك يكن في شوارع جنيف في اواسط هذا الشهر السابق ـ شهر نوفمبر ـ فدار الحديث في اطماع الترك في بلادنا فقال ما ملخصه :

اني كنت ذات يوم في الاستانة . في اجتماع يشمل الكثير من الأتراك . وكانوا يعتقدون بأني تركي اكثر مني مصري ، وكانوا يصرحون امامي بما في ضميرهم فقال لي بعضهم اننا اذا دخلنا مصر ، نستعبد المصريين ، وننكح امهاتهم ، ونأخذ فدادينهم . هذه هي افكار جميع الاتراك نحو مصر . انتهى كلام حسني .

وفي ٧ من ديسمبر علق (فريد) على صدور مجلة تصدر باللغة الالمانية عن جماعة من اعضاء الحزب الوطني (المصري) المهاجرين الى تركيا والمانيا ، باسم مصر ، فقال :

« ظهر العدد الاول من هذه المجلة في ١٧ نوفمبر (سنة ١٩١٦) .. وبها مقالات لكثير من كتاب الألمان . وقد اطلعت عليها فوجدت بها مقالة لالماني اسمه رفنتلو Reventlow عن مصر والحرب جاء ضمنها ما ملخصه : ان المهم هو هدم السلطة الانكليزية في البحار ، ولا يكون ذلك الا بتحرير مصر ، اما مسألة ما اذا كانت مصر تحكم نفسها بعد ذلك او هي قادرة على ذلك فمسألة ثانوية » .

فقد اماط الكاتب اللثام عن نوايا الألمان نحونا ، هم وحلفاؤهم الترك ، « اتي الى هنا (يعني الى جنيف بسويسرا) رفعت باشا سفير الدولة (التركية) وكان الحديث دائرا على سقوط بغداد ونتائجها السيئة ، فأخذ يظهر ألمه من هذه الحالة وتأسفه على ارسال ـ جزء ـ عظيم من جيوش الدولةالى غاليسيةورومانيا لمساعدة الالمان ، وترك الحدود مهددة بهذه الكيفية بلا حماية كافية ، مع ان البلغار لم يخرجوا جنديا واحدا وراء حدودهم . وبالاختصار فحالة الدولة (التركية) سيئة جدا والغالب انها ستفقد بلاد الجزيرة العربية اي الحجاز وارمينيا وفلسطين ، وربما ضاعت الشام منها ، فتصبح قاصرة على الولايات التركية الاصيلة ، في بلاد الاناضول ، وهذا كله من نتائج سياسة التتريك Pan Turquisme التي جنُوا بها خيرا . فلا حول ولا قوة الا بالله » .

ثم اضاف في نفس هذه اليومية التي تضمنت هذه النبؤة التي تحققت تماما قوله :

« حضرت خطابة القاها يوسف أقجورة من انصار التتريك يوم الجمعة ١٦ مارس (١٩١٧) فكانت كلها على تاريخ الترك القديم والأتراك الموجودين بروسيا والجامعة التركية الى غير ذلك فاستغربت جدا لاشتغال الاتراك بأخوانهم بالشمال وعدم اهتمامهم بالمسألة العربية ، بغداد والجزيرة ، فان الخطيب لم يذكر كلمة عن هذا الموضوع مع ان بغداد قد سقطت في يوم ١١ هذا الشهر (مارس ١٩١٧) . هذا دليل على عدم اهتمام الترك ببلاد العرب واعتقادهم امكانهم البقاء بمفردهم بدون ان تكون بلاد العرب معهم ، وهي سخافة عظيمة سمعتها من الكثيرين ، ولكنهم بكل اسف يضيعون مملكتهم وسيخرجون من هذه الحرب دولة صغيرة كالعجم أو الافغان ، وتصبح كل البلاد العربية في ايدي الانكليز والفرنساويين » .

وقد يحسن ان تشير هنا الى ان يوسف اقجوره الوارد اسمه في هذه اليومية او بالاحرى هذه النبؤة ، هو اول من دعا الى بناء الدولة (التركية) على اساس العثمانية (احفاد عثمان ارطغرل الجد الاعلى للاتراك العثمانيين ، والاسلامية ، او الطورانية نسبة الى طوران وهو جد

ايضا لأتراك اسيا الوسطى) بدعوى انه لا يمكن ان تعيش الدولة وهي مؤلفة من سلالات وقوميات متباينة .

من جرائم جمال السفاح

وجاء في يومية ٢٨ مارس (سنة ١٩١٧) :

« يوم ٢٨ مارث (مارس) حضر لزيارتي الشيخ صالح الشريف ، وقد حضر من الاستانة من بضع ايام قلائل ، ثم زرته في الفندق بعد الظهر ، وتكلمنا كثيرا في مسائل الدولة (التركية) الحاضرة بعد سقوط بغداد والعراق وتهديد انكلترا لفلسطين . وملخص الحديث ان الحالة هناك سيئة جدا ، ولا امل تقريبا في ارجاع بغداد وان سبب هذا الانهزام انفصال متطوعي القبائل عن الترك ، لما رأوه من الاحتقار وسوء المعاملة ، ولما وقع لديهم من الوقع السيء لفظائع جمال باشا (احد افراد الزعامة الجماعية لتركيا انذاك المكونة من انور وجمال وطلعت) وانه يخشى ضياع فلسطين وسوريا ايضا بسبب اعمال جمال باشا ، وان جمال سائر في هذه الجهات سير حاكم مستقل حيث لا يطيع اوامر ولا يسمع نصائح » .

ومما قاله الاستاذ (اي الشيخ صالح الشريف) انه اجتمع يوما بألماني كان قنصلا في احدى ثغور الشام فقال له انه اجتمع يوما بجمال باشا ونبهه الى تقدم انجلترا ، وأخذهم العريش ، واستعدادهم للزحف على فلسطين ، فاظهر عدم اهتمام ، وقال فليأخذوا (اورشليم) ماذا يضيرنا هذا » .

وقد جاء في يوم ٢٨ مارس ، ما يعتبر امتدادا لهذا الحديث ، قال محمد فريد :

« في ذلك اليوم قابلت شخصا تركيا اسمه صبنا بك من رجال السفارة (التركية في سويسرا) في ادارة جريدة تركيا الجديدة ، فاخذ يظهر المه من معاملة الترك للعرب ، واهتمامهم بالمسألة الطورانية ، واهمالهم ما عداها ، حتى اشرفت الدولة على الخراب ، وانه من الحمق ان يعتمد الترك على انفسهم دون غيرهم ، وهم لا يبلغون ستة ملايين نسمة فكيف يمكنهم تكوين دولة بهذا العدد يكون لهم مركز في العالم .

ولكن كنت معه في غاية الاحتراس لانه لا يبعد ان يكون جاسوسا ينقل ما سمع الى السفارة ومنها الى الاستانة . ومن الغريب أن الأتراك عموما غير مهتمين بضياع بلاد العرب منهم ولا يخطر ضياع الخلافة منهم ، بل منهم من يقول ان ترك الخلافة والأمور الدينية ، والتعلق بالطورانية بصرف النظر عن الدين أولى وانفع . وهذا هو الجنون بعينه لان الدولة بلا خلافة لا قيمة لها » .

ثم اضاف في نفس اليومية :

« اجتمعت بشابين من احفاد الامير عبد القادر الجزائري اسمها محمد علي واحمد مختار فقصا علي أمورا كثيرة مما هو معلوم ، ولكن ذكر لي احدهم (محمد علي) ان جمال باشا (حاكم سوريا ، والمشهور باسم جمال السفاح) رغبة منه في محو كل ما هو عربي ، ولو اسما ، امر برفع اللوحة الرخامية الموضوعة على قبر سيدي محي الدين بن العربي ، ووضع لوحة اخرى ، كتب عليها هذا قبر (محي الدين افندي) فانظر الى هذه الأمور الصبيانية . وانه هدم فعلا قبر الأمير عبد القادر لوقوعه في طريق اريد انشاؤه وكان في الامكان تحويله قليلا احتراما لمقام هذا الرجل ومراعاة للظروف الحاضرة » .

والامير عبد القادر الجزائري اشهر من ان يعرف فقد قاوم الغزو الفرنسي للجزائر من سنة ١٨٣٠ حتى سنة ١٨٤٧ اي سبع عشرة سنة متصلة ، وقد حمل الفرنسيين الذين حاربوه على احترامه وتقديره ، فلما اسروه عاملوه باحترام ، وسمحوا له آخر الامر بأن يعيش في سورية وقد رسم له احد كبار فنانيهم صورة على جواده ، كأنه نسر محلق في السماء ، ووضعت بين نفائس متحف اللوفر .

وفي يومية ٢٦ ابريل سنة ١٩١٧ كتب محمد فريد :

« مما اخبرني به اسماعيل حسني عن احوال الشام انها سيئة جدا ، وان الاهالي في اشد السخط على الاتراك ، وانهم يفضلون اي دولة أجنبية تأتي بلادهم على بقاء الاتراك ، وان جمال باشا سائر فيهم سير الحاكم بأمر الله الفاطمي .

وقال كذلك ان هناك حركة بين ضباط العرب وهم كثيرون خصوصا في اركان حرب الجيش وانهم يستعدون لثورة ضد الاتراك والخلاص ، ان البلاد العربية كلها ضاعت او ضائعة لا محالة بسبب سوء سياسة الاتراك .

وقد اكد لي ان اعمال جمال عجلت بثورة الحجاز . »

تكهنات بنتائج الحرب

واحسب انه يتضح من مراجعة هذه النصوص والتأمل فيها ، ولو في عجلة ، ان جميع ما اثار قلق محمد فريد واحزنه ، من احداث الحرب والسياسة ، خلال الحرب العالمية الاولى ، هو مثار حزن والم وهم للشعوب العربية والاسلامية الى اليوم ، والله وحده يعلم الى اي زمن ستمتد فترة الاحزان والالام والهموم ، بسبب هذه الاحداث .

ولست اظن ان احدا يمكن ان يغفل صدق حدس ، محمد فريد ، حينما توقع او تكهن بالمصائب الكبرى ، التي اصابت الدولة التركية ، واصابت في الوقت نفسه

الامة العربية كلها وهي على وجه التحديد :

اولا ـ ستخرج تركيا من الحرب العالمية الاولى : حرب المانيا وتركيا من جانب وفرنسا وبريطانيا من جانب آخر ، دولة ضعيفة صغيرة .

ثانيا ـ ستفقد تركيا كل ولاياتها ، عدا الولايات التركية الاصيلة الناطقة بالتركية في الاناضول .

ثالثا ـ ستسقط الشام والعراق ، في يد اعداء تركيا ، واعداء العرب .

رابعا ـ ستسقط القدس بالذات في يد اعداء تركيا ، وستضيع على العرب والمسلمين بل فلسطين كلها .

خامسا ـ ان سبب هذا الخسران كله ، انفراد حكومة تركيا بالسلطة وعدم اشراك العرب ، وهم في الدولة التركية ، اكثر من ثلاثة ارباع سكان الامبراطورية العثمانية ، وتسعة اعشار مساحتها ، فقد بقوا أجانب عن كل شيء من امور الدولة ، بل احتقار من يعينهم الاتراك للعنصر العربي ، واعتدادهم بأنفسهم من رد الاكتفاء عنهم .

سادسا ـ سوء نواياهم نحو مصر ، وعزمهم ـ عند النصر ـ على معاملتها معاملة الولاية التابعة لهم ، او الخاضعة لنفوذهم ، والنكث بمعاهدة سنة ١٨٤٠ المبرمة بين الحلفاء الاوروبيين بريطانيا وفرنسا وروسيا من جانب وبين محمد علي من جانب ، والقاضية بأن يكون لمحمد علي واولاده من بعده حكم مصر ، بشروط تضمن استقلالها .

سابعا ـ ظهور بوادر الفكرة العلمانية التي تنادي بقطع صلة تركيا بالاسلام واتجاهها الى اوروبا ، ونبذ كل ما يصلها بماضيها القديم .

ولا تزال الجروح التي احدثتها الحرب العالمية الاولى تنزف دما ، فتركيا الدولة الاسلامية الوحيدة التي كانت على شيء غير قليل من التفوق العسكري ، والنفوذ السياسي ـ على الرغم من انها في اخريات ايامها ، ولعهد السلطان عبد الحميد ومن بعده من السلاطين الخلفاء ـ كانت ترفع لواء الجامعة الاسلامية ، وتخيف بها اوروبا ، معلنة انها تؤمن بعقيدة الاسلام التي ترفض الشعوبية ، وتقيم الاخوة الاسلامية جنسية لجميع المسلمين ، في جميع البقاع والاصقاع ، مهما تباينت السنتهم ، والوانهم ، فقد ادارت ظهرها للمسلمين وللاسلام ، ومالت نحو الجامعة الطورانية ، واستمعت للذين زينوا لحكامها ، انه اولى لها ان تعمل على ضم العناصر المتكلمة بالتركية في آسيا الصغرى وممالك ما وراء النهر كالتركمان والتركستان والقرغيز واشباههم ، ليكون لها امتداد في الارض الاسيوية ، بلا حواجز ولا فواصل من الطبيعة ولا اللغة ، ولا الجنس ، فتكون امبراطورية متجانسة دينا ، وجنسا ، ولغة ، وهذه بلاشك حجة خداعة وان كانت براقة ، فهذه بلاد خاضعة لحكم دول اخرى ، في مقدمتها روسيا القيصرية ، وكان تحرير هذه المناطق وضمها لسلطان تركيا ، دون حرب ، كانت تستنفد الباقي من قوة تركيا العسكرية ، ورصيدها المالي ، فضلا عن ان هذه الاقاليم كانت من التخلف الحضاري والعجز العمراني ، ما يجعلها احمالا واعباء على كاهل تركيا ، في حين ان العالم العربي ، وفي مقدمته مصر ، واتصاله الوثيق بأوروبا من جانب ، وآسيا وافريقيا من جانب آخر ، وامتداد شواطئه على بحار التجارة والحضارة من جانب ثالث ، يجعل الاتصال بل الاندماج التركي والعربي ، في ظل لواء الاسلام ، وفي دولة تؤمن بالحرية السياسية ، وتسترشد خبرات الاسلام الثقافي وصلاته العميقة والعريضة ، بكل مواطن المدنية والثقافة ، واتصاله المتجدد ، بالناطقين بالفارسية والاردية والسنسكريتية ، مع امتداد عالم العرب ، في المغرب العربي ، وجنوب اوروبا ، وجذرها كل هذا ، يمنح تركيا المتحدة مع العرب ، والمتعاونة معهم ، قوة ، تقيهم ما انحدرت اليه من الهول واضمحلال .

وقد أمعنت تركيا في عهد مصطفى كمال ، الذي اصبح كمال اتاتورك ، في ادارة ظهرها للاسلام والمسلمين ، واصبحت دولة علمانية بحتة ،. ونفضت يدها من الشريعة الاسلامية ، واصطفت الاحكام المدنية السويسرية شريعة لها في احوال الاتراك الشخصية ، وظنت ان هذا هو السبيل الذي سيقيها الكوارث ، ويمنحها فترة نقاهة ، ثم صحة كاملة ، ثم تستعيد ماضيها . وقد ثبت ان هذه الأماني قد غرت تركيا تماما ، وانها كانت سرابا .

هذه هي المشكلات التي رأى فريد مولدها ، وتكهن بسوء عاقبتها ، بقيت ، ثم زادت على مر الايام ، وتعقدت ، ولا تزال تطلب لها حلا .. فهل ستجد الحل ؟

وهل ستمتحنا تجربة تركيا مع العالم العربي ، وهي تجربة بعيدة ، نوعا وارادة ، لاعادة صياغة العلاقات العربية والاسلامية ، على الاقل في هذا الجانب من العالم : الجانب الذي يعيش فيه العرب والترك والفرس ، مع اقليات تكاد تكون منهم ، لولا ان الاستعمار ، حصر على ابقائهم ، في عزلة نسبية ، لاستعمال ما يصنعه من اسباب الخلف بينهم وبين العرب ، وفي وقت ازماته هو ، وتحتمي بهم الدروز والاكراد ، والشراكسة ، والتركمانيين وهكذا ..

هذه مشكلات ، تبدو مستعصية على الحل ، والواقع انها مشكلات لا يبقيها الا عجزنا ، وضعف ارادتنا .

فتحي رضوان

لقاء غير مستغرب
بين برنارد شو ونجيب محفوظ

بقلم : الدكتور على الراعى

في رواية نجيب محفوظ : اللص والكلاب ، يمسك سعيد مهران « بمسدس اعطاه له صديقه المعلم طرزان ، ويقول : بهذا المسدس استطيع أن أصنع أشياء جميلة على شرط الا يعاكسني القدر . وبه ايضا استطيع ان اوقظ النيام ، فهم اصل البلايا ، هم خلقوا نبوية وعليش ورءوف علوان .

بالمسدس يريد سعيد مهران ان يخلق عالما جديدا ، مغايرا تماما للعالم الذي نعيش فيه . العالم الذي نعيش فيه يسمي من يسرق سرقة صغيرة لصا ومن يسرق السرقات الكبيرة يسميه عظيما ، وجيها ، ويعطيه المنصب والجاه .

والحكومة في هذا المجتمع تنحيز لبعض اللصوص دون بعض .

وعلى هذا يقترح سعيد مهران ان كان لابد من تقسيم المجتمع الى فئات ان يكون هذا التقسيم الى : لصوص وكلاب . اما اللصوص فهم الذين دفعهم ظلم المجتمع الى الخروج على القانون .. واما الكلاب فهم الذين يصنعون القانون ليطبق على الفقراء وحدهم ، ويظلون هم بمنأى عن القانون ؟ ويكونون ، اول من يخرج عليه .

في هذا المجتمع الجديد الذي يتطلع اليه سعيد مهران ، في وسع المرء ان يصبح لصا وثائرا في وقت واحد . وان يشعر بان الثائر لا يمكن ان يحقق فكره على الوجه الاكمل الا حين يحترف اللصوصية ، كما فعل سعيد نفسه .

يطلق سعيد مهران رصاصة يريد بها خصمه عليش فتقتل اخر بريئا ، فيلزم بيت صديقه نور حتى يهدأ عنه رجال الشرطة ، ثم يمل البقاء في البيت المعزول وقد لزمه اياما فيقرر ان يتحدى الظروف ويخرج الى الصحراء .



هناك يحيط به نفر من اصدقائه ، كلهم خارج على المجتمع ، ثائر على الظلم فيه ، عامل ـ بطريقة ما ـ على تحديه وهدمه . ويقول له المعلم طرزان : لاتقم في مكان واحد اكثر من ليلة . ويقول له المهرب : اهرب الى الصعيد ، ويضيف : كثيرون تحدثوا عنك امامي باعجاب . ويقول صبي القهوة في حماس : اي ضرر في سرقة الاغنياء .

اما صديقة نور فتقول له عاد الى بيتها وعادت هي اليه تحمل المؤنة اليوم من الطعام واخبار العالم خارج البيت ، يتحدث عنك ناس كأنك عنترة . فيقول سعيد اكثرية شعبنا لاتحلف الصرص ولاتكرهم .. ولكنهم بالفطرة يكرهون الكلاب .....

يحس سعيد مهران اذن ان الحق معه ، والناس كذلك ، ويناجي نفسه ، وهو مقبل على قتل رءوف علوان استاذه السابق ، ومفقهه في الاراء الثورية ، والذي نكص على عقبيه ، فاصبح رمزا خالصا للخيانة : « الناس معي عدا اللصوص الحقيقيين . وذلك ما يعزيني عن الضياع الابدي .. ولكن ينقصني التنظيم .. ومأساتي الحقيقية أنني رغم تأييد الملايين اجدني ملقى في وحدة مظلمة بلا نصير ، ضياع غير معقول ولن تزيل رصاصة عنه عدم معقوليته ولكنها ستكون احتجاجا داميا مناسبا على اى حال ، كي يطمئن الاحياء والاموات ولايفقدون آخر امل » .

●

نفسية سعيد مهران هذه ، هي ـ في الاساس ـ نفسية الفقير المطحون الذي يدفعه فقره الى ارتكاب السرقات الصغيرة ، كسبا لعيشه ، وان فعل هذا وهو كاره فعله تنفيسا عن كرهه لوضعه الاجتماعي المتدني ، وحقده على من يشغلون المركز الاجتماعي المرموق دون استحقاق وبلا جهد .

ان هذا هو ايضا ما يشعربه الساخطون والمتمردون ، ممن يدفعهم رفضهم لنصيبهم في الحياة الى الخروج على المجتمع . ولكن سعيد مهران يمتاز منهم جميعا بان له قضية اجتماعية واضحة يدافع عنها في صلابة ، ويحمل في سبيل نصرتها السلاح . كما ان له نظرة اجتماعية محددة دعمها بالتتلمذ على يدي رءوف علوان ، وبقراءة عشرات الكتب الثورية . لهذا لا يسرق سعيد مهران ليضمن عيشه وحسب ، ولكنه يسرق ويقتل ليدمر الأغنياء وأصحاب الجاه ، الذين هم اللصوص الحقيقيون في المجتمع وهو يسرقهم لسبب خاص . الى جوار هذا السبب العام . فانهم هم الذين يدفعون بامثال نبوية ، زوجته وعليش زوجها ،ورؤوف علوان استاذه السابق ، الى الخيانة .

ان هؤلاء السادة الأغنياء يدمرون روح الانسان ، ويدفعونه دفعا الى الخيانة . ألم يدفعوا برؤوف علوان الثائر السابق الى التنكر لمبادئه وتخليه بسعادة تشمل الفقراء ولمحوا فقرهم ؟ الم يجعلوه اداة في ايديهم فاصبح حربا على الفقراء الثوار منهم خاصة ؟ أليس هو الآن حربا على سعيد مهران ، يدعو الحكومة الى مطاردته وقتله ؟

لقد قتل رؤوف علوان ضميره ، وهو لهذا يود ان يقتل ضمائر الغير ، ويصفي اجسادهم .

من اجل هذا أقسم سعيد مهران أن يجعل مهمته الرئيسية في الحياة قتل رؤوف علوان بوصفه اخطر المجرمين بين « الكلاب » هو قاتل من لون جديد مهمته خطف الارواح بعد خطف الاشياء الثمينة . وبقتله سوف يمضي سعيد مهران قدما في مهمته المقدسة : تأديب الكلاب ..

الى جوار هذا ، يشعر سعيد مهران بانه قدر مسلط على خصومه ، ويناجي زوجته السابقة قائلا : سيأتي دورك . لامهرب مني . انا الشيطان نفسه .

وعلى الفور يرتبط سعيد بثائر آخر ومتمرد ، يمتشق السلاح دفاعا عن مبادئه ، ويهجر حياة الدعة ، واستقرار الطبقة الوسطى واخلاقياتها المنافقة ، واحترامها الزائف للقانون والدين ، ويمضي ليعيش مع المهربين والغجر والمجرمين ـ حثالة الأرض .

هذا الثائر الآخر هو ريتشارد دادجون الذي يصفه اهله وجيرته بانه تلميذ للشيطان فيقول لاميليا : نعم ، انا تلميذ الشيطان . ان كان ما تفعلون من سرقة ، وكذب وكره ومداهنة وشراب هو الخير ، فانا في جانب « الشر » .

تصف جوديث ، احدى شخصيات مسرحية « تلميذ الشيطان » ، التي يقوم فيها ريتشارد داد جون بدور ، الثائر على قيم الطبقة الوسطى ، الرافض لاخلاقياتها ، يصف ريتشارد هذا فيقول للصغيرة اليتيمة « السي » : « لا تطلبي معرفة شيء عنه يا السي . انك ما زلت غريرة لا تقدرين ماذا يكون الانسان الشرير . انه مهرب ، يعيش مع الغجر لا يحب امه ولا اسرته ،وهو يمارس المصارعة ويشترك في الالعاب يوم الاحد ، بدلا من ان يذهب الى الكنيسة . لاتسمحي له ان يقرب منك ، افعلي هذا جاهدة يا السي ، وجنبي نفسك وكل النساء اذى التلوث بالتعامل معه » .

اما برنارد شو ، كاتب المسرحية فيصف بطله بانه « مندفع متهكم فعاله تبدي التحدي ، وتظهر الهجاء لمن حوله . اما رداؤه فيبدو عليه الاهمال الجميل » .

يدخل ريتشارد هذا على اهله مختالا ، متبخترا ، لا يهمه احد ولا يعوقه شيء . والاهل مجتمعون ليستمعوا الى وصية المرحوم ـ فقد مات والد ريتشارد ، والكل مشوق الى معرفة ماذا فعل الميت بماله وممتلكاته . وماذا يكون نصيب كل منها ؟

يدخل ريتشارد فينكمش منه الكل . فهو عندهم مثال الشر الخالص وهم رموز الخير النقي . هو خاطيء ، وهم جميعا من عباد الله الصالحين ـ غير ان ريتشارد يعرفهم جميعا على حقيقتهم . عمه كان ـ الى وقت قريب ـ سكيرا لا يفيق ، وعمه الآخر يتاجر بالغش في الجياد ، وامه تعبد الله على حرف ، وتخضع لقضائه ، وقلبها غير مسلم بهذا القضاء ، ثم انها تكره الكل وتضطهد اليتيمة المسكينة « الس » ايما اضطهاد .

يقول ريتشارد هذا كله ، في مواجهة اهله ويضيف ساخرا : من ذا الذي يرى أهلي هؤلاء ، ولا يشعر بالفخر ؟

من اجل ان ينأى بنفسه عن جانب النفاق ، انضم ريتشارد الى الجانب الآخر ، جانب من يسميه هو « الشيطان » ، تحديا لاهله واستفزازا لمشاعرهم المقززة . وهو يقول ان هذا الانضمام الى الجانب الآخر قد صنع منه انسانا ، وجذبه أن يركع وحفزه الى ان يستجيب لما يراه هو فقط الخير .

هذا نراه يصادق اليتيمة « الس » البنت غير الشرعية لواحد من اعمامه ، لايبالي في هذا بنظرة المجتمع المتزمت الى بنت مسكينة ليس ذنبها ان غيرها اجرم .

ثم يمضي ريتشارد قدما فيتحدى اهله الاخيار هؤلاء ، ان ينضموا اليه ويرفعوا راية الثورة على بيت « الشيطان » ، ويستعدوا لملاقاة الغزاة البريطانيين ، الذين شنقوا عماله ، واخذوا يزحفون نحو البلدة .

وبالطبع ينكمش الجميع ويتقاعسون . فان الخير عندهم لا يمتد ابدا الى المخاطرة بالنفس والنفيس .

اما ريتشارد ، فانه يمضي في طريقه ، وتدفعه احداث المسرحية الى ان يتظاهر بانه القس اندرسون ، الذي جاء البريطانيون ليأخذوه ، فظنوا ريتشارد اياه . يفعل ريتشارد هذا لغير سبب يعرفه هو كل ما يقوله تفسيرا لهذه التضحية انه قد تعود دائما ان يسمع نداء نفسه ونفسه سألته : ولماذا يموت القس ولاتموت انت ؟ فلم يجد جوابا مقنعا ، سوى ان يتقدم بالتضحية . هذا اذن هو تلميذ الشيطان . وواضح مما تقدم انه يمثل خيرا انقى واجدى من خير الذين يعبدون التقاليد ، ويودون لو يخدعون الله وعباده ، ويتمسكون من الاحترام بشكله ومن الخير بمظهره .

ومثل سعيد مهران ، يتحدى ريتشارد الشر الملتف بمظهر الخير ، ويعريه ، ويسخر منه ، ويعمل ضده ، ومثله ايضا يتبنى قضية اجتماعية وسياسية كبرى . فهو يتصدى لقوات الاحتلال البريطاني ، ويناجزها بالقول والفعل ، ويسخر من عدالة بريطانيا المزعومة ، يوم يقبضون عليه لمحاكمة هي في الواقع اغتيال سياسي .

وكما يفعل سعيد مهران ايضا ، ينبذ ريتشارد المجتمع المحترم ، بعد ان يدينه ويذهب يعيش مع المهربين والغجر ، ومن لف لفهم ، ممن تصفهم امه سليطة اللسان بانهم حثالة الارض .

ان سعيد وريتشارد يقسمان المجتمع الى « لصوص » وكلاب ، ويلتقيان في أن شر « اللصوص » اهون بكثير من خير السادة الكلاب .

وهذه نظرة للامور مقلوبة عمدا ، كي تظهر بوضوح ان الخير والشر اعمق بكثير من ان يكونا مجرد كلمتين ، وفي هذا يقول برنارد شو :احيانا اعمد الى الاشياء فاقلبها رأسا على عقب فتتبين لي على الفور اشياء جديدة اتعلمها ، وهذا مايفعله شو في مسرحية أخرى من مسرحياته اسمها : « مهمة مسز وارن » . فانه يجعل هذه المومس ، حين أطبقت عليها قوات الشرطة وقدمتها للمحاكمة ، تتهم المجتمع كله بانه هو المومس ، وليست هي وحدها . ان المجتمع الذي يشجع الدعارة بالتعامل معها واغضاء الطرف عنها ليثبت بهذا انه هو الداعر الاول .

اما نجيب محفوظ فانه يكرر النظرة المقلوبة للخير والشر في روايته الباقية : « بداية ونهاية » حين يجعل الخير متأصلا في الاخ الأكبر حسين ، الذي يذهب ليعيش بين المومسات ، بينما يظهرنا على خسة الأخ الأصغر ووضاعته رغم تحليه بشكل الاحترام .

وهكذا يلتقي برنارد شو ونجيب محفوظ ـ يلتقيان على غير اتفاق ولكنه لقاء غير مستغرب اذا ادخلنا في الاعتبار النظرة الخيرة العميقة التي ينظر بها كل منها الى الناس ومجتمع الناس . ■■

د. علي الراعي

أقوال معاصرة



■ ليس لدى برنامج سياسي ، ولكن لدى حماقات أرويها عن اهل السياسة .

المثل الكميدى الفرنسي/ ميشيل كولوش المرشح للرئاسة

■ علاقاتنا بامريكا لاتتغير ولاتتبدل بتغير الاشخاص .

الامير نايف بن عبد العزيز

وزير الداخلية السعودى

■ اذا استمر الحال كما هو عليه الآن ، فان العالم العربي سوف يستورد غذاء من العالم الخارجي بقيمة ٢٠٠ مليار دولار سنة ٢٠٠٠ .

الشاذلي القليبي امين الجامعة العربية



■ لقد تبنى الكسندر هيج وزير الخارجية الامريكي طفلا لبنانيا ، ونأمل ان تكون هذه بادرة طيبة تجاه لبنان .

الرئيس اللبناني الاسبق كميل شمعون

■ نحن ـ الفلسطينيين ـ الاكثر تضررا من الصراعات العربية .

بسام الشكعة / رئيس بلدية نابلس

■ ساعة تقاعدى لم تحن بعد .

الرئيس الجزائرى السباق احمد بن بيللا



■ الثورة الفلسطينية ليست في مأزق .. ولكنها في خطر .

ياسر عرفات / رئيس منظمة تحرير فلسطين

■ الفقه الاسلامي كما قدمه سلفنا خلق حضارة معجزة ، اما الفقه الاسلامي كما يقدمه البعض الآن فهو يميت ولايحيي .

الشيخ محمد الغزالي

■ لا أحد في الغرب يهتم بالثقافة الاسلامية اذا لم تكن لها علاقة بالنفط .

د . ادوارد سعيد الاستاذ بجامعة كولومبيا



■ غيرنا يملك الدعاية ، ونحن نملك الاعلام .

المعطي بوعبيد / رئيس وزراء المغرب

■ ليس هناك شاعر افضل من آخر ، هناك قصيدة افضل من قصيدة

الشاعر العراقي حافظ جميل

■ عندما ماكنت معاصرا لاحداث لبنان في الحكومة الامريكية ، كنا نعرف اللاعبين ، اما الآن فهناك لاعبون جدد .

د . هنري كيسنجر وزير خارجية امريكا الاسبق

■ المزيد من الصحفيين يقتلون ويسجنون ويخطفون اكثر من اى وقت مضى ، مما يجعل المهنة أخطر المهن في العالم .

من تقرير معهد الصحافة الدولي عن عام ١٩٨٠

الاستاذ عجاج نويهض تقلب بين نشاطات ومواقع عديدة منذ اكثر من ستين عاما ، عندما شارك في تحرير مجلة « القلم » التي صدرت في سوريا سنة ١٩١٩ ، وصار سكرتيرا للمجلس الاسلامي الاعلى الذي كان يرأسه الحاج امين الحسيني حتى بداية الثلاثينات ، حيث اصدر في بيت المقدس مجلة « العرب » السياسية التي كانت تنطق بلسان حزب الاستقلال العربي الفلسطيني ، ثم عمل بالاذاعة الفلسطينية والديوان الملكي الاردني والاذاعة الاردنية حتى بداية الخمسينات . ومن مؤلفاته كتاب ابو جعفر المنصور وعروبة لبنان . ومن اشهر ترجماته كتاب « حاضر العالم الاسلامي » لمؤلفه الامريكي لوتروب ستودارد .



هذا هو إديسون العرب حسن كامل الصباح

بقلم : عجاج نويهض

اطلعت بكل وعي وحفاوة على ما نشره الاستاذ ماهر شمسي باشا في عدد اكتوبر ١٩٨٠ من « العربي » حول حسن كامل الصباح المعروف علميا وفي ايامه قبل ٤٦ سنة « باديسون » العرب . وعنوان كلمة الاستاذ ماهر : هذا النابغة العربي من يعرفه وينصفه » . ولما كانت هناك صداقة واشجة بيني وبين هذا النابغة العلم المفرد ، مكنتني من معرفة هذا الصديق معرفة بوسعي ان اقول تامة ، فقد دعاني ذلك لأن ابين جوانب عديدة من شخصية « الصباح » مما استوعبته منه.

الحقيقة اروع من الخيال . فالصباح شعلة متوهجة من النبوغ ، وكان نبوغه هذا سبب اغتياله سنة ١٩٣٥ على يد ثلاثة صهاينة من مهندسي الشركة الاميركية قرب مدينة مالون بمؤامرة رجح انها مبنية على صاعق كهربائي في السيارة ، اذ لما جاءت السلطة ودرست الحادث على الطبيعة ، وجدوه جالسا في مقعده من السيارة ذات القصة التي سنأتي على موجزها بعد ، كأنه لاشيء به سوى انه ميت فقد الحياة ، ولا اثر لاصابته برصاص في اى موضع من جسمه او لاصطدام السيارة او تدهورها . وإنما وجدوها منحرفة عن الطريق ، ولعل انحرافها هذا من قوة الصاعق الكهربائي الذي وضع بطريقة شيطانية بطريقة ما داخل السيارة . واتى الخبراء

وقرروا كل هذا ، ثم اعلنت الشركة نبأ وفاة حسن كامل الصباح الذي سجل لا اقل من ثمانين اكتشافا او اختراعا في اميركا واليابان وبريطانيا وفرنسا وايطاليا وغيرها . وابرق رئيس الشركة الى اهله معزيا ، ثم نقل رفاته الى لبنان فاستقبل في بيروت استقبالا عظيما . وصلى عليه ونقل الى النبطية مسقط راسه ودفن ثم بني فوق المدفن حجرة قصد بها ان تكون لائقة به ، ولكن ادركها اهمال شديد هي والضريح حتى نشر السيد احمد موسى سعد (من بريقع قضاء النبطية) في جريدة « الحياة » اليومية في ١٩٦١/٥/٢٦ كلمة ناقدة لوضع الضريح وهو حقا مما يخجل .

ولعل خير حفلة مهرجان لذكرى « حسن كامل الصباح » هي التي اقيمت في النادي الحسيني في النبطية في ١٩٦٥/٤/١ وتكلم فيها وزير التربية الوطنية الدكتور غالب شاهين والسادة الشيخ عبد الله العلايلي والدكتور فؤاد صروف والعلامة السيد موسى الصدر وجورج غريب وكامل مروه صاحب جريدة « الحياة » وانطوان فارنان واحمد الصباغ وجواد صيداوي . واقامت دار الاذاعة اللبنانية ندوة من اهل العلم والادب عقدتها حول الصباح ومجال عبقرياته وكذلك فعل التلفزيون اللبناني . ثم أمسى « اديسون العرب » في الذكريات شبحا عملاقا تتناقل الناس ذكره كعنترة بن شداد او الزير وما اشبه .

والآن نأتي على شيء من ترجمته : حسن كامل الصباح اللبناني هو من النبطية جنوبي لبنان ابوه الحاج علي الصباح ، وخاله علامة العرب الشيخ احمد رضا ، فالفضل في تربيته الاولى البيتيه لامه الحاجة أمنة رضا ولابيه الحاج علي ، ومنذ اخذ ينشأ وينمو ويتفتح عقله اشترك في توجيهه وتغذيته وتهذيبه وايقاظ مداركه علميا خاله الشيخ احمد رضا .

صديقي حسن كامل

اعرف صديقي حسن كامل الصباح معرفة خاصة تامة في المدرسة السلطانية بدمشق سنتي ١٩١٩ . ١٩٢٠ ايام « الحكومة العربية » بعد ان وضعت الحرب اوزارها . وباسم « الحكومة العربية » اختصت به في تاريخنا المعاصر الحكومة العربية على عهد الملك فيصل بن الحسين بن علي في دمشق في اول تشرين الاول ١٩١٨ اواخر تموز ١٩٢٠ فكان الاستاذ حسن كامل الصباح يدرس الرياضيات وكنت ادرس الانكليزية . وسبب تعارفنا لا بأس ان اذكره موجزا :

فاول ما صرت الاحظه من امره كاستاذ من الاساتذه الزملاء ، لا من حيث الاناقة المهيبة واللباقة في ملبسه الاسود دائما ، بل من حيث تواضعه الزائد طبعا وخلقا ، لا تطبعا ، حتى تكاد تحسبه قبل اكتشاف شخصيته وكينونته ، انه استاذ عادي بلغ الغاية من المؤانسة ورقة المعشر ، وكفى . كان له ولوع باختيار اللون الاسود لملبسه فلا اذكر طوال صحبتي الخاصة له ، اني رأيته مرة بغير الملبس الاسود ولا ادري السبب في ايثاره هذا اللون على غيره . وخطر في بالي يوما ان اسأله عن هذا ، فامسكت عنه لاعتقادي ان لا مجادلة في الذوق .

بعد مضي ٦١ سنة

اني اكتب عنه هذا بعد مضي ٦١ سنة على صداقتنا في دمشق اذ هو من مواليد ١٨٩٤ وكاتب هذه السطور ولد ١٨٩٦ . فاول ماعلى تسجيله من اوصافه هو الرزانة والرصانة . وهذا ابرزما ترى من عناصر شخصيته ، ويمكن ان نطلق على هذا « الهيبة الشخصية » ، يميل الى الطول قليلا ، حنطي لون الوجه . اسود الشعر والعينين . يعتمر الطربوش . (ما كانت عادة كشف الرؤوس قد ظهرت في العالم بعد) . منتصب القامة . وقد بلغت جهدي الان في التوغل في ذاكرتي ، فبدا لي حسن كامل الصباح كانه امامي احادثه ويحادثني . لم اره قط الا في حالة من ثلاث حالات :

الاولى : اما ماشيا في فناء المدرسة وساحاتها مشية الرجل الجدي وهو وقتئذ في الخامسة والعشرين ، البعيد جدا من حب المرح او المزاح او اللهو او العبث . فاذا رأيته لاول مرة ولم تكن تعرفه من قبل ، لابد لك ان تسأل : ومن هو هذا الشاب بهذا الوقار ؟ ودائما يتأبط كتابا في مشيته الوئيدة او يقرأ فيه ويتأمل . ولكن هذا الكتاب من كتب مطالعاته الخاصة ، وليس الكتاب الذى يدرس فيه الرياضيات في « المدرسة السلطانية » (او « مدرسة عنبر » كما كان يطلق عليها هذا لسبب يتعلق بالمكان المحلي) .

الثانية : واما واقفا يتحدث مع شخص ما صديقا كان ام غير صديق ، ويسرك ان تراه في هذه الحالة ، فهو لا يتسرع فيجيب بشيء قبل ان يفرغ من استماع محدثه ، ولوكان الحديث غير ذي قيمة . فاذا جاء دوره ليجيب اجاب بهدوء وطول اناة وبالغ الهوادة . لا تأخذه حدة خلق او طبع . لا يظهر الاشاحة عن شيء يسمعه او حديث غير شهي له ان يسمعه .



الثالثة : حديثه العلمي في الصف داخل المدرسة ، او في مجلس خارجي له صبغة علمية مما يتعلق لا بالرياضيات وكفى ، بل ايضا بالكون والطبيعة على الاطلاق . فتراه في هذه الحالة لا حدود لمهارته في صياغة الكلام صياغة بسيطة سهلة التناول تتقبلها الاذهان والعقول بشهية وحب المزيد منها . فهو راسخ العلم في كل مادة يتعاطاها .

في عينيه جاذبية لا تستطيع ان تهرب منها . فاذا تطلع اليك كسرت انت من نظرك . واسع الجبهة ، جميل الوجه انيسه تعتقد ان هذا الوجه وجه خير وبشر وتفاؤل . ما رأيته في دمشق الا في لباس مدني واسود كما قلت . واطلعني مرة ويطلب مني على صورة له في البزة العسكرية العثمانية في « غاليبولي » ايام الحرب الاولى فاذا به من حسن الهندام بالبزة العسكرية االعثمانية كشأنه في لباسه المدني . فلم يسعني الحال الا ان قلت له معجبا : ليست بذاتك المدنية ولا العسكرية هي ما يعطيك الاناقة ، بل انت بجميع مظاهرك واطوارك مثال الاناقة واللباقة فملبسك يستمد حسنه وجمال هندامه منك ، فابتسم ابتسامه الخجول وغير مجرى الكلام .

بقي علي في نهاية مطافي حول اوصافه ، ان اطلع القارىء الكريم على « خاصية » رأيتها فيه تقيمني وتقعدني . والى الان على كثرة لقائي الاصدقاء والاخوان ومطلق الناس على اختلاف الطبقات ، لم اجد لها مثيلا في غيره . فانك ان تعرفت بحسن كامل الصباح واختلطت به ، اى نوع من الاختلاط الاجتماعي ، فانك تشعر بانك امام شاب « مزدوج الروح » . اعتقد ان القارىء اللبيب ـ وكل قارىء « للعربي » احسب انه لبيب ـ لابد أن يتوقف عند مروره بعبارتي هذه « مزدوج الروح » ، او ربما استغربها استغرابا شديدا . ولكني اقول ان هذا يحتاج الى شيء من الايضاح : هو امامك

بطوله وعرضه ، وقامته وهيبته ، ويكون هو المتحدث او المستمع ولا فرق . فتوحي اليك كينونتـه ان وراءها شيئا آخر غير منظور . هذا الشيء غير المنظور لا استطيع ان اصفه . ولكني اعتقدت حينئذ كما اعتقد الآن ان مدارك حسن كامل الصباح وغزارة بداهاته العلمية ، خلقت ظلا في نفسه تهيمن على مطلق تفكيره . وكان يدرس الرّياضيات في السلطانية ولكن طموحه كان يدور في افلاك اخرى ،

اعتقد واظنه كان يعتقد بمثل هذا ونحوه ، ولا ترد هذا الى فعل « العبقرية » وهي تتهادى في ذهن صاحبها . فالعبقرية ذات حدود مهما يكن الامر . واذا سلمت معك ان هذا في صاحبنا الفالي حسن كامل الصباح « عبقرية » سخية زائدة مفرطة ، فجوابي ان ليس في العصر الحاضر عند الغربيين وعندنا ، مثيل لهذه العبقرية مهما حسبناها شديدة ، فانفراده في امريكا والعالم « بعبقريته » هو من العظم علميا شاهد على ما نقول . كان يعوز حسن كامل الصباح دولة عربية تحتضنه وتيسر له اموره . سبعة جيوش عربية كان على يدها انهيار فلسطين سنة ١٩٤٨ ، ومن يدري فلو استطاع حسن كامل الصباح ان يكون في العراق او السعودية من ١٩٥٣ فصاعدا فلربما كانت موازيننا الآن غير موازين !

لما اشتدت الأزمة بين فيصل بن الحسين ، وغورو وفرنسا في دمشق ، وصارت العاصفة تقرب ، آثرت ان اجيء بلدى في لبنان ، لانـي لست جنديا لاخدم في الجيش ، واهتزت دواليب الحكومة وفقدت الاتزان ، فلا فائدة من وجودي في عملي في دمشق بحال . فدعوت صديقي حسن كامل الصباح ان يقبل دعوتي ، فيأتي بلدتي ، « راس المتن » ويكون ضيفي فابى واعتذر .

عندما تكلم عن نفسه

ولنسمعه يتكلم عن نفسه بنفسه في نشأته الاولى فقال :

« كان ابي كثير التعامل مع سكان البادية الشامية ، وكان في احاديثه عنهم عاملا قويا في تثبيت مثلهم العليا ومنازع نفوسهم الطموح ، وابائهم وشممهم وسخائهم ، على صفحة دماغي . وكان خالي الشيخ احمد رضا كثير الاهتمام بدرس الحقائق الكونية (في المقتطف والهلال وغيرها) [١] وقد سادت هذه على من حولها من الاقارب ، لهذا كانت امي وشقيقاتي مولعات بآداب العرب واشعارهم ، ونوادر عظمائهم فاصبحت انا بحكم الطبع انظر الى آداب العرب وعلومهم نظرة طموح وامل . وكان ذلك مبدأ قوميتي وطموحي العلمي ، وما زلت اذكر النصف الاخير من ليالي رمضان حيث كانت امي تجلس في فناء الدار وتحدثني عن امجاد العالم العربي منذ عهد الامبراطورية العربية الاولى الى عهدنا الحاضر . وانا اردد ابيات ابي العلاء المعري وابحث عن النجوم التي ذكرها في قصائده واشار اليها ، وهكذا بدأ هيامي بدرس الكون وحقائقه » انتهى كلام الصباح عن نفسه وانت ترى من هذا الكلام شدة تأثره بخاله الشيخ احمد رضا الذي سبقت الاشارة اليه .

سنة ١٩٤٠ انتقل من المدرسة السلطانية (الثانوية) في بيروت الى صف الاول علمي « الفرشمان » في الجامعة الاميركية ـ كان اسمها منذ تأسيسها ١٨٦٦ حتى ١٩٢٠ « الكلية السورية الانجيلية » ومختصر حروف اسمها S.P.C (Syrian Proresranr lollege) فصارت « الجامعة الاميركية في بيروت » . وسنة ١٩١٥ دخل حسن كامل الصباح في الهندسة ولكن في شباط ١٩١٦ طلب للخدمة العسكرية في الجيش العثماني ، لان التبطية من جبل عامل وجبل عامل تابع لولاية بيروت ، وولاية بيروت غير لبنان المستقل اداريا عن الولاية وتابع راسا وزارة الداخلية في الآستانة . وانما صار جبل عامل من لبنان لما كبر الجنرال الفرنسي غورو سنة ١٩٢٠ لبنان فجعله « لبنان الكبير » بعد خروج الملك فيصل بن الحسين من دمشق فدخلها غورو بعد « معركة ميسلون » . فاعطى حسن كامل في الجيش العثماني رتبة ملازم ، ونقل الى الآستانة والحق بسرية التلغراف اللاسلكي التي قيادتها بيد الالمان حلفاء تركيا ، فاستفاد من الالمان كثيرا جدا من العلوم والنظريات والممارسة مما واتى طموحه وفهمه العلمي ، فكان يرتوي من كل هذه حتى الشبع . وصار في منطقة غاليبولي الحربية فاشتد تفاعل عقله وانتقل بسبب اختلاطه بالالمان من حال الى حال في علومه الرياضية العليا حتى يبدو كأنه متخرج من الجامعة ، وشهد له الالمان بهذا .

درس الالمانية فاتقنها فازداد استعدادا ، للاشراق العقلي . وقدم اليه الالمان من كتبهم العلمية شيئا واقرا

---

(١) كانت « المقتطف والهلال اشبه بمدرسة علمية ادبية سيارة في العالم العربي منذ الربع الاخير من القرن العشرين .

يناسب طموحه فالتهم هذه الكتب التهاما، وظل بها يعلو من افق الى افق، ولم يبخل عليه الالمان بشيء يريده، فاشتد اعجابهم به وصاروا يقيمون له وزنا علميا.

وطالت صحبته للالمان اذ بقي معهم الى نهاية الحرب. وخلال تلك المرحلة كان حسن كامل الصباح مشغولا بكيفية خدمة امته العربية، وقد انكسرت المانيا وتركيا في الحرب، وبدأ البحث في وسيلة الانتقال الى بلاد العرب، فتلفت نحو دمشق ١٩١٩ فوجدها قد قامت فيها «الحكومة العربية» الفيصلية كما تقدم، فلقي صعوبات في وسائل النقل. ولكنه وجد مساعده من القيادة العسكرية البريطانية، فوصل دمشق سنة ١٩١٩ وكان ساطع الحصري قد سبقه اليها بدعوة من فيصل ليتولى امور المعارف (ويطلق عليها اليوم وزارة التربية والتعليم» فعينه في المدرسة السلطانية استاذا للرياضيات، وهنا بدأت اعرفه على ما سبق بيانه. ولكن على قبل اختتام هذه الفقرة أن اكرر القول ان دمشق وقتها كانت كعبة العرب في الاماني القومية العربية، وهي خارجة من ثورة الحسين بن علي وفيها السوري والعراقي واللبناني والفلسطيني والاردني والحجازي يعملون معا في بناء دولة عربية حدودها جنوبا العقبة وجنوبا بغرب عريش مصر ولا اعترف بوعد بلفور الصادر ١٩١٧.

وبقي حسن كامل الصباح في دمشق الى ١٩٢١ وهو يداعب طموحه وطبعا لم ترضه الحال بدمشق بعد الاحتلال الفرنسي، وجزئت البلاد العربية وفق معاهدة «سايكس - بيكو» البريطانية الفرنسية. فانتقل الى الجامعة الامريكية يدرس الرياضيات للصفوف الثانوية حاسبا هذا ضربا من التسلية ريثما يعلم على اي وسادة ينام بطموحه، وكانت ثورة العراق ضد بريطانيا سنة ١٩٢٠ وثورة مصر عارمة والعراك بين مصر وعلى رأسها سعد زغلول وبين الانكليز، على أشدة، فكانت ثورة مصر هذه وثورة العراق اول انتفاضات في العالم العربي بعد الحرب الاولى.

اخبرني صديقي الزعيم العسكري في الجيش الاردني محمد سعيد العاملي [٣] ان «موشيه دايان» الوزير اليهودي الصهيوني، وآخر وزارة تولاها في اسرائيل وزارة الخارجية ثم استقال. كان طالبا في الجامعة وقت أن كان حسن كامل يدرس الرياضيات وتتلمذ في الرياضيات عليه وكان للصباح مجادلات عنيفة معه لادخل للدرس بها

الرحلة الى امريكا

ويجد المطالع الباحث في كتاب «كامل الصباح - عبقري من بلادي» للاستاذ يوسف مروه المطبوع في بيروت سنة ١٩٥٦ منجما من التفاصيل عن سيرة الصباح وحياته في ٢٨٥ صفحة بحجم وسط. وفي هذا الكتاب كثير من رسائل الصباح الى اهله من بيروت وامريكا، ويصف الصباح في هذه الرسائل نمو مطامحه العلمية وذروة امانية ان يصبح مهندسا عالميا ولكن لا يحب أن تكون ثمراته الا لبلاده العربية الاسلامية. في هذه الرسائل واحدة بعث بها الى خاله الشيخ احمد رضا في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢١ تعتبر صورة شديدة التعبير عن اعتلاج آماله وهو يرنو الى المستقبل ويزيد التضلع من العلوم الطبيعية وليس بيده مال. هذه المرحلة وهو في بيروت مفعمة بعوامل الدفع والجذب في غليان نفسه. فقد قدم عريضة الى حاكم لبنان الفرنسي يرجو منه مطلبا يتعلق على ما يظهر بالسبيل الى ما يريد. هو لم يفصح في رسالته هذه الى خاله عن ذلك المطلب، ولكن لم يكن له امل في تلبيته. وكان وقتئذ كما يؤخذ من هذه الرسالة معروضا عليه العمل في كلية الشيخ احمد عباس الازهري البيروتي، وهذه الكلية اشتهرت بانها، ولا سيما قبل الحرب العالمية الاولى، مصنع يخرج شباب القومية العربية، ومعظم الشهداء الذين شنقهم السفاح الطوراني ١٩١٥ و ١٩١٦ في بيروت ودمشق، هم من متخرجي هذه الكلية فلم يقبل الصباح بالمرتب الذي عرض عليه. والصباح يتقلب في هذه الابواب ويقول انه اذا لم يوفق في مساعيه سيراجع

(٣) صديقي محمد سعيد العاملي - رحمه الله - هو اخو حسن كامل الصباح وشقيقه، كانت خدمته في الجيش العربي الاردني ما بين الحربين، وفي المملكة الاردنية الهاشمية، ولقب «بالعاملي» «نسبة جغرافية الى «جبل عامل»، ولم يكن في الاردن يعرف بنسبه - كأخيه - الى آل الصباح في النبطية. وسالت يوما بعض اصحابي عن هذا وانا في عمان بعد ١٩٤٨ منتقلا اليها من القدس بعد الانهيار، فقيل لي كانوا اول الامر في الاردن يقولون فلان الشامي وفلان العراقي فلما جيء الى محمد سعيد نسبوه الى جبل عامل وبقيت هذه النسبة له كل مدة وجوده في الاردن وبعد «التقاعد» رجع الى لبنان واقام في بيروت وفيها توفي بعد سنوات.

مدرسة انكليزية تحتاج الى معلم رياضيات . واما مأمله الاكبر فهو ان يتمكن من تحصيل العلوم العليا الكبرى في الغرب ليكون مهندسا ، حتى اذا نال شهادة الهندسة عاد جبار المهندسين لشدة ثقته بنفسه . وتطلع الى المدرسة المركزية في باريز ، ولعل هذا ما كان يقصده من عريضته الى حاكم لبنان ، لان تلك المدرسة في باريز هي اهم مدرسة هندسية في فرنسا . وظل يحسب حسابه ويورده على مختلف الاحتمالات ، وبالتالي قال لخاله باليت بنيسر له ان يقنع غنيا يقرضه (٦٠٠) ليرة لبنانية على شروط خلاصتها انه بعد عودته سيشارك هذا الغني في مشروعات انشائية هندسية جمة ، بحيث يتقاسمان الربح العظيم . ووصف بايجاز بعض المشروعات . وذكر الليطاني وتوزيع مياهه على القرى وتوليد الكهرباء منه . وامل تأميلا ان « يوسف الزين » يمده بهذا القرض . وان لم يكن الزين ، فلعل « النعماني » [3] اذا عاد من المنفى يعطيه هذا المبلغ .

ولما لم يجد لطموحه ميدانا وهو في لبنان ، قرر ان يهاجر الى الولايات المتحدة الاميركية . لعل فرصة حسنة تواتية . فكاتب جامعة بوسطن وقصدها سنة ١٩٢٢ ، فذهلوا من اشعاع عقله وقالوا انهم لم يروا له نظيرا بعد .

وامدته « جمعية الشبيبة السورية » هناك بمئتي دولار وثقلت عليه نفقات الدراسة ، فاخذ يتنقل في عديد الجامعات لعله يلقى مخرجا وفرجا . وضجر من اساليب التعليم الروتيني ، فهم يتسكأون وهو بسرعة الفهم والاستيعاب كالشهاب الثاقب فمن جامعة ايلينوى حتى آب ١٩٢٣ .

كيد الكائدين

وجاءه دور جديد ساقه الى شركة « جنرال الكتريك » فدخلها واعتبر حامل شهادة الهندسة الكهربائية ، وباشر عمله في ٢٠ آب ١٩٢٣ ومرتبه ١٧ دولارا في الاسبوع ثم زيد الى ٢٥ . ثم جاءه من « جمعية تهذيب الشبيبة السورية » ٤٠٠ دولار مساعدة ، فقويت نفسه وقرر العودة الى الجامعة واختار الان جامعة اوربانا بعد ان مكث في « جنرال الكتريك » ٣ اشهر فنال شهادة استاذ علوم متفوقا . وفي اوائل آذار ١٩٢٤ عاد الى « جنرال الكتريك » برتبه مهندس ممتاز وكتب الى اهله في النبطية في نيسان ١٩٢٤ يشكو ضيق ذات يده ولكنه صابر مثابر لان الحياة جهاد .

ولكن سرعان ما جعل عقله الوهاج يأتلق عمليا الآن في « جنرال الكتريك » ويقوم بفتوحاته العلمية حتى اخذت عقارب الحسد والغيرة النهاشة تدب في قلوب من حوله من المهندسين والمديرين ، وفيهم صهاينة خبثاء . وتتضمن رسائل حسن كامل من الوصف للكائدين له ما يفضي بالعجب ، وهناك خبيث اسمه مستر بون رئيس الدائرة كان البومة الناعبة نحو حسن كامل ، واخذت عناصر الفساد تؤلف باستتار صعيدا شريرا ضده . فخدعوه وجعلوه يوقع عقدا ان جميع ما ينتجه عقله هو ملك للشركة ، وهو في الواقع لم يوقع هذا العقد وانما زوروا العقد تزويرا كما ظهر بعد مماته . ووضعوا تحت يده المهندسين والموظفين . فسبح في العمل المنتج اى سباحة مذهلة .

وهنا ١٢ سنة وهذا الدماغ العربي يقذف بالمكتشفات والاختراعات ، والثمرات كلها للشركة وليس له الا المرتب ، حتى سجلوا له حسب القيود والتسجيلات الرسمية ٦٧ اختراعا ، وبكم كانوا يكافئونه على كل اختراع ؟ بدولار واحد فقط لاغير . ولما طلب منهم ان ينصفوه قالوا له : لو لم نقدم اليك الأجهزة والمكان والموظفين مجانا ، لما كان باستطاعتك عمل شيء . هؤلاء هم لباب الرأسمالية الاميركية والصهاينه كانوا الساهرين على عقل هذا العربي ، العقل الفتاق لا في اميركا فحسب بل يراقبون علاقاته الخارجية بالعالم . وانظر في هذا المنطق واعجب منه . فهل تلك الاجهزة التي وضعوها بين يديه ، وعلى فرض أن قيمتها تبلغ ملايين الدولارات اهى المخترع ام عقل حسن كامل الصباح . ومرة في اسبوع واحد قذف باربعة اختراعات . ومرة قال له احد المهندسين وهو من طغمة الشر : لو كنت انت حرا وبعت هذا الاختراع بيعا لاحدى الشركات لا شترته الشركة منك بنصف مليون دولار بدلا من دولار واحد .

(٣) هو عارف النعماني من اغنياء بيروت اشتهر اسمه وذكره في البذل في سبيل القضايا العربية والحركات القومية . لما ذهب وفد « مجلس الادارة » اللبناني الى دمشق اوائل ١٩٤٠ ليتفق مع الملك فيصل على مستقبل لبنان عربيا ، وكان هذا المشروع سريا . فاطلعت فرنسا على هذا فاعتقلت وفد مجلس الادارة وهو في طريقه الى دمشق وحاكمت اعضاءه ونفتهم الى الخارج وكان عارف النعماني ، وهو ليس من الاعضاء ، ولكن من الباذلين مالبا في سبيل هذا المشروع فحوكم عسكريا ونفي مع رفاقه .

وبقي يعمل ولم يكبله اليأس . كان يتحمل كل هذه الشناعات والجحود والنكد من الاميركان واليهود ريثما ينتهي من اكتشاف الشيء الذي لو تم لكان كفيلا بقلب العالم راسا على عقب ، وهو تحويل نور الشمس الى تيارات كهربائية ، ثم يعود الى بلاد العرب وفي صدره هذا الارب ، وفي هذا كان اغتياله بطريقة شيطانية على يد من هم اشبه بالعصابة سنة ١٩٣٥ وفي آذار ١٩٣٤ كتب الى والده يقول : « تكاد نفسي تزهق من بقائي في هذه البلدة فان اهلها السافلين لهم ادمغة البراغيث واخلاق القرود ، والسنة حادة لا يجودونها الا على من كان غريبا مثلي » ويكمل الرسالة بقوله ان رئيسه لا خلق له ، ثم يسأل الله العون ان ينتقل الى عمل آخر .

واحدث اختراعا في التلفزة ، ولما أعد فكرته وشرحها للشركة عجلت فسجلت هذا الاختراع في بريطانيا وفرنسا وبلجيكا واليابان وجنوب افريقيا والهند .

وقال في احدى رسائله الى اهله : « كل حسناتي واعمالي حمد عليها الرئيس لا انا » ويقول في رسالة اخرى اشياء خطيرة قد تكون مما سبب له نهايته على ايدي تلك العصابة : « ان النتائج التي توصلت اليها حتى الآن من الاعمال التي قمت بها ، ادت الى امر ذي خطورة لم اكن احلم من قبل وربما كان ذلك وسيلة الى تحقيق الاماني واحظى بمشاهدتكم » . هو يقصد المجيء بطياره خاصة له وفي دماغه فكرة تحويل نور الشمس الى تيارات كهربائية مختزنة بحيث يمكن ري الصحارى حتى الربع الخالي . كتب هذا سنة ١٩٣٥ قبل مصرعه بقليل .

مع الامير شكيب .. في الحلم

ومشت السنون وحسن كامل عاش عربيا مؤمنا بعروبته واسلامه ، مراده تحويل البادية بين الشام والعراق الى رياض وجنان . سمعت روسيا الاتحاد السوفياتي به فارسلت مهندسا فاوضه ليذهب الى موسكو براتب ضخم فاتر المضي بعمله حتى يعود الى الباديه . كتب الى اهله في ٢٦ نيسان ١٩٣١ يقول : « كلما قلت تم الأمر وقرب الفرج تنعكس الاية فيقوم واحد او عدد من القوم هنا فيقاومني ويحبط عملي ولا ادرى الى اين سينتهي بي المصير » . وكأنه كان يتنبأ بهذه العبارة تنبؤا صحيحا كما ترى .

وكان يعتقد بصحة تأويل الاحلام التي ليست اضغاث احلام ويؤمن باكثرها ، وقد رأى حلما سنة ١٩٣٠ لنعش آماله وخفف شيئا من الامة ، وكتب رسالة الى والده في ١٥ ايلول من تلك السنة بخط يده ، وهذه الرسالة هي عندي سلمتنيها شقيقه محمد سعيد سنة ١٩٦١ في بيروت تتضمن صفوة الحلم وانه كان في مجلس فيه الامير شكيب ارسلان وحسن كامل يحتل مركزا عاليا ومن حولها الأزهار . وفي الحقيقة كما اذكر جيدا ان الامير شكيبا كان يكاتب الملك فيصل ملك العراق بشأن مشروعات حسن كامل . ولكن وفاة فيصل في سويسرا سنة ١٩٣٣ اوقفت هذا المسعى الذي انتقل الى الملك عبد العزيز على يد الامير شكيب وربما لو روجعت اوراق الملك عبد العزيز المتوفي سنة ١٩٥٣ لعثر على مراسلات الامير شكيب .

وكتب الى والده في تلك الظروف خطابا نرى من الضروري ايراده بنصه وهو : « سيدي الوالد اعزه الله !

« بعد ان كتبت اليكم الكتاب صباح اليوم مرفقا بالحوالة المالية ، ذهبت الى الدائرة فوجدت كتابا منكم وسررت بقدومه . وقد حصل لي عدة امور هذا اليوم اكثرها غير مرضي . فقلت لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . هكذا تكون الايام . أمل ان يكون هذا مقدمة سوء للنهاية المرضية . وعسى ان ينتهي الامر على خير . اما امر الاحلام فاني مازلت اعتقد بصحة اكثرها مع انه لا يوجد عليه برهان علمي ، على ان العلم لم يتقدم التقدم الكافي لفهم تلك المطالب وما اصدق القرآن اذ قال : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » . وقد حلمت بالامس اني كنت انا والامير شكيب ارسلان في بيت كبير ولكل منا مركز فيه ، ومركزي فوق درجات ، فقد زين درابزينها بالازهار وقد اتفقت والامير على امور متعلقة بمستقبل الامة العربية وهذا كل ما اتذكر من الحلم . اقبل انامكم وانامل سيدتي الوالدة وسلامي للجميع ـ كامل » .

وعلى ذكر توقيعه فانه يوقعه هكذا في رسائله « كامل » دون ان يسبقه باسم « حسن » وهو اسم التبرك عادة . النهاية المفجعة وقد اقتربت . آخر رسالة منه الى اهله في ٢٦ كانون الاول ١٩٣٤ قبل مصرعه بعدة اشهر (ثلاثة واربعة ايام) وهي اسطر قليلة كانها وحي من وراء الغيب :

« انني اجتاز الآن مرحلة صعبة خطيرة ، اسأل الله ان ينجيني منها ، فادعوا لي الان دعاءكم ورضاكم قد يخلصانني من اعداء الداء يكيدون لي دائما ويسعون ويسعون لزحزحتي من طريقهم » .

قلت ما اشبه هذه العبارة بتلك التي قالها السيد

المسيح عليه السلام لما مضى اليهود به الى جبل الزيتون . قبل ان يقع بيد بيلاطس البنطي وسلم الى مجلس السنهدرين اليهودي في القدس . قال الانجيل الكريم في رواية العبارة : « فجثا على ركبتيه وصلى قائلا ان شئت ان تجرعني هذه الكأس ، ولكن لتكن لا ارادتي بل ارادتك » .

وكما ان المسيح لم ينج من يهود اورشليم سنة ٣٠م كذلك حسن كامل الصباح لم ينج من يهود « جنرال الكتريك في امريكا ١٩٣٥ .

حتى تعمر صحراء العرب

الا فليسمع العرب وليتأملوا كيف تتواطأ الرأسمالية مع اليهودية للتخلص من الدماغ العربي الذي انتهى ١٩٣٥ من فكرة مشروعه لتحويل نور الشمس الى تيار كهربائي في بوادي العرب . ولنسمع « كاملا » يحدثنا بلغة مبسطة خالية من طلاسم المصطلحات العلمية المعقدة عن مشروعه هذا فقال : « تمكنت من استنباط بطارية كهربائية ثانوية يتولد بها حمل (تشارج) كهربائي بمجرد عرضها لاشعة الشمس . ولبيان اهمية هذه البطارية اقول لنفرض اننا وضعنا عدداً منها يغطي مساحة ميل مربع ، في وسط الصحراء العربية ، حيث لاغيوم ، فالقوة التي يمكن استصدارها من الشمس عندئذ تكون مئتي مليون كيلوات (فولت) او ١٤٠ مليون حصان ، غير ان البطارية يمكنها ان تستخدم جزءا من عشرة الاف جزء من هذه القوة ، فيكون ما تستحصله من الشمس بواسطة هذه البطاريات قوة كهربائية لا تقل عن مئة الف كيلوات (فولت) اى قوة تزيد عن خمسين مرة عن اعظم قوة يمكن استحصالها من مولدات « نهر الصفا » [٤] في لبنان . ان القوة الكهربائية التي تولد من نهر الصفا هي جزء حقير من قوة النور الواقعة على الارض من اشعة الشمس ، هذا الجزء الحقير يبخر الماء فيصبح غيوما ثم سحابا ثم سواقي وانهارا ثم شلالات . وعليه فان استخدام اشعة الشمس وتحويلها راسا الى قوة كهربائية دون استخدام الات بخارية هيدرولية (مائية) ومولدات كهربائية متحركة ، هي الطريقة الطبيعية الضابطة لا ستخدام اشعة الشمس . فاذا حملنا البطاريات بالحمولات الكهربائية من اشعة الشمس في الصحراء العربية ، نكون دائما عثرنا على ابار البترول لان الذى يجعل البترول ثمينا هو مقدار القوة التي يخزنها بين دقائقه ، ولنفرض اننا اسسنا مزرعة بطاريات شمسية كهربائية في اواسط البادية السورية بين دمشق وبغداد ، ثم صنعنا سيارات كهربائية تسير بواسطة تلك البطاريات عوضا عن البنزين فيقف سائق السيارة عند كل مزرعة بطاريات ويستبدل البطاريات التي استعمل حملها (تشارج) الكهربائي في تسيير سيارته ببطاريات قد ملأتها اشعة الشمس بحمل كهربائي كامل من تلك المزرعه الشمسية وبهذه الوسائل ومثلها يمكن تحويل البوادي والصحارى وخاصة البادية السورية الى مدن عامرة آهلة بالسكان فيعود اليها مجدها السابق ، ومع ذلك فان شركة جنرال الكتريك لم تسمح لي باخذ امتياز باسمي وهي ستستثمر هذا الاختراع . افلو كنت مشتغلا لحكومة من الحكومات العربية مثلا ، فيرجع هذا الربح لها وهو كما ذكرت سالفا يماثل أبارا كثيرة للبترول والبنزين اى انه يحوى ثروة طائلة كاملة » .

خابر حسن كامل حكومة العراق كما تقدم ، ثم السعودية بعد وفاة الملك فيصل ملك العراق ، وذلك بواسطة الامير شكيب فاطلعت « جنرال الكتريك » على ما يهتم به من هذا المشروع العظيم ، واشتمت الشركة رائحة ان حسنا كاملا ان اخرج من اميركا حيا ومعه دماغه فقد يحمل الحكومة السعودية او غيرها على امداده بالمال فينفذ المشروع الذى بات بيت قصيده ، فتركوه يتهيأ للسفر ، حتى حان وقت براحه اميركا ليركب طيارته الخاصة ، فقبيل ان يطير وقع المصير .

في ٣٤/١٠/٦ اشترى حسن كامل سيارة بثمن نحو (٦٠٠) دولار .

وفي ٣٤/١٢/٢٨ اشترى ايضا طياره صغيرة ليمتطيها في الجو الى بلاد العرب في ربيع ١٩٣٥ وثمن الطيارة (٨٥٠) دولارا فدفع من هذا الثمن ٢٠٠ دولار وترك سيارته لدى الشركة رهنا على باقي الثمن الذى اخذ يسدده اقساطا شهرية ، وترك الطيارة في مستودع الشركة . وقبل مصرعه بيوم اقترض من احد مستخدمي الشركة (٦٠٠) دولار بكفالة رئيس الشركة .

ودبرت المؤامرة

في ٣٥/٣/٢١ ذهب كامل بعد الظهر مع « صديقين » له من الامريكان اليهود وهما مستر

(٤) نبع « نهر الصفا » قرب « عين زحلتا » حيث يوجد مصيف من اجمل مصايف لبنان .

« جدعون بوجل » وزوجته في سيارتهما الى « مالـون » قرب نيويورك لكي يدفع القسط الاخير من ثمن الطيارة ، ويتفقدها ويسترجع السيارة فوصل ودفع القسط الاخير وطلب من المسؤولين تهيئة الطيارة واعدادها للاستعمال . ثلاثة صهاينة على ما يبدو دبروا المؤامرة ونفذوها احدهم اسمه « الكسندرسن » والثاني « برنس » والثالث « بوجل » الذى على يده كان المصرع ، ووقعت النهاية هكذا . عرض جدعون « بوجل » على حسن كامل وهم ذاهبون الى « مالون » قرب نيويورك بشأن الطيارة ، بل بوجل رجا منه رجاء وهو ان يتبادلا السيارتين اللتين لهما ، فيركب حسن كامل سيارة بوجل لانها مفتوحة (وفيها جهاز المؤامرة الشيطانية) وبوجل وزوجته يركبان سيارة حسن كامل لانها مغلقة وزوجة بوجل مزكومه لا يناسبها الركوب في السيارة المكشوفة لزوجها) ، فوافق حسن كامل بكل طيبة خاطر لان المسألة انسانية ومروءة ، فامسى حسن كامل راكبا سيارة بوجل و« بوجل » سيارة حسن ، وسارا نحو « مالون » وفي المقدمة « بوجل » والمسافة التي بين السيارتين نحو ميل (١،١/٢ك.م) وفي اثناء الطريق كان « بوجل » يكثر من التطلع الى الوراء ليرى الصباح في اثره وبينهما تلك المسافة ، فتطلع لاخر مرة فلم ير الصباح في اثرهه فعلم بالنهاية ، وهو من مدبرى مؤامرة الصاعق الكهربائي ووضعه بشكل ابليسي في السيارة ، سيارته اى سيارة بوجل ، فاخذ يرجع الى الوراء حتى وجد السيارة التي فيها الصباح وهي منحرفة الى جانب الطريق ، ووجد الصباح في مقعده ميتا باردا رحمه الله .

كيف دبرت مؤامرة الصاعق الكهربائى الا من هؤلاء اليهود الثلاثة الكندرس وبرنس وبجل ، والرابع زوجة بوجل اذا كانت شريكة في المؤامرة . والثلاثة هؤلاء كلهم مهندسون في « جنرال الكتريك » ولعل هؤلاء كانوا اكثر المهندسين حسدا للصباح وكيدا له لما رأوه كالشهاب عقلا وذهنا وعلما ، واكتشافا واختراعا .

لم يحضر الطبيب الشرعي الا بعد خمس ساعات وراح يقول : ان سبب الوفاة انفجار في الدماغ ، او سكتة قلبية ، ثم يتردد بين السببين دون ان يعين سببا مقنعا . وهنا تبتدىء ابواب الاسئلة تفتح على مصاريعها ولا انتهاء لها . ولا تحقيق جدى اكثر من سطحى مصطنع لطي الحادث ، والذى قدره العقلاء ان جهازا كهربائيا له حركة خاصة كانت مركزة في سيارة « بوجل » التي كان يركبها الصباح ولا يبدأ هذا الجهاز عمله الا بعد اجتياز مسافة معينة . واذا رحنا ندقق في اقوال الطبيب الشرعي المترددة بين انفجار في الدماغ وسكتة قلبية ، سببه الصاعق الكهربائي

●

لما كان يلي الحكم في مصر الخليفة الفاطمي السادس ابو علي المنصور المعروف بالحاكم بامر الله الفاطمى في اواخر القرن الرابع الهجرى ، كان العالم الرياضي « الحسن بن الهيثم » في ابان لمعانه في العراق فاشير على الحاكم ان يستقدمه ليباحثه في امر فيضان النيل ، فجاء الحسن ولكن كانت الفكرة اقامة سد عند اسوان يتولى امره الحسن غير ان هذا المشروع لم يقع ولم يترك لنا التاريخ تفصيلا بشأنه ، وبين قضية الصباح من تحويل نور الشمس الى عمران البادية ، وبين مشروع سد اسوان على يد ابن الهيثم ، تشابه في عظمه التفكير والفرق ان الصباح اغتاله اليهود وابن الهيثم رجع الى العراق .

وعلى الغلاف الخارجي من كتاب الاستاذ يوسف مروه المعنون « كامل الصباح عبقرى من بلادى » طائفة من الكلمات في وصف عبقرية الصباح لعدد من عظماء المهندسين الاميركان بينهم « برنس » احد الذين تتوجه اليهم اصابع الاتهام التآمرى وهو القائل : « ان لكامل الصباح شخصية جذابه ولكن لعينيه بريق مخيف » .

وقال المهندس بروان « كان الصباح يفتخر دائما امامنا بعروبته » .

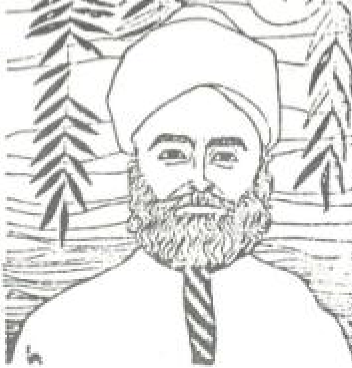
وقال المهندس « مارس » : « لقد برهن الصباح في اثناء خدمته لشركاتنا بانه من اعظم والمع المفكرين الرياضيين في البلاد الامريكية وان وفاته خسارة عظيمة لعالم الاختراع » .

وقال المهندس « ستون » : « كان الصباح بيننا هو الوحيد الذى يتجرأ على مناقشة اراء « اينشتين » الرياضة وانتقادها والتحدث عن التسبيه كانه اينشتين نفسه » .

وقال أ . و . ريس : « كان الصباح بيننا كانتا عنده اطفال يلعب باراتنا ونظرياتنا الرياضية كما يشاء » .

هذه بعض الشهادات من هؤلاء القوم ، وهناك مثلها وعلى غرارها عشرات الشهادات الناطقة بعظمة النابغة العالمي فقيد العلم والخلق والوطنية والعروبة . ومن النبوغ ما يقتل . ولعلنا في فرصة اخرى نتناول مسألة احياء ذكراه على مستوى امة عربية واعية ، ان شاء الله وبه التوفيق . ■■

رأس المتن ـ لبنان ـ «عجاج نويهض



عن الصور والتماثيل

الشيخ الامام محمد عبده

لهؤلاء القوم (في صقليه) حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج ، يحققون تاريخ رسمها ، واليد التي رسمتها ، ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب ، حتى ان القطعة الواحدة من رسم « روفائيل » مثلا ربما تساوي مئتين من الآلاف في بعض المتاحف ، ولايهمك معرفة القيمة بالتحقيق ، وانما المهم هو التنافس في اقتناء الأمم لهذه النقوش ، وعد ما أتقن منها من أفضل ما ترك المتقدم للمتأخر ، وكذلك الحال في التماثيل ، وكلما قدم المتروك من ذلك كان أغلى قيمة ، وكان القوم عليه أشد حرصا ، هل تدري لماذا ؟

إذا كنت تدرى السبب في حفظ سلفك للشعر ، وضبطه في دواوينه ، والمبالغة في تحريره ، خصوصا شعر الجاهلية ، وما عنى الأوائل ، رحمهم الله ، بجمعة وترتيبه ، أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل ، فان الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الاشخاص في الشئون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية ، يصورون الانسان أو الحيوان في حال الفرح والرضى ، والطمأنينة والتسليم ، وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا ، يصورونه مثلا في حالة الجزع والفزع ، والخوف والخشية ، والجزع والفزع مختلفان في المعنى ، ولم أجمعهما ههنا طمعا في جمع عينين في سطر واحد بل لأنهما مختلفان حقيقة ، ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع ؟ وما الهيأة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك ؟ . أما إذا نظرت إلى الرسم ، وهو ذلك الشعر الساكت ، فانك تجد الحقيقة بارزة لك ، تتمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك . إذا نزعت نفسك إلى تحقيق الاستعارة المصرحة في قولك : رأيت أسدا : تريد رجلا شجاعا ، فانظر إلى صورة أبي الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا أو الرجل أسدا ، فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة ، وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها .

ان كنت فهمت من هذا شيئا فذلك بغيتي أما إذا لم تفهم فليس عندي وقت لتفهيمك بأطول من هذا ، وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين أو الشعراء المفلقين ليوضح لك ما غمض عليك اذا كان ذلك من ذرعه [١]

---

(١) طاقته وإمكانه .

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهي ما حكم هذه الصور في الشريعة الاسلامية ، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية ، أو أوضاعهم الجسمانية ، هل هذا حرام ؟ أو جائز ؟ أو مكروه ؟ أو مندوب ؟ أو واجب ؟ فأقول لك : ان الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الأذهان ، فاما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما أن ترفع سؤالا الى المفتي وهو يجيبك مشافهة ، فاذا أوردت عليه حديث : « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » ، أو ما في معناه مما ورد في الصحيح ، فالذي ظني انه سيقول لك ان الحديث جاء في أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : الاول : اللهو والثاني : التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والأول مما يبغضه الدين ، والثاني مما جاء لمحوه ، والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهد للاشراك به ، فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة ، كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات ، وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف ، وأوائل السور ، ولم يمنعه أحد من العلماء ، مع ان الفائدة في نقش المصاحف موضع النزاع ، أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر ، ولا يمكنك أن تجيب المفتي بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة ، فاني أظن أنه يقول لك ان لسانك أيضا مظنة الكذب ، فهل يجب ربطه مع انه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب ؟ ! .

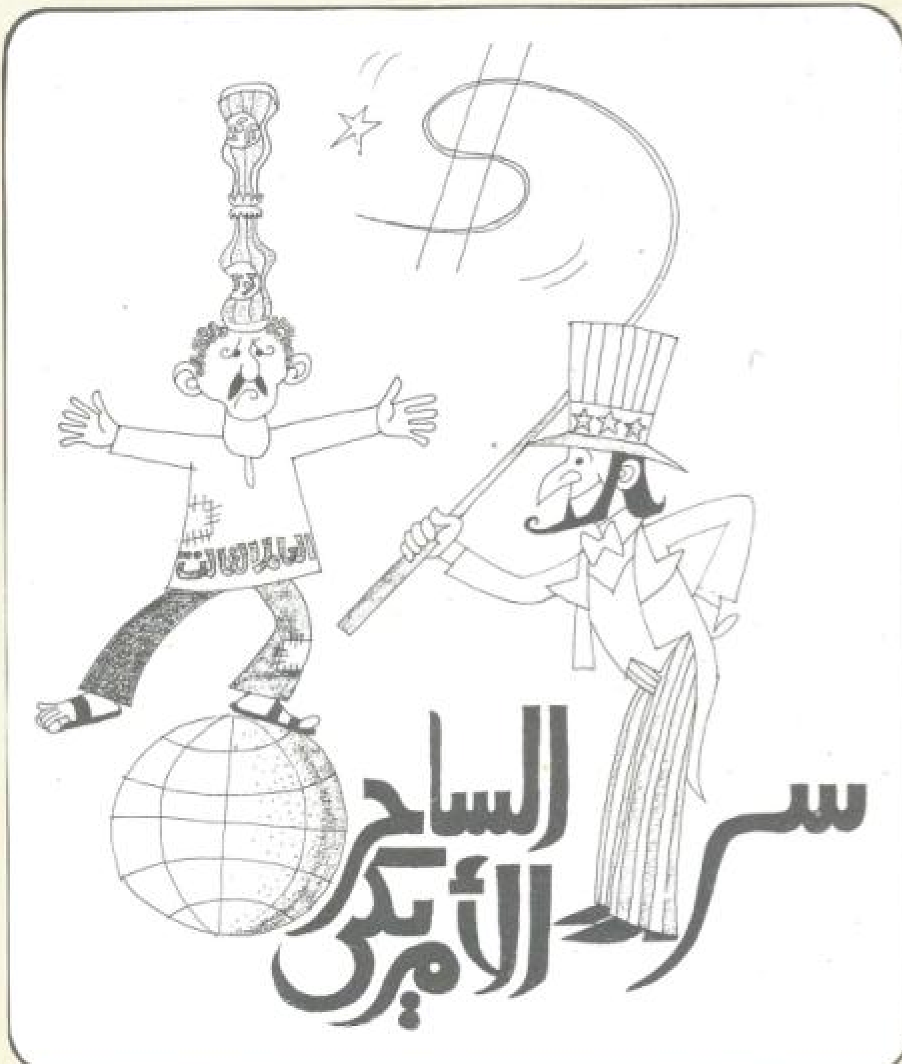
وبالجملة ، انه يغلب على ظني أن الشريعة الاسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم ، بعد تحقيق أنه لاخطر فيها على الدين ، لامن جهة العقيدة ولامن وجهة العمل . على أن المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها ، وإلا فما بالهم لايتساءلون عن زيارة قبور الأولياء ، أو ما سماهم بعضهم بالأولياء ، وهم ممن لاتعرف لهم سيرة ، لاشك أنه لايمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد ، ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الانسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية ، وتمثيل الصور الذهنية .

هل سمعت أننا حفظنا شيئا حتى غير الصور والرسوم مع شدة حاجتنا إلى حفظ كثير مما كان عند أسلافنا ؟

لو نظرت إلى ما كان يوجب الدين علينا أن نحافظ عليه لوجدته كثيرا لايحصى عده ، ولم نحفظ منه شيئا ، فلنتركه كما تركه من كان قبلنا ، ولكن ما تقول في الكتب وودائع العلم هل حفظناها كما كان ينبغي أن نحفظها ؟ أو أضعناها كما لا ينبغي أن نضيعها ؟ !!!! ضاعت كتب العلم وفارقت ديارنا نفائسه ، فاذا أردت ان تبحث عن كتاب نادر أو مؤلف فاخر أو مصنف جليل أو أثر مفيد فاذهب الى خزائن بلاد أوربا تجد ذلك فيها . أما بلادنا فقلما تجد فيها إلا ما ترك الأوربيون ولم يحفلوا به من نفائس الكتب التاريخية والادبية والعلمية ، وقد تجد بعض النسخة من الكتاب في دار الكتب المصرية مثلا وبعضها الآخر في دار الكتب بمدينة « كمبردج » من البلاد الانكليزية . ولو أردت أن أسرد لك ما حفظوا وضيعنا من دفاتر العلم لكتبت لك في ذلك كتابا يضيع كما ضاع غيره وتجده بعد مدة في يد أوربي في فرنسا أو غيرها من بلاد أوربا !!.

نحن لانعنى بحفظ شيء نستبقي نفعه لمن يأتي بعدنا ، ولو خطر ببال أحد منا أن يترك لمن بعده شيئا جاء ذلك الذي بعده أشد الناس كفرا بتلك النعمة ، وأخذ في إضاعة ما عني السابق بحفظه له ، فليست ملكة الحفظ مما يتوارث عندنا ، وإنما الذي يتوارث هو ملكات الضغائن والأحقاد تنتقل من الآباء إلى الأولاد حتى تفسد العباد ، وتخرب البلاد ، ويلتقي بها اربابها على شفير جهنم يوم المعاد .

(المنار ـ المجلد السادس)



بقلم : الدكتور جلال احمد امين

انتا نعيش ليس في عصر الرأسمالية او الاشتراكية ، بل في عصر الرجل العادي والمرأة العادية ، وقد بلغت العبقرية الامريكية ذروتها في ارضاء كل منهما .

أتيحت لي منذ فترة ليست بالبعيدة ان ارى الولايات المتحدة لاول مرة ، فراعني ما رأيت ! لم تكن الولايات المتحدة غريبة علي تماما فقد طالعت قبل ان اراها كثيرا مما كتب عنها ، نقدا او استحسانا ، وكانت تدفعني الى ذلك تلك الظاهرة الغريبة : وهي أن ما يبدأ هناك تراه يحدث في بلادنا بعد فترة طالت ام قصرت . اذا لبس شبابها السراويل الزرقاء الملاصقة للجسم ، ارتداها شبابنا وعدوها مظهر العصرية والتمدين . واذا تركوا شعورهم تغطي آذانهم ، تركناها تغطي آذاننا ، واذا اكلوا اقراص اللحم عديمة الطعم والخالية من اللحم وغطوها بسائل يشبه الطماطم اكلناها وافتتحنا لها مطاعم تتخصص في تقديمها . واذا اقاموا مبانيهم الشاهقة والطاردة للشمس والهواء واستعاضوا عنها بأجهزة تكييف الهواء ، فعلنا ايضا مثل ذلك وشعرنا بالفخر بما نصنع . وكما فعلنا في الملبس والمأكل والمسكن فعلنا في شئوننا السياسية والثقافية . فما هو سر ذلك الساحر الامريكي الغريب الذي فتننا عن انفسنا ، ورسم لنا طموحاتنا وآمالنا ، وفرق بين الشاب العربي وبين أسرته وأمته ؟

ان اول ما يسترعي أنتباه من يزور الولايات المتحدة هو اتساعها وضخامتها . فالعبور من ساحلها الشرقي الى ساحلها الغربي هو عبور لقارة بأكملها ، يعاد خلاله ضبط الساعة اكثر من مرة . يتغير معه المناخ والتضاريس ، وتتغير معه مصادر الثروة . والبلاد زراعية وصحراوية في آن واحد ، جبلية ومستوية ، باردة وحارة ، غنية بالمعادن غناها بالزراعة والغابات والثروة الحيوانية ، وبالنفط والفحم ومساقط المياه . فاذا شق طريق فاذا هو بستة او ثمانية طرق في آن واحد ، واذا صدرت جريدة فهي من فرط ضخامتها ينوء المرء بحملها . واذا دخلت متجرا لشراء الطعام كان عليك ان تختار من بين عشرين او ثلاثين صنفا من الخبز ، وبين اربعين او خمسين صنفا من الجبن . واذا اقتنيت جهازا للتلفزيون كان عليك ان تختار من بين اكثر من عشرين قناة . وهكذا تجد ان ما قد يبدو لنا من المنتجات الامريكية مفرطا في الضخامة الى حد مزعج او مثيرا للدهشة يبدو طبيعيا للغاية في البيئة الامريكية . فالسيارة الامريكية الفارهة الطول التي تبدو مزعجة في شوارعنا الضيقة ، يبدو حجمها مناسبا وهي تسير في الطرق الامريكية الفسيحة . والثلاجة الامريكية الضخمة التي قد تقتصر وظيفتها في بلادنا على اشباع حبنا للظهور او اثارة غيظ الاقارب ، تبدو ضرورية في المنزل الامريكي الواسع وامام هذه الكميات الهائلة من السلع .

الوحدة .. ووحشة الحياة

ان هذه الضخامة وهذا الاتساع اذ يقترنان في نفس الوقت بضآلة نسبية في عدد السكان يمكن ان يذهبا بنا شوطا بعيدا في تفسير الكثير من ظواهر الحياة الامريكية . فكثافة السكان في الولايات المتحدة لا تتعدى ٢٥ فردا للكيلو متر المربع بالمقارنة بنحو ٢٨٠ فردا للكيلو متر في بلد كبريطانيا مثلا ، او ٣١٠ في المانيا الغربية او ١٩٠ في الهند . وهي ظاهرة تلاحظها على الفور بالمشاهدة العابرة كما تقرأها في الارقام . تلمسها اذ ترى السيارة الامريكية الكبيرة تقطع الطريق حاملة في معظم الاحوال شخصا واحدا وهي تستطيع حمل خمسة او ستة اشخاص ، وتراها في المناطق السكنية حيث تقطن العائلة التي لا تزيد على ثلاثة او اربعة افراد منزلا يتسع لعشرين ، ويفصل البيت عن الآخر حديقة لا يجلس فيها احد ، ولا يكاد الجار يستطيع ان يحادث جاره لاتساع المسافة الفاصلة بينهما . هذا الانخفاض في الكثافة قد يذهب بنا حدا بعيدا في تفسير ما يشعر به الامريكي ، بوجه عام ، من وحدة . فاذا كنا نشكو في بلادنا المكتظة بالسكان من أننا لا نجد مكانا لقدم في الطرق او الحدائق العامة او في وسائل المواصلات ، فالامريكي يشكو على العكس من العزلة ووحشة الحياة . فهو وحيد في بيته ، وحيد في سيارته ، ووحيد في مكان عمله . ويضاعف من وحدته ان الابناء سرعان ما يستقلون بمسكنهم الخاص وحياتهم الخاصة ، الامر الذي يسمح به ويشجعه انخفاض الكثافة السكانية نفسه بالنسبة للموارد المتاحة . ففرص الكسب واسعة في نفس الولاية او خارجها ، والغنى بالموارد ، بالقياس الى عدد السكان ، يسمح للابناء بالاستقلال الاقتصادي عن آبائهم في سن مبكرة . ألهذا اذن يثير اهتمام الامريكي اي حادث غير مألوف في الطريق العام مهما كانت تفاهته ؟ ويتم هذا الاهتمام المفرط بتتبع اخبار الفضائح والجرائم وتفاصيل الحياة الخاصة للسياسيين ونجوم السينما ، وكأنه يحاول ان يجعل من هؤلاء عائلة له حيث حرم من متابعة اخبار الجيران واحوال عائلته الخاصة ؟ ابهذا ايضا نفسر ادمان الامريكي للخمر وللتليفزيون ، حيث يجد على شاشته اصدقاء وهميين وعائلة وهمية ، وتحمله المسلسلات التلفزيونية من يوم لآخر تعوضه عن رتابة الحياة وافتقارها الى دفء العلاقات الانسانية الحميمة ؟. بل هل لنا ان نفسر بذلك ايضا غرام الامريكي باقتناء السلع واصراره على الحصول على احدث طراز للسيارة والثلاجة ، ونهمه غير القابل للاشباع باقتناء الادوات الكهربائية المتحركة ، وكأنه يستعيض بها جميعا عن

الناس الذين لا يجدهم حوله ؟

ان العناية بل المودة التي يبديها الامريكي نحو سيارته الخاصة قد تضارع ما يبديه من عناية لشئون زوجه واولاده ، فهي ليست فقط مركبته ، بل هي ايضا قلعته ومسرح غرامياته ، وهي دليل مركزه الاجتماعي ورمز نجاحه او فشله . وهي في مجتمع يختفي فيه التميز الحقيقي ويسوده التقليد والتشابه ، احدى الوسائل القليلة الباقية للفرد الامريكي للتعبير عن ذوقه وشخصيته . بل انه لا يكاد يكون هناك في المجتمع الامريكي شيء له مثل قداسة السيارة الخاصة واهميتها . فعليها ينفق ما يعادل ربع الدخل الفردي في الولايات المتحدة ، وكل طفل او طفلة تحلم باليوم الذي تكون لها فيه سيارتها الخاصة ، ورخصة القيادة هي الاثبات لشخصيتك بل لوجودك اصلا ، والمحلات العامة تتفنن في ان تقدم لك خدماتها وانت جالس في سيارتك ، والفنادق تتحول من اماكن لايواء الناس الى موتيلات لايواء السيارات . فاذا لم تكن لك سيارة خاصة في الولايات المتحدة فانت كالكسيح لا تكاد تستطيع مغادرة منزلك ، او قضاء حاجاتك .

على انه من العسير ان تجد تعبيرا ابلغ دلالة على وحدة الامريكي ووحشته من تلك الموضة الجديدة المسماة بالـ Jogging او الجري المنفرد . فقد اصبح من المناظر المألوفة في الطريق العام منظر رجل او امرأة ، من مختلف الاعمار والاشكال ، يجري كل بمفرده ، في سرعة معتدلة ومنتظمة ، وقد ارتدى « الشورت » ، لا يلتفت يمينا او يسارا ، ولا يمكن لاية قوة على الارض لفت نظره او ايقافه او تحويل مساره . ترى الى اين هو ذاهب ، بكل هذا العزم والتصميم ، وممن يجري بالضبط ؟ كلا ، انه فقط يعتزم قطع عدد معين من الاميال كل يوم للمحافظة على صحته ولياقته البدنية . فما هو سر هذا الاهتمام المفرط بسلامة البدن ؟ وما سر انكباب الامريكي بهذه الدرجة على ذاته ، بحيث اصبح جسمه يشغل هذا المكان الهام من تفكيره ، وراح بعد ذلك يعرض دقائق مشاعره على الاطباء النفسيين ، فيتصور اشد مشاعره تفاهة واكثرها طبيعية وكأنها حالة نفسية متميزة وفريدة لا يعاني منها احد غيره . وهل يا ترى لو اتيح للامريكي تكوين علاقات انسانية طبيعية مع اهله وجيرانه وزملائه في العمل ، لكان يبدي هذا الاهتمام الزائد عن الحد بنفسه وبدنه ؟

هذا العداء للطبيعة

في بلد تسخو فيه الطبيعة هذا السخاء على الانسان ، كيف يمكن ان يبدي الانسان نحوها مثل هذا العداء ؟ ام ان هذا العداء ليس الا نتيجة هذا الثراء والسخاء نفسه ؟ على اية حال فان من المؤكد ان للامريكي غراما لا حد له باثبات تفوقه على الطبيعة وقدرته على الاستغناء عنها وسأضرب للقارىء بعض الامثلة لتوضيح ما اعنيه ولاية كاليفورنيا ، التي قضيت بها معظم فترة اقامتي بالولايات المتحدة ، لا تكاد تضاهيها ولاية امريكية اخرى في جمال مناخها واعتداله على مدار العام . ولكنك تدخل فيها بناء بعد آخر ، ومقهى او مطعما تلو الاخر فماذا تجد ؟ تجد النوافذ مركبة على نحو يجعل من المستحيل فتحها ، او مصنوعة من زجاج ملون يحجب ضوء الشمس عمن وراءها ، وتجد اجهزة تكييف الهواء شائعة الاستعمال على نحو يخيل اليك معه انك في اشد بلاد العالم حرارة واقساها مناخا ، وتجد المصابيح الكهربائية مضاءة في وضح النهار . ولم لا ؟ فقد يكون ضوء الشمس اشد قليلا او اخف قليلا مما تريد في لحظة بعينها ، والحرارة اشد قليلا او اخف قليلا مما تحب وتشتهي في ساعة معينة من ساعات النهار او الليل .

ثم ما هي هذه المعجزة الشهيرة في كافة انحاء الارض المعروفة « بديزني لاند » او مدينة ملاهي ديزني ، في جنوب لوس انجلوس ؟ مساحة فسيحة من الارض تقوم عليها مبان متناثرة تقدم لك وسائل مختلفة للترفيه والتسلية ، رائعة التنظيم والتنسيق حقا وبالغة النظافة والبهاء ، ولكن شيئا واحدا يجمع فيما بينها : محاولة الانسان الامريكي ان يثبت انه قادر على منافسة الطبيعة والتفوق عليها . ففي مكان منها يحاول مدرب سخيف ان يقنعك بأنه قادر على ان يجعل فرس البحر يأتمر بأمره ، يرقص او يلعب بالكرة او يقبل امرأة جميلة نصف عارية ، وفي مكان آخر تستقل مركبة تدور بك بسرعة بالغة المفروض ان تشعر معها بأنك تحوم في مركبة في الفضاء . والمكان كله لا نهاية فيه لما يبدو وكأنه حيوانات وليست في الحقيقة كذلك ، وطيورا ليست بالطيور ، واشجارا ليست بأشجار . فاذا اعياك هذا كله وذهبت الى مكان لتناول الطعام ، فانك ستجلس الى مائدة تبدو وكأنها مصنوعة من الخشب ولكنها ليست كذلك ، وسوف يقدم اليك شيء شبيه بالطعام ولكنه ليس طعاما ، اذ ان من بين ما يغرم به الامريكي ان يصنع لبنا خاليا من الدسم ، وسكرا لا يحتوي على مادة سكرية ، وخبزا لا يؤدي الى السمنة وقهوة لا تحول دون النوم !

على ان الذي اثار شجوني حقا هو « سيرك الطيور الامريكي » . ففي حديقة اخرى من حدائق لوس

انجلوس تضم مختلف انواع الطيور واجناسها ، اقيم مسرح صغير يمكنك فيه أن تشاهد عرضا بالغ المهارة يسمى بسيرك الطيور . لا يختلف عن السيرك المألوف الا في ان ابطاله من الطيور وليسوا فيلة واسودا . وفيه ينتزع المروض التصفيق من الحاضرين لدى رؤيتهم حمامة او ديكا او ببغاء ..رائعة الالوان ، وبالغة المهابة والجمال ، تقف على قدم واحدة ، او تتسلق سلما ، او ترتب مجموعة من المكعبات المختلفة الالوان في صفوف منتظمة ، او تقوم بمختلف الالعاب البهلوانية وتنحني للجمهور لدى تصفيقه لها في نهاية العرض . والذي اثار شجني لدى رؤيتي لهذا العرض ، انني تذكرت بلادنا الفقيرة وانا اشاهد الطيور المسكينة ، وتذكرت ما صنعه بنا الرجل الغربي وانا اشاهد مروض الطيور الامريكي . فها هي ذي طيور لا تقل عن مروضها في قدراتها وامكانياتها وتفوقه مهابة ، فهي تستطيع الطير حيث لا يستطيعه ، وهي تهتم بصغارها حيث لا يبدي اهتماما بصغاره ، وهي لا تكذب او تنافق في سبيل حصولها على الرزق . ولكن المروض لا يريد ان يعترف لها بفضل الا اذا نجحت في تقليده ، واستطاعت الوقوف على قدم واحدة ولعبت كرة القدم ، واظهرت من القدرات ما ليس لديها ادنى استعداد له او حاجة اليه !

الارقام .. والكم

في بلد له مثل ما للولايات المتحدة من موارد تبدو وكأنها لا حدود او نهاية لها ، كيف يكون لاهلها هذا الولع بالارقام والحساب ؟ ام ان وفرة الموارد كانت هي ذاتها دافعا لهذا الولع ؟ ذلك اني لم اصادف شعبا يستخدم في كلامه العادي قدر ما يستخدمه الامريكي من ارقام ، ولا من هو اشد منه غراما بالتعبير الرقمي . فاسعار السلع بأجزائها العشرية ، وسعة سيارته من البنزين ، وعدد الاميال بين مكان وآخر ، والوقت الذي تستغرقه رحلة او تأدية عمل ، حاضرة في ذهنه دائما . يخطرك بها دون أي جهد ويقارن بينها دون مشقة . والرجل لا يوصف بأنه طويل او قصير ، ولكن يقال لك ان طوله ستة اقدام وبوصتان ، والمكان لا يوصف بأنه بعيد او قريب وانما تخبر عما تستغرقه الرحلة اليه من الدقائق بالسيارة او الطائرة . والشيء الذي لا يمكن حسابه بالارقام يفترض ضمنيا انه لا يستحق الاهتمام

وقد لا يبدو في هذا الميل الواضح الى التعبير الرقمي غضاضة لولا انه انعكس في فكرة الامريكي عن « الكفاءة » . فالكفاءة لدى الامريكي هي بوجه عام انتاج اكبر قدر بأقل تكلفة ، او القيام بأكبر عدد من الاعمال في اقل وقت ممكن ، دون اهتمام كبير بالاثار التي لا يمكن تقديرها تقديرا رقميا . فما اسهل على الامريكي ان يشعر بالرضا اذ يجد سيارته قد قطعت عددا كبيرا من الاميال ، او يجد نفسه قد انجز عددا كبيرا من الاعمال ، او زار عددا كبيرا من البلاد ، او شاهد عددا كبيرا من المتاحف ، دون ان يعير اهتماما كبيرا لطبيعة الرحلة او الغرض منها ، او للفائدة الحقيقية من العمل وجدواه ، او لما جناه من معرفة حقيقية بما زاره من بلاد او شاهده.

فكثيرا ما يبدو لك الامريكي « كأم العروس ـ فاضية ومشغولة » ـ كما نقول في امثالنا الشعبية ـ لا يطيق الكف عن الحركة والعمل ، وكأن اي عمل مهما كان تافها افضل من عدمه ، لا يطيل البقاء في مكان لان في انتظاره عملا آخر لابد من تأديته ، يتناول طعامه بسرعة ثم يقفز الى سيارته ، او يتناوله امام التليفزيون او في السيارة نفسها . فاذا دعاك الى الغذاء فهو « غذاء عمل » ، واذا فكر ان يدعو معك شخصا آخر ، فلأنه يرى ان من المفيد ان يتعرف احدكما على الآخر . وهو مغرم بجمع اسماء المعارف وعناوينهم ، ويشعر بالفخر لكثرة معارفه واتصالاته هنا وهناك . فاذا زار بلدا فمن المهم الا يمضي وقتا اطول من اللازم في مكان واحد ، فاذا تعذر عليه استيعابه فليلتقط له الصور . وبرامج التليفزيون الامريكي تتميز بنفس الطابع : الكثرة على حساب الجودة ، والسرعة على حساب العمق . وكثيرا ما يحدث الا تجد من بين برامج العدد اللانهائي من القنوات التليفزيونية ـ التي يستمر بعضها طوال ٢٤ ساعة كل يوم ، برنامجا واحدا تشوقك رؤيته ، او في العدد اللانهائي من صفحات جريدة الاحد الا القليل مما يستحق القراءة . فاذا عرض التليفزيون نقاشا او ندوة ، فقلما تجد تعمقا في التحليل او احاطة بالظاهرة التي يدور حولها النقاش من مختلف جوانبها ، والمهم في اعداد نشرة الاخبار ان تحتوي النشرة على اكبر عدد من الاخبار دون بذل جهد يذكر في تحليل اسباب الخبر او آثاره . صحيح انك تجد في الحياة الثقافية الامريكية الغث والسمين ، ويمكنك اذا شئت الاستماع الى موسيقى رفيعة والعثور على تحليل جيد للاخبار . ولكن المراد تأكيده هنا هو الطابع العام للثقافة الامريكية وليس الاستثناء .

ما سر الساحر ؟

من اين اذن تأتي لهذا الساحر الامريكي ان يفتن الناس في الشرق والغرب على السواء ؟ وما هو سر هذا النجاح الذي حققه نمط الحياة الامريكية في غزو العالم حيث لم تحقق مثل هذا النجاح الدول الاوربية وهي في

عنفوان قوتها ؟ ان هذا السر يكمن فيما وفره نمط الحياة الامريكية « للرجل العادي » ، رجل الشارع البسيط ، من يسر الحياة المادية . فلتقطع امريكا من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب تجد ان الملك فيها هو رجل الشارع البسيط : المحدود الثقافة والتعليم ، العادي الذكاء ، المحدود الطموح ، الا فيما يتعلق بما يمكن ان يحوزه من سلع . ترضيه القصة البسيطة غير المعقدة ، ويستهويه تتبع افلام الجريمة واخبار الفضائح والكوارث ما دامت تحدث لغيره ! يحب السياحة وان يشاهد متحف اللوفر واهرامات مصر ، ولكن لا صبر له على معرفة التاريخ او التعمق فيه . يفرح بالسيارة الكبيرة كما يفرح الاطفال ، ويقبل اكثر ما يتلقاه عن طريق التليفزيون او الجرائد اليومية دون اي شك في صحة ما يسمع او يقرأ ..

هذا الرجل العادي يمثل غالبية سكان العالم في كل بقاع الارض ، وقد نجحت « الحضارة » الامريكية في الوصول اليه واشباع تطلعاته بأكثر مما نجحت أيه حضارة اخرى . والذي سمح للولايات المتحدة ان تبلغ ذلك قبل غيرها لم يكن هو فقط غناها الذي لا حد له بالموارد ، بل وايضا اتساع سوقها بدرجة لم تتوفر لاية دولة اخرى . فاتساع السوق هو الذي سمح بابتداع ونمو فنون الانتاج الكبير التي تقوم على انتاج كميات هائلة من السلع المتماثلة وعلى تطبيق درجة عالية من التخصص وتقسيم العمل . ولكن هذا الاتساع نفسه ، وهذا النوع من فنون الانتاج كان هو ايضا الذي طبع الحضارة الامريكية بكثير من ملامحها المميزة : التماثل الرهيب في انماط السلوك والتفكير وانتشار الموضات وخضوع المستهلك خضوعا مستمرا لحملات الدعاية والاعلان ، والهالات التي تحيط بنجوم السينما ورجال السياسة او « بالبطل » بوجه عام .

فالمليون دولار التي يمكن ان تنفق على ممثلة جميلة ، ولو كانت لا تجيد التمثيل ، او على مذيعة تليفزيونية ولو كانت عادية الذكاء ، يمكن ان يستردها المنتج بسهولة اذا ضمن تسويق هذا الفيلم او ذلك البرنامج في الولايات المتحدة وحدها . كل ما يتطلبه الامر هو حملة دعائية واسعة وهو ما لا يمكن ان يكفي وحده لضمان الربح في مجتمع محدود العدد . ولكن المستهلك المستهدف يجب ان يكون بدوره شخصا عاديا محدود الثقافة عادي الذكاء . اذ هنا تكمن فرص التسويق الواسع الانتشار الكبير . فاذا بنمط الثقافة السائد هو النمط الذي يستجيب لنوازع الرجل العادي وميوله ، واذا بالثقافة الرفيعة تتراجع على استحياء اذ لا تجد لها ممولا . واذا بوسائل الاعلام تخاطب ابسط غرائز الانسان ونوازعه ، لمجرد انها الاكثر انتشارا ، واذا بها لا تكف عن تملق الرجل العادي وترضيته . فاذا استطاع الطفل ان يكتب اسمه فانه يعامل كما لو كان نابغة عصره واذا نطق به فهو بالغ الفصاحة . وعبارات الثناء والمديح تنهال بلا حساب على المتسابقات في البرامج التليفزيونية من ربات البيوت الطامعات في الفوز بثلاجة او مكنسة ، ولا يفوت المذيع ان يمتدح جمال اكثرهن دمامة ، فالمهم هو ان يطيب خاطر الجميع ، اذ ان البرنامج الناجح الذي يشاهده اكبر عدد من الناس ، والجميع مستهلكون حالون او محتملون لهذه الثلاجة او تلك المكنسة التي يقوم منتجوها بتمويل البرنامج ابتداء . فاذا اضطر التليفزيون الامريكي لسبب او آخر الى تقديم برنامج جاد يستهدف النفع العام لا الربح ، فهو يأتي بعد منتصف الليل او قرب الفجر ، حينما تكون غالبية الشعب الامريكي يغطون في النوم . فالبرنامج الجاد ثقيل الظل ، والذين يحبون هذا النوع من البرامج ليسوا هم اكثر الناس ميلا الى زيادة ما يحوزتهم من سلع . فاذا قطع البرنامج لتقديم اعلان عن غسالة كهربائية او سيارة فالارجح ان الاعلان سوف يكون قليل العائد ، بل ان هناك خشية حقيقية من ان يلقي البرنامج الجاد بظله على الاعلان نفسه ، فتبدو مدى سخافة الاعلان وكذبه . فاذا بالبرنامج يتم اختياره بما يناسب الاعلان !

لا عجب اذن في ان نجد ان اكثر الناس عداء لغزو الحضارة الامريكية لبلادهم هم المثقفون ، بينما يتلقفها بسطاء الناس وصغار السن بالرضا والترحيب . ولم تستطع المجتمعات الاوربية مع كل ما احرزته من تقدم في الارتفاع بمستوى الثقافة فيها ان تقاوم ما يحمله نمط الثقافة الامريكية من جاذبية لجماهيرها فاذا بالبرامج الجادة في التليفزيون الاوربي تترك مكانها بالتدريج لبرامج الترفيه الامريكية ، ويزداد هذا عاما بعد عام ، واذا بالصحف الأوربية تجاري الصحافة الامريكية في اعتمادها على التشويق والاثارة ، واذا بالمطاعم والمقاهي الاوربية تتخلى عن المقاعد الوثيرة والخدمة المتأنية لتحل محلها المقاعد الطاردة للجالسين عليها وقيام العميل بخدمة نفسه . بل لم يستطع الاتحاد السوفيتي بعد عشرات من السنين من الانغلاق عن العالم ، وان يمنع شبابه من الانبهار بنمط حياة الامريكي والاقتداء به .

ذلك اننا نعيش ، ليس في عصر الرأسمالية او الاشتراكية ، بل في عصر الرجل العادي والمرأة العادية ، وقد بلغت العبقرية الامريكية ذروتها في ارضاء كل منهما .

■ ■

القاهرة ـ جلال احمد امين

المسلمون والآخرون

أشواك وعُقد على الطريق !

بقلم : فهمي هويدي

تحتاج قضية المسلمين والناس الى قدر من المصارحه ، وقدر اكبر من المراجعة والتصحيح !

اذ ليس صحيحا ان المسلمين في هذه الدنيا صنف متميز ومتفوق من البشر ، لمجرد كونهم مسلمين . وليس صحيحا ان الاسلام يعطي افضلية للمسلمين ويخص الاخرين بالدونيه . وليس صحيحا ان ما كتبه اكثر الفقهاء في هذا الصدد هو دين ملزم وحجج لا ترد ، انما هو اجتهاد يصيب ويخطيء .

ان دعاوى التميز على الآخرين ، وتكريس هذا التميز من جانب اكثر الفقهاء ، انما تستخدم لغة ليست مقبوله دينا ، فضلا عن انها لغة باتت محل ادانة في هذا العصر .

لقد دعوت في مرة سابقه الى مصالحه المسلم مع الدنيا ، ولكن يبدو أن الالحاح في مصالحة المسلم مع الآخرين أمر لا يقل أهمية ولا خطرا . ذلك ان خصومة المسلم لدنياه ، بسبب من التعفف او الزهد ، قد تكون مفهومة او مقبولة ، رغم انها قد تصيبه هو قبل غيره بالضرر والتخلف .

الا أن خصومته مع الآخرين ، بسبب من توهم التميز او الفوقيه ، فهو ما لا يمكن فهمه ولا قبوله بأي حال ، ولا باي معيار .

ان خصومة المسلم لدنياه هي بمثابة انتقاص من قيمة تكليف الخلق بعمارة الارض ، وجدارته بالاستخلاف فيها ، اما خصومته او استعلاؤه على غيره فهو انتقاص من قيمة الانسان ذاته !

ان هناك خللا اكيدا في علاقة المسلمين بالآخرين ، خللا في التصور وفي الوسيلة وربما في الهدف ايضا . ومن المفارقات المدهشة ، والمحزنة في الوقت ذاته ، أن بيننا من لايكف عن صب اللعنات على هؤلاء الاخرين ، متهما اياهم بالكفر والضلال ، بينما نحن جميعا بتنا نعيش عاله عليهم !

لقد سمعت واحدا من خطباء الجمعة اعتلى المنبر ليحدثنا في أن المسلمين « خير أمة اخرجت للناس » ، وذهب به الحماس حدا دفعه الى ان يسفه غير المسلمين جميعا ، ويتهمهم بمختلف النواقص والمثالب ، ثم يدعو الله في الختام ـ وحوله مئات من المصلين يؤمنون ـ ان يدك بيوتهم ويزلزل عروشهم ، ويفرق شملهم ويهلك نسلهم وحرثهم !

كنت جالسا في الصف الاول ، في مسجد فرش بسجاد مصنوع في المانيا الغربية ، وترطب حرارته مكيفات امريكيه ، وتضيئه لمبات « تونجسرام » المجناريه ، بينما كلمات الخطيب تجلجل في المكان عبر مكبر للصوت هولندى الصنع . وعندما هبط شيخنا ليؤمنا في الصلاة تفرست في طلعته جيدا لأجد أن عباءته من القماش الانجليزي ، وجلبابه من الحرير الياباني ، وساعته زودياك السويسرية ، وقد وضع الى جوار المنبر حذاء ايطاليا لامع السواد !

شيء قريب من هذا سجله الشيخ محمود ابو ريه في كتابه « دين الله الواحد » ، حيث روى انه شهد مجلسا لبعض المشايخ ، وجرى الحديث فيمن سيدخلون الجنه ومن سيحرمون منها فسألهم : وما قولكم في اديسون مخترع النور الكهربائي ؟ فقالوا : انه سيدخل النار . فقال لهم الشيخ ابورية : بعد ان اضاء العالم كله حتى مساجدكم وبيوتكم باختراعه ؟ فقالوا : ولو ، لانه لم ينطق بالشهادتين !

فقال لهم : اذا كان مثل هذا الرجل العظيم وغيره من الذين وقفوا حياتهم علىماينفع البشرية جمعاء بعلومهم ومخترعاتهم ، لايمكن ـ بحسب فهمكم ـ ان يدخلوا الجنه شرعا ، لانهم لاينطقون بالشهادتين ، افلا يمكن ان يدخلوها عقلا بفضل الله ورحمته ، ماداموا يؤمنون بخالق السموات والارض ؟ .. قالوا : ولا هذه !!

وغير هذه القصة وتلك ، ففي حياتنا اليومية الكثير مما يمكن رصده في ذلك الاطار . ولعل بعضنا يذكر ما كتبته في العام الماضي مجلات ناطقه باسم بعض الجماعات الاسلامية ، داعية الى مقاطعة دورة موسكو الاوليمبيه ، بحجة ان الاشتراك فيها هو من قبيل « موالاة الكافرين » المنهى عنه شرعا !

وقد ادهشني ما سمعته مرة من كاتب اسلامي مرموق يدعو الى اغلاق معابد غير المسلمين التي اقيمت بعد « عهد ايلياء » الذي وقعه امير المؤمنين عمر بن الخطاب مع رسل سفرنيوس اسقف بيت المقدس . وصدمني قول استاذ جامعي يربي عقول الوف الشباب ـ ان غير المسلمين ينبغي الايشيدوا بيوتا أعلى من بيوت المسلمين ، « ليعرف كل طرف حدوده ومكانته » !

●

ان من الظلم الفادح ان يحمل ذلك كله على الاسلام ، ومن الجهل المطبق ان يتعامل البعض مع هذه المقولات باعتبارها دينا . فالدين الذى نعرفه هو ما انزله الله في كتابه ، وما اوحى به الى نبيه عليه الصلاة والسلام ، هو كلمة الله ووحيه سبحانه وتعالى . اما ما دون ذلك فهو في احسن الفروض « فقه » ، يؤخذ منه ويرد . وهو اجتهاد مارسه بشر ، « وهم رجال ونحن رجال » كما قيل بحق .

ومع ذلك فان تلك الشواهد في مجموعها تطرح سؤالا اساسيا هو : من اين جاء الخلل في علاقة المسلمين بغيرهم ؟ هنا تقفز امامنا اسباب عدة ، جديرة بالتأمل ..

● منها أن هناك سوء فهم بالغا لنصوص الكتاب والسنة ، ناشيء عن قراءة مبتورة لبعض النصوص مثل الآية : كنتم خير أمة أخرجت للناس ، التي فهمت على انها شهادة بالفوقيه للمسلمين (لا يذكر انها معلقة على شرط في الشق الثاني من الآية وهو : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) ـ وقد يكون سوء الفهم هذا ناشئا عن قراءة مغلوطه لنصوص أخرى ، مثل الآية « ٢٩ » من سورة التوبة التي تدعو الى قتال الذين « لا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزيه عن يد وهم صاغرون » ، وفهم « الصغار » باعتباره اذلالا وتحقيرا للآخرين !

● ومنها ان هناك سوء تقدير بالغا في التعامل مع تلك النصوص ، التي بات بعضنا يقرؤها بصرف النظر عن ملابساتها ، اعتمادا على مقولة ان « العبره بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » . وهي قاعدة فقهيه يتبنى القائلون بها الدعوة الى اسقاط الاسباب ، والتعامل مع النص مجردا عن دوافعه ـ وهو نوع من القراءه المبتورة في الواقع ـ الامر الذى ادى الى تثبيت وتعميم توجيهات واجراءات كانت لازمه لتأمين الدعوة عند نشوئها . ومن قبيل تلك النصوص الآية ٣٩ من سورة الانفال التي تقول : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنه ، ويكون الدين كله لله ... » ، وهي التي نزلت في مشركى مكة والجزيرة العربية ،

● ومنها ان اجتهادات الفقهاء التي بين ايدينا الان ، صدرت اغلبيتها الساحقة في القرون الاربعة الاولى للاسلام (المذاهب الأربعة لأهل السنة عرفت قبل منتصف القرن الثالث الهجرى) . وتلك مرحلة

كانت لها حساباتها وموازينها الخاصة ، التي لا يمكن تعميمها على بقية مسيرة التاريخ البشرى . وعلى سبيل المثال فان الاسلام عاش طوال تلك الفترة في مواجهة عنيفة وضارية مع اعدائه سواء في الجزيرة العربية عند نشوء الدعوة ، او القوى الكبرى في عالم ذلك الزمان (الروم والفرس) الامر الذى كان مقبولا معه آنذاك ان يقسم العالم في اقوال الفقهاء الى دار الاسلام ودار الحرب او الكفر .

● ومنها ان ثمة جرحا عميقا في الذاكرة الاسلامية احدثه الآخرون ، بعدما استمر الكيد والتآمر على الاسلام والمسلمين في فترات متفاوتة لاحقة . وهذا الكيد إن بلغ ذروته إبان الحروب الصليبية في القرن العاشر الميلادى ، الا ان فصوله الدامية امتدت الى القرنين الرابع عشر والسابع عشر ، وتمثلت في عمليات الابادة التي تعرض لها المسلمون في الاندلس وصقلية وجنوب ايطاليا وسردينيا .

● ومنها ان الهزيمة الساحقه التي منى بها المسلمون امام الزحف الغربي الذى اعقب انتصار الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر ، نتيجة لظروف الانحطاط السياسي التي كان يعيشها عالم الاسلام . هذه الهزيمة ، لم تستنهض في المسلمين روح التحدى ـ بسبب من واقعهم السياسي والفكرى ـ وانما ألقت بهم في تيه الاحباط واليأس ، مما خلف في الاعماق شعورا بالمرارة والرفض . وهي حالة نفسية فريدة يمر بها المهزوم عادة ، اذا لم يستطع ان يستجمع قواه ويرد ضربة غريمه ، فانه سرعان ما ينكفيء على ذاته ويندب حظه ، ويترجم ذلك في صورة كراهية للغريم وقطيعه له .

يضاف الى مجموع تلك الاسباب التي نحاول ان نفسر بها ظاهرة الخلل في علاقة المسلمين بغيرهم ، سبب آخر يتعلق بتكوين الشخصية العربية ، الذى يظله على السلوك في عالم الاسلام ، ضمن آثار ما يمكن ان نطلق عليه ظاهرة « تعريب الاسلام » . واعنى بذلك شعور « الفوقيه » الذى يخامر العربي منذ الأزل . وهو ما تسجله بوضوح قصائد الفخر التي يحفل بها الادب العربي ، التي توحى لقارئها ان العرب هم فرسان البرية الذين لا يقهرون ، ومنبع الفضائل وشعب الله المختار .

●

هذه الاسباب التي تتزاوج بين نقص المعرفه السليمه بحقائق الاسلام والعوامل التاريخية والنفسية ، أسهمت بقدر أو آخر في ذلك الخلل الفادح الذى أصاب علاقة المسلمين بالآخرين ، او قل ذلك « الحاجز النفسي » الذى يحول دون اقامة علاقات طبيعية وصحية بين الطرفين . الامر الذى انتهى بتراكم العديد من العقد والاشواك في عرض الطرق الموصلة بين المسلمين وغيرهم .

لقد بات واجبا ان تتضافر كل الجهود من اجل ازاحة تلك العقبات ، ليس فقط تصحيحا لواقع مختل ، ولا لان المسلمين صاروا بحاجة الى الآخرين ، ولا لأنه اصبح مستحيلا ان ينعزل المسلمون عن غيرهم في ظل ثورة الاتصال التي يعيشها العالم الان .. فتلك الاسباب على اهميتها لا تشكل أولوية في الدعوة الملحه الى ضرورة مصالحة المسلمين على غيرهم . انما السبب الاول والاهم هو ان هذا الواقع المختل يتناقض تماما مع الموقف الاسلامى الصحيح . ذلك ان كل انتقاص من قيمة الانسان هو تشويه بالغ لتعاليم الاسلام ، بل عدوان على حدود الله يجب أن يرد !

ان هناك حرمه يقرها الاسلام لقيمة الخلق ، للروح التي تسرى في كل كائن حى ، والتي هي « من امر ربى » بنص القرآن الكريم .

وهذه الحرمه الواجبه الصيانه في التصور الاسلامي تمتد لتشمل مختلف مخلوقات الله ، بما في ذلك الطيور والحيوانات . وليس من المبالغه في شيء ان نقول بملء الفم ان للحيوانات حقوقا في الاسلام . يحاسب الله على التفريط فيها او انتهاك حرماتها .

ومشهورة قصة المرأة التي دخلت النار في قطة عذبتها ، كما يروى الحديث الشريف . ومنقول عن الرسول قوله لواحد من فتية الانصار شق على جمل يملكه : الا تتقى الله في هذه البهيمه التي ملكك الله اياها ؟

ومحمد عليه الصلاة والسلام هو الذى روى لصحابته قصة الرجل الذى سقى كلبا ظمآنا فشكر الله فغفر له . وسئل : ائن لنا في البهائم اجرا يا رسول الله ؟ فكان جوابه : في كل كبد رطبه اجر !

وهو الذى لم يكف عن الدعوة الى احترام مخلوقات الله . فيقول في الحديث الشريف : ان الله كتب عليكم الاحسان في كل شيء . فاذا قتلتم فاحسنوا القتله (التمثيل بالجسد محظور في الاسلام) . واذا ذبحتم (حيوانا او طائرا) فاحسنوا الذبحة . وليستحد احدكم شفرته . وليرح ذبيحته .

وهذا الحرص هو الذى حدا بالماوردى لان يسجل في كتابه الشهير « الاحكام السلطانية » انه مما ينكر في الحقوق المشتركه بين الله سبحانه وتعالى والآدميين » .. المنع من استعمال ارباب المواشي لها فيما لا تطيق الدوام عليه » .

واذا كانت تلك نظرة الاسلام الى عامة خلق الله . فما بالكم بخاصة المخلوقات وارفعها مقاما : الانسان ؟

●

ان الكتابات الاسلامية التي تعالج موضوع الانسان من قريب او بعيد . لا تكف عن ترديد عبارات التكريم والاستخلاف التي يحفل بها القرآن الكريم . وهي ترسم صورة رائعة بحق لقيمة هذا المخلوق العظيم . التي تحدد ملامحها العديد من الآيات . في مقدمتها قوله تعالى : ولقد كرمنا بنى آدم . وحملناهم في البر والبحر . ورزقناهم من الطيبات . وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (الاسراء ـ ٧٠) لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم (التين ـ ٤) ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكه اسجدوا لآدم (الاعراف ـ ١١) واذا قال ربك للملائكه انى جاعل في الارض خليفه (البقره ـ ٣٠) فاذا سويته ونفخت فيه من روحى . فقعوا له ساجدين (الحجر ـ ٩٢ .. الى آخر الآيات في هذا السياق .

ان تلك الآيات التي تمجد الانسان وتعلى مرتبته فوق كل المخلوقات . تتناول الانسان من حيث هو تكوين بشرى . وقبل ان يصبح مسلما او نصرانيا او يهوديا او بوذيا . وقبل ان يصبح ابيض او اسود او اصفر ..

والمدهش في الأمر أن أكثر الكتابات الفقهيه تكاد توحى لقارئها ان هذا المجد وتلك الحفاوة القرآنية من نصيب المسلمين دون غيرهم . رغم ان النصوص القرآنية شديدة الوضوح في هذه النقطة بالذات . فهي تارة تتحدث عن « الانسان » وتارة تتحدث عن « بنى آدم » . ومرات اخرى توجه الحديث الى « الناس » . وهذا التعميم لا تخفى دلالته على اى عقل منصف ومدرك للغة الخطاب في القرآن الكريم . التي تستخدم موازين للتعبير غاية في الدقة . تحسب بها متى يكون الخطاب للانسان وللناس بعامة . ومتى يوجه الكلام للمؤمنين والمسلمين قبل غيرهم .

حقا . فانه ليس هناك فيما اعلم كتاب فقهي يقصر التكريم في المواضع التي نحن بصددها على المسلمين دون غيرهم صراحه . ولكن المقطوع به ان اكثر الكتب الفقهيه تعامل غير المسلمين عندما يتعلق الامر باحكام المعاملات ـ دعك من العقائد والعبادات ! ـ بقدر من « الدونيه » لم يعد يليق بكرامة الانسان . التي اثبتها القرآن بجلاء . حتى صارت بمثابة وسام على صدره يعتز به . فضلا عن أنها وسام على صدر الاسلام ذاته . ليس لأحد أن ينزعه او ينال منه .

ولا تزال للمناقشة بقية !

في عتاب للمشارقة :

أين كنوز الأدب المغربي ؟

بقلم : عثمان بن خضراء

ان للمغرب أدبا راقيا زاهيا زاهرا لا يقل في رقيه ونماذجه وديباجته وبلاغته عن الادب العربي الشرقي الذي انتجته جزيرة العرب كما انتجت لغته .. لكنه مهمل للأسف البالغ !

لقد دخل الفاتحون العرب الى المغرب حوالي نصف القرن الاول الهجري .. وما اكثرهم واوسع زمنهم واشد هجرتهم وتزوجهم .. فدخل فيهم شعراء فحول وخطباء فصحاء وكتاب بلغاء فاختلطوا بالمغرب واثروا فيه بالتجاور والتناسل .. فتلقف لغتهم وآدابهم وفنون قولهم وأساليبهم ، كما تلقف دينهم وشريعتهم ـ وهنا نرى المغرب يسير في ركب الشرق من ناحية انتاج الشعر وتدبيج الكتابة واجادة الخطابة .. والمغرب تتحرك اوتاره فتوقع الحانها ، والبواعث الموجودة بين ابناء الشرق هي نفس البواعث الموجودة بين ابنائه .

آثار الخوارج في المغرب

فها هنا عقيدة الخارجية تنشر نفوذها بالسنان واللسان .. وقد امتد نفوذ اهلها في طليعة القرن الثاني للهجرة امتدادا كاد ان يعم شمال افريقيا كله .. والخوارج كما يعرفهم مؤرخو السياسة والادب معا كانوا يتفجرون شعرا وحكاية . وكلهم في المغرب كانوا من العرب النازحين اليه ـ وشعرهم تسيل القاظه ومعانيه بعواطف دموية قانية .. فاذا رأيناهم قد اثروا في البرابرة عقيدة وسياسة واجتماعا فلماذا لا نقول : انهم قد اثروا فيهم من ناحية الادب اكثر واكثر ، اذ الادب يتعلق بوظيفتهم المبدئية والسياسية اكثر من كل شيء .. ففيه الدعاية ، وفيه ابطال الدعاوى المعادية ، والمبادىء المضادة ، وفيه إثارة الكوامن ، وتشجيع الابطال والكتائب ، وفيه كل شيء لدى الخارجي المجاهد ...

لذلك نستطيع ان نقول : ان ادب الخوارج المغربي بتياره الجارف وموجته العاتية هو اول ادب عربي سيطر على عواطف ابناء المغرب وقلوبهم ، وكان منه للمغاربة ـ ولا شك ـ ادب غزير وافر مؤثر ـ ولكن بكل اسف لم يصلنا منه شيء سوى ابيات ومقطعات لا تشفي غلة ، ولا تدل على اتجاه ، وتأثير ظاهر ملموس وكيف لا يضيع ادب الخوارج المغربي وتاريخهم السياسي والكفلحي نفسه الذي امتد في المغرب وناضل بكل ما يملك من قوة وايمان اكثر مما ناضل وكافح في الشرق ـ قد ضاع الا اقله ...

يقول بعض المؤرخين بان حروب الخوارج مع خصومهم ـ اتباع الخلافة العباسية ـ بلغت في المغرب نحو ثلاثمائة وقعة في ربع قرن ثم لا نجد قصيدة واحدة خارجية تسجل لك شيئا من ذلك الصراع العنيف الذى بلغ غايته بين الخوارج وخصومهم ـ واذا تجاوزنا نصف القرن الثاني ودخلنا في الربع الاخير من القرن الثاني لنجد عقيدة جديدة قد دخلت الى المغرب ، عقيدة سياسية هي عقيدة الشيعة العلوية .. دخلت بدخول المولى ادريس بن عبد الله واتباعه ، وامتد نفوذها في المغرب الاقصى الا اقله ، حتى اصبح المثل لها وهو المولى ادريس عبد الله المذكور ـ حاكما على المغرب الاقصى ، فوفد عليه عرب كثيرون من شيعة الشرق

(القيروان) ـ والاندلس وكانوا يكنون له اشد الحب والتقديس . ونحن نعلم ان نتيجة هذا التقديس وذلك الحب تسجيله في قالب شعري وخطابي وكتابي من شيعته المخلصين الذي التفوا حوله من عرب وبربر وما اكثر العرب الذين وفدوا عليه . وكيف لا يحسن هؤلاء الشعر والقول وهم عرب اقحاح فصحاء بلغاء ـ مع ما يصلهم ـ ويغني به اخوانهم الشيعة في المشرق مثل أبو الاسود الدؤلي ، وكثير ، والفرزدق ، والكميت والسيد الحميري واضرابهم .

فاذا قد قيل في عهد دولة ادريس وابنائه واحفاده شعر كثير ونثر كثير ولكن اين ذهب ؟ إنه ذهب واضمحل ، وغاية ما كتبه المؤرخون او بالاحرى ما كتبه « ابن ابي زرع » صاحب « القرطاس » نتف اجمالية عثر عليها هنا وهناك من الرواية ، ونقل الالسنة .. مع كونه أتى بعد هذا الوقت بنحو اربعة قرون .

الفاطميون بعد الأدارسة

واذا انتقلنا من دولة المولى ادريس الى دولة شيعية عظمى هي دولة العبيديين التي سيطرت على المغرب وشمال افريقيا كلها ومصر والسودان ، وحكمت ما يقرب من ثلاثة قرون نجد ما وجدناه سابقا في دولة « ادريس » ..

تكونت دولة العبيديين في المغرب الاوسط والادنى بالدعاية وبث التشيع بين البرابرة ، وقطعت في الدعاية السرية زمنا ليس بقصير ، الى ان اعلنت دعوتها في عهد عبيد الله المهدي الذي سميت الدولة باسمه .. فنجحت غاية النجاح ، وقضت على كل طائفة حاكمة للبربر من قبل العباسيين في طريقها .. ثم امتد نفوذها غربا الى الشواطىء الاطلسية وشرقا الى مصر بقيادة عبدها المقدام جوهر الصقلي ، ولما فتح جوهر مصر بنى بها مدينة القاهرة .. فنقلت الدولة العبيدية عاصمتها من المهدية الى القاهرة ، واتخذتها عاصمتها السياسية والادارية والدينية والعلمية ـ هذه الدولة التي حكمت تلك المدة الطويلة كانت شيعية بكل معنى الكلمة مبدءا وعقيدة وسياسية . وكان لها اتباع لا يحصون وبقي تقديرها للمغاربة وان نقلت مقر حكمها من بين اظهرهم ، اذ هم الرجال المخلصون وعلى اكتافهم قامت الدولة .. فهم كالخراسانية بالنسبة للدولة العباسية ـ وكان المغاربة انفسهم ، وبالاخص أهل المغربين الادنى والاوسط ، يفنون في حبها ـ وكان المغرب الاقصى يتدحرج بين الدولتين الكبيرتين دولة الامويين بالاندلس ودولة الشيعة بمصر ، يدخل تحت نفوذ هذه زمنا ثم تغلب عليه هاته فيولي وجهه نحوها ويدخل تحت نفوذها زمنا آخر .. وكم قاسى من محن وأرزاء في هذه الاثناء .

واذا تشيع المغاربة للعبيديين مرة ثانية وكانوا قد استعربوا اكثر من ذي قبل ، بسبب ازدحام العلوم والآداب في جارتهم الاندلس الفتية .. ورحلة هؤلاء عند أولئك وأولئك عند هؤلاء ، فقد كان لهم ـ ولا شك ـ نهضة ادبية تعبر عن عقيدتهم ، واتجاه حكومتهم وسياستها بمدح ملوكها ، والثناء على اياديهم ، وما كان في المجتمع من رخاء وسعادة او ضدهما ، وما كان يشعر به الشعراء والادباء نحو أنفسهم ونحو بيئتهم .. ولكن بكل اسف ضاع ما انتجوا واضمحل ما ابدعوا .. الا نتفا قليلة جدا افلتت من ايدي حوادث الزمان الغاشمة .

لسنا ندري لماذا كتب الخلود لاشعار ابن هانىء الاندلسي التي مدح العبيديين بها حينما نفي من بلده ، وقصد العدوة المغربية الى البلاط العبيدي ؟

الغالب ان ذلك انما كان لبحث ابناء الاندلس العاملين الجادين في البحث والاستقصاء عن اشعار شاعرهم الفريد ومنتسبهم الطريد الذي فارقهم ، وهم لذلك كارهون ، فشدوا الرحال لجمعها وتسجيلها بين دفات التاريخ ..

الأندلسيون حافظوا على أشعارهم

واذا ذكرنا الاندلس في هذا السياق ، فلنثبت ان الاندلسيين لم يفرطوا في أشعارهم وأدبهم ، كما فعل المغاربة احيانا ، بل حافظوا عليها وسجلوها بين دفات الكتب والمجلدات منذ الفتح الاسلامي سنة ٩٢ هجرية ، بالرواية الصحيحة والكتابة الدقيقة .. ولعل السبب في ذلك ان الأندلس (الفردوس المفقود) قد حظيت بالاستقرار السياسي نحو اربعة قرون في ظل العلم الاموي فاشتغل علماؤها وادباؤها ومؤرخوها بتسجيل منتوجات الفكر والعاطفة فبحثوا واحسنوا البحث ، واجتهدوا واحسنوا الاجتهاد وشعروا واحسنوا الشعر ، وترسلوا واحسنوا الترسل وتركوا لنا ذلك التراث الضخم الذي خفي جله ، واهمل بعضه .

طمر الزمان في جوفه دولة الادارسة والعبيديين معا فرجع المغرب المسكين مقاطعات شتى كل مقاطعة يحكمها ثائر وكان بعضها خاضعا للنفوذ المنصوري اي المنصور ابن ابي عامر واحفاده وهم ورثة عرش الامويين الممزق في الاندلس وهذه الفترة كما يحدثنا عنها التاريخ لم يجن منها المغرب الا الفتنة والدمار ، فلسنا في حاجة الى بحث ادبي في تلك المدة المظلمة ومعاذ الله ان تلد

القرائح شيئا في زمن كهذا .

ثم ظهرت جماعة المرابطين من رمال الصحراء القاحلة الكبرى فطهروا هذا القطر من عتو الاقطاعيين وافسادهم في البلاد ، ووحدوا المغرب وحدة كاملة تجلت فيها يد الاصلاح والعدالة وكان طموحهم اكبر من ان ينحصر بدولتهم في رقعة المغرب .. فلبوا طلب الاندلسيين حينما نادوهم ليغيثوهم ويحرروهم من عدوهم المسيحي الكامن وراء الثغور والمغير على اهداف البلاد الاسلامية احيانا .. لبوا ذلك النداء بكامل العدة والعدد والعقيدة وعبروا الزقاق ـ زقاق جبل طارق ـ فحاربوا وانتصروا .. ثم بعد لأي قضوا على ملوك الطوائف المسلمين الذي كانوا جراثيم سيئة في هيكل البلاد الاندلسية واصبح العلم المرابطي يرفرف على امبراطورية واسعة تمتد من الصحراء الكبرى الى اقصى القطر الاندلسي شمالا ، فتوحدت هذه الاقطار وحدة كاملة شاملة ماديا وادبيا فحينما توحدت هذه الاقطار احدثت الاندلس في المغرب نهضة علمية وادبية ، لأن الاندلس كانت راقية بحضارتها وعلومها وآدابها الزاهرة فقد رأينا الشعراء والادباء يفدون من هنا وهناك ، وآخرين ينبغون ها هنا .. واخذت قوافل الادب السيارة في الامبراطورية الواسعة تغنى بمكارم أخلاق الدولة وما اسدته للرعايا من امان ورخاء .. كما تغنى بما يتمتع به العباد من عزة ونصر ، وما يحسونه هم نحوها من عرفان بالفضل وقد انجب المغرب في هذه الأونة علماء وشعراء وادباء امتلأ بهم البلاط المرابطي .. الفوا ودونوا وارخوا وشعروا .. ولكن ما عرفنا منهم الا القليلين .

القلة لم يصلنا من اشعارها وكتاباتها الا نتف وقصائد مقطعة وتلك القلتات الادبية لم تصلنا الا بجهود الاندلسيين الذين كتبوا عنا كالفتح بن خاقان ، وابن بسام ، والمراكشي صاحب المعجب ، وابن الخطيب ومن اليهم .. الا ابا العباس المقري صاحب نفح الطيب فانه منا والينا ، وقد كتب واجاد ما شاءت له الكتابة والاجادة .

فهذه العصور التي تقدر بنحو خمسة قرون كانت العصور الذهبية في كل من الشرق والاندلس وخلفت تلك الاكداس المكدسة من كتب العلوم والآداب هنا وهناك .. وهي التي بلغ فيها العقل العربي بل العقل الاسلامي ، والشاعرية العربية ، والموهبة العربية اقصى ما قدر لها ان تبلغه ، حتى صارت الأعصر التالية للعرب وللمسلمين انما هي شرح وتعليق وتحليل وتقليد لما وضعه اولئك الائمة الاعلام ومع ذلك الرقي الفكري والشعوري نرى المغرب ـ برغم كونه نقطة وصل بين اولئك وهؤلاء ـ بقي متأخرا شيئا ما في الناحية « الادبية » ، لاننا لم نعثر له على ما يدرجه في سلكهم ، ويجعل ركبه يسير في مصافهم .. والجاني الاكبر على الادب المغربي في تلك العصور هو عدم الكتابة والتأليف ـ برغم وفرة الانتاج ـ بسبب النكبات المتوالية التي كانت تراوح المغرب وتغاديه .. فاذا قدر لشاردة ان تفلت من تلك الصقور العادية طارت وحلقت وأسرعت السير الى الجو الاندلسي ، فيفتحون لها اذرعتهم ، ويحيطونها بعناياتهم ، ويقيدون اوابدها باقلامهم في دفاترهم .. وهذا هو السر في كوننا نعثر على بعض المناحي الادبية المغربية حينما نفتح بين ايدينا مجلدا تاريخيا او علميا او ادبيا خطته يد اندلسية ...

الموحدون في المغرب

فاذا وصلنا الى زمن الدولة الموحدية وجدنا المغرب قد نضج بعض النضج واصبح هواة الادب من ابنائه كثيرين منهم الامير ومنهم الوزير ، ومنهم جمهور الناس من متوسط او فقير ، حتى كان جلهم يقدر على الارتجال الشعري والنثري ان سنحت له الفرصة بذلك :

يحدثنا ابن ابي زرع وغيره « ان عبد المؤمن الموحدي الامير الكبير الشهير .. ووزيره الكاتب الاديب الشاعر ابن عطية خرجا يتفسحان غدوة احد الايام في بستان بمراكش وبينما هما يتابعان الخطى في تؤدة واتزان اذ اتجهت عين عبد المؤمن اتفاقا الى احد الدور الجميلة هناك فوقعت مقلتاه على فتاة تشرف كالغزالة او كالبدر في ليلة تمامه.. فبهت عبد المؤمن ذو الاحساس الشعري ونطق على البديهة والارتجال قائلا :

« قدت فؤادي من الشباك اذ نظرت ..

حوراء ترنو إلى العشاق ... »

فأجابه الوزير ابن عطية بقوله :

« حوراء ترنو الى العشاق بالمقل »

فزاد عبد المؤمن قائلا :

« كأن ناظرها في قلب عاشقها »

فتمم ابن عطية بقوله :

سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي »

هذا نموذج صغير اتينا به لنرى النضج الادبي في الوسط المغربي وقتئذ ، وليس يعنينا التعليق على هذا الشعر وما فيه من صنعه « او جمال او ضعف وما هو الاحسن من شعر الرجلين انما يعنينا السبب الذي ذكرناه ..

ولكن العجب هو ان هذا العصر برغم تقدم المغرب الادبي لم يصلنا عنه ما يكفينا لتصويره ، ولم نطلع على تلك القصائد العديدة المتنوعة ودواوين الرسائل الكثيرة ، التي زخر بها البلاط والاندية والمجالس والمساجد والكتاتيب وغيرها ... وكل ما وصلنا كان عن طريق المؤرخين الاندلسيين غالبا .. وجله لا يزال مهملا في المكاتب والخزائن الخطية لا يريد البحاثون ان يجهدوا انفسهم وابصارهم بمطالعة كتب خطية متعبة وهم يظفرون من الادب الجديد والادباء الجدد بالورق الصقيل والطبع المتقن البارز الحروف والتجليد العربي الجميل وغير ذلك .

المرينيون في المغرب

وها هي دولة بني مرين قد سيطرت على المغرب ، وهي دولة مغربية بربرية زناتية كما شهد بذلك كبار المؤرخين كابن فرح وابن خلدون وابن عبدون وغيرهم ـ ولكن ـ برغم بربريتها ـ كانت تحب العلوم والآداب والفنون ، فبلغت العقلية الادبية في عصرها ما لم يصله المغرب فيما تقدم من عصوره فبنت المدارس والمكاتب وشجعت الطلبة والعلماء والمؤلفين والشعراء حتى انه ليروى انه غرق مع ابي الحسن المريني في رجوعه من تونس نحو ثلاثمائة عالم واديب .. واصبح العلماء والادباء يشدون اليهم الرحال من سائر الاقطار المغربية حتى الاندلس نفسها ، ينتجون في قصرهم كثيرا من جميل الشعر ولذيذ النثر .. ولعب التنافس في فاس دوره بين الادباء والشعراء والعلماء كما كان يلعبه في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة واشبيليه من قبل .

ولكن هل وجدنا الآثار الادبية الكاملة الكافية عن تلك النهضة كما وجدنا اثار دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة واشبيلية نفسها ؟ الواقع لا ، وذلك لان اهل الادب في هذا العصر صاروا ينظرون الى الادب بعين غير راضية ويعدونه لهوا ومجونا لا ينبغي ان تصرف إليه الهمم ولا ان تسخر فيه الاقلام .. خصوصا اذا علمنا ان الاوساط المغربية على عهد المرينيين والوطاسيين من بعدهم قد سيطرت عليها الزوايا والصوفية وطريقة اهل الاشارة والمعرفة .. وجل الناس قد اشتغلوا باحزابهم واوراجهم فلا غرابة أن زهد المؤلفون والمؤرخون معا في تاريخ الادب وتدوين ما جادت به القرائح والفكر إلا ما جاء عفوا في سياق تاريخي اوقصصي ، وانما كان يعنيهم ان يؤرخوا للدولة وما يتعلق بالدولة ، ويؤلفوا للامة ما تتوقف عليه مصالحها التشريعية او عقائدها الروحية من اخبار العلماء وكرامات الاولياء .

في دولة السعديين

ورغم كون الدولة السعدية قد اتسع نطاق الحركة الادبية في عصرها ونبغ فيها فحول من شعراء وكتاب كعبد العزيز القشتالي واشباهه ، فان تدوين تلك المنتوجات لم يعط حظه من العناية والاعتبار .. ولولا الكتب التاريخية السياسية التي اوردت في غضونها بعض القصائد والرسائل الادبية لفقدنا المتعة بها .

ان الملاحظ في عصر السعديين على الخصوص هو انهم كانوا يستعملون الفن الادبي اداة فعالة في احياء الاعياد الدينية والايام والليالي المقدسة حيث كان يتبارى الشعراء في صياغة القصائد البليغة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والاسلام الحنيف والخليفة الحاكم وانجال الخليفة الموهوبين ، وينشدونها في ذلك الحفل الديني الرهيب بدءا من الوزير فالقاضي فالمفتي فالكاتب فالقائد فبقية الشعراء .. وتلك قصائد ممتعة حقا جديرة بالدرس والتحليل حتى يستخرج منها الباحث صورة حية للطابع الديني في ذلك العصر ، وخصوصا عصر المنصور الذهبي الذي يشبه في كثير من الوجوه عصر الخلفاء الكبار أمثال الرشيد والمأمون وعبد الرحمن الناصر وغيرهم في الابهة والعظمة والسلطان .. وفي الاهتزاز للحركة الادبية ونشاطها .. وفي الانفاق على الشعراء والكتاب .. وفي الافتنان في البناء والتعمير والتشييد ، وفي حب العلم والمذاكرة فيه وفي غير ذلك من محاسن الملك .

كتب محبوسة

ونصل الى الدولة العلوية الشريفة التي كان من اهم اهدافها في سياستها تشجيع العلم والادب بكل الوسائل الممكنة .. فزادت في المساجد والمدارس والكتاتيب ، ووجهت عنايتها نحو المدن الكبرى في المغرب وجعلت لها النفقات الخاصة في التعليم وفتحت ابوابها للعلماء والشعراء والادباء ترفدهم باياديها وتشملهم بعنايتها حتى كثر في عصرها رجال العلم والادب والشعر كثرة يباهي بها المغرب المشرق آنئذ .. بل انه في نهضة المغرب العلمية والادبية كان الشرق ـ الا القاهرة ـ نائما فاترا يستريح من جهاده الطويل الذي قاساه منذ ابتداء قرون الضعف .

ففي ذلك الوقت الذي كان الشاعر الشرقي يجهد موهبته الشعرية كي يستخرج ابياتا يتقدم بها الى ممدوحه ، يستدر عطاءه او يعمد الى دواوين الشعراء

الاقدمين فيغير بأن يؤخر ويقدم ويحور ويكسو معانيهم العتيقة من الفاظه نسيجا مهلهلا ليوجد قصيدة تجلب عطاء .. في ذلك الوقت تقدم شاعر من شعراء عديدين في المغرب الى الامير الجليل الفخم محمد بن عبد الله العلوى بقصيدة عصماء يمدحه بها ، لا تكاد تجد نظائرها في ادب لغة الضاد : رقي معنى ، وجمال ديباجة ، واحتواء حكمة ، ومثلا وتاريخا .. ولم يكن ذلك الشاعر الا « ابن الونان » المغربي ، ولم تكن القصيدة الا « الشمقمقية » التي مطلعها :

مهلا على رسلك حادى الأينق
ولا تكلفها بما لم تطق
مهلا بها قد بلغ السيل الزبى
واتسع الخرق على المرتق

انشده إياها وهو واقف على فرسه في الطريق العامة وسط رجال الدولة والقواد ويقول المؤرخون : انه استمع اليها باهتمام وتأن رغم طولها .. فلما فرغ من انشاده اجازه عليها بماسة لكل بيت .. وابياتها تنيف على المائتين والستين بيتا ...

هذا العطاء الجم من ذلكم الامير العصامي يقاس عليه ما كان في الدولة عموما وهذا ابو علي اليوسي من رجالات هذا العصر وعلمائه وادبائه كان فقيها ولغويا وشاعرا ومحاضرا يعد نموذجا حيا لعصره وبيئته ... وأمثال « ابن الونان » وأبي علي اليوسي كثيرون ـ فمن الاطالة محاولة الكشف والاستقصاء .

اجل .. في هذا العصر لم تهمل تلك الذخائر الادبية كلها ، ولم يضع منها ما ضاع في الاعصر السابقة ، فنستطيع ان نقول : ان ما انتجته قرائح ومواهب ابناء هذا العصر لم يضع منه الا الشيء القليل .. فجله قد دون في المجلدات ، ورتب في القمطرات والمكتبات .. لذلك فان كل من يريد ان يبحث عن اديب او ادبه في هذا العصر ، وكانت له همة الباحث الحق يستخرج الدر من أصدافها ويغوص عليها في اعماق بحورها ليجد ضالته المنشودة .

والبلية الاخرى التي اصابت هذا العصر .. هي احتفاظ الناس في بيوتهم بتلك المجلدات المكنوزة التي ورثوها او وصلت اليهم بأى سبب آخر .. فلم يبرزوها الى القراء لينتفعوا وينفعوا بها .. بل تركت غائبة مهملة ـ الا اقلها الى الآن .

ولو لم يقدر لنا ان نعثر على بعضها في الخزانات العامة ، ومعارض المخطوطات والكتب وتعب انفسنا في مخطوطاتنا الصعبة .. لحرمنا من الاستمتاع بها كل الحرمان ، وتلك التي في الخزانات لم يضع إلا اقلها .

لماذا ؟ لامرين اساسيين في كل محاولة مطبعية ـ

اولها أن المطبعات اصبحت تجارية بكل معنى ، ونسيت خدمة العلم والادب لذاتها فلا تطبع الكتاب الا اذا ضمنت فيه الربح الظاهر المحقق الكثير .. والكتب المغربية جلها كبيرة الحجم عديدة المجلدات .

وثانيها ان الطبع يتوقف على رجال عاملين مقتدرين ، كرسوا حياتهم لخدمة العلم والادب يقدرون على التصحيح والاصلاح والضبط .. واين .. واين .. لذلك بقي انتفاعنا بادبنا المكنوز ضئيلا جدا ..

لذا نرى ان الكتب الادبية المغربية نفسها انما صححت وطبعت في بلاد اخرى ... والمحقق الذي يستطيع منا ان يرجع الى تاريخنا الادبي منذ نشأته الى اليوم اى منذ اثنى عشر قرنا وزيادة ويعكف على مصادره ومظانه ـ ان وجد ما يكفيه جمعا ودرسا وتحليلا ومقارنة واستنتاجا ـ يتحمل في سبيل ذلك صعوبات البحث ومشقات الدرس ـ ثم يخرج لنا كتابا او كتبا تصور لنا حياتنا الادبية وحالتنا الثقافية اجمل واكمل تصوير ـ ينال التقدير والاعجاب والتقديس ؟

والغريب ان مؤرخي الادب المحدثين المشارقة مثل « بطرس البستاني » و « جرجي زيدان » و « احمد الزيات » و « الرافعي » و « طه حسين » و « زكي مبارك » و « احمد امين » وغيرهم قد كادوا يهملوننا كل الاهمال .. فبينما تراهم « يؤرخون ويبحثون ويكتبون ويطيلون في الادب العربي في الشرق تجدهم يقتطفون ادبنا وتراجم رجالنا اقتطافا كانهم يؤدبوننا على اهمالنا انفسنا .. او يحثوننا على ان نرجع الى ادبنا نحن وندرسه دراسة مفصلة ، وان قصدوا هذا ، فهم صادقون .. اليس رب المدينة اعرف بدروبها ، وصاحب السوق اعرف باسعارها ، وفلاح الارض اعلم بنباتها وبذورها وتربتها ؟ .

ان بعض كتابنا وادبائنا كتبوا عن ادب الشرق وادب الغرب .. فترجموا ونقدوا وعلقوا والبعض الآخر ، بين أيديهم كل مقومات الكتابة وبواعثها وموضوعاتها .. بين ايديهم ادب وافر كثير وعلم متنوع غزير مفتقر الى البحث والتمحيص ... حضارة ثلاثة عشر قرنا بعلومها وتاريخها وادبها واجتماعها وعاداتها وتقاليدها فلو رجعوا الى هذه المصادر الفياضة ، وتخللوها باقلامهم وافكارهم ونقدهم لأخرجوا للجيل الناشيء والمقبل ادبا مغربيا مؤرخا منقودا غضا يانعا فيه صلة الابناء بالآباء والاجداد .

■ ■

سلا ـ المغرب ـ عثمان بن خضراء

قضايا حيوية

دعوة لإنشاء مركز عربي للبحوث العلمية

بقلم الدكتور : فؤاد الزين *

« الهدف من هذا المقال هو الدعوة الى اقامة مركز عربي للبحوث العلمية ، تشترك فيه جميع الدول العربية ، ليكون وسيلة الاتصال مع عالم البحوث

سأتكلم بالتحديد عما يجب ان يكونه فرع الرياضيات في هذا المركز ، لأنه ميدان اختصاصي ، ولكن ما سأقوله ينطبق على العلوم الاخرى ، كالفيزياء والطب مثلا .

ولا يسعني الا التوجه بالدرجة الاولى لدعوة زملائي اساتذة الجامعات والمسؤولين عن التربية والتعليم في الوطن العربي لمشاركتي في هذا المطلب وابداء آرائهم في هذا الموضوع ، وهم اعلم الناس بالحاجة الى المؤسسات التي تؤمن الاتصال الدائم مع الجامعات في الخارج

وانطلاقا من ذلك ، سأحاول شرح انظمة العمل في البحوث في العصر الحاضر ، لبيان أهمية الدور الذى تلعبه مراكز البحوث في العالم ،

١ ـ تنظيم البحوث الرياضية في العالم

اشير أولا الى ان العلاقات بين الباحثين تقوم على نماذج تقترب اكثر ما يمكن الى الديمقراطية (هنا ارى الديمقراطية كهدف يحاول الانسان التقرب منه دون ان يستطيع الوصول اليه) .

نرى الحاجة الى مقاييس للبحوث لتنظيمها في نظريات ونشرها على الباحثين الاخرين وتكريسها لتوجيه التعليم الجامعي ، فيكون بذلك التفاعل بين البحث والتعليم . وسأذكر من هذه المقاييس نقطتين :

أ ـ المجلات والجمعيات العلمية : يوجد في كل من بلدان العالم المتقدمة جمعية رياضية تكون وسيلة اتصال بين الباحثين في الرياضيات في مختلف الجامعات ، اذكر منها على سبيل المثال : الجمعية الرياضية الامريكية (American Mathematical Society) والجمعية الرياضية الفرنسية (Societe Mathematipue de France) وتتألف الجمعية من هيئة ادارية ينتخبها الاعضاء ، ومن الجدير بالذكر انه توجد عادة صعوبات جمة في تكوين الهيئة الادارية لأن اغلب الباحثين يتهربون من الاعمال الادارية للتفرغ لأبحاثهم . ويكون عمل الجمعية الاساسي في تنظيم اللقاءات بين الرياضيين حسب اختصاصهم في حلقات دراسية تعقد في احدى الجامعات وتدوم اسبوعا او اكثر ، يحاضر فيها كل من احرز تقدما في البحوث المتعلقة بالموضوع المطروح للمناقشة . وتسهم الجمعية بتوجيه البحوث من خلال اختيار مواضيع البحث في هذه الحلقات .

وتصدر عن الجمعية مجلة علمية يدون فيها الباحثون نتائج اعمالهم (تدعى في فرنسا وامريكا Bullatin) وكذلك تصدر هذه المجلات عن الجامعات الكبرى التي اشتهرت بأحد الفروع الرياضية ، وتصدر ايضا عن مراكز البحوث ولكل مجلة مسؤولون علميون تصل نشرات الباحثين اليهم لمراجعتها والتأكد من صحتها واهميتها قبل نشرها . وتكرس هذه المجلات اهميتها حين ينشر فيها احد الباحثين المشهورين عالميا اعماله .

---

* عضو في مجلس البحوث ـ جامعة باريس ـ عضو منظمة البحوث الوطنية ـ جامعة M.I.T. الولايات المتحدة .

توجد هذه المجلات في جميع المكتبات الجامعية في العالم ، ويفوق عددها في عصرنا الحاضر على المئة مجلة في الرياضيات . واذكر هنا ، انني لم اجد اي مجلة علمية في الرياضيات صادرة عن احدى الجامعات او المؤسسات العربية ، في اي من جامعات اوروبا وامريكا ، بينما توجد مؤلفات تذكر اعمال العرب القدماء واثرها في ميدان الرياضيات .

ب ـ المؤتمر العالمي : وقد قرر الباحثون في الرياضيات في العالم انشاء مؤتمر عالمي يعقد كل اربع سنوات في احدى دول العالم لمناقشة التطورات التي تحدث في مختلف الفروع الرياضية التي يفوق عددها حاليا ٣٠ مادة ، حسب تصنيف الجمعية الرياضية الامريكية .

١ ـ يجري في بدء المؤتمر توزيع ميداليات فيلدس« Fields Medals » لاثنين او اربعة من الرياضيين الشباب الذين لا تزيد إعمارهم عن الاربعين سنة .

وتعتبر هذه الجائزة بمثابة جائزة نوبل « Nobel » ، لأن نوبل استثنى خطيا في وصيته الرياضيات من بين جوائزه ، ويعزى ذلك الى اسباب شخصية ، فقد اشتهر في السويد في زمن نوبل استاذ الرياضيات في جامعة استوكهولم ميتاغ لفلر Mittag Leffler ولم يكن على وفاق مع نوبل ، فاستبعده نوبل عن نيل جائزته بعد موته بهذه الطريقة ...

ويحصل عادة على هذه الجوائز الرياضيون الذين اسسوا نظريات جديدة في العلم ، او قدموا حلا لمسائل مفتوحة منذ عشرات السنين (وبعضها منذ مئات السنين) والتي عصي امرها على العديد من الباحثين ـ اذكر على سبيل المثال :

Hypothese de Riemann, Eguations de Fermat

ومن المعلوم انه في سبيل حل Conjecture de Weil طور Grothendieck علم الهندسة الجبرية ، حتى استكمل تلميذه P.Deligne الحل ونال كل منهما الميدالية ، الاول سنة ١٩٦٦ في مؤتمر موسكو والثاني سنة ١٩٧٨ في هلسنكي .

ومن الجدير بالذكر ان ميخائيل عطية M.Atiyah وهو استاذ في جامعة اوكسفورد في انكلترا ، نال هذه الميدالية ، وهو من اب لبناني عمل في الجامعة العربية ، وتسابقت جامعات العالم لدعوته ليحاضر فيها ، ولكن لا اعتقد انه تسنى له زيارة اي جامعة عربية .

٢ ـ توجه الهيئة المسؤولة عن المؤتمر ، الدعوات الى الباحثين البارزين لالقاء محاضرات عن التقدم الذي طرأ في مختلف النظريات الرياضية وفي جميع الفروع في سلسلتين من المحاضرات ، الاولى تجري صباحا لفترة ساعة لكل منها ، والاخرى تجري مساء لفترة نصف ساعة لكل منها .

٣ ـ يراوح عدد حضور المؤتمر في الفترات الاخيرة (Van Couver, Canada) سنة ١٩٧٤ (Helsinki, Finland) سنة ١٩٧٨ بين ٢٥٠٠ و٣٠٠٠ شخص ، بينما يقدر عدد الباحثين الرياضيين بـ ١٠ آلاف باحث منتشرين في العالم .

وهنا الاحظ انه لم يدع احد من الباحثين في داخل البلاد العربية ليحاضر في المؤتمر العالمي حتى الآن . اما الذين يحضرون من الجامعات العربية فيفدون بشكل خاص ولا يتجاوز عددهم الستة ، ولايوجد لهم اي اتصال مع الباحثين العرب في الجامعات الاجنبية

٢ ـ نماذج من معاهد البحوث الاجنبية

أ ـ المراكز الكبرى في العالم ـ من اهم مراكز البحوث حاليا في العالم Advanced Institute For Research في Princeton في الولايات المتحدة و Steklov Institute في موسكو و Institut Des hautes Etudes Scientifiques او I.H.E.S. في اوروبا وموقعه قرب باريس .

وسأتكلم قليلا عن هذا الاخير ـ يتألف هذا المعهد الاوروبي (وليس فرنسيا فقط) من فرع للرياضيات وآخر للفيزياء ، يوجد استاذان دائمان للرياضيات حازا على ميدالية Fields وهما P.Deligne الذي بدأ اعماله بانشاء نظرية Structures de Holge Mixte والتي اعمل فيها حاليا ، وتوج اعماله بحل Conjecture De Weil و R.Thom الذي انشأ نظرية « الكوارث » Catastroph Theory وينتمي للمعهد ايضا استاذان ملحقان ، ويصدر المعهد مجلة علمية باسمه .

ب ـ نموذج آخر عن المعاهد ـ مركز Oberwolfach في المانيا الغربية الذي انشأته شركة Volkswagen في عهد هتلر ، ويعمل بأسهل الطرق ، ويتكلم فيه كثير من المبتدئين في البحث ، بعكس المعاهد السابقة .

ت ـ البلاد الصغيرة او النامية ـ البلاد الصغيرة تستطيع انشاء معهد للبحوث اذكر منها معهد Mittag leffler في السويد . كذلك البلاد الناشئة ، فالهند مثلا ، انشأت مركزا للبحوث في Bombay اشتهر بمستواه العالي ، وهو يدعو كثيرا من مشاهير الرياضة لالقاء المحاضرات فيه ، ويصدر سلسلة كتب في البحوث . والجدير بالذكر ان الباحثين في الغرب يحبون كثيرا زيارة هذا المعهد . ومن المعلوم ان مركز Bombay يشابه المراكز الغربية لدرجة انه طبق الاصل عنها ، وهكذا تمكنت الهند من صنع القنبلة الذرية ، فبدلا من جعل الهند كأمريكا ـ وذلك صعب جدا ـ كانت الفكرة اقامة مراكز بحوث تعادل مثيلاتها في البلاد المتقدمة .

واخيرا توجد ما اسميه المعاهد المتنقلة واعني بها الحلقات الدراسية التي تنظمها الجمعيات الرياضية في الجامعات (او تنظمها الجامعات بالذات) .

٣ ـ البحوث في العالم العربي وفوائد انشاء مركز لها

أ ـ تتبين مما سبق انه لا توجد حتى الآن اي محاولة جماعية لتنظيم البحث في داخل العالم العربي ، بالمعنى الذي يترك اثرا في النظريات العلمية الحديثة ، فقد قامت في العالم العربي عدة جامعات وعملت جهدها لرفع مستوى التعليم كي يوازي التعليم في الخارج .

(وهنا اسجل ان عدد التلاميذ العرب في الخارج يدل على الحاجة الى المزيد من الجامعات في الوطن العربي) . ويضطر اغلب الاساتذة الى التوقف عن متابعة البحوث الرياضية ، ازاء المجهود الكبير الذي يبذلونه في سبيل رفع مستوى التعليم . وقد انشأت بعض الدول العربية مراكز للبحوث اعتقد انها لاتحاول حتى الآن القيام بأبحاث تتفاعل مع البحوث العالمية حسب المقاييس السابقة الذكر ، وانما تكتفي بتقديم المنح للطلاب المتفوقين لاتمام دروسهم في الخارج دون تقديم اي مساعدة نظرية لهم لتوجيههم ، اي ان الصفة الادارية لهذه المراكز تغلب الصفة العلمية . والامل كبير في ان يتمكن العرب من القيام بدور فعال في الرياضيات الحديثة اذ كان دور الباحثين العرب في تاريخ الرياضيات مشرفا للغاية ، ولم يقتصر على نقل الرياضيات عن اليونان وانما اضافوا كثيرا من الدراسات القيمة .

١ ـ تأمين التبادل الدائم بين الجامعات العربية والجامعات في الخارج

٢ ـ اصدار مجلة علمية ذات مستوى عال ، تكون مقبولة لدى المعاهد العلمية الاخرى ، يشترك في ادارتها احد الباحثين المعترف بهم دوليا ، ومن الذين حازوا على جائزة Fidds مثلا .

٣ ـ انشاء حلقات دراسية ، يدعى اليها الباحثون من الخارج الى جانب الباحثين من الداخل ،

٤ ـ تأمين حلقات دراسية تجمع بين الطلاب العرب حين عودتهم لقضاء فصل الصيف في البلاد العربية ، وتسهيل التعارف بين الاساتذة العرب .

٥ ـ يساعد المركز على انشاء جمعية عربية رياضية .

٦ ـ يؤمن المركز تأمين التمثيل العربي في المؤتمرات العالمية .

٧ ـ يساعد المركز على تأمين الاساتذة العرب للجامعات .

٨ ـ يقيم المركز دورات للتثقيف الدائم لأساتذة الجامعات المنقطعين عن البحث .

واخيرا اود الاشارة الى الصعوبات النفسية التي يواجهها الطلاب العرب (وحتى المتفوقون منهم) ازاء المجتمع المضاد لهم في الغرب . والشعور بالضياع الذي يحدث بسبب فقدان الاتصال بالمراكز العربية ، زد على ذلك ان الصحافة العربية والسائحين العرب يصورون للطلاب ان وجودهم في الغرب سيجلب لهم اللهو والمرح ، ويتجاهلون تماما المصاعب التي تصادف هؤلاء الباحثين المبتدئين ، ولم اسمع صوتا واحدا ينبه لها .

واختم حديثي هذا بان انشاء مركز عربي علمي مستقل عن الضغوط المحلية الخارجة عن العلم ، ضرورة لربط الجامعات العربية واستكمال البناء السليم للأمة العربية ، فضلا عن كون هؤلاء الباحثين قدوة لابناء هذه الامة .

تعقيب على مقال

مقاومة لا مبرر لها

بقلم : الدكتور صلاح عيد

لست أود أن أرد بالذات على مقال الدكتور عون الشريف قاسم : « مقاومة الانهزام الثقافي أولا » الذي نشر في عدد ديسمبر ١٩٨٠ من « العربي » ، وانما ارد بوجه عام على تيار هذه « المقاومة » التي يبدو لي انه لا مبرر لها على الاطلاق . على اساس ان الحضارة البشرية مراحل متعاقبة لها اتجاه تطوري واحد وان اختلفت المناطق الجغرافية التي تحل او تنشط بها ، بل انك تستطيع ان ترسم خطا مستقيما ينتظم المراكز الرئيسية للحضارة من اليمن (الحضارة الأقدم) الى الدائرة التي تضم مصر والعراق (الحضارة القديمة) الى اليونان وجنوب ايطاليا (الحضارة الوسطى) الى اوربا الغربية (الحضارة الحديثة) .

وكل مرحلة تفضي الى المرحلة التالية في هذا الاتجاه التطوري الواحد الذي يأخذ شكل التجريد والاختزال ، فاذا كانت الصور والرسوم هي اللغة المكتوبة للحضارة القديمة ، فان الكلمة بحروفها ـ التي هي مجموعة من الرسوم المختصرة ـ هي البنت الشرعية للمرحلة السابقة ، والحروف والرموز في العصور الحديثة هي بدورها البنت الشرعية للكلمة وهي تحمل سمات الرسوم .. جدتها ، فوحدات اللغة والفكر وهما المحرك الاساسي للحضارة البشرية ، لها هذا الاتجاه التطوري نحو الاصغر والاسرع منذ اقدم العصور حتى اليوم .

ما موقع الحضارة العربية الاسلامية على خريطة التحولات الحضارية على الارض ؟ انه الطور الثالث من المرحلة الوسطى الذي يسبق المرحلة الأوربية الحديثة مباشرة . والمرحلة الوسطى بدأت في اليونان ثم استكملت حياتها في المركز القديم للحضارة فعاشت العصر الهلينستي في اسكندرية مصر ، وعاشت العصر العربي الاسلامي في دمشق ثم بغداد ، ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي تقريبا ، وفي الوقت الذي بلغ التدهور الحضاري مداه في بلاد الشرق العربي ، اخذت خلاصة الحضارة الانسانية في ثوبها العربي تصعد نحو اوربا الغربية عبر صقلية وايطاليا والاندلس في شكل المخطوطات العربية التي هي الباعث التاريخي المباشر لقيام النهضة الحضارية في اوربا في شتى مجالاتها ...

ومعنى ذلك ان البلاد التي نعيش فيها الآن كانت مركزا من مراكز الحضارة القديمة والوسطى . وهو مركز مهيأ ليلعب للمرة الثالثة دور قيادة الحضارة ، وحمل لوائها بشرط هام هو عدم وجود ظواهر المقاومة والصد للمد الحضاري الوافد من مركزه الحالي في اوربا (وانا اتحدث هنا عن المراكز الرئيسية للحضارة ولا اهتم بامتداداتها شرق وغرب هذه المراكز في العصور المختلفة)

درس من الأولين

ان هذه المقاومة والدعوة المستمرة اليها انما هي اقامة سد يحول دون عودة المد الحضاري مرة اخرى الى بلادنا او على الاقل تعويق اندفاعة .. كلما وجدت هذه المقاومة . قلت لنفسي ان لذلك معنى واحدا ، هو اننا قد لا نحمل ابدا من جديد راية الحضارة البشرية كما

قضايا حيوية

حملناها في العصور القديمة والوسيطة لان الذين كتب لهم ان يقوموا بهذا الدور يمتازون بالتواضع والتفتح والرغبة التي لا يقف دونها حائل في العب من مناهل الثقافة الوافدة والسعي اليها سعيا حثيثا ، لا لمجرد الاحتفاظ بها بل لتطويرها والاضافة اليها .. وهذه كانت اخلاق اليونانيين الذين تلقوا العلم في جامعات مصر القديمة وكانوا التمهيد الطبيعي والتاريخي لانتقال الحضارة من عصورها القديمة الى الوسيطة .. من دور الرسوم الذي كان في نهايته الى دور الكلمة . واليونانيون قاموا بالفعل بدور تجريدي هام في نقل الحضارة عبر هاتين المرحلتين الكبيرتين ويعرف مؤرخو الحضارات انه يمكن بسهولة رد جميع عناصر الحضارة اليونانية الى الحضارة القديمة . والعرب والمسلمون كانوا مثالا طيبا على هذا التواضع وسعة الافق في ترجمة منجزات الحضارة اليونانية وغيرها الى العربية ويكفي ان الخليفة هارون الرشيد كان يهادي شارلمان للحصول على الكتب العلمية وغيرها . وكان الجاحظ يسمى ارسطو المعلم الأول ، ويؤيده ويعارضه موضوعيا ، دون ان يدخل الامر مقاومة او دعوة الى اقامة السدود في وجه الحضارة اليونانية « الوافدة » . رغم ما كانت تحمله من عناصر لا تتفق مع الروح العربية الاسلامية . لكننا نجد ان الاجداد الكرام قد تجاوزوا بتسامح وكرم واغضوا اغضاء مهذبا عن هذه العناصر ، واستمروا ينهلون نهلا من منابعها وينقلون خلاصتها الى العربية مطورين مضيفين اليها ما اقتضاه دورهم التاريخي . ولا نحس انهم كانوا يحملون للحضارة السائدة في ايامهم ما يتحمله بعضنا للحضارة السائدة في ايامنا من كره او يدعون الى ما تدعو اليه من اقامة الحدود والسدود ووضع القيود على حركة المد الحضاري باتجاهنا ان الحضارة البشرية كل واحد له مراحله وجزاؤه . وحضارتنا بكل عناصرها التقنية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية انما هي جزء من هذا الكل ، وعلينا الا نبالغ في الشعور بالذات او الدونية عندما نتلقى خلاصة الحضارة الانسانية في مرحلتها الراهنة . ان الأمر يجب أن يخلو من كل كراهية او حسد او خوف او انفعال لا مبرر له . انني لا اطلب اكثر من ان نكون طبيعيين واسوياء املا في ان نلعب من جديد دورنا الرئيسي في تاريخ الحضارة الانسانية .

الرِّدّة وحرب التدليس الثقافي

بقلم : الدكتور مصطفى شعبان

في الشرق يموت الفكر على ايدي كهان المعرفة ، بعضهم يرتدي زيا ناصع البياض ويقال لنا هذا يمثل حلقة التراث المفقودة وانكم إن تمسكتم بهذه الحلقة وصلتم الى شط الامان وانتصرتم على الهزائم التي ستحيق بكم لا محالة ، ولكنهم نسوا في غمرة اعادة خلق القديم انهم لا يقدمون الا فتاتا من كلام لا يبعث الحياة في جسد يتفسخ ، فانهاض تراث فكري كامل مع طريقة حياة جديدة يستلزم عملا مضنيا وبحثا جادا في اعماق هذا التراث ولا يكفي ان ننقل آراء مفككة ونحاول ترميمها مع بعضها في شكل او آخر .. ثم نطلب من الناس أن يخروا لهذا المخلوق الغريب سجدا ... لا لشيء الا لانه منقول عن « فقهاء » عهد فيهم العقل والحكمة من ألف سنة مما تعدون .

هذا لا شك تدليس ثقافي ... واخطر ما يكون هذا التدليس حينما يكون تدليسا عرضيا غير مقصود لذاته كتاجر النفائس الذي يعلق صورة لم يجف زيتها بعد بجوار صور للمشاهير ... ويباع الصورة دون ان يسأل المشتري أو يشرح التاجر . وهذا يحدث كثيرا حينما يقرأ القارىء كلاما لكاتب مرموق في مجلة مرموقة وربما لا يكتشف الزيف احدهم الا بعد فوات الفرصة وبعد ان صيروا الكلام ـ دون ما وعي ـ حجة . وللكلام المطبوع حجة واثر على نفس القارىء لا سبيل لانكارها .

ومن هذا الكلام المطبوع مثلا ما نقل عن « ول ديورانت » (العربي عدد ٢٣٤ ص ٢٣) « والاخلاق توائم نفسها مع المستحدثات الاقتصادية ثم يتحرك الدين كارها فيوفق بين نفسه وبين الاخلاق الجديدة ... والدين بصفة عامة لا يرعى الخير المطلق - اذ ليس ثمة خير مطلق - ولكنه يرعى معايير السلوك التي وطدت نفسها بحكم الظروف الاقتصادية ... وهو قمين بأن يتخلف في الطريق كلما تغيرات الظروف ، وتغيرت معها الاخلاق .. »

ان ما نقله الاستاذ عبد الوهاب احمد الافندي عن ديورانت لا يعدو ان يكون مثالا حيا للنقل غير المهضوم الذي يسبب تدليسا غير عرضي ... ولو ان أعتى حضارات العالم صدقت ان اخلاقيات اليوم هي دين الغد ... وان الدين سيتحرك كارها لتضمين آياته معايير السلوك الجديدة - تقول لو حدث هذا ما تكلم عن الدين متكلم .. وكيف يدافع الناس عن ميت ولد بعد فوات الفرصة وجاء كمرآة باهتة تعكس صورة كالحة لمعايير سلوك عفا عليها الزمن بحكم ظروف لا قبل له بتغييرها ؟

هل هذا فعلا هو سبب الربط غير الضروري بين الدين والتخلف ؟

ان السؤال الذي لا يجوز السكوت عليه هو الآتي :

« هل تخلف الدين لتخلفه عن ركب التحول الاقتصادي والاجتماعي ثم تخلف معه رجال الدين ثم تبعناهم الى هاوية التخلف ؟ »

ان الاجابة على هذا السؤال تسهل اذا وضعنا الامر في نصابه تسلسلا زمنيا وفكريا .

ان ديورانت يكتب عن فكر كنسي صنعه رجال الكنيسة وصقلوه صقلا في عصور الظلمات .. لم يكن ثمة مرشد او حتى من يجادلهم بالتي هي احسن فنادوا مرة بتحريم الربا ثم حللوه ونادوا بزواج اكثر من امرأة ثم حرموه وأحلوا الضرائب ثم حرموها الا على سلع بعينها ثم اختلط عليهم الامر في كل هذا وذاك فنادوا بأشياء جد يحرمون ويحللون .

وبقية اجابة السؤال تتحول الى سؤال جديد هل نزل الكتاب على النبي (صلعم) ليسجل اخلاقيات العصر ام يمحقها ؟ كيف اذن حرم وأد البنات ، واكل اموال اليتامى ، والجمع بين الاختين ، والخمر والميسر والانصاب والازلام .. ؟ في أي عصر كان الناس يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة او يجاهدون بأموالهم وانفسهم في سبيل قضية يرونها عادلة أو يخفضون جناح الذل من الرحمة لاحد ؟

اذا كان ما يقوله ديورانت صحيحا فاننا لعلى ابواب دين جديد يتمشى مع اخلاقيات العصر الحديثة واقتصادياته ومفكريه وكتابه ، وربما بعث بعض المتمركسين ليحلوا لنا المشكلة الاقتصادية ، وربما نجحوا في بعض هذا فيكون علينا ان نبحث عن دين ثالث والله المستعان على ما تصفون .

ولنترك كل هذا ونسأل سؤالا اخيرا : لماذا نتخبط ولا نجد اسهل ممن نسميهم رجال الدين ؟ نرميهم مرة بما قال ديورانت ومرة كاديوهنت ومرة حتى هيجل وفيخته والتابعيهم باحسان الى يوم الدين ؟

المشكلة اننا نعاني من فراغ ثقافي او ايديولوجي بعبارة ادق والايديولجية لكي تكتمل لابد لها من :

١ - تحليل ولو غير دقيق للتاريخ حتى تبرز اهم العناصر التي ادت الى تخلفنا (Historigraphy) .

٢ - محاولة تحديد اخطر المعوقات في طريق التقدم والتخلص منها .

٣ - رسم برنامج للتقدم ومحاولة تنفيذه بعد تأصيل مقوماته .

والمشكلة كبيرة والمسئولية جد جسيمة . ونحن وقفنا عند الفقرة الاولى وهي محاولة اعادة كتب التاريخ شرحا وكتابة وطبخا وظننا ان هذا هو غاية المراد من رب العباد .

ثم ذهبنا ابعد من ذلك واتهمنا اناسا بأنهم رجال الدين وانهم سبب التخلف . وما بال مؤسساتنا العلمية والسياسية والاقتصادية تئن مما أكل السوس والجهل والفقر بها ؟ اكل هذا صنعه رجال الدين ؟ اين هو برنامج التقدم الذي ترسمونه ؟

ارسموا البرنامج ، افعلوا اي شيء على طريق النجاح دون عويل ونواح واقسم لكم ان الدين بكل رجاله ونسائه سيصفق لكم . ■■

الحلم

قصة سمرست موم

ترجمة ـ الدكتور عيسى المصو

كان يبدو نبيل الاصل ، وكانت مهنته المحاماة ونظرا لوقوع خلاف بينه وبين السلطات اضطر للعيش طويلا في الخارج ، ولكنه كان الان في طريقه الى وطنه .

سألني : « هل انت متزوج ؟ »

ورغم ادراكي انه ليس من شأنه ان يسأل مثل هذا السؤال الا انني اجبته باني كنت متزوجا فتنهد قليلا .

قال : « انني ارمل ، وكانت زوجتي سويسرية من سكان جنيف ، وعلى درجة عالية من الثقافة ، فكانت تجيد الانكليزية والالمانية والايطالية ، كما كانت الفرنسية لغتها الاصلية واما معرفتها باللغة الروسية فقد كانت فوق المتوسط بالنسبة الى اجنبية . »

واستدعى احد الخدم الذي كان مارا يحمل صينية ملأى بالاطباق فسأله كم من الوقت يتوقع انه يجب علينا الانتظار للصحن الثاني . واسرع الخادم وهو يكتم صيحة سريعة ، وتنهد صاحبي شاكيا من سوء الخدمة في المطاعم ، واشعل سيجارته العشرين ، بينما نظرت الى ساعتي متشككا في امكانية حصولي على وجبة جيدة قبل ان يحين الوقت لي لمبارحة المكان .

وواصل كلامه قائلا : « كانت زوجتي امرأة فذة حقا ، وكانت تدرس اللغات في مدرسة من احسن المدارس المخصصة لبنات النبلاء ، وقد عشنا على اتم وئام عدة سنوات ، ولكنها كانت على كل حال ذات خلق غيور ، وكانت مع الاسف تحبني الى درجة جنونية . »

وكان من الصعب على المحافظة على رباطة جأشي ، ذلك انه كان من ابشع من وقعت عيني عليهم من الرجال ، ورغم ان البدانة تكون مقبولة في بعض الرجال الا ان بدانته هو كانت فريدة في نوعها .

واستطرد يقول : « لاادعي انني كنت مخلصا لها ، فهي لم تكن صغيرة السن عندما تزوجت ، وكانت نحيلة القامة ذات بشرة خشنة ، كما كانت لاذعة اللسان ، وكانت امرأة تريد ان تمتلك كل شيء ، ولم تكن تطيق ان انجذب الى اية امرأة غيرها ، فهي لم تكن تغار من النساء اللواتي أعرفهن فحسب بل كانت تغار من اصدقائي وكتبي ومن قطتي . وذات يوم لدي تغيبي عن البيت وهبت احد معاطفي لالشيء الا لانني كنت احب ارتداءه أكثر من غيره ، ولكنني ذوطبع هادئ . ولا انكر انها كانت تبعث على السأم ، ولكنني تقبلت مسلكها كقصاص من الله ، وانصرفت عن مقاومته انصرافي عن مقاومة الطقس الرديء او الزكام في الرأس ، وانكرت تهمها اطول زمن استطعته وعند عجزي عن اقناعها كنت اهز كتفي وادخن سيجارة .

« ولم تؤثر المشاجرات المستمرة على كثيرا ، فقد كنت



أحيا حياتي الخاصة . وكنت احيانا اتساءل فيما اذا كانت تكن لي الحب العظيم او الكراهية الهائلة . فقد بدلي ان الحب والكراهية متصلان معا اتصالا وثيقا جدا .

وهكذا كنا سنستمر الى النهاية لو لم يحدث ذات ليلة شيء غريب جدا . فلقد استيقظت على صرخة من زوجتي . فسألتها عن السبب وانا مرتاح . فأخبرتني انها حلمت حلما مخيفا مفاده اني احاول قتلها . وكنا نعيش في الطابق العلوي من بيت كبير وكانت الدرجات إليه عريضة . وكنت قد حلمت انه عندما وصلنا الى طابقنا امسكتها محاولا القاءها من الدرج المرتفع ست طابقات عند القاعدة الارضية ، وكان معنى ذلك الموت المحقق .

وكانت مرتاعة فحاولت بذل كل ما في وسعي لتهدئتها ، ولكنها في صباح اليوم التالي وبعد ذلك بيومين او ثلاثة دأبت على ذكر الحلم . ورغم استخفافي به الا انه ظل عالقا في ذهنها . ولم استطع انا نفسي ان اكبح جماحي عن التفكير فيه ، ذلك ان هذا الحلم قد هداني الى شيء لم اكن قد فكرت فيه . فهي تعتقد اني أكرهها وانني سأسر ، اذا تخلصت منها ، وكانت تدرك بالطبع انها انسانة لاتطاق .

وفي وقت ما كان من الواضح انه خيل اليها انني استطيع قتلها . ان افكار الرجال صعب فهمها ، ولا اكتمك ان افكارا تقتحم رؤوسنا نخجل من البوح بها ، فكنت احيانا اتمنى لو انها تهرب مع عاشق ، او ان تموت ميتة دون الم ، كي تكسبني حريتي ، ولكن لم تخطر في بالي ابدا فكرة تحرير نفسي بيدي من قيودي التي لا تطاق .

« وكان للحلم تأثير عظيم علينا ، فانه بعث الفزع في زوجتي ، بحيث اصبحت بعد ذلك للفترة ما اقل شعورا بالمرارة . ولكنني عندما كنت اصعد الى شقتنا كان من المستحيل علي الا ان انظر جانبا ، وان اتخيل سهولة القيام بما حلمت هي به ، فما هي الا حركة واحدة سريعة وينتهي كل شيء ، وكان من الصعب طرد الفكرة من عقلي ، فلقد كنت منهوك القوى ، كما كنت شديد الحنق ، وكانت شاحبة اللون مرتجفة و ذلك لأنها حلمت نفس الحلم مرة اخرى . وانفجرت باكية وهي تسألني ان كنت اكرهها ، فاقسمت لها اني احبها ، واخيرا نامت ، وكان في ذلك اكثر مما استطيع تحمله ، فقد استعصى علي النوم ، وبدا لي انها تهوي في بيت الدرج ، وخيل الى انها تصرخ وسمعت صوت ارتطامها بالقاعدة الحجرية ، فلم املك نفسي عن الانتفاض . »

وتوقف الرجال عن الحديث بينما تجمعت حبات العرق على جبينه . فقد كان يسرد قصته سردا حسنا جعلني اصغي اليه . وكان هناك بعض الشراب مازال في الزجاجة ، فصبه في كأسه وشربه جرعة واحدة .

سألته : « وكيف ماتت امرأتك في النهاية ؟ » فاخرج منديلا قذرا ومسح به جبينه وأجاب : عن طريق صدفة عجيبة وجدت ميتة في ساعة متأخرة من احدى الليالي في قاع الدرج وقد كسرت رقبتها .

ـ من وجدها ؟

ـ وجدها احد النزلاء كان قد وصل بعد الكارثة بوقت قصير .

ـ واين كنت انت ؟

لا استطيع وصف نظرة الدهاء المتسم بالشر التي حدجني بها ..وقد التمعت عيناه السوداوان الصغيرتان .

قال : « كنت اقضي المساء مع احد اصدقائي ، ولم اعد الا بعد ساعة . »

وفي تلك اللحظة احضر طبق اللحم الذي طلبناه ، وشرع في الاكل بنهم ، واضعا الطعام في فمه بكميات كبيرة .

«فوجئت .

فهل كان في الحقيقة يقصد ان يخبرني بهذه الطريقة الغامضة انه اغتال زوجته .ولم يكن يبدو علي هذا الانسان البدين البطيء الحركة إمارات القاتل . ولم اكن استطيع الاعتقاد انه يملك من الجرأة ما يتيح له ذلك . ام تراه كان يقوم بالقاء نكتة اليمة ؟

وفي دقائق قليلة حان الوقت لي للذهاب للحاق بقطاري ، فتركته ولم اره منذ ذلك الوقت . ولكن لم استطع ابدا ان اجزم فيما اذا كان جادا او مازحا . ■■

ترجمة الدكتور عيسى المصو

■ « لايقدم على الزواج الا اولئك القانعون .. القانعون بشهر « عسل » واحد ، وسنين « خل » طويلة !

« الكونتس بلتسنحقون »

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥
١	ك	ر	و	م	و	ى	ل	■	ا	ل	ح	ر	ى	ر	ى
٢	ا	ب	و	ت	م	ا	م	■	ل	ى	ب	ى	ر	ى	ا
٣	ل	ى	■	ح	د	س	ت	(٧)	ف	■	س	■	س	ب	ب
٤	س	ع	ا	ر	■	م	هـ	ا	ج	ر	■	ص	م	ت	ا
٥	ى	ا	■	ر	ا	ى	■	ب	ل	و	ت	و	■	هـ	ن
٦	و	ل	د	■	م	ن	ى	ر	■	م	■	م	ا	■	ى
٧	م	ث	ا	ل	ى	■	ر	هـ	ب	و	ا	■	ل	ف	هـ
٨	(٨)	ا	ل	ن	ا	ب	غ	هـ	ا	ل	ج	ع	د	ى	■
٩	ا	ن	■	ك	ل	ى	م	ا	ت	و	ل	و	ج	ى	ا
١٠	ب	ى	ر	و	■	س	هـ	ل	■	س	ا	م	ا	ن	■
١١	ن	■	ا	ل	ج	ا	■	ا	ا	■	ل	■	ج	ا	ب
١٢	س	د	د	ن	■	ر	ى	ش	ى	ل	ى	و	■	■	د
١٣	ى	ا	ى	■	س	و	ا	ر	■	و	■	هـ	ا	د	ى
١٤	ن	س	و	ى	هـ	■	ت	م	ا	ر	ى	ن	■	ن	ن
١٥	ا	ت	م	■	م	د	ى	■	ب	د	د	ت	هـ	ا	■

أفقيـًا

النابغة الجعدي

رأسـيًا

أبرهة الأشرم

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : النابغة الجعدي . كان في الجاهلية حنيفيا ، زار بلاط اللخميين في الحيرة . كان سيد قومه ، وتقدم وقدمهم على النبي . أسلم وأثنى على الرسول . شهد فتح فارس ، وحارب مع علي في صفين . مات معمرا في أصفهان .

(٨) رأسيا : ابرهة الأشرم . هو ملك اليمن الحبشي الذي حاول هدم الكعبة . حارب الفرس عام ٥٧٠ ، مستخدما الفيلة في القتال .

الفائزون بالجوائز

■ الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : قمر الزمان علي جلالي ـ الرميثية / الكويت .

■ الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : حمد احمد محمدين ـ واد مدني / السودان .

■ الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : أبو القاسم عبد القادر ـ المطوية / تونس .

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

١ ـ فتحية عبد علي المعتوق ـ المنامة ـ البحرين .

٢ ـ سلوى يوسف الرفاعي ـ بعلبك ـ لبنان .

٣ ـ نوري محمود احمد ـ السليمانية ـ العراق .

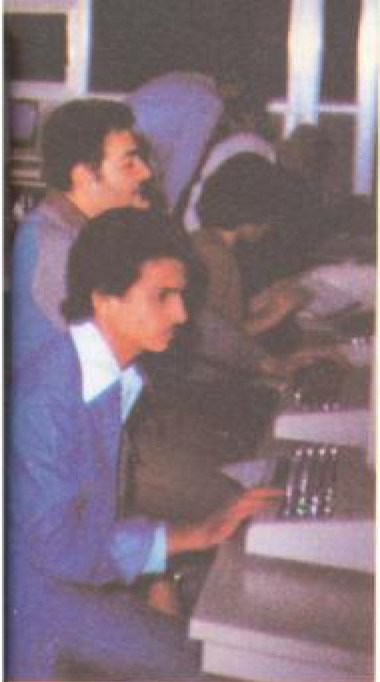
٤ ـ عبد الرزاق داود أبو زيد ـ الزرقاء ـ الاردن .

٥ ـ محمد احمد محمد العلي ـ الاحساء ـ السعودية .

٦ ـ سامي علي عبد الله احمد ـ مرسى مطروح ـ مصر

٧ ـ فاضل رجب باشا ـ حلب ـ سوريا .

٨ ـ الباهي العايدي ـ الدار البيضاء ـ المغرب .



الكويت سنة ٢٠٠٠

استطلاع : منير نصيف

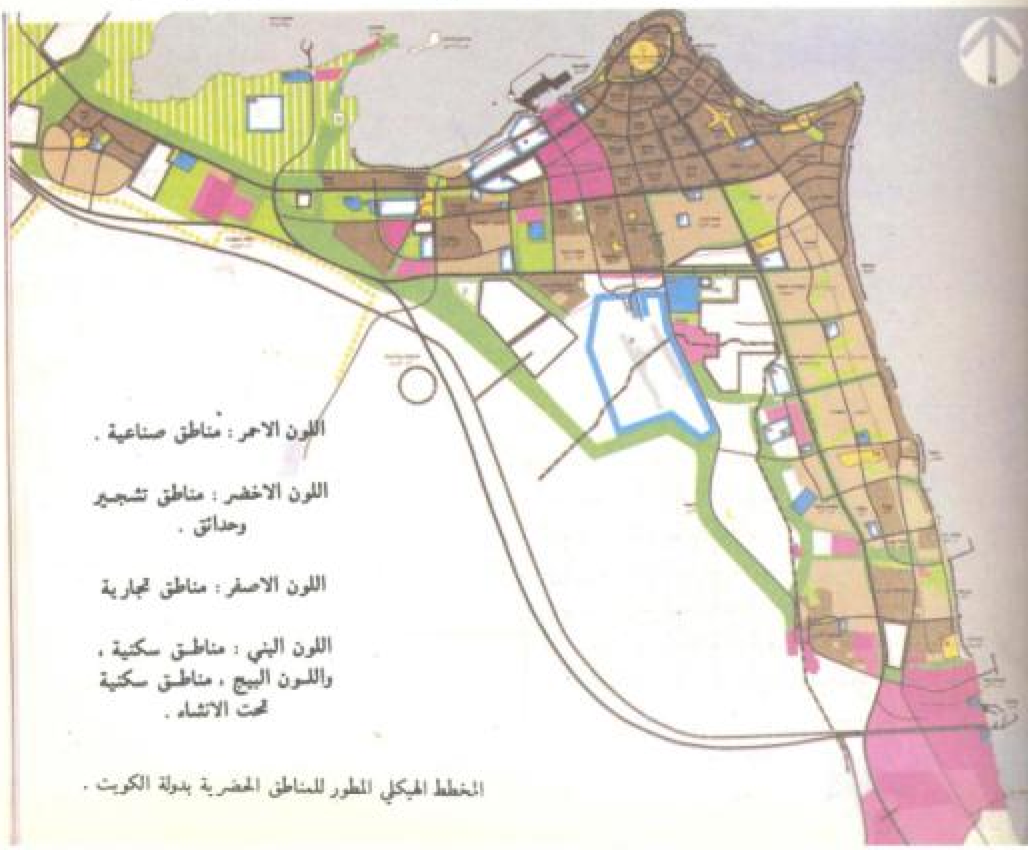
تصوير : طالب الحسيني

سمو أمير الكويت يفتتح معرض البلدية الدائم الذي أقيم بمناسبة يوبيلها الذهبي .





طلبة جامعة الكويت مع « الكومبيوتر » أو العقول الالكترونية ، أحدى العلامات البارزة في عالم المستقبل .



المخطط الهيكلي المطور للمناطق الحضرية بدولة الكويت .

في السنوات العشرين الاخيرة بدأت الانطلاقة الكبيرة التي غيرت وجه الكويت خلال فترة ما بعد الاستقلال .. وهي قصة يعيشها ابناء هذا البلد العربي ، وان كانوا لا يعرفون كل تفاصيلها ودقائقها ..

مرحلة من اهم المراحل التي اسهمت في تحديد شخصية الكويت الحديثة ورسم اطار النهضة السريعة في مختلف مجالات الحياة العصرية .. كان من قبلها مراحل ومراحل بدأت وانتهت وكان لها دور كبير في اعادة بناء الكويت ولكن البداية الحقيقية في النمو المذهل الذي حققته الكويت في تلك الفترة القصيرة من حياة الشعوب لم تظهر الا في الستينات ...

والجواب لا بطبيعة الحال .. فقد كانت بداية فقط ... اليوم يتحدثون عن كويت المستقبل .. الكويت سنة ٢٠٠٠ اي بعد مرور عشرين عاما اخرى .. ترى كيف ستكون الصورة كيف سيكون شكل الكويت في هذا التاريخ الذي قامت حوله التنبؤات في كل انحاء الدنيا الواسعة ، وهم يتحدثون عنه كما لو كان اسطورة في عالم آخر ، لا يمت الى عالمنا الحاضر بصلة .. دنيا جديدة . العلم اساس كل شيء يحدث فيها ... الآلة تحكمها .. والناس بعد ذلك ، الناس في كل مكان والشباب منهم بصفة خاصة ، فقد يمتد العمر ببعضنا فيراها ، وقد يراها بعضنا الآخر بعيون أبنائه واحفاده من الآن ... وهم يحلمون ويتحدثون عن الغد القريب البعيد ...

العيد الذهبي

كان لنا لقاء مع المهندس حامد عبد السلام شعيب رئيس المهندسين في بلدية الكويت ولكن لماذا الآن بالذات ولماذا البلدية ؟

البلدية احتفلت في اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر الماضي بمرور نصف قرن على قيامها وفي هذا الحفل افتتحت معرضا دائما ، اي انه لن يكون مقصورا على يوم الاحتفال فحسب بل سيكون متحفا يضم صورا لماضي الكويت وحاضرها ومستقبلها .. والهدف من دوام المعرض كما قال لنا المهندس حامد عبد السلام شعيب : « لكي يكون ذكرى لعطاءات قدمتها اجيال مضت ، ووقفة تأمل لأجيال معاصرة ونبراسا تهتدي به لاجيال مقبلة » .

ثم لماذا البلدية ؟ لانها كانت في وقت من الاوقات تمثل أهم أجهزة الدولة فقد كانت تجمع بين سلطاتها كبلدية للكويت ، سلطات الحكم المحلي ... كانت تراقب المهن والحرف والغوص على اللؤلؤ والعمل والعمال والتجارة والزراعة والصحة وشق الطرق وانارتها وتشجيرها وكل ماله صلة بذلك من تنظيم وتخطيط للأراضي .. كانت البلدية اذن احدى السلطات الهامة وذات التأثير المباشر في تنمية وتطوير البلاد .

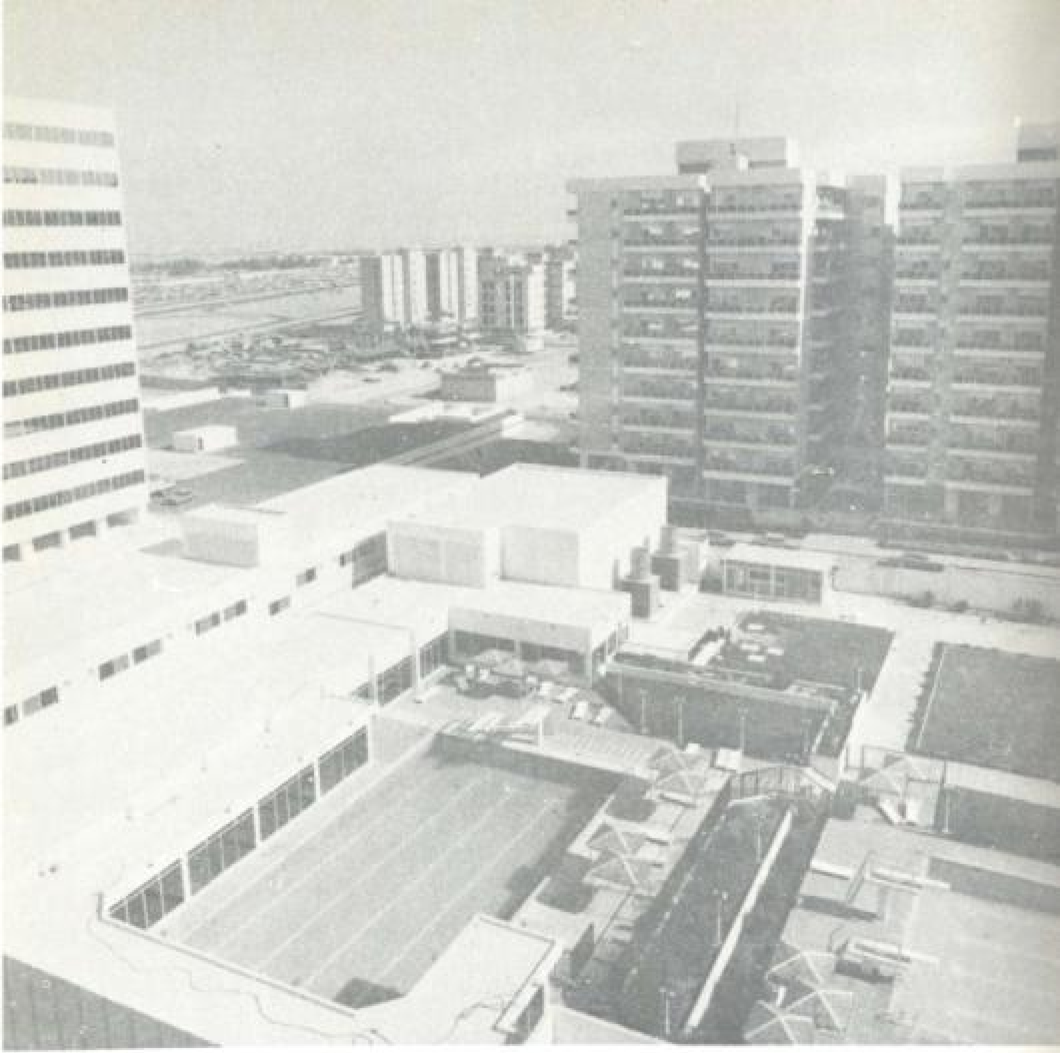
منذ ٥٠ سنة !

واقرأوا هذا القرار الصادر بتاريخ ١٩٣٣ م ١٣٥٢ هـ اي بعد قيام البلدية بثلاث سنوات : « الموضوع » اضاءة السوق بالمصابيح الكهربائية .

« بعد المذاكرة في ذلك حصل القرار باستدعاء مدراء « كذا » شركة الكهرباء » الساعة الرابعة صباحا « بالتوقيت العربي » والمذاكرة معهم بحضور كل من حضرة الرئيس والاعضاء المذكورين للاتفاق مع المدراء على اخذ سرج جمع « سراج » منهم يتراوح عددها بين الخمسين والاربعين ، وقوة السراج الواحد ٣٠ شمعة ، فاما ان تكون مقطوعة او على حساب « اليونيت » اي الوحدة .

كويت الغد

ونعود الى السؤال الذي طرحناه .. كويت الغد ... قال المهندس حامد عبد السلام شعيب : « القول بأن النهضة التي شهدتها الكويت بدأت مع بداية الستينات قول يطابق الواقع اذا كنا نعني بهذه النهضة النواحي الدستورية والتنظيمية والادارية ، لأن النهضة العمرانية التي غيرت وجه الكويت القديمة ... كويت الغوص والتجارة بدأت قبل ذلك بعشر سنوات في عام

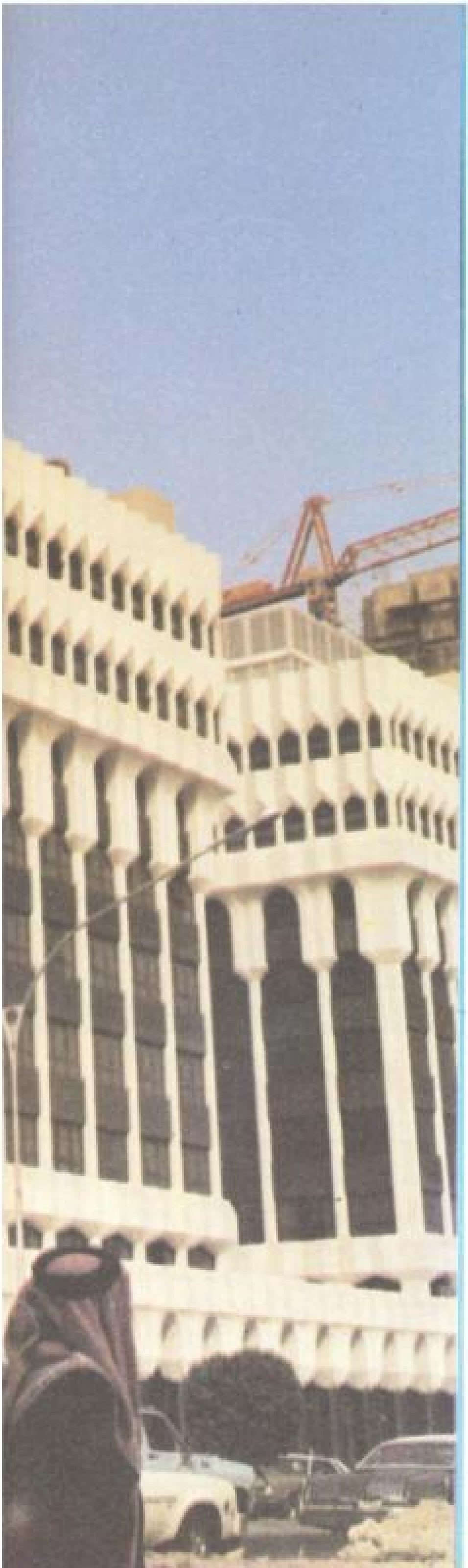


منطقة الرقعي السكنية .. ضاحية صغيرة حديثة قامت في قلب الصحراء ، ولكنها لا تبعد كثيرا عن قلب الكويت ايضا ..

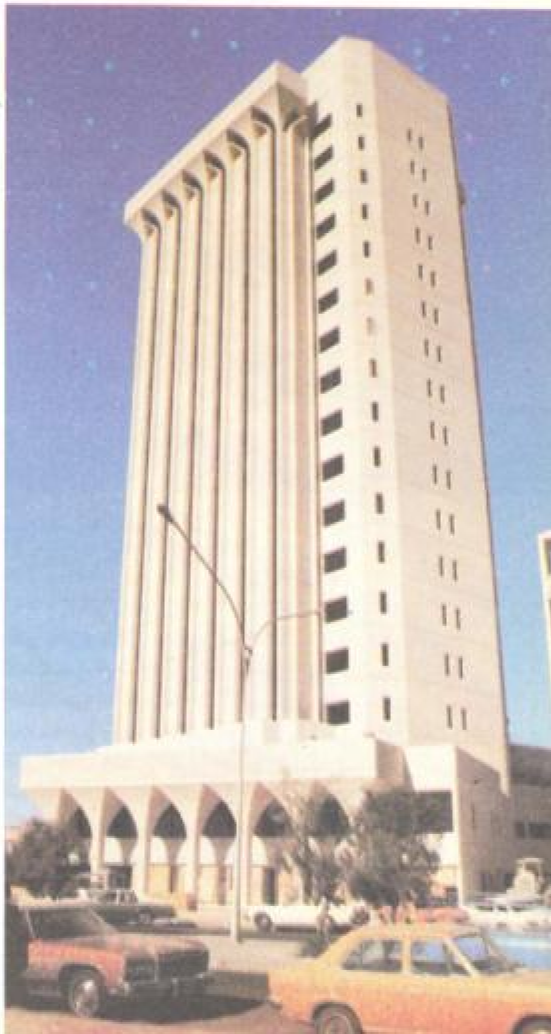
١٩٥٢ على وجه التحديد عندما شعر المسؤولون الذين حملوا عبء تطوير هذا البلد ، بالحاجة الى التغيير في نمط الحياة ، والانتقال من مرحلة النمو العفوي الى التخطيط المدروس وهو شعور لازمهم منذ اواخر الاربعينات عندما بدأ النفط يلعب دورا اساسيا في الحياة الاقتصادية للكويت .. وكان أهم مظاهر التطوير التركيز على الاهتمام بالتعليم ونشره .

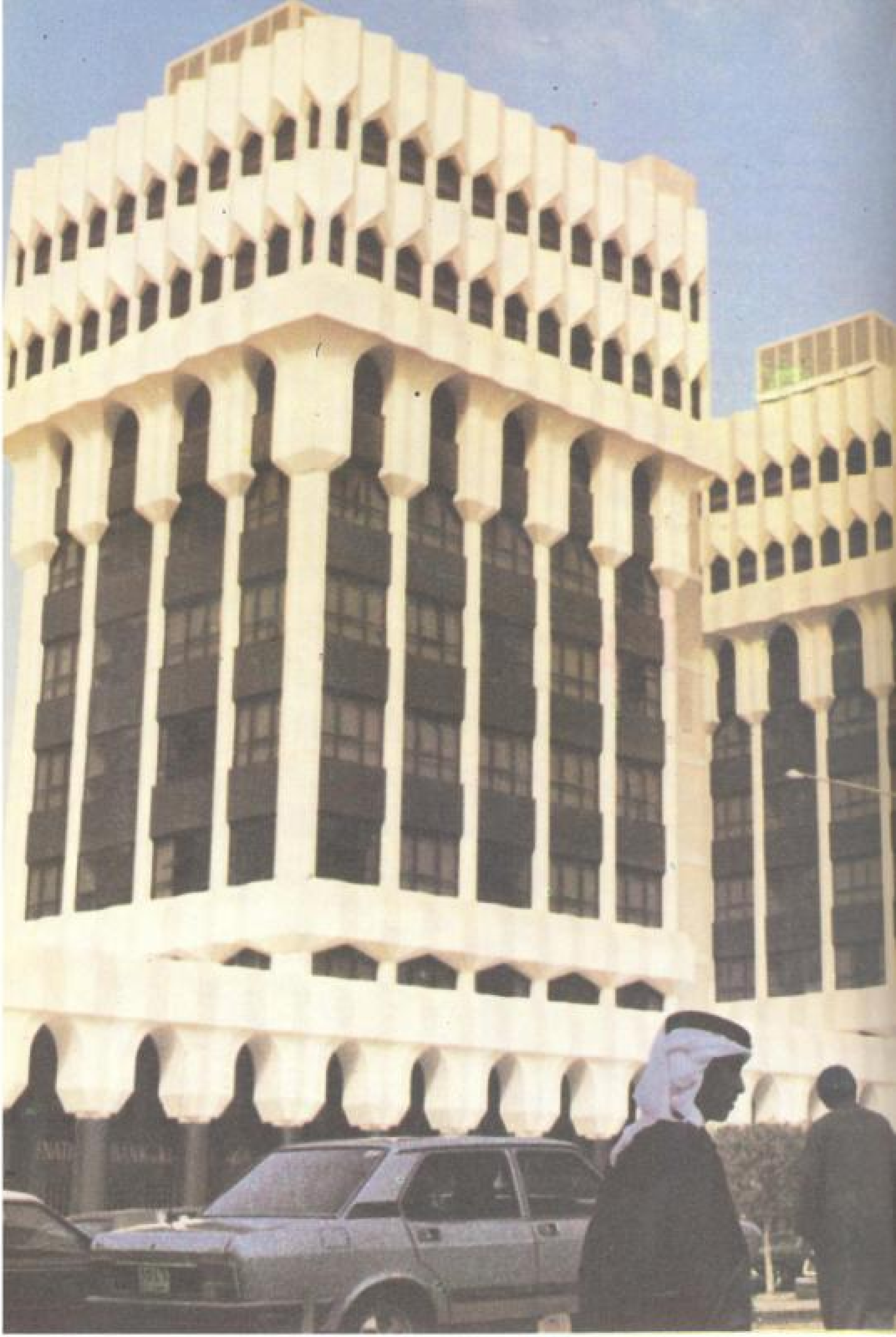
« انا لم اعاصر هذه الفترة ، فقد كنت شابا صغيرا

ولكن تطوير الكويت ، ومشروعات التنمية في بلدي ، عاشت معي في فكري وفي كتبي طوال فترة دراستي العليا، حتى اذا ما فرغت منها اتجهت الى الميدان الذي أمضيت كل وقتي أعد له .. وفي البلدية وفي اوائل الستينات كان لقائي الاول مع المشروعات والمخططات الهيكلية التي سارت التنمية والنهضة العمرانية في الكويت على نهجها .. مدارس ومستشفيات ومساجد وأسواق ودور سكنية ومناطق صناعية وخدمات ومرافق جديدة .











المهندس حامد عبد السلام شعيب رئيس المهندسين في البلدية .. اللامركزية أهم ما يميز كويت المستقبل ..

اللامركزية

« تسألونني عن كويت الغد ، فاقول لكم ان اهم ماسوف يميزها باذن الله هو اللامركزية وما يتبع ذلك من نقل الثقل التجاري والاداري من قلب مدينة الكويت التي ضاقت وستضيق اكثر واكثر في المستقبل القريب بكل ما يتصل بحركة الحياة اليومية تجاريا واداريا ...

« فسوف يكون هناك مركز آخر رئيسي ، ولكنه يأتي في المرتبة الثانية بالنسبة لمركز مدينة الكويت وسيكون مقره في منطقة غربي الفنطاس التي تبعد بحوالي عشرين كيلومترا عن قلب الكويت في الطريق الى الاحمدي ثم مراكز اخرى من المرتبة الثالثة في مناطق الجهراء والصليبخات والمسيلة وحولي والسالمية والقروانية والفحاحيل ....

« هذه المشروعات كلها تحت الدراسة في مراحل مختلفة ، وسيظهر بعضها الى حيز الوجود في السنوات القليلة المقبلة .

« في رأي ان هذا هو اهم ما سوف يحدث للكويت خلال السنوات القليلة المقبلة ... لأنني اعتقد ان هذه هي مشكلة كل العواصم في كل الدول ... والدول الآخذة بأسباب التنمية بصفة خاصة .. القضاء على الاختناق ، والخروج من عنق الزجاجة ... »

« إن قصة البلدية وهي تحتفل بعيدها الذهبي مع مقدم القرن الهجري الجديد ، هي قصة الكويت ... وهي قصة الرجال الذين عاشوا تلك الحقبة التاريخية في حياة هذا المجتمع البسيط الصغير ومشوا معها الرحلة القصيرة المليئة بالعمل والكفاح من كويت الامس الى كويت اليوم دولة الرفاه ... « لقد كرسوا حياتهم وطاقاتهم وثروة النفط في أراضيهم من اجل تحقيق هدف سام هو خلق دولة الرفاه .. وفي هذه الدولة الجديدة اتيحت الفرصة للغني والفقير لكي يتعلم وينعم بصحة جيدة ويعيش حياة كريمة » ....

امس واليوم

قلنا لاحد هؤلاء الرجال الذين شاركوا في حمل عبء تطوير الكويت وكان لهم اكثر من دور في اكثر من مجال من مجالات التقدم ... قلنا للأستاذ عبد العزيز حسين وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء والوزير المسئول عن البلدية : « كيف ترى كويت الغد ؟ » قال : « اذا شاء الله وامتد بي العمر ورأيتها معكم .. فهي تلك الواحة

الكويت تعيش عصر الفضاء .. محطة أم العيش للاقمار الصناعية نقلت الكويت الى العالم الخارجي ونقلت العالم اليها . اكبر انجاز في السنوات الاخيرة ، واكب نهضة التعليم وقيام الجامعة . (الصورة العليا الى اليمين) . ثم نماذج للمباني الحديثة التي انتشرت في كل أنحاء الكويت .. ناطحات سحاب ومبان أخرى جاءت تحمل مختلف الفنون المعمارية الحديث منها والقديم ..

القابعة في قلب الصحراء .. واحة ألامن والامان ... بلد حضاري يعيش عصره ...انني ارى كويت الغد في عيون أبنائي اليوم ... ابناء الكويت الذين يدرسون ويتعلمون بحماس استعدادا لليوم الذي سيحملون فيه الأمانة كاملة .. يجب ان نذكر دائما ان الشعوب هي التي تصنع حضارتها . لقد كان لي شرف المشاركة في بناء الكويت قبل وبعد الاستقلال .. وكانت البداية تهدف الى التوسع في المنشآت والمناطق السكنية منها بصفة خاصة نتيجة لازدياد عدد السكان الذي صاحب النهضة الاقتصادية والعمرانية ونتيجة ايضا لسياسة الدولة التي عملت على أن تربط مواطنيها بالارض بعد ان وفرت لهم السكن الملائم والخدمات التي يحتاجون اليها .

« ثم كانت هناك تلك الاعداد الكبيرة من الايدي العاملة الوافدة من الدول العربية الشقيقة . وكانت الكويت بطبيعة الحال وهي تنمو في حاجة الى اصحاب المهن والحرف وإلى كل يد عاملة في مختلف مجالات الحياة ...

« ومع هذا النمو السكاني ، بدأت نهضة اقتصادية وتجارية وصناعية ، كنتيجة حتمية للزيادة المطردة في



عبد العزيز حسين الوزير المسئول عن البلدية .. اريد ان أرى ويرى أبنائي معي في الغد القريب ، كويت العلم ، كويت الزراعة والصناعة .

عدد السكان . فمن الناحية التجارية ، اصبحت الكويت مركزا تجاريا حيويا لا بالنسبة لأهل الكويت فحسب ، بل لبعض مناطق الخليج أيضا كما كانت دائما لأن الامكانيات هنا كانت اكبر ، ولان الدولة اتبعت سياسة « السوق المفتوحة » تشجيعا منها لتنمية الحركة التجارية .

« ومع هذه النهضة التجارية ، قامت المتاجر والمجمعات الحديثة وبقيت الاسواق القديمة تؤكد وجودها ، فهي الاصل .

« ومن الناحية الاقتصادية ، نشأت المصارف وشركات التأمين وشركات الاستثمار وكان أولها واقدمها بنك الكويت الوطني واليوم يزيد عدد البنوك ، عن عشرة مصارف الى جانب خمسة شركات كبرى للتأمين ، وشركات للاستثمار واصبح النشاط الاقتصادي في الكويت يشمل الكثير من مناطق الخليج . كذلك قامت الغرفة التجارية التي كان لها الدور الاساسي في تنمية التجارة والاقتصاد في الدولة .

« أما من الناحية الصناعية فقد كان لابد للكويت من الاهتمام بالاتجاه الى التصنيع لتحقيق هدفين .. الاول تنويع مصادر الدخل القومي في البلاد ، حتى لا يكون الاعتماد مستقبلا على عائدات النفط وحدها ، والثاني خلق صناعات جديدة وكوادر صناعية جديدة حتى لا يكون الاعتماد على الدول الصناعية كاملا وابديا ...

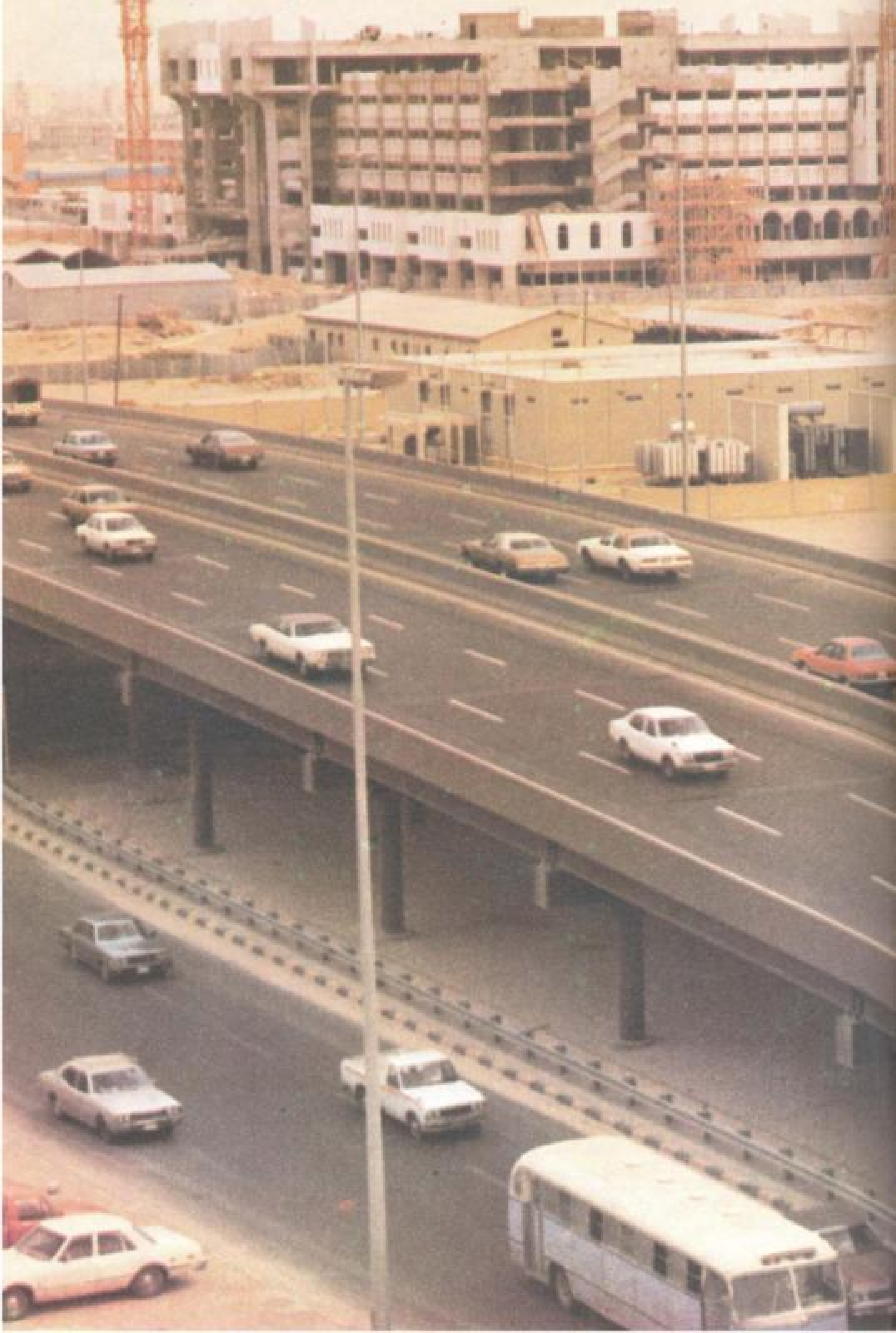
كويت الصناعة والزراعة

واختتم الاستاذ عبد العزيز حسين حديثه معنا بقوله : « ليس هذا كشف حساب فالمقام لا يتسع لكل الانجازات التي حققها الرجال المخلصون في الكويت ، ولكنني فقط أردت ان اسرد عليكم جانبا من السيرة الصعبة ... ربما لا اكون قد اجبت على السؤال الذي طرحتموه في بداية هذا الحديث ... « كويت الغد » ، وكيف اراها ، وأنا اقول لكم انها امنية ولكنني واثق من انها سوف تتحقق ... ان ارى ويرى ابنائي « كويت العلم » و « كويت الصناعة » و « كويت الزراعة » بعد كويت النفط ... وانا لا احلم ولكن المشروعات التي قامت وستقوم تؤكد ان الكويت مقبلة على نهضة في هذه وغيرها من المجالات الحضارية ... هذه هي كويت المستقبل التي اتمنى ان اراها وأنا اعيش اليوم بدايتها » .



داخل سوق الصالحية التجارى .. من أحدث أسواق الكويت .. (الصورة العليا) والجسور العلوية التي شرعت الدولة في بنائها في جميع أنحاء الكويت للتخفيف من الاختناق على الطرق السريعة ومجسم لمركز المواصلات ... اكبر مجمع لمواقف السيارات في الشرق الاوسط .





وفي قسم التصميم العمراني ، اكمل المهندس حسن عباس قصة الغد الذي ستعيشه الكويت بالصور والأرقام .. كان حديثه بطبيعة الحال في مجال التطور والعمران في الكويت قال : « اننا نتوقع ، ونحن نتحدث عن المستقبل أن يبلغ تعداد سكان الكويت حتى نهاية القرن الميلادى ، حوالي مليونين و ٧٥٠ ألف نسمه إذا سار معدل الزيادة في سكان الكويت على ما هو عليه الآن . على اساس ان طاقة الاستيعاب السكاني في المناطق الحضرية ـ من الجهراء الى الاحمدى ـ سوف تستوعب مليونا ، و ٧٥٠ ألف نسمة .. وكان لابد من حلول لمواجهة هذا التطور ...

المدن الجديدة

« وبعد دراسات وبحوث مستفيضة استقر الرأى على اقامة مدينتين جديدتين تستوعبان مليون نسمة ... الأولى في منطقة الصبية » وتبعد بحوالي سبعين كيلو مترا شمال قرية الجهراء ومحاذاة الشاطىء تجاه جزيرة بوبيان .. هذه هي المدينة الاولى اما الثانية فسوف تقام في منطقة « الخيران » في الجنوب بعد محافظة الاحمدى ...

هاتان المدينتان ، سوف تكونان مكتفيتين اكتفاء ذاتيا من حيث العمالة والخدمات ، بحيث لا يحتاج سكانها الى الانتقال الى اى مكان قريب أو بعيد لقضاء احتياجاتهم اليومية ... فكل شيء متوفر فيها ... مدارس ومستشفيات ومساجد ودور للانشطة الرياضية والترفيهية واسواق تجارية وباختصار كل مكونات الحياة في المدن .

« وسوف يبدأ العمل قريبا في اعداد الدراسات التفصيلية والتصميات اللازمة لانشاء المدينة الاولى في الصبية ..

« وقد يتساءل البعض : « كيف سيتغير وجه الحياة في الكويت .. هل يكفي ان تقام مدينة جديدة هنا او هناك ليتغير هذا الوجه ؟

والجواب بالنفي بطبيعة الحال . فهناك عشرات المشاريع التي لا يتسع المجال هنا لشرحها كاملا . ولذا سوف نكتفي بعرض اهم هذه المشروعات وأبرزها ...

٣٠٠ مليون دينار

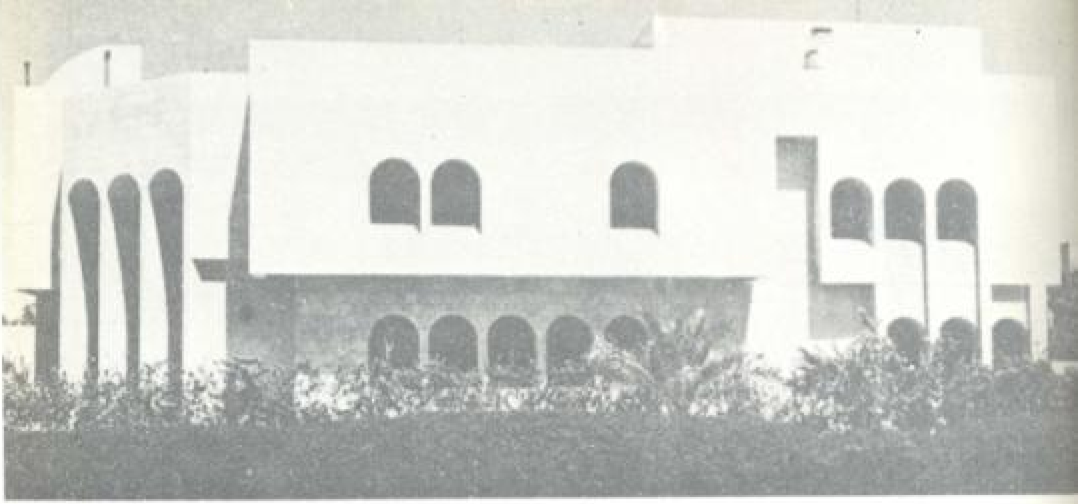
« وهناك على سبيل المثال ، المركز الرئيسي الثاني لدولة الكويت بمنطقة الفنطاس الذي جاء ذكره في بداية هذا الكلام ... والذي سيكون من اكبر الصور المميزة لكويت المستقبل ، فهو الذي سيخرج بها من عنق الزجاجة ...

« هذا المركز سوف يغطى مساحة من الارض ، تصل الى عشرة كيلومترات مربعة ... ويقع الى الغرب من مدينة الفنطاس الحالية بين طريقي الفحاحيل السريع وطريق « السفر » السريع « الاوتوستراد » ... وسوف ينتهي العمل فيه خلال السنوات العشر المقبلة حيث يكتمل تماما قبل نهاية عام ١٩٩٠ ويصبح معدا لخدمة اكثر من نصف مليون نسمة من سكان الشريط الساحلي وتبلغ تكاليف هذا المشروع ما يزيد على ثلاثمائة مليون دينار كويتي .

وهناك ايضا مشروعات اخرى لتغيير وجه الميادين الرئيسية التي ارتبطت بالكويت وكان لها تاريخ مثل ميدان ساحة الصفاة وميدان « دروازة العبد الرزاق » وبوابات الكويت التاريخية.. بوابة الجهراء.. وبوابة الشامية وبوابة البريعصي وبوابة بنيد القار .. بعضها



المهندس حسن عباس .. ستقوم مدن جديدة لتواكب تزايد السكان في عام ٢٠٠٠ .



فيلا حديثة شيدت على الطراز العربي .

سوف يصان والبعض الآخر سيتم تطويره . وأهم مشاريع التطوير سوف تستأثر به ساحة الصفاة اول مكان للتجارة وتبادل السلع في كويت الامس .. ويشمل التطوير ايضا ميدان دروازة العبد الرزاق ... وسيبدأ العمل في بعض هذه المشروعات خلال صيف العام .

مواقف السيارات

« ننتقل في حديثنا الى التنقل والمواصلات وهي من المشروعات الهامة التي تؤثر تأثيرا مباشرا على الانشطة

قام سمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء بتوزيع ميداليات ذهبية وفضية اعدت خصيصا لهذه المناسبة ، على رؤساء البلديات السابقين او اسمائهم ، وكذلك على المديرين السابقين وضيوف الاحتفال من رؤساء البلديات العربية الذين وجهت اليهم الدعوة لحضور الاحتفال .

التجارية والصناعية من البلاد .. من اجل هذا اولتها الدولة اهتماما خاصا ووضعت لها البرامج واعطتها الاولويات ورصدت لها الاموال اللازمة لتنفيذها وقد بدأ بالفعل منذ عامين تقريبا العمل في تنفيذ المشاريع الكبرى فيما يختص بالطرق السريعة والجسور العلوية ... واعدت المشروعات اللازمة لاستيعاب تدفق المرور في قلب المدينة ...

من اجل هذا بدأت البلدية في تنفيذ سلسلة من مواقف السيارات في قلب العاصمة على مراحل تتم بمعدل خمسة مواقف متعددة الادوار في كل مرحلة بحيث يمكن ان توفر الجزء الاكبر من احتياجات المدينة للأعوام العشرة القادمة والتي تقدر بحوالي ٦٣ ألف موقف للسيارات .

فكرة رائدة

« لعل اهم هذه المشروعات هو مركز المواصلات الرئيسي بمنطقة المرقاب التي تقع في طرف المدينة الجنوبي ويقوم هذا المشروع على اساس فكرة استبدال وسيلة المواصلات الخاصة (اى السيارة التي يملكها المواطن) بنوع آخر من المواصلات العامة المكوكية ، المنظمة للوصول الى قلب المدينة او الى أي منطقة أخرى منها ، والعودة مرة اخرى الى المركز والى السيارة الخاصة التي تركها صاحبها . وسوف يتسع هذا المركز لوقوف اكثر من خمسة آلاف سيارة خاصة في وقت واحد في الادوار العلوية واستغلال الدور الارضي للباصات المكوكية الصغيرة . وتصل تكاليف المشروع لأكثر من مائة



فيلا حديثة تحمل الحنين للخيام والصحراء ، حياة أهل الكويت
القديمة .. ثم نموذج لبيوت ذوى الدخل المحدود (تحت)





جسر لعبور المشاة في شارع مزدوج بمرور السيارات .. واخيرا (الى تحت) ابراج المياه التي اقيمت في قلب الصحراء .. اصبحت أحدى المعالم البارزة في الكويت .. فاز تصميمها بجائزة « أغا خان » .





مبنى سوق الصالحية من الخارج .. سوق حديث في قلب مدينة الكويت ... والتخفيف عن هذا القلب باقامة مراكز تجارية جديدة ، هو الهدف في الامد القريب والبعيد .

مليون دينار كويتي .. وسيكتمل هذا المشروع الكبير بعد حوالي خمس سنوات من الآن وسيكون له اثر كبير في القضاء على الاختناق وزحام السيارات وتخفيف حدة التلوث داخل المدينة » .. وتصل الى نهاية هذا العرض السريع لجانب من المشاريع التي شملها الحديث عن كويت المستقبل .:.

رأس البلدية منذ انشائها في عام ١٩٣٠ حتى الآن :

الشيخ عبد الله الجابر
المرحوم الشيخ حمود الجابر الصباح
المرحوم الشيخ احمد الجابر الصباح
المرحوم الشيخ عبد الله السالم الصباح
المرحوم الشيخ فهد السالم الصباح
الشيخ سالم العلي الصباح
السيد عبد اللطيف ثنيان الغانم
السيد محمد يوسف العدساني
السيد يوسف السيد هاشم
السيد عبد العزيز حسين
السيد بدر يوسف العيسى
السيد عبد العزيز يوسف العدساني

البحر ... والشواطىء

وينهي حسن عباس حديثه عن ناحية اخرى لم تهملها الدولة بل هي توليها اهمية خاصة وهي تطوير واجهة الكويت البحرية التي تمتد من ميناء الشويخ الى رأس الارض بالسالمية ويبلغ طولها حوالى ٢٥ كيلومترا تقريبا .. وهي تشتمل على مختلف الوسائل الترفيهية التي تناسب المناخ والبيئة الكويتية .. إقامة جزيرة اصطناعية وحوض للأحياء البحرية ، ومتحف للمراكب التقليدية وميناء رسو اليخوت الخاصة وحوض لحيوان الدولفين البحري ومسرح مكشوف على الشاطىء وحمامات للسباحة ومطاعم وحدائق وغيرها .

وسوف يتكلف هذا المشروع الذي يبدأ تنفيذه في اوائل هذا العام حوالى مائة وعشرين مليون دينار كويتي ... »

لم تنس البلدية في زحمة مشروعاتها من اجل تغيير وجه الكويت ، البحر نقطة اللقاء الابدي بين الرمال والماء .. وكان لأهل الكويت مع امواجه ذكريات . ! في معرض البلدية بالصور والمجسمات القصة كلها من البداية حتى النهاية .. ومع الكتيب الصغير الذي ينقلك من كويت الأمس الى كويت اليوم والمستقبل سوف تعيش القصة . ■■

منير نصيف

■ ما اكثر المحاولات التي بذلت من اجل نقل العالم الخارجي اليك في بيتك .. ولكن طفلا واحدا في البيت قادر على ان ينسيك كل ما يدور حولك !

« جورج سانتيانا »

■ اذا كنت تحتفظ في بيتك باشياء لست في حاجة اليها ، لا تتخلص منها ، بعد سنوات قليلة ستصبح تحفا نادرة !

« ارث بوكوالد »

■ لا يضايقني كثيرا ان اذهب الى عملي كل صباح ، ولكنني اشعر بالاختناق وانا انتظر كل تلك الساعات الطويلة لاعود الى البيت !

« جيمس رنت »

■ التصفيق هو الوسيلة الوحيدة التي نستطيع ان نقاطع بها اى متحدث دون ان نثير غضبه !

« ارنولد جلاسو »

■ طالما اننا نجد متعة في خدمة الآخرين ، فسوف نستثمر حب هؤلاء الآخرين لنا ، وهكذا نصبح اناسا لا يمكن الاستغناء عنهم !

« روبت لويس شيتنسوف »

■ من حسن الحظ ان علم النفس ليس السبيل الوحيد للتخلص من الصراعات الداخلية التي تنتابنا ، فالحياة نفسها ما زالت افضل علاج للحالة النفسية التي نعاني منها !

« كارين هورني »

■ انه التغيير ، وليس الحب وحده ، هو الذى يجعل الدنيا تسير بنا .. الحب وحده يملأ الارض بمواليد جدد !

« تشارلز بروار »

■ كل النساء أمهات لرجال عظام .. وليس خطأ هؤلاء الأمهات اذا اصبن بخيبة امل في ابنائهن فيما بعد » .

« بوريس باسترناك »

■ قل لى من هو الرجل الذى تحترمه ، أقل لك اى نوع انت من الرجال !

« توماس كارليل »

■ الانسان حيوان اجتماعي ، وهي نزعة تستبد بعقله اكثر من جسمه ، فهو قد يحب أن يخرج وحده في نزهة سيرا على قدميه ، ولكنه يكره ان يقف وحده في رأى يؤمن به !

« جورج سانتايانا »

● وجهة نظر .. متفائلة ! ●



المستقبل ليس مظلماً

وريح الرخاء قادمة !

بقلم : الدكتور احسان حقي

كان عدد مجلة العربي الزاهرة عن بدء القرن الخامس عشر الهجري ، يتناسب في مواضيعه مع اهمية المناسبة ، اذ صب فيه فريق من خيرة الكتاب والادباء والعلماء عصارة تفكيرهم وثمرات خبراتهم وارسلوها صيحات مدوية في آذان الدهر لبعث المسلمين من رقادهم ، وحيث انه قد سبق لي ان عالجت في كتابي : (مسلم الغد) ، الذي طبع في الستينات ، كل هذه الامور بتفصيل واسهاب ، رأيت ان ادلي بدلوي مع الإخوان الافاضل فأقول :

ان ما جاء في هذه المقالات هو خير ما يمكن ان تنتجه العقول الواعية ، وان اكساء ما جاء فيها من اقوال ثوبا عمليا كفيل بنهضة اسلامية واعية رصينة تنهض بالمسلمين من سباتهم ولا اقول من كبوتهم . لأن الذي يكبو ينهض فورا من تلقاء نفسه واما الذي يغط في النوم ، كما هو شأننا نحن المسلمين اليوم ، فانه بحاجة الى من يوقظه لكي ينهض ويعمل . لقد اعجبني كثيرا في مقال رئيس التحرير قوله : (ومن اهم ملامح الاحداث العالمية صحوة اسلامية) فقد احببت كثيرا قوله : (صحوة اسلامية) واحب ايضا كلمة نهضة ويقظة اللتين يستعملها بعض الادباء ، لأن نهوض الامم لا يكون بالعنف بل بالتثقيف والتعليم والتخطيط والعمل الهادىء المبرمج .

لقد صدق رئيس التحرير بوصف حالة المسلمين بأنها صحوة اسلامية ولكن هذه الصحوة ما زالت صحوة كلامية ونحن بحاجة الى اكثر من الكلام لأن المتكلمين والمفكرين كانوا موجودين في كل عصر ومصر وكانوا يتكلمون ويحذرون وينذرون ولكن اقوالهم كانت تذهب ادراج الرياح لأنهم لا يملكون الا الكلام ولأنهم يأتون قبل زمانهم ويفكرون بغير ما يفكر به ابناء جيلهم ، ولذا فان الذي نرجوه هو ان تصبح صحوتنا هذه صحوة عملية .

واما ما جاء في مقال الدكتور الفاضل عبد العزيز كامل من تفريق بين المأمول والممكن فانه يدل على وعي كامل للأمور حتى لا يقفز المرء في الهواء فيردى ، وكل مأمول يمكن ان يتحول الى ممكن اذا تحرك له المرء



تحركا سليا وقدر لخطوه مواقعها تقديرا حكيا غير مستبق الحوادث ولا مستعجل الامور ، واما القفز في الهواء فانه يردي بصاحبه .

ومقال الدكتور فؤاد زكريا يستحق دراسة علمية عملية من قبل اولياء الامور لوضع حد فاصل بين الايمان والعلم لانقاذ العلم والايمان من ايدي الفضوليين .

واذا كانت كل المقالات التي حواها هذا العدد خليقة بأن تكون برامج عمل لنهضة اسلامية متكاملة وكلها جديرة بالاعجاب والتقدير فأنا ، بالاذن من الأخ الدكتور شاكر مصطفى ، احب ان اعلق ، بصورة خاصة ، على مقالته القيمة التي جاءت صيحة ألم ونذير شر وكلمة صادقة صادرة عن قلب مليء بالايمان وحب الانسانية والغيرة على المسلمين يحذرهم بها مما يتعرض له العالم الاسلامي من تحد وحصار من قبل الغرب واهله . والواقع اننا امام تحديات كثيرة ضخمة بوسائلها العلمية والمادية تتحدانا من الشرق والغرب والشمال والجنوب في عقيدتنا وتهذيبنا وثقافتنا ومعاشنا واخلاقنا وفي جميع نواحي حياتنا الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية . ومن المؤسف المؤلم اننا ، بافعالنا ، نساعد هؤلاء المتحدين على تحديهم ايانا . ولعل من ابرز ما نقدمه لهم من مساعدات جهلنا بما في عقيدتنا وتاريخنا وثقافتنا وحضارتنا من قيم انسانية وعلمية .

حتى لا نظلم الاستعمار

اني اتساءل : ما الذي يدعونا ان نسير كالقطعان وراء كل ناعق او ناعق ؟ هل حاجتنا الى المال ؟ وعندنا منه أكثر مما عند العالم كله . هل العلم ؟ وعندنا علماء اعلام ، على قلتهم ، هم من مفاخر البشرية . العدد ؟ ونحن نعد خمس سكان العالم . البلاد ؟ وبلادنا خير بلاد الارض مناخا وموقعا استراتيجيا وثروات . الماضي ؟

ونحن اهل ماض مجيد لا يستطيع ان ينكره علينا احد . اذن ما هو السبب الذي يجعلنا تبعا للغير ؟ انه ضعف ايماننا بحقيقة حالنا وتفرق كلمتنا وتصدع بنياننا وعدم وجود رأس يقودنا وينظم امورنا ويبرمجها .

ثم ان الأخ الدكتور يحمل الاستعمار سبب تأخر بلاد العالم الثالث . وانا لا احب ان ادافع عن الاستعمار ولكنني لا أرى من الانصاف ان اظلمه ايضا ، ولذا فاني اقول : انه لولا تخلف العالم الثالث او الذي سمي ، بعد ذلك ، ثالثا لما كان هناك استعمار ولا مستعمر . هل ترون انه كان من المعقول ان يستطيع بضع مئات من البرتغاليين ان يخرجوا من بلادهم الصغيرة ويسيروا في الارض وحيثما ساروا استولوا على بلاد وعباد هم اكثر منهم عددا واعظم قوة ، حتى اخضعوا لسلطانهم بعض شواطيء افريقيا الشرقية وجزءا كبيرا من شواطيء الجزيرة العربية ثم شواطيء الهند واستعمروها دهرا طويلا . فهل كان هذا ممكنا لو لم تكن شعوب هذه البلاد شعوبا متخلفة لا بل وميتة لا حراك فيها ؟ هل كان باستطاعة الاسبان ان يستولوا على امريكا ، باعداد قليلة ، لو كان اهل تلك البلاد قائمين بواجباتهم سهرانين على بلادهم عاملين بما كانوا عليه من حضارة ورفعة شأن ؟ وهل كان باستطاعة بضعة آلاف من الانكليز ، ان يغادروا جزيرتهم الصغيرة ، ويذهبوا الى الهند ويقضوا على الامبراطورية المغولية ، التي كانت ملء عين الزمان وسمعه ، لو كان اهل هذه البلاد احياء ولم يكونوا مفترقين ؟ وهل كان باستطاعة هولاندا وبلجيكا ، هذين البلدين الصغيرين ، ان تستولي الاولى على اندونيسيا بطولها وعرضها وان تخضعها لسلطانها اكثر من قرن من الزمن ؟

لذلك اري ان القاء تبعة تخلفنا على الاستعمار هو هروب من الواقع والحقيقة ، فالحياة كانت ، منذ خلقت الحياة ، صراعا بين قوي وضعيف وعامل وخامل ومجتهد وكسول وستظل كذلك ما دامت الارض قائمة . فالامم الضعيفة المتخاذلة هي التي تضع حبل العبودية والذل في عنقها نفسها بيدها .

اعود واقول ، كما قال الدكتور المحترم ، اننا نحن المسلمين امام تحديات كثيرة وكبيرة ولكن من حسن الحظ اننا قادرون على مجابهة هذه التحديات اذا كان لنا برنامج عمل ومنهج ، كما قال الدكتور الفاضل زكي نجيب محمود المحترم اذ الاساس في كل عمل يراد نجاحه هو التخطيط والبرمجة لا السير الاعتباطي فالنجاح ، اذن ، ملك ايدينا .

واما الحصار الذي اراد الدكتور الفاضل الاشارة اليه فهو كائن لا شك فيه ولكن هناك حصارين حصارا فرضه غريب عنا وحصارا فرضه العرب على العرب وهو اشد وقعا والما كما قال الشاعر :

وظلم ذوي القربى اشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند

اننا لا نلوم الغريب اذا حاصرنا لأن هذه مصلحته ولكننا نتألم من حصار العربي للعربي . اليس من العجب ان نكون ، نحن ابناء البلاد العربية ، ولا اقول البلاد الاسلامية ، بحاجة الواحد منا للخروج من بلده الى بلد عربي ، حتى ولو كان مجاورا ، الى جواز سفر ثم الى اذن من حكومته بالخروج من بلده ثم الى اذن بالدخول الى البلد العربي المقصود من حكومة هذا البلد . وهذا الاذن لا يحصل عليه المرء الا اذا كان ذا حظوة او كان له في ذاك البلد من يعرفه ويزكيه ويحصل له على الاذن على مسئوليته وكفالته وكأنه قاطع طريق معروف ومشهور أو لص محترف او محتال عالمي . فاذا كان المرء لا يعرف احدا في ذلك البلد فلا يستطيع دخوله وقد بلغ هذا الحصار حدا مخجلا ان احد الادباء العرب ، وكان يريد ان يذهب الى بلد عربي لاغراض علمية ، فلم يستطع ، فكتب اليّ يقول : ان دخول الجنة اهون على العصاة من دخول عربي بلدا عربيا) وارسل الي مع كتابه قصيدة هزلية منها هذه الابيات :

ولكن الجواز غدا لزاما
ولا يغني الفتى الوجه الصبيح
ولو كان النبي الخضر فينا
ورافقه الكليم او المسيح
ولم يحمل جوازا فيه ختم
وذكر للبلاد به صريح
لما استطاع المرور بأي ارض
ليغدو حيث يبغي او يروح

ان حصارنا أليم لأنه حصار اخوان لا مبرر له لو كانت الامور تسير سيرا طبيعيا اخويا وليس بين حكام هذه البلاد اختلافات سياسية وعقدية . واعتقد انه اذا رفع الحصار بين البلاد العربية هبطت جميع الاسوار الاخرى التي تحاصرنا لأنها اسوار وهمية .

لا خوف من الانفجار السكاني

بقي لدينا نقطة جاءت في مقال الأخ الدكتور شاكر

مصطفى وهي قوله : (ان الاغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقرا) ، وهو قول لا اوافقه عليه .

فقد كان سكان العالم ، في القرن السابع عشر ، يعدون ٥٠٠ مليون نسمة وكان الجوع والقحط والوباء تجرف الناس ، كل سنة ، بالآلاف او الملايين . وها هم اليوم اكثر من ٤٠٠٠ مليون نسمة وقد قل الجائعون والقحط والوباء وارتفع مستوى المعيشة ارتفاعا كبيرا . رب قائل يقول : ان هذا ينطبق على البلاد النفطية فأقول : بل وينطبق على كل العالم بنسب متفاوتة ، واذا كان بعض سكان افريقيا وآسيا يموتون جوعا اليوم فانهم كانوا كذلك من قبل ولكنهم لن يموتوا جوعا في المستقبل لأنهم سيجدون الايدي الخيرة تمتد اليهم وسيكون من السهل اغاثتهم في الوقت المناسب بسبب ما ستكون عليه وسائل النقل من سرعة ورقي . ولذا فانا لا اخاف الانفجار السكاني سنة ٢٠٠٠ يوم يصبح سكان العالم ٦٠٠٠ مليون نسمة ولا اخاف المجاعة لأن الارض لو استثمرت على غرار استثمار البلاد المتقدمة اراضيها تستطيع ان تستوعب عشرة اضعاف سكانها الحاليين ولذا فاني اعتقد ان أبناء المستقبل سيكونون اسعد منا حالا واكثر راحة بال واطمئنانا .

لقد كان عدد سكان المستعمرة الانكليزية الهندية (هندوستان وباكستان وبنغلاديش وبورما) ٣٥٠ مليون نسمة قبل نصف قرن وكان الفقراء لا عداد لهم والذين يموتون جوعا وبالاوبئة يعدون بمئات الآلاف اذا لم اقل بالملايين . وها هو عدد سكان هذه البلاد اليوم يناهز الـ ٩٠٠ مليون وهم احسن حالا مما كانوا عليه آنذاك بفضل تقدم علمي بسيط . فيا بالكم لو استثمرت اراضي هذه البلاد كلها وهي اراض واسعة شاسعة ترويها عدة انهار خضمة وتكثر فيها الامطار وتربتها خير تربة ومثلها بلاد الصين وروسيا واندونيسيا وافريقيا .

ان الجوع لن يصيب سنة ٢٠٠٠ الا الكسالى الذين لا يريدون ان يقطفوا ثمرات بلادهم الذاتية وخيراتها الكثيرة ، واما العاملون فانهم لن يكونوا في كفاية من العيش فقط بل سيكونون في ترف ونعيم لا نعرفه نحن اليوم ولكن كل هذا مرهون بقوله تعالى : « وان ليس للانسان الا ما سعى » .

لكن ليس معنى هذا بأن نتكل على غيرنا ولا نعمل وننتظر من يحسن الينا بل يجب ان نعمل حتى نكون في صف الذين يحسنون للغير لاسيا وان امكاناتنا واسعة وعقولنا ناضجة وبلادنا خير بلاد العالم ونحن نعد خمس سكان العالم ، فلماذا نرضى بالدنية ؟ نعم ، هناك الآن صحوة ولكنها لا تكفي لأنها صحوة كلامية فكرية علمية ونحن بحاجة الى صحوة علمية عملية .

ان تحرير المقالات وتحبير الخطب ونظم القصائد الحماسية تصلح ان تكون هاديا الى الطريق ولكنها تظل كلاما وهواء اذا لم تلبس ثوبا عمليا . اننا ما زلنا بحاجة الى الاعمال لكي نلحق بركب الامم الراقية ولكي ننزع عن اكتافنا ثوب التخلف .

اليس من العار ان تكون البلاد العربية معدودة من العالم الثالث المتخلف وقد مضى على تمتعها بثمرات النفط اكثر من اربعين سنة ، وهي مدة تكفي لاحداث انقلاب جذري في جميع مناحي الحياة لأنها حياة جيلين ؟

اليس من العار ان يكون ، حتى اليوم ، ٨٠٪ من العرب اميين ؟ اليس من العار ان نحتاج الى جلب اللحم من الارجنتين والبرازيل واستراليا ونحن نستطيع ان نخلق في بلادنا مراعي تكفي لتربية ملايين الحيوانات ؟ اليس من العار ان يؤتى الينا بالحليب المجفف ومشتقاته من زبدة وسمنة وجبن من اوروبا الشرقية واوروبا الغربية ؟ اليس من العار ان يؤتى الينا بالارز من الهند والصين وبلادنا خير بلاد لانتاج الارز ؟ اليس من العار ان نأتي بقمحنا من امريكا وكندا واستراليا وبلادنا خير ما تنتج القمح ؟

على كل حال ان ما تم حتى الآن حسن ولكن كان بالامكان ان نصنع ما هو احسن منه لو عملنا ضمن برنامج .

إننا بحاجة الى تخطيط سليم تبني به عقولا سليمة ورؤوسا عامرة بالعلم والمعرفة وقلوبا مليئة بالصدق والاخلاص ، لتبني لنا وطنا سليما من العيوب يخدم مواطنيه ويسهر على راحتهم . فاذا خططنا تخطيطا سليما وكان حكامنا على مستوى المسئولية فاننا لن نقول في المستقبل القريب ولا البعيد :

اوقفوا العالم نريد ان ننزل

بل سوف نقول : استمروا في الدوران لأننا سعداء .

وهنيئا لابناء الاجيال القادمة على ما ينتظرهم !

■■

دمشق ـ د. إحسان حقي

صفية بنت عبد المطلب

المرأة التي أنقذت وحدها جيشاً من الفناء

بقلم اللواء الركن : محمود شيت خطاب

هي صفية بنت عبد المطلب بن هاشم القرشية الهاشمية ، عمة النبي صلى الله عليه وسلم .

ابوها : عبد المطلب بن هاشم سيد قريش دون منازع في ايامه الذى قادها عام الفيل .

وامها : هالة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، خالة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولدت سنة ثلاث وخمسين قبل الهجرة (٥٧٠م) ، وفي سنة اربع واربعين قبل الهجرة توفي والدها عبد المطلب (٥٧٩م) ، وعمرها يومئذ تسع سنين ، فكفلها أحد اخوتها ، والمرجح أنه ابو طالب لأنه كان أبرز اخوتها وارشدهم .

وقد ولد النبي صلى الله عليه وسلم عام الفيل (٥٧١م) ، فتكون صفية اكبر من النبي صلى الله عليه وسلم بسنة واحدة ، او هما بعمر واحد تقريبا .

وقد نشأت صفية وترعرعت كلداتها من بنات عبد المطلب الهاشميات ، ولما بلغت مبلغ النساء تزوجها في الجاهلية الحارث بن حرب بن امية بن عبد شمس اخو سفيان بن حرب . ومات عنها الحارث ، فتزوجها العوام ابن خويلد ، فولدت له الزبير بن العوام رضى الله عنه والسائب بن العوام .

ولم يختلف في اسلامها ، بينا اختلف في اسلام غيرها من عمات رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهاجرت الى المدينة المنورة من مكة المكرمة مع ابنها الزبير بن العوام ، فعاشت في المدينة الى ايام عمر بن الخطاب



رضي الله عنه ، وتوفيت في المدينة سنة عشرين الهجرية (٦٤٠م) ولها من العمر ثلاث وسبعون سنة ، ودفنت في مدافن اهل المدينة بالبقيع بفناء دار المغيرة بن شعبة الثقفي .

وكانت تقول الشعر ، ومن شعرها في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم قولها :

لفقد رسول الله اذ حان يومه
فيا عين جودي بالدموع السواجم

وقالت في رثائه ايضا :

(ان يوما اتى عليك ليوم
كورت شمسه وكان مضيأ [1]

وقد روى لها ابن هشام في سيرته قصيدة طويلة في رثاء ابيها عبد المطلب ، انشدتها وأبوها على فراش الموت .

والقصيدة منتحله لا يمكن ان تقولها صفية ، لان عمرها يوم مات ابوها تسع سنوات ، ومن الصعب ان نصدق انها تستطيع ان تقول مثل ذلك الشعر القوى الرصين وهي في تلك العمر المبكر ، لهذا شكك ابن هشام في صحة نسبة القصيدة اليها فقال : « ولم ار من اهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر [2] » .

وسيرتها لا تختلف عن سير كثير من النساء ، ولكن ايمانها وصبرها وشجاعتها وجهادها تختلف جدا .

في غزوة احد

جرت غزوة (احد) في شوال من السنة الثالثة الهجرية (٦٢٤م) ، وكان الذين شهدوا هذه الغزوة من المسلمين سبعمائة من المجاهدين ، وكان الذين شهدوها من قريش وحلفائها الفين وتسعمائة مقاتل ، اى ان المشركين كانوا متفوقين على المسلمين باربعة اضعاف !

وشهد هذه الغزوة حمزة بن عبد المطلب شقيق صفية ، وكان من ابطال المسلمين ، وكان قد قتل العديد من مشركي رجالات قريش في غزوة (بدر الكبرى) الحاسمه ، وكانت هند بنت عتبة الذى قتل ابوها في غزوة (بدر) قد وعدت وحشيا الحبشي مولى جبير بن مطعم خيرا كثيرا ان هو قتل حمزة ، كما قال له مولاه جبير ، وكان عمه قد قتل ببدر : « ان قتلت حمزة عم محمد فانت عتيق » .

وتربص وحشي بين الصفوف يترصد حمزة فلا يريد غيره ، حتى لاح في عرض الناس يحطم أبطال المشركين وصناديدهم ، فصوب حربته على حمزة وقذفه بها ، فاصاب بطن حمزةاسفل سرته وخرجت الحربة من بين رجليه ، فاستشهد حمزة رضي الله عنه بهذه الطعنة النجلاء .

ومثل المشركون بحمزة بعد استشهاده ، ثم تركوه حيث استشهد في ساحة المعركة معفرا بالتراب .

وعلمت صفية بمصرع شقيقها والتمثيل بجثته بعد استشهاده ، فعصف بها الحزن وهزها هزا عنيفا .

واقبلت تسعى يعتصر قلبها الالم ، فاراد ابنها الزبير ابن العوام رضى الله عنه ان يحول بينها وبين ما تريد اشفاقا عليها وشفقة بها ، ولكنها قالت له : « بلغني انه مثل بأخي ، وذلك في الله ! فما ارضانا بما كان من ذلك ! لأصبرن ولأحتسبن ان شاء الله ! » .

---

(١) انظر التفاصيل في : الاستيعاب (١٨٧٣/٤) واسد الغابة (٤٩٢/٥ ـ ٤٩٣) والاصابة (١٢٨/٨ ـ ١٢٩) والبداية والنهاية (١٠٤/٧ ـ ١٠٥) .

(٢) سيرة ابن هشام (١٨٠/١ ـ ١٨٢) ، وينسب اليها شعر في رثاء شقيقها حمزة بن عبد المطلب انظر سيرة ابن هشام (١٥٦/٣ ـ ١٥٨) .

(٣) استرجعت : قالت : انا لله وانا اليه راجعون ، عملا بقوله تعالى : (الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا اليه راجعون . اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون) والآيتان الكريمتان من سورة البقرة (٢ : ١٥٦ ـ ١٥٧) .

وأتت صفية حمزة في موضع استشهاده بأحد ، فنظرت اليه ، واسترجعت (٤) ، واستغفرت له . ثم عادت ادراجها تسترجع وتستغفر ، ولا تزيد ...

وامر رسول الله صلى عليه وسلم بدفن حمزة ، فدفن موضع استشهاده ، الى سفح جبل (أحد) حيث يستقر قبره حتى اليوم في مكانه المعروف .

لقد كانت صفية انسانة ، فاصرت ان تودع شقيقها الوداع الاخير ، فارضت عاطفتها المتأججة .

ولكنها حين وقفت تنظر الى الشهيد مودعة ، استرجعت وترحمت عليه ، ولم تقل الا ما يرضى الله ورسوله والمؤمنين ، فصبرت واحتسبت صبر المؤمنات المحتسبات ، ولم تجزع جزع القانطات الكافرات .

وضربت صفية بصبرها الجميل مثلا رائعا للمؤمنات الصابرات اللواتي يصبن برحيل الشهداء من ذويهم .

وكان موقفها الصلب مثالا حيا للمؤمنة الصابرة المحتسبة .

في غزوة الاحزاب

جرت غزوة الاحزاب ، وهي غزوة (الخندق) في شهر شوال من السنة الخامسة الهجرية (٦٢٦م) ، وشهد هذه الغزوة ثلاثة الاف مجاهد من المسلمين ، وشهدها من الاحزاب عشرة الاف مقاتل عدا بني قريظة من اليهود ، منهم اربعة آلاف من قريش وستة آلاف من بني سليم واسد وفزارة واشجع وغطفان .

وسبب هذه الغزوة ان نفرا من يهود منهم : سلام بن ابي الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن ابي الحقيق ، وسلام بن مشكم من بني النضير ، وغيرهم من زعماء يهود ، خرجوا فأتوا مكة ، داعين الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم واعدين من انفسهم بعون من انتدب الى ذلك ، فاجابهم اهل مكة .

وخرج اولئك النفر من يهود ، الى غطفان ، ودعوهم الى حرب المسلمين ، فأجابوهم . وتوجهت قريش وغطفان الى المدينة المنورة ، فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم امر بحفر الخندق على المدينة .

واقبلت الاحزاب ، وخرج المسلمون للقائهم ، وكان الخندق بين الجانبين ، وامر النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء والذراري ، فجعلوا في الآطام في أماكن امنة داخل المدينة .

وكان كعب بن أسد رئيس بني قريظة موادعا للمسلمين ، فاتاه حيي بن اخطب احد زعماء اليهود ، فلم يزل به وكعب يأبى عليه ، حتى اثر فيه ، ونقض كعب عهده ، ومال مع الاحزاب .

وتحرج موقف المسلمين كثيرا ، وبخاصة بعد غدر بني قريظة وانضمامهم للأحزاب ، فقد كان باستطاعة هؤلاء الذين غدروا من يهود التسلل الى داخل المدينة والتعرض بنساء المسلمين وذراريهم وهم يعرفون تفاصيل مسالكها لانهم من اهلها ، مما يزعزع معنويات المسلمين الذين يقاتلون في الجبهة ، لانهم اصبحوا غير مطمئنين على مصير عوائلهم واطفالهم واموالهم .

وكان بامكان بني قريظة قطع خط انسحاب المسلمين الى المدينة ، وبذلك يفسحون المجال للاحزاب اقتحام الخندق دون مقاومة تذكر وابادة المسلمين المقاتلين منهم وغير المقاتلين لذلك كان وقع نكث بني قريظة لعهدهم شديدا على نفوس المسلمين المحاربين في الجبهة وغير المحاربين في الآطام ايضا .

وقد وصف الله موقف المسلمين الحرج في سورة الاحزاب فقال : (اذ جاءوكم من فوقكم ومن اسفل منكم ، وإذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) (٥) ولا يمكن ان يوصف الخطر المحدق

---

(٤) الايتان الكريمتان من سورة الاحزاب (٣٣ : ١٠ ـ ١١) .

(٥) انظر التفاصيل في : الطبري (٢/٥٦٤ ـ ٥٨١) وابن الاثير (٢/١٧٨ ـ ١٨٤) وطبقات ابن سعد (٢/٦٥ ـ ٧٤) وسيرة ابن هشام (٣/٢٤٦) والرسول القائد (٢٦٥ ـ ٢٢٩) .

بالمسلمين ، يمثل هذا الوصف الصادق الجميل المؤثر في القلوب والعقول معا ، لان العدو أحاط بهم وطوقهم تطويقا كاملا ، فزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا .. فهم معرضون للابادة في كل لحظة ..

والمرء حين يقرأ هذه الآيات يرتجف هلعا وهو بعيد عن المعركة وجوها ، فلا لوم على المسلمين الذين عاشوا المعركة بجوها اليائس الرهيب .

خطة ابادة المسلمين

وقرر الاحزاب بمعاونة بني قريظة ابادة المسلمين ، وكانت مجمل خطة الابادة هي : تهديد قريظة لنساء المسلمين وذراريهم في داخل المدينة ، فيضطر المسلمون للانسحاب من مواضعهم في الخندق الى داخل المدينة للدفاع عن ذويهم ، وحينذاك يقتحم الاحزاب الخندق ويعملون السيوف بالمسلمين المنسحبين .

وبعثت قريظة رجلا من رجالها الشجعان الاذكياء ، فتسلل الى الأطام التي فيها نساء المسلمين وذراريهم ، وكان واجبه : استطلاع اماكن النساء والذراري ، ومعرفة درجة منعة الأطام ، وهل هي محمية بالمقاتلين ام هي بدون حماية .

وكانت صفية في حصن (فارع) اطم حسان ابن ثابت رضي الله عنه ، فلمحت الرجل اليهودي يطيف بالحصن ، وليس هنالك من يدافع عن النساء والذراري ، فقدرت ان اليهودي اذا عاد سالما الى قريظة ، فانه سيدلها على عورات عوائل المسلمين من نساء وشيوخ ، فتقع المصيبة وينزل البلاء .

وقررت صفية قتل الرجل اليهودي ، فاخذت عمودا ونزلت من الحصن اليه ، وضربته بالعود على رأسه بقوة حتى قتلته .

وانتظرت قريظة عودة اليهودي الذي بعثته الى الأطام دون جدوى ، وطال انتظارها ، فلم يعد ، فحسبت ان نساء المسلمين وذراريهم ليسوا وحدهم ، بل في في امن ودعة ، واطمئنان بحماية قوة ضاربة من المسلمين .

ان قتل هذا اليهودي ، انقذ المسلمين مقاتلين وغير مقاتلين من خطر داهم اكيد ، اذ جعل يهود قريظة يفكرون ان في داخل المدينة حراسا اشداء من المسلمين ، وان ليس من السهل التغلب على هذه الحراسة الشديدة ، لذلك قبع يهود في حصونهم ، لا يفكرون في الخروج منها للتعرض بنساء المسلمين وذراريهم .

ولم يكن اليهود يعلمون ان صاحبهم القتيل ، قتل بيد امرأة من المسلمين لا بايدي حراس المسلمين .

واخيرا انتهت غزوة الاحزاب بانسحاب الاحزاب عن المدينة يجرون اذيال الهزيمة ، بعد ان استمر حصارهم للمدينة شهرا كاملا ، دون ان يفيدهم غدر قريظة شيئا ، بل جر عليها العار والوبال .

وحينئذ علم الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ببصيرته النافذة ، ان المشركين فقدوا فرصتهم الثمينة الى الابد ، وان مثل هذه الفرصة لن تعود اليهم مرة اخرى ، فقال قولته الرائقة السديدة : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا » ، فكان كذلك حتى فتح الله مكة .

لقد كان لصفية اثر اي اثر في انتصار المسلمين وهزيمة الاحزاب وحلفائهم من يهود بني قريظة .

صفية في التاريخ

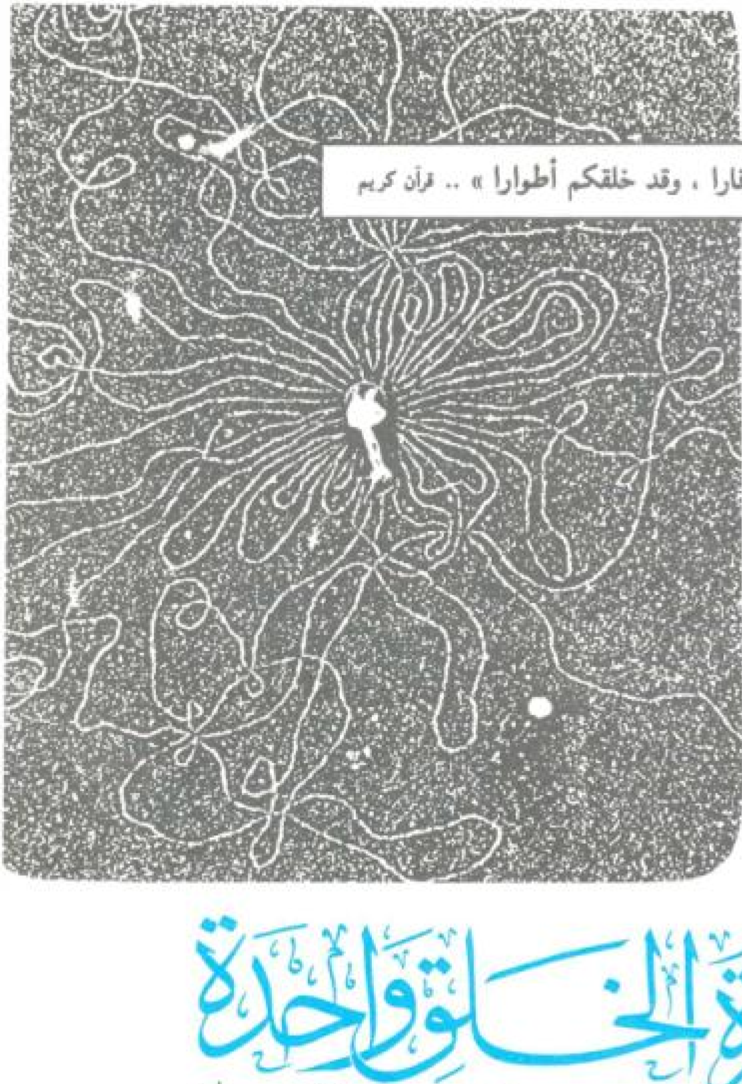
يذكر التاريخ لصفية ، انها نالت شرف الصحبة وروت عن النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنها . ويذكر لها ، انها وجدت على شقيقها حمزة حين استشهد وجدا شديدا ، ولكنها صبرت صبرا عظيما ، فهي قدوة في وجدها انسانة وفي صبرها مؤمنة .

ويذكر لها ، انها انقذت وحدها جيش المسلمين من الفناء ، فهي عبرة في شجاعتها واقدامها واهتمامها بامر المسلمين اضعاف اهتمامها بنفسها .

رضي الله عن المجاهدة الصابرة المحتسبة ، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ■■

محمود شيت خطاب

« مالكم لاترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا » .. قرآن كريم



بداية وحدة الخلق بين كل الكائنات تتمثل هنا في الشريط الوراثي الذي خرج من « مخ » الفيروس اورأسه .. شريط طويل جدا ، رغم ان طوله الحقيقي لا يزيد عن خمسة اجزاء من مائة جزء من الملليمتر لكن الطول المنظور هنا يتأتى من تكبير الفيروس اكثر من ٩٠ الف مرة . والاسهم تشير الى ان للشريط بداية ونهاية .. لكن كيف تستوعب هذه الرأس الصغيرة كل هذا الشريط الطويل (نسبيا) ؟ .. سؤال حير العلماء طويلا .

فكرة الخلق واحدة

عند الميكروب والقرد والإنسان

بقلم : الدكتور عبد المحسن صالح

لكل خلية « كتابها » المكتوب ، او لوحها المحفوظ .. فكتاب هذه قد يعطى ميكروبا ، وتلك تعطى طحلبا ، وغيرها باذنجانا او تفاحا او ثعبانا او حصانا او قردا او انسانا .. الخ ، وكل هذا يتوقف على ما يضمه كل كتاب بين دفتيه من سجلات مسجلة « بمداد » كيميائي .. نفس المداد ، ونفس الحروف ، وما تمخض عنها من لغة موحدة بين ملايين الأنواع من المخلوقات .. لكن كتاب الانسان المكتوب هو اعظم الكتاب دقة وتأليفا واخراجا واتقانا .. فماذا تعني هذه الكتب حقا ؟

لكل عصر ما يناسبه من افكار ، لكن الأفكار تتطور بمرور الزمن ، لأن عدم التطور ركود ، والركود جمود ، وما رأينا في الكون والحياة جمودا ، بل كلاهما في ديناميكية مستمرة ، ليكون هنالك تجدد وتغير ، والتجدد حياة يا أولي الألباب ، ولولا ، ولولا ذلك لظل الانسان الأول يسكن الكهوف ، ويستخدم النار ، ويعيش على الصيد كما يفعل الحيوان .. لكن افكاره تطورت ، فبنى البيوت ، وعرف الزراعة ، واستأنس الطير والحيوان ، وطرق المعادن ، وابتكر الكتابة والقراءة .. واخيرا جدا عاش في البخار ، ثم الكهرباء ، ثم الطاقة النووية .. وبالاختصار نشهد الآن ثورة هائلة في كل ميادين المعرفة والتكنولوجيا .

لكن .. ما دخل هذا بكتاب المخلوقات المكتوب ؟

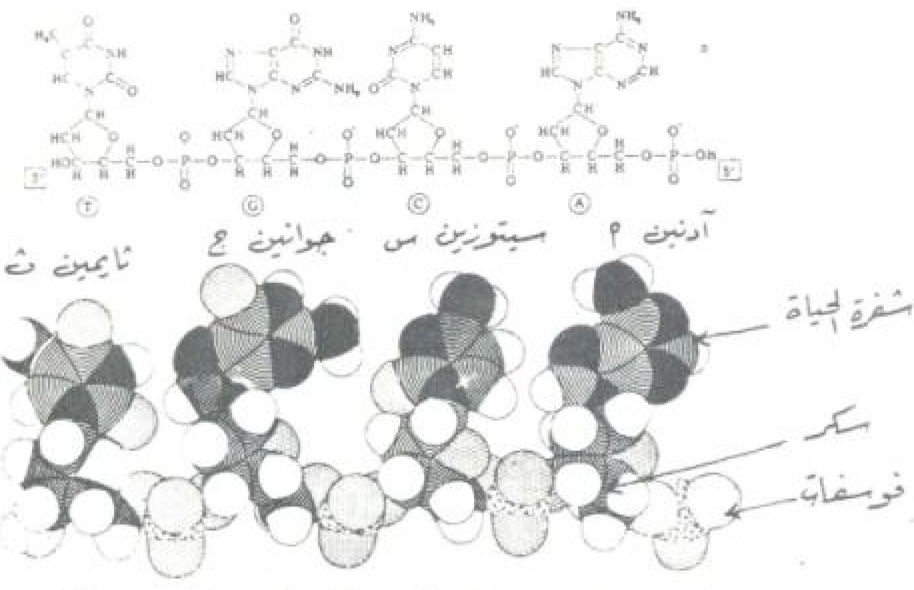
له دخل .. لأن فكرة هذا الكتاب « الحي » تطورت أيضا بمرور مئات الملايين من السنين ، وهي هنا تشبه المراحل التي يمر بها الانسان من طفولته حتى نهاية عمره ، ففي كل يوم يضيف شيئا الى معلوماته ، ويكتسب خبرات وعادات قومه .. ففي البداية مثلا يتعلم مبادىء الحساب والكتابة شيئا فشيئا ، ثم ينتقل من مرحلة الى مرحلة ، فيقرأ أحسن ، ويكتب أكفأ ، ويتعلم اكثر ، وكلما مر به الزمن ، يصل الى مراتب أعلى من الخبرة والتحصيل ، وقد يجود على البشرية ببحث أو بحوث أو كتاب وكتب لها بين الناس شأن يذكر .. وشتان طبعا بين حصيلته في طفولته ، وبين حصيلته في صباه او شبابه او شيخوخته .. اضف الى ذلك ان الاختراعات تتطور ايضا بمرور الزمن ، فليست الحاسبات الالكترونية اليوم ، كحاسبات الأمس ، ولا طائرات اليوم وصواريخه ، كطائرات وصواريخ الأمس .. الخ ، فكل هذا يتطور ويتعقد على حسب تصميمات جديدة تضاف الى القديم ، لتنتج اختراعات اكفأ وأضخم !

وكذلك يكون الانسان بين سائر المخلوقات .. فهو أيضا محصلة إضافات كثيرة مرت بها الحياة في مشوارها الطويل ، حتى جاء هو في النهاية « في احسن تقويم » .. لأن كتابه المكتوب كان طبعة منقحة ودقيقة بين سائر كتب المخلوقات التي سبقته على هذا الكوكب !

الظاهر والباطن في الخلق

لكن .. ماذا تعني حقا بهذا الكلام الذي يبدو كالاحاجي او الالغاز ؟

نعني به تطورا سارت عليه لغة الحياة من خلال « بروجرام » او خطة حملتها كل خلية حية وبها سارت ..



إلى أعلى تتراص ذرات الكربون (C) مع الايدروجين (H) مع الأوكسيجين (O) مع النيتروجين (N) مع الفوسفور (P) في جزء مفرد من الجزيء الحلزوني الوراثي ، وفيه تبدو الهندسة الدقيقة لتلك هذه الثباتات الأدق ، وإلى أسفل نموذج مبسط لما تراه في أعلى الصورة من رموز .. وبهذا التكوين نتوحد في فكرة الخلق مع كل الكائنات بلا استثناء !

فكرة البروجرام موحدة في الباطن ، لكنها تختلف في الظاهر ، ولهذا لا يستسيغ من رأوا الظاهر فقط ، افكار من رأووا الباطن وعاينوه .. ومن هنا نرى الذين يرون الخلق من الظاهر ، يستهجنون اهل الباطن .. يستهجنونها على غير علم ولا هدى ، وعندئذ يحق القول الكريم « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون » ؟ !

فكثير من الناس مثلا يستخفون بنظرية داروين التي نادت بتطور الانواع ، او خلقها اطوارا .. طورا من وراء طور من وراء طور .. وهكذا ، وتركوا كل شيء في بحوثه القيمة ، وركزوا على امر لم يدخل في تقدير داروين ، وهو أن الانسان قد تطور عن سلالة من القرود (لم يكن داروين يقصد ذلك حقا) .

ولقد كان داروين يعيش في القرن الماضي ، وكانت دراساته تنصب على فحص سائر انواع المخلوقات ، ومن دراساته المقارنة بين اشكالها وسلوكها ، توصل الى حقيقة هامة تشير الى وجود علاقات او صلات قربى تربط بينها في خطوات تطورية متعاقبة ، اى ان هناك اضافات وتحويرات تنعكس على هيئة مخلوقات ارقى وارقى .

الموضوع طويل جدا ، لكن يكفي ان نذكر ان داروين كان يدرس الظاهر ، لكنها دراسات هادفة وصادقة ، وتمخضت عن حصيلة علمية هائلة لها مغزاها ومعناها .

وتطورت العلوم في شتى الميادين تطورا هائلا ، وامتلك العلماء وسائل كثيرة ومختلفة ، وبها نظروا الى الباطن ، واكتشفوا مالم يخطر على بال كل الأجيال السابقة ، ولو بعث داروين من موته مثلا ، واطلع على ماحققه علماء العصر الحالي من انجازات في العلوم البيولوجيه ، لتوارى خجلا في حين ، ولانفرجت اساريره في حين آخر .. ومغزى هذا لا يخفى على لبيب ، فخجله يرجع الى جهله الشيء بما تنطوي عليه الحياة من اسرار ضخمة لم يستطع ان يراها بعينيه القاصرتين ، فلم يكن هو ، ولا علماء عصره بقادرين على أن يعاينوا ما عاينه علماء القرن العشرين ، ثم قد نراه وقد داخل السرور نفسه ، لان ظاهر الخلق الذي درسه في عصره ، له باطن بديع يحوي المخطط او البروجرام الذي يمكن ان يحقق به ما داعب فكره ، وهو ان الخلق تجمعه صلات قربى ، او يؤلف بينه نسيج واحد ، يعكس فكرة كونية موحدة .. أي انها ـ أي الفكرة ـ لا توحد بين الانسان والقرد فقط ، بل تذهب الى ابعد وابعد ، وتوحد بين الانسان والقرد والباذنجان والميكروب وسائر انواع الكائنات التي قد تعجبك او لاتعجبك !

والغريب أن العالم الطبيعي الفرنسي الشهير لامارك قد كتب في نهاية القرن الثامن عشر عن الفكرة الموحدة للخلق .. كتب يقول « أي مواطني .. انظروا الى أبسط أنواع الحياة ثم انظروا الى أعقدها ، عندئذ ستجدون الخيط ، الحقيقي الذي يربط بين كل نواتج الطبيعة الحية ، وستتوصلون الى الفكرة المتقنة الدالة على ارتقائها ، وستقتنعون أن أبسط كائن حي قد تمخضت عنه كل الكائنات الأخرى » !

لم يخرج لامارك بهذا الاستنتاج جزافا ، لكنه جمع حصيلة علمية لا بأس بها من خلال دراساته الطويلة في طبائع الكائنات الحية ، لكن .. هل تحققت نبوءته التي مر عليها حوالى قرنين من الزمان ؟ .. دعنا نرى ذلك من خلال ما تمخضت عنه العلوم البيولوجية من انجازات كثيرة وهائلة ، ولنمر عليها هنا مرا سريعا .

بين القديم والحديث !

طبيعي ان كل فكرة جريئة لاتتناسب مع الأفكار السائدة في اى عصر من العصور ، تجد مقاومة او استهجانا من الناس ، لكنها في النهاية تشق طريقها وتسود على ما عداها من افكار ، خاصة اذا كانت هذه الفكرة نابعة من الكون والحياة .. والأمثلة الدالة على ذلك كثيرة جدا ، وقد تعرض لهذه المقاومة الأنبياء والرسل عند تبليغ رسالاتهم ، كما تعرض لها أيضا الفلاسفة والمفكرون والعلماء عند طرح افكارهم .

فعندما نشر داروين كتابه عن اصل الأنواع ، وجد مقاومة وسخرية شديدتين ، وكان اكثر الناس مقاومة له هم رجال الكنيسة ، لأن افكاره تتعارض بشكل واضح مع ما جاء به الانجيل عن خلق الانسان .. فعندما انعقدت الجمعية البريطانية لتقدم العلوم في عام ١٨٦٠ بلندن ، لتناقش نظرية داروين ، امتلأت القاعة عن آخرها بحشد من الناس لم يشهده أحد من قبل ، وسبب ذلك أن راعي كنيسة اكسفورد الأسقف صموئيل ويلبرفورس قد اعلن انه سيحضر هذا الاجتماع ليسحق داروين (ولم يكن داروين موجودا في هذا الاجتماع) ، وبدأ القس يهاجم الرجل هجوما عنيفا ، وبعد نصف ساعة من الهجوم القاسي ، التفت الى توماس هكسلي (وكان اكثر العلماء مساندة لداروين) واشار اليه قائلا بتحد وسخرية « هل عن طريق جدته لأبيه او جدته لأمه يدعى هكسلي انه ينتسب للقرد » ؟

عندئذ همس هكسلي للجالس الى جواره ، وقال وهو في عنفوان غضبه المكبوت « لقد اوقعه الله بين يدى » ..

وقفز بين الصفوف كالنمر المتوحش ، واعتلى المنصة ، وأخذ يدافع عند داروين ونظريته دفاعا علميا رصينا ، وقال وهو في قمة انفعاله مخاطبا الجموع المحتشدة « انه لايشعر بأي عار لانتسابه لقرد . لكن العار أن ينتسب لرجل لامع يقحم نفسه في مسائل لايعرف عنها شيئا » !! وطبيعي ان المستمعين قد ادركوا مغزى قوله . فهو ـ بطريقة اخرى ـ يفضل ان يكون انتسابه لقرد ، ويستحي ان ينتسب لمثل هذا الرجل الذي يتدخل في امور ليناقشها بغير علم ولا دراية !

وعند هذا الحد هاجت القاعة وماجت ، وانطلقت الشتائم ، ووقف قائد سفينة الأبحاث التي اقلت داروين الى جزر الارخبيل وامريكا الجنوبية ، وقف وهو يلوح بالانجيل قائلا« انه لم يكن يدرى انه يحمل افعى خبيثة على سفينته (يقصد داروين) ولو درى أنه سيخرج على الملأ بمثل ماخرج به ، لالقاه في البحر » !

لقد انطلقت نظرات الاستهجان والحقد من الحاضرين الى كل من كان يعتقد في نظرية داروين او يدافع عنها .. ومع ذلك ، فقد انطلق العلم في طريقه لايلوى على شيء .

والواقع اننا قدمنا هذه الفقرات هنا ، ليس من قبيل تحصيل الحاصل ، لكننا قدمناها لنتخذها منفذا الى موضوع هام جدا لايزال يلقى الاستهجان ايضا من كثير من الناس الذين يرفضون باحتقار نظرة العلم الى الخلق ، وكأنما هم يسيرون على مبدأ « محلك سر » .. بمعنى انهم لايزالون جامدين في افكارهم التي توارثوها من قديم الزمان ، ثم تراهم ايضا يعارضون على غير علم ولاهدى !

لكل سجل او كتاب مستواه

ونحن نعترف انه من الصعب على النفس ان تتقبل انتسابها الى قرد او حمار او دودة او ميكروب .. لكن لابد ان تتقبل انها جميعا « من سلالة من طين » .. وأنها من عناصر تآلفت وانتظمت في ملايين الانواع من المخلوقات ، ولكل مخلوق درجته في ذلك التنظيم ، وهذا يتوقف على مرتبته في سلم التطور !

نعود الآن الى القول بأن كل مخلوق بمثابة كتاب مكتوب .. الفيروس مثلا ضئيل غاية الضآلة .. اضأل من الميكروب بآلاف المرات ، ولهذا كان كتابه المكتوب اضأل واصغر سجل عرفه العلماء حتى الآن .. فالذي يحدد تكوينه وصفاته التي يجيء بها فيروس ، يتمثل لنا في شريط مسجل لايزيد طوله عن جزء او جزأين من مائة جزء من المليمتر« شكل ١ » ، لكن هذا الطول الضئيل يكفي لاستيعاب حوالى ١٥٠ الف شفرة وراثية ، وهذه تكفي لتجهيز حوالى ستة او سبعة جزيئات بروتينية .. وطبيعي ان هذه الشفرات رغم ضخامتها النسبية عددا ، الا انها ضئيلة جدا بمعايير الخلايا الحية ، اضف الى ذلك ان الفيروس ليس له اجهزة خلوية ، ولارسل ، ولامطابع حية .. الخ (انظر مقالاتنا في الاعداد السابقة من هذه المجلة) .

ثم تأتى الخلية البكتيرية (اى الميكروب) في مرتبة تالية (الواقع ان هناك كائنات أعقد قليلا من الفيروس ، وابسط من البكتيريا تركيبا ، لكننا لن نتعرض لها هنا لضيق المجال) ، ولهذه الخلية أجهزة تتنفس بها ، وأخرى تطبع عليها بروتيناتها .. الخ ، اى أنها كائن ذو كيان مستقل ، لكنه ابسط كيانا على أية حال ، ومن أجل هذا يكفي الميكروب شريط وراثي لا يزيد طوله عن المليمتر ، ومع ذلك فسجل عليه حوالى سبعة ملايين شفرة ، تكفي لتجهيز أكثر من عشرة آلاف نوع من أنواع البروتينات المختلفة التي يستخدمها في إدارة عملياته الحيوية .

وطبيعي أن المخلوق كلما ارتقى بعد ذلك في التطور ، فلاشك انه يحتاج الى مزيد من الشفرات ، ليدير بها كل ما اكتسبه من أسلافه من خلال عمليات تطورية تدريجية استمرت مئات الملايين من السنين .. صحيح أن العملية بطيئة ، لكن اعطها عمرا مديدا ، تعطيك « منسوخات » من المادة الوراثية اغزر في الشفرات ، وارقى في المعلومات ، وادق في التكوينات ، وكل هذا ينعكس على اضافات نراها رؤية العين في المخلوقات .. فليست الدودة مثلا كالسمكة ، ولا السمكة كالفأر ، ولا الفأر كالانسان .. بل كل كائن منها يحتل مرتبة ارقى في التكوين من سابقه .. وهذا يعنى أن الأبسط قد ظهر أولا ، ثم تبعته اضافات هائلة ، وهي التي سبق ان عبرنا عنها بمثال الحاسبات الاليكترونية أو غيرها ، فلقد بدأت هزيلة ، ثم تطورت لتصبح شيئا رهيبا .. تطورت بفضل افكار بشرية .. والحياة ايضا قامت على فكرة كونية لها مغزاها ومعناها .

ولكي نوضح ذلك أكثر ، كان لزاما علينا ان نقدم مزيدا من الأمثلة .. فنجمة البحر اعقد بكثير من الميكروب او الطحلب او غير ذلك من كائنات بسيطة ، ولهذا يبلغ طول اشرطتها الوراثية حوالى ٣٠ سنتيمترا ، في حين ان خلايا الطيور (وهي اعقد تكوينا من نجمة البحر) تحتوى في المتوسط على حوالى ستين سنتمترا ،

والضفدع على حوالى ٢٤٠ سنتيمترا ، والانسان على حوالى ١٧٠ سنتيمترا !

لحظة من فضلك !.. ألم تذكر من قبل ان المخلوق كلما ارتقى في سلم التطور ، كانت اشرطته اطول ، لتستوعب اضافات اكثر !.. فاذا كان هذا صحيحا ، فكيف تعلل ان الانسان ارقى من الضفدع ، رغم أن الضفدع قد حاز أشرطة أطول ؟

وهذا - في الواقع - اعتراض وجيه ، اذ يبدو ان الحياة هنا تلقننا درسا مفيدا مؤداه : ان العبرة ليست بضخامة الجسد او الاشرطة او حتى الكتب التي يكتبها البشر ، فلقد انقرضت الديناصورات الهائلة رغم ما تمتعت به من ضخامة في الجسد ، كما أن بعض الكتب التي يؤلفها البشر قد تكون ضخمة الحجم ، لكنها سطحية المعنى ، فالعبرة هنا بالنوع لا الكم ، وكذلك يكون الحال مع الضفدع وغيره .. شفرات ذات كم محترم ، لكنها لا تجعل من الضفدع مخلوقا ارقى .. والله اعلم !

عود على بدء

من القشور العلمية التي قدمناها يتضح ان بداية المخلوقات جميعها قد توحدت في جزيء او شريط وراثي ، هو بحق « أدم » « الجزيئات
لأنه الوحيد الذي يستطيع ان يكون نسخة طبق الاصل من ذاته .. ولهذا ترى الميكروب يعطي ذرية من مكروبات ، والباذنجان يعطي ذرية على شاكلته ، وكذلك يكون الثعبان والضفدع والفأر والانسان .

ثم بعد ذلك في بداية المخلوقات ، تجدها تنشأ من خلية ملقحة ، لا يختلف الانسان في ذلك عن غيره من الكائنات .. المهم ان تكون بدايته مخطوطة في جزيئات وراثية (داخل خلية ملقحة) تحتوي على حوالى ثمانية آلاف مليون شفرة .. نفس حروف الشفرة التي أنشأت كل الأنواع ، ونفس شكل الجزيء ، ونفس التنظيم ، ونفس السمك .. الخ . فاذا اخذت شريطا من خلية انسان ، ونظرت اليه من خلال الميكروسكوب الاليكتروني الذي يكبره عشرات الالوف من المرات ، لما استطعت ان تميزه عن شريط أخرجناه من ثور او ثعلب او نبات او ميكروب او فيروس .. وهذا يعني ان فكرة الخلق واحدة ، ولذلك تجمعنا بكل المخلوقات صلات قربى وطيدة قد نستهجنها ظاهرا ، لكنها موحدة باطنا !

لكن ذلك لا يوضح لنا كيف جاء الانسان انسانا ، والحيوان حيوانا ، والنبات نباتا ؟

أيضا عن طريق انتظام الشفرة في الخلية الاولى التي تحتويها ، فتنتظم حروفها او مركباتها في جزيئاتها ، ثم ترجمة هذا التنظيم على هيئة بروتين ، ثم قيام البروتينات بتوجيه كل العمليات الكيميائية المعقدة .. كل هذا وغيره يتمخض في النهاية عن اختلاف ضخم جدا في انواع المخلوقات .. ولقد جاء هذا الاختلاف كنتيجة حتمية لنظام تطوري في الشفرات الوراثية وضعه الله في بدايات الحياة يوم ان قدر وجودها على هذا الكوكب .. ولقد بهرت شفرة الوراثة العلماء واخذت بنواصي عقولهم والبابهم ، واسعدتهم ايما سعادة ، فلقد وجدوا فيها فكرة كونية هائلة لم تكن لتخطر على عقل بشر ، خاصة وأن هذه الشفرة التي تتكون من مركبات كيميائية أربعة (شكل ٤) ، في أشرطة مسجلة ، وبتوافيق وتباديل لا حصر لها ولا عدد ، يمكن أن تجود بسلالات من المخلوقات لا تتشابه مطلقا ، حتى ولو بلغت اعدادها عدد ذرات الكون مجتمعة (انظر مقالاتنا السابقة على صفحات هذه المجلة ، فقد ضمناها سر هذه الشفرة) .

ثم إن بروجرام الشفرة الوراثية هو الذي يوجه الخلايا التي تنشأ من البويضة الملقحة ، وتكون متشابهة في البداية ، فيحيل هذه الى زعنفة سمكة ، او جناح طائر ، او مخلب قط ، او اصبع وبصمات في يد انسان .. أو .. أو .. الخ ، فلكل جزء يضاف الى المخلوق أثناء عملية التطور الطويلة بروجرام خاص على الشفرة الوراثية .. وعند ترجمة هذا البروجرام في الخلايا ، فانه يوجهها الوجهة التي فطرها الله عليها (انظر مقالتنا في هذا الصدد في عدد يوليو ١٩٧٩ من هذه المجلة بعنوان « من الميكروب الى الانسان ») .

لكن أهم ما يميز هذه الشفرة انها قابلة دائما للتغير ، والتغير - كما سبق ان ذكرنا في صدر هذا المقال - تجدد وتطور ، وهذه نسميها علميا « بالطفرة » ، وهي دائمة الحدوث بين الكائنات . كما يستطيع العلماء بوسائلهم الكثيرة تغيير هذه الشفرة في كثير من خلايا الكائنات ، فتؤدي الى « ترجمة » بروتينية تختلف عن الاصل ، وهذه يمكن معاينتها حقا بالوسائل العلمية المتاحة .. لكن هذا موضوع طويل ومثير ، وسنؤجله لدراسة قادمة ، لنعلم المزيد عن صلات القربى التي تربطنا بميكروب او دودة وسمكة وثور .. الخ ، وفي ذلك الكفاية لقوم يفقهون فيتدبرون في الفكرة العظيمة الموحدة التي ارساها الله في كل خلقه من قديم الزمن . ■■

الاسكندرية - دكتور عبد المحسن صالح

المرأة و الأسرة

بقلم : منير نصيف

أيـام لن تـعود

« السعادة مسألة شخصية .. وهي في البداية وفي النهاية ترتبط بشيء واحد .. القدرة على الحب .. حب كل شيء الانسان .. الطبيعة .. الحياة ذاتها بكل ما تأتي به . وقد عرفت امي السعادة لان قلبها امتلأ بحب الدنيا كلها .. شيء افتقدته المرأة اليوم . لان الفرق بين الأم وابنتها ، أن امهاتنا عشن من اجل غيرهن .. ! »

صاحبة هذا الكلام زوجة وام لاطفال صغار ، رقصت وغنت ، وشاركت في وضع الحان الموسيقى التي نجحت في اخراج الناس من ترمتهم .. وكانت بعد هذا كاتبة موهوبة ... كتبت « الرقص على أنغام نافخ القربة » . ثم نزهة في طريق العودة الى البيت .. واخيرا كتابا عن الأمهات أيام زمان .. وكان هذا الاخير من أروع ما كتبت الراقصة الكاتبة أجنس دي ميل إبنة شقيق مخرج السينما الأمريكي سيسيل دي ميل .

تقول أجنس : تلفتُ حولي اتأمل حياة المرأة اليوم بعد ان زاحمت الرجل في حياته وعمله ، وهي تمضي في الطريق الذي شقته باظافرها وسط العالم الذي كان بالأمس للرجل وحده .. فهل وجدت المرأة العصرية السعادة التي كانت تحلم بها ؟ »

وكانت هذه الخلاصة التي وصلت اليها في بداية هذا الكلام .. ولكنها لا تعرف وهي تقدمها لماذا ؟ هل كانت تفضل حياة المرأة منذ خمسين عاما مثلا ، وتتمنى لو انها عادت اليها ام انها مجرد صورة من بعيد شاءت الكاتبة ان تنقلها للمرأة التي اصبحت .. صورة حلوة تعيش في مخيلتها ، ولا تستطيع ان تنتزعها منها .

هي نفسها لا تدرى .. ولكن الذي تعرفه انها كانت تحب أمها كثيرا .. وتعجب بحياتها أكثر .. ولا تكف عن العودة اليها والى ذكرياتها معها كلما أعوزتها الحاجة الى زاد جديد لروحها وعقلها .

ماذا قالت ؟

« كانت امهاتنا يحملن تجاربهن ، وافراحهن وأحزانهن في السر . فقد كانت كلها مسائل خاصة بهن وحدهن ، ولكن حياتهن كانت تتميز بلون خاص من العظمة .. شيء لن نعرفه ولن نعرف كيف نعود إليه مرة اخرى ابدا ! من الصعب ان يصدق المرء ان الحياة يمكن ان تتغير بهذه السرعة بهذه الصورة في اقل من خمسين عاما »

كيف ؟

هذه بعض ذكريات الابنة عن أمها ، وكيف كانت تراها ؟

« كان الشيء الذي يميز السيدة الرقيقة قبل كل شيء هو صوتها .. كان صوت المرأة نغما جميلا فيه هدوء وفيه موسيقى وفيه سحر .. حتى وهي تنادى طفلا في البيت ، كانت تبدو وكأنها تعزف مقطوعة موسيقية على البيانو او الارغن .

« كان صوتها نقيا ، لم يفسده دخان السجائر ، ولا الصراخ وراء سيارة التاكسي المنطلقة بسرعة لكي

تتوقف وتنقلها الى حيث تريد ان تذهب ، ولا قراءة نشرة الاخبار في الاذاعة لا شيء من هذا عرفته أمي .. لانها لم تكن تدخن ولا كانت تخرج وحدها ، وما عرفت يوما ان صوتها الهادئ يمكن ان يتحول الى شريط أو أسطوانة يسمعه كل الناس !

« كانت هادئة في مناقشاتها .. في نزهاتها .. في علاقاتها بالجيران والناس .. بيتها هو « الجنة » الصغيرة التي تعيش فيها مع زوجها واطفالها . حفلات الشاي هي وسيلة اللقاء المفضلة بصديقاتها وجيرانها ، وأسلوبها الوحيد في المجاملة

حيرتني أمي

حتى في الخناقات الزوجية ، لم يكن صوتها يرتفع فهي تعلمت ان تغضب في صمت .. لقد حيرتني أمي وانا أراها في كل مرة يثور فيها أبي ويغضب .. كنت انطلع الى وجهها فأجده هادئا مبتسما .. قلت لها يوما : انت لا تعرفين الغضب ! .. وضحكت وضمتني الى صدرها ، « انا بشر يا ابنتي .. ولكن ما الذي ساجنيه إذا انفجرت انا الاخرى غاضبة في وجهه ! »

« كانت تغضب اذن ولكنه غضب صامت تخبئه وراء ابتسامتها الحلوة .. حتى عندما كانت تبكي .. كان بكاؤها هادئا .... لا تسمع منه شيئا .. فقط كنت أرى عينيها الجميلتين سابحتين في الدموع ، ومنديلها الصغير المطرز المصنوع من الكتان ، والذي يحمل الأحرف الاولى من اسمها واسم ابي ، يرتفع بين اصابعها ليلتقط دموعها حتى لا تنساب على وجنتيها !

« بكت امي يوم وقفت تودع اخي ابنها الوحيد وهو يخرج من البيت في بدلته العسكرية ونيران الحرب العالمية الثانية على الجانب الآخر من المحيط تلتهم الرجال من كل لون وجنس ولعلها المرة الأولى التي رأيتها فيها تبكي .. فقد عاد ابنها من الحرب .

« كانت المرأة كتابا مفتوحا .. تعبيرات وجهها تفضح كل ما يعتمل في صدرها من انفعالات .. وكأنها جواز مرور .. اذا فرحت ، انعكس شعورها على كل من حولها واذا تألمت بان الحزن عليها من خلال دموعها التي لم تكن تقوى على حبسها .. فقط لم تكن تعرف الغضب ولا تعرف كيف تغضب !

لون الحياة

« عدت يوما من مدرستي وكنت طفلة في الثانية عشرة وهالها منظري وهي تفتح لي باب البيت وتنحني لتقبلني ، كما تفعل دائما عندما اخرج في الصباح واعود من مدرستي في المساء .. وافزعها ما رأته .. فقد كنت احمل معي كل تراب المبنى الذي يقع بجوار المدرسة مباشرة والذي اخترناه لنلعب فيه أنا وصديقاتي ...

« وقادتني أمي في هدوء وهي ممسكة بيدي بعد ان انتزعت منها حقيبة الكتب ووضعتني في البانيو ـ كما أنا بكامل ملابسي ـ وتركت مياه الدش تغرق ملابسي وتغرقني معها ، ثم ابتسمت وقالت وهي هادئة : « أرجو أن تستطيع المياه ان تزيل عنك كل هذه الاوساخ » .

« وكانت امي سيدة جميلة .. ولكن لم يكن الجمال هو الصفة الوحيدة التي تميز المرأة ، وانما ايضا رقة مشاعرها واحساسها بالحياة وبكل من يعيش معها ومن حولها ... وكان اجمل ما فيها شعرها ، فهو التاج الذي يعلو رأسها دائما ، وتحمله فوقه بفخر .. في البيت .. وفي الخارج .. وفي كل وقت . وكأنه حديقة وارفة صنعتها يد بستاني مبدع . وكانت هي وحدها هذا البستاني ، وزوجها هو الرجل الوحيد الذي يستمتع برائحة الزهور .

« لم تعرف الأصباغ ، وإن كانت عرفت بعض انواع الدهون النباتية ... وكانت رائحة الصابون هي العطر الوحيد المحبب الى انوف الازواج .. كما كان لون الوجنتين الاحمر الطبيعي هو لون الصحة والحياة .

.. وحديث آخر !

وتحدثنا الدكتورة ماريون هيليارد في كتابها « الام

المتعبة « The hard pressed Mother .. وماريون كانت لسنوات طويلة قبل رحيلها المفاجىء في عام ١٩٥٨ ، رئيسة قسم الولادة وامراض النساء بجامعة تورنتو ، ولها عدة مؤلفات أشهرها « النساء والتعب » الذي كان آخر ما كتبت ووضعت فيه خلاصة تجاربها مع الامهات اللواتي أحببتها ، فكن يجئن اليها بمتاعبهن .. تحدثنا ماريون عن جانب آخر في المرأة لا يدخل في دائرة اختصاصها ولو أنه وثيق الصلة بها فهي تصف لنا الام التي عرفتها تقول « : بقدر ما كانت المرأة ناعمة رقيقة كان عملها في البيت شاقا متعبا .. »

« كانت هي السيدة ، ومربية الاطفال والزوجة الوفية التي تنتظر عودة الزوج من عمله وبعد هذا كله وقبله الطباخة الماهرة التي تعمل في هذا « المصنع الصغير » وحدها .. ومن هذا المطبخ كانت تقدم لافراد اسرتها أشهى أطباق الطعام والحلوى بماكينات بدائية .. فلم تكن الكهرباء قد دخلت الأفران ، ولا الثلاجات التي تحفظ الطعام ، ولا عرفت السوبر ماركت .. الذي يبيع الدجاج واللحوم نظيفة معقمة ، والخضروات والفواكه معدة للطهي والأكل .. لم يكن هناك شيء من هذا .

وتكمل الدكتورة ماريون حديثها عن المرأة التي عرفتها في الثلاثينات .. وعن إبنتها او حفيدتها التي التقت بها بعد ذلك بسنوات وسنوات ، وهي تقترب من نهاية رحلتها مع الحياة « كانت المرأة سعيدة بحياتها قانعة راضية .. كانت اسعد بكثير من ابنتها التي كانت تجيء إليّ تشكو وتشكو .. من العمل المرهق في المكتب .. من سوء حظها مع المربيات اللواتي تستخدمهن لرعاية اطفالها .. من الغسالة الكهربائية التي تتعطل . من كل شيء ومن لا شيء .. إنها لم تعد تستطيع ان تتذوق لذة الحياة لأنها لم تعرف التعب » .

« حقيقة كانت لبعض السيدات خادمات .. ولكن كانت هناك « أعمال » خاصة بسيدة البيت لا يجوز للخادمة ان تمسها .. المرأة ايام زمان كانت تعتبر كل شيء خاصا بزوجها من صميم شئونها هي وحدها .. هي التي تعد له طعام الافطار .. هي التي تصلح له ملابسه .. هي التي تشاركه طعامه وحديثه على مائدة العشاء بعد ان يذهب الاطفال الى فراشهم ويناموا .. حديثها دائما ممتع .. النهار عندها يبدأ بابتسامة ثم قبلة تودع بها زوجها على الباب قبل خروجه وتبقى الابتسامة معها طول اليوم .

« مقرها الرسمى هو « المطبخ » ودور الخادمة فيه ثانوى ، فهي السكرتيرة التي تنتظر تعليمات الرئيس ! . »

الاعتكاف

ثم تنتقل الدكتورة ماريون إلى الحديث عن جانب في صميم اختصاصها .. عن الأم في فترة الحمل او فترة الاعتكاف ، وهي كما تقول : « اجمل واروع فترة في حياة الأم زمان » .

ويبدأ الاعتكاف عندما تظهر آثار الحمل واضحة منذ هذه اللحظة تتخلى المرأة عن كل الحريات التي تتمتع بها .. فهي لا تخرج من البيت إلا اذا اضطرت الى الخروج تحت رداء فضفاض أو عندما تغيب الشمس ، ويبدأ الظلام يخفي تحته كل شيء ، ثم هي تحرص على ألا يراها اطفالها في غير الملابس التي أعدتها لفترة الاعتكاف ، لأنهم لا يكفون عن توجيه الأسئلة عن التغير الذي طرأ عليها ، وهو شيء غير مرغوب فيه . إنها تعتبر حالتها الجديدة « أقدس » من أن تكون موضوعا لمناقشة حتى مع أبنائها ، ولكنها لم تكن ابدا تتوانى في القيام باى عمل تشعر ان من واجبها ان تقوم به حتى يحين موعد الولادة التي كانت تتم غالبا في البيت ! » .

مسألة خاصة

هل كانت الحياة ايام زمان بلا متاعب ولا شرور ؟ وتجيب ماريون في كتابها : « بل كانت مليئة وكانت الزوجة ترى وتسمع ولكنها لا تتكلم .. وخاصة اذا كانت المتاعب التي تعانيها سببها زوجها .. الزوج وكل ما يفعله في البيت أو في خارج البيت ، اذا تصادف وعلمت به ، مسألة خاصة بها وحدها .. وربما وتحت ظروف صعبة قد تروى بعض هذه المتاعب لطبيب الأسرة ، او لرجل الدين .. حتى أمها لم تكن تعلم شيئا عن متاعب الابنة بعد ان تتزوج الا اذا دعاها الزوج نفسه للتدخل .
« كانت الام زمان بحق « الجنس الضعيف » ، ولم يكن زوجها يتوقع منها ان تناقشه آراءه او تشاركه افكاره او تهتم بعمله ، اكثر من تهيئة الجو الذي يستطيع معه ان يستمر في هذا العمل .. فقد كانت ضعيفة حقا حتى من مواجهة فأر ، ولكنها كانت وفية مخلصة طيبة القلب ، متفهمة لدورها كزوجة وام قبل اى دور آخر .. فقد كانت هذه رسالتها .. ! »

ونعود الى « أجنس صاحبة الكتاب عن « الام أيام زمان » .. انها تقول : « ان الام الشابة تواجه اليوم

مواقف جديدة .. لقد طورت مبادىء السلوك الانساني ، وما زالت تطورها في كل عقد جديد .. إنها تمر بتغيرات سريعة تجعلها تلهث وهي تحاول اللحاق بها .. وفرص كل جيل يأتي بعد هذا الجيل ، اكثر نجاحا وحرية وشجاعة .. هذا ما ترجوه المرأة اليوم على اية حال .. ولكنني لست واثقة بعد هذا وبالرغم من كل هذا من ان المرأة اليوم اكثر سعادة من امها او من جدتها .. !

فستان جدتي

هل صحيح ان الناس الآن يحنون الى الماضي .. في هذا الحين قرأت تعليقا طريفا للكاتب الساخر أرت بوخوالد إنه يقول : « كل شيء في البيت ، وربما خارج البيت اصبح يحمل طابع جدتي .. الملابس .. الأثاث .. الالوان .. وطبعا فساتين المرأة .. لقد رأيت فستان جدتي خلال رحلة سريعة قمت بها الى باريس .. وباريس ليست غريبة علي ، فقد امضيت فيها سنوات عمل طويلة قبل ان انتقل الى امريكا .. ولم يكن الفستان وحده في فاترينة ، ولكنه كان فوق جسم عارضة الازياء الصغيرة الرشيقة « سيمون » .. وكانت تخطر به مختالة وكأنها تمشي على سطح القمر !!

« وفي طوكيو ، عندما زرتها منذ عامين ، تعطل المرور في اكبر شارع بالعاصمة لان عربة صغيرة يجرها جوادان كانت تسير الهوينى ، وقد جلست فيها سيدة شابة جميلة لم يظهر منها غير وجهها وراء نوافذ العربة الزجاجية .. وتصور الناس ان فيلما سينمائيا يجرى تصويره في الشارع .. ولكنهم لم يجدوا غير السيدة وسائق العربة ببدلته الردنجوت وقبعته العالية ، والقفاز الأبيض في يديه الممسكتين بالعنان .. وهو لا يكف عن النظر الى السيدة وكأنه يسألها : « الى اين ؟ وهي لا تجيب

ولم يعرف أحد اين ذهبت العربة .. ولا من هي صاحبتها ..

كل الذي عرفوه أن سيدة امريكية دفعت مائة الف دولار للعربة القديمة التي كانت تستخدمها زوجات اللوردات الانجليز .. قبل وحتى بعد اختراع السيارة » .

بماذا تسمى هذا ؟

هل فتاة اليوم حقا اسعد حالا من امها وجدتها ؟

لماذا لا نسأل الام عندنا ؟ !

● ليس هناك زواج يمكن ان يعيش بغير حياة . ولكن الاعتماد على القلب وحده ليس طريقا آمنا لا بد للزوجة ان تصطحب معها عقلها وهي تمشي في هذا الطريق !

« مارك بيترسون »

● حفلات الكوكتيل اسوأ اختراع بعد « شربة زيت الخروع »

« إلزا ماكسويل »

● المرأة قد تصفح عن الخيانة .. ولكنها لا تنساها !

« مدام دي لافاييت »

● اسعد النساء مثل اسعد الامم ، بلا تاريخ !

« جورج اليوت »

● المرأة التي تبقى امرأة ، تبقى كائنا حيا متكاملا !

« كوليت »

● لا يجب ان تشعر بالقلق ازاء الاشياء التي لا تستطيع ان تغيرها !

« كاترين العظمى »

● الحياة تبدو امامي قصيرة جدا .. من القصر بحيث يجب الا نضيعها في تغذية العداء وتسجيل الاخطاء !

« شارلوت برونتي »

● اسلوب الرجال في الحياة قد لا يختلف كثيرا من رجل لآخر .. ولكننا نحن النساء نفضل اسلوبنا على اي شيء آخر .

« جين اوستن »

الرشوة لها تاريخ :

معاشر الفرعان .. لكم الأمان

اعداد : مجيد طوبيا

في زماننا تسمى الرشوة « عمولة » .. اما في زمن العصر المملوكي فقد سميت احيانا صراحة « البرطلة » ، فيقال تبرطل فلان اي ارتشى ، والرشوة : برطيل وجمعها براطيل .. واحيانا اخرى سميت بالبذل ، رغم ان البذل في الاصل لفظ يعني العطاء والكرم !!

والرشوة ـ ان ظهرت على شكل حالات فردية ـ فهي عرض زائل ، اما عندما تصبح ظاهرة عامة فهذا هو الانحلال والفساد في امور الناس والخراب .. والمؤكد انها داء من قديم الزمان وفي شتى البلدان .. وقد حذر من آفتها الفراعنة ، فمنذ ١٣٠٠ سنة قبل الميلاد تقريبا اصدر الملك « حور محب » قانونا يقضي بعقوبة الاعدام للموظف او الجندي او الكاهن الذي يقبل الرشوة .. ومن بعده اصدر « سيتي الاول » مرسوما بقطع انف واذني الموظف الذي يستغل وظيفته من اجل مصالحه الشخصية !!.. وهناك وثائق اخرى ـ سابقة او لاحقة ـ تتحدث عن هذه الظاهرة في مجتمعات عديدة ، كالاغريقية والرومانية وغيرها !!.

ولقد صدر بالقاهرة كتاب شائق بعنوان « البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك ـ دراسة عن الرشوة » حوى الرسالة العلمية التي تقدم بها احمد عبد الرازق احمد لنيل درجة الدكتورية .. وهو يذكرنا ان الرشوة وجدت منذ القرون الاولى للاسلام ، حيث شاعت بين الحكام والوزراء والولاة والعمال والقضاة والكتبة .. على الرغم من قول الرسول : « لعن الله الراشي والمرتشي » !!

في الخفاء .. وعلى استحياء

وهناك من يقول ان اول من رشا في الاسلام كان « المغيرة بن شعبة » الذي ولي الكوفة عام ٤٢ هـ / ٦٦٢ م عن طريق بذل المال ، بأمر من الخليفة « معاوية ابن ابي سفيان » .. كما تؤكد وثائق العصر الاموي نفسه ان « عبد الله بن عبد الملك » والي مصر قد تعاطى الرشوة حتى اسماه المصريون مكيبا ، وذموه شعرا عند رحيله قائلين :

اتى مصر والمكيال واف مغربل
فما سار حتى سار والمد فالج !!

اما في العصر العباسي فقد كان الساعون للوزارة وباقي المناصب بالدولة يدفعون الرشاوي الى القواد الاتراك ونساء القصر للوصول الى أهدافهم !.. منهم



ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ « الربيع » حاجب الخليفة المنصور الذي توسط ليعقوب بن داود في منصب الوزير برشوة مقدارها مائة الف دينار !.. كذلك « ابراهيم بن الجراح » قاضي مصر سنة ٢٠٥ هـ / ٩١٩ م الذي تعرض لسخط المصريين بسبب فساد ابنه وتقاضيه « البرطلة » ، مما جعلهم يلقون بمصلاه خارج المسجد الجامع ، فاضطر الى الجلوس للحكم في منزله ، ولم يجرؤ على العودة الى الجامع حتى صرف !!

وكان كل وزير جديد يأتي بحاشيته وانصاره ليوظفهم ، فان سقط هو ذهبوا بذهابه ، وهذا مما زعزع الاستقرار الاداري ، واصاب اركان الدولة بالخلل ، فعم الفساد وكثرت المظالم ... وقد كان من الطبيعي تفشي ظاهرة البرطلة في دواوين العصر العباسي ، اذ ان الرشوة مست الخلفاء انفسهم ، بدليل ما رواه « الطبري » من ان الخليفة الهادي سعى لاخذ البيعة من هارون عارضا عليه في مقابل تنازله عن ولاية العهد ألف الف دينار !!

وكما عرفت الرشوة في العصر الاموي ثم شاعت في العباسي ـ وجدت في زمن الاخشيديين ، وايضا في العصر الفاطمي ، اذ يحدثنا « الكندي » عن بعض اصحاب المناصب بانهم عرفوا « بقلة الامانة وظهور الخيانة ورقة الدين واغتصاب مال المسلمين ، والارتشاء على الحكم ، الى غير ذلك من القبائح » .. ودليل هذا انهم جمعوا ثرواتهم في اوقات قصيرة .. وقد ظل الخليفة « الآمر » في دور « الافضل بن بدر الجمالي » يحصي ثروته بعد وفاته ، وبين يديه الكتاب يكتبون ما ينقل الى القصر منها ، لمدة اربعين يوما !!.. ومن الغريب ان يستطيع « الأفضل » جمع هذه الثروة الضخمة في وقت كانت فيه البلاد تعاني من ويلات الحروب الصليبية

وكذلك الحال كان في العصر الايوبي .. وشاهدنا هذه المرة هو « الشيزري » الذي يقول عن وكلاء القضاة : « واما الوكلاء فلا خير منهم ، لان اكثرهم رقيق الدين يأخذ من الخصمين ، ثم يتمسكون فيه بسنة الشرع ، فيوقفون القضية ، ويضيع الحق من طالبه وصاحبه !! » .. كما يشير المقريزي في حوادث سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٣٥ م الى تنصيب الانبا كيرلس بطرقا على الاسكندرية لليعاقبة عن طريق السعي والبذول ، مما دفع الراهب « ابن ثعلب » الى التمرد عليه ، فلا تصح كهنوتيته بالرشوة !.. لكن البطريك استطاع ان يشتري منصبه مرة ثانية عن طريق البذل .

لكن التاريخ يحدثنا عن بعض الحكام الذين عرفوا بنزاهتهم ، من امثال « العزيز بن صلاح الدين » الذي رفض اخذ البذل من احد الطامعين في قضاء الاسكندرية قائلا : « اني اذا قبلت هذا اكون قد بعت اهل الاسكندرية ، وهذا لا افعله ابدا » ..

.. ثم صار للرشوة ديوان !

تفيض مصادر العصر المملوكي بأخبار من لجأوا الى « البرطلة » لقضاء حوائجهم .. فقد ذكر الرحالة الشهير « ابن بطوطة » ان « فخر الدين بن مسكين » برطل بمبلغ الف دينار على ولاية قضاء الاسكندرية زمن السلطان محمد بن قلاوون » !!

وحدثنا المقريزي عن السلطان الناصر شهاب الدين احمد عام ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م : « أن رسله ، اوباش اهل الكرك ، لما قدموا معه الى مصر اكثروا من اخذ البراطيل وولاية المناصب غير اهلها » .. ووصل الامر بالسلطان « الكامل شعبان » ان احدث ديوانا قائما بذاته عرف بديوان البذل !!.. لهذا يقول عنه المؤرخ « ابن تغري بردي » : « انه اشر الملوك ظلما وعسفا وفسقا .

بلغ الجشع بشخص اسمه « نور الدين » ان انتهز فرصة سفر ابيه التاجر فأشاع بين الناس موته كذبا ، ثم سارع الى السلطان الاشرف حيث بذل له خمسين الف دينار حتى مكنه من حواصل ابيه « فكان ذلك من شنيع ما وقع » !!

أما المماليك الجراكسة فالمقريزي يفضح اول سلاطينهم وهو « الظاهر برقوق » بان في عهده : « تجاهر الناس بالبراطيل ، فلا يكاد يلي احد وظيفة ولا عملا الا بمال ، فترقى الأراذل للاعمال الجليلة ... واقتدى الولاة بالسلطان بعد ذلك حتى صار عرفا غير منكر البتة .. وبالجملة فمساوئه اضعاف حسناته » .. وعلى نهجه سار السلطان « المؤيد شيخ » ثم ولده الذي لم يلبث ان خلعه المماليك على طريقتهم المعهودة ليولوا الظاهر ططر في شعبان ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م .

وقد حاول الظاهر ططر القضاء على الرشوة ، ونقش مرسوما على احد احجار المسجد الاموي بدمشق مفاده : « ان طلب منكم المحتسب شيئا فارجموه » ... فهل يفلح الجهد الفردي في القضاء على الظاهرة الوباء ؟!

في العام التالي مباشرة ، ومع تولي « الاشرف برسباي » السلطنة ، عادت البرطلة افظع مما كانت !!.. فتم تعيين « بهاء الدين محمد بن نجم الدين » في قضاء القضاة بدمشق عوضا عن ابيه الذي وجد مذبوحا في بستانه خارج دمشق : « وهو شاب صغير لم يستتر عذاريه بالشعر ، لكن قام بمال كثير ، ثلاثون الف

دينار .. والمال رب غفور !! »

يقول المقريزي عن حكم هذا السلطان : « ان الكفاءة غير معتبرة في زماننا ، بحيث ان بعض السوقة ولي كتابة السر بحياة على مال قام به ، وهو لا يحسن القراءة ولا الكتابة !!.. فكان اذا ورد عليه كتاب وهو بين يدي النائب لا يقرأه مع شدة الحاجة الى قراءته لعلم ما تضمنه ، ثم يمضي الى داره حيث يقرأه له رجل اعده عنده لذلك ، ثم يعود الى النائب فيعلمه بمضمون الكتاب .. والى الله المشتكي » !!

في عام ٨٥٠ هـ / ١٤٤٥ م تمكن القاضي « محب الدين بن الشحنة » بمال من الجمع بين قضاء حلب والجامع النوري بها ، الامر الذي اثار اهل حلب : « لكن بالرشا يصل المرء الى ما يشاء .. »

وفي العام التالي ـ يحدثنا « ابن تغري بردي » عن حالة اخرى مشابهة ـ فقد استقر « ولي الدين السفطي » قاضيا لقضاة الديار المصرية مضافا لما بيده من تدريس الشافعي ونظر البيمارستان (!) ونظر الكسوة ، ووكالة بيت المال ، ومشيخة الجمالية وغيرها من الوظائف التي حاول عن طريقها تعويض ما بذله للسلطان !!

ومن قبل ، وفي مقابل ستة الاف دينار ، ثلاثة منها عاجلة وثلاثة آجلة ، عين السلطان الاشرف برسباي صهره نائبا على الاسكندرية بالاضافة الى ما بيده من النظر والحجوبية !!.. فكانت هذه اعجب حوادث الزمان : ان يكون النائب حاجبا ، فالمفروض ان مهمة الحاجب هي الوقوف بين يدي النائب !!

كان لابد ـ والامر كذلك ـ ان تصل الفوضى الى اقصى مداها .. فمع مجيء السلطان « الاشرف قايتباي » اصبحت البلاد : « في امر مرير وهلع زائد وتشويش مفرط ، بسبب عدم الخبز في الحوانيت .. كل ذلك والمحتسب يقيم بداره .. وعلى بابه البلاصية والاعوان يأكلون البراطيل حتى اخربوا البلاد » !

ويجمل الدكتور احمد عبد الرازق احد اسباب استفحال الرشاوي ايام المماليك في عدة عوامل ، منها موجات الغلاء والقحط والجدب والمجاعات والاوبئة التي شهدتها البلاد وقتئذ ، ومنها ايضا فساد نظام المماليك انفسهم وميلهم الى البذخ والترف ، حتى غدوا مصدرا للفوضى ، خاصة بعد ان تغاضى سلاطينهم من الجراكسة عن ضرورة تسليم الملك الجديد الى الفقهاء لتعليمه وتثقيفه ، بعد ان رأى السلطان « فرج » ان التثقيف يتلفهم !!.. ويكفي ان نعرف ان حفل ختان ابن السلطان قايتباي استمر سبعة ايام زينت فيه القاهرة كلها ، فكانت تلك ـ كما يقول ابن اياس ـ « ايام مشهورة لم نسمع بمثلها » !!..

أيها الناس قفوا واسمعوا ..

بيعت جميع الوظائف وبلا استثناء .. ففي المجال العسكري ، وفي عام ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ ولي نيابة دمشق الامير « سيف الدين الماس » الذي كان استاذه « دون فيما بالك به ؟! » والذي « لا يصلح للسيف ولا للضيف » !!.. وصارت وظيفة مثل « الولاية » مصدر ظلم للناس ، بعد أن كانت مصدر امن لهم .. ولم تسلم مدن الحجاز نفسها من بيع وظائفها ، فحصل « شاهين الجمال » على شاهبندرية جدة سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧٢ م ببذل قدره عشرون الف دينار ، ونفس الحال كان مع مكة والمدينة !!

كما بيعت جميع الوظائف الديوانية ـ المدنية ـ وتغير الوزراء بسرعة مذهلة ، لدرجة ان ذاكرة المؤرخين اصبحت لا تعي اسماءهم واوقات حكمهم ، خاصة ابان حكم الجراكسة !!... وعندما دخل « كريم الدين » بخلعة الوزارة على والده « تاج الدين الشهير بابن كاتب المناخات » سأله متعجبا :

ـ انا وليت هذه الوظيفة ومعي خمسون الف دينار ذهب فيها ولم تسد ، اتسد انت من اين ؟!

فقال له :
ـ من اضلع المسلمين !!

وعندما خلع السلطان الاشرف وظيفة كاتب السر ـ الوظيفة الثانية بعد الوزارة ـ على ولده وله من العمر دون العشرين ، كتب « ابن حجر » يأسف على امتهانها « حيث كانت العادة ان يتولاها من جرب عقله ومعرفته ، ثم لا ينفصل عنها الا بالموت غالبا » .. ذلك ان هذه الوظيفة دارت بين ثلاثة في عام واحد !!

حتى الوظائف الدينية لم تسلم من البرطلة ، وكان قاضي القضاة الشافعي ايام المماليك هو الاجل ، يليه قاضي القضاة الحنفي ، ثم المالكي ثم الحنبلي .. وقد حدث ان تولى المنصب الاول « محيي الدين بن النقيب » ست مرات في مدة نحو العامين ، وهو ما قال عنه ابن اياس :

يا ايها الناس قفوا واسمعوا
صفات قاضينا التي تطرب
يلوط ، يزني ، ينتشي ، يرتشي
ينم ، يقضي ، بالهوى ، يكذب !!

تمكن ايضا « بدر الدين بن صلاح الدين المكيني » في شهر ذي الحجة ٩١٥ هـ / ١٥١٠ م من ان يجمع بين قضاء الشافعية ومشيخة الخشابية والشريفية ، ببذل قدره ثلاثة الاف دينار للسلطان الغوري !، فأقام بهما شهرين فقط ثم عزل ، فكان كما قيل :

تولاهـا وليس لـه عدو
وفارقهـا وليس لـه صديق

وفي ربيع الاخر ٨٣٩ / ١٤٣٥ استقر « ولي الدين ابن قاسم المحلاوي » المعروف بمهرج السلطان برسباي ونديمه . استقر هذا المهرج في نظر الحرم الشريف وفي مشيخة الخدام الطواشية بالمسجد النبوي !!.. وان عدت يد القاضي لتعاطي الرشوة ، كثر شهود الزور !!

أما « جمال الدين الديري » فقد كان سيىء الحظ ، اذ برطل بمبلغ من المال حتى تولى قضاء القدس ، لكنه لم يمكث فيها سوى اربعة عشر يوما مات بعدها قبل ان يحكم فيها حكما واحدا !!

حتى مشيخة الحرافيش يحدثنا عنها « السخاوي » بأنه في شعبان ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م : « استقر فيها شخص اسمه حسن بعد عزل اخر اسمه ابو بكر ببذل المال .. فيا نفس جدي ان دهرك هازل !! »..

تسعيرة الافلاس المهزلة

في نهاية رمضان ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م وصل « قانصوه الغوري » الى منصب السلطنة رغم تجاوزه الستين . وكانت الدولة في حالة افلاس تام ، فلجأ الى الاهالي يجمع المال منهم ، واخضع للضرائب جميع الاراضي والحمامات والسواقي والطواحين والقوارب ودواب الحمل ، وفرض على اليهود والنصارى اموالا كثيرة ، والزم الناس بدفع الضرائب مقدما لعدة سنوات !... وصار لكل وظيفة سعر يتراوح صعودا ونزولا حسب العرض والطلب ، نيابة طرابلس وحدها سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م بستين الف دينار ، ولاية شرطة القاهرة عام ١٥١٦ م بواحد واربعين الف دينار ، وهكذا .

والذي يبذل المال لابد له من الظلم لجمعه . فلم يسلم اهل الريف ، وخربت الارض لهروب اغلب الفلاحين .. « وقلت حصيلة البلاد لقلة ما يزرع بها ، واختل الامن وانتشر قطاع الطرق والزعار .. حتى تعذر الوصول الى البلاد الا بركوب الخطر العظيم » ـ على حد قول المقريزي . كل ذلك والولاة غارقون في جمع المال وانفاقه في الشهوات والملذات التي حرمها الشرع !!

واثناء الزحف العثماني على القاهرة كان السلطان هو « الاشرف طومان باي » الذي حاول جاهدا وقف تفشي الرشوة ، قائلا للقضاة : « انا ما اقبل رشوة في ولاية احد منكم ، فلا تأخذوا رشوة من الناس ابدا » .. لكنه كان كصوت صارخ في البرية ، اذ كانت الامور قد افلتت ، الفساد والظلم والفوضى والبرطلة ، وبئس الناس .. ففشل في صد الزحف العثماني ، وتقهقر عن القاهرة ، حيث تم تنصيب « سليم الاول » سلطانا على مصر والشام ودعي له على المنابر !!.. في الوقت الذي واصل فيها طومان باي مقاومته في الجيزة والصعيد والبحيرة ، حتى لعبت يد الغدر دورها ، وسلمه احد رؤساء البدو للعثمانيين ، وشنق على باب زويلة في ربيع اخر ١٥١٧ لينتهي بذلك عصر المماليك الجراكسة ، عصر البذل والبرطلة .. ولتتفاقم عصور الانحطاط والتخلف وتتواصل ، حتى مجيء نابليون بجيوشه المتطورة وعلماء غزوته ، ليقضي على بقايا فلول المماليك (الذين انتهوا تماما بعده على يد محمد علي) .. محدثا اعنف هزة اصابت الوعي العربي ، والتي كان من ثمارها ازدياد الشعور القومي ، وبزوغ فجر النهضة الحديثة نتيجة لغربلة التراث والنهل من منجزات الحضارة الاوربية ..

كبير القرعان !

ولان شر البلية ما يضحك فاننا نختتم موضوعنا المؤلم هذا بتلك الحادثة التي رواها المقريزي ضمن احداث عام ١٤٢٧ م .. ففي يوم السبت ٢٥ رجب ٨٣٠ هـ انكشفت رأس احد المماليك وهو بين يدي السلطان ، فاذا هو اقرع !!.. فسخر منه زملاؤه الجراكسة ، على حين اغتنم هو الفرصة وسأل السلطان ان يجعله كبير القرعان ويوليه عليهم ، فأجابه من باب المزاح الى ذلك !!.. فنزل وشق القاهرة بالخلعة ، بعد ان عقد النية على استغلال وظيفته هذه في تنمية دخله الشخصي ، وصار يأمر كل واحد بكشف رأسه ، فان كان اقرع اخذ منه الضريبة ، التي كانت قيمتها تتزايد بحسب حالة الرتبة والديانة .. وتمادى في الامر حتى فرض على الامير الاقرع عشرة دنانير !! وعندها احس السلطان بفداحة الخطأ الذي وقع فيه ، فامر بالكف عن هذه المهزلة ، ونودي بالقاهرة :

ـ معاشر القرعان ، لكم الامان ! ■■

مجيد طوبيا

اعداد : يوسف زعبلاوي

اختراع جديد يضرب ثلاثة عصافير بحجر واحد

هذا جهاز صغير يضمن التوفير في استهلاك السيارات للبنزين .. اخترعوه مؤخرا وسموه هايدرو - اير Hgdro-Air .. وما ذلك الا لانه يعتمد على الماء والهواء في الحد من كمية البنزين التي تستهلكها محركات الاحتراق الداخلي جميعا ، بما فيها محركات الديزل . فهو يقذف الماء بل يبخه الى داخل سلندرات المحرك .. ذرات ذرات .. لاتلبث ان تتمدد حتى يتضاعف حجمها ٢٠٠٠ مرة .. فتساعد على احتراق الوقود داخل المحرك احتراقا تاما . اضف الى ذلك للهايدرو - اير فائدة اخرى لايستهان بها ، لاسيا في المناطق الحارة .. فهو يحد من الحرارة التي يولدها المحرك .. ويحول الى حد كبير ، دون تراكم الرواسب الكربونيه على الصمامات وجدران السلندر الداخلية ..

ولعل اهم ما يذكر عن هذا الجهاز بساطة صنعه وسهولة تركيبه .. فهو عبارة عن صمام واناء ماء صغير .. ويمكن تركيبه في غضون دقائق معدودة ، على كافة اطرزة السيارات التي تعمل محركاتها على اساس الاحتراق الداخلي Internal Combustion

اما التوفير الذي يكفله جهاز الهايدرو - اير ، فلا يقل عن ٣٠٪ .. اي ان السيارة التي تقطع مسافة ١٠٠ كيلو متر بتنكة البنزين تصبح قادرة على قطع مسافة ١٣٠ كيلو مترا بالتنكة لدى تركيب الجهاز فيها .

هذا وقد تم الحصول على ترخيص الجهات المختصة على الجهاز الجديد ويبدأ انتاجه بكميات تجاريه وكذلك بدأ بيعه في اسواق كاليفورنيا .. حيث جرى اختراعه وتطويره .

الكولسترول ... جنبه فيا نأكل يفيد .. وقد يضر

● صدر تقرير في الصيف الماضي حول ما ينبغي تجنبه من الاطعمة والاغذية وما لا ينبغي ... واثار هذا التقرير ضجة كبيرة لا تتناسب وحجمه الصغير الذي لا يجاوز ٢٠ صفحة .. ذلك انه صدر عن مجلس البحث الوطني التابع لاكاديمية العلوم الوطنية (في الولايات المتحدة) وهذه هيئات رصينة محترمة طالما حظيت ابحاثها وتقاريرها بثقة الاوساط العلمية والطبية .. والاهم من ذلك ان التقرير عنونه : « نحو أنظمة في التغذية صحية » Towards Healthful Diets قد تضمن اراء ثورية حول الاكل والغذاء لا سيا فيا يتصل بالكولسترول ..

فمنذ مطلع القرن العشرين والاعتقاد السائد هو ان الاطعمة الغنية بالدهنيات المشبعة Saturated Fats وبالكولسترول تسبب تصلب الشرايين وتؤدي الى الاصابة بمرض التاجي coronary ويقوم هذا الاعتقاد على التجارب التي اجراها الباحثون الروس .. وقد اجروها على الارانب دون بني الانسان ...

ثم جاءت الاحصاءات ◀

فاكدت ان الشعوب التي تكثر من تناول الدهنيات تكثر فيها الاصابة بتصلب الشرايين وبمرض القلب الذي ذكرنا ...

الا ان مجلس البحث الوطني لم يجد في هذه الاحصاءات اكثر من مصادفة .. فالعلاقة بين اكل الدهنيات وبين الامراض التي ذكرنا ليست علاقة سببية .. وقد دلت التجارب التي اجروها على ان الحد من تناول الدهنيات لا يؤدي بالتالي الى الحد من نسبة الكولسترول ومن الاصابة بالامراض التي ذكرنا الا بنسبة ضئيلة لا تذكر .. ولا يؤثر كذلك على اعمار الناس من قريب ولا من بعيد وذلك ان الجسم البشري يصنع الكولسترول لنفسه ... دون حاجة للحصول عليه من الخارج ... لذلك كان الامتناع عن تناول الاطعمة الغنية بالكولسترول لا يؤدي بالضرورة الى تخفيض نسبة الكولسترول في الدم . فهو اذن لا يفيد في الوقاية من الامراض التي ذكرنا .. ويلحق الضرر بالجسم نظرا لحرمانه من الهرمونات والمواد الحيوية الاخرى التي يحتوى عليها الكولسترول ..

على ان التقرير اكد العلاقة السببية بين امراض القلب التي ذكرنا وبين البدانة .. التي يعاني منها ٢٠٪ من الامريكيين .. ومن ثم كانت توصيته للبدين بالحد من اكل الدهنيات وذلك نظرا للاسعار الحرارية Calories التي تحتويها ، وهي تبلغ ضعف الاسعار التي توجد في الكربوهيدرات والبروتينات ...

وهكذا حلت الاسعار الحرارية محل الكولسترول واصبحت هي أساس النظرة الجديدة ومحور التوصيات التي تقدم بها تقرير مجلس البحث الوطني ..

وشملت تلك التوصيات ايضا الحد من اكل الملح بنسبة الثلثين ، وذلك بقصد تجنب ارتفاع ضغط الدم . وشملت كذلك الامتناع عن تناول الكحول ، ما امكن .. فهي غنية بالاسعار الحرارية ، كما هو معروف .. الا ان اسعارها هذه جوفاء من الناحية الغذائية كما يقول التقرير . وحث المجلس في تقريره على الرياضة .. فالتمرينات الرياضية كفيلة بحرق الفائض من الاسعار الحرارية ... والابقاء على الرشاقة ...

سفن فضاء وقذائف جديده تبلغ سرعتها ١٥٠ كم في الثانية

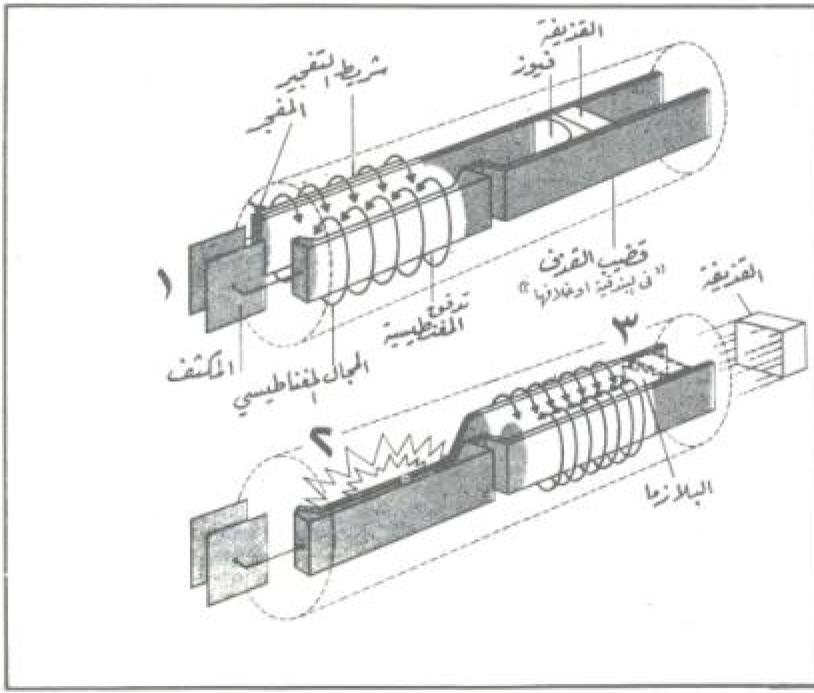
● ترى ، هل تعرف السرعة التي تنطلق بها العيارات النارية ، اثر اطلاقها من مسدس او بندقية ؟ انها سرعة كبيرة جدا ، كما لا يخفى ، ولكنها على كل حال ، سرعة محدوده وليست السرعة القصوى المثالية الممكنة ، نظريا على الاقل .. ذلك انها مستمده من سرعة اخرى ، هي تمدد الغازات المتفجرة داخل السلاح .. فهذه الغازات هي التي تسبب انطلاق العيار الناري نتيجة لتمددها .

ولا مفر من ان تكون سرعة تمددها بمثابة السرعة القصوى التي يمكن للعيار الناري بلوغها .

ومعنى هذا ان سرعة العيار الناري يمكن ان تبلغ في حدها الاقصى (١٠) كيلو مترات في الثانية .. وهذه سرعة هائلة وان كانت محدودة ودون السرعة المثالية .. فهي تضاهي سرعة الصوت نفسه ..

ولكن العلم لا يقف عند حد

قوة القذف الكهرومغناطيسية .. وكيف تعمل



١ ـ يولد الضغط على زناد البندقية الجديدة تيارا كهربائيا يخرج من المكثف الى القضيبين : قضيبي « التدفق » المغناطيسي (flux) فيتولد المجال المغناطيسي .

٢ ـ وتنفجر المتفجرات الموجودة بمحاذاة احد القضيبين ، وذلك تبعا لفعل المفجر detonafor فتندفع الى القضيب الثاني وتؤدي الى انطلاق التيار من « التدفق » المغناطيسي الى الفيوز الموجود خلف القذيفة .

٣ ـ ويتبخر الفيوز فيولد البلازما (غاز موصل للكهرباء) ويتفاعل التيار الكهربائي الذي في هذه البلازما مع المجال المغناطيسي المولد في القضيبين ، فينتج عن ذلك التفاعل قوة دفع جباره تطلق القذيفة بسرعة خارقه ..

ولا يقنع بمنجزاته مهما بلغت ، بل يطلب المزيد والتقدم دوما .. من هنا كانت التحسينات الكثيرة والكبيرة التي طرأت على الاسلحة في المدة الاخيرة ، سواء من حيث التسديد واصابة الهدف او شدة الفتك ، او غير ذلك . الا ان العلماء عجزوا حتى الآن عن زيادة سرعة العيارات بالذات .. وذلك للاسباب التي سبق ذكرها .

عجزوا حتى الآن ، او ان شتت الدقة ، حتى أواخر شهر نوفمبر الماضي ، حين نجح بعض العلماء الاستراليين في ابتكار التكنولوجيا الخاصة (انظر الرسم) باستخدام المجال الكهرومغناطيسي ، بدلا من تمدد الغازات ، في اطلاق العيارات النارية .. وقد اجريت تجارب عديدة لهذه التكنولوجيا وبلغت السرعة القصوى التي أمكن عمليا اطلاق القذائف بها ١٥٠ كيلو مترا في الثانية . والمفروض ان يتمكنوا في وقت ما في المستقبل من تحقيق سرعة تفوق هذه وتقترب من سرعة الضوء .. بواسطة التكنولوجيا التي ذكرنا .

ومن شأن هذه السرعات الهائلة ان تمكن القذيفة ، ان كانت عيارا ناريا ، من اختراق المدرعات والمصفحات مهما بلغ سمكها او عددها وان تمكنها ، ان كانت سفينة فضاء ، ان تصل الى الكواكب البعيدة في وقت قصير نسبيا .

ما من أحد يستطيع الكتابة عن المرأة مثل المرأة !

المرأة : ناقدة وكاتبة

بقلم : الدكتورة سامية احمد اسعد

كتابة المرأة ، او ما يمكن ان يسمى بالكتابة النسائية موضوع يشغل الاذهان الآن ، في البلاد الغربية ، وبعض البلاد العربية وهو يطرح علاقة الكتابة النسائية بالنقد النسائي ، من ناحية ، وكتابة المرأة عن المرأة من ناحية اخرى .

ان في مقدمة الاسئلة التي يمكن ان يثيرها هذا الموضوع ما يلي :

هل يوجد نقد ادبي نسائي ؟ وان وجد ، فما هو الهدف الذي يجب ان يسعى اليه ؟ ما هي خواص الكتابة النسائية ؟ كيف تكتب المرأة عن المرأة ؟ وكيف تكتب المرأة عن نفسها وماذا تقول عندما تتناول سيرتها الذاتية ؟ والى اي مدى تسهم كتابة المرأة في تحويل الابنية الثقافية والاجتماعية ؟ ولعل مثال جورج صاند الكاتبة الفرنسية الشهيرة التي عاشت في القرن التاسع عشر من افضل الامثلة التي يمكن ان تساق في هذا الصدد .

ولا شك ان موضوعا كهذا لا بد وان يؤكد على الفرق بين كتابة الرجل وكتابة المرأة خاصة فيما يتعلق باستكشاف اللاشعور ، واعادة اكتشاف الجسد ، واخذ الموقف الاجتماعي والتاريخي بعين الاعتبار ، والاهتمام بهذا اللون الادبي او ذاك ، وخلق قيم جديدة واحاسيس جديدة .

والنقد الادبي النسائي ، في رأينا ، نقد تمارسه المرأة والرجل على السواء ، ويتناول بالدراسة والتحليل اعمالا ادبية كتبتها النساء على مر العصور ، لا يكفي ان تكون الناقدة امرأة لكي تجيد الحديث عن المرأة . فهناك من الرجال ، نقادا كانوا ام كتابا ، من هو أقدر من النساء على فهم المرأة ونفسيتها ، واحاسيسها ، وفنها . والشخصيات النسائية التي تزخر بها مسرحيات ـ راسين ـ الكاتب الفرنسي الكلاسيكي ـ اصدق دليل على قدرة الرجل على فهم المرأة فهما دقيقا عميقا . لكن ، مما لا شك فيه ، ان المرأة التي تقرأ او تنقد مؤلفات نسائية ترى أشياء قد تفوت على الناقد الرجل ، خاصة اذا كانت

هذه المؤلفات تعالج موضوعات نسائية بحتة ، اذا جاز التعبير ، كالامومة ، والولادة والحب ، والخيانة الزوجية ، الخ ...

في امريكا وفرنسا

ويمكن تعريف النقد النسائي بانه تحليل النصوص الادبية الذي يطرح وجهة نظر المرأة ، على حد قول كلودين هيرمان . وهذا تعريف عام يفترض ان « المرأة » عبارة مفهومة معروفة وتفترض هذه العبارة بدورها ، بادىء ذي بدء ، وجود وضع ايديولوجي يستهدف تقدم المرأة ، اجتماعيا ، ويسلم بالتالي ، من حيث المبدأ ، بان وضعها الحالي غير مرض . لكن هل يمكن ان يكون هذا الاتجاه السياسي والاجتماعي على علاقة بالنقد الادبي ؟ نعم ، بلا شك خاصة اذا كان النص ، على حد قول سارتر ، « نداء للحرية ، وطلبا لرأي الآخر » ، وكشفا للحقيقة . من ثم ، يصبح للنقد النسائي من حيث المبدأ ، هدف سو سيولوجي .

يتعلق الامر اذن بنظرة جديدة خاصة موجهة الى النص الادبي النسائي . ونلاحظ ان هذه النظرة كانت موضع ممارسة قبل ان تكون نظرية بمعنى الكلمة . في الولايات المتحدة مثلا ، استقر النقد النسائي نهائيا ، بعد أن ظل يتحسس طريقه لمدة عشر سنوات . ووصلت الامريكيات الى مرحلة صياغة النظريات الخاصة به . وانصب تفكيرهن على الممارسات الماضية ، والمناهج التي يجب اختيارها في آن واحد . ونلمس في هذا النقد النسائي الامريكي اتجاهات متباينة ، وكماً كبيرا من الابحاث والنصوص ، لانه يعد في الجامعات ، حيث وضعت مئات البرامج الدراسية النسائية ، بناء على رغبة الطالبات .

ولا نجد شيئا كهذا في فرنسا ، حيث لا يتعدى عدد الكتب التي نشرت في هذا المجال عدد اصابع اليدين ، وبالرغم من الممارسات ، والنصوص المنشورة عن النقد الفلسفي ، والتحليل النفسي ، والوضع الاجتماعي للمرأة ، والصحافة والتربية ، والجنس ، والسياسة ، يمكن ان نقول ان النقد الادبي النسائي غير موجود في فرنسا ، ولا توجد كذلك افكار نظرية عن عدم وجوده واسبابه ، هل يرجع هذا الى ان الظروف المالية غير ملائمة ؟ أم الى عدم وجود مجلة نقد ادبي نسائية ؟ ايا كان الحال ، نحن نجد في فرنسا مئات الكتب التي عنيت ، وما زالت تعنى بالمرأة . وفي رأينا ان سبب غياب هذا النقد هو عدم تهيئة الظروف الثقافية التي تساعد على وجوده . فالنقد الادبي



جورج صاند

الفرنسي الذي ظهر منذ ما يقرب من عشرين عاما اتسم بنزعاته العلمية المتخصصة وتعددها . وربما كانت المرأة لا تميل عامة الى النظريات واللغات المتخصصة ، لا لنقص ذهني ، وانما لان عليها ان تلحق بركب ثقافي تأخرت عنه بعض الشيء ، ولان المرأة تقاوم بطبيعتها اللغة العلمية ، وان كان هذا الرأي الاخير قابلا للمناقشة . هذا في الاثناء التي تجد فيها ان مؤلفات ناتالي ساروت تعتمد اساسا على اللغة ، وتعتبرها اداة للسيطرة على الآخرين ولنضف الى ذلك ، بالنسبة لفرنسا ، وجود هوة واسعة بين « طليعة » مكونة من قلة من الكاتبات اللاتي يصغن النظريات ، و « خلفية » تكتب لكي يقرأها اكبر عدد ممكن من الناس . وهناك ايضا مجموعة تعمد الى الكتابة الصعبة المتأثرة ، ضمن ما تتأثر به ، بنظريات التحليل النفسي ، وجدير بالذكر ان هذا الحد الفاصل لا يقتصر على الادب النسائي ، لكن لان اغلبية النقاد من الرجال ، لا تدرس نصوص النساء دراسة متعمقة الا قليلا ، وان كانت تحظى بمكانة لائقة في المجلات الادبية .

اسطورة الانوثة

ويجب ان يسعى النقد الادبي النسائي الى هدف يختلف عن ذلك الذي يسعى اليه النقد الادبي عامة . عليه ، اولا ، ان يفتح امام المرأة مجالا متميزا للدراسة تستطيع ان تسود فيه بلا منازع ، وتهتم بصفة خاصة بالنصوص التي كتبتها النساء واهملها الرجال ، وعليه ثانيا ، وهذا هو الاهم ، ان يعيد الى الابداع النسائي المكانة التي يستحقها ، وان يزيل الظلم الذي اصاب الادب النسائي على مر العصور ، وهذا ما يقوم به النقد النسائي في الولايات المتحدة ، وما بدأ يقوم به النقد الادبي النسائي في فرنسا . هذا التصحيح في الاوضاع امر هام . لكن الاهم منه هو خلق الوعي باسطورة الانوثة ، تلك التي تلعب دورا اساسيا في مجال الثقافة .

ولا يوجد سبيل واحد يمكن ان يسلكه النقد النسائي ، بل توجد سبل متعددة ، من بينها ، لغة التاريخ الادبي ، والبحث الاسلوبي الذي يمهد الطريق للاجابة على سؤال طالما الح على النقد النسائي : هل توجد كتابة « نسائية » ام لا ؟ وما هي خواصها ، ان وجدت ؟ ويمكن ان يتناول التحليل الاسلوبي عددا متساويا من النصوص التي كتبها رجال ونساء على السواء وترجع الى فترة زمنية واحدة ، وتعالج موضوعات متشابهة ، في اطر أدبية واحدة . كما يمكن القيام بدراسة مقارنة على مستوى وصف المكان ، وتناول الزمان ، وتصور الاحداث ، وادراك الجسد ، الخ .. وليس من الصعب على الباحث ان يتبين ان الكتابة النسائية غالبا ما كانت ـ كما رأتها التقاليد وكما رآها مؤرخو الادب ، كتابة الاحساس ، اى كتابة لم تخلق شيئا من الناحية الشكلية ، الى عهد قريب جدا نتيجة لتماثل بنيوى بينها وبين وضع النساء في المجتمع . اما عن خواص الكتابة النسائية ، فلقد عكست كتابات النساء حتى يومنا هذا موقفا تقليديا يجعل للرجل مجال العقل والذكاء . وللمرأة مجال القلب والاحساس مما يجعل الرجل قادرا على السيطرة على الاشكال في حين تتسم عبقرية المرأة بالتلقائية .. وهذا نقاش قديم ما زال دائرا حتى اليوم .

تقول الكاتبة هيلين سيكسو ان هناك كتابات تحمل بصمات الانوثة ، كتابات جان جينيه مثلا ، وتؤكد انه لا ينبغي الخلط بين جنس الكاتب وجنس النص ، وفي مقام آخر ، تصف النص النسائي بانه نص لا ينتهي ، نص يبدأ من كل النواحي في آن واحد ، وتقترب لغته من لغة اللاشعور . وبمناسبة اللاشعور ، يلح علينا سؤال قد يحتاج الرد عليه الى بحث طويل : لماذا لم تشتمل الحركة السيريالية على اسم امرأة واحدة ، في حين كانت تسلم هذه الحركة ، مبدئيا ، بوجود علاقة صريحة بين النص واللاشعور ؟ .

اذن ، قد يمارس النقد النسائي رجل ، وقد تمارسه امرأة يكون النص « النسائي » نصا كتبته امرأة ، او نصا كتبه رجل ، ويشتمل على خواص الكتابة النسائية او صفات انثوية . لكن هناك حقيقة مؤكدة لا ينبغي اغفالها : ما من احد يستطيع الحديث عن المرأة مثل المرأة ، سواء جرى هذا الحديث على لسان كاتبة أم جرى على لسان ناقدة ، ولا يعني هذا ، بطبيعة الحال ان حديثنا هنا عن جورج صاند افضل الاحاديث الممكنة عن هذه الكاتبة الشهيرة .

تجربة جورج صاند

كانت جورج صاند (١٨٠٤ ـ ١٨٧٦) ، واسمها الحقيقي اورور دوبان كاتبة روائية ، ومفكرة ومناضلة ، .. امرأة تركت بقوتها واسلوبها بصمات لا تمحي على ادب عصرها . وكان طبيعيا ان تتخذ موقفا معينا من قضايا المرأة المطروحة آنذاك .

كانت جورج صاند مكروهة من الرجال ، لا لسبب افكارها السياسية والاجتماعية ، بل بسبب مناصرتها للمرأة وقضاياها . من ناحية اخرى كان يحلو لصاند ان تثير غيظ الرجال بالبنطلونات التي ترتديها والغليون

الذي تدخنه ، وسلوكها التحرري ، خاصة اثناء شبابها ، وكثيرا ما اصدر عليها معاصروها من الرجال ـ بودلير مثلا ـ احكاما قاسية .

نشأت نزعة صاند التحررية عندما نمت فيها جدتها لابيها حبا للحرية كان غريبا على الفتاة او الزوجة أنذاك . ربتها جدتها وكأنها فتى صغير ، كانت تدعها تجوب الريف ممتطية ظهر جوادها وتفعل وتقرأ ما يحلو لها . واذا اضفنا الى هذا حب صاند لابيها ، ادركنا انها ارادت ان تحل محله بعد وفاته ، وان تكون المدافعة عن امها الضعيفة امام اسرة الاب الارستقراطية . وسرعان ما رأت صاند ، شأنها شأن اية فتاة بورجوازية أنذاك ، ان الزواج هو السبيل الوحيد الى التحرر . لذا ، تزوجت وهي لم تتعد السابعة عشرة من عمرها . لكن املها خاب بعد الشهور الاولى من الزواج وعندما انفصلت عن زوجها ، تاقت الى حياة الحرية والاستقلال التي كادت تفلت منها نهائيا . لم يكن لديها الكثير من المال ، ولكنها عاشت في باريس حياة الطلبة البوهيمية ، واتخذت اسما مستعارا هو اسم عشيقها الشاب جول صاندو ، وهو واحد ضمن كثيرين آخرين . وبطبيعة الحال كانت هي المسيطرة ، كانت تلعب دور الام والعشيقة في آن واحد . وظل هذا شأنها دائما فيا بعد ، اذ ظلت تعشق رجالا اضعف منها من الناحيتين الجسمانية والمعنوية . ونتساءل هنا : الى اي مدى ينطبق هذا القول على الشاعر الفريد دي موسيه والموسيقار شوبان ـ الذي عاش معها عشر سنوات ـ اللذين كانا من عشاقها ، ومن السهل على الباحث ان يلمس الى اي حد كانت نفسية صاند معقدة او ازدواجية النزعة على الاقل ـ فهي تسيطر تارة ، وتخضع تارة وهي الام المسيطرة ، والمرأة التي تتوق الى ان تهب نفسها لمن تحب . اما عن موقفها من الرجال فيمكن القول بانها كانت قليلة الثقة بهم . ولعل ارتداءها لزي الرجال كان وسيلة لخداعهم وتجنب الشراك التي يمكن ان ينصبوها لها . لكنه كان ، طبعا ، وسيلة مباشرة للمطالبة بالاستقلال الذي يرفض الرجال ان يعطوه للجنس « الضعيف » . ومما لا شك فيه ان الكتابة كانت رمزا للسبيل الوحيد الى تحرر المرأة كما رأته . ولقد اكدت صاند ، من خلالها ، حق المرأة في الابداع والتعبير عن ذاتها وكان هذا الحق موضع نقاش وجدل في منتصف القرن التاسع عشر ، لدرجة ان المرأة التي كانت ترغب في نشر كتاب كانت تضطر الى اختيار اسم مستعار ، في اغلب الاحيان .

وتقتصر الحرية التي تدافع عنها صاند عامة على حرية المرأة في الحب والزواج . هذا هو موضوع اولى رواياتها « انديانا » التي تدافع فيها عن الزوجة مباشرة . وتواصل صاند هذا الدفاع في روايتها التالية « ليليا » ، ولكن بصورة اعنف واقوى . اما « كونسويلو » الرواية التي كتبتها صاند بعد ثورة ١٨٤٨ ، فتعود الى الدفاع عن المرأة الفقيرة وحقها في التعبير عن نفسها ، خاصة اذا كانت موهوبة ـ واذا نظرنا الى روايات صاند ، وجدنا ان بطلاتها يفقن دائما ابطالها الرجال سواء لعبت البطلة دور المرشد أم اضطرت الى محاربة الرجل . حتى الروايات التي تدور احداثها في الريف ووسط الحقول نلمس فيها تفوق المرأة على الرجل .

هل يعني هذا ان صاند كانت مؤيدة أنذاك لما يمكن ان نسميه اليوم بالحركة النسائية ؟ بالطبع لا . فهي تكتفي بالثورة على قمع الزوج للزوجة ، او معاملته لها معاملة فظة . والواجبات الزوجية ، في رأي صاند تصبح بغيضة ، اذا كانت ناتجة عن الاجبار ، لا الاختيار . ولا تتطرق صاند عامة الى قضايا اخرى غير هذه .

رأي محافظ

اما رأي صاند في ذكاء المرأة وقدرتها على الفعل ، فيمكن القول بأنه « خطير » لان صاند تميل فيه الى التزمت والمحافظة ، هذا بالرغم من أنها ، هي نفسها قد اسست جريدة ، تماما كما يفعل الرجال واثناء ثورة ١٨٤٨ ، كتبت كثيرا من المقالات والنشرات الرسمية ، باختصار ، لا ترى صاند ان الحياة العامة والعمل السياسي يناسبان المرأة ، اوترى ، على الاقل ، ان الوقت لم يحن بعد لكي تلعب هذا الدور ، هذا في الاثناء التي كانت فيها الاندية النسائية قد تكونت اثناء ثورة ١٧٨٩ ، وطالبت بالمساواة التامة بين المواطنين والمواطنات بل ان كاتبة معاصرة لصاند ، فلور تريستان طالبت بحق المرأة في الانتخاب . وتميل صاند الى العاطفة ، حتى عندما تعبر عن اراثها في مجالي السياسة والاجتماع فضلا عن أنها لم تعرف كيف تربط بوضوح بين مطالب المرأة والتغيير السياسي والاقتصادي للمجتمع . مثلا ، عندما تقول أن المرأة مستغلة ، فهي تعني هذا بالمعنى المعنوي للكلمة ولم تفهم صاند أن المرأة لن يكون لها الحق في الاعداد المهني او المساواة في الاجور الا اذا تولت الوظائف العامة . اكثر من هذا ، لا تؤمن صاند اطلاقا بتشابه الجنسين او المساواة بينهما : « لا شك ان المرأة مختلفة عن الرجل ، وان للعقل والقلب جنسا بعينه » . . وقلب المرأة ، في نظرها يظل دائما « مرفأ الحب والتفاني » ، وفي كتابها « قصة حياتي » ، يذهب

بها الامر الى حد تأكيد الاتي : « حتى لو تربت المرأة ، فلسوف يبقى لديها نوع من الاثارة المرضية التي ترجع الى تكوينها » . ومن الواضح ان في هذا القول مناهضة صريحة لحقوق المرأة . اذن ، كانت صاند ، نصيرة للمرأة بالمواقف الشخصية الجريئة التي اتخذتها وتمردها على قيد الزواج والتربية البورجوازية الحمقاء . لكنها لم تكن من انصار الحركة النسائية بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ، اي انها كانت مصلحة اجتماعية اكثر منها صاحبة رؤية ثورية حقة .

كتبت جورج صاند السيرة الذاتية والرواية . اي ان المادة التي اعتمدت عليها مستمدة من حياتها ـ وكانت تلك الحياة زاخرة بالاحداث خاصة العاطفي منها ـ وخيالها وكثيرا ما مزجت بين الحقيقة والخيال في العمل الواحد وايا كان مصدر الاحداث تجد ان المرأة سواء كانت صاند ام احدى شخصياتها ، تظل محورا لها .

تحدثت صاند عن نفسها في سيرة ذاتية نشرتها تحت عنوان « قصة حياتي » ، في عشرين مجلدا ، فيما بين ١٨٥٤ و ١٨٥٥ وعندما قيل ان صاند تكتب مذكراتها ثارت ضجة كبرى في الاوساط الادبية آنذاك . وانتظر الكثيرون ظهورها بفارغ الصبر ، مدفوعين بحب الاستطلاع بطبيعة الحال لكن عندما ظهرت المجلدات الاولى ، خاب امل الكثيرين . لماذا ؟ لأن صاند في مذكراتها كانت اكثر تحفظا مما كانت في حياتها الخاصة ، وأغفلت التفاصيل الجريئة في حياتها . والأغرب من هذا كله انها تحدثت عن نفسها قليلا . وهذه السيرة الذاتية ، الفريدة من نوعها بالقياس الى حياة كاتبتها ، تستحق دراسة خاصة متعمقة .

اذا قرأ الجمهور مذكرات امرأة ، خاصة اذا كانت هذه المرأة تسمى جورج صاند ، توقع ان يقرأ قصة حياتها العاطفية ، لكن مذكرات صاند تخيب الآمال في هذا الصدد الى حد كبير ، فهي تلوذ بالصمت عندما يتعلق الامر بحدث هام من وجهة نظر ذلك الجمهور . ولقد اثار هذا النقص ، او هذا الغياب غيظ المعاصرين ، وما زال يثير غيظ قراء اليوم . ولعل هذا يرجع الى كون « عقد القراءة » ، على حد قول ف . لوجون ، ينفذ بطريقة مختلفة حسب ما كان كاتب السيرة الذاتية رجلا او امرأة .

« فالانا » في هذه السيرة الذاتية يرفض الافصاح عن نفسه باستمرار . ويستخدم وصولا الى هذا الهدف ، عددا من حيل الكتابة اولها حيلة ـ كثيرا ما توجد عند اصحاب السيرة الذاتية من الرجال ـ تهدف الى تأخير رواية الميلاد ما امكن ولقد قال البعض ان مذكرات صاند يمكن ان تسمى قصة حياتي قبل ميلادي « فالجزء الاول كله يتحدث عن قصة حياة والديها ثم ينتقل القارىء الى طفولة صاند وشبابها . لكن ، مرة اخرى يهرب « الانا » ، وتستبدل قصة حياة الكاتبة بقصة حياة بعض الاصدقاء ، خاصة الممثلة ماري دروفال . هكذا تجد داخل البناء العام لهذه السيرة الذاتية ابنية صغرى تعكس البناء العام بامانة لكن الشيء الهام هو ان وجه الكاتبة لا يحتل المركز الرئيسي فيها .

ويتفق هرب « الانا » من لحظتين اساسيتين : ميلاد صاند الحقيقي ، وميلادها ككاتبة . في هاتين اللحظتين ، يتخذ هرب « الانا » شكلين متعارضين . عندما يتعلق الامر بالوالدين ، لا ترفض صاند الحديث عنهما ، بل تفسح المجال امام قصتهما التي ترويها بالتفصيل ، كما لو كانت قصة بطلين من ابطال رواياتها . وعندما يتعلق الامر بميلادها ككاتبة ، تفضل الا تتحدث قط عن روايتها هي . عندئذ ، يعوض آخرون القارىء عن هذا الصمت ، ويقومون بالحديث عن الكاتبة ـ لكن هؤلاء الرواة ، طبعا ، مجرد اقنعة تتخفى وراءها ج . صاند .

تأكيد الذات

لم هذا الصمت ؟ اهو الخجل ؟ ام الرغبة في عدم اشباع الفضول وحب الاستطلاع ؟ ام تقديم صورة جديدة للسيرة الذاتية التي يمكن ان تكتبها المرأة ؟ ام مراعاة للتقاليد الاجتماعية السائدة آنذاك ؟

يرجع هذا الصمت في رأينا ، الى ان الكاتبة كان لديها شيء آخر تتحدث عنه غير علاقتها الغرامية ، ومغامراتها العاطفية ، وتلك لم تكن سرا بل كانت معروفة للجميع . ذلك ان صاند الكاتبة « ارادت الحديث عن امرين معينين أولا وقبل كل شيء ، اكتساب هويتها ، وميلادها ككاتبة . والعمليتان وجهان لمحاولة واحدة هي محاولة تأكيد الذات في مجتمع يميل الى هدم هوية المرأة وقدرتها على الخلق ، والابداع .. لذا تراها تحاول الاحاطة « بالانا » ، وترفض تصويره على انه حقيقة ثابتة ، وتطالب بحقها في تحويله تحولا مستمرا . بعبارة اخرى تختار صاند طريقة معينة للكتابة ، لكي تعبر ، نتيجة لاختيار حر ، عن غزوها لملكة دائمة الحركة . وتراها تتسلح بمهارة بتلك « التلقائية » التي طالما قيل انها من خواص الكتابة النسائية .

لن نبين هنا كيف اكدت صاند هويتها ، واكتسبت حقها في الكتابة ، لكننا سنتحدث عن الطريقة التي

صورت بها هذا الغزو المزدوج في « قصة حياتي » ، نقول اولا انه كان من الطبيعي في نص يتم به التقابل بين المؤلفة والبطلة ـ ان تتعرض الكاتبة لقضية الهوية ، خاصة انها امرأة وعلى عكس ما يبدو لاول وهلة ، تجد ان بناء هذا النص بناء منهجيا متينا ، يشتمل على مراحل ثلاثة ، اذ تروي صاند تأكيدها لذاتها بالنسبة لقوى ثلاثة كانت تتهددها : الاسرة ، والرجل والمجتمع .

كانت هويتها مهددة منذ البداية نتيجة للصراع العنيف بين اسرة ابيها واسرة امها كانت الغلبة اثناء الطفولة لاسرة الاب الارستقراطية الغنية ، لكن سرعان ما حاولت الكاتبة ان تعيد الى الامور توازنها ، فتحدثت في سيرتها الذاتية عن اسرة الام المتواضعة التي يرفض المجتمع الاحتفاظ بأي أثر لها خاصة ان حب صاند لامها كان قويا عنيفا وتحولت العلاقة بالام الى صورة للعلاقة بالكل ، بالجماعة ، في حين اصبحت العلاقة بأسرة الاب عزلة وابتعادا عن سائر البشر . فاسرة الاب هي الارستقراطية بينما اسرة الام مرادفة للشعب . لذا جعلت الكاتبة من ميلادها رمزا تاريخيا لمناهضة الافكار المسبقة ، هكذا نشأت العلاقة بين التناقضات السياسية لدى الكاتبة والطبقة التي تنتمي اليها . وكما تحدثت صاند طويلا عن علاقتها بأمها ، تحدثت ايضا وباسهاب عن علاقتها بوالديها ، سولانج وموديس . الا ان الحديث عن الامومة هنا يتجنب « الكليشيهات » ، على عكس ما يحدث في النصوص الادبية ، ويظل عند المستوى الحسي ، الغريزي الحيواني . وجدير بالذكر ان الحديث عن الزواج والطلاق ، يحتل مكانا هاما نسبيا في « قصة حياتي » ، بينما الحديث عن حياة الكاتبة العاطفية غائب في اغلب الاحيان .

في زي الرجال !

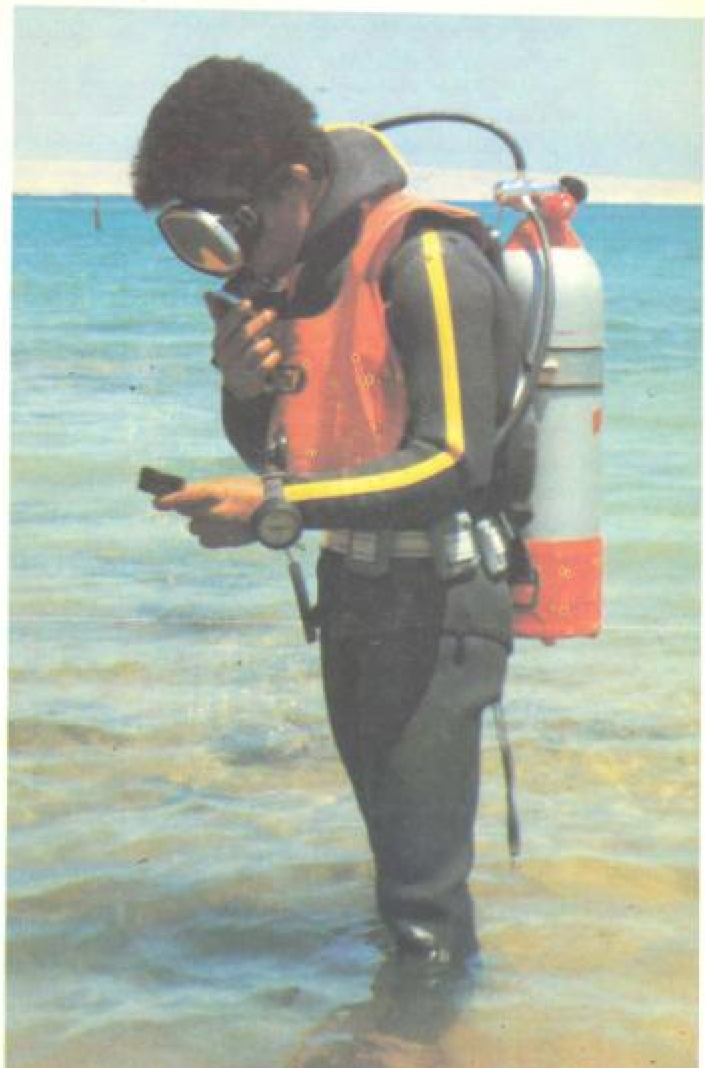
« قصة حياتي » ، في الواقع قصة حياة صاند ككاتبة . وهي تروى ميلادها هذا وهي تكتب . ومن ثم يصبح هذا الميلاد ، على غير ما قد يتبادر الى الاذهان لاول وهلة نتيجة للقراءة السريعة ، مادة الكتاب الاساسية ، وتصور السيرة الذاتية الحاجة الى الابداع على انها قوة غامضة اتخذت في البداية شكل الموسيقى وفي مقام آخر تحذر الكاتبة القارىء من الخلط بين شخصيات رواياتها وبينها هي . اندياتا ، مثلا ليست جورج صاند : « لقد قدمت كثيرا من الانماط النسائية ، واعتقد ان القارىء بعد اطلاعه على هذا العرض لانطباعات حياتي سيدرك جيدا انني لم اصور نفسي ابدا في ملامح نسائية » . وتبدو ضرورة تأكيد هذا الفصل وكأنها احد المبررات التي تدفع الكاتبة الى كتابة سيرتها الذاتية .

وعندما انتقلت صاند من احلام الشباب الى الكتابة ، انتقلت من الطفولة الى مرحلة البلوغ ادبيا ، واكتسبت ، عن طريق الكتابة ، حريتها وهويتها الحقيقية كفنانة . كانت الكتابة وسيلة لاكتساب الاستقلال المادي والمالي ، اولا وقبل كل شيء . وبرفضها حياة القصور والثراء ، ارادت صاند العودة الى انتاء امها الشعبي . ومن ثم ، كانت هذه المعادلة : الكتابة / الفقر / الام / الشعب . وترجمت هذه المعادلة على مستوى بنية السيرة الذاتية ، بالمكانة الهامة التي احتلتها محاولات صاند الحرفية التي كانت بمثابة مراحل اكتساب حريتها الاقتصادية الرسم ، الحياكة ، الخ ... ولم تكن هذه المحاولات مجرد تسلية او طريقة لقضاء الوقت بل كانت طريقة لكسب العيش . عندئذ بدا للكاتبة ان اتخاذها اسما مستعارا شيء لا بد منه ، قد يكون بمثابة « عقد عمل » . وفي حديثها عن ميلادها ككاتبة ، تلجأ صاند الى صورتي الميلاد والزواج في آن واحد ، وتستخدم العبارات التي تشير الى حرية المرأة الاجتماعية . لقد تخلت عن اسمها الاصلي ـ اورور دوبان ـ لكي تتخذ اسم الزوجة : جورج صاند . مما يبين الى اى مدى يسمح اسم الكاتب المستعار باكتساب هوية جديدة . وهكذا ازالت الفرق بين انتائها الى جنس النساء وانتائها الى جنس الرجال . واكدت هذا بارتدائها زى الرجال . ونجد صدى لهذا الزى « التنكرى » ، اذا جاز القول ، في عديد من رواياتها . في « كونسويلو » مثلا تسافر المغنية عبر اوروبا وهي ترتدى زى الرجال . وفي « قصة حياتي » تفرد صاند مكانا مميزا للمفارقات التي كانت تنتج عن ارتدائها زى الرجال . وهي تقدم ارتداءها له على انه ضرورة يحتمها فقرها ، وبالتالي لانتائها الى طبقة الفنانين البوهيميين . بفضل هذا الزى ايضا ، افلتت صاند من العوائق التقليدية التي تفرضها الانوثة : الاهتمام بالمظهر ، وطلب الاعجاب الذي يحد من شخصية المرأة . وزى الرجال مكن صاند من استعادة القدرة على الثورة التي كان المجتمع يعمل جاهدا على كبتها عند النساء . وعلى مستوى اللغة ، كان التنكر يؤدى الى اللبس فكثيرا ما كانت صاند تتحدث عن نفسها ، في رسائلها بصيغة المذكر . اذا ، الاسم المستعار المكتسب بالكتابة حل كل المتناقضات وازال التوتر والصراع . فهو اسم لا يمت الى اسم الاب أو اسم الأم أو الزوج بصلة ، لانه اسم « الكاتبة » . ■■

د . سامية احمد اسعد

«مجاويش».. جوهرة

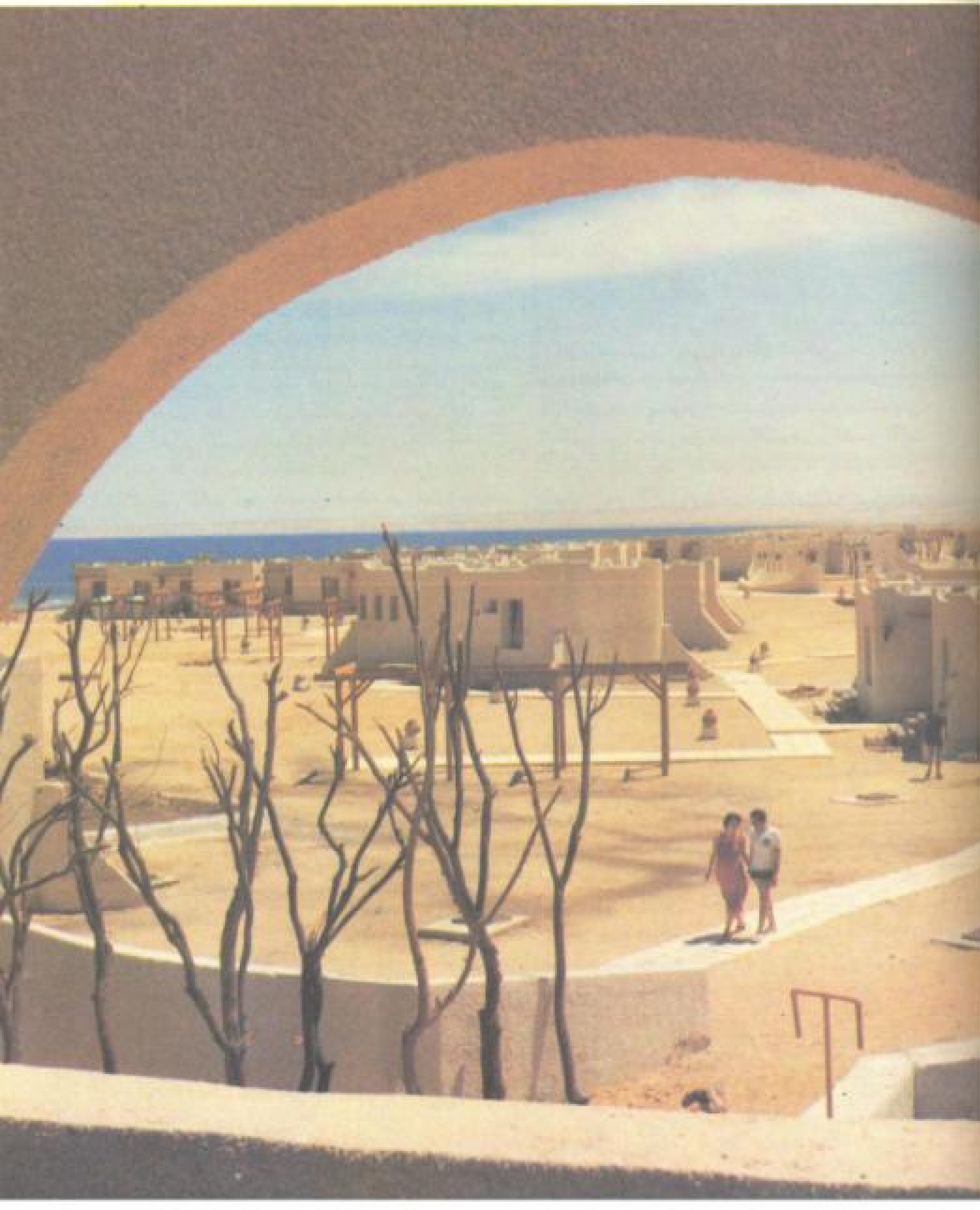




يقطع السائح آلاف الاميال يستمتع بالغوص في عالم الاعماق المسحور - والى اليسار - لقطة لمجاويش . البيئة هي المادة التي تحولت الى مبان ومسارح

بين الرمال

استطلاع : مصطفى نبيل
تصوير : اوسكار مترى



تصحبك هذه المرة إلى « مجاويش » ، إسم جديد ، ولكنه لقرية تقع وسط رمال صحراء مصر الشرقية ..

سمعت عنها أول مرة بين امريكيين التقيت بهما في احد فنادق بيروت ، وتحدثا عن قرية لا أعرفها ، ولم يسبق لي زيارتها ، تحدثا حديث العاشق لجمال الطبيعة وروعة المكان !!

ومن مجاويش الى غزو الصحراء ، المشكلة الاولى على طول الوطن العربي ، نتابع خطاها ونتمثل آفاقها ..

تستقبل السيارة في طريق الشمس ، الطريق الى مجاويش ، القرية السياحية ، او قل الجزيره وسط الرمال ، هي جزيرة باختلافها عن ماحولها ، أقيمت أمام جزيرة عذراء من عشرات الجزر الطافية على ساحل البحر الاحمر ، جنوب الغردقة بنحو ثلاثة عشر كيلو متر .

تظهر القرية من بعيد فوق لسان يمتد داخل البحر ، وحولها سور عال ، تدخل اليها من بوابة يقف عندها عدد من الحراس الذين يرتدون زيا خاصا ، رافقنا احدهم الى داخل القرية ، بعد أن قدم نفسه بأنه مسئول الأمن في القرية ، سألته : هل انت من شرطة السياحة ؟ وعرفت انه معين من قبل شركة للأمن ، وانه اختير لما قام به في حرب اكتوبر ١٩٧٣ عندما كان ضمن قوات الصاعقة ، وعلمت لاول مرة وجود شركات للامن تتولى حماية بعض السفارات والشركات الاجنبية !

تقترب من القرية ، او من المنظر الخلاب الذي تصنعه الرمال الناعمة البيضاء وزرقة البحر الفاروزية ومباني القرية والتي تصنع مجتمعة قطعة فنية متناسقة ، ولعل سر هذا الجمال ، ان الذي - صمم مباني القرية ، مهندسون مصريون ، كانت معالم البيئة هي المادة الخام التي استوحوا منها عملهم ، فبيوتها مستوحاة من بيوت القرية المصرية ، وأصبحت ترى الى جانب الطبيعة الساحرة والشاطىء الناعم والمياه الرائقة تكييف الهواء والمياه النقية ، ولم يغب عن بال مصمميها ، انها قرية ساحلية ، تلمس في تصميمها البحر والسمك ..

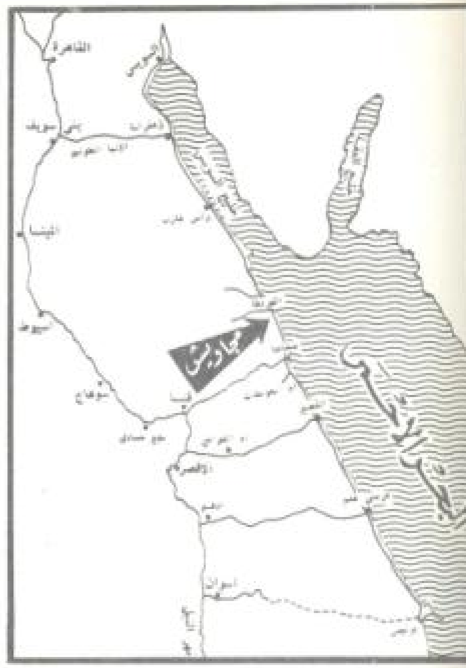
واحلى ما تلاحظه الرحابة والاتساع ، فتشغل القرية مليون ونصف مليون متر مربع ، وسعتها أربعمائة نزيل ، اقيم لهم مسرح خاص مستوحى من الطراز الروماني القديم ، وبها مختلف انواع الرياضة ، وحتى حمام السباحة الذي ليس له دور الى جانب البحر . !

ويبقى سر جمال القرية في البساطة التي نجحت في ادخال عناصر الحداثة الضرورية ...

وسرعان ما اندمجنا في نشاطات القرية الرياضية والترفيهية ، النزلاء من جنسيات متعددة يغلب عليهم الألمان والفرنسيون ، يتوزعون على الشاطىء الذي تتناثر عليه المظلات من اعجاز النخيل ، الجميع يتحللون من كافة القيود ، ويسترخون مستسلمين لاشعة الشمس الدافئة ، والبعض من هواة الغوص ، قطع الآف الاميال ، وتنقل بين الطائرة والسيارة ، ليشاهد اسرار واعماق البحر الاحمر ، ويؤكدون ان تنوع وسحر الشعب المرجانية والحيوانات البحريه التي تشاهدها هنا ليس لها مثيل في اى مكان في العالم ، فهنا المتحف المسحور ، والذي بقي بعد أن دمر الكثير من شواطىء العالم ..

فساحل البحر الاحمر يتميز بكثرة الرؤوس الخليجية ، وكثرة الجزر الساحلية ، وانتشار الشعاب المرجانية ، ويبلغ عدد هذه الجزر نحو ٤٠ جزيرة ، اغلبها جزر مرجانية ، وتتزاحم في مدخل خليج السويس ٢٠ جزيرة اهمها جزيرة شدوان ، وهي جزر مهجورة الا من بعثات المنائر وخفر السواحل ، وتتحول الى خط تكسير طبيعي للامواج ومصدات للرياح ..

تخرج بهواة الغوص اللنشات والسفن الصغيرة ومعدات الغوص الى هذه الجزر المحيطة ، ويبدأون منها رحلة ممتعة الى اعماق البحر ، اما الذين لا يتقنون الغوص او لا تتحمله آذانهم ، فهناك غواصه صغيرة ، هي الوحيدة من نوعها ، تنقلك الى اعماق البحر ، ترى وتصور من خلف جدران من الزجاج ، وبغير لباس الغطاس وبلاقناع الاوكسجين ، وهي تتسع لثمانية افراد ، وسريعا ما تأخذك الى عالم الاعماق المسحور ، عالم غريب من الشعب المرجانية والاسماك الملونة ..



خريطة تبين موقع « مجاويش » على شاطىء البحر الاحمر

وتسمع في الاعماق شرح الخبراء .. « ان الشعب المرجانية توصف بالحدائق البحرية ، وتظهر من خلال الماء ، وهي ابنة البحار عالية الحرارة والملوحة وشديدة الصفاء ، وكلها تتوفر في البحر الاحمر ، المغلق ، الحار ، الجاف بلا انهار ، وهذا المرجان حيوان وليس بحيوان ، ونبات وليس نباتا ، وهو بالغ الجمال والفتنة ، يعيش عليه مئات الاسماك والمخلوقات البحرية المختلفة ، يصنع منه الانسان الجواهر والعقود والتحف الرائعة . والشعب المرجانية هي صخور من كربونات الكلسيوم ، لكنها من صنع أحياء حيوانية حية ، وهذه الاحياء لافتحة له الا في اعلاه ، فمه الذي يحيطه زوائد متحركه ، عودها ست من المرجانيات الاصيلة ، تحمل الغذاء الى جوف الكيس ، وبهذه الملامس خلايا تفرز السم الى الضحية الطافية في البحر ، وبذلك تبنى الشعب المرجانيه كائنات صغيرة لا تكاد ترى بالعين المجردة ، وفي هذه الشعب الجذوع ، وما يشبه الاوراق والازهار ، وهي ملونه بالوان مختلفة زاهية .

والخطر على هذه الشعاب من تلوث البحر من مخلفات الناقلات والبواخر ، والشعب المرجانية تقيم حياة متكافلة ، تقوم بينها قنوات تحمل الطعام من حي الى حي ، ولها قدرة هائلة على امتصاص املاح الكلسيوم الذائبة في ماء البحر ، وتبني به هياكل المرجان في هندسة رائعة ، وتحتاج هذه التكوينات لتكتمل الى درجة حرارة مرتفعة ، وقدر مناسب من الضوء ، وحركة خاصة للمياه بفعل الامواج والتيارات المائية ، وتتنقل بينها الاسماك مختلفة الألوان كما تتنقل الفراشات بين الزهور ، وتتحرك في مجموعات مثل حركة السحاب في السماء .. »

هذا بعض ما يرويه الخبراء عن عالم الاعماق ، والغواصة وحدها التي تعطيك فرصة الاسترخاء ، ومشاهدة الجمال الآسر في حياة المرجان والاسماك المختلفة الاشكال والالوان ، تحصل على هذه الجرعة من المعرفة ساعة من الزمان ، ثم تتدرج الغواصة صاعدة حتى بلوغ سطح الماء .

وبعد هذه الرحله التي لم تشهد لها مثيلا بإيحاءاتها المختلفة وجمالها ، عدنا الى الشاطىء ، وشاهدنا هواة سباق اليخوت باشرعتها الملونة ، وهؤلاء الذين يكتفون بصيد السمك او التجديف او السباحة ، ومجموعة اخذت القوارب ووضعت فوقها المظلات واستخدمتها كالشراع ، واخذوا يتسابقون ، يفوز من يمسك بمظلته بقوة حين تدفعها الرياح ..

سياحة جديدة !

هذه ساعات الرياضه الصباحية ، بعدها يأتي وقت احتساء شاى الصباح ، واخذ احد المسئولين في القرية ، وهو فرنسي يشرح لي فكرة هذه القرى ، قال : « انها مشروع سياحي مشترك بين شركة مصر للسياحة ، ونوادي البحر الابيض المتوسط ، وهي شركة فرنسية تنتشر قراها في اجمل مناطق العالم .

ومشروعاتنا ليست مثل الفنادق ، بل وتختلف عن المفاهيم السياحية السائدة ، فلا يتمتع فيها السائح بخدمة غيره .

واصبحت قرية مجاويش جذابة لاولئك الذين سئموا الحياة العصرية في المدينة ، يجدون فيها ليس فقط المكان الذي اختير بعنايه ، بل يعيش الانسان أسلوبا جديدا في حياته اليوميه ، يتخلص خلاله من كل الضغوط ، ويتميز بالبساطه والانطلاق والعمل الجماعي ، ونتوقع من السائح المساهمة في كافة نشاطات القريه ، فالعمل اليومي لدينا هو طريق الاستمتاع ! .. ويتعين على النزيل ترتيب غرفته ، اعداد طعام افطاره ، والمساهمة في النشاطات الجماعية اليومية لنزلاء القرية ، فاذا كان او كانت تهوى اعمال المطبخ واعداد الطعام





القطع البحرية يصنع منها ابن الفروقة الجواهر والعقود والتحف الجميلة . (الى اليمين) سباق بين القوارب بالمظلات التي تستخدم بدل الاشرعة (اسفل وأعلى)



انضمت الى مجموعة المطبخ ، واذا كان السائح يجيد رياضة بعينها اصبح في مجموعة الرياضة والتدريب ، اما اذا كان يتمتع باحد المواهب الفنية مثل الغناء او التمثيل او العزف على احد الآلات الموسيقية ، يصبح احد اعضاء الفرقة التي تقدم عروضها كل مساء .

ويمتد هذا النظام الى العاملين في القرية ، مجموعة قليلة ومنتقاة ، فلا يكفي ان يعمل المحاسب في حسابات القرية ، بل يفضل المحاسب صاحب الموهبه الفنية التي يمارسها في حفلات المساء ، وتزول الفوارق او تكاد بين العاملين والنزلاء ..

ونسعى للتفاعل مع البيئة التي تقوم فيها القرية ، والعودة الى بساطة الحياة ، فمثلا بدل اللبن الصناعي الذي تعود عليه القادم من همبورج ، يحلب اللبن من ضرع الماشية ، والفاكهة من شجرها ، والخضروات من الحقل الى المطبخ ، والسمك من البحر الى المقلاة .. وهكذا ، ويشغل النزلاء طوال يومهم في العمل والمتعة . وهذا ما يفتقده ويحن اليه القادم من المدينة الحديثة ..

وهذا النمط الذي اخترناه بالاضافة الى مافيه من متعة ، يقلل التكاليف الى حدها الادنى ..

الغاء النقود ..

وترى الجميع منطلقين يتمتعون بالحرية والتخفف من كل القيود الاجتماعية ، ولا تتعامل القرية بالنقود ، وانما يحصل كل نزيل على عدد معين من الخرز الخاص المجدول في عقد ، يمثل انفاقه اليومي ..

والبرنامج اليومي يبدأ بطابور الصباح ، فلا مكان للكسالى في القرية ، وفي الليل تبدأ الاعمال الفنية التي يقدمها النزلاء مع العاملين ، وللطباخ هواية الغناء وللمحاسب هواية العزف على الجيتار .

ونجاح هذا الاسلوب جعل الافواج تأتي لها تباعا ، كما جذب عددا من شركات السياحه الاجنبية كل جاء يحمل مشروع قرية سياحية جديدة !

إلى الغردقة ..

نترك مجاويش وحياتها الزاهية ، ونعود الى الغردقة عاصمة محافظة البحر الاحمر ، تتابع صراعا مع الأرض ، ومع البحر ومع الجبل ، فيها يعكف الخبراء على المشاريع الجديدة لتطوير اكبر محافظات مصر ، والتي كان يسكنها حتى عهد قريب ، قبائل العبابدة والبشارية ، والتي عاشت طويلا من انها طريق تهريب المخدرات ، كان الدخول اليها بتصريح خاص ..

ـ وقد اختير بيت خبرة فرنسي ، للقيام بدراسات عن مستقبل المنطقة ، تطوير السياحة ، وتطوير المصايد والمراعي والمياه الجوفية والمناجم ، هذا رغم ان أعدادا كبيرة من خبراء الامم المتحده ينتشرون في العديد من عواصم العالم من الخبراء المصريين ، فالخبرة المصرية هي الاقدر على تطوير هذه المنطقة ، والغريب ان بيوت الخبرة ، كل ما تفعله ان تحصل على هذه المشاريع باسعار عالية ، ثم تكلف بها خبراء مصريين !

وتضم الغردقة عددا من القادمين اليها للعمل من القاهرة والاسكندرية ، ويشكون دائما من عدم توفر سبل الحياة ، ورغم الحديث الذي سمعته في مجاويش عن الاكتفاء الذاتي في القرية ، يتهم الاهالي القرية بأنها ادت الى نقص السلع التموينيه وزيادة اسعارها ، بل وحتى المياه التي تنقطع في المدينة لتتوفر طوال النهار والليل في قرية مجاويش ..

ويشكون ايضا من الاسلوب الذي يتبعه السياح في الانطلاق ومفهوم الحرية ، ويبدو ان جرعة الانطلاق التي بدأت مع انتعاش السياحه اكبر من ان يتحمله شباب الغردقة ، فهو مجتمع قديم يتكون اساسا من قبائل عربية ، وحتى الآن يجتمع كل سكان المنطقة ايام عيد الاضحى للاحتفال بمولد سيدي ابو الحسن الشاذلي ...

وتطرح محافظة البحر الاحمر قضايا كثيرة غير السياحة ، اهمها التغيرات في البنية الاساسية لهذه المنطقة ..

منجم مصر

فبعد ان استمتعنا بالمناظر الجميله والحياة الوادعة والشمس الدافئة ، حان الوقت لنتأمل المنطقة وعلاقتها بما حولها ، ونبحث في امكانياتها الكامنة والمهدرة ، فيها العديد من الحلول للمشاكل التي تعانيها مصر .. فالرقعه الزراعية فوق وادى النيل لا تشغل سوى ٣٪ فقط من مساحته ، والصحراء تحف بالوادي من الشرق ومن الغرب ، واللون الاصفر يملأ رقعة الخريطه ، وهو واقع لم يتغير سوى تغير طفيف ، سرعان ما تلتهمه الزيادة في السكان ..

وكما ان هناك شقة واسعة بين مجاويش والغردقة ، هناك شقة اوسع بين واقع هذه المنطقة وامكانياتها



البحر الاحمر منجم مصر



المسرح وسط القرية

الضائعة ، او لتنظر الى هذه المنطقة بعين اخرى تختلف عن نظرة السائح اليها ، فهؤلاء القادمون من العواصم المختلفة ، تركوا خلفهم بنية اقتصادية قادرة على نقلهم من عصر الى آخر . وهذه المنطقة ما زال امامها شوط واسع تقطعه ، ولا يجوز ان يكون ما تشهده صدى لرخاء يتحقق بعيدا عنها ، ولا يجوز ان نتعامل بمنطق ان صناعة التقدم هي « للعرض فقط » بل ان تكون البداية الصحيحة من تغيير حياة الانسان على هذه الارض ..

وقد سئمنا الحديث الذي يعالج مشاكلنا ، بهدف ان تتحول الى بلد سياحي ، هؤلاء الذين يوزعون نصائحهم علينا لفرض ذوق السياح ، واذا استبعدنا هذه النظرة ، ونظرنا حولنا ، فسنجد المستقبل ..

فهذه الصحراء من حولنا هي الرصيد الذي احتفظ به القدر وادخره لمستقبل مصر ، هذا ما يؤكده الخبراء ، فهي المجال الوحيد المفتوح امام الوادي الضيق ، وخطوات غزو الصحراء طويلة ومضنية ومتشعبة وتحتاج الى جهد وصبر وحس برسالة ، والمحاولات الاولى المتمثلة في مشروع مديرية التحرير ووادي النطرون والوادي الجديد ، تعثرت فلم يصاحبها العناد والاصرار ، وكل الاهداف العظيمة تحتاج الى جهد عظيم ، وغزو الصحراء يحتاج تغييرات جوهرية للفرد الذي عاش طوال تاريخه على ضفاف النهر ، وهو صراع ضد الطبيعة .

وتعتبر الصحراء الشرقية التي تضم مجاويش والغردقة وسفاجة ورأس غارب والعين السخنة ربع مساحة مصر ، وتصل مساحتها الى ربع مليون كيلو متر ، وتمتد بين البحر الاحمر ونهر النيل ، تبدأ من مثلث صحراء شرق الدلتا بين الوادي والقناة في شريط طولي يتراوح بين ٢٠٠ و ٥٠٠ كيلو متر ..

ويبدأ الساحل عند رأس خليج السويس وينتهي عند حلايب .

يؤكد الخبراء ان هذه المنطقة هي منجم المستقبل ، وان ساحلها الطويل مؤهل لقيام خمسة موانىء رئيسيه ، يقضي على تكدس الموانىء الحالية ، ويفتح الطريق لتبادل المنتجات مع الجزيرة العربية والخليج ، وانها قادرة على سد احتياجات مصر من الاسماك ، وان منها تبدأ خريطة مصر المستقبل ، وهذه هي الخطوط لهذه الامكانيات كما اوردها الخبراء ...

هي منجم مصر الاول ، ولا تزال الصحراء تمتلىء بالنقوش القديمة ، ومخلفات الحملات التعدينية النشطة والمتعددة عبر العصور المختلفة ، ومع تطور التعدين من



عالم مسحور من الشعب المرجانية والاسماك الملونة ، وصيد سمك القرش صراع بين قوته وذكاء الصياد

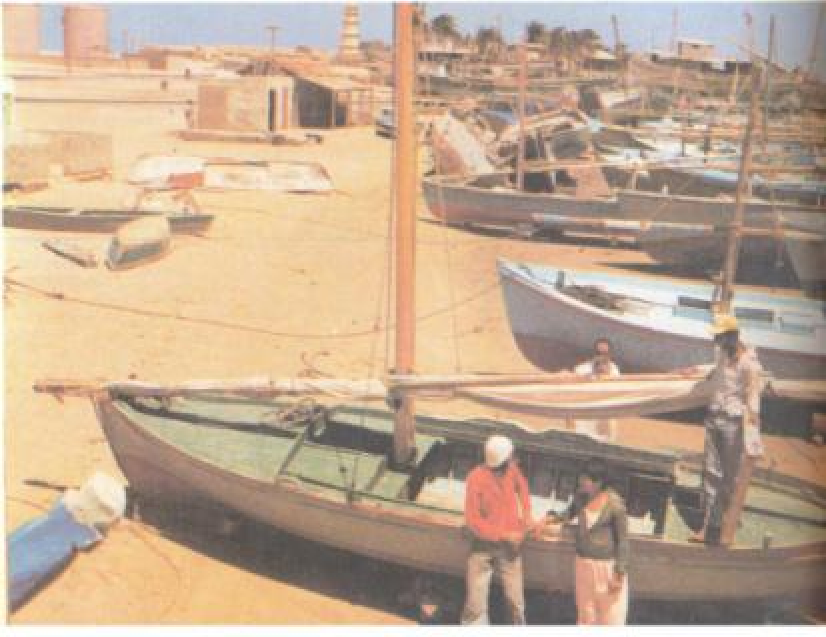








لقطة من ساحة الغردقة ، برج الحمام وصيد السمك وعلاقة حميمة بالبحر



الذهب والفضة والفيروز والزبرجد الى الفوسفات والحديد والبترول وهي غنية بالفوسفات في قطاع القصير ـ سفاجة ، وقد ارتبط ظهور مجموعة المدن والموانيء مثل سفاجة والغردقة وراس غارب بالتعدين ، وبقيت مشكلة المياه التي اما تقطر بالمكثفات مثل سفاجة ، او تستورد بالسفن ناقلات الماء من السويس الى راس غارب والغردقة ، وقد مد انبوب مياه من النيل عند قنا الى سفاجه والغردقه ، مما ساعد على انعاش الحياه ، ويجرى الآن العمل في مشروع شبكة من انابيب المياه من المعادى الى السويس ثم من ادفو الى مرسى علم ..

وصاحب ذلك تيار من الهجرة من الوادى يتألف من الفنيين والعمال ، والملاحظ ان معظم الفنيين من القاهرة والاسكندرية ، ومعظم العمال من قنا وسوهاج وليس من بدو الصحراء ، ولم يتحول الا بعض منهم من الرعى والبداوة الى الاستقرار ، فالى مناجم الشرق ومدنه ، والى ريف الغرب وواديه تفرغ الصحراء سكانها القلائل ، ويصل مجموع سكان محافظة البحر الاحمر الى ٩٠ الفا ...

سفينة الصحراء ..

وحركة غزو الصحراء لا بد لها ان تتحرك على طرق او قضبان ، وغياب هذه الطرق جعلها مترددة تتقدم خطوة وتتأخر اخرى ، فالخطوط الحديدية القليلة التي مدت فيها تأخرت طويلا ، وفي الوسط اصبح خط السويس يكمل محوره خط حلوان ـ الواحات البحريه ، وفي الجنوب يكمل محور الواحات الخارجه القديم خط فوسفات سفاجه الجديد ، ويلاحظ انها خطوط تعدينية ترتبط اساسا بنقل الخامات ، وكشفت التجربه ان الخطوط الحديديه ليست الرد المناسب على تحدى الصحراء ، وانما اقامة شبكة طرق للسيارات، هي مفتاح الصحراء الحقيقي ، واصبحت سيارة الجيب بديلا عن الجمل و« سفينة الصحراء » الجديدة ..

واقيمت شبكة طرق سيارات على هيئة سلسلة



البحر الاحمر غني باسماكه وطيوره

شوكة السمك على ساحل الصحراء الشرقية ، ويبقى تكثيف الشبكة وسد فجواتها ورفع الخدمة عليها ..

وان كان طبيعيا ان تنتقل خامات ووقود الصحراء الى الوادى للتصنيع ، فان الصحراء هي الموطن الطبيعي لتصنيع خاماتها وطاقاتها ، لتغيير ديمجرافية مصر والخروج من الوادى الضيق وقد ساعدت شبكة الطرق في انتشار خطوط المياه ، خط القصير وسفاجه الذي يقطع قلب الصحراء ، وهناك مشروع آخر لمد انبوب من المعادى الى السويس ، ثم ينتهي عند عين السخنه ، والذي سينقل بين نصف وثلثي مليون متر مكعب من مياه النيل لارواء منطقة السويس ، الزراعية والصناعية ..

المراقىء ومحطات الصيد

ومن الامكانيات المهدورة والتي تنتظر من يقوم بها هي استخدام الساحل الطويل على البحر الاحمر باقامة الموانىء وتطويرها ، ومحطات صيد الاسماك ، فالصحراء تقع على مشارف احد اكبر مفارق طرق العالم القديم والحديث معا ، وساحلها هو واجهة مصر وطريق آسيا وافريقيا . وبفضل كثرة الاودية العريضة عبر الصحراء ، لا ينقص كل ميناء على البحر طريق مباشر يصله بالوادى ، فمثلا مدخل خليج السويس ـ ثنيه قنا (ابو شعر ـ قنا) اهم طريق قاطع ، ويليه طريق قنا ـ القصير ويرجع تاريخ القصير الى ثلاثة آلاف سنه ، وكان طريق الحج منذ فجر الاسلام .

وعلى مر التاريخ كانت هناك خمسة مراقىء ، موزعة ، بينها مسافات متساويه على طول ساحل البحر الاحمر ، ويمكن لهذه الموانىء ان تربط مصر بالجزيرة العربية وكافة بلدان الخليج ، مما يسهل حركة انتقال المنتجات والناس ، والطريق الثاني هو طريق أسوان ـ برنيس عند راس بناس ، ومحوره الاساسي هو وادى الخريط ، وقد ظلت برنيس لبضعة قرون ميناء مصر الاول على البحر الاحمر ، ومركز كل تجارة الهند والجزيرة العربية حتى ورثها طريق اسوان . عيذاب .

وسفاجه وليس القصير هي التي تعد لتكون ميناء المستقبل على البحر الاحمر .

ومن هنا نرى ان هذه الصحراء كانت على مر التاريخ طريقا هاما في شبكة اتصالات مصر بالعالم ، وكانت هذه الصحراء معبر القبائل العربيه الى السودان ، وقد عاشت مراحل أخرى في عزلة ، والتي تعبر عنها تلك المجموعه من الأديرة القبطية والخلوات الصوفية التي لجأت الى مغاراتها ، والتي اصبحت الآن مزارات ، دير انبا انطونيوس (سان بول) ، ودير انبا بولس (سان بول) ، ومعتزل الشيخ الشاذلي في منطقة بير شاذلي .. وقد بدأ جانب العزلة للصحراء الشرقيه يقل وجانب العبور يزداد ، وهنا تساهم مشاريع السياحة ، ومشروع « جنوب مصر » بمجمعاته التعدينية في كسر هذه العزلة ..

المستقبل في المياه

ومستقبل الخريطة الجديدة مرهون بحل مشكلة المياه في الصحراء ، والتي ان تحققت فسوف تفتح آفاق المستقبل ، وتتحول الصحراء الشرقية من العزلة إلى أحد اهم جبهات التحديث والتغيير ..

وامام توفير المياه عدة بدائل ، فاما وصول مياه النيل اليها ، او استخدام المياه الجوفية ، وتبقى مشاريع تصنيع المياه اما بتحلية مياه البحر بواسطة مفاعل ذرى ، او عن طريق احلام المهندسين بنقل جبال الثلج الى هذه المناطق ..

ولا يجوز ان تقف التكلفة عقبة ، فلا يوجد مشروع يفوق تغيير خريطة المستقبل .

اما ما وصلت اليه محاولات حل هذه المشكلة ، فبالنسبة لا ستيراد مياه النيل ، فهناك المشاريع التي سبق ذكرها ، اما المياه الجوفية ، فتقطع الصحراء عرضيا عدد من الوديان الجافة التي تكتسحها السيول اياما قليلة في موسم المطر كل عام ، وفي سنوات الجفاف تفشل بعض هذه الاودية في الوصول الى النهر وتفقد مياهها في الصحراء ، وعندما يكون المطر كأفواه القرب تمتلىء الوديان وتفيض بالسيول المدمرة ، وخاصة عند مصابها في وادى النيل ، مما يزيد امكانية الحصول على المياه الارتوازية من الآبار العميقة .

ويجرى حاليا حصر مصادر المياه ورسم خريطة لها ، يقوم على اساسها حفر الآبار الارتوازية .

وبعد ..

اذا اكتملت شبكة الطرق وعملت المناجم واقيمت المراقىء ومحطات صيد الاسماك ، وتوفرت المياه ووقع التغيير المنشود في الخريطه السكانيه لمصر ، هنا يصبح الاهتمام بالسياحه طبيعيا ، وليس نتوءا غريبا عن كل ما حولها . ■■

مصطفى نبيل

فيلم سينمائي من تونس :

عزيزة

السهم العام
فى مرآة السهم الخاص

بقلم : الفاروق عبد العزيز

عزيزة وجميلة : وماذا بعد أن جاء الحل من الخارج ورحلت عائشة .. هل سيبقى الحل كما هو؟





في الحي الجديد مازال العلاقات القديمة قائمة : التواد والترابط ، ولكن ماذا ينتظر هذه العلاقات غدا ؟

« .. ان النقد سهل دائما ، لكن انتاج افلام مرتبطة بالواقع المعاش امر معقد جدا اكثر مما نظن واعتقد أن أغلب السينمائيين الذين استطاعوا أن ينتجوا افلاما حاولوا ان يتجاهلوا الواقع التونسي .. ونجد في هذه الافلام محاولة من السينمائيين للالتفات بطريقة مدروسة نوعا ما الى الواقع .

بمستويات مختلفة هناك اشخاص لديهم الشجاعة الكافية لمعالجة المشاكل وآخرون لايستطيعون ذلك ، وانتاج فيلم هو ايضا امر تتحكم فيه السلطة فمثلا يقول البعض لماذا لاتنتج افلاما تعالج مشاكل الجماهير ؟ انه من المحتمل وجود سيناريوهات عرضت على المصالح المختصة لكنها لم تحصل على الوسائل الكافية بتحقيقهاوبالعكس هنالك افلام لاتهم الجمهور التونسي بتاتا وواقع انتاجها لاسباب مختلفة ...

هذه هي الوضعية التي يعيشها السينمائي التونسي .. »

وهذه هي شهادة المخرج التونسي عبداللطيف بن عمار . وهي شهادة تعكس في نصها وروحها كافة البيانات (والمانيفستات) التي اطلقها شباب السينما العربية طوال الاعوام الاثني عشر الماضية . تخرج عبداللطيف بن عمار (٣٧ عاما) من الايديك (معهد الدراسات السينمائية العليا) في باريس في عام ١٩٦٥ . وقبل ان يبدأ عمله السينمائي الفعلي في السينما التونسية وقعت كارثة يونيو في ١٩٦٧ المزعجة وهي الكارثة التي كان لها (الفضل الاول) في ما سمي بثورة الشباب العربي . وكان للسينما نصيب وافر من البيانات والعرائض واقل القليل من الافلام . بيانات وتصريحات وخطب وتحديات مرحلة بعد مرحلة تطالب جميعها بسينما جديدة « تلبي احتياجات المجتمع » وهو المعنى الذي أورده بيان شباب السينما الجديدة في مايو ١٩٦٩ في مصر وشباب مهرجان دمشق ١٩٧٢ وقرطاج تونس ١٩٧٤ وفلسطين بغداد ١٩٧٦ وعدد أخر من مهرجانات السينما ومؤتمراتها في بلاد العرب والعالم الثالث .

ماهي حصيلة الثورة في ارض الواقع ؟

افلام قليلة ظلت على الهامش هنا وهناك . وعود رسمية وشخصية لم تتحقق . افلام مجهضة .

لابأس من تقديم شهادة من أن الآخر مادام السينمائي « ملتزما » بالواقع ومشكلاته .

وشهادة ابن عمار ، مخرج الفيلم التونسي ـ الجزائري المشترك « عزيزة » (١٩٨٠) الذي نقدمه هنا ، تحمل بوضوح مزيج المرارة والرغبة في المقاومة الذي تفيض به شهادات ونداءات سينمائيي عالمنا الثالث . وهو مزيج ناشيء عن ممارسة فعلية للواقع اليومي . فقد درس ابن عمار في باريس (بلاد مستعمره السابق) وعاد بالاحلام ليجد ان الصراع في ارض الواقع ليس سهلا بحال . فاي سينمائي ملتزم في واقع يخضع لحالة تحول شديدة ظاهرة وباطنة لابد ان يطرح تساؤلات من نوع : ماالذى اريد ان افعله ؟ وما الذي استطيعه وما هي السينما التي تعلمتها وماذا تعني (هنا) ؟ واى موقع تحتله تجربتي وتجربة الجيل الذي سبقني ؟ وماهو جمهوري وكيف اصل الى اوسع قواعده (حلم كل فنان) وما علاقة افلامي بالواقع في بلادى ؟

وهكذا نجد السينمائي العربي الملتزم في حالة « راسخة » تردد عنوان فيلم السينمائي البرازيلي الكبير جلاوبير روشا : « الارض الدائخة » او « ارض في حالة تحول » ....

أسرة وارض في حالة تحول

هذه هي تونس . ارض في حالة تحول . وهذه هي عزيزة فتاة في حالة تحول . وعزيزة وتونس يتطابقان في احدث افلام ابن عمار « عزيزة » لكي يجسدا تصور السينمائي الممتاز ورؤيته « للواقع » الذي تحدث عنه في شهادته .

فها هي ذي اسرة تونسية من البورجوازية الصغيرة « تهاجر » من قلب مدينة تونس المزدحم لتستقر في احدى الضواحي السكنية الجديدة . تتكون الاسرة من الابن الشاب « علي » الذي لايمتهن مهنة معينة بل يتميز بنزعة شديدة للمتاجرة باي شيء . لايؤمن بالتكنولوجيا ولا بالتنمية وان كان يلوك عبارات من هذا النوع احيانا . يعمل باي شيء ويفرك يديه دائما في انتظار « الضربة الكبرى » في البزنس BUSINESS المرتقب . العضو الثاني في الاسرة هو والده العجوز سي بشير الحرفي الذي قبل ان يبيع منزله القديم في قلب المدينة (بناء على نصيحة الابن) لكي يسكن في ضاحية جديدة في منزل من طراز عصرى .

عزيزة ابنة اخ سي بشير العضو الثالث والاخير في هذه الاسرة الصغيرة . امضت صباها (لا يتجاوز عمرها العشرين او فوق ذلك بقليل) وهي تتلقى الأوامر من الجميع .. كفلها عمها بشير وهي صغيرة بعد ان اضطرت والدتها الى الزواج مرة اخرى بعد ان فقدت الامل لسنوات في ان ترى زوجها الى الابد . لقد اغتيل الزوج الاول في فرنسا . كالعديد من العمال المهاجرين من دول المغرب العربي ـ ولا احد يدري من القاتل . وعزيزة لاتعرف شيئا عما حدث لوالدها سوى انه متوفى ولم تسمح لاحد بان يشوه تاريخه او يتحدث عنه بالباطل . انها تشعر بانه قريب منها وانها ربما تشبهه وفي ساعات وحدتها تتذكر اباها الغائب ابدا وتتذكر معه في العالم الفرنسي مهدى ابن عمها الاخ ، المثقف المهاجر الى بلاد الحضارة ومدينة النور . ولان عزيزة كانت تشعر احيانا بقربها من مهدى خلال خطاباته التي انقطعت مؤخرا ، امكننا ان نحدد ملامح ابن العم المغترب هذا والذي ظل طوال الوقت املا غير قابل للتحقيق : حساس ومثقف ويختلف كلية عن علي « ابن الدنيا » وهو تقريبا كل شيء لعزيزة يربطها « بجسر التقدم » الذي تتلألأ انواره على البعد عبر المتوسط ويعدها بامكانية الخروج من هذا الواقع الجامد .



علي (رؤوف بن عمر) يحادث الاب سي بشير (محمد زينة) : « انا لها .. انا في انتظار الضربة الكبرى .. هذا هو البيزنس » .

القرصة الوحيدة للحركة ضمن هذه المعطيات الساكنة تأتي عبر الانتقال الى مسكن جديد .. هناك تمارس عزيزة عادة « المراقبة » وتأمل احوال الاخرين ..

ومن هناك ايضا تواتيها ولاول مرة فرصة الاختيار الحر والمختلف ...

وتتعرف الاسرة على الجيران الجدد ، وتأنس الى عائشة ممثلة التلفزيون المتواضعة والتي ينظر لها اهل الحي نظرة الطبقة الوسطى في العالم العربي الى فن التمثيل : فن سيىء السمعة بالنسبة لامرأة . يروون عنها الحكايات ويثيرون الشائعات ، ولكن عائشة ترفض ما يقال وتعبر عن ذلك روح متحدية للتقاليد : « لا يهم ماذا يقولون المهم هو من انا » . وتجد عند عزيزة شعورا متناميا بالقوة الداخلية . ها هي ذي امرأة حرة وقوية ، والاهم من ذلك امرأة مختلفة عن غيرها من نساء الحي اللواتي يرقبن الحظ ويحلمن بالمال ويمارسن الشعوذة في انتظار معجزة ترفعهن الى اعلى .

الحل : العربي الجديد

الى قلب هذا الواقع الساكن ـ الذي يتكون معماريا من بيوت حديثة متجاورة وانسانيا من تقاليد عمرها اكثر من الف عام ـ يأتي وافد جديد مفاجيء . زائر خليجي يقلب معادلات الحلم لدى الكثيرات اللواتي كن يأملن ويحلمن بفارس خارجي يهب لنجدتهن . ويلتقطه علي : « هذه هي ضربة البيزنس الكبرى .. سأفتح معه ابوابا لا تغلق بلا استثمار ... ها قد حانت الضربة الكبرى » .

عند عائشة ـ التي اكتسبت قدرة حركية وامكانية تطورية بسبب عملها وخروجها » من اطار الحي الراكد ـ يتبدل الحلم فجأة . فالخروج اعتمادا على هبة او عطية « غريبة » يمكن استبداله « الان » بامكانية « غريبة » ... من الشرق . وتحل اسطورة مكان اخرى . فهذه المجتمعات التي عاشرت الاستعمار الفرنسي طوال

قرن كامل اثمرت تصورات لحل مشكلاتها على اى مستوى . والحل دائما كان بيد المستعمر السابق الممدود عبر المتوسط . ولكن المستعمر السابق يلفظ الان ابناءها ـ حتى افنوا عمرهم في تعمير اقتصاده والقيام بالاعمال الخطرة والقذرة ـ ثم يقتلهم . الان بدأ الحلم يتبدل وها هو ذا رجل يمثل « الرجل العربي الجديد الذى توفرت له الامكانيات » . وبينما يتدحه على (غير المؤهل للبيزنس) تتبعه عائشة التي يتزوجها ويحقق لها حلم الخروج .

ترى كيف كانت تراه جميلة جارتهم المتمسكة بالتقاليد والتي يزورها زوجها العامل المهاجر مرة كل عام فيرزقها الله اطفالا ؟ (عندما يأتي زوجها محملا بهدايا غربية رخيصة تقع جميلة واولادها تحت وهم التفوق على ابناء الحي) . وماذا كانت تطلب من الله لبناتها في ليلة القدر ؟ لقد تحقق حلم عائشة في ليلة السابع والعشرين من رمضان ، فلم لا يتحقق حلمها هي الاخرى ؟

وعزيزة صامتة تراقب هذا كله . وشيئا فشيئا يتكشف لها ضياع علي في بحر أوهامه . ترفض الوهم وترفض المتاجرة وتنبذ سيطرة الرجل المطلقة وكل ما من شأنه ان يعتصر حريتها .

وتقبل نهاية علي المحتومة : انهيار الوهم . وبعد وفاة العم بشير تقرر عزيزة ان تهجر المنزل لتجد عملا وتبدأ في صياغة مفهوم جديد لحريتها ..

رمز حي لواقع متغير

في اطار هذا العرض لا اعتقد انه يمكن التوصل الى اعتبار « عزيزة » فيلما عن تحرير المرأة في الشمال العربي الافريقي . انه فيلم ـ تقرر عن حالة مجتمع باسره في حالة تحول . فصراع التقاليد والاحلام والتصورات لا يهدأ وفرص تحقيق الانتصار تكاد تتلاشى . ولعل ابن عمار قد استطاع ان يجسد هذا الصراع في داخل مجتمعه باختيار هذه التشكيلة من الشخصيات التي قدمها كرموز قوية العناصر ومعطيات واقعية . واستخدام الرمز في الفن امر محفوف بمخاطر عديدة من اهمها امكانية تسطح الشخصيات ولامنطقية سلوكها وعبارات حوارها ، وجعلها تنطق بما هو خارج عن امكانياتها الفعلية فتغدو بوقا لما يريده كاتب السيناريو والحوار او المخرج . كما قد يؤدى استخدام الرمز الى سقوط العمل كله في معادلات رياضية آلية الحركة تضع هذه الشخصية رمزا للشر واخرى للخير وهكذا ...

نجا ابن عمار من هذه الوهاد بان قدم حكاية بسيطة مستقاة من الواقع اليومي جعلها للمدقق فرصة لاكتشاف (الواقع) التونسي مجسدا وقد انعكس هذا التصور على اسلوبه الذى عالج فيه تفاصيل الحياة اليومية بدقة تدفع الى الشعور بالملل احيانا . ولكن ماذا تملك هذه الشخوص في واقع كهذا اكثر من معايشة تفاصيل الحياة اليومية وخلق صراعات صغيرة حولها والاهتمام بها وتزيينها ؟ انه واقع يدفع الى السكون والملاحظة . وهنا يكبر حجم الحياة اليومية .

ورغم أن « عزيزة » يجمع بين عناصر عربية عديدة ـ الممثلة اللبنانية ياسمين خلاط والجزائرية دليلة راميس (عايشة) واخرين من كلا البلدين تونس والجزائر ـ الا ان « ازمة الاتصال » بين المشرق العربي والمغرب العربي تتجسد هنا بوضوح في الكيفية التي تناول ابن عمار بها شخصية العربي الخليجي . وهو تناول انعكست فيه الافكار الشائعة لدى الدول الاوروبية وفرنسا بالذات حول هذه الشخصية وهو امر لا يحله بالطبع سوى تنمية جسور الاتصال والتفاهم والمعايشة بين كلا العالمين العربيين . فتضخيم الشخصية على نحو كاريكاتورى احيانا هو احد ثمار ازمة الاتصال تلك . وهذه بالتأكيد ليست مشكلة ابن عمار وحده على اية حال . « ولا يفلح وجود الزوجة الاجنبية » .

ملفات ابن عمار الثلاثة

وبفيلم عزيزة « يكون عبد اللطيف بن عمار قد قدم فيلمه العربي التونسي الثالث خلال عقد السبعينات فقد اخرج في عام ١٩٧٠ فيلمه الروائي الطويل الاول « حكاية بسيطة كهذه » الذي تناول فيه الهاجس الدائم لدى دول المغرب العربي : الهجرة الى فرنسا . وهنا نلتقي بالمخرج السينمائي والتلفزيوني شمس الدين الذي يزمع العودة الى تونس برفقة فتاة اوربية ، وهو يتابع تحضير فيلم له يستجوب فيه عاملا تونسيا مهاجرا كبير السن ، كان قد عاد الى تونس برفقة زوجة اوربية ايضا . ولكن الصراع المحتوم ينشأ حين ترفض ام شمس الدين زواج ابنها من الاوربية . وفي غمرة رفض الواقع الجديد تدفع ابنتها الى الانتحار وبالزوجتين الى الانهيار .

اما في « سجنان » او رسائل الى « سجنان » (١٩٧٤)فقد حاول فيه ابن عمار البحث عن شكل يؤكد به الهوية الوطنية التي تعرضت للمحو عدة مرات . فمن خلال متابعة حميمة لتطوير الوعي الوطني لدى شاب تونسي في فترة ما قبل الاستقلال تتلمس جذور



عبد اللطيف بن عمار يوجه ياسمين خلاط : « اخلق علاقات حميمة مع الممثلين وارفض ان امل عليهم »

الثورة الشعبية على المستوى الشخصي . فوالد الشاب يتم اغتياله برصاص المستعمرين ، والشاب يطرد من المدرسة عقب اشتراكه في مظاهرة وطنية ، ويلتحق بالعمل في احد المطابع حيث ينفجر وعيه الطبقي والاجتماعي مرادفا لوعيه السياسي . وهنا يبلغ ابن عمار ذروة تعبيرية تشبه النشيد السينمائي الخالص ، خاصة في مشهد النهاية الذي يقطع فيه على نحو متواز بين استعدادات احدى العائلات البورجوازية لزف ابنتها وبين معركة دموية ملتهبة بين العمال وجنود الاستعمار الفرنسي . هنا يبلغ ادراك ابن عمار للتحالف بين البورجوازية الكبيرة المحلية وبين الاستعمار ذروته وينجو ايضا من السقوط في الرمزية فيأتي عمله ذاتيا كتقرير خاص عن فكرته عن الثورة والاستعمار .

وفي « عزيزة » (١٩٨٠) يبدأ ابن عمار - بعد هاجس الهجرة الدائم والهوية الوطنية - بحثه في مشكلات تونس اليوم على اعتاب الثمانينات .

هل تفلح عزيزة في الاجابة على تساؤلات وهموم ابن عمار ؟ » ولعل اكبر مشكلة من مشاكل السينمائيين التونسيين هي هذا الجمهور .. فاى نوع من السينما يريد ؟ .

لاعزيزة ولا ابن عمار سيفلحان في الاجابة على هذا السؤال . فهذه مشكلة السينما والواقع في عالمنا العربي برمته . حسب ابن عمار ان يستمر ملتزما وان يقدم شهاداته باتقان . اما ماذا يريد الجمهور فتلك قضية اخرى !

■■

الفاروق عبدالعزيز

الحق والحقّة

بقلم : محمد خليفة التونسي

« الحق » معانيه كثيرة ، يقال : حق الامر يحق (بكسر الحاء وضمها) حقا ، وحقوقا ، بمعنى وجب ولزم ، او صدق ، أو ثبت .

ومما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : « لقد حق القول على اكثرهم » ، اي وجب ولزم .

وقوله تعالى : « ان وعد الله حق » اي صدق ، او هو صادق غير كاذب ، صحيح لا باطل .

وقوله تعالى : « ان هذا لهو القصص الحق » اي الصادق والثابت والصحيح .

ومثله في موضوع الساعة (القيامة) قوله تعالى : « وما يدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لايؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق » .

و « الحق » يقابل الواجب ، فالحق ما للانسان ، والواجب ماعليه .

و « الحق » بمعنى الخصومة ، يقال : مالي في هذا الامر حق ، اي لا خصومة لي فيه .

في النصين القرآنيين الاولين هنا ـ نعت كل من « ألوعد » و « القصص » ـ وكلاهما مذكر ـ بانه حق ، وفي النص القرآني الثالث هنا خبر ووصف للساعة بأنها « الحق » .

فهل يجوز ان يقال مثلا : « الساعة الحقة » للتفرقة بينها وبين ما زعمه ويزعمه بعض المنجمين وبعض اصحاب الاديان ـ كاليهود ـ من أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، وبانتهائه تكون الساعة اي القيامة .

او نقول مثلا : الأم الحقة للتفرقة بين الأم الوالدة وبين الأم المرضعة ، او الحاضنة ، او المتبنية ، ومن يشبه الأم في السن او المقام ؟

نعم ، هذا جائز باعتبار ان كلمة « الحق » احدى صيغ المصدر .

ولكن لهذا المصدر صيغتين أخريين مرادفتين له ، وكلتاهما وردت مصدرا بصورة المؤنثة الصيغة الاولى « حقة » ـ بفتح الحاء ـ على وزن « رحمة » و « رأفة » و « دعوة » (كما في لسان العرب » و « اساس البلاغة » ـ مادة « ح ق ق ») وقد استشهد اساس البلاغة بشطر من ارجوزة لرؤبة بن العجاج هي قوله « وحقة ليست بقول التره » اي حق او حقيقة ليست بترهات او اباطيل .

والصيغة الثانية « حقة » ـ بكسر الحاء « على وزن « صحة » و « عزة » و « نقمة »(كما في لسان العرب والمصباح المنير » ـ مادة « ح ق ق ») ففي لسان العرب « الحق » واحد الحقوق ، والحقة والحقة (بفتح الحاء وكسرها) اخص منه ، وهو في معنى الحق ، كانها اوجب او اخص ، تقول : هذه حقتي ، اي حقي » .

ويلاحظ ان « الحق » و « الحقة » في امثلتنا السابقة قد استعملا صفتين وان كانا في اصلها مصدرين (ايا كان رأينا في التاء : ألتأنيث هي ام لغيره) .

ولهذا يجوز ان نقول « الساعة الحقة » ، و « الشاهدة الحقة » نعتا للمؤنث بما يناسبه ، كما قلنا : الساعة الحق ، والأم الحق ، والشهادة الحق واذا قلنا ان النعت يتبع منعوته في جنسه وعدده ، جاز أن نقول : الشهادة الحقة ، والشهادتان الحقتان ، والشهادات الحقات . ■■

اعترافات ضيِّق الخُلُق !

قصة : يوسف الشاروني

في الساعة الخامسة الا ثلاث دقائق كنت انسانا محكوما عليه بالحياه ، في الساعة الخامسة ودقيقتين اصبحت انسانا شبه محكوم عليه بالموت .

عندما جئت القاهرة منذ عشر سنوات لأدرس بجامعتها ، كنت مشفقا منها مشوقا اليها . جئتها من قبل زائرا عابرا مع والدي لحضور مولد أو قضاء مصلحة أو رؤية المعرض الزراعي الصناعي ، نبيت في فندق متواضع أو عند أحد أقربائنا . في هذه المرة كان علي ان ادبر سكنا بأجر معقول في حدود امكانات والدي . ابن عمي كان يسكن احدى غرف الشقة التي كانت تؤويني حتى عصر الاثنين الأخير من الشهر الثامن من العام الماضي . شقة كانت غرفها ـ يوم جئتها منذ عشر سنوات ـ تؤجر للطلبة لانها في حي الجيزة القريب من الجامعة .. الغرفة المجاورة له خلت من زميل نقلت اسرته للقاهرة فانضم اليها . يومها فرحت بسكني مع ابن عمي ، يخفف عني غربتي في مدينة مزدحمة مترامية كالقاهرة لا يعرف فيها الجار جاره . وكان معنا ثالث ورابع يشغلان الغرفتين المتجاورتين الأخريين . الصالة والمطبخ ودورة المياه مرافق عامة مشتركة .

عندما خلت الغرفتان المتجاورتان حلت فيهما اسرة من أب وأم وخمسة اطفال ، اربعة اطفال في غرفة ، والوالدان وطفلها الرضيع في غرفة . لا يهم وجود طلبة عزاب مثل ابن عمي ومثلي في الشقة نفسها ، فالزحام يفرض تقاليده . عندما تخرج ابن عمي التحق بعمل بعيد عن القاهرة فترك غرفته ليحتلها الشاويش عرفه وزوجته . كان يقترب من الاربعين وتقترب هي من الثلاثين ، ادركت فيا بعد انهما لم ينجبا ولن ينجبا .

هل كانت ثورة زوجها على مجرد ثورة لكرامة زوج أهينت زوجته في معركة كلامية ؟ فبيني وبينها باب دورة مياه مغلق ، وانا رجل وهي امرأة لا ينبغي ان تتجاوز المعركة الكلمات ، وان جاز ان ترتفع الى حد السباب . أم تراها بسبب ريبته مما كان يدور بيني وبينها من مناورات من ورائه ، لابد قد تسرب بعض فحيحها الى أذنيه ؟ وهل ترى تهوري عليه ـ الذي وصل إلى حافة الذبح ـ لمجرد انه حاول ان يلقنني درسا لن انساه ـ على حد تعبيره ـ انتقاما مما لحق بزوجته من شتائم ، أم كي أزيحه من الطريق حتى يخلو الجو لنا ؟ يبدو ان ضربتي كانت أعنف مما قدرته لها ، فها هي ذي زنزانتي تخلو منه ومنها أيضا .

في أولى سنوات دراستي كرهت المدرسة لأن المدرسة المتجهمة لم تكن تأذن لنا بالخروج لنفرغ مثاناتنا ، بعض زملائي كانوا يبولون على انفسهم وأنا أرتعب خوفا ان يكون مصيري مصيرهم . صمدت مرة ومرتين غير اني في النهاية استسلمت وانا ابكي فزعا .

أنا ضيق الخلق والمثانة فلان ابن علان ابن ترتان ، من قرية شارونة مركز مغاغة محافظة المنيا . ارتكبت

جرائم كثيرة لكنها صغيرة لمجرد انها لم تصل الى الشرطة . أما هذه فجريمتي الكبرى ، واظنها الاولى والاخيرة . هل ارتكبتها لحظتها أم كانت مجرد نهاية لبدايات قديمة ؟

روت لي أمي انني منذ عامي الثاني لم أعد أبول على نفسي على خلاف الاطفال الذين في سني . وكانوا من ذلك يتعجبون وبه يفخرون امام ضيوف الأسرة . غير ان مجيء أخي الأصغر ، وفي اليوم السابع على وجه التحديد ـ كنت قد جاوزت الرابعة ـ اكتشفوا اني بللت نفسي ليلا . صرخت في أمي : هل سأعتني بك أم بأخيك الأصغر ، أنت الآن كبرت ، والكبار لا يبولون على انفسهم . في الليلة التالية اكتشفت أمي ان صراخها لا أثر له . انهالت علي ضربا ومرغت انفي في ثيابي المبلولة فزدتها بدموعي بللا . في الليلة التالية هددتني بحرق « فخذي » ، فصرخت وبكيت ، قبلت يديها وتوسلت ، ووعدت بل أقسمت ... غير اني في الليلة التالية والليلة بعد الليلة التالية .. أجدني مبللا تفوح مني رائحة عطنة تقززني وتفزعني وتفضحني كل صباح .

ذات صباح كنت ألعب في الحوش مع صديقي حكرش ابن عسكري النقطة ، ذات لحظة اختلفت معه ، قذفته بطوبة شجت رأسه . ما ان رأيت الدماء تسيل حتى فررت لائذا ببيتنا . كان والداي يشربان الشاي في مدخل البيت وأنا اصيح : العسكري ، العسكري . انزعجا لانزعاجي وهما يستفسران عما حدث . ابلغتهما انني شججت رأس حكرش وانه لابد مبلغ أباه . سيأتي ويسحبني على نقطة الشرطة ويسجنني . حاولا تهدئتي . أقبلت أم حكرش تشكو لأمي ما فعلته بابنها . اعتذرت لها ودعتها لتناول الشاي ، وحين همت باسعاف ابنها، وجدتها قد كبست جرحه بنا مصحوبا . رأيتهما يشربان الشاي معا . عدت ألعب مع حكرش وهو معصوب الرأس . في تلك الليلة استيقظت من نومي وأنا أصيح فزعا : العسكري ، العسكري . استيقظ والداي . أخذتني أمي في حضنها لتكتشف انني بللت نفسي . بدلا من ان تشعل عود ثقاب . غيرت ملابسي وهي تحاول طمأنتي .

عندما زارنا قريب متعلم شكوا له من قذارتي وعنادي . أفتى لهم ـ هكذا رووا لي فيما بعد ـ ان تلك غيرة من أخي الأصغر لانه يستأثر باهتمام أمي ، وانني اريد ان اقول لهم انني ما زلت طفلا في حاجة الى عناية أمي وحبها وحنانها مثل أخي . وهمس لهم بعدة نصائح عليهم ان يتبعوها . في تلك الليلة منعتني أمي من شرب السوائل . في الليل ـ وانا ما بين النوم واليقظة ، وقبل ان يهاجمني العسكري ـ نزعت عني أمي أغطيتي وأوقفتني في الفراش واسندتني الى صدرها ونزعت ملابسي السفلية ووضعت قصرية أحسست بلمسها باردا على فخذي الدافئتين فزاد تنبهي ، ثم هدهدتني وهي تربت على مؤخرتي لأبول مقلدة بصوتها كركرة مياه صنبور يتدفق .

ـ كيف حاولت قتل عرفة عبده زيدان ؟

ـ قصدت دورة المياه لأفرغ مثانتي ، وجدتها مغلقة . انتظرت . طال انتظاري ، أوشكت مثانتي ان تنفجر . طرقت الباب . لم أسمع ردا . توترت اعصابي . لعنت من بداخلها . استثرته . تلفت حيلتي ، شتمتني ...

ـ محاسن زبتهم عبد الشكور .

ـ زوجة الشاويش عرفة .

لمحته مقبلا مندفعا نحوي بزيه الرسمي وجسده المدكوك وشاربه الكث اختلط سواده ببياضه ، وحبات العرق تلمع على جبهته ، وزجاجة خل فارغة في يده . وجدتها في يدي . عندما هممت بضربه بها تفاداها . اصطدمت بالحائط . وقعت على بلاط الصالة قطعتين . دقات الساعة في راديو الأسرة التي تسكن الغرفتين الأخريين تترامى إلي . لو ان زجاجها تهشم وتناثر ، ربما ما كانت هناك جريمة . والداي كانا يقولان لي كلما رأياني منفعلا : مصيرك السجن . لكنهما لم يتنبأ بأن يكون مصيري أبعد من ذلك ... أتراه حبل المشنقة ؟ زوجته محاسن شهدت ان لي محاولات سابقة . كاذبة . بل صادقة اذا كانت تقصد محاولات من نوع آخر معها . استيقظ الآن ضميرها . تريد أن تبعدني نهائيا عنها . ان تكفر عما اقترفته في حق زوجها وتجعل مني كبش فداء تكفيرها .

في السنة الاولى الثانوية ، كان مدرس اللغة العربية اكثر المدرسين مشاكسة ومداعبة للطلبة . ولابد انه لاحظ ـ كما لاحظ غيره ـ انني كنت كثير الاستئذان للخروج الى دورة المياه ، لانه قال لي ذات يوم ، وعلى شفتيه شبه ابتسامة : صنبورك يا فلان يحتاج الى اصلاح . ضج الفصل بالضحك بينما استطرد استاذي يتساءل متهكما : لماذا لا تغير جلدته ؟ كان ذلك بعد عودتي من دورة المياه وأنا أهم بالجلوس على مقعدي ، أخفيت حرجي بل شاركت زملائي ضحكهم . من يومها نشأت ألفة بيني وبين أستاذي وصداقة بيني وبين اللغة العربية . لو انه أحرجني ومثانتي ما تزال ملأى لاختلفت بلا شك نهاية الموقف ونتائجه .



وها أنـذا الآن قابع مع جردل يقعي الى جواري برائحتـه النفـاذة النوشـادرية . ما أنفعـه . بصيص الخلاص الوحيد في دنياي اليوم . ما ان تمتلىء مثانتي حتى ابادر بافراغها دون بحث عن دورة مياه لا اعرف مكانها ، أو عدوٌ نحو أخرى ستنفجر مثانتـي قبـل ان اصلها ، أو شجار مع زوجة جار على دورة المياه الواحدة الوحيدة في شقة نسكنها معا . فيكون الثمن رجلين : الشاويش عرفه عبده زيدان وفلان ابن علان ابن ترتان محصل الاقساط بادارة الحياة بشركة التأمين العالمية ، ومؤسس رابطة ضيقي وضيقات المثانة . وهذا هو الفرق بين زنزانتي ومدينتي : في زنزانتي اشرب وآكل وأنـام وأفرز ـ كالبهائم ـ في المكان نفسـه ، وفي مدينتـي خصصوا للافراز اماكن تتناقص بينما الناس تتضاعف ، ولئن بدت أعراض ضيق المثانة على منذ طفولتي ، فان ضيق خلقي ظهر ؛ مثل مواهبي ـ في سن مراهقتي وان بدت بوادره المبكرة يوم شججت رأس جار الطفولـة حكرش . تشاجرت أولا مع أختي الكبرى ، كنت أكتب رسالـة الى جارتي (لـم ارسلـها لانـي لم أجرؤ على ارسالها) . كانت تحـاول ان تتجسس علي . يومهـا اكتشفت ان بصوتي طبقة عالية لم استخدمها من قبل ، خفت منه واستمتعت به لانه لم يكن مرتفعا فحسب بل فيه خشونة غير مألوفـة . في المرة التـالية وجدتنـي لا استخدم صوتي فقط بل وجسمي يهتز كله بعصبية لم أعهدها من قبل ، حتى انني تساءلت فيما بعد هل ما وقع مني كان بارادتي أم بغيرها . كان ذلك مع أمي حين أبدت اعتراضها على مواصلة تعليمي بالقاهرة خوفا من بناتها علي (قلت لها ان على بنات مصر ان يخفن على انفسهـن مني) ، واشفاقـا على الميزانية المتواضعـة لاسرتنا . ثم ما لبثت ان وجدتني استخدم صوتي وبدني وقبضة يدي ، ضربت بها قاعدة خشبية لكرسي قريب مني فتهاوت تحتها . وولولت أمي : من أين نأتي بالمال لنشتري غيره أو حتى نصلحه ؟ ومع ان أبي صاح مهددا الا انه لم يجرؤ ـ للمرة الاولى في حياته ـ ان يمد يده على وجهي . ادركت يومها انه خاف مني ومن ثورتي ، كما اكتشفت قوتي الخارقة . بعد ذلك امتدت ثوراتي خارج نطاق الاسرة . كنت ابـدو هادئـا امـام الغربـاء حتـى ليضربون بي المثل فيما يسمونه الأدب . غيـر انـي ما لبثت ان اصبحت سـريع الثورة سريع الرضا .

بعد ان تخرجت والتحقت بالعمـل قصـدت طبيب اعصـاب ، لعل ضيق خلقي ان يكون مرضا يمكن الشفاء منـه . في نهـاية الفحص قال لي الـطـبيب : في حدود معرفتنا الطبية لا يسمى هذا مرضا ، انه سمـة خلقية (بكسر الخاء وتسكين اللام) وليست خلقية (بضم الخاء واللام) تماما كأن يكون وجهك طويلا أو مدورا أو منبعجا . وقد يصل التقدم البشري والقدرة على التحكم في مراكز المخ يوما ما الى معالجة امثـال هذه الحالـة ، حينئذ تنتقل من خانة الاسوياء الى خانة المرضى . وهو ما لا اتمناه . الجنس البشري هو الجنس الوحيد القـادر ان يحول كل نعمه الى نقمة ، ستظهر قلة ـ كما ظهـرت دائما ـ تسيء استغلال مثل هذا التحكم فيمن يخالفهـا من الكثرة . كان التقرير عاقلا للغاية ميئسا للغاية .

ـ تقول محاسن انك كنت تغازلها وهي ترفض غزلك .

ـ بل هي التي كانت تحاول . أنا فلاح لا أخون جاري .

ـ عندئذ وصل الشـاويش عرفه .

ـ وكانت هي قد خرجت من دورة المياه تواصل شتائمها ، فأمسك الشاويش بزجاجة خل يحاول ان يضربني بها .

رقبة الزجاجة في ناحية وبقيتها في ناحية اخرى ، لو لم أبادر بالتقاطها لالتقطها هو . السـاعة ـ فيما يبـدو ـ انتهت دقاتها . بقفزة واحدة كان جسم الزجاجة بحافتـه الدائرية المدببة في يدي . في لمحة خارج الزمن غرزت اسنانها الحادة في رأسه ... في صدره ... في رقبته التي تكشفت لي وهو يترنح . لابد ان تكون الخامسـة فأنـا اسمع اذاعـة ما يشبه اللحـن المميز لنشرة الاخبار . كالنافورة تفجرت دماؤه ساخنة لزجة ، كما تفجرت ولولة محاسن . اخترق الجيران الجدران ، انشقت عنهم الارض ، هبطوا من السقف ، اقتحم احدهم حلبة المعركـة ، جاء متأخرا . عرفة ممدد على بلاط الصالة ، ثوبـه الرسمـي ملطخ بدمائه ، يخرج حشرجات من فمه أو أنفه ولعلها من جوفـه ـ يرفس بساقيه وقـدميه كما كانت ترفس الدجاجة حين كانت تذبحها أمي في قريتنا . أدركت هول ما فعلت . تمنيت لو ان الزمـان ارتـد خمس دقائـق ... دقيقتين ... دقيقة واحدة فقط . لابـد انني غبت عن الوعي لحظات ، عندما افقت كان قد انقطع ما كان يبدو انه نشرة أخبار .

اندفعت محاسن نحوي وقد شرعت في يدهـا بقـايا الزجاجة،على اسنانها بقايا دم ما بين السيولة والتخثر ، غير ان الاجساد والاذرع والصرخات المحذرة حالت بيني وبينها . باب دورة المياه ما يزال مفتوحا . اندفعت نحوه كأنما لأنجو منها . أغلقته على نفسي . حاولت أن أفرغ سريعا مثانتي المتفجرة قبل ان يستجيب الباب المتهالك لطرقاتهم المجنونة وصرخاتهم الملعونة ، فيقتحموا على خلوتي وتتكشف لهم سوأتي . غير اني فشلت في ان تخرج

قطرة واحدة . اكتشفت ـ يا للعذاب ـ ان البول احتبس في مثانتي .

في التحقيق كان أول ما طلبته من محققي أن أفرغ مثانتي ، عندئذ فقط استطيع أن أجيب على أسئلته .

ـ لماذا حاولت قتل الشاويش عرفه عبده زيدان .

ـ كنت محصورا يا سيدي المحقق .

ـ كنت في كامل وعيك .

ـ في قول مأثور ألا فتوى لقاض محصور .

عندما كنت أزور صديقا في بيته ، كنت أحاول ان أبدو مثل بقية ضيوفه ، اشارك في المناقشات العقيمة ، اضحك بصوت مرتفع احيانا متخافت احيانا ، أبدي دهشتي مما أسمع من حين لآخر . لكني ما ألبث ان أحس بدبيب ذلك الضيق السفلي ينمو شيئا فشيئا . يحتل في أول أمره حيزا ضئيلا ، لكنه لا يزال يتضخم وينتشر في اصرار وبلا رحمة ، كأن هناك من يدفعني الى ليل طويل بلا نهاية حتى أدلف الى ظلمة الظلمات ، ينهار العالم المتماسك ، تتفكك الروابط ، وأنا أحاول جاهدا ان أبقى على صلة بيني وبين عالم الآخرين ، أرقبهم عسى ان يكون هناك من هو مثلي ، أؤجل النطق بكلمتي لعل آخر يفصح بها قبلي ، فيحمل عني حرج ارتياد مسلك يقتحم على الجالسين ثرثراتهم ، ويقطع عليهم ـ ولو للحظة ـ متعتهم البسيطة الساذجة ـ حتى اذا وجدت ان الأمر لم يعد يحتمل المجاملة ، أقرر ان أضع حدا لمعاناتي ، وأتحين فرصة اقتراب رب الدار مني ـ ربما ليقدم لي سيجارة لا آخذها ، أو يصب لي فنجان شاي آخر لو شربته لضاعف محنتي ـ فأغامر هامسا : لا تؤاخذني ، اين دورة المياه ؟ وألحظ انني بهذه المجموعة المنتقاة من الالفاظ قد سببت له ارتباكا لاشك فيه . فدورة المياه هي آخر مكان يهتم اصحاب البيت بتهيئته ، ولا يخطر على بال الكثيرين منهم ان ضيوفهم سيغادرون حدود الصالون الذي بذلوا كل الجهد حتى يجعلوه واجهة البيت . وقلما تضع ربة البيت هذا الطلب الغريب المفاجيء من احد ضيوفها موضع الاعتبار ، فما اكبر النقلة من صالون البيت الى دورة مياهه . وهكذا يطلب مني ان انتظر قليلا ـ ومثانتي تكاد تنفجر فتشغلني عن كل شيء حولي ـ ريثما تنتهي ربة البيت من تهيئة دورة المياه في محاولة ان تجعل منها صالونا آخر وتهيئة الطريق اليها . كأنما تدرك أنني اذا كنت مشغولا عن كل شيء في رحلة الذهاب فلن اكون كذلك في رحلة العودة . ستتغير شخصيتي تماما . أهدأ بعد توتر . أفلت من عالمي الكابوسي ، من سجن مثانتي ، لتطل مشاعري من جديد على العالم الخارجي . فأنتبه في عودتي الى ما لم أنتبه اليه لحظة محنتي . لهذا فلابد أنها تزيح من الطريق كل ما يحتمل ان اتعثر فيه ، أو تخبيء أكوام الغسيل المتسخ ربما في المطبخ . وتشد السيفون ، ليجهش ـ ان كان سليما ـ بماء فوار مكتسح . وتكسو المرحاض وما حوله بقطع للزينة ليصبح كأنه احد كراسي الصالون ، وتضع فيه ما يعطره كأنما وجد لغير ما أنشيء له .

عندئذ يسمح لي بالانتقال من واجهة المنزل الى مؤخرته ، من شعوره الى ما تحت شعوره . يصحبني في الرحلة اليه ـ بزعم انه مرشدي في الطريق . رب البيت أو أحد أبنائه . فها أنذا موشك أن أكشف عورة البيت .

ولقد علمتني تجاربي ان دورة مياه البيت دليل على مستوى حضارة سكانه . تماما كما ان دورات المياه العمومية دليل على المستوى الحضاري للشعوب . عندما كنت أبحث عن عروس لي ، كنت أتعمد دخول دورات مياه البيت التي أزور أهلها بهذا الهدف . دخلت مرة دورة مياه أسرة متواضعة ، كان واضحا انها في بناء قديم ، متسعة أكثر من اللازم ، ربما اكثر اتساعا من الصالون أوحتى من الصالة نفسها . بلاطها المعصراني مكسر في اكثر من مكان ، طلاء جدرانها تآكل بفعل الرطوبة ، ومع ذلك فان نظافتها تكاد تنطق . ولم تسبقني ربة البيت دقيقة واحدة لتهيئتها . ربما كان هذا دليلا على بعد نظرها والاستفادة من خبرات سابقة سببت للأسرة مأزق في مناسبات مماثلة فحرصوا على تهيئة دورة مياههم ـ حرصهم على تهيئة صالونهم ـ لاستقبال أي ضيف في أية لحظة . ورغم هذه التحفظات فقد كان هذا دلالة ـ في رأيي ـ على مدى ما بلغه اصحاب البيت ـ برغم تواضع مستواهم ـ من تقدم حضاري ، حتى انني فكرت جديا ـ ربما لأول مرة في حياتي ـ ان اتزوج ابنتهم الشابة ، لولا انني اكتشفت انني لا أملك ـ دون معاونة الطرف الآخر ـ ثمن شقة اشتريها أو حتى أدفع خلوها .

لقد كان أكبر ما يفزعني عندما قادوني الى هنا ان يحبسوني في زنزانة بلا دورة مياه ، فلا يسمحوا لي ان أفرغ مثانتي مع فضلاتي الاخرى ـ كما كنت اتصور ـ الا مرة كل صباح عندما نتسلم طعامنا ويأذنون لنا بالذهاب الى دورات المياه . ولكن ما ان دخلت زنزانتي واكتشفت محتوياتها حتى تبددت مخاوفي . لا شك ان من وضع لائحة السجون كان ـ على قسوته ـ رحيما أو ـ على الاقل ـ متفهما حاجة امثالي الى افراغ مثاناتهم اكثر من

مرة كل اربع وعشرين ساعة . ولعله قد أجبر على ذلك بسبب ثورة حدثت يوما ما في سجن ما من جانب مجموعة من المساجين ضيقي وضيقات المثانة . ولعله تطور أدخل على السجون حديثا بسبب مطالبة من جانب انصار حقوق الانسان .

في العام الماضي أتيح لي ان أسافر الى اوربا في بعثة صيفية للتدريب على اعمال التأمين . أعجبت بالكثير ولم أسترح للقليل . لم يبهرني شيء مثلما بهرتني دورات المياه : اضواؤها ، نظافتها ، جمالها المعماري وروائحها العطرية . حين دخلتها أول مرة لم أكن أريد ان أغادرها بسبب ما أحسسته من راحة نفسية بالاضافة الى راحتي البدنية . لاحظت ان حدة طبعي خفت بل كادت تتلاشى . لم أعد أتشاجر لأتفه الاسباب . لم أعد أصل الى حد الانفجار . كلما امتلأت مثانتي أمكنني ـ بكل بساطة ، بلا مشقة ، بلا تعقيدات ـ ان افرغها . الميادين العمومية ، الشوارع الرئيسية ، الطرق الجانبية ، المطاعم ، القطارات... كلهـا مهيأة ـ يا لسعادتهم القصوى ـ بدورات مياه عمومية . فالانسان مدخل ومخرج لا يستغني احدهما عن الآخر .

عندما عدت مع زملائي لم يكن لنا حديث الا المقارنة بيننا وبينهم . غيري يتحدث عن نظامهم وفنون ادارتهم ، عن العناية بآثارهم أو مصانعهم ، عن بضائعهم الاستهلاكية ، وأنا أتحدث عن دورات مياههم العمومية والخصوصية ، وعن كلابهم وقططهم المسموح لها وحدها ان تبول علنا على ارصفة الشوارع وتحت جذوع الاشجار .

شيء واحد أفسد علي متعتي ذات ليلة . دعيت الى حفل موسيقي . في بداية الحفل استمتعت بالموسيقى الحالمة حينا الصاخبة حينا ـ على قدر تذوقي لموسيقاهم ـ غير اني ما لبثت ان أحسست بتلك البدايات اللعينة تتسلل في تخابث الى مثانتي . كنت اعلم ان دورة المياه على بعد خطوات مني . لكن ما أقربها وما أبعدها الآن . فدوني ودونها تقاليد حضارية . كانوا ـ على حد تعبير اجدادنا القدماء ـ كأن على رؤوسهم الطير . فكيف لي ان أهشه الآن . وأفسد عليهم متعتهم وانسجامهم . كان علي ان ادخل في معركة مع الصبر . وان اتحمل وحدي مسئولية عدم افراغ مثانتي قبل الحفل مباشرة . تخافتت اصوات الموسيقى ، لم يعد يصلني منها الا اصوات آلات النفخ وقرع الطبول حين تعلو فجأة فأطفو لحظة من عالمي الداخلي لأعود غائصا في بحيرة الملح والنوشادر توشك ان تفيض . بينا ألمح ـ كشبحين بعيدين ـ رأس المايسترو وعصاه وهما يهتزان معا والآلات الوترية بأحجامها المختلفة . لأرتد الى عالم كابوسي لا يشاركني فيه أحد آخر . هو محنتي وحدي وعلي ان اختار احدى الفضيحتين : ان افتح للبحيرة الملحية سدودها فتغرقني ، كما فعلت ذات يوم حين منعتني المدرسة المتجهمة من مغادرة الفصل ، أو أهش الطير عن الجالسين وألوذ بالفرار . وقد فضلت الحل الثاني .

قصدت طبيب المسالك البولية ـ كما قصدت طبيب الاعصاب من قبل ـ لعل ضيق مثانتي ان يكون هذه المرة مرضا يمكن التخلص منه . فرض علي طقوسا قبل الفحص : ان أصوم نصف نهار كامل بل أفرغ جوفي تماما بكل الوسائل المتاحة من مدخلي الى مخرجي . من شربة الزيت الى حقنة الماء الدافىء . في الصباح التقط لي اخصائي الأشعة صورا في مختلف الاوضاع بعد ان اعطاني حقنة ملونة ، وان كان لا لون لها . في اليوم التالي ذهبت الى طبيبي فسلمني تقريرا افرحني وأحزنني . جاء فيه ما جاء في تقرير طبيب الاعصاب . افرحني انني لست مريضا من وجهة نظره ، واحزنني ان لا علاج ولا دواء . ضيق خلقي طبع وضيق مثانتي طبيعة . ومع ذلك ـ ومن باب الاحتياط ـ نصحني بعدم التعرض لبرودة بعد دفء ، وإفراغ مثانتي أولا بأول . وتجنب الكحول والبهارات ، والمثيرات المهيجات . وان كل مدر مضر .

ـ أريد أن أبول على العالم كله .

ـ انت شديد الطموح .

ـ بل شديد الاحباط . أزالوا دورات المياه من مدينتي

ـ لتصبح أكثر جمالا

ـ فأصبحت أكثر قبحا .

في السنوات العشر التي عشتها في عاصمتنا ، لاحظت ان السادة المشرفين على تنظيم ميادينها وتجميل شوارعها يصدرون أوامرهم بازالة دورات المياه العمومية واحدة وراء الاخرى ، ونسوا ان يصدروا اوامرهم بأن تزال من الناس مثاناتهم .

وحتى لا تصبح عاصمتنا مرحاضا ، كل حائط وكل جذع شجرة وكل ركن فيها مستباح ، تحمست للدعوة لانشاء رابطة ضيقي المثانة وضيقاتها . اشكر المولى عز وجل لانه خلقني رجلا وليس امرأة . الرابطة أولا لهن ، كان الله في عونهن . جاء في المذكرة التوضيحية لمشروع انشائها ان من اهدافها :

ـ نشر الوعي المثاني . (لمحت ذات مرة رجلا يبول على كورنيش النيل على بعد امتار من دورة مياه عمومية ـ أزيلت الآن ـ فلما سألته لماذا لا تدخل دورة المياه وهي قريبة منك ؟ أجابني ـ وهو ما يزال يبول ـ وما شأنك ؟ مما احزنني حزنا عميقا لانه أفهمني انني لابد قد تدخلت فيما لا يعنيني) .

ـ رسم خرائط توضيحية وعمل رسوم بيانية بدورات المياه العمومية في مدن العالم الرئيسية (وقد اتضح ان مدننا في معظم البلاد العربية من أفقر مدن العالم في هذه المعالم الحضارية ، بحيث ينحني عندها الخط البياني انحناء شديدا في رسومنا التوضيحية) .

ـ انشاء فروع لرابطتنا في المدن المصرية من اسوان حتى الاسكندرية . (ونظرا لارتفاع ثمن الارض فقد قررت رابطتنا ان تنشيء دورات المياه العمومية التابعة لها رأسيا لا أفقيا ، بمعنى ان تبني في كل مدينة ـ وفي حدود ميزانيتنا ـ مجمعا من دورات المياه) .

وأنا أعرف جيدا مواقع دورات مياهنا العمومية ـ على قلتها ـ في المدن والشوارع الرئيسية ، والموانيء الجوية والبحرية ، ومحطات السكك الحديدية . وأعرف دورات المياه شبه الخصوصية ، في المطاعم والمقاهي والاندية والفنادق ومحال البضائع الاستهلاكية . أعرف كثرتها وقد تحولت مباولها الى مستنقعات ضحلة طينية ، تتصاعد منها روائح نفاذة نوشادرية ، تغص بالداخلين والخارجين ، يخوضها المتنظرون المتلهفون المتأهبون على أطراف أحذيتهم ـ مثلي ـ قلقين متوترين متربصين ، قد سد فرد أو فردان منهم أنوفهم بأصابع يد أو بمنديل متقززين ، حتى اذا أفرغوا مثاناتهم غادروها راضين مسترخين .

كما اعرف ندرة منها متواضعة النظافة ، يقف على بابها احيانا صبي اسمر في زى رسمي ، يحمل منشفة تصف مبتله شبه نظيفة ، يتوقع من عملائه ان ينفحوه أجر راحتهم البدنية النفسية .

هي منقذي وخلاصي ، يصدمني ويحبطني ان اكتشف احداها قد زالت ، يبهجني ويرفع معنوياتي ان اجد احداها قد زادت . بدونها تتحول القاهرة أمامي الى قفص كبير يتجول فيها طفل محروم مهموم ، مهزوم مأزوم .

في الليلة الماضية ، وأنا ما بين النوم واليقظة رأيت الشاويش عرفه يزحف نحوي ملطخا بدمائه وهو يصيح : فتحت رأس ابني حكرش . حاولت عبثا ان أفر منه وأنا أصيح صيحة الطفولة المذعورة : العسكرى ، العسكرى . حتى صحوت فزعا لأجد ان البول احتبس في مثانتي حين افرغتها تذكرت ان أبا حكرش مات منذ زمن بعيد ، ولم يكن شاويشا في يوم ما وان كان هذا حلم حياته .

ساعة المحكمة تدق . العقرب القصير يشير الى العاشرة

ـ يا فلان ابن علان بن ترتان .. دن ، انت مدان بالشروع في قتل الشاويش عرفه عبده زيدان ... تن .. دن .

ـ دفاعا عن نفسي .. تن .

ـ فقدت نفسك .. دن .. دفاعا عنها .. تن .

ـ في قول مشهور .. دن .. لرجل مغمور .. تن .. ان المحصور .. دن ـ يا سيدي القاضي ـ تن .. كالمخمور ، شخص معذور .

ـ بل شخص مسبول .

ـ قفص اتهامك ليس فيه دورة مياه ولا حتى مجرد جردل . مثانتي . لا تؤاخذني .. توشك أن .. أوشكت .. انفجرت .

عقرب الساعة القصير ما يزال على العاشرة . عمري تضاعف . الآخر تحرك أربع دقائق . ■■

يوسف الشاروني

الخير والشر

● قيل لفيثاغورس الفيلسوف ، من الذي يسلم من معاداة الناس . قال : من لم يظهر منه خير ولا شر . قيل وكيف ذلك . قال لانه ان ظهر منه خير عاداه الاشرار وان ظهر منه شر عاداه الاخيار !

مدينة نينوى

● تعتبر مدينة نينوى في العراق من المراكز السياحية والصناعية والزراعية .. والكثير من الاخوة العرب لا يعرفون الكثير عن هذه المدينة التي تنتظر من مجلة كل العرب ان تزورها وتقدمها في احد استطلاعاتها .. التي تعتبر في نظر قراء « العربي » وسيلة من وسائل تحقيق الوحدة بين ابناء الامة العربية .. فعندما تصبح كل بقعة من بقاع العرب معروفة لابنائها تصبح الوشائج والاواصر اقوى .

عبد محمد ظاهر
نينوى / العراق

الاسلام لم يعرف الملوك

● مثلا قرأت في كتاب يدرس في سوريا : « انه بعد معركة (الجسر) قبيل معركة (القادسية) قرر الخليفة العظيم « عمر ابن الخطاب » ان يستنفر الجيوش الاسلامية كلها ليستعد لمجابهة الفرس في معركة فاصلة ويذهب بنفسه الى الحرب فقال « والله لأقاتلن بملوك العرب ملوك العجم » .

هذا خطأ تاريخي وديني ـ فكلمة « ملك » لم تكن موجودة في العربية اثناء حكم الاسلام . وان عمر بن الخطاب « امير المؤمنين » لا يمكن ان يقول هذا الكلام .

وكلمة « ملك » لم ترد على لسان احد الخلفاء الراشدين وانما قيلت لاول مرة زمن معاوية بن ابي سفيان » عندما قال : « انا اول الملوك » ـ وكررها الخليفة العباسي هارون الرشيد بقوله : « معاوية اول الملوك وانا اكبر الملوك » .

زياد دياب
حمص / سورية

الروائي جنكيز صاغجي

● قرأت في عدد اكتوبر ٨٠ من العربي مقالا عن الروائي التركي جنكيز صاغجي واحلام المسلمين في القرم ، بقلم الدكتور محمد حرب .. فاعجبت بما تضمنه من معلومات كانت خافية على الكثيرين من ابناء الامة الاسلامية .

الا انني لاحظت ان الكاتب قد أخطأ في كتابة اسم هذا الروائي فاسمه الصحيح هو جنكيز صاغجي .. Gangiz Zagci وليس صاغجي .. اي بالصاد وليس بالضاد .

والحقيقة ان هناك ادباء ومفكرين في تركيا الاسلامية وصلوا الى مراتب عالية كالروائي يشار كمال الذي نال جائزة « نوبل » .. وناصق كمال صاحب الكتابات الوطنية .... والقصاص عمر سيف الدين ...

نأمل ان نقرأ تراجم لاعمالهم في مجلة العربي .

كمال بلكين
كركوك / العراق

خريطة فلسطين والعبث الصهيوني

● لم تكتف الصهيونية باحتلال فلسطين .. بل اخذت منذ اول يوم في تغيير معالمها الجغرافية .. وذلك بتغيير أسماء مدنها وقراها .. وصار حتى الفلسطيني ـ لا يعرف اين تقع تلك المدن والقرى المشوهة الاسماء .. ومما يزيد الطين بلة ان بعض صحافتنا واذاعتنا العربية تعتمد التسميات المشوهة بحسن نية .. والمطلوب

ان تقوم منظمة التحرير الفلسطينية بتوزيع خريطة لفلسطين العربية موضحة عليها أسماء المدن والقرى الفلسطينية الصحيحة ، على جميع الاذاعات ودور الصحف ووزارات التربية في الدول العربية منعا لطمسها وتشويهها .

اقتراح نأمل ان تأخذ به المنظمة باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني .

عبد الحميد ياسين
فلسطين

غباء فني أم رهبنة موسيقية ؟

أليس عجيبا بعد مضي اكثر من ثلاثة قرون على اكتساب الموسيقى الغربية هذا الطابع الخاص المميز لالحانها ان تبقى مقتصرة على المقامين العربيين : عجم ، نهاوند ؟

فحتى لو افترضنا ان سماع ربع (التون) يسبب لآذان الغربيين ايذاء لا يحتمل ، وان استخدامه يعتبر في نظرهم جريمة لا تغتفر ، فما هو ذنب باقي المقامات العربية التي لا يدخل في تركيبها هذا الربع مثل : التكريز ، النوأثر ، الحجازكار ، الحجازكاركرد ؟ هل هو غباء فني ؟ هل هي رهبنة موسيقية .. لا احد يدري وربما من الغربيين انفسهم !.

محمد ابو المجد
وزارة الاقتصاد ــ القاهرة

من هو المثقف ؟

● لا شك ان الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية قد افرزت زخما في مختلف مجالات العلوم .. بحيث اصبحت كلمة « مثقف » تحتاج الى معيار آخر ، اذ ان صفة المثقف حسب ما صاغها لنا بعض المفكرين اصبحت عزيزة المنال .. فالاستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله حدد الثقافة في مصادر معينة نذكر منها : التاريخ العام .. وتاريخ الاشخاص .. واللغات .. والاقتصاد .. ولعل الاستاذ العقاد لو كان بيننا الان لرجع عن هذا الرأي ، خصوصا وان الانسان امام هذا الموج الطاغي من مستحدثات الحضارة بات لا يملك وقتا للقراءة المنتظمة والذهاب الى المسرح او السينما .. الامر الذي باتت معه فكرة التثقيف الذاتي غير ميسرة .. كما كانت ميسرة لاجيال ماضية ..

لذا .. بات لزاما علينا ان نحدد من تنطبق عليه صفة مثقف في هذا العصر ، وهل نحن نعيش ازمة ثقافة في ايامنا هذه ؟

سيد عريشه القاهرة / مصر

الاسلام في الصين

● مع الحزن والفرح ، بدأت في تحرير هذا الكتاب علني لا اغالي ان قلت ان دموعي ما برحت تسيل على خدّيّ حتى بعد تلاوتي لاستطلاعكم الفريد والرائع عن احوال المسلمين في الصين وما عانوه ويعانونه والذي سرني ان مجلتنا الغراء تناولت في بحثها احوال المسلمين في هذا البلد النائي بشكل مفصل منذ بدء الفتوحات العربية الى العصر الحديث ، كما خصصت له الصفحات بالصورة والكلمة .

والحقيقة ان « العربي » قد فتح بابا واسعا يتعرف منه العرب والمسلمون بأمور اخوانهم ، مما قد يتيح تقديم المساعدة والدعم لهم . وهذا عمل تشكر عليه الكويت والعربي في مطلع القرن الخامس عشر الهجري كمهني ، وكمشارك في بث نور المعرفة والعلم .

خليل حسن فخر الدين
بيروت / لبنان

الاسلام والعروبة

● لماذا تثار تلك المشكلة المفتعلة بين الاسلام والعروبة ؟ ـ اليس الاسلام دينا عالميا ورسالة انسانية نزلت على نبي عربي امين بلسان عربي مبين ؟ ـ أليس القرآن نزل بلغة العرب وساعد على استمرارها وحمايتها ؟. ـ أليس الاسلام الذي احتضن العرب ووحد مشاعرهم على دين واحد ؟ ـ اليس العرب غالبا هم اول من حمل راية الاسلام عالية خفاقة وسعوا الى نشرها بين الخافقين .

ان هناك توافقا وانسجاما وتكاملا بين العرب والاسلام ، ولا يستغني احدهما عن الاخر ولابد ان تتوحد الجهود ولا نحاول تضييع الوقت في جدل لا طائل من ورائه ولا يغني شيئا .

حجاج عباس نوفل
جمهورية مصر العربية ـ قوص

نبذة عن كل كاتب

● كلما قرأت مقالا ممتعا في مجلتكم الغنية ازددت شوقا الى معرفة كاتب المقال ونشاطاته في عمله ، مؤلفاته ، عنوانه ، الخ .. لهذا جئت بكلمتي هذه راجيا من ادارتكم اذا كان بالامكان كتابة كلمة عن المؤلف : مركزه العلمي او الادبي ماذا وأين يعمل ،

د . عفيف عبد الوهاب
الظهران/المملكة العربية السعودية

الهمزة العربية

● تعقيبا على مقال السيد عيسى صبري حول الهمزة العربية في العدد ٢٦٣ ، اشار الكاتب الى ان الهمزة في حال وقوعها متوسطة ينظر الى حركة ما قبلها ، او ان الهمزة نفسها تتحكم بصورة كتابتها مالم تكن مفتوحة بعد ضم او كسر ، فتصور بحرف حركة ما قبلها .

واستكمالا للفائدة اضيف بأن الهمزة ، المتوسطة المفتوحة بعد الف ساكنة او واو ساكنة ترسم على السطر كما في : عباءة ، مروءة . وترسم على نبرة ان سبقتها ياء ساكنة كما في : هيئة ، بيئة .

وللشيخ مصطفى الغلاييني رأي أخر حول هذه الهمزة فهو يرى في كتابه « جامع الدروس العربية » ان الهمزة المتوسطة المفتوحة بعد حرف ساكن تكتب على الالف ان لم تسبق بألف مد كما في : ييأس ، سموأل ، توأم .

عبد اللطيف السعيد
تليبسة ـ سوريا

نحن والماضي

● ما اكثر تعلقنا بماضينا .. انا افهم ان نستمد من الماضي عبرة .. اما ان تكون حياتنا الحاضرة والمستقبلة اجترارا للماضي فقط فهذا مالا افهمه قط ....

فهل نحن عاجزون عن صنع حاضر مشرق نصنعه بانفسنا ونباهي العالم به .

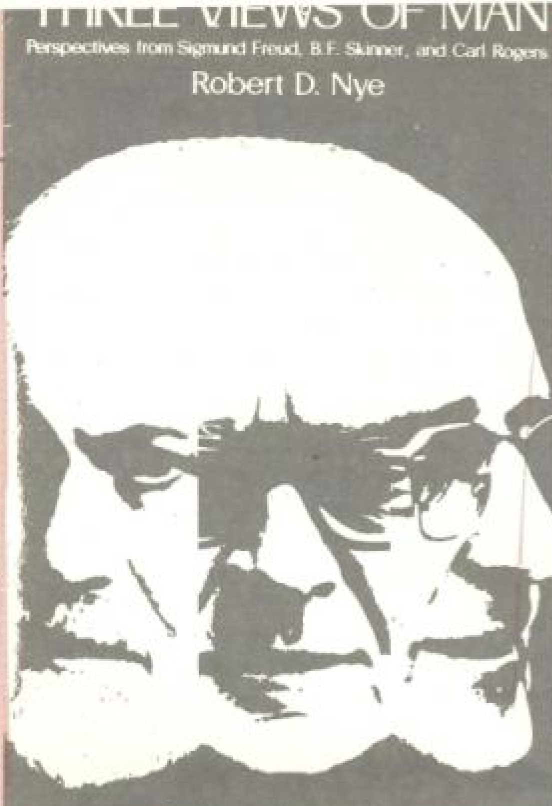
احمد مصطفى
حلب / سوريا

انقلبت الموازين

● قرأت في مجلة العربي عدد اكتوبر ١٩٨٠ موضوع الفطرة السليمة » للاستاذ زكي نجيب محمود » وهو يدعو الناس الى المرونة الحقة في التفكير لا التساهل الباطل ، كما يدعو فطرة الانسان السليمة الى الاستيقاظ ولكن اين لهذه الفطرة ان تستيقظ ... اين لها ان تنطلق من عقالها .. وقد وضعت على القلوب والعقول غشاوة لا تزيلها الا قدرة الله عز وجل ، فنحن اصبحنا نرى الحق باطلا والباطل حقا واصبحنا نرى جرائم ترتكب باسم الدين وباسم الحق . ولعل مطالبتنا بهذه المرونة التي يدعو لها استاذنا اصبحت عند من لديه الحس الصادق بعيدة المنال صعبة التحقيق .

فدوى الجاسر
اربد / الاردن

من مكتبة العربى



٣ قراءات للإنسان*

تأليف : روبرت د . ناى[١]

تقديم : د . عبد الله محمود سليمان[٢]

بين تشاؤم فرويد وحياد سكنر.. وتفاؤل روجرز

اذا كنت من عشاق الانسان فستعشق هذا الكتاب ، واذا كنت من محبي معرفة الانسان فستقبل على صفحاته بنهم شديد ، واى موضوع اكثر سحرا وجاذبية من ذلك يجعلك تتغنى بلحن سقراط الخالد الذى كان ينشده في رحاب معبد دلفي منذ خمسة وعشرين قرنا : « اعرف نفسك بنفسك »

* صدر عام ١٩٧٥ عن دار Brooks/ Cole Publishing Company & Wadsworth Publishing Company.

(١) جامعة ولاية نيويورك في بالتز .

(٢) قسم علم النفس ـ كلية الاداب ـ جامعة الكويت

هذا الكتاب عنك شخصيا ! هو رحلة مع مفكرين ثلاثة وهبوا انفسهم لمعرفة اسرار الانسان . وبذلوا الكثير من اجل فهمك . عاش اثنان منهم (وهما : فرويد وروجرز) مع الانسان في همس وخيفه ، درسا اضطراب سلوكه واعتلال صحته النفسية . واوقفا حياتهما على العمل على شفائه مما يمكن أن يعاني منه من آلام . لقد امضى فرويد وروجرز الساعات الطوال يستمعان الى الناس . وكانا يجتهدان في ان يخرج من عيادتهما كل فرد وهو مطمئن النفس ، عارفا الى اين يسير . اما الثالث (وهو : سكنر) فقد اختار التجريب اسلوبا لفهمه ، والمعمل مكانا لدراسته وكان يركز على مظهر معين من مظاهر السلوك ، حتى اذا فهمه ، انتقل ، الى مظهر آخر ، لكنه عاد بعد ذلك يركز على القضايا الجوهرية في حياته ، وينادي بعالم افضل ، يشكل على اساس علم السلوك ، لكي يتحقق للانسان وجودا افضل ويوفر له السعادة في والدن تو »[٣]

ان الانسان قد يقاوم فهم ذاته ، اى معرفة دوافعه الحقيقية واسباب سلوكه . اذا اخطأ قلما يعترف بخطئه ، واذا تألم فانه يريد ان ينسى ألمه ، ولكن الخطأ والالم يصبحان جزءا من شخصيته ، ويؤثران في سلوكه .

لهذا فانه قد يرفض افكارا كثيرة عن طبيعته . لكنه لو فكر بتعمق لتحقق من انه كائن مثل غيره من الكائنات ، يخضع لقوانين الطبيعة . وبالرغم من انه قد اثبت انه قادر على التأثير في الحياة وفي الطبيعة ، الا ان لتأثيره حدودا ربما اتسعت في المستقبل الا أن مجالها الآن له حدود معينة .

وسواء فكر في ذاته ، وكون وجهة عن طبيعته ، او لم يفكر في ذلك بوعي ، فلابد ان يكون لديه افكار عن طبيعته ، اكتسبها نتيجة لخبرته في الحياة . لقد برهن لنا بول تورانس على ان هذه الافكار موجودة عند كل انسان ، وانها تؤثر في هذا الانسان حتى وهو صغير . فقد كشفت القصص التي كتبها الاطفال عن أن لهم تصورات محددة عن الانسان . وما يجب ان تكون عليه خصائص هذا الانسان ، وان هذه التصورات تؤثر في سلوك الناس والمجتمع .

واذن ، فان لكل منا نظرية عن « الانسان » غير ان الفرد منا ، بل والمجتمع ، قد لا يكون واعيا بها تماما . ومع ذلك فان هذه النظرية ، تؤثر في الانسان والمجتمع . ومن ثم يصبح من المهم جدا ان يهتم الانسا، والمجتمع بان يصير كل منهما واعيا بفكرته عن طبيعة الانسان ، ذلك ان الوعي بهذه النظرية يؤدى بنا الى دراستها واختبارها ، ومعرفة ما فيها من صحة وخطأ او تناقض ، مما يمكن ان يؤدى الى تعديل هذه النظرية . وبذلك يزداد وعي الانسان بذاته ، مما يجعله قادرا على التحكم في سلوكه ، والتخطيط لحياته بشكل افضل .

لنحاول اذن ان نلتقى مع هؤلاء العلماء الثلاثة الكبار ..

الاول هو فرويد ، عبقرى يتردد اسمه على كل لسان ، ولا يحتاج الى تعريف . أصبح جزءا من التراث البشرى ، لانه احدث ثورة في تصورنا للانسان وحاول ان يضع ايدينا على مفاتيح اسراره . اسس التحليل النفسي الذى مكن الانسان من التفكير في ذاته واستعادة ماضيه بواسطة « تداعي الأفكار » وتحليل الاحلام ، بل ومن خلال « فلتات اللسان » ايضا . اما الثاني فهو ب . ت . سكنر استاذ في جامعة هارفارد ، اشتهر بدراساته التجريبية وبحوثه المعملية . وصاحب الاتجاه الثالث هو كارل روجرز ، يثق في الانسان ويهتم بحبه ، ولذلك يبذل الجهود في محاولة فهم الانسان من خلال تفكير الفرد نفسه وتصوره هو لسلوكه ومشكلاته .ولقد عمل كارل روجرز في جامعات ولاية اوهايو وشيكاغو ووسكنسن . لكنه اخيرا سئم حياة الجامعات ، وما فيها من صراعات ، واسس مع بعض زملائه مركز « دراسة الانسان » ، لذلك يعرف كارل روجرز بانه صاحب الدعوة الى » « علم النفس الانساني » .

كيف استطاع هؤلاء العلماء أن يصلوا الى اسرار الانسان ؟ لقد سار كل من فرويد وروجرز في طريق متشابه ، هو طريق العلاج النفسي ، ومن خلال معاناة كل منهما مع المضطربين من افراد البشر ، ومن خلال محاولة كل منهما مساعدة من يرتاد عيادتيهما ، توصل كل الى منهج في العلاج ، ونظرية في الشخصية فكان « التحليل النفسى » منهجا في العلاج ونظرية في الشخصية من ابداع فرويد . وكان « العلاج المتمركز حول العميل » منهجا جديدا في العلاج و « الذات » نظرية متكاملة في الشخصية من ابتكار كارل روجرز . اما سكنر فقد كان رجل معمل يجرى تجاربه على الحمام ، ويستخلص منها قوانين لتفسير السلوك . ولعل هناك من يعجب ويحتج : امن تجارب على الحمام نفهم سلوك البشر ؟ لكن : مهلا فسكنر يفترض تطورا في الكائنات الحية واوجه شبه بينها . ولقد قام تلاميذ سكنر واتباعه

---

(٣) والدن تو Walden Two رواية كتبها سكنر في عام ١٩٤٨ ، حاول ان يطبق فيها مبادىء السلوك التي اكتشفها في دراساته المعملية في خلق مجتمع مثالي .

باختبار المبادىء والقوانين التي توصل اليها بالنسبة لسلوك الانسان ، وحصلوا على نتائج مدهشة اذ ثبت ان القوانين التي توصل اليها سكنر تفسر سلوك الانسان . ولقد أمكن تطبيق مبادىء سكنر في حالات التعلم المبرمج ، وتعليم الاطفال الخياليين الذين لا يعيشون في الواقع ، والادارة الصناعية .

طبيعة الانسان

ما هي نظرة هؤلاء المفكرين الى الانسان ، وما هي تصوراتهم للطبيعة البشرية ؟

لقد اختلفوا في نظرتهم الى طبيعة الانسان فيا بين متشائم ومتفائل ومحايد .

كان فرويد متشائما بالنسبة للانسان ، ومتشككا في مستقبله . فالانسان في رأية ورث عوامل عضوية تخلق لديه توترات شديدة ، وتجعله يسعى الى التخلص من هذه التوترات . فالدافع الجنسي ودافع العدوان كلاهما يدفع الانسان الى ارضاء رغباته بطريقة انانية . لكن أمر المجتمع لايستقيم اذا تركنا كل فرد يشبع غرائزه ، فيستخدم الآخرين لانتزاع لذة الجنس ، ويشبع عدوانه بايقاع الاذى بهم . لذلك لابد من كف هذه الدوافع او اعادة توجيهها . ويرى فرويد ان الانسان وحش كاسر يحاول المجتمع كبح جماحه ، لكن ما تهدف اليه الحضارة من تنشئة اجتماعية وقمع رغبات الانسان يتعارض مع طبيعته . ومن ثم يبقى الانسان في صراع مع الحضارة والمجتمع ، وبذلك يفقد السعادة التي يمكن ان يحصل عليها لو كان سلوكه تلقائيا لا يكفه احد .

لكن كارل روجرز يتخذ موقفا مختلفا . فهو يؤكد ان لدى الانسان ميلا طبيعيا للنمو والتحرك الى الامام . كما ان الانسان يستطيع ان يحقق ذاته اذا كانت الظروف ملائمة . فالدافع الى تحقيق الذات هو الدافع الاساسي الوحيد لدى الانسان ، فالانسان لديه ميل أصيل الى أن يحافظ على ذاته وان يناضل من اجل تحسين ذاته . وروجرز متفائل بالنسبة لطبيعة ووجود الخصائص الاصيلة في الانسان . وهو يعتقد أن الانسان اذا أعطى الحرية لينمي هذه الخصائص فانه يقوم بسلوك ايجابي مفيد ، والصورة المثالية للانسان عند روجرز هو « الانسان الذى يعمل باقصى طاقاته وامكانياته » . وليس المقصود بالعمل هنا ذلك الجانب من السلوك الذى تستهدف به الكسب ، بل المقصود كل ما يقوم به الانسان من تفكير وانتاج وعلاقات اجتماعية وترفيه .. الخ والانسان الذى يعمل باقصى طاقاته هو الانسان الذى ينظر اليه الافراد المهمون في حياته (الوالدان والاخوة والاصدقاء والزوجة والاولاد) نظرة ايجابية غير مشروطة ، فينظر هو بدوره الى الآخرين نظرة ايجابية غير مشروطة . كما انه يكون في حالة اتساق مع نفسه ويمكن الوثوق به . مثل هذا الانسان يكون منفتحا على خبرته وعلى الواقع ، لا يشوه منه شيئا ، وينصت الى كل شيء حتى ولو كان على خلاف ما يرجو . ويرى روجرز ان الانسان يستطيع ان يحقق ذاته حينا يكون حرا ، كما انه حين تنتزع منه طبيعته الاصيلة (ان يكون موضع الثقة وان تتاح له الحرية) ، فانه عندئذ ، وعندئذ فقط يصير مؤذيا . ويمكن ان يقال ان روجرز يرى ان الانسان خير بطبعه .

اما سكنر فلا يعتقد ان طبيعة الانسان خيرة او شريرة ، وانما يرى ان الانسان يرث بناء تكوينيا يمنح النوع الانساني خصائصه العامة ، ويكسب الفرد خصائصه الفريدة ويؤمن سكنر مثلما يؤمن فرويد بحتمية السلوك ، اى ان سلوك فرد ما هو محصلة لعوامل معينة ، الا انه ينتقد فرويد بشدة لانه يستخدم تفسيرات لا معنى لها مثل القلق والشعور بالذنب وغير ذلك . فسلوك الانسان تحكمه احداث حياته الماضية والحاضرة في العالم الخارجي ، ومن ثم فهو لايرى مكانا في نظريته للاختيار الحر كخاصية للانسان وهو لا ينكر دور الوراثة وانما يرى ان البيئة تحدد دور الوراثة . فالانسان يرث خصائص تكوينيه ، والخصائص التي تؤدى الى بقاء نوعه هي التي تبقى . كما انه نتيجة لتاريخنا التطورى تنمو لدينا خصائص معينة ، ومن اهم هذه الخصائص : التدعيم . ذلك اننا حينا نتصرف في البيئة تصرفا فعالا ، تدعم الفاعلية والنجاح هذا التصرف ، لان التصرف في البيئة بطريقة فعالة (التحكم فيها) يؤدى الى بقاء الانسان فانه يصبح خاصية تكوينية لدى الانسان .

وهكذا نرى انه في حين يرى فرويد ضرورة السيطرة على الاندفاعات الغريزية عند الانسان وقمع رغباته (او اعلائها ان امكن ذلك) اذا كان للحضارة الانسانية أن تستمر ، فان روجرز يعتقد ان الحرية شيء اساسي للانسان لكي ينمو ويزدهر . اما سكنر فيقول انه لا يوجد شيء اسمه الحرية ، لاننا نتاج بيئتنا وما ورثناه خلال تطورنا العضوى مما يجعل الانسان « برنامجا » صنعته البيئة .

نظرية الشخصية

لعل الكثيرين سمعوا عن فرويد اكثر مما سمعوا عن روجرز وسكنر . وفرويد عبقري ما في ذلك شك ، ورائد للتفكير السيكولوجي الحديث ، لكن ما قدمه كل من

روجرز وسكنر ، وما زالا يقدمانه ، لفهم الانسان ، لايقل عما قدمه فرويد ، بل من الطبيعي ان نتوقع ان يتجاوز هذان العالمان فرويد لانهما استفادا من خبرته وعلمه ، ومكنتهما عبقريتهما من اضافة الجديد الى فهم الانسان .

لكن معرفة نظرية فرويد في الانسان اساسية لفهم التفكير السيكولوجي الحديث . فقد احدث فرويد ثورة في فهم الانسان حين خرج عن النمط المألوف لكل من الاطباء وعلماء النفس . فالاطباء كانوا يرجعون المرض النفسي الى اسباب عضوية ، ويحاولون علاجه بالعقاقير . لكن فرويد جاء يؤكد بل ويبرهن على ان اسباب المرض النفسي نفسية . كذلك كان علماء النفس يهتمون بتحليل الحالات الشعورية للانسان (اى ما شعر به) . لكن ها هو فرويد يكشف لنا عن جانب هام من حياة الانسان هو اللاشعور ، واللاشعور هو عصب نظرية فرويد . وربما لم يكن فرويد أول من يحقق أن الافراد لا يكونون واعين بمعظم دوافعهم واندفاعاتهم وما يعانون من صراع ، لكنه قام بالدراسة المنهجية للاشعور . فقد اوضح ان هناك ثلاث درجات من الوعي هي الشعور وما قبل الشعور واللاشعور ، تمثل طبقات تتكون منها شخصية الفرد . كذلك نظر فرويد الى الشخصية من زاوية اخرى ، فوجد انها تتكون من الهو (الجانب الغريزى الموروث) والانا (الجانب الارادى والتوفيقي) والانا الا على (الجانب الاخلاقي والمثالي) . والعامل الفعال في نمو الشخصية وديناميآتها هو الغرائز التي يشتمل عليها « الهو » . وهناك مجموعتان من الغرائز هما غرائز الحياة وغرائز الموت . وللغرائز طاقة تحركها تسمى (الطاقة النفسية) والطاقة التي تحرك غرائز الحياة هي الليبدو وتسمي عادة الطاقة الجنسية لأن الجنس هو اهم غرائز الحياة في رأيه . وهو الغريزة التي اعطاها فرويد اكبر اهتماماته . اما غرائز الموت فترجع الى فكرة فلسفية عند فرويد ، هي ان الصور الاولى للحياة تطورت عن تفاعلات كيميائية خلقت الحياة في المادة الساكنة ، لكن هذه الصور الاولى للحياة كانت غير متزنة ، وكانت تعود لحالة الجمود الاولى . لذلك افترض فرويد انه بالرغم من ان الانسان قطع شوطا طويلا في التطور ، الا انه لازالت به رغبة في العودة الى حالة الجمود في المادة الاولية ، ومن ثم فانه يحمل في داخله رغبة في الموت ، وتسمى الطاقة التي تعمل بها غرائز الموت بالطاقة التدميرية .

واذا كان مبدأ اللذة عند فرويد هو الذى يوجه حياة الانسان (تحقيق لذة الجنس ولذة التدمير) ،فلابد من نشوء صراع بين نزعات الفرد الغريزية وبين المجتمعات المتحضرة . ومن ثم فانه نتيجة لعملية التنشئة الاجتماعية يتكون لدى الفرد الشعور بالذنب وما يرتبط به من ضوابط داخلية تعمل على قمع الاندفاعات الغريزية . لكن الفرد والحضارة يصبحان في خطر كبير اذا اضطرت الحضارة الى كف النزعات الغريزية ، وحرمان الفرد من التعبير عنها . لذلك لابد من حل ، ويتمثل الحل في ما يسميه فرويد بميكانزمات الدفاع ، كالكبت والتبرير والاعلاء ، وغير ذلك . وقد وصف فرويد نمو الشخصية والمراحل التي يمر الشخص بها في نموه ونضجه النفسي والجنسي ، واكد اهمية السنوات الخمس الاولى في نمو الفرد ، واعتبر تأثيرها حاسما ومستمرا بالنسبة لتحديد بناء الشخصية وفاعليتها .

وبالرغم من ان فرويد يؤكد ان غرائز الحياة تحاول ان تواجه تحديات غرائز الموت وابطال فاعليتها ، الا ان مناداته بوجود غرائز الموت وطاقتها التدميرية كانت موضع هجوم من كثير من العلماء ، اذ لم يستطع العلماء ان يقتنعوا بالقول بغريزة الموت ، وقد اشتد النقد لاراء فرويد الى درجة رفض علم النفس لمفهوم الغريزة وتقديم تصور جديد للاساس البيولوجي لسلوك الانسان .

واذا كان محور نظرية التحليل النفسي يتمثل في اللاشعور والغرائز ، فان الذات ومفهوم الذات هما اساس نظرية روجرز في الشخصية . والانسان لا يولد مزودا بذات ، وانما تتكون الذات بالتدريج . فالطفل حين يولد يكون مجموعة غير متمايزة من الامكانيات والقدرات كما تكون خبرته بالعالم غير متمايزة . فاحساسه بالعالم وادراكه له يكون غير محدد بالشكل الذى يوجد به عند الكبير . لكن ميل الطفل الى تحقيق ذاته يدفعه الى المحافظة على امكانياته التي تتحقق وتحسينها . . بالتدريج نجد جزءا من خبرة الطفل يتمايز فيما يسمى بالذات او مفهوم الذات ، فبعض الاحاسيس والادراكات تتمايز باعتبارها مرتبطة بـ « انا » كما اتصورها و « انا » كما يراها الاخرون ويمتص الطفل هذه الاحاسيس والادراكات التي تكون فيما بعد فكرة الانسان عن نفسه ، وتسمى بـ (الذات) او (مفهوم الذات) . ألا ترى أن بعض الناس يعتبر نفسه شجاعا او مترددا او جريئا .. هذا هو مفهومه عن نفسه . ويتكون مفهوم الذات نتيجة لتفاعل الفرد مع الآخرين المهمين في حياته (كالوالدين والاصدقاء والرؤساء) والذين تكون احكامهم هامة في تكوين فكرة الانسان عن ذاته . وعادة ما تكون ادراكات الفرد لذاته في البداية متغيرة ، فالطفل الآن سعيد ، لكنه بعد دقائق قد يصير قلقا ، وفي الغد قد يمتلىء بالامل . كذلك قد يكون بعض

الافراد واعين بأحاسيسهم وادراكهم ومشاعرهم وافكارهم ، بينما يكون ادراك البعض الآخر لذواتهم محددا ومتصلبا .

وحين تنمو الذات يكون الطفل في حاجة الى الحب والتقبل ، ومن ثم يحتاج الى ان ينظر الآخرون اليه نظرة ايجابية وتجعل هذه الحاجة بعض الناس مهمين في حياته ، يؤثرون عليه بمنحه الحب او حجب الحب عنه ، وحين يحدث ذلك يحاول الطفل ارضاء هؤلاء ، بالتالي يصبح بالتدريج اقل استجابة لحاجاته هو ، ويتحدد سلوكه بمعايير هؤلاء الذين يصبحون مصدر الصواب والخطأ ، وبذلك يفقد الطفل تلقائيته ، ويتبنى قيما لمجرد ان الاخرين يوافقون عليها لا لانه هو قد اكتشف قيمة هذه القيم . ويرى روجرز انه مما يؤدي الى اضطراب الصحة النفسية ان يرفض الفرد قيما تتفق مع خبرته لمجرد ان الآخرين لايوافقون عليها .

كيف تتحقق الصحة النفسية للانسان ؟ يحدث ذلك حينما ينظر اليه الآخرون نظرة ايجابية غير مشروطة . حين يقدر الآخرون ذوي الدلالة كل خبرات الانسان وتصرفاته ومشاعره دون شروط . لكن هذه النظرية الايجابية غير المشروطة ليست شيئا يتحقق او لا يتحقق ، وانما هي عملية متطورة . فليس معنى أني انظر الى الآخر نظرة ايجابية غير مشروطة أني أوافق على كل ما يقول وكل ما يفعل وحين يصبح الطفل مقدرا ، فان ذلك لا يعني اننا نقبل قذفه للاشياء ، ومعاكسته للجيران ، وافساده للعبة شقيقته ، وانما تعلن للطفل اننا بالرغم من اننا نتقبل حقيقة انه يريد عمل هذه الاشياء ، لكننا لا نوافقه عليها ، ومع ذلك فاننا لا نجعل عمله لهذه الاشياء التي نرفضها يحول دون حبنا له .

ويؤكد روجرز إمكانية النمو المستمر للفرد وتحقيق ذاته . لكن الظروف غير المرغوب فيها مثل الحب المشروط يمكن ان تعوق نمو الشخصية وتسبب عدم التوافق . لكن الانسان اذ اسعده الحظ فتعرض للاهتمام الايجابي غير المشروط والفهم الوجداني ، فانه يستطيع ان يستعيد ميله الى تحقيق الذات من جديد .

ويختلف سكنر في تصوره للشخصية عن كل من فرويد وروجرز فهو لا يفترض انا او « هو » او « انا الاعلى » » او ذات » للانسان . فالعامل الحاسم في سلوك الفرد هو التأثير المستمر للبيئة عليه . وما يؤثر على الفرد الآن في حاضره له نفس الاهمية لما حدث في ماضيه ، ويتصور سكنر الشخصية على انها مخزون من السلوك ، يتكون نتيجة للنتائج التي ترتبت على سلوك الفرد عبر الزمن . لنتصور طفلا في اول يوم له في المدرسة ، في اول لقاء للطفل مع مدرس يقوم بتوبيخه على مظهر ملابسه السيء مما يسبب له احراجا كبيرا . لنفترض ايضا ان التقاء الطفل بعدد من مدرسيه بعد ذلك ترتب عليه عقاب الطفل او احراجه لسبب او لآخر ماذا يحدث نتيجة لذلك كله؟ الذي يحدث هو ان الطفل سيشعر بالقلق والخوف وهو في طريقه الى المدرسة ، وقد يقاوم الذهاب اليها . هذا السلوك الذي يقوم به الطفل انما حدث نتيجة لما ترتب على اتصال الطفل بمدرسيه في المدرسة . وسكنر لا يحدد اطوارا لنمو الشخصية مثلما فعل فرويد ، ولا يفصل بناء للشخصية . فالسلوك في رأيه يتكون ويتغير نتيجة للاحداث التي تستثيره وتترتب عليه وتمثل البيئة عاملا هاما في هذا الصدد .

العدوان مشكلة اجتماعية

اشرت الى ان فرويد يرى ان في الانسان استعدادا اصيلا الى التدمير ، يترتب على غريزة الموت التي اعتبرها احدى غريزتين فيه فقد كتب في خطاب الى البرت انشتين عام ١٩٣٢ يعبر عن اعتقاده بان الحروب يمكن ان تعزى الى نوازع الانسان العدوانية التي لا يمكن التخلص منها تماما . وهو يرى ان هذه النوازع يمكن اخضاعها على الاقل للسيطرة الجزئية ، وذلك عن طريق تنمية الصلات الوجدانية بين الناس مثل الاحساس بالتوحد (اى اتخاذ نموذجا تحتذيه ، وهي عملية لا شعورية معقدة) والاحساس بالانتماء الى الجماعة . وعن طريق تنمية القدرة على الاستدراك الواعي ووظائفه التي تمكن الانسان من التحكم في هذه النوازع . كذلك يمكن احيانا اعادة توجيه ميول الانسان العدوانية الى انشطة اجتماعية بناءة (بواسطة الاعلاء) وعن عملية التنشئة الاجتماعية يمكن تنمية القيم الاخلاقية . وبالرغم من امكانية هذه الوسائل التي تمكن من التحكم في الميول التخريبية ، الا ان فرويد يأخذ موقفا تشاؤميا عن قدرة الحضارة على التعامل بفاعلية مع مشكلة العدوان .

ويستنكر الكثيرون اعتبار العدوان اساسا هاما من الاسس التي تقوم عليها الطبيعة البشرية . ويرى سكنر انه يمكن ان يكون هناك اساس فطري للاستجابات العدوانية (على سبيل المثال : ضرب المعتدي او عضه او ايقاع الاذى به لكي يتوقف عن عدوانه) كنتيجة لمساهمة هذه الافعال في بقاء الانواع خلال عملية التطور . ويفسر سكنر السلوك العدواني او التخريبي او المؤذي ، بواسطة مايترتب على تدعيم هذا السلوك في خبرات الفرد الماضية والحاضرة .

اما روجرز ، فيرى ان السلوك العدواني يصدر عن الأفراد الذين لا يعملون باقصى طاقاتهم . اما اولئك الذين يعملون باقصى طاقاتهم اى الذين يزداد وعيهم بخبرتهم وبالعالم ، ويعيشون كل لحظة من لحظات حياتهم باقصى طاقاتهم ، لا يميلون الى اصدار مثل هذا السلوك التخريبي . فمثل هؤلاء الافراد هم اجتماعيون من الطراز الامثل يبحثون عن علاقات اجتماعية منسجمة ، واذا صدر عنهم سلوك يمكن ان يعتبر عدوانيا ، فسيكون له ما يبرره في الواقع كما يكون ملائما للموقف ويؤكد روجرز ان للانسان القدرة على ان يكون عقلانيا ، وعلى ان يستجيب بشكل ملائم لمختلف المواقف وتنمو هذه القدرة بشكل طبيعي اذا ما وجدت الظروف الملائمة.

التحكم في السلوك

تؤدي بنا مشكلة السلوك الى ان نواجه سؤالا هاما . فاذا كان فرويد يرى ان العدوان سلوك اصيل في الانسان ، واذا كان سكنر يرى انه يمكن ان يكون للعدوان فائدة ، ولذلك فان الانسان يتعلمه - فلا بد من البحث عن اسلوب فعال للتحكم في السلوك الانساني هل يمكن التحكم في السلوك الانساني ؟ كيف ؟ وبواسطة من ؟ وهل يجوز التحكم في السلوك الانساني ؟

كانت هذه الاسئلة موضوعا لحلقة دراسية عقدتها رابطة علم النفس الامريكية ، قدم فيها روجرز وسكنر آراءهما في هذا الموضوع الحيوي ، ونشرت في عدد ٣٠ نوفمبر ١٩٥٦ من مجلة Science الامريكية ويعكس اختلاف وجهتي نظر روجرز وسكنر في هذه القضية ما بين نظرية كل منهما من اختلاف اساسي . ولقد دعتهما جامعة مينسوتا فرع دولوث في خريف عام ١٩٦١ الى مناظرة استمرت ٩ ساعات حضرها جمهور كبير . لكن للأسف لم تنشر هذه المناظرة ويقول روجرز في هذا الصدد : « ان خيبة املي فيما يتصل بسكنر هي رفضه ان يسمح بنشر المواجهة (التي بيننا) ودامت سبع ساعات والتي عقدت في جامعة بنسوتادولوث ولقد سجلت هذه المناظرة كلها ، وكانت اعمق استكشاف تم بيننا للقضايا التي تؤمن بها كل منا . ولقد فهم كل المشتركين في الاجتماع ان من المتفق عليه ان تنشر اشرطة التسجيل أو نسخا كتابية منها ، او هما معا . وبعد الاجتماع رفض سكنر أن يعطي الاذن بالنشر . واني لاشعر ان مهنتنا قد خدعت !

يرى سكنر ان السلوك الانساني تضبطه وتتحكم فيه عوامل معينة وهذه حقيقة لايمكن الهروب منها . وأحد هذه العوامل هو الفرد نفسه فكل فرد يتحكم في سلوك الآخرين ، كما ان الآخرين يتحكمون في سلوكه . ويمكننا العلم من الكشف عن العوامل التي تتحكم في سلوك الانسان والقوانين التي تعمل بواسطتها هذه العوامل . ويمكن استخدام هذه القوانين في تحسين وجود الانسان في مختلف مجالاته مثل التحكم الذاتي (تحكم الانسان في سلوكه) والتربية ، وتنظيم المؤسسات والحكومة . ويرى سكنر ان الاساليب التقليدية في معالجة السلوك البشري ، التي تلقى المسئولية على قوى داخل الكائن الحي كالارادة مثلا ، دون ان تهتم بالعوامل البيئية ، هذه الاساليب التقليدية تؤثر التقدم في العمل على تحسين وجود الانسان . وهو ينادي بان يجعل العلم يقود حياتنا و يوجه تصرفاتنا ، بان تعمل على تحقيق اهدافه وهي فهم السلوك بالكشف عن قوانينه ومبادئه ، مثل مبدأ التدعيم (الظروف التي تعمل على تعزيز السلوك) . واستخدام هذه المبادىء في تنمية السلوك البناء والمفيد اجتماعيا .

ويتفق روجرز وسكنر على ان العلوم السلوكية أحرزت تقدما كبيرا في التنبؤ بالسلوك والتحكم فيه ، لكنهما يختلفان في كيفية استخدام المعرفة التي توصل اليها العلم وفي حدود هذا العلم . فروجرز يرى ان سكنر لم يهتم بمشكلة ؟ القوة و « السلطة » في المجتمع فاذا كان استخدام قوانين السلوك للتحكم في سلوك الانسان (لتحسين وجوده) فمن الذي لابد من سيقوم بالتحكم ؟ ومن الذي سيخضع للتحكم ؟ واى نوع من التحكم يجب ان نسعى الى تحقيقه ؟ ويؤكد روجرز ان الاهداف التي توجه البحث العلمي والاهداف التي توجه استخدام العلم ، يقوم بتحديدها افراد خارج نطاق العلم ، فهي احكام تقيمية ذاتية تحدد مسار العلم . هذه الاحكام حقيقية ، .

لكن سكنر يرد قائلا بان اختيار الاهداف والقيم لا يتم بعيدا عن المؤثرات الخارجية والبيئية . وهو يحذرنا من ان التأكيد على احكام الفرد الذاتية سيبعدنا عن الاهتمام الذكي لنتائج البحوث العلمية لكي نحسن العالم الذى نعيش فيه . ويمكن تلخيص موقف سكنر فيما يلي :

١ - يمكن ، بل يجب تطبيق العلم الموضوعي للسلوك لشفاء امراض المجتمع وتصحيح مشكلاته.

٢ - يمكن ملاحظة تأثير التحكم في السلوك ، ويمكن اجراء تعديلات في تلك المحاولات التي لا تدعم بقاء النوع الانساني .

٣ - القول بالاختيارات القيمية الذاتية يؤدي ببساطة الى ابقاء الغموض على القضية ، بتشتيت الانتباه بعيدا عن تأثير البيئة على السلوك .

اما روجرز فقد اكد دائما على مشاعر الفرد وافكاره ، وخبراته الداخلية ، واكد ان العلم يجب ان يأخذها في اعتباره . اما المعرفة العلمية الموضوعية فيجب أن تعتبر وسيلة للمساعدة في نمو الفرد وتحقيق ذاته . وهو يعتقد انه لا يمكن التنبؤ بما يمكن ان يصير اليه الانسان اذا كانت هناك فرص ملائمة لتحقيق الذات . لذلك يجب ان تتعدل دائما مفاهيم العلم لكي تواجه ما ينشأ لدى الانسان من احتياجات ورغبات جديدة . اما سكنر فيرى ان العلم الموضوعي يجب ان يكون في المقدمة ، ليمدنا بالعوامل التي تساعد على توفير افضل الظروف لبقاء الانسان وسواء اعترفنا بذلك ام لم نعترف فان الظروف الخارجية تؤثر على الانسان وتحدد سلوكه .

دور المجتمع

يعتقد فرويد ان هناك صراعا دائما بين الانسان والحضارة ، اذ يصعب التوفيق بين غرائز الجنس والعدوان . لكنه اذا تيسر ايجاد فرص لاعلاء هذه الغرائز ، اصبح من السهل تخفيف حدة هذا الصراع ، ومن ثم يصبح من الواجب على الوالدين ، والمربين ان يعملوا على كف هذه الغرائز الى حد ما ، لكي يمنعوا التخريب والتدمير . وان يقدموا في نفس الوقت بدائل بناءة للسلوك الانساني . ان دور المجتمع هو ان يحدث نوعا من التوفيق بين مقتضيات الحياة فيه وبين طبيعة الانسان ، وابتكار طرق بناءة لعمل الطاقات الغريزية فالحضارة تستمر فقط اذا امكن كف النزعات الجنسية والعدوانية الى حد واعلائها الى حد .

يرى سكنر انه بما ان المجتمع يتحكم في سلوك افراده يجب عليه ان يتحمل مسئولياته فكثير من مشكلات السلوك الانساني هي من الخطورة والتعقيد بحيث لا يجب ان نتركها للمفاهيم البالية مثل الحرية والكرامة ، فهؤلاء الذين ينادون بالحرية والكرامة يفوتهم ان سلوك الانسان يتأثر بالعوامل البيئية ، ودور المجتمع هو التحكم في البيئة لتدعيم السلوك المفيد للانسان والمجتمع ، مثل التعاون والعطف والأمن . لذلك يجب ان نترك الاساليب التي تؤدي الى احداث سلوك ضار مثل العقاب .

اما روجرز فيرى ان المجتمع يقيد سلوك الانسان ، اذ ان طبيعة البشر هي ان ينمو ويزدهر كأفراد يعيشون في مجتمع ، لكن الوالدين والمدرسين والرؤساء يعملون على اضطراب هذه الطبيعة عن طريق اقحام قيم راسخة واجبار الناس على الايمان والعمل بها . ويرى روجرز ان امكانيات تحقيق الذات للانسان كبيرة ولا نستطيع الآن أن نتصور ما سيصير اليه الانسان إذا يسرنا تحقيق امكانياته . لذلك فان المجتمع يجب ان يسمح بالحرية وتجريب اساليب متنوعة للحياة ، وطرق ابتكارية . كذلك يجب ان يسمح المجتمع بالخطأ دون لوم . فالبشر يناضلون من اجل ان « يصيروا » و « يصبحوا » .

هذه ثلاث نظريات عن الانسان والسلوك الانساني، وقد عرضت مع مؤلف الكتاب ما بينها من اختلاف . ولازالت هناك نظريات أخرى عن السلوك الانساني تتعارض وتتصارع ، ماذا يفعل الانسان ازاء هذه التصورات المختلفة لطبيعته وسلوكه . بل ماذا يفعل دارسو السلوك الانساني . ومن يقوم برعاية سلوك الانسان كالوالدين والمعلمين وغيرهم ؟ هل يتبع الانسان هذه النظرية او تلك ، ومادام الانسان يتعامل مع الانسان فانه لا يستطيع ان يتفادى التفكير في الانسان ـ من هو ؟ وما طبيعته وكيف يكتسب سلوكه ، وكيف يمكن تغيير هذا السلوك ؟

لقد قدمت ليونا تيلر ، احدى المشتغلات بالارشاد النفسي ، وهو فن مساعدة الانسان على فهم نفسه وتحقيق ذاته ، محاولة للتوفيق بين النظريات . ترى تيلر انه يجب على المرشد النفسي كما يجب على كل انسان ان يفهم الافراد الذين يساعدهم . وللشخصية مظاهر مختلفة ، لذلك يستطيع المرشد أن يعتبر النظريات المختلفة بمثابة مصابيح تسلط على الفرد من زوايا مختلفة ، فاذا اشعلت مصباح فرويد ، فانك ستكتشف مظاهر للشخصية تختلف عن تلك المظاهر التي تكتشفها لو اضأت مصباح روجرز ، وهكذا .

والانسان حين يتفاعل مع غيره من الافراد تتكون لديه مفاهيم عن سلوكهم . ولكي يستخدم هذه المفاهيم بفاعلية ، فانه يحتاج الى امتحانها ودراستها وتعديلها وتنظيمها في اطار ، هو ما نسميه نظرية الشخصية اما اذا تركت هذه المفاهيم دون دراسة ودون تنظيم ، فان هذا قد يقلل من فاعليتك في فهم الآخرين والتعامل معهم .

والشيء الهام الذي اريد ان الفت النظر اليه ، هو ان اية نظرية تتبناها عن سلوك الانسان يجب ان تكون حية قابلة للتعديل والنمو . ■■

د . عبد الله سليمان

نزهة العقل الذكي بجهود القراء

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي « الكلمات المتقاطعة » .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العدد بقطعها منه .. اما الكوبون المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

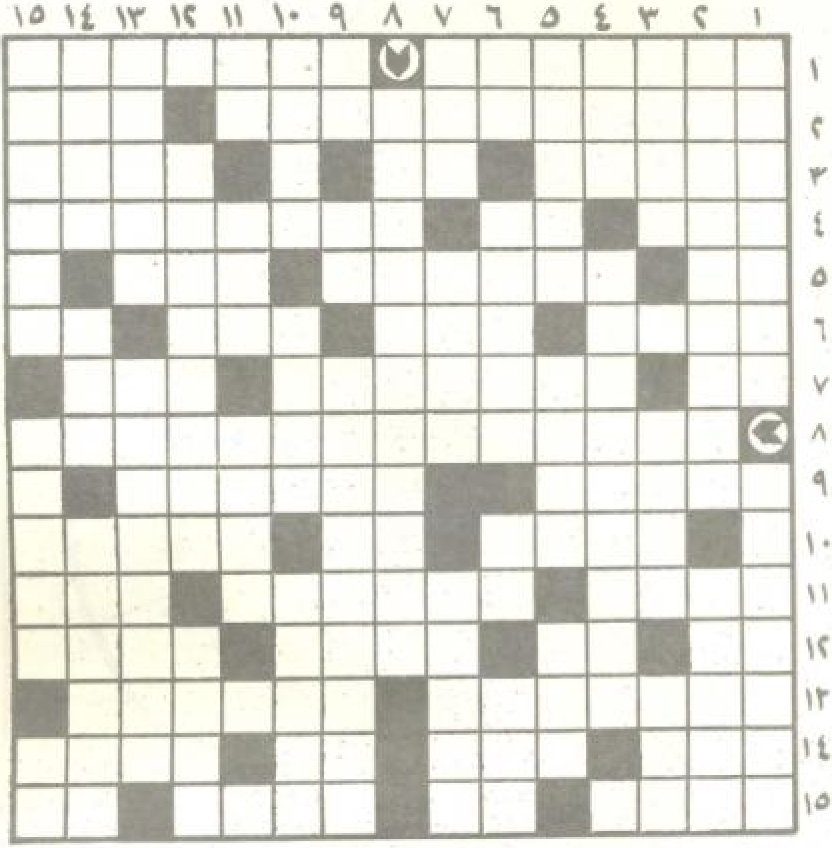
ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد » ٢٦٧ ـ وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول ابريل (١٩٨١) .

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حلّ مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم عالم وفيلسوف عربي شهير . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم شاعر عبّاسي .

كلمات أفقية :

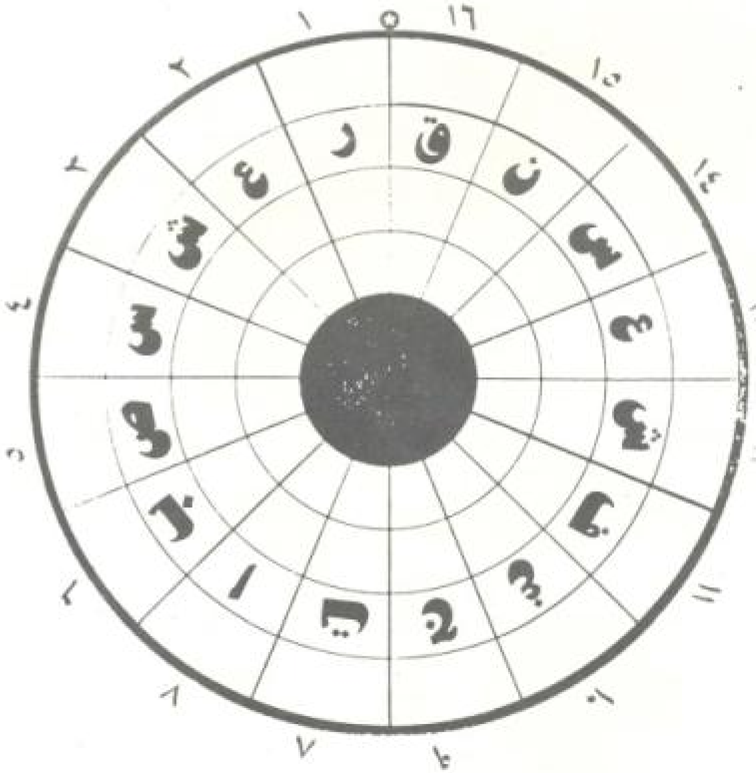
١ ـ أوبرا لفيردي ـ نحّات ايطالي من عصر النهضة .
٢ ـ حركات لا ارادية ـ بحث .
٣ ـ نابلغ ـ نصف كلمة (تلبث) ـ أسبي .
٤ ـ تجوّل ـ نصف كلمة (هادي) ـ من العناصر المشعة .
٥ ـ حرف نصب ـ حيوان قطبي ـ من مستخرجات زيت البترول .
٦ ـ من عند الله ـ ظلم ـ كفر ـ خطر .
٧ ـ نصف كلمة (عادت) ـ يزورانه في مرضه ـ من أجزاء العود .
٨ ـ عالم وفيلسوف عربي شهير .
٩ ـ أوكله ـ دولة أفريقية .
١٠ ـ استعدّ ـ نصف كلمة (وزير) ـ أعلن نواقصه .
١١ ـ قاتل ـ من الابواب الصحفية ـ زنبرك .
١٢ ـ نصف كلمة (عائم) ـ صاحب ـ من وحدات الجيش ـ أرشده .
١٣ ـ نتبادلها في المناسبات السعيدة ـ نستبدل .
١٤ ـ من الموازين ـ نفي ـ في الجهاز الدوري ـ حائل اللون .
١٥ ـ صفة للصوت ـ لفظ ألم ـ من المحيطات ـ نصف كلمة (حزين) .



كلمات رأسية :

١ ـ سفينة نيلسون التي هاجم بها اسطول نابليون في مصر ـ من سور القرآن .
٢ ـ دولة آسيوية ـ دولة وجزيرة بالبحر الابيض المتوسط .
٣ ـ من افرازات الجسم ـ داري ـ تتبع .
٤ ـ انسكب ـ ملكة مصرية قديمة .
٥ ـ تتبعها ـ نقص خلقي ـ ظهر .
٦ ـ من الوالدين ـ آلة نفخ موسيقية ـ نصف كلمة (بيان) ـ خبر .
٧ ـ غصن ـ يظهر ـ كثيرة .
٨ ـ شاعر عباسي .
٩ ـ ريبة ـ حرفان متشابهان ـ دولة آسيوية عاصمتها ولنجتون .
١٠ ـ سهل ـ حضرا ـ حلقن .
١١ ـ يخصه ـ أعترف ـ فتيات صغيرات .
١٢ ـ أفعى ضخمة ـ لا يبصر بعد غروب الشمس .
١٣ ـ شهر ميلادي ـ من الانماط المسرحية .
١٤ ـ نعتف ـ من رموز الملك ـ من سور القرآن الكريم .
١٥ ـ يعقدون ـ ماكر ـ من الحبوب .

كوبون مسابقة العدد ٢٦٧



حول الدائرة السوداء

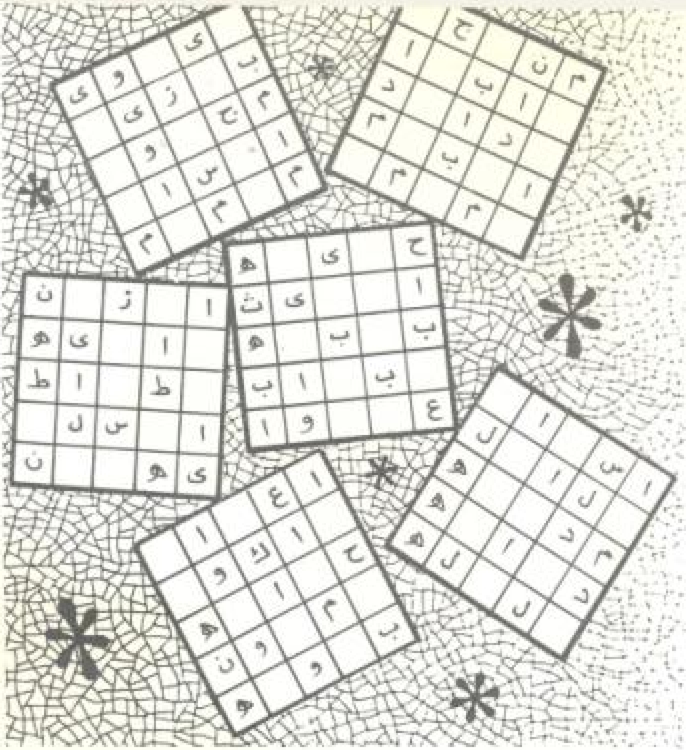
ضع الكلمات ذات الأحرف الأربعة ، التي نعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للأرقام . يساعدك في هذا وجود الحرف الثاني من كل كلمة على الشكل . اذا وصلت الى الكلمات الصحيحة ، ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

موسيقي ألماني عاش في القرن التاسع عشر

الكلمات لها المعاني التالية :

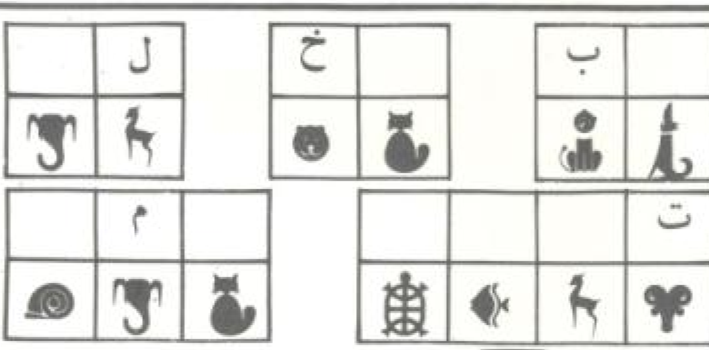
(١) هروب (٢) يرتفع (٣) أحتسي (٤) غشي (٥) يسكت (٦) يشرع (٧) شهر ميلادي (٨) ندع (٩) خلاعة (١٠) تشدو (١١) يشرح (١٢) من الفاكهة (١٣) أجرى (١٤) يحيّي (١٥) أخير (١٦) يسكن .

العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية ثقيلة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات أفقية ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحرف الناقص في المربعات الستة ، ورتبها لتصنع اسم عاصمة من عواصم العالم .

مثل عربي



أمامك مثل عربي معروف ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، الحرف الواحد يمثله نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض حروف كلمات المثل في موضعها المحدد . هل تعرف المثل اذا علمت أنه : « يعني أن الانسان قد يجد التراحم والتعاطف عند غير ذوي القربى » .

الحلول

العواصم : لشبونه .

حول الدائرة السوداء : روبرت اسكندر شومان .

مثل عربي : رب أخ لك لم تلده أمك .

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلان عن شغل وظائف
بالهيئة العلمية للمعهد العربي للتخطيط

يعلن المعهد العربي للتخطيط بالكويت عن شغل وظائف لاعضاء الهيئة العلمية بالمعهد من درجة خبير مساعد ، خبير ، مستشار ، في التخصصات التالية اعتبارا من أول تشرين أول (أكتوبر) سنة ١٩٨١ .

١ ـ خبير في التخطيط المالي :

ويكون مجال تخصصه الاقتصاد مع خبرة في مجال التمويل .

٢ ـ خبير في الحسابات القومية :

ويكون مجال تخصصه الاقتصاد القياسي والحسابات القومية مع خبرة في مجال الاحصاء .

٣ ـ خبير في القوى العاملة :

ويكون تخصصه الاجتماع ، مع خبرة في تخطيط القوى العاملة والتعليم ، أو أن يكون تخصصه في الديموجرافيا مع خبرة في تخطيط القوى العاملة .

ويشترط في المتقدم للوظائف المذكورة ، أن يكون حاصلا على الدكتوراه في مجال تخصصه من احدى الجامعات العربية أو الاجنبية ، ويفضل من سبق له الخبرة العملية في مجال تخصصه بالاضافة الى قيامه بالتدريس أو البحوث ، ويتم التعيين طبقا لسني التخرج والخبرة في احدى الدرجات التالية :

خبير مساعد ـ خبير ـ مستشار

وسيحدد المرتب حسب المؤهل والخبرة في المجالات المذكورة .

ترسل الطلبات بالبريد باسم مدير المعهد العربي للتخطيط مباشرة ، وذلك في موعد لا يتجاوز أول شهر آذار (مارس) سنة ١٩٨١ . ويذكر بالطلب فرع التخصص المراد شغله ، ويرفق به نسخة غير قابلة للرد من كل بحث أو مؤلف منشور في تخصصه ، توطئة للعرض على اللجان العلمية لفحص الطلبات المقدمة .

عنوان المعهد العربي للتخطيط بالكويت
ص . ب ٥٨٣٤ ـ الصفاة
الكويت



توشيبا تضيف اتجاهاً
جديداً على الموسيقى النقالة
التسجيل ذاتي الانعكاس
وكذلك الاستعادة
AUTO REVERSE
مسجلات راديو كاسيت - توشيبا - النقالة والخفيفة جعلت الاستماع أكثر متعة، حيث الآن لم تعد بحاجة الى أن تقلب الكاسيت عندما يصل الشريط الى نهايته. ذلك لأن كل جهاز مسجل كاسيت مزوّد بآلية الانعكاس الذاتي (أوتو ريفيرس) التي ابتكرتها "توشيبا" رائدة هذا الانجاز. ففي حالتي التسجيل والاستعادة، تتولى عنك هذه الأجهزة الثلاثة تغيير الاتجاه اوتوماتيكياً، وتوفر طريقة مستحدثة تمكنك من الاستماع الى الموسيقى دون توقف. أما مجال الاختيار فيشمل راديو بأربع موجات ومؤشرات LED دقيقة، مما يعطيك صوتاً واضحاً أينما كنت. إصطحب معك إينما ذهبت ثورة، وما يزال، في دنيا الأجهزة السمعية، طوال المئة سنة الأخيرة ... توشيبا.
RT-8290S
RT-8590S
RT-6540
RT-8590S
إستقبال إذاعي:
٤ موجات (إف إم، متوسطة، قصيرة ١، قصيرة ٢)
خرج القدرة: ١٢ واط
RT-8290S
إستقبال إذاعي:
٤ موجات (إف إم، متوسطة، قصيرة ١، قصيرة ٢)
خرج القدرة: ١٢ واط
RT-6540
إستقبال إذاعي:
٤ موجات (إف إم، متوسطة، قصيرة ١، قصيرة ٢)
خرج القدرة: ٥ واط
Toshiba
TOSHIBA
توشيبا

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

فبراير - شباط
١٩٨١ م

تكنولوجيا الطاقة البديلة

تأليف :
الدكتور سعود أبو عياش

٢٥٠ فلساً

الكتاب الثامن والثلاثون

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

WLC THE LONDON BUSINESS COLLEGE

يتمتع الطلبة الاجانب القادمون من كل انحاء العالم الآن بمناصب مرموقة ووظائف قيمة . والكثير منهم قامت بتدريبهم وتأهليم للمؤهلات المعترف بها عالميا ــ كلية غرب لندن والكليات الشقيقة لها ــ لماذا لا تكون أنت واحد منهم ؟! بمساعدة اعلى المستويات من الاساتذة وكل الوسائل التعليمية الممكنة لترافقك الى النجاح المبكر ــ كل هذا قد يستغرق وقتا اقل مما تظن وبذلك تصبح لندن تجربة ثقافية مميزة لا تنسى ــ بالاضافة الى اننا الكلية الخاصة الوحيدة في وسط لندن التي تمتلك بيت الطلبة الخاص بها .

شهادات الــ جي . سي . إي . المستوى العادي "O" او المتقدم "A" : أساس للالتحاق بجامعات بريطانيا ــ بواسطة أساتذتنا المتخصصين سنقودك الى النجاح في المواد التي تحتاجها مستقبلا .
الرسوم : ١٢٥٠ جنيها استرلينيا في السنة بالاضافة الى ٢٠ جنيها استرلينيا رسوم تسجيل .

المحاسبة : جمعية المحاسبين المعتمدين (A.C.C.A.) .
الرسوم : ١٢٥٠ جنيها استرلينيا في السنة بالاضافة الى ٢٠ جنيها استرلينيا رسوم تسجيل .

التدريب على الاعمال الحرة : اتحاد التنفيذيين في الاعمال الحرة ــ معهد ادارة الاعمال (معهد الصيارفة) إخطر الكلية باهتماماتك ويسعدنا أن نقدم لك خطة كاملة للدراسة لنجاحك مستقبلا .
الرسوم : ١٢٥٠ جنيها استرلينيا في السنة بالاضافة الى ٢٠ جنيها استرلينيا رسوم تسجيل .

التصدير والشحن : شهادة او دبلوم من معهد التصدير .
الرسوم : ١٢٥٠ جنيها استرلينيا في السنة بالاضافة الى ٢٠ جنيها استرلينيا رسوم تسجيل .

برمجة الكمبيوتر : انه مجال وظيفي مملوء بالفرص المتزايدة يوما بعد يوم في كل انحاء العالم ــ سنعطيك كمبيوتر خاص بك تحتفظ به دوما ونعدك لشهادة « سيتي اند جيلدز » في برمجة الكمبيوتر .
الرسوم : ١٥٠٠ جنيها استرلينيا في السنة بالاضافة الى ٢٠ جنيها استرلينيا رسوم تسجيل .

التسويق : شهادة أو دبلوم من معهد التسويق .
الرسوم : ١٢٥٠ جنيها استرلينيا في السنة بالاضافة الى ٢٠ جنيها استرلينيا رسوم تسجيل .

اعمال السكرتارية : جمعية الفنون الملكية « ار اس ايه » وشهادات بيتمان في السكرتارية والاختزال والآلة الكاتبة .
الرسوم : ١٢٥٠ جنيها استرلينيا في السنة بالاضافة الى ٢٠ جنيها استرلينيا رسوم تسجيل .

الانجليزية كلغة اجنبية : لدينا خمسة مستويات مختلفة للبداية تنطلق بك الى شهادة كامبردج في اجادة اللغة الانجليزية

اكتب الينا من اجل معلومات مجانية : اذا كنت حاصلا على شهادة الــ جي . سي . إي . (او ما يعادلها) او ترغب في ان نقوم باعدادك لهذه الشهادات وعمرك قد تجاوز السابعة عشرة . لماذا لا تطلب منا أن نرسل لك معلومات مجانية تقدم لك تفاصيل كاملة عن كل المجالات والامتحانات والفرص .

جميع المراسلات باللغة الانجليزية ..

WEST LONDON COLLEGE WLC

29, Century House, 100 Oxford St., London W1, England



أوريَنت تذكّرك بالوقت.. علَى أنغام الموسّيقى
ORIENT
QUARTZ
START-STOP
MUSIC ALARM
إليك آخر ما توصلت إليه أورينت . ساعة
كوارتز رقمية جديدة مع ضوابط تنبيه متعددة
الاستعمالات وسهلة التحكم . نغمات محددة من
"ماربليس" كتنبيه أول . وإذا رغبت ، هناك نغمات
ملحة أكثر، أو موسيقى دائمة - كل ساعة . هذا مثال
آخر على التقنية الخلاقة لساعة أورينت ، أول ساعة
في العالم بمنبه موسيقي . هناك مجموعة كاملة من
ساعات أورينت كوارتز لتختار منها . وكل ساعة
منها تعطيك أكثر بكثير من مجرد الوقت . بسهولة ورقة .
ORIENT اورينت
Manufacturers: ORIENT WATCH CO., LTD.
Official & Exclusive Exporters and Distributors to the Middle East:
JAPAN OVERSEAS CORPORATION
7-8-4, Minami-Aoyama, Minato-Ku, Tokyo. TEL:407-5901, TLX J26896 TIMETEST

مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

مدير التحرير
عبد العزيز السيد أحمد

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥
تصل أعدادها الى أيدي نحو ٠٠٠ر١٢٥ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالى ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : –

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في النواحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير – وثائق – يوميات – ببليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٤٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١ - كتاب التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) ١٩٧٩ .
٢ - كتاب آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .
٣ - كتاب حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .
٤ - كتاب الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .
٥ - دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها : –
الكتاب الأول – وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت – كلية الآداب والتربية – الشويخ – دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ – الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ – ٨١٦٧٩٩ – ٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير.

مِنَ المسرح العالمى

سلسلة ثقافية

تصدرها فى مطلع كل شهر

وزارة الإعلام فى الكويت

أول فبراير ١٩٨١

١٣٧

من الأعمال المختارة

يوجين أونيل ٤

تجارب أونيل التعبيرية

بقلم : د. عبدالله عبدالحافظ

١ - الإمبراطور جونز .. ترجمة : د. عبدالله عبدالحافظ

٢ - الغوريلا .. ترجمة : د. محمد اسماعيل الموافى

مراجعة : د. طه محمود طه

توقيت سانيو

تصنع **سانيو** ساعاتها الخارقة الدقة بنفس الأناقة التي توفرها لكافة منتجاتها. كما أن **سانيو** باعتبارها إحدى الشركات العالمية الرائدة في إنتاج الالكترونيات وشبه الموصلات، تدرك بأن الناحية العملية والتصميم لهما نفس أهمية الدقة الخارقة بالنسبة للساعة ولهذا فإنك تحصل على ذلك كله في ساعة **سانيو** الأمر الذي يعني أن توقيت **سانيو** هو دائمًا الأكثر دقة.



DW 362-36SLB

DW 362-36GLC



502103C

DW 347-20CLC

DW 512-60SBK

DW 372-41CCH

505111P



قامت سانيو بتكثيف أكثر من ...ر٤ عنصر الكتروني في رقاقة C-MOS-LSI العالية الأداء بسماكة ٤ ملم للحصول على دقة الكوارتز الخارقة والعديد من الوظائف الأخرى إضافة إلى التصاميم العصرية المدهشة.



SANYO سانيو

العربي

جمادى الأولى ١٤٠١هـ - ابريل ١٩٨١م



مغامرة "للعربي"

من سبتة إلى مليلية

عزيزي القارئ

موضوع التعاون الخليجي ، اخذ لاول مرة شكلا رسميا ، بالمجلس الذي اتفق عليه خلال مؤتمر مكة ، والذي يضم ملوك وحكام دول السعودية والكويت والبحرين وقطر ، وعمان ودولة الامارات .

والتعاون الخليجي ، موضوع قديم ، بدأ على الاقل بعد قيام احدث دولة فيه ، وهي دولة الامارات العربية المتحدة . ولكن ، لم ير الناس اعمالا ملموسة محددة في هذا المجال .

وبالتالي فاننا نتمنى هذه المرة ان تنجح تجربة التلاحم بين عدد من البلاد العربية تجمعها طبيعة واحدة ، مصلحة واحدة ، وموقع جغرافي واحد وعادات وتقاليد واحدة ...

ونحن نرى كيف ان العالم نفسه ينظر الى هذه المنطقة نظرته الى كيان واحد ، والصراع الدولي حول مصيرها يدور حولها كمصير واحد . ولعل الضغوط الخارجية التي دفعت الى هذا التفكير في التعاون يكون فيها خير ، اذا اخذنا بكلمة جمال الدين الافغاني « بالضغط والتضييق تلتحم الاجزاء المبعثرة ، والازمة تلد الهمة » .

واذا خرجنا من ازمة الضغوط الخارجية بتحقيق هذا الالتحام بين الاجزاء المبعثرة فسنكون قد استفدنا من شر عظيم ، وخرجنا من الخطر بفائدة اكبر .

والامر يتوقف علينا ، على العرب جميعا ، وعلى اهل الخليج بوجه خاص .

« المحـــرر »



صورة الغلاف

● « سبتة تطالب بالاستقلال » ، مكتوبة بحروف عربية فوق السوق في الحي العربي ، وهي تعبر عن ما يدور في سلسلة القواعد الاسبانية الخمس على طول الساحل المغربي على البحر الابيض المتوسط ، وهي نداء لتحرير اراض عربية مازالت في الاسر .

وهي قصة قرون طويلة من المعاناة والعسف ، واحد شواهد الاثار المدمرة التي مازالت باقية للصراع بين الشرق العربي والغرب .

[انظر ص ٦٨ ـ ٩٤]

قضايا عامة

قضايا حيوية

عروبة واسلام

طب وعلوم

آداب وفنون

من مكتبة العربي

اجتماع

استطلاعات مصورة

ابواب ثابته

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير : أحمد بهاء الدين
مدير التحرير : فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من أراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ١١٠ فلوس ، الخليج العربي ريالان قطريان ، البحرين ٢٠٠ فلس بحريني ، العراق ١٢٠ فلسا ، سوريا ١٠٠ قرش ، لبنان ١٠٠ قرش ، الاردن ١٠٠ فلس ، السعودية ريالان سعوديان ، السودان ١٠ قروش ، ج . م . ع ١٠ قروش ، تونس ٢٥٠ مليما ، الجزائر ٢,٥ دينار ، المغرب ٢,٥ درهم ، اليمن ٢,٥ ريال ، ليبيا ١٥٠ درهما ، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ٢٠٠ فلس .

الاشتراكات : يراجع طالب الاشتراك :
١ ـ الشركة العربية للتوزيع وعنوانها : ص . ب (٤٢٢٨) بيروت/لبنان .
٢ ـ مؤسسة توزيع الأخبار وعنوانها : ٧ شارع الصحافة/القاهرة/مصر .
« للمشتركين في جمهورية مصر العربية »

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراسلات : باسم رئيس التحرير
عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤١
تلغرافيا « العربي »

AL-ARABI — No. 269 — April 1981
P.O. Box 748 — KUWAIT

طرد العمال العرب من أوربا..

المال العربي في الخارج .. والعمل العربي في الخارج

بقلم: أحمد بهاء الدين

من أهم الأحداث التي تهمنا نحن العرب بالتأكيد ، رغم ان الصحافة العربية والرأي العام العربي ، لم يهتم بها ، او لم يعلم بها .. الحملة التي نشبت في فرنسا لطرد العمال العرب منها ..

وقد قاد الحملة الحزب الشيوعي الفرنسي ، دون غيره ..

حزب الطبقة العاملة ، والأممية ، هو دون غيره .. وجد انه يدخل الانتخابات العامة لرئاسة الجمهورية (في إبريل الحالي) دون أي شعار يلفت النظر . ولما كانت فرنسا ـ مثل سائر الغرب ـ في حالة انكماش ، وبطالة متزايدة بين العمال ، فانه ظن ان الدعوة الى طرد العمال الاجانب ، سوف تجد صدى لدى كل الفئات العاملة ، التي ترى بالطبع انها اولى بالعمل من الوافدين .

وفرنسا فيها حوالي ٢ مليون عامل أجنبي ..

من العرب فوق المليون ـ معظمهم من شمال افريقيا ـ والباقون من أسبانيا ، والبرتغال وايطاليا ، وافريقيا السوداء ، خصوصا المستعمرات الفرنسية السابقة في العالم كله .

ولكي يبرروا حملتهم بحجة اخلاقية .. قالوا ان العرب هم سبب انتشار المخدرات بأنواعها في فرنسا .



جورج مارشيه

دعوة الى طرد العمال العرب ..

وهذه حجة غير حقيقية طبعا ...

فانتشار المخدرات بين الشباب ظاهرة مرحلية ، ولكنها عمت أوروبا وأمريكا كلها . اي حيث يوجد العمال العرب وحيث لا يوجدون ايضا . ثم انهم اذا كانوا قد قبضوا على اسرة جزائرية فقيرة تستهلك وتبيع للفقراء .. فان شبكات تهريب المخدرات الكبرى ، عبر العالم ، كل اصحابها إما من المافيا الايطالية ، او من العصابات الفرنسية بالذات ، التي تحرك المخدرات عبر القارات .

انما الحقيقة هي ان الرخاء يخلق لدى المجتمعات صفات التسامح ، فاذا حلت ازمة اقتصادية ، او ضاق الرزق ، فان صفات التسامح تحل محلها صفات التعصب والتمييز العنصري . وتحاول الشعوب ، وبعض زعمائها ، أن توجد « كبش فداء » لمشاكلها ، ويكون كبش الفداء عادة هو أقلية دينية او عنصرية .

والذي لاشك فيه أن اهل كل بلد اولى بفرص العمل فيه ...

ولكن الذي لاشك فيه ايضا ان الهجرات هي احد ابرز ملامح الفترات التاريخية المتوالية . يهاجر الناس من حيث يضيق الرزق الى حيث يتوفر : من الصحراوات الى الوديان الخضراء ـ من الوديان الخضراء الى المراكز الصناعية ـ من المراكز الصناعية الى مصادر الثروة الطبيعية كالبترول وغيره من ثروات المناجم ـ من الطقس المتطرف الى الطقس المعتدل .. وهكذا ..

ولكن يضاف الى هذه الملامح السابقة ، ملامح أخرى تكمل الصورة ..

فجزء من هذه الهجرات ـ بعد الحرب العالمية الثانية بالذات ـ يعود الى التركة الاستعمارية لأوروبا التي حكمت معظم انحاء العالم ، خصوصا آسيا وافريقيا ، ما يقرب من ثلاثة قرون ...

اوروبا قضت ثلاثة قرون في استنزاف ثروات وموارد بلاد وقارات بأكملها ... وكان هذا الاستنزاف هو اهم مصدر« تمويل » للنهضة الصناعية في اوروبا . كاستنزاف انجلترا للهند واستنزاف فرنسا للمغرب العربي .

وعندما تركت الدول الاستعمارية مستعمراتها ، على كره منها ، وبثمن باهظ من الدماء والخراب والدمار ، تركتها شبه خالية من المتعلمين ، ومن الخبراء المدربين ، ومن مجالات العمل ، وندرة المال والمشروعات .

وكانت اوروبا بثرائها المخزون وبأموال مشروع مارشال الأمريكي ، تعيد بناء نفسها . وتحتاج الى عمالة اكبر مما لديها . ساعتها لم تجد غضاضة في ان تفتح ابوابها للعمال الوافدين . إنهم يأخذون مرتبات اصغر وارخص بكثير . وليس من حقهم أي مزايا مثل العلاج والسكن . ولا نقابات تدافع عنهم . كما انه ليس من حقهم الانتفاع بأي ضمانات تعطى للعامل الفرنسي او الانجليزي او الالماني . يمكن استئجارهم في يوم وفصلهم في يوم آخر .

وبعض دول اوروبا كانت ـ من باب الشكل والتمويه ـ تفتح باب الدخول بينها وبين مستعمراتها : الانجليزي يذهب الى الهند دون عقبة والهندي يذهب الى انجلترا دون عقبة . تقرر ذلك وغيره أيام كان الذهاب في الحقيقة كله في اتجاه واحد : من انجلترا الى الهند !. ولكن بعد تقدم المواصلات وسهولتها صار الذهاب مزدحما في الاتجاه الآخر : من الهند الى انجلترا !..

تماما كما كانت فرنسا مفتوحة لأي جزائري ، أيام كانت تحاول جعل الجزائر فرنسية ، اي جزءا من فرنسا لا مستعمرة لها فحسب ، وكانت تسمي الجزائريين « الفرنسيين المسلمين » . كانت ترحب بهؤلاء على أساس أنها بالمقابل سوف تأخذ وطنهم ملكا لها . واذا كان هناك مليونا اوروبي في الجزائر فلا بأس من وجود مليون جزائري في فرنسا ..

وحققت اوروبا رخاء لا مثيل له من بدء الستينات الى بدء الثمانينات . وصارت تمارس مستوى من الحياة لم تحققه حتى حين كانت تحكم ثلاثة ارباع العالم كله ...

واحيانا كانت تتصاعد طبعا صيحات ضد الجزائريين في فرنسا او ضد الاتراك في المانيا او ضد الهنود في انجلترا ، كمجرد طريقة من طرق الشهرة السياسية . ذلك ان الحكومات ، واصحاب الاعمال ، كانوا يفكرون بالعكس تماما .

فهذه الايدي العاملة الرخيصة ، المجردة من اي سلاح ، المحرومة من اي ضمان ،



جزء من الرخاء الرأسمالي الاوروبي ...

ثم ان النظرية الرأسمالية تقول بضرورة وجود « نسبة معقولة من البطالة » لان عدم وجود البطالة ، معناه ان الطلب على اليد العاملة اكثر من العرض . وبالتالي لابد ان ترتفع اجور الايدي العاملة أتوماتيكيا .

وبالتالي فان لوجود الأيدي العاملة الوافدة فائدتين : أولاهما تخفيض نفقات الانتاج لرخص اليد العملة ، وثانيتهما انها تزيد المعروض من اليد العاملة ، فتحول بذلك دون ارتفاع اجور العمالة بوجه عام .

إن لدينا مثلا شعبيا يقول « يأكلونهم لحما ، ويرمونهم عظما » . وهذا هو الوصف الشامل الكامل للموجة الاوروبية ضد العمالة الأجنبية . وبالذات العمالة العربية .

وفي تقديري ان المال العربي المستثمر في اوروبا ، من واجباته حماية العمل العربي في اوروبا ، حتى يجد طريقه عائدا الى بلاده العربية .. حين تفلح الدول العربية في استثمار مواردها واموالها بشكل يستوعب كل العمالة العربية والخبرة العربية .

ان المال العربي في الخارج ، يجري استثماره في بلاد بعيدة غير بلاده .

والعمل العربي ايضا في الخارج ، يجري استثماره في بلاد بعيدة غير بلاده .

اليست هذه مفارقة من اعجب المفارقات في الدنيا ؟

العنصران الاساسيان للنهضة والانتاج والقوة ، في الخارج .

فماذا ينقصنا يا ترى ؟

اليس هو العقل ؟

■■

احمد بهاء الدين



الدكتور زكي نجيب محمود يكتب

حدود التسامح

منذ نيف وثلاثين عاما (١٩٤٩ على وجه التحديد) طلبت مني الادارة الثقافية بالجامعةالعربية ان اضع تصوري للثقافة العربية المعاصرة ، ما اركانها ؟ وكان ذلك التصور مطلوبا بمناسبة مؤتمر ثقافي عربي انعقد عامئذ ، وقد أريد له به أن يجمع مع مجموعة من الآراء في مجلد واحد .

واذكر انني ادرت فكرتي حول محور التوفيق بين العقل والحرية ، فمن ابرز ملامح عصرنا أن للعلم الطبيعي المرتكزعلى اجهزة ، مكانة عليا ومكانا فسيحا ، والعلم قوامه منهج العقل بمنطقة الملزم ، الذي لايدع امام الناس حرية في اختيار النتائج ، وكيف يكون لنا اختيار والنتائج هي ما تنطق به الطبيعة ذاتها ، حين اجبرناها على الافصاح ببعض سرها ؟ فلما شعر انسان العصر بهذا القيد الملزم يثقل على صدره شيئا فشيئا ، وذلك لان تجارب العلم جاوزت ظواهر الطبيعة الجامدة الى ظاهرة الحياة الانسانية نفسها ، اقول ان انسان العصر حين شعر بقيد الحقائق العلمية تكتم أنفاسه ، التمس حريته في مجال آخر ، هو مجال الفنون ومجال القيم بصفه عامة ، فترك لنفسه عنانها تضع الالوان والخطوط كما شاء لها الهوى ، وترص الفاظ القصيدة من الشعر بلا ضوابط الاضوابط الشاعر الفرد ، وهكذا . فاذا ارادت الثقافة العربية ان تعايش عصرها كان عليها ان تقسم نفسها بين علم يلتزم الحق الموضعي الذى لااختيار فيه ، وفن تطلق فيه الحرية الفردية لتبدع ما وسعها الابداع ، فلايبقي علينا الا ان نرسم الحدود الفواصل بين ما يخضع للقيد في مجال العلم ، وما لايخضع له بنفس المعنى في مجال الفنون .

و ا التوفيق العصري بين مايستلزم قيود العقل وما تباح فيه حرية المذهب والمزاج شبيه - من حيث الشكل - بالامر في التوفيق الذي لجأ اليه اسلافنا العرب ، عندما واجهوا ثقافة قوامها « عقل » جاءتهم من أوربا ايضا (من اليونان) في صورة فلسفة وعلم ، فاخذوا يوفقون بين نتاج العقل كما جاءاليهم ، وبين الشريعة الموحى بها ، او هم حاولوا التوفيق بين العقل والنقل كما كانوا يقولون بمعنى ان يحاولوا قراءة كل من شريعة الاسلام وحكمة اليونان الواحدة بلغة الاخرى .

ولكن خاطرة جديدة قد الحت على منذ حين ، عندما وثبت الى ذاكرتي تلك المشابهة الشكلية بيننا اليوم وبين اسلافنا ، لانه وان كان مبدأ التوفيق بين طرفين ، احداهما « العقل »في الحالتين ، هو حكم الموقف الثقافي عندنا اليوم وعند أباتنا في الماضي البعيد ، الا انني رأيت فارقا جوهريا بيننا وبينهم ، في سماحة صدورهم لاختلاف وجهات النظر ، وفي ضيق صدورنا حتى لاتسع الاوجهة واحدة .

ولم يدعني هذا الخاطر الملح عن الفارق بين حاضرنا وماضينا ، من حيث روح التعصب التي تستبد بحاضرنا ، والتسامح الذي تميزبه ماضينا ، اقول أن الخاطرالملح لم يدعني حتى اتناول مفهوم « التسامح » بشيء من التحليل والتحديد ، لكي تكون المقارنة اكثر وضوحا .فلم البث ان وجدت المفتاح في التفرقة ـ او في الخلط ـ بين ما « يجب » قبوله في عالم الفكر وما « يجوز » رفضه او قبوله ، فبينما عرف الاقدمون كيف يفرقون بين المجالين ، فكان لهم ما كان من تسامح ،امتنعت علينا هذه القدرة اليوم ، فحسبنا واجبا ما هو جائز ، وجائزا ما هو واجب ، فنتج لنا عن هذا الخلط ما نتج من تعصب وتطرف .

ولو اهتدينا الى ما اهتدى اليه الاقدمون ، لفرقنا باديء ذي بدء بين ما هو« علم »وما هو« رأي »فأما الاول فملزم للجميع الزاما لامجال فيه لحرية الاختيار بين قبول ورفض ، واما الثاني فلكل ان يختار الزاوية التي ينظر منها ليكون له « رأي » أو « رؤية » في الحالة الاولى لأيتعدد الحق .فاذا صح حكم علمي معين ، وجب ان يبطل كل حكم يناقضه ، كأن يصح الحكم بان الارض كروية الشكل ، فلايجوز لاحد ان « يختار » لنفسه القول بانها مسطحة ، واما في الحالة الثانية فقد تختلف الاراء باختلاف المواقف واختلاف الثقافات ، وليس من حق موقف ثقافي معين ان يكون حجة على موقف ثقافي أخر ، فاذا اختار اديب او فنان في بلد اوروبي شكلا خاصا لادبه اوفنه ، اختار اديب او فنان عربي شكلا أخر ، فليس احدهما حجة على الثاني .

الى هنا واحسب ان الامر واضح لااشكال فيه لكن ينشأ الاشكال الصعب حقا ، حين نجد بين ايدينا موقفا نحس ازاءه بالالزام وبالحرية في آن واحد ، فهنالك في مجال الرأي درجات ، يهبط بعضها الى ان يكون لكل فرد حريته في الاختيار ، كالوان الثياب التي يرتديها وصنوف الطعام التي يشتهيها ، ولكن بعض تلك الدرجات قد يعلوحتى ليكاد يكون له وجوب المعرفة العلمية ، مع انه ليس منها ، وذلك حين يدور الرأي حول«قيمة »عليا من القيم التي تواضع المجتمع على أن تكون ركائزه التى يعتمد عليها في قيامه واستمرار وجوده ، فمثلا ـ بالنسبة للعربي ـ هل يجوز له ان يعبث باللغة العربية في اصولها وقواعدها وروحها ؟ جوابي هو بالنفي بالقاطع ، لا لانه قانون من قوانين الفيزياء والكيمياء واجب الاخذ به ، بل لانه « قيمة » قومية عليا ، بغيرها لايكون عرب ولاعروبة . لكن قارن ذلك بسؤال آخر: هل يجوز للفنان العربي ان يشيد عمارته على غير الطراز العربي ؟ جوابي هو بالايجاب ، لان « القيمة » هنا تقع في مجال الاختيار .

حيث تكون الفكرة علمية واجبة القبول ، يقع على صاحبها ان يؤيدها بالدليل العلمي الذي لا يبقى للشك مجالا ، واما حيث يكون الامر« رأيا » او وجهة نظر في شأن من شئون الحياة ، فهاهنا يجوز الرفض ويجوز القبول ، مع اعترافنا بأن مجال الرأي ليس كله على درجة سواء ، ففيه ما يوشك ان يكون قبوله وجوبا (داخل الامة الواحدة) وفيه ما يقبل التفاوت بين الافراد .

والطريق الى روح التسامح في حياتنا ، هو ان نميز بين ما يجب وما يجوز ، فلا نضع احدهما في موضع الاخر . ■■

« اعلم ان الشريعة عدل كلها ، وقسط كلها ، ورحمة كلها »

ابن قيم الجوزية

٤ وجوه لمأساة الشباب المسلم

بقلم : الدكتور احمد كمال ابو المجد

في العالم الاسلامي جماعات ، أكثر أفرادها من الشباب ، يعملون للاسلام ، ويرفعون شعاراته ، ويسعون ، جادين مخلصين لأخذ أنفسهم بتعاليمه ، ودعوة الناس حكاما ومحكومين ـ الى الالتزام به واتباعه .. ولكنهم مع ذلك يعيشون في غربة !

بينهم وبين أكثر الناس فجوة .. وبينهم وبين كل الحكومات جفوة . يبدأون كما يبدأ الدعاة في كل عصر ومصر .. يعظــون ويجادلــون .. ثم لا تلبث صدور بعضهم أن تضيق بما حولهم ومن حولهم .. ولا تلبث وجوههم أن تعبس وتكفهر .. فاذا تمسكهم بما يؤمنون به يتحول بهم الى عزلة .. واذا حوارهم مع غيرهم يستحيل الى مشاحنة ومخاشنة ونفرة . واذا انكارهم على مخالفيهم يجاوز القلب واللسان ، ليصير حربا ساخنة وصداما طابعه العنف والشدة .. واتهاما ـ لا مواربة فيه ـ بالكفر والجاهلية والردة . ثم تأتي ـ ولا بد ـ لحظة صدام ومواجهة مع الحكومات القائمة ، وتراق دماء ، ويسقط صرعى ـ في لحظات غاضبة محمومة .. ولا يرتفع ـ مع ذلك ـ للاسلام لواء .

ويعايش المسلمون المأساة في كل مرة ، وهي على مرأى منهم ومسمع . ولكنهم لا يملكون ازاءها الا الحيرة والدهشة والأسى . لايكاد أحد من مفكريهم وخاصة مثقفيهم وأولي الامر منهم يتوقف عند الظاهرة باحثا عن أسبابها ، محللا لظروف قيامها وتكرارها على هذا النحو المتشابه ، محاولا أن يقطع الطريق على هذه الدوائر العقيمة الخبيثة دوائر الحماس والعزلة ، فالجفوة ! فالصدام والدم والحرام . وغاية ما يصل الى الناس من حقيقة ذلك الامر أحاديث متفرقة مبتسرة ، تتناول الموضوع بالاشارة العابرة أحيانا ، وبطريق الاثارة الصحفية أحيانا ، وبأسلوب التخويف والاتهام الأمني تارة ثالثة أخرى متحدثة عن « النشاط الديني المتطرف » وجماعات التكفير والهجرة » ـ و « أهل الكهف » وغير ذلك من الاوصاف التي لا تزيد المأساة الا غموضا ، وتجعلها أقرب الى قصص الاثارة وأفلام الرعب .. وتحول دون البحث الجاد المسئول ..

ويدفعنا اليوم الى تناول أمر هذه الجماعات بالحديث المفصل أمران يجعلان السكوت عن هذا الحديث تقصيرا لا يغتفر .. واسهاما ـ بالصمت ـ في تكرار هذه المأساة المحزنة .

الامر الاول : أننا نعايش ظاهرة احياء ديني ، ومد اسلامي يشمل العالم الاسلامي من أدناه الى أقصاه .. وأن الدفعة الروحية ، والحماس الهائل الذي يصاحب هذا

المد ، يدفع بكثير من رواده ، خصوصا من الشباب ، الى مواقف تقترب بهم قليلا أو كثيرا من مواقع اقدام الشباب الذي سبقهم الى الوقوع في دوامة المأساة التي وصفناها .. أقول هذا عن معاينة ومعايشة وصحبة لآلاف من الشباب جمعتني بهم ظروف مختلفة في أقطار اسلامية عديدة ، وكأني ، وأنا أكتب هذه السطور ، أرى امامي وجوههم الطيبة النضرة ، يكسوها الجد ، ويعلوها الحماس ، ويزينها الاعتزاز الهائل « بالاسلام » والرغبة في توكيد « الانتماء اليه » .. وكأنني اسمع أصواتهم ـ كما سمعتها ـ تتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة أحيانا .. ثم ينزلق بعضها ، شيئا فشيئا الى متاهات ضيق الصدر ، واستعجال الامر ، والمسارعة الى اتهام الآخرين ، « بالجاهلية » ، و « الكفر » .

الامر الثاني : ان ما نشر خلال الاعوام القليلة الاخيرة عن هذه الجماعات وعن ظاهرة « الغلو في التكفير » ، وما تناقلته من أخبارها الصحف والمجلات كما يكشف عن جسامة الأخطار وفداحة الأخطاء التي يتعرض لها أولئك الشباب .. فانه يهدد بخطر آخر أشد فداحة . وهو خطر القاء ظلال المخاوف وغيوم الاتهام على كل نشاط ديني ، وكل تجمع يرفع شعارات الاسلام ويدعو اليه .

ان مسئولية كبرى في هذه المأساة تقع اليوم على عاتق العلماء والباحثين وأولي الرأي .. لوضع هذه الظاهرة بجوانبها كلها على مائدة التشريح والبحث العلمي ...

وأبادر فأقول ان الامر أكبر وأدق من أن تجري معالجته في مقالات متفرقة . وأضيف أن الامانة والانصاف لهؤلاء الشباب يقتضيان أن نلاحظ في حقهم أنهم ليسوا شركاء في كل هذه المعالم..اذ تصيبهم منها مختلف متفاوت .. وخلافاتهم بينهم حول كثير منها قائمة وبعضها موثق منشور ، وبعضها يعرفه حق المعرفة من خالطوهم وجادلوهم واتصلوا بهم ..

٤ معالم للمأساة

ان للمأساة ، على اختلاف حلقاتها المتكررة ، معالم مشتركة ، بعضها نفسي ، وبعضها فكري ، وبعضها يتداخل فيه المزاج الشخصي لقادة تلك الجماعات ، مع النسيج الفكري الذي يقدمونه لأتباعهم ..

١ ـ وأول هذه المعالم .. الانفراد بتعريفات خاصة لعدد من المصطلحات الدينية ، وهي تعريفات تتجه كلها الى الفصل النفسي والعقلي الكامل بين المسلمين وبين غيرهم .. وفي مقدمة هذه المصطلحات .. الايمان ، والكفر ، والجاهلية ، والطاغوت .. وأضاف اليها البعض مصطلحا آخر هو « الحاكمية » يحتاج ـ وحده ـ الى حديث طويل ..

والحديث في هذه المصطلحات حديث قديم له تاريخه الموثق المعروف في تراث الاسلام .. وآراء أهل السنة والشيعة والخوارج والمعتزلة فيه مدونة ومتواترة .. ولكنها ظلت قرونا طويلة مجرد « تراث » كامن في الكتب والمؤلفات..حتى جاء عالمان معاصران جليلان فتناولاها من جديد بالبحث والتحليل [١] ، وتابعهما ، على بصيرة أحيانا ، وعلى غير بصيرة أحيانا أخرى ، كثيرون .. فكانت هذه المتابعة مدخلا من مداخل العوج والانحراف .. هذان العالمان هما العلامة والداعية الباكستاني المعروف أبو الاعلى المودودي ، والداعية والمفسر والاديب الاستاذ سيد قطب عليهما رحمة الله .

واذا كانت المجاملة في قضايا الفكر خيانة لامانة الكلمة ، فان من حق الحق علينا أن نقول لهذا الشباب في غير مواربة أن كل أحد ـ مهما بلغ علمه وورعه ـ يؤخذ من كلامه ويترك الا النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم ... وكل من عداه (ص) يخطيء في اجتهاده ويصيب .. ونحن واياهم كما قال القائل : هم رجال ونحن رجال .. والعلامة المودودي رحمه الله كتب ما كتب في اطار مجتمع يسعى للتميز ، وشعب مسلم يتوجه « للانفصال السياسي » .. وتوكيد الذات في مواجهة الاخرين ..

أما الأستاذ سيد قطب رحمه الله فقد كتب جانبا كبيرا مما كتبه بعد معاناة هائلة من الاضطهاد والقهر ، ومن خلال العزلة التي أحاطه بها جو الاعتقال والسجن .. والوقوف عند أقوالها وحدها .. واسقاط ما عداها من اقوال غيرهم من العلماء والمفسرين والمجتهدين من عهد النبي (ص) والصحابة والتابعين .. مسلك لا يمكن قبوله .

(١) تناول العلامة المودودي في كتابه « المصطلحات الاربعة » شرح معاني كلمات ، الاله ، الرب ، والعبادة ، والدين » ـ وتعرض لمصطلحات الكفر والشرك ، والجاهلية ، والحاكمية .
كذلك كثر اهتمام المرحوم الاستاذ سيد قطب بمصطلح « الجاهلية » ، و « الحاكمية » .

يروي واحد منهم، خالفهم في بعض مواقفهم، ثم عني بالكتابة عنهم وعن ذكرياته معهم، حوارا طويلا دار بينه وبين واحد من زعمائهم. [٢] نورد هنا بعض فقرات منه لما تكشف عنه من أهمية قضية «المصطلحات» هذه عندهم، وما يكشف عنه كذلك من السهولة العجيبة ـ التي تبنوا بها مواقف فكرية بالغة الغرابة مسرفة في الشذوذ، شديدة العوج عن منهج أهل السنة والجماعة وجمهور المسلمين..

أ: يا (م) بارك الله فيه، ونصر الله بك وبه.. لماذا لا تصلي على كل من الشيخ (ص) و(ك)؟ (من أعضاء جماعة أخرى مسلمة تم اعدامهما).

ب: لأننا قد بلغناهم بالحق فرفضوه.

أ: علام اتفقتم وعلام اختلفتم؟

ب: اختلفنا في مسألة اقوال الصحابة وأقوال الفقهاء، فهم يأخذون بهذه الأقوال ونحن لا نعول عليها (كذا).

(أ): ولكني قرأت محاكمة (ص) وسمعت مرافعة (ك) عن نفسه، فتبينت وضوح المصطلحات لديهما، مصطلح الطاغوت والكفر والجاهلية والايمان والاسلام.

(ب): لكنهما رفضا أن يبايعا الجماعة، ونحن جماعة الحق، ومن عداها فليس بمسلم.

على أن انفراد هؤلاء الشباب بتعريفات خاصة لبعض المصطلحات الدينية لا يرجع ـ كما قد يتوهم ـ الى متابعتهم ـ ولو بالتفسير الخاطيء ـ لكتابات العلامة المودودي والمرحوم الاستاذ سيد قطب.. وانما يرجع ـ كذلك ـ الى تصديهم لما يسمونه «التعامل المباشر مع القرآن»، دون أن يكون لديهم الحد الادنى من أدوات الاجتهاد، ومع ضآلة نصيبهم من الفقه والتجربة، وقلة زادهم من قواعد التفسير والترجيح. وقد انتهى بهم الامر الى الفتيا في كبريات المسائل المتعلقة بالكفر والايمان بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فضلت افهام كثير منهم، وزلت اقدام آخرين.. وعزل بعضهم نفسه عن تيار الاسلام الضارب في أعماق التاريخ، حين اعتبر عصور الفقهاء منذ القرن الرابع للهجرة حتى نهاية الخلافة العثمانية عصور كفر وشرك وعبادة لصنم التقليد.

بين التكفير والجاهلية

٢ ـ وثاني هذه المعالم، تكفير المجتمعات المعاصرة، ووصفها بالجاهلية. وأساس هذا «التكفير» عندهم، ما فهموه، ربما بالظنون الفاسدة، من نصوص تعاملوا معها تعاملا مباشرا بالخواطر السانحة التي لا تغني من الحق شيئا.. لقد رددوا أول الامر ما قرره العلامة المودودي في كتاب المصطلحات الاربعة «من أن نقص المعرفة بمعاني الاله والرب والعبادة والدين يلبس على صاحبه» كل ما جاء به القرآن من الهدى والارشاد «فتبقى عقيدته وأعماله كلها ناقصة».. وقفز أصحاب نظرية التكفير من هذا الكلام الواضح الى القول بأن المسلمين في عصرنا قد ارتدوا عن الاسلام لانهم ينطقون بشهادة لا يعرفون معناها ولا يعملون بمضمونها، ومهما صلوا وصاموا وحجوا وزعموا أنهم مسلمون فلن يغير ذلك من كفرهم شيئا..

والمجتمعات المعاصرة في زعمهم لا تسير على الاسلام فأعمالها وتصرفاتها ونظامها السياسي والاقتصادي ليست اسلامية.. فهي ـ من ثم ـ مجتمعات جاهلية كافرة.. واستعمل بعضهم في ذلك مصطلح «الحاكمية»، زاعمين أن الاخذ في شيء من أمور المجتمع بأحكام غير مستمدة من شريعة الاسلام، مزاحمة لله تعالى في التشريع الذي هو صفة من صفاته، والمظهر الاساسي لحاكميته.. وأنه بذلك يخرج أصحابه من الايمان الى الكفر والجاهلية. ولعل من الكلمات التي ساعدت على التوسع في اطلاق وصف الجاهلية على المجتمعات المعاصرة ما ذهب اليه سيد قطب رحمه الله من أن «الجاهلية ليست فترة زمنية معينة من الزمان، انما هي حالة اجتماعية معينة، ذات تصورات معينة للحياة، ويمكن أن توجد هذه الحالة وأن يوجد هذا التصور في أي زمان ومكان» (من تفسيره للآية ٣٣ من سورة الاحزاب».

ومن حق سيد قطب رحمه الله علينا وعلى القراء أن نسبق القول في هذه القضية فنقول ان سياق كلامه (في هذا الموضع على الاقل) قاطع في دلالته على أنه ـ رحمه الله ـ انما قصد جاهلية المعصية ولم يقصد جاهلية الكفر الذي يخرج صاحبه عن أصل الايمان..

وينطلق هذا الشباب في صياغة أحكام قاطعة جائرة

---

(٢) هو الصحفي الاستاذ عبد الرحمن أبو الخير في كتابه «ذكرياتي مع جماعة المسلمين ـ (التكفير والهجرة)» ـ دار البحوث العلمية. الكويت. ١٩٨٠.

في أمور الكفر والايمان فيقولون : « من لم يكفر الكافر فهو كافر » .

وهنا لا نملك الا أن نلاحظ التشابه الكبير بين منهج الخوارج المعروف في تاريخ الاسلام ، ومنهج هؤلاء الشباب الجدد .. فالخوارج رفعوا ـ كما يرفع هؤلاء اليوم ـ شعار حق أرادوا به باطلا فقالوا : لا حكم الا لله .. ورد عليهم الامام علي رضي الله عنه فقال : « نعم لا حكم الا لله .. ولكن لابد للناس من أمير » .. وكذلك ذهب الخوارج الى تكفير من رضي بالتحكيم ، كما ذهبوا الى تكفير مرتكب المعصية .. وكلها أحكام لا دليل عليها ولا برهان .. ولكنها ثمرة « التعامل المباشر مع كتاب الله » تعاملا لا يسنده علم ، ولا يشهد له دليل أو برهان . ولهذا نستطيع أن نقرر أن فكر الخوارج كان ولا يزال أحد الينابيع التي يستمد منها كثير من آراء هؤلاء المتطرفين الجدد من الشباب .

ماهي الجماعة ؟

٣ ـ ونالت هذه المعالم ، تفسير معنى « الجماعة » التي أوجب الاسلام لزومها والارتباط بها تفسيرا يقصرها « عليهم » ، ويجعل مفارقتها والخروج منها نوعا من الردة والكفر ..

وفي هذه القضية أيضا تعامل الشباب مع النصوص تعاملا مباشرا بغير برهان محتجين بحديث البخاري في باب الفتن « من مات وهو مفارق للجماعة مات ميتة جاهلية » ، وحديث مسلم « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » ..

وحجر الزاوية في هذه القضية كلها هو تعريف الجماعة .. وليس في أقوال العلماء والمفسرين من عهد النبي (ص) الى يومنا هذا ـ عدا الخوارج ـ من يقول بهذا التفسير الضيق العجيب لمعنى « الجماعة » بل قالوا انها جماعة أهل الاسلام الذين يكونون أمة المسلمين ويحكمهم أمير وقيل هي الامام ومن معه من أهل الحل والعقد ..

ولا نريد أن نستبق القول في هذه القضية ، ولكنا نسوقها مثالا على فساد الرأي ، وسقوط الحجة ، وانعدام الدليل ، ومفارقة المنطق ، وانكار بداهات الامور .. والا فقد ثبت يقينا أن نفرا من أعلام الصحابة تخلفوا عن بيعة أبي بكر ، فما فكر هو ولا أحد من أصحاب النبي (ص) في اعتبارهم كفارا ومنهم العباس وابنه الفضل والزبير وسلمان وأبو ذر وعمار بن ياسر .. وقد بايعوا بعد ذلك بشهر .. كما ثبت يقينا أن نفرا آخرين من كبار الصحابة تأخروا عن بيعة علي رضي الله عنه منهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ، واسامة بن زيد وأبو سعيد الخدري .. ولم يقل لهم الامام ولا احد من الصحابة أنهم كفار « بل انه رضي الله عنه رفض أن يصف الخوارج بهذا الوصف ..

ومرة أخرى نعود الى الحوار الذي دار داخل احدى الجماعات المعاصرة حول هذه القضية :

أبو (م) : لا نصلي عليهما (عضوين في جماعة اخرى تم اعدامهما) لأنهما رفضا أن يبايعا الجماعة ونحن جماعة الحق ، ومن عدانا فليس بمسلم .

أبو (خ) : ألا يجوز أن نعترف بالامر الواقع ، تعدد الجماعات القائمة على التصور الصحيح ، لعل مرحلة قادمة توحد هذا الشتات .

أبو (م) : لا يجوز أن تتعدد الجماعة المسلمة ..

والغريب أن أبا (خ) هذا رغم دعوته الى تعدد الجماعات يعود فيتردد في ترك الجماعة قائلا « وكان ترك هذه الجماعة أشد ردة » .

ويبلغ التضييق في معنى الجماعة بعد ذلك حدا يربط الجماعة « بأميرها » و « زعمائها » وحدهم ، وهوما يصوره أحد اطراف الحوار السابق قائلا :

« لقد كان يكفي أن لا يعجب انسان ما بنقاش الآخر ، فيعتبره خارج الدائرة ويسلط عليه بالتالي سبل التعامل مع الجاهلية » ..

وحين يسأل احدهما صاحبه عن الحكمة في محاولة الاعتداء بالقتل على عضو آخر قائلا : لماذا هذا ؟

يأتيه الجواب في بساطة مذهلة : وهل هذا حرام ؟ ان قتل المرتد حلال شرعا ..

ويغيب في ظلام العزلة ، وفتنة الرئاسة ، وغرور الجرأة على الله بالفتيا في دينه ، والتعالي على الناس بالقضاء في دمائهم واعراضهم وأموالهم قضاء لا يسنده علم ولا هدى .. يغيب وسط تلك الظلمات قول الله تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ » ويضيع وسط الصرخات المتشنجة المريضة قول نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام وهو على أبواب لقاء الله ، مودعا هذه الدنيا وأهلها ، في حجة الوداع .

« أيها الناس .. ان دماءكم وأموالكم واعراضكم حرام عليكم الى يوم القيامة كحرمة يومكم هذا في عامكم هذا في بلدكم هذا » .

هجرة من .. ولماذا ؟

٤ ـ الهجرة ، والمفاصلة : رتب بعض هؤلاء الشباب على وصف المجتمعات المعاصرة بالجاهلية ، سلسلة من النتائج والمواقف السلوكية ترجع في جملتها الى اعتزال المجتمع ومؤسساته ورفض التعامل مع أنظمته وشرائعه ورموزه .. فاعتبروا المشاركة في الانتخابات العامة كفراً لأنه اتباع لنظام لحكم بغير ما أنزل الله .. ودعوا اتباعهم الى اعتزال المساجد القائمة لأنها في زعمهم « معابد الجاهلية » ولأن الذين يصلون فيها قد ارتدوا عن الاسلام ، والصلاة معهم شهادة لهم بالايمان مع أنهم كفار .. ويتعلل هذا النفر من الشباب في دعوتهم هذه بتفسير المرحوم سيد قطب لقوله تعالى في سورة يونس (الآية ٨٧) : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، واقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين » ..

ان التساهل الشديد في استعمال مصطلح الجاهلية، هو الذي زين مثل هذا التفسير ، وزين لهؤلاء الشباب أن يعتبروا مساجد اليوم كلها « معابد للجاهلية » .. رغم من فيها من القائمين والعابدين والركع السجود ..

كما أن الاقدام في جرأة على التعامل المباشر مع القرآن الكريم هو الذي فوت عليهم تدبر الآية الكريمة من سورة يونس . ولو تدبروا ، وسألوا أهل الذكر من الاقدمين والمحدثين لعرفوا أن الاذن لبني اسرائيل بالصلاة في البيوت كان اتقاء لقتلهم في المساجد على رأى بعض المفسرين ، وكان بسبب تخريب فرعون للمساجد ومنعه بني اسرائيل من الصلاة فيها على رأي آخرين ..

ويمضي أصحاب نظرية هجرة المجتمع الى نهاية الشوط ، فينادون بهجرة كاملة في صورة اعتزال المجتمع عزلة مادية حقيقية ولو الى الكهوف والجبال .. ويسمون اعتزال مؤسسات المجتمع الجاهلي مفاصلة له وهجرة منه . ثم يقيمون العلاقة بين المجتمع الذي هجروه ، والمجتمع الذي هاجروا اليه على أساس الخصومة والحرب .

ان المفاصلة الوحيدة التي يقبلها الاسلام هي المفاصلة الشعورية التي تتمثل في انكار المنكر بالقلب عند العجز عما سوى ذلك ، كما تتمثل في اعتزال المنكرات والآثام .. لا اعتزال الناس كلهم ، برهم وفاجرهم .

اننا نعتبر العزلة والهجرة في منهج هؤلاء الشباب بداية التخريب النفسي لاتباعهم .. وأول طريق العوج عن الاسلام ومنهجه الثابت في الدعوة والاصلاح وتعمير الكون .. انها تفتح على الدعاة باب المرارة وكراهية الدنيا وأهلها .. تدفع بصاحبيهم الى نوع من الذبول الاجتماعي العقيم .. يصوره أحد أطراف الحوار الذي أوردناه حين يتحدث عن اعتكافه فيقول انه « كان قائما على اقتناع بأننا في آخر الزمان ، ولا نجاة من المحن والفتن في مثل هذا الوقت سوى لزوم بيتي » .

أما اهل الخشونة والعنف فإن العزلة تلقى بهم في صدام ساخن مع الدنيا من حولهم وقد يندفع بعضهم الى التخريب والاذى « تحت شعار » تحطيم المجتمع الجاهلي » .. يفعلون ذلك وهم يرددون قول الله تعالى :

« ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين» (سورة الحشر ٥) ـ ولو تورعوا عن خطيئة ما سموه التعامل المباشر مع القرآن ، لعلموا أن ما ورد في الآية الكريمة من اباحة قطع نخيل بني النضير انما كان استثناء أحاطت به ظروفه .. وأن الادب الذي تعلمه صاحب رسول الله أبو بكر الصديق من خليله ونبيه (ص) هو الذي علمه لجيوشه المتوجهة للحرب الى الشام قائلا : لا تقتلوا امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تخربوا عامرا .. ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه » .

هذه أهم المعالم الفكرية والسلوكية التي يولدها الاخذ المباشر من القرآن بزعمهم .. وتولدها القطيعة مع تراث الاسلام المتراكم من اجتهاد أهل الذكر .. كما تولدها في النهاية عزلة المجتمع وهجرته .. وإن حمل ذلك كله اسماء وشعارات ينسبها أصحابها ـ بزعمهم ـ الى الاسلام ..

ولا علاج لشيء من هذه الجهالات الا بالكشف الهادىء عن زيفها ..وارساء المنهج القويم في فهم الاسلام والاستدلال على أحكامه ومبادئه ..حتى يرى هؤلاء وغيرهم حقيقة الاسلام في رحمته وسماحته وعدله ورفقه .. كما رآها ـ بنور العلم الصادق علماء الاسلام على امتداد تاريخه .. ووصفها واحد من ثقاتهم هو ابن قيم الجوزية قائلا : اعلم ان الشريعة عدل كلها ، وقسط كلها ، ورحمة كلها .. فكل مسألة خرجت من العدل الى الظلم ، ومن القسط الى الجور ، ومن الرحمة الى ضدها ، فليست من الشريعة وان أدخلت فيها بالتأويل .

« ولله الحجة البالغة » ■■

د . أحمد كمال أبو المجد

أقوال معاصرة



■ انني اطهو الطعام لعائلتي ، واكوي الملابس ، واكنس الارض بكفاءه .

الرئيس الاوغندي السابق عيدي امين .

■ الوقت بدأ ينفذ امام عملية السلام .

شمعون بيريز

■ فكرة البابا بولس الثاني لاعطاء القدس وضعا عالميا غير مقبولة ، لانها ليست كافية لحماية السكان والاماكن المقدسة .



الامير سعود الفيصل / وزير خارجية السعودية .

■ اننا نعامل العرب معاملة عادلة وجيدة !!

مردخاي تسيبوري / نائب وزير الدفاع الاسرائيلي

■ اذا اصطدم كوكب صغير بالارض وافنى مدينة او اكثر ، فلا تظنوا ان الحرب النووية قد وقعت .

تحذير من المجلس الاستشاري للفضاء بالولايات المتحدة الامريكية .



■ اسرائيل سيظل لها دائما مكانة خاصة في قلبي .

هارولد سوندرز / مساعد وزير خارجية امريكا .

■ عندما نطالب بالاختيار بين بيجين وبيريز ، فاننا في حقيقة الامر نخير بين الموت غرقا او خنقا !

عصام السرطاوي / عضو المجلس الوطني الفلسطيني



■ القلق المشروع على امن الدولة ، قد يؤدي الى الاغراء باخضاع الانسان بكرامته وحقوقه لسيطرة الدولة .

البابا يوحنا بولس الثاني

في خطاب له امام الرئيس الفلبيني ماركوس .

■ نحن نرحب بأى مسئول عربي يفكر في زيارة بلادنا ، ويمكنه ان يصلي في المسجد الاقصى ،لكننا نرفض اى كلام في موضوعى القدس والانسحاب الى ما وراء حدود عام ١٩٦٧ .

مناحيم بيجن

رئيس وزراء اسرائيل .

بقلم : روز ماري صايغ

تقرير مثير للعربي

من داخل الارض المحتلة

لقاء مع النساء الفلسطينيات تحت الإحتلال الإسرائيلي

السيدة روزماري صايغ ، التي تكتب « للعربي » ، تمكنت من دخول الأراضي المحتلة ، والخروج بهذا التقرير





■ ٢٠٠٠ فلسطينية دخلن السجون في ١٠ سنوات

■ تحذير للرجال : ان لم تبتعدوا عن السياسة فالنساء سيدفعن الثمن !

■ استجواب النساء اصبح قاعدة ودليلا على بلوغ الفتاة سن الرشد

■ سيدات الضفة وغزة يحلمن بتحرير الارض من خلال ١٥٠ جمعية نسائية

■ ام خليل دخلت السجن ٦ مرات ولا زالت تقود « جمعية الانعاش »

■ لماذا ازدادت صلابة الفلسطينيات في السنوات الاخيرة ؟

■ الشخصية الفلسطينية لم تعد تكتسب من العائلة وانما من الموقف النضالي .

تصعيد المقاومة

المقاومة الداخلية في فلسطين المحتلة تزداد باستمرار ، ويزداد معها بالتالي القمع الاسرائيلي وكثر ظهور الطلاب وصغار التلامذة والنساء على مسرح الاحداث . وبدا المجتمع العربي وكأنه انتهج نظاما جديدا في توزيع الاعمال بين النساء والرجال .. فقد تخلف بعض الذكور عن اداء بعض ادوارهم السياسية ، وذلك بحكم التزامهم بالعمل وكسب الرزق واعالة أهلهم .. فحلت النساء محلهم في القيام بتلك الادوار .. ولئن ظلت كفة الرجال هي الراجحه بين المناضلين والسجناء السياسيين والمبعدين .. فان النساء قد شاركنهم في شتى ضروب المقاومة .. المقاومة المسلحة ، بكل ما تنطوي عليه من مخاطر .. والمقاومة المدنية التي لا تقل خطورة في بعض الاحيان عن المقاومة المسلحة .

ان كل يوم من ايام زيارتي كان يأتي بدليل جديد على فعالية النساء . وأحد الاحداث النموذجية هو اعتقال ثمان من نساء نابلس (بمن فيهن زوجة عمدة المدينة السيد بسام الشكعة) بتهم القيام بمظاهرات غير مشروعة والقاء الحجارة على السيارات العسكرية التي ارسلت لتفريق تلك المظاهرات . وهكذا تعذر علي الاجتماع بالسيدات اللاتي كنت أريد مقابلتهن ، وذلك بسبب دوامة الاجتماعات ، اوالمؤتمرات الصحفية ، والمظاهرات ، وما الى ذلك من صنوف العمل الوطني التي غمرتهن .. اما اللاتي تمكنت من لقائهن ، فكان معظمهن ممن تعرضن للاستجواب او السجن او لكليهما معا .

آخر الباقين بالميدان

وما تزال تلك الصور عالقة بذهني .. من ذلك صورة المظاهرة النسائية في رام الله وقد شاهدتها على شاشة التلفزيون ، وشاهدت طائرة هليكوبتر تحلق فوقها ، وقذيفة الغاز المسيل للدموع ملقاة امامها وقد تصاعد منها الدخان ، ثم صورة المرأة العجوز وهي تعرج ، وكانت آخر من غادر الميدان . ثم صورة احدى المحاكم في تل ابيب ، حيث ظهر ثلاث شابات (مدرسات) وهن يرتدين الوان الرايه الفلسطينية الممنوعة ، ويتحدين حق المحكمة في محاكمتهن بتهمة التخريب . وكذلك صورة الفتيات اللاتي ركبن الاوتوبيس من القدس الى غزة ورحن يرددن الاناشيد الفلسطينية الوطنية .. والنساء بالاوشحة البيضاء والاردية الطويلة ، وقد اخذن يصحن بغضب في وجوه الجنود الاسرائيليين عند احد الحواجز على الطريق قرب بيت لحم ..

لقد بلغ عدد النساء اللواتي حكم عليهن بالسجن المؤبد أو احتجزن لبضعة ايام ٢٠٠٠ امرأة على اقل تقدير ، وذلك فيما بين سنة ١٩٦٨ ـ ١٩٧٧ كما ذكر احد الباحثين المحدثين . وربما كان هذا الاحصاء اقل بكثير من الحقيقة نظرا لانه اغفل الحالات التي لم تذكرها الصحافة ، وكذلك الاعتقالات الجماعية التي لن تعلن اسماء المعتقلات فيها .. انه سجل بالغ الاثر .. ينسف تماما صورة المرأة العربية « الصامتة » ، « السلبية » ، مثلما ينسف نظرية اخرى صادفتها تقول بأن النساء الفلسطينيات اقل من شقيقاتهن الجزائريات ارتباطا

بالنضال الوطني .. ولعل الفرق الكبير بين هاتين الحالتين انما يعزى الى موقف اجهزة الاعلام لا الى مساهمتهن الفعلية .

لقد اخبرتني احدى المحاميات التي تقوم بالدفاع عن الكثير من الفلسطينيين في تهم سياسية ، ان النساء يقاومن الاستجواب خيرا من الرجال . وهي تعلل ذلك في ان النساء اقل احتكاكا بالاسرائيليين في الحياة اليومية . ولكن تفسيرا آخر يرد الظاهرة الى ان النساء اللاتي ينخرطن في النشاط السياسي ، لا مفر لهن من تحدي الاهل او « حكومة » العائلة اولا وقبل تحدي الاحتلال الاسرائيلي . فهذا خروج على المألوف ، ويضمن لتلك النسوة ، مزيدا من مران ، ومزيدا من قدرة على العناد والمقاومة وهي القدرة التي تتجلى في الاقليات عادة . فالسياسة بالنسبة للرجال امر طبيعي ، هي جزء مما يفطرون عليه بحكم كونهم رجالا .. والكثيرون ممن يخوضون ميدان السياسة ليسوا شجعانا من قريب او من بعيد .. ومهما يكن من امر .. فالصمود او العناد يظل امرا تلقائيا لحد كبير ، دون حاجة الى مران او تدريب ....

والغريب ان استجواب النساء اصبح القاعدة المطرده في الارض المحتلة .. فالمرأة هناك لا مفر من استجوابها ان عاجلا او آجلا .. هذا ما لمسته لدى النساء اللاتي قابلتهن .. فقد توقعنه ، بل قل سلمن بوقوعه في يوم من الايام . ويبدو الامر كما لو كان الاستجواب قد اصبح شعيرة من شعائر النضوج وبلوغ سن الرشد . والدليل على تخطي الفتاة عهد الطفولة .. الى عهد المرأة المسؤولة .. وقد حدثتني « راغده » دون اي انفعال ، عن الاسبوعين اللذين قضتهما في « المسكوبية » ، حين سعى الاسرائيليون الى ارغامها على توقيع « اعتراف » بانتمائها الى منظمة التحرير الفلسطينية . سعوا الى ذلك بشتى الوسائل منها ايقاظها المفاجيء من النوم وتعريضها للضجة والازعاج المستمر ، واكراهها على خلع ملابسها ووقوفها امام المستجوب عارية .. وقذفها بانها « مومس » ، وتهديدها بالاغتصاب .

هذا هو الاستجواب العادي الذي لابد من توقعه .

حتى تلميذات المدارس

ولم تسلم تلميذات المدارس الصغيرات من هذا الاسلوب الوحشي . وقد خضعن له بشكل متزايد فحملن على التورط في العمل السياسي في سن مبكرة . فقد تمكنت من مقابلة انتصار الشيخ قاسم ، وهي تلميذة في



الخامسة عشرة ، وذلك في بيتها في مخيم جالازون ، بالقرب من رام الله . فقد تعرضت هذه الفتاة للضرب المبرح بالقضبان المعدنية وذلك على كلا فخذيها . وبقصد ارغامها على الافشاء باسماء زميلاتها التلميذات اللاتي يشتركن في المظاهرات . واظهرت الصور التي شاهدتها في الصحف في القدس فخذي انتصار المتورمين برضوضها الداكنه ورأسها مغطى . وشعرت بالاعجاب لشجاعتها في احتمالها لتلك المحنة بقدر ما شعرت به لعدم خضوعها للاستجواب الاسرائيلي . واجتمعت بها في مخيم جالازون واذا بها فتاة باسمة انيقة في ثياب « الجينز » ، تبدو وكأنها تخطت محنتها المفزعة نهائيا .. وقد اخبرني والدها انها طالبة ممتازة ، انه ينوي اعدادها لتصبح مدرسة او ممرضة .

وقصة انتصار تبين اساليب الاحتلال الاسرائيلي في الاقتصاص من الصغار بهدف التحكم وانزال العقاب الجماعي في الكبار . فقد تظاهرت كما تظاهرت اكثر طالبات الضفة الغربية ضد ابعاد بسام الشكعة ، فاستدعيت هي وزميلتان لها اثناء الدوام في المدرسة واحضرن الى مكتب الحاكم العسكري لاستجوابهن ، وخلال الاسابيع الثلاثة التي استغرقها الاستجواب ، كانت حياة اسرتها كلها ممزقة تماما . ففي كل يوم كان

ابوها او امها يصطحبانها الى المبنى الكئيب ، الذى تحيط به الاسلاك الشائكة ، والذى تحكم منه الضفة الغربية جميعها . واتفق ان كانت امها هي التي رافقتها الى هناك يوم ضربوها بالقضبان المعدنية .. فكانت الام تجلس مع الأخريات في الممر ، تسمع صراخ ابنتها ، ولا تستطيع ان تفعل اى شيء . اما ابوها ، وهو عامل بناء فقد خسر اجر اسبوعين وتحمل اتعاب المحاماة وقد بلغت ٢٠,٠٠٠ ليرة اسرائيلية .

على ان ظهور صور انتصار في الصحافة كان مربكا لاسرتها وخطرا على مستقبلها . وقد اخبرني والدها انه لن يمنعها ابدا من الاشتراك في المظاهرات ، بالرغم من انه لم يكن راضيا عن ظهور صورها في الجرائد . ولعلم الاب بقدرة السلطات على عرقلة تعليم ابنته بسهولة (كما فعلت في حالات كثيرة ، وعلى الاخص في جالازون) ، فقد وقع على اقرار ينكر فيه الاتهامات بان ابنته تعرضت للضرب !

وقد اخبرتني والدة انتصار ـ وهي امرأة هادئة ، جميلة ، لها وجه ينطق بالقوة ، وعينان تنطقان بالذكاء ـ انها تدعو الى الله الا تمر اية ام اخرى بمثل تجربتها .

العائلة تدفع الثمن

والعاملون بالمقاومة ، بصرف النظر عن مدى نشاطهم فيها ، يعلمون ان لابد ان تتعرض عائلاتهم للاذى اذا قبض عليها . فغالبا ما يلقى بالابوين في السجن مع ابنائهم لمجرد الاشتباه بهؤلاء الابناء او لرفض الاباء الافشاء باماكن تواجدهم . وبيوت المناضلين المشتبه فيهم اما ان تنسف او تغلق بالشمع الاحمر . ولا تستثنى من في ذلك احيانا البيوت التي يستأجرون فيها غرفا منفردة (كما حدث في حالة احدى المدرسات التي حوكمت مؤخرا) .

ويلاحظ ان سلطات الاحتلال ما زالت ترد على مقاومة الاطفال العنيدة باجراءات قمعية تزداد شدة يوما بعد يوم .. كمنع التجول ، والضرب واقتحام البيوت ، وتكسير النوافذ والاثاث وارغام الناس على البقاء في العراء طوال الليل . والغرض واضح : ارغام العرب على ضبط اطفالهم ومنعهم عن اعمال المقاومة ... وهو امر مستحيل ، والمرجح ان الاباء لا يحاولونه باستثناء قلة نادرة . وقد فشلت هذه السياسة ، لكن الثمن الذى يدفعه العرب لافشالها باهظ ويرتفع طوال الوقت . ويتوقع سكان جالازون اقدام السلطات على اجلائهم بالقوة !

والاناث ـ فتيات ونساء ـ معرضات للاضطهاد ـ لا بصفتهن فلسطينيات فحسب ، وانما بصفتهن اناثا ايضا . فالاعتداء الجنسي سلاح غالبا ما تستعمله سلطات الاحتلال لكن فهم الاسرائيليين للسيكلوجية العربية ، يؤدي بهم الى التفنن في استخدامه ، وذلك بقصد تنفير النساء مثلا من الاشتراك في المقاومة ، ناهيك بالضغط على عائلاتهن لمنعهن عنها . فهم يدركون ما « للشرف » ، من قيمة وخطورة في حياة العرب .. ويتخذون من الاغتصاب في الاراضي المحتلة اجراء ووسيلة من وسائل كثيرة لبث الرعب والسيطرة على السكان ككل . وعلى كل ما تعانيه النساء بسبب نشاطهن الثورى المباشر ، فانهن يتعرضن لاضعاف ذلك من عذاب او تهديد لا لسبب الا من اجل الضغط على ازواجهن واخوتهن . وما اكثر الرجال الذين قاوموا الاستجواب ولكنهم ، ما لبثوا ان انهاروا حين هددوا بالحاق الاذى في شقيقاتهم . وقد لا يصدق المرء ان والد رسمية عودة اكره على الاشتراك في اغتصاب ابنته جنسيا !

وقل مثل ذلك في شتى الروابط التي تجمع بين الجنسين . الحب ، والحماية ، والخوف ، والعار ، كلها تستخدم لتحطيم المقاومة الجماعية ، ولكن هذه الاساليب القمعية لم تحقق اغراضها حتى الآن فالمقاومة تبدو في تعاظم لا في انكماش . لكن الخوف هو الا ترى سلطات الاحتلال ذلك فلا تدرك ان سياسة « العقاب العائلي » سياسة فاشلة ، بل تعتقد ان العلة انما هي في عدم التمادى بتطبيق تلك السياسة الى اقصى حد ممكن . ويبدو أن المستوطنين من جماعة غوش اينومين بالتحديد اقرب الى الاخذ بهذا النوع من العقاب او ان شئت الاستفزاز . ففي العام الماضي في رام الله ، وفي فترة التوتر التي سبقت الهجوم على الشكمة مباشرة ، اختطف اولئك المستوطنون فتاة عربية لبضع ساعات وذلك بقصد الاستفزاز واثارة الاضطرابات الجماعية كما بدا للكثيرين .

معيار الشخصية

على ان النساء الفلسطينيات عامة وفي الاراضي المحتلة بخاصة يبدين من النشاط في المجال الاجتماعي / الثقافي بالاضافة الى اعمال المقاومة ، ما اكتسب اهمية وطنية كبرى في ظل الظروف الراهنة . ولا يعزى ذلك الى تسامح سلطات الاحتلال ، لان العكس هو الصحيح .. ذلك ان النمو العادى الذى يشمل التوسع في تعليم الفتيات كان محرما على العرب المضطهدين . لكن

مخاطر السجن والبطالة التي يواجهها الرجال ، بالاضافة الى الاحساس الشامل بالتهديد الموجه الى المجتمع ككل كان هو الباعث على تحرك النساء وتعبئة من يتمتعن منهن بمواهب القيادة والتنظيم ، وقد ظل هذا جاريا منذ فترة طويلة . ولا غرابة في ان تعمل مثل هذه الازمة التي طال امدها اكثر من نصف قرن ، على ابراز وترسيخ العنصر الاجتماعي / السياسي الذي طالما بقي كامنا في دور المرأة العربية .

ان كلمة « شخصيات » تستخدم في اللغة الدارجة في القدس والضفة الغربية وقطاع غزة . (علما بانها غير شائعه بهذا القدر في اماكن اخرى) للدلالة على النساء البارزات المشتركات في العمل الوطني الاجتماعي . وتنطوي اللفظة على قوة الشخصية ، والقدرات التنظيمية ، والاحساس بالرسالة ، فضلا عن المكانة العائلية / الاجتماعية المرموقة .

وكادت « الشخصيات » في فترة الانتداب ان تكون وقفا على عائلات القدس الكبيرة ، باستثناء قلة وجدت دائما في مدن اخرى : في حيفا ، نابلس ، عكا ، الخ . وغالبا ما رافق ظهور هذه الشخصيات وضع التعبئة المتقطعة او الهبات التي قام بها العرب ضد احتلال اجنبي قوي ، وذلك في مجتمع قائم على اساس من الروابط المحلية العميقة .. وحيث حال الاضطهاد دون ظهور حركة موحدة او تنظيم شامل على مستوى الامة .

وبقي الوضع الذي ذكرنا على ما هو عليه اليوم .. وكذلك بقيت الاطر السياسية والاجتماعية للدور الذي نتحدث عنه على حالها . ولعل وضوحه الاعظم في الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة يشير الى ان البناء الاجتماعي قد ظل هنا اقرب الى فلسطين ما قبل ١٩٤٨ ، منه الى البناء الاجتماعي في اسرائيل او باقي الشتات .

ولكن اذا قارنا بين شخصيات اليوم وشخصيات الماضي ، لرأينا التغير الذي طرأ على هذا الدور . فعلى الرغم من انه لا يزال مرتبطا ارتباطا قويا بمكانة العائلة الاجتماعية ، الا ان معيار الشخصية اليوم هو الكفاءة . فقد اصبحت الشخصيات سياسية اكثر - وقبل ١٩٦٥ كان العنصر الاجتماعي في دورهم هو المعيار البارز وعلى الرغم من ان تقليد العمل التطوعي غير المحترف ملمح مميز لهذا الدور (مما يجعله لا يروق للنساء الاصغر سنا ، والأعلى تدريبا ، اللاتي يردن تأكيد استقلالهن الاقتصادي) ، الا انه قد اصبح ديموقراطيا ، بحيث ينتشر افقيا ورأسيا باتجاه مستوى البلدة الصغيرة والقرية .

فالنساء يقمن اساسا بادارة حوالي ١٥٠ « جمعية خيرية » محلية في الاراضي المحتلة والسيدة التي تصحنني الجميع برؤيتها في غزة هي الست يسرا البربري . وقد لاحظت انه في حين ان القيادات النسائية في اسرائيل ولبنان يشار اليها بكلمة « اخت » فان الكلمة لا تزال تحتفظ في الاراضي المحتلة بلمسة من الطابع الاجتماعي القديم في الكلمة المستخدمة على نطاق واسع ، وهي كلمة « ست » (سيدة) .. لكن ربما كان الفرق فرقا في اللفظ لا في المعنى او الجوهر ..

والست يسرا سيدة من عائلة وطنية مشهورة ، من سكان غزة القدماء . كانت فيما مضى ناظرة المدرسة الثانوية الوحيدة للبنات في غزة ، ثم مفتشة على مدارس البنات ولكنها رفضت ان تستمر في العمل تحت الاحتلال الاسرائيلي . فتولت اعمال الاتحاد النسائي وكرست وقتها له ، علما بانها تفعل ذلك على اساس تطوعي . ولهذا الاتحاد مركز كبير في قلب مدينة غزة - وهو أكثر الاماكن التي رأيتها في المنطقة نظافة وجاذبية . فمن خلال ابسط المواد - ستائر ومفارش اسرة قطنية ذات رسوم زاهية - تحول هذا المركز لرعاية الاطفال في النهار الى واحة صغيرة من البهجة وسط الصحراء ذات اللون الرمادي الكئيب الذي يسود القطاع . ويعجب المرء للمطبخ والحمام وقد بلغا ذروة النظافة .. بالرغم من ان نزلاء المركز اطفال صغار تتراوح اعمارهم ما بين اربعة شهور وخمس سنوات تتركهم امهاتهم العاملات فيه اثناء عملهن في النهار . والمركز احد اربعة مراكز اخرى للرعاية يديرها الاتحاد النسائي في غزة . وفي غرف أخرى في المركز نرى امثلة رائعة من اعمال « الكروشيه » واشغال الابرة . وتطوف عضوات الاتحاد في ارجاء المركز وهن يرتدين الثياب الفلسطينية التقليدية .

تجسيد لكبرياء غزة

والست يسرا وهي الشخصية التي تقف خلف هذا الصرح .. سيدة منتصبة القامة ذات شعر مرسل اشيب (غير مصبوغ) ، ترتدي حذاء مسطحا ، وحلة سوداء بسيطة ، ويبلغ من حرصها على النظافة والترتيب والعمل الجاد ما اكسبها الشهرة باسم « الألمانية » ولربما كان ذلك لانها درست ، وهي فتاة في كلية شيلر في القدس (وهي تقول ان حب الترتيب والنظام متوارث في العائلة) . لكن الناس يحترمونها لموقفها المتحدي تجاه الاحتلال الاسرائيلي اكثر مما يحترمونها لكفاءتها . وقد نجحت

كمديرة مدرسة في التأثير في جيل كامل من فتيات غزة (ومن بينهن ام جهاد ، التي يقال انها اول امرأة انضمت الى عضوية حركة فتح) .

واشعر انها تجسد كبرياء غزة التي كانت يوما ما ثاني مدينة في فلسطين ، ويبدو الشريط الاسود الذي تلف به شعرها وكأنه رمز للحداد على المدينة ، وهي محتلة ، معزولة وفقيرة .

وهي تؤكد في الحديث الذي جرى بيننا الاهمية الوطنية لشل العمل الاجتماعي الذي يؤديه الاتحاد النسائي . فاعضاؤه يساعدن عائلات المسجونين والعائلات المحتاجة ، ويقمن بتعليم الاطفال ، ويبقين الوعي الوطني حيا . وهن يساعدن ايضا النساء العاملات ، وزوجات الشهداء وبناتهن . ففي غزة يبلغ تعداد السكان ٤٤٦,٣٣٠ (١٩٧٧) ، معظمهم من اللاجئين . وهناك القليل من فرص العمل ، سواء بالنسبة للعمال او الخريجين (فهناك مرسوم من الجامعة العربية يحول دون توظيف سكان غزة في البلاد العربية) ❋ .

وهناك عدد غير عادي من النساء بلا رجال يعولونهن ، وذلك بسبب القمع القاسي الذي حدث في السبعينات . وهناك عدة الاف منهن تنقلهن الباصات للعمل في المصانع الاسرائيلية ، اما الوسائل المتوفرة لاتحاد غزة النسائي لمواجهة مشاكل جماهير النساء فغير كافية بالمرة . وتقول الست يسرا بغضب محكوم تماما : « ان اتحاد النساء الفلسطينيات لديه المال اما نحن (اتحاد نساء غزة) فليس لدينا مال ، وليس امامنا الا ان نعمل » . وهي تعرب ايضا عن شعور سائد في الاراضي المحتلة ، وهو ان المخصصات التي توزعها اللجنة الاردنية ـ الفلسطينية لا تصل الى مستحقيها ...

اما الضفة الغربية ، وهي اقرب الى العالم العربي وبالتالي الى المخصصات المالية فهي اقل ركودا من غزة ، على الرغم من انه جائر . فهنا توجد معظم الجمعيات الخيرية المائة والخمسين . فكل مدينة وقرية كبيرة لها جمعيتها ، ودور المرأة فيها حاسم . ويعترف الدكتور امين الخطيب بتفوقهن ويقول : ان النساء اكثر نشاطا من الرجال ـ هذه حقيقة لا استطيع انكارها » وهو يعتقد ان النساء اكثر ملاءمة لانواع معينة من العمل الاجتماعي كزيارة البيوت ، فهي امر طبيعي بالنسبة لهن . لكنه يلاحظ تغيرا مثيرا : فقبل ١٩٦٧ لم تكن النساء تشكل غالبية الاعضاء النشيطين فحسب ، بل كن يرأسن الجمعيات ايضا ولم يختلف الحاضر عن الماضي .. اذ مازالت النساء يقمن بمعظم الاعمال بالرغم من ان الرجال شرعوا في تسلم القيادة منهن ، ربما لانهم ممنوعون من ممارسة ادوارهم السياسية .

الست ام خليل

والست ام خليل من سيدات البيرة دليل آخر على نشاط النساء ... فهي لا تزال القوة الدافعة وراء الجمعية التي اسستها ـ جمعية انعاش الاسرة . وكالست يسرا وغيرها من الكثير من الشخصيات ، نجحت الست ام خليل في الجمع بين الدور السياسي الرمزي في تحدي الاحتلال ، والدور الاجتماعي ـ التنظيمي في ادارة جمعية الانعاش بنشاطاتها المتعددة ، وقد اتسعت دائرة الاعجاب بها لنموها وتنوعها .

كانت البداية في ١٩٦٥ ، وبمبلغ مائة دينار اردني ، وهو ما يكاد يكفي ايجار غرفتين وراتب مدرسة لتعليم الخياطة ، وجمع عشر طالبات . اما اليوم فللجمعية بناء ذو ثلاثة طوابق ، يضم ٣٢ حجرة و ٦٧ موظفا ، ويبلغ ما يدفعه من الاجور الشهرية ٢٥٠٠ دينار اردني . وقد اتسع فصل تعليم الخياطة واضيفت فصول ودروس اخرى : هذا بالاضافة الى مركز نهاري للاطفال من ابناء النساء العاملات و١٣ مركزا لمحو الامية في القرى المجاورة (بالتضامن مع جامعة بير زيت) ، ومساعدات توزع على ١٣٠ اسرة محتاجة ، وخطة لرعاية اطفال ضحايا الحرب وشهدائها . وقد دعى الاطباء وأطباء الاسنان المحليون الى معالجة عشر حالات شهرية مجانا .

وتقوم جمعية الانعاش ببيع منتجات حوالى ٢٠٠٠ امرأة يقمن باعمال الخياطة في منازلهن . وهناك مصنع لتجهيز الاطعمة انشيء ليكفل العمل للنساء النازحات بعد حرب ١٩٦٧ . وعلاوة على ذلك ، فقد قمن بافتتاح متحف للتراث الشعبي ، واسسن مجلة باسم « الثقافة والمجتمع » ، وهي واسعة الانتشار بين الفلسطينيين ، وقد نشرت دراسة لاحدى قرى الضفة الغربية ، وهي قرية ترمسعية بالاضافة الى مجموعة من الامثال . ويقمن حاليا باجراء بحث يتناول صناعات النساء اليدوية التقليدية .

❋ العربي .. لم نستطع التثبت من وجود هذا المرسوم .

وام خليل ، وهي محور هذه الاعمال الآخذة بالنمو والاتساع ، امرأة ذات طاقة غير عادية وقدرة على التنظيم فطرية . وهي تبلغ من العمر حوالي ٦٠ عاما ، وشعرها الاسود ممشط الى الخلف على شكل كعكة . وهي تشبه رئيس قبيلة هندية محاربة ، لو نظرت اليها من جانب .

والساعة الثامنة والنصف صباحا هو الوقت المفضل للقائنا في بيتها المتواضع في ضواحي رام الله . ولكن اليوم عطلة ، ومع ذلك فقد قامت برحلة طويلة الى غزة ، وتعذر عليها ان تعطي اجتماعنا اكثر من ساعة ونصف ، ورغم هذا كله وبالرغم من ان احدا لايساعدها في الاعمال المنزلية ، فبيتها نظيف . وعلى الموقد يوجد قدريه كوسة محشوة . وتقول لي صديقتها (ريما طرزى) ان ام خليل كانت تدير شئون بيتها وتربي اطفالها الاربعة طيلة الوقت الذى كانت تؤسس فيه جمعية انعاش الاسرة .

وهي تعيش الآن وحدها مع زوجها ـ فكل ابنائها في الخارج ولا يسمح الا لواحد منهم فقط بالعودة لزيارتها . وقد ابعد اثنان من ابنائها ، والقي بواحد منهم في السجن .

وقد حاول الاحتلال في اكثر من مناسبة التدخل في انشطة جمعية الانعاش ، واغلق ابواب مراكزها القروية . وادخلت ام خليل السجن ست مرات . لكن لم تتوافر حتى الان الادلة الكافية لاغلاق الجمعية ـ وتطبيق القانون الاردني في الضفة الغربية يمنحها الحد الادنى من الحماية . والعمل الاجتماعي ، بالنسبة لها ، جزء لا ينفصل عن الكفاح الوطني : « هذه هي الطريقة لتحرير ارضنا » .

هل من شأن قدرة المرأة الجديدة على الكسب ان تحسن وضعها في العائلة ؟ الست ام خليل تعتقد ذلك وتقول : « في الماضي كان الرجال لا يسمحون للنساء بالذهاب الى الاجتماعات لكنهم الآن يطلبون ذلك منهن والقرويون لم يسمحوا لبناتهم بالتعلم ، والآن الكثيرات منهن طالبات في الجامعة . وحينما سألتها عن رأيها فيما سيؤول اليه وضع المرأة في المجتمع الفلسطيني في المستقبل ردت بحماسة : « سوف اعمل لاجعل النساء الغلبية ! »

وهي ترى ان التعاون مع النساء افضل واجدى وتقول : « هن جادات في العمل ، اكثر اخلاصا ، واقل انانية ـ لكنها ليست من دعاة حركة تحرر المرأة وتتابع قولها : وقد تبدأ الفتاة في فرض شروط على عائلتها حين تبدأ الكسب ونحن لا نشجع مثل هذه الروح في فتياتنا » .

ولعل شخصيات « اليوم » تبين كيف تغير دورها تبعا لتعاظم التبعة وتفاقم الازمة الوطنية .

وعلى الرغم من ان هذه الشخصيات ليست من الجماهير ، الا انها اقرب اليها من سيدات القدس اللاتي اسسن اول اتحاد نسائي عربي في ١٩٢٩ . فهن يتكلمن نفس اللغة التي تتكلمها نساء القرية والمخيمات ، ويطبخن نفس الطعام ، ويقمن بنفس الواجبات المنزلية والاجتماعية ، ويعشن ضمن نفس الاطر الاجتماعية / الثقافية للمجتمع المحلي . وعلى الرغم من ان اشهر الزعيمات تأتي من عائلات مالكة راسخة ، فان المرء يستطيع ان يجد اثر دورهن على مستوى القرية والمخيم ، وعلى اساس انتشاره نستطيع ان نستنتج انه يفي بحاجة النساء الخاصة للاسهام في مجال عام للعمل ، كما يفي بمتطلبات ظروف التشتت ، والاضطهاد ، والتحكم العامة التي تحول دون تنظيم الامة على نطاق واسع .

وثمة دليل آخر على مدى رسوخ هذا الدور ، دور المرأة العربية الفلسطينية ، فهو يظهر حتى في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ رغم الظروف المختلفة والعقبات السائدة هناك . فقد حال الاضطهاد الاسرائيلي هنا دون بروز قيادة فلسطينية ، من الرجال او النساء ، ورسخ وضع النساء في المنزل ربات بيوت وذلك بمصادرة الارض ، وعدم المساواة بين الذكور والاناث في التعليم ، والاستغلال الاقتصادى ناهيك بالرجعية الحضارية التي كانت شكلا من اشكال ردود الفعل للسيطرة الاسرائيلية .

وقد حال الفقر ونقص المخصصات العامة دون قيام مشروعات التنمية الاجتماعية حتى على مستوى الضفة الغربية وهكذا بدت غيبة النساء عن تلك المشروعات المتاحة ، وهي قليلة في فلسطين المحتلة ، ملحوظة كوجودهن في مثل تلك المشروعات على الجانب الاخر من الخط الاخضر .

اضف الى ذلك ان الضغوط الاقتصادية اكرهت بعض النساء (١١,٨٪ في ١٩٧٧) على العمل خارج المنزل ، وليس لدى هؤلاء الوقت الكافي لاى عمل جماعي اضافي . وهكذا اصبح دور النساء العام في اسرائيل محدودا اكثر منه في اى مكان اخر في المهجر . ولكن وبالرغم من ذلك ، فقد سمعت عن نساء نشيطات في قرى الجليل . وعن رابطة نسائية في عكا ، تدير روضة اطفال ومركزا لتدريب المدرسات وتوجد في الناصرة

بعض مجموعات نسائية الى جانب الحركة النسائية الديموقراطية ـ المرتبطة بحزب راكاح الاسرائيلي وهي مجموعة كبيرة ورئيستها هي سميرة خوري .

عائدة الى الناصرة

الا ان الاخت سميرة تعتبر « شخصية » بالرغم من عضويتها في راكاح فهي تتحلى بنفس الطاقة وترتدي نفس الثياب البسيطة ، وتنتهج اسلوب الحياة البسيط الذي يختلف عن اسلوب الفلسطينيات الموسرات في بيروت ، وتوفق بين اعمالها المنزلية وجهودها الاجتماعية والسياسية . وهي تعمل بجد ، وتقود سيارة صغيرة ، وتحضر اجتماعات اللجان الكثيرة . وفيما عدا هذا فان حياتها تشبه كثيرا حياة اية امرأة عربية اخرى . ومما يذكر هنا ان تحرير المرأة ليس جزءا من برنامج راكاح ، وقد اصبح كذلك في برنامج حركة « ابن البلد » ، وهي حركة تقوم على اساس قروي وتنافس راكاح بشدة على قيادة الاقلية الفلسطينية في اسرائيل .

وقد بدأت الاخت سميرة بنشاطها في ١٩٤٨ ، حين عادت الى الناصرة ، وقد حالت الحرب دون استكمال تدريبها لتصبح مدرسة ، ووجدت اللاجئين من شتى القرى المجاورة يتدفقون على المدينة . وقد حاولت هي وبعض الصديقات ان تساعدهم ، بتوزيع الطعام والكساء (فلم يكن هناك وكالة غوث دولية في اسرائيل) ، وبتنظيم مظاهرات ضد الابعاد والتهديد بالابعاد . كانت تلك هي الفترة التي تذرعت فيها قوات الدفاع اليهودية بمحاصرة مخيمات اللاجئين ، وتهديد الرجال بشتى الاساليب ، وذلك بغية ارغام العائلات على الرحيل .

من هذا العمل الاجتماعي الوطني المبكر ، تمت اول نواة بعد ١٩٤٨ للاتحاد النسائي الديموقراطي . وقد انضمت سميرة الى راكاح ، وفقدت وظيفتها كمدرسة ، تزوجت في نفس السنة مدرسا زميلا وعضوا في الحزب ، فؤاد خوري ، الذي توفي في عام ١٩٦٨ ، وقد انجبت منه ابنتين وولدا .

والاتصالات قائمة بين حركة النساء الديموقراطية وشتى المجموعات النسائية الفلسطينية ، الا انها محدوده نظرا لوجود اعضاء يهود بها . وقد عقدت بعض الاجتماعات ابان المؤتمرات الدولية . وبوجه عام ، فان وضع الفلسطينيين داخل اسرائيل ليس معروفا بما فيه الكفاية للفلسطينيين المنتشرين في الخارج . وقد حال هذا دون عرض مشكلات المرأة في ظل الاحتلال وفي المنفى عرضا موحدا . وقد اتيحت الفرصة لمثل هذا العرض في المؤتمرين الدوليين اللذين عقدا برعاية الامم المتحدة للمرأة ، في عامي ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .

وقد اعطتني الاخت سميرة تقريرا جيدا ، على قصره ، عن الظروف التي تؤثر في وضع النساء الفلسطينيات في اسرائيل : من ذلك اهمال المناطق العربية ، الريفية منها والحضرية ، وعدم لياقة المدارس والتسهيلات الممنوحة للتعليم عامة وعلى كل المستويات وعدم كفاية الرعاية الصحية وسوء توزيعها (وهي مركزة في الجهات اليهودية) ونقص التدريب المهني والحرفي للفتيات ، واستغلال العاملات العربيات في المصانع والمزارع اليهودية . وقد ضمنت تقريرها مالاضطهاد الاسرائيلي من تأثير سيكولوجي على النساء وما يثيره من قلقهن بشأن ازواجهن واولادهن ، وخوفهن من بطالة الرجال فضلا عن نقص التسهيلات الترفيهية . لكنها تضيف ان وضع المرأة العائلي قد تحسن منذ ١٩٤٨ على اية حالة ، وان تعذر وجود الدليل على هذا التحسن ، باستثناء تحريم تعدد الزوجات (علما بان نسبته بين الفلسطينيين لم تكن عالية اطلاقا) وقد لمست من المشاكل لدى الفتيات اللاتي التقيت بهن فيما بعد في الجامعة العبرية ما هو اسوأ ، لا اسهل ، من المشاكل التي عرفتها في الضفة الغربية او في بيروت . فعلى كثرة النساء العاملات خارج البيت فان فرص العمل المهني ضئيلة للغاية للنساء المؤهلات ، حتى المدرسات منهن .

وقبل ان اغادر القدس اسعدني الحظ الكبير بلقاء الست زليخة الشهابي ، التي تواكب مسيرتها تاريخ الحركة النسائية في فلسطين . فقد كانت امينة عامة للمؤتمر النسائي العربي الاول في ١٩٢٩ ، وعضوا في اللجنة التنفيذية الاولى . وكان لوجودها في مكتبها في الصباح الباكر في الاتحاد النسائي في القدس ابلغ الأثر في نفسي . وكانت الست زليخة من اوائل النساء اللاتي أبعدن ، بعد ضم الاسرائيليين للقدس في سنة ١٩٦٧ ـ حيث قادت مسيرة احتجاج نسائية انذاك . وقبل زيارتي ببضعة اسابيع شاركت في الاعتصام الذي شهده المستشفى النمساوي . وقد استطعت ان احصل منها على بضعة تفاصيل قيمة عن تاريخ الاتحاد المبكر ، وانني لاعجب بالروح الوطنية التي تبقيها يقظة نشيطة . فهي لم تتزوج ابدا ، لانها وهبت حياتها كلها (للقضية) .. شأنها في ذلك كشأن اخريات من جيلها وطبقتها ! ■■

لندن ـ روز ماري صايغ

ذات الخال

شعر : مبارك المغربي ـ السودان

آمالُ القلبِ .. أمانيهِ   حيّاك هواهُ فحييهِ
ما زال خيالُكِ يؤنسُه   مُذْ جئتِ بسحركِ تُغريه
اعجابُكِ زاد تَعلُّقَهُ   ليزيدَ همومَ لياليه
يا ذاتَ الخالِ وحسنُكِ لا   يحتاجُ سناهُ لتشبيه
سلسلتُ مفاتنه نغماً   لكِ ـ لا لسواكِ ـ أُغنّيه
قد صاغ النيلُ شواردَه   ورواهُ " انينُ سواقيه
من لي بك بين خمائله   والشطُّ تشوقُ مَرائيه ؟
والصبحُ يرتّلُ في طربٍ   لحناً سَكَبَتْهُ شواديه
وخُطاكِ ملاحنُ ناغمةٌ   تُروي المشتاقَ وتُشجيه
والنسمةُ تسري هامسةً   وتُداعبُ شعرَكِ في تيه
فأصوغُ جمالكِ اغنيةً   هي اروعُ ما قالوا فيه !
يا اختَ الفجر وبي شَغَفٌ   شغفُ الظمآنِ لساقيه
ان كنتُ سأرحلُ عنكِ غداً   والقلبُ حليفُ تمنّيه
حسبي اعجابُك يشفعُ لي   حبّاً كم كنتُ أُداريه
حباً كالروح يُلازمني   هيهاتَ لغيركِ احكيه
أشفاهُ القلبِ وعلّتَهُ   والصبُّ يحنُّ لآسيه
تيهي بشبابكِ تاركةً   آمالَ محبّكِ في تيه !!



مأزق الإقتصاد العالمى

بقلم : الدكتور حازم الببلاوى

يواجه الاقتصاد العالمى حاليا ما يشبه حالة الفوضى ، حتى تبدو السياسة الاقتصادية في معظم الدول عاجزة عن متابعة الاحداث وتقديم العلاج المناسب .

فمعدلات البطالة لا تزال مرتفعة في معظم الدول الاوروبية والولايات المتحدة الامريكية ، والتضخم يبدو أنه خرج من عقاله ليس فقط في دول ذات تاريخ طويل في ارتفاع الاسعار مثل دول امريكا اللاتينية بل أيضا في دول كانت تتميز بانضباط الاسعار مثل الولايات المتحدة الامريكية ، واسعار الصرف باتت غير مستقرة وغير معروف اتجاهها ، فها هو المارك الالماني والين الياباني ـ اللذان كانا من أقوى العملات لفترة قصيرة ـ يواجهان صعوبات غير قليلة .

أما اسعار الفائدة فقد جاوزت كل التوقعات ففي خلال العام المنصرم ارتفعت في الولايات المتحدة الى معدلات غير معروفة حتى وصلت الى ما يقرب من ٢٠٪ في ابريل ١٩٨٠ ، لكى تنخفض من جديد الى اقل من ١٠٪ بعد ذلك ، ثم ترتفع من جديد في سبتمبر . وهاهى تجاوز ٢١٪ الآن . فما حدث ؟

جاءت حكومة تاتشر في انجلترا لتصلح ما أفسده العمال ، واذا بنا نجد أن الاقتصاد البريطاني يعرف مزيدا من البطالة دون أن ينخفض التضخم . وقيل ان كارتر قد سقط لفشل سياسته الاقتصادية ، ونشك كثيرا في ان الادارة الجديدة ستأتي بالمعجزات . فتوقعات كافة المحللين تنبيء بأن العام القادم لن يكون أسعد حظا من

العام الثالث .

ان العالم يواجه اوضاعا اقتصادية جديدة لم يعرفها من قبل ، ولذلك فان علينا أن نتعايش مع ظواهر جديدة نكاد نقول أن لا مفر منها ، كما أن هناك حاجة الى تصورات جديدة ومن ثم سياسات مختلفة .

لقد عرف عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية فترة من الازدهار الاقتصادي غير المسبوق . ورغم ان الحرب العالمية الثانية قد الحقت بالعالم تدميرا رهيبا ، فان قدرة العالم على اعادة التعمير وبناء الاقتصاديات الصناعية قد تمت بسرعة وكفاءة مذهلة . وما أن انتهت الخمسينات حتى كانت اوروبا واليابان قد عادتا من جديد قوتين اقتصاديتين هامتين . ومع بداية الستينات بدأت موجة الاستقلال السياسي لدول العالم الثالث وارتبط بذلك معدلات نمو محترمة لمعظم هذه الدول بعكس حالة الركود السابقة على ذلك . وفي خلال الستينات حققت الدول الصناعية في مجموعها معدلات للنمو تتراوح بين ٤ ـ ٥٪ ، ودول العالم الثالث معدلات نمو تتراوح بين ٥ ـ ٦٪ . وهي معدلات معقولة جدا للعالم في مجموعه . وقد ارتبط ذلك بنمو اكبر للتجارة الدولية ٧ ـ ٨٪ مما زاد من الترابط والاندماج الاقتصادي العالمي كما توافر للعالم في مجموعه استقرار كبير في الاسعار وكانت معدلات التضخم تتراوح ٢ ـ ٣٪ في الدول الاكثر انضباطا و ٦ ـ ٨٪ في الدول الأقل انضباطا .

وما أن دخلنا السبعينات حتى بدأت الصورة تتغير بشكل كبير . فالاسعار بدأت ترتفع بشكل كبير واصبح الحديث عن معدلات للتضخم في حدود ٢٠٪ من الأشياء العادية حتى في اكثر الدول استقرارا للاسعار . وازداد الاضطراب في موازين المدفوعات وانخفض النمو الاقتصادي الى ما يقرب من الصفر في عديد من البلدان .

وبشكل عام حل الركود محل الازدهار والاضطراب محل الاستقرار ، واصبحت السياسات الاقتصادية في معظم دول العالم صورة للفشل اكثر منها نموذجا للنجاح .. فما حدث لعالم السبعينات ؟ ويبدو أن عالم الثمانينات لن يكون أسعد حالا . وأود في هذا المقال أن أشير الى أهم التغيرات في هيكل الاقتصاد العالمي والتي يمكن أن تفسر الى حد ما الاوضاع الحالية .

اولا : ارتفعت تكاليف الغذاء والطاقة

تميزت الفترة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى نهاية الستينات بتوافر موارد الغذاء والطاقة الرخيصة . ففي خلال الاربعين سنة الماضية تضاعفت انتاجية الارض في معظم المحصولات وفي بعض الاحيان بلغت الزيادة ثلاثة أضعاف ، وعرفت الولايات المتحدة الامريكية فائضا في المحاصيل الزراعية كان وراء القانون المعروف بالقانون العام رقم ٤٨٠ لتوزيع الفوائض الزراعية .

على أن الوضع بدأ يتغير منذ بداية السبعينات . فالزيادة المستمرة في سكان العالم وخاصة دول العالم الثالث لم تلبث أن فرضت نفسها خاصة على مشكلة الغذاء . فسكان العالم وقد كانوا حوالي ٢٠٠٠ مليون نسمة في ١٩٣٠ وصلوا الى حوالي ٣٠٠٠ مليون نسمه في ١٩٦٠ والى ما يجاوز ٤٠٠٠ مليون الآن ، ولن ينتهي هذاالقرن قبل ان يصلوا الى ٦٠٠٠ مليون نسمة . وفي نفس الوقت بدأ يتراجع الانتاج الزراعي في دول العالم الثالث في بداية السبعينات ويكاد يختفي الفائض الزراعي في الولايات المتحدة الامريكية وغيرها منذ ٧٣/ ٧٤ . ولذلك لم يكن غريبا أن ترتفع اسعار المواد الغذائية بشكل كبير منذ ١٩٧٢ .

ومن المهم التأكيد هنا على ان ازمة الغذاء ليست ازمة عالمية ، ولكنها أزمة دول العالم الثالث . فالدول المتقدمة لاتواجه مثل هذه الازمة حيث ان النمو السكاني يتراخى كثيرا عن النمو الزراعي فيها . وفي حين انه قبل الحرب العالمية الثانية كانت معظم مناطق العالم ـ ربما باستثناء أوربا ـ تعرف اكتفاء ذاتيا أو حتى فائضا في الغذاء ، فان الوضع الآن اختلف واصبحت معظم دول العالم الثالث في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية مستوردة للغذاء . وهكذا بدأ عصر الغذاء الرخيص للدول النامية يختفي منذ بداية السبعينات .

واذا كانت الدول الصناعية لاتعرف ازمة للغذاء فانها تواجه منذ السبعينات ازمة مماثلة في ارتفاع تكاليف الطاقة . فاساس الحضارة الصناعية ـ كما نعرف ـ هو توافر موارد الطاقة الرخيصة . وقد اتجه العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية الى مزيد من الاعتماد على النفط الذي اصبح يمثل حوالي ٧٥٪ من الطاقة في الولايات المتحدة وحوالي ٧٠٪ من الطاقة في غيرها من الدول المتقدمة . وقد ظلت اسعار النفط ثابتة طوال الخمسينات بل انها مالت الى الانخفاض في ١٩٥٩ الى حوالي ١,٥ دولار للبرميل وظل الامر كذلك حتى بداية السبعينات ومنذ سنة ١٩٧٠ بدأت بعض الزيادات القليلة في اسعار النفط (ديسمبر ١٩٧٠) ثم اتجه الارتفاع الى معدلات

كبيرة بقيام حرب اكتوبر ١٩٧٣ حين تضاعفت خلال هذه الفترة وحتى رفع الحظر النفطي الى حوالى اربعة أضعاف . وبدأت بعد ذلك سلسلة من ارتفاعات اسعار النفط خاصة في اثر ثورة ايران مما جعل برميل النفط حاليا يجاوز ثلاثين ضعفا ما كان عليه في نهاية الستينات .

وخطورة ارتفاع اسعار الغذاء في الدول النامية والطاقة في الدول المتقدمة ترجع الى أن كلا منها لايمثل فقط سلعة يرتفع ثمنها ، وانما كل منها يعبر عن سلعة اساسية ترتبط بها مجموع الاسعار . فالغذاء في الدول النامية مازال يمثل الاساس في مستوى الاجور ومن ثم فان أي تغيير في اسعار الغذاء ينعكس بالضرورة على مستوى الاجور وهو ماينعكس على مختلف الاسعار الاخرى .والطاقة في الدول المتقدمة تمثل المستخدم الاساسي لكافة الصناعات ومن ثم فان تأثيرها لابد وان ينعكس على كافة الصناعات . وهكذا نجد ان ارتفاع تكاليف الغذاء في الدول النامية من ناحية والطاقة في الدول الصناعية من ناحية اخرى قد فرضت على العالم في مجموعه اتجاها تضخميا ترتفع فيه الاسعار باستمرار .

ثانيا : ظهور اليورو دولار والفوائض النفطية

ان مايسمى بظاهرة اليورو دولار يشير الى تداول العملات خارج نطاق سيطرة السلطات النقدية . وأصل الكلمة يشير الى الدولارات المتداولة في البنوك الاوربية والتي لاتخضع للسلطات النقدية الامريكية . وقد ظهرت بعد ذلك ظواهر مماثلة للعملات الاخرى والتي تتداول خارج سيطرة دولها (مثل الاسترليني ، والمارك والفرنك الفرنسي وهكذا) . وقد بدأت ظاهرة اليوردولار تظهر منذ نهاية الخمسينات وبداية الستينات مع فرض قيود على حرية خروج رأس المال من الولايات المتحدة من ناحية وامكانية التحلل من بعض قيود السلطات النقدية فيها من ناحية اخرى . ورغم أن هذه السوق قد بدأ ظهورها قبل قيام ظاهرة الفوائض النفطية ، فان هذه الاخيرة مسئولة الى حد كبير عن توسعها وتضخمها . فقد كان حجم سوق اليوردولار حوالى ٥٠٠ مليون دولار في ١٩٥٩ وهو الآن قد جاوز تريليون دولار (التريليون يعادل الف بليون) .

واخطر ماتمثله ظاهرة اليورو دولار هي انها تعكس كتلة نقدية ضخمة لاتخضع لرقابة السلطات النقدية . ومن هنا فان اية سياسة نقدية لاحدى الدول يمكن ان يضيع اثرها بالنظر الى وجود هذه الكتلة النقدية الضخمة والتي تكاد لاتخضع لأي تنظيم أو رقابة . وهذا مايبين بعض أسباب عجز الكثير من السياسات النقدية للدول الصناعية .

واذا كان سوق اليورودولار يمثل تأثيرا اقتصاديا خارجيا لايخضع لسلطات الدول النقدية ، فان ظهور الفوائض النفطية اصبح يمثل لمعظم الدول ضغطا اقتصاديا خارجيا يصعب التأثير عليه ولم تقتصر الفوائض على مجرد تدعيم سوق اليورو ماركت وانما فرضت نوعا من علاقات الاختلال في موازين مدفوعات الدول . فالعالم في مجموعه لابد وان يكون متوازنا ، وظهور فائض كبير لدى دولة أو مجموعة من الدول يعني في نفس الوقت ظهور عجز مقابل لدى دولة او مجموعة دول اخرى .

وحتى قيام مايسمى بثورة النفط في ٧٣/ ١٩٧٤ كانت أوضاع الاقتصاد العالمي من حيث الفوائض والعجوزات محصورة الى حد بعيد . فبصفة عامة كانت الدول المتقدمة الصناعية تعرف في مجموعها فائضا بلغ متوسطه في الفترة ٦٧ـ ١٩٧٢ حوالى ١٠ بلايين من الدولارات ، وكان يتحمل العجز المقابل له الدول النامية حيث كان مجموع عجوزاتها لايتجاوز ١٠ بلايين دولار ايضا ، وكانت دول الاوبك تعرف توازنا في مجموعها .

وبعد ثورة النفط حدث تغيران ، بازدياد حجم الفوائض والعجوزات من ناحية وتغير اتجاهات هذه الاختلالات من ناحية اخرى .ففي ١٩٧٤ وحدها بلغ فائض الدول النفطية حوالى ٦٠ بليون دولار تحملت الدول الصناعية عجزا مقابلا بلغ حوالى ٣٤ بليون دولار ، وتضاعف عجز الدول النامية من ١٠ الى ٢٠ بليون دولار .

على أن الامر لم يتوقف عند هذا الحد اذ لم تمض خمس سنوات حتى نجحت الدول الصناعية في الوصول من جديد الى وضع التوازن في ١٩٧٨ واصبح عجز الدول النامية وحده يمثل المقابل لفائض الدول النفطية . ومنذ ١٩٧٩ بدأت موجة جديدة في ارتفاعات اسعار النفط ومن ثم ارتفاع جديد في الفوائض . ويتوقع ان تبلغ فوائض الدول النفطية لهذا العام وحده حوالى ١٠٠ ـ ١١٠ بليون دولار ، وهو مايعني ان العالم سوف يتحمل في المقابل عجزا مقابلا . ولذلك لم يكن غريبا ان تزداد مديونية الدول النامية بشكل كبير جاوز حاليا ٣٠٠ بليون دولار .

على ان امر الفوائض النفطية لا يتوقف على مزيد من الاختلالات في موازين المدفوعات الدولية ومن ثم

مزيد من المديونية لكثير من الدول ، وانما يجاوز ذلك الى التأثير في القوى الاقتصادية والتى تعجز السياسات الاقتصادية من السيطرة عليها .

الفوائض النفطية تمثل في نهاية الامر مزيدا من مدخرات العالم حققتها الدول النفطية . وكان يمكن ان تؤدى هذه الزيادة العالمية في المدخرات الى زيادة مقابلة في الاستثمارات الحقيقية في العالم . ولكن يبدو أن معظم دول الفائض تفضل توظيف فوائضها في اشكال من الاستثمار المالى الذى يزيد من الذاتية العالمية باشكالها المختلفة دون أن يعنى بالضرورة زيادة مقابلة في الاستثمارات الحقيقية .

وقد أدت هذه الزيادة في الاستثمارات المالية الى التوسع الكبير في الاصدارات المالية والتى كان لها تأثير بالغ على اشكال التضخم . وهذا نوع من التأثير التضخمى الذى تقف امامه السلطات النقدية في كثير من الدول المستوردة للنفط عاجزة عن التأثير فيه . فهذه الدول رغبة في تقليل العبء المترتب لارتفاع اسعار النفط تفضل تمويل النفط عن طريق الاصدارات المالية المتنوعة .ولكن هذه الاصدارات المالية لم تلبث بدورها أن ساعدت على مزيد من التضخم النقدي وارتفاع الاسعار . وبطبيعة الاحوال لم تلبث هذه الضغوط التضخمية ان انتقلت من الدول الصناعية المتقدمة الى معظم الدول النامية عن طريق ارتفاع اسعار الواردات الصناعية .

ولذلك لم يكن غريبا ان تستمر الدول الصناعية المتقدمة في استيراد اكثر من ثلاثة ارباع النفط ، ومع ذلك تنجح بعد حوالى خمس سنوات من الارتفاع الاول لاسعار النفط (٧٤/٧٣) الى الوصول الى وضع توازن في علاقاتها الخارجية (١٩٧٨) . وعلى العكس فان الدول النامية . والتى لم تزد من نسبة استهلاكها من النفط المستورد ـ قد اصبحت تتحمل بكل العجز المقابل للفوائض النفطية في نهاية هذه السنوات الخمس (١٩٧٨) . ويبدو اننا دخلنا دورة جديدة بعد الارتفاع الثانى لاسعار النفط (١٩٧٩) والمتوقع ان تتمكن الدول الصناعية من تحقيق التوازن من جديد في علاقاتها الخارجية بعد توافر فترة معقولة . وفي كل هذا كان التضخم العالمى احد القوى الاقتصادية الاساسية لاعادة التعادل في العلاقات الاقتصادية .

ثالثا : الانتقال من الصرف الثابت الى نظام تقلبات الصرف :

اتجه العالم بعد الحرب العالمية الثانية في بريتون وودز ١٩٤٤ الى الاخذ بنظام ثبات اسعار الصرف . وفي خلال الثلاثين سنة التالية عرف العالم تقدما ملحوظا في العلاقات الدولية . على أن ان الامر لم يخل من اعتراضات ومشاكل صاحبت هذا النظام . وبوجه خاص فقد تضمن هذا النظام نوعا من التناقض تمثل في الاخذ بثلاثة أمور يصعب التوفيق بينها وهى : الاخذ بثبات اسعار الصرف بين العملات المختلفة ، والرغبة في تطبيق سياسات اقتصادية داخلية لتوفير العمالة واستقرار الاسعار ، والسماح بحرية انتقالات رؤوس الاموال دون قيود . ولذلك لم يلبث النظام ان عرف عديدا من المشاكل في العمل . كما أن اتجاه النظام الى الاعتماد على الدولار الامريكى قد أدى بدوره الى خلق مشاكل لميزان المدفوعات الامريكى من ناحية ولدول العالم الاخرى من ناحية اخرى . وازاء ذلك فقد اتجهت المطالبات منذ الخمسينات الى التخلى عن نظام ثبات اسعار والأخذ بنظام تقلبات اسعار الصرف . على أن هذه الدعوة لم تصبح تيارا جارفا الا في السبعينات وخصوصا بعد ان أوقفت الولايات المتحدة الامريكية تحويل الدولار الى ذهب في اغسطس ١٩٧١ ، ثم الاخذ بنظام التعويم منذ ١٩٧٣ والذى تأكد في التعديل الثانى لاتفاقية صندوق النقد الدولى في جامايكا (١٩٧٦) والتى اصبحت نافذة منذ ١٩٧٨ وان كان التعويم قد بدأ عملا منذ ١٩٧٣ .

على ان الجدير بالاعتبار هنا ليس مجرد انتقال العالم من نظام صرف الى نظام جديد وانما في توقيت هذا الانتقال . فقد صاحب هذا التحول في نظام الصرف العالمى ظهور الفوائض المالية النفطية الكبيرة وانتعاش اليورومارك . وكان لهذا التعاصر اثره الواضح على مزيد من الاضطراب وعدم الوضوح في العلاقات الاقتصادية الدولية على ماسنبين بعد قليل .

ولعل أهم مايميز نظام تقلبات اسعار الصرف بالمقارنة بنظام اسعار الصرف الثابت ، ليس فقط الاعتماد على تقلبات اسعار العملات في تحقيق التوازن ولكن تأثير ذلك على السياسات الاقتصادية الداخلية للدول .

فمن المعروف انه في ظل نظام الصرف الثابت تكاد تفقد السياسات النقدية المحلية أى دور لها ، وتصبح السلطات النقدية عاجزة في الواقع عن اتخاذ سياسات مستقلة . فأى تغيير في اسعار الفائدة في دولة من الدول مع ثبات اسعار الصرف سوف يؤدى الى انتقال لرؤوس الاموال بما يلغى اثر تغير اسعار الفائدة ، وهو أمريتم دون اية مخاطر لأن اسعار الصرف ثابتة بين العملات المختلفة . وقد كان هذا هو مدار الشكوى لعدد من الدول خلال الستينات مثل المانيا وسويسرا . فيما ان

تحاول احدى هذه الدول تطبيق سياسة نقدية متشددة ـ كما حدث في المانيا في ١٩٦٠ ثم ١٩٧٣ ـ حتى تجد أن تدفقات رؤوس الاموال عليها من الكثرة بما يلغي اثر السياسة النقدية المتشددة . كذلك فانه يمكن القول بأنه في ظل نظام اسعار الصرف الثابت فان هناك معدلا عالميا للتضخم واية دولة تنحرف عن هذا المعدل تجد ان توازنها الخارجي قد اصبح مهددا بما يفرض عليها ضرورة اتخاذ الاجراءات المناسبة لكبح التضخم حماية لتوازنها الخارجي . ولذلك فانه في ظل نظام ثبات اسعار الصرف عرف العالم بشكل عام معدلات متقاربة لاسعار الفائدة ومستويات متماثلة من التضخم .

أما في ظل نظام الصرف المتقلب (التعويم) فان كل دولة تستطيع ان تعزل اقتصادها المحلي عن طريق التغييرات في اسعار الصرف وبحيث تطبق سياسات نقدية مختلفة وتمارس مستويات متعددة من التضخم . وهذا هو ما يحدث بالفعل الآن . فاسعار الفائدة تتراوح بين ٢٠٪ في الولايات المتحدة الامريكية وانجلترا و٦ ـ ٨٪ في سويسرا مثلا . كذلك فان معدلات التضخم في الدول الصناعية بدأت تتفاوت بشكل كبير . وغني عن البيان ان تعدد مستويات اسعار الفائدة من ناحية ومعدلات التضخم من ناحية أخرى من شأنه ان يزيد من البلبلة والاضطراب في الاسواق المالية والنقدية ويحول دون امكانية التوقعات السليمة .

على أن مايدعو الى الغرابة هو أن توقيت التحول لنظام التعويم قد عاصر ظهور الفوائض المالية النفطية الكبيرة . فمن المعروف ان احد مزايا نظام اسعار الصرف الثابت هو المساعدة على نمو حركات رؤوس الاموال بين الدول . والغريب انه في اللحظة التي زادت فيها احتياجات العالم لانتقالات رؤوس الاموال مع ظهور الفوائض المالية النفطية اتجه العالم الى نظام التعويم . وقد ادى ذلك الى تزايد فرص المضاربة بشكل كبير . حيث ان توافر كميات كبيرة من السيولة العالمية وامكانية الانتقال من عملة الى اخرى وتحقيق ارباح من وراء اختلاف اسعار الصرف لا يمكن الا أن يشعل المضاربة الدولية . وفي وقت تختلف فيه اسعار الفائدة بين دولة وأخرى وتسود معدلات مختلفة للتضخم ، فان احتمالات انتقال رؤوس الاموال من مكان الى آخر لابد وان تزيد مما يؤكد احتمالات المضاربة من ناحية ويساعد على مزيد من عدم الاستقرار والوضوح من ناحية اخرى .

●

ونخلص من كل ما تقدم بان العالم يواجه ظروفا تضخمية ناجمة عن ارتفاع تكاليف الغذاء والطاقة . وفي نفس الوقت فان السياسة الاقتصادية الداخلية تبدو مقيدة حتى في الدول المتقدمة نظرا لتزايد الثغرات التي تخرج عن رقابتها ، سواء نتيجة لظهور اليوروماركت أو للاختلالات الناجمة عن الفوائض المالية النفطية . كذلك فان استخدام الفوائض المالية النفطية في توظيفات مالية دون زيادة حقيقية في الاستثمارات العينية لابد وان تخلق بدورها اتجاها تضخميا في الدول المتقدمة ما يلبث أن ينتقل الى دول العالم الثالث عن طريق ارتفاع اسعار الواردات وتدهور معدلات التبادل . ويرتبط بذلك كله ازدياد مديونية دول العالم الثالث وبالتالي عبء خدمة هذه الديون .

ومن الطبيعي أن يؤدي استمرار هذه الاوضاع الى التشكيك في قدرة هذه الدول على السداد ، فدولة واحدة (البرازيل) بلغت مديونيتها وحدها ٥٥ بليون دولار . وقد تمت هذه التطورات عندما انتقل العالم الى الاخذ بنظام جديد للصرف العالمي ساعد على تعدد اسعار الفائدة على العملات واختلاف مستويات التضخم بين الدول مما شجع على مزيد من المضاربة في اسواق المال . ومع توافر السيولة الكبيرة لفوائض النفط فقد تفاقمت اوضاع الاسواق النقدية والمالية بمزيد من المضاربة مما خلق جوا عاما من الفوضى والاضطراب في الاسواق العالمية .

هذه باختصار اوضاع الاقتصاد العالمي ، وهي أمور لاتبعث اطلاقا على التفاؤل . ولعل حاجة العالم الآن الى التأمل والبحث عن صيغة اقتصادية جديدة أولى بها من أية فترة ماضية .

د . حازم الببلاوي

قال الأولون

× قال ابو الخطاب الصابئي : « خير الابنية ما اتسع صحنه وارتفع سقفه وطال مدخله ، وبعد متوضؤه » .



بيرم التونسي ومقاماته المظلومة!

بقلم : الدكتور علي الراعي

لا تحظى مقامات بيرم التونسي بالتقدير الذي تستحقه ، ليس فقط بين اعماله الفنية الاخرى ، وانما - ايضا - بين الاعمال الفنية ذات القيمة في الادبين العربي والغربي .

ففي الادب العربي ، تعتبر مقامات بيرم التجسيد الفني الناجح ، والمتطور لاعمال بديع الزمان والحريري ، اللذين نشأ على ايديهما فن المقامة ، ثم قعدت بها قدراتهما الفنية عند حد معين منه ، بينما حال اهتمامهما المفرط باستخدام المقامة وعاء لتجميع وتلقين المحصول اللغوي ، دون ان تصبح المقامة شكلا فنيا يقصد لذاته ويستخدم اداة للتعبير الفني في المحل الاول .

وفي الآداب الغربية يمكن ان تقارن بين مقامات بيرم وحكايات كانتربري [1] ، من حيث تنوع الشخصيات في العملين وطرافتها ، ودقة ملاحظة الفنان لها ومحاولته الغوص في اعماقها ، ثم تتفوق المقامات على الحكايات - بعد هذا - في كم الفكاهة العذبة التي تتخلص لنا منها ، ولا نحظى بمثله في حكايات تشوسر .

ونستطيع ايضا ان نضع مقامات بيرم الى جوار اعمال غربية أخرى مثل : مغامرات توم صوير وهكلبري فين للكاتب الامريكي : مارك توين ، فلن

---

(١) الشاعر القصاص الانجليزي جيوفري تشوسر (١٣٤٠ - ١٤٠٠)

الفكاهة العذبة ، والمفارقة اللذيذة ، والاهتمام البالغ بالانسان ، هي جميعا سمات مشتركة بين بيرم التونسي ومارك توين ، كل بطريقته الخاصة .

ولكي لا يبدو هذا الكلام مجرد حماس مشكور ـ او غير مشكور ..! ـ من ناقد عربي لكاتب عربي ، فاني أزمع أن أفحص مقامات بيرم بشيء من التدقيق ، لأوضح طبيعة الانجاز الذي قدمه بيرم لادبنا العربي عن طريق مقاماته ، وابين لماذا ارى ان هذه المقامات هي عمل ادبي ممتاز .

المهرج الذكي الغبي

ترك كل من بديع الزمان والحريري مقاماتهما وبطلها محتال ، سكير ، فقير ، مطحون ، متسول ، مشعوذ ، يسخط على حظه المتدني ويحقد على كل من بيده مال ـ خاصة من لا يستحق هذا المال من بين هؤلاء ـ ويسعى الى خداع الناس جميعا ، لانهم جميعا اغبياء لا يستأهلون ما وضعه مجتمع ظالم بين ايديهم من مال .

فبطل البديع والحريري انسان تحركه الرغبة في الانتقام والشوق الى الاحتيال .

اما بيرم التونسي فقد خرج عن هذه الصيغة الضيقة ، التي تخنق حركة البطل ، وتحد من ابعاده ، فجعل البطل في مقاماته اكثر انسانية ، واطيب قلبا ، واوفر استواء ، فهو عنده انسان نهم للحياة ومتعها ، يتحلب ريقه للطعام الطيب ، ولا يستطيع ان يكف نفسه عن اشتهاء المسكن النظيف ، والثوب الغالي ، والمرأة الجميلة والرفقة الطيبة . ومصيبته انه افقر واهون من ان يحصل على القليل القليل من هذا الذي يشتهيه . ولكن مصيبته ايضا انه لا يقدر على ان يكف نفسه عن الاشتهاء .

انه ـ باختصار ـ المهرج الذكي الغبي ، الذي يجري دائما وراء متعة ما تخايله وتمتنع عليه في معظم الاحيان ، ويرق قلبها له في القليل النادر ، فتعطيه شيئا مما يطلب : المهرج الذي يدفعه طموحه ، وقصر نظره وقلة تبصره الى الوقوع في ورطة بعد ورطة ، قد يخرج منها بالصدفة ، او قد لا يخرج ابدا ، فيظل يعض بنان الندم ، ويقسم بأغلظ الايمان الا يعود لما فعل ، ثم يحنث في قسمه غير واع او غير مبال !

انه ـ باختصار أكبر ـ مهرج الكوميديا الشعبية ، في السيرك والمسرح . وهو لهذا يخرج عن نطاق الاحتيال ، الذي حبس فيه البديع والحريري بطلهما ، وينطلق الى عالم ارحب ، يصبح فيه محتالا عليه اكثر مما هو محتال .

ولنأخذ واحدة من المقامات الدالة على شيء من هذا ، ولتكن : المقامة الفونوغرافية » .

ان البطل هنا ـ واسمه بعجر بن قحطان ـ يتعلق بأهداب الطبقة المترفة ، ويتطلع الى ان يناله شيء من النعيم الذي تتقلب هذه الطبقة في اعطافه . ومن ثم نراه يصادق فتى من أولاد الذوات ويتعاهدان على الود ، ويقرران ان يعلم الفتى المترف الشيخ بعجر الفرنسية ، على ان يعلمه الشيخ العربية .

وتقوم بين الاثنين صداقة غير متكافئة ، ولكن الشيخ لا يفطن الى الحاجز الصلد الذي يفصل بينهما ، فيقدم الى صديقه الثرى قفصا من خيرة تين الفيوم جاءه هدية ، يقبلها الفتى في صمت دون كلمة شكر واحدة . كما يقبل ايضا طردا من اجود الفسيخ ، يقدمه بعجر هدية اخرى ، ولا يحظى مقابلها حتى بمجرد ذكرها .

ولكن الشيخ بعجر يعمي نظره عن هذا كله ، ويتجاهل انه ـ على حد قوله ـ « في كل مرة ادخل فيها عند هؤلاء القوم ، اشم روائح التقلية والثوم ، والطواجن تفوح ، والخدم بالآنية تغدو وتروح ، او اسمع الضحكات تتعالى ، او الفونوغراف شغالا » ـ يرى ويسمع هذا كله ، فلا يفكر احد في ان يدعوه الى المشاركة في بعض من هذا النعيم .

ولن أنسى اختيه اللتين تبدتا
نهار قدومي تقذفان الصوالجا

فالشيخ بعجر اذن صديق غير معترف به ، بل هو هزأة لدى الاختين ، ولكن التطلع الى من هم اثرى منه وارقى يصرفه عن ملاحظة هذا كله . الى ان تقوم للشيخ حاجة الى استخدام فونوغراف ليؤنس به اخا له عاد لتوه من الخدمة العسكرية ، فيذهب الى دار صديقه ليستعير فونوغرافهم :

« فخرجت لي خادم تنظر لي باستخفاف وفتور ، وتقول : يقولون لك ان الفونوغراف مكسور . قلت : اين سيدك ايتها الخادم ؟ قالت : نائم . »

وهنا فقط يدرك الشيخ بعجر عظم الهوة التي تفصل بينه وبين السادة ، ويعرف اي طراز من الناس هم . انهم يتلقون ولا يعطون ، ويصاحبون ولا يودون ، فيتخلص اليه الدرس العظيم التالي ، يهتف به امام السلاملك وهو مذهول :

فنوغرافكم ، او بيتكم او جراجكم
وما يرتجى منكم حقير مذمم
لقد حسبوكم ـ غالطين ـ ذواتها
وانتم من السفل أخس وألأم

تقوم هنا فكاهة واضحة ـ فكاهة تتخلق من علاقة تنشأ بين رجلين هما ـ في كل شيء ـ نقيضان . الاول مستغل بارد الاعصاب ، والثاني ضحية طيب القلب . الفتى ثري اجنبي الثقافة ـ تعلم في مدرسة الفرير ـ والشيخ ازهري التعليم . الغني بخيل متماسك وجشع ، والفقير جائع ، متطلع متحلب الريق امام متع الحياة ، يبحث عنها عبثا ويقدم لها المهور فلا ينالها .

المحتال هو الغني

من هذا التضاد تنتج الفكاهة ، فنضحك لها لاول وهلة ثم لا نلبث ان نتبين انها فكاهة غير صافية ، فانها تحمل في طياتها نقدا لاذعا ومرا للوضع الاجتماعي عامة ، وللرجلين بصفة خاصة ، وللشيخ بعجبر بدرجة اكثر خصوصية وكأنها تقول لهذا الاخير : من العبث ان يصادق الفقير الغني فليس ثمة وسيلة للود بين من يملك ومن لا يملك .

بهذا البعد الثاني الذي أضفاه بيرم على قصة مقامته ، اجرى الكاتب تطويرا ذا بال في صيغة المقامة التي احتواها تراث البديع والحريري . ان الفقير المطحون هنا ليس هو المحتال ، انما المحتال هو الغني الذي لا ينهض له عذر الفاقة مبررا لسلب مال الغير ، كما كان ينهض لمحتال البديع والحريري .

وفي « المقامة الاوتومبيلية » ، يعود بيرم مرة اخرى الى حكاية من يملكون ومن لا يملكون .

البطل هنا هو الشيخ السابق الذكر تحت اسم آخر ـ اسمه في هذه المرة « الحافظ بن عمران » ـ وقد صادق واحدا من البشوات الأصلاء : « وهو باشا ، ينعش قاصده انعاشا . وكان يستقرئني في رمضان ، ويغمرني بالاحسان في كل آن . » ، على النقيض مما كان الشيخ يلقاه من البشوات المتفرنجين « فقد طالما طردوني واهانوني وبهدلوني . فمن غليظ يستضعفني ، ومن نظيف يستقرفني ، ومن غني يستفقرني ، ومن متعلم يستبقرني ، لعنة الله عليهم اجمعين ، الا المتقين » .

ويسامر الشيخ الباشا ذات ليلة حتى ينبلج الصبح ، فيتاوله الباشا ريالين ، ويقول له : من غير مطرود . ولكن الشيخ يدفع بان المواصلات العامة قد انقطعت ، وبيت الباشا في الجزيرة ، وبيته هو في المنيرة . فلا يتردد الباشا في ان يأمر سائقه بتوصيل الشيخ الى بيته بسيارته .

ويطرب الشيخ ايما طرب لهذه المنة الكبرى ، ويأمر السائق ان يطوف به وهو في هذه الابهة كلها احياء بعينها من القاهرة :

« غير انه لسوء الحظ ، كان الطريق غير مكتظ ، وقد كنت اريد ان يراني صديق فيسر ، او عدو فيفطر ، فقلت للسائق :

ايها السائق الامير تمهل   وامش بالشيخ مشية الزملان (٢)
مر بي من امام قهوة حمدي   ومن الاوبراء ذات الحصان
ثمة اقصد ـ هديت ـ مسجد قسون   وقف بي على « الفكهاني »

ويصل الركب الى باب الخلق ، فيحتاج الشيخ الى ما يسد الخلق ، ويطلب الى بائع فطاتر ان يخدمه وهو في سيارته فيرفض هذا ويقول : « انزل وكل على البنك ، وادفع نصف القرنك . » ويأبى الشيخ ويصيح : « كيف انزل ايها الرذيل ، من هذا الاوتومبيل ؟ فيرد البائع : ولم تتخلى عن عادتك ، وانت في اوتومبيل سادتك ؟ » ويتلقى الشيخ هذه الطعنة الاليمة صابرا ، ويستمسك بكبره الواهي حتى النهاية فيقول للسائق :

سق وابلغ المنزل بي والحارة   ولا يسوق ذا الفتى الامارة
والله لا اغادر السيارة ..!

كم الفكاهة في هذه المقامة اوفر منه في سابقتها ، ولكن الدرس فيها هو الدرس عينه في نظيرتها : لاوسيلة لاستمتاع الفقير بأطايب حياة الاغنياء عن طريق الاستجداء او الهبة . فمن يعمى عن هذا الدرس فمصيره الاهانة ، تأتيه اما من الاغنياء او من زملائه في الفقر .

المقامة « البيجامية »

وتتابع استطلاع ملامح بطل بيرم عبر مقاماته المختلفة ، فنجده في : « المقامة البيجامية » في صدام مفتون مع حضارة الغرب ، يكاد عقله يشت وهو يرى امرأة فرنسية وقد قصت شعرها وجلست على « الفوتي » ووضعت رجلا فوق اخرى ، ولبست ملابس الرجال ، فلما يسأل عن هذا كله يقال له : ان السيدة ترتدي بيجامة فيقول :

(٢) الاعرج .

ان كان هذا فالبجامة شكلها
ـ في مذهبي ـ شكل يسر وبسط

اما صاحبة البجامة فهي :

لفّاء (٣) كالتمثال حتى خلتها
من مقلتي ـ لا من يدي ـ تتزفلط

يحدث هذا في بنسيون يسكنه الشيخ في باريس ، بعد ان اختاروه اماما للسفارة ، فلما يسمع بان اثنين من مواطنيه ينتظرانه في البنسيون ، يقرر طردهما اذا اصرا على البقاء ، « لان أبناء العمد ومشايخ البلد اذا ابصروا مثل هذه المدامه ، في هذه البجامة فلن يخرجوا الا يوم القيامة ومن ثم يعلق على باب البنسيون الأشعار التالية :

يا ايهذا الزائري لست هنا
وذا الذي تقروه خطي انا
فلا تدق الباب خيبت العنا
واذهب ، ذهبت شاكرا او لاعنا
ليست اوربا مثل كفر البلنا

ويجد البطل مرة ثانية في صدام مدهوش بآلات الحضارة الغربية ، اذ يتعرف لاول مرة الى التليفون ـ « المقامة التليفونية » وفي صدام رافض لمظاهر حضارة الغرب ، اذ يكرهه اصدقاؤه على ارتياد السينما ، فيظن ما يظهر على الشاشة عفاريت لابد ان تذهب بالرقى والعزائم ، فيأخذ يتمتم بها حتى يحل وقت الاستراحه فتختفي الخيالات ، ويظن الشيخ انه قد نجح في طرد الجان ، ثم تعود الخيالات ، فيغادر دار السينما في الحال وهو يلوم الاجيال الجديدة لانخداعها بحبائل الشيطان هذه ، ثم يعجب من بعد لان الناس مازالوا حتى يومه ذاك يدخلون « السيناء » .

ويتقلب البطل بعد هذا في مواقف مختلفة ، فهو المخدوع المحتال عليه في « المقامة الامريكانية » و « المقامة الهاتفية » ، حيث يستخدم في دور المحلل ، يتسلقه الاغنياء ليستعيدوا امرأتين جميلتين تورط زوجاهما في تطليقهما طلاقا باتا ، ثم ندما

وهو القابل للحياة العصرية في « المقامة الشامية » و « المقامة العصرية » حيث يقرر ان اسلوب الحياة القديمة المتقشفة يضر ولا ينفع ، فيقبل دعوة صديق لحفلة عصرية راقصة يكتشف فيها ان ثمت شيئا في الدنيا اسمه « الصندويش » ، كما يتبين ان هناك شرابا لطيفا يدعى الزبيب يقبل عليه بعد ان يسأل : « هل الزبيب من الخمر ، فقالوا حاشا ، انه شراب كل بيه وباشا » .

(المقامة الشامية) .

وفي هذه المقامة الاخيرة يقترب البطل اقترابا واضحا من بطل المقامات التقليدي حين يبرر قبوله للحياة العصرية بترديد قول القائل :

اذا لم احد رزقا حلالا
ولم اكل حراما مت جوعا

بطل لا يتغير

كما يحدث هذا الاقتراب ايضا في المقامة التي يسميها بيرم : « المقامة الاشتراكية » وفيها يخرج طهقان بن كفران يلتمس ما يدفع عنه غائلة الجوع ، هو وزوجته واطفاله الاربعة ، فيجد خادمة قد اوصلت صينية بطاطس الى الفرن واوصت الفران بها خيرا ، وانبأته انها مرسلة البواب من بعد ليتسلمها حين تنضج .

وبالطبع يقرر طهقان ان يمثل دور البواب ، فيتسلم الصينية ويذهب بها الى اهله فينقض عليها هؤلاء ، دون ان يسألوا عن مصدرها ، الا الزوجة ـ واسمها صديقه ـ التي تلوم زوجها لما اقترف من سرقة فيقول لها هذا دفاعا عن نفسه :

لاتكثري صدّيقةُ ، العتابا
ولاتشقي الجيب والثيابا
كفى شقاء وكفى عذابا
الناس جمعا اصبحت ذئابا

وهو العذر نفسه الذي يردده بطلا مقامات البديع والحريري تبريرا لما يصطنعان من حيل لسلب الناس .

على ان بطل مقامات بيرم لا يتغير كثيرا في تقلبه من موقف الى موقف ، رغم ان اسمه يتغير من مقامة الى مقامة . لقد وحد بيرم بين ابطاله الكثيرين بان جعلهم جميعا من طوائف متقاربة في الوضع الاجتماعي والتركيب النفسي ، فهم اما من المجاورين ، او المقرئين ، او منشدي اغاني المولد النبوي او خدم المساجد ، وهي طوائف كان بيرم يعرفها عن كثب .

وقد عرضها لنا عرضا فيه كثير من النقد اللاذع ، ولكنه ايضا عرض يحتوي على عطف وتقدير ، وتأثر بحال الفقر المستديم الذي تعاني منه هذه الطوائف ، او

(٣) أي ملفوفة الجسد .

كانت تعاني منه على ايامه فهو في : « المقامة السفورية » يصف « المندرة » التي اتخذ البطل لنفسه فيها مسكنا فيقول : « كنت بين خليط من الفقراء ، الذين ينامون كل سبعة سواء :

اهل الطوى والبؤس اهل المتربة
ان رقدوا فالرأس عند المصطبة
والساق لاتقصر عند العتبة
هذا هزيل ساقه كالخطبة
اخوه قد احنى عليه الرقبة
والام ذات ركبة مكبية
تومتها دون العيال متعبة
والاب رب البيت فوق الكنبة

وحين تعرض للبطل في « المقامة الامريكانية » فرصة ـ مزيفة ـ للزواج من ثرية تخايله السعادة والنعيم ويتخيل نفسه ومن حواليه الخدم والحشم ، ويتوقع ان تنتهي متاعبه جميعا :

وانتهى من لجاج بكر
وضرب زيد وسب عمرو
وأكل فحل وحشو مش
وخضم فول وقضم تمر
وحفظ متن وفهم شرح
وشرح درس وطوع امر

والنتيجة الفنية لهذا التقارب في سمات الابطال وفي اوضاعهم انه من السهل علينا اعتبارهم جميعا بطلا واحدا يتقلب في المواقف المختلفة التي تصورها المقامات ، فتصبح مجموعة المقامات حوادث في قصة واحدة متصلة ، بطلها هو ذاك المهرج الشعبي المقبل على الحياة في نهم لا يحده الا عجزه عن بلوغ اهدافه .

ويساعدنا في هذا الاعتبار ان هذا البطل الموحد ، على عكس بطل المقامة التقليدية ، قد خرج من اسر صيغة المحتال ، وانفسح امامه المجال كي يتعامل مع اخلاط من الناس ، وينتقل الى بيئات متعددة ، ويمارس الوانا من الحياة لم تكن متاحة لبطل المقامات التقليدي ، فهو في الحفلات الراقصة ، وفي الاعراس والمآتم ، وعلى شاطىء البحر بين الحسان ، وفي سفارة مصرية بباريس ، وهو يقابل وزيرا ، ويعمل صحفيا ، ويدعو لحفلة كوكتيل ، ويتبنى قضية زواج المدرسات ويغشى السينما ، ويستعمل التليفون ، ويغازل زوجته المتخفية في احد الزوارق ، ويتصدى للنساء عند محطات الترام ، ويصلى نارا من الشعر اللاذع تسلقه بها فتاة فصيحة في احد مكاتب البريد ، ويسكن في مندرة ويدخل القصور ويركب السيارات ... الخ .

وهذا كله يضفي شيئا غير قليل من الحيوية على مقامات بيرم وعلى بطلها الذي اراه موحدا رغم تباين اسمائه ، ويمنع ذلك البطل من ان يكون مجرد كليشيه في موقف واحد لا يتغير كثيرا : التحايل ثم الانكشاف ، على نحو ما يحدث في مقامات البديع والحريري .

ويبعد بيرم عن مقاماته عيب الرتابة والجمود بوسائل فنية محددة . فهو يستخدم الشعر الفكاهي ، والشعر الذي يحاكي الشعر الجاد تقليدا فكاهيا . وهو يلجأ الى ما كانت تفعله المقامة التقليدية من عقد المسابقات الشعرية ـ وان كان بيرم يعقدها بطريقة فكاهية ايضا ـ كما انه يستخدم اسلوب الردح ، ويزيد من فاعلية الضحك فيه لانه ردح باللغة الفصحى . كذلك نرى بيرم يستخدم الشعر الجاد لذاته ، ويدس الالفاظ العامية عامدا في بعض اشعاره ، مما يجعل للمقامات طعما معاصرا ، واحيانا يترجم التعبيرات العامية الى اللغة الفصحى ، ويضعها في اطار محاكاة القصائد المعروفة ، على النحو التالي ، وفيه يحاكي قصيدة :

بأبي الشموس اللابسات جلابيا
المرسلات على النهود ذوائبا

فيقول بيرم- على لسان المتيم بن وطان :

بأبي النساء اللابسات خلاخلا
الحاملات مقاطفا ومناخلا
والضاربات صدورهن تعجبا
والاكلات مدمسا وفلافلا

ثم يلجأ بيرم ـ لاثراء مقاماته ـ الى الف ليلة ـ تارة ، مثلما يحدث في « المقامة الكامينشيزارية » حيث يصور بطله بين حسان يستحممن بطريقة تستحضر في وضوح « حكاية الحمال والنساء » في الف ليلة وتارة اخرى يلجأ الى حوادث في المقامات تقليدية بعينها ، فيلتقط قصتها ويطور فيها مثلما يحدث في المقامة « الكركونية » التي يأكل فيها البطل الوانا من الطعام ويرفض ان يدفع اكثر من قرش واحد ، بدعوى ان صاحب المطعم نصاب . وهذه المقامة تستحضر على نحو ما يحدث في : « المقامة البغدادية » لبديع الزمان ، حيث يقع احد الريفيين ضحية لاحتيال عيسى بن هشام الذي يدعو الريفي الى الاكل في احد المطاعم ثم ينفلت هاربا ، بعد ان اصاب اكله دسمة غالية الثمن ، ويترك الريفي لمصيره المؤلم ! ■■

علي الراعي

هم أصحاب حق.. ولسنا أصحاب فضل!

بقلم : فهمي هويدي

قبل ان نتقدم خطوه واحدة في محاولة مناقشة او تصحيح العلاقة بين المسلمين والآخرين ، فمن حق المنطق علينا ان نحدد بوضوح ما نعنيه بكلمة « الآخرين » . ومن حق الله علينا ان نتثبت من ان هذا التحديد مطابق لروح الاسلام ونصوصه . ومن حق الحاضر والمستقبل علينا ان نضع ذلك كله في صيغة معاصرة ، تقف على ارضية الاسلام وتخاطب واقع القرن العشرين وما بعده ..

اننا هنا لن نعبر فوق الجسور المقامة بين المسلمين والاخرين ، ولكننا سنقوم « بدورية استكشاف » مسبقه ، لنطمئن منها الى سلامة الجسور وصحتها . ذلك ان العبور على الجسر غير الصحيح لا يمكن ان يقودنا الى هدف صحيح . فضلا عن ان العبور على جسر تتخلله الثغرات والشقوق ، هو مخاطرة غير مأمونة العاقبة ، تعرض صاحبها للسقوط في كل لحظة .

واحسب ان الجسور المقامة لوصل المسلمين بالآخرين بحاجة الى اعادة نظر . بالترميم تاره ، وباعادة التصميم تارة اخرى ، وبالاستبعاد والالغاء تارة ثالثة .

واذا كنا بصدد ان نعطي لكل ذي حق حقه ، فان ما ينبغي ان نسجله بالتقدير ، ان قضية حقوق الاخرين في مجتمع المسلمين . كانت شاغلا دائما لفقهاء المسلمين منذ عصور الاسلام الاولى ، وانهم سعوا جهودهم ـ وفي حدود زمانهم ـ لان يؤمنوا للاخرين حقوقهم بما يرضي الله .

لقد اطلق الفقهاء المسلمون على هذا الباب الذي يبحث في حقوق غير المسلمين اسم « باب السير » ، من المغازي والخروج سيرا لملاقاة الاخرين . واول كتاب فقهي عالج هذا الموضوع بين ايدينا هو « المجموع في الفقه » لزيد بن علي المتوفي سنة ١٢٢ هجرية اي منذ حوالي ١٢٨٠ سنة .

ومنذ ذلك الحين ، لم يخل كتاب في الفقه الاسلامي من عرض لاحكام الحقوق الدولية ، تحت العنوان ذاته : « باب السير » .

ويعد الامام ابو حنيفه ، المتوفي سنة ١٥٠ هجرية ، اول من املى دروسا مستقلة ، دونها عنه تلاميذه ، تحت عنوان « كتاب السير » . وكان من معاصريه الامام الاوزاعي ، الذي اخرج كتابا بنفس العنوان ، رد فيه على أبي حنيفه ، ونقد بعض آرائه . الامر الذي حدا بابي يوسف ـ تلميذ أبي حنيفه ـ لان يؤلف كتابا يواصل به الحوار حول تلك القضية ،اسماه « الرد على سير الاوزاعي » .

ولم يتوقف الحوار بعد ذلك ، فاصدر الامام الشافعي ردا على كتاب أبي يوسف ، كما رد على كتاب السير للواقدي . وكلا الردين موجود في كتاب الشافعي الشهير ، والمعروف باسم « الام » .

ورغم ان ذلك فضل للسلف لا ينكر ، خصوصا وانهم حاولوا اضاءة تلك الشموع في وقت مبكر ، ووسط عالم كانت تسوده ظلمات الجهل والتعصب ، ويقنن اهدار كرامة « الاخرين » ، كما اشرنا من قبل ، الا ان ما يحسب

على الخلف من الفقهاء انهم لم يواصلوا المسيرة ، مكتفين بالترديد والتقليد ، حتى ظلت اجتهادات القرون الثلاثة الاولى هي السائدة في اغلب الاحوال الان ، رغم كل متغيرات الزمان والمكان !

ان حقوق الانسان في الاسلام ، سواء كان هذا الانسان مسلما ام غير مسلم ، لم تنشئها اجتهادات فقهاء السلف على الاطلاق ، رغم كل ما حصلوا من علم ، وكل ما اضافوه من فضل ، وكل ما اضاءوه من شموع .

ان الاعلان عن حصانة كرامة الانسان وتقرير حقوقه الاساسية ، واعتباره مخلوق الله المختار ، بل خليفته سبحانه في الأرض . ذلك كله قررته نصوص القرآن الكريم بالدرجة الاولى . وعندما مارس الفقهاء اجتهادهم ، فانهم وقفوا بفكرهم على ارض صلبه ورحبه ، بل على بناء عظيم اقامته تلك النصوص ، رفعت به هامة الانسان شامخة إلى عنان السماء .

اي ان حقوق الانسان وحرياته الاساسية والمساواة بين البشر جميعا ، هذا كله مقرر في الاسلام على اساس العقيدة ، وليس من مسائل الاجتهاد والنظر ، الا في حدود التفاصيل والتطبيقات .

والمجتمع الاسلامي الحق لا يكتسب هذه الصفة ، بل لا يكتسب مشروعيته ، اذا ما تعرضت فيه كرامة الانسان للامتهان ، ايا كانت عقيدة هذا الانسان او جنسه ولونه .

إن الاصل العقيدي لهذه الحقوق ، لا يضع المسلمين منها موضع الاختيار بين الاخذ والرد ، فهم بالاخذ ملزمون ، وفي الرد هم مخالفون لكتاب الله نصا وروحا .

وفي ظل هذا التصور ، فان اطلاق وصف « التسامح » على علاقة المسلمين بالاخرين ، لا يعد مستساغا الان باي حال .

ذلك انه قد يكون مفهوما ومقبولا ان يذكر « تسامح » المسلمين اذا كنا نتحدث عن التاريخ في مقام المقارنة بتعصب الاخرين ، واضطهادهم للمسلمين او لمن على دينهم ولكن على غير مذهبهم (ما حدث بين الكاثوليك والبروتستانت مثلا) . ولكن عندما نكون بصدد عرض علمي وجاد لموقف الاسلام من الاخرين ، فانه لا يبقى ثمة مكان لمثل هذا الوصف . بل يصبح استخدامه بمثابة اقلال من قيمة الموقف الاسلامي الصحيح ، ونيل من المكانة التي اعلى الله سبحانه بها الانسان على اطلاقه .

وهل يعد التزام المؤمنين بالحقوق المقررة في العقيدة من قبيل التسامح ؟

اضيف الى ذلك ان لافتة « التسامح » لم يعد مقبولا استخدامها في الحديث عن الحقوق الاساسية للبشر في القاموس المعاصر . واذا اردنا ان نتكلم بلغة العصر ، ليفهمنا الآخرون ، وتتبدد شكوكهم ومخاوفهم ، فلا بد ان نسقط تلك اللافتة ، ونستبدل بها ما هو اكثر قبولا واكثر دقة في التعبير عن حقيقة الموقف الاسلامي .

ربما كان للافتة التسامح بريقها ورنينها في عصور مضت ، قننت العنصرية والرق وقسمت الناس درجات عليا وسفلى ، فان هذا البريق يكاد ينطفيء الآن ، بعدما تتابع اصدار المواثيق واعلانات المبادىء التي تقرر حقوق الانسان ، وتعتبر الممارسات التي تنتهك هذه الحقوق بمثابة جرائم يعاقب عليها القانون الدولي .

نعم ، من حق المسلمين ان يعتزوا بما سبق اليه دينهم . ولهم الحق اذا تباهوا امام الاخرين بانه بينما نص القرآن منذ ١٤ قرنا على ان الناس جميعا خلقوا « من نفس واحدة » وقال رسول الله ﷺ : ان ربكم واحد ، وان اباكم واحد . كلكم لادم ، وآدم من تراب ... ليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على ابيض ولا لابيض على احمر فضل الا بالتقوى » .. بينما استوت قيمة المساواة بين الناس في عقيدة الاسلام منذ ١٤٠٠ عام ، فان العالم الغربي اخذ « بالانجاز العظيم » الذي حققه اعلان الاستقلال الامريكي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (عام ١٧٧٦م) ، عندما نص على ان « كل الرجال قد ولدتهم امهاتهم سواسية » !

وللمسلمين الحق اذا تباهوا امام الآخرين بان عبارة عمر بن الخطاب التي أطلقها منذ ١٤ قرنا ، قائلا : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ، هذه العبارة بنفس كلماتها تقريبا تصدرت اعلان حقوق الانسان الذي اعلنته الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩م ، واعتبرت تحولا في مسيرة حرية الانسان ، وواحدا من نصوص « انجيل » الثوار في العصر الحديث . وفيها ينص الاعلان الفرنسي على انه : يولد الناس احرارا ومتساوين في الحقوق ..

نعم ، ذلك كله حق . لكنه ـ كله ايضا ـ صار تاريخا ، ونحن الآن امام واقع جديد ، والذين سبقناهم في تقرير حقوق الانسان . لحقوا بنا ، وتجاوزونا الان بمراحل في تطبيق تلك الحقوق ، بين مواطنيهم على الاقل .

وازاء هذا الواقع الجديد فان استخدام وصف « التسامح » مع الاخرين لا يصبح فقط صيغة منقوصة ومبتورة في التعبير عن الموقف الاسلامي الصحيح ، ولكنه يعد ايضا صيغة متخلفة عن الشوط الذي بلغته حقوق الانسان في العصر الحديث .

ان الاعتراف بان للآخرين حقوقا في المجتمع الاسلامي يرتب نتيجة منطقية هامة تفتح الباب لاصحاب هذه الحقوق في رعايتها وتثبيتها والدفاع عنها . ورغم ان تلك مسئولية الحكومة الاسلامية ، وقد تدخل في مسئولية « المحتسب » كما يرى البعض الا انه ليس هناك ما يمنع في التصور الاسلامي من ان يباشر الاخرون تلك المسئولية بأنفسهم في اطار الحكومة الاسلامية ومن داخلها .

وتاريخيا فان « اهل الذمة » بقيت لهم محاكمهم المذهبية ، التي تفصل في النزاع بينهم في مختلف امور الاحوال الشخصية ، وفي غيرها من الخصومات الطائفية الصرفة التي لا تهم المسلمين ، ولا تمس كيان الدولة .

« وقد كان للبطريرك في دمشق سجن متصل بالكنيسة يحبس فيه من يستحق التأديب من النصارى ..

« ومرة حبس الاخطل شاعر بني اميه ، وقيده بسبب كثرة سكره ، ولم يطلقه حتى شفع فيه الخليفه نفسه ! » ❋

وفي التاريخ الاسلامي صورة لما ندعو اليه ، من ان يكون بين وزراء الدولة وزير لشئون الاديان الاخرى او الاقليات ، يباشر شئونهم العامه ، الى جانب اختصاص محاكمهم « المذهبية » بشئونهم الخاصة .

« فقد انشأ بنو العباس في بغداد ديوانا خاصا عهدوا اليه بمهمة المحافظة على اموال الذميين ورعاية مصالحهم . وكان اسم رئيس هذا الديوان في بغداد « كاتب الجهباذ » (الجهبذ كلمة فارسية معناها الناقد المتفحص ، العارف بتمييز الجيد من الرديء) .

« وانشأ بنو اميه ابان حكمهم في الاندلس « كاتب الذمم » في قرطبه ، الذي عهد اليه بالمسئولية ذاتها في رعاية شئون الاخرين من غير المسلمين ❋ »

●

بقي ان نسأل : من هم المعنيون بكلمة « الآخرين » في السياق الذي نحن بصدده ؟

لقد لعبت التحديات الكبرى التي واجهت دعوة الاسلام منذ نشوئها ، داخل الجزيرة العربية وخارجها ، دورا أساسيا في البناء الفقهي الذي عالج مسألة « الآخرين » . فمن ايذاء مشركي الجزيرة للمسلمين ، الى مؤامرات يهود خيبر وبني النضير وبني قينقاع ، الى تحرشات الفرس الساسانيين في الشرق ، والروم البيزنطيين في الغرب .. وسط هذا الخضم من مشاعر العداء ، كان طبيعيا ان تحتل قضية امن الدعوة الوليدة مقاما بارزا في اهتمامات كل القائمين عليها طوال تلك المرحلة . وكان منطقيا ان يكون تقسيم الفقهاء للخلق في ذلك الوقت متأثرا بذلك العنصر الحيوي والمصيري .

فهناك من قسم الناس استنادا الى معيار العقيدة ـ وبات الخلق عندهم اما مسلمين واما غير مسلمين ، مما يؤدي تلقائيا الى تقسيم العالم الى معسكرين : دار الاسلام ودار الكفر .

وهناك من قسم الناس استنادا الى معيار الامن ، فصاروا ، اما مسلمين او اهل ذمه ، او مسالمين او محاربين . وبات العالم مقسما عندهم بين ثلاثة معسكرات : دار الاسلام ، ودار العهد ، ودار الحرب .

ورغم ان الاكثرية قالت بالرأي الثاني ، الا ان الراي الاول له انصاره ، حتى بين الباحثين المعاصرين .

❋ محمد الغزالي ـ حقوق الانسان بين تعاليم الاسلام واعلان الامم المتحدة .

❋ سيد امير علي ـ روح الاسلام ترجمة عمر الديراوي ص ٢٦٦

وجهة نظر تتبنى الامن ، معيارا لقسمة العالم . فمن ابرز المعاصرين الداعين اليها ، الدكتور صبحي محمصاني الاستاذ بكلية الحقوق الفرنسية في بيروت . فهو يقول في كتابه « القانون والعلاقات الدولية في الاسلام » ان الاسلام » لم يميز بين المسلمين وغير المسلمين على اعتبار اختلاف الدين ، كما لم يميز بين المواطنين والاجانب على اساس جنسيتهم او تابعيتهم . فلذا ، من الخطأ الناتج عن الجهل والتضليل ، زعم بعض الكتاب ان صفة المواطن كانت للمسلمين وحدهم . وان غير المسلمين كانوا جميعا من الاجانب » (ص ـ ١٣٢) .

ثم يضيف ان الاسلام » لم يتعرف الى فكرة الجنسيات ، بل صنف الناس على اساس صفة المسالمة والمحاربة ، ووزعهم بين مسالمين وهم الاصل ، وحربيين وهم المستثنى ، ثم اعتبر الحربيين وحدهم اجانب بطبعهم واعتبر بلادهم بلاد العدو او دار الحرب » (ص ـ ٢٣) .

اى ان هذا الراى يعالج القضية التى نحن بصددها من زاوية الموقف السياسي والقانوني في الواقع ، وليس الموقف الايماني والاعتقادى .

وفضلا عن ذلك فان ذلك التقسيم الذى يعتمد الموقف القانوني ، سلما او حربا ، يتجاوز الثغرة التى شابت وجهة النظر الاخرى التى تعتمد معيار العقيدة ، والتي صنفت غير المسلمين من ابناء الدولة الاسلامية ، في عداد الاجانب المتجنسين . الامر الذى كان منطقيا معه أن يدين الدكتور محمصاني بشده القائلين بان صفة المواطن في الدولة الاسلامية كانت للمسلمين وحدهم .

●

اننا لانريد ان نخوض في مناقشة مفصلة لتلك الاراء ، ولكن المرور السريع بها كان ضروريا للتعرف على المناهج المختلفة التى عالج بها الفقهاء والباحثون المسلمون العلاقة مع الآخرين .

وقبل ان نستخلص من هذه الرحله النتائج التى تساعدنا في مواصلة البحث ، فانه يظل من المهم ان ننبه الى عدة امور :

ـ الامر الاول : ان كل هذه الاراء ، سواء منها ما يتعلق بتصنيف الخلق او قسمة الارض والديار ، لا تستند الى نصوص شرعية من كتاب او سنه ، وانما هي اجتهادات طرحها الفقهاء والباحثون في ضوء قراءاتهم للواقع الذي عايشوه .

ـ الامر الثاني : ان اكثر هذه الآراء يخاطب عالما غير عالمنا الذى نعيشه الآن . اذ انها تتحدث عن عصور كانت السلطه فيها موزعة بين القبائل ، ولم تستوعب تماما فكرة الدولة او الوطن الذى يضم بشرا متعددى الاديان والاصول العرقية . وغاب فيها القانون الدولى ولم يعرف المنظمات الدوليه .

ـ الامر الثالث : ان دار الاسلام التى يتحدث عنها الفقهاء لم يعد لها وجود الا في كتب التاريخ . وان ديار المسلمين صارت موزعه بين اوطان عديدة (الدول الاعضاء في منظمة المؤتمر الاسلامي عددها اكثر من ٤٠ دولة)

ـ الامر الرابع : ان دار الحرب لم تعد واقعه في مربع الآخرين من غير المسلمين بالضرورة بل ان اكثر حروب بلاد المسلمين في زماننا باتت فيما بين ديار الاسلام ذاتها ، واقلها بين المسلمين وغير المسلمين . وهو امر محزن ومفجع ، لكنه يكشف المدى الذى تغير اليه واقع المسلمين ، والذى لم يخطر على بال فقهائنا الاقدمين ، فلم يتصوروا الا حربا بين المسلمين في مجموعهم ، وبين غير المسلمين من كتابيين او مشركين .

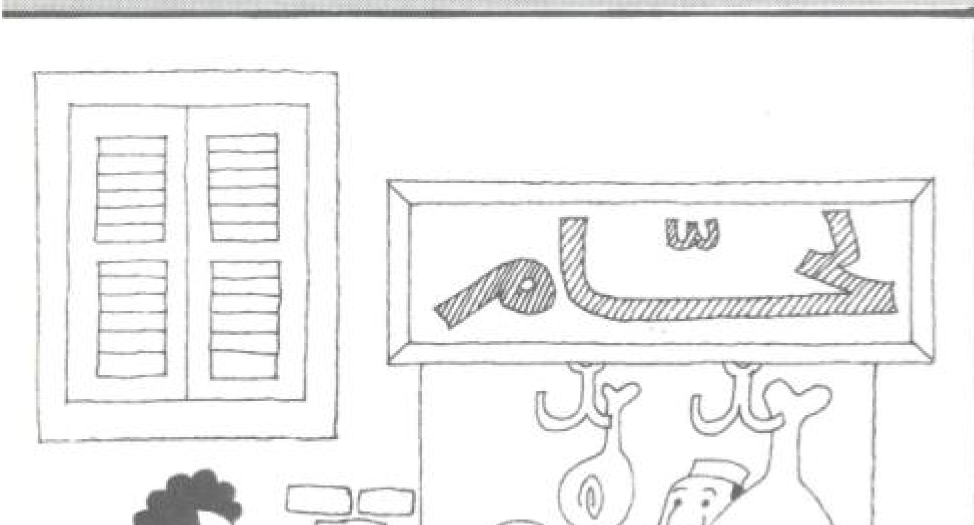
وازاء هذه الايضاحات والتحفظات ، فان قبولنا لفكرة تقسيم العالم الى الى دار للاسلام ودار للحرب ـ البعض يضيف دار العهد ـ انما يعد من قبيل التمهيد لمعالجة نتائج مترتبة عليها تتصل بواقعنا المعاصر .

واذا كان هدف هذه الرحلة هو التثبت من صحة الجسور القامة بين المسلمين والاخرين فاننا قد نتفق على أن صيغة المستأمنين او المعاهدين يمكن قبولها الى الان كإطار للتعاون بين المسلمين والاخرين ، والحادث فعلا ان النظام القانوني الدولى هو بشكل او آخر تعبير عن تلك الصيغه . وقد نتفق ايضا على ان وصف المحاربين بات حالة معترفا بها وخاضعة لاتفاقات دولية ومعاهدات تنظمها .

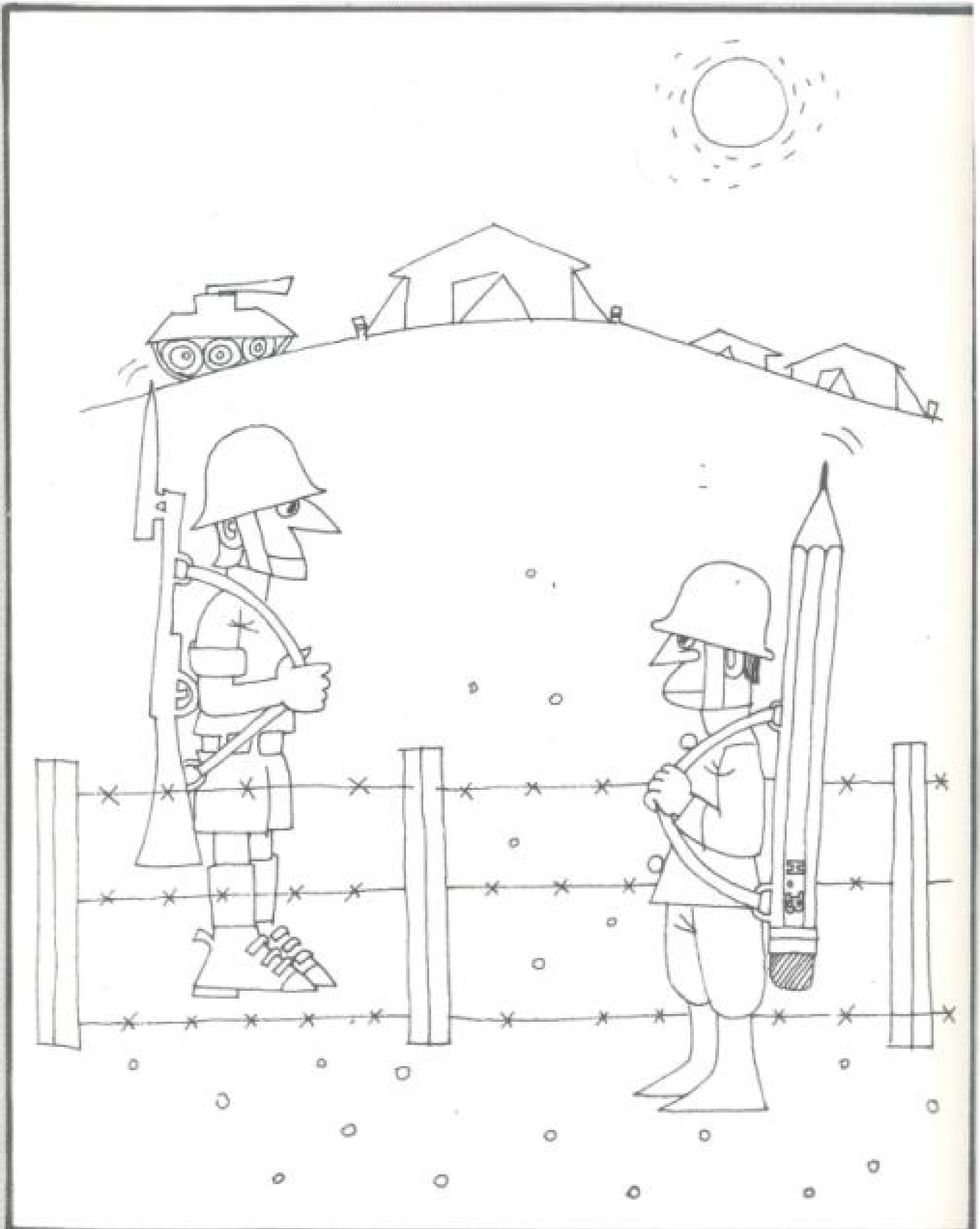
غير ان ما يحتاج الى مناقشة واعادة نظر هو تعبير اهل الذمه . ■■

مواجهات

بهجت



اللحن واللحم



الرصاص والرصاص



رحلة العلماء فى كشف أسرار الدماغ والعقل

بقلم : الدكتور عطوف محمود ياسين

حققت ابحاث العلماء داخل رأس الانسان نتائج كشفت عن الكثير من غوامض نشاطات المخ والسلوك ، لكن الشوط امامهم لايزال بعيدا .

يعتبر كتاب (الدماغ والعقل) لاستاذ علم وظائف الاعصاب في كلية الطب بجامعة الينوى في الولايات المتحدة الامريكية د . جيرارد فون بونين ، واحدا من ابرز الكتب[1] التى تركت آثارها وما تزال ، على البحوث المعاصرة حول نشاطات العقل وفعالياته كالشعور او الوعى والكلام ، والانتباه ، والانفعالات ، والذاكرة ،

1 - G.Von Binin : Brain And Mind , Mcgraw Hill New York, 1962

والارادة وغيرها . ولقد مهدت لظهور هذا الكتاب دراسات رفيعة المستوى اشترك بها : (اولدز ، وفون هولست ، وفون سانت بول) وغيرهم في تحديد اقطاب كهربائية في الدماغ لاستدعاء تشكيلة واسعة من الاستجابات التي يمكن التنبؤ بها .

وعلى الرغم مما ساهمت به البحوث المعاصرة للاعصاب في اثراء معرفتنا عن العمليات العقلية ، فانها وضعتنا امام متاهات جديدة تشير بان الطريق امامنا ما يزال طويلا نحو معرفة اكثر يقينا واصلد ارضا . ويعتبر كتاب العالم (كولين بليكمور)[2] من احدث الكتب المعاصرة التي اثارت ضجة وما تزال حتى اليوم موضعا للبحث والتقدير والنقد والتحليل وجذب الانظار والعقول .

ان السؤال الذي يطرح نفسه امامنا الآن هو : كيف يتم تفريغ شحنات الاعصاب في حالة شعور الانسان بالفرح والبهجة ؟ او في حالة شعوره بالندم او الالم ؟

لغز اعصاب المخ

لقد زودتنا المعرفة المحدودة لنشاطات اعصاب الدماغ بان الاندفاعات - بغض النظر عن وظائفها - تنشأ بواسطة حركة الايونات Ions (الذرات الكهربائية) خلال غشاء الخلايا مقترنة باطلاق مادة قادحة عند طرف المحور . ولكن السؤال الذي ما يزال غامضا امامنا يظل يواجهنا بالشكل التالي :

لماذا ينبغي ان يرتبط الاندفاع بحركة عضلة واخرى ، بالتفكير الابتكاري ؟

وعلى الرغم من كل الاكتشافات التي وصلنا اليها في علم وظائف الاعصاب ، فان دور اعصاب لحاء المخ واثرها في التفكير والسلوك ما يزال امرا غير معروف . وثمة عشرات النشاطات الاخرى ماتزال غامضة امامنا لانها افتراضات تبحث عن التحقيق ، والمزيد من البحث والمتابعة والاثبات .

ان الخلية العصبية بحكم (المهام) الملقاة على عاتقها ، ما هي الا نظام معين تتحكم فيه ميكانيكية حيوية خاصة لتجعل منها بطارية حية دقيقة ، فتأخذ من الخامات التي تدور في الدم ما تشاء ، وبهذه الخامات تستطيع ان تحافظ على حياتها كأية خلية من خلايا الجسم . لكن الخلية العصبية ذاتها تتميز بامتلاكها لعمليات أخرى ، فتحول الطاقة الكيميائية الى طاقة كهربائية وبها تشحن نفسها ، فاذا اثيرت افرغت شحنتها وانطلقت منها نبضة كهربائية ضعيفة لتوصلها الى جاراتها او لترد بها على رسالة قادمة من مكان - ما - في الجسم الحي . ثم تعاود شحن نفسها وتفرغ او تختزن الشحنة لوقت الحاجة ، وهكذا تسير الامور في كل الخلايا العصبية ... لا فرق هنا بين خلية عصبية لاى انسان او لاى نوع من انواع الحيوانات .

ولقد كشفت بحوث العالم (فيلكس شترو موازر) الاستاذ في معهد التكنولوجيا بجامعة كاليفورنيا على (القواقع البحرية) اسرارا مذهلة في امكانية (احتفاظ الخلايا بالمعلومات) عن طريق التعلم التجريبي .

واذا كان الحيوان هو المادة الاولية في مختبرات علم النفس ، فان الانسان هو المخلوق المباشر الذي كثيرا ما يستفيد من معظم الدراسات والاستنتاجات التي نصل اليها من دراساتنا وتجاربنا على الحيوان . والكل في مجتمع الحيوان والانسان بخلاياه العصبية يستجيب للمؤثرات ، وبها يحس ، وينفعل ويثور ، لكن الاساس في ذلك كله هو (خلية عصبية) تستطيع ان تتخاطب مع انواعها بلغتها الخاصة . ولغة هذه النبضات اليكترونية تسرى في داخل الكائنات الحية دون ان تشعر بسريانها ، وبهذه اللغة الغريبة ، التي تسجلها اجهزتها الاليكترونية الحساسة على هيئة خطوط ترتفع وتنخفض ، يكون التخاطب والتفاهم بين هذا المجتمع الخلوى العظيم الذى تضمه اجسام الكائنات الحية .

ان الثمرة الاولى - في تقديرنا - لهذه البحوث التجريبية في مجموعها انها تزيد من فهمنا لما يجرى داخل دماغ الانسان او جهازه العصبي عموما .

ان الدماغ البشرى الذي لا يزيد وزنه ما بين (٣-٤) ارطال عند البالغين يحتوى على ما يقارب من (١٢) الف مليون خلية عصبية ، هي من حيث الشكل والمظهر متشابهة ولكنها من حيث المضمون مختلفة . وبتعبير آخر ، ان هنالك تخصصا عظيما في مناطق الدماغ المختلفة ، فكل ما نحس به بحواسنا التقليدية المعروفة وكل ما نختزنه من معلومات ، وكل ما نشعر به من انفعالات ، انما تم اكتشاف مراكزه المحددة في الدماغ بعد مئات الآلاف من البحوث التجريبية المختبرية .

2 - Colin Blackemore : Mechanics Of The Mind , 1977 .

وقد لخص الكثير من هذه البحوث العالم الراحل الدكتور احمد زكي في بحثه [٣] عن الطب المصور والجهاز العصبي باشارته الى المخطط التمثيلي المبسط الذي استخدمه الدكتور (ويلدر بنفيلد) في تحديد المساحات والمناطق التي تخدم الاعضاء المختلفة للجسم كخريطة مصغرة للدماغ .

المشاعر والسلوك والدماغ

يعتقد الدكتور (سنايدر) رئيس مختبر كلية الطب في مستشفى جونز هوبكنز بان مشاعر الانسان وافكاره سترد في يوم قادم الى التفاعلات الكيميائية في الدماغ . وقد حاول (سنايدر) ومن معه من عشرات الباحثين اكتشاف تلك المقادير الصغيرة من المواد الكيميائية في هذا العضو وقياسها . وتعرف هذه المواد باسم (مسببات البث العصبي) . وهي تقوم بنقل الرسائل بين (٥) الاف مليون خلية دماغية . وتقرر المكان الذي تحدث فيه وظائفها . وفي تقديرنا ان العلماء مازالوا يعانون صعابا كثيرا في معرفة الخلايا المرتبطة بالاعصاب التي تستقبل المنبهات . وحين يتمكنون من معرفتها في التسعينات فانه يبدو ان بامكانهم ان ينجحوا بواسطة تلك القدرة المعرفية الفائقة في تحديد آثارها على سلوك الانسان ، وعندها سيفتح امامهم الطريق لصناعة مادة كيميائية تستطيع (انتاج هذه الوظائف او الآثار) . وقد ركز « سنايدر وجماعته » ابحاثهم على مجموعة واحدة من الباعثات العصبية هي (الببتائد) وهي خلايا تعمل في الدماغ وتوجد ـ للغرابة ـ في امعاء الانسان .

ويعتبر (الانكفالين)[٤] واحدا من ابرز انواع (الببتائد)[٥] ووظيفته (تخفيف الالم وانتاج شعور البهجة) . وقد امكن الاستفادة منه في اكتشاف مضادات الاكتئاب . وخلال الثلاثين سنة الماضية لم يتمكن العلماء من اكتشاف اكثر من اربعة انواع للخلايا الباعثة للاشارات العصبية . ولكن التقدم المعاصر في علم وظائف الاعصاب مع قدوم الثمانينات رفع هذا الرقم الى اكتشاف (٢٥) نوعا منها . والافتراض الطموح الذي يتمسك به (سنايدر) هو ان هنالك (٢٠٠) نوع من انواع الخلايا الباعثة للاشارات العصبية في الدماغ وكثير منها قد يكون له تأثير على سلوكنا بطرق ما نزال نجهلها ولا سيما على الامراض العقلية والنفسانية .

ويعلق (رينيه دوبو) العالم البيولوجي الفرنسي على اكتشاف المواد الكيميائية في الدماغ وتأثيرها في السلوك والمشاعر بقوله : « ان الاكتشافات الحديثة لتأثير كيمياء الدماغ في سلوكنا ومزاجنا واحساسنا بالسرور والالم ستحدث تحولا خطيرا في تفكيرنا ونظرتنا للكثير من انماط السلوك وطرق ضبطه وعلاجه . وان نظرتنا الى مسألة ـ الارادة الحرة ـ سوف تتبدل رأسا على عقب طبقا لتغيرات جديدة . »

وقد اكد العالم (سنايدر) في حديث صحفي لمجلة « علم النفس » ان الكيمياء العصبية تتوقع مستقبلا انتاج (عقاقير) يمكنها بشكل عام احداث احساس بالراحة دون خطر ادمان الافراد لها .. وليس غريبا ان تتسابق حاليا شركات الادوية في اوروبا وامريكا لصناعة وتركيب عشرات المشتقات لاحماض الامينو الناتجة من مادة الانكفالين . المادة المهدئة الطبيعية التي ينتجها الدماغ . والتي يدعوها الاطباء (مورفين الدماغ) ويؤكدون بانه لا يمكن ان يصاب الانسان بالادمان على مورفونه الطبيعي . وهكذا يبدو ان العقاقير التي تقلد مفعولها الانكفالين كتخفيف الالم وتحسن المزاج سوف تظهر قريبا .

وتعتبر مادة « النيوروتنسين »[٦] مادة اخرى ناقلة للاشارات العصبية من نوع (الببتائد) موجودة في مراكز معينة ومختصة في الاحساس بالالم وشأنها في ذلك

---

(٣) راجع الدكتور احمد زكي : (مجلة العربي بالعدد ١٦٨ نوفمبر ١٩٧٢ ـ ص (٥٢ ـ ٥٩)

(٤) الانكفالين : نوع من خلايا الدماغ العصبية الخاضعة حاليا كمادة لبحوث مختبرية ـ تجريبية ويعمل على استحضارها كيميائيا .

(٥) الببتائد : خلايا دماغية تحمل استثارات وبواعث عصبية ويعمل على استحضارها كمادة كيميائية وقد استخدمت لاكتشاف مضادات الاكتئاب . فدورها ودور ـ الانكفالين ـ دور مهدىء .

(٦) النيوروتنسين : مادة دماغية ناقلة للاشارات العصبية ، ومختصة بالاحساس بالالم . وقد تم استحضارها كيميائيا للتهدئة .

شأن الانكفالين . وتسعى الشركات الطبية لانتاج عقاقير قادرة على تقليدها .

الذاكرة واشاعة البهجة

لقد نجحت التجارب في اكتشاف عقاقير حقنت بها (فئران مخبرية) وادى ذلك الى تحسن ملحوظ في عمليات الذاكرة .

وبدأت هذه التجارب تنتقل الى الانسان . والحديث عن تنشيط الذاكرة مرتبط في خلايا عصبية اخرى من نفس الاسرة تستطيع (اشاعة البهجة واللذة) والمعروف ان (الجملة الليمبية) في الدماغ هي التي تنظم الاحاسيس العاطفية ، بما في ذلك اللذة ، ولم يعد بعيدا امام العلماء امكانية الوصول الى عقاقير قادرة على تقليد هذه المراكز جميعا . ولكن التحدي الخطير الذي يواجه هذه الابحاث التجريبية[٧] في اعتقادنا ـ هو ان الانسان قد يتحول فيما بعد الى الادمان عليها ، وعندها يصبح تحريره من قيودها مشكلة جديدة امامنا .

والتحدي الآخر في تقديرنا هو الناحية الاخلاقية التي بدأت تتمثل في اساءة استخدام تلك المواد من اجل تحقيق بعض المكاسب ، فقد ذكرت التقارير والاحصائيات بان ارباح شركة واحدة من شركات الادوية الستة التي تتحكم في انتاج الادوية ومختبراتها الكيميائية والتجريبية في امريكا قد وصل الى (٨٠٠) مليون دولار لعام ١٩٧٠ .

والى جانب شحذ الذاكرة ، وتركيز الانتباه ، وتقوية القدرة على التعلم ، فقد بدأت نتائج المواد الكيميائية تأثيراتها المذهلة في التأثير على انتاج الانسان وفعالياته في مجالات الرياضة والسباحة والسباق والصيد والعمل والصحافة والتجارة وغيرها مما تجعله يتجاوز قدراته الطبيعية وينجز اعمالا خارقة للعادة ، ويقتلع الهم من جذوره .

وقد اجريت حديثا دراسات على مجموعات تجريبية متعددة من الرياضيين الذين اعطوا جرعات معتدلة من ـ الامفتامين ـ (نوع من عقاقير التقوية والتنبه) فكان اداؤهم الرياضي خارقا ومذهلا في درجة حيويته وحصيلته النهائية في الملاكمة والجمباز والمصارعة والسباحة وكرة القدم وركوب الخيل والتزحلق على الجليد وغيرها ! ..

وقد سجلت اعمدة الصحف حديثا نتائج مدهشة اكثر قيمة في مجالات الثقافة والفنون من موسيقى ورسم وتلوين وتصوير ونحت وتمثيل مسرحي ، وكتابة ادبية وشعرية وصحفية مما دفع اصحابها لانتاج خارق للعادة . ■■

د . عطوف محمود ياسين
كلية الآداب ـ جامعة الكويت

(٧) تعتبر الاعمال المدهشة التي قام بها العالمان الجراحان : (فرانك ايرفين وفيرنون مارك في مستشفى بوسطن مع مريض بسرطان الرقبة في تسكين آلامه عن طريق ادخال اسلاك دقيقة جدا ـ جراحيا ـ خلال الرأس الى الدماغ ، تعتبر هذه المحاولات مثلا واحدا من بداية التحكم المستقبل في مشاعر الانسان وسلوكه بأسلوب علمي حديث .

مع كامل الشناوى

* قلبي لا يعرف الا الحب .. ينفعل بالخير .. فيحبه ، وينفعل بالشر فلا يكرهه .. ولكن يحب ان يكرهه .

ليتها تعلم اني لا اطيق ان اراها حزينة ، ولا اطيق ان اتدارى حزنها ... كانت تدارى المها وتحاول ان تبتسم .. ان الابتسامات لا ترتسم على فمها ، ولكن تتحدر من شفتيها كالدموع !



كمال الدين بن يونس

للأستاذ قدري حافظ طوقان

لم يكن عند كمال الدين خير من أحوال الدنيا ، يلبس بلا تكلف ، لايعنى بزى أو هندام متصرفا بكليته إلى العلم بين درسه وتدريسه . تفقه بالموصل على والده وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد . وفي سنة ٥٧١هـ ذهب إلى بغداد وأقام بالمدرسة النظامية يدرس على السلماني والقزويني والشيرازى فقرأ الخلاف والأصول ، وبحث في الأدب على الأنبارى ، ثم عاد إلى الموصل حيث عكف على الاشتغال بالعلوم الدينية والعقلية والأخيرة كانت غالبة عليه « ... فكانت تعتريه غفلة في بعض الأحيان لاستيلاء الفكرة عليه بسبب هذه العلوم ... » ، وأخذ من أحد المساجد (في الموصل) مكانا يدرّس فيه عرف فيما بعد بالمدرسة الكمالية . وبقى كذلك الى أن توفاه الله في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ...

ذاع صيته وانتشر فضله « ... فانثال عليه الفقهاء وتبحر في جميع الفنون وجمع من العلوم ما لم يجمعه أحد ... »

رجع إليه الملوك والأمراء والعلماء في المسائل العلمية ،واستعان به ملوك الافرنج في ماأشكل عليهم من مسائل تتعلق بالنجوم . فقد ورد إلى الملك الرحيم صاحب الموصل رسول من الأمبراطور فردريك الثاني وبيده مسائل في علم النجوم ، وقدقصد أن يرد كمال الدين أجوبتها . فأرسل صاحب الموصل يعرفه بذلك ويقول له « .. أن يتجمل في لبسه وزيه ويجعل له مجلسا بأبهة لأجل الرسول ، وذلك لما يعرفه عن ابن يونس أنه كان يلبس ثيابا رثة بلا تكلف وما عنده خير من أحوال الدنيا ... »

استعد كمال الدين ، وعندما اقترب الرسول من داره بعث من الفقهاء من يستقبله ، فلما حضر عند الشيخ (كمال الدين) يقول أحد الحاضرين وهو من بغداد : نظرنا فوجدنا الموضع فيه بسط من أحسن مايكون من البسط الرومية الفاخرة « ... وجماعة مماليك وقوف بين يديه وخدام وشارة حسنة ، ودخل الرسول وتلقاه الشيخ ، وكتب له الأجوبة عن تلك المسائل بأسرها ، ولما راح الرسول غاب عنا (يقول البغدادى) جميع ما كنا نراه ، فقلت للشيخ : يامولانا ، ماأعجب مارأينا من ساعة من تلك الأبهة والحشمة ، فتبسم ، وقال يابغدادى هو علم ...)

كان كمال الدين متواضعا ذا روح علمى صحيح سما العلم بنفسه وصقل روحه ، فإذا الاخلاص للحق والحقيقة يسيطر على جميع أعماله فلم يترك مناسبة دون تبيان الحقيقة وإعلاء شأن الحق وكان يسير على القول السائر : (العلم يزكو بالانفاق » فكان يجيب على ما يأتيه من مسائل من بغداد وغيرها من حواضر الامارات ويوضح المشكلات التي ترد عليه من سائر الأقطار في مختلف فروع المعرفة ، وجاء أن أحد علماء دمشق أشكل عليه مواضع في مسائل الحساب والجبر والمساحة وأقليدس ، فكتب إلى كمال

الدين يستفسره عنها فأجابه عليها وقد كشف عن خفيها وأوضح غامضها ، وذكر ما يعجز الانسان عن وصفه . ثم كتب في آخر الجواب : « فليمهد العذر في التقصير في الأجوبة فان القريحة جامدة والفطنة خامدة قد استولى عليها كثرة النسيان وشغلتها حوادث الزمان ... » .

لقد اعترف له الأقدمون من العلماء والباحثين بالفضل والنبوغ فقال ابن خلكان : « ...وكان يدري في الحكمة والمنطق والطبيعي والالهي وكذلك الطب ، ويعرف فنون الرياضة ـ من أقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي وأنواع الحساب المفتوح منه والجبر والمقابلة وطريق الخطأين والموسيقى والمساحة ـ معرفة لايشاركه فيها غيره إلا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها ، واستخرج في علم الأوفاق طرقا لم يهتد إليها أحد .... » وفوق ذلك كان عالما بالعربية والتصريف ، قرأ سيبويه والايضاح والتكملة لأبي علي الفارسي والمفصل للزمخشري « وكان له في التفسير والحديث وما يتعلق به وأسماء الرجال يد جيدة .... » ولم يقف علمه عند هذا الحد بل عني بتاريخ العرب وأيامهم فقد كان يحفظ الشيء الكثير من أشعارهم ووقائعهم . قد استغرق حب الكيمياء عقله ووقته . وكان فقهاء زمانه يقولون : انه يدري أربعة وعشرين فنا دراية متقنة ، وكان جماعة من الحنفية يشتغلون عليه بمذهبهم ، ويحل لهم مسائل الجامع الكبير أحسن حل مع ما هي عليه من الاشكال المشهور وكان يتقن فن الخلاف والعراقي والبخاري وأصول الفقه وأصول الدين ... » ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد وجد في قومه من يتهمه في دينه ، وقد يكون هذا الاتهام آتيا من اهتمامه بالعلوم العقلية وتعمقه فيها

ويقول ابن أبي أصيبعة : « ... كان كمال علامة زمانه وأوحد أوانه وقدوة العلماء وسيد الحكماء ، قد أتقن الحكمة وتميز في سائر العلوم .. » برع في الحساب ونظرية الأعداد وقطوع المخروط وكتب في المربعات السحرية والجبر والسيمياء والكيمياء والأعداد المربعة والمسبع المنتظم والصرف والمنطق .

ويقول سارطون : « ... إن كمال الدين من أعلم علماء زمانه ومن كبار المعلمين ـ أو هو المعلم العظيم ـ ومن أصحاب النتاج الضخم ، وهو مجموعة معارف شتى في العلوم والفنون ... » ويمكن القول إنه كان لبحوث كمال الدين قيمة كبرى عند علماء عصره وأثر في تقدم العلوم

لقد سبق كمال الدين غاليليو في معرفة بعض القوانين التي تتعلق بالرقاص ، فقال سمث : « ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليليو إلا أن كمال الدين بن يونس لاحظه وسبقه في معرفة شيء عنه . وكان الفلكيون يستعلمونه لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد . » ومن هنا يتبين أن العرب عرفوا شيئا عن القوانين التي تسيطر على الرقاص ثم جاء من بعدهم غاليليو ، وبعد تجارب عديدة استطاع أن يستنبط قوانينه إذ وجد أن مدة الذبذبة تتوقف على طول البندول وقيمة عجلة التثاقل ووضع ذلك بشكل رياضي بديع وسع دائرة استعماله وجنى الفوائد الجليلة منه

ومن المؤسف أنه لم يصلنا من نتاج كمال الدين إلا القليل فقد ضاع أكثره أثناء الانقلابات ، والفتن التي حدثت في العراق .

وورد في المصادر بعض مؤلفاته التي تتعلق بالفقه والمنطق والنجوم وهي : كتاب كشف المشكلات وإيضاح المعضلات في تفسير القرآن ، شرح كتاب التنبيه في الفقه (مجلدان) ، كتاب مفردات ألفاظ القانون ، كتاب في الأصول ، كتاب عيون المنطق ، كتاب لغز في الحكمة ، وكتاب الأسرار السلطانية في النجوم .

وخلف كمال الدين أولادا أتقنوا الفقه ، وسائر العلوم « ... وهم من سادات المدرسين وأفاضل المصنفين ... » كما يقول ابن أبي أصيبعة . ■■

شاعر يعيش مأساة الانسان العربي :

العدواني .. أسير الصمت

« اني اسير الصمت منذ تعلمت

نفسي تمردها على الاسار »

بقلم : الدكتور شاكر مصطفى

« اجنحة العاصفة » * !

« اجنحة العاصفة » ؟

الذين أدمنوا الشعر زقاق خمر وخمار وحشي ، الذين لاحقوا الدواوين قناديل مشنوقة على الدروب ، الذين عاشوا القوافي بكاء او غناء على الليل والجراح ، هؤلاء واولئك سيفاجأون بهذا الديوان « اجنحة العاصفة » وبالشعر المثقل بالابعاد في صفحاته وبالحرف يثور فيه ، يغلي ، يعول ، ينزف ، يوغل كالاسرار القدسية في الضلوع . ان ظهوره « حادث » شعري في الكويت والخليج . ومع ان احمد مشارى العدواني ، صاحبه ، ليس بالاسم الجديد في دنيا الشعر ، ومع انه يعاني الحرف المسحور منذ اكثر من ثلاثين سنة الا انه كان دائما على التوارى ، على كره الانوار وضجيج السوق ، وعلى المثوى الاخرس في الهيكل . الشعر صراخه الممزق داخل ضلوعه ، هوالنار المقدسة التي يتطهر فيها من عواصفه ويطلق فيها الاجنحة ... القافية حريته وغربته في وقت معا ... ولكنه لم يكن يريدلديوانه ان يرى النور .

كان يريده ان يبقى نداءات منثورة على اكتاف السنين ، اوراقا ووثائق ادانة ، شهادة عصر يزرعها في المنعطفات المصيرية ويمضي .. اصحابه هم الذين جمعوها على تردد منه وكره ، وهم الذين نشروها على تردد منه وكره ايضا ، وهم الذين قدموا الديوان للناس . وفي التقديم قالوا : « ما كان متفصلا وان كان عازفا . خلق مطبوعا على محاربة السطوح الملساء الظاهرة مغرما بالاعماق يجوسها .. يتوارى حتى تخاله بعيدا بينما هو

* صدر هذا الديوان للشاعر الاستاذ احمد مشارى العدواني في ديسمبر ١٩٨٠ (الطبعة الاولى) طبع شركة الربيعان للنشر والتوزيع في الكويت في مقدمة كتبها الشاعر الاستاذ خالد سعود الزيد والدكتور سليمان الشطي من رابطة الادباء و ٦٨ قصيدة .

الاقرب الى قلب المعاناة . تجد الاحداث العميقة فيه وترا مشدودا يعكس الاغوار ويهبها بعدها الحقيقي الخافي عن الاعين .. ولكن هذا الذي تراه في اللجة حاملا مجداف الطفل الذي لاينى هو نفسه الذي تلمس عنده عزوفا غريبا عن الظهور . ايمانه بالشعر الفاعل غطى على شخصيته الشاعرة الظاهرة . يلقى بكلمته ويرقبها من بعيد دون ان يتناساها او ينساها ولكنه يبحث عن جديد آخر ... كلمة موجودة بارزة مؤثرة ولكننا حين ندعوه الى ان يلم شعثها بعد افتراق طال وامتداد منذ سنة ١٩٤٦ .. كلما دعوناه تمنع وابى .. فذهنه مشغول بجديد يحوك في صدره يريد الخروج .. »

مرض المثل الاعلى

العدواني نفسه اعترف ذات يوم بمشكلته : « انني مصاب بما يسمى مرض المثل الاعلى فيخيل الى احيانا ان كل ما قلته من شعر لا يستحق ان يجمع ويطبع ويفرض على الناس . وان الكلمة التي اريد ان اقولها ، لم اقلها بعد . وكل ما صنعته هو تجارب اولية لشيء لا يزال يتكون .. »

الهذا ياترى تهيمن كلمة « الصمت » في الديوان ، تركض على الاسطر واصبعها على الفم : سكوت ! ان الشاعر يحلم ؟ ! لا اكاد احسب ذلك تماما . فان صمت العدواني صراخ كله . صراخ كياني . انه احتجاج بعرض السماء . انه تحد لكل كلام . انه يرى فيه حريته الكبرى . اعترافاته الاخرى تفضحه . اسمع همسه بينه وبين نفسه :

وفـي فمـي صلـوات
محـروقـة الكلمـات
(انـا غريب زمانـي
وانـت غربـة ذاتـي)
تشكـو جراحـات صدري
والصمـت يطـوي سكاتي !

واسمع قوله :

انـي اسير الصمت منذ تعلمت
نفسي تمـردهـا على الاسار
استقبـل الدنيـا بنظرة ساخـر
واضـالعـي ضيف علـى الجزار

اليس صمت العدواني قضية ؟ بل لقد اعترف بذلك . وحين جاءته الحورية « رسالة السنا » . غاضبة تحاوره قائلة :



احمد مشاري العدواني

لكنني كنت - ولا أزال - لا اطيق

أثقال صمتك العميق

انطق ...

لم يملك العدواني الا ان يعترف :

قلت لها : ايتها الحورية

صمتي طبيعة لي

المح فيه راية الحرية

في ساعة التجلي

صمتي قضية

كنوزه الخفية

ما عرفت خزانة قبلي

ولو كشفت عن اشيائها السرية

قتلني اهلك او اهلي !

وراء صمت العدواني اذن يختفي سره الاكبر. سره الذي قد يمزق صدره رهقا فيصيح :

ياليتها كانت معي !

تكسر طوق الصمت في نفسي

تطرد عني ظلمه اليأس

تطلقني من حجرة الحبس

ياليتها كانت معي !

ما يهم ان يكون الصمت احتجاجا او قلقا فنيا ؟ ما يهم ؟ لندع العدواني مع التجربة الشيطانية الخصبة يلاحق جديده الاخر او يضن بالتي في صدره . لندعه من خلال احباط الواقع ودنيا الرمز والاسقاط والزحف الى سدرة المنتهى يختزن ما لايقال او يطارد مالا يزال يتكون . ولنفتح : « اجنحة العاصفة » !

ان كلماته التي زرعها على امتداد ثلث قرن من السنين تكفينا الآن . لقد نزلت السوق مجموعة منذ شهر وبعض الشهر وهي تحمل كل صورته . تحمل طاقاته الشعرية ومنظوره الفكري وشهادته لعصره في وقت معا .. خفقت « الاجنحة » اخيرا بعضها مع بعض لتكتمل ملامح اللوحة « العدوانية » فماذا على هذه الاجنحه ؟ وما الصورة التي رسمت ؟

يقولون ان افلاطون في القديم كتب على باب مدرسته « من لم يكن مهندسا فلا يدخل علينا » واحسب ان العدواني لو سئل لكتب على باب ديوانه : « من لم يكن متألما فلا يدخل علينا » . انه من جمهرة المعذبين في الارض ، من تلك الارواح المحترقة بالتوق ، وبالتمرد ، وبالمعاناة تحسبها سياط الشياطين . الالم الكياني المغروس كالسكين الحادة في الجرح هو شرايين الديوان واعصابه ، وهو احرفه ودبيب الايقاع فيه . « لايفهمنا الا المتألمون » كذلك تقول قوافيه بالف لسان ولسان ! ومن الالم ، هذا المائع الناري الداخلي ، لا تنحدر فقط كافة المحاور والامواج التي تسافر عليها اشرعة العدواني ، ولكن تتفجر جميع الزلازل ايضا وتنطلق خيول الغضب !

وقبل ان تسافر مع تلك الاشرعة ، وتلك الزلازل والخيول الغضبى يجب ان تعرف شيئا أخر ليس اقل كشفا للعدواني من « الالم » هو امتزاج الموسيقى والتراث والمشاعر القومية والفكر المتمرد المتصوف ، بعضها مع بعض في قوافيه ! في كل بيت ، في كل كلمة ، في كل حرف ، ثمة اربعة ابعاد معا . وكل بعد تحديد للخدر الرتيب ومحاولة جريئة للتجاوز ولاختراق الافق المرسوم :

- البعد الموسيقي - الشعري هندسة الموسيقى كلها في انفاسه

- البعد التراثي - العصري : الجذور ونبض العصر يخفقان معا في قلبه

- البعد الاجتماعي - القومي : بركان الالم المحرق حتى الثورة كله في صدره .

- البعد الفكري - الصوفي : الرؤية الثقافية التي تحتضن موج الكون ومده وجزره لا تفارق عينيه !

من بوابة الالم ، وفي اطار هذه الابعاد ، تدخل الى العدواني في محرابه الاقصى ، وان فعلت « فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى » فالزاحفون الى القمم المتفرده يقتربون ، يقتربون حين تشاركهم في عضة الاشواك وجراح الصخور ...

الموسيقى والحرف

ولعلك متربص ، بعض التربص ، قبل كل شيء

عند البعد الموسيقى ، عند صنعته في الشعر . لا بد ان نتوقف اولا هاهنا فان له في هذا البعد موقفه الخاص . له قضية وله ايقاعه وموازينه . ولقد يصدمك العدواني احيانا في هذه الصنعة وتلك الموازين فهو خليلي حتى العظم ولكن على طريقته وموسيقى نفسه . انه تارة مع رقصة التفعيلة التقليدية ودوارها المولوى ، وهو تارة اخرى يتركك وحيدا في ضباع الاوزان تلتمس الايقاع تلمسا وراءه في بحوره الخاصة التي تميد دون ساحل .. الذين اعتادوا القوالب الخليلية المألوفة قد يغرقون في هذه البحور . يبحرون فيها على ايقاع المفاعيل والمستفعلات فاذا بهم غرقى الزحاف والخبن والنقلة المفاجئة عبر البحور واللابحور .. حتى الصراخ بالنجدة ! ذلك ان العدواني يفلت منهم وراء الموسيقى الداخلية لعناق الحرف مع الحرف والكلمة الموسقة . انه يقول بما يسميه بالشعر التنغيمي او بالتنوع التغمي ! ومهما يكن رأيك في هذه الايقاعات الغريبة التي يفاجئك بها في شعره الاخير فانك لا تملك الا الاعتراف بأن هذا الكلام الذى تقرأ هو شعر ، ولو انه يقع احيانا على الحدود القصية الفاصلة بين الشعر والنثر ! .. اقرأ معي في « تأملات ذاتية » :

ـ أ ـ

ايامنا تموت

كالحشرات في خيوط العنكبوت

ايامنا للدود قوت

ـ ب ـ

وتركب الطائرة
الى منازل السلف
والمرأة العاقره
تطلب عندها الخلف

والقمم الثائرة

ملعونة كافرة

ليس لها في عرفنا
حظ من الشرف !

واقرأ ان شئت في : « صور »
اول خطوة الى مراحل
الالم
انك تحيا
وتعشق الاحلام والرؤيا
اول خطوة الى مراحل
الالم
ان تحمل القلم
وتكتب التاريخ للقمم !!.....

وفي « خطاب الى سيدنا نوح » يكتب :
سفينته النجاة
تعيش في مأساة
اشتمل الضباب فجأة عليها
فجنحت عن نهجها المرسوم
واصبحت تدور في اضاليل الغيوم
....
يانوح ادركنا
من قبل ان يأتمر الطوفان بالسفينة
وتفقد الأرض مظلة الضياء
في عالم القى المقالبد الى عساكر الظلام
فشرعت له قوانين الحلال والحرام
وطمرته في احافير الزمان قبل الف عام
فباع دنياه وباع دينه
وقدس الصخور
صحفا وحجرا
وهام في دنيا القبور
فاقام منبرا
تناوب الموتى عليه يخطبون
يكفرون
كل جيل هم ان يفكرا
ويكشف القناع
عن سادة رعاع
تصدر بالعادات والطباع
عن رقم تحت الثرى
ترفض ان يكون للانسان منزل فوق الذرى ...
....
يانوح ادركنا
فليس الا انت بين الانبياء
ساد على الطوفان
وعاد بالحياة والاحياء
على سفينة الهدى الى بر الامان
يانوح ادركنا ..
يانوح ادركنا ... يانوح ادركنا !

الانسان لا الكلمة

واحسب ان العدواني انما يمارس حريته الكاملة مع

موسيقى الحرف ليعطي رؤاه الفكرية الجموح كامل حريتها في الفرح والجنون ومدى التعبير ، وفن الرقص مع مأساة الكيان الرقصة الجنائزية حتى اللهاث ...

الحرف نغم عنده ولكن الكلمة فكرة . طاقة . دفقة ايحاء . وايقاع الزمن « المموسق » عنده لا يتعلق باللفظ ولكن بالصورة الفكرية المطاردة . ومتى « سلطنت » الفكرة انتهت الغنائية لدى العدواني وطفا الالم واضحت الكلمة كالسكين تقطع . تقرر . تحسم . توحي تفتح الابواب وعليك انت ان تتدبر العواصف التي تلفك بعد ذلك .

ولا تحسبن العدواني عبد الحرف والموسيقى . الشعر عنده هو الانسان لا الكلمة . الحرف مجرد نغم . مجرد ايقاع يختاره كما يختار الموسيقى جوار الدو (بيمول) مع الصول (دوبل كروش) ... وقد تحافظ الكلمة على بدايتها الاولى عنده . تبقى بخشونتها البدوية لتوحي بما يريد . دورها ـ وهو حسبها ـ ان تكون ومضة ايحاء دون غنائية موارة او زخرف كالدهان او ربيع ينسكب . انه كروم تعصر خمرا على الدروب في كؤوس من طين ومن بلور الكريستال على السواء ...

وما وصل العدواني مرحلة الشعر « التنغيمي » الا بعد رحلة طويلة من المعاناةللموسيقى الشعرية . كل شعر العدواني السابق للستينات لا يثير هذه المشكلةوان كان يحمل بذورها . وقبل ان يهز القوافي المرصوصة والاوزان « ادرك ـ كما يقول ـ ان الموسيقى الداخلية قيد لا مجال لعب . ان النظام الموسيقى هو سر الحرف الشعري . هو شرطه الأقسى والأصعب وقد قبل المحاولة القاسية الصعبة ...

الى اي درجة نجح ؟

قد لا يهم ذلك . ان هذا الجانب ليس الا اهون الجوانب في تجربة العدواني الشعرية . اهم منه محاولته الاخرى ان يجمع التراث والعصر على فم الحرف . قبل ان تفكر في هذه المحاولة قد يفيد ان تقرأ من « تفاريقه » :

١ ـ صلوا معي على رفاق رحلتي
صلوا معي
ان الرفاق ماتوا
وهذه قبورهم في اضلعي
ولي عليها كل خطوة صلاة

❋

٢ ـ اولئك الاناسي
انا اعرفهم ...
منذ قديم الازل
اولئك الاناسي
لكنني جهلتهم
اعملت فيهم معولي
منذ غدوا كراسي

لقد يخدعنا التجديد في الشكل الشعري وتلك المحاولة التنغيمية عن العدواني الشاعر وعن اعداده التكويني وقد تحسب انه ابن هذه الموجه من التجديد التي تبحر في فراغ الكلمات وتعمل بين الشعر والنثر على تربيع الدائرة وعلى اجتراح المعجزة في الهواء ... ان حسبنا ذلك فيجب ان تعرف ان العدواني ما وصل حرفة « المموسق » والفكر الذي « يدوزن » ذلك الحرف الا وقد امتلأ حتى ما بعد الفيض بالتراث . كل تراث الادب العربي يعيش معه وفي دمه . لقد استوعب ذا الرمة والحطيئة والاحوص وشعر الصعاليك والخوارج استيعابه لأبي تمام والمتنبي وابن الرومي . وافطر وصام مع المعرى سنوات وحفي وراء ابن دريد وابن السكيت والاصمعي وركض مع الصولي وابن رشيق وبديع الزمان ... حتى الفيات النحو حفظها وكرر ، وحتى كتب السحر وتفسير الاحلام .. لقد كان مقررا له ان يرجع من الازهر ـ حيث درس في الاربعينات ـ بعمامة بيضاء وجبة سابغة وبعدة ذلك كله من اللغة والفقه والحديث والنحو والتفسير ... فرجع بذلك كله ولكنه استبدل بالعمامة والجبة قيثارة اولئك الذين « يتبعهم الغاوون » والذين هم في كل واد يهيمون .

المحاولة هي الاهم

ان العدواني انما يصدر في الشعر عن خزانة في صدره ملأى بالكتب الصفراء ذات الذيول والحواشي والهوامش ، وبالتراثيات الاولى تختنق بالحمدله والعبدلة والاطراف المهترئه ، تماما كما يصدر عن ثقافة كثيفة مرهفة ، وعت مد العصر وجزره وتياراته ، فقضى في استيعابها عهد الأزهر نفسه وعهد ما بعد الازهر كله الى اليوم .... وهو لهذا وذاك يحاول ان يجد طريقه الخاص في التجديد الشعرى العربي . انه يرفض ذلك الفيضان من الشعر الحر والمرسل والحديث ينسكب غثاء احوى بكل فم . يرفضه لانه يصدر « كخضراء الدمن » ، دون معاناة ومن خارج التجربة لا من داخلها الاصيل ، ويرفض لانه يستعير تجربة الغرب الشعرية دون جذور في الذات العربية المأزومة . يقول اذا سألته : « انا مع

التجديد ولكن مع الاصالة ايضا جذوري غارقة في التراث بل ان البدوي لم يغادر اهابي بعد .. انا كما قالوا قديما في ابي تمام :

« شعـــر احفـــاني قيصــو
م وشيــح وثمـــــام ! »

ولعلي لهذا اصر على التراثية والاصالة . لكني لست لهذا وحده ارفض معظم هذا الشعر الحديث انه ايضا يفتقر الى الشعر : الى الصدق ، إنني ارى فيه تزوير الروح . كذبا على المعاناة . انه كالملابس واللحى المستعارة للتمثيل ، مجرد اصباغ واستار وسيوف من خشب . اكثر هذا الشعر لو ترجم الى اللغات الاجنبية لقال قراؤه : انها بضاعتنا ردت الينا واذا كنت بالمقابل أو من بالتراث الا انني ارفض ان اكون عبدا له . ارفض ان يكون كرسي استرخاء ونوم وخدر . الشعر لا يموت ، يظل شعرا دوما . بلى ولكن التجربة الشعرية القديمة ماتت . ماتت . ماتت شبعت موتا . ومن ترابها الاصيل ومن معاناة الان الصادقة يجب ان تولد كلمتنا الشعرية كلمتنا نحن »

هل حقق العدواني عناق التراث مع العصر في تجربته الشعرية ؟ هل نجح ؟ والى اى مدى نجح ؟

ليس يهم كثيرا ذلك . المحاولـة هي الاهم . والعدواني في كل الاحوال لن يدعك تقف طويلا عند هذه المحاولة . انها لا تشغله الا بوضعها تجربة في الأصالة والصدق معا . تماما كما لا تشغله محاولة التجديد في الشكل الا بوضعها تجربة لاكتشاف الاعماق الموسيقية للحرف والكلمة والمحاولتان انما تقومان على هامش العملية الشعرية الابداعية عنده والعدواني يحرك منها جرا في مثل اغراء « السيرين » الجذاب ، يدفعك الى نسيان ذلك والى الغرق السريع معه في اجوائه الاخرى هناك في المعاناة القومية في المغامرة الفكرية تجد العدواني الحقيقي ينتظرك بكل عواصفه وخيوله الغضبى .

ولكن هل تقتحم الان على الشاعر قدس اقداسه ؟ ونحاول السطو على منظومته الفكرية وعلى الأسرار ؟ لوفعلنا اذن تفتحت علينا عوالم اخرى لا نستطيع ان نلم بفضائها والرؤى والشجون ، اليس يكفي ان ديوانه يحكي مأساة الانسان العربي ، اليس يكفي ؟

ونحن ما قصدنا في هذه العجالة الى اقتحام قدس الاقداس والى تفجير المأساة . انها جولة الطواف حول الهيكل ثلاث مرات .. تتقرى على البعد ملامح هذا المتفرد مع الصمت . انها مجرد دعوة الى اكتشاف هذا الشاعر ودعوة الى حب هذا الشاعر .

ان ديوانه تأكيد جديد على ان أسرى الصمت ، في هذا العصر الاسود هم اكثر بكثير مما يبدون ومما يعدون . ان ديوانه صرخة مخنوقة تضاف الى الصراخ المخنوق بكل فج ، صرخـة تصيح : يا اسرى الصمت انفجروا .... فمتى ينفجر الصامتون ؟ ■■

د . شاكر مصطفى

كلمات رقيقة

- يبقى الود ما بقي العتاب ...
- الحب في صمت احلى حب .. ولكنه انتحار بطيء ..
- البيت هو عطف المرأة .. يحوطه اربعة جدران ...
- الحب حفلة تكريم مستمرة لامرأة في قلب ...
- يولد الرجل مرتين : مرة من امرأة تعطيه الحياة ... ومرة من امرأة تعطيه الحب .. الاولى تعطيه حياتها .. والثانية تعطيه حياته ..
- يكون الانسان غنيا بقدر الاشياء التي يستطيع ان يتنازل عنها دون عناء .
- الصبر .. الصفة التي تزداد الحاجة اليها كلما أوشكت على النهاية .



ساطع الحصري

كلمات كان يصححها الزيات



احمد حسن الزيات

بقلم : عباس خضر



عباس العقاد

احمد حسن الزيات صاحب مجلة « الرسالة » القديمة ورئيس تحريرها ـ كان استاذ جيلنا لا بكتابته فقط ، بل كذلك بمجلته التي رضع لبنها الادباء والمثقفون في شتى انحاء الوطن العربي . كانت جامعة عربية قبل ان تنشأ جامعة الدول العربية ، بل كانت اكثر فعالية وابلغ تأثيرا ، فلم تكن قد ادركتها السياسة بعد بعجرها وبجرها .

عندما بدأت اعمل معه في « الرسالة » وكنت طالبا في دار العلوم ـ قال لي : ستكون معلما للغة العربية في المدارس بعد التخرج ، وعملك هنا لا يختلف عن عملك في تصحيح « كراسات الانشاء » .

اصغيت اليه تمام الاصغاء وهو يتابع قوله :

« فالرسالة تحرص على صحة اللغة وسلامة التعبير ، بل هي تعمل على ان تكون قدوة في ذلك » . وفعلا كانت كذلك ، واطمأن اليها رجال تعليم اللغة العربية في وزارة المعارف من هذه الناحية فقرروا تداولها في المدارس ومكتباتها ، وقررت الوزارة الاشتراك فيها بشراء عدد كبير من النسخ . وفي وقت من الاوقات كنت موظفا في الادارة العامة للثقافة بالوزارة ، وكان من عملي فحص المجلات التي يرغب اصحابها في تقريرها بالمدارس وكانت « التعليمات » تقضي بالنظر فيها من ناحية اللغة وسلامتها قبل أي شيء ، فليس معقولا ان يعلم المعلمون الطلاب قواعد اللغة وتأتي لهم الوزارة بما يهدم تلك القواعد .

لم تكن كل الكتابات التي تقدم للنشر في « الرسالة » سليمة اللغة . وفي هذا الصدد ، فقد كان من الغريب ان « ساطع الحصري » كاتب القومية العربية ـ الذي يرى الاساس الاول لهذه القومية هو اللغة العربية المشتركة ـ كان اكثر الكتاب أخطاء في اللغة .

وكان الكاتب الأول في سلامة اللغة هو العقاد ، فقد كان « فلتة » في الزمن لم يتعلم اللغة العربية في المدارس بقدر كاف ، اذ اقتصر على الدراسة الابتدائية ، انما علم نفسه بنفسه ، لم يكن ازهرى النشأة كطه حسين مثلا الذى لم يسلم من الاخطاء ، وما زلت اذكر « فؤاد عبد الباقي » امين مكتبة المجمع اللغوي وهو يصعد سلم المجمع وراء طه حسين ويقول له : « ابدا » يا باشا للمستقبل ، اما « قط » ، فهي للماضي . . وكان لطه حسين في ذلك اليوم مقال بجريدة « الجمهورية » المصرية يستعمل فيه « ابدا » للماضي ، مثل ان يقال كما هو شائع : ما فعلت ذلك ابدا ...

كنت اتعرف على الكلمات التي صححها الزيات من هامش اصل المقالات وصلبها وقد جرى قلمه الاحمر فيها كأنه يسيل دمها ... ثم أحذو حذوه في سفك الدماء !

اذكر من تلك الكلمات ما يأتي :

كلمة « حسن » التي تأتي كثيرا في الحوار منصوبة هكذا : حسنا ، كان يجعلها بالرفع باعتبارها خبرا لمبتدأ محذوف تقديره « هذا » ولا وجه للنصب .

ـ كلمة « الآخر » ـ بفتح الخاء ـ في مثل قولهم : هو الآخر كذا . كان يستبدل بها « ايضا » فيقال : فعل هو أيضا كذا ، اذ لا معنى للآخر هنا .

ـ « فيلم » باثبات الياء ، ومثلها « ديموقراطية » ـ باثبات الواو ـ فقواعد اللغة العربية لا تجيز التقاء الساكنين : الياء واللام في فيلم والواو والقاف في « ديموقراطية » . فيحذف كلا من حرفي العلة الضعيفين ، فيقال « فلم » و « ديمقراطية » .

ـ « طالما » في مثل قولهم : اني افعل كذا طالما انت تفعله . كان يستبدل بها « مادمت » فطال فعل ماض ومازائدة وليست ظرفا ، وتجيء صحيحة في مثل : طالما نبهتك كذا .

ـ التعبير الشائع في مثل ما يقال عن شيء ذي قيمة : ان دل على شيء فانما يدل على كذا ، هذا لا يقال الا في حالة يكون فيها المتحدث عنه تافها لا قيمة له مشكوكا في دلالته على شيء . فالحرف « ان » انما يفيد التشكيك ، ولا موضع للتشكيك في أمر ذي بال .

ـ « وأليس » كان يرجعها الى الصحة هكذا : أوليس . طبقا للقاعدة النحوية التي تقول ان واو العطف وفاءه يليان همزة الاستفهام بخلاف « ثم » التي تسبق الهمزة هكذا : ثم أليس ؟

ـ « عديد بمعنى كثير . وقد فشا هذا الاستعمال الآن كثيرا ، وخاصة على ألسنة المذيعين في الاذاعة ، والتلفزيون ولكن اللغة تقول أن العديد هو العدد كقول الشاعر :

تعيرنا أنا قليل عديدنا
فقلت لها ان الكرام قليل

ـ « بحريني » نسبة الى البحرين . يجعلها « بحراني » طبقا لما نصوا عليه في النسبة السماعية .

ـ كلمة « مقهى » كان يستبدل بها « قهوة » في تسمية المكان الذى تشرب فيه القهوة ، ولا يوجد فعل يشتق منه « مقهى » اسما للمكان .

ومع ذلك لم يكن الزيات « قديما » في التفكير اللغوى ، فهو مثلا يترخص في استعمال اسماء المخترعات الحديثة مثل « التليفون » محبذا ادخالها في اللغة على سبيل التقريب .

في احدى الندوات التي طالما سعدنا بها معه ، حدثنا ضاحكا عن ولده علاء الذى كان اذ ذاك طالبا في المرحلة الثانوية ، وهو الآن استاذ كبير في الطب بجامعة القاهرة . قال ان علاء اعترض على كلمة التليفون التي جاءت في مقالة بالرسالة ، منتقدا أباه استعمالها ، لان مدرس اللغة العربية يضرب عليها بالقلم الاحمر ويضع بدلها « المسرة » .

وعندما انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية قدم الى المجمع طائفة كبيرة من الكلمات الجارية على اقلام المحدثين مطلقه على معان ومدلولات لم تكن لها في القديم ، ويمكن ان يكون لها مخرج الى الصحة ، طالبا اعتمادها ، مستشفعا لها بانها جرت على اقلام كتاب لهم وزن في عالم الكتابة والادب .

من تلك الكلمات لفظة « قهوة » السابق ذكرها ، دالة على مكان يغلب فيه شرب القهوة . وكلمة « قهوة » نفسها أخذت من معناها القديم وهو الخمر ، واستعملت حديثا فيما يشرب مصنوعا من البن .

ومنها كلمة « الفشل » ومشتقاتها ، التي تستعمل الآن بمعنى الاخفاق ، ولم تكن في الاصل كذلك ، بل كان معناها التفرق ، والمعنيان متشابهان .

واقر المجمع تلك الكلمات في معناها الحديث ، وضمنها « المعجم الوسيط » الذى اخرجه حديثا .

ويلاحظ ان كثيرا من الاخطاء اللغوية الشائعة التي طالما نبه عليها المنبهون ، وفيها تلك الكلمات التي كان يصححها الزيات ، لا تزال تتردد على الاقلام والالسنة ، وغالب الظن ان اصحاب هذه الاقلام والالسنة لم يطلعوا على تلك التنبيهات ولعلهم رأوها ثم نسوها ...

فمثلا كلمة « عديد » لا تزال جارية في الكتابة وفي الاحاديث بمعنى كثير ، وكلمة « الاحتفال » تستعمل كثيرا بمعنى الاحتفاء ، وأصلها في اللغة الاجتماع . وكلمة اجتمع حيث يقال : اجتمع فلان والاصل ان يقال اجتمع فلان وفلان .

والتعبير « قد لايكون » يعد كذلك من الاخطاء الشائعة ، لأن « قد » لاتدخل على النفي ، والصواب ان يقال : ربما لايكون .

وكذلك « حيث » فهي ظرف مكان لايجوز استعمالها في التعليل كما يشاع الان . ذلك وغيره كثير ، يشكل ظاهرة لغوية فيها انفصام بين من يقعون في تلك المزالق وبين من يتحرزون منها وهؤلاء قلة ، والكثرة لاتعبأ .. او هى لاتعرف .

والرأى عندى ان نتساهل في ذلك ونعده صحيحا اكتسب صحته من الواقع الذى استعصى على التغيير ، ولاسيما ان ممن يقعون فيه بعض اساتذة اللغة العربية انفسهم .

وذلك ـ اى التساهل ـ فيما عدا ما يخل باصل من اصول اللغة ، مثل هذا التركيب :« احبوابعضهم البعض » وصحة ذلك ان يقال : احب بعضهم بعضا ، لكى تستقيم الجملة طبقا لأصول اللغة. ■■

عباس خضر

قضايا حيوية

من سلبيات الشخصية العربية

بقلم : الدكتور سامي القباني *

هذه وجهة نظر ناقدة للذات العربية ، تطرح اجتهادا شخصيا ، يمكن الاتفاق او الاختلاف معه ، ولكنه جدير بالقراءة على اي حال .

أيها الحشد النبيل » .. « أيها الحفل الكريم » .. « أيها الشعب الأبي » .. « أيها الجمع العظيم » .. « أمة عربية واحدة ، ذات رسالة خالدة » .. عبارات تسمعها تتردد يوميا من على المنبر ، من المذياع .. أشعرة يهتف بها العرب ليل نهار على شاشات السينما ، وفي محطات التلفزيون ..

وبينما تفيد أيات التقريظ والمدح تتلى على جماهيرنا ، فتذكّر اكثرهم بأيام الفخر والاعتزاز ، وتحثهم على النهوض من سبات عميق ، وتشحنهم بعزيمة الصمود أمام الاعداء .. نجد أن نفس الصيحات يساء فهمها من قبل بعضهم الآخر ، فتجعلهم يرتعون في خصب الأحلام ، حاسبين أن صفات النبل والكرم والاباء حقوق لهم اكتسبوها بالوراثة ، وسمات يتحلون بها ماداموا ينتمون لبني يعرب .. نجد بعضهم يضيعون في متاهات خداع النفس ، ظانين أنهم كاملو الأوصاف ، خالون من العيوب ، بعيدون عن كل نقد .. متعامين عما يجري حولهم من تطور حضري يدعو البشر للحاق به والافادة منه .

ان للعرب فضائلهم ومزاياهم بلاشك . الا ان للعرب عيوبهم ونقائصهم كذلك .. عيوبا متأصلة بطبيعتهم تأصل تلك المزايا .. عيوبا كانت السبب الخفي وراء هزائمهم ونكساتهم عبر التاريخ ، ولم تصلح وتكسر شوكتها الالفترة وجيزة في فجر الاسلام .

واذا كان صلاح المرء يتم بدعم ميوله الحسنة الكريمة ، وتقويم عاداته السيئة اللئيمة ، فمن الخير كل الخير لا أن نذكر أنفسنا بفضل العرب على العالم وحسب ، انما أن نفحص خصال العرب غير الحميدة كذلك ، في محاولة نقد ايجابي للذات ، تهدف لتوسيع ادراكنا لانفسنا كأفراد ومجتمعات ، وتعزيز قدرتنا على اللحاق بركب العالم المتقدم لنؤدي رسالتنا من جديد .

وبينما لابد من تحليل صعب كهذا ان يقوم عليه علماء النفس والمجتمع والتاريخ في الجامعات العربية ، وبينما لاأدعي لنفسي أية من كفاءات هؤلاء العلماء وقدراتهم ،سأعرض هنا بكثير من التجاوز ما يبدو لي أنه أهم الصفات غير الحميدة للشخصية العربية والمجتمع العربي في عصرنا الحاضر :

من الصعب على العربي أن يعترف بخطئه :

فالواحد منا دائما على حق ، ويندر ان يكون على خطأ .. أما اذا ظهر العمل المشين للعيان كظهور الشمس .. فهناك دوما من هو مسؤول عن هذا الخطأ (غيرنا نحن طبعا) اذا اخطأ الطبيب في التشخيص او العلاج ، لام مساعده ، أو ممرضته ، او وضع « الحق » على المختبر او الصيدلية او المستشفى .. وكذلك تلاء « الحكومة » او « الدولة » على كل شيء ، من كثرة الغبار الى غلاء الأسعار والمعيشة .. وكذلك تلاء « اسرائيل » والامبريالية على كل مايحل بالعرب من فقر ، وجهل ، ومرض . هل سمعت مرة العبارة التالية او ما يشبهها : « لقد كان هذا خطئي .. انني اعتذر ، وسأحاول ألا يتكرر الغلط مرة اخرى » ؟ .. هل جاء

* استاذ الجراحة ومدير مركز جراحة القلب بكلية الطب ـ جامعة دمشق .

جارك يقول شيئا من هذا القبيل »: أنا أسف أن احدا من اهلي وضع القمامة امام بيتك .. وانا اعتبر نفسي مسؤولا عما حدث ! .. هل صدف ان قدمت لشرطي المرور مثل هذا الاعتراف : « صحيح اني كنت مسرعا ، وانا اقبل مايترتب على من عقوبة » ! .. اذا كنت تعيش في بلد عربي ، فالجواب على كل هذه الاسئلة هو ـ على الاغلب ـ بالنفي .

ـ من الصعب على العربي أن يعترف ان احدا افضل منه :

فاذا اثبتت الايام تفوق انسان آخر ، فلا بد من عذر مناسب وجيه .. قد تكون « مكيدة » دبرها اصدقاء المنافس وتابعوه ، او قد تكون « شروطا حسنة » هيئت للخصم بشكل أو بآخر ..

وبما انه لايمكن ان يفوق انسان على غيره ... فالنتيجة ان كل فرد عربي هو « سيد ورئيس » بحد ذاته ، وان المجتمع العربي بالاساس مجتمع اسياد ورؤساء ، خال من التابعين والاعوان .. هذا لايعني طبعا انه ليس بالعالم العربي رئيس ومرؤوس ، فواقع كل المجتمعات ـ بما فيهم مجتمعنا ـ غير ذلك ، انما يعني ان المرؤوس منا لايعتقد بقرارة نفسه انه اقل قدرا ! انما فقط أسوأ حظا) من رئيسه ، وانه لذلك يتقبل توجيهات الرئيس لاعن قناعة وطيب خاطر ، وانما لانه ملزم بها في المرحلة الحاضرة ..

يقال ان كثيرا من المرؤوسين في بلادنا يقضون جزءا من ليلهم وهم يحلمون بشغل منصب الرئاسة يوما ما ، ولايستبعد ان بعضهم يمضون شطرا من نهارهم كذلك ، يدبرون المكائد للايقاع بالرئيس الحالي .. ومن الطبيعي ألا يقوم مقام لمجتمع على المدى الطويل ، مالم تتواجد فيه سلطات شرعية تحظى باحترام وولاء الرعية الحقيقيين .

ـ من الصعب على العربي ان يعمل ضمن مجموعة :

العربي « فردي » بطبيعته ، وهو يقدم افضل انتاج اذا سلمت له مقاليد الامور من الالف للياء .. اما اذا كان جزءا من مجموعة يربط بين افرادها عمل وهدف مشترك (كشركة تجارية مثلا) فلا بد ـ معظم الاحيان ـ من حدوث تفاعل « بشري ـ كيميائي » يؤدي ـ عاجلا أو آجلا لمنازعات وانفجارات تنتهي بحل المجموعة او اضطراب توازنها .

قد يعود سبب الفردية تاريخيا لحياة البادية التي كانت تحتم على كل راحل فيها ان يعتمد كليا على نفسه في حل الصعوبات اليومية .. وقد تتعلق هذه الخصلة بسابقتها من حيث نزعة العربي للسيادة .. الا انه بغض النظر عن الاسباب فما من احد ينكر تأثير هذه الصفة « السلبي » على تقدم العرب اقتصاديا في العصر الراهن .. فالعمل الفردي قد لايكون سيئا في المجتمعات البدائية الصغيرة اما في عالمنا الذي تسير اموره الاقتصادية (والسياسية) شركات ضخمة تمتد الى اكثر من دولة وقارة ، فالضرورة واضحة لتغيير هذا الاستعداد الفطري جذريا . ولعل فيما أحرزته اليابان من تقدم اقتصادي يضاهي نسبيا اضعاف حجمها البشري والسياسي ، افضل مثل على مايمكن ان تحققه الشركات والجماعات البشرية اذا عملت بانسجام واخلاص . كما انه ما من احد ينكر تأثير هذه الخصلة « السلبي » في خلخلة تضامن الدول العربية السياسي خلال تاريخنا المعاصر ، ذاك التضامن الذي نحن بأمس الحاجة اليه لصد اعنف واقسى عدوان تعرضت له الامة العربية في تاريخها قاطبة .

ـ العربي « انفعالي » بطبعه :

فهو مفرط الحساسية بالنسبة للامور التي تمس « كرامته » ومصالحه ، سريع الغضب ، سريع الرضى ، إما ان يكرهك فتغدو خصمه وعدوه أو أن يحبك فتصبح بمثابة « أخيه » ـ لاشيء بين النقيضين !

وبينما تفيد « الانفعالية » هذه في التعبير عن مشاعر المرء دون حاجة للكتمان او الرياء ، الا انها كثيرا ما تورط صاحبها بمواقف محرجة تنتج عن مبالغته في التعبير وعدم ارتياح الناس لمعاملته .

وتنعكس انفعالية الانسان العربي على تصرفات معظم مسؤوليه وقراراتهم ، في الوقت الذي تحتاج سياسة الدول العربية الى اكثر مايمكن من الرزانة ، والثبات ، وضبط النفس .

ـ من الاعمال مايليق بالعربي القيام بها ومنها ما لايليق :

ينظر العربي بازدراء للاعمال اليدوية كالتنظيف والتصليح والصيانة والفلاحة ويعتبرها لاتليق بمقامه ، وكثيرا ما يصد عنها

هذه الخصلة التي قد تكون وراء تخلف معظم الدول العربية زراعيا وصناعيا ، ووراء قلة نظافة اكثر المدن العربية وشوارعها ، ووراء ندرة بعض الحرفيين كالطباخين والممرضات وأخصائيي المنشآت الصحية ، هذه الصفة لم تعد تتناسب مع متطلبات العصر الحديث التي تحتم على كل فرد ان يعمل ويؤدي لمجتمعه اية وظيفة نافعة .. اضافة الى انها لاتتماشى مع تعاليم الديانات السماوية التي لاتفرق في وجه الخير بين عمل وآخر .

ـ من الصعب أن يخطط العربي ويعمل لاهداف بعيدة :

العربي « النموذجي » يريد ان تتأتى جهوده بسرعة وبسهولة .. أما ان يعمل اليوم ليحقق نصرا بعد عشرات السنين ، فهذا ضد طبيعته .. واما ان تحدد سلوكه الحاضر اهداف لن يستفيد منها الا جيل الوطن القادم او الذي يليه . فذاك امر يصعب عليه حتى تصوره .

يحكى أن مشروعا لتنمية أراض زراعية ذات مساحات ضخمة في احدى البلاد العربية قوبل بالرفض من قبل رئيس ذاك البلد في اوائل هذا القرن .. أما سبب الرفض فكان تقدير الخبير ان المشروع سيحتاج لحوالي عشر سنوات ليأتي أولى ثماره .

ـ العربي يضيع في « عبقرية » لغته :

لغتنا العربية نعمة ونقمة .. فهي ولاشك من أغنى وأجمل ـ ان لم تكن اغنى واجمل ـ لغات العالم ، الا ان جمال التعبير لايقوم مقام المادة المعبّر عنها ، وصياغة الالفاظ لاتقدم ولاتؤخر في اهمية ـ او تفاهة ـ محتواها .

ولقد اعتدنا منذ عصر المتنبي والبحتري ـ وقبلهما ـ ان نُؤخذ بحسن العبارة ، وطرافة الاسلوب غالبا على حساب موضوعية الفحوى وجدارتها .

فاذا انت استمعت الى تعليق « علمي » عن ظاهرة اجتماعية معينة ، ضعت في الكليات الرنانة ، والجمل الحلوة السبك التي لايمكن ان تترجم لاية لغة اجنبية كانت ، لانها .. خالية من المعنى !

وان انت تنصت الى خطاب سياسي هام .. تحيرت في نهاية الحديث ـ اين يقف الخطيب من جوانب القضية موضوع الخطاب ، لأنه اضاع جل جهده في المجاز والاستعارة ، والطباق والكناية ، وتقديم المؤخر وتأخير المقدم !

ولابد ان كثيرا من مشاكلنا السياسية قامت ـ وتقوم من جراء تقصيرنا في المخاطبة والمحاورة بلغة مركزة واضحة المعاني ، ولابد ان جزءا من مشكلتنا الفلسطينية سبّبه عجزنا في التعبير عن وجهة نظرنا للعالم بشكل واضح .

ولا اريد ان يفهم من كلامي ان ما يُطلب تغييره هو لغة اسلافنا واجدادنا الحبيبة .. فاللغة العربية واسعة ، مرنة يمكننا استخدامها في اي قالب ولاى غرض ، لكن مايجب مكافحته كي تساير متطلبات القرن العشرين هو اساءة استعمال العربية ، وتطبيق « لغة الادب والشعر » عندما يكون المطلوب تطبيق « لغة العلم والسياسة » .

العرب .. والمرأة :

لايزال العربي ينظر للمرأة بقرارة نفسه على انها غير جديرة باستلام مقاليد الامور في كثير من مرافق الحياة العملية ، ولا يستطيع ان يتصور أنها يمكن ان تساويه ـ او تضاهيه ـ في الذكاء والفطنة والقدرة على الاعمال اليدوية والادارية ، كل ذلك بالرغم من تعاليم الاسلام التي غيرت الكثير من مفاهيم الجاهلية .

ـ العربي يفتقد « الضمير الاجتماعي » :

منظر الجماعات تتسابق للوصول الى سيارات الركوب ، او تتنازع امام ابواب الدوائر الرسمية ، او تتصارع قرب شبابيك التذاكر ، هو منظر مألوف في اكثر البلاد العربية ، وكذلك منظر حركة المرور التي لاتخضع لنظام او قاعدة ، ومنظر المارة يلقون بأعقاب السجاير والاوساخ في الشارع ، او من نافذة السيارة ، ومنظر « الوساطات » تلبي للمحظوظين وذوي المعارف على كل مستويات الدولة .. ..

هذه المناظر كلها تدل على افتقاد « الضمير الاجتماعي » في بلادنا ، فالعربي غير قادر حتى الآن أن يحس بشعور غيره من المواطنين ، وان يجعل مصلحة المجتمع العامة ـ بدل مصلحته الشخصية ـ تحكم تصرفاته وسلوكه .

ولايمكن للعربي ان يدعي انه تغلب على التخلف ، حتى يأتي اليوم الذي يقضي فيه على هذا الداء الذي تشاركه فيه معظم مجتمعات الدول النامية ، والذي يحتاج علاجه للكثير من الوعي ، والتثقيف والمران . ■■

هل كان كتاب «النبي» أروع ما كتب جبران بالإنجليزية؟

بقلم : شمس الدين العجلاني ❋

في عام ١٩٢٣ ولد كتاب « النبي » لجبران خليل جبران بمدينة نيويورك عن منشورات ألفريد . اى نويف ، وطبع منه اكثر من ١٢٠ طبعة وحوالي مليوني نسخة في اللغة الانكليزية وحدها .

في « النبي » استطاع جبران ان يكون عبقريا على مر العصور كغوته في ـ فاوست ـ ودانتي في كوميديته الآلهية ، فجمع جبران في « النبي » سحر الشرق وروحانيته مع تطور الغرب ومدنيته .

تقول الناقده والشاعره الاميركية بربارة يونغ التي لازمت جبران خليل جبران فترة من الزمن ، وكانت آخر من جلس بقربه لساعات طويله وهو على فراش الموت ، في مقدمة كتاب النبي : « ان تاريخ كتاب « النبي » هذا طريف ، فقد قضى جبران جانبا من مرحلة الطفولة في امريكا مع أمه وأخيه واختيه ، ولما بلغ الرابعة عشرة أصر على العودة الى عالم الادب العربي والثقافة العربية في بيروت ... وبعد مرور عامين على وصوله الى بيروت كتب اول مسودة لكتاب « النبي » باللغة العربية ، ولكنه وضعه جانبا لانه كان يدرك انها فاكهة فجة . وبعد ثلاث سنوات أتم مرحلته الدراسية ونزح الى باريس حيث طاب له المقام في بيئة الفن والصداقة والثقافة وكان « النبي » من الاشياء التي يحرص على الاحتفاظ بها ...

وفي السنة العشرين من عمره استدعي الى بوسطن على عجل من باريس لمرض امه في امريكا وهناك قرأ على مسامعها ما كتبه من « النبي » وكانت امه حكيمة شبابه كما كانت حكيمة طفولته فأصغت الى مادبجته براعة الفتى ، وقالت له : « عظيم يابني ، ولكن لم يئن الأوان لنشره بعد ، ضعه جانبا وكان الفتى مطيعا فوضعه جانبا ...

وفي الخامسة والعشرين من عمره كان مرة اخرى في باريس ، وهناك اعاد كتابة « النبي » بالعربية كما كان من قبل ثم قرأه لنفسه ، لان امه لم تكن عند ذلك على قيد الحياة ، لتستمع له وسرعان ما طوى المسوده قائلا : « عظيم يابني .. ولكن ضعه جانبا ومرة اخرى وضع جبران قصة « النبي » جانبا ، الى أن مضت عشر سنوات قضى منها سنتين في باريس . اتصل خلالها بشخصيات عظيمة ... وبعدها سافر الى امريكا واتخذ نيويورك مقرا له ، وهنا اعاد كتابة « النبي » باللغة الانكليزية بصورة مبتكرة لم تكن ترجمت عن العربية ، وقد اعاد كتابته خمس مرات في خمس سنوات متواليات قبل ان يوضع في يد النشر ...

مهد جبران لكتابه « النبي » بكتاب آخر عام ١٩٢٠ هو « السابق » الذى جعله بمثابة مقدمة للنبي ، في حين يذهب جورج صيدح الى القول : كانت كتبه السبعة التي سبقت « النبي » الى الصدور درجات ارتقاها جبران الى الأفق السامي المتألق بالحب والحق والجمال في كتاب النبي .

وفي عام ١٩٢٣ صدر « النبي » وكان يعد جبران لكتاب آخر هو « موت النبي » ولكن المنيه عاجلته فمات دون « موت النبي » .

وكتاب «النبي» هذا كان نتيجة معاناه طويلة وفلسفة اعتمدت على الحب النقي الطاهر على نقيض فلسفة « نيتشه » المبنيه على العنف ، وبهذا الصدد يقول ميخائيل نعيمه « تاه جبران طويلا في مفازة

❋ محرر بجريدة « تشرين » السورية .

المتناقضات ، مفازه الخير والشر وقد خيل اليه ، وهو يتلمس طريقه للافلات من قبضه الشر ان في استطاعته القضاء عليه بتوجيه ضربة محكمة الى يافوخه فضرب وضرب . ولـكن الشر ما برح يجـول ويصـول في الارض ... فاين المخرج من المأزق .. ! »

فكان « النبي » هو الخلاص أو ذروة هذه المعاناة فخاطب جبران من خلاله الانسانية جمعاء معتمدا النظره الشاملة والفكرة المطلقة فكان « النبي » لكل زمان ومكان ، دخل ضمائر الناس وامتد على مساحة العالم ، فكان جبران من خلاله « نابغة ستين مليونا من الشرقيين المتكلمين بالعربية » على حد قول جريدة النيويورك هرلد أنذاك » .

لقد قرأت فصولا بكاملها عن « النبي » في الكنائس الامريكية ، حتى ان برج كنيسة معهد « مولورادو » في الولايات المتحدة الامريكية واسمها « شوف ميموريال شليل »ويحمل جرسا رئيسيا وزنه ستة اطنان نقش عليه كلمات جبران القائلة : « الامس هو ذكر اليوم فقط والغد حلم اليوم » .

لقد اجمع النقاد في الغرب على أن « النبي » ان لم يكن افضل ما كتب باللغة الانكليزية فهو من أندر وأروع ما حوته اللغة الانكليزية من كتب . وهذا مما دعا الرئيس الامريكي السابق روزفلت للقول ذات يوم وامام الوف الاميركيين : « ان جبران خليل جبران هو أول عاصفة تجتاح الغرب .. »

بينما قالت الشاعرة الامريكية بربارة ايونغ بعد صدور « النبي » ان جبران هو احدى التفاتات القدر الكلية ... » ويقول عمده مدينة شيكاغو عن « النبي » « ايقاع نابض بالحياة والشعور ان كلمات جبران تحمل الى ذلك الايقـاع السحـرى الالهي للطقوس الكنائسية ... » .

لقد بلغ جبران في « النبي » حدا لم يكن يتوقعه احد .. في « النبي » قال جبران كلمتـه الاخيرة التي سيطرت بسحرها وروحانيتها على العالم بأجمعه ، فترجم « النبي » الى جميع اللغات في المعمورة ....

هكذا تعمل الصهيونية على تزوير الحقائق حتى الادبية منها ... ويبقى كتاب « النبي » فكرا عربيا صافيا وفلسفة مبنية على الحب النقي الطاهر استطاع جبران من خلاله ان يدخل ضمائر العالم بأجمعه بسحر الشرق ... وروحانيته .

■■

الشورى ملزمة في الأمر العام

بقلم : الدكتور محمد الطويل *

قضية « الشورى » التي طرحتها « العربي » في اعداد سابقة تحتاج الى استمرار بحث وتدقيق ، خصوصا اذا كان الموضوع مثارا من زاوية مدى التزام الحاكم بها ، الامر الذي يمس صميم البناء السياسي في الدولة الاسلامية .

ان اول تجربة تعرضت لها الشورى ، في صورة جماعية ، كانت على مبلغ علمي في غزوة بدر .

فقد وقف النبي صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم خطيبا بين المسلمين ، يطلب مشورتهم . فقال المهاجرون : إمض لما أمرك الله . ولكنه لم يكتف بموافقة المهاجرين . وطلب رأي الانصار . فقام سعد بن معاذ ، سيد الانصار . وخطب في الجمع مؤيدا دعوة القتال . فلم يتخذ صلى الله عليه وسلم قراره بالحرب . الا بعد موافقة اجماعية من المهاجرين والانصار .

وفي غزوة احد . عزمت قريش ، ومن اطاعها من قبائل كنانة واهل تهامة على حرب المسلمين . فلما سمع بهم الرسول استشار اصحابه فقالوا يا رسول الله . اخرج بنا الى اعدائنا . لا يرون انا جبنا عنهم وضعفنا .. ولم يزل الناس به ، حتى دخل بيته . ولبس درعه . فلما خرج عليهم . ندم الناس وقالوا : استكرهنا رسول الله ولم يكن لنا ذلك ، وعرضوا عليه ان يرجع .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما ينبغي لنبي اذا لبس لأمته . ان يضعها حتى يقاتل) . وخرج عليه الصلاة والسلام في الف من اصحابه .

ونلاحظ هنا ان المشاورة كانت في أمر عام . يشمل

المسلمين في مجموعهم ، وليس امرا يخص فردا ، اومجموعة قليلة من الناس .

وفي حادثة الافك ، استشار صلى الله عليه وسلم علي ابن ابي طالب واسامة بن زيد ، في امر عائشة رضي الله عنها ، فاشار علي عليه بفراقها ، وقد خالف الرسول مشورة علي . ومجال الشورى هنا ، أمر يخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتعلق بحياته داخل بيته ، وبين اهله .

فاذا انتقلنا الى خليفته الاول ، وتأملنا في بعض مواقفه مع الشورى ، نجد انه رضي الله عنه ، قد استشار المسلمين في قتال اهل الردة ، الذين توقفوا عن دفع الزكاة ، ورأى اكثر الصحابة الا يقاتلوهم ، استنادا الى قول الرسول عليه الصلاة والسلام : (أمرت أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله) وهم يقولونها .

فاصر ابو بكر على رأيه ، الذي عارض به الاغلبية قائلا : الم يقل : الا بحقها ؟ والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله ، لقاتلتهم عليه .

وقاتلهم ابو بكر ، وانتصر لرسوله وللمؤمنين .

والنظرة العجلى ، ترى في تصرف ابي بكر ، نقضا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في العمل برأي الاغلبية ، على نحو ما بينا .

ولا تناقض ولا اختلاف في حقيقة الامر ، ان ابا بكر نفذ حكم الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما فهمه من حديثه الشريف .

واذا علمنا القاعدة الشرعية التي تقول ، ان المجتهد المستجمع لصفات المجتهدين ، العالم بوسائل الاجتهاد يجب عليه أن يعمل بما أداه اليه اجتهاده ، وان خالف الاغلبية ، علمنا أن موقف الصديق لا غرابة فيه ولا شذوذ ، ولا شك ان ابا بكر ، قمة المجتهدين اجمعين .

وموقف عمر من أرض السواد بالعراق ، مطابق تمام المطابقة لموقف ابي بكر من امر المرتدين . فقد خالف عمر رأي اصحابه أن تقسم هذه الارض على المقاتلة ، كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ارض خيبر على اصحابه ، واصر على ان تظل ملكا لبيت مال المسلمين ، تدر عليهم خراجا سنويا ، يقتسمونه فيما بينهم ، ثم يبقى للاجيال من بعدهم ، ودلل على رأيه بآيات من سورة الحشر ، فهمها على نحو خالفه فيه أغلب المسلمين ، ولكنه تمسك بفهمه هذا ، كما فعل سلفه ابو بكر .

وعلى العكس من ذلك ، موقف عمر رضي الله عنه ، يوم اعلن للناس عن رغبته في الحد من المبالغة في المهور .

ان رجوع عمر عن رغبته تلك ، الى رأي المرأة التي عارضته ، ليس مرده الى عدم موافقة من يهمه الامر ، وهم النساء ، وانما الذي حكم الموقف ، وحسم النزاع نص صريح من كتاب الله ، في هذا الخصوص .

فقد اعتمدت المرأة في رفضها لرأي عمر ، على قوله تعالى : (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وأتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا) ولذلك كان رد عمر : اصابت المرأة واخطأ عمر ، ولم يقل ان الامر اليكن ، فاخترن ما يحلو لكن ، ويحقق مصلحتكن .

والسهو والنسيان من طبيعة البشر ، فليس غريبا ان يسهو عمر عن آية ، وتذكره بها امرأة .

ولعلي استطيع بعد ذلك ان اقرر ما يلي :

● الشورى واجبة على ولي الامر ، ونتيجتها ملزمة له ، اذا كان الامر يتعلق بالمصالح العامة للأمة ، وليس هناك نص من كتاب أو سنة ، أو إجماع من المسلمين ، يحكم الواقعة في جلاء ووضوح .

● الشورى واجبة على ولي الامر ، ونتيجتها غير ملزمة له ، اذا كان هناك نص يحكم الواقعة ، ولكن الاراء حوله تختلف ، ورأي الامام يخالف رأي الاغلبية .

● المسلمون جميعا مطالبون بأن تكون الشورى دستور حياتهم ، على سبيل الوجوب والالزام ، في الأمور العامة ، وعلى سبيل الندب والاستحباب في المسائل الخاصة ، ولا شك في أن عصرنا يختلف كثيرا عن عصر الاسلام الأول ، في كل مجالات الحياة ، ومع ذلك فالاسلام بما يمتاز به من مرونة وطواعية ، يمكن أن يحكم حياتنا في يسر وسهولة ، اذا خلصت النوايا وصحت العزائم . ■■

---

* دكتوراه في السياسة الشرعية ـ كلية الشريعة والقانون ـ جامعة الازهر .

رؤية

بقلم : فاروق خورشيد

في الصباح قال له الخادم : « لقد زاد ثمن الجريدة نصف قرش »

ولم يستطع ان يتابع العناوين الضخمة الحمراء اللون التي ملأت صدر الجريدة . فاجل قراءتها الى حين العودة ، وعاد الخادم يقول : « ثمن سندويتش الفول زاد نصف قرش » وتوقف الطعام في حلقه فابتلع جرعة من الماء وارتدى الجاكيت ، وحين كان يهم بالخروج قال الخادم وهو ينظر اليه في اصرار عنيد « وانا اريد خمسة قروش زيادة في اجر هذا الاسبوع فالمواصلات قد زادت اسعارها وانا كما تعرف .... »

وصمت ... ودفع اليه النقود في صمت وخرج ...

وكان الشارع يتألق كالمعتاد تحت ضوء الشمس وان كانت برودة نوفمبر تتسلل الى العظام رغم لمعان كل شيء تحت اشعة الشمس . وقال له بائع السجائر « ارتفع ثمن العلبة قرشا كاملا منذ الامس وليس عندي كبريت » ولم يشتر السجائر فماذا يفعل بها بدون كبريت ، واخذ يشق طريقه وسط الترامات والعربات واطفال يرتدون زي المدارس ونساء انيقات معطرات تبدو آثار نوم مجهض على عيونهن المزججة ونظراتهن الباهتة ، وباعة ، وشباب مفتول العضلات يرتدون الكاكي وتهتز اسلحة عند اردافهم .. ولفظه الشارع الضيق الى الميدان الكبير ، وعند الناصية قالت العجوز الملتفة في ملاءتها السوداء وهي تمد يدا معروقة « صباح الخير يابك . كتب الله لك السعادة » ولكنه أشاح بوجهه ولم يعطها القرش الذي اعتاد ان يضعه في الكف العجوز كل صباح ..

وقف امام المصعد في المبنى الكبير ينتظر دوره مع المنتظرين ، وامامه كان رجل يقول لزميله « سنسحقهم فنحن هذه المرة مستعدون ، وابدا لن يفلتوا من العقاب » وصاح زميله كانما يلتهب شيء في داخله « سنعلمهم دروسهم ، اجل دروسا لاينسونها » . ودفعه الواقف خلفه فانساب مع الطابور الطويل يقترب من باب المصعد ، ثم وقف ، وكان رجل يقول خلفه « لقد قرروا اغلاق محال اللحوم طوال الاسبوع ولن تفتح الا في يوم واحد ، اما الشاي والسكر والزيت فهي بالبطاقات »

وكان زميل له يرد عليه قائلا « ليس هذا مهما المهم ان ننتصر » . وسار في الطابور ودخل باب المصعد ، وارتفع المصعد الى الدور الثامن حيث مكتبه الرطب المتهالك يشاركه فيه خمسة آخرون ..

قال الاول « انبني المدير على التأخر ، ومع هذا فانا لم اتاخر سوى دقيقة واحدة » وقال الثاني « امس


جوبة

حصلت على فرخة ، ظللت واقفا في طابور الجمعية ساعة ونصف ساعة وحصلت عليها فالولد الصغير مريض »

وقال الثالث « كيلو سكر واحد لن يكفى ابدا ، والسكر لايوجد الا بخمسة اضعاف ثمنه في السوق السوداء ، هذا ان وجد »

وقال رابع « الملف الازرق مطلوب لمكتب الوكيل » ..

ولم يقل شيئا فقد اخذت تتراقص امامه كلمات وارقام ، ووثبت امامه اوراق ، وقلمه يدور في يده ، وقال ساعي البوفيه « ليس في المقصف شاى اليوم ، قهوة فقط قهوة سادة وقد زاد سعرها قرشا كاملا » .

وقالت امرأة في يدها بطاقة توصية « ابني في الميدان وانا اريد ان انهى طلبي بسرعة » ونظر الاول الى البطاقة وقال « توصية تسيب المدير » بينما قال الثاني « الطماطم قفز سعرها كالمجنونة هل تصدق ، نصف جنيه ثمن الكيلو وزمان كنا نشتريها بقروش »

وقال الثالث « ابني طلبوا منه كتابا في الجامعة ثمنه ثلاثة جنيهات ونصف »

وقال الرابع « صدرت نشرة الجزاءات ولكل منا فيها نصيب » ومد هو يده الى جنبه ليخرج سيجارة فلم يجد ، وعبث في شعر شاربه ، ثم مر باصابعه على شعر رأسه واخرج منديله ومسح عرقا ، وحرك قدميه ، وفتح درج المكتب ، وتحركت اقلام ومسطرة واوراق ومحبرة ، وكلمات وتوصية ، وفي نهاية اليوم نزل الدرج الكبير المتآكل وابتلعه من جديد زحام الميدان .

قال البقال « آسف الحساب ثقيل وكيلو الجبنة زاد ثمنه عشرة قروش كاملة ، والصابون غير موجود ، ليس عندى مربى او عسل » وقال الخباز « انتظر دورك الست ترى كل هؤلاء ، هم ينتظرون الخبز ، والخبز في الفرن والفرن تعمل بالنار ، ونحن نشعل الفرن بالخشب ، لان الجاز قد حددوا استهلاكه »

وقال الخضرى « لا شيء اخضر ، لا شيء الا الكوسة ، وقد اصبح ثمنها ضعف امس وانا تحت امرك » وقالت الجارة العجوز « ضربت صفارة الانذار ، انا سمعتها بنفسي ، لابد ان اذهب الى ابنى فهو يسكن في بيت متين »

وقال الريفي بائع العطور وساكن حجرة السطح « لم يشتر اليوم أحد منى شيئا » ودخل مسكنه ..

كان الخادم قد اكل بقايا طعام الامس ، ولم يكن في العلبة سكر ، واختفى باقى الشاى الذى كان بمنضدة المطبخ ، ورأى ورقة فوق المكتب الصغير الذى يتوسط الصالة الضيقة ، وفوقها كتب الخادم بحروف عرجاء « اخذت الزجاجات الفارغة لابيعها فقد ارتفع سعرها وانا اعرف انك لاتريدها ، كذلك اخذت بعض الكتب الممزقة والجرائد فثمن الكيلو من الورق قد ارتفع وقد عرض على البقال عشرة قروش كاملة في الكيلو ، وانا اريد منه زجاجة زيت ، تركت لك جرنال اليوم فقد خرجت دون ان تقرأه ، اما باقى الساندويتش فقد اكلته » .

ودار بعينيه في الرف الوحيد فوق المكتب ، لم يعد به سوى بعض الكتب المجلدة ، امسك الجريدة وهو يجلس على مقعد المكتب وفتحها ، كانت عناوينها الحمراء والسوداء الكبيرة تقول « استؤنف القتال على الجبهة وبدأت الحرب من جديد » وتقول « قرارات جديدة لتحقيق النصر » . ■■

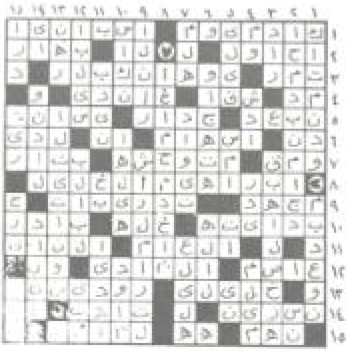
فاروق خورشيد

علامة

* اتصلت احدى السيدات ذات مساء باحد النوادى الليلية في نيويورك وسألته عما اذا كان زوجها موجودا هناك ... وسألها صاحب النادى عن الطريقة التى يمكن ان يعرفه بها فقالت الزوجة .

ـ انه الرجل الذى يبدو عليه الشعور بالذنب !

● حل مسابقة العدد ٢٦٦ ●



أفقيا

ابراهيم الخليل

رأسيا

أغا محمد خان

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : ابراهيم الخليل . هو خليل الله ، تلقى الوحي الالهي في أورجوب العراق . نزح الى بلاد كنعان حوالي ١٨٠٠ قبل الميلاد ، وهو والد اسماعيل واسحق .

(٨) رأسيا : أغا محمد خان . مؤسس الاسرة القاجارية بايران ، أعلن نفسه ملكا عام ١٧٨٦ ، واتخذ طهران عاصمة ، ثم اغتيل عام ١٧٩٧ .

الفائزون بالجوائز

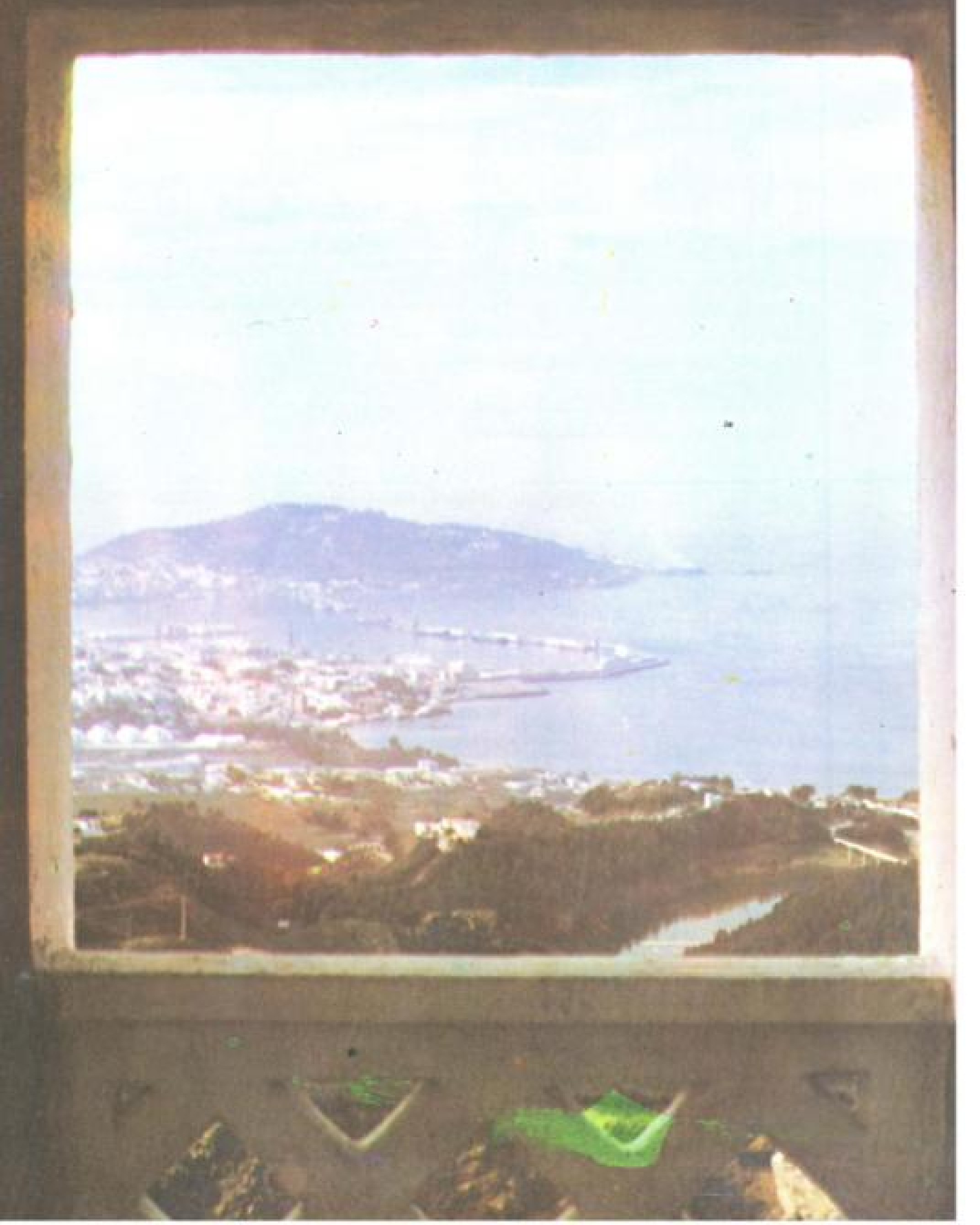
- الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : ابراهيم سويسي - قبلي/تونس
- الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : مراد عبد الخالق عبد الواسع - تعز/اليمن الشمالي
- الجائزة الثالثة وقيمتها عشرة دنانير فازت بها : سمية محمد حسن شطناوي - ابو ظبي/الامارات .

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

١ - صالح مبارك صالح - المكلا/اليمن الديمقراطي
٢ - سلطانة عباس محمد سليم - ام درمان/السودان
٣ - احمد ناظم الحموي - طرابلس/لبنان
٤ - المنصوري عثمان - سلا/المغرب
٥ - هند حسين المشري - الرميثية/الكويت
٦ - محمد وليد ادريس - حمص/سوريا
٧ - ناجح فرغلي عبد العال حوده - اسيوط/مصر
٨ - كساب فالح كساب - سحاب/الاردن

مغامرة "العربي"

من سبتة إلى مليلة





منظر عام لمدينة سبتة : في احضان البحر وتحت اقدام الجبل (الى اليمين) . التمسك بالجذور والاحتماء بالتقاليد احد سمات ابناء سبتة ومليلة . (الى اعلا)

استطلاع : **مصطفى نبيل**

تصوير : **اوسكار متري**

بعد رحلتنا الى عُمان مضيق هرمز ويمن باب المندب نصل الى مغرب جبل طارق . نطوف بسلسلة المستعمرات الاسبانية خلال ٢٢ ساعة بالباخرة ، بدأت من « سبته » المطلة على مضيق جبل طارق وحتى « مليلة » .

ولم نتمكن من الوصول الى اخر هذه المستعمرات وهي الجزر الجعفرية القريبة من الحدود الجزائرية ..

وتحكي جولتنا قصة مجموعة مدن وجزر ما زالت تعيش في الأسر ...

المشهد الاول من رحلتنا كان مفاجأة كبيرة ، وقع عند مشارف المدينة العربية « سبتة » عندما وجدنا انفسنا بلا حصانة يتمتع بها عملنا الصحفي الذي نمارسه ، فتحتجز جوازاتنا ، ويصر رجال الجوازات الاسبان على استجوابنا ، وينتهي المشهد بفتح الكاميرا ومصادرة الفيلم الذي التقطه زميلي المصور ، وندرك اننا في مدينة الصمت والتكتم ، ويفرض على زائرها دخان كثيف يحول دون رؤيته لما يقع في المدينة .

ولنبدأ القصة من أولها ....

بدأت الرحلة من مدينة « تطوان » المدينة المغربية التي تنطق بالاصالة والعراقة ، واتجهنا منها الى « سبته » الواقعة على الساحل المغربي والمطلة على مضيق جبل طارق ، الطريق تحف به الاشجار ولا يوجد بين تطوان وسبته سوى بضعة وثلاثين كيلو مترا لا جبال ولا انهار بين المدينتين ، وعندما اقتربت السيارة من بلدة « الفنيدق » خيم على الطريق جو من التوتر ، الدرك المغربي يوقف السيارة القادمة من سبته ، تقترب من هدفنا في طريق على جوانبه شجر الكينا ، ورائحة البحر ، تصل الى « القصر الصغير » البلدة المغربية السابقة لسبته ، التي لا تبعد عنها سوى ستة كيلومترات وقد اختارها النادي الدولي للبحر المتوسط وأقام عليها فندقا وقرية سياحية .. قال السائق « ان سبته احد مراكز التهريب الى داخل البلاد ، لهذا يفتش الدرك السيارات القادمة منها ، وليس مسموحا لسيارات الاجرة المغربية بالدخول اليها . » ان هذا معناه ان علينا ان نحمل حقائبنا كالمهاجرين ونتنقل بها بين البوابة المغربية والبوابة الاسبانية ، عندما عبرنا خط الحدود الوهمي الذي يقطع البلاد كالسكين الحاد ، شاهدنا عددا من المغاربة بملابسهم المميزة يصطفون للتفتيش ، وراعنا ان السياح من الجنسيات المختلفة يدخلون سبتة بدون تفتيش ، في الوقت الذي يضطر فيه بعض المغاربة لافراغ عجلات سياراتهم حينا يواجهون رجال الجمارك المتعنتين ، وسمح لنا بالدخول بعد ان تأكدوا من حصولنا على تأشيرة اسبانية ـ رغم اننا في ارض مغربية ـ ، ويقف عند البوابة أعداد من المغاربة ترفض السلطات الاسبانية دخولهم ، قال احدهم : « انني اعمل في سبتة ، ولدي جواز صالح ، ورغم ذلك يمنعون دخولي الى اهلي ، انهم يعترضون على كل ما يشتبه في قيامه بنشاط سياسي .... واضاف آخر « وتسعى السلطات الاسبانية الى منع عمال البناء والحرفيين المغاربة من استخدام سبتة كمحطة للانتقال والعمل في اسبانيا » ....

اللقطات الضائعة .!

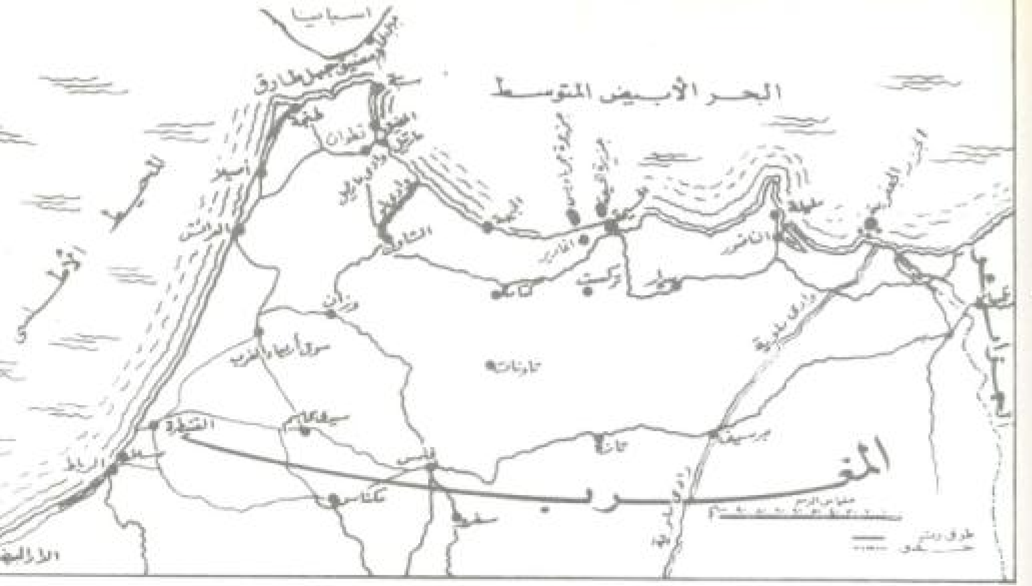
انها لحظة ينبغي تسجيلها ، ونقل صورها الى القارىء ، وهي تعبر عن الكثير من الخفايا ، ورغم اجراءات الدخول ، ومع ثقل امتعتنا ، استعد زميلي المصور لالتقاط ما يدور حول نقطة الحدود ، ولم نكن ندري ان هذه اللقطات ستكون بداية ملاحقة لا تنتهي الا عند مغادرتنا المناطق المغربية التي يحتلها الاسبان . وبينا نحن منهمكون في عملنا ، برز فجأة احد الجنود الاسبان ، ولم يكتف بمنع التصوير ، بل اصر على ان ينتزع الكاميرا ، ويقودنا الى رئيسه ، الذي اعاد فحص جوازاتنا واخذت المخاوف تساورنا على اللقطات الفريدة التي سجلناها ...

وفي مبنى الجوازات بدأت الاسئلة ، حوار بلا لغة مشتركة ، فالجنود لا يتحدثون سوى الاسبانية ، واتصالات مع الرؤساء ، واخيرا حضر جندي عربي يرتدي الزي الاسباني ، وظهر ما يقوم به المستعمر من قهر نفسي وثقافي ، فرغم انه يتكلم العربية الا انه يعبر عن مصالح الاسبان ، ورغم علامات الارتباك التي بدت عليه ، فقد ابلغنا انه يحظر تصوير نقاط الحدود ، وابلغنا بقرار مصادرة الفيلم ، فعادة لا يرحب احد بالتقاط صور تسجل حالة « التلبس » ، وواصلنا حرصا على اكمال جولتنا ، على امل أن تنقل حياة هذه المدن ، وان نمزق الصمت المضروب حول معاناتها ، ولعل « الكلمة » تكون البديل عن بعض اللقطات الضائعة ..

الملامح المشوهة ......

اجتزنا الحدود ، وتجاوزنا اول الازمات ، واخذنا نقترب من مدينة « سبتة » ، التي تظهر ببهائها وهي ترتمي في احضان البحر وتحت اقدام الجبل ، مثل « الماسة » التي تتطلع الى من ينتشلها ، تصدمني الشقة بين ما تصورته وما شاهدته ، تصورت انني سأقدم مدينة مغربية وشاهدت مدينة أوربية ، وهذا التغيير وقع عن عمد ، وبفعل فاعل ، وزيفت ارادتها ، وشوهت ملامحها الشرقية وحورت شخصيتها ، وبقيت جذوة المقاومة ، فرغم كل الجهود تظهر بين وقت واخر ملامح للعمارة العربية كما تتمثل في ازياء سكانها المغاربة ، وحتى تأثيرات الفن القوطي في عمارتها ....

الميادين والشوارع مرصوفة بالبلاط مثل روما واثينا ، واحياؤها القديمة تتراجع على الدوام امام زحف



خريطة الاراضي المغربية التي تطل على البحر الابيض المتوسط ، ويظهر خلالها موقع سبتة الاستراتيجي ، وبالتتابع سلسلة القواعد الاسبانية ، جزيرة حجر بادس ، جزيرة الحسيمة ، مليلة واخيرا الجزر الجعفرية قرب الحدود الجزائرية .. وهذا يعني سيطرة الاسبان على الساحل الذي يبلغ طوله ٤٦٨ كيلومترا ...

الاحياء الاسبانية ، وبقي بعد غلاب في كل ارجاء المدينة ، الا وهو التاريخ وعلاماته التي رسمها ، قلعة المرينيين ـ احدى الاسر الحاكمة في المغرب ـ تهيمن بجلالها وشموخها على المدينة ، الابراج العربية تنتصب فوق كل تله ، وعلى اعالي الجبال حول سبتة ، وتحكي الكفاح البطولي لاهلها ضد الغزوات ، وقد تحولت اليوم إلى ثكنات عسكرية اسبانية ، اما اسم المدينة فقد طاله التغيير واصبح بالاسبانية « سيوتا » ولكن بقي موقعها دليلا اكيدا على العالم الذي تنتمي اليه ، وبقيت اثارها تسخر من كل ادعاءات المحتلين ....

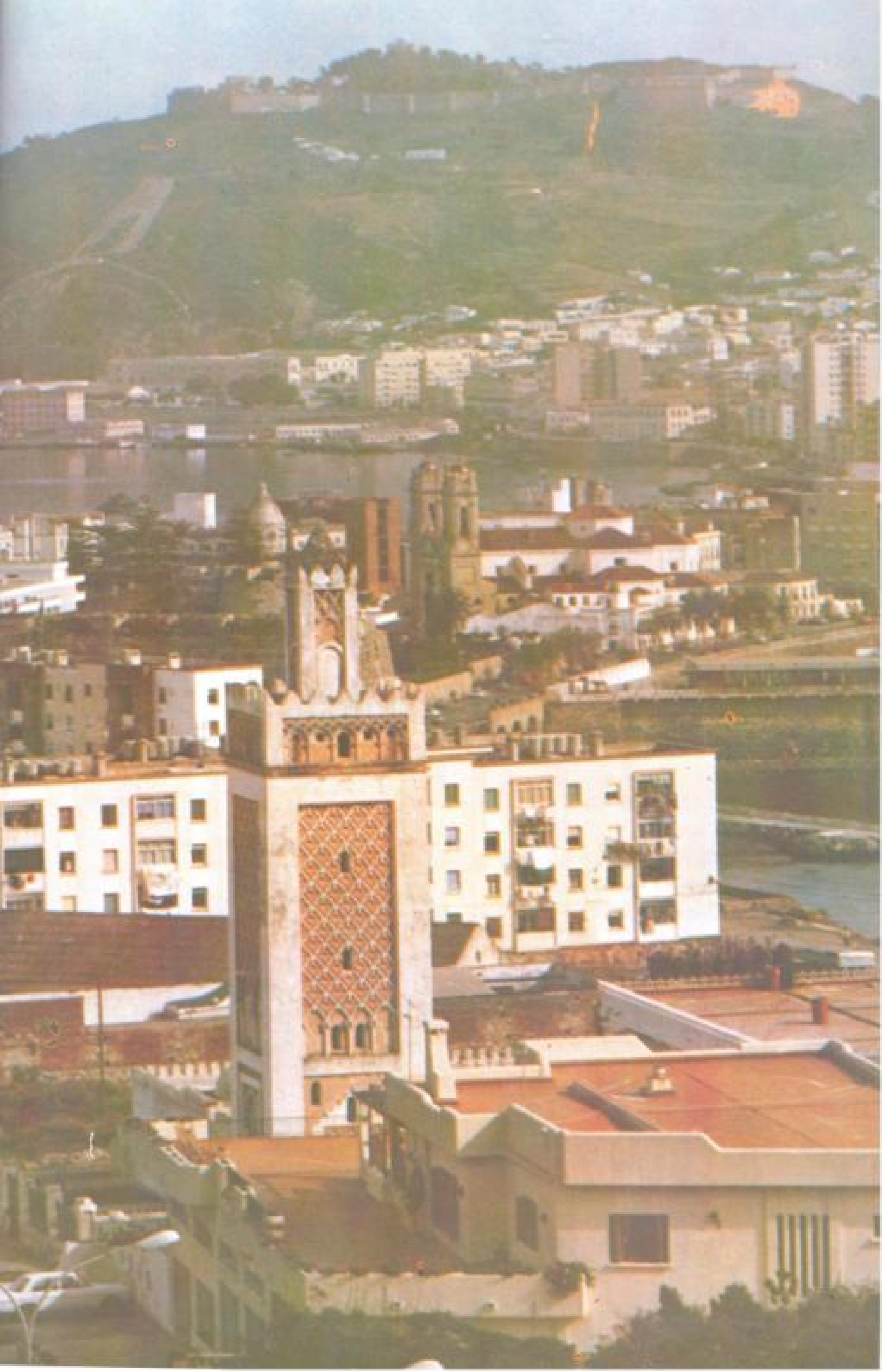
حقا ، لقد بذل الاسبان جهودا متصلة ليطمسوا معالم شخصية « سبتة » لم يفلت منهم شيء : اسوار المدينة القديمة ، هدموها ، ثم تركزت محاولاتهم في احداث تغيير سكاني ، وفتحوا باب الهجرة الاسبانية على مصراعيه ، وضيقت السلطات الاسبانية على ابناء البلدة وحاصرتهم ، واصبحت البلدة التي لا تتجاوز مساحتها تسعة عشر كيلومترا مربعا جيبا يحمل حضارة اخرى ولغة اخرى ودينا آخر ، وتحولت اغلبية السكان الذين يصل عددهم الى ٧٦ ألفا من الاسبان ، الى صورة مشوهة لما حاولته فرنسا في الجزائر وفشل ، وحاولته بريطانيا في روديسيا وفشل ، والادهى هو ان سبتة جزء من سلسلة من الجيوب تخضع لذات الاساليب .!.

وحسب احصاء عام ١٩٦٠ كان تعداد المسلمين المغاربة في المدينة نحو خمسة الاف نسمة ، اما صعوبة اجراء احصاء حديث فهي اعتبار كل من يولد في سبتة اسبانيا ، وبعد ان اصبحت مأوى لاعداد من اليهود ، سواء الذين هاجروا اليها من طنجة بعد تحريرها ، او من الجزائر بعد استقلالها ...

قلب سبتة .....

واتبعت السلطات الاستعمارية سياسة اقتصادية تساهم في اتساع الفجوة بينها وبين بيئتها باعلانها منطقة حرة مثل هونج كونج وسنغافورة ، وما كانت عليه عدن قبل الاستقلال ، بزعم ان تطور كل منها « ميزاتها الخاصة » وتتحول الى مراكز تجارية وسياحية ، ويساعد أسبانيا في نفس الوقت على تغطية نفقاتها العسكرية .....

وقبل المضي في الحديث ، ننطلق في جولتنا وتكون مشاهداتنا والوقائع التي نجمعها هي دليلنا .. تتركز حياة المدينة في شارعها الرئيسي ، المزدحم بالمحلات والمكدس بالبضائع ، عدد الجنود الاسبان الذين يتجولون او يتجمعون في مكتب التليفونات كبير جدا ، ويزخر وسط المدينة بالميادين الفسيحة ، واهمها ميدان افريقيا الذي اقيم ايام الاحتلال البرتغالي وتطل عليه كاتدرائية تؤكد انتصارهم والتماثيل الموزعة في الميادين وطراز المباني تؤكد الهوية الاسبانية المزيفة ، وتستخدم المدينة مركزا لجميع الشركات الملاحية ومركزا للتخزين واعادة التصدير ،





مسجد سيدي مبارك في جادو ، أو الحصن الاخير في الدفاع عن البلاد (الى اليمين) وكهل مغربي يتأمل امام العلم الاسباني الذي يرفرف على قلعة اسبانية (الى اعلا) وقلعة « المرينيين » ، قطعة من التاريخ تهيمن على المدينة . (الى اسفل)



وتباع داخلها كافة المنتجات الاجنبية باسعار ارخص من اسعارها في مراكز انتاجها ، السياح يزورونها ليوم واحد يشترون خلاله احتياجاتهم ....

ويستقبل ميناء سبتة البواخر التجارية القادمة والمتوجهة الى اوروبا واسيا ، واقيمت بها مؤخرا مصانع صغيرة لتعليب الاسماك وصناعة الخمور ، وتجميع اجهزة التلفزيون ، ويحدد احصاء عام ١٩٦٩ مصانعها بـ ٣٦١ وحدة ، ويرسو في ميناء المدينة اكثر من ١٢ الف سفينة سنويا وتمثل هذه الحركة عبور نحو مليون شخص و ١٦٠ الف سيارة ، ولا تستفيد المغرب من هذه الحركة التجارية شيئا ، بل على العكس تجري فيها عمليات تهريب منظمة الى الاراضي المغربية وتؤدي الى تقلبات في سعر العملة المغربية .

وهي مثال حي للمدن الشيطانية ، اقيمت من الخارج ، وتركها الاستعمار الاسباني رأسا بلا جسم لذا انتعشت بها النشاطات غير الشرعية وغير الاخلاقية مثل التهريب والدعارة ....

وليس غريبا وجود العدد الهائل من رجال الجيش «الاحمر سته» والذين يقدر عددهم بـ ٢٨ الف جندي ، وقوات الدرك الذين يسيرون في كل مكان من طرقات المدينة ، ويسيرون في الجبال في قوافل من السيارات المسلحة .

وامام المجلس البلدي في ميدان افريقيا ، فوجئنا بأن كبار رجال البوليس لا يدخلون الى المبنى الا بعد تفتيش سياراتهم ، فبينما يقدم الجندي التحية العسكرية ، يجري اخر خلف السيارة وينظر تحت العجلات وداخلها ....

مما يدل على انه رغم الصمت القاتل حول هذه المناطق يدرك الاسبان انهم يقفون فوق بركان يمكن له ان ينفجر في اية لحظة ، وكانت آخر الازمات التي شهدتها سبتة ما وقع في يوليو عام ١٩٧٥ على اثر مقتل شاب مغربي برصاصة في رأسه من شرطي اسباني ، وقد اعترض المغرب رسميا على هذا الحادث ، ووجه رسالة الى الامين العام للأمم المتحدة يحذره فيها ، وان المغرب .. « سيلجأ الى مختلف الوسائل التي تحفظ سلامة مواطنيه .... »

جبل موسى

تركت المدينة خلفي ، واتجهت شرقا ، ابحث عن المكان الذي انطلق منه طارق بن زياد ، والذي يتحدد موقعه عند جبل موسى ـ موسى بن نصير ـ المواجه لصخرة طارق على الجانب الاخر من المضيق .

يبدأ جبل موسى عند نهاية مباني سبتة ، ومنه تشاهد عن بعد جبل طارق ، وبين جبل موسى وجبل طارق عنق المضيق الذي يبلغ طوله ثمانية اميال ، يظهر كأن بين جبل موسى وجبل طارق غلالة بيضاء ....

المشهد امامي مشحون بالحكايات والعبر ، ينقلك من هذا العصر باحباطاته الى صور أخرى زاهية ، لا يجوز الركون اليها والاستسلام لها ، والا تصبح مثل المخدرات في تأثيرها ....

اما الحقيقة التي يحكيها هذا الموقع فهي ان سبتة تحتل موقعا استراتيجيا بالغ الاهمية ، وهي رأس المثلث لثلاث مدن تحكم مضيق جبل طارق ، سبتة وجبل طارق وطنجة ، وبالتالي تتوزع السيطرة على كل من بريطانيا في مستعمرتها جبل طارق ، واسبانيا في مستعمرتها سبتة .

بحر الزقاق ...

ومضيق جبل طارق او بحر الزقاق : كما تطلق عليه الكتب العربية القديمة ـ هو العنق بين البحر الابيض والمحيط الاطلسي وينقسم الى جزءين ، نصفه عنق البحر ، ونصفه الآخر عنق المحيط ويبلغ طول الساحل الافريقي الذي يطل عليه نحو ستين كيلومتر ، والساحل الاوروبي نحو ثلاثين كيلومترا وتتراوح المسافة بين الساحلين بين اربعين كيلومترا من ناحية المحيط ، وعشرين كيلومترا من ناحية البحر ، والمسافة بين سبتة وجبل طارق ٢٠ كيلومترا ، وبين جبل طارق وطنجة ٦٠ كيلومترا .

وما زالت مدنه مثلث الاخطار الدولية يمكن ان ينفجر في اي لحظة ، اسبانيا تهدف الى استرداد مستعمرة جبل طارق التي تقع في أراضيها ، والمغرب يهدف الى تحرير سبتة ، والغريب ذلك الشرط الاسباني الذي يتردد في الكواليس ، بأن اسبانيا لن تتخلى عن سبتة الا اذا تخلت بريطانيا عن جبل طارق ، وهي تضمن بذلك تأييد السياسة البريطانية لاستمرار احتلال سبتة ، وهذا يكشف عجز المنطق الاسباني ، ففي الوقت التي تعتبر مناطق مغربية « مراكز سيادتها » .. تطالب بريطانيا بالتخلي عن جبل طارق كجزء لا يتجزأ من الاراضي الاسبانية ، فاذا اعتمدت على حق الغزو او طول مدة الاحتلال ، فهذا ذاته ما تعتمد عليه بريطانيا في وجودها في جبل طارق .



لقطة للحي العربي في « سبتة » وتظهر ملامح الفقر مقارنا بالاحياء الاسبانية .

ولقد دفعت سبتة غاليا ثمن موقعها ، فكانت اول مدينة مغربية تقع في الاسر كبلدة حاكمة لمدخل البحر الابيض المتوسط ، التي تحول الى بحر مغلق لمن يسيطر على المضيق ، والذي كان لفترة طويلة قلب العالم ، والذي يطل عليه سبع دول عربية تمتد على طول شاطئه الجنوبي والشرقي على مسافة تصل الى ٣ آلاف ميل ، وهي البلاد التي تتكلم لغة واحدة وتعتنق دينا واحدا ولها مصالح واحدة ، وتشرف على مداخله ومخارجه ، فهل يترك لها ذلك بعد ان خاض العرب والغرب على جانبيه لعبة « شد حبل » على طوال التاريخ ..؟

جسر للسيطرة ..

ونمضي مع الموقع ودلالته على مر الايام ، يسجل ابن خلدون .. دور هذا الموقع بقوله .. « كانت سبتة يومئذ منزل يليان ملك غمارة ، ولما زحف اليه موسى بن نصير صانعه بالهدايا ، واذعن للجزية فاقره عليها ، واسترهن ابنه وابناء قومه ، وراح طارق فاتحا عبر بحر الزقاق من « سبتة » عند هذه الصخرة التي امامي ...

وهناك مشروع اسباني للربط القاري بين اوروبا وافريقيا عند هذا المكان ، سواء بنفق او جسر يمتد بين « سبتة » وبين « الجزيرة » بلدة على الشاطىء الاسباني ما زالت تحمل اسما عربيا ، ويحق لنا ان نتساءل هل هو جسر للتفاهم ، أو جسر لاستمرار الهيمنة والسيطرة الاوربية ..؟ وقد اجتمع ممثلون عن اسبانيا والمغرب لدراسة المشروع ، ومحاولة اجتذاب البنوك والمستثمرين المحتملين ، على ان يضم المشروع سكة حديد وطريقا للسيارات وخط انابيب وخط كابلات ، ويصبح طوله ٢٥ كيلومترا وعرضه ١٠٠ متر .

ويقدم الاسبان المشروع بأنه البديل لاستمرار المغرب واسبانيا على حافتي القارتين ، بل يمكن ان يصبحا مركزا لقارة اوربية افريقية جديدة .!

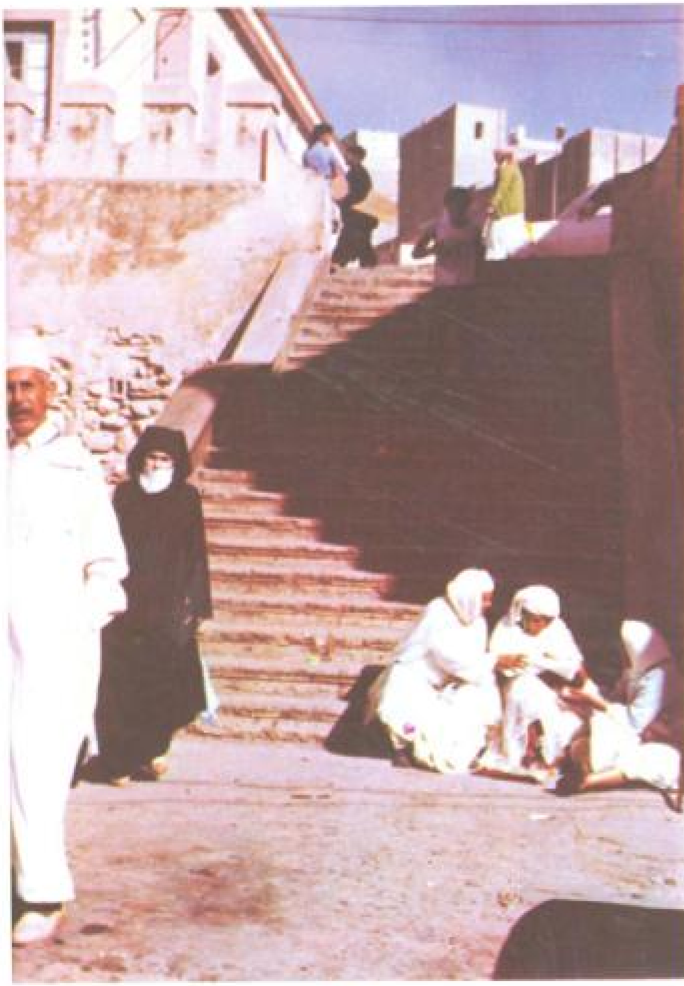
ولكن الدول الاستعمارية ترسم سياستها لكي تصبح المغرب جزءا من اوروبا ، وحزاما بينها وبين افريقيا ، وبدلا من ان تنظر المغرب شرقا الى المشرق العربي ، او جنوبا الى عمق افريقيا ، وهذا هو السبيل ليحقق الغرب سيطرته على بوغاز جبل طارق .

اما اذا جلت اسبانيا عن الاجزاء التي تحتلها من المغرب ، فيمكن ان تتبدد تلك الهواجس ويصبح جسرا للتفاهم والحوار بين الغرب والشرق .

الحي العربي

اتجه من جبل موسى الى الحي العربي ، ابحث عن حي « خادو » وحي « بريسبي » ، فالواجهة البحرية لسبتة هي المدينة الاوروبية ، بينما ظهير المدينة الخلفي هو الحي العربي ، حي خادو الظهير الاقرب وبه مسجد سيدي مبارك ...

نقلني اليه سائق احدى سيارات الاجرة ، وعندما تبين مهمتي قال في أسى : « انهم يعتبروننا (ترانجير) اي اجانب ، ونحن في بلادنا التي ولدنا فيها ، عندما نرفض



الوجود العربي ومظاهر العوز في مليلة (الى اليسار) وتمثال الجندى المجهول . للجنود المغاربة الذين حاربوا الى جانب فرانكو في الحرب الاهلية (الى أسفل) الوجه القبيح للوجود العسكرى الاسباني امام قلعة مليلة . (بالصفحة المقابلة اعلا) وبوارج عسكرية اسبانية في ميناء مليلة . (بالصفحة المقابلة اسفل)







الحصول على الجنسية الاسبانية » .. واضاف ... « ولا تتردد السلطات الاسبانية في طرد اي مغربي له اي نشاط سياسي ، وتزداد عمليات الابعاد مع الازمات السياسية بين الحكومة المغربية والحكومة الاسبانية .. » واضاف في حسرة .. « لقد خدمت في الجيش الاسباني بعد ان فرض التجنيد الاجباري على كل من ولد في سبتة ، ورغم ذلك فهناك تمييز بين التقاعد الذي يحصل عليه من يحمل الجنسية الاسبانية ومن يرفض حملها من ابناء المدينة ... »

نلاحظ خلال جولتنا ان النساء العربيات يرفضن التصوير ، لقد تعودن ان تلتقط لهن الصور كنوع من الفلكلور . نتوغل اكثر في المدينة ، بلا هدف سوى ما يكتشفه الطريق ، مررت ببيوت جميلة تختفي بين اشجار السنديان والصنوبر ، وهذه اكواخ تتعشق مع الصخور ، وفي ظلال الاشجار عجوز تبيع طاقات من البقدونس ، او قليلا من الفول الاخضر، فهنا تنقل الخضراوات من الحقول الى المطابخ وهذه فتاة مغربية على رأسها قبعة كالمظلة وقد تربعت على الارض وراء صف من باقات الزهور ..

نصل الى حي بريسبي ، النساء المغربيات يتجمعن حول صنبور يحصلن منه على المياه ، وهذا الحي لا يسكنه سوى العرب ، وهو اكثر الاحياء فقرا ، تحيطه مدن الصفيح ، تشعر باجواء المدينة المحتلة ، اعداد غفيرة من رجال البوليس الاسبان ، الشباب يقفون بلا عمل يطلقون شعورهم ، يلبسون الجينز ، ويعيشون الاحباط بطريقتهم ، واخذت اتحدث اليهم حول ظروف المدينة ، وكانت اجاباتهم تحيلني الى حيدو ، قلت : لعله مثقف كبير ، او زعيم ، او تاجر ..

● واين استطيع مقابلته ؟

ـ داخل السوق ..

اصل الى مبنى السوق الذي كتب عليه بالعربية « سبتة تطالب بالاستقلال » ، وداخل السوق وجدت حيدو ، وادهشني انه من رجال الدرك ، ولم يجب على اسئلتي ، وقال بحزم ان تصوير الحي العربي والسوق ممنوعان ..

ادركت جو التوتر الذي يعيشه الحي العربي ، بعد ان زادت المقاومة المغربية للوجود الاسباني وعبروا عن ضيقهم بطرق مختلفة ، وتبلورت مواجهات يومية مع سلطات الاحتلال ، وعلمت انه صدرت قبل حوالي شهرين من زيارتنا منشورات باسم « حركة تحرير سبتة » ، ووزعت على سكان المدينة تندد بالسياسات الاسبانية ، وبغياب الحقوق الثقافية للمغاربة .

وبالفعل خلال جولتنا في جميع المتعمرات الاسبانية ، لم اقرأ بالعربية سوى كلمة واحدة تتكرر وهي « صرف » يكتبها الصيارفة على ابواب محلاتهم ، وجملة « سبتة تطالب بالاستقلال » ولم اعثر على اي صحيفة عربية او كتاب عربي ...

فوق جبل أنجره

ومن نقطة تشرف على سبتة كلها من فوق جبل انجره كانت وقفتي الاخيرة اطل على مشهد رائع من مشاهد الجمال الطبيعي الذي يتكرر في المغرب ، والذي اصل اليه عبر طريق املس مظلل بالاشجار ، وخلال الطريق تشاهد التكنات العسكرية المنتشرة فوق الجبل ، اشاهد الجنود الاسبان يقومون بالتدريبات العسكرية ، وفي مواجهة رأس التل قصر حوله البساتين اقيم في القرن الثامن عشر وكتب عليه « قيادة القوات المسلحة الاسبانية لشمال افريقيا ... » وهذه الثكنات العسكرية مهمتها حماية هذا الجيب من اي هجوم ارضي ، في نقطة الربط بين اوروبا وأفريقيا ، كما تقوم بالرصد لصالح الدول الغربية جميعها .

وترى من هذه النقطة العالية ، البلد الحصن ، والقاعدة البحرية ، ويظهر فوق جبل موسى الرادار الاسباني الذي يراقب الملاحة في المضيق ، وحول جبل موسى السنام الحادة لجبال جرداء موحشة ، تنعم وتخضر متحدراتها ، وتشاهد في الطرف الغربي قلعة الميرينيين ، وفي الطرف الشرقي بيوت موزعة وبساتين تتصل بالارض القاحلة من الجبال العالية ..

وتتمدد سبتة فوق الهضبتين ، يصلها جسر ، فاصبحت كلها شبه جزيرة يحيطها البحر من الجهات الثلاث الشمالية والشرقية والجنوبية ، ويظهر الميناء على اليسار فوق هلال من الارض ، مد في طرفيه رصيفان ، وفيه بناية في شكل بارجة .

اما الابراج والقلاع من حولك ، فتؤكد دور البلدة التاريخي كبلد تخوم ، بلد عاش على احد المضائق الاستراتيجية ، ومن هنا تلاحظ التشابه الشديد بين مغرب مضيق جبل طارق ، وعُمان مضيق هرمز ويمن باب المندب ، فثلاثتهم تميزهم القلاع والابراج ، ورغم كل محاولات طمس شخصية سبتة فشخصيتها لا تقاوم تظهر في قطعةسجاد في مئذنة مسجداو في قطعةفضة

مطرزة ، فكلما زاد التهديد زاد التمسك بالطابع وضربت الجذور في الارض .

ويمكن لحياة المدينة ان تتوقف ، فالمياه تأتي إلى البلدة من قرية وعين بليونيش المغربية وراء جبل موسى ، وقد استغل الاسبان ظروف الحماية لمد المدينة بالماء بواسطة انابيب ، وهو ما منعتهم منه قبائل انجره طوال قرون ، ولم تلجأ المغرب لذلك بعد ...

من التوازن .... الى الاختلال .....

وبعد الجولة في احياء المدينة وأسواقها وجبالها ، نقوم بجولة اخرى بين صفحات التاريخ ، نلتقط الخيط بين الماضي والحاضر ، كانت سبتة اول مدينة تسقط في ايدي الغزاة ، في مرحلة تاريخية شهد خلالها البحر الابيض المتوسط احد اشكال التوازن العابر خلال القرن الثالث عشر وعادت الروح الصليبية ، وتأججت لتغير هذا الميزان لصالحها ، وكان منتصف القرن الرابع عشر تاريخا فاصلا ، عاشه ابن خلدون ووصفه واستخلص منه صورة قاتمة ، حتى خيل اليه انه يعيش نهاية العالم ، فحوله دولة تتصدع ، وزراعة تتقهقر ، وتجارة داخلية تكاد تتوقف ، والجبل يغلق على سكانه ، وكأن المغرب تقدم نفسها للغزاة .

ضعف مغربي من جانب ، وهجوم ايبيري من الجانب الاخر ، ضعف المغرب وتفوق البرتغال الذي اعقبه الرجحان الاسباني ، وبعد عودة الحملات الصليبية من بيت المقدس فاشلة ، وبعد الزحف العثماني في القرن الرابع عشر داخل اوروبا ، كان رد فعل البابا ان اطلق نداءاته للهجوم على احد النقاط الأضعف والأبعد ، وكانت الموجة الاولى لغزو المغرب ...

وخلال هذه الفترة حاصرت قوات جنوه مدينة سبتة عام ١٢٣٤ م ـ ٦٢٢ هـ ، ولم ينسحبوا الا بعد حصولهم على غرامة باهظة ، ثم عاد القشتاليون للهجوم عليها عام ١٢٦٠م ـ ٦٥٨هـ ، وتمكنوا من احتلالها لمدة اسبوعين ، وخضعت مدينتنا لمنطق التداعي والسقوط ، فبعد ان كانت من اكبر مدن المغرب ، يخرج منها العلماء والمؤرخون ، فمنهم الشريف الادريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق ، وغيره من الذين تركوا وراءهم مخطوطات تكشف عن حياة المدينة مثل « العيون الستة في اخبار سبتة » للقاضي ابي الفضل عياض اليحصبي ، و « مغازي العرب » للحافظ ابي الربيع سليمان بن سالم و « اختصار الاخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار » ، لمحمد بن القاسم السبتي ، وتورد هذه المخطوطات احصاءات المدينة ومدى انتعاشها ..

ومن التداعي الذي شهدته ، تحول المدينة بعد ضعف السلطة المركزية الى المدينة الدولة ..!!

ويصف احتلالها صاحب نثر المثاني بقوله ..

الدرك الاسباني عند ميناء « سبتة » ويظهر جبل موسى في خلفية الصورة .






المسجد الثاني في حي بريسيبي في سبتة ، ومظاهر الشقاء في الحي العربي .




ولا غالب الا الله

« سمعت من بعضهم ان الذي جرأ الاجانب على ارتكاب تلك المكيدة هو انهم قد قاطعوا امير سبتة على ان يفوض اليهم التصرف في المرسى والاستبداد بغلته ويبذلوا له قدرا معلوما ، وكان حكم المرسى لهم دون المسلمين ، ولو كان المسلمون هم الذين يتولون حكم المرسى ما تركوهم ينزلون ذلك العدد من الصناديق مقفلة لا يعلمون ما فيها ، والله اعلم بحقيقة الامور ...

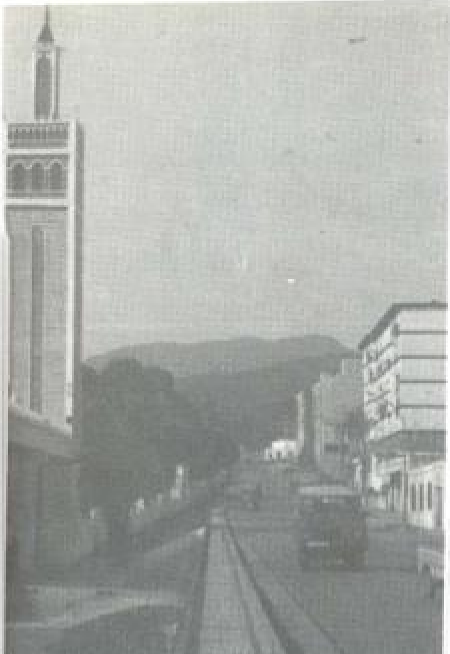
يسجل المؤرخون العرب ... » ان سبتة خرجت من ايدي ملوك المغرب يوم الاربعاء في منتصف جمادي الاخرة عام ٨١٨ هـ (١٤٦٦) ، وبقيت تحت سيطرتهم حتى انتزعها الاسبان عام ١٠٨٠ هـ (١٧٣٥ م) ، بعد ان استمرت بالنسبة للمغرب الميناء البحري الرئيسي ، وكانت قبل استلابها اهم موانيء المغرب « » وهو الدور الذي انتقل فيما بعد الى طنجة ، والذي تؤديه اليوم الدار البيضاء على المحيط ...

وصفحات غزوها تقول ان هنري الملاح اشترك في عملية الغزو ، ثم تحول الى الكشوف الجغرافية من اجل الالتفاف حول القلب العربي ، وانه تم احتلال « سبتة » بتأييد من الرأي العام الاوروبي ، وسميت « الاسترداد » بدلا من الغزو ، وكان احتلالها نصرا للحركة الصليبية وصفحة في الصراع بين الشرق والغرب ...

وتمضي الايام ، وتنصرف اسبانيا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الى الاهتمام بالشئون الاوربية ، ويقتصر دور سبتة على مجرد نقطة مراقبة على البحر ، وذكر بعض الاسبان ان استمرار احتلال هذا الميناء يكلف اعباء مالية لا تساوي المنافع التي يحققها ، وخاصة بعد ان تعرضت سبتة لسلسلة طويلة من اعمال الحصار ، سواء بواسطة زعماء محليين مثل احمد جيلان عام ١٦٥٥ ، ام بواسطة السلاطين الذين استقر حكمهم في فاس مثل مولاي اسماعيل اشهر سلاطين الأسرة العلوية والذي قام خلال حكمه بثلاث محاولات لاسترداد سبتة في الاعوام ١٦٧٤ و ١٦٨٠ و ١٦٩٤ ...

التنافس الاستعماري ...

وبعد الموجة الصليبية ، تأتي الموجة الاستعمارية ، فعندما ازالت القبائل المغربية علامات الحدود عام ١٨٥٩ ، اتخذها الاسبان ذريعة لشن حملة جديدة في اوائل عام ١٨٦٠ ، وخرجت الجيوش الاسبانية من مدينة سبتة واحتلت مدينة تطوان ، واجبرت المغرب على دفع غرامة قدرها مائة مليون بيزته ، وتم توسيع الارض



مسجد سيدي مبارك وامامه سيارة عسكرية اسبانية .

المحيطة بميناء سبتة ، ولم يكن دافع هذا التوسع الاهداف الاستراتيجية وحدها ، بل ولعب الثأر الثقافي والحضاري دوره ، كما كانت خسارة اسبانيا لاملاكها الامريكية تدفعها لتحقيق نصر جديد ، فاحكمت اسبانيا سيطرتها وانطلقت من كل من سبتة ومليلة الى مناطق جديدة .

وفي هذا الوقت كانت الحكومة الاسبانية ضعيفة بشكل فاضح ، والمؤسستان الوحيدتان اللتان تدركان اهدافهما هما الكنيسة والجيش ، فما زالت الكنيسة تذكر ان ايزابيلا التي عملت على اخراج العرب من اسبانيا عام ١٤٩٢ ، كانت قد اوصت رجال الدين بان يعملوا بحماس على نشر « الايمان الصحيح » بين سكان شمال افريقيا ، اما الجيش فقد عاد من اخر معاركه في كوبا والفلبين عام ١٨٩٩ مثخنا بالجراح ومصحوبا بالهزيمة والعار واعطته سبتة ومليلة فرصة للعمل ونقطة للانطلاق في ظل مرحلة التنافس الاستعماري ...

ولم يستقر الحال طويلا للاسبان فقد عانى الجيش الاسباني العديد من الهزائم العسكرية وكان آخر هذه الهزائم في يوليو ١٩٢١ وكان الجيش الاسباني ينتقل من انكسار الى اخر حتى وصفت المغرب بأنها .. « قبر



احدى النساء المغربيات في الحي العربي الى جانب المسجد الثاني في « سبتة »

الشباب الاسباني ، والبشر التي تبتلع ثلث ميزانية اسبانيا .. »

المستأجر من الباطن ...

وعندما خيم على المغرب النظام الاستعماري ، ميز الاسبان بين نوعين من الاحتلال ، القسم الشمالي الذي يعرف بمنطقة الريف وقد اخضع لنظام الحماية ، والمناطق الاخرى المتمثلة في الجيوب الساحلية والصحراء ، بحجة ان وجودهم في مناطق الحماية يستند الى معاهدات التقسيم التي لم تكن المغرب طرفا فيها ، ولكنها عقدت بين فرنسا واسبانيا ، وقد شبه الفرنسيون هذا الوضع بأنه مثل « المستأجر من الباطن » ، ولذا إنسحبت حكومة مدريد في مارس عام ١٩٥٦ من منطقة الريف ، وانسحبت في وقت لاحق من مناطق طرفاية والصحراء ...

اما القسم الثاني ، فقد اعتبر ارضا اسبانية ، بحجة طول المدة التي مارست اسبانيا خلالها ادارة هذه الجيوب والتي احتلتها عن طريق « الغزو .. » وكانت الحكومة المغربية تتصور .. « ان اليوم الذي يغادر فيه آخر فرنسي

ارض المغرب يكون اخر اسباني قد غادر البلاد في اليوم السابق ..

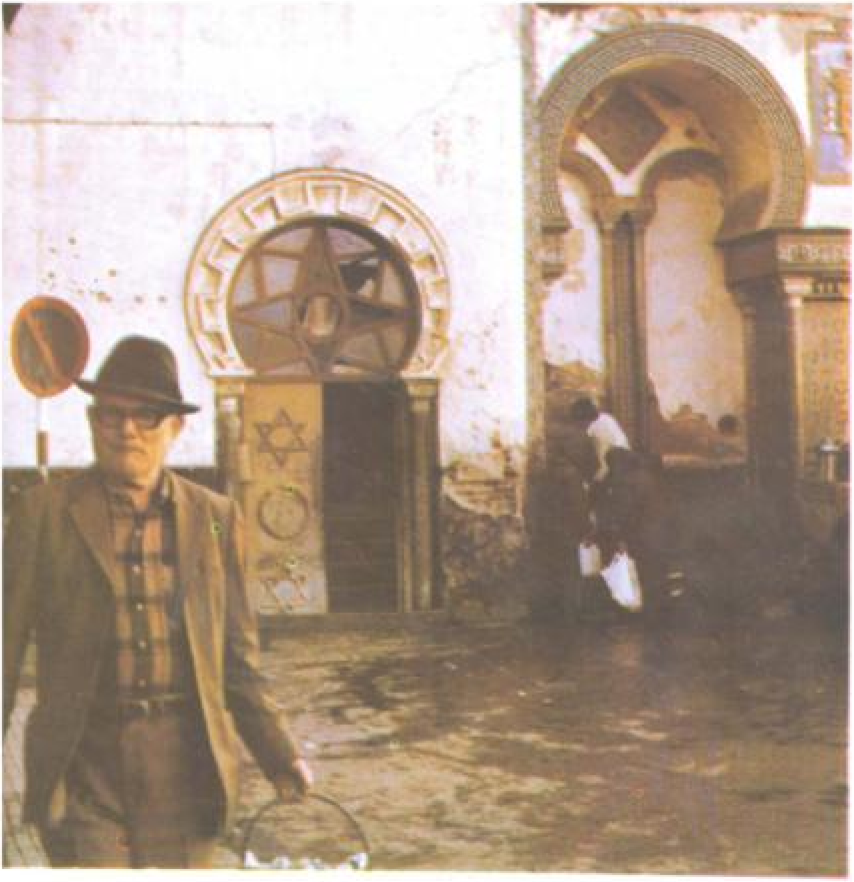
وقد كتب علال الفاسي عام ١٩٥٨ في صحيفة الصحراء ، يقول .. « بعدما اكدت اسبانيا رغبتها في تسليم منطقة طرفاية ، عادت فاصرت على تشبثها بشروط الاعتراف بما وراء طرفاية من الحدود وعدم المطالبة في المستقبل بسبتة ومليلة ، ولكن الحكومة رفضت قبول اي شرط ، لان تسليم هذه المنطقة بالخصوص داخل في اطار تسليم السلطة ، وان موقف الاسبان يدل على عدم الوفاء بالالتزامات والعقود المبرمة ، زيادة على ما يتضمن من غصب لحقوق المغرب وانتهاك لكرامة الامة في الاعتداء على البلاد واقتطاع اطرافها ... »

وتعود اسبانيا مرة اخرى عند انسحابها من الصحراء وتطالب ثمنا لهذا الانسحاب بعدم المطالبة بعقد الجيوب الممتدة على طول ساحل البحر الابيض المتوسط ، وتنتهج دائما سياسة التنازل عن المناطق الفقيرة في مقابل تأكيد وجودها في المناطق الغنية ، والتنازل عن المناطق التي ليس لها قيمة استراتيجية لتثبيت موقعها في المناطق الاستراتيجية ...

جزيرة حجر بادس ......

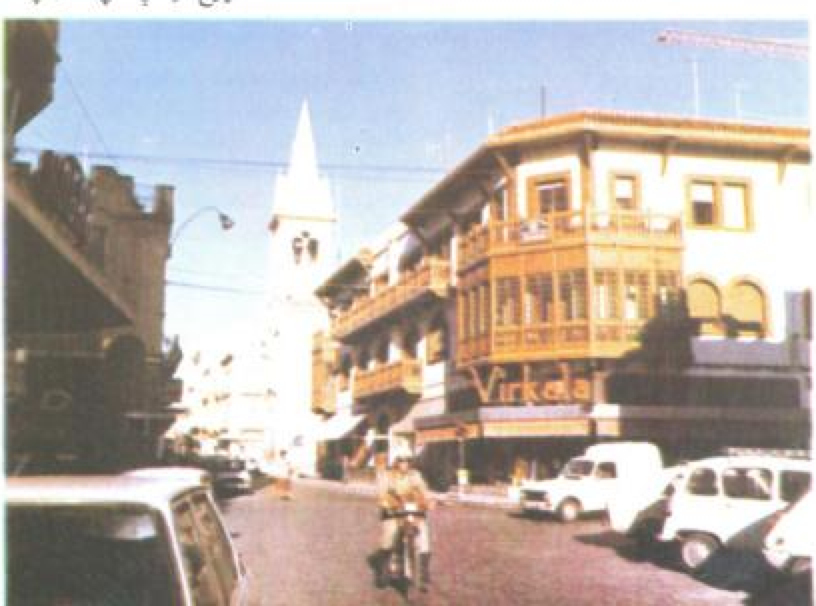
نعود الى الواقع نعايشه ونمضي في جولتنا داخل تلك الجيوب ، المجهولة ، حتى للرأي العام العربي ، وقد تطلبت الجولة ان نتنقل بالبحر ما يزيد عن ٢٢ ساعة ، فوسيلة التنقل التي امام الاسبان بين عقد القواعد هي خطوط الملاحة البحرية ، غادرنا ميناء سبتة على متن الباخرة الاسبانية سانتا ماريا كاريداد لننتقل الى وقفتنا الثانية في جزيرة حجر بادس ، والتي يطلق عليها الاسبان « بنيون دي فليس » ، والتي وصلتها الباخرة وهي تسير في محاذاة الساحل بعد سبع ساعات ونصف .

انها جزيرة صغيرة تقع في عرض ميناء بادس القديم ، وهي مواجهة لميناء أجادير ، وعندما نقترب من الجزيرة نشاهد احد الحصون العربية القديمة ، يرفرف فوقه العلم الاسباني بالوانه الزاهية ، وكأنه يهزأ من تاريخ هذا الحصن ، وفوق الجزيرة تتعشق البيوت مع الجبل في منظر خلاب ، وليس بالجزيرة مرفأ قادر على استقبال البواخر فتأتي القوارب الصغيرة ، الى عرض البحر لتنقل البضائع والركاب من الباخرة ، والبضائع التي تقلت الى الجزيرة تتكون من صناديق الذخيرة وعلب البيرة ..



نجمة داود على احد جدران مليلة ، بعد ان انتقل اليها عدد من يهود الجزائر بعد الاستقلال .

شوارع مليلة في الحي الاسباني .





مسجد مليلة الوحيد ..

سكان الحي العربي في مليلة .



هذا الجانب من البحر يزخر بمجموعة من الجزر الصخرية،والجبال الخشنة الوعرة . وخلال ثورة الريف عبر الثوار إلى الجزيرة سباحة،وتحصنوا فيها وأقاموا بين الساحل والجزيرة حبلا ، يصلهم التموين عن طريقه . اما مدينة بادس القديمة فلم يبق منها سوى بعض الاطلال عند شاطيء بني يطفت شمال غربي مدينة تاركيست ، وبادس التي اقف امامها ، كانت من انشط واهم مدن الشاطيء الريفي منذ عهد مملكة نكور وحتى عصر السعديين في بداية القرن السادس عشر عندما كانت منفذ مدينة فاس ، ووقتها كانت بادس بها « دار صناعة » اي ترسانة لاقامة السفن .. اما كيف سقطت المدينة وجزيرتها في ايدي الاسبان ، فلقد سقطت اول مرة في قبضة الاسبان عام ١٥٠٨ عندما كانت قاعدة الجهاد للقوات البحرية ، وعاد واستردها ابو حسون الوطاسي الملقب بالبادسي ، والذي سلمها الى البحرية العثمانية عام ١٥٢٥ م ، واصبحت قاعدة لعملياتهم البحرية في منطقة بوغاز جبل طارق ، ولكن السلطان السعدي عبد الله الغالب بالله امر سكان بادس باخلائها وتركها عام ١٥٦٤ م ، وهكذا انتهى الدور الباسل للمدينة ، والذي سيعود اليها بعد تحريرها ...

وقد اصبحت صخرة ديللا جوميرا (حجر بادس) قلعة للبحار الاسباني بدرودي نافارة واشتهرت باسم البينون ، بعد ان ساهم خلوها من السكان في مصيرها المظلم ...

جزيرة الحسيمة ..

نمضي مع الباخرة نكمل رحلتنا ، نرى المغرب تعطي ظهرها للبحر ولاوربا ، تصنع ذلك سلسلة الجبال الساحلية التي تمتد منذ بداية رحلتي من سبتة وحتى نهايتها في مليله ، اي على طول الساحل الذي يمتد ٤٦٨ كيلومترا ، ودائما ترسم الجغرافيا خطى التاريخ ، فمعالم المغرب الجغرافية البحر الابيض ، والمحيط الاطلسي ، وجبال الاطلس ، والريف والصحراء ، عملت هذه المعالم قرونا طويلة لوقف الدول الغازية ، واحاطت الجغرافيا المغرب بحواجز مثل احاطة السور للقلعة ، وكانت حتى وقت ليس بعيدا « اصعب منالا على الغريب من الصين ذاتها ... »

وهي مرة اخرى مثل اليمن وعمان ، يزداد داخلها شعور العزلة والانطواء ، فالاجانب دائما طامعون ، وقد كان الهدف الرئيسي للاستيلاء على هذا العقد من المستعمرات عزل المغرب عن البحر المتوسط ، ودفع موانئه الى المحيط الاطلسي ، واحتكار التجارة في البحر الذي يمثل قلب العالم ...

المحكمة في « مليلة » ، وهل يتحقق العدل وسط الظلم ..؟!



بعد ساعات من مغادرتنا حجر بادس تظهر معالم الحياة على الشاطيء المغربي ، تظهر الاشجار الخضراء فوق الجبال ، وترى قوارب الصيد المغربية قريبة من الساحل ، وتزداد الحياة كلما اقتربنا من جزيرة الحسيمة ، تشاهد جزيرة صغيرة لا تتجاوز مساحتها الف متر ، ولا تبعد عن الشاطيء المغربي اكثر من نصف كيلو متر ، انها الجزيرة الحصن . طرزت مبانيها مع الجبل ، ويرتفع فوق برج قلعتها العلم الاسباني ، ورسم على البرج الذي يشبه المنارة شعار البحرية الاسبانية ، ويمثله هلال داخله بندقيتان متقابلتان ، ويتكرر المشهد الذي شاهدناه في جبل بادس ، وتهبط الى الجزيرة صناديق الذخيرة وعلب البيرة يضاف اليها كميات من الحطب وبراميل [illegible] و النفط ، ينقلها الجنود ذوو القبعات الخضراء ...

الجزيرة الحصن تقع امام بلدة الحسيمة عاصمة الريف ، وخلفية الجزيرة ساحل اخضر تتناثر عليه قوارب الصيد ، وتظهر وسط المشهد آثار العمارة العربية وقد اصفر لونها بفعل الايام ، وتقدم لوحة ينقصها ريشة فنان ..

وهذه الجزيرة ظلت مغربية حتى عهد قريب ، على خلاف الجيوب الاخرى ، فلم يحتلها الاسبان الا بعد ثورة الريف بقيادة الخطابي ، وبعد هزيمة الجيش الاسباني في أول عام ١٩٢١ ، وبعد ان حققت هذه الثورة انتصارات كبيرة . والمؤرخون العسكريون يعتبرونها نقطة تحول هامة في فن حرب العصابات ، والذي خطط لها شقيق قائد الثورة الذي درس الهندسة في مدريد ، وبعد خمس سنوات من الانتصارات ، تحالفت القوات الاسبانية والفرنسية ووصل الى خليج الحسيمة اسطول اسباني ، واشترك المارشال بيتان بجيش فرنسي في القضاء على الثورة ...

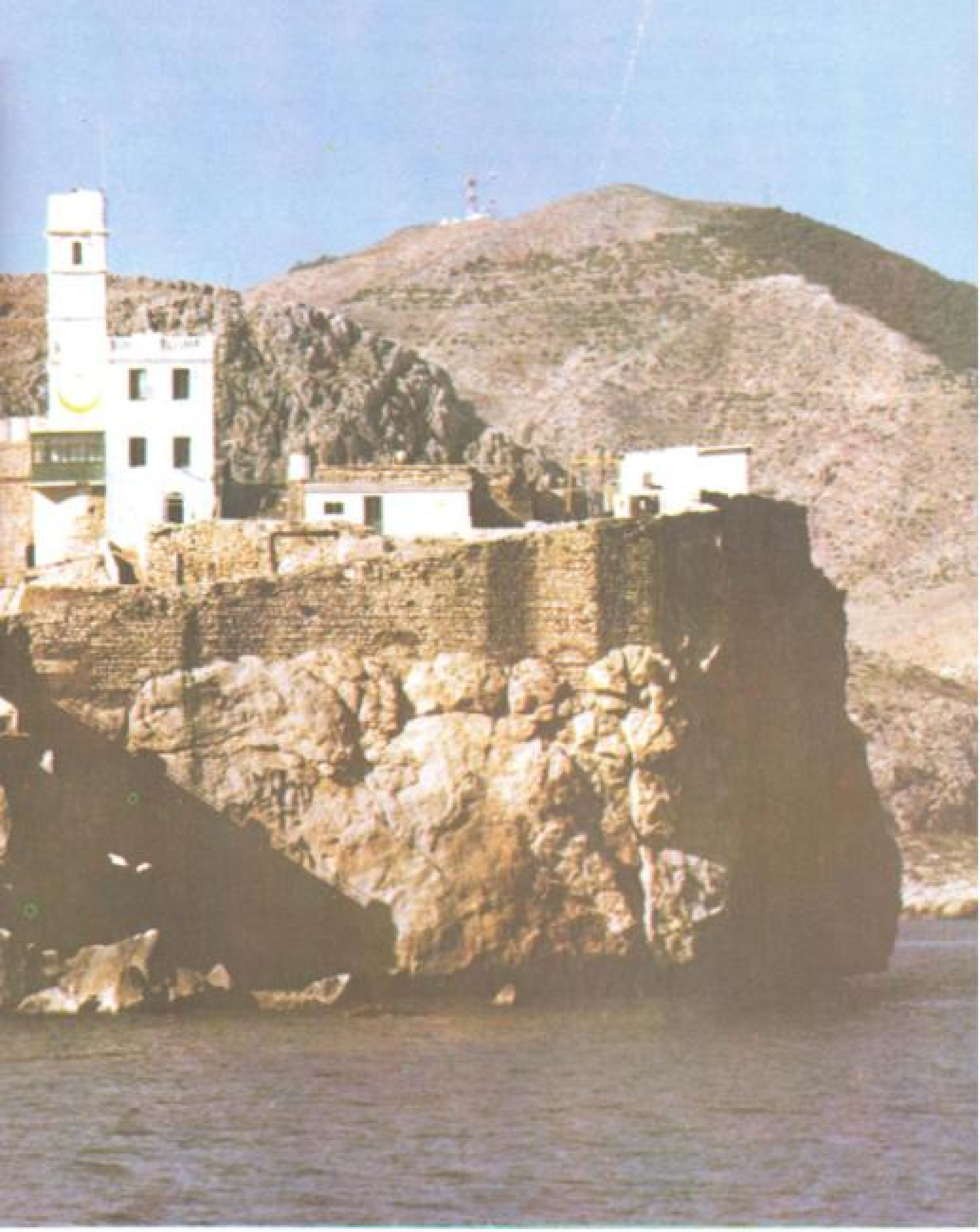
وشهدت اهم صفحات تاريخها خلال الثورة فقد كانت موطن الامير عبد الكريم الخطابي ، فهي ارض الثورة الاسطورية ، وموطن الانفة العربية ، ومكان الفقر والجبال الشاهقة والحياة الرحبة ، وتبدو الحسيمة من بعيد غنية بمناظر الجلال والجمال ، على الرغم من وعورة الجبال ، وانحدار صخورها ، اعطتها اشعة الصباح الذهبية رونقا خاصا ، وقد غطت الجبال جدائل خضراء من اشجار الزيتون واللوز ، ويبعد منزل الخطابي بضعة كيلومترات عن البلدة ، وهي قديمة قدم الازل ، معظم بيوتها معلقة فوق مراكز استراتيجية ، فوق الجبال ...

وما زالت اسبانيا تحتل جزيرتها بعد مرور ربع قرن على الاستقلال ، واصبح اسمها الاسباني « بينون دي هوسيماس » .

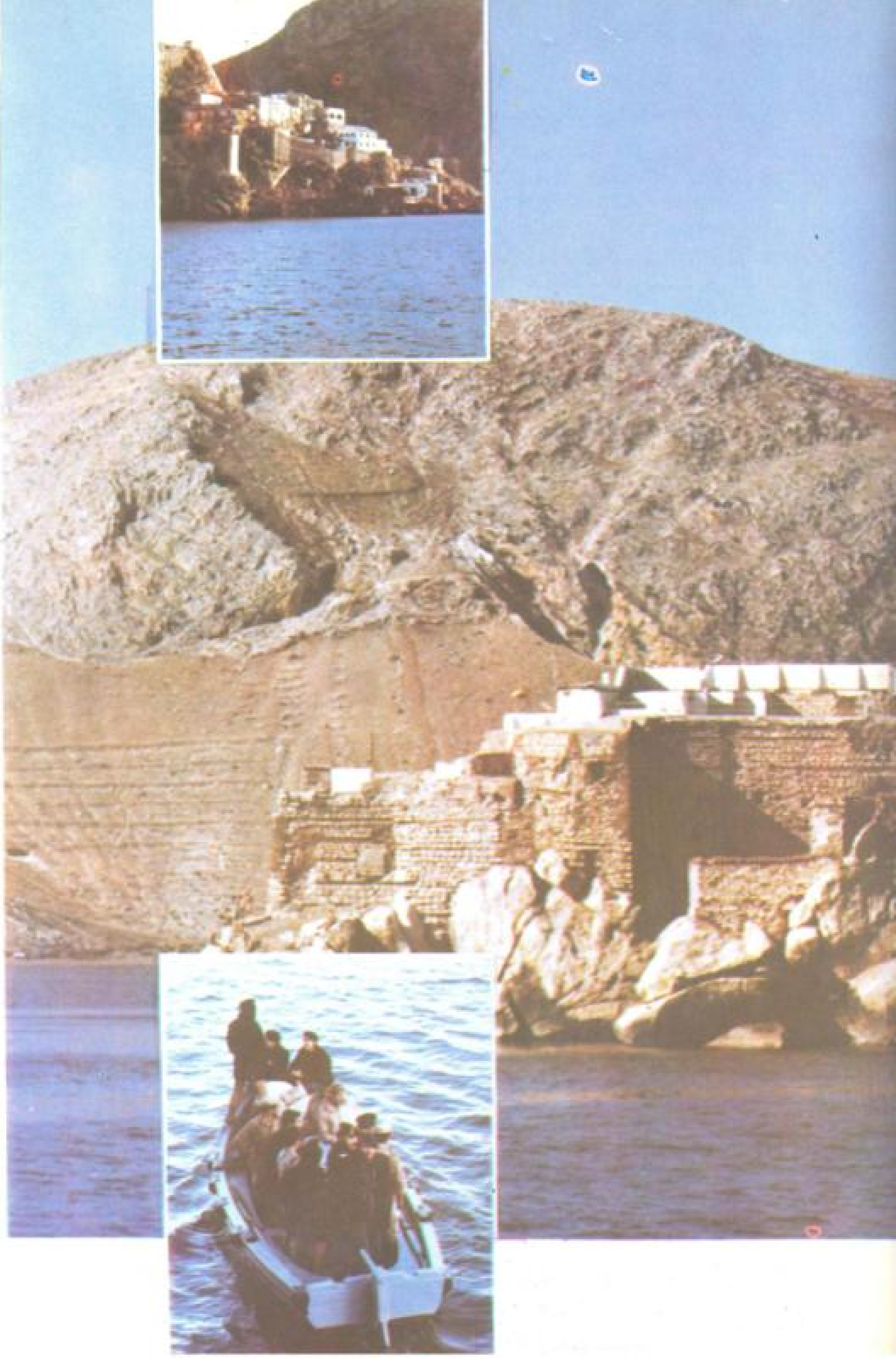
مركز المدينة في سبتة وهنا تباع المطبوعات التي ليس فيها كتاب أو صحيفة عربية .



جزيرة الحسيمة ، واحدى قواعد البحرية الاسبانية . (على الصفحتين) وجزيرة بادس الصخرية المواجهة لميناء اجادير . (الى اعلا) والجنود الاسبان ينتقلون من الباخرة الى الجزيرة . (الى اسفل)



ولا غالب الا الله



الجناح الغربي ...

المكان وما يشهده يدعو لوقفة تأمل ...

تحتل احدى اقل الدول الاوربية شأنا أراضي وجزرا عربية ، ويستمر احتلالها في الوقت الذي تمتع فيه بلاد مثل ناميبيا وغينيا بيساو وبتسوانالاند الاستقلال ، وهي ظاهرة ان دلت على شيء فهي تدل على مدى الخوف من عودة المغرب واسترداده قوته الكامنة في موقعه وشعبه ، فماذا اذا انتهت مشكلة الصحراء في الجنوب ، وانسحبت اسبانيا من سلسلة مستعمراتها في الشمال ؟ اذن لاسترد المغرب عافيته ووحدة اراضيه ، وعاد يلعب دوره التاريخي ، كحصن في مواجهة الزحف الاوروبي ، ويلعب من جديد دوره كجناح غربي للوطن العربي ...

ولا يظهر الاسبان الذين يعيشون في هذه المناطق اي شعور بالخجل من انهم وحدهم الجيوب الباقية في الوطن العربي ، ويتجاهلون نظرة السكان لهم كبقايا مشوهة لمخلفات السيطرة الاستعمارية ، بل ويقدم الاسبان منطقا خاصا لاستمرار سيطرتهم ..!

نعود ونمضي مع الباخرة في طريقها ، والتي تجري في بحر من الفضول لا يستقر ، نصل الى محطتنا الاخيرة في مليله ، نقترب من المدينة ساعة الغروب ، اول ما يظهر من المدينة مداخن المصانع ، ثم تظهر القطع العسكرية البحرية الاسبانية ، وخلف الميناء احدى القلاع الضخمة التي يصل ارتفاعها الى ثلاثين قدما ..

ولدى وصولنا الى المدينة وجدنا الدرك الاسباني في انتظارنا ، اوقفونا من بين كل المسافرين واعادوا فحص جوازاتنا ، وكرروا اسئلتهم ، رغم اننا ننتقل داخل « مناطق السيادة الاسبانية » كما يزعمون ، وانتهت الوقفة بمجموعة من التحذيرات التي تعكس حالة الريبة ، وطلب عدم تصوير مناطق الحدود والمناطق العسكرية ، واعطتنا هذه الملاحقة شعورا عميقا بأهمية ما نقوم به ، كما قدمت لنا شعورا بالمغامرة جعل لرحلتنا نكهة خاصة ...

ترى لدى مغادرة الميناء اليخوت وسفن الصيد امام القلعة الضخمة ، نصل الى الميدان الرئيسي في البلدة ، اسمه ميدان اسبانيا ، واقيم فيه تمثال الجندي المجهول الذي يرمز الى الجنود المغاربة الذين سقطوا خلال الحرب الاهلية الاسبانية ، ويسجل الدور الذي لعبته مليله خلال تلك الحرب فمنها بدأت الحامية الاسبانية التمرد ضد حكم الجبهة الشعبية في عام ١٩٣٦ ، والتي انتهت باستيلاء فرانكو على السلطة ....

الميدان والشوارع المحيطة به تمتلىء بالمقاهي فوق الارصفة وتحت المظلات ، وازدحمت بالنساء والرجال من كل الاعمار ، وتقرع اجراس الكنائس التي تكاد تراها في كل شارع ، وترى بحارة وسياحا هولنديين وبرتغاليين وتجارا فرنسيين وانجليز ومرابين من كل الجنسيات ، وبها مراكز للشركات متعددة الجنسية ، وهي ملجأ للمهربين ، والمغامرين الذين يسعون الى التهرب من الضرائب .

ولن احكي عن التماثيل المنتشرة في كل الميادين ، ولا عن الخضرة والحدائق فكل شيء مألوف في مليله لمن سبق وتجول في سبتة ، وهي مثلها اصبحت اسبانية في طراز مبانيها ويخيل اليك انك في ملقا الاسبانية او نابولي الايطالية ، فليس فيها الاسوار العالية ، ولا البوابات المبنية من الحجارة التي تقام على اقواس ، وليس بها اي مظهر من مظاهر المجد التاريخي التي تراه في اي مدينة مغربية متواضعة ، حتى ان الاجنبي الذي يهبط اليها بالطائرة في مطارها الصغير ويتجول فيها ويرحل عنها ، يمكن له ان يتصور انه في مدينة اسبانية ، وخاصة اذا قرأ الدليل السياحي الذي يقول .. « مليله هي اجمل المدن الاسبانية في افريقيا .. » وباعة الصحف لديهم صحف بكل اللغات الا العربية ، ولم يبق من مساجدها سوى مسجد واحد اقيم حديثا .

ومساحة مليلة تصل الى ١٢٫٣ كيلومتر مربع يقطنها ١٠٠ ألف نسمة ، وهي تبعد عن الحدود المغربية الجزائرية بنحو ١٢ ميلا ، وقد تحول اهلها الى اقلية فيصل عدد المغاربة فيها الى ٢٠ الف نسمة ، ويختلف المغاربة عن بقية السكان بخضوعهم لقانون الاحوال الشخصية الاسلامي ، وتدار مليله كجزء من ملقا الاسبانية التي تقع على الشاطىء الاخر من البحر المتوسط ، والتعليم يدار بواسطة جامعة جرانادا الاسبانية ...

وحتى خلال ايام الحماية الاسبانية كان لها وضع خاص ، فكانت تتبع وزارة الشئون الافريقية ، وليس المندوب السامي مثل باقي المناطق المغربية ، وكما شكلت جبال الريف حاجزا طبيعيا بين الشمال والجنوب اقام المستعمر الاسباني حاجزا اداريا واقتصاديا واجتماعيا بينها وبين بقية الوطن الام ، ومحلاتها تعرض البضائع ارخص مما تباع به في جارتها المغربية ناظور ، وقد استفادت مليله بان تحولت الى بوابة لتصدير حديد المغرب الذي يستخرج من الشمال ، اما المداخن التي شاهدتها من البحر فهي مداخن احد مصانع الفوسفات ، ويشحن منها الحديد والفوسفات الى كل من اسبانيا

وبريطانيا والمانيا ...

ينطلق من ميدان اسبانيا الشارع الرئيسي الذي يقطع المدينة ، ويصلك الى مفترق طرق ، شارع يقودك الى نقطة « الحدود » ليصلك الى الناظور ثم بلدة وجدة ، وتصل الى الناظور بعد ربع ساعة بالسيارة من مليله ...

مقهى كاليفورنيا ..

نجلس في احد المقاهي ، اسمه مقهى كاليفورنيا ، ومن مقعدك على المقهى تشعر انك ترى كل سكان المدينة وزوارها ، الشباب يطلقون شعورهم ، يلعبون الفليبرز ويتعاملون في السوق السوداء ويتاجرون في العملة ، ويتحول هنا اسم محمد الى ميمو .!!

يجلس الى جواري عدد من المغاربة يتحدثون العربية ، وعندما تتحدث الى ابن مليله ويعجز عن فهم بعض تعبيراتك تظهر عليه علامات الحرج ، قدمت نفسي لهم ، واوضحت طبيعة زيارتي للمدينة ، بدأ حديثهم معي بكثير من التحفظ واخذوا يحذرونني لاتجنب المتاعب ، ولكن لم تمض فترة وجيزة الا واطمأنت قلوبهم ، واخذوا يشرحون اوضاع المدينة ، قال احدهم : « تصل المياه الى مليله من الاراضي المغربية ، كما تمد محطات كهرباء مليله الخمس المدن المغربية المجاورة بالكهرباء ، وذكر آخر : اهم القبائل التي تقطن مليله وما حولها وهي قبائل قلعية .

وذكر ثالث : عسف النظم الاسبانية التي تحرم على المغاربة تنظيم أنفسهم في نواد او نقابات او احزاب سياسية والتنظيم الوحيد القائم يتمثل في المسجد ، وعدد المحاولات التي قام بها ابناءمليله لتخليص البلدة من الاستعمار الاستيطاني والعودة الى الوطن الام ، قال .. « ان اخر المحاولات وقع في عام ١٩٧٥ ، عندما انفجرت قنبلة في احد شوارع مليله تعبيرا عن احتجاج الاهالي ، فقتلت شخصا وجرحت اثنين ، وعلى اثر هذا الحادث طردت السلطات الاسبانية عشرات الاسر من المدينة ، واستدعى الدرك الاسباني ما يزيد عن ٤٠٠ مغربي مقيم ، وخيروا بين حمل الجنسية الاسبانية ، او مغادرة المدينة ... »

ويلاحظ زائر مليله ان جزءا من الطبقة الوسطى المغربية اصبح ضمن نسيج حياة مليله التجارية على خلاف سبتة ، وتشترك المدينتان في ان المغاربة يقومون بالاعمال اليدوية الرخيصة ، فهم الحمالون وعمال النظافة وبائعو اليانصيب وماسحو الاحذية ، وهكذا ...



لقطة من مليلة .

من كاليفورنيا .. الى الحي العربي ..

انتقل الى الحي العربي ، المسافة بين مقهى كاليفورنيا والمقهى العربي القائم في مبنى المسجد اقل من كيلومتر واحد ، تنتقل خلالها الى عالم اخر تماما ، من الغنى الى الفقر ومن العمارة الاسبانية الى العربية ، ومن الزي الاوروبي الى الزي المغربي المميز ، تصل الى قلب الحي التجاري العربي عبر شارع فرانكو ، واول ما تراه مبنى المسجد وحوله الاسواق العربية والمطاعم ومن المسجد الى اعالي المدينة التي يختفي وراءها صفوف بيوت الصفيح .

مبنى المسجد يضم مدرسة بها نحو ٦٠٠ طالب يدرسون اللغة العربية ويتلقون برامج المدارس المغربية من خلال ٢١ معلماً مغربيا ، وبناء المسجد والمدرسة والمحلات والمقهى وقف للانفاق على فقراء المسلمين .



مواقع الاحتلال في مواجهة الاهالي العزل .

اليخوت وسفن الصيد امام القلعة وفي حراسة قوات الاحتلال .





السوق العربي في مليلة ، ويمتلىء بالمنتجات المغربية .

سيخرج الاسبان وستعود هذه المناطق لاصحابها ، « ولا غالب الا الله » ، حكمة الزمن المنقوشة على كافة الاثار العربية في المغرب والاندلس .



جلست في المقهى العربي وسط الفقراء المغاربة احتسي النعناع الاخضر « الاتاي » ، وراديو المقهى يذيع الموسيقى الاسبانية ، قال احد الجالسين ـ والصلاح على وجهه ـ « ان غضب الله قد حل علينا ، فلم نعد مغاربة ولم نصبح اسبانا ، ولا تتحدث في بيوتنا اللغة العربية ورغم اني حفظت القرآن الكريم ، ان حالنا يؤكد ان الله ما زال غاضبا علينا .. » والى جانب المسجد مركز توزيع المياه ، رسمت الى جانبه نجمة داود ، بعد أن انتقل الى مليله عدد من يهود الجزائر والمغرب ...

بين اسوار القلعة ..

كانت القلعة آخر ما زرته في مليله ، والتي تحول بعض مبانيها الى مخازن ، واقيم داخل مبناها العتيق ملهى ليلي ، وتركها الجنود الاسبان بعد ان فقدت قيمتها العسكرية ، ووزع الـ ٣٠ الف جندي اسباني فوق التلال المحيطة بالمدينة ...

واتذكر خلال جولتي وصف ابن حوقل لمدينة مليله في القرن العاشر الميلادي « انها مدينة ذات سور منيع وحال وسيع ، وكان ماؤها يحيط باكثر سورها من بئر فيها عين عظيمة ... » عندما كانت مليله جزءا من مملكة تلمسان الضعيفة ، وقرر الاسبان غزوها ، ربما للثأر منها بعد ان هبط فيها ابو عبد الله آخر ملوك غرناطة ، وقد تكفل بالحملة احد الاسبان ويدعى دوق مردنيا سيدونيا ، وكان مألوفا في تلك العصور ان يقوم بعض النبلاء بالفتوحات لحسابهم الخاص .

وقد وصفها الحسن الوزان في القرن السادس عشر بأنها كانت مدينة مزدهرة ، فكانت عاصمة اقليمها ، وتملك اراضي شاسعة تستخرج منها كميات وافرة من الحديد والعسل ...

وينقل الوزان صورة مأساوية لاحتلالها .. « بعث ملك اسبانيا اسطولا لحصارها ، لكن السكان اخبروا به قبل وصوله ، فاستصرخوا ملك فاس ، الا انه كان مشغولا بحرب ضد قبائل تاسنة ، فلم يبعث لهم الا بفرقة خفيفة ، مما جعل اهل مليله الذين كانوا على علم بضخامة الاسطول الاسباني ، يتوقعون العجز عن الصمود ، فاخلوا المدينة وفروا بامتعتهم الى جبال بطبوه ، وامام هذا الامر ، أضرم قبطان ملك فاس النيران في جميع الدور واحرق المدينة اما عقابا للسكان ، واما نكاية بالغزاة ، وقع هذا في عام ٨٧٦ هـ ، ١٤٩٦ م ، ووصل الاسطول بعد الحريق ، ووجم الغزاة ، ولكنهم عزموا على عدم التخلي عن المدينة ، واقاموا منها حصنا وبنوا الاسوار من حوله ... »

ويمكن ان تكون هذه القلعة هي التي اقيمت على انقاض القلعة العربية واستمر الاسبان لا يتجاوزون الحصن حتى عام ١٨٩٧ م ، وهو التاريخ الذي استولوا فيه على الاراضي التي حول الحصن . ويلاحظ ان الاسبان والبرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر قد تمكنوا من احتلال الشاطىء المغربي ، ولكنهم لم يتمكنوا من الداخل ، واصبح للاسبان عدة جيوب تتناثر على طول الساحل العربي الممتد من المحيط الاطلسي ، حتى طرابلس ، وتمكن العرب من استرداد جميع تلك الجيوب على مدى قرون ثلاثة ، وكان ميناء وهران في غرب الجزائر آخر جيب اسباني يسترده المسلمون عام ١٧٩٢ م ، ويبقى عقد الجيوب من سبتة حتى الحدود الجزائرية ينتظر من يحرره ..

الجزر الجعفرية ...

ونأتي على ختام جولتنا والتي لم اصل خلالها الى الجزر الجعفرية ، آخر هذه الجيوب ، والتي تقع عند مصب نهر الملوية قرب الحدود الجزائرية ، والتي تسمى بالاسبانية جزر « شفارين » اي اللصوص او القراصنة ، فقد كان الاسبان ينفون اليها اللصوص والقراصنة ، وقد احتلت عام ١٨٤٨ ، وهي تمتد في رقعة ضيقة ساحلية ، تبعد عن الجزائر تسعة اميال .

واخيرا ..

سألني مرافقي ، هل تتوقع تحرير هذه الجيوب ..؟ واجبته على الفور ، نعم ولكن السؤال هو متى ..؟

فهل تستمر هذه الجيوب « واحة للهدوء » كما يطلق عليها الاسبان ..؟

لقد كانت على الدوام النقطة الصعبة في المفاوضات المغربية الاسبانية ، وكانت تنتهي دائما الى التأجيل ، ولكن الى متى ..؟!

ان امام المغرب مسيرة جديدة خضراء ، وامامه جهود دبلوماسية مكثفة ، ويمكن ان تعرض القضية على المحافل الدولية ، وعلى اسبانيا ان تدرك انه لا يمكن ان تستمر علاقاتها مع العرب اذا استمر احتلالها لهذه الجيوب .... ■■

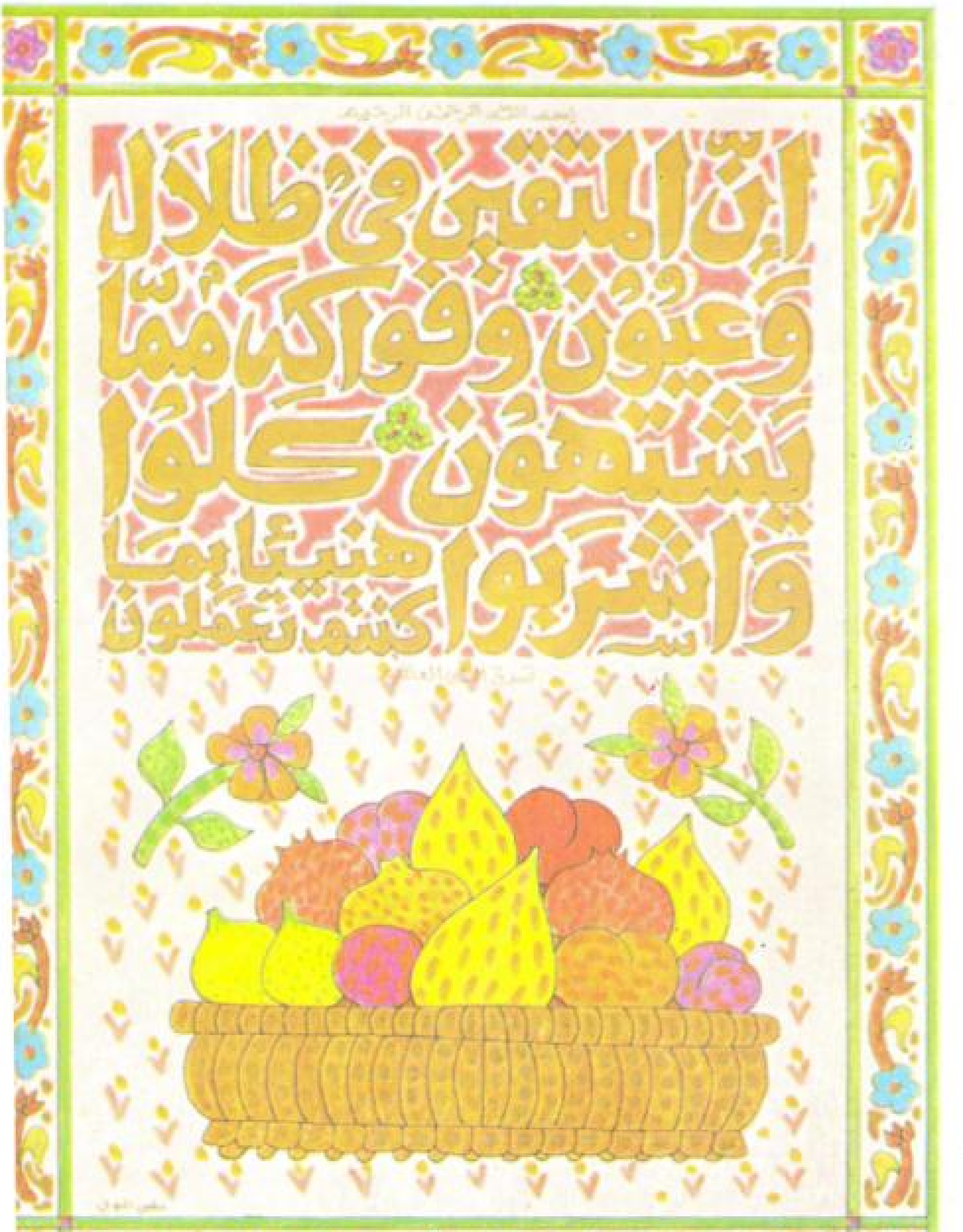
مصطفى نبيل



الفنان التشكيلى العربى
هل ينجح فى الخروج من أزمته ؟

بقلم راجى عنايت

الفنان والعمل الفني ، والجمهور ألذى يتذوق ذلك العمل وينفعل به ... هذه هي الاقطاب الثلاثة لحلقة الابداع الفني ، لو غاب قطب منها ، انقطع التيار عن دائرة الخلق الفني .



إِنَّ المتقين في ظلال
وعيون وفواكه مما
يشتهون كلوا
واشربوا هنيئا بما
كنتم تعملون


كل عام
وأنتم بخير

لا تصدق الفنان الذي يقول لك ان متعته تكتمل لحظة ان يفرغ من انتاج عمله الفني .. لا تصدق الفنان الذي يزعم انه يستغني عن الجمهور بمتعة الخلق ذاته . فالعمل الفني رسالة يبدعها بادواته الفنان .. ولابد للرسالة من قارىء ، يستوعب مضمونها ويستفيد من فحواها . وهذا القول ينسحب على كل فنان واديب .. ايا كانت اداته في التعبير عن نفسه .

هنا تكمن مشكلة الفنان التشكيلي العربي المعاصر .

عالمنا زاخر بالعديد من كبار الفنانين التشكيليين .. مصورين ونحاتين ورسامين وحفارين . والامتياز الحقيقي للفنان الاوربي هو قدرته على الوصول الى جمهوره ... وازمة الفنان التشكيلي العربي انه لا يجد الحد الادنى من الجمهور الذي يستقبل انتاجه ويستهلكه .

وضعف هذا القطب ، من اقطاب العملية الفنية عندنا ، هو الذي يعوق تدفق التيار الفني بالقوة الدافعة اللازمة المؤدية الى تطور وازدهار الحركة الفنية التشكيلية .

واهمية الجمهور لدى الفنان التشكيلي العربي تتجسد في هدفين ، اولهما معنوي ، وثانيهما مادى .

الفنان التشكيلي يرسم لوحة على سبيل المثال . هذه اللوحة من المفترض ان يراها الجمهور فينفعل بها ، ويتخذ منها موقفا ، وهذا الموقف يؤثر بدوره علي الفنان ، ويساعده على تعديل مساره الفني ، في الاتجاه الذى يحقق له التجاوب مع اوسع جماهير ممكنة .. وهكذا .

اى ان الجمهور ، بهذا المعنى ، عنصر هام من عناصر عملية الخلق الفنى ، وليس ـ كما يتصور البعض ـ عنصرا سلبيا ، يقتصر دوره على تلقى ما يقدمه اليه الفنان ، بل هو عنصر ايجابي مؤثر وضرورى لتطور عملية الابداع الفنى . وهذا هو الجانب المعنوي فى اهمية وضرورة الجمهور بالنسبة للفنان .

اما ما اقصده بالهدف المادى ، فيتلخص فى حاجة الفنان الى مستهلك .. مستهلك يدفع مالا فى مقابل اقتنائه ما ينتجه الفنان ، مما يوفر للفنان حياة معقولة ، تسمح له بمواصلة الانتاج فى ظروف ميسرة .

وهنا ايضا يختلف وضع الفنان والاديب العربى ، عن الفنان والاديب العالمى ، ذلك ان انتاج لوحة او رواية ، يضمن للفنان الاجنبى فى كثير من الاحيان ، حياة مستقرة لبعض الوقت ، يعتمد فيها على العائد المادى للوحة او الرواية ، من الانتاج ، او حتى للتزود بالمعرفة والخبرة التي ترفع مستوى انتاجه .

اعود فاقول ان لدينا فى العالم العربى خامة طيبة للعديد من الفنانين التشكيليين الكبار ، لكن هذه الخامة الطيبة لايتاح لها ان تتشكل بحيث تعطي كامل طاقتها الكامنة ، نتيجة لافتقار دور الجمهور المتأثر المستهلك .. أي دوره المعنوى المادى .

والنتيجة .. انكماش دور الفنان التشكيلي فى المجتمع العربى ، حتى اذا قيس بغيره من الفنانين والادباء العرب . وهذا الانكماش يؤدى الى مزيد من تقلص دور جمهور الفن التشكيلي .. وهكذا ، فى حلقة مفرغة ، او صلتنا الى الوضع الحالى الذى نشكو منه ..

الى الجماهير فى تجمعها

اين المخرج من هذه الحلقة المفرغة اذا ؟ لاشك ان هذا التساؤل قد راود كل فنان تشكيلي احس بهذه الازمة . وواقع الامر ان العديد من الفنانين التشكيليين ، قادهم هذا الاحساس الى مزيد من التقوقع ، والانغلاق على الذات ، فانعكس ذلك على انتاجهم ، سلبا فى معظم الاحيان .

لكن الصورة الحالية ، ليست على هذا القدر من القتامة ، فقد استطاع عدد كبير من الفنانين التشكيليين ان يجدوا مخرجا من تلك الحلقة المفرغة .. لقد وجدوا حلا ذهبيا لمشكلتهم ، وكان الحل هو ان يتجاوز نشاطهم حدود اللوحة والتمثال .. ان يصلوا الى الجمهور فى موقعه وحيث هو ان ينقلوا رسالتهم الجمالية الى الجماهير الواسعة من خلال كل ما يحتك به الانسان فى حياته اليومية ، ولا يستغنى عنه .

وهكذا رأينا على مدى السنوات الماضية ، العديد من الفنانين التشكيليين الذين يتخصصون فى التأثيث الداخلى للمنازل ، فى تصميم الجريدة او المجلة او الكتاب وتجميلها ، فى تصميم الديكورات المسرحية او السينمائية والتلفزيونية ، فى تصميم النسيج والسجاد والاوانى الخزفية . بهذا استطاع الفنان التشكيلي ان يصل الى اوسع جمهور ، واستطاع فى نفس الوقت ان يجعل من الجمهور مستهلكا لانتاجه يدفع فيه مالا ، ويشعر بالحاجة اليه .

والذى لاشك فيه ، ان هذا الجهد من جانب هؤلاء الفنانين التشكيليين ، قد ساعد على ترقية الذوق الفنى



لدى الجماهير الواسعة ، وحدد لها حدا ادنى من المستوى الجمالي لاتقبل ما هو دونه . بل ان هذا الجهد قد ساعد الجمهور ، بالتحديد جانب من الجمهور ، على تقبل اللوحة والتمثال بشكل افضل . اى ان هذا التوجه ، ساعد الى حد بعيد ، فى حل المشكلة الانسانية فى حركتنا الفنية التشكيلية العربية المعاصرة .

استحضرت كل ما يتصل بهذه القضية ، عندما شاهدت مجموعة البطاقات البريدية التى قام بتصميمها الفنان حلمى التونى ، لتكون بديلا عربيا لتلك البطاقات الاجنبية التى اعتدنا تبادلها فى مناسبات التهنئة بالاعياد ، رأس السنة او عيد الميلاد او غير ذلك من المناسبات .

والفنان حلمى التونى هو من بين هؤلاء الفنانين الذين اختاروا منذ البداية ان يتغلبوا على الازمة التقليدية للفنان التشكيلى ، بالا يقتصر انتاجهم الفنى على اللوحة ، التى لاتجد لها متنفسا اوسع من العرض المؤقت فى معرض من المعارض . فمنذ البداية ، عمل الفنان حلمى التونى فى اكثر من مجال جماهيرى ، واستطاع ان ينقل افكاره الفنية الى جمهور واسع ، تارة من خلال الرسم والاخراج الصحفى ، وتارة اخرى من خلال تصميم العرائس والديكورات لمسرح العرائس ، واخيرا من خلال تصميم الكتاب العربى والملصق ، وفى نفس الوقت حرص الفنان على ان يساهم بانتاجه من اللوحات فى المعارض سواء فى المعارض الجماعية او فى المعارض الخاصة التى تقتصر على لوحاته .

فى مناسبة بداية القرن الخامس عشر الهجرى ، قام الفنان حلمى التونى بتصميم تسع بطاقات بريدية تحمل لفظ الجلالة ، يعتمد فيها على نماذج من الخط العربى فى مختلف الاقطار العربية ومختلف العصور . بالاضافة الى اربع بطاقات ملونة ، اعتمد فى رسومها على التراث الاسلامى والشعبى .

● الفنان التشكيلي العربي

يقول الفنان حلمي التوني ، عن دافع توجهه الى تصميم البطاقات البريدية :

« البطاقة البريدية ، يمكن ان تكون اكثر الأشكال الفنية شيوعا وانتشارا ، وبالتالي نشرا للذوق الفني ، لرخص ثمنها ، وتلبيتها لحاجة اجتماعية متكررة . فاذا القينا نظرة على المطروح منها في الأسواق ، وهي في الأغلب اجنبية ، لرأينا انها تحمل اشكالا متواضعة من الذوق الفني ، وان كانت فاخرة الطباعة ، براقة الالوان ، وهي في اغلبها تلتزم اشكالا ، ومضامين غريبة على المواطن العربي » .

وعن اختيار الخط العربي ممثلا في لفظ الجلالة موضوعا لتسع بطاقات يقول :

« الخط العربي يمثل وجها من اوجه الفن التشكيلي العربي والاسلامي ، وهو من اكثر الوجوه جمالا وخصوصية ... وقد حاولت في هذه البطاقات ان اعرف المواطن العربي بالأنماط والاساليب المختلفة للخط العربي ، ولهذا اخترت كلمة (الله) المكتوبة بمختلف الاساليب ، لاظهار وتأكيد التباين والتبدع والغني ، في فن الخط العربي ، وهي محاولة ، ضمن محاولات اخرى اسعى بها الى ان اتيح للعين العربية ان تألف الفن العربي الذى طالت غربتها عنه ... محاولة لمقاومة الاغتراب المستمر والمتزايد للمواطن العربي عن حضارته ، وضعف الصلة مع الحضارة العربية » .

بين العضوى والهندسي

والبطاقات البريدية الخاصة بالخط العربي ، تجمعها وحدة في التناول والمعالجة ، فقد اختار لها الفنان حلمي التونى خلفية موحدة فضية اللون ، وكتب عليها لفظ الجلالة باللون الذهبي ، لابراز التباين بين النماذج المختلفة للخط العربي ، والتى تضمنت : الخط الكوفي النيسابورى ، والكوفي المغربي والكوفي السورى القديم ، والكوفي الهندى من ايران ، واسلوب الطرة او الطغراء التركي ، والكوفي المعمارى من القاهرة .

والنقوش المستخدمة في هذه البطاقات تعتمد على الزخارف النباتية العضوية ، ذات المنحنيات الثرية ، والتي اعطى الجمع بينها وبين البناء الهندسي للخط ، معادلة جمالية فنية ، اكتشفها الخطاط العربي القديم ، واستخدمها في براعة وذوق متميز. ■■

القاهرة ـ راجي عنايت

الباحثون عن الثروة في قمامة باريس

بقلم : محمد صالح القمودي

في باريس ..

ثمة فئة من الناس تستيقظ قبل الفجر ، وتدب في الشوارع الخالية .. لتمارس نشاطا غريبا قد يحمل الثروة أو الموت .



الخامسة صباحا .

عاصمة النور اطفأت انوارها لتغفو ساعات قليلة . لقد ودعت المتباطئين من سمار الليالي ، وتدثرت برداء خفيف من الضباب لتستقبل عمال التنظيف الزاحفين على شوارعها مع خيوط الصبح . رجل غامض يشق رداء الضباب ، يتوقف عند ابواب العمارات ، يفتح اكياس القمامة ، يتفقد محتوياتها ، قد ياخذ منها شيئا يودعه في حقيبته ، ثم يستأنف السير حتى يصل الى اكياس اخرى .

من يكون هذا الرجل ياترى ؟ ! أهو جائع يبحث عن بقية من طعام ؟ ! أهو شريد يسعى الى رزقه ؟ ! أم تراه عابث يتلهى ؟ !

● الرجل الغامض اسمه (بيير فونتيناس) ، صاحب مكتبة ومطبعة ، يمارس عند الفجر هوايته المفضلة منذ ثلاثين سنة : البحث عن الكتب النادرة التي يلقى بها اصحابها في صناديق واكياس القمامة دون ان ينتبهوا الى قيمتها الحقيقية . يقول في ذلك :

افضل الاحياء التي امارس فيها هوايتي : الثامن ، والتاسع ، والسادس عشر . وجدت فيها عشرات الكتب القديمة منها مجموعة كاملة لمؤلفات (جول فيرن) طبعت سنة ١٨٨٠ وهي من الندرة بحيث تساوى النسخة الواحدة ما قيمته ٢٠٠٠ دولار . انا لا ابحث عن المال بقدر ما ابحث عن المغامرة والمجهول ، ولذلك تنتابنى لهفة الاكتشاف كلما انحنيت لاقلب محتويات صندوق من القمامة .

● في الوقت ذاته ، في حي الاوبرا التجاري ، يغادر مهندس في المركز الوطني للبحث العلمي سيارته الانيقة ليطوف بصناديق واكياس القمامة . ما الذي يبحث عنه ياترى ؟ يقول :

هوايتي .. جمع الطوابع .

جمعت حتى الآن عشرة آلاف طابع ، اغلبها عثرت عليها في القمامة . طريقتي في البحث التركيز على قمامة المحلات الاجنبية ومكاتب السياحة . انها منجم حقيقي للطوابع النادرة والقيمة .

٥٠٠٠ شريد

ترى كم يبلغ عدد الباحثين في القمامة قبل طلوع الصبح ؟

لا احد يدرى على وجه الدقة .

التقديرات تشير الى انهم عدة الآف يمارسون نشاطهم الغريب في المدن الفرنسية الكبرى بين الخامسة والثامنة صباحا ، وقلما تجد منهم من يقبل التحدث عن نشاطه لما يكتنف هذا النشاط من ريبة وغموض خشية من الوقوع تحت طائلة القانون .

فيليب آلار يعمل قفالا في الحى الخامس عشر في باريس ولايخشى التحدث عن هوايته :

يوجد في القمامة التافه والثمين : الكتب ، واللوحات وحتى الثلاجات واجهزة التليفزيون . انا مثلا اثثت بيتي بالكامل مما عثرت عليه في القمامة ، وهذا دليل آخر على اننا نعيش في مجتمع طابعه الاسراف . انا أعتبر نفسي من الهواة وامثالي قلة بالمقارنة مع المحترفين الذين تحكمهم اصول غاية في الصرامة والقسوة احيانا ، ان عالمهم غريب وغامض لايقل غرابة وغموضا عن عالم العصابات والاجرام .

صناديق القمامة في باريس ليست متروكة للهواة فقط يلتقطون منها مايشبع هواياتهم . انها قبل كل شيء مصدر رزق للمتشردين ، والعاطلين ، ولماسحى الحرق وبائعى الجرائد ، وكل هؤلاء يعملون وفق اصول متفق عليها بينهم .. من يخالفها قد يتعرض الى القتل وغالبا ما يضيع دمه هدرا ، اذ تقيد الجريمة ضد مجهول لما يحيط بها من صمت مطبق .

وعالم القمامة متدرج الرتب ، اسفلها رتبة المتشردين (الكلوشار) وعددهم يبلغ الخمسة آلاف في باريس ، غير ان اقدمهم في المهنة يحتكرون افضل الاحياء ويمنعون دخول المحدثين اليها . واذا ما تجرأ احدهم واعتدى على هذا العرف ، فانه يعرض نفسه لعقوبة تتراوح بين الضرب المبرح والاغتيال . قرار الاغتيال يتخذ سريا خلال ما يعرف بمحكمة المتشردين التي تنعقد احيانا في مخزن للقمامة في شارع (لاجرانج اوبيل) في باريس . تقول ادارة الاشخاص بلا مأوى التابعة للشرطة :

اذا ما ارتكبت جريمة من هذا النوع ، فالبحث عن مرتكبها لاجدوى من ورائه اذ ان قانون الصمت يعرقل التحقيق . يبدأ المتشردون عملهم في الخامسة صباحا دافعين امامهم عربات يدوية يكدسون فوقها ماخف وزنه وغلا ثمنه من الاواني والملابس والاحذية ، وخاصة كتب القصص المرسومة التي تباع في سوق خاص بها ينعقد صباح الخميس تحت اسوار مقبرة (بيساتر)

وصباح السبت فوق جسر (مونترون) .

لمتشرد الباريسي لايبحث عن الثروة . كل مايبحث عنه لقمة تسد الرمق ، ونبيذ يمنح نشوة تخفي الواقع المريرولو الى حين . ما الذي يحدث عندما يعثر متشرد على شيء ذي قيمة في القمامة ؟ انه يتخلص منه في اقرب فرصة . هذا ما حدث لمتشرد ملقب بنابليون عثر على ساعة حائطية مصنوعة في عهد الملك لويس السابع عشر . لقد باعها بما قيمته ٥٠ دولارا لاحد البقالين . البقال نظف الساعة فاكتشف بها علامة رآها في التليفزيون وقد ختمت بها قطع اثاث قصر (فيرساي) . اسرع البقال الى اقرب محل للقطع الاثرية وباع الساعة بمبلغ قيمته ٥٠٠ دولار ، وكم كانت دهشته كبيرة عندما قرأ في الصحف بعد ذلك بثلاثة أشهر .. ان ساعته قد بيعت في المزاد العلني بمبلغ يساوي تسعة آلاف دولار .

ثروة من السماء

الحكاية تبدو غريبة ، لكن المستفيدين من القمامة يروون حكايات اغرب منها . حكاية تاجر الأثريات الذي هبطت عليه ثروة من السماء . كان يمر بالصدفة امام صناديق القمامة عندما لفتت انتباهه لوحة ، تحصها فاذا بها من رسم الفنان الكبير (فان جوخ) ، وقعها باسم مستعار ولا يعرف قيمتها غير المختصين .

حكاية (كريستوف توماتيس) الذي يعمل مساعدا بيطريا تبدو غريبة ايضا يرويها قائلا :

خلال شهر فبراير الماضي ، .. عثرت على اناءين أثريين بعتهما بما قيمته ألف دولار ، ومنذ ايام عثرت على اناء اثري نادر تزيد قيمته على العشرة آلاف دولار .

اغرب حكاية .. هي حكاية بائع جرائد من مدينة (انجيه) جمع من القمامة عشرين خزنة قديمة من تلك التي تحفظ فيها الاوراق المالية ، وذهل عندما عثر في احدها على سندات تساوي قيمتها مليون دولار اضطر الى اعادتها الى خزينة الدولة .

الرتبة الوسطى من عالم القمامة يحتلها اللمامون ، وهم العاملون بانتظام في جمع الفضلات المفيدة والمنتمون العشرين جماعة التي تتقاسم باريس وتدافع عن مناطق نفوذها بالهراوات ومناطق النفوذ هذه ، تباع أحيانا بمبالغ قد تصل الى ما قيمته عشرة آلاف دولار .

بعض المناطق ، تدر على اصحابها مبالغ كبيرة ، فمنطقة (رانجيس) حيث تباع الخضراوات بالجملة ، تترك يوميا في قمامتها صناديق فارغة قيمتها تبلغ الالف دولار .

شيخ القمامين اسمه (نيستور) ، بلغ من العمر ٧٢ سنة جمع خلالها ثروة طائلة مكنته من شراء عشرين شقة ، يعيش الآن من ريعها .

الرتبة العليا من عالم القمامة يحتلها اثرياء المهنة ، واكثرهم ثراء (جان بول نومين) الذي يملك ١٢ شاحنة ويستخدم ثمانية موظفين ، ويراقب اعماله متنقلا في سيارة مرسيدس . يقول عن مهنته :

جمع الفضلات المفيدة ، هواية قبل ان تكون مهنة .

لقد جعلت من الهواية مهنة بالاصرار والتصميم . عندما جئت الى باريس قبل عشر سنوات ، لم اكن قد تجاوزت العشرين وذلك ما جعلني اتحمل ضرب الاكبر مني سنا والاكثر خبرة في المهنة ، مع مرور الايام .. فرضت نفسي واستقدمت أخوتي من الريف للعمل معي . جماعتنا اليوم تسيطر على افضل منطقة في باريس

قالوا في الحب والزواج

× لو كان الرجال لا يتزوجون إلا ممن يحبون .. لبات أكثرهم عزابا .

(ستيفنسون)

× يجب ان يظل قلب الرجل خافقا بالحب .. ولهذا يجب عليه الا يتزوج ابدا ...

(اوسكار وايلد)

وتراقب اكثر من عشرين شارعا .. ومع ذلك ، فان الحنين الى الماضي يجعلني أحيانا أستيقظ في الرابعة صباحا لابحث عن المفيد في صناديق القمامة .

الكاتب والقمامة

صناديق القمامة في باريس شهدت لماما من نوع غريب : انه الكاتب (جان مونتالدو) الذي يقول عن ذلك :

في الفترة مابين اكتوبر ١٩٧٨ ويناير ١٩٧٩ ، تنكرت في هيئة متشرد وجمعت قمامة المصرف التجاري لاوربا الشمالية فكانت حصيلتي ٥٠٠ كيس من الوثائق استعنت بها لتحرير كتاب عنوانه (اسرار المصرف السوفيتي في فرنسا) !

ان صناديق القمامة زاخرة بالمعلومات الخطيرة والحقيرة . لقد عثرت على وثائق في غاية السرية داخل صندوق للقمامة امام (الشركة الوطنية للملاحة الجوية) .. وثائق تتعلق بالمحطات الذرية الفرنسية . انا على ثقة من ان الجواسيس الاجانب يتنكرون للبحث في القمامة عن الوثائق السرية . لقد لاحظت شخصيا ان اغلب الوزارات الفرنسية لاتفتت اوراقها قبل ان تقذف بها في صناديق القمامة .. وهذا ما يجعلها عرضة للالتقاط .

فئة اخرى تهتم بالقمامة في فرنسا : المخابرات العامة ومكافحة الجاسوسيه احد افراد هذه الفئة يقول :

القمامة قد تحمل احيانا اوراقا تضيف معلومات قيمة عن شخصية مشبوهة ، ولذلك فاننا نطلب من البوابين غربلتها في سرية . صحيح ان الجاسوس المحترف لايقذف باوراقه الهامة في القمامة ، غير ان لحظة واحدة من عدم الانتباه .. قد تكفي احيانا لاضاعته .

●

ما ان يطرد الضياء فلول الليل ، حتى يختفي الحائمون حول القمامة من الشوارع ليستلمها عمال التنظيف وعددهم في باريس وضواحيها ٥٤٠٠ عامل .. ومنهم من يضاعف دخله من القمامة . النظافون في باريس يعملون من خلال فرق ، كل فرقة مكونة من اربعة اشخاص : ثلاثة عمال وسائق شاحنة . الاشياء التي لها قيمة تسلم الى السائق وهو الوحيد المخول حق بيعها وتوزيع « الدخل » على الزملاء ..

الاحصائيات تقول ان كل فرنسي يرمي في السنة الواحدة ٢٥٠ كيلو جراما من القمامة ، وان باريس تحرق قمامتها التي تزيد على المليون طن سنويا لتستخرج منها طاقة توفر لها استهلاك ٢٠٠ الف طن من النفط ، وان فرنسا تخطط للاستفادة القصوى من قمامتها التي تبلغ سنويا ١٣ مليون طن .

.....وبعد ،

ثمة فئة من الحائمين حول صناديق القمامة لاتتحدث عنها الصحف والمجلات الفرنسية عندما تتناول هذا الموضوع .. انها فئة الفقراء المعوزين الذين يتهالون على صناديق القمامة في الاسواق خلال استراحة الظهيرة بحثا عن لقمة تسد الرمق .. وانه لمنظر مؤثر للغاية ان ترى في شوارع باريس شيخا ينحني على صندوق للقمامة ليلتقط منه تفاحة مسودة ياكلها بينما رواد المطعم المجاور ، ينظرون اليه عبر الزجاج ويواصلون تناول طعامهم الدسم في هدوء وبلا مبالاة ! ■■

باريس ـ محمد صالح القمودي

× لا يقدم على الزواج الا اولئك القانعون : القانعون بشهر عسل واحد ، وبسنين « خل » طويلة . !

(الكونتس بلستجتون)

لا احب ان ابدى رأيي او اسدى نصيحتي في امرين : في الدين وفي الزواج .. لانى لا احب ان اتحمل مسئولية تعذيب الناس لا في الدنيا ولا في الآخرة .

(لورد تسيسترفيلد)



بقلم : منير نصيف

الذين قهروا ظلام الحياة

هل ترثى لحالك وتشفق على نفسك ، انه شعور ينتاب الكثيرين في وقت أو في آخر مع مسيرة الحياة بسبب أو بلا سبب على الاطلاق ! انه أسوأ ما يمكن أن يحدث للانسان ، لأنه يعني الانانية في اقبح صورها ، لأن الذي يجتر احزانه وآلامه ويمضي يومه مع هذا الشعور بالأسى الذي احتواه ، لما أصابه ، لا يمكن بحال ان يشفق على الآخرين او يرثى لحالهم .

لقد كان كاتب روسيا الكبير ليو تولستوى يعيش مع احزانه وآلامه وكانت كثيرة ، وكانت تملأ حياته الخاصة والعامة ولكنه لم يتركها تعش معه .. كان يعمد الى التخلص منها كلما احس بها تتراكم وتملأ صدره المتعب المثقل بالهموم .. ماذا كان تولستوى يفعل ؟ كان يذهب الى الريف الذي احبه ، ويجلس على حافة القناة الصغيرة يرقب المياه وهي تجرى فيها بهدوء ، وعلى مقربة منه كومة كبيرة من اوراق الشجر اليابسة التى جمعها قبل ان يستعد لجلسته وحده في الفجر وقبل طلوع الشمس ، وكان يتمثل في هذه الاوراق الجافة كل متاعبه ، فكان يمد يده اليها ويلقى بها في مياه القناة ، فتحملها معها ، ويظل يرقبها حتى تختفى عن بصره تماما .. فاذا فرغ من مهمته ، حل بعضه وعاد الى مكتبه الصغير في بيته الريفى وأمسك بالقلم وراح ينفس به عما في صدره من بقية باقية من آلامه التى امتلأت بها كتبه ومؤلفاته !

قلق وخوف

من هذه القصة نستطيع ان نتعلم درسا عظيما فيما يجب ان نفعله بانفسنا في عالم اليوم فنحن في بحث دائب عن سبب او اسباب تدفعنا الى الاشفاق على انفسنا من خلال النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، بكل ما فيها من مزايا ، لا يمكن بحال ان نضعها موضع المقارنة مع ما كانت عليه صورة الحياة منذ قرن او قرنين من الزمان .. ومع ذلك فاننا نجد انفسنا نعيش في قلق وخوف ، لاى سبب مهما كان ، او بلا سبب .. لافرق بين رد الفعل الذى يحدثه في نفوسنا الخوف من القنابل الذرية وما يمكن ان يحدث للعالم نتيجة استخدام هذا السلاح المدمر ، وبين القلق الذى يستبد بنا اذا تأخر موعد قيام الطائرة التى ستقلنا او القطار الذى ننتظر وصوله ! فنحن نشكو المخاطر والمتاعب والتعقيدات والتوترات التى حملتها لنا الحياة العصرية ، وقد عبر الفيلسوف سنيكا ، استاذ نيرون الذى لقى حتفه على يد تلميذه لان كلامه لم يعجبه .. عبر عن هذا الشعور الذى يعترى الانسان بقوله : « سوف يكتشف المرء أن ليس هناك مزية للحياة ، وسيجد نفسه ميالا الى الفساد والافساد ، ومع هذا الميل ينمو في نفسه الشعور باللامبالاة نحو مواطنيه ! » . ونترك حديث الفلاسفة الذى تردد حتى قبل ان يكتشف الانسان ذاته وقدراته



منذ مئات القرون ، ونتنقل الى الحديث عن حاضرنا ومواقفنا من انفسنا ومن الاخرين في العصر الذي نعيشه !

قهر .. بلا ظلام

يروى الكاتب والمؤلف الامريكي هنري جيمس ، قصته مع الصحفية الشابه التي كانت ترأس تحرير احدى المجلات الناجحة في امريكا منذ اكثر من سبعين عاما .. وكان جيمس قد تقدم به العمر وقد امتلأت المكتبات بمؤلفاته وقصصه التي بلغ عددها المائه او اكثر ، وكانت تحرص على لقائه بين الحين والحين لتشكو له متاعبها مع الحياة وتسأله في مشاكلها ، ونترك جيمس يحدثنا عنها : « كانت شابة وجميلة ، تنعم بمنصب مرموق واجر كبير وبيت انيق ، وسيارة يقودها لها سائق خاص ، وكانت تتمتع بعد هذا بصحة جيدة ، وليس عندها اية مشاكل عائلية يمكن ان تنغص عليها حياتها .ومع هذا ، فما من مرة جلست فيها استمع الى حديثها ، الا واحسست انني امام اتعس امرأة في الدنيا .. على مائدة الغداء ، وابتداء من طبق الحساء حتى نهاية آخر قطعة من الحلوى مع اقداح القهوة والشاى ، وهي تصب في اذني الوانا من الاسباب التي تدفعها الى الشعور بالأسى والحزن معا لهذا « الحادث » الذى ادى الى وجودها على هذه الارض ! « متاعب الوظيفة يا سيدى .. الضوضاء التى تعيش معي في بيتي والتي يحدثها الجيران فوق رأسي » .. الحياة كلها بما حملته وتحمله لها لم تعد تجد فيها شيئا يستحق الحياة ! . وكنت اشعر وهي تتحدث بان شيئا ثقيلا يهوى على رأسي ويطرقها بشدة حتى اذا ما توقفت عن سرد ما تبقى عندها من الام ، لان وقتى او وقتها لم يعد يتسع للمزيد ، احسست برغبة شديدة تحتويني بالهرب منها ومن الحياة التي رسمتها لى في هذه الصورة القاتمة .. اما هى فقد كانت تودعنى وفي عينيها بؤس وتعاسة وشقاء العالم كله ! »

ثم يقول جيمس : « هل كانت حقا تعسة ؟ ابدا .. لم اجد من خلال حديثها على مدى الساعة التي قضيناها معا على مائدة الغداء او ربما اكثر من الساعة ، سببا واحدا لهذا الشقاء الذى تصورت هي انها تعيش فيه .. الذى حدث لهذه المرأة والذى يحدث لغيرها ، هو احتضانها لهذه المتاعب الصغيرة ، سواء كانت متاعب حقيقية او اخرى صورها لها خيالها ، ثم تغذيتها وتضخيمها والبحث عن ابعاد جديدة لها ، حتى باتت سجينة لها ، غير قادرة على ان تخلص نفسها منها .. فالشك والخوف والقلق هم الاعداء التقليديون الذين يقفون في وجه تقدم الانسان .. وهم يولدون عادة في ظلام الشعور بالشفقة على الذات .. اننا نستطيع ان ننهض وان نقهر هذا الشعور اذا ابتعدنا بتفكيرنا عن

انفسنا ، واتجهنا به الى الهدف الذي نعيش من اجله ونسعى الى تحقيقه ! »

وقصة اخرى !

ثم يروي جيمس قصة اخرى .. قصة امرأة تقدم بها العمر ، فقدت كل شيء .. الزوج والابناء وذراعها الايمن التي اضطروا الى بتره بعد الحادث المؤلم الذي وضع نهاية لكل شيء كانت تعيش له ومن اجله !

لقيها في المستشفى الصغير الذي كان يزوره ويبحث بين نزلائه عن ابطال لقصصه ومؤلفاته وعرف مأساتها من الطبيب الذي كان يشرف على علاجها :

« لقد انقلبت بهم السيارة ، وكانت واحدة من عشر سيارات انتجتها مصانع السيارات في بداية التوصل الى هذا الاختراع الجديد المثير في اوائل هذا القرن الميلادي وذهبوا كلهم وعاشت هي بذراع واحدة ! »

ماذا رأى ؟

« رأيت امرأة تبكي ولكن في صمت .. في عينيها دموع ولكنها لاتستجديها .. انها تجففها بسرعة كلما احست بها تجرى على وجنتيها ، حتى لايراها الناس .. في قلبها ألم كبير ولكنها لا تريد ان تكشف عن حجمه لأحد .. كانت راقدة على فراشها .. وبالقرب من يدها الوحيدة الباقية ثلاثة اشياء .. « اليوم » الاسرة : الزوج والولدان الذين رحلوا .. وكوب من الماء .. وصورة للسيدة العذراء التي كانت تصلى لها مع طلوع كل نهار وقبل ان تغمض عينيها في الليل وتنام !

« ومددت يدى الى يدها التي تركتها تسترخي في خمول بجانبها ورحت أربت عليها ، فاسرعت ترفعها لتبحث بها عن منديلها لتجفف دمعة كادت تسقط على خدها ، وتخفيها مني حتى لا اراها ! وقلت وانا اودعها الله يتولاك يا سيدتي ! »

بيت مليء بالزهور !

« وانقضت بضعة شهور قبل ان اعود الى المستشفى مرة اخرى .. وسألت عنها ، فقالوا لى انها خرجت وعادت الى بيتها في القرية المجاورة .. نفس البيت الذي كانت تعيش فيه مع زوجها وولدها .. ترى ماذا تفعل .. وكيف تعيش ؟

« وذهبت اليها في بيتها .. ولكنني ماكدت اقترب منه حتى أدركت انني قد اخطأت العنوان .. ودرت حول نفسي لاعود من حيث جئت .. وفجأة سمعت صوتا يناديني .. واتجهت ببصري الى مصدر الصوت ، فوجدتها تقف هناك وسط الحديقة الصغيرة التي امتلأت بالاطفال الصغار .. وكانت تبتسم .. قالت وهي ترد تحيتي :

« عندى الآن في مدرستي الصغيرة خمسون طفلا .. وفي العام المقبل سيرتفع العدد الى الضعف .. انهم جميعا ابنائي .. وهم يملأون كل يومي من الصباح حتى المساء .. حتى في ايام الاجازة الاسبوعية .. انهم يأتون ليستمتعوا باللعب بلا دراسة ! وحتى في العطلة الصيفية انهم يحبونني !

« وقادتني من يدى ، لتقدمني الى المدرستين اللتين يعاونانها في مدرستها الصغيرة والى الفصل الدراسي الكبير الذي امتلأ باللعبات الصغيرة والقطائر واقداح اللبن .. وامضينا بعضا من النهار في حديث طويل عن الحياة الجديدة التي تعرفها مع زميلتيها واطفالها في البيت الذي حولته الى مدرسة !

عملاق !

« وعندما وقفت تودعني وانا في طريقي الى الخارج خطر لى ان القى نظرة اخيرة على هذا المكان الذي استطاعت هذه المرأة العظيمة ان تجعل منه مادة لواحدة من احسن القصص التي كتبتها فوجدتها هناك في وسط الحديقة التي امتلأت بالحياة والزهور .. ومن حولها اطفالها الصغار يلعبون ويمرحون .. ولكنها لم تبد امامي في هذه اللحظة ، نفس الانسانة الرقيقة الضعيفة التي لقيتها في المستشفى .. لقد رأيت فيها عملاقا قويا .. كانت تقف مرفوعة الرأس ، وقد حملت بذراعها احد اطفالها الصغار .. الذي تولى هو ان يرد تحيتي بالنيابة عنها .. وعن ذراعها الذي فقدته ! »

سلوك الحياة

« الدنيا مليئة بنماذج من البشر الذين لم يتوقفوا ولم ينظروا وراءهم .. لم يلعنوا ظروف الحياة ، ولم يرثوا لحالهم بسبب قسوتها عليهم .. لقد مضوا في طريقهم حاملين معهم تجاربهم بكل ما حملته معها من مرارة ، وخلطوا بها التجارب الجديدة التي اسهمت في خدمة البشرية وتقدمها .. وعندما اكتشفوا انفسهم من جديد

واكتشفوا فيها تلك القوى الخفية والامكانيات الهائلة التي تكمن داخلها »

هذا بعض ما يقوله ايمرسون في تحذيره من الشعور الذي ينتابنا « بالاشفاق على النفس » في كتابه « سلوك الحياة » .. وهو من أروع الكتب التي قدمها لنا هذا الفيلسوف الأمريكي .

ومن حياة العظماء عندنا وعندهم .. حياة « ابي العلاء المعري » و« طه حسين » ومن حياة هيلين كيلر .. روبرت لويس ستيفنسون وغيرهم كثيرين ، نستطيع ان نستخلص الدرس الذي عناه ايمرسون ..

السائحون !

منذ سنوات قصيرة مضت .. وبعد ان نجح الرأي العام الامريكي في الضغط على الحكومةلوضع نهاية للمذبحة التي راح ضحيتها مئات الالوف من البشر في حرب فيتنام وقبل ان يقرر الرئيس الامريكي الاسبق نيكسون الخروج من هذه الورطة وسحب القوات الامريكية من فيتنام كان هناك فريق من الصحفيين الفرنسيين يتناولون طعام الغداء في أحد فنادق باريس عندما وصلت سيارة اوتوبيس ضخمة تقل عددا كبيرا من السائحين .. وفجأة وجد نزلاء الفندق المزدحم انفسهم ، وكأن اعصارا قويا يوشك ان يقتلعهم من اماكنهم .. فقد كان السائحون يغنون ويضحكون ويضربون الارض بأحذيتهم الثقيلة .. حتى اذا ما اقتربوا من الباب الخارجي لقاعة الطعام ، صاحوا جميعا في صوت قوي زلزل المكان : « نريد طعاما ساخنا ، نريده بسرعة » .. ومضوا يرددون هذه العبارة بالفرنسية حتى جاء مدير الفندق ، وطمأنهم الى ان الطعام سيكون ساخنا وسيقدم لهم بسرعة !

ويبدو ان هذا المسلك لم يعجب بعض نزلاء الفندق الذين كانوا يتناولون طعام الغداء وذهبوا الى مدير الفندق يعترضون على اقتحام قاعة الطعام بهذه الصورة .. وذهب بعضهم الى اكثر من الاعتراض ، فقد هدد بالامتناع عن دفع فاتورة الحساب ، اذا دخل هؤلاء الغرباء القاعة وجلسوا يتناولون طعامهم بجانبهم !

ولكن شيئا غريبا حدث في تلك اللحظة .. فقد هدأ الثائرون ، وعادوا الى موائدهم ، دون ان يقربوا طعامهم وهم في ذهول !

ماذا حدث ؟ لقد اكتشف النزلاء ان « السائحين » الغرباء مصابون بالعمى .. كانوا جميعا من ابناء فيتنام الجنوبية الذين القوا بهم في أتون هذه الحرب ، فخرجوا منها فاقدي البصر كانوا جميعا لا يرون ، ومع هذا كانوا يرقصون ويغنون !!

وخرج الصحفيون يكتبون القصة .. النفوس التي لاتقهر .. حتى وهي تعيش في الظلام فهي ابدا ترفض ان تستسلم ! ■■

منير نصيف

■ كل رجل حقق نجاحا في عمله يقول انه وصل بفضل مجهوده وحده ، والزوجة العاقلة تبتسم في هدوء وهي تسمع هذا الكلام وتهز رأسها مؤيدة !

« جيمس باري »

■ ان يكون لنا فقط اصدقاء شيء ممل ، اشبه ما يكون بطبق البيض المقلي بدون ملح !

« هيدا هوبر »

■ اجمل الاشياء يمكن أن تثير اشمئزازنا ، اذا وجدناها تسقط فوق رؤوسنا !

« مدام دي سافيني »

■ كثيرون من الرجال يعجبون بالمرأة القوية ، ولكنهم لايتزوجونها !

« الزا سكاباريلي »

■ ان اليد التي تهز المهد قد لا تحكم العالم ، ولكنها بالتاكيد تجعل منه مكانا افضل .

« مارجري هيرست »

الصوت ضرورة ، لكن الصخب مشكلة !

في زمن الإدمان على الضجيج!

بقلم : الدكتور فخري الدباغ

كشفت التنقيبات الاثرية في وادي الرافدين ان بعض الالواح الطينية قد كتب عليها بالخط المسماري وصف مجز للحياة التجارية الحافلة في مدن سومر وبابل . ويشكو احد الالواح بلغة تدل على الملل والسأم من تلك المدينة التي تعج بضوضاء الانسان ..!!

(ول ديورانت)

تدل الدراسات الانتروبولوجية والطبية ـ البيولوجية ان الانسان يتغير بمرور الزمن : حجمه ، ووزنه وشكل جمجمته ، وتقاطيعه ، وطوله ، وتوزيع القوى في عضلاته ، والمتانة في عظامه ، كما تتغير فيه بعض التفاعلات الكيماوية والعلاقات الهورمونية الداخلية وبعض مواقيت ودورات وظائف اعضائه وانسجتها .

وليس ادل على ذلك من مقارنة جمجمة وشكل الانسان القديم ـ انسان الكهوف والعصور الحجرية وانسان القرن العشرين بنعومة بشرته ودقة سحنته وقلة شعر جسمه ورأسه وحتى هشاشة اسنانه ، اضافة الى استطالة قامته وخفة وزنه . وينطبق ذلك على الجنسين معا . فالبلوغ الجنسي يتقدم مرحليا بالاشهر والسنوات ، وموعد بدء الحيض عند الانثى اصبح يبكر تدريجيا في شمال أوربا وامريكا « الباردة » وبات من المألوف في هذه الايام ان نجد الفتاة في العاشرة او الحادية عشرة من عمرها ناضجة « بيولوجيا » للزواج والحمل ، رغم أنها ليست جاهزة نفسيا واجتماعيا.

هذه المقدمة لا بد منها للخوض في موضوع حديثي عن اشياء اخرى وظواهر تتعلق بالسلوك الانساني المكتسب ، اي بالاشياء والافعال ذات العلاقة غير المباشرة والحيوية واللصيقة ببنية وتركيب الانسان الفطرية ، لكنه اكتسبها وتبناها بحكم المخلوق المتطور فانعكست وبرزت في حاجاته وعاداته وتصرفاته .

ونظرة متفحصة الى انسان العصر تؤكد دون جدل ان « الاساسيات » والاوليات القديمة اصبحت الآن ثانوية كمالية ، والكمالية منها اصبحت أولية أساسية ، اي ان ما تعارفنا عليه بالكماليات هو بحكم الواقع من الضروريات : كالثلاجة والتلفاز والمذياع والسيارة وادوات الزينة والماكياج وتغيير الأزياء ، التي اصبحت بالحقيقة تحتل الاهتمام الاول والمرتبة الاعلى من آمال ومطالب وطموحات الشاب والفتاة.

هذه الظواهر « الانقلابية » المعكوسة بدأت تتطور وتمتد الى ابعد من ذلك فتسيطر على جوانب مهمة من حياتنا الاجتماعية . وقد اخترت في هذا المقال ظاهرة



الضجيج والصخب كمثال قريب وطريف على ذلك ، اذ سنرى ان الصوت كان ولا يزال من الضروريات .. ، فلما توغل الانسان في المدنية وارتقى سلم الحضارة اذا به يتوقف ويتردد تجاه بعض الاصوات ثم يتنكر لها ويتحاشاها ـ أي أن الضروري اصبح كماليا ومصدر اضرار وازعاج !

لا بد من ذكر حقيقة علمية اولا قبل الخوض في الموضوع ، وهي ان الصوت ضرورة اساسية لتربية ونضج الانسان وتطوير عقله وفكره . والطفل الذي يخلق أصم لا يسمع ، لن يتمكن من النطق والكلام . واغلب ما يكون الاطرش أخرس ايضا ، لان الاصوات التي يسمعها الطفل منذ الايام والاشهر الاولى لولادته تدخل في جهازه العصبي ودماغه فيتعلم بها تدريجيا ودون عمد ويستقبل الاصوات والحروف والجمل ويميزها ثم يتعلمها ويدركها .. ثم يفرزها ويصنفها . وبذلك يميز صوت امه عن ابيه وعن اخوته فردا فردا .. . كما يدرب نفسه وهو ينمو كل يوم على لفظ الحروف والكلمات ويتأرجح بين الخطأ والصواب ليستمر على النطق واللفظ الصحيح والتفكير ، وليربط الرمز بالمعنى .. وهكذا ، وبالاختصار ، فان الانسان يسمع الاصوات اولا لتكون مادة معرفية يتعلم منها و« يصنع » الكلام والكتابة والتفكير . فالصوت احد اركان اللغة ، وحجر زاويتها . ويجب ان يكون مسموعا ليكون ذا فائدة . وعندما يصاب طفل بعاهة في جهاز السمع ـ اى عندما كان يسمع ثم تعرض وهبط سمعه ثم توقف ، فان علم الطب يحاول ان يعيد اليه سمعه الصحيح ليستعيد قابلية الكلام والتفاهم والا اصيب باللثغة واللكنة .

فامراض السمع تؤدي الى امراض الكلام واضطرابات التعبير وحتى التفكير .

الصوت اذن يأتي قبل الكلام .. ، والاصغاء قبل التعلم ، وهذه قاعدة الخالق في خلقه . الصوت بلغة الطب (غذاء) اساسي للجهاز العصبي والعقل البشرى مثلما تعتبر البروتينات والكربوهيدرات والشحوم والماء والهواء اغذية لجسمه . وبما ان الصوت غذاء فكرى فهو حافز ومثير لنشاط الجهاز العصبي ، اذ بدون الاصوات يحس الانسان بالعزلة كما يبدأ في تفقد كيانه ووجوده .

وكأن الصوت هو مصدر حيوي لكمال شخصيته ولادراكه لتلك الشخصية . وما يتلقاه الانسان من ضروب المعرفة وما يصادفه من الاف وملايين التجارب يتلقفها العقل البشري من منافذ الاحساس لديه وهي : السمع والبصر واللمس والشم والتذوق .. الخ . فالسمع اذن ـ والصوت لازمة له ـ مصدر اولي واساسي للمعرفة ولتضج وتطور العقل البشري .

وتقدم العلوم النفسية ـ الطبية امثلة وبراهين على اهمية الصوت للحياة النفسية ـ من فكر ووجدان للانسان : فقد تبين ان الانسان السوي الصحيح قد تنتهي به دروب الحياة الى الوحدة وفقد الاحبة والمعارف فتضيق دائرة تواصله مع الدنيا والجماعة فاذا به يعاني من الضجر والكآبة والقنوط وتمني الموت . اما اذا تعرض الانسان ـ في اية مرحلة من عمره ـ الى عزلة قسرية اضطرارية بحيث لا تصله في صحوته الا اقل واضعف الاصوات ـ اى الهدوء والسكون الطويل الاجباري ـ فانه يبدأ بالشعور بفقده جزءا من معالم شخصيته لان الصوت يحفز جهازه العصبي دون وعي منه . وباختفاء او فقدان تلك المنبهات الصوتية يشعر بالوحدة والملل والقلق .. ثم الكآبة ..... ثم يدخل تدريجيا في جو من الاوهام والهلوسات .. فيتسمع الى دقات قلبه وحركات احشائه التي تتعالى درجتها في جهازه الفكري .. ثم يتصور نفسه في مواقع اخرى ـ او يتخيل سماع وقع خطوات انسان او حيوان يقترب منه .. او صوت نداء يخاطبه او هدير آلة حوالي غرفته .. ، وتختلط عليه الهمسات والصرخات والازيز والضجيج فينتقل الى عالم الجنون محاولا بعسر الا يفقد عقله وهذا ما يحدث في السجون الانفرادية والزنزانات المعزولة .

وفي علم الطب النفساني نعثر على حالة مشابهة . فقد تبين ان بعض الناس الذين تجاوزوا اواسط العمر وبدأوا في شيخوخة مصحوبة بثقل السمع او الطرش ، تنتابهم مشاعر العجز والحساسية الشديدة لمعرفة الاصوات وما يقوله الاخرون . ويعاني بعضهم من الوساوس والشكوك ويشعر بالاضطهاد والغبن والتفاهة . ثم يردون على ذلك بالعداء والكره لاقرب الناس اليهم . وهو من صفات (ذهان زَوَرٌ الشيخوخة) او (البارافرينيا) paraphrenia

كل هذه الظواهر تؤكد كيف ان الاصوات هي روابط عضوية ـ نفسية بين المخلوق ومحيطه ومجتمعه ، وانها اسس مصيرية لتماسك وجوده وذهنه . يبقى ان نذكر ان الاذن البشرية تتلقى الاصوات من كل حدب وصوب ، وقد تسمعها او لا تسمعها لان قابليتها محدودة بين ذبذبات صوتية معينة هي من ١٦ ـ الى ٢٠ ألف هيرتز (ذبذبة في الثانية) .

فالصوت الذي يقل عن (١٦) ألف ذبذبة او يزيد عن (٢٠) الف ذبذبة قد يدخل في اذن الانسان ولكنه لا يحس بها ولا يدركها كصوت .

وهكذا هي الاذن البشرية ظلت في نطاق معين ولم تتغير لحد الآن ـ او على الاقل حسبما يقوله العلم الحديث .

اصوات المدينة والحضارة

وكان الانسان القديم البدائي يسمع اصواتا لاتتعدى زمجرة الريح وصفير العواصف ودوي الرعد وزقزقة الطيور وخرير الماء وحفيف الاشجار واصوات عائلته او عشيرته ، واصوات الحيوانات المختلفة فيشعر بوجوده وكيانه . وتقول احدى نظريات اصل اللغات ان الانسان بدأ يتكلم باصوات ومقاطع تقليدا لما تسمعه اذنه من اصوات الموجودات الطبيعية حوله ـ وهي النظرية التي اطلق عليها اصطلاح dindong theory of languaje وهكذا استمر الانسان يسمع اصوات بني البشر مثله ويبادلهم الاشارة والحديث . ثم استمر الى النقش والرسم ثم الكتابة . وتفتح ذهنه فابدع واخترع . وبالاختراع والتصنيع وتطور الزراعة وحجم القبيلة والقرية والبلدة .. امتدت الحضارة والمدنية واتسعت وبدأ الجنس البشري يسمع اصواتا جديدة اخرى : من حركة العربات والاجراس وطقطقة مطارق النحاسين والحدادين .. ودقات الطبول ورنين الاوتار .. او السيوف .. ثم المنجنيقات فانفجارات البارود والطلقات والقنابل والالغام .. ثم ضجيج المكائن الطباعية والنسيجية فالقطارات والعربات والسيارات .. ثم الطائرات والصواريخ . واذا باذنه تصبح فوهة بركان يدخلها (بدل ان يخرج منها) سيل عارم من اصوات المصانع الهائلة الكبيرة للورق والسكر والاسمنت والنسيج والعلبات والموانئ والبواخر والمطارق . وحوصر الانسان في دور سكناه وطرق مواصلاته .. وانتبه الى ان ما اخترعه واسسه وبناه بدأ ينفث سمومه واضراره ...

ان الحضارة البشرية تقدمت ، لكنها اصطحبت معها الصخب والضجيج في كل مكان ، واصبح الهدوء والصفاء والنقاء مقتصرا على الريف فحسب ـ وان كان هدوءا نسبيا اذا ما قورن بهدوء القرون الغابرة . لكن الريف بدأ ينحسر بسكانه ويتقلص بمساحاته .

واستمرت موجات دافقة متوالية من البشر بالهجرة من الريف الى المدينة . فكثرت المدن واتسعت وتعددت احجامها وانتشرت في كل مكان . وفي المدينة وما حولها تجد مصادر للأصوات المختلفة وهي تتكاثر وتتعالى في المصانع والحافلات والقطارات والسيارات ومكبرات الصوت ، واصوات المذيعين والمغنين والخطباء .. ثم صفارات سيارات الاسعاف او الأمن الداخلي .. ثم الطائرات .

فاذا ماهرب الانسان من كل ما تقدم ولجأ الى داخل البيت المتعزل « الآمن » ، هاجمته اصوات من نوع آخر لا تخلو منها اية دار عصرية . فشباب الجيل الناشيء قد تحكم وتوسع بمسجلاته (الستيريو) ، ومكبرات الصوت وعلب الاشرطة (الكاسيتات) التي تعج وتصرخ بموسيقى الخنافس (والروك آندرول) وفرق (ساتانا) و (الحيوانات) و (الوحوش) و (الرولنج ستون) و (بوني ام) وما الى ذلك من تسميات لفرق الشباب المنتشرة في دنيا الغرب .

حضارتنا غدت الآن مجموعة اصوات مختلفة الانغام والشدة : بعضها منتظم وبعضها مزعج ومنفر ، لكن المحصلة الكلية خليط منكر من صخب وضجيج يحيط بالانسان ويلاحقه حتى فراش نومه ان لم يكن حتى قبره .

فماذا جرى للاذن البشرية وللدماغ المسكين ؟ وما هو تأثير الصوت على الجهاز العصبي والسلوك ؟

اضرار الضجيج والصخب

ويتبادر سؤال ملح الان : اذا كنا نعتبر الصوت غذاء ضروريا للعقل البشري والتجارب والمعرفة كما بينا ، فلماذا نتبعه بالحديث عن أضراره ؟ وهل له مضار حقيقية ؟ ولماذا انعكست الآية في القرن العشرين بحيث اضطر الانسان الى التفور والضجر منه ؟ .

ان الصوت sound, voice بلغة علم الفيزياء ذلك الذي له صفة الانتظام وطابع الموسيقية او التناسق . وارتفاع شدة الصوت loudness يمكن ان يكون مصدر ازعاج وضرر . اما الضجيج والجلبة والصخب noise فهي مجموعة اصوات « نشاز » غير منتظمة او متسقة ، وهي ايضا مزعجة وضارة للنفس البشرية ، واختلاط صوت بصخب يؤدي الى صخب اكثر وافظع وأمر . والذي يجري الآن في مدينتنا ان الانسان اصبح مغمورا بالجلبة والضوضاء ، وان الصوت المطرب او الناعم او المتسق الجميل لا يجده الانسان الا اذا قصده قصدا ، وبحث عنه في اماكن ومواقف ومناسبات معينة ، وهو ينشد الهدوء والسكينة .

ان الانسان المعاصر انتبه وادرك بطبعه الاصيل وبدون نصيحة طبية ان الضجيج يثير اعصابه ويربك اعماله ويعكر عليه صفاء ذهنه وانسجام سلوكه ، ويبعث فيه القلق والضجر والشقاء . فماذا هو رأي الطب وعلم النفس والاجتماع بصحة هذا الحدس ؟

تشير الدلائل في مجتمع القرن العشرين الى ظاهرة محيرة ومتناقضة ، وهي ان الانسان في مراحل تطوره الحضاري تعود دون أن يدري - وبالتدريج - على تقبل المزيد من الاصوات والنغمات ذات الشدة العالية فاذا به وقد اصبح « مدمنا » على الضجيج . وهذه هي العادة المكتسبة من المدينة بحيث خيل للانسان ان الصوت المرتفع ضرورة ، واذا به يتعود التحدث بصوت مرتفع وأنه يتحدث الى ثقال السمع بينما هو يقارب ثقل السمع حقيقيا !

وهكذا يملأ شباب اليوم الامكنة والبيوت والنوادي والمراقص والسيارات باعلى اصوات الموسيقى المجنونة الراقصة وينغمسون فيها انغماس المدمن المنتعش بينما يلجأ الجيل السابق الى خفت صوت المذياع والتلفاز للتمتع ببقية من موسيقى خافتة هادئة وكلام هامس رقيق . لكن الأمر لم يقف عند حدود الصراع أو المجابهة بين جيلين او ذوقين بل اصبح مشكلة عامة .

وقد كشفت الابحاث الطبية والنفسية ان الاصوات العالية وكل ما يدخل في تكوين الصخب والضجيج تؤدي الى مجموعة من التأثيرات الضارة على اجهزة الجسم ونفسية الانسان ، حتى ان الاصوات العالية استخدمت احيانا في سحب الاعترافات ومضايقة السجناء والمعتقلين . فالصوت الصاخب الناشز يوجه اليهم ليتهيج جهازهم العصبي ، وينقطع النوم او يختفي تماما ، وتتضاءل فترات الراحة ، ويتحدر السجين الى حالة الاعياء فالانهيار ، ومنها يتسلل المحقق الى مدخل الاستسلام او حالة (غسل الدماغ) والاعتراف .

ويمكن تعداد وتلخيص مضار الاصوات الشديدة كما هو مبين ادناه وحسب تسلسل درجة علو الصوت بمقياس وحدة علو الصوت (ديسبيل) decibel ، ابتداء من الرقم (٣٠) وحتى ال (١٢٠) او اكثر :

أ - استثارة القلق وعدم الارتياح الداخلي فالتوتر فارتباك في الانسجام والتوافق الصحي الريح

ب ـ اذا كان الشخص من ذوي الاستثارة السريعة ، تحدث اضطرابات فكرية في قوى التركيز والتذكر ، وتوتر عضلي في الاجهزة الداخلية الحساسة وعلى الاخص اعضاء الجهاز الهضمي : المعدة والامعاء ، وكذلك جهاز الدوران (والقلب) والتنفس .

جـ ـ أحداث أضرار وتلف بطيء وتخريب في جهاز السمع ، وهي الخلايا الحساسة في نهايات اعصاب السمع المرتبطة في الأذن الداخلية التي تنقل الصوت الى الدماغ ، وهكذا الى حالة من ثقل السمع البطيء السريان ـ والى الطرش . ولعل ثقل السمع الاولى هو الذي يدفع بالمصاب الى الاستزاده من علو الصوت لعدم ادراك الانسان ان سبب ثقل سمعه هو علو الصوت ذاته . وهذا يفسر ميله الى التخاطب بصوت مرتفع كما يفعل ثقيلو السمع .

د ـ يعتقد باحثون اخرون ان التخريبات الحاصلة في الاذن الداخلية اشبه ما تكون بالقروح التي تحدث في اجهزة اخرى .

هـ ـ ان خليط القلق والتوتر والصداع والارق يضعف من مقاومة الانسان الذهنية وعقيدته وتماسك شخصيته ، وهي السبب في حصول الاعترافات لدى السجناء كما ذكرنا ...

و ـ ان التوتر العام المستديم يؤدي منطقيا الى مضاعفات اخرى مثل القرحة المعدية او الذبحة الصدرية .. ، وهذه تؤدي بدورها الى مضاعفات اخرى ..

صراع وحيرة

هذه هي اضرار الاصوات العالية الصاخبة .. وتلك هي سلبيات الصمت والسكون الثقيل ، كما ذكرنا في اول المقال ، فاين يجد الانسان راحته ويعيش نعيم احاسيسه ؟..

ان انسان اليوم ـ وهوالذي لا يستغني عن الصوت كغذاء حياتي وفكري ـ يعيش الآن بين نقيضين او وجهتين : صخب وضجيج يقلق راحته ويخرب اعصابه ، او هدوء وعزلة قاتلة ثقيلة في مراحل الشيخوخة وفقد المعارف والاحبة او بعد التقاعد ، وفي كلتا الحالتين يتهدده شعور بالخطر الداهم على راحته النفسية وانسجام تفكيره وسعادته الدنيويه . انه الآن موزع بين (ضروريات) الصوت الطبيعي وبين (كماليات) الصخب الحضاري المؤذي . لكنه بدأ يتململ ويستنكر ويثور ويتظاهر مع الجماعات الغاضبة ضد المطارات الضخمة التي تنطلق منها وتحط عليها الطائرات النفاثة الضخمة في امريكا وفي المانيا الغربية وفرنسا واليابان ..

لقد انتبه الانسان اخيرا ـ دون تحريض الطب وعلم النفس ـ الى ان ما اخترعه واسسه وبناه بدأ ينفث سمومه وتخريباته . وقد تجسد امامه غول (تلوث البيئة) كحقيقة واقعة لا نريد الخوض في تفاصيلها . ويبدو الآن ان الصخب والضجيج هما أيضا من معضلات و (مخلفات) المدينة التي تهدد الصحة البشرية . ولعل من الطريف ان نستطلع حال الانسان قبل الاف السنين . فمنذ خمسة الاف سنة مضت ، وفي احدى الحضارات البشرية العريقة في جنوب العراق (سومر وبابل) تتحدث الحفريات الاثرية عن ذلك الانسان الذي ازعجته المدينة بصخبها وضجيجها ، وكأن سليقته وغريزته الصافية ارشدته الى الاثار السيئة للاصوات الناشزة والعالية ..

وفي ملحمة (اترا ـ حاسس) Atra - Hasis نعثر ايضا على قصيدة بابلية مطولة تتناول بالتفصيل خلق الانسان وتسليط الالهة ـ وعلى رأسهم الاله (انليل) ـ كارثة الطوفان والقحط والامراض لافناء البشر الذين (اقلقوا الالهة بضوضائهم وصخبهم) على حد تعبير الملحمة ❋

ومع ان اصطلاح « الضوضاء والصخب » دليل على شرور الانسان ونزاعاته .. ، الا ان غضب الالهة واجراءاتهم بتقليل عدد البشر يدل ايضا على ان كثرة السكان هي من عوامل الصخب والضجيج الذي يقلق راحة الالهة منذ بداية التاريخ المدون .

وبعد كل ما تقدم اليس من المنطقي ان نتساءل او نؤكد على اعتبار الضجيج والصخب جزءا من عوامل تلوث البيئة رغم كونها مجرد ذبذبات صوتية !! ■■

بغداد ـ د . فخري الدباغ

❋ ملحمة كلكامش ، طه باقر ، ١٩٨٠

اعداد : يوسف زعبلاوي

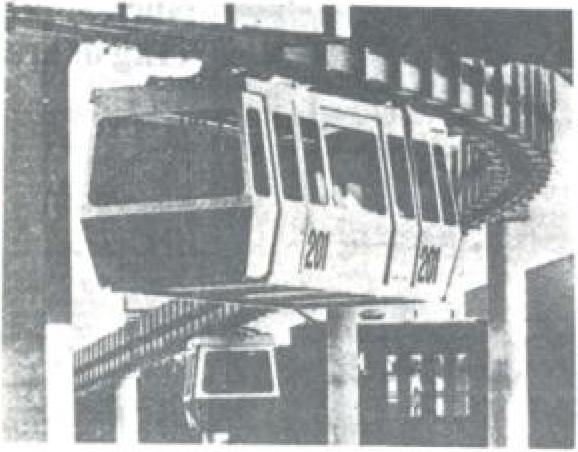
وباء الكباد هل يختفي نهائيا في مستقبل قريب

نشرت مجلة نيوانجلند الطبية مؤخرا بحثا هاما اكدت فيه نجاح العلماء في ابتكار لقاح فعال ضد التهاب الكبد أو الكباد .. Hepatitis وهو وباء خطر واسع الانتشار .. يقدرون عدد المصابين به في العالم بحوالي ٢٠٠ مليون نسمة .. ولا يقل عدد الذين يصابون به في الولايات المتحدة وحدها عن ١٥٠,٠٠٠ نسمة ، سنويا .

والمقصود هنا هو الكباد المصلي Seram Hepatitis المعروف بصنف ب (B) والذي يبدأ في الغالب بأعراض الكباد المألوفة ... الحمى فالتقيؤ فالارهاق الشديد ...... ثم يحل التلف بالكبد ... ويتضاعف التلف احيانا حتى يسبب الوفاة . على ان نسبة الذين يموتون بسبب هذا الوباء لا تزيد على ١٪ .. فخطورته اذن ليست فيا يحدثه من موت بقدر ما هي فيا يسببه من اذى للمصابين به ..

وتجدر الاشارة الى فيروس هذا الوباء الذي ينتقل اكثر ما ينتقل عن طريق اللعاب والسائل المنوي .. لا عجب اذن ان كان الفاسقون الاباحيون اكثر عرضة للاصابة به من سواهم .. وتقدر احتمالات اصابتهم به بحوالي ١٠ اضعاف احتمالات اصابة غيرهم .. وينتقل فيروس هذا الوباء احيانا عن طريق الدم الملوث وخاصة بواسطة ابر التلقيح الملوثة ..

ولو ذكرنا ان فيروس الهاباتيس ب لا يسمح بزرعه في المختبر لادركنا العقبات التي اعترضت سبيل تطوير لقاحه الجديد .. ذلك ان اللقاحات عموما انما تحضر بالزرع .. وذلك بتسخين الفيروس بالقدر



الحل المثالي لازمة السير ...... وازمة اليد العاملة

● هذا قطار معلق .. يسير في الهواء لا على سطح الارض .. والاهم من ذلك انه يعمل بالكمبيوتر ودون حاجة الى سائق .. ينقل ركابه الى حيث يشاءون ، تلقائيا ولدى الضغط على ازرار المواقف المحددة للقطار .

والقطار المذكور موضع تجارب واسعة في المانيا في الوقت الحاضر .. فالعربة التي ترى في الصورة هي عربة التجربة ، وقد اقاموها في مدينة (الانجن) والمرجح ان ينتهوا من تجربة القطار الجديد ويعمموه في شتى مدن المانيا وقراها خلال سنة ١٩٨٣ .

الذي يتطلبه التخلص من شروه دون المساس بقدرته على توليد المناعة .. اضف الى ذلك ان الحصول على فيروسه من دم الانسان بالذات لم يتيسر الا مؤخرا وذلك سنة ١٩٧١ للدكتور كروجان في جامعة نيويورك ...

على ان قصة اللقاح الجديد لم تبدأ في نيويورك وانما في فيلادلفيا .. وعلى يد الدكتور باروخ بلمبرغ احد كبار الباحثين في مركز فوكس تيشيز Fox Chase للسرطان فيها .... فقد اكتشف المذكور مادة وثيقة الصلة بفيروس الكباد (ب) في دم احد سكان استراليا الاصليين .. ثم ما لبث ان اكتشف ايضا ان تلك المادة تولد المضاد Antigen للفيروس .. او الاجسام الكفيلة بمحاربته .

وخطا الدكتور بلمبرغ خطوته الثانية فمزج عينات من تلك المادة الاسترالية المولدة للمضاد بعينات من فيروس هيباتيس .. ثم سخن الخليط ... وقد اثبتت التجارب فيما بعد انه لا يسبب العدوى ابدا وانما يضمن المناعة ضد الوباء .

وتولى معهد مرك للابحاث العلاجية (في وست بوينت في بنسلفانيا) مهمة تطوير اللقاح وصنعه بكميات تجارية وذلك باشراف الدكتور موريس هليمان .

هذا ويعطى اللقاح على جرعتين يفصل بينهما شهر واحد ثم يلحق بهما جرعة اخرى ثالثة ، بقصد التوطيد ، بعد ستة شهور ..

ووضع اللقاح موضع التجربة النهائية فأعطى لمجموعة كبيرة من الناس .. (٥٣٤) شخصا بالتحديد فلم يصب بالمرض منهم الا سبعون .. اي ان ٤٦٤ منهم اكتسبوا المناعة الكافية ضد المرض .

ثم اعطي اللقاح لمجموعة اخرى من الرجال ... (١٠٨٣) رجلا ! فاصاب النجاح بنسبة ٩٣ ٪ . وقد ظهرت للقاح في تلك التجارب فائدة اخرى غير مباشرة هي انه يولد مناعة ضد ورم الكبد (Hepatoma) .

ويبلغ من تواتر النجاح الذي احرزه اللقاح الجديد في التجارب العديدة المتتالية ان ظهوره في الاسواق واستعماله على نطاق واسع كللقاح الجدري مثلا ، بات وشيكا . ولن يتأخر عن سنة ١٩٨٢ في تقدير العلماء المعنيين . ومن يدري فقد يلقى وباء الكباد نفس المصير الذي لقيه من قبله وباء البوليو والجدري ، فلا يلبث ان يختفي في المستقبل غير البعيد .

شجرة عجيبة ... تذكرنا باشجار قصص الف ليلة وليلة

شجرة اللوكينا (Leucaena) او الجملينا (Gmelina) شجرة عجيبة حقا .. اكتشفها العلماء مؤخرا ، بل قل اكتشفوا مزاياها .. فالشجرة قديمة ، عرفها سكان جنوب شرق اسيا واميركا اللاتينية منذ اقدم الازمان .. اما قيمتها النادرة ومزاياها الغريبة ، بل الخارقة ، فقد كانت خافية على الجميع ، حتى اكتشفها العلم الحديث في المدة الاخيرة . وحسبك ان العلماء وجدوا في هذه الشجرة الحل الجذري لمشكلة زحف الصحراء واختفاء الغابات والسهول الخضراء !

واول ما يذكر من مزايا هذه الشجرة قدرتها على النمو ، حتى يبلغ طولها ، في اقصاه ، ٢٠ ـ ٢٥ مترا وقدرتها على وقاية التربة من التعرية ... اضف الى ذلك قيمة الشجرة الغذائية .. هذا الى جانب المنافع التي يمكن استخلاصها منها ... كصنع الورق والحرير وكحرق خشبها لاغراض التدفئة .

هذا والشجرة العجيبة تنتمي الى فصيلة البقول Legumes المألوفة ...... فهي اذن وثيقة الصلة بالعدس والبازلا والفاصوليا .. بيد ان الشجرة تتميز بجذورها التي



تقطنها صنوف من البكتريا ، من شأنها ان تثبت النيتروجين في التربة .. من هنا كانت قدرتها على الحياة في تربة فقيرة وعلى حماية التربة الزراعية من شتى عوامل التعرية .. اضف الى ذلك مناعة الشجرة ضد الجفاف وصمودها للعواصف ومقاومتها للامطار .. هذا الى جانب النجاح الكبير الذي تحرزه الخضار اذا زرعت في ظلالها .

على ان الشجرة لا تتصف بالجمال الذي ألفناه في الشجر عموما .. من ذلك ان ساقها غالبا ما تفتقر الى الاعتدال ويغلب عليها الاعوجاج الذي لا يروق للناظرين .. ولعل هذه النقيصة هي التي حملت الفلاحين على عدم الاكتراث بالشجرة .. وما كانوا ليقيموا وزنا لمنظرها لو اتيحت لهم الفرصة لمعرفة مزايا شجرة الجملينا .. ما ذكرناه منها وما لم نذكر ...

فالشجرة تمتاز بسرعة النمو ، فضلا عن مقداره ، ولا تحتاج الا لسنتين فقط لتبلغ الطول الذي تستطيع بلوغه : حوالي ٢٥ مترا ... وهذا زمن قصير جدا ولا يبلغ سوى خمس الزمن الذي يحتاجه الشجر العادي لاستكمال نموه .. وشجرة الجملينا تفوق الشجر العادي من حيث كمية الخشب التي توفرها .. اذ تبلغ هذه الكمية ١٠ اضعاف ما توفره اشجار المناطق المعتدلة ..

ولعل اغرب ما يذكر عن هذه الشجرة ان اوراقها غنية بالبروتينات ، وعصارتها (Copaifera) صالحة للاستعمال وقودا او محروقات لمحركات الديزل .. وتساعد هذه العصارة كذلك على وقف الحرائق التي كثيرا ما تتعرض لها الغابات .. فهي تحتوي على مادة Calliandra المعروفة بخاصتها المضادة لانتشار النار .

على ان شجرة الجملينا تحتاج الى جهود متواصلة وعناية فائقة .. وقد تكون هذه الحاجة هي العقبة التي تحول دون انتشار زراعتها على نطاق واسع .. فالفلاحون ينفرون اصلا من النبات .. أي نبات .. يتطلب اهتمامهم وجهدهم المكثف ... لا سيما اذا استوجب ذلك الاهتمام اعمالا اقرب الى اختصاص الطبيب البيطري منها الى عمل المزارع .. كحقن الاشجار بصنوف معينة من البكتريا ... وهو ما تتطلبه شجرة الجملينا .. فهذا عمل غير مألوف وشاق بالنسبة الى المزارع .. ولكنه ضروري بالنسبة الى الشجرة .. فهي لا تلبث ان تموت اذا امتنع الفلاحون او تأخروا في حقنها بالبكتريا التي تحتاج ... وهذا ما حدث بالفعل لمزرعة جملينا كبيرة في هايتي .. فقد تخلف المزارعون عن حقن اشجارها بالبكتريا وفق التعليمات .. فاضمحل الشجر وذبل وما لبث ان مات .

بيد ان العناية التي تتطلبها الشجرة ليست مستحيلة .. ولعلنا نتقبل مشقتها لو اخذنا بعين النظر المنافع الكبيرة والارباح المجزية المترتبة عليها . واصدق دليل على ذلك يتمثل في المزارع الشاسعة الواسعة التي انشأها المليونير المعروف دانيال لودفيج في البرازيل ، في السنوات الاخيرة .. فقد زرع في غضون السنوات الثلاث عشرة الاخيرة أشجار الجملينا في قطعة ارض لا تقل مساحتها عن ربع مليون فدان .. وذلك من أجل الوقود وصناعة الورق .. وجني المليونير أضعاف ملايينه سنة بعد سنة من مزارعه تلك .. وما ذلك الا للعناية الفائقة التي اولاها اياها ..

وتجدر الاشارة الى ان الشجرة المذكورة كانت موضع تجارب علمية واسعة استهدفت تهجينها وتحسينها .. وقد احرز العلماء نجاحا باهرا في هذا الصدد .. كانت ثمرته بعض المزايا التي تتمتع بها شجرة الجملينا حاليا والتي اشرنا اليها في هذه الكلمة ...

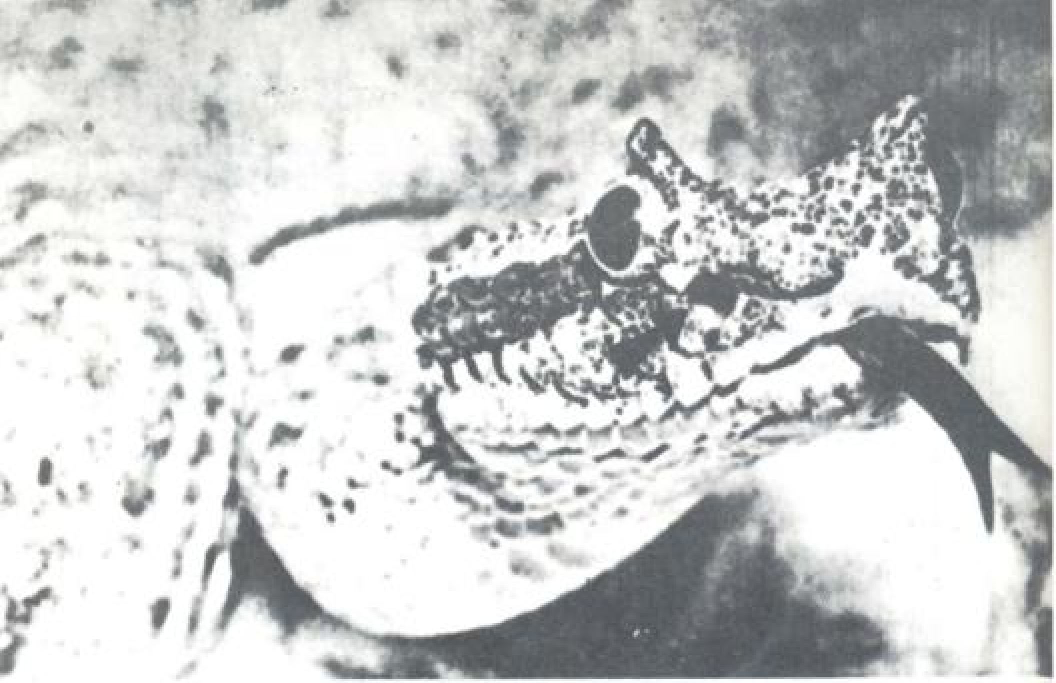
أجهزة للرصد والتصويب فى عالم الحيوان

بقلم الدكتور عبد المحسن صالح



يحكى أن أحد ملوك سيام (تايلاند الآن) كانت لديه هوايات غريبة في المزاح مع ضيوفه واصدقائه ، ورغم ان المزاح سخيف ، الا انه مضحك وطريف . وجلالته لا يمزح معهم بذاته ، بل جعل هذا المزاح عن طريق سمكة او اسماك يربيها في احواض زجاجية تنتشر في ردهة واسعة يستقبل فيها ضيوفه ومحبيه ، وبينما المجموعة تتسامر ، اذ باحد الضيوف يهب مذعورا ، فلقد اصابه من السمكة مالا يحب ولا يرضى . لقد تبلل وجهه اوقفاه بقطرات متتابعة من الماء ، انطلقت نحوه وكانها رصاصات آتية من مدفع رشاش ، لكن بدون اصابات ، ويتلفت المسكين حوله ، والدهشة بادية عليه ، بينما الذين يعرفون اللعبة ينطلقون في ضحكات وقفشات ، وعلى راسهم صاحب الجلالة ، الذى اسعده هذا المزاح أيما سعادة !

● تنطلق القطرات المائية كالمقذوفات من السمكة التي تعيش في الماء ، لتصطاد بها في الهواء .. وترى هنا دقة التصويب نحو الحشرة المستكنة على نهاية جزء من نبات .. فهل اصابت الهدف ؟



● الحية « ام جلاجل » تستطيع ان ترى في الظلام الدامس بواسطة الاشعة تحت الحمراء ،والسهم يشير الى « النقرة » او العين الحرارية التي ترى بها . اما لسانها المشقوق فتصميم آخر لتحليل جزء من التربة . ليدلها على أثر الفريسة .

ولا شك انكم الآن تضربون اخماسا في اسداس ، تماما كصاحبنا المصاب بهذا « المدفع » المائي الرشاش ، فهو بدوره لا يستطيع ان يعرف من هو صاحب هذا المزاح السخيف .

وسواء اكانت هذه الحكايات صحيحة أو باطلة ، الا أن الشيء المؤكد أن هذا النوع من الاسماك يستخدم بالفعل هذا « التكتيك » المثير ، وطبيعي أنه لا يفعل بقطرات الماء ما يفعل من اجل تسلية او مزاح ، أو ليدخل السرور على نفس صاحب الجلالة وبطانته ، بل تستخدم الأسماك هذه الطريقة الغريبة كوسيلة للصيد في الهواء .. فمن اجاد منها التصويب والقنص ، شبع وعاش ، ومن كان غير ذلك ، فالى الجحيم أو الهلاك !

فما هي قصة هذا النوع من الأسماك ؟ .. وكيف تصطاد في الهواء حقا ، خاصة وانها تعيش في الماء دائما ، ولا تستطيع له فراقا ؟

الواقع أننا امام فكرة ممتعة من أفكار الحياة التي تضع لنا النقط فوق الحروف ، وتوضح لنا ان كل شيء فكر فيه الانسان ذو العقل الناضج ، والفكر الصائب ، كانت للحياة فيه الاسبقية قبل أن يظهر الانسان نفسه على هذا الكوكب بعشرات ومئات الملايين من السنين !

قناصة متمرسون

ثم ان هذا النوع من السمك لا يحتاج لأدوات صيد كما يفعل البشر ، ولا هو كذلك يتلقى تدريبات او دروسا من الممارسين للعبة من بني جنسه ، بل تخرج السمكة الى الحياة ، وهي تعرف كيف ترصد الهدف ، وتحدد الزاوية ، وتقدر المسافة ، وتطلق « الأعيرة » المائية من الماء إلى الهواء ، وكأنما قطرات الماء المندفعة ، بمثابة صواريخ موجهة .. ثم هي في اصابة الأهداف قد تحصل على الدرجة النهائية ، فطلقتها غالبا تصيب ، وقلما تخيب ، حتى ولو كان الصيد يحلق فوقها في اتجاهات متغيرة ، ثم ان « الذخيرة » دائما متوافرة ، ولن تكلفها شيئا ، لأن الماء هو ذخيرتها ورصاصها !

ان الفضل في ذلك يرجع الى ميكانيكية بيولوجية امتلكتها السمكة في فمها ، اذ عندما ترصد في بيئتها الطبيعية حشرة على غصن نبات مائي ، فانها تاخذ وضع استعداد لاطلاق « رصاصاتها » المائية ، ثم تقترب من سطح الماء موجهة مقدمة فمها لتبرز في الهواء ، ثم تغلق غطائي خياشيمها باحكام ، وتضغطها بشدة على ما احتوته بينها من ماء ، فتندفع القطرات بقوة من خلال ما يشبه انبوبة دقيقة تكونها بلسانها وسقف حلقها

الأعلى ، فاذ بالصيد يفاجأ بصدمة ، ويصيبه شلل ، فيهوى من حيث كان الى الماء ، واليه تسرع السمكة فتلتهمه رزقا طيبا !

لكن المثير حقا ان هؤلاء « القناصة » المتمرسين (من الأسماك طبعا) يستطيعون الرصد والتصويب والاطلاق على الحشرات المحلقة فوق سطح الماء ، فتوجه اليها رصاصاتها حيثما طارت ، وقد تخطىء الهدف مرة ، لكنها تعاود الكرة ، ولاتزال تطلق وتطلق وكأنما هي بمثابة مدفع رشاش سريع الطلقات ، وفي النهاية تصيب وتحصل على ما تريد ، ويبدو ان ردهة صاحب الجلالة كانت مزودة بالذباب ، لتشتغل عليه الرشاشات السمكية ، لتصيب الضيوف مع الذباب !

لكن ما هو المدى الذى تستطيع به السمكة ان تحققه بقذائفها ؟

ان المدى المؤثر للضربة « القناصية » يقع في حدود متر ونصف أي مترين ، وقد يرتفع الى ثلاثة ، وهذا بلاشك يعتبر رقما قياسيا بالنسبة لسمكة صغيرة .. اضف الى ذلك انها تصطاد ولا تزال عيناها مغمورتين في الماء ، وهذا أمر يحتاج الى اعادة النظر ، لان الذين درسوا قوانين الانكسار الضوئي بين وسطين مختلفين ، يعرفون تماما ان الشيء ينحرف عن موضعه اذ نظرت اليه من وسط يختلف في كثافته عن الوسط الموجود فيه هذا الشيء .. جرب ذلك وضع قلما في كوب ماء ، تجده وكأنما هو منحرف او مكسور عند الجزء المغمور .. كذلك يكون الانحراف بين ما تراه عينا السمكة المغمورتان في الماء ، وبين حشرة في الهواء ، وعليها ان تضبط التوجيه ، وتقدر زاوية الانكسار ، ولو لم تفعل ، لفشلت ، لكنها ـ والحق يقال ـ قناصة ماهرة ، فمارست ، الا ونجحت ، فأكلت ، فعاشت ، فاستمر نوعها كل هذه الملايين من السنين .

على أن فكرة السمكة قد نقلها بعض صبيان البشر ، فمنهم من يستطيع ان يحتفظ بجرعة مائية في فمه ، ثم يضغط عليها بين سقف فمه وبين لسانه الذى يلتصق بالسقف ، ليكون ما يشبه انبوبة نصف دائرية ، تماما كما تفعل السمكة ، ومن فجوة صغيرة بين اسنانه او شفتيه ، ينطلق الماء المضغوط على هيئة خيط رفيع ، يمزحون مع أترابهم (ودعك هنا أيضا من المسدسات المائية ، فهي لا تدخل ضمن موضوعنا) ، وكأنما هم قد ورثوا في سقوف حلوقهم ماورثته الاسماك التى ظهرت قبل ظهورهم بملايين السنين .

بقي ان نعرف ان اسم هذه السمكة قد جاء على مسمى ، اذ يطلقون عليها اسم السمكة الرامية ..او رامية السهام Archer—fish ، لكن سهامها من ماء ، لا من خشب او حديد !

سهامها في لسانها

والواقع ان الحياة تقوم على اساس آكل ومأكول ، أو غالب ومغلوب ، أو صيد وصياد ، ومن اجل هذه اختلفت اسلحة الصيد وتنوعت .. وطبيعي ان الانسان بعقله الصائب قد ابتكر من اساليب الصيد مالا نستطيع له عدا ولا حصرا ، وهو دائما يستعين بما صنعت يداه ، على بلوغ المراد ، بداية من العصى والنبال والحراب والسهام والشباك ، وحتى تنتهى بالبنادق والديناميت والرصاص .

لكن الحياة ـ مع ذلك ـ كانت كريمة مع بعض مخلوقاتها التى لا حول لها ولا قوة ، فكان ان قدمت لها وسائل غريبة ومثيرة لتستخدمها في القنص والصيد ، وهي لا تقل كفاءة عن اسلحة الانسان التى اشرنا اليها ، لكن سلاح هذه الكائنات يتمثل لنا في جزء متحور من جسمها ، ولقد رأينا كيف تستخدم السمكة الرامية قطرات الماء كرصاصات موجهة .

لكن الأمر قد يصبح اكثر اثارة اذا جاء اللسان ليصبح اداة من ادوات الصيد الفعالة ، خاصة اذا اصبح اللسان اطول من جسم المخلوق الذى امتلكه .. أى لسان هذا ؟ !

انه لسان الحرباء .. اغرب واعجب لسان في مملكة الحيوان ، ليس فقط من حيث الطول ، بل ايضا من حيث التكوين ، لأنه بدوره ينطلق كقذيفة موجهة نحو الهدف ، فيخرج خاليا ، ويعود غانما .. وهو في فم الحرباية بشكل ، وفي خارجها شكل آخر .. ثم ان هذا اللسان اللزج لا يصلح لتصيد على الارض ، لأنه لو ضرب ضربته عليها ، فاغلب الظن انه سيعود ملوثا بالتراب ، وذلك من شأنه ان يقرف الحرباء ، وهذا فمكانها المناسب يتركز بين فروع الاشجار ، واغصان النباتات ، ويصبح اللسان بذلك ميسرا لتصيد في الهواء .

ومع ادراكنا ان وظيفة اللسان هي للتذوق ، وهو يساعد أيضا على اخراج مقاطع الكلام في حالة الانسان ، او ييسر عملية لعق الماء والسوائل ورشفها في بعض انواع الحيوان ، الا انه قد يتحور بطريقة مثيرة ليصبح صيادا لا يشق له غبار ـ كما في الضفادع والحرباء ، الا ان لسان الحرباء اطول واكفأ !

ولقد كان الظن القديم السائد ان لسان الحرباء (وهو مجوف) ينطلق من فمها كما ينطلق مثلا اصبع القفاز

الجلدي المطوي اذا نفخناه بالهواء ، لكن تشريح لسان الحرباء قد اوضح انه محكوم بمجموعتين من العضلات .. مجموعة منها تمتد فيه طوليا ، وهي مكلفة بشده وطيه على هيئة أقرب بشكل الزنبرك المضغوط ، ومما يساعد على هذا الطي وجود عظمة طولية في داخل الفم ، وعليها يلتف وينضغط ، كما ينضغط الزنبرك مثلا على محور قلم .

الحرباء الآن ساكنة ومختفية بين الاغصان (وهي تتلون بلونها كنوع من التمويه والحماية) ، وهي تحرك عينيها في جميع الاتجاهات بحثا عن حشرة مناسبة تكون قد حطت على غصن قريب ، ولاشك انها خبيرة بحساب الزوايا والمسافات ، فان كان الصيد في مدى طلقة اللسان ، كان بها ، وان كان خارج المجال ، تحركت نحوه بحذر بالغ ، وتقف موجهة نفسها في وضع استعداد ، ولابد ان تثبّت نفسها ، كما تثبت مثلا الصاروخ على قاعدة ، او البندقية على كتف ، ولقد منحتها الحياة وسائل التثبيت ممثلة في ذيل يلتف على الغصن ، ويتثبت فيه بقوة ، وفي أصابع كأنها المشدات .

كل شيء الآن جاهز ومعد للانطلاق .. المسافة معقولة ، والزاوية مضبوطة ، والتوجيه متقن ، والعينان ترقبان ، والجهاز القاذف قد خرج من مخبئه الى مشارف الفم ، وكأنما هناك مدفع مضاد للطائرات او الدبابات قد ظهر من خندقه ، ليضرب ضربته .. وتدوس الحرباء الى « الزناد » ، والزناد يتمثل في المجموعة الثانية من العضلات التي تحيط باللسان دائريا (لقد كانت المجموعة الاولى من العضلات تمتد طوليا ـ كما ذكرنا) ، وعندما تنقبض قبضة شديدة وسريعة ، ينفرد اللسان ويمتد وكأنما هو قذيفة منطلقة ، او سهم مارق ، وفي لحظة خاطفة ايضا تشتغل العضلات الطولية في اللسان ، فتنقبض لتشده الى الداخل شدا ، وعلى طرفه اللزج يلتصق الصيد المرتقب !

العملية سريعة وخاطفة ، وقد تخفى احداثها على العين ، لانها تتم في ربع او عشر ثانية لاغير ، وبهذا لا يهرب الصيد ، أي ان عنصر المفاجأة والسرعة والتصويب يلعب هنا دورا هاما ، ومن وراء ذلك مراكز عصبية توجه وتقدر ، وتقبض عضلات ، وتبسط اخرى ، وكل شيء يسري باتقان تهون بجواره تصميمات البشر وما يدعون !

صيد بالأشعة تحت الحمراء

وعندما تطورت علومنا ، وتقدمت فنوننا ، توصلنا اخيرا جدا الى التصوير من بعد بالأشعة الحرارية ، او تحت الحمراء ، وطبيعي اننا لا نرى الأشعة الحرارية ، ولا الأشعة فوق البنفسجية ، لأن لعيوننا حدودا فيما ترى .. وهذه الأشعة او تلك ، لها موجات اطول واقصر من موجات الضوء المنظور الذي نرى به عالمنا .. وفوق هذه الموجات المنظورة او تحتها ، توجد اشعاعات كهرومغناطيسية كثيرة جدا ، وهي تنتشر حولنا ، لكننا نسير فيها كالعميان الذين لا يرون شيئا ، فالتي فوق طيف الضوء المنظور ، نسميها الأشعة فوق البنفسجية ، والتي تحته ، نسميها الأشعة تحت الحمراء ، وهذه نحس بها كحرارة على جلودنا ، لأنها هي بذاتها الأشعة الحرارية ، والحرارة محسوسة ، لكنها عن العين محجوبة .

ومع ذلك ، فلهذه الأشعة غير المنظورة اجهزة خاصة تسجلها ، ولقد تطورت فيما بعد الى الات تصوير او « كاميرات » تسجل لقطاتها في الظلام الدامس ، ثم زودت بها طائرات الاستكشاف او التصوير عن بعد ، لتعطينا خريطة دقيقة عما على سطح الارض من استعدادات عسكرية ، او تحركات ، او مصانع وسيارات ، وتكشف لنا أيضا الثروات المدفونة في باطن الارض ، أو حتى أسراب الأسماك السابحة في البحار والمحيطات ، ودعك اذن من الغواصات ، ذلك ان كل شيء يشع حرارة في الوسط الذي يسبح فيه (والسمك يشع لأن حرارته اعلى من حرارة الماء) ، لابد ان يظهر على الافلام الحساسة للاشعة تحت الحمراء ، وهكذا اصبحت هذه الوسيلة العلمية الجبارة بمثابة العين الضخمة التي ترى مالا يراه البشر .

لكن .. ما دخل هذا بموضوع تلك الدراسة ؟ .. او ليس ذلك خروجا عن المضمون ؟

ليس ذلك حقا ، لأن الفكرة التكنولوجية المتطورة التي ذكرناها ، ليست ـ في الواقع ـ جديدة ولا مبتكرة ، بل هي قديمة جدا ، ربما قدم الحشرات الطفيلية التي ظهرت على هذا الكوكب منذ مئات الملايين من السنين .

ثم ان هذا الموضوع طويل جدا .. ومثير جدا ، وحتى لاتتشعب بنا فيه السبل ، دعنا نقصر حديثنا على واحد من الكائنات .. وليكن ذلك « أم جلاجل » !

و« أم جلاجل » نوع من الحيات ، ولقد سميت بهذا الاسم لأنها تصدر صوتا ضعيفا يشبه جلجلة الأجراس .. وليس ذلك مهما بقدر ما يهمنا ان نشير الى ان هذه الحية قد امتلكت عينا حرارية ، بالاضافة الى عينيها اللتين ترى بهما في الضوء العادي كما نرى ، ولقد كان من الممكن ان ترى في الظلام الدامس عن طريق الأشعة

تحت الحمراء (غير المنظورة) كما ترى الحية . لو أننا امتلكنا عينا ثالثة حرارية . ومع فنحن نمتلك هذه العين حقا . لكنها اختفت داخل امخاخنا . وما عادت تظهر على جبيننا . وظهرت في المخ على هيئة غدة في حجم بذرة الصنوبر . ولهذا سميت بالغدة الصنوبرية . ومع ذلك فان هذه العين الثالثة قد تظهر على جبين مواليد الانسان والحيوان في حالات نادرة للغاية . وتسمى علميا « السيكلوبية » نسبة لأسطورة يونانية قديمة تشير الى وجود آدميين بعين واحدة كبيرة على جباههم . ولهذا اطلقوا عليهم اسم « السيكلوبات » ـ اي ذوو العين الواحدة !

لا علينا اذن من كل ذلك . فالعين الثالثة التي امتلكتها « ام جلاجل » انما هي بمثابة « كاميرا » حية ترى بها في الظلام الدامس عن طريق الاشعة تحت الحمراء التي تشعها الكائنات الحية (او أي جسم ميت دافيء) .. وهذه العين ضرورية للحية . لأنها تسعى على رزقها في الظلام .

والتجارب التي قام بها العلماء توضح ذلك تماما .. ففي عام ١٩٥٢ قام عالم فسيولوجيا الأعصاب ت . هـ . بللوك بسلسلة من التجارب المثيرة في جامعة كاليفورنيا . وباختصار شديد نقول : ان بللوك قد طمس للحية عينيها بشريط لاصق وسميك . ونثر في داخل فمها مادة كيميائية تفقدها حاسة الشم والتذوق . ثم ان الحية لاتمتلك اذنين لتسمع بهما . فهي صماء لا تسمع (وهذه حقيقة عرفها العرب ايام الجاهلية . ورغم ذلك يظن كثير من الناس حتى وقتنا الحالي ان الحية تسمع . وهو ظن خاطيء) .

المهم ان بللوك قد وضع فأرا حيا في غرفة للمراقبة مع الحية الجائعة .. هذا في ركن . وتلك في ركن آخر . ووقف بللوك ليراقب . فلاحظ الحية وهي تقترب من الفأر الذي تكوم على نفسه . حتى اذا ما اصبحت المسافة بينهما عدة اشبار . طوت الحية جسمها كزنبرك .. واذ بها تنطلق نحو الفأر كقذيفة موجهة . لتصيب الهدف بدقة بالغة . فاذ بالضحية غنيمة بين فكيها الواسعين .

كيف رصدت « أم جلاجل » الهدف . رغم انها لاتسمع ولا ترى ولاتشم . ورغم ان العالم حولها مظلم صامت كظلمة وسكون القبور ؟

لقد تعجب بللوك لهذه النتيجة . واثارت اهتمامه أيما اثارة . فكان أن بدأ يفحص راس الحية فحصا دقيقا . فاكتشف نقرتين أو أخدودين صغيرين غائرين بعض الشيء . وكل نقرة منهما تقع على جانبي الرأس بين العين وفتحة الأنف . وعندئذ لمعت في عقله فكرة . فجرّع الحية . ثم طمس لها هذين الأخدودين . ووضعها في غرفة المراقبة . ومعها هذه المرة عشرة فئران . ومرت الأيام . والفئران في سلام !

اذن .. فنحن أمام حاسة جديدة تجعل الحية المعصوبة العينين ترى الهدف عن طريق الأشعة الحرارية التي تنبعث منه عن بعد .. ويجيء دور التشريح الدقيق . فيتضح ان هاتين النقرتين غنيتان بشبكة من الاعصاب الحسية . وفوقها غشاءان رقيقان اشبه بالمرآة المقعرة . فتجمعان موجات الأشعة تحت الحمراء . وتركزاها على ما تحتها من خلايا عصبية مركزة . ومن هذه الخلايا تنتقل نبضات الى مركز خاص في مخ الحية . فيترجم النبضات ويحولها الى صورة مرئية . فترى عالمها المظلم حيث نحن لا نرى . فليس لنا مالها !

تكنولوجيات أخرى كثيرة

لقد انتهت هذه الدراسة سريعا دون ان نقدم الا ثلاث ابتكارات بيولوجية من طوفان الابتكارات الذي تزخر به الكائنات الحية . وبها تسعى على ارزاقها . فهناك تكنولوجيات ذات تكوين فريد . واداء عظيم . وكفاءة عالية .. فمن الكائنات ما يستخدم اجهزة بيولوجية حساسة لتتعامل مع الجزيئات الكيميائية . أو الاشعة فوق البنفسجية . او الموجات فوق الصوتية . او تحت الصوتية او المجالات المغناطيسية . او النبضات الاليكترونية . أو التيارات الكهربية . وكأنما هي قد امتلكت اجهزة ارسال واستقبال تشبه اجهزة الرادار التي عرفناها حديثا .. الخ .. الخ .

كل هذا وغيره يشير الينا من طرف خفي أن الانسان لم يأت بجديد . وكل ما اتى به يتركز اساسا في تطوير ابتكارات قديمة قدم الحياة على هذا الكوكب . ولتصبح ملائمة له في حياته المعقدة والمتشابكة .. لكن حياة الحيوان وما ملك . لا تستلزم كل ما يطمع فيه البشر . وعليه يتصارعون .. فلقد تيسرت حياة الكائنات . باقل قدر ممكن من الامكانات . وبأعلى كفاءة من الاداء فلا تحتاج الى صيانة أو قطع غيار أو اصلاحات وما شابه ذلك . اذ تبقى فيها أجهزتها صالحة ما صلحت فيها الحياة .. وطوبى لها بأجهزتها الميسرة . وتكنولوجياتها المقننة . لتسير بها الحياة هينة لينة .. وكل جاء لما هو له ميسر » ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . ■■

الاسكندرية ـ د . عبد المحسن صالح

ما العلاقة بين الادب والعوز والحرمان . او بينه وبين الجدة وخفض العيش ولين الحياة ؟

الذين أدركتهم حرفة الأدب

بقلم : طاهر ابو فاشا

من احب موائد الطرائف واللطائف وأقربها الى نفسي كتاب « ثمرات الاوراق » لابي بكر بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموى ، وهو ـ كما يدل عليه عنوانه ـ حصاد لأطايب الاطلاع الواسع الذى يتميز به ابن حجة ، وكنت قد قرأته في مطلع الشباب فتصباني بجده ، تصباني بأعابيثه على السواء . وما زالت بالذاكرة صبابة منه تؤذن بالنسيان .. الى ان حمل الى البريد كتابا اعاد الى ايامه ولياليه ، وذيوله وهوامشه وحواشيه . فقد كتب الى الاديب محمد كامل غانم بدار المعلمين بدمياط في (دلتا مصر) يقول :

« .. قرأت في كتاب ثمرات الاوراق موضوعا تحت عنوان « حرفة الادب » خلاصته ان الادباء لا حظ لهم في الدنيا ، واستهواني هذا الموضوع فجعلت استعرض الشعراء والادباء على مر العصور لاقف على مدى اطراد هذه الظاهرة ، فتجمع لدى من الامثلة والنماذج ما اخشى ان تكون هذه الظاهرة قانونا فاحببت ان استرشد برأيكم ... الخ » .

كان هذا منذ سنوات غير بعيدة ، واذكر أنني كتبت اليه ازكي اتجاهه الى التماسه هذه الجواهر الادبية في مصادرها من كتب التراث وقلت له : ارجو ان تكون قد قرأت ابن حجة في كتابه الاصلي وليس في هذا المختصر الذى اصدرته وزارة الثقافة في اواخر الخمسينات ، وبخاصة بعد ان قام صديقنا الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم (عافاه الله) بتحقيق الكتاب وضبطه وشرحه وتحقيق ذيله ايضا وضمهما في مجلد واحد .

اما الكتاب الذى اصدرته الوزارة فليس اكثر من مختارات من الكتاب يخضع اختيارها لمقاييس اخلاقية غير فنية مما يدخل في باب ما يسمونه « الادب المكشوف » .

وعلى هذا الاساس حذفوا منه جميع القصص والاخبار والنوادر والمطايبات التي ذهب بهم الظن الى انها تخدش الآداب العامة وربما كانت هذه المحذوفات هي اطيب ما في الكتاب . وهم يفعلون ذلك في جميع كتب التراث التي يحاولون تيسيرها . وقد يكون هذا صوابا . وقد لا يكون ، فما زالت هذه القضية موضوع خلاف لم يحسم بعد .

حرفة الادب

وقد ورد القول عن (حرفة الادب) في الصفحة السادسة وما بعدها من نسخة وزارة الثقافة المصرية . كما ورد في الصفحة الثانية والعشرين من النسخة التي قام بتحقيقها والتعليق عليها الأستاذ ابو الفضل .

وقد حرص كتاب الوزارة على ضبط كلمة (حرفة) بكسر الحاء وسكون الراء ، وكذلك وردت مضبوطة في تحقيق ابي الفضل . وكذلك تتوارد على السنة الادباء والمتأدبين .

والذي نستظهره انها (حرفة) بضم الحاء وسكون الراء . لان الحرفة بكسر الحاء هي الصناعة والمهنة يحترفها الانسان ويتكسب منها ، ولا يستقيم المعنى بهذا الا مع تأويل يلجئنا اليه مجاز الحذف .. اما الحرفة بالضم فهي الحرمان وسوء الحظ ومن ذلك قول عمر بن الخطاب « لحرفة احدهم اشد علي من عيلته » . واذن فهي الحرفة بضم الحاء .. وأعرف ان بعض المعاجم يجيز كسرها في الدلالة على محارفة الادباء واكدائهم . ولكن هذا ليس بشيء لأنها بالضم نص في المعنى المقصود .

وقد شاعت هذه العبارة (ادركته حرفة الادب) في مقام الحديث عن محارفة الادباء وما يعترض حياة بعضهم من ظروف سيئة ، وكنت احسبها من المأثورات القديمة ، ولكنني لم اقع عليها فيما تيسر لي من مظان الادب الجاهلي . كما انني لم اعثر عليها في امثال العرب ، ولكننا نجدها فيما تلا ذلك من العصور الاسلامية في معرض الحديث عن سوء حال بعضهم ، فنسمع جحظة البرمكي وهو من الشعراء المحارفين الظرفاء يقول :

ما انصفتني يد الزمان ولا
ادركتني غير (حرفة الادب)
لا حفظ الله حينا سلكت
امي (ولا جاد الغيث قبر ابي)
ما تركا درهما اصون به
وجهي يوما عن ذلة الطلب

وكما قيل في رثاء عبد الله بن المعتز الذى بويع بالخلافة فلم يتم له الامر الا يوما واحدا :

لله درك من ملك بضيعة
ناهيك في العلم والعلياء والحسب
ما فيه لو ولا ليت فتنقصه
وانما ادركته (حرفة الادب)

ولكن هل صحيح ان الأدباء تدركهم الحرفة بالضرورة فيكدون ويتعرضون للحرمان وسوء الحال وهل يطرد بحيث يكون ظاهرة او قانونا كما يقول السائل ؟

قد لا تظهر هذه العلاقة اذا كان الاديب لا يتخذ من الادب مطية الى المال فقد يكون على قدر من اليسار والسعة يغنيه عن التكسب بادبه .

ولكنا اذا قررنا ان الادب فكر ورأى وموقف يخرج من بوتقة الصياغة الفنية فان أصحاب الافكار والاراء بعامة مستهدفون .. وبخاصة اذا كانت افكارهم وآراؤهم تعارض السلطة .

وقد ادى مصرع الخليفة الثالث والرابع الى انقسام المسلمين شيعا وأحزابا ، وترتب على ذلك ايغال السياسة بالادب ، وظهورها كغرض من اغراض الشعر ، وتعرض كثير من الشعراء ، لالوان من العسف والاضطهاد بسبب مشايعتهم لهذه الفئة او تلك ، ولكن هؤلاء ، على كثرتهم ـ كانوا قلة بالنسبة للشعراء الذين كانوا يظاهرون السلطة ، ويتمدحون الخلفاء والأمراء ، ويجعلون من الشعر مطايا للعطايا .

رحلة من الجاهلية

وكان التكسب بالشعر قد بدأ قبل ذلك في العصر الجاهلي على نحو ما . ونحن نرى شاعرا فحلا ضخما كزهير بن ابي سلمى ينقطع لمدح جماعة من سادة غطفان ، وبخاصة هرم بن سنان ، والحارث بن عوف فقد هزت شاعريته اريحيتها وتحملها الديات لاطفاء نار الحرب بين عبس وذبيان على نحو ما هو مبسوط في مظان التاريخ الادبي . فاستنفد في مدحها اكثر شعره واجوده ، وبسط له هؤلاء المدوحون ايديهم واغدقوا عليه ..

وكان شاعرا محمودا حكيما .. وكان عمر بن الخطاب شديد الاعجاب به ، وكان يسميه شاعر الشعراء .. ومما يؤثر انه قال لبعض أولاد هرم ، : أنشدني بعض ما مدح به زهير اباك ، فانشده :

دع ذا وعد القول في هرم
... ... الابيــــــات

فقال عمر : ان كان زهير ليحسن القول فيكم . فقال : ونحن والله ان كنا لنحسن اليه العطاء ، فقال عمر : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما اعطاكم .

ومن هذا ما يحكي ابو الفرج من ان عمر قال لابن زهير . ما فعلت الحلل التي كساها هرم اباك ؟ قال : ابلاها الدهر . فقال عمر : لكن الحلل التي كساها ابوك هرما لم يبلها الدهر .

وممن تكسبوا بالشعر ايضا في الجاهلية النابغة الذبياني كان يمدح النعمان واباه وجده ، وحظي عندهم حتى قيل انه كان يأكل في آنية الذهب والفضة .. وكان اثيرا عند النعمان . ومن خاصة ندمائه الى ان وقعت بينهما جفوة لا يعنينا هنا تمحيص اسبابها . فقد غضب عليه النعمان وتوعده ، وهرب النابغة الى قرية ثم شخص الى ملوك غسان بالشام ، فامتدحهم ، ووصلوه ولكن الحياة لم تطب له بعيدا عن النعمان . فارسل في الاعتذار اليه قصائد تعتبر من اروع ما وقع في هذا الباب ومنها قصائده الثلاث المشهورة : البائية ، والذالية ، والعينية .

ان هذا يذكرنا بما وقع لأبي الطيب المتنبي لما غاضب سيف الدولة وخرج هاربا من حلب حيث قادته مطامحه الى كافور الاخشيدي في مصر ، ولكنه كان دائم الحنين الى ايامه مع سيف الدولة في حلب ، فلما تخوتته اماله في مصر خرج منها بليل وطوحت به الاقدار ، وانقطعت اسباب عودته الى سيف الدولة ، فقد تعرضت له سرية من الاعراب اثناء منصرفه من عند عضد الدولة في شيراز وانجلت الواقعة عن قتله .

اما النابغة فقد كان حظه مع النعمان احسن من حظ المتنبي مع سيف الدولة فقد قبل النعمان عذره ، وعفا عنه وامنه واستنشده .

ومن هذا يتضح لنا ان الكسب بالشعر قديم . بدأ في العصر الجاهلي ولكنه لم يتسع ويصبح ظاهرة الا في العصور الاسلامية التالية فكان الشعراء يركبون متون القوافي الى اليسار والجدة .. حتى مع الاستغناء ، وقلة العيلة وعدم وجود الحاجة التي تلجئهم الى ابواب الممدوحين ، واعتبر هذا بما نراه في حياة « سلم الخاسر » الذى انقطع لمدح البرامكة . ولما مات ترك وراءه مائة الف دينار وليس له وارث ، وفيه يقول ابو العتاهية .

تعالى الله ياسلم بن عمرو
اذل الحرص اعناق الرجال
هب الدنيا تجيء اليك عفوا
اليس مصير ذاك الى الزوال

واذا انت تصفحت دواوين الشعراء في هذه العصور وجدت ان المدح يأخذ منها اكبر مكان .. وكانت هذه المدائح تنصبي الخلفاء والامراء ، وتبهرهم وتهز اريحيتهم فقد كانوا عربا يجيدون العربية ، ويتذوقون الشعر ، ويجيزون عليه ، ويخلعون على الشعراء ويطرقونهم .

فلما انحلت عرى الدولة الاسلامية وتفككت وحدتها ، وانقسمت دويلات وامارات ووثب الى الحكم غير العرب ، واستعجم السلاطين والامراء ممن لا يحسنون النطق بالعربية ولا يتذوقون جمالها ، فقد الشعر مكانه في بلاطهم .

ومن بوادر ذلك ما يروى في شذور الادب عند ما مدح المتنبي « ابن زريق الطرسوسي » بسينيته المعروفة :

هلاّ برزت لنا فهجت رسيسا
ثم انثنيت وما شفيت نسيسا

فوصله عليها بعشرة دراهم !

عشرة دراهم فقط وعندما راجعه بعضهم وقال له : ان شعره حسن .. قال ما ادرى احسن هو ام قبيح ولكني ازيده لقولك هذا عشرة دراهم اخرى .. فكانت صلته عليها عشرين درهما .

ويقول الثعالبي انه لما مدح « ابن منصور الحاجب » بقصيدته البائية :

بابي الشموس الجانحات غواربا
اللابسات من الحرير جلاببا

وفيها يشكو حاله . ويستدر عطاءه قائلا :

حال متى علم ابن منصور بها
لاتى الزمان الى منها تائبا

ومع هذا لم يعطه عليها الا دينارا فسميت القصيدة الدينارية .

ولك ان تقارن حاله هنا بحاله في حلب ، عندما قدمه امير العشائر حمدان الى سيف الدولة الحمداني وهو امير عربي وشاعر ايضا ، فقد درت له اخلاف الدنيا ، ولقي عنده الحفاوة والاكرام .

عندما وثب الاعاجم الى الحكم

ان هؤلاء الاعاجم من اعلاج التركمان والديالم

والمماليك ومن اليهم ممن وثبوا الى دست الحكم ، وتمكنوا من السلطان . كانوا لا يتكلمون العربية أو لا يحسنون الكلام بها . وبالتالي لا يتذوقون جمالها .. ولا يقدح في هذه العمومية ميل بعضهم الى الادب فهذا هو الشذوذ ، وليس القاعدة . ولانهم لا يتذوقون الشعر فقد الشعر مكانه في بلاطهم ـ كما نقول ـ ، اى انه فقد جهة التلقي التي كانت الوسط الذى يقال فيه وينشد .. ومن ثم اضطر الشعراء الى البحث عن سبل اخرى للعيش غير التكسب بالادب .. ولم تكن الجماهير في هذه العصور وسطا يمكن ان يعيش عليه شعراء الفصحى ويلمعوا فيه فقد كانت الأمية والجهل والظلام والظلم في هذه العهود حجابا كثيفا بين الجمهور وبين الادب . وكان الادب يومئذ قشرة سطحية من المنظومات الشعرية فلم تكن هناك القصة ولا الرواية ، ولا التمثيلية التي تمس حياة الجماهير وتشدهم اليها .. وكان ادب الفصحى يومئذ عماده الشعر ، ثم كان نوعا واحدا من انواع الشعر الثلاثة فقد كان شعرا غنائيا ذاتيا يدور حول المدح والوصف والهجاء والرثاء .. الى أخر هذه الاغراض .

ولكن الشعب الذي انصرف عن ادب الفصحى الرسمي لم يعش فراغا أدبيا ... لان الشعوب لابد ان تتنفس ، وان تكون لها فنونها وآدابها . ولهذا حدث في هذه العهود تفارض عجيب يعتبر ظاهرة تسترعي لها الانتباه ، ففي الوقت الذى كان ينحدر فيه ادب الفصحى الرسمي التقليدي ، كان ادب العامية الشعبي يزدهر وينمو . فظهرت القصص والملاحم الشعبية وظهر خيال الظل ، والشعر الشعبي يتغنون به او يرسلونه أرسالا .

وهكذا لم يجد شعراء الفصحى الامراء الذين يستنشدونهم ولا الجماهير الذين يعتمدون عليهم ، فخملوا وخملت صناعة الشعر في ايديهم وركدت ريحها ، وبارت سوقها . وضاقت بالشعراء سبل الرزق واضطروا الى امتهان مختلف الحرف والصناعات فكان منهم الجزار والبزاز ، والسراج والكحال والحمامي .. بل والقران ايضا كمحمد بن وهيب الفارسكورى القران ، المعروف بالحشاش .

ومن الطبعي ان يفشل اكثر هؤلاء في حرفهم هذه ، لان عرق الادب يستحوذ على اكبر اهتماماتهم ، ويصرفهم عن تركيز جهودهم لحرفهم وصناعاتهم ولانهم كانوا يمارسون هذه الحرف وهم ساخطون عليها يرونها مهانة لهم ، وان احترافهم اياها من المهازل التي تحط باقدارهم ففشلوا ماديا ، كما فشلوا ادبيا ، وحورفوا ، فعضهم الفقر ومستهم الحاجة وكلحت في وجوههم الايام ووضعوا ايديهم على العلاقة بين الادب وبين الحرفة اى الحرمان ، وقال قائلهم :

مالي خملت وضاع مكتسبي
هل ادركتني حرفة الادب

وقد تغيرت هذه الصورة في العصر الحاضر الى حد كبير بعد ان دخلت القصة والدراما في اغراض الادب العربي . ووجد الاديب المعاصر جهة التلقي في جمهوره من القراء او المستمعين ، او المشاهدين لاثاره على المسرح او على شاشة السينما او التلفزيون . وكلما اتسعت دائرة القراء ، اتسعت دائرة النشر بين الادباء ، وابتلت ايديهم بعد جفاف ، ووجدالادب سوقا نافقة .

ومن كل ما تقدم نرى ان العلاقة بين الادب ، وبين ما اصاب بعض الادباء ليست قاعدة تطرد ايجابا او تطرد سلبا ، واذا عددت العشرات من الأدباء ، الذين نكبوا في حياتهم ، وجدت الى جانب هؤلاء المئات من الادباء الذين سعدت حياتهم ورفهت معيشتهم ، وابن حجة الحموى نفسه مثل لهؤلاء فقد رفعه الادب من عامل حرير عقاد الى قمة الوزارة ، فقد كان على ديوان الانشاء ، وكان من خاصة السلطان المؤيد ، واقرب المقربين اليه .. وعندما ترك مصر وعاد الى حماه عاش حياة رخية ادبية خصبة الى ان توفاه الله في الثلث الاول من القرن الخامس الهجرى .. وما كان للادب ان يكون لعنة تصيب الادباء .

نعم ليست العلاقة واضحة بين الادب وبين فقر بعضهم واكدائهم . فلم يكن الادب لعنة اصابتهم .. ولو انك ذهبت تستقرىء حياة هؤلاء المكدين من الادباء لوجدت لاكدائهم اسبابا اخرى ترجع الى سلوكهم والى نوعية علاقاتهم بالمجتمع و .. وللحديث صلة . ■■

القاهرة ـ طاهر ابو فاشا

السعادة

× لا يمكن أن يكون الأناني سعيدا ، فإن السعادة كالقبلة .. لا تشعر بلذتها الا اذا تبادلتها مع سواك .



عمّي في أمريكا ورينيه في فرنسا

بقلم : الفاروق عبد العزيز

ثلاث حيوات وثلاثة طموحات ...

جان ورنييه وجانيت : رجلان وامرأة ... ينتمون الى ثلاثة اجيال مختلفة وثلاث بيئات مختلفة ، ولدوا في ثلاث بقع مختلفة في فرنسا .. بقع مختلفة في اسلوب التفكير ونمط السلوك ودرجة التطور الاقتصادى والموقع الجغرافي ... كان من الممكن لحياة كل منهم ان تمضى في طريق مواز لحياة الآخر .. طرق متوازية لاتلتقي ابدا .. ولكنهم يجدون انفسهم ، ذات يوم ، وجها لوجه ...

جان وجانين : كل يريد شيئا مختلفا ، ولكن طريقيهما ـ اللذين يمشيان في خطين متوازيين ـ يلتقيان ... وتتعارض الرغبات ويسلكان كالفئران البيضاء في معمل العالم البيولوجي

هنري لابوريه : الفرار الى الوهم .

قدر لهذه الشخصيات الثلاث ان تلتقي ، وجها لوجه ، في معمل عالم الاحياء الفرنسي الاشهر هنري لابوريه وعلى شريط السينما في احدث افلام المخرج الفنان الفرنسي الكبير الان رنيبه : « عمي من اميركا » .

« قرأت كتب هنري لابوريه عن السلوك . ثم راودتني فكرة مالبثت ان ذهبت الى منتج لاحدثه عنها . ان الافلام والمسرحيات تخلق عادة من رغبة في تطوير فكرة ونظرية من خلال شخصيات او حكاية ما . وتساءلت : الن يكون من المثير ان افعل العكس تماما ؟ اعني ان اضع حاجزا فاصلا بين الفكرة والرواية بما يسمح لكل منهما ان توجد وحسب . كما لوكان المرء يلعب بالمرايا او ينسج خيوطا مختلفة في سجادة .

وما دمت قد التقيت بفكر أصيل ومثير للاهتمام ، أفلن يكون ممتعا أن أجمع في نسق واحد بين تأملات عالم احياء ذي خبرة خاصة في السلوك البشري وبين صفحات من حياة او اكثر لأناس عاديين ؟ ولنتأمل اى نوع من التفاعل يمكن ان يتحقق بينهما » .

وهذا هو مافعله الان رنيبه بالضبط .

لكي يصبح شيئا هاما

جان (الشخصية الاولى ـ ولد في عام ١٩٢٩) نشأ وتربى في عالم اختفت معالمه اليوم ـ البورجوازية الريفية التي ازدهرت فيما بين الحربين . انه يريد « النجاح » ، يريد ان يصير « شيئا » هاما سواء كان ذلك في الادب او في السياسة او في كليهما ـ من الصعب ان يتحقق ذلك . وهدفه لايمكن تحقيقه الا في مكان واحد هو باريس .

رنيبه (الشخصية الثانية ـ ولد في منتصف الاربعينات) ينحدر من اسرة مزارعين في انجو . لكي يصير « شيئا » في نظر نفسه كان يتعين عليه ان يهجر مزرعة أسرته وأن يبحث عن عمل في المدينه . ولكنه يفر من الأزمة التي حاقت بالزراعة لكي يقع في شباك ازمة اخرى بعد خمسة عشر عاما في صناعة النسيج . فقد اشترت شركة عالمية المصنع الصغير نسبيا الذي يعمل فيه . وبعد ان كان يعتبر موقعه مأمونا بدأ رنيبه يشعر

ملصق فيلم « عمي من اميركا » العم هو جودو في مسرحية صاموبل بيكيت (كاتب العبث الشهير) .





رنيه الشخصية الثالثة : قوي بدنيا ولكن امكانياته العملية محدودة . يلتقي به رجل مهووس في الشارع صدفة . يمسك بخناقه ليجسد عجزه عن مقاومة العالم الخارجي . يلتقي بالمهووس على قارعة الطريق ويمضي لكي يفر من الصراع المحتوم مع الخبراء العالميين الجدد .

بالتهديد القادم . فالمطلوب خبرة جديدة لايملكها رنييه ويعاني رنييه صحيا وتعاني معه عائلته .

جانيت (الشخصية الثالثة - ولدت في عام ١٩٤٨) ابنة عامل معادن . انها تبحث اكثر من اي شيء آخر عن تغيير جوهري وشامل في حياتها . ربما من اجل هذا السبب قررت أن تكون ممثلة رغم معارضة والديها . وبفضل نجاح قصير الامد في مسرح صغير تلتقي بجان الذي اصبح مدير الاخبار في الاذاعة الفرنسية .

ويقعان في الحب . ويهجر جان عائلته من اجل جانيت التي يراها مفعمه بالطاقة والحيوية اللتين يفتقدهما في زوجته آرليت . ولكن قوة آرليت كانت تكمن فقط تحت السطح . ولكي تنقذ حياتها الزوجية ، تحاول التفريق بين جان وجانيت .

كل يحاول ان يحقق شيئا يعتقد انه بالغ الاهمية بالنسبة لوجوده . وكلما اشتدت الحاجة او اقترب تصور الحل الذي يعني الخروج من القفص ، دخل بين الاحداث عالم الاحياء لابوريه يعلق ويشرح مستعينا بحيوانات التجارب من ارانب وفئران .

جان ورنييه وجانيت - ثلاثة يكافحون لتحقيق اهداف قد تكون حقيقية وقد تكون وهمية . النجاح يعني السعادة والاخفاق يعني الفرار من الاخطار التي قد تكون حقيقية او وهمية . انهم يقاسون ويواجهون التعاسة . انهم ، باختصار ، يعيشون . وهم لايفعلون شيئا اكثر مما يفعله اي كائن حي آخر .

حكاية عادية شاهدتها عشرات العشرات من المرات في عشرات العشرات من الافلام . وانت واحد منهم .

ولكن ألان رنييه يستخدم نتائج تجارب هنري لابوريه في علم الاحياء على نحو بالغ الشاعرية . ولا تعني الشاعرية هنا رومانسية العرض التي تلازم بعض المقاطع بالطبع ولكنها تعني الرؤية المثيرة المتكاملة للسلوك الانساني على نحو فريد . فالوعي بما تراه امامك من الفواصل المحسوبة بمنتهى الدقة (المعروفة عن رنييه) والتي يظهر فيها هنري لابوريه معلقا ، يفصل حالة الاندماج غير الواعي مع الشخصيات التي يتعرف كلٌ منا على نفسه في واحدة منها ..فيا تكاد تندمج مع صراع ونجاح واخفاق هذه الشخصيات حتى تجد نفسك في المعمل وكائنات حية اخرى تسلك مثلنا .. وتضحك رغما عنك : « بقدر ما اعلم فان « عمي من امريكا » فيلم مثير للضحك ، نوع من الكوميديا . من المؤكد انني اود لو ضحكت الناس . « ويضيف رنييه » وبرغم ذلك فان المشاهدين هم الذين سيقررون بانفسهم .

وهذا مايحدث بالفعل . فبعد فترة سكون من ظهور لابوريه يبدأ المشاهد في تأمل نتائج أبحاث هذا العالم ، ويتساءل لماذا وكيف نكره ونحب وما الذي يحدث في الخلايا والاعصاب الدقيقة ، ليس فقط في حالة الجوع او العطش ولكن ايضا عندما تكون سعداء او تعساء .

وكعادته في كل افلامه لايجزم رنييه بهذا التفسير او ذاك ، ولا « يحرض » المشاهد على تبني هذا الموقف او ذاك او التعاطف مع هذه الشخصية او تلك . انه يقدم لك صفحات من حياة هذه الشخصية وتلك ويقول لك .

اما هنري لابوريه فقد عبر عن اهتمامه بالكيفية التي يؤدي بها العقل وظائفه وقال « انني جراح ومشرح

(بتشديد الشين) وبالتالي على علاقة بما هو بصري . انني الخيل دائما الخلايا وكل مكونات الجسد في شكل صور . انني احب الرؤية واعتقد انني ارى كل شيء .

لهذا كان من المتيسر ان يقوم ذلك التعاون الوثيق بين لابوريه ورنيه . الاول يحب الصور والثاني مغرم بالذاكرة وبوظائف العقل وانعكاسات ذلك على السلوك الانساني . لابوريه يقول بان « العقل الانساني لم يتطور بيولوجيا بالفعل خلال ال ١٥ الف سنة الاخيرة . فاما ان تسيطر أو يسيطر عليك ، هناك نوعان من ردود الفعل عندما تجابه هذا الموقف : الكفاح او الفرار .. وفي حالة النوع الانساني الذي يملك القدرة على ان يتخيل ويتوهم فإن العقبة التي تعترض كلا ردي الفعل كيف ولماذا في شكل اشبه شيء بمعادلة رياضية محسوبة . ولكن الفارق الوحيد هنا انك امام عمل فني مفعم بالعاطفة تظنه واضحا كمعادلة رياضية او كنتائج بحث معمل ولكنه في النهاية يخدعك إنه ليس كذلك . او قل انه مزيج من غموض الفن ووضوح العلم .. كالحياة ذاتها . وقد قال ذات مرة « انني اسأل نفسي سؤالا واحدا عندما اصنع فيلما ، في كل خطوة وفي كل لقطة : هل يمكن ان يكون هذا مفهوما ! » ولحسن حظ عشاق فن رنيه فقد جاء « عمي من امريكا » مفهوما في هذه الحدود .

ولكن لماذا وضع رنيه « عمي من امريكا » عنوانا لفيلمه ؟

قال رنيه : « كنت افكر جزئيا في « جودو » صامويل بيكيت ، شخص ما منتظر طوال الوقت ولكنه لايظهر ابدا . وهذا يعطي المشاهد شعورا بعدم الارتياح . ان هذه الشخصيات كانت تملك كل اسباب السعادة ومع ذلك فهي تعسة . لماذا ؟ » .

في حالة الفشل ـ تسمى بالقلق الذي يسبب بدوره كل انواع الشرور : قرحة المعدة ، والسرطان ، والجنون ، والموت .. الخ هذا مالم يتمكن المرء من تصريف القلق في نزعة عدوانية تجاه بني جلدته وهذا ما تعلمناه من الفئران البيض » .

حول الفن التشكيلي

تتضمن قائمة افلام الان رنيه (ولد في عام ١٩٢٢) ثمانية افلام قصيرة وثمانية افلام طويلة . وافلامه القصيرة هي « فان جوخ » (١٩٤٨) و « جوجان » « (١٩٥٠) و « جيرنيكا » (١٩٥٠) و « التماثيل تموت ايضا » (١٩٥٣) و « الليل والضجيج » (١٩٥٥) و « كل ذاكرة العالم » (١٩٥٦) و « اغنية ستيرين » (١٩٥٨) و « بعيدا عن فيتنام » (١٩٦٧) بالاشتراك مع يوريس ايفانز وجودار وليلوش وكلاين وفاردا . وواضح ان اهتمامات رنيه ترتكز حول الفن التشكيلي لابعاده المجرد وللمتعة بصرية فقط ، بل كأسلوب للحياة ايضا . وواضح ايضا اهتمامه السياسي .

أما افلامه الطويلة فترتبط برباط عضوي وثيق بما عرف بحركة الموجه الجديدة الفرنسية التي اعلنت في اواخر الخمسينات « دستورا » جديدا للفن السينمائي ، بدا صادما لكافة اشكال التناول السينمائي حتى ذلك الحين . واعتبر رنيه مع جودار اهم « انبياء » هذه الحركة التي تركت تاثيرا هائلا على معظم الحركات التجديدية في السينما المعاصرة . وقد طرح رنيه من خلال افلامه الطويلة « هيروشيما ياحبيبتي » (١٩٥٩) و « العام الماضي في ماريتباد » (١٩٦١) و « موريل او اوقات العودة » (١٩٦٣) و « الحرب انتهت » (١٩٦٦) و « احبك .. احبك » (١٩٦٨) و « ستافسكي » (١٩٧٤) و « بروفيدانس » (١٩٧٦) و « عمي من اميركا » (١٩٨٠) ـ طرح رؤية للعالم تقوم على تحليل الذاكرة والوعي الانسانيين من خلال موضوعات تتفاوت بين الحب والسياسة وتتنوع بين الهم الفردي والهموم الجماعية . كما ابرز في هذه الاعمال معالجاته الجديدة (مغامرات في الواقع) للزمن السينمائي والايقاع ووحدات الزمان والمكان والحدث ولتكوين الصورة وتركيب شريط الصوت وعلاقات الظل والضوء .. الخ . وقدم بذلك واحدة من اغنى التجارب السينمائية في العالم واكثرها ثراء وصدقا .

« .. عندما اصنع فيلما احاول في الحقيقة ان اظل معرضا « لكل انواع المؤثرات الخارجية والتي تتفاعل بتلقائية اثناء كتابة الفيلم وتصويره . فاذا كان لها مكان بالفيلم .. كان بها واذا لم يكن فانها مرفوضة . انني اعتبر نفسي نوعا من « الوصي » على الفيلم . انا لست المسؤول انما المسؤول هو الفيلم ذاته » .

واذا كان الاختصار جائزا ، نقول ان هذا هو جوهر الرؤية في السينما الجديدة ـ الجديدة دائما .. أن تدع المشاهد يبني فيلمه الخاص من بين مجموعة العناصر المعطاة ـ تدعه يواجه الفيلم بنفسه و « يمتع نفسه اذا استطاع في ذات الوقت » .

وهذا هو ماتوفره لنا بالفعل افلام الان رنيه . ■■

الفاروق عبد العزيز

يارب ان عظمت ذنوبي كثرة

فلقد علمت بان عفوك أعظم : – أبو نواس



أبونواس شاعر ظلمه قومه

بقلم : الدكتور رجاء عيد

شخصية كثر حولها اللجج وطال الخصام ، لقد شغل « النواسي » القدماء والمحدثين وبلغ من فرط الاهتمام به أن تناول البعض تركيبه العضوى والنفسى محاولين الوصول عن طريقها نحو مزيد من الفهم له .

في « الأهواز » احدى مدن فارس ، ولد الحسن بن هانيء في منتصف القرن الثاني للهجرة في قلب أحداث الاضطرابات التي صحبت انتقال الحكم من الأمويين الى العباسيين ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى مات أبوه بعد أن ضاع رزقه في الجيش الأموي اثر انتقال الأمر للعباسيين .

وتبدأ رحلة البحث عن الحياة للأم ولطفلها الوسيم التي راحت تدلله وتعامله كفتاة جميلة . هاهي ذي ترحل به وقد تعلق بها في ملابسه شبه الأنثوية وتتموج خصلة شعر تنوس على جبينه وربما علق به لقبه « النواسي » أو كنيته « أبو نواس » .

هاهي ذي بالبصرة حيث الحياة تصخب بالمتناقضات : مجالس العلم والفقه ومجالس الزهاد والمتصوفة ، بجانب مجالس اللهو والخمر والمتاع ، بجانب المؤامرات والدسائس والعصبيات .

وها هو ذا النواسي يختلف الى حلقات الدرس بالمسجد يسمع من أبي عبيدة أخبار العرب ، ويأخذ من أبي زيد غرائب اللغة ، ومن خلف الأحمر نوادر الشعر .

يشب الفتى الذكي وتبدأ رائحة ثقيلة تتسلل الى مشاعره . تلميحات وغمزات عن « أمه » وأن بيتها ملتقى طالبي المتعة من الرجال والنساء وتبدأ الصدمة الأولى في حياة أبي نواس حيث تدفعه في مستقبل أيامه الى تعقد علاقاته بالمرأة ، ولعل رحلة أبي نواس الى الكوفة كان يحاول فيها أن ينسى تلك الأحاديث التي تؤذيه ولعل رحلته الى البادية ، على الرغم من أنها كانت لمخالطة العرب وامتلاك ناصية اللغة على يد الفصحاء ، لم تكن تخلو من محاولة أخرى للنسيان .

ويغرق أبو نواس نفسه في مختلف فنون المعرفة عله يؤكد نفسه ويلتمس ما يتيح له تحقيق ذاته في مجتمع يتفاخر فيه العربي على غير العربي وحيث تلعب الشعوبية دورها القبيح ردا على اسراف العرب في اعتزازهم بأنفسهم ، فنجد النواسي يتعلم اللغة والفقه والحديث والقراءات والتنجيم بل ويتعلم الضرب على العود ودق الدفوف والعطارة والتجارة

وتكتمل للفتى ثقافات العصر ، وقد صقلته اقامته مع بني أسد في البادية فأصبح يملك أداته اللغوية ، ولا يطيل الاقامة في البصرة ولكنه قد تأثر بتياراتها الفكرية والثقافية المختلفة فقد كانت البصرة يغشاها جماعات متعددة من الهند والفرس وتختلف اليها ثقافات البلاد الأخرى

هاهو ذا النواسي في بغداد ، وعن طريق الفضل بن الربيع يعرف الطريق الى « الرشيد » وبغداد في تلك الفترة اجتمع لها الثراء والترف حيث ورثت الحضارة الساسانية والكلدانية والبيزنطية ، ودفعت كثرة الأموال الى مزيد من الترف ، ولكن هذاالمتاع كان وقفا على طبقة اجتماعية معينة ، بينما كانت الطبقات الأخرى تعيش في ضنك وشقاء حتى ليذكر المسعودي في كتابه (التاج في أخلاق الملوك) ، أن المنصور خلف حين توفي أربعة عشر مليونا من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم ، ولعلنا نذكر أن أبا نواس على الرغم من شهرته قد عاش في فقر وضنك معظم حياته .

من الحي اليماني

لقد شعر أبو نواس مثل كثير غيره بأن الظلم الاجتماعي يملك عليه نفسه ، فهو غير عربي ويحاول أن يجد له نسبا عربيا تارة عند اليمانية وأخرى عند النزارية كما في هذه الابيات التي يقول فيها :

وخمار طرقت بلا دليل
سوى ريح العتيق الخسرواني
فقال الى مدعورا يلبي
وجوف الليل مثل الطيلساني
وقال : أمن تميم ؟ قلت : كلا
ولكني من الحي اليماني

ونحس أنه ينقم على العرب هذا التعصب المقيت على الرغم من محاولاته التماس نسب عربي وقد قيل ان موقفه من رفض الحديث عن الاطلال كان في بعض منه من أثر ذلك ، بل وهذه أبيات أخرى له تؤكد احساسه بعدم رضاه عن فكرة الأصل العربي والنسبة لها ، يقول متحدثا في حوار بينه وبين الخمار :

فقلنا له ما الاسم قال سموأل
على أنني أكنى بعمرو ولا عمرا
وما شرفتني كنية عربية
ولا أكسبتني لا سناء ولا فخرا

لكن المجتمع في بغداد يلح الحاحا عنيفا على تقسيم الناس الى موال وعرب والآخرون يظنون بأنفسهم أحسن الظن . ولا يخلو الأمر بينهم من خلافات بين قحطانيين وعدنانيين وعرب شمال وجنوب وكل قبيلة تفاخر الأخرى ، ولم يقف الأمر عند هذا ، بل تعداه الى المنافسة بين أبناء البيت النبوي نفسه بين العلويين والعباسيين وكلاهما يتنافس على شرف النسب الى النبي ، ويبلغ من



عنف العصبية الى أن يظهر أول كتاب في علم الأنساب « لابن الكلبي » صاحب « جمهرة الأنساب » .

كل ذلك يثير في نفس النواسي مشاعر الاحساس بالغربة والتمزق والضيق بالمجتمع الذى ظاهره المساواة بين الناس كما يقول الدين مهما يختلف اللون والجنس ، وباطنه ـ ان لم يكن ظاهره أيضا ـ العصبية والتمييز ، ولعل ذلك ما كان يدفعه الى التنفيس في شعره بما ينال به العرب كما في بعض أبياته التي يتحدث فيها عن « الدين والحسب » كما يراه على طريقته الخاصة وذلك في قوله :

انما همتي غزال وصهباء كالذهب
انما العيش يا أخي حب خشف من العرب
فاذا ما جمعته فهو الدين والحسب
ثم ان كان مطربا فهو العيش والأرب
كل من قال غير ذا فاصفعوه فقد كذب

واذا كان أبونواس ينال من العرب في شعره فان ذلك انعكاس لنفسه الرافضة هذا المسلك الذى استشرى في عصب المجتمع العباسي ، وهو لا يملك دفعا لتلك المضايقات التي تهون من قيمه ، وهو اذ يهون من شأن تميم وقيس وغيرها فانما يهون من شأن تلك العصبية الجائرة :

واذا كان أبو نواس قد حاول فترة من عمره أن يلتمس له نسبا عند العرب حتى تستقيم حياته الا أنه وقد أدرك عقم المحاولة كان طبيعيا ومواتيا لشاعر نفسه أن يدافع عن الموالي وينتقص شأن العرب وبخاصة من يتعصب منهم بل جاوز به الأمر الى هجاء لمن أراد من الموالي أن يلتمس له نسبا عربيا .

لشد ما يعتمل في نفسه مشاعر متباينة دفعته اليها نظم اجتماعية غير عادلة ها هو ذا يهجو « الهيثم بن عدى » حين التمس لنفسه نسبا عربيا ، وكأنه يريد أن يدعو الموالي للاعتزاز بذواتهم كرد فعل طبيعي لعدم توفيقه فيما رغب فيه يوما من الناس نسب له .

يقول مخاطبا الهيثم وهاجيا له :

الحمد لله هذا أعجب العجب
الهيثم بن عدى صار في العرب
ياهيثم بن عدى لست للعرب
ولست من طيىء الا على شغب
اذا نسبت عديا في بني ثعل
فقدم الدال قبل العين في النسب
لله أنت فما قربى تهيم بها
الا اجتلبت لها الأنساب عن كثب
فلا تزال أخا حل ومرتحل
الى الموالي وأحيانا الى العرب

كيد الشعراء

تطارد النواسي سيرة أمه وتطارده أيضا عصبية مقيتة ، ونفسه القلقة تتألم وتمور فيها انفعالات الغضب الصامت والحزن الخفي والشعور بالنقمة على كل شيء ، لا يكاد يتركه أحد في هدوء ، فكلما تعلو شهرته الشعرية يزداد حساده والمتلمسون مثالبه ، ويبلغ من هذه الشهرة حدا جعل ابن منظور يقول : « ولم يبق شاعر في زمن أبي نواس الا وهو يحسده لميل الناس اليه وشهرتهم لمعاشرته ، وبعد صيته وظرف لسانه » .

لكن أصوات الكيد النفسي له تطارده على كل طريق ها هو ذا صوت أبان بن عبد الحميد اللاحقي يهتف :

أبو نواس بن هاني وأمه جلبان
والناس افطن شيء الى دقيق المعاني
والغمز واضح :

ولا يكتفي أبان بالنيل من أمه ، بل يتعداه الى أبيه الذى كان من سلالة زنجية فيقول فيه :

هانىء الجون أبوه
زاده الله هوانا

وتلاحقه أصوات السخرية الأليمة فيقول فيه الرقاشي :

واضع نسبته حيث اشتهى
فاذا ما رابه ريب رحل

ولا تكفي مطاردة الشعراء له ، ولا تكفي مطاردة سواهم من الناس ، بل ما أشد ألمه حين يقع في حب الجارية « عنان » ولكنها لا تلتفت اليه ، بل تغرى به الآخرين في قولها عنه ، ليصيحوا عليه :

أبو نواس اليماني
وأمه جلبان
والنغل أفطن شيء
الى حروف المعاني

أليست حياة نكدة ؟ انسان راهف الحس حسن الثقافة يتألب عليه الجميع ، يفتقد الى هذا الاحساس بالتعاطف الانساني الذى نحرص جميعا عليه . واذا كان شعره يلقى رواجا فان عائده من عطاءات انما لهذا المدح الذى يتكلفه لصاحبه . واذا هو مضطر الى أن يحدد مواضع الكلم لكل ممدوح حتى لا يقع في مؤاخذة ممدوح آخر ويضطر الى اعمال الفكر ليتخلص من مأزقه كما حدث عندما رحل الى مصر ليمدح والى الخراج بها « الخصيب » وكان مثله فارسيا ولم ينس أن يشير الى ذلك في قوله يخاطب زوجته حين هم بالرحيل الى الخصيب :

ذريني أكثر حاسديك برحلة
الى بلد فيه الخصيب أمير
اذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا
فأى فتى بعد الخصيب تزور
له سلف في الأعجمين كأنهم
اذا استؤذنوا يوم السلام بدور

وماذا بقى للخليفة الأمين إذا ؟ على النواسي أن يجيب على سؤال الأمين له : « اذا قلت في مدح الخصيب : اذا لم تزر أرض الخصيب فما أبقيت لنا ؟ لابد من اجابة حتى تظل المقامات في مراتبها والا فالفقر والسجن أو سواهما ينتظرك يا أبا نواس . وتتعطف عليه ربة الشعر فتلهمه أجمل رد في دفع التهمة عنه واذا هو يقول هذين البيتين اللذين أرضيا نفس الأمين ووهبا السلامة لأبي نواس . قال النواسي : أبقيت لك قولي يا أمير المؤمنين :

اذا نحن أثنينا عليك بصالح
فأنت كما تثنى وفوق الذى تثنى
وان جرت الالفاظ يوما بمدحة
لغيرك انسانا فأنت الذى نعنى

أين العزاء يا أبا نواس ؟ رجفة السؤال على اللهاة ، هل تنطع الصخرة ؟ حنان الأم وقد حرمه منذ الطفولة ان كان قد ذاقه أصلا فأمه قد تزوجت بعد موت أبيه بقليل واسمها يجلب عليه الكثير من الاذى . وهو ضائع في مجتمع شديد الاعزاز لمن يحفظ أسماء أجداده واجدادهم حتى يصل بهم الى مراعى القبائل العربية .

هروب الى عالم الخمر

فليكن الهروب ضخما وعنيفا ، وليتحد في هذا الهروب الآخرين وليلتذ بموقفهم منه وانه لموقف يدعو الى السخرية والبكاء أيضا . انه قد هرب الى الشراب والخمر يفرغ فيهما ثوراته الباطنة . ولكنهم لا يتركون له حتى هذا الهروب النفسي إنهم يشربونها أيضا الخلفاء والرؤساء وعلية القوم وسواهم ـ بل ان الخليفة « الهادى » عطل حد الشارب وتبعه في ذلك من خلفه من الخلفاء . واذا كان الجميع يشربونها ترفا ولذة ، فان النواسي له معها شأن آخر . انها عالمه الذى استكشف أنه يرتاح في ظلاله المسكرة من عذابات هجير المجتمع وما لقيه منه .

انها أمه الجديدة ترضعه لبانها الذى يستشعر فيه الحنان الفقيد وأماكن الخمر داره بعد أن أتعبه البحث عن دار تسمى « القبيلة » يعلق نفسه على أحد أفرعها .

يقول :

لطرسل مربعي ولى بقرى الكرخ مصيف وأمي العنب
ترضعني درها وتلحفني بظلها والهجير يلتهب
فلست أحبو الى الرضاع كما يحاصل الطفل مسه سغب

لكن المجتمع يحرص على مظاهر الأشياء ولا بد من مؤاخذة من يشرب الخمر مادام هينا على الناس ولعل نباهة شأنه في الشعر تكسبهم منزلة في لومه .

هاهو ذا ابراهيم النظام رئيس احدى فرق المعتزلة يلومه على شرب الخمر . لكنك يا ابراهيم لا تعلم كيف غرق معظم القوم في انهارها ولا تدرى أنها لشاعرنا دواؤه الروحي يغرق في نهره أحزانه وهمه الثقيل . يكون رد

أبي نواس العنيف عليه :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء
وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها
لو مسها حجر مسته سراء

الخمر شكاته واليها يفر وهو يعترف في نواح نفسي بذلك قائلا :

رأيت الليالي مرصدات لمدتي
فبادرت أيامي مبادرة الدهر
رضيت من الدنيا بكأس وشربه
تحير في تفضيله فطن الفكر

ولا طيب لرائحة الدنيا في صحوه ففيه هجير نفسه وعذابات ذاته وحياته مع الناس موت وموته في الخمر حياة :

أموت اذا أزال الكأس عني
وأحيا من بديه اذا سقاني

وتستمر اعترافات أبي نواس لتبين عن نفس أسيانة لا تنهك لأنها تشرب بل تغسل حزنها الأليم في ذهول الكأس وخدر الشراب :

لا تخشعن لطارق الحدثان
وادفع همومك بالشراب القاني
فاذا الهموم تعاودتك فسلها
بالراح والريحان والندمان

ولعلنا نلحظ هذه المدات المتتالية في البيتين كأنها آهات ذبيحة تبين عن نفس كظيم .

وتزداد آلام أبي نواس فهو قد نهي عن شرب الخمر فاذا هو رهين السجن ، وتطول أيام سجنه ويرسل القصائد الى الخليفة يستعطفه ويتشفع له بعض وجوه القوم ، ويخرج من سجنه اكثر حزنا وأمض ألما . هؤلاء لا يدرون مأساة جراحك يا أبا نواس . إنهم خليون لا يعرفون سهر الليل هما وخليون من أوجاعك يسألون لم تهوى الخمر ؟ ألا تدرون انها عالمي المتعاض ؟ ولكن الأمر كما يقول ابو نواس :

وما يعرف الليل الطويل وغمه
من الناس الا من تنجم أو أنا
خليون من أوجاعنا يعذلوننا
يقولون : لم تهوون ؟ قلنا لذنبنا
فلو شاء ربي لابتلاهم بما به
ابتلانا فكانوا لا علينا ولا لنا

الخمر .. الى وقت المنية

لم يكن ابو نواس سوى هذا الشاعر الضجر بكل شيء ، يحاول في عتمة الاشياء ان يتلمس مكانا غير المكان وزمانا غير الزمان ، وفي اصطناع المكان والزمان يحاول ان يسفح جراحه النفسية :

لاتقطعن نياط الهم بالكاس
فليس للهم مثل الكأس من آسي

اما المكان الذي احس فيه النواسي بذاته وخلوصه من غمز الغامزين ، فهو اما حانة في نواحي بغداد ، او محلة بالكرخ ، او بجوار الاديرة المقامة على طرق الشام والعراق ، او تلك الدساكر المبعثرة في نواحي بغداد وارباضها .

ان للنواسي قصيدة تسمى بحق« اسبوع الخمر » حيث تتوالى الايام يدفع بعضها بعضا ، وهو منكب على خمره ، وكأن تلذذ النواسي بذكر الايام يوما بعد يوم تنفيس عن ضيقه الضائق بزمانه وسط الناس . انه يقيم في مخيلته زمنا خاصا يغيب فيه عن الزمن :

فلم نزل في صباح السبت نأخذها
والليل يجمعنا حتى بدا الاحد
ثم ابتدا الطلا باللهو من امم
في نعمة غاب عنها الضيق والنكد
حتى بدت غرة الاثنين واضحة
والسعد معترض والطالع الاسد
وفي الثلاثاء اعملنا المطي بها
صهبا ما قرعتها بالمزاج يد
والاربعاء كررنا حد سورتها
والكأس يضحك في تيجانها الزبد
ثم الخميس وصلناه بليلته
نصفا وتم لنا بالجمعة العدد

لقد فقد الوجاهة الاجتماعية من نسب وحسب في مجتمع يراها جواز المرور به ، وفقد دفء الحنان في طفولته ، وقيعت عواطفه نحو امه . هذا الغريب يود انتماء اي انتماء . حاول التماس انتماء عربي فلم يوفق وأوذي بهجاء موجع . ترى اين يلتمس ابوة له ؟ ابن من يكون هذا ؟

يقول النواسي :

انا ابن الخمر مالي عن عداها
الى وقت المنية من فطام

تتعقد علاقات النواس حتى مع اصحاب السلطة ، ويعود يهجو من مدحهم بالامس كالفضل بن الربيع ، والخصيب والي مصر الذى يحرض النواس الخليفة عليه قائلا :

امير المؤمنين وانت كفؤ
وما لك في الخلائق من ضريب
علام وانت ذو حزم ورأى
تصير امر مصر الى الخصيب

لقد تآمر العصر على ابي نواس كأنه يسقط عليه اخطاءه . انه عصر حضارات تتلاقى ومذاهب وترجمات لافكار متباينة . انها قدرية عصره التي جسمها وجدانه الشعرى في قوله :

قدعني معاتبتي على ترك التقي
وتعتبني فيه على الاقدار
لو كان لى قدر يساعد صرفه
لرأيت كيف تعففي ووقارى

●

لم تبق سوى ورقة عام واحدة في شجرة القرن الثاني الهجرى وقد هد النواس الصراع النفسي والسرف على الجسد ، ولم يبق الا الرحيل . فما زادك يانواس والرحلة غامضة ومجهولة ، ومحفوفة بالقلق ومحوطة بالشكوك في الغفران ؟

فلتكن دعواتك الصادقة الى صاحب الموت والحياة :

يارب ان عظمت ذنوبي كثرة
فلقد علمت بان عفوك اعظم
ان كان لا يدعوك الا محسن
فيمن يلوذ ويستجير المجرم
ادعوك رب كما امرت تضرعا
فاذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى اليك وسيلة الا الرجا
وجميل عفوك . ثم انى مسلم

وتساقط اخر ورقة في حياة النواس ، بعد ان تاءت اغصان وجوده تحت عواطف الزمن وقسوة المحن ، ولم يبق الا هذا الشعر الجميل . ■■

د . رجاء عيد

صنعاء ـ كلية الآداب

من القصص الالماني الحديث

وجهي الحزين

بقلم : هنريش بل

ترجمة : الدكتور ناجي نجيب



كنت أقف على شاطىء الميناء اتطلع الى النوارس حين لفت وجهي الحزين نظر شرطي كان يجول في المكان . كنت مستغرقا في منظر الطيور المحلقة ، اتابعها وهي تنطلق عاليا ثم تندفع هاوية تبحث دون جدوى عن شيء تطعمه .

فالميناء خرب ، ولون الماء يميل الى الخضرة وتغلفه زيوت وأوساخ ، وعلى صفحته القذرة يسبح مختلف من سقط المتاع . ما من مركب يرى ، والروافع يعلوها الصدأ ، وعنابر التخزين متداعية ، وحتى الفئران بدت وقد هجرت الأنقاض السوداء على رصيف الميناء . فمنذ سنين طويلة انقطعت كل صلة للميناء بالعالم الخارجي .

أرسلت بصري الى نورس بعينه وأخذت ارقب تحليقاته المتتابعة . كان يحوم متدانيا من سطح الماء ، متوجسا كطائر النورس الذي يحس قرب العاصفة . بين الحين والحين فقط كان يجسر فينقض زاعقا الى اعلى ، لينضم الى اخلاطه وينتظم في سربهم . لو كان في امكاني ان اتمنى شيئا ، لفضلت الحصول على شيء من الخبز اطعم به النوارس . اقطع الخبز الى كسرات وأعين لهذا الطيران المتخبط نقطة بيضاء ، وأحدد للنوارس هدفا تحلق اليه ، واجمع هذه الخيوط المضطربة الصارخة في خيط واحد بالقاء قطعة من الخبز . كما لو كنت اعيد

تسليك عقدة من الدوبار . ولكنني كنت نفسي جائعا ومتعبا مثل الطيور . بيد اني رغم حزني كنت سعيدا . فقد كان جميلا أن اخلو الى نفسي هنا ، أدس يدي في جيبي واتطلع الى النوارس وأستمرىء الحزن .

بغته ، بلا مقدمات ، استقرت يد قوية على كتفي ، وطرق سمعي صوت يقول :

« اتبعني ! » . حاولت هذه اليد أن تسحبني من كتفي وأن تنتزعني من مكاني ، ولكني ثبت في موضعي ونفضت اليد عني وقلت في هدوء : « هل انت مخبول ؟ » .

فقال الرجل الذي ما زال مختفيا وراء ظهري : « أيها الرفيق ، اني أحذرك » .

فأجبت : « سيدي » .

فصاح بغضب : « ليس هناك أسياد ، نحن جميعا رفاق » .

ثم تقدم الى جانبي ونظر الى شذرا ، فوجدتني مجبرا أن اخفض بصري الساري السعيد وأثبته في عينيه الطيبتين : كان جادا مثل الجاموس ، الذي لم يطعم شيئا آخر غير الواجب منذ عشرات السنين .

« لأي سبب ... » أردت البدء في الحديث .

فقال : « سبب كاف ، وجهك الحزين . »

فضحكت .

« لا تضحك ! » كان غضبه حقيقيا . لأول وهلة اعتقدت أنه يعاني من الملل ، فليس في المكان عاهر غير مسجلة أو بحار يترنح أو لص أو هارب يستطيع القبض عليه . ولكني ادركت الآن أن الأمر جدي : فهو يريد القبض علي .

« أصحبني ... ! »
فسألت بهدوء : لماذا ؟»

ولكني قبل أن انتبه كان معصم يدي اليسرى محاطا بقيد دقيق . في هذه اللحظة أيقنت أني قد ضعت من جديد . وللمرة الأخيرة ادرت نظري إلى النوارس المحلقة وأجلت البصر في السماء الجميلة الداكنة وحاولت بحركة مفاجئة أن ألقي بنفسي في الماء ، فقد بدا لي الغرق ولو وحيدا في هذا الخضم القذر أفضل من أن يزج بي من جديد في السجن أو يبطش بي رجال الشرطة في مكان ما في احدى الأفنية الخلفية . ولكن الشرطي جذبني اليه بدفعة واحدة فلم تعد لي حيلة ما .

سألت مرة أخرى : « لماذا ؟ »

« هناك القانون الذي يحتم أن تكون سعيدا . »

فصحت : « ولكني سعيد ! »

فهز رأسه : وجهك الحزين ... »

فقلت : « ولكن هذا القانون جديد . »

« صدر منذ ست وثلاثين ساعة . وكل قانون كما تعرف يصبح ساري المفعول بعد اعلانه بأربع وعشرين ساعة . »

« ولكن لا علم لي به ... »

« لا يعفيك من العقوبة . أعلن المرسوم أمس الأول بواسطة مكبرات الصوت وفي جميع الصحف ، وأولئك » . وهنا نظر الى بازدراء » وأولئك الذين لا يتعمون بنعمة الصحافة والاذاعة قد أعلن لهم بواسطة منشورات ألقيت على جميع شوارع الدولة . سوف تعرف أيها الرفيق أين أمضيت الساعات الست والثلاثين الأخيرة . »

وسحبني معه . في هذه اللحظة شعرت ببرودة الجو وكنت بلا معطف ، وغلبني الجوع وقرقر في جوفي . وادركت أيضا أني قذر ، لم أحلق ذقني ، وملابسي مهلهلة ، بينما هناك قوانين تحتم أن يكون كل رفيق نظيفا ، حليق الذقن ، سعيدا وشبعان . دفعني أمامه كما لو كنت ناطورا ، قد قبض عليه متلبسا بالسرقة وحكم عليه بمغادرة مكان أحلامه على حافة الحقل . كانت الشوارع خالية والطريق الى قسم الشرطة غير بعيد . ورغم أني كنت اعرف أنه لن يطول الوقت حتى يجدوا سببا ما للقبض علي من جديد ، إلا أني شعرت بقلبي ينقبض ، إذ قادني الشرطي خلال دروب شبابي التي كنت أنوي زيارتها بعد مشاهدة الميناء . الحدائق التي كانت مغطاة بالشجيرات ، جميلة من انعدام النظام ، والطرق التي كانت تغطيها النباتات ، جميعها أصبحت الآن مخططة ، منسقة ، نظيفة ، معدة للقوات الوطنية ، التي تعقد هنا طوابير سيرها أيام الاثنين والأربعاء والسبت . السماء وحدها كانت كعهدي بها . والهواء كان في تلك الأيام ، حيث كان قلبي مليئا بالاحلام .

من حين لآخر كنت ألمح أثناء سيري علامة الدولة الرسمية معلقة من جديد على بعض (بيوت الحب) لأولئك الذين كان عليهم الدور يوم الأربعاء للاستمتاع بهذه المتع الصحية . كذلك بدت بعض الحانات مخولة الآن أن تطرح علامة إباحة الشراب أمام الباب ، هذه



العلامة هي عبارة عن زجاجة جعة من الصفيح ، مخططة بألوان الدولة وهي : البني الفاتح ، والبني الغامق ، والبني الفاتح . لا شك أن السرور يخيم على قلوب أولئك المقيدين في قائمة الشاربين يوم الأربعاء . أولئك الذين سيتعمون اليوم بجعة يوم الأربعاء .

جميع من قابلناهم في الطريق بدت عليهم سمات المثابرة والسعي بوضوح . كان يحيط بهم غلاف الدأب والهمة الشفاف ، خصوصا عندما وقعت أبصارهم على الشرطي وحينئذ اسرعوا الخطى ، واكتست الأوجه بشعور الواجب . أما النساء اللاتي غادرن المتاجر ، فقد بذلن جهودهن لاعطاء وجوههن مسحة السرور المنتظرة منهن . فقد كان من الموحى به أن يظهرن سرورهن ومرحهن بواجباتهن كربات للبيوت ، وعليهن حسب التعليمات أن ينعشن عمال الدولة في الأمسيات بوجبات طيبة من الطعام .

كل هؤلاء تجنبونا بلباقة . لم يشطر أحد منهم أن يعترض طريقنا بصورة مباشرة . وحيث لاحت في الطريق علامة حياة ما ، اختفت أمامنا بعشرين خطوة . كل بذل جهده أن يطرق سريعا أحد المتاجر أو يختفي في منحنى ، وربما لاذ البعض بمنازل غريبة لا يعرفها وانتظر مترجسا خلف الباب حتى تنقطع صدى الخطوات .

مرة واحدة فقط ، أثناء عبور تقاطع للطريق قابلنا رجلا مسنا ، يحمل ، كما لاحظت عابرا ، علامة معلم مدرسة . لم يعد في وسعه أن يتجنبنا . بعد أداء التحية لرجل الشرطة وفق التعليمات عن طريق ضرب رأسه بواسطة كفه ثلاث مرات ، علامة على خضوعه التام ، وبذل ما في وسعه لتأدية واجبه المنتظر منه له وهو البصق ثلاث مرات في وجهي ونعتي بالصفة الجبرية « خنزير خائن » . أجاد التصويب ولكن كان الجو حارا وحلقه جافا ، فلم يصبني إلا ببعض رذاذ تافه . وبحركة لا إرادية حاولت مسح الرذاذ بكم السترة مخالفا بذلك التعليمات . وعلى الأثر ركلني رجل البوليس وهوى بقبضة يده ثلاث مرات على منتصف عمودي الفقري وأضاف بصوت هادىء : « أول درجة » . وهذا يعني أول عقوبة بسيطة من العقوبات المخولة لكافة رجال الشرطة .

أسرع معلم المدرسة مبتعدا . وفيما عدا هذا تجنبنا الجميع في تجنبنا ، باستثناء سيدة واحدة كانت تقوم قبل الغروب ـ وفق التعليمات ـ بتهوية نوافذ ثكنة من ثكنات الحب . شقراء شاحبة منتفخة ، أرسلت الى قبلة من يدها ، فابتسمت شاكرا ، بينما بذل الشرطي جهده لكي يبدو وكأنه لم يلحظ شيئا . فالتعليمات تقضي على رجال الشرطة منح هؤلاء النساء حريات تعود على الآخرين دون جدال بعقوبات صارمة . القانون يستثنيهن لأهميتهن في رفع مستوى القدرة الانتاجية ، هذا الاستثناء وعواقبه وصمه فيلسوف الدولة دكتور ، دكتور بلاي جوث ، في المجلة الرسمية الاجبارية لفلسفة الدولة ، بأنه علامة على بداية حركة ليبرالية . قرأت هذا أمس في طريقي الى العاصمة ، فقد عثرت على بعض صفحات هذه المجلة في دورة مياه بيت من بيوت الفلاحين ، وقد علق على هوامشها تعليقات ثاقبة طالب من الطلاب ـ ربما ابن ذلك الفلاح ـ .

لحسن الحظ وصلنا الآن الى محطة الشرطة ، فمنذ هنيهة انطلقت الصفارات ، وهذا يعني أن الافا من الناس ستتدفق في الشوارع وعلى محياها مسحة طفيفة من السعادة (فقد كان من الموحى به ألا يظهر العمال عند انتهاء العمل سرورا كبيرا ، إذ يعني هذا أن العمل عبء ثقيل ، بينما يجب أن يعم التهليل عند بدء العمل ، التهليل والغناء) . هذه الالاف كان لابد لها أن تبصق في وجهي . ولكن الصفارات تطلق عادة قبل انتهاء العمل بعشر دقائق ، إذ على الجميع أن يقضوا هذه الدقائق العشر في الاغتسال الشامل ، حسب شعار رئيس الدولة الحالي وهو : السعادة والصابون .

كان على باب قسم الشرطة بالحي ديدبانان يقومان بالحراسة . أثناء عبوري خصوني بنصيبي من الاجراءات

الجسمية المعتادة : ضربوني بمقدمة اسلحتهم على الاصداغ وقرقعوا بمجاري مسدساتهم ضد عظمة الترقوة ، وذلك حسب مقدمة قانون الدولة رقم واحد الذي ينص على هذا : على كل رجل من رجال الشرطة أن يجسم السلطة إزاء كل مقبوض عليه باستثناء الشخص الذي يقبض عليه ، إذ من نصيب هذا الأخير أن ينفذ الاجراءات الجسمية اللازمة أثناء التحقيق .أما قانون الدولة رقم واحد فينص على هذا : « يخول كل رجل من رجال الشرطة معاقبة أي شخص يرتكب جرما ما ولا بد له أن يعاقب هذا الشخص ليس الرفقاء معفيين من العقوبة ، وإنما يجوز أعفاؤهم . »

عبرنا الآن ممرا كالحا طويلا ، به نوافذ واسعة كثيرة ، ثم انفتح آليا أحد الابواب فالديدبان قد أخطر في هذه الأثناء عن قدومنا . ففي تلك الأيام ، حيث كل انسان سعيد مسرور منظم ، والكل باذل ما في وسعه حتى يستهلك يوميا رطل الصابون المقرر ، في هذه الأيام كان حضور شخص مقبوض عليه حادثة غير عادية .

دخلنا الآن حجرة شبه عارية من الأثاث ، ليس بها سوى منضدة وهاتف ومقعدين . كان مكاني وسط الحجرة . أما الشرطي فقد خلع خوذته وجلس .

مرت أولا فترة هدوء لم يقع خلالها شيء ما . كذا شأنهم على الدوام ، وهذا بالذات أشد ما يثقل على الانسان . أحسست بوجهي يتداعى فقد كنت متعبا وجائعا ، وقد زالت عني تماما البقية الباقية من تلك السعادة الحزينة ، فقد كنت أعرف أني قد ضعت .

بعد لحظات دخل دون اشارة ما رجل طويل شاحب الوجه في الزي البني المألوف من مساعدي التحقيق وجلس دون ان ينبس ببنت شفه . سأل :

« الوظيفة ؟ »

« مجرد رفيق »

« تاريخ الميلاد ؟ »

« واحد ، واحد ، واحد »

« آخر مهنة لك ؟ »

« سجين »

تبادل الشرطي ومساعد التحقيق النظرات .

« متى وأين أطلق سراحك ؟ »

« أمس ، منزل رقم ١٢ ، زنزانه رقم ١٣ »

هذا هو هنريش بل

في مقدمة الكتاب الألمان المعاصرين من حيث الشهرة والرواج ، ويتمتع بمكانة أدبية كبيرة في الأوساط الدولية كشخصية مستقلة تلتزم بمبادىء الحرية والمسئولية الأخلاقية ، فهو كاتب ملتزم وإن كان من الصعب أن تحدد على وجه الدقة بماذا يلتزم .

حصل بل عام ١٩٧٢ على جائزة نوبل للأدب ، وجدير بالتسجيل أن بعض طبعات مؤلفاته المترجمة في الاتحاد السوفيتي قد فاقت المليون نسخة . ولد هنريش بل عام ١٩١٧ بمدينة كولونيا ، في فترة من أقصى فترات الحرب العالمية الأولى ـ وكان والده نجارا يملك ورشة صغيرة .

بعد أن أتم بل الدراسة الثانوية بدأ عام ١٩٣٨ بتعلم مهنة بيع الكتب ، ولكنه لم يلبث أن دعي لتأدية الخدمة العسكرية ، وظل بالجيش الى نهاية الحرب .

بدأ بل في الكتابة والنشر نحو عام ١٩٤٧ ، فهو من جيل كتاب ما بعد الحرب . ذلك الجيل بدأ الكتابة على الأنقاض ، وكأنه يبدأ من لاشيء . عاد شباب هذا الجيل من الحرب . وكان لابد أن يكتب عن الحرب والعودة وانقطاع التراث ومشاعر الصحو من حلم رهيب ، والرغبة في البناء من جديد على أساس آخر ، ولكن آمال هذا الجيل في التغيير خيبتها سياسة إعادة التكوين ، وصعود ألمانيا الاقتصادي السريع وكبت خبرات الحكم النازي والحرب . وتعكس مؤلفات بل بوضوح هذا التطور .

« الى أي مكان أطلق سراحك »

« الى العاصمة »

« الشهادة »

أخرجت من جيبي شهادة اطلاق السراح وناولتها له ، فثبتها على البطاقة الخضراء التي دون عليها بياناتي .

« الجنحة السابقة ؟ »

« وجه سعيد »

مرة ثانية تبادل الشرطي ومساعد التحقيق النظرات ، ثم قال الأخير : « وضح » فأجبت : « في ذلك الحين لفت وجهي السعيد نظر رجل من رجال البوليس ، في يوم صدر فيه الأمر بالحداد العام . كان يوم الذكرى السنوية لموت الرئيس . »

« مدة العقوبة ؟ »

« خمسة أعوام »

« السلوك ؟ »

« سيء »

« السبب ؟ »

« قلة الاستعداد للعمل »

« انتهى »

ثم نهض مساعد التحقيق وتقدم الى ولطمني حتى حطم أسناني الثلاثة الأمامية علامة على أني مذنب عائد لابد أن يوصم بعلامة واضحة . إجراء قاس لم أدخله في الحساب . ثم غادر مساعد التحقيق الحجرة ودخل فتى مترهل في زى بني غامق : المحقق .

لطموني جميعا : المحقق والمحقق الأول والمحقق الرئيسي والقاضي الابتدائي والقاضي الاخير . والى جانب ذلك ، نفذ رجل البوليس جميع الاجراءات الجسمية التي يقررها القانون . ثم حكموا على بعشر سنين بسبب وجهي الحزين مثلما حكموا على من قبل بخمس سنين بسبب وجهي السعيد .

أما أنا فعلي أن أجتهد ألا يكون لي وجه على الاطلاق ، هذا إن نجحت في اجتياز السنوات العشر القادمة بين السعادة والصابون ... ■■

بون ـ د . ناجي نجيب

في قصته القصيرة التي نشرها عام ١٩٥٠ تحت عنوان « أيها السائح ، هل تعود الى سبا ؟ » ، وفي روايته الأولى « أين كنت يا ادم ؟ » يعالج بل خبرات الحرب الطويلة والدمار النفسي والمادي . أما في روايته « ولم تقل أية كلمة » (١٩٥٣) فيصور بؤس المواطن الصغير في مجتمع ما بعد الحرب . فهذه الرواية أشبه بمرافعة اتهام ضد الذهنية الاقتصادية الضارية التي بدأت تحكم السلوكيات في مجتمع ما بعد الحرب . وفي روايته « بيت بدون حارس » (١٩٥٤) يصف بل مصير الأرامل واليتامى . وتتغير موضوعات بل مع تغيير المجتمع . فيصف في روايته الساخرة « اراء مضحك » (١٩٦٣) مسالك الفكر والسلوك البورجوازية التي تعم مؤسسات الكنيسة الكاثوليكية . ويقدم في روايته الطويلة « صورة للمجموعة مع سيدة » (١٩٧١) عرضا نقديا شاملا لمجتمع ما قبل وما بعد الحرب من وجهات مختلفة ، فموضوع هذه الرواية هو مظاهر الغربة في المجتمع القديم والجديد واستمرارية القديم في الجديد .

أما في روايته « شرف كاترينا بلوم » (١٩٧٤) ، فيصور ميكانزمات الارهاب النفسي والمادي في المجتمع ، التي ترتبت على استخدام القوة وظهور المجموعات الارهابية التي تهدف الى تحقيق اهدافها بالقوة ، وما تبع ذلك من القوانين والاجراءات القمعية والرقابية وتفشي روح الخضوع والاستسلام وانتشار السلوكيات المرؤوسية .

ويتابع بل هذا الموضوع في روايته الأخيرة « حصار من باب الحرص » (١٩٧٩) ، فوسائل الرقابة والتحكم التي تيسرها الآن التكنولوجيا الحديثة تضع في يد الأجهزة البيروقراطية إمكانات فعالة تهدد بالقضاء على البقية الباقية من مجالات الحرية في المجتمعات الصناعية الحديثة .

حوار القراء

المسلمون في الصين

ورد في العدد ٢٦٥ في المجلة في الجزء الثاني من التحقيق الشيق عن المسلمين في الصين ان كتاب « كلستان » للشاعر الفارسي « سادي » والحقيقة أنه الشاعر الصوفي الكبير (سعدي) الذي ترجم كتابه الى عدة لغات كما أرجو التنويه أيضا أن المؤلف غفل عن ذكر دور الطرق الصوفية في الصين وما كان لها من أثر فعال في مقاومة الاعتداءات على المسلمين وجمع شملهم ونعت تلك الطرق بالتخلف خلاف الحقيقة .

محمد عوني الطائي
الكويت

من ادارة العربي الى كتاب المجلة

● ترجو ادارة المجلة من كتابها ان يحرص كل منهم على كتابة الاسم ثلاثيا ، مع الوظيفة كاملة ، تسهيلا ، لاتمام المعاملات المالية .

(المحـــرر)

يا ساهر الليل

بمناسبة بلوغ الأديب العربي الكبير الأستاذ محمود محمد شاكر السبعين من عمره حياه الشاعر فاضل خلف من الكويت بهذه الأبيات :

يا ساهر الليل ما أشجاك أشجاني
وما تصبّاك من أمر تصباني
وما تردّد في جنبيك من ألم
أحسه ملءَ أعماقي ووجداني
إن الحقيقة في الآفاق ضائعة
وسوف ندركها في كل ميدان
وللحقيقة حب لا يعادله
في القلب غير هوى الفصحى وأوطان
أجلْ اليراعة يا محمود من صدإ
قد كاد . يودي بنبراس وتبيان
فإننا اليوم في بشر وفي فرح
لعودة النسر في عز وسلطان
النسر في القمم الشماءْ موطنه
وأنت والنسر في العلياء صنوان
فواصل البحث إنا ظامئون الى
بيانك المتجلّ منذ أزمان
والله يبقيك للاسلام مفخرة
وللعروبة نعم المصلحُ الباني

عبثاً يحاولون

في الفترة الماضية ظهرت أقلام كثيرة داخل مصر وخارجها تشكك في عروبة مصر وحقيقة انتائها الى العروبة وتدعو الى عودة مصر الى سابق العهد من إهمال للعروبة وازوراء عنها وكم ألمنا نحن الشباب العربي في مصر أن نستمع الى تلك الدعوة المشبوهة ولكن بحمد الله بدأت مجلتنا العربي في نشر مقالات للاستاذ أكرم زعيتر تحت عنوان مصر بين الاشراق والتحدي تثبت بالأدلة التاريخية أصالة عروبة مصر وتغلغل جذورها التاريخية العربية وكم كانت سعادتنا عندما بتنا نقرأ عن تلك الفترة التي ظهرت فيها الارهاصات الفكرية القومية لدى المفكرين

المصريين وما حدث من كر وفر ما بين مؤيد لعروبة مصر ومعارض .

ان كل الذين يحاولون إنكار عروبة مصر إنما يحرثون في البحر .. فأبناء مصر عرب اقحاح .. يعيشون آمال هذه الأمة وآلامها ..

قباري البدوي السيد
السويس / مصر

واجبنا نحوهم

فقد أتاحت لنا مجلة العربي فرصة ثمينة ونادرة باستطلاعاتها لمناطق الأقليات الاسلامية في كل من الهند والصين والاتحاد السوفيتي ناشرة بذلك صفحات تكاد تكون مجهولة ومنسية في عالم المسلمين اليوم . والمجلة بلا شك قد قامت بواجبها تجاه تلك الجماعات خير قيام . ولكن ما هو دور الحكومات الاسلامية والجامعات الاسلامية فيجب أن يحس كل زائر رسمي من بلاد المسلمين لتلك البلاد أن عليه واجبا يؤديه تجاه أولئك الأخوة . لابد ان يكون في برنامج زيارته .

ولا شك أن هذه الزيارات تقرب بين المسلمين رغم تباعد الديار مما يتيح الفرصة لدى المسئولين لمعرفة أحوالهم عن كثب .

حمد محمد حمد علي
الخرطوم / السودان

الجهاد بين الأمس واليوم

كانت أعتى قوى الكفر ترتجف عندما تطلق دعوة الجهاد في الاسلام .. أما اليوم فلم يعد لهذه الدعوة ذلك الأثر العظيم .. فها نحن نسمع دعوات للجهاد تتردد بين الحين والحين لتحرير المسجد الأقصى وكل الأراضي الاسلامية الواقعة تحت احتلال قوى الكفر والبغي ... ومع هذا لا نجد لهذه الدعوات أي صدى في نفوس أعداء الاسلام .. بل ان مناحيم بيجن رئيس وزراء إسرائيل ينظر اليها نظرة استخفاف .. هل حاولنا أن نسأل أنفسنا لماذا ؟

سؤال نطرحه على قادة أمة الاسلام الذين اجتمعوا مؤخرا في مكة المكرمة آملين أن نجد عندهم الجواب الشافي .

الدكتور هشام محمد محسن
عمان / الأردن

(أنصفوهم)

لقد قرأت في مجلة العربي العدد / ٢٦٤ / نوفمبر ١٩٨٠ مقال (الايمان والعلم قضية تنتظر الحسم) للدكتور فؤاد زكريا ، ولي ملاحظة على مقارنته بين رجال الدين عندنا ونظرائهم في الغرب ، الذين أشاد بهم في النشاطات العلمية المختلفة . ذلك اني كنت أتمنى أن يذكر الدكتور مع هذا الواقع المر الاسباب التي أدت بعلماء المسلمين الى تقاعسهم عن الاسهام في العلوم التي ساهم فيها علماء الغرب المسيحيون . اما والأمر كذلك فلا يزال العلماء المسلمون يعتمدون في تحصيلهم على إمكاناتهم الخاصة ، ولا يكاد أحدهم يحصل قدرا من العلم يسمى به عالما حتى تزهق روحه لقلة مورده بالاضافة الى ما يلزمه لمتابعة ثقافة ثانية بعد تحصيل الثقافة الأولى . أما رجال الدين المسيحيون فلطوائفهم جمعيات أهلية تسهل لهؤلاء إشباع رغباتهم العلمية ، ثم ان ضاقت هذه المؤسسات ذرعا بإمدادهم فحكوماتهم تتولى هؤلاء الراغبين الى نهاية المطاف ، وكان جديرا بالاستاذ أن يعاتب المسلمين الذين يضنون بأموالهم على فتح مثل هذه الآفاق أمام العلماء .

عدنان حقي
الجمهورية العربية السورية / قامشلي

كلنا في الهم شرق

● هاجرت الى البرازيل اثر الفوضى التي عمت وتعم لبنان الحبيب .. ولم يدر في خلدي انني سألتقي بأناس يختلف دينهم عن ديني .. فرغم انني مسيحي كاثوليكي .. وان البرازيل تعد اكبر بلد كاثوليكي في العالم ، الا انني فوجئت بقوم دينهم غير ديني ، واكتشفت انني بديني اقرب الى المسلم في الشرق مني الى البرازيلي الكاثوليكي .

فالمسلم في الشرق او المسيحي يؤمن بالله أصلا .. يخافه ويتعامل مع الاخرين بوحي من هذا الايمان .. وهكذا ايقنت اننا كلنا في الهم شرق وان العروبة هي الأم الرؤوم التي تضمنا الى حضنها .

جوزيف شفيق اسير
البرازيل

الروايتان صحيحتان

قرأت في العدد ٢٥٩ من مجلتكم في الصفحة اللغوية تحت عنوان « ثم قالوا تحبها قلت بهرا » بقلم الأستاذ محمد خليفة التونسي وهناك ثمة خطأ صغير وبسيط في أبيات عمر بن أبي ربيعة وهو .

قال لي صاحبي ولم يدر ما بي
أتحب القتول أخت الرباب
قلت وجدي بها كوجدك بالماء
اذا ما فقدت برد الشراب

والصحيح هو .

قال لي صاحبي ليعلم ما بي
أتحب القتول أخت الرباب
قلت وجدي بها كوجدك بالعذب
اذ ما منعت طعم الشراب

زهير اسكيف
حلب / سوريا

(العربي) كلتا الروايتين وردت في المراجع ، ومعناهما صحيح ، وشكرا للقارىء على دقته .

كلمة في العربي

أجل انها لمجلة عزيزة حقا على كل قارىء للغة العربية الكريمة . وأنها لمفخرة للأمة العربية حيث كان أبناؤها المثقفون منذ عهد غير بعيد يتلهفون لان تكون في بلادهم مجلة تضاهي مجلات العالم المتقدم . وما هي الا عشية أوضحاها حتى بزغ الفجر من الشرق حسب نظام الكون ثم ما لبثت شمس النور أن سطعت من مشرقها . وهكذا أبى الشرق الا أن يبقى مشعلا وضاء للنور والمعرفة وسيبقى كذلك ما دام مشرقا وسيظل الشرق شرقا والغرب غربا .

أما وقد بلغت مجلة العربية الغراء عامها الثالث والعشرين واجتازت مراحل الفطام والمراهقة بسلام وأصبحت في شرخ شبابها وغدا الصبا والجمال ملك يديها وأي تاج أعز من تاجيهما ؟ وسوف تبقى محافظة على صباها وجمالها وبهائها وعزها إن شاء الله .

نجيب علي الكيلاني
حماه / سوريا

من مكتبة العربي



قراءة في

هوامش كتاب

تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي

بقلم : الدكتور شكري محمد عياد

هذه رحلة كتاب « تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي » ، تركز على افكاره الاساسية من خلال هوامشه وشروحه ، التي أستخدمها الكاتب ليقيم بها حوارا ذكيا مع تلك الافكار .

انتهى عصر المتون والشروح والحواشي والتقارير بعد ان اشبعها المعاصرون سخرية ، انتهى حتى من الأزهر الشريف ، ولا ألوم القوم ، فقد طالما جرت عيوننا من هذا الى ذاك الى تلك الى هذا .. فهم أراحونا وأراحوا تلاميذهم ، وأراحوا أنفسهم أولا ، ومتاعب الحياة جمة ، والتخفيف مطلوب ، ومع ذلك فان كتاب « تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي من ١٩٣٠ الى ١٩٧٠ » للدكتور محمد جابر الأنصاري (سلسلة « عالم المعرفة » نوفمبر ١٩٨٠) قد أعادني الى ذلك النوع من القراءة الذي لم يخل من متعة : فكثيرا ما تستحيل لعبة « المتن والشرح والحاشية » الى حوار ذكي . ذلك ان الشارح والمحشي لم يكونا دائما كظلال ما قبل الغروب ، صورتين مسحوبتين مختزلتين ومشوهتين أحيانا « للمصنف » الذي لم يكن محتاجا اليها عندما كانت شمس المعرفة في الأوج . هذه اللحظات المشرقة التي يدور فيها الحوار بين المصنف والشارح والمحشي هي التي حفظت للتعليم الاسلامي القديم خطا من الحيوية جعلنا اليوم قادرين على استساغة الجديد .

والجديد اليوم في صنعة التأليف العلمي ان الكاتب أصبح هو نفسه الشارح والمحشي والمقرر ، فهو الذي يطرح الفكرة وهو الذي يناقشها او يعلق عليها لينتهي في آخر المطاف الى رأي يمكن السكون إليه . هذه « الدراما » الصغيرة التي تدور في ذهن الكاتب والقارىء معا (وليست في حاجة الى « مسرح ذهني ») هي أمتع ما يمكنك ان تجده في الكتب التي يصنفونها عادة تحت اسم « الدراسات » . وهي الأنفع أيضا . فما اظن ان مؤلفا يحترم نفسه يستطيع في هذا العصر ان يقف أمام قرائه وقفة المدرس امام صغار التلاميذ ، ممسكا « المؤشر » باحدى اليدين وبالأخرى قطعة الطباشير ، ليقول ان هذا الامر هو هكذا ولا محيص ، وعلى الصغار المساكين ان يحفظوا ويرددوا . لا جرم ان طريقة الكتاتيب كانت أصح وأصرح : فقد كان الصبية يحفظون أشياء من قبيل نطق الحروف والحركات ، وهذه وأمثالها أشياء من شأنها ان تلقن وتقلد وتحفظ وتردد ، وكانوا يعيدونها وراء الأستاذ مباشرة . واني لأعلم أن احدث الطرق في تعليم اللغات لا تختلف اختلافا جوهريا عن هذه الطريقة . ولكن الذي يفزعني هو هذا التلقين الخبيث المتنكر الذي يتجاوز اللغة وما يشبهها الى أمور الفكر : فالطالب المسكين (لا عجب اذا قلت « الطالب » هنا فان الطريقة الفاسدة المفسدة تبسط سلطانها حتى على الجامعة) مكلف أن يحفظ ويردد ، مع تراخي المدة بين تلقين الأستاذ وترديد الطالب ، وفي هذا العناء كل العناء ، لأن الطالب لابد له من ان يستحضر الأستاذ في مخيلته طول الوقت ليقوم بالحركات الذهنية التي دربه عليها كما يدرب القراد القرد ، غير ان الطالب يغدو هو القرد والقراد معا ، وما أحلاه اذا كان له اكثر من قراد واحد (وهذا هو الغالب) ولكل قراد أسلوب بعينه ، وله حركات بعينها يصر على ان يؤديها قرده لأن الناس يستملحونها ، وقد علمته مهنته ان يستملح ما يستملحه الناس . وتسألون لماذا يضيع شبابنا ، ولماذا تتخطفهم الرياح العاتية التي تهب من الشرق والغرب ؟

الحوار وأسلوب الهوامش

لو أننا لا نملك الا ذلك النوع من الأساتذة أو ذلك النوع من الكتب ليئسنا من كل خير يمكن ان يصيب هذه الأمة . ولكننا لا نزال نستقبل من حين الى حين نفحة ندية نشم فيها بواكير الغيث ونحن نضرب في صحرائنا الفكرية القاحلة . وكتاب الدكتور محمد جابر الأنصاري نفحة من هذه النفحات . فقد كتب بلغة العصر : لغة الحوار الذكي الذي يستند الى أدق البيانات والمعلومات ويلتزم بالمنهج التاريخي العلمي في تفسير الوقائع ، دون ان يعطي هذا التفسير أكثر من قيمة الفرض العلمي المرجح . فهو اذ يجمع الوقائع والآراء ويصنفها بصبر وتأن ويشرك القارىء معه في فحصها وتحليلها ونقدها ، لا يسمح لنفسه بأن يتقدم على قارئه أكثر من بضع خطوات ليصوغ نتيجة يعرضها دون ادعاء أو تهويل .

الكتاب إذن حوار بين المؤلف ومن سبقوه الى الكتابة في موضوعه ، وهم كثيرون . وهو بهذا يذكرنا بأقوم ما في تراثنا الفكري عندما كانت مجالس أهل الفكر ـ ومن يتشبهون بهم من رجال الحكم ـ تحفل ببحث المسائل الخلافية ، وكانت الكتب العلمية تعكس هذا الحوار النشيط الخصب . واذا كانت خمسمائة سنة من تاريخ الطباعة قد ألقت ستارا بين الكاتب والقارىء حتى اختفى هذا الاخير من حلبة النقاش ، فقلما تجد اليوم كاتبا يتجه الى قارئه مباشرة ليقول له مثل ما كان يقوله المؤلف القديم : « فتأمل » او « فان قلتم قلنا » ـ فثمة أسلوب حديث فيه من طرافة الفن بقدر ما فيه من أمانة العلم ، وهو أسلوب الهوامش .

فالهوامش تستخدم عادة لتوثيق المعلومات الواردة في المتن بالاحالة الى مصادرها . ولكنها تستخدم أحيانا للتعليق على فكرة للمؤلف نفسه . هنا يكون المؤلف كمن يحاور نفسه : فهو مرة يدعم ، ومرة يتحفظ ، ومرة ينبه

الى فكرة لم يجد لها محلا في سياق بحثه الأصلي ، ولكنه يرى من الضروري ان يثبتها إبراء للذمته أمام القارىء . مثل هذه التعليقات لها جاذبية شديدة لانها تشعر القارىء بنوع من الصلة الحميمة بينه وبين كاتبه ، فهذا لم يكتف بأن عرض عليه علمه وفكره ، ولكنه أخذ بيده وأجلسه أمامه ، وأتاح له بهذا الاسلوب الخاص ان ينظر في تلافيف مخه ، ان صح هذا التعبير من الناحية الفنية ، هذا الاسلوب أشبه بأسلوب الروائي المعاصر اذ يستخدم « تيار الوعي » في خلال قصصه ـ وغالبا ما يميزه بنمط خاص ـ ليصور أعماق احدى الشخصيات التي يمكن أن تكون مناقضه للظاهر . ولكنه من الناحية العلمية أيضا يتجنب التقرير الجازم حيث لا تسمح المادة الأولية بمثل هذا التقرير . ولذلك فاننا لم نبعد حين قلنا ان المؤلف الذي يستخدم هذه الطريقة يكون كمن يجري حوارا بينه وبين نفسه .

ومؤلف « تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي » يحسن استخدام « التعليق الهامشي » الذي يمكن النظر اليه على أنه « صوت آخر » يتخلل الحديث الأصلي . او على أنه « كتاب الظل » كما يقال « حكومة الظل » في النظم البرلمانية . وهذا هو ما أغراني بمعالجة الكتاب على هذا الأساس . وما أدري هل يعد القارىء مثل هذه المعالجة نقدا للكتاب او عرضا له ؟ ولكنني لم أرد الى العرض ولا الى النقد . فالعرض ـ في نظري ـ غير مطلوب ، لأن الكتاب في متناول كل قارىء ، وانني لأرجو ان تتعدد طبعاته حتى يصل الى كل مهتم في شتى أرجاء الوطن العربي (شرقه وغربه) . أما النقد فما دام المؤلف قد سمح للصوت المعارض أن يفصح عن نفسه في هوامش الكتاب ، فأقصى ما يرجى من النقد أن يكون قراءة جيدة لهذه الهوامش .

انما الذي أطمع فيه حقا هو ان يتدبر القارىء الذي فرغ من مطالعة الكتاب مقالي هذا ، وان يقرنه بالكتاب نفسه ، وان يحفز هذا المقال كل قارىء مهتم الى مطالعة الكتاب ، وأمل ان يعود بعد ذلك الى المقال ليتبين كل أبعاده . واذا قلت « القارىء المهتم » فأنا أعني القارىء الجاد ، لانني لا أتصور قارئا جادا بعيدا عن هموم أمته ، وهذا الكتاب بموضوعه ومادته وطريقته يمس هذه الهموم في الصميم ، فما هو مجرد كتاب تاريخ ، انما هو بحث عن العوامل الفعالة في حاضرنا القومي .

ومع انني ـ كما أسلفت ـ لست بصدد عرض الكتاب فان تحليل هوامشه او « صوته الآخر » يقتضي التعريف « بالصوت الأول » في كلمات قصار .

خط الكتاب

يرى المؤلف ان التوفيق بين الاتجاهات الفكرية المتعارضة هو سمة الحضارة الاسلامية . وهو لا يفرق بين مفهومي « الحضارة الاسلامية » و « الحضارة العربية » ، وكأنه يتبنى فكرة فيلسوف البعث « ميشيل عفلق » عن التطابق بين المفهومين . ويربط المؤلف بين الاتجاه العلماني التغريبي الذي برز في الثلث الأول من القرن العشرين وبين سيطرة الاستعمار على المشرق العربي ، ثم يحلل العوامل التي أدت الى انحسار هذه الموجة وأهمها أزمة الحضارة الغربية نفسها واكتشاف وجهها المادي المخادع للمفكرين والساسة الذين استهوتهم منها ـ اذ هم شباب متحمسون ـ مثل الحرية العقلية والديمقراطية السياسية ، وأهم من ذلك فشل الأنظمة الديموقراطية التي اقتبسها الشرق من الغرب في حل المشكلات المتأصلة التي كانت تعاني منها الطبقات الشعبية وبقاء الفكر الغربي بعيدا عن اهتمام الكتل العريضة . وهكذا رأينا حدة المعارك الفكرية بين « المحافظين والمجددين » تخف منذ أوائل الثلاثينات ، ثم رأينا تقاربا مستمرا بين الفريقين ، الا ان هذا التقارب لم يستمر في تطوره الهادىء ليثمر استئنافا لدور « المؤسسة التعليمية » التي بدأت على أيدي رجال من أمثال رفاعة رافع الطهطاوي وبطرس البستاني ومحمد عبده ، في التوفيق بين قيم الحضارة العربية الاسلامية وقيم الحضارة الغربية الحديثة ، فقد كان انفجار الأوضاع الاجتماعية الداخلية يؤذن بثورة كاسحة ، وهنا قامت « المؤسسة العسكرية » بفرض الحلول التوفيقية التي كان المثقفون يحلمون بها دون ان تستطيع تنظيماتهم الحزبية الطرية العود ان تحققها . وبذلك عادت الحضارة العربية الاسلامية سيرتها الأولى حضارة توفيقية « وسطية » لاهي سلفية مطلقة ولا علمانية مطلقة .

هذه هي الخطوط الرئيسية للبحث . ولا تعليق لنا عليها الا ما يعلقه المؤلف نفسه .

توفيق أم تلفيق ؟

يناقش المؤلف كاتبين معاصرين ، يمثل أحدهما الموقف العلماني ويمثل الآخر الموقف السلفي ، وكلاهما ، بالضرورة ، غير راض عن مظاهر التوفيقية . ومع ان المؤلف يقول ، بلهجة المؤرخ ، ان الروح التوفيقية

مرتبطة بالطبيعة العربية الاسلامية قديما وحديثا ، فانه يضيف هامشا يمزج فيه بين تاريخ الفكر والدفاع عن موقف فكري . فيورد نص عبارة الكاتب الأول : « لقد كانت هذه المحاولات (التوفيقية) فاشلة دائما في الماضي ، ويعلق عليها بقوله ان هذا التقرير » يجتني اذا أخذناه مأخذ الجد ان التوفيق الذي سرى بين التراث الاغريقي الروماني والتراث العبراني المسيحي في خلق جذور الحضارة الغربية كان فاشلا ، وان التوفيق بين العنصر الهلنستي والعنصر الاسلامي في الحضارة العربية كان محاولة فاشلة ، وان ظاهرة المعتزلة والفلاسفة المسلمين والأدب العربي المطعم بالفكر اليوناني ، كل ذلك غير جدير بالمحاولة وكان خطأ تاريخيا !! (ص ٢٢٦) » .

واذا نظرنا الى هذا الهامش من الوجهة التاريخية ، وجدها وجب القطع بصحته . فما زالت الشعوب يتعلم بعضها من بعض مذ وجدت الحضارة . كم أخذ اليونان من حضارة المصريين القدماء وحضارة البابليين ؟ وكم أخذ العرب من اليونان ؟ وكم أخذ الأوربيون من العرب ؟ واذا اخذت عن الآخر شيئا فمعنى ذلك ان هذا الشيء لم يكن عندي ، أي أنه مغاير لما عندي ، ولابد اذن من التوفيق . ولا أعجب من امتزاج حضارة آرية فلسفية تقوم على الفكر والمنطق بحضارة سامية دينية تعتمد على الشعور والالهام . ولكن هذا هو ما حدث في الحضارة الغربية . واذا كان النجاح او الفشل « مقياسا براجماتيا (عمليا) فلا يمكن أن يدعي أحد أن الحضارة العربية فشلت على طول الخط ، ولكن يتحتم النظر الى العوامل التاريخية المتغيرة ، التي يمكن ان تؤدي الى فشل التوفيقية او نجاحها . ويصدق هذا القول على الشرق العربي كما يصدق على الغرب . واذن فلا ينبغي أن نتحدث عن « التوفيقية » كما لو كانت سمة مميزة للحضارة العربية الاسلامية بالذات . والمؤلف يدرك ذلك جيدا ، فقد علق على تقرير سابق للكاتب نفسه بأن الفكر العربي الاسلامي مولع بالتوفيق ، قائلا ان البحث العلمي الموضوعي يتطلب النظر في « أسباب هذا الولع وجذوره الحضارية والمجتمعية » قبل إصدار أحكام « متعجلة وكاسحة » . واذا قرنا هذا الهامش بالهامش السابق (وهما يقعان في صفحتين متواليتين) بدا لنا أنهما يتناقضان بشدة . فأحدهما يقرر ان التوفيق نزعة فكرية لا تنفرد بها الحضارة الاسلامية ، والآخر يقرر ان « ولع الفكر العربي الاسلامي بالتوفيق » ظاهرة تتطلب تفسيرا تاريخيا خاصا (هذا هو المقصود بالجذور الحضارية والمجتمعية) ، وان الحكم بهذا الولع ، قبل البحث التاريخي في جذوره ، حكم « متعجل وكاسح » .

التوفيقية القديمة

ولكن نظرة أعمق في أفكار المؤلف تدلنا على أن مفهومه للتوفيقية في الموضعين واحد ولا تناقض فيه . فمع انه يرى أن التوفيق سمة حضارية عامة ، فهو يرى ، في الوقت نفسه ، ان ثمة عوامل تاريخية مجتمعية تدعو الى ظهوره ، ثم تحدد مداه . فهو يقول (ص ١٦٣) شارحا دور الطبقة المتوسطة المحلية الجديدة (التي ساعدت على نموها ظروف الكفاح ضد الاستعمار) في تشكيل الاتجاه التوفيقي المعاصر :

« ان هذه البورجوازية الصغيرة ستتصدى لمهام مرحلة التحرر من الاستعمار الغربي ، ثم ستتجه نحو محاولة إقامة الدولة القومية والحديثة ، وسيكون قدرها الصعب ان تدفع الغرب بيد لتأخذ حضارته وعونه بيد أخرى (من هذا المنظور الحضاري لا يفرق المؤلف بين الغرب الليبرالي والغرب الماركسي الذي يسمى في المصطلح السياسي بالكتلة الشرقية) وهو قدر لا يحتمل تناقضه ولا تحتمل مأساويته الا من خلال صيغة توفيقية ، قد لا تكون عضوية ولا أصيلة ، ولكنها مرنة ، وضرورية نفسيا وعمليا ، تقفز فوق التناقض لتوفق بين « الأصل » و « الوافد » ـ بين الذات والآخر ـ مبقية في الوقت ذاته على الفارق الكياني بينهما . وهذه خاصية مهمة وجوهرية في التوفيقية القديمة والحديثة ، لانها تعني إقامة تصالح وتقارب بين النقيضين دون الدمج والصهر بينهما في كيان عضوي يلغي وجود الطرفين . (هذه الكلمات بالبنط الاسود في نص المؤلف نفسه)

فالتوفيقية القديمة صالحت وقاربت بين العنصر الهلنستي الفلسفي « الوافد » وبين العنصر الاسلامي الأصيل الراسخ في تآلف مقبول ، نعم ، ولكنها لم تلغ ذاتية العنصرين في الصيغة الجديدة ، بل ظل العنصران متميزين في التراث الحضاري العربي ، مالله لله وما لافلاطون لافلاطون . ثم حدثت البينونة بين الطرفين وانفصلا مستقلين عندما تلاشى المناخ الداعي للتوفيقية . »

ولعل هذه الجملة الأخيرة تستوقف القارىء المتأني بما تنطوي عليه من « أحكام متعجلة وكاسحة » سبق ان اعترض عليها المؤلف . ومن السهل ان يختبي وراء هذه الكلمات الثلاث « المناخ الداعي للتوفيقية » ، ولكنها لا تحول الحكم الكاسح الى بحث تاريخي ، كما انها لا تدل على اختلاف جوهري بين المؤلف والكاتب المنقود في النظر

الى التوفيقية القديمة . فهي عندها ، كما هي عند جمهور المستشرقين ، محاولة لم يقيض لها ان تعمر او تتجذر في الفكر العربي في يوم من الأيام . هذا حكمهم على تجربة الفكر العربي مع الفلسفة اليونانية قديما ، ومع المذاهب السياسية والاجتماعية في العصر الحديث (انظر الهامش ص ١١٨) . ونحن لا نريد ان نقابل الحكم الكاسح بحكم كاسح آخر ، ولكننا نكتفي بالقول ان القضية فيما يتعلق بتاريخ الفكر الاسلامي ، لم تدرس دراسة وافية حتى الآن ، وان كتاب المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق « تمهيد الى تاريخ الفلسفة الاسلامية » لا يزال بدون متابعة جادة ، وما زاد الشيخ ـ رحمه الله ـ على ان رسم المنهج وأشار الى بعض جوانب البحث . ولكننا نستطيع ان نقول دون ان نخشى معارضة من أحد لأننا نقرر حقيقة تاريخية معروفة : ان الحضارة الاسلامية عرفت نشاطا فكريا خصبا نهض به المعتزلة على وجه الخصوص قبل ان يظهر أول فيلسوف عربي تولى نقل الفلسفة اليونانية الى العربية (الكندي) بعدة أجيال ، وان هذا النشاط كان ـ على الأرجح ـ نشاطا « توفيقيا » بحكم إتصال العرب بالحضارات القديمة قبل عصر الترجمة (ومدارس الفلسفة اليونانية الهلنسية الممتزجة بالمسيحية في سورية والعراق لم تنقطع لمجرد انتقال السلطة السياسية في هذين البلدين من أيدي البيزنطيين والفرس الى أيدي العرب) . واذا كان ثمة « خطأ تاريخي » في هذه التوفيقية الخلاقة فهو أنها حالفت السلطة في عهد المأمون فحرمت نفسها من نسغ الحياة حين أصبحت دين الخاصة .

اذن فلا تناقض في نظرة المؤلف الى التوفيقية على أنها ظاهرة تشترك فيها كل الحضارات المعروفة ، وانها ـ في الوقت نفسه ـ تتطلب « مناخا » حضاريا معينا ، أي ظروفا تاريخية مساعدة ـ لكي تتحقق . وانما التناقض ـ ولعل الأصح ان نقول انه نوع من الابهام ـ في نظرته الى التوفيقية العربية الاسلامية بالذات ، قديما وحديثا . فبينما هو يقول في المتن (ص ١٦٣) ان التوفيقية القديمة صالحت وقاربت بين العنصر الهلنستي الوافد والعنصر الاسلامي الأصيل دون ان تلغي ذاتيتها في الصيغة الجديدة ، اذا هو يجمع بين هذه التوفيقية القديمة نفسها وبين توفيقية الحضارة الغربية الحديثة في حكم واحد (هامش ص ٢٢٦) .

٣ قضايا خطرة

وهنا يبدو لنا ان المؤلف لم يكن واضحا كل الوضوح مع نفسه حول مسائل أعظم خطرا ، بالنسبة الى التاريخ والى الموقف الحاضر كذلك :

معنى « ذاتية » الحضارة ، وهل تتغير بدخولها في مرحلة توفيقية جديدة :

ومعنى « الصيغة » الحضارية ، أو مدى « التكامل والتنوع » بين عناصر الحضارة .

والحكم ـ اخيرا ـ بأن حركة توفيقية ما يمكن أن تعد ناجحة أم لا .

وموقف المؤلف من هذه المسائل الثلاثة ـ وهو موقف لا يجهر به (لقد قلنا ان رؤيته تتسم بالابهام الذي لا يصل الى حد التناقض) ولكنه يتضح من مضمون كلامه ، وتؤكده هوامشه التي سنشير الى بعضها ـ موقف يدعو الى كثير من التأمل . فعن المسألة الأولى « ذاتية الحضارة » يبدو من النص الذي نقلناه آنفا ان التوفيق الكامل يقتضي بروز « ذاتية » جديدة ، والا فان العنصرين (الأصيل والوافد) لا يلبثان أن ينعزلا ، وطبيعي ، عندئذ ، ان يؤكد « الأصيل » وجوده ، دون ان يناله تغيير يذكر . ينقل المؤلف عن برنارد لويس (هامش ص ١١٨) « ان من بين جميع الحركات الكبرى التي هزت الشرق الاوسط في آخر قرن ونصف كانت الحركات الاسلامية وحدها أصيلة في تمثيلها لمطامح أهل هذه المنطقة » . ومع وصفه لهذا الحكم بأنه « قد يكون مبالغا فيه ، ويحمل طابع التقليل من الحركات التحديثية » فهو يقرر أنه « يمثل جانبا مهما من حقيقة الوضع » . ويعود في المتن (ص ١٧٤) فيشبه الحركات التحديثية « بقشور على جسم قديم » يستحدثها الجسم ذاته ليتوافق مع متحولات مرحلية ، وتسقط مرحلة بعد مرحلة ، ويظل الثابت في ذلك الجسم هو « مكوناته القديمة الموروثة » . هذا حكم كاسح آخر ، فيه كل ما في الاحكام الكاسحة من خطورة ، ويزيد من خطورته أنه مبني على نموذج الجسم الحي ، ولا ندري عن أي نوع من الأجسام الحية يتكلم المؤلف : عن شجرة أم عن تمساح أم عن إنسان أم عن قرد ، وما نظن ان نموذج الجسم الحي ، الذي استخدمه افلاطون لتحديد وظائف الطبقات الاجتماعية المختلفة ، يصلح الآن للحديث عن تفاعل الحضارات : فأجهزة الجسم الحي لها قدرة محدودة على التأقلم ، وسواء أكان الحديث عن الحضارة العربية الحديثة أو القديمة أم عن غيرها ، فان المكونات الثابتة للجسم الحي لا تملك أن تتحول الا بان تستمر حياة الجسم الحي أجيالا كثيرة ، مع اشتراط حدوث تغير في الجينات

الوراثية ، وقد يحتاج هذا الى بضعة آلاف أو ملايين من السنين .

من الواضح اذن أن تشبيه الحضارة بالجسم الحي تشبيه أدبي وليس نموذجا علميا ، وأنه ينطوي على نظرة خاصة الى ذاتية الحضارة ، لعلنا لا نخطيء اذا وصفناها بأنها نظرة هيجلية مثالية ، بعيدة عن الواقع . فأما ان يتحول النقيضان الى « تركيبة » جديدة ، أي الى ماهية جديدة ، وأما الا يكون ثمة تحول ما .

ونتيجة لهذه الرؤية المثالية ، يلاحظ غموض موقف المؤلف من المسألة الثانية : مسألة الصيغة الحضارية أو مدى التكامل والتنوع بين عناصر الحضارة . فمع أنه يشير في هامش ص ٢٢٦ الى « التوفيق الذي سرى بين التراث الاغريقي الروماني والتراث العبراني المسيحي في خلق جذور الحضارة الأوربية » « على أنه حقيقة مسلمة ، فان هذه « الحقيقة » لم تكن حاضرة في ذهنه دائما وهو يضع كتابه ، فهو يقول في معرض المقارنة بين النهضة الأوربية والحركات التوفيقية الحديثة في العالم العربي : « ان اوربا لم تكن توفيقية في نهضتها ، بل بدأت النهضة بنقض توفيقية توما الاكويني بين الكنيسة والعقل الأرسطي لصالح التيار الذي يمثله الأخير ، بعد ان حولته من عقل منطقي تأملي الى عقل وضعي تجريبي » . حكم كاسح آخر ، وليس أهون ما فيه ان نهضة العقل التجريبي في أوربا كانت ثورة على أرسطو بقدر ما كانت ثورة على توما الاكويني ، ولكن الذي يعنينا منه على كل حال هو القول بأن « النهضة الأوربية » لم تكن توفيقية ، مع ان « الحضارة الأوربية » توفيقية ككل حضارة أخرى . فاذا أراد المؤلف الا يكون متناقضا فيجب عليه أن يقرر أن « النهضة » غير « الحضارة » ، وبذا تكون « النهضة الأوربية » (ولنكتف الآن بالمفهوم التاريخي لهذا المصطلح دون أن نسأل فلسفيا عن معنى « النهضة » وبم استحقت ان تسمى بهذا الاسم) علمانية محضة وعقلانية محضة ، بينما تكون « الحضارة الأوربية » شاملة لعناصر اخرى غير العنصر العقلاني العلماني وإذا فلا يكون ثمة فارق جوهري بينها وبين الحضارة العربية الحديثة ، حيث يلاحظ « ان السلوك العملي لدعاة الالتزام التام بالتصور التراثي يناقض مستنداتهم الفكرية ، اي ان الفكر يتجه في خط والسلوك في خط آخر مغاير » (هامش ١٢٨)

ـوأخيرا ، يبدو أن المؤلف يفهم « التوفيقية » على أنها مرادفة « للوسطية » وبما أنه يرى أن التوفيقية أو الوسطية سمة من سمات الفكر العربي الاسلامي ، ويرى نفسه منتميا الى هذا الفكر ، فهو يقبل « الوسطية » دائما على أنها تمثل هذا الفكر تمثيلا أصيلا . واذن فكل حركة توفيقية (وسطية) يمكن ان يقال عنها أنها ناجحة بمعنى أنها تعبير صادق عنه . وهذه فكرة بالغة الخطورة وقد ظهرت في « الشهادات الفكرية المعاصرة » التي ألحقها بالكتاب ، « بغض النظر عن قيمتها الفكرية » (على حد تعبيره) التي اضطرته في بعض الحالات الى أن يعلق عليها تعليقات حادة . ومن الملاحظات الطريفة التي يلاحظها ان صفة « التوفيقية » تبدو في هذه الشهادات أحيانا وكأنها سبة . والسبب في ذلك ان التوفيق ـ بمعنى التوحيد الهيجلي بين النقائض على المستوى الفكري او الهضم والتمثل على المستوى الحضاري ـ لا يكاد يكون موجودا في الفترة التي تصدى المؤلف لتاريخها . وانما الموجود والشائع هو « التلفيق » ، وهو شيء آخر مختلف كل الاختلاف ، هو « القفز فوق النقائض » كما عبر المؤلف في وصفه لدور الطبقة المتوسطة الجديدة .

واذا كانت « التلفيقية » قد وجدت في الفكر العربي الاسلامي ، قديما وحديثا ، فقد وجدت فيه « التوفيقية » ايضا ، بل ان مجده قام على تلك التوفيقية الصحيحة . فمن أين جاء هذا الخلط ؟

بين الفكر والسياسة

لاشك أن بين الفكر والسياسة رابطة وثيقة . فمن شأن الفكر دائما أن يحاول توجيه السياسة ، كما أن من شأن السياسة أن تحاول الاستعانة بالفكر . ولكن هذه العلاقة ، في الفترة التي يؤرخها المؤلف ، والتي لا نزال نحياها ، سادها شيء غير قليل من التوتر وسوء الظن ، حتى كانت أقرب الى التباعد منها الى التقارب ، بل التطابق . ولعل بعض القراء ما زالوا يذكرون الحملة التي شنها أحد كتاب السلطة في بلد عربي على ما سماه « سلبية المثقفين » .

ان تحولات الفكر ، في الفترة موضوع الحديث ، لايدري بها أحد ، أما تحولات السياسة فقد قامت بها ، في معظم أقطار العالم العربي ، المؤسسة العسكرية . وقد كان مفهوم هذه المؤسسة للتوفيق الحضاري مفهوما براجماتيا الى أقصى حد . وللمؤلف هامش مهم في هذا السياق (ص ٢٦٨) ، وكان يحسن به ، وهو الذي قرأ الكثير من أعمال الروائي نجيب محفوظ واعتمد عليها في تحليلاته ، ان يقرأ له أيضا رواية « الكرنك » ، وهي ،

كالروايات الأخرى التي قرأها ، تقع بأحداثها وربما بزمن كتابتها أيضا في الفترة التي يؤرخ لها .

ان الفكر في زماننا مغضوب ممتهن ، ومن الظلم ان نقرنه بالسياسة . ولعل شرقنا العربي لا ينفرد بهذه « الميزة » ، فهي ظاهرة عالمية ، وان كان « للعالم الثالث » منها النصيب الأوفى .

ومن العجيب ان المؤلف وقد قرأ كتاب « لعبة الأمم » لمايلز كوبلاند ، وأشار اليه في هامش أو هامشين لم يفد منه أقل فائدة ، مع أن هذا الكتاب ، في نظر الكثيرين ، وثيقة من أهم وثائق العصر ، وهي تمس عالمنا العربي مسا مباشرا ، وأهم من ذلك أنها تلقي ضوءا باهرا على القضية التي جعلها المؤلف محور كتابه ، قضية « التوفيق » . فهي تكشف بأجلى بيان كيف تبنى الاستعمار الجديد هذه الدعوة الطيبة ليكون هو المسيح الدجال الذي يأتينا بالتلفيق ويسميه التوفيق . ■■

شكري محمد عياد



الساحل السواحلي

السياسة والدبلوماسية والتجارة في ساحل افريقيا الشرقية ١٧٩٨ ـ ١٨٥٦*

تأليف الدكتورة كريستين نيكولز

مراجعة الدكتور صفاء خلوصي

ولعي بالأباضية جرني الى دراسة عمان والتوسع العماني في افريقيا الشرقية والبحث عن مصادر في هذا الموضوع . وبينما انا اتحدث ذات يوم الى سيدة انكليزية اعرفها منذ مدة وجدتها ذات اطلاع واسع في الموضوع فلما سبرت غور امرها علمت انها قد احرزت درجة الدكتوراه فيه . وان رسالتها هذه التي بين يدي هي من ضمن مطبوعات كلية سانت انطوني بجامعة اكسفورد وقد امضت المؤلفة حياتها في افريقيا الشرقية . فهي ذات معرفة وثيقة بالمنطقة وسكانها وقد ظفرت بالدرجة العلمية سنة ١٩٦٨ من جامعة اكسفورد ويدور موضوعها حول تاريخ ستين سنة قام خلالها عرب عمانيون بتوسيع نطاق نفوذهم على الساحل الشرقي من افريقيا ، من (مقاديشو) شمالا الى (راس ديلكادو) cape delgado ، جنوبا فلهذه المنطقة ثقافة واسلوب عيش يختلفان تمام الاختلاف عن المنطقة الداخلية ، وقد كانت دومامقر فعاليات بحرية عظيمة ، وقد اقبل

---

* نشر دار شركة جورج الن وانوين بلندن ـ السعر : ١٢ جنيها استرلينيا .

العرب اليها منذ مئات السنين مع الرياح الموسمية للتجارة فيها ، ولقرنين من الزمان كانت تحت السيطرة البرتغالية ، وخلال فترة السنين ستة التي تبحث فيها الدكتورة نيكولز انتقلت عاصمة السلطان العماني من الجزيرة العربية الى زنزبار فاسفر ذلك عن مواقف حرجة مع القوى الاوربية في المنطقة واصطدمت بسكان البلاد الاصليين .

وقد اعتمدت المؤلفة على العديد من الوثائق والمصادر التي لم تطبع بعد فالكتاب يوضح الاسباب المفضية الى توسع النفوذ العربي في الجزء الغربي من المحيط الهندي . ويرينا تدخل القوى الغربية المتزايد في سياسة سلطنة زنزبار ، وقد ركزت الباحثه كذلك اهتمامها على نمو وتطور التجارة في الساحل « السواحلي » فضلا عن ردة فعل السكان الاصليين ازاء الضغوط العربية والاوربية معا ، وهذه قضايا اهملتها الكتب التي وضعت قبل الآن عن افريقيا الشرقية . لذلك فان دراسة الدكتوره نكولز ستكون ذات فائدة واهمية خاصة للباحثين الموغلين في دراسة تاريخ افريقيا ولسائر المهتمين في تطور المنطقة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا .

يضم الكتاب نيفا واربعمائة صفحة موزعة على اثنى عشر فصلا وملحقين وسرد للمصادر الخطية التي عدتها خمسة عشر والعديد من المصادر المطبوعة بين اساسية وثانوية علاوة على رسائل واطروحات جامعية مجازة من جامعات باريس ولندن واكسفورد والقاهرة ، والكتاب بالطبع قد ختم بفهرست ابجدي حسب الاصول وجدول ممتاز بصادرات اهم المناطق السواحلية وكمياتها ، وازدان بست خرائط (لومباسا) وارخبيل (لامو) ، والساحل « السواحلي » وجزيرة (زنزبار) وعمان والخليج العربي والطرق التجارية البحرية بين الهند والبلاد العربية وافريقيا الشرقية الساحلية .

النفوذ العربي

وتتطرق مؤلفة الكتاب الى المجتمع والسياسة على الساحل السواحلي في مستهل القرن التاسع عشر في الجنوب اولا والشمال ثانيا . وتعرج على الحرف والتجارة لتمضي قدما في البحث في المهدات المفضية الى التوسع العماني في افريقيا الشرقية ونمو (مسقط) وعلاقاتها ببريطانيا وفرنسا وازدياد الاهتمام العماني بالساحل السواحلي . ثم تلتفت الباحثة الى السيد سعيد السلطان العماني والقوى الاوربية في فترتين الاولى تمتد من ١٨١٩ الى ١٨٣٩ والثانية من ١٨٣٩ الى ١٨٥٦ وتخصص فصلا كاملا لتجارة العبيد في الساحل السواحلي ، وتشير في الجدول الخاص بالتجارة الى نطاقها ومدى اتساعها ويلي ذلك البحث عن محاولات للقضاء على هذه التجارة والتأثيرات الناجمة عنها . اما الفصل العاشر والحادي عشر فقد كرسا (لزنزبار) وتوطيد دعائم السلطنة العمانية وردود الفعل المحلية ازاء ذلك ، ويعقب ذلك الكلام في التطور الاقتصادي للساحل « السواحلي » ومسك ختام الكتاب الاستنتاجات التي توصلت اليها المؤلفة الباحثه نتيجة عكوفها الدائب على هذا الموضوع ، واهم هذه الاستنتاجات ان النفوذ العربي على العديد من الموانيء السواحلية لم يكن محكما باستثناء زنزبار حيث ساد النفوذ الوثيق المحكم . وفي سنة ١٨٥٦ انتقلت عاصمة السلطنة اليها ومنها اخذ النفوذ العربي يتغلغل الى داخل افريقيا والبحيرات وما وراءها وقد لعبت عوامل عديدة في انتقال مركز السلطنة من مسقط الى زنزبار ، منها الحركة الوهابية وضغط الدبلوماسية النابليونية والفرص الجديدة المتفتحة امام العمانيين في افريقيا . وكان اهتمام الاوربيين في الساحل الافريقي الشرقي مدعاة لزيادة اهتمام العمانيين به وذلك في العقدين الاولين من القرن التاسع عشر ، واخذ البريطانيون والفرنسيون يتقربون من السلطان العماني ، وتميز النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالصراع الاستعماري العنيف في المنطقة ، وكان مهما بالنسبة للبريطانيين لسلامة منطقة الخليج العربي والطرق المؤدية الى امبراطورية الهند ان يقدموا مختلف المساعدات البحرية والعسكرية لكبح جماح مطامع الدول الاوربية الاخرى فعينت بريطانيا قنصلا في (مسقط) انتقل فيما بعد مع السلطان الى « زنزبار » ، وحاولت بريطانيا جاهدة القضاء على تجارة العبيد او على الاقل تحديدها ، وكان للفرنسيين كذلك مطامع في المنطقة ترجع الى القرن الثامن عشر ، اما الامريكيون فقد كانت مطامعهم تجارية الجذور بحثا عن الصمغ واللبان والعاج فاخذ العمانيون يتدفقون باعداد متزايدة على الساحل السواحلي لحماية مصالحهم هناك . ففتحوا المنطقة باسرها للعالم ، والفضل يعود الى همة السيد سعيد وطموحه وطول حياته وكان هو نفسه تاجرا ناجحا .

وقد كان لانصهار العرب بالسكان الاصليين وتكلمهم اللغة السواحلية ومصاهرتهم لهم اثر في ترجيح كفتهم على الاوربيين ، الى ان كان النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث شهد التاريخ رجحان كفة الامبريالية الغربية في افريقيا الشرقية برمتها . ■■

نزهة العقل الذكي بجهود الأبداع

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي « الكلمات المتقاطعة » .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العدد بقطعها منه .. اما الكوبون المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي :

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد » ٢٦٩ ـ وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول يونيو (١٩٨١) .

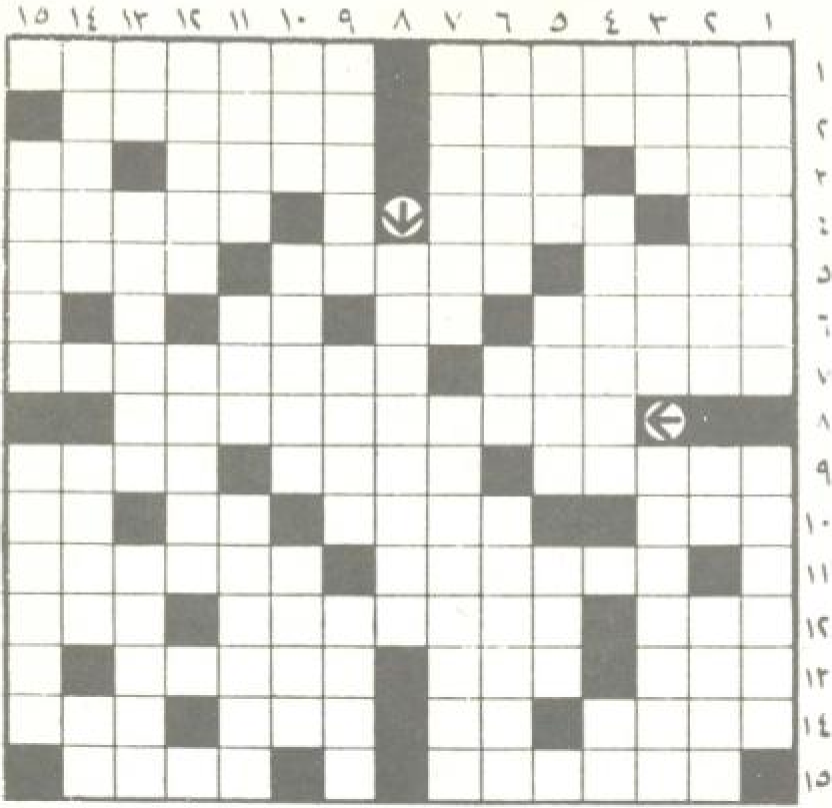
اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم أديب ومؤرخ لبناني ، كما ستجد في (٨) رأسيا اسم فيلسوف ورياضي اسلامي .

كلمات أفقية :

١ ـ من أعضاء الجسم ـ فيلسوف أندلسي .
٢ ـ من أكبر المعارك البحرية بين الأتراك والأوروبيين ـ أكبر بحيرات أوروبا .
٣ ـ اعوجاج ـ بدق ـ قل وجودها ـ نصف كلمة (بخيل) .
٤ ـ نصف كلمة (عادت) ـ احتلّ ـ مشوا .
٥ ـ في الجهاز الدوري ـ مجاور ـ نترفع عن .
٦ ـ نبجله ـ للتعريف ـ أكبر آلهة الأساطير الفرعونية .
٧ ـ الاسم الأول لشخصية نسائية عالمية ـ علم الأمراض .
٨ ـ أديب ومؤرخ لبناني .
٩ ـ تمرين ـ أسلّ وأمتع ـ تعتاد .
١٠ ـ بحث ـ صمت ـ مقام موسيقي ـ نصف كلمة (وليد) .
١١ ـ يتفوقن ـ من أنماط العروض الدرامية .
١٢ ـ تجدها في كلمة (وعاء) ـ أديب عربي صاحب قنديل أم هاشم ـ يمشي على يدين ورجلين .
١٣ ـ أطال النظر ـ نحل ـ ساكته .
١٤ ـ أكشف مكنون الصدر ـ حرفان متشابهان ـ

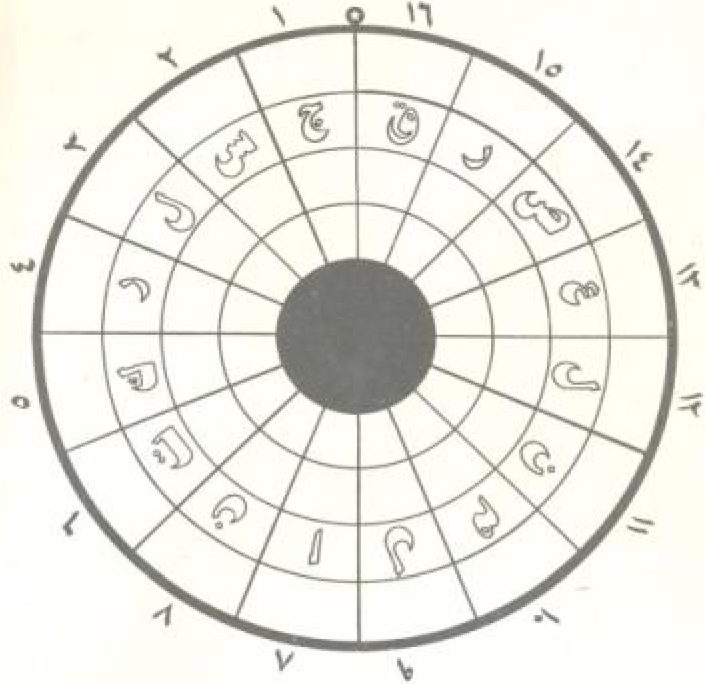
كوبون مسابقة العدد ٢٦٩



بدون ـ أعترف .
١٥ ـ البادى ـ نشكر .

كلمات رأسية :

١ ـ نبات سام ـ نبات قطبى .
٢ ـ في الذرّة ـ رنّ ـ أخير .
٣ ـ من أعضاء الجسم ـ يشق ـ شهر هجرى .
٤ ـ نصف كلمة (راية) ـ دون طفرة ـ نصيب .
٥ ـ يوكل ـ فرار ـ من حروف الهجاء .
٦ ـ أقهل ـ نصف كلمة (جدار) ـ من الزواحف .
٧ ـ من أشكال الموسيقى الغربية ـ عالم فرنسى من أشهر من اكتشفوا أعماق المحيط .
٨ ـ فيلسوف ورياضى اسلامى .
٩ ـ من أنماط الخط العربي ـ حانت ـ من الأمراض .
١٠ ـ لحقه الفناء ـ تقال في ذكر محاسن المتوفى ـ فصل .
١١ ـ تتعلم ـ آلة موسيقية شرقية ـ من الانبياء .
١٢ ـ دولة آسيوية ـ من البحار .
١٣ ـ صارملحا مرا ـ أعجبونا ـ ايحاء .
١٤ ـ نوع من الأفاعي ـ لقب انجليزى ـ قوام .
١٥ ـ خشيني ـ من الأحجار الكريمة .



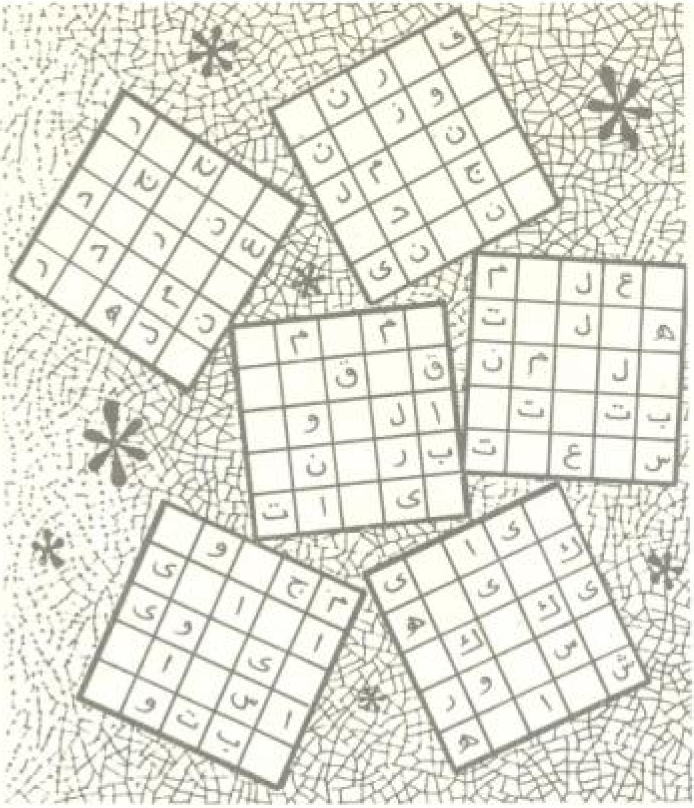
حول الدائرة السوداء

ضع الكلمات ذات الأحرف الاربعة ، والتى نعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للأرقام . يساعدك وجود الحرف الثانى من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

عالم اسكتلندى شهير من القرن التاسع عشر

(١) ضوضاء (٢) من الدهون (٣) تحية (٤) من الزهور (٥) ريب (٦) عراك (٧) أخبر (٨) شحيح (٩) تصرف (١٠) من الطيور (١١) قناة أمريكية (١٢) أمضغ (١٣) نوم (١٤) أتوق (١٥) نهر عربى (١٦) كبير الوزن .

العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية ثقيلة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات أفقية ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحرف الناقص في المربعات الستة ، ورتب الحروف الستة لتصنع اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة تعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في موضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل اذا عرفت أنه يشير الى :

التوافق والانسجام بين شخصين

الحلول ١

العواصم :

هافانا .

حول الدائرة السوداء :

جيمس كلارك ماكسويل .

مثل عربي :

وافق شن طبقه

الامان لأموالكم وفوائد لاتنافس
مع
لومبارد نورث سنترال

العضو في مجموعة الناشيونال وستمنستر بنك التي يفوق رأسمالها واحتياطها ١,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني.

١٤٪
في السنة
ايداع محدد لمدة سنة
تدفع كل الفوائد بدون خصم أي ضريبة
اسعار الفائدة المذكورة جارية الى حين ارسالها للطباعة

لومبارد نورث سنترال عضو في البنوك المصرفية العالمية وتاريخنا يرجع الى أكثر من ١٠٠ سنة. تقدم لكم تسهيلات ايداعية تعود عليكم بأقصى فائدة مع مرونة الاختيار وضمان لأموالكم وهذه الودائع متاحة للأفراد والمؤسسات في جميع أنحاء العالم.

اختاروا المنهج الملائم لاحتياجاتكم

تقدم لكم ثلاث تسهيلات ايداعية لكل منها شروط متعددة ملائمة لاحتياجاتكم الخاصة.

ايداع ذو الأخطار

والمبلغ الأدنى للايداع هو ٥٠٠ جنيه استرليني ويمكنكم اضافة أي مبلغ اليه في أي وقت ويمكنكم سحبه بعد اخطار كتابي في آخر المدة المتفقة عليها. تتجمع الفائدة اعتبارا من تاريخ الايداع وتدفع نصف سنويا ثم تضاف الى الحساب أو تدفع الى المودع بواسطة شيك.

ايداع ذو مدة محددة

والمبلغ الأدنى للايداع هو ١٠٠٠ جنيه استرليني لمدة محددة من سنة الى خمس سنوات مع سعر فائدة محدد لهذه المدة. تدفع الفائدة سنويا.

ايداع ذو دخل منتظم

والمبلغ الأدنى للايداع هو ١٠٠٠ جنيه استرليني. بواسطة هذا المشروع يمكنكم الحصول على مبلغ الفائدة أي على شيك كل شهر أو كل ثلاثة أشهر أو كل نصف سنة والفائدة تزداد تدريجيا حسب المدة التي تختارونها. تودع الأموال لمدة محددة أى بين السنة والخمس سنوات بسعر فائدة محدد لهذه المدة.

نرجو منكم أن تملأوا الكوبون إن أردتم تفاصيل اضافية ومطولة عن حسابات الايداع واسعار فوائدها.

Lombard North Central
Deposit Accounts

إلى:
LOMBARD NORTH CENTRAL LTD., DEPT. 182,
17 BRUTON STREET, LONDON W1A 3DH, ENGLAND.
Telephone: 409 3434.

الاسم: ______________________

العنوان بالكامل: ______________________

____

كلية «سانت اولديتس» أكسفورد
متخصصة في الالتحاق بالجامعات والدراسات المهنية

تعتبر سانت اولديتس من اكبر كليات اكسفورد المستقلة للتعليم العالي ، متخصصة في دراسات الـــ «جي . سي . إي» المستوى المتقدم «"A"-Level» . على الرغم من ان التركيز في الكلية ينصب على دراسات المستوى المتقدم «"A"-Level» ، إلا انها تتيح الفرصة للدارسين للحصول على المستوى العادي «"O"-Level» بحثا وراء الحصول على درجات أعلى لدخول الجامعات او لغرض تخصص ما

تقع الكلية في قلب اكسفورد وهي مختلطة متعددة الثقافات ومعترف بها كمركز امتحانات لاربع هيئات ممتحنة لشهادة الـــ «جي . سي . إي» والحد الادنى الطبيعي للدخول هو ١٧ عاما .

والهدف من تركيز كلية «سانت اولديتس» على دراسات المستوى المتقدم «"A"-Level» هو مساعدة الطلبة للحصول على اعلى الدرجات (مع الاعداد الاضافي للمستوى العادي «"O"-Level» اذا لزم الأمر) وكذلك اتاحة كافة التسهيلات للطلبة للاستمتاع بالفرص الثقافية الفريدة من نوعها التي تقدمها اكسفورد .

سياسة الكلية هي ان لا يزيد عدد الدارسين في الفصل عن ١٠ طلبة وبذلك يضمن نجاح جميع المتقدمين في الامتحانات كما يعطي الحافز للطلبة للاستفادة بجميع المميزات والتسهيلات التي تمنحها كلية «سانت اولديتس» من منح دراسية وسعة نضج في افق التفكير .

يسرنا موافاتكم بنشرة معلومات لـــ «جي . سي . إي» في حال طلبها .
الدراسة باللغة الانجليزية . وكذلك جميع المراسلات يجب ان تكون باللغة الانجليزية .

St. Aldates College, Oxford
Principal B. Mendes B.Sc. (Econ.) F.C.A.
(Dept 42) Rose Place, Oxford. OX1 1SB. England.

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت
ابريل - نيسان
١٩٨١م

الرواية الروسية

في القرن التاسع عشر

تأليف :
الدكتورة مكارم الغمري

الكتاب الأربعون
٢٥٠ فلساً

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

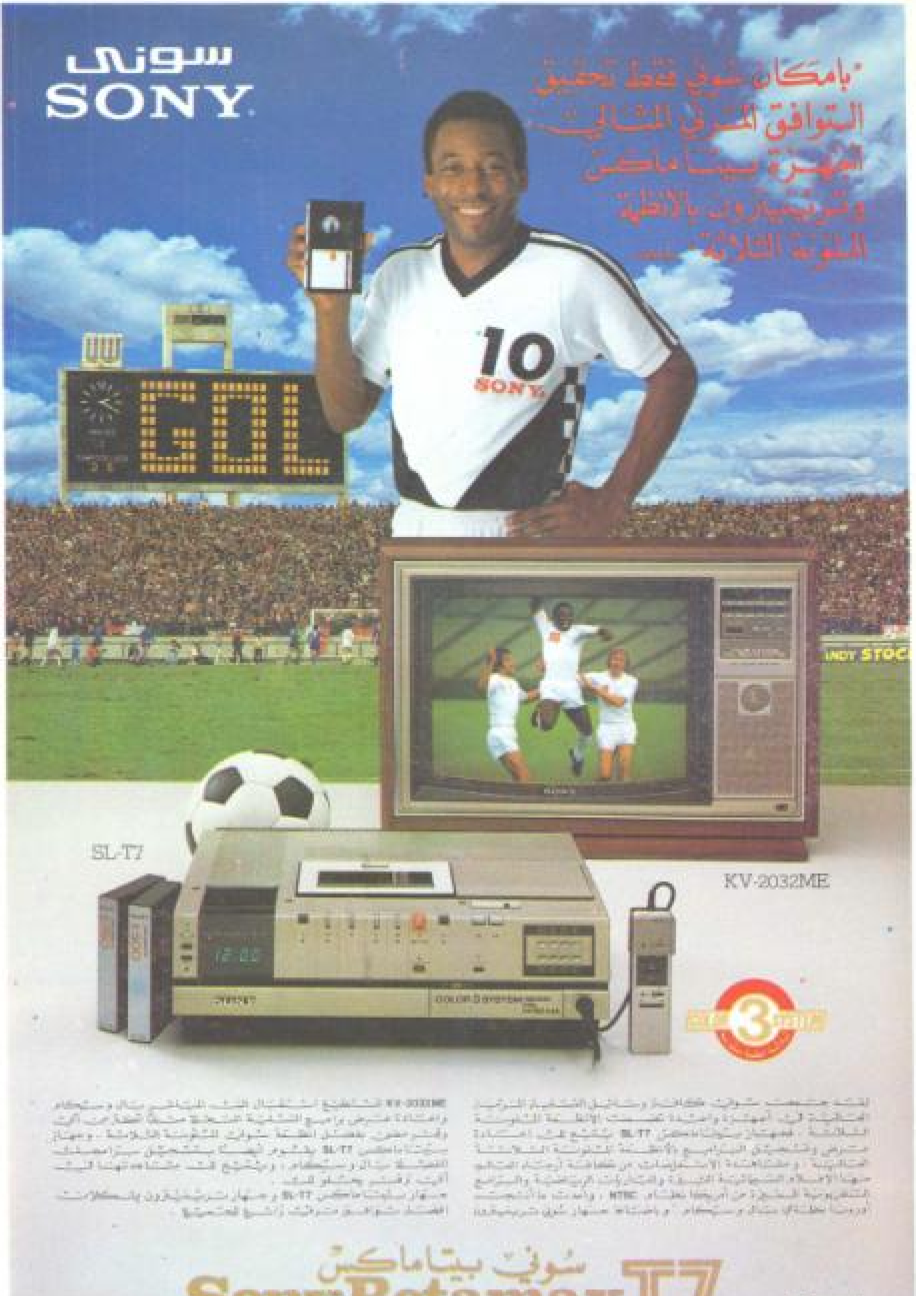
مِنَ المسرح العالمي
سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام في الكويت

أول ابريل ١٩٨١

١٣٩

دنيا زوال

تأليف : موس هارت ، جورج كوفمان
ترجمة : د . محمد رجا الدريني
تقديم : بول بالاس
مراجعة : د . طه محمود طه



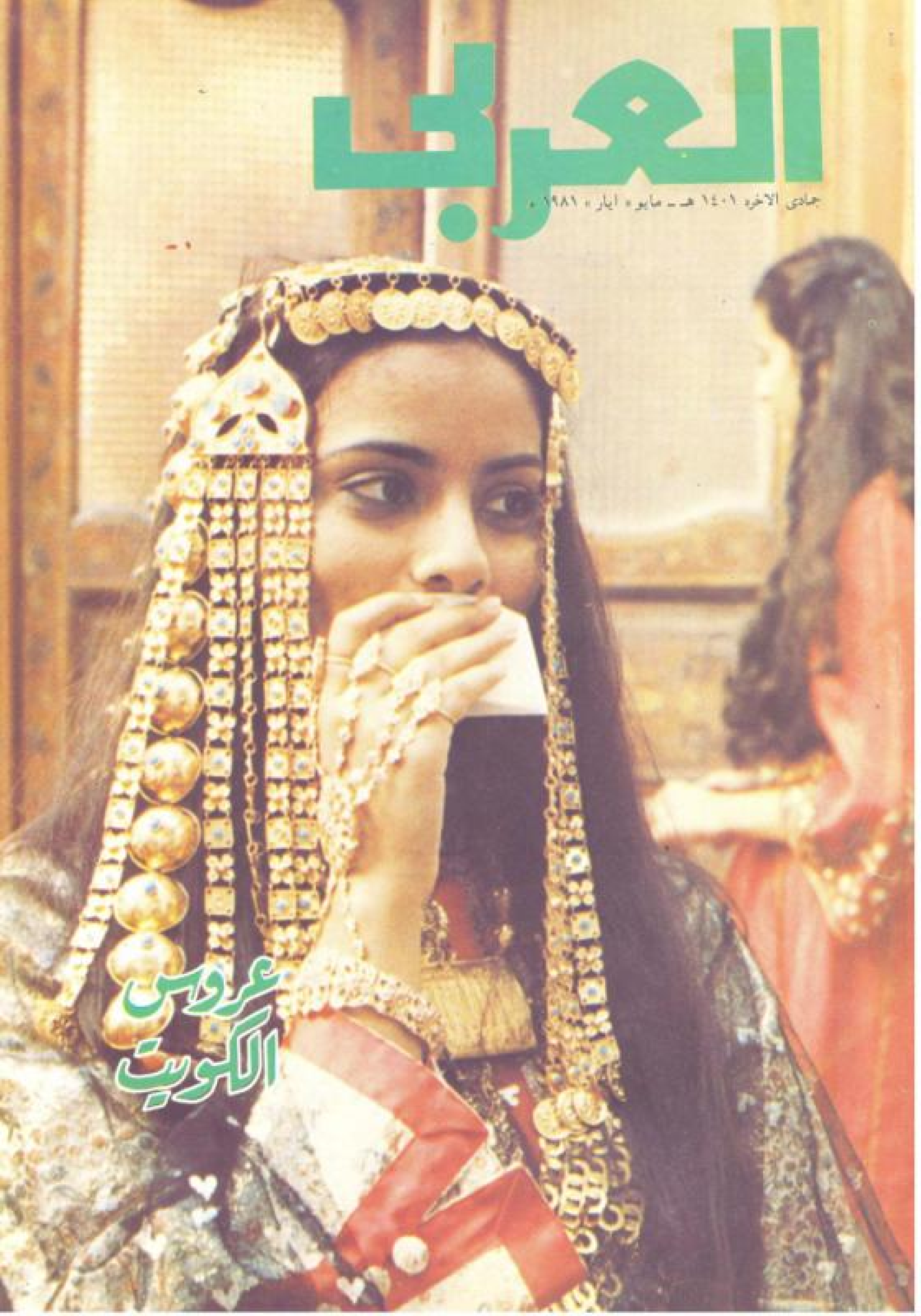
سوني
SONY
"بامكان سوني فقط تحقيق
التوافق المنزلي المثالي...
لأجهزة بيتاماكس
وترينيترون بالأنظمة
الملونة الثلاثة ....
GOL
10
SONY
SL-T7
KV-2032ME
سوني بيتاماكس
Sony Betamax T7
Betamax



المجموعة الذهبية تقدم الشاشة ٢٦ بوصة
GOLDEN SERIES
المجموعة الذهبية
26"
P 8461
إستقبال رباعي - خاصّ من ساني
أنتم على موعد مع المزيد من المتعة في عصر مسجلات الفيديو كا
بايصال الجهاز بأي مسجل للفيديو كاسيت على أي برنامج
أي مكان في العالم تقريباً . مع :
• إستقبال رباعي (٤ أنظمة : بال . سيكام . ان تي اس سي
ان تي اس سي ٤،٤٣ ميجاهيرتز) .
• إنتقاء آلي للفولطية (من ١٠٠ إلى ٢٦٠ فولت) .
• مفاتيح الكترونية للتحكم باللمس أو جهاز جميل
للريموت كونترول .
• إخراج متألق بالألوان المفقعة بالحيوية .
• إختر جهازك المفضل من ٤ موديلات مختلفة .
CTP 8460
CTP 8463
CTP 8462
4
AUTOMATIC
SANYO
سانيو

العربي

جمادى الآخرة ١٤٠١ هـ - مايو « أيار » ١٩٨١ م



عروس الكويت

المفتاح المثالي لأعمالك في الكويت والخليج



بنك الكويت الوطني [illegible] في الكويت منذ ٣٨ سنة.

بنك الكويت الوطني [illegible]

بنك الكويت الوطني [illegible] المصرفية.

بنك الكويت الوطني شبكة من المراسلين في جميع أنحاء العالم. [illegible]

القسم الدولي [illegible]

[illegible]

بنك الكويت الوطني ش م ك

ص.ب ٩٥ ، تلكس [illegible] الكويت ، تلفون [illegible] (الفرع الرئيسي)

عزيزي القارئ

ما الذي اصاب الابداع العربي ؟

ليس السؤال جديدا بحد ذاته ، انما الجديد هو طرحه على لقاء « قمة » ثقافي دعت اليه جامعة الكويت في الشهر الماضي ، وشهده عدد وفير من اكبر العقول العربية المفكرة والباحثة ، العاملة في العالم العربي ، والمهاجرة الى العالم الغربي والولايات المتحدة الامريكية .

ومن الحوارات الطويله والابحاث المتعددة ، تبين أن الاجابة على السؤال عند أهل السياسة وليس أهل الفكر ، وان القمة الثقافيه لايمكن ان يتوفر لها النجاح بغير قمة سياسية موازية ، بل سابقة في حقيقة الامر ، لان الله يزع بالسلطان مالايزع بالقرآن !

خلال المناقشات فتح ملف الواقع العربي والقيت أضواء كاشفة على مختلف جوانب الأزمة الحقيقية التي تعاني منها الأمة العربية .. الديمقراطيه ، الحرية ، الضمانات ، العدل الاجتماعي ، الاستقلال الوطني .. الى آخر القائمة التي تشكل في نهاية الامر مفاتيح الطريق الى الابداع والخلق .

خلال المناقشات ايضا ، لم يجد البعض حلا سوى الهروب الى الماضي والاحتماء به ، والتغني بعصر الامة الذهبي ، والدعوة الى اتباع سيرة السلف ، التي هي المنقذ لكل مايعاني منه الخلف .

ولأن مرارة الواقع بغير حد ، ولأن تشريح وتشخيص الواقع نالا النصيب الاكبر من الاهتمام العام ، فان الاجابة على السؤال : ما العمل ؟ ـ وهو بيت القصيد ـ لم يتوفر لها الوقت الكافي ، لكي تبحث ويتبلور فيها راى او شبه راى .

واذا كان من الحق اتهام الواقع وتحميله المسئولية عن تعطيل الابداع وعرقلة مسيرته ، الا أنه يظل من الحق أيضا أن نقرر بأن ثمة هامشا لدور المثقفين لايمكن الغاؤه او التقليل من اهميته ، يبدأ بامتناع المثقفين عن الاستسلام للواقع او تكريسه ، تنظيرا او تمجيدا ، وينتهي باصرار المثقفين على ان يؤدوا دورهم في التنوير ، سواء من خلال الاضافة الى الواقع ، او من خلال قراءة التراث واحيائه .

ولنذكر دائما تلك الحكمة الالهية التي تقول ان الله لايغير مابقوم ، حتى يغيروا ـ اولا ـ مابأنفسهم ! ■■

(المحـــرر)

صورة الغلاف



● شهدت العربي تجربة عرس كويتي اصيل . وسجلت كل تفاصيله وتقاليده ، حتى ما يكاد يندثر منها في ظل ضغوط الحياة الحديثة ومتطلباتها . وقد جندت العربي لهذه المهمة عدسة التصوير وريشة الفنان وقلم التحرير .. ثم كانت النتيجة على النحو المشرق والمثير الذي سجله استطلاع هذا الشهر . على الصفحات (٦٧ ـ ٨٧)

قضايا عامة :

قضايا حيوية :

عروبة واسلام :

طب وعلوم :

آداب وفنون :

تاريخ وشخصيات :

اجتماع :

استطلاعات مصورة :

منوعات :

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير: أحمد بهاء الدين

مدير التحرير: فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت

للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم

الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء

والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ١١٠ فلوس . الخليج العربي ريالان قطريان . البحرين ٢٠٠ فلس بحريني . العراق ١٢٠ فلسا . سوريا ١٠٠ قرش . لبنان ١٠٠ قرش . الأردن ١٠٠ فلس . السعودية ريالان سعوديان . السودان ١٠ قروش . ج . م . ع ١٠ قروش . تونس ٢٥٠ مليما . الجزائر ٢.٥ دينار . المغرب ٢.٥ درهم . اليمن ٢.٥ ريال . ليبيا ١٥٠ درهما . جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ٢٠٠ فلس .

الاشتراكات : يراجع طالب الاشتراك :

١ ـ الشركة العربية للتوزيع وعنوانها : ص . ب (٤٢٢٨) بيروت/لبنان .

٢ ـ مؤسسة توزيع الأخبار وعنوانها : ٧ شارع الصحافة/القاهرة/مصر .

« للمشتركين في جمهورية مصر العربية »

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراسلات : باسم رئيس التحرير

عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧٦٤١

للبرقيات « العربي »

AL — ARABI. No. 270 May. 1981.

P.O.Box 748, KUWAIT.

رؤية من لندن

حضارة الغرب

بين السماحة والإباحة

كالخيط الابيض والخيط الاسود من الفجر .. الذي لاترى العين ايهما من الآخر بسهولة ويسر ، كذلك في مسارات الحضارات . ذلك الخيط الذي يفصل بين قمة النضوج وبداية الهبوط .

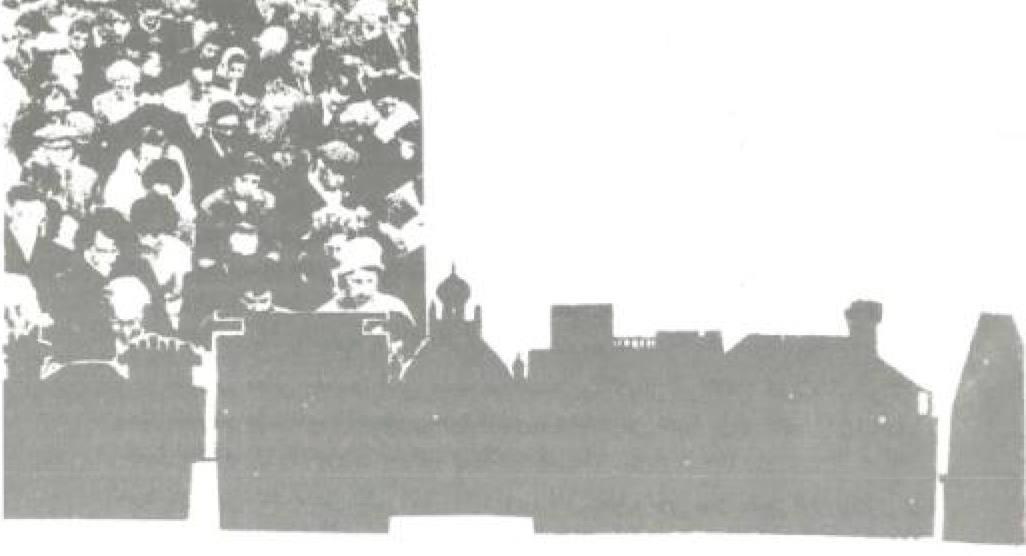
الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ، يختلط على العين ثواني ، او دقائق قليلة .. ولكن تبين الخيط الابيض من الخيط الاسود فيما يفصل بين وصول الحضارة الى قمة النضوج وبداية دبيب الانحلال فيها قد يستغرق اجيالا وقد يختلط على العين عدة قرون ! ومع ذلك قد لاتميزه العين في الوقت المناسب .. وذلك لتداخل عوامل التقدم في عوامل الفناء .

ان الامر هنا كالعصا التي كان يستند عليها سليمان . فلم يعرف الناس انه مات الا حين سقطت العصا فجأة متحولة من قطعة خشب الى تراب . ذلك ان النمل كان يأكلها من الداخل ، دون أن ترى العين ذلك .

●

تراوحت هذه الخواطر في ذهني ، وانا ازور لندن وأعايش الانجليز في فترة بالغة الحساسية والدقة من تاريخهم ، قبل بضعة اسابيع .

واسجل اولا ، انني حين اتحدث عن تحلل حضارة اخرى قائمة ، فان هذا لايستتبع بزوغ حضارة لنا او لغيرنا . لان هذين الامرين ليسا متلازمين بالضرورة . فقد حدث في التاريخ احيانا ان انهارت حضارة وجرت وراءها العالم كله الى قرون من الظلمات . او انهارت حضارة تحت طرقات عنيفة من حضارة اخرى اقوى او اكثر شبابا . فالذين من بيننا يشمتون في مظاهر تحلل حضارة الغير لانها تهبط الى مستوانا ! يفكرون بعقل سلبي ، لا بعقل بناء . وبيأس لا بأمل . وبعجز لا بمقدرة .



بقلم : أحمد بهاء الدين

واسجل ثانيا ، انني افرق بين التحضر والقوة . حتما ما قامت حضارة الا في حراسة القوة . ولكن القوة تظل مظهرا من مظاهر الحضارة لاغير ، او وسيلة من وسائلها لا اكثر . ولكنها ليست جوهرها . فاذا تحدثنا عن انجلترا فليس فقد انجلترا لامبراطوريتها هو دليل أفول حضارتها . انه دليل أفول وضعها كقوة عالمية ، وهو أمر له تأثيره الكبير ، ولكنه ليس الجوهر . فهناك حضارات عاشت بعد ذهاب المستعمرات . بل وبعد الهزائم العسكرية المنكرة . ما معنى نهضة اليابان كما لم تنهض من قبل بعد هزيمتها وانحلال قوتها بل وتحريم القوة العسكرية عليها ؟ ما معني تدمير قوة المانيا مرتين في ربع قرن وإعادة بنائها لنفسها بسرعة خارقة في المرتين ؟ معنى ذلك ان تلك المجموعة من القيم التي يأخذ بها المجتمع والتي تجرى في عروقه مجرى الدم ، لم تدمر ، ولم تصب خلاياها بالعطب .

الرخاء .. عندما يزيد عن « حده » !

وأعود الى انجلترا ، حيث بدأنا الحيرة والتأمل ، ولان انجلترا في تقديرى هى أهم ترمومتر للحضارة التى اصطلح على تسميتها بالحضارة الغربية المسيحية . فهي اهم مهد لهذه الحضارة في صناعتها ، ونظمها ، ومؤسساتها ، وقوانينها ، وهي اذا كانت قد تراجعت عبر الحروب عن قوتها القديمة حين كانت تحكم وحدها خمس العالم بأسره ، الا أن أزماتها وأمراضها هي مؤشر الى ازمات وامراض كل العالم الذى يشاركها في صفة الحضارة الغربية المسيحية .

وما هي معاني الحضارة بشكل عام ، حتى نستطيع تتبع بزوغها وأفولها ؟ ...

أليست هي درجة عالية من الرخاء المادى ؟ ودرجة عالية من التقدم الفكرى والثقافى ؟ ودرجة من القدرة على ترف المادة وترف الفكر وترف الشعور معا ؟ ارتفاع قيمة الانسان ، ازدياد حصانة المواطن وحريته وكرامته ، ورقي ذوقه في مجالات الفنون والآداب والثقافة ، اى رقي حواسه جميعا فوق حواس اشباع المعدة فحسب ؟ أليست هي اسلوبا في معاملة الافراد بعضهم لبعض ، ومعاملتهم للسلطة والمجتمع ومعاملة السلطة والمجتمع لهم ؟ ..

تلك هي معاني الحضارة التي خلبت لب المسافرين الاوائل من البلاد العربية الى اوروبا . مثل كتابات على رفاعة الطهطاوى عن باريس وكتابات من كتبوا عن « الانجليز في بلادهم » تمييزا لسلوكهم في بلادهم عن سلوكهم في بلاد يحكمونها ؟ ..

بل أليست تلك بعض القيم التي اثارت ردود فعل العرب حتى حين جاءهم الاوروبيون غزاة لصوصا مستعمرين ؟ .. أنسي حيرة « الجبرتي » مؤرخ مصر ايام الحملة الفرنسية : اذ يتعجب من ان اى مملوك مؤمن كان يقطع رقاب عباد الله المسلمين مثله دون حساب ، في حين ان الجيش الفرنسى ، حين جاء سليمان الحلبي من سوريا الى القاهرة وقتل الجنرال كليبر قائد الجيش وحاكم البلاد ، وقبض عليه متلبسا ، واعترف بالجريمة ، ومع ذلك شكل الجيش له محكمة ، وأتى له بمحام للدفاع ، وأجرى محاكمة علنية ، قبل اصدار الحكم عليه بالاعدام .. مع انهم « كفار » ؟ ..

بهذا المعنى ، نفهم الحضارة ، ونرى ان انجلترا ـ كمجتمع مع نفسه لا مع غيره ـ حقق درجة عالية منها ...

ولكن هل الزيادة اكثر من اللازم حتى في المزايا ، هي بداية النهاية .. او على الاقل تجاوز القمة . سواء كان اخذا بالقول « اذا زاد الشيء عن حده انقلب الى ضده » او اخذا بالظاهرة الطبيعية ، وهي ان الثمرة اذا تركت فوق شجرتها اكثر من اللازم ، دبت فيها عوامل العطب ، وتوالد فيها الدود ، ولم تعد صالحة للاكل ؟ ..

ان شيئا من هذا ، نراه في انجلترا ...

ولست اقصد فقط ذلك الشيء الذى نراه جميعا ، دون ان انكر اهميته ومغزاه ، وهو تجاوز مجتمع السماحة Tolerance الى مجتمع الاباحة Permissiveness ؟ .

فلا شك ان هناك فرقا بين وصول تفسير الحرية الشخصية الى اقصى مداها ، وبين ان يكون الجنس سلعة معروضة في الفترينات ، ودور السينما ، وكل مكان عام . وان ينشر كخبر عادي ان فلانة الممثلة الشهيرة او بنت الذوات المرموقة قد انجبت من فلان ، وانها لذلك قررت الطلاق من زوجها ؟

وفي العقل الغربي لا تستخدم معاني السماحة والاباحة الا في مجال الجنس ، ولكننا سوف نرى ان هناك مجالات اخطر بنفس هذه النقلة من ال Tolerance الى ال Permissiveness .

انجلترا : عودة الى الثلاثينات

على أنني اريد قبل ذلك ان اقف عند الحادث الذى دفع بكل هذه التأملات الى سن القلم .. ان انجلترا تمر بأحداث بالغة الخطورة ..

فهناك حكومة يمينية متطرفه ، برئاسة مسز تاتشر ، وجدت ان العلاج الوحيد لحالة انجلترا الاقتصادية هو اتباع سياسة انكماشية شديدة وتخفيض انفاق الدولة الى أقصى حد ، والغاء معظم قوانين حكومات العمال الاشتراكية منذ سنة ١٩٤٥ الى الآن . وهي قوانين كانت قد قبلت بها كل الحكومات على السواء منذ ذلك التاريخ . انها تعود الى النظام الاقتصادى الفردى المطلق ، بعد الغاء كل ما قد تم تطعيمه به من افكار اشتراكية .

وجهة نظر الحكومة ان انجلترا صارت تعيش ترفا اكثر من مواردها التى تكسبها ، نتيجة الوعود المتوالية للحكومات ، وهذا صحيح .

ولكن العلاج في نفس الوقت قاس جدا ، وجرعاته عنيفه . الحياة صارت غالية جدا نتيجة الضرائب المتزايدة (بقصد ارغام الناس على تخفيض استهلاكهم) . والبطالة تتزايد بشكل مخيف وصل رقمها الى مليونين ونصف مليون عامل (سوف يصل عددهم السنة القادمة الى ثلاثة ملايين ونصف) . ومع هبوط الشراء ، يهبط الانتاج ، وكل يوم يغلق عدد من المصانع أبوابه . فهى حلقة مفرغه رهيبة .

وحين كنت في لندن ، قدم جيفرى هاو ، وزير الخزانة ، ميزانيته الجديدة . واذا بها تأتي اقسى من كل الميزانيات السابقة ، وفي نفس الاتجاه ، في حين كان البعض يظن ان الحكومة سوف تخفف هذه السنة قليلا من اندفاعها في هذا الاتجاه .

كل يوم يعلن عن اغلاق مصانع وتسريح عمال . واعلن يوما ان ٢٠٠٠ استاذ جامعي سيتم الاستغناء عنهم آخر هذه السنة . واعلن ان عشر جامعات انجليزية سوف تغلق بعض كلياتها . واعلنت الاذاعة والتليفزيون عن حل وتسريح عشر فرق موسيقية .

ونصف البيوت تحمل لافتة « للبيع » لان المشترين بنظام القروض طويلة الاجل غير قادرين على دفع الفوائد العالية جدا للقروض .

اذن فنوع الحياة يختلف . ومستواها يتغير . والنسيج الاجتماعي ذاته بين الشد والجذب العنيفين يوشك على التمزق .

وجاء الرد طبعا في صورة اضرابات متوالية ، تزيد فوق الخسائر خسائر اخرى ، وفوق الفاقد الهائل من الانتاج فاقدا اكبر ..

والاضرابات هناك ، او حق الاضراب ، هو جزء من قوانين المجتمع . وله قواعده . فالاضراب لايتم الا بعملية تصويت ديمقراطية في النقابة صاحبة الشأن ، وعلى ضوء نتيجة التصويت يتقرر الاضراب ومدته ونطاقه ، من عدمه .

واعلن ان عدد الذين قدموا طلبات للهجرة من الانجليز الى كندا واستراليا ونيوزيلندا اربعمائة الف !

موقف لم تواجهه انجلترا منذ سنة ١٩٣٠ .. اى منذ نصف قرن .. ولم تعد انجلترا في قوتها السابقة . ولا هي بعد بالامبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس ..

وفي وسط هذا ، وقع اضراب ذو طابع خاص ، لم يسبق له مثيل : هو اضراب موظفي الدولة . اى اضراب كل الادارة الحكومية الانجليزية ..

في المطارات اضرب موظف الجمارك وموظف الأمن فصارت البلد بلا حدود ولاقيود . وفي

الوزارات اغلقت مصالح بأكملها ، خصوصا تلك التي تجلب للدولة ايرادا ، كالضرائب والعوائد وغيرها ، وفي القواعد العسكرية ومكامن الصواريخ والرادار اضرب الفنيون المدنيون واعلن ان انجلترا لمدة ٢٤ ساعة بلا دفاع . إن هاجمها اي عدو ! واشياء لاتعد ولاتحصى .

ولا انسى مشهدا على شاشة التليفزيون : سيدة تقود سيارتها في الطريق الى عملها . ويوقفها المضربون عند المدخل . وامام الكاميرا مندوب المضربين ، والسيدة التي تريد الذهاب لعملها ، ورجل البوليس .

تقول هي : إن عملها هام وهي غير موافقة على تركه اليوم ويرد عليها المندوب : ولكنك تخالفين قرارا ديمقراطيا . لقد اتخذ قرار الاضراب بأغلبية الاصوات .

ورجل البوليس يستمع فقط . فطالما انه لم يحدث عنف فليس له ان يتدخل !

وتلك هي القضية .

السياحة وحافة الاباحة

القضية التي استوقفتني ليس الاضراب . ولاقسوة الظروف .

ولكن الذى لابد ان يستوقف النظر هو : ان يحدث كل هذا الاضطراب ، والصراع ، والتناقض .. في تهذيب كامل ! دون ان يحدث حادث شجار واحد . دون ان يضرب أحد آخر كفا واحدا . او يلقي طوبه واحدة .

عجلة الحياة تسير كالعادة .

اذا لم يقرأ المرء الصحف ولم يسمع الاذاعة ولم ير التليفزيون . فربما لايعرف ان شيئا ما قد حدث على الاطلاق !

هذا ما يستوقف النظر حقا .

ولا اظن انه يحدث الا في انجلترا ... انه الوصول الى حافة ونهاية ما يسمى بالـ Tolerance ، اى سعة الصدر لرأى الغير وتصرفه .

وحدوثه في هدوء تام ، او فلنقل مع « احترام كل قواعد اللعبة » لا يعني عدم أهميته ، فالاهمية تقترن في معظم العالم بالعنف والصدام والدوى العالى الصوت . فرنسا مثلا لا يحدث فيها هذا بهدوء . ولكن ولهذا فتاريخ التطور الفرنسى تاريخ ثورات متلاحقة . وتاريخ انجلترا تاريخ تطور عميق الاثر ، وان كان خافت الصوت .

بهذا الفهم فان ما يحدث في انجلترا بالغ الاهمية . وما قد يتم حدوثه في انجلترا سيؤثر في مسار المجتمع الغربي كله ...

ففي نفس الوقت تكاد تنقسم الحكومة قسمين علنا . وحزب العمال خرج منه لاول مرة حزب اشتراكي ديمقراطي جديد . وفي انجلترا لايولد حزب جديد الا مرة كل خمسين او ستين سنة .

ان كل الاراء الاقتصادية والاجتماعية تتصارع في انجلترا اليوم بحثا عن مخرج جديد . يحدث وينضج على نار هادئه . ولكنه سيكون علامة التحول في العالم الغربي كله ، كما حدث دائما في معظم القرنين الماضيين .



مارجريت تاتشر

واذا حاولنا تأمل ما سوف يحدث .. سنجد انفسنا امام السؤال الذى طرحته اول هذا الحديث ...

هل هو الخيط الابيض مع الخيط الاسود ساعة فجر تطور جديد ، او ساعة افول وغروب ومغيب . وللفجر والغروب لونان متقاربان ؟

هل زادت السماحة Tolerance فوصلت الى منطقة الاباحة Permissiveness ، السماحة قمة قوة . والاباحة بداية ضعف ...

فترك الدولة دون دفاع قط مدة أربع وعشرين ساعة .. سماحة ام تجاوز للمعقول واباحه ؟

وظهور هذا العدد من الجواسيس الانجليز في مراكز حساسة ، لحساب الاتحاد السوفيتي ، والتعامل معهم في رفق شديد .. وحتى فهم لظروف عقائدية معينة مرت عليها سنوات .. سماحة ، ام اباحة ؟

حتى مدير المخابرات الانجليزى ، لمدة تسع سنوات ، تنشر وثائق تثبت انه كان يتعامل مع الروس .. وتقول رئيسة الحكومة الانجليزية : ان هناك شبهات ، ولكن الادلة غير كافية !

زيادة في السماحة وحصانة الفرد ، ام دخول في دائرة الاباحة والضعف الذى يقترن بزيادة رقة الحضارة ورهافتها ؟

وظهور سير بلنت ، مستشار ملكة انجلترا للفنون ، على شاشة التلفزيون ، يشرح كيف تجسس منذ عشرات السنين ، ويناقشه المناقشون في احترام ، سماحة وفهم للضعف الانساني ، ام سقوط في وهدة الضعف الانساني الى درجة تتحلل بها قيم اساسية لاتقبل النصف نصف ؟

ان انجلترا مجتمع متحضر فيه كل مزايا التحضر وآفاته . فيه عناصر البقاء والفناء . تسير على حبل مشدود بين السماحة التي تخلقها الحضارة والاباحة التي كانت دائما مقبرة الحضارات ..

والمشهد مثير وخطير .. ونتائجه اهم في حياة العالم من حروب اخرى نسمع فرقعاتها في القارات الخمس .. وان كان يحدث بالطريقة الانجليزية .. على نار هادئة .. خافته الصوت !

احمد بهاء الدين



الدكتور زكي نجيب محمود يكتب

رجع الصدى

في حياتنا الثقافية اليوم سؤال مطروح ، تأتي عنه اجابات مختلفة من هنا ، وهنا ، وهناك ، وهو : لماذا لاتنفذ الامة العربية في حاضرها الراهن ، الى العالم الخارجي بفكرها وادبها ؟ اننا اذا استثنينا امثلة قليلة ، فلا نكاد نقع في بلاد الدنيا ، من شمالها الى جنوبها ومن شرقها الى غربها ، عن كاتب عربي ، او شاعر ، او فنان ، قد شغل الناس بقضية فكرية تتحدى العقل ، او بضربة جديدة في دنيا الابداع الادبي والفني ، بحيث وقف عندها النقاد تحليلا وتعليلا ، ومن بعدهم ارباب الثقافة يتبادلون الاعجاب ، او يبدون الريبة او السخط .

فلما طرحت السؤال نفسه الان امامي لأجيب ـ وقد حدث ان طرحته على نفسي مرارا قبل ذلك وحاولت الجواب ـ وثبت الى ذهني صورة دون ان استدعيها ، وهي صورة مستمدة من اسطورة يونانية قديمة ، الله اعلم متى قرأتها ، واعني اسطورة « اكو » ! وقد اصبح اسم « اكو » كلمة في بعض اللغات الاوربية ومعناها « الصدى ») . ولقد كانت « اكو » في الاسطورة اليونانية القديمة ، هي ربة الجبال ، لكنها عرفت بين الارباب بطول لسانها ولجاجتها ، وكثرة معارضتها لاي شيء تسمعه من متحدث كائنا ما كان المتحدث ، وايا ماكان موضوع الحديث ، فضاق الارباب ذرعا بها ، وحكموا عليها بعقوبة من جنس اثمها ، الا وهي ان تعجز « اكو » عن النطق بما هو جديد ، وان ينحصر نطقها في شيء واحد فقط ، وهو ان تردد المقطع الاخير مما تسمعه ، فلا هي باتت قادرة على المبادلة بقول جديد تعرضه على الاخرين ولا هي قادرة على معارضة ما يجيء اليها من الاخرين ، معارضة متكاملة المعنى .

اقول انني حين طرحت على نفسي السؤال الشائع في حياتنا الثقافية اليوم ، وهو : لماذا لاتلحظ للامة العربية في عصرنا ، وجودا ذا وزن في عالم الادب والفكر ؟ ثم هممت بمحاولة جديدة نحو جواب اقدمه ، فاجأتني اسطورة « اكو » التي اوجزتها لك ، فكأنما عرضت تلك الاسطورة نفسها علي ، لعلي اجد فيها شيئا من الجواب المطلوب ، وذلك هو بالفعل ما قد حدث : فلئن كانت الامة العربية قد ملأت اسماع الدنيا في يومنا هذا كلما كان الحديث

عن الاقتصاد ، والتضخم وكلما كان خوف من حرب عالمية يندلع لهبها من شرارة اولى تنقدح من الشرق الاوسط ، فان تلك الامة العربية لا يكاد يكون لها اثر في عالم الفكر والفن والادب ، اللهم الا ترديدات بتراء لمقاطع نخطفها من اقوال الاخرين اختطافا ، فهى آنا تأخذها عن الغرب الحديث ، وهى آنا آخر تأخذها عن ابائها العرب الاقدمين .

فما الذى قضى علينا بان نقنع من دنيا الثقافة برجع الصدى ؟ قد يكون ذلك لطبيعة المرحلة الحضارية التى نجتازها ، والتي وجدنا انفسنا فيها محاصرين بحضارتين لم نكن نحن العرب المعاصرين صناع اى منها ، احداهما ورثنا بعض آثارها من اسلافنا ، والاخرى تهجم علينا من الغرب هجوما لا قبل لنا برده ، ولا مصلحة لنا في رده ، فاخذنا ننقل عن هذين المصدرين ، نقلا لاتتريث فيه ولا تتدبر ، كأنما نخشى ان يفوتنا قطار الزمن ، فجعلنا نلهث وراءه بتلك الاجزاء ، المبتورة التى نزعناها نزعا من هذه الحضارة ومن تلك واوشكنا الا نتقدم الى الناس بشيء واحد جديد ، اننا ننقل عن ذينك المصدرين كل ما نعلمه في مدارسنا وجامعاتنا من علم وفكر وفن ، وننقل عنها ما نتمذهب به في السياسة والاقتصاد وسائر النظم ، ولذلك ترانا ـ اذا اعترضت حياتنا مشكلة من اى نوع كانت ، انقسمنا ازاء حلها قسمين : قسم يفتح دفاتر الاقدمين بحثا عن الحل ، وقسم اخر يتصفح كتب الغرباء الغربيين بحثا عن الحل ، وحتى ما قد يخيل الينا اننا مبدعون فيه جديدا كفنون الادب ، والوان الفن وبعض ما نعرفه من افكار نقدية ، فهو في صميمه محاكاة لنماذج اختارها المبدع من هنا او هناك ، بحسب نزعته الثقافية ، اهى تنزع به نحو تراث اسلافه ، ام تميل به نحو العالم الخارجى ؟

وقد يكون من الاسباب التى حالت بيننا وبين ان يعرف العالم شيئا عن القليل الذى نبدعه جديدا اننا نكتب باللغة العربية ، التى تتعذر الترجمة عنها الى لغات اخرى ، فبدونا وكاننا فقراء فكر وادب وفن ، وما حقيقة الامر الا ان وسيلة نقلنا الى الاخرين قد استعصى امرها ، وهى حجة كثيرا ما نقال التماسا لعذر يستر ماء وجوهنا ، انه لو كان لدينا الجديد القوى لانتشر عطره فواحا ، واقبل عليه الناقلون ، وانظر الى ما حدث في تاريخنا العربى القديم حين كان لنا الجديد نقدمه ، فيسعى الساعون اليه من انحاء اوربا يتعلمون اللغة العربية من اجله ، كما نتعلم نحن اليوم لغاتهم من اجل الحصول على ما يقدمونه من جديد كل يوم ..

اننا نكتب ونكتب ، لكننا كمن يهمس بعضهم الى بعض ، لا لان لغتنا عصية على الغرباء او قل ان ذلك ليس هو السبب الاول والاهم ، بل يجيء قبل ذلك ما اسلفت ذكره وهو ان ليس عندنا جديد ، لماذا ؟ اليس لنا ـ على الاقل ـ مشاعر الفرح والاسى ؟ اليس لنا قلوب تنبض بالحب والكراهية كقلوب البشر ؟ ألسنا نسخط ونرضى ، ألسنا اصحاب عقيدة دينية تعمر صدورنا ؟ فلماذا لانخرج هذا كله ادبا جديدا يود الغرباء لو طالعوه فطالعوا شيئا لم يألفوه ؟ جواب ذلك عندى هو : نعم عندنا هذا كله ، لكننا مصابون بازدواجية ، الله وحده اعلم كم تنفرج زاويتها بين ما نظهره من انفسنا وما نخفيه ،فتقرأ لمن تقرأ له من كتابنا ،فلا تدرى احقا هذا هو ايمانه ام انه شيء يكتبه ليرضى عنه جمهور القارئين ؟ كم من كتابنا وضع شكوكه على الورق ؟ كم منهم افصح عن حقيقة حبه اذا كان من المحبين ؟ اننى لازعم ـ ورزقى على الله ـ بان جزءا كبيرا مما تجرى به اقلامنا كذب ، ومن ثم فقدت كتاباتنا قوة جذبها .

لقد لبثت امريكا منذ نشأتها وحتى منتصف القرن الماضى ، قليلة الثقة بنفسها من الناحية الثقافية ، وتنقل عن اوربا فكرها وفنها ، ثم صاح فيهم عندئذ « امرسون » صيحة كان لها دوى ، ان آن الاوان لظهور ثقافة امريكية خالصة ، وقد كان ـ فهل لنا من يطلق في الامة العربية اليوم مثل هذه الصيحة ؟ ■■

الشيء الذي لايتغير ابدا في هذا « النظام العالمي الجديد » ، هو الفرد المقهور المرعوب الذي تلاحقه السلطة حتى وهو في الفراش وتسجل عليه حتى الخواطر والافكار .

هل يصير العلم إلى كهنوتية جديدة ؟

بقلم : شكرى محمد عياد

لم تعد بعيدين عن عام ١٩٨٤ ، وخيال جورج اورويل في روايته المشهورة (١٩٨٤) ، يكاد يصبح حقيقة ، قبله باقل من عشرين سنة كتب هـ . ج . ولز واحدا من اواخر كتبه « نظام العالم الجديد » ، متابعا فكرته التي طرحها في « تاريخ العالم » : ان وسائل النقل او نظم الاتصال ، تصنع التاريخ . وهكذا تنبأ بان اختصار المسافات عن طريق تطوير القوة المحركة في الباخرة والقطار واخيرا الطائرة ، سوف يحول الدول المستقلة الى اقاليم في حكومة عالمية واحدة .

لم تكن مجزرة الحرب العالمية الثانية لتحول بين المفكرين والروائيين ـ وكان ولز مفكرا وروائيا وبين الحلم بمستقبل تنعم فيه البشرية بخيرات الحضارة دون ان تعاني ويلاتها . بل كان الالم والمعاناة يجعلان حلم

المستقبل اكثر اشراقا ، ذلك عصر مضى ، لم يشهده معظم القراء ، ولكننا نحن الذين عشناه ـ نذكره بكل الحنين كما يذكر شبابنا الذي رافقه . وكانت بضعة عشر عاما من وسائل الاتصال الالكترونية كافية لان يتحول الحلم الى كابوس : وهكذا تخيل جورج اورويل عالما واحدا مقسما الى ثلاث دول كبرى ، او على الاصح ثلاث قوى غير مرئية ، تتبادل المراكز وتغير الاحلاف بصورة مستمرة ، وتزيف الوثائق وتعيد كتابة التاريخ كلما قررت ان تقلب السياسة ، اما الشيء الذي لا يتغير ابدا في هذا « النظام العالمي الجديد » فهو الفرد المقهور المرعوب المفضوح الذي تلاحقه السلطة حتى وهو في الفراش ، وتسجل عليه حتى الخواطر والافكار .

هل اقتربنا حقا من هذا العالم ؟

ان الذي يطرح هذا السؤال اليوم ليس اديبا ولا مفكرا من الطراز القديم ، ولكنه استاذ في علوم الاتصال ، وان شئت فقل الاعلام ، وان كنت لا اعرف بالضبط ماذا تفيد هذه الكلمة في معاهدنا الكثيرة التي تتسمى بها يقول ادوين ب . باركر الخبير بمعهد ابحاث علوم الاتصال بجامعة ستانفرد بالولايات المتحدة الامريكية ، وأحد محرري كتاب « المدخل الى علوم الاتصال » (لاتخدعنك كلمة « مدخل » فالقوم يطلقونها

على الكتب الاساسية التى تلخص كل ما وصل اليه الباحثون في علم من العلوم . وقد تزيد عدد صفحاتها عن الالف كما هي الحال في الكتاب الذى نحن بصدده) :

« مع ان الاشخاص الذين يستخدمون وسائل الاتصال الحديثة سيكون بمقدورهم ان يختاروا ما يريدونه من هذه الوسائل . وان يعينوا الوقت الذى يرغبون ان يتلقوه فيه . فسوف يكون اختيارهم محصورا بالضرورة فيما يقدمه النظام . واذا سيطرت الاحتكارات التجارية على ما يقدمه مثل هذا النظام . فقد تكون المخاطر اسوأ حتى من مخاطر الاحتكاك الحكومي الذى رأينا صورة كاريكاتورية له في رواية ١٩٨٤ . حيث يسيطر « الاخ الاكبر » على نظام للاتصال منه واليه . اى ان العبرة ليست بالنظام السياسي باى اسم سمي هذا النظام نفسه . انما العبرة بمدى سيطرة النظام السياسي الاجتماعي على وسائل الاتصال . فايما فئة استطاعت ان تحصل على « المعلومات » قبل غيرها وان تلقي الى الغير بنوع المعلومات التي تريدها هي ففي مقدورها ان تفرض مصالحها الخاصة على الجميع .

عصر الثورة الالكترونية

هذا ليس الا وجها واحدا من الوجوه الكثيرة « للعالم الجديد » الذى اصبحنا نعيش فيه . فالالكترونيات لم تغير نظم الاتصال فحسب . بل عدت نظم الانتاج ايضا . لقد بدأ عصر « الثورة الالكترونية » في امريكا واوربا منذ حوالي نصف قرن . ونحن في اسيا وافريقيا لا نزال نتخبط في بدايات ثورة صناعية . وان الكثيرين منا (ومنهم كاتب هذه السطور ولا فخر) لينظرون الى مدهشات الاجهزة الالكترونية وفي اعماقهم يتردد صدى جملة قالها الشيخ الجبرتي منذ قرنين تقريبا :

« ان هذه امور لا تعيها عقول امثالنا » . فحسبي وحسبك ان نضغط على مفاتيح الراديو او التلفزيون او الاستريو او الفيديو ونتسلى او نلمس ارقام التلفون فنجد انفسنا نتحدث مع قريبنا الذى يقيم في انجلترا او امريكا .

حقا اننا نعيش في عالم مسحور . فقد الغت الكهرباء المسافة وكادت تلغي الزمن . انني اجلس امام موظف في مكتب سياحي او فرع لشركة طيران . لاحجز مكانا على طائرة ما . فيدق على اصابع جهاز تلفزيون . وفي طرفة عين يخبرني بالموعد المتاح . هل سألت نفسي كم مكتبا هناك . وكم فرعا للشركة ـ كم جهاز تلفزيون ولماذا لم يحدث مرة واحدة ان ظهرت على شاشة التلفزيون عبارة تقول للموظف مثلا : انتظر . الخط مشغول ؟ لعل دهشتي امام « هذه الامور التي لا تعيها عقول امثالنا قد منعتني حتى من ان اسأل . ولكنني عرفت اخيرا . وبالمصادفة المحضة . ان « مفهوم » الزمن عند العقل الالكتروني يختلف عنه في عقلي او عقلك . ان الزمن لدى العقل الالكتروني يقاس بواحد على مليون او بواحد على بليون من الثانية . هذه هي السرعة التي يؤدى بها عمله في تسجيل المعلومات وتنظيمها واعطائها . ولهذا يمكنه ان يجيب على مائة سائل في « وقت » واحد بحسابي وحسابك .

فضيحة الاسم

وتستوقف نظرى طريقة تسميتنا لهذه الاجهزة . فهناك تسميتان : تسمية رسمية . تراعى في معاهد التعليم وادارات الحكومة . وهي « الحاسب الالي » . هذه التسمية تترجم الاصطلاح الاجنبي (الكومبيوتر) ترجمة حرفية مع اضافة الوصف « الالي » ويراد به هنا « الذى يعمل بطريقة اوتوماتيكية اى من تلقاء نفسه . فهو وصف لا يؤدى المعنى بدقة . وكثير على كلمة واحدة ان تؤدى هذا الحشد الهائل من المعاني من « علوم الالة » (النحو والصرف والبلاغة) الى الكومبيوتر .

ولكن الفضيحة الكامنة في هذه التسمية اهون على كل حال . من فضيحة الاسم الاخر الذى شاع على السنة الناس واقلام الكتاب . العقل الاكتروني . ولعلنا لا نصدق بسهولة ان العقل الالكتروني والحاسب الالي هما شيء واحد . وربما بدا لنا أن هذه التسمية الاخيرة هي محاولة مقصودة للحط من قيمة هذه الذوات المبجلة فنحن ننظر اليها بطيبة قلوبنا . على انها « عقول » طالما هي تتصرف من تلقاء نفسها طبقا لمعلومات مختزنة فيها . او تقدم الينا هذه المعلومات . بكفاءة وسرعة خرافيتين عندما نطلبها بل اننا لم ندرك بعد ادراكا واضحا ان الثورة الالكترونية قد الغت المسافة بين المعلومات وبين العمل او الانتاج . لا اصمم ثم انفذ . التصميم داخل في صلب الالة . ولهذا يخيل الى انها تتصرف تصرف الانسان . مع مزيد من السرعة والكفاءة .

« للاعلام » اذن معنى هندسي . انتاجي . اوسع من مفهوم « الاعلام » عندنا . الذى يقتصر على وسائل الاتصال الجماهيرية . من صحافة واذاعة وسينما وتلفزيون . ان الجهاز « المبرمج » ايا كان نوعه هو جهاز

يعمل وفقا لمعلومات اودعها فيه الانسان اي أنه ، اكثر من اي نوع آخر من الاجهزة التي عرفتها البشرية ، امتدادا لقدرة الانسان واهم من ذلك انه يعمل بسرعة الكهرباء ، ولهذا يمكنه ان يقوم باعمال كثيرة ومتنوعة في وقت واحد . والاهم ان قدرة الانسان كما امتدت في المجال المادي بصورة لم يسبق لها نظير ، امتدت ايضا الى عقول الملايين او البلايين من البشر عن طريق اجهزة الاعلام الآنية ، الاذاعة والتلفزيون (بكم تقدر مثلا ، عدد الذين يجلسون في وقت واحد امام اجهزة التلفزيون ليشاهدوا مباراة عالمية في كرة القدم ؟) ومعنى ذلك ان الثورة الالكترونية لم تكتف بالغاء المسافة بين المعلومات والانتاج فمازالت حتى قامت بالانجاز الآخر الهائل والرهيب الغاء المسافة بين العقل والمادة ، بحيث اصبح في الامكان أن تصاغ العقول كما تصاغ مواد الطبيعة .

هذا هو الخطر الداهم الذى تنبأ به جورج اورويل .

هل يمكننا ان نتفاءل ؟

من المفكرين في اقطار العالم المتقدمة من ينظرون الى الجانب المشرق من الصورة . فمارشل ماكلوهن ـ فيلسوف الاعلام الاشهر في امريكا ـ يرى ان التلفزيون يصوغ للانسان الجديد حسا جديدا ، حسا « شموليا » لا يقتصر على الحس البصرى الذى اوجدته ثقافة الكتاب والصورة ، ولكنه بصرى سمعي ولمسي ايضا ، لان تقنية التليفزيون لا تعطي المتفرج صورة كاملة ، ومن ثم فهي تدفعه الى المشاركة » والاندماج » وكأنه مشترك بجسمه في المشهد .

ولكن المتفائلين والمتشائمين جميعا يتفقون في عدة امور : يتفقون اولا في ان « الاعلام » خاصية حضارية ، وعلامة مميزة لهذا العصر ، واذا كان ماكلوهن يربط الانتاج العصرى الالكتروني بالاعلام ، فحتى الذين يقصرون مفهوم « الاعلام » على معناه الاجتماعى ـ اى الاتصال ـ يسمون المجتمعات العصرية المتطورة « مجتمعات اعلامية » ، لذلك يجعلون دراسة مشكلات الاتصال (ويدخل فيها بالطبع ـ الاتصالات التلفونية المحلية والعالمية وتخزين المعلومات بواسطة العقول الالكترونية كما تدخل فيها وسائل الاتصال الجماهيرية المعروفة) على قمة الدراسات الاجتماعية . ومن الطريف ان اليابان اصبحت سابقة في ذلك حتى بالمقارنة مع امريكا . ومنذ عامين فقط عقدت ندوة في الولايات المتحدة الامريكية جعل موضوعها « المجتمعات الاعلامية » ، ودعي اليها عدد من الخبراء الاعلاميين ، في اليابان ، ومما ذكره احدهم في الندوة ان اكثر من مائة كتاب ظهرت في اليابان خلال تسعة اعوام في موضوع واحد وهو « مستقبل الصناعات الاعلامية » ، وان معجما خاصا وضع باليابانية للمصطلحات المستخدمة في دراسة المجتمعات الاعلامية ، وسلسلة من عشرين مجلدا ظهرت بعنوان « العلوم الاجتماعية للمجتمعات الاعلامية » .

ويتفقون ثانيا في استبعاد « المواعظ » التي تصدر عن اناس غير متخصصين عندما تذكر سيئات وسائل الاعلام الحديثة . (ولعل التلفزيون هو اوفى هذه الوسائل حظا من اللوم لانه دخل كل بيت ، ولان جاذبيته الشديدة تستهوى الصغار والكبار) . فهؤلاء الواعظون ـ وان يئسوا من امكان دفع هذا « البلاء » يذهبون الى ان العلاج هو ملء اوقات التلفزيون او الاذاعة بمواد « جيدة حسب رأيهم ولكن علماء الاجتماع الاعلامي » لا يبحثون في المضمون . فانهم ـ مع اعترافهم بان المضمون في الرسالة الاعلامية يعبر عن قيم خاصة بكل مجتمع ـ يرون ان هذه القيم لا تدخل في مجال بحثهم إنهم يبحثون في « حجم الاعلام ، و « شكله » ، و « قنواته » و « استقباله » والعلاقات بين تلك الاركان الاربعة . ونتائج هذا البحث : مؤشرات على مستوى النمو الاجتماعي ووسائل لتنظيم العمليات الاعلامية ورصد نتائجها وضبط اقتصادياتها . ومعظم الباحثين في الاعلام مرتبطون فعلا « بمؤسسات اعلامية مطالبة برسم سياسة تأخذ هذه العناصر كلها في الاعتبار ، ولا تنظر الى « القيم » التي تنطوى عليها الرسائل الاعلامية .

وهذه الحقيقة تسلمنا الى المبدأ الثالث من مبادىء البحث الاعلامي وقد صاغه ما كلوهن في جملة موجزة : « الواسطة (او الوسيلة الاعلامية) هي الرسالة »

ولعل ماكلوهن ان يكون قد تأثر في صياغته لهذه العبارة بدراسته الادبية الاولى ، حيث « الشكل الفني » هو الذى يحدد دلالة العمل الادبي ، لا محتواه الاجتماعي او الفلسفي الخ . ولكنه حين انتقل الى دراسة وسائل الاعلام الجماهيرية ـ حاول ان يختبر صدق هذه القضية في تأثير وسائل الاعلام على حساسية المتلقى او المشاهد ، ومن هنا جاء بنظريته عن « الحس الشمولي » الذى ينتج عن مشاهدة التلفزيون . فالواسطة هي التي تؤثر في التكوين النفسي للبشر وطريقة تعاملهم مع الواقع ، مهما يكن مضمون الرسالة . Medium is the message

وقد يكون هذا المبدأ الاخير هو اهم المبادىء التي يعتمدها علماء الاعلام . فاذا كانت الواسطة هي التي تشكل حساسية الانسان الذي يستعملها فان « الكومبيوتر » كواسطة علمية ، يمكن ان يشكل العلم ايضا . وهنا نصل الى قلب المشكلة .

بين العلم والتكنولوجيا

يشبه ما كلوهن وسائل الاتصال بالجهاز العصبي الذي يربط عالم اليوم بعضه ببعض ، فهل يمكننا ان نتصور « المخ » الذي يسيطر على هذا الجهاز العصبي ويوجهه ؟ ويقول ماكلوهن ان المسافة بين المعلومات والانتاج قد انعدمت ، معنى هذا ان عالم اليوم يقوم على التكنولوجيا ولا يقوم على العلم . ان « النظرية العلمية » (وهي معلومات متسقة لا تؤدي بالضرورة الى انتاج) في طريقها الى الزوال او الانزواء كما انزوى الدين ـ معناه ايضا ان تفتيت العلم الى تكنولوجيا يخضع العلم اخضاعا كاملا للسلطة . ان عالم المستقبل لن يعرف « علماء » يغيرون نظرتنا الى العالم ولكنه سيعرف جيشا او جيوشا من البروليتاريا العلمية التي تعمل في خدمة السلطة وسيكون اى فرد في هذا الجيش عاجزا عن ان يحقق اى كسب علمي بدون اللجوء الى وسائل الاتصال العملاقة التي تملكها السلطة ، والتي تتمثل في شبكة هائلة من بنوك المعلومات . في شكله النهائي هو قدس الاقداس الذي لا يصل اليه الا من تصطفيهم السلطة ، وحتى هؤلاء سيكون فوقهم كهنة الكومبيوتر الذين يقومون بدور الواسطة بين البروليتاريا العلمية ومنبع الاسرار . وانا لم اخترع تسمية هذا النظام بالكهنوت ، ولكنني استعرت الكلمة من ادوين باركر في عرضه لموضوع « تطور تكنولوجيات الاتصال في الحاضر والمستقبل » وهو احد الموضوعات التي عولجت في الندوة المشتركة بين الخبراء الامريكيين واليابانيين .

درس من مصر القديمة

ان وضع العلم في عالم الحاضر والمستقبل يذكرنا بالقليل الذي نعرفه عن حضارة مصر القديمة . يقول مؤرخو هذه الحضارة ان العلم المصري لم يتقدم ـ على ما يبدو ـ طوال ثلاثة الاف سنة تقريبا . فالهندسة التي بنت الاهرام ، والطب الذي اجرى جراحات المخ ، بقيا على حالهما حتى نهاية الدولة الحديثة ـ ويقول هيرودوت زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد اى عندما كانت الحضارة المصرية في دور الانحلال ـ ان المصريين مولعون بالترف اكثر من ولعهم بالبحث عن الحقيقة (وهي عبارة يمكن ان تنطبق على ما يسمى اسلوب الحياة الامريكية ») والاثار المكتوبة التي بقيت من العلم المصري عبارة عن ارشادات عملية للبنائين او الاطباء الممارسين او غيرهما من فئات الصناع . كانت الحضارة المصرية القديمة اذن ـ على ما يبدو حضارة « تكنولوجية » ولكن هل كان يمكن ان توجد تكنولوجيا ، على هذا المستوى من التقدم ، بدون نظريات علمية ؟ واذا كان الجواب لا ، فالمرجح ان الكهنة ـ وكانوا هم العلماء في الوقت نفسه احتفظوا باسرار هذه النظريات داخل معابدهم فلم يتح لها ان تنمو او تتطور وان اى تكنولوجيا ولو كانت التكنولوجيا الالكترونية ، لابد ان تقف عند حدود النظرية التي اوجدتها . واذا كان المصريون القدماء قد حققوا ما يشبه المعجزات التكنولوجية في الالف الثالث قبل الميلاد ، ثم وقفوا عند هذا الحد ثلاث الاف سنة ، فان تكنولوجيا المستقبل يمكن ان تحقق معجزات اعظم بكثير ، ولكن العلم سيظل واقفا حيث هو الى ان يطرأ على الحضارة البشرية تحول جذري اخر في مستقبل غير منظور .

خطران

هناك اذن خطران يهددان العلم في عصر العقول الالكترونية (مهما بدا هذا الكلام غريبا) : ان يصبح العلم احتكارا للسلطة ، وان يفقد معناه اذ يتحول الى تكنولوجيا . الخطر الاول يهدد المجتمع والخطر الثاني يهدد العلم نفسه ، ولكنهما مرتبطان اوثق الارتباط ، لانهما وجهان لما يمكننا ان نسميه « انسنة » العلم . فعندما يكون العلم مبذولا للانسان من حيث هو انسان اي لكل الناس القادرين عليه ، يظل جوهره حيا في نزعة الانسان الطبيعية الى البحث عن الحقيقة ان الاثر الهائل الذي تركه العلم اليوناني في تاريخ الفكر البشري لا يمكن ان ينفصل عن اخراج العلم من المعبد ووضعه في أيدي الناس . والعلم ، ومن ورائه الحضارة كلها ، يقفان الان على مفترق طرق : اما ان يكون العلم الالكتروني في ايدي الجميع وبذلك ينجو من فقدان الهوية ويزيد ثراء الانسان الروحي كما يزيد ثراءه المادي ، واما ان يكون احتكارا للقلة ، وبذلك يصبح شركة متعددة الجنسيات متخصصة في تكنولوجيا الرفاهة أما ان يرتد العلم على عقبيه فذلك شيء لا ينتظر ان يكون لانه لم يكن قط . فعلى مدى التاريخ كان العلم لا يخمد في مكان الا انبعث في مكان اخر بقوة اعظم . وأما ان نتخيل امكان ملء الجديد بنفس المادة القديمة فجهل كجهل النعامة التي

تدس رأسها في الرمل كي لا ترى : فبينا تجهد انفسنا في اختيار المادة ظانين بذلك اننا نتحكم في الجهاز ، يكون الجهاز ماضيا في عمله يحدث تأثيره الخاص ونحن عنه غافلون . فلم يبق الا ان نبتكر الوسائل الكفيلة ، بالمحافظة على القديم ، الكتاب في هذه الحال ـ وذلك ما تحقق فعلا باستخدام « الميكروفيش » ونعمل في الوقت نفسه على ان تكون الخدمات الاعلامية ميسرة لكل الناس اقول « نبتكر » و« نعمل » هكذا بلا حياء ؟ الا اشبه ذلك بالساعي الذي يقبض هو ومديره كذا جنيها او كذا دينارا في الشهر ؟ فالذين يبتكرون ويعملون هم اهل الحضارات الاعلامية الذين تحدثنا عنهم ، تحفزهم على ذلك تقاليد ديموقراطية يعضون عليها بالنواجذ ، ويسعفهم منهج علمي دقيق يستقصي الاحتمالات ويرصد الظواهر ويستنبط الحلول . ونحن على احسن تقدير « معهم » نتبعهم كالظلال ونشاركهم بالوهم فيما يصنعون .

ومع ذلك ....

ومع ذلك فالقوم يشعرون انهم امام مشكل عويص .

لذلك لا ينسى علماء الاعلام افظع تنبؤات جورج اورويل ، ولا يخفون بأسهم من ان تستطيع الجماعات الحرة الصغيرة العدد القليلة الطول ان تقف امام المؤسسات العملاقة ، سواء اكانت رأسمالية ام حكومية . وما حديث اجهزة الاستخبارات عنك ببعيد .

فأين المفر ؟ ونحن ، ان حشرنا انفسنا مع هؤلاء ولابد ان نفعل ، لان « العالم الواحد » يجرنا معه شئنا او ابينا ـ لا نزال نطرف بعيوننا كالخارجين من كهف مظلم ، وكل ما حولنا مختلط غير مفهوم ؟ هل لدينا حقا علماء اجتماع يساعدوننا على ان نخرج ، بالسرعة المطلوبة من مرحلة البداوة او الزراعة البدائية الى مرحلة الثورة الالكترونية ؟ ولنفرض اننا استطعنا ذلك فكيف نواجه تلك المعضلة التي اربكت أساتذتنا الكبار ؟

هلم نظرة في تراثنا العلمي ، واذا كان في الماضي نوع من المدد العاطفي فأي بأس في ان نستجيشه ؟ ألم يكن العلم ، حتى عهد قريب يحل من مجتمعاتنا العربية في اعز مكان يبجله الشعب وتخشع له السلطة ؟ ان المتأمل في تاريخ العلم العربي يلاحظ شيئا عجيبا : يلاحظ ان العلم كان يمثل سلطة حقيقية لا تحتاج الى اعتراف من السلطة . هذا هو الخط العام . لا تنقضه انحرافات معدودة وموقوتة .

ان استقلال المؤسسة العلمية في تاريخ العرب حفظ لهم تراثهم وحفظ لهم كرامتهم وبها حفظ لهم وجودهم رغم تقلبات السلطة . ومن الخطأ ان نظن ان احترام الشعب والسلطة للعلم كان مقصورا على العلوم الدينية ، فهذا التقسيم نفسه (علوم دينية وعلوم حكمية) لم يعرف الا في وقت متأخر نسبيا . وقد بدأت المؤسسة العلمية منذ القرن الاول للهجرة وكانت تستمد علمها من كل المصادر المتاحة . وكانت تتمتع بقدر كبير من الحرية . ولم تكن تتمسح بالسلطة بل كانت ترفض باصرار ان تتعامل معها : واصل بن عطاء ، عمرو بن عبيد ، ابن مالك ، ابو حنيفة ، الخليل بن احمد ... والسلسلة طويلة ، ولا ينقض ذلك ان بعض ذوي الاطماع ارتزقوا بالعلم على ابواب السلاطين فانهم بفعلهم هذا خرجوا من المؤسسة العلمية التي كانت تقاليدها الثابتة ترى ان العلم حق لجميع الناس لا ينبغي ان يشترى بالمال .

بفضل هذه المؤسسة العلمية ، وبفضل الحب الذي احاطها به الشعب ، والاحترام الذي لم تكن السلطة تملك الا ان تبديه لها ، تحققت في تاريخ الاسلام اعظم ثورة علمية منذ ان خرج العلم من اسر المعبد الى ان كان العصر الحديث : اعني ثورة الكتاب المخطوط .

وقد يبدو لنا الامر اليوم هينا . ولكننا يجب ان نراجع تاريخ الكتاب لنعرف ان لفافات البردي التي استخدمت لتدوين المخطوطات في العصرين اليوناني والروماني كانت باهظة الثمن جدا ومن ثم بقي العلم والتعليم وقفا على الفئة المحظوظة . وكان الورق معروفا عند الصينيين منذ القرن الاول للميلاد على وجه التقريب ، ولكن الكهنة (ايضا) كانوا يستأثرون به فتعلم العرب صناعته وجعلوه بضاعة شعبية . وهنا جاء الازدهار العلمي الهائل الذي شاركت في صنعه اقوام من العرب وغير العرب وكان اكابر العلماء والادباء في الثقافة العربية معظمهم من الشعب الفقير بائع فخار في سوق الكوفة غدا علما من اعلام الشعر العربي في جميع العصور . اسير رومي استطاع ان يخلف لنا مرجعين عظيمين في الجغرافيا والادب : معجم البلدان ومعجم الادباء لياقوت الحموي الرومي والامثلة اكثر من ان تحصى .

هل تعود المؤسسة العلمية الى سابق عهدها من الاستقلال والكرامة ؟ هذا شرط اول . ولا نزعم انه الشرط الوحيد ، لنجتاز قروننا من التخلف فندرك العلم في عصر الاعلام ، ثم نتركه حبيسا لدى كهنوتية جديدة . ■■

شكري محمد عياد

أقوال معاصرة









■ اهم وادق مشكلة تواجه حكومة الرئيس الامريكي الجديد ريجان ، العداء بين العرب واسرائيل وقضية فلسطين .

« مجلة نيوز اند وورلد ريبورت »

■ بلغت خسائر شركات صناعة السيارات الكبرى في امريكا خلال عام ١٩٨٠ ، رقما مذهلا وصل إلى اربعة بلايين و٢٠٠ الف دولار .

« هيرالد تريبيون »

■ لم اجد وسيلة للتخفيف من احزان السود في امريكا البيضاء اسرع وافضل من اكون ملاكما محترفا

« محمد علي كلاي »

■ الوحدة العربية الشاملة غير مسموح باقامتها دوليا لان مصالح الدول الكبرى ترفض تواجد هذه الوحدة .

« صالح الشرع » سفير الاردن في الكويت

■ ان مارجريت تاتشر سجلت رقما قياسيا في نكث العهود منذ ان الت اليها السلطة عام ١٩٧٩ . انني اتحداها ان تدعو الى اجراء انتخابات عامة فورا .

« مايكل فوت » زعيم حزب العمال البريطاني

■ الحوار بين الشرق والغرب هو البديل الوحيد للسباق على التسلح والحد من انتشار الصواريخ النووية .

صحيفة « رافوا السوفيتية »

■ الذي اغتال كمال جنبلاط كان يعرف ماذا يفعل فقد قصد بهذه الجريمة اضعاف الصف الوطني وتمزيق الحركة الوطنية .

وليد جنبلاط/في الذكرى الرابعة
لاغتيال الزعيم الوطني كمال جنبلاط

■ يا للهول ، فلم اكن اعرف اننا سوف ندخل في مغامرات جديدة بعد فيتنام . ان الاسلحة التي يستخدمها الشيوعيون في السلفادور هي اسلحة امريكية استولى عليها ثوار فيتنام .

« من حوار ساخر نقله أرت بوخوالد »

■ الفرصة الاخيرة لكمبوديا هي نورودوم سيهانوك !

الامير نورودوم سيهانوك
في كتابه الجديد « الحرب والامل »

حوار مع صلاح هاشم عن : مستقبل الثقافة فى الوطن العربى

اجرى اللقاء : مصطفى نبيل

● المتعلم الذى يقرأ مادة خفيفة اشد خطرا من الامي .

● مفتاح التقدم المفقود فى التجربة العربية .. أين هو ..؟

لقاء هذا الشهر مع الاستاذ صلاح هاشم الذى تفرغ للبحث العلمي في الولايات المتحدة الامريكية ، بعد ان عمل في السلك الدبلوماسي السوداني سفيرا لبلاده في كل من فرنسا وايران واليونان وتنزانيا ..

وقد نقل الى اللغة العربية كتاب « تاريخ الادب الجغرافي العربي » للمستشرق الروسي يوليا نوفتش كراتشكوفسكي ، ودفع بكتابه الثاني حول « تاريخ الترك » والذى كتبه ايضا المستشرق الروسي بارتولد الى المطبعة ..

ويتحدث في هذا اللقاء عن قضايا الثقافة والحضارة ..

قلت : ارتبط تكوينك الثقافي والفكرى برحلة طويلة تنقلت خلالها بين العواصم المختلفة .. فما هو اثر هذه الرحلة في مكوناتك الثقافية ؟

قال : « كانت نشأتي في وسط اسلامي بحت في اسرة كبيرة في السودان ، وككل ابناء جيلي حفظت نصيبا صالحا من الذكر الحكيم . ثم درست في القاهرة التاريخ الاسلامي واللغة العربية . واكملت هذه الدراسة لدى المستشرقين في كل من فرنسا والمانيا وروسيا . وهناك تكشفت لي جوانب جديدة من التاريخ الاسلامي . فلم اقف عند تاريخ الحضارة العربية بل درست تاريخ الفرس والترك والمغول . كما قابلت معرفتي بالعالم الاسلامي معرفة جديدة اخرى بالعالم الغربي الذى عشت فيه ما يزيد على ربع قرن ، واستوعبت نصيبا كبيرا من الفكر والادب الغربي . وتفتحت عيني لتقع على تطور العلوم وتاريخها ، وعلى الافكار الحديثة . فقد عشت في اوروبا في فترة الاضطراب الفكرى الكبير في اعقاب الحرب العالمية الثانية . وتعرفت على فلسفة اليمين وفلسفة اليسار ..

وقد اعطتني هذه الرحلة الثقافية تلك النظرة الواسعة لتاريخ البشرية ، وهذا المزيج بين الحضارات ، وتمكنت من الوصول الى صيغة للمصالحة بين الحضارات المختلفة واصبحت انظر الى البشرية كلها على ان لديها تراثا واحدا مشتركا » .

قلت : كيف ترى مستقبل العالم العربي والاسلامي ؟



قال الاستاذ هاشم : « اعتقد اننا مهددون بكارثه في المستقبل ، اذا لم نقم بمحاولة جادة خلال العشرين عاما القادمة لتدارك الاوضاع في مجتمعنا العربي ، فلعله لن يحل علينا القرن الجديد ، اي القرن الحادي والعشرون الا ونجد انفسنا في مؤخرة البشرية ، بل وقد نصبح معرضين للفناء ، لهذا يجب علينا ان نغتنم الفرصة الحالية حين تتوفر لنا الامكانيات لنلحق بركب البشرية المتقدم ، ونقوم بعملية تحديث كبرى تنقلنا من العصور الوسيطة الى القرن العشرين وما بعده ، لان من لايتغير يموت ، واخشى ما اخشاه الا تتوفر هذه الفرصة مرة اخرى ، بل حتى مع توفرها قد لا يكون عامل الزمن في مصلحتنا اليه .. !

واني انظر حولي فابصر عجلة التقدم في العالم الشمالي ، اقصد الغربيين والمعسكر الشرقي واليابان ـ والتي تحاول الصين والهند حاليا اللحاق بهم ـ هذا بينما لا يزال عالمنا يقبع في بحار من الجهل؟ . فمعدل الامية لدينا يقرب من الثمانين في المائة ، بل ان المتعلمين لا يجدون بين ايديهم ما يقرؤون باللغة العربية ، سوى ضروب من الادب الرخيص والمادة غير المجديه ، وهذا يذكرني على الدوام بقول كارل غوستاف يونغ Karl Gustav Jung ، المشهور « ليس العبرة في محو الامية بل العبرة هي ماذا يقرأ الناس .. ؟ ! » لهذا فقد اعترف عدد من اهل الصفوة ان المتعلم الذي يقرأ مادة خفيفة هو اشد خطرا من الامي بالنسبة للمجتمع البشري » .

قلت : وما الذي يجب على المتعلم العربي ان يقرأه .. في تصورك ؟

قال : هل تعلم مثلا ان اكثر من خمس وسبعين في المائة من المعرفة البشرية قد تجمع في نصف القرن الاخير من تاريخ البشرية ؟ .. لا تظنني جانحا الى المبالغة ، اذ يكفي ان يلقي الانسان نظرة الى تطور العلوم البشرية عبر التاريخ ليرى ان عصرنا الحاضر هذا هو المسئول عن « الانفجارة » الكبرى في العلوم الطبيعية والرياضية ، فعلوم الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا خطت لها دروبا جديدة لم تعرفها البشرية من قبل ، فعلوم الفضاء ، والاستروفيزياء والفيزياء النووية ، والعلوم البيولوجيه ستدخل الانسان قريبا ميدانا جديدا قد يسيطر فيه على المادة الحية ، ناهيك عما يجري في مجال الكشوف الكوسمولوجيه حتى تغير تصورنا للكون تغيرا تاما سيعود على البشرية باغرب النتائج ، وفي مجال العلوم الاجتماعية جرى تطور كبير قضى على المفاهيم القديمة قضاء تاما ، واصبح منهج الاحصاء والدراسات الميدانيه هو الاساس في هذا المجال ... »

النقل من اللغات

قلت : اذن .. ما هي الخطوه العملية التي تقترحها بالتحديد .. ؟

قال : « اولا ان « نفرمل » الانتاج في مجال الادب كالقصة والشعر والمسرح ، كما يجب الا تتوقف قراءتنا على استيعاب التراث الذي خلفه اجدادنا ، والذي وان بدا لنا شيئا ممتعا « طريفا » الا انه لن يحل مشاكلنا في القرن العشرين وما بعده ، ولهذا يجب تركيز مجهوداتنا في القيام بعملية نقل واسعة من اللغات الاوربية ننقل فيها صنوف الكتب العالمية ـ ولا اقول الادبية ـ الى لغة الضاد ، حتى يجد اولادنا واحفادنا معينا من المادة العلمية تساعد على حدوث « الانفجارة » العلمية والتكنولوجية التي بدونها لن يحدث التغيير الذي نبتغيه ، خذ مثلا ، لهذا ، هل نقلنا اعمال غاليليو ونيوتن واينشتين في مجال الفيزياء ؟ !

.. و .. هل توجد ترجمه علميه جيده لاصل الانواع لدارون .. ؟ وهل نقلت نظريات فرويد باجمعه الى اللغة العربية ..

والانكى من ذلك ان اكبر المفكرين اثرا في الفكر الاوروبي الحديث ، وهما كانت وهيجل لا توجد لهما ترجمات باللغة العربيه ، واني اعترف شخصيا ان اكثر كتاب اثر في نموى الفكرى كان « نقد الفكر النظرى » لكانت ، كما وان « فلسفة التاريخ » لهيجل قلبت تصوراتي رأسا على عقب ، وانا اعلم بانه يوجد أستاذان يستطيعان القيام بمهمة ترجمة كانت وهيجل خير قيام ، هما : الدكتور عبد الرحمن بدوى والدكتور عبد الهادى ابو ريده فما الذى ينتظران ليقوما بهذه المهمة ! ، وبعد ، يضيق صدرى ولا ينطلق لساني ..

قلت : الا تحتاج عملية الترجمه الى جهد منظم ، لا إلى جهد فردى لهذا المثقف او ذاك ؟

قال : « اني اعترف ان عملية الترجمه اصعب بكثير من عملية التأليف ، لانك بسبيل نقل افكار عقل آخر قد لا تربطك به علاقة ما ، وفضلا عن اننا ننتمى الى مجال حضارى مستقل عن الحضارة الغربية ، اقصد انه من الاسهل نقل كتاب من الفرنسية الى الايطالية مثلا ، او من الالمانية الى الانجليزية ، عن نقله من الالمانية الى العربية ..

ولكن سبق وقام اسلافنا بعملية مجيده في العصور الوسيطه حيث نقلوا العلوم اليونانية الى العربية ، كذلك قام علماء اوروبا الوسيطه باكبر عملية نقل في تاريخ البشرية ، فنقلوا جميع العلوم والرياضيات وشروح الفلسفة اليونانية من اللغة العربية الى اللاتينية ، وكان من نتيجة هذه العملية الكبرى ان انفجر عصر النهضة الاوربية والذى ساق بالتالي الى غلبة الحضارة الاوروبية على بقية الحضارات البشرية ..

انني اعتقد اعتقادا جازما انه لا سبيل لنا للحاق بالامم المتقدمه ان لم نقم بعملية النقل هذه ، هذا اذا اردنا الاحتفاظ بشخصيتنا التاريخية فلا نسمح لاحفادنا والاجيال التالية لهم ان ينسوا العربية ويتحدثوا لغات اخرى سيكون لها الغلبة التامة على مستقبل البشريه ، وهذا هو الهلاك والتلف الذى اشرت اليه » .

استبدال الترجمة بالتأليف !

قلت : الا ترى ان تنمية الوجدان العام للمجتمع في اهمية تنمية عقله ، واذا كانت الكتب العلمية تنمي العقل فالكتب الادبية تنمي الوجدان .. كما انك تنادى باستبدال الترجمة بتأليف الكتب العلمية .. فكيف ذلك ؟ !

قال : « في الواقع انه عندما رد ماركس كافة الظواهر التاريخية لاسباب اقتصادية ، لم يكن يعنى ان العامل الاقتصادى هو العامل الوحيد ، وكذلك عدد كبير من المفكرين عندما يغلبون عنصرا على عنصر ، تصبح المسألة مسألة اسبقيه .

وقد شعرت ان الجانب العلمى ، المتعلق بالمعرفة البحته مهمل بل وثانوى لا يقاس بانتاج العلماء في الغرب ، وان الجانب الادبي هو الذى كتب له الشيوع والانتشار .

والغربيون لا يقبلون على القصه مثل ما يجرى في الشرق ، ومعظم قراءاتهم في المادة العلمية وما يتعلق بالمعرفة البشرية ، واذا نظرت الى احصاءات الكتب الصغيرة الحجم ، الرخيصة السعر ، وجدت معظمها داخل هذه الدائرة ، اما القصص فهي عدد محدود لكتاب مشهورين مثل جراهام جرين وسول بلو .. »

قلت : اذن المطلوب ، هو اعادة التوازن فحسب ؟

قال : « نعم التوازن ، وايضا بالنسبة للتراث ، فمهما كان التراث عظيما ، فلا اعرف كيف يمكنه ان يحل مشاكلنا المعاصرة في هذا القرن ، ويجب أن نقتصد في نشره .. »

« وهنا يحضرني ، ما يعتقده بعض المفكرين الغربيين امثال ريمون أرون وارثر شيزلر من ان « عملية التاريخ » دخلت في معدل سرعة متنامى بحيث ان مصير البشرية سيتقرر في نهاية هذا القرن ، وان جميع دلائل النزاع تشير الى ان نقطة الحسم قد اقتربت ..

ولا اعتقد ان العالم الثالث يستطيع ان يكسب في نهاية الامر ، بل يفرض احد الماردين وجهة نظره على بقية البشرية ! ! »

ـ : ولكن الحرب بين الماردين تعنى فناء العالم ؟

ـ : « هذا صحيح ، ولكن يجدر بنا الا نركن الى هذه الحجة .. »

هيمنة ارسطو !

قلت : ما الذى يجعلنا في تصورك مختلفين ، أعنى نحن العرب المعاصرين عن الاوربيين مثلا في اسلوب التفكير ؟

قال : « عاملان اساسيان : اولا .. ان تفكيرنا لا يزال يسيطر عليه الاسلوب الارسطوطاليسي الذى غلب على التفكير البشرى في العصور الوسيطه سواء في العالم

● صلاح هاشم

الاسلامي او العالم المسيحي ، واري الا تنخدع الاجيال العربية المعاصرة والقادمه بأسطورة ان الاختلاف الفكري بين العالمين الاسلامي والمسيحي في الظروف الحاضرة اختلاف ديني فحسب ، بل يتركز في رأيي قبل كل شيء في سيطرة ارسطو على اسلوب تفكيرنا ، بينما تحررت منه اوروبا بفعل فلاسفة القرن الثامن عشر ، فولتير وروسو وديدرو ، وبفعل كانت ، وأخيرا بفعل الفلسفة الهيجلية . هذا بينما توقف اسلوب تفكيرنا عند العصور الوسطى ، ولايزال غالبا عليه المنطق الصوري لارسطو بمقولاته ومفاهيمه التي لم تعد مناسبه للعلم التجريبي الحديث .

والعامل الثاني ، هو تمسك الغربيين بمنهج البحث العلمي ، سواء في العلوم الطبيعية او العلوم التاريخية ، ونحن لانكاد نعرف هذا المنهج في تفكيرنا ، لذا فان اسلوب مناقشتنا مع الغربيين ينطوي على الكثير من العاطفيه والتشنج ، وفقدان المقدره على تفهم وجهة نظر الغير تفهما موضوعيا ، بل واتهامهم بالدس لنا والتآمر علينا وتدبير حروب صليبية جديدة ضدنا على ما يزعم البعض .

كان الفيلسوف والرياضي المشهور الفريد نورث وايتهد يقول : « ان التقاء الحضارات كان يتخذ على الدوام صورة تراجيديه » هذا القول وان كان صحيحا فيجب الا يغيب عن الذهن اننا ننتمي الى عالم واحد ونوع واحد ، وان كل التقدم البشري الحديث انما هو جماع لتجارب الانسانية في شعوبها المختلفة ، بدءا بقدماء المصريين ومرورا باليونان والرومان وبالحضارة الاسلامية والحضارة الاوروبية الوسيطة .

وبهذا فاننا نحن العرب المحدثين ندين بالكثير لاوروبا الحديثه ، كما دانت هي بدورها للحضارة الاسلامية في العصور الوسيطة ، والا كيف تفسر معرفة الشباب العربي المعاصر بالطب والهندسة والعلوم الطبيعية في جميع فروعها » .

اين المشروع العربي ؟

قلت : الا يؤدي بنا الطريق التي تدعو اليها الى القضاء على مشروعنا الخاص ، وشخصيتنا المتميزة ؟

-قال : « ان الحضارة العربية الاسلامية قد اسهمت بدورها في تقدم البشريه ، وهناك جوانب عديده من الحضارة الغربية تعترف لها بهذا الاثر ، خذ مثلا الطب الاكلينيكي الحديث ، فهو يعترف بانه مدين بالكثير لجهود الطبيب الاسلامي الفذ محمد بن زكريا الرازي

واغلب الظن ان الانسان سيدخل في القرن الحادي والعشرين ـ هذا اذا تحاشى الدخول في نضال ممزق يقضي على الانسان ـ على هذا الكوكب ـ سيدخل في دورة جديدة من تاريخ ذات طابع ولون تخالف تماما ما نحن عليه الآن ، ولا استطيع تصور هذا الوضع الجديد الذي سيعيش فيه اولادنا واحفادنا لانه فوق التصور البشري ، وكما قال الفيلسوف البريطاني برتراند راسل « فان عملية التاريخ تسير الان بسرعة مذهله تجعل من العسير على المفكرين المعاصرين ان يتنبأوا بما سيصبح عليه الحال في السنوات القليله القادمه .

« ومما لا شك فيه انه ستنشأ ميثولوجيات وايدلوجيات جديدة ستحل محل الميثولوجيات والايدلوجيات الحالية ، ذلك انه من قوانين التطور الديناميكي للتاريخ ان كل عصر جديد يتشكل له مفاهيمه الخاصة وميثولوجياته مع اوضاعه المادية القائمة .

ومنذ اعوام جرت مناقشة بين الفلاسفة والاقتصاديين والمؤرخين وغيرهم من علماء الغرب حول اصلح المواطنين في العالم المعاصر ، فقال البعض : انه اكثر المواطنين انتاجا ـ وضربوا مثلا لذلك باليابان ـ وحتى لو سلمت معك اننا نحن العرب المحدثين اكثر الشعوب سعادة وتقدما ، فانه من العسير اقناع بقية البشرية بذلك ، فيكون حالنا اشبه بحال النعامة التي تدفن رأسها في الرمال ظنا منها انها ما دامت لا تبصر العالم الخارجي فانه غير موجود بالنسبة لها .

ان العالم الخارجي موجود واذا تجاهلناه فلن يتجاهلنا ، فكوكبنا ينكمش سريعا بالنسبة للسرعة الهائلة في وسائل الاتصال والنقل ، وهو في طريقه لان يصبح عالما واحدا .

وقد كان العلامة الالماني ماكس بلانك Max plank صاحب نظرية « الكوانتا » يقول : « انك لن تهدى من احببت ، ولن تغير من الناس ، ولكن بالتدريج يتعلم الاطفال في المدارس النظريات العلمية الحديثه ويتشاورن عليها ، وبهذا تتكون اجيال قادمة لا عهد لها بالافكار القديمة التي تتراجع بدورها لتفسح المجال للافكار الجديدة ... » .

قلت : ان المعادلة التي تواجهنا والتي يقع عبء حلها على المثقفين العرب هي :

كيف تقوم عملية التحديث الضرورية ، وفي ذات

الوقت نحافظ على شخصيتنا ، ونمط الحياة الذي نختاره ؟

قال : « بداية .. انا ضد فكرة « الشخصية » هذه ، لاني اعتقد ان عوامل عديدة تعمل ضدها ، منها ان الارض اصغر من ان تحتوي الفروق والميزات المختلفة ، والثورة الهائلة في وسائل الاتصال اصبحت من السرعة والتأثير بحيث اخذت الخلافات بين الشعوب تزول بالتدريج .

فمثلا الاقطار العربية تستخدم السيارة التي هي من صنع الغرب ، وهكذا التلفزيون والكهرباء ، وهذه المخترعات الحديثة تؤثر تأثيرا كبيرا في حياتنا ، وهذه التغيرات المادية من شأنها ان تغير اسلوب تفكيرنا

وسلوكنا ، وحتى اولئك الذين يقاومون بشدة في الجانب الفكري والروحي يستخدمون الجانب المادي في هذه المقاومة ، ناسين ان الجانب الفكري ما هو الا انعكاس للجوانب المادية المختلفة ، وهم بهذا يناقضون انفسهم ، وقد اتفق المفكرون والمؤرخون على ان المظهر الحضاري والفكري .. ما هو الا انعكاس للصورة المادية التي تستمر عليها هذه الحضارة ...

ثانيا : اذا اردنا ان نتجنب الحروب والنزاعات التي تقضي على البشرية ، علينا ان نعتبر انفسنا سلالة نوع واحد هو الجنس البشري ، فنحن نعيش في كوكب اصغر من ان يضم كل هذه التناقضات ..

ولا مانع لدي اذا وجدت كائنات متقدمة في كواكب اخرى من المجموعة الشمسية ـ وهو ما لم يكتشف بعد ـ ان نعتبر انفسنا متخلفين بالنسبة لهم ، وكما قال احد العلماء البريطانيين « ان الحل الوحيد لمشكلة الحروب فوق كوكبنا ، ان نتحد يوما ما ضد كوكب آخر في الفضاء ، وعندئذ تنعدم « الحروب الاهلية » بيننا .. »

قلت : ولكن العالم من حولنا منقسم ، نظم سياسية واجتماعية مختلفة ، ودول متقدمة واخرى متخلفة ، واذا اكتفينا بتقليد انماط الحياة الغربية ، فسنحكم على انفسنا باستمرار التخلف ، واستمرار السبق التاريخي للدول الصناعية المتقدمة !

كما اننا لا نستطيع ان نتجاهل الظاهرة السياسية .. فالغرب يؤيد الصهيونية في مواجهة العرب ، والاقلية البيضاء في جنوب افريقيا في مواجهة الافريقيين ، وايضا ، مشروعنا العربي لا يتم في فراغ ، بل ضمن علاقات دولية معقدة ، وفي ظل سعي حثيث للهيمنة على الدول الصغرى .. فاين هذا كله من العالم الواحد ، والبشرية الواحدة

التي تتحدث عنها ؟

قال : كما يقول الانجليز « اذا لم تستطع ان تغلبهم ، فالتحق بهم » ، ومما لا شك فيه ان الغرب يؤثر فينا ، وجميع أدوات الغرب متداخلة في حياتنا الراهنة ، وهناك اسس بشرية يجب ان نتفق عليها ، فمثلا هل ينكر احد حقوق الانسان .. ؟ لقد وقعنا عليها جميعا ، ويجب قسر كافة الدول على احترام هذه الحقوق ، ولن نتنازع اذن على حقوق الانسان او احترام الفرد البشري ..

وارى ان نتفق على اسس التعليم ، وهي وسائل تحتاج الى مزيد من الاهتمام ، فمثلا احبذ فكرة نشر اللغات ، وعلى المثقف العربي ان يعرف اكثر من لغة ، يستخدم لغته الوطنية في الوسائل الوجدانية والعاطفية والادبية ، ويستخدم اللغات المختلفة حتى يتابع العلم والمعرفة البشرية ..

والسؤال هو : هل ننتمي الى الجنس البشري ؟ .. والاجابة نعم ..

ورغم هذا نجد الكل يدافع عن حضارته ، وكأنه لا توجد حضارات اخرى ، بل ويقاتل من اجلها ويضحي بنفسه وبكل عزيز لديه ، وهي وجهة نظر ضيقة للغاية ، فمثلا هل للفيزياء قومية ؟

وهذا يدفعني للاهتمام بنشر العلم اكثر من الادب ، فالعلم ليس له جنسية ..

ورغم اني اشتغل بدراسة التاريخ ، الا اني ارى انه يصبح خطرا ، وخاصة عندما يقتصر على الارتقاء في احضان الماضي ، وعندما يركز على الجوانب القومية ويتناسى بقية البشرية ، فمثلا هتلر كان يصر على اعادة « الرايش » الالماني القديم ، وفي تركيا يسعى الاتراك الى طلب الالهام من العنصر التركي القديم في آسيا الوسطى ، وفي ايران كان الشاه يسعى الى احياء مجد قورش الكبير وقمبيز ، وبذلك اصبح التاريخ في غاية الخطورة ، مما دفع عددا من العلماء والمفكرين بان ينادوا بالمستقبلية ، كرد فعل على ما يثيره التاريخ ، ولقد اقترح احد العلماء الغاء مناهج التاريخ في كافة دول العالم ، والاكتفاء بترجمة كتاب « تاريخ العالم » لكاتبه البريطاني هـ . ج . ويلز في كل الدول ..

فالتاريخ اكبر أكذوبة مرت بالانسان ، لانه لا يكتب كتابة صحيحة ، وقال بندو وكوكروتشي Bendetto Groce« ان التاريخ ليس بتاريخ الماضي ولكنه تاريخ الحاضر » ، وضرب مثلا على ذلك بتدهور

الامبراطورية الرومانية الذى تناوله العديد من المؤرخين ، فطبق كل واحد منهم على هذا الحدث التاريخي قيم عصره ، فانعكاس التركيب الايدلوجي للمؤرخ يعطي لكل حدث لونا معينا يناسبه ، كما ان التاريخ يكتبه المنتصر دائما !

ونحن الان في موقف خطير مما سيؤدى ـ اذا استمرت المنازعات ـ الى القضاء على الجنس البشرى جميعه .. »

قلت : مازلت ابحث عن اجابة سؤالي ..

هل لا توجد وسيلة ، نستفيد من خلالها ، من تطور المعرفة البشرية ، ونمنع الهيمنة السياسية ، اى ، نسعى للتحديث ونمنع التغريب بمعناه السياسي ؟

قال : « هذه هي المسألة التى حيرت الجميع ، ولا يوجد لها حل ، والسبب الاساسي هو التنافس والصراع بين كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ..

وعندما اقيمت الامم المتحدة بعد الحرب ، كانت الفكرة ان تصبح الحكومة العالمية في المستقبل ، وتصبح وكالاتها المتخصصه هي وزارات العالم المختلفة ، ولكن للاسف اصبحت مواد للنزاعات ..!!

ومما لاشك فيه ان معظم المفكرين السياسيين يرون ان بقاء الدولة القومية هو احد الاسباب التي تعطل هذه الامكانية .. » .

دائرة المعارف البريطانية

قلت : ما رأيك في مشروع ترجمة دائرة المعارف البريطانية .. وهل تفيد في العلوم الاجتماعية قدر فائدتها في العلوم الطبيعية ؟ وهل في نقل العلوم الاجتماعية فائدة بنفس وكفاءة نقل العلوم ؟

قال : « لا اعتقد ان لدينا المجموعة القادره التي لا تلتوى ولا تحيد لتقوم بعملية خطيرة مثل ترجمة دائرة المعارف البريطانية ، وخاصة الطبعه الاخيرة التي تحتوى على جماع العلم الحديث ..

ولكنه مجهود لابد منه ، واقترح انشاء ديوان للترجمة كما حدث في ايام المأمون لنقل الكتب العلمية الى العربية ، اما التأليف فاعتراضي عليه أنه يقف تحت سقف قصير ، ولكن الترجمة هي التي تجعلنا نضرب في جوانب المعرفة المختلفة ..

وتعتمد الترجمه على المعرفة والاخلاق القويمه ، حتى لا يعبث المترجم بالنص .

اما « النقل » اليوم فقد توقف عند نقل بعض الروايات الادبية والتاريخ ، وقد كنت اتحدث مع احدالمستشرقين ، فقال : ان اعمال الترجمة فقيرة لديكم ، ولم تظهر من اعمال المستشرقين سوى ترجمتين جيدتين ، احداهما ، تاريخ الدولة العربية لمؤلفه الالماني فيلهاوزن نقله الدكتور عبد الهادي ابو ريده ، والثانية تاريخ الادب الجغرافي العربي للمستشرق السوفيتي كراتشكوفسكي الذى نقله من الروسيه صلاح هاشم ..

لذلك لابد من انشاء ادارة للترجمه تشترك فيها جميع الدول العربيه ، وتضم جمعا من العلماء لا يزيد على العشرين ، ويبحثون مستعينين بكل المثقفين العرب لاعداد قائمة تمثل جماع العلم الحديث ، لتصبح في متناول المتعلم العربي ، ويصبح على مستوى المثقف في البلاد الشمالية » .

قلت : الا ترى ان العالم المعاصر يتجه الى التعدد ، وليس الى التوحد ..؟

قال : « هذه نقطة نزاع بين عدد من المفكرين ، وهي بين مذهبين فلسفيين ، احدهما ينادى بالوحدوية والاخر يقول بالتعدد ..

ولا شك ان التعدد مسألة مريحه للغاية ، فيترك لكل فرد اسلوب الحياة التي يريده ، فيلبس الزى الذى يختار ، وطراز السكن الذى يريد ، وياكل من المطبخ الذي يحب ..

وهي مسألة تغني البشرية وتسعد الانسان ، ولكن هناك اشياء تصل الى مستوى الحتمية التاريخية ، وهي ان كوكبنا هذا ـ نتيجة لعملية الاسراع في عملية التاريخ التي اشرت اليها ـ يدعو الى التقارب . »

المفتاح الضائع !

سؤال اخير .. من كل هذا العرض ، ما هو مفتاح التقدم الضائع في العالم العربي ؟

قال الاستاذ هاشم : البداية خلق جيل جديد ، كما انه يكمن في تغيير مناهج التعلم ، في كافة المراحل فمثلا .. ليس مقبولا ما تشهده الجامعات العربية وقد تحولت الى مدارس ثانوية يدرس فيها الاساتذة مقررات محددة ، فهذا لا يجوز .

فالجامعة تعطي مفتاح التقدم ومنهج البحث العلمي ، وكما قال توماس كارليل ، « الجامعة هي مجموعة منتقاة من الكتب » . ■■

الكتاب و التكنولوجيا

بقلم : الدكتور عمر الدقاق

ثمة حقيقة لابد من تأكيدها في مستهل هذا الكلام . وهي انه على الرغم من تعدد وسائل نقل المعرفة ونشر الثقافة في هذا العصر ، بفضل تقدم التكنولوجيا الحديثة ، فان الكتاب يبقى هو الاداة الاساسية الثابتة للتعلم ، والوسيلة الرئيسية الوطيدة للتثقيف .

غير ان واقع الحياة المعاصرة يؤكد في الوقت نفسه تعاظم ظاهرة جديدة وقوية في هذا المجال ، وهي ان الكتاب لم يعد وحده وسيلة التعليم والتثقيف . فقد استطاعت التكنولوجيا المعاصرة اليوم ، وعلى نحو باهر ، ابتداع وسائل جديدة ذات قدرة هائلة على نقل الافكار ونشر المعارف ، ونعني بها اجهزة الاذاعة والتلفزة والسينما ، ثم اشرطة التسجيل المسموعة والمرئية وما الى ذلك ..

وهذه الاجهزة المستحدثة انما تقوم بمهمتها هذه معتمدة على الكلمة المسموعة ، او الصورة المرئية ، او على كلتيهما معا ، وهي بذلك تشارك الكلمة المكتوبة في مهمتها المؤداة عادة من خلال الكتاب او المجلة او الجريدة .

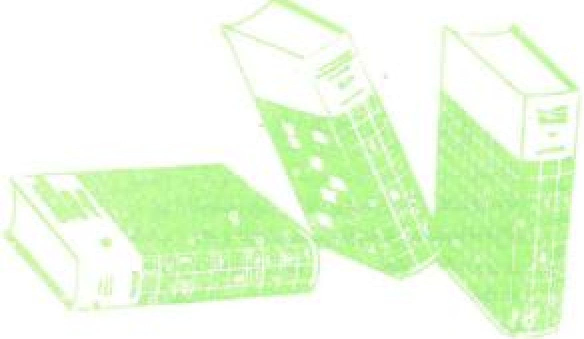
وذلك كله يفترض ان تكون العلاقة بين اداة الثقافة الاولى التقليدية ، وهي الكتاب وبين سائر الادوات المستحدثة ، هي علاقة تآزر وتساند . غير ان واقع الامر يشير بقوة الى ان علاقة التعاون المفترضة هي علاقة تنافس ، وان اخشى ما تتوقعه الحضارة الانسانية المعاصرة هو ان تنقلب الحال بينهما مع الايام فتغدو علاقة تزاحم او تصارع .. وهذا التصارع في ذاته ينطوي على خطر كبير وينذر بشر مستطير ، لانه قد يحمل في ذاته علائم اندحار الكتاب .

هل الكتاب في خطر ؟

فالى اي مدى تشكل التكنولوجيا خطرا حقيقيا على الكتاب ؟ من الانصاف ان نقرر قبل الاجابة عن هذا التساؤل ، ان الكتاب نفسه مدين الى حد كبير في تطوره وانطلاقه الى هذه التكنولوجيا التي تجسدت اول الامر في اختراع الطباعة . فالنظام الثقافي البشري لم يبلغ مداه من النضج والتأثير الا بفضل ذلك الفتح العلمي المبين ، وهو اختراع الحروف المتحركة في الطباعة عندما ابتكر العالم الالماني (غوتنبرغ) مطبعته الآلية في حوالي منتصف القرن الخامس عشر في مدينة (ماينز) . فقد كان هذا الحدث العظيم نقطة تحول جذري في مسيرة الانسانية .

ومنذ ذلك اليوم لم يعد الكتاب مقصورا على فئة محدودة دون سواء الناس . وهكذا اتسع تبادل الافكار وغدت الثقافة والمعرفة حقا مشاعا للجميع ، حين الغت المطبعة احتكار الافكار وجعلتها متاحة للشعوب ، او حين الغت ارستقراطية الثقافة وجعلتها ديموقراطية وحقا من حقوق المجتمعات الحضارية الحديثة .

ومهما نتفاءل اليوم بالارقام الكبيرة التي تدل على نشاط المطابع وكثرة ما تقذفه من كتب ومنشورات ، فان نظرة مميزة فاحصة جديرة بأن تلاحظ ايضا طغيان الكم على الكيف ، وان عدد المؤلفات الفكرية الجادة والكتب الرصينة ، برغم تكاثرها ، لا يتناسب مع نسبة ازدياد



العلاقة بين الكتاب والوسائل المستحدثة لنقل الافكار والمعرفة علاقة تعاون .. هكذا تبدو في ظاهرها .. ولكن الواقع يقول ان هناك صراعا بينهما قد ينتهي إلى اندحار الكتاب !

المتعلمين وتكاثرهم المطرد على صعيد البلاد العربية .

يضاف الى ذلك ان الكتاب الجاد يعاني ايضا من ضيق شديد ، وان دور النشر في الأقطار العربية تتردد كثيرا في طباعته ، ولولا اضطلاع العديد من الحكومات من خلال مؤسساتها الثقافية والعلمية بهذه المهمة وقيامها بدور الداعم والمشجع في احيان كثيرة لكان الكتاب العربي في أسوأ حال ، ولخلت الساحة الادبية او كادت الا من الكتب المبتذلة والمؤلفات الهزيلة ..

ومن مظاهر ازمة الكتاب العربي ، وهي صورة مجسدة لازمة الثقافة بوجه عام ان الكتاب الاصيل نفسه لم يعد بوسعه أن يشق طريقه بيسر الى عقول القراء معتمدا على مضمونه ومحتواه وحدهما . فقد غدا مصيره رهن امور اخرى خارجة عن طبيعته ومقوماته ، منها ان رواجه بات اسيرا لوسائل الاعلان او الدعاية وما يصحب ذلك عادة من محاولات الترغيب والاغراء ، شأنه في ذلك شأن اية بضاعة استهلاكية . وكثيرا ما يتطلب ترويجه او بالاصح تصريفه ، ان يكون طريفا لا في مضمونه ومادته ، بل بمرآه وشكله ومظهره ، ليبدو في حلة مفرطة الاناقة . ويحسن به ان يحلى بالرسوم المثيرة والصور الجذابة ، مسربلة دائما بالالوان الزاهية ، ومن ثم قد يتاح له ان يعرض في الواجهات الزجاجية كما تعرض احدث الازياء ، على نحو شبيه بالتبرج ، ولعله اشبه ما يكون في حقيقة امره بخضراء الدمن ، له رواء وليس له ثمر . على حين كم هنالك من كتاب جيد تضطرب اصوله بين يدي مؤلفه ، او مصنف جليل يرقد مخطوطا في ادراج الناشرين ويتحرق شوقا الى رؤية النور ومصافحة الابصار .

ازمة كتاب ام قارىء ؟

نتاج غزير ، ولكنه غث في معظمه ويكاد يطغى على ما عداه ، ومؤلفون وافرون ، ولكن الكثيرين يؤثرون تملق الغرائز واستدرار المال . وقراء تائهون في غمار هذا الركام لا يقدرون على تمييز الطيب من الخبيث ، ثم لا يلبث اكثرهم حتى ينجرف في تلك التيارات الضارة ويستسلم لها بخدر لذيذ كالتذاذ الاجرب بحك جلده .. وتبقى بعد ذلك قلة واعية ذات عيون نافذة وبصيرة ثاقبة تستطيع التقاط الجوهر من الحصى وتمييز الطيب من الخبيث .

وآلاف مؤلفة من الطلاب الذين يدرسون في المدارس والمعاهد والجامعات ، ثم يرتقون من صف الى صف اعلى كلما حال الحول ، حتى تقذف بهم مقاعد الدرس آخر الامر بأقل زاد فكري وادنى ذخر ثقافي . فهل كانوا يقرؤون ويفقهون ؟.. قلما يخرجون في غالبيتهم عن الكتاب المقرر والكراريس الملخصة .. وكلها تفرغ يوم الامتحان كما يفرغ الكيس مما حشر في داخله ، ويتنفس القوم الصعداء .

القارىء في عصر السرعة

ان اهم مراحل الوعي الفكري والبناء الحضاري هو الاحساس بالحاجة الى الزاد الثقافي ، واعتباره غذاء روحيا لابد منه للعقل بالنسبة الى الانسان الحق المتمدن . اذ ان اخطر ما يواجه جيلنا هو غياب هذا الوعي عن ذهنه ، ونظرته الى الثقافة الاصيلة على انها شيء نافل ، او بمثابة ترف لا لزوم للجد في طلبه .

لقد كان من نتيجة الزهد في القراءة لدى اجيالنا الحديثة ان طول الكتاب بات يخيف القارىء ، وهو عجلان تشغله في هذا العصر اهتمامات جمة اخرى . وعند ذلك لم يجد المشتغلون بأمور النشر والتأليف بدا من ان يسايروا هذه الرغبة الساحقة . فشاعت ظاهرة تلخيص الكتب وضغطها بأدنى ما يمكن من الصفحات . كشأن الغاز المضغوط واللبن المكثف والحليب المجفف . واي بأس في صناعة الكتب المعلبة ما دام قراء هذا العصر

يتناولونها كما يتناولون (الساندويتش) وهم في دوامة الحياة اليومية .

اما المجلة فلم يكد امرها يختلف كثيرا عن الكتاب . فالفرد المتعلم يضيق ذرعا بقراءة متصلة خلال صفحة او صفحتين . وهنا ايضا استجاب الكثيرون في مجال الصحافة . فاذا الكلام في تلك الصفحات قد استحال لمحا خاطفا . واذا لغتها المقتضبة واسطرها المحدودة اشبه شيء بالبرقيات . فالزبون في عصر الالة وطغيان المادة اصبح ضيق الصدر عصبي المزاج . انه ملول كسول . لم يعد في وسعه ان يقرأ المقالة الا اذا كانت بحروف بارزة وعبارات قليلة شريطة ان توضع في اطار مزركش ملون . وان تحلى بالصور الفوتوغرافية الزاهية .

ومن هنا غلبت السطحية وقلة الجدوى على الكثير من صحافة البلاد العربية . حتى ان المقالة الافتتاحية المعهودة قد اختفت او تقلصت في اكثر الاحيان . وما ذلك الا لأن الخبر قد نافسها وزاحمها حتى كاد يطردها . اذ لابد من الاثارة في كل يوم داخل هذا العصر المتفجر ..

اجل . لم تعد الافتتاحية هي التي تتوج الجريدة او المجلة بل الصورة . والان كيف يجول الفكر بالتعليل والتحليل . والنقد والمحاكمة ؟.. هذا كله لم يعد مهما . فالمجلة ناجحة . اليست رائجة . الا يتلهف على وصولها جمهرة الفتيان والفتيات . فيعردون بها هاشين باشين . وكأنهم تأبطوا قوس قزح . واصطحبوا شخصيات العصر .. انها المأساة ان يفعل قارىء اليوم ما يفعله الطفل . حتى يبلل اصابعه ليقفز بنظراته الزائغة من صورة الى صورة بعينين شرهتين . ثم لا يلوي على زاد اكثر من ذلك .

الثقافة المحلاة

اما الاذاعة . فمن المؤسف ان الذي يستمع اليها قلما يستطيع الانجذاب الى ما تقدمه من احاديث فكرية او ثقافية ومن قصائد شعرية او لمحات ادبية . الا اذا كانت مصحوبة بالحان موسيقية او انغام غنائية . وقلما يضحي انسان هذا العصر بحضور حفل ادبي او ندوة فكرية او محاضرة علمية . الا اذا تبين ان شيئا من الرقص او الغناء او نحو ذلك من دواعي الطرب سوف يتخلل تلك المناسبة . وحينئذ يضيق المكان عن قصاده . وقد تحدث ازمة اخرى من ازمات العصر فتختفي المقاعد نتيجة الحرص الزائد على الثقافة . حتى ان بطاقات المحاضرات والندوات غدت حريصة في مثل هذه المناسبات الثقافية على التذكير بهذه المغريات او المقويات جذبا للزبائن وكأنهم أطفال صغار وطنوا انفسهم على تجرع الدواء طمعا في الحلوى . وانها لمأساة اخرى ايضا ان الذي يتصدى لالقاء محاضرة ما لن يلقي امامه عادة سوى بعض اصدقائه وذويه ونفر ضئيل من اصحاب الفضول . ومعظم الذين حضروا قادتهم الى القاعة اعتبارات اخرى قلما تمت الى الثقافة او الفكر بصلة .

من المسئول ؟

ما سر هذه الظاهرة التي تتفشى اليوم بين اجيالنا المعاصرة وماذا اصاب انسان العصر الحديث حتى بات ينظر في ريب ولا مبالاة الى الفكر الاصيل . والادب الرصين . والثقافة الجادة ؟

من الانصاف الا يلام المرء على ذلك كله . والا نحمله تبعات هذه الحال المتردية جملة . اليس هو ابن عصره . ووليد بيئته . وحصيلة مجتمعه ؟ الم يسهم في تكوينه على هذا النحو منزله واسرته . واساتذته ومدرسته . وظروف عيشه واحوال نفسه ...

ذلك كله او بعضه مسئول عن هذا الواقع الثقافي المريض . غير ان السبب الجوهري الذي يمعن في جرف انسان هذا العصر الحديث بعيدا عن مجرى الحياة الفكرية الجادة المتمثلة قبل كل شيء في الكتاب انما هو طغيان الظواهر المادية على الحياة اليومية المعاصرة . فالانسان الذي يقضي سحابة يومه وهو ينتقل الى مقر عمله البعيد على دراجة او في سيارة او داخل قطار . ثم يمضي الساعات الطوال بين الملفات والاضابير والارقام والتقارير . او بين ضجيج الالات الكاتبة ووسوسة الاجهزة الحاسبة . او بين صخب المصنع ودوي المعمل . ثم يخترق جلبة الشارع .. هذا الانسان مرهق مسحوق . وهيهات ان تتقبل نفسه زادا ثقافيا دسما . وهو في هذه الحال لن يتعدى في مسائه وضع الاسترخاء امام المذياع او مشاهدة التلفزيون او تصفح مجلة او النظر في عناوين جريدة . فان فعل ذلك او بعضه فقد اعطى نشاطه العقلي ـ فيما يرى ـ حقه . وقد لا يتاح له شيء من ذلك ـ والمجلة او الجريدة بين يديه ـ الا وهو في الطريق او داخل المصعد . وقد لا يتيسر له سماع الاذاعة الا وقت حلاقة ذقنه او تناول طعامه ..

على ان ثمة سببا آخر قد يكون اشد سوءا على واقع حياتنا الثقافية الا وهو ولوع انسان هذا العصر في استهواء المادة . ولهاثه وراء المال . وما ذلك الا الرغبة

الجامحة في الاقتناء وامتلاك اسباب الرفاهية والتمتع بمباهج العيش . هذا العيش الحافل بمغريات السلع الاستهلاكية وبأصناف الادوات الترفيهية التي تضعها التكنولوجيا الباهرة امام الاعين في مطلع كل شمس ..

الركض وراء المادة لا يكاد يتوقف الا يتوقف القلب عن الخفقان . والمطالب المادية لا تكاد تحد وهيهات ان تدرك ..

واخطر ما في الامر ان هذه الالة او تلك المادة لم تعد تكتفي بأن تعيش على هامش حياتنا . ولو اقتصر امرها على ذلك لهان الامر . لقد تركت هذه الحياة المادية مياسمها على مفاهيمنا واثرت في افكارنا وحرفتنا عن مثلنا وقيمنا . فالتعلم والدأب والجد كانت مؤشرا للنجاح في الحياة ومبشرا في بلوغ منزلة لائقة في المجتمع . اما المال فيأتي في الدرجة الثانية ما دام وسيلة الى العيش . عيش الكرامة والاكتفاء . ولكن الدراسة باتت لدى الكثيرين مضيعة للوقت . والشهادة مدعاة للتندر . وقلة المال مثار الاشفاق . وهكذا تمضي دوامة العيش والكل راكض لاهث ..

ثقافة الاجهزة

ان الراديو والسينما والتلفزيون واشرطة التسجيل السمعي والمرئي ونحو ذلك من منجزات التكنولوجيا الحديثة التي تحاول ان تنهض اليوم - فيما تنهض به - بعبء نشر الثقافة عسى ان تكون بديلا عن الكتاب والمحاضرة والمجلة الرصينة .. كلها عاجزة عن ان تخلق في المرء ثقافة حقيقية . وان تنشيء من ثم عقلا ناضجا وفكرا واعيا وذهنا مستنيرا .

قد يقال ان في هذا الحكم كثيرا من القسوة والتجني . الا تخص الاذاعة والشاشة الصغيرة والكبيرة عنصر الثقافة باهتمامها وتجعل له حيزا مناسبا وركنا معينا خلال برامجها ؟

هذا صحيح . ولكن المشكلة قد لا تكون فيما يقال او ما يعرض . فقد ينطوي الكثير منه على الخير . ولكنها تكمن في ذلك الانسان المتلقي ومدى رغبته في الاصغاء . ومن ثم مدى استعداده للاستيعاب . هاهوذا المذيع يعلن على الملأ من خلال جهاز الراديو انتهاء المطربة العاطفية من غنائها البديع ليقدم لنا زاوية اخرى . وهي حديث فكري لأحد العلماء الاعلام او الأدباء النابهين ولكن ماذا حدث ؟ اني لأتصور الافا مؤلفة من الايدي وقد امتدت بعصبية ظاهرة الى ابرة المذياع وحرفتها بعيدا عن صوت هذا المقتحم ، وكأنه الطاعون . ومن خلال زحام تلك الايدي الممتدة التي بدت لي كأخطبوط هائل اكاد اتبين ايدي الكثيرين ممن تعارفنا على تسميتهم بالمثقفين . واذا كان البث مرئيا فقد يكون رد الفعل اطفاء الشاشة كليا واخراس الرجل فورا . وربما قبل ان يتاح له ان يفتح فمه بكلمة .

تلك ايضا ظاهرة واقعة لا مجال لدفعها . وان كان ثمة مجال في مدى تقدير حجمها . فما علة ذلك ايضا ؟ الجواب هو هو في جوهره . فهذه الاجهزة ما خلقت اصلا لتفيد او لتعلم او لتثقف بقدر ما وجدت لتطرب وتمتع وترفه . ومهما يكن حرصها على الجانب الفكري والثقافي بالغا فان هذه الموضوعات ستظل ابدا هامشية ثانوية تعيش في زحام البرامج الترفيهية على استحياء وكأنها حشرت بينها حشرا وفرضت عليها فرضا .

والحق ان هذه الاجهزة المستحدثة الرائعة والوسائل المادية الباهرة التي ابتدعها الانسان المعاصر ذات قدرة غير محدودة على نشر نمط معين من الثقافة . انه تلك الثقافة الدارجة التي تحرص على مخاطبة اضخم كتلة من الناس على اختلاف اعمارهم وتباين اهتماماتهم وتفاوت مستوياتهم الفكرية والاجتماعية والمعاشية . فهي تحرص على الانتشار وتعنى بالتعميم دون ان يكون من شأنها مراعاة الفروق الفردية . وهذا يقتضي ان تكون الوجبة الثقافية المقدمة محدودة مبسطة . وثقافة كهذه ثقافة سطحية لا كبير جدوى منها .

وثمة عامل اخر في قصور هذه الاجهزة عن ايجاد مناخ ثقافي يركن اليه هو انها عادة ملك للدول او ملك للشركات . والدولة تعنى في المقام الاول بالسياسة والاعلام . على حين تقصد الشركة الى الربح والتجارة . وفي كلا الحالين لا تقصد الثقافة لذاتها وتبقى مرة أخرى جانبية هامشية .

أزمة محلية ام عالمية ؟

وقد يذهب بنا الظن بعد كل ما تقدم الى ان هذه الازمة في الفكر والثقافة ومعاناة الكتاب من استئصاص الاذاعة والتلفزة لجمهوره خاصة بالمجتمعات العربية . غير ان واقع الامر يبين ان العالم في جملته يعاني في هذا العصر من وجود هذه المعضلة . فاذا شكونا بمرارة من احتجاب مجلات عربية رصينة مثل المقتطف والرسالة والثقافة وأبولو والكاتب المصري والطليعة والحديث وتراث الانسانية والكتاب العربي ومجلة المسرح والقصة

ومجلة المجلة والفنون الشعبية .. فثمة شكوى مماثلة في الاوساط الغربية . فقد شكت من قبل مجلة (العالم والحياة) من ان روح العصر تصرف شبان اليوم عن الدراسات الانسانية كالآداب والفلسفة والفنون . كما يشكو المربون في غربي اوروبا من ان كليات العلوم الانسانية تكاد تصبح كليات نسائية . وفي الاوساط الصناعية والتكنولوجية في الولايات المتحدة الامريكية تذمر شديد من ان مهندسيها واختصاصييها لا يجيدون التعبير عن افكارهم وتصوراتهم على نحو واضح . فضلا عما ينطوون عليه من جدب ظاهر في الخيال . وعندما دعي بول فاليري الى نادي القلم في لندن ليتحدث في شئون الفكر لم يتردد في اعلان سخطه على الوعي الثقافي في أوروبا وتخوفه تجاه مستقبل الكتاب . وفي صدد زيارة جان بول سارتر لمكتبة بوشكين في موسكو قال بمرارة : « انني قادم اليكم من بلد ما زال الشعراء فيه يدفعون ثمن نشر كتبهم .. » .

ولعل جورج ديهامل ابرز من عالج هذه المعضلة التي تستفحل في هذا العالم . ولا سيما فيما اورده بالنسبة الى فرنسا . وذلك في كتابه القيم الذي أصدره قبل نحو نصف قرن من الزمان باسم « دفاع عن الأدب »[1] وينطوي على صورة قاتمة متشائمة .

ومن هذا القبيل ما اصدره جلبرت هايت عن بؤس الحركة الثقافية في امريكا من خلال كتابه « هجرة الافكار » .

قانون الجهد

والآن ـ وفي نهاية المطاف ـ ما هو السبيل الى اكتساب ثقافة حقيقية قادرة على تكوين انسان واع مستنير ؟

ان اكثر الباحثين المنظرين يرون انه في سبيل بلوغ هذه المنزلة فان الثقافة تقتضي توافر شرطين اثنين هما : الاختيار والجهد . فنحن تجاه ما يلامس اسماعنا من جهاز المذياع او ما يصافح ابصارنا من الشاشة الصغيرة او الكبيرة لا نختار الا في اضيق الحدود . ثم اننا ما دمنا لا نبذل مجهودا يذكر في الحالين فلن نحظى بزاد ثقافي مؤثر في كياننا . كشأن النقود التي تدخل الجيوب سريعة ودون عناء وخاصة عن طريق الميسر او اليانصيب فهي لا تلبث ان تتبدد .

اجل . لا ثقافة الا بالاختيار والجهد . وليس كالكتاب او ما شابهه ما هو كفيل بذلك . لان عملية القراءة عملية تفاعل ذهني . قوامها تركيز للافكار وتصنيفها في الذهن واحيانا معارضتها بأفكارنا وهي قبل هذا كله اختيارنا للمادة المقروءة وفقا لميولنا واهتماماتنا . وكذلك اختيارنا للوقت الذي يناسبنا تجاه ما نود قراءته من الوجهة العضوية الجسدية ومن الوجهة الذهنية والنفسية . يضاف الى ذلك اختيارنا لمعدل السرعة الذي يلائمنا في عملية القراءة . ما بين تأن واتئاد او قفز بين السطور او استعادة لبعض المقاطع .. وفي هذا كله نوع من ممارسة الحرية . والانسان حر لانه يختار .

لقد اصبح جليا في هذا العصر ان ثقافة غالبية الناس باتت متجانسة حتى كادت تكون متطابقة . نتيجة تلقيهم مادة ثقافية واحدة مشتركة . من طريق الاذاعة والتلفزة ونحوهما . مما قد يحد من بروز المواهب الخاصة والنابع الملكات الفردية . وهذا هو ايضا سر عزوف الشبان والطلاب عن الكتاب لأنه يتطلب السعي اليه والصبر على قراءته . اي ان ذلك يقتضي منهم الجهد . وانسان هذا العصر يكاد يعيش على تجنب الجهد ويدأب في التقليل منه والاعتماد على تلبية حاجاته وتأمين رغباته بواسطة تحريك أنامله في أدنى الحدود ليضغط على الازرار ...

نحن في عصر العلم والتكنولوجيا . عصر الذرة والصاروخ . عصر الاشياء البالغة الدقة . والأشياء البالغة الضخامة .

وحتى لا يضيع انساننا المعاصر خلال هذا الزحام . وينسحق وسط هذا الركام . جدير به ان يدأب بين الحين والحين على التحرر من وطأة هذا الواقع المضني . ليخلو الى نفسه مع كتاب يأنس به . ويرتاح اليه . فيرى ذاته منسكبة على صفحاته . مغتبطة بصحبة مؤلفه . وكما قال شاعرنا العربي « ... وخير جليس في الانام كتاب » .

ان ومض الفكر لا يمكن ان ينطفيء . وجذوة الابداع لن تخبو . والانسان ليس بوسعه ان ينسلخ عن انسانيته .

اجل . منذ البدء كانت الكلمة . ومن الازل .. كذلك سوف تبقى متألقة في جوانح الانسان والى الابد .

عمر الدقاق : الرياض

(١) قام الدكتور محمد مندور بترجمة هذا الكتاب عن الأصل الفرنسي .

مفاجأة..!

شعر حسن عبد الله القرشي

■■ نُفاجأ . ألقاك لا أحتفي بك — فيم وقد كنت سر الوجود ؟
وقد كنت في القلب عطر الأماني — وقد كنت للروح سحر الخلود

...

أشاخ الفؤاد الذي كان يحويك — وأنطفأت للهوى ذكريات ؟
أعاد اللظى والحنين رمادا — فلم يبق للأمس غير الفتات ؟

...

أفاجأ .. أين الخفوق الحبيب — ورعشة كفي عبر اللقاء ؟
وتهوية الفكر أنى حللت — واشراقة العين عند المساء ؟

...

وأين التلعثم عند السلام — وأين التحرق عند البعاد ؟
وأين السهاد الذي كان يسمو — بذلك فوق لذيذ الرقاد ؟

...

أفاجأ .. عدت الغريبة عني — كغربة أحلامي الضائعات
تشتت لحن المغني الحزين — تشتت قافلة في فلاة

...

وساءلت ليلى بعد اختفائك — والدرب شوك وطرقي رماد
أتمضى الأماني كومض السراب — ويفتقد العقل معنى الرشاد ؟

...

علام اختفت ؟ وانطوى طيفها — وقد كان ملء الرؤى والزمان
تمزق ذاك الشراع وذاب — على صفحة الموج جرس الأغاني

...

وعدت وحيدا .. فلا تفزعي — اذا مالمحت طيوف الغروب
غروب الهوى .. لم يعد للهوى — صدى لم يعد في الحنايا وجيب !

...

تعودين ؟ . باللمعاد الحبيب — إذا خفق القلب بعد الهجود
ولكن أيجبر كسر الزجاج — وتنتفض الروح بعد الخمود ؟!

الانترفيرون

نحو علاج لمرضى السرطان

بقلم الدكتور : سليمان احمد سليمان

مع نمو الثورة الصناعية في العالم ازداد انتشار انواع مختلفة من مرض السرطان وازداد عدد ضحايا هذا المرض الخبيث . والعلماء يحاولون جاهدين التقليل من استفحال هذا المرض وأخر ما توصلوا اليه هو الكشف عن سر من اسرار الخلايا التي اودعها الله إياها لاعطائها مقاومة طبيعية .

هذه المقاومة الطبيعية تتركز في قدرة خلايا الجسم على افراز مركبات بروتينية حيوية (انترفيرونسات) نتيجة الاصابة بالفيروسات او التعرض لمؤثرات خارجية اما بيولوجية كالحوامض الصبغية النووية (دن أ ، رن أ) او صناعية كمركبات البترول الكيمياوية . وتمثل الانترفيرونات حلقة صله بين الخلايا حيث ان الانترفيرون الناتج من خليه ما عندما يقع على الغشاء الخارجي لخلية اخرى سرعان ما يوجه هذه الخليه الى انتاج انترفيرونات جديده . ولهذه المركبات البيولوجية اهمية طبيه وعلمية فائقة حيث انها تبشر بالامل في أن تكون علاجا ناجعا ضد مرض السرطان . وتتسابق الآن الكثير من المختبرات العلميه في دول العالم لانتاج الانترفيرون على نطاق واسع لدراسته وتوسيع مدى استعماله . وقبل ان اوضح اهمية هذه الانترفيرونات في امكانية علاج مرض السرطان فسوف اوجز صفاتها وخصائصها وأبين فعالياتها البيولوجيه وطرق انتاجها

اكتشفت الانترفيرونات في عام ١٩٥٧ عندما اتضح للعالمين اساكس Isaacs ، ولندمان lindenmann في مختبرهما في لندن انه يمكن تحفيز خلايا جنين الدجاج بواسطة فيروسات ميته لانتاج مركبات بروتينيه تحول دون إصابة هذه الخلايا بالفيروس وكذلك تستطيع بدورها تحفيز خلايا جنينيه اخرى لانتاج هذه الماده . وقد اطلق هذان الباحثان على هذه المركبات البروتينيه اسم « الانترفيرونات » حيث انها تستطيع ان تتدخل (Interfere) في الفعاليات الحيويه للخلية وتحفيزها لانتاج بروتينات معينه تستطيع مقاومة الفيروس . وبعدها تبين أن الانترفيرون يمثل نوعا من مقاومة الخلايا الطبيعيه ضد الاصابه بالفيروسات . وفي خلال الثلاث والعشرين سنة الماضية أوضح الباحثون أنه توجد انواع مختلفه من الانترفيرونات تشترك جميعا في امكانيتها على تنشيط الخلايا لمقاومة عدد كبير من الفيروسات . وتقدر فعالية الانترفيرونات عادة بمدى امكانيتها على منع نمو الفيروسات . ويتفق العلماء على تعريف « وحدة » الانترفيرون بانها الرقم الناتج عن تخفيف محلول معين من الانترفيرون بحيث يظل قادرا على منع نمو ٥٠٪ من الفيروسات في وسط معين . وعلى سبيل المثال فاذا خففنا سم ٣ من محلول معين من الانترفيرون الف مره وتمكن هذا المحلول المخفف من منع نمو ٥٠٪ من الفيروس فان كل سم ٣ من المحلول الأصلي يحتوي على الف وحده من الانترفيرون .



ويمكن تصنيف الانترفيرونات الى نوعين رئيسيين بناء على مقاومتها للحموضه المنخفضة : النوع الاول وهو مقاوم للحموضه المنخفضه بينما النوع الثاني حساس لهذه الحموضه . ويقع بين هذين النوعين انواع اخرى تختلف في مدى حساسيتها او مقاومتها لهذه الحموضه . ويتصل بالقسم البروتيني من الانترفيرون جزيء سكري يبدو انه يلعب دورا هاما في مدى التصاق الانترفيرون بغشاء الخليه وبالتالي بمدى فعالية الانترفيرون .

الفعاليات البيولوجيه للانترفيرونات

للأنترفيرونات فعاليات بيولوجيه عديده حيث انها تستطيع من خلال تفاعل مبدئي مع غشاء الخليه تنشيطها وبالتالي إحداث تغييرات فيها اما ان تكون عامة لجميع الخلايا التي تتعرض للانترفيرونات او خاصة بانسجه او خلايا معينه ومن هذه الفعاليات :

١ ـ التأثير ضد الفيروسات :

ويمثل هذا التأثير اهم فعاليات الانترفيرونات للخليه حيث انها تمنع تكاثر عدد كبير من الفيروسات داخل الخليه وبذلك تكسبها وقايه ومناعه ضد هذه الفيروسات . ويختلف تأثير الانترفيرونات على فيروس معين بحسب نوع الخلايا المصابه بهذا الفيروس . وبوجه عام فان استجابه الخلايا لتأثير الانترفيرون مرتبطه بالجينات (المراكز الوراثية على الكروموسومات) . فمثلا في الانسان تتعلق استجابة الخلايا بالكروموسوم رقم ٢١ حيث ان الخلايا التي تحتوى على ثلاث نسخ من هذا الكروموسوم تكون اكثر استجابة من الخلايا التي تحتوى على نسختين وهكذا . ويتم تغيير الوضع ضد الفيروسات في الخلايا المصابه بصوره تدريجيه الى ان يصل هذا التغيير الى حد معين تستمر عنده الخليه في مقاومتها للفيروس لفترات متفاوته تقدر بعدة ساعات تعود الخلية بعدها تدريجيا الى وضعها السابق من عدم مقاومة الفيروس . ويمكن المحافظه على مقاومة هذه الخلايا اذا استمر وجود الانترفيرونات او تكرر اعطاؤها للخلية . لهذا السبب رأى الباحثون ان اعطاء انترفيرونات خارجيه للخلية هو أفضل بكثير من تحفيز الخليه على انتاج انترفيرونات ذاتيه . واما الوسيلة التي يتمكن الانترفيرون فيها من التغلب على الفيروس فهي معقدة ورغم اختلاف العلماء في تفسير حقيقة هذه الوسيله فان

الاغلبية تتفق على ان الفعالية الاساسية للانترفيرونات تكمن في الحيلوله دون انتاج نسخ جديدة من دن أ المكون للفيروسات مما يؤدي الى توقف تكاثرها . ويتم هذا العمل بالوسائل التالية :

أ ـ تفتيت دن أ المكون للفيروس بواسطة انزيمات خاصه .

ب ـ الحيلوله دون البدء في تكوين بروتينات في الخليه تحت تأثير دن أ التابع للفيروس .

ج ـ منع تكملة تركيب البروتينات التي بدأ تكوينها تحت تأثير دن أ التابع للفيروس .

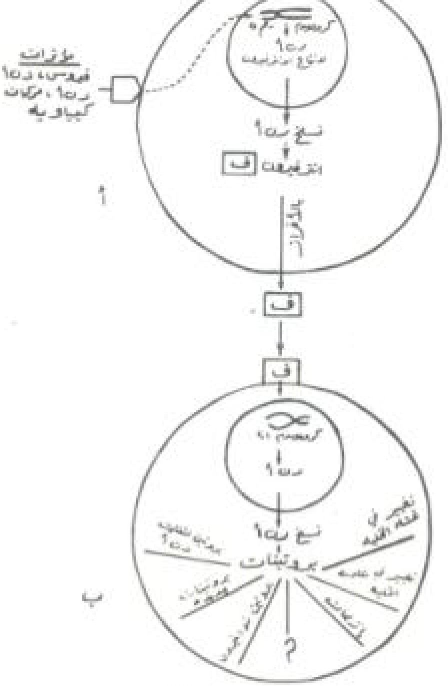
وفي دراسات عديدة تبين ان الخلايا التي تم علاجها بالانترفيرون تزداد فيها بصورة ملحوظه انواع معينة من الانزيمات (Synthetase,kinase,polymerase) قادرة بصورة خاصة على انتاج عوامل ذات فعالية قويه في تكسير دن أ التابع للفيروس مما يحول دون عمل نسخ عنه . وكذلك اثبت العلماء انه يظهر في الخلايا التي عولجت بالانترفيرون مركبات بروتينيه معينه اذا تم استئصالها واضيفت الى خلايا اخرى فانها تحول دون انتاج بروتينات خاصة بالفيروس . واما مايثير حيرة العلماء ودهشتهم فهو كيف يستطيع الانترفيرون في ان يميز بين دن أ التابع للفيروس ودن أ التابع للخلية نفسها . وربما بعد سنين طويله من البحث الجاد قد يدرك العلماء اسرار الله في خلقه المكنون .

٢ ـ التأثير على غشاء الخليه :

تؤدي معالجة الخلايا بالانترفيرون الى تغييرات في غشاء الخلية كزيادة الكهربائية الكامنة فيه او سرعة تهييجه (كما في الخلايا العصبية) . وقد لوحظ ايضا ان معالجة كثير من الخلايا بالانترفيرون يؤدي الى زيادة في صلابة غشائها الخلوي . وهذه التغييرات معاكسه لتلك التي تحصل في غشاء الخلية اذا تم فيها نمو الفيروس .

٣ ـ ايقاف تكاثر الخلايا :

تؤدي الانترفيرونات الى تناقص في نمو الخلايا السرطانية والخلايا الطبيعية على حد سواء . وهذا التأثير محدود يزول بزوال الانترفيرون كما انه غير مقصور على مرحلة من مراحل نمو الخليه . ولعل من اهم تأثيرات الانترفيرون على الخلايا السرطانية هو منعها من التجمع بحيث لا تؤدي الى التورم وبالتالي الحيلوله دون انتشارها



نظام عمل الانترفيرون في الخلايا . ويمثل رقم (١) مرحلة تحضير الخلية لمؤثرات مختلفة لانتاج الانترفيرون الذي يخرج اما في الوسط الاصطناعي المزروعة فيه الخلايا اوليؤثر على خلايا اخرى مجاورة . ويمثل رقم (ب) التغييرات التي تحدث داخل خلية اخرى نتيجة لوقوع الانترفيرون على غشائها . ويؤدي مجمل هذه التغيرات الى منع تكاثر الفيروس واعطاء الخلية مقاومة ومناعة .

في الجسم .

٤ ـ التأثير على مناعة الخلايا :

تعمل الانترفيرونات على تنشيط وظائف خاصة في الخلايا اللمفاويه كافراز الاجسام المضاده . ويعتمد هذا التأثير على كمية الانترفيرون ووقت استعماله . فمثلا اذا اعطي الانترفيرون في الوقت الذي يتعرض فيه الجسم للفيروس او قبيل ذلك فيؤدي هذا الى زيادة في

انتاج العوامل المضاده ومناعة الجسم . ويميل العلماء في الوقت الحاضر الى الاعتقاد بان الانترفيرون يؤدي الى زيادة في نوع معين من الخلايا الليمفاويه تسمى « القاتل الطبيعي » والتي تكون خطا دفاعيا منيعا في الجسم . ويبين الشكل المرافق ملخصا لمختلف التغيرات التي تحدثها الانترفيرونات في الخلية .

انتاج الانترفويرون

وقد ظل استعمال الانترفيرون محدودا جدا لا يتعدى المجال التجريبي في المختبرات حتى سنة ١٩٦٢ ، وذلك لصعوبة فصله وقلة انتاجه . ورغم البحث المتواصل لانتاجه على نطاق اوسع فلم يتمكن العلماء الا في السنوات الاخيرة من انتاج كمية يمكن استعمالها في معالجة بعض المرضى . ويمكن تصنيف الانترفيرون حسب طريقة انتاجه الى نوعين :

● (انترفيرون ذاتي (داخلي) ، وتفرزه الخلايا نتيجة لاصابتها بالفيروس او نتيجة لتحضيرها لمواد اخرى . وقد حاول العلماء حث الخلايا على انتاج انترفيرون ذاتي بكميات اكبر وذلك بتكرار تحفيزها بمواد غير فيروسيه ولكن دون جدوى وذلك بسبب التناقص المضطرد لاستجابة الخلايا لهذه المؤثرات .

● (انترفيرون خارجي) ، وتفرزه الخلايا المزروعه في وسط اصطناعي ملائم وبالتالي يمكن فصل هذا الانترفيرون من الوسط الزراعي ثم تركيزه واستعماله . وهناك ثلاثة انواع من الخلايا التي تستعمل لانتاج الانترفيرون الخارجي :

اولا : الخلايا الليفية التي تؤخذ من الجلد ويمكن زراعتها بكميات في وسط زراعي مصطنع وتحفيزها لانتاج ما يعادل عشرة آلاف وحده من الانترفيرون في كل سم ٣ من الوسط الزراعي . ورغم انه من المفروض ان تزداد كمية الانترفيرون الناتج ازديادا مضطردا مع عدد الخلايا المزروعه الا ان ما يحصل في الواقع هو غير ذلك ، فعندما يتزايد عدد الخلايا في الوسط الزراعي تبدأ هذه بالتجمع وتكوين طبقات متراصة مما يؤدي الى نقص في كمية الانترفيرون الناتج . زد على ذلك فان زراعة هذه الخلايا تحتاج الى مواد غذائية كثيرة مما يجعل تكاليف انتاج الانترفيرون بهذه الطريقة باهظا جدا .

ثانيا : الخلايا الليمفاوية والتي تؤخذ من الغدد الليمفاويه وعند تحفيزها بنوع من الفيروس الذي يصيب الدجاج فانها تفرز انترفيرون خارجي في الوسط الزراعي . وتكاليف زراعة هذه الخلايا قليلة . ورغم انها تظل منفصله في الوسط الزراعي ولا تكون طبقات الا ان كمية الانترفيرون التي تنتجها هذه الخلايا اقل من مثيلتها في الخلايا الليفية . ويتم حاليا انتاج هذا النوع من الانترفيرون في انكلترا . ومن مخاوف هذه الطريقة ان الانترفيرون الناتج قد يكون ملوثا بالفيروسات التي استعملت في تحفيز الخلايا . ولهذا فان وزارات الصحة في بلدان عديدة ما زالت قانع في استعمال هذا النوع من الانترفيرون .

ثالثا : خلايا الدم البيضاء والتي يمكن وضعها في وسط زراعي لمدة قصيرة وتحفيزها بطرق عديدة لانتاج انترفيرون خارجي ـ وحاليا فقد تمكن الدكتور كاري كانتيل (Kari cantell) في مدينة هلسنكي بفلندا من التعاون مع الصليب الاحمر الفنلندي لبناء اول واكبر مختبر لانتاج هذا النوع من الانترفيرون في العالم . ويتم في هذا المختبر تجميع كميات الدم التي يتبرع بها المواطنون ثم فصل الخلايا البيضاء وتحفيزها بفيروس الانفلونزا . وفي خلال ٢٤ ساعة تفرز هذه الخلايا الانترفيرون في الوسط الزراعي حيث يتم تجميعه وتركيزه . وقد تمكن الدكتور كانتيل بعد ذلك من تنقية الانترفيرون الناتج وحفظه الى فترات طويلة . ومن الجدير ذكره ان الانترفيرون الناتج من هذه الخلايا اكثر فعالية من الانترفيرون الناتج بوسائل اخرى كما ان تاثيره يستمر لمدة اطول . وهكذا فان هذه الطريقة في الوقت الحاضر تبعث الامل في الحصول على كميات من الانترفيرون . واذا كتب لهذا النجاح فيجب الا يغيب عن الاذهان الكميات الهائله في الدم التي تتطلبه حتى تستمر في الانتاج ، وحيث أن كميات الدم التي يمكن الحصول عليها في احسن الاحوال ستبقى محدودة في اى بقعة من بقاع العالم وعليه فان تكاليف انتاج الانترفيرون ستظل باهظة حتى يستطيع العلماء التوصل الى معرفة التركيب الكيماوي للانترفيرون وانتاجه صناعيا دون الحاجة الى اى نوع من الخلايا .

استعمال الانترفيرون كعلاج

والان وبعد ان عرفنا بعض خصائص الانترفيرون وكيفية عمله وطرق انتاجه فسوف نبحث امكانية استعماله كعلاج لمرض السرطان او الوقاية من امراض اخرى ، وكما يتبين فيما سيأتي فانه يمكن اعطاء الانترفيرون اما على شكل حقن في الاوعية الدموية او في العضلات . واذا اعطى الانترفيرون في العضلات

فانه يحتاج لمدة اطول (ثلاث ساعات) حتى يصل الى مستوى معين في الدم . ويعتمد هذا المستوى على كمية الجرعه التي تعطي للمريض . وسواء اعطي الانترفيرون عن طرق العضلات او مباشرة في الاوعية الدموية فان المستوى الذي يصل اليه يستمر لمدة خمس ساعات يبدأ بعدها بالانخفاض . وبعد وصول الانترفيرون الى الدم يتوزع في سائر انحاء الجسم بحيث يصل الجزء الاكبر منه الى الخلايا ويصل جزء بسيط منه الى القناة التنفسية وسائل النخاع الشوكي والسائل اللمفاوى والدماغ وجزء قليل جدا منه يخرج مع البول .

ولقد توجه نظر العلماء الى استعمال الانترفيرون كعلاج لمرضى السرطان في الانسان بعد ان تم الحصول على نتائج مشجعه في استعماله لمعالجة التورم السرطاني في الحيوانات ، ففي سنة ١٩٦٢ استعمل الانترفيرون لاول مرة وبطريقة تجريبيه على عدد من المتطوعين المرضى بالجدرى والمرض الجلدى المعروف بالقوباء (Herpes) . وفي كلتا الحالتين كانت النتائج مشجعه . وهكذا بدأ يزداد استعمال الانترفيرون على نطاق تجريبي في معالجة امراض اخرى كالتورمات السطحية للجلد وسرطان الثدي والبروستيات . وكذلك كانت النتائج مشجعة حيث توقف نمو التورم في ما يقرب من نصف الحالات وتقلص حجم التورم في عدد آخر الى ربع الحجم الاصلي . وفي عام ١٩٧٢ بدأ العالم ستراندر (Strander) في السويد باستعمال الانترفيرون لمعالجة بعض المرضى بسرطان العظام الخطير والذي يؤدي الى موت حاملة في غضون سنة من اكتشاف المرض .

والعلاج الوحيد لهذا المرض حتى الان هو الجراحه حيث يقطع الجزء المصاب وفي الغالب لا يؤدي هذا الى شفاء اكثر من ١٧٪ من الحالات . وقد بدأ العالم ستراندر باعطاء هؤلاء المرضى حقن يوميه في العضلات ما يعادل ثلاثة ملايين وحده من الانترفيرون الناتج من الخلايا اللمفاوية وذلك لمدة شهر وبعدها يستمر العلاج لمدة سبعة عشر شهرا مع تخفيض الجرعة تدريجيا . ولتقدير فعالية الانترفيرون اثناء العلاج كانت تؤخذ صور اشعة للمرضى كل شهرين . وفي نهاية الفترة لاحظ ستراندر ان حوالى ٥٠٪ من المرضى الذين تم علاجهم قد عاشوا اكثر من خمس سنوات بعد توقف العلاج . وحتى في الحالات التي انتشر فيها السرطان الى انحاء الجسم فقد كان مدى الانتشار اقل بكثير منه في المرضى الذين لم يتناولوا العلاج . ويقوم علماء آخرون في استراليا حاليا بدراسة مشابهه لتلك التي استعملها في علاج سرطان العظام وقد لاحظ انه في غضون شهرين من العلاج تقلص حجم السرطان في جميع المرضى بالاضافة الى ان اثنين من الاطفال قد تخلصوا من السرطان .

ومن الامراض التي يبشر الانترفيرون بعلاجها ايضا مرض تورم الكبد (hepatitis B) وهو احد الامراض الفيروسية التي لا يعرف لها علاج ناجح في الوقت الحاضر . ويثير هذا المرض القلق في انحاء العالم حيث انه في ازدياد مضطر وقد تصل الاصابه به في البلدان النامية الى ٢٠٪ من السكان . ■■

د . سليمان احمد سليمان
(ايوا ـ أمريكا)

ثمن حياته !

● بينما كان الكاتب الفرنسي فولتير يسير على شاطىء التيمس اذ شاهد رجلا غنيا يوشك ان يبتلعه النهر .. ولكن رجلا فقيرا خاطر بحياته وانقذه ... فمنحه الغنى ثلاثة بنسات اى ما يساوى قرشا .

وكان عدد كبير من الناس قد تجمعوا وشاهدوا ما حدث فكادوا يفتكون بالرجل الغني وحاولوا القاءه في النهر مرة اخرى ولكن فولتير تدخل قائلا :

ـ هدئوا من غضبكم . ان السيد الغني يعرف اكثر من غيره كم تساوى قيمة حياته !

أهل الذمّة : قراءة في النصوص

بقلم : فهمي هويدي

اذا كان وصف اهل الذمة هو اكثر الاوصاف شيوعا في الحديث عن الآخرين من غير المسلمين ، فان هذا الوصف قبل غيره هو أكثر الاوصاف حاجة الى المراجعة واعادة النظر .

واذا كانت كل كتب فقه المعاملات في الشريعة الاسلامية ـ منذ كان هناك فقه وحتى هذه اللحظة ـ لا تزال تستخدم تعبير اهل الذمة ، وتفصل تحته العديد من الاحكام والاجتهادات . فاننا نصبح بحاجة اولا الى ان نحدد موقع التعبير في شريعة الله ، قبل ان نطرح للمناقشة جدواه في خريطة الواقع الاسلامي المعاصر .

فنحن لا نجد كلمة « الذمة » مذكورة في القرآن الكريم سوى مرتين اثنتين فقط (سورة التوبة ـ الآيتان ٨ و ١٠) . وقد ذكرتا في سياق الحديث عن تربص المشركين من قريش بالمسلمين ، وكيف انهم لو تمكنوا منهم فانهم : « لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة » ، اي لا يترددون في القضاء عليهم : غير مراعين في ذلك قرابة ولا عهدا ، كما يقول ابن كثير . والعهد المعنى في هذه الاية هو صلح الحديبية المشهور .

في غير هذين الموضعين لا نجد في نصوص القرآن اثرا لا لتعبير أهل الذمة ، ولا لصفة « الذميين » ـ وانما كانت اكثر اشارات البيان الالهي الى الاخرين تستخدم اوصافا اخرى مثل « اهل الكتاب » او غيرهم من المشركين » .

ولكننا نجد اصلا للتعبير في السنة النبوية وكتب رسول الله الى الآخرين . فقد استخدمت الاحاديث كلمة « الذمي » في مواضع مختلفة ، مثل الحديث الشريف : من آذى ذميا فأنا خصمه ، وقوله عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع : « اوصيكم بأهل ذمتي خيرا . » وقد استعمل النبي هذه الكلمة (الذمة) في معظم كتبه الموجهه الى الافراد والعشائر ، بأن كان يذكر فيها انه يعطيهم « ذمة الله ورسوله » (وردت كلمة الذمة في احاديث اخرى ، وفي سياق آخر يمثل قول رسول الله (ص) عن

المسلمين ويسعى بذمتهم ادناهم) . كما كان يستعمل احيانا عبارة « امان رسول الله » او نادرا عبارة « ان الله ورسوله جار على ذلك »[1] .

أي انه من خلال هذه الصيغة الوصفية التي اطلقت على الآخرين على لسان رسول الله وفي عهوده ، دخل تعبير اهل الذمة قاموس التخاطب مع غير المسلمين ، سواء في الممارسات الواقعية او في كتب الفقه المختلفة .

ولكن هذا التعبير وان استخدم في احاديث النبي وعهوده ، الا انه كان جزءا من لغة الخطاب في تعامل القبائل العربية قبل الاسلام ، اذ كانت عقود الذمة والامان هي صيغة التعايش التي تعارف عليها عرب الجاهلية .

فقد « عرف العرب من القديم التناصر بالجوار . فكان وجوههم في الجاهلية يجيرون من لجأ اليهم واستجار بهم ، بما يسمونه عقد الجوار او الذمة . وكانت رعاية الجوار عندهم من مقتضيات شهامة العربي ، لانها كانت تلبي كرمه الطبيعي وتشعره بالاعتزاز بحماية من يطلب معونته ونصرته . وكان على المجير ان يحمي الجار او المستجير ويقاتل عنه ، ويطلب له بظلامته ، ويمنعه ويمنع اهله مما يمنع نفسه واهله وولده .. »[2] .

أي اننا نقف في حقيقة الامر ، في مواجهة صيغة لا تستند الى نص شرعي ، واستخدامها في السنة النبوية كان من قبيل الوصف لا التعريف ، الامر الذي لا يصنفه في اي من درجات الحكم الشرعي الملزم وبالاضافة الى ذلك فان الوصف ـ وان لم يكن الوحيد الذي استخدم في خطاب الاخرين ـ الا انه كان تعبيرا عن حالة « تعاهدية » تعارف عليها عرب الجاهلية ، في تنظيم علاقات القبائل والافراد ، استمر الى ما بعد الاسلام ، ضمن ما اخذ به من تقاليد واعراف .

استقر عقد الذمة في البناء الفقهي والقانوني للمجتمع الاسلامي ، ونما العرف حتى بات صيغة دائمة تحكم علاقة المسلمين بغيرهم في دار الاسلام ، سواء كانت دارا اصلية ، ام ارضا دخلت تحت الحكم الاسلامي ، عن طريق الفتح . واصبح تعريف عقد الذمة المستقر في كتب الفقه المختلفة انه : عقد بمقتضاه يصير غير المسلم في ذمة المسلمين ، اي في عهدهم وامانهم على وجه التأبيد ، وله الاقامة في دار الاسلام على وجه الدوام[3] .

●

اننا في محاولة تقييمنا لصيغة « اهل الذمة » وتحديد طبيعة موقع « الذميين » في المجتمع الاسلامي المعاصر ، نظل بحاجة دائمة الى ان نستحضر التفرقة بين ما هو « شرع » انزله الله ، وبلغه نبيه عليه الصلاة السلام ، وبين ما هو « فقه » صنعه الفقهاء حسب رؤيتهم لظروف الزمان والمكان .

ذلك ان الحكم والفيصل دائما هو نص الشرع وروحه ، اما اجتهادات الفقهاء ، فليس لنا الا ان نسترشد بها ، ولنا ان نأخذ منها ونرد ، في ضوء المصلحة التي تفرضها متغيرات الزمان والمكان .

وقبل ان نناقش صيغة الموقف الاسلامي من اهل الذمة في المجتمع المسلم ، نظل بحاجة الى ان نتعرف على مضمون هذا الموقف ، في ضوء نصوص القرآن والسنة وشواهد الفقه والتاريخ التي عبرت عن تلك النصوص .

---

(١) د . صبحي محمصاني « القانون والعلاقات الدولية في الاسلام » ص ١٠١ ـ نقلا عن مصادر اخرى .
(٢) المصدر السابق .
(٣) د . عبد الكريم زيدان ـ احكام الذميين والمستأمنين ـ ص ٢٢ .

والامر كذلك ، فينبغي الا تغيب عن ابصارنا على الاطلاق تلك النصوص القرآنية العديدة التي اعلت مكانة الانسان ، وخصته بالتكريم (ولقد كرمنا بني آدم ـ الاسراء ٧٠) واثبتت نسبه السماوي (ونفخت فيه من روحي ـ الحجر ٢٩) ، وقررت المساواة بين البشر ، في اعلان الاصل الواحد (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ـ لقمان ٢٨) ، وهو ما حرص الرسول عليه الصلاة السلام على تأكيده قبل ان يفارق الدنيا ، في حجة الوداع ، بقوله : ان ربكم واحد ، وإن اباكم واحد ، وهو ما ذكرناه تفصيلا في مقال شهر مارس الماضي (جسور مفتوحة في الارض وفي السماء) .

هنا ايضا ينبغي الا يغيب عن ابصارنا ايضا النص القرآني : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، ان تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين (الممتحنة ٨) .

لقد عني الله سبحانه وتعالى بذلك « جميع اصناف الملل والاديان ، ان تبروهم وتصلوهم وتقسطوا اليهم ... ان الله يحب المنصفين ، الذين ينصفون الناس ، ويعطونهم الحق والعدل من انفسهم ، فيبرون من برهم ، ويحسنون الى من احسن اليهم . »[4]

والبر الذي يدعى المسلمون الى ان يعاملوا به الاخرين ـ ما لم يقاتلوهم او يظلموهم ـ سئل رسول الله عن معناه ، فيما رواه النواس بن سمعان ، فكان رده عليه السلام : البر حسن الخلق[5] .

والبر هو من صفات الله سبحانه وتعالى (البر الرحيم) ، وهو قيمة حث الله المسلمين على التحلي بها في كل زمان ومكان (وتعاونوا على البر والتقوى) ، وهو لفظ استخدمه القرآن الكريم في وصف العلاقة الحميمة بين الابن والابوين ، فيما قاله على لسان عيسى عليه السلام (وبرا بوالدتي) .

في ضوء هذا الموقف العام والاساسي من الانسان ، واللغة القرآنية المتسقة مع هذا الموقف ، والمتعلقة بالآخرين من غير المعتدين او الظالمين للمسلمين ، نقرأ في الاتجاه ذاته تعاليمه وتعليمات النبي عليه الصلاة السلام في خصوص اهل الذمة الموجهة الى المسلمين :

ـ من ظلم معاهدا ، او كلفه فوق طاقته ، او انتقصه ، او اخذ منه شيئا بغير طيب نفس ، فانا حجيجه يوم القيامة .

ـ من آذى ذميا فليس منا .

ـ ان الله تعالى جعل السلام تحية لامتنا ، وامانا لاهل ذمتنا .

ومن وصايا الخليفة الاول ابي بكر الصديق : لا تقتلن احدا من اهل ذمة الله ، فيطلبك الله بذمته ، فيكبك الله على وجهك في النار .

ومن وصايا الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وهو على فراش الموت : اوصي الخليفة من بعدي باهل الذمة خيرا ، وان يوفي لهم بعهدهم ، وان يقاتل من ورائهم ، والا يكلفهم فوق طاقتهم .

وقد كان امير المؤمنين عمر دائم التأكيد على البر باهل الذمة ، وشديد الحرص على ان يتحرى بنفسه مراعاة الولاة لهذا الالتزام . ويروي الطبري في تاريخه ان عمر بن الخطاب قال لوفد البصرة : لعل المسلمين يفضون الى اهل الذمة بأذى ؟ فقالوا : ما نعلم الا وفاء[6] .

وكان طبيعيا ان ينعكس هذا الموقف على الممارسات والتطبيقات ، التي انطلقت من قاعدة استقرت

---

(٤) تفسير الطبري ـ ص ٢٨ ـ ٦٦ .

(٥) نزهة المتقين في شرح رياض الصالحين للامام الحافظ النووي ص ٥٢٥ .

(٦) تاريخ الطبري ـ جـ ٤ ص ٢١٨ .

في الفقه والتشريع تقضي بأنه « لهم مالنا ، وعليهم ما علينا » .

وفي هذا المعنى يقول الامام علي بن ابي طالب : من كان له ذمتنا ، فدمه كدمنا ، وديته كديتنا .

ومما سجله الفقهاء في هذا الصدد :

ـ ان المسلمين حين اعطوهم الذمة ، فقد التزموا دفع الظلم عنهم ، وهم صاروا من اهل دار الاسلام [٧] .

ـ على المحتسب ان يمنع المسلمين من التعرض لهم بسب او اذى ، ويؤدب من يفعل ذلك بهم [٨] .

ـ اذا وقع الذميون رعية الدولة الاسلامية في اسر قوم من اهل الحرب ، ارتبطوا بأمان مع دولة المسلمين ، كان على دولة المسلمين نقض العهد لاستنقاذ الذميين [٩] .

ـ ويجب كف الاذى عنه ، وتحريم غيبته [١٠] كالمسلم [١٠] .

وقد افتى الامام الليث بن سعد ، في شأن الذميين اذا وقعوا اسرى في ايدي العدو ، بقوله : « ارى ان يفدوهم من بيت المال (في الدولة الاسلامية) ويقرون على ذمتهم [١١] .

●

ومن التطبقات التي مارست فيها الدولة الاسلامية المسئولية الكاملة عن حماية اهل الذمة ما حدث حين اراد امير التتار قطلوشاه اطلاق سراح الاسرى المسلمين دون الذميين ، الامر الذي رفضه شيخ الاسلام ابن تيميه ، وقال للامير التتاري : لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى ، الذين هم اهل ذمتنا ، ولا ندع اسيرا لا من اهل الملة ، ولا من اهل الذمة ، فأطلقهم واصر المسلمون على هذا الموقف حتى اطلق سراح الجميع .

وعندما قام الوالي العباسي صالح بن عبد الله بن عباس ، باجلاء قوم من اهل الذمة في جبل لبنان ، كتب اليه في ذلك الامام الاوزاعي ، يقول في رسالة فريدة في دلالتها : وقد كان من اجلاء اهل الذمة في جبل لبنان ، ممن لم يكن ممالئا لمن خرج على خروجه ، ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما علمت . فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وحكم الله تعالى : الا تزر وازرة وزر اخرى ..

ثم قال في رسالته : فانهم ليسوا بعبيد فتكون من تحويلهم من بلد الى بلد في سعة ، ولكنهم احرار اهل ذمة [١٢] .

لقد نهض الاوزاعي ، الفقيه الكبير ، لينكر على الوالي فعلته ، قائلا انهم ليسوا بعبيد يعبث الوالي بمصائرهم كيف شاء ، ولكنهم احرار اهل ذمة !

---

(٧) السير الكبير لمحمد بن حسن الشيباني ـ املاء السرخسي جـ ١ ص ١٤٠ .
(٨) الماوردي في الاحكام السلطانية ص ٢٤٧ .
(٩) السير الكبير جـ ٥ ص ١٨٥٧ .
(١٠) الاموال لابي عبيد ص ١٢٧ .
(١١) نظرية الاسلام وهديه ـ حقوق اهل الذمة ص ٣٤٥ ـ نقلا عن الدر المختار جـ ٣ ص ٢٧٣ .
(١٢) الاموال لابي عبيد ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

وفي ظل الدولة العثمانية ، عندما دخل العثمانيون « كريت » اخذ اهل الجزيرة يناصرون اهل البندقية المسيحيين على الاتراك المسلمين الفاتحين . فأراد السلطان العثماني ان يقتل المسيحيين من اهل الجزيرة ، جزاء على تواطئهم مع اهل البندقية . وولكن المفتي « اسعد زامة » ، عارض السلطان بشدة ، وهدده بخلعه من الخلافة ان هو استمر على اضطهاده للمسيحيين !

ومن الاجتهادات الفقهية اللافتة للنظر والتي تكشف عن حساسية بالغة في مراعاة مشاعر اهل الذمة ، ما قال به الاحناف ، من وجوب تطبيق احكام اهل الذمة الدينية على وصاياهم . ومن ثم ، افتى هذا المذهب بصحة الوصية المتضمنة عملا مشروعا بحسب دياناتهم ، ولو كان هذا العمل محرما عند المسلمين . كما افتى ببطلان الوصية المتضمنة معصية حسب اعتقادهم ، ولو كان هذا العمل قربة عند المسلمين !

مثلا : لو اوصى ذمي بان يجعل داره مسجدا ، او اوصى لمسلم بالحج ، فوصيته باطلة . اما لو اوصى بأن يجعل داره كنيسة او مسلخا لذبح الخنازير ، فالوصية صحيحة !! [١٣] .

الطريف ان الخلاف بين الاحناف في هذه النقطة انحصر في ان الامام أبا حنيفة قال بصحة هذه الوصية ، على اطلاقها ودون شرط . ولكن صاحبيه ابا يوسف والشيباني ، اشترطا لصحة الوصية ان يعين فيها الشخص الذي يوصى اليه بذلك !

بلغت حساسية بعض الفقهاء تجاه احترام وصيانة حقوق الملكية لدى الاخرين مدى عجيبا ومدهشا في موضوعيته وتجرده ، حتى جاء في شرح الخرشي المالكي ان : المشهور ان الحربيين اذا قدموا الينا بأمان ، ومعهم مسلمون غنموهم منا (اي جاءوا بهم كأرقاء) فانهم لا ينزعون منهم ، ولهم ان يرجعوا بهم الى بلدهم (!!) عن ابن القاسم في احد قوليه . وفي قول آخر : انهم ينزعون بالقيمة ، وهو الذي عليه اصحاب مالك وبه العمل [١٤] .

ويسجل ابن قيم الجوزيه في كتاب « احكام اهل الذمة » حوارا حول مسلم تزوج بذمية ، سأل فيه : هل له ان يمنعها من شرب الخمر ؟

قال : يأمرها .

قيل : لا تقبل منه ، أله ان يمنعها ؟

قال : لا !

ثم استطرد مشيرا الى المسلمة اذا رغبت في ان تشرب النبيذ المختلف عليه بين حنفية يرون انه غير مسكر وحنابلة يحرمونه ، قال : هل لزوجها ان يمنعها ؟.. قال : نعم !

في هذه النماذج والاجتهادات ـ وغيرها كثير ـ تصان كرامة الاخر ، وتحترم مشاعره الى مدى لا يخطر على البال .. لانه انسان مكرم ، اولا وقبل اي شيء !

وللحديث بقية ..

(١٣) د . صبحي محمصاني ـ القانون والعلاقات الدولية في الاسلام ـ نقلا عن مجمع الانهر جـ ٢ ـ ص ٧١٦ ـ ٧١٧ .

(١٤) د . عبد الكريم زيدان ـ احكام الذميين والمستأمنين ـ ص ١٣٣ ـ نقلا عن شرح الخرشي جـ ٣ ص ١٢٧ .



مأساة الإنسان عند ديستوفسكي

بقلم : سليم الصريص المحامي

« لقد كتب على الانسان أن يعيش في تحد دائم . انه ليس في حاجة إلى السعادة فقط . فهو يحب العذاب واحيانا يحبه بشغف »

أزمات الصرع التي كان يعاني منها فيودور دستويفسكي ، وازمات الصرع التي انتابت معظم شخصيات رواياته . تمثل مأساة هذا العصر . بل مأساة الانسان منذ بدأ الكون حتى يومنا هذا . وستظل مأساته طالما ظل طغيان واضطهاد .

واشخاصه الذين عانوا من الصرع كانوا عقلاء حائرين . نظروا الى ذات الانسان واستشفوا اغواره وادركوا ان الانسان مكتوب عليه ان يخوض معارك لاتنتهي ضد كل شيء . حتى ضد ذاته وضد شيطانه ، وان هناك عنصرا غريبا مجهولا في ذات الانسان يحمله على التمرد ويقوده نحو الجنوح ، ولكن لايحمله ابدا على أن يخلد الى السكينه او ان يتوقف عن النضال . بل يخلق فيه قوة جديدة وحافزا جديدا لمواصلة الكفاح بعنف اشد وتصميم اقوى ، مسمرا ناظريه وارادته على شيء واحد هو الا تسحقه صخرة « سيزيف » والا يستسلم امام « لعنة الالهة » .

هذا الادراك الواعي لمأساة الانسان هو الذي جعل الشخصيات الروائية التي خلقها حائرة قلقة مضطربة ، وأحيانا مصروعة يدفعها الصرع الى ان تتخذ مواقف متطرفة ماكانت لتجرؤ على إعلانها لو انها ظلت عاقلة متزنة سوية . ولهذا كانت شخصياته الروائية « مريضة » في نظر البعض . و « حائرة » لدى البعض الاخر . و « غير سوية » لدى فريق ثالث . لعمق قرفها من الرياء البشري . وفوضى الكون . ونقمتها على عالم الخطاة . عالم الاذلاء المقهورين وعالم الاقوياء الطغاة . ولكنها كانت في غور ذاتها عاقلة ذكية مدركة . ولولا ذلك لما ثارت ضد الطغيان بهذا العنف ، ولما تمردت على التقاليد الجائرة . ولما انتفضت على كل شيء حتى على الله .

ان « ايفان كرامزون » احد ابطال رواية الاخوة كرامزوف » الذي ينهشه الشك الحائر القاتل يندفع في تمرده على الله الى درجة نكرانه ونكران كل صفاته لانه لم يستطع ان يفهم كيف خلق الله هذا العالم ويسمح فيه للطفولة ان تتعذب وتتألم . « أهذا هو عدل الاله ؟ » ان كان حقا فهو عدل يعذبه ويصيبه بالتشنج .

ضحايا القوة !

وتمرده على الله جزء من مأساة الانسان الذي

لايستطيع ان يعيش بدون إله ويضنيه البحث عن الله في الوقت ذاته . ولهذا ، فعلى الرغم من تكرار مواقف التمرد على الآلهة في شخصيات دستويفسكي في رواياته « الجريمة والعقاب » و« المعتوه » و« الاخوة كرامزوف » و« المراهق » وغيرها فاننا نرى ان كل المذلولين المضطهدين كانوا يحملون اسماء توحي بعمق ايمان اشخاص دستويفسكي وتوقهم الى انتصار الخير والمحبة والفضيلة التي بشرت بها الأديان ، وبشر بها صاحب الانجيل الذي ينتمي اليه دستويفسكي عقيدة وضميرا . إن اسماء ضحايا القوة والاقتدار من امثال « صوفيا مرميلادفوف » و« فارنكا » الفقيرة ، و« انستاسيا » و« ماريا تيموفيفنا » وغيرها مشتقة من اسماء دينية تقية مؤمنة بالله . فاسم « صوفيا » « مشتق من » صوفيا اى الحكمة ، واسم « ماريا » يرمز الى العذراء مريم والدة السيد المسيح ، وحتى الأرض الروسية « ارض مقدسة » سيولد فيها المسيح الجديد الذي بشر به المعتوه « موشكين » والذي سيفتدى شعب الروسيا .

هذا الايمان العميق حين يصطدم مع واقع الحياة وفوضاها ، ويجيبه باضطهاد الانسان للانسان : يصاب بخيبة امل ونكسة يائسة مدمرة : اهذا هو العدل ؟ أهذه هي أخوة الانسان للانسان ؟ أهذه هي شفقة القوى على الضعيف ؟

هذا التساؤل الواعي المدرك هو الذي جعل كل شخصيات دستويفسكي متوترة على الدوام ومتشنجة ، يدفعها التشنج نحو التمرد ، ويسوقها التمرد الى العنف ، ويتجسد هذا العنف على شكل اعتداء او قتل او اغتيال . ثم يعقب ذلك الصراع النفسي الرهيب وتأنيب الضمير الذى لايغفر الاقدام على القتل ولكن واقع الحياة التي يسيطر عليها الاقوياء المستبدون يضيق الخناق على الانسان المضطهد المذلول ، ويضعه امام اختيار عسير لامناص منه ، فيقدم على القتل وهو مشلول الارادة مشلول الفكر .

جزء من مأساة الانسان

وهكذا تتجلى لنا حياة الانسان في روايات« الاخوة كرامزوف » و« الجريمة والعقاب » و« المعتوه » وغيرها وكأنها محطات لاتتوقف عندها الالكي تقتل او لكي تموت . ومن لا يقتل او يموت يحوطه صمت مطبق عميق وتأمل حزين مأسور في واقع الحياة واضطرابها .

وهكذا نرى ان شخصيات دستويفسكي لاتتحرك على مسرح الحياة كما يشاء لها القدر او الهوى . ولكنها شخصيات نابعة من ذات كل واحد منا . وانها تمثل جزءاً من حقيقة الانسان بل مأساته ، وتثير لنا جوانب من ذاتنا وتتحدث عنها ، فنرى ذاتنا مرسومة امامنا ببراعة وصدق وواقعية . ونرى انفسنا مشدودين الى الله في اللحظة التي نجحده ونتمرد عليه ، ونرانا نحب الانسان ونعانقه في اللحظة التي لم تجف فيها الدماء على ايدينا الملطخة بدمه .في ذاتنا يتعايش الاذلال والاستبداد ، والرحمة والقسوة ، المحبة والقتل ، الله والشيطان ، والامل واليأس ، الاطمئنان والشك ، ولكن زورق الانسان لا يغرق ولايستقر ، بل هو جانح على الدوام ، لايستقر عند شاطىء ولا يرسو عند مرفأ .

ان مأساة الانسان هي في هذا العذاب الذي يمزق مشاعر المقهورين والمذلولين ويحطم اعصابهم ، ويفقدهم القدرة على السلوك السوى والتصرف السليم ، ولكن هذا « العذاب » ضرورة لاغنى للانسان عنها لأنه بدون ذلك لاتتطهر الذات الانسانية ، بدون ذلك لايولد الضمير ، ولا يخلق الاحساس بالتعاطف والتراحم مع الآخرين .

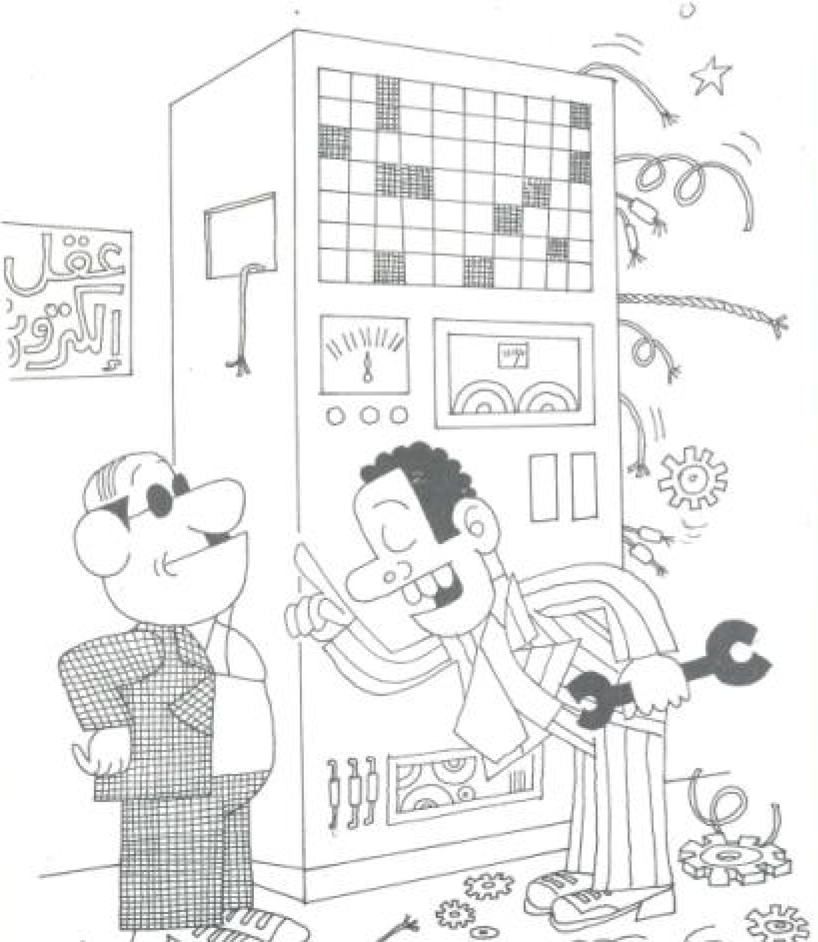
المأساة الابدية

وقد كتب دستويفسكي مرة مقالا رد فيه على آخر يرى ان الانسان خير بطبعه ، وان كل شر يأتيه من المجتمع « فقال له : « لقد كتب على الانسان ان يعيش في تحد دائم . واشترك في هذا التحدى فكر الانسان من ارسطو حتى كانت ومن جاء بعدهما .ان الانسان ليس بحاجة الى السعادة فقط ، انه يحب العذاب واحيانا يحبه بشغف . هذا واقع العذاب هو المصدر الوحيد للضمير والضمير اوسع بكثير بشكل لايحد من ٢×٢=٤ » .

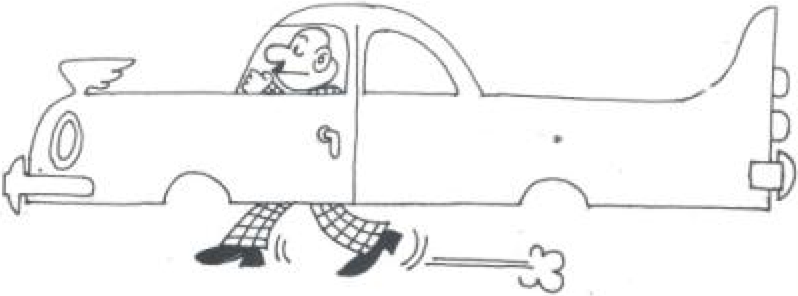
« العذاب هو المصدر الوحيد للضمير » . والعذاب هو « المطهر » الذي تتطهر فيه النفوس من ادرانها . والعذاب هو ايضا « الجحيم » الذي يتعذب فيه الاقوياء الجبارون امثال « بيلوف » و« سورين » و« زوجوجين » الذين اصبحوا اسرى شرورهم ورذائلهم ، ولكنه لايطهرهم بل يظل يعذبهم ويمزقهم ويحرقهم .

ومن خلال العذاب تولد مأساة الانسان ، ويموت انسان هذا الجيل ،ولكنه يخلف للجيل اللاحق مأساته الأبدية مأساة اضطهاد الانسان للانسان ، والبحث الذى لاينتهي عن الله » ومن خلال هذه الحقيقة الابدية تولد الحقيقة الانسانية .

نحن والتكنولوجيا



سيدي ... لقد اقتنع الآن تماماً بوجهة نظركم ...!!



بدون تعليق



ـ ولكن كيف سيعرف الناس أن الساعة ضد الماء ؟!

قراءة اخرى في ديوان اجنحة العاصفة

العدواني.. صلاة للإنسان الحر

بقلم : الدكتور شاكر مصطفى

.. ونعود الى الشاعر العدواني كرة اخرى

ان جوه الآسر يغري بالعودة . يغري بقراءة اخرى .. ولكنها ستكون هذه المرة في قدس الاقداس ستكون قراءة في منظومته الفكرية . انها ليست دون شك منظومة فريدة . ولكنها بل . منظومة محرقة جحيمية . على ما فيها من خضرة ولمع انوار . إنها كالغابة الامازونية : « جهنم الخضراء » .

اعرف ان شعره قد يمر على بعض الصدور كسفح الماء على الرخام الكتيم . واعرف ان كل قراءة للشعراء (ولأي فن) هي اكتشاف للذات وإنما يقرأ الانسان من خلال ذاته . ويقرأ احيانا ما يريد (وقد اكون رأيت في العدواني نفسي او بعض نفسي) لكني الى هذا ايضا ممن يزعمون ان كل قراءة للشعر (ولأي فن) هي خلق جديد له . وبقدر ما يستطيع ان يخلق من الآفاق فانه يبرهن على التصاقه بأمرين هما وجها الوجود المتلازمان : اغنى ما في النفس الانسانية من الخلجات . وأعمق ما في الكون من الأسرار ...

ومن هنا أبدا هذه القراءة الثانية ...

لنذكر ، في البدء ان السنوات الخمس والثلاثين من الشعر التي عاشها العدواني لم تكن شعرا كلها . نصفها الاول كان على دروب الشعر تجربة واعدادا . ركضا في النور تارة ، وفي عتمة الصمت تارات . العدواني فيما بين اول قصيدة له سنة ١٩٤٦ وبين سنة ١٩٦٢ مر بمرحلة التكوين . عاني التركيب الشعري اولا . أخذ وأعطى مع الوزن والقافية حوّم ثم حوم في جحيم التجربة الفكرية والنفسية ومن حولها سبع سنوات ثم ... ثم صمت . ران السكون الاخرس على عواصفه وموجه وبحاره عشر سنوات !! سنوات الصمت العشر هل كانت غرقا في مشاغل الدنيا ؟ هل كانت غضبا على عجز الاداة الشعرية ؟ هل كانت استغناء عن وصف الحياة بعيشها العريض ومعاناتها العنيفة ؟ الذي أزعمه أنها كانت عودة الى الجذور . جذور التكوين . لقد كان من قبل قد زاوج ما بين الاجرومية وداروين . وحفظ الالفيات وشبلي شميل . قرأ الزمخشري وشعر الصعاليك كما قرأ اسماعيل مظهر وسلامة موسى ويبدو انه عاد يراكم الثروة الفكرية وينميها بكل اجواء الفكر الحديث . رفض المستوى الاول الذي بدأ به لانه خاف ضحالته . كما رفض ان يشرك الناس في تجاربه للسمو الذاتي ومحاولات التجاوز فصمت . أراد ان يكون كامل (الاجنحة) مرة واحدة . « عاصفة » بكل ابعاد العاصفة . وموقفا انسانيا كاملا ! ان هذا هو الذي يفسر تلك « القفزة » الفنية « التي عاد بها الشاعر عودة الابن الشاطر » الى الهيكل القدسي والى ديان عبقر سنة ١٩٦٢ *.

---

* بقصيدته التي غنتها ام كلثوم : يا دارنا يا دار .



لا يقف خارج التجربة

المرحلة الثانية من العدواني الشاعر هي التي امتدت منذ تلك السنة الى اليوم وهي التي رسمت ملامحه الشعرية التي تعرف اسلوبا وفكرا . وخلالها كان العدواني ولا يزال يجري في خطين متوازيين ومتعانقين في وقت معا ، تستطيع ان شئت ان تسمي احدهما بالخط الاجتماعي والثاني بالخط الصوفي ، وتستطيع ان تقول ان الأول برز في القسم الاول من المرحلة وان الثاني سيطر على المساحة في القسم الاخير لكن العدواني كان في الحالين يعيش التجربة الكلية للجيل العربي . ثماني عشرة سنة لا يزال ينزف شعر ، يتمرد شعرا ، يصلي شعرا . نظارتاه السوداوان اذا كان يستخدمها للاختفاء وللمزيد من البعد عن « الآخر » ومن الانسحاب فانه يستخدمها ، في الوقت نفسه ، للمزيد من رؤية العالم وكشف الفضيحة فيه ، ومسح التفاصيل للوصول الى الكلي .. والى المطلق . ولكنه في الحالين لا يقف خارج التجربة ولكن في صميمها المحرق . ولقد يخيل اليك احيانا انه واقف على الشاطيء ينظر ويتفلسف . وأنه من بعض رهبان الأبراج الذين يعلكون المواعظ ويلهون بالرؤى ... ولكن اعد النظر قليلا في حروفه « المنغومة » ، في رؤيته الشعرية ، في منظومته الفكرية تجد انه يخبط في جنون اللجة الهائجة ، مع الهالكين ، تجد انه عند فم التنين يرفع المصباح ويحاول انقاذ ما يمكن انقاذه « باليدين ، وبالاظافر والاسنان .. وبسوط اللعن ايضا » .

على ان هذه المرحلية « المدرسية » في العدواني الشاعر انما هي مرحلة ظاهرية خادعة . العدواني نشيد واحد منذ رسم اول حرف شعري على الورق الى حرفه الاخير . وبالرغم من انك تحس في انفاسه شقشقة المعري تارة ، وطيف الخيام تارة اخرى ، وشطحات ابن الفارض ثالثة ، بل تحس احيانا نسمات ابي ماضي وتشاؤمية وثرية الزهاوي الاخير ، الا ان العدواني سواء في عمره الشعري الطويل أم في مواقفه الفكرية سمفونية واحدة ، يتعدد فيها الايقاع وتداخل الالات والانغام وتمتد فيما بين المطلع والخاتمة بين صخب وتوتر وهدوء وتموج لكنها تظل سمفونية متكاملة واحدة .

لحن التكوين الداخلي الذي يربط ما بين الحرف الاول والحرف الاخير لدى العدواني هو : الايمان بالانسان الحر ، النزوع الى السمو الانساني النقي ، تجاوز الانسان ـ التراب .

ملحمة الحروف والاوزان ، والافكار والرؤى التي تشكل « العاصفة » العدوانية أجنحة وغضبا وجراحا ورضى كلها تدور حول قطب واحد هو الشوق الى « قيامة » الانسان الحر ، الى نصر الانسان ـ الانسان الى خلق الانسان ـ الوجود الكامل . هذه الفكرة المركزية ـ باي صورها اخذت ـ هي « العاصفة » المسيطرة . انها في الديوان كالرحى الشيطانية لا تطحن الواقع وترفضه فقط ـ ولكن تجعله مجموعة حالات تتجه الى حالة واحدة ، تتكثف تكثف المادة في الثقوب الكونية السوداء لتبتلع الابعاد وتبشر بالآتي ، بالمجهول ، بالماوراء ، ... الذي لا يجيء ! على هذه الصخرة المكينة اقام العدواني كنيسته الايمانية .

الذاتي الصوفي

وبالرغم من ان الذاتي ـ الغنائي (الرومانسي) التقليدي كان الواضح في المرحلة الاولى ثم كان الذاتي ـ الاجتماعي هو المسيطر في الثانية قبل ان يظهر عليه الذاتي الصوفي ويترقرق أنوارا وشطحات في الفترة الاخيرة ، برغم كل ذلك فان الصوفي كان موجودا وراء القوافي الاولى والثانية وكان الاجتماعي وما يزال هو الشاغل الاول والاخير . وافكار العدواني كانت دوما تتعانق مجدولة معا ، ضفيرة سمراء من المحاور والمشاعر . كل ما في الامر أنها كأنهار الاعماق ظلت مع السنين تحفر أعمق فأعمق في الوجدان . تغزر . تتأصل . توغل .

تنضج ، حتى وصلت ـ او حسبت أنها وصلت ـ الكلي ، وصلت بعض رعشة الوجود !

الى هذه « الايمانية » المركزية الثابتة بالانسان الحر ، أضيفت تغذيها وترفدها لدى العدواني ثلاثة امور هي ميزاته الشعرية ومأساته في وقت واحد :

الاولى : النقاء ، النقاء الكياني الذي تسقط امامه الحجب . العدواني بل : نقي النقاء الأصيل المرعب . إنه مزروع في صميم الواقع الموبوء بكل الفساد وبكل الدمار ومع ذلك فقد استطاع الاحتفاظ بكل نقائه . البدوي الذي يعيش في اضلاعه ما يزال على صفائه الصحراوي وامتداد الكثبان اللانهائية أمام جفنيه .

الثانية : الشفافية في الرؤية . الحياة كتاب مفتوح عنده يحفظ كل حرف فيه وكل فاصلة . الوجود امام عينيه ، كرة البلور أمام الساحر يرى فيها ما لا يرى الناس ، يرى فيها الواحد والكل . يرى كل شيء وانت تحسب ان ليس فيها شيء !

وادير وجهي والوجود صحائف
شتى فأشهد وحدة الاسفار .

وبالرغم من انه يقف احيانا على هاوية العدم فانه يظل يحتفظ بالجرأة على النظر في اعماق الهاوية كما لو كانت هي نفسها اعماق الوجود .

اصيخ الى العناصر وهي تغلي
مراجلها ، اصاخة من تأله !

الثالثة : الصدق في المعاناة الصدق حتى التصوف ، انه يحلم بجنة عدن بينما قلبه جمرة في الجحيم و « أضالعه ضيف على الجزار » « يبكي بدموع الصمت » لأن في أعماقه الشمس يبني أشرعة ويطلقها في مستنقع الجمود . يضرب الارض بعنف يبحث عن الماء ـ الحياة . ينفخ في النار لعل القواقع تحترق . يغرس قدميه في الثرى وينادي الصلصال الهامد في صراخ يبلغ حد الرعب لأنه هو نفسه مرعوب حتى العظم ...

التصاقه بالأرض العربية

والعدواني لا يستعير التجربة من احد (. شعره هو تجربته الحميمة التي يعيش . حتى الرموز الاسطورية ، عكاكيز الشعراء ، لا تمر عنده . وحتى رموز التاريخ العربي المألوفة تغيب . انك لا تجد لديه تلك الغنائية التاريخية التي اهترأت . لا تجد ضرب الطبول للامجاد والاوائل . انه لا يستدعيهم لمعونة . حتى أسماء طارق وحطين واليرموك غائبة عنه . لعله يراها قد تحجرت في قوالبها التقليدية السكونية فلم تعد تستطيع احتواء رؤاه . ولكنك تعرف التصاقه بالارض العربية . بل البدوية من عودته الى ينابيعها الاولى . ومن الرموز المباشرة التي يستدعي ويلتقط : ان الجمل والصحراء والكلب والبدوي والنخلة والمعزى ، الطلل ، الرسم الدارس ، الخيمة ، الحمار ، الراعي ، القطيع ، الرحيل ... هي بعض مفرداته ورموزه الحاضرة بدلاً من تلك الرموز الخالدة . انه حين يريد أن يصمد يبعث « رسالة الى جمل » يقول :

إياك يا صديقي يا جمل
إياك ان تيأس او تلين
إياك ان تكون مثل آخرين
أدمغة قد نزعت مخاخها
محشوة بالرمم الملفقة
تفوح من انفاسها رائحة
تعرفها المزابل المحترقة
إياك يا صديقي يا جمل .
ان تفقد الامل !!...

و « النخلة » هي « عمتنا النخلة » وهذه الجماعة التي تلتهم النعم هي « معزتنا العجفاء » « روح الجراد في ضميرها المسعور » ومع ذلك « تلعب بالبستان مثلما تشاء » .

من هذا النسيج العمقي ، فكرة وروافد ، تنبع المواقف الفكرية لدى العدواني .

وهي بدورها ثالوث من المحاور متصل بعضه ببعض ومتكامل بعضه مع بعض :

(١) الثقة بالحياة وعطائها اللانهائي : وهي ثقة تتراوح بين معانقة الحياة في تجربة وجودية خيامية تدعو للغرق في الآن . وبين منح الحياة كل العشق ونشدان الحياة المثلثة . وبين الاستغاثة والرعب على المصير .. ودون تحليل او ركض حول الكلمات اقرأ معي قوله في (البحيرة الخالدة) :

هي الطير صادرة واردة
عليك بأسرابها الحاشدة
عليك يدور جمال الوجود
ولولاك كان بلا قاعدة
وما نحن الا غثاء الحياة
وانت بحيرتها الخالدة ...
وانظر الى هواه الحياتي :

لي في الحياة هوى تسامى طائرا
متلاطم الصبوات والأوطار
اربي على البركان في هيجانه
واقام خيمته على الاعصار .

واقرأ هذه اللحظات الخيامية :

الآن لا قبل ولا بعد
الآن نهر ماله حد ...
فعش مع الآن كما تشتهي
منطلقا لا حصر ولا عد .
كأسي بكفي ملأى كيف أتركها
واعبر الآن صفر الكف ظمآنا ؟..
تمتع قبل ان تطفي ريح الموت مشعالك
فلا تبقى سوى الحسرة والعبرة والدمعة
تمتع ايها الطائر ما دامت لك المتعة .
ثم اقرأ (من اغاني الرحلة)
رحلت عنكم لكي امارس الحياة
في مغامرات ما لها نهاية
احس فيها نشوة الخطر
رحلت عنكم لكي تكون كل لحظة من عمري
ولادة جديدة .. احل يا سادتي اجل
رحلت عنكم ولم ازل ارحل ...

❊ ❊ ❊

وانظر اخيرا هذه الرسالة القلقة في (خطاب الى سيدنا نوح) :

سفينة النجاة تعيش في مأساة ...
واضطرب السكان في يد الربان
وحار لا رأي له ولا سلطان .
يا نوح ادركنا فليس الا انت بين الانبياء
ساد على الطوفان وعاد بالحياة والاحياء
على سفينة الهدى الى بر الامان
يا سيد الربابنة يا قاهر الطوفان
يا نوح ادركنا
يا نوح ادركنا يا نوح ادركنا

(٢) الايمان بالغد وبانتصار الانسان الحر . هذا الايمان هو نشيد الفرح الداخلي في جنبات الديوان . هو فيه انفاس اذار ونيسان : برعم واعد هنا وزهرة تتحدى الصقيع هناك :

يا غدنا الاخضر .
ازهاره عوالم من نور تغازل البدور
وحتى الموت لا يقهر الغد عند العدواني :

لن يصيب الموت مني غير شكي وارتيابي
سوف ارتد من اللج وان طال غيابي
شعلة تقتحم الافاق في ضوء عجاب ...
فأشاهد الاغراس وهي كريمة
تنمو وتزهر رغم كل حصار
وارى تباشير الصباح منيرة
وقوى الظلام على شفير هار
لا لن احيد عن البذار وان رعت
زرعي الجراد بجيشها الجرار
وكأن نفسي كوكب متألق
يهمي بافراح السنى الثرار

❊ ❊ ❊

وتأمل هذا الاصرار على الامل بالغد رغم ما في الحاضر من بشاعة المرض والدمامل :

ونظل نرصد طالع الامل ..
والليل يأتي بعده فجر كريه ابرص
والفجر يأتي بعده
ليل تخال نجومه مثل الدمامل
قد شوهت وجه السماء
ونظل نرصد طالع الامل ...

واقرأ هذه « الاشارات و « السهادير » والرؤى هنا وهناك . ان الشاعر يبشر تارة بالابتسام :

ابتسمي ابتسمي
ان الذباب شأنه الطنين
مذ خلق الله الذباب ...
ابتسمي اذا تراءت للخفافيش ظلال
تملأ الرحاب ...
وتلعن النور واهل النور في كل كتاب
ابتسمي ان الخفافيش ستختفي غدا
فالفجر بالابواب .....

❊ ❊ ❊

ويبشر تارة اخرى بالثقة بالحياة :

نبع الحياة لم يزل يمد للظماء اسباب السماء
اياك يا صديقي يا جمل ان تفقد الامل !

وتسيطر في الديوان مقولة الصراع بين النور والظلام . هذه المقولة الزارادشتية القديمة لتكون احد رموز الامل عند العدواني فالنور هو المنتصر في النهاية :

تنتظر الظلمة ان يتكر النهار اسمه ورسمه
لكي تكون زوجه وامه

لكنها طبيعة النهار يرش فوق كل دار
قمرا ونجمة

حتى الهواء ، مع الامل المؤمن ، لابد ان يتحول ماء :

اعصر من الهواء ماء
واسق العطاش خمرة السماء
إعصر من الهواء ماء
واغرسه في ترابنا
فالماء ينمو كالنبات
إذا رعته يد حارس ظمآن
يؤمن بالانسان

لهذا يجمع الشاعر يديه في مثل قنوت الرهبان ، وهو واثق من أن جثة العبودية التاريخية أمامه ومن ان الغد قادم بالفرج :

اقتت في سكينة
وكفن التاريخ في يدي :
يحمل جثة العبودية
وموكبي يختال في منازل الغد
بالسيف والحرية !!

(٣) التمرد : وهو احرف الديوان وفواصله . كل تلك المقدمات الفكرية انما تؤدي الى هذه النتيجة ، وتتدفق في اجواء الفجيعة والانقاض والقفر المذعور . لكن تمرد العدواني ليس بالتمرد المطلق . انه تمرد المفجوع بالانسان وليست ثورته بالثورة العبثية ولا المجانية وانما يثور لانه ضد التآكل الروحي ، ضد الزيف ، ضد الظلام والفكر المتحجر والجمود ، ضد العفن الفكري و « الفسق بالحياة » . تمرد العدواني ايجابي كله . إنه انتماء مطلق ... لأنه منتم أعمق الانتماء يتمرد كل التمرد . انه يثور على عالم ليس ينظم طبق رؤاه ، فلا هو يستطيع ان يجعله يدور على ما يشتهي ولا هو يستطيع اجبار ذاته على قبوله :
لذلك يصرخ :

تشعل نفسي ثورة هادرة
كأنها قاع سقر
تجعل للحياة عندي الف غاية وغاية
ما خطرت على بشر .

❋❋❋

وتعذبه ثورته فيخاطب الطلل :

أتيت اليك مغلوبا على امري
بلا اهل ولا اصحاب

وفي صدري رؤوس حراب
تشب النار في صدري
فكن لي ملجأ ارمي به رأسي
وأغفو ساعة عن ثورة تعصف في نفسي
تصب على سوط عذاب

❋❋❋

ويحكي من قصته :

كتبت اسطرا على الورق
ومرت الريح بها .. فاصبحت دخانا
وحينا اشعلت قلبي فاحترق
وجدت اسطري ... تفجرت نيرانا

ثم يخاطب جيله :

يا جيلنا جيل الضياع والصراع والقدر
يا جيلنا الذى كفر بكل امجاد البشر .

يا جلينا جيل الضياع
يحطم الاوثان يفضح الدجل
يا جيلنا جيل الخطر وفي كيانه يعيش أنبياء
كتبهم ثلاثة الارض والسماء والبشر !

ولكن هل يصل تمرد العدواني درجة وضع البديل الثوري ؟ هل يبلغ انتماؤه حد الانتماء للحلم والتخطيط لاعطاء الحلم لحيا « وعينين ولسانا وشفتين » ؟ انه لا يفعل . ليس ها هنا طريق العدواني . ولقد يؤخذ عليه هذا الوقوف عند الطريق المسدود . يؤخذ عليه انه ينتهي الى الهواء والى سقي الرمال أو عناق القلق الكوني .. ينتهي الى ان « يعصر من الهواء ماء » ...

إنه طب ولغة عذاب !

ولكن العدواني ـ فيما احسب ـ لا يكتب شعره لتعليم الثوار :

على الشمس ان تهدي المبصرين
وليس على الشمس ان تبصرا .

انه لا يكتب للثورة . وانما يكتب لتفجير التناقض في الذات ، في الناس ، في الحياة والكون . إنه طب ولغة عذاب وحي فكر . شعره ثورة ضد اللزوجة والالتصاق بالتراب ولهذا يهدم الانصاب ويمارس عنف الرعود ويظل محتفظا برغبته في صياغة الرؤى للغد ... دون ان يصوغها . يريدها فقط ان تكون النقيض . يريدك انت

ان تصوغها من قلب التناقض . لن تجد لديه رؤية انسانية ثورية . انه يصف المستنقع الانساني فقط ولكنه من خلال سياط الوصف يضعك في الشرط الثوري ، يدفعك الى خلقه بنفسك ، من قلب حريتك . يزرعه زرعا في الضلوع . العدواني شعر ينبع من التجاوز ليصب في التجاوز . واذا كان هو الكون وصانعه معا :

واحسب ان هذا الكون ملكي
واني قد صنعت الكون كله .

وكان هو الحاضر والمستقبل معا فان كل همه ان تعيش المعاناة معه : « تسائلني الغريبة عن دياري » :

فقلت لها دياري حيث القي
غريب هوى يبادلني المحبة .

« الآخر » يعيش في ذاته لانه ـ عند نفسه ـ الواحد والكل . مأساته انه لا يستطيع الا ان يكون الكل . ويعاني لانه الكل ويعاني عن الكل .

ألا يا أيها المهجور يا طلل
لقد ضاقت بي الحيل .
انا المكسور والمنصور والمأسور والاسر
انا المهجور والهاجر .

واذا كان يفجر الهاوية بكل مكان وينسف الجذور فيا ذلك ليبقيك وحيدا ، كما انه هو نفسه وحيد ، ولكن لانه يبحث عنك لتقف بجانبه للتحدي الاكبر ، ولتمشي من ذاتك وبقدميك الى الثورة لتصبحا اثنين . انه يريد لصوته ان يكون صوت كل المذبوحين من الوريد الى الوريد . مساحة الورقة التي تتمرغ عليها قوافيه هي بقدر مساحة الانسان العظمى التي تملأ الوجود .. وتطل على ما وراء الوجود .

ديوان العدواني

وبعد ؟ هل احطنا يا ترى بالمنظومة الفكرية للعدواني ؟

حين اعود الى ديوانه أجد ان كثيرا من السمك قد افلت من شباكي . وان التحليل قد حرمني الاخضب والاجمل ، حجب عني ما يمنحه عناق هذه الرؤى والمحاور والسهادير من الابعاد ، حرمني ايقاع النشيد الكلي ، ومرافقته في تموجه بين اليأس والرجاء والرفض والغربة وجراح الرحيل رقي الغرق ، بين هذا وذاك ، في بحران الوجد الالهي .

ان الديوان كله ايمان بالانسان ـ الانسان ، صلاة للانسان الآتي ، للانسان الحر ولكن في صراعه للوصول الى الحقيقة الكبرى وانتقاله من معاناة القلق الانساني الى عناق القلق الكوني ، ان صاحبه يحلم بهذا الانسان ولكنه يحترق كالفراشة الربيعية بهذا الحلم نفسه . في سنة ١٩٤٩ كتب :

تهاوت غـر احلامي
وخلف ضوؤها الدجنا
وكنت اصونها بدمي
والقي دونها الغبنا
تهاوت .. فانقلبت علي
مرير العيش مرتهنا
قد اشتملت على بصري
غواش من هنا وهنا
وأضمر في الحشا لهبا
يهد الروح والبدنا
حياة ارهقت دنفا
بحب النور مفتتنا
سجون كلها وضنى
وحسبك بالسجون ضنى !

***

وكتب اخيرا سنة ١٩٨٠

أحلم اني افق
يحفل بالاقمار
ويصب عبير الانوار
وحجاب الظلمة يحترق
وانا كوكب أفراح تأتلق
وأفيق من الحلم
فوق فراش للألم
نسجته مغازل للظلم
وانداح عليه القلق
٢ ـ أحلم والدنيا تحلم بي
أرفل في ثوب نبي
ثم اثوب الى نفسي
فأراها في غيب الحبس
غمامة تنحل
كالريح لا شكل لها .. ولا ظل ..

هل يريد العدواني يا ترى ان يقول خلال خمس وثلاثين سنة من المعاناة : كنت الحلم . ولم يبق من الحقائق الا الحلم ؟ ■■

د . شاكر مصطفى

لماذا يكثر في بلادنا الغربان ويقتل صداح العنادل ..

أو لم تخلق عيوننا الا للدموع ، وقلوبنا الا للحزن ؟

من الغربان إلى العنادل

بقلم الدكتور حافظ الجمالي

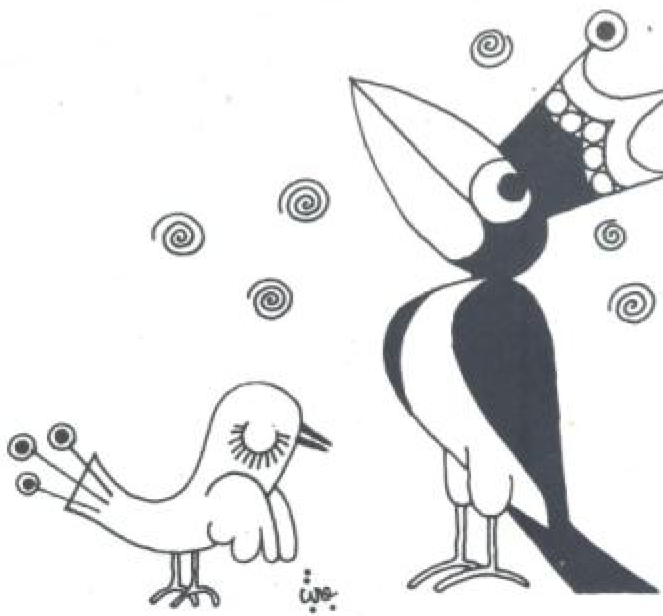
لم اعد اذكر اسم هذا المؤلف الذى نشر كتابا عن تاريخ الجزائر ولكني أذكر اني رأيت عنوان الكتاب ومؤلفه في اعلان في جريدة النهار في أواخر الستينات مع كتب اخرى ، صدرت كلها عن دار الحياة في بيروت . ولما كنت حريصا على معرفة أوثق لتاريخ الجزائر فقد أسرعت بالاتصال بدار النشر ورجوتها ارسال الكتاب الي . وتلقيته بعد ذلك بقليل .

وعندما قرأت هذا الكتاب ، تذكرت « استخارة شعبية » مشهورة في سورية » خلاصتها ان الانسان إذا أراد معرفة طالعه ، أسعد هو أم نحس ، عمد الى القرآن الكريم ، بعد تلاوة لسورة الحمد وفتح القرآن كيفما اتفق ليقع بطبيعة الحال على صفحة ما ، يعد بدءا منها سبع صفحات ويقف على الصفحة الاخيرة ، ليعد سبع آيات من بدايتها وينظر في أول آية بعدها ، فاذا وجد في الآية ما يشير الى الخير ظن انه مقبل عليه ، وإذا وجد ما يشير الى الشر حسب كذلك انه مقبل عليه . وهذا ما كنا نفعله ، انا ورفاقي الطلاب ، لدى كل امتحان ، قبل الاعلان عن نتائجه .

ولقد تذكرت : الاستخارة الشعبية ، لابسطها قليلا واتساءل : ماذا يمكن ان تقع عيني عليه ، لدى فتح اية صفحة من صفحات هذا الكتاب (تاريخ الجزائر) ؟ ولاحظت بعد تكرار العملية ان عيني لا تقع الا على ثورة ، او انتفاضة ، اوحرب ، او صراع دام ، او قتل احد الولاة ، واستقلال هذا بولايته عن السلطة التي عينته ، او مايشبه ذلك من الحوادث التي تجعل القلب ينقبض ، والحزن يخيم على النفوس .

وتساءلت : هل ان كتاب التاريخ العربي مغرمون بالمآسي فلا تكتب اقلامهم غيرها ، أو أن تاريخنا نفسه كان مليئا بها ، موضوعيا ، فلا غرابة أن يتحدث عنها المؤرخون ؟ ولما كنت اعرف تاريخ المشرق العربي بدقة مناسبة ، وكان « تاريخ الجزائر » تاريخا للمغرب كله ، لا للجزائر وحدها التي لم توجد ، لا هي ولا غيرها ، كدولة ذات حدود دقيقة ، بل ذات حدود متموجة تبعا لكبر او صغر الدولة التي تقوم في بعض ارجائها ، او بعض ارجاء الاقاليم المجاورة ، فقد بدا لى أن صورة التاريخ العربي في المشرق وصورته في المغرب واحدة ، وبصورة عامة يمكن القول أن احزان هذا التاريخ اكثر من افراحه ، وإذا استعرض الانسان تاريخنا في الاندلس لم يجد أمامه الا صورة مماثلة ، بحيث يمكن القول : انه كان للامة العربية دوما تاريخ واحد متشابه فيه المناظر والمشاهد ولو اختلف الممثلون .

ولكن هل هذا الحكم موضوعي او هو مجرد انطباع المتشائم بالفطرة ؟ وبطبيعة الحال فانني خفت من الاثر الذاتي في هذا الحكم ، وسألت الاخرين ، ممن اعرف انهم شديدو الاطلاع على التاريخ العربي .



وصحيح ان اتفاق الكثيرين على رأي واحد في امر ما يغري الانسان بالاعتقاد ان هذا الرأي موضوعي او اقرب الى الموضوعية ، منه الى الذاتية . الا انني مع ذلك كنت حريصا على حكم ادق موضوعية وقلت لابد أن تكون النتائج دليلا على سلامة هذا الرأي او خطئه . فلو أن العرب احتفظوا باستقلالهم وظلت دولهم قوية ولم يصبهم لا الانهيار السياسي ، ولا الانحطاط التاريخي اذن لما كان للمآسي التي يكثر من ذكرها تاريخيا الا قيمة نسبية ، لكن عندما ارى ان الامر انتهى بالقضاء على الحكم العربي في الاندلس ، وتجزأت الدولة العربية في باقي الاقطار ، وفقدت هي الاخرى استقلالها ، ولم يحكمها منذ اكثر من الف سنة الا الغرباء عنها ، مع ما واكب ذلك من انهيار حضاري ، او تخلف علمي وتبدد للقيم ، فلا ريب أنه يجب أنه تكون احزان التاريخ اكثر من افراحه ، بالضرورة .

واقع تباعا على ثلاثة كتب متباينة : اولها للبديري الحلاق بعنوان : حوادث دمشق اليومية ما بين عامي ١٧٤١ ـ ١٧٦٢ ، وقد اشتهر أمر هذا الكتاب لان مؤلفه مجرد حلاق ، بسيط ضئيل الثقافة ، ولم يكن يريد له ان يكون كتابا ، بل كل ما أراده هو تسجيل ما يقع من حوادث هامة في دمشق في ايامه هو . اما الكتاب الثاني فهو للدكتور عبد الكريم رافق ، استاذ التاريخ في جامعة دمشق ، وعنوانه بلاد الشام من الفتح العثماني الى حملة بونابرت (١٥١٦ ـ ١٧٩٨) . واما الثالث فانه للدكتورة امينة البيطار بعنوان « الحياة السياسية ، واهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (من عام ١٣٢ / ٧٥٠ الى عام ٣٥٨ / ٩٦٨) وبطبيعة الحال فاني اغض النظر عن العهود التاريخية الاخرى ، الاكثر شؤما كحرب الصليبيين او هجمات المغول .

أريد الآن أن اقوم بما يشبه الاستخارة التي تحدثت عنها في البداية ، وافتح كل كتاب فتحا عشوائيا واسجل ابرز حادثة ترد على الصفحة المفتوحة ، وانقل هنا ما وقعت عليه عيني ، بالامانة المطلوبة .

اما في الكتاب الاول (حوات دمشق اليومية) فاجد في الصفحة ٧٥ ، ما يلي باختصار .

« في نهار الأحد بعد العصر خامس عشر جمادى الثانية من هذه السنة ضربت مدافع فسألت الناس عن الخبر فقيل أن سعد الدين باشا العظم اخا اسعد باشا ، جاءته رتبه وزارة ، وجاءه طوق [1] فهرعت اكابر الشام لاجل (تهنئته) اخاه (كذا) ، اسعد باشا ، وكان اسبقهم الى الباشا فتحي افندى دفتر دار الشام فلما رآه الباشا قام ودخل لدهليز الخزنة ، فتبعه وجلس عنده فاخرج اسعد باشا صورة عرض وأراه إياه ، فأخذه فتحي افندى وقرأه ، وإذا فيه الأمر بقتله وقال له الباشا : ما تقول في هذا ؟ فقال سمعا وطاعة ، لكن انا في جيرتك ، فخذ من المال ماأردت واطلقني ، فقال له الباشا : ويلك ياخائن ، انا لم انس ما فعلت في نساء عمي ، ثم أمر برفع رشاشه وقطع رأسه ، فوضع في رقبته حبل وسحب

١ ـ الطوق جزء من شعر الحصان ، يرفع على الراية للتكريم .

الى خارج السرايا ، وقطع رأسه . وطيف جثته في شوارع الشام ثلاثة ايام . وامر الباشا بالاحاطة على داره وعلى ماله والقبض على أعوانه ... وقتل بعضهم وبعض خدمه ثم ضبط الوزير تركته واموال اتباعه جميعا للدولة ... »

ومن المعروف ان الباشا اسعد العظم قد خنق هو بدوره في الحمام بأمر مشابه لهذا الامر .

٢ ـ واقع في كتاب الدكتورة امينة البيطار على الصفحة ٢٧٣ ، وأجد فيها ما يلي :

« تسلم الطولونيون امراء مصر والشام حماية الثغور ، حين بدا ضعف حماة الثغور وعجزهم عن الوقوف امام البيزنطيين فقد رأى الخليفة المعتمد ان جميع الممتلكات في قيليقيلة اصبحت مهددة بالخطر البيزنطي ، بعد ضياع قلعة لؤلؤة . وقلاع اخرى لا تقل عنها اهمية .

.. فاناب احمد بن طولون « طخشي بن بيرد » في امر الثغور وكلفه القيام باصلاح شؤونها فقدم خدمات جليلة لأهالي الثغور ووقف وقفة مشرفة في وجه البيزنطيين ، ووجه اليهم ضربات مركزة فبعث الامبراطور البيزنطي بطلب الهدنة .

الا ان ابن طولون رفض ذلك ، لأنه أدرك إن البيزنطيين إنما طلبوا الهدنة لكثرة ما أصابهم من مهاجمي الثغور ، وما نتج عن ذلك من تخريب القلاع والحصون وان الموافقة على الصلح فيها راحة للبيزنطيين وأمر ثانيه برم الثغور ، ودفع أرزاق الغزاة ، والاستمرار في غزو البيزنطيين ولكن الخلاف بينه وبين الموفق دعاه فيما بعد الى عقد الهدنة » .

٣ ـ اما في الكتاب الثالث كتاب الدكتور عبد الكريم رافق فاني أقع على الصفحة ٢٢٩ واقرأ فيها ما يلي : ـ

« وقد حكم دمشق والى الشام نصوح باشا بين ١١٢٠هـ و ١١٢٦ ... وكان نصوح باشا أول ولاة الشام في القرن الثامن عشر الذين حكموا لفترة طويلة نسبيا وهذا أمر لم تشهده الولاية في القرن السابع عشر . وكان ذلك بسبب حسن إدارته ، وتأمينه سلامة الحجاج .

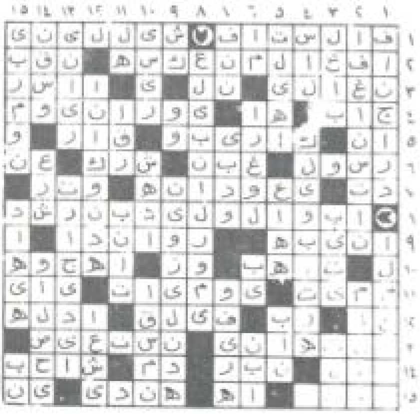
وقد حكم دمشق ، بعد نصوح باشا ، ولاة شغلوا مناصبهم لفترة اطول . وذلك بسبب تأمينهم سلامة الحاج ، ولأسباب أخرى خاصة بهم سنعالجها في حينه . والجدير بالملاحظة ان السلطان اوعز بقتل نصوح باشا . وقد تم ذلك في سنة ١١٢٦ / ١٧١٤ ـ ١٧١٥ ، رغم تأمينه سلامة الحاج ويفسر قتل نصوح باشا بخوف السلطان من ازدياد قوته ، وسنرى امثلة اخرى . في الفترات التالية من مصير مماثل لولاة مشهورين امنوا سلامة الحاج . ولكنهم قتلوا لأسباب متعددة . وابرز مثال على ذلك هو اسعد باشا العظم . »

وطبيعي إن هذه الأمثلة جاءت بصورة عشوائية ، وبالتالي فانها ليست الأهم بالضرورة ولا اكثر مأساوية ، وفي وسع من يطالع كتب التاريخ العربي أن يكرر نفس التجربة ليجد انها تطل على حوادث لا حصر لها من هذا النوع الفاجع او أقل بقليل . أو أكثر بكثير . والأخيرة الاكثر ايلاما ، هي التي يجدها المطالع ، ببروز خاص ، وبعدد اكثر بكثير من مناسبة .

ومع ذلك فان الذي يخطر بالبال هو أن شأن التاريخ أن يقف على الحوادث البارزة ، او الطافية على السطح . او المتعلقة بالأمراء ، والسلاطين ، والخلفاء ، ويغض النظر عن الحوادث اليومية ، والانتاج الاقتصادي ، وما يصيبه من تقدم او تأخر ، ولعله لو انتبه الى هذا ، وما فيه من وجود الخير ، اذن لهانت عليه الحوادث الفاجعة التي يركز عليها التاريخ ، وهنا اذكر انني قطعت الطريق من دمشق الى السويداء (زهاء ١٠٠ كم) فلم اجد الا أربع قرى في الطريق ، وتساءلت : اهذه القرى ، بنات الماضي الطويل ، ترى كم يحتاج الناس من الجهد والمال لبنائها ؟ ورأيت او قدرت ان جهود مئة عامل لمدة سنة واحدة ، وبأبسط الموارد كافية لبناء مثلها ، ولكي اكون اوضح في مثالي هذا اقول ان جيلا واحدا في سورية (عاش بين ١٩٤٥ ـ ١٩٨٠) كان كافيا بماله القليل ، وجهده غير المنسق ، لبناء دمشق جديدة ليست اكبر من دمشق القديمة فحسب بل هي اجمل بكثير (على بشاعتها من كل ما خلفه الماضي ، الا قليلا . افيمكن ان تكون جهود الماضي الذي دام عشرات القرون كبيرة جدا حين تتجاوزها جهود جيل واحد ، صغير وفقير نسبيا ؟

ومن جهة أخرى يكفي أن يتذكر احدنا ما جرى في ايامه من الحوادث الداخلية والخارجية ويغض النظر عن الداخل ليقف على الخارج وحده ، ترى أيمكن الا يذكر أربعة حروب مع اسرائيل اقربها الى النصر وابعدها عن الهزيمة (اى الحرب الرابعة) هي الاسوأ من حيث النتائج والاكثر إذلالا للامة العربية ؟ وطبعا لا نذكر هنا الحرب العراقية الايرانية .

والخلاصة اني أسمع أن في الدنيا غربانا تنعق ، وعنادل تصدح ، فما لبلادنا يكثر فيها نعيق الغربان ، ويقتل صداح العنادل ؟ اولم تخلق عيوننا الا للدموع ، وقلوبنا الا للحزن ؟ ■■



أفقياً :

ابوالوليد بن رشد

رأسياً :

على بن الرومى

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : أبو الوليد بن رشد . ولد في قرطبة عام ١١٢٦ ، درس الكلام والفقه والشعر والطب والرياضيات والفلك والفلسفة . عمل طبيبا وقاضيا . دافع عن الفلسفة في كتابه « تهافت التهافت » .

(٨) رأسيا : علي بن الرومي . من أعظم شعراء الدولة العباسية . كان شعره غريبا على أهل زمانه . كان متشائما . تغنى بجمال الطبيعة .

الفائزون بالجوائز

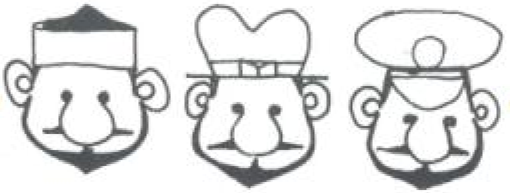
● الجائزة الأولى قيمتها ٣٠ دينارا فازت بها : قدرية عطية ندا ـ القاهرة / مصر .

● الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : أبو الحسن مصطفى سيد أحمد ـ الخرطوم / السودان .

● الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : خليل حسن فخر الدين ـ بيروت / لبنان .

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

١ ـ ثاني حيدر سليم ـ عمان / الأردن .
٢ ـ حركاوي قدور ـ بني هلال / المغرب .
٣ ـ نوال يعقوب الغانم ـ الكويت .
٤ ـ محمد عبده عبد الرزاق ـ عدن / اليمن الديموقراطي .
٥ ـ محمد سامر ربيع ـ حلب / سوريا .
٦ ـ عبد الباسط علي صالح عبد الله ـ الحديدة/اليمن الشمالي .
٧ ـ حسن إبراهيم عباس ـ الزلفي / السعودية .
٨ ـ محمد بلعيد البجادي ـ ماطر / تونس .



لباس الرأس

بقلم : محمد كرد علي

اذا الف الانسان عادة وتأصلت فيه تصبح لديه في حكم الاعمال المقدسة فيعد الاستماتة في الدفاع عنها من الباقيات الصالحات والاستهانة بشأنها من السيئات المرديات .. والناظر في الاديان السماوية الشائعة لا يعثر في تضاعيف اسفارها على ما يحتم عليه ان يمسك به من العادات اللهم الا ما كان له علاقة بالاخلاق والاداب اذ الديانات ما جاءت الا لتدعو الى معرفة الصانع المبدع وتكف من تعادي البشر وتردعهم عن سبل الغواية وتطهر نفوسهم واعدة بمعاد ثان كل من اصلح اعمال قلبه وتقرب بأنواع الزلفى من ربه . وما ظهرت الاديان كما وهم الواهمون لتعريف العلوم وتحديد الصناعات وما يحتاجه الناس في هذه الحياة الدنيا .

ولقد لغط بعضهم هذه الاونة في مصر والشام بفتوى استصدرها احد سكان الترنسفال في الرخصة بلبس المسلمين القبعة مجاراة لمواطنيهم من الافرنج وتفاديا من ان ينالهم اذى اذا ظلوا محتفظين بشعار راسهم حتى كاد يوقن من لا يعرف الاسلام ان لبس القبعات من الطامات وان ما تواطأ اهل هذا العصر على ستر رؤوسهم به من الصوف او الفرو او القش او الحرير او القطن على اختلاف اشكاله هو عماد الدين واس اساس اليقين . على ان الامر اقل مما توهموه واكبروه يناقضه ما ورد في الحديث الصحيح من ان الشارع الاعظم قال كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير اسراف ولا مخيلة . وقال ابن عباس كل ماشئت والبس ما شئت ما خطئتك اثنتان سرف او مخيله .

وقد ثبت انه عليه الصلاة والسلام لبس الجبة واكتسى الطيلسان ، وكذلك الصحابة لم يتحرجوا من لبس اهل البلاد التي افتتحوها . وصح ان الناس نساء ورجالا لبسوا البرانس اول الفتح من غير نكير وقد سئل مالك عن البرنس وكان من لباس الرهبان فقال لا بأس به قيل له فانه من لبوس النصارى قال كان يلبس ههنا . وقال عبد الله بن ابي بكر ما كان احد من القراء الا له برنس رواه بن حجر . وجاء في سفر السعادة للفيروزابادى انه صلى الله عليه وسلم لبس السراويل ولبس العمامة بغير قلنسوة ومع القلنسوة والقلنسوة بغير العمامة وكان يجعل العذبة بين كتفيه في اكثر الاحوال . قال وكان يلبس الثوب المعلم والثوب الساذج والثوب الاسود والفرو المعلم على اطرافه بالسندس وكان له جبة خسروانية مفرجة عليها سجف من الديباج مخيطة واما الطيلسان فانه كان يلبسه حال الحر كما في اليوم الذى امر فيه بالهجرة فانه جاء في نصف النهار الى بيت ابي بكر وهو مطيلس واما حديث انس كان يكثر القناع يعني يلبس الطيلسان كثيرا فحمله بعضهم على اوقات الضرورة وفي السفر .

ويروى ان ابا يوسف من اصحاب ابي حنيفة ارتأى تخصيص العلماء بزي خاص في الملبس ليعرفوا فيطاعوا وتكون كلمتهم العليا اينما حلوا فتابعه على هذا الرأى بعضهم وأراد ان يبرر هذا التجوز ويجعل له مأخذا من الدين . قال محمد صديق حسن خان في حسن الاسوة في تفسير قوله تعالى « يا ايها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين » : واستنبط

بعض اهل العلم من هذه الآية ان ما يفعلة علماء هذا الزمان في ملابسهم من سعة الاكمام والعمة ولبس الطيلسان حسن وان لم يفعله السلف لان فيه تمييزا لهم وبذلك يعرفون فيلتفت الى فتاواهم . قال السبكي ومنه يعلم ان تمييز الاشراف بعلامة امر مشروع ايضا انتهى . واقول ما ابرد هذا الاستنباط وما ابعده وما اقل نفعه وجدواه لاسيا بعد ما ورد في السنة المطهره من النهي عن الاسراف في اللباس واطالته وقد منع من ذلك سلف الامة وائمتها فاين هذا من ذاك وانما هو بدعه قبيحة شنيعة مردودة على صاحبها احدثها علماء السوء ومشايخ الدنيا ومن هنا قال علي القاري في معرض الذم لاهل مكه لهم عمائم كالابراج وكمائم كالاخراج . وما ذكره من ان زي العلماء والاشراف في هذا الزمان سنة رده ابن الحاج في المدخل بانه مخالف لزيهم في زمن النبي وزمن الخلفاء الراشدين وبعدهم من خير القرون فان قيل انهم به يعرفون قيل انهم لو بقوا على الزي الاول لعرفوا به ايضا لمخالفته لما عليه غيرهم الآن اهـ .

وليس لدينا الآن من مستند اكيد ينبئنا بتبدل اللباس حينا بعد آخر الا بقايا مما تضد في المتاحف العامة من تماثيل الناس وعرض من ازيائهم على اختلاف العصور والاقطار . قال احدهم اذا اردت أن تعرف العالم فانظر الى بيتك وعلى من احب الوقوف على ازياء أمة ان ينظر الى حالتها الحاضرة ويقيس الحاضر بالغابر فالتاريخ يعيد نفسه وما اشبه الليلة بالبارحة وانك لترى المغربي اليوم يلبس من الثياب ما لاعهد للمصري به ولهذا من الازياء الخاصة ما يباين لباس العراقي والشامي . وللفارسي والطاغستاني ازياء يختلف بعضها عن بعض على قرب الجوار وكذلك البلوجستاني والافغاني والصيني والهندي والبخاري والجاوي والياباني والزنجباري والسوداني والصومالي فلكل من هؤلاء الاجناس زي خاص برؤوسهم وابدانهم فمن برنس الى عمامة خضراء اوبيضاء الى طربوش اسود او احمر الى عقال وكوفية الى لبادة وقبعة قش او صوف الى قلنسوة وعرقية وكلها تدور على وقاية الرأس من لافح الحر ونافخ البرد .

وبعد فان تغير العادات من شاق الاعمال لا يعمل فيها الا الأسوة والقدوة وحب التقليد والزينة فلا تؤثر فيها القوانين الدينية ان وجدت ولا المدنية ان وضعت . قال مونتسكيو في كتابه روح الشرائع اذا اراد الحاكم تغيير عادات امة وطباعها يجب ان يكون ذلك باستبدالها بغيرها لا بقوة القوانين لان القوانين من وضع الحاكم وخاصة به اما الاخلاق والعادات فهي من وضع الامة عامة . وضع بطرس الاكبر احد اعاظم قياصرة الروس قانونا قضى به على امته ان يحلقوا لحاهم ويلبسوا ثيابا قصيرة كالاوروبيين فاقام الجند تكمن في الطرق لتقبض على من خالف هذه الاوامر وتقصر الثياب الطويلة الى قبيل الركبه . قال مونتسكيو وتلك طريقة مجحفة لانه لم يكن من حاجة لهذا الملك ان يضع قانونا توصلا الى هذا التغيير بل كان يتأتى له الاكتفاء بفعله هو بنفسه ليتخذه الناس مثالا .

وقال بنتام الانكليزي في اصول الشرائع وغرض بطرس الاكبر من هذا الامر اما ان يكون ارضاء لهواه الخاص لاستقباحه لباس امته القديم واستحسانه لباس الاوربيين واما ان يكون قصد الى تهذيبهم وجعل اخلاقهم وطباعهم على مثال الاخلاق الاوربية التي كان يعتقد انها احسن طريق توصلهم الى السعادة فرأى ان التشبه في الأخلاق يلزم ان يتقدمه التشبه في اللباس ليتجانس الفكر بين الاثنين .

وجملة القول فان اللباس ذوقي حاجي تعمل في تغييره السادات والعادات لا الشرائع والنظامات . والجهاد يغلب فيه الاقوياء ويجبن الضعفاء . وما ابعد ان من قدروا ان يصرّفوا على المشرق ضروبا من مذهبهم وملابسهم ومطاعمهم ومشاربهم يتسنى لهم يوما ان يصبغوا العالم كله بصبغتهم في كل حال من احواله ليساووهم حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل او يأتي على الجامدين تيار مدنية الغرب فيجعلهم صرعى كأعجاز نخل خاوية .

محمد كرد علي

١ ـ المقتطف مارس سنة ١٩٠٤

قضايا حيوية

أذن تبصر وعين تسمع

بقلم الدكتور اسحق عبيد

كلية الاداب جامعة عين شمس

نشأت الحروف الأبجدية للكتابة عند الفراعين فتلقفها عنهم الفينيقيون ثم الاغريق ، الذين نقلوها بدورهم الى الغرب الأوربي . على أن حروف الكتابة خلال هذه الرحلة الطويلة من الاف السنين قد فقدت خاصيتين أساسيتين : الأولى هى الدلالة الصوتية والثانية هى الدلالة الصورية .

ولعل القصة الاسطورية عن دخول الكتابة الى بلاد اليونان تشير الى ما نقصده : فيروى عن الملك كادموس أنه نجح فى خلع أنياب « التنين » وألقى بها على الأرض ، فإذ بجذور الأضراس تضرب في عمق التربة ، فيشتد عودها وتقوم على شكل عمالقة مردة تحمل انصالا من السلاح . والمردة هنا اشارة الى الحروف الهجائية الهيروغليفية قبل أن تفقد صفاتها الصورية والصوتية .

والأبجدية التى نعرفها بشكلها الحالى هى أبعد ما تكون عن « المردة » القدامى ، فهى فى أحسن أحوالها مجرد اشارات هزيلة وقد جردت من مضمونها البكر الذى كان ينطق بما أراد الناطق أن يعبر عنه تماما . ويبدو أن الكلمة ، أية كلمة ، كما لاحظ العالم كاروثرز (Carothers) سنة ١٩٥٥ ، عندما تنتقل من عالم « المسموع » الى دنيا « المرئيات » ، اى عند كتابتها ، تفقد حرارة التواصل بين المرسل والمرسل اليه ، فالمرء عندما يقرأ ، يتعامل بالضرورة مع حروف صماء فرغت من صفاتها الذاتية ومن عنصر « المباشرة » . كما وأن الكاتب عندما « تصف كلماته على سطور رتيبة خالية من حرارة الحركة والدلالة ، يفوت على القارىء وقع الكلمة الحية ساعة مولدها الباكر . ناهيك عن أن كل قارئ يتقبل « الرسالة » وفق هواه .

ولعله من الملفت للانتباه (ولا نقول « للنظر ») ، أن المعلم الأكبر سقراط كان يعتمد على فعل الكلمة المسموعة فى حواره مع تلاميذه في شروح فلسفته . كذلك نهج السيد المسيح فى تعاليمه مع حوارييه ومع الجموع ، ولم يخلف أى منها سطرا واحدا مكتوبا . ويعلل واحد من عمد اللاهوت في العصور الوسطى وهو توما الأكوينى (Summa Theologia) هذا الموقف بأن « فاعلية التوصيل لا تتأتى بالكلمات المسطورة بنفس القدر الذى تؤتيه اللفظة المنطوقة المفعمة بحرارة الشاعر ، والتي تنفذ من الأذن الى الوجدان فيرحب بها العقل . »

ولعل حدس الموسيقار الشهير كارل أورف هو الذى أوحى اليه أن يشترط على من يلتحق بمدرسته الموسيقية ألا يكون قد تعلم قواعد الكتابة ، ايمانا منه بأن طغيان العين خليق بأن يسىء الى الحس المرهف والذوق جميعا .

ولأفلاطون رأى ساقه في ذلك الحوار الذى داربين ثاموس وثيوس :

« ... عندما وصل الحوار الى حروف الكتابة ، قال ثيوس : « انه ليبدو الى أن معرفة الفراعين بحروف الكتابة قد زادتهم حكمة على حكمة دون غيرهم من شعوب العالم ، لان الكتابة » كفيلة بأن تثرى ذاكرتهم وأن تشحذ بديهتهم .. فيرد عليه ثاموس قائلا : « لعلك تدرك ، أى ثيوس العاقل ، أن مخترع حيلة ما ليس هو بالضرورة خير من يحكم على جدواها ، هذه واحدة .. ثم أنظر الى نفسك ثانية ، فها أنت مذ قد عرفتك وأنت حريص الحرص كله على التسجيل والكتابة ، فظنا منك أن الكلمة المكتوبة سوف تضمن لتلاميذك المعرفة جملة وتفصيلا .. ولكن ألست تحس معى أن المكتوب قد يفضى الى عكس قصدك تماما .. هل فكرت فى أن التلاميذ قد يركنون على هذه الأوراق فيتواكلون ، لأن الكتب تعين على التذكير فحسب ، ولكنها ليست بحال معينة على تحريك الذاكرة والذهن .. ان حروف الكتابة خطوط صماء وهيهات بينها وبين الكلمة الرنانة من فم صاحبها يا صاح ! .. « ان التلاميذ وقد أثقلوا على كواهلهم بأكداس الأوراق سوف يتهادون فى طرقات أثينا ، وهم يرتدون مسوح الحكمة ، وان كانوا فى الحقيقة عنها جد بعيدين »

لقد ذكرتنى هذه الرواية بذلك « الحمار الذى يحمل الأسفار » .

لو أننا دققنا فى أعماق المجتمعات « البكر » (أو البدائية كما يحلو للمتحذلقين أن يصفوها) ، لوجدنا أن الفاعلية فى التواصل تقوم على الكلمة المسموعة ، حتى ان التجسس فى هذه المجتمعات يتم بالتسمع أو التصنت لدرجة أن البعض وصف هذه المجتمعات بأنها لاتزال « تعيش على أذانها » .

والحق أنه منذ اختراع الكتابة والطباعة ، باتت المدنية غارقة فى بحور من الأحبار والأوراق . ولعل أشد ما يؤخذ على هذه الاسفار المكتوبة أنها روضت الانسان « المتحضر » ، بل قل استأنسته حتى أمسى الناس عبيدا لما يقرأون ، وذلك بفعل « رق الكلمة المكتوبة » ونجم عن هذا أن تشنجت جماعات برمتها على « التراث » بغض الاعتبار عن قيمة ذلك التراث الحقة . كما وأن هذه الفلسفة الكتابية « المدرسية » (Scholasticism) لقد أفرزت انسانا مدربا على ماتلقى به الطباعة والاعلام عليه من الغث والمزيف والرذيل والقبيح والداعر والدعائى والعدائى والضحل ، والسخيف والكاذب . وقد يقول قائل : إنه فى مقدور الانسان الواعى أن يرفض الكثير مما يقرأه . على أننا يجب أن نأخذ فى الاعتبار حجم الوعى عند الانسان « المروض » الحديث ، وعند المراهقين والمراهقات ، والسذج والساذجات على سطح المسكونة التى نحيا عليها ... وما أكثر هؤلاء وأولاء ! !

ان انسان الحضارات « البكر » لا يتقبل وضعا مهينا كذلك الذى ألفه الانسان « المتمدين » . ففى تجربة أجريت على عينة من مجتمع افريقى ، عرض عليهم فيها شريط سينمائى ، وما أن أخذ بطل القصة فى الغناء حتى انطلقت حناجر أفراد تلك الجماعة تشارك المغنى فى غناء بطريقة عفوية . وتلكم هى طبيعة الأمور عند الانسان « غير المستأنس » فهو لايتصور ذلك الفصل التعسفى بين ذاته والموضوع الذى يتعامل معه .

يقول كلود ليفى شتراوس فى كتابه « النىء والمطبوخ والعفن » اننا كلما فتشنا فى أعماق المجتمعات البكر وجدنا احساسا واعيا بكل مناحى الطبيعة والحياة ، فى العقيدة وفى الفن وفى السياسة وفى النظم الاجتماعية . وهذه المجتمعات لم تعرف الكتابة بعد ولانظنها محتاجة اليها .

لقد تجبرت ماكينة الطباعة ، وطغى القلم ، واسترخى أدم فى قفصه « الحضارى » ، حبيس الكلمة المكتوبة ، متلهفا عليها كأنها المخدر الذى يهدىء أعصابه مع فجر كل صباح . وما لبثت حواء أن وقعت فى نفس الشرك ، فخدعوها بخطوط الموضة وبأقلام « الروج » و« رميل العين » وبكل تزيين يخدع البصر ، حتى أن « عروس » اليوم تبدو مسخة من طلاء المساحيق الزائفة ، التى تجعلها شبيهة جدا بتلك « العروس الميكانيكية » الدمية (Mechanibcel bnde) التى يتلهى بها الصبية الصغار .

تعامل غير متوازن

بقلم : ابراهيم السهان

لشد ما يحزنني ويفزعني في أن واحد لهو بعض مجتمعاتنا وسطحيتها في تعاملها مع ادوات التكنولوجيا واشكالها المختلفة . فالتعامل فيها من طرف واحد : يستقبل دون ان يرسل ويقلد دون ان يبتكر .. ويستهلك دون ان يصنع ، هو تعامل غير متوازن ..

والانسان يعيش اليوم عملية سباق رهيب بين الجهل والعلم .. والتخلف والتقدم .. وهي عملية قفز سريع هدفه العلم . وهو قفز لايكون في فراغ لانه ليس قفزا في الهواء .. وانما هو قفز اداته العلم بأدق جزيئاته وتفاصيله : وعيا وحذقا لفلسفته وليس نقلا وتقليدا اعمى .

وانا اريد الانسان سيدا للتكنولوجيا لاعبدا لها .. يتحكم هو فيها ولايستسلم لها .. اريده انسانا يحلق في سماء الانسان على اجنحة من الايمان .. والخير .. والحب .. والجمال ..

اريده انسانا يستلهم ، عقلا وروحا ، المثل والقيم العليا ، ويستهدف سعادة الناس ، فتغدو التكنولوجيا ، في يده ، اداة بناء وعمران ، لا أداة هدم وتدمير .. في عالم اتخذ من التكنولوجيا فلسفة حياة ..

ترتبط كلمة تكنولوجيا في أذهان الناس بالادوات والآلات المتطورة الحديثة التي يبتكرها الانسان . وهي كما يقول الدكتور زكي نجيب محمود امتداد لبعض اجزاء جسمه . فالجسم البشري فيه تقنية ، اي ان فيه أجهزة معينة وليست كافية ، فجسم الانسان فيه بصر لكن البصر الانساني محدود ، فمده بأي اداة يستطيع ان يصل اليها بالعلم من ميكروسكوب الى تلسكوب وغير

ولقد نتج عن تلك الفلسفة التي تحكمها « شهوة العين » سواء بالكلمة المكتوبة أو بالصورة أن تراخت بقية الحواس الآدمية الفطرية ، وأصبح من السهل خداع الكثيرين . ولعل أسوأ ماقد ترتب على ذلك أن تسرب « سوس » المظهرية والرياء الكاذبين الى عظام الانسان « العصري » وضميره ، وتجمض عن هذا وذلك قاموس قميء من « الاكلشيهات » من قبيل « التجانس » ، والاتساق ، و « الاحترام المتبادل » ، الى آخره من المصطلحات الجوفاء والمدرسية التي لانجد لها ترجمة في سلوك الناس ، اللهم الا في تلك القشرة الهشة التي تغطي نفاق القرن العشرين ! !

ان هذه القالبية أو « النمطية » (Conformity) هي التي أثارت في القديم بطلنا المأساوي دون كيخوته (للكاتب الأسباني سرفانتيس) فان ذلكم ، الفارس المزيل على صهوة جواده الأشد هزالا ، قد راعه نمط الانسان « المستأنس » الخاوي من كل قيمة : باروتا متعفنا كان ، أم تاجرا مطففا ، أم موظفا فاسدا ، أم مثقفا منافقا ، أم تابعا شرها كصاحبنا « سانكوبانزا » . ولذا فان « الدون » يشن حربا « صليبية » من طراز فريد ضد كل هؤلاء . وفي النهاية نجده يصارع « طواحين الهواء » ولكأنه صارم في كف منهزم » وانتهى به المكان الى مجرد « صوت صارخ في البرية . »

نحن لا نجرؤ بالقول بالرجوع الى قيمة الكلمة المسموعة (وحبذا لو كانت صادقة) وبهجر الكلمة المكتوبة ، وانما نحن نتطلع الى أسرار العلوم التي تدق بالكترونياتها الصوتية على اذان العالم الذى أمسى كقرية مسكونية (Lobal Viuage) تربطها شبكة اتصال رهيبة بحيث لايدب صوت في طرف حتى ينقله العلم « صوتا » الى الطرف الآخر . أقول نحن نتطلع الى فجر جديد متسائلين : هل من مخرج للانسان عن الدائرة المألوفة الى أبجدية جديدة ، ينطق فيها الحرف المائت ، فيكشف لنا عن دلالة الصورية والصوتية في آن واحد ، وعندها هل يمكن « للعين أن تسمع وللأذن أن ترى ! . هذا مجرد سؤال ! ■■

ذلك .. والجسم البشري فيه سمع ، لكن السمع محدود ، فمد هذا الجانب من الجسم بأداة تمد السمع .. فبدلا من ان يسمع على امتار استطاع عن طريق الراديو والتلفزيون ان يسمع من بعد آلاف الكيلومترات .

وهكذا كانت الادوات والآلات التي تقوم عليها المصانع امتدادا لليد العاملة . اليد اصبحت عشرات وآلاف وملايين الايدي .. وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الانتاج الذي غمر الاسواق .. ولكنه انتاج سلب الفرد بعضا من حريته .. او بالاحرى حرية اختياره وهو امر اثر على موقف الانسان ، كما عبر عنه المؤرخ الشهير ارنولد توينبي باسم « نظرية الاختيار المتلاشي » وذلك يعني ان التكنولوجيا قد ادت الى تشابه السلع وتوحيدها مما افقد الانسان حرية اختياره . وهذا بدوره اثر على قدرات الانسان الابداعية ومهاراته الفطرية .. وفنه . فاخذت تضمر انامل اصحاب الحرف الدقيقة التي كانت تشكل جانبا من تراث الشعوب الذي هو جزء من ثقافتها وتاريخها .. ومشكلة الانسان مع التكنولوجيا انه حاول استخدامها وسيلة لراحته .. فاذا بها بارادته المقهورة اصبحت غاية .. وغدت الراحة التي سعى اليها الانسان تعبا من الراحة ..

والتكنولوجيا اثرت على الثقافة . وكان اثرها ذا ابعاد مختلفة بين مده وجزره وايجابه وسلبه وعمقه وسطحيته .. اما العمق فقد تجسد بشكل خاص عن طريق وسائل الاتصال السريعة التي ازدحمت بها اجواء العالم ابتداء بالارسال الاذاعي ولا اقول انتهاء بمحطات الاقمار الصناعية .. فكل يوم تطلع علينا التكنولوجيا بجديد ، فاصبحت الثقافة تنتقل الى الانسان وهو جالس على مقعده في بيته ومكتبه ومصنعه ومزرعته وسيارته اذا كان على الارض .. وطائرته اذا كان مسافرا في الهواء .. فالبث الاذاعي لا ينقطع ليلا ولا نهارا .. واثير العالم حافل بما لا يعد ولا يحصى من موجات الاذاعات . واما البث التلفزيوني فقد اخذ يستقطب الناس لا سيما مجتمعات الدول النامية الى حد تعطلت معه الحياة الاجتماعية .. هذا هو الوجه المشرق الايجابي في اثر التكنولوجيا على الثقافة .. واما وجهه الاخر فقد تمثل فيما اصاب ثقافة الانسان في بعض المجتمعات من ضحالة وسطحية نظرا لاكتفائه بالتقاط فتاتها بشكل سهل عابر سواء كان ذلك عبر حديث او تمثيلية او خبر او صورة اذاعية او تلفزيونية .. لقد تعطلت القراءة وهي وسيلة الثقافة الاولى وامضى اسلحتها .. ودخل الكتاب منافسة شديدة غير متكافئة مع وسائل الاعلام المختلفة . سألوا مرة فقيد الادب وعميده الدكتور طه حسين عن اثر الاذاعة والتلفزيون على الثقافة فكان رده ان اثرهما ، اي الاذاعة والتلفزيون كان سلبيا .. لأن البعد الذي أضافاه الى ثقافة الانسان كان سطحيا ولم يكن عميقا .. صحيح ان وسائل الاعلام اذاعة وصحافة وتلفزيونا . لا تخلو من جرعات الثقافة الملونة .. ولكنها ليست القدر الكافي من غذاء الفكر الذي يحتاجه عقل الانسان لبنائه الثقافي ولعل الاخطر من ذلك هو اعتياد الانسان على ما يظنه اكتفاء ثقافيا ذاتيا وهو في واقعه ، امية الثقافة ...

ان التقدم السريع الذي احرزه العالم في ربع القرن الماضي فاق كل تصورات الانسان واحلامه .. وبالرغم من التطور المذهل الذي بلغه انسان هذا العصر في ميدان العلم فانه بات يخشى ان يكون هذا التقدم على حساب شيء اخر هو سعادته اذا ما اختل التوازن في خَلق الانسان واصابه الغرور وغلب الجانب المادي من الحياة على الجانب الروحي الذي يحكم تصرف الفرد وينظم سلوكه .. فالانسان الذي صفق للعالم الذي اكتشف البنسلين بات يخشى العالم الذي اخترع القنبلة الذرية والصاروخ ذا الرؤوس النووية .. وان منجزات التكنولوجيا الحديثة قد وضعت مصير الانسان على مقربة من اقصى نهاياته . فقد اصبح هذا المصير معلقا بمجموعة من الازرار التي قد تنطلق في اية لحظة .. فالحروب القديمة التي نقرأ عنها في كتب التاريخ انما هي العاب اطفال ومباريات رياضية اذا ما قيست ، لا سمح الله ، باية حروب قادمة مهما كان حجمها محدودا صغيرا .. هذا اذا ما استبعدت الحروب العالمية الكبيرة .. لم يعد في العالم مستحيل .. كما لم تعد بقعة بعيدة عن متناول اى انسان يملك قدرة التحكم بادوات العلم الحديثة المتطورة .. فقدر الانسان يصل اليه اينما كان .. ومن المحزن حقا ان اهتمام العلم منصب على ادوات الدمار اكثر منه على ادوات البناء والاعمار .. فالى جانب الاسلحة الذرية هناك الاسلحة الجرثومية وأسلحة التأثير على اجهزة الانسان العصبية .. وغير ذلك مما لم يكشف النقاب عنه .

على ان ذلك كله سيبقى رهن ارادة الانسان القادر على ادارة دفة حياته كما يشاء .. ولكن المهم ان يدرك الانسان حقيقة الواقع في الوقت المناسب .. ■■

إحياء التراث .. لماذا وكيف ؟

بقلم : الدكتور يوسف بكار

جامعة اليرموك ـ اربد/الاردن

ان يكن « اول الجديد قتل القديم فهما » فيا كان يقول شيخ الامناء المرحوم امين الخولي ، فان احياء التراث يظل ضرورة علمية قومية حضارية انسانية لكل امة تقدر ما يستحق التقدير من تراثها وتحاول ان تفيد منه في حاضرها ومستقبلها ، وتقدمه للانسانية « هدايا » تنم عن « مقدار مهديها » .

الاهتمام بالتراث فيا يرى الدكتور شكري فيصل مثلا « ليس عملا تاريخيا ماضويا بقدر ما هو عمل حياتي مستقبلي ... والامر لايمكن ان يبقى ، كما هو الان ، في حدود الوفاء النظري له والاشادة العاطفية به ... ، وانما هو كذلك ، او قبل ذلك ، في الانتفاع به ، والوفاء لانفسنا من خلاله .. انه ليس زينة ، ولكنه سلاح .. وليس تباهيا وادلالا ، ولكنه قبل ذلك نوع من الاعداد ، ولون من كسب الثقة بالنفس .. » .

ولقد تعددت « الدعوة » الى « احياء التراث » وتباينت مع هذا التعدد السبل والاهداف التي لايغرب معظمها عن بال أكثرنا وكان اخرها ، فيا اعلم ، الدعوة الرصينة الجادة التي اطلقها اخيرا الدكتور زكي نجيب محمود من على صفحات مجلة « العربي » (العدد ٢٦٥ ـ كانون الاول ١٩٨٠) .

وقد يكون مصادفة ان تجيء هذه الدعوة في الوقت الذي نشرت فيه مجلة التراث العربي السورية (العدد الثالث ، تشرين الاول ١٩٨٠) التوصيات والنتائج الهامة النافعة التي اسفرت عنها لقاءات لجنة « تحقيق التراث ومناهجه » ، التي اجتمعت ببغداد من ٢٠ الى ١٩٨٠/٥/٢٩ والتي ضمت نفرا من المحققين وذوي البصر والخبرة بالتراث العربي الاسلامي من العراق وسوريا والاردن .

فاما دعوة الدكتور زكي نجيب محمود ، فتلمس جانبا هاما من « لماذا » ؟ القضية المطروحة فالرجل يؤمن ، واومن ، معه ايضا ، بان « ما كل موروث يجب احياؤه » بالمعنى العلمي الدقيق لمفهوم لفظة « احياء » ، لانه ليس من الاحياء في شيء اعادة « طبع كتاب اصفرت اوراقه في كتاب ابيضت فيه تلك الأوراق » او نقل « المادة » من « مخطوط » الى كتاب « مطبوع » دون النظر الى قيمة المخطوط والفائدة التي يمكن ان تجنى من وراء تحقيقه ونشره اولا وقبل اي شيء .

وينادي صاحب الدعوة ايضا بان الهدف من الاحياء « ان يخرج قارئه ودارسه بروح يستمدها مما قرأ او درس ليبثها في حناياه ، فلاذا هو مصطنع لنظرة جديدة من شأنها ان تعقد الاواصر بينه وبين السلف الذي احيينا تراثه ، حتى لو وقف من مضمون ارثه موقف الناقد او المتشكك » فالقاريء لديوان المتنبي ، مثلا ، قراءة احياء يجب ان يخرج منها وقد سرت في عروقه كبرياء هذا الشاعر القديم ، وقاريء « فكر المعتزلة » القراءة نفسها يجب ان يخرج منه « انسانا يعتد بارادته الحرة ، التي اسبغت عليه كرامة الانسان ، لانها القت على كتفيه تبعات الانسان » . ان هذا النوع من القراءة الاحيائية لايحول ، باية حال ، في ان نقف من شعر المتنبي والفكر المعتزلي موقف الناقد البناء الموجه

اما نتائج لجنة « تحقيق التراث ومناهجه » المذكورة وتوصياتها فيجيب التالي منها عن اشياء من « كيف » ؟ في عنوان مقالنا هذا :

ان بعض ما نشر كان حقه التأخير ، وان ما اجل منه كان حقه التقديم . ومن هنا اوصت اللجنة بتقديم الاهم على المهم ، والاصول على الفروع ، ومالم ينشر على ما نشر ، وبالتسامح بتجديد نشر المطبوعات التي لم تراع في تحقيقها القواعد العلمية .

يعرف المحقق من الاعلام والمواضع ، وما في حكمها ما يحتاج الى تعريف من غير استقصاء ولااغراق .

ان يعرف المؤلف المشهور تعريفا موجزا على ان تدون مصادر ترجمته لمن يريد التفصيل . ويستحسن تدوين تراجم تفصيلية لمن يعنى بالكتابة فيهم .

× × ×

وتدعوني دعوة الدكتور زكي نجيب محمود وتوصيات اللجنة التراثية الآنفة الى ان اعرض مثالا يتنافى مع جوهر الدعوتين معا ، ولايحسب في مفهوم « الاحياء » الذي نريد .

المثال هو كتاب « مقدمة في صناعة النظم والنثر » لصاحب « حلبة الكميت » شمس الدين النواجي (من القرن التاسع الهجري) ، وقد حققه الدكتور محمد بن عبد الكريم ونشرته دار مكتبة الحياة ببيروت (لم يذكر تاريخ الطبع) .

واحسب ان هذا الكتاب « من الموروث الذي لايجب احياؤه » ، وانه مما نشر وكان حقه التاخير او الاهمال ، ومن الفروع الضعيفة التي قدمت على الاصول . لانه ، من اوله الى آخره لايضيف جديدا الى ماتعارف عليه النقاد قبله في « صناعة » الشعر والنثر معا . بل يكاد يكون ، وهو كائن ، تلخيصا لآراء اكثرهم ، دون ان يذكر ايا منهم او يشير اليه ، في الموضوعات التي يطرقها . وهذا ما اغرى المحقق الفاضل وشجعه على الاكثار من الحواشي التوضيحية للتذكير باصول هذه الموضوعات عند اصحابها الاول وتدوين اكثرها ، ولزيادة حجم الكتاب الذي لم يزد مع هذا كله ومع الفهارس المختلفة ، على مئة صفحة .

ان تعريف النواجي للشعر وحديثه عما يرتبط به من وزن وقافية ولفظ ومعنى ، وكلامه على « اوقات النظم » وحالاته ، وعلى « المبدأ » و« المخلص » و« المقطع » ، وعلى « التنقيح » و« الرواية » و« الحفظ » . ان هذا كله لايخرج في شيء عما يلقانا هنا وهنالك في مثل : « صحيفة » بشر بن المعتمر في البلاغة ، وفي « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر ، و« مقدمة الشعر والشعراء » لابن قتيبة ، و« عيار الشعر » لابن طباطبا العلوي ، و« العمدة » لابن رشيق ، و« كتاب الصناعتين » لابي هلال العسكري .

وينسحب الامر انسحابا تاما على القسم الخاص بالنثر من الكتاب ، الذي لم يتطرق فيه المؤلف إلا الى « السجع » تعريفا وانواعا وامثله . وقد عرض فيه اراء العلماء والبلاغيين قبله من غير ان يضيف الى قديمهم شيئا .

اما المحقق المولع « بصنع » الحواشي ولوعا عجيبا ، فلم يكتف بحواشيه « التوضيحية » التي اشرت اليها ، انما راح يدون ، دون حساب ، اكداسا من الحواشي « التعريفية » الزائدة التي لاتضيف الى الكتاب الا « ورما » . أفترانا الان ، وبعد ان قطعنا مسافات طويلة في ميادين التحقيق والاحياء ، في حاجة الى « هوامش » تعرف بالمعروفين المشهورين من مثل : عمر بن الخطاب ، والحسين بن علي من اعلام الاسلام ، ومن مثل : زهير بن ابي سلمى ، والنابغة الذبياني ، والحطيئة ، وجرير ، والكميت بن زيد ، وابي نواس وابي العتاهية ، وابن المعتز ، وابي تمام ، والبحتري ، والمتنبي ، والصنوبري من الشعراء ، وبامثال بديع الزمان الهمذاني ، والحريري ، والصاحب بن عباد ، والقاضي الفاضل من الكتاب ، وبابي علي الفارسي وابن جني من النحاة واللغويين ؟ أنحن في حاجة حقا الى التعريف بهؤلاء ، وامثالهم من المشهورين المعروفين ؟ وهل من لوازم التحقيق وضرورات الاحياء ان يعمد المحقق ايضا الى ابتكار « هوامش » اخرى يدون فيها « بحر » البيت او الابيات التي استشهد بها المؤلف ، ويذكر انواع اعاريضها واضربها ، والكتاب ليس ديوانا او مجموعا شعريا ؟

لقد اثقلت حواشي المحقق الزائدة ، بانواعها المختلفة ، كاهل الكتاب الذي لو جرد منها لتضاءل حجمه الى الثلث او اقل ، ولاتاحت للمحقق نشره ، ان كان يستحق النشر ، في واحدة من مجلاتنا التي تعنى باحياء التراث ونشره ودراسته ونقده . ■■

قصة قصيرة

فرسان الأرض

بقلم : زينب صادق

فرسان الارض . هؤلاء الذين يبدون نبوغا فى العلم ، فى مدارس القرى الصغيرة ويحلمون بالمدينة . يتطلع الاباء الى الابناء . يحلمون بغزو ابنائهم للمدينة ، ليصبحوا مثل مشاهير المدينة . وليكون للاهل بيت هناك .

فرسان الارض يحلمون وعيونهم مفتوحة . فوق اسطح بيوتهم فى الصيف . السماء واضحة فى الليالى القمرية . يحصون النجوم . يناجون مع الاغانى العاطفية حبا بعيدا لم يطرق قلوبهم بعد واحيانا ينظمون الشعر .

فرسان الارض يحصلون على شهادة اتمام الدراسة الثانوية . يتوهج الحلم ويقترب من تحقيقه . يحملهم القطار الغازى للمدينة مع دعوات الامهات والبنات الريفيات المتطلعات ونصائح الاباء الايلتفتوا لسحر المدينة ، مع حقيبة صغيرة للثياب وربطة كبيرة لزاد من الطعام . ويلفظهم القطار فى المدينة . باحلامهم ومخاوفهم يتوجهون الى منازل الاقارب . اقرباء حقيقيون او بحكم جوار الارض يتلقون نصائحهم ويوجهونهم الى حيث يسكنون ، او يربونهم معهم فى بيوتهم ليكونوا فيما بعد ازواجا مخلصين لبنات الخال والعم .

فرسان الارض يتوجهون باحلامهم الى جامعات المدينة . هذه معاقل العلم الحقيقية وهؤلاء هن الفتيات الحقيقيات . يحلمون بغزو فتيات المدينة بعد غزو المدينة .

بطلنا واحد من فرسان الارض . فهو بذكائه الفطرى ان فتيات المدينة يملن الى الشىء غير المألوف وكان هو بلغته الريفية التى يتعمد استخدامها فى حضورهن . وسذاجته الطبيعية التى لما تذهب بعد . وكلماته التى يزوقها بالشعر . تقرب الى فتيات المدينة .بنظراته الثاقبة وعينيه اللامعتين اللتين اعتادتا النظر الى الفضاء والمزارع الفسيحة . سنابل القمح تتبدل الى اجساد هيفاء تتمايل مع نسمات الهواء ، وتثير احلام الغزو .

بكل هذه الصفات المكتسبة والموروثة تقرب بطلنا الى فتاة المدينة ، اعجبت بسذاجة حديثة ، ضحكت من تصادمه مع الحياة العصرية . فرحت ببعض الابيات الشعرية التى قالها فيها .

تعلق فارس الارض بابنة المدينة . سهر الليالى يناجى خيالها .نسى العلم ونظم الشعر « يا فرسان الارض . لاتنسوا المهمة الاولى فى غزو المدينة . التفوق فى العلم »

هكذا يناديهم واحد منهم . او شىء بداخلهم ، او الاباء المنتظرون بفارغ الصبر . التفت بطلنا الى علمه . نجح بتفوق ، وعندما تقدم خطوة ثانية واثقة من الحبيبة ، قالت له : نحن صديقان . لنعرف بعضنا اكثر ، الى ان ننتهى من دراستنا » .

لم يعجبه قول بنت المدينة . لو أنها كانت واحدة من بنات قريته المتطلعات لفرحت ، وخجلت ونظرت الى أرض الاجداد وهى تقول « انا تحت امرك » .

فرسان الارض يذهبون فى الاجازات الى اهلهم



وارضهم يعيشـون حياتهم الاولى . ويتعجلـون مرور الايام . لقد ابتلوا باشواق حياة المدينة .

ويبدأ بطلنا يتعود على حياتين . فى قريته يجد مكانة كبيرة وسط اهله . هو الحلم الذى يريدون تحقيقه . هو سيد الارض الذى يلبون طلباته . هو حلم الفتيات المتطلعات اللاتى لم ينلن تعليما كافيا . او لم يسمح لهن بغزو المدينة فيحلمن بغزوها مع البطل الغازى . يحلمن بافراح ومباهج المدينة لكن احلامهن ليست ذات قيمة فبطلنا احلامه بعيدة .

فى المدينة ليست له مكانة بعد . تائه وسط ناسها ومبانيها . فى بيت للطلبة يظل خادما لنفسـه فى كل شىء . بالكاد يكفيه ما يرسله الاب . فهو لايرسـل له مالا كثيرا حتى لايحتويه ابناء السوء . وما اكثرهم فى المدينة . والفتيات لا تحلم به . هو الذى يحلم بهن

فرسان الارض . ينتهـون من دراستهـم سريعـا . لايتأخرون عاما ولا يرسبون فى الطريق . ليس هنـاك وقت .الطريق امامهم طويل . طريق الغزو . وعندمـا يتثقفون . يجدون الفتاة التى تناسب ثقافتهم لكنها لا تناسب تقاليدهم الموروثة . تناسب عواطفهـم الجياشـة لكنها لاتناسب حاجاتهم الى الزوجة الخدومة المطيعـة . بعضهم يتغلب على افكاره المحدودة ويتحدى رغبـة الاهل وبعضهم يحتار .

وهكذا احتار بطلنا بل اصابته صدمة عندما قالت له الحبيبة انها موافقة على الارتباط به بشرط ان تعمل كما يعمل خارج البيت . ويعمل كما تعمل داخل البيت .

صرخ بطلنا « تعملين فى المحاماة كما اعمل . وتقفين فى المحاكم !.. واغسل واطبخ معك فى البيت !... هذا سخف » .

قالت : احببت المهنة فتعلمتها . وساعمل بها » .

تردد فتركته .

جرب بطلنا الحب العذرى ومناجاة الخيال وقول الشعر . وفشلت تجربته .ولما استقل فى حجرة صغيرة بلا قيود . وزاد دخله من العمل الذى بدأ بغزوه . جرب الجانب الاخر من الحب . واكتشف مباهج جديدة فى المدينة . وندرت زياراته للاهل فجاء الاب شغوفا ليرى ابنه . وفهم ماذا جرى له .

اجتمعت العائلة . لابد ان يتزوج الابن .

قالوا : ابنة خالتك جميلة »

قال : « لا .. هى جاهلة وانا متعلم ولا تعرف اصول حياة المدينة »

قالوا وقالوا ورفض كل عروضهم . ولم ييأس الاهل . بحثوا فى كل فروعهم المنتمية للارض واهتدوا الى ابنة قريب لهم يعيش فى المدينة . تعلمت تعليما بسيطا وايضا جميلة . فالارض المتوارثة لايصح ان تذهب الى ابناء غريبة . والقريبة احسن من الغريبة فهى تفهم اصول استقبال الاهل .

واقتنع فارس الارض بحجةالاهل . وتزوج من القريبة ابنة الارض .

فرسان الارض . يتزوجون فى سن صغير استجابة لرغبة الاهل وبمساعدتهم المادية ما داموا لم يخرجواعن طاعتهم . وطاعة ارث الارض. اقتنع بطلنا بحياته الجديدة ـ هذا الغازى الناجح فى المدينة يساعده استقرار البيت واخلاص الزوجة القابعة فى انتظاره على الانهماك فى عمله وتحقيق طموحه . لكن يبقى شىء فى نفسه يؤرقه . يغريه ويؤرقه ...

نساء المدينة . وعلى الاخص هؤلاء المتعلمات تعليما عاليا . المتوقدات بالعواطف والافكار المتجددة . اللاتى يتحدث معهن فى المحافل ويتمنى ان يلمسهن . بمركزه المرموق وسعة دخله يمكن الوصول اليهن .

ويعود بطلنا الى طريقته الاولى فى الغزو .بلغته الريفية التى يستخدمها فى حضورهن بسذاجته المندثرة التى يسترجعها فى تصرفاته معهن . لكن غزوه الان اصبح اكثر قوة . واختياره اكثر دقة . فهو لا يريد ان يفقد استقرار وهدوء بيته بعواطف الغيرة والشك .

هم فرسان للزوجة الملولة التى يهجرها زوجها لشهور طويلة . يزيلون عنها ملل الليل . فرسان للمطلقة الوحيدة يزيلون وحدتها بين جدران البيت . فرسان للارملة الحزينة . يسردون عليها احزان تشأتهم الاولى فتجد حزنها ترفا بالنسبة لاحزانهم .

واكتملت سعادة بطلنا . اصبح لديه العمل المرموق والبيت المستقر والاطفال الذين سيرثون الارض . والقلب الذى يخفق بالحب . والعقل الذى يتوهج بالافكار المتجددة .افكار امرأة المدينة المثقفة العاملة . الارملة التى استطاع ان يزيل عنها الحزن .

« والحب اوله هزل . واخره جد » .

الويل لفارس الارض اذا خان الارض وباع نصيبه الويل له اذا ترك الزوجة ابنة الارض وتزوج من العشيقة . لكن فرسان الارض لايفعلون هذا . ليس خوفا من هذا الويل لكن بحكم ما رضعوه فى طفولتهم . وما تعلموه فى صباهم من تقاليد الارض .. الوفاء ...

لقد تعود بطلنا ان يعيش حياتين مختلفتين . حياة فى القرية . وحياة فى المدينة . والان مع الزوجة . وحياة مع العشيقة . يتقن الحياتين . يخلص للحياتين .

لكن المرأة التى تعيش معه فى الظل تمردت على حياتها معه وطلبت الوضوح فى العلاقة ولن تطالبه بشىء اكثر من هذا الوضوح . والمرأة التى تعيش معه فى الضوء . علمت بحياته الثانية فهرعت الى الاهل .

قال الاهل النصيحة . الا تغضب .والا تترك . فهناك اطفال . وارض . والرجل لن يخون الارض فلا بد ان تكون معه فى البيت .. رائحة الارض .

قال الناصحون للعشيقة :

« لتحرص سيدتى من فرسان الارض اذا كان قد اصابك الغزو فهم يجيدون كلمات العشق واحيانا تثار هوايتهم القديمة فيقولون فيك الشعر . يحبونك بعواطفهم المخزونة . او المحرومة لكن قلوبهم بعيدة عنك .. يحبون حديثك الذى يملأ رؤوسهم ويديرها على شرط الا تطرقى الارض المحرمة ارض استقرارهم . اذا اردت الاستمرار فعليك الا تخرجى عن حدود ارضك ولا تجازفى بالدخول الى ارضهم » .

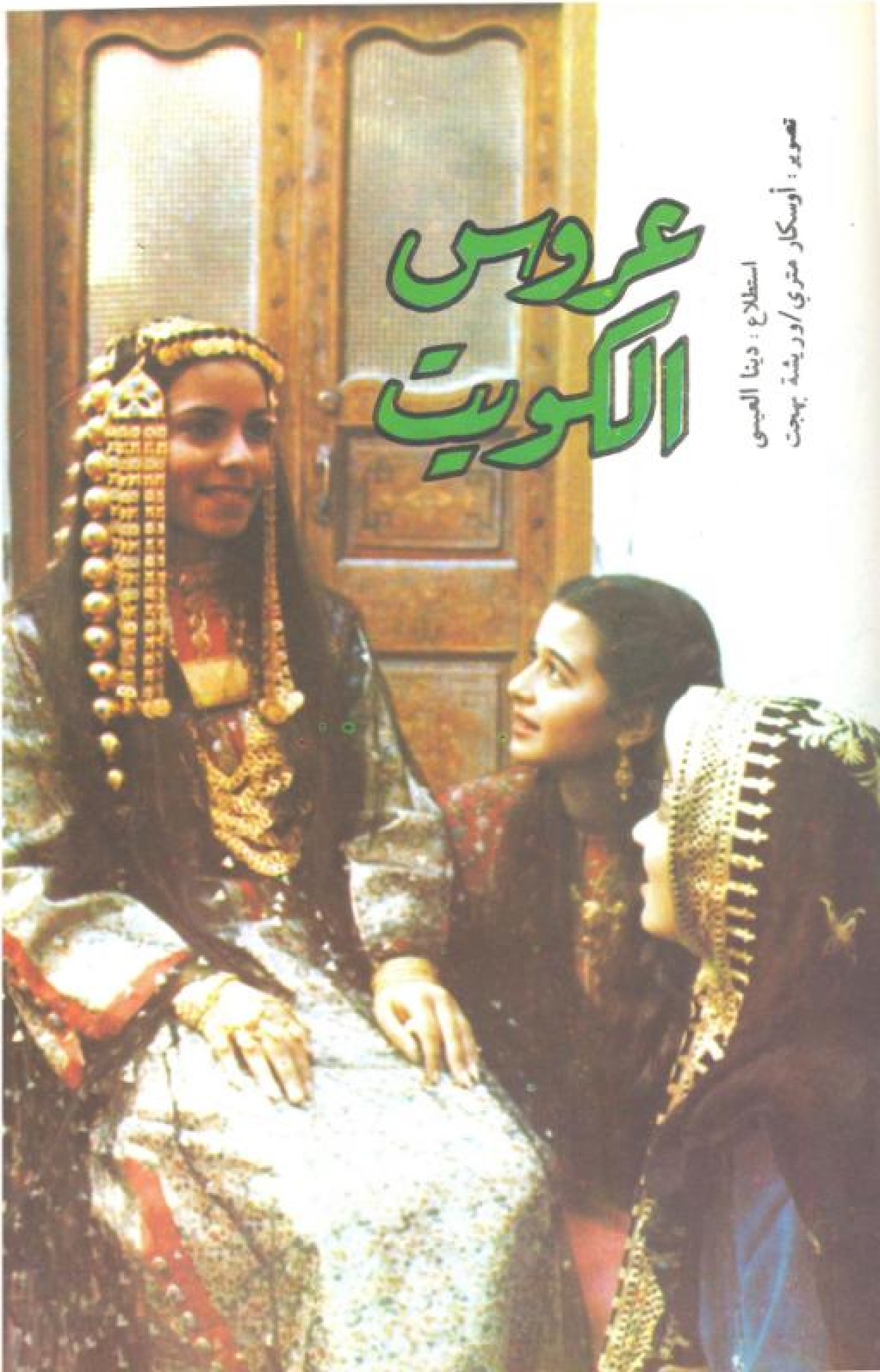
لم استمع الى النصيحة . واختار بطلنا ارضه . لا .. انه لايختار .. هو يعود لارضه .. لكن هذا الشىء الذى فى نفسه عاد ليؤرقه . ويموت الفارس اذا امتنع عن الغزو . فيعود للغزو .

زينب صادق

عروس الكويت

استطلاع : دينا العيسى

تصوير : أوسكار متري / وريشة بهجت



العالم جميل .. مليء بالامال والاحلام .. وهو ايضا عالم غامض هذا هو شعور كل عروس في بداية اعظم تجربة في الحياة . وهذه قصة عروس من الكويت مع العادات والتقاليد في الزواج ..

كبرت الطفلة الصغيرة واكتمل وجهها استدارة وازدادت وجنتاها نضارة وتدفق دم الشباب في جسدها واستطالت قامتها .. واكملت خمسة عشرة ربيعا من عمرها . وربما يكون زفافها في الربيع القادم وربما تكون قد زفت قبل ان تكتمل الخامسة عشرة من عمرها .. ربما » .

وهكذا تبدأ قصة كل عروس كويتية من قبل ربع قرن او اكثر .

فاذا كانت العروس (مسمية) مسماة منذ الصغر لابن عمها فانها لابد أن تقترن به عندما تشب وتكبر مهما تكن الظروف . اما اذا لم تكن مسماة لاحد فتتقدم الخاطبة لتخطبها من اهلها بعد ان تكون قد اتفقت مع اهل العريس على خطبة تلك الفتاة . والخاطبة او الخطابة تكون واحدة من نسوة البلد المحترفات اللواتي يدرن على البيوت لجمع شمل العريس على العروس مقابل أجر متفق عليه من قبل اهل العريس والاجر المتفق عليه قد يكون عينيا او نقديا حسب الاتفاق ولان الخاطبة اهل للثقة فإن ما تقوم به يعتبر خطبة رسمية بعد ان يكون اهل العريس قد رأوا الفتاة او سمعوا عنها بأنها ربة بيت صالحة او ما اذا كانت تجيد اعمال الطهو والتنظيف طبقا للمعايير المتفق عليها في الماضي وعادة لا تطول فترة الخطبة اكثر من اسبوع حتى عشرة ايام على الاكثر .

الدزة

ثم يحدد موعد الدزة * بعد الخطبة مباشرة وباعلان نبأ الخطبة وانتشاره بين الناس تكون ايام الطفولة قد ولت وتختفي العروس عن انظار الجميع بحيث لا يراها الناس مطلقا الا يوم زفافها والسبب في ذلك رغبة ام العروس في ان يزداد الناس شوقا لرؤيتها وحتى لا تفقد « زهوتها » كما يقولون ولا يراها الناس الا في ليلة زفافها حينما تكون في ابهى حلة واجمل حلي . ولعل هذا التقليد هو العرف الوحيد الذي لا يزال مستمرا في يومنا هذا على الاقل (فبعض العائلات ما زالت تحرص على ان تحتجب العروس ولا تخرج الا نادرا وتبقى فترة اطول في البيت حتى يتشوق الناس لرؤيتها يوم زفافها . اما العريس فهو ايضا لا يرى خطيبته . فان كان ابن عمها او من نفس الفريج * فانه لا يعرف شيئا عن خطيبته عدا ذكريات الطفولة .. اذا كان رفيقا لطفولتها .

ولنعد الان لتعريف « الدزة » ومراسيم الزواج . ان الدزة هي مهر العروس وتتكون الدزة من اقمشة وعباءات واغطية وشراشف ومناشف وطوق زري وطوق مشير (وثوب جز او خشخاش او جين وكورار) .

هذا بالاضافة الى صرار * الفلوس وتختلف كمية ما تحويه الدزة من اشياء وفق امكانية الفرد واحواله المادية . وعادة ترسل الدزة بعد صلاة المغرب او بعد صلاة العشاء بعد ان تكون ام العريس قد جهزتها ورتبتها وربطتها في بقشة * وعهدت الى نفر من النساء ليحملن البقشة او ربما تكون بقشتين ومن ثم تتجه مسيرة النساء وهن يحملن الدزة من بيت العريس الى منزل ام العروس وتكون الاخيرة قد فرشت (الحوش) * او احدى الغرف بالسجاد والمطارح والمساند انتظارا لوصول الدزة .

---

* الدزة : مهر العروس

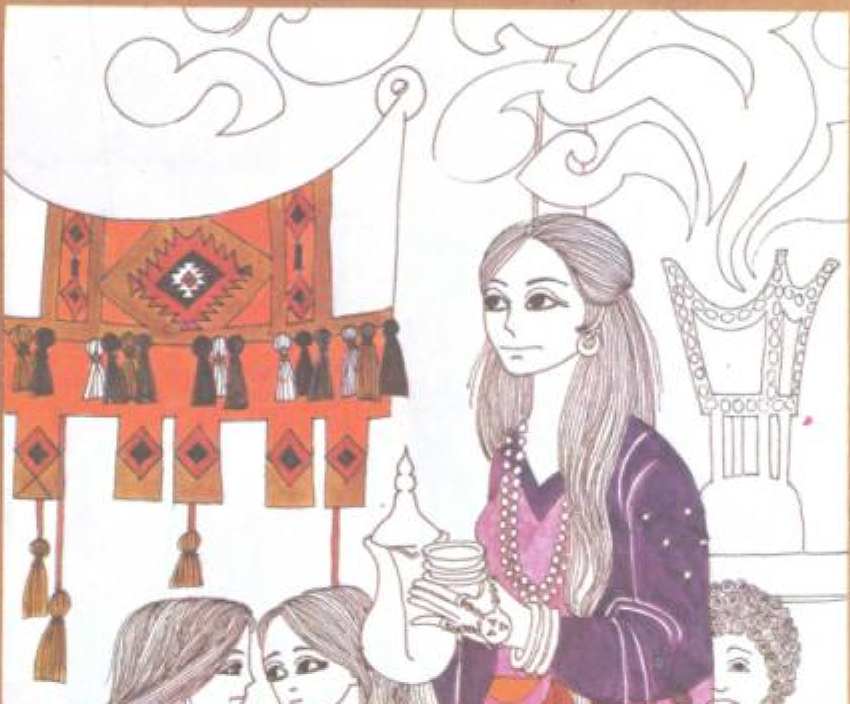
* صرار : كيس نقود .

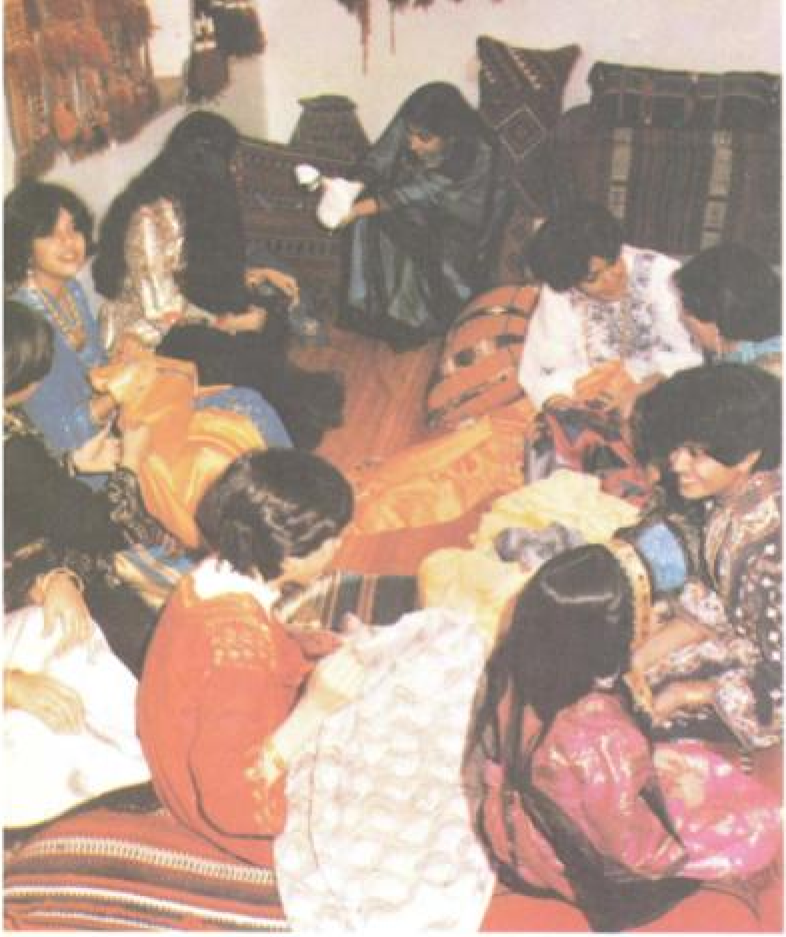
* البقشة : وهي كالمنديل الكبير المربع توضع في الاشياء ثم يربط كل طرفين متقابلين احدهما بالاخر .

* الحوش : الفناء .

* الفريج : الحي .







« اقمشة واثواب والمطبة وشراشف ومناشف ونقود » .. كل محتويات الدرة تفتح ليتفرج عليها النسوة ...



وعادة تدعو ام العروس الاهل والجيران والاصحاب للتفرج على الدزة وفي طريق توصيل الدزة تزغرد النساء ويهللن ويرددن اقوال مثل « الف صلاة وسلام عليك يا حبيب الله محمد » .

وحالما يصل الركب توضع الدزة أمام ام العروس وتجلس احداهن وتفتح البقشة ويكون الجميع ينتظرون وبفارغ الصبر لرؤية ما بداخلها .

ومن ثم تفتح الدزة وتنشر الاقمشة التي بداخلها ليراها الجميع وتتناقلها الايدي ويستمر عرض الدزة لمدة ساعة او ساعتين في جو يعبق برائحة البخور وماء الورد وتدور فناجين القهوة (قهوة حلوة وقهوة مرة) وبعد ذلك تنتهي الزيارة بانصراف الجميع .

وفي صباح اليوم التالي تبدأ عملية تحضير جهاز العروس وتخيط وتفصل أقمشة الدزة ، وقديما لم يكن هناك خياط لتفصيل ثوب الزفاف وانما كان هناك سيدات يقمن بالتفصيل والخياطة فربما تكون اخت العروس او خالتها او احدى قريباتها تتبرع بخياطة جهاز العروس فالكل يعين ويعاون .

يوم الحنة

قبل الزواج بيوم تستعد العروس ولا يراها احد اطلاقا وتظل بملازمة الحوافة ، والحوافة هي المرأة التي تقوم بخدمة العروس وتزيينها وتحضير أمتعتها وتشرف على راحتها وقبل الزواج بيوم تقوم الحوافة بعجن الحنة وتحنية يدي العروس وقدميها واحيانا تنقش لها يديها نقوشا جميلة بالحنة وتلبس العروس ثيابها وتسرح شعرها وتضع له (الرشوش) ، والبخور وتتقاضى الحوافة اجرا مقابل تلك الخدمات .

اليوم الموعود « الملجة »

في هذا اليوم تتم اربعة من مراسيم الزواج وتقاليده في يوم واحد ، ابتداء من الصباح أو في اي وقت من اوقات النهار ، يذهب العريس مع والده وشاهدين لاتمام الزواج . وكتابة العقد ممكن ان تكون في المنزل او في المسجد احيانا . وهذا ما يسمى بالملجة * وفي نفس اليوم في المساء يتم نقل بعض الاقمشة والاشياء من بيت العريس الى بيت العروس وذلك استعدادا لقضاء اسبوع كامل في بيت العروس .

وهذه الاشياء تكون مثل البسط والمساند والمطارح التي تستعمل للنوم عليها ويكون النداف * قد احضرها منذ اسبوع وتبدأ هذه المسيرة وتقوم النسوة والاطفال بحمل تلك الامتعة وايضا في جو من الفرح والزغاريد والتهاليل ، وكل مراسيم الزواج تتم في جو من الفرح ما بين زغاريد النساء ، ورقص الاطفال بما في ذلك حمل الدواشق * ويقطع النسوة تلك المسافة سيرا على الاقدام على هدى الصري * .

اما البلوه او (الجلوه) فهي ايضا تتم بعد صلاة المغرب والبلوه تقليد من تقاليد الماضي التي اختفت حاضرا بالرغم من جمال هذا التقليد واصالته ، وهناك من يكرر هذا التقليد حاضرا ولكن الحاضر له طعم ولون يختلف كلية عن صورة الماضي وجماله واصالته والبلوه تعني ان تجلس العروس على كرسي بعد ان تكون قد لبست ثوبا زاهيا وتكون الحوافة قد سرحت لها شعرها ووضعت له الرشوش وماء الورد والبخور وتكون قد البستها كامل الذهب والحلي من رأسها الى قدميها ، وتقف النسوة في صفين متقابلين وتكون العروس جالسة على كرسيها في الوسط ويمسك الجميع بقماش مربع وغالبا ما يكون أخضر اللون ويبدأن الغناء بصوت وعبارات جميلة وهن يرددن :

اميتة في أمانيها .. ها الله ها الله
مليحة في معانيها .. ها الله ها الله

الى اخر الاغنية ...

ويرفعن القماش معا الى أعلى وينزلنه معا الى اسفل على رأس العروس ويرفق في حركة إيقاعية رائعة .

وينتهي التقليد الثالث في هذا اليوم بحمل العروس لغرفتها مرة اخرى منتظرة قدوم العريس وليس من الضرورة بمكان ان تقام البلوه فمن اراد ان تقام له بلوه كان بها والا فليس هذا التقليد أساسيا بالرغم من جماله .

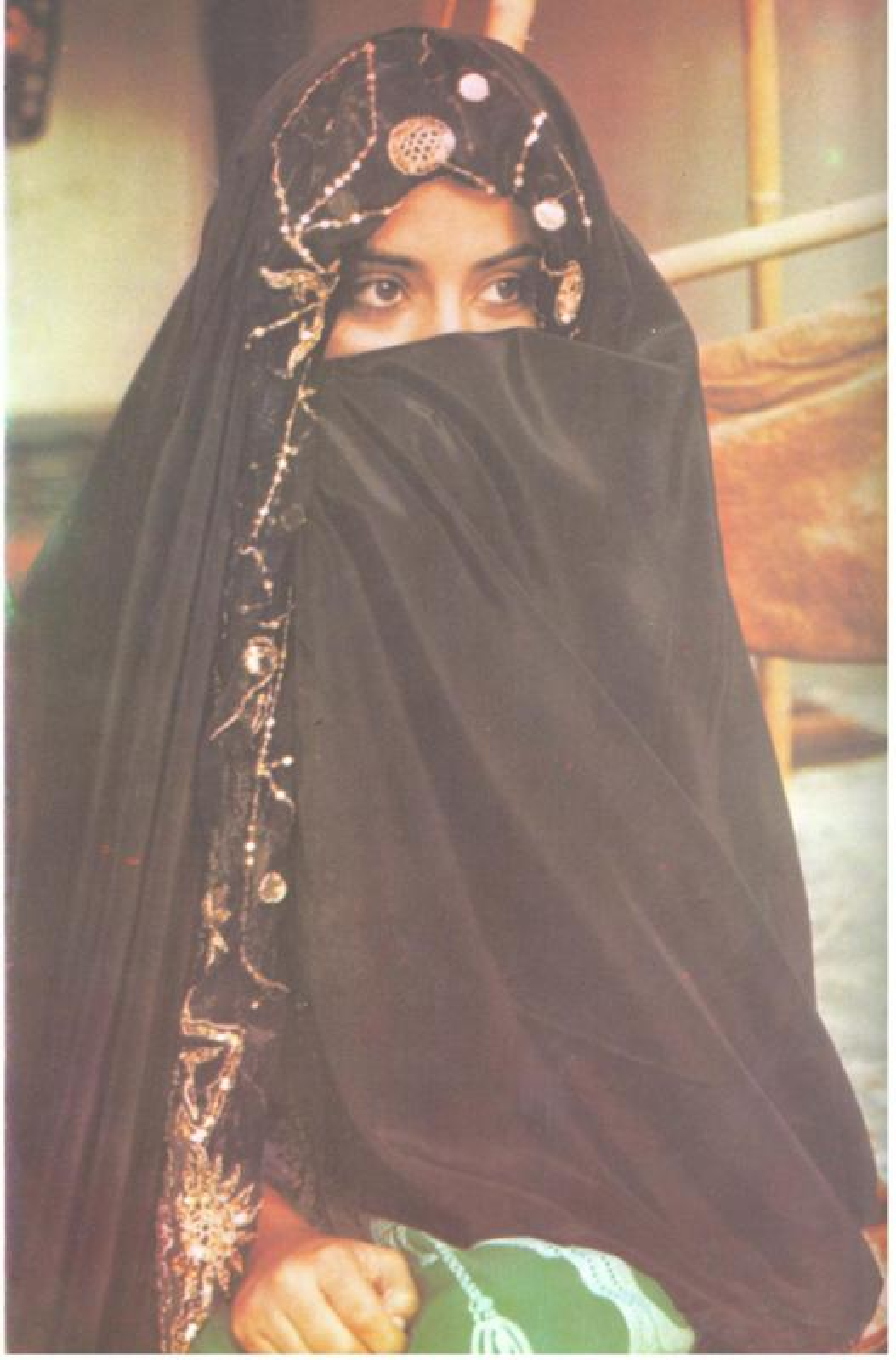
* الملجة : تعني عقد القران .
* النداف : المنجد .
* الصري : القناديل .







الى اعلى الحوافه، تحني يدي العروس والى اليمين (البلوه) ويردد النسوة اغنة امينة في امانيها . وعلى الصفحة المقابلة العروس في لحظة انتظار تزينها وتلبيسها ...



وهنا تدخل في التقليد الرابع والاخير وهو زفة العريس فبعد صلاة العشاء مباشرة يجتمع الرجال في إحدى الديوانيات ويحضرون الصري وتبدأ المسيرة ليلا .. الاهل والجيران والاصحاب ، الجميع يسيرون مسيرة الفرح والسرور الى ان يصلوا الى بيت العروس فيدخل الجميع في الغرفة المعدة للرجال وتقدم لهم القهوة ويرشون ماء الورد ويطيبون برائحة البخور ثم يبارك الجميع للعريس وينصرفون فورا مهنئين مباركين .

ثم تحمل العروس للعريس إما حملا على الكرسي أو تذهب مع الحوافة لتدخلها لزوجها وتتركها وحدها وتنصرف ثم يقوم العريس بسحب العباءة من على رأس العروس . ويفرش العباءة على الارض ويصلي ركعتين شكرا لله ويقال ان هذا التقليد كان موجودا من أيام الرسول عليه السلام وذلك لقول الرسول (ص) « اذا تزوج احدكم امرأة فليأخذ بناصيتها (أي بمقدم رأسها) ويسمي الله عز وجل وليدع بالبركة وليقل : اللهم اني أسألك من خيرها وخير ما جبلتها * عليه ، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه .

عموما صلاة العريس على عباءة العروس تقليد معروف في الكويت قديما وربما يكون سنة من قبل .. نقول ربما ...

اليوم الثاني (الصباحية)

الصباحية هو اسم بداية اليوم الثاني ومن الملاحظ ان اسم الصباحية مشترك في مراسيم الزواج في عدد كبير من الاقطار العربية ففي مصر وسوريا والكويت على سبيل المثال يقدم العريس لعروسه صبيحة اليوم التالي هدية وتختلف هذه الهدية من شخص لاخر ، كل حسب امكانياته فأحيانا يقدم لها عددا من ليرات الذهب أو نقودا أو غير ذلك المهم ان يقدم لها هدية وتسمى هذه الهدية بالصباحية .

وفي هذا اليوم بعد أن تقدم الحوافة للعروسين الافطار يذهب العريس مرة اخرى لمنزله بعد ان يكون قد قضى ليلة في بيت العروس ، وفي الساعة العاشرة صباحا تقريبا يعود لعش الزوجية مرة اخرى ويقوم أصحابه واهله بزفته مرة اخرى أي ان خلال اربع وعشرين ساعة ينعم العريس بزفتين .. الأولى بعد صلاة العشاء في ليلة الدخلة والثانية في صباح اليوم التالي او الصباحية . ثم بعد أن يزفوه يحضر لهم الفطور أحيانا أو بعض الحلوى والقهوة وبعد القيام بواجب الضيافة ينصرف الجميع وهكذا ينتهي اليوم الثاني .

الثالث

هكذا كان اهل الكويت يسمون اليوم الثالث للزواج باسم الثالث وفي صباح هذا اليوم يذهب العريس لشراء الفاكهة والمكسرات وبعض اللوازم ، وفي المساء تفرش الدار او الفناء بالبسط والمطارح والمساند ويقوم أهل العروس بدعوة ام العريس وهي بدورها تدعو من يعز عليها ويجتمع الكل في بيت أهل العروس وسط الزغاريد وقرع الطبول والدفوف ، وفي هذه الحفلة يجتمع المدعوون ويغنون ويرقصون وهذا الاحتفال خاص بالنساء فقط ، ثم يحضرون العروس لام العريس لتبارك لها وتقبلها وتكون العروس قد لبست حلة جديدة ولبست الذهب كله ويسعد الجميع برؤيتها ويرشون ماء الورد ويقدمون الطيب والبخور للجميع .

ولقد كان من المتعارف عليه ان يطلب الذهب للعروس من الأهل والاقارب والجيران او من الشيوخ لتلبيسه العروس ثم تعيده لاصحابه . وتقدم القهوة وعادة يسأل الناس سؤالا تقليديا (يبحطون العروس اليوم او غدا ؟) اي هل ستجلى العروس ليراها الناس ؟ وهذا يعني ان العروس ابتداء من اليوم الثالث الى اليوم السادس تلبس وتتزين وتتطيب وتضع الرشوش وماء الورد والبخور وتجلس ليراها الجميع عند المساء واذا كان عدد الحضور كبيرا فكثيرا ما كان يطلب منها ان تقف على كرسي او مكان مرتفع ليراها الجميع وعادة يحضر عدد كبير من الناس لرؤية العروس وتصبح تلك العروس حديث المجتمع وكلما تحدث عنها الناس يتشوق الغير لرؤيتها .

حتى الغريبات كن يحضرن لرؤيتها اذ لم يكن عدد أهل الكويت كبيرا انذاك فمن جاء دون أن توجه إليه الدعوة فاهلا به على الرحب والسعة وهذه صفة نفتقدها في زخم المدينة . وكان من الشائع حضور العريس مبكرا في تلك الليلة حتى يراه الجميع على أساس أنه حضر مبكرا لعروسه .

* جبلتها : خلقتها وطبعتها عليه .







العريس لحظة انتظاره لرؤية عروسه لاول مرة ثم الى اسفل يقوم العريس بتأدية الصلاة على عباءة العروس وفق التقاليد المرعية قديما .



التحوال

التحوال هو اليوم السابع وهو يوم ذهاب العروس لبيت الزوجية فبعد ان قضى العروسان اسبوعا كاملا في بيت اهل العروس يجيء اليوم الذي تنتقل فيه العروس لبيت الزوجية ففي الصباح تنقل الامتعة والمطارح والزبلان * وكل اللوازم التي أحضرت من قبل وتنقل بنفس الطريقة وسط الزغاريد والتهاليل .

ويأتي دور العروس في الانتقال إلى بيت زوجها في المساء وسط مسيرة من الأفراح والزغاريد وترديد النسوة (الف صلاة وسلام عليك يا حبيب الله محمد) وفور وصولها تذهب لرؤية حماتها وتجلس بقربها ثم يبارك لها الناس متمنين لها حياة سعيدة ومن ثم ينصرف الجميع .

هل انتهى العرس عند هذا الحد ؟ لا ليس الآن فقد بقي ان تطمئن ام العروس على ابنتها في بيت الزوجية فبعد يوم التحوال بثلاث ليال تذهب ام العروس مع مدعويها واهلها وجيرانها مثل اليوم الثالث تماما لترى ابنتها ويسمى هذا اليوم (مثيلث) أو (ثويلث) ففي هذا اليوم تقوم ام العروس بدعوة معارفها لحضور حفلة اخيرة في بيت العريس وفي هذا اليوم تستعد العروس وتلبس ثوبا جديدا وتتطيب وتلبس ما عندها من حلي ليراها الجميع .

هذا اليوم الاخير من مراسم الزواج يكون يوما عظيما للام وللعروس فيها يفترقان للمرة الاولى ولمدة ثلاثة ايام ثم يلتقيان في بيت آخر غريب عليهما .

وصية أم لابنتها

هنا أتذكر وصية ام لابنتها ليلة زفافها ـ وصية امامة بنت الحارث لابنتها تبين فيها اسس الحياة الزوجية السعيدة في كل زمان ومكان اذ قالت كلاما من اروع ما قيل في تلك المناسبة .

اي بنية : إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ، ولو ان امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتها اليها كنت اغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال .

اي بنية : انك فارقت الجو الذي منه خرجت وخلفت العش الذي فيه درجت الى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فاصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا .

فكوني له أمة يكون لك عبدا وشيكا ، واحفظي له خصالا عشرا تكن لك ذخرا ..

اما الاولى والثانية : فالخضوع له بالقناعة ، وحسن السمع والطاعة .

أما الثالثة والرابعة : فالتفقد لمواضع عينه وانفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك الا اطيب ريح .

أما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فان تواتر الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة .

فأما السابعة والثامنة : فالاحتراس لماله والارعاء على حشمه وعياله ، وملاك الامر في المال حسن التقدير ، وفي العيال حسن التدبير .

واما التاسعة والعاشرة : فلا تعصين له أمرا ، ولا تفشين له سرا فانك ان خالفت امره ، اوغرت صدره .

وان افشيت سره ، لم تأمني غدره ثم واياك والفرح بين يديه ان كان مغتما ، والكآبة بين يديه إن كان فرحا . ■■

« دينا العيسى »

* زبلان : كلمة عامية ـ جمع زبيل والزبيل يشبه السلة ويكون مصنوعا من قش أو خصين .



من اغاني العرس الكويتي

من الاغاني الشعبية القديمة والتي تغني عادة في الأعراس ، والافراح اغنية « عليك سعيد » وتقول مطلع الاغنية التي ترددها النسوة حين وصول العريس لبيت العروس :

عليك سعيد عليك سعيد ومبارك
والفرح فيك يتبارك
ولا اله آلا الله
على الشيخ عبدالله
و ياشمعة الصبياني ....

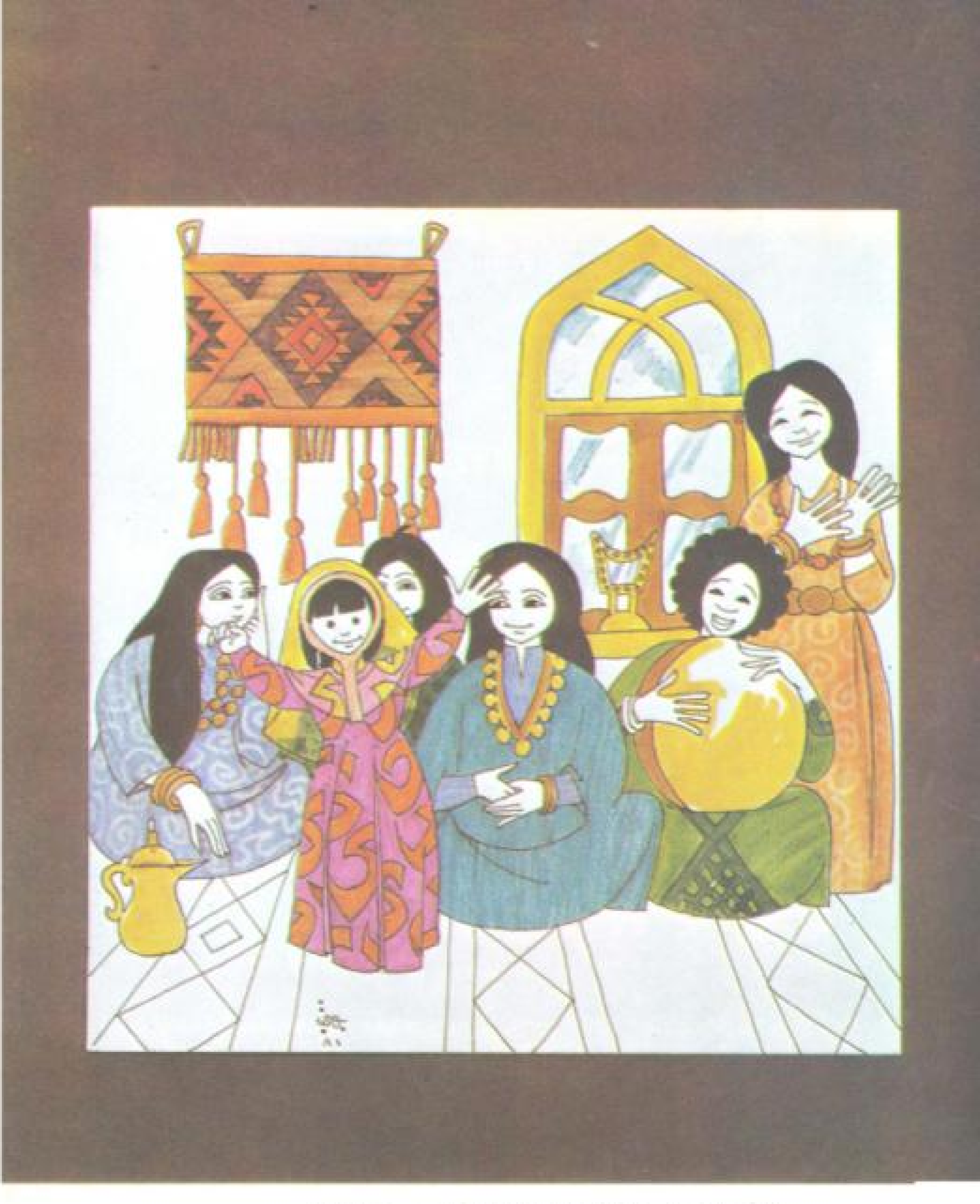
الى اخر الاغنية ولا زالت النسوة في ايامنا هذه يرددن نفس الاغنية وبنفس المناسبة حين وصول العريس لقاعة الاحتفال بالزواج انه حقا لشيء جميل ان نحتفظ بتراثنا ونمارسه .

وهناك اغنية اخرى من الاغاني المشهورة في العرس الكويتي . والتي تغنيها النسوة في اى أجتماع من أجتماعاتهن خلال اسبوع العرس ويرقص الاطفال على اغاني الكبار ولسان حالهم يقول :

امباركين عرس الاثنين
ليلة ربيع عي قمره
واللي جمع بين قلبين
الله يطول في عمره
...... الخ

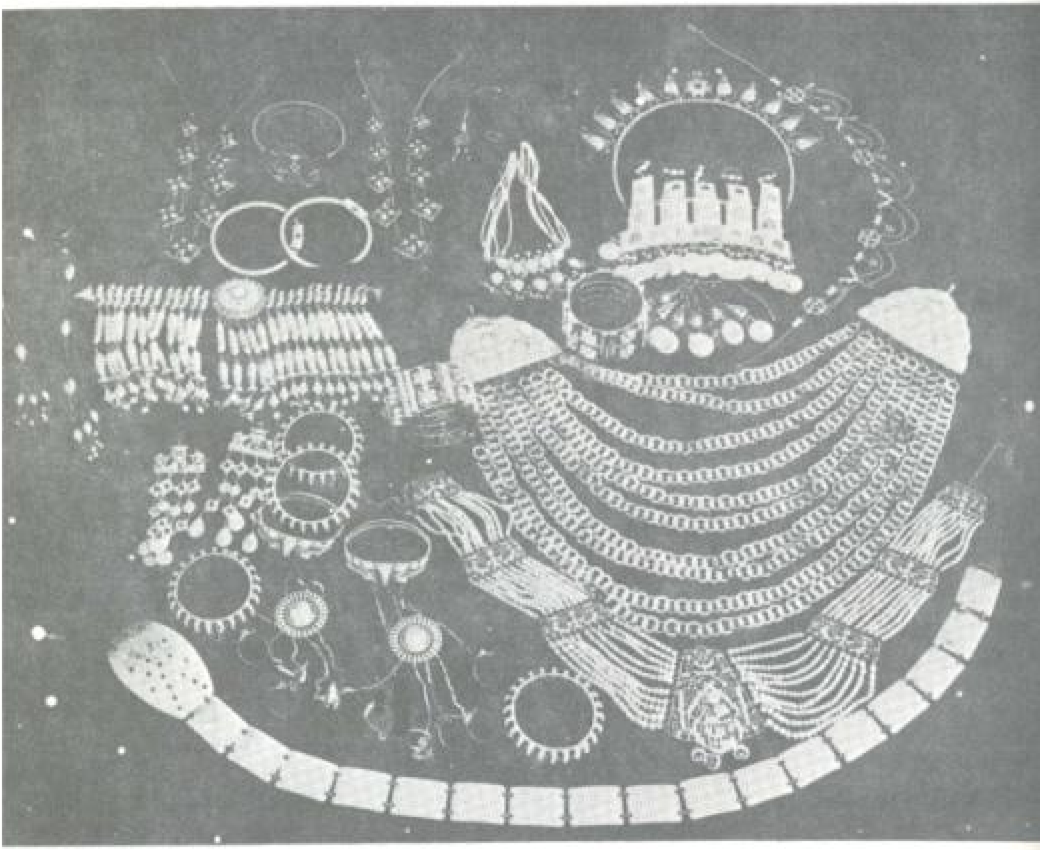
وهناك ايضا اغنية اليلوه والكثير من الاغاني الاخرى ذات المعاني الجميلة والكلمات المعبرة عن فرحة الجميع وفرحة الاقارب والاهل والاصدقاء .





الرقص والغناء في يوم (الثالث) استعدادا لرؤية العروس بكامل زينتها .





مجوهرات العروس

ان الزمن يمضي وكل قديم يتغير وكل جديد يصبح قديما على مر السنين فحتى المجوهرات واسماء المجوهرات تتغير وتدخل عليها اسماء جديدة وهذه هي سنة الحياة ..

اولا : الرأس (الهامة او القبقب) وهذه اسماء لقطعة الذهب التي توضع فوق الرأس وهي تكون بشكل قطع مجزأة تشكل مستطيلا او مستطيلا مثلثا من الامام ويثبت بهذه القطعة ١٥ صفا من الذهب الخالص المطعم بحجر الفيروز وتسمى هذه الصفوف (تلول وسروح) فهي خمسة صفوف خلفية وخمسة صفوف على جوانب الرأس هناك ايضا نوع آخر من الذهب يسمى جستيات وهو غير متواجد في الصورة ولكن يربط بشعر العروسة من اسفل والجستيات عبارة عن ضفاير رقيقة من خيوط الذهب تتدلى منها كرات ذهب صغيرة .

ثانيا : الرقبة : مرتعط وهو طوق من ذهب واحيانا يكون مطعما بالاحجار (وهو غير متواجد بالصورة)

ثالثا : الاكتاف : (المرتهش او الجردال) عبارة عن ستة او سبعة صفوف من الذهب كل صف يتكون من حلقات من الذهب المفرغ وتلبسه العروس على صدرها ولكنه مثبت على كتفيها .

رابعا : الصدر : (بتزيل او جهادة) وكما مبين في الصورة قطعة من الذهب مستطيلة او مربعة الشكل وتمسك بكور من الذهب على شكل عقد يلف حول الرقبة .

خامسا : الخصر او الوسط : (القايش) وهو يعني حزاما من الذهب تضعه العروس على وسطها .

سادسا : اليدين : بناجر وشميلات : عبارة عن اساور عريضة ومنقوشة وتظهر في اليد اليسرى للعروس .

سابعا : الساقين : (حيول) وهي تشبه الاساور ولكنها تصنع من الذهب الميروم لتسور الساقين من اسفل . اما اصابع القدمين ففي كل اصبع خاتم وكل خاتم له شكل واسم معين وهذه عادة قديمة جدا اختلفت منذ زمن بعيد ومن اسماء هذه الخواتم (مناخ وشاهد وخناصر وبناصر) . الى اسفل العروس واقفة لتتيح الفرصة لاكبر عدد من الناس ليروها .





اعداد : يوسف زعبلاوي

عشبة من الصين تغني عن الجراحة في القضاء على البواسير

يبدو ان ثورة خضراء عارمة قائمة بالفعل فيما يتصل بالادوية والعقاقير .. فالمستحضرات الطبية الجديدة المستخلصة من الاعشاب آخذه بالتزايد يوما بعد يوم ... وتمتاز هذه المستحضرات على الأدوية الكيماوية بانها بلا اثار جانبية ... فهي مواد عضوية يتقبلها الجسم البشري ولا يحاربها او يرفضها باعتبارها اجساما غريبة .. والغريب ان اكثر هذه المستحضرات ذو فاعلية تفوق ما عرف عن مثيلاتها من الادوية الكيماوية ... والاغرب من ذلك ان بعضها يغني عن الجراحة .. فيشفي من آفات درج الطب الحديث على معالجتها بالعمليات الجراحية .

ويصدق هذا بخاصة على علاج البواسير الجديد الذي وردتنا اخباره في مطلع هذه السنة والذي تم تطويره وتجربته على نطاق واسع في بكين عاصمة الصين .

فالعقار مستخلص من عشبة صينية تسمى بالانجليزية Gall - nut او ما يمكن ان يعرب بالجوزة المرة .. وقد عرف اهل الصين هذه العشبة واستعملوها في معالجة البواسير بطريقة او باخرى ، وبنجاح كبير أو قليل منذ حوالي ٢٠٠٠ سنة ..

وتنبه بعضهم في السنوات الاخيرة الى قيمة هذه العشبة والى المنافع التي يمكن اسداؤها الى الملايين من الناس الذين يعانون من آفة البواسير القذرة ذات الالام المبرحة .. فيما لو تيسر لهم عزل العنصر الفعال في تلك العشبة (وهو حامض Tarnic Acid) وتصنيعه بالطريقة المناسبة .. واجريت الابحاث واعقبتها التجارب فكانت النتيجة .. حقن البواسير التي تعطى في العضل ، فتقضي الواحدة منها ، وفي غضون عشرة ايام فقط ، على اخطر البواسير جميعا .

على ان العقار الجديد مازال موضع التجارب الواسعة .. في ٢٥ مستشفى من مستشفيات الصين .. وفي مستشفى بكين بالذات حيث يعمل العالم الدكتور زاهوكي ، صاحب الفضل في تطوير حقنه البواسير من عشبة الجوزة وفي تجربتها ..

وقد بدأت هذه التجربة على الحيوانات ، كالعادة ، سنة ١٩٧٧ ، حتى اذا ثبتت فاعليتها راحوا يجربونها على المرضى من بني الانسان .. حتى بلغ عدد الذين اعطوا الحقنة على سبيل التجربة ١٢٠٠ مريض كانوا كلهم من الذين يعانون من البواسير الخطيرة التي استوجب علاجها في الغرب اجراء العمليات الجراحية .. وكانت نتائج تلك التجارب كما يلي .

٩٦٪ شفوا تماما في غضون ١٠ ايام

٤٪ لم يكتب لهم الشفاء وان تحسنت حالتهم كثيرا هذا وتعطى حقنة البواسير في العضل ، كما ذكرنا ويمكن اعطاؤها في اى مكان .. في المستوصف او البيت .. ولا تستوجب التزام الفراش .

تعقيم ماء الشرب باليود

كان الكلورين منذ زمن غير قصير مادة التعقيم المثالية التي عقموا بها مياه الشرب .. ولكن الثقة التي اولوه اياها اخذت تتزعزع في السنوات الاخيرة .. ثم ما لبث ان اصبح موضع جدل ومصدر خطر لايستهان به . ذلك ان دراسة جادة ظهرت في الولايات المتحدة في شهر ديسمبر الماضي اكدت ان ان اضافة الكلورين الى ماء الشرب تضاعف احتمالات الاصابة بانواع معينة من مرض السرطان بنسبة تتراوح بين ٥٠٪ و ١٠٠٪ ...

من هنا كان الاهتمام البالغ الذي حظيت به طريقة اخرى جديدة لتعقيم مياه الشرب كانت قد ظهرت في كندا في المدة الاخيرة .. اما المادة المعقمة التي تعتمدها هذه الطريقة فليست سوى صبغة اليود iodine وقد ابتكرت احدى الشركات الصناعية في تورنتو جهازا دقيقا يمد مصادر مياه الشرب باليود ، وذلك بالمقادير الضئيلة التي يتطلبها التعقيم المرجو على وجه التحديد .

ويؤكد اصحاب الاختراع ان تعقيم الماء باليود كفيل بالقضاء على شتى البكتريا والفيروسات التي تسبب الامراض ، دون التعرض باى خطر لصحة الذين يشربون الماء المعقم بهذه الطريقة الجديدة .. وهم يؤكدون ايضا ان الماء المعقم باليود لاطعم له البتة ولا رائحة ، ولا يعود باى ضرر على انابيب المياه او الثياب التي تغسل بالماء المعقم ولا يلحق الاذى بالكلاب أو القطط ولا حتى بالنبات الذي يسقى بذلك الماء .

اضف الى ذلك كله ان الماء المعقم باليود يصلح لغسل الطناجر والاطباق والادوات الزراعية وما الى ذلك .. فهو كفيل بتعقيمها فضلا عن تنظيفها .. فهو اذن عامل توفير ويغني عن مستحضرات الغسل والتنظيف المعروفة في الأسواق .



مرضى السكر : باتوا في غنى عن التحليل في المختبرات

ان مشكلة التحليل وتحديد نسبة السكري في الدم هي مشكلة مرضى السكر المستعصية .. فهم بحاجة الى معرفة هذه النسبة بين حين وأخر والا ادى بهم تناول الدواء على نحو متواصل أحيانا الى انخفاض تلك النسبة دون الحد الادنى (٨٠٪) المقبول ، وعرّضهم بالتالي الى مخاطر لاتقل شأنا عن مخاطر ارتفاع تلك النسبة فوق حدها الاعلى المقبول (١٢٠ ٪) .. ثم ان بعض مرضى السكر (٢٠٪منهم على وجه التقريب) يعانون من التقلبات المفاجئة والكبيرة في نسبة السكر فيهم .. فقد تتضاعف او تنخفض بنسبة النصف بين يوم وآخر ، ان لم نقل بين ساعة وأخرى . فما لم يتمكنوا من رصد هذه التقلبات بدقة ومعرفة مقدارها بالضبط بحيث يجرون التعديل المناسب في جرعات الدواء الذي يتناولون ووجبات الطعام التي يأكلون ، عرضوا انفسهم لمخاطر هم في غنى عنها .. وليس من المعقول ان يلجأوا الى التحليل في المختبرات عدة مرات في اليوم الواحد ولا ان يعتمدوا على تحليل الشريط الحساس .. فقد يكون هذا مضللا .. وهو تحليل تقريبي على كل حال من هنا كانت الاهمية الكبيرة التي ينبغي ان يعلقوها على جهاز التحليل الفوري الذي تم تطويره مؤخرا في الولايات المتحدة الامريكية .. والذي سيظهر في الاسواق العالمية في مطلع الصيف القادم .

ويقوم الجهاز مقام المختبر .. فهو يمكّنك من احداث ثقب صغير في اصبعك على نحو ما يفعل المحللون .. وعليك ان تضع بعد ذلك قطرة من دمك على شريحة الجهاز البلاستيكية التي جرت معالجتها بمواد كياوية . ثم تنتظر دقيقتين بالضبط لتغسل الشريحة بالماء .. وتضعها بعد ذلك في المكان الخاص بها في الجهاز .. فلا تكاد تمضي ثوان معدودة حتى تقرأ على شاشة الجهاز نسبة محتويات السكر في دمك بالارقام ، وبقدر من الضبط والدقة لا يقل عما تتوقعه من احدث مختبرات التحليل .



أول مؤسسة عربية اسلامية فى سويسرا

استطلاع : منير نصيف



•واجهة المؤسسة التي قامت في قلب احد احياء جنيف السكنية الهادئة .



صلاة الجمعة .. لقد كان لقيام اول مؤسسة عربية اسلامية في جنيف اكبر مدن الاتحاد السويسرى أثر كبير في جمع شمل المسلمين هناك .

فى قلب مدينة جنيف ، اكبر المدن السويسرية ، وفى شارع كولادون بحى « بيتى ساكونيه » ، قامت اول مؤسسة ثقافية اسلامية فى الاتحاد السويسرى .. مبنى جميل انيق كل حجر فيه وضع بدقة فى مكانه .. كل النقوش العربية الاسلامية التى تلقاك حتى قبل ان تمر من الباب الخارجي ـ المفتوح دائما ـ تملأ نفسك بالاحساس بروعة وجلال هذا العمل الكبير .. صحن المسجد اول شيء يصادفك وانت تخطو داخل المؤسسة ، وقد توسطته نافورة جميلة وسط حوض صغير من المرمر . ثم مكاتب العاملين والمدرسة والمكتبة على الجانب الايمن .. والمسجد الكبير على الجانب الايسر ، وقد ارتفعت مئذنته فى سماء المدينة تحمل هذا الصوت الحبيب ، صوت المؤذن وهو يدعو المسلمين الى الصلاة فى الفجر والظهر والعصر والمغرب .. « الله اكبر » .

كان لقائي بالمركز العربي الاسلامي ، هو الثاني ، فقد كان لي مع هذا المشروع الثقافي الديني ، لقاء والعمل مازال يجرى فيه لاستكماله في عام ١٩٧٧ .. وكنت في زيارة خاصة لجنيف ، وفي صباح احد ايام صيف ذلك العام ، وجدتني اقف امام لافتة كبيرة تحمل اسم المشروع .. ولم يكن ممكنا ان اتخلص من الشعور بالفضول الذي انتابني .. ان مجرد وجود لافتة مكتوبة بالعربية يشد اهتمام اي عربي ، في اي مكان بعيدا عن ارضه وبلده ، فما بالك اذا كانت هذه اللافتة تحمل اسم هذا المركز الذي كان العمل يجري فيه على قدم وساق .. مركز الاشعاع الديني والثقافي ، وكان قد اوشك على الانتهاء .

وبدأت يومها رحلتي مع القصة من اولها .. ومن هو الرجل او الرجال الذين يقفون وراء هذا المشروع . ولم يكن من الصعب ان اعثر على الاجابة على بعض التساؤلات التي دارت في رأسي وانا ارفع بصري الى مئذنة المسجد التي لم تكن قد اكتملت بعد .

قوة العرب

ويومها التقيت بالاخ يحيى باسلامه ، السكرتير العام للمؤسسة الثقافية الاسلامية ، قال يحدثني وهو يصطحبني في جولة صغيرة داخل المبنى ومن حوله : « ان هذا المشروع الديني الثقافي ما كان ليتحقق لولا حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، وشعور دول الغرب ، ولاول مرة بتأثير العرب المسلمين .. عسكريا واقتصاديا وسياسيا .. »

كيف ؟

ويكمل الاخ باسلامه حكايته : « كان الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود الذي افترق عنا في الخامس والعشرين من شهر مارس عام ١٩٧٦ ، يزور العاصمة الفرنسية ، في اعقاب حرب رمضان المبارك ، الحرب التي حقق فيها العرب اول نصر عسكري واقتصادي في تاريخ نضالهم الطويل منذ عام ١٩٤٨ ، بداية مأساة فلسطين ، وقيام دولة اسرائيل ، وانتهت زيارة الملك فيصل للعاصمة الفرنسية ، وجاء الى جنيف ، وصورة النصر العربي بكل تفاصيلها ما زالت ماثلة امام السويسريين من خلال الصحف والاذاعة والتلفزيون ، كما لو كانت شريطا سينمائيا تسجيليا طويلا لاينتهي ، وكانت الصورة التي يشاهدونها ويقرأون عنها شيئا مختلفا تماما عن تلك التي يعرفونها .. فلم تعد الصورة



الدكتور مدحت شيخ الارض مدير المؤسسة الثقافية الاسلامية .. نحن فخورون بهذا الانجاز الاسلامي الكبير .

لهذا الجسد الخامل الذي هده التعب ومزقته الهزائم ..لقد نهض العرب واصبحوا قوة بدأ العالم كله من حولهم يحسب لهم الف حساب ..قوة عسكرية وقوة اقتصادية سياسية ، استطاعت ان تفرض نفسها فرضا على الاحداث . »

٦ الاف مسلم

وجاء الملك فيصل طيب الله ثراه الى سويسرا .. وعلم بين ما علم بقصة المسلمين في الاتحاد السويسري ، وكان يعرف بعض تفاصيلها .

انهم يبلغون اليوم ستة الاف مسلم او اكثر . لا يجدون مكانا يجمعهم في صلاتهم وعبادتهم .وكان اقرب مكان يمكن ان يصلوا اليه هو « قصر الامم » ، او مقر الامم المتحدة في جنيف ، حيث اقام رؤساء البعثات الدبلوماسية الاسلامية مسجدا صغيرا يؤدون فيه ومن حوله فريضة الصلاة ، اثناء ساعات عملهم الرسمي الذي يستمر من الصباح حتى ما قبل الغروب . ولكن حتى هذا المسجد الصغير لم يكن من السهل على كل مسلم ان يصل اليه بحكم وجوده وراء اسوار الامم المتحدة التي لايسمح باجتياز بواباتها الكبيرة الا لمن يحمل تصريحا بالدخول .

من اجل هؤلاء، ومن اجل قيام مركز للاشعاع الديني في هذه الدولة المحايدة التي تقع في بطن القارة



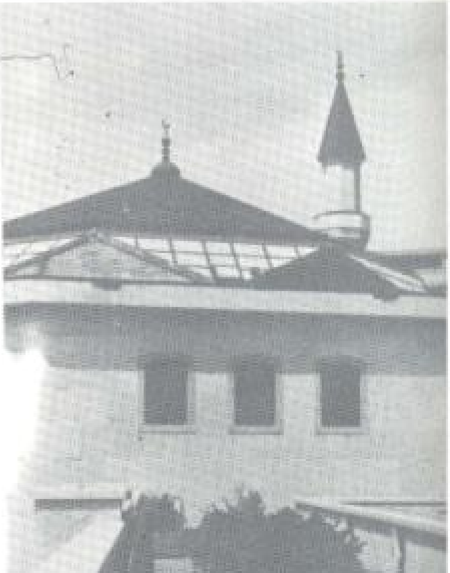
مجاهد من افغانستان جاء يطلب العون من اهل الخير لمساعدة اخوانه في الجهاد .

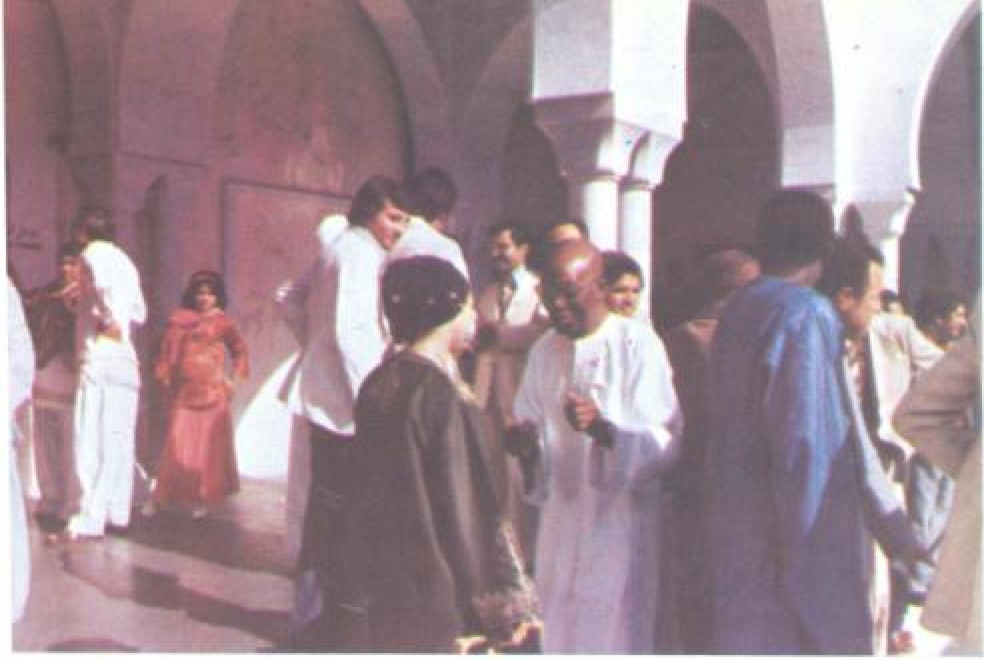
الاوروبية وفوق اعلى قمة فيها حول جبال الالب ، قرر الملك فيصل بناء مسجد للمسلمين ، على ان يلحق به مركز ثقافي اسلامي ، ومدرسة لتعليم اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم . وأعلن الملك يومها انه على استعداد لان يدفع فورا ومن جيبه الخاص مبلغ خمسة ملايين فرنك سويسري لشراء الارض والبدء فورا في عملية البناء .

وبدأ العمل

وبدأت الاتصالات بين الحكومة السعودية والسلطات السويسرية المعنية لتحقيق هذا المشروع الديني الثقافي الذي كان حلما لهذا العدد من المسلمين المقيمين هنا من مختلف الجنسيات العربية وغير العربية .. ومع النظرة الجديدة التي بدأ ينظر بها اهل الغرب الى العرب في اعقاب حرب رمضان المبارك ، وافقت الحكومة السويسرية على تخصيص الارض التي وقع عليها الاختيار لبناء المشروع ، في حي « بيتي ساكونيه » الذي يتوسط منطقة سكنية هادئة لاتبعد كثيرا عن قصر « الامم » .

وفي النصف الثاني من عام ١٩٧٤ ، وقبل اقل من سنة واحدة من رحيل الملك فيصل الذي بنى قصورا من الحب في قلوب الملايين ، بدأ العمل في انجاز المشروع . وجاء الملك خالد فكان خير خلف لخير سلف ، وما كاد يجلس على عرش المملكة الذي خلا بوفاة شقيقه ، حتى مضى على الفور في استكمال كل المشروعات التي بدأها شقيقه الراحل ، ومن بينها المؤسسة الثقافية الاسلامية في جنيف ، التي امر بالاسراع في انجازها في اقرب وقت ممكن .

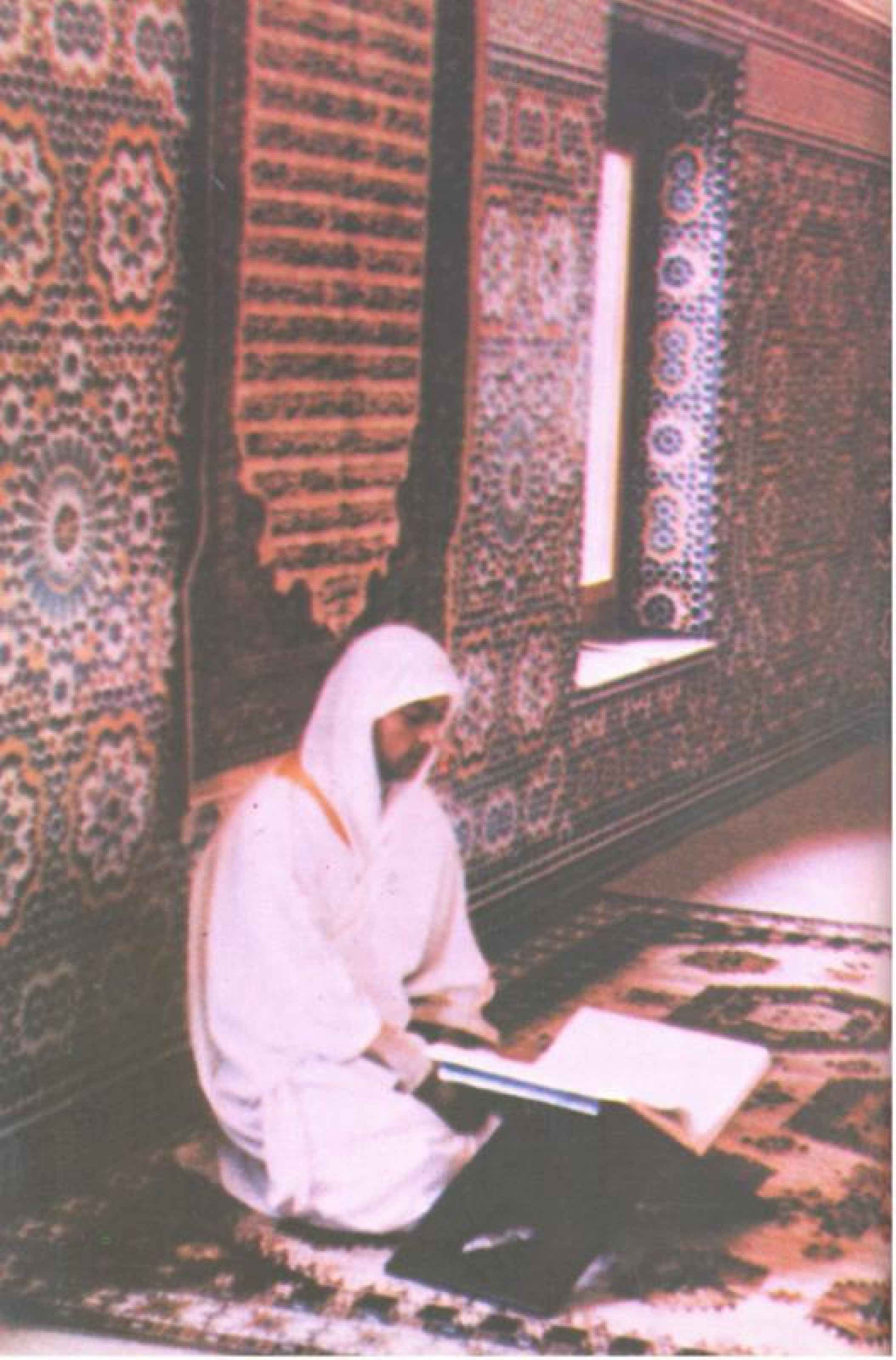

قبة المسجد ومئذنته من شرفة احد المساكن المجاورة .



المسلمون والمسلمات يتبادلون التهاني بالعيد في صحن المسجد (الى أعلا) ..

في مكتبة الجامعة ، ومجموعة من الطلبة والطالبات السويسريين في مناقشة حول الاسلام وتعاليمه مع احد اساتذة المدرسة الاسلامية بالمؤسسة . (الى اسفل) .. قارىء المسجد ، وقد دعي من القدس الشريف للحضور الى المؤسسة لقراءة القرآن الكريم خلال شهر رمضان المبارك . (الى اليسار)





وعرضت العديد من الشركات المساهمة في عملية البناء وكان بعضها سويسريا ، وقد اسندت اليها بالفعل مهمة البناء تحت اشراف مهندس تركي مسلم كان مقيما وقتها في جنيف ، فلما اكتمل البناء ، بدأ المسؤولون يعدون لعملية زخرفة المسجد من الداخل ، وكانت مشكلة ، فالزخرفة العربية الاسلامية لابد ان يقوم بها عرب متخصصون في فن العمارة الاسلامية .

ولكن المشكلة لم تدم طويلا ، فقد وجدوا لها الحل .

امل يتحقق

ويكمل الدكتور مدحت شيخ الأرض مدير المؤسسة الثقافية الاسلامية القصة . لقيته في صيف هذا العام بمكتبه في المؤسسة خلال شهر رمضان المبارك ، وكان يجلس في هدوء يقرأ في كتاب الله الكريم :

قال بعد ان قدمت له نفسي : « انا لا اقرأ غير العربي ، فهي مجلة كل عربي . »

ثم قال : « لقد عاصرت هذا المشروع منذ ولادته ، وحتى قبل ان تخرج الفكرة الى حيز الوجود . فقد كنت هنا في جنيف رئيسا للوفد السعودي الدائم لدى الامم المتحدة ، وكأني كنت على موعد مع هذا العمل الكبير ، الذي حقق امل المغفور له الملك فيصل ، وهو امل ظل يحمله في قلبه طوال سني حكمه . »

ثم مضى الدكتور شيخ الارض يكمل قصة بناء المسجد والمؤسسة : « اننا لم نتوقف الا قليلا بعد ان اكتمل البناء ، وبدأت مهمة البحث عن العمال المهرة الذين سيتولون زخرفة المسجد من الداخل والخارج ، فقد اتفقت مع وزارة الاوقاف المغربية على ان يتولى هذا العمل مقاولون وعمال من المغرب .. وجاءوا الى جنيف ، اكثر من اربعين عاملا فنيا .. وبدأوا جميعا في زخرفة المبنى من الداخل والخارج ، ودفعت الحكومة السعودية اجورهم ونفقات اقامتهم حتى انتهى العمل تماما في المسجد والمباني الملحقة به ، وهي تشمل مدرسة عربية اسلامية ، تضم اليوم مائة وخمسين تلميذا تتراوح اعمارهم بين سن السادسة والسادسة عشرة ، والتعليم

صحن المسجد تتوسطه النافورة التي شيد الحوض المحيط بها من الرخام الثمين .





جانب من حي « بيتي ساكونية » ـ ومئذنة المسجد شامخة وسط العمارات السكنية .

فيها بالمجان ، اذا استثنينا مبلغ العشرين فرنكا سويسريا (حوالى ثلاثة دنانير كويتية) التى يدفعها كل تلميذ ، مرة كل ثلاثة اشهر ، اى تسعة دنانير خلال السنة الدراسية كلها ، بوصفها مصاريف رمزية .

ثم هناك المكتبة التى تضم اكثر من اربعة آلاف مرجع فى اللغة العربية والدين والفقه ، واخيرا المعمل الصغير الحديث الذى يتعلم فيه الاجانب اللغة العربية ، وقاعة المحاضرات الكبرى التى تتسع لاكثر من مائتى مستمع .

١٢ مليون فرنك

هل انتهت قصة المؤسسة الثقافية الاسلامية ؟

يقول الدكتور شيخ الارض : « بقى ان تعلم ان تكاليف بناء هذا المعهد قد بلغت اكثر من اثنى عشر مليونا من الفرنكات السويسرية (حوالى مليونى دينار كويتى) ، ويشمل المبلغ ثمن الارض ايضا . وقد افتتحه الملك خالد عاهل السعودية فى شهر يونيو من عام ١٩٧٨ (٢٥ جمادى الثانى عام ١٣٩٨ هـ) ، قبل بداية القرن الهجرى الجديد بعامين تقريبا ، وكان حفلا كبيرا شهده العديد من الشخصيات العربية والاجنبية الاسلامية وغير الاسلامية فى سويسرا .

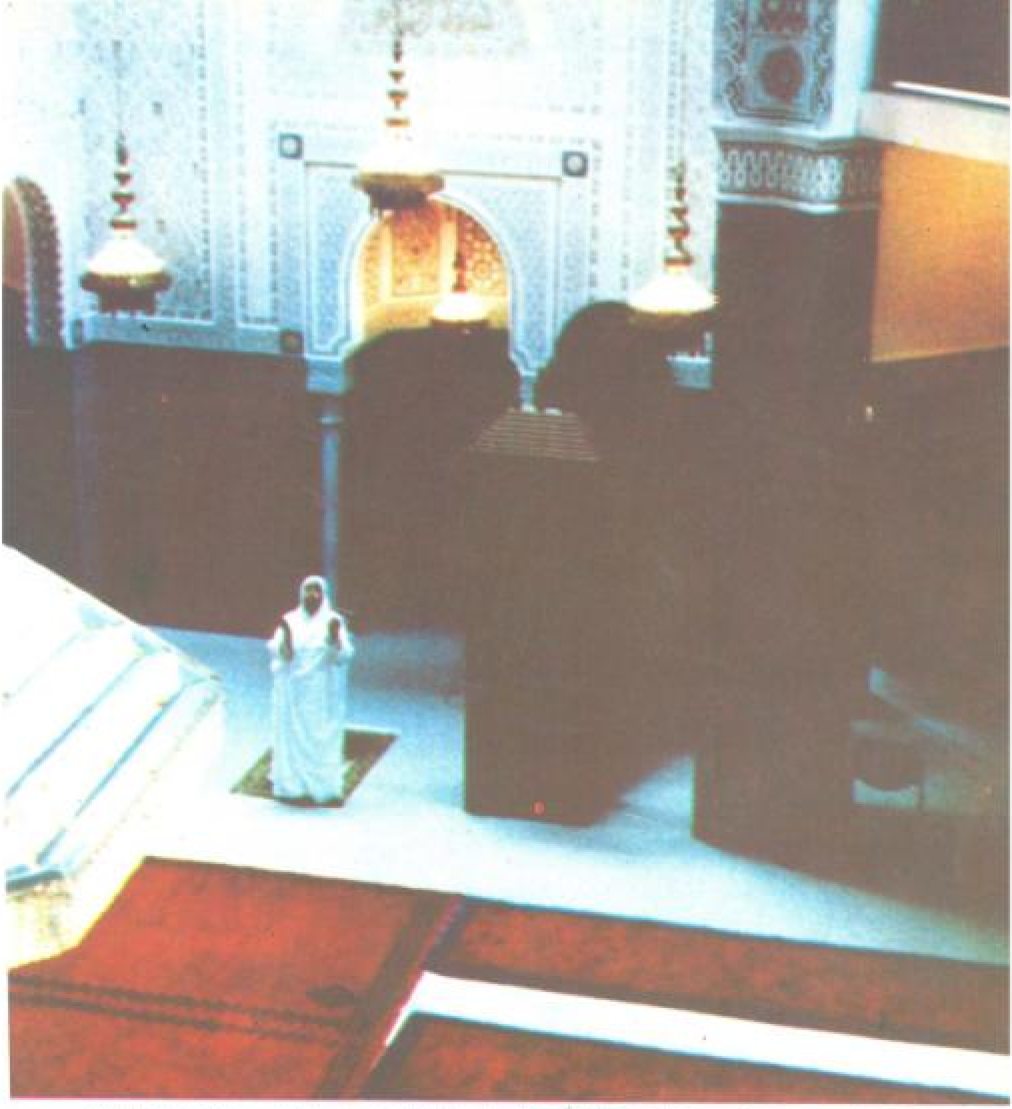
وللمؤسسة اليوم مجلس ادارة يرأسه الشيخ محمد على الحركان ، الامين العام لرابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة ، ويضم المجلس فى عضويته احد عشر عضوا من الشخصيات السعودية والسويسرية التى تدين بالاسلام .

وتبقى الذكرى

ومددت يدى اودع الدكتور مدحت شيخ الارض مدير المؤسسة ، الطبيب الذى ينحدر من اصل سورى ، والذى ظل يسهر على صحة عاهل السعودية الراحل الملك عبد العزيز آل سعود ، مؤسس المملكة العربية السعودية حتى وافته المنية ، فانتقل للعمل فى السلك الدبلوماسى .

انه الآن قد جاوز السبعين ، وقد كرس حياته لخدمة المسلمين ، بعد ان تقدمت به السن ، وقلت اخيرا ـ « هل بقى شيء »

ـ قال : « نعم ، فاتنى ان اذكر لك ان الملك خالد



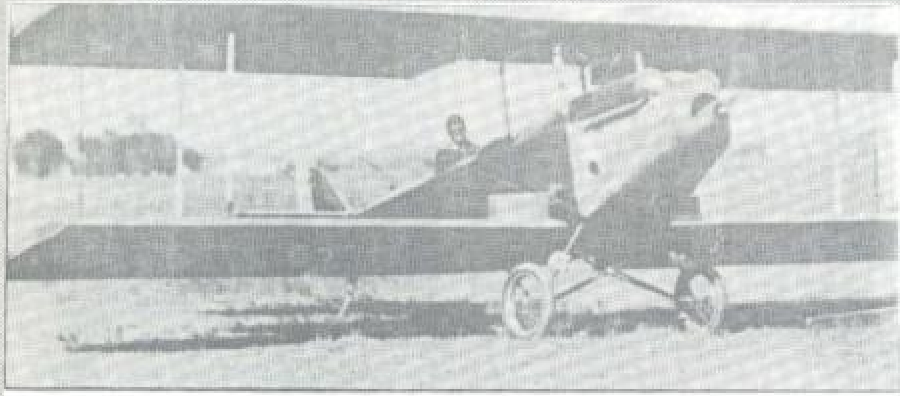
داخل المسجد ، وقد تجلت روعة الزخرفة الاسلامية التي قام بها عمال مغربيون جاءوا خصيصا للقيام العمل الرائع .

امد الله فى عمره ، لم ينس ان يأمر بشراء وقف لدعم هذه المؤسسة والانفاق عليها ، وقد نفذت الحكومة السعودية توجيهات جلالته بان اشترت عمارات سكنية بلغت قيمتها ١٥ مليون فرنك سويسرى ، ينفق دخلها كله على المسجد والمؤسسة واعمال الخير .

وقمت اجمع اوراقى ، وامشى فى طريقى عائدا الى الفندق ، وعند الباب الخارجى ، وقفت اتأمل اللافتة التى تحمل اسم المؤسسة وكانتى اراها للمرة الاولى ، وتذكرت قول فولتير فيلسوف فرنسا وشاعرها الكبير : « مجموعة الاعمال الطيبة التى يقدمها الانسان فى حياته ، لمجتمعه ، وللامة التى ينتمى اليها ، هى ثروته الحقيقية .. فالثروة دائما فى العطاء والعطاء ، لا فى الاخذ ابدا .. وهى الباقية من بعد رحيله ، لانها الذكرى التى يحملها له الناس فى قلوبهم كلما رأوا اعماله . »

وما اكثر الذين اعطوا وأعطوا ، وقضوا سنوات عمرهم كله يعطون ، فلما رحلوا بقيت ذكراهم حية فى قلوب الملايين .

منير نصيف



الطيار لندبيرج اثناء اقلاعه الى باريس من نيويورك فى ٢٠ مايو ١٩٢٧

أول طيار عبر الأطلسي بطائرة ذات محرك واحد دون توقف

بقلم : الدكتور عدنان رشيد

منذ بدايته ، فان عالم الطيران ظل يتميز بالخيال والشجاعة ، فمنذ ان حلق عباس بن فرناس بجناحين اصطناعيين الى اصحاب الخيال الاخرين فقد عملوا جميعهم على بلورة افكار جديدة فى عالم الطيران استفاد منها الجيل الحالى . ففى العشرينات كانت المسافة بين امريكا وفرنسا لا يمكن اجتيازها إلا بواسطة البواخر وكان الكثيرون من الامريكيين يجهلون اوربا .

وعندما وضع المليونير الامريكى رايموند لورتيج فى نيويورك جائزة عام ١٩٢٧ قدرها (٢٥) الف دولار لمن يستطيع عبور الاطلسى بطائرة ذات محرك واحد دون توقف وبالتحديد بين نيويورك وباريس والتى تبلغ ٣٦٠٠ ميل ، حفز هذا النبأ جميع المغامرين والتواقين الى اجتياز الصعاب .

وتقدم لهذه المغامرة الطيار الشاب لندبيرج للقيام بهذه الرحلة وكان عمره ذلك العام (٢٥) عاما ، ولم يكن يسيرا انذاك عبور الاطلسى بطائرات ذلك الزمان .

وقرر لندبيرج السفر الى سانت لويس ، لجمع التبرعات لتغطية نفقات الرحلة وقد اطلق على طائرة المستقبل روح سانت لويس .

تجربة في الليل

وقدر لندبيرج تكاليف الرحلة وقيمة الطائرة وملحقاتها بعشرة الاف دولار ، فاتصل بشركة رايت اورناتيكل في نيوجرسي فصممت له طائرة ذات محرك واحد وبلغت قوة المحرك (٢٠٠) حصان ثم اصطحب لندبيرج معه احد اصحاب البنوك اسمه بكسي وهو طيار سابق وكان يؤمن بمستقبل الطيران . وراح بكسي يحث اصحاب البنوك والمؤسسات الصناعية على تقديم العون المادي لرحلة لندبيرج وما ستجلبه من افاق في عالم الطيران بين امريكا واوربا وقد استطاع بكسي جمع مبلغ (١٥) الف دولار .

وقد وجد لندبيرج صعوبات في البداية في الحصول على طائرة ملائمة لعبور الاطلسي اذ ان شركات صناعة الطائرات كانت حذرة من صنع مثل هذه الطائرة لتحقيق هذه الرحلة فلو اخفق لندبيرج في عبور الاطلسي لانتكس اسم الشركة تجاريا ولكن لندبيرج اقنع اصحاب المصانع في نهاية الامر وذلك بارادته القوية وشجاعته الفائقة فاتصل بشركة (رين) لصناعة الطائرات في سانت ديكو بكاليفورنيا وذلك في شباط من عام ١٩٢٧ ، وبالفعل فقد تم صنع الطائرة في خلال شهرين وكان الهيكل يتكون من الفولاذ اما الاجنحة فكانت من الخشب . وقد انجز لندبيرج ، خلال فترة صنع الطائرة جميع الامور الروتينية المتعلقة بالرحلة مثل الحصول على رخصة للطيران المدني وغيرها من الاجراءات الاخرى .

وفي الحادي عشر من مايو اقلع لندبيرج لاول مرة في طيران تجريبي في الليل بدون توقف من سانت ديكو وهبط بسلام في مطار سانت لويس ، ولم يكن الطيران في الليل انذاك من الامور السهلة . ثم واصل الطيران التجريبي فوصل في الثاني عشر من مايو الى مطار كورتس في لونغ ايسلند ، وكان المطار يغص بالجمهور المعجب به والصحفيين واندفع الجمهور الى الطائرة حتى كادت مروحة الطائرة تصطدم برؤوس المعجبين . وقد كان هذا الطيران التجريبي بداية ناجحة لتحقيق عبور الاطلسي .

وقد طلب لندبيرج من الشركة توسيع خزان الوقود ليتسع من البنزين ما يكفي لقطع مسافة (٤) الاف ميل في حين ان لندبيرج يحتاج من نيويورك الى باريس الى قطع مسافة (٣٦٠٠) ميل .

وفي ١٩ مايو اعد لندبيرج نفسه للرحلة فاعلنت الانباء الجوية عن حدوث ضباب كثيف وغيوم داكنة لاربعة ايام قادمة . ورغم ذلك قفز لندبيرج الى مقصورة القيادة في الساعة السابعة وأربع وخمسين دقيقة من يوم ٢٠ مايو ليقطع المسافة من نيويورك الى باريس في ٣٣ ساعة ونصف ساعة .

وكان لندبيرج يعاني من نعاس شديد لعدم قدرته في الليالي المنصرمة على النوم الهادىء ، ولكنه لم يخامره شك على تحقيق هذه المغامرة بنجاح لايمانه بان ارادة الانسان اقوى من أي شيء .

وكان الوقود الموجود في خزان الطائرة يكفي للطيران حتى افريقيا او الامازون او القطب الشمالي تحسبا لاية ظروف طارئة تحول دون طيرانه في اتجاه باريس ، كما حمل لندبيرج معه بعض الاجهزة الصغيرة لقياس ارتفاع الطيران وجهاز كومباس لتعيين الاتجاه

اليوم المشهود

وكان صباح العشرين من مايو من عام ١٩٢٧ يوما تاريخيا مشهودا في عالم الطيران حيث انطلق لندبيرج يحمل معه ارادة الانسان وحبه للحياة وقدرته على التغلب على صعوبات الطبيعة ، وحدث وهو في الجو ان هبت عاصفة هوجاء على المحيط كادت تضطره الى العودة الى نيويورك وتأجيل الرحلة ولكنه لم يفعل ذلك ، فقد تحدى العاصفة وقاوم الغيوم الكثيفة التي حجبت عنه الرؤية الواضحة ولكنه كان يستعين في تعيين الاتجاه بالنجوم اذ كان الظلام حالكا فوق المحيط ، فوصل بعد ساعات من الطيران الشاق الى جزيرة جرينلاند فدب في جسمه حماس غريب وسرت في عروقه يقظة وشجاعة غريبتان الامر الذي حفزه على مواصلة الرحلة بارادة الرجل الشجاع .

وكانت اوربا بالنسبة إلى لند بيرج غريبة ولم يعرف عنها سوى المعلومات التي تعلمها من كتب الجغرافيا في المدرسة .... وواصل الطيران وكان النعاس يغالبه دائما ولكنه كان يقهره بالتحدث مع نفسه تارة وتارة اخرى بالغناء ومرة بالتخيل وسرد القصص الاسطورية وكان يتصور نفسه علاء الدين وهو يجلس فوق البساط السحري محلقا فوق بغداد ، وبهذه الافكار الجميلة استطاع مغالبة النعاس ، فلو قدر للنعاس ان ينتصر عليه لربما حدثت له كارثة ماحقة كانت ستحبط رحلته التاريخية ....!

وفي الحادي والعشرين من مايو عام ١٩٢٧ وصل

سماء باريس وكانت السماء صافية مزينة بالنجوم وكأن الملائكة غسلتها بالامس واستدار من فوق برج ايفل مرتين . وكان الصحفيون ينتظرونه بالمطار فهبط فى مطار بورجيه بعد طيران مرهق وشاق وخطير استغرق ٣٣ ساعة ونصف الساعة .وقد حطم لندبيرج لاول مرة الرقم القياسي في قطع المسافة بطائرة ذات محرك واحد حيث بلغت السرعة ١٠٠ ميل فى الساعة . وقد استقبل لندبيرج فى باريس استقبال الفاتحين وحيته الجماهير وذكرت الصحف الفرنسية انه اضطر الى الهبوط لنفاذ الوقود ولكن الحقيقة ان الوقود الذي كان معه كان يكفي للطيران حتى روما .

وفي باريس استقبله السفير الامريكي انذاك ميرون هيرك واستضافه فى السفارة ثم قابل فى اليوم التالى رئيس جمهورية فرنسا كاستون دومركيه واعرب الرئيس الفرنسي له عن فتح باب العلاقات الصداقية بين فرنسا والولايات المتحدة الامريكية . كما تعرف لندبيرج على مارشال فرنسا فوش وكذلك على الطيار الفرنسي المعروف انذاك لويس بليريو . كما اقيمت له حفلات عديدة ومكث فى باريس اسبوعين وقد بعث رئيس الولايات المتحدة الامريكية انذاك كولدج برقية الى البارجة الحربية الامريكية مانفيس لتنقل لندبيرج من فرنسا الى نيويورك . فيصل لندبيرج الى نيويورك ويستقبله سكان نيويورك بحماس منقطع النظير ثم يتوجه الى واشنطن وكان استقبال سكان واشنطن ليس اقل روعة من روعة استقبال نيويورك وكان لندبيرج برفقة امه وذهب الى البيت الابيض فاستقبله الرئيس الأمريكي واشاد بمآثرته وبطولته ثم انهالت عليه الدعوات من كل حدب وصوب وتلقى دعوة من الحكومة الكندية للطيران من سانت لويس الى اوتاوا ثم يعود الى نيويورك ويفعل لندبيرج ذلك دون تردد وقد فتح بارادته وشجاعته عالما جديدا فى مجال الطيران وسارعت شركات صناعة الطائرات بتخصيص ملايين الدولارات لتطوير صناعة الطائرات . ولولا لندبيرج وغيره من الشجعان لكان عالمنا جاهلا وكانت حياتنا بدائية لا مسحة للحضارة فيها .

كان لندبيرج معتدلا فى حياته لا يشرب القهوة ولايدخن ورغم ذلك اصيب بسرطان الرئة وفى الرابع والعشرين من آب اغسطس عام ١٩٧٤ وافاه الاجل فى جزيرة هاواي بعد ان خلف ابنتين وولدين .

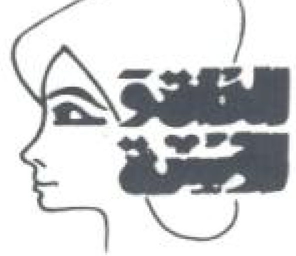
الرياض ـ د . عدنان رشيد
جامعة الرياض ـ كلية الآداب

من الديمقراطيين

● سأل الرئيس « روزفلت » يوما احد الشبان المنتمين الى الحزب الجمهوري المناويء لحزبه الديمقراطي عن سبب انتسابه اليه ، فاجابه الشاب قائلا : « لقد انضممت الى الحزب الجمهوري لان ابي وجدي وجد جدي كانوا جميعا جمهوريين » . وهنا سأله الرئيس روزفلت : « ولكن افرض ان اباك واجدادك كانوا حميرا لا يفهمون فماذا يكون موقفك ؟ » فاجاب الشاب على الفور : « كنت اكون من الديمقراطيين » .

انتظار

● قبل اسبوعين من احتفال « برناردشو » بعامه الثالث والتسعين ، كتب اليه مدير احدى الشركات السينمائية الجديدة ، راجيا منه ان يأذن لها في اخراج احدى رواياته لقاء اجر زهيد ، معتذرا بان الشركة ما زالت ناشئة لا تستطيع دفع مبلغ اكبر . فرد عليه « شو » بكتاب قال فيه : « استطيع ان انتظر حتى تكبر الشركة » .



هناك لحظات تمر بالزوجين يشعر فيها أحدهما
أو الاثنان معا أنهما ما زالا غريبين .. لماذا ؟

زوجي رجل غريب !

بقلم : منير نصيف

« أنا لا اعرف زوجي ! اليس غريبا ان اكتشف انني ما زلت اجهل الكثير عن طباع الرجل الذي قضيت معه اكثر من خمس سنوات اعطيته خلالها طفلين جميلين .. واعطيته معهما كل الحب الذي يمكن ان تقدمه المرأة لرجلها .. اليس غريبا انني مازلت ارى فيه لغزا يستعصى على حله في بعض الاحيان . انه يحيرني ، فانا لم اعد اجد فيه صفة واحدة من تلك الصفات التي عرفتها فيه ولمستها منه خلال الشهور الطويلة التي سبقت زواجنا وانتقالنا الى عشنا الجديد وحياتنا الجديدة ! ما الذي حدث ؟ هل تغير زوجي .. هل هو رجل آخر هذا الذي اعيش معه الان في الزواج ، لا يمت بصلة الى الرجل الذي عرفته ايام الخطبة الحلوة ؟ »

قصة هذه الزوجة الشابة مع زوجها « الغريب » كما تصفه ، ليست جديدة .. فهناك لحظات تمر بالزوجة وأيضا الزوج ، يشعر فيها الاثنان او احدهما انه مازال غريبا عن الآخر ، وهو شعور يبعث على الحيرة والانزعاج ، لأن كل زوجين يدخلان هذه التجربة الكبيرة المثيرة .. تجربة الحياة ذاتها وهما على ثقة بانهما لن يدخرا جهدا في سبيل بناء حياة سعيدة تعتمد قبل كل شيء على التفاهم المتبادل بينهما !

ولكن نورمان فنسنت بيل الذي وضع عشرات الكتب في الزواج والسعادة وفنون الحياة لا يزعجه ما تقوله هذه الزوجة في زوجها ، فهو يحاول ان يفسر لنا ما حدث لها وما يحدث لزوجها .. ولماذا ؟

« كل الازواج والزوجات يكبرون في الزواج .. ومع الايام نرى انهم بدأوا يكتشفون اغوار « المجهول » .. او هكذا يخيل لهم ، هو يتصور انه يعرف زوجته ويفهمها .. وهي تقول انها تشعر ان هذا الرجل الذي تزوجته لم تعرفه الآن فقط ، وانما يبدو كما لو كان رفيقا لها في طفولتها وصباها وشبابها .. من هنا يكون وقع الصدمة شديدا عندما يحس احدهما أو كلاهما من خلال حادث بسيط او حوار عادي ، ان سحبا قاتمة ما زالت تملأ سماء هذه الحياة الجديدة .. فتقول هي : « غريب امر هذا الرجل انه ما زال لغزا » او يقول هو : « انني لا افهمها ، ولن افهمها ولو عشت معها مائة سنة ! »

ويمضي فنسنت بيل يحدثنا في كتابه « السعادة المفقودة » يقول : « ولعل الزوج كان اصدق تعبيرا عن مشاعره وأحاسيسه .. فهو صادق عندما قال انه لن يفهم امرأته ولو عاش معها دهرا .. فليس هناك رجل .. اى رجل يستطيع ان يشرح لنا شعور الأم وهي حامل .. او وهي ترضع طفلها .. اجمل واروع ما في الحياة من معان .. الأم وحدها او من كانت أما مثلها هي التي تعرف .. وقد يفسر لنا هذا لماذا تكون العلاقة اقوى ما تكون بين الأم وابنتها .. لان كلتيهما مرت بهذه التجربة .. الثانية جديدة على تجربتها او تجربتها جديدة عليها ، من اجل ذلك يكون هذا الاتصال الدائم بينها .. وحتى لو حاول الزوج ان يفهم من خلال قراءاته لعلماء النفس والكتاب الذين عكفوا على سبر اغوار النفس البشرية .. فسوف يجد نفسه في نهاية الامر



اكثر حيرة كلما اراد ان يفهم هذا المعنى الكبير العميق الذى تحمله قصة الخلق ..

هل هي الغيرة !

« ثم هناك تلك الفوارق السيكولوجية بين شخصية المرأة ومزاجها وبين تلك التي تميز الرجل عنها .. فهي تميل بطبعها وتكوينها الى ان تكون دائما الصدر الحنون الذى يوفر الحب والحنان لصغارها في البيت ، بينما يجد الرجل نفسه دون ان يشعر ، منافسا لها لانه لا يرتاح كثيرا الى هذه الصحبة التي يراها تزداد قوة بين ابنائه وامهم .. وصفها البعض بانها نوع من « الغيرة » ووصفها البعض بانها رغبة في التملك .. وقال عنها الكثيرون انه هذا الشعور الذى يسيطر على الرجل بانه « السيد » ، ولا شك ان عاطفة الامومة اقوى من هذه « السيادة » التي يريد ان يحرص عليها حتى وهو يرى اطفاله يرفضونها !

« والطفل بذكائه الفطرى يستطيع ان يرى هذا الفارق الواضح في سنى حياته الاولى ، وتكبر معه هذه الرؤية كلما كبر ، فتراه يدأب على اللجوء الى امه اذا احس انه اخطأ .. لأنه يشعر انه سيكون في امان بين يديها وانها قد تستطيع ان تهدىء من ثورة الاب عندما يعلم بانه اخطأ !

« اشياء صغيرة تحدث في بداية محاولات الاطفال وهم يستكشفون هذا العالم المجهول الغريب من حولهم .. ولكن صورها تظل عالقة باذهانهم لاتفارقها .. الطفل الذى يكسر لوح الزجاج الكبير وهو يلعب الكرة في حديقة البيت .. انه يلجأ الى امه يروى لها ما حدث .. وتنزعج الام للحادث ، وتسأل طفلها في لهفة : « وانت ، هل انت بخير .. لم يصبك مكروه ! » ولا تطمئن قبل ان تتاكد من ان شظايا الزجاج المكسور لم تصل اليه ولم تصبه باذى ....

« ويصل الخبر الى الاب ويعرف به ، فتجده يصيح في وجه ابنه بسبب اهماله ، وربما خصم ثمن لوح الزجاج الجديد من مصروف جيبه ! »

« مثل هذا الحادث الصغير يترك اثره في نفس الطفل ، الذى تراه يزداد اقترابا من امه على مر السنين كلما وجد من ابيه عزوفا عن تقبل اى عذر لاى خطأ وقع فيه مهما كان صغيرا .. وربما كان هذا الاختلاف الكبير في رد الفعل الذى تحدثه اخطاء الابناء عند الامهات والاباء من ابرز الاسباب التي تجعلهم يحسون بانهم يعيشون غرباء تحت سقف واحد ! »

الحياة ليست ارقاما !

ويتساءل فنسنت بيل : « هل المرأة اقل ذكاء من الرجل ؟ ثم يجيب على تساؤله بعلامات مؤشرة تؤكد ان المرأة لا تقل ذكاء عن الرجل .. ولكنها تستخدم ذكاءها بصورة تختلف تماما عن زوجها . فقد دلت اختبارات

الذكاء التي اجريت للزوجين على تفوق المرأة وحصولها على رصيد اكبر من العلامات في الاسئلة التي تدور حول سلوك الانسان في الحياة ، بينما كان تفوق الزوج في الارقام وكل ما يتصل بها .. والحياة لم تكن ابدا ارقاما وحسب !

« من هنا نجد ان كلا من الجنسين ينظر الى الآخر من وراء حواجز تتكون في الاساس من مجموعة من المشاعر الفسيولوجية والاحاسيس الانسانية .. المهم ان احدا منهما لا يستطيع ، كما تؤكد التجارب ، ان يشرح للآخر حقيقة هذه الانفعالات التي تعمل في صدره ، بل ان معظم الزوجات والازواج لايدركون اسباب وجودها ودوافعها .. فهي اشياء في داخلهم ثم هي جزء اساسي من تكوينهم ، ومن هنا يكون الاحساس بخيبة الامل عندما تجد الزوجة ، من خلال موقف معين ، ان زوجها لا يفهمها ، او عندما يكتشف الزوج ان زوجته ترى رأيا آخر غير الذي يراه هو ..ناسين تماما ان ما حدث ويحدث بينهما ، انما جاء نتيجة للاختلاف الاساسي في تكوين شخصيتيهما . او الاختلاف بين طبيعة الرجل وطبيعة المرأة .

الارسال والاستقبال !

« ومهما كانت قوة الرغبة في اقامة اتصال تام بين الجانبين .. فاننا مرة اخرى نجد ان كلا من الجنسين لا يبعث للآخر بغير الرسائل التي اعد نفسيا لارسالها ولا يستقبل غير تلك التي يتوقع استقبالها .. فالزوجة ، التي تقع بالرغم منها تحت سيطرة التوتر الذي يسبق الدورة الشهرية ، وهو تغير طبيعي في مزاج المرأة ، هذه الزوجة تشعر بالوحدة والغضب احيانا عندما تسمع زوجها وهو يطلب اليها في حدة ان تتخلص من هذا الشعور بالكآبة الذي انتابها ، وهي التي كانت تتوقع منه ان يكون أكثر اقترابا منها وعطفا عليها خلال هذه الفترة التي تمر بها .. وهكذا نجد ان جهازي الارسال والاستقبال عند الزوجين قد تعطلا .. او أن الرسائل بينهما قد ضلت طريقها !

يروي فنسنت بيل قصة الزوجة الشابة التي جاءته يوما تشكو .. فهي لم تعد تحتمل الحياة مع رجل يرى الليل نهارا ويقسم بان الشمس تشرق من الغرب !

الليل والنهار !

ويقول الرجل الذي قضى جانبا كبيرا من حياته في حل مشاكل الناس : « كان واضحا انها تتمتع بشخصية قوية ، الى جانب ماحباها الله من جمال النفس والروح .. وقالت وهي تحاول ان تحبس دموعها حتى لا تبدو ضعيفة وهي تمضي في سرد قصتها مع الرجل الذي احبته وتوقعت ان تجد معه السعادة التي تتوق لها كل فتاة قبل الزواج : « فقط عندما ارى معه الليل في النهار ، وعندما استعد لاستقبال اشعة الشمس مرة اخرى عند الغروب ، يبدأ زوجي يرى ما ارى ..بماذا تفسر هذا الذي يحدث ياسيدي ؟ »

« وتطلعت الى وجهها فرأيت شبح ابتسامة حاولت ان تخفيها ولكنني تظاهرت بانني لم ارها .. وقلت اسألها : « هل تحبين زوجك ؟ » قالت : « نعم .. ولكننا نختلف كثيرا .. اننا لا نرى نفس الصورة ابدا ! »

« ولم اكن في حاجة بعد ذلك لان اكتشف انني امام امرأة على جانب كبير من الذكاءوأنها تستخدم ذكاءها في معالجة كل موقف تتعرض له اسرتها الصغيرة .. هكذا فهمت من حديثها .. وان زوجها يقف في كثير من الاحيان متفرجا لا لانه لا يريد ان يشارك في حل المشاكل الصغيرة او الكبيرة التي تصادف اسرته ، ولكن لان عمله ياخذ معظم وقته .. ثم يكون الاصطدام عندما يسمح وقت الزوج بمواجهة احدى هذه المشاكل عندما يبتعد عن عمله ويفرغ من مشاغله .. فهي قد تعودت على معالجة مشاكل الاسرة ، وهو يشعر بوجوده في قلب المشكلة ومن حقه ان يحلها .. فهو الرجل .. وقد يكون متفقا تماما مع ما تراه زوجته .. ولكن لماذا لا ينفرد مرة برأي معين في موقف معين .. وهكذا ينقلب النهار الى ليل ويصر الرجل على ان هذا الذي يراه امامه ليس ابيض ولكنه اسود حالك السواد ! هذا لا يعني ياسيدتي ان زوجك لا يحبك ... ولكنه يعني انك لا تحاولين ان تشعري زوجك بأنك في حاجة اليه .. في حاجة لرأيه وذراعه القوية وحمايته .. الرجل يعجب دائما بالمرأة الذكية .. والمرأة الذكية هي التي تجعل زوجها يشعر دائما بانه اكثر منها ذكاء ! »

شيء من الماضي !

ويمضي فنسنت بيل يفسر لنا اسباب الاختلافات بين الرجل والمرأة اليوم : « منذ زمن ليس ببعيد ، كان الزوجان يقيمان الجسور بينهما وقلما كنا نجد احدهما يقف على شاطيء بينما يقف الثاني على شاطيء آخر .. لانهما كانا يحرصان على الزواج من نفس البيئة التي ينتمي اليها كل منهما .. ويعتنقان نفس الديانة وينتميان الى

نفس الطبقة .. اما اليوم فقد اصبحت هذه التقاليد عند الكثرين مجرد شيء يمت للماضي ولا صلة له بالحاضر الذي نعيشه .. قد يكون هذا احد الاسباب ، ولكنه ليس كلها .. فنحن قد سلمنا بالحقيقة الواضحة وهي ان الرجال والنساء يولدون اغرابا بفضل تلك الاختلافات الخلقية المتوارثة في العقل وفي التكوين الجسماني .. وهم يكبرون غرباء .. ويلتقون ويتزوجون وهم ما زالوا غرباء .. فليس هناك رجل واحد استطاع ان يقول بثقة بعد الزواج : « لقد نجحت في ان افهم فتاتي قبل ان اتزوجها ! » ولم تتقدم امرأة واحدة بعد الزواج لتقول : « كان زوجي كتابا مفتوحا قرأت كل صفحاته قبل ان اتزوجه ! » ولكن لماذا يبقى الزوجان غريبين عن بعضهما بعد الزواج .. الا تكفي الاربع والعشرين ساعة التي يقضيانها في الفة وصداقة في هدم الحواجز التي لا تزال قائمة بينها ؟

« والمشكلة تكمن في عبارة واحدة تفسر لنا اسباب المتاعب التي يشكو منها الزوجان ..وهي عدم القدرة على فهم وتقدير الظروف التي يمر بها كل منهما في ساعة معينة في موقف معين .. او عدم الرغبة في اظهار هذا التقدير والتعاطف .. فالزوج الذي يعود من عمله مثقلا بهموم هذا العمل ومتاعبه يتوقع من زوجته شيئا من التقدير لهذا المجهود ، فلا تحدثه عن متاعبها هي ومشاكلها هي مع الاطفال والجيران .. وكذلك الزوجة المتعبه بمشاغلها في البيت ، ترضيها كلمة اعجاب بطبق الطعام اللذيذ الذي اعدته لزوجها واطفالها !

اختلطت الادوار

« ان الحياة العصرية ومتطلباتها زادت من تعقيد الامور ، ففي الماضي كان هناك خط واضح يفصل بين واجبات الرجل والمرأة في البيت وفي خارج البيت . اما اليوم فقد اختلطت الادوار ، ولم يعد هناك عمل خاص بالمرأة وحدها .. وآخر من صميم اختصاص الرجل .. فقد يبقى الزوج بعد انتهاء عمله في البيت ليرعى الاطفال لأن زوجته الطبيبة مشغولة بعلاج المرضى في المستشفى او في عيادتها الخاصة .. وقد يدخل المطبخ ليعد وجبة شهية لأسرته ، بينا تجلس الزوجة الى مكتبها لانهاء الفصول الاخيرة في كتابها الذي تعده للنشر .. لقد تهاوى الجدار الفاصل بين واجبات الرجل والمرأة .. ولم يعد هناك سلوك خاص بالمرأة وحدها .. وسلوك آخر لا يجوز لغير الرجال ! ومع هذا الاختلاط في الادوار والواجبات والحقوق اختلط الامر على الرجال ، وازدادت المحاولات التي يبذلها كل من الجانبين لفهم الاخر تعقيدا واضطرابا ..

هل هي دعوة من الكاتب لعودة المرأة الى البيت ؟

يقول فنسنت بيل : « لا .. لانه بالرغم من هذا كله فهناك مجالات اخرى كثيرة يستطيع الزوجان من خلالها العمل على تضييق الفجوة بينهما مهما كانت ظروف حياتها وعملها . يجب ان يحاول كل منهما ان يفهم الآخر ، وان يكون واضحا وصريحا معه .. اننا نميل احيانا الى القول بان هؤلاء الذين لا يشعرون بما يحدث في داخلنا قد فقدوا الشعور بوجودنا ، أو « مادام هو لا يعلم ، فلن اقول له شيئا ! » اذا تكلمنا انتهت المشكلة قبل أن تبدأ .. فلا شيء اقوى من التفاهم والتعاطف المتبادل بين الرجل وامرأته .. وبقدر من الحب والتسامح بين الاثنين يستطيع الزوجان عبور جسر الحياة » . ■■

● افضل ان اتزوج رجلا احترمه على ان اتزوج رجلا احبه !

« بيرل باك »

● انني في صراع مستمر مع الوقت .. فهو اقصر من ان يمكنني ان افعل شيئا واطول مما استطيع تحمله عندما لا افعل شيئا !

« الملكة شارلوت »

● مع الغيرة لايجد المرء وقتا للشعور بالملل ، ولا الوقت الذي يشعر فيه بانه تقدم في السن !

« كوليت »

● العادة هي كلوروفورم الحب .. هي الاسمنت الذي يجمع بين الازواج .. هي الضباب الذي يخفي الاشياء الجميلة .. هي نهاية كل شيء !

« جنليف داربو »

● الغبي او الاحمق هو الذي يتوقع حدوث اشياء يستحيل حدوثها !

« جورج اليوت »

● البيت في النهاية هو افضل مكان تضطرب فيه الحياة !

« ليدي راسل »

ابن بطوطة الطنجي
أعظم الرحّل في العصور الوسطى

بقلم : محمد عبد الله عنان

يجب ان يعتبر ابن بطوطه ، ليس اعظم الرحّل المسلمين ،بل واعظم الرحّل قاطبة في العصور الوسطى .

وأود أن أذكر بادىء ذي بدء ، أنه بالرغم من وجود عدد كبير من الرحل المسلمين العظام ، الذين قاموا برحلاتهم الدراسية والكشفية قبل ابن بطوطة وبعده ، مثل الاصطخري والمسعودي ، وابن حوقل ، ويحيى الغزال ، والادريسي ، وابن جبير ، وابن الرومية ، وعبد الباسط بن خليل المصري ، والعياشي ، وغيرهم ، فان ابن بطوطة يتفوق عليهم جميعا من سائر الوجوه الدراسية والزمنية والكشفية والوصفية وغيرها .

وابن بطوطة هو محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم ابن عبد الرحمن بن يوسف اللواتي الطنجي . فهو ينتمي اذا الى قبيلة لواتة البربرية . وقد ولد بطنجة أجمل ثغور المغرب في سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣م) في أسرة متواضعة . ودرس دراسة يسيرة ، وغادر بلده طنجة في شهر رجب سنة ٧٢٥هـ ـ ١٣٢٥ ، وهو فتى في الثانية والعشرين من عمره ، تدفعه رغبة مضطرمة الى زيارة البقاع المقدسة وحج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر رسوله العظيم . وقد كانت رحلة الحاج يومئذ من أقصى المغرب الى أواسط المشرق ، بما يتخللها من الصحارى العظيمة ، والبحار الزاخرة ، مغامرة عظيمة ، لايستطيع الاضطلاع بها سوى الموسرين والقادرين .

وخرج الفتى الطنجي من بلده لايحمل معه سوى القليل من المال والعدة ، معتمدا على كرم الكفالة والأخوة الاسلامية ، ثم بعد ذلك على كرم الزيارة ، التي اشتهرت بها المجتمعات الاسلامية التي كانت يومئذ تكاد تكون وحدة متصلة الحلقات ، المغرب بأقطاره وحواضره المتوالية من فاس ومراكش الى حواضره الوسطى تلمسان وبجاية وقسنطينة ، ثم الى حاضرته الأخيرة الزاهرة ، تونس ، ولم يكن يجول بخاطر الرحالة الفتى حينما خرج من مسقط رأسه طنجة ، الى تحقيق تلك الأمنية العظيمة التي يلخصها لنا في رحلته في أنه خرج « معتمداً حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفردا عن رفيق أنس بصحبته ، وركب أكون في جملته لباعث من النفس شديد العزائم » ، بل وهو لايخفي علينا أنه حينما وصل الى تونس ولم يسلم عليه أحد لغربته وجد من ذلك في النفس ما لم يملك معه سوابق العبرة » ، واشتد بكاؤه . ثم ارتحل في ركب الحاج الى طرابلس ونزل بالاسكندرية ، التي يصفها بأنها « الثغر المحروس والقصر المأنوس » .

في حب القاهره

وكان أعظم منظر وقعت عليه عينا الرحالة ، مذ خرج من طنجة ، مدينة القاهرة ، أعظم حواضر الاسلام يومئذ . وهو يصفها لنا في تلك العبارات الشعرية : « ثم وصلت الى مدينة مصر أم البلاد ، وقرارة فرعون ذي الاوتاد ، ذات الأقاليم العريضه ، والبلاد الأريضة ، المتناهية في كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ،



بجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها ، شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لايبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرتها الأمم ، وتمكنت ملوكها نواحي العرب والعجم » .

وقد شاهد الرحالة ، سائر معالم القاهرة ، وآثارها الشهيرة ، وطاف بسائر أقاليم مصر البحرية والقبلية . وقدم لنا عن مشاهداته روايات وأوصافا ، شائقة .

ثم انحدر الى صعيد مصر ، وشاهد ما به من الآثار المصرية القديمة ، وعاد الى الشمال عن طريق الصحراء الشرقية بحذاء البحر الأحمر ، ثم اخترق سيناء الى فلسطين ، وزار بيت المقدس وسائر بلاد الشام ، ثم عاد الى دمشق ، وفكر لأول مرة في أن يقضي فريضة الحج ، التي خرج من مسقط رأسه لقضائها ، فخرج من دمشق في ركب الحاج ، وظفر بتحقيق بغيته من قضاء الفريضة والتبرك بزيارة الحرمين وسائر البقاع والمشاهد المقدسة ، وهو يقدم لنا عن مشاهداته في تلك البقاع المباركة أوصافا ضافية تنم عن الاجلال والخشوع .

ويبدو أن ابن بطوطة ، يفكر هنا لأول مرة في

الانقطاع الى السفر والرحلة وطواف ذلك العالم الذي كانت الأمم الاسلامية تشغل يومئذ معظم رقاعه . بيد أنه كانت تقع وراء ذلك العالم الاسلامي العريض ، أمم أخرى غير اسلامية . ولا يشغل الاسلام من تكوينها سوى أحواز ضئيلة مثل الهند والصين ، وجزائر الهند الشرقية وما اليها . وكان ابن بطوطة يتصور هذا العالم في مخيلته الفتية ويتصور أنه يستحق أن يبذل حياة كاملة في سبيل اختراقه . والكشف عن معالمه وخصائصه وعجائبه . هذا الى أن العالم الاسلامي يشمل الى جانب الأمم العربية ، أمما اسلامية عديدة أخرى ، تختلف في اقليمها وطبيعتها كل الاختلاف ، ومعظمها يتحدث الفارسية أو التركية ، ولم تفت ابن بطوطة أهمية التخاطب بلغة القوم ، فعكف على تعلم هاتين اللغتين ، وقد كانت الفارسية فيما بعد فضلا عن أهميتها في الطواف ببلاد فارس وطبرستان وأفغانستان ، سلاحا للرحالة في طوافه في معظم المجتمعات الهندية .

بيد أن الرحالة قرر أن يقوم أولا بالطواف بباقي العالم العربي . فجاز نجدا والصحراء العربية الى العراق ، ثم جاز الفرات ودجلة الى العراق الفارسي وزار شيراز وأصبهان ثم عاد فعبر النهرين من الشمال ثانية الى العراق العربي وزار بغداد وأقام بها زمنا يدرس آثارها ومجتمعاتها ، وكانت بغداد قد فقدت يومئذ كل بهائها السالف ، منذ دخلها التتار وقتل بها المستعصم آخر خلفاء بني العباس (٦٠٦هـ) . ثم غادر بغداد الى الموصل ، ثم نصيبين ثم سنجار . وكانت مدائن هذه المنطقة تقع يومئذ تحت حكم الأمراء السلاجقة ، ولكل مدينة أو حاضرة ملك أو أمير . وهنا ، يعود ابن بطوطة الى مكة ، مريضا منهوكا ، فيستجم بها عاما ، ويجاور بها عاما آخر . ويلوح لنا أن الرحالة ، في تلك الفترة ، قد استقر عزمه نهائيا على طواف العالم ، وقد عكف على الاختلاط بكثير من الحاج الذين يفدون الى مكة من سائر الأنحاء ، ووقف منهم على كثير من المعلومات عن مختلف الأقطار الاسلامية ، التي يفكر في الرحلة اليها .

وأتم ابن بطوطة برنامج رحلته الى البلاد العربية بالسفر جنوبا الى اليمن ، فبلاد الصومال ، ثم طاف ساحل البحر العربي حتى عمان والبحرين . ثم اخترق الصحراء ثانية الى مكة وحج للمرة الثالثة ، والتقى هنالك بالملك الناصر سلطان مصر . ثم ركب البحر الأحمر الى السودان ، واخترق بلاد النوبة فصعيد مصر الى القاهرة . ولم يمكث بها طويلا . بل تابع سفره الى الشام ، وركب البحر من اللاذقية فوصل الى بر « تركية » أو ساحل الأناضول وكان ذلك في سنة ٧٣٣هـ ١٣٣٣م) .

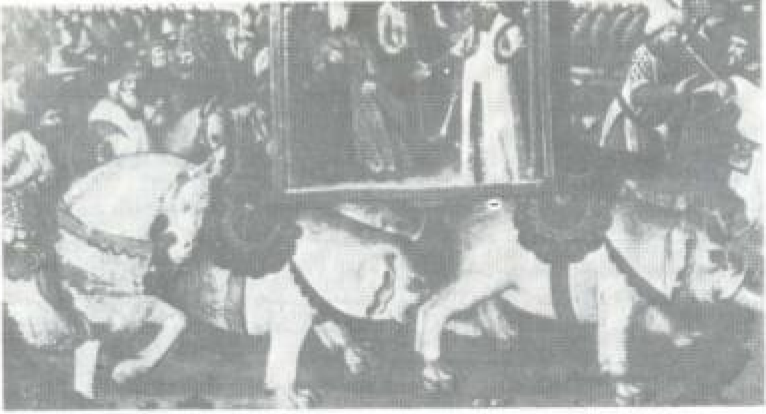
وفي القسطنطينه العظمى

وكانت آسيا الصغرى ، تموج يومئذ بالأمراء السلاجقة . ولكن قبيلة عثمان كانت قد بدأت تظهر عليهم جميعا . وكانت بورصة عاصمة العثمانيين يومئذ ، وملكهم على عهد قدوم الرحالة ، أورخان ولد عثمان . وكان في الأناضول غير بني عثمان ، عدة ملوك أقوياء آخر منهم أوزبك خان ملك الولايات الشمالية . وكان الاسلام قد ساد معظم هذه الأنحاء يومئذ . ولكن دولة الاسلام فيها كانت جديدة ، فكانت هذه المجتمعات غريبة في روحها ورسومها ، وتقاليدها عن أي مجتمع شهده الرحالة من قبل ، كذلك كان الاقليم غريبا والطبيعة أغرب ، فاخترق الرحالة مفاوز الأناضول من شرقه الى غربه ومن جنوبه الى شماله ، وأفاض في وصف ما رأى ولاحظ من جغرافية ونظم وطبائع ، ومحاصيل ، وعادات وأخلاق . ثم اخترق أراضي السلطان أوزبك خان الى ضفاف البوسفور مع جماعة أوفدها هذا السلطان الى امبراطور بيزنطية .

وكان الجالس على عرش قسطنطين يوم أن وفد الرحالة المسلم على بيزنطية ، الامبراطور أندرنيكوس الثالث أو الأصغر ، وكان قد ارتقى العرش في سنة ١٣٢٨م . وكان قدوم ابن بطوطة اليها كما قدمنا في ركب أرسله السلطان أوزبك خان بصحبة زوجه الخاتون (بيلون) ابنة الامبراطور ، وكانت ذاهبة لزيارة أبيها في قسطنطينية فسافر الرحالة في ركبها معززا مكرما وأشرف على مدينة قسطنطين بعد رحلة دامت زهاء شهر في البر

مشهد يصور حانة عامة في دمشق ورد ذكرها في مقامات الحريري والحانة من طابقين .. العلوي لسروات الناس والسفلي لعامة الناس .





«الخان الاعظم اى خان المغول تحدث عنه ابن بطوطة في رحلاته .. والصورة تصوره خارجا للصيد جالسا في محمله على ظهور الفيلة . « من كتاب عجائب الهند في القرن ١٥ »

والبحر . فدخلها مع الركب الملكي في ظهر يوم من أيام سنة ٧٣٢هـ - ١٣٣٢م ، ويصف الرحالة لنا دخوله اليها في تلك الفترة الشائقة ، وهي أهم وأوفى مالدينا من أقوال الرحل المسلمين :

تفتيش واجب

« وكان دخولنا عند الزوال أو بعده الى القسطنطينية العظمى . وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاف أصواتها . ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك ، وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانه وسمعتهم يقولون : سراكنو سراكنو ، ومعناه المسلمون » . ثم يصف مقابلته للامبراطور فيما يأتي .

« وفي اليوم الرابع بعثت الي الخاتون الفتى سنبل الهندي ، فأخذ بيدي وأدخلني الى القصر . فجزنا أربعة أبواب في كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم ، فلما وصلنا الى الباب الخامس ، تركني الفتى سنبل ودخل . ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ، ففتشوني لئلايكون معي سكين ، وقال لي القائد . تلك عادة لهم لابد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام ، غريب أو بلدي . ثم قام الموكل بالباب فأخذ بيدي ، وفتح الباب ، وأحاط بي أربعة من الرجال ، أمسك اثنان بكمي واثنان من ورائي ، فدخلوا بي الى مشور كبير ، حيطانه بالفسيفساء ، قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد . وفي وسطه ساقية ماء ، ومن جهتيها الأشجار ، والناس واقفون يمينا ويسارا ، سكوتا لايتكلم أحد منهم . وفي وسط المشور ثلاثة رجال وقوف ، أسلمني أولئك الاربعة اليهم ، فأمسكوا بثيابي ، كما فعل الاخرون ، وأشار اليهم رجل ، فتقدموا بي ، وكان أحدهم يهوديا فقال بالعربي : لاتخف وأنا الترجمان . ثم وصلت الى قبة عظيمة ، والسلطان على سريره ، وزوجته بين يديه ، وعن يمينه ستة رجال ، وعن يساره أربعة وثلهم بالسلاح ، فأشار الي قبل السلام والوصول اليه بالجلوس هنيهة ليستقر روعي ، ففعلت ذلك . ... وصلت اليه فسلمت عليه ، وأشار الي أن أجلس . فلم افعل . وسألني عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة ، وعن القمامة ،وعن مهد عيسى وبيت لحم ، وعن مدينة الخليل ، ثم عن دمشق ومصر والعراق ، وبلاد الروم ، فأجبته عن كل ذلك ، واليهودي يترجم بيني وبينه ، فأعجبه كلامي ، وقال لأولاده ، أكرموا هذا الرجل وأمنوه ، ثم خلع علي خلعة ، وأمرلي بفرس مسرج ملجم ، ومظلة وهي علامة الأمان .

وكانت القسطنطينية قد فقدت يومئذ كثيرا من فخامتها السالفة ، وكان الفرنج الصليبيون قد اقتحموها قبل ذلك بقرن وربع ، وعاثوا في أنحائها ، وخربوا كثيرا من قصورها وكنائسها ، وأحرقت أثناء الحرب مرارا . على أنها كانت أعظم وأروع منظر شاهده الرحالة في سائر رحلاته ، وأعظم وأروع ما تأثر به من مشاهد العمارة والحضارة المتناهية المتألقة ، وربما استطعنا أن نضع القاهرة في المرتبة الثانية بعد قسطنطينية في هذا المضمار . ويصف لنا الرحالة واقع المدينة وصفا يشهدله بعمق البحث والدقة . اذ يقول « وهي متناهية في الكبر ، منقسمة الى قسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر (يقصد القرن الذهبي) . - وأحد القسمين من المدينة يسمى أصطنبول ، وهو بالعدوة الشرقية من النهر ، وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس ، واسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة . والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر ، وفي أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان ، والسور يحيط بهذا الجبل ، وهو مانع لاسبيل اليه من جهة البحر ، والكنيسة العظمى « أياصوفيا » هي في وسط هذا القسم . وأما القسم الثاني فيسمى « الغلطة » وهو

بالعدوة الغربية . وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج، ومنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومة وأهل افرانسة ... » . ويفيض الرحالة في وصف الكنيسة العظمى : « أياصوفيا » ، والمنستارات (الاديار) التي كانت تغص بها قسطنطينية يومئذ ، ويصف رسومها وأحوالها وسكانها من رهبان وعذارى ، وقد دخلها وطاف بها باذن خاص من الامبراطور .

وأقام الرحالة في مدينة قسطنطين عدة أسابيع ، ثم غادرها وقد بهرته الحضارة اليونانية وآيات عمرانها وفخامتها ، وما كانت تبدي من ترف عظيم كان يقضم يومئذ أسس المجتمع البيزنطي .

تحفة النظار في غرائب الامصار

واتجه ابن بطوطة ، بعد اختراق الأناضول الى بلاد التركستان ، ونزل بخوارزم ، ثم قصد بخارى ، وطاف بمدن هذه المنطقة . ثم انحدر جنوبا الى السند ، واتجه الى اقاليم الهند الشمالية ، وسلطانها يومئذ أحمد شاه صاحب بلاط دهلي ، فرحب به وولاه القضاء ، واستعمله في السفارات أعواما . وتقلب ابن بطوطة في الهند وممالكها وبحارها وجزائرها أعواما طويلة . ثم غادرها شرقا الى جزائر الهند الشرقية جاوه وسومطره ، واتجه بعد ذلك شمالا الى جنوب الصين . وهو يصف لنا طبيعتها ومجتمعاتها . بيد أنه لم يتوغل نحو الشمال الاقليلا . ثم عاد الى جاوه ، واخترق المحيط الهندي ، ثم اخترق الهند ثانية ، وركب البحر من شاطىء السند الجنوبي . ثم اخترق فارس والعراق والشام ومصر عائدا الى وطنه ، وركب البحر من تونس ، فطاف بسردانية . ثم اخترق المغرب الى فاس ، فوصلها في سنة ٧٥٣هـ ـ ١٣٥٢م أعني بعد أن سلخ زهاء ربع قرن في الطواف حول الأرض ، وذلك في عهد السلطان ، أبي عنان المريني . ثم قصد الى طنجة مسقط رأسه ، وزار قبر والدته ، ثم عبر البحر الى الأندلس ، وطاف بثغورها وقواعدها ، وزار غرناطة في عهد السلطان أبي الحجاج يوسف ، وتعرف بعلمائها وفقهائها .

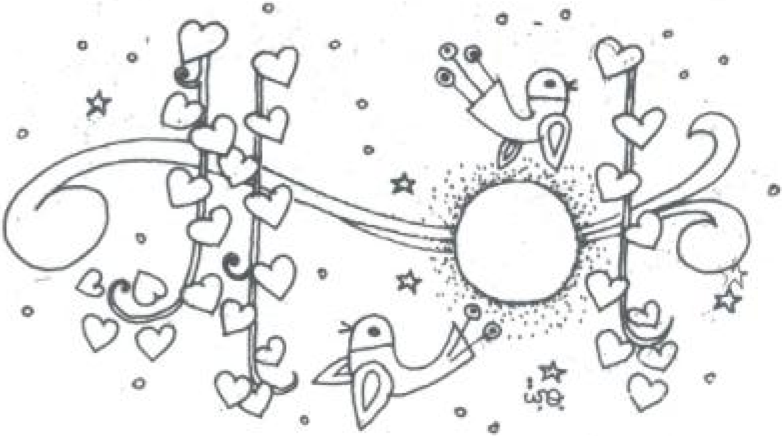
ثم جاز البحر ثانية الى المغرب . وقصد الى الجنوب فتوغل في الصحراء الكبرى وفي أعماق السودان الغربي ، وتجول في الممالك السوداء التي كانت مزدهرة يومئذ في غرب جنوبي الصحراء ، وأهمها مملكة مالي الكبرى . وعرج في طريقه الى مدينة تنبكتو . وابن بطوطة يعتبر صاحب الفضل الأول في استكشاف هذه المنطقة ، وهو يقدم لنا عن ممالكها ، وأحوال شعوبها بيانات ضافية . وان فضل الرحالة المسلم ليبدو واضحا ، متى ذكرنا ان الرواد الاوربيين ، لم يستطيعوا النفاذ الى تلك المنطقة واستكشافها قبل أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، على يد الرحالة الانجليزي منجوبارك والرحالة الفرنسي رينه كاييه .

وحينما عاد ابن بطوطة من هذه الرحلة الأخيرة متجها نحو الشمال ، وصلته أثناء رجوعه اوامر السلطان ابي عنان بالعودة الى فاس ، فكر اليها راجعا ، واستقر بها بعد طول التجوال في سنة ٧٥٥هـ ـ ١٣٥٤م . وكان يومئذ كهلا في الثالثة والخمسين من عمره . وأمر السلطان أبو عنان بتدوين رحلته واختار لتدوينها كاتبا أديبا من مجلس علمه هو ابن جزي الكلبي وهو فقيه أندلسي التحق ببلاط بني مرين . وكان املاؤها في سنة ٧٥٦هـ بمدينة فاس . ويقول لنا ابن جزي انه نقل كلام الشيخ ابي عبد الله (ابن بطوطة) بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمناحي التي اعتمدها وربما أوردت لفظه على وضعه » . وهكذا دونت تلك الرحلة الشهيرة التي تعتبر تحفة من تحف الأدب العربي ، وأطلق عليها هذا الاسم الشائق : « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار » .

وندب السلطان أبو عنان ، الرحالة بعد ذلك ليتولى القضاء في ولاية السوس ، جنوبي المغرب ، فلبث في ولايته حتى وفاته في سنة ٧٧٦هـ ـ ١٣٧٤م .

ولامراء في أن ابن بطوطة هو أعظم الرحل المسلمين ، بل وأعظم رحل العصور الوسطى قاطبة . فقد أنفق بنفسه وبمفرده ، ودون الاعتاد على أية معاونة منظمة أو مقررة ، ثلاثين عاما كاملة في الطواف حول العالم المعروف يومئذ ، ولم تكن لديه لانجاز هذا التجوال العظيم سوى الوسائل البدائية ، من السير على الأقدام ، وركوب الدواب والسفن الشراعية . ولم يضطلع أي رحالة شرقي أو غربي في تلك العصور بمثل هذا التجوال الواسع الشامل بطريقة مستمرة . وقد ترك لنا أوصافا كاملة ، لذلك العالم الكبير المتعدد الأمم والشعوب ، والخواص الاقليمية والجغرافية واللغوية ، والحضارية . ولم يترك لنا أي رحالة شرقي أو غربي في العصور الوسطى ، مثل ذلك التراث العريض الزاخر ، الذي تركه لنا ابن بطوطة عن أوصاف وأحوال البلاد التي زارها ، وهي عالم ضخم مترامي الأطراف ، متباين الخواص واللغات واللهجات ■■

الرباط ـ محمد عبد الله عنان



صلاة في النرويج

بأي لحن ازف الناي للوتر … وكيف انظم عقد القول بالدرر ؟
بالأذرع الخضر فوق السفح ضارعة ؟ … قد استجابت لها قيثارة المطر ؟
ام نسمة فوق خد الماء ترعشه … بالسحر ؟ أم أن هذا السحر في النظر ؟
لا تسألن عن الساعات تنفقها … عند البحيرة ، والأصحاب في سمر
غشاهم الصمت والنشوى ، وقد صدحت … أنشودة الموج والانسام والزهر
اذ اذّن الظهر في الآفاق فانطلقت … ترجع الصوت اطيار على الشجر
حتى سجدنا على الأوراق اذ سقطت … في سندس سابح في لوحة القدر
ثم التفتنا نجيل الطرف في عجب … كيف القلوب هنا قدت من الحجر ؟
كيف الذين يرون الآية الكبرى … لا يخفضون رؤوس الكبر والبطر ؟
كيف الذين يرون الشمس بازغة … لا يبصرون ، كأن الليل في البصر .
سبحان ربي ، رأينا اليوم معجزة … ما أدركوها ، وقد طاروا الى القمر .
سبحان ربي ، قرأنا اليوم قرآنا … في صفحة ، ليست من عالم البشر .

محيي الدين عطية

الحاسب الآلي الصغير يبحث عن مكان في كل مكان .. فهل له سبيل الى بيتك .

ضيف جديد يقرع بابك

بقلم : الدكتور سعد الحاج بكري

ربما لم يحدث عبر التاريخ ان تسارعت التغيرات في حياة الانسان كما حدث في السنوات الاخيرة ، ومنذ بداية القرن العشرين .

وقد عودتنا التكنولوجيا الحديثة منذ دخلت حياة انسان هذا العصر ان تقدم الينا بين الحين والآخر صديقا جديدا من ابنائها . ولأن التكنولوجيا حصيلة علم ، والعلم نتاج التفكر والتدبر والحسابات الدقيقة ، فقد اتسم ابناؤها بالمزايا التي تؤهلهم لدخول الحياة من اوسع ابوابها . فكل صديق قدمته لنا التكنولوجيا كان قادرا على تقديم خدمات فيها فائدة او متعة او الاثنان معا . ولم تكن خدمات الأصدقاء الجدد ، من أبناء التكنولوجيا الحديثة مما يمكن اعتباره وقت حضوره من ضروريات الحياة . لكن قدرة التكنولوجيا على توفير هذه الخدمات لكل الناس ، أفسحت المجال امام هؤلاء الاصدقاء للتدخل في مختلف شؤون الحياة ، وفي كثير من الاحيان لدخول كل منزل والاقامة الدائمة فيه . حتى اصبحت خدمات أبناء التكنولوجيا جزءا من الحياة اليومية لكل فرد ومن الضروريات المألوفة التي لا يمكن الاستغناء عنها

ومنازلنا شاهد على ذلك . فمع بداية هذا القرن اتت التكنولوجيا الينا باحد ابنائها الاوائل : الهاتف . وقد كان هذا الجهاز في ذلك الوقت اعجوبة نادرة ، بالرغم من انه كان محدودا في مقدرته على نقل الاصوات عبر المسافات البعيدة بالمقارنة بما نعرفه اليوم ، ولاقى الجهاز كل النجاح ، فاذا بعدد من أجهزة الهاتف في العالم يتزايد باطراد ليبلغ اليوم ثلاثمئة مليون جهاز .

وبعد الهاتف جاءت التكنولوجيا بالمذياع لينقل الينا اخبار العالم وينشر الافكار والالحان المختلفة . ثم وصل الينا التلفزيون ليحتل وبسرعة ركنا اساسيا في معظم المنازل وفي جميع انحاء العالم . والتلفزيون كالمذياع يعطي مايريد له اصحاب محطات البث ان يعطي ، فهو تارة المرشد الواعظ والمدرس الناجح من العلوم والاداب ، وهو تارة اخرى الصديق اللعوب يدعوك الى المسارح والاحتفالات والتمثيليات المختلفة

واليوم تقرع التكنولوجيا باب منازلنا ومعها وليد جديد من ابنائها هو الحاسب الالي الصغير Microcmputer من هو هذا الضيف الجديد .. وهل له من مكان في منازلنا .. وهل ستنجح التكنولوجيا في توسيع انتاجه واستعماله كما نجحت مع الهاتف والتلفزيون وأجهزة أخرى كثيرة سبقته .. ؟

واي جهاز تأتي به التكنولوجيا الى منازلنا يمر في طريقه الينا بأربع مراحل . تبدأ المرحلة الاولى بتمنيات تليها افكار لترجمة هذه التمنيات الى حقيقة واقعة . ثم تأتي المرحلة الثانية لتكون مرحلة اختبار للأفكار وتجارب لوضعها موضع التنفيذ العملي . فاذا ما تحقق المطلوب ، تبدأ مرحلة الانتاج المحدود واختبار الاسواق . وترافق هذه المرحلة عادة ، عمليات دعائية موجهة للزبون المطلوب . وغالبا ما يكون الانتشار في هذه المرحلة محدودا لعدم توفر الخبرة الكافية لدى الراغبين حول



الخدمات التي يقدمها الجهاز المعروض . ويكون سعر الجهاز في هذه المرحلة مرتفعا نسبيا في معظم الاحيان . فاذا ماتجح الجهاز في الاسواق بدأت المرحلة الرابعة وهي مرحلة توسيع الانتاج . وفي هذه المرحلة يخضع الجهاز الى التطوير المستمر في الخدمات والشكل وتجري البحوث لخفض كلفته كي تحافظ التكنولوجيا المنتجة على حياتها وتحقق طموحاتها .

لقد اجتاز الحاسب الآلي معظم المراحل السابقة وهو الآن في المرحلة الرابعة يشق طريقه باندفاع هائل . فقد تمكنت التكنولوجيا من تجهيزه بالقدرة على أداء العديد من الخدمات المناسبه للكثير من الناس . كما انها استطاعت تحسين فاعليته واعطائه شكلا صغيرا مناسبا وجعل كلفته في متناول معظم راغبيه .

رحلة الحاسب الصغير

قبل مايزيد على الثلاثين سنة بقليل بدأت رحلة التكنولوجيا مع الحاسب الآلي الذي يحلم اليوم في ان يملأ الدنيا ويشغل الناس . وقد جذبت قدرات هذا الجهاز اهتمام الكثيرين منذ البداية . لكن الصعوبات التي كان يعاني منها كانت تحول دون التوسع في انتشاره . فقد كان هائل الحجم وشديد التعقيد ومرتفع الكلفة وكثير الاعطال ، لايقترب منه الا الخبير المتدرب . فالحاسب الآلي ENIAC الذي استخدم في حسابات احصائيات السكان في الولايات المتحدة عام ١٩٥٠ ، كان يحتوي على ثمانية عشر الف صمام الكتروني مفرغ من الهواء ، تشكل في مجموعها دوائر الكترونية تتحكم بالتيار الكهربائي وتقوم باجراء الحسابات . وكان يزن ثلاثين طنا ويحتل مساحة تتجاوز مئتي متر مربع ، كما انه كان معرضا للتوقف المتكرر بسبب حياة العمل المحدودة للصمامات الالكترونية .

مع بداية الخمسينات استطاعت التكنولوجيا انتاج بديل للصمام المفرغ هو الترانزستور . وكان هذا الترانزستور ذا كلفة اقل وحياة اطول وحجم اصغر . فهو عبارة عن قطعة صغيرة من انصاف النواقل Semi Conductor كالسيليكون ، او الجرمانيوم ، اضيف اليها القليل من الشوائب كي تؤدي عمل الصمام الالكتروني . وبواسطة هذا البديل الجديد بدأ الحاسب الآلي يتقلص حجما وكلفة ويزداد فاعلية .

وفي عام ١٩٥٩ نجحت التكنولوجيا في تطوير نوع جديد من الدوائر الالكترونية هو دوائر التكامل ذات المجال المتسع LSI ، وهو النوع الذي لم ياخذ طريقه الى الاسواق حتى عام ١٩٧٠ . وهذه الدوائر هي قطع صغيرة من انصاف النواقل التي يصنع منها الترانزستور . ويمكن لكل قطعة صغيرة تحتل مساحة قدرها سنتيمتر مربع واحد ان تؤدي عمل دوائر الكترونية تتكون من آلاف من الترانزستورات او الصمامات المفرغة .

وبامكان التكنولوجيا اليوم صنع دوائر تكامل تحتوى على مئة الف ترانزستور موضوعه ضمن قطعة صغيرة واحدة من السيليكون . وتستطيع مثل هذه القطعة اداء العمل الذى كانت تقوم به كل دوائر الصمامات في الحاسب الآلي القديم Eniac وبكفاءة أعلى وكلفة أقل . فقد تمكنت التكنولوجيا بهذا النوع من الدوائر من خفض كلفة الحاسب الآلي اكثر من الف مرة ، فما كان سعره بالملايين في الماضي اصبح بالالاف اليوم .

لعل الحديث عن الحجم الصغير والفعل الكبير لدوائر التكامل ، يثير شيئا من الاستغراب . وقد يساعد فهم المبدأ العام لصنع تلك الدوائر في تبديد هذا الاستغراب . تبدأ عادة صناعة دوائر التكامل برسم مكوناتها المختلفة بحجم يمكن للعين من خلاله ملاحظة تفاصيلها المختلفة.ثم تصور هذه الدوائر بواسطة آلات تصوير خاصة ، ويتم تصغير حجم الصور الى الحجم الصغير المطلوب كما يتم تجهيز نسخ سالبة من هذه الصور . ويؤتى بعد ذلك بقطع خاصة من انصاف النواقل المعالجة بمواد حساسه للضوء ، وتسلط اشعة ضوئية من نوع معين على هذه القطع من خلال النسخ السالبة لصور الدوائر المطلوبة . ثم توضع القطع في مواد حمضية تعمل على التخلص من طبقة من نصف الناقل المستعمل في الاماكن المتأثرة بالاشعة . وتاخذ الدوائر الالكترونية نتيجة لذلك شكلها الصغير المنشود ضمن القطعة المطلوبة . يمكن بعد ذلك وضع الوصلات المعدنية بين مختلف اجزاء الدوائر ، كما يمكن تكرار العملية على مراحل لتأخذ دوائر التكامل شكلها النهائي ضمن قطع صغيرة قد لا تعبر في مظهرها عن مضمونها . وهناك في الاسواق اليوم حاسبات آلية تتكامل دوائرها الالكترونية جميعها في قطعة صغيرة واحدة Chip منها ما يسمى ، 80, 80 ,280 ,6502 ,6800 وغيرها .

وتقوم التكنولوجيا اليوم باجراء الاختبارات على دوائر تكامل جديدة ذات مجال متسع للغاية . لكن هذه الدوائر لم تدخل الاسواق بعد . ولان دوائر التكامل تفهم النمو على أنه صغر في الحجم والتكاليف وكبر في القوة والفاعلية ، فالدوائر الجديدة ستكون اصغر ولكن بمردود اعلى . وتختلف الطرق الصناعية المقترحة لهذا النوع بعض الشيء عن المبدأ العام الذى ذكرناه من قبل . اذ يتوقع ان تستخدم حزم الكترونية بدل الأشعة الضوئية في تكوين الدوائر على قطع انصاف النواقل .

هذه الالة الذكية

تقوم الدوائر الالكترونيةللحاسب الآلي في شكليها القديم والحديث باعمال مركبة ومعقدة تزداد في صعوبتها عن اعمال اية الة اخرى سبقتها . ومع تطور تكنولوجيا تلك الدوائر تتزايد الاعمال الممكن اداؤها صعوبة وتعقيدا . ومع ذلك يبقى المبدأ الاساسي لكيفية عمل هذه الدوائر واحدا . ولهذا المبدأ عادة شروط ثلاثة : الاول هو قدرة الدوائر على تخزين تعليمات ومعلومات العمل المطلوب . والثاني هو قدرتها على تنفيذ عدد من عمليات الحساب والمقارنة . اما الثالث فهو قابلية هذه الدوائر لاخذ وتخزين اجراءات ومعلومات العمل ثم اعطاء الناتج بعد تنفيذ المطلوب . ولتحقيق شروط هذا المبدأ ، تتكون دوائر الحاسب الآلي عادة من اقسام رئيسية ثلاثة هي : المخزن او الذاكرة ، وحدة تنفيذ الاجراءات ، وسائل لاخذ المطلوب وإعطاء النتائج .

تقوم دوائر الحاسب الآلي الخاصة بتخزين المعلومات باداء دورها عن طريق التحكم بمرور التيار الكهربائي في مختلف اجزائها ، تبعا للمعلومات المراد تخزينها . حيث يمكن للحالات المتعددة لهذه الدوائر ان تمثل ارقاما مختلفة يمكن حفظها وتبديلها حسب المطلوب . ولئن كنا قد اعتدنا في حساباتنا على استخدام النظام العشرى ذى الارقام الاساسية العشرة ، فان الحاسب الآلي يستخدم النظام الثنائي ذى الرقمين الاساسيين صفر وواحد . فاذا كانت حالة وجود تيار كهربائي في دائرة معينة تمثل الرقم واحد ، فان حالة عدم وجود تيار في نفس الدائرة تمثل الرقم صفر . ولان دوائر الحاسب الآلي قادرة على تخزين الارقام فهي ايضا تستطيع حفظ الاحرف وذلك بواسطة استخدام رموز خاصة للاشارة الى حرف معين باستخدام رقم معين . وتكون المعلومات المخزونة عادة على نوعين ، الاول منها تعليمات او برامج يطلب من وحدة تنفيذ الاجراءات اداؤها . اما الثاني فهو معلومات يطلب استخدامها اثناء تنفيذ تعليمات البرامج .

تصمم دوائر الحاسب الآلي الخاصة بتنفيذ الاجراءات لاداء عدد معين من العمليات المختلفة . ويستطيع الحاسب الآلي تنفيذ تلك العمليات بسرعة فائقة ، اذ يقدر الزمن الذى يستغرقه الحاسب في اداء اى من عملياته بجزء من المليون من الثانية ، ولكل عملية من عمليات الحاسب رمز معين بحيث تشكل رموز العمليات المختلفة التي يمكن للحاسب الآلي اداؤها لغة هذا الحاسب ، وأى برنامج عمل يطلب الى الحاسب الآلي ان يؤديه يجب ان



ان يتكون من مجموعة من هذه الرموز مرتبة بالشكل الذى يؤدى الى اعطاء النتائج المطلوبة . والبرامج التي توضع للحاسب الالي مستخدمة لغته لحل مسألة ما ، تشبه اى موضوع يكتب باية لغة بشرية لمناقشة مشكلة ما . فاللغات البشرية كاللغة العربية مثلا تتكون عادة من عدد من الاحرف وهذه الاحرف تشكل عددا من الكلمات التي يمكن ترتيبها باشكال متعددة لمناقشة مالايحصى من القضايا المختلفة . وهذا ينطبق ايضا على لغة الحاسب الآلي . فالرموز التي تعبر عن عمليات الحاسب المختلفة هي كلمات لغة الحاسب ، وهذه الكلمات يمكن ترتيبها باوضاع كثيرة لكتابة مالايحصى من البرامج المختلفة . وتتجلى هنا عبقرية فكرة الحاسب الآلي ، اذ تستطيع هذه الآلة الصماء المساهمة في حل مالايحصى من المسائل المختلفة عن طريق تنفيذ البرامج الموضوعة لها والمكونة اساسا من عدد محدود من العمليات . وقد تطورت لغات برمجة الحاسب الآلي عبر السنين . فقد بدأت ارقاما معقدة يصعب حفظها والتعامل معها لتصبح اليوم كلمات مفهومه وتعبيرات رياضية يسهل على كل راغب تعلمها واتقانها بسرعة . ومن اهم لغات الحاسب الالي المستخدمة للمبتدئين لغة Basic ، ولهذه اللغة اهمية خاصة في عالم الحاسب الصغير .

ولادخال البرامج والمعلومات الى الحاسب الآلي ولاستخراج النتائج منه ، تتصل دوائره عادة بعدد من الاجهزة المختلفة . ولعل جهاز العرض المرئي Vdu هو من اهم هذه الاجهزة . اذا يقوم هذا الجهاز عن طريق الاتصال المباشر بالحاسب الآلي بادخال الطلبات الى الحاسب واظهار النتائج الخارجة عنه ايضا . ويتكون هذا الجهاز من اداة اتصال مع الحاسب الآلي هي عبارة عن لوحة طابعة تشبه لوحات الآلات الكاتبه ، وشاشة تلفزيونية تظهر عليها المعلومات المعطاة للحاسب بالاضافة الى المعلومات الناتجة عن ادائه للعمل المطلوب . ويمكن للحاسب الآلي ايضا ان يتصل بأجهزة اخرى تقوم بتخزين المعلومات من برامج واحصائيات مختلفة وحفظها لمدة طويلة لادخالها الى الحاسب واستخدامها عندما تدعو الحاجة الى ذلك . وتقوم اجهزة التخزين هذه عادة باستخدام وسائل تخزين مغنطيسية لحفظ المعلومات . ومن هذه الوسائل الشريط المغنطيسي الذى يشبه شريط المسجلات العادية ، وشرائط الكاسيت ، واسطوانات مغنطيسية خاصة . ومن الممكن ايضا وصل الحاسب الآلي مع حواسب من أمثاله وهم في أماكن متباعدة لتبادل المعلومات وتبادل اداء الاعمال المختلفة كما يحدث بين الاشخاص عبر اجهزة الهاتف . كذلك يمكن وصل الحاسب الآلي الى انظمة ميكانيكية خاصة . لتحريكها وفق برنامج معين يقوم الحاسب الالي بتنفيذه بنفس الطريقة التي يحرك بها عقل الانسان جسده .

الحاسب الصغير في المنزل

مع تطور تكنولوجيا الحاسب الالي تزداد باطراد مجالات استخدامه تنوعا وتوسعا . ولعل مجال الاستخدام المنزلي هو من اهم هذه المجالات اقتصاديا نظرا لان ذلك يفسح المجال امام المزيد من التوسع في انتاجه وتوزيعه . وقد استطاع الحاسب الالي حتى الان ان يدخل ربع مليون منزل وهو يطمح ان يكون له في المنازل كما للهاتف اضعاف هذا العدد . للحاسب الالي في المنزل استخدامات عديدة في بعضها فوائد ترضي عقل الانسان وفي بعضها الاخر تسلية ومتعة تجذب مزاجه . فعلى سبيل المثال يستطيع الحاسب الالي المساعدة في تنظيم الامور البيتية والمساهمة في تسهيل الحصول على المعلومات المختلفة ويمكنه ايضا دعوة اصحابه للقيام بالكثير من الالعاب المتنوعة .

ان كثيرا من الامور البيتية تحتاج الى التخطيط البعيد لضمان الاستقرار المنزلي ، وتتطلب ايضا التنظيم المستمر للاستجابة الى التفاعل مع الحياة . ومن هذه الامور الحفاظ على توازن الدخل مع المصروف ، وتنظيم المواعيد واوقات الفراغ ، ووضع سجلات للرسائل الواردة والصادرة ومتطلباتها ، وامور اخرى كثيرة . ويستغرق القيام بهذه الاعمال وقتا ومشقة وخبرة تضع الكثيرين في موضع اللامبالاة تجاهها لتدخل الفوضى او شيئا منها الى منازلهم وتفسد عليهم بعض ساعات

حياتهم . ولعل العامل المشترك الذى يمكن ان يساعد في هذه الاعمال هو ترتيب القوائم وتنظيم الفهارس وتعديل ذلك حذفا او اضافة عند الحاجة . وللحاسب الآلي في هذا المجال دور مفيد ، حيث تقوم بما هو مطلوب من ترتيب وتنظيم وتعديل مستمر بسهولة كبيرة وسرعة فائقة وتساعد قدرة الحاسب على اخذ المعلومات باستخدام اجهزة التخزين المغنطيسية ، على حفظ القوائم والفهارس المختلفة على شرائط او اسطوانات مغناطيسية لاستخدامها عند الحاجة .

ويحتاج الانسان في بيته الى الكثير من المعلومات ، وكثير من الناس يحتفظون في منازلهم بالقواميس والكتب المتنوعة التي تعطي معلومات مبوبة في مختلف المواضيع . ويحتاج عادة استخدام مثل هذه الكتب الضخمة الى جهد وزمن يمنع المتكاسلين احيانا من الاستفادة من مثل هذه المعلومات . ويستطيع الحاسب الالي تقديم التسهيلات في هذا المجال ، وذلك عن طريق استخدام اجهزة التخزين المساعدة ، حيث يمكن لوسائل التخزين هذه حفظ الكثير من المعلومات المبوبة على اسطوانات وشرائط مغنطيسية . وعندما يطلب مثلا استخدام قاموس معين حفظت كلماته في وسائل تخزين الحاسب الالي ، تعطي الكلمة التى يراد معرفة معناها الى الحاسب بواسطة جهاز العرض المرئي ، لتظهر بعد ذلك على شاشة هذا الجهاز وفورا كل المعاني التي يمكن ان تحملها الكلمة المطلوبة . ويستطيع الحاسب ايضا الحصول على مجالات واسعة من المعلومات في حال وجود شبكة من الحاسبات الالية ، حيث يمكن في هذه الحالة لاى من الحاسبات المشتركة في الشبكة الحصول على المعلومات من اماكن متباعدة . وهناك الان قيد التجربة عدد من هذا النوع من الشبكات ، واغلبها تعطي معلومات تختص بالقضايا العلمية والتجارية .

يستطيع الحاسب الالي في المنزل ان يساعد في مجال التعليم باسلوب اكثر تطورا من اسلوب شقيقه التلفزيون الاقدم في عالم التكنولوجيا والاستخدام . ويستعمل التلفزيون تعليميا في عرض دروس مسجلة على شرائط مغنطيسية وعلى الطالب ان يجلس امامه ليأخذ ما يعطي دون ان يكون هناك تبادل او تفاعل بين المدرس والطالب . ويستطيع الحاسب الالي ان يعطى ما يعطيه التلفزيون على شاشته وان يضيف اليه . والاضافة هنا تأتي عند حل المسائل العملية بعد انتهاء المحاضرة النظرية ، حيث يمكن للطالب ان يقوم بحل المسائل المطلوبة تحت مراقبة الحاسب الالي ، فان اخطأ اشار الحاسب على شاشته الى الخطأ . والحاسب الالي برغم ذلك ليس اذكى من الطالب ، بل هو الة صماء ، لكن البرنامج الذى ينفذه والمصمم من قبل المدرس هو الذى يراقب الطالب ويكتشف اخطاءه ويقوم بتصحيحها .

ويمكن للحاسب الالي في المنزل ان يقوم بالتحكم ، وفق برامج محددة ، ببعض الحركات التى يمكن ان تؤديها بعض الاجهزة الميكانيكية . حيث يستطيع الحاسب الالي المساعدة في الرد على الهاتف اثناء غياب اهل المنزل ، وتسجيل المكالمات واثارة اجهزة الانذار عند الحاجة ، والتذكير ببعض المواضيع المهمة ، وكثير من التطبيقات الاخرى .

وبالاضافة الى فوائد الحاسب الالي المنزلية الآنفة الذكر ، يستطيع الحاسب ان يكون الصديق العزيز المسلي . فهو لاعب شطرنج ممتاز اذا مازود ببرنامج خاص بهذه اللعبة . ويقوم مثل هذا البرنامج عادة بدراسة مختلف احتمالات حركة الخصم قبل اتخاذ القرار باجراء حركة معينة . وكثيرا ما يكون الحاسب هو المنتصر في هذه اللعبة . ويرجع السبب الى اعتماد البرامج الموضوعة لها على قواعد واحتمالات مدروسة لاتخضع للاجهادات النفسية التي يخضع لها اللاعب اثناء اجراء اللعبة . وهناك برامج اخرى كثيرة للعديد من انواع اللعب منها ما هو خاص برحلات الفضاء وقراءة النجوم وتبادل الكلمات وما الى ذلك .

تلك هي بعض خدمات وصفات الضيف الجديد الذى تأتي به التكنولوجيا اليوم الى منازلنا . لقد جاوز هذا الضيف منذ ان ولد الثلاثين حولا تجمعت له خلالها جهود كثيرة تقدم اليه الخبرات والتحسينات ، الى ان اصبح اليوم في شكل مناسب ، اقتصادى الكلفه ، يؤدى عمله بفاعلية ويفيد استخدامه في مجالات عديدة . فهل له من يوم قريب يحتل فيه مكانا في كل منزل .. وهل ستفتح له انت باب بيتك .. ؟ ■■

د . سعد الحاج بكرى .

« قيل لحكيم : « اى شيء اقرب » ؟ فقال : « الأجل » ، فقيل له « اى شيء ابعد ؟ » فقال : « الامل »



هذا هو مسرح القسوة

بقلم عبد الحليم البشلاوى

إذا لم تكن قد سمعت عن « مسرح القسوة » قلنا لك إنه هو المسرح الذي يقترن اسمه في عصرنا الحديث باسم الكاتب الفرنسي العجيب الشأن « جان جينيه » .

ولكن الواقع أن جذوره تمتد إلى ما هو أعمق من ذلك إيغالا في الزمن . ذلك أن كاتبا فرنسيا آخر هو « أنطونين أرتو » كان قد نشر منذ عشرين عاما كتابا بعنوان « المسرح وشبيهه » ، ضم مجموعة من المقالات والرسائل التي كان قد نشرها قبل ذلك كانت هى أساس الدعوة إلى « مسرح القسوة » .

وإذا لم تكن قد سمعت عن « مسرح القسوة » قلنا لك إن المسرح عند « أرتو » ليس مكانا لتسلية المتفرجين ، أو حتى لارشادهم وتوجيههم . إنما المسرح عنده بمثابة القلب النابض في جسم الحضارة الانسانية . وإذا كانت الحضارة الغربية حضارة هالكة متحللة ، بدليل أن مسرحها يؤمن بذلك الشيء الذى لا طائل من ورائه والذى لانفع فيه والذى يسمى « الفن » ، فان « أرتو » يريد أن يضع بدلا منه الثقافة culture . إن الفن الغربي في جوهره منفصل عن الجماهير . إنه فن يفرق بين هذه الجماهير . في حين تؤدى الثقافة إلى الجمع بينها . ان الفن شيء كمالى ، زائد عن الحاجة ، أما الثقافة فشيء ذو وظيفة . واذا كان الفن تعبيرا عن رجل واحد . فان الثقافة تعبير عن الجميع . لذلك كان « أرتو » يهوى الثقافات البدائية التى لم تشوهها المدنية الحديثة ، تلك الثقافات الفطرية التي لم تنلها بعد يد التهذيب والتطرية ، مثل ثقافة المكسيك .

إن أرتو شاعر من طراز الشعراء الموصومين أمثال « بودلير » و « رامبو »وقد كان ثلاثتهم متأثرين بالكاتب الأمريكي « إدجار آلان بو » ، وكانوا منغمسين في إدمان المخدرات ، متردين في بؤرة الجنس دون وازع أو حساب . كان « أرتو » يحيا حياة بوهيمية تخللتها نوبات جنون ، ومات في عام ١٩٤٨ . ومع ذلك فقد طبع أرتو الثقافة الفرنسية المعاصرة بطابع قوى هائل ، أشبه بالوهج الذى يحدثه البرق الراعد في سماء الكون .

المسرح يغير العالم

يقول المخرج الفرنسي « جان لوى بارو » عن كتاب « المسرح وشبيهه » إنه أهم شيء كتب عن المسرح في القرن العشرين . وفي عام ١٩٥٥ قال الناقد الأمريكي « إريك بنتلي » إن مسرح الطليعة في باريس يعيش تحت شعار أرتو . وفي عام ١٩٥٨ ظهرت ترجمة للكتاب في أمريكا فتلقفه المخرجون الشبان في بريطانيا . واستهوى بنوع خاص من كانوا يتوقون الى بادرة جديدة في الحقل الدرامي وإلى التخلص من التقاليد القائمة

إن أرتو يربط بين آرائه عن المسرح ومشاعره إزاء العالم الذى يعيش فيه . فهو غير راض عن حضارة الغرب ، ويحاول قصاراه أن يغير هذه الحضارة وفقا لما يعتقد هو أنه الأفضل . إنه يريد للمسرح أن يكون أداة لتغيير العالم وخلق مجتمع ثقافي جديد . ونقطة البداية لتحقيق هذا التغيير هى الوعى الدينى . فلا بد من البدء بادخال ثورة على هذا الوعى . لأن ديانات الغرب لم تعد مقبولة نظرا لأنها جردت الحياة من مضمونها السحرى .

وقتلت الجانب الفطرى في الانسان . إن الروح البدائية التي كانت سابقة للعقل والمنطق ما زالت تعيش في العقل اللاشعورى للانسان الغربي ، ولو أنها مغمورة في أعماقه بفعل الحضارة الحديثة . من هنا كانت تستهوى « أرتو » تلك الطقوس الدينية التي يؤديها هنود « الأزتك » في المكسيك في لوثة قربانية ونشوة بربرية .

أي أن « أرتو » كان يريد أن ينشيء مسرح أساطير . كان يريد أن يعبر عن الحياة من زاوية رحيبة شاملة . ولكنه لم يكن ليستمد هذه الأساطير من التاريخ اليوناني أو الروماني ، ولا حتى من التراث المسيحي ، لأن هذه كلها أصبحت الآن أساطير تقليدية ، أساطير مألوفة مستهلكة ، شأنها شأن الحضارات التي انبعثت منها . إنه يريد مسرحا يكون له من الأثر ما للطاعون . فالطاعون إذا فشا ، انهدمت الأوضاع الاجتماعية ، وانهار النظام ، وسادت الفوضى ، وانطلقت في الانسان جميع النوازع الفوضوية التي هي مستقرة في أعماق نفسه وروحه . يقول « أرتو » إن المسرح الشبيه بالطاعون « يخرج إلى السطح تلك القسوة الكامنة التي تتحدد عن طريقها كافة احتمالات اعوجاج العقل عند الأفراد والجماعات على السواء » .

وقد قوبلت القسوة التي يدعو إليها أرتو بجدل شديد لأن فيها سادية وماسوخية صريحتين تريد لها الحضارة الحديثة أن تظلا مختفيتين موءودتين . ولكن هذه السادية وتلك الماسوخية كامنتان فعلا في المجتمع الحديث ، وتطفوان على السطح من آن لآخر عندما تنشب الحروب بين الدول ، وعندما يتنافس الرياضيون والفنانون والكتاب على الظفر بالجوائز العالمية ، وعندما يقتتل رجال العصابات .

إن « أرتو » يشبه من هذه الناحية « فرويد » ، فكلاهما يقول إن الانسان هو الذي جلب على نفسه الأمراض العصبية عندما كبت غرائزه الجنسية لكي يعيش في مجتمع بشرى متحضر . إلا أن « فرويد » يدعو إلى كبت هذه الغرائز وقمعها ، في حين يدعو أرتو إلى إظهارها قائلا : « لذلك اقترح مسرح القسوة . فنحن لسنا أحرارا ، وما زال في الامكان أن تهوى السماء على رؤوسنا . وهذا ما جاء المسرح ليعلمنا إياه قبل كل شيء » . إن العالم الذي يتشدق بالحديث عن الأديان وعن السلام والوئام ، يخطو سريعا نحو الانتحار والفناء ، فلا بد للمسرح أن يصبح أداة نافعة تميط اللثام عن هذه الأكاذيب وعن ذلك الخداع ، لان إجبار الناس على أن يروا أنفسهم على حقيقتها يجعل القناع يسقط ، ويكشف عما يسود عالمنا هذا من دنامة ورياء وتعقد . فلا بد لجمهور المسرح من أن يتطهر من تلك النزعات القاتلة التي يسلطها الفرد على غيره من الناس باسم الوطنية تارة وباسم الدين اخرى . ومن ثمة يريد « أرتو » أن يكون المسرح بمثابة مرآة توضع أمام اللاشعور . ومعنى ذلك ان المسرح سيكون عالما وهميا خارجيا يتخذ من الواقع الداخل وسيلة له . ذلك الواقع الذي يتجلى لنا عادة في الاحلام . فلابد للمسرح أن يكون وسيلة للتوهم الصادق . ولن يتم ذلك إلا بتزويد المتفرج بخلاصة صادقة لأحلامه . خلاصة يصب فيها تذوقه للجريمة ، ونزعاته الشهوانية ، وهمجيته ، وهواجسه . بل حتى نزعته الغريزية لأكل لحم البشر .

أقسى الحيوانات

إن الصلة قوية بين أرتو ، ورامبو ، وفرويد ، ولورانس . ولكن الصلة أقوى بين هؤلاء جميعا وبين « فردريك نيتشه » الذي قال على لسان « زرادشت » إن الانسان هو أقسى الحيوانات . فهو أسعد المخلوقات طرا بالمآسي ومصارعة الثيران وعمليات الصلب . ونيتشه هو الذي قال إن المثل الانسانية هي التي أدت الى كبح هذه القسوة وكبتها ، وان ذلك هو الذي جعل عالمنا معتلا . وأرتو يهتم ، كما دعا نيتشه ، باكتشاف الانسان من جديد ، ويبحث عن بقاياه الميتافيزيقية تحت أنقاض ألفي عام من النصرانية . وهما معا ـ أرتو ونيتشه ـ مقتنعان بأن المثل النصرانية الوديعة الرقيقة هي التي استنزفت طاقة الانسان النفسية . وهما معا ينشدان بديلا لتلك العقائد التي لم تعد تؤمن بها البشرية ، ومن هنا يريد أرتو أن يعود بالانسان إلى عصر الهمجية والبهيمية عندما كان الانسان مخلوقا متحجر القلب .

ونعود إلى كتاب أرتو « المسرح وشبيهه » لنجده يحمل على « مسرح موليير وشيكسبير » . إن جميع الروائع المسرحية القديمة لم تعد ذات جدوى من الناحية الثقافية لأنها لم تعد تلائم جمهور العصر . والجمهور عند أرتو هو القاعدة العريضة المتسعة التي تستوعب سواد الناس والتي لا يمكن لأية حضارة أن تتجدد بدونها .

ذلك المسرح القائم الآن يخاطب الأخلاقيين والمنطقيين . ولذلك فهو قد أبعد هذه الجماهير العريضة التي راحت الآن تغشى الملاهي والسيرك ودور السينما . ولابد للمسرح أن يتساوى مع هذه الدور في الشعبية والحيوية . فالجمهور مازال متعطشا إلى الأسرار والغموض ولم تعد تستهويه مسرحيات الشعراء

الأصوات :

« ان المسرح احتفال جليل ، هو أرض النار ، وبحيرة السماء ومعركة الأحلام . فلنفسحوا المكان للمسرح ، مسرح هؤلاء الذين لا يرضون إلا بسيطرة الروح سيطرة لا تقف عند حد » .

هكذا يرى أرتو أن عصرنا الحاضر لم يعد فيه ثمة مكان لروائع الماضي ، ويقول « إن روائع الماضي صالحة للماضي . ولكنها غير صالحة لنا » . وفي رأيه أن مسرحية « اوديب » مثلا لا تستهوى جمهور اليوم .

وإذا كان المسرح الغربي ذا اتجاهات سيكولوجية ، فان مسرح ارتو مسرح شرقي ذو اتجاه ميتافيزيقي . وأهم ما يميز هذا المسرح الشرقي هو استخدام اللغة لتكوين الانفعالات وخلق جو التعاويذ والطقوس ، جو الايماءات والاشارات ، جو الانطلاق والتحرر . إن الشخصيات الدرامية ، والأداء اللفظي ، والعقدة المسرحية ، لم تعد تحتل المقام الأول عند أرتو ، لأن مسرحه لا يقدم مفاهيم منطقية ، وانما يقدم مناظر ومرئيات ، ويقدم السحر والحفلات المقدسة . إن هذا المسرح يخلق في نفس المتفرج نشوة وغيبوبة وتحولا نفسانيا ناشئة كلها عن بث همجية الأحلام في غموض المسرح .

نذكر على سبيل المثال أن « أرتو » يتناول القصة المشهورة « ذو اللحية الزرقاء » التي ألفها « الماركيز دى ساد » ، فيجردها مما فيها من حوار وأحداث ، بحيث تقتصر على ما فيها من أفعال درامية . ويضع للقصة سيناريو يقوم الممثلون بأدائه على المسرح بدون تقيد بالنص . ثم هو يتناول المعارك التاريخية الشهيرة التي دارت عند فتح المكسيك بين القائد الأسباني « كورتيز » والجيش المكسيكي بقيادة « مونتيزوما » وبدلا من أن يقدم لنا قتالا بين جيشين ، إذا به يعرض علينا قتالا ضاريا بين الرجال والوحوش ، كما لو كان قتالا يجرى في عالم الغيب . فالفكرة الرئيسية عند أرتو هي استخدام مسرح طقوسي للقسوة لطرد الأرواح الشريرة ، وذلك أمر يذكرنا « بالزار » ، لأن القصد من طرد الأرواح الشريرة هو أن يقع المتفرج تحت وطأة تسلط انفعال تطهرى يتطهر فيه من تذوقه للجريمة .

المخرج والممثل .. ام الكاتب ؟

معنى ذلك ان أرتو ـ بالاضافة الى رأيه في استهلاك روائع الماضي ـ يريد أن يكبت الكلمة ذاتها ، أو هو يريد أن يقلل من أهميتها في المسرح . وفي ذلك يقول الناقد البريطاني « لورانس كتشين » :

« إذا كان المسرح المثالي هو الذى يقوم على رفض روائع الماضي ، فان المخرج يقتصد بذلك قدرا كبيرا من الجهد الشاق الذى يبذله في دراسة النص . واليوم وقد بات لزاما على المخرج أن يدرس تكنيك السينما والتليفزيون وأجهزة المسرح الآلية ، فهو قد يشعر بأن أمامه ما يكفي من العمل بدون أن يقوم بدور ناقد أدبي . كذلك يوجد اعتبار آخر . فكلما زادت فصاحة المسرحية في لغتها الأصلية قلت صلاحيتها للتقبل الدولي . ومن هنا كان التحمس لأسلوب مسرحى قابل للتصدير ، أسلوب يعتمد على المناظر والحركات ، ويستطيع المخرجون الماثلون أن يستخدموه في أى مكان من العالم .

ولكن الواقع أن هذه الدعوة التى دعا اليها أرتو والتي فسرها لنا « كتشين » ، انبعثت في نفسه عندما بهره عرض شهده في باريس في عام ١٩٣١ قدمته فرقة راقصة من جزيرة « بالى » الاندونيسية . لقد ملك لبه الأداء الصامت ، واللغة الايمائية التي لا ألفاظ فيها ، والرشاقة الحركية بما فيها من تعبير عن العنف والرقة ، والقسوة والوداعة ، والقوة واللين ، والحب والبغض . ولقد خصص في كتابه « المسرح وشبيهه » فصلا للحديث عن هذه الفرقة يعتبر من أحسن فصول الكتاب . بل ان هذه الفرقة هى مفتاح المسرح الجديد الذي يدعو إليه أرتو . فهو يدعو إلى مسرح مثالي يكون معبدا يمارس فيه الممثلون السحر الوثني . ويقول إن تسمية المكان الذى يعمل فيه الممثل باسم « المعبد » أمر فيه رفع لمنزلة الممثل . انه يريد أن تأخذ الشعائر الرومانسية مكان الشعائر الكلاسيكية .

وموجز القول إن القارىء الذي يريد أن يحكم على مسرح أرتو ، عليه أولا أن يجيب عن هذا السؤال : هل توافق على أن يحل المخرج المسرحي والممثلون محل الكاتب المسرحي ؟

لقد مات أرتو عام ١٩٤٨ . ولو كان قد عاش إلى أيامنا هذه لرأى أثر أفكاره في « مسرح السخف » أو « العبث » الذى يتزعمه « يونسكو » ، ولرأى هذا الأثر في مسرح الغضب « عند أوزبورن » و « بيكيت » ، ولراه أيضا في موسيقى الجنافس وفي تلك الجماعات الشاذة التي ظهرت وما فتئت تظهر في الغرب من آن لآخر .

عبد الحليم البشلاوى



سيوف المسلمين تكون لهم بالوحدة ، وتكون عليهم بالفرقة !

فتح بخارى القصة والعبرة

بقلم اللواء الركن : محمود شيت خطاب

تقع مدينة (بخارى) فى اقليم (الصغد) ، وهو صغديانا Sogdiana ، القديمة ، الذى يشمل البلاد الخصبة فيا بين نهرى سيحون وجيحون . واقليم الصغد أحد اقاليم بلاد « ماوراء النهر » ـ كما سماها العرب ـ ويراد به : ماوراء نهر جيحون بخراسان .

وكان نهر جيحون القديم ، يعد الحد الفاصل بين الاقوام الفارسية والتركية ، أى ايران وتوران ، فما كان فى شرق وشمال جيحون من اقاليم يدعى : ماوراء النهر وما كان فى جنوبه وغربيه فهو خراسان .

وكان الصغد يحسب احدى جنان الدنيا الاربع وهى : غوطة دمشق ، والصغد ، ونهر الابلة وشعب بوان ، وكان الصغد قرى متصلة خلال الاشجار والبساتين لاتبين القرية حتى تصل اليها لالتفاف الاشجار بها ، والبلاد كثيرة الاشجار غزيرة الانهار متجاوبة الاطيار . وكانت اجل مدن اقليم الصغد : سمرقند وبخارى ، ويمكن القول : ان سمرقند كانت عاصمته السياسية ، وبخارى كانت عاصمته الدينية .

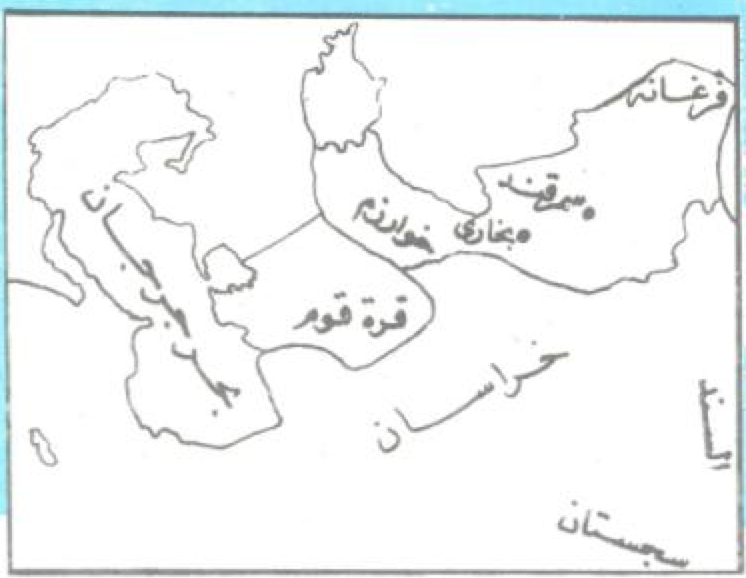
وبخارى مدينة قديمة نزهة كانت كثيرة البساتين غزيرة الفواكه جيدتها ، تصدر فواكهها الى (مرو) فى خراسان والى (خيوه) فى خوارزم والى اماكن بعيدة اخرى .

ولم يكن فى بلاد المسلمين اجل منظرا من بخارى ، متصلة خضرتها بخضرة السماء فيها وأرض ضياعها مستوية ، ولم يكن فيا وراء النهر وخراسان بلدة اهلها احسن قياما بالعمارة على ضياعهم من اهل بخارى ولا أكثر اهتماما بادارتها .

ولم تكن بخارى مدينة فخمة تتميز بخصائصها الطبيعية العظيمة فحسب ، بل كانت ايضا سوقا رئيسية تلتقى فيها تجارة الصين واسيا الغربية ، فضلا عما كان بها من مصانع كبيرة للحرير والديباج والمنسوجات القطنية واجود أنواع الابسطة والمصنوعات الفضية والذهبية من كل نوع .

وكانت كذلك مركزا مهما للصيرفة ، حتى تسمع هناك الى اليوم المثل القديم : « اشد يقظة من صراف بخارى » .

وكان سكان ما وراء النهر وبخاصة بخارى فى الزمن القديم ، قبيل الفتح الاسلامى وبعده أكثر منه الان بكثير . ففى ايام الفتح كانت عدة قبائل عربية تنزل فى كل مدينة من مدن ما وراء النهر ، وكانت



المساكن مع ذلك تتوفر للسكان الجدد ، حتى كان الرجل يركب لعدة فراسخ صوب الجنوب او الشمال على السواء بين صفوف من المساكن . والغالب ان الثلاثمئة والستين مسجدا ، التي لايزال اهل بخارى يتحدثون عنها حتى اليوم ، كانت قائمة بالفعل هناك .

وأخذ عدد سكان بخارى يتناقص بالتدريج ، فكان سكانها خمسة او ستة اضعاف ما هو عليه اليوم وما يقال عن بخارى يصدق على ما وراء النهر ، فقد تدفقت قوات ضخمة بدون انقطاع في الغالب باتجاه غرب اسيا حتى وادي النيل من بلاد ما وراء النهر ، وهي قوات لا يمكن بطبيعة الحال ان تتوافر إلا في اقليم مكتظ بالسكان .

فتح عبد الله بن زياد التمهيدي

استطاع الاحنف بن قيس التميمي فتح (خراسان) سنة ثماني عشرة هجرية (٦٣٩م) ، وفي قول اخر سنة اثنتين وعشرين هجرية (٦٤٢م) على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ولكن (خاقان) ملك الترك ، ومعه يزدجرد آخر ملوك الساسانيين عبر نهر جيحون الى (بلخ) التي كان المسلمون قد فتحوها قريبا ، واستعاد هذه المدينة .

وقاتل المسلمون جيش الترك بقيادة خاقان ، وكان المسلمون بقيادة الاحنف بن قيس ، فانسحب الترك من (بلخ) وعادوا الى ديارهم فيما وراء النهر ، ومعهم يزدجرد .

واستعاد الأحنف (بلخ) وسائر خراسان ، وكتب الى عمر بن الخطاب بالفتح ، فجمع عمر الناس وخطبهم ، وامر بكتاب الفتح فقرىء عليهم ، وقال في خطبته : « الا ان الله قد اهلك ملك المجوسية وفرق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبرا يضر بمسلم . الا وان الله قد اورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون ، والله بالغ امره ومنجز وعده ومتبع اخر ذلك اوله ، فقوموا في امره على رجل يعرف لكم بعهده و يؤتكم وعده ، ولا تبدلوا ولا تتغيروا فيستبدل الله بكم غيركم ، فاني لااخاف على هذه الامة ان تؤتى الا من قبلكم » .

ولما قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، نقض أهل خراسان وغدروا ، فاستعاد عبد الله بن عامر بن كريز القرشي العبشمي فتح (خراسان) بمعاونة الأحنف بن قيس سنة احدى وثلاثين هجرية (٦٥١م) على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وانتقضت بعض مناطق (خراسان) في ايام الفتنة الكبرى والاقتتال الداخلي ، وكانت مدينة (بلخ) من المدن الخرسانية التي انتقضت .

وفي سنة احدى وخمسين هجرية (٦٧١م) اصبح الربيع بن زياد الحارثي على (خراسان) عاملا لزياد بن ابيه على عهد معاوية بن ابي سفيان ، فغزا الربيع

(بلخ) وفتحها صلحا .

ومدينة (بلخ) على الدوام باب بلاد ماوراء النهر الجنوبي ، وكانت باستمرار عرضة لهجمات الترك الذين يعبرون نهر (جيحون) فيغزونها ، فلا عجب ان يقرر المسلمون فتح ماوراء النهر للدفاع عن (خراسان) ، لان الهجوم انجع وسائل الدفاع .

ففي سنة ثلاث وخمسين الهجرية (٦٧٢م) ولي معاوية بن ابي سفيان عبيد الله بن زياد (خراسان) .

وفي سنة اربع وخمسين الهجرية (٦٧٣م) قطع عبيد الله نهر (جيحون) الى جبال (بخارى) على الابل في اربعة وعشرين الفا ، فكان عبيد الله اول من قطع اليهم جبال (بخارى) في جند ، ففتح (راميثن) و (نسف) و (بيكند) وهي مدينة غنية وكانت عاصمة للدولة .

وارسلت (خاتون) ملكة (بخارى) الى الترك تستمدهم ، فامدوها بعدد كبير منهم ، وداهموا المسلمين وهم يحاصرون (بخارى) ، فهزمهم عبيد الله .

وبعثت خاتون تطلب الصلح والامان ، فصالحها عبيد الله على ألف ألف درهم سنويا ، فانسحب المسلمون من حصار (بخارى) قبل فتحها وعادوا ادراجهم الى مدينة (مرو) .

و (خاتون) ملكة (بخارى) هي زوجة الملك (بندون) ملك بخارى الذي توفي عنها وترك من بعده ولدا يدعى (طغشاد) وكان حدثا ، فانفردت بشئون الملك امه (خاتون) ، ويقال : ان حكمها دام خمسين سنة ظهر المسلمون في اثنائها بهذه الديار .

وخاتون ليس اسمها ، بل صيغة من صيغ التوقير للسيدات ذوات المقام الرفيع ، اصلها فارسي ، او تركي ، ومعنى خاتون : « السيدة الوجيهة » او ما يقارب هذا المعنى .

وقد ذاع صيت هذه السيدة واجلال الناس لها ، وكانت تغادر مقرها كل يوم بعد الشروق ، فتقصد باب السهل (الريكستان) ، فتجلس فوق عرش ، ومن حولها رجال البلاط والاعيان ، وتقيم العدل بين الناس . وكان يقوم على حراستها في الحضرة كل يوم مائتا شاب يتمنطقون بالذهب ، ومعهم سيوفهم الذهبية كذلك ، وكانوا يستبدلون بغيرهم كل يوم ، وعلى هذا الوضع كانت تتيح لكل قبيلة ان تشارك في اداء واجب حراستها اربع مرات كل سنة .

وبهذه السيدة انتهى الحكم الفعلي لأول اسرة حاكمة في بخارى ، وقد احتفظ ابنها « طغشاد » باستقلاله لمدة ثلاثين سنة لاعتناقه الاسلام .

واشتبك طغشاد في حروب مع الترك الى جانب المسلمين الذين ثبتوا ابنه على العرش من بعده تكريما له ، وكان قد سمى ابنه : قتيبة تيمنا باسم : قتيبة بن مسلم . ولكن ابنه قتيبة هذا لم يخلص للاسلام والمسلمين كما كان ابوه مخلصا ، فكان يتظاهر بالاسلام ويخفي ممارسة طقوس المجوس ، فقتل متهما بالزندقة .

فتح سعيد بن عثمان بن عفان

ولي معاوية بن ابي سفيان سنة ست وخمسين الهجرية (٦٧٥م) خراسان سعيد بن عثمان وعزل عبيد الله بن زياد . وقدم سعيد خراسان ، فقطع النهر الى (سمرقند) ، فكان اول من قطع نهر (بلخ) من العرب . وبلغ (خاتون) ملكة (بخارى) عبوره النهر ، فحملت اليه الصلح الذي صالحت عليه عبيد الله ابن زياد .

واقبل اهل (الصغد) و (كش) و (نسف) الى سعيد في مئة الف وعشرين الفا ، فالتقوا ببخارى ، وقد ندمت خاتون على ادائها الجزية ، ونكثت العهد ، ولكن قسما من الحشود المجتمعة لقتال سعيد انصرفوا قبل مباشرة القتال ، فاثر انصرافهم في حماسة الاخرين واهتزت معنوياتهم ، فلما رأت خاتون ذلك ، اعادت الصلح فدخل سعيد مدينة بخارى فاتحا .

وطلب سعيد من خاتون ان تبعث اليه برهائن ضمانا لتنفيذ ما تصالحا عليه ، فبعثت اليه بثمانين من اعيان بلادها ممن كانوا على رأس الخارجين عليها ، فتخلصت بذلك من اشد اعدائها خطرا على عرشها .

وحين تم الصلح ، زارت خاتون سعيدا في مقره فطلعت عليه في زينتها الملكية ، وكانت نادرة الجمال على ما يقال ، فادعى اهل بخارى ان القائد العربي اعجب بجمالها ، وجرى ذكر اعجاب سعيد بها في الاغاني الشعبية التي لا يزال اهل بخارى يرددونها حتى اليوم .

ولكن هذا الاعجاب لا ذكر له في المصادر التاريخية العربية ، ومن الواضح انه اقرب الى خيال الادباء منه الى حقائق المؤرخين .

وغزا سعيد (سمرقند) فاعانته (خاتون) باهل بخارى ، فصالح اهل سمر قند من غير ان يفتحها ، ثم

انصرف الى (ترمذ) ففتحها صلحا .

فتح سلم بن زياد

عزل معاوية بن ابي سفيان عن (خراسان) سعيد ابن عثمان بن عفان سنة سبع وخمسين الهجرية (٦٧٦م) واضيفت الى عبيد الله بن زياد في رواية ، وفي رواية اخرى ان معاوية ولى عليها عبد الرحمن بن زياد ، فلم يصنع شيئا ، ومات معاوية وعبد الرحمن على خراسان .

وولى يزيد بن معاوية سلم بن زياد (خراسان) ، سنة اثنتين وستين الهجرية (٦٨١م) فغزا خوارزم فصالحوه على اربعمائة الف درهم وحملوها اليه .

وقطع سلم النهر ومعه امرأته ام محمد بنت عبد الله ابن عثمان بن ابي العاص الثقفي ، وكانت اول عربية عبر بها النهر ، فوجد (خاتون) قد نقضت العهد .

واستنجدت خاتون مرة اخرى بجيرانها في الصغد ، كما استنجدت باتراك الشمال فجاء طرخون على جيش الصغد ، كما جاء ملك الترك في عسكر لجب كثيف .

ولم تؤثر هذه الحشود الضخمة من الجيوش المعادية في معنويات المسلمين ، فحاصر المسلمون بخارى دون الهجوم عليها ، ليقفوا أولا على تفاصيل قوات اعدائهم ومواضعها .

وامر سلم المهلب بن ابي صفرة الازدي ان يستطلع احوال العدو ، فاقترح المهلب ان يكلف غيره بهذه المهمة ، لانه معروف المكانة بين المسلمين ، وقد يفشي تغيبه عن معسكر المسلمين سر الواجب الذي كلف به ، وهذا الواجب ينبغي ان يبقى سرا مكتوما .

ولكن سلم بن زياد اصر على ايفاد المهلب لهذا الواجب الحيوي ، وارسل معه ابن عمه ورجلا من كل لواء من الوية جيش المسلمين ، فاشترط المهلب على سلم الا يخبر احدا بمهمته ومضى الى سبيله ليلا ، واستطلع العدو دون ان يشعر جيش العدو بمكانه .

ويبدو ان المسلمين افتقدوا المهلب في صلاة الفجر ، فاخبرهم سلم انه ارسله ليلة امس للاستطلاع .

وفشا الخبر في المعسكر ، واسرع جمع بالركوب وذهبوا اثر المهلب فلما ابصرهم المهلب لامهم على ما اقدموا عليه ، حيث كشفوا جماعة استطلاعه للعدو ، واصبح موقفه ومن معه من المسلمين في خطر محدق .

واحصى المهلب المسلمين الذين التحقوا بمفرزة استطلاعه ، فكانوا تسعمائة ، فقال لهم : « والله لتندمن على ما فعلتم » .

وحدث ما توقعه المهلب ، فما كاد ينظم المسلمين صفوفا ، حتى هاجمهم الترك وأبادوا منهم اربعمائة مجاهد ، ولاذ الباقون منهم بالفرار .

واحيط بالمهلب نفسه ومن بقي من مفرزته الاستطلاعية ذات العدد القليل ولكنه ثبت ثبوتا راسخا كالطود الاشم ، فالموت بالنسبة لامثاله اهون من الفرار .

وصاح المهلب بصوته القوي مستغيثا ، فسمع صوته في معسكر المسلمين الذي كان على بعد نصف فرسخ من موضعه .

وبادر فورا الى نجدته فريق من قومه ، فشاغلوا الترك ريثما اقبل المسلمون سراعا . ونشب القتال بين الجانبين ، فقاتل المسلمون الترك حتى هزموهم هزيمة منكرة ، فتركوا ساحة القتال مخلفين اموالهم واثقالهم ، فغنمها المسلمون حتى اصاب كل فارس الفين واربعمائة درهم في رواية ، وعشرة الاف درهم في رواية ثانية .

وطارد المسلمون الترك المنهزمين . فلم ينج منهم الا الشريد ، وكان من القتلى ملك الترك (نيدون) او (بيدون) .

واعادت (خاتون) الصلح مع سلم بن زياد ، فعاد ادراجه الى (مرو) بعد ان استعاد فتح (بخارى) .

ويبدو أنه قطع النهر في سنة ثلاثة وستين الهجرية (٦٨٢م) مرة اخرى ، لانه علم بان الصغد قد جمعت له ، فقاتلها .

ومات يزيد بن معاوية سنة اربع وستين الهجرية (٦٨٣م) ، فأخرج المسلمون سلم بن زياد من خراسان ، ونشب الخلاف الشديد بين القبائل العربية من بعده ، فاصبحت سيوفهم عليهم لا على اعدائهم . وتوقف الفتح وانتقضت البلاد .

فتح قتيبة بن مسلم الباهلي

ولى الحجاج بن يوسف الثقفي - الذى كان على العراقين - قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان بعد يزيد بن المهلب بن ابي صفرة ، وكانت تولية قتيبة سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م) في ايام الوليد بن عبد الملك

ابن مروان .

وعبر قتيبة النهر في سنة توليته بعد ان اطمأن إلى ولاء (بلخ) ، لأنها القاعدة المتقدمة لفتح ما وراء النهر ، فاستعاد الطالقان والصغيان وطخارستان .

وفي سنة سبعة وثمانين الهجرية (٧٠٥م) استعاد « باذغيس » و « بيكند » بعد قتال عنيف ، وفي سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٦م) ، استعاد قتيبة فتح « تومشكث » و « وراميثنة » بعد قتال شديد .

وفي سنة تسعة وثمانين الهجرية (٧٠٧م) امر الحجاج قتيبة ان يغزو بخارى وملكها يومئذ (وردان خذاه) ، الذي اغتصب الملك من طغشاد بن خاتون .

وعبر قتيبة النهر من (زم) ، فلقيه الصغد واهل ركش ونسف في طريق المفازة وقاتلوه ، فانتصر عليهم .

ومضى قتيبة الى بخارى ، فنزل (خرقانة) السفلى ، فلقوه ثانية بجمع كثير ، فقاتلهم يومين وليلتين وانتصر عليهم .

وغزا (وردان خذاه) ، فلم يظفر بشيء ، فرجع الى (مرو) .

ومن الواضح ان المقاومة العنيفة التي صادفها قتيبة في طريقه الى بخارى ، كبدت جيشه خسائر كبيرة ، واتعبت رجاله ، فعاد الى مقره في مرو ليستعيد قوته ويريح جنده ، ويعوض خسائره ، ويمدجيشه بعناصر جديدة .

ولكن الحجاج امر قتيبة بالتوبة مما كان من انصرافه عن « وردان خذاه » ملك بخارى دون الظفر به ، وحثه على استعادة فتح بخارى في السنة القادمة بعد رحيل الشتاء .

وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٨م) خرج قتيبة من (مرو) متوجها الى بخارى ، فارسل (وردان خذاه) الى الصغد والترك ومن حولهم يستنصرهم فاتوه وقد سبق اليه قتيبة وحصره .

ووردت الامدادات الى ملك بخارى ، فخرج اليها ليقاتل المسلمين مع الذين جاءوه مددا . وتقدم الأزد ، فقاتلوا قتالا ضاريا ، ولكن العدو تكاثر عليهم ، فتقهقروا الى الخلف حتى دخلوا عسكر قتيبة وجاوزوه ، فضرب النساء وجوه الخيل ، وبكين ، فكر الجند راجعين ، واطبقت مجنبتا المسلمين على الترك ، فقاتلوهم حتى ردوهم الى مواقفهم السابقة ، ورأى قتيبة ان الترك هم القوة الضاربة في العدو ، وقد سيطروا على نشز من الأرض ، هو مفتاح مواضع العدو ، فاذا استطاع المسلمون السيطرة على هذا النشز ، استطاعوا ربح المعركة كلها .

ووجه قتيبة بني تميم وعلى رأسهم وكيع بن حسان بن قيس التميمي ، وامرهم بازالة الترك عن النشز واحتلاله . وقدم وكيع الخيل ، وتقدم بالرجالة ، فوصلت الخيل الى نهر بينهم وبين الترك ، فاقتحمته الخيل واقتحمه المشاة على جسر شده وكيع على النهر . ودنا وكيع من العدو ، فامر الخيل ان تشاغلهم وهجم بالمشاة عليهم فقاتلوهم حتى ازاحوهم عن مواضعهم ، وسيطروا على النشز من الارض .

وانهارت مواضع العدو ، فانهزموا لايلوون على شيء ، وجرح يومئذ خاقان ملك الترك وابنه واستعاد قتيبة فتح بخارى ، فكتب بالفتح الى الحجاج .

و (وردان خذاه) هذا وزير اصله من تركستان وكانت له اسرة « وردانه » وهي قرية من قرى بخارى ، ، وقد استأثر بملك بخارى بعد وفاة (الخاتون) وبعد اندحاره امام قتيبة هرب الى تركستان ومات هناك ، فاعاد قتيبة الملك الى « طغشاد » على بخارى ، فاسلم طغشاد وبقي ملكا ثلاثين سنة ، وسمى ابنه : قتيبة .

واقتدى بالملك كثير من اهل بخارى فأسلموا .

وقد دعا قتيبة الى اعتناق الاسلام بعد ان استعاد فتح بخارى للمرة الرابعة (فتحها المرة الاولى عبيد الله بن زياد ، وللمرة الثانية سعيد بن عثمان ، وللمرة الثالثة سلم بن زياد) ، فكان اهل بخارى في كل مرة يسلمون ثم يرتدون حين يعود العرب المسلمون الى ديارهم في الشتاء .

وقد مر قتيبة ببخارى اربع مرات حتى سنة اربع وتسعين الهجرية (٧١٢م) في طريقه الى ، الفتح ، فكان في كل مرة يدعو اهل بخارى الى الاسلام ، فيسلم من يسلم منهم صادقا ويتظاهر منهم من يتظاهر بالاسلام منافقا ، فرأى قتيبة من الصواب ان يأمر اهل بخارى بان يعطوا نصف بيوتهم للعرب ليقيموا بها معهم ، ويطلعوا على احوالهم ، فيظلوا مسلمين بالقدوة الحسنة والمعايشة الحقة للمسلمين ، فأظهر الاسلام بهذه الطريقة والزمهم باحكام الشريعة وبنى المساجد ، وأزال اثار الكفر والمجوسية ، وبنى المسجد الجامع سنة اربع وتسعين الهجرية (٧١٢م) وامر اهل بخارى ان يجتمعوا هناك يوم الجمعة من كل اسبوع للصلاة ، وكان يعطي

الفقراء المصلين من اهل بخارى درهمين لكل واحد منهم تشجيعا لهم على الصلاة ، وكانت القوة الشرائية للدرهم حينذاك كبيرة جدا فقد كان الخروف السمين بنصف درهم .

عبرة الفتح

كثيرا ما نقرأ في كتب المستشرقين ان اسباب انتصار الفاتحين هو : « عدم وجود جيش منظم قوي يستطيع صد الفتح الاسلامي ويحمي البلاد المفتوحة ولان الحرب الساسانية البيزنطية قد استنزفت قوى الدولتين وان مصاولة الفاتحين اقتصرت على السكان المحليين بطاقاتهم المحدوده كما يردد قسم من المستشرقين المغرضين واعداء العرب والمسلمين من المؤرخين الاجانب .

ومن المؤسف حقا ، ان قسما من المؤرخين العرب والمسلمين تقلو مزاعم هؤلاء الاعداء المغرضين نقلا الى المدارس والمعاهد والجامعات العربية والاسلامية ، وسمموا بها افكار التلاميذ العرب والمسلمين والطلاب بمزاعم باطلة لايقرها المنطق ولا صدقها العقل وهى تناقض وقائع التاريخ .

وبمجرد قراءة : (فتح بخارى) نجد مثالا واحدا على معاناة المسلمين في الفتح واستعادة الفتح لمدينة واحدة فقط ، فقد لاقى المسلمون مقاومة عنيفة جدا ، ولم يحققوا النصر الا بالتضحيات الجسام .

لقد قاومت البلاد بضراوة وعنف شديدين ، ولعل من اسباب تلك المقاومة : مناعة البلاد الطبيعية والاصطناعية ، وتفوق المقاومين من اهل البلاد على الفاتحين عددا وعددا ، والدفاع عن النفس والعقيدة والتقاليد ، ودفاع الحكام عن سلطانهم .

كما ان طول خطوط مواصلات المسلمين ، وتغلغلهم بعيدا عن قواعدهم الرئيسة والامامية والمتقدمة ، ساعد اعداءهم على مقاومتهم بشدة وعنف .

لقد كانت كل العوامل العسكرية الى جانب اعداء المسلمين ، ولكن المسلمين كانوا متفوقين على اعدائهم بالعقيدة ، فكانت انتصاراتهم انتصار عقيدة بلامراء .

وفي الوقت الذي كان فتح الاسكندر والفرس والروم والاستعمار الحديث فيه سحابة صيف ، لانه كان فتح قوة وبطش ، بقي الفتح الاسلامي فتحا دائما ، سيبقى واضح المعالم بارز الاثر مابقي التاريخ ، لانه فتح مبادىء لافتح سيوف ، والمبادىء تبقى وغيرها يزول .

ان الفتح الاسلامي واستعادة الفتح لم يكن نزهة للترفيه كما يصوره المغرضون والحاقدون ، بل كان فتح عقيدة ذاد عنها حماة قادرون .

تلك هي العبرة الاولى ، تفضح ادعاءات اعداء العرب والمسلمين الذين يصورون ان الفتح كان لضعف الامم المفتوحة ، لغرض التهوين والتقليل من شأن الفتح الاسلامي العظيم .

والعبرة الثانية ان المسلمين لايكرهون غيرهم على الاسلام ، فقد بقيت (الخاتون) على دينها خمسين سنة ، ومن البديهي ان المسلمين كانوا يستطيعون اكراهها على اعتناق الاسلام ولكنهم لم يفعلوا .

وقد اعتنق ابنها الاسلام وقاتل مع المسلمين ، ولم يذكر انه اجبر على اعتناق الدين الجديد .

وكان بامكان المسلمين الفاتحين اكراه الناس المغلوبين على اعتناق الاسلام ، ولكنهم لم يفعلوا ، واكبر دليل على ذلك ، هو بقاء كثير من الاديان الغابرة حتى اليوم بين صفوف المسلمين الفاتحين .

لقد استطاع الاسبان اجبار المسلمين على التنصر بالضغط والشدة ومحاكم التفتيش بعد سيطرتهم على الاندلس . ولو كان المسلمون يكرهون احدا على الاسلام ، لما بقي في الاندلس الاسبان النصارى الذين استعادوها من المسلمين .

والعبرة الثالثة ، ان الفتح واستعادة الفتح يقوي ويشتد حين تشمل المسلمين الوحدة ، يقاتلون تحت قيادة موحدة ، لتحقيق هدف واحد ، هو اعلاء كلمة الله ونشر المثل العليا بين الناس .

وان البلاد المفتوحة تنتقض وتضطرب ، حين يختلف المسلمون فيقتتلون تحت قيادات شتى لتحقيق اهداف غير موحدة .

ان سيوفهم بالوحدة تكون لهم على اعدائهم .

وسيوفهم بالفرقة تكون عليهم لا على اعدائهم .

تلك هو مجمل عبرة فتح بخارى واستعادة فتحها ، ما احرانا ان نستوعبها استيعابا عمليا لا نظريا ، ونأخذ منها الدروس لحاضرنا ومستقبلنا عربا ومسلمين . ■■

بغداد ـ محمود شيت خطاب

مشكلات الانسان
يحلها الفريق لا الفرد

بقلم : الدكتور انيس فهمي

يتميز عالمنا المعاصر بالازمات والمشكلات التي يواجهها الانسان الذي وقع تحت التهديد المستمر للتقدم الصناعي والحرب والمرض والعجز والشيخوخة والانفجار السكاني .. هل من سبيل امام الانسان للخروج من المآزق التي تقابله ؟ وهل يستطيع المهتمون بدراسة هذه المشكلات التغلب عليها وايجاد مسلك للانسان ازاءها ؟

لقد قام البروفسور دكتور ديتريش بقسم علم النفس بجامعة جيسن بالمانيا الاتحادية باجراءتجربة سيكولوجية طريفة . وبفضل هذه التجربة اصبحت لدينا الأن نتائج المراحل الاولى لمشروع ابحاث اكثر تعقيدا يهدف الى تحليل العمليات العقلية التي تشترك في حل المشكلات التي يصادفها الانسان . وتقوم بتمويل هذا المشروع جمعية الابحاث العلمية بالمانيا الاتحادية .

ويقوم البروفسور ديتريش حاليا بفحص الوسائل التي يتبعها الافراد الاذكياء لحل مشكلات غاية في التعقيد . والهدف من هذا المشروع هو اكتشاف وسائل تحسين القدرة البشرية للتغلب على مثل هذه المشكلات ومن الواضح ان ميدان هذا البحث جديد تماما ولم يلق الانتباه اللازم من علماء النفس حتى الآن .

وقد اختار البروفسور ديتريش مكانا خياليا للقيام بهذه التجربة . لقد اختار رقعة افريقية مصطنعة ، واوضح جميع التفصيلات الخاصة بنباتات وحيوانات هذا المكان وكذلك بالاجناس البشرية التي تعيش فيها وعاداتها في المأكل والمشرب ومتطلباتها الاساسية .

وقد قصد البروفسور ديتريش والفريق المعاون له ، ان يخلقوا بيئة تبدو كما لو كانت طبيعية ، واختاروا جو افريقيا لكي يكون غريبا بالنسبة للاشخاص الذين يقومون بالتجربة . وكانوا يهدفون من وراء ذلك الى التحقق من الكيفية التي يستطيع بها افراد التجربة ان يتكيفوا بالنسبة لنظام جديد عليهم تماما . وقد طلب الى افراد التجربة ان يختاروا الاشياء التي تجعل الناس الذين يعيشون في هذه المنطقة الخالية اكثر استمتاعا بحياتهم .

وكان البروفسور ديتريش قد بدأ تجربته في مدينة كيل قبل ان ينتقل منها الى جيسن . وقد اشترك في التجربة اثنا عشر طالبا من جامعة كيل كانوا يمثلون قطاعا مستعرضا من مختلف انواع الافراد في كيل .

اما مقاييس التحسن التي اعتبرها الطلبة اساسية فقد امكن اعدادها في ست مراحل متتالية كان يفصل بين كل منها مدة تتراوح بين يومين وستة ايام . وكان من بين هذه المقاييس الصيد والري وبناء السدود واعمال الكهرباء والميكانيكا وتنظيم النسل والخدمات الصحية .

وبعد ان تم الاتفاق وتقرير الخطوات التي سيجري انجازها تقرر الاستعانة بالحاسب الالكتروني لتقدير الاثار والنتائج لهذه المنجزات على المنطقة الأفريقية المصطنعة والتي اختيرت لاجراء البحث عليها . وفي كل مرة كان يلتقي فيها الطلبة كانوا يتلقون تقريرا عن نتائج الاجراءات التي اتخذت في الاجتماع السابق . وكان هذا التقرير يتخذ اساسا لتقرير اجراءات جديدة .

حاصل النتائج

الا ان حاصل النتائج كان منحلا ، لان الفريق الذي قام بالبحث لم يستطع ان يصل الى الهدف المطلوب وهو تحقيق حياة افضل للبشرية . ليس هذا فقط بل وجد انه بعد حدوث فترة قصيرة من الرخاء حلت بالمنطقة مجاعة الى حد ان قطعان الماشية قد اختزل حجمها الى جزء ضئيل من حجمها الاصلي .

ان المنطقة النموذجية قد زودت بمصادر للطعام وامكانيات اقتصادية كان من المفروض ، مع العناية والتصرف السليم،الا تنفد ابدا ، ومع ذلك فقد نفدت كلها ولم يبق منها شيء . وقد علق البروفسور ديتريش على تلك النتيجة بقوله : « ان الفريق الذي بذل افضل جهوده لم ينجح الا في خلق الفوضى والاضطراب » .

وقد يعترض معترض بان تلك النتائج قد حدثت لان الطلبة لم يكن لديهم الكفاءة اللازمة لمواجهة مثل هذه المواقف المعقدة . الا ان هذا الاعتراض يمكن الرد عليه بان ثلاثة من الطلبة الذين أسهموا في التجربة لديهم معلومات كافية عن البيولوجيا والزراعة والتغذية . ومع ذلك فان معارفهم لم تفدهم وعجزوا عن مواجهة الموقف . ومن الغريب ان الذين كانت لديهم معارف متخصصة صادفتهم صعوبات معينة لانهم لم يستطيعوا ان يواجهوا الموقف بعقل متفتح ، ولم يستطيعوا ان يستبعدوا الافتراضات الخاطئة عن المشكلات المطروحة . ويبدو ان المشتركين في البحث قد واجهوا المشكلات بافكار مسبقة لم يستطيعوا التخلي عنها .

وقد انتهى البروفسور ديتريش وفريقه الى الاعتقاد بان عدم القدرة على معالجة هذا الموقف ترجع الى ان هؤلاء الاشخاص لايملكون « القدرات العقلية » لمواجهة موقف من مثل هذا النوع المعقد . وقد اتضح انه لم تكن لديهم فكرة عن امكانية نشوء تأثيرات جانبية كما يحدث غالبا في المواقف المتشابكة . وعلى اية حال فانهم لم يعملوا حسابا لهذه الحقيقة عندما كانوا يجرون حساباتهم . ان تفكيرهم العقلي كان يعمل في اتجاه سلسلة طولية من النتائج ، بدلا من ان يعمل في اتجاه شبكة متشابكة من المسببات والنتائج ، كما هو المطلوب دائما لمعالجة المواقف المعقدة بطريقة صحيحة .

الزعامة .. والفريق

ان البروفسور ديتريش يستخدم الان جماعات من الخبراء لكي يقوموا بحل هذا النوع من المشكلات المعقدة ، وهو يقوم باجراء انواع متعددة من التجارب ليعرف كيف تعمل هذه الجماعات من الخبراء لمعالجة مثل هذه المواقف . وقد عهد الى مجموعات صغيرة من الخبراء تتكون من طلبة يدرسون الزراعة والاقتصاد بمواجهة مشكلات معقدة مشابهة .

ومن الظواهر التي برزت في عمل هذه المجموعات ظاهرة تحقيق الزعامة بوساطة احد اعضاء الفريق الذي يأخذ على عاتقه مسئولية عمل الفريق كله . وكثيرا ما يحدث أن أحد اعضاء الفريق يضعه بقية الفريق في مركز السلطة ليريحوا انفسهم من مسئولية اتخاذ القرارات .

وقد اتضح بجلاء من التجارب التي اجريت حتى الآن أن افراد الفريق الخبراء كان يعمل كل واحد منهم على انفراد ، ولم يكن لديهم روح الفريق ، ولم يحدث ان وجد تعاون حقيقي بينهم في العمل . كما ان النتائج التي حصلوا عليها كانوا يقومون بتنسيقها بشكل سطحي للغاية . ولم يحدث الانادرا انهم حاولوا ان يوجدوا نوعا من التكامل بين مجالات معلوماتهم المختلفة . والواقع ان كل شيء كان يتم بطريقة فردية . وقد علق البروفسور ديتريش على ذلك قائلا : « ان العمليات التي لاحظناها في تجاربنا تطابق مايحدث وما نشاهده كل يوم بالنسبة للاحداث السياسية . ففي كل يوم نقرأ في الصحف عن مشروعات او مقترحات للاصلاح تسودها النية الحسنة ولكن بدون ادراك كاف للصعوبات التي يمكن ان تقف في سبيل انجاز هذه المشروعات » . ■■

القاهرة ـ د . انيس فهمي

فائدة الزواج

× قال سقراط لاحد تلاميذه : « يجب أن تتزوج يا بني ، فانك ان ظفرت بزوجة طيبة عاقلة صرت سعيدا .. وان اخذت زوجة طائشة مناكفة صرت فيلسوفا . »

في يوم غير بقية أيام

السينما الهندية

اليوم الذي يقدمه لك الفلم الهندي الذي يشكل المادة الاساسية لهذا المقال يوم غير بقية أيام السينما الهندية .

من منا لم يشاهد فيلما هنديا في حياته ؟ ومن منا لم يمر بباب دار عرض تعرض فيلما هنديا ولم يتعجب للازدحام غير الطبيعي على حجز المقاعد ؟ ومن منا لايذكر « أمنا الهند » أو « آن الاميرة المتوحشة » او « من اجل ابنائي » او « سانجام » ؟ ومن منا لم يسمع « بأنا يتيم » « وطفل الخطيئة » « والصديقان » « وماسح الاحذية » ؟ ومن منا لم تقع عيناه على عنوان هذا الفلم او ذاك « عتاب » ... « دمار » ... « حنان » ... « القطار » ... ومن منا لم يطرب لأغنيات الاصوات الهندية الدافئة حتى لم يفهم لغتها ؟ ... سينما القارة الهائلة والعالم المصغر الحافل بالمتناقضات والصور ... المليء بالفلسفات والافكار والملل والنحل واللغات والتاريخ والبشر ... سينما عمرها كعمر العالم وانتاجيتها الهائلة تتراكم سنويا لتعطي فيلما لكل هندي (معدل الانتاج السنوي يصل الى ٧٠٠ فيلم تقريبا وتعداد سكان الهند يقل عن ذلك بنحو ١/٧) .

الفيلم الهندي

هل حاولت مرة ان تحلل بنفسك فيلما هنديا ؟ هل حاولت ان تفحص مكوناته ؟

لقد صارت للفيلم الهندي « وصفة » معروفة . قصة



بقلم : الفاروق عبد العزيز

حب تتخللها عقبات جمة مضاعفات عديدة وأغان ورقصات ممتعة ومغامرات شيقة واحزان فياضة باختصار سلسلة من الفواجع والافراح . وهذه « الاشياء » كلها تتم تعبئتها داخل شريط سليلويد ردىء الصنع صوتا وصورة ... وفي حيز زمن يتسابق المنتجون لاطالته بقدر الامكان .

لماذا ؟

لأن المشاهد الهندي ـ وهو المستهلك الاول يذهب الى دار السينما لقضاء اكبر وقت ممكن . وهذا حال مشاهدي السينما في بلدان العالم الثالث بوجه عام . وترتبط هذه « الحالة » بالاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمشاهدين (التي غالبا ما تجعل متعتهم الوحيدة تنحصر في السينما) كما ترتبط بكون الوسيط السينمائي الوسيلة الرخيصة الثمن والوحيدة تقريبا للثقافة الشعبية .

ان الوضع العام للسينما الهندية يمكن ايجازه في اعتبارها سينما تعبيء عالما خياليا في علب من الصفيح كي تداعب به آمال واحلام الاغلبية الساحقة من المشاهدين ، وهذا هو مصدر دخلها الاساسي في الهند وفي بلدان العالم الثالث بوجه عام . ان المشاهد يتوجه الى السينما كي يعوض حرمانه الاقتصادي في عالم سهل ومرسوم خصيصا لامتاعه . نفس النظرية طبقت منذ زمن طويل على افلام هوليوود ـ الصيغة السينمائية الاميركية الاكثر شيوعا في عالم اليوم .

« اننا نحاول أن نقدم هوليوود هندية ! ولهذا يمنعون افلامنا من التوزيع داخل الولايات المتحدة . ربما يخشون المنافسة بعد أن اكتسحنا الانتاج السينمائي الوطني في بلدان عديدة » هكذا تحدث المنتج السينمائي الهندي باش شورا في وثوق شديد من « سيطـرة »



بدأ اليوم الهندي الآخر باصابة الصبي ولم ينته بسهولة .

عندما عادت شينو فتحو الباب ولم يغضبوا . فالواقع المرير اسكت الجميع .

التفوق السينمائي الهندي في السوق العالمية .

ولكن اى سينما هندية ؟

من المؤكد اننا نتحدث هنا عن السينما السائدة .

يوم سينمائي آخر

غير ان هناك سينما اخرى عرفت حينا بالسينما الهامشية او الجديدة ـ سينما اطلت على السينما الهندية السائدة في مطلع الخمسينات مع افلام فنان الهند الاول ساتيا جيت راى . فمنذثلاثيته « أغنية الطريق » (١٩٥٥) و « ابار اجيتو » (١٩٥٦) و « عالم أبو » (١٩٥٩) وقائمة افلامه الاخرى التي اكتملت في عام ١٩٧٨ بفيلم « جوا بابا فيلونات » وتعبير السينما الجديدة تتردد في اروقة المهرجانات السينمائية الجادة . لقد بدأ النقاد يلتفتون الى سينما هندية أخرى مع افلام راى . وقد شجع ظهور السينما الهندية الجديدة قدوم اسماء اخرى الى هذا الهامش ..... موهانات وبالو هندرا وتاجابها راتنا وبيجال دوق وأراڤاندان ومرينال سن وآخرين ...

في افلام هؤلاء يمكنك ان تعثر على الهند الاخرى ، الهند الحقيقية التي يحياها شعبها بكل مشكلاتها وآمالها وطموحاتها وآلامها ونجاحاتها واخفاقاتها . سينما مشبعة فنيا تصنع فنا لابد ان يبقى كسجل حقيقي لحيوات حقيقية في عالم حقيقي .

وهذا ما اراد مرينال سن ان يقدمه في فيلمه الاخير « يوم مثل باقي الايام » ...

ويمضي اليوم في هدوء

هذا هو العنوان الاخر لفيلم مرينال سن الذي اسوقه هنا كمثل للسينما الهندية الاخرى التي لاتشاهدها في دور العرض ولاتزدحم جماهير المشاهدين في كل مكان (بما في ذلك الهند) من اجلها .

تتكون الاسرة التي يقدمها لنا مرينال سن من الاب الذي كان يعمل موظفا صغيرا قبل ان يحال الى التقاعد . وتضم اسرته سبعة أعضاء آخرين مكرسين في حجرتين من بناء قديم يضم اسرا اخرى كثيرة . ويقدم الفيلم تقريرا عن يوم في حياة هذه الاسرة فمنذ اصابة الصبي الصغير في الصباح حتى تأخر وصول الابنة الكبرى شينو في ذلك المساء . وتحتل الساعات والدقائق التالية فترة زمنية كبرى من الفيلم . ففي البداية يكون القلق طبيعيا ولكنه يتصاعد مع غياب شينو . ويبدأ الأب في طرح شكوكه ومخاوفه والام تبكي والجيران يتصرفون تجاه الحدث كل على طريقته . وينطلق الاخ الاكبر في بحث مستميت عن اخته في اقسام الشرطة والمستشفيات .ويؤدي تأزم الوضع الى انفجار الاخت الكبرى التي تدرس بالجامعة ... الكل قلق على مصير الفتاة التي تعول الاسرة وتمثل مصدر دخلها الاساسي . وتبدأ حقيقة اساسية تتكشف : ان السلام الظاهري المهيمن على الطبقة الوسطى ماهو الاقناع ما يلبث ان

مرينال سن : « اقتنص الجمال حين قدم اكثر الظواهر بشاعة في حياتنا على الاطلاق : الفقر ! »





القبلات والمداعبة الجنسية أمران ممنوعان على الشاشة الهندية . ولكن ماذا يفعل المنتجون لترويج افلامهم (بالاضافة الى جرعات العنف والدموع) ؟ يخلقون للمشاهد « الايهام » بالقبلة او بالمداعبة . فيظل يظن انها يوشكان على .. وهذه هي المادة الاعلانية الاولى ـ الى جوار العنف ـ في ملصقات الافلام الهندية .

يذوب حين تتفجر الفوضى الداخلية .

وقبل ان يصل الجميع الى حافة الانهيار يصل تاكي الى باب البيت الكبير . وعندما يفتحون الباب يجدون شينو امامهم . ها هي ذي شينو حية ترزق . ولا يسألها احد اين كانت . المهم انها عادت .

جماليات الفقر

السبب الاكيد الذي جعل الاسرة بكاملها تصمت بعد وصول شينو هو الفقر الذي تعاني منه اغلبية الهنود .وقد قيل يوما ان السينما الهندية الجديدة تسعى الى الوصول الى صيغة جديدة لتقديم جماليات الفقر لاتعني بالطبع تجميل الفقر (!) ولكنها تعبير فني فلسفي يرتبط بالرؤية الشاملة لواقع الفقر في هذا البلد او ذاك .

سئل مرينال سن (الذي بدأ عمله السينمائي مع ساتيا جيت راي في وقت واحد تقريبا) ذات مرة « عما يرمى اليه المخرجون الهنود حين يقولون ان تصوير الفقر بألوان ايستمان (الالوان الطبيعية في السينما) ليس سوى تسلية . هل يمكنك ان تحدد معالم رؤيتك للفقر ؟ »

أجاب سن بأن « جمالياتي تعتمد على هدف اساسي لي ، وهو ان احقق اتصالا مع الناس وان ارى مشاهدى افلامي وقد شاركوا في عملي وعثروا على الصلة التي تربطهم بموضوعه . وبما ان صنع الافلام هو فن تكنولوجي، يستخدم في كل المراحل آلاف الآلات الصغيرة والكبيرة فانني أجد من المثير أن أكون قادرا على التواصل مع الناس بمعونة قاموس لغوى جديد وبمحاولة جعل الموضوع المختار اكثر تأثيرا .

ان الجمال والقبح يمكن ان يكون تجربة جمالية . وبقدر ما يعنيني الامر فلقد سعيت الى اقتناص الجمال . وقد دفعني هذا الى التشديد على تقديم اكثر الظواهر بشاعة في حياتنا على الاطلاق : الفقر . »

ويتفق هذا المفهوم لجماليات الفقر مع مفاهيم كثير من رواد السينما الجديدة في معظم بلدان العالم الثالث .

وهو مفهوم يصلح دستورا لسينما جديدة ، مختلفة عن السينما الهندية التي عرفناها . ■■

الكويت ـ الفاروق عبد العزيز

مقالات في كلمات

■ استخدم كل ما لديك من مواهب . فالصمت سوف يلف الغابة اذا غنت فيها الطيور التي تجيد الغناء دون سواها .

« هنري فان دايك »

■ لا شيء يزيد من شعور الانسان بالسعادة أكثر من استبدال العمل بالقلق .

« موريس ما ترلنك »

■ لا تكتب مذكراتك في نفس اليوم ، لانك في حاجة الى وقت أطول لتتذكر كل ما حدث في ذلك اليوم .

« كرستوفر مورلي »

■ الحرية .. ما الحرية .. انها مجرد شيء يحلم به الانسان منذ بدأ يفكر .

« روبرت لويس ستيفنسون »

■ التلفزيون « وسيط » للترفيه بين الناس فهو يتيح للملايين من البشر الاستماع لنفس النكتة في نفس الوقت ومع ذلك يشعرون بالوحدة .

« اليوت »

■ الصبي يصبح رجلا عندما تكون هناك حاجة الى وجود رجل في البيت .

« جون ستاينبك »

■ العاقل لا يتردد في ان يعترف بخطئه .. فهو بذلك يريد ان يقول انه اكثر حكمة اليوم مما كان عليه بالامس .

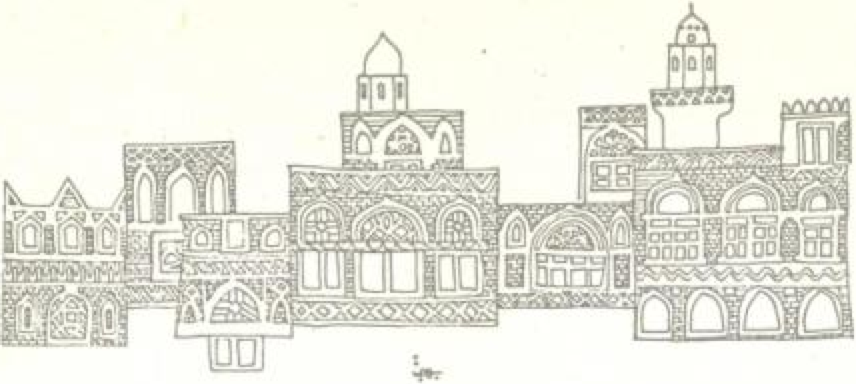
« جوناثان سويفت »

■ الحضارة ليست اكثر من محاولة للتخلص من اللجوء الى القوة الا كملجأ اخير .

« جوزيه اورتيجا »

■ ليس هناك رجل يستطيع ان يعتبر نفسه متزوجا قبل ان يفهم كل كلمة تريد ان تقولها زوجته دون ان تتكلم .

« لورد ما نكروفت »



التراث اليمني في المتحف البريطاني

بقلم : احمد بن محمد الشامي

مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني . تأليف الاستاذ حسين بن عبد الله العمري ، مؤلف ثمين ، مفيد ، بذل كاتبه ، في جمعه ، وتحقيق اصوله وابجاز شوارد مصادره ـ جهدا كبيرا لايبذله الا المجتهدون النجباء ، ومن ينفقون الغالي والرخيص في سبيل المعرفة وتحصيلها ، والعلم وخدمته .

ولقد اخرج الكتاب اخراجا انيقا ، مظهرا ، وورقا ، وحروفا وفهارس ، ومهد له مؤلفه بمقدمة جيده تحدثت عن « التراث والتجديد ، وفندت اصوات الشعوبيين ، المنحرفين ضد العروبة والاسلام ، مؤكدا ان « المليون » من المخطوطات العربية اكبر شاهد على ان الامة العربية تملك من التراث الثقافي في شتى شعب المعارف الحضارية والانسانية مالاتملكه امة او شعب من الشعوب الاخرى عبر تاريخ الحضارات المعروفة » .

ثم ذكر كيف توزع هذا « المليون » من المخطوطات العربية على مكتبات العالم من « استنبول » و « القيروان » و « فاس » و « القاهرة » الى « سورية » و « العراق » و « الاتحاد السوفييتي » حتى « الهند » و « ايران » و « ايطاليا » الى « برلين » و « باريس » و « فيينا » و « مدريد » و « ليدن » ومكتبة المتحف البريطاني » في لندن » .

والكتاب في ثلاثمائة وثلاث وثمانين صفحة ، وقد جعله في قسمين : الاول عن التاريخ والتراجم والادب ، والثاني عن مصادر الفقه واصوله وعندما يصف المخطوطة يتحدث عن مؤلفها ويترجم له ترجمة موجزة ، وكثيرا ما يقتبس اجمل العبارات التي قيلت في المترجم له ، ولاسيما من تحدث عنهم كبار المؤرخين والعلماء في كتب الادب والسير والتراجم ، وسيجد القارىء في هذه التعريفات المفيدة باكابر علماء وشعراء ، وادباء اليمن عبر التاريخ الاسلامي .

انطباعات شخصية

١ ـ لفت نظري وهو يترجم لعلامة اليمن ولسانها الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني مؤلف « الاكليل » و « صنعة الجزيرة » انه أورد مستهل قصيدته « الدامغة » كما يلي :

الا يادار لولا تنطقينا
فـانـا سائلـوك : فخبرينا

والذي كنت احفظه ، وهو ما اثبته في كتاباتي عن الهمداني ، وهو النص ايضا الوارد في كتاب قصيدة الدامغة الذي حققه ومحصه العلامة القاضي محمد بن علي الاكوع هو : « فانا سائلون مخبرونا » .

ولقد اعجبني « النص » الذي اختاره الاستاذ حسين ، وياليته اشار الى المصدر الذي نقله عنه ، واعتمد عليه ، فقد تكون مخطوطه لانعرفها من كتاب قصيدة الدامغة ، اما اذا كان قد عمل ذلك ذوقا واجتهادا فهو تصرف شعري بديع اخلق ان يكون الهمداني قد قاله : فان عجز البيت حين يكون : فانا سائلوك ..... فخبرينا ألطف وأطرب ايقاعا ، من ان يظل كما نعرف : « فانا سائلون مخبرونا » ، والبيت بصياغته الجديدة يذكرنا بقول احمد شوقي :

قفـي يا اخـت يوشـع خبرينا
احـاديث القـرون الغابرينـا

٢ ـ كما انه قد استوقفني وهو يتحدث عن كتاب « بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيد » ويترجم لمؤلفه « ابن الديبع » عندما قال مستطردا للحديث عن نسخة اخرى من الكتاب ـ ص ـ ٧٤ « حيث اضيف ثلاث اوراق بها تقول عن النمروالي صاحب البرق اليماني وتنتهي بشعر اخره ، ومن مشهور شعره .

الـدن لي ، والـكاس والقرقف
وللفقيه الكتـب والمصحف
ان كان ما تعجبـه قسمتي
فليقتشـهـا مثلمـا يعرف

هكذارسم « اللفظة » ، « فليقتشها » دونما ضبط لحروفها ، ولم استطع ضبطها ولا ان افهم معناها ، فاعملت فكري جاهدا ، ورجحت ان هناك تصحيفا او تحريفا ، وان الاصل ربما كان « فليقتسمها » مثلما يعرف « بالباء الموحد او بالباء المثناه التحتيه » ، او ما شابه ذلك ، ولم يذكر الاستاذ الى من نسب « النمروالي » هذين الظريفين الساخرين .

٣ ـ عندما ما ترجم الاستاذ حسين العمري في صفحة ـ ٢٨٨ ـ للعالم الشاعر الحسين بن ناصر المهلا المقتول شهيدا ايام فتنة « الساحر المحطوري » سنة ١١١١هـ (١٧٠٠م) وهو يتحدث عن كتابه الجليل الضخم : « المواهب القدسية شرح البوسيه » . تذكرت تراث اليمن الشعري الموءود والمهمل في رفوف المكتبات، وقلت عسى ان يهتم القائمون بامر مركز الدراسات والبحوث اليمنية بصنعاء وعلى رأسهم الشاعر البحاثة الدكتور عبد العزيز المقالح بمنظومة ابي القاسم البوسي (المتوفي سنة ٧٧٩هـ) والتي قال عنها الامام الشوكاني « البدر الطالع جـ ـ ١ ص ـ ٢٣١ » مايلي « وهذه المنظومة » هي في الفقه للبوسي على نمط الشاطبيه في الوزن والروى والقافية والاشارة الى مذاهب العلماء بالرمز مع جودة الشعر وقوته وسلاسته ، وجملة ابياتها اربعة وخمسمائة وثمانون بيتا . والبوسي المذكور هو احد علماء الزيدية بالديار اليمنية » ولاشك لدى ان له اثارا شعرية وادبية اخرى يجب البحث عنها والاهتمام بها .

كتاب من ٥٠ الف بيت

اما العالم الشاعر الشهيد القاضي حسين بن ناصر المهلا الذى اوجز الاستاذ العمري ترجمته فمأساة قتله تسدر الشجون ، وتجري المدامع وهو شاعر رقيق ، الى انه فقيه حاذق . وقد قال الاستاذ العمري ص ـ ٢٨٩ ـ : ـ والكتاب كما اشرنا في ترجمة مؤلفه منظومة في الفروع وقد ذكر من ترجم للمؤلف كما قال هو في مقدمته انها في سبعة مجلدات وما هذان المجلدان الا مختصر للاصل : « المواهب القدسية » اختصره من خمسين الف بيت الى ثلاثين الفا ذكر ذلك في اخر الكتاب » ثم قال الاستاذ العمري ص ـ ٢٩٠ ـ « ومن المواهب القدسية نسخة في ـ ٦ ـ (ستة) مجلدات بمكتبة الجامع نسخت سنة ١١٠٥هـ برقم ٤١٩ فقة .

وبعد قراءتي لكل ذلك تذكرت اني كنت قد ترجمت لشاعرنا الشهيد المهلا عندما كنت معتقلا في « قاهرة حجة » سنة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١ ، وعدت الى اوراقي القديمة فوجدت اني قد نقلت عن نشر العرف السفر الاول للمؤرخ محمد زباره انه قال بعد ان تحدث عن المواهب القدسية شرح المنظومة البوسية : « وله التصانيف النافعة ، والرسائل الواسعة ، التي طبقت الافاق . وذكر بعض اخوانه انه نظم على وزن المنظومة البوسية اربعين الف بيت ثم اختصارها في عشرة الاف بيت وشرحها الشرح العجيب الخ » وكان اماما محققا ، وبحرا زاخرا ، وشاعرا مجيدا » .

ومن مؤلفاته « الطراز المذهب » فيا تقرر من علم الاصول والفروع للمذهب ، و« من المنعم » و« مطمع الامال » « وحسنة الزمان في احيان الاوان » ، و« روائح الزهر الكافلة بمحاسن يتيمة الدهر » ، و« ثمينات الجواهر » ، ومما اخترته له من الشعر قوله من قصيدة :

الا انما الدنيا غضارة ايكة
اذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ، ماالامال الا فجائع
عليها ، وما اللذات الا مصائب
فكم سخنت بالامس عين قريرة ،
قرت عيون دمعها قبل ساكب
فلا تكتحل عيناك منها بعبرة
على ذاهب منها فانك ذاهب

ثم كتبت يومذاك ، اى منذ حوالى ثلاثين عاما ، ما هو خليق ان يقال اليوم لمركز الدراسات « وآل المهلا من الشرف ، من بيت علم وشعر وفقه ، مثل آل الارياني ، وآل الحضراني « وآل ابي الرجال وبيت اسحاق » وجديرون ان يؤلف عن اشعارهم واخبارهم وآثارهم كتاب مستقل ، وقد نبغ من بينهم خلال القرون الثلاثة العاشر والحادى عشر والثاني عشر للهجرة كوكبة من العلماء الفطاحل والشعراء المبدعين ، منهم « غير من تترجم له : القاضي عبد الله بن المهلا (٩٥٠ ـ ١٠٢٨هـ) وابنه شيخ شيوخ زمانه « عبدالله بن عبدالله ، وعلي بن عبدالله بن المهلا المتوفى بصنعاء سنة ١٠٥٩هـ والقائل :

لاتحسبوه عن هواكم سلا
كلا ولا فارقكم عن قلى ؟

وصاحب الابيات البديعة من قصيدة طويلة اولها :

هام وجدا بساكني نعمان
حسبه من احبه ومكان
جيرة خيموا فخيم قلبي
واستقلوا فهام في الاظعان
الفتهم روحي فهامت عليهم
قلما يسلم الهوى من هوان

وهو اسلوب رصين ينبىء عن لوعة صادقة ووجدان عميق .. ومنهم عبد الحفيظ بن عبدالله الذى قيل انه كان يحفظ في كل العلوم مؤلفات عديدة مع شروحها ، وله اشعار رائعة وتوفى سنة ١٠٧٧هـ ، والقاضي المهدى ابن محمد بن عبدالله المهلا المتوفي سنة (١٠٧٠هـ) وابنه العلامة علي بن المهدى ، ومنهم القاضي العلامة ناصر بن عبد الحفيظ المهلا وكان مرجعا للعلماء ، وله كتاب في « طبقات الزيدية » وتوفي سنه (١٠٦٤هـ) وولده القاضي علي بن ناصر تلميذ العلامة الجلال وتوفي سنة ١١٠٧هـ واخوه احمد بن ناصر صاحب المنظومه في علم المنطق ، وكان كما قال زبارة آية من آيات الزمن ، له شعر حسن وفيه وفي آل المهلا يقول مؤلف « زهر الكمائم »

وان احمد في الدنيا وان عظمت
لواحد مفرد في عالم امم
زادت مرور الليالي بينهم شرفا
كالسيف يزدان ارهاقا على القدم

وتوفي سنة ١١٣٣هـ ، وان أنس فلن أنسى الشاعر محمد بن عبدالله بن المهلا استاذ الامام المتوكل على الله اسماعيل (١٠١٩ ـ ١٠٨٧هـ) وصاحب ابدع بيتين قالهما شاعر يمني في الجناس المركب وهما :

واغيد معسول المشانب واللمى
يسائلني عن شرح جمع الجوامع
فقلت له ، والعين تسكب عبرة :
تعن ياخليلي «شرح جمع الجوى معي»

واخرون لو ذهبت أتتبع اسماءهم لاطلت ، وحسبي هذه النخبة .

ذلك ماكتبت منذ ثلاثين حولا ، واعود لأوكد ان كتاب الاستاذ حسين العمرى : « مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني » من اهم الدراسات اليمنية التي صدرت حديثا واكثرها اتقانا ، وعلى كل باحث او قارىء ان يجعله له صديقا .

وهناك اخطاء مطبعية ـ غير ما اشار اليها المؤلف ـ قد افردتها في جدول وبعثتها للمؤلف حفظه الله ليتحاشا مايقره منها في الطبعات المقبلة ، ان شاء الله . ■■

بروسلى (المملكةالمتحدة) ـ احمد بن محمد الشامي

■ لا احب ان ابدى رأيي او اسدى نصيحتي في امرين : في الدين وفي الزواج .. لاني لا احب ان اتحمل مسئولية تعذيب الناس لا في الدنيا ولا في الاخرة .

« لورد شستر فيلد »

وظائف تاء التأنيث

لتأنيث الاسماء المعربة والصفات (المشتقة) في لغتنا ـ ثلاث علامات :

١ ـ تاء التأنيث (المتحركة) [١] وتسبقها دائما فتحة ويوقف عليها بالهاء ، ولهذا تسمى ايضا « هاء التأنيث » مثل : فاطمة ، وعصفورة ، وشجرة ، وصخرة ، واذا اتصلت بما بعدها نطقت تاء [٢] .

٢ ـ الالف المقصورة ، مثل ، ليلى وحبلى ، وزلفى والذكرى ، والشعرى (نجم) وأسرى وسكارى وسميت مقصورة لقصر الصوت بها .

٣ ـ الالف الممدودة مثل : حسناء وصحراء ، وخضراء ، وشقراء ، وعلياء وأحياء ، وسميت ممدودة لمد الصوت بها (وتكتب الفا بعدها همزة) .

ويلاحظ في هذه العلامات انها تأتي زائدة على الجذور اللغوية في الاسماء وصفاتها . ونعرض هنا لتاء التأنيث وحدها ونؤجل الكلام في الالف المقصورة والممدودة ، كما نعرض بعض وظائف تاء التأنيث ونؤجل بقيتها الى صفحة اخرى بعون الله .

هذه التاء هي اهم علامات التأنيث واكثرها استعمالا في الاسماء وصفاتها سواء في لغتنا او اخواتها العروبية (السامية) ، وقد جاءت ملحقة في الاسماء وصفاتها لتمييز المؤنث من المذكر اذا كانا من جذر واحد ، واستعمالها في الصفات اكثر من استعمالها في الأسماء ، فمن استعمالها في الاسماء رجل ورجلة ، ومرء ومرأة ، وامرؤ وامرأة ، وغلام وغلامة ، وفتى وفتاة ، وانسان وانسانة ، واسد وأسدة ، وظبي وظبية ، وحمار وحمارة ، وبغل وبغلة ، ومن استعمالها في الصفات (المشتقة) [٣] وهو اشيع ـ عاقل وعاقلة ، ومأمون ومأمونة ، وسعيد وسعيدة ، وبطل وبطلة ، وشجاع وشجاعة [٤] وهي هي التاء الفارقة بين المذكر ومؤنثه ، لافرق بينها غيرها .

قد تلحق التاء كثيرا من الكلمات ، لا لتدل على تميز مؤنث من مذكر ، بل لمعان اخرى فتعامل هذه الكلمات

---

(١) وهي بهذا تخالف تاء التأنيث الساكنة التي تلحق الفعل ، مثل : كتبت هند (وهي تكتب طويلة)

(٢) هذه التاء تبقى تاء ايضا في حالة الوقف اذا كان الاسم مكونا من مقطع واحد ، مثل : بنت وأخت (وتكتب طويلة) كما تنطق تاء في الوقف في بعض اللغات العروبية (السامية) ، وهي اخوات العربية كما في اللغتين الاشورية والحبشية ، وكانت بعض القبائل العربية تنطقها كذلك كقول الراجز « والله نجاك بكفى مسلمت » ويلاحظ ان لهجاتنا الدارجة تنطقها كذلك في بعض الاسماء مثل ، ثروت ، وصفوت ، وعفت ، وعصمت ، وهمت ، وألفت (وتكتب طويلة .) .

(٣) كثيرا ما تستعمل الصفات اسماء : مثل : القاضي ، والجامع ، والجامعة ، والحافظ ، والمتصرف والآمر ، والمأمور ، والامير ، والممثل والموسوعة ، والمعجم .

(٤) هذا اذا كانت الكلمتان للمذكر ، والمؤنث من جذر واحد ، وقد تكونان من جذرين مختلفين ، ومثال ذلك من لغتنا : حصان وانثاه حجر ، وحمار وانثاه أتان (فلاعلامة هنا) او أسد وأنثاه لبؤة وهنا علامة التأنيث .

والامر كذلك في كثير من اللغات ، ففي الانجليزية مثلا قد تأتي الكلمتان من جذر واحد مثل Princess, Prince للأمير والاميرة ، وعلامة التأنيث هنا فارقة وقد تكون الكلمتان من جذرين مثل Queen, king للملك والملكة فلا علامة .

معاملة المؤنث في الكلام ، ويعد تأنيثها لفظيا او مجازيا ، لاحقيقيا وهذه المعاني[٥] :

١ ـ تمييز الواحد من جنسه ، اذ كان اسم الجنس جمعا ، سواء كان من المخلوقات او المصنوعات فمن المخلوقات : زهر وزهرة ، وتين وتينة ، وعنب وعنبة ، ومن المصنوعات : لبن ولبنة .[٦]

٢ ـ المبالغة ، مثل : الراوية (الكثير الروايات) الحاكية (الكثير الحكايات او المحاكاة لغيره) النابغة ، والداهية (الشديد النبوغ والدهاء) ويمكن ان تدخل هنا الكلمات المعدولة من وزن « فاعل » الى وزن فعلة (بضم ففتح) مثل : همزة ، ولمزة وضحكة (الكثير الهمز واللمز ، والضحك) .

٣ ـ تأكيد المبالغة ، مثل : علامة ، فهامة ، نسابة ، حسابة ، سروقة ، صرورة .

٤ ـ التعويض عن فاء الكلمة ، مثل صفة ، عدة ، زنة ، هبة (والاصل : وصف ، وعد ، وهب ، وزن) او التعويض عن عين الكلمة ، مثل : اقامة ، افادة ، استعانة (والماضي : اقام ، افاد ، استعان) أو التعويض عن لام الكلمة مثل : سنة ، عضة ، عزة ، كرة (والجذر سنو او سنه ، وعضو ، وعزو وكرو) .

٥ ـ التعويض في جمع التكسير عن ياء النسب في المفرد ، للدلالة على ان الجمع للمنسوب ، لا للمنسوب اليه ، سواء كان المنسوب اليه عربيا او غير عربي ، مثل : مواصلة ، فهي جمع موصلي ، لا جمع موصل ، ومثلها قواسمة ، وكوايتة ، وصعايدة ، واسايطة ، وحنابلة ، ويعاقبة ، ونساطرة فهي جمع : قاسمي ، وكويتي ، وصعيدي ، واسيوطي وحنبلي ويعقوبي ونسطوري (ويلاحظ في المنسوب اليه : قاسم ، وكويت ... انه يزيد على ثلاثة احرف) .

٦ ـ الدلالة في الجمع على ان المفرد غير عربي ، مثل دكاترة ، جهابذة ، سماسرة ، بطالمة ، دهاقنة ، قياصرة ، أكاسرة ، مرازبة ، طراخنة ، موابذة ، ملائكة ، في جمع جهبذ ، سمسار ، بطليموس ، دهقان ، قيصر ، كسرى ، مرزبان ، طرخان ، موبذ ، ملاك (ويستغنى في بعضها عن التاء مثل : بهارج ، قياصر ، ملائك ، (ويلاحظ في المفرد انه يزيد على ثلاثة احرف)

٧ ـ التعويض عن الياء في المصدر على وزن « تفعيل » اذا كان فعله معتل الآخر ، او مهموزه ، فيكون على وزن تفعلة « مثل » : تربية ، تزكية ، ترعية ، تعزية ، تورية ومثل تبرئة وتجزئة وتهنئة ، (والصيغة تدل على الواحدة) وقد وردت على هذه الصيغة ايضا مصادر من اصل صحيح الاخر ، مثل تجربة ، تذكرة ، تبصرة تفسرة (بدلا من تجريب ، تذكير تبصير ، تفسير) .

٨ ـ التعويض عن ياء مفاعيل وشبهه هيئةً في بعض الجموع سواء كان المفرد عربيا او غير عربي مثل زنادقة ، مطاعنة ، فراعنة ، بطارقة ، بدلا من زناديق ، مطاعين ، فراعين ، بطاريق (ولا تجتمع الياء والتاء في الجمع .)

٩ ـ تأكيد التأنيث في الاسماء والصفات الخاصة بالمؤنث مثل : ناقة ، نعجة ، فاطمة ، مرضعة ، ومثله التأنيث اللاحق للجمع ، لان جموع التكسير مؤنثة لفظا ، مثل : بعولة ، ذكورة صقورة ، نمورة ويمكن ان تكون هذه الجموع بغير تاء ، فيقال : بعول ، وذكور ، وصقور ، ونمور .

١٠ ـ تكون في الجمع لتمييزه من مفرده مثل : المارة ، السابلة ، السيارة ، والمسلمة ، السيافة والهجانة ، وهي جمع : مار ، سابل ، سيار ، مسلم ، وسياف ، هجان ، ومثل جعفرية ، حنفية مالكية ، شافعية ، حنبلية اشعرية ، سودانية ، وهي جمع جعفري ، حنفي الخ ...

١١ ـ الجزئية او التقليل ومثله التصغير ، مثل : بحرة وماءة ، دارة ، مفرشة ، بابة ، فصلة ، في الدلالة على ان كل مؤنث هنا جزء من كل اكبر منه ، او صورة مصغرة منه) (بحر ماء ، دار ، مفرش ، باب ، فصل)

وهناك معان اخرى .

(٥) في لغتنا نوع من الكلمات يسمى المؤنث اللفظي ، وهو ما كان لمذكر حقيقي ولكنه مختوم بالتاء ، مثل : حمزة وعروة ، وخليفة ، وكلها للرجال ، وقسورة للأسد ، وهذا النوع يستعمل في الكلام استعمال المذكر بحسب معناه لا بحسب لفظه ...

(٦) تذكر كتب اللغة المطولة معنى آخر للتاء وهو تمييز الجنس من الواحد ، وتمثل له باسمين كمأة وكمء وجبأة وجبء ، الاول للجنس والثاني للواحد ، وبعضهم يرى العكس وهو ان التاء لتمييز الواحد ، وهكذا يطرد الباب الاول ونحن نميل الى هذا الرأي .

أوراق أكرم زعيتر

شهادات هامة

في تاريخ النضال الفلسطيني

بقلم : زياد عوده

ما اكثر الكتب والابحاث والدراسات التي كتبت عن القضية الفلسطينية ، وتناولتها من جميع وجوهها واحداثها ـ هذه القضية التي كانت ومازالت الشغل الشاغل للامة العربية والعالم . فقد وضعت المنطقة العربية ، منذ بداية هذا القرن في مواقف حرجة وخطيرة ، جعلتها في حالة يقظة كاملة وتأهب مستمر ، من اجل درء الخطر الصهيوني الذي يتفاقم يوما بعد يوم .

ولعل كتاب « وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ » المأخوذ من اوراق الاستاذ اكرم زعيتر ، والذى صدر في أواخر عام ١٩٧٩ عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت ، وسجل في سلسلة الوثائق الاساسية والعامة ، من اهم الكتب التي ارخت للقضية الفلسطينية . فهذه الفترة التي امتدت من عام ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ وقعت فيها اخطر المراحل التي مرت بها القضية الفلسطينية . وجاءت هذه الوثائق شهادات مشرفة لتذكر العالم ان الشعب الفلسطيني لم يسكت في يوم من الايام على الظلم الصارخ الذي نزل به فوق وطنه ، بل كان يتحرك في كل مكان مدافعا عن حقه المشروع بكل ما اوتى من قوة وجهد .

لقد قدم الشعب الفلسطيني آلاف الضحايا من اجل ان يظل مزروعا فوق وطنه وكافح كفاحا مريرا من اجل الخروج من ازمته بسلام ، وقد تحرر تهائيا من البريطانيين والصهاينة ، ولكن تكالب القوى الاستعمارية المعادية له افقدته الوطن والدار اثر المجازر التي ارتكبتها ضده قوى الشر والاجرام ، واضطرته الى اللجوء بعيدا عن وطنه .

❋ محرر ثقافي بجريدة الرأى الاردنية



لسنا هنا في مجال التذكير بشعب استبسل في الدفاع عن وطنه ، كان يطارد الطائرات برصاص البنادق القديمة ، ويتصدى بصدوره لقوافل الدبابات والمصفحات البريطانية والصهيونية ليصنع النصر تلو النصر ، ويبث الذعر في صفوف الاعداء .. ولكن القوة ـ المنظمة والمكثفة والمسلحة بأحدث واقوى ادوات الدمار غلبت الفئة القليلة التي كانت ـ تفتقر الى السلاح والتدريب والتنظيم .

ولسنا هنا ايضا في مجال التذكير بالظروف والمآسي التي كانت تحيط بالوطن العربي الكبير الذي كان غارقا تحت وطأة الاستعمار البريطاني والفرنسي لتزداد الامور تعاسة وتعقيدا وتكتمل فصول المأساة .

لماذا الكتاب ؟

السؤال الذي سيخطر على بال القارىء : لماذا هذا الكتاب عن القضية الفلسطينية ؟ فقد شبعنا من الكتب والكلام ـ شبعنا من اجترار مآسينا وتكساتنا ـ وان كنت اوافق القارىء على رأيه ، الا ان كل كتاب جديد عن القضية يضاف الى المكتبة العربية ماهو الا بمثابة شمعة تضاء على طريق العودة الى فلسطين .. فهل هناك اقل من ان نتذكر الوطن المحتل من خلال الكتب والدراسات ؟ .

ان هذا الكتاب الذي نقدمه للقراء ، ماهو الا شمعة على الطريق وأضاءة جديدة للعقول التي خفيت عليها قضايا واحداث كثيرة لم تسجل .. فجاءالكتاب ليسجل وثائق النضال الفلسطيني الرائع في احرج الاوقات التي مرت بها القضية الفلسطينية .. فقبل ومع بداية حكم الانتداب البريطاني لفلسطين ، برزت الى الوجود المشكلة الفلسطينية التي خططت لها الصهيونية العالمية بمساعدة ودعم بريطانيا من اجل انشاء وطن قومي لليهود حسب وعد بلفور وزير خارجية بريطانيا سنة ١٩١٧ . وان كانت المشكلة في الاساس تعود الى ظروف وملابسات خططت لها القوى الاستعمارية لزرع اسفين في قلب الوطن العربي لاستغلال خيراته وموارده ، ولتجعل منه محطة ينطلق منها الاستعمار والقوى المعادية للسلام للاعتداء على ـ الاراضي العربية ، وزعزعة امنها واقتصادها .

فاسرائيل كانت ومازالت الدولة المعتدية ، التي لم تترك فرصة الا وتؤكد وجودها من خلال اعتداءاتها المتكررة ، على المناطق العربية المحيطة بها . وللحقيقة يجب ان نسجل هنا ان هذا الكتاب كان مفاجأة للقراء المهتمين بالقضية الفلسطينية فقد ضم وثائق لم يسبق نشرها . وهذا الكتاب ـ في رأيي ـ موسوعة غنية ، تفيد من يعود اليها ، وتمده بما يساعده على معرفة القضية الفلسطينية بالشكل الواضح السليم .

وقبل ان ندخل الى الكتاب ، لعرض بعض النماذج

منه ، نحب ان نسجل بعض الملاحظات التي نرجو أن يتسع لها صدر الدكتورة بيان نويهض الحوت التي اعدت الوثائق للنشر ، واشرفت على ترتيب المواد ، وجمع الاوراق . فقد كان من الافضل لو أن الوثائق التي نشرت ـ باللغات الانجليزية والفرنسية والاسبانية تم ترجمتها الى اللغة العربية لاعطت فائدة اكبر للقارىء ، كما لاحظت ان الوثائق المنشورة في الصحف والتي ضمت الى أوراق الاستاذ زعيتر لم يشر الى الاسماء التي ساهمت في نشر بعض الوثائق الهامة في الصحف ، بل اكتفت بالاشارة الى اسم الصحيفة فقط ❊ . كما لاحظت ايضا انه لايوجد فهرست للاعلام والاسماء التي وردت في الكتاب حتى يعود القارىء الى الشخصية او البلدان التي يريدها بسهولة .وكان بودنا لو ان بعض الوثائق الغامضة والهامة قد تم التعليق عليها بقلم الاستاذ زعيتر ، لاغنتنا عن كثير من التساؤلات والوقوف عند بعض الامور التي تحتاج الى شرح اوفى . وأقرب مثال الى ذلك ، البيان الصادر عن القائدين ابو ابراهيم ، وعبد الرحيم الحاج محمد ضد خروج حزب الدفاع عن ارادة الامة العليا ، والصادر بتاريخ ١٩٣٩/١/١١ والمنشور في ص ٥٦٧ من الكتاب والمثبت عنه صورة طبق الاصل في نهاية الكتاب .

٥١٢ وثيقة وبلاغ

يقع هذا الكتاب في ٧٢٠ صفحة من القطع الكبير وقد حوى على (٥١٢) وثيقة وبيان وبلاغ مع ملاحق وصور زنكوغرافية عن بعض الوثائق والبيانات ، وجاء في مقدمة الكتاب :

للحركة الوطنية الفلسطينية جذورها المتصلة باوائل التحرك العربي الحديث ، فلقد شارك الفلسطينيون اخوانهم العرب في النقمة على الحكم العثماني ، وفي النهوض للتخلص من قيوده ولتحقيق حرية الشعوب العربية ، وسيادتها ووحدتها ، وعندما اعلن وعد بلفور بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وقامت عصبة الامم بعد ذلك ففرضت الانتداب البريطاني على هذا القطر العربي ، مضمنة صك الانتداب واجب تنفيذ ذلك الوعد ، نهض الشعب الفلسطيني يناضل لصد هذا الاعتداء الفاضح على حقوقه التاريخية والقومية والقانونية ، وطفحت فترة الانتداب بمظاهر هذا النضال من احتجاجات واضرابات وثورات قدم خلالها ابناء فلسطين قوافل متتابعة من الضحايا وتحملوا من جرائها شتى الكوارث والنكبات ولقد كان من حسن حظ المؤسسة ان حرصها على جمع الوثائق المتعلقة بالحركة الوطنية الفلسطينية قد لقي صدى كريما لدى الاستاذ اكرم زعيتر الذي تفضل واهداها مجموعة وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية في الفترة ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ التي كان قد حرص على جمعها والمحافظة عليها .

والاستاذ زعيتر ، كما هو معروف ، قد شارك في الحركة الوطنية الفلسطينية في القسم الاكبر من هذه الفترة مناضلا سياسيا ، وعضوا مؤسسا في حزب الاستقلال ومسهما في تأليف اللجان القومية التي اشرفت على تنظيم الاضراب الكبير سنة ١٩٣٦ ، وكاتبا وخطيبا وملاحقا للاحداث ودافعا لها وحريصا في الوقت ذاته على حفظ آثارها وتدوين وقائعها .

ان الاهمية التاريخية لهذه المجموعة الوثائقية تكمن في الوجوه التالية :

١ ـ في كون القسم الاكبر منها يتألف من وثائق اصلية ينشر معظمها لأول مرة .

٢ ـ في كونها تحتوي على الكثير من المذكرات السياسية المطولة مما يؤدي الى توضيح مسيرة الفكر السياسي والعمل السياسي في تلك المرحلة .

٣ ـ في كونها تتضمن وثائق متكاملة لبعض الاحداث المهمة ، منها على سبيل المثال : الجمعيات الاسلامية المسيحية ، رحلة الوفد العربي الفلسطيني الاول الى لندن ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ ، الاحزاب الفلسطينية وخصوصا حزب الاستقلال ، ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ .

اول نشرة للاضطرابات

ما أكثر الوثائق التي صدرت عن القضية

❊ لعل اقرب مثال الى ذلك ، البلاغات الثلاثة رقم ٩ ، ١٠ ، ١١ « المنشورة في الصفحات ارقام ٤٤٩ و ٤٥٠ من الكتاب المأخوذة عن جريدة « عمان المساء » الاردنية والمنشورة اواخر عام ١٩٦٧ حيث كان لكاتب هذا المقال شرف المساهمة بنشرها مع وثائق اخرى والتعليق عليها .

الفلسطينية وحوفها ، وثائق مع وفد اهل فلسطين اصحاب الأرض الشرعيين الذين لاقوا من صنوف الظلم ما لم يتحمله شعب آخر في هذا الكون الواسع ، وهاهم أولاء مشردون في ارجاء الدنيا يترقبون العودة الى وطنهم السليب ، واراضيهم الغالية . ونثبت هنا للتاريخ الوثيقة رقم ـ ١٥٩ ـ من الكتاب : النشرة الرسمية الاولى لحكومة فلسطين في اضطرابات سنة ١٩٢٩ بتاريخ ١٩٢٩/٨/٢٥ .

حكومة فلسطين
النشرة الرسمية

ان الحالة في مساء الاحد الواقع في ٢٥ آب هي كما يلي على وجه التقريب :

الحالة هادئة في المدينة القديمة وفي قلب المدينة الحديثة (خارج السور) ، وقد كانت بعض ضواحي القدس المتعزلة مهددة بعدد صغير من المتصيدين العرب . ولم تقع في الضواحي خسائر في الارواح او الاموال ذات بال اذا استثنينا محلة تلبيوت التي اخليت من السكان دون ان تقع خسائر في الارواح . وقد اقيمت في جميع انحاء المدينة وفي الضواحي المهددة والمستعمرات اليهودية المتعزلة دوريات من المشاة البريطانيين والسيارات المصفحة التابعة لسلاح الطيران ، ومن جنود سلاح الطيران وستبقى فيها في الوقت الحاضر .

وبلغت الاصابات لغاية تاريخه مايلي :

	مسلمون	مسيحيون	يهود
القتلى او المتوفون من جراحهم	١٠	٣	١٤
المصابون بجراح خطيرة	٢١	١	٣٧
(توفي منهم خمسة اشخاص)			
المصابون بجراح خفيفة	٣٢	١٥	٦٦

الخليل

وقع امس صباحا هجوم شديد على محلة اليهود نجم عنه خسارة كبيرة في الارواح ، وتدل الانباء بأن عدد القتلى يزيد على خمسة واربعين شخصا من اليهود وثمانية من المسلمين وبأن عدد الجرحى يزيد على تسعة وخمسين من اليهود وعشرة من المسلمين وقد ارسلت من القدس فصيلة قوية من جنود سلاح الطيران البريطانيين ومن البوليس البريطاني فاعادت النظام وستبقى هذه الفصيلة في الخليل في الوقت الحاضر . وقد اخلى الاهالي اليهود الاحياء اليهودية وهم يقيمون الآن في قشلاق البوليس تحت المحافظة .

غزة وبئر السبع

ـ الحالة هادئة في هذين القضاءين .

الرمله واللد

ـ اقيمت امس مظاهرات في هاتين المدينتين غير انه لم يقع اخلال بالامن

نابلس

ـ حاول في صباح السبت جمع من العرب اقتحام قشلاق البوليس غير أنهم ردوا على اعقابهم واصيب منهم اثنان بجراح خطرة وثمانية بجروح خفيفة وقد عدل عن المظاهرات التي حاولوا اقامتها .

ان المدينة هادئة وقد فتحت الدكاكين في هذا الصباح .

طولكرم وجنين

ـ الحالة هادئة في هاتين المدينتين وقد وردت انباء بان عددا صغيرا من القرويين ساروا نحو الشمال .

بيسان

ـ وقع امس صباحا اصطدام بين العرب واليهود المقيمين في بيسان ، واصيب اثنان من اليهود بجراح خطيرة وثمانية بجراح خفيفة وقد استتب النظام حالا . وترابط الآن في جسر المجامع وبيسان وصفد فصائل من قوة حدود شرقي الاردن .

صفد

ـ وقع امس وصباح اليوم بعض التوتر في العلاقات بين العرب واليهود وقد عززت الفصيلة المرابطة في صفد من قوة حدود شرقي الاردن بنجدات من البوليس البريطاني من حيفا وقد تحسنت الحالة .

طولكرم والناصرة وعكا

ـ الحالة هادئة في جميع هذه المدن .

حيفا

ـ اقتحم عدد صغير من العرب محلة مدار هكرمل فصدهم البوليس دون ادنى صعوبة والحالة هادئة .

يافا

ـ ستنشر اخبارها فيما بعد .

وبعد فان كتاب « وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ » يعتبر من اهم الكتب التي ارخت بصدق لفترة من الفترات للقضية الفلسطينية .

■■

عمان ـ زياد عوده

حوار القراء

الرأى العام العربي

● يقول علماء الاعلام والاتصال ان للرأى العام ضغطا كالهواء الجوى تحس به ولا تراه .. ولذلك تحرص الحكومات ومراكز تحليل الرأى العام على قياسه وتحليله خاصة في المجتمعات المتقدمة التي تتخذ القرارات فيها بعد دراسة وتحليل كافة الاحتمالات والاتجاهات .

وفي عالمنا العربي نحن بحاجة الى ذلك المركز العلمي الهام الذى يقوم برصد الاتجاهات الشعبية والتنبؤ بها وتحليلها ودراستها واتخاذ القرارات بناء على رغباتها وطموحاتها المستقبلية ..

صحيح ان لدينا آفة الأمية مرتفعة في عالمنا العربي زد على ذلك أمية المثقفين ان صح التعبير .. ولكن لدينا المال والخبرات البشرية الماهرة في القيام بانشاء وتنفيذ ذلك الاقتراح الهام .

حجاج عباس نوفل
جمهورية مصر العربية ... قوص

الاسلام والحرية

● تعقيبا على مقال فهمي هويدى المنشور في مجلة العربي تحت عنوان « بل هي ازمة الحرية » اقول : لا يختلف اثنان على ان مستقبل الاسلام وانتشاره لا يتم الا في جو من الحرية ، حرية الفكر والعقيدة والتعبير .

ان الاسلام كقطرة الماء للارض العطشى تتقبله النفوس البشرية الحائرة والعقول الباحثة عن الحق دونما ابطاء .

لذلك فالحرية هي الاساس الاول الذى قام عليه الاسلام ومهمة المسلم الحق هي مقاومة الظلم والاستبداد وكبت الحريات .

نذير هيام
دمشق ـ سوريا

تهنئة

● نتمنى لكم احر التهاني بمناسبة بلوغ مجلتنا « العربي » الغراء عامها الثالث والعشرين ، ونتمنى لكم وللمجلة دوام التقدم والازدهار والتجدد دائما .
كما نتمنى نحن المعاقين في مستشفى حيفا المزيد من الاهتمام بأمور المعاقين في مواضيع المجلة بمناسبة السنة العالمية للمعاقين (١٩٨١) وفقكم الله لما هو خير للامة العربية والاسلامية جمعاء .

محمود خضر
مستشفى حيفا في بيروت

شكر من باكستان

● نيابة عني وعن اعضاء المجلس ادفع الى حضرتكم هذه الرسالة بقلب مفيض بالشكر والدعاء على ما تفضلتم بتزويد المجلس بمجلتكم الغراء ، وكانت مجلتكم القيمة خير باعث في تنشيط جهودنا وتثقيف اذهاننا وبث الوعي الاسلامي ويسرنا احاطتكم بان المجلس قد عمل على نقل بعض المقالات القيمة الفكرية ، الى اللغة الاردية لتعميم نفعها على المسلمين بباكستان ، واننا اذ نشكر على حسن تعاونكم في نشر الفضيلة ، نسأل الله تعالى ان يبارك في جهودكم ويجعلها خالصة لوجهه ونرجو التكرم بالاستمرار على تزويد المجلس بمجلتكم القيمة . ومما لا ريب فيه أن تعاونكم المخلص له اثر بالغ في انعاش الدعوة والوعي الاسلامي ، ونرجو ان يدوم هذا التعاون المخلص .

عبد الرحمن عزيز
رئيس مجلس معارف ابن تيميه/باكستان

فندال ام وندال

● بالنسبة لمسابقة العربي/٢٦٦/هناك خلاف هام حول كلمة وردت في الكلمات الرأسية ،العمود /١٤/ فالبرابرة الذين عاشوا في شمال المانيا : ورد اسمهم بالاجنبية Vanoal ولم يتفق المترجمون على ترجمة واحدة لها فمثلا : الدكتور/ محمد كمال الدسوقي / في كتاب « تاريخ المانيا » ذكرهم تحت اسم (وندال) ص ١٨ بينما كتاب « مختصر تاريخ المانيا » ترجمة دار الهلال ذكرهم تحت اسم « فندال » ، وسمى المنطقة التي سكنوا بها / فندالوسيا / لذلك نطالبكم بالتدخل وقبول حرفي الواو او الفاء في بداية الكلمة حتى لا يظلم احد .

اسامة باقو
حلب/سوريا

استطلاعات العربي

● ان لمجلة العربي الغراء أيادي بيضاء في مدنا بالمعلومات العامة اللازمة لكل عربي عن وطنه الكبير تاريخيا ، جغرافيا ، حضاريا ..

وبالرغم من أن مجلتنا هذه لا تدخر جهدا « في سبيل رفدنا بالمعلومات التي ذكرناها فاننا نطمح الى المزيد منها مع اعادة استطلاع المدن العربية التي كانت قد استطلعت فيما سبق مع مقارنة جادة بين الاستطلاعين مدعومة بالصورة والبيانات ..

مدام كوري

● في العدد « ٢٦٤ » من مجلة العربي - ورد مقال عن حياة العالمة مدام كوري والذي لفت انتباهي ان الكاتب تعرض فقط للجائزة التي نالتها مدام كوري وزوجها وهي جائزة نوبل ولم يذكر الجائزة التي نالتها بعد خمس سنوات من الاولى اي جائزة نوبل الثانية وبذلك كانت اول شخص حاز على جائزة نوبل مرتين .

بالاضافة الى ان « ايرين » ابنتها نالت هذه الجائزة عام « ١٩٣٥ » .

وعندما قرأت هذه المقالة شعرت بان لهذه المرأة حقا ضائعا لابد ان يرد اليها فسارعت في الكتابة اليكم .

بها اللبني
سورية - دمشق

مثلا مدينة اللاذقية ، مدينتنا حاضرة وعروس الساحل السوري كانت قد استطلعت منذ اكثر من عشر سنوات ولم تستطلع ثانية رغم تطورات هامة هائلة حدثت فطورتها الى مدينة اكثر من مجرد ميناء اول في سورية .

من ناحية اخرى ، حبذا لو تنشر المجلة استطلاعات مصورة عن مراكز الانتاج البترولي والمعدني وغير المعدني من المواد الاولية المستغلة في الوطن العربي ، هذه المواد الاولية التي هي عماد التطور الصناعي والاقتصادي الذي يعيشه عالمنا اليوم مع نشر الابحاث المبسطة عن علم الارض الذي يعنى اصلا واساسا بدراسة الارض وطبقاتها ، نشوئها وتاريخها ليمكن في النهاية استغلال مواردها .

اننا نتطلع اليكم لتحقيق هذا المطلب المكمل لاستطلاعاتكم

الجيولوجي مازن سبع الليل
سورية/اللاذقية

تصويب

● في عدد رقم ٢٦٥ الصادر في ديسمبر ١٩٨٠ نشرتم في مقال احمد امين (ص ٦١) صورة لطلبة مع اساتذتهم . ومن جملة ما ورد في وصفها ان سهير القلماوي وبنت الشاطيء كانتا بينهم . والواقع انها غير موجودتين في الصورة ، الا ان فيها من الآنسات يومئذ الشاعرة ملك عبد العزيز زوجة الدكتور محمد مندور فيما بعد . وروحية القليني الشاعرة وزينب بنت مصطفى صادق الرافعي الثانية والثالثة والسابعة بين الطالبات من اليسار الى اليمين .

وبين هذه المجموعة ثلاث عراقيات وأربعة من اللبنانيين وفلسطيني واحد ومغربي واحد .

احمد مدينة
المغرب

شكر ودهشة

● تشكر مجلة العربي على الاستطلاع المصور الذى أجرته عن دمشق الفيحاء التي تعد من المدن العربية الكبرى والتي كانت عاصمة دولة الامويين المجيدة .

حيث وقفت قرب الباب الذى تشرتم صورته في حي الشاغور احمل مجلة العربي واقارن الصورة بالواقع بسرور وغبطة وقد دهشت عندما نظرت الى هدية المجلة في عددها الممتاز ٢٦٦ حيث وجدت الخريطة التي توضح الارض الاسلامية واذ بي اجد ان فلسطين وجنوب لبنان موضوعان بلون بني وهو اللون الذى اشير به الى الارض المسيحية طوال القرن ـ العشرين الميلادى ـ فهل فلسطين وجنوب لبنان اراض مسيحية !! ..

محمد فايز الحناوى
سوريا/جامعة دمشق

جائزة للنوابغ

● اقترح على الأمين العام لجامعة الدول العربية ان يستمزج أراء الدول العربية الاعضاء في الجامعة لتخصيص جائزة سنوية للنوابغ العرب .

سالم احمد
الدمام/السعودية

المفعول به والتمييز

● قرأت عدد يناير ١٩٨١ من مجلة العربي ، الصفحة اللغوية وعنوانها زاد عليه وزاد عنه ويقول كاتب المقال « يستعمل الفعل زاد متعديا ولازما فهو يتعدى بنفسه الى مفعول به واحد مثل زدت ايمانا » وانا لا اشاطره هذا الرأى ، فكلمة « ايمانا » هنا تمييز وليست مفعولا به .

فطلاب المدارس يتعلمون تعريف المفعول به بانه هو الذى وقع عليه فعل الفاعل . على حين يعرّف التمييز بانه اسم نكرة يذكر تفسيرا للمبهم من ذات او نسبة .

(وايمانا) هنا من تمييز النسبة . اى ان الزيادة تحتمل اشياء كثيرة فقد يزداد المرء ايمانا او علما او وزنا او طولا ... فالتمييز يزيل الابهام . ففي قوله تعالى : « وقل رب زدني علما » كلمة (علما) تحدد وتميز نوع الزيادة .

والتمييز كما هو معلوم على قسمين محول وغير محوّل .

فالمحول ما كان اصله فاعلا : زدت ايمانا اصلها زاد ايماني واشتعل شيب الرأس . فارجو من كان عنده رأى مخالف لهذا ، ان يكتب لنا حتى ازداد علما .

تيسير غراوى/دمشق

مسئوليات جسيمة

● قرأت في عدد فبراير ١٩٨١ م ... مقال الدكتور محمد فتحي عثمان عن الفكر الاسلامي ومسئوليات قرن جديد ، ولقد اعجبت به اعجابا شديدا ، وانا اتفق مع سيادته تمام الاتفاق على ان الفكر الاسلامي محتاج الى النهوض والانطلاق ، محتاج ان يخرج من مرحلة الجمود والوقوف الى مرحلة الحركة والانطلاق الواسع الكبير ، ولكن يجب على المسلمين ان ينهضوا جميعا بهذا الفكر الاسلامي نهضة رجل واحد لكي يكون هذا الفكر فكرا شاملا ومتطورا يفيد كل المسلمين ....

وفي هذه الايام نرى بعض المسلمين يعانون من محنة شديدة ، محنة في اوطانهم محنة في نفوسهم ولا يرجع ذلك الى قلة في العدد او البنية او المال .. فيجب على جميع المسلمين ان يتعاونوا ويجتهدوا عملا بقول الحق تبارك وتعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

ايمن غنيم على غنيم
مصر ـ دمياط

من الادب السوفييتي المعاصر

وانهار الصرح ..

بقلم : اناتولي غيورغيفتش الكسين

ترجمة : هاشم حمادي

كان غينكا [1] محرما بشاهدة الأفلام التي يحظر على من لم يبلغ السادسة عشرة من العمر مشاهدتها . وكان يحب قراءة الكتب المغفلة من تحديد فئة القراء ـ أي الكتب الخاصة بالكبار .

(١) غينكا : صيغة التدليل من اسم غينادي .

وحينما سمع المذيع يعلن ذات مرة عن محاضرة مخصصة للأبناء والأمهات قرر غينكا أن عشل هذه المحاضرة تستحق الاستماع

وجاء من المذياع صوت ممل : ألصق به المذيع لقبا مهيبا ـ « دكتور في العلوم التربوية » . وكان غينكا يحاول دائما تصور الناس ، الذين يستمع الى أصواتهم دون أن يراهم . ولسبب ما فقد تصور في هذه المرة امرأة جافة تضع نظارة من النوع الذي يثبت على الأنف



وترتدي معطفا أبيض اللون . وكانت كلمة « دكتور » تليق بها جدا ، لأن كل جملة من محاضرتها كانت أشبه ما تكون بالوصفة الجاهزة .

كانت الوصفة الاولى : « كلما كان الطفل مولعا بالمطالعة كان أكثر نجاحا في دراسته ! » . وأحس غينكا بالخوف يتملكه ، فهو لم يترعرع حسب القواعد . واذا كان قد صدف ونال درجات سيئة فان الذنب في ذلك كان ذنب المطالعة وحدها فالى عهد قريب كان غينكا لايكف عن المطالعة . حتى انه كان يطالع وهو يتناول طعام الغداء أو العشاء ، مستخدما ، كمسند للكتاب ، الصحن المخصص لوضع السكر ، الذي كان في البداية ذا أذنين دقيقتين ، لم يلبث أن فقد احديهما ثم الأخرى من كثرة استخدامها كمسند .

وجاءت الوصفة الثانية « على الطفل أن يحترم أبويه ، دون أن يخافهما ... » .

حتى عهد غير بعيد كان غينكا يحترم والده ويخافه في نفس الوقت .

لقد كان أبوه أول من أعلن الحرب على « التهام » غينكا لكتب المطالعة . حيث شن هجومه حسب قواعد العلم العسكري . ففي البداية قام بدورية استطلاعية : فبعد حوار قصير مع ابنه عن الكتب ، اكتشف أن عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها قد اختلطت وتداخلت في رأس غينكا . فكان يخلط بين كوبير [٢] وكوبرين [٣] ، بين ستانيوكفيتش [٤] وغريغوريفيتش [٥] . وأعقب الأب الاستطلاع بهجوم كاسح : حيث راح يسخر من ابنه دون رحمة ، حتى بحضور رفاقه . ولم يكد يرى ارتباك غينكا حتى ... انتهز الفرصة فانثال بقواته الاساسية عبر الثلمة المتشكلة .

فقد ألقى على الطاولة بيده ، الضخمة التي كانت الشوك والملاعق تبدو فيها غاية في الضآلة ، وهو يقول :

ـ من الآن فصاعدا سنقرأ معا !

وتساءل غينكا بدهشة : معا ، ولكن كيف ؟ هل تعني القراءة الجهرية ؟

ـ كلا ليس بصوت عال ، ولكن ليس بصمت مطبق . ستقوم باستعارة الكتب التي أنصحك باستعارتها ، وبعد القراءة سنعقد ندوات مناقشة ...

كان ثمة مكتبة للاطفال في ـ الطابق الأول من المنزل . وبدأت أمينة المكتبة ، وهي امرأة مكتنزة الجسم ، طيبة القلب ، أطلق عليها القراء الصغار لقب « حاذر أن تمزقه » ، تعطي غينكا الكتب التي ينصحه أبوه بقراءتها .

كان الامتحان يبدأ بعد وجبة العشاء .

ـ لقد عدت فأهملت وصف الطبيعة .

ـ أبدا لم أهمل شيئا .

ـ لا تكذب ! ان الكذب أسوأ خصلة في الانسان هل تستطيع أن تخبرني بماذا يشبه الكاتب رائحة الثلج هنا ؟

وتتقفز غينكا في مقعده . ووده لو يجري الى الشارع ويشم رائحة الثلج : عله يكتشف عن أية مقارنة يسأله أبوه .

ـ ان الكاتب يشبه رائحة الثلج الأول برائحة البطيخ الأحمر ! انه تشبيه مجازي غاية في الدقة . بيد أنك أغفلت ذلك .

ولم يلبث غينكا أن أحب الأسلوب الجديد في المطالعة وأتقنه فانتهت الامتحانات على مائدة العشاء ، ولكن النقاش حول هذا الكتاب أو ذاك ظل يدور بين الأب وابنه .

وبين الفينة والأخرى كانت الأم تتدخل في النقاش وتدلي بدلوها ، وسرعان ما كان الأب يوافقها الرأي ، ولسبب ما كانت الأم تقول بأسى :

ـ في الترام فقط يقدم الرجل المقعد للمرأة ، أما في النقاش فلا لزوم لمثل هذا الاحترام ...

كانت الأم تعمل ضاربة على الآلة الكاتبة في البيت فقط ، اذ كان يخيل اليها أنه يكفي أن تغيب عن البيت يوما واحدا فتحدث الطامة الكبرى .

---

(٢) كوبير جيمس فينيمور (١٧٨٩ ـ ١٨٥١) كاتب أمريكي .

(٣) كوبرين الكسندر ايفانوفيتش (١٨٧٠ ـ ١٩٣٨) كاتب روسي .

(٤) ستانيوكفيتش قسطنطين ميخايلوفيتش (١٨٤٣ ـ ١٩٠٣) كاتب روسي .

(٥) غريغوروفيتش دميتري فاسيليفتش (١٨٢٢ ـ ١٨٩٩) كاتب روسي .

كاتب القصة

أناتولى غيورغيفيتش الكسين (ولد في عام ١٩٢٤) كاتب سوفيتي معروف ، نشرت كتاباته الأولى في عام ١٩٤٥ . وفي الكثير من مؤلفاته يعالج المواضيع التربوية المستقاة من واقع الحياة ، ويغلب على أعماله طابع الفكاهة والقدرة على الكتابة بأسلوب سلس بسيط . وقد نال الكسين العديد من الجوائز المختلفة بما فيها جائزة الدولة على قصتيه المعروفتين « شخصيات المسرحية والممثلون » و « أول البارحة وبعد غد » . أما قصته هذه فقد نشرت في عام ١٩٥٧ في مجموعته المختارة التي صدرت بعنوان « أسلوبان » .

المترجم

وعلى الرغم من أن الأم لم تكن تغادر المنزل في الصباح فإنها كانت تستيقظ قبل الجميع ، فتعد طعام الفطور لغينكا وأبيه . وعند وداع الأم كان الأب يقبلها في رأسها ويكرر في كل مرة نفس الكلمات :

ـ الى اللقاء ياصغيرتي العزيزة !

وفجأة كان الاحمرار يكسو وجهها ، وبدأ غينكا يشعر أنها تستيقظ مبكرا خصيصا من أجل سماع هذه الكلمات .

لم تكن كلمة « صغيرتي » تنطبق على الام : فلم تكن قصيرة القامة . لعلها قصيرة بالنسبة لطول الأب العملاق البالغ ١٨٨ سنتيمترا . (كانت هذه السنتيمترات مثار فرح خاص لدى غينكا) . ومع ذلك فقد كان الأب ينادي ابنه بكل صرامة وبساطة : غينادي [٦] ...

كان الأب والابن يغادران المنزل سويا . ويسيران معا حتى الناصية ، حيث يفترقان .

كانت ذروة سعادة غينكا ان يسير مع والده جنبا الى جنب : لقد بقيت الأم في المنزل ، أما هما ، الرجلان ، العمليان ، فلديهما ، ككل الرجال ، أعمالها الهامة .

وكان غينكا يدرك أن جميع أبناء الحي ينظرون اليه بحسد ، لأنهم كانوا يكنون لأبيه كل احترام ، أليس هو الذي دربهم على صنع القلاع الجليدية ، وهو الذي جعل ادارة المنزل تخصص مكانا للتزلج على الجليد في باحة المنزل . وهو الذي لا يكف يحدثهم عن السيارات الجديدة التي يخترعها بنفسه !

على الناصية كانا يفترقان ـ باختصار كما يفترق الرجال ، حيث يقول الأب : حسنا ، الى اللقاء .

وعند المساء كان غينكا ينتظر عودة أبيه على أحر من الجمر .كان يتعرف على وقع خطواته فورا . كان أبوه يتسلق الدرجات بهدوء ، لكأنه ، بعد كل خطوة ، يفكر بينه وبين نفسه : هل يخطو خطوة أخرى ، أم يعود أدراجه . ويتردد رنين الجرس مرة واحدة فقط . كان غينكا يشعر برغبة عارمة في أن يندفع فيفتح له الباب ، ولكنه كان يشعر أن رغبة أمه في ذلك تفوق رغبته . فكان يتنازل لها عن هذه المتعة . ويقبل الأب جبين الأم مكررا نفس كلمات الصباح تقريبا « مرحبا يا صغيرتي العزيزة » . ولكن هذه الكلمات كانت أكثر رقة وعذوبة منها في الصباح ، فقد أثار الغياب الطويل لواعج الشوق والحنين لديه . لم يكن غينكا يطيق الرقة ، ولكن الكلمات العذبة التي كان أبوه يكررها على مسامع أمه كانت تثير في داخله مشاعر الفرح والارتياح النفسي .

وللحظة كان الأب يتأمل وجه الام ويقول :

ـ ان عينيك متورمتان ... ماحاجتنا الى هذه « القرقيعة » ؟ (هكذا كان الاب يسمي الآلة الكاتبة) .

فتقول الأم شبه مازحة :

ـ ليس الذنب ذنبها ، بل هو ذنب أعدائي . وكانت تطلق صفة الأعداء على الخطوط غير الواضحة . وغالبا ما كانت الأحرف الشائكة تراودها في الحلم وخاصة حرف « M » الذي لا يكف يسير في أعقابها على ثلاث أرجل دقيقة .

وبطريقة تبدو غير مقصودة يسأل الأب :

(٦) غينادي: المقصود هنا أن الأب كان يخاطب ابنه مخاطبة الند للند ، دون رفع الكلفة .

ـ كيف حال العلوم ؟

لم يحدث أن تصفح الأب دفاتر ابنه للتأكد من صحة كلامه . ولعل ذلك هو السبب الذى كان يجعل غينكا يتعامل معه بصدق . فكلما حصل على درجة سيئة كان يخبر اباه بذلك حال عودته . ولم يكن الأب يملأ البيت صياحا ، ولم يكن يوجه اللوم والتقريع له ، ولكنه كان لايروى له في تلك الامسيات القصص المسلية عن الرياضة وعن عمل المهندسين ، الذين كان يصنفهم كما يصنف جميع الناس على نوعين « العلماء » و « الجهلة » .

أما الأم فكانت على نقيضه : كانت تفتح الدفتر وتنظر الى الدرجة المشؤومة وكأنها تقرأ نبأ تراجيديا . ومن ثم كانت تذهب الى جارتها ، التى كانت ابنتها تدرس في الصف السادس أيضا . وتبدأ الجارتان الحديث دون أن تذكرا اسم ولديهما بل تكتفيان بترديد كلمتى : « ولدنا » و « ابنتنا » .

ـ لقد عاد ابننا اليوم بدرجة « وسط » . فقال أبوه أنها أسوأ من درجة « ضعيف » ، فهى « لاڤى العير ولا ڤى النفير » .

كانت الأم تحب ترديد كلمات الأب بحرفيتها : فقد كانت على يقين من أنها غاية في الدقة والاقناع .

ـ لا تكونى قاسية الى هذا الحد : لقد ابتلع ولدكم العديد من الكتب . أما ابنتنا فيستحيل أن ترى الكتاب في يديها .

ـ لا تحاولى أن تدافعى عن ابننا ، فقد كان بوسعه أن يبرز في دراسته ، فهو ولد موهوب .

ـ ان ابنتنا موهوبة أيضا .

وتساءل غينكا : « ترى لماذا يتصور جميع الأهل أن أبناءهم موهوبون ؟ » . وبعد ذلك كانت الأم لاتكف تتأفف .. بيد أن صمت الأب كان أكثر رهبة من تقريع الأم . فكان غينكا ينكب في المساء على الكتب المدرسية .

كان الضعف الوحيد الذى لم يستطع الأب التغلب عليه لدى غينكا هو ولعه بالتردد على دور السينما . وكان يبدو أنه لو كان ثمة أفلام تمنع مشاهدتها لسبب ما على من لم يبلغ الستين من عمره لشاهدها غينكا حتما . وكان يعتبر الجلوس في الصفوف الخلفية أو الوسط تبذيرا لا مبرر له . وهكذا كان غينكا ، بهذا الاسلوب ، يدخل السينما ثلاث مرات لقاء ستين كوبيكا ! ... لم تكن أمه تعطيه الكثير من النقود . ولكنه كان يستخدم نظام التوفير الصارم : فيحرم نفسه من شراء هذه الفطيرة أو تلك ، ولا يدفع أجور المترو والترليلى .

وحينما كان غينكا يعود الى البيت مضطربا متورد الوجه كان أبوه يحدق به مليا ، وكأنه يقول له : « لاتحاول الاختلاق ، فمن الواضح أنك كنت في السينما » .

وعلى مائدة العشاء كان الأب يقول ، وكأنه لايوجه كلامه لشخص معين :

ـ ثمة فلم جديد بدأ عرضه اليوم ، ترى ما هو موضوعه ؟

ويجد غينكا نفسه منساقا ، بدافع لايدرى كنهه الى رواية أحداث هذا الفلم . وفي بعض الأحيان كانت الأم تقول للأب :

ـ مارأيك في أن نذهب هذا المساء الى السينما ؟ وسيقوم غينكا بشراء البطاقات ؛ فهو خبير في هذا المجال ....

وكان الأب يحرك يديه بارتباك :

ـ أنت تعرفين كم أرغب في ذلك . ولكن للأسف ان لدى هذا المساء أعمالا عاجلة .... (وفي كل مرة كان الأب يذكر اسم أحد المهندسين « العلماء » الذى يجب أن يلتقى به على جناح السرعة للتشاور حول هذا الموضوع أو ذاك .

وكان غينكا ينظر الى أمه نظرة عاتبة : ألا تدرين مدى انشغال أبي ؟!

وفي ذات مرة سمع غينكا أنه يعرض في أحد دور السينما البعيدة عن حيهم فلم قديم ، وصفه له أحد معارفه بأنه فلم « عالمى » .

لم يكن غينكا قد تمكن من مشاهدة هذا الفلم حينما عرض للمرة الأولى لسبب غاية في البساطة ، وهو أنه لم يكن قد رأى النور بعد .

وبشكل عام فان غينكا لم يكن ليجرؤ على الذهاب الى الحفلات المسائية ، لولا أنه كان يعرف أن أباه سيعود متأخرا : فاليوم سيكون حافلا بالنسبة له ـ اختبار سيارة جديدة . وقد قال في الصباح : من يدرى فقد تحدث أمور طارئة ، وأسوأها أن يقف أحد المهندسين



« الجاهلين » ضد تصميم السيارة الجديدة . كان الأب نهبا لمشاعر القلق . ولكن قلق الأم كان أكبر بكثير . فقد كانت تنتظر عودته على أحر من الجمر ، تارة تجلس الى الآلة الكاتبة ، وتارة تذهب لتبادل الحديث مع جارتها وتارة أخرى تهرع فتفتح الباب لدى سماع أية خطوات قادمة ...

ثم ان غينكا كان يرغب في الذهاب الى السينما كي تنصرم ساعات الانتظار القاسي بسرعة ، ليعود الى البيت ويرى وجه أمه (أمه بالذات) فيفهم أن كل شيء على مايرام ، على أحسن مايرام .

ذهب غينكا الى السينما برفقة ابن جيرانهم جورا ، تلميذ الصف السابع ، والذى كان يحصل على بطاقات السينما لجميع أبناء الحي ، الذين كانوا يقدمون له الطوابع والكتب النادرة لقاء خدماته الجليلة .

انطلق الصبيان عبر الشوارع التي خيم عليها المساء ، يدفعان المارة ويتمتمان بعبارات الاعتذار ، السريعة التي لم يكن يسمعها أحد باستثنائها ولكنها عبثا أسرعا ، فحين وصلا السينما تبينا أن البطاقات قد نفدت . وكان مشاهدو الحفلة السابقة يغادرون الصالة بعضهم يزرر معطفه والبعض الآخر يضع قبعته على رأسه ، وراح غينكا ينظر اليهم بحسد .

وفجأة تناهى الى أذنيه صوت مألوف :

ـ هل تشعرين بالبرد ياصغيرتي العزيزة ؟

والتفت غينكا جهة الصوت فرأى أباه . كان أبوه يتأبط ذراع امرأة ذات شعر ابيض ترتدى منديلا فاقع اللون .

وأراد غينكا النجاة بريشه قبل أن تقع عليه عينا أبيه . فقد سبق له أن حذره أكثر من مرة من حضور الحفلات المسائية ـ ولكنه ، وبشكل لاشعوري ، رفع عينيه ، فالتقتا بعيني أبيه ، وتراجع خطوة الى الوراء من فرط الدهشة : لقد رأى ـ فجأة ـ أن أباه خائف منه . نعم نعم ، هذا مارآه بالضبط .

فقد ارتبك أبوه فجأة وهو المعروف بهدوئه ورباطة

● وانهار الصرح

جأشه ، وراح يسحب يده من تحت ابط المرأة البيضاء الشعر . وخيل لغينكا أنه يحاول الاختباء وراء أحد الأعمدة ، ولكن العمود كان في غاية الضيق والثخن ، بينما كان أبوه ضخم الجسم عريض الكتفين .

ولكن غينكا أنقذ أباه من هذه الورطة ، فاندفع الى الخارج وأطلق ساقيه للريح ، لدرجة أن جورا ذا الساقين الطويلتين لم يتمكن من اللحاق به .

وعلى احدى النواحي توقف غينكا للحظة ، ورنت في أذنيه من جديد كلمات أبيه « هل تشعرين بالبرد ياصغيرتي العزيزة » . وبالفعل فقد كانت المرأة ذات الشعر الأبيض ، المغطى بمنديل فاقع اللون قصيرة القامة . لكن غينكا شعر أن من الظلم والقسوة ان توجه لها هذه الكلمات ، التي كانت تخص أمه ، وأمه وحدها ...

ولكن ماذا عن اختبارالسيارة ؟ اذن لقد كان ذلك كذبا ؟ ولعله لم تكن ثمة أية سيارة ؟ اذن لقد كذب أبوه عليه .. هذا ماعجز وعيه الصغير عن استيعابه . اذن فقد كان كل شيء كاذبا ومزيفا : حديث أبيه عن الكتب ، ونصائحه ، والنقاش على طاولة العشاء ؟ كل شيء كان زائفا .

وتناهى الى أذنيه صوت امينة المكتبة « حاذر أن تمزقه » وهي تناديه :

ـ تعال ياغينكا فقد أحضرت لك الكتاب الذى طلبته . ولكن غينكا ـ وعلى غير عادته ـ لم يصغ لندائها : فلم يكن يرغب في أخذ الكتاب الذي نصحه أبوه بقراءته . فلسبب ما لم يعد يصدق هذا الكتاب .

وحال عودته الى المنزل استلقى غينكا في فراشه .

وراحت أمه تسأله بقلق : ـ ماذا بك ؟ ان حرارتك مرتفعة هل أنت مريض ؟ (كانت تخاف أكثر ما تخاف أن يصاب غينكا أو أبوه بمرض ما ، حيث يبدو لها أن اى مرض ، مهما كان صغيرا ، غير قابل للشفاء) .

وقال غينكا بحنان ورقة لاعهد له بهما من قبل :

ـ لاتقلقي يا أماه ... كل مافي الأمر أنني تعب .

وفي الواقع لم يكن غينكا يريد أن يسمع ، ولا يستطيع أن يتحمل ، كلمات أبيه ، حينما ستفتح له أمه الباب هذا المساء . ■■

موسكو ـ هاشم حمادي

نزهة العقل الذكي بجوائز العربي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي « الكلمات المتقاطعة » .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العدد بقطعها منه .. أما الكوبون المنشور في اسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي :

الجائزة الأولى ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد » ٢٧٠ ـ وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول يوليو (١٩٨١) .

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم فلكي ورياضي عربي ، كما ستجد في (٨) رأسيا اسم مخترع اندلسي .

كلمات أفقية :

١ ـ اله البحر والزلازل الاغريقي ـ سكان البلاد الاسكندنافية قديما .

٢ ـ مكتشف أشعة اكس ـ نصف كلمة (هائل) ـ كتبت .

٣ ـ جذب ـ حرف استفهام ـ دولة من القارة الأمريكية .

٤ ـ من أعظم علماء الرياضة في القرن الثامن عشر ـ أشرّع ـ نصف كلمة (تأسف) .

٥ ـ وحدة ادارية ـ فزع ـ ارتحلا .

٦ ـ من افرازات الجسم ـ أحاكي .

٧ ـ رأس جنوب أمريكا الجنوبية ـ شفي ـ حيوانات نافعة للانسان .

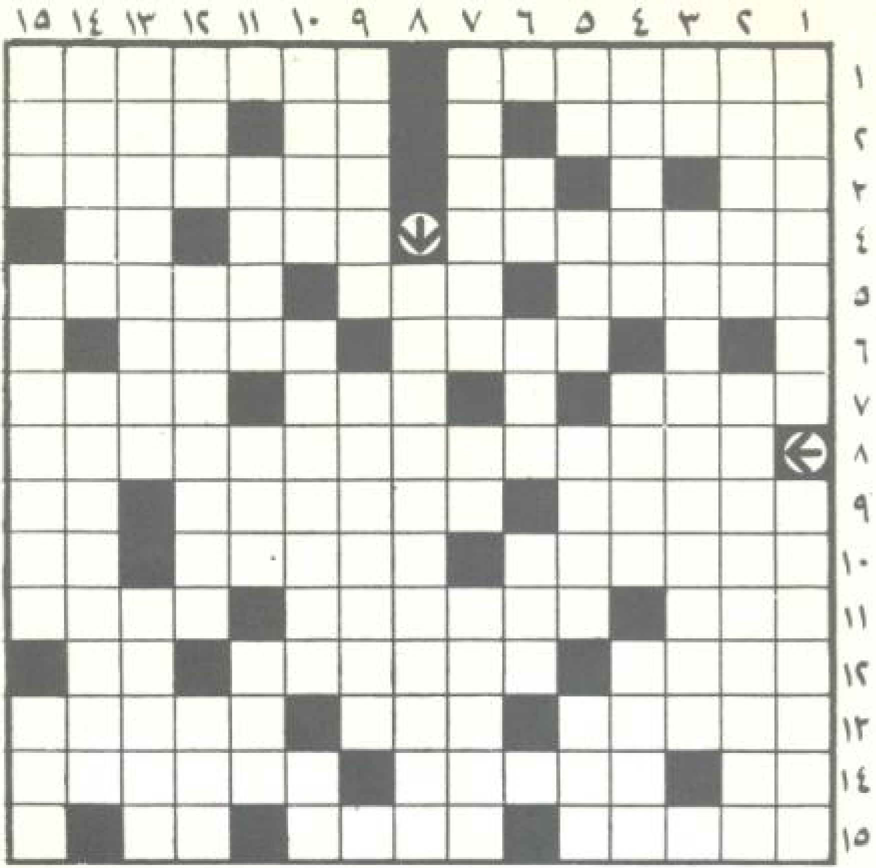
٨ ـ فلكي ورياضي عربي .

٩ ـ آلة موسيقية ـ يتقدمون غيرهم ـ نصف كلمة (راجت) .

١٠ ـ يتزينون ـ تبصرها ـ للتمني .

١١ ـ تبصر ـ من مستخرجات البترول ـ تمشي .

١٢ ـ في المركب ـ تتبادل الخطابات ـ هدم .

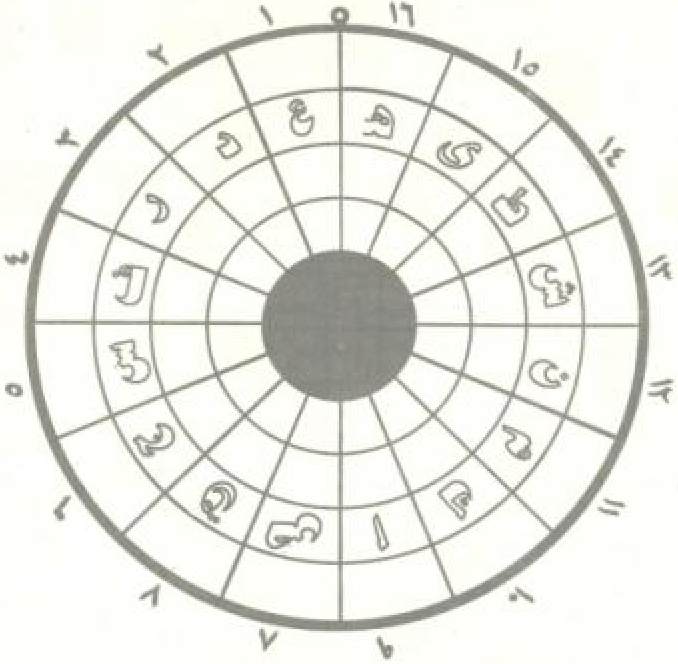


١٣ ـ تعافه النفس ـ بشر ـ يدركان .
١٤ ـ نصف كلمة (سبيل) ـ داوما ـ مابين الحربين .
١٥ ـ وضع قانون الجاذبية ـ صعب ـ نصف كلمة (دهون) .

كلمات رأسية :

١ ـ ميناء بحرى أسباني ـ رائد النسبية .
٢ ـ برابرة عاشوا شمال ألمانيا ـ بحار وجندى ومؤرخ انجليزى من العصر الاليزابيثى .
٣ ـ نصف كلمة (ستار) ـ من أشهر علماء الكيمياء العرب القدماء .
٤ ـ يمانى ـ حصول على ـ صفحت .
٥ ـ وعاء ـ اقارب ـ من الانبياء ـ سهل .
٦ ـ حرف جر ـ لب ـ تدق .
٧ ـ مساقط مائية شهيرة ـ من الاسماء الحسنى ـ أوالى .
٨ ـ مخترع اندلسى .
٩ ـ فى الوجه ـ من أعضاء الجسم .
١٠ ـ دولة آسيوية ـ سلسلة جبال أوربية ـ نصف كلمة (مسار) .
١١ ـ مرتب ـ أشار الى ـ نصف يوم .
١٢ ـ موت ـ حاملات الخصائص الوراثية فى الخلية ـ ميثاق .
١٣ ـ عاصمة أورجواى ـ صائبة .
١٤ ـ نفى ـ أعضاء كنيسة انجلترا .
١٥ ـ برز ـ مصدر التشريع ـ مجرى مائى .

كوبون مسابقة العدد ٢٧٠



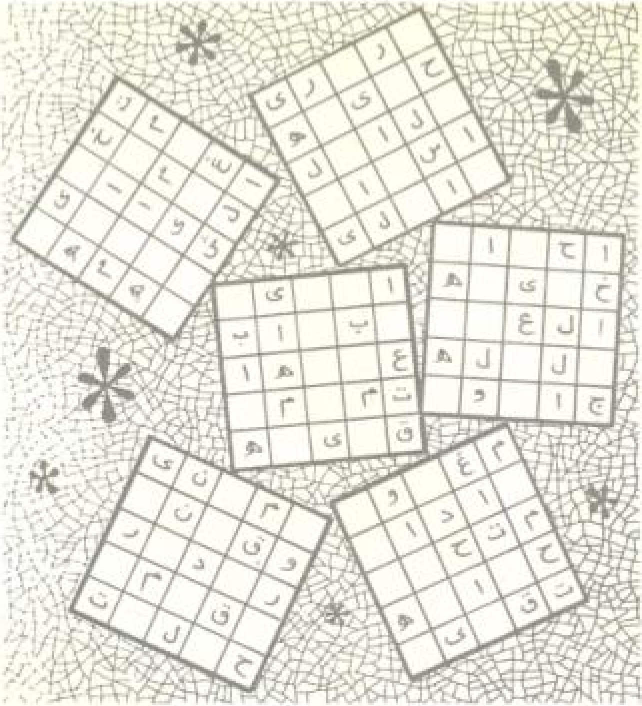
حول الدائرة السوداء

ضع الكلمات ذات الحروف الاربعة ، والتى تعطيك معانيها ، فى أماكنها وفقا للأرقام . يساعدك وجود الحرف الثانى من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

عالم كيميائى وطبيعى اخترع البطارية

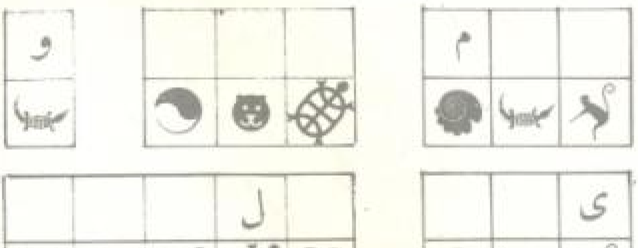
(١) حيوانات (٢) أقترب (٣) زواج (٤) آلات ايقاع (٥) فلك (٦) يتفع (٧) تجلس (٨) لون (٩) ظاهر (١٠) ريب (١١) تخلفه النار (١٢) أخير (١٣) تحجيل (١٤) مدهون (١٥) دولة فى القارة الأمريكية (١٦) أراضى منبسطة .

العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية ثقيلة . في كل مربع منها خمس كلمات أفقية ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحروف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ، ورتب هذه الحروف ، لتصنع اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة تعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في موضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل اذا عرفت أنه يشير الى :

تقلّب حال الدنيا

الحلول ا

حول الدائرة السوداء :

جون فريد ريك داتيل .

العواصم :

طرابلس .

مثل عربي :

يوم لنا ويوم علينا .

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

مايو - أيار
١٩٨١ م

الشعر

فى السودان

تأليف :

الدكتور عبده بدوى

الكتاب الحادى والأربعون

٢٥٠ فلساً

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

لؤلؤة فريدة بين مغنيات الأوبرا، وساعة رولكس



في الأول من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧١، ظهرت على مسرح دار الأوبرا الملكية في لندن مغنية سوبرانو مغمورة من سكان نيوزيلندا (الماوري) تدعى «كيري في كاناوا». وما أن مرت ثلاث ساعات على قيامها بدور الكونتس في مسرحية «عرس فيغارو» حتى أخذ نجمها يتلألأ في عالم الغناء. وفي اليوم التالي كتب «أندرو بورتر» معلقًا: «لم يسبق لي أن استمعت الى مثل هذه الكونتس.» وكتب ناقد آخر يقول: «من الجلي أننا أمام مغنية تبشر بنبوغ خارق... في «كوفنت غاردن» الآن لؤلؤة ثمينة نادرة.»

ومنذ ذلك الحين، أخذ هذا النبوغ الكامن يتحقق على مسارح دور الأوبرا في جميع أنحاء العالم.

وقد جاء في وصف الآنسة «في كاناوا» لدى قيامها بدور «دزدمونا» من مسرحية «عطيل» في أداء حديث: «الجمل الموسيقية تنطلق بانسياب خلاب ونبرات محبوكة قوية تكاد تنتزع الدموع من الحجر الصلد.»

وبعيدًا عن المسرح، تعيش الآنسة «في كاناوا» في دوامة لا تهدأ. فمقابلاتها ومواعيدها وتمارينها متلاحقة، فضلًا عن ارتباطاتها الدولية وفق جدول زمني. جميع هذه النشاطات تثقل كاهلها الى حد يجعل أكثر المسافرين خبرة يصاب بدوار.

الآنسة «في كاناوا» تلبس ساعة رولكس «أويستر بربتشوال ديت - جست». ومما لا شك فيه، انها ساعة أنيقة رشيقة تعكس كل مظاهر الأنوثة. كما أن حماس المغنية لهذه الساعة عملي كذلك، حيث تقول: لو أن قلقًا ينتابني حول ما إذا كانت ساعتي ستتوقف، لما وصلت الى أي مكان في الموعد المحدد. الآن ساعتي رولكس تضبط الوقت بدقة تامة مهما فعلت بها. في هذه الصورة تبدو الآنسة «في كاناوا» بملابس خاصة بدور «فيأردو ليجي» من مسرحية «كوسي فان توتي»، وهي تقف على سلم دار الأوبرا في باريس. وهذه إحدى المناسبات النادرة جدًا التي لا ترتدي فيها ساعتها «أويستر». وحتى نحن في رولكس لابد وأن نسلم بأنها، فعلًا، ليست بحاجة إليها.

ROLEX
رولكس



ساعة رولكس ليدي - ديت جست المصوغة من الذهب عيار ١٨ قيراطًا أو من فولاذ لا يصدأ مع سوار ينسجم معها.

الامان لأموالكم وفوائد لاتنافس

مع

لومبارد نورث سنترال

العضو في مجموعة الناشيونال وستمنستر بنك التي

يفوق رأسمالها واحتياطها ١,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني .

لومبارد نورث سنترال عضو في البنوك المصرفية العالمية وتاريخنا يرجع الى أكثر من ١٠٠ سنة. نقدم لكم تسهيلات ايداعية تعود عليكم بأقصى فائدة مع مرونة الاختيار وضمان لأموالكم وهذه الودائع متاحة للأفراد والمؤسسات في جميع أنحاء العالم.

١٤٪

في السنة

ايداع محدد لمدة سنة

تدفع كل الفوائد بدون خصم أي ضريبة

اسعار الفائدة المذكورة جارية الى حين ارسالها للطباعة

اختاروا المنهج الملائم لاحتياجاتكم

نقدم لكم ثلاث تسهيلات ايداعية لكل منها شروط متعددة ملائمة لاحتياجاتكم الخاصة.

ايداع ذو الأخطار

والمبلغ الأدنى للايداع هو ٥٠٠ جنيه استرليني ويمكنكم اضافة أي مبلغ اليه في أي وقت ويمكنكم سحبه بعد اخطار كتابي في آخر المدة المتفقة عليها. تتجمع الفائدة اعتبارا من تاريخ الايداع وتدفع نصف سنويا ثم تضاف الى الحساب أو تدفع الى المودع بواسطة شيك.

ايداع ذو مدة محددة

والمبلغ الأدنى للايداع هو ١٠٠٠ جنيه استرليني لمدة محددة من سنة الى خمس سنوات مع سعر فائدة محدد لهذه المدة. تدفع الفائدة سنويا.

ايداع ذو دخل منتظم

والمبلغ الأدنى للايداع هو ١٠٠٠ جنيه استرليني. بواسطة هذا المشروع يمكنكم الحصول على مبلغ الفائدة أي على شيك كل شهر أو كل ثلاثة أشهر أو كل نصف سنة والفائدة تزداد تدريجيا حسب المدة التي تختارونها. تودع الأموال لمدة محددة أي بين السنة والخمس سنوات بسعر فائدة محدد لهذه المدة.

نرجو منكم أن تملأوا الكوبون إن أردتم تفاصيل اضافية ومطولة عن حسابات الايداع واسعار فوائدها.

Lombard North Central
Deposit Accounts

إلى :

LOMBARD NORTH CENTRAL LTD., DEPT. 182,
17 BRUTON STREET, LONDON W1A 3DH, ENGLAND.
Telephone: 409 3434.

الاسم : ____________________

العنوان بالكامل : ____________________

____

مِنَ المسرح العَالَمِىّ
سِلسلة ثقافية
تصدرها فى مطلع كل شهر
وزارة الإعلام فى الكويت

أول مايو ١٩٨١

العدد ١٤٠

ميليت ، السيد

تأليف : بيير كورنى
ترجمة : د. كوثر البحيرى
مراجعة : د. حمادة ابراهيم
تقديم : د. علي درويش

مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

مدير التحرير
عبد العزيز السيد احمد

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ٠٠٠ر١٢٥ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالى ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - بيبليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٤٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ـ ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١ - كتاب **التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .**

٢ - كتاب **آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .**

٣ - كتاب **حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .**

٤ - كتاب **الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .**

٥ - **دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .**

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها : -

الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .

ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية

الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .



سوني
SONY
GOL
10
SONY
SL-T7
KV-2032ME
سوني بيتاماكس
Sony Betamax T7
Betamax



راحة مضاعفة
SA 185BE
COOL
HOT
جهاز واحد من سانيو للتبريد والتدفئة المريحة طوال العام.
لاحاجة بك إلى مضاعفة معدات التحكم الحراري في منزلك لمضاعفة راحتك. إن جهازاً واحداً من سانيو يوفر لك البرودة صيفاً والدفء شتاءً. كما أن الضاغط الرحوي من سانيو يوفر التبريد والحرارة الكافية إلى جانب خفض الاهتزازات واستهلاك الطاقة وهكذا تنعم بتكييف الهواء طوال العام بأكثر من مجرد مضاعفة راحتك.
NEW ROTARY COMPRESSOR
تتوفر تشكيلة واسعة من مكيفات هواء سانيو الرحوية في طاقة تتراوح من ٦٠٠٠ إلى ٢٤٠٠٠ بي تي يو/ساعة لمضاعفة راحتك فعلاً في جميع الغرف.
SANYO سانيو
هذه هي الحياة



العربي
فقراء بالنفط
وفقراء بدونه!
قناة السويس الجديدة

عزيزي القارئ

تثير حادثة رفض احدى الجامعات الامريكية لقبول هبة مالية من دولة عربية نفطية اكثر من قضية هامة ودقيقة .

القضية الاولى ان السياسة ليست بعيدة كما يظن البعض عن تلك المحافل العلمية ، التي يفترض فيها الحياد والموضوعية ، والانصراف الى البحث العلمي دون الدخول في لعبة السياسة ومتاهاتها .

القضية الثانية هي ان استخدام المال العربي فيما هو علمي او اعلامي ، لا يزال قاصرا عن استيعاب حقائق الواقع في اوروبا والولايات المتحدة الامريكية . فما من دار نشر او بحث وما من مجلة متخصصة او حتى محايدة ، تعاطفت مع العرب وعبرت عن وجهة نظرهم ، الا وتعرضت للحصار والضغط والتصفية . ثم تركت هذه الدور والصحف تواجه مصيرها المحزن بغير سند او دعم ، بينما الاموال العرب[illegible] تنفق على غير هدى هنا وهناك . وفي احسن الفروض تظل تصب بعيدة عن هدفها الفعال .

وثالث القضايا واهمها ، أن هذا التوجه [illegible]عم وتمويل الجامعات الاوروبية والامريكية بوجه أخص يحتاج الى [illegible]راجعة [illegible]ن الاساس . ذلك ان الجامعات العربية هي البديل الطبيعي الذي له احق الاول في تلك الاموال . وهذه الاولوية ينبغي ان تحتلها الجامعات العربية حتى اذا توفرت لها ظروف العمل الجيد وامكانيات البحث المطلوبة ، فما بالكم اذا كان العكس تماما هو حال اقدم واعرق الجامعات العربية ، التي لم يعد يتوفر لها الحد الادنى من الامكانيات المعقولة ؟

ان الصورة المحزنة التي باتت عليها حال اقدم الجامعات العربية ينبغي ان تكون حافزا لتوجيه الدعم العربي الى تلك الجامعات ، بديلا عن جامعات اوروبا وامريكا .

نعلم ان العقبة لن تكون في ندرة المال ، ولكنها ستظل كامنة في الاعتبارات السياسية التي باتت تقف عقبة في طريق اي عمل علمي عربي مشترك ، او اي عمل آخر يفيد الجماهير العربية [illegible]دى البعيد ، وهي الجماهير الباقية ما بقي الدهر ، وصاحبة المصلحة في [illegible]يق يشق او معهد ينشأ .

وعندما تكون السياسة العربية [illegible] مساعدا على تجهيل اجيال الشباب العربي وتنوير الشباب الاوروبي ، فان الامر يصبح في حاجة ملحة الى اعادة النظر .. اذ لابد ان هناك خطأ ما .. جسيما وفادحا !

(المحــرر)



صورة الغلاف

● وعادت القناة بعد اتمام المرحلة الأولى من مشروع تطويرها تحمل الرفاهية لشعوب العالم وتكمل رسالتها من أجل تيسير الاتصال بين شعوب العالم .. احدى المهندسات في قسم المراقبة الالكترونية احدث اضافة لتأمين الملاحة في هذا الشريان الحيوى . (اقرأ ص ٨٠)

قضايا عامة

عروبة واسلام

قضايا حيوية

طب وعلوم

آداب وفنون

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير : أحمد بهاء الدين
مدير التحرير : فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي ولكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ١١٠ فلوس ، الخليج العربي ريالان قطريان ، البحرين ٢٠٠ فلس بحريني ، العراق ١٢٠ فلسا ، سوريا ١٠٠ قرش ، لبنان ١٠٠ قرش ، الاردن ١٠٠ فلس ، السعودية ريالان سعوديان ، السودان ١٠ قروش ، ج . م . ع ١٠ قروش ، تونس ٢٥٠ مليما ، الجزائر ٢,٥ دينار ، المغرب ٢,٥ درهم ، اليمن ٢,٥ ريال ، ليبيا ١٥٠ درهما ، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ٢٠٠ فلس .

الاشتراكات : يراجع طالب الاشتراك :
١ ـ الشركة العربية للتوزيع وعنوانها : ص . ب (٤٢٢٨) بيروت/لبنان .
٢ ـ مؤسسة توزيع الأخبار وعنوانها : ٧ شارع الصحافة/القاهرة/مصر .
« للمشتركين في جمهورية مصر العربية »

الاعـــلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراســـلات : باسم رئيس التحرير
عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧٦٤١
تلغرافيا « العربي »

AL - ARABI. No. 271, June, 1981.
P.O. Box 748, KUWAIT.

رؤية من باريس :

مشاهد من عالم متقدم

كان حديث الشهر الماضي ، فيما يذكر القارىء ، عن مشهد من لندن ، عاصمة المجد الامبراطوري الغابر ، وهي تواجه أزمة اقتصادية عاتية ، وتترنح لأول مرة منذ زمن طويل بين شتى انواع التطرف الى اليمين والى اليسار ... والرهان الأكبر هو هل تتجاوز انجلترا هذه الأزمة كما تجاوزت أشد منها ، أم أن الأزمة هذه المرة ، داخلية تماما ، فهي تهدد بتمزيق النسيج التقليدي للشعب الانجليزي نفسه ...

والمشهد الذي أحب أن أقدمه هذه المرة ، من باريس ، يدور حول الانتخابات الفرنسية التي استمرت شهرين عاصفين ، جرت فيهما الانتخابات مرتين ، وهذه السطور تذهب الى المطبعة قبل ظهور الجولة الثانية .

على أن التنبؤ بمن سيكون الفائز ليس من شأننا في هذا المكان ، فهذا مجال الصحافة اليومية والاسبوعية .. انما نحاول الحديث عن مظاهر مستمرة ، ابعد أثرا في حياة المجتمع من اسم المرشح الفائز ...

الشعب الفرنسي قلبه وجيبه

صحيح أن المرشحين اللذين دخلا حلبة المرحلة الثانية يختلفان عقائديا بشكل واضح ، يتلذذ به الفرنسيون ولا يعيشون بدونه ، بعكس شعوب أخرى كانجلترا وألمانيا . ذلك أن المرشح فاليري جيسكار ديستان كان يمثل « يمين الوسط » ، وأن المرشح الآخر فرنسوا ميتران كان يمثل « الاشتراكية الفرنسية » .



فرانسوا ميتران



جيسكار ديستان

نلهث فى محاولة تقليده !

بقلم : أحمد بهاء الدين

ولكن الذى يمكن التنبؤ به مقدما أن جيسكار ديستان اذا نجح من موقع اليمين فسيحاول الاتجاه الى الوسط ، وأن فرنسوا ميتران اذا نجح فسيحاول الاتجاه الى نفس الوسط تقريبا .

والاحزاب الفرنسية طول حياتها أكثر الأحزاب تكاثرا ، وانشقاقا ، وتذبذبا . والشعب الفرنسى كما يقولون يصوت تارة بقلبه ، وتارة بجيبه . ولذلك نجد الحزب الواحد تارة يكسب مئات المقاعد ، وتارة يكسب عشرات ، دون فارق زمنى طويل . وقلب الشعب الفرنسى دائما فى اليسار ، وجيبه دائما فى اليمين !

وأكثر مثل على ذلك حزب فرانسوا ميتران ، الذى هو الحزب الاشتراكى . فهو ساعة حزب السلام والتصدى للعسكرية النازية ـ أيام ليون بلوم قبل الحرب العالمية ـ وساعة هو حزب الحرب وموالاة العسكريين ومواصلة الحروب الاستعمارية من الهند الصينية الى حرب السويس الى الجزائر .. حزب جى موليه ، وجاستون ديفير وجاك سوستيل .. الى آخر القائمة .

وبينما نجد أن تشرشل ـ المحافظ ـ هو الذى حاول الابقاء على الامبراطورية واطالة عمرها فى انجلترا ... وان حزب العمال هو الذى قبل باستقلال الهند ، وقرر الانسحاب من شرقى السويس . نجد العكس فى فرنسا . اذ أن ديجول ـ المحافظ سياسيا ـ هو الذى قرر انهاء الحروب الاستعمارية التى اغرق الحزب الاشتراكى فيها فرنسا حتى قاربت فرنسا كلها على التهلكة .

كذلك ـ نجد كمثال أخر ـ أن حزب المحافظين فى انجلترا أكثر ولاء لأمريكا وأحرص على الارتباط بزعامتها ، ونجد أن الحزب الاشتراكى فى فرنسا هو الاكثر انتماء لأمريكا والاكثر شعورا بالرابطة « الاطلنطية » ، بعكس الفئات المحافظة وبعض اليمين ، الذين يحرصون على الاستقلال عن أمريكا ، والاصرار على أن يكون التحالف معها تحالف انداد لاتحالف اتباع .

ومن الثابت أن أمريكا ساعدت الحزب الاشتراكى الفرنسى كثيرا فى صراعاته ضد الجنرال ديجول دون جدوى ..

هذا الفصام فى فرنسا بين العقل الجدلى ، المحلل ، الناقد ، وريث الشك الديكارتى .. وبين مزاجية الفرد وانانيته وأهوائه وغروره .. هو الذى كان يرفع فرنسا تارة الى طلب المجد ، وينزل بها ساعة الى مهاوى الانشقاق والانقسام حتى قيل ان كل فرنسى هو فى النهاية حزب قائم بمفرده .

اتركوا الماء للضفادع

مرة اخرى ، احاول تجاوز هذه الاستطرادات الأساسية

الأمر الاخر الذى يدعو للتأمل ، هو أن من يقرأ الصحف من بعيد لايسمع الا تذمر الشعب الفرنسى ، وارتفاع نسبة البطالة ، والتضخم وزيادة الاسعار .

ويصل المراقب الى قلب فرنسا .. فيجد أنها لم تنعم فى حياتها قط بمثل هذا الرخاء . وأن حياة الترف التى يحياها الفرنسيون ـ فى مجموعهم طبعا ـ مبالغ فيها الى أخر الحدود . وحظهم من متع الدنيا ربما كان اكثر من حظ أى شعب أخر فى الوقت الراهن . هذا هوالظاهر . أما الباطن فالمعروف أن الشعب الفرنسى شعب بخيل ، مقتر على غيره ، ومن أكثر الشعوب حرصا على الادخار . وأكثر « شعب » ـ لادولة ـ يخزن الذهب فى أوروبا كلها ، هو الشعب الفرنسى . فالثراء فى أوجه فى الظاهر والباطن . ولو ضحت كل أسرة فرنسية بزجاجة نبيذ واحدة مما تستهلكه كل يوم ، لقفزت موازينها المالية والحسابية قفزات هائلة الى أعلى . ولكنها البلد الذى علم العالم تعبئة الماء وبيعه فى زجاجات ، ثم انه الشعب الذى يشرب النبيذ « ويملأ جدران مدنه شعار قديم جديد يقول « اتركوا الماء للضفادع ! » ...

وحين يسمع المواطن فى بلادنا أن عدد العمال المتعطلين فى فرنسا وصل الى فوق المليون .. يظن أن الدنيا قد توقفت هناك عن الدوران . والأمر فى احصاء البطالة عندهم ـ فرنسا أو أمريكا أو انجلترا ـ غير احصائها عندنا . فهناك تمثل « قوة العمل » الأغلبية الساحقة من الشعب ، الرجل والمرأة . الشاب والكهل والعجوز حتى الطالب فى الاجازة ، اذا سجل اسمه فى كشف طالبى



الجنرال ديجول

العمل ، فانه يضاف الى الرقم المذكور فى تعداد العاطلين عن العمل. فى حين ان بلادنا لو أحصيت البطالة فيها بنفس المقاييس ، لوجدنا أن الاصل هو التعطل بمعنى عدم الانتاج ، والاستثناء هو العامل عملا منتجا . ونسبة من يكسب الاجر فى بلادنا الى من يعولهم قد تكون واحدا الى عشرة ، بينما هى هناك لاتقل عن واحد الى ثلاثة ...

اذن ، فهذه البلاد صارت تعيش فى عالم آخر . فى مستويات من الكسب والانجاز وتحقيق الذات ومعدل التقدم ومعدل المتعة ، لاعلاقة لها البتة بما نحن عليه حين نتحدث عن هذه الامور بالنسبة لحياتنا .

العالم المتقدم والعالم غير المتقدم ... تتزايد المسافة بينهمابدرجة هائلة ومتصاعدة ... حتى كاد مجرد الحوار بينهما يصبح متعذرا ، لأن اللغة المشتركة تختفي . المفاهيم تتباعد . المعايير يسير كل منها فى اتجاه معاكس بسرعة البرق . ولاعجب بعد ذلك أن نرى « حوار الشمال والجنوب » حوار طرشان حقا ، لايسفر منذ سنوات طويلة عن أي نتيجة ولن يسفر عن أى نتيجة اذا كان كل طرف يعيش فى « جو » يختلف تماما عن الآخر .. وكأن الكرة الأرضية تنقسم الى كرتين منفصلتين .. فى انفجار مدمر رهيب !

ولأن وسائل الاعلام الأقوى والأعلى صوتا فى العالم ، هى وسائل اعلام البلاد المتقدمة ذاتها ... فان مشكلة تعطل مليون عامل ـ بهذا المعنى الواسع ، وبأخذ العامل لتأمينات ضد البطالة ، قريبة من أجره الأصلى ـ تبرز على أنها كارثة تهدد العالم .. ولكن وفاة ملايين البشر جوعا فى آسيا وأفريقيا ، خبر عادي . واذا نشرته الصحف الكبرى فمن باب الفضول .. وكأن هؤلاء البشر تحولوا الى نوع آخر من المخلوقات ، كالدواب ـ صار منظر موتها ـ أو ذبحها ـ مألوفا .

الايديولوجيات وبطء السلاحف

وكل الجدل فى الانتخابات الفرنسية كان حول قدرة كل طرف على زيادة هذا الترف والدفاع عنه . لم يذكر احد ما يجرى وراء الاسوار غير المنظورة لمدينته .. منظر تنافس اليمين واليسار على

تبنى حركة طرد العمال الأجانب .. الذين ماقدموا بالأساس الا ليقوموا بالأعمال التى صار الأوروبى يأنف من القيام بها .

واذا كان من المألوف القول أن الطبقة البورجوازية رجعية والطبقات العاملة تقدمية ، فهذا ربما فى الداخل ـ ولكن الكل ازاء الخارج سواء ...

لهذا كله كان من الطبيعى أن نرى فى فرنسا بلد الايديولوجيات .. ان الايديولوجيات تمر بأزمة طاحنة ... فهى مضطربة اضطرابا شديدا .. مهتزة غاية الاهتزاز .. صارت شقشقة لغوية وسفسطة عقلية ... أضيفت بدورها كبند آخر الى بنود الترف المادى والمعنوى ... ... ولابأس من تصديره الينا ، بعد ان استهلكوه ومضغوه ولفظوه من أفواههم فى حقيقة الأمر من زمن بعيد . ولكن تصدر حوله المؤلفات بالمئات كل سنة .. ويصدرون الينا هذه المؤلفات .... التى لم يعد المفيد منها الا النادر القليل ... تماما كما يصدرون الينا فى العالم الثالث السجائر التى لاتخضع للمواصفات الطبية فى بلادهم ، فيكسبون منها الملايين ، دون أن يكتبوا على الكتاب أو علبة السجائر « أنها ضارة بالصحة » كما يلزمهم القانون هناك ....

ولعل هذا يبعث على الاهتمام بحوار آخر هو : هل صار العلم والتكنولوجيا معا يحكمان المجتمع ويحددان تطوراته بما فى ذلك الأيديولوجيات أم أن الأيديولوجيات ما زالت هى التى توجه العالم والتكنولوجيا كما تعودت فى بعض العصور .

الايديولوجيات موجودة دائما ...

والعلم والتكنولوجيا موجودان دائما ....

ولكن العلم والتكنولوجيا صارا يتقدمان بسرعة هائلة مذهلة . بينما الأيديولوجيات أخذت تزحف فى بطء السلاحف . لاهثة وراء التطورات التى يحدثها العلم ، غير قادرة حتى الان على اللحاق به ، والامساك بزمامه الذى أفلت منها ...

فهذه الهوة الآخذة بالاتساع مثلا بين الشمال الجنوب ... ربما كانت تصبح أقل خطورة ، لولا أن هذا البعد بين النصفين ، يتجاوزه العلم والتكنولوجيا بالتقريب الشديد بينهما . فوسائل الاتصال ونقل الانباء ونشر المعلومات بل ونقلها حية على شاشات التلفزيون تجعل أى مواطن عالميا رغم أنفه يرى من كوخ بؤسه البعيد مدى الترف الذى يعيشه غيره رأى العين ، الأمر الذى يحرك كوامن نفسه ، ويستثير أعصابه ، ويغذى كل قوى الثورة والعنف والارهاب وكل ما يطلقون عليه من ألقاب . والأمر الذى يجعل سكان المناطق المتميزة يعيشون على بركان ، دون أن يشعروا بذلك ،



تشرشل

ففي السباق السياسي والمادي هناك .. لايوجد لاالسياسي الذي ينبههم ـ اذا كان يريد النجاح ـ ولا الاعلام الذي يبصرهم ، اذا كان يريد الرواج . فحال هذه المجتمعات التي قررت أن تعيش يومها بأكثر ما تستطيع وفي أنانية مطلقة ، عاكفة على زجاجات نبيذها ، حال من قال « اليوم خمر وغدا امر » . ولكن دون أن تشعر ان هذا الغد فيه أي أمر .

تكنولوجيا الاعلان والسياسة

وهذا التقدم التكنولوجي المروع ، قضى حتى على معظم ما في الجدل السياسي من سياسة .. بما أدخل من وسائل تأثير كاسحة ، تجعل القدرة الاعلانية أهم من القدرة السياسية ، وادراك كيفية التأثير على العقل الباطني للجماهير أهم من تبصيرها بحقيقة مصالحها . فالاعلان سيد الانتخابات . والاعلام سيد الأصوات . والمرشح سلعة تكسب اذا احسن عرضها . والتلفزيون بالذات يحول المعركة آخر الأمر من معركة سياسية الى معركة شخصيات . وأي صفات في المرشح شخصيا تجعله أكثر جاذبية لأكبر عدد من الناس وأكثر مصداقية لديهم .. بصرف النظر عن الحقيقة .

فقد كانت شخصية جيسكار ديستان ... من هواياته الى حياته الخاصة الى تصميم ثيابه .. هي محور الحوار في المراحل الأخيرة من الانتخابات ... وقبلها رأينا المعركة الانتخابية في أمريكا تتركز على الصورة الشخصية لكارتر وريغان ... ويجد المواطن نفسه وكأنه لايختار رئيسا للدولة ولكن يختار النجم السينمائي الذي يصلح للقيام بدور رئيس الدولة ... كما يتصوره كل ناخب .... وبعد .. هذه لمحات خاطفة جدا .. يحتاج شرحها الى مجلدات .. عن العالم المتقدم الذي يلهث العالم الثالث في محاولة تقليده والاقتداء به ، وتلك قضية أخرى . ■■

أحمد بهاء الدين



الدكتور زكي نجيب محمود يكتب

درس نتعلمه من الأوائل

وقفة ثقافية وقفها اسلافنا العرب الأولون ، كان ينبغي أن تستلفت أنظارنا اليوم بسدادها وروعتها ، لنتخذ منها نموذجا نحتذيه ، في مسألة اشكلت علينا ، اذ نقف من ثقافة الغرب حائرين ـ او ندعي الحيرة باللسان وبالقلم ، حتى اذا ماوجدنا انفسنا في ميادين الحياة العملية ، مضينا نأخذ عن القوم ثقافتهم لا نتراجع ولا نتردد ـ فكأننا نحس فجوة بين النظر والتطبيق ، فمن الناحية النظرية نتوهم ان الاخذ عن ثقافة الغرب ، فنونه وعلومه وفكره في مجالات السياسة والاقتصاد وغيرها ، هو بمثابة غزو يفتك بعقولنا وقلوبنا ، اما من الناحية العملية ، فترانا كلما اردنا لانفسنا حياة قوية ، لم نجد امامنا طريقا الا ان نتسلح بسلاح الاقوياء ، علما ، وفكرا ، وفنا ، ونظما اجتماعية، بحيث لا نبقى لانفسنا من تراثنا الا جانبا مما يسمونه « بالاحوال الشخصية » .

فما الذي احدث فينا هذا الموقف المتردد بين الرفض والقبول ، ازاء الثقافة الغربية ، التي هي ثقافة العصر بغير منازع ؟ احسب ان بعض السر يكمن في ان المصادفة التاريخية قد شاءت ان يكون صاحب الحضارة السائدة ، هو نفسه الذي فرض علينا سلطانه ، واستعمر بلادنا حينا طال هنا وقصر هناك ، فلما ان استطاعت شعوبنا ان تتخلص منه ، لتظفر باستقلالها ، لم تستطع في الوقت نفسه أن تفصل بين المعتدي وثقافته ، فرفضته جسدا وروحا ، واخذتها خشية بعد ذلك ، ان تفتح ابوابها للجانب الثقافي وحده ، فيدخل مع الثقافة حاملها ، وتدور بنا العجلة مرة اخرى الى الوراء .

ولهذا الدمج نفسه بين الرجل وثقافته ، كان من الطبيعي ان الوطن العربي في مختلف اقطاره ، بدأ جهاده السياسي في سبيل استرداد حريته من مستعمريه ـ وكانوا جميعا من الغرب ـ بحركات تدعو الى احياء الدين قويا في القلوب ، والى احياء التراث كله بصفة عامة ، سواء أكان ذا مضمون متصل بالدين ، ام كان تراثا في فروع العلم والادب ، اعتقادا منا بان اول خطوة نحو الحرية هي خطوة نستعيد بها خصائصنا الثقافية ، التي هي مقومات الشخصية المتميزة ، اقول ان ذلك كان امرا طبيعيا ، طالما كنا في موقف الضعيف ، غير الواثق بنفسه امام الآخرين .

لكن تعالوا نلق نظرة خاصةفاحصة لموقف اسلافنا الاولين ، خلال القرون الاربعة الاولى من التاريخ الاسلامي ، على الاقل ، فيلفت نظرنا موقفان يدعوان الى التأمل والاحتذاء : أولهما موقفهم من عصر الجاهلية ، وثانيهما موقفهم من الثقافات غير الاسلامية : اليونانية ، والفارسية ، والهندية ، فهم فى كلتا الحالتين قدروا بكل الثقة فى انفسهم ، على ما لم نقدر نحن عليه ، من حيث تحليلهم للمصدر الخارجي تحليلا يفرقون به بين ما يؤخذ وما ينبذ ، ولم يتزمتوا عن خوف فينظرون الى « الثقافة » المعينة ممزوجة باصحابها ويخشون ان يمسوا فيها جانبا فتتسلل اليهم سائر الجوانب .

اما عن موقفهم من العصر الجاهلي ، فقد جاء الاسلام ليمحو كثيرا من مقوماته الاساسية ، كالعصبيات القبلية ، والوثنية ، ومحاربة بعضهم بعضا على نحو يتعذر معه اتحادهم فى امة واحدة ، وهكذا ، لكن كان للعصر الجاهلي الى جانب ذلك كله ، شعر ، لغة ، وكرم ، ونجدة ، وشجاعة ، وطائفة اخرى من خصال حميدة ، فماذا صنع المسلمون الاولون حيال هذا المركب من خبيث وطيب ؟ انهم لم يخافوا ، فلقد كانوا اصحاء اقوياء . فبينما رفضوا من الحياة الجاهلية جوانبها التى جاء الاسلام ليمحوها ، لم يترددوا فى ان يجعلوا من الشعر الجاهلي مرجعهم فى اللغة ، وفى كثير من معايير النقد الادبى ، ومرجعهم كذلك فيما ينبغى ان يمدح او يذم ، ومن هنا رأينا علماء اللغة ، ونقاد الادب ، خلال القرون الاولى من تاريخ المسلمين ، قد شغلوا انفسهم بجمع الشعر الجاهلي ، واستخلاص الشواهد منه ، فاذا قيل ان الشاعر الفلانى قد استخدم هذه اللفظة او تلك ، وهذا التركيب اللغوي ، او ذاك ، كان فى ذلك ، حسم قاطع عند اختلاف الرأى .

نعم ـ كانت هنالك مدرسة لغوية اخرى ـ ارادت ان تقيم للغة اساسا من منطق العقل ، بحيث يجوز فى هذه الحالة للناقد ان يقول عن شاعر جاهلى انه « اخطأ » لانه انحرف عن قواعد العقل ، اى ان معيار الصواب ـ عند هذه المدرسة ـ ليس هو ان يكون جاهلى قد قال لفظا معينا ،بل ان معيار الصواب اللغوى مستقل عن الاشخاص وما استعملوه ، قدماء كانوا او محدثين ، ولكن قيام مدرسة تحاكم أبناء اللغة العربية ـ من حيث الصواب والخطأ ـ على اسس من منطق اللغة ذاتها ، لا فرق فى هذه المحاكمة بين قدماء ومحدثين ، لا يتضمن رفضا للشاعر الجاهلي من حيث هو جاهلى ، بل الرفض ـ اذا وقع ـ منصب على جريان لغته مع قواعد العقل وعدم جريانها .

هكذا استطاع الاوائل ان يقفوا من التراث الجاهلي وقفة تحليلية ، لا تقبل « بجملة » ولا ترفض « بالجملة » بل تقبل جانبا وترفض جانبا ، ومثل هذه الوقفة التحليلية الواعية ، وقفوها كذلك بالنسبة الى الثقافة اليونانية عندما ارادوا نقلها الى العربية ، فها هنا ايضا لم يقبلوا بالجملة ، ولم يرفضوا بالجملة ، بل ميزوا بين ما يحسن نقله وما لا يحسن ، فبينما نقلوا الفلسفة والعلوم نقلا اوشك ان يكون كاملا شاملا ، برغم ما قد يظن وجوده من تناقض بين فلسفة اليونان وعلومهم ، من جهة ، وما تقرره الشريعة الاسلامية من جهة اخرى ، اقول انهم حين اقبلوا على هذا الجانب ينقلونه بلا حرج ، امتنعوا عن نقل شىء من الادب اليونانى ، فلا هم ترجموا الشعر ، ولاهم نقلوا الادب المسرحى ، وما زلنا نحن حتى اليوم نحاول تعليل امتناعهم ذاك ، اهو امتناع بسبب ما امتلأ به الادب اليونانى من اساطير عن الهتهم ، مما لايصادف قبولا فى نفوس المسلمين ؟ ام هو امتناع صادر عن ثقة العربى بادبه ، ثقة اقنعته بانه لا كمال يرجى فوق كماله ؟

تلك هى وقفة اسلافنا من ثقافات الآخرين ، فلا هم كانوا عبيدا لها ، ولا هم استكبروا عليها ، بل وقفوا منها موقف العاقل البصير ، يعرف ماذا ياخذ منها وماذا يدع ، افليس فى هذا درس نتعلمه من الأسلاف ؟

استعاد الامريكيون موقع الزعامة

المكوك : بداية



الغزو المنظم للفضاء !

بقلم الدكتور عبد القوى عياد

في الثاني عشر من ابريل الماضي انطلق مكوك الفضاء الامريكي (كولومبيا) بعد فترة طويلة من المناقشات والتصنيع والتجارب .



ففي بداية السبعينات كان قد مضى حوالي اثنى عشر عاما على اطلاق الولايات المتحدة الامريكية لقمرها الصناعي ، المستكشف الاول ، في ٣ يناير عام ١٩٥٨ . وقد كانت هذه الفترة كافيه للحكم ، بما فيها من تجارب ، على تكاليف وجدوى اطلاق الاقمار وسفن الفضاء المأهولة منها وغير المأهولة . حينئذ اتضح لمؤسسة « ناسا » ان رحلات الفضاء ذات نفع كبير سواء من الناحية العلمية او التكنولوجية الاقتصادية . هذا علاوة على الجانبين السياسي والحربي المتمثلين اساسا في امور الزعامة والامن . ولهذا وجب الاستمرار في برامج غزو الفضاء . ومادام الامر كذلك فلا بد من دراسة مستفيضه تؤدى الى تكاليف اقتصادية لمراحل تصنيع واطلاق وتشغيل سفن الفضاء فكانت نتائج تلك الدراسات ما اصبح واضحا من ضرورة التوصل الى نظام يكفل الوصول الى محطة يمكن اطلاقها عدة مرات وتوفر مساحة كافية لعدد من الملاحين والعلماء ، علاوة على قدرة كبيرة على نقل بضائع علمية وتكنولوجية الى الفضاء . كما بدا جليا وجوب اعادة استخدام صواريخ الدفع وخصوصا تلك الانواع الغالية التكاليف . من هنا فكرة وضرورة مكوك الفضاء .

مكوك الفضاء

ومكوك الفضاء ، الذي تم تصنيعه واجتاز بنجاح كل التجارب التي اجريت عليه حتى رحلته الاولى ، عبارة عن مركبة فضائية على شكل طائرة مجنحة تنطلق كصاروخ من محطة اطلاق مركبات الفضاء ، ثم تهبط بعد اداء واجباتها ، التي تستمر من عدة ايام الى شهر ، هبوطا عاديا على ممر مطار قريب من محطة الاطلاق . والتصميم الذي اختير لهذا الغرض شبيه الحجم بطائرة دي . سي ٩ . فطول المكوك حوالي ١٨ مترا ، وقطره حوالي ٤ر٥ متر ، ويستطيع نقل ٢٩٥٠٠ كيلو جرام الى مدار حول الارض . هذا علاوة على اتساعه لطاقم من سبعة افراد بما يحتاجونه لفترة بقائهم في مدار حول الارض .

ونظرا لزيادة حجم المكوك ووزنه عن مركبات الفضاء الاخرى ، فقد اصبح من الضروري استخدام صواريخ اطلاق اقوى بكثير عما تم استخدامه من قبل . ومن شأن ذلك زيادة نفقات الاطلاق وهو مالا تريده مؤسسة « ناسا » . وخروجا من هذه الصعوبة استقر رأي الباحثين على حل هذه المشكلة بتزويد المكوك بصاروخي دفع يعملان بالوقود الصلب ويثبتان على جانبي المركبة ، ويحمل كل صاروخ ٤٥٤٠٠٠ كيلو جرام من حامض « بولي بوتادين-اكريلك اكرونتريل » . كما زود المكوك ايضا بخزان كبير من الوقود السائل (هيدروجين واكسجين) . فبعد اطلاق المركبة من قاعدة اطلاق الصواريخ الفضائية يبدأ صاروخا الوقود الصلب في زيادة السرعة حتى ارتفاع ٤٣٫٤ كيلو مترا فوق سطح الارض . بعدها يهبط الصاروخان كل « بباراشوت » في منطقة محددة في المحيط ليستعادا ، بغرض الاستعمال في رحلات قادمة . وبعد دخول المكوك في مداره حول الارض ينفصل الخزان الكبير لينطلق كقذيفة في منطقة بعيدة من المحيط . ولن يتم اعادة استخدام هذا الخزان مرة اخرى .

بهذه الطريقة امكن تخفيض نفقات الاطلاق برغم كبر الحجم وزيادة الكتلة . ولم تعد هناك حاجة الى الصواريخ الضخمة مثل دلتا وساتورن . فالقوة اللازمة لدفع وزن ما ليصل الى مدار حول الارض تقل كلما ارتفعنا عن سطح الارض وذلك بسبب انخفاض الجاذبية مع الارتفاع . وبهذا فكلما ارتفعنا اكثر امكن اكساب المركبة نفس الدفع ولكن بادخال قوة اصغر ، اى باحتراق وتكاليف اقل .

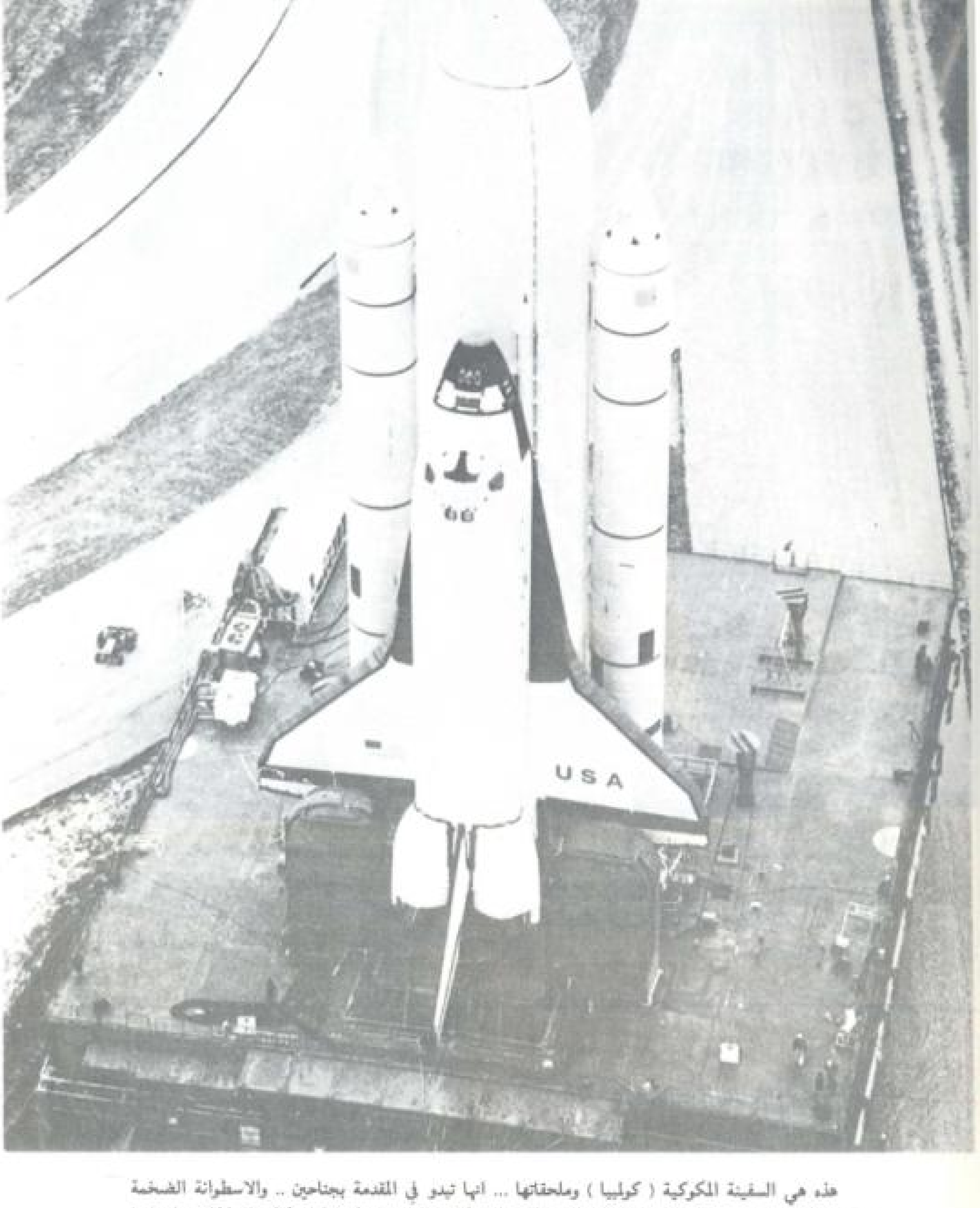
وتبلغ الفترة الزمنية بين بداية الانطلاق والوصول الى مدار حول الارض عشر دقائق ، يبدأ بعدها المكوك في اداء مهامه في الفضاء ، حتى اذا تقرر عودته الى الارض بدأ في دخول الغلاف الجوي الارضي والهبوط كطائرة . ولضرورة الهبوط الآمن خلال الحرارة الهائلة الناشئة عن احتكاك جسم المركبه بجسيمات الغلاف الجوي الارضي ، والتي وصلت درجة الحراره الناشئة منه في الرحلة الاخيره الى ١٥٠٠ درجة مئوية ، تمت تغطية جسم الطائرة برقائق واقية ، لم يكن التوصل اليها امرا سهلا على الاطلاق . كذلك تطلب الامر اعداد ممر بطول حوالي ٤ر٦ كيلو متر قريبا من محطة الاطلاق .

ميزانية ومخاوف

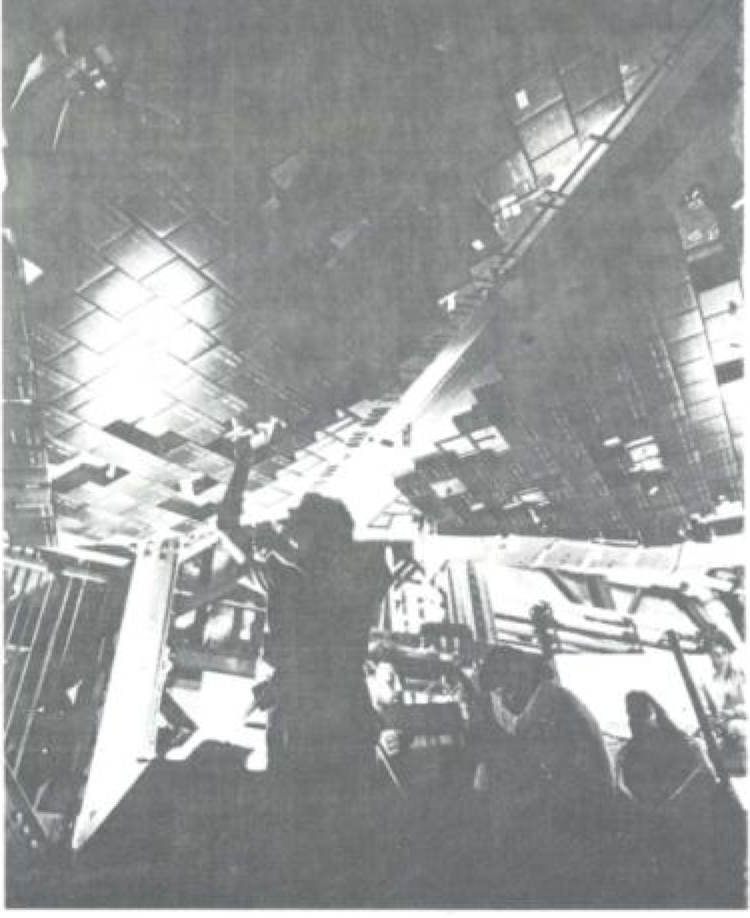
وبعد ان استقر الرأي على تصميم المكوك اعلنت المناقصات لتصنيع الجديد في المشروع ، وقدرت التكاليف ودخلت مؤسسة « ناسا » في دفاع مستميت من اجل الحصول على الميزانية وتوفير العماله الفنية الضرورية ، التي قدر لها نحو ٥٠ الف وظيفة جديده يمكن فقط تدبير ربعها من من خلال تخفيض برامج فضاء اخرى . فكانت التكاليف حوالي ٩ بلايين دولار . وهذا الرقم وان بدا كبيرا ، الا انه اقتصادي جدا اذا علمنا ان المكوك الواحد يمكن استعماله مائة مرة في رحلات فضائية لن تتكلف كل منها بعد ذلك الا صواريخ الاطلاق ووقود الدفع . برغم هذه الاقتصاديات والاهداف الواضحة مرت المؤسسة بفترات عصيبه بين اليأس والامل من حيث التمويل . فالحكومة لا تعطيها الا اذا احست بضرورة وبعد مناقشات حامية تشعرها باهتزاز الهيبه السياسيه . علاوة على ان مراحل تنفيذ المشروع قد عاصرت عدة رؤساء للولايات المتحدة الامريكيه ، بجانب كثير من الازمات كحربي فيتنام والشرق الاوسط والبطالة والطاقة .

ولم تكن هذه هي كل مخاوف وكالة ابحاث الفضاء الامريكية . فالانجاز والتجارب مرتبطان بامور اخرى غير يسيره على الفنيين الانتهاء منها في الفترة الزمنية المقرره للمشروع .

وحينما قرر نيكسون عام ١٩٧٢ الموافقة على مبلغ ٥ره بليون دولار ، اى فقط حوالي نصف ما طلبته وكالة ابحاث الفضاء ، كانت بداية العمل الحقيقي فارسيت العطاءات وبدأ التصنيع لتكون بداية رحلة المكوك عام ١٩٧٨ ، وبداية الرحلات المنتظمة في الفضاء عام ١٩٨٠ .

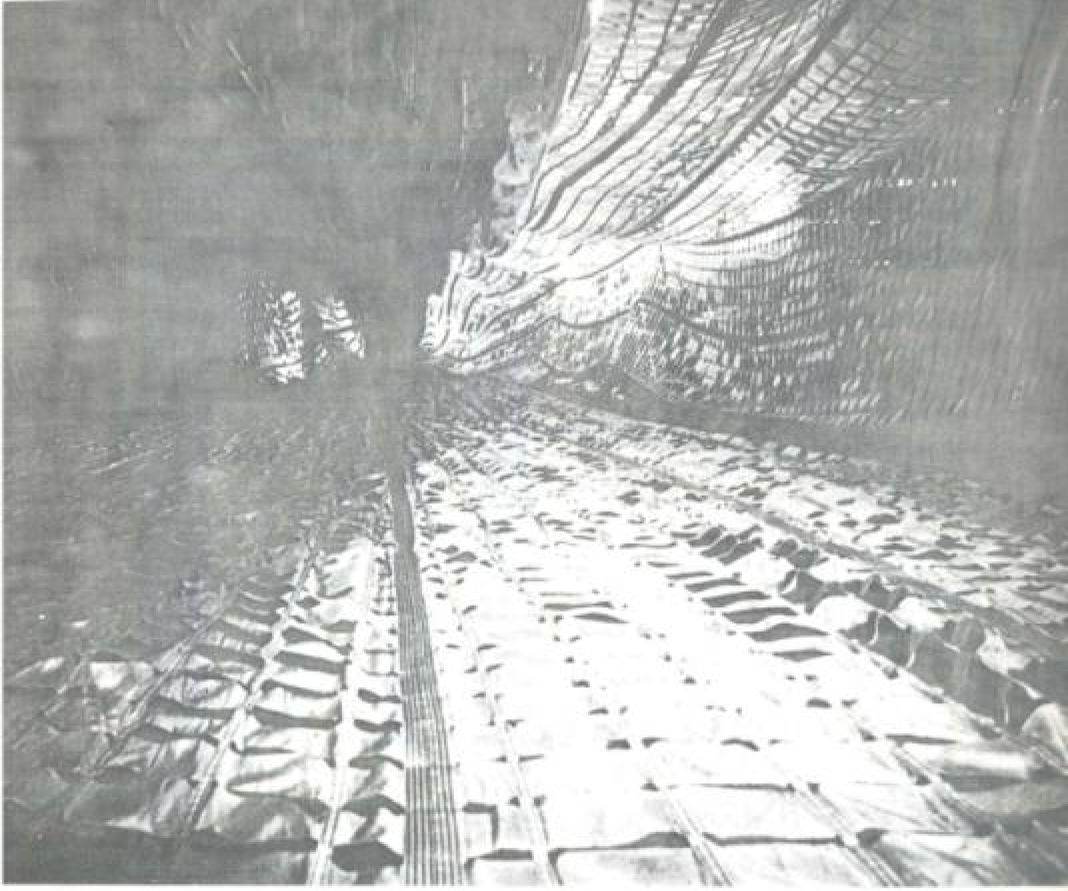


هذه هي السفينة المكوكية (كولمبيا) وملحقاتها ... انها تبدو في المقدمة بجناحين .. والاسطوانة الضخمة التي تراها خلفها هي خزان الوقود السائل الذي تحتاجه محركات السفينة . اما الاسطوانتان الجانبيتان فهما الصاروخان الجافان اللذان يكفلان الانطلاق من على سطح الارض لكل هذه الصروح هي ووقودها .. بوزنها الاجمالي الذي لا يقل عن ١٤٠٠ طن .. والسفينة مكوكية كما هو معروف ، وكذلك صاروخا الاطلاق .. ولا يستثنى من ذلك الا خزان الوقود السائل .. فهو لا يلبث ان ينفصل ويتحطم وتتناثر شظاياه هنا وهناك .

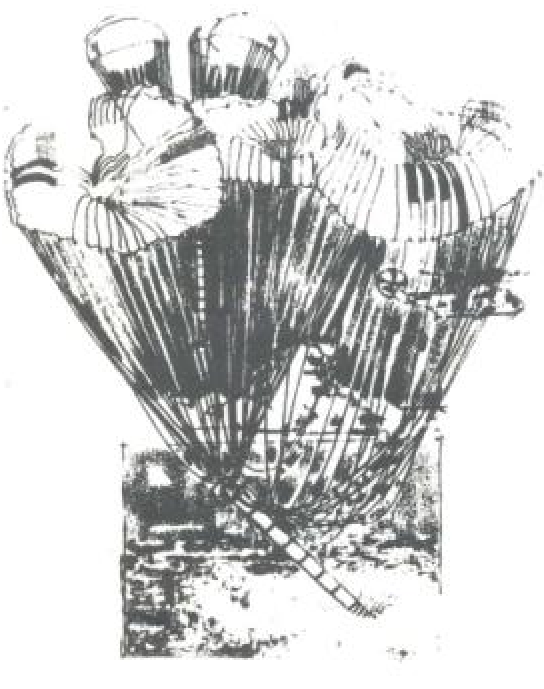


هذه هي الواح السيلكا العازلة للحرارة وقد مضى العمال في تثبيت بعضها على سطح السفينة (كولمبيا) .. اما عدد ما احتاجوه منها لتغليف سطح السفينة المكوكية بكامله فقد زاد على ٣٠،٠٠٠ لوحة ... ولولا هذا التغليف لاشتعلت النيران في كولمبيا وتحطمت في طريق عودتها ، ولدى ارتطامها بالغلاف الجوي الذي تزيد درجة حرارته على ١٣٠٠ درجة مئوية .

وبعد ان تم صنع جسم المكوك ومحركاته وخزاناته وكذا غطائه الواقي ، تم حمله بطائرات الى ارتفاعات مشابهة لوضعه عندما يدخل جو الارض ، وذلك لتجربة هبوطه كطائرة عادية على ممر طيران بالطرق الآلية او بالقيادة الآدميه . كما استهدفت تلك التجارب ايضا دراسة استجابة الالات المختلفة للظروف المتغيره والاوامر الممكن اعطاؤها من مركز المراقبة . ولما لهذه المرحلة من اهمية بالغه ، خصوصا وان المكوك خلال دخوله الغلاف الجوى الارضي سوف ترتفع درجة الحرارة حوله بحيث يصبح كقطعة حديد متوهجة منعزلة تماما عن الاتصال بمركز المراقبة ، فقد تأجلت اول رحلة فضائية الى عام ١٩٨٠ ثم لعام ١٩٨١ . وبالتالي فقد تأجلت ايضا الرحلات المنتظمة الى عام ١٩٨٢ ، حتى تتم جميع التجارب الضرورية ، قبل تحميل المكوك بالاجهزة العلمية الغاليه .

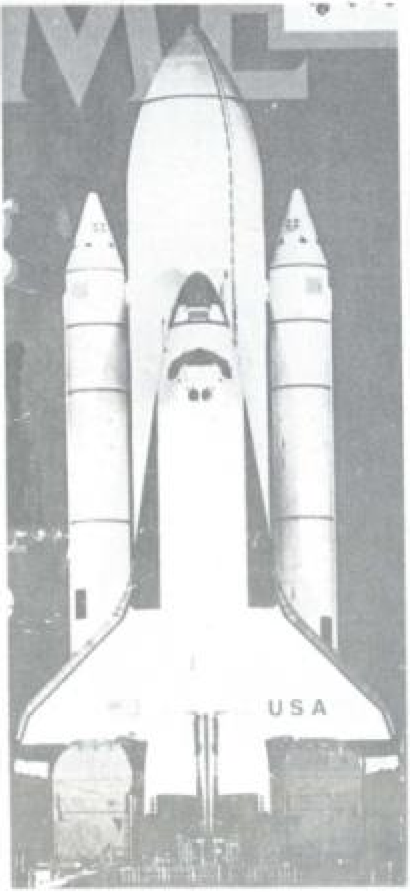


أثقل واضخم مظلات براشوت عرفها الانسان في تاريخه ... انها مصنوعة من النايلون ومعدة لضمان هبوط الصاروخين الجافين بسلام . وتنتشر المظلات على ارتفاع ٦٦٠٠ قدم حين تكون سرعة الصاروخين حوالي ٢٢٥ ميلا في الساعة .



غزو بصورة اقتصادية

وبانطلاق مكوك الفضاء في ١٢ ابريل في الفضاء مستعينين بهذا النظام المعقول التكاليف نسبيا . فالكتلة الكبيرة التي يمكن للمكوك حملها الى مدار الارض تتيح نقل اجهزة تجارب تزيد عشرات المرات عما كان متاحا قبل ذلك . وهذا يوفر امكانية علمية اكبر . وهذه الكتلة الكبيرة اصبحت ضرورية ، اولا لتحقيق الامان لطاقم



السفينة المكوكية كولومبيا

اغلبه من العلماء ، وليسوا ملاحي فضاء ، يمكنهم لاول مرة عمل التجارب بانفسهم بدون تدريب طويل على رحلات الفضاء . وثانيا لنقل الاجزاء اللازمة لبناء واصلاح محطات فضائية كبيرة تكون بمثابة مستعمرات يمكن فيها اتمام تجارب اخرى اكبر حجما واكثر اهمية او اطلاق مختبرات منها ايسر . وثالثا زيادة امكانية صناعات الفضامن تنقية وتشكيل واشباه موصلات تثبت جدواها في تقدم العلم والتكنولوجيا في الاعوام الاخيرة . ورابعا لوضع منظار فلكي ضوئي كبير فرغت وكالة ابحاث الفضاء الاوربية من صنعه حاليا ، ليمد الفلكيين بارصاد شاملة للموجات المختلفة من فوق البنفسجي الى تحت الاحمر . وجدير بالذكر ان هذه ستكون المرة الاولى التي تتم فيها ارصاد النطاق تحت الاحمر من خارج الغلاف الجوى الارضي ، الذى يشوه كثيرا من هذه الموجات اثناء مرورها الى المراصد الارضية . وقد سعدت برؤية هذا المنظار اثناء تصنيعه بمعهد ماكس بلانك بالمانيا الغربية في العام الماضي . وينظر الفلكيون بعين الامل الى ارصاد هذا المنظار لتميط اللثام وتلقي الاضواء على بداية نشأة النجوم وتطورها وقدم الكون او استقراره او انكماشه .

ان المنظار الذى تم صنعه في وكالة الفضاء الاوربية وكذلك الاجهزة التى تم الاتفاق على التعاون بين هذه الوكالة ومؤسسة ناسا لتمثل مغزى كبيرا بالنسبة للمرحلة القادمة من غزو الفضاء . فمع اقتصادية التكاليف وانتظام الرحلات وسعة الحيز وكبر الكتلة المنقولة ستحقق دولية غزو الفضاء ليعم نفعه جميع الدول وبصورة اكبر كثيرا واوسع مما شهدناه في السنين الماضية من استعمالات هائلة وانجازات هامة لادخال الاقمار الصناعية بطريقة منتظمة في الاتصالات وكشف الثروات الطبيعية والاعمال المساحية المختلفة . ■■

د . عبد القوى زكي عياد
الاستاذ بقسم الفلك ـ كلية العلوم ـ جامعة القاهرة

صراحة !

× في احدى المحاضرات بكي طفل فحملته امه لتخرج به .. فاستوقفها المحاضر قائلا : اجلسي مكانك يا سيدتي . فبكاء طفلك لا يضايقني .
فقالت السيدة : اعلم ذلك . ولكن صراخك انت يضايق الطفل .

« خيركم قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .. كيف ؟

حوار حول الإسلام والتقدم

بقلم : الدكتور عبد العزيز كامل

ما هي الحقيقة في موقف الاسلام من قضية التقدم ؟

فيما بين الثامن والثاني عشر من شهر مارس ١٩٨١ شهدت الكويت ندوة الابداع الفكري الذاتي في العالم العربي ، وتعاونت فيها جامعة الكويت ، وجامعة الامم المتحدة ، والمجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، ومعهد الكويت للابحاث العلمية .

وكان ضيف الشرف الاستاذ الدكتور عبد السلام ، اول عالم مسلم يحصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٧٩ ، وكان حديثه عن نهضة العلوم في الدول العربية والاسلامية .

وبدأ محاضرته قائلا :

بسم الله الرحمن الرحيم .. لي الشرف بالحديث اليكم . وما سأقوله ينطبق على عدد من الدول النامية بما فيها بلادي (باكستان) . واحس انني استطيع التعبير عنها في نفسي دون ان اتعرض لاساءة الفهم .

وستدور ملاحظاتي اليوم حول موضوع العلوم التجريدية ، وقد اتيت مناديا معكم باعطاء الأولوية الكبرى لخلق المعرفة داخل مجموعة علمية بالدول العربية والاسلامية ، وتخطيط المراحل الضرورية ، اذا اردنا احتلال المكانة المحترمة التي نستحقها [illegible] هذا الميدان » .

وتحدث بعد هذا عن التطورات الحديثة في الفيزياء ، وخاصة ما يتعلق بالاشكال الاساسية للطاقة والقوى الطبيعية ، وهو الميدان الذي عمل فيه سنين .

فقبل العقدين الاخيرين كان الفيزياتيون يعتقدون ان هناك اربعة اشكال اساسية للطاقة : طاقة الجاذبية ، والطاقة الكهرومغناطيسية ، ونوعان للطاقة النووية يعرفان بالشكل الضعيف والشكل القوي .. ومن البديهي الآن أن إحدى هذه القوى تتحول الى الاخرى كما هو الشأن مع تحول قوة الجاذبية الى قوة كهربائية ، وتوليد الكهرباء من مساقط الماء . وكذلك تحول الطاقة النووية القوية الناتجة داخل الشمس الى طاقة كهرومغناطيسية لحرارة اشعة الشمس .. وقد امكن توحيد القوة الكهرومغنطيسية والقوة النووية الضعيفة ..

وان الامل الذي يحدو علماء الفيزياء هو اثبات ان الشكل النووي القوي هو أيضا جزء من هذه الوحدة .

ويبقى الهدف النهائي ، وهو توحيد قوة الجاذبية مع القوة الكهرونووية الجديدة . وجوهر هذه العملية ان القوة

التي تسبب سقوط التفاحة او تثبت القمر في فلكه - اي قوة الجاذبية - مظهر لنفس الوحدة التي تعتبر القوة الكهربائية او القوى النووية جزءا منها ..

ويضم الاستاذ عبد السلام جهود العلماء متخطيا حدود الزمان والمكان ، محاولا ربط عظمة الاسلام السابقة بركب الحياة المعاصرة ، واسل المستقبل المشرق وهو يقول :

ولو ان هذه الفكرة التي كان اينشتاين اول من اوحى بها ، قد تبدو مجرد خيال اليوم ، فأملنا ان تصبح حقيقة ثابتة ، كما انها قد تتطلب مدة خمسين عاما للتعبير عنها تعبيرا دقيقا ، واثباتها اثباتا صحيحا . وارجو الله ان يجد هذا المشكل حله الحاسم على يد احد الفيزيائيين من البلدان الاسلامية .

بين العلم والعقيدة

ثم يربط بين هذا الاصل الكبير وبين العقيدة الاسلامية فيقول :

- وما هدفنا من وراء توحيد القوى الطبيعية المتفرقة في الظاهر ، الا جزء من ايماننا كفيزيائيين ، وجزء من ايماني كمسلم . وانني احمد الله واشكره على ما كرمنا به من اتاحة فرص التمعن في احد مظاهر خلقه ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

ثم ذكر انه في ديسمبر ١٩٧٩ عندما تكلم باسم الفيزيائيين الحائزين على جائزة نوبل ردا على الكلمة التي القاها ملك السويد في اثناء العشاء المقام بقاعة الاحتفالات الكبرى بمدينة استكهلم قال :

- ان اختراع الفيزياء تراث تشترك فيه الانسانية جمعاء ، ولقد ساهم فيه بالتساوي كل من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ويقول الله تعالى في القرآن الكريم :

« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير .. » (سورة الملك : ٣ - ٤) صدق الله العظيم .

وهذا بالضبط هو ايماننا معشر الفيزيائيين . ذلك الايمان الذي بنوره نهتدي ونعتز ، وكلما زادت رغبتنا في التعمق ازددنا اعجابا وسعادة ، ونما في نفوسنا حب التطلع (الى مزيد من المعرفة) .

ويمر الاستاذ عبد السلام على تاريخ العلوم ورأى جورج سارتن في مؤلفه الضخم المكون من خمس مجلدات في تقسيم تاريخ العلوم الى حقب كل منها نصف قرن وتقترن كل حقبة بشخصية رئيسية ، وان الفترة من ٧٥٠ الى ١١٠٠م - ومدتها ثلاثة قرون ونصف - كانت عصور جابر بن حيان ، والخوارزمي ، والرازي ، والمسعودي ، والفارابي ، والبيروني ، وابن سينا ، وابن الهيثم ، وعمر الخيام ... وهم رجال ينتمون الى الامة الاسلامية ، من عرب واتراك وأفغان وفرس ..

وفي تاريخ العلوم لسارتن ، لم تظهر أسماء غربية لأول مرة الا بعد ١١٠٠م (هذا بخلاف ما ظهر في الحضارات اليونانية والرومانية وكانت عمليا حضارات البحر المتوسط) .

وبعد ان عرض للتدهور الذي اصاب العالم الاسلامي ، دعا الى نهضة علمية في ظل الاسلام ، وعرض نماذج من خطط التقدم العلمي في اليابان والصين والاتحاد السوفيتي ، واجتذاب الغرب للعلماء من العالم الثالث . واقترح مشروع « أمة العلم » داخل الاقطار الاسلامية والعربية : وهو نظام او مؤسسة يتوفر لها التمويل اللازم ، وأمن العالم على نفسه وعلى ابحاثه ، بحيث تكون له حصانة مكتفقة ولو لفترة ربع القرن القادم . ولا شأن لهؤلاء العلماء بالخلافات السياسية الداخلية او الطائفية ، كما كان شأن امة العلم الاسلامية في الماضي .

هذه الامة تستطيع ان تخطط للنهضة العلمية الاسلامية وتتفاعل مع الحركة العلمية العالمية ، فالعزلة في العلم ضياع .. وختم حديثه بنداءين اولهما الى العلماء ليتعاونوا في ايجاد امة العلم ، والاخر الى الحكام ليرعوا هذا المشروع .

التقدم والامل

كان الحديث عن المستقبل مرتبطا بالامل ، يلتقي فيه الايمان بالعلم ، محددا مشروعا عقب عليه أكثر من متحدث . فنحن فعلا نعاني من تأثر النشاط العلمي بتيارات السياسة الداخلية وتقلباتها ، ونحن في حاجة الى جهاز عربي واسلامي علمي ، له حصانة كحصانة القضاء ، تستطيع ان ترسي قواعد نهضتنا العلمية فيما نستقبل من اعوام القرن الهجري الخامس عشر .

ومر في ذهني شريط طويل عما يحدث في الشرق الأقصى ، وقد كنت في زيارته من قريب .

في الشعوب الصغيرة العدد هناك كسنغافورة (٣,٥ مليون) .. استطاعوا ان يقنعوا شركات اليابان وغرب اوربا وامريكا بأن تنشيء مصانع للتجميع في هذه البلاد .. وبدأت اسماء تايوان وكوريا وسنغافورة .. تغزو الاسواق العالمية .

وفي نفس الوقت بذلت اليابان جهودا مكثفة في ترقية صناعاتها وبخاصة في مجال السيارات والالكترونيات .. واصبحت هذه الصناعات تهدد الانتاج الامريكي والاوربي في عقر داره . واصبح الالمان يطلقون على اليابانيين اسم « البروسيين الصفر » وكأنهم المان آسيا .. وبدأت تظهر شركات مشتركة يابانية اوربية ، ويابانية امريكية ، تنقل التكنولوجيا اليابانية الى الغرب ..

والحديث عندهم الان عن غزو الصناعة الاوربية والامريكية بالانسان الالي ..

واحدثوا في التعليم ثورة جذرية ترمي الى الافادة من البشر الى اقصى حد ممكن ، وباعلى طاقاته . ويعتمد هذا اعتمادا أساسيا على التدريب الراقي ، والمستمر في الرقي .. العقول الالكترونية تقوم باعمال السكرتارية . والانسان الالي امام الة الانتاج .. ابداع .. تدريب .. ابداع جديد .. تدريب جديد في حركة صاعدة مستمرة .

ثم هذا الزحف البشري

ولك ان تنظر الى وجوه الناس في عدد غير قليل من اقطار العالم العربي المنتجة للبترول .. لترى الاعداد الكبيرة من شعوب الشرق الأقصى التي تعمل في مجالات الحياة المختلفة وبخاصة في مجال الانشاءات الكبرى .. من جبهة تبدأ من كوريا شمالا حتى سنغافورة جنوبا ، أمم وأديان وثقافات شتى .. تتعامل مع الأرض والطريق والعمارة والاجهزة الالكترونية والسيارات .. والتكنولوجيا الان لغة عالمية .. يستطيع العامل ان يعيش بها في اي مكان على ظهر الارض ..

فاذا اضافوا اليها التنظيم الاداري وسرعة الانتاج ودقته .. استطاعوا ان يغزوا كثيرا من اسواق العالم .. وقد فعلوا ..

وصفوة القول اننا اصبحنا نقابل زحفا صناعيا وبشريا ، وان كانت اوربا تقابل الزحف الصناعي وحده ..

في بعض الاحياء من مدن الخليج ، اذا سار العربي احس بغربة .. لا القوم قومه ، ولا اللسان لسانه .. شعوب من اقصى الشرق تملأ الارض ، وانتاجها يملأ قاعات العرض ..

نجاح لهم لاشك فيه ، تلقاه بالعزيمة على العمل ، وبسلوك الطريق الصاعد ، مهما تكن العقبات .

سباق حتمي يحتاج منا الى اعادة النظر في توظيف رؤوس اموالنا ، واعداد شبابنا ..

ولك ان تمد خطا من موريتانيا في اقصى مغرب العالم العربي الى الخليج في مشرقه ، وتتابع السير الى شواطيء شرق افريقيا ، ثم تمد بزيارة العالم الاسلامي غير العربي في اسيا .. وحاول ان تبحث عن مناطق الانتاج والتقنية الهادئة التي توجه ـ لا اقول كل طاقاتها الى الانتاج ـ ولكن ـ على الاقل ـ اكثر من ٥٠٪ من طاقاتها اليه .. وحاول ان تكتب في كشف امامك بيانا بالصراعات الثنائية والاقليمية والحروب الداخلية ومواردها المحلية والخارجية .. حاول ـ مجرد محاولة ـ ان تحسب نزيف الدم والهدم وحرب الكلمات ، وان تقارن ما يحدث في العالم العربي والاسلامي بأي مجموعة تختارها في العالم كله من حولك .. والنتيجة امامك ظاهرة .. نحطم بعضنا بعضا ، والعالم من حولنا في تقدم وبناء ..

الاسلام المفترى عليه

ولا نعدم وسط هذا من يحاول ان يلقي اللوم ـ كله او بعضه ـ على الاسلام ، كأنه المسئول عما يحدث للعالم الاسلامي .

شيء من هذا حدث في ندوة الابداع الفكري الذاتي ..

وكان جهد البعض ان « يبدع تهما يلصقها بالاسلام فاذا تحررنا من الاسلام ـ كله او بعضه ـ استطعنا ان ننطلق .. هكذا ذهب البعض .

ولنذكر نماذج من هذا القول ، وهو ليس بجديد ، قاله بعض المستشرقين وبعض الذين يدينون بالاسلام .. وكان مما قالوا : « ان الاسلام يدعو الى التقدم الى الاسوأ .. » .

كيف ؟

استندوا الى حديث النبي عليه الصلاة والسلام :

« ان خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. »

والحديث صحيح رواه مسلم عن عمران بن حصين .

وقبل ان اعرض لتحليل هذا الحديث ، اود ان اقول ان الامر في الحوار ليس مصادرة على الرأي الاخر ، فمن حق كل محاضر او معقب او كاتب ان يبدي وجهة نظره . والحوار تعاون . ونحن لا نحضر الندوات كأننا في خلية النحل ، نبني جميعا خلايا سداسية ، لا تتبدل ولا تتغير . ولسنا في موقف املاء الرأي او قبوله بغير دليل ..

ورحم الله الكندي فيلسوف الاسلام في قوله :

« وينبغي لنا ان لا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق ، وان اتى من الاجناس القاصية عنا ، والامم المباينة لنا ، فانه ليس اولى بطالب الحق من الحق . وليس ينبغي بخس الحق ولا تصغير بقائله ، ولا بالاتي به ، ولا احد يبخس بالحق بل كل يشرفه الحق » .

ولعل في انتهاء عهد الخلافة الراشدة ، وانتقال الحكم الى بني امية ما زاد من الاحساس بالظلم والتشاؤم ... شيء من هذا نقرؤه عند الجاحظ في رسالته « النابتة » ويرى ان الاسلام مر في مرحلة التوحيد ثم الفجور ثم الكفر .

والجاحظ كان معتزليا وله هوى عباسي .. ويقصد بالمراحل الثلاث العهد النبوي وفترة الخلافة الراشدة الى مقتل عثمان وهو اول الفجور ثم الكفر بمجيء بني امية .. »

ولقد قاوم الامام علي كرم الله وجهه هذا « الفجور » وانتهى الأمر بمصرعه .. ومصرع الخلافة الراشدة .. ويكتب أبو بكر الطرطوشي في سراج الملوك (٥٤٠ هـ ـ ٥٢٠ هـ) « فاما اليوم فقد ذهب صفو الزمان وبقي كدره .. فالموت اليوم تحفة لكل مسلم » .

ومن محدثي المستشرقين نقرأ في هذا لماسينيون ، ولوى جارديه ، وجاءت خلاصة لهذا الرأي في كتاب د . فهمي جدعان : اسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ـ بيروت : ١٩٧٩ ـ وكتاب : دراسات في الاسلام : دار الفارابي ١٩٨٠ وبه بحث للاستاذ محمود امين العالم عن مفهوم الزمن عند مفكري الاسلام ، ومرفق به قائمة مراجع في نفس الموضوع .

« ان خيركم قرني »

ولنذكر الحديث كاملا :

ـ ان خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ـ ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن » .

ولنبدأ بتحديد مفهوم « قرن » .

في لسان العرب : القرن الامة تأتي بعد الأمة .. قيل مدته عشر سنين وقيل عشرون الى مائة .. والقرن مأخوذ من الاقتران . وينقل صاحب اللسان قول الازهري ـ وله اهمية كبيرة في موضوعنا « والذي يقع عندي ـ والله اعلم ـ ان القرن اهل كل مدة كان فيها نبي او كان فيها طبقة من اهل العلم ، قلت السنون او كثرت . والدليل على هذا قول النبي (ص) خيركم قرني ـ يعني اصحابي ـ ثم الذين يلونهم ـ يعني التابعين ـ ثم الذين يلونهم ـ يعني الذين اخذوا عن التابعين .. »

واذا شئنا اصطلاحا متداولا قريبا من مفهوم القرن في الحديث فهو« الجيل » . وليس كل الجيل . وانما الذين اخذوا الدين مباشرة عن الرسول . وكونوا معه اول مجتمع في المدينة . والمقصود جماعة تعيش معا وتتشابه اعمالها في فترة زمنية محددة .

في هذا الضوء ، ينتفي تماما مفهوم القرن الذي هو مائة عام . والشمول السكاني الذي يقسم عالم الاسلام كله ولا يبقى الا مجتمع المدينة المؤمن .

وننتقل خطوة اخرى لنرى علاقة هذا الحديث بالتشريع .. يقول الامام ابن تيمية عند دراسته : صحة مذهب اهل المدينة (مجموعة الفتاوى ٢٠ : ٢٩٤ ـ ٣٠٥) ..

« المدينة دار هجرة المصطفى (ص) وفيها سن الله لرسوله سنن الاسلام وشرائعه . ومذهب اهلها زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم (ثلاثة قرون) اصح مذاهب اهل المدائن الاسلامية شرقا وغربا في الأصول والفروع .. وهذه الاعصار الثلاثة هي اعصار القرون الثلاثة المفضلة التي قال فيها الرسول (ص) « خير القرون قرني »

جاء الذم في الحديث لصفات المنافقين وللترف الذي يبدو في قوله (ص) ,يظهر فيهم السمن .

يقول ابن تيمية : لم يذهب احد من علماء المسلمين الى ان اجماع اهل مدينة من المدائن حجة يجب اتباعها غير المدينة . لا في تلك العصور ولا بعدها .. والكلام انما هو في اجماعهم في تلك الاعصار المفضلة .. اما بعد

ذلك فقد اتفق الناس على ان اجماع اهلها ليس بحجة » انتهى .

فالقضية عند ابن تيمية - في هذا الحديث - تشريعية ، ترتبط بموطن معين ، في زمن بعيد . وهذه زاوية في الحديث تشريعية ، بعد الزاوية اللغوية التي سبق عرضها ..

مقاييس أخرى للتقدم

وتبدو مقاييس اخرى للتقدم اذا نظرنا الى الاحاديث النبوي الثلاثة الاتية :

١ - « ان مما اخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها . انه لا يأتي الخير بالشر . وان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا او يلم (الحبط امتلاء البطن من الطعام وهو التخمة . او يلم : او يقارب الموت) . وان هذا المال خضرة حلوة . فمن اخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو . ومن اخذه بغير حقه كان كالذي ياكل ولا يشبع ، ويكون شهيدا عليه يوم القيامة » (رواه البخاري ومسلم عن ابي سعيد الخدري) .

٢ - « والذي نفسي بيده ليفتحن عليكم فارس والروم ولتصبن عليكم الدنيا صبا . وليكثرن عندكم الخبز واللحم حتى لا يذكر على كثير منه اسم الله » - (رواه الطبراني عن عبدالله بن بسر)

٣ - « كيف بكم اذا غدا احدكم في حلة وراح في حلة ؟ ووضعت بين يديه صفحة ورفعت اخرى ؟ وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟ انتم اليوم خير منكم يومئذ » . (رواه الترمذي عن علي)

وتبين الاحاديث الثلاثة نموا في المجالات الاتية : اتساع مساحة ارض الاسلام - زيادة الدخل العام وزيادة دخل الفرد - وفرة المواد الغذائية النباتية والحيوانية - انعكاس ذلك على الوزن - انتشار الترف في الطعام والملبس والمسكن .

وكل هذه العوامل - او معظمها - تعتبر من مؤشرات مجتمع الرفاهية ، مما تسعى اليه جميع المجتمعات المعاصرة ..

ولنتأمل قو . الرسول (ص) عن المال : فمن اخذه بحقه ووضعه ي حقه فنعم المعونة هو . بعد ان وصفه بأنه خض . حلوة ..

المهم في الاحاديث ضبط النفس امام المال والطعام وشهوات الملبس والمسكن والمظاهر .. وان يكون الكسب حلالا والانفاق حلالا ..

هل نستطيع ان نقول ان مساحة العالم الاسلامي في عهد المصطفى (ص) كانت خيرا منها بعد الفتوح في عهد عمر ؟ او ان المساحة في عهد الخلافة الراشدة كانت خيرا منها في عهد غير الخلافة الراشدة ؟

ان الخيرية .. هنا نوعية .. مرة تتعلق بالتشريع . ومرة بالمساحة ، ومرة بعدد المسلمين ، ومرة بالدخل العام مع التحذير من اخطار الترف .. انها ليست خيرية مطلقة .. والا كانت مصادرة على التقدم العلمي والحضاري وعلى الجهود الاسلامية التي تلت عصر النبوة ..

ويبقى في النفوس العرفان بالجميل للجيل الذي عاش مع الرسول ، وتحمل - اول ما تحمل - هذه المسئوليات الكبيرة في نشر الاسلام .. ويبقى الامل في افاق جديدة من « الخيرية » في اجيال لاحقة نراها في معنى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام :

- « مثل امتي مثل المطر ، لا يدري اوله خير ام اخره .. (رواه الترمذي عن انس)

ولقد كان هذا المعنى يثور في نفوس الصحابة ، ويتحدث عنه الرسول (ص) . ولنقرأ معا هذا الحوار الذي يرويه الامام احمد في مسنده عن ابي جمعة - رجل من الصحابة - : « تغدينا مع رسول الله (ص) ومعنا ابو عبيدة بن الجراح . فقال : يا رسول الله . احد خير منا ؟ اسلمنا وجاهدنا معك ؟ قال : نعم : قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني .

فالخيرية هنا سببها الايمان - على بعد الزمان والمكان - اما الأولون فلهم خيرية الصحبة ، وشق الطريق لكل من جاءوا بعدهم .

ونكتفي في هذا بمناقشة موضوع « التقدم الى الاسوأ » وتحليل حديث « ان خيركم قرني » في منظور واحد مع الاحاديث الاخرى .. فالتقدم آفاق متعددة ، علينا ان نبذل فيها الجهد « فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض » : (آل عمران ١٩٥) وهناك قضايا اخرى دارت في الندوة ارجو ان يتسع مجال مقبل لدراستها . ■■

عبد العزيز كامل

أقوال معاصرة







■ سعد حداد وطني مخلص !!

مناحيم بيجين
رئيس وزراء اسرائيل

■ لست سياسيا ولكني رجل مشحون غضبا

ليس فاليسا
زعيم اتحاد نقابات العمال في بولندا

■ ان سحب الفقر والعنصرية والعنف تتجمع الآن في سماء الولايات المتحدة بصورة لم تحدث من قبل .

كوريتا سكون كنج
ارملة الزعيم الزنجي الراحل مارتن لوثر كنج

■ مخزون العالم النووي ينسف الكرة الارضية ١٥ مرة .

مجلة الازمنة الحديثة السوفيتية

■ « اوابيك » ليست مجموعة ضغط عربية ، ولكنها تستهدف تنسيق سياسات التنمية بين الدول الاعضاء .

د . علي عتيقة
امين عام الدول العربية المصدرة للبترول

■ اذا كان في نية الامريكان انشاء قوة للانتشار السريع ، فاننا نفكر في مساهمة متواضعة فيها .

مارجريت تاتشر
رئيسة وزراء بريطانيا

■ عدد اليهود في العام وصل هذا العالم الى ١٤ مليون و٥٢٥ الف شخص بزيادة ١٣١ الفا عن عام ١٩٨٠ .

المجلة السنوية اليهودية الامريكية

■ الادمان على الكحول والمخدرات يكلف العالم الف مليون دولار في السنة

من تقرير مقدم الى المؤتمر الدولي
لمكافحة المخدرات في سيدني باستراليا

■ المملكة العربية السعودية تتخلى سنويا عن مليار و٩٠٠ مليون دولار بخفضها اسعار النفط للولايات المتحدة الامريكية ، كجزء من تضحياتها التي تقدمها الى حليفتها .

احمد زكي يماني
وزير النفط السعودي

■ قرر مجلس قرية ليجار الاسبانية انهاء حرب كانت قد اعلنتها على فرنسا ، عندما اهين ملك اسبانيا في زيارة لباريس عام ١٨٨٣ .

وكالات الانباء



مستقبل

واحد

للجميع

فقراء بالنفط وفقراء بدونه !

بقلم الدكتور حازم الببلاوى

رغم كل التقدم الذى حققه العالم ، فلايزال الفقراء يمثلون الكثرة الغالبة من السكان . ومع ذلك فان حقيقة الفقراء هى أكبر بكثير مما يبدو للوهلة الأولى . فاذا كان ظاهر الأمور كثيرا ما يكون مضللا ، فانه هنا أكثر خداعا .

لقد بدأنا نسمع منذ ثورة النفط عام ١٩٧٣ عن أغنياء النفط ، وهم فى الحقيقة فقراء . فالفقراء عموما لا يحسنون التصرف فى مواردهم . ودول النفط ليست بشكل عام أفضل حالا من دول عدم النفط . اذا كانت الدول الفقيرة غير النفطية لاتحصل من مواردها الطبيعية والبشرية على أفضل ما يمكن ، بحيث تتركها فى الحقيقة دون مستوى الاستخدام الامثل ، فان الدول النفطية ترهق مواردها النفطية بما يؤدى الى اهلاكها وتجاوز فى استخدامها واستهلاكها ما يمكن أن يمثل الاستخدام الامثل .

ان ما يسمى بدخول النفط العالية والتى تضعها على قمة مستوى الدخول فى العالم ، ليست سوى اكذوبة أخرى . فالدول النفطية لاتحصل على دخل وانما تأكل ثروتها . فاستخراج النفط ليس انتاجا ، وانما هو تحويل لشكل من اشكال الثروة الى شكل أخر ، هو تحويل لثروة فى باطن الارض الى ثروة نقدية وورقية . وهذا ليس دخلا لأنه لايكاد يضيف شيئا جديدا . أو هو يضيف اضافة يسيرة جدا .

الدخل هو ايراد دائم متجدد يمكن الحصول عليه بشكل مستمر مع بقاء الثروة او الطاقة الانتاجية على ما هى عليه . الدخل اضافة صافية الى موارد الفرد او الدولة . والدول النفطية لاتعرف شيئا من ذلك ، فهى تكسب موارد نقدية وورقية وتخسر فى نفس الوقت موردا طبيعيا . فيكفى أن نتذكر أن الدول النفطية تستهلك خلال فترة تتراوح بين ٣٠ ـ ١٠٠ سنة المورد الاقتصادى الأساسى او الوحيد لها . جيل أو عدة أجيال تقتطع لنفسها الفوائد الاقتصادية التي يمكن ان تنتج من هذا المورد الطبيعي . قارن ذلك مثلا بمورد طبيعي آخر مثل النيل فى مصر والسودان ، حيث يقدم على مر العصور منذ الأزل وحتى الأبد الزرع والصيد والنقل والطاقة ... الخ . فكم كانت تبلغ القيمة الاقتصادية المتراكمة لكل هذه الخدمات فيما لو امكن تركيز هذه المنافع الابدية الى ثروة نقدية تباع مرة واحدة خلال ثلاثين او مائة عام .

نفطيون وفقراء !

واذا كانت الدول النفطية لاتخرج في حقيقتها عن الدول الفقيرة غير النفطية فانها قد تواجه مشاكل اكثر صعوبة . فظاهر الأمر يشير الى انها دول غنية مما يجعلها تتصرف كالاغنياء وتتكاسل عن الاعداد للمستقبل .. فمشكلة الدول النفطية انها ترهن المستقبل كله لحاضر قد يستمر جيلا أو جيلين . وهو حاضر مشرق ومزدهر بما قد ينسيها الاعداد للمستقبل . وقد يكون مستقبل الفقراء ممن يملكون النفط وممن يعوزهم هو في عمل مشترك متكامل .

لعله من الصعب حصر اهداف الدول الاقتصادية في عدد محدود من الاهداف ولكن الامر في ظروف الدول النفطية يبدو اكثر سهولة . فهذه الدول تعتمد في الغالب على مورد ناضب وهو النفط . ولذلك فانه يبدو أن من اهم اهداف سياستها الاقتصادية هو حفظ هذه الثروة والعمل على استمرارها لأطول فترة ممكنة . وحفظ الثروة لا يعني فقط الاحتفاظ بها دائما في باطن الارض اوحتى ضرورة تقليل الانتاج الى ادنى الحدود . ولكنه يعني أن تعمل هذه الدول على تحديد طاقاتها الانتاجية بشكل مستمر . وهو ما يعني في حالة الانتاج النفطي وتحويله الى ثروة نقدية محاولة الاحتفاظ بالقيمة الحقيقية لهذه الثروة النقدية والمالية . ولذلك فان سياسة الاستثمار للاموال النفطية تعتبر جزءا مكملا لسياسة حماية والاحتفاظ بالثروة النفطية . فالاموال النفطية هي بديل للنفط . وحماية هذه الاموال تتطلب سياسة استثمارية قادرة على الاحتفاظ في المستقبل بالقيمة الحقيقية لهذه الاموال .

وفي أوضاع الاقتصاد العالمي المعاصر واحتياجاته للنفط من ناحية ومحدودية الطاقة الاستيعابية للاستثمار المحلي في الدول النفطية من ناحية أخرى ، فان الاستثمار الخارجي لاموال النفط يعتبر أمرا ضروريا لافكاك منه . فالاقتصاد العالمي الحديث يقوم على الاستخدام المكثف للطاقة ، ونحن نعيش الآن عصر الطاقة البترولية حيث تبلغ نسبة البترول في استخدامات الطاقة ما بين ٧٠ ـ ٧٥٪ من الطاقة المستخدمة عالميا . وفي مثل هذه الظروف فان أي تخفيض جذري في حجم انتاج البترول لن يقتصر على اقتصاديات الدول النفطية بل لابد وأن ينعكس على الاقتصاد العالمي بالكساد ، وربما قد يهدد سلامة واستقرار العلاقات الاقتصادية الدولية . ولذلك فان الدول النفطية تواجه ضغوطا دولية تفرض عليها ضرورة الانتاج في حدود معينة من النفط وبصرف النظر عن الاحتياجات المالية الداخلية لهذه الدول . ومقاومة هذه الاحتياجات الدولية سيكون له بالضرورة مضاعفات اقتصادية عالية بل وقد يحمل مخاطر سياسية وعسكرية غير محددة . وبالمقابل فان قدرة الدول النفطية على الاستثمار المحلي المنتج تبدو محدودة في كثير من هذه الدول بالنظر الى نقص عدد السكان وعدم توافر الموارد الأخرى . ولذلك فانه يبدو أن قدر الدول النفطية هو أن تستمر في الوقت الحالي في انتاج كميات من النفط تفوق حاجتها المحلية للانفاق على الاستهلاك والاستثمار . وهذا مايؤدي الى ظهور ما يسمى بالفوائض المالية النفطية ، ويفرض على تلك الدول ضرورة استثمارها في الخارج . وهنا تثور مشكله استثمار هذه الفوائض بما يحمي قيمتها في المستقبل .

وعندما يتعلق الامر بحسن استثمار الفوائض المالية النفطية فان هناك عدة حقائق لابد من مراعاتها . الحقيقة الاولى هي ان الفوائض المالية النفطية ليست ظاهرة اقتصادية جزئية وانما هي تعكس تغييرا هيكليا في الاقتصاد العالمي . فحجم الفوائض المالية النفطية من الاهمية على الاقتصاد العالمي بحيث يستوجب نظرة شاملة لاوضاع الاقتصاد العالمي ولا تكفي فيه الحلول الجزئية . ويكفي لبيان ذلك ان تدرك ان حجم هذه الفوائض المالية النفطية عام ١٩٧٤ كان حوالي ٦٠ بليون دولار وهو ما يمثل اكثر من نصف الصادرات الامريكية وثلث الاستثمارات الخاصة فيها لنفس السنة . واذا كانت هذه الفوائض قد اتجهت الى التناقص بعد ذلك حتى وصلت الى أدنى مستوى في عام ١٩٧٨ ، فانها ارتفعت من جديد في عام ١٩٧٩ ، وبلغت في عام ١٩٨٠ حوالي ١٢٠ بليون دولار محتفظة بنفس النسبة السابقة بالنسبة للصادرات والاستثمارات الامريكية . وظاهرة بهذا الحجم في الاقتصاد العالمي ليست بالظاهرة الصغيرة او المحلية ، وانما هي ظاهرة هامة في الاقتصاد العالمي وتمثل تغييرا اساسيا في العلاقات الاقتصادية الدولية .

زيادة وهمية وصورية

الحقيقة الثانية الجديرة بالاعتبار هي انه على مستوى الاقتصاد العالمي ، فان ظهور الفوائض المالية النفطية انما يمثل زيادة في المدخرات العالمية والتي تقوم بها الدول النفطية . فارتفاع الاسعار ومن ثم دخول الدول النفطية انما يعني في نهاية الأمر اعادة توزيع الدخل العالمي لمصلحة الدول النفطية . ويرتبط بذلك

زيادة في قدرة هذه الدول على الادخار . فالفوائض المالية النفطية انما هي مدخرات الدول النفطية والتي لم تجد لها استخداما في الاقتصاديات المحلية لتلك الدول .

والحقيقة الثالثة هي ان النظرية الاقتصادية تعلمنا ان الادخار لابد وان يتساوى مع الاستثمار في نهاية الامر . وانه اذالم يزد الاستثمار الحقيقي نتيجة لتوافر مزيد من المدخرات ، فان القوى الاقتصادية لابد وأن تتدخل لكي تحيل الزيادة في المدخرات الى زيادة وهمية وصورية .

وبناء على ما تقدم فان سياسة الاحتفاظ بالقيمة الحقيقية للفوائض المالية النفطية تقتضي من الدول النفطية ان تسعى لكي تتحول هذه الفوائض المالية النفطية الى زيادة حقيقية في الاستثمارات في العالم . وهذا يتطلب سياسات بعيدة النظر تختلف عن النظرة الجزئية للمستثمر الفرد . الفوائض المالية النفطية تغير هيكلي في علاقات الادخار العالمي يتطلب تغيرا هيكليا في الاستثمار العالمي . والنظرة الجزئية الفردية للاستثمار ليست فقط غير كافية بل هي في نهاية الامرضارة وتؤدي الى عكس المقصود منها . وترتبط هذه المسألة بعلاقة الدول النفطية بكل من الدول الصناعية الغنية والدول الفقيرة غير النفطية .

وقد يبدو للوهلة الأولى أن فرص الاستثمار الحقيقية انما تتوافر في الدول الصناعية المتقدمة . فهذه الدول تبدو وكأنها الشريك الاقتصادي الطبيعي للدول النفطية ، ليس فقط لانها المشتري الاساسي للنفط والمصدر الاول للسلع الزراعية والصناعية والتكنولوجية ، بل لانه يتوافر لها اسواق مالية متطورة وقدرات ادارية وفنية كبيرة وأسواق واسعة مما يجعلها اقدر على استيعاب استثمارات اموال النفط بكفاءة اكبر . وعلى العكس فانه يبدو للوهلة الأولى ان الدول الفقيرة غير النفطية غير قادرة على توفير فرص مماثلة للاستثمار المنتج ، فهي تعاني من نقص وقصور شديدين في البنيات الاساسية وفي الخبرات وفي النظم والمؤسسات المالية والادارية . هذه الدول تستحق ولاشك معونات انمائية ولكنها تبدو وكأنها غير مؤهلة للاستثمار المنتج .

وهذه امثلة اخرى للتعارض بين ظاهر الامور وحقيقتها ، أو بين النظرة الجزئية والنظرة الكلية الشاملة . وهي قضية كثيرا ما نشاهدها والتاريخ مليء بالامثلة التي تؤكدها . ولعل من ابرز امثلتها التاريخية المعروفة ما عرف عنْ التجاريين في القرنين السادس والسابع عشر . فغنى وثروة الفرد كانا يقاسان بما لديه من ذهب ، والتاجر الاكثر ثراء هو الاكثر ذهبا . وهو امر صحيح وينطبق على كل واحد من التجار . وقد انتهى التجاريون في ذلك الوقت الى ان الدولة تصبح اكثر ثراء وغنى اذا زاد مالديها من ذهب وفضة وهو امر غير صحيح . وقد حاولت اسبانيا ان تزيد قوتها بزيادة مالديها من ذهب وفضة . وكانت النتيجة ان اصبحت بريطانيا اقوى دولة لانها غيرت من جهازها الانتاجي . وكانت هزيمة الارمادا تعبيرا عن هزيمة النظرة الجزئية والفردية وانتصارا للنظرة الانتاجية البعيدة النظر .

وتعتبر تجربة استثمار الفوائض المالية خلال السنوات الماضية غنية بالفوائد والعظات . فرغم ان الدول النفطية قد قدمت معونات سخية للدول النامية ، فانها قد عمدت بشكل عام الى استثمار الجزء الاكبر من الفوائض المالية في الدول الصناعية المتقدمة . فماذا كانت النتيجة ؟

.. وزاد التضخم العالمي

رغم توافر الموارد المالية النفطية القابلة للاستثمار في الدول الصناعية ، فان نسبة الاستثمار في هذه الدول لم تزد بعد ١٩٧٤ ، بل على العكس فان كافة التقارير الاقتصادية كانت تشير الى انخفاض معدل الاستثمار في الدول الصناعية . وكاد يصبح من العبارات المكررة أن تلوم تقارير صندوق النقد الدولي ومنظمة التعاون الاقتصادي الانخفاض المستمر في معدلات الاستثمار في الدول الصناعية .

وبدلا من ان تؤدي الموارد المالية المتوافرة نتيجة لاموال النفط الى تزايد الاستثمارات الحقيقية فانها قد قامت بتمويل اصدارات مالية متعددة . فزاد حجم الاصول المالية من كل نوع دون ان تزيد في نفس الوقت الاستثمارات الحقيقية . وتشمل الاصول المالية انواعا متعددة من صور المديونية يصعب حصرها وتمتد من النقود واشباه النقود الى غير ذلك من صور المديونية . ويكفي ان نشير على سبيل المثال الى ازدياد حجم ماسمي باليوروماركت من اقل من ٥٠٠ مليون دولار في أوائل الستينات الى ما يجاوز التريليون (التريليون الف بليون) دولار في ١٩٧٩ .

كذلك زادت مديونية الدول النامية من اقل من ٧٥ بليون دولار في ١٩٧٠ الى ما يجاوز ٣٠٠ بليون دولار في ١٩٨٠ . وقل مثل ذلك في معظم المديونيات بصورها المختلفة . ومعنى ذلك ان وفرة المدخرات المالية النفطية

بدلا من أن تزيد فرص الاستثمار الحقيقي انما استخدمت في تمويل توظيفات مالية .

* وهكذا أدى استخدام الفوائض المالية النفطية في الدول الصناعية المتقدمة الى نوع من التوظيف المالي بدلا من الاستثمار المنتج . فلم يقابل الزيادة في مدخرات دول النفط زيادة حقيقية في استثمارات العالم ، وانما قابلها زيادة في حجم الاصدارات المالية مع بقاء الطاقة الانتاجية في العالم على نفس نمطها السابق . وقد انعكس ذلك على قيمة الفوائض المالية ذاتها اذ انه حرك قوى اقتصادية ادت الى تفاقم التضخم ومن ثم تاكل الفوائض المالية ذاتها . فازدياد حجم الاصول المالية في العالم مع بقاء حجم الاستثمارات الحقيقية في العالم على نمطه السابق دون تغيير انما يعني خلق ظروف مناسبة لارتفاع الاسعار .

ولبيان ذلك لابد من فهم العلاقة بين الاستثمارات العينية وبين الاصول المالية .

الاستثمارات العينية هي الاضافة الى الطاقة الانتاجية . أما الاصول المالية فهي ديون على هذه الطاقة الانتاجية ومن ثم تستحق عائدا . وعلى ذلك فان زيادة حجم الاصول المالية دون تغيير في حجم الطاقة الانتاجية يتطلب بالضرورة زيادة في حجم الاعباء التي تدفع لاصحاب هذه الاصول المالية . وهذا ما يؤدي الى ضرورة ارتفاع الاسعار حتى يمكن توفير عوائد مناسبة لأصحاب الاصول المالية .

وعلى ذلك فقد لوحظ بعد زيادة الفوائض المالية النفطية وتوافر الموارد المالية ارتفاع في اسعار الفائدة وفي عوائد الاصول المالية بصفة عامة دون ان يرتبط بذلك زيادة حقيقية في الاضافة الى الطاقة الانتاجية . ومن غير الممكن الوفاء بهذه الفوائد والعوائد المتزايدة دون ارتفاع في اسعار الانتاج . وهكذا تفاقم التضخم العالمي ، وهو ما ادى الى تحويل مدخرات الدول النفطية الى مدخرات اسمية تتاكل قيمتها الحقيقية بشكل مستمر . ولذلك لم يكن غريبا ان تستمر الفوائض النفطية في التناقص من معدلها في ١٩٧٤ (٦٠ بليون دولار) الى اقل من ١٠ بلايين دولار في ١٩٧٨ . واذا كانت الفوائض قد ارتفعت بعد ذلك ، فان هذا يعود الى اسباب خارجية مرتبطة بارتفاع اسعار النفط في اثر ثورة ايران .

ولكن كيف نربط بين هذا الذي تم وبين استخدام الفوائض المالية النفطية في الدول الصناعية المتقدمة بدلا من الدول النامية الفقيرة ؟

فرص في الدول الفقيرة

ان عدم استجابة الاستثمارات الحقيقية بالزيادة نتيجة لاستخدام الفوائض المالية النفطية في الدول الصناعية انما يرجع الى اعتبار متعلق باوضاع هذه الاقتصاديات . فلا يكفي ان تتوافر الموارد المالية حتى تتحول الى استثمارات حقيقية ، بل لابد من توافر طلب جديد على انتاج هذه الاستثمارات . وهذا ما يتطلب تعديلا جوهريا في هيكل الطلب في الدول المتقدمة . وهو أمر لم يحدث ولا يتوقع ان يحدث قبل تغيير جوهري في اوضاعها الاقتصادية . فالدول الصناعية المتقدمة غير قادرة على زيادة الاستثمارات العينية بشكل جذري في ظل اوضاعها الحالية ، ومجرد توافر التمويل من الدول النفطية لا يكفي لتعديل هيكل اقتصادياتها . وهنا يمكن ان تمثل الدول النامية الفقيرة الدور الاساسي لتقديم الطلب المتزايد الممكن لزيادة حجم الاستثمارات في العالم . فالدول النامية الفقيرة تعرف مجالات ضخمة تحتاج الى استثمارات كبيرة ويعوزها التمويل . الطلب اللازم لزيادة الاستثمارات الحقيقية يقوم في الدول النامية متى توافر التمويل لها . أما الدول الصناعية المتقدمة فان كل ما تقدمه هو زيادة في الاصدارات المالية .

*

وهكذا يبدو وجه الغرابة . الدول الصناعية المتقدمة بكل امكانياتها واسواقها لاتستطيع ان تقدم للدول النفطية سوى فرصة لزيادة الاصدارات المالية ومن ثم التضخم . وهو أمر لا بد وأن يؤدي في النهاية الى تاكل الفوائض المالية النفطية ذاتها . أما الدول النامية الفقيرة فهي بكل نقائصها تستطيع ان تقدم فرصا لزيادة الاستثمار الحقيقي ومن ثم تحويل مدخرات الدول النفطية الى زيادة حقيقية في الاستثمار بما يحمي قيمتها الحقيقية في المستقبل .

وهكذا اخيرا يتضح ان مستقبل الفقراء مع النفط انما هو مع الفقراء الآخرين بدون نفط . كلاهما يمكن ان يقدم للآخر فرصة حقيقية لمستقبل افضل . الدول النفطية تملك قدرة على التمويل والدول النامية تملك قدرات غير مستغلة يمكن ان تتحول بالتمويل الى استثمارات حقيقية . اما الدول الصناعية المتقدمة فانها غير قادرة الا على تقديم فرص للتوظيف المالي ، ومزيد من الاوراق المالية . وبين ظاهر الامور وحقيقتها يكمن التحدي الحقيقي . والله أعلم .

د . حازم الببلاوي

الزمن هو محامي الأبرياء :

مدام بوفاري

بين خيال الأديب وحكم القضاء وعجز القلم

بقلم سليم الصويص

هل كانت ظالمه ام مظلومه ، مدام بو فاري ، بطله واحدة من اشهر الروايات رواجا في الغرب والعالم العربي ؟

في عام ١٨٥٧ اصدر الروائي الفرنسي جوستاف فلوبير روايته « مدام بوفاري » التي لاقت رواجا منقطع النظير ، وتلقفها القراء بشغف ، وترجمت الى العربية مرارا وتاجر بها بعض الناشرين العرب ، ووصموا « مدام بوفاري » على الغلاف بانها نموذج المرأة الخائنة .

وعلى الرغم من ان « فلوبير » حين كتب هذه الرواية لم يتوغل الى حقيقة النفس البشرية كما فعل اونوريه دي بلزاك ، وعلى الرغم من ان الموضوع الذي عالجه ليس غريبا عن المجتمع الفرنسي وليس حالة شاذة تستحق التسجيل حتى لا تتكرر او تشيع ، الا ان الظروف التي احاطت بصاحبة القضية الاساسية ومأساتها امام الظروف المقارنة لوقوع الجريمة وامام القضاء والعجز العلمي ، كل هذه الظروف مجتمعة جعلت الاذهان مستعدة لتقبل هذه الرواية وترويجها والاشادة بها .

هل كانت خائنه ؟

قصة مدام بوفاري ليست قصة الزوجة الخائنة ، بل قصة الزوجة الفاضلة التي وهبت رقة في الاحساس وفتنة في الجمال ، وتذوقا للادب والموسيقى وخيالا رحبا حالما يصور الحياة تصويرا ورديا رومانسيا مع فارس الاحلام ، وقد تربت تربية دينية اثرت فيها وضبطت

سلوكها وتصرفاتها . ثم ألقى بها سوء الطالع الى ان تتزوج من طبيب وصولي يتخذ من الزواج وسيلة للاستقرار المادي وليس له من المواصفات الجيدة ما يغري ، وليس عنده فضائل تحتذى ، ولا خصال تمدح ، فهو يجيء الى البيت متأخرا متعبا ليجد زوجته في انتظاره وقد اعدت له العشاء فيتناوله ، ويتمتم بعبارات التشكي والتذمر من ارهاق العمل اليومي ، ثم ما يلبث ان يغلبه النعاس فيلوذ الى فراشه دون ان يفطن ان له زوجة لها الحق في ان تروح عن نفسها ، وان تستمتع بحياتها في ظلاله ومن خلاله .

وقد صانت هذه الزوجة قداسة الحياة الزوجية ، وقنعت بحياتها الخاوية الجافة ، ولم تتخذ من جمالها وسيلة للغواية والاغراء ، وحافظت على رصانتها وتعقلها وحشمتها .

وليس ادل على فضيلة هذه الزوجة من علاقتها مع الطالب « ليون » الذى أحبها حتى الوله وخرج معها في نزهات عديدة وبثها شعوره الملتهب ، وباح لها بكل احاسيسه النبيلة ، وبادلته المشاعر ذاتها بكل ما فيها من صراحة وصدق والتهاب وتفجر ، ومع ذلك فانه لم يحظ منها حتى بقبلة الوداع وهو ينطلق الى باريس لمواصلة دراسته في الحقوق .

كذلك حين اقامت علاقة مع « رودولف » الذى شغف بها شغفا شديدا ، والذى اذهله خفرها وحشمتها وعزوفها عن التبذل والغواية ، فهي قبل ان تذهب الى لقائه كانت تخشى خبرته وبراعته في مضمار الغرام ، وتخشى ان تفقد مقاومتها ، وتقع فيما لا تريد وتشتهي ، ولهذا توجهت الى الكنيسة وصلت فيها وطلبت الى الله ان يسلحها بالقوة والفضيلة حتى لاتنهار .

لقد كانت هذه السيدة تدرك الصراع الداخلي الذى تعاني منه ، وتعرف ان حياتها الزوجية كلها خداع وتمثيل ، وان هذا الهواء الجسدي والروحي الذى يعصف بكيانها لابد وان يتغلب عليها اذا ماواجهت الشخص القادر على الدخول الى خبايا نفسها ، وعلى القراءة في عينيها ، لانها عندئذ لا تستطيع الاستمرار في التمويه والتمثيل والخداع بانها سعيدة في زواجها .

وكان رودولف هذا بحكم تجاربه في الحياة ومهارته وتشوقه الى امتلاك هذا الجمال الساحر البريء المحتشم يعرف الطريق الموصلة الى قلبها واغوائها . واستطاع بعد محاولات استمرت ستة اشهر من ان يحولها الى عشيقة وان يعيش معها كزوج ويجعلها ملكا له جسدا وروحا وشعورا او عقلا ووجودا . وقد عرفت معه معنى الحياة ، وادركت كل ما كان ينقص حياتها ، فشربت الكأس مترعة باللذة الجسدية كما يذهب البعض ، ولكن كأس السعادة والحب والطمأنينة . لقد اكتشفت عالما جديدا كان من قبل موصدا وعرفت اى قحط كان يحيط بحياتها من هذا الزوج الذى وصل اليها طمعا بثروة والدها وليس لما يتحلى به من خصائل وفضائل تجعله قرينا كفؤا لها في الطباع والعقلية والمشرب والنظرة الى الحياة .

لقد دلها « رودلف » صديق زوجها على طريق السعادة التي يخلقها الحب . وجاء صديق آخر لزوجها ليدلها على الانفاق والبذخ والتبذير دون تبصر . وانساقت هي في هذه الطريق الى ان صحت على نفسها ذات يوم مثقلة بالديون وقد ألقى الحجز على متاع بيتها بقرار المحكمة . فسعت الى الحصول على المال اللازم لالغاء الحجز والحيلولة دون بيعه وبالتالي ان يعرف زوجها المسكين بذلك . وتوجهت الى الصديقين اللذين اترعاها كأس الحب حتى الثمالة ولكنها وجدت لديهما صدودا بمجرد ان عرفا حاجتها فانصرفت عنهما وهي في منتهى الخيبة والاحباط ، وعرجت على دار الصيدلي وطلبت منه زجاجة الزرنيخ التي شاهدتها لديه ذات مرة . وتناولت هذه المادة السامة مؤثرة الانتحار على ان ترى التعاسة والحزن في عيني زوجها الساذج ، لا بل الغبي الابله .

في كل مجتمع قصة

تلك هي بايجاز قصة « مدام بوفاري » وهي قصة تركز على النتيجة وتهمل السبب . تتناول انحراف زوجة فاضلة وتتناسى الاختيار السيء للزوج ، واستحالة التخلص منه . فمأساة مدام بوفاري موجودة في كل مجتمع وفي كل عصر . ويستطيع كل واحد منا ان يسمى اكثر من « مدام بوفاري » عرفها . وان يلتمس لها المعاذير والتبريرات ، ويتناول الانظمة الاجتماعية والرضوخ لقدرها ، وان تقتل في ذاتها كل الأحاسيس والتطلعات وتعيش حياة خاوية تافهة باردة . لا تعدو كونها موتا بطيئا وانتحارا رتيبا لا جريمة فيه ولا رحمة .

وقصة مدام بوفاري قصة عادية مألوفة في المجتمع الفرنسي عامة والمجتمع الباريسي خاصة ، حيث لا تذكر الزوجة الا ووراءها ظل العشيقة ، وحيث لا يذكر الزوج الا وخيال العشيق مختبيء وراءه ، فلماذا كان هذا التشوق من الجمهور على قراءة هذه الرواية واقتنائها والسماح لها بالشهرة والانتشار ، هل وجد فيها بعض الازواج تنفيسا عن واقع يعيشونه ولا يجدون قدرة على



تغييره ؟ ام هل وجدت بعض الزوجات صورتهن معكوسة على صفحة حياة « مدام بوفاري » وتعبيرا عن جدب يعانين منه ؟ فكانت الشهرة لاسطورة مدام بوفاري وليس لاية واحدة منهن ؟

هذان السببان لا يمكن استبعادهما من جدول الاحتمالات المطروحة . ولكن هناك سببا أخر هو في نظري السبب الرئيسي . ذلك ان المجتمع الفرنسي كله كان يعيش أنذاك ذكرى مأساة امرأة اديئت بقتل زوجها وماتت عام ١٨٥٢ قهرا وكمدا وبؤسا ولكن موتها لم يسدل الستار على مأساتها لان شبح براءتها ظل يخيم على عقول الكثيرين الذين شاركوا ، عن غير قصد او سوء نية ، في اصدار حكم الادانة عليها مع ان منحها البراءة كان اقرب الى العدل .

قصة « مدام بوفاري » الحقيقية كما عرفها القضاء الفرنسي تختلف كليا عن الرواية الخيالية التي دبجها جوستاف فلوبير ، كما تختلف عنها في الواقع وفي الظروف ، فلئن انتهت قصة مدام بوفاري بالانتحار فان قصة مدام بوفاري الحقيقية انتهت بموت الزوج مسموما بالزرنيخ .

حكاية مدام لافارج

قصة مدام بوفاري الحقيقية هي قصة « مدام لافارج » . ففي اب (اغسطس) ١٨٣٩ تزوجت « ماري كابيل » من شارل لافارج . ولم تجد السعادة والطمأنينة في هذا الزواج .

وكان لتدخل والدة شارل (الحماة) دور في اذكاء نار التنافر والخصام بينهما . وفي ١٨ كانون اول سافر الزوج الى باريس لامور تتعلق باعماله هناك . واثناء وجوده في باريس تلقى هدية من الحلوى ما كاد يتناول بعضا منها حتى اصيب بالقيء والمغص الحاد . وفي الثالث من كانون الثاني لسنة ١٨٤٠ عاد الى بيته معتلا حيث لزم الفراش . واستدعى طبيب العائلة فشخص مرضه بانه التهاب في المعدة . وازدادت حالة المريض

سودا واخذ يشكو من الفئران والجرذان التي بقيت في البيت ـ وهو بيت قديم ـ واشترى زرنيخا من الصيدلية لقتلها وابادتها . وتشاء الصدف ان تكون الزوجة قد اشترت في العاشر من كانون الاول زرنيخا لابادة العث الذي كان يأكل ملابسها وكان ذلك قبل سفر زوجها الى باريس بثمانية ايام فقط .

ويبدو ان « الحماة » قد شاهدت الزرنيخ او عرفت ان الكنة قد اشترته من الصيدلية . وحيث انها كانت تعرف حقيقة العلاقات السيئة بين ابنها وزوجته ، فقد شكت في اسباب ودوافع شراء الزوجة للزرنيخ . وطلبت الى طبيب العائلة فحص الحليب الذي يقدم الى ولدها . وبالفعل قام الطبيب بتحليل عينة من هذا الحليب .

وقبل ان تظهر نتائج التحليل الطبي توفي الزوج في الرابع عشر من كانون الثاني . فقام اربعة اطباء بالكشف على المتوفى ، واصدروا قرارهم في الخامس عشر من كانون الثاني وثبتوا في التقرير ان سبب الوفاة هو « حامض الزرنيخ » .

هنا ، وبسعي الحماة التي كانت في ذروة حزنها وألمها على وفاة ولدها ، وفي ذروة الكراهية والحقد على كنتها ، وجهت التهمة الى الزوجة بتسميم زوجها وشراء الزرنيخ لهذه الغاية وقامت النيابة العامة بتفتيش البيت بحثا عن مادة الزرنيخ . وتشاء الظروف المحيطة بهذه الشكوى انْ تسوِّد سمعة الزوجة وتهيىء النفوس لادانتها سلفا . فاثناء التفتيش عثرت الشرطة على حلي مسروقة موجودة في حوزتها تعود الى الكونتيسة « دي ليوتو » ابنة عم مدام لا فارج . فاقتادتها الشرطة الى النيابة العامة حيث تقرر توقيفها بتهمة السرقة .

وعرف الناس باعتقال الزوجة وتوقيفها ، وانطلقت السنتهم بالحديث عليها وتلفيق القصص عن اعتقالها ولاكت الافواه سمعتها ، واصبحت مدانة سلفا من الرأي العام .

ونظرت محكمة البداية في جريمة او جنحة السرقة ـ سرقة جواهر وحلي الكونتيسة دي ليوتو وصدر الحكم بادانتها بهذه الجريمة والقي بها في السجن .

وبهذا الحكم اصبحت مدام لافارج من صاحبات السوابق . وهذا اثر في محاكمتها امام محكمة بداية « بريف » حيث كانت تساق من السجن الى المحكمة عند كل جلسة ثم تعود الى السجن .

وفي الثاني من ايلول بدأت محاكمة مدام لافارج بتهمة القتل العمد بدس مادة الزرنيخ السامة في طعام



زوجها مما ادى الى وفاته . وطلب محاميها اعادة اجراء تحليل العينة المأخوذة من الزوج المتوفى . وجاءت نتيجة التحليل الطبي مؤكدة عدم وجود مادة الزرنيخ في تلك العينة .

وكانت نتيجة المحاكمة الاولى قد اثرت على ذهن القاضي . فطلب اجراء تحليل طبي جديد . واستدعى البروفسور « اورفيلا » عميد كلية الطب في باريس ليجرى فحصا وتحليلا . وقد اجرى التحليل وقدم تقريرا تضمن ان جسد شارل لافارج يحتوى على مادة الزرنيخ . فاصدرت المحكمة قرارها بالسجن بالاشغال الشاقة المؤبدة على مدام لافارج .

لو كان الطب متقدما ؟

ولم تنته القصة عند هذا الحد . فبعد مرور عشر ساعات فقط على صدور الحكم على مدام لافارج جاء من باريس عالم آخر هو البروفسور « رسبيل » Raspail وذهب فورا الى المحكمة وقابل القاضي واطلعه على نتيجة تحليل اجراه تبين منه ان الزرنيخ الموجود في جسد لافارج قليل جدا ولا يمكن ان يؤدى لا الى التسمم ولا الى الوفاة . ولكن ما كان بمقدور القاضي ان يقبل هذا التقرير الطبي لان الحكم كان قد صدر وارتفعت يد القاضي عن الدعوى نتيجة لذلك .

وسيقت مدام لافارج الى السجن لتمضى العقوبة فيه مشيعة بازدراء وتشفٍ من الكثيرين . وكانت هي مقهورة تذرف الدموع ، دموع البراءة ولا تجد من يصدقها .

وفي القضية مسألتان يحسن ان تثارا : الاولى ان القاضي الذي اصدر الحكم الثاني كان متأثرا بالحكم الاول الذي صدر ضدها وادانها بسرقة حلي ابنة عمها الكونتيسة « دي ليوتو » . والثانية هي الخبرة التي قدمها الاطباء حول وجود الزرنيخ في جسد لافارج المتوفى . وهنا لا خيار امام المحكمة . وهي مضطرة الى الاخذ بالبينة الطبية الفنية .

ولابد من طرح هذا السؤال . من كان فحصه ادق واصوب : فحص البروفسور اورفيلا ـ وهو عالم جليل ـ الذي اثبت وجود الزرنيخ في جسد لافارج ، ام تقرير البروفسور رسبيل وهو عالم جليل ايضا ـ الذي اثبت ان الزرنيخ الموجود في جسد لافارج قليل جدا ولا يمكن ان يؤدي الى التسمم او الوفاة .

ترى لو كان العلم متطورا انذاك هل كانت مدام لافارج تحكم بالاشغال الشاقة المؤبدة ام بالبراءة ؟. ولو ان قصة مدام لافارج عرضت الآن على المحاكم ، هل ستكون نتيجة تحليل العينات في المختبرات الطبية مماثلة ام مغايرة ؟ وهل سيسلم شرف مدام لافارج وسمعتها من التجريح والازدراء والهوان ؟.

اسئلة لا نقوى على الاجابة عليها لان التطور العلمي في هذا المضمار لم يكن قد وصل الى درجة تخولنا باعطاء البراءة الى مدام لافارج .

ولكن هناك نقطة اثيرت منذ صدور ذلك القرار عن المحكمة وظلت تثار ، وهي ان الصراع بين العلماء بخصوص نتيجة التحليل الطبي لم ينته ، وظل التجادل والتصارع قائما حول صحة التحليل الطبي او خطئه وبينما كان هذا الصراع محتدما كانت مدام لافارج تعاني وحدها من الام السجن ورطوبته وظلمته دون شفيع او شقيق .

وظلت هناك شكوك وظلال تحوم في ان من المحتمل ان تكون المحكمة قد ضللتها الوقائع الماثلة امامها وان مدام لافارج قد ظلمت بهذا الحكم القاسي .

ولهذا اصدر الرئيس الامير قرارا بالعفو عن مدام لافارج عام ١٨٥٢ ، وأفرج عنها لتعود الى بيتها تتجرع مرارة العزلة والهجران والشماتة ، والمهانة ، او تعاني من اوصاب داء السل الذي ينهش صدرها والذي اصابها اثناء وجودها في السجن ، لم يمض اسبوعان على الافراج عنها حتى لفظت انفاسها الاخيرة متأثرة بمرضها .

ترى هل كانت « مدام بوفاري » القصة ـ التي هي مدام لافارج الحقيقية ـ بريئة ام مجرمة وهل كانت وفاة زوجها بفعل جرمي منها ام انها غريبة عن اجواء الجريمة كلها ؟ وهل الظروف هي التي ساعدت على احاطتها بالشكوك وبالتالي الاتهام فالادانة ، ام انها كانت فعلا خالقة لهذه الظروف فكان « ان جنت على نفسها براقش ! . »

لا نعرف جوابا دقيقا على هذه الاسئلة . وكل ما نقوله ان مدام لافارج عثر عليها في بيتها الخرب جثة هامدة وقد قضى عليها داء السل ، وعلى مقربة منها كانت هناك قصاصة من الورق مكتوب عليها بخط يدها المرتعشة العبارة الآتية : الزمن هو محامي الابرياء . ■■

عمان ـ المحامي سليم الصويص

فلسفة نملة

قيل : سأل سليمان الحكيم نملة كم تأكلين في السنة ؟

ـ فاجابت النملة .. ثلاث حبات ..

فاخذها .. ووضعها في علبة ووضع معها ثلاث حبات .. ومرت السنة .. ونظر سليمان عليها .. فوجدها قد اكلت حبة ونصف حبة .

فقال لها .. كيف ذلك ؟

فقالت .. عندما كنت حرة طليقة ، كنت اعلم ان الله لن ينساني .. اما بعد ان وضعتني في العلبة .. فقد خشيت ان تنساني .. فوفرت من اكلي للعام القادم .

نحن والإنتخابات

بريشة حبيب





قبل الإنتخابات — أثناء الإنتخابات — بعدها


ناخب
بعد ان اعطى صوته للمرشح


كرسى البرلمان


انتخبوا
فلان الفلانى
انتخبوا
فلان الفلانى
اقصر طريق الى قلب الناخب هو معدته

فتحي رضوان يروي :

قصة أول وزارة للثقافة في الوطن العربي

حوار أجراه : فؤاد دوارة

احد الثوار قبل ثورة يوليو ٥٢ ، وواحد من الذين مهدوا لها الطريق واضاءوا امامها المشاعل . شارك سنة ١٩٣٣ في تأسيس حزب « مصر الفتاة » ، وبعد الحرب العالمية الثانية أنشأ مع عدد من الشباب الوطني « الحزب الوطني الجديد » ، واصدر « اللواء الجديد » ، التي كانت احد المعاول الهامة التي اشتركت في تقويض النظام الفاسد ، وفضحه امام الشعب ...

وخلال ذلك اعتقل عدة مرات .. وقامت ثورة يوليو وهو في المعتقل فلم يمض عليها يومان الا وأفرجت الثورة عنه .. ولعله الوحيد الذي ابلغ وهو في المعتقل خبر تعيينه وزيرا في اول وزارة للثورة ، وعندما تولى وزارة الارشاد القومي التي انشئت حديثا لم يلبث ان نجح في تحويلها الى وزارة للثقافة ايضا فكانت اول وزارة للثقافة في الوطن العربي .

ذلك هو الاستاذ فتحي رضوان الذي احتفل به أصدقائه وتلاميذه ومريدوه في القاهرة منذ أسابيع ، بمناسبة بلوغه سن السبعين وهو بنفس الفكر الواضح ، والوطنية المتأججة .

بدانا الحوار منذ قيام ثورة يوليو . وسألته :

● نعلم انك خرجت من المعتقل بعد قيام الثورة بيومين .. فكيف تم ذلك ، وكيف اخترت وزيرا بعد ذلك بقليل ؟

ـ كانت اخر مرة اعتقلت فيها مساء يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ لا لقيام صلة بيني وبين حريق القاهرة المشهور في ذلك اليوم ، فمن حسن الحظ انه لم يوجه الى اى اتهام من هذا النوع . وانما كان اعتقالي بمناسبة اعلان الاحكام العرفية وامكان القبض على دون الحاجة الى توجيه اى تهمة الى .. وكان اسمي هو الاسم الاول في قائمة المعتقلين بناء على امر شفوى من رئيس الوزراء وقتئذ .

وحينما قامت الثورة يوم ٢٣ يوليو من العام نفسه كنت في معتقل «الهاكستيب» ، وسمعت بيانها الاول عن طريق الاذاعة .. ورغم ان كل ظروف البلاد كانت تنذر



بضرورة وقوع شيء خطير ، فقد فوجئت بما سمعت . وأن لم افهم ابعاد ما حدث بالضبط ، وجدتني اقفز من فراشي واوقظ زميلي المعتقلين معي في نفس الحجرة : المرحوم يوسف حلمي والاستاذ سعد كامل .. وبعد قليل كان الخبر قد شاع في المعتقل كله ..!

وفي ظهر يوم ٢٥ يوليو فوجئت بضابط المعتقل يدخل علينا وهو يكاد ينزلق من فرط سروره ، ويخاطبني بلقب « صاحب المعالي » ، وهو يخبرني بامر الافراج عني وان هناك طائرة خاصة معدة لنقلي الى مقر الوزارة ببولكلي برمل الاسكندرية !

امام مجلس الثورة

■ هل معنى ذلك الملك رشحك للوزارة بمجرد قيام الثورة ؟

ـ هذا ما علمته اخيرا من مذكرات الدكتور بهي الدين بركات (باشا) الذي كان عضوا في مجلس الوصاية على العرش الذي تكون بعد الثورة مباشرة ، وذكر فيها ان علي ماهر أبلغهم في مجلس الوصاية ان مجلس الثورة رشحني للوزارة وانه شخصيا غير راض عن هذا الترشيح .

وعندما وصلت الى مقر الوزارة التقيت بصديقي المرحوم سليمان حافظ ، وكان وكيلا لمجلس الدولة ومستشارا لرئيس الوزراء بحكم منصبه ، وفهمت منه ان رئيس الوزارة ـ علي ماهر ـ قد افرج عني لاحيا في ولا تنفيذا لاحكام مجلس الدولة ، بل ليطمئن هو نفسه بعد ان رأى قوات الجيش تزحف على الاسكندرية رغم انه قد حمل الى قادة الثورة موافقة الملك المبدئية على معظم مطالبهم فلما رأى سليمان حافظ اضطراب رئيس الوزراء علي ماهر ، نصحه بالافراج عني ، لاقوم بدور الوساطة

بينه وبين رجال الثورة ، لاني على صلة وثيقة بهم . وهذا غير صحيح فلم اكن اعرف منهم سوى انور السادات بسبب اتهامه في قضية قتل امين عثمان ، التي كنت اترافع عن ستة من المتهمين فيها ، فقابلته يومها وفهمت منه ما يجرى وابلغته لسليمان حافظ .

وتم عزل الملك على النحو المعروف وكنت اعتقد ان اختيار على ماهر رئيسا للوزارة كان كارثة أصابت الثورة في اول عهدها ، لان على ماهر كان ملكيا حتى النخاع ، وكان طول عمره في القصر يدبر المؤمرات السياسية ضد زملائه وخصومه في الوقت نفسه من رجال الاحزاب ، بوصفه رئيسا للديوان الملكي ومستشارا لفاروق .

ذهبت بعد ذلك الى المصيف لابعد عن هذا الجو الذى اعتبرته خانقا ، لاني لم اتصور ابدا ان تقوم ثورة فتعين احد كبار خصوم افكارها على رأس الحكم . وحينما عدت الى القاهرة قابلني احد ضباط الثورة وحدد لى موعدا مع المرحومين جمال سالم وعبد الحكيم عامر ، وكانت مقابلتي الاولى مع عبد الحكيم عامر بالغة التاثير عليه .. فما زلت اذكر صورته يستمع لحديثي وقد اعتمد رأسه بيديه واطرق الى الأرض ثم قال : لا استطيع ان انقل ما قلته بهذه الصورة الى زملائي في مجلس الثورة .. فهل لديك مانع في ان تأتي لتحدثهم كما حدثتني ؟

وفي ظهر اليوم التالي ٥ سبتمبر ١٩٥٢ كنت اتحدث الى مجلس الثورة مجتمعا ، وكان جمال عبد الناصر يجلس الى جواري ، فوكزني قائلا : الا تذكرني ؟ فلما اجبته بالنفي قال انا جمال عبد الناصر كنت في « مصر الفتاة » وكنت أنت استاذنا ورئيسنا !.

كان طلبي الوحيد في هذا اللقاء هو ضرورة ازالة وزارة على ماهر فورا . وقلت لهم ان بين اعضاء الوزارة اثنين معروفين بانهم من أسوأ الناس سمعة ، وانهم وصلوا الى مكانتهم السياسية عن طريق في مثل سوء سمعتهم .

ولم ينقض على هذا الحديث سوى بضع ساعات حتى كانت وزارة على ماهر قد اقيلت ، وكانوا قد سألوني عمن ارشحه ليخلف على ماهر ، فذكرت لهم سليمان حافظ ، لانه يجمع بين ثلاث صفات هامة ، اولها انه وطني منذ كان طالبا ، واشتغل في الحركة الوطنية بالمسدس وكاد يصل الى حبل المشنقة في قضية اغتيال « السردار المشهورة » ، وثانيها انه مارس الوظيفة الحكومية من ادني درجاتها حتى اعلاها ، وثالثها انه رجل قانون يتمتع بعقلية فذة لا نظير لها بين كل زملائه بما فيهم السنهوري .

ولكن لسوء الحظ تهيب سليمان حافظ المنصب ورشح اللواء نجيب رئيسا للوزارة ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت الأمور تأخذ اتجاها مختلفا ومنحرفا .

وزارة الدعاية »

■ وهل اشتركت في تلك الوزارة ؟

- نعم رشحت في البداية وزيرا للشئون الاجتماعية فلم يكن هناك وزارة ارشاد ولا اعلام ولا ثقافة ، ولكن حدثت اعتراضات كثيرة من السفارتين الامريكية والانجليزية والاحزاب السياسية ، وكادت تحدث ازمة كاملة ، لان وزارة الشئون كان فيها عنصر خطير جدا وهو العمال ، فلم تكن انشئت وزارة للعمل بعد . وللخروج من الازمة عينت وزيرا للدولة .

ولعل بعض اعضاء مجلس قيادة الثورة الذين لم يدخلوا الوزارة كان لهم دور في تلك الازمة إذ كانوا غير راغبين في ان يتولى المدنيون الوزارة ، وخاصة اذا كانوا من السياسيين ، اما اذا كان الوزير موظفا ، وكيل وزارة او سفيرا فان ذلك لا يثير غضبهم ، فقد لاحظت اني كلما رشحت للوزارة محاميا معروفا اعترضوا ، فاذا رشحت موظفا قبلوا .

■ ومتى انشئت وزارة الارشاد القومي ؟

- وانا احدثهم عن افكاري وتصوراتي لما يجب ان تكون عليه حكومة الثورة ، اقترحت ان تنشأ وزارة للدعاية ، وقلت انني امقت واحتقر كل محاولات الغرب (اعني امريكا وانجلترا) لتغطية الامور الواضحة بنقاب شفاف رقيق وتسمية وزارة الدعاية بوزارة الاستعلامات . وقد اقترحت في البداية ان تسميها باسمها الصريح « وزارة الدعاية » ، ثم عدت ووافقت على ان تسمية « الارشاد » قد تكون اخف ، خصوصا وأن الارشاد عنصر في تراثنا ، في القرآن والاحاديث . وقد ظللنا نردد جيلا بعد آخر ان مهمة المفكر والقائد هي الارشاد . فلما هدأت الامور وافقوا على ان اصبح وزيرا للارشاد القومي ، ولكنني نحيت عنها بعد اقل من شهرين وعدت وزير دولة مرة اخرى ، وعهد الى بالاشراف على الاذاعة ، فقضت الاذاعة معي اياما كانت تقوم خلالها بالدعاية للثورة بطريقة محترمة جدا ، مستمرة حقيقة ومركزة ، ولكنها خالية من الصراخ ومن الكلام السوقي وهجر القول .

■ وكيف كان تصورك لوزارة الارشاد القومي وقتها ؟

ـ نشأت وزارة الارشاد في ذهني وفي قرار انشائها ، على انها وزارة تبسط جناحيها على مجالي الدعاية والثقافة . ولا ازال اومن بضرورة قيام جهاز واحد ـ ولا يهم ماذا يسمى ـ يشرف على المجالين معا لكي لا يحدث بينهما التضارب الذي يعطل احد الجناحين او يعطلها معا . فالارشاد اى تنوير الناس واعطاؤهم البيانات الصحيحة ، وتذكيرهم بتاريخ بلدهم وبما يجب ان يكون عليه حاضرهم ومستقبلهم . هذا الدور قد يلغيه تماما وجود ثقافة منهارة ، وعلى العكس من ذلك ثقافة جيدة الى جوارها جهاز دعاية يبث ويخرج مئات المسرحيات والاغاني والاحاديث الهابطة المتحللة ، فبطبيعة الحال العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة وتكون النتيجة اننا نقع في براثن دعاية سوقية ، فجة صارخة غير موجهة ولا تسمح للانسان بان يتذوق الفن والادب والاشياء الجميلة في الحياة عن طريق اجهزة الاتصال الجماهيرية .

■ مادمت انت صاحب فكرة انشاء هذه الوزارة فلماذا تولاها غيرك قبل ان تؤول اليك سنة ١٩٥٦ ؟

ـ الواقع ان الصراع لم ينته بيني وبين خصومي وخصوم فكرة وزارة الارشاد . وكانوا داخل مجلس القيادة وخارجه ، فقد تصوروا ان قيام وزارة اذاعة ودعاية ونشر واتصال جماهيري مسأله مخيفة جدا ، وان من سيتولى هذه الاجهزة الجبارة سيكون قائد الثورة في الواقع وسينزعهم من مناصبهم ، خصوصا انه روج في الفترة الاولى لاشتراكي في الوزارة انني سرقت الثورة او وضعت يدي عليها ، لان اكبر عدد من الوزراء كانوا من اعضاء الحزب الوطني الذي أنتمي اليه ، وثانيا لان هذه الاجهزة جعلت اسمي وصورتي على كل لسان وتحت نظر كل الناس .

والاعتراض في حقيقته لم يكن موجها لشخصي بالذات بل لاى شخص آخر يتولى هذه الاجهزة ، لان ذلك سيجعله القدر على التأثير على الناس ، ومن ثم انتقل الاعتراض الى فكرة الوزارة نفسها حتى لا يتولاها احد ، فليكتف بان يكون على رأس الاذاعة موظف كبير لا يعرف اسمه ولا رسمه ويقتصر عمله على تنفيذ توجيهات كتابية ، واذاعة البيانات الخاصة بالثورة .

دور للفنان والمؤرخ

■ احب ان استوضحك الصلة بين الدعاية التي اقمت عليها فكرة الوزارة والثقافة باعتبارها كتابا ومسرحية ولوحة وفيلما ..

الدعاية في مرتبتها العليا ، وهي الدعاية المؤثرة الفعاله هي التي اطلق عليها محمد رسول الله هذا الاسم فكان يكتب للملوك والامراء يقول لهم : « ادعوك بدعاية الاسلام » ، كما هو وارد بالنص في كتبه الى مقوقس مصر وقيصر الروم وكسرى الفرس ، وتتكرر كلمة الدعاية ، في احاديث نبوية كثيرة . فالدعاية في اعلى مراتبها هي عرض ونشر الفكرة الفلسفية للنظام ثم تبسيطها وتبسيطها ، الى ان تصل الى مرحلة الزجل والحوار والنكتة .. فالنكتة والفكاهة السخرية جزء من الدعاية الصحيحة ، والقرآن الكريم سخر من خصومه من الكفار ...

ولكي اعمل دعاية جيدة يجب ان تكون جميع اجهزة الثقافة في خدمتي لا بمعنى ان اسخرها او اخضعها ، بل بمعنى ان أنتفع بمنتجاتها . فاتكلم عن مصر ـ مثلا ـ باللوحة والكتاب الجيد والمحاضرة المقنعة لاني اذا اقمت دعايتي على اساس « مصر العزيزة لي وطن وهي الحمي وهي السكن » فلن يسمعني احد . فانا محتاج للفنان ليرسم لي لوحة ، وللمؤرخ ليكتب لي صفحة وللاديب ليصوغ هذه الصفحة بلغة جيدة .. وهكذا وما لم يكن هؤلاء ، هم اجهزة ومعامل الدعاية في الداخل وفي الخارج ، فلن تكون دعاية بل عجنا بلا طحن وصراخا بلا نفع .

عبد الناصر والثقافة

● لكنك عدت الى الوزارة ، بعد ضم بعض الاجهزة اليها وتسميتها وزارة الثقافة والارشاد القومي ..

ـ أحب ان اقول ان وزارة الارشاد ولدت وهي غير مرغوب فيها من جميع السلطات . بعض الوزراء كانوا يستكثرون على وزيرها ان تكون تحت يده اجهزة الدعاية المختلفة ، وآخرون كانوا يخافون ان يتولاها رجل مثلي متهم باشياء كثيرة ، تارة شيوعي وتارة فوضوي وتارة وراء جميع قضايا الاغتيالات السياسية وهكذا ابعدت عنها وتولى وزارة الارشاد بعدى محمد فؤاد جلال جلال ثم صلاح سالم .

وذات يوم عام ١٩٥٦ استدعاني جمال عبد الناصر الى بيته وقال لي بطريقته الوقورة :

ـ اريد ان اقول لك شيئا هاما . هل تعرف انني الان وزير الارشاد ولا احد يعرف ذلك ؟

ولقد وجدتها وزارة لذيذة جدا ! لكن انا مش فاضي

لها فاما أن تتولاها انت وإما أن الغيها .

ثم وجدته يحدث نفسه مما يدل على انه يردد كلاما سمعه : « يعني هو انت حتشتغل لحساب حكومة اسرائيل ؟ » كانوا قد خوفوه مني واني سآكل الثورة ، واني بارع في ابراز نفسي ، وهذا غير صحيح . ولذلك فقد حاولت ان ارفض رغم هيامي بالوزارة ، واستعدادي لتوليها دون مرتب وقلت له ذلك . ولكنه أصر وتعهد بمساندتي ودعمي فقبلت .

■ وكيف وجدت الوزارة حين عدت اليها ؟

وجدتها في حالة غريبة جدا . كانت مكونة من وكيل وزارة واحد ووظيفة فنية واحدة في اسفل السلم الوظيفي في الدرجة السادسة ، وما بينهما فراغ لا يوجد فيه شيء ، فكانت بذلك اشبه ما تكون بهيكل عظمي يتكون من جمجمة وقدمين وليس هناك ما يصل بينهما !

كانت مهمتي ان انشيء وزارة من العدم ، وان استعين على ذلك بأكبر الرؤوس الموجودة في مصر في مجالات الادب والفنون وكنت أجمع كبار المثقفين من مناطق مضحكة . يحيي حقي مثلا كان مدير ادارة التجارة الداخلية بوزارة التجارة والصناعة ، ونجيب محفوظ كان موظفا في مؤسسة القرض الحسن بوزارة الاوقاف ، وعلي احمد باكثير كان مدرس لغة انجليزية بوزارة المعارف ... وهكذا .

■ وما الاجهزة والهيئات التي كانت تابعة لوزارة الارشاد القومي ؟

ـ وجدتهـا كما تركتهـا مكونـة من : مصلحـة الاستعلامات ، والجامعة الشعبية والسياحة ، والاذاعة ، بالاضافة الى الديوان العام . وكنت في غاية السعادة بهذا القدر من النشاط لانه كبير جدا لو احسن توظيفه ، تكفي الاذاعة ، تكفي مصلحة الفنون التي أنشأناها بعد ذلك .

ذات يوم حدث تصادم خفيف مع عبد الناصر فقلت له : ياسيدى انا لا اريد مصالح ! تكفيني مصلحة الفنون بل تكفيني مصلحة للاغاني ! ، فانا اعتقد انها مؤثرة جدا وتدخل كل بيت ، وتدور على الالسنة في المدارس وفي المصالح وفي كل مكان .. فالمسألة ليست بسط نفوذ على مصالح ، وانما منطق . جميع الاجهزة الثقافية ليست معي ، فقال : كمال الدين حسين لا يريد اعطاءك مصلحة الاثار خوفا من ان تفسدها ، فقلت له : هل انت راض عن وزارة المعارف ؟ .. فليدعني أفسد فيها كافساده ، نتعاون في الافساد ! .....

■ هنا يظهر سؤال هام لفهم القضية التي نناقشها ، وهو حول مفهوم عبد الناصر للثقافة وعلاقته للفنون ؟

ـ لم ار انسانا ممن حكموا مصر ممن عرفتهم ، وجالستهم ، كاسماعيل صدقي ، واحمد ماهر ، والنقراشي والسنهوري .. عشق الثقافة وهام بها مثله . كان يحب الفيلم والكتاب . مرة اهديت لاعضاء مجلس الوزراء كتابا اصدرته الوزارة ضمن مختارات الاذاعة ، وكنا نبيعها بخمسة قروش فابدى عبد الناصر سروره ، واذا باحد الوزراء غير الراضين عن وزارة الارشاد يقول :

ـ هوه حد بيقرا .. ده فتحي عمال ينفخ في قربة مقطوعة ...

فرد عليه عبد الناصر قائلا :

ـ لو قرأ هذا الكتاب قارىء واحد فقط لكان ذلك مكسبا . واريد ان اطمئن الاخ فتحي الى ان هذا الواحد موجود .. انا سأقرا الكتاب .

وكان الكتاب على ما اذكر هو « تاليران » الذى ترجمه محمد بدران ، فجاء عبد الناصر في الجلسة التالية وقال :

ـ من منكم قرأ كتاب وزارة الارشاد ؟ أما انت يا فتحي سهرتني للصبح تصور « تاليران » ده شخصية مهمة وانا ما اعرفش عنها كل ده ؟ مين بقى اللي بيقول ما حدش بيقرأ ؟!.

■ هذا عن علاقته الشخصية بالثقافة ، وانما أقصد فهمه لدورها في حياة الناس ؟

ـ كان شديد الاهتمام بها ، وهو الذى حماني طوال عملي في وزارة الارشاد . فهي وزارة متعبة وشائكة ومن يتولاها يدخل في صراعات منذ اللحظة الاولى .

عندما استمع الى نهرو

■ كيف اذن نفسر ما حدث من تضارب وتداخل في الاختصاصات .. فمثلا مع وجود وزارة ثقافة انشيء مجلس اعلى للفنون والاداب .. والاذاعة ومصلحة الاستعلامات رغم تبعيتها للوزارة فقد كان لها قدر من الاستقلال الذاتي ، وكان مديراها يتصلان بالرئيس مباشرة ، وكان ذلك مصدر قلق لك فيما سمعت ؟

ـ طبعا . تفسير ذلك بسيط جدا . كانت الثقافة معشوقته ، ولكنه رجل مشغول جدا فالسياسة شيء

والمثاليات شيء آخر . وما في قلبه شيء، والجذب اليومي للاحداث والضغوط الشخصية شيء آخر . ولذلك كان كثيرا ما يقبل اشياء تخالف ما في قلبه فقد كان يحب ان يقرا ويسمع ويشتري الكتب الجديدة . وحينما احدثه في موضوع جاد يعطيني كل سمعه ومرة قال وسط عدد من الوزراء وكبار المسئولين :

ـ انا قلت لهم ان احمد حسين كان يزعق لكن فتحي رضوان كان يجلس في حجرة صغيرة وحوله خمسة او ستة ، كنت احرص على ان اكون بينهم ، وان كان هو لا يذكرني ، يلخص لنا كتابا او يحكي لنا تاريخ شخصية وطنية ، ولغاية الان مازلنا بحاجة لهذه الجلسات فليتنا نجد الوقت لها .

وفي مرة اخرى سألني عبد الناصر : هل دعوك للذهاب الى القناطر ؟ فلما اجبته بالنفي ثار . وقال: كيف ؟ « ان نهرو » ذاهب الى هناك فلماذا لم يدعوك ؟ ...... أمال مين اللي يروح ؟ .. انت مش الفت كتاب عنه ؟ فقلت له : لا انا ألفت عن غاندى ... فقال : نهرو ، وغاندي ، مش مهم ، المهم تروح ... فذهبت لاستمع الى محاضرة نهرو التي قال عنها عبد الناصر فيما بعد انها هي التي حولته الى الاشتراكية .

■ وماذا تحقق من احلامك بالنسبة للثقافة في الفترة التي توليت فيها الوزارة ؟

ـ تحقق من احلامي الكثير جدا ، ومع ذلك خرجت وفي فمي مرارة لان هناك اشياء اخرى كثيرة كنت اتمنى تحقيقها . واهم ما تحقق من احلامي هو قيام الجهازين اللذين كانا كاليتيمين في مأدبة اللئام . جهاز للدعاية ، بالاضافة الى جهاز للثقافة . وسيبقى ذلك علامتين هامتين في خريطة الحياة المصرية ، وسيبقى تأثيرهما مهما ازيلت الاسماء، وتغيرت فقد اصبحت الثقافة مرفقا اساسيا وخطيرا يجب ان يهتم به اهتماما مخالفا لطبيعة الاهتمام بالتعليم .

■ هذا صحيح ولكنني كنت اتمنى لو ذكرنا بعض المنجزات المحددة التي تحققت للثقافة خلال توليك الوزارة .

ـ تم انشاء اجهزة ثقافية عديدة حققت منجزات كثيرة ، مصلحة الفنون مثلا يكفيها فقط ان فكرة الاهتمام بالفنون الشعبية التي سادت مصر والعالم العربي قد نبعت منها ، وليس هذا شيئا قليلا . كان البعض يتصور ان عمل الثقافة هو التهريج فاذا بهم يفاجأون بقيام معاهد علمية كمعهد السينما والباليه ....

عروس المولد

وكان الاستاذ يحيى حقي قد حضر الجزء الأخير من الحديث ، ومن المعروف انه شغل منصب مدير مصلحة الفنون طوال فترة تولي فتحي رضوان وزارة الارشاد فيما بين عامي ١٩٥٦ و١٩٥٨ ، فلم يكن غريبا ان يدلي بدلوه في الحديث محاولا استكمال الصورة فقال :

ـ كان عملنا يقوم على اساس الدراسة العلمية . مثلا لدينا سينما ومسرح وموسيقى . فألفنا ثلاث لجان فورا لبحث مشكلات هذه الفنون والنهوض بها واستعنا فيها بخبراء من خارج الوزارة ، وبعد ان نوقشت هذه المسائل بالتفصيل نشرنا كتابا يضم خلاصة المناقشات والحلول التي اقترحتها اللجان وقد انهى الاستاذ فتحي رضوان الفوضى نتيجة للخلط بين السياسة والفنون في مصلحة الاستعلامات فأنشأ مصلحة تستقل بالفنون .

وبدأ بعد ذلك التفكير في اقامة فنوننا على اسس علمية فاخذنا ندرس انشاء معهد للسينما وآخر للباليه مع تطوير معهد المسرح ، واقامة مسرح للعرائس ، واوركسترا القاهرة السيمفوني . وكان فتحي رضوان يقول . لن ننتظر حتى تنشأ هذه المعاهد ويتخرج طلابها ، بل يجب ان نرى ما بين ايدينا ونقدم به خير ما نستطيع . فاذا اشتكى بعض السينمائيين من قلة العمل كلفناهم بعمل افلام تسجيلية . فانتجت مصلحة الفنون عددا من الافلام التسجيلية الجميلة مثل : المثال مختار ، وحديقة الحيوان ، وغيرهما .. في المسرح وجدنا الفرقة القومية تتنازعها التيارات نتيجة لتولي احد الممثلين ادارتها فاحضرنا لها مديرا من الخارج ، وهو احمد حمروش .

ووقعنا اتفاقية تبادل ثقافي مع الصين ، وجاءت فرقة رقص شعبي ممتازة ، فماذا نفعل نحن ؟ .. هل نعتذر عن ارسال فرقة مماثلة ؟ حاولنا ان نبحث فيما لدينا ونختار افضله . فنشأت فرقة يالبل ياعين » ومنها تفرعت ، كما تعرف كل فرق الرقص الشعبي في مصر وفي العالم العربي .

مطبوعات الحكومة لا يعرف الناس من اين يشترونها فيفتتح فتحي رضوان مكتبة لبيعها ، ومكتبة اخرى لبيع كتب وزارة الثقافة .

كذلك تحويل مجلة « الاذاعة » من كتالوج « برامج واعلانات » الى مجلة ثقافية وهي التي تدخل كل بيت ثم انشاء مجلة (المجلة) و« البرنامج الثاني » في الاذاعة ..

وارسال البعثات للدراسة الفنية في الخارج ، سعد اردش وكرم مطاوع وفاروق الدمرداش وغيرهم .

ومن الامثلة الطريفة على عملنا « عروسة المولد » . قال الاستاذ فتحي انها ظاهرة فنية في حياة الشعب فلماذا لانهتم بها ونطورها . فعملنا جائزة لافضل عروسة مولد ، وكنت رئيس لجنة الفحص ، وقمت بزيارة مصانع الحلوى التي تنتجها فاتضح ان لديها قوالب خشبية شبه موحدة يصبون فيها العرائس . المهم كان هناك تفكير في الارتقاء بكل هذه الانشطة ... وفي الاراجوز والسيرك وغيرها .. وكنت انا في مصلحة الفنون منفذا لافكار فتحي رضوان لا اكثر ولا اقل ..

من اجل الحرية

■ وعاد فتحي رضوان الى استئناف حديثه :

ـ الواقع اني انسى حينما اعدد عملنا ، فلم يكن في حسابي عمل احصائيات . انما بالاضافة الى ما ذكره الاستاذ يحيى حقي اضيف اني انشأت مجلة علمية للاذاعيين اسمها « الوعي الاذاعي » ونـاديا للاذاعيين وضعت فيه مكتبة .. عملنا معارض ومسابقات للتصوير الفوتغرافي . ندوة الفيلم المختار ، تطوير المسرح الشعبي وكانت حالته رثة فزودناه بالمسرحيات والمخرجين ، ووضعنا على رأسه على احمد باكثير .

واشياء اخرى كثيرة قد يكون كل منها صغيرا ، ولكنها في مجموعها تمثل شيئا هاما ، اذكر لك مثلا لا على الانجاز او التحول الثقافي وانما لاوضح لك كيف كنا نغزل برجل حمار ، ذات يوم وانا داخل وزارة الثقافة بقصر عابدين ، لاحظت على يساري قاعة طويلة وفسيحة جدا فاستفسرت عنها ، فوجدتها مقرا لمبيت جنديين من حرس الوزارة . وكنت قد اكتشفت في احدى البنايات شقة تابعة للوزارة مكدسة بالكتب التي يرسلها الناشرون لدار الكتب تنفيذا لقانون الايداع فتلقى هناك دون حصر او فهرسة ولا ينتفع بها احد . وكنت قد وجدت قبل ذلك في حديقة قصر عابدين اكداسا من الخشب الجيد من ايام الملك ، فاحضرت نجار الوزارة وطلبت منه تحويلها الى ارفف وضعناها في قاعة الحرس ، واحضرنا الكتب الملقاة في تلك البناية . واشترينا آلة تجليد « نصف عمر » من وكالة البلح ، حيث تباع الاشياء القديمة والمستهلكة . وانتدبنا موظفين من دار الكتب لفهرسة الكتب وتصنيفها ووضعها على الرفوف ، فتكونت مكتبة مفتوحة وحديثه ، افاد منها القراء والباحثون ، باقل تكلفة ممكنة ، او دون تكلفة .

ما اريد ان اقوله أن هذه اللقمة الثقافية كانت كبيرة جد اولا يمكن ان تنتظر منها آثارا سريعة الا بعد ان تبتلع وتهضم . وكان كل عمل من هذه الاعمال عبارة عن معركة نخوضها بلا مبرر .

ومضى يقول : هل تتصور ان « فرانز ليتشاور » منشىء اوركسترا القاهرة السيمفوني » اتهمت بسببه بارتكاب الخيانة العظمى .فقد قدم بلاغ يقول انه قائد الاوركسترا الوحيد الذى قبل ان يعزف سيمفونية « اسرائيل » المستوحاة من التوراه وانه يهودى ، ولم يكونوا يعلمون اننا اخترناه عن طريق وزارتي الخارجية والداخلية ، وكتبنا اليهما لاختيار قائد اوركسترا تتوافر فيه مواصفات معينة حددها د . حسين فوزي وكيل الوزارة وقتئذ ، باعتباره متخصصا في الموسيقى . فارسلت وزارة الخارجية بهذه المواصفات الى وزارة الثقافة النمساوية التي رشحت « ليتشاور » قائلة انهم يطلقون عليه في النمسا ـ بلد الموسيقى ـ اسم « منشىء الاوركسترات » وجاءت تحريات الداخلية عنه لتثبت انه مسيحي كاثوليكي وكذلك زوجته .

ـ ما اهم ماتمنيت ان تحققه في وزارة الثقافة ، ولم تستطع تحقيقه ؟

ـ تمنيت الاتوجد هذه الاجهزة فقط وانما تحقق رسالتها في كل ارجاء البلاد ، فتنقل المسرح الى بنها وطنطا وكل مصر ، والا تكتفي بوجود مكتبات في عواصم المحافظات بل اقيم فيها مهرجانات للكتاب يشارك فيها كبار الادباء والمثقفين ويحضرها التلاميذ والمعلمون ، واقدم فيها الكتب مجانا للناس ، والقى محاضرات تعرف بها ، وتنشىء كل قرية فرقة مسرحية ازودها بالمخرج والنص والديكور .. وهكذا .. فوزارة الثقافة لاينبغي ان تنتظر ان يأتي الناس اليها بل يجب ان تذهب هي اليهم .

ـ ما رأيك في خطوات ادماج وزارة الثقافة في وزارت اخرى او استبدالها بمجلس للفنون مثلا ؟

إنني أعارض هذا الاتجاه حتى لو وضعنا في اعتبارنا بعض الأخطاء الجسيمة غير انني لست منزعجا ان أصبحت الثقافة قضية عامة تشغل عامة الناس وخاصتهم ... وما قاله فولتير عن الحرية من انك سواء عملت معها ام ضدها فانت تعمل من اجلها ينطبق ـ في رأيي ـ على الثقافة ، فكل ما تعمله معها او ضدها فهو في نهاية الامر من اجلها . ■■

القاهرة ـ فؤاد دوارة

مواطنون .. لا ذميّون

بقلم : فهمي هويدي

هل يعد أهل الذمة مواطنين في المجتمع الاسلامي ؟

قد تبدو فكرة طرح السؤال غريبة لاول وهلة . لكنه وارد على أي حال حتى في كتب الفقهاء والباحثين المعاصرين . لكن الأغرب منه أن بين هؤلاء الباحثين من يجيب على سؤال بالسلب . اي انهم يعتبرونهم على احسن الفروض مواطنين من الدرجة الثانية !

ولم يكن الامر ليستحق اهتماما كبيرا لو ان ما كتب في هذا الصدد كان مقصورا على الكتب الصادرة في الغرب ، اذ أن تشويه الاسلام تاريخا وعقيدة وشريعة هو القاعدة في تلك الكتب . من ذلك على سبيل المثال ما كتبته تحت كلمة « الذمة » دائرة المعارف الاسلامية التي صدرت باللغات الالمانية والانجليزية والفرنسية ، وترجمت للعربية . وفيها كتب د . ب . ماكدونالد أن اهل الذمة « لا يعدون مواطنين في الدولة الاسلامية » جـ ٩ ص ٣٩١ .

اقول ، لو ان الامر ظل مقصورا على ذلك . لما استحق اهتماما يذكر . لكن ما اثار اهتمامي بشكل جاد ، هو ما كتبه باحث له وزنه مثل الدكتور مجيد خدوري رئيس معهد دراسات الشرق الاوسط في جامعة جونز هوبكنز بواشنطن ، في كتابه الهام « الحرب والسلم في شرعة الاسلام » . اذ ذكر في صفحة ٢٣٧ ما نصه « الا ان الذمي لا يستحق المواطنة الكاملة ، لان الذمي مع كونه مؤمنا بالله . الا انه لا يعترف بمحمد رسولا له ، ولذلك كان ناقص الايمان لا يستحق ان يكون عضوا خالصا في الاخوة الاسلامية » يطلق الدكتور خدوري هذا الحكم الخطير ، دون ان يذكر سندا شرعيا واحدا يعزز به وجهة نظره !

واغلب الظن أنه استخلص فكرة عدم استحقاق الذمي للمواطنة الكاملة من اشارة الماوردي الى رأي الشافعية في الجزية ، وانها تعد من وجهة نظرهم مقابلا رمزيا « لأجرة سكنى الدار » (الاحكام السلطانية ص ـ ٢٤٣) وترجيح هذا المصدر يرجع الى ان هذا الرأي انفرد به الشافعية دون غيرهم ، وان الدكتور خدوري رجع الى كتاب الماوردي ٢٥ مرة في مؤلفه .

واذا كان اطلاق الحكم بغير دليل شرعي يعد ثغرة لا يستهان بها فيا كتبه الدكتور خدوري الا أن اعتماده على رأي واحد في الفقه الاسلامي ـ اذا صح ـ يعد ثغرة ايضا ، تكاد تخرج البحث عن الموضوعية والتأصيل العلمي المفترضين في باحث مثله له قيمته ومعرفته !

بعد ذلك ، نجد الموضوع ذاته مطروحا للبحث في كتاب آخر للدكتور عبد الكريم زيدان استاذ الشريعة بجامعة بغداد . ففي مؤلفه الهام ، احكام الذميين والمستأمنين ، يسأل الدكتور زيدان : هل يتمتع الذمي بالجنسية الاسلامية (ص ٦٣) .

وفي رده على السؤال يقول : المسلمون في الأصل هم أهل دار الاسلام ، ولكن قد يسكن معهم

الذميون والمستأمنون . لان الاسلام لا يمنع المسلمين من مخالطة غير المسلمين ، ولا يمنع هؤلاء من الاقامة في دار الاسلام » .

ورغم أنه ينحاز الى فكرة ان الذمي يعد من اهل دار الاسلام ، معارضا ما قال به آخرون* من ان الذميين لا يتمتعون بالجنسية الاسلامية ، الا أنه مع ذلك يقول بأن الذمي يحصل على جنسية دار الاسلام بالاكتساب ، كنتيجة لعقد الذمة ، اذا كان هناك عقد صريح . « اما في غير هذه الحالة ، اي بالنسبة لمن يدخل في الذمة عن طريق القرائن الدالة على رضاه .. فان اساس الجنسية هو ارادة الدولة الاسلامية نفسها . فهي التي تمنح الذمة ـ الجنسية ـ لغير المسلم ، في هذه الحالات ، بمحض ارادتها وتقديرها وفقا لقواعد الشريعة ، وما تقتضيه مصلحة الدولة » (ص ـ ٦٦) .

وهنا يستوقفنا ايضا ، ما ذهب اليه العلامة ابو الاعلى المودودي ، الفقيه الباكستاني الكبير في الكتاب الصادر له في العربية بعنوان « نظرية الاسلام وهديه » . فهو يقول في صفحة (٣٠١) ما نصه : وقد القى الاسلام على كواهل السكان المسلمين تبعة حمل نظامه كله . فانهم هم الذين يسلمون بحقانية هذا النظام . فهو ينفذ فيهم قانونه كله ، ويلزمهم الامتثال لجميع احكامه الدينية والخلقية والمدنية والسياسية ، ويفرض عليهم القيام بجميع واجباته وفرائضه ويطالبهم بكل نوع من التضحية في الدفاع عن دولته . ثم يخولهم وحدهم الحق في أن ينتخبوا أولي الأمر لهذه الدولة ويشتركوا في البرلمان ـ مجلس الشورى ـ وأن توسد اليهم مناصبها الرئيسية لتسير سياسة هذه الدولة الفكرية وفقا لمبادئها الاساسية .

والحق أن الأستاذ المودودي لا يضع تحفظا على حقوق اهل الذمة في الدولة الاسلامية الا في حدود ما نسميه الان حقوقا سياسية . وهو يصوغ وجهة نظره (ص ٣٥٩) على الوجه التالي : لان رئيس الحكومة في الاسلام وظيفته أن يدير أمر الدولة وفق مبادىء الاسلام . ولان مجلس الشورى لا عمل له الا ان يساعد الرئيس على تنفيذ هذا النظام المبدئي . لذلك فان الذين لا يؤمنون بمبادىء الاسلام لا يحق لهم ان يتولوا رئاسة الحكومة ، او عضوية مجلس الشورى بأنفسهم . كما لا يصح لهم ان يشتركوا في انتخاب الرجال لهذه المناصب كالناخبين . ويجوز ـ لاشك ـ ان يمنح هؤلاء حقوق العضوية والتصويت في المجالس البلدية والمحلية ، لان هذه المجالس لا تتناول المسائل المتعلقة بنظام الحياة ، وانما تكون وظيفتها تدبير الامور لتحقيق الضرورات المحلية .

لكن فقيهنا الكبير يضيف قائلا انه : يجوز أن يؤلف للطوائف غير المسلمة مجلس نيابي مستقل حتى يتمكنوا بواسطته من قضاء حاجاتهم الاجتماعية ، ومن عرض وجهة نظرهم في شئون الدولة الادارية. وهذا المجلس ستكون عضويته وحق التصويت فيه خالصة لغير المسلمين (ص ٣٦٠) .

●

ان اكثر ما نلاحظه على هذه الاراء عدة امور : الأمر الاول : انها تتعامل مع أهل الذمة باعتبارهم كيانا منفصلا عن مجتمع المسلمين ، وتكاد تضعهم في مربع واحد مع الاجانب المستأمنين . على أساس أن الفريقين من ملة واحدة ، فريق منهم خضع لحكم الدولة الاسلامية ، وفريق بقي خارجها واعطى الامان .

وتلك نظرية متأثرة بعنصرين :

ـ الخلفية التاريخية لعقد الذمة ، وكونه اتفاقا بين قبائل وافراد ذوي مصالح متناثرة وكيانات منفصلة . الامر الذي لم يعد له محل بعد نشوء الدولة ، التي اصبح الجميع في ذمتها ، وباتت تظلل هذه

---

* احمد طه السنوسي في كتابه : فكرة الجنسية في التشريع الاسلامي المقارن ص ٢٤ ـ ٥٧ ـ ٦٣ .

المصالح المتنافرة والكيانات المنفصلة وتربطها برباط الوطن الواحد ، ونظامه الاجتماعي والقانوني الواحد .

ـ معيار قسمة الناس على اساس أديانهم ، واعتبار مواطني الدولة الاسلامية هم المسلمين دون غيرهم ، او قبل غيرهم . واعتبار مسئولية النظام امانة في عنق المسلمين وحدهم . الامر الذي يلغي قيمة « الوطن » الذي يظل ملكا للجميع ، سواء الذين يدافعون فيه عن العقيدة ، او الذين يدافعون فيه عن التراب .

● الامر الثاني : ان من الذين يطرحون هذه التصورات يخاطبون ـ ايضا ـ عالما غير عالمنا . يكتبون كلامهم لنقرأه نحن في النصف الثاني من القرن العشرين ، وأعينهم ، وفكرهم ، على دولة الاسلام الكبرى في العصرين الأموي والعباسي الأول . لا يخاطبون المسلمين الموزعين على حوالي ٤٠ بلدا على الاقل ، وانما يوجهون الخطاب الى دولة واحدة تمتد حدودها من تخوم الصين الى الاندلس .

وعلى سبيل المثال ، فان الاستاذ المودودي يقسم رعايا الدولة الاسلامية من غير المسلمين الى ثلاثة اصناف ، يعددها في صفحة ٣٣٥ من كتابه ، كما يلي :

ـ اولها ، الذين يدخلون في كنف الدولة الاسلامية بعقد صلح او معاهدة .

ـ والثاني ، المغلوبون بعد الهزيمة في الحرب ، اي الذين فتحت بلادهم عنوة .

ـ والثالث ، الذين ينضمون الى الدولة الاسلامية بطريق غير طريق الصلح والحرب .

وليس لي الا أن اسأل بعد ذلك : أين هؤلاء في خريطة الواقع الاسلامي الذي نخاطبه الآن ؟!

● الامر الثالث : أن الذين قالوا بأن غير المسلم يعتبر مواطنا من الدرجة الثانية في المجتمع الاسلامي ، لم يورد أحدهم نصا شرعيا يستند اليه في دعواه . واذا افترضنا ان البعض استخلص تلك النتيجة من قول الشافعية أن أهل الذمة يدفعون الجزية كمقابل لاجرة سكنى الدار ، فان هذا الرأي ينبغي ان يعد مجرد اجتهاد فقهي ، وليس نصا شرعيا بأي حال .

الاستاذ المودودي وحده هو الذي أتى بنص قرآني ليدلل على رأيه في موضوع المواطنة ، وهو الآية الكريمة (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، اولئك بعضهم اولياء بعض . والذين آمنوا ولم يهاجروا ، ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا) ـ الانفال : ٧٢ .

ويستخرج من الآية انها « تبين أساسين للمواطنة : الايمان وسكنى دار الاسلام او الانتقال اليها (صفحة ٣٠٦) .

وليس معروفا بالضبط الأساس الذي استند اليه فقيهنا ليستخرج هذه النتيجة من الآية الكريمة . لان تفاسير القرآن تتفق على أنها نزلت داعية الى توثيق الروابط بين المهاجرين والأنصار ، بحيث يصبح كل منهم احق بالاخر من كل احد ـ كما يقول ابن كثير ـ الامر الذي حدا بالرسول لان يؤاخي فيما بين كل اثنين منها ، فكانوا يتوارثون ارثا مقدما على القرابه ، حتى نسخ الله ذلك بالمواريث .

ويضيف الشيخ رشيد رضا صاحب المنار أن الآية تدعو ـ فوق التآخي ـ الى ان يكون متولي امور المهاجرين والانصار ، من بينهم وليس من خارجهم .

أي أن الدليل الوحيد من النص الذي اورده الاستاذ المودودي ليثبت التفرقة في الحقوق السياسية بين المسلمين وغير المسلمين ، تعوزه الدقة ، ولا يقود بالضرورة الى النتيجة التي ساقه من اجلها .

وعلى النقيض مما رأينا ، فانه بقدر ما يفتقد دعاة التشكيك في المواطنة الكاملة لغير المسلم في المجتمع الاسلامي الدليل ، فان الدعوة الى التأكيد على تثبيت المواطنة الكاملة لغير المسلم . تجد العديد من النصوص والشواهد التي تدعمها ..

فآيات تكريم الانسان تقف في صف هذه الدعوة على طول الخط .

وحث القرآن المسلمين على البر بالذين لم يقاتلوهم في الدين ولم يظلموهم تقف في الاتجاه ذاته .

وكلمات الرسول عليه الصلاة والسلام ، والتي تستنكر وتتبرأ من اي مسلم « آذى ذميا » او ظلمه او « انتقصه » دليل ثالث .

ودليلنا الرابع هو ما نصت عليه « الصحيفة » ، اول دستور للدولة الاسلامية ، التي حدد فيها الرسول (ص) بالاتفاق مع « الآخرين » ، الاساس الذي تقوم عليه العلاقة بين المسلمين وغيرهم في مجتمع المدينة . فبعد تأكيد الصحيفة على ان الجميع ، المسلمين وغيرهم ، « امة واحدة » ، قالت ما نصه :

« وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .... وان بينهم النصر على ما حارب اهل هذه الصحيفة . وان بينهم النصح والنصيحة دون اثم .. »

« فأهل الكتاب بنص هذه الصحيفة ، كانت لهم حقوق المواطنة الكاملة يمارسون عبادتهم بكل حريتهم . ويناصحون المسلمين ، ويتناصرون في حماية المدينة .. ويتعاونون ، كل في موقعه ، على حمل أعباء ذلك » *

ثم ماذا تعني كلمات الامام علي بن ابي طالب وكل فقهاء المسلمين من أولهم الى آخرهم ان دماءهم كدمائنا ، وان لهم مالنا وعليهم ما علينا .. ماذا تعنى هذه الكلمات اذا اسفرت في النهاية عن انتقاص من حقوق غير المسلم ، حتى ولو كانت حقوقا سياسية فقط .

وبعد هذا وذاك ، أليس غريبا أن يجيز الفقهاء أن يخوض المسلمون الحرب دفاعا عن « اهل ذمتهم » ، ثم يحجب البعض عن هؤلاء حق التصويت في انتخابات مجلس الشورى مثلا ؟؟

وقد يقال في هذا المقام ان الالتزام بالعهد هو الاساس الذي يستند اليه الفقهاء في تبرير خوض الحرب دفاعا عمن هم في ذمة المسلمين ، وهذا حق ، ولكنه ليس الحق الوحيد . لان ذلك العهد هو التزام بين بشر وبشر ، يسبقه عهد آخر بين المسلمين وبين الله سبحانه وتعالى ان تكون رسالتهم هي تحقيق « القسط » في الارض ، بكل ما يمكن تحميله لهذه الكلمة من معاني العدل الاجتماعي والعدل السياسي .

ان الدفاع عن كرامة الانسان هو واجب اساسي للمجتمع الاسلامي . واي انتقاص من هذه الكرامة على اي وجه هو مساس بقيمة ارساها الاسلام ونص عليها مرتبطة بهذا المخلوق الذي استخلفه الله في الارض . فضلا عن أن ذلك يعد مساسا « بالبر » الذي حث الله المسلمين على ان يعتبروه « القاعدة » في التعامل مع الاخرين .

ان عقد الذمة ، الذي بدأ التزاما وأمانة ، قد انتهى ـ بفعل الممارسات الرديئة والمنافية لروح الاسلام الى الانتقاص والمهانة . الأمر الذي يدعونا الى التساؤل عما اذا كان هناك مجال الآن للحديث عن هذا العقد . بل التساؤل عما اذا كان هناك مبرر لاستمرار استخدام تعبير اهل الذمة او الذميين ؟؟

---

* د . عبد العزيز كامل ـ مع الرسول والمجتمع ـ ص ٢٥ .

ان عقد الذمة لم يعد قضية مطروحة ، ليس فقط في زماننا هذا ، بل منذ زمن بعيد ، فمنذ ان صار للاسلام دولة اختفت صيغة التعامل مع رعايا هذه الدولة من غير المسلمين ، على اساس عقود الامان والحماية (ربما استنادا على ان ثمة عهودا سابقة حددت حقوق والتزامات غير المسلمين) ولم تعد قضية الامان والحماية قائمة الا في اطار البلاد التي يدخلها المسلمون بالفتح ، وهي التي تحدث عنها استاذنا المودودي .

اما تعبير أهل الذمة ، فلا نرى وجها للالتزام به ، ازاء متغيرات حدثت وحملته بغير ما قصد به في البداية ، واذا كان التعبير قد استخدم في الاحاديث النبوية ، فان استخدامه كان من قبيل الوصف وليس التعريف ـ كما سبق وقلنا ـ فضلا عن انه كان بمثابة استخدام للغة ومفردات وصياغات سادت في جزيرة العرب قبل الاسلام .

« ويبقى مع ذلك ان هذا الوصف « تاريخيا » لا يشترط الاصرار عليه دائما ، وبخاصة اذا كان استعماله يؤدي الى بعض الشبهة ، والتخوف ، ولو لم يكن لذلك اساس منطقي . الامر الذي يدعونا الى ضرورة الاتفاق على صيغة اخرى معدلة لحقوق غير المسلمين في الدولة الاسلامية ، وهو ما يلح عليه الواقع المعاصر للحركات الاسلامية في مختلف البلاد * »

ان هناك مصلحة اكيدة في ضم تعبير « اهل الذمة » الى قائمة الاوصاف التاريخية التي اطلقت على غير المسلمين في الازمنة السابقة ، واستبعاده من قاموس البحث في مشكلات المجتمع الاسلامي المعاصر .

واذا كنا نعترف بتأثير متغيرات الزمان والمكان على الاحكام الشرعية ، فليس أقل من أن نعترف بتأثير تلك المتغيرات على الافكار والصياغات السائدة في مجتمعات المسلمين .

ان اعتبار غير المسلمين في المجتمع الاسلامي « مواطنين » من الدرجة الاولى ، لن يضيف جديدا الى الواقع الراهن ، بعد أن سبق هذا الواقع جهد الباحثين في تقريره لتلك الحقيقة . بينما اكثرهم لم يستطع ان ينقل عينيه عن الماضي ، ليرى خريطة الحاضر ومتغيراته .

ان غير المسلمين صاروا شركاء أصليين في أوطان المسلمين ، ولم تعد علاقاتهم بالمسلمين قائمة على اجارة قبيلة لقبيلة اخرى ، او خضوعا من قبيلة لقبيلة أخرى . الأمر الذي ينبغي أن نسقط معه على الفور ومهما كانت المبررات أي تصنيف لهم في مربع الأجانب والغرباء .

واذا كان الشافعية قد ذهبوا الى ان « الجزية » ـ ولنا فيها حديث آخر ـ هي مقابل رمزي « لأجرة سكنى الدار » ، واذا كان الماوردي قد ذكر انها مقابل المقام في دار الاسلام ، فان تلك مقولات ينبغي أن تحمل أيضا باعتبارها اجتهادا تم في مرحلة تاريخية انقضت وطويت صفحتها .

ان ديار المسلمين ينبغي أن تظل ملكا للمسلمين وغير المسلمين ، بغير تسلط ولا أفضلية من أحد على أحد ، لانه لا فضل لانسان على انسان الا بتقواه وعمله الصالح .

واذا كان ذلك هو معيار التفاضل بين الناس امام الله سبحانه وتعالى ، فما بالكم بمعيار يتفاضل فيه الناس فيما بينهم ؟ .

وللمناقشة بقية في العدد القادم باذن الله . ■■

---

* د . محمد فتحي عثمان ـ من بحث « مراجعة الاحكام الفقهيه الخاصة بغير المسلمين » .



حرية الرأي

بقلم : الدكتور زكى مبارك

كنت قلت : ان الناس فى عصور الظلمات كانوا يجهرون بآراء لا نستطيع روايتها فى هذا الجيل ، فهل يكون معنى ذلك أن القدماء كانوا أشجع ؟ وهل يكون معناه أنهم كانوا أبصر بمذاهب النفوس ، وأقدر على تصريف الآراء ؟

الواقع أن أرباب الفكر فى هذا العصر أكثر تغلغلا الى الدقائق ، وأعرف بشئون المجتمع ، وأهدى الى أسرار المشكلات والمعضلات ، بفضل ما أتيح لهم من وسائل الفهم والادراك .

فكيف يتفق أن يكون المحصول الفكرى فى هذا الجيل أقل من أمثاله فيما سلف من الأجيال ؟ أو كيف جاز أن يمر محصولنا الفكرى بدون ضجيج يوقظ غافيات العقول ؟

يرجع السبب فيما أرجح الى ظاهرتين تتصل أولاهما بالقارئ، وتتصل الثانية بالكاتب ، وفى تفصيل ذلك أقول :

كان القراء قديما من الخواص ، أو خواص الخواص ، بسبب شيوع الأمية ، وبسبب غلاء المؤلفات ، وندرتها فى بعض الأحايين ، فقد قضى ابن خلدون عمره وهو يتشوق الى الاطلاع على جزء من كتاب الأغانى ، ولعله قد مات قبل أن يظفر بما يريد ، وحدثنا صاحب « الطراز » أنه عجز كل العجز عن الوصول الى مؤلفات عبد القاهر الجرجانى فى البلاغة ، على أنه كان على جانب من الغنى والجاه ، وعلى اتصال بجماعة من الأمراء فى مختلف الحواضر الاسلامية [1] وعرفنا فيما قرأنا أن بعض الباحثين كان يقصد مناسك الحج لينادى علنا فى عرفات عن رغبته فى اقتناء كتاب لم يستطع الوصول اليه برغم ما بذل فى سبيله من عناء .

هذا يؤكد أن القراء قديما كانوا من الخواص ، أو خواص الخواص ، وذلك هو السر فى عدم تهيب المفكرين من اعلان ما يجول بصدورهم من آراء وأهواء ، فقد كان المفكر يحادث قراءه كما يحادث أصفياءه ، لثقته بأنهم فئة ممتازة تفهم عنه ما يريد بلا تزيد ولا تحريف ، وذلك أيضا هو السر فى أن تعابير القدماء تغلب عليها الصراحة ، ويسود فيها الصدق ، وقد تتوسم بالعرى فى بعض الأحيان .

ولا كذلك القراء فى هذا العصر ، فهم يعدون بالألوف وألوف الألوف ، فمن العسير أن يكونوا جميعا من الخواص وربما جاز القول بأن جمهرتهم من العوام ، أو عوام الخواص ، وهذه الحال تفرض على المفكر أن يحتاط فى عرض ما يجول بصدره من آراء وأهواء ، وذلك هو السبب فى أن تعابير أهل العصر تعوزها الصراحة ، ويقل فيها الصدق ، ولا تخرج سافرة أو عارية ، كبعض تعابير القدماء ، وانما تخرج ملفوفة فى أثواب من الرمز والايماء والتلميح ، ان لم يحملها الاسراف فى حب السلامة على التدثر بأثواب من المداهنة والمصانعة والرياء .

فان رأيتم جماعة من المفكرين يدورون حول أغراضهم فى تردد وتهيب واشفاق فاعرفوا أنهم يصانعون قراءهم « الألباء » ، واذكروا أنهم لا يملكون من حرية التعبير غير أطياف ، وان قيل وقيل بأنهم يعيشون فى القرن العشرين !

وهل كان التفاوت بين طبقات القراء هو كل ما يعوق الفكر فى هذا الجيل ؟

هنا يجيء القول بالفرق بين حال الكاتب فى هذا العصر وحال الكاتب فى العصور الماضية .

فالكاتب قديما كان فى أغلب أحواله رجلا قليل التأثر بضجيج المجتمع ، لأن آراءه لم تكن تصل الا الى جمهور ضئيل يعد افراده بالعشرات أو بالمئات ، ولأنه لم يكن يفكر الا قليلا فى التطلع الى المناصب التى تفتقر الى ثقة المجتمع . فأكثر المفكرين القدماء لم يكونوا رجال سياسة ولا رجال أعمال ، فقد كان فيهم جماعات يعيشون فى عزلة رهبانية ولا يهمهم غير التعبير عن أغراضهم بحرية وصراحة وجلاء ، ولم يتعرض منهم للأذى والقتل غير من طاب لهم أن يواجهوا مشكلات السياسة أو معضلات الدين .

أما الكاتب فى هذه الأيام فله حال وأحوال .

هو أولا رجل يخاطب الألوف وألوف الألوف ، وفيهم أذكياء وأغبياء وأعداء وأصدقاء ، وهو عن مراعاة أهوائهم مسئول .

وهو ثانيا رجل يهمه أن يتمتع بحقوقه المدنية ، وقد يتسامى الى كبار المناصب ، وذلك يوجب الحرص على مسألة المجتمع فى أكثر الشئون .

الكاتب فى هذه الأيام يعرف جيداً أنه يعيش تحت رقابة عنيفة من الدولة ومن المجتمع ، وهو مقهور على مراعاة تلك الرقابة مادام يتطلع الى بعض المناصب العالية ، وهى مناصب لا تمنحها الدولة الا لمن يرضى عنهم المجتمع ، وهنا يكون الخطر على حرية الفكر والرأى ، ويكون الجحود لما وهب الله الناس من قلوب وعقول .

(*) العدد ٤٦٤ مجلة الرسالة فى يونيه سنة ١٩٤١

(١) كان صاحب الطراز يلقب بأمير المؤمنين .

الآن يخاطب الفنان الشعبي عالما آخر الحي والقرية

فولكلور «الكاسيت»

بقلم : نمر سرحان

ان الانقلاب الذى أحدثه « الكاسيت » يطرق الآن بقوة وعنف عالم الفولكلور فى الشكل والمضمون .. والجمهور

لقد كان الفنان الشعبى فى الماضى يخاطب جمهورا محدودا . وقد ينحصر هذا الجمهور ضمن حدود قرية الفنان الشعبى . وفى احسن الاحوال فان ذلك الجمهور لا يتعدى منطقة جغرافية تشكل جزءا صغيرا من القطر . ولهذا الجزء ملامح ثقافية متشابهة . واذا ضربنا مثلا بشاعر شعبى فلسطينى ذائع الصيت مثل « الحطينى » قلنا ان جمهور هذا الشاعر يكاد يقتصر على سكان الجليل . وكان من النادر ان يتجاوز جمهور الشاعر الشعبى حدود القطر . فالشاعر الشعبى المشهور « نمر بن عدوان » كان معروفا فى الاردن وفى فلسطين على حد سواء . وكان سر اتساع جمهور هذا الشاعر هو انه وصل الى الناس من خلال الدواوين التى عممتها المطابع . وكان هناك فى الخليل شاعر اعمى اسمه « كاشور » وكان هذا الشاعر ينتقل ليتكسب بشعره فى مضافات الخليل والكرك على حد سواء . وفيما عدا ذلك ظل الفنان الشعبى يراوح مكانه : عبر قريته ومجموع القرى المحيطة بقريته . لكن الحال اختلف الان بعد عصر « الكاسيت » اذ اتسع جمهور الفنان الشعبى بصورة يصعب تحديدها ، واصبح بامكان الفنان الشعبى ان يخاطب الآن جمهورا متذوقا خارج حدود الوطن ، بل وفى كل مكان من المعمورة . فهذا الفنان الشعبى محارب ذيب يسمع عبر اشرطة الكاسيت فى الامريكتين وكل المناق التى يوجد فيها فلسطينيون وعرب .

وهناك من الفنانين الشعبيين الذين لم يرهم جمهورهم على الاطلاق ، وربما لن يراهم فى المستقبل ، ونحن الان فى الاردن نسمع اغنيات شعبية لمجموعة « اصوات » فى الكويت والتى تحمل نتاج فنانين شعبيين نعرفهم معرفة جيدة ونتابع ملامحهم وفنونهم دون ان نراهم بالمرة ، ومثلهم اولئك الفنانين الشعبيين القابعين وراء اسوار الاحتلال فى الناصرة والمثلث والنقب والذين يستحيل عليهم ـ فى ظل ظروف الاحتلال الحالية ـ الانتقال الى الارض العربية ، ومع ذلك ـ وبواسطة « الكاسيت » تراهم يصلون الى المستمع العربى بكل سهولة .

لقد اتاح الكاسيت فرصة للناس الذين لا يتابعون الفنان الشعبى بالمواجهة ، بسبب ظروفهم ، ان يطلعوا على فن شعبى عربى قادم من جهات بعيدة من خلال الكاسيت ودون اى عناء . وتتزايد هذه الايام فرص الاستماع للفنان الشعبى ومواجهته عبر كاسيت الفيديو



(التلفزيوني) ، وسيكون من الممكن مشاهدة فنان شعبي من الناصرة او الكويت وهو يؤدي مادة شعبية في اي مكان مهما كان بعيدا . وبذلك سيصبح وصول الفنان الشعبي الى جمهوره وصولا كاملا بالصوت والصورة التي تحمل الحركة والايماءة وتفاصيل الزي الشعبي وادق الملامح . ويتم هذا الوصول الى جمهور في غاية الاتساع ولم يسبق ان حلم بذلك فنان شعبي كان صوته محصورا ضمن قريته او مجموعة القرى المحيطة بهذه القرية في احسن الاحوال .

ان الكاست الآن يعمل على ايصال نماذج شتى من الابداع الشعبي لتذوق الفن الشعبي وحتى للمستمع العادي بسهولة ويسر . فهناك الان فلكلور الرياضة ، وفلكلور المرضى وفلكلور السجناء وفولكلور المقاتلين وفولكلور البدائيين ، وكل هذه الاشكال تصل الى اي مستمع لم يكن يحلم في الماضي ان تصل اليه مثل هذه التفرعات والدقائق التي كانت مجرد مواد في ارشيفات المتخصصين .

ان تلك القفزة الهائلة في التوجه العام من جانب الفنان الشعبي . لجمهور كبير الاتساع لا شك سيؤدي الى تغييرات اساسية على مادة واسلوب وقوالب الابداع الشعبي . ذلك لان ما كان يناسب مجموعة صغيرة من الناس هو شيء بحاجة الى تطوير وتعديل ليناسب اذواق جمهور غاية في الضخامة .

معالم القفزة الهائلة

ان الفنان الشعبي الذي يخاطب الجماهير الان من خلال الكاست يعرف جيدا انه يخاطب الشعب باكمله بدلا من تلك الحالة التي كان يخاطب فيها جمهورا صغيرا على ساحة البيادر في القرية . ومعروف ان الفنان الشعبي هو لسان جمهوره والمعبر عن رغباته وأمانيه . ان الفنان الشعبي يعرف جيدا الان انه يفرز فنا يستقطب اهتمام جماهير عريضة ، ولذلك فان « فولكلور الكاست » يفرض على الفنان الشعبي تلك النقلة من الموضوعات الصغيرة المحلية الى الموضوعات الجماهيرية التي تستقطب اهتمامات مجموع الشعب . لقد كنا نسمع في الماضي نصوصا من الشعر الشعبي تتحدث عن اشياء صغيرة غاية في البساطة والتفاهة مثل تلك القصيدة التي رويت عن « الزايدة » والذي تحدث فيها عن « طوشة » في حي شعبي سببها ان واحدا من الجيران ضرب دجاجة فقتلها . واذا اخذنا هذه المسألة من وجهة نظر سكان قرية لا يزيد عدد سكانها عن خمسمائة نسمة ـ وهي القرية التي وقعت فيها الحادثة ـ لرأينا أن ما حدث هو امر يستحق فعلا اهتمام جمهور شعبي فهناك امرأة فقدت دجاجتها واستبد بها الغضب والذي سرعان ما انتقل ليصبح الفتيل الذي يفجر الطوشة في تلك القرية الصغيرة . ومن هنا وجد الفنان الشعبي في تلك الحادثة مادة لقصيدة طويلة تحدث من خلالها باسلوب

تهكمى عن انشغال القرية فى مثل ذلك الحدث :

بدى احدى لكوع اهل الحوش
ما بطبخوش الا زعكور
يا حلالى يا مالى
فيهم وحده عريظة
هذيك مرت ابو عاشور
يا حلالى يا مالى
اما هذيك خظرة العبسى
بتشى العسكر والطابور
يا حلالى يا مالى
هذيك حدة الخليل
اطنانتر سن الها مكسور
يا حلالى يا مالى
هذاك العبد لعبادى
بعده صفر من الصقور
يا حلالى يا مالى
بنده بصوته ع البنات
خلين الفنجان يدور
يا حلالى يا مالى

وكما نرى فان هذا النص يتوجه نحو مجتمع محلى صغير ويتحدث عنه بتنهى البساطة والعفوية ، وهو يعرض لنا شخصيات هذا المجتمع الفقير الذى يعيش على طبخ اوراق نباتات برية اسمها « الزعكور » . ويتحدث النص عن نساء الحوش ، فواحدة سمينة ، واخرى سقطت اسنانها ، وثالثة ذات قدرة على التحكم بالاخرين . وفى هذا المجتمع البسيط الهادئ، تقع حادثة تفجر الخلافات الكامنة بين الناس اذ ياتى رجل فيقتل دجاجة « خظرة العبسى » ، تلك المرأة ذات الشخصية الطاغية ، فتاخذ هذه بالصراخ والعويل وتحريض الرجال لتحصل طوشة عمومية .

ولا بأس من مقارنة هذا الابداع الشعبى التقليدى بفولكلور الكاست الذى يمثل وصية يبعث بها مقاتل فلسطينى من داخل سجون الاحتلال فى قصيدة الى زوجته :

عندى وصية الك يا ام لعيال
لا تهملى تربابة الاطفال
دربيهم ع الثبات وع النضال
إياك يمشوا على دروب الانحلال
بدى تحليهم باخلاق الرجال
وتخلقى منهم للوطن ابطال
وبنفوسهم تزرعى بغض الاحتلال

ان الموضوع الذى تطرقه هذه القصيدة هو موضوع جماهيرى واسع يحظى باهتمامات قطاعات عريضة من الناس ينتمى اليها الاف المعتقلين فى سجون الاحتلال ، وهو موضوع موجه للام التى يطالبها الشاعر بان تصلب موقف الصغار ازاء المحتلين وتزرع فى نفوسهم بغض الاحتلال . وهكذا تحتم طبيعة فولكلور الكاسيت على الفنان الشعبى ـ فى اطار الوضع الشعبى العام ـ ان يخاطب اعرض الجماهير متحدثا عن ابرز هموم واهتمامات الناس فى حياتها اليومية وفى معاناتها من اجل لقمة العيش ومن اجل التصدى لمشاكلها الوطنية .

اساليب التعبير

وفى الوقت الذى تتراجع فيه الانماط الشعبية القولية ، بفعل تراجع الاساليب التقليدية فى التوجه الى عامة الناس ، فان نمطا جديدا من التوجه الى الجماهير الشعبية يتخذ الآن من شريط الكاسيت وسيلة للوصول الى اوسع الجماهير ، سواء ما كان من هذه الجماهير مهتما بالنتاج الذى يفرزه الذهن الشعبى او ما كان منها يبحث عن كل طريف وجديد ومثير للاهتمام . وفضلا عن ذلك فان التقدم الحضارى المتمثل بظهور وسائل معيشية جديدة ووسائل انتاج الية قد ادى الى تغيير كامل فى الذهنية الشعبية . ولم تعد الزراعة هى وسيلة العيش الوحيدة ، كما ان الاساليب الزراعية لم تعد هى تلك الاساليب التى كانت سائدة فى الماضى . لقد اختفى « لوح الدراس » و « الحصان » و « المذراه » ولذلك لم نعد نسمع اغنية مثل :

يا مذراتى
وين بنياتى
بالعرماتى
بالله البركة
بركة ربى
بركة حيدر
فى هالبيدر

ان الوسائل الجديدة فى حصاد القمح وجمع الغلة قد طردت من الذاكرة الشعبية مفردات لغوية وتعابير لم تعد دارجة فى الاستعمال فاختفت كلمات مثل مذراة وعرمة . لكن اختفاء مثل هذه التعابير لم يكن مؤشرا على انقراض المأثورات الشعبية كما يظن دارسو الفولكلور فى الخمسينات والستينات من هذا القرن . لقد استمرت الفئات الشعبية تعبر عن وجدانها الجمعى بطرق

استعارت بعضا من الاساليب العصرية التى تستعملها الفئات البرجوازية . وما استعمالها لشريط الكاسيت بصورة واسعة الا واحد من مظاهر تطور الوسائل الشعبية في التعبير عما يكنه الوجدان الجمعي الشعبي . وبالاضافة لضرورة تغير اساليب التعبير بسبب تغير وسائل المعيشة واساليب الانتاج ، فهناك الواقع الاجتماعي الجديد . ان المخيم الفلسطيني المعاصر يضم الان سكانا ينتمون الى عشرات القرى والمدن الفلسطينية ، وهكذا فان اسلوب التعبير الذي سيستخدمه الكاسيت سيكون اسلوبا مختلفا عن انماط التفكير الشعبي السالفة .

ان الجمهور الذي يتوجه اليه الفنان الشعبي الآن من خلال الكاسيت هو جمهور من « الوسط الشعبي » بكل تاكيد . لكن هذا الجمهور يختلف تماما عن جمهور الخمسينات والاربعينات . لقد كان جمهور الخمسينات يتالف في غالبيته من الفلاحين والعمال الاميين واشباه الاميين . لكن الجمهور المعاصر ، هو جمهور ينهل المعرفة باستمرار من المدرسة ، الجامعة ، الصحف ، الكتب ، الاذاعة ، التلفزيون ، البيانات الرسمية ، .. الخ وهكذا فان هذا الجمهور على صلة بلهجة محلية متطورة تنهل من اللغة الفصحى وهي لهجة تتحسن باستمرار وتكتسب مصطلحات علمية جديدة ، ومفردات اجتماعية وسياسية تدخل الى بيت كل فرد من افراد الجمهور مع دخول الاذاعتين المسموعة والمرئية الى كل بيت تقريبا .. ولذلك فان مفردات فولكلور الكاسيت لا بد ان تحمل بصمات هذا التحول الهائل والتقدم الكبير في معرفة الناس في الوسط الشعبي . يقول الفنان الشعبي راجح السلفيتي :

الاذاعة بشرتنا واسلاك البرق
بنصرة اخواننا في بلاد الشرق
فرحتهم من فرحتنا وفزعتنا حق
للي يحمل رايتنا في ايا دار

وفي فولكلور الكاسيت الفلسطيني المعاصر تشيع عشرات المفردات التي تحمل اسماء القرى المحتلة واسماء الشهداء ، ومصطلحات جديدة مثل : تحرير ، سلطة وطنية ، مقاتل ، كامب ديفد ، صمود ، شهيد ، يوم الارض ، قضية ، محتل ، احتلال ... الخ . ان بيتا واحدا من أبيات العتابا يحمل اسماء خمسة من الشهداء :

غير من الله ما بنخاف
عشنا برام الله اشراف
ومنا : منتهى وعطاف

ودلال ، وليلى ، ولينا

كما ان قصيدة واحدة تحمل اسم : « يا طلت خيلنا » ومصدرها شريط كاسيت قادم من الناصرة في الجليل ، قد ضمت اسماء تسعة عشر موقعا وقرية ومدينة ومخيما فلسطينيا . ويعكس ذلك الاحساس العام بان العدو يعمل على تقليص الوجود العربي ويمعن في الاستيطان ، فالفنان الشعبي يذكر بكل الفخر تلك القرى والمواقع ، ويتحدث عن الخيل التي تطل من بين ظهرانيها ، وهو بذلك يرمز للقوة ويوحي بفكرة بث الصمود في المحيط العربي الذي يعمل العدو على تقليصه وتطويقه . ونحن هنا نخلص الى الاستنتاج بان اسلوب التعبير متصل بالظروف الموضوعية التي يمر بها الناس . ان الفنان الشعبي الذي يعتبر نفسه لسان جمهوره وواعظه ، والمعبر عن آلامه وامانيه وعن همومه واهتماماته يطور طرائق التعبير لتخدم الوضع المتفجر الذي يعيشه جمهوره . لقد تخلى الفنان الشعبي عن الاغنية المتشوقة للارض والاغنية الحزينة التي تعزف على احزان الناس وانتقل الى الاغنية المقاتلة التي تصور مرحلة الياس اليومي مع قوات الاحتلال وارهابها ووسائل قمعها . وهذه هي اعلى درجات الاستغلال الوظيفي للفلكلور حيث تقوم الاغنية الشعبية من خلال « فولكلور الكاسيت » بدق طبول الحرب في مواجهة الاحتلال .

المبتدع واحداث الوطن الكبرى

هناك تجربة عالمية واضحة المعالم في مجال الانتقال من الفن الشعبي للمجتمعات البدائية الى فلكلور الكاسيت ، بمعنى أن الانتقال الانساني في ظل عصر التكنولوجيا حمل معه سمات المرحلة التالية ، تلك السمات التي ـ وان ابقت على الفن الشعبي ـ فانها تركت بصماتها عليه ـ . ان مؤشرات على اتجاه كهذا كانت قد بدأت في اوربا واليابان والولايات المتحدة ، بصفتها بلدانا صناعية متقدمة مرت بتجربة التقدم التكنولوجي واثر ذلك على الابداع الشعبي . لقد ظلت تلك المجتمعات الصناعية المعقدة تفرز اشكالا شتى من الابداع الشعبي ، وعلى رأسها الاغاني الشعبية ، وظلت هذه الاشكال الابداعية تصل الى المستمع من خلال الاذاعات المحلية ، الاسطوانات ، واخيرا الكاسيت . لقد نشر المؤلف الشعبي الامريكي « جون جرين ري » كتابه الذي سماه : اغاني الاحتجاج . والمؤلف مغن وجامع اغان شعبية . وفي ذلك الكتاب نشر المؤلف ٢٦٦ اغنية جمعها من كل مكان في امريكا من افواه الناس

من الارشيفات القديمة . وقد تحدثت الكثير من تلك الاغاني عن الصراع بين الطبقات في الولايات المتحدة بعد حرب الاستقلال الامريكية وبضمنها اغان للعمال والزنوج وعمال المناجم والفلاحين .

ان الاحداث الكبرى على مستوى الوطن وازدياد حدة الصراع وكذلك التقدم التكنولوجي .. كل ذلك لا يلغي دور الفنان الشعبية في افراز ابداع حقيقي . ويظل هناك دور للمبتدع الشعبي ليعبر عن ثقافة الفئات الشعبية بالرغم من ضجيج الالة والتكنولوجيا . وتستغل الطاقات الشعبية الامكانات التكنولوجية التي تبتكرها الفئات الاكثر تقدما في المجتمع . وعبر هذه الوسائل تعبر اساليب التعبير الفني لدى الفئات الشعبية .

وعلى صعيد الفولكلور الفلسطيني كانت الاذاعة هي التي اخذت بيد المبتدع الشعبي لتساعده في اسماع صوته الذي ارتفع فوق هدير المدافع وضجيج عصر التكنولوجيا . وظهر « الحادي » الفلسطيني وسمع الناس صوته عبر الاذاعة دون ان يروه .

قال الحادي وغنى بيوت . بيوت غناها الحادي
سدوا المدرب منين افوت . افوت وامدد بزيادة
فوق التل وتحت التل . وبين الوادي والوادي
من تسال عني تندل . وتلقاني وتلقى اولادي

لكن هذا الحادي الذي نتحدث عنه هو نسخة متطورة من الفنان الشعبي التقليدي الذي كان يغني للجماهير على بيادر القرية وذلك لان هذا الحادي يعرف جيدا انه يخاطب جمهوره عبر الميكروفون والكاسيت ولذلك فهو يتوجه بحديثه لعامة الناس من خلال التوسل بالموضوعات التي تهم الغالبية . ويقوم هذا المبتدع الشعبي باداء دوره كمحرض من خلال الالتزام برأي جهات تعتبر نفسها في قمة الوعي الشعبي . ولذلك نجد هذا المبتدع الشعبي يضمن ابياته موضوعات ايديولوجية وشعارات . وفي كثير من الحالات يتخذ المبتدع في فولكلور الكاست شكل « المجموعة » التي تردد عبارات قوية ذات جرس موسيقي ومضمون قوي .

ان المبتدع في فلكلور الكاسيت سواء كان فردا او مجموعة يظل شخصا من خارج المجموعة الشعبية ينطق باسمها . اذا ما قورن بالفنان الشعبي الذي يعرفه اهله وذووه في القرية . ان المبتدع المعاصر يظل مشدودا بخيوط قوية للشخصيات او الجهات الاكثر وعيا في المجتمع . ان هذه الجهات تفرض على المبتدع الالتزام الحرفي بقضايا الجماهير . ولم تكن هذه الحالة بعيدة عن الفنان الشعبي التقليدي الذي كان يغني على بيادر القرية . فان ذلك الفنان لم يكن بعيدا عن مثل ذلك الالتزام بالناس . لقد كان ذلك الفنان يقول ما يعجب الجماعة لانه يمثل صوتها ويعبر عن امالها واهدافها . وهنا يكمن السر في ان « فولكلور الكاست » الذي يصلنا عبر الميكروفون والكاسيت يحمل خصائص ابسط واقدم الفاظ المأثورات الشعبية .

القوالب اللحنية

ان التطور الهائل الذي رافق حركة الابداع الشعبي . وطغيان فولكلور الكاسيت على الاساليب التقليدية يجعل من الضرورة بمكان تحديد هوية القالب اللحني الشعبي بما يسمح باستيعاب قوالب لحنية جديدة لم تكن في الماضي جزءا من المأثور الشعبي .

ان اغنية شعبية اصيلة يمكن ان تتراجع لتتحول الى مجرد نص شعبي تاريخي لم يعد الشعب في الوقت الحاضر ليستسيغه اذا سمعه كما لم يعد يتداوله بالمرة . ومن الامثلة على ذلك الحان « العقيل » و« الجعبدية » التي يتحدث عنها الرواة او نجدها مدونة في مراجع القرن التاسع عشر . ومن ناحية اخرى فان اغنية دارجة من الممكن ان تستمر في التداول لتصبح مع الزمن اغنية شعبية بكل ما في الكلمة من معنى . مثل اغنية « دار الحرب دار » والنسخ التي انبثقت عنها .

وهكذا فان هناك حركة باتجاهين : الاتجاه الاول هو دخول اغان غير فولكلورية الى عالم الفولكلور . وبالتالي دخول اساليب لحنية جديدة وقوالب لحنية لم تكن معروفة بانها من القوالب الشعبية . وبالطبع ومع ازدياد التقدم الحضاري توظف الات موسيقية جديدة لمصاحبة الغناء في قوالب لحنية شعبية .

والاتجاه الثاني هو خروج قوالب لحنية شعبية من عالم التداول الشعبي بسبب عدم اكتراث الجماهير الشعبية بها . وتتحول لذلك الى مجرد قوالب لحنية تاريخية .تماما مثل تلك القوالب اللحنية التي توارت عن التداول الشعبي منذ زمن بعيد .

ويجوز للباحث المتخصص ان يتوصل للاستنتاج بان الخط العام للقالب اللحني الشعبي يظل واضحا مهما اعتوره من تغييرات . وان ما يمكن ان يعتبره البعض تجديدا او دخولا جديدا للحن شعبي جديد الى عالم اللحن الشعبي التقليدي هو مجرد تغيير شكلي في الجملة اللحنية او الزخرفة اللحنية ولناخذ على ذلك مثالين :

الاول ان اغاني « بالليل يا عيني بالليل » التي تملأ الحياة الشعبية المعاصرة التي يمكن اعتبارها من مواليد السبعينات ما هي الا مجرد ترداد لحني لاغاني « علا يا ديني علا » التي ولدت في اواخر الاربعينات ورحلت من حوران الى الاردن ثم إلى فلسطين . وهذا القالب اللحني الشعبي ما هو الا علامة مميزة . انه ليس مجرد تعديل او اضافة للحن سبقه ، ولا نجد في مراجع القرن التاسع عشر اي اشارة لهذا اللحن الشعبي ، اذا لم يورده دالمان ، ساريز الواو شبير . لكن الذي حصل هو ان هذا القالب نفسه يتخذ اشكالا جديدة . ان عبارة « علا يا ديني علا » لا تكاد تعني شيئا ، في حين يفيض الشكل الجديد من خلال ايحاءات « باالليل يا عيني بالليل » بالكثير من المعاني . وفي كلا الحالتين يظل الخط العام للحن واحدا .

الثاني : ان اغاني الحداء تضم في ثناياها العديد من الاشكال اللحنية لقالب لحني رئيسي واحد محدد . وهي تمتد من تلك الاغاني البدوية الخشنة الى انضر الالحان التي انجبتها المناطق الزراعية للفلاحين في فلسطين وبلاد الشام عامة . وبعد كل هذه التشكيلة الكبيرة من القوالب اللحنية نجد ان « فولكلور الكاسيت » يحمل للسامع المعاصر شكلا لحنيا من الحداء يتناسب مع الذوق الشعبي المعاصر ، ان لم يكن يفوته بمراحل زمنية .

وعلى اية حال فنحن نشهد هذه الايام بداية لتوسع هائل في التعامل الشعبي مع اللحن والموسيقى . ان هذا التوسع يعبر عن نفسه في استقبال الالحان الجاهزة التي يحملها الكاسيت او وسائل البث الاعلامي بالصوت وبالصورة والصوت .

وسوف لن يكون من المستغرب ، وفي ضوء تقدم كبير في التذوق الشعبي للالحان واستيعابها وادائها ان تصبح الالحان الشعبية لفترة زمنية قادمة وغير بعيدة وقد بدت وكأنها اكثر تقدما مما كنا نسميه في الماضي القريب موسيقى مثقفة .

ويظل كل ذلك منسجما مع الفرضية التي يقبل بها جمهرة الفولكلوريين المعاصرين وهي ان الثقافة الشعبية هي تلك الثقافة المتخلفة بالنسبة لثقافة رسمية متقدمة في نفس الوقت .

فولكلور الكاسيت والفبركة

لقد بدأت الان مؤسسات تستخدم اجهزة تكنولوجية معقدة لتعميم نماذج من الاغاني والموسيقى الشعبية بواسطة الكاسيت المسموع ، والكاسيت المرئي - الفيديو . ولن يكون ذلك اليوم بعيدا عندما يختفي المطرب الشعبي بصورة تكاد تكون تامة عن جمهوره ، وسوف لن يسمع انسان الجيل القادم بالاغاني الشعبية ، الا من خلال اجهزة الكاسيت والفيديو والسينما . وسوف تقوم دور الاذاعة - كما هو شأنها الان - بهذه المهمة وتصبح الاشرطة والاسطوانات البديل الناجع عن المطرب الشعبي والذي سيختفي في الاستوديوهات ليساهم في صناعة الفنون الشعبية الغنائية والموسيقية وتعميمها من خلال اجهزة معقدة . ولن يكون هذا الامر بالامر المستغرب على الاطلاق . ذلك لان الفنان الشعبي البدوي قد اختفى الان عن انظار جمهوره اختفاء تاما ، وفي الجيل الماضي كنا نشاهد النحاسين في اسواقهم يصنعون ادوات النحاس المزخرفة امام جمهورهم ، وكذلك كان صانعو التحف الشعبية وكل الادوات الفنية التي تبدعها يد الصانع البدوي الماهر . وقد جاء الوقت الذي انزوى فيه الفنان الشعبي الذي يعمل بخبرة يدوية فائقة ، ليضع خبرته هذه على شكل موديل تقوم الماكينات فيما بعد بصناعة الاف بل ملايين النسخ منه . وفي حالات اخرى اضطر هذا الفنان الشعبي الى ان يحصل على خبرة تكنولوجيا اضافية لكي يتمكن من مسايرة روح العصر وصناعة نسخ وافرة من عمله الفني .

ان الفنان الشعبي قد وجد نفسه ، في عصر الآلة ، وقد اصبح امام تحد لا مفر منه ، وهو اما ان يساير عصر الالة او يندثر . لقد اندثرت حرف شعبية شتى امام التقدم التكنولوجي فاختفت مهنة الحكواتي امام المسرح والسينما والكتاب . ولم نعد نرى صور « صندوق العجب » شبه المتحركة بعد انتشار دور السينما واضطر اصحاب حرف شعبية اخرى ان يسايروا روح العصر . وهكذا يجد الفنان الشعبي نفسه مضطرا الى اللجوء الى الاذاعة والسينما والتلفزيون والكاسيت ليساير روح العصر وحتى لا يجد نفسه وحيدا في الزاوية المعتمة .

وبعد ، فان فولكلور الكاست ، وان كان يستعمل ادوات واساليب عصرية فانه يظل معبرا عن ثقافة الوسط الشعبي وروحه ، وما التغيير الحاصل والذي نشهده على السطح الا مجرد صدى للوسائل العصرية ، وهو مجرد شيء بسيط على السطح الخارجي ليس الا . ■■

عمان - (الاردن) - نمر سرحان

أدب المهجر وإحياء التراث

بقلم : عبد الرزاق البصير

اتفق المهتمون بالتراث العربي من محققين وغير محققين على تسمية اهتمامهم باحياء التراث العربي والحق انني كلما تأملت هذه التسمية اجدني غير موافق عليها لانني لا استطيع ان الائم بين التراث وبين الموت لما يتصف به تراثنا العربي من حيوية تجعله قادرا على ثبات للخطوب مهما كانت شديدة . والاحياء لا يكون الا للاشياء الميتة وما أظن ان احدا يقدر ان يبث الحياة في شيء بعد ان يموت وحتى لو قال احد بان هذه تعني المجاز لا الحقيقة فاني اعتقد ان هناك تسمية اخرى اولى بان نطلقها على هذا النشاط وهذه التسمية هي تجديد التراث العربي بدلا من احياء التراث العربي فان كل ما يصنعه المحققون بتراثنا هو ان يقوموا الاخطاء الاملائية وغير الاملائية وذلك بالمقابلة بين نسخ الكتاب المراد تحقيقه وان يفسروا بعض المفردات اللغوية الصعبة وان يخرجوا الشواهد الشعرية وان يضعوا فهارس للكتاب وان يشيروا للنسخ التي اعتمد عليها المحقق وهذه امور ليست بالسهلة اليسيرة فكثير من نسخ التراث مبعثرة بل مجزاة في عدة مكتبات متباعدة لكن الذي يؤمن بقيمة التراث يستعذب كل ما يلقاه من مصاعب في سبيل تجديد الكتاب الذي يريد تحقيقه والحق اننا قطعنا شوطا بعيدا في تجديد جانب كبير من تراثنا العربي على ان علماءنا ماضون في هذا السبيل الناجح وانا لم اكن اقصد من وراء هذه الكلمة بان اتحدث بالتفصيل عن تراثنا العربي الجليل وانما قصدت الى نوع اخر من تراثنا العربي فهو وان كان جديدا لم ينقض على توقفه اكثر من سبع وعشرين سنة الا انه اصبح قديما لان الحصول عليه يكاد يكون شبه المستحيل ذلك هو ادبنا المهجري سواء كان في امريكا الشمالية اوامريكا الجنوبية فانت لا تجد من هذا الادب الا كتبا تحدثك عنه احاديث تختلف طولا وقصرا كما فعل جورج صيدح ومصطفى هدارة وغيرهما من الادباء الذين تحدثوا عن أدب المهجر وهذه الكتب وان كانت كثيرة متنوعة الا انها لا تغني عما

اصدره ادباؤنا في المهاجر الامريكية من صحف ودواوين وكتب تحتوى على خواطرهم وافكارهم من فلسفة وقصص ونقد وما الى ذلك من النواحي الادبية وليس من شك ان نشاط أدبائنا في المهاجر الامريكية كان نشاطا واسعا غنيا لو جمع لاألف مكتبة رفيعة يجد الباحثون فيها امورا متنوعة تمكنهم من استخلاص نتائج ادبية مهمة تثرى تفكيرنا اعظم الاثراء فانت حين تتأمل في تاريخ هؤلاء المواطنين المهاجرين وتستقصى اسباب هجرتهم وفي ما كانوا عليه من حالة اقتصادية سيئة دفعتهم الى الاغتراب تشعر بفخر مزيج بالحزن ذلك ان هؤلاء المواطنين كانوا فقراء اقتصاديا وثقافيا ولكن ذلك كله لم يمنعهم عن ركوب بحر الكفاح المتلاطم واذا بهم يفرضون وجودهم في تلك البلاد الاعجمية التي استوطنوها فانت تجد فيهم الثرى الذى استفاضت شهرته في الغناء والاديب التي استفاضت شهرته في الادب ففيهم القصاص والشاعر والرسام والفيلسوف والمترجم الذى نقل بعض امهات الكتب العربية الى اللغة الاسبانية والبرتغالية والانجليزية مما جعل بعض المثقفين في المهاجر الامريكية يعترفون بان الثقافة العربية قد اثرت في ثقافتهم اعظم الاثر ومثل هذا الاعتراف لا يمكن ان يصدر عن المثقفين الاجانب الا لأن الترجمة من العربية الى البرتغالية كانت ترجمة واسعة وقد كانت كذلك اذ ان اولئك الادباء المهاجرين نقلوا الى لغات مهاجرهم قسطا وافرا من الكتب العربية كمقدمة ابن خلدون وكليلة ودمنة والف ليلة وليلة كما انهم قد عرفوا البرازيليين والامريكان بمشاهير الادباء والمفكرين العرب كعمر ابن ابي ربيعة وأبي الطيب المتنبي وابي العلاء المعرى وغيرهم من اد . العرب كذلك نقلوا عن البرتغالية الى العربية كتبا شعرية وقصصية وفلسفية مما احدث تفاعلا فكريا عميقا وفيما ذكرناه دلائل كثيرة منها ان كفاح اولئك المهاجرين كان كفاحا يتسم بالحيوية العظيمة فليس من السهل ان يتوصل المغتربون الى مثل هذه

المنزله الادبية والاقتصادية وهم قلة قليلة تعد بعشرات الالوف بالنسبة الى شعوب تعد بعشرات الملايين .

ومن تلك الدلائل ان الروح العربية روح قوية لا تقف امامها المصاعب والعقبات وان الشعور القومي العربي شعور عارم دفع اصحابه الى صنع ما يشبه المعجزات وهل يوجد شيء اعظم من نشاط جالية صغيرة صنعت نهضة ثقافية واقتصادية اصبحت معروفة في خضم اعجمي كبير . فقد انشأوا المدارس والنوادي والفوا الكتب واصدروا الصحف فكانوا شعلة وهاجة يحق لنا أن نفخر بها كل الفخر .

ومن المؤكد ان هذه النهضة لم تنبت دفعة واحدة وانما نشأت على عدة مراحل فقد كانت ضعيفة في مبدأ امرها ثم اخذت ترتفع وتتفرع شيئا فشيئا حتى اصبحت قصورا مشيدة تحتوى على مئات المكتبات والمدارس والمعاهد والمساجد والكنائس مما جعل شهرتها وآثارها وعبق أريجها ينتشر من الشرق الى الغرب .

اذن فانا محق اذا دعوت والححت في الدعوى لتأليف لجنة تستقصي اثار اولئك الادباء شعرا كانت او نثرا فتجمعه باسره فلا تبقي صحيفة ولا كتابا ولا ديوانا ، الا وتعيد نشره بصورة مرتبة منظمة فان اى باحث لو اراد ان يطلع على تلك الاثار الرفيعة الممتازة لاحتاج ان ينفق أعواما عديدة بتغمس في مكتبات منبثة في سوريا ولبنان ومصر والعراق بل ربما احتاج ان يسافر الى المهاجر الامريكية فان من المؤكد ان كثيرا من تلك الاثار مخطوطة قد غمرها الاهمال وهي موجودة عند اقارب اولئك الادباء لايحفلون بها لانهم لا يشعرون بقيمتها فقد اصبحوا غرباء عن اللغة العربية لذلك ضعفت مشاعرهم واحاسيسهم القومية وانا على يقين ان هذه الامنية لو تحققت لظفر ادبنا العربي الجديد براقد قوى يعود عليه بكنوز عظيمة لا تقدر فان كل من يتعمق في ادبنا المهجرى يتأكد له بان ذلك الادب قد ساهم في تجديد الفكر العربي بصورة عامة وفي الادب بصورة خاصة ذلك ان أدباءنا المهجريين قد تفاعلوا مع كل التيارات الفكرية والادبية التي تمتلىء بها القرى في تلك الاقطار الاجنبية ففي اثار امين الريحاني وجبران خليل جبران ونظير زيتون وغيرهم من المفكرين وفي اثار جورج صيدح والشاعر القروى والياس فرحات وشفيق معلوف وفوزى المعلوف وايليا أبي ماضي وغيرهم من الشعراء برهان ساطع على ذلك فانت لاتكاد تتأمل اثار اولئك الشعراء والمفكرين الا وتجد نفسك في رحاب واسعة من الفكر ورياض زاهرة من الاداب ولنأخذ المرحوم امين الريحاني على سبيل المثال فانه كما اجمع مؤرخوه كان من اعظم المؤثرين في ادباء المهجر بخطبه وكتبه التي كانت تدعو الى الابتعاد عن التعصب الطائفي ونشر الوعي القومي وقد اتاه الله قوة في الالقاء وحلاوة الحديث وغزارة في التأليف باللغتين الانجليزية والعربية ويكفيه فخرا ان عندما برزت مشكلة فلسطين بذل جهودا صادقة للدفاع عن حقوق العرب في محاضرات ومباريات بينه وبين اقطاب اليهود في نيويورك وهو الذى اقترح على الحكومة انشاء وطن قومي لليهود في ولاية تكساس الواسعة الاطراف إذا كان لابد من وطن قومي لهم وقد اثرت عنه اقوال يحسن بنا ان نورد بعضها هنا لان فيها دلالة على مستوى تفكيره وتوقد ذهنه واستنارة عقله فمن ذلك قوله .

(ان جنونا في سبيل الحق والحرية لخير من الرصانة مع العبودية)

(احب في صديقي الابانة اكثر من المروءة . احب فيه الانفة وان كان فيها عنيفا ولا احب الصغارة وان كان فيها لطيفا) .

وقوله : (اريد ان ارى في بلاد العرب ثمار الانبياء وثمار العلماء على شجرة واحدة)

ومما يدل على ذكائه وحضور بديهته وفطنته ماجرى له في مناظرته مع الحاخام ابتشتين وحاكم فلسطين السابق الجنرال ستورى . وقد اتفق الانكليزى مع اليهودى على ان يفتتح الريحاني الكلام لعلهما يجدان في كلامه مأخذ للرد عليه بينما لا يعطى فرصة للرد . واحس الريحاني بالمؤامرة فما كان منه الا ان فاجأهما بقوله « اعطيت حق الكلام اولا على اعتبار ان الحق الاول في فلسطين هو لامتي العربية وعليه فانا اشكر لزميلي ابتشتين وستورى هذا الاعتراف الصريح منهما » فضجت القاعة بالتصفيق وكان الفوز لاديبنا الريحاني فيلسوف الفريكة .

ويتضح مما ذكرت انه لا يجوز لنا أن ننسى اولئك الذين كانوا مهملين في اوطانهم لا يلتفت اليهم احد في حين انهم كانوا يحملون بين جوانحهم نفوسا كبيرة وامكانيات هائلة وعقولا مستنيرة كانت مدفونة تحت تراب الاهمال فلما وصلوا الى المهاجر وجدوا الرحاب الواسعة والمجالات الفسيحة واذا بتلك العقول والنفوس تصبح كواكبا يشع نورها الى مدى واسع فتصبح مثلا تقتدى .

جورج ماكبث

حذار من هذا الشاعر

بقلم : محمد الظاهر

تعلمنا ونحن على مقاعد الدراسة ، ان الصهيونية قد اتخذت من الفلسفة الميكافيلية ، طريقا لها ، من اجل تحقيق اهدافها ، واطلعنا خلال تلك السنوات على بعض هذه الوسائل ، وعرفنا ان الجنس ، كان احد هذه الوسائل القوية والمؤثرة ، حيث استخدمه اليهود منذ اقدم العصور ، وطبقته الصهيونية وطورته ، فيا بعد ، وادخلته بشكل عنيف ، الى مناطق العالم المتحضر وغير المتحضر .

ونحن حين نناقش قضية هذا الشاعر « جورج ماكبث » يجب ان نضع في الاعتبار امرين اثنين ، حتى لا نظلم الشاعر ، وحتى لا نقع في خطأ قاتل يسجل علينا .

اولا : اذا كان هذا الشاعر صهيونيا بالفعل ، وهذا ما لا نعرفه حتى الان ، فانه يقوم باداء رسالته الخطيرة في العالم الناطق بالانجليزية للترويج للسلطات المغتصبة في الارض المحتلة ، ويدعو الناس في ذلك العالم لزيارة « اسرائيل » والاطلاع على اروع النماذج البشرية « اليهودية » التي تبني وتعمل بجد وبصمت .

واذا كان هذا الشيء لا يجذب الناس في ذلك العالم ، خاصة الشباب المراهق ، فان هناك شيئا هاما ، الا وهو الجنس ، فالجنس في « اسرائيل » متوفر ، ومسموح بممارسته لكل من هب ودب .

ثانيا : واذا لم يكن هذا الشاعر صهيونيا بالفعل ، فاننا نؤكد على ان الصهيونية ، ونتيجة لدراستها لاشعار هذا الشاعر ، وتحليلها لنفسيته ، استطاعت ان تجعل منه داعية غير رسمي لها ، وذلك بالتركيز على جانب الضعف في شخصيته ، الا وهو الجانب الجنسي ، اذ حاولت بشتى السبل ان تتيح له فرصة زيارة « اسرائيل » والتمتع بالجنس الذى حدثته عنه ، من اجل اصطياده للترويج لها بين شباب العالم المراهق .

وسأحاول في هذا المجال ان اركز على ثلاث قصائد وردت في ديوانه المسمى « عام الشاعر » الذى كتبت قصائده في الفترة الواقعة بين ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ . اى في الفترة الحرجة من حياة الامة العربية ، وعصر النصر الذهبي للصهيونية .

هذه القصائد الثلاث هي : ، بطاقة معايدة من اسرائيل ، الاوراق المتطايرة ـ ، عاشقان ثانية

وسأبدأ بالقصيدة الاخيرة « عاشقان ثانية » حيث يصف الشاعر في هذه القصيدة ، يوما كاملا ، قضاه ، مع « مومس » صهيونية على شاطيء البحر الابيض المتوسط ، وداخل شقته الخاصة ، معلنا لنا بان هذا اليوم كان يوما للجنس فقط . والجنس في هذه القصيدة ، ليس عاديا ، بل يكاد يكون ابشع من افلام الجنس المحظورة التي يتداولها المراهقون سرا .

يقول الشاعر :

« بدأنا ذلك اليوم
بجانب البحر
ردفي امرأة على ركبتي »

ثم يصف الحالة التي انتابتها فتقول المرأة :

« انت لا تحب اللغة

اللغة الباردة
انت تفضل القبل الساخنة
اليس كذلك »

بعد هذه القبل الساخنة تبدأ القصيدة بالانحدار الى اقبية الشذوذ التي لا مجال لذكرها هنا ، ولم يكتف الشاعر بذلك ، بل تأبط ذراع عشيقته الى شقته ليعيد علينا الشريط السابق مرة ثانية ، بكلمات لا يمكن ان تسجل اذ ان اخف هذه الكلمات :

« كانت السجادة تحتنا تتوجع
تتوجع معنا »

وينهي قصيدته بالدعاية الرخيصة لتجارة الجنس الاسرائيلية

« اليست هذه الليلة
حلم كل انسان »

اما قصيدته « الاوراق المتطايرة » فقد استعرض فيها زيارته « لاسرائيل » وطوافه بمناطقها ، وتعرفه على مكامن الجمال فيها لينقلها الى القارىء ، معلنا تعاطفه مع ذلك الشعب الذى يعمل ليل نهار من أجل بناء « دولته » .

« ذلك ما اريده
بيضة واحدة
وكسرة خبز
للانسان العادي ، لا اكثر
ايها الدجاج الامريكي
بيضة واحدة فقط
للذين ينتحرون هنا
في الساعات القليلة »

والمقصود بالدجاج الامريكي هنا ، هم اولئك الذين يمدون السلطات الصهيونية في الارض المحتلة ، بالاموال الطائلة .

وفي ختام القصيدة يحاول ان يثبت تضامنه مع « ديفيد » صديقه الذى يتمنى ان يصبح ملحنا :

« ان تكون ملحنا عظيما
يا ديفيد
هذا حق مشروع
لكن ليس ايام الاحاد
ولا قبل ان يكون لك اولاد »

وفي قصيدته « بطاقات معايدة من اسرائيل » تصل قمة الاحتواء الصهيوني لهذا الشاعر ، فهو يوجه خمس بطاقات معايدة للعالم الغربي من « القدس » ، « ايلات » ، « عين جدي » ، « عكا » ، و « تل ابيب » .

يصف في الاولى زيارته لاحدى المستعمرات التي يقطنها المهاجرون الامريكيون الذين يعملون ليل نار ، ولا يأكلون شيئا ، مؤمنين بالارض التي يعيشون عليها ، حسب زعمه » ، وملقيا بالتبعة على الامريكيين الذين يأكلون حتى يتخموا ويتركوا اخوانهم في مثل هذا الجوع القاتل .

اما الثانية فيصف فيها صيادى ميناء ايلات الذين يعيشون على صيد السمك :

« يوم جمعة
ثلاثة عشر مركبا
الصيادون
ينحنون
يفتشون عن احلامهم
وتختبىء قنافذ البحر
في فراشهم »

وفي البطاقة الثالثة يصف « عين جدى » وهي موقع عسكرى سابق للجيش الاردني ، تحول الى موقع عسكرى اسرائيلي ، ويحاول ان يهزأ من الجثث التي وقعت في الشرك هناك ، والتي تنتنت ، فاخرجت روائحها ثم يقول :

« تذكر ان البحر الميت
كان بحيرة يشوع »

وفي البطاقة الرابعة ، يحاول ان يعود لتسليط الضوء على المستعمرة اليهودية للمهاجرين الامريكيين ، ويركز مرة اخرى على الصلة التي تربط هؤلاء اليهود بأخوانهم الامريكيين .

ويعود في البطاقة الخامسة من حيث اتى . عن طريق روما ، متذكرا :

« الحب العبرى الذى يغمرني
يسرى كالحلم
فوق صفحة هذه المياة الحرة »

هذا هو الشاعر « جورج ماكبث » هل عرفتموه . ■■

استعمل العقاقير بحذر

شكا مهندس شاب مرة من صعوبة في التنفس ، وعندما استشار طبيبه وصف له مدرا قويا للبول ، فعاد يتنفس بسهولة . وبعد بضعة أشهر بدأت زوجته تشكو من شيء بدا انه مشابه لقصر النفس المؤلم ، فقررت ان تأخذ نفس دواء زوجها . ولكن الدواء لم يجد نفعا وظل التنفس صعبا كما هو . وبينما استمرت في أخذ الدواء بدأت تشعر بضعف غريب في عضلاتها الى ان اكتشف اخيرا انها لا تستطيع تحريك ذراعها اليسرى ، فانزعجت وهرعت الى الطبيب . واتضح انها تعاني من مرض ضيق التنفس ، وفي مثل هذا المرض قد يؤدي مدر البول القوي اذا اخذ دون اشراف طبي الى نشاط غير عادي في القلب ، بل وقد ينتج عنه شلل كما حدث في هذه الحالة .

لقد زاد انتشار العادة المتمثلة في أن يكون الانسان طبيب نفسه ، ورغم ان هذا التصرف قد يبدو سليما في الاحوال العادية الا انه علينا ان نتذكر أن الجرعة المناسبة من العقار تحددها عوامل كثيرة مثل العمر والوزن وجنس المريض أحيانا ، فضلا عن أن الادوية التي توجد في المنزل قد تكون قديمة ولم يعد لعناصرها الفعالة أية قيمة علاجية .

لذلك فان الكثيرين من الاشخاص الذين قاموا بدور الطبيب لانفسهم ، اصيبوا بامراض في الدم وقرح في المعدة وحساسية دائمة وتلف في المخ والكبد ، بل إن بعضهم فقدوا بصرهم او سمعهم او حتى ماتوا بادوية وصفوها لانفسهم . ومن اخطر نتائج التطبيب الذاتي تأخير اكتشاف مرض خطير ، فقد يشعر شخص ما بضيق نتيجة الغازات المترتبة عن سوء الهضم ، ومن ثم فانه يأخذ بيكربونات أو اي مستحضر لازالة الحموضة ، ولكنه اذا كان مصابا بقرحة في المعدة ، فسوف يصاب بنزيف او حدوث ثقب في معدته .. وكذلك اذا اعتمد شخص على شراب عادي للسعال لتهدئة سعاله الجاف المزمن ، فانه قد يؤخر بذلك تشخيص سرطان رئوي ، وهو مرض يمكن علاجه بالجراحه اذا اكتشف في مرحلته الاولى .

وفضلا عن ذلك فان استعمال اي دواء بكثرة قد يؤدي الى حدوث ردود فعل من الحساسية الطفيفة او الشديدة ، وهذا يتراوح بين طفح في الجلد وتلف في الشرايين والتهاب في المفاصل وامراض خطرة في الدم .

لذلك فان من يصف الدواء لنفسه انما يغامر باستخدام عقار خلال فترة من الزمن يصيبه بحساسية دائمه . او ما يعرف بانه استجابة فطرية لعقار ما ، اي رد فعل غير عادي لدواء معين لا يحدث اي ضرر للشخص العادي . فقد حدث أن استعارت ربة بيت شابه تسكن في الضواحي بعض الحبوب المنومة من احدى جاراتها لعلاج ارق اصابها ، وخلال الليالي القليلة التالية استمتعت بنوم هادىء ، ولكن لم تمض

سوى ايام قليلة حتى اصيبت بكدمة في يدها وسرت العدوى في كل ذراعها ، وعندما فحصها الطبيب دلته اختبارات الدم على ان عدد الكريات البيضاء قد قل الى حد كبير وخطير حتى انه لابد من ادخالها المستشفي ، وكان المسؤول هو الحبوب المنومة التي لم تصب جارتها بأذى ، ولكنها كادت تكون مميتة للضحية ذات الاستجابة الفطرية لهذه الحبوب .

وهناك ضرر واسع الانتشار من العلاج الذاتي ، وهو زيادة الجرعة عن الحد اللازم ، فمن الاوهام الشائعة انه اذا اتت الجرعة الصغيرة باثر حسن ، فان الجرعة القوية تكون اكثر فائدة ، وعندما لا يأتي الارتياح بسرعة يميل البعض الى زيادة الجرعة ، ولكن في بعض الادوية الشائعة يكون حد السلامة منخفضا مما يسبب تلفا دائما .

اخطار الادوية الشائعة

ان الاطباء والصيادلة الذين درسوا نتائج العلاج الذاتي واجهوا مجموعة متباينة من الاخطار الناجمة عن اساءة استعمال عقاقير معروفة مثل :

١ ـ العقاقير المزيلة للآلام : ان بعض الأشخاص لديهم حساسية لحامض الاستيل ساليسيليك (المعروف باسم الاسبرين) أو حساسية للفناسيتين وهو مسؤول عن اصابات الكلى عندما يفرط الناس في الجرعة التي يعطونها لانفسهم ، فالشخص العادي عندما يأخذ من ١٥ الى ٢٠ حبة في اليوم لفترة طويلة يكون معرضا للاصابة بمرض خطير في كليتيه او قرحة في معدته .

٢ ـ العقاقير المهدئة : ان العقاقير المهدئة التي تباع في الصيدليات معتدلة الاثر بصفة عامة الى حد انها تستخدم كأقراص الحلوى ، ولكن عندما يتناولها شخص بكثرة دون استشارة الطبيب ، فانها يمكن أن تؤدي الى الاصابة بقرحة في المعدة ، وقد تعجل بموت شخص مريض بالقلب ، او تصيبه بحالة عقلية عميقة تكفي الى انتحاره فورا .

٣ ـ عقاقير انقاص الوزن : ان العقاقير التي تضعف الشهية اذا اخذت بانتظام بعض الوقت يمكن ان تؤدي الى الاستثارة والشعور بالقلق والاصابة بالارق .

ارشادات مفيدة :

على الرغم من كل المخاطر التي ذكرناها فان الاسراع الى الطبيب بعد كل عطسة او وجع في البطن امر ليس عمليا ، ومن هنا يتبادر الى الأذهان السؤال التالي :

« متى استطيع علاج نفسي بامان ؟ ومتى ينبغي ان استشير طبيبا ؟ » . هو ما يقترحة خبراء الطب :

ـ يمكن السماح بالعلاج الذاتي اذا كانت الاعراض ليست حادة ، واذا كان الدواء المستعمل لا يحتمل ان يؤدي الى رد فعل عكسي .

ـ اذا كان الصداع شديدا فلا تحاول علاج نفسك ، فقد يكون اعراض الحمى المخية الشوكية او اي مرض آخر ، كما ان السعال المستمر قد يكون علامة من علامات السل او سرطان الرئة .

ـ وحتى عندما تكون الاعراض مشابهة لاعراض مرض سابق فلا يجوز استعمال ما تبقى من الدواء ، الا اذا نصح الطبيب بذلك .

ـ يجب تجنب استعمال اكثر من دواء في وقت واحد لانه من المحتمل ان يكون الدواءان يحتويان على نفس العناصر ، فكأن الجرعة تتضاعف وبالتالي تتعدى الحدود المسموح بها .

ـ عندما يصف الطبيب دواء معينا فيجب عدم تناول دواء آخر معه في نفس الوقت ، فقد يحدث رد فعل خطير نتيجة امتزاج الدوائين .

ـ على كل شخص لديه حساسية لدواء معين ان يفحص بدقة كل بطاقة على زجاجة الدواء للتأكد من خلوه من المادة التي تسبب له الحساسية .

ان العقاقير الحديثة اتت نتيجة ابحاث علمية شاقة ، وتستطيع ان تفعل المعجزات في الشفاء ، ولكنها كفيلة باحداث المتاعب اذا لم تستخدم وفقا للتعليمات الخاصة بجرعاتها . ■■

اعداد : سامر السراج ـ دمشق

شيء عن الحب

بقلم : عباس خضر

عجبا لهذه الاتان ! لم تكن هكذا .. ماذا جرى لها ؟

كان ذاهبا الى « امينة وهو يمتطي هذه الاتـان .. فأمينه حبيبة قلبه وبنت خالته في قرية اخرى غير قريتهم ، ولم تكن السيارات قد جرت بعد بين تلك القرى منذ اربعين عاما . وقد انتهز هذه الفرصة التي كلف فيها من ابيه بامر من الامور يقتضي ذهابه الى بلدة امينة اذ فرح منتهى الفرح - في نفسه - لانه سيرى امينة رفيقة فؤاده ، فطالما لعبا معا وهما طفلان اذ كان هو وامه يقضيان اياما عند خالته ، او عكس ذلك : حين كانت هي وامها تقضيان اياما عندهم .

لاينسى يوما ركبت أمينة فيه خلفه على حمار ، وخالته وحدها على حمار آخر ، كانتا عائدتين الى بلدتها وهو في رفقتهما كي يعود بالحمارين . كان لمسها لظهره رقيقا لذيذا لاينسى ... كانوا في هذا الطريق الذى يسلكه الآن على اتانه البليده او المتبلدة ، لا يعلم لماذا ..

يوم ذاك انطوت المسافة بين القريتين بسرعة لم يكن يريدها .. اما الآن فقد طالت مع بطء هذه الاتان ومع شوقه الى الوصول ..

تجربته مع الحمير ليست جديدة ، فهي وسيلته الوحيدة للانتقال ، اما بين المنزل والحقل ، واما بين قريته وقرية المحبوبة ، ما اسعده يوم يقولون له : اذهب يا محمود إلى خالتك ، وتحمله أمه سلامها وكلاما اليها ، وهو لايعى كلام أمه بقدر ما يعى كلام قلبه الى امينة او ربما لايقول لها باللسان ، والقلب مفعم بما يقال وما تشى به العين والحركات .

عجبا لهذه الاتان ، لم تكن تمشي هكذا متثاقلة ، فماذا جرى لها ؟

لقد اعددت لها هذه العصا : فرعا من شجرة الرمان ، نزعته منها واصلحته بالمدية ، ولكنها لا تستجيب للضرب ، فهي تمشي كأنها تنتزع ارجلها من الوحل ، آه .. هذا السور الطيني الذى اقامه الزراع على حافة الطريق كي يحمي الزرع والثمار من ايدى العابرين ، وغرزوا فوقه جريد النخل المملوء بالنتوءات المدببة كالابر ، فلأنزع منها واحدة انخس بها الاتان .. لم تكن تحتاج الى هذا النخس ، فماذا جرى لها ؟ مالي انا وما جرى لها ؟ ليس في فكرى الا امينة .. فلأنخس حتى تسرع اليها ، لا بأس ، لقد تقدمت قليلا ، هذا رجل قادم فلألق عليه السلام :

- السلام عليكم .

- عليكم السلام يا ابني ورحمة الله وبركاته .

لماذا يقول لي : يا ابني ؟ هل يراني صغيرا ؟ الا يرى شاربي قد خط .. ؟ وقد لبست الجلباب الصوفي والحذاء الاصفر تحته جورب اصفر مثله . عندما تراني امينة في هذه « الوجاهة » اعظم في عينها .. وكذلك خالتي وزوجها والد امينة .

التقطت اذناى مرة حديث زوج خالتي اليها ، قال انها - امينة وانا - كبرا ، كما كبرنا ، ولكن الذى لم استرح اليه ، بل ازعجني ، قوله :

- يجب حجبها عنه .

قالت خالتي :

- يارجل ، انهما لايزالان صغيرين .

صغيرين .. صغيرين .. يكفي ان نتقابل .

ثم اضافت خالتي :

- بالمناسبة .. اختى كانت كلمتني في شأن زواجهما ،

- تعنى انهما صغيران ؟



ـ على كل حال . لندع كل شيء الى وقته .

أشعر باشعة الشمس الحامية ، وفي الفؤاد نار الوجد .. والطريق طويل ، وهذه الاتان تكاد تقف ، لقد تكسرت (السلاية) التي كنت انخس بها ، فلأنزع واحدة سليمة لاعاود النخس .. لو كانت امينة راكبة معي .. وراء ظهري ما احسست ببطء الوقت !

لقد مللت ركوب الحمير . لو كان ابي يشترى لنا فرسا كنت اذهب بها الى هناك ، وتراني امينة فارسا ..

وامتد به ذلك الخاطر الى خاطر آخر : ان يخطف امينة على ظهر الفرس ويعدو بها كأى فارس شجاع يأبى اهل حبيبته زواجه بها !

ولكن لا ، لاداعي لهذا ، فما اظن زوج خالتي سيأبى زواجي منها .

ابوه يقول ان الفرس غالية الثمن وتتكلف كثيرا في علفها .

ـ ولكن يا أبي انها ستلد ونبيع المهر غاليا يعوض ثمنه تلك التكاليف ، وبالمناسبة : هذه الاتان ولدت حديثا وابنها في البيت ، ولكن فرق كبير بين الجحش والمهر .

مرة زارهم اقارب من « البندر » وكان معهم اولاد . اولاد البندر يحبون ركوب الحمير ، وكان ذلك من اسباب متعتهم في القرية . اما نحن فطالما ركبناها حتى مللنا ركوبها .

الحمد لله . قد اشرفنا على بلدة امينة . وهذه معالمها قد بدت من بعيد . ما اجملها ! عما قريب اكون فيها . وأرى امينة .. ليت اباها لا يكون هناك لننطلق في مرحنا غير عابئين باحد في هذه الدنيا !

بعد يومين مضيا كأنهما ساعتان استعد محمود

للرحيل والعودة الى قريته ، كأنه كان في حلم ممتع لذيذ وصحا منه ، قالت له خالته :

ـ مع السلامة يا محمود ، سلم على والدتك
وقالت امينة :

ـ سلم لي على خالتي يا محمود .

الله .. ما احلى اسمى تنطق به شفتاك ياحبة الفؤاد !

وقال زوج الخالة :

ـ نراك بخير ، سلم على والدك .

اطرق وقلبه ينظر الى امينة ! كأنه يريد ان يقول لها :

ـ لا أريد ان افارقك ، اريد ان تكوني الى جانبي دائما .

وامتطى الاتان ، وما كاد يحثها حتى اسرعت متجهة الى الجنوب .. حيث تقع قرية محمود .

عجبا لهذه الاتان ! لم تكن سريعة المشي هكذا ونحن قادمان .. هذه العصا ، فرع الرمان في يدي لم اكد اشير اليها ، انها تعدو عدوا ..

شك في ان تكون هذه اتانه ، هل حدث غلط ؟ اتكون هذه غيرها ؟ اتكون هذه احضرت له لانها تشبه تلك ؟ نزل وتأملها ، لا انها هي ولا غلط .

وشرع يفكر بطريقة مختلفة .. مالها هذه الاتان ؟ ما احلى ركوبها وما احلى الاماني وانا فوق ظهرها .. تعدو بي هذا العدو الخفيف . فلأوفر على ابي ثمن الفرس ، فلا حاجة بنا اليها ، اننا سنحتاج الى المهر: مهر امينه اولى من مهر الفرس !

قال ابي ان عرسي سيكون اعظم عرس ، سيغنى فيه « الصييت » او سنحضر فيه فرقة الموسيقى من البندر ، وستعزف هذه الموسيقى للخيل : خيل المعزومين ، فترقص على نغماتها ، الخيل ترقص .. ما كنت اصدق ذلك قبل ان اراه بعيني في عرس عزوز ابن العمدة . ولكن متى يكون عرسي ؟ قال ابي : في موسم القطن في السنة القادمة ، نحن الان في اعقاب الموسم الحالي للقطن ، يعني أن مدة الانتظار سنة ! ما اطول هذه السنة !

تذكر محمود ـ بمناسبة العمدة ـ ان امه قالت مرة انه ـ العمدة ـ خطبها وهي بنت ، ولكن القسمة والنصيب !

ليتها ما قالت .. سمعها ابي ، وكانت ليلة مثل الحبر الاسود !

لماذا يا امي تقولين هذا الكلام ؟ ابي اعظم رجل في البلد ، كوني عاقلة مثل امينة ... امينة الصغيرة لا تقول هذا الكلام اينها المرأة الكبيرة .

لو كان ابي يملك عشرة افدنه « نصاب العمدية » لكان هو العمدة . انه يملك الآن تسعة افدنه ، فلم يبق بينه وبين « العمدية » الا فدان واحد ! وربك كريم .. عندئذ تقول امينه بفخر : انها ستتزوج ابن العمدة ! ولكنها تخجل ان تقول انها ستتزوج .. آه من حياء العذارى !

كانت الاتان تسرع به في العودة على خلاف ما كانت في الذهاب .. لما الذي غيرها ؟ هل كانت تحلم مثله تلك الاحلام اللذيذة ؟ وما عسى ان تحلم به وما هي الا واحدة من الحمير ؟

ولكن امرها عجيب .. في الذهاب وفي الاياب . هذا كفر الشيخ عليش ، وبعده بقليل بلدنا ، اقتربنا من البلد ، وما يهمني الان ان تكون الاتان بطيئة او سريعة .

ما ان وصل محمود الى باب الدار ونزل حتى راى الاتان تسرع الى الداخل كأنها تبحث عن شيء .. فتابعها حتى راها تقف متسمرة ، والجحش الصغير يدخل بين ارجلها ويرفع فمه الى ضرعها ويرضع ، وبعد برهة يكف عن الرضاع وينطح بطن امه برأسه كأنه يداعبها ، ثم يخرج من تحتها ويقفز هاهنا وهاهنا ، ثم يعود الى ثديها ويلقمه ، وهي تلوى رقبتها نحوه وتتشممه ..

ـ آه .. هذا هو السبب ! بطل العجب ! لكن لماذا لم تقولي .. ؟

ـ وهنا يقهقه صوت من داخل محمود كأنه يسخر منه :

ـ كيف كانت تقول .. ؟ هل تتكلم الحمير ؟ لماذا لم تفهم أنت ؟

ـ كنت مشغول الفكر بامينه .. الاتعرف ؟

ـ وهي ايضا مشغولة الفكر .

ـ بماذا ؟

ـ بوليدها الجحش !

■■

عباس خضر

● حل مسابقة العدد ٢٦٨ ●

١٥	١٤	١٣	١٢	١١	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
ت	و	د	ن	ى	ا	و	●	ن	ر	و	ه	س	ا	ر	١
■	ى	ك	ى	د	ل	ا	ع	س	■	م	و	ع	ل	ب	٢
■	■	ت	ا	■	ن	و	م	ن	غ	ى	■	ر	ب	ى	٣
م	ا	ه	س	■	و	■	ر	ا	م	ص	م	■	ل	ع	٤
ش	ل	■	ا	ى	ن	ا	ب	س	ا	■	ر	ا	ط	ا	٥
م	ق	س	■	ق	■	ل	ن	■	م	س	■	ل	ى	و	٦
ش	ا	ق	ن	ن	و	ر	ا	م	■	ن	ا	م	ق	ل	٧
■	ه	ط	و	ط	ب	ن	ب	د	م	ح	م	●	■	■	٨
ح	ر	ت	ا	■	ا	ه	ى	ه	ن	ت	■	ه	ق	ا	٩
ا	ه	■	ك	ا	ل	■	ر	ا	ف	■	ا	د	ب	ن	١٠
ق	■	ق	ص	ى	■	ر	ب	■	ر	ى	خ	ن	ل	ا	١١
د	ى	ل	و	■	ن	د	ى	ا	ه	■	ق	ه	■	ن	١٢
و	■	ا	ط	ا	ب	ت	ع	ا	■	ا	د	■	د	ى	١٣
ن	و	د	■	ب	ل	■	ه	س	د	ن	ه	ل	ا	■	١٤
■	ا	ه	ع	د	و	ت	■	ر	و	ف	ا	ك	ل	ا	١٥

أفقيـًا :

محمد بن بطوطة

رأسيًا :

عمر بن أبي ربيعة

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : محمد بن بطوطة . ولد في طنجة عام ١٣٠٣ وطاف انحاء العالم المعروف في ذلك الوقت . استغرقت رحلاته الثلاث حوالي ٢٩ سنة ، طاف فيها افريقيا وآسيا والاندلس .

(٨) رأسيا : عمر بن أبي ربيعة . شاعر غزلي من سراة القرشيين . رقيق الاسلوب ، لطيف العواطف في غزله . تزهد في آخر حياته .

الفائزون بالجوائز

الجائزة الاولى : (٣٠ دينارا) فاز بها : التيجاني مولاي المهدي ـ الرباط/المغرب

الجائزة الثانية : (٢٠ دينارا) فازت بها : هاجرة قاسم حسين ـ عدن/ اليمن الديمقراطي

الجائزة الثالثة : (١٠ دنانير) فازبها : محمد عاطف عبد العال ـ الاسكندرية /مصر

٨ جوائز مقدارها (٤٠) دينارا ، كل منها خمسة دنانير فازبها :

١ ـ محمد محمود دهان ـ طرسوس/سورية

٢ ـ لطفي محمد ابو بكر ـ دبي / دولة الامارات

٣ ـ ليلى محمد احمد شطا ـ الرياض السعودية

٤ ـ عبد العزيز عبد علي ـ المحرق / البحرين

٥ ـ عمر الحاج موسى ـ الخرطوم / السودان

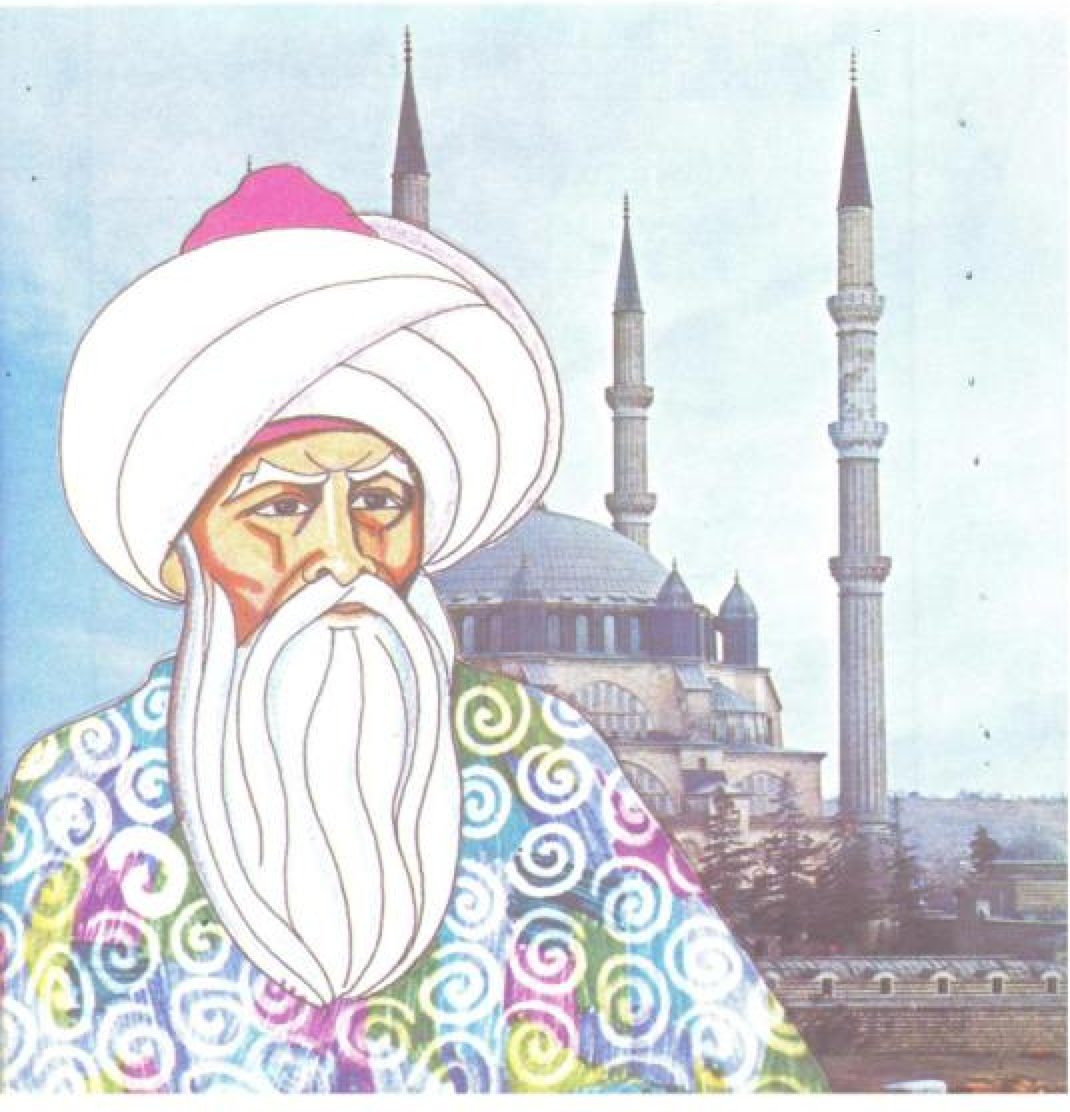
٦ ـ نوال نافع حسين ـ الزرقاء / الاردن

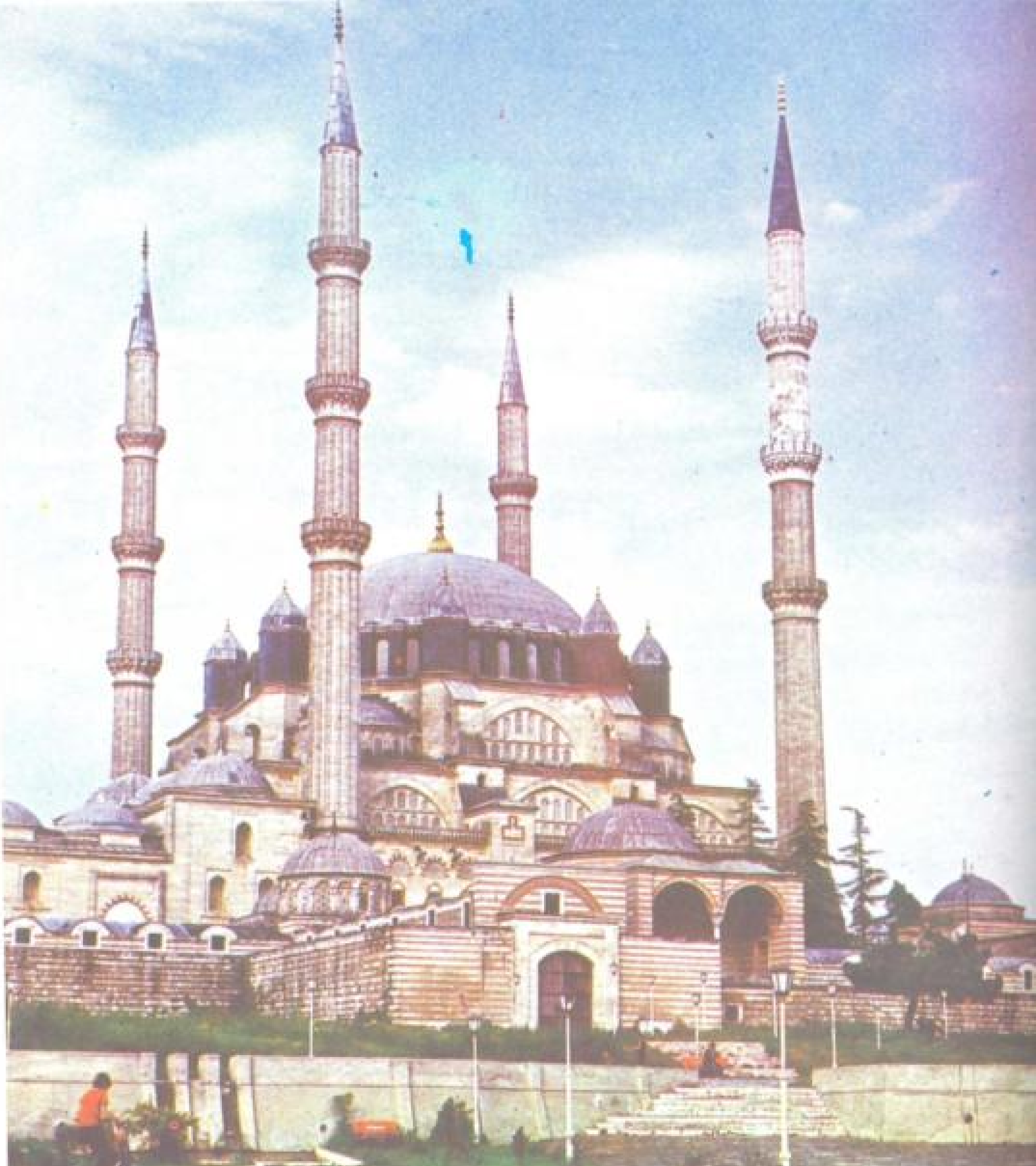
٧ ـ تغريد صبحي أحمد عبد الرازق ـ الرميثية / الكويت

٨ ـ عبد الله خضر حسين ـ سوق الغرب / لبنان .

أعظم البنائين في عالم الاسلام

المعمار سنان





جامع السليمية في ادرنه

اذا كان منتزل يقول « في دائرة المعارف الاسلامية » ان المعمار سنان هو واحد من اعظم المعماريين الذين ظهروا في التاريخ ، فان بارتولد يقول في كتابه « الحضارة الاسلامية » ان الاعمال التي قام بها المعمار سنان لم تكن اقل من الناحية الفنية من الاعمال المعمارية الاوربية في عصر النهضة .

واذا كان بابنجر يقول ان سنان هو ميكائيل انجلو الاتراك فان هـ . كلوك العالم الالماني واستاذ تاريخ العمار في جامعة فيينا يقول : ان سنان يتفوق فنيا على ميكائيل انجلو صاحب اكبر اسم فنى في الحضارة الاوربية .

من هو المعمار سنان ؟ .. وماذا فعل الرجل ليحتل تلك المكانة الرفيعة ؟

ظهرت في سماء الحضارة العثمانية ، منذ فتح استانبول على يد السلطان محمد الفاتح عام ١٤٥٣م ، وحتى عهد السلطان سليمان القانوني ، اسماء معماريين عثمانيين كثيرين مثل : المعمار خير الدين ، والمعمار كمال الدين ، والمعمار يعقوب شاه ، والمعمار عجم علي . ثم ظهر المعمار سنان الذى يعتبر من اعظم وابرز الذين كونتهم الثقافة الاسلامية العثمانية ، وواحد من الذين اعتزت بهم الامة العثمانية ، ويقول المؤرخ التركي احمد رفيق : لقد بلغ من حب الامة العثمانية لسنان حدا جعلها تلقبه بلقب : « سر معماران جهان قوجه سنان » ، بمعنى : « سنان الكبير رائد معمار العالم » .

ولد معمار سنان في قرية آغير ناص التابعه لولاية قيصرية في الاناضول ، وكان مولده عام ١٤٩٠ في عهد السلطان بايزيد الثاني بن الفاتح ووالد سليم الاول . في هذه القرية نشأ سنان فتى ولوعا بشق قنوات للمياه في الحدائق شغوفا ببناء الاكواخ وحظائر الحيوانات .

ورغم الاختلاف في اصل سنان ، الا ان الاتفاق حاصل على انه انضم للجيش الانكشارى عندما كان السلطان سليم الاول العثماني يستعد لحملة تأديبية يشنها على الشاه اسماعيل الصفوى . وكان هذا الاخير يعمل على اقتطاع ولايات الاناضول الشرقية لضمها الى الدولة الصفوية في ايران .

وكان سنان ضمن هؤلاء الفتيان المسيحيين الذين جندوا في الجيش العثماني فيا يسمى بالدوشيرمه . اسلم سنان ، وكان عمره ثلاثة وعشرين عاما ، والتحق بمدرسة عسكرية ابتدائية تسمى بمدرسة عجمي او غلانلر ، وفيها تعلم القراءة والكتابة والفنون التطبيقية ، ثم كان عليه ان يختار فنا من الفنون ليتخصص فيه ، فاختار قسم التجارة . تلقى سنان في هذه المدرسة دراساته النظرية على يد المتخصصين العسكريين ، وتحت اشراف هؤلاء ايضا عمل سنان عاملا معماريا في بناء الجوامع والحمامات وسبل المياه والخانات ..

مع الحرب تنمو التجربة

اتيحت الفرصة لسنان ان يطلع على الاعمال المعمارية من تراث الامم الاخرى غير العثمانية ، سواء كان ذلك اثناء وجوده في الاناضول واستانبول حيث شاهد اثار البيزنطيين وفن العمارة البيزنطي في العاصمة العثمانية واثار السلاجقة وفن العمارة السلجوقي في الاناضول .

لكن الذى اثرى والمى تجربة سنان الفنية هو اشتراكه في الحروب العثمانية في الشرق وفي المغرب . فقد كان سنان ضمن الجيش العثماني في موقعة جالديران (١٥١٤م) بين العثمانيين وبين الصفويين ، والتي انتهت بدخول العثمانيين تبريز عاصمة الصفويين . شدت تبريز بمبانيها المعمارية الصفوية انتباه سنان لخصائص الفن الايراني . كما رافق الجيش العثماني في دخوله حلب ودمشق حيث جذبت الطرز المعمارية العربية اهتمام المعمار سنان . اما في القاهرة فقد وقف سنان متأملا مستغرقا فاحصا الطرز المعمارية التركمانية والمملوكية . كما تجول سنان اياما كثيرة بين اهرامات الفراعنة .

وعندما مات سليم ، حزن عليه سنان حزنا ملك عليه زمام قلبه فسجل حزنه هذا في كتاب « تذكرة الابنية » . ثم ارتقى سليمان القانوني عرش الدولة العثمانية . وفي عهده تخرج سنان من مدرسة عجمي او غلانلر ، واصبح انكشاريا فنيا ، واشترك في الحملات العثمانية على اوربا ، وشاهد الانتصارات العثمانية المتتالية على ملوك اوربا وامرائها ، مما كان له اثره واشعاعه على روح سنان

الفنان ، ومع توالي هذه الانتصارات كان المعمار سنان يواصل مشاهداته الفنية ، فلقد اشترك في فتح رودس فشاهد روائع المعمار اليوناني ، واشترك في فتح العثمانيين لبودابست ، فشاهد فنون المجر المعمارية . وفي بودابست بالذات كان سنان يتجول في الكنائس التي حولها العثمانيون الى جوامع ، تجول الفنان المدقق ، وصحب في جولاته هذه ، قمة زمانه في الفتوى الشيخ ابو السعود افندي .

ثم اشترك سنان في حملة السلطان سليمان القانوني على العراق (١٥٣٤م) ، فاثرى سنان تجربته الفنية باطلاعه على الابداع المعماري في بغداد ، كما رافق سنان خير الدين برباروس باشا في حملاته البحرية عندما كان يجوب السواحل الايطالية ، حينما كان خير الدين برباروس يبحث عن اندريه دوريا القائد البحري الاوربي الشهير لكي يؤدبه .

كانت البداية الاولى لظهور سنان ، عام ١٥٣٤م ، عندما اشترك في الحملة العثمانية على ايران ضمن قوات لطفي باشا الصدر الاعظم يريد اجتياز بحيرة وان ، فصدر الامر الى سنان بالاشراف على بناء سفن للتنقل العسكري فانجز سنان هذا العمل بنجاح .

وعند العودة الى استانبول ، كان عجم علي ، هو كبير المعماريين الرسميين في الدولة العثمانية ، فلما مات اقترح الصدر الاعظم لطفي باشا ، تولى سنان لأعظم منصب معماري في البلاد وهو .. كبير معماريي الخاصة السلطانية بدلا من عجم علي ، وقد كان . وبالتالي اصبح سنان هو المسئول عن اقامة الاعمال المعمارية من قصور ومدارس ومطاعم خيرية وسبل مياه واضرحة وحمامات وبيوت قوافل وغيرها . كما كان مسئولا عن الاعمال المعمارية بالعاصمة استانبول عن اصلاح وتعمير وترميم وشق شوارع وبناء ارصفة وقنوات للمياه . كما كان مكلفا بمراقبة كل اعمال البناء في كل ارجاء الدولة العثمانية ، وكذلك مراقبة المواد المستخدمة في البناء ، كما اسندت اليه صلاحية هدم الابنية المخالفة للنظام ، والاشراف على ابنية القلاع .

كما ان الاشراف على المهندسين المعماريين في الخاصة السلطانية ، كان من صميم عمل سنان وكانوا اهم شخصيات فنية في عصره ، واشهرهم : المعمار داود اغا (الذي بنى الجامع الجديد بني جامع في استانبول وهو اثر معماري فخم) . والمعمار محمد اغا الصدفكار (الذي بنى جامع السلطان احمد المشهور بالجامع الازرق في العاصمة العثمانية واحد التحف المعمارية المعدودة في العالم) والمعمار كره شعبان اغا (الذي بنى قلعة تواربن) وكذلك كان تحت امرة سنان جميع الصناع والنجارين والبنائين والللقميين في الدولة .

وبناء على امر السلطان سليمان القانوني بان يتولى سنان مسئولية امداد الشعب في العاصمة بالمياه ، بنقل الماء الى استانبول ، عن طريق عيون الماء بدلا من تحمل عناء حمل المياه الى المدينة قام سنان بحل هذه المشكلة « بطريق علم الهندسة » وبناء عين ماء في كل حي ، تستمد مياهها مباشرة من منابع الماء . فاذا علمنا ان اجر العامل عن يوم كامل في ذلك الوقت في عام ١٥٥٤م كان ستة أقجات ، واجر المعمار اثنا عشر أقجة ، وثمن نقل حمل حصان الماء خمسة عشر أقجة ، فاننا ندرك كم كانت اهمية حل سنان لهذه المشكلة (لاحظ أنه لم يكن للصنابير وجود وقتها) .

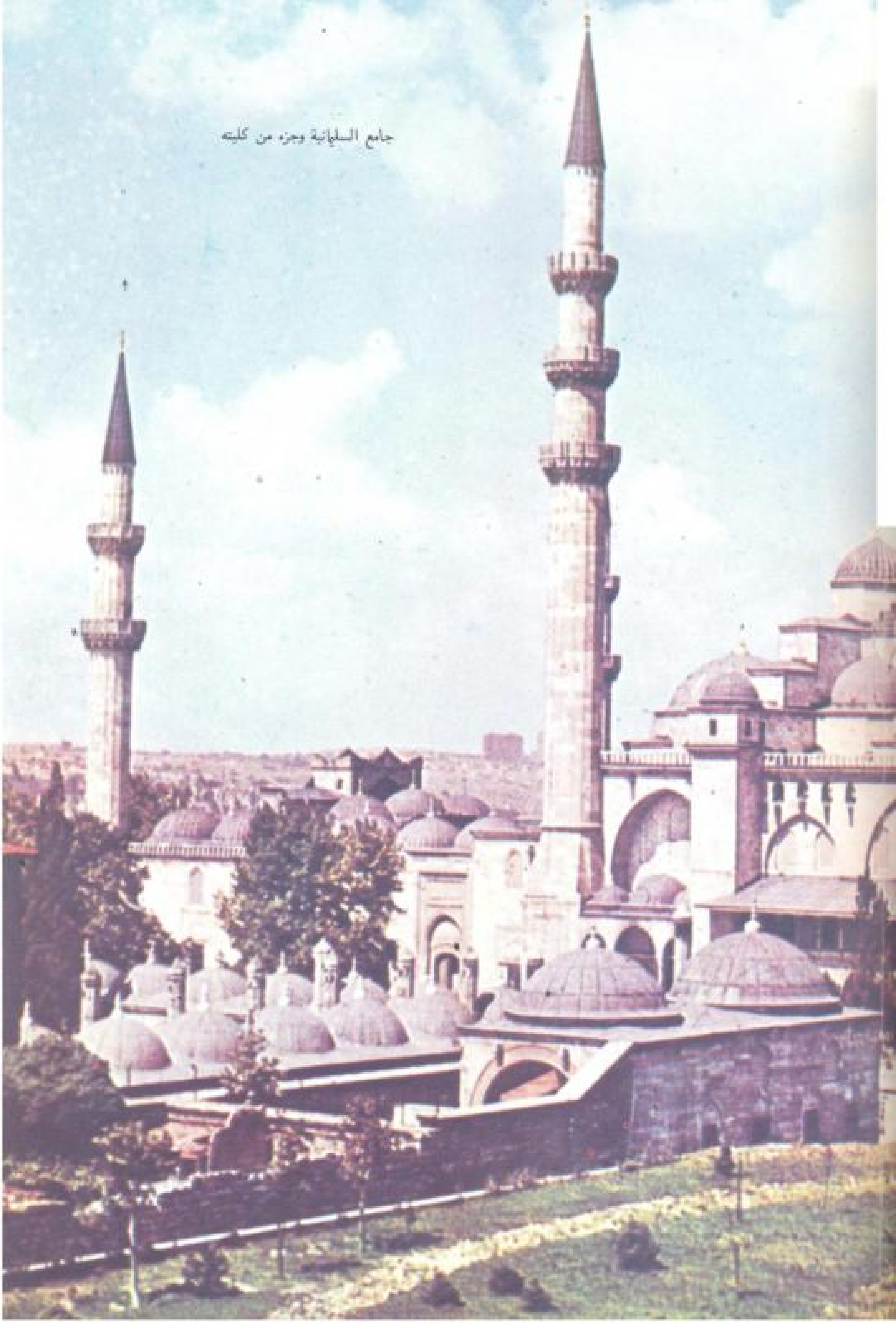
في البلاد العربية

في مخطوطة تذكرة الابنية ـ وهو كتاب املاء المعمار سنان على صديقه النقاش ساعي مصطفى جلبي ـ بيان لاعمال سنان ، وتبلغ (٤٤١) عملا موزعة في مختلف ارجاء الدولة العثمانية ، منها جامع صقوللو محمد باشا ، وجامع رستم باشا ، وجامع شهزاده ، وجامع السليمانية باستانبول . وكذلك جامع محمد باشا البوسنوي في صوفيا (عاصمة بلغاريا الآن) ، وجامع مصطفى باشا المقتول في بودابست (عاصمة المجر الآن) ، وجامع تاتار خان في كوزوا ـ القرم (تابعة للاتحاد السوفيتي الآن) .

اما في البلدان العربية فقد بنى سنان الجوامع والمنشآت الخيرية وغيرها من امثلتها ، جامع خسرو باشا (جامع الخسروية) في حلب ، وجامع السلطان سليمان ومطعم السلطان سليمان الخيري في دمشق ، وفي مكة المكرمة قام بترميم قباب الحرم المكي وبنى مطعما خيريا باسم خاصكي سلطان ومدرسة السلطان سليمان وحماما باسم السلطان سليمان ايضا ، وفي المدينة المنورة بنى سنان مطعما خيريا باسم خاصكي سلطان .

ولسنان اعمال كثيرة مختلفة متنوعة من الجوامع والكليات (الكلية في المعمار العثماني تعني مجموعة المنشآت الخيرية والمدارس المحيطة بالجامع) الى المساجد وسدود المياه والحمامات ، وبيوت القوافل والكباري والجسور والطرق وسبل المياه والاضرحة . لكن هناك ثلاثة اعمال تتقدم في روعتها المعمارية على سائر اعمال سنان وهي ثلاثة جوامع بكلياتها : جامع شهزاده ، وجامع السليمانية باستانبول ، وجامع السليمية في ادرنه .





جامع السليمانية وجزء من كليته

أعظم اعمال سنان

بنى المعمار سنان جامع شهزاده وكليته بين عامي ١٥٤٤ و ١٥٤٨م وعندما انتهى من بنائه كان قد بلغ من العمر (٥٨) عاما . وهذا الجامع يقع في حي شهزاده باشي في استانبول بناه سنان بناء على امر السلطان سليمان القانوني ، باسم ابنه شهزاده (الامير) محمد .

تتكون كلية شهزاده من جامع ومطعم خيري ومطبخ وكتاب للصبيان ومدرسة وضريح . والجامع مكون من ثلاثة اجزاء : الصحن الخارجي ، والصحن الداخلي ، والحرم . الصحن الخارجي ذو خمسة مداخل واحد منها في الواجهة . يحيط بالصحن الداخلي اروقه مغطاة بست عشرة قبة ، والاعمدة التي ترتكز عليها الاروقة من الرخام الصوماقي . وفي وسط هذا الصحن ميضأة ذات ثماني زوايا ، والجامع مغطى بقبة مركزية يبلغ ارتفاعها حتى حجر العقد ٣٧ مترا ، وقطر هذه القبة المركزية ١٨,٤٢ مترا وهناك اربع من انصاف القباب بجوار هذه القبة المركزية ، تستقر كل نصف قبة على كل جدار من القبة الاساسية مما اعطى الجامع حجما اكبر ، وتم توسيع هذه الانصاف قباب باضافة نصف قبة صغيرة الى كل منها . كما يوجد اربعة ابراج ونصف برج موجودة في الزوايا التي تقترب فيها انصاف القباب بعضها الى بعض ، وهذه الابراج وان كانت شكلا جماليا هاما الا ان من وظيفتها ان تمنع انفراج الاقواس . وفي المقبرة التي تقع خارج الجامع يوجد ضريح الامير محمد بن السلطان سليمان القانوني . وقد خفف سنان من حدة الكتلة الثقيلة التي تظهر في الجوامع التي بنيت قبله ، خففها عن طريق استخدام الأروقة الجانبية .

وبهذا الجامع وصل المعمار سنان ـ لاول مرة ـ الى نظام الجامع ذي القبة الضخمة أو « الجامع ذي التخطيط المركزي » . وجامع شهزاده ، هو اول جامع كبير يقوم سنان ببنائه او كما يقول هو بنفسه ان جامع شهزاده هو اول عهده بالاعمال الكبيرة .

اما جامع السليمانية فهو من اشهر الاعمال المعمارية في عهد السلطان سليمان القانوني ، بل وفي التاريخ العثماني كله ، ويمثل اكثر مراحل المعمار العثماني تطورا . بناه سنان في استانبول عام ١٥٥٧م ، باسم السلطان . واختار لبنائه ربوة تتحكم في كل من الخليج الذهبي والبسفور . والجامع ـ بكليته من مدارس ومستشفى وغيرها ـ يعد ثاني كلية تبنى في استانبول بعد الكلية التي ابتناها السلطان محمد الفاتح لجامعه .

الجامع في كلية السليمانية هو محورها . تقوم خطته على مربع قائم مكون من مساحتين ، واحدة منها الصحن ، والاخرى ، الجامع نفسه . الصحن على اثنين . داخلي وخارجي . اما الداخلي فبثلاثة ابواب واحد في الواجهة الرئيسية في الوسط ، والاثنان الاخران في الواجهتين الجانبيتين . والباب الاوسط تذكاري في اعلاه تاج ، وهذا الباب يعد في حد ذاته اثرا معماريا مستقلا بفنيته ونقوشه وتزيينه .

ارض الصحن الداخلي في جامع السليمانية مفروشة بالرخام ، تحيط به اروقة ذات (٢٨) قبة و (٢٨) قوسا ترتكز على مجموعة من الاعمدة الجرانيتية والرخامية . واهم التزيينات في قسم الصحن هو الحليات الخزفية الموجودة على عشر نوافذ في مكان الجماعة المتأخرة . كما يعد هذا الخزف اجمل نماذج الخزف في القرن السادس عشر .

اعمال المعمار سنان في البلاد العربية :

البلد	العدد	النوع
مكة المكرمة	١	جامع
مكة المكرمة	١	مدرسة
مكة المكرمة	٢	دار القراء
مكة المكرمة	١	رباط خيل بعين ماء
مكة المكرمة	١	مطعم خيري
المدينة المنورة	١	مطعم خيري
القدس	١	جامع
القدس	١	مدرسة
القدس	١	مطعم خيري
البصرة	١	جامع
دمشق	١	جامع
دمشق	١	مدرسة
حلب	٢	جامع
طريق حلب	١	قصر
طريق حلب	١	ضريح
طريق حلب	١	تكية
باياس طريق حلب	١	جامع
باياس طريق حلب	١	مدرسة
باياس طريق حلب	١	حمام



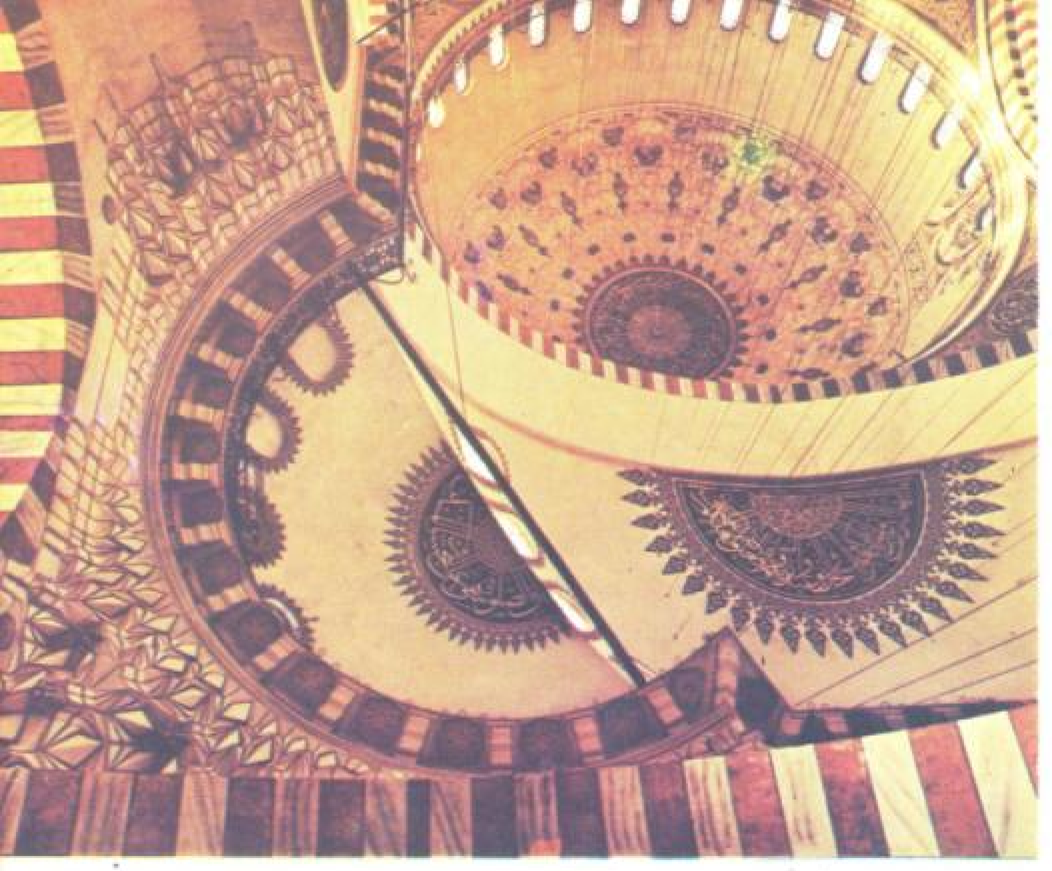
جامع صقوللو محمد باشا .. منظر داخلي

وفيما يتعلق بخطوط جامع السليمانية ، فقد عهد المعمار سنان بها الى اشهر خطاطي عصره وهو الخطاط حسن افندى جلبي القره حصارى . وهو تلميذ وعبد رقيق لاستاذه الخطاط العظيم احمد بن قره حصارى وتسمى باسم استاذه بعد ان اعتقه هذا وتبناه , كما عهد سنان بصنع النوافذ الملونة البديعة بالجامع الى الفنان ابراهيم المشهور بلقب سرخوش .

استخدم سنان في بناء جامع السليمانية نظام القبة الوسطى واثنين من انصاف القباب . تبلغ هذه القبة الوسطى في ارتفاعها من الارض ٥٣ مترا اى بزيادة ستة امتار عن قبة ايا صوفيا ارتفاعا . ويبلغ قطرها خمسة وعشرين مترا ونصف متر « ٢٥,٥م » تغطي مساحة الجزء الداخلي من الجامع وهو مقام على ٦٣×٦٨ مترا ، والجامع ـ ككل ـ مبنى من الاحجار المنتظمة القطع .

ركز سنان في جامع السليمانية على كل اساليب عصره ليبرز تأثير المكان الداخلي قويا باكثر مما فعل من قبل في جامع شهزاده . كما وضح اهتمام سنان في السليمانية باظهار عوامل التأثير الصوتي كما وجه سنان اهمية كبيرة في هذا الجامع ـ الذى يعتبره رمزا لفنيته النضجة ـ الى نظام التهوية بحيث جعل عملية التهوية فيه تتم بسرعة وبسهولة .

اما عن مآذن الجامع فنقول ان في الجامع مآذن كل منها في زاوية من زواياه : اثنتان موجودتان في الزاويتين الكائنتين في الواجهة الامامية من الصحن ، وهما قصيرتان نسبيا ، وفي كل واحدة منها شرفتان . والمئذنتان الاخريان الموجودتان في جانب الجامع اكثر طولا وفي كل منها ثلاث شرفات . وبذلك يكون في جامع السليمانية اربع مآذن ترمز ، كما اراد لها سنان ، الى ان السلطان سليمان القانوني هو رابع السلاطين العثمانيين منذ فتح استانبول . وبهذه المآذن الاربع ، عشر شرفات ، ترمز ـ كما اراد لها سنان ـ الى ان السلطان سليمان القانوني هو عاشر سلاطين آل عثمان منذ عثمان





جامع السليانية .. منظر
داخلي يبرز دقة نظام
التغطية (الى اعلا)

جامع وضريح شهزاده
محمد في استانبول (الى
اليسار)

وعلى الصفحة المقابلة
جامع السليمية منظر
داخلي .



مؤسس دولة العثمانيين .

يلفت النظر في المآذن ، انها ليست في ارتفاع واحد ، وان المعمار سنان قد جعل المئذنتين القريبتين من القبة طويلتين ، والأخريين اقصر منهما . يقصد سنان بذلك يعطي للجامع الشكل الهرمي بحيث تفرض الصورة الظلية للجامع (السلويت) بشكلها الهرمي هذا نفسها على الخليج الذهبي في استانبول ، بل على استانبول ذاتها .

والكلية السليمانية تحتوى على جامع السليمانية ـ دار الطب (وهي مدرسة عليا لتدريس الطب) ـ المدرسة الاولى ـ المدرسة الثانية ـ كتاب الصبيان ـ المدرسة الثالثة ـ المدرسة الرابعة ـ مدرسة الملازمين ـ دار الحديث ـ حمام السليمانية ـ دار الشفا (مستشفى) ـ دار الضيافة ـ دار الطبخ ـ دار القراء (لتدريس القرآن الكريم : بقراءاته ورواياتها) ضريح السلطان سليمان ـ ضريح حرم السلطان (زوجة السلطان سليمان القانوني) ـ ضريح المعمار سنان ـ عين ماء (سبيل) .

لماذا بنى جامع السليميه ؟

اخيرا فان جامع السليمية بأدرنه هو اعظم ما بنى سنان . وقد بناه بناء على امر السلطان سليم الثاني الذى خلف والده سليمان القانوني في حكم الدولة العثمانية . وقد اختار سنان اعلى ربوة في ادرنه ليقيم عليها الجامع بحيث يمكن مشاهدته من كل انحاء المدينة . بدأ سنان بناء الجامع عام ١٥٦٨م وكان عمره (٨٤) عاما وانتهى من بنائه عام ١٥٧٤م .

وقد وصف ارنست دييز ، العالم المشهور في تاريخ العمارة هذا الجامع بقوله : « ان مزايا تأثير المكان والحجم والارتفاع والتجمع والضوء ، يجعل من جامع السليمية في ادرنه ، اروع الآثار المعمارية في العالم اجمع .

اما سنان نفسه فيقول عن حوافز ابداعه في جامع السليمية : « ان المعماريين الآخرين يقولون : اننا متفوقون على المسلمين لان عالم الاسلام يخلو من قبة عظيمة مثل قبة ايا صوفيا ، وان بناء مثل هذه القبة الضخمة في بلاد الاسلام امر غاية في الصعوبة . وكان لكلامهم هذا تأثيره المؤلم في قلب هذا العبد العاجز ، لذلك بذلت الهمة العالية في بناء هذا الجامع ، وبعون الله ، ثم بتشجيع السلطان سليم خان قمت باظهار المقدرة ، واقمت قبة هذا الجامع اعلى من قبة ايا صوفيا بستة اذرع واعمق باربعة اذرع » .

غطى سنان المكان كله في الجامع بقبة واحدة قطرها ٣١,٥ مترا دون اللجوء الى انصاف القباب التي كان استخدمها من قبل في جامعي شهزاده والسليمانية .

مآذن السليمية ترتفع كل منها ٧٠.٨٩ مترا وهي اربع دقيقة نحيلة ، تقع كل منها في زاوية من زوايا الجامع الاربع ، وكل منها ذات ثلاث شرفات . المئذنتان الواقعتان ناحية الباب الرئيسي .

يتم الصعود الى شرفات كل منها ـ على حده ـ عن طريق ثلاثة سلالم مستقلة عن بعضها اما المئذنتان الاخريان فلكل منها سلم واحد .

ولا يوجد في العالم مئذنة اعلى من مئذنة جامع السليمية ، الا مئذنة جامع قطب منار في دلهي . وهو الجامع الذى اقامه اتراك الهند في القرن الثالث عشر الذي يبلغ ارتفاع مئذنته (٧٢,٥٠) مترا ، الا ان مئذنة السليمية دقيقة الصنع في حين ان مئذنة قطب منار سميكة حتى انها تشبه ابراج قلعة ارتكزت على قاعدة يبلغ ارتفاعها (١٤) مترا .

وجامع السليمية مبنى على شكل كلية فهناك في داخل الصحن الواسع المحدد بجدران حجرية عدة مبان هي : الكتاب (مدرسة الصبيان) ، ودار القراء ، ودار الحديث ، ومدرسة .

منبر الجامع وميضأته من الرخام . وبالمنبر تصنيع فني رائع . وقد استخدم سنان الخزف في الجامع استخداما فنيا باهرا ، يشهد على ذلك محفل السلطان الواقع على شمال المحراب ، داخل الجامع ، فكل جدرانه ـ اى جدران المحفل ـ مغطاه ، بالخزف حتى منتصفها .

وخطوط الجامع قام بها المولى حسن بن قره حصاري .

وفي جامع السليميه يقول اوقتاى اصلان ابا ، استاذ الفنون بجامعة استانبول : « لقد اوصل سنان سقف البناء المركزى المغطى بقبة واحدة ضخمة ، الى اعلى درجات التأثير ، وذلك في العمارة العالمية عامة ، وفي العمارة العثمانية خاصة » .

تلامذته يواصلون المسيرة

كان لسنان تلامذة كثيرون انتشروا في العالم الاسلامي وشيدوا عدة اعمال هامة منهم على سبيل المثال ، المعمار يوسف ، الذى استدعاه بأبور شاه الى الهند ، ليبني اعمالا عظيمة في مدن الهند مثل دلهي واكرا . كما اثر في فنانين معماريين آخرين وفي هذا يقدم لنا الرحالة العثمانية اولياجلبي مثالا في رحلته الى مصر

في القرن السابع عشر فيقول : « ان جامع اسكندر باشا في القاهرة جامع عثماني الطراز لطيف جدا ، تم بناؤه تقليدا لخطة المعمار سنان في جامع رستم باشا باستانبول كما ان تلامذة سنان قلدوه في بناء جامع السلطان أحمد باستانبول والذى يطلق عليه الاوربيون اسم الجامع الازرق . »

استمرت مدرسة سنان في العمارة العثمانية منذ ان بدأها هو في اوائل القرن السادس عشر وحتى الربع الاول من القرن الثامن الميلادى ، وهو الوقت الذى وصلت فيه مؤثرات حركة النهضة الاوربية الى البلاد العثمانية وسيطرت على الحياة الفنية فيها .

والمعمار سنان عبقرية فنية قل وجود مثلها . فقد ترك اعمالا كثيرة تشهد كل منها بالاصالة ويسود اعماله جمال وتنوع مدهشان . ومعرفته العميقة بتكنيك الهندسة وفهمه العلي للفن ورقة ذوقه ، قد مكنه كل ذلك من اضافة اشكال جديدة للفن المعمارى ، وجعله يتمكن من ايجاد نماذج تكتيكية لم يعرفها سابقوه . ويكفي تناول الميضأة او المحراب او حتى الباب او غيره من الاعمال الجزئية الصغيرة في عمله الفني ، وفحصها ودراستها ، حتى يتبين لنا قدرة وعظمة المعمار سنان . ففي هذه الاعمال الصغيرة يستلفت الانظار بل ويثير الدهشة ، ذلك التناسب العام العظيم الذى يسيطر على العمل الفني ، ونفس الكلام يقال على اعماله الفنية الكبيرة ايضا .

عرف سنان كيفية التخلص في كل تكويناته من الابتذال والتكرار والتصنع والتقليد الشكلي وله اي لسنان - سيطرته الواضحه على تناسب الاشكال والتكوينات ، وكذلك له قدرته الرائعة على تناسب الخطوط العامة في اعماله الفنية .

كان سنان يستخدم كل العناصر المعمارية في شكل عضوى . فالقوس او القبة او العمود لا ينبغي - عنده - ان تقف عند دورها فقط كعضو في مبنى ، بل يجب ان تكون في نفس الوقت ايضا عنصرا جماليا يخفي دور التكنيك ، فكتل العواميد الضخمة في المبنى والمسماة في اللغة التركية اقدام الفيل ، وكذلك الجدران الكبيرة ، وانصاف القباب المحيطة بالقبة الكبيرة ، يؤدى كل منها دورين جماليا وتكتيكيا .

اما خططه ، فانها رغم بساطتها نتاج نظرة عبقرية ، تنصهر في شكل تام مع المشكلات التكتيكية وجميع عناصر البناء يرتبط بعضها بالبعض في شكل مدهش ، ولا تعطي ادنى فرصة للصدفة .

والقبة المركزية في فن المعمار سنان ، تقدم اتساعا كبيرا مريحا . والكتل الحجرية كالعواميد او القواعد الضخمة ، لا تتعب النظر بثقلها ، لان سنان يتفاداها بفنية ذكية ، وهو حريص على ان يستخدم فنه في اظهار كل شيء في عمله الفني رشيقا ظريفا انيقا ، علما بان المعمار سنان كان عزوفا في كل اعماله عن التكلف في الزينة مخالفا بذلك اصول الفن المعمارى البيزنطي ، بل والسلجوقي ايضا .

وعن تفوق سنان على المعمار البيزنطي يقول استاذ الفن التركي جلال اسعد : « اهتم سنان ايضا بالاجزاء الخارجية للابنية ، على عكس الفن المعمارى البيزنطي الذى تشكل فيه الاجزاء الخارجية منظرا ثقيلا غير متسق بعضه مع البعض الآخر . وان مقارنة بين اياصوفيا (كنيسة بيزنطية في استانبول حولها السلطان محمد الفاتح الى جامع ، ثم حولت بناء على اتاتورك عام ١٩٣٥ الى متحف) وهي مثال الفن البيزنطي ، وبين جامع السليمانية للمعمار سنان ، ليبين ويوضح - من الوهلة الاولى - مدى الفرق الكبير بين الفنين المعماريين البيزنطي والعثماني ، اذ ان منظر ايا صوفيا يفتقد الاتساق والظرف والاناقة ، ويبدو فيه الثقل الفني ، على عكس جامع السليمانية الذى يبدو متسقا ظريفا انيقا ، وتشكل انصاف القباب المتوالية فيه حتى القبة المركزية الى قبة الجامع ، منظرا يتسم بالسلامة ، وتعكس منظرا ظليا (سلويت) هرميا متوازنا . كما ان المآذن الاربع في السليمانية تبدو وكأنها تجمع خطوط الهرم المائلة محتوية بينها مثلثا اكبر من المثلث المحيط بالبناء .

موت سنان

مات عام ١٥٨٨م وعمره يقارب المائة ، بعد ان عاصر خمسة سلاطين هم : بايزيد الثاني وسليم الاول وسليمان القانوني وسليم الثاني ومراد الثالث . وخلفه في منصبه تلميذه داود اغا . مات المعمار سنان فأرخ لتاريخ وفاته ، صديقه النقاش ساعي مصطفى جلبي بقوله :

كجدى بود مده جهاندف بير معماران سنان

روحي ايجون فاتحه احسان ايده بيروجوان

ومعناها :

مات سنان استاذ المعماريين في هذا الزمان

فاحسنوا الى روحه ايها الكهول والشبان بقراءة الفاتحة .

■■

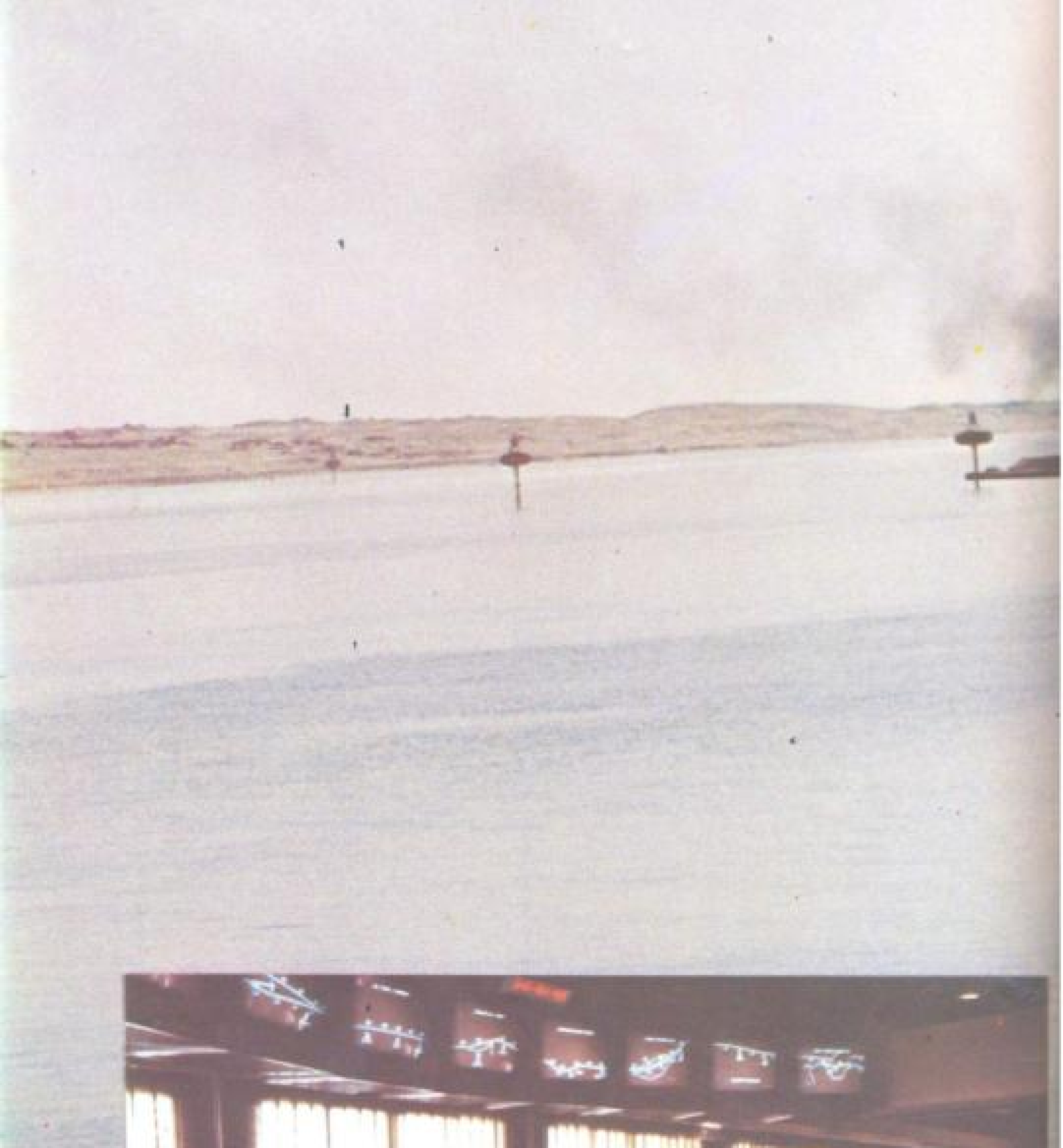
د . محمد حرب

قناة السويس الجديدة



استطلاع : منير نصيف   تصوير : عبد الناصر شقره

والجديد في هذا الشريان الملاحي الحيوي هو ماتم إنجازه في اطار المرحلة الاولى من مشروع تطويره لسايرة القفزة التي حدثت في احجام ناقلات البترول العملاقة والشاحنات الضخمة .. وهذه تفريعة الدفرسوار .. احدى التفريعات الخمس التي حققت ازدواجا لقناة السويس على مدى سبعة وستين كيلو مترا اي ٣٥٪ من طولها .. والصورة الاخرى لصالة المراقبة الالكترونية للسفن العابرة للقناة .. احدث اضافة لضمان سير السفن في الممر الملاحي بأمان .





« التغيير الذى يحقق في مسيرته الأمنيات .. هو الشيء الوحيد الذى يشعر معه الانسان ان الحياة مازالت حوله مستمرة . » هذا الكلام الذى قاله هربرت جورج ويلز منذ اكثر من نصف قرن ، ينطبق على ما حدث ويحدث في المنطقة الهامة من الأرض العربية .

في قناة السويس .. هذا الشريان المائي الذى شقه الفلاح المصرى باظافره منذ اكثر من مائة عام ، وحول القناة وفوقها وفي اعماقها ، لمسنا هذا التغيير الكبير الذى طرأ على كل شيء عندما ذهبنا اليها نزورها للمرة الثالثة في أقل من ثمانية اعوام ..

كانت المرة الاولى في اعقاب حرب اكتوبر (رمضان المبارك) بعد سنوات المعاناة والهوان يومها وقفنا نرقب ما يمكن ان يصنعه هذا الشعور العظيم بوحدة المصير بين ابناء الأمة العربية من خليجها الى محيطها .. عمل هائل ما كان ليتحقق بعد العبور ، الا بعبور أخر فوق كل الحواجز .. يومها ، كان العمل قد انتهى او كاد في تطهير القناة من أثار حرب مدمرة استمرت سبع سنوات بلا هواده ، وراح ضحيتها الألوف من ابنائنا الذين وقفوا صامدين يقاومون احتلالا لم يكن احد يتصور ان له نهاية ..

وكان الهدف هو اعادة فتح قناة السويس أمام الملاحة العالمية مهما كان الثمن .. ومهما كانت التحديات .. ونجحت مصر يساندها الاخوة العرب في انجاز العمل الكبير .. وفي اقل من خمسة عشر شهرا ، كانت القناة قد اصبحت صالحة للملاحة ، وهو رقم قياسي اذا قورن بحجم التخريب الذى احدثه العدو بالقناة ومرافقها ووحداتها البحرية .. فقد كانت هناك سفن وكراكات غارقة في مياهها ، وكانت هناك الغام ومفرقعات كامنة على شواطئها وفي قاعها .. وكان هناك بعد ذلك سد الدفرسوار الحجرى ، الذى بناه العدو لاغلاق القناة اولا ، ولكي يضمن بعد ذلك جسرا صلبا يعود منه عبر القناة اذا ما تعرض للهزيمة ! وكان الافتتاح لقناة السويس يوم ٥ يونيو ١٩٧٥ .

الوجه الاخر

وسجلت « العربي » القصة كاملة في حينها ❋

ولكن كان للقصة بقية .. كان لها وجه أخر لم يكتمل .. ماذا عن التخريب والدمار الذى حل بمدن القناة ؟ القنابل والقذائف التى ظلت تتساقط على المنطقة التى هجرها اهلها بعد ان تحولت الى ركام وانقاض في بور سعيد والسويس والاسماعلية ..

وعدنا الى منطقة القناة للمرة الثانية لنسجل بالكلمة والصورة عودة الناس الى مدنهم والى بيوتهم الجديدة .. وكانت صورة أيضا جديدة مشرقة لما يمكن ان يحققه التضامن العربي من اجل التخفيف من الام هؤلاء الذين صمدوا وصبروا وانتظروا .. وقامت احياء جديدة ، او مدن جديدة على طول القناة .. مدينة فيصل .. ومدينة الشيخ زايد .. ومدينة الكويت وغيرها .. وجاء اهل القناة ليسكنوا البيوت الجديدة ويبدأوا حياة جديدة .. حياة عمل وبناء من اجل مستقبل افضل ، مع فجر جديد ..

وانقضت ست سنوات طويلة حافلة ، عدنا بعدها الى قناة السويس بعد اسابيع قليلة من اليوم الذي احتفلت فيه القناة بافتتاحها الجديد في اليوم السادس عشر من ديسمبر عام ٨٠ وركبنا القناة وجلنا في مياهها

❋ العربى العدد رقم ١٩٥ ـ فبراير ١٩٧٥ م

❋ العربى العدد رقم ٢١٥ ـ يناير ١٩٧٦ م



الفلاح المصرى حفر القناة بأظافره منذ اكثر من مائة عام .

ومـن حولهـا .. قنـاة جديدة جديدة .. فى حجمهـا .. فى معداتها وتجهيزاتها .. فى كل ما يتصل بالملاحة فيها من قريب او من بعيد .. اذن فهذا هو نتاج العمل الشـاق الذى استمر مدة خمس سنوات متصلة من اجل تطوير القناة وتعميقها وتوسيعها ..

شطبوها من حساباتهم !

انه العام السـادس الذى يمر على عودة الملاحـة فى القناة يوم ٥ يونيو ١٩٧٥ بعد نومة طويلـة استمـرت ثمانى سنوات ، نسى العالم فيها القنـاة او شطبهـا من حساباته .. حتى خيل للبعض ان هذا الممر المائى قد فقد قيمتـه كشريان حيوى يربط بين الشرق والغـرب .. رحلت عنه السفن التـى كانـت تعبره حاملـة رفـاهية الانسان وتقدمه ! لقد غابت السويس ، ولـكن دورهـا الكبير لم يغب عن انظار ورؤوس هؤلاء الذين عرفوا فيها هذا الطريق الحيوى الذى ظل على مدى قرن من الزمان او يزيد يلعب دورا هاما فى اقتصاديات تشغيل السفن وتطوير التجاره المنقوله بحرا .. وكيف اثر غياب القناة على الموانىء بصفة عامة والموانىء فى دول الغرب بصفة خاصة وكيف تضاعفت تكاليف النقل والنولون وقيمة التأمينات على السفن والبضائع .. وكيف فقدت الكثير من الدول الاسواق التقليدية لمنتجاتها ..

وآثار اخرى كثيرة نتجت عن غيبة قناة السـويس منها ايضا تكاليف نقل البترول ، وبترول الشرق الاوسط بصفة خاصة .. فقد عادت السفن الى الدوران

للتاريخ !

ضربت الفـأس الاولى فى اعمال حفـر القناة فى ارض فرما (بور سعيد حاليا) ، يوم ٢٥ ابريل عام ١٨٥٩ . وفى ١٥ اغسطس عام ١٨٦٩ ضرب الفلاح المصرى المعول الاخير فى السد الذى اقيم امام مياه البحر الاحمر فى الشلوفه بالقرب من السـويس .. وفى يوم ١٨ اغسطس عام ١٨٦٩ تلاقت مياه البحـرين الأبيض المتوسط والاحمر ، ونتج عن هذا اللقاء ذلك الشريان الحيوى للملاحة العالمية الـذى افتتح رسميا يوم ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ .





مدخل القناة عند مدينة السويس على البحر الاحمر .

القناة بعد الانتهاء من المرحلة الاولى من مشروع تطويرها .

شاحنة ضخمة للحاويات containers اثناء عملية تغيير المرشدين في القناة .





حول الطريق القديم .. طريق رأس الرجاء الصالح مع شواطىء افريقيا البعيدة الطويلة .. ولم تكن سفننا عادية في هذه الآونة التي اعقبت اغلاق القناة، فقد كانت ناقلات عملاقة وسفنا كبيرة ، كانت كلها تقطع رحلة الذهاب والعودة في ظل ظروف صعبة حافلة بالمخاطر .. ومع هذه الظروف بطبيعة الحال ارتفعت تكاليف التأمين وتكاليف النقل ..

البديل الوحيد !

ولم يكن امام العالم كله الا ان يفعل غير ما فعل ، فالطريق القديم البعيد ، كان البديل الوحيد امام الملاحة العالمية رغم كل الصعاب ، وكل ما صاحبها من خسائر مادية قدرت في مؤتمر الامم المتحدة المنعقد في جنيف في اعقاب حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، بحوالي ١٧٠٠ مليون دولار سنويا ، تحملتها الدول المستوردة للبترول بطريق البحر ، وفي مقدمتها الدول الواقعة غرب أوربا وايضا الدول المصدرة او المستوردة للبضائع الجافة .

ولكن متى بدأ الاتجاه الى بناء سفن الشحن الضخمة وناقلات النفط العملاقة ؟ وما مدى ارتباط هذا التطور في صناعة السفن بعملية تعميق وتوسيع قناة السويس ؟

يقول المهندس مشهور احمد مشهور رئيس هيئة قناة السويس : « ان التطور الذى حدث في بناء السفن ، والاتجاه الى انتاج الناقلات والبواخر العملاقة بدأ قبل حرب يونيو عام ١٩٦٧ لاسباب اقتصادية في المقام الاول .. وقد كانت شركات الملاحة تسأل ، كما تعودت ان تفعل دائما عن حمولة السفينة المسموح بمرورها عبر القناة .. وعلى ضوء الامكانيات المتوفرة كانوا ينتجون سفنهم

« وكانت القناة في تطور مستمر ، فهي مثلا عند افتتاحها لاول مرة في ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٩ ، لم يكن عمق المجرى الملاحي فيها يزيد على ثمانية أمتار ومساحة القطاع المائي ٣٠٤ أمتار مربعة والغاطس المسموح بمروره للسفن لايزيد عن اثنين وعشرين قدما وثلاث بوصات .. وبقيت القناة على حالها حتى كان التأميم في ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ ، عندما اجريت عدة عمليات توسيع وتعميق لها ، كان آخرها في عام ١٩٦٤ عندما اصبح عمق القناة ١٣ مترا ، وازدادت مساحة القطاع المائي الى ١٨٠٠ متر مربع ، والغاطس المسموح به للسفن العابرة ٣٨ قدما ، اى انه كان في مقدور الناقلات حمولة ٦٠ ألف طن المرور في قناة السويس بعد اتمام هذا المشروع الاخير لتطويرها .

قبل العدوان الاسرائيلي

ويكمل المهندس مشهور القصة : « ولم نتوقف ، فلم يكن هذا التطوير الاخير للممر الملاحي هو هدفنا .. فقد كان الهدف دائما وسيبقى هو المضي في عمليات التطوير حتى تلحق قناة السويس بمتطلبات العصر ، وتساير التطور العالمي في بناء سفن الشحن الضخمة وناقلات البترول العملاقة . وعلى الفور بدأت الدراسات بالاشتراك مع بيوت الخبرة العالمية في عام ١٩٦٦ من اجل توسيع المجرى الملاحي وتعميقه بحيث يصبح قادرا على استقبال اكبر نسبة ممكنة من الاسطول العالمي للشاحنات وناقلات البترول الضخمة .. وكانت حمولة هذه الناقلات الجديدة قد وصلت في ذلك الوقت الى مائتي الف طن بعد الطفرة الكبيرة في بناء السفن .... وتقرر تطوير القناة بحيث تسمح بمرور هذه الناقلات .. وتم اعتماد المشروع بالفعل وبدأ العمل في تنفيذه في ٢٢ فبراير من عام ١٩٦٧ ، على ان يتم على مرحلتين تنتهي الاولى في عام ١٩٧٢ والثانية في عام ١٩٧٥ ... ثم كانت الحرب مع اسرائيل في ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وتوقف العمل

(شركاء)

قال المهندس مشهور احمد مشهور في حديثه عن رسوم المرور في القناة : « قناة السويس وشركات الملاحة شركاء ، وليس من مصلحتنا رفع رسوم المرور في القناة وخاصة بالنسبة للسفن الكبيرة . فيجب الا ننسى ان هناك وسائل اخرى للنقل بالقطارات وسيارات الشحن الكبيرة ، وهناك شبكات من الطرق البرية والخطوط الحديدية تربط بين دول أوربا وآسيا ، وهي منافس قوى للنقل البحرى ، ولو أن البحر كان وما زال اقدم وافضل وسيلة للنقل . من هنا كان التعاون بين قناة السويس وباقي القنوات من جانب وبين شركات الملاحة البحرية من الجانب الآخر وسيبقى هذا التعاون قائما ابدا من اجل دعم النقل بطريق البحر .



حفل افتتاح قناة السويس ، كما تخيله أحد الرسامين .

ثماني سنوات كاملة .... وبقيت القناة مغلقة طوال هذه الاعوام ولكن مشروع التطوير بقي حيا في اذهان العاملين بها ..

كان كل يوم يمر يزيدنا اصرارا على استعادة قناتنا ، وبعث الحياة فيها من جديد ، كنا نضع المشروع امامنا ونعدل فيه ونضيف اليه كلما رأينا حولنا ذلك التطور الهائل في بناء الناقلات الضخمة وفي حركة التجارة العالمية .. فترة عصيبة عشناها ، ولكن الأمل لم يتخل عنا للحظة واحدة حتى كان العبور واقتحام خط بارليف على الضفة الشرقية للقناة في حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ...

اكبر من السد العالي

« وبدأنا بعملية تطهير القناة على الفور ، حتى اذا ما انتهينا منها عدنا الى مشروعنا .. مشروع تطوير القناة وتوسيعها وتعميقها على ضوء الدراسات الجديدة التي تمت خلال غيبة قناة السويس عن العالم ، وغيبة العالم عنها .. وكان المشروع بصفة عامة يتفرع الى اربعة اجزاء او اربعة اقسام رئيسية .. الاول ، الحفر على الناشف ، اى ازالة الاتربة فوق سطح الماء وازاحتها شرقا او غربا بواسطة « البولدوزرات » او كاسحات الرمال ، وقدرت هذه المكعبات بحوالى ستة ملايين متر مكعب من الرمال الجافة ، وقام بتنفيذ هذا الجزء من المشروع الشركات المصرية .

اما الجزء الثاني فقد تمثل في هدم وازالة الجدار الحجرى او « التكسية » الذى يحمى جوانب القناة من الانهيار على الجانب الشرقي ، وهو الذى تمت فيه عملية توسيع القناة ، وقد بلغت اطوال هذه الجدران حوالى ١٣٥ كيلومترا ، وقام بتنفيذ هذا الجزء الثانى من المشروع الشركات المصرية أيضا .

ثم الجزء الثالث ، او بناء الجدار الحامى للقناة الجديدة ، وهو يبعد عن الجدار القديم بمسافة تسمح باستيعاب مرحلتى توسيع القناة .. المرحلة الاولى التى تمت في ديسمبر الماضى ، والثانية التى مازالت تحت



مبنى هيئة قناة السويس في بورسعيد .. هنا انتقل المجرى الملاحي الى ممر جديد او تفريعة جديدة اضافت الى القناة ثلاثة عشر كيلو مترا طولا داخل البحر عند بور فؤاد .



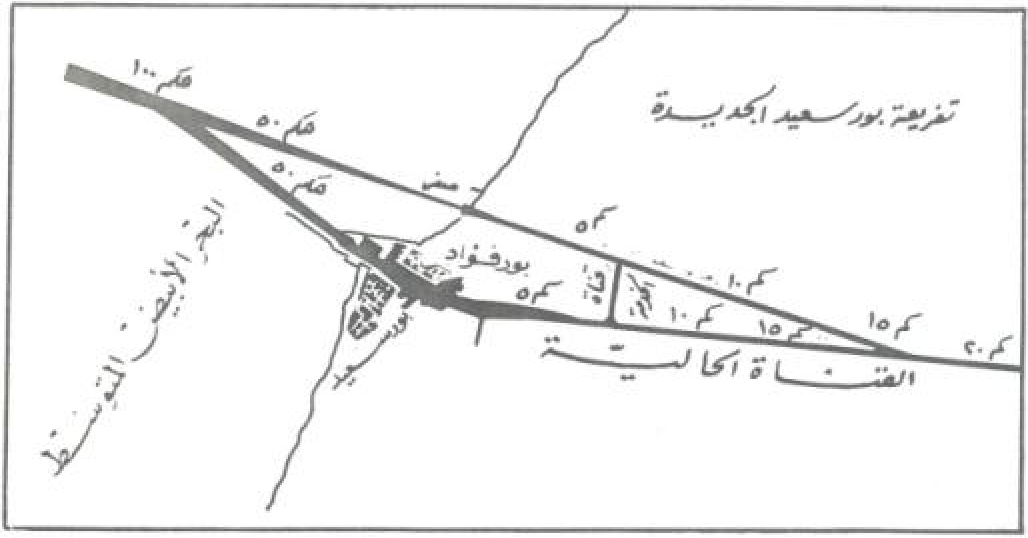
كانت القناة قبل غلقها تسمح بعبور ٧٤٪ من حمولة الاسطول العالمي من الناقلات المحملة ثم انخفضت هذه النسبة حاليا الى ٢٥٪ فقط نتيجة للتطور الذي حدث في احجام ناقلات البترول في غيبة القناة ، وبتنفيذ المرحلة الاولى سترتفع نسبة الناقلات المحملة التي يمكنها عبور القناة الى حوالي ٥٠٪ من الاسطول العالمي .

إحدى عمليات الحفر على الناشف في بور فؤاد تمهيدا للبدء في المرحلة الثانية من تطوير القناة .









الدراسة ، ويبلغ طول هذا الجدار حوالى ١٦٠ كيلومترا ، وقام بتنفيذ هذا القسم الثالث شركة القناة لاعمال الموانيء وشركات مصرية اخرى .

بقى الجزء الاخير ، وهو اعمال الحفر تحت الماء بالكراكات ، وبلغت جملة مكعبات التطهير في المرحلة الاولى حوالى ٦٠٠ مليون متر مكعب ، اى اكبر من حجم المكعبات التى استخدمت في بناء السد العالى ١٢ مرة مع فارق كبير ، فالاول ازالة ، والثاني ردم . وقد اسند هذا الجزء من المشروع بعد تقسيم العمل الى مناطق او قطع « Plots » الى شركات تطهير عالمية من اليابان وفرنسا وبلجيكا وهولندا وايطاليا والبرازيل . كما ساهمت كراكات هيئة قناة السويس في هذه العملية وانجزت ما يقرب من ٢٢٪ من حجم المشروع او ١٢٤ مليون متر مكعب .. وجاء وقت في ذروة التشغيل بلغ فيه مجموع الكراكات العاملة في القناة ٤٢ كراكه ، ١٢ منها ملك للهيئـة و ٢٢ كراكة يابـانيه وثمانـى كراكات لبقية الشركات الاجنبية الاخرى . »

القناة الجديدة

ولكن اين القناة الجديدة ؟

ويقول المهندس مشهور : « قناة السويس الجديدة في القطاع المائي الذى تضاعفت مساحته الى ٣٦٠٠ متر مربع وفي عمق القناة الذى وصل الى ٢٠ مترا ، وفي الغاطس المسموح به الذى اصبح ٥٣ قدما بحيث يمكن الآن مرور السفن بكامل حمولتها حتى ١٥٠ الف طن والسفن الفارغة حتى حمولة ٣٧٠ الف طن .

« وقناة السويس الجديدة ايضا في التفريعات الجديدة التى شملها مشروع تطوير القناة فقد تم انشاء ثلاثة تفريعات اضيفت للقناة لزيادة قدرة التصريف لعدد السفن المارة بها ، والتفريعة الاولى عند بور فؤاد وهي تبدأ من الكيلو ١٧ جنوبي بور سعيد متجهة شمال شرقي المدينة وبطول ٣٦،٥ كيلومترا منها ١٧ كيلومترا في الارض ، و ١٩ كيلومترا ونصف الكيلو في البحر .

احصاء

في اليوم العاشر في شهر فبراير من هذا العام بلغ عدد السفن التى عبرت قناة السويس منذ افتتاحها في يوم ٥ يونيو ١٩٧٥ ، ١١٠ الف و ٣٢٥ سفينة وناقلة بترول من مختلف الاحجام والحمولات . وكان مجموع حمولتها ١٢٩٦ مليون و ٣٩٦ الف و ٧٢٥ طنا .. احصاء .

٦٠ سفينة يوميا

يستغرق مرور الباخرة عبر القناة من السويس الى بور سعيد ١٤ ساعة ، وتستغرق الرحلة عبر طريق رأس الرجاء الصالح ٢٧ يوما . وتعد قناة السويس اهم القنوات البحرية في العالم تليها في الاهمية قناة بنما ، ثم قناة كييل في المانيا الغربية .

وهناك ثلاث قوافل تعبر القناة يوميا ، اثنتان من الشمال الى الجنوب ، اى من بور سعيد الى السويس ، والثالثة في الاتجاه المضاد .. ومتوسط عدد السفن في القوافل الثلاث يتراوح حاليا بين ٦٠,٥٥ سفينة يوميا .

« والتفريعة الثانية ، هي تفريعة بحيرة التمساح وتبدأ من الكيلومتر ٧٥,٥ الى الكيلومتر ٨١,٥ ، اى حوالى ستة كيلومترات .

ثم التفريعة الثالثه ، وهي تفريعة الدفرسوار ، وتبدأ من البكلومتر ٩٤,٥ الى الكيلومتر ١٠٤ اى حوالى سبعة كيلومترات .

« وهكذا اصبح هناك الان خمسة تفريعات لقناة السويس اذا اضفنا الى هذه التفريعات الثلاث ، التفريعتين اللتين كانتا موجودتان والاولى في منطقة البلاح من الكيلومتر ٥١ الى ٦١ والثانية بكبريت في البحيرات المرة الكبرى عند الكيلومتر ١١٤,٨٠٠ الى ١٢٢,١٠٠ .. وبذلك تكون قناة السويس قد حققت ازدواجا على مدى ٦٦ كيلومترا او نحو ذلك او ما يعادل ٣٥٪ من طولها .

تأمين الملاحة

« ولعل احدث ما اضيف الى قناة السويس هو المراقبة الالكترونية للملاحة في القناة ، ويستهدف هذا النظام زيادة درجة الامان للسفن العابرة وزيادة الكفاءة الاستيعابية اليومية للقناة عن طريق ربط مكتبي الميناء في بور سعيد وبورتوفيق ومكتب الحركة الرئيسي بالاسماعيلية بالسفن العابرة عن طريق عدة شبكات لاسلكية يتم بواسطتها نقل صورة تلفزيونية للسفن التى تعبر القناة الى مقر الحركة الرئيسي وبذلك يمكن تحديد مواقع السفن بدقة كما يمكن اعطاء انذار مبكر عند تخطي السفن للسرعة المسموح بها او عند خروجها عن المسار المحدد لها مع المحافظة على الفواصل المقررة بين السفن في القافلة مما يضمن استغلال سعة القناة لاقصى حد ممكن ! »

قال المهندس مشهور وهو ينهى حديثه : « ارجو ان تكونوا قد رأيتم معي القناة الجديدة ؟ »

قلنا : « وكم تكلف هذا العمل الكبير ؟ ..

قال : « حوالى الف مليون دولار منها ٢٩٧ مليونا بالعملة الاجنبية . وقد مولت الهيئة المشروع عن طريق بعض القروض الاجنبية ، وكان القرضان الاول والثاني مع اليابان بما يعادل ٢٧٩ مليون دولار ، كما تم عقد بعض القروض مع الدول العربية وصناديق التنمية .. كما كانت هناك قروض خاصة باتفاقات ثنائية بين مصر وبعض الدول الاجنبية بلغت ٢٥ مليون دولار ، وقدمت وكالة المعونة الامريكية ٥٠ مليون دولار .. المهم ان التكاليف الفعلية لانجاز المرحلة الاولى من توسيع وتعميق القناة لم تتجاوز التقديرات التى وضعت قبل بدء العمل منذ خمس سنوات رغم الارتفاع المستمر في اسعار المعدات والتجهيزات .. والتكاليف كلها على اية حال لاتزيد على ايراد سنة واحدة من دخل قناة السويس وربما اقل بكثير مما نتوقعه مع نهاية هذا العام .. عام ١٩٨١ ، فسوف يصل دخل القناة الى ما يزيد على الالف مليون دولار باذن الله » .

متى يبدأ تنفيذ المرحلة الثانية في تعميق وتوسيع القناة ؟

ـ لابد من الانتهاء من دراسة وتقييم نتائج المرحلة الأولى قبل الشروع في تنفيذ المرحلة الثانية . وهي عندما تكتمل فسوف يصل القطاع المائي للقناة الى ٥٢٠٠ متر مربع ، وعمقها الى ٢٤ مترا ، وغاطس السفينة المسموح بمرورها الى ٧٦ قدما والحمولات حتى ٢٦٠ الف طن كاملة الحمولة .

وهكذا عادت قناة السويس الى الخريطة الملاحية .. وعادت السفن الى القناة الجديدة . ■■

منير نصيف





في معهد المعلمات

ألف معلمة تحت الإعداد

استطلاع : يوسف شهاب
تصوير : فهد الكوح

ثلاث صور .. من دورة الحياة اليومية داخل المعهد .. الاولى من اليمن لاحدى الطالبات وهي تمارس حياكة بساط يدوي ، والى اليسار تبدو اربع طالبات تمارس هوايتهن الموسيقية وفي الاسفل مجموعة من طالبات من شعبة المكتبات داخل الفصل الدراسي .



هذه رحلة « داخل معمل » تكوين المعلمات في الكويت ، تعكس احد وجوه الشوط البعيد الذى قطعته المرأة الكويتية على طريق اسهامها في بناء المجتمع وتشكيله .

كانت المدرسة الوسطى ، هي نواة المدارس للبنات ، ثم تفرعت منها مدرستان القبلية والشرقية ، وبعدها اخذ تعليم الفتاة يشق طريقه وسط محاذير اجتماعية أدت الى التريث والانتظار قليلا ، قبل الانخراط في سلك التعليم لدى الفتاة . لكن هذه المحاذير سرعان ما انقشعت حينما عرف البيت الكويتي قيمة العلم على حقيقته وسمح للفتاة ان تختار ما يناسبها من فروع العلم وتخصصاته ، هذا الاقبال دفع بمجلس المعارف آنذاك ان يقوم في عام ٥٣ ـ ٥٤م بادخال فصل للمعلمات اسوة بالبنين وتشجيعا لهن على تحقيق رغباتهن في ممارسة التعليم داخل المدارس فانشىء فصل للمعلمات كان النواة الاولى التى انطلق منها ركب معاهد المعلمات منذ بدايته وتطوره الى ما هو عليه الان . لقد استقبل اول فصل للمعلمات ست طالبات ممن نجحن في امتحان الشهادة الابتدائية وسمى الفصل « اولى معلمات » تتقاضى فيه الطالبة الكويتية ٢٠٠ روبية شهريا اى ما يعادل ١٤ دينارا ، تشجيعا لهن للاقبال على هذا الفصل ليتخرج اكبر عدد ممكن من المعلمات اسوة بالمعلمين ، وكانت تدرس في هذا الفصل المواد التربوية وعلم النفس الى جانب المواد الدراسية الاخرى كاللغة العربية والدين والرياضيات وغيرها ، وقد استطاع هذا الفصل ان يستقطب الطالبات مما ادى زيادة الفصول ليصل عددها في عام ٥٥ ـ ٥٦م الى ثلاثة فصول وزعت عليها ٢٢ طالبة ، كانت مدة دراستهن ثلاث سنوات تتخرج بعدها الطالبة كمدرسة للمرحلة الابتدائية .

شعور .. باهمية المعلمة

لان الدولة حريصة على توفير اكبر عدد من المعلمات الكويتيات ولانها ايضا تدرك ان الواجب يقتضى الاهتمام بالمعلمة الكويتية ، فقد خطت نحو تطوير معهد المعلمات ليكون في مستوى يتناسب وطموحاتها وقادرا على مواجهة المرحلة الجديدة والمتطورة من التعليم في البلاد ، فالاكتفاء الذاتي امنية وامر مطلوب ولذا فقد وضعت وزارة التربية نصب اعينها ضرورة الارتقاء بمعهد المعلمات ليقف الى جانب معهد المعلمين ، وكلاهما يؤدى دوره تجاه المجتمع . فالمدرس والمدرسة يقع عليهما العبء الكبير في صناعة الجيل الكويتي القادر على تحمل مسؤوليته ، عقلا وخلقا وسلوكا وعلما ينتفع به الآخرون وينفع صاحبه .

هذا التطوير بمعهد المعلمات ، « تبلور مع مطلع العام الدراسي ١٩٧٣/٧٢م حين بدأ المعهد اول خطواته العلمية والتربوية وكان عدد الطالبات آنذاك ١٤٧ طالبة . اما القبول في معهد المعلمات (ومثله معهد المعلمين) فقد وضعت له عدة شروط منها ان تكون الطالبة كويتية الجنسية ، وحاصلة على الشهادة الثانوية او ما يعادلها ثم التفرغ للدراسة بالاضافة الى اجتياز اختبارات القبول وضرورة توفر اللياقة الصحية للدراسة في الشعب التى يلتحق فيها الطالب او الطالبة ..

تطور .. آخر

ولم يكتف معهد المعلمات بما وصل اليه ، بل استمر في تطوره منذ العام الدراسي ٧٧ ـ ٧٨م بتطبيق نظام

(احدى طالبات المعهد أمام جهاز المايكرسكوب في مختبر العلوم .)





تحرص وزارة التربية على تزويد المعهد بكافة الأجهزة العلمية الحديثة ـ الصورة لطالبة أمام جهاز المايكرسكوب تتابع من خلال الشاشة .

المقررات حيث تبع ذلك توسع بالشعب العلمية والتربوية لتصبح ست شعب هي : الآداب ، العلوم ، المكتبات ، التربية الرياضية ، التربية الفنية ، رياض الاطفال للمعلمات ، كل هذه الشعب من اجل احتياجات وزارة التربية من المدرسات في جميع المواد بالمرحلة الابتدائية ورياض الاطفال .. ثم ان كل شعبة منها تتمتع بشروط خاصة للقبول فيها ، كما انها ايضا تقوم بتخريج المدرسات كل حسب تخصصها ، وحتى القبول في اي شعبة يخضع لشروط خاصة سواء فيما يتعلق بالنسبة المئوية او في توفر الشروط الصحية اللازمة لكل واحدة منها ..

يحرص المعهد على وضع برامج خاصة ، ومدروسة في التدريب العملي داخل المدارس ، هذا ما قالته لنا السيدة مريم الخالد ، مديرة معهد المعلمات ، التي واصلت حديثها قائلة : ان معهدنا يهتم بالناحية العملية تماما كاهتمامه بالناحية النظرية ، فهما صنوان لا نستطيع ان نفصل ناحية عن اخرى . فاعداد المدرسة (.والمدرس ايضا) يحتاج الى تدريب عملي من اجل دراسة السلوك لدى الطلاب وكيفية التعامل معهم وكيفية اعطاء الدروس وترغيبهم اليها ، وتقف مديرة المعهد بعض الوقت ثم تضيف فتقول ، ان التدريب العملي يبدأ بعد التخصص مباشرة عن طريق توزيع الطالبات على المدارس الابتدائية كل مجموعة تحت اشراف معلمة لها باع طويل في ميدان التدريس . هذا هو دورنا الذى نحمل امانته ولابدلنا من تقدير اهمية الدور الحقيقي لرسالة التدريس ، واهمية المدرس في اعداد جيل المستقبل .

المرأة .. وفهم الطفل

ثم سعينا الى السيدة غنيمة المهيني المديرة المساعدة للشؤون الاكاديمية ، لنسألها عن رياض الاطفال ، فتجيب ان الاهتمام بالطفل امر ضروري ، لكونه سهل التشكيل كالعجينة ولذا فانه يحتاج الى اسلوب خاص بالمعاملة اشبه .. بالامومة .. وتستطرد قائلة : من هذا المفهوم فانه يجب ان تقوم المدرسة بتدريس رياض الاطفال بدلا من المدرس ، لكونها اقدر على فهم نفسية الطفل وتركيبه الفسيولوجي ، فرياض الاطفال يمكن اعتبارها مرحلة انتقال من حياة البيت الى نوع آخر هو الحياة المدرسية التي تهدف الى بناء شخصية هذا الطفل وتنمية قدراته الذهنية والجسمية بالاضافة الى تعليمه الاعتماد على النفس وتوفير الرعاية الصحية والتربوية له .

وتواصل المديرة المساعدة حديثها الينا .. فتقول : ان





تتلقى طالبة المعهد كافة انواع التخصصات العلمية والرياضية ، الصورة الى اليمن لمجموعة طالبات التربية البدنية والى اليسار بمجموعة اخرى من طالبات التربية الفنية والى اسفل طالبة تقوم بقياس المقاومة





براسطة جهاز .. الافو ميتر ـ اما الصورة الاخيرة فتبدو مجموعة طالبات في قسم السيارات وهو من المواد الاساسية بالمعهد .





التربية البدنية ، من المواد الاساسية بالمعهد ، والصورة لطالبة من شعبة التربية البدنية فوق جهاز المتوازي .

المعهد يهدف اول مايهدف الى إعداد مدرسة صالحة قادرة على تحمل مسؤولياتها تجاه النشء ، وقادرة ايضا على غرس روح المحبة والانتماء والخلق الرصين في مرحلة رياض الاطفال والابتدائية ، فهما مرحلتان تحددان مصير الطفل

نظام المقررات

يتبع معهد المعلمات في مناهجه الدراسية نظام المقررات الذي يقوم على تعيين عدد الوحدات الدراسية التي يجب اكمالها والنجاح فيها بالمستوى المطلوب كشرط للتخرج ، وكذلك تحديد المجالات الدراسية التي توزع عليها هذه الوحدات .. وللطالبة الحق في اختيار ما ترغب دراسته من بين المقررات الدراسية المعروضة حسب حاجته اليها واستعداده لها وفقا لنظام الاولويات المقترح في حدود العبء الدراسي المسموح به ، كما ان وزارة التربية تدفع مكافأة شهرية للطالبه تشجيعا منها لهن على الالتحاق بالمعهد واستمرار الدراسة فيه ..

وفي ركن جانبي من المعهد ، يوجد مبنى المكتبة وفصل دراسي لطالبات هذه الشعبة التي وجدت من اجل تخريج مساعدات لامناء المكتبات ، اما مبنى المكتبة فقد تجولنا بين اروقته والتقينا بالمسؤولة عنها .

وتحاورنا معها حول دور المكتبة بالنسبة لطالبات المعهد فقالت .. ان المكتبة تقوم بتوفير كافة احتياجات الطالبة من الكتب ، وتستقبلهن على مدار ساعات الدراسة اليومية ، وتضيف قائلة لدينا الان ما يقارب ١٠٠٤ كتاب باللغة العربية و ١٣٦٣ باللغات الاجنبية و ٥٢ مجلدا اجنبيا هذا بالاضافة الى المراجع الاخرى في شتى فروع العلم والمعرفة .

ونظرا لتطور التعليم في الكويت ، وتوسع الدولة في انشاء المدارس ، فان معهد المعلمات مستمر ايضا في تطوير مناهجه الدراسية وفي القيام بدوره المطلوب في اعداد المدرسات لمواجهة حاجة مدارس البلاد الى مدرسات من الكويت يقمن بدورهن الى جانب شقيقاتهن العربيات ، فالمعهد لم يقف في اى يوم من الايام عن مواكبة التطور التعليمي سواء التطور في بناء المدارس وزيادة اعداد الطالبات او في تطوير مناهج التعليم بما يتناسب وطموحات البلاد التعليمية ، فقد استطاع معهد المعلمات ان يقدم لمدارس الاطفال ومدارس المرحلة الابتدائية ١١٧ مدرسة في العام الدراسي ٧٣ ـ ٧٤ واستمرت هذه الزيادة في عدد الخريجات حتى بلغت ٣١٧ مدرسة في شتى التخصصات العلمية في عام ١٩٨٠ كذلك تطورت اعداد الطالبات المسجلات بالمعهد ، فبينما كان عددهن ٣٧٠ طالبة عام ١٩٧٧ زاد العدد ٩٧٠ طالبة عام ١٩٨٠ وزعت على مختلف شعب المعهد .

انشطة اخرى

يحتل مبنى معهد المعلمات مساحة تقدر بنحو ١٤٠ الف متر مربع ، تجولنا في هذه المساحة الشاسعة بين مباني المعهد فصوله وقاعات المختبرات العلمية فيه والادارات الأخرى التابعة له . فالطالبة تمارس انشطة اخرى الى جانب المواد الدراسية ، انها تمارس التصوير وطرق التحميض الحديث وكذلك تمارس هواياتها الموسيقية والقراءة في المكتبة كما ان المطعم يحتل جانبا اخر من هذه المساحة وترتاده الطالبات لتناول وجباتهن فيه ، كما أن المعهد زود بملاعب للتنس والسلة والطائرة بالاضافة الى صالة الالعاب الواسعة التي تتوفر فيها الالعاب الرياضية التي تتناسب مع تركيبة الفتاة الجسمانية وتشرف على التربية البدنية مدرسات متخصصات بمؤهلات عالية وخبرة طويلة وعريقة .

يوسف الشهاب

مواجهة عواصف الحياة فن ، كل منا قادر على ان يتعلمه ! ترى كيف نقف منها .. هل نغرق مع الموجة ، ام نسبح معها ؟

فى بحر الحياة

هل نسبح أم نغرق ؟

بقلم : منير نصيف

كان الكاتب الامريكي ادجار الان بو يخرج الى الشارع ويأتي بالقطط الضالة ويضعها تحت قدمي زوجته المريضة بداء الصدر حتى تشعر بالدفء في ليالي الشتاء الباردة .. وكان يقدم لها الحليب لكي يغريها على البقاء . فلا تخرج هاربة الى الشارع مرة اخرى ! فلم يكن بو يملك ثمن الغطاء الذي يقي زوجته المسكينة من البرد ! وفي هذا الفقر كتب اروع قصائده ! يقول الدكتور جيرالد كابلان ، أستاذ علم النفس ان الانسان يتغير باستمرار منذ اللحظة التي يرى فيها النور حتى نهاية رحلة الحياة .. ولكن عملية التغيير ليست دائما ثابتة مستقرة .. فهي احيانا قفزة الى الأمام ، وهي في احيان اخرى انتكاسة الى الوراء .. وكما يتغير اتجاه الريح بين ساعة واخرى من شروق الشمس حتى غروبها وفي ظلام الليل ، فتتكاثر الغيوم وتهطل الأمطار ، او تهدأ الطبيعة ويصحو الجو ، وتغرد الطيور .. ايضا نجد هذه التغييرات مع الانسان .. الزوجة السعيدة القانعة بحياتها تصاب فجأة بانهيار عصبي ! الصبي المراهق المضطرب يتحول الى رجل صغير يقدر مسئوليات الحياة ! العامل المجد يشعر بايدي رؤسائه تطبق على عنقه ! الفتاة الصغيرة الطائشة تتزوج وتصبح أما مثالية !

كيف يمكن ان نفسر التغييرات المفاجئة التي طرأت على هذه النماذج من الناس ، الى الافضل ، او الى اسوأ .. ماالذي حدث فاضاء الطريق امام البعض وجعل البعض الاخر يضل طريقه ؟

التغيير المفاجيء !

يقول الدكتور كابلان : « ليس صحيحا ، كما يعتقد الكثيرون ، ان كل حادث سعيد يولد السعادة ،



وكل حادث تعس ، يولد التعاسة . هذه النظرية السائدة ليست قاعدة نستطيع ان نستند اليها في تفسيرنا لهذه التغييرات المفاجئة التي حدثت في شخصية هؤلاء الناس وسلوكهم .. فقد يحدث العكس تماما ، قد يكون الحادث سعيدا ولكن الذين يعيشونه ليسوا سعداء .. لا لأنهم لايشعرون بالسعادة .. ولكن لانهم يحسون ان دورهم الجديد مع هذا الحادث السعيد اكبر من قدراتهم وطاقاتهم .. او لانه فاق كل تصوراتهم وتوقعاتهم .. مولد اول طفل في الاسرة مثلا ، او اول عام في الجامعة ، او هبوط ثروة كبيرة على اسرة فقيرة .. احداث سعيدة كلها ، كما نرى ، ولكن البعض منا لايتحملها .. انه سعيد بها فرح لها .. ولكنه يشعر وكأنه يتشقق ، تماما كما يحدث للجدار عندما ينوء بحمله الثقيل ! وهكذا يصاب صاحبه بالتوتر ! وفي الازمات ايضا ، حيث يستسلم البعض ويركنون الى الهزيمة ، نجد ان هذه الازمات نفسها قد ولدت قوة عند البعض الآخر .. قوة غير طبيعية ، وغير متوقعة ، لا لأن صاحبها كان اصلا « قويا » فاستطاع ان يصمد ، ولكن لانه شعر في هذا الموقف الجديد الذي نشأ بعد هذه الازمة ، انه امام تحد اكبر منه ، وانه لابد وان يكون في حجم هذا التحدي حتى يستطيع مواجهته وقهره !

أرض غريبة !

ويروي الدكتور كابلان قصة الصبي الصغير الذي ذهب والده الى جبهة القتال .. كان وقتها في الخامسة عشرة من عمره ، يعيش مع والدته وشقيقته الصغرى .. وكان صبيا متوسط الذكاء ، لم تكن تقارير المدرسة توحي بشيء اكثر من انه يحرص على تأدية واجباته المدرسية ، وانه يحاول قدر المستطاع ان يستوعب ما يلقيه عليه المدرسون من علوم جديدة عليه .. ولكنه لم يكن يقف دائما في صفوف الناجحين !

« وفي مساء احد الايام عاد من مدرسته كعادته ، وكانت مفاجأة له عندما وجد امه تبكي .. ماذا حدث ؟ لقد استشهد ابوك في الحرب يابني .. انني خائفة .. خائفة من المستقبل ، من الحياة في هذه الوحدة التي اصبحنا نعيش فيها نحن الثلاثة بعد غياب ابيك .

« واخرج الصبي منديله من جيبه ، وراح يجفف به دموع امه .. لقد كانت تبكي لأنها في تلك اللحظة احست بأنها تعيش في ارض غير ارضها .. لقد امتلأت مشاعرها وافكارها بذكريات ازمات مرت بها في الماضي ورسبت في اعماقها مع القلق والخوف .. ولكنها في هذه المرة تواجه ازمة مختلفة أزمة بلا حل ، فقد ذهب رجلها ورفيق عمرها ، ولن تجد السلوى في غيابه ابدا .. عزاؤها الوحيد في هذه الذكرى التي تركها لها .. في الأبناء الذين ترى فيهم صورة الرجل الذي تزوجته واحبته .. ومدت يدها تحتضن بها رأس ابنها الذي يجلس بجوارها .. وكان هو الاخر يبكي ، فهو لم يفقد أباه فحسب ، انه يشعر انه فقد العالم كله بعد رحيله ، فهو الذي كان له ابا وأخا وصديقا .. اين يجد كل هؤلاء في رجل واحد يبادله الحب .

وانقضى النهار ثقيلا بطيئا مليئا بالذكريات والهموم .. حتى اذا ما غربت الشمس ، واقبل الليل ذهبت الام الى غرفة نومها واحتضنت ابنتها ونامت بجوارها او تظاهرت بالنوم حتى لاتزعجها ، فلم تكن الصغيرة تعلم حتى هذه الساعة ان اباها ذهب ولن يعود !

اما هو ، فقد اغلق باب غرفته عليه ، ووقف امام صورة ابيه وراح يحدثه : « اعدك يا ابي ، يابني سوف اكون رجلا .. سوف احقق لك كل امانيك .. وسوف اعود اليك دائما هنا في هذه الحجرة لكي احدثك واروي لك ماذا صنعت بنفسي ، وماذا صنعت بي الحياة .. وستكون دائما فخورا بي ! لن اقف في طابور الفاشلين من اليوم !

« منذ تلك الليلة ، لم تعرف الدموع طريقها الى عيني الصبي الصغير .. فقد واجه الموقف الجديد ، كما يواجهه اقوى « الرجال » ! لقد اصبح رجلا !

وحده على الطريق

« وانقضت عشر سنوات عندما خرج اهل البلدة الصغيرة يحتفلون .. ما المناسبة ؟ لقد تخرج الصبي الصغير في الجامعة واكمل دراساته العليا ، واصبح محاميا يحمل درجة الماجستير وفي حفل تسليم الشهادات .. كان هناك ثلاثة يقفون في انتظار دورهم في مقدمة طابور المهنئين الام الفخورة بابنها ، ثم شقيقته التي كبرت واصبحت عروسا ، وخطيبها الشاب الذي زامله ايام دراسته العليا او الثانوية التي كان حظه فيها قليلا مع النجاح ، الى ان كانت تجربته المريرة مع رحيل والده .. في ذلك اليوم منذ عشر سنوات ، وقف الابن وحده في مواجهة هذا العالم الغريب .. انه لم يطلب مساعدة احد ، وحتى عندما كانوا يعرضونها عليه ويقدمونها له ، كان يرفض ان يمد لها يده . لقد اعتمد على نفسه ، وراح في هدوء يشق طريقه في مدرسته في الجامعة ، سنة بعد اخرى ، حتى اتم تعليمه .. لم يكن

هناك احد وراءه يدفعه .. كان الحافز دائما هو رغبته في ان يكون رجلا جديرا بحب وصداقة الرجل الذي عرفه في طفولته وصباه .. انه يذكر آخر مرة رأى والده فيها قبل ان يترك البيت .. كان يلبس بذته العسكرية .. ويحمل سلاحه على كتفه ، وكان يضحك .. وكانت آخر كلمة قالها لهم بعد ان قبلهم مودعا ، « سوف اعود » فقد كان يريدأن يعود الى هؤلاء الذين احبهم واحبوه ..

❋❋❋

وانتهى الحفل الذي اقامته الجامعة تكريما للناجحين .. وعادوا جميعا الى البيت .. ولكنه لم يبق وسطهم طويلا .. لقد ترك مكانه ، وكأنه على موعد .. وذهب الى غرفته ووقف امام صورة والده ، وراح يخاطبه ..

« في تلك اللحظة احس وهو يحدث والده ان ذراعا قوية قد امتدت تربت على كتفه في حنان ، وقبلة حارة ترسلها شفتاه الى وجنتيه لتعبر عن كل مشاعر الحب التي تعودها منه .. » .

قصة اخرى

في احدى المدن الصناعية الكبرى ، عاش عامل بسيط مع اسرته ومصنعه مدة تزيد على العشرين عاما ، كان دائما مثالا للعامل النشيط المنتج،والاب الذي يسهر على راحة اولاده الخمسة وامهم .. حياة هادئة لايعكر صفوها شيء، أكثر من تلك المناقشات التي تثور احيانا بين الرجل وامرأته او بين الاب وابنائه فتحتد ، ولكنها لاتلبث ان تهدأ ، ثم ينسى الجميع كل شيء ،ويبدأ يوم جديد مع العمل في المصنع ، وتحصيل العلم في المدرسة ، واعداد اطباق الطعام التي تتفنن الام دائما في صنعها ! كان العشاء دائما نهاية اليوم ، وكان الفجر والافطار بدايته .. وبين الوجبتين ، ليل طويل ونوم هادىء بلا هموم .. فلم تستطع اضواء المدينة يوما ان تشد هذه الأسرة اليها فتخرجها من حياة الرتابة التي تعودتها ولم تشعر معها بالملل أبدا .. حتى الابناء ، وكان اكبرهم شابا في الثامنة عشرة من عمره .. لم يكن يعجبه كثيرا حياة زملائه الذين كانوا يسيرون دائما في طريق اخر غير طريق العودة الى البيت بعد انتهاءاليوم الدراسي .. الى دور السينما والملاهي او في نزهة على شاطىء البحر .. فقد كانت له هواية اخرى .. كان يهوى الرسم .. وكانت اجمل واحلى ساعات يومه هي تلك التي يقضيها في غرفته وحده مع فرشاته والوانه ..فقد كان الابن وكانت الأسرة تنتمي الى الريف وهدوئه وحياة أهله التقليدية المحافظة قبل ان ينتقلوا الى المدينة التي كانوا يرفضون الخروج الى اضوائها وصخبها ! كانوا يغرقون في بحر حياتهم الجديدة !

اكبر من الحلم !

وتمر الشئون بالاسرة الصغيرة السعيدة ، الى ان يجيء اليوم الذي يحلم به كل رجل .. ذهب الاب الى عمله في المصنع في الصباح .. فاذا به يرى شيئا جديدا لم يألفه طوال عهده به .. العمال في المصنع يحتشدون في فنائه الكبير ، وقد انقسموا الى مجموعات .. بعضهم يقف وقد استندوا بظهورهم الى الحائط .. وبعضهم يقف ولكن من الواضح ان ثمة حوارا يدور بينهم في هدوء .. وبعضهم تجمع حول المقصف وقد راحوا يرتشفون الشاي والقهوة .. وبعضهم لايزالون يمشون في خطوات ثابتة في طريقهم الى عملهم .. نفس الطريق الذي يسيرون فيه كل يوم .. انهم لم يصلوا بعد الى باب المصنع .. ولعلهم كانوا يتساءلون مثله في تلك اللحظة ما الذي يحدث امامهم !

ودخل ، ودخلوا معه ، بعد ان تبادلوا تحية الصباح ، وعرفوا الخبر .. لقد مات بالامس مدير المصنع اثر سكتة قلبية .. وفي الداخل .. في مكتب المدير الآن يجتمع ابناءالمدير الذي رحل فجأة .. والمحامي المسئول عن المسائل القانونية المتصلة بالمصنع والعاملين فيه .. انهم يجردون المبالغ المودعة في الخزينة ، ويقرأون الوصية التي كتبها مدير المصنع قبل وفاته بسنوات طويلة .. والعمال في لهفة يريدون ان يعرفوا من يكون المدير الجديد بين الابناء الثلاثة الذين ورثوا هذا العمل الناجح .

ولم تطل وقفتهم .. فقد خرج المجتمعون ، ووقف المحامي ومن حوله الابناءالثلاثة ، وراح يقرأ على العمال الوصية التي تركها مدير المصنع .. فقد كانت هذه رغبته وكانت المفاجأة ! لم يختر الاب أيا من ابنائه لادارة المصنع من بعده ! من اذن ؟

صاحبنا العامل البسيط الذي كان يضع فيه كل أمله وثقته ، فهو لم ينس انه كان معه وهو يضع اول حجر في هذا البناء الذي بدأ صغيرا ، ثم اصبح واحدا من اكبر مصانع انتاج المنسوجات في المدينة ! انه الوحيد الذي يستطيع ان يدير هذا المصنع ، فلا احد من الابناء الثلاثة بدا يوما مهتما بمصنع ابيه .. كان كل منهم يسير في طريق بعيد تماما عن كل مايمت بصلة للعمل في هذا المصنع .

ايضا عاصفة !

وبحث العمال عن زميلهم المدير الجديد . فلم يجدوه .. لقد تسلل في هدوء عائدا الى بيته وكأنه يحمل فوق رأسه جبلا .. كان الجلوس في القمة التي وجد نفسه يصعد اليها فجأة آخر شيء خطر له على بال .. فقد كان قانعا راضيا بحياته وعمله ، فان ساوره الطموح ، فقد كان اقصى مايتمناه ان يرتفع اجره قليلا مع شيء من زيادة في مسئولياته ولاشيء اكثر من هذا .

ودخل على زوجته مهموما كما لو كان يغرق في بحر واسع تتلاطمه الامواج ، ولايرى فيه اثرا لارض قريبة او بعيدة .

يقول الدكتور جيرالد كابلان في تفسيره للشعور الذي احتوى هذا الرجل وهو يسمع اعظم خبر يمكن ان يحلم به اي انسان في مثل ظروفه : « منذ فترة من الزمن ليست بعيدة ، كان علماء النفس الذين يبحثون وينقبون في تاريخ مرضاهم ، يقولون بان هذا المرض النفسي الذي الم بهم انما يجيء عادة كخاتمة لرحلة طويلة مع ازمة عانى منها المريض في وقت ما ومازال يعاني من آثارها فهي تعيش معه في ذاكرته ، ويعود اليها ويتوقف عندها ولا يستطيع ان يبعدها عن تفكيره ..

« ولكنهم ما لبثوا ان اكتشفوا ان الحادث الذي يسبق الانهيار العصبي عند الكثيرين من الناس ، ليس له اية صلة بالكوارث المتعارف عليها او نتيجة لسوء حظ صادفهم في حياتهم ...بل على النقيض تماما من هذا ، فقد يجيء الانهيار العصبي لما يمكن ان يكون اسعد حدث في حياة الانسان اطلاقا . والمشكلة الاساسية تكمن في تكييف حياتنا مع هذا التطور الجديد بكل ما يتطلبه من تغيير جذري في شخصيتنا ، وفي اسلوب الحياة التي اعتدنا عليها .. فالانسان ..أي انسان ، لايمكن ان يبقى سجينا داخل هذا الاطار الذي كونته لنفسه وساهمت بيئته ونشأته في تكوينه خلال سني الطفولة والمراهقة .. الانسان لابد ان يتغير وان يكيف حياته وشخصيته مع التطورات التي تحدث حوله وتضطره الى هذا التغيير .. فاذا تعلمنا كيف نقاوم الهرب ، وان نصل الى الاختيار الافضل خلال نقاط التحول الهامة في حياتنا ، فقد نتمكن من تغيير نوعية نفوسنا واتجاهنا كله ونحن ننطلق في مسيرتنا عبر رحلة الحياة .

« الذي واجه صاحبنا ، بطل هذه القصة الاخيرة ايضا عاصفة .. ومن الممكن ان تتحول الى عاصفة مدمرة ، اذا بقي سجينا داخل ملابس العامل التي تعود عليها ! » ■■

منير نصيف .

الانسان بطبعه مخلوق اناني .. غريزته الاساسية تكمن في البحث عن كل شيء يهمه هو اولا قبل اي شخص آخر .

« جون كورنيليوس »

مأساة القرن العشرين في كل شيء يجري على الطريق .. فلم يعد الرجل يقود السيارة وانما اصبحت السيارة هي التي تقوده !!

هـ . جـ . ولز

اكره قراءة شيء يمس المرأة من قريب او بعيد ، فهي امي وهي زوجتي وهي ابنتي وهي شقيقتي . أبعد هذا تريدون مني ان أقلل من شأنها ؟

روبرت لويس ستيفنسون .

قال لي ابي : « افعل اي شيء بكل شيء اتركه لك بعد ذهابي .. الا الارض .. فهي الشيء الوحيد الباقي .. لانها اصل الحياة » .

« ارنست هيمنجواي »

اقتلوا هذا الغول قبل ان يقتلكم فليس في هذا العالم مجنون واحد لايريد للحياة ان تستمر !

« اوبنهايمر » مخترع القنبلة الذرية .

الحياة عندي بدأت في الثمانين . معها شعرت انني مازلت نفس الشاب الذي خرج الى الحياة لأول مرة ووقف امام الشاطىء يبحث عن نفسه في موج البحر !

« سومرست موم » .

الريح الشتوية

رواية المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي

بقلم : احمد محمد عطية

ارتبطت القصة المغربية والرواية المغربية بحركة المقاومة المغربية ضد الاستعمار الفرنسي منذ قيام ثورة الريف سنة ١٩٢٢ حتى تحقق الاستقلال سنة ١٩٥٦ . وظلت الرواية المغربية الى اليوم تنطلق من هذا التاريخ الوطني ، مما دعا بعض النقاد المغاربة ، كادريس الناقوري في كتابه المصطلح المشترك ، « الى القول بان كتاب الرواية المغربية يكتبون رواية واحدة ، رغم اختلاف العناوين لانهم كتبوها انطلاقا من التاريخ ، ، وارتكازا عليه . »

ويقول عبد الكبير الخطيبي في دراسته عن الرواية المغربية« ان مقاومة الاستعمار اتاحت للادباء المغاربة ان يعبروا عن ذواتهم «وانه » مع اشتداد الكفاح الوطني ، وتفاقم تناقضات النظام الاستعماري ، عرفت الرواية المغربية توجيها آخر على يد فئة من الادباء المتمردين الذين قصدوا الى فضح اساليب الاضطهاد الاستعماري ، ، والى كشف ازمة الهياكل المجتمعية التقليدية ، وضياع الشخصية القومية . » (مجلة الموقف الادبي فبراير ١٩٧٨) .

ولايعني هذا ان الرواية المغربية اسيرة للماضي بعيدة عن الحاضر ، ولكنها تستخرج من الماضي القريب الصفحات والمجيدة والمشرقة لمقاومة الشعب العربي في المغرب ضد الاستعمار القديم . وتومىء من خلالها الى امكانيات الشعب المغربي في مقاومة كل استعمار وافراز القيادات الوطنية ، وتحرير ارض الوطن والحفاظ على خيراته ومنجزاته ، وعندما تركز الرواية المغربية وشخصياتها القومية المناضلة في الماضي فانها لاتنسحب من الحاضر ، بل تقدم شهادتها اليه ، وتؤكد بما تضمره وتضمنه امكانيات التقدم والتحرر في الحاضر والمستقبل استنادا الى ايجابيات الماضي . فلم ينته الاستعمار من عالمنا بعد ، ولكن صورته القديمة هي التي اختفت فحسب .

ويضيف الروائي المغربي مبارك ربيع تنويعا روائيا جديدا على لحن المقاومة المغربية بروايته الكبيرة « الريح الشتوية » ذات الجزءين (٤٠٠ صفحة قطع متوسط) . اذ تتميز بتحررها من اطار الرؤى الحزبية والعقائدية التي صدرت عنها بعض الروايات الوطنية المغربية ، وتجنبها التاريخ وتقديم الشخصيات التاريخية المعروفة ، لتعبر عن نضال الشعب العربي في المغرب ومقاومته الجماعية ضد الاستعمار الفرنسي وعملائه . فقدمت الرواية لوحة بانورامية شاملة استوعبت حركة المقاومة والنضال الشعبي والحياة الاجتماعية المغربية ، وصورت

الانسان المغربي بتعمق وتدفق من الداخل والخارج . لذا تعد بحق رواية المقاومة المغربية .

مبارك ربيع استاذ للفلسفة وعلم النفس بجامعة محمد الخامس بالرباط . قصاص وروائي فازت معظم اعماله بالجوائز الاولى . فنالت مجموعته الاولى « سيدنا قدر » (١٩٦٩) جائزة المغرب ومنحت روايته الاولى « الطيبون » (١٩٧١) الجائزة الاولى للقصة والرواية في المغرب العربي . واستحقت رواية الثانية « رفقة السلاح والقمر » (١٩٧٥) جائزة المجمع اللغوى بالقاهرة . وله بالاضافة الى ذلك مجموعة قصصية ثانية بعنوان « دم ودخان » (١٩٧٧) . واحدث اعماله روايته « الريح الشتوية » (سبتمبر ١٩٧٨) . وتصور اعماله القصصية والروائية حياة الانسان العربي في المغرب برؤية واقعية سياسية واجتماعية ونفسية وتركز على ايجابيات الشخصية الوطنية والحركة الوطنية ، وتستهدف كشف الاستعمار كفاعل لكل ماعاناه الانسان المغربي من قهر وتخلف واستغلال . كما تضمنت اعماله الاخيرة تصوير معارك حرب اكتوبر ومشاركة القوات المغربية الايجابية في الجبهة الشمالية . بروايته « رفقة السلاح والقمر » ومجموعته القصصية « دم ودخان » . وهذا يدلنا على ان مبارك ربيع يصدر في اعماله القصصية والروائية من منظور فكرى سياسي واجتماعي ، وذلك بالاضافة الى تضمينها لخبراته بعلم النفس التي مكنته من الجوس في شخصياته المغربية واستبطانه نفسيا .

« « الريح الشتوية » رواية ثنائية تصور معاناة الانسان المغربي من جراء سيطرة الاستعمار الفرنسي على ارض المغرب واقتصاده .وتقدم لوحة بانورامية شاملة لتصاعد حركة المقومة المغربية ضد المستعمر في الريف والحضر . وتصور نضال الشعب المغربي من خلال شخصيات رئيسية وثانوية متعددة تظهر وتختفي ، ولكن تظل المقاومة تشكل المحور الثابت الذي تدور حوله الاحداث والشخصيات . فالرواية رواية قضية وفكر وليس رواية شخصية . والقضية الوطنية هي المحرك الرئيسي في الرواية ، التي يجرى من خلالها تصعيد المقاومة المغربية وتصويرها . فتتابع مكونات القضية الوطنية في الريف ، في القسم الاول من الرواية من خلال تصويرها لاحداث النهب الاستعماري للاراضي الزراعية وطرد الفلاحين المغاربة من « ارض الاجداد » ومن ثم تقدم الرواية التبرير الفني والموضوعي لتصاعد حركة المقاومة المغربية في الريف .

وتتواصل القضية في المدينة عندما تنتقل مشاهد مع الفلاحين المطرودين من ارضهم والهاربين من بطش الاستعمار في الريف الى المدينة ليقعوا في العمل الشاق الاقرب الى السخرة بمصانع الفرنسيين ، ويشروا في الاكواخ القصديرية ، والخشبية « البراريك » . وتصل الرواية في قسمها الثاني الى ذروة التوتر الدرامي بتصاعد حركة المقاومة المغربية في المصانع والاحياء الشعبية وترسم انعكاسها في لوحات واقعية تجمع بين صور النضال ودقائق الحياة الاجتماعية المغربية . فتتمزج معاناة الانسان المغربي بحبه لارضه ووطنه ودفاعه عنها في مواجهة المستعمرين .

وتنهج الرواية بمعيارها الفني نحو الحداثة والتجديد في الشكل الروائي . فتتجاوز الزمن الواحد المسلسل التقليدى والمكان المتصل والشخصيات البطولية المسيطرة . لتقدم الازمنة والامكنة والشخصيات المتعددة في مزيج مركب متداخل ومتشابك . ويسهم « المونولوج » الداخلي والتذكر والتداعي وتيار الوعي في تنقلات مشاهد الرواية والغوص في شخصياتها وارتداداتها الزمنية بين الماضي والحاضر . فتبين مكونات الشخصيات ومعالم القضية الوطنية . وتجعل وقائع النهب الاستعماري لارض المغرب احداث القهر الاستعماري للانسان المغربي بارزة ومجسمة وشاملة للوطن والبشر . ومبررة لتحرك المقاومة المغربية واشتدادها .

فنحن نتنقل مع (العربي الحمدوني) الفلاح المغربي الذي قاوم النهب الاستعماري لارضه بقوة السلاح . طوال القسم الاول من الرواية . في مشاهد وامكنة وازمنة مختلفة . من القرية حيث الصدام مع المستعمرين والحاكم الفرنسي الى المدينة والاحياء العمالية وحياة « البراريك » الباشاالى الاسواق والمطاعم الشعبية . ومن ساحات المحاكم ومكاتب المحامين وبيوتهم الى مصانع السردين والسكر . صور متنوعة ومشاهد ثرية تعكس الحياة المغربية بأوسع صورها ومعانيها . وتكشف اكاذيب العدالة الاستعمارية . وتبرز التطور التالي لتصاعد حركة المقاومة المغربية في المصانع وتعاظم الحركة النقابية ضد النهب الاستعماري في المغرب للارض والاقتصاد ونتاج الانسان المغربي .

ويستخدم الروائي الاغنيات الشعبية والتراث الشعبي المغربي في التعبير عن قضية الارض وصراع الفلاحين وغربتهم . ومن خلال هذه الاغنيات . التي تمزج الحزن بالامل تتداعي ذكريات « العربي الحمدوني » وتبدو خبرة الروائي النفسية في استبطانه

لشخصيته وجوسه في اعماقه والتعبير عن ضميره وحنينه للارض ومواسم الزرع كلما حانت مواعيد تلك المواسم ، فنرى ، من خلال تباروعيه ، كيف سيطرت قضية الارض على حواسه ومشاعره ، بحيث صارت قضية العامة هي قضيته الخاصة ومحور حياته ، وبهذا الامتزاج بين القضية العامة والحياة الخاصة للشخصية ترتقي رواية « الريح الشتوية » الى اعلى مراتب الفن الذي يقدم العام من خلال الخاص ، دون خطابة او مباشرة اوتقرير ...

وتتتال على ذاكرة العربي صور المقاومة المغربية في قريته فنتابع مقاومة الفلاحين لقطع اشجارهم بايدى الفرنسيين وعملائهم ، واحداث الصراع على ارض الوطن بين رجال القرية والحاكم وممثل الشركه المستعمرة ، الحاضر الغائب دوما ، ايماء من الروائي الى حقيقة الاستعمار ، وكشفا لوجهه القبيح ، كاستغلال اقتصادي لارض الوطن وثرواته وطاقات أهله . فقد شعر كل واحد منهم « بان قطع الشجر هو تقطيع لذاته هو ، واجتثاثه كل شجرة ذكرى وتاريخ وغلاتها للجميع .. » (ص ٤٣ج١) لذا تصدى الرجال لمقاومة الفرنسيين المسلحين قائلين : « هذا ملكنا وبلادنا » ،، وقاموا بالقاء معدات قطع الاشجار في قاع النهر ، في مشهد يذكرنا بمشهد القاء حديد السكة الزراعية في الترعة برواية « الارض » لعبد الرحمن الشرقاوى .

وعندما يتعقد الصراع يسود الجفاف الارض ، ويتنبأ « العربي » بهبوب الريح الشتوية لتروى الارض ويعود الزرع والحب . ولكن التي تهب هي طائرات الالمان ، ورياح الحرب العالمية الثانية التي تصور الرواية اثارها ، في تجنيد الفلاحين واستنزاف الحبوب والثمار والزرع والحيوانات والدواجن مع استمرار الجفاف الذي دفع بالمزيد من المجاهدين الى المدينة . وتفسد الحرب الاخلاقيات والاسر ، فتنتشر اوكار البغاء لتوقع بالنساء ، ويجوس الجنود الاجانب في احياء المغاربة وبراريكهم لاغواء الرجال والصبية وتخريب مقوماتهم وتراثهم وثقافتهم باللغات الاجنبية والخمر والسلع الاستهلاكية . ويضطر « العربي » للعمل الشاق امام افران مصنع السكر المشتعلة ويلقى مصرعه بالاتها ، وبموته يختتم القسم الاول من الرواية ، الذي قدم فيه الروائي تصويره للمقاومة المغربية في الريف ومعاناة الانسان المغربي تحت وطأة الوجود الاستعماري في الريف والحضر ، ليأتي القسم الثاني من الرواية فينمي خط المقاومة المغربية ويصدها في تطور دراسي مثير .

ففي القسم الثاني من الرواية تتنقل مشاهدها بين احياء المدينة ومصانعها واسواقها ، وتجوس داخل براريكها وشخصياتها وترحل في ازمنتها ، لتصور تجمع حركة المقومة الوطنية وتصاعدها من المساجد والمصانع الى البراريك ، والمدارس .. ويتم من خلال ذلك ظهور بعض الشخصيات الجديدة الاكثر وعيا بالقضية الوطنية ودوافع المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي . ويربط الروائي بين هذه الشخصيات الجديدة الاولى المختفية بصلة القرابة ، استمرار المقاومة المغربية ونموها واكتمالها في شكل قيادات جديدة وتنظيمات جديدة عمالية ومثقفة . ويربط الروائي بمهارة بين قضية الارض وقضية الحقوق العمالية والنقابية ورفع الاجور ، فكلها قضية الوطن ومرجعها للاستعمار . ويمثل العامل (كبور) الوجه الجديد الاكثر نضجا واكتمالا من ابن عمه الراحل « العربي الحمداني) فيقود حركة تأسيس نقابة وطنية وحركة اضراب عام للعمال في المصانع . ويرفض الانضمام للنقابة الفرنسية ، ويؤسس المثقف الوطني « سي عبد الفتاح » مدرسة وطنية تقاوم الغزو الثقافي الاستعمارى ، وتعلم ابناء الجيل الجديد حب الوطن والتراث القومي واللغة العربية ومقاومة الاستعمار وتفتح وعيهم على الصفحات المجيدة من تاريخ النضال العربي والاسلامي .

وتنمو شخصية القائد « العمالي » كبور « وتبني وتتكامل عبر تجارب المقاومة الشاقة . فيتعلم العقلانية والعلمية والتخطيط والتكتيك والاستراتيجية ، وعدم الانسياق للعاطفية والحماسة وحدها . وتصور الرواية بدقة وواقعية طرق واساليب المقاومة العمالية للادارة الاستعمارية الفرنسية ، وتكاتف العمال مع زملائهم المفصولين سرا ، وتجمع خطوط المقاومة داخل المصانع وازدياد وعي العمال بقضية الوطن وثقتهم في قدراتهم على تحقيق مطلبهم الاساسي والاستراتيجي وهو « تحرير بلادهم » في مواجهة الاستغلال واعمال السخرة التى يفرضها عليهم المستعمرون الفرنسيون .

وتتجلى صور المقاومة المغربية في اول مواجهة بين الادارة الفرنسية للمصانع وجموع العمال .فتزداد المواقف وضوحا واستقطابا ، وتكشف الادارة الفرنسية تعاونها مع الاقامة العامة الفرنسية للمغرب في قمع العمال الوطنيين وتبرز القضية الوطنية بوضوح كقضية اقتصادية في مواجهة الاستغلال الاستعمارى لخيرات المغرب وقوة العاملين به . وتتصاعد حركة المقاومة الوطنية في المدينة وينشد طلاب المدرسة الوطنية لحرية المغرب واستقلاله ، وتنتشر المنشورات واللافتات على الجدران والاعمدة والابواب المغلقة ...

هكذا يجيد الروائي تصوير التوتر الدرامي للاحداث وتجسيمها وتطويرها في خط متناه بصور المقاومة المغربية تصويرا بالغ الدقة والبساطة والواقعية والشاعرية، كتصويره لخروج الاطفال من المدارس يرددون الاناشيد والشعارات الوطنية «التي غيرت من رتابة يومهم» «(ص ٩٨ج٢) وكيف قاد ابن العربي الحمدوني» ، رجل المقاومة الراحل ، بكتابة منشورات المقاومة وتوزيعها والصاقها . هكذا يظهر الجيل الجديد امتدادا للجيل الاول واكثر تحركا ووعيا واشتراكا في المقاومة المغربية .

ويمزج الروائي بين التاريخ الاسلامي والامجاد العربية ووقائع المقاومة المغربية ، عندما يتنبأ قائد المقاومة «سي عبد الفتاح» باخطار تعرض رجال المقاومة الوطنية لما تعرض له صحابة الرسول من مصاعب ، نظرا لاحساس السلطات الاستعمارية بخطورة انتشار الحركة الوطنية وتصاعدها وقوتها في كل المصانع والاحياء . وتصور الرواية مراقبات السلطة ودلائل ازعاجها من المقاومة واثر ذلك على شخصيات الرواية ، في صور طريفة تعكس ذكاء المقاومة الشعبية للسلطة الاستعمارية وسخريتها منها .

وازاء اصرار السلطة الاستعمارية على تنفيذ مخططها بتشتيت العمال وتنقلهم من تجمعاتهم في احياء البراريك القصديرية وتفريقهم في اطراف المدينة ، تدعو قيادة المقاومة الاهالي الى التجمع والمقاومة . ويتوجه «سي عبد الفتاح» القائد الوطني المثقف ، بحديثه الى المضربين المحتشدين محركا شجونهم العامة والخاصة عندما يسألهم عن ماضيهم ومستقبلهم في ظل الاستعمار ، لتتفتح جراحهم عن اراضيهم المسلوبة وامالهم في العودة الى ارض الاجداد ثم يحدثهم عن خطة الاستعمار لنهب اراضيهم وطردهم منها ليعملوا اجراء مسخرين في خدمة مصانعهم ، ولنهب كدهم وخيرات بلادهم حتى صاروا مشردين غرباء ، ويخلص من ذلك كله الى انه لا طريق لتحريرهم وعودتهم لاراضيهم وكرامتهم الا بتحرير الوطن قائلا «الطريق قدامنا ايها الاخوان طريق واحد هو تحرير بلادنا كلها .. وطننا كله .. مغربنا .. من الاستعمار .. وفي ذلك الوقت يمكن للواحد منا أن يرجع لارضه ولكن بالعزة والكرامة ويبقى في المعمل ، ولكن في العز والكرامة ..» (ص١١٥ج) ويدعوهم «كبور» القائد العمالي الى المقاومة والاضراب العام في كل مكان .

وتصور الرواية تتابع المصانع وتأييدها لخطة الاضراب ومقاومة نقل السكن وهدم اكواخهم وتشتيتهم ، ويردد الاهالي الاناشيد الوطنية وشعار المقاومة «الله اكبر عاش الوطن» (ص١٢٠ ج٢) ويصل الاضراب بالمقاومة الى الذروة في المواجهة بين المغاربة وجنود الاستعمار واطلاقهم النار على المضربين وضربهم بكعوب البنادق ، ثم اعتقال قادة المقاومة ودفن جثث الشهداء دون جنازات ،وازدياد الارهاب والبطش ، غير ان المقاومة تنجح في ايقاف خطة السلطة الاستعمارية لنقل المكان . ولا توقف الاعتقالات المقاومة المغربية ، بل تستمر في سرية واصرار ، ويشارك فيها قادة جدد وصبية واطفال رمز الجيل الجديد وبينما يلقى بالقدامى في المنافي والسجون ، يحلم ابن القائد العمالي المعتقل «كبور» بالمقاومة ويردد في نومه «يسقط الاستعمار ..» (ص١٧٨ج٢) .

ويمتزج الرمز بالواقع عندما تبدأ كرمة التين في العطاء المثمر ، بعد جفاف طويل ، مؤذنة بموسم العطاء ، ومتوجة حلم المقاومة بمستقبل جديد وعطاء جديد ، وتبدأ رياح التغيير في الهبوب مع بشائر الريح الشتوية التي طالما انتظرها «العربي الحمدوني» ، فلاح المقاومة المغربية الراحل في القسم الاول من الرواية ، وعلق عليها كل الآمال في انتهاء موسم الجفاف الذي اضطره للعمل والموت في مصانع الفرنسيين وعودة الزرع والثمار للارض ، أرضه وأرض اجداده ، فتلعب الطبيعة دور الرمز وتتآزر مع قوى المقاومة المغربية مبشرة بمستقبل اكثر تحررا وعدالة وجمالا . ■■

احمد محمد عطية

الاطالة والايجاز

● امر يحيى بن خالد كاتبين ان يكتبا في معنى ، فاوجز احدهما واطال الاخر ، فقال للموجز لما نظر في كتابه لم اجد موضع مزيد ، وقال للمطيل لم اجد موضع نقصان .

ديوان من السعودية

وحي الليل

عند الشاعر السعودي غازي القصيبي

بقلم رابح لطفي جمعة

يعد الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي واحدا من اكابر الشعراء السعوديين المعاصرين الذين اثروا الشعر العربي بباقات معطرة من الشعر الجزل الرقيق ، وأمدوه برؤى وأطياف مجنحة من التجارب الشعرية الحقيقية ،وقد ولد شاعرنا بالاحساء سنة ١٣٥٩ هـ وحصل على درجة الدكتوراه فى العلاقات الدولية من امريكا وتولى مناصب متعدده فى المملكة العربية السعودية منها منصب وزير الصناعة والكهرباء .



وتدلنا قراءة شعره على سعة ثقافته وشمولية اضطلاعه وتعدد مناحي قراءاته في التاريخ والادب وعلوم الاجتماع والنفس والفلسفة والسياسة والادارة ، وقد ظهر له حتى الان عدة دواوين شعرية تدلنا على خصوبة عطائه منها « اشعار من جزائر اللؤلؤ » « وقطرات من ظمأ » و « معركة بلا راية » و « انت الرياض » و « ابيات غزل » ، كما صدر له عن دار الفيصل الثقافية ديوان « قصائد مختارة » وهو مجموعة منتقاة من قصائد الدواوين سالفة الذكر ، وقد ترجمت بعض قصائده الى اللغة الانجليزية ، والى جانب تلك الدواوين فله كتاب « عن هذا وذاك » وهو مجموعة مقالات في الادب وشؤون التعليم والادارة ، كما صدر له أخيرا كتاب « سيرة شعرية » شرح لنا خلالها تجربته الشعرية ورحلته في عالم الشعر .

الشعراء والليل

والليل ـ كما لا يخفى ـ له عند الشعراء سحر وأي سحر ، فلطالما تغنوا به وغنوا له ، وناجوا بدره ونجومه ، وتناجوا في هدوئه وسكونه ، واودعوه أسرار قلوبهم وخفايا نفوسهم وهمسات ضلوعهم ، وبثوا اليه شكواهم ونجواهم ، وتحدثوا اليه عن همومهم وآلامهم ، وبقدر ما شكوا من طوله لما يلاقونه من عذاب السهر والقلق والمعاناة والوحشة بقدر ما شكوا من قصره في اوقات اللهو والسمر ، يذكرونه تارة بمعناه الحقيقي كفترة من الزمان يعم فيها الظلام ويسود الهدوء والسكينة ، ويذكرونه تارة أخرى بمعناه المجازي كناية عن حالة نفسية أو شعور وجداني أو احساس عاطفي ، ويذكرونه تارة ثالثة كمشبه به حين يصفون شعر المحبوبة وعمق عينيها .

وقد اهتم كثير من النقاد المحدثين بالكشف عن الاعماق الشاعرية عند كبار الشعراء من خلال عنصرين اساسيين هما الزمان والمكان ، والليل يمثل واحدا من عناصر الزمان ، فاعتبروا كلمة الليل مفتاحا لمجموعة من التسميات عند هؤلاء الشعراء تشمل ضمن ما تشمل ، الظلام واللون الاسود والظلال والبرد والعمق والسكون والسهر والقلق والملل والموت والالم والمرض ، وهو ايضا رمز النور والصحة والسعادة والمرح وغير ذلك من التسميات المستوحاة من عالم الليل .

وقد احتفل الشعراء الغربيون بالليل ايما احتفال فاستوحوه صورا واخيلة ورؤى مختلفة ، ولعل ابرزهم أن يكون بودلير الذى استلهم الليل تجارب شعرية عديدة ، وأبولنيير صاحب الليالي المشهورة ودى موسيه صاحب الليالي الرومانسية ، وقد نشر الاستاذ الجامعي جيرالد انطوان بمجلة « التاريخ الادبي في فرنسا » مقالا بعنوان « الليل عند بودلير » حاول فيه أن يبين لنا كيف يرى شاعر « ازهار الشر » الليل وكيف يحس به وبأى شيء يقارنه وما هي الاشياء والمشاعر والافكار والعواطف التي يميل الى صبغها بلون الليل والحديث عنها بكلمات مستوحاة من الليل وعالمه .

فماذا قال القصيبي عن الليل وكيف عبر عن رؤياه ؟ وكيف استلهمه تجاربه الشعرية واستوحاه اخيلته ؟ وما هي الصور واللوحات الليلية التي استمدها منه ومن سواده وبرده وهدوئه وسكونه وبدره ونجومه ؟ .

وصرنا الرياض !

ولعل اول ما يشدنا من وحي الليل عند القصيبي ان تكون قصيدته المعنونة باسم « الليل » من ديوان « ابيات غزل » ، وفيها يحدثنا الشاعر عن الليل اذا بعدت صديقته ويصف حالته النفسية :

الليل يا صديقتي
بعدك لايطاق
في غرفتي السوداء
لايطاق
أود لو استندت رأسي
نحو صدر
أود لو بكيت
هل تعلمين ما يعاني
كائن يموت ؟!

وقريب من هذا الاحساس بالضياع والشعور بالوحدة ، ما يصوره لنا القصيبي في قصيدته « تلفون » وكيف يضحي قفرة جدباء ضنت عليها السحب اذا غاب عنه صوت الحبيبة عبر اسلاك الهاتف .

حدثيني عن الهوى
عن جحيم الشوق
عن رعشة الفؤاد المعذب
حدثيني عن الضلوع
منذ أقبل الليل
لم تزل تتقلب
اتخيلت قفرة

ضمت السحب عليها
فالافق جوعان اجدب
عذبة الصوت
ذاك حال ليالى
اذا صوتك الحبيب تغيب !

واذا غابت الحبيبة عنه فانه يطالع وجهها فى ليل مدينة الرياض :

وحين تغيبين انت
اطالع ليل الرياض الوديع
فيبرق وجهك بين النجوم
وفى اخر الليل
ياتى المخاض
ونعلم انا امتزجنا
فصرت الرياض
وصرت الرياض
وصرنا الرياض

اما اذا ومض مصباح الحبيبة البعيد وآنسه خلف الظلام « كابتسامة الرجاء » فان الشاعر يصف لنا حالته اذ ذاك ويقول :

احس ان الليل بات
جدولا من السنى
واننا فى زورق مجنح
انا وانت وحدنا
نطوف ما بين النجوم
ونستريح فى القمر !

ويطلب الشاعر من حبيبته ان تبوح مرة ، ويصف الليل عند ذاك فيقول :

لو تبوحين مرة
تصبح الارض موسما
يسبح العطر فى الدنى
يعطر الليل انجما !

قطرات من ظمأ

وإن كان الشعراء العرب قد استلهموا الليل فى تشبيهاتهم واستعاراتهم ، فشبهوا شعر الحبيبة بسواد الليل وسحر عيونها بعمق الليل وظلاله وبريق تلك العيون برفيف النجوم فى الليل ، واذ كان الليل قد اوحى للشعراء العرب أيضا ببعض التشبيهات الجميلة ، مال فيها الشاعر الى التجسيم والتشخيص كما فعل ذو الرمة حيث يقول عن الليل انه « صبغ الحصى بمداد » وكذلك تشبيهه الجميل لسواد الليل بالشجر الاسود « وليل مطلخم عياطله » ، ووصفه الليل بالطائر يحط حتى يلمس الازهار بقوادمه « دنا الليل حتى مسها بالقوادم » ـ فان شاعرنا القصيبى شبه حب حبيبته بالليل ، وهو تشبيه مبتكر ورؤيا جديدة ، مزج فيها الشاعر بين الليل وبين عواطفه ، واعطانا من هذا المزج صورة بديعة ورؤية رومانسية جميلة ، فقال من قصيدة « حبك » من ديوان « انت الرياض » :

وكالليل حبك
ينزل فوق الطيور الصغيرة
يدخل تحت الجفون
يمس الخلايا البعيدة فى الروح
لا ينتهى الليل .. يولد كل مساء
وفى الليل شوق الى كل ما لايكون
وفى حبك الليل العب ما بين النجوم
والقط بدرا هنا وهلالا هناك
وحبك كالليل يفضح ما غفته
اكف النهار من الزيف ... كالليل
يغنى وديعا
ويعرف كل حزين غريب
ويبكى عليه !

وفى الليل تعتلج العواطف وتتواثب الاحاسيس وتستيقظ الاشواق ، وقد عبر الشاعر عن كل هذه المعانى تعبيرا هامسا دافئا فى قصيدته « عيناك » من ديوان « قطرات من ظمأ » فقال :

ومع الليل يرتقى بى الى عينيك
شوق تهتز منه العروق
فارى الليل مقلة .. حفها السحر
وجفنا يرق لى ما يرق ...

وقد فتح لنا الشاعر فى قوله « يرق لى ما يرق » عالما رحبا من التصورات التى تتداعى والتخيلات التى لاتنتهى ..

واذا ثار الحنين بشاعرنا فانه يتساءل :

فهل فى الليل عاطفة
لم تستعر
هل ضلوع فيه لم تهم

وفى قصيدته دعاء استعمل الليل رمزا لنفسه ؟ لقلبه ؟ لحياته ، لاندرى :

أدعو الرحمن
ان يبقى حبك خيط ضياء
فى ليل تسكنه الظلمة .

فى بقايا الليلة الحزينة

وكما ان الليل عند بودلير رمز للملل والسأم والبرد والالم . وكل هذا يجمع بينه وبين الليل صفة مشتركة هى العمق والهوة والضياع . فان الليل ايضا عند القصيبى يوحى ببرده وعواصفه بالقلق والسهر والضياع :

وفى الطرقات يعوى الليل
تعوى الريح .. يعوى عالم الغاب
وحيد فى صقيع الليل ينكأ جرحه ويرى
سيل دمه
احس بان ايامى
كهذه الليلة الحمقاء عاصفة بلا معنى
صراع دون ما غاية
ومعركة بلا راية
طواف حول دائرة من الاوهام
تبدأ كلما قلت انتهت !
وتطول قدامى

وفى قصيدته « عانقى حلمك الشهى » من ديوان « ابيات غزل » يقول القصيبى :

عانقى حلمك الشهى المندى
ودعينى اضيع العمر سهدا
وانعمى بالفراش ينبض دفئا .
وليمزق ضلوعى الليل بردا !!
عانقى حلمك الشهى المندى
ودعينى اضيع العمر سهدا

وللقصيبى تجربة شعرية فريدة مع الليل يصور لنا فيها كيف التقى بشريد غريب قص عليه كيف هجر ليالى المدينة مع قافلة الضائعين التائهين ، وكيف سار معه فرارا من المدينة يقول الشاعر فيها :

انا يا صديق من الضائعين
من التائهين
هجرت المدينة
واقبلت ادفن بين الدروب
بقايا الليالى الحزينة !
وسرنا معا
وحدثنى عن اماسى الحنين
وحدثته عن زمان الصغر
وعن اخوتى وليالى السمر
وكيف طوت كل هذا المدينة
وعند الظهيرة
سمعنا
خطى مقبلات كثيرة
وجمعا غفيرا من الضائعين
يسبون ليل المدينة !!

ولا يفوتنا ـ ونحن نختتم هذا الحديث عن وحى الليل عند القصيبى ـ ان نشير الى وصفه لليل فى بلدته من قصيدة « الليل فى بلدتنا » من ديوان « قصائد مختارة » :

الليل فى بلدتنا لوحة
زخرفها الله
باحلى الصور .

وكيف لا يتغنى شاعرنا بجمال الليل فى بلدته وهو الذى يقول عن الشعراء فى قصيدته الموسومة بهذا العنوان انهم يرون الجمال فى وجوم العيون :

وفى الليل ينثر أعطافه
على مضجع القرية الغافية !

■■

رابح لطفى جمعة

قصة الزواج

* فى فترة الخطبة يتكلم الشاب وتصغي الفتاة .
* وعند الزواج تتكلم العروس ويصغي العريس .

اما بعد ذلك فيتكلم الزوج والزوجة ، ويصغي الجيران .

« الباراشوت »
فكرة نباتيّة استخدمتها العناكب قبل الإنسان

بقلم : دكتور عبد المحسن صالح

ما من فكرة بشرية ، الا وسبقتها « افكار » حيوانية ونباتية وحشرية وحتى ميكروبية ، أى كأنما الطبيعة هي أم الاختراع قبل أن يظهر الانسان على هذا الكوكب بمئات الملايين من الأعوام .. فاذا فتشنا وبحثنا في « ملفات » الكائنات الحية ، فلاشك اننا واجدون تصميمات بديعة من ذلك النوع الذى يفخربه الانسان ، ثم يظن ـ خطأ ـ أن الافكار له وحده .. لكن لا جديد تحت الشمس « لوكنتم تعلمون » !

بادىء ذي بدء تقول : ان الأفكار دائما امامنا موجودة ، لكنها لا تكشف أوراقها الا لكل من سعى لها سعيها ، وتامل أحكامها ، ودرس ظواهرها .. والسعيد من أخذ الفكرة ، وحاول تقليدها وتطويرها ، لتتمشى مع انماط الحياة التي تخص الانسان .

وسر ازدهار العلم انه لم يبدد طاقاته في بحث الغيبيات ، بل ركز اهتماماته على ما امامه من ظواهر وموجودات ، فجمع شتاتها في نسيج واحد مترابط ومتآلف ، ومنها عرف ان كل شيء منظم ومتناسق ، ومن أجل هذا صاغ معرفته العلمية في نظريات ومعادلات وقوانين ، فسيطر على الموجات الكهرومغناطيسية ، وتغلب على قوى الجاذبية ، واطلق الصواريخ الفضائية ، وفجر الطاقة النووية ، ثم ما تبع ذلك من انجازات وانتصارات لانكاد نحصيها عدا .. ثم ان كل ما ذكرناه وما لم نذكره له اسس في الطبيعة قائمة وصامدة ، لكن هذه الاسس لا تفصح عن مضمونها الا للعقول الجادة الواعية .. ولا شأن لها باللاهية !

ومما لا شك فيه ان التصميمات البيولوجية والهندسية والميكانيكية والهيدروليكية والبنائية .. الخ ، والتى منحتها الحياة لكائناتها لكثيرة جدا ، وهى بلاشك تحتاج لمجلد كبير ، ومع ذلك دعنا نقدم هنا بضعة تصميمات من صنع الله ، لا الانسان ، علنا نرى فيها جدة في الابتكار ، وسبقا في الافكار !

قبل الانسان

فمنذ عهد قريب جدا ظن الانسان انه كان اول من ابتكر فكرة المظلة الهوائية أو الباراشوت ، ليركب به متن الهواء ، لكن فكرته محدودة بزمان ومكان ، ثم انها لاتخلو من اخطار ، كما ان الهدف منها غير مامون العواقب دائما ، لان الانسان يهبط بباراشوته تاركا نفسه تحت رحمة الأقدار ، ثم انه لا يستطيع ان يوجه به نفسه ، فيرتفع كما يريد ، او يهبط كما يشاء ، او ينتقل به من مكان الى مكان الا في حدود جد ضيقة .. الى آخر هذه الأمور التى تشير الى قصور في الفكرة ذاتها .

قارن ذلك مثلا بفكرة « الباراشوت » الذى تنتجه بعض النباتات مثل الهندباء البرية ، او الجعضيض او حشيشة اللبن او الطرخشقون (Dandelion) .. الخ ، فلقد ظهرت هذه النباتات قبل ان يظهر الانسان ذاته على هذا الكوكب بعشرات الملايين من السنين .. ثم ان الفكرة المتقنة ، تؤدى دائما الى التطبيق المتقن ، والصمود غير المحدود بزمان ومكان وليس ادل على ذلك من انتشار هذه النباتات انتشارا واسعا عبر الزمان والمكان ، فبهذا الباراشوت النباتى البسيط التكوين ، والعظيم الأداء ، تعبر الذرية النباتية الصحارى ، وتغزو قمم الجبال ، وتتخطى الأنهار والبحار ، وتعمر القفار ، وفوق كل هذا تهاجر بعيدا عن ارض الآباء والاجداد ، حتى لا تتكدس الأجيال المتعاقبة في نفس المكان ، وكأنما لسان حالها يقول « الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها » .. وقد كان ، لكن استخدام فكرة الباراشوت في عالم النبات كان بقصد الانتشار والتعمير ، وهو في حالة الانسان قد جاء للغزو والقتل والتدمير .. وشتان ما بين افكار وافكار !

ورغم ان الفكرة في تصميم الباراشوت النباتى واحدة ، وهى قد جاءت اساسا لتركب بها البذور متن الهواء ، الا ان التصميم قد يختلف بين نوع النباتات ونوع آخر ، وعلينا ان نختار تصميما واحدا (وهو المنشور هنا في صور متيرة) .. وفيه تنتج الزهرة الواحدة مئات البذور الصغيرة الحجم ، والخفيفة الوزن ، ويعنى هذا ان النبات الواحد قد يعطى آلاف البذور المتكونة على عدة زهور ، وكل بذرة متصلة بمحور ، وفي نهاية المحور تنبثق مجموعة من الشعيرات الرقيقة التى تشبه الزغب ، وعلى محاور الشعيرات زغب ادق وادق ، وبحيث يبدو شكل التكوين النهائى كمظلة هوائية ، او باراشوت أو بالون دقيق جاء متناسبا تماما للهدف .

وبعد ان تنضج البذور ، وتتفرد مظلاتها الهوائية ، تبدأ مرحلة الانطلاق ، لكن الأمور لاتسرى هكذا اعتباطا ، بل هى محكومة بظروف جوية مناسبة .. اى كأنما النبات هنا بمثابة محطة ارصاد تسجل درجات الحرارة ، واتجاه التيارات الهوائية ، ونسبة الرطوبة وما شابه ذلك ، وهو يختار لذلك وقت الظهيرة ، او بعدها بساعة او ساعتين ، وعندها يضمن النبات أن التيارات الهوائية الصاعدة تكون في أوجها ، ولهذا فان القواعد التى ترتكز عليها البذور تصبح مهيأة لعملية الاطلاق تحت تاثير نسمة او لفحة هواء ، والذى يساعدها على التخلى عن بذورها هو اجتماع الحرارة والجفاف عند الظهيرة او بعدها ، وفي هذا الوقت تنطلق المظلات حاملة بذورها ، حيث ترتفع في تيارات الهواء الصاعدة ، ثم تتوزع وتهاجر مع الرياح السائدة ، فمنها ما يحط على الأرض على مسافات من موطن الآباء ، تتراوح بين عشرات أو مئات أو آلاف الأمتار ، وأحيانا تقطع عشرات ومئات وربما آلاف الكيلومترات ، الى ان تجد الأرض الرطبة الصالحة للانبات ، وبهذا تتوزع وتنتشر في مواطن جديدة ، لتتكرر الدورة مرة ومرات ، كما تكررت قبل ذلك في ملايين الدورات .

اوائل المعمرين .. جاءوا بالباراشوتات !

ومن اروع الدلائل التي تشير الى كفاءة هذا التصميم الطبيعي المذهل في مساعدة تلك البذور على تخطي كل العقبات ، تأتينا من كارثة مروعة حلت بجزيرة كراكاتو المعزولة في المحيط الباسيفيكي ، ففي عام ١٨٨٣ انفجر فيها بركان ضخم قيل ان قوته المدمرة كانت تساوي عشرة الاف قنبلة ايدروجينية (وقوة كل منها مليون طن من مادة ت ن ت شديدة الانفجار) .. المهم ان هذا الانفجار الهائل قد احرق كل صور الحياة على الجزيرة المنكوبة ، وحولها الى فحم ورماد مختلطين بالحمم والمصهورات ، وكانما هي قد اصبحت كتلة من الجحيم .

ولقد اتخذ علماء الحياة هذه الجزيرة المعقمة والعقيمة من اية صورة من صور الحياة المنظورة وغير المنظورة ـ اتخذوها بمثابة مختبر طبيعي ليدرسوا فيها تسلسل ظهور الكائنات الحية .. اى من الذى سيصل اليها اولا ، رغم ان اقرب بقعة معمورة تبعد عنها بحوالى اربعين كيلومترا ، ثم ان الجزيرة الميتة محاطة من كل جانب بمياه المحيط .

بعد تسعة اشهر فقط ذهب احد علماء النبات اليها ، وتجول في ارجائها ، وبعد ان طال بحثه ، ونفد صبره ، وقعت عيناه على عنكبوت صغير ، اذ كان هو اول الواصلين ، ولقد رآه وهو ينصب خيمته ، ليصطاد بها بعض الحشرات ، وهو لاشك هالك جوعا ، فليس في الجزيرة كلها ما يطعم نملة او عنكبوتا !

لكن .. كيف وصل العنكبوت رغم ان الجزيرة معزولة ، وبعيدة عن اية ارض معمورة ؟

لقد وصل هناك بالباراشوت ، وبه ركب متن الهواء ، حتى ساقه حظه العاثر ليحط على جزيرتنا المنكوبة ، لكن بعد سنتين اخريين ، وجد العلماء خمسة عشر نوعا من النباتات الزهرية ، وكان معظمها من ذوات الباراشوت . وبمرور السنوات بدا سطح الجزيرة يكتسي بالخضرة شيئا فشيئا ، وبعد ربع قرن من الانفجار احصى العلماء فيها ٢٦٣ نوعا من الحيوان والنبات ، وبعد نصف قرن بدأت الجزيرة تكتسي بغابات وأعشاب تغرد فيها الطيور ، وتسعى العناكب ، وتنتشر الحشرات ، وتزحف الزواحف ، وتنطلق الخفافيش ، واغرب من هذا كله ان الجزيرة قد استقبلت نوعين من الجرذان ، اما كيف وصلا ، فلا احد يعرف يقينا ، لكن كل ما نعرفه ان الحياة قد قدمت لمخلوقاتها وسائل ناجعة ، و « تكنيكات » ناجحة ، لتغزو بها القفار ، وتتخطى البحار ، وتقهر الهواء ، وتتغلب على الصعاب .. انها حقا قوة هادرة متجددة صامدة لكل التجارب القاسية .

وللعناكب باراشوتاتها

لقد كان من اوائل المهاجرين الى الجزيرة المنكوبة كائنات نباتية وحيوانية محرومة من نعمة الطيران ، ومع ذلك تخطت العوائق المائية ، وركبت متن التيارات الهوائية بفكرة الباراشوت ، فكان أن يسر لها أول غزوة من غزوات التعمير .. لكن الباراشوت يختلف في الشكل والمضمون بين نباتات وعناكب !

فبعض انواع العناكب تهاجر عبر الهواء هجرات كبرى ، وقد تضم الهجرة الواحدة ملايين الأفراد ، لكن الافراد دائما من الصغار ، فوزنها الضئيل ، وحجمها الصغير مناسب تماما لفكرة باراشوت من حرير .. وهو مقصور فقط على انواع العناكب التي تبني بيوتها او شباكها من خيوط دقيقة تشبه الحرير ، والمعروف ان العناكب من اوسع الكائنات انتشارا على سطح هذا الكوكب ، فهي موجودة في كل مكان .. في المنازل والحدائق والمزارع والكهوف والجبال والوديان ... الخ ، وسر انتشارها الواسع يرجع الى باراشوتاتها التي تساعدها على هجرات متتالية وكبيرة ، ويرجع ايضا الى كثرة الذرية التي تعوض بها المفقود من الصغار والكبار ،



يقف عنكبوت صغير على اى شيء قائم ، ويفرز خيطا ليساعده على الصعود مع تيارات الهواء ، وكأنما هو بالون منطلق .

سواء في الحل او الترحال ، لأن العناكب تمثل وجبات شهية وميسرة لكثير من انواع الكائنات ، وعلى رأسها الطيور .

ولهجرة العناكب مواسم تتسم بالجفاف والنسمات واعتدال الطقس ، اى ان التهور في الهجرات غير مرغوب ، فرب عاصفة او يوم مطير يضيع عليها هدفها ، وعلى العناكب ان تحدد ايضا مواسم زواجها ، حتى تخرج الأجيال الصغيرة في الوقت المناسب ، والمناخ المضبوط ، وهذا يتحدد بالمناطق التى تعيش فيها على سطح الكرة الارضية ، اى أن الأمور قد نظمت لها اروع وادق تنظيم ، لان التواكل ليس من ورائه الا المصائب ، حتى ولو كان ذلك على مستوى العناكب ، او ما دونها ، او ما فوقها .. والدليل على هذا التخطيط والتنظيم الدقيق هو استمرار حياة الأنواع في الزمان والمكان .

المهم ان « اطفال » العناكب قد جاءت الى الحياة ، وهى تحمل الخطة في « دماغها » ، وربما تعرف رؤوسها من ارجلها .. سمه وحيا أو الهاما أو غريزة .. فكلها الفاظ نستخدمها عندما تعيينا الحيل في شرح هذه الظواهر المثيرة .. وفي الموعد المحدد ، يترك الصغار ظهور الأمهات بعد ان يشتد عودها قليلا ، وتقف كل أم ساكنة هادئة ، وكأنما هى تتمنى لأطفالها هجرة موفقة ، وارضا طيبة ، ويتسلق الصغار هامات النباتات او اى شىء آخر مرتفع ، وكأنما هذه الهامات بمثابة قواعد لاطلاق الباراشوتات او البالونات ، اذ يحلو لبعض العلماء ان يسموا هذه العناكب باسم عناكب البالونات ، لان البالون يرتفع الى اعلى ، والعناكب تفعل الشىء نفسه ، ولن يكلفها ذلك الا اطلاق بعض نسيجها الحريرى من مغازلها الدقيقة ، فتمسك بها من ناحية ، ومن الناحية الأخرى تتمادى الخيوط مع النسمات بنهاياتها الطليقة ، وعندما يعتدل الطقس ، وتبدأ التيارات الهوائية الصاعدة في العمل ، تسحب معها الأفواج المهاجرة بالآلاف والملايين ، أى أن الهجرة هنا جماعية ، ثم تتشتت بها السبل بعد ذلك ، وعندما تريد هبوطا ، كان لابد أن تتخلص من بالوناتها ، فتهبط هبوطا لينا ، وكل فوج وحظه في الحياة ، فمنها ما يتساقط على مياه البحار الواسعة ، او في الصحارى الحارقة ، او تلتقطه العصافير ، او يحط على ارض طيبة ذات رزق وفير ، اى ان المفقود منها كثير ، لكنه يعوض من خلال معدل النسل الكبير .

والواقع أن هذه الفكرة التى تبدو لنا بسيطة غاية البساطة ، قد اثبتت اصالتها على مر ملايين السنين ،



فكرة التحليق في الهواء بجناحين (دون آلة رافعة) هي في الاساس فكرة قديمة .. ونرى انسانا معلقا تحت الجناحين ليقوم بهوايته المحببة .

لأنها تهيىء للعناكب ارتفاعا كبيرا ، وانتشارا عظيما ، وبها تقطع عشرات ومئات الكيلومترات ودون توقف ، وفي هذا المجال يذكر لنا تشارلز داروين صاحب نظرية التطور الشهيرة انه سجل وصول فوج من العناكب ذى البالونات على سفينة الابحاث التى كان يستقلها متجها الى جزر الأرخبيل ، ويذكر أن أقرب أرض كانت تبعد عنه بمسافة مائة كيلومتر على الاقل .

ولاشك ان معظمنا قد شاهد بعض هذه العناكب الطائرة ، او على الأقل لاحظ بالوناتها التى تتساقط بكميات كبيرة على الأرض والزرع والحوائط وكل شىء قائم ، وهى تبدو بمثابة رقعات من نسيج جد خفيف يرفرف احيانا مع النسمات ، ويظهر اكثر اذا تجمعت عليه حبات الندى ، وهذا ينبئك بضخامة الأسراب المهاجرة ، وعندما تحير الناس في تعليل هذه الظاهرة ، أطلقوا عليها مسميات مصحوبة بالاساطير .. ومن هذه المسميات ـ على سبيل المثال ـ نسيج مريم ، اذ ظنوا ان ما يرونه هو خيوط حريرية تساقطت من كفن السيدة مريم اثناء صعودها الى السماء .. وهذه الأسطورة فرنسية الاصل .. وما اكثر الأساطير !



على قاعدة الثمرة تتراص البذور ذات الباراشوت بنظام متير ، انتظارا لظروف ملائمة تنطلق فيها الى وطن جديد !

وبذور تهاجر بأجنحة !

ولطالما تطلع الناس من قديم الزمن باعجاب شديد للطيور وهى تحلق في الهواء بحرية تحسد عليها ، وتمنوا لو كانوا مثلها ، بل ولقد ذهب بعضهم الى محاكاتها ، فكان الواحد منهم يصعد الى جبل او برج عال ، وهو مزود بجناحين كبيرين ، عله يقلد الطيور في طيرانها ، ولغبائه الشديد كان يلقى حتفه ، فليس بمثل هذه الافكار الساذجة يصل الانسان الى ما يريد !

ولننح الآن جانبا الطيور والطائرات وبعض أنواع الحشرات ، فهذه جميعا تستخدم في طيرانها وتوازنها فكرة الأجنحة ، والطاقة الدافعة ، ولنركز حديثنا على فكرة الانسان الطائر بجناحين كبيرين متصلين ، ومن صنع عقله ويديه ، وابسط مثال لتوضيح ذلك هو فكرة الطائرة الورقية التى يلعب بها الاطفال ، فترتفع مع تيارات الهواء الى مسافات كبيرة ، ولولا الخيط الطويل الذى يمسكها به الصبى ، لحملها الهواء وطاربها الى غير رجعة .

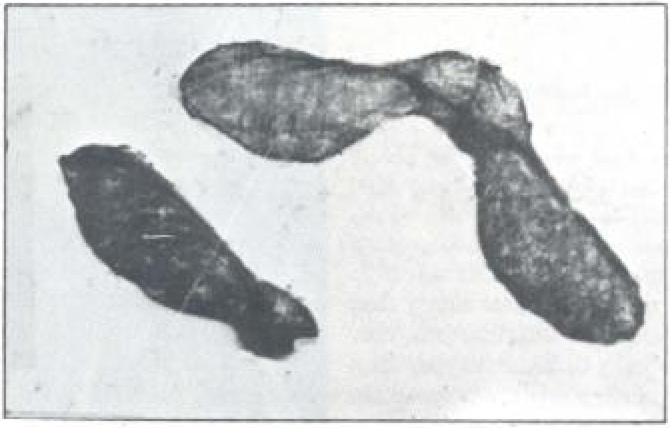
● الطبيعة تبتكر والانسان يقلد

لكن هذه الفكرة الصبيانية كان لها مع المصممين الاوائل تاريخ طويل ومثير ، اذ كانوا يسعون الى صقلها وتطويرها ، علها تصلح كوسيلة سهلة وسريعة لانتقال الانسان من مكان الى آخر ، وكأنما هو « يتزحلق » بها عبر تيارات الهواء المناسبة .. صحيح ان الفكرة مستخدمة ومتفذة في الوقت الحاضر بغرض الترفيه والتسلية ، خاصة بعد ان قامت مؤسسة « ناسا » لبحوث وغزو الفضاء بتطويرها ، لتستخدمها في حمل الكبسولات الفضائية ، والرجوع بها الى الأرض او البحر سالمة ، لكن هذه التجارب والمحاولات قد استمرت سنين طويلة ، ورغم ذلك ، فما زالت قاصرة في الاداء ، والا لانتشرت بين الناس .

لكن هذه الفكرة البشرية تقليد لفكرة سابقة مبتكرة وفعالة ، ولا تحسبن انها تقليد لأجنحة الطيور او الخفافيش ، لأن الفكرة التى نحن بصددها لا تحتاج الى حركة جناحين ، او قوة دافعة ، او موجهة ، اذ هى ببساطة فكرة نباتية ـ ان كانت للنباتات افكار على اية حال !

وطبيعى اننا لم نشهد نباتات طائرة ، بل رأيناها بذورا مهاجرة ، لكنها هذه المرة بأجنحة رافعة هابطة ، وبفكرة جد ناجحة ، لأنها استمرت ملايين السنين وما زالت .

ولننقل هنا فقرة كتبها عالم نبات ألمانى في القرن الماضى ـ هو البروفيسور هابرلاندت ، لأنه رأى هذه الفكرة وهى تشتغل في نبات متسلق ـ اسمه ليانا ـ على قمم الأشجار الاستوائية ، فجاء وصفه لها وكأنما هو يتغنى بافكار الطبيعة الساحرة .. يقول هابرلاندت « ومن هذا النبات تتدلى ثمار كأنها الأجراس في ابراجها العالية ، والمطلوب منك أن تتحلى بشىء من الصبر حتى تهب بعض الرياح لتهزها من محاورها المتدلية ، وفجأة يبدو امامك وكأنما هناك سرب من فراشات زاهية ، وقد انطلقت في الهواء من داخل ثمار تتراوح اطوالها بين ٢٠ ـ ٢٤ سنتيمترا ، وعندما تنضج الثمرة وتتفتح ، فانها تنشق طوليا من اسفل الى أعلى ، فتبدو كهيئة الجرس ، وفى داخلها تتراص البذور المجنحة في طبقات يعلو بعضها البعض ، فتتراءى للعين كأجمل وادق نظام موجود في عالمنا ... ان التصميم الذى جادت به البذور قد جعل منها آلات طائرة ذات كفاءة عالية .. انها تلف وتدور وتطير هذه الناحية او تلك ، ولا تحتاج في ذلك الا لنسمات هواء خفيفة ، لتصبح منافسا كفؤا للفراشات المحلقة » .



بذرة نبات « ليانا » التي تقطع في الهواء مسافات كبيرة باستخدام جناحين طائرين .. ثم الجناحان مطويان .

البذور تستخدم تكنولوجيا متطورة !

ولقد اجتمعت في هذه البذور المجنحة كل المبادىء الهندسية والتكنولوجية لتلائم المهمة التي تقع على عاتقها .. فمن اجنحة مفرودة ذات مساحات واسعة ، الى رقة في التكوين ، الى خفة في الوزن الى توازن ومناورة في الهواء ، الى اختيار في نوعية المواد التي تدخل في بناء الأجنحة .. الى آخر هذه الأمور التي تحتاج من العلماء الى بحوث ومعادلات ونظريات واختبارات وما شابه ذلك .. لكن النبات فعلها من قديم الزمن ، وبغير فكر ولا ورق ولا قلم !

ان البذورة الطائرة تكمن بالضبط بين جناحين رقيقين متجهين بزوايا محددة .. عرض الجناح حوالى خمسة سنتيمترات ، وطوله حوالى ثمانية سنتيمترات ، أي ان محصلة الطول حوالى ١٦ سنتيمترا ، ومحصلة المساحة حوالى ٨٠ سنتيمترا مربعا ، ومع ذلك فوزن هذا التصميم الطبيعي لا يتجاوز ثلث الجرام .. اى انها قد جمعت في تكوينها كل المميزات .. مساحات كبيرة ، واوزان خفيفة ، ومواد بنائية متينة يسيل لها لعاب العلماء !

من أجل هذا ، وبعد أن أعيت العلماء والمصممين الحيل لانتاج تصميم هوائي كفء ليستخدمه الانسان دون الاستعانة بآلة دافعة .. اى اجنحة هوائية تعتمد في دفعها على تيارات الهواء ، لم يجد الانسان امامه من يلجأ اليه ، ليستوحى منه افكاره ، الا أمثال هذه البذور المجنحة .

ويجيء بعد البروفيسور هابرلاندت استاذ الماني آخر يدعى فريدريك آلبورن من جامعة هامبورج لينشر بحثا عن كفاءة هذه البذور الطائرة في الانتشار ، وكان عنوان بحثه المنشور في احدى المجلات العلمية عام ١٨٩٧ هو « ثبات او اتزان الآلات الطائرة » ، ولقد اشار فيه ان كل من أراد أن يبتكر تصميما كفؤا فعليه أن يقلد فكرة بذور نبات « ليانا » المعلق والمتسلق على اشجار الغابات الاستوائية ، ففيها من المميزات مالا يمكن انكارها .

ووقع هذا البحث بين ايدى ايتريش الالماني ونجله ايجو ، وكانامهندسين متخصصين في تصميم وصناعات المنسوجات في بوهيميا ، وأرادا أن يطورا تصميم أوتوليلينتال الذى فقد حياته عندما كان يجرب فكرة الأجنحة الطائرة ، واستقل ايجو وزميله فرانزفيلز القطار الى هامبورج حيث قابلا البروفيسور البورن صاحب البحث المنشور ، وحصلا منه على مزيد من المعلومات عن فكرة البذورة الطائرة ، وبها طورا فكرة الجناح الطائر !

حقا .. ان الطبيعة هنا بمثابة مجلد ضخم مغلق على اسرار رائعة ومبتكرة ، لكن المجلد لا يفتح صفحاته ، ولا يبوح بمحتوياته ، الا لكل من سعى اليه ، واقبل عليه ، ليقرأ بعقلية متفتحة واعية هاضمة ما سطر فيه من روائع التصميم والخلق المبتكر ، ليصبح زادا علميا في عقول البشر .. ثم ان ما قدمناه في هذه الدراسة المتواضعة ، ليس الا بمثابة واحد في قاموس الاختراعات الطبيعية التي حملتها الكائنات ، وبها عبرت الزمان والمكان !

ولنا مع هذا الموضوع عودة ، لنعلم ما لم نكن نعلم ، وما اكثر ما لا نعلم .. « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » .

الاسكندرية ـ د . عبد المحسن صالح

انباء الطب والعلم

اعداد : يوسف زعبلاوي

القهوة وسرطان البنكرياس

● لا ريب ان القهوة عزيزة جدا على قلوب الكثيرين .. عزيزة لدرجة ان الاقبال على شربها بقى على حاله ولم يحد منه ارتفاع اسعار البن ارتفاعا باهظا قبل بضع سنوات .. وبقيت اسعاره على ارتفاعها فى الاسواق المحلية حتى الان ، رغم هبوطها فى الاسواق العالمية الى حد دون المستوى الذى كانت عليه قبل الارتفاع ... وبقى الاقبال على شرب القهوة كبيرا فى كل الحالات .. لا عجب اذن ان شعر الكثيرون بالقلق ، ان لم نقل الجزع ، للخبر العلمى الذى تردد مؤخرا عن اكتشاف علاقة بين القهوة وبين سرطان البنكرياس .

وأول ما يذكر فى هذا الصدد المكانة المرموقة التى يتبوأها العلماء الذين تسنى لهم اكتشاف تلك العلاقة .. فهم من الباحثين العاملين فى مدرسة هارفرد لشؤون الصحة العامة ، وهى من المعاهد العلمية التابعة لجامعة هارفارد الشهيرة . والدكتور بريان ماكماهون ، المعروف بدقته ورصانته ، هو الذى ترأس فريق العلماء الذين تسنى لهم اكتشاف العلاقة التى ذكرنا تبعا للتجارب العلمية التى قاموا بها .. اضف الى ذلك ان مجلة نيوانجلند الطبية وهى التى عرفت بتحفظها وارتفاع مستواها هى التى نشرت تفاصيل تلك التجارب ونتائجها .

هذا وسرطان البنكرياس مرض خطير .. يتسبب بوفاة ٢٠,٠٠٠ نسمة فى الولايات المتحدة وحدها كل سنة . واذا لم يحدث الوفاة فهو يتلف غدة البنكرياس على كل حال . وغدة البنكرياس تفرز عددا من العصارات الهاضمة ، وتفرز ايضا هرمون الانسولين ، كما يعرف ذلك جيدا مرضى السكر . فالدور الذى تلعبه الغدة اذن دور خطير ولا شك ، والاضرار المترتبة على عجزها او تلفها اضرار كبيرة لا ريب ..

اما الدراسات التى قام بها علماء هارفرد فقد استندت الى استفتاء اجروه مع الف رجل من نزلاء المستشفيات .. وشمل هؤلاء فيمن شملوا عددا من المصابين بسرطان البنكرياس .. وتبين للعلماء ان هؤلاء المصابين يشربون القهوة بكميات تفوق ما يشربه آخرون غير مصابين بالسرطان المذكور ، ولكنهم يعانون من آفات اخرى مختلفة . ومعنى هذا ان العلاقة بين القهوة وسرطان البنكرياس علاقة توافق احصائى وليست علاقة سببية ... مثلها فى ذلك كمثل العلاقة بين السكارين وسرطان المثانة والتدخين وما يؤدى اليه من امراض واورام ..

لذلك كان اثر القهوة فى البنكرياس بحاجة الى تجارب علمية دقيقة تؤكد وجود العلاقة السببية بينهما او تنفيها .. وما لم تجر مثل هذه التجارب فان القول بوجود مثل هذه العلاقة لا يتعدى حدود الظن .. ولا ريب فى ان ضرره اكثر من نفعه ..

الصلع باتت ايامه معدودة

على كثرة العقاقير والاساليب التى تدعى معالجة الصلع والقضاء عليه .. فان الصلع ما زال قائما ، ان لم يكن فى ازدياد .. حتى عمليات زرع الشعر ، التى تحدثنا عنها فى هذا الباب قبل حين ، لم تحقق النجاح المرجو فى اكثر الحالات ، هذا الى جانب تكاليفها الباهظة وازعاجها البالغ ... ولا ندرى ان كان العقار الجديد الذى حملت الينا نبأه آخر اخبار العلم فى امريكا سيفشل كما فشل غيره فى القضاء على الصلع ... ولكننا لا نملك ان نعقد الامل على ان ينجح المينوكسيديل (minoxidil) حيث فشل غيره ، فيصبح اول عقار ناجح لمعالجة الصلع .. ذلك ان الشركة التى توصلت اليه وعملت على تطويره ليست

سوى (ابجون) of kalmazoo upjohn co في ميشجان في الولايات المتحدة الامريكية .

والطريف ان المينوكسيديل اصلا لم يكن علاجا للصلع وانما لارتفاع ضغط الدم .. وشاءت الصدف ان تكتشف عن خاصة العقار في استنبات الشعر اثناء التجارب التي اجروها له . وما اسرع ما تبين ان العقار اكثر فاعلية في اثره الجانبي هذا منه في اثره الرئيسي الخاص بتخفيض ضغط الدم .. فقد نبت شعر الكث بسببه لا في الرأس الاصلع فحسب ، ولكن في الوجه وفي سائر انحاء الجسم ايضا .. ودلت التجارب التي اجروها عليه في هذا الصدد ان المينوكسيديل كفيل باثبات الشعر حتى في حالات الصلع اليائسة .. ولكنها دلت ايضا ان العقار كان اقوى بكثير مما يجب ان يكون .. وان تناوله ابتلاعا قد يعود باضرار جانبية على الكثيرين .. من هنا اتجهت الشركة الى صنع المستحضر المناسب بالقوة المناسبة ، وذلك غسولا للاستعمال الخارجي ..

وقد بدأت الشركة في تجربة الغسول على نطاق واسع في عدة مستشفيات ، في نيويورك وبوسطن وغيرها . على ان ما تسعى اليه الشركة في هذه التجارب ليس التأكد من فاعلية المستحضر وقد ثبت لها بما لا يقبل الشك .. وانما العمل على مزيد من تطويره وتحسينه .. والغريب ان المينوكسيديل ينبت شعر الاصلع على مرحلتين . كما يقول الدكتور زاباكوستا dr. a. Zappacosta في Bryn mawr في بنسلفانيا .. فهو ينبته بالسمك السوي وبطول ٣/٤ بوصة في غضون شهرين .. ثم يسقط شعر المرحلة الاولى الجديد هذا لينبت مكانه شعر جديد اخر في المرحلة الثانية والاخيرة .. اي ان شعر المرحلة الثانية ينبت ليبقى ..

الكارثة ...
والسبيل الى تجنبها

تدرس وكالة الفضاء الأمريكية (نازا Nasa) حاليا تقريرا يجمع بين الخطورة والطرافة .. بل قل يصلح اساسا لفلم سينمائي قد يعود على هوليوود باضعاف ما عاد عليها به فلم حروب الفضاء او اي فلم اخر .. من ملايين الدولارات .. هذا بالرغم من ان التقرير واقعي وعلمي الى ابعد الحدود . وقد اعده المجلس الاستشاري للوكالة بقصد العمل من اجل انقاذ الارض ... الكرة الارضية التي نعيش عليها . من مخاطر الاصطدام باحد الشهب او النيازك او الكويكبات . وهي تعد بالالاف . في فضاء مجموعتنا الشمسية . ولا تعد ولا تحصى في الفضاء الخارجي ...

ويقترح التقرير على الوكالة رصد حركات تلك الشهب والكويكبات .. على الاقل ما يبلغ قطره منها ٢٠ مترا او يزيد . وبخاصة الكواكب الصغيرة التي يستطيع الواحد منها تدمير جانب لا يستهان به من الكرة الارضية ، والقضاء على اكثر المخلوقات التي تعيش على سطحها .. ويستطيع بعضها تصفية وجود الكرة الارضية ومن عليها .. ويحدد التقرير عدد الكويكبات الجديرة باهتمام الوكالة بثمانمائة ، وذلك نظرا لحجمها ولخط سيرها الذي ينذر باحتمال اصطدامها بكرتنا الارضية .

ويؤكد التقرير على ضرورة احكام اعمال الرصد المقترحة .. بحيث يكتشف الخطر قبل موعد وقوعه بزمن كاف للعمل على تداركه .. ويوصي باللجوء الى القنابل الهيدروجينية .. تحملها وتتوجه بها سفينة فضاء فتفجرها في الشهاب او الكويكب المندفع نحو الارض .. فتحمله على تغيير خط سيره ، فتتدارك اصطدامه بالكرة الارضية وتتحاشى بالتالي الكارثة ..

ويستشهد التقرير بالديناصورات التي عاشت على سطح الكرة الارضية طيلة ١٣٠ مليون سنة ... وما كانت هذه الحيوانات الضخمة لتختفي قبل نحو ٦٥ مليون سنة ، وكأن شيئا لم يكن ، لو لم تتعرض الكرة الارضية انذاك لمثل الكارثة

التي تتهددها في الوقت الحاضر .. والتي يعتقد واضعو التقرير بأنها قاب قوسين او ادنى ... ومما جاء في التقرير قوله « عجزت الديناصورات عن تطوير التكنولوجيا الكفيلة بانقاذها من الفناء .. فكان لا مفر من انقراضها .. اما الانسان فقد نجح في تطوير تلك التكنولوجيا واصبح قادرا على تجنب الاصطدام .. اصطدام الكرة الارضية بأي من الشهب والكويكبات .. والحيلولة دون فناء الجنس البشري وانقراضه .. » ويضيف التقرير الى ذلك قوله : « على الانسان ان ينجح حيث فشلت الديناصورات .. فينجو بالجنس البشري حيث انقرضت هي .. ما دامت التكنولوجيا الكفيلة ببقائه قد اصبحت في حوزته .. »

وتجدر الاشارة الى الاساس الذي يقوم عليه التقرير .. اعني النظرية القائلة بأن انقراض الديناصورات انما جاء نتيجة الاصطدام الذي وقع بين الكرة الارضية وبين احد النيازك او الكويكبات .. فقد اعقب ذلك الاصطدام ، حسبما تذهب اليه هذه النظرية ، تناثر الغبار في الفضاء بكميات كبيرة حجبت الشمس ، وحالت دون وصول طاقتها الى الارض طيلة سنوات عديدة فمات النبات وماتت معه الديناصورات وسائر الحيوانات التي اتخذت منه غذاء لها .



القلوب البلاستيكية

يبدو أن القلوب النابضة ستعرض للبيع والشراء في الاسواق في مستقبل قريب لقد نجح الدكتور روبرت جافريك Dr.R.K. Javrik والدكتور وليم كولف Dr.W.J. Kolff في تطوير قلب صناعي يزرع في صدر الانسان ، مكان القلب الطبيعي ، اذا ما تلف هذا القلب ، ووجب استئصاله . والعالمان من العاملين في كلية الطب في جامعة (اوتاوه) في مدينة سولت ليك سيتي .. واولهما من الاختصاصيين في الهندسة البيولوجية والثاني من الباحثين الذين اولوا القلوب الاصطناعية اهتمامهم المركز طيلة العشرين سنة الماضية أو تزيد . وقد صنعا قلبهما الاصطناعي ، وهو الذي ترى في الصورة من بلاستيك والمنيوم .. وجعلاه بحجم القلب الطبيعي تقريبا ، بحيث يمكن ان يحل محله في مكانه من الصدر ..

والقلب الاصطناعي الجديد عبارة عن مضخة .. فهو اذن بحاجة الى قوة محركة .. الى مولد خفيف الوزن نسبيا يسهل حمله على صاحب العلاقة .. ويستمد القلب الاصطناعي حاجته من الطاقة بواسطة انابيب طولها ستة اقدام تصل بينه وبين المولد أو البطارية .

ولايخفى ان هذا وضع شاذ ولا يخلو من مضايقات . فهو يحد من حركة المرء ... بل يحتم عليه البقاء في مقعد متحرك ككرسي المقعدين . وينوي العالمان تطوير اختراعهما بحيث يتسنى لصاحب العلاقة تثبيت البطارية في حزامه والاستغناء عن الكرسي المذكور والتحرك بحرية تامة كأي رجل اخر .

والمقرر ان تجرى العملية الاولى لزرع القلب الاصطناعي الجديد عما قريب ... وسيجريها الدكتور وليم دي فريز Dr.W. De Vries لاحد مرضى القلب الميؤوس من شفائهم بأية وسيلة اخرى ..

وقد أقرت دائرة الغذاء والدواء في واشنطن القلب الجديد مبدئيا .. والظاهر انها ستقره بصورة نهائية عما قريب

الجاحظ والأتراك

بقلم : الدكتور زكريا كتابجي

هل تأثر الجاحظ حقا بالاتراك ؟

يؤكد الدكتور زكريا كتابجي استاذ التاريخ الاسلامي بجامعة اتاتورك سابقا ، واستاذ الدراسات الاسلامية بجامعة جوس النيجيرية حاليا ، ان الاتراك اثروا في فكر الجاحظ تأثيرا بالغا ، وأن أي معالجة موضوعية لسيرة الجاحظ يجب ان تقف طويلا امام تلك العلاقة الوثيقة بينه وبين الاتراك . وهو هنا يكشف القناع عن هذه الصفحة الجديدة في تاريخ الجاحظ الكبير .

رغم الاختلاف في بدء حياته ومماته ، فان اغلب الروايات تتجه الى ان أبا عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الملقب بالجاحظ ، ولد في عام ١٥٩ هجرية ، ومات عام ٢٥٥ هـ . وكانت ولادته بالبصرة ، ثم ، وهو صبي ، اخذ النحو عن الاخفش ، وكان تلميذ ابي اسحاق المعروف بالنظام المتكلم المشهور المعتزلي . واولع بالقراءة حتى « انه لم يقع بيده كتاب الا استوفى قراءته كائنا ما كان . وكان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر »[١] . تثقف بالثقافة العربية واتيحت له الثقافة اليونانية وحذق الثقافة الفارسية وامعن نظره في الثقافة التركية ولم يهملها .

واخذ صيت الجاحظ يتوسع يوما فيوما بكتبه ورسائله . وتحدث عنه في قصور الخلفاء والامراء . وتسربت شهرته الى المأمون . فانه بعد ما قرأ كتابه « الامامة » استقدمه الى قصره وطلب منه ان يكتب رسالة في الخلافة العباسية وقد ولى المأمون الجاحظ ديوان الرسائل . غير انه لم يمكث في ذلك المنصب سوى ثلاثة ايام ثم استعفى فأعفي . وكان سهل بن هارون يقول « ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان افل نجم الكتاب ..

---

(١) ياقوت الرومي ، معجم الادباء ج : ٦ ص : ٥٧ طبعة مصر .



الاتراك في بغداد

ثم جاء المعتصم . وكانت امه تركية . وبدأ بالمعتصم دور جديد في الدولة العباسية وفي الممالك الاسلامية . ولانه لم يكن يثق بالفرس ، فقد استقدم قوما جددا الى عاصمة دولته وقصره من المناطق الداخلية من ما وراء النهر . واستعان بهم في امور الدولة في الجيش اولا وفي الحكومة ثانيا . وهؤلاء كانوا اتراكا من خؤولة المعتصم .

وما كان الاتراك قبل المعتصم الا فئة قليلة في الجند لا شأن لهم في امور الدولة . ولم تمض مدة بعد ما جلبهم المعتصم حتى صاروا مسموعي الكلام في الدولة وجاوز صيتهم الآفاق وقويت شوكتهم وكثر نفوذهم الى حد ان قال الشاعر :

أصبح الترك مالكي الامر والعا
لم ما بين سامع ومطيع

وشاهد الجاحظ مجيء الاتراك الى بغداد على ظهور خيولهم بطلب المعتصم مع حسن هندامهم وجمال منظرهم ولاسيا الذين كانوا من ابناء الملوك بزيهم الخاص . وشاهد ايضا سطوة الترك وحلولهم محل العرب والفرس وانتصاراتهم على بابك الخرّمي وعلى الروم في فتح عمورية في الخارج واخمادهم للفتن والقلاقل التي اثارها العرب في الداخل في المدينة وفي مكة وفي سائر بلاد الدولة العباسية .

واثر هذا كله على الجاحظ حتى اسبغ على الترك قلمه السيال بأسلوب جاحظي . وكتب رسالته المشهورة الفريدة في نوعها في فضائل الاتراك . وبين هنا مناقب الاتراك على ما بلغ من الآثار وهو يقول في ذلك « الا انا على كل حال سنذكر جملا من احاديث رويناها وعيناها وأمور رأيناها وشاهدناها ، وقصص تلقفناها من افواه الرجال وسمعناها » .

والحق ان الجاحظ كتب رسالته ايام المعتصم . واراد ان يقدمها اليه كما قدم كثيرا من كتبه الى اكابر الدولة من الوزراء والامراء حتى يتقرب اليهم ويلازم مجلسهم . ولكن لم تصل الرسالة اليه لاسباب يطول شرحها . وهو يقول في ذلك « فلذلك لم اعرض للاخبار عنها . واحببت ان يكون كتابا قصدا ومذهبا عدلا ولا يكون كتاب اسراف في مديح قوم واغراق في هجاء آخرين » .

ومضت ايام المعتصم وجاءت دولة الواثق . وقد ازدهر اقبال الاتراك وكثر عددهم وازداد نفوذهم ولما كانت دولة المتوكل بلغت سطوة الترك ذروتها في الجيش والحكومة . وكانت ام المتوكل ايضا تركية والاتراك غلبوا

في عهده واخذوا زمام الدولة بأيديهم وساعدتهم الحوادث في اعلاء شأنهم ورفع سلطانهم . وممن اشتهر منهم ايتاخ ، ووصيف ، وبغا وغيرهم من الاتراك الذين صاروا نخبة من قواد الخليفة في الجيش وفي ذلك يقول الشاعر :

خليفـة في قفص بـين وصيف وبغا
يقـول ما قالا له ، كما يقـول الببغا

مع السادة الجدد

واذا ما حاولنا ان نرصد علاقة الجاحظ مع كبار الاتراك في تلك المرحلة من العصر العباسي ، فنجد في مقدمتهم ابا يعقوب الخريمي الشاعر التركي الجليل ، الذي نظم قصيدة طويلة في بؤس بغداد من اروع الشعر التصويري كما قال الاستاذ علي جواد « حيث انها جديرة ان تعد في المعلقات لو كنا في عصر المعلقات ترى اين كان شعراء العصر العباسي من امثالها ؟ »[٢] .

ولا يخفي علينا ان الخريمي كان من الاتراك الاولين الذين لمعوا في سماء الادب والشعر في عاصمة الخلافة . وكان اصله من اتراك ما وراء النهر (اي التركستان السفلى) تعلم العلم والادب حتى صار شاعرا بليغا واديبا فصيحا . يقول ابن المعتز « كان الخريمي شاعرا مفلقا مطبوعا مقتدرا على الشعر وكان يمدح الخلفاء والوزراء والاشراف فيعطونه الكثير وكان من نسل الاتراك » فلما قدم الجاحظ الى بغداد اتصل به اتصالا قويا وصار من احد اصدقائه وحسبك قول الاستاذ علي جواد الطاهر حيث يقول « اما علاقته ـ اي الخريمي ـ الادبية فلابد من انها كانت واسعة وكانت علاقة الجاحظ به علاقة اعجاب » ولذلك لا تتعجب اذا دون الجاحظ ابياتا كثيرة من شعره في المواضع المختلفة من مؤلفاته .

ومن كبار الاتراك الذين برزوا في حياة الجاحظ ابراهيم بن العباس الصولي . ذلك انه لما نزل الجاحظ ببغداد اخذ صيته ينتشر يوما فيوما بكتبه ورسائله وتحدث عنه الناس في قصور الخلفاء والامراء وبلغ خبره الى المأمون ، فاستقدمه الى قصره وطلب منه ان يكتب رسالة في الخلافة العباسية . ولعل الجاحظ قد اتصل وهو في بلاط الخليفة بابراهيم بن العباس الصولي التركي (المتوفي سنة ٢٤٣ هـ) وكان من اكبر رجال الدولة في عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل من خلفاء العباسيين .

واتصل الجاحظ بالخليفة المتوكل على الله بواسطة خليله الوفي وصديقه المكرم وتقرب اليه وحضر مجلسه . وكثيرا ما اخذ الفتح بن خاقان الجوائز والاحسان منه . وبسط الكلام ياقوت الرومي في معجمه ـ بصدد اتصال الجاحظ بالخليفة ـ عن قصة رجل اراد شفاعة الجاحظ برسالته لقضاء حاجته . وخلاصة هذه القصة :

« ان رجلا طلب منه كتابا الى بعض اصحابه بالوصية . فكتب الجاحظ له رقعة ، وختمها . فلما خرج الرجل من عنده فضها فاذا هي في الكتاب .

« هذا الكتاب مع من لا اعرفه . وقد كلمني فيه من لا اوجب حقه . فان قضيت حاجته لم احمدك وان رددته لم اذمك » فرجع الرجل اليه . فقال الجاحظ :

ـ كأنك فضضت الورقة . قال : نعم قال الجاحظ :

ـ لا يضرك ما فيها فانه علامة لي اذا اردت العناية بشخص .

فقال الرجل :

ـ ام الجاحظ عشرة الاف قحبة وام من يسأله حاجة . فقال الجاحظ ما هذا ؟ فقال الرجل : « هذه علامتي فيمن اشكره . » وتهلل وجه الجاحظ على هذا وتعجب كل الاعجاب وضحك . وحدث الفتح بما جرى بينه وبين هذا الرجل . وتعجب الفتح اكثر من تعجب الجاحظ بهذا المزاح . وحكاه للمتوكل على الله الخليفة العباسي الذي لم يلبث ان امر باحضاره . ويقول الجاحظ : كذلك كان سبب اتصالي به واحضاري الى مجلسه . »

---

(٢) وقد روى الجاحظ ابياتا من هذه القصيدة الطويلة التي نقلها الطبرى كاملة ، وتقع في خمسة وثلاثين ومائة بيت بحسب قيمتها التاريخية ويقول الشاعر التركي فيها :

يا بؤس بغداد دار مملكة دارت على اهلها دوائرها
امهلها الله ثم عاقبها لما احاطت بها كبائرها
بل هل رأيت السيوف مصلتة أشهرها في الاسواق شاهرها
والخيل تستن في أزقتها بالترك مسنونة خناجرها



ولكن الخليفة لم ير حظا وافرا من ظرفه لأنه لم يلتفت اليه لدمامة خلقته وذميم صورته . وسيرة استحضره المتوكل ليؤدب بعض ولده . فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه . ووردت روايات كثيرة تدل على قبح منظره . ومن ذلك قول الشاعر :

« لـو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا
ما كان الا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بنفسه
وهو القذى في كل طرف لاحظ »

دفاعا عن الاسلام

وهذه الرسالة التي كتبها الفتح من دار الخلافة ببغداد الى الجاحظ تقدم لنا فكرة واضحة على درجة الاخاء والمودة بين هذين الخليلين . ولا نبالغ اذ قلنا ان الفتح بن خاقان اكثر من يعرف للجاحظ حقه ويقدر مكانه ويسبغ عليه نعمه وعطاياه مع اخلاصه . وهو يقول في رسالته الى الجاحظ :

« ان امير المؤمنين يجد بك ويهش عند ذكرك ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه . ولغصبك رأيك وتدبرك فيا انت مشغول به ومتوفر عليه . وقد زدتك في نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك . فاعرف لي هذه الحال واعتقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى وافرغ منه وعجل به الى وكن من جدايه على نفسه تنازل من مشاهرتك . وقد استطلقته لما مضى . واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة . وهذا مما تحتكم به نفسك . وقد قرأت رسالتك بصيرة غنام ولولا انني ازيد في تخيلك لعرفتك ما يعتريني عند قراءتها والسلام » .

وتلك الرسالة التي كتبها الفتح الى خليله تكشف لنا القناع عن بعض الحقائق التاريخية الا وهي ان الجاحظ وضع بعض رسائله بتحريض من الفتح بن خاقان وتشجيع له وذلك بحسب الظروف التي ساقته الى أن يكتب رسالة مستقلة لغرض سياسي يستهدف مصالح الدولة ونفع المسلمين . واكثر من ذلك نفهم من الرسالة ان الفتح بن خاقان هو الذي يعين الجاحظ ويحسن العطاء له حتى يعيش عيشة راضية لانه يستلفه للجاحظ لاعاشته لسنة كاملة مستقبلة بعدما استطلقه لما مضى كما بين في الرسالة .

وثانيا ان بعض رجال الاقلية ظهروا وصاروا خطرا عظيما يهدد الدولة ويضل الناس ويفسد اذهانهم بالباطل عن الحق وخاصة النصارى واليهود .

وقد اسند الى ابراهيم ديوان الرسائل الذي هو محور السياسة العامة للدولة ، وكان لا يوكل الا لذوي الشرف والنباهة ، الحذاق في مختلف العلوم والآداب ، واصحاب السياسة والتدبير والكياسة . وقد كان ابراهيم بن

العباس الصولي مقدما فيه حتى أوائل عهد المأمون . فلما قدم الجاحظ اليه قربه حتى صار من اعز اصدقائه وكان الجاحظ يخلفه في الديوان اذا تغيب في شأن من شئونه الخاصة والعامة حتى لقب بخليفة ابراهيم بن العباس الصولي على ديوان الرسائل .

نعم : خرج الجاحظ من ديوان الرسائل ولكنه ظل على صلة دائمة ووثيقة بابراهيم بن العباس رئيس ديوان الرسائل ، وامتدت هذه الصلة امدا غير قليل .

وكان من تقاليد العلماء، اذا الفوا كتابا ان يقدموه الى من يقدر حقهم من كبار رجال الدولة (كما اعطي للمؤلفين حق الطبع في زماننا) وقد اتبع الجاحظ هذه السنة القديمة فقدم كتبه الى من يقدر حقه من الوزراء والامراء، ومن جملتهم ابراهيم بن العباس الصولي التركي . فانه وضع « كتاب الزرع والنخل والزيتون والاعناب » ورفعه الى ابراهيم بن العباس فاجازه عليه بخمسة آلاف دينار . فمن اجل ذلك كان الجاحظ يعيش في ترف من الحياة في البصرة وبغداد وسامراء .

وتشير روايات الجاحظ الى بعض من حقدوا على ابراهيم وعابوا على الجاحظ تقديم رسالته اليه ومن جملتهم الوزير محمد بن عبد الملك الزيات . ولعل الجاحظ كتب رسالته الطويلة « في الجد والهزل » حتى قال في هذه الرسالة « وبعد متى صار اختيار النخل على الزرع يحقد الاخوان .. ومتى صار تقديم النخلة ملة وتفضيل السنبلة نحلة فجئتنا انت بنوع من العجب ابطل كل عجب . »

الفتح بن خاقان .

ومن الاتراك الذين برزوا في الادارة « الفتح خاقان التركي » . وكان من وزراء الدولة اتخذه المتوكل اخا له وقدمه على اهله . وكان خاصا به حظيا عنده . وكان المتوكل لا يصبر عن الفتح قدر ساعة . واتصل الجاحظ أيضا بالفتح بن خاقان التركي . ومع ان المصادر التي بأيدينا لا تصرح بأية وسيلة اتصل الجاحظ فيها بالفتح ، الا اننا نستطيع ان نقول كلمة في اتصاله بالفتح بن خاقان بعد ما اطلعنا على حياة هذين العميدين . أحدهما عماد الدولة والآخر عماد الأدب العربي في عصره .

ولا شك لدينا ان الفتح بن خاقان كان اكبر رجل في دار الخليفة ومن عظماء الدولة واصحاب المكانة وكان على جانب عظيم من الدهاء والسياسة والفضل وكان مقصود الجانب من اكابر العلماء وفحول الادباء . ومن ابرز ما اتسم به وميزه عن غيره من الوزراء وكبار الدولة غرامه بالكتاب غراما شديدا . ويقول ابو هفان [٣] ثلاثة لم ار قط ، ولا سمعت باكثر منهم محبة للكتب والعلوم . الجاحظ والفتح بن خاقان واسماعيل بن اسحق القاضي »

فلا يبعد ان رجلا مثلا الفتح بن خاقان في محبته للكتب اطلع على مؤلفات الجاحظ الذي انتشر صيته في الافاق واخذ يتحدث عنه في مجال الظرفاء وحلقات الادباء وقصور الخلفاء ودور الامراء ، هذه ناحية ومن ناحية اخرى كانت دار الفتح مهبط العلماء ومنزل البلغاء وكان يحضر داره فصحاء العرب وعلماء البصرة وادباء الكوفة . وممن كان في جملتهم المفضل بن سلمة اللغوي المعروف . وكان الفتح يتبارى في تفسير الايات مع المبرد وامثاله . وللبحتري فيه مدائح كثيرة هي من غرر ديوانه . [٤]

وكان الفتح بن خاقان من المعجبين بالجاحظ اعجابا بأدبه وفضله وسعة معارفه واسلوبه الخاص . وبعدما اتصل الجاحظ بالفتح قدم اليه سلسلة من كتبه . وكان الجاحظ يراه اهلا للايثار . فوضع له رسالته المشهورة « في مناقب الاتراك وعامة جند الخلافة » ورفعها اليه بمقدمة قال فيها :

« وفقك الله لرشدك واعان على شكرك واصلحك واصلح على يديك . وجعلنا واياك ممن يقول الحق

---

(٣) ياقوت الرومي ، معجم الادباء ، ج : ٦ ، ص : ١١٧

(٤) (*) ـ ابو عبادة الوليد بن عبيد الطائي البحتري اشهر من استحق لقب شاعر بعد ابي نواس على الاطلاق . وتكسب البحتري بالشعر فقصد « سر من راى » ومدح خلفاءها وامراءها . وقد مدح البحتري الفتح بن خاقان التركي كما مدحه كثير من شعراء عصره باكثر من ثلاثين قصيدة في ديوانه حتى قال :

« إن العرب انقادت اليك قلوبها ... فقد جئت احسانا الى كل معرب

شكرتك عن قومي وقومك انني ... لسانهما في كل شرق ومغرب

وما انا الا عبد نعمتك التي ... نسبت اليها دون رهطي ومنصبي »

ويعمل به ويؤثره ويحتمل ما فيه مما قد يصده عنه ... فان الله تعالى لم يعلم الناس ليكونوا عالمين دون ان يكونوا عاملين . بل علمهم ليعلموا وبين لهم ليتقوا .. الخ ».

والفتح بن خاقان ـ وهو الذي كان معظم الامر بيده والغالب على الخليفة ـ قد تغلب على هذا الخطر تغلبا تاما وحث الجاحظ على الدفاع عن الاسلام وايقاظ المسلمين ضد هؤلاء المتغلبين من النصارى واليهود الذين يعيشون في ترف من الحياة في الممالك الاسلامية الواسعة .

ونحن لا نريد ان نبسط الكلام بل نقول بالاختصار : إنه بعد ما اتبعت الدولة الاسلامية بسلسلة من الفتوحات التي احرزها مجاهدو العرب كانت النصارى من اهم العناصر التي دخلت تحت راية الاسلام بجانب العناصر الاخرى واحتموا بظلها .

وبفضل هذه الحرمة لعب النصارى واليهود دورا هاما في المجتمع الاسلامي . ومنهم من تولى المناصب الخطيرة في الدولة الاسلامية خاصة في عهد المأمون . وكان المسلمون يخشون خطر تعاليمهم عندما أطلقوا القول في الطعن على الاسلام في زمن المأمون . وقد تزايد الخوف في عهد المتوكل الى حد ما ويقول الجاحظ في كتابه الرد على النصارى :

« وامتنع كثير من كبرائهم من اعطاء الجزية مع اقتدارهم على دفعها وسبوا من سبهم وضربوا من ضربهم وهم يفعلون ذلك واكثر منه » واضاف الجاحظ يقول :

يتبعون المتشابه من كتابنا ثم يخلون بضعفائنا ويسئلون عوامنا عما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ... ومن البلاء ان كل انسان من المسلمين يرى انه متكلم . وانه ليس احد احق بمحاجة الملحدين من احد ..» (٥)

واراد الفتح بن خاقان أن يجهز المسلمين بالدلائل والحجج للدفاع عن دينهم . ولذلك حرض الفتح اكبر رجاله ومتكلميه في الدين ان يحمل عليهم ويسد بابهم الذي فتحوه لافساد الناس . فطلب من الجاحظ ان يضع رسالته الشهيرة « كتاب الرد على النصارى » .

وكل ذلك . يدلنا على ان الفتح بن خاقان كان يعطف على الجاحظ بكل نواحيه ويتكلف ايضا جميع حوائجه ويبذل احسانه اياه .

بقي لنا سؤال هام نورده هنا : ما مكانة الفتح بن خاقان من نفس الجاحظ ؟

إننا لا نبالغ اذا قلنا ان مكان الفتح عند الجاحظ هو مكان الجاحظ عند الفتح . ولنقرأ قول الجاحظ :

« ولنقل انا لم نر في صدر هذه الدولة المباركة العباسية ولا في تاريخها وايامها الى هذه الغاية فتى اجتمعت له فضائل الملوك وادابها ومكارمها ومناقبها . فحاز الولاء من هاشم والخصيصي من خلفاء بني العباس الطيبين . والتبني من المعتصم بالله واخوانه الابرار من ائمة المؤمنين وورثة خاتم النبيين عدا الامير الفتح بن خاقان مولى امير المؤمنين فلتهنه هذه النعمة المهداة . وبارك له وافيها وزاد اليها الدأب عليها حتى يبلغ به ارفع يفاعها واسنى ذورتها واعلى درجاتها في طول من العمر وسلامة من عوادي الزمان وغيره ونكباته فانه رحيم كريم » . (٦)

وينبغي الا نتعجب اذن . اذا اختار الفتح بن خاقان الجاحظ رفيقا عزيزا في طريقه الى الشام في اثناء سفره في سنة (٢٤٣ ـ ٢٤٤ هـ) في عهد وزارته للمتوكل . وبهذا سنحت الفرصة للجاحظ لزيارة انطاكية وربما وصل الى مصر فزادته الاسفار في الآفاق اطلاعا وسعة معرفة . وربما نجده يتحدث في مؤلفاته عما لاقاه في هذا السفر من عناء وعبرة لا تخلو من فكاهة وطرافة .

وبعد ما سطع نوره في البصرة وبغداد وسامراء أفل هذا النجم اللامع من أوساط الادباء وقصور الامراء ، خصوصا بعد ان مات الفتح بن خاقان وغيرهم من رجال الدولة الذين كانوا يرعونه ويعرفون قدره ، الى ان اصيب بفالج نصفي واخذ ذلك المصباح المنير يخبو شيئا فشيئا حتى ظل مفلوجا ثمانية أعوام (٢٤٧ ـ ٢٥٥ هـ) . ومات في شهر المحرم بالبصرة وقد نيف على تسعين سنة . ■■

نيجيريا ـ دار السلام ـ د . زكريا كتابجي

(٥) ـ جميل جبر . الجاحظ ومجتمع عصره ص : ٣٩ طبعة بيروت ١٩٥٨ .

(٦) ـ للجاحظ . كتاب التاج في اخلاق الملوك ص : ٣٠٢ طبعة بيروت ١٩٥٥

عندما يتعثر الأطفال في التعليم

بقلم : الدكتور غسان حتاحت

مشاكل التعلم عند الأطفال كثيرة ، منها ما يتمثل في عدم قدرة الطفل على القراءة والكتابة بصورة جيدة ، او عدم قدرته على القيام بالعمليات الحسابية المختلفة المناسبة لسنه ، ومنها ما ينجم عن عدم استطاعته التركيز ، أو عن قصر فترة الانتباه لديه ، أو عن زيادة غير طبيعية في حركاته .

وتنجم هذه المشاكل غالبا عن أحد ثلاثة عوامل :

١ ـ عوامل البيئة أو المحيط وتشمل النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

٢ ـ العوامل النفسية والعاطفية .

٣ ـ العوامل الطبية مثل وجود بعض الامراض الخاصة أو وجود اضطرابات في النمو والتطور

وسأقتصر في الكلام هنا على الأطفال الذين يعجزون عن الوصول الى مستوى مقبول في دراستهم يتناسب مع عمرهم عندما تكون ظروف الدراسة جيدة وامكانيات التعليم متوفرة .

وسأتجاوز عن مناقشة حالة قسم من الاطفال الذين يتخلفون بسبب الاضطرابات العاطفية أو النفسية أو الاجتماعية ، لأتكلم فقط على حالة الاطفال الذين لا يبدو لديهم أي مظهر مرضي جسميا كان أم نفسيا .

ان اضطرابات التعلم في الظاهر هي مشكلة عجز الطفل عن الوصول الى المستوى الذي يتوقعه منه المعلمون أو الأهل ، وهذا يتفاوت طبعا حسب الأشخاص . أما التحديد الدقيق للاضطرابات الحقيقية بصورة علمية فانه يتطلب اجراء فحوص خاصة كاختبار كاليفورنيا او اختبار متروبوليتان ، حيث يتبين مدى قصور الطفل ونوعية هذا القصور ، وهل هو في القراءة أو الكتابة مثلا او في الحساب أو في التعبير أو في التكيف مع رفاقه ومعلمه . وان نتائج اختبارات الذكاء التقليدية وتقدير (I.Q.) التي تجري للأطفال بشكل جماعي لا تعطي فكرة دقيقة وصحيحة بل يجب اجراء مثل هذه الاختبارات بصورة فردية .

وسأحاول فيما يلي تحليل بعض أسباب ومظاهر اضطرابات التعلم :

نضج الجهاز العصبي

عندما يصاب جزء من الجهاز العصبي الناضج تظهر اضطرابات في الوظائف المرتبطة بهذا الجزء . أما عند الأطفال حيث ما يزال الجهاز العصبي في طور النضج والنمو فقد لا تؤدي الاصابة الى اضطراب آني بل قد تتجلى فيما بعد بظهور هذه الوظائف متأخرة وتطورها ببطء ، مثال ذلك المشي : فالطفل الصغير ـ كما نعلم ـ لا يبدأ بالمشي الا في سن معينة (تتراوح ضمن حدود) فاذا



أصيب الجهاز العصبي لديه لسبب أو لآخر بحيث أثر على وظيفة المشي فان اضطراب المشي لا يتظاهر لديه الا عندما يبلغ الطفل تلك السن .

وكذلك الامر في التعلم ، فاصابة الجملة العصبية خلال الفترة الاولى من الطفولة قد تؤدي الى تأخر ظهور القدرة على التعلم لدى الطفل بحيث تماثل حالته حالة طفل أصغر منه سنا . وما يعانيه المعلم في تدريس هذا الطفل هو نفس ما تعانيه اذا جربنا أن نعلم القراءة لطفل عمره أربعة أعوام مثلا . وهؤلاء الأطفال يتحسنون عادة مع مرور الوقت ومع نضج الجملة العصبية .

وأحب أن أشير هنا الى ناحية عملية وهي أن هؤلاء الاطفال الذين تأخر نضج الجملة العصبية لديهم وأصبحوا بالتالي ذوي طاقة محدودة لا يستطيعون أن يستفيدوا من طاقتهم هذه اذا وضعوا في مستوى أعلى من المستوى الذي يناسبهم فعلا فلا هم يتعلمون حسب المستوى الاعلى ولا هم يتعلمون حسب مستواهم .

وان التحسن الذي يطرأ على هؤلاء الاطفال ينشأ عادة عن سببين :

١ ـ التحسن العفوي الذي يحصل تلقائيا ويؤدي لنضج الجملة العصبية . وقد يتم ذلك أحيانا بشكل طفرات .

٢ ـ التحسن الذي يظهر عندما نزيل عن الطفل صفة التقصير وذلك بوضعه في المستوى المناسب له .

وان استعمال اليد اليسرى عوضا عن اليمنى في الكتابة لا ينجم عادة عن عدم نضج الجهاز العصبي وانما هي حالة غريزية تصادف بصورة طبيعية لدى بعض الناس ، ومحاولة اجبار الطفل على استعمال اليد اليمنى هو الذي يضر بحالته النفسية . ذلك أن استعمال أي من اليدين ذو علاقة بالدماغ وكل محاولة محبطة للتغيير لن تؤدي حتما الى أي تغيير في الدماغ .

اختبارات الذكاء

ان اختبارات الذكاء بصورة عامة كقياس (I Q) لا تعطي فكرة دقيقة عن حالة الطفل . والمهم هو اختبار العناصر المكونة للذكاء كل على حدة . وقد لا يبدو واضحا عدم نضج أحد هذه العناصر الا بعد الدخول الى المدرسة .

وأضرب على ذلك مثلا فبعض الناس لا يهتمون على الاطلاق بالموسيقى أو الرسم وهؤلاء يستطيعون أن يعيشوا حياة كاملة طبيعية دون أن يؤدي هذا الأمر الى أية مشكلة . أما خلال الدراسة فهم مجبرون على الاهتمام بهذه الأمور مما يظهر قصورهم فيها . ذلك أننا خلال الدراسة نفعل ما يطلب منا أما عندما نترك المدرسة فاننا نفعل ما نحب (اذا أسعدنا الحظ !) ولذلك فان الاختبارات التي تعطي فكرة دقيقة عن حالة الطفل يجب أن تشمل اختبارات خاصة بالكلام واللفظ واختبارات القدرة على استعمال العدد والحساب والقدرة على الفهم والاستيعاب والقدرة على الانتباه والتركيز الخ .... كل على حدة . وبمعرفة مواضع الضعف يمكن ايجاد العلاج الملائم .

تمييز طبيعة الاشكال والأحرف

عندما نطلب من طفل عمره ثلاثة أو أربعة أعوام أن ينسخ شكلا ما قد يفعل ذلك بشكل مقلوب . وهذا طبيعي بالنسبة لسنه وسببه أن الطفل لا يرى فارقا بين الشكل الأصلي والشكل الذي نسخه هو بصورة مقلوبة . بل انه يستغرب كيف أن المعلم قصير النظر ، محدود القدرة على ابتكار الاشكال حتى انه يسمي نفس الشكل بأسماء مختلفة . كالحروف التالية : b . p . g . d أو ب و ن .

ان فكرة أن الاشياء تتميز بوضعيتها هي فكرة لا يعرفها الطفل الصغير . فهو يعلم أنه أينما وجدت أمه فهي امه نفسها ، وكيفما رأى زجاجة الحليب فهي زجاجة الحليب . واذا به يفاجأ أن الاحرف والارقام غير ذلك . ثم تزول هذه المفاجأة عندما يكبر الطفل . وبعض الاطفال الذين يستطيعون نسخ الاحرف بصورة صحيحة قد لا يستطيعون تذكر وضعية الحرف عن ظهر قلب خاصة اذا كان هذا الحرف ضمن كلمة حيث تصبح عملية التذكر جزءين هما : ما هي هذه الاحرف وما هي وضعيتها .

ان تعليم هؤلاء الأطفال الذين يعكسون الاحرف والاشكال طريقة بسيطة وهي نفسها الطريقة التي يجب أن تتبع في التعليم من المهد الى اللحد . وتعتمد على تحليل عناصر الفكرة ثم معرفة أي هذه العناصر هو غير المفهوم ثم محاولة تبسيط ذلك العنصر . فلا يكفي أن نقول ان هذا الحرف b يلفظ هكذا وهذا الحرف d يلفظ هكذا لأننا قد حاولنا أن نعلم الطفل الشكل والصوت والارتباط بينهما في وقت واحد . في حين يجب أن نبين أولا ان أشكال هذه الحروف مختلفة عن بعضها مع بيان أوجه الاختلاف . ثم يجب أن نوضح لفظ كل منها ثم نربط بين اللفظ والشكل . دون أن ننتقل من خطوة الى أخرى الا بعد أن يفهمها الطفل جيدا .

وترتيب الاحرف والارقام

حوالي السنة السادسة أو السابعة يمكن للطفل أن يميز بين الاشياء حسب ترتيبها كأن يعرف الفرق بين الجهة اليمنى واليسرى وعدم نضج هذه المقدرة يؤدي الى عدم استطاعة الطفل التهجئة وترتيب الارقام . فهو لا يستطيع أن يعرف الفرق بين ٧٥ و ٥٧ مثلا . ويمكن فحص هذا الأمر ببساطة بأن تمسك اصبعين غير متجاورين من أصابع الطفل وتطلب منه أن يخبرنا بعدد الأصابع بينهما . والطفل الذي يستطيع أن يعرف ذلك هو الطفل القادر على فهم أهمية الترتيب والوضعية .

ان القراءة والكتابة بصورة عامة تتطلبان أولا معرفة التمييز بين أشكال الاحرف واتجاهاتها وترتيبها . ومعرفة لفظها وتمكن الطفل من تذكر ذلك كله . كي يستطيع أن يحلل الكلمة الى عناصر لفظية أو يحول الالفاظ الى كلمات مكتوبة ولا بد قبل ذلك وخلاله من الانتباه والاصغاء فبعض الاطفال يتوقفون عن الانتباه والاصغاء قبل انتهاء المعلم من كلامه وقد ينجم هذا عن نقص القدرة على التركيز وقصر فترة الانتباه وفرط الحركة لدى الطفل .

ولابد من الاشارة هنا الى أن عدم تمكن الطفل من القراءة والكتابة هو اضطراب مستقل عن عدم تمكن الطفل من الحساب ومعالجة الارقام . وليس هذان الاضطرابان متلازمين بالضرورة .

الحركة الزائدة

هذه الحالة غير شائعة لكنها سبب هام من أسباب اضطرابات التعلم . وتنجم عن أحد ثلاثة أمور :

١ ـ قد لا يكون الطفل على درجة كافية من الذكاء ليفهم ما يقال (أو قد يكون ما يقوله المعلم غير مفهوم أصلا) . مما يؤدي لتململ الطفل في مقعده وانشغاله بأمور أخرى . ويلاحظ هذا أيضا عند الكبار عندما تكون المحاضرة غير مفهومة !!.

لذلك فان الاطفال مفرطي الحركة في الصف يجب الا يكونوا أصلا في ذلك الصف لأنهم لا يفهمون ما يقال .

٢ ـ قد يكون فرط الحركة ناجما عن القلق ويشاهد هذا لدى الاطفال المشغولين بمشاكلهم النفسية والعاطفية التي تمنعهم من التركيز والانتباه .

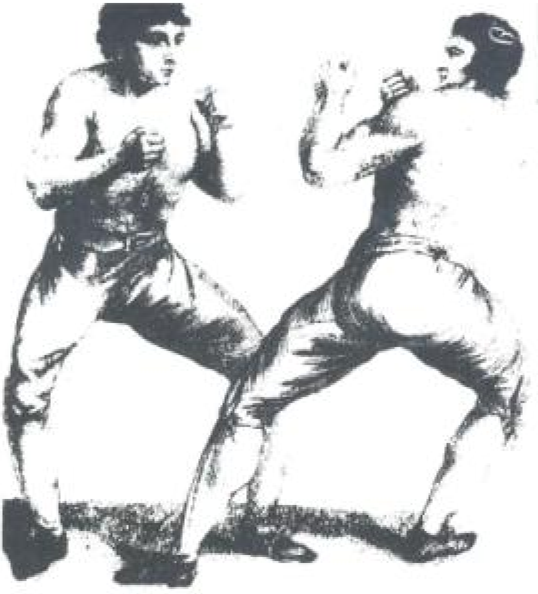
٣ ـ أما القسم الثالث فهم الاطفال المصابون بفرط الحركة بالخاصة . وهم الوحيدون الذين قد يستفيدون من المعالجة الدوائية . ويمتاز هؤلاء من سواهم بأن فرط حركتهم يشاهد دائما وليس في المدرسة فقط كالحالتين السابقتين . وهم يبدون سعداء رغم فرط الحركة ، بينما يبدو الآخرون مهمومين قلقين .

وعادة يراجع هؤلاء الاطفال الطبيب بين السنتين والثلاث من العمر بالنسبة لاطفال العائلات المتوسطة والغنية وبين السادسة والسابعة من العمر بالنسبة لأطفال العائلات الفقيرة . وسبب ذلك أنه في العائلات المتوسطة لا ترضى الأم بأصوات التكسير والتخريب الناجمين عن فرط الحركة لدى الطفل . بينما يقضي أطفال العائلات الأخرى بعض وقتهم في الشارع بحيث يشبعون فرط حركتهم هناك ولا تعرف حالتهم الا عند دخولهم المدرسة . ناهيك عن أن القسم الاول من العائلات يراجع الاطباء عادة أكثر من القسم الثاني .

وسبب فرط الحركة هو عدم السيطرة الدماغية الكاملة . ربما بسبب عدم نضج الدماغ فهو اذن مظهر لاصابة مرضية . ويؤدي ذلك الى نقص في الانتباه وقصر في مدته وضعف في التركيز . وان العقوبة في هؤلاء الأطفال لا تفيد ، بل قد تزيد الحالة سوءا بينما يمكن أن يعالجوا ببعض الادوية الخاصة ذات الفائدة الجلية ، اضافة الى البرامج التعليمية المعدة خصيصا لهم .

وفي ختام الموضوع يتبين أن كل طفل يعاني من مشكلات الدراسة والتعلم يكون لديه نمط خاص متميز من سواه . وبالتالي يتطلب اهتماما خاصا وأحيانا علاجا موجها . ويجب دائما مواجهة مثل هذه الأمور قبل استفحالها ، ودرهم وقاية خير من قنطار علاج . ■■

دمشق ـ د . غسان حتاحت



السينما والرياضة

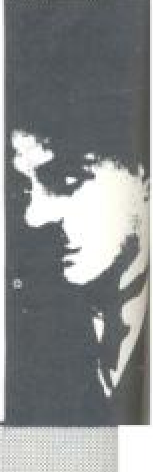
بقلم : عادل شريف

× الملاكمة .. كانت الحبيبة الاولى للسينما .

× شارلي شابلن .. اول من مزج بين الدراما والرياضة .

× « طرزان » اول بطل عالمي يلمع فى السينما .

× بيليه .. هل يتألق فى « الهروب الى النصر » . اول فيلم درامي عن كرة القدم ؟!





ارتبطت الالعاب الرياضية ارتباطا عميقا بوسائل الاعلام من قديم الزمان .. واتصلت تلك العلاقة منذ كانت وسائل الاعلام بدائية تنحصر في .. النقش على الحجر ورواية الخبر !

فعلى الحجر نقش المصريون القدماء والاغريق (اليونانيون القدماء) احداثهم الرياضية . وقص رواة الاخبار في تنقلاتهم انجازات الابطال .. التي خلدها شعراء ومثالو الاغريق . وعلى رأسهم الشاعر « بيندار » وكان الكثير من قصائده يمجد الرياضيين ومدربيهم .

وعلى جدران معبد هرم زوسر احد ملوك الاسرة الثالثة ـ التي حكمت مصر من ٢٦٦٠ ق . م . وحتى ٢٥٩٠ ق . م . نقش الفنانون صورة اقدم اثر رياضي في تاريخ البشرية .. فصوروا فرعونهم وهو يؤدي « شوط القربان » .. فقد كان على ملوك مصر القدامى ان يؤكدوا لياقتهم البدنية قبل تولي الملك ، يجري مسافة معينة في مدة لا تزيد على زمن معين . وهو الاختبار الذي كان يتم قبل الاختبار وعرف بشوط القربان . ثم تطورت وسائل الاعلام فجاءت الكتب .. وهلت الصحافة . ومع القرن التاسع عشر بدأت السينما تغازل الرياضة !

الملاكمة .. الحبيب الاول !

وتجاوبا مع اهتمامات الناس بالرياضة عامة والملاكمة خاصة .. غزت السينما دنيا الرياضة في عام ١٨٩٤ .لقد قدمت السينما فيلمين عن الملاكمة في ذلك العام التاريخي .. وصور الفيلم الاول لقاء بين بطلي وزن الخفيف مايكل ليونارد وجاك كوشينج الامريكيين . ومن الطريف انهم لم ينهوا تصوير الفيلم قبل المدة المحدودة لان ليونارد قهر كوشينج بالضربة القاضية قبل الجولة العاشرة والنهائية .. على عكس رغبة المنتج !

وقام ببطولة الفيلم الثاني جيمس كوربيت الامريكي بطل العالم لوزن الثقيل وركز كاتب السيناريو على ابراز مشاعر الشاهدين الملتفين حول حلقة الملاكمة ... واطاع كوربيت تعليمات المخرج وانهى خصمه .. في الجولة المتفق عليها !

وفي عام ١٩٤٢ انتجت هوليود فيلما عن حياة كوربيت قام ببطولته النجم الشهير ايرول فلين .

وفي عشرينيات وثلاثينيات القرن الحالي وصل عدد الافلام الرياضية المنتجة الى حوالي ٢٥ فيلما في العام الواحد . وكان سبب الاقبال على تصعيد عدد الافلام الرياضية هو نجاح فيلم « البطل » الذي قام ببطولته شارلي شابلن في عام ١٩١٥ . والذي كان اول فيلم يمزج بين الدراما والرياضة . ونجاح افلام منافسه في دنيا الكوميديا هارولد لويد . وكان شارلي يعشق الملاكمة عشقا شديدا . ويحرص على حضور بعض مبارياتها . من ناحية اخرى . حققت الافلام التي اتخذت من سباق الخيل نجاحا ضخما . وخاصة تلك التي قامت ببطولتها اشهر الجياد !

وقد نجح فيلم اخوان ماركس « يوم في سباق الخيل » اروع نجاح . واجتاح كل قارات العالم . ولكن لم تنجح كل الافلام الرياضية النجاح المنشود .. وكان اغرب فشل هو ذلك الذي لقيه فيلم « قصة بيب روث » الذي قام ببطولته النجم اللامع وليام بيندكس .. رغم انه كان يروي قصة حياة اكثر نجوم امريكا شعبية بيب روث نجم اللعبة الشعبية الاولى في امريكا وهي البيسبول .. ورغم انهم يسمون امريكا « ارض جنون البيسبول » !

طرزان يتألق

وفي العاب باريس الاوليمبية ١٩٢٤ دخل السباح الامريكي جوني ويزموللر التاريخ . بعد ان اصبح اول انسان يكسر حاجز الدقيقة في مسافة المائة متر سباحة حرة . ولكن شهرته لم تغز كوكب الارض الا بعد ان قدمته هوليوود في افلام « طرزان » ملك الغابات .

وبعد اعوام نافسته في شهرته الفنية « سونياهيني » النرويجية التي فازت ببطولة العالم في الرقص على الجليد عشر مرات متتالية .. ولا يعرف تاريخ الرياضة بطلة كسبت الملايين مثل سونيا .. وفي نفس الوقت دخلت هذه البطلة الفنانة الجميلة كل قلب .. لانها كانت تتبرع بمعظم ارباحها لاوجه الخير . وقد قام بدور « طرزان » عدد من ابطال العالم مثل استرتراب السباح الامريكي .



وفي ١٩٣٨ نظمت فينيسيا مهرجانها السينمائي الشهير الذى كان يقام مرة كل عامين . وفي تلك السنة فاز فيلم « اوليمبيا ٣٦ » بجائزة « احسن فيلم » رغم ضخامة التحديات من عشرات الافلام الرائعة . وقد اهتمت السينما بالالعاب الاوليمبية منذ بعثها البارون الفرنسي بيير دى كوبيرتان في عام ١٨٩٦ . ومنذ ذلك التاريخ حتى الآن لم يحقق اى فيلم تسجيلي وثائقي مثل النجاح الذى حققه « اوليمبيا ٣٦ » . ويكفي انه اجتاح كل الافلام الدرامية في مهرجان فينيسيا . وقد منحت اللجنة الاوليمبية الدولية ميدالية ذهبية لمخرجة « اوليمبيا ٣٦ » . وهي الفنانة الالمانية ليني رايفنشتول .وكانت ليني ذات شخصية قوية الى درجة ان هتلر واعوانه كانوا يخشونها .. وعجزوا عن اجبارها على استبعاد مشاهد فوز الرياضيين الزنوج من فيلمها . الذى اراد سادة المانيا النازية ان يكون مجرد دعاية « للجنس الآرى الاعلى » والرايخ الثالث .. اى المانيا الهتلرية .

ويكفي دليلا على نجاح انجاز ليني الفني ان المشاهد لا يحس باى ضجر او ملل رغم ان « اوليمبيا ٣٦ » مدته اربع ساعات . وان الفيلم « الاوليمبي » الوحيد الذى اقترب من مستوى « اوليمبيا ٣٦ » . كان فيلم المخرج الياباني العبقرى كون ايشيكاوا الذى اخرجه عن دورة طوكيو الاوليمبية ١٩٦٤ .

واستغلت السينما قصص مشاهير نجوم الرياضة .. التي عمرت بالافراح والاتراح والنجاح والاحباط .. بل والمآسي . وهل هناك فاجعة مأساوية افظع مما حدث للبطل الامريكي جيم ثورب الذى اشتهر بلقب « المعز المضيء » ؟

ففي استفتاء عالمي فاز ثورب ـ المنحدر من اصل ايرلندى هندى احمر ـ بلقب « اعظم رياضي في النصف الاول للقرن العشرين » . وكان ثورب قد فاز بالميدالية الذهبية للعشارى والخماسي وهما من العاب القوى ـ في العاب ستكهلم الاوليمبية ١٩١٢ ـ وهي اول دورة اوليمبية اشترك فيها العرب عندما مثل احمد حسنين مصر في لعبة السلاح ثم اثارت الصحافة متاعب كثيرة لذلك البطل الاسطورى . فكشفت انه كان محترفا .. والالعاب الاوليمبية لا تعترف الا بالهواة .. فصدر قرار بسحب ميداليتي « المعز المضيء » وحرمانه منهما ! ونظم البعض حملة في أمريكا واوربا تطالب بالغاء القرار المتعسف . وحتى يومنا هذا ما زالت تلك الحملة متصلة حتى بعد وفاة ثورب .. الذى قام بدوره في الفيلم واسمه « الرجل البرونزى المثل الشهير بيرت لانكستر .

عن سباق السيارات

وعن سباق السيارات أخرجوا عشرات الافلام الدرامية واشهرها فيلم « الجائزة الكبرى » . وهو اسم اشهر سباق سيارات عالمي سنوى . واشترك في الفيلم البطل الايطالي لورنزو بانديني .. وروى احد مشاهد الفيلم الذى صور في موناكو صداما مروعا عند منعرج جبلي .. والغريب ان لورنزو اصيب عند نفس المنعرج في

السباق الحقيقي ، في العام التالي للتصوير !

ومن اشهر الممثلين الذين اشتركوا في افلام سباق السيارات .. كيرك دوجلاس وبول نيومان وروبرت واجنر وكلارك جيبل وبطل سباق السيارات الانجليزي الشهير جراهام هيل .

ونجحت الكثير من هذه الافلام لبراعة زوايا التصوير التي كانت تختار بعناية فائقة .

وتألق الممثل الانجليزي ريتشارد هاريس في فيلمه عن لعبة الرجبي .. كما لمع نجم الرجبي الامريكي ـ ويختلف عن الرجبي الانجليزي ويسمونه كرة القدم الامريكية ! ـ جيم براون الزنجي ، واصبح نجما سينمائيا بعد ان هجر الرياضة !

وانطلاقا من شعبية رياضة الجرى والانزلاق على الجليد .. انتجوا بعض الافلام في الستينات عن هاتين اللعبتين كان اشهرها « عزلة عداء مسافات طويلة » الذى قام ببطولته الممثل الانجليزي توم كورتني .. و « هبوط التل » الذى قام فيه النجم اللامع روبرت ردفورد بدور احد ابطال الانزلاق على الجليد .. ونجح الفيلمان بسبب براعة المزج بين الدراما والرياضة .. مع التركيز على ابراز مشاعر المشاهدين واللاعبين في لقطات مقربة .. كانت تظهر بوضوح مجرد عينين او ارتجافة شفتين ... او قلق قدمين !

وعلى عكس نجاح الفيلم الامريكي الذى روى قصة فريق كرة السلة الشهير « الهارلم جلوب تروترز » في الخمسينيات .. شهدت السبعينات نجاحا متواضعا او شاحبا لافلام رياضة كان منتجوها يرجون ان تحقق دخلا كبيرا . فالفيلم سواء كان مأساويا او هزليا ، عبارة عن تجارة وصناعة وحرفة وعملية اقتصادية تستهدف الربح .. ولذلك يلجأ المنتجون الى « نجم شباك » اى فنان شهير جاذب للجماهير .. ومع هذا لم يحقق فيلم « الاعظم » النجاح المنشود رغم ان بطله كان محمد علي كلاى .

ورغم قصة فيلم « ويلما » المؤثرة التي تمس شغاف القلوب وهي تروى قصة كفاح ويلما رودلف العداءة الزنجية الامريكية ، بل اعظم عداءة في التاريخ ـ ضد الشلل وهي صغيرة .. والامها من هجر حبيبها الغادر لها وهي كبيرة ـ كان نجاح ذلك الفيلم محدودا مثل حظ « الاعظم » .

ولكن نجاح « روكي » المدوى قلب كل الموازين وتشاؤم المتشائمين . وهو النجاح الذى دعا الى انتاج فيلم اخر اسموه « روكي الثاني » والفيلمان عن الملاكمة .. ولكن فيلما ثالثا عن الملاكمة اسمه « البطل » هز مشاعر الدنيا كلها .. ويقال ان بعض اعضاء العائلة المالكة في بريطانيا بكوا في الحفل الافتتاحي .. تأثرا من روعة اداء البطل الحقيقي للفيلم ، وهو طفل صغير موهوب اسمه مارك ليستر .. تحول من صبي مغمور الى نجم مشهور وعندما بكى موت ابيه الملاكم .. بكت الدنيا معه .

وارجع النقاد الفنيون نجاح « روكي » الى براعة الممثل الملاكم سيلفستر ستاللون الفائقة وشعبيته الطاغية ـ وشهدت الثمانينيات نجاحا شاحبا لاول فيلم درامي عن التنس رغم ان بطلته كانت الى ماجرو ، بطلة الفيلم الساحق النجاح « قصة حب » ودين مارتن الصغير ابن دين مارتن الكبير الممثل والمطرب الشهير !

فالافلام الرياضية .. « حظوظ » !

اما الفيلم الذى سيعرض هذا العام ، فقد وفر له منتجوه كل عناصر النجاح وعلى رأسها .. « ايدسون ارانتيز دونا سيمنتو » .. وهو الاسم الاصلي « لملك الكرة » و « الجوهرة السوداء » بيليه البرازيلي .

ومن عناصر النجاح المرتقب لهذا الفيلم واسمه « الهروب الى النصر » ، اشتراك مجموعة ضخمة من نجوم كرة القدم مثل بوبي مور الانجليزي وأوز فالدو أرديليس الارجنتيني ودايتا البولندي وفيرنر روث كابتن فريق نيورك كوزموس الامريكي وفان هيمست البلجيكي .. ومن نجوم الفن مثل سيلفستر ستاللون ومايكل كين وماكس فون سيدو .

هوليوود . تتحدى

و « الهروب الى النصر » فيلم عن اللعبة الشعبية الاولى في العالم .. كرة القدم وهو اول فيلم تنتجه امريكا عن كرة القدم .. اللعبة ذات الشعبية المتواضعة هناك ، باعتباره ان الولايات المتحدة هي ارض جنون البيسبول .

ومن هنا كانت جسامة التحدى وجرأة التصدى لمعالجة موضوع تتواضع فيه الخبرة الامريكية .

ولكن المنتج فريدى فيلدز بذل جهدا خارقا ليواجه التحدى الكبير .. خصص خمسة عشر مليون دولارا لانتاج « الهروب الى النصر » ، ولما كان هذا المبلغ يعتبر متواضعا في دنيا انتاج الافلام الضخمة فقد كان انجازا كبيرا ان يتم تصوير الفيلم في بودابست عاصمة المجر ..

حيث يصل اجر الممثل المساعد (الكومبارس) الى عشرة دولارات يوميا .. بدلا من ثمانين دولارا في امريكا .

وبذل فيلدز جهدا ضخما حتى اقنع ستاللون بالاشتراك في الانتاج والتمثيل .. وكانت حجته ان امريكا تتجاهل غزو مجال كرة القدم ، اللعبة ذات الشعبية الطاغية في كل انحاء العالم الواسع الارجاء ـ باستثناء امريكا ! ـ واللعبة التي حرص بليون ونصف بليون انسان على متابعة مبارياتها في كأس العالم ١٩٧٨ على شاشات التليفزيون في قارات العالم الخمس .. وبالتالي فهم سيحرصون على حضور اول فيلم كبير تنتجه هوليوود عن « اللعبة الجميلة » كما يسميها بيليه .

واستعان فيلدز بالمخرج العالمي الشهير جون هوستون (٧١ سنة) صاحب العبارة الشهيرة : انني لا اخرج سوى القصص الجيدة ، واسعد بذلك كثيرا .. ولكن سعادتي تتضاعف لو منحوني أجرا كبيرا » ... وحرص فيلدز على مضاعفة سعادة جون هوستون !

ولكن ماذا يعرف هوستون الامريكي عن كرة القدم ليخرج فيلما ضخما رائعا ناجحا عن كرة القدم ؟!

وخروجا من المأزق الحرج عين فيلدز خبيرا في كرة القدم ليكون مستشارا للمخرج في شئون كرة القدم .. وهو بيتر ميسون الامريكي الذي نجح في اقناع صديقه بوبي روبسون الانجليزي مدير فريق ايبسويتش الانجليزي لكرة القدم بارسال معظم افراد الفريق الى بودابست للاشتراك في العمل الفني الكبير .

ورحب اللاعبون الانجليز بالفكرة !

الأسر .. أم النصر

وقد كتب قصة فيلم « الهروب الى النصر » بابو بابلونسكي وجورجي ميلشيفتش . وتروي احداث الفيلم قصة معسكر للاسرى من جنود الحلفاء في الحرب العالمية الثانية في فرنسا في زمن احتلال جيوش هتلر لها . وكان بين الاسرى عدد من لاعبي كرة القدم الممتازين .. من بينهم بحار برتغالي اسود اسمه ماكادو ويقوم بيليه بدوره في الفيلم .. وطلب بيليه تغيير الاسم الى فرنانديز .. واستجابوا لطلبه . وبدأ رجال « الماكي » أي حركة المقاومة السرية الفرنسية الاتصال بالاسرى لمحاولة تهريبهم .. وكانت فرصة ذهبية لتحقيق عملية التهريب عندما اقيمت مباراة كرة قدم بين منتخب المانيا النازية واللاعبين الاسرى .. وعرض الفدائيون الفرنسيون اتمام عملية التهريب في فترة الاستراحة بين الشوطين عن طريق نفق حفروه بين غرفة تغيير الملابس المخصصة للاعبي الحلفاء وخارج الملعب .

وبفضل تحيز حكم المباراة يتقدم المنتخب الالماني ـ في ستاد كولومب بباريس كما تروي القصة ـ على منتخب اسرى الحلفاء ٤/١ وعندما حانت لحظة الفرار رفض اللاعبون الهرب الى الحرية .... وقرروا الهرب الى النصر ... عن طريق العودة الى الملعب ودحر قاهريهم .. وبجهد خارق يتعادل الفريقان ٤/٤ ليجتاح رجال المقاومة الملعب وليشتبكوا في معركة رهيبة مع مئات الجنود الالمان الذين كانوا يحرسون الملعب .

والقصة مستوحاة مما حدث في كييف في سنة ١٩٤٢ خلال احتلال المانيا لروسيا عندما فاز فريق كروي من الاسرى الروس على فريق الجيش الالماني الغازي ٣/٥ .. فاعدم رجال الجستابو الاسرى الفائزين في اليوم التالي ... بحجة محاولة الهرب . وعلى ذكر الهرب من معسكر الاسرى استعان منتجو « الهروب الى النصر » بخبير في بناء معسكرات الاسرى هو الرائد الانجليزي بات زيد مؤلف رواية « قصة كولديتز » التي تروي حكاية هروب بعض الاسرى من معسكرهم عن طريق حفر نفق .

ويتوقع الخبراء ان يحقق « الهروب الى النصر » نجاحا يفوق فيلم « هدف » الذي كان انجح ما انتج عن كرة القدم .. وسجل احداث بطولة كأس العلم لكرة القدم التي نظمتها بريطانيا في عام ١٩٦٦ وحقق نجاحا كبيرا في بلاد العالم .. وبل كان احد اسباب اهتمام امريكا بكرة القدم ..

وهكذا نجحت السينما في أصعب مهمة رياضية .. وهي تحويل الالعاب غير الشعبية الى العاب شعبية .

وان كانت وسائل الاعلام في العالم العربي تدلل كرة القدم كثيرا ، ولاتهتم بالالعاب الاخرى كما ينبغي ، مع ان العدل اساس الملك ، ويجب ان يكون اساس الاهتمام بكل الالعاب في تساو وعدل وانصاف .. ولذلك لا نبالغ اذا قسمنا الرياضة في الوطن العربي الى العاب شهيدة والعاب « شهيرة » والأولى هي معظم الالعاب المظلومة المنسية والثانية هي كرة القدم المدللة .. وحدها .

ومن يدري فقد يأتي يوم تنصف فيه السينما العربية الالعاب المظلومة « الشهيدة » عندنا ، كما انصفت السينما الامريكية كرة القدم الشهيدة عندهم ! ■■

القاهرة ـ عادل شريف

أوزان تلحقها تاء التأنيث

في الصفحة اللغوية السابقة (العربي ـ العدد ٢٧٠) اشرنا الى جملة وظائف لتاء التأنيث . وهنا نشير الى عدة ابنية أو أوزان تلحقها تاء التأنيث وجوبا أو جوازا منها :

(١) اسم الآلة اذا كان على وزن من الاوزان الاربعة الآتية : ـ

١ ـ مِفْعَلة ، مثل ملعقة ، مخدة ، مصفاة .

٢ ـ فَعّالة ، مثل قداحة ، ثلاجة ، غسالة .

٣ ـ فاعلة مثل باخرة ، طابعة ، بارجة .

٤ ـ فاعولة ، مثل قارورة ، ناقورة ، طاحونة .

(٢) بعض المصادر بأنواعها الثلاثة : الاصلية ، والميمية ، والصناعية : ـ

اولا فمن المصادر الاصلية :

(أ) من الفعل الثلاثي المجرد (على وزن « فِعالة ») : تجارة ، زراعة ، قبالة ، حراسة ، عيافة ، جزارة ، سياسة ، تجامة ، حدادة ، وزارة ، حجامة ، حلاقة ، قطارة ، جراحة ، (وهي تدل على حرفة) .

ومنها على وزن « فُعْلة » : خضرة ، زرقة ، صفرة ، (للالوان) .

ومثلها وزنا : نُضرة ، قُوّة ، ثُغْرة .

ومنها على وزن « فَعْلة » : دعوة ، رأفة ، رحمة ، حياة .

ومنها على وزن « فُعُولة » : صعوبة ، سهولة ، ابوة ، امومة ، عمومة ، خئولة ، ذكورة ، انوثة ، بعولة ، فتوة ، نبوة ، خوصة .

ومنها على وزن « فَيْعُولة » : بيتوتة ، شيخوخة ، قيضوضة ، قيلولة ، بيتوتة .

ومنها على وزن « فِعالة » : سيادة ، وقادة ، عيادة .

ومنها على وزن « فَعالة » : زهادة ، قناعة ، كهانة ، فقاهة ، صبابة ، بداوة ، حضارة ، صداقة ، .

ومنها على وزن « فُعالة » فكاهة ـ طلاوة ـ دعابة .

ومنها على وزن « فَعالية » : رفاهية ، علانية ، طواعية ، طواعية ، كراهية . (والمصادر من هذا النوع نادرة)

ومن المصادر الاصلية للفعل : الثلاثي المزيد .

١ ـ الاجوف : افادة ، اجادة ، انابة ، استقامة ، استعانة ، استجابة (والتاء هنا مزيدة للتعويض عن حرف علة محذوف) .

٢ ـ ومنها الثلاثي المزيد بالنون : بلهنية ، رفهنية ـ (والمصادر من هذا النوع نادرة) والتاء في كل هذه المصادر لازمة .

وهناك مصادر من الثلاثي المجرد تلحقها التاء جوازا ، مثل سياحة ، جلالة ، حماسة ، سفاهة (وجاء في القرآن الكريم والحديث ، اقام الصلاة : « اقامتها » وهو من الثلاثي الاجوف المزيد

ب) ثم مصادر الفعل الرباعي المجرد وشبهه سواء كان عربي الاصل او كان منحوتا من اصل عربي او كان الاصل غير عربي : ـ

فمن العربي الاصل : دحرجة ، زلزلة ، قرقعة ، رجرجة ، رطرطة .

ومنه بزيادة النون : كأنها اصلية حلقنة ، سلطنة ، عقلنة ، بحرنة ، عيقنة . (مشتقة من حلقن سلطن ـ الخ) .

ومنه بزيادة الميم كأنها اصلية : مندلة ، منطقة ، مسرحة ، مسكنة ، مغربة ، ـ (من منديل ، منطق او منطقة ، مسرح ، مسكن ، مغرب ، فهي مشتقة من مشتق لا من الجذور : (ندل ـ نطق ـ سرح ـ سكن ـ غرب) .

ومن المنحوت من اصل عربي : حوقلة ، بسملة ، بلكفة .

بقلم : محمد خليفة التونسي

ومن الاصل غير العربي : فلسفة ، بهرجة ، زبرجة ، دروشة ، دهقنة ، تلفزة ، تلقنة ، هندسة ، هندمة ، استذة .

وكلها على هيئة « فعللة » وان كانت من اوزان مختلفة ، والتاء فيها لازمة .

ثانيا : المصادر الميمية أ) : ومنها (على اوزان شتى من الفعل الثلاثي المجرد) مذمة ، مسبة ، مسغبة ، مجبنة ، مبخلة ، مجاعة ، معرفة ، مقدرة ، مغفرة ، معتبة ، معجزة ، مظلمة ، مسخرة ، مهلكة ، مودة ، محبة .

ب) ومن الفعل الثلاثي المزيد بألف : مقاومة ، محاسبة ، مواساة ، مناغاة ، محاكاة ، مسابقة ، محاضرة ، والتاء لازمة فيها جميعها .

ثالث) المصادر الصناعية : وكلها تلحقها تاء التانيث لزوما بعد ياء مشددة : مثل : حرية ، عبودية ، وطنية ، قومية ، اشتراكية ، عقلانية ، علمانية ، كيفية ، لاأدرية ، استلابية ، جاهلية ، عالمية ، عصبية ، عبقرية ، المعية .

(٣) اسم المرة : ـ

(١) اذا كان الفعل ثلاثيا فاسم المرة منه على وزن « فعلة » مثل : جلسة ـ وثبة ـ نظرة .

(ب) اذا كان الفعل غير ثلاثي فاسم المرة منه على وزن مصدره بزيادة التاء مثل : اشراقة ، انتفاضة ، استغفارة .

(٤) اسم الهيئة : ويكون من الفعل الثلاثي ووزنه « فعلة » مثل : جلسة ـ اكلة ـ جرية ـ لبسة ـ وقد يجيء من فعل ثلاثي مهجور ولكن المزيد منه مستعمل فيأتي اسم الهيئة منه على وزن « فعلة » ايضا اي بحذف الحروف المزيدة لان الوزن لايحتمل الا ثلاثة حروف مثل : عمّة ، خمرة ، نقبة .

(٥) بعض اسماء المكان ومثلها اسماء الزمان لاتحادهما في الوزن سواء كان كلاهما : ـ

(أ) من فعل ثلاثي : مثل مدرسة ، محطة ، مطبعة ، مكتبة ، متجرة ، مصيفة ، مخاضة ، مسافة ، مفازة ، منارة .

ب) او كان كلاهما من اسم جامد مثل : مبطخة ، مقثأة ، مأسدة ، مسبعة (اي المكان او الزمان الذي يوجد او يكثر فيه البطيخ ، او القثاء ، او الاسود ، او السباع) .

(٦) بعض جموع التكسير على اوزان شتى :

(١) أفعلة ، مثل اغذية ، أطعمة ، أشربة ، اقضية ، أونة .

(ب) فِعلة مثل : صبية ، غلمة ، شيخة ، فتية ، ولدة .

(ج) فَعلة مثل : سحرة ، كملة ، بررة ، كفرة ، فسقة ، ذادة ، باعة .

(د) فِعلة مثل : قردة ، هررة ، فيلة ، دببة .

(هـ) فُعلة مثل : قضاة ، كساة ، طغاة ، عراة . (من الفعل الثلاثي المعتل الآخر) .

(٧) وهناك اسماء تدل على بقايا الاشياء وتكون على وزن « فُعالة » مثل نفاية ، حثالة ، كناسة ، حشاشة ، حذاية ، قراضة ، علالة ، حطامة ، هشامة ، نخامة ، نخالة ، نفالة .

(٨) وهناك اسماء الاطعمة المصنوعة عند العرب لاسيما الاطعمة البدوية . يقول الثعالبي في كتابه « فقه اللغة وسر العربية » ص ٣٩٠ ما نصه « جل اطعمة العرب بل كلها على الفعيلة وهي متقاربة الكيفية من الدقيق واللبن والسمن والتمر » ويضرب امثلة على ذلك ، ويوضحها بعض التوضيح ، وهي غريبة الآن ، ونكتفي هنا بامثلة مما نعرف : ولسة (اصلها للعرس) عقيقة (عند حلق رأس المولود) ، هريسة ، حريرة ، عصيدة ، فطيرة ، بليلة .

ويذكر الثعالبي (ص ٣٨٩ ـ ٣٩٦) امثلة اخرى للاطعمة تنتهي بالتاء ولكن على اوزان اخرى ، كما يذكر امثلة للاطعمة خالية من التاء .

(٩) اسماء على وزن « أفعولة » تدل على ما يعمل ، فمثلا « النشودة » اسم للنشيد ، او ما ينشد ، وايضا « اغنية » اسم لما يغنى ، ومن الامثلة : اهزوجة ، أطولة ، العوبة ، أطروحة ، أبوشة ، أسطورة ، احدوثة .

ومنها : أمنية ، أهبة ، ألفية ، أمسية ، ألقية ، اعطية .

تتمة

وقد ذكر بعض النحاة ان التاء تلحق بعض الاسماء لتكثير حروفها : مثل بلدة ، غرفة ، سترة .

وذكروا انها تكون ثابتة في اسماء لا يتميز مذكرها من مؤنثها ، مثل : نملة ، نحلة وايضا مثل : ربعة (معتدل القامة ، ومعتدلة القامة) .

وقد تلازم المذكر : مثل بهمة (شجاع) .

وقد تأتي لازمة لتوكيد المؤنث وجوبا مثل : نعجة ، ناقة .

وقد تاتي لازمة لتوكيده جوازا كما في الجموع الآتية : بعولة ، ذكورة نمورة ، فحولة .

من الادب الايطالى المعاصر

الدى الضيق

قصة : ريجينا أنيبيزيني
ترجمة : الدكتور عيسى الناعورى

منذ ايام كانت جارتنا تدق جرس الباب بعنف ، بدت مضطربة وهي تقول : « ان حالة الآنسة ليل سيئة جدا . انكم تعرفونها دون شك ، فهى التى تقيم فى الطابق الثالث . فهل لديكم شيء من الفاليريانا لانعاشها ؟ »

وتذهب شقيقتى ايلين لتحضر الفاليريانا من المطبخ ، فتجدها هناك على المائدة . لقد تناولت انا بعضها امس بعد احد المشاهد المألوفة مع ابنى .

ونسأل معا : ـ ولكن ماذا اصابها ؟ نوبة قلبية ؟

ـ انها تبدو مجنونة . ولا شك ان فى الامر لروحا تتمزق تمزقا شديدا .

وننزل نحن الثلاثة .

على مهبط الدرج زاوية من السماء تبدو من النافذة المفتوحة على الضباب .

ان ما أعرفه عن ليل م . قليل جدا ، ولكنه يطيب لى ان اظن انها قد بلغت الخمسين من عمرها ولم تتزوج بعد . وهى بالتأكيد من الكائنات التى لا يستطيع المرء ان يحمل لها ضغينة . والتى تدرك ـ متأخرة جدا او مبكرة جدا ـ انها لاتلقى اى اهتمام خاص من الاخرين ، على الرغم من المزايا الكثيرة التى تتميز بها ، ولكنها لم تكن مثار اى فضول او اهتمام خاص من احد ـ وهل يمكن ان يكون غير ذلك ؟ ـ ولكن لننظر اليها : انها ترتدى الملاءة دائما ، وفى المساء ، تكون منزوعة عن شعرها تماما وكأنما تم ذلك بقوة سحرية . وهى بذلك الشكل التنكرى المفجع تبدو كالجثة . ولكن من الغريب ان يحمل ذلك الجسم المتين ، الذى ابرز ما فيه الساقان النحيلتان ، صوتا حلوا كاصوات المراهقين ، فيه عذوبة وشيء من الخشونة . ان فيها للغزا محيرا .

اما تسليتها الوحيدة لقتل الوقت فهى تغيير اماكن الاثاث ، ففى بيتها المكون من غرفتين وردهة صغيرة ، لابد من شيء يغير مكانه دائما . ولدى ليل كنبة اصيلة ثمينة ، فاذا ما حدث مرة ان دار حديث بينها وبين احد امام باب بيتها ، دعته بلطف الى رؤية تلك الكنبة ، ولم تنته من التذمر من ان المدفأة قد اثرت فيها ، وانه الان قد بدأ يتسرب اليها السوس ، واذا ما استمرت الحال كذلك مع دخان المدفأة الاسود ، فمن الافضل ان يعود المرء الى اساليب الحياة القديمة ؛ فلم يعد يكفيها تنظيف الزجاج مرة واحدة فى الاسبوع .



وتظل ليلى تنظف وتنظف دون انقطاع . ثم تجلل المائدة بغطاء ناصع ، وتضع فوق وسطها الازهار ، وتمضي تدخل وتخرج باستمرار الى الغرفة والمطبخ والحمام ، ثم الى المطبخ من جديد ، وهكذا دائما كما لو كانت تترقب مجيء زائر . وتتوقف الساعة عند ذلك الوقت .

ولكن شقيق ليلى مولع بالروليت . وفي أيام الأعياد يذهب الى سان ريمو ومونت كارلو . ومنذ مدة صار يعود الى المنزل مرة واحدة في الشهر أو أقل . « انه لايخجل من اللعب بعد أن دمر أسرتنا » ... هكذا تقول اخته . وكان من العدل - بل اكثر من العدل - ان تعمد ليلى في احد الايام الى نشر اعلان في الصحف بحثا عن رفيق لها : « امرأة شابة ، ذات مسحة من جمال لاتخرج الى المدينة الا مرتين في الاسبوع في أمسيتين متواليتين ، وأما الزواج فيتم بعد سنة » ... وتقول ليلى : « ولكني ما كنت استطيع الزواج دون هذا ، فلم يكن في بلدتي من يفهمني ، لانني اختلف عن الاخرين . هل تفهمون ؟ ... وماذا كان في وسعي ان افعل ؟ أأنتظره ، ام ابحث عنه ؟ ولكنني بحثت ولقيت عددا ممن يريدونني » .

« العشاق ؟... » وتنظر اليها دهشات وهي بثوبها البيتي ، الذي تتخلله ازهار كبيرة تطرقها من الساقين الى مافوق الصدر الذي يكاد يكون عاريا تماما . وتحاول ان تغطي صدرها ، وتقول : « ذلك النذل ... » ثم تنحني على الصناديق المقلوبة ، وتقذف في الهواء بعض الغلافات واحدا في اثر واحد ، وتتبعها ببعض الرسائل ، فتسقط كلها من حولها . وتقول بين الزفرات العميقة : « ذلك الحقير ... لقد قتلني ! » ويعبر وجهها عن احتقار شديد ، كأنما يسقط من جبينها الى اسفل حتى يصل الى شفتيها . ويبدو القلق يسيطر عليها بقوة ، فتأخذ في البكاء كأننا لسنا معها ولا وجود لنا . ولا يدرى بعضنا الى اين ينظر لكي يشعرها بعدم حضوره ، ويوجه اليها بعضنا الاخر اسئلة . وتقول ايلين اخيرا : « هل تريدين أن تشربي الفاليريانا ؟ »

- كلا ، لا اريد شيئا ... لااريد أن انام ... لقد

قضيت ثلاث ليال دون نوم ، ولن اعرف النوم حتى يقبض عليه رجال الامن ... ذلك المجرم الحقير ! »

ـ من هو هذا المجرم ؟

ـ كيف تسألين من هو ؟ انه خطيبي ...

آه !...

ثم يسود الصمت ... الخطيب !!

ما ابشع ان يخفق المرء في حبه !

وتروح تنظر في وجوه بعضنا البعض ، في حين تمضي ليلى في حديثها : « كان يجب ان اختار الاخر ... ولكن من ترى كان يمكن أن يظن هذا ؟ لقد كنت احبه ، وكان يحبني ... »

منذ اسبوعين كانت ليلى المسكينة تتساءل : « اي الثلاثة الذين استجابوا لاعلانها تصغي الى طلبه ؟ » ثم اختارت حالا ذلك الرجل الذي اوحى اليها بشيء لاادري ما هو . كذلك قالت للبوابة ، ولابنة الخباز . ثم راحت تنقلد حلاها دون ابطاء . وبعد بضعة ايام كانت تصعد معه السلم الى منزلها منتصبة القامة وهي تستند الى ذراعه . نعم ، مع (ز . ز .) ، وهو تاجر خمور ، وكان يدعي ايضا انه يحمل دبلوما في المحاسبة . كان يبدو انسانا جادا رصينا ، فهو لايضحك ابدا . كذلك قال لليلى . وكانت هي تقول : « انني احس معه بارتياح ، وسنتزوج قريباً » .

لم يكن يهم ليلى ما تراه من شرود ذهنه ، الذي كان يجعله ينسى قبعته هناك على الكنبة دائما ، وكأنما تقول لها القبعة : « انني اليوم هنا ، وغدا تكفي هبة ريح ... » ولكنها تعلقها على المشجب وهي تتلذذ بتذكر كلماته اذ يقول لها : « لماذا لم اعرفك منذ عشر سنوات يا حبيبتي لقد كنت دائما وحيدا هكذا . ولكن ، ان يصل المرء متأخرا خير من ألايصل ابدا . وفي الاسبوع القادم ...كلا ، كفى ... لن نؤجل الزواج الى ابعد من هذا . سنمضي الى والدي الموجودين في فلورنسا ... »

تتذكر ليلى في غيابه هذه الكلمات ، وتنسى القهوة على فرن الغاز ، وتحرق مطاط الزينة ، فتعبق منه رائحة لا يمكن ان يطيقها احد غير ليلى ... فهي لاتشعر بها . وتطلي وجهها بطلاء روبنشتاين ، وتذهب الى مصفف الشعر كل يوم ، وتمضي تتزين باستمرار . ويتهامس الجميع : « كيف تحافظ الانسة على زينتها ؟ انها لا تزال تعتبر امرأة جميلة ، حتى في هذه السن ! »

انها الان على السرير ، ولكنها تختلف كل الاختلاف عن حالتها العادية . لقد استطاع البعض ان يرغمها

(ريجينا البيزيني ، كاتبة وشاعرة من مدينة ميلانو . انهت دراستها الموسيقية في معهد فيردي الموسيقي في ميلانو ، فبرعت في العزف على البيانو ، وعزفت في حفلات كونشرتو متعددة ، في ايطاليا وفي المانيا الغربية . وهي الى جانب ذلك رسامة ماهرة وفي معهد فيردي درست الادب الايطالي على الشاعر الشهير سلفاتوره كوازيمودو ، الذي فاز بجائزة نوبل العالمية للآداب عام ١٩٥٩ . نشرت لها ثلاثة دواوين شعرية ، وكتبت الكثير من الاقاصيص والمقالات في عدد من الجرائد والمجلات الايطالية . وقد قامت بزيارة الاردن عام ١٩٦٤ ، واستغرقت زيارتها لضفتي الاردن اكثر من عشرين يوما)

اخيرا على تناول مهدىء ، ولكنها لاتفتأ تردد : « تبا تبا ... جميع نقودي ... انه ليس تاجرا كما يزعم ، وليس له اسم في سجل التجار ، هو نصاب غادر اثيم ... هل تفهمون ؟ انه محتال ... لقد قالوا لي ذلك حالا ، ووضعوا امامي على المائدة ألف صورة . لقد رأيتها كلها ، ولم تكن له صورة بينها ! ذلك المسخ لم يكن هنالك ... »

ـ قد يكون متزوجا ولم يشأ ان يصرح لك بذلك !

ـ كلا ، انه غير متزوج . انه لاشيء ... اتفهمون ؟ لاكيان له ... نقودي ، حياتي ، سعادتي ، كلها لم يعد لها وجود !...

ـ وما يدريك انه قد يعود اليك يوما ؟...

ـ لاتضطربي هكذا يا انسة . اننا ... نريد ان نساعدك .

وتنظر ليلى اليهم جميعا نظرة قانطة ، وتقول : « ولكن كيف صدقت حكاية والديه ؟ انه ابن ... »

كان في الغرفة عشرة اشخاص ، ولكن جميع سكان العمارة الكبيرة كانوا يستمعون ، كما يفعلون حين ينفجر احد انابيب الماء ، او حين يتعطل المصعد . وكان الجميع يشيرون بما يجب على ليلى ان تفعل . ولكن ليلى كانت تبدو كالمجنونة . وتنظر اليهم حانقة ، وتمضي في هياجها تقوم وتقعد على السرير ، وتبكي . وبلغ بها الامر ان

راحت تنتف شعرها ؛ وقد رأيت خصلة منه على الارض كأنها من شعر انسان ميت .

ويقول احدهم : « ستربن انه سيعود اليك »

ورحت انظر في وجه كل واحد منهم ، فرأيت انهم لا يعتبرونها معتوهة ، بل كانت في نظر الجميع عانسا غبية . واذا كانوا يشعرون نحوها بالرثاء ، فرثاؤهم هو لغبائها فحسب . ان من يؤمن في الدنيا بالأوهام يقع عند الناس موقع الرثاء والاشفاق . وهم الآن يرثون لحالها ، وبذلك يجهزون عليها بالطعنة الاخيرة .

ومضى الصوت عينه يقول : « تجلدي ، تجلدي ! » وفي الوقت عينه كان الجميع يخشون ان تقذف بنفسها من الطابق الثالث او من الشرفة ، ويرون انها لو فعلت ذلك لكان امرا مؤسفا حقا . ولكن ليلى تحدت الجميع وخيبت ظنهم . وفي المطبخ القت على المائدة كومة الأوراق . من يدري كم مرة كررت امامه تلك اللعبة ، واي مصير مزدوج كانت ترى وتقرأ في تلك الاوراق ، ايام كان يقدم لها الازهار !! اما الان فانها ليست سوى مجموعة احساسات قاسية هامدة . ان مصيبتها الان هناك على المائدة ، وقد نظرت اليها لحظة كأنما تريد ان تستوثق من كل شيء .

لم يكن خوفها قضية شهوة على الاطلاق ، وانما كان قضية مدى : ان مساحة الشرفة أمامها لاتزيد على متر واحد مربع في حين ان الاخرين لهم العالم الرحيب المترامي الى الجهة الاخرى : النساء الاخريات لهن مدى الحياة الفسيح ، اما هي فمداها من الدنيا ضيق كشرفة منزلها ، وهذا كله يتجلى في نظرتها ، النظرة المعتوهة . وعلى السرير كان في تنفسها شيء غير بشري ... شيء اسود لايطاق ، ويستدر الرثاء الذي لاحد له . ولعل بعضهم يقول مشفقا : « يالها من عانس بليدة ! » وكان مما يثير اشمئزاز الجميع ان تكون هذه المرأة غريبة هكذا وقد فات أوانها .

ولكن ها هو الجمهور يتنفس . حتى الآن لم يأت دفانون ولا حالات موتى . ان عيني ليلى ممتلئتان بنعاس ثقيل .

وكما يحدث دائما حينما يريحنا أحدهم من ثقله ، ينتهي المرء بان يدمدم متذمرا منه او من الاخرين ، او ان لايقول شيئا ، بل يكتفي بالنظر وهز الرأس ، ثم يتركه وينصرف . ■■

عمان : عيسى الناعوري

اختلاف دائم

× اوقف السكير احد المارة وسأله عن الساعة . ونظر الرجل الى ساعته ، ثم ذكر له الوقت بالضبط . وهنا غمغم السكير قائلا :

ـ شيء غريب جدا . انني طوال اليوم لا احصل الا على اجابات مختلفة تماما عن الوقت

لا مشكلة

× قال شاب من سكان الضواحي اقلع اخيرا عن التدخين ان هذا العمل لم يثر اية مشكلة له ... ثم اضاف :

« كلما احسست برغبة شديدة للسجائر هدأت اعصابي بالصراخ في وجه اطفالي » .

حوار القراء

اهل فلسطين

● سأل احد القراء في عدد اكتوبر ٨٠ عن عدد اهل فلسطين العرب .. ويسرني أن اقدم له ما جاء في النشرة التي اصدرتها . وكالة الغوث الدوليه من ان عدد اللاجئين الفلسطينيين المسجلين لديها هو مليون وثمانمائة وخمسون الف لاجيء فلسطيني يشكل الذين تقل اعمارهم عن الخامسة عشرة اكثر من ثلاثين في المائة اى حوالي (٥٨٣) ألف شخص .

وقد ورد في النشرة ان تقديرات اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا التابعة للامم المتحدة ان اكثر من ثلاثة ملايين ونصف مليون فلسطيني منتشرون في انحاء العالم .

ففي الاردن حوالي ٧١٩٧٤٣ لاجيء وفي قطاع غزة ٣٦٩١٤١ لاجيء وفي الضفة الغربية ٣٢٥٥٥٨ لاجيء وفي لبنان ٢٢٨٢٧٦ لاجيء وفي سوريا ٢١٠٦٥٠ لاجيء .

محمد عارف النابلسي
عمان/الاردن

اسرار نكبة عام ١٩٦٧

● رغم مرور اكثر من ثلاث عشرة سنة على نكبة عام ١٩٦٧ الا ان اسرار هذه النكبة التي هزت الامة العربية من اقصاها إلى أقصاها مازالت خافية .. والمواطن العربي مازال يجهل الاسباب الحقيقية التي ادت إلى هذا الزلزال الرهيب الذى زلزل دنياه .. ولا شك ان معرفة هذه الاسباب وكشف الخفايا من شأنه ان يطمئن الفرد العربي لئلا تتكرر مثل هذه المأساة .

ان كشف الحقائق من الامور الضرورية اللازمة لحياة المواطن العربي وحياة ابنائه .

لا تتركوا الاسباب مستورة والا فالخطر قائم .

صالح الرشيد
الكويت

العرب والحضارة

● في حديثه الشهرى الذى نشر في عدد مارس سنة ١٩٨١ من العربي حرك الاستاذ احمد بهاء الدين خواطرى من خلال كلامه عن الانسان العربي ومجتمعه المتخلف ، الذى كان منذ قرون مضت رائد التطور ، ومشعل منارة المعرفة في ارجاء العالم .. والآن اصبح يعاني الاهمال لتخلفه عن ركب الحضارة الانسانية وليس الذنب ذنبه في هذا .. لانه يسير في طريق مليء بالضباب الفكرى لا يملك ان يقول رأيا او يمارس حقا ..

وسوف يظل الانسان العربى كما مهملا في ميدان الحضارة الى أن تتحد امته وتتكامل مصالحها وتنسى احقادها وخلافاتها . ويوم يحدث ذلك ، ستبدأ انطلاقة العرب نحو الريادة من جديد .

مصطفى محمد كذلك
ميت غمر/مصر

بيت مال اسلامي

● اقترح ان تقوم الدول النفطية الغنية بانشاء بيت مال إسلامى تديره هيئة مشهورة بنزاهتها وتقواها وان يحدد في قانون بيت المال هذا مصادر ايراده واغراضه ... وحبذا لو اقتصرت اغراضه على مساعدة العائلات المستورة التي فقدت عائلها ولم يعد لها مورد رزق ورعاية اطفال الشهداء الذين استشهدوا من اجل اعلاء كلمة الله ....

ان انشاء بيت مال كهذا يعيد الامل الى قلوب مكلومة مازالت تشكو الى خالقها أوصاب دنياها .

زياد عبد القادر طربية
صويلح

الصور الملونة في مجلة العربي

● نلاحظ ان الصور الملونة في مجلة العربي ليست دائما كما يشتهي القاريء .. فتارة تأتي

الصور واضحة زاهية بألوانها وتارة معتمة باهتة رغم اننا نعلم بان مجلة العربي تأخذ بأحدث اسباب تكنولوجيا الطباعة .. فهي مجلة رائدة تحرص على ارضاء القارىء في جوهرها ومظهرها .

تأمل ان يتسع صدركم لمثل هذا النقد الذي انشد من ورائه الكمال لهذه المجلة .

فاروق اللحام
بنغازي

اقتراحات

● احرص على قراءة العربي بصفة دائمة .. وانطلاقا من هذا الحرص اقترح عليكم الآتي : -

اولا : ان يعلق محرر حوار القراء على رسائل القراء فلا يتركها بدون تعليق .

ثانيا : ارجو العودة الى التقليد الذي اتبعتموه فترة ثم تركتموه الا وهو كتابة عناوين كتاب المجلة .

ثالثا : اتمنى ان تظهر من هذه المجلة طبعة اخرى باللغة الانجليزية .

محمد عمرو
الكويت

العربي : نشكرك على هذه الاقتراحات ونأمل ان نتمكن من تحقيقها في المستقبل

الدروز عرب اقحاح

● تعقيبا على ما نشره الاستاذ فتحي رضوان في عدد فبراير ١٩٨١ من مجلة العربي تحت عنوان « في مذكرات الزعيم المصري محمد فريد » ، اود ان اقول : ان بين الدروز من الوطنيين من قاتلوا مع العرب وفي سبيل العروبة اكثر بكثير من بعض العرب الاقحاح ..... وان الاستعمار لم يعد يهتم باستعمال الاقليات لخدمة اغراضه ، في وقت أزماته ، بل صار يجد له عملاء بارزين هم في اعلى مستويات المسئولية في هذا العالم العربي كما يسميه الاستاذ فتحي رضوان و« الامة العربية » كما نسميها نحن .

والدروز ليسوا أقلية عرقية ، وانما هم اصحاب مذهب إسلامي اسمه مذهب « التوحيد » وان اسم « دروز » هو اسم ألصقه بهم خصومهم وهو امر اجمع عليه المؤرخون والباحثون الذين تعرضوا لدراستهم ، وارجو من الاستاذ رضوان ان يرجع الى الكثير من المصادر منها على سبيل المثال لا الحصر .

١ - تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي للدكتور عباس ابو صالح بالاشتراك مع الدكتور سامي مكارم .

٢ - « اصل الدروز » - المقتطف سنة ١٩٣٠ حزيران للاستاذ سليمان ابو عز الدين .

٣ - طائفة الدروز ، تاريخها وعقائدها - دار المعارف - للدكتور محمد كامل حسين .

٤ - ابو جعفر المنصور وعروبة لبنان للاستاذ عجاج نويهض .

ويكفيني ان استشهد بخطاب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذي وجهه في سوريا يوم لقائه الاول مع دروز جبل العرب والذي اشاد فيه ببطولاتهم وتاريخهم الطويل في مقارعة الاستعمار .

باختصار فان الدروز عرب اقحاح وهم من العروبة في الصميم .

سعيد ابو الحسن
اتحاد الكتاب العرب/دمشق

حوار القراء



ابن النفيس

في مسابقة العدد ٢٦٥ ديسمبر ١٩٨٠ ورد اسم وليم هارفي مكتشف الدورة الدموية في الجسم . وهذا خطأ فمكتشف الدورة الكبرى هو العالم العربي ابن العباس المجوسي (القرن العاشر الميلادي) ومكتشف الدورة الصغرى هو علاء الدين بن أبي حزم القرشي (ابن النفيس) (٦١٠ هـ ـ ١٢٧٧ م) . أما هارفي فقد أيد هذه الاكتشافات فيما بعد .

نضال عكوان
السويداء / سوريا

غدا أموت

غدا أموت
غدا يهزني ملاك موتي
غدا تفارق الأنوار شمعتي
فأنتهي ..
وينتهي مشوار رحلتي
غدا تعج بالديدان حفرتي
وبعد ساعة هو الصمت
وبعد نفخة أحيا
وبعد نفخة أموت
فيعرف الانسان نفسه
ويعلم القديم والجديد
فأما جنة خلود
وأما مهفة دمار

ماجد دودين
جامعة اليرموك/الأردن/أربد

مجلة العربي

● قام السيد عبد العزيز النجار مدير ادارة المكتبات بوزارة التربية في دولة الكويت بعمل كتيب تحليلي لموضوعات التربية وعلم النفس التي نشرها العربي خلال الفترة من ١٩٧٠ ـ ١٩٨٠ وقد جاء في مقدمة هذا الكتيب :

« العربي » من المجلات العربية التي تتمتع بسمعة طيبة وشهرة واسعة في كل مكان من الوطن العربي وهي تحتوي في اصداراتها الشهرية على موضوعات مختلفة في الطب والعلوم والاجتماع والاداب والفنون بالاضافة الى موضوعات التربية وعلم النفس .

وقد حاولنا ان نحتفل مع « العربي » بدخول عامها الثالث والعشرين مرسلين لها التهنئة بذلك ، بتحليل نخبة من مقالاتها في المجال الذي يهمنا وهو التربية ...

عبد العزيز النجار
مدير ادارة المكتبات بوزارة التربية
في دولة الكويت

جزيرة ارواد

● ارواد هي الجزيرة الوحيدة المأهولة بالسكان على طول الساحل السوري .. وتبعد عن مدينة طرطوس ثلاثة كيلو مترات فقط .. وتشتهر بقلعتها التاريخية وسورها الضخم .. وهذه الجزيرة لعبت دورا هاما في التاريخ ..

فهل تستحق من مجلة العربي تقديما للقارىء العربي .. أرجو !

جمال حيقزي
جامعة دمشق / دمشق

العربي الصغير

يبدو لي أن العربي الصغير يأبى أن يظل في دائرة الصغار .. فهو أقرب الى الكبار منه الى الصغار .. اذ أن المعلومات المثبوتة فيه لا تلائم اسمه .. فمثلا موضوع « التلوث يهدد تاج محل .. » . رونالد ريجان الرئيس الجديد لأمريكا ـ ليتكم تكثرون من تلك الصور الجميلة لاخلاق المسلمين الأوائل وبطولاتهم فيه .

عبد العزيز العمر
الفجيرة/الامارات العربية المتحدة



مخطوط عربي فريد في ايرلندا

الحدائق الغناء في أخبار النساء

صورة مدهشة لتراجم نساء الإسلام قبل ثمانية قرون

لأبي الحسن علي بن محمد المعافري — تقديم الدكتورة : عائدة الطيبي

« الحدائق الغناء في أخبار النساء » مخطوط [١] كتبه مصنفه ابو الحسن علي بن محمد المعافرى المالقي بخط يده بدمشق في اواخر القرن السادس الهجرى / الثاني عشر الميلادي وضمنه أخبارا عن عدد من شهيرات النساء في صدر الأسلام . وقد دارت بالمخطوط صروف الزمن وتناقلته الأيدي إلى أن حطت به الأقدار في مكتبه تشستر بيتي (Chester Beatty) بدبلن عاصمة إرلنده حيث يوجد المخطوط الآن . وهو مخطوط فريد ، إذ انه النسخة الوحيدة المتبقية من هذا المصنف ، ولأنه يتناول موضوعا قلت الكتب حوله في عصرنا هذا ، فما بالك بها قبل ثمانية قرون .

لقد ولد ابو الحسن علي بن محمد المعافري المالقي المالكى في منتصف القرن السادس الهجرى / الثاني عشر الميلادي في مدينة مالقة بالأندلس ، فأخذ عن شيوخها ورحل صدر عمره الى المشرق . ويبدو أنه كان قبل رحيله شيخا يقصده الطلبه ، فالمصادر تورد أسماء شيوخ أخذوا عنه هناك ، ومن بينهم أخوه ابو زيد عبد الرحمن الذى رحل الى المشرق ايضا ـ كعادة الأندلسيين آنذاك ـ وروى عن ابي الحسن في بيت المقدس . وفي طريقه شرقا أقام ابو الحسن المعافرى بعض الوقت في مدينة بجاية بالجزائر حيث سمع عن الحافظ الشهير عبد الحق بن عبد الله المعروف بابن الخراط ، ومنها توجه قاصدا البيت الحرام، ويرجح ابن عبدالملك المراكشي ان ذلك كان في عام ٥٧٧هـ/١١٨١م . يقول المعافرى في كتاب « الحدائق الغناء في أخبار النساء » انه قضى عام ٥٨١هـ يجمع تلك الأخبار ، ولا شك في أن المعافرى ، إثر استرداد صلاح الدين لبيت المقدس من أيدي الصليبيين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، انضم الى جموع المسلمين الذين هرعوا إليها من شتى الآفاق . تروى المصادر ان صلاح الدين عين للمسجد الأقصى خطيبا مستقرا ، وكتب التراجم تعرف المعافري على انه خطيب المسجد الأقصى ، وفي ذلك يقول المراكشي إنه « لما افتتح صلاح الدين بيت المقدس التمس إماما يكون خطيبه وصاحب الصلاة به ، فأجمع من حضر هناك من العلماء والأفاضل المشار اليهم على انه لاأحق من ابي الحسن هذا بذلك المنصب ، فقدمه لذلك » . ثم يضيف المراكشي بان المعافرى نفسه هو المقصود بالوصف الذي أورده عماد الدين الأصبهاني كاتب صلاح الدين اذ يقول :

« ورتب السلطان في قبه الصخرة إماما من احسن القراء تلاوة ، وازينهم طلاوة ، وأنداهم صوتا ، وأسماهم في الديانة صيتا ، وأعرفهم بالقراءات السبع بل العشر ، وأطيبهم في العرف والنشر ، وأغناه وأقناه ، وأولاه لما ولاه ، ووقف عليه دارا وأرضا وبستانا ، وأسدى اليه معروفا واحسانا » . قضى المعافرى بقية حياته في بيت المقدس حيث توفي عام ٦٠٥هـ/١٢٠٨م . وكان يعرف هناك بالحاج المالقي ، واشتهر محدثا مجيدا ، وكتب وحصّل ، ونال رياسة مع الدين والخير » . وليس ادل على المكانة المرموقة التي بلغها المعافري في موطنه الجديد مما رواه المراكشي اذ يقول إن المعافري بقي « معلوم الجلالة الى ان توفي ، فكانت جنازته مشهودة لم يتخلف عنها كبير احد ، حتى إن النصارى الذين كانوا بالكنيسة هنالك اتبعوا جنازته ورموا بعض ثيابهم على نعشه وأخذ بعضهم يتناول بعضا إياها ويمسحون على وجوههم ، رضي الله عنه » .

تراجم شهيرات النساء

تشغل المكتبة التي تضم المخطوط بين رفوفها جزءا من متحف صغير في ضاحية هادئة من ضواحي مدينة دبلن . وقد سميت هذه المكتبة بمكتبة تشستر بيتي على اسم مالكها السابق ، وهو ثري بريطاني دأب في مطلع هذا القرن على اقتناء التحف الفنية والمخطوطات من جميع انحاء المعمورة ، ثم وهبها الى الحكومة الأرلندية بعد ان ضاق ذرعا ـ على ما يقال ـ بفداحة الضرائب ومتاعب تعبئة استمارات ضريبة الدخل !

(١) طبع هذا المخطط مؤخرا ، وقد تولت نشره الدار العربية للكتاب ، ليبيا ـ تونس ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، تحقيق وتقديم د . عائدة الطيبي .


الحدائق الغناء في أخبار النساء
تراجم شهيرات النساء في صدر الإسلام
تأليف
أبي الحسن علي بن محمد المعافري المالقي
تحقيق وتقديم
دكتورة عائدة الطيبي
الدار العربية للكتاب
ليبيا - تونس

والمخطوط مدرج في قائمة مخطوطات المكتبة تحت رقم ٣٠١٦ ، وبعنوان « تراجم شهيرات النساء » ، بيد ان المخطوط ذاته لا عنوان له . وهو في حالة جيدة ، وعدد اوراقه مائة ورقة وسبع ورقات (٢١٤ صفحة) من حجم متوسط ، والخط نسخ وبخط يد المؤلف كما ذكرنا . يحتوي المخطوط على أحد عشر جزءا [٢] متساوية الطول تقريبا ، وكل جزء يبدأ بفهرس موضوعات ، ومعظم الأجزاء تنتهي بخاتمة يذكر المؤلف فيها اسمه كما يذكر تاريخ ومكان سماعه للأخبار . أما المخطوط نفسه ، فليس له فهرس موضوعات ولا خاتمة ، الا ان المؤلف ترك وجه الورقة الأولى بياضا ، ولعله كان يعتزم ان يكتب فيها اسم الكتاب ، وان يضع له فهرسا عاما .

ومع ان المصادر تقول إن المعافري « كتب وحصل » ، فانها لا تذكر أيا من الكتب التي ألفها او سمعها ، اللهم باستثناء كتاب « الجامع المستقصى في فضل الجامع الأقصى » الذي سمعه عن مصنفه الحافظ ابي محمد القاسم ابن مؤرخ دمشق الشهير المعروف بابن عساكر . كما ان المصادر لا تلمح بشيء عن المخطوط ، والاسم الذي أطلق عليه في قائمة مخطوطات مكتبة تشستر بيتي مضلل الى حد كبير ، اذ ان كلمة « تراجم » بمفهومها الحالي لا يصح بأي حال اطلاقها على ما يتضمنه المخطوط ، فمحتوياته واردة على شكل وحدات منفصلة من الأخبار والحكايات المتفاوته الطول ، يدونها المعافري حرفيا كما سمعها من شيوخه ويستهل كلا منها باسناد كامل . و « الترجمة » قد تضم خبرا واحدا او اكثر ، او قد تغطي جزءا بكامله كما هو الحال في الجزء الثامن المخصص لسكينة بنت الحسين . والأخبار تتكرر احيانا ، مع فروق طفيفة ، باسناد آخر ، ولذلك فنحن نجد ان « التراجم » ناقصة ومعلوماتها معادة في كثير من الأحيان .

قد يحلو لمن يتصفح المخطوط ان يتساءل عما اذا كان المعافري قد قصد منذ البداية ان تظهر التراجم بشكل كتاب فأعد له اسما ، او انه جمع هذه الأخبار لمجرد التمتع بقراءتها او الاستفادة منها بروايتها على تلاميذه او بدمجها في كتاب آخر . وقد يكمن جواب ذلك في المخطوط نفسه ، ففي الجزء التاسع ، صفحة ١٦٩ ، يطول الحديث في شرح كلمات لليلى الأخيلية ويتشعب ، فيضع الكاتب حدا لهذا الاستطراد ، ويعلق على ذلك بكلمات من عنده هي على ما يبدو الوحيدة في المخطوط التي لم يروها عن الغير ، فيقول :

« وهذا باب ان استقصيناه طال جدا وتجاوز بنا حد المجلس الواحد من مجالس كتابنا ، ولم نبن هذا الكتاب على استيفاء ابواب انواعه ، وانما جعلناه موشحا ممتزجا بمنزله الحدائق المشتملة على انواع مختلفة ، يقع الأنس بمشاهدتها والالتذاذ بجناها والانتفاع بثمرتها » .

يتبين من هذا ان المعافري جمع هذه الأخبار لتشكل كتابا ، وكون المخطوط بجملته لا عنوان ولا مقدمة له قد لا يعني الا ان الكاتب لم يكن قد وصل بعد الى مرحلة نشره والتعريف به ، ونظرا لأن الكاتب استعمل كلمة « اخبار » في فهارس الأجزاء ، ونظرا لأنه شبه كتابه « بالحدائق » فمن المحتمل جدا ان العنوان الذي اطلقه على كتابه او قصد إطلاقه عليه كان يشتمل على هاتين الكلمتين . وقد وقع الأختيار على العنوان « الحدائق الغناء في اخبار النساء » كعنوان للكتاب تمشيا مع عادة قدماء كتاب العرب في انتقاء السجع لاسماء كتبهم .

واما عن محتويات المخطوط ، فمعظمها تتعلق بشهيرات النساء في صدر الاسلام ، ولو اننا نجد في نهاية بعضها اخبارا عن مواضيع اخرى . ففي الجزء السادس مثلا يتطرق الحديث بالمؤلف الى الاندلس ، بدافع من الحنين الى وطنه دون شك ، فيسرد لنا أخبارا عن فقهاء الأندلس وشعرائه . ويبلغ عدد النساء المذكورات في الفهارس تسعا وعشرين امرأة : ثلاث منهن عابدات ،

(٢) معظم اجزاء المخطوط تتعلق بفترة صدر الاسلام ، بيد ان اربعة اجزاء منه تتناول اخبارا منذ بدء الخليقة ، لكون هذه الأجزاء خارجة عن موضوع المخطوط الرئيسي ، فهي لم تنشر .

وثلاث شاعرات ، وخمس عشرة امرأة لهن صلة برجال مشهورين ، وثمان منهن جوار مغنيات . ومن الواضح ان هذا التقسيم تقريبي فقط ، اذ ان كثيرات من النساء في الفئتين الأخيرتين كن يتمتعن ايضا بموهبة شعرية . ومما يجدر ذكره ان المخطوط يشتمل على عدد كبير من ابيات الشعر ، بعضها لم نعثر عليها في الأصول ونخص بالذكر الأشعار من نظم عريب جارية المأمون .

في صورة مغايرة تماما

ان الأخبار المجموعة في الكتاب هي دون شك ذات قيمة تاريخية وأدبية ، ولكنها فضلا عن ذلك تقدم لنا شيئا آخر ، فهي تعطينا صورة للمرأة العربية في صدر الأسلام تختلف كثيرا عن الصورة الشائعةعند معظم الناس في العالم الغربي ، وحتى في العالم الاسلامي . ومما لاشك فيه ان هذه الصورة الطريفة غير المتوقعة هي من الدوافع التي جعلت الأجيال المتعاقبة تعتبر هذا الكتاب أهلا بالاحتفاظ ، والتي دعت بالمؤلف منذ البداية الى اعتبار محتوياته جديرة بالجمع والتدوين . والواقع انه لا يمكن الجزم بصحة جميع الأخبار الواردة في الكتاب ، وقصارى ما يمكننا قوله هو ان معظمها ورد في المصادر الأخرى ، وان هذه المصادر تروي بالاضافة الى ذلك كثيرا من الأخبار الأخرى المماثلة . ومهما يكن من أمر ، فالصورة التي تتكشف لنا من ثنايا الأخبار المجموعة في الكتاب هي صورة تستحق كل الاعتبار ، فهي شبيهة بالصورة التي تتجلى من المراجع الأخرى ، ومن المحتمل جدا ان تكون اقرب بكثير الى الصحة مما يدور بخلدنا .

ان الصورة التي نقدمها هنا مستقاة من التراجم المبكرة التي تشكل الجزء الأكبر من الكتاب ، وهي على وجه التحديد صورة للمرأة العربية المسلمة في فترة ما قبل قيام الدولة العباسية . ولعل أبرز انطباع يخرج به القاريء من قراءة هذه التراجم هو ان المرأة كانت فخورة معتدة بنفسها الى حد كبير ، الأمر الذي حدا بها ان ترضخ لقانون أخلاقي صارم فرضته هي على نفسها ، بمعنى أنها رضيت بتقاليد مجتمعها ، فاعتبرت اي خرق لها ينعكس عليها ويحط من قدرها أمام نفسها . وهكذا فاننا نجد المرأة في صدر الاسلام - كأختها قبل الاسلام - شديدة الوفاء ، والتعصب لقبيلتها وبخاصة لأقاربها من ناحية ابيها . ففي الصفحة ١٦٠ ، تعتب ليلى الأخيلية في أبيات لها على عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، زوجة عبد الملك بن مروان ، سوء استقبالها لها فتقول :

أأجعل مثل توبة في نداء
أبا الذبان فوه الدهر دامي(٣)
أقلت خليفة فسواه أحجى
بإمرته وأولى باللئام
لثام الملك حين تعد كعب
ذوو الاخطار والخطط الجسام

فلما سئلت ليلى أي الكعبين - من أجدادها - عنت ، أجابت قائلة « ما أخال كعبا ككعبي » . ثم هناك الأبيات الشهيرة المنسوبة الى ميسون بنت بحدل الكلبية زوجة معاوية بن ابي سفيان وأم يزيد بن معاوية التي سئمت حياة القصور في دمشق وحنت الى بني قومها والى حياة البادية فقالت (ص ٣٥) :

للبس عباءة وتقر عيني
أحب الي من لبس الشفوف
وبيت تخفق الأرواح فيه
أحب الي من قصر منيف
وخرق من بني عمي كريم
أحب الي من علج عليف

لم تكن المرأة وفية لأقاربها فقط ، فبالرغم من انها كثيرا ما كانت تزوج من رجل يكبرها سنا (وهذا دون استشارتها في الأمر ، على الأقل في حالة زواجها وهي صغيرة السن) فانها كانت وفية لزوجها وهو حي ، وكثيرا ما كانت تظل مخلصة لذكراه بعد وفاته وتأبى الزواج من غيره . فان نائلة بنت الفرافصة لما زفت الى عثمان بن عفان وأدخلت عليه - وكان اذذاك قد ناهز السبعين من العمر - وضع قلنسوته عن رأسه وبدا صلعه فخاف ان يفعمها ذلك ، فما كان من نائلة الا ان قالت انها « من نسوة أحب ازواجهن اليهن السادة الصلع » (ص٣٩) . دام زواج نائلة من عثمان سبع سنوات فقط ، فخطبها الرجال بعد موته ومنهم معاوية بن ابي سفيان ، ولكنها أبت الزواج منهم جميعا ، ويقال انها اخذت حجرا ودقت به أسنانها ، فلما سئلت عن ذلك اجابت قائلة : « اني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب ، واني خفت ان يبلى حزني على عثمان فيطلع مني رجل ما اطلع عليه عثمان وذلك ما لا يكون أبدا » (ص٤٢) .

---

(٣) توبة ابن عم ليلى ورفيق صباها وله ابيات فيها . والمقصود بأبي الذبان هنا هو عبد الملك بن مروان ، وكان يكنى هكذا لشدة رائحة فمه . انظر المعارف لابن قتيبة ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٥٨٦ .

كانت تجلس وتأذن

في الكتاب أمثلة كثيرة تشير الى ان المرأة كانت شديدة الاعتداد بنفسها . ففي علاقتها بزوجها لم تكن خانعة او مخادعة ، فان هي بذلت بذلت راغبة لامكرهة ، وكانت تتوقع في مقابل ذلك قسطا من الانصاف والمعاملة الكريمة . فنحن نقرأ في خبر عن عائشة بنت طلحة بن عبيد الله انها عتبت على زوجها مصعب بن الزبير « بسبب بعض جواريه فهجرته فبلغ ذلك منه » ، وانها لم تصالحه الا اثر رجوعه من انتصار في معركة عندما قامت نحوه مهنئة وقالت : « لولا التهنئة لطال الاعراض » (ص٦٧) . ونقرأ في رواية اخرى أن مصعبا هم بالدخول الى غرفتها ظنا منه انها راضية عنه ، وأنها مستعدة لاستقباله « فلما رأته أمرت بالباب فأغلق في وجهه ، فكسر الباب ودخل ، فتنازعا فضربها وضربته » ، ثم اصطلحا (ص٦٦) .

ان الظاهرة الثانية التي تتجلى لنا في التراجم المبكرة هي ذلك القدر من الحرية والاستقلال الذاتي الذي كانت المرأة على ما يبدو تتمتع به . وبالرغم من ان الحجاب كان موجودا ، الا ان استعماله لم يكن عاما ، ولم يكن قد أدى بعد الى فصل الجنسين فصلا تاما ، كما اصبح الحال في معظم المجتمعات الاسلامية اللاحقه ـ او على الأقل في للمجتمعات الحضرية منها . فنحن نقرأ ان عائشة بنت طلحة كانت « لا تحتجب عن الرجال ، بل كانت « تجلس وتأذن كما يأذن الرجل » (ص٦١) ، وفي حكاية اخرى نقرأ أن مصعب بن الزبير دعا الشعبي [٤] ـ وكان من كبار رجالات القوم ـ الى بيته وأدخله على زوجته ليريه جمالها و « ليحدث بما رأى » (ص٦٣) ، ثم تركه عندها لأنها أخبرته انها اشتهت حديثه (ص٦٤) . ونقرأ كذلك عن الفقيهة الشامية ام الدرداء انها عندما سألها أحد الشيوخ الجالسين معها عما إذا كانوا قد أملوها أجابت : « لقد طلبت العبادة في كل شيء فما اصبت لنفسي شيئا أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم » (ص٤٨) .

يجد القارىء امثلة كثيرة في الكتاب عن نساء يسرن في الطرقات او يحادثن الرجال . فنحن نقرأ ان عزة أرادت أن تعلم مكانتها عند كثير فتنكرت ومرت به متعرضة ، وطبعا وقع كثير في الفخ « وعرفت عزة أمرها ونكثه وغدره بها وأعلمته سوء فعاله وقلة حفاظه ونقضه للعهد والميثاق » (ص١٢٦) . وفي مناسبة اخرى أبصرت به عزة وهو على جمله يخفق نعاسا ، فضربت رجل الجمل وقالت : « كيف انت ياجمل ؟ » (ص١٢٤) . ومرة اخرى كانت عزة تسير مع زوجها فمرا بكثير والناس مجتمعون من حوله يستمعون الى نشيده فأمرها زوجها ان تسب كثيرا (ص١٢٧) . وقد خلد كثير ذكرى هاتين الحادثتين في ابيات من شعره ، فقال في المناسبة الأولى :

حيتك عزة يوم البين وانصرفت ... فحي ويحك من حياك يا جمل
ليت التحية كانت لي فأبدلها ... مكان ياجملا حييت يا رجل

وقال في المناسبة الثانية :

يكلفها الخنزير سبي وما بها ... هواني ولكن للمليك استذلت
هنيئا مريئا غير داء مخامر ... لعزة من أعراضنا ما استحلت
يا نظرة لي ضرت يوم ذي سلم ... حتى متى لي هذا الضر في نظري
قالت ـ وابثثتها سري فبحت به ـ ... قد كنت عندي تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولي فقلت لها ... غطى هواك وما ألقى على بصري

وأيضا :

اذا وجدتُ أذى للحب في كبدي ... أقبلت نحو سقاء القوم ابترد
هذا بردت ببرد الماء ظاهره ... فمن لحر على الأحشاء يتقد

أول ناقدة أدبية

وفي التراجم المبكرة عدة أمثلة عن نساء تصرفن بمقتضى ارادتهن وأدلين باراتهن دون تهيب او تردد ، فسكينة بنت الحسين يمكن اعتبارها اول ناقدة أدبية ، اذ كانت عندما يزورها الشعراء لاتخلي سبيلهم الا بعد أن تعلمهم برأيها في أشعارهم وحتى في أخلاقهم (ص١٤٦ وما بعدها) . وعندما خطب أبان بن سعيد عائشة بنت طلحة وعلمت انه اختار ان يعيش في أيلة (العقبة) لرخص العيش فيها ولأنه رغب في العزلة ، رفضت طلبه وبعثت اليه تقول :

---

(٤) هو ابو عمرو بن شراحيل فقيه كوفي . توفي حوالي سنة ١١٠هـ/٧٢٨م .

حللت محل الضب لاأنت ضائر
عدوا ولامستنفع بك نافع (ص٦٨)

ومع ان الصغيرات في السن من البنات لم يكن لهن في الغالب كلمة في امر زواجهن ، فانه كان يترك للنساء البالغات امر اختيار أزواجهن ، وكن يفعلن ذلك حسبما تمليه عليهن اهواؤهن ولايعرن اهتماما كبيرا لرأي الآخرين في ذلك فان اهل عزة عندما طلب عبد الملك بن مروان ان يزوجوها الى كثير قالوا انها « امراة بالغ لايولىٰ على مثلها » ، وعندما عرض الأمر عليها رفضته رفضا باتا . والسبب الذي قدمته لرفضها هذا يكشف لنا نواحي من القيم الاخلاقية التي سادت في ذلك الوقت ، فيقال ان عزة رفضت طلبه قائلة : « بعد ما شهرني في العرب وشبب بي فأكثر ذكرى ! ما الى هذا سبيل » (ص١٢٣) . وثمة أمثلة اخرى في الكتاب ـ وقد سبق ذكر بعضها ـ عن نساء رفضن طلبات زواج حتى من الخلفاء . وكانت المرأة حينما يقع اختيارها على الرجل الذي ستتزوجه ، تفعل ذلك بدافع شخصي محض ، فان فاطمة بنت الحسين مثلا بعد وفاة زوجها الأول ـ وكان ابن عمها ـ وجاءها الخطاب اشترطت بانها لن تقبل لنفسها زوجا الا من مهرها مبلغا من المال كافيا لتسديد ديونه (ص١٣٣) .

نقرأ في التراجم المبكرة عن نساء قمن بزيارة خلفاء وأمراء وتصرفن عندهم بكل اعتداد ورباطة جأش ، فليلى الأخيلية لما زارت الحجاج بن يوسف أعجب كثيرا بشعرها وببلاغتها ، فما كان منه الا ان أمر بها ان تؤخذ الى رجل ليقطع لسانها ، وكان الدافع لهذا دون شك الخوف من السلاح الحاد الذي تملكه . فلما وصلت ليلى عند الرجل وسمعته يرسل في طلب الحجام ، صاحت به قائلة : « أما سمعت ما قال ؟ انما أمرك ان تقطع لساني بالبر والصلة » ، وكان من نتيجة قولها انها أرجعت الى الحجاج ، فعفا عنها ووصلها وأجاب طلبها (ص ١٦٣ وما بعدها) .

وهناك قصة أم سنان بنت خيثمة التي ذهبت الى معاوية لتطلب عونه ضد مروان بن الحكم ، ونجحت في طلبها ، بالرغم من كونها من شيعة علي ، وبالرغم من ان اشعارها التي قالتها في التحريض على اعدائه ، وما كان ذلك ليتحقق لولا رباطة جأشها وبلاغتها وتفهمها للأحوال السياسية السائدة آنذاك ، اذ لعبت على الوتر الحساس عندما لمحت بأطماع مروان في الخلافة ، واكتسبت معاوية الى جانبها (ص ٨١ وما بعدها) .

لا غلو ولا ابتذال

وهناك نقطة أخيرة تلفت الانتباه في التراجم المبكرة ، وهي الطريقة الصريحة المتزنة التي يعالج فيها موضوع العلاقة بين الجنسين ، فلا غلو في الاحتشام ولا ابتذال . فكأن لاعبي الأدوار الرئيسية في الكتاب لا ترد اسماؤهم الا مزدوجة ، والعلاقة التي تربط هذه الأزواج ليست علاقة الزواج فقط بل احيانا علاقة الحب الضائع : فهناك كثير وعزة ، وجميل وبثينة ، وقيس ولبنى ، وعروة وعفراء ، وتوبة وليلى الأخيلية ، لا بل إن بعض الشعراء عرفوا بأسماء صاحباتهم ، فقيل جميل بثينة ، وكثير عزة . والقواعد الأخلاقية الصارمة التي وصفناها كانت مطبقة هنا ، فان المرأة حتى لو بقيت تبادل المحبة رجلا عرفته ايام صباها ، فانها ما كانت لتفكر ابدا بان تسمح لنفسها بتجاوز هذا الحد ، وقد أوضحت ليلى الأخيلية هذا الشعور ببلاغتها المعتادة حين قالت :

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها
فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي ان نخونه
وأنت لأخرى فاعلمن حليل

وما يلفت النظر في هذا كله ان العواطف هذه لم تكن مكتومة بل كانت معروفة لدى الجميع ، بحيث كانت مدار الحديث في المجالس ، فانه لم يكن سرا أن توبة كان يحب ليلى وإنها بدورها بادلته ذلك الحب . وقد سئلت ليلى عن ذلك اكثر من مرة ، وكان ممن سألها عبد الملك بن مروان (ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٥) . وهناك حكاية عن عزة وردت ثلاث مرات في الكتاب ، فقد سئلت عما كان يعنيه كثير في البيت التالي (ص ٦٧ ، ١٢٥) :

قضى كل ذي دين علمت غريمه
وعزة ممطول معنى غريمها

فأجابت عزة بعد إلحاح انها كانت قد وعدت كثيرا قبلة ثم تحرجت منها . ومن اكثر الحكايات في الكتاب تأثيرا على القارىء وأبعثها على الشفقة حكاية عفراء وعروة ابن عمها ورفيق صباها . فيحكى انها علمت بوفاته من أبيات شعر أنشدها بعض المارة بأعلى اصواتهم لتسمعها عفراء ، علما منهم ان هذا الأمر يهمها ، فلما سمعت الأبيات ذهبت من توها الى زوجها وقالت : « يا هناه [٥] ، إنه قد كان من أمر ذلك الرجل ما قد بلغك ،

(٥) أي : يا فلان .

والله ما كان الا على الحسن الجميل » ، ثم استأذنته بالخروج مع النساء لتندبه فسمح لها زوجها بذلك ، ويقال إنها خرجت تنوح عليه بأبيات من الشعر وبقيت على ذلك الى ان ماتت (ص ١١٠) .

إن الحرية التي كانت تتمتع بها المرأة لم تكن مشوبة بالاباحية ، والحديث اذا تطرق الى موضوع المرأة والحب كان صريحا خاليا من الاستهتار او الابتذال ، اذ كانت هذه المواضيع تتبوأ مكانها الطبيعي في مضمار النشاط الانساني . فلا يحذف منها شيء بدافع من التحرج ، وفي الوقت ذاته لا يبالغ فيها رغبة في استثارة القراء . وبهذه الروح علينا ان ننظر الى الأخبار التي تحتوي كلاما قد يعتبر في يومنا هذا منافيا للذوق .

حديث علني حول الجمال

تجد في الكتاب نساء من أشرف العائلات تذكر اسماؤهن ويطرى جمالهن رجال مرموقون في المجتمع : فأبو هريرة يقول - ويقول ذلك أنس بن مالك ايضا - إنه لم ير احدا أجمل من عائشة بنت طلحة الا معاوية على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم (ص ٥٧) . ولم تكن المرأة تكتفي بالانشراح والاعتداد بجمالها في قرارة نفسها فحسب ، بل كانت تعلن ذلك على الملأ ، فانه عندما علق أنس بن مالك على جمال عائشة بنت طلحة ردت عليه قائلة : « والله لأنا أحسن من النار في عين المقرور في الليلة الباردة » . وفي مناسبة اخرى قال لها أنس إن اناسا بالباب يريدون ان يدخلوا اليها فينظروا الى حسنها ، فما كان منها الا ان عاتبته لأنه لم يخبرها بذلك من قبل حتى تتمكن من إصلاح هندامها وارتداء ما يناسب المقام (ص ٥٧) .

ان عواطف الحب والاعتزاز التي كان يكنها الرجال لزوجاتهم نجدها كذلك مذكورة صراحة . ففي حكاية نقرأ ان عائشة بنت طلحة بعد زواجها من مصعب ، جلست مع نساء من قريش يستمعن الى عزة المدينية تغني البيتين من شعر امرىء القيس :

وثغر أغر شتيت النبات ... لذيذ المقبل والمبتسم
وما ذقته غير ظني به ... وبالظن يحكم فينا الحكم

ويبدو أن مصعبا كان واقفا في الدهليز ، فلما سمع البيتين صاح قائلا : « بارك الله عليك ياعزة . لكنا والله قد ذقناه فوجدناه كما ذكرت » (ص ٦٥) .

إن الأمثلة التي ذكرناها هي كلها عن الحرائر من النساء ، ومنهن عدد ينتمي الى أرفع عائلات المجتمع في صدر الاسلام وأعرقها . ولكن حتى الجواري والمغنيات المذكورات في التراجم المبكرة كن عضوات محترمات يؤدين خدمة لها أهميتها في المجتمع ،فغناؤهن مقدر أيما تقدير ، وكن فضلا عن ذلك يتوسطن بين رجال ونساء الطبقة الرفيعة ويؤتمن على كثير من أسرارهم . وشتان بين هؤلاء الجواري وبين عريب التي ترعرعت في صدر العصر العباسي ، فيروى أنها فوجئت ذات يوم بزيارة الخليفة المعتصم لها بينما كانت تتعاطى الشراب مع رفيق لها ، وسرعان ما أخفته وجلست مع الخليفة ، وبعد ان انصرف اخرجت رفيقها ثانية « فما زالا في أمرهما الى الصبح (ص ١٠٦) .

وخلاصة القول إن صورة المرأة التي تتجلى لنا من الحكايات المستقاة من التراجم المبكرة في الكتاب هي صورة امرأة صريحة جريئة ، تؤمن ايمانا عميقا بقيم مجتمعها الأخلاقية ، امرأة تقبلت بصدر رحب تقاليد مجتمعها ، وامتثلت لها دون خداع او نفاق . كانت هذه المرأة شديدة الاعتداد بنفسها ، مستقلة في رأيها ، متعصبة لأقاربها ، وفية لزوجها ، وكانت تتوقع شيئا من العدالة وحسن المعاملة فتنال قسطا من ذلك . وبما انها لم تكن قد فصلت بعد عن عالم الرجل ، فانها كانت شديدة الوعي لكل ما يجري من حولها ، فكانت تصرح بآرائها عن الامور المهمة في المجتمع ، وهي واثقة النفس صلبة الرأي .

ان تدني وضع المرأة - الذي يرجع الى حد كبير الى الأحوال الاجتماعية الناجمة عن الفتوحات الاسلامية - لم يكن بعد قد اثر على خلق المرأة ، ولا أدى الى طمس شخصيتها . لقد كان أثره تدريجيا بادىء الأمر ولكنه اخذ يزداد مع مرور الزمن ، فأصبح واضحا جليا في التراجم المتأخرة . وليس ادل على التغيير الذي حدث بالنسبة لوضع المرأة ومكانتها في المجتمع ، من ان التراجم في الكتاب معظمها مستقاة من القرن الأول الهجري ونيف كما ذكرنا ، فكأن المؤلف لم يجد من النساء من تستحق الذكر بعد ذلك التاريخ ، ومما يلفت النظر ايضا ان الجزء الأكبر من الأخبار المتأخرة المستقاة من العصر العباسي ليست عن النساء الحرائر بل عن الجارية عريب . ■■

د . عائدة الطيبي
طرابلس الغرب - ليبيا

نزهة العقل الذكي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لاتشوه صفحة العدد بقطعها منه .. اما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد » ٢٧١ وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول أغسطس (١٩٨١) .

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حلّ مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم صحابي من العشرة المبشرين بالجنة ، كما ستجد في (٨) رأسيا اسم فلكي ورياضي عربي .

كلمات أفقية :

(١) درجة النعيم الأبدي في العقيدة البرهمية ـ في الجهاز الهضمي .

(٢) اتحاد بين نباتين مختلفين يعيشان معا ـ زمن ـ ارتفع .

(٣) نصف كلمة (بالي) ـ تنجد ـ يهتم .

(٤) أدرك ـ أشابه ـ انهض ـ للتفسير .

(٥) يتخيلان ـ مؤسسة علمية أسسها الحاكم بأمر الله .

(٦) أرشد ـ شكوك ـ مادة قاتلة ـ أحد الوالدين .

(٧) تنشرها على الملأ ـ عاد عن الذنب ـ تحقق .

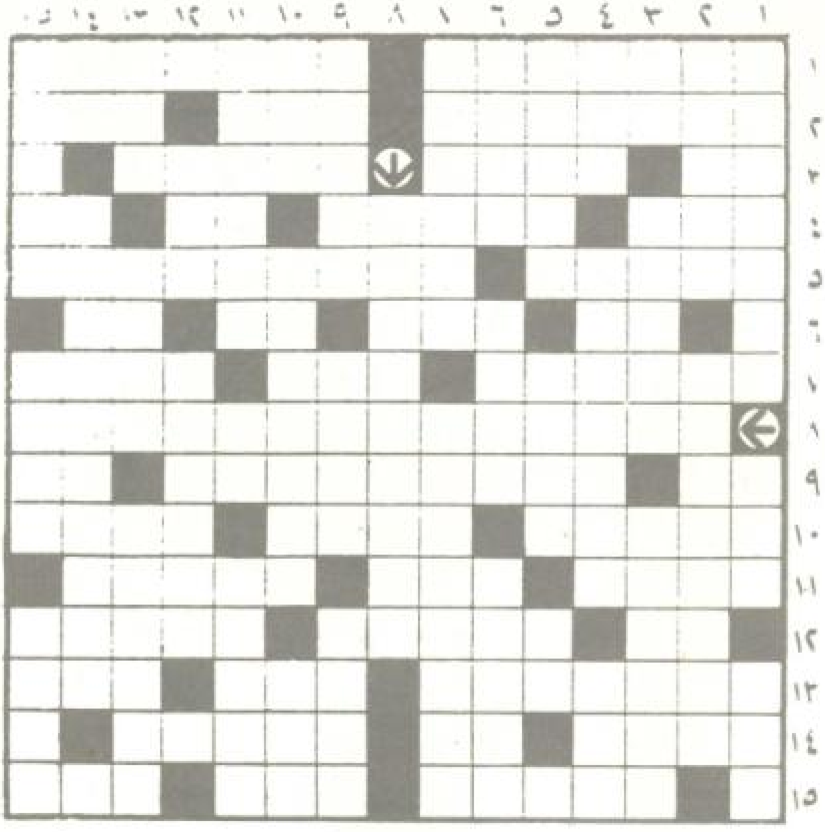
(٨) صحابي من العشرة المبشرين بالجنة .

(٩) قادم ـ عالم فلكي انجليزي من القرن السادس عشر ـ نصف كلمة (راسي) .

(١٠) واصلا ـ مركزه ـ مفترس .

(١١) شغله ـ أتى ـ أوحت .

(١٢) نصف كلمة (منهج) ـ الجمع بين ثلاثة وعشرة رجال ـ عاصمة أوروبية .

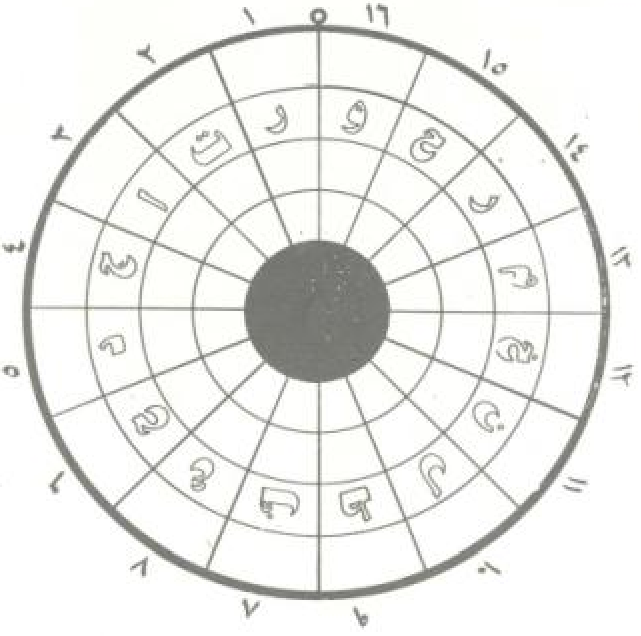


(١٣) دولة أسيوية ـ رخو ـ يكتمل .
(١٤) يضاف للطعام لاعطائه نكهة خاصة ـ حرف جر ـ يعطي تأييده المعنوي .
(١٥) تقاربت ـ وحدة قياس زمن ـ أحصى .

كلمات رأسية :

(١) قائد عسكري شهير في التاريخ ـ أول البشر ـ من أعضاء الجسم .
(٢) يراقب ـ سيرة شعبية مصرية .
(٣) نصف كلمة (راسب) ـ يستخدم في الاضاءة ـ التزامات .
(٤) شاعت ـ الارادة المؤكدة ـ من الزهور .
(٥) في العين ـ ثاروا ـ نصف كلمة (جاد) .
(٦) أملس ـ علم ـ قطر عربي .
(٧) ألحاشي ـ فنان تشكيلي من القرن السابع عشر .
(٨) فلكي ورياضي عربي .
(٩)عالم رياضي سويسري شهير من القرن الثامن عشر ـ أنفى ـ حر .
(١٠) خرق ـ مبرراتها ـ يفي .
(١١) تستجيب للتغيير ـ حرفان متشابهان ـ قطر عربي .
(١٢) ابصر بطرف العين ـ تختبرها .
(١٣) لعل ـ طائر من الطيور التي لاتطير ـ من القارات .
(١٤) من الحواس ـ ناطحة سحاب أمريكية شهيرة .
(١٥) عمودية ـ خراب ـ لتجويد التربة .

كوبون مسابقة
العدد ٢٧١

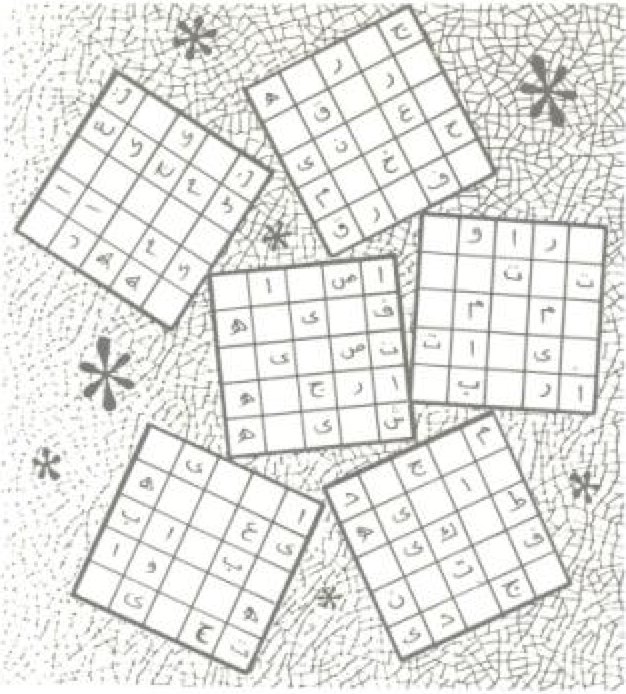


حول الدائرة السوداء

ضع الكلمات ذات الحروف الأربعة ، والتي تعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداءاسم :

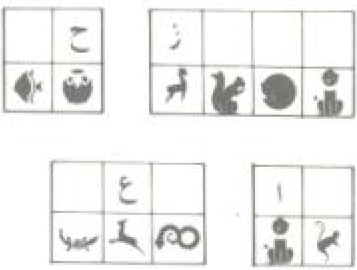
رياضي وفلكي الماني ، قادت ابحاثه الى اكتشاف كوكب نبتون

(١) حيوانات (٢) قاطع (٣) مألوف (٤) يحذق (٥) منصرف (٦) أتقي (٧) يحيا (٨) قليل الوزن (٩) أدهن (١٠) مؤذن الرسول (١١) من الأشجار (١٣) في القلب (١٤) داني (١٥) يسجن (١٦) شهر هجري .



العواصم

أمامك ستة مربعات ذات اطارات ثقيلة . في كل مربع منها خمس كلمات أفقية ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ،ورتب هذه الحروف ، لتصنع اسم عاصمة عالمية .



مثل عربي

أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة ، تعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في موضعها . المثل يشير الى :

الوفاء بالعهد ، والالتزام به .

الحلول ١

العواصم :

الدوحة .

حول الدائرة السوداء :

قريد ريش قبلهلم بسل .

مثل عربي :

أنجز حر ما وعد .

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبدالله الغنيم

مدير التحرير
عبدالعزيز السيد أحمد

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ١٢٥٫٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالى ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : –

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير – وثائق – يوميات – بيبليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٤٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١- كتاب التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .
٢- كتاب آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .
٣- كتاب حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .
٤- كتاب الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .
٥- دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها : –

الكتاب الأول – وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت – كلية الآداب والتربية – الشويخ – دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ – الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ – ٨١٦٧٩٩ – ٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .

نصائح من أكبر مؤسسة لتصدير اللحوم والمواشي في العالم

تعتبر استراليا في طليعة البلدان المصدرة للحوم والمواشي ، وهي تتعامل في هذا المجال مع مايزيد عن مائة دولة في مختلف أنحاء العالم .. وقد بلغت الصادرات الاسترالية من لحوم الابقار والاغنام والماعز المبردة والمثلجة في العام الماضي نحو مليون طن .

وتتولى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تصدير مثل هذه الكميات الكبيرة من اللحوم والمواشي . وللشركة عدد من المكاتب في الشرق الاوسط ، والاسواق العالمية الكبرى .



وتهتم هذه المكاتب بترويج اللحوم وتقديم الاستشارات والمساعدات المباشرة للمستورد .

كيف تساعد الشركة المستورد

يعمل لدى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي خبراء متخصصون بالتسويق والاقتصاد والتنمية وفن الاعلان بهدف تنشيط التجارة مع استراليا .

فاذا كنت بحاجة الى بعض المعلومات عن توفر اللحوم والمواشي ونوعياتها واجراءات الشحن والشروط الصحية وسواها من المعاملات والاعلان ، فما عليك الا أن تتصل بالمدير الاقليمي للشرق الاوسط : السيد فيليب روسال أو المدير الاقليمي للمكتب الاوروبي السيد رالف هود .



الشحن

تقوم الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بدراسة وتحديد كميات وأسعار اللحوم والمواشي المراد شحنها وكذلك وسائل الشحن الممكنة عبر الطرق الدولية .

AUSTRALIAN MEAT & LIVE-STOCK CORPORATION

التأكيد على النوعية

ان الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تستخدم جهازا من الفنيين داخل استراليا وخارجها لمساعدتك في تقديم طلباتك والتأكد من أن المنتجات التي أرسلت لك تطابق المواصفات المطلوبة بما في ذلك ذبح المواشي على الطريقة الاسلامية

وهناك كتيبات تتضمن معلومات عن كافة اعمال الشركة والاصناف التي تتعامل بها يمكن الحصول عليها من المكاتب الاقليمية للشركة .

أذون التصدير

تطبق الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بعض الشروط المالية والانتاجية في تعاملها مع المصدرين حتى تجنب العملاء أي اشكالات أو مضايقات هم في غنى عنها .

أين تجد النصيحة

في امكانك الحصول على أي نصيحة او استشارة في هذا المجال عن طريق :



السيد / فيليب روسال
« يانين سنتر » ممثل
الشركة الاسترالية للحوم والمواشي
ص . ب (٥٦٢٢)
هاتف ٢٤٤٠٠٩
تلكس ٩٤٧٦-٤٩ AMLC BN
المنامة / دولة البحرين

أو

MR. RALPH HOOD 9 KINGSWAY LONDON, WC. 2 ENGLAND

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

يونيو/حزيران
١٩٨١م

دور المشروعات العامة في التنمية الاقتصادية

"مدخل إلى دراسة كفاءة أداء المشروعات العامة في أقطار الجزيرة العربية المنتجة للنفط"

تأليف :

الدكتور علي خليفة الكواري

٢٥٠ فلساً

الكتاب الثاني والأربعون

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

الامان لأموالكم وفوائد لاتنافس

مع

لومبارد نورث سنترال

العضو في مجموعة الناشيونال وستمنستر بنك التي

يفوق رأسمالها واحتياطها ١،٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه استرليني.

١٣٪

في السنة

ايداع محدد لمدة ٣ سنوات

تدفع كل الفوائد بدون خصم أي ضريبة

اسعار الفائدة المذكورة جارية إلى حين ارسالها للطباعة

لومبارد نورث سنترال عضو في البنوك المصرفية العالمية وتاريخنا يرجع الى أكثر من ١٠٠ سنة. تقدم لكم تسهيلات ايداعية تعود عليكم بأقصى فائدة مع مرونة الاختيار وضمان لأموالكم وهذه الودائع متاحة للأفراد والمؤسسات في جميع أنحاء العالم.

اختاروا المنهج الملائم لاحتياجاتكم

تقدم لكم ثلاث تسهيلات ايداعية لكل منها شروط متعددة ملائمة لاحتياجاتكم الخاصة.

ايداع ذو الأخطار

والمبلغ الأدنى للايداع هو ٥٠٠ جنيه استرليني ويمكنكم اضافة أي مبلغ اليه في أي وقت ويمكنكم سحبه بعد اخطار كتابي في آخر المدة المتفقة عليها. تجمع الفائدة اعتبارا من تاريخ الايداع وتدفع نصف سنويا ثم تضاف الى الحساب أو تدفع الى المودع بواسطة شيك.

ايداع ذو مدة محددة

والمبلغ الأدنى للايداع هو ١٠٠٠ جنيه استرليني لمدة محددة **من سنة إلى خمس سنوات** مع سعر فائدة محدد لهذه المدة. تدفع الفائدة سنويا.

ايداع ذو دخل منتظم

والمبلغ الأدنى للايداع هو ١٠٠٠ جنيه استرليني. بواسطة هذا المشروع يمكنكم الحصول على مبلغ الفائدة أي على شيك كل شهر أو كل ثلاثة أشهر أو كل نصف سنة والفائدة تزداد تدريجيا حسب المدة التي تختارونها. تودع الأموال لمدة محددة أي **بين السنة والخمس سنوات** بسعر فائدة محدد لهذه المدة.

نرجو منكم أن تملأوا الكوبون إن أردتم تفاصيل اضافية ومطولة عن حسابات الايداع واسعار فوائدها.

Lombard North Central

Deposit Accounts

إلى:

LOMBARD NORTH CENTRAL LTD., DEPT. 182,
17 BRUTON STREET, LONDON W1A 3DH, ENGLAND.
Telephone: 409 3434

الاسم: ____________________

العنوان بالكامل: ____________________

____

مِنَ المسرح العالمِىّ

سِلسِلَة ثقافية

تصدرها فى مطلع كل شهر

وزارة الإعلام فى الكويت

أول يونيو ١٩٨١

١٤١

قفزة فى الخلاء
أو
المراهق العجوز

تأليف : دونا ماكدونا

ترجمة وتقديم : د. أحمد النادى

مراجعة : د. على الراعى

عالم الفكر

العدد الأول - المجلد الثاني عشر
ابريل - مايو - يونيو ١٩٨١

قسم خاص عن :

حضارة الأندلس في اللغة والأدب

إلى جانب الأبواب الثابتة

تصدر عن وزارة الإعلام - الكويت

رئيس التحرير :
أحمد مشاري العدواني

مستشار التحرير :
دكتور أحمد أبو زيد

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

مجلة فصلية محكمة ، تقدم البحوث الأصيلة والدراسات الميدانية والتطبيقية في شتى فروع العلوم الانسانية والاجتماعية باللغتين العربية والانجليزية .

تصدر عن جامعة الكويت

صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١م.

رئيس التحرير **د. خلدون حسن النقيب .**

مدير التحرير **عبد العزيز السيد أحمد .**

- أول مجلة عربية تصدر على مستوى عالمي وتتناول الجوانب المختلفة للعلوم الانسانية والاجتماعية بما يخدم القارىء والمثقف والمتخصص .
- تتناول المجلة الميادين التاليــة :

اللغويات النظرية والتطبيقية - الآداب والآداب المقارنة - الدراسات الفلسفية - الدراسات النفسية - الدراسات الاجتماعية المتصلة بالعلوم الانسانية - الدراسات التاريخية - الدراسات الجغرافية - الدراسات التربوية - الدراسات حول الفنون (الموسيقى - التراث الشعبي - المسرح - الفنون التشكيلية - النحت .. الخ) - الدراسات الآثارية (الأركيولوجية) .

- تقدم المجلة معالجاتها من خلال نشر :

البحوث والدراسات - مراجعات الكتب - التقارير العلمية - المناقشات الفكرية

- مواعيد صدور المجلة : كانون ثاني - نيسان - تموز - تشرين أول
- تنشر المجلة ملخصات للبحوث العربية باللغة الانجليزية ، وملخصات بالعربية للبحوث الانجليزيـــة .

ثمن العدد :	للأفــراد	٤٠٠ فلس
	للطــلاب	٢٠٠ فلس
• الاشتراكات السنوية	للمؤسسات	١٠ د.ك.
	للأفــراد	٢ د.ك.
	للاساتذة والطلاب	١ د.ك.

- تقبل الاشتراكات في المجلة لمدة سنة أو عدة سنوات .
- **قواعد النشر تطلب من رئيس التحرير .**
- **جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير** ص. ب : ٢٦٥٨٥ (الصفاة)

الكويت - (الشويخ - ت : ٨٢١٦٣٩)
٨١٧٦٨٩
٨١٥٤٥٣ .


سوني
SONY
بامكان سوني فقط تحقيق
التوافق الشرقي المثالي
اجهزة بيتاماكس
ترينيترون بالانظمة
الملونة الثلاثة
GOL
10
SONY
SL-T7
KV-2032ME
سوني بيتاماكس
Sony Betamax T7
Betamax


راحــــة مضــاعفــة
SA 185
هاز واحـد من سـانيـو
تبريد والتدفئة المريحة
وال العـام.
اجة بك إلى مضاعفة معدات التحكم
راري في منزلك لمضاعفة راحتك. إن جهازا
دا من سانيو يوفر لك البرودة صيفا
دفئا شتاء. كما أن الضاغط الرحوي
سانيو يوفر التبريد والحرارة
الكافية إلى جانب
خفض الإهتزازات
واستهلاك الطاقة
وهكذا تنعم
بتكييف الهواء
طوال العام
بأكثر من مجرد
مضاعفة
راحتك.
NEW ROTARY
COMPRESSOR
COOL
HOT
تتوفر تشكيلة واسعة من مكيفات هواء سانيو الرحوية في طاقة تتراوح
من ٦٠٠٠ إلى ٢٤٠٠٠ بي تي يو/ساعة لمضاعفة راحتك فعلاً في جميع الغرف.
SANYO سانيو
هي الحياة

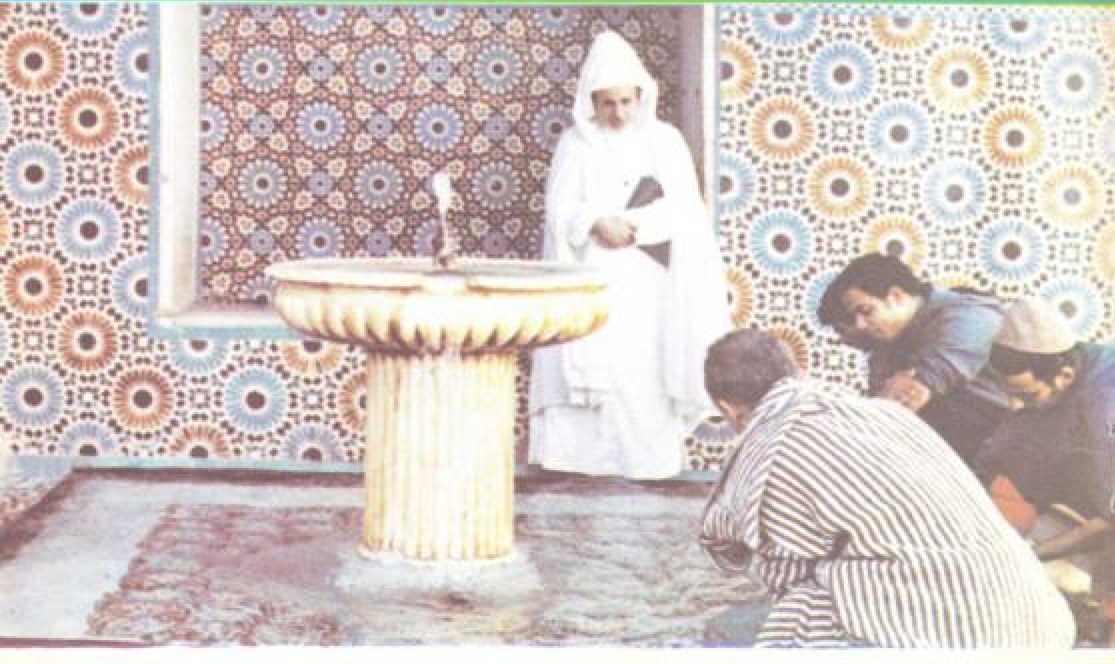
العربي

شعبان ١٤٠١ هـ - يوليو (تموز) ١٩٨١ م



هذه التكنولوجيا الجديدة إلى أين ؟

▼ القرويين : حصن الثقافة في المغرب



عزيزي القارئ

نحن نعرف من رمضان الصوم ، لكن اكثرنا لا يدرك رمضان الرمز !

وليس شهر الصيام هو النموذج الاوحد لاستغراقنا في الفعل ، وانصرافنا عن الرمز ، بوعي او بغير وعي . ذلك اننا كنا نعرف في رمضان الامتناع عن الطعام لساعات محدودة ، في النهار فان الكثرة الساحقة تعيش هذا الفعل ، متجاهلة انه وجه واحد للترفع عن الشهوة ورمز بقيمه التكافل والوحدة بين الامة الاسلامية ، من اقصاها الى اقصاها .

وذلك يحدث في الصلاة والحج بنفس المقدار ...

فنحن نعرف في الصلاة الوضوء والقيام والقعود ، ونعرف في الحج الطواف والسعي ورمي الجمرات ، غير مدركين تلك الرموز الجليلة التي تحفل بها هاتان الدعامتان في التصور الاسلامي . ففضلا عن قيمة الوقوف بين يدي الله سبحانه خمس مرات كل يوم وما ينبغي ان تستنهضه تلك الوقفات في الانسان من مختلف نوازع الخير والصفاء ، وقيمة التوجه اليه وحده بالسؤال او بالركوع والسجود ، وقيمة المساواة بين المسلمين في صلاة الجماعة والحج . فضلا عن هذا وذاك ، فان ثمة رموزا عديدة اخرى لا يتنبه اليها المسلمون وبالتالي لا يحسنون استثمارها .. وعلى سبيل المثال فقط ، فان صلاة الجماعة هي « مؤتمر » يومي للاسرة ، خلية المجتمع ونواته الاولى ، بينما صلاة الجمعة هي مؤتمر اسبوعي لاهل الضاحية او الناحية ، اما صلاة العيدين فهما مؤتمران سنويان لاهل كل مدينة ، بينما الحج مؤتمر سنوي لامة المسلمين جميعها « ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات » ، كما يقول القرآن الكريم .

ترى كيف يمكن ان يصبح عليه حال المسلمين ، لو انهم استثمروا هذه الحلقات المتدرجة من اللقاء والاجتماع حول امورهم وهمومهم ، وفي ذكر الله سبحانه ؟!

ولنا ان نسأل ايضا ، كيف يمكن ان يكون عليه حال مجتمع المسلمون لو انهم عاشوا جانبا من الرمز في الصيام ، مترفعين عن الصغائر والشهوات ؟ ■■

« المحرر »

صورة الغلاف



ذهبت العربي الى جامع القرويين بكل ما يمثله من مجد تاريخي ، وهو محور مدينة فاس العتيقة ، وهو حصن الثقافة العربية ورمز العطاء الثقافي الذي امتد على مدى التاريخ .. والجامع والجامعة بما يمثله هو خير تعبير عن الدور الثقافي الذي تناسى في صراع هائل بين الشرق والغرب .. واذا بدا هذا الصراع خامدا لبعض الوقت ، الا انه سرعان ما اشتعل من جديد ، ولكنه هذه المرة قد اخذ بوسائل العلم الحديثة .. (الاستطلاع ص ٦٧)

قضايا عامة

قضايا حيوية

عروبة واسلام

طب وعلوم

آداب وفنون

فلسفة واجتماع

تاريخ وشخصيات

استطلاعات مصورة

أبواب ثابتة

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير: أحمد بهاء الدين
مدير التحرير: فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ١١٠ فلوس . الخليج العربي ريالان قطريان . البحرين ٢٠٠ فلس بحريني . العراق ١٢٠ فلسا . سوريا ١٠٠ قرش . لبنان ١٠٠ قرش . الاردن ١٠٠ فلس . السعودية ريالان سعوديان . السودان ١٠ قروش . ج . م . ع ١٠ قروش . تونس ٢٥٠ مليما . الجزائر ٢,٥ دينار . المغرب ٢,٥ درهم . اليمن ٢,٥ ريال . ليبيا ١٥٠ درهما . جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ٢٠٠ فلس .

الاشتراكات : يراجع طالب الاشتراك :
١ ـ الشركة العربية للتوزيع وعنوانها : ص . ب (٤٢٢٨) بيروت/لبنان .
٢ ـ مؤسسة توزيع الأخبار وعنوانها : ٧ شارع الصحافة/القاهرة/مصر
« للمشتركين في جمهورية مصر العربية »
الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراسلات : باسم رئيس التحرير
عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤١
تلغرافيا « العربي »

AL-ARABI. No. 272 July, 1981.
P.O. Box 748, KUWAIT.

مسلمون .. لا دراويش !

بقلم : أحمد بهاء الدين

الامر الذي لاشك فيه ، والذي أجمع العالم كله عليه ، هو أن ظاهرة الصحوة الاسلامية هي أحد أهم ظواهر هذا الربع الاخير من القرن العشرين !

ومن يقرأ الصحف والدوريات العالمية ، ويحضر ندوات البحث العالمية ، يجد ان العالم كله بعد ان كان لا يسترعي انتباهه في بلادنا ولا يعنيه منا الا البترول ، صار الآن ليس أقل انتباها الى ظاهرة الصحوة الاسلامية . يتساءلون عنها ، ويبحثون فيها . وبعد ان كانوا لا يملكون الا القلة الاكاديمية التي تقرأ كتب كبار المستشرقين ، صارت الكتابة عن الاسلام والمسلمين الآن من اكثر الموضوعات رواجا بين الكتب العلمية والشعبية في كل اللغات . فلا تقف امام المكتبة في اي مطار ـ حيث لا تعرض الا الكتب الخفيفة للقراءة اثناء رحلة الطائرة ـ دون ان تجد كتابا جديدا او اكثر عن الاسلام او عن المسلمين . ومعنى ذلك ان الاهتمام جاوز المختصين والدارسين الى القراء العاديين بالملايين ...

وطبعا يجد المرء بين هذه الكتب الغث والسمين . والطيب والخبيث . وحسن النية وسيىء النية . وكل من زار يوما بلدا اسلاميا ، او عمل فيه .. هو عندهم خبير ، يحكي ما عنده بصرف النظر عن ما لديه من دراية او عدم دراية بالموضوع .

واذا كان هذا شأن العالم الخارجي . فلا شك ان اهمية هذا الامر بالنسبة لنا اكبر وأعظم .. وهي حقيقة اعتقد انها ليست غائبة عن احد ، وليست الا مدعاة للتفاؤل والاستبشار والفخار ....

الصحوة ورد الفعل عندنا

على ان الذي كان المرء يتوقعه ، هو ان يكون رد فعلنا غير رد فعل العالم الخارجي . فاذا كان العالم الخارجي يجتاحه هذا الاهتمام ، وينعكس اهتمامه في صورة الفضول او التسلية ، او معرفة

انعكاس ذلك على مصالحهم البترولية والاستراتيجية .. فان رد فعلنا نحن كان يجب ان يكون اكثر جدية ، واكثر احساسا بالمسئولية ، واكثر ابتعادا عن استغلال هذا الموضوع لاغراض صغيرة .. تقلل من جلال القضية ، من حيث ندري او من حيث لا ندري ...

ولم يكن عمليا ولا عقلانيا ، ان يتوقع المرء ، ان تحدث هذه الصحوة الاسلامية ، بعد رقود وتخلف وقفل لباب الاجتهاد ما يقرب من الالف سنة ، فاذا بها تتحدث بصوت واحد ، وتفكر بعقل واحد ، وترى الامور من زاوية واحدة .. ولا ان نجد من في بنجلادش يفكر كما يفكر من في اقصى المشرق يتطابق رأيه مع من يفكر في الرباط مثلا ، في اقصى المغرب .

مستحيل ...

كان لابد ان تمر بفترة مضطربة ، اشبه بفترات الزلازل والبراكين ، وان كان الكل لا يختلف في الغاية ، ولا يتباين في الاساسيات ...

ولكن مع ذلك ، فان هناك جوانب سلبية اقترنت بهذه الظاهرة ، لابد من تسجيلها وتأملها بسماحة في الضمير وسعة في الافق . فلا يكون اللدد في الخصام ، والتسرع في الاتهام الى هذه الدرجة التي نراها الآن . ذلك اللدد الذي نهى عنه الاسلام . والذي كان ـ مع قفل باب الاجتهاد ـ احد اهم اسباب ما حل بالعالم الاسلامي من تمزق وتشرذم وانقسام .

واحب ان اعترف ان ما ساقني الى هذا الحديث ـ فوق اهميته العامة ـ هو ان هذه المجلة التي بين يديكم ، اخذت على عاتقها ، منذ خمس سنوات على الاقل ، ان تساهم في هذا الامر .. وان تساهم فيه بسلوك الطريق الوعر ، الذي لا يستريح الى البديهيات ، ولا يكرر المواعظ ، وانما يعمل الفكر في القضايا التي تواجه المسلم المعاصر ، وان يعيد النظر في معنى التراث ، وكيف يجب ان يكون موقفنا منه انتقائيا ، يفرق عن معرفة وعلم واجتهاد بين جوهر الاسلام وتراثه الرفيع وفترات مجده وازدهاره ، وبين ما علق بالاسلام من غبار في فترات الظلام ، والاستبداد ، والانحلال . فليس كل كتاب اصفرت اوراقه من طول الزمن يعتبر تراثا نعيد تقديمه وتمجيده الى الاجيال الحاضرة والمستقبلة .

ولم نغلق الباب امام رأي او اتجاه ، طالما كان صاحبه حسن النية ، وجادا في البحث . غير مقيدين الا بالمستوى الفكري لصاحبه ، ايا ما كانت نظرته .

حتى في بند الاستطلاعات المصورة .. بعد ان كانت هذه الاستطلاعات المصورة مقصورة على عدد من العواصم والمدن والواحات العربية .. كافحنا للانطلاق الى كل افق طاف به الاسلام مهما كان بعيدا . باحثين عن اثر الاسلام فيه .. ابتداء من الاندلس ، الى صقلية ، ومالطة .. وانتهاء بأماكن لم تذهب اليها اي جريدة او مجلة في العالم ، للبحث عن هذه الزاوية .. في الهند والسند . وبنجلاديش . وفي الجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفيتي . وفي اقصى الصين بحثا عن الاسلام والمسلمين ، ومخترقين كل الحزام الافريقي المسلم ، المجهول ، حيث يصمد المسلمون بفطرتهم وحدها في وجه الاستعمار والتبشير . وكنا دائما محذرين منذرين . مقترحين داعين . ولا اقل من ضرب مثل واحد وهو ان هذه المجلة الشهرية الثقافية ، كانت المجلة الوحيدة ـ حتى الآن ـ التي ذهبت الى افغانستان في الفترة الحرجة بين انقلاب محمد تراقي وبين الاحتلال السوفيتي . بينما لم تكلف جريدة عربية واحدة نفسها اكثر من عناء الترجمة عن وكالات الأنباء الاجنبية وقد حذرنا ونبهنا وتساءلنا عن اسباب بعد العالم الاسلامي عن مثل هذا البلد المؤمن القريب منه . ولم نجد اي

رجع للصدى . وكثيرون لم يقرروا اعتلاء المنابر والدعوة الى مساعدة أفغانستان ، الا بعد أن صعد الرئيس الإمريكي كارتر منبر الكونجرس ، وبكى على الاسلام ، واستصرخ المسلمين ، والكل يعرف انه انما يقوم بأحد العاب الصراع بين روسيا وامريكا .

الباطل في ثياب الحق

ونحن في هذه المجلة فخورون بكل ما قدمناه في هذا المجال . معتزون به ، ويكفينا تزايد عدد قرائنا تزايدا لا يحد منه الا قدرة المطابع .

كنا « نجتهد » .. والمجتهد له ثواب ، حتى ولو اخطأ .

كنا « نعمل » .. وأضع كلمة « العمل » بين قوسين ، لان الاسلام بالذات هو دين العمل . وعشرات الآيات فيه تحض على العمل . وعمل يوم صالح ، اعظم منزلة في الاسلام من الركوع والسجود والدعاء . « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » والعلم نتيجة اجتهاد وعمل . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » . « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون » اي لم يخلقكم الله لتكون حياتكم عبثا او قعودا . و « وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » و « كل نفس بما كسبت رهينة » « وخلق الله السموات والارض بالحق ولتجزي كل نفس بما كسبت » ..

وقال النبي الكريم « من اصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم » .

والكلمة الجادة الامينة الصادرة من ضمير نقي ، احد ارقى انواع العمل . ولم يقدس اي كتاب سماوي ولا ارضي الكلمة كما قدسها القرآن « ومثل كلمة طيبة ، كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي اكلها كل حين بإذن ربها » .

والقرآن الكريم في نفس الوقت ينهى عن اللغو والثرثرة ويعتبر الانتهاء عن اللغو من صفات المؤمن .. « والذين هم عن اللغو معرضون » .

وقد اعرضنا عن اللغو سنوات وسنوات ..

ولكن اللغو حين يستشري وينتشر ، ويتلبس ثياب الحق وهو باطل ، وثياب الايمان وهو زائف ، وثياب العلم وهو جاهل .. وحين يصبح هذا اللغو من الكثرة والكمية بحيث يؤثر في نفوس ملايين البسطاء ، فانه لا يجوز السكوت عليه ولا الاعراض عنه ...

رجال الدين و « قصة الأفندية » ..

ولن استطيع هنا ان اتقصى كل انواع اللغو المستشرية ، ولست ذلك العالم المحيط الذي يتصدى التصدي الصحيح لكل انواع اللغو .. ولكنني فقط احاول ان اسجل هنا بعض مصادر هذا اللغو وبواعثه ، لكل من كان طيب القلب وحسن النية ، وغير خائف ولا وجل . فالحق حق حتى ولو كان قلة . والباطل باطل حتى ولو كان كثرة . والحمد لله انه حتى الآن ليس بكثرة !

من أول مظاهر الالتباس على الناس ، ان كل ما يقولْ به « رجال الدين » فهو صواب . وان « الأفندية » ليس لهم الحق في الخوض في هذه القضايا .

وهو التباس خطير . فنحن نحترم رجال الدين ونجلهم بقدر احترامهم وإجلالهم لانفسهم .

ولكننا نعرف في الوقت نفسه ان رجل الدين في الاسلام ليس كما في غيره . الاسلام ليس فيه رهبان وكرادلة وبطاركة وبابوات ، العلاقة في الاسلام بين الانسان وخالقه . وقيمة رجل الدين انه رجل عالم تفرغ لهذه الدراسة وصارت له أستاذية فيها يجب احترامها . انه استاذ في علوم الدين وليس « رجل دين » بالمعنى الحرفي المباشر للتعبير . وبالتالي فان من حق اي « افندي » ان يقرأ ويبحث ويطلع ويجتهد ، اذا توافرت له تلك المقومات . وقد عاش الاسلام قرونه الاولى وليس فيه وظيفة رجل الدين . بل كان الأئمة الكبار ناسا عاديين يكسبون ارزاقهم من شتى الاعمال . وما عظم تأثيرهم الا بقدر عظمة علمهم واعتراف الناس لهم بهذا الفضل .

وفي العصر الحديث .. نجد أن « الأفندية » هم في مقدمة من تصدى لاحياء التراث الاسلامي ، ونفض الغبار عنه واخراجه من الكتب القديمة الى حيث يستطيع ان يقرأه ويتأثر به الناس كافة .

« عبقريات » عباس محمود العقاد ..

« اسلاميات » طه حسين ..

دراسات الدكتور محمد حسين هيكل ..

ومؤلفات مالك بن نبي المتخصص أساسا في الرياضيات ..

كل مؤلفات سيد قطب .

الى أخره .. الى أخره ... من كل الاراء والاتجاهات

الا يعرف الناس ان كليات الحقوق مثلا ، تدرس لطلابها مواد اساسية في الشريعة الاسلامية ، وعلوم الفقه ، وعلم الكلام ، وعلم الاصول ... يدرسها أساتذة اجلاء من اساتذة الدين .. وهي بالتالي تعطي ـ لمن يشاء او لمن لديه القدره ـ الادوات الكافية لكي يمضى قدر طاقته في دراسة هذه العلوم والتبحر فيها ...

الا يعرف الناس ان كل الذين حاولوا ـ بالسيف او بالدعوة ـ بعث الاسلام واعادة القوة اليه .. لم يتخرجوا من كليات الازهر ولا معاهد النجف .. مثل محمد بن عبد الوهاب والمهدي الكبير في السودان والسنوسي الكبير في ليبيا .. وغيرهم ؟

يجب ان نعترف ان هناك وهما شائعا بين البسطاء . وهو انهم اذا رأوا « افنديا » يتحدث في قضايا الاسلام ، لا ينجذبون اليه كما قد ينجذبون الى من اطلق لحيته ، وغير ثيابه ، حتى ولو كان الاول قد قرأ الف كتاب والثاني ليست لديه القدرة على قراءة كتاب واحد ! وهي جزء من تركة عصور التخلف . وعلينا ان نعترف بوجودها ، وان نتجاوزها .

ان المتصدى لتفسير احكام الدين ومناقشاتها لابد ان يكون على علم بما يتصدى له . بل وعلى علم ايضا بالاجتماع والاقتصاد والتاريخ واللغة . وهذه الكفاءة ليست مقصورة على لابسي العمائم وحدهم . انما على كثير من « الأفندية » ايضا .

وازمة هذا الشباب

الملاحظة الاخرى ـ وهي ايضا على اطراف القضية ،ليس في لبها .. ان الكثير من الشباب

الطبيب المتحمس ، لا يكاد يحفظ نصا او يقرأ منشورا او يطلع على كتيب ، حتى يرى انه قد استكمل علمه ، وتعمقت عقيدته ، واكتشف ما كان خافيا عليه ...

ومن هؤلاء تتكون الحلقات المتعصبة .

ولبعض هؤلاء نقرأ كلاما غريبا عجيبا ، وانا احاول قدر جهدي ان اتابع بالقراءة كل ما يصدر عن الشباب الجديد في هذا المجال وغيره .

اقرأ مثلا « دراسة » يحاول صاحبها اثبات ان احمد عرابي كان الخائن الاول في الترتيب وانه كان مدسوسا من اوروبا على الاسلام . وذلك لانه تمرد على الخلافة العثمانية .. وكسر اول جزء من بنائها !!...

وفضلا عن الاهدار المطلق للمعلومات الصحيحة ، وعدم الاطلاع الكافي على التفاصيل والملابسات .. نجد هذه الاحكام الصادرة من زاوية ضيقة الافق الى آخر الحدود .

لقد كانت الخلافة التركية في ذلك الوقت تلفظ أنفاسها . وقد عجزت كل محاولات المصلحين عن اصلاحها . وصارت طيلة عدة قرون استعمارا سافرا وان اطلق على نفسه لقب الخلافة . يحكم بالبطش . والفسق وأعواد المشانق وما كان اي شيء ليحول دون انحلال تلك الخلافة واحتلال اراضيها من قبل الغرب القوي الصاعد .

والغريب ان الباحث ـ ليكون منطقيا مع نفسه على الاقل لم يشن الحملة على الخديوي اسماعيل الذي رفع شعار جعل مصر قطعة من أوربا ، وشن الحملة على احمد عرابي الذي قال للخديوي « لقد ولدتنا امهاتنا احرارا ولن نكون عبيدا بعد اليوم » والذي ثار مطالبا بالدستور لمصلحة الشعب .

ولم يذكر ان مفتي السلطان في تركيا لم يعترض على الخديوي اسماعيل الذي كان سخيا في دفع الجزية للباب العالي والرشوة لرجال الحكم التركي ، ولكنه اصدر فتوى بتكفير احمد عرابي وكل من يحارب معه ضد الانجليز ....

وهذا مجرد مثل من عشرات .

ونحن لا نعرف حقا ماذا يدور بين هؤلاء الشباب في حلقاتهم المغلقة السرية .

وقد كان رأيي دائما ان يكون هناك وجود شرعي علني لمن تسمى نفسها بالجماعات الاسلامية . لاشك انها خامات جيدة مؤمنة من الشباب . ولكنهم لو تعرضوا لضوء الشمس ورياح النقد لتجنبوا الكثير من الأخطاء ولتجنبنا نحن ايضا ..

ففي خلال فترة شرعية وجود الاخوان المسلمين في مصر على سبيل المثال ـ كان لهم وجود شامل ، ومقر معروف ، وقيادة ، وجريدة ومجلات وكتب تنطق باسمهم ... الامر الذي اجرى حوارا علنيا بين كل اطراف الحركة الوطنية في مصر ، استفادت منه كل الاطراف ، وما زلت ارى ان هذا الوضع هو احسن من ان تكون « الجماعات الدينية » حلقات حلقات ، تترك كالاشباح .. ولا نعرف كيف نعاملها ايضا الا كالاشباح ...

التكفير بعد التخوين !!

وقد كنا نظن ، اننا على وشك التخلص ، في حياتنا السياسية والفكرية من تهمة « التخوين » بعد ان ضمر الفكر العربي ضمورا حقيقيا نتيجة اتهام كل طرف لمن لا يتفق معه بالخيانة ، واذا بنا تدرك مرحلة اخرى تلقى فيها بنفس الخفة تهمة اشد وانكى وهي « التكفير » التي كان قد اعتبرها الامام الغزالي « أول بدعة في الاسلام » !

وهذا سلاح اشد ارهابا . ولكن لا يخشاه الا الضعفاء . الضعفاء عقلا او علما او ايمانا .. ولكن الامر هنا هو ان مجرد استخدام سلاح التكفير يبلبل عقول الناس ، ويربي الشباب على التعصب وعلى الانقياد الاعمى .. وربما كان هذا مقصورا في بعض التنظيمات الاشبه في تكوينها بالتنظيمات الفاشستية .

والمسلمون يدخلون ما اصطلح العالم على تسميته بمرحلة الصحوة الاسلامية ، وهم مثقلون بتركة هائلة من الماضي .
تركة من الانشقاقات والحروب .. السنة والشيعة والخوارج والقرامطة والمعتزلة واليزيدية والاباضية .. وعشرات المذاهب والمناهج الاخرى .

ومن يتأمل تاريخ هذه الانشقاقات ، وقد كان هذا التأمل احد ابرز اهتماماتي منذ عرفت قراءة التاريخ ، سيجد ان هذه الانشقاقات كانت كلها في الاساس سياسية الاسباب ، دنيوية الدوافع ، وانما كان العصر وقتها يجعل كل صاحب قضية محتاجا الى ان يلبس قضيته ثوبا دينيا حتى يجمع الناس حوله .

ولذلك كان من أول القضايا التي تبنيتها ككاتب ـ على قدر جهدي ـ هي قضية « التقريب بين المذاهب » . وهو موضوع يبدو غريبا على الحملات الصحفية . ولكنها أثمرت بالفعل لجانا كونت لهذا الغرض . وان كان الجهد فيها لم تكن له طاقة الاستمرار ...
وانني لأعتقد ، أنه من المستحيل ان يعود المسلمون في مرحلة الصحوة الى خوض معارك جرى القتال حولها منذ اكثر من الف وثلاثمائة سنة ...

وبالتالي فانه ليس من الصحيح ان نضيف الى تلك المعارك القديمة معارك جديدة ، تأخذ هذا الشكل الحاد من الضيق بالمناقشة والتسرع الى الاتهام بالكفر ، بدلا من النقاش بالحكمة والموعظة الحسنة .
انه ليس من حق فريق ان يرفع المصاحف على اسنة الرماح ، ويعتبر انه كسب المعركة ...
بل انه ليس من الصواب خوض هذا الحوار بمنطق كسب معركة واصدار الاحكام حتى قبل ان يكون هناك حوار صميمي متكافىء ، بين فئات او تيارات جادة تستخدم الحجة لا الشعارات ، ممن وصف القرآن الكريم اهلها بانهم « عن اللغو معرضون » .
وإننا لنحاول دائما ، قدر الطاقة البشرية أن نعرض عن اللغو ... ■■

أحمد بهاء الدين



الدكتور زكي نجيب محمود يكتب

قسمة الحظوظ

حدثني صاحبي فقال : بينما كنت في الصيدلية واقفا انتظر اعداد الدواء ، غمرتني موجة من يأس مميت ، وذلك اني نظرت خلال زجاج الباب الى الشارع المزدحم بالسائرين ، مشاة وراكبين فتذكرت اعواما كنت فيها اخوض في زحمة الناس وحدي ، قائدا لسيارتي مرة ، وماشيا مع المشاة مرات ، ثم همست لنفسي قائلا : هل ترى احدا من هؤلاء الالوف الذين يزحمون الطريق ، اصيبت عيناه بمثل ما اصاب عينيك ؟ لكن هذه الهمسة لم تكد تبلغ أخر حروفها ، حتى دخل الصيدلية رجل ، علق عصاه البيضاء على مرفق ذراعه اليمنى ، ومد ذراعيه متوازيين امامه ، يتحسس بهما الطريق داخل المكان ، خشية ان يصطدم بشيء لايراه .

ومضى صاحبي في روايته يقول : وعندئذ همست لنفسي مرة اخرى : ياسبحان الله ! أبمثل هذه السرعة ترسل الى السماء جوابا عن سؤالي ؟ وعندئذ ايضا تذكرت بيتين لشاعر عربي قديم ، يذكر فيهما تفاوت الناس في الحظوظ ، ضاربا لهذا التفاوت مثلا درجات الابصار ،ففيهم الاعمى الذي يقف من الابصار عند درجة الصفر ، وفيهم من يقف بين العمى والبصر عند درجة العشى ، وفيهم من اكتمل عنده البصر سليما ، وفيهم فوق هذا من هو ذو بصر حديد ، يجاوز به الحدود القصوى الى ماهو ابعد منها ، وهاك ذينك البيتين اللذين قالهما الشاعر القديم :

سبحان من قسم الحظوظ ، فلاعتاب ولا ملامه
اعمى واعشى ، ثم ذو بصر ، وزرقاء اليمامة

وزفر صاحبي زفرة حرى ، وقال : ابعد تلك القيود التي يفرضها علينا القدر ، حظوظا مقسومة لنا ، لا دخل لنا في قسمتها ولا ارادة ، نسمع بين القائلين من يزعم للانسان حرية يختار بها مايريد ويتبذ مالايريد ؟

فوجدتني اسرع من البرق في رد صاحبي الى صوابه ، قائلا : لا ، يا اخي ، لاتخلط الامور بعضها في بعض ، كما يفعل معظم الناس ، فلقد ضربت على الناس حدود ، هذا صحيح ،ولكنه صحيح كذلك ان الناس احرار داخل تلك الحدود ، فيما يفعلون ومايتركون ، ولست ادري لماذا تميل بنا ثقافتنا ـ نحن العرب ـ نحو رؤية القيود التي تحدد خطانا ، والتغافل عن المجال الفسيح الذي تركت لنا فيه حرية الفعل بلا حدود ؟ اسمع ياصاحبي :

ساضرب لك مثلين يوضحان الا تعارض بين قيود تفرض علينا ، وحرية لايحدها شيء داخل تلك القيود ، وعلى هذا المجال الحر وحده ، يكون الحكم على الافراد بانهم احسنوا صنعا او اساءوا ، المثل الاول هو لعبة كرة القدم ، (او اية لعبة تشاء) فهنالك قواعد فرضت على اللاعبين قبل البدء في اللعب ، لاحيلة لهم فيها الا ان يلزموا حدودها ، واما داخل حدود القواعد فلهم ما ارادوا من حركة ووقوف وقذف للكرة باقدامهم هنا او هناك ، الى قريب او الى بعيد ، ثم يأتي حساب الفوز والهزيمة بناءعلى تصرفهم في ذلك المجال الحر .

والمثل الثاني الذي اسوقه للتوضيح ، هو اللغة ، فها هنا كذلك نتلقى لغتنا مقيدة بطائفة من قواعد تقيد استعمالنا اياها ، فلا حيلة لنا ازاء تلك القواعد الا قبولها ثم التصرف في حدودها فليس لنا الا ان نرفع الفاعل وننصب المفعول ، وليس لنا الا ان نرفع اسم كان واخواتها وننصب الخبر ، وان نعكس هذا الترتيب بالنسبة الى « ان » واخواتها ، لا ، ولا اختيار لنا في ان نطلق اسم البقرة على القطة ولانفعل القيام على فعل القعود ، فاذا كنت عربيا ، فتلك هي لغتك بمفرداتها وقواعد تركيبها اسلمها اليك الاباء لتسلمها بدورك للابناء سليمة القواعد ، نامية المفردات بقدر ما تنمو الحياة ، لكن مفرداتها تظل على معانيها ، والا لبطل ان يفهم حاضرون عن سابقين .. قيود من قواعد مفروضه ـ كما ترى ـ وحدود من مفردات تحددت لها معانيها ، ولكن هل يعني هذا ان حرية العربي قد امحت ؟ ان كل جملة ينطق بها عربي ، منذ اول التاريخ الى آخره ، وفي كل رقعة من الارض نطقت بلسان عربي ، انما هي برهان على ان الناطق بتلك الجملة قد مارس حريته الى اقصاها في اختياره لما اراد من كلمات ، ثم في تركيب تلك الكلمات على اي صورة شاء ، داخل حدود القواعد ، ولولا هذه الحرية في استخدام اللغة عند ابنائها ، لما تفاوتت درجاتهم في جودة الصياغة ، تفاوتا قد يعلو حتى نصبح امام البحتري والمتنبي وابي العلاء ، وقد يهبط حتى نصبح امام تخليط المجانين !

حرية الارادة عند الانسان ـ ياصاحبي ـ لاتتعارض مع قيود مقسومة لنا ومفروضة علينا ، لا ، بل انها لتقتضي حتما ان يكون هنالك قيود ، والا لاستحال علينا فهم الحرية كما ينبغي لها ان تفهم ، لماذا ؟ لانك لاتستطيع ان تعامل انسانا ـ كائنا من كان ـ في حياتك اليومية ، الا اذا كان لديك فرض مسبق ، بان ذلك الانسان متماسك الشخصية ، لايتخبط في فعله ولايهذي في لفظه ، فاذا سألته سؤالا ، توقعت منه ان يجيب واذا نطق لك بالجواب ، توقعت انه يعني بالالفاظ معانيها المتعارف عليها ، واذا أعطاك هو سلعة توقع منك ان تدفع الثمن ، وهكذا وهكذا ، انك اذا قرأت كتابا ، كان المفروض عندك ان الرموز المرقومة على صفحاته ، قد اراد لها مؤلف الكتاب ان تشير الى المعاني نفسها التي تعلمت انت في المدرسة ان تلك الرموز قد اصطلح عليها لتعيها واذن فلولا قيود وضعناها لانفسنا في التعامل بكل ابعاده ، لما كان في مستطاع احد ان يعامل احدا ، او ان يفهم عن احد .

واذا كانت العلاقة بين القيود والحرية بهذا الوضوح ، فلماذا لبث السؤال مطروحا بين المفكرين وابناء السبيل على حد سواء ، وهو سؤال يسألون انفسهم به : هل الانسان مجبر الارادة او حر الارادة ، فاقول : ان السر في قيام السؤال يتحدانا طوال القرون بلا جواب يحسم الامر ، هو خلط خلطنا به بين « الروابط السببية » من جهة ، والالزام ، او الاجبار ، او القهر ، من جهة اخرى . فلا حرية لارادة الانسان الا اذا كان ذا شخصية متماسكة الافعال والأقوال بالروابط السببية التي تتيح للآخرين ان يتعاملوا معه وان يتفاهموا ، على اساس ما يتوقعونه ، ولكن حرية الانسان فيما يختار او يترك تذهب كلها مع الهباء اذا جاءه الاجبار من خارجه ، حتى وهو على الارض المباحة له داخل الاسوار .

فلا عيب ياصاحبي ، في حظوظ تقسم لنا ، وتفرض علينا ، لنكون بعد ذلك احرار الارادة داخل حدودها ، لكن العيب هو في ان تقسم تلك الحظوظ ، ثم يجيء من يفرض علينا افعالا واقوالا داخل حدودها ، فنخسر الجلد والسقط ـ كما يقال .

وجهة نظر

لماذا تدهورت مكانة رجال الدين عند المسلمين

بقلم حسين أحمد أمين

« كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا وتركا لها ، واليوم يزداد الرجل بعلمه حبا للدنيا ولها طلبا . وكان الرجل ينفق ماله على علمه ، واليوم يكسب الرجل بعلمه مالا . وكان يُرى على صاحب العلم زيادة في باطنه وظاهره . واليوم يُرى على كثير من أهل العلم فساد الباطن والظاهر » ـ ذو النون المصري

يورد لنا الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ، وتاج الدين السبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » أمثلة لا تحصى لما كان علماء الدين يتمتعون به في العصر الوسيط من إجلال وتوقير . فيقول الأخير إنه لما دخل أحدهم خراسان ، خرج أهلها بنسائهم وأولادهم يمسحون أردانه ، ويأخذون تراب نعليه ويستشفون به . وكان أصحاب البضائع يخرجون بضائعهم من حلوى وفاكهة وثياب وفراء وغير ذلك ، فينثرونها على رؤوس الناس . وخرج إليه صوفيات البلد بمسابحهن وألقينها عليه ، وكان قصدهن أن يلمسها فتحصل لهن البركة .

ويصف ابن الجوزي جنازة أحمد بن حنبل ، فيقول إنه اجتمع لها نحو من ألف ألف من البشر ، « ما بلغنا أن جمعا كان في الجاهلية والاسلام مثله . وقد حزرنا على السور نحوا من ستين ألف امرأة . ولزم بعض الناس القبر وباتوا عنده . وما من أهل بيت لم يدخل عليهم الحزن إلا بيت سوء . وقد أسلم يوم مات عشرون ألفا من اليهود والنصارى والمجوس » .

ثم تمضي القرون فإذا نحن نقرأ لأحمد أمين في سيرته الذاتية أنه حين التمس الزواج « وقفت العمامة حجر عثرة في الطريق . فكم تقدمت الى بيوت رضوا عن شبابي ، ورضوا عن شهادتي ، ورضوا عن مرتبي ، ولكن لم يرضوا عن عمامتي . فذو العمامة في نظرهم رجل متدين ، والتدين في نظرهم يوحي بالتزمت وقلة التمدن ، والالتصاق بالرجعية ، والحرص على المال ونحو ذلك من معان منفرة .... فكم قيل لي أن ليس عندهم مكان لعمامة . ورضي بي قوم أولا وأحبوا أن يروني ... وفهمت أنهم أعجبوا بي ورضوا عني ، ولكن بلغني أن الفتاة أطلت علي من الشباك وأنا خارج ، فرأت العمامة والجبة والقفطان فرغبت ، ورفضت رفضا باتا أن تتزوجني رغم إلحاح أهلها » .

في الظاهر فقط

ثم يقول أحمد أمين في معرض الحديث عن هجره لزي رجل الدين : « وشجعني على هذا ما كنت ألاقيه في لبس العمامة من عناء . فعامة الناس في مصر ـ وخاصة في المدن ـ يجلون العمامة ظاهرا ولا يجلونها باطنا ... ويتغلغل في نفوسهم مبدأ مقرر : وهو أن صاحب الطربوش محترم إلا إذا ظهر عكس ذلك ، وصاحب



العمامة يحتقر إلا إذا ظهر عكس ذلك ... وكم حدث لي من فصول كرهت من أجلها العمامة : ذهبت إلى فندق مرة فقال لي صاحبه ليس عندي مكان خال ، وإذا بمطربش يأتي بعدي فيخلق له المكان . وأذهب مرة إلى مكتب البريد فأقف أنا ومطربش أمام الشباك وقد أتى المطربش بعدي ، فيقدمه رجل البريد عليّ ... وأتهيأ مرة لركوب الدرجة الأولى في الترام فيقول لي الكمساري : تعال هنا مشيرا الى الدرجة الثانية ـ فتلك الدرجة الأولى ... »

فما عسى أن يكون قد حدث خلال تلك القرون مما أضعف هيبة رجال الدين ، وزعزع مكانتهم في قلوب العامة ؟

لم يعرف الاسلام في صدره نظام رجال الدين . ولا كانت في دولته وقتها طبقة منهم متميزة عن غيرها . فالأمور الدينية والدنيوية واحدة لا تمايز بينها . والكلمة لله في كل وظائف الجماعة وتنظيماتها على حد سواء . إن كان للصلاة قداستها فللقضاء والحرب قداستهما . وإن كانت المساجد تُقصد للصلاة فهي أيضا مكان الاجتماعات العامة بل وميدان التدريب العسكري . وكانت الجماعة في الجيش ، إمامها في الصلاة قائدها في الحرب .

تجنيد الدين للمعارضة

غير أنه حدث حين ظهرت المعارضة السياسية للخلافة الأموية ، أن جندت تلك المعارضة الدين في محاربتها للأمويين . وقد استشهد أفرادها بآية « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ، فذهبوا إلى أن من واجب المسلم أن يأمر بالمعروف وأن ينهي عن المنكر بلسانه ويده ، وأنه لا يسوغ له الاكتفاء بالامتثال لارادة الله ، وإنما عليه أن يعمل على أن تكون إرادة الله هي العليا في المجتمع . فلا محل إذا للسكوت على الأوضاع الفاسدة في الدولة . لأن الدين يلزم الفرد بالتدخل في الحياة العامة . وما السياسة في حقيقة الأمر إلا ميدان للنشاط الديني .

ومن جهة ثانية ، كان بامكان الأمويين هم أيضا أن يستخدموا الدين في مساندة النظام القائم ، بتنبيه الناس إلى ما يجب عليهم من طاعة أولي الأمر منهم ، ومن المحافظة على وحدة كلمة الجماعة .

ومن جهة ثالثة ، ظهر اتجاه بين بعض الأتقياء يرى الخير في الابتعاد عن ميدان السياسة وآفاتها باعتبار أنها فتنة ، ولا يثق في المزاعم الدينية لأشياع الأمويين أو أعدائهم . وقد انصرف الكثيرون من هؤلاء إلى القرآن يتفهمون معانيه ، ويفسرون آياته ، ويستنبطون منه الأحكام ، وإلى الحديث يتلمسونه حيث كان ، ويتحرون ألفاظ النبي بدقة ، وإلى الأحداث التي كانت في عهد الرسول والخلفاء من بعده يجمعون أخبارها ويدونونها . فإن اشتهر أحدهم بين الناس بوفرة علمه وحسن إسلامه ، فقد يجلس في المسجد وحوله الراغبون في الأخذ عنه في هيئة حلقة يتدارسون التفسير والسنة والفقه والتاريخ . أما المدارس فالغالب أن إنشاءها لم يكن معروفا في ذلك العصر .

ومع ذلك فقد كان معظم الأتقياء في جانب المعارضة السياسية للخلافة الأموية ، لا يقرون صورة الحكم التي كانت عليها الجماعة الاسلامية في زمنهم ، ولا يرون الأمويين أهلا لقيادة الأمة . ففي رأيهم أن بني أمية كانوا في حياة النبي أخطر أعدائه ، وما اعتنق جلهم الاسلام إلا بعد فتح مكة مكرهين . وقد عرفوا بعد ذلك كيف يجنون لانفسهم ثمرة انتشاره وفتوحاته وقوته . إذ استغلوا في البداية ضعف عثمان وقرابته في الاستحواذ على الخيرات ، ثم استغلوا مقتله في الوصول إلى الحكم . فهم إذن مغتصبون للسلطان لا يستندون إلا إلى القوة ، ومالهم في الخلافة من حق شرعي .

وقد شايعت جماعات عديدة من هؤلاء الفقهاء في أواخر العصر الأموي دعوى العباسيين ، وأيدوا مطالبتهم بالخلافة . وكان أن حفظ لهم بنو العباس هذا الجميل . فما أن وصلوا إلى الحكم حتى قربوهم ، وأعلوا مكانتهم ، وأشركوهم في مجالسهم ، وأوكلوا إليهم تربية أولادهم ، ثم زاد ميلهم شيئا فشيئا إلى تعيين القضاة من بينهم ، حتى جاء الوقت الذي بات فيه كافة قضاة الدولة منهم .

أما عن كيف بدأت التفرقة تظهر في الاسلام بين الفقهاء وعلماء الدين وبين غيرهم ، فإنه بالرغم من أن العصر العباسي الأول لم يعرف المدارس هو أيضا ، فقد كان ثمة كتاتيب لتعليم الصبيان ، في حين استمرت المساجد مكانا لتحصيل علوم القرآن والحديث والفقه ، مع تنوع في حلقات الدروس فيها مساير لتنوع العلوم في ذلك العصر . ولم تكن هناك درجات علمية يحرزها من أتم دراسته بعد امتحان . إنما كان الامتحان امتحان الرأي المحيط به من علماء ومتعلمين . فمن آنس من نفسه القدرة على أن يجلس مجلس المعلم ، جلس وتعرض لجدال العلماء ومناقشتهم . وهو ما كان يكفي في حد ذاته لحماية طبقة العلماء من المتطفلين والجهلة . ومع ذلك فإنه بمرور الوقت أضحى التعليم الديني في العصر العباسي أكثر تنظيما ، وبات فيه من المناهج ما يسمح بالتخصص . فإن درس الدارس هذه المناهج وبرز فيها أمكن اعتباره من الفقهاء . وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ لأن الفقه يؤهل أصحابه لتولي مناصب يتعيشون منها ، خاصة حين دأب الأمراء والأغنياء على اتخاذ المؤدبين والمعلمين الخاصين لأولادهم من بينهم .

وقد كان في تقريب الخلفاء والأمراء للفقهاء بعض الفائدة ، إذ أبان للجمهور فضل العلم ، وشجع الكثيرين على دراسة الفقه ، ثم لما نجم عن هذا التقريب من تطلع الفقهاء ، إلى أن تصبح لهم ـ دون طبقة الكتاب والوزراء ـ اليد العليا في الدولة ، فباتوا يصرون على أن يلتزم السلطان بأحكام الشرع ، وهو ما كان يهمهم إذ هم الوحيدون المؤهلون لأن يحددوا في ثقة ماهية الشرع .

في ايدي السلطان

غير أن الذي وقع فعلا جاء خلافا لما كانوا يتوقعون . فقد حدث أن أضحت حياة الفقيه ورزقه ومطامحه في أيدي أولئك الذين يملكون أمر التعيين للمناصب والوظائف المتاحة للفقهاء ، ألا وهم الخلفاء والوزراء والأمراء والسلاطين والولاة . فإن كان علماء الدين قد نالوا من الحكام قدرا عظيما من الاعتراف بهم كطبقة متميزة من طبقات الأمة ، فقد جاء ضعف مركزهم نتيجة لحقيقة واقعة : وهي ان كافة المناصب التي يتطلعون إليها والتي يؤهلهم لشغلها علمهم وثقافتهم كانت في يد الحكام ، لا يصلون إليها إلا عن طريقهم ، ولا سبيل الى الترقي في سلمها الا بإقامة صلات طيبة بهم . وتدلنا محنة خلق القرآن التي بدأها المأمون واستمرت في عهدي المعتصم والواثق ، على أن طبقة الفقهاء لم يكن في وسعها مقاومة السلطان . وكانت النتيجة أن بدأنا نلمس خضوعا وإذعانا كاملين من جانب هؤلاء (سوى استثناءين أو ثلاثة) وأن سبيل بعض الفقهاء صار التهالك على أصحاب السلطة وتملقهم والاستجابة لرغباتهم . ثم التعادي فيما بينهم تعادي موظفي الحكومة في أيامنا هذه . إن ظهر من بينهم من كان أحرص على رضاء الله منه على رضاء السلطان اغتابوه وتنقصوه حتى ينبذه السلطان فيحل أحدهم مكانه . فإن كانت الظروف قد سمحت في بعض الأحايين بأن يقوم الفقهاء بعمل جماعي ضد السلطة ، أو بأن يظهر في العالم الاسلامي فقيه عظيم الجرأة والشجاعة كأحمد بن حنبل أو ابن تيمية ، فقد كان هذا أمرا استثنائيا مخالفا للقاعدة .



يقول ابن الجوزي : « ومن تلبيس إبليس على الفقهاء مخالطتهم الأمراء والسلاطين ومداهنتهم وترك الانكار عليهم مع القدرة على ذلك . وربما رخصوا لهم فيما لا رخصة لهم فيه ، لينالوا من دنياهم عرضا ، فيقع بذلك الفساد لثلاثة أوجه : الأول ـ الأمير يقول : لولا أني على صواب لأنكر عليّ الفقيه . وكيف لا أكون مصيبا وهو يأكل من مالي ؟ والثاني ـ العاميّ يقول : لا بأس بهذا الأمير ولا بماله ولا بأفعاله فإن فلانا الفقيه لا يبرح عنده . والثالث ـ الفقيه ـ فإنه يفسد دينه بذلك ... وفي الجملة فالدخول على السلاطين فيه خطر عظيم ، لأن النية قد تحسن في أول الدخول ، ثم تتغير بإكرامهم وإنعامهم أو بالطمع فيهم ، ولا يتماسك عن مداهنتهم وترك الانكار عليهم . وقد كان علماء السلف يبعدون عن الأمراء لما يظهر من جورهم ، فتطلبهم الأمراء لحاجتهم إليهم في الفتاوي والولايات . فنشأ أقوام قويت رغبتهم في الدنيا فتعلموا العلوم التي تصلح للأمراء ، وحملوها إليهم لينالوا من دنياهم . ويدلك على أنهم قصدوا بالعلوم الأمراء أن الأمراء كانوا قديما يميلون إلى سماع الحجج في الأصول ، فأظهر الناس علم الكلام . ثم مال بعض الأمراء إلى المناظرة في الفقه ، فمال الناس إلى الجدل . ثم مال بعض الأمراء الى المواعظ ، فمال خلق كثير من المتعلمين إليها .. قال ابن عقيل : رأيت فقيها خراسانيا عليه حرير وخواتم ذهب ، فقلت له : ما هذا ؟ قال : خلع السلطان وكمد الأعداء . فقلت : بل هو شماتة الأعداء بك إن كنت مسلما ! خلع عليك السلطان فانخلعت به من الايمان . رماكم الله بخزيه حيث هونتم أمره » !

أخاف إكرامهم !

وكان سفيان الثوري يقول : « ما أخاف من إهانة الأمراء لي ، إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم » . ولعل من أشهر القصص في هذا الباب ، ومن أولها ، ما يحكى عن القاضي أبي يوسف ، أحد مؤسسي المذهب الحنفي الذي عدّه الناس المثال الأول للفقيه الذي لا يتقيد بمبدأ ، فيستطيع أن يجد السبل الميسرة للخروج من أية مشكلة فقهية . وقد تمكن أبو يوسف من أن يجعل هارون الرشيد عاجزا عن الاستغناء عنه بفضل ما أسباه محبوه بمرونته الفائقة وإدراكه الواقعي للأمور . ومن أقواله التي تمثله خير تمثيل قوله : « رءوس النعم ثلاثة : أولها نعمة الاسلام التي لا تتم النعمة إلا بها ، وثانيها نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها ، وثالثها نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها » . وقد كان أبو يوسف في صباه فقيرا رث الحال ، وكان أستاذه أبو حنيفة يسري عنه وقت فقره ويقول له : « لا يجب أن تغتم ، فإنه إن طال عمرك فستأكل بالفقه اللوزينج بالفستق المقشور » ! وقد كان . ويروي التنوخي في « نشوار المحاضرة » سبب اتصاله بالرشيد فيقول : إنه قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة . ثم حدث أن بعض القواد حنث في يمين ، فطلب فقيها يستفتيه فيها فجيء بأبي يوسف فأفتاه أنه لم يحنث . فوهب له دنانير وأخذ له دارا بالقرب منه واتصل به ... ثم كان أن دخل القائد يوما إلى الرشيد فوجده مغموما ، فلما سأله عن سبب غمه قال : شيء من أمر الدين قد أحزنني ، فاطلب لي فقيها أستفتيه . فجاءه بأبي يوسف ، وإذ دخل أبو يوسف القصر إذا به يرى ابنا لهارون محبوسا في حجرة يومىء إليه بإصبعه مستغيثا ، فلم يفهم عنه ما يريد . ثم مثل بين يدي الخليفة وسلم . فسأله الرشيد : ما تقول في إمام شاهد رجلا يزني ، هل يحده ؟ ففهم أبو يوسف على الفور أن الزاني هو ابن الخليفة المحبوس ، وأن الخليفة يكره أن يوقع عليه الحد . فقال : لا يوقع الحد عليه لأن النبي قال : ادرءوا الحدود بالشبهات . قال الخليفة : وأي شبهة مع المعاينة ؟ أجاب أبو يوسف بقوله : ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى ، والحكم في الحدود

لا يكون بالعلم ، لأن الحد حق الله تعالى ، والامام مأمور بإقامة الحد ، فكأنه قد صار حقا له ، وليس لأحد أخذ حقه بعلمه ، وإنما يقع الحد بالاقرار والبينة . فسجد الرشيد حمدا لله ، وأمر لأبي يوسف بمال جزيل طالبا منه أن يلزم القصر . فما خرج حتى جاءته هدية الفتى الزاني وهدية ثانية من أمه . ثم ما زال حاله يقوى عند الرشيد حتى عيّنه قاضي القضاة .

في كتاب « الأوراق »

وهكذا أضحى الشغل الشاغل لمعظم الفقهاء تصيّد المناصب ، وتحين فرص الترقي في الوظائف ، وبات سبيلهم إلى ذلك ، التقرب من ذوي السلطان . وكان أكثر ما يقربهم من السلطان إصدار الفتاوي للخلفاء والأمراء متى أراد هؤلاء الخروج على حكم من أحكام الدين ، أو الأخذ بسياسة لا تقبلها الرعية ، أو الاساءة إلى عدو في الداخل أو الخارج قد استفحل خطره . وقد حكى الصولي في كتابه « الأوراق » كيف أن الخليفة الراضي لم يزل نحو سنتين من خلافته لا يشرب الخمر في حين كان ندماؤه يشربونها بين يديه ، فلما أرادوا أن يغروه ، حتى يحذو حذوهم قال إنه أعطى الله عهدا ألا يقربها أبدا . فاستدعوا له الفقهاء ، حتى يجدوا له رخصة تعفيه من الالتزام بعهده ، فإذا هم سرعان ما وجدوها له ، وأشاروا عليه بالتصدق بألف دينار يعود بعده الى الشراب ، ففعل شاكرا مسرورا .

ولم يكن عجيبا إزاء هذا كله أن يهمل أكثر الفقهاء في العالم الاسلامي واجبا أساسيا ومهمة خطيرة كان المفروض أن يأخذوا أنفسهم بها ، الا وهي التصدي لتطوير الأساس العقائدي والفكري للدين حتى يوائق احتياجات معاصريهم ومشكلاتهم . بل إننا لنزاعم إن بقي لديهم فضل من طاقة بعد صراعهم من أجل التصب ، يفعلون بالضبط ، يناقض مقتضى هذا الواجب . فقد استغلوا تلك الكراهية الأصيلة التي يستشعرها العربي تجاه البدعة ، في استنكار كل جديد ومحاربته ، لا لشيء إلا أن الجديد لم يكن يصادف في العادة هوى في نفوس الحكام وولاة الأمر ، وهم المحافظون بطبيعتهم . وبذا انحصر نشاطهم الذهني على مر نحو ألف عام إما في محاربة الجديد والتطوير بحجة أنها بدعة وضلالة يفضيان بصاحبها إلى النار ، أو في مناقشة تفريعات ونقاط نظرية بحتة في الدين لا صلة لها بالتطبيقات العملية ، ولا هم لهم من ورائها غير إظهار براعتهم في النقاش والجدل . وكانت نتيجة هذا كله أن انقطعت صلة الفقهاء بالحياة اليومية العادية للجماهير ، وأن باتوا يحيون في عالم خاص بهم لا يشاركهم فيه غير أقرانهم من الفقهاء . كما كانت نتيجته أن فقد هؤلاء هيبتهم في نفوس أفراد العامة الذين تحولوا الى شيوخ الصوفية يلتمسون عندهم الهداية والارشاد والبركة ، خاصة أن هؤلاء الاخيرين كانوا ـ في البداية على الأقل ـ أزهد في الدنيا ، وأجرأ على الحكام ، وأعظم احتفالا بجوهر الدين من الفقهاء . وإذ لمس الحكام تدهور مكانة الفقهاء وعلماء الدين في قلوب الرعية ، هانوا في أعينهم ، وقل اعتمادهم عليهم في ضمان ولاء المحكومين لهم ، في حين زاد توددهم إلى مشايخ طرق الصوفية من أجل نفس الغرض .

وكان هذا هو الوضع حين حلّ بعلماء الدين مالا يمكن وصفه بغير نقمة من الله وغضبه ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون .

تعليمان .. ديني ومدني

استجاب محمد علي باشا حاكم مصر بجماع قلبه وروحه ، لتأثير الغرب ، وهو الذي لم يكن يرى في الاسلام طائلا يُغنيه . وقد غلب عليه الشعور بالحاجة إلى جيش قوي يحقق له مطامحه العريضة ، وسخر كل ما في دولته من أنظمة وإمكانيات ـ كما هو معروف لدى الكافة ـ لاشباع هذه الحاجة . وإذ رأى أنه لابد لمثل هذا الجيش القوي من ضباط يأخذ تعليمهم وتدريبهم بالنمط الغربي ، فقد اتجه إلى وضع نظام لهذا التعليم شديد الاختلاف عن التعليم الاسلامي التقليدي . ولم يكن رجال الدين بطبيعة الحال ممن سيشملهم ذلك النظام الذي يغفلهم إغفالا تاما ، ولا يلتفت أدنى التفات إلى رعاية طبقتهم . وبالتالي نشأ في مصر لأول مرة ـ ثم في الاقطار الاسلامية الأخرى قطر تلو قطر ـ نظامان للتعليم متباينان كل التباين ، وشرعت حياتها الفكرية تسير في دربين منفصلين تماما . فأما النظام التقليدي القديم فكان يبدأ بالكتاب في القرية ، وينتهي بالأزهر في القاهرة ، او ما يماثله من معاهد دينية في غير مصر من بلاد الاسلام . وأما النظام الجديد فله مدارسه الابتدائية فالثانوية والجامعات ، وقد أنشئت كلها ووضعت مناهجها على غرار معاهد العلم الأوروبية ، وأغفل فيها تدريس الدين وعلومه ، عدا بعض الحصص القليلة التي أقحمت إقحاما على مناهج مختلفة عنها في روحها ، أقحمت عن رياء ، وأدرك الكافة هذا الرياء ، فلم يُعن بها أحد ، ولا هي بالتي كانت تؤثر في درجة تفوق طالب ، ولا بالتي كانت تحوي من المادة ما يغني أو يسمن من جوع .

فإن افترضنا حسن النية في القائمين على شؤون هذا

النمط من التعليم . قلنا إنهم حقيقة لم يكن لديهم أدنى فكرة عن كيفية التوفيق بين التعليم الاسلامي والمنافع الدنيوية الخالصة في ذلك النوع من المدارس . وإن افترضنا سوء النية ، ونسبنا الخطب إلى المستعمرين الأجانب ممن أعاروا طبيعة التعليم عندنا قسطا وافرا من اهتمامهم ، قلنا إنه كان يهم هؤلاء في المقام الاول أن يهدموا الاسلام في قلوب النشء ، ويخرجوا جيلا بعد جيل ممن قد فرغوا تفريغا من كل ما يصلهم بماضيهم ودينهم وتقاليدهم . على أي حال فقد كان هذا هو بالضبط ما حدث . فإذا بخريجي هذه المدارس والجامعات وقد فقدوا كل اهتمام حقيقي عميق بالدين . فإن أقبلوا عليه كان إقبالهم راجعا في المقام الأول إما الى أسباب شخصية ، أو إلى بيئة عائلية يغلب التدين عليها ، لا إلى طبيعة تعليمهم . وهم دائما وعلى أي الأحوال فاقدو الرغبة في إقناع الآخرين حولهم ، بل وفاقدو القدرة على هذا الاقناع حتى إن أنسوا الرغبة في أنفسهم . وقد زاد الطين بلة ذلك الضعف المتفاقم في لغتهم العربية التي أهملتها المدارس إهمالا ليس بالوسع اغتفاره ، فانقطعت الصلة أو كادت بينهم وبين تراث ديني وحضاري صاروا يسمون ما أنتجه من مؤلفات بالكتب الصفراء .

وهكذا نشأت بالعالم الاسلامي اعتبارا من أوائل القرن التاسع عشر - وعلى نحو لم يشهد مثل نظائه من قبل - تلك الهوة الرهيبة بين التعليم الديني والتعليم المدني ، وبالتالي بين رجال الدين وسواد الناس . والحقيقة التي لا ريب فيها عندنا أنه بازدياد تميز طبقة رجال الدين عن غيرها من الطبقات ، تزايد وضوح الدليل على تفاقم الخطب في أمة الاسلام . تلك الأمة التي شهد ماضيها من أعاظم الفقهاء من كانت مهنته البقالة أو البزازة أو تجارة الحنطة أو ما شابهها من مهن ، ولم يهجر صناعته ما عاش . وبهذا التميز صار التفقه في الدين - وعلى نحو أوضح منه حتى في الماضي - وسيلة لكسب العيش أكثر منه طريقا يقرب صاحبه إلى الله . غير أنه - ولله الحمد - لم يعد ، إلا في حالات نادرة ، سبيلا إلى أكل اللوزينج بالفستق المقشور !

فمن ناحية ، نجد السواد ممن درس في المدارس المدنية قد زهدوا أو كادوا ، بسبب جهلهم المستفحل بالدين ، في بضاعة الفقيه واستهانوا به ! وهي استهانة يعكسها تصرهم الآن إطلاق لفظ « الفقي » على مدرس الكتاب أو المقرىء في المساجد والمآتم ، وما ينطوي عليه استخدامهم لهذا اللفظ من تحقير . ومن ناحية أخرى ، فإن الكثيرين من حكام العالم الاسلامي ، بدءا بذلك الضابط العثماني محمد علي ، ممن شاء أن يسير في ركاب المدنية الغربية دون قيد يعرقل مسيرته ، تقلبوا لعلماء الدين ظهر المجن ، ولجأوا إلى كل وسيلة متاحة للسلطة من أجل تقليم أظفارهم ، وتقليص نفوذهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ثم إلى ما هو أدهى من ذلك ، وهو تشويه سمعتهم لدى العامة حتى تسير في ركاب السلطة دون حرج أو تشكك تجاه الهدف الذي أريد لها أن تُبتلى به .

ولن أسوق هنا أمثلة لهذه الوسائل من تاريخنا المعاصر ، وهي أكثر من أن تحصى ، مكتفيا في هذا المقام بعرض لبعض الأحداث التي سجلها الجبرتي في تاريخه :

فهو يذكر من بين حوادث جمادي الأولى سنة ١٢٢٤ هـ أن محمدا علي حين استبد به الخوف من نشاط السيد عمر مكرم ، اجتمع بشيوخ الأزهر ، وأخذ ينعي على السيد عمر عناده وتعنته وتخويفه بقيام الجمهور . ثم قال « وأما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالأزهر فهذا لا يناسب منكم ، وكأنكم تخوفونني بهذا الاجتماع وتهييج الشرور وقيام الرعية كما كنتم تفعلون في زمان المماليك . فأنا لا أفزع من ذلك . وإن حصل من الرعية أمر ما فليس لهم عندي إلا السيف والانتقام » . قالوا له : « هذا لا يكون . ونحن لا نحب ثوران الفتن ، وإنما اجتماعنا لأجل قراءة البخاري » . غير أنه تبين لهم قصد الباشا ، وفهم كل منهم لغة الآخر الباطنية ، فوافق ذلك ما في نفوسهم من الحقد للسيد عمر مكرم . وانفض المجلس وقد تفرقت الآراء ، وراج سوق النفاق ، وتحركت حفائظ الحقد والحسد ، وكثر سعيهم وتناجيهم بالليل والنهار ، والباشا يراسل السيد عمر ويطلبه للحضور إليه ، ويعده بإنجاز ما يشير عليه ، وبأن يرتب له كيسا في كل يوم ، فلم يقبل . ولم يزل الباشا متعلق الخاطر بسببه ، ويتجسس ويتفحص عن أحواله وعلى من يتردد عليه من كبار العسكر . فلما أمر في النهاية بنفيه « شيعه الكثير من المتعممين وهم يتباكون حزنا على فراقه . وفي صبيح ذلك اليوم حضر الشيخ المهدي عند الباشا وطلب وظائف السيد عمر ، فأنعم عليه الباشا بنظر أوقاف الامام الشافعي ، وذلك في نظير اجتهاده في خيانة السيد عمر . ثم نمق المشايخ عرضحال في حق السيد عمر بأمر الباشا ليرسله إلى السلطان ، وذكروا فيه سبب عزله ونفيه ، وعدوا له مثالب ومعايب وذنوبا منها أنه أراد إيقاع الفتن في العساكر لينقض دولة الباشا . غير أن السيد أحمد الطحاوي اعتكف في داره ، واعتزل المشايخ وتباعد عنهم ، وهم يبالغون في ذمه والحط عليه لكونه لم يوافقهم في شهادة الزور . والحامل لهم على ذلك كله الحظوظ النفسانية والحسد . مع أن السيد عمر كان ظلا ظليلا عليهم وعلى أهل البلدة ، يدافع ويرافع عنهم ، ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية ، ولم يزالوا بعده في

انحطاط وانخفاض . وأما السيد عمر مكرم فإن الذي وقع له بعض ما يستحقه ، ومن أعان ظالما سُلط عليه ، « ولا يظلم ربك أحدا » .

وقد لجأ محمد علي من أجل هدم هيبة المشايخ إلى مذبحة معنوية دونها مذبحة المماليك ، بأن دبّر حوادث أو استغل حوادث لفقت عقبها التهم لشيوخ الأزهر والمجاورين به ، تارة بتزييف العملة (« حتى كان كل من اشترى شيئا ودفع الثمن للبائع قروشا قيل له : لربما تكون قروشا أزهرية ») .

عندما افتتنوا بالدنيا

ومع أسف الجبرتي لهذا التشويه المتعمد لسمعة رجال الدين ، واعتباره إياهم أحق بالرثاء منهم بالادانة ، فهو لا يغض الطرف - كما رأينا وكما سترى توا - عن مساوئهم واختلال أمر دينهم . إقرأ له قوله :

« لقد افتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ القرآن ، مع ترك العمل بالكلية ، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الأقدمين ، واتخذوا الخدم والأعوان ، واستعانوا بكتبة الأقباط وقطاع الجرائم في الارساليات للبلاد ، وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وإنذارات عن تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوي الفلاحين ، ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم بموجبات التحاسد والكراهية المجبولة والمركوزة في طباعهم الخبيثة . وانقلب الوضع فيهم بضده ، وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميري والفائظ ، والتناجي مع الأقباط واستدعاء عظمائهم في جمعياتهم وولائمهم والاعتناء بشأنهم » . وفي موضع آخر : « وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس ، وانهمكوا في الأمور الدنيوية ، والحظوظ النفسانية ، والوساوس الشيطانية ، ومشاركة الجهال في المآثم ، والمسارعة إلى الولائم في الأفراح والمآتم ، فتراهم في كل دعوة ذاهبين ، وعلى الخوانات راكعين ، وللكباب والمحمرات خاطفين ، وعلى ما وجب عليهم من النصح تاركين » .

وليس من الغريب أن نلاحظ أنه لم يظهر من بين هذه الفئة الجديدة من علماء الدين ، وهي الفئة التي شملها برعايته محمد علي وأمثاله في الأقطار الاسلامية الأخرى ، أي زعيم أو قائد فكر عني بتوجيه المسلمين الذين تلقوا تعليمهم في المدارس غربية الطابع ، وتدريبهم على اتخاذ موقف إيجابي من دينهم ، وعلى مواجهة الحملات المنظمة والهجمات المتلاحقة على الاسلام من قبل الكتاب الأوروبيين الذين يقرأون مؤلفاتهم ، والمبشرين الذين يعملون بين ظهرانيهم .

وقد قُدر للعالم الاسلامي أن يكون أول من حاول محاولة قيمة جادة للتوفيق بين تعاليم الاسلام ومقتضيات العصر الحديث - دون إذعان مهين لمدنية الغرب ، رجل من أقصى بقاعه هو الشيخ جمال الدين الأفغاني ، ثم تلميذه في مصر الشيخ محمد عبده ، خاصة في كتابه « رسالة التوحيد » . وقد أتاح الرجلان لرجال الدين المسلمين فرصة ذهبية كان عليهم أن يغتنموها اغتناما لو أنهم كانوا من الحكمة بحيث يرون فيها السبيل الى انصلاح حالهم التالف ، واستعادة مكانتهم في قلوب الرعية ، والمساهمة مساهمة مثمرة في أسباب نهضتها ، بل وإلى استرداد تكريم الحكام لهم . بيد أنهم لم يفعلوا . وفي الوقت الذي لقيت فيه دعوة الأفغاني وتلميذه صدى مدويا في نفوس العامة ورجال الأحزاب السياسية في الشرق ، ظن علماء الدين أنه مما يرذهم إلى حظوة السلطان محاربة هذه الدعوة ، والوقوف في وجه محاولة الرجلين فتح باب الاجتهاد بعد أن حكم بإغلاقه من ألف عام .

وكانت العاقبة أن ضاع رجال الدين ، وأن ضيّعوا بضياعهم أجيالا متتالية من المسلمين كانت في أمس الحاجة - إزاء ما تتعرض له يوميا من تأثير الفرنجة - إلى فقهاء يأخذون بيدها في هذا الخضم .

ثم كانت بعد ذلك عاقبة أخرى : وهي أن الأكثرية من معاصرينا من المسلمين - وقد يئسوا من أن يمد رجال الدين لهم يد العون - قد أفرغوا ، على حد تعبير الفرنجة ، ماء الطست بالطفل فيه ، ونبذوا الاسلام كله ، وأن الأقلية قد أبت مسايرة العصر ومقتضياته ، وأغلقت دونها الأبواب . أما أولئك الذين لم يتقبلوا هذا الوضع أو ذاك ، فقد اتجهوا في سعيهم إلى الاستنارة والرشاد ، لا إلى من باتوا يسمونه بالفقي . وإنما إلى مفكرين في شؤون الدين من المدنيين ، هم على بينة من أمرهم ، وهم - على الرغم من ضعف نسبي في حصيلتهم من الفقه والشريعة - في طريقهم إلى أن يصبحوا ، في زعمنا ، رجال الدين الحقيقيين في عصرنا هذا .

لقد كان هناك زمان إن كتب فيه الدكتور هيكل سيرة نبوية ، أو توفيق الحكيم مسرحية عن الرسول ، هاج رجال الدين وعجبوا كيف يجرؤ رجال من غيرهم على التصدي لمثل هذه الموضوعات التي هي من صميم اختصاصهم . غير أن هذا الزمان قد ولى الى غير رجعة فيما نعتقد ، وهو ما سيعود بنا إلى ذلك الوضع الذي عرفه الاسلام في ماضيه ، حين كان أجلة الفقهاء من البقالين أو البزازين أو تجار الحنطة . ■ ■

حسين أحمد أمين

آخر صيحة فى زمن الدمار

النيوترون

لقتــل الإنســان وحده

بقلم : الدكتور عبد الحليم منتصر

تجدد الحديث مؤخرا عن القنبلة النيترونية ، وعن اعتزام الدول الكبرى تصنيعها . ثم تطرق الحديث الى آثارها ومفعولها وتكاليف انتاجها ، وعن تنافس الدول الكبرى فى معرفة اسرارها ، وهناك من يقول بأن الدول التي تدعي عدم الوصول الى اسرارها ، انما هى عالمة بها حتى تفاجيء العالم اذا لزم الامر وادلهم الخطب . وحقيقة الامر ان صناعة الاسلحة النووية ، لم تعد سرا ، بل ان تفاصيل تفاعلاتها تعمر بها الكتب الجامعية ، والمجلات المتخصصة ، ومنذ القيت القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكى ، فى الحرب العالمية الثانية ، والمعامل والمختبرات لا تكف عن البحث والدرس فى هذا المجال . فمن تفاعلات انشطارية ، الى تفاعلات اندماجية ، ومن قنبلة هيدروجينية الى قنبلة كوبلتية ، ومن صواريخ ذات رؤوس نووية الى صواريخ لانس ذات الرؤوس الموجهة لتصيب اهدافها ، الى غير ذلك مما لا يقع تحت حصر ، ومما لاتعد الى جانبه قنبلة هيروشيما ونجازاكى شيئا مذكورا ، والغريب ان كل هذا النشاط الذرى والتصنيع الحربى ، انما يتم تحت ستار الاغراض السلمية . ونسى هؤلاء المدعون ان التفاعل النووى واحد سواء كان لاغراض سلمية او حربية ، وان اساس العملية وجود « اليورانيوم » ومعرفة اسرار التفاعل ، وطرق الوقاية منه حتى تأذن ساعة « التهور » باستعماله !!

ان القنبلة النيترونية هى أحدث صورة

انها هي أحدث صورة وآخر صيحة فى الاسلحة النووية ، وكانت فى طريقها الى سوق السلاح مع اشراقة عام ١٩٧٩ ، وهى مصممة لتقتل اعدادا اكبر من جنود الاعداء ، ولا تكاد تحدث اضرارا بالمبانى والمنشآت ، ويقول المختصون ان استعمال مثل هذه القنابل ، اقل خطرا على المنشآت ، ولكنها ابعد اثرا على الافراد وخاصة اذا كان استعمالها ، كما ينبغى ان يكون - فى ميدان الحرب وحده ، وكان من المقرر الا تستعمل الا

في الحرب التي تخوضها دول حلف « ناتو » (شمال الاطلسي) وتشارك فيها الولايات المتحدة الامريكية ضد دول وارسو بما فيها الاتحاد السوفييتي الا ان الولايات المتحدة وادارتها العسكرية في ظل رئاسة كارتر السابقة ظلت تناقش الميزانيات . وتستضخم النفقات وتؤجل اتخاذ القرار وتنفيذه . وتناقش مزاياها ونفقاتها بالنسبة للاسلحة النووية الاخرى .

ومن الخير ان نذكر بادىء ذي بدء ـ انه ليس ثمة جديد . في القنبلة النيترونية فان امكان تحضيرها وتصنيعها كان واردا وممكنا . منذ اختراع القنبلة الهيدروجينية او القنبلة الاندماجية في الاربعينات او الخمسينات فان عددا من العلماء المشتغلين بتطوير الاسلحة النووية في معامل « لورنس ليفرمور » بحثوا فكرة تصنيع قنبلة اشعاعية لانتاجها في الخمسينات والستينات . وكانوا وغيرهم نشطين سياسيا وعلميا في مجال تصنيعها وتطويرها .

وظلت الامور على هذه الصورة . حتى الستينات الاولى . حين امر « رويرت مكنمارا » وزير الدفاع الامريكي بدراسة جادة للمقترحات الخاصة بتصنيع الاسلحة النووية المتطورة الجديدة .

وعلى أساس هذه الدراسة . اعتبرت اوربا مسرحا خاسرا لكلا المتحاربين فسيموت ملايين من المدنيين . وان حربا من هذا النوع . ليس حتما ان تكون في صالح دول حلف « ناتو » انها ابعد من ان تكون بدائل صالحة للقوى البشرية . وقوى اطلاق النار . فان الاسلحة النووية تحتاج الى مستويات اعلى من القوى البشرية . فان جنود الناتو الذين ستحصدهم الاسلحة النووية الروسية ـ مثلا ـ لا يمكن تعويضهم . علما بان حلف وارسو . قد قرر هو الاخر تقوية خطوطه الامامية واذن فقد تكون النتيجة في صالح حلف « وارسو » . حتى ولو كان لدى « الناتو » اسلحة نووية اقوى .

وبعد ان استوعب « مكنمارا » هذه الحقائق . ركز على تقوية الاسلحة غير النووية . وجمد الاتفاق على الاسلحة النووية وتطويرها . وان ابقى صواريخ « لانس » لمداها الطويل . الا ان خلفه « ليرد » اقر الاتفاق على الاسلحة النووية . ثم كان التطوير الحاد لهذه الاسلحة على يدي « شيزلنجر » الذي خلف « ليرد » وزيرا للدفاع سنة ١٩٧٣ وقد كان قبلا رئيسا للجنة الطاقة الذرية . وكان شديد الحماس لتطويرها ورصد مبالغ طائلة لتزويد حلف « ناتو » بالاسلحة النووية وقنابل نووية . وجعل مهمتها في التصويب اختيارية . وذات مرونة في الاتجاه نحو الهدف . وذلك شيء لم يكن معروفا قبلا .

وكانت تلك بداية التفكير في حرب نووية قصيرة الامد . تكتفي بتدمير الاهداف النووية عند العدو اذ ان الصواريخ ستتبع اهدافها حتى تصل اليها . شكرا للتكنولوجيا الحديثة . التي جعلت تصويب الصواريخ النووية . دقيقا الى هذا الحد .

وقد اعاد « شيزلنجر » برمجة الاسلحة النووية الاستراتيجية ذات القدرة الاختيارية على التصويب كما صنع عبوات هداقة متطورة . لم تكن معروفة في هذه السنوات العشر الاخيرة . كما امر بزيادة في الاسلحة النووية المتطورة . التي ينتظر ان تلعب دورها على المسرح الاوربي . واعتبر ذلك تأييدا رسميا للقوى العسكرية التي كانت تفكر في حرب نووية محدودة . سريعة المفعول . قوية الاثر . محققة للغرض .

صواريخ لانس المتطورة

لقد اصبحت صواريخ لانس تصنع بكثرة في هذه الايام . ومن المعلوم ان « التشروم » هو النظير المشع النووي المستخدم في صناعة قنبلة النيترون . بحيث يمكن تكييفها بعد ذلك مع صواريخ « لانس » والدانات ذات الثماني بوصات . ويتضمن المشروع كذلك انتاج رؤوس قطر ١٥٥ مم . وان يكن ذلك ما زال في دور التصميم والتخطيط . الا ان الاول قد تم انتاجه فعلا . وجرب في موقع تحت الارض بالقرب من « لاس فيجاس » . بالولايات المتحدة الامريكية . ان الرؤوس النووية المستعملة الان ذات قدرة انفجارية . تتراوح بين كيلو طن واحد ومائة كيلو طن من المفرقعات . اما شحنة الدانات . ذات الثماني بوصات فتتراوح قوتها الانفجارية بين خمسة وعشرة كيلو طن من المفرقعات .

وسيكون صاروخ لانس المتطور الجديد . ذا شحنتين . الاولى قوتها اقل كثيرا من كيلو طن والثانية اكثر قليلا من كيلو طن . ويمكن تفجيرها بالتتابع بالضغط على ازرار قليلة متجاورة . اما « لانس » المتطور الحديث . فيحمل ثلاث شحنات تتراوح قوتها الانفجارية بين اقل من كيلو طن . ونحو اثنين كيلو طن .

وتتلخص آثار الانفجار النووي لهذه الرؤوس . في بضع خطوات متتابعة هي : ـ موجة تصادمية ذات ضغط عال واشعاع حراري واشعاع سريع للنيترونات واشعة جاما . ثم فضلات مشعة ناتجة من النشاط

الانشطارى المتدهور كما ان الطاقة المنطلقة من الانفجار الانشطارى ، يمكن تقسيمها الى اجزاء ، الاول ، ٥٠٪ للموجة التصادمية للشرارة الاولى ، الثانى : ٣٥٪ للاشعاع الحرارى ، الثالث ، ٥٪ للاشعاع المزود ، ثم ١٠٪ للفضلات المشعة .

على ان التقدير النظرى للسلاح النووى الاندماجى ، هى ٢٠٪ للشرارة الاولى ، و ٨٠٪ للاشعاع المزود اغلبه نيترونى ، ثم آثار قليلة من الفضلات المشعة تختلف اثارها تبعا لنوع التربة تحت الانفجار .

والميزة الاساسية للرؤوس ذات الاشعاع المزود على غيرها ، من الاسلحة النووية ذات الاغلبية الانشطارية والطاقة المحدودة ، ان الاولى تطلق نيترونات اكثر واسرع وان الطاقة التى تطلقها صواريخ « لانس » ، وذات الثمانى بوصات المزودة بالاشعاع ، اكثر قدرة ، وتطلق ستة امثال الاخرى فى صورة اشعاع سريع من الرؤوس ذات التفاعل الانشطارى ولها نفس الجهد ، بل لقد ثبت انها تبلغ عشرة اضعاف الانشطارية .

« انها رؤوس نووية »

ماهو الدور الذى تلعبه تلك الرؤوس النووية ذات الاشعاع المزود .. ان اهم ما يعنى به حلف « ناتو » امكانية حلف « وارسو » وهو ان تعبر صواريخه سهول المانيا الغربية ، وتدل الوثائق الروسية ، على انها ستدمر آلاف الآليات عند اول هجوم بهذه الاسلحة المتطورة . ويقول خبراء حلف ناتو ان هذا السلاح لو استعمل فى هجوم مفاجىء ، فانه لايمكن لحلف ناتو أن يقابله الا بالاسلحة الموجودة حاليا فى غرب اوربا . .

ولعدة سنوات ظل قادة الولايات المتحدة الامريكية يقولون ان معظم الاسلحة الموجودة حاليا غرب اوربا غير عملية مشيرين بصفة خاصة الى طاقتها العالية . فان لبعضها طاقة اكثر من قنبلة ٢٠ كيلو طن التى دمرت ناجازاكى فى نهاية الحرب العالمية الثانية . مثل هذه الاسلحة سيكون لها اثرها فى وقف الآليات الروسية ، ولكنها فى الوقت نفسه . ستقتل وتجرح جراحا خطيرة لكثير من جنود « الناتو » ومن المدنيين الالمان . كما انها ستخرب كثيرا من البلدان الالمانية . كما ان الفضلات الاشعاعية التى تثيرها ستجعل حياة الاخرين فى خطر دائم .

اما الاسلحة الجديدة . ذات الاشعاع المزود ، فانها ستقتل جنود حلف وارسو وهم داخل الياتهم دون ان تدمر الاليات نفسها . وهذه النتيجة ستكون ميسرة عن طريق النيترونات التى تطلقها الاسلحة ذات الاشعاعات المزودة . وتقاس الجرعات الاشعاعية بوحدة « راد » . وهى الكمية التى يمتصها اى اشعاع نووى ، يصاحب ١٠٠ ارج من الطاقة من كل جرام من المادة المشعة . فاذا كانت الاسلحة النووية التكتيكية نافعة فى الحرب . فانها ينبغى ان تقتل فرائسها باسرع ما يمكن ، اى قتل نهائى مباشر . طبقا لتجارب خبراء الولايات المتحدة الامريكية التى اجريت على القرود ، التى احتاجت الى ٨٠٠ راد ، اذ ان الاليات الحديثة ذات غطاء وقائى ، حتى يمكن ان يقال ان نصف الالية ينبغى ان يتعرض الى ١٦٠٠٠ راد مباشرة وبسرعة ، اذا اريد لاهداف « الناتو » ان تتحقق .

وقد طور حلف « ناتو » هذا السلاح حتى انه يكفى ٢,٥٠٠ الى ٣,٥٠٠ راد واذا كانت الالية ذات واق من ٥,٠٠٠ ـ ٧,٠٠٠ راد تكفى فاذا تعرض شخص لنحو ٨,٠٠٠ راد فقط من هذه الاسلحة ، فانه يشل عن الحركة تماما ، ويبقى غير قادر على اداء اى واجب ، الى ان يموت ، فى ظرف يوم ، او يومين على الاكثر كما ان جرعة من ٣,٠٠٠ راد كذلك تشل حركته تماما فى ظرف خمس دقائق ، صحيح انه قد يسترد بعض قدرته ، فى مدى نصف ساعة ، ولكنه يبقى اغلب الامر شبه مغشى عليه الى ان يموت فى ظرف اربعة او ستة ايام ، وقد ثبت ان التعرض الى اشعة قوة ٦٥٠ « راد » يصرع الانسان فى مدى ساعتين ، ومهما استطاع ان يقاوم ، فان مصيره موت محقق فى مدى اسبوعين على الأكثر . وهذه النتائج السيئة ، انما هى من تأثير تأين النيترونات ، وتصادمهامع البروتونات داخل الخلايا الحية . فان هذا التأين كفيل بتدمير الصبغيات ، واحداث انتفاخ فى الانوية ، كما يزيد فى لزوجه السائل الخلوى ، ويزيد فى نفاذية الاغشية الخلية ويدمر الخلايا من جميع الانواع وبخاصة خلايا الجهاز العصبى ، وفضلا عن ذلك فان التعرض للاشعة المتأينة يؤخر بل يدمر عملية انقسام الخلايا ، ولهذا تأثير وراثى على طول الزمان ، مما يوقف تجدد الخلايا .

ان هذه الاسلحة ذات الاشعاع المزود ، تعطى جرعات من الراد ، على مساحات اكبر ، واذا قورنت بالاسلحة الانشطارية ذات الطاقة او حتى اكبر ، فمثلا اى شخص على بعد ٦٣٠ مترا من قنبلة انشطارية قوة ١٠ كيلو طن ، سيتعرض لنحو ٨,٠٠٠ راد على الاقل .

على حين انه اذا فجرت قنبلة ذات اشعاع مزود ، وقوة انفجارية كيلوطن واحد ، فان الدائرة ذات ٨,٠٠٠

راد ستتسع الى ٨٥٠ مترا ، وعلى ذلك فانها تقتل ضعف العدد الذى تقتله القنبلة الانشطارية قوة ١٠ كيلو طن ، الا ان التدمير سيكون بمقدار الخمس فقط .

وهذه الظاهرة ـ او الميزة ان صح التعبير هي انها اقل خطرا على المنشآت والاليات ، انها تستهدف الجنود دون سواهم بمعنى ان اضرار الانفجار النووي التى تتركز فى الشرارة ، والاشعاع الحرارى والفضلات المشعة ، ستكون اقل اثرا ، وهذا فى حد ذاته ، يبدو مغريا لاول وهلة ، ومع ذلك فمن الخطأ ان نفترض ، ان المسرح الاوربى للحرب النووية سيكون اكثر امنا او اقل سوءا ، او من الممكن التحكم فيه والسيطرة عليه كما يعتقد .

نحو حرب محدودة

يقول الامريكيون ان هناك جانبين للحرب النووية المحدودة ، وان الروس ليست لديهم المقدرة ولا الاعداد لها ، فمن بين ٣,٥٠٠ سلاح نووى تكتيكى ، اعدوا لضرب المسرح الاوروبى ، (مقارنا بالناتو اى حلف شمال الاطلسى ٧,٠٠٠) ، يعتقد ان اغلبها تفوق ٢٠ كيلو طن ، ونحو ٦,٠٠ من صواريخ روسيا طاقتها بين ٥٠٠ كيلو طن ، ٣ ميجا طن (٣,٠٠ كيلو طن) . على ان صواريخ حلف وارسو النووية اقل دقة من الناتو ، حيث التدقيق فى التصويب ضرورى لاحداث الاضرار المطلوبة .

ويبدو ـ او هذا ما يعتقده الامريكيون ـ انه ليس لدى الروس فكرة عن الفرق الكبير بين هذه الاسلحة النووية كما هى الحال لدى الولايات المتحدة الامريكية !! وصحيح ان اغلب كتابات الروس فى الموضوع تفترض عدم التفرقة بين الاسلحة النووية المختلفة ، اذ ان كل هم الروس ، انما هو الوقاية من الاسلحة الامريكية .

فاذا استعمل حلف الناتو هذه الاسلحة النووية ، الاشعاعية المزودة ضد آليات حلف وارسو فلا شك أن الروس سيضربون بأسلحتهم النووية ولن يهمهم فى شىء ان يدمروا المانيا الغربية حتى ولو لم يكن فى استطاعتهم مواجهة اسلحة « الناتو » . والمعتقد انه اذا بدأ حلف « الناتو » استعمال اسلحته النيترونية المتطورة ، فلن يستطيع حلف « وارسو » مواجهته خاصة اذا استعمله فى الوقت المناسب ، واجاد التصويب نحو الاهداف . فسيحدث من الاثار والارتباك والصدمة ، ما يجعل اسلحة الروس ، لا تحقق الرد المطلوب . صحيح ان لدى الروس نحو ٢٠,٠٠٠ دبابة خاصة لمنطقة وسط اوروبا ، حيث يمكن ان تدور رحى المعركة الاولى وحيث حلف « الناتو » مستعد بألوف الاسلحة النووية النيترونية المتطورة ان يضرب الضربة الاولى . مما يمكن ان يجعل مثل الحرب النووية محدودة . اذ ان ١٠٪ من الناس سيتعرض الواحد منهم الى ١٥٠ راد ، انهم سيموتون فورا من الاشعاع . وما زال الاحياء من ضحايا قنبلتى هيروشيما وناجازاكى يعانون من سرطان الصدر كما ان التعرض الى ٣٠ راد فقط ، يضاعف معدل التوائم فى الحمل وغالبا ما تظهر جينات تشويهية وطفرات مشوهة لعشرات من الاجيال متتابعة وقد تعرض سكان جزيرة« مارشال » لانفجارات نووية قوة ١٤ راد فقط سنة ١٩٥٤ فانتشرت بينهم اصابات عقدية فى الغدد الدرقية كما اصيبوا بالليكيميا ، او سرطان الدم .

وقد تمتد اخطار الرؤوس النووية ، وذات الاشعة المزودة ، فان الاخطار الاشعاعية التى تسببها اشعة جاما ، يمكن ان يكون لها حد ادنى الا ان الحد الادنى ليس معروفا للاشعاع النيترونى اما الامراض البيولوجية مثل امراض الطفرة الوراثية ، او ازدياد نسبة كرات الدم البيضاء فى الدم ، او عتامة العين ، وغيرها من آثار النيترونية ، فانها ستة اضعاف اخطار اشعة جاما ، وانه حتى لو استعملنا ما قوته ١ او ٢ راد من الاشعاع النيترونى ، فقد يسبب الليكيميا والسرطان ، فان التعرض ل ٥ راد فقط ، يمكن ان يضاعف معدل الطفرة فى الحمل ، فانه اذا تصادم نيترون واحد ، بمجموعة من الاحماض الأمينية فى الحيوان المنوى او البويضة فان احتمال حدوث اضرار وراثية كبير جدا . وبعبارة اخرى فان الفكرة القائلة بأن استعمال الرؤوس النووية ذات الاشعة المزودة ، سيكون نافعا لمستعمله ، ليس مضمونا تماما فسيعانى منها العدو والصديق ، وان يكن الاول بنسبة اعلى ، خاصة وان الجانب الشرقى من المانيا الغربية ، قد تحضر وكثرت فيه المدن .

وفى الحق ان مزية استعمال الرؤوس النووية ذات الاشعاع المزود ، حتى على مستوى منخفض انما هى محل تساؤل ، وانه فيما عدا رجال الدبابات الذين كانوا قريبين من الانفجار ، سيبقون احياء الى ساعات او ايام او اسابيع على الاكثر ، وقد يبقى بعضهم ، بل ويحاربون بعنف اكثر ، لانهم يعلمون يقينا ، ان الموت الاكيد ينتظرهم ، ويستطيع حلف (الناتو) طبعا ان يواجه ذلك بانتاج وتفجير الكثير من هذه الرؤوس ، وان ميزتها المؤكدة هى القدرة على التصويب الدقيق ، ولعله مما يبعث على شىء من الاطمئنان ، ان الناتو ، لن يأمر

باستعمال اى اسلحة نووية ، الا اذا كان حلف وارسو ، قد استنفد الاسلحة غير النووية التي لدى حلف « الناتو » مثيل لها !

هكذا يقولون

يشير المختصون من علماء وعسكريين ثلاث ملاحظات لها قيمتها .

الأولى : انه بدون التهديد بالاسلحة النووية ذات الاشعاع المزود فان الروس يتعرضون لخطر شديد ان لم يهاجموا ، لان الولايات المتحدة ، قد رفضت دائما ان تكون البادئة باستعمال الاسلحة النووية .

الثانية : ستحدث أضرار خطيرة من استعمال الناتو للأسلحة النووية ذات الاشعاع المزود ، فضلا عن الاضرار التي تنشأ عن استعمال الروس لأسلحتهم النووية .

الثالثة : ليس ثمة ما يدعونا ان نصدق ان « الناتو » غير قادر على الدفاع عن اوروبا الغربية ، دون اللجوء الى استعمال الاسلحة النووية ، وانا لنعلم ان البادىء بالهجوم ينبغي ان يكون متفوقا .

ويقول الخبراء والقادة العسكريون الامريكيون : « ان التدريب العسكرى في الاتحاد السوفيتي ودول حلف « وارسو » في اوروبا الشرقية هزيل وجاف ، ومن المشكوك فيه الولاء السياسي لتيشكوسلوفاكيا وبولندا ، على الاقل بالنسبة للحرب الهجومية ، كما ان التكتيك والاستراتيجية في حلف « وارسو » تعتمد على الدبابات ، التي غدت متأخرة بالنسبة للاسلحة المتطورة الحديثة وفضلا عن ذلك فان الهجوم المفاجيء ، وكذلك مستوى الاستعداد المحدود ، لدى جيوش حلف « وارسو » ، ومئات العيون والجواسيس التي ترصد كل تحركات الروس ، فضلا عن ضعف استعداداتهم ، ومع كل ما يمكن ان يضاف من تحسينات الى استعدادات واسلحة حلف « ناتو » كل ذلك يجعل الاطمئنان الى المستقبل اكبر في ناحية امريكا وحلف « ناتو » ! »

صحيح ان انتاج الرؤوس النووية ذات الاشعة المزودة سيكون باهظا ، حيث تتكلف الواحدة نحو ٩٠٠,٠٠٠ دولار ، في حين ان قنبلة صاروخ « لانس » تتكلف اقل من ذلك كثيرا فبدلا من شراء او تصنيع قنبلتين من الاولى يمكن شراء ثلاث من الثانية او عدد كبير من الدبابات و ٥٠ من اسلحة غير نووية مضادة للدبابات ونحو ٥,٥٠٠ من اسلحة مساعدة .

واذا فرضنا ان الروس قد نشروا دباباتهم على مساحات عريضة ، وابتدعوا مضادات للأسلحة النيترونية ، فانهم بذلك يكونون في الجانب الاقل كلفة ، انه الارخص والاكثر تأثيرا عسكريا ، ويبقى صحيحا ان الرؤوس ذات الاشعة المزودة تحدث من الاضرار للقوات المهاجمة ، كما تحدث الاسلحة ذات الطاقة العالية ، دون أن تحدث اضرارا بالغة للمنشآت .

مقارنة لا بد منها

وفي مقابل هذه الميزة الواضحة ، يجب ان نأخذ في الاعتبار الاضرار البالغة التي تحدث من استعمال الاسلحة النووية او ادخالها في منطقة ما او في حروب ما ، كما يمكن ان نذكر كذلك في صالح استعمال الأسلحة ذات الاشعة المزودة ، خصائصها الاخرى ، كبعد المدى الذي تصل اليه (١٣٠ كم لرؤوس لانس) ، ووسائل التحكم فيها وضبط اصطياد اهدافها والأمن لمستعمليها ، مما يبعث على الاعتقاد بان حلف « وارسو » سيفكر كثيرا قبل استعمال الاسلحة التكتيكية النووية ، الا ان المؤكد ان الكل سيسعى ان عاجلا او اجلا الى تصنيع القنبلة النيترونية .

على انه لا ينبغي ان يعتقد اى من الفريقين المتحاربين ، أن استعمال القنبلة النيترونية خلو من الاخطار ، وان الحرب النووية يمكن ان تكون محدودة ، او يتحكم فيها الى درجة كبيرة الا انها على كل حال ، قد تكون اقل سوءا وتدميرا من الاسلحة النووية المعروفة ، وهي على اى صورة ، اقل انسانية من الأسلحة الكيماوية التي اتفق دوليا على عدم استعمالها ، وعلاوة على ذلك فان الرؤوس النووية ذات الاشعة المزودة ، ستكون اكثر استعمالا ، من اى اسلحة نووية ذات طاقة منخفضة واخيرا ، فان الاتحاد السوفيتي يعتقد ان الولايات المتحدة الامريكية ، ستستعمل الرؤوس النووية ذات الاشعة المزودة في حرب اوروبية مما سيحفز الروس على استعمال اسلحتهم النووية بعنف في أول فرصة في حرب اوروبية .

على اية حال ، ليس هناك من سبب ، يجعلها تصدق ان الرؤوس النووية ذات الاشعة المزودة ستقلل من احتمال ان المسرح الاوروبي للحرب النووية سيشتعل يوما ما ، او ان استعمالها وادخالها الى المنطقة ، سيقلل احتمال الرد السريع من الروس . ■■

الرياض ـ د . عبد الحليم منتصر

٨٨٣ وثيقة عن العصر المملوكي ترى النور

كنز في الحرم القدسي

بقلم الدكتور شاكر مصطفى

القدس ... ايقاع حزين ينبض مع نبضة الف مليون من القلوب المؤمنة .

وحين تتراءى كلمة القدس في خبر أو عنوان فان الف اغراء يجتذبك لتعرف ما وراء العنوان ومع ان معظم ما يأتي عن القدس ، في هذه العاصفة من الزمن الرديء ، يزرع الجراح وينبت الزهر الاسود في كل صدر فان خبرا يحمل كلمة القدس ، منذ فترة قريبة ، خالف الموكب الجنائزي وكان يحمل بعض البهجة . كان خبرا من اخبار المقاومة الذي لاتسجله ابدا اخبار المقاومة . ولعله جاء تذكرة لمن نسي عروبة البلد واسلامه « وما يذكر الا اولو الالباب » :

كان الخبر عن اكتشاف كنز من الوثائق الاسلامية ، في الحرم الشريف ، في صندوق صدئت اقفاله على الزمن والاهمال !

والوثائق الاسلامية مأساة تاريخية قديمة . السنابك والحروب والحرائق والزلازل وتقلب الدول وتوالي الاهمال . اتت اولا باول على ماحوت الدواوين الاسلامية في مختلف الامصار من الرسائل وجرائد الضرائب وبلاغات الحكم ونسخ المعاهدات والفتاوى والاقضية وسجلات حياة الناس . تناثرت كلها مع الريح او اللهب او العبث او ركام التراب . التاريخ الاوربي مثلا لم ينكب نكبة التاريخ الاسلامي في هذه الناحية . معظم وثائقه محفوظ اليوم في الاديرة والمكتبات ودور الوثائق ومؤسسات الحكم والتجارة والاسريات . تاريخنا ما عرف هذا الحظ . واذا استثنينا العهد العثماني الذي سلمت كتلة كبيرة من وثائقه تعد بالملايين في استامبول خاصة ، والقاهرة وبعض المحاكم الشرعية والدوائر هنا وهناك في الاناضول والشام والعراق ، فليس لدينا من الوثائق الاسلامية السابقة لذلك العهد سوى الفتات المتفرقة ... بلى ! حفظت بعض كتب التر ، بعضا من نصوص الوثائق ولكن بوصفها في الاعم الأغلب ، نماذج بلاغية وشيئا من الادب لا

وثائق للتاريخ ! ولقد تقرأ عهد الخليفة لفلان ورسالة السلطان الفلاني الى نائبه أو منشورا بالنصر ، او بالغاء ضريبةاو باعلان في ثنايا التاريخ . اما الوثائق الاصلية فأندر من الكبريت الاحمر ـ يوم كان هذا الكبريت نادرا ـ ! حين عثروا على جرة في كوم الشقافة بمصر تحوي بعض وثائق البردى من العهد الاموي كان ذلك كنزا غريبا . والبرديات الباقية من العهد الطولوني والاخشيدي نماذج نادرة تضمها المتاحف بين ثرواتها . حتى من العهد المملوكي الذي لما يمض على انقضائه خمسة قرون ، ليس بين الايدي منه سوى بعض الخزائن الوثائقية مثل وثائق دير سانت كاترين في سيناء ورهبنة الاباء الفرنسيسكان (ابو جيلة) في القدس ومحكمة الاحوال الشخصية في القاهرة وبعض وثائق الاوقاف والمتاحف .. بالاضافة الى مجموعة فيينا والى الوثائق المقبورة غريبة بين مجاميع الوثائق في صقلية وجنوه والبندقية .. حتى لشبونه !

وقد عثروا قبيل مطالع هذا القرن ، في كنيس في مصر القديمة على حجرة استخدمت مقبرة للاوراق المهملة (جنيزا) على العادة اليهودية المعروفة ، فتسربت اوراقها الى متاحف العالم من لينتغراد الى لندن والى شيكاغو لتصبح مادة تاريخية ثمينه في ابراز دور اليهود في العصور الاسلامية !! وعلى حساب تلك العصور ...

قطع من الورق الدشت !

فاذا فتحت بعد هذا صندوقا قديما افترسه الصدأ وخرجت لك من وراء غباره ونكهة القدم اكثر من الف وثيقة نائمة نوم اهل الكهف منذ قرون ، أفليس هذا بمفاجأة كبرى ؟ واذا كان هذا الخبيء يتعلق بالقدس وتاريخها العربي الاسلامي اليس هذا بكنز ؟ ولقد وقع ذلك منذ سنوات معدودة لسيدة تعمل في المتحف الاسلامي بالحرم الشريف . محتوى الصندوق كان مسجلا في المتحف على انه « قطع من الورق الدشت » لاقيمة لها . وفتحت الموظفة الصندوق ثم استعانت بصديقة لها امريكية تدرس تاريخ المماليك ❊ لاستعراض مافيه وفك رموز الخطوط .. الكنز كان امامهم ! لم يكن دنانير ولامجوهرات تلمع ككنوز علي بابا او القرصان ولكنه كان شيئا أخر اثمن من ذلك ، شريطة ان يعرف من يتعامل معه انه اثمن ! ..

وعبثا حاولت الموظفة ان تستثير اهتمام سلطات الاوقاف بهذه الاوراق « الدشت » وانها « ثروة » اثرية وتاريخية . ومع انها فتحت بعد ذلك صندوقا أخر من الوثائق والبقايا الاثرية زادت في شأن « الثروة » المجهولة وقيمتها الا ان الخبر كان لايجاوز دوما ابواب المتحف .

كان يموت عند أذان المسؤولين .. واخيرا نشرت السيدتان بحثا عن الكشف الاثري ـ الكنز اخر سنة ١٩٧٨ . نشرتاه بالانكليزية وفي مجلة اجنبيه ...

كانت الدوائر العلمية الاجنبية تتلقف الخبر بالضجة والدهشة وتعلق على قيمته وشأنه المنتظر . كانت جامعة ماك جيل في كندا تتحرك بسرعة لتسبق الى تلك المجموعة الوثائقية الفريدة . كلية الدراسات العليا فيها تكفلت بارسال بعثة من ثلاثة اساتذة تذهب الى القدس وتصور اولا تلك الوثائق ... واستطاعت البعثة بسرعة ان تاخذ المعونة من شركة تصوير ومن مؤسسة تمويل علمي ومن مؤسسات اخرى لتنجز اعمالها في اسابيع محدودة .. وراء هذه العملية كلها كان المستشرق دونالد ليتل . وصورت الوثائق المكنوزة . وبدأت على الفور دراساتها .. وفي عدد من الجامعات !

وقد تسأل عن هذا « الكنز » الوثائقي ماذا فيه ؟

في المقال الاول الذي نشرته الباحثتان الاوليان جاء ان عدد الوثائق يبلغ حوالي ٣٥٤ وثيقة كلها اصلي ومعظمها في حالة جيدة جدا من الصون والحفظ . وقد عرضت الباحثتان لخمسين وثيقة منها . ثم تبين في أول مقال نشره دونالد ليتل عن الوثائق ، منذ اشهر معدودة انها ٨٨٣ وثيقة كاملة على الورق لم يمسسها اي سوء او تدمير يضاف اليها مجموعة اخرى تزيد على مائتي وثيقة متباينة الحجوم والصون . فهي اذن في العدد ثاني مجموعة وثائقية اسلامية في الدنيا ، بعد مجموعات البردى المصرية تصلنا من العهود السابقة للعثمانيين . كل ما كان معروفا من وثائق العصر المملوكي من قبل كان لايزيد على ٥٠٠ وثيقة ، نشر منها حوالي ١٥٠ فقط وثمة في مجموعة سيناء ١٢٥ مما لم ينشر بعد . وقد صارت الوثائق من العهد المملوكي ، بهذا الكنز ، ثلاثة اضعاف مرة واحدة .

❊ السيدتان هما امل ابو الحاج وليندا نورثروب

قيمة في العدد والقدم

من الناحية الزمنية ، تمتد تواريخ هذه الوثائق على مدى قرنين ونصف القرن : مابين اوائل القرن السابع الهجري حتى مابعد اواسط القرن التاسع . (١٣م ـ ١٥م) لكن ٨٠ ٪ منها يعود بخاصة الى العقد الاخير من القرن الثامن للهجرة . واذا كان اقدمها يعود الى سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م واحدثها الى سنة ٨٦٦هـ/١٤٦١م فان كتلتها الكبرى تمتد بين سنتي ٧٩٣ وسنة ٧٩٦هـ . في ذلك الوقت كان السلطان في مصر والشام هو الظاهر برقوق ، اول المماليك البرجية . وقبل ذلك وبعده كانت دولة المماليك واحدة من خمس دول اسلامية كبيرة (عدا الصغيرة) ، وكان سلاطينها وتجارها يسيطرون على طرق التجارة العالمية بين الشرق الغرب .. وعلاقات البلاد الاقتصادية والدبلوماسية تمتد من قلب السودان الافريقي الى ماوراء القفقاس ومن الهند الى اقطار اوروبا .. وهو كل العالم المعروف يومذاك باستثناء الصين ...

وليست قيمة هذه الوثائق في عددها فقط ولا في قدمها ولكنها كذلك في الموضوع .فوثائق الحرم القدسي يميزها انها تخص المجتمع الاسلامي والنظم الاسلامية في الشام . معظم الوثائق التي بقيت من العهد المملوكي او ماقبله تخص دير سانت كاترين وعهود رهبانه ، او تخص الجاليات والجماعات التجارية الاجنبية في الشام ومصر او الجماعة اليهودية . اي تخص العلاقات الادارية والتجارية بين النظام المملوكي والجماعات الذمية او الاجنبية . وثائق الحرم القدسي وحدها كلها اسلامية وهي لاتخص القدس وماحولها فقط ولكن تصور المجتمع الاسلامي في العهد المملوكي في حياته العامة وعلاقاته الاجتماعية والاقتصادية ، ونظمه في الادارة والقضاء والدبلوماسية .فمنها المراسيم السلطانية ومنها القصص (او رقايع الدعاوي) ومنها احكام القضاة والشهادات والمحاضر وبراءات الذمة وعقود الزواج والحسابات والشكاوي والخصومة والوقف والاقرار وقوائم المواريث ودفاتر المحاسبة والاسعار ...

هناك ١٨ مرسوما من مراسيم السلاطين والامراء من الظاهر بيبرس والناصر محمد الى السلطان جقمق وخشقدم والنواب في دمشق والقدس . وهناك معها ٣٧٨ محضرا قضائيا بحصر الارث والتركة و ٩٤ اقرارا واشهادا و٤٧ شكوى و٢٧ دفترا للحسابات عدا فواتير البيع وصكوك الوقف والفتوى والمطالعات .. وبعض الوثائق بالفارسية ؛ وكأن هذه المجموعة كانت في الاساس اوراق قاض من قضاة القدس فيما بين سنتي ٧٩٣ ـ ٧٩٦ ولعله عبد اللطيف ابريش الشافعي ، في ظل نائب القدس والخليل يومذاك الامير شرف الدين موسى بن بدر الدين حسن العسكري ثم اجتمعت اليها من هنا وهناك ، وفي ظروف شتى ، مخطوطات ووثائق اخرى بعضها شفع له الخط الجميل وبعض ابقاه الحظ الجميل ؛ وقد حولها القدم والندرة والمحتوى التاريخي الى كنز وثائقي ينام في الصناديق ! ...

ويسألك السائل العابر ـ وجمهرة السائلين العابرين هم الكتلة الكبرى من الناس ـ ماقيمة هذا كله ؟ وماتقدم او تؤخر سلة من المهملات ؟ أهي اكثر من ركام من الورق الغالي العتيق ولو انك تدعوه كنزا ؟ اهو يحكي اكثر من حكايا عادية لبعض العاديين من الناس وقد انقرضت الحكايا وانقرض الناس ؟ ...

قل انها بالفعل مهملات من الورق ... ولكن هل اتاك حديث ما تحتضن من العلم هذه المهملات ؟ ومن العلم بالمجتمع الاسلامي ، في الشام وغيره قبل سبعة وثمانية قرون ؟

مرحلة تاريخية بدأت

هذه اول مرة تكتشف فيها اوسع مجموعة وثائقيه اسلامية تعود الى ماقبل العهد العثماني . وهذه اول مرة تقع فيها تحت الضوء القوي والوثائقي قطاعات كاملة من حياة مدينة عربية اسلامية في العصر الوسيط . نبضات المجتمع والحركة الاقتصادية والمعاملات وامور الدنيا من حاجات البيت وادواته الى الملابس بأنواعها وألوانها ومناسجها الى أسعار الجارية والمنديل والمسك والملح وأجرة العامل وشيخ الجامع هي الآن تحت ايدينا. الحسابات سواء كانت في « الدفاتر المباركة » او في « المخزونات » او في قوائم التركة وصكوك الاقرار ترسم الصورة الكاملة لحياة الناس اليومية وعلاقاتهم كما تكشف يومية الصوفي وعمل الشروطي ونشاط المؤسسات الاسلامية الحي في المدارس والخانقاهات والبيمارستانات والزوايا .. لن يكتب بعد الآن تاريخ المجتمع الاسلامي المملوكي دون حضور هذه الوثائق ...

من زاوية اخرى تقدم وثائق الحرم صورة من تطور الدبلوماسية الاسلامية في مراحلها الاخيرة قبل العثمانيين ، ومن الادارة المملوكية وهي في الحركة اليومية والتطبيق . مؤسسات الادارة الاسلامية تعرف

اختصاصاتها ونماذجها الادبية لكن ندر ان حفظت المصادر ممارساتها العملية وطرائقها في التصرف والعمل اليومي . وثائق الحرم هي اول النماذج المتاحة حتى الان !

من زاوية ثالثة لقد حصلنا الأن على صورة حية من حركة النظام القضائي في الاسلام : ميكانيكية العملية القضائية ونشاطات موظفي القضاء، وتفاصيل اعمالهم ... واهتماماتهم وثقافتهم كلها مسطورة في تلك الوثائق . كانت الصورة تؤخذ من كتب الفقه او الادب او التراجم . كانت دوما صورة نظرية ونحن الأن نراها وهي تتحرك بين الناس وداخل البيوت .

واخيرا فان القدس ، جرح العرب الكبير ، قد كسبت الكثير من هذه الوثائق التي كانت تحتضن وتخفي في صمت ، عدة قرون . ان مرحلة هامة من تاريخها غير المكتوب قد عادت الى الوجود . بلى ! حظيت القدس بالذات ، في العصر المملوكي بالرعاية التي لم تحظ بها من قبل الا في العهد الاموي . ولقد ضمت ، في تلك الايام ، ٦٣ مدرسة و ٢١ زاوية وخانقاه ورباطا عدا مابنى من بيمارستان ومسجد وسوق .. ولقد كتب في فضائلها وتقديسها ، في ذلك العهد نفسه ، ثمانية كتب كما ظهر اوسع كتاب في تاريخها : كتاب الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل الذي اهداه لمجدها : ابن القدس : ابو اليمن مجير الدين الحنبلي . وبالرغم من ذلك كله فالواقع أن تاريخها الحقيقي ، حياتها العامة ، نبض ايامها ظلت - كما هو الامر بالنسبة للمدن العربية الاسلامية الاخرى - في جو من الضباب والغموض والعموميات .. فما تلتقط منه الا الظلال كشف هذه الوثائق اني لا يضيء فقط جانبا من تاريخ القدس العربي الاسلامي ولكنه اتى لكي يقدمها نموذجا للمدن الاسلامية الاخرى واتى ايضا ليضيف بعدا معنويا جديدا للمقاومة التي تمثلها هذه المدينة القدسية ضد صحيفة البلاد ..

بلى ! حتى الورق القديم يدخل المعركة !..

بقى ان تبقى الوثائق في مستقرها وملكا لاهلها . فهل تراها تبقى ام تذهب مع مايذهب كل يوم ؟ ان كل هي وثيقة منها وثيقة ملكية اضافية لتلك الارض المقدسة ، وتصفع المعتدين ... والمتخاذلين على السواء ! « فهل من مدكر » ■■

د . شاكر مصطفى

من المنتصر ؟

× جلس صديقان انجليزيان يتحدثان فقال الأول للثاني : انني في هذه الايام اتشاجر مع زوجتي يوميا .

فسأله صديقه : ومن الذي ينتصر ؟

فاجاب : طبعا انا صاحب الكلمة الأخيرة ..

فسأله صديقه : وكيف هذا ؟

فاجاب قائلا : لانني اعتذر في النهاية دائما !

لحن ابليس

ظل الموسيقى تارتيني اياما وليالي يفكر في وضع لحن موسيقى يعبر عن فكرة جاشت بخاطره ولكن قريحته لم تسعفه باللحن المنشود .. وبينما هو نائم ذات ليلة رأى ابليس الى جواره ، حاملا كمانه يوقع اللحن الذي يعبر عن فكرته اروع تعبير .. وصحا من نومه وهو يتذكر كل نغمة في هذا اللحن الخالد المعروف « بلحن ابليس » .

ليس هدف الحكومة في السلم وفي الحرب هو تمجيد الحكام أو الأجناس ، ولكن هدفها هو تحقيق سعادة الرجل العادي - وليام بيفردج

شيرلي وليامز تقول :

السياسة للناس

بقلم : جمال الكتاني

في يوم ١٣ ابريل ١٩٨١ نشرت شيرلي وليامز Shirley Williams ثاني سيدات السياسة في بريطانيا - بعد مارجريت تاتشر - آخر كتبها وعنوانه « السياسة للناس » .

وجل الذي تقوله شيرلي وليامز في السياسة مهم له وزنه ، فهي بين ساسة العالم حاليا في قمة الهرم .. ولقد زادت آراؤها اهمية منذ عقد حزب العمال البريطاني مؤتمره المشئوم في شهر يناير ١٩٨١ حيث انقسم اعضاء الحزب الى قسمين انفصلا عن بعضهما مؤخرا : قسم يميني فيه شيرلي وليامز وقسم يساري يضم مايكل فوت Foot وتوني بن Benn.

ولقد اعلن في يوم ٢٦ مارس ١٩٨١ تشكيل حزب سياسي بريطاني جديد هو الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، يضم كل من انشقوا على حزب العمال وبعض من خرج على حزب المحافظين . والحزب الجديد يمثل الوسط السياسي في بريطانيا وينادي بالسياسة المعتدلة التي تبشر بها شيرلي وليامز في كتابها الجديد الذي نحن بصدده ، وفيه تشرح المؤلفة فلسفة الحزب الجديد وهي تؤمن ايمانا عميقا راسخا بلزوم بعث دفعة سياسية جديدة تمكن بريطانيا من التغلب على المحنة التي يواجهها مذهب « الصناعية » Industrialism (على غرار مذهب الرأسمالية او الشيوعية وهو مذهب المجتمع الذي تسوده الصناعات الكبرى) وتقول :

« ان ما تشاهد في بريطانيا اليوم من تغيرات ، في فترة عاصفة كهذه تهتز فيها مؤسساتنا السياسية من جذورها ، ليست تغيرات طارئة عابرة مؤقتة ، ولا هو مجرد نتاج لاخطار سياسات اتبعت في الماضي - وان كان لهذه نصيب - بل واننا لا نستطيع ان نرجع هذه التغيرات الى نظام واحد ، رأسماليا كان أو شيوعيا - فالنظامان يتصدعان امام اعيننا ... فالازمة اذا هي ازمة « الصناعية نفسها »

رسالة الى كتاب شيرلي وليامز هي ان المشتغل بالسياسة ، وعلى الاخص من هم على شاكلة شيرلي نفسها ، ممن يؤمنون بالاشتراكية الديموقراطية ، عليه ان يقفز بتفكيره قفزة هرقلية توصل الى وسيلة علاج





جديدة . ذلك اذا قدر للغرب ان لا يقف مكتوفا وان يسير قدما ليتخطى ما تم تحقيقه في السنوات التي اعقبت الحرب .

وتعالج شيرلي وليامز في كتابها الجديد مشكلة البطالة التي تتزايد بمعدل رهيب مقلق ، والتدهور الصناعي ، ومشكلة ظهور تكنولوجيا جديدة تعرفها بتكنولوجيا « الميكروتشب » ، وتتحدى الكثير من المعتقدات السائدة التي تتعلق بالنظام السياسي والاقتصادي . كما تناقش في اسهاب القضايا الرئيسية في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتقدم عددا من الحقائق تألقت في اختيارها وابدعت في عرضها . كما تتقدم في كتابها « السياسة للناس جميعا » Politics is For People بعدد من المقترحات القيمة التي تتعلق بالمستقبل .

نذكر من هذه المقترحات على سبيل المثال ، ما تقترح صاحبة الكتاب من اصلاحات من شأنها ان تحد من سلطة الحكومة وسلطانها ، وتجعلها اكثر مسئولية امام الشعب ، وتطلق حرية نشر المعلومات والبيانات الصحيحة ، ويكون من نتائجها ان تصبح ديموقراطية الصناعة امرا يفرضه القانون ... كما تقترح تشجيع زيادة اشتراك الآباء في مجالس ادارة المدارس والخدمات الاجتماعية والتجمعات السكنية ، ووضع نظام قومي لتدريب كل من يتم مرحلة التعليم الثانوي الاجباري ولا ينوي مواصلة التعليم في الجامعات والمعاهد العليا ، وتشجيع النمو الاقتصادي المطرد عن طريق اعتناق اقتصاد مختلط ، ووضع سياسة الدخل وحوافز ضريبية لمن يستثمرون اموالهم في توسيع القاعدة الصناعية وتشجيع اللامركزية ...

وتقدم شيرلي وليامز كذلك مقترحات خاصة بسياسة التعليم والاسكان من شأنها ان تقضي بالتدريج على ما هو قائم من عدم التكافؤ الاجتماعي ، ومقترحات خاصة بما يقدم من مساعدات لدول العالم الثالث ، وتحقيق وعي وادراك افضل واتم لامكانيات السوق الاوروبية المشتركة ومحاولة اصلاح عيوبها من الداخل .

وشيرلي وليامز وهي معروفة بفرط اخلاصها ودفء شعورها ، تؤمن ايمانا عميقا بأن الواجب يقضي بأن يشترك افراد الشعب اشتراكا فعليا مباشرا في تحسين مستوى حياتهم . والعمل على مقاومة تضخم البيروقراطية وعلاج ما اصاب المجتمع من تجمد في الشعور بناي ما تحتاجه الفردية من دفء ورعاية ، واحترام كيان كل عضو من اعضاء المجتمع حتى ينتهي بنا الامر لنكون ـ بل حيث يجب ان تكون « السياسة للناس جميعا » ...

طريق الى الصدارة

ولدت شيرلي وليامز عام ١٩٣٠ وكان ابوها ـ جورج كاتلين ـ اخصائيا في علم السياسة ، وامها فيرا بريتين ـ كاتبة لها اكثر من مؤلف ...

درست شيرلي وليامز الفلسفة والعلوم السياسية والاقتصاد في جامعة اكسفورد وفازت بعد ذلك بجائزة علمية للدراسات العليا بجامعة كولومبيا بنيويورك .

وفي عام ١٩٥٥ تزوجت من برنارد وليامز ورزقت منه ببنت اسمتها ريبكاكلير ، وانتهى هذا الزواج بالطلاق عام ١٩٧٤ .

فازت شيرلي وليامز في الانتخابات عام ١٩٦٤ ودخلت مجلس العموم البريطاني عضوة عمالية تمثل دائرة « هتشين » . وعينت فورا سكرتيرا برلمانيا خاصا لوزير الصحة ثم سكرتيرا برلمانيا لوزارة العمل ... وفي وزارة

العمال عام ١٩٦٧ كانت وزيرة الدولة لوزارة التربية والعلوم وبين ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ كانت وزيرة دولة في وزارة الداخلية . فلما تركت حكومة العمال الحكم بعد فشل الحزب في الانتخابات ، احتلت شيرلي وليامز مقعدا اماميا من مقاعد المعارضة ، فكانت تتكلم باسم العمال في مجلس العموم في كل ما يتعلق بالخدمات الاجتماعية والداخلية والاسعار ثم عينت في الفترة من ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦ وزيرة للاسعار وحماية المستهلك ثم وزيرة التربية والعلوم بين ١٩٧٦ ـ ١٩٧٩ . وكانت عضوا في الهيئة التنفيذية الوطنية للحزب بين ١٩٧٠ ـ ١٩٨١ حتى استقالت مؤخرا لتشترك في تشكيل الحزب الاشتراكي الديموقراطي الجديد .

كما انها عضو في معهد دراسات السياسة منذ عام ١٩٧٩ واستاذ زائر في كلية نفيلد بجامعة اكسفورد بين عامي ١٩٦٨ ـ ١٩٧٥ . وعضو في معهد الدراسات السياسية في مدرسة كينيدي ، كما حاضرت في جامعتي هارفارد وكمبردج . وفازت بالعديد من الجوائز والمنح والالقاب العلمية منها الدكتوراه الفخرية من جامعات ليدز ورادكليف ولوفن ـ كما خصص لها التليفزيون البريطاني برنامجا خلال ١٩٧٩ عنوانه « شيرلي وليامز في حوار » .

ولشيرلي وليامز نفوذ واثر ضخم على الفكر السياسي اليساري ، لان اهل السياسة يستمعون لآرائها ويصغون لما تقول لعلمهم بأنها لا تنطق عن هوى وانها تودع ما تقول عصارة فكر حاد وتجربة واسعة ودراسات عميقة مستفيضة ... وهي ابدا تنطق عن صدق وايمان وإخلاص لا تحده حدود .

وهي اذ تعرض لما تحقق في عالم السياسة بعد الحرب العالمية الثانية تقول ان السياسة في غرب اوروبا خلال الثلاثين عاما التي اعقبت نهاية تلك الحرب كانت تقوم على اساس ديموقراطية الرفاهة . ولقد ساندت دولة الرفاهة احزابا تراوحت الوانها وآراؤها السياسية بين اراء الاشتراكيين الديموقراطيين من ناحية والاشتراكيين المسيحيين من ناحية أخرى ، بل وانها احتوت الجناح التقدمي من حزب المحافظين البريطاني كذلك ... وفي ظل ديموقراطية الرفاهة ارتفعت الضرائب نسبيا وصحبها محاولة اعادة توزيع الدخل والاقتصاد مختلط على الرغم من ان نسبة القطاع العام الى القطاع الخاص في الصناعة في حدود ذلك الاقتصاد المختلط ، ظلت موضوعا لجدل حاد .. وكانت السيادة لا شك لديموقراطية الرفاهة التي ترتبط بها اقتصاديات « كينز » .. على ان الجو العاصف الذي ساد ويسود الثمانينات قد شجع الكتاب على السخرية من اجماع الرأي هذا رغم انه حقق ـ او قل صاحب ـ اعلى مستوى معيشة بلغه الفرد العادي في اي بقعة من الارض منذ فجر التاريخ .

وتقوم ديموقراطية الرفاهة على اطراد النمو الاقتصادي ، وهذا بدوره يتوقف على وفرة موارد الطاقة والمواد الخام والارض ورخص اسعارها ... على ان مستلزمات النمو الاقتصادي السريع قد اختفت او كادت ... وهنا يتساءل الناس : ماذا يحدث لسياسة تقوم على اساس ضمان مستوى حياة افضل ؟.... الاحزاب السياسية كلها في بريطانيا مثلا تقدم للناخبين برامج سياسية تعد بتوفير مستوى اعلى للمعيشة ... احزاب اليسار تنادي عادة بضرورة زيادة نمو الخدمات الاجتماعية والتوسع فيها بحيث تزيد على الاستهلاك الخاص ... اما احزاب اليمين فتنادي بعكس ذلك تماما اما الآن فان هذه المناظرة قد تحطمت تماما .

« الصناعية في القرن العشرين »

السياسة في ايامنا هذه قلقة مضطربة ... ومن المعلقين من يذهب الى ان ما يجري حاليا لا يزيد عن كونه قلقلة مؤقتة يمكن تصحيحها بعد قليل . وهذا هو الرأي الذي تنادي به احزاب الوسط ويدعو اليه الساسة المعتدلون من الاشتراكيين الديموقراطيين والمحافظين التقدميين على السواء . وهناك طائفة اخرى تقول بان مصدر التذمر الحالي في بريطانيا ودول غرب اوروبا هو سياسات الماضي الخاطئة وخاصة زيادة الانفاق العام وتضخم الدور الذي تلعبه الدولة وهذه هي جماعة « السياسة التقدمية » وجماعة المحافظين . اما الرأي الثالث ـ وهو اساسا رأي اليساريين ـ فيلوم النظام الرأسمالي . فأصحاب هذا الرأي يرون انه قد فشل تماما واصبح من الواجب ان يستبدل بنظام اشتراكي ثوري . وجل اصحاب هذا الرأي من اتباع تروتسكي وشيعه ماركس ، ومن الاشتراكيين من اقصى اليسار والاحزاب الشيوعية في غرب اوروبا ... على ان حماسة هؤلاء لهذا الرأي تختلف من حيث الدرجة .

والى هنا نرى ان التحليل لا يتعمق بقدر كاف ولا يمس جذور المشكلة .. فالتغيرات التي نشاهدها اليوم في فترة الاضطراب والقلق التي تمر بها بريطانيا والتي تهز مؤسساتها التقليدية من جذورها ، ليست مؤقتة .

بدأت الاشتراكية كاستجابة للنوع الخاص من

البناء الطبقي الذي تمخضت عنه الثورة الصناعية فكانت اساسا فلسفة اوروبية شقت طريقها الى القارات الاخرى بعد ذلك . على ان الاقتصاد الصناعي الحديث يختلف تماما عن « الصناعية Industrialism في القرن التاسع عشر .

فعدد العمال الذين تستخدمهم المصانع قليل متضائل ، مع ان المصانع هي مسقط رأي الطبقة العمالية .. اما عدد الذين يشتغلون بالمهن والوظائف الاخرى ، فعددهم يتزايد يوما بعد يوم ـ واما الاشتراكية التقليدية المشبعة بالاتجاهات والافكار الصناعية والتي تقوم على اساس النضال والتصادم بين الطبقات الاجتماعية ، فقد عفا عليها الدهر .

فاذا نظرنا الى طبيعة ما حققته ديموقراطية الرفاهة وجدنا ان اهداف الديموقراطية الاجتماعية في بريطانيا بعد الحرب واهداف الليبرالية المتقدمة في الولايات المتحدة وكندا ، هي اهداف النمو الاقتصادي والتشغيل الكامل للايدي العاملة والقضاء على الفقر مع تكافؤ الفرص .

ولقد احسن وليام بيفردج Beveridge اذ قال في عام ١٩٤٢ « ليس هدف الحكومة في ايام السلم او الحرب هو تمجيد الحكام او الاجناس ، ولكن هدفها هو تحقيق سعادة الرجل العادي » . ولقد اتبعت الحكومات وسائل عدة لتحقيق هذا الهدف فلجأت مثلا الى التخطيط وتنظيم التمويل العام والتدخل الحكومي لصيانة التشغيل الكامل للأيدي العاملة والنمو الاقتصادي . وتعلم القائمون على الامر ذلك الدرس الذي ورد في كتاب « مينارد كينز » الخاص « بالنظرية العامة للعمالة والفوائد والنقد » . وتم التحكم في الاقتصاد باستعمال هذه الطرق بصفة عامة وان كانت بعض دول غرب اوروبا وخاصة بريطانيا وفرنسا وايطاليا قد لجأت الى تأميم الصناعات والمرافق الرئيسية كوسيلة اساسية للتحكم في الاقتصاد .

ولم تعد معظم الدول الصناعية في غرب اوروبا تعتمد في القرن العشرين على اقتصاد رأسمالي صرف اذ قد زاد حجم القطاع العام بعد الحرب الكونية الثانية واصبح الاقتصاد في دول غرب اوروبا او معظمها اقتصادا مختلطا ، لا هو رأسمالي صرف ولا هو اشتراكي حكومي بحت ، ولكنه مزيج له خصائص من هذا ومن ذلك .

في عام ١٩٣٦ تنبأ « كينز » Keynes بأن الزمن سيثبت اخطاء المتشائمين من الفريقين . فتشاؤم الثوريين الذين يعتقدون ان الاحوال قد سارت الى درجة لا يرجى معها صلاح ولا ينتظر معها خلاص من تغيير عنيف .. وتشاؤم الرجعيين وقولهم بأن التوازن بين حياتنا الاقتصادية والاجتماعية في خطر لا يسمح لنا بأن نجازف باجراء التجارب . كلاهما اثبتت الايام خطأه ... وهكذا اصاب كينز » فيما تنبأ به . ولقد تمخض اجماع آراء الاشتراكيين الديموقراطيين والليبراليين خلال الثلاثين عاما التي اعقبت الحرب عن دولة الرفاهة وعن اقتصاد مخطط في معظم دول غرب اوروبا ، واتجهت الحكومات نحو خلق جو تتكافأ فيه الفرص ويمحي فيه الفقر المدقع .

ولم يحدث خلال تلك الفترة ان زاد مستوى التعطل عن العمل عن نسبة ١٠٪ التي وصلت اليها البطالة في الفترة بين الحربين ، ولم يمر عام واحد لم يتحسن فيه مستوى معيشة الفرد العادي ، واختفى الفقر بالمعنى المألوف لنا في العالم العربي من شمال غرب اوروبا ، وزادت سنوات التعليم الثانوي الالزامي وزادت ملكية المساكن .

ونذكر في هذا الصدد ان رالف دارندورف Dahrendorf وهو من المع المفكرين الاجتماعيين ، قال في كتاب نشر له مؤخرا من السهل علينا ان نسخر اليوم من الاعراض السياسية المتزامنة التي تميز أزمة العصرية ورقمتها ، ولكن المهم هو ان نؤكد ان اجماع آراء الفكر الاجتماعي الديموقراطي يعتبر من نواح عدة دليلا على اعظم تقدم تحقق عبر التاريخ حتى الآن . ولم يحدث من قبل ان اتيح لمثل هذا العدد من الناس مثلما اتيح لهم مؤخرا من فرص في الحياة » ... ونظرة واحدة الى مستوى المعيشة في بعض اقطار العالم الثالث ـ رغم ما فيه من مجاعات تكفي لاثبات ذلك .

صمدت نظريات « كينز » وآراؤه امام كل ما وجه اليها من نقد وتجريح خلال الثلاثين عاما التي اشرنا اليها . وصمد الصرح الذي بناه هذا الاقتصادي الملهم وتجسم فيما نعرف اليوم من « دمبارتون اوكس » و« بريتون وودز » وغيرها مما يمثل معاني الخير والدوام . فهذه المنظمات الدولية التي اسست لتؤدي وظائف مؤقتة بعد الحرب الكونية الثانية قد استمرت في الحياة رغم ما واجهت من ضغوط ولقيت من صعاب ومشاكل ، بل وانها عززت ـ كما حدث في حالة الجمهورية الفرنسية الثالثة ـ الرأي القائل بأنه « لا يدوم اكثر من المؤقت » .

وتحطم صرح كينز

على ان هذا الصرح الذي بناه « كينز » قد تحطم

الآن او كاد ولم نعد نرى منه الا الاطلال .. تصدعت اسسه بسبب حرب فيتنام ، وما ابتدع من « اليورو دولار » او « الدولار الاوروبي » الذي ظهر لتمويل تلك الحرب .. كما تصدع هذا الصرح لان دول غرب اوروبا الكبرى اعرضت عن اعادة بناء المؤسسات الاقتصادية الدولية التي اسهم « كينز » في بنائها ، ولم تشأ ان تدعم الاتفاقية العامة الخاصة بالتعريفة والتجارة GATT وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ، بحيث تعكس مدلول العالم الثالث ونفوذه الذي اخذ يتزايد بتزايد عدد الدول التي نالت استقلالها بين الستينات والسبعينات . واضعف هذا الصرح ان الاتحاد السوفييتي وحلفاءه رفضوا الانضمام الى تلك المؤسسات لاسباب سياسية ، وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير هي الفشل في العثور على وسيلة فعالة لاعادة تدوير الفائض عند دول « اوبك » المنتجة للنفط .

والمؤسف حقا هو ان الله لم يقيض لمؤسسات « كينز » من يصلحها او يوسعها او يقيم الجديد من البناء على الاساس الذي وضعه .. كما انه لم يظهر ما يخلف مشروع مارشال (١٩٤٨) الذي ساعد أوروبا على البرء من آثار الحرب وتحقيق انتعاش لا نظير له ، رغم ان الفجوة بين مطالب العالم الثالث واحتياجاته وبين موارد الغرب ، اوسع من الفجوة التي كانت بين أوروبا التي دمرتها الحرب وبين امريكا الشمالية في عام ١٩٤٨ .. هذا ونحن نشاهد العالم المصنع يتعثر في خطاه في اثر ما تم تحقيقه بعد الحرب ...

ولم يقتصر نجاح اجماع الرأي الاشتراكي الديموقراطي على الناحية الاقتصادية رغم ان هذا النجاح في ذاته كان باهرا ، ولكن تحقق كذلك نجاح سياسي ملحوظ . ونذكر ان ونستون تشرشل حذر الناخبين ضد انتخاب مرشحي حزب العمال ـ وهم من الاشتراكيين ـ وقال ان الامة اذا وقعت في مثل ذلك الخطأ فانها ستدرك بعد الانتخابات انها قد انتخبت جماعة من البوليس السري او الجستابو . وردد السناتور جوزيف ماكارثي هذه النغمة في الولايات المتحدة ، واكد للناس ان كل اشتراكي هو في الواقع شيوعي في ثوب جميل .

وحدث عكس ما تنبأ به تشرشل وماكارثي .. وكانت حكومة العمال في بريطانيا هي اول من شرع ليكون لكل مواطن صوت واحد في الانتخابات ـ وكان لبعض الافراد من قبل اكثر من صوت واحد . وكانت وزارة العمال في بريطانيا اول من يسر للمواطنين الاستعانة بالمحامين بالمجان للدفاع عنهم اذا لم تمكنهم ظروفهم المالية من ذلك واباحت الحكومة للمواطن حق مقاضاة الحكومة امام المحاكم . وظهر في السويد والنرويج ما يعرف باسم « المحكم العام » ـ امبودزمان « ينظر في شكايا الناس ضد دوائر الحكومة ، وهو نظام اعتنقته بريطانيا والمانيا الغربية فيما بعد .

الديمقراطية تكسب

ولعل اهم ما تحقق منذ ١٩٤٥ هو ان الديموقراطية لم تخسر للشيوعية او الدكتاتورية دولة واحدة ـ باستثناء الفترة القصيرة التي حكمت فيها اليونان حكما عسكريا ـ بل ولقد عاد الى احضان الديموقراطية ثلاث دول هي اليونان واسبانيا والبرتغال .

هناك اختلاف كبير بين التقاليد الليبرالية والتقاليد الاشتراكية ، على الرغم من ان المذهبين يشتركان في العديد من الأهداف والوسائل . زد على ذلك ان لكل من كلمة « ليبرالي » وكلمة «اشتراكي» معاني وتفسيرات مختلفة . فالاشتراكية لها معان تنبع من الاصول التي نشأت منها . فهي كلمة تستعمل في وصف المجتمع التعددي المختلط في السويد مثلا . كما تصف الاقتصاد المقيد في الاتحاد السوفييتي او بلغاريا . ولقد اشار الكاتب الامريكي ثيودور دريبر الى اغتصاب الشيوعيين لمصطلح « الاشتراكية » وهو مصطلح يدعو الى الريبة في الولايات المتحدة . فالامريكيون كالروس يستعملون عبارة « الدول الاشتراكية » لوصف الكتلة السوفييتية . وتعتبر الدول التي تنحدر عن التقاليد الماركسية ان الاشتراكية هي المرحلة قبل الاخيرة في الطريق الى الشيوعية الكاملة ، والشيوعية هي المرحلة التي تزول فيها الدولة وتتلاشى على حد قول ماركس ـ وهي مرحلة لا يتم الوصول اليها في المجتمعات التي تقبل تعاليم « ماركس » الا ببطء وبعد عنت شديد .

والماركسية تسهم بقسط وافر في التقاليد الاشتراكية . فالعلاقات الاقتصادية تتشكل وفقا لطرق الانتاج وعليه فقد خلق التصنيع طبقة من الملاك تعرف بالبورجوازية وهي التي تولت تنحية طبقة اصحاب الاراضي ، اي الطبقة الارستقراطية ، وكذا طبقة عمالية لا تملك الا سواعدها التي تستغلها البورجوازية .

ويمكن للطبقة العاملة عن طريق الثورة أن تستولي على وسائل الانتاج وطرد الطبقة الحاكمة . وهنا تتولى دكتاتورية العمال قيادة الدولة الاشتراكية الجديدة وتكون هذه الدكتاتورية مسئولة امام الشعب عن طريق

حزب الثورة . وإذا ما تلاشت الطبقات ـ بعد ان تصبح عديمة الفائدة ـ تضمر الدولة وتذوي ويولد مجتمع شيوعي غير استغلالي يحكم نفسه ويتولى انتاج البضائع وتقسيمها بين افراد الشعب « من كل حسب قدرته ولكل وفق حاجته » ولقد الهبت هذه الرؤية النبيلة لمجتمع لا صراع فيه ولا استغلال ، خيال الكثير من الرجال والنساء .

اعتنقت بريطانيا مذهب الاشتراكية بالوسائل البرلمانية الهادئة عن طريق حزب العمال الذي تساندة النقابات العمالية وفيها عدد لا بأس به من الماركسيين . وفي هذا ما يثبت ان اعتناق الاشتراكية امر ممكن عن طريق الاقناع والاقتناع وانه لا يستلزم القيام بأي ثورة او انقلاب . والالتزام بطريق الاقناع هو لب الاشتراكية الديموقراطية وهو الذي يميزها عن غيرها من انواع الاشتراكية . ولقد تحول هذا الاقناع على مر الزمن الى علاقة مستديمة بين الاشتراكية الديموقراطية ، وبين الناخبين . وهي علاقة ذات نفوذ واثر على تطوير الفكر الاشتراكي يعني تعدل مذهب الاشتراكية وتغيره لكي ينال قبولا عند الناخبين . وكان من نتيجة ذلك أن ظهرت سياسة التدرج ـ خطوة خطوة ـ واتضح للناس أن الاشتراكية لا يمكن ان تتقدم الا في فترات متقطعة وانها قد تصاب بالنكسات بين حين وحين .

ولنا ان شاء الله عود الى آراء شيرلي المتطرفة والديموقراطية المترمتة ، وجدير بالدول العربية ان تبادر وتخطب ود شيرلي وليامز ، فهي لابد تتزعم حزب الوسط الجديد ان عاجلا وإن آجلا ، ولعلنا واجدون فيها ما يناهض حزب العمال البريطاني وتحيزه السافر لاسرائيل نظرا لان عدد الصهاينة الذين يمثلون في مجلس العموم كبير ونظرا للصلات الشخصية التي تربط هارولد ولسون ـ وكان صديقا حميا لجولدا مائير ـ بزعماء الصهاينة في العالم . ■■

لندن ـ جمال الكتاني

علم الاقتصاد

● خرق القماش يصنع منها الورق والورق يطبع منه البنكنوت والبنكنوت ينشيء البنوك . والبنوك تقدم للناس القروض .. والقروض تسبب الفقر . والفقر يؤدي الى لبس خرق القماش . هذه هي خلاصة علم الاقتصاد !!

● ترك شوقي كنزا ثمينا من الحكم المنثورة ، يكاد يعادل الكنز الثمين الذي خلفه من شعره الخالد ..

وهذه احدى حكمه ، تجد فيها عمق الفكرة وبراعة التعبير :

« دود الحرير جاهل » : صنع للناس خير مالبسوا ، ثم هلك ، فما تركوا له مما صنع كفنا !

« والنحل حكيم » : طعم من كل الثمر والزهر ، ثم اطعم الناس بعض ما في جوفه !

● التأمين على الحياة : هو رهان بين المؤمن وشركة التأمين على انه سيموت قبل الميعاد الذي تحدده الشركة لوفاته !

● الدكتاتور : هو الحاكم الذي يبدو انه حائز لثقة الامة وتأييد الرأي العام حتى قبل سقوطه بدقائق ..

أقوال معاصرة



■ نحن نعيش مرة واحدة .

■ لابد من حدوث معجزة لوقف مذبحة لبنان .

« مجلة تايم الامريكية »

■ « الحب اقوى من الخطر .. انا بين يدى الله »

« البابا جون بول الثانى »



■ ارجو ان تنال قضية الشعب الفلسطيني كل عنايتكم ، انطلاقا من مبادىء الحرية والاخاء والمساواة .

« امير الكويت لرئيس فرنسا الجديد ميتران »

■ المهم هو مستقبل فرنسا .

« ريمون بار بعد هزيمة ديستان » .

■ الطفل في حاجة الى المحبة والعناية مثله مثل غرسة لاتستغنى عن الشمس والماء .



■ لم اكن طفلة مدللة ، وقد تأثرت بامي اكثر من والدى نهرو .

« انديرا غاندى »

■ اسمع صوتا يخرج من صدرى . « اني ارفض . ولتكن الزنزانة قبرى »

« روبرت ساندز الثائر الايرلندى »

■ لم اقل ابدا انني اريد ان اتحول الى لجنة دائمة من لجان الامم المتحدة ، بانتخابي لمدة ثالثة .



« فالدهايم »

■ زواجك بي ، سوف يساعدك على التخلص من هذا الحب الذى يملأ قلبك نحوى .

« الأمير تشارلز لخطيبته »

■ اهم وادق مشكلة تواجه حكومة الرئيس الامريكى الجديد ريجان ، العداء بين العرب واسرائيل وقضية فلسطين .



« مجلة نيوز اند وورلد ريبورت »

■ بلغت خسائر شركات صناعة السيارات الكبرى في امريكا خلال عام ١٩٨٠ ، رقما مذهلا وصل إلى اربعة بلايين و٢٠٠ الف دولار .

« هيرالد تريبيون »

■ ان مارجريت تاتشر سجلت رقما قياسيا في نكث العهود منذ ان الت اليها السلطة عام ١٩٧٩ . انني اتحداها ان تدعو الى اجراء انتخابات عامة فورا .

« مايكل فوت » زعيم حزب العمال البريطاني

هذه التكنولوجيا الجديدة إلى أين ؟

بقلم د . عبد العظيم أنيس

المعالج الدقيق (أو الميكرو معالج) هو المصطلح الذى نستخدمه هنا مقابل الكلمة الانجليزية Microprocessor للتعبير عن هذا الاكتشاف التكنولوجي الجديد الذى تم التوصل اليه خلال السبعينات في العالم الرأسمالي في ميدان الالكترونيات الحديثة ، والذى يعتبره الكثيرون ثورة تكنولوجية بلا نظير في تاريخ التكنولوجيا .

ويتفق غالبية العلماء والتكنولوجيين على ان العصر الحالي يشهد ثلاثة تطورات جذرية في ميدان العلم والتكنولوجيا ، سوف تترك بصماتها الدائمة على مستقبل هذا العالم الذى نعيش فيه : التطور الاول يتعلق بتكنولوجيا الفضاء ، والثاني يتعلق بالهندسة البيولوجية ، والثالث وهو موضوع حديثنا يتعلق بهندسة الالكترونيات .

فبعد أن استطاع الانسان أن يكتشف الصمام الالكتروني ويطوره حدث تقدم هام في علم فيزياء الجوامد ، وهذا أدى بدوره الى اكتشاف الترانزستور أولا ثم تطوير رقيقة السيلكون Silicon chip التي هي أساس المعالج الدقيق .

ولقد كتبت باللغة العربية مقالات عديدة عن الجوانب العلمية البحتة للمعالجات الدقيقة ، وبعضها نشر في مجلة « العربي » ، ولذا لا ننوى الدخول في هذا الجانب في مقالنا ، وانما يهمنا أساسا محاولة استكشاف بعض النتائج الاجتماعية الضخمة المترتبة على اتساع استخدام هذه الثورة التكنولوجية في العالم الرأسمالي ، بأمل اثارة اهتمام الباحثين الاجتماعيين والمسئولين والسياسيين في العالم الثالث حول نتائج التوسع المنتظر في هذه التكنولوجيا الجديدة - اجتماعيا - في الدول النامية .

ان من المسلم به اليوم ان التطبيقات الممكنة (وبعضها قد بدأ بالفعل) لرقيقة السيلكون سوف تؤثر عمليا على كل أماكن العمل من مصانع ومكاتب ومراكز خدمات . ليس هذا فحسب ، بل انها سوف تؤثر بالقطع على كافة ألوان النشاط الترويحي للانسان في وقت الفراغ . فهناك معالجات الكلمة (آلات الطباعة أو النسخ الحديثة) في المكاتب ، وأجهزة خزن واستعادة المعلومات الكترونيا في البنوك وشركات التأمين ، وهناك سيارات المستقبل التي سوف تزود بالاجهزة القادرة - بلمسة واحدة على زرار في الداخل - على أن تشخص الخلل في السيارة وحالة استهلاك البنزين ، وحالة المكثف والعجلات وأى معلومات أخرى مفيدة .

وهناك أجهزة اللحام « الروبوت » ، والاجهزة التي تقوم بالتجميع والتغليف في المصانع بدلا من الانسان ، والاجهزة التي توزع البنزين في محطات الوقود ، وأجهزة ضبط الحساب عند مخارج « السوبر ماركت » ، والاجهزة الموجودة في المنازل ولها القدرة على أن تتعرف على صاحب المنزل فلا تفتح الباب الا له !

سؤال حول البطالة

ولكي نفهم مغزى هذه التكنولوجيا الجديدة ونتائجها الاجتماعية نحتاج الى منظور فكري يختلف جوهريا عن المنظور الفكري التقليدي الذي يرى أن العلم والتكنولوجيا محايدان من الناحية الاجتماعية . وحتى نرى فساد هذا المنظور يكفي أن نسأل أنفسنا عن أثر هذه الثورة التكنولوجية الجديدة على البطالة في العالم الرأسمالي . والى أي حد سوف تتعمق هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة بفعل الثورة الجديدة . ان هذا التساؤل يلمس في الحقيقة وترا حساسا في العالم الغربي اليوم . أعني قضية التناقض الحاد بين تطور قوى الانتاج وأشكال علاقات الانتاج . هذا التناقض الذي تزداد حدته عاما بعد عام بفعل التقدم التكنولوجي .

وربما كان من المفيد أن نلقي نظرة سريعة على تاريخ العالم القريب (القرن التاسع عشر) لنرى العقدة الاساسية في هذا الموضوع . لقد وصلت أول موجة في التغير التكنولوجي الحديث في العقود الوسطى للقرن التاسع عشر . وظهر تشخيص واحد لها من منطلقين مختلفين . أحدهما على يد أندرو أور في كتابه « فلسفة الصناعيين » . والآخر على يد ماركس في كتابه « رأس المال » .

ان أندرو أور يقول صراحة في هذا الكتاب « ان صاحب المصنع عندما تقهره صلابة العمال . واذ هو عاجز عن السيطرة على العمالة بتخفيض الاجور . مضطر الى استخدام التقدم التكنولوجي للسيطرة على قوة العمل . فمن خلال الوحدة بين رأس المال والعلم يمكن اختزال مهمة قوة العمل الى ممارسة الرقابة على الآله . وهو عمل يمكن أن يقوم به أي « طفل » . ومع أن أندرو أور يقول هذا في مجال الدفاع عن سياسة الرأسماليين الصناعيين ، فان ماركس يكاد يقول في « رأس المال » نفس الشيء في مجال الدفاع عن الطرف الآخر . « ان الالة تستخدم كأقوى سلاح في ترسانة الرأسماليين باعتبارها أفضل وسيلة للتغلب على تمرد قوة العمل على رأس المال » .

ومنذ القرن التاسع عشر حتى اليوم مر العالم الرأسمالي بفترات ازدهار وانكسار مختلفة . لكنه اليوم يمر بأزمة اقتصادية عنيفة يعتقد الكثيرون أنها لا تقل في خطورتها عن أزمة عام ١٩٣٠ . ومن علامات هذه الازمة الجديدة التكاسل في الاستثمارات والتضخم الحاد والبطالة الواسعة والارتفاع الجنوني في أسعار الأرض . لكن جوهر الازمة ـ من وجهة نظر أصحاب الصناعات ـ يتمثل في عجزهم عن المحافظة على معدلات الارباح أو زيادتها . وحتى الآن يبدو أن الاجراءات التي لجأت اليها عديد من الحكومات الغربية لتخفيض الاجور الحقيقية للطبقات العاملة ـ إما مباشرة عن طريق وضع حدود لزيادات الاجور أقل كثيرا من معدلات التضخم ، أو بشكل غير مباشر عن طريق السياسة الضرائبية وغيرها من الاجراءات المالية ـ قد فشلت في تحقيق الهدف المنشود . فاضرابات النقابات تتسع يوما بعد يوم كما نرى في بريطانيا وفرنسا وايطاليا ـ ومقاومة السود تزداد حدة كما هو واضح في أحداث بريكستون في لندن ، والنبض النقابي والسياسي للحركة النسائية يزداد صوته علوا ، وحركات التحرر الوطني في أمريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا تلجأ الى أساليب أشد فعالية في مواجهة الامبريالية . وكل هذا يشكل مظاهر التمرد الحاد والتهديد الحقيقي لسيطرة رأس المال الغربي .

حجة فاسدة

ان هذا هو السياق الدولي العام الذي دخلت فيه ثورة المعالجات الدقيقة ميدان التكنولوجيا الصناعية وتكنولوجيا الخدمات . وفي هذا السياق العام ينبغي أن نفهم ردود الافعال المتباينة لهذه التطورات التكنولوجية الجديدة .

هناك أولا رد فعل رجال الصناعة والشركات المتعددة الجنسية ومنتجي المعالجات الدقيقة أنفسهم . وهؤلاء جميعا أصدروا أكواما فوق أكوام من التقارير والبحوث والمقالات تدعي أن التكنولوجيا الجديدة سوف تؤدي الى زيادة في ثروة الناس ، والى سلع ارخص واكثر وفرة ، والى وقت فراغ أطول لعامة الناس ، والى عمل أنظف وأكثر أمانا . أما الازمة الاقتصادية فسوف تحل لصالح الجميع . وكل هذا بفضل رقيقة السيلكون ، هذه الرقيقة الصغيرة الرخيصة ذات عشرات الالوف من الدوائر .

وهناك ثانيا رد فعل آخر مشابه للاول ، وان كان يعترف بأن بعض المشاكل الاجتماعية ـ تتمثل أساسا في البطالة ـ سوف تنشأ بسبب التكنولوجيا الجديدة ، لكنها بطالة مؤقتة في رأيهم . فهؤلاء الذين سوف يفقدون عملهم نتيجة ادخال التكنولوجيا الجديدة في المصانع يمكن اعادة تدريبهم في أعمال شديدة المهارة تتطلبها هذه التكنولوجيا ، أو تشغيلهم في قطاعات الخدمات من تعليم وصحة .. الخ تلك القطاعات التي سوف تتسع نتيجة الثروة المترتبة على استخدام رقيقة السيلكون . وهؤلاء يستشهدون ـ في الدفاع عن وجهة نظرهم ـ بما حدث اثر الموجة التكنولوجية الاولى في القرن التاسع

عشر عندما انخفضت احتياجات المصانع من العمالة آنذاك وتحول مئات الالوف من المصانع الى المكاتب وقطاعات الخدمات وأعمال السكرتارية .

أما رد الفعل الثالث فيأتي أساسا من مفكري الطبقات العاملة ، وهؤلاء يتوقعون شيئا مختلفا تماما من تطبيق هذه التكنولوجية الحديثة في ظل علاقات الانتاج الاجتماعية القائمة اليوم في دول الغرب الصناعية فهم يرجحون انه سوف يترتب على اتساع انتشار المعالجات الدقيقة في قطاعات الانتاج والخدمات بطالة واسعة بنيوية ، وزيادة سيطرة رأس المال على عمليات الانتاج ، وفقدان مهارات عديدة قائمة اليوم بين العاملين ، ومخاطر أمنية صناعية جديدة ليس من السهل التنبؤ بتفاصيلها من الآن .

وهم يقولون ان حجة انتقال العمالة من قطاعات الانتاج الى الخدمات هي حجة فاسدة ، لان التكنولوجيا الحديثة سوف تؤدي الى توفير العمالة في قطاعات الخدمات بالذات تماما كما سيحدث في قطاعات الانتاج .

في بريطانيا مثلا تتفاوت التقديرات الموجودة حاليا عن عدد الوظائف المهددة نتيجة الاتساع في استخدام المعالجات الدقيقة في قطاعات الانتاج والخدمات: فبينما يقدر المتفائلون بانها تتراوح بين مليون ومليوني وظيفة ، تشير التقديرات شديدة التشاؤم الى أن عددها ١٢ مليون وظيفة ؛ لكن بعض الدراسات الحديثة والجادة تتوقع زيادة في البطالة في بريطانيا من وضعها الحالي (اكثر من مليونين ونصف مليون عاطل) الى خمسة او ستة ملايين عام ١٩٩٠ ؛ ولكي نفهم حقيقة الوضع تفصيلا لابد لنا من أن نلقي نظرة على الميادين المحددة التي تطبق فيها هذه التكنولوجيا .

عودة الى المنازل

نأخذ مثلا ما يحدث في أعمال المكاتب والسكرتارية في الغرب بادخال آلات النسخ الحديثة المسماة « معالجات الكلمة » . ان « معالج الكلمة » هو آلة نسخ ذات لوحة (شاشة) أمام الكاتب وذات ذاكرة وتسهيلات طباعة غير عادية . ويقدر منتجو هذه الالات أنه يمكن الاستغناء في كل مكتب عن نسبة من قوة العمل تتراوح بين الثلث والثلثين نتيجة ادخال هذه الالات الحديثة . ومن الناحية العملية هبط عدد الناسخات في مجلس بلدي مدينة برادفورد من ٤٤ الى ٢٢ أي الى النصف بعد ادخال الالات الحديثة وزادت كمية الاوراق المطبوعة بمقدار ١٩٪ ، وفي المجموعة المالية بروفد تشال هبط عدد العاملين في السكرتارية والنسخ من ٢٧ الى ١٧ ، وهناك امثلة عديدة من هذا النوع في المانيا الغربية والولايات المتحدة . ان هذه الحقائق توضح أن التكنولوجيا الحديثة سوف تصيب على وجه الخصوص أوضاع النساء العاملات ، وانها سوف تدفع الكثيرات منهن الى المنازل مرة أخرى .

فاذا تركنا قطاع الخدمات وانتقلنا الى أحد قطاعات الانتاج كصناعة السيارات مثلا ، فسوف نجد توقعات ليست بالافضل كثيرا . ان كثيرا من مصانع السيارات المتقدمة اليوم تعمل على انتاج سيارات ذات معالجات دقيقة تقوم بوظائف عديدة . ففي « سيارة المستقبل » كما يسمونها سوف يتصل معالج دقيق فيها بكابل واحد يدور في كل أجزاء السيارة ويقوم باضاءة السيارة وتشغيل المحرك ومسح الزجاج ... الخ . وسوف يختفي الموزع التقليدي في السيارة ، ونحو ٤٠٪ من الاجزاء الكهربائية الاخرى . وبلمسة واحدة لاحد الازرار سوف تظهر على لوحة أمام السائق سرعة السيارة واستهلاك الوقود وحالة المكثف والعجلات وأي معلومات أخرى يرى مصممو « سيارة المستقبل » فائدة في ظهورها . والاكثر من هذا سوف يقوم المعالج الدقيق بالسيارة بتشخيص أي عيوب فيها أوتوماتيكيا ويوضح أي اجزاء السيارة في حاجة الى تغيير .

ان نتائج هذا الوضع على العمالة في قطاع انتاج السيارات ليست بسيطة . فالاحتياج الى قطع الغيار سوف يقل ولا بد أن يؤدي هذا الى توفير في العمالة في مصانع قطع الغيار ، ومخازن قطع الغيار سوف يصغر حجمها في المستقبل ، وهذا سوف يؤدي الى طوب أقل ، وعمال بناء أقل ... وهكذا . والأكثر من هذا أن التشخيص الاوتوماتي لعيوب السيارة سوف يؤدي الى تقليص عدد عمال اصلاح السيارة وعمال الصيانة .

ان هذا النمط في تقليص العمالة ليس مقصورا على السيارات . ففي اليابان نجد أن التلفزيونات المنتجة حديثا لاتحتوي الا على ٦٠٪ من الاجزاء التي كانت موجودة في التلفزيونات اليابانية منذ خمس سنوات . وسوف ينطبق هذا على الثلاجات (المبردات) الجديدة وأنظمة الهواتف الجديدة وأي انتاج به دوائر كهربائية أو الكترونية .

المهارة مهددة

اذا تركنا قضية العمالة وانتقلنا الى قضية ثانية وهي قضية المهارة في العمل نجد أيضا وجهتي النظر

المتعارضتين . فهناك من يقولون أن التكنولوجيا الجديدة سوف تؤدى الى احلال الاعمال شديدة المهارة محل العمل غير الماهر . لكن الوقائع التاريخية لا تدعم هذه الدعوى ، لاننا لو أخذنا صناعة كصناعة الاثاث أو صناعة البسكوت مثلا فاننا نلاحظ أن العمالة الماهرة القديمة في أعمال النجارة او في عمليات خلط وعجين البسكوت قد حلت محلها الآلة الحديثة بينما بقيت العمالة الاقل مهارة ذات الطابع التكراري كما هي .

ويمكن أن نضرب مثلا آخر عن قضية المهارة بالات النسخ الحديثة (معالجات الكلمة) . قبل هذا التطور الجديد كانت مهارة الكاتب على آلات النسخ تتمثل في قدرته على تقليل أخطاء الكتابة وعلى تنظيم الصفحة ... الخ ، وكان الملل في عملية النسخ يقل ـ ولو بقدر بسيط ـ بقيام الناسخ بمراعاة الهوامش وتغيير الصفحة ووضع الاوراق المكتوبة في دوسيهات خاصة ... الخ . أما الالات الناسخة الجديدة فهي مبرمجة لانواع الخطابات والمذكرات المختلفة ولكل العمليات الهامشية التي كان يقوم بها الناسخ ، وهي ذات ذاكرة قوية وقدرة على تصحيح الاخطاء بنفسها ، أي أن الالة الحديثة تقوم بأعمال عديدة كان الناسخ يقوم بها ، وكل مهمة الكاتب على هذه الالة هو أن يكون سريعا في الكتابة لا أكثر ولا أقل . وكما يقول بعض اعلانات هذه الالات الجديدة « اذا لم يقع الكاتب على هذه الآلة في أخطاء فمعنى هذا أنه لا ينسخ بالسرعة الواجبة » ! فالهدف هو زيادة الانتاجية حتى لو أدى هذا الى فقدان المهارات .

ان مما يلفت النظر في هذا المجال أن أحد جراحي المخ المشهورين قام ببرمجة مهارته وعلمه في آلة واحدة بحيث يستطيع أي طبيب حديث بلا خبرة أو تخصص أن يقوم بعملية تشخيص للجهاز العصبي ، وتتجه فروع من الطب اليوم الى تطوير وحدات تقوم ذاتيا بتشخيص المرض ومثال ذلك أمراض الغدد . بل لعل الاغرب من ذلك أن شركة I.B.M قد ابتكرت آلات حاسبة (كمبيوترز) تقوم هي بنفسها بتصميم الجيل التالي من الالات الحاسبة !

فاذا تركنا قضية المهارة وانتقلنا الى قضية السيطرة على الانتاج بين العمال ورأس المال فسوف نجد مثالا ذا مغزى في معركة جريدة التيمس الشهيرة بين أصحابها القدامى وبين نقابات المطابع . ان النظام الذى كان مقترحا من جانب عائلة طومسون للطباعة كان من شأنه طرد مئات من العمال وهذا ما قاومته النقابة ليس دفاعا عن هؤلاء العمال فحسب وانما لانها كانت تدرك أن قبول عمليات الطرد بالجملة سيؤدى الى اضعاف مركزها التفاوضي ايضا . وعندما فشلت عائلة طومسون في صراعها مع النقابات لجأت الى عرض الصحيفة للبيع ، وهكذا جاء مالك جديد ومعه التكنولوجيا الحديثة ، ولم يكن امام النقابات الا القبول لان البديل الاخر هو اغلاق الصحيفة وتسريح الجميع !.

والأمن الصناعي

تبقى قضية الامن الصناعي على ضوء التكنولوجيا الحديث ، وفي هذا يقول المتحمسون « على أي حال فان التكنولوجيا الجديدة اكثر نظافة وأمنا من الوسائل التقليدية » فهل هذا صحيح ؟

لقد بدأت التقارير ومشروعات المسح الأكاديمي تشير الى اخطار التكنولوجيا الجديدة . فاجهاد العمليات التكرارية السريعة جدا والمملة جدا قد زاد من حالات الانهيار العصبي عند العاملين . وهناك زيادة في حالات اجهاد العين والعقل وحالات البواسير نتيجة التكنولوجيا . والذين ينادون بالتحفظ فيما يقوله المتحمسون يشيرون الى أن العالم احتاج الى ثمانين عاما للوصول إلى تدابير فعالة ازاء أخطار التكنولوجيا التقليدية ، كأخطار الاسبستوس وأشعة اكس ولحام القوس الكهربائي ... الخ ، وانه من السابق لأوانه أن نقول ان التكنولوجيا الجديدة اكثر نظافة وأمنا .

هل يعني هذا كله أن نعادي التقدم التكنولوجي ؟ قطعا لا وانما استهدفنا من هذا العرض أن نوضح أن التكنولوجيا ليست « محايدة » وأن قضية ادخال تكنولوجيا جديدة الى مجالات الانتاج والخدمات لا ينبغي أن تبحث معزولة عن نتائجها وافرازاتها الاجتماعية .

ان التكنولوجيا ليست بذاتها عدوة للانسان ، لكن المشكلة هى أن التناقض بين علاقات الانتاج وبين قوى الانتاج يزداد حدة كلما حققت البشرية تقدما تكنولوجيا جديدا ، وان هذا التناقض هو الذى يحتاج الى حل انساني يقوم على احترام مصالح الغالبية الساحقة من العاملين وانسانيتهم . تلك هى المشكلة في حقيقة الامر . فالاختيار ليس بين تكنولوجيا او لا تكنولوجيا ، ليس بين تقدم أو محافظة . وانما الاختيار الحقيقي هو بين مجتمع يقوم التقدم فيه على أساس المصالح الحقيقية للانسان وبين مجتمع يعني التقدم فيه مصالح رأس المال في المحل الاول . ■■

د . عبد العظيم أنيس

رواية اميل حبيبي :

المتشائل

اضحوكة تقطر دمعًا ودمًا ..!

بقلم الدكتور علي الراعي

حتى جاء الخامس من حزيران ، وسمع صوتا جهوريا يصرخ : اطفيء النور . اطفيء النور . هذا اذن هو المعنى الاعمق لرمز الكنز في « المتشائل » .

كان والد سعيد ابي النحس المتشائل قد علمه ان الناس ياكلون الناس وحذره ان يثق بمن حوله . واوصاه ان يسيء الظن بكل الناس ، حتى ولو كانوا اخوته من بطن امه ومن ظهر ابيه . فان الناس اذا لم يأكلوا المرء فقد كانوا يستطيعون ان يأكلوه . لهذا ـ يقول سعيد ظل والدي ـ رحمه الله ـ يأكل الناس حتى اكلوه .

وظل هذا التوجس من الناس يملأ حياة سعيد ، حتى اغتصبت فلسطين ، وقامت الدولة العبرية ، فذهب يخدم الدولة الوليدة ، عملا بنصيحة أبيه ، الذي كانت له اياد على الدولة قبل قيامها .

ويقدم سعيد لنا نفسه : فهو النذل . نذل السفرة ، وهو الانسان الفذ ، مات الناس في الحوادث ، أما هو فقد انقذ حياته حماره ، وقع بينه وبين رصاص المعتدين ، فقتل الحمار ولم يمت هو . أليس هذا دليلا واضحا على انه فذ ؟

ايضير سعيدا أن احدا لم يحس به ؟ ابدا . ان من لا يحس به هو انسان بليد . لقد ظهر اسمه مرارا في الصحف . مرة يوم انفجار البطيخة في ساحة الخناطير . لقد القت شرطة حيفا يومها القبض على كل عربي ، من راجل وراكب . وذكرت الصحف اسماء الوجهاء الذين حبسوا سهوا . وأتبعت الاسماء بكلمة : « وآخرين » . وكان سعيد بين هؤلاء الآخرين . ودوما تذكر الصحف هؤلاء الآخرين . فكيف يصح القول بان سعيدا لا نباهة له ؟

دخل سعيد الدولة الجديدة في سيارة طبيب كان يغازل أخته . وقدم نفسه للسلطات فرحبت به ، عرفانا بما قدم أبوه من خدمات سابقة ، وجعلوه زعيم عمال في اتحاد عمال فلسطين .

في حضرة رجل عظيم

ونظر سعيد حواليه فوجد أمور الدولة الجديدة لا تمضي على ما يرام . لقد التقى بعامل يهودي لا يعرف العبرية ، فقرر ان الدولة الوليدة ليست بنت معيشة ، ووجد من الاسلم ان يحفظ لنفسه خط الرجعة ، فذهب يزور المحامي عصام الباذنجاني ، وكان هذا لا يعترف بالدولة العبرية ولا يصحفها ، فحول بيته الكبير في شارع عباس الى صومعة ينفث منها اللهب على دولة اسرائيل ، فتظهر تصريحاته في التايمز ، والنيويورك تايمز وأمهات الصحف العربية .

تحسر المحامي على مصير سعيد الاسود ، ووعد بالعفو عنه عند المقدرة ثم سرد سعيد على مسامع البادنجاني ما جرى له وما تورط فيه ، وما انتهى اليه من شك في ديمومة الدولة اليهودية ، فباركه الباذنجاني وقال : يفرجها ..

ولكن الله لم يفرجها .

ففي اليوم التالي ، استدعى سعيد ليمثل امام رجل ربعه ، فوق عينيه نظارة سوداء . فقال سعيد : هذا ضريري . واقبل عليه مسلما قبل ان يمد الرجل يده ، حتى لا يحرجه في عماه فزجره يعقوب ، رئيس سعيد ، وقال : تأدب فانت في حضرة رجل عظيم . توقف سعيد متأدبا ، وانتفض الرجل العظيم واقفا فلم يزد طوله لدى الوقوف سوى شبر ، وصاح : أنا نعرف اين كنت اول امس . » فقال سعيد في نفسه «اذا لم يكن ضريرا فانه اطرش . » واقترب من اذنه وصاح اردت ان استنشق هواء البحر . ممنوع ؟ فلطمه الرجل ، فلم يخطيء الهدف . فقال سعيد في نفسه : لا اطرش ولا ضريرا بل هو رجل كبير حقا . وقرر ان يتصاغر له ، وقال : اسأل عني الادون سفارشك (صديق والده) فقال الرجل : أم اسعد . وصاح ايضا : اخت . وصاح كذلك النرد . فعرف سعيد ان تحركاته كلها موجودة لدى الرجل الكبير . أم اسعد التي زارها من قبل والعامل اليهودي الذي سأله عن الساعة فقال بالالمانية اخت : أي ثمانية . والمحامي البادنجاني الذي الم به فوجده يلعب النرد مع عضو في اتحاد عمال فلسطين .

فقرر سعيد انه كان تيسا حين زارالبادنجاني الذي يطلق في العلن شواظ النار على الدولة العبرية ، وفي السر يعمل لحسابها .

وتباهى الرجل الكبير بقوة جهازه ودقته ، فما من حركة او همسة الا وهو قادر على تسجيلها . ثم ربت على كتف سعيد في عطف ابوي وطلب اليه الا يعود الى المروق .

ولكن سعيدا لم يشارك الكبير اعجابه بجهازه ، فان هذا الجهاز قد عجز عن ان يسجل شيئا خارقا حقا حدث لسعيد ، وهو التقاؤه برجل غريب جاء من الفضاء . سلم عليه الرجل وقال : الم تكن تبحث عني ؟ فقال سعيد : طول العمر ياذا المهابة . فقال الرجل فماذا تريد يا سعيد ؟ فهتف سعيد : ان تخلصني . قال ممن ؟ فلم يرد سعيد ، حذرا ان يكون الرجل من اعوان الحاكم العسكري . ولكنه سأله من بعد : ما اسمك ؟ قال الرجل : سمني بأي من الاسماء التي استراح اجدادك عليها : المهدي ، الامام ، المنقذ . فقال سعيد فانقذنا يا ذا المهابة فغضب الرجل وقال : هذا شأنكم .. حين لا تطيقون احتمال واقعكم التعس ولا تطيقون دفع الثمن الباهظ ، تلتجئون الي . انني انظر الى ما يفعله الآخرون وما يبذلونه فاغضب عليكم . ما ينقصكم ؟ هل بينكم من تنقصه حياة حتى لا يقدمها ، او ينقصه موت حتى يخاف على حياته ؟

المهرج الساخر ، والفانتازيا يهيلان على سعيد أبي النحس المتشائل حياته ، ويجعلان منه خلقا فنيا يتحرك في ارجاء هذه الرواية الساخرة بالطول والعرض .

مهرج عظيم هو ، تطول قامته حتى قامة المهرج في مسرحية شكسبير : « الملك لير » ويتردد مثل كل مهرج عظيم بين الانكسار والرغبة في البكاء ، والضحك المغتصب يريد ان يدفع به الدموع لتعود الى مآقيه .

بحثا عن الكنز

وفي خلقه انفاس قوية من فارس سيرفانتيس المجنون : « دون كيخوته » . كلاهما يتذرع بالوهم والخيال لمجالدة واقع مر كئيب ، وكلاهما ينتهي امره الى الجنون بعد ان ادمى رأسه وروحه في نطاح حائط الظلم الكئيب وكلاهما يترك وراءه أملا مضيئا ، واستبشارا هو في حالة المتشائل اوضح واقوى اثرا ، لان الطريق في حياة سعيد ومن بعد مماته لم يزل يضيء وتستبين معالمه بفضل موجات متتابعة من المناضلين .

وفي حياة سعيد أبي النحس ايضا رمز بارز يتتابع استخدامه في تنويعات مختلفة ، كي يومىء الينا بمعان متباينة ، ذلك هو : رمز الكنز . والكنز قد كان دوما طلب عائلة المتشائل فمن شيمة عائلته النجيبة ان تظل تبحث تحت اقدامها عن مال سقط سهوا من صرة عابر لعلها تهتدي الى كنز يبدل حالتها الرتيبة تبديلا .

وابو سعيد لدى استشهاده برصاص الصهاينة الذين خدم دولتهم ، كان يستشف الارض بحثا عن الكنز ، فلم ينتبه الى الموت الكائن له ، وجدُّ سعيد شج رأسه بحجر الطاحون لأنه كان ينظر في الارض بين قدميه ، فلم يقم من بعدها .

ووجد عم سعيد لجدّه الكنز الذي ظلت العائلة تسعى وراءه ، وجده في مقبرة مطمورة تحت الارض فدخل اليها ثم عجز عن الخروج ، بعد ان اضاع قنديله . واستنجد بزوجه فلم تستطع انجاده ، وخشيت وخشي افراد العائلة معها ابلاغ السلطات ، حتى لا تضع هذه يديها على الكنز . فمات الرجل وضاع الكنز ...

لهذا قرر سعيد ان لاينظر الى الارض قط . بل يرفع ناظريه الى السماء فلابد ان تكون فيها عوالم مثل عالمنا ، وارقى منا ولابد ان يأتي اهل الفضاء الينا قبل ان نأتي اليهم . ومن ثم أقام سعيد ينتظر مقدم رجال الفضاء فاما بدلوا حاله او اخذوه معهم .

وها هو ذا يلتقي بواحد منهم ، فيجد سعيد كنزه الذي ظل يتطلع اليه .

ويلتقي سعيد بفتاة احلامه « يعاد » ، التي احبها طالبا في الثانوية ، ثم فصلوها عنه . ومرت السنون فاذا بها تزوره مع أختها وتتهمه بأنه وشى بابيها وبالاخرين ، ويقنعها بالجهد الجهيد انه لم يش ببيت احد ، دع عنك بيتها هي . ويبيتان معا في بيت واحد ، كل في غرفة ، هي تبكي بصوت مسموع وهو مستلق على فراشه لا ينام ولا يقوم ، وتناديه فيتظاهر بالنوم . كان يفكر في عرض أخته الضائع ، وفي معاشرته للارمنية العانس ، التي كان يسكر حتى يظنها صغيرته يعاد . فيجبن عن تلبية ندائها . كانت حبه الاول ، والليلة اصبحت حبه الابدي . ومع هذا فهو ذا عاجز امامها عن الحب .

سرعان ما داهم البيت عسكر الاحتلال . وجرجروا يعاد الى الخارج . بعد معركة حامية ظلوا يدفعونها فيها على الدرج وهي تعضهم وتركلهم . حتى انتهت الى الفناء . فهبطت على قدميها منتصبة القامة ورأسها في السماء وهي تهتف : هذه بلدي ، داري ، وهذا زوجي .

وسمعها سعيد والسيارة تتحرك تنادي باعلى صوتها : سعيد .. لا يهمك ، فانني عائدة : ولكن يعاد لم تعد . بعد عشرين عاما ارسلت لسعيد تقول : انني انتظر الموت عبر الحدود ولكني اموت وانا مطمئنة على انك ستنقذ والدي من السجن . الوداع يا حبيبي . غير ان يعاد لم تمت واتخذ الصهاينة واعوانهم منها جزرة ربطوها على عود طويل وثبتوها على عاتق الحمار سعيد وقالوا له : أن تسرع ، تأكل الجزرة . أن تخدم الدولة ـ ان تسهم في تزوير الانتخابات أن تشي بالسوطنيين ـ ان تلاحق الشيوعيين ، تعد اليك يعاد . ولكن انتظارك لها سيطول بعض الوقت .

الا ان الانتظار طال طول الوقت وما عادت يعاد . وخلال عشرين عاما ظل سعيد يريد التنفس فيعجز ، ولكنه لا يموت . ويريد الانطلاق فيعجز ، ولكنه يبقى حرا حتى اصبح في نظر نفسه عرة ثموه . واستنجد برجل الفضاء .

قال له ذو المهابة : لما رأى الوليد بن هشام بن المغيرة الناس يؤمنون بأن الحاكم بامر الله يحكم بامر الله ، لم يسقط في يده ، ولم ينتظر ان يصبح الشعب مؤهلا ، بل ثار عليه ـ هو ايضا ـ بامر الله . فحيد العزة بالعزة . فتبعه خلق كثير . هناك علم سعيد ان حلم العودة بلا عمل ـ أضغاث احلام .

سر شريكة الحياة

تتتابع ايماءات الكنز من بعد في حياة سعيد يتزوج من فتاة غضة الاهاب اسمها « باقية » . امرها عجيب ، فهي اما تبتسم واما تبكي . يخافها الناس ويتحاشونها تقرأ كتبا وتبتسم لوحدها وتبكي لوحدها .

وتزف « باقية » الى سعيد فيقول لها : يا شريكة حياتي . فتقول : اشركك اولا بسري الدفين ففي كهف في صخرة تحت سطح البحر في قريتها « طنطورة » صندوق حديدي مليء بذهب الاسرة جميعا . وضعه الوالد واخفاه واعلم اهله به حتى يلتجيء اليه كل محتاج منكم وباقية تريد من زوجها ان يستخرج هذا الكنز فيستغني بما فيه عما هو فيه . ويشب أولادها مستقيمي الظهور لا محدودبين شأن اهل سعيد .

هنالك يدرك سعيد سرا ، استغلق عليه حتى الآن . فكيف يجد الناس القدرة على مناطحة العدو مع انهم فقراء ، لا يملكون الا القليل . لابد ان لكل واحد منهم كنزا ذهبيا اخفاه والده في صندوق ذهبي . وعجب من العجب قدرة الناس على اخفاء امر هذا الكنز ، مع انه شائع بين عشرات الألوف منهم . واذن . فاولى بسعيد ان يحفظ سر باقية الذي لم يجاوز شخصين .

ويحفظ الزوجان السر بالفعل ، ويحجبانه حتى عن ابن ولد لهما . غير ان الولد يفاجيء والديه . ولد كبر ولما وعيه ، بتفجير معنى الكنز ومضمونه . كنز باقية معناه ضرورة العمل . فان كان الاب قد افلح في تخدير باقية حتى استنامت عن ضرورة العمل ، فهذا هو الولد ينضم الى جانب العمل الفاعل ، ويبغت الوالدان اذ يجدانه مطلوبا من سلطات العدو . لقد انشأ خليه كفاح سرية وانتشل صندوقا به ذهب وسلاح واتخذهما عدة له وعتادا .

وفي مشهد من اقوى مشاهد الرواية ، يفيض بالشعر ، والعذوبة والحكمة والفداء ، يقول الولد لامه انه قرر ان يفتدي اهله بنفسه ، وان هذا هو قدره وقدر جيله . ان الصمت الذي ضربه حوله أبواه ، ومدرسته واصحابه ، قد تفجر من رشاش قديم اتخذه الولد سلاحا يناجز به العدو . اذ ذاك تصحو باقية من الخدر الذي صبه عليها سعيد ، وتنضم الى ابنها ، وهي تقول : ان بالصندوق رشاشا آخر وبه سأحميك من العدو .

وعبثا حاول العدو القبض على الاثنين . لقد اختفيا فلم يعثر لها على اثر ولما سمع سعيد ان من كتائب

الفدائيين كتيبة باسم الطنطورة ـ قرية زوجه باقية ـ أخذ يقفل النوافذ ليسمع انباء الاذاعة من راديو ترانزيستور .

وجاء الخامس من حزيران

حتى جاء الخامس من حزيران ، وسمع صوتا جهوريا يصرخ : اطفيء النور ، اطفيء النور . هذا اذن هو المعنى الاعمق لرمز الكنز في «المتشائل» . انه النضال المسلح ضد العدو . كنز آل سعيد اوهام . والكنز المتمثل في حلم العودة بلانضال اوهام اخرى . وكنز العجوز ثريا عبد القادر مقبول ذات السنوات الخمس والسبعون التي عادت من الأردن الى اللد كي تستعيده كنز لا تطوله ايدي المغلوبين ، لان الدولة العبرية تصادره فيما تصادر من املاك المهزومين . كنز المقاومة هو وحده الباقي . هو وحده غير القابل للمصادرة .

وتنتقل فلسطين وقضيتها الى مرحلة اخرى اكثر ايجابية . هذه « يعاد » تعود . تعود ؟ نعم ولكنها ابنة يعاد الاولى ، وهي تعود ، لتقول لعمها ، حبيب امها الذي لم تتزوجه ان الامر تغير هذه المرة تغيرا جوهريا ـ انها قد تسللت الى الارض المحتلة فان يأت الصهاينة ليقبضوا عليها ، فسيجد سعيد ان الامر قد تغير بالفعل . لم يتغير الغزاة وانما تغير اصحاب الارض السلبية ستترك يعاد الأرض المحتلة ولكنها ستعود فان الماء لايترك البحر . يتبخر ثم يعود في الشتاء ويعود انهارا وجداول ولكنه يعود .

ويأتي الغزاة ليطردوا يعاد من بيت سعيد . وتقول لهم كما قالت امها من قبل : هذا بلدي ، داري ، وهذا عمي . ويعاملها العسكر باحترام ويقول احدهم : يا صغيرتي الحسناء ، لقد انتظرنا منكم اكثر مما تفعلون ، ثم تمضي يعاد معهم .

وكانت يعاد قد حذرت عمها وهي موشكة ان تتركه بضرورة ترك الموقف السالب : اذا عشت يا عمي سعيد فستكون ابن سبعين حين تلقى يعاد الثالثة ولن تعرفها ولن تعرفك . اذهب الى قرية السلكة واصنع الخصر (كما فعل متسلل ضرير ظل اعواما متسترا في القرية يحفظ الجميع سره جيلا بعد ، ولا تصل اليه يد العدو ، رغم عشرات من حركات التطويق) .

ولكن سعيد لا يفعل . فلا يبقى امامه الا الجنون ، منصرفا وخلاصا . واذن فيعاد هي تجسيد فلسطين . يجبن سعيد عن أن يتزوج يعاد الاولى ، اى يعانق القضية عناقا ايجابيا فيكون عليه ان ينتظر عشرين عاما حتى تأتي يعاد الثانية . ولكنه يظلها يعاد الاولى ، ويعيش في وهم العودة الخاوى ، حتى توقظه على الحقيقة . انها يعاد مختلفة . انها تقاتل ، ، واخوها سعيد يقاتل . والعدو ان كان قد جد على موقف فهذه مأساته فان الناس قد تغيروا .

ولما يرفض سعيد ان يأخذ بمبدأ العمل الايجابي ـ اى عمل ـ لا يبقي امامه الا ان يتلاشى في الفضاء يحمله ذو المهابة بعد ان يزجره كما زجره قائلا : لا تطيقون احتمال واقعكم التعس ولا تطيقون دفع ثمن تغييره فالتجشوا الى .

***

لماذا اختار اميل حبيبي سعيدا ابا النحس بطلا لروايته ؟ انه بطل غير ايجابي ، كما تعودنا ان نقول ابوه متعاون مع الدولة قبل قيامها ، وهو متعاون بعد قيامها . فكيف يكون هذا بطلا لرواية تذرف الدمع وتسفح الدم عطفا على القضية وعرضا لها ، ودعوة الى النضال الدائم من اجلها ؟

اختيار اميل حبيبي لبطله في محله تماما . سعيد يخدم الدولة في عدم اخلاص لا يحسن اخفاءه . وخدمته لها تبرز لنا حقيقة بعينها وهي : ان خدمة الاعداء لا تجلب المغانم التي يعد هؤلاء بها . سعيد لا ينجو من الملاحقة ، ولا من السجن ولا من الاقامة الجبرية ، ومسلكه المتهادن يلقي نورا ساطعا على المناضلين الايجابيين من امثال سعيد ويعاد وولاء ـ ابن سعيد ـ وباقية زوجه ، والمناضلين الايجابيين الصامتين في قرية السلكة .

ثم ان خدمة سعيد للدولة يتخللها سخرية واضحة متصلة ، وفي مشاهد مثل : رفع العلم الابيض على عصا مكنسة امعانا في اظهار الولاء للدولة بعد نكبة حزيران . مع ان سعيد هو مواطن عربي في الدولة المنتصرة ، وليس محاربا مهزوما خارجها .

والواقع ان شخصية سعيد ابي النحس المتشائل بكل نواحي ضعفها ، بكل ما فيها من هرج واستخذاء ، بكل ما تقع فيه من ورطات مضحكة تؤمن لهذه الرواية الأخاذة شيئا ثمينا لكل عمل فني سياسي : تضمن له ان لا يسقط بين شقي الرحى المألوفة : الخطابة الرنانة من جهة وتزييف الواقع وتمجيده من جهة اخرى . ان « المتشائل » عمل انساني دافيء ونقد كبير القلب . وهي لهذا فن عظيم . ■■

علي الراعي

الأقلّيات :
شهادة للإسلام !

بقلم : فهمي هويدي

من حق البعض ان يعتبر الخوض في مناقشة موضوع حقوق غير المسلم في المجتمع الاسلامي نوعا من الانسياق وراء المبالغات والاغاليط ، ووقوفا غير لازم امام لحظات عابرة في التاريخ ، وتورطا في جدل نظري شغل به العلماء الفقهاء من القدامى والمحدثين ، بينما تجاوزه الواقع الاسلامي بمراحل بعيده طوال القرون التي خلت .

من حق هؤلاء ان يتهمونا بممارسة احدى صور الترف الفكري ، وان يعتبروا الحوار في مسألة مواطنة غير المسلم مثلا ، نموذجا لانفصال الفكر عن الواقع ، محتجين في ذلك بأن غير المسلمين تمتعوا ، في المسار العام والاساسي للتاريخ ، بحقوق المواطنين الاصلاء في مجتمعات المسلمين ، وان الانتقاص من تلك الحقوق كان شذوذا واستثناءً ، ينبغي ان يعطى حجمه الحقيقي بغير مبالغة ، ولا يجوز تعميمه او القياس عليه اذا ما توخينا الامانة والموضوعية .

ومع هؤلاء نتفق ولا نتفق !

نتفق معهم اذا كنا نقرأ التاريخ ونحاول تقييمه ، ولا نتفق معهم اذا كنا نحاول ان نحدد بوضوح ، في صيغة معاصرة ، تلك العلاقة الدقيقة بين المسلمين وغير المسلمين ، حتى لا يترك الامر للأهواء والمزايدات ،

●

والامر كذلك ، فانه يصبح من المهم والمفيد ان نحدد حجم القضية ، في منظور التاريخ وفي منظور الواقع ، لتظل « الحقوق » محفوظة ، و« الحدود » واضحة . وفي هذا وذاك ، ينبغي ان نظل واعين بأن قضيتنا هي الحاضر والمستقبل ، وانّا اذا عرجنا على الماضي ، فمن قبيل الاسترشاد والاعتبار ، واعطاء كل ذي حق حقه .

هنا تستوقفنا حقيقة بالغة الاهمية والتأثير في تكوين المجتمع الاسلامي طوال الاربعة عشر قرنا الماضية . هذه الحقيقة هي ان اعتزاز الاسلام بالانسان كمخلوق مهما كان اعتقاده ولونه وجنسه ، ثم ايمان المسلمين بالسابقين من الانبياء ، وبشرعية وجود اصحاب الديانات الاخرى ، هذه العناصر في مجموعها هي التي افسحت المجال لبقاء واستمرار تلك الجماعات غير المسلمة وسط مجتمعات المسلمين عبر ذلك التاريخ الطويل . وهي التي افرزت في النهاية ما قد نسميه الان قضية وحقوق الاقليات غير المسلمة .

ذلك ان اوروبا المسيحية ـ ونحن هنا نتحدث عن التاريخ ـ اختصرت الطريق من بدايته ، وكان رفض اعتراف الكنيسة بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبتعاليمه بالتالي ـ وهي القضية التي لم تحسم في الفاتيكان الى الآن ـ كان هذا الموقف هو الاساس الذي بنت عليه اوروبا المسيحية موقفها في عدم الاعتراف بشرعية وجود المسلمين .

وكان من نتيجة هذا الموقف ان اوروبا المسيحية لم تسمح من البداية باستمرار وجود المسلمين فيها ، وما جرى في الاندلس وصقلية خير شاهد على ذلك . فقد كانت الخيارات التي وضعت امام المسلمين في هذين البلدين كانت في حقيقة الامر هي : القتل او التنصير او الطرد . اي انها كانت درجات في اقتلاع الجذور والغاء كيان الاقلية المسلمة .. وهذا ما حدث بالفعل ، وادى في النهاية الى اختفاء الاسلام تماما من الأندلس وصقلية .

لقد بلغ المجتمع الاسلامي حدودا تفوق التصور في توفير حرية الاعتقاد للاخرين في العصور المبكرة من التاريخ الاسلامي ـ وهو ما تضيق به صدور بعض الدعاة الاسلاميين في عالم اليوم ـ « لقد مد المسلمون تلك الميزة (حرية الاعتقاد) التي منحها الله لليهود والمسيحيين والصابئين في القرآن ، حتى شملت الزرادشتيين ، والهندوسيين ، والبوذيين ، والموالين للديانات الاخرى عندما اتصلوا بهم كما اعترف للمجوس منذ عهد الرسول بأنهم اهل ذمة . وكان لهم فيما بعد ـ كاليهود والنصارى ـ رئيس يمثلهم في قصر الخلافة ودار الحكومة .

لقد كان هذا الاعتراف المبني على احترام الاعتقاد ، سببا رئيسيا في استمرا تلك المعتقدات حتى بقي منها ما بقي ، واندثر ما اندثر بفعل حركة التاريخ ، وليس بارادة السلطة الاسلامية .

لقد قبل زواج المجوسي من ابنته ، ما دامت شريعته تبيح ذلك . وفي المغني (لابن قدامه) ان مجوسيا تزوج ابنته ، فأولدها بنتا ، ثم مات عنها فكان لها الثلثان مما ترك . وحدث ان استغاثت كهنة النار بأبي مسلم الخراساني ، للقضاء على « بيه افريد » الذي اخذ في الدعوة لمذهبه الاصلاحي الجديد . فلم يتوان ابو مسلم عن انفاذ القوات لحرب « الخارجي » المجوسي . وحدث ايضا ان فكر المتوكل في اصلاح التقويم فاستشار احد الكهنة المجوس ، كما لو كان الامر طبيعيا »[1]

●

لقد كان من نتيجة هذا السلوك ـ ان يشهد العالم الالماني الشهير آدم ميتز ـ ان صار « اكبر فرق بين الامبراطورية الاسلامية ، وبين اروبا التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى يتمثل في وجود عدد هائل من أهل الديانات الاخرى بين المسلمين » .

ثم يضيف قائلا ان « أهل الذمة استندوا الى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ، وما منحوه من حقوق ، فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين . وقد حرص اليهود والنصارى على ان تظل « دار الاسلام » دائما غير تامة التكوين ، حتى ان المسلمين ظلوا دائما (في البلاد المفتوحة) انهم اجانب منتصرون ، لا أهل وطن »[2]

وليس ادل على ذلك الاستقلال المبنى على الاحترام ، من ان قبط مصر ـ مثلا ـ لم يستخدموا اللغة

(١) أ . س . ترتون ـ اهل الذمة في الاسلام ـ ترجمة حسن حبشي ص ١٠٥ .

(٢) محمود الشرقاوي ـ تقويم الفكر الديني ص ٦٥ ـ نقلا عن رسالة للبيروني نشرت في طبعة لبزج من كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » .

العربية الا في اواخر القرن الرابع الهجري ، اي انهم ظلوا حوالي ٣٥٠ عاما بعد الفتح الاسلامي يتكلمون اللغة القبطية [٤]

ويذهب ميتز الى ان « وجود النصارى بين المسلمين كان سببا لظهور مبادىء التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون

وفي الاتجاه ذاته كتب سير توماس ارنولد في كتابه « الدعوة الى الاسلام » « ان وجود العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة ، لشاهد على ذلك التسامح (الاسلام) ص٧ . ثم يقول في موضع آخر (ص ٨١) : ولما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني ، فانهم تمتعوا ، خاصة في المدن ، بحالة من الرفاهية والرخاء .

●

هل كان هؤلاء ، يعتبرون « مواطنين » في الدولة الاسلامية ؟!

لن نطرح هنا رأي الفقهاء والعلماء ، ولكننا سوف نحتكم الى التاريخ ، بل الى كتاب ومؤرخين من غير المسلمين ، الذين يفترض فيهم ـ بداهة ـ عدم الانحياز الى مربع المسلمين .

ان السير توماس ارنولد يذكر في كتابه « الدعوة الى الاسلام » (ص ٨١) ان معاوية بن ابي سفيان توسع في توظيف المسيحيين ، وحذا حذوه آخرون من البيت المالك . وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية في بلاط الخليفة ، مثل الاخطل ، وهو عربي نصراني ، الذي كان شاعرا للبلاط . ومثل ابي القديس يوحنا الدمشقي ، مستشار الخليفة عبد الملك . وكان في خدمة الخليفة المعتصم اخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عند امير المؤمنين : احدهما يدعى سلمويه ، ويظهر انه كان يشغل منصبا قريب الشبه من منصب الوزير في العصر الحديث . وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ الا بعد توقيعه عليها . على حين عهد الى اخيه ابراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد اليه بخزانة بيوت الاموال في البلاط . وكان المنتظر من طبيعة هذه الاموال وتصريفها ان يوكل امر الاشراف عليها الى رجل من المسلمين .

ويضيف توماس ارنولد انه « في عهد المعتضد ، كان عمر بن يوسف والي الانبار مسيحيا ، اذ ان هناك أسبابا قوية لتفضيل النصراني على غيره من اليهود او المسلمين او المجوس . وعهد الموفق ، وكان صاحب السلطان المطلق في عهد اخيه المعتمد ، امر تنظيم الجيش الى مسيحي يدعى اسرائيل . واتخذ ابنه المعتضد نصرانيا آخر كاتبا له ، وهو ملك بن الوليد . وفي عصر متأخر تولى في ايام المقتدر نصراني آخر امر ديوان الجيش .

« كذلك كان نصر بن هارون مسيحيا . وكان كبير وزراء عضد الدولة البويهي الذي حكم العراق وجنوبي فارس . وقد ظلت دواوين الحكومة ، وخاصة ديوان الخراج ، فترة طويلة مكتظة بالمسيحيين والفرس . وظلت الحال في مصر على هذا النحو حتى زمن متأخر جدا ، حيث كان السواد الاعظم من المسيحيين يحتكرون امثال هذه المناصب احتكارا يكاد يكون تاما . »

ويذكر آدم ميتز في كتابه عن الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) انه من الامور التي تعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية ، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الاسلام » (ص ٨٧) .

وتحت عنوان « الاضطهادات التي عاناها المسيحيون » يسجل السير توماس ارنولد ، شهادة بالغة

(٣ ، ٤) آدم ميتز ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ـ ترجمة د . محمد عبد الهادي أبو ريدة ج ١ ص ٥٧ و ٩٣ .

الاهمية (ص ٩٤ ـ ٩٨) يقول فيها ما نصه :

« ولكن حال المسيحيين لم تكن دائما قائمة على هذا التسامح الذي كان في عهد خلفاء صدر الاسلام ، فقد كانت تفرض احيانا ، في سبيل خدمة المؤمنين المخلصين ، بعض الحالات التي تضايق الاهالي من غير المسلمين (او اهل الذمة) بحجة ضمان المزايا الاجتماعية السامية للمؤمنين . وقد قام بعض الخلفاء بمحاولات غير مجدية لاقصائهم عن الوظائف العامة . واصدر المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥ م) والمتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١ م) والمقتدر (٩٠٨ ـ ٩٣٢ م) والآمر (١١٠١ ـ ١١٣٠ م)) وهو احد الخلفاء الفاطميين في مصر ، مراسيم بهذا الصدد ، وصدر مثل هذه المراسيم في عهد سلاطين المماليك في القرن الرابع عشر الميلادي . ولكن مجرد تجدد هذه المراسيم الخاصة باقصاء الذميين من الوظائف الحكومية دليل على ان مثل هذه الاساليب التي تنطوي على التعصب لم تكن توضع موضع التنفيذ دائما . والحق انه يمكن ان تكون هذه المراسيم راجعة بوجه عام اما الى سخط شائع اثاره السلوك الخشن المتعجرف ، الذي سلكه الموظفون المسيحيون ، او الى سورات من التعصب حملت الحكومة على القيام بأعمال من التعسف تتنافى مع الروح العامة التي ظهر بها الحكم الاسلامي . ولكن مصير هذه الاعمال التعسفية قد آل الى الزوال في اسرع وقت .

وتغنينا شهادة السير توماس ارنولد ، عن الخوض في تفصيلات الصورة المماثلة التي تميزت بها معاملة اليهود في الاندلس في ظل الحكم الاسلامي . والتي وصفها ابا ايبان السياسي والمؤرخ الاسرائيلي في كتابه « قصة اليهود » بقوله : ان اليهود لم يعرفوا درجة من الازدهار وتحقيق الذات طوال التاريخ كله الا مرتين : مرة في الولايات المتحدة الامريكية اليوم ، ومرة في الاندلس الاسلامية منذ قرون !

●

وجدير بالذكر هنا ان تزايد نفوذ غير المسلمين في مواقع القيادة والتأثير في مجتمعات المسلمين ، لم يمر دون رد فعل من جانب بعض المسلمين . ففي عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله زاد نفوذ النصارى في بلاد الخليفة ، الذي كان اصهاره من المسيحيين . فارستس الذي عين بطريركا لبيت المقدس كان شقيقا لزوجه مسيحية للعزيز ، وقد عين شقيقه ارمانيوس مطرانا على مصر ، وكان لهما نفوذ وحساب عند الخليفة ، الامر الذي دعا الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي الى القول في ابيات شهيرة :

تنصر ، فالتنصر دين حق عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير اب وهذا الـ ـعزيز ابن وروح القدس فضل !

وفي مرحلة تالية ، على عهد الخليفة الفاطمي الظاهر ـ ولي الوزارة بالقاهرة ابو نصر صدقه بن يوسف الفلاحي ، وكان يهوديا ثم اسلم ، وكان يدير الدولة معه ابو سعد التستري اليهودي ولذلك قال الشاعر المصري الحسن بن خاقان :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمو ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر اني نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك

هل لا يزال هناك محل ـ بعد ـ للتساؤل عما اذا كان غير المسلمين تمتعوا بالجنسية او حق المواطنة في المجتمع الاسلامي ؟!

الا تنطق هذه الشهادات بأنهم ، بوجه عام ، لم يكونوا مواطنين فقط ، بل كانوا مواطنين متميزين ، حسدهم المسلمون في بعض الاحيان على ما تمتعوا به من سلطان ونفوذ وثراء ، حتى شكا البعض في الاغلبية المسلمة من اضطهاد النافذين من الاقلية غير المسلمة لهم !! ■■



التدخين كما يراه الطب النفسي :

خدعوك فقالوا :
التدخين يساعد على التركيز !

المدخن واحد من اربعة : طموح جدا ـ متردد ـ اتكالي ـ يتقبل الايحاء بسهولة

بقلم الدكتور درى عزت

الطب النفسي لا يرى في التدخين تعبيرا عن شخصية ايجابية الا في حالة واحدة . ويكذب مقولة ان التدخين يساعد على تركيز الذهن ، وينصحك بان تستجمع شجاعتك وتتوقف عن التدخين فجأة .. مؤكدا ان هناك ١٢ بديلا يمكن الاستعاضة بها عن السجائر ..

لقد انتشر تدخين التبغ في أوروبا بعد ادخاله اليها مع عودة كريستوفر كولومبوس من العالم الجديد في القرن السادس عشر. ومن أوروبا أخذ في الانتشار الى كافة أنحاء العالم منذ ذلك الوقت. ولو أنه ثبت أن تدخين السجاير قد انحسر نسبيا في أوروبا وأمريكا الشمالية في العقدين الاخيرين نتيجة للتوعية الصحية المكثفة ضد التدخين ومضاره، وللقوانين والانظمة المضيقة على المدخنين في الاماكن العامة، مما جعل شركات السجاير تركز في الوقت الحاضر على زيادة مبيعاتها في العالم الثالث حيث جهود التوعيه ما زالت اقل فعالية وقوانين السلامه أقل صرامه.

وموضوع التدخين متشعب الاهمية فان له آثاره على الصحة العامة وكذلك آثاره الاجتماعية والتربوية والاقتصادية. بل له اقتصادياته الخاصه به اذ يقدر أن الضرائب على السجاير ما زالت تشكل ١٨٪ من ميزانيه المملكه المتحدة وهذا يغطي الانفاق الصحي فيها ويزيد. وسنقتصر في هذا المقال على تناول بعض جوانب التدخين من وجهه نظر الطب النفسي.

كثيرا ما يثار تساؤل عما اذا كانت شخصية المدخين تختلف في صفاتها عن شخصية غير المدخنين. في الواقع أن أي انسان يمكن أن يدخن. لكنه لوحظ أن عاده التدخين والاعتياد الكبير عليه ينتشر بين نوعيات معينه من الشخصيات نذكر منها:

١ ـ الشخصية المفرطه الطموح: وتتميز هذه الشخصيةبالجد الزائد والمثابرة على الكد والكدح وتقبل التحدي والمنافسه والسعي، ذات تطلعات عليا وأهداف كبرى تبذل أقصى الجهود لتحقيق ما تصبو اليه. لا تعبأ بارهاق وكذلك في حالة من التوتر المتزايد، متدفعه الى الانجاز ومصره على الفوز.

أصحاب مثل هذه الشخصية غالبا ما يصابون بأمراض القلب وهم يفرطون في التدخين.

٢ ـ الشخصية العصابية وهذه من صفاتها الاساسية ـ التخوف والتردد وكثرة الشكوى بدون داع كاف ـ وعدم الرضا. وسرعه الملل والعجز عن خلق علاقات اجتماعية قوية مع التقلب العاطفي وعدم الثبات. وفي احدى العيادات النفسية وجد أن ٥٠٪ ممن شخصوا بالعصابيين يدخنون بشراهة.

٣ ـ الشخصية الاتكالية: هذه الشخصية تفتقد في داخلها القوة الذاتية التي تدفعها الى تحقيق أهدافها وتأدية وظائفها بكفاءة.

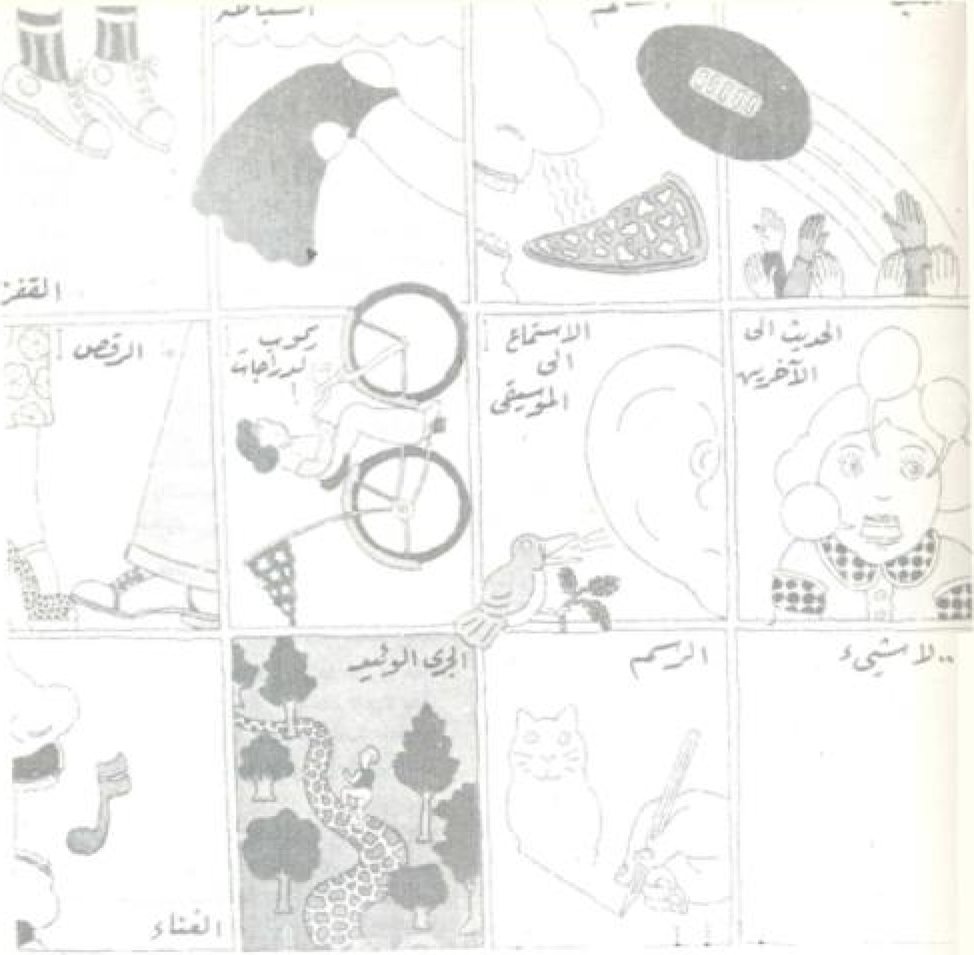
وتشعر أنها في حاجة الى الاعتماد على شيء ما خارجي تتكيء عليه وتستمد منه ما يدفعها وينبهها وينشطها. بالطبع نحن نعتمد على الخارج لمساندة ذواتنا وتنمية قدراتنا، لكن الطبيعي أن نعتمد على ماهو طبيعي. اما الشخصية الاتكالية فهي تلجأ الى ماهو غير طبيعي كالاسراف في استعمال المشروبات الروحية أو المهدئات القوية أو المنومات أو المنشطات أو مزيج من هذه المواد أو تلجأ الى التدخين.

وقد وجد أن ٩٢٪ من المتعودين على الكحول يدخنون باسراف ـ وأن ١٠٠٪ من المتعودين على الهيروين يدخنون وهذا ينسحب أيضا على مستعمل الماريجوانا.

٤ ـ الشخصية القابلة للايحاء: هذا النوع من الشخصيات يتقبل الايحاء بسهولة ويفتقد النظرة الانتقادية الاولية والقدره على التقييم السريع للمنبهات. والايحاء يمكن فهمه على أنه تنفيذ سلوك معينه لم تكن هناك نيه أصلا للقيام به وذلك نتيجة لمنبهات مفروضه.

مثل هذه الشخصية. هي التي تقع أكثر من غيرها فريسة سهلة لتأثير الاعلانات المغرية وتتقبل بسهولة ما هو مرسوم ببراعة فيها من دعوة ودفع الى التدخين.

الشخصية التي تعثرت في نموها وتلكأت عند مرحلة «الاشباع الفمي» ولم تتعداها الى المراحل اللاحقه لها أو التي تعود وترتد وتنكص الى هذه المرحلة وسواء كانت هذه النظريات سليمة أو غير ذلك فبعضنا قد لاحظ هؤلاء الاشخاص الذين يدسون الغليون في أفواههم أو السيجار لا يشعلونه ولا يدخنونه وربما كان في هذه الملاحظه بعض السند لهذه النظريات بجانب أن التدخين غالبا ما يصاحبه ازدياد «النشاط الفمي» ويتمثل هذا في قضم الأظافر ومص الأصابع ومضغ اللبان والاسراف في الاكل والشراب وتناول الحلوى. وكما انه قد لوحظ ان هناك علاقة طرديه بين سن الفطام والقدرة على الاقلاع عن التدخين فالذين استطاعوا الاقلاع بسهولة كان فطامهم في حوالي سن الثمانية شهور. والذين حاولوا الاقلاع ولم يتمكنوا وجد أن فطامهم كان في حوالي سن ٤ الى ٧ أشهر. وهناك من يقول بعلاقة بين الرضاعة الطبيعية من الام وعدم اكتساب عاده التدخين من الاصل في الكبر لكن هذه العلاقة ما زالت محل بحث وجدال ولم يتفق عليها بعد.



بدائل التدخين التي ينصح بها خبراء الصحة العالمية

٥ ـ مدخنو السجاير من تلاميذ المدارس يكون تحصيلهم الدراسي أقل من الطلبه غير المدخنين ويزداد تخلفهم كلما صعدوا في السلم الدراسي وغالبا ما يتركون الدراسة في سن مبكرة وهم يميلون أكثر الى الانحراف . وهذا ينطبق ايضا على طلبة المرحلة الجامعية فالمدخنون من طلبه الجامعات أقل في الانجاز الاكاديمي من غير المدخنين ولا يهتمون بالعملية الدراسية ولا يتراضون مع السلطة .

وبشكل عام ، فبمقارنه المدخنين بغير المدخنين وجد أن المدخنين يميلون الى الانطلاق والتساهل والمرح ، وهم أقل جمودا ومندفعون ويحبون المخاطرة والمجازفه ومعارضه السلطه ، يشربون الشاي والقهوة باسراف ويستعملون العقاقير بكثرة ولا مانع عندهم من استعمال المشروبات الكحولية وهم معرضون أكثر للطلاق وتغيير العمل والحوادث .

لماذا يدخنون ؟

يبدأ الانسان في التدخين غالبا في سن الشباب في مرحلة المراهقه أو حتى قبلها من ضمن ما يقوم به المراهق أو الحدث من تقليد لما يدور في عالم الكبار ، أو مجاراة لصديق ، أو لكي يتقبل كفرد داخل جماعة أو لمجرد

التجربة واشباع الفضول . لكن لا يدخن الشباب هذه الايام لكي يحقق ما في نفسه من ثورة ضد السلطة والاعراف المقيدة لانطلاقه . فهذه لها أساليب غير التدخين في الوقت الحاضر . وهذه البداية الخطره للتدخين في هذه السن غالبا ما تستمر وتصبح عادة متمكنه وعلينا أن نعرف أن ١٨٪ فقط من المدخنين الحاليين يكفون عن التدخين في أوقات لاحقه .

وهناك تأثير كبير للبيئة المحيطة في بدء اكتساب عادة التدخين فالشاب الذى لا يدخن يكون معظم اصدقائه من غير المدخنين وكذلك معظم افراد اسرته وبالاخص الاخوة الكبار والشاب الذى يدخن يكون اغلبية اصدقائه من المدخنين .

لكن ما الذى يجعل الانسان يستمر في التدخين بعد تجاربه الاولى ؟ هناك احتمالات عده قد تفسر لنا هذه الظاهره ، منها :

الاعتياد النفسي : هذا يحدث في المراحل الاولى لعادة التدخين فاذا توقف المدخن يعاني من حالة نفسية تتميز بالشعور بالضيق وسرعة الاستثارة والانفعال السريع دون سبب ظاهر كاف ، هذا مع الاحساس بالقلق والتوتر والتعب .

الاعتياد العضوى : هذا يحدث في مراحل لاحقه وتظهر أعراضه عند الامتناع اذ تتغير أنماط السلوك ويلجأ الشخص للعدوان والكراهية مع اضطراب في النوم وتغيرات في النشاط الكهربائي للمخ ... مع انخفاض في ضغط الدم ونقصان في عدد نبضات القلب . وأعراض الامتناع هذه لا تحدث بالضرورة عند الامتناع النهائي فقط لكنها مسأله نسبيه فالمدخن المستمر في التدخين يعاني من هذه الاعراض بعد الانتهاء من تدخين سيجارة ما لفترة ما بين ٤٥ الى ٦٠ دقيقة يشعر المدخن بعدها برغبة ملحه في تدخين السيجارة التالية . وهذا ما نحب أن يكون واضحا لانه من العوامل القوية التي تدفع المدخن للاستمرار في عادته والمدخنون المزمنون يعرفون أن أول ما يفعلونه في الصباح بعد الاستيقاظ من النوم صباحا هو اشعال سيجارة وتدخينها للتغلب على الاعراض لانخفاض مستوى النيكوتين في الدم اذ انه بالطبع لا يدخن الشخص أثناء النوم .

ومن أسباب استمرار التدخين ، الاعلان المستمر عن السجائر واستخدام أكثر الاساليب النفسية العلمية فعالية في الاعلان عن هذه الانابيب البيضاء الصغيرة كما يسميها البعض بهدف ملاحقه المدخنين للاستمرار وكذلك لاكتساب زبائن جدد لاستهلاك البلايين المنتجة منها . فالاعلان يستخدم الاساليب السلوكية المبنيه على نظرية التعلم فهو يربط بين التدخين وصفات محببه للنفس البشرية . يربط ما بين التدخين والجاذبية الشخصية ، والنجاح في العمل . أو الاهمية الاجتماعية أو التواجد في صحبه ساره مع الجنس الاخر أو الرياضة واللياقة البدنية أو الاناقة وحسن المظهر الخارجي وغيرها الكثير من الصفات التي يتطلع اليها الناس وبالاخص الشباب .

ومن الاسباب الاخرى التي تدفع المدخن للاستمرار هى الاستجابة لمؤشرات داخلية ذاتيه أو أخرى خارجية . ومن أمثلة المؤشرات الداخلية ، استخدام التدخين لتخفيف حدة القلق والتوتر أو الاكتئاب أو دفع الملل أو الاستمتاع بشعور غامض من الراحه والرضا أو الاحساس بالنشاط والتفوق .

ومن أمثلة الاستجابة لمؤشرات خارجية هو استخدام التدخين لمواجهة المشاكل الشخصية أو المواقف الحياتيه الصعبه أو المواقف الحرجه وكذلك بعد وجبات الطعام أو شرب القهوة وتناول السوائل السكرية .

يعتقد البعض أن التدخين يساعد على التركيز الذهني وحسن الاستيعاب وقوة الاستذكار مع أن العكس هو الواقع ، اذ ينتج عن التدخين أول أكسيد الكربون الذى يتسبب في حرمان نسبي لخلايا المخ من الاكسجين الحيوى لوظائفها ، مما لا يساعد على التركيز ولا على الاستيعاب .

الحل : التوقف المفاجيء !

على عكس ما هو شائع فالامتناع عموما ليس بالامر الشديد الصعوبة فمثلا ٦١٪ من المدخنين لا يجدون التوقف صعبا ، ١٤٪ فقط يجدون الامر في غاية الصعوبة لكن يقدر أن نسبه الانتكاس تصل الى ٤٤٪ خلال السنه الاولى من المحاولة .

ويرجع ذلك في المقام الاول الى أصدقاء الشخص من المدخنين . فهم يسخرون أمامه من محاولته ويهونون من آثار ومضار التدخين ويزينون له أنها مبالغ فيها ، ويغرونه بالرجوع الى زمرتهم . وهذا يثبط من عزمه ، ويضعف ارادته فيرتد ثانيه الى عادته .

وينصح البعض بالتوقف بالتدريج وتقليل عدد السجاير المدخنه في اليوم . بالطبع التقليل أفضل من الاكثار لكن الامتناع أفضل الجميع وأنا شخصيا مع

الامتناع التام الشامل والكامل والمفاجيء والفوري .

ولنرجع الى خبرة المدخنين السابقين الذين توقفوا ونجحوا . هذه المجموعة من المدخنين السابقين هي في غاية الاهمية في مكافحة التدخين سواء في مجال الامتناع عنه أو الدعاية ضد البدء فيه للوقاية من الوقوع فريسة هذه العادة من الاصل وتنصح منظمة الصحة العالمية في الاعتماد عليهم في التوعية والمكافحة وتكوين الجمعيات من أفرادهم كما هو الحال في الجمعيات المكافحة ضد ادمان الكحول المكونة افرادها من المدمنين السابقين على الكحول الذين شفوا من ادمانهم : فهم يتكلمون في الموضوع عن خبرة شخصية ويعرفون ما يتكلمون عنه وتأثيرهم في الناس أوقع ، فهم المثال الحي للنجاح في التغلب على الادمان أو التدخين .

نشرت الجمعية الفرنسية للتوعية الصحية ومكافحة التدخين تقريرا مفصلا عن خبرة مدخن سابق يقول فيه « حاولت أن أقلل عدد السجائر في اليوم لكن بعد فترة أعود وأزيدها . لكنني قررت فجأة التوقف تماما وواجهت التجربة فوجدت أنني قد استعدت حاسه الشم الطبيعية عندي وكذلك حاسة التذوق ووجدت أن الاسترخاء لا يلزمه تدخين وصرت أستمتع بالتجول في الحدائق والمشي في الغابات وتأمل الطبيعة ـ استكشفت عالما جديدا وبيئة جديدة ومحيطا جديدا أستمتع فيه بالاسترخاء والرضا عن النفس والشعور بالقوة والتفوق » .

ان التوقف المفاجيء هو الاسلوب الامثل والانجح وتوصي منظمه الصحة العالمية في حالة التوقف أن يلجأ الممتنع عن التدخين الى بديل أو أكثر من اثنى عشر ـ يطرحها علماء النفس الغربيون ـ المشي ـ الجري ـ شم روائح الازهار والورود ـ الرقص ـ الغناء ـ الرسم ـ الكلام مع الناس ـ الاصغاء الى الناس أو الموسيقى ـ ركوب الدراجات ـ السباحه وغيرها .

ولا شك عندي أن التوقف الفوري يحتاج الى اتخاذ قرار شجاع ومثل هذا القرار ليس هو بالقرار الوحيد الذي يضطر الانسان أن يتخذه في حياته ـ نحن أمام خيارين ـ الصحه أو التدخين . واختيار الصحة يستلزم اتخاذ القرار الشجاع ثم بعد ذلك مواجهه النتائج . والنتائج لن تكون اكثر من معاناه أعراض الامتناع المذكورة من قبل . وهذه الاعراض تستمر الى أيام عده أو تمتد لاسابيع قليلة ويمكن التغلب عليها باستعمال بعض المهدئات خفيفة المفعول لفترة قصيرة . ويقول البعض وما الفائدة اذا كنا ستتحول من نوع من الادمان الى نوع آخر بتناولنا المهدئات بدل السجاير وتدمن عليها

وهذه تبريرات للتهرب من الاقلاع فنحن نقول ان استعمال المهدئات خفيفه المفعول سيكون لفترة قصيرة بعد الاقلاع مباشرة لتخفيف حده الاعراض الانسحابيه سواء كانت النفسية او العضوية التي يجدها البعض شديدة عندما يمتنعون وتكون السبب في انتكاسهم .

وعلى كل حال فنشوة الانتصار في جهاد النفس ضد سلبيتها واسترداد الانسان لحريته ليصبح سيد نفسه وليس عبد عاداته . هذه النشوة والشعور بالقوة والقدرة تفوق أية آثار جانبية يمكن أن يعانيها المدخن اذا توقف عن تدخينه .

والمزمنون لهم حل

يتبقى بعد ذلك كله مجموعة من المدخنين الذين قد يعاني البعض منهم من مضاعفات عضوية تقتضي الامتناع النهائي عن التدخين لكنها تعجز عن ذلك ولا يقبل بطبيعة الحال أن يتخذ الطب النفسي موقفا سلبيا من هؤلاء ، ويتركهم تحت رحمة انفسهم ضحية عجزهم .

فالاتجاه الحديث يؤكد دور العيادات الخاصة لعلاج مثل هؤلاء المدخنين المزمنين . اذ يطبق في هذه العيادات أساليب العلاج النفسي المسلكي المختلفة سواء بصورة فردية أو بصورة جماعية وهو الاسلوب الافضل ومن ضمن هذه الوسائل الاسترخاء العضلي ، والتنويم والعلاج بواسطة التنفير ، والوخز بالابر ، الذي استخدم في الشرق الاقصى في الماضي لعلاج ادمان الافيون بنجاح ويستخدم الآن لعلاج التدخين المزمن وذلك بتغيير طعم الدخان في الفم وجعله كريها منفرا وقد حازت هذه الطريقه على بعض النجاح ولو أن النتائج النهائية ما زالت في حاجة الى تقييم وكذلك يمكن أن يطبق في هذه العيادات اسلوب الاعادة الحيوية : وتعتمد هذه الطريقة على مراقبة المدخن بنفسه لنفسه واشعاره بالآثار والمضار التي تنجم عن التدخين اثناء تدخينه . وبالطبع هذه العيادات الخاصة لعلاج التدخين . « ونحن نتكلم عن علاج التدخين وكأن التدخين مرض يحتاج لعلاج » لن تتمكن بمفردها من مواجهة ملايين المدخنين على المستوى العالمي الذين ينوون الاقلاع .

وسيكون العامل الاهم هو المجهود الذاتي والمثابرة الشخصية لمحاولات ناجحة باذن الله . ■■

د . دري عزت
أخصائي الطب النفسي ـ الكويت

الهليوكوبتر في ألف ليلة وليلة !

بقلم : عباس خضر

هل تصدق اننا ـ في قصص الف ليلة وليلة ـ سبقنا كتاب اوربا في الخيال العلمي : سبقنا « جول فيرن » الفرنسي و « هربرت جورج ويلز » الانجليزي .

صدق ، فهذا هو الواقع ، وزد عليه ان تثبت انه من المحتمل ان يكون ذلك الخيال العربي برغم اراء بعض المستشرقين الذين يزعمون قصور العرب في الخيال هو الذي اوحى الى كتاب القصص العلمي في اوربا ما يتخيلوه في قابل الزمان ، ثم وقع بالفعل او سوف يقع .

كذلك حدث في الف ليلة وليلة ، اذ يتخيل مؤلف « حكاية الحكماء واصحاب الطاووس والبوق والفرس » فرسا مصنوعة من الابنوس والعاج تطير بصاحبها في الجو ، وتعلو بتحريك زر في يمين رقبتها ، وتهبط بتحريك زر آخر في يسار الرقبة .. وتذهب به حيث يشاء ، وتحط على سطح القصر الذي يريد ، ويأخذ حبيبته وراءه .. يشدها الى ظهره .

وماذا في الطائرة « الهليوكوبتر » غير ذلك ؟ الفارق ؟ ان فرسنا الطائرة لا تحتاج الى « الطاقة » من بنزين او زيت فهي تمتلىء بالهواء بمجرد تحريك الزر الايمن . تنطلق دون حاجة الى طاقة ، او تنطلق بطاقة هوائية مجانية بعيدا عن اسعار « اوبك » هذا الزمان ، لان ذلك كان في سالف العصر والاوان ..

هذا هو مؤلف الحكاية يحكي لنا وقد حرك « زر الخيال » في دماغه :

كان في بلاد الفرس ملك عظيم ذو خطر جسيم ، وكان له ثلاث بنات مثل البدور السافرة ، والرياض الزاهرة ، وولد كأنه القمر .

دخل عليه ثلاثة من الحكماء مع احدهم طاووس من ذهب ، ومع الثاني بوق من نحاس ، ومع الثالث فرس من عاج وابنوس ، فقال لهم الملك :

ـ ما هذه الاشياء وما منفعتها ؟

قال صاحب الطاووس :

ـ هذا الطاووس يصفق بأجنحته ويزعق كلما مضت ساعة من ليل او نهار . « (مثل ساعة جرينتش) وقال صاحب البوق :

ـ اذا وضع هذا البوق على باب المدينة يكون كالمحافظ عليها ، فاذا دخل المدينة عدو ينطلق صوته عاليا منذرا .

وهذا يشبه ما نسمعه الآن عن اختراع جهاز يحفظ السيارة من السرقة ، وقال صاحب الفرس :

ـ يا مولاي الملك ، ان هذه الفرس اذا ركبها انسان فانها تطير به الى اي البلاد اراد .

فقال الملك :

ـ انتظروا حتى نجرب هذه الاشياء .



وجرب الطاووس والبوق ، فوجدهما كما قال صاحباهما . فقال لهما :

ـ تمنيا ، ماذا تبغيان ؟

طلب كل منهما ان يتزوج بنتا من بنات الملك ، فزوجهما .

فرس تطير

ثم تقدم الحكيم الثالث صاحب الفرس وقال :

ـ يا ملك الزمان ، أنعم علي كما أنعمت على صاحبي .

فقال الملك :

ـ اصبر حتى نجرب ما اتيت به .

عند ذلك تقدم ابن الملك وقال :

ـ يا والدي انا اركب هذه الفرس واجربها .

ـ جربها يا ولدي كما تحب .

ركب ابن الملك الفرس وحرك رجليه فلم تتحرك عن مكانها . ثم جاءه الحكيم وأراه زر الصعود وقال له :

ـ حرك هذا الزر . فحركه .. واذا الفرس قد طارت به .. فجزع اولا .. ثم تأمل جسم الفرس فرأى زرا على الجانب الايسر للكتف ، فحركه ، فتناقصت حركات الفرس واخذت في الهبوط ، ولم تزل هابطة الى الارض قليلا قليلا وهو محترس على نفسه ، ثم حرك الزر الايمن فصعدت ثانية ، ولم يزل يصعد ويهبط ، وهو يدير رأس الفرس الى الجهة التي يريدها ، فتتجه اليها ، وصار ينظر ما على الارض من بلاد ومدن لا يعرفها ، حتى رأى مدينة جميلة المباني في وسط ارض خضراء ذات اشجار وانهار .

ففكر في نفسه وقال :

ـ يا ليت شعري ، ما اسم هذه المدينة ؟ وفي اي الاقاليم هي تقع ؟

جعل يطوف حولها ويتأملها يمينا وشمالا ، وقد اتى عليه الليل ، فقال في نفسه :

ـ لا احسن من هذه المدينة للمبيت ، انا ابيت فيها هذه الليلة ، وعند الصباح اصعد منها واتوجه الى بلدي واهلي ، واخبر والدي بما وقع لي .

وجعل يفتش عن موضع يأمن فيه على نفسه وعلى فرسه ، فنظر في وسط المدينة قصرا شاهقا يحيط به سور

مرتفع ، وقال في نفسه : هذا موضع مليح .

وجعل يحرك زر الهبوط حتى هبطت به الفرس فوق القصر ، فنزل وحمد الله تعالى ، وجعل يدور حول الفرس ويتأملها ويقول :

والله ان الذي عملك بهذه الصفة لحكيم ماهر ، فان مد الله تعالى في اجلي وردني الى اهلي وبلادي لاحسنن الى هذا الحكيم كل الاحسان .

جلس فوق السطح حتى نام الناس . وكان جائعا وعطشان ، لانه منذ فارق اهله لم يأكل ولم يشرب ، فقال في نفسه : ان مثل هذا القصر لا يخلو من الرزق ، فترك الفرس في السطح ونزل يبحث عن شيء يأكله ، فوجد سلما فنزل فيه الى اسفل ، فرأى ساحة مفروشة بالرخام ، فتعجب من ذلك المكان ومن حسن بنيانه ، ولكنه لم يرَ احدا هناك ، فوقف حائرا لا يعرف اين يتجه ، فقال في نفسه : ليس لي احسن من المبيت عند فرسي ، فاذا اصبح الصباح ركبتها ومضيت .

صبية بهية

وبينما هو واقف يحدث نفسه اذ رأى نورا مقبلا ، فأنعم النظر نحوه ، فرأى جماعة من الجواري تمشي بينهن صبية بهية ذات حسن وجمال ، وقد واعتدال .

كانت تلك الصبية بنت ملك هذه المدينة ، وكان أبوها يحبها حبا شديدا ، وقد بني لها هذا القصر ، فكلما ضاق صدرها تجيء اليه مع جواريها ، وتقيم فيه بضعة ايام ، ثم تعود الى قصر أبيها ، فاتفق ان أتت في هذه الليلة ومعها الجواري وخادم متقلد سيفا وشرع في وجهه السيف ، فهجم عليه ابن الملك ولطمه لطمة طرحته على الارض واخذ سيفه وهجم على الجواري ، فجرين منه يمينا وشمالا ، فأغمد السيف وقصد الى الصبية التي تأملته فدخل حبه قلبها ، قالت له :

ـ لعلك انت الذي خطبني من والدي امس ، وردك ، وزعم انك قبيح المنظر ؟

وامعنت النظر اليه وقالت :

ـ لقد كذب ابي .

ثم اقبلت عليه وصافحته . قالت لها احدى الجواري :

ـ لا يا سيدتي ، ما هذا الذي خطبك من ابيك ، فذاك قبيح وهذا مليح ..

أفاق الخادم من غشيته ، فقالت له احدى الجواري :

ـ ان الذي ضربك واخذ سيفك جالس مع ابنة الملك .

فتوجه اليها ، وقال لابن الملك : يا سيدى هل أنت إنسي أو جني

فأجابه : ويلك انا صهر الملك ، قد زوجني ابنته هذه .

ذهب الخادم الى الملك صائحا :

ـ ايها الملك ، ادرك ابنتك ، فقد استولى عليها شيطان من الجن في زي الانس ...

ـ ايها الشقي ، كيف غفلت عن ابنتي وقد امرتك بالمحافظة عليها ؟

قال الملك ذلك وأسرع الى حيث رأى ابنته مع ذلك الشاب ، وهجم عليه بالسيف فتلقاه الفتى بمثل ما فعل ، وقال للفتاة :

ـ اهذا ابوك ؟

ـ نعم .

ـ ولما رأى الملك ان الفتى يوشك ان يفتك به لاطفه وقال :

ـ يا فتى أأنت إنسي ام جني ؟

ـ لولا انني ارعى حرمتك وحرمة ابنتك لسفكت دمك ، كيف تنسبني الى الشياطين الكافرة وانا ابن الاكاسرة .

ـ ان كنت من اولاد الملوك كما تزعم فكيف دخلت قصري بغير اذني ووصلت الى ابنتي وزعمت انني زوجتك اياها ؟

هل تطمع لابنتك فيما هو احسن مني ؟

ـ لا ، ولكن وددت ان تكون خاطبا لها على رؤوس الاشهاد .

وبعد اخذ ورد بينهما استطاع الفتى ان يخدع الملك ، ركب فرسه بعد أن انزلوها له من فوق السطح ، وحرك زر الصعود فهاجت الفرس واضطربت ، وامتلأ جوفها بالهواء ، ثم ارتفعت الى الجو .. ودهش القوم واعتقدوا انه ساحر .

حزنت الفتاة على فراق الفتى ، حتى مرضت ولزمت الفراش ، فرق لها ابوها قائلا :

ـ يا ابنتي احمدي الله تعالى على ان خلصنا من هذا الساحر الماكر .

لم تلتفت الى قول ابيها ، وزاد حزنها واشتد بكاؤها .

وصل ابن الملك الى مدينته ، واتجه الى قصر ابيه ، ونزل فوق سطحه ، ثم هبط الى حيث يجلس والده ، فوجده حزينا لفراقه . فلما رآه قام اليه وعانقه وفرح . سأل الولد اباه عن الحكيم الذي صنع الفرس ، فقال له :

ـ لا بارك الله فيه ، ولا في الساعة التي رأيته فيها ، فقد كان السبب في فراقك وبعدك عنا ، ولهذا امرت بسجنه .

فقصد الولد الى السجن وأخرج الحكيم وأحسن اليه .

وحدث الولد أباه بما جرى له مع ابنة الملك ، فسأله :

ـ ملك اي بلد هذا ؟

ـ ملك مدينة اسمها صنعاء ؟

لابد من صنعاء

اشتد شوق الفتى الى حبيبته ، فصعد الى الفرس وركبها ، وطارت به في الهواء ، ولم يزل سائرا في الجو ، حتى وقف على مدينة صنعاء ، ونزل في المكان الذي نزل فيه اولا ، ومشى مستخفيا حتى وجدها ملازمة للفراش ، فلما رأته قامت اليه وعانقته .. ثم طلب منها ان تركب معه ، فوافقت ، فاخذ بيدها ، وصعد الى سطح القصر وركب فرسه واردفها خلفه وربطها اليه .. ثم نزل بها في بستان خارج مدينته ، وقال لها :

ـ اقعدي هنا مع الفرس حتى ارسل اليك رسولي ، فاني متوجه الى ابي لأهيىء لك قصرا .

تصادف ان الحكيم صانع الفرس دخل البستان ليجمع بعض الحشائش ، فرأى الفرس وعرفها وامتلأ قلبه سرورا بها ، ثم رأى الفتاة بجوارها ، فقال في نفسه : لابد ان ابن الملك اتى بهذه الفتاة على الفرس ، ثم توجه الى المدينة ليهيىء لها استقبالا ويدخلها المدينة في موكب .

تقدم الحكيم من الفتاة ، وكان قبيح المنظر وقال لها :

ـ يا سيدتي ، انا رسول ابن الملك اليك ، امرني ان انقلك الى بستان آخر قريب من المدينة .

ـ الم يجد احدا سواك يرسله الي ؟

ـ يا سيدتي انما خصني ابن الملك بالارسال اليك لقبح منظري ، غيرة منه عليك ومحبة لك .

دخل الكلام عقلها وصدقته ، فقامت وركبت معه الفرس وطار بها ... ولما رأته اوغل في البعد عن المدينة قالت له :

ـ الى اين ؟ الم تقل ان ابن الملك أرسلك الي ؟

ـ قبحه الله وقبح اباه ..

ـ ويلك .. كيف تسب مولاك ؟

ـ ليس مولاي ، اني صانع هذه الفرس ، اخذها مني ، والان قد ظفرت بها وبك فطيبي نفسا انا انفع لك منه ...

ـ وا أسفاه لم أفز بحبيبي ولم أبق عند ابي وامي ..

لم يزل سائرا بها حتى وصل الى بلاد الروم، فنزل بها في مرج اخضر ذي اشجار وانهار . واتفق في ذلك اليوم ان ملك المدينة خرج للصيد والنزهة في ذلك المكان . فرأى الحكيم والفرس والصبية .

نظر الملك الى الحكيم ، ثم الى الصبية وقال لها :

ـ ما صلتك بهذا الشيخ ؟

ـ لا اعرفه .. فقد احتال علي وخطفني .

امر الملك بسجن الحكيم ، واخذ الفتاة والفرس .

تتظاهر بالجنون

واما ما كان من امر ابن ملك فارس فانه اعد عدته للسفر، واخذ ما يحتاج اليه من المال ، ورحل في اسوأ حال ، يقتص الاثر ، ويسأل عن الفرس الابنوس ، والناس يتعجبون منه .

الى ان وصل الى بلاد الروم ونزل في خان ، فسمع جماعة من التجار يتحدثون ، سمع احدهم يحكي لاصحابه ان اهل مدينة كذا ، وذكر اسم المدينة ، يتحدثون بحدث غريب ، وهو ان ملك المدينة قد رأى في المرج الاخضر رجلا واقفا والى جانبه امرأة جالسة ومعه فرس من الابنوس ... الخ .

ما ان اصبح الصباح حتى خرج ابن الملك قاصدا تلك المدينة . فلما اراد ان يدخلها استوقفه البوابون . وكانت العادة ان يأخذوا الغرباء الى الملك فيسألهم عن احوالهم وصنائعهم وسبب مجيئهم . وعلم من حديثه معهم في الطريق ان الحكيم في السجن . والصبية عند الملك تتظاهر بالجنون .

سأله الملك :

ـ من اي البلاد انت وما اسمك وما صناعتك ولماذا جئت هنا ؟

ـ اسمي بالفارسية « حرجة » وانا من بلاد فارس وأشتغل بعلم الطب اداوي المرضى والمجانين واطوف في البلاد لأستفيد علما على علمي . وان رأيت مرضا داويته .

ـ حسن جدا ايها الطبيب . فقد وصلت الينا في وقت الحاجة اليك .

واخبره بأمر الصبية . ووعده باجابة كل ما يطلب ان داواها وشفاها من الجنون .

فسأله ابن الملك عن الفرس . فقال له انها محفوظة عندي .

فقال ابن الملك في نفسه : يجب ان اتفقد الفرس قبل كل شيء . فان كانت سالمة فقد تم المراد . وان رأيتها قد بطلت حركتها احتلت باية حيلة للخلاص بحبيبتي . ثم التفت الى الملك وقال :

ينبغي ان انظر الى الفرس المذكورة لعلي اجد فيها شيئا يعينني على علاج الفتاة فاخذ بيده ودخل معه الى الفرس . فجعل ابن الملك يدور حولها ويتفقدها . فوجدها سالمة ففرح بها فرحا شديدا . ثم اتجه الى الصبية فوجدها تتصنع الجنون . حتى لا يقترب منها أحد . ولما عرفته كادت تصيح من الفرح ولكنه همس لها :

ـ اصبري حتى نستطيع الهرب .

طار بالصبية

وتستمر القصة تروي لنا كيف تظاهر ابن ملك الفرس بمعالجة الصبية حتى اقنع ملك المدينة بانه شفاها من الجنون . وشكره الملك . واجابه الى مطلبه الوحيد وهو اخذ الفرس الابنوس . وتحكي لنا كيف احتال على الملك حتى ركب الفرس واردف الصبية خلفه . وطار بها متجها الى بلاده حيث نزل على قصر ابيه . واستقبله ابوه وامه فرحين به وبعروسه الجميلة التي تزوجها واقام الولائم لاهل المدينة . ونعم الجميلان بالافراح والليالي الملاح .

وكما يحدث دائما . اذ يقابل الناس الاختراع الجديد بالاستنكار والنفور . وخاصة اذا توقعوا منه ضررا . نرى الملك الوالد يجزع من « هيلوكوبتر » زمانه . لانها كانت سببا في بعد ولده وقلقة كبده وما ترتب على هذا البعد من قلق وحزن . فقصد اليها في خفية من ولده وكسرها تكسيرا .. وا أسفاه .

لو لم يفعل لدخل التاريخ راكبا اول « هيلوكوبتر » صنعها خيال الاسلاف في « الف ليلة وليلة » واودعها قصصها مع ذخائر كثيرة ■■

عباس خضر

الفقر عيب

× وأي عيب كالفقر

فالمرء لا يكون فقيرا « الا اذا كان كسولا خاملا . او ضعيفا عاجزا ... وهذا ليس حكم العقل وحده . بل حكم الدين ايضا .

ـ فالصحابي أبو ذر الغفاري يقول : عجبت لرجل يجوع ولا يخرج على الناس بسيفه .

ـ والامام أبو حنيفة يقول : لا تشاور من لا دقيق في بيته فانه موله ـ تائه ـ العقل .



مع الخوف تعيش أمريكا



اعداد منير نصيف

الجريمة تجتاح امريكا .. الجريمة بكل انواعها في كل مكان .. في المدن ، في الريف في الضواحي الهادئة ، في عدد كبير من الولايات الامريكية في الشمال والجنوب .. في الشرق والغرب .. جرائم من كل نوع .. قتل ونهب ، سطو واعتداء ، سرقات بالاكراه واغتصاب تحت تهديد السلاح .. ومع الخطر المتزايد الذى يهدد حياة الناس في اكبر واغنى دولة في العالم انطلقت موجة من الانذار في المدن وضواحيها .. اطلقتها اجهزة الامن التي تقع عليها مسؤولية حماية ارواح الناس وممتلكاتهم بعد الزيادة المخيفة في معدلات الجريمة طبقا لاحصائيات مكتب التحقيقات الجنائية .

وخرج المدنيون يشاركون رجال الشرطة في مقاومة هذه الموجة العارمة من الجريمة ، وركب الرجال سياراتهم الخاصة وراحوا يطوفون بها الشوارع بحثا عن هؤلاء الذين اشاعوا الرعب في قلوب الملايين حتى اصبح الخوف من ان يقع احدهم ضحية للجريمة اكبر من الخطر الذي يتهدده فعلا ... ولو ان احدا لا يستطيع ان ينكر ان الخوف له ما يبرره ، فقد تعدت الجريمة في اكثر من خمس وعشرين مدينة امريكية كل الارقام التي سجلت على مدى السنوات العشر الاخيرة

جريمة كل ٢٤ دقيقة

هكذا تقول الصحف الامريكية وهي تنقل لنا اخر ما سجلته الاحصائيات ، وتقرأ مجلة تايم الاسبوعية مثلا فتجد ان هناك جريمة قتل ترتكب كل ٢٤ دقيقة في مكان ما بالولايات المتحدة وفي كل عشر ثوان يتعرض بيت للسطو وكل سبع دقائق تغتصب امرأة .. احصائيات اخيرة عن بعض ما وصلت اليه الجريمة في الشهور الاولى من هذا العام .

ثم تنقل لنا مجلة « إيس نيوز اند وورلد ريبورت » أرقاما اخرى اكثر دقة وتفصيلا لانها مستقاة من مكتب التحقيقات الجنائية خلال عام ١٩٧٩ تقول ان جريمة خطيرة ترتكب كل ثانيتين ونصف وحادث سرقة كل ثلاث ثوان وسطو كل عشر ثوان وجريمة عنف كل ٢٧ ثانية وسرقة سيارة كل ٢٩ ثانية واعتداء على اشخاص لاى سبب أو بلا سبب كل ٥١ ثانية واغتصاب كل سبع دقائق وجريمة قتل كل ٢٤ دقيقة .

حكم الارهاب

وفي تحذير وزير العدل الامريكي وارن بيرجر ، ترى الصورة المخيفة التي يعيشها الامريكيون فقد قال في شهر فبراير من هذا العام وفي اعقاب قيام رئاسة جديدة وحكومة جديدة في امريكا : « ان هناك حكما من الارهاب يسود المدن الامريكية » ثم يتساءل : « السنا رهائن داخل حدود بلادنا المستنيرة المتحضره ؟ .

ويقول مدير شرطة مدينة هوستون بولاية تكساس الامريكية : « الخوف من الجريمة يهدد تدريجيا بشل الحياة في المجتمع الامريكي .. لقد سمحنا لانفسنا بالتحلل والتفسخ الى الحد الذى اصبحنا فيه نعيش مثلما تعيش الحيوانات . فنحن نعيش وراء قضبان حديدية تحمينا من وصول اللصوص الينا ، ومجموعة من الاقفال المثبتة في الأبواب وأجهزة الانذار ، ثم نرقد على الفراش وبجوارنا مسدس محشو بالرصاص وبعد هذا نحاول ان نحصل على شيء من الراحة .. يا للسخرية ! »

ورئيس شرطة هوستون يعرف عن اى شيء يحدث لانه هو نفسه يحتفظ بعدة مسدسات محشوة بالرصاص في غرفة نومه !

تجارة السلاح

وقد راجت تجارة السلاح والسلاح المضاد في الآونة الاخيرة بصورة لم تعرفها امريكا من قبل .. فقد اقبل المواطنون على شراء المسدسات والبنادق والتدرب على اطلاقها .. واقبلوا في نفس الوقت على شراء الاقفال الفولاذية لاحكام اغلاق ابوابهم ، واقتنوا كلاب الحراسة ، وثبتوا اجهزة الانذار في النوافذ وهي تصرخ عند اقتراب اى يد اليها من الخارج ... حياة تذكرهم بايام اجدادهم الرواد الاوائل ، باستثناء طبعا ما توصل اليه العلم الحديث .

ثم هناك بعد ذلك هذا الشعور العام بان الشرطة اصبحت عاجزة عن حمايتهم ، فراحوا ينقلون ممتلكاتهم الى الخزائن الخاصة في البنوك .. وعندما امتلأت كلها ،



قيد حديدي في معصمي قاتل

راحوا يعدون قوائم خاصة باسماء « الزبائن » الجدد الذين ينتظرون دورهم للحصول على خزانة .

الجريمة امريكية !

وكما تقول ان هذه السيارة امريكية ، اصبح مألوفا أن تقرأ ايضا ان الجريمة امريكية وتقول « تايم » : « ان هناك بعض الحقيقة في قول تشارلز سيلبرمان المأثور : « الجريمة امريكية تماما كما كان جيس جيمس امريكيا » ... وجيس جيمس كان يجسد الجريمة في ابشع صورها ، وتشارلز سيلبرمان هو الكاتب الأمريكي مؤلف كتاب« العنف الاجرامي والعدالة الجنائية » .

هل صحيح ان البوليس اصبح غير قادر على مجابهة الزيادة المستمرة في الجريمة والجواب عند البوليس نفسه بالايجاب ! لماذا ؟ لان الخط الازرق الرفيع الذي يمثل حماية رجال الامن ، يزداد رفعا ، فالمشاكل التي تواجه حكام بعض الولايات لموازنة ميزانياتهم تضطرهم اضطرارا الى تخفيض قوات الامن في عدد كبير من المدن الهامة . فمثلا في مدينة كليفلند بولاية اوهايو عجز في عدد رجال الشرطة يقدر باكثر من الف رجل .. والنتيجة في مثل هذه الحالة ليست في حاجة الى ايضاح .. ولعل اهم ما فيها ان المجني عليهم ينتظرون فترة اطول بكثير قد تحمل معها خطرا محدقا ، قبل ان يصل رجال الشرطة لنجدتهم !

إحم نفسك

وفي ديترويت ارتفعت الجريمة بمعدل اربعة عشرة في المائة ، خلال الشهور الستة الاولى من العام الماضي ومع هذا فقد اضطرت الولاية الى الاستغناء عن خدمات ٦٩٠ رجلا من رجال الشرطة ضمن برنامج يهدف الى توفير مبلغ ٢٧ مليون دولار عجز في الميزانية .. وكانت النتيجة ان بدأ المواطنون الامريكيون يعملون فيما بينهم على مواجهة هذه الموجة المتزايدة من الجرائم التي يتعرضون لها ، فقامت في الجزء الغربي من المدينة مثلا خمسون جمعية او ناد شعاره « إحم نفسك » كما قام السكان في الوقت ذاته بتنفيذ برامج للمراقبة في المنطقة ، فقد اصبح هناك شعور متزايد بالعزوف عن الاتصال برجال البوليس والابلاغ عن اى جريمة تقع ، « ولماذا نبلغ عن الجرائم ما دمنا لا نجد منهم المساعدة التي نتوقعها » !

والامريكي العادي يستخدم المواصلات العامة سيارات الاوتوبيس او مترو الانفاق ، ولكن لم يعد هذا



ضحية في الطريق العام

حاله الآن ، اذا غابت الشمس ولف الظلام المدينة ، اسرع يبحث عن سيارة تاكسي خاصة تعيده الى بيته او تذهب به الى حيث يشاء .. لم يعد يطمئن الى جاره الذي يجلس معه في نفس السيارة العامة او يقف على مقربة منه في محطة المترو تحت الارض ثم الملابس التي توحي بأن صاحبها ليس فقيرا على الاقل ، لم تعد هي المفضلة في الليل ، اى بدلة او اى فستان عادي يؤدى الغرض في السهرات العامة والخاصة .. في مدينة نيويورك اكبر مدن امريكا من حيث الكثافة السكانية واكبرها مسرحا للجريمة لا يحمل الناس في جيوبهم اكثر مما يكفيهم ثمنا لوجبه الغداء والمواصلات ... تقول زوجة احد رجال الاعمال في حي ما نهاتين : « لقد اهديت زوجي ساعة ثمينة في عيد ميلاده ، ولكنه لم يضعها حول معصمه مرة واحدة ، لانه يعلم ان عمله لا يسمح له بالعودة الى البيت في ساعة مبكرة من المساء » .

الدافع واحد .. ولكن

والجريمة في امريكا لها دوافعها ، وهي لا تختلف كثيرا عنها في اى بلد اخر .. فقط هناك عوامل اخرى تساعد على تعقيدها وانتشارها .. وارتفاع نسبة العاطلين عن العمل من الاسباب الاساسية التي تدفع الى الجريمة ، ولانه يعيش في مجتمع رأسمالي تعلم منه انه لكي يأكل فلا بد له ان يعمل .. وانه لابد ان يعمل اكثر اذا كان حريصا على ان يعيش في مستوى افضل .. فهو يعرف تماما ماذا يعني بقاؤه عاطلا بلا عمل .. وفي اغلب الاحيان نجده قد انسلخ عن اسرته ، وخرج الى الشارع .. وفي هذا البحر الذي تتلاطم فيه امواج الحياة نراه يقف مع نفسه لاول مرة .. وهي وقفه حائرة قصيرة لا يلبث ان يخرج منها وقد استقر رأيه : « لابد ان اعيش » ولكن كيف ؟

السنارة والسمكة :

وتتلقفه الايدي المدربه ويتعلم .. انها ابسط مما كان يتصور او هكذا يصورونها له ... شيء قريب الشبه بصيد السمك من البحر .. انهم يبحثون عن الطعم ثم يضعونه في السنارة ويلقون بها في الماء وينتظرون .. وقد يحالفهم الحظ وقد يطول انتظارهم فاذا نفذ صبرهم القوا بانفسهم مع السنارة ليمسكوا بالسمكة التي تحوم حولها . ويفلح البعض في الاصطياد بها ويغرق البعض بعد ان تفلت منهم !

وبين القاء الطعم وصيد السمك ، قد يحدث شيء لم يكن في حسابهم ، ويضطرون الى القتل !

بماذا يقتلون ؟ بالسلاح ! بالمسدسات والبنادق التي اطلقت على رئيس امريكا الجديد في قمة الموجة التي تجتاح البلاد وعلى حرسه ورجاله في قلب المدينة وفي أرقى احيائها .. ويقتلون بالسكاكين .. ولعل هذا السلاح الذي يباع بغير قيود لكل من يطلبه ، هو العامل المؤثر في هذه الظاهرة الخطيرة التي تفزع امريكا اليوم .. وقد كان ريجان نفسه الذي تعرضت حياته للخطر ، ومازال من اشد المعارضين لاصدار تشريع يقضي بالحد من بيع الاسلحة للمواطنين رغم الحقائق التي تؤكد أن الجريمة في امريكا قد اصبحت اليوم اكثر وحشية ، ولا عقلانية ، وبلا هدف ، الأمر الذي ضاعف من موجة الخوف والقلق التي يعيشها الامريكيون ، فمثل هذا التشريع قيد على الحرية ، اية حرية ؟ .

مذبحة السود

وكان القرار الوحيد السريع الذي اتخذه رئيس امريكا الجديد في اعقاب حوادث ذبح الاطفال السود بمدينة اتلانتا بولاية جورجيا ، حيث يشكل الزنوج ستين في المائة من مجموع سكانها .. فعندما بلغ عدد الجثث التي اكتشفها البوليس اكثر من عشرين جثة لاطفال ابرياء ، القى بهم القدر في طريق سفاح مجهول ، امر ريجان بالاستجابة فورا الى طلب المدينة اعتماد مبلغ مليون ونصف دولار الى جانب مليون دولار من الاعتمادات الفيدرالية ، للانفاق على التحقيقات التي تجريها سلطات الولاية لحل لغز هذه الجريمه التي هزت ضمير الامة .

لقد اصبح الامريكيون يتصورون ان هذه الجرائم التي اصبحت بلادهم مسرحا لها لا تقع إلا في امريكا .. انها جرائم موجهة ضد كل واحد منهم .. لقد اصبح المواطنون كلهم وبلا استثناء معرضون لها . لهذا وقف الامريكيون جميعا صفا واحدا لمقاومتها انهم في حرب ضد هذا العدو المجهول . ولكن كيف يحاربون ومن هو العدو ؟

نصائح البوليس

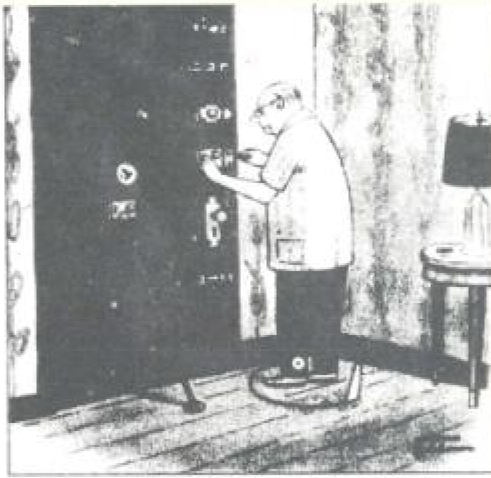
ويجيب رجال الامن على الشق الاول : « اذا كنت تسير وحدك في ساعة متأخرة بالليل ، وفجأة ظهر لك شبح وسط الظلام واحسست بآلة حادة تلتصق بضلوعك من الخلف وصوت يأمرك بان تعطيه حافظة نقودك ، فافعل دون تردد .. لا تقاوم ، اعطه كل شيء ، مالك وساعتك واية مجوهرات اخرى تكون في حوزتك .. هذه هي نصيحة البوليس لك اذا كنت لا تريد ان تموت حتى لو كنت تحمل مسدسا ، لا تحاول ان تستخدمه لانك لو حاولت وتحركت اصابعك الى جيبك ، فسوف تكون حياتك قد انتهت ، وحتى لو كنت تجيد الجودو او الكاراتيه .. أنت ميت ميت ، فلا تقاوم ... فالرصاصة اسرع من اي حركة تقدم عليها .. لا تحاول مفاوضة من يهاجمك للاحتفاظ ببعض ما تحمل ، فكلما احس بانك تعرقل مهمته ، ازداد عنفا ، لا تصرخ .. لا تقوم باي حركة مفاجئة وانت تمد يدك الى جيبك لتخرج منه ما تريد ان يأخذه ، قل له انك تنوي ان تفعل ما تريد ان تفعله قبل ان تحرك ساكنا ، ولا تنس دائما ان تخرج من بيتك وفي جيبك بعض المال ، لان بعض هؤلاء المهاجمين سوف يتملكهم الغضب نتيجة خيبة الامل التي اصابتهم وهم يخرجون بلا شيء من هذه المغامرة ، وربما قتلوك على اية حال » .

الامة خائفة

وفي دراسة جديدة تحت عنوان « تقرير فيجي » عن أثر الجريمة على الحالةالنفسية للامريكيين اجريت على اكثر من الف شخص من جميع انحاء الولايات المتحدة .. خرج الدارسون بنتيجة هامة ، وضعوها في هذه الصورة الجديدة « لأمة خائفة » . وهذه بعض ملامح الصورة .

● اربعة من كل عشرة مواطنين يشعرون انهم معرضون للقتل والاعتداء والسرقة والاغتصاب . وهو شعور دائم يلازمهم في حياتهم اليومية .

● الخوف من الجريمة ينتاب كل طبقات المجتمع في كل



الأمريكيون يعيشون وراء المتاريس

مكان بغض النظر عن أية حدود جغرافية .. ٥٢٪ في المدن الكبيرة يعيشون في خوف دائم وتهبط هذه النسبة الى ٤١٪ في المدن الصغيرة والى ٣١٪ في الضواحي الصغيرة والمناطق الريفية .

● ٥٢٪ من مجموع عدد الذين استجوبوا خلال هذه الدراسة يمتلكون اسلحة للدفاع بها عن انفسهم .

● تسعة من بين كل عشرة مواطنين يغلقون ابواب منازلهم بالضبة والمفتاح ، ويتعرفون على كل زائر قبل ان يفتحوا له الباب ويسمحوا له بالدخول .

● وسبعة من بين كل عشرة يغلقون ابواب السيارات من الداخل اثناء قيادتهم لها ، وستة من بين كل عشرة يتصلون تليفونيا باصدقائهم او اقاربهم الذين كانوا في زيارتهم ليطمئنوهم على وصولهم الى بيوتهم سالمين .

● اكثر من نصف الذين اجريت عليهم هذه الدراسة يحرصون دائما على الخروج بملابس عادية بسيطة لا تلفت اليهم انظار المجرمين .

● ٦٣٪ يؤيدون منح البوليس سلطة اكبر تسمح لهم باستجواب المشتبه فيهم ولكن ثقة السود الامريكيين في الشرطة اقل بكثير من ثقة المواطنين البيض .

● على الخوف تعيش امريكا

● اكثر من النصف لا يمانعون في فرض مزيد من الضرائب ، بشرط ان تذهب هذه الاموال لدعم حماية الشرطة لهم .

● الغالبية العظمى تنادي بفرض عقوبات رادعة والسجن مددا طويلة للذين يرتكبون جريمة من جرائم العنف ، بينما يطالب اثنان من كل ثلاثة بالحكم بالاعدام ، ويقول التقرير في النهاية : « ان امريكا تعيش اليوم في قبضة خوف جديد ... تزداد ضغطا مع الوقت .. الخوف من ان تقع ضحية لجريمة .. الخوف من الاصابات الجسمانية .. الخوف من ضياع ما يملكون .. ان الامريكيين اليوم يعيشون في خوف من بعضهم بعضا ! »

الجريمة لماذا ؟

يقول بعض الاخصائيين في علم الجريمة ان هذا الشعور الذى اصبح يسيطر على الامريكيين ليس ظاهرة ، وانما هو نتيجة حتمية لاسلوب الحياة في هذا البلد الحضارى الكبير فالاسرة مفككة ... والابناء ينسلخون عنها في سن مبكر ، قبل ان يبلغوا العشرين في اغلب الحالات ... وهي فترة خطرة حرجة في سن الشباب الذى يجد نفسه فجأة قد اصبح حرا بعيدا عن نفوذ الوالدين .. وفي هذه الحرية المبكرة يضل الشباب الطريق أو تنحرف نسبة كبيرة منهم

والانسلاخ عن الاسرة يعني بالتالي الخروج على المجتمع الذى يعيش فيه والنتيجة شعور بالضياع والوحدة .. والانسان في وحدته يتحول الى حيوان او يتحول الى عبقرى .. فهو في الحالتين يريد ان يثبت وجوده . ومحاربه الانحراف إذا لابد ان تبدأ في المجتمع الصغير الذى ينشأ فيه ثم المجتمع الكبير الذى سيخرج اليه ويواجه العالم .. إذا استطاع الامريكيون الابقاء على الصلة القوية التي تربط افراد الاسرة الواحدة ، نجحوا في القضاء على الجريمة التي زلزلت ضمير امة تعيش في قمة الحضارة والتقدم .

■ احببتها بصدق ، وتمنيت لو انها شاركتني حياتي .. ومع هذا كنت اول المهنئين عندما رأيتها تخطر في ثوب الزفاف مع رجل اخر ، فقد كنت احبها .

« تشارلز ديكنز »

القطة السعيدة

بقلم : عزيز نسين

ترجمة : صفوان الشلبي

أمس ، كنا في حفلة افتتاح معرض لوحات احدى الفنانات الشهيرات ، كان يسود الحفل جو من الألفة والمودة ، طرقت خلاله احاديث شتى . ومن جملة الحديث قالت احدى الفنانات المدعوات :

ـ لقد حلمت امس حلما غريبا .

سأل احد الشعراء المدعوين :

ـ هل كان حلما مزعجا ؟

ـ كان حلما غريبا مهما ، لم افهم له معنى . هل بينكم من يجيد تفسير الاحلام ؟

ـ هيا ارويه لنا .

ـ وابتدأت صاحبة الحلم برواية حلمها :

ـ كان هناك حشد من الناس ، كل في طريقه يسير . كنت انا ايضا اسير وسط هذا الزحام ... فجأة ومن بين هذا الزحام صاح احدهم : « أنا » . التفتنا الى مصدر الصوت ، فأردف ذلك الرجل قائلا : « ليقف الجميع كل في مكانه » . اطعناه بدون اعتراض ووقفنا جميعا بدون حراك ...

قال احد النحاتين الذي كان يصغي لرواية الحلم :

ـ ولماذا وقفتم ؟

ـ لست ادري . لقد وقف الجميع ووقفت مثلهم ... ثم صاح بنا ذلك الرجل ان نرسم بالطباشير دائرة حول انفسنا . اخرج البعض قطعا من الطباشير وباشروا الرسم ، بينما اعلن البعض عن عدم وجود طباشير في حوزتهم ، فأذن الرجل لهم باستخدام الاقلام عوضا عن الطباشير . انحنى الجميع على حجارة الرصيف يرسمون ما طلب منهم ، اما انا فقد بحثت في جيوبي وفي حقيبتي فلم اجد طباشير او قلما ولا حتى قلم ـ روج ـ . اصابني فزع شديد ورحت ارتعش من شدة الخوف حتى سمعت احدهم يقول بتردد انه لا يملك اي شيء يستطيع ان يرسم به . فقال ذلك الرجل : (من لا يملك قلما ايضا فليرسم دائرة في الهواء) .

احد المدعوين المنصتين لرواية الحلم :

ـ ولماذا رسمتم تلك الدوائر ؟

ـ هذا ما ابحث عن تفسيره .

ـ الاحلام تكون احيانا بعيدة عن المنطق .

وأكملت الفنانة حديثها :

ـ بعد ان رسمنا دوائر حول انفسنا صاح بنا ذلك الرجل : (لا يخرجن احدكم خارج دائرته) . ووقفنا حسب اوامره داخل دوائرنا ننتظر .

وسأل احد الشعراء :

ـ ألم تستطيعوا الخروج من تلك الدوائر ؟

ـ لم نستطع .



ـ لماذا ؟

ـ لقد منعنا من الخروج .

ـ ولكن لم يكن لدائرتك حدود مرئية ؟

ـ لقد حددتها باصبعي فعلا ، ولكنها كانت في مخيلتي واضحة المعالم .

ـ ومع هذا فقد كان بامكانك ان تخرجي منها .

ـ وكيف افعل هذا وانا لم ار احدا يجرؤ على مخالفة اوامره ؟

لقد انتظرت طويلا وشعرت بضجر وملل قاتلين . رحت افكر في طريقة للخروج من هذه الدائرة ، فخطر ببالي ان امسح تلك الدائرة بيدي ، فصاح ذلك الرجل الغريب : (لا يمسحن احدكم دائرته) .

فقال احد الكتاب المدعوين :

ـ ألم يكن من الاجدر بكم عدم الانصياع لاوامره من البداية ورفضكم لرسم تلك الدوائر التي سجنتم بها انفسكم بأيديكم ؟

ـ كلامك جميل ومعقول يا عزيزي ... ولكن دعوني اتم لكم ما رأيته ... الذي حدث اننا قد فعلنا ما طلب منا دون ادنى تفكير . ومن جملة ما شاهدت : رجل مقعد اذكر انه قال لي : (انا مقعد لا اقوى على الحركة منذ عشرين عاما .. ولكني الآن اشعر برغبة جامحة للخروج من هذه الدائرة التي اعتقد أنها سبب علتي ومرضي ، بل اؤكد لك اني استطيع الركض ايضا لولا هذه الدائرة) . وشاهدت منظرا آخر اشد غرابة : امرأة ميتة ولكنها تتحدث ، فقد سمعتها تقول (منذ ان مت لم اشعر برغبة للمشي او القفز ، ولكني بعد ان رسمت هذه الدائرة

ومنعت من الخروج منها غمرتني رغبة قوية للمشي والتنزه . لولا هذه الدائرة لتمكنت من المشي مثلكم ايها الاحياء) .

وكان هناك شاب مبتور الذراعين يقول : (لو يمسح احدكم الدائرة التي حولي علني اغادر هذا المكان) . واذكر اني سألته (ولكن كيف رسمت دائرة مثلنا) ؟ فأجاب (لقد رسمتها في مخيلتي وهي الآن موجودة تطوقني فلا اقوى على الخروج منها) .

رجل اخر كان يقول من بعيد : (ألم يصدر امر يمسح هذه الدوائر) ؟

وأخر : (هل من منقذ يخرجنا من هذه المحنة) ؟

(هل هناك من يستطيع ان يمسح لنا هذه الدوائر) ؟

(هل من محرر لنا من هذا السجن) ؟

ومرت الساعات ببطء ثقيل على النفس ، وغابت الشمس ، وغمرت الظلمة المكان برداء اسود ، ونحن ما زلنا واقفين في اماكننا لا نجرؤ على الحركة . كان الجميع يردد في قرارة نفسه (اذا شاهدت احدهم يخرج فسأخرج انا ايضا) .

وفي هذه الاثناء ، اقتربت قطة سوداء منا وقد بدت عيناها في الظلام كقطعتين من جمر ، اخذت تتجول بيننا ، تدخل الدوائر وتخرج منها كيفما شاءت ، تتنقل من مكان الى آخر ينتهي الحرية . واحسست من داخلي بالغيرة منها ، وردد الجميع (ما اسعدها . ان القطط لمخلوقات سعيدة . يا ليتنا كنا قطة مثلها) . وكأنها ادركت ما رددناه فأخذت تلعب وتمرح وكأنها تغيظنا . وفي تلك الاثناء رن جرس المنبه بجانبي فاستيقظت من نومي مذعورة .

ترى هل بينكم من يستطيع أن يعطي معنى واضحا او تفسيرا لهذا الحلم ؟

وسكت الجميع . الا ان كاتبا عجوزا قال :

ـ اذا ابتعد الانسان عن المسار الذي خلق من اجله ونسي ما تحمله الانسانية من معان ، تصبح القطط اسعد منه فيحسدها على نمط حياتها .

وأكمل قائلا :

ـ سأجعل من حلمك هذا قصة في كتاب .

ـ هل أعجبك الحلم الى هذه الدرجة ؟

ـ بل أردت ان يقرأها الناس فيجرؤ احدهم على الخروج من دائرته فيشجع الآخرين على الخروج من دوائر رسموها بأيديهم . ■■

عزيز نسين

شكر العينين

× قيل لابي حازم : ما شكر العينين ؟

قال .. اذا رأيت بهما خيرا ذكرته .. واذا رأيت بهما شرا سترته

قيل له .. وما شكر الاذنين ؟

قال .. اذا سمعت بهما خيرا حفظته .. واذا سمعت بهما شرا نسيته .

الادب والمال

قال رجل لبرنارد شو : ان لي سبعة اولاد .. ستة منهم يريدون ان يكونوا ادباء .. والسابع يريد ان يكون صانعا .

فقال شو ضاحكا : .. ولكن .. هل من العدل ان يصبح واحد من اولادك مكلفا باعالة اخوته الستة . ؟

"جامعة القرويين"
حصن الثقافة
.. في المغرب



استطلاع : مصطفى نبيل

تصـوير : اوسكار متري

نمضي هذه المرة غربا .. الى جامعة القرويين ، إحدى قلاع الحضارة العربية في المغرب العربي كله ، ورمز معركة ما زالت قائمة من أجل تأكيد الهوية ..

ففي مراحل طويلة من التاريخ تبادل الادوار خلالها العرب والغرب .. المغرب واسبانيا عبر مضيق جبل طارق ، وانتقلت من التأثير الى التأثر !

ومع كل هذه المراحل اتصل دور جامعة القرويين ما يزيد عن ألف عام ، جامع وجامعة ، رسالة وحضارة ، بل وأكد بعض المستشرقين أن دورها أسبق حتى من جامعات أوكسفورد والسوربون ..

جامع القرويين هو قلب مدينة « فاس » ..

وفاس أحد رموز المدن العربية القديمة ، بمبانيها التاريخية وأسوارها ومياهها وأسواقها وحرفها ، ما زالت على جدرانها تجاعيد الزمن والغزاة ، واسمها وحده يوحي بتاريخ حافل بالامجاد مصحوب بالصراع ، وكل جزء منها قطعة فنية فريدة ، وهي بالنسبة للعرب تاريخ محفوظ ..

ويتزل منها جامع القرويين مكانا مقدسا ، فقد ساهم في صياغة وجدان المغرب العربية ، وكان له على الدوام تأثير كبير في العالم الاسلامي ، وليس غريبا ما يردده أبناء فاس من أن « جامع القرويين هو حياة فاس ، ولولا فاس ما ذكر المغرب .. »

●

كانت فاس نموذج المدينة الاسلامية في مهرجان العالم الاسلامي الذي عقد في لندن في منتصف السبعينات ، وقررت منظمة اليونسكو المشاركة في انقاذها كجزء من التراث الانساني ، ورصدت من أجل انقاذها ٢٠ مليار دولار ، على ان تساهم اليونسكو بثلث هذا المبلغ مع خبرتها التي اكتسبتها في انقاذ مدينة البندقية ، كما وجهت نداء عالميا بلح في العمل على انقاذها .. من مشاكل متنوعة تواجه المدن العتيقة ، بعضها يتعلق بالتكيف مع العصر مع الحفاظ على تراثها المعماري الذي يتهدده الانهيار ، وبعضه يتعلق بانتقال العاصمة منها الى الرباط عام ١٩١٢ ، وانتقل منها المركز الاقتصادي الى الدار البيضاء ، وخرج اغلب اسرها القديمة من داخل الاسوار ، وتدهورت حرفها التقليدية بعد ان كانت تزود العالم بالجلود المغربية ، وبقيت مهارة حرفييها مسجلة على ما تبقى من مبانيها التاريخية ..

واصبحت فاس الحاضر ، تكتظ بالسكان ، وتتكاتف وتتساند في حرص على ما تبقى من مبانيها التاريخية خشية الانهيار ، وتحتضنها أسوارها مع ما تبقى من حرف قديمة ، وازقة متعرجة ..

●

ولعل هذا كله هو السبب في ذلك الشعور الذي يجتاح زائر فاس ، وهذا الحنين الغامض لزمن مضى ..

من فندق المرينيين الذي يقوم على ربوة عالية شاهدت فاس القديمة ، وقد احتضنتها التلال التي تشبه المنشار في واد اخضر ، وعلى مسافة قصيرة منها تقوم مدينة فاس الجديدة بمبانيها الضخمة وشوارعها الحديثة ..

تدخل الى فاس القديمة من بوابة اندلسية محلاة بالفسيفساء تشبه معظم بوابات المغرب ، البوابة ذات باب كبير ، رصع بنقوش دقيقة ، وهناك ستة ابواب اخرى تقود الى قلب المدينة ..

تدلف من البوابة الى عالم مسحور ، كل ركن منها

لوحة يمكنك ان تميزها . فللمدينة مذاق خاص وشخصية ثقافة . يرتدي اهلها ملابسهم المميزة . ولعله لا يوجد مكان آخر يضاهي فاس في هذا التناغم بين الكبرياء وما يحيط به من مجد تاريخي . ففي ازقة المدينة تشاهد بقايا الحرفيين واعمالهم الدقيقة ، وتنتقل الى الاسواق العربية التي قسمت كغيرها من الاسواق الشرقية ، لكل سلعة قسم خاص . تشاهد الثقافة الحية على جدرانها وفي عماراتها وازياء سكانها ، وفي مهارة حرفييها ..

وانتقل بين مباني فاس واهلها ، بين المشاهدة والتأمل في الصور التاريخية التي تتوالى ..

فاس التاريخ في المغرب العربي تأتي في المرتبة الرابعة بعد مكة والمدينة والقدس ، فهي درة من درر المدن الاسلامية ، لا يضاهي دورها في المغرب الاسلامي سوى القيروان وقرطبة وكما جاء في المسالك للعمري : « انها تشبه دمشق وغرناطة ، واهلها يشبهون اهل الاسكندرية في المحافظة على علوم الشريعة ، وتغيير المنكر ، والقيام بالناموس .. »

واتذكر ما جاء في كتاب جني زهرة الاس في اخبار فاس في وصف ابناء فاس .. « فلاعتداله ، اعتدل اهله ، فسلموا من شقرة الروم ، وسواد الحبش ، وغلظ الترك ، وجفاء اهل الجبال ، ودمامة اهل الصين ، وكما اعتدلوا في الخلق اعتدلوا في الفطنة والذكاء والعلم .. »

ويمضي الكتاب قائلا بعد ان امتزجت ذاكرة المؤلف بذاكرة المدينة « قال الحكماء « لا تستوطن الا بلدا فيه سلطان حاضر ، وطبيب ماهر ، ونهر جار ، وقاض عادل ، وعالم عامل ، وسوق قائم .. »

ولا تملك في فاس الا العواطف الجياشة لاهلها ، فاينما ذهبت تحيطك انسانيتهم الدافئة ، وكرمهم ، واناقتهم ، وشدة اعتزازهم بعروبتهم ، حتى تكاد تسعى الى الاحتفاظ بالاحاسيس والانطباعات والانفعالات التي يولدها التاريخ العريق والحاضر النابض بالحياة ، وكلما اخذت في تذكر غنيات زخرف على جدار ، ومضت التجربة المكثفة في ذاكرتي ، وانتقل الى المقارنة بين الهندسة المعمارية وتشابكات الحياة اليومية ، فالدور امامي تتكفيء بين الفقر والغنى يعلوها غبار التاريخ ..

تعترضك المياه الجارية التي تسري في عروق المدينة كلها ، عبر البيوت القديمة والطرق الضيقة « يتشعب في داخلها الماء انهارا وجداول وخلجانا ، فتتخلل الانهار ديارها وبساتينها واسواقها وحماماتها ، وتخرج وقد حملت اثقالها .. فنهر فاس يفوق مياه المغرب في العذوبة وكثرة المنفعة .. » هذا ما وصف به ابن أبي زرع في روض القرطاس .

وفاس الحاضر تعيش داخل الاسوار مرحلة تحولات عنيفة بعد انهيار التشكيلات الاجتماعية القديمة .. فماذا سيتداعى ويندثر ..؟ وماذا سيتمو ويكبر ..؟

جامع القرويين

اقترب من مركز فاس ، من جامع القرويين الذي يقود اليه كل ازقتها ، ليس لجامع القرويين بقبته الخضراء منظر خارجي وشكله لا يوحي بما في داخله من جمال ، فهو يتعشق مع مباني فاس التاريخية ، وتطل على المشهد المهيب من وسط صحنه الداخلي ، والذي تصله عبر ازقة متعرجة واحيانا تمشي بين جدران لا نوافذ لها ، حتى تصل الى فناء تنتشر فيه اشجار الليمون والبرتقال .

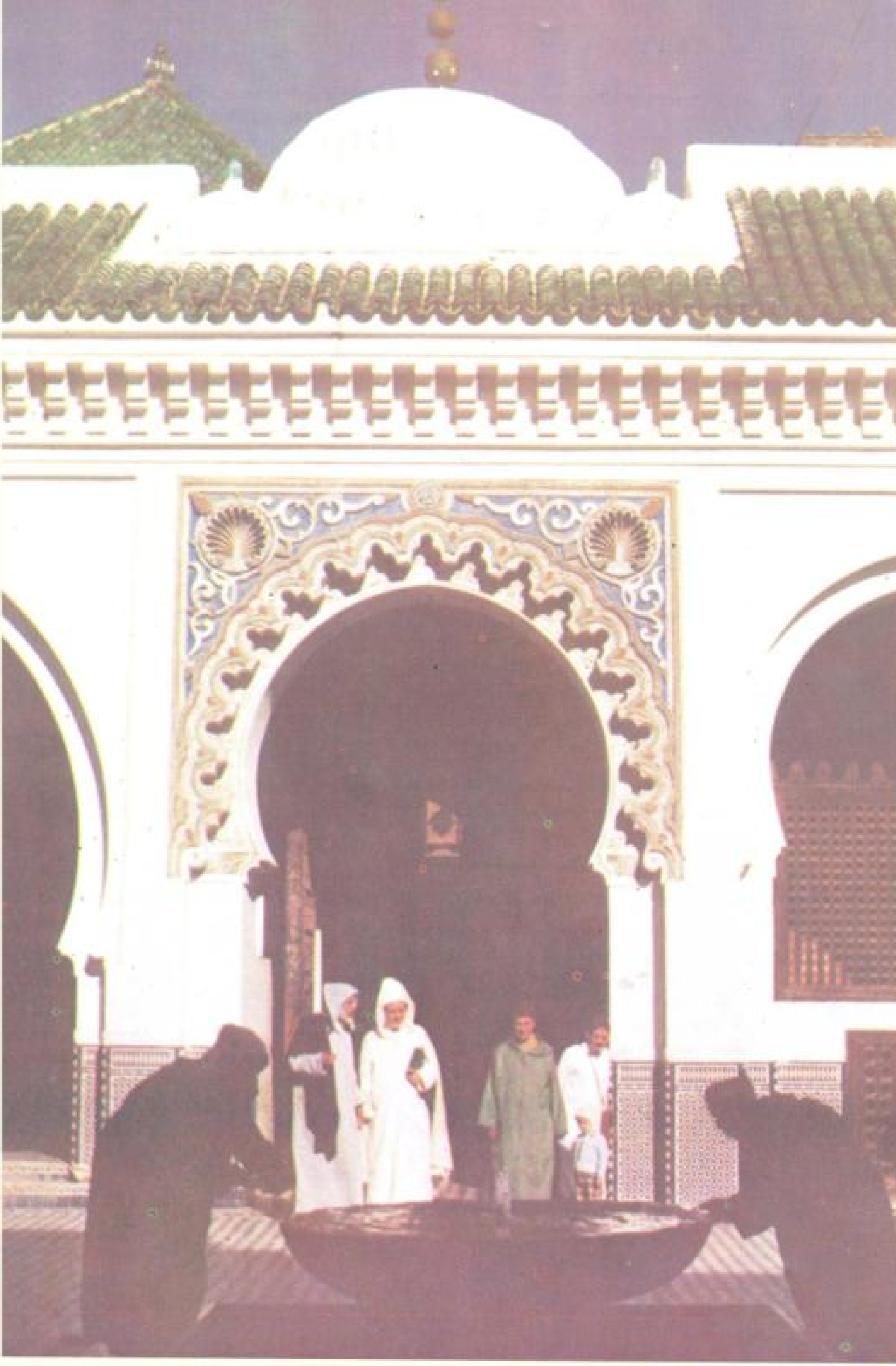
هنا يكمن الماضي ، ويتحدد المستقبل ، تقف امام قطعة من التاريخ ، اخذ كل من الحكام يضيف الى بنائه قطعة فنية ، والمحكومون يستمدون منه المعرفة وكل ما ينعش الوجدان ..

وهنا ظهر رواد كانوا طلابا ثم اساتذة وهم من علامات الفكر العربي مثل ابن خلدون ، وابن باجة ، عندما شهد الجامع اوج شهرته في عهد الموحدين بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلادي ..

وهنا لاذ الدين والعروبة بالجامع في احلك ايام الغزو الاستعماري ، واستمر الجامع يؤدي دوره كاحد علامات الحضارة الاسلامية ، وبقي كتابا حافلا بالاحداث وعلى جدرانه تقرأ صفحات من تاريخ الفن الاسلامي .

يقول التاريخ « كان في البداية جامعا صغيرا يطلق عليه جامع الشرفاء ، اقامه ادريس الثاني في « عدوة القرويين » ، اقيم في ذات الوقت الذي اقيم فيه جامع الاشياخ في « عدوة الاندلس » منذ احد عشر قرنا .

وظل جامع الشرفاء وجامع الاشياخ على حالهما حتى عام ٢٥٤ هـ ، ثم ، تتسع العمارة في الدولتين ، ويتوفى رجل في فاس من عرب القيروان يدعي محمد بن عبد الله الفهري ، ويترك لابنتيه فاطمة ومريم ثروة كبيرة ، وتهتم فاطمة بجامع الشرفاء وتنفق ما تركه ابوها من مال في تجديد بنائه وتوسعته ، وتضاعف حجمه وتجيد بناء مجنباته ، وتنشيء للجامع محرابا ومنبرا جديدين ، وتبني المنارة أو الصومعة كما يطلق عليها في المغرب والتي ما







منظر عام لمدينة فاس العتيقة ، وجامعة القرويين بقبابها الخضراء ومنارتها في مركز المدينه (الى اعلا) .

جانب من الجزء الداخلي لصحن جامع القرويين ، ويظهر جمال العمارة والفن العربي ، ومن هذا الجانب تظهر القبه ، والنافذة اليمنى للرواق الخاص بالسيدات (الى اليمين) .

جامعة القرويين من قريب ، وتظهر أقدم منارة في العالم الاسلامي ، أعلاها نافذتان ، تحتها فتحه صغيرة مستطيلة واخرى على اليمين . في المغرب المنارة مربعة وليست دائرية (الى اليسار) .

زالت قائمة على نفس التخطيط منذ ذلك الوقت ، وهي موضع اهتام المعماريين فقد كانت مثالا نسجت على منواله مآذن فاس الثمانمائة ، وهي أقدم بناء بقي حتى اليوم تظهر فيه معالم التقشف .

وقد أعيد بناؤها على نفس الطراز عندما وسع الجامع للمرة الثانية عام ٣٤٤ هـ ، وكل ضلع من اضلاع قاعدتها خمسة امتار ، وارتفاعها ٢٠ مترا مكسوة بالقيشاني ، واعلاها قبة صغيرة تشرف على فاس جميعها .

ويروي جامع القرويين أطرافا من العلاقة التي كانت قائمة بين المغرب والاندلس ، فقد قدم الى فاس القرطبيون عام ٢٠٢ هـ بعد تمرد ضد اميرها وقد رحل بعد ذلك ما بقي من المتمردين من الاندلس ، واستقر عدد منهم شرق مدينة فاس واطلق على المنطقة التي قطنوها « عدوة الاندلس » وفي مرحلة اخرى قدم من القيروان جماعة اسست « عدوة القرويين » .

وتنقل الينا عبد الرحمن المراكشي ذلك بقوله : « مدينة فاس هي حاضرة المغرب ، وموضع العلم منه ، اجتمع فيه علم القيروان وعلم قرطبة ، عندما كانت قرطبة حاضرة الاندلس والقيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب امر القيروان وامر قرطبة رحل من هذه وهذه من كان فيها من العلماء والفضلاء من الفتنة ، فنزل اكثرهم مدينة فاس ... وما زلت اسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب ، وليس بالمغرب شيء الا وهو منسوب اليها ، وموجود فيها ، ومأخوذ منها ، لا يدفع هذا القول احد من اهل المغرب .. » .

وتمضي الايام ، وتعيش فاس كل مرارات الهزيمة العربية في الاندلس ، وتحتفظ المدينة في ذاكرتها بعمق الشعور بالتحدي الغربي ، فلم تكد تختفي المواجهة الاولى بين المسلمين والصليبيين بمرارتها حتى تظهر في شكل جديد يشبهها المؤرخ المغربي عبد الله العروي بالتناسخ ، وتظهر في صورة مواجهة جديدة بين العرب والغرب ، وكان الاستعمار في العصر الحديث تناسخ لدى المغاربة لمداهمات الأيبيريين التاريخية !

وينقل الينا جامع القرويين ايضا طرفا من تلك العلاقة التي قامت بين فاس وغرب افريقيا وقد تمكن بحكم موقعه عند ملتقى طريقين رئيسيين ، أحدهما يبدأ عند شواطىء البحر الابيض المتوسط ، ويمتد الى الصحراء وما وراءها حتى يصل الى قلب افريقيا ، وهو الطريق الذي انسابت عليه المعرفة واستمر الجامع مصدر المعرفة كما نقل خلاله معالم الحياة الأفريقية في هذه الحقبة الى العالم ..

والطريق الثاني يبدأ من المحيط الاطلسي الى المغرب الأوسط على طريق القوافل بين أطراف المغرب ، وتقع فاس وجامعها على خط الحركة الرئيسية بين مراكش والجزائر ، ورغم أن فاس بدأت مدينة تجارية ، الا انها تحولت الى قبلة دينية وبؤرة علمية ، وقصدها طلاب المعرفة من كل ارجاء افريقيا ..

واضاف موقعها سببا جديدا في استمرارية دور جامع القرويين ..

الظلال والألوان

اقف في صحن المسجد ، والهدوء عميق ، الظلال والالوان ونبع المياه الجارية اول ما تلحظه ، تحف بالصحن المكشوف زخارف اندلسية ، ومنحنيات دقيقة ، واستخدام للخط العربي يعتبر متحفا حيا للفن العربي ، تلمح معها التقوى على الوجوه ..

أعمدة المسجد واروقته تمتد على طول البصر ، وفي الصحن المغطى يقوم ثلاثمائة وخمسة وستون عمودا ، بعدد ايام العام ، يدور الحديث من حولي همسا ، لكي لا تخدش الأصوات العالية جلال المكان ، أمامك عدد وافر من الاشكال المختلفة للاقواس ، اقواس ذات عقد واحد واخرى متضاعفة العقود ، يقف عشاق الفن الاسلامي يتأملون منمنماته الدقيقة وكل تفاصيل عمارته .

أشاهد عند القبة الرابعة أقدم لوحة في الجامع والتي يعود تاريخها لمنتصف القرن الثالث الهجري سجل عليها أن فاطمة الفهرية تطوعت ببناء الجامع ، وأن الاساس حفر في اول رمضان سنة ٢٤٥ هـ ، وتلاحظ أن الخط العربي لا يستخدم في كتابة الأيات القرآنية وحدها بل وزخر الجامع بالوثائق التاريخية المكتوبة بالخط المغربي المميز ..

وعند لوحة بين أفاريز القبة المربعة تقرأ الوثيقة التالية : « بسم الله الرحمن الرحيم » أمر بعمله عن امر الملك العادل الأمر بالخير والفضل أمير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين ... وكان إتمام ذلك بحمد الله وعونه وتوفيقه في شهر رمضان المعظم من سنة احدى وثلاثين خمسمائة .. » .

وفي مكان آخر عند « العنزة » الوسطى كتب .. « صنعت هذه العنزة في شهر شعبان المكرم سنة اربع



صفحة من القرآن الكريم وهو جزء من مخطوطة كتب في مشارف القرن الخامس الميلادي وهذا الجزء من سورة الفتح ويظهر فيها جمال الخط المغربي .

وعشرين وخمسمائة » وقد كانت عنزة المرابطين . وبالفعل زيد الجامع زيادة كبيرة في عهد المرابطين بين عامي ٥٢٨ هـ و ٥٣٩ هـ . وصنع للجامع محراب ومنبر جديدان ، واعيد بناء ابواب الجامع ، وهذه الابواب من اجمل ما اقامه المسلمون ، فقد كسيت الابواب الخشبية بالنحاس ، واقيم على كل باب قبة صغيرة ، وللعرب قول مشهور : « ان البيوت تظهر من ابوابها » فتحمل معظم الابواب الثمانية عشر ذات مقارع من حلقات معدنية كبيرة ، وعلى الابواب الخشبية صفوف من المسامير ذوات رؤوس ..

واقف مشدودا الى كل جزء من الجامع انتقل بين السواميه .

اجراس تتحول الى ثريات

يدهش زائر القرويين دقة النظم التي كان معمولاً بها في الجامع ، مثل مسارات المياه ، او نظام الانارة او حتى تكييف الهواء داخل المسجد ، ويكاد يكون الجامع الوحيد الذي يتوفر على خمسة مصادر للمياه ، ولذا تجري المياه في الجامع منذ القدم طوال العام ، حتى في الاوقات التي يعم فيها الجفاف مدينة فاس . والانارة في الجامع .. « كانت تكثر فيه السرج ، وتغلظ الفتائل ، لان في الاضاءة بهاء للدين ، وأنسا للمجتهدين ، ونفيا لمكانة الريبة ، وهداية للسابلة ، وتنزيها لبيوت الله من وحشة الظلاء .. » .

وترى في صحن الجامع الثريات الكبيرة التي تتوزع في جميع أنحاء المسجد ، وفي وسطه ثريا ضخمة من صنع حرفيي فاس ، والى جانبها ثريا اصغر ، وكانت في الاصل ناقوسا ، حمل من احدى المعارك التي جرت في الاندلس ، وكسي الجرس بثلاث حاملات للقناديل ، ونقش عليه : « وصلى الله على سيدنا محمد .. الملك لله .. والعزة لله .. » ، ويضم المسجد عددا آخر من الأجراس التي تحولت الى ثريات والتي اقتلعها الجنود من اعالي الكنائس القشتالية ، ويحمل احد هذه النواقيس عبارة مكتوبة باللغة الاسبانية تقول : « على الروح الطيبة أن تشكر الله الذي انقذها من الضلال .. » .

ومؤخرا تحولت الاضاءة من الزيت الى الكهرباء ..

ويحكي التاريخ طريقة تكييف الهواء في صحن



المنبر المتحرك الذى يظهر عند الخطبه ، مصنوع من خشب الصندل والابنوس والحور ، وجوانبه بها زخارف وتوريقات دقيقه (الى اليمين)

لقطة لصحن الجامع الداخل ، وتظهر الخطوط والظلال والالوان الدقيقه ، والثريات والاقواس والسوارى القصيره (الى اليسار) .

تزخر جامعة القرويين بالمخطوطات القيمة التى تزيد عن سبعة الاف مخطوط ، منها البيان والتحصيل لابن رشد ، وآخر في الطب لابن طفيل وهو الوحيد ، ومقدمة ابن خلدون بخط يده ، ومازالت فاس تشهد مزادا اسبوعى للكتب القديمة والمخطوطات . (الى اسفل) .





القرويين ، وهي ذات الطريقة التي كانت متبعه في بغداد : « نسيج فيه خرج ينفذ منه الماء ، مستعينين بحبال يجذبونها بها ، فيلطف أذى الحر .. »

اما منبر الجامع فهو من اجمل المنابر المعروفة حتى اليوم ، فهو مصنوع من خشب الصندل والابنوس والجوز ، وزخارفه مطعمه بالعاج ، وجوانبه بها زخارف وتوريقات تخلية دقيقة ، وهو متحرك يخرج عند الخطبة ، ثم يعود ويختفي داخل الجدران ..

وتظهر روعة الفن على اكاليل سواريها وعقود اقواسها وافاريز ابوابها ..

●●●

وبين جدران جامع القرويين انتعشت المعرفة ، وتطورت العلوم ، وتشهد على ذلك تلك الغرفة القائمة في الجامع ، والتي كان الموسرون يضعون بها نفائسهم ، والتي ما زالت تحتوي حتى اليوم على كافة ادوات « المرصد » ، وبها أقدم الساعات المائية في العالم وهي الوحيدة المتبقية ، وبها ساعتان شمسيتان ، ساعة « ابن الحبال » ، وساعة « القرسطوني » وساعات رملية والاسطرلابات ، وبها كل ما يكشف الظواهر الجوية ويساعد على تحديد مواقيت الصلاة ورصد النجوم .

في فلك القرويين

وزائر القرويين لا يفوته التحول الذي شهده فقد أصبح جامعا وتوزعت الجامعة على عدد من المدن المغربية الاخرى ، وقد فعلت صيحات التجديد عملها ، وساير جامع القرويين الزمان ، وأصبح جامعة حديثة تدرس فيها علوم الاسلام والعلوم الحديثة ، وخرجت الجامعة من اروقة الجامع وتوزعت فاصبحت كلية الشريعة في فاس وكلية اللغة العربي في الرباط وكلية اصول الدين في تطوان ، واصبحت جامعة القرويين عنوانا على معاهد عديدة اطلق عليها اسم « الاصيلة » واوكل اليها الحفاظ على التراث مع الأخذ بقسط من العلوم الحديثة ..

وجاء هذا التغيير بعد ان ادرك المحددون ان المشروع الاستعماري يهدف الى ان يتوقف دور الاسلام الاجتماعي ، وبعد ان وصلت صيحات التجديد التي اطلقها كل من جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده الى علماء فاس ، وبعد ان قام الشيخ عبد الله السنوسي بالمناداة بالاصلاح وفتح باب الاجتهاد . كما عاد الشيخ أبو شعيب الدوكالي من الازهر وهو ينادي بتحرير الفكر من قيود التقليد ودعا الى .. « اخذ العقائد من القرآن

هذه هي فاس الجديدة بشوارعها الواسعة ومبانيها الحديثة ، وما زال الطابع المغربي النفاذ ظاهر حتى في المباني الجديدة



الكريم ، والاستدلال بالطريقة السهلة التي سلكها الاسلام ، وان ما وقع فيه الخلاف في صدر الاسلام غير ملزم . كما دعا الى تربية وتعليم البنات والبنين . واصلاح كتب العلم وطريقة التعليم .. »

وشهد القرويين ذات التطور الذي شهدته الجامعة الازهرية ..

ولم تكن القرويين بعيدة يوما عن التصدي للاستعمار الفرنسي ، فقد قامت فاس بثورتها الدامية في اعقاب التوقيع على معاهدة الحماية ، واطلق عليها الجنرال الفرنسي « المدينة المحرمة » ؛ ونعت الماريشال ليوتي جامعة القرويين بانها « البيت المظلم » ، وورد في تقرير عميد السلك الدبلوماسي في فاس أن عدد علماء القرويين كان عند اقتحام الجيش الفرنسي للمدينة مائتي عالم ، وانهم كانوا وراء حركة التمرد على الجيش ، وواجه بعضهم الموت في ساحات المعارك ، والقي البعض منهم في غياهب السجون .

وبعد المواجهة أخذ الصراع شكلا جديدا عبرت عنه العبارة القائلة .. « لا ينبغي ان يمس المريض الذي يعاني سكرات الموت ، بل يترك ليموت في هدوء » .

وكان معنى هذا المحافظة على المظهر الخارجي للقرويين ومدارسها وتغيير كل شيء من حولها ، على امل ان يذبل دورها وتموت ..

المدارس

تواردت في رأسي هذه الخواطر مع الرحلة الطويلة التي قطعها القرويين بينما كنت اتنقل بين تلك المدارس التي تحيط بجامع القرويين وتدور في فلكه العلمي ، والتي اعدت لاستقبال الطلاب والتي قامت معها أحباس كبيرة ـ أوقاف ـ للانفاق على العلم وطالبيه ، وجملت عمارتها وتوفرت على عدد من قاعات الدرس ، وطرزت ووشيت بالفسيفساء ، وكان لهذه المدارس كراسي متخصصة في علوم تجريبية وفلسفية ورياضية مضافة الى العلوم الدينية والادبية .

وخصص لكل استاذ ولكل دارس جراية خاصة ..

وقد اتيح لي في فرصة سابقة ان اتجول بين المباني المحيطة بكل من جامعة كمبردج وأوكسفورد ولا يفوتك ان تلحظ التشابه الواضح بينها وبين مدارس جامعة القرويين .

وفي كليهما ينقطع الطلاب للدراسة ، ويقدم لهم ليس فقط التعليم ولكن نظام كامل للحياة .. فمثلا في المدرسة « العنانية » يوجد في كل غرفة فتحة مستطيلة تشبه المكان المخصص للبريد ، وفيه توضع الجراية المخصصة للطالب حتى في غيابه ، وكان لهذه الفتحة ابعاد شرعية .

ويرجع الفضل للمرينيين في تدعيم مركز المدينة العلمي ، فقد وسع ابو عنان خزانة القرويين وبنى المدرسة العنانية ، وانشأ ابو سعيد المريني المدرسة العظمى ، ازاء جامع القرويين ، وهي المعروفة الان بمدرسة العطارين وجاءت المدرسة رائعة « لم يبن من قبل مثلها » ، واجرى بها ماء من بعض العيون ، ورتب فيها الفقهاء للتدريس واجرى على الجميع المرتبات والمؤن

وتقف هذه المدارس شاهدا على ازدهار الحياة العلمية في فاس ، وقد توقفت الدراسة « الاصيلة » بها عام ١٩٦٠ ، وتحولت اربع مدارس منها الى متاحف تستقبل الزوار وهي العطارين والعنانية والصهريج والشراطين ..

جامع وجامعة ..

لا يمكن فصل جامع القرويين عن بيئته ، فعلى مر التاريخ الاسلامي كان يمثل المسجد الجامع ، الذي هو في المدينة الاسلامية منبع الحياة الثقافية والروحية والسياسية ، واستمر جامع القرويين ما يزيد عن الف عام مصدر اعتزاز وابناء المغرب ، وكان على الدوام يفيض بالحيوية ..

وهو يمثل اقدم جامعات العالم ، فقد ذكر عدد من المستشرقين ان الدول الاسلامية عرفت نظام الجامعات قبل الدول الغربية ، وان جامع القرويين وجامع الازهر (٣٥٩ هـ) ، وجامع الزيتونة (١١٦ هـ) أسبق من جامعات السوربون وكمبردج واوكسفورد ، فمنذ اليوم الاول لقيامها اريد لها أن تكون جوامع وجامعات تقام بها الصلاة ويناقش في أورقتها العلم والسياسة ، فخرج منها العلماء ، وشاركت في صنع الاحداث ، وفي رحابها قام الخطباء والزعماء والمصلحون ..

وعرفت جامعة القرويين تقاليد دقيقة تتناول ابناء دراستها وعطلتها ، والخروج في حلقات درسها ، فكان منها الحلقة ذات الاستاذ الواحد ، وذات الاستاذين المتجاورين ، ومنها الحلقات التي يحضرها الكبار ولا





جانب من الجامع ، وهو باب مكتبة للسلطان ابن عنان (٧٥٠ هـ) ، ويتناغم فن الحفر على الخشب مع خطوط الحرف المغربية .(الى اليمين)

ساعة قديمة في غرفة الثنائس ، وهي ساعة الجاى (٧٦٣ هـ) ، وتحتوى على اثنى عشر بابا ، وهذا التصميم يشبه ساعة المدرسة المستنصرية (٦٣٣ هـ) . (الى اعلا) .

ما تبقى من الحرف القديمة التي مازالت تحتضنها فاس ، اناء نحاسي كبير ، يكشف بعض بقايا التقاليد القديمة في اقامة الولائم الكبيرة واطعام فقراء المدينة . (الى اسفل) .



يؤذن فيها للاحداث بالحضور واخرى التي يستمع اليها النساء والصغار ..

وعرفت الجامعة تقليد تنصيب سلطان للطلبة في ربيع كل عام ، والذي يمتطي الجواد بعد اختياره ، وترفع فوق رأسه مظلة السلاطين ، ويأمر بتأليف حكومة له بين زملائه ، ويزوره عاهل البلاد في يوم مشهود ..

وكان طبيعيا ان يقدم هذا النظام العلمي عددا من كبار المفكرين ، وعددا آخر من الرحالة ، بل وكانت رحلة ابن بطوطة ـ ابن القرويين ـ هي الوثيقة الرئيسية التي عرفت العالم بالدول الافريقية والاسيوية في القرن الرابع عشر الميلادي ، كما قدم لاوروبا بعد قرن ونصف ابن الوزان في كتابه « وصف افريقيا » الحياة السياسية والاجتماعية عن افريقيا ..

بل وامتد اثر القرويين على اوروبا الى ابعد من ذلك فقد نقل التاريخ اسهام ابن الوزان ـ ليون الافريقي ـ في مساعدة طلبة بولونيا في ايطاليا على التعريف باللغة العربية وبتقاليد الاسلام والمسلمين ، وحصلت ايضا جامعة ليدن في هولندا على ثروة كبيرة لدى عودة كوبيس خوليبس من زيارة فاس ، فيما حمله معه من مخطوطات نادرة ، وارسلت جامعة لوفان في بلجيكا نيكولا كليناد الى فاس ليعود استاذا للغة العربية بها بعد ان ارتشف من علم القرويين .

ومن ناحية اخرى اتصلت العلاقات بين جامعة القرويين وجامعة الازهر ، وانتقل عدد من العلماء من القرويين الى اروقة الازهر ، ويظهر ذلك من الاستفتاءات التي كانت ترحل وترد من والي القاهرة ومنها ما يتعلق بأمر القبلة بفاس ..

وعرف جامع القرويين العلماء الذين يمثلون موئلا للحق ، ودرعا له في مواجهة جور الحكام ، وكما جاء في جني زهرة الآس : « لم يكن يتم عمل سياسي الا بموافقة عليتها ورضا جلتها .. »

يقول الدكتور عبد الهادي التازي في كتابه القيم حول جامع القرويين : « يميز جامع القرويين استمراره في هذا الدور بلا توقف ، ولم تتعرض مدينة فاس وجامعة القرويين للرجات التي عرفتها الجامعات الاخرى .. »

أسبق الجامعات

سبقت الجامعات في العالم الاسلامي جامعات اوروبا كما ذكرت ، يؤكد هذا عدد من الباحثين ، فاذا عرف أن جامعة بولونيا (ايطاليا) قد أسست عام ١١٥٨م ، وجامعة السوربون اسست في عام ١٢٠٠م واعقبتها اكسفورد ، وسلامنكا ..

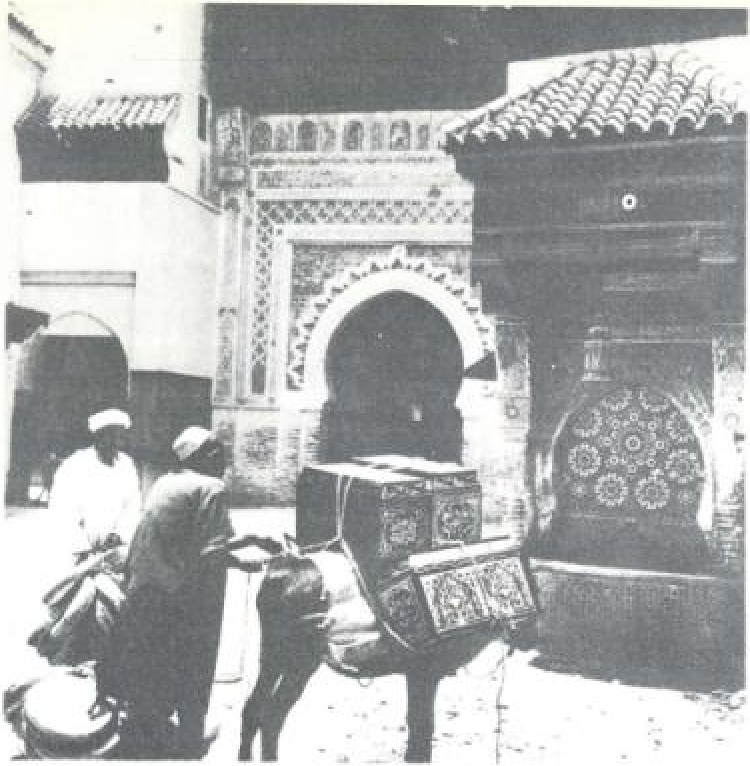
وكتب ديلفان في كتابه « فاس وجامعتها » يقول : مدينة فاس دار العلم بالمغرب ، التي بها جامعة القرويين تعد أول مدرسة في الدنيا .. »

ووصفها الكاتب الاسباني باديا بليبلش عام ١٨٩٣ : « فاس كانت في افريقيا في مكانتها الثقافية مثل أثينا في اوروبا ... »

وكتب المستشرق الروسي جوزي كريستوفيتش ـ وترجم المقال في مجلة الهلال : « قال » ان اقدم كلية في العالم ليست في اوروبا ـ كما كان يظن ـ بل في افريقيا في مدينة فاس ، فقد تحقق بالشواهد التاريخية ان هذه المدرسة كانت تسمى (جامعة القيروان) ـ ويقصد القرويين ـ ، والتي أسست في الجيل التاسع للميلاد ، وعليه فهي ليست فقط أقدم كليات العالم ، بل هي الكلية الوحيدة التي كان يتلقى فيها الطلبة العلوم السامية في تلك الأزمنة حين لم يكن سكان باريس واوكسفورد وبولونيا يعرفون من الكليات سوى الاسم ، فكان الطلبة يتواردون على كلية (القيروان) من أنحاء اوروبا وبريطانيا فضلا عن بلاد العرب الواسعة للانخراط في سلك طلابها ، وتلقى العلوم باللغة العربية مع الطلبة الطرابلسيين والتونسيين وغيرهم ، ومن جملة من تلقى علومه في هذ المدرسة من الأوروبيين جيربرت أو البابا سيلفستر ، وهو أول من أدخل الى أوروبا الأعداد العربية ، وطريقة الأعداد المألوفة عندنا بعد أن أتقنها جيدا ...

وذكر الكاتب البريطاني روم لاند : « شيد في فاس في ايامها الاولى جامع القرويين الذي هو أهم جامعة واقدمها ، وهنا كان العلماء منذ الف سنة يعكفون على المناظرات الفلسفية والابحاث الدينية ،وكان المثقفون يدرسون التاريخ والعلوم والطب والرياضيات ، ويشرحون أرسطو وغيره من مفكري الاغريق ، وقد تطورت على نحو ما حدث في جامعة السوربون التي كانت أول أمرها تعطي بعض الدروس في اللاهوت يلقيها أحد الرهبان في حجرة قريبة من نوتردام في باريس ، ثم أقام احد المحسنين منزلا لايواء الطلبة الفقراء ، وهكذا كان الحال في جامعة اوكسفورد وسلامنكا ... »

وبالتالي لم يكن غريبا تأثير جامعة القرويين القوي



لقطة من فاس العتيقة تكشف جمال العمارة والنقوش والصناديق المنقولة ، وما زالت الحيوانات هي الوسيلة الوحيدة للتنقل عبر أزقة المدينة العتيقة.

على الحياة في المغرب وفي الغرب أيضا ..

حصن الثقافة

نصل الى حصيلة جولتنا ولب رحلتنا ، الى الصراع الذي يدور رحاه في المغرب ، بين التعريب والتغريب ، ومن فوق صومعة جامع القرويين نرصد أطرافها ، بعد أن وقف الجامع والجامعة في مواجهة المشروع الاستعماري الذي كان يهدف للقضاء على الثقافة الوطنية ، وشهدت اروقته جميع القيادات التي قاومت هذا المشروع .

فقد تصدى جامع القرويين في المغرب والجامع الازهر في مصر وجامع الزيتونة في تونس ، لمحاولة الهيمنة الثقافية الاستعمارية ، والتي كانت تهدف ليس فقط لطرد المغاربة الى الزوايا والتخيل والابل فحسب ، بل والوصول الى الانسان الذي لا ثقافة له والذي يسهل احتواؤه ، وامامهم قول ابن خلدون .. « ان المغلوب مجبول على تقليد الغالب في كل شيء ... »

فسعى الاستعمار الفرنسي الى خلق ثقافة جديدة مقطوعة الصلة بالثقافة الوطنية ، فانشأ مؤسساته التعليمية التي كانت على رأسها مدرسة الادارة لاعداد الاطر التي يعتمد عليها ، كما سعت سلطات الحماية لاقامة « الكلية البربرية » لتخريج أبناء زعماء البربر ، على أمل استخلاصهم من جذورهم ، وصمدت في وجه ذلك جامعة القرويين واستمر الطلاب يتدفقون عليها « لكل من يخشى على ابنه الانحراف ..! »

ولكن هذه المؤسسات التعليمية الجديدة كانت بداية قيام ازدواجية ثقافية ، وأصبح من الصعب أن تلتقي



المخفر، او مركز الشرطة في فاس، وهو تحفة فنية، مثل كل ركن في المدينة.

وجهات نظر عالم من جامعة القرويين مع وجهة نظر معلم عصري تلقى ثقافة غربية ، وعاش المواطن العادي حيرة مدمرة ..!

ويلاحظ زائر المغرب ان معركة الهوية ما زالت قائمة ، تلمحها في معركة التعريب التي ما تزال في بدايتها ، فقد تم تعريب السنوات الثلاث الاولى من المرحلة الابتدائية ، بسبب نقص المدرسين الاكفاء ، وبخاصةالذين يدرسون العلوم منهم ، بالاضافة الى العقبات السياسية والاجتماعية ...

كما لا يفوتك ان تلحظ الاعتزاز في نبرات المغربي عندما يتحدث العربية والحرج الذي يبدو على ملامحه عندما يشعر أنه فاتك بعض كلماته الذي يقولها باللهجة المحلية ..

ومن عوارض معركة الهوية أيضا المطالبة بأن يكون يوم الاجازة يوم الجمعة بدلا من يوم الاحد ، ومظاهر اخرى متفرقة لصراع ثقافي يشبه ذلك الصراع الذي سبق وعاشه المشرق العربي الذي يرمز اليه بالصراع بين المعممين والمطربشين .. والذي دار بين خريجي المعاهد الدينية وخريجي المدارس الحديثة ....

وورثت المغرب وضعا يبرز فيه تكافؤ الضدين ، وأخذت تتأرجح بين ماض راسخ ومستقبل ما زالت معالمه في طيات الغيب ، وبقي عدد كبير من المثقفين تائها في الارض الحرام بين ماض موروث وعصرية كاسحة ..!

وتشهد المغرب اليوم ـ كما يحدث في كثير من أرجاء الوطن العربي ـ البعض الذين ينادون تصريحا أو تلميحا الى تقليد الغرب كطريق للخروج من التخلف ، بتأثير الافكار الغربية ، وعلى امل اختزال التطور وربح الوقت والبدء من حيث انتهى الاخرون ، وأصبح التقدم لدى هؤلاء يعادله الالتحاق بركب الغرب ، وهو المنطق الذي يصل بصاحبه الى إبدال اللغة العربية بلغة أجنبية ..

ويتساءل هؤلاء : ماذا يفيدنا طب ابن سينا ـ مثلا ـ ، وهل هو قادر على علاج مريض ....!! وعلى الجانب الآخر : وصلت الغيرة على استقلال البلاد ، ان طالب بعض العلماء باغلاق الباب أمام كل ما هو قادم من الغرب والمحافظة على كل ما هو موروث !!

اما الاتجاه الذي يكسب كل يوم أرضا جديدة فهو الذي يقول .. إذا كان قد لحق الفكر الموروث بعض من ركود ، فقد كان هذا الركود انعكاسا للظروف المحلية والعالمية التي فرضت نفسها ، ولم يكن هذا الفكر الموروث سبب التخلف وخاصة بعد ان كشفت جهود الاحياء المعاصرة لجوانب هذا الفكر المختلفة ، وان ما حدث من ركود كان عندما دهمنا الاستعمار الاوروبي مع مدارسه الحديثة وبعثاته ووسائل اعلامه ، وزرع هذا الفكر بمدارسه المختلفة المحافظة أو الليبرالية أو الماركسية ، فأدى هذا الوضع الى ازدواجية واضحة ، تشكل عقبة أمام نمو وازدهار « المشروع العربي » ، ازدواجية بين المثقفين من جانب وأخرى بين الشعب والنخبة ...

وقد توصل معظم المغاربة الى صيغة توفيقية ، فتجدهم يتبعون الأساليب الغربية في عملهم ، وفي نفس الوقت يعيشون حياتهم الخاصة ، وداخل بيوتهم على ذات الطريقة التي ورثوها ، واستمرت الشخصية القومية عميقة الجذور ، في بلد متعلق تعلقا شديدا بتراثه ، وظلت مكانة علماء القرويين في المحل الاول لدى المواطن المغربي ...

وأصبح مطروحا برنامجان يتفقان في الغاية :

أحدهما : الاصالة بالمحافظة على الموروث واقامة المشروع العربي .

والثاني : الالتحاق بالغرب واللحاق بحضارته .

واستمر التأرجح بين المدرستين .

وأصبح تجاهل هذه الازدواجية أول طريق الخطأ في فهم الواقع الراهن ، ولعل النظرة وحيدة الجانب التي سادت بين الفريقين ، هي سبب تلك الغربة المظلمة التي تسيطر على كل فريق تجاه الاخر ، وتمتد الى المواطن المغربي العادي ... مما يبعد احتمالات التقارب والحوار .

وبعد ...

تعيش المغرب اليوم مرحلة البحث عن صيغة تطلق خلالها إمكانيات شعبها وتأخذ بأسباب التقدم في اطار حاجتها الخاصة ...

وهي مؤهلة بحكم تجربتها الطويلة في أتون الصراع ، وكبلد « مخوم » ، وما يكشفه انجازاتها وعمارتها وخزائن مكتباتها على ان تقدم تجربة خصبة ، تحقق خلالها « المعادلة المفقودة » بين الاصالة والمعاصرة . ■■

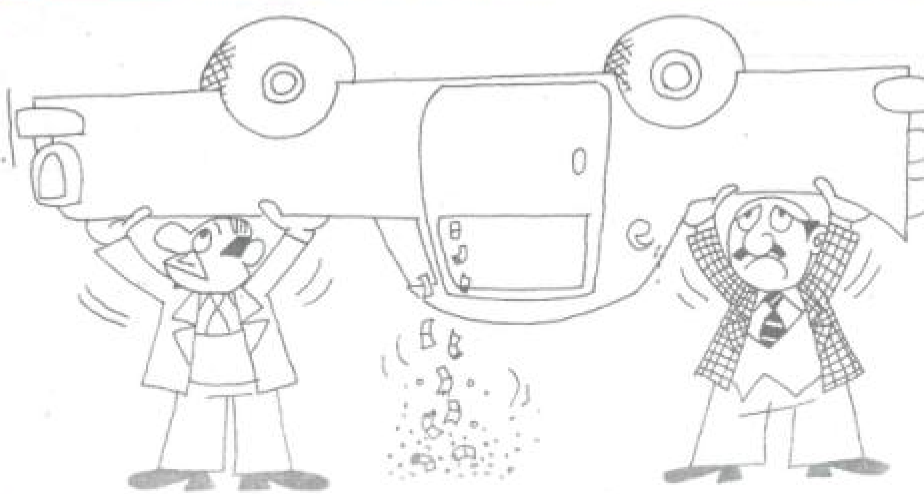
مصطفى نبيل

نحن والإختراعات

بريشة بهجت



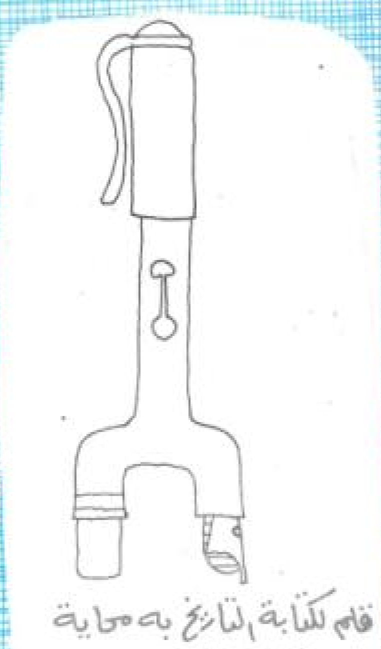
مظلة تستعمل فى اليوم الصحو ..!!



احدث اختراع لتنظيف طفاية السجاير بالسيارة ..!!


سرير منزلي للموظفين
الذين تعودوا على
النوم في المكاتب ..!!


نوم
إفطار
عشاء
غذاء
ساعة جديدة للزمن .. الذي
نعيشه .. !!


قلم لكتابة التاريخ به محاية
لمحو التاريخ القديم ...

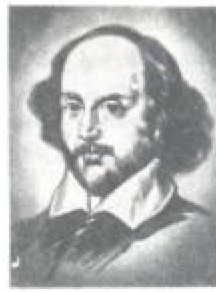
عندما كتب شكسبير بقلم عربي

هذه ترجمة لقصيدة شكسبير الغنائية الموسومة بـ « العنقاء والقمرية » والقمرية حمامة ساجعة قصيرة الاجل ، والعنقاء طائر يرمز الى الخلود العربي يحيا خمسة قرون ثم يحترق ويبعث من جديد ليعيش خمسة قرون اخرى وهكذا ، فالتاريخ العربي يتجدد ويحلق اعلى فأعلى مرة كل خمسمائة سنة ، وقد روى شكسبير بروحية شاعر

ترجمة الدكتور : صفاء خلوصي

دع الطير الذي يغني بأعلى صوته
يغدو بوقا لاشجى التلاحين ،
حيث ترضخ لصداه اطهر الاجنحة رضية طيعة ،
فيا ايها الصداح المنذر بالويل والثبور
المبشر بنهاية الحمى ،
لا تقترب من هذا الجيش من الطيور !
بل امكث على مدى منه .
ابعد عنه طغيان كل جناح جبار ،
عدا النسر ملك كل ذي ريش وجناح ،
واجعل مراسيم الموت ضمن اضيق نطاق ،
واترك رجل الدين بدثاره الكهنوتي الابيض
يعزف اللحن الجنائزي .
وليكن الاوز كاهن النهاية المحزنة ،
لئلا تعوز الموقف الترتيلة المقدسة لراحة نفوس الموتى ،
وانت ايها الغراب المثلث اللعنات ،
ياذا اللون الاسود القاتم
يا حامل الشؤم بأنفاسك ومظهرك ،
كن انت الاخر بين الحزاني المشيعين .
ههنا تبدأ الترنيمة الدينية :
فقد مات « الحب » وقضى « الوفاء » نحبه ،
مضى « العنقاء » وتلاشت « القمرية »
وسط لهيب نيران مشتركة .
لقد احب بعضهما البعض ، كما يكون الحب بين توأمين ،
وهو في جوهره واحد .
كانا اثنين متمايزين من دون تقسيم ،
فالتعداد هنا قد نحر وانتهى امره ،
وقلباهما منفصلان ، ولكنهما غير منشطرين ،
فقد رئيت مسافة ولافضاء هناك ...
بين « القمرية » وسلطانها « العنقاء » !
ولكن ثمة امر عجب ..
فقد تألق الحب بينهما ،
بحيث رأت القمرية مكانتها
متوهجة في عيني العنقاء ،

عذري مع قوة وشهامة شاعر كالمتنبي قصة (القمرية) الفانية التي احبت « العنقاء » الطير الخالد ، فتعاقدا على ان يحترقا معا ليمتزج رمادهما في عش واحد ، لان « القمرية » لم تعد تجد للحياة معنى بعد موت « العنقاء » وابي الطائر الخالد الا ان يضحي بخلوده في سبيل من أحب . يقول شكسبير :



فكلاهما كان ملكا للآخر ،
وهكذا ارتاعا من التهالك على الامتلاك
بحيث ان الذات لم تعد كما كانت ،
فالطبع واحد والاسم مزدوج ،
فلم تصح تسميته واحدا ولا اثنين ،
ورأى العقل في ذهوله وحيرته
ان الانقسام ينمو متحدا
فأحدهما ليس الاخر ،
والامر بسيط ولكنه مركب كل التركيب ،
بحيث ان العقل صرخ : آه ! ما اشبه
هذا الشيء المتفق مع ذاته بالتوأم !
فللحب عقل ، ولكن العقل لاحب فيه
اذا كان ذلك الذي ينشطر يبقى متحدا ،
وعلى ذلك فقد انطلقت منه [1] هذه المرثاة المحزنة
للعنقاء والقمرية
للكائنين الخالدين ونجمي الحب العظيمين ،
كأغنية لمشهدهما المأساوي الحزين :
« هنا يرقد وسط الرماد :
الجمال والصدق والصفات النادرة
والاناقة بكل بساطتها ،
فالموت الآن هو عش العنقاء
يضطجع فيه صدر القمرية المخلص
على صفحة الازل .
لقد ذهبا دون ان ينجبا او يعقبا خلفا ،
لم يكن ذلك بسبب ضعفهما
بل بسبب عفة زواجهما ،
وقد يلوح الصدق ويبدو دون ان يكون له وجود ،
بل قد يتبجح الجمال ولكنه ليس هو نفسه بالذات !
فالصدق والجمال دفينان هنا ،
فالى محرقة الموتى هذه
ليتجه كل ذي صدق وجمال ،
ويرفع ادعيته وصلواته
لهذين الطيرين الشهيدين ! »

(١) اى من العقل .

لكي يقف التاريخ العربي على قدميه !

بقلم : الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى

التاريخ حمّال أوجه ، يكتبه أشخاص ينتمون الى مجتمعات معينة ـ قد تتسع وقد تضيق ـ فى أوقات معينة ويلونون كتاباتهم فى كثير من الاحيان بنوازعهم الشخصية وانعكاسات التيارات السائدة فى مجتمعاتهم . وكثيرا ما علت الاصوات مطالبة بتحرى الموضوعية فى كتابة التاريخ ، وان تكن هذه الموضوعية نسبية بحكم أن التاريخ ذاته ينتمى الى العلوم الانسانية التى لاتحكمها قوانين ثابتة بالاضافة الى كون بعض جوانب مادته عرضة للضياع ولايمكن استعادة احداثها بحيث تخضع للتجربة والاختبار ، بيد أن ثمة حدا أدنى لا يجوز للمؤرخ أن يتخطاه ، والا أصبح التاريخ شيئا آخر .

وقديما كان المؤرخون المسلمون يكتبون بهدف العظة والاعتبار ويعتبرونه كشفا للارادة الالهية التى قد يدرك المرء مغزاها أولا يدركه . وهكذا كان التاريخ فى عصور الايمان الاسلامية من ملحقات الفكر الدينى بكل اشراقاته وتجلياته ، ومعجزاته . ومن ناحية أخرى نجده يكتب فى اطار الحوليات والتراجم ويروى كما يروى التراث الدينى بعنعناته واسانيده . وفرق كبير بين هذا الاطار وبين ما صار اليه التاريخ فى الوطن العربى وغيره حين اصبح احد اركان العلوم الانسانية التى تتحرى الاسباب والنتائج وتعرض للجهد الانسانى عرضا مترابطا يستوحى الاساليب العلمية الحديثة ، وهكذا فمنذ ان جرى الاحتكاك بالحضارة الغربية المتفوقة اتجه المؤرخون العرب بالتدريج الى ايقاف التاريخ على قدميه بدل ان كان يقف على رأسه .! فازاء تفوق الحضارة الغربية فى كل المجالات وتغلغلها ـ سلما أو حربا ـ فى دار الاسلام جرى الاقتداء بها بالتدريج ... اذ من الملحوظ بوجه عام ان المغلوب ، وأن تأزم نتيجة للنكسات والهزائم التى تحل به ، يتجه ـ بعد أن يفيق من الصدمة ـ الى تقمص قاهره سواء بطرق شعورية أو لاشعورية .

وهكذا اطرحنا بالتدريج فى تناولنا للتاريخ اسلوب « المواعظ » و « الاعتبار » والعنعنات ، ان لم نقل النقل الحرفى ، والاعتماد على الرواية واعتبرنا التاريخ سجلا للجهدالبشرى بشموله بحيث تتلاحق أحداثه فيفضى كل منها الى الآخر .

وانتقلت الينا من الغرب الاتجاهات القومية والليبرالية السائدة فى اوروبا القرن التاسع عشر .

دخلت الى الوطن العربى على أيدى حكام استوردوه فى ركاب ما استوردوه من تقدم الغرب . وما لبث أن جاءت فئة المثقفين الجدد وليدة التحديث فى حين أجهض نمو البورجوازية التجارية والصناعية نتيجة لرأس مالية الدولة والغزو الاقتصادى الاوربى الذى مهد السبيل للغزو العسكرى . وكانت مشكلة هؤلاء المثقفين الجدد فى البداية أنهم كانوا يمثلون قلة معزولة عن الكتلة الجماهيرية الواسعة التى ظلت متشبثة لفترة طويلة بقيمها وأنماطها الموروثة ، ومن ثم مقاومتها طويلا لقيم الحضارة الغربية الى ان استطاعت هذه الحضارة فى النهاية ان تكتسح البنيان الفوقى لما تبقى من الميراث العربى ـ الاسلامى مثيرة ردود فعل لاحصر لها .

ومالبثت تطورات ما بعد الحرب العالمية الأولى ان وضعت المتحمسين للحضارة الغربية وقيمها على قمة السلطة فى بلدان عربية سيطر عليها المستعمر الغربى تاركا لها شكليات الاستقلال والارادة الحرة . وحينئذ نجدهم يضعون برامجهم التعليمية الجديدة التى غذت الاتجاهات الاقليمية معززة بالاساطير المحلية .. وهكذا أطلت برأسها الاساطير الفينيقية والبابلية والفرعونية والاشورية التى اختلطت دون انسجام بالبطولات القبلية فى الجاهلية والاسلام بل وجرى توجيه التاريخ

لتنسجم وقائعه مع هذه الاساطير والبطولات . وجاءت بعض أجزائه مفتعلة تلمس بين سطورها الوانا من الخلط والتناقض بل ان كاتبا مثل عباس محمود العقاد حاول أن يربط تاريخ سعد زغلول بما أطلق عليه اسم الشخصية المصرية التى كثر الكلام عنها فى الآونة الأخيرة وكأنها حقيقة واقعة . على حين روج بعض الشوام لانتسابهم الى الفينيقيين وانكروا أى صلة لهم بالعرب باستثناء اللغة التى راحوا يستبدلون بها لغات أوربية . وفى اعقاب الحرب العالمية الثانية بدأت تبرز الاتجاهات القومية العربية التى كانت قد ظهرت على استحياء فى أواخر القرن التاسع عشر على هامش المؤسسات التعليمية التى أوجدها المبشرون الغربيون فى الشام ، ثم ما لبثت ان امتدت الى الجمعيات السرية التى انخرط فيها العرب مسلمين ومسيحيين ـ الذين ضاقوا بالحكم العثمانى . ولم تكن هذه الجمعيات بعيدة عن متناول المخططات الانجليزية الفرنسية بوجه خاص ، الى أن جاء الوقت الذى استغل فيه التيار القومى العربى لمحاربة الدولة العثمانية من جانب بريطانيا التى عادت من جديد لتوجهه بعد تفاقم احداث فلسطين ثم نشوب الحرب العالمية الثانية واندلاع الثورة فى العراق بزعامة رشيد عالى الكيلانى والحاج أمين الحسينى (مفتى القدس) ـ ضد النفوذ البريطانى . وهكذا تبنت بريطانيا ، قبل انتهاء الحرب مشروع الجامعة العربية رغبة منها فى تكتيل العرب تحت اشرافها لامتصاص تيارات السخط ضد الاستعمار التى تجاوبت أصداؤها على امتداد الوطن العربى .

ولعب ظهور الجامعة العربية دورا هاما فى حفز الشعور القومى على الأقل فى جوانبه الثقافية . وحينئذ جرت محاولات لكتابة تاريخ عربى عام ومترابط لم ترسم له حتى الآن حدود واضحة نتيجة للرواسب الاقليمية واختلاط تاريخ العرب بتاريخ الحضارات البائدة التى تعاقبت على الاراضى التى فتحوها وبالتاريخ الاسلامى بوجه عام . فهناك مثلا ـ اتجاه الى التوسع فى مفهوم العروبة بحيث يشمل المنجزات الاسلامية العامة ... ومن ذلك ما يتردد بين وقت واخر عن فضل العرب على أوروبا واعتبار البعض انتصارات صلاح الدين والمماليك والاتابكة على الصليبيين انتصارا للقومية العربية !. ولما كان الحاضر العربى لايتمشى مع طموحات الكثيرين فقد عكست بعض الكتابات التاريخية نوعا من التشبث بأحلام اليقظة وذكريات المجد الغابر الذى لايفسر الحضارة تفسيرا علميا وموضوعيا ، بل ينسب الى « التآمر » على العرب والاسلام منذ فجر الدعوة الاسلامية وحتى الوقت الحاضر ، فى الوقت الذى يجرى فيه التركيز على الانجازات ونسبتها ـ بالحق وبالباطل ـ الى العرب دون غيرهم . وهنا يصدق ما يذهب اليه بعض المستشرقين من ان تاريخ العرب والاسلام مشدود الى الماضى دون الحاضر والمستقبل على حد سواء !.

واذا كان قد جرى تبرير كل ذلك بالسعى الى تشكيل عقلية الاجيال وتزويدها بالطاقة التى تساعدها على الاندفاع ، فان هذا الاتجاه يتضمن سلاحا ذا حدين : اذ قد يأتى الوقت الذى تسعى فيه قطاعات من هذه الاجيال الى تحصيل المعلومات والأحكام بأنفسها وحينئذ تجد نفسها مطية للشك والبلبلة والضياع . ولاطائل من توجيه المناهج بحيث تركز على تفاصيل المنجزات العربية ـ الاسلامية فى حد ذاتها ، وكأن التاريخ هو صانع نهضات الشعوب بدل كونه ذاكرتها الحية .

علما بأن التاريخ ذاته كائن حى يتطور بكشف المادة التاريخية المطمورة وتطوير عقلية المؤرخين وثقافاتهم .

وخلاصة هذا كله اننا ندعو المنظرين والمبرمجين الى ترك التاريخ وشأنه ، فالحقيقة ذاتها هى خير معلم ، ولا يصح الا الصحيح . والتاريخ ، مع تزويده للشعوب بطاقات لاشك فيها ، الا انه وحده لايحدث النهضات . وفى بعض الاحيان يصبح التاريخ عبئا ثقيلا ، وبخاصة حين تجرى محاولة استرجاعه وكأن شيئا لم يكن . وقديما قال حكيم صينى : ما أسعد شعبا لاتاريخ له ، اذ أن مثل هذا الشعب لايضع نصب عينيه انماطا غابرة قد تثقل خطاه . وقد استطاع الشعب الأمريكى ـ الذى ليس له تاريخ سحيق ـ باصطناع العلم الحديث القائم على التجربة والاختبار والمنفعة ، أن يسير قدما باستمرار وأن يبنى بلدا ويثبته فى مركز الصدارة فى الشئون العالمية : علميا واقتصاديا وسياسيا . وشأنه فى ذلك شأن الشعب الروسى الذى كان يعتبر حتى الأمس القريب متخلفا اذا ما قورن بشعوب الغرب .... هذا فى الوقت الذى انزوت فيه شعوب قامت على اراضيها أقدم الحضارات الى حيز مغمور فى الساحة العالمية وراحت تسعى الى اقرار التوازن النفسى لدى ابنائها بالتغنى بأمجاد الماضى والبكاء على الدمن والأطلال تعويضا لها عما تعانيه من هموم الحاضر وأحزانه وما أكثرها ! ■■

نشر في العـدد ٢٦٩ مقـال حول سلبيات الشخصية العربية ، للدكتور سامي القباني ، وهذا رد يقول عنوانه بما يحويه .

من ايجابيات الشخصية العربية

بقلم : زياد دياب

العرب أفصح الناس لسانا ، واقومهم عودا ، وانضرهم وجها ، وأعظمهم شكيمة ، الشعر عندهم طبيعة وعند بقية الامم صناعة .. لا اريد ان اكون بوقا لشهرة العرب ولا محاميا للدفاع عنهم ولست متعصبا لهم وانما منصفا لهم ..

الرد على الدكتور القباني ليس من اختصاصي فهو موضوع كبير يحتاج للمعالجة الدقيقة والتشخيص الحي ومعرفة عميقة في علم الطبائع وجغرافية السكان .

العيوب التي ذكرها الدكتور ليست متأصلة كما قال ، لأن العيب صفة مكتسبة وليست صفة وراثية . العربي لم يرث الهزيمة والنكسة كما قال ، وإلا فلماذا انتصر الاسلام وعلى مدى سبعة قرون . واذا اكتسب العربي صفة وأد البنات فلماذا لم تستمر حتى اليوم ، وصفات النجدة والمروءة كانت متأصلة فلماذا لم تستمر حتى اليوم . الموضوع ليس وراثيا ولا متأصلا إنما يخضع لتطور الظروف والاحتكاك بالمجتمع المتمدن . ولا توجد أمة تعترف بعيوبها ونقائصها . فمن الطبيعي جدا أن لا يعترف العربي بالخطأ . كما أن الأوربي المثالي او الأمريكي لا يعترف بخطئه ، أقول ان هناك إيجابيات كثيرة في المجتمع العربي الذي يعترف بخطئه ، وطعن الشخصية العربية بالسلبيات موضوع قديم فقد عمد المستشرقون والعلماء النفسانيون والمحللون الاجتماعيون منذ اوائل القرن التاسع عشر على تجريح الشخصيات العربية التاريخية . من هنا بدت الشخصية العربية مهزوزة ، محطمة مشكوكا بأمرها غير قادرة على أن تحكم نفسها بنفسها .. « والعربي غير اهل لتسلم مقاليد الامور » . فالشخصية العربية اذا اصبحت مشوهة كما يريد لها الاوربي فقد انسقنا وراء الغرب واخذنا عن الغربيين الكثير من عاداتهم حسنها ورديئها ومن جملة ما استوردناه نقل نفس الصورة المتشائمة للعربي كما هي في ذهن الغرب . فالعربي الذي ذهب الى اوربا وتعلم لغتهم ودرس فنونهم وأساليبهم ، وحاول التطبع بطبائعهم ونسيان كيانه كعربي مثل بعض الاطباء والمهندسين والتجار والمثقفين والذين تتولد لديهم فكرة أن العربي سلبي في شخصيته غير متكامل . لانه يرى الصدق في أوربا والامانة والنظافة ووفاء الوعد !! علما بأن علماء اوربا اعترفوا ان هذه المزايا انما جاءتهم من الاسلام كما عبر الكاتب الفرنسي / جان بول رو / بذلك في كتابه « اوربا والاسلام » .

لغة المقال كانت قاسية شديدة الوقع غير قابلة للأخذ والعطاء والتحوير والليونة . فقد استعمل لغة القطع الجازم مثل : « من الصعب على العربي ان يعترف ان أحدا أفضل منه » . « ومن الصعب أن يعمل ضمن مجموعة » ـ « وأنه انفعالي بطبعه ويفتقد الى الضمير الاجتماعي » ..

نظرة التشاؤم هذه التي تقول ان العربي يعمل بمفرده ظاهرة عامة في كل المجتمعات . وأقل مجتمع يعمل بشكل فردي هو المجتمع العربي . الأمريكي منعزل بطبيعته يعمل لنفسه وبنفسه كي يربح الاموال الطائلة

ولا يرتبط بمجموعة ، واكبر دليل على ذلك أن من يملك اعظم مصانع السيارات والطائرات والآليات والمعدات والسفن رجل واحد يطلق عليه اسم « رجل الاعمال الامريكي » !

وإذا كان العمل الفردي يسيء الى المجتمعات المتطورة فلماذا لا يسيء عمل الامريكي الفردي الى حضارته في عصر التكنولوجيا ويسيء عمل العربي الى حضارته في نفس العصر .

وأنتقل إلى الفقرة الرابعة في المقال « العربي انفعالي بطبعه » فأقول إن الحساسية المفرطة للعربي بالأمور التي تمس كرامته . ناحية ايجابية وليست سلبية ـ سرعة الرضا والغضب دليل على طيبة القلب وعدم الحقد والضغينة ، ودليل على أن العربي لا يعرف الرياء .

وأما الفقرة الخامسة التي تقول « من الاعمال ما يليق بالعربي القيام بها ومنها مالا يليق » فهو خطأ واضح تدل عليه التجربة والواقع المعاصر . « والتنظيف يكرهه العربي » : ومن الذي يكنس الشوارع وينظفها اذن الفرنسي او الروسي ؟ واذا كان العربي يأنف هذه المهنة كما يقال ويجد عملا مناسبا اكثر ربحا فلماذا يعمل بها اذن ولا يتركها للغير . في المانيا الغربية مثلا لا يوجد او قلّ ان يوجد عامل تنظيف الماني واحد واكثرهم من الاتراك ، ويأنف الغربي من هذه المهنة فلماذا لا تكون سلبية غربية ؟

ثم مهنة التصليح : مهنة يقبل عليها العربي بنهم هذه المرة ، لان الصناعات الالكترونية والتقنية والتحويلية دخلت البلاد العربية واصبح العربي عاملا مهنيا جيدا بل حاول ان يقلد ويخترع بعض المعدات والآلات التي كان يستوردها ومن ثم يصلحها ، والا من الذي يصلح لنا الساعات والادوات والراديو والتلفزيون والآلات الميكانيكية ؟

ومهنة الفلاحة : ولعلها من أقدم المهن العربية والانسانية والحضارية . واختراع المحراث اختراع شرقي وأول تطور علمي في عالم التكنولوجيا الزراعية وكان عاملا قويا ودافعا ديناميكيا لدفع عجلة التطور التي كانت بيد العرب . والبلاد العربية زراعية وإلا فمن الذي زرع القمح في سهول العراق وسوريا والقطن في مصر والسودان ؟ أهو رجل الأعمال الأمريكي ؟ إنه الفلاح العربي الذي يعشق مهنته ويعتبرها اشرف مهنة في الوجود والمجتمع العربي اكثر من نصفه يعمل في مجال الزراعة والفلاحة ، وهذه ايجابية وليست سلبية . ان اليهود مثلا يكرهون ويأنفون اعمال الزراعة والتصليح والتنظيف ويعشقون اعمال الربا والذهب والجشع وهذه سلبية يهودية وليست عربية .

وتخلف البلاد العربية زراعيا وصناعيا ليس مرده عدم عمل العربي في مجال الزراعة وانما يعود الى اسباب لا تدخل في موضوعنا هذا ـ اذكر مثلا .. الزراعة تخضع الى العوامل الجغرافية وعوامل الطقس والبيئة ـ والعوامل السياسية ـ والعوامل المادية ، فلو توفرت هذه العوامل كنا اكبر مصدر للحبوب في العالم وكذلك الاخشاب واللحوم .. والعربي يعشق الصناعة قيل لاعرابي ينسج : الا تستحي ان تكون نساجا ؟ قال : انما استحي ان اكون اخرق لا انفع اهلي ، وحرفة يقال فيها خير من مسائلة الناس . وهذه كرامة وايجابية عربية .

الفقرة السادسة ، « من الصعب ان يخطط العربي ويعمل لاهداف بعيدة » : اقول : ان الحكاية التي اوردها حادثة فردية وليست عامة تنطبق على كافة البلاد العربية فكيف إذا عمرت مصر السد العالي وسوريا سد الفرات والمغرب زراعة الحمضيات ولبنان وتونس زراعة الزيتون .. الخ ..

الفقرة السابعة « العربي يضيع في عبقرية لغته » : قد يكون هذا صحيحا فالعربي يحب لغته ويفتخر بها لانها عبرت عن الامه وآماله . ولا عيب في أن يكون العربي خطيبا بارعا وسياسيا محنكا معتمدا على لغته في الدفاع عن حقوقه ونفسه . فهي لغة غنية بمفردات المحاورة والمخاطبة .

و « الفقرة الثامنة العرب والمرأة » : المرأة بنظر العربي لها مكانة خاصة وهي محترمة منذ أيام الجاهلية والاسلام كرمها وعظم من أمرها . وموضوع انها غير جديرة باستلام مقاليد الامور كان واردا في الماضي ولكن في السنوات الاخيرة التي تعيشها تغير الوضع فقد اصبحت بمقام الرجل ولها نفس الحقوق وعليها نفس الواجبات وأصبحت وزيرة وأصبح لها اتحاد يعرف بالاتحاد النسائي في كل بلد عربي من المحيط الى الخليج .

وارجو أن اكون قد عبرت عن وجهة نظري كعربي متفائل .

بالعلم .. لا بالرؤية تتحدد الشهور العربية !

بقلم : حسين جوزو

بدأ المسلمون ـ عامتهم وخاصتهم ـ يشعرون منذ زمن بعيد بضرورة توحيد الاعياد الاسلامية عن طريق وضع التقويم الهجري القمري الموحد ، يعمل به العالم الاسلامي كله . وقد كثر الكلام في هذا الموضوع وكتب اهل العلم والفكر فيه ابحاثا قيمة نفيسة تناولوا فيها قضية اثبات الاهلة واختلاف المطالع ، واتفقت كلمتهم ـ او كادت ـ على ضرورة العمل لازالة الاضطراب والاختلاف . القائم بين المسلمين في الاعياد ومواسم العبادات ، وقد عقدت عدة ندوات ومؤتمرات بحث وناقش فيها العلماء ، والفقهاء والمفكرون مشروع التقويم الهجري الموحد . واخيرا تبنت هذا المشروع الامانة العامة لمنظمة المؤتمر الاسلامي . وحتى الان عقد المؤتمر ثلاث دورات في كل من اسطامبول بتركيا واسلام اباد بباكستان وفي تونس ، وستعقد الدورة القادمة في الجزائر خلال شهر ربيع الثاني ١٤٠٢هـ .

وقد تبين واتضح من خلال هذه المؤتمرات والبحوث والمناقشات والتعقيبات ان الضرورة والمصلحة العامة تقتضي لزوما وحتما وضع التقويم القمري الهجري الموحد . وبالفعل تم الاتفاق واجمع رأي الباحثين والدارسين ، والمسئولين على وجوب بذل جميع المساعي وصرف كافة الجهود لتحقيق هذا المشروع الهام الذي تتطلع اليه جميع البلاد الاسلامية .

الى هنا سار المشروع بدون صعوبات تذكر . ولا شك أن هذا الاتفاق كان اول خطوة في سبيل تحقيق المشروع . والخطوة التالية هي الاتفاق على الاساس الذي يقوم عليه التقويم الموحد . كيف يتحقق وضع هذا التقويم ؟ ما هو السبيل الى اثبات اوائل الشهور العربية به هنا مع الاسف الشديد بدأت وظهرت عقبات وعراقيل . وقد اختلف العلماء قديما وحديثا في كيفية اثبات الاهلة . وفي الواقع كادت فيما مضى تتفق كلمتهم على ان العبرة في ثبوت الشهر بالرؤية وحدها وانه لا يعتبر حساب منازل القمر ولا حساب المنجم . والعمدة في الموضوع الاحاديث النبوية الصحيحة التي لا شك في صحتها . « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته ، فان غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين » « لا تصوموا حتى تروا الهلال ، ولا تفطروا حتى تروه ، فان غم عليكم فاقدروا له » . (صحيح البخاري) .

ولا يزال عدد غير قليل من العلماء يستمرون في مثل هذا التفكير ويصرون على مبدأ الرؤية البصرية في اثبات الشهور العربية واليك ما جاء في توصيات وقرارات مجلس المجمع الفقهي المنعقد في مقر الامانة العامة لرابطة العالم الاسلامي في فترة ما بين يوم الاربعاء ١٤٠١/٤/٦هـ وحتى نهاية يوم السبت ١٤٠١/٤/١٦هـ الموافق ١٩٨١/٢/١١م وحتى ١٩٨١/٢/٢١م : ان مجلس المجمع الفقهي الاسلامي في دورته الرابعة المنعقدة ما بين ٧ ـ ١٧ من شهر ربيع الاخر سنة ١٤٠١هـ بعد ان استمع الى البحث الذي اتخذه مؤتمر اسطامبول حول شروط الرؤية لاثبات الشهور القمرية اوصى بالاتفاق بأن العبرة في تحديد اوائل الشهور القمرية التي انيطت بها العبادات هي الرؤية البصرية الشرعية دون التفات الى الحساب بأي شكل من الاشكال ولا الى شرط من الشروط . وفي نفس القرار اوصى مجلس المجمع الفقهي بوجوب اعتبار اختلاف المطالع

واذا حللنا هذا القرار تحليلا علميا ونظرنا اليه من حيث ما يؤدي اليه من نتائج وعواقب - والامور بعواقبها - نجد انه ان عمل به واتخذ أساسا في اثبات اوائل الشهور العربية يؤدي الى فشل جميع المجهودات والمساعي في مشروع توحيد الاعياد ومواسم العبادات ووضع التقويم الهجري الموحد لان الرؤية البصرية واعتبار اختلاف المطالع لا يمكن بحال من الاحوال بل من المستحيل ان يكون اساسا للتوحيد المنشور الذى تقتضيه الضرورة والمصلحة العامة كما قلنا وليس من الممكن وضع التقويم الهجري الموحد على ذلك الاساس لان الرؤية البصرية تختلف من بلد الى بلد حسب اختلاف المطالع ، فيكون لكل بلد رؤيته فيكون في مصر غير ما في الحجاز او العراق او الجزائر او في يوغسلافيا .

وليس معنى هذا انكار صحة الاحاديث المذكورة وانما معناه انتهاء العمل بها . وقد جاء في صحيح البخاري من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال : انا امة امية لا نكتب ولا نحسب والشهر هكذا وهكذا » يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين . فالامر باعتبار الرؤية البصرية وحدها جاء معللا بعلة منصوصة وهي امة امية لا تكتب ولا تحسب . والعلة تدور مع المعلول وجودا وعدما . واذا خرجت الامة عن اميتها وصارت تكتب وتحسب اعني صارت في مجموعها ممن يعرف هذه العلوم وامكن الناس - عامتهم وخاصتهم - ان يصلوا الى اليقين والقطع في حساب اول الشهر وامكن ان يثقوا بهذا الحساب ثقتهم بالرؤية او اقوى . اذا صار هذا شأنهم في جماعتهم وزالت علة الامية وجب - كما ذهب اليه الاستاذ احمد محمد شاكر في رسالته « اوائل الشهور العربية » - ان يرجعوا الى اليقين الثابت وان يأخذوا في اثبات الاهلة بالحساب وحده وان لا يرجعوا الى الرؤية .

واذا ثبت اليوم - وقد ثبت بالتأكيد فعلا - ان الرؤية العلمية الحسابية ترى ما لم تستطع ان تراه الرؤية البصرية ، وهي اقوى منها ثقة ويقينا ، فليس علينا - والحالة هذه - الا الاعتماد على الرؤية العلمية والاخذ بها في تحديد اوائل الشهور القمرية حتى نتمكن من وضع التقويم الهجري الموحد . الا يكفيك في ذلك ما يصنعه اليوم الحساب من المعجزات بواسطة الالة من كومبيوترات وميكروسكوبات وتلسكوبات وغيرها . لقد استطاع الانسان بفضل الحساب وعلم الفلك ان يصل الى القمر وينزل عليه ويصنع الاقمار الصناعية ويرسلها الى كواكب . وعن قريب سيطير الانسان بواسطتها من كوكب الى كوكب اخر .

ومن الثابت ان الذي نراه ونثبت وجوده بالرؤية البصرية محدود وقليل جدا بالنسبة الى ما نراه بالرؤية العلمية الحسابية ، ومعرض بالخطأ . ان العين البصرية المجردة لا ترى الميكروب ولا الفيروس ولا الذرة وحركاتها السريعة وعناصر تكوينها . وكل ذلك تراه العين العلمية .

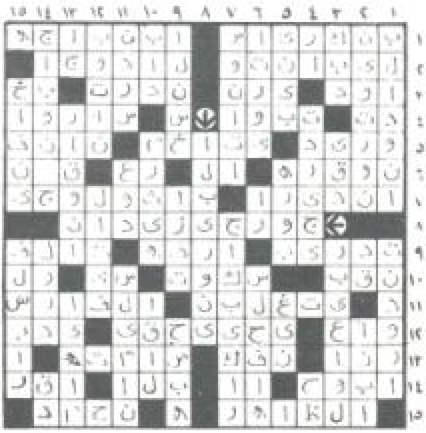
ومن المستغرب اننا على الرغم من ذلك نجد من العلماء من لا يثق بالحساب ويرفض الرؤية العلمية رفضا باتا ويفضل عليها الرؤية البصرية التي كثيرا ما تخطيء وتعطي لنا صورة غير صحيحة . ان هذا الرأي وهذا الموقف لا يمكن ان يتخذه ويذهب اليه الا من سيطر عليه وساد في تفكيره التقليد الاعمى والعقلية المتحجرة المتزمتة ، تلك العقلية التي لا تستطيع ان تدرك ان الحياة تتطور وتتقدم ولا تدرك مقاصد الشريعة السمحة وديناميكيتها ولا تستطيع ان تدرك ان الاحكام التي اقتضتها الظروف المعنية وكانت معللة بعلة معينة تتغير بتغير تلك الظروف وتزول بزوال علتها .

واسجل هنا انه منذ ٤٢ سنة (١٩٣٩) كتب الاستاذ احمد محمد شاكر القاضي الشرعي بالقاهرة رسالته : اوائل الشهور العربية « وذهب فيها الى ضرورة الاعتماد على الحساب الفلكي في تحديد الشهور ، ودعم ما ذهب اليه بأدلة قاطعة وحجج مقنعة ، واختتم الرسالة بما يلي :

فلو ذهبنا الى ما رأيته وفهمته لتوحدت كلمة المسلمين في اثبات الشهور القمرية ، وكانت مكة وهي منبع الاسلام ومهبط الوحي ، وهي ملتقى المسلمين في كل عام كأنهم على ميعاد يتعارفون ويتوادون وفيها بيت الله الذي نحوه يتوجهون في صلاتهم رمزا لوحدتهم كانت مكة هذه مركز الدائرة لهم في تحديد مواقيتهم .

ولكن قرار مجلس المجمع الفقهي الاسلامي ، الذي صدر في مكة ، والذي يقضي مع الاسف الشديد بعدم جواز الاخذ بالحساب الفلكي في تحديد الشهور القمرية - هذا القرار قد خيب امل المؤلف المذكور وأقام عقبة في سبيل تحقيق رغبته ورغبة المسلمين في كافة انحاء العالم .

● حل مسابقة العدد ٢٦٩ ●



جورجي زيدان

البيروني

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : جورجي زيدان . ولد وتعلم في بيروت ، وتوفي بالقاهرة . أسس مجلة الهلال عام ١٨٩٢ في القاهرة . ثم أسس دار الهلال للطباعة والنشر . له دروس في الادب والتاريخ ، أهمها « تاريخ التمدن الاسلامي » ، و « تاريخ آداب اللغة العربية » ، و « تراجم مشاهير الشرق » .

(٨) رأسيا : البيروني ، أصله من فارس ، ولد في بيرون عاصمة خوارزم . أسره السلطان الغزنوي . درس الديانات والفلسفة الهندية واليونانية . استخدم الارقام الهندية ، وتكلم عن كروية الأرض ، كما عرف تعيين خطوط الطول والعرض .

الفائزون بالمسابقة

■ الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : هاني عوض عبد السلام ـ صيدا/لبنان

■ الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : عبد الرزاق داود ابو زيد ـ الزرقاء/الاردن

■ الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فازت بها : امينة عبد الله ابراهيم ـ المحرق/البحرين

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

١ ـ حمد محمد حمد علي ـ الخرطوم/السودان
٢ ـ حاتم امين احمد الجمل ـ شبين الكوم/مصر
٣ ـ عنان محمد عبد السلام ـ الناظور/المغرب
٤ ـ داود سليمان الصيرفي ـ الكويت
٥ ـ علي سالم باذيب ـ عدن/اليمن الديمقراطي
٦ ـ غداء عاشوري ـ حلب/سوريا
٧ ـ محمد عبد العظيم نخيل ـ جيزان/السعودية
٨ ـ محمد بوسفة ـ مدنيس/تونس

اعداد : يوسف زعبلاوي

الانسولين البشري النقي سيظهر في الاسواق عما قريب

من المعروف ان الأنسولين ، وهو العقار الشهير الذي لا غنى عنه لمرضى السكر الذين يعدون بالملايين .. ذو اصل حيواني .. لا بشري .. فهم يستخلصونه من بنكرياس الماشية والخنازير . وقد درجوا على ذلك منذ ان تسنى لهم عزل ذلك الهرمون واستخلاصه ... وكان ذلك قبل حوالي ٦٠ عاما ... وتعتبر تلك الخطوة قفزة كبيرة وهامة في تاريخ الطب ، وقد ساعدت على انقاذ الكثيرين من مرضى السكر من موت شبه محقق ، او على الاقل ، من الافات الفتاكة العديدة التي يتسبب بها مرض السكر .. كالشلل وفقدان البصر وامراض القلب واضمحلال الغريزة الجنسية ... الى اخر ما هنالك ...

على ان الانسولين الحيواني لا يتوفر له النقاء الذي يتطلبه جسم الانسان ، ولا يخلو من اثار جانبية .. وطالما تمنى الاطباء لو امكنهم الحصول على الانسولين البشري .. وقد بدا لهم ذلك ضربا من المستحيل .. ولكن الى حين .. الى حين ظهرت الهندسة البيولوجية ، او الجينية Genetic Engineering او ان شئت : جراحة الخلايا بقصد العبث في بنيتها او التغيير والتبديل في خصائصها ومقوماتها .. وكان ذلك في اواخر السبعينات ...

فمنذ سنتين او ثلاث سنين وبعض الشركات الكبرى تركز جهودها من اجل تخليق صنوف من البكتريا ، او برمجتها وفق شفرة محددة ، تكفل قيام تلك البكتريا بصنع الانسولين البشري النقي بكميات تجارية وبتكاليف قليلة نسبيا .. والظاهر ان اثنتين من تلك الشركات اصابتا نجاحا كبيرا وقطعتا شوطا خطيرا في هذا المجال .. احداهما شركة ليلي (Lilly) الامريكية التي تغطي حوالي ٨٥ ـ ٩٠٪ من سوق الانسولين في الولايات المتحدة ، والثانية شركة نوفو (Novo) الدانمركية وهي تستأثر بنحو ٦٠٪ من اسواق الانسولين في مختلف الدول الاوربية .. والسوقان ضخمتان ولا تقل قيمة الانسولين المتداول في كل منها عن ١٠٠ مليون دولار .... وبلغ من نجاحها ان انشأت كل واحدة منها مصانع لانتاج الانسولين البشري لا في منطقتها فحسب ولكن في منطقة الشركة الاخرى أيضا .

ويرجح المطلعون ان موافقة وكالة الغذاء والدواء في واشنطن على انتاج الانسولين البشري الجديد على نحو ما اسلفنا باتت وشيكة .. وتعتبر هذه الموافقة شرطا ضروريا لانطلاق الشركتين ، لاسيما الامريكية ، في غزو الاسواق التجارية .. بحيث يصبح الانسولين البشري الجديد في متناول مرضى السكر في غضون سنتين على ابعد تقدير ...

بقيت حية ، بالرغم من تجمدها ..

اهتزت الاوساط الطبية لما حدث مؤخرا للفتاة الامريكية جين هيلبارد (١٩) . فقد جدت الفتاة ، وهي من أهالي بلدة لنجبي في ولاية مينسوتا ، ليلة العشرين من شهر ديسمبر الماضي .. اذ قضت تلك الليلة في العراء حيث تراكمت الثلوج وهبطت درجة الحرارة هبوطا كبيرا ، حتى بلغت ٢٢ تحت الصفر . وبدت الفتاة لرجال الاسعاف الذين جاءوا لنجدتها وكأنها قطعة من خشب ، او ان شئت ، كقطعة اللحم التي تيبست بفعل الجليد .

ونقلت الفتاة الى مستشفى فوستون في الولاية نفسها .. لاجراء اللازم لها باعتبارها حالة وفاة .. وفحص الدكتور جورج سائر الفتاة او الجثة واذا بحرارة جسمها دون ٣١ درجة مئوية ..

الحد الادنى المسجل على ميزان الحرارة .. وقبل مثل ذلك في نبضات قلبها التي لم تزد على ١٢ نبضة في الدقيقة .. أي حوالي خمس نبضات القلب في الفتاة السليمة ..

ولكن القلب النابض دليل على الحياة .. سواء بلغت نبضاته خمس النبضات السوية او سدسها .. بدليل ان الانسة هيليارد ما لبثت ان عادت الى الحياة .. واستردت وعيها ونشاطها بعد الاسعافات التي اجريت لها .. ولكن الاطباء لم يسمحوا لها بمغادرة المستشفى قبل مضي بضعة اسابيع ، بقصد الاطمئنان عليها .. اضف الى ذلك انها اضطرت بعد ذلك للتردد على المستشفى ، وذلك للمعالجة مما يعرف بلسع الجليد (Frostbite) . وقد اجريت لها العمليات الجراحية التجميلية التي اقتضتها حالتها ..

واختلف الاطباء في تعليقاتهم على قصة جين هذه .. فمنهم من رأى فيها خرقا للمألوف ومنهم من اعتبرها حالة عادية .. من حالات تدني الحرارة hypothermia التي يفيض بها الادب الطبي . وقد هبطت درجة حرارة الجسم الى ٦٨ درجة فهرنهيت في بعضها .. ولم يسمع للقلب اي نبضات في بعضها الاخر ...

ويشبه احد الاخصائيين حالات تدني الحرارة التي قد يمر بها جسم الانسان بفترة السبات (hibernatinh) التي يمر بها جسم بعض الحيوان في فصل الشتاء . ففي الحالتين يعتري عمليات الجسم الداخلية التباطؤ فتقل حاجة خلاياه الى الاكسجين الذي ينقله اليها الدم .. حتى خلايا المخ الدقيقة نفسها .. تستطيع البقاء حية في

عدوان جديد من نوع جديد

كتب الينا بعض القراء يطلبون ايضاحا حول المشروع الاسرائيلي الرامي الى جر مياه البحر المتوسط الى البحر الميت . ولعلهم يجدون في الرسمين المرافقين بعض ما يرجون من ايضاح ..

ونضيف الى ما تضمنه الرسمان القول بأن المشروع الذي ستبلغ تكاليفه نحوا من ٧٠٠ مليون دولار ، سيبلغ طول نفقه الرئيسي ٥٠ ميلا .. على ان اهم ما يذكر في هذا الصدد هو ان المشروع يهدف الى رفع مستوى الماء في البحر الميت ، وذلك بمقدار ٥٠ قدما في غضون العشرين سنة القادمة .. ولا يخفى ما ينطوي عليه ارتفاع الماء هذا من مخاطر على مصانع البوتاس الاردنية وهي قائمة على شاطىء البحر . اضف الى ذلك المخاطر الاخرى المترتبة على العبث في بنية الماء ونسب محتوياته من الاملاح والمواد الكيماوية .



حالة تدني الحرارة بضع دقائق ، رغم توقف القلب عن ضخ الدم .. وقد يتعرض المخ لبعض الاذى في مثل هذه الحالات ، ولكنه اذى مؤقت لا يلبث ان يزول ... ومن طريف ما يذكر هنا ان حالات التجمد وتدني الحرارة قد تعود بالنفع على بعض الناس ، وعلى ادمغتهم بالذات .. اذ تحظى هذه بحماية ما تكسبها مزيدا من نشاط لدى تخطي الازمة .. كما يؤكد ذلك بعض الاخصائيين ، وفي طليعتهم الدكتور رتشارد يونغ Dr.R.Younh أحد كبار العاملين في مركز هرشي الطبي في بنسلفانيا . وقد حدث ذلك بالفعل لبعض الذين غرقوا او كادوا ان يغرقوا في مياه جليدية ثم انقذوا وهم بلا نبض وبلا تنفس .. فقد عادت اليهم الحياة واستردوا وعيهم وتضاعفت حدة ذهنيتهم طوال ساعة من الزمن بالرغم من كل ما بدا عليهم من اعراض .



قطارات جديدة
اسرع من الطائرات

السرعة المقصودة هنا سرعة نسبية لا مطلقة .. اي ان القطارات الجديدة تضمن للمسافر الوصول من باريس الى ليون مثلا بأسرع مما تسمح به الطائرات ..فالوقت الذي يضيع في الانتقال بين المدن والمطارات ، وفي اجراء معاملات الجمارك والجوازات .. لا يضيع مثله في حالة السفر بالقطارات .. اضف الى ذلك الوقت الذي تحتاجه الطائرة للاقلاع والهبوط .. لا عجب اذن ان بلغ الوقت الذي يستغرقه سفر الطائرة بين المدينتين الفرنسيتين المذكورتين حوالي خمس ساعات .. او ما يزيد على ضعف الوقت الذي يستغرقه السفر بينهما بواسطة القطارات الجديدة ..

وفرنسا واليابان هما الدولتان الرائدتان في صنع هذه القطارات والمتنافستان من حيث سرعتها .. وقد كان السبق للقطارات اليابانية (خط توكايدو الذي يصل طوكيو باوزاكا) حتى مطلع هذه السنة .. حين استكملت فرنسا صنع قطارها المعروف باسم (TGV) .. فقد بلغت سرعة هذا القطار الفرنسي ٢٦٠ كيلومترا في الساعة ، بينما لم تزد سرعة القطار الياباني على ٢١٠ كيلو مترات في الساعة . والمقارنة هنا ليست بين أقصى السرعتين .. او ارقام السرعة القياسية التي يمكن ان يبلغها القطاران .. وانما بين السرعتين الواقعتين اللتين ينطلق بهما القطاران بركابهما في رحلاتهما اليومية .

الا ان اليابان ما لبثت ان صنعت قطارا جديدا أسرع من القطار الفرنسي .. وقد بلغت سرعته في مرحلة التجارب التي يمر بها حاليا والتي ستستغرق أربع سنوات اخرى ، ١٩١ ميلا في الساعة اي ما يعادل ٣٠٦ كيلومترات في الساعة .

وتجدر الاشارة الى ان محرك هذا القطار الياباني الجديد يختلف عن المحركات القديمة من حيث التصميم .. فهو شبيه بالمحرك الكهربائي الدوار (Rotary) ويعمل على مبدأ (Linear induction)

تطابق مدهش
بين دول الطوائف الأندلسية
ودول الاحياء الايطالية

بقلم : محمد عبد الله عنان

يقدم الينا التاريخ مثلين تجمع بينهما نفس المظاهر والصفات والعوامل السياسية والفكرية والاجتماعية . يقع احدهما في العصر الوسيط ويقع الثاني في مطلع العصر الحديث . بيد انهما رغم التباعد في الفارق الزمني ، يقتربان في اصول التكوين السياسي والطبقي ، وفي صور الحياة الاجتماعية اللامعة في مظاهرها الخارجية ، والتي يقضم الترف اسسها الداخلية ، ويدفعها التنافس الى سلسلة من الحروب الصغيرة ، تقضي على سيادة بعضها ، وتضاعف حجم البعض الآخر وينتهي بها الامر الى ان تنهار اخيرا امام القوى الغازية من الخارج .

هذان المثلان هما اولا ، دول الطوائف الاندلسية المسلمة ، وثانيا دول عصر الاحياء الايطالية النصرانية في شمال ايطاليا . وقد عاشت دول الطوائف الاندلسية زهاء قرن من الزمان منذ سنة ٣٩٩ - ٤٨٣ هـ (١٠٠٩ - ١١٠٨ م) ، وعاشت دول الاحياء الايطالية زهاء قرنين منذ بداية القرن الرابع عشر الى اوائل القرن السادس عشر من الميلاد .

تشابه في النهضة

وأول واعظم وجوه الشبه بين دول الطوائف ودول الاحياء هو تعاظم النهضة العلمية في كل منها بشكل اخاذ ساطع ، وذلك بالرغم من سائر العوامل الهدامة السياسية والاجتماعية التي كانت تمزق كلتا الكتلتين يومئذ . ويكفي ان نذكر في دول الطوائف بعض الاسماء اللامعة في عالم الآداب والعلوم ، مثل المعتمد بن عباد ، وعمر بن الافطس ، وابن زيدون ، وابن عمار ، وابن بسام ، وابن باجة وابن حيان ، ومن نجم في اعقاب النهضة مثل بني زهر وابن رشد وابن طفيل . وفيما يتعلق بدول الاحياء يمكننا ان نذكر كثيرا من الاسماء العظيمة اللامعة مثل دانتي وبترارك وبوكاشيو وميكافللي وميكل انجلو ودافنشي ورافايللو وتشلليني ، وعشرات بل ومئات من اقطاب الفنون ، التي لم تزدهر في اي عصر من العصور مثل ما ازدهرت في ذلك العصر ، وفي مجتمع الاحياء بالذات .

وكما اضطرمت بين الطوائف طوال الوقت تلك الحروب الاهلية الصغيرة ، ووقع فيها تبادل المدن والاراضي ، فكذلك كان الشأن بين دول عصر الاحياء . فقد كانت الحرب تضطرم من آن لآخر بين الاسر المختلفة ذات العصبية والشأن مثل آل مديتشي ، وآل فسكونتي ، وآل جلفا ، وآل البزى ، وغيرهم من أكابر الاعيان والاسر .



وقد كان ال مديتشي ألمع هذه الاسر واغناها ، واقدم الاسر الفلورنسية واعرقها . وقد ظهرت منذ القرن الثالث عشر في فلورنس أزهر مدن الاحياء ، وتقدمت سراعا بين صفوف الشعب واحرزت ثروة طائلة من التجارة والاعمال المالية . ثم نزلت الى ميدان السياسة بأصالتها وثرائها ، واستطاعت ان تحرز الرياسة وان تضطلع بحكم المدينة العظيمة ، وكان اول من حكمها منهم جوفاني دي مديتشي فتولى رياسة الجمهورية . ولما توفي في سنة ١٣٩٣ خلفه في الرياسة ولده كوزيمو دي مديتشي ثم ولده بيترو ، ثم خلفه ولده لورنزو الملقب بالمجيد ، وكان فتى كثير الاطماع رفيع المثل العليا وكان اعظم واشهر من حكم من ال مديتشي . وتوطد سلطان ال مديتشي وقامت في عهده ثورات ضد ال مديتشي ، وفقدوا الحكم غير مرة ، ثم اعيدوا الى الرياسة مرتين . وفي عهدهم بلغت فلورنس ذروة العظمة والرخاء ، وقامت بها القصور والكنائس التاريخية العظيمة ونبغ الكثير من اعلام الفنانين والمصورين والعلماء ، وحكم ال مديتشي جمهورية فلورنس زهاء قرن من الزمان من سنة ١٤٣٤ الى سنة ١٥٣٧م .

وتماثل في المجون

وكانت الحياة الاجتماعية شبيهة كل الشبه بين العصرين . فقد كان مجتمع الطوائف يحيا حياة حرة مرحة ، سواء في القصور او لدى الطبقات العليا . وكان الفساد يغشى كل جوانب المجتمع ، والملاذ الدنيا تغلب على كل الطبقات ، وتنتشر الخمور والشراب لدى سائر الناس فكانت حياة مادية يغلب عليها الترف والملاذ ، وتحقيق الشهوات بكل الوسائل .وكانت حياة الجنس تسيطر على كل الطبقات ، وكان انتشار الجواري والغلمان ظاهرة عامة سواء في القصور اولدى الطبقات الخاصة ، بل الطبقات الدنيا . فكانت حياة مادية حرة مترفة طليقة بكل الوسائل والمعاني .

وكانت مثل هذه الموجة من الحياة المادية ، والفساد الاجتماعي الشامل ، تسود مجتمعات عصر الاحياء الايطالية ، ويجرفها تيار الشهوات الدنيا بسائر طبقاتها . ولنا في قصص بوكاشيو نماذج قوية أخاذة من الحياة الاجتماعية المترفة الطليقة المرحة ، التي كانت تحياها مختلف الطبقات يومئذ ، بلا استثناء لرجال الدين

والاديار . فقد كانت حياة متاع ومرح وفسق بكل ما في هذه الحياة من الشهوات والملاذ المادية والجنسية

على ان هذا الانغماس في الحياة المادية والشهوات الدنيوية ، لم يمنع من ان يضطرم مجتمع الاحياء ، حسبما اشرنا ، بحركة علمية زاهرة . وكانت فلورنس في نفس الوقت هي منزل هذه الحركة ؛ ومنذ ايام بترارك كان البحث يجري عن العلم القديم . وكان بوكاشيو وزملاؤه يتخذون نفس الطريق في اكتشاف كتابات الكتاب اليونان واللاتين وكان سقوط قسطنطينية عاملا في ازدياد هذه الحركة الى اكتشاف الكنوز القديمة ونقلها . وكان للتراث اللاتيني اثاره ولاسيما لدى الكتاب السياسيين مثل مكيافيللي وجيشارديني . وكانت فلورنس تقود هذه الحركة وتدعمها . وكان فن التصوير يجد بالاخص ميدانه في الحرية وحب الجمال ومرح الطبيعة والانسانية ، كما كان يغذيه حب الحياة المادية في نفس الوقت . ومن ثم كانت هذه الجمهرة الكثيفة من عباقرة هذا الفن بصورة لم يحدث مثلها في اي عصر من العصور .

وقد كان الملوك والامراء ، بل والبابوات في عصر الاحياء ، حماة للعلوم والآداب ، وكان من أعظم امراءهذا العصر آل مديتشي حكام فلورنس وعلى رأسهم قطب الاسرة العظيم لورنزو المجيد . وكان البابوات وهم يومئذ من اقطاب السلطة السياسية ، يحكمون الى جانب الزعامة البابوية مملكة كبيرة تتوسطها مدينة رومة العظيمة ، ولهم سلطان سياسي واسع يساهمون مساهمة فعالة في حماية العلوم والآداب والفنون . وقد كان من عجائب عصر الاحياء ، أن يكون آل بورجيا وعميدهم البابا اسكندر السادس من ابطال العاملين في ميدان الحرب والسياسة ، وميدان العلوم والفنون . بل من عجائب هذا العصر ان يكون هذا الحبر الفاجر المنهمك في غمار الشهوات والمفاسد من حماة العبقرية والفنون وان يكون قد أسبغ حماية على عدة من عباقرة الفنون في منشآت عالية فخمة ، مثل المصلى السستيني ، وجناح آل بورجيا بقصر الفاتيكان ، وان تكون لوكريزيا الحسناء ابنة هذا البابا ، بزواجها من دوق فيرارا ، وكونها قد غدت اميرة هذه الولاية ، قد غدت كذلك من حماة الفنون والآداب ، وان يكون ابنه قيصر (سيزر) بورجيا قد غدا بالنسبة لمكيافيللي هو « الامير »العبقري الامثل ، الذي يجب ان يقتبس الامير الامثل من صفاته لكي يسود ويحكم ، وذلك بالرغم مما ارتكبه من جرائم القتل والسفك ؛ كل ذلك من عجائب عصر الاحياءالذي شملت حماية امرائه واقطابه على

اختلاف صفاتهم ومراكزهم السياسية والاجتماعية اكابر الكتاب والفنانين ، الذين قاموا في ظل هذه الرعاية بكثير من اعمالهم ومنشآتهم وصورهم الخالدة .

ونحن اذا استعرضنا عصر الطوائف الاندلسية ، استوقفتنا نفس الظواهر ، من ازدهار العلوم والآداب في تلك الممالك الصغيرة التي غمرها الترف والانحلال ، واستغرقت في حياة المتاع واللهو ، وفي ميدان الشقاق والمعارك الاهلية . وما من شك في انه كان ثمة في عهد الطوائف نهضة علمية وأدبية زاهرة ، زخرت بعدد كبير من اقطاب الشعر والادب ومختلف صنوف العلوم . وقد كانت قصور بني عباد في اشبيلية ، وبني صمادح في المرية ، وبني الافطس في بطليوس ، وبني هود في سرقسطة ، موئل كثير من الشعراء والادباء ، مثل ابن زيدون وابن عمارة ، وابن دراج القسطلي وغيرهم . وكان ثمة علماء عباقرة مثل الفيلسوف ابن حزم القرطبي ، وابن باجة ابوبكر الصائغ ، وابو اسحق بن يحيى الزرقالي ، وابو بكر الطرطوشي وغيرهم وغيرهم

وكان امراء الطوائف وقصورهم تشمل اولئك الأدباء والعلماء برعايتها . وكانت نهضة الادب والشعر في عنفوانها في بلاط اشبيلية ، حيث كان بنو عباد ، وعلى راسهم المعتمد بن عباد امير الشعر في عصره ، يشملونها برعايتهم ، ويمدونها بعطائهم وتشجيعهم . وكان مختلف العلماء الذين ورد ذكرهم ، يقومون بدراساتهم تحت نفس الرعاية من مختلف قصور الطوائف . وقد كانت هذه النهضة العلمية المحلية التي ازدهرت في ظل الطوائف فيما بعد ، مبعث هذه النهضة العلمية والادبية ، التي ظهرت فيما بعد في ظل الحكم الموحدي ، ولمع فيها علماء عباقرة مثل بني زهر ، وابن طفيل ، وابن رشد وغيرهم .

تلك هي اوجه الشبه بين عصر الطوائف الاندلسية ، وعصر الاحياء الايطالي ، وهي بلا ريب اوجه تحمل كثيرا من الظواهر المتماثلة ، السياسية والاجتماعية والفكرية . وهي ظواهر يمكن ان نلخصها فيما يلي :

سيطرة الامراء الطغاة وما تثيره من الحروب الاهلية الصغيرة ، والتخاذل في الدفاع عن الوطن ، والانحلال الديني والاخلاقي والاجتماعي الشامل ، واضطرام النهضة العلمية والادبية الزاهرة ، يرعاها الامراء الطغاة ويمدونها بالبذل الوفير ، وقد كانت هذه النهضة في عصر الاحياءاروع ما عرفته ايطاليا في تاريخها الطويل الحافل .

محمد عبد الله عنان

المرأة و الأسرة



بقلم : منير نصيف

عناد إمرأة !

اسرعت الام الى غرفتها مهرولة والغضب يحتويها ، والقت بنفسها على الفراش وبكت .. كانت تبكي بحرقة والدموع تسيل من عينيها ساخنة غزيرة .. وكانت تهمهم : « ليزي .. سوف يقتلني العار الذي جلبته لاسرتك ! »

اما الاب فكان صوته اشبه بعاصفة رعدية ، تجلجل في البيت حتى كادت الجدران تهتز له : « ابنتي تسلك هذا المسلك المذل المهين ! يا للهول ! » .

واما الابنة سبب هذه الثورة العارمة التي هزت كيان الاسرة هزا ، فقد كانت تقف هادئة شامخة انفها في غرفة المكتب ، وكأن شيئا من هذا الذي يحدث أمامها ومن حولها لا يعنيها في قليل او كثير .. كان اسمها اليزابيث جاريت ، وكانت وقتها في الرابعة والعشرين من عمرها ، فتاة جادة رشيقة القوام تتميز بتقاطيع حادة ، وربما كان الشيء الوحيد الذي لم يكن يبدو طبيعيا في وجهها في تلك اللحظة هو شفتها السفلى التي امتدت الى الامام في حركة لا إرادية ، وقد بقيت تلازمها طول حياتها واصبحت علامة مميزة لها في تاريخها الحافل الجري، كلما وقفت تفكر وتتأمل . ولم تكن اليزابيث تقف ساكتة ... كانت تتكلم وكأنها تهمس ، وتكرر نفس العبارة التي رأى فيها والداها « كفرا ما بعده كفر » : « اريد ان ادرس الطب يا ابي .. اريد ان اصبح طبيبة ! »

ثورة

كانت اليزابيث تعيش في عام ١٨٦٠ في انجلترا اي منذ قرن وعشرين عاما تقريبا عندما اختارت هذه المهنة التي كان مجرد التفكير فيها بالنسبة للمرأة خطيئة لا تغتفر ! فقد كانت المرأة تعيش في عالم الرجل وحده .. لا مكان لها فيه خارج جدران البيت الذي يحتويها مع اسرتها الكبيرة او الصغيرة .. الزوج والابناء هم دنياها التي تعيش لها ومن اجلها ... وكانت الفتاة تعلم بين ما تعلم انها باصرارها على دراسة الطب .. قد اشعلت ثورة ...... فقد كانت المرأة الوحيدة التي سبقتها الى هذا

الميدان الذي يصول فيه الرجل ويجول ، هي اليزابيث بلاكويل ، وكانت أمريكية ، وكانت اول امرأة تعمل بالطب في العالم .. وقد افتتحت مستوصفا صغيرا في أحد الأحياء الفقيرة بمدينة نيويورك ، لعلاج المهاجرين الجدد وتوزيع الدواء عليهم بالمجان .. وقد كان لقاؤها بها في بلدها بانجلترا عندما جاءت الطبيبة الامريكية لتتحدث الى المرأة الانجليزية وتحاضر في « الطب كمهنة للمرأة » بعد النجاح الذي حققته فلورانس نايتنجيل ، التي حملت المصباح واضاءت به الطريق امام كل امرأة تريد ان تشارك في هذه الرسالة الانسانية النبيلة ... وكانت فلورانس حديث أوربا كلها في تلك الحقبة من الزمن خلال حرب القرم ومن قبلها وبعدها .

حوار مع الأب

وبدت الفتاة وكأنها وجدت ما كانت تبحث عنه لاقناع والدها الثري الثائر الحانق : « اذا كانت المرأة قد نجحت يا ابي في التمريض ، فلماذا لا تنجح في العلاج والتطبيب لماذا تبقى دائما في الصفوف الخلفية ... كان يجب ان تكون فخورا لان ابنتك تريد ان تتخطى الحواجز وتقف في الصفوف الاولى حيث وقف الرجل وحده دون منافس على مدى قرون طويلة وكأنه يملك الارض وما عليها ! »

ولم يكن ممكنا امام هذا العناد والاصرار ، الا ان يقتنع الأب ، واكثر من ذلك ، فقد وعدها بأن يفعل كل ما في وسعه لمساندتها في كل خطوة على طول الطريق الذي كانت بالفعل قد بدأت تسير فيه وبخطى ثابتة هادئة بلا تردد .

ولكن العوائق ما لبثت ان قامت في طريقها من جديد ... وكانت في هذه المرة من خارج البيت ... لقد زرعها كبار رجال الطب في « هارلي ستريت » ، وفي إجماع غريب وقفوا جميعا يرمقون هذه الفتاة « الشاذة » بنظرات مليئة بالسخرية ، عندما ذهبت اليهم بصحبة ابيها تسألهم الرأي والمشورة : « ماذا تقولين يا سيدتي الصغيرة .. ليس هناك امرأة واحدة تستطيع ان تحتمل منظر الدماء والرعب في غرفة العمليات .. ليس هناك كلية للطب تقبل ادراج اسمك ضمن الطلبة الدارسين .. ليس هناك لجنة تقبل جلوس امرأة وسط الممتحنين ..!

النافذة الصغيرة

وأسقط في يدها .. لقد فشلت قبل ان تبدأ ! ولكنها لم تستسلم فقد أصرت في عناد على المضي في الطريق واقتلاع كل ما يصادفها من اشواك ! ومن خلال بعض الأصدقاء ، استطاعت اخيرا ان تقابل احد الرجال الذين وعدوا بمساعدتها .. وكان مديرا لمستشفى « ميدل سكس » .. وقال الرجل وهو يرمقها بنظرة فاحصة لا تخلو من التحدي : « كل الذي استطيع ان افعله الان هو ان اوصي بقبولك في مدرسة الممرضات لمدة ستة اشهر... هذه الفترة سوف تعطيك فرصة لاكتشاف نفسك واكتشاف مدى تحملك لقسوة هذه المهنة » .

وأحست بنافذة صغيرة تفتح امامها وسط تلك الابواب المغلقة من حولها ، والتحقت اليزابيث بمدرسة التمريض ، وبعد شهر من دخولها كانت تقف ولأول مرة في غرفة العمليات أو غرفة « التعذيب » كما كانوا يسمونها .. كان المريض يستلقي على ظهره فوق المائدة وعيناه مفتوحتان ، ودخل الجراح في معطف قذر امتلأ بآثار دماء بشرية جافة انتقلت اليه من عمليات اخرى سابقة .. الابر والخيوط تتدلى في اهمال من صدر المعطف .. وبدأ الجراح يقطع ، وصرخ المريض وتلوى من الألم .. فلم يكونوا قد اكتشفوا المخدر ، ولا حتى أي شيء يخفف من عملية التمزيق والتقطيع في الجسد المريض ..... وصاحبه يرقب كل ما يحدث بعينين مفتوحتين امتلأتا بالخوف والألم والهلع .. ولم تسقط اليزابيث مغشيا عليها كما توقعوا .. رأت ما رأت وشحب لونها وزاغت عيناها .. ولكنها تحملت التجربة .. في هذا اليوم ولدت اليزابيث جاريت الطبيبة ، رغم ان رحلتها الطويلة مع المرض والمرضى لم تكن قد بدأت ، بعد .

دروس خاصة

لم يكن قد مضى على لقائها بما يحدث في غرفة التعذيب اكثر من بضعة ايام حتى كانت حديث الاطباء ، في المستشفى .. لقد أثارت شجاعتها الاعجاب ، وتطوع احد الاساتذة باعطائها دروسا خاصة في التشريح وفي الفسيولوجيا ، علم وظائف الاعضاء ، ثلاث مرات في الأسبوع . وفجأة وجدت نفسها قد اصبحت جزءا من هذا المستشفى ، وحفزها هذا التقدير على التقدم بطلب الى إدارة المستشفى بالسماح لها بحضور محاضرات الأستاذ الذي تطوع بمساعدتها وهو يرى منها هذا الحماس الشديد للمهنة التي أعطتها كل وقتها وحياتها .

ولكن متاعبها لم تنته ! في أحد الايام ، وبجوار

فراش احد المرضى . كان هناك أستاذ كبير يشرح لمجموعة من الطلبة حالة هذا المريض وكيف يراها ، وكانوا جميعا يتناوبون على علاجه ثم سكت فجأة ووجه سؤالا ... ولكن أحدا لم يجب . فقد استعصت عليهم الاجابة ... ثم جاء صوت ناعم رقيق من بعيد يحمل اخيرا الاجابة الصحيحة .. وكان صوتها هي . وثار الطلبة .. كل الطلبة وكان عددهم يربو على الأربعين وطالبوا بمنع النساء من حضور المحاضرات في المستشفى ، يجب ان تذهب اليزابيث .. « إما نحن واما هي » .

دائما مع الغد

وصعقت الفتاة .. كانت تظن انهم زملاء واصدقاء ... ولم يكن في وسعها ان تفعل شيئا في وجه هذه المقاومة ... كذلك لم يكن في وسع مستشفى ميدل سكس ان يحتمل هذا الاضراب الجماعي عن مواصلة الدراسة ... وجرت مشاورات عاجلة ، وجاء الحكم في النهاية ، « لقد وجدت ادارة المستشفى انه من غير المناسب السماح للسيدات بحضور المحاضرات في المستقبل » .

كانت تخرج من معركة لتدخل معركة جديدة ، وحتى عندما كانت تشعر بالهزيمة لم يكن هذا الشعور يذهب معها الى فراشها وهي تغمض عينيها وتستسلم للنوم . فقد عودت نفسها على التخلص منه خلال ساعات النهار ... فلم تكن تنظر وراءها ابدا .. كانت دائما تستعد للغد وتعيش اللحظة التي هي فيها .

وخرجت تطرق ابواب الجامعات ... اوكسفورد وكامبريدج وأدنبره وجلاسجو والكلية الملكية للجراحين .. انها تبحث عن هيئة تقبل ان تجلس امامها وتمتحنها .. ولكن الابواب كلها بقيت موصدة في وجهها .. لقد كان أساتذة هارلي ستريت على حق : « ليس هناك لجنة تقبل جلوس امرأة وسط الممتحنين من الرجال » ... ولكنهم ايضا قالوا انها لن تحتمل منظر الدماء في غرفة العمليات .. واحتملت .

امل في الافق

ألا يمكن ان يكونوا قد اخطأوا مرة اخرى ؟ ربما ! ولاح لها امل بعيد في الافق .. ان جمعية الابوثيكارين APOTHECARIES تتمتع بحق امتحان الطلبة والترخيص لهم بمزاولة الطب ولكن ليس من حقها أن تمنحهم الشهادة التي يحصل عليها الطبيب عند تخرجه في الجامعة ؛ وعلى الطالب فيها ان يقضي خمس سنوات في التدريب ، ويستوعب ستة مقررات علمية من خلال المحاضرات ، ويقضي ستة اشهر في علاج المرضى في مختلف اجنحة احد المستشفيات العامة .. وخبا الامل او هكذا خيل لها عندما وجدت نفسها عاجزة عن أن تمر من جديد بهذا كله ، بعد الشوط الطويل الذي قطعته في اتجاه آخر .

ولكنها لم تلبث ان عادت اليهم وانتظمت في دراستها وانجزت كل ما طلب منها وانقضت السنوات الخمس ، وجاء موعد الامتحان .. وكانوا ثلاثة .. شابان وفتاة واحدة . ونجحت اليزابيث وأصبحت أول امرأة تمارس الطب في بريطانيا وجاء ترتيبها الاول بتفوق كبير على زميليها .

في الاحياء الفقيرة

ولكنها بقيت في الشارع ، فقد رفضت كل المستشفيات تعيينها ، لأنها لا تحمل شهادة علمية ، وان كانت تحمل ترخيصا بممارسة الطب ، وافتتحت عيادة صغيرة في شارع صغير لعلاج النساء والأطفال .. ثم انتقلت الى الأحياء الفقيرة شمالي ماريلبون وحول ليسون جروف ، وكانت تعالج مرضاها بالمجان وتصرف لهم الدواء مقابل بنس واحد لكل مريض ... وكانوا يأتون اليها ويقفون في طوابير طويلة تمتد حتى نهاية الشارع ، وهي دائما وسطهم تخفف عن آلامهم وتصف لهم العلاج حتى كان عام ١٨٦٦ عندما انتشر وباء الكوليرا في صيف هذا العام ، وسمعت لندن عن الفتاة الصغيرة التي تتنحر كل يوم وهي تحاول انقاذ عشرات المرضى بهذا المرض الخطير وكان يقف معها اثنتان من الطالبات تحت التمرين ... وجاءوا اليها يحملون المساعدات المالية التي ما لبثت ان انهالت على عيادتها الصغيرة .. وبفضل هذا العون المادي استطاعت اليزابيث ان تمضي في إتمام رسالتها حتى اذا تحقق القضاء على الكوليرا في النهاية ، كانت فكرة قبول المرأة للعمل في العيادات والمستوصفات قد لقيت قبولا من جانب الهيئات العلمية والطبية .

المستشفى « الجديد » !

وجاءوا يعرضون عليها وظيفة طبيبة زائرة في مستشفى جديد للأطفال ... وقبلت اليزابيث العرض وذهبت للقاء رئيس مجلس ادارة المستشفى وكان شابا

اسكتلنديا وسيما يدعي جيمس اندرسون ، لم يخف رأيه في فكرة اسناد مثل هذه الوظيفة المرهقة للمرأة فقد أعلنه حتى قبل مجيئها : « انه شيء مخالف لما القناه ويتعارض مع طبيعة المرأة . »

ولكنه ما لبث ان أحني رأسه تحية لها ، وهو يراها تمر أمامه بعد أن جلست امام اللجنة التي تولت مهمة اختبارها .. وعندما ردت عليه تحيته ، لم يجد الا أن يقول وفي كلمات قوية معبرة « سوف اكون لك صديقا وسندا يا سيدتي » .

وكان المستشفى « الجديد » مفاجأة لها ، فقد اكتشفت انه لم يكن اكثر من مخزن وورشة قديمة لصناعة السفن الشراعية وكان يزدحم بالمرضى الاطفال الصغار الذين كانوا يموتون بأعداد كبيرة حتى بلغت نسبة الوفيات بينهم اكثر من ٢٥٪ في عام واحد !

ووقفت اليزابيث تحارب بعنف القذارة والادارة الخربة والفوضى التي كانت تعم المستشفى « الجديد » في كل مرافقه ... كتب ناثانيال هكفورد ، الرجل الذي اخذ على عاتقه مهمة تأسيس المستشفى : « لولا اليزابيث لما استطعنا ان تستمر .. لقد كانت هذه الفتاة وراء كل عمل ناجح حققناه » . وفي حربها الطاحنة ، كان صديقها اندرسون يقف دائما بجانبها الى ان كان اليوم الذي قرأت فيه ان كلية الطب في جامعة السوربون في باريس قد فتحت ابوابها اخيرا في وجه المرأة واحست بأملها في الحصول على الشهادة العلمية يتحقق اخيرا .. فحزمت أمرها ، ورحلت الى باريس وكلمات صديقها تسبقها : « أتمنى لك التوفيق يا عزيزتي » .

ولكن الفرنسيين لم يكونوا متحمسين كثيرا للطلبة الأجانب الذين يريدون ان يفيدوا من فتح هذا الباب الذي بقي موصدا في وجه المرأة قرونا طويلة ، ودارت مناقشات على مستوى عال : « هل نسمح أو لا نسمح لهذه الفتاة الانجليزية بتأدية الامتحانات لنيل الشهادة في الطب ؟

أمام « القضاة »

ومن اجل ارضاء هيئة المتحنين ، مرت اليزابيث بستة اختبارات .. في قاعة السوربون الفخمة الضخمة ، وقفت الفتاة الصغيرة امام المائدة الطويلة التي جلس حولها ثلاثة من « القضاة » في ارديتهم الجامعية السوداء ... بينما ازدحمت قاعة الجمهور بالحاضرين والطلبة الذين جمعهم كلهم شعور واحد بالعطف والتأييد لهذه « المدموازيل » الانجليزية الصغيرة التي وقفت في جرأة وشجاعة تبحث لنفسها عن مكان صغير في عالمهم الواسع ... عالم الطب . ومضت الاسئلة تنهال عليها .. وكانت الاجابات تخرج من شفتيها هادئة رقيقة وسط تصفيق الحاضرين مع كل مرة يهز فيها « القضاة » رؤوسهم مؤيدين .

سؤال واحد وقفت امه حائرة لم تجب ، فقد استعصت عليها الاجابة ، وكان عن الطبيب المشهور الدكتور جريفز الذي يعيش في دبلن . ولم تكن اليزابيث قد سمعت عنه . وساد السكون القاعة الفسيحة .. لقد اشفقوا عليها ، وقال احد المتحنين في صوت يشوبه الاستنكار : « أوتجهلين مشاهير الاطباء يا سيدتي ؟! .

واجابت الفتاة في شجاعة وبلا تردد : « ولكن عالم الطب مليء بالرجال الكبار يا سيدي » . »

أول امرأة في السوربون

وابتسم القضاة وحصلت اليزابيث على الشهادة اخيرا بعد ان انتهت من قراءة أطروحتها عن الصداع النصفي .. وعندما فتحت ابواب القاعة الكبرى وقف الحاجب يعلن « لقد ادت « المدموازيل » اليزابيث جاريت الامتحان بنجاح واصبحت اول امرأة تحصل على شهادة في الطب في تاريخ جامعة السوربون » .

وعادت الى لندن ، وكان جيمس اندرسون صديقها القديم هناك في انتظارها .... قال : « اريد ان اهنئك اولا ثم اريد ان اعرض عليك الزواج .. هل تقبلينني زوجا لك » .

وتزوجا ... وعاشت اليزابيث مع زوجها ستاً وثلاثين سنة ، وكانت تقول : « غريب امر هذا الحب الذي جمع بين قلبينا .. انه لم يذبل أبدا للحظة واحدة طوال تلك الفترة ، حتى ونحن نعيش في خريف العمر » .

وأنجبت اليزابيث ثلاثة اطفال ، بنتين وولدا واحدا ، ماتت طفلتها الثانية في شهرها الخامس عشر ، اما الولد ، فقد اصبح فيما بعد رئيسا لمجلس ادارة المستشفى الذي أسسته أمه ... مستشفى اليزابيث جاريت اندرسون .. وحرصت على أن يكون كل العاملين فيه من النساء ...

وبقي المستشفى قلعة للمرأة سنوات طويلة قبل ان يفسح لها الرجل مكانا تجلس فيه بجانبه . ■■

منير نصيف

دفاع عن الغزل الجاهلي

بقلم : نجمة ادريس

اكثر الذين كتبوا عن الشعر الجاهلي ظلموا الغـزل فيه ..

ذلك ان تلك الكتابـات روجـت لأراء اخـذت كمسلمات تقبلها الكثيرون وآمنوا بها .. وتتلخص هذه الاراء في الآتي :

ـ ان الغزل الجاهلي يرد موجزا في بداية القصائد ، ثم ينتقل الشاعر الى موضوعات اخرى « اساسية » .

ـ ان الدافع للايجاز في الغزل يعـود الى صعوبـة الحياة واضطراب الشاعر وعدم استقراره النفسي .

ـ الطبيعـة لا توحـي ، لذلك يختـار الشاعـر « النسيب » وسيلة للتعبير في اول القصائد .

ـ انعدام الرقي الفكري ادى الى الغزل الحسي .

ولكن لو نظرنا الى هذه الأراء بعين جديدة واعية ، وحاولنا ان نستقصيهـا ونحللها ، لتكشفت لنـا أشياء جديدة جديرة بالانتباه والتوقف عندها .

لنأخذ في البداية الرأي الاول .. وهـو القائـل ان الغزل الجاهلي يرد « موجزا » في بداية القصائد ثم ينتقل الشاعر الى الموضوع الاساسي ..

حساب بالأرقام

ممـا لا شك فيه ان القصيدة الجـاهلية متعـددة الاغراض ، وان كان يربط بين هذه الاغراض خيط واحد او انها عمل فني متكامل ـ كما توصـل الى ذلك الدارسون للمعلقات ـ ولكن الملاحظ ان الشعراء كانـوا يستهلون معلقاتهم وقصائدهم بالغـزل والوقـوف على الاطلال ، وهذا واضح في المعلقات السبع ، وفيه دليل كبير على ان الاهتمام يوجه اول ما يوجه للغـزل .. بل الحرص على جعله في مطلع القصائد . وليس صحيحا ان الغزل والوقوف على الاطـلال يأخذ جزءا بسيطـا من المعلقة او القصيدة ، وانما الواضـح ان كمية ابيات النسيب وبكاء الاطـلال تعـادل في عددهـا ابيات اي غرض آخر من الاغراض التي يوردها الشاعـر في قصيدته ، بل احيانا تزيد في العدد . فمثلا نجد ان عدد ابيات معلقة امرىء القيس كلها واحد وثمانون بيتـا ، وعندما نقسم مواضيعها اقساما متفرقة فاننا نجد الاتي :

ثلاثة واربعون بيتا : غزل ووقوف على الاطلال .

ثمانية ابيات : شكوى ومعاناة من الهموم ووصف لتنقله وارتحاله في الفيافي والاودية .

عشرة ابيات : وصف لفرسه .

اربعة ابيات : وصف معركة الصيد التي اسفرت عن اصطياد ثور ونعجة .

اثنا عشر بيتا : وصف البرق والسحاب والمطر .

الا نجد من هذا الاستعراض ان ابيات الغـزل تشكل معظم القصيدة تقريبا ، وان الموضوعات الاخرى جاءت وكأنها اضافات سريعة .. كلمحات البرق !!

ومثال آخر معلقة زهير بن ابي سلمى ، اذ ان عدد أبياتها مجتمعة اثنان وستون بيتا ، ولو حاولنا تقسيم موضوعاتها فاننا نجدها كالآتي :

خمسة عشر بيتا : غزل وذكر الديار المقفرة .

عشرة ابيات : مدح هرم بن سنـان والحـارث بن عوف .

خمسة ابيات : وصف مكاره الحروب واضرارها .

ثلاثة عشر بيتا : ما فعله ورد بن حابس حين نقض الصلح بين عبس وذبيان بقتله حصين بن ضمضم مما ادى الى تفاقم الشر بين القبيلتين .

ثلاثة ابيات : السأم والتأفف من طول البقاء في هذه الدنيا .

ستة عشر بيتا : حكم وامثال .

ما نريد توضيحه في هذين المثالين هو ان النسيب عند الجاهليين لم يكن يقل اهمية عن اي موضوع آخر يطرقه الشاعر . لان عدد الابيات التي يخصصها للنسيب لا تقل عن اية ابيات في موضوع آخر ، بل ان للغزل دائما مركز الصدارة لان الشاعر يقدمه في الذكر . هناك دليلان اذا على اهمية النسيب عند الشعراء الجاهليين وهما :

اولا : ان الشاعر يحرص دائما على جعل الغزل وذكر المرأة في بداية قصائده ومطالعها ، وهذا يدل على ان الشاعر يعطي هذا الموضوع الافضلية والسبق .

ثانيا : ان الابيات التي يخصصها للنسيب لا تقل عددا عن الابيات التي يخصصها لاي غرض آخر .

اذن فالمرأة في حياة الشاعر لا تقل منزلة ولا اهمية عن اي موضوع آخر يشغله ويستحوذ على اهتمامه . (وهذا واضح في معلقتي امرىء القيس وزهير بن ابي سلمى) .

مصدر للتوازن النفسي

اذا التوصل الى هذه الحقيقة يلغي الرأي الثاني تماما ، وهو الرأي القائل ان الشاعر الجاهلي يوجز في الغزل لصعوبة الحياة واضطرابها وعدم الاستقرار النفسي . لاشك ان الحياة الصحراوية فيها الكثير من الصعوبة والمعاناة في التنقل والترحال ، وفي المناخ وطرق المعيشة ، اي انها حياة تسودها الخشونة والشظف ، وما دامت الحياة كذلك فلابد ان الشاعر حينئذ يحاول ان يبحث في نفسه عن دفقة من الشعور ترقق جوانحه وترطب ظمأه وتبعث في نفسه شعورا من الالف ، والحنان يقلل من خشونة تلك الحياة ويخفف من صعوبة المشاق التي يعانيها البدوي في صحرائه ، وما هو الشيء الذي يستطيع ان يولد في نفس الشاعر ذلك الحنان وتلك الرقة ويمسح عن قلبه غبار الشدائد !

ان هذا الشيء هو شعوره تجاه المرأة التي قد تحسسه بدفئها وعطفها فيتجه اليها ويجد في ذكرها تلك الواحة الظليلة التي تقيه قسوة الحياة وخشونة العيش . وهكذا نجد ان صعوبة الحياة لا تؤدي الى الاعراض عن الغزل وتجنبه بل على العكس قد تدفع الشاعر الى البحث عن مصدر آخر يخفف عنه تلك المشاق ، وهذا المصدر هو حبه للمرأة وتجسيد هذا الحب في صورة ذلك الغزل الرقيق . ففي الغزل اذا تعويض كبير عن خشونة الحياة آنذاك ، وقسوة العيش المليء بالثارات والحروب ، بل انه من الضروري ان يولي هذا الموضوع اهتماما خاصا لانه الجانب الذي يحقق له التوازن في مشاعره وحياته .

أما الرأي الثالث الذي يقول بأن الطبيعة لا توحي فهو رأي مردود . فالشاعر العربي عاش متنقلا في صحرائه الواسعة ورغم أنه قد يعاني احيانا من قسوة هذه الصحراء ، وشدتها الا انها كانت بالنسبة له الوطن العزيز الذي لا يريد له بديلا . لذلك فقد كان يجد في تلك الصحراء جمالا واي جمال ، ولهذا اكثر من وصفها باحسن الصفات .. وصف سماءها الصافية ونجومها المتلألئة .. وبرقها وسحابها ومطرها واعشابها وحيواناتها ، بل توقف عند كل صغيرة وكبيرة في هذه الصحراء مدققا في الوصف والاستقصاء ، وكان وصفه لها وصف المعجب المفتون . اذا الطبيعة كانت موحية له بشكل واضح وربما يكون اعجابه هذا نابعا من انه لم يتعرف على بيئات أخرى غير البيئة الصحراوية ، اذ كان البدوي ينتقل من مكان الى آخر داخل جزيرته دون ان يغادرها الى بيئات اخرى ـ الا ما ندر من الشعراء ـ .

اذا هو لم يتعرف على مناطق اخرى غير الصحراء فلم يكن امامه اي مجال للمقارنة بين هذه البيئة وغيرها ، فانصب اعجابه على الصحراء وحدها ، بل ان التحدث عن وجود الصحراء فقط يستوجب الاحتراز ، فمن قراءتنا للشعر الجاهلي يتضح ان الشعراء ذكروا انواعا من الحيوانات تثير الدهشة ..إنهم يصفون الحمار الوحشي والاسد والبقر الوحشي والثور وانواعا من الغزلان والوعول .. والتكوينات النباتية والاشجار .. مما يؤكد ان

البيئة الطبيعية آنذاك كانت تختلف اختلافا كليا عما نتصور ، وعما هي عليه الان . فالبيئة حول الشاعر اذا كانت غنية زاخرة وبديعة .. بل ومتنوعة .

الغزل والطبيعة

والملاحظة المهمة حقا هي ان الشاعر الجاهلي كان يخلط بين الغزل والطبيعة بشكل واضح ، بل يحاول المزج بينهما قدر امكانه ، واوضح مثال على ذلك ارتباط الغزل بذكر الديار المقفرة والاماكن الخالية التي غادرها الاحبة فيظل يسأل الاثار الباقية ويحاول استنطاقها مثل قول امريء القيس :

وان شفائي عبرة مهراقة
فهل عند رسم دارس من معول

وقوله

ترى بعر الارام في عرصاتها
وقيعانها كأنه حب فلفل

ففي هذا البيت نرى ربطا بديعا بين الحب والارض والحيوان .. وكأن هذه الاشياء اصبحت شيئا واحدا يتحرك في قلب الشاعر .

وقول زهير بن ابي سلمى :

امن ام اوفى دمنة لم تكلم
بحومانة الدراج فالمتثلم

وقوله :

بها العين والارام يمشين خلفة
واطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وعند زهير نجد ايضا ذلك الربط السابق فهو يمزج بين حبه لام اوفى وبين دارها المهجورة التي ترعى فيها الظباء والبقر واولادها .

وقول طرفة :

لخولة اطلال ببرقة ثهمد
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقوله :

خذول تراعي ربربا بخميلة
تناول اطراف البرير وترتدي



فعند طرفة الحب والطبيعة شيء متكامل .. انه مزيج من شعور واطلال وظبية .. وخميلة .. وثمار .. صورة متكاملة لا تتجزأ ..

وقول عنترة :

يا دار عبلة بالجواء تكلمي
وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

وقوله :

حييت من طلل تقادم عهده
اقوى واقفر بعد أم الهيثم

في الأبيات السابقة مجتمعة دليل كبير على ان الطبيعة كانت موحية للشاعر كل الايحاء لدرجة انه جعل مظاهر تلك الطبيعة بارضها وحيوانها ونباتها تذكره بحبيبته ، وتوقظ حنينه وشوقه وتجعله يحوم في عالم كلي لا تنفصل اجزاؤه .

بين الصفات الحسية والمعنوية

أما الرأي الرابع ، وهو الذي يناقش مسألة الجانب الحسي في الغزل الجاهلي ، فهو امر يؤخذ به ولكن بشيء من الحذر .. فالقول بالحسية المطلقة شيء مبالغ فيه .. بل يمكن القول بأن الغزل آنذاك كان يتذبذب بين السمو العاطفي والوصف الحسي بل قد ينحدر نحو الابتذال . ان شخصية الشاعر وطريقة معيشته ونوعها هي التي تحدد هذا الاتجاه . فقراءة معلقة امريء القيس مثلا تدلنا على انه انسان يعيش حياة لاهية في عبث ولا مبالاة ، وعلاقاته النسائية تنطوي على الخبث والمجون ، كحديثه عن يوم « دارة جلجل » وعن الحبلى والمرضع التي الهاها عن ذوي التمائم . وهو انسان هوائي متنقل لا يستقر على حال .. فكثرت علاقاته .. وكثرت محبوباته .. يقول :

كدأبك من ام الحويرث قبلها
وجارتها ام الرباب بمأسل

فهذه ام الحويرث الاولى .. وام الرباب الثانية ...

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة
فقالت لك الويلات انك مرجلي

وتلك عنيزة الثالثة ...

افاطم مهلا بعض هذا التدلل
وان كنت قد ازمعت صرمي فاجملي

وهذه فاطمة الرابعة . اما الباقيات فتحدث عنهن ولم يذكر اسماءهن . فمن المؤكد ان هذا النوع من العلاقات مع المرأة لا ينتج حبا ولا عاطفة .. ان هي الا نزوات عابرة لا يعلق منها الاحساس غير صورة حسية مهزوزة . ولو عاش امرؤ القيس هذا بصفاته هذه في اي عصر من العصور فلن يصدر عنه غيرْ هذا النوع من الغزل . والدليل اننا لا نجد هذا الابتذال لدى زهير مثلا ، بل ان له غزلا رزينا ساميا ، وهو امر ليس مستغربا على زهير .. فالمسألة اذا ليست مسألة عصر وانما هي مسألة شخصية واستعداد وتكوين نفسي .

ولكن الملاحظ ان التمثل بالصفات المحسوسة هي الغالبة على الشعر الجاهلي ، وهذا ما يتضح عند طرفة مثلا وعند النابغة ايضا في وصفه للمتجردة زوجة النعمان . ويقول النقاد ان السبب في ذلك هو البدائية وانعدام الرقي الفكري عند الشاعر الجاهلي !! ولكن هل وصف المرأة بصفاتها الحسية او صفاتها المعنوية يحتاج الى عقل ثاقب وفكر رفيع راق ؟

ان الشعر في اصله احساس وفطنة وليس فلسفة او نظريات علمية ، والعرب قالوا اروع شعرهم واعظمه قبل ان يعرفوا علما ويبنوا حضارة . وانما يمكن تفسير الاتجاه الى الوصف الحسي تفسيرا آخر ، وهو ان نوعية العلاقة بين الرجل والمرأة ونوعية الحياة حينذاك لم تكن تتيح للشاعر غير هذا النوع من الغزل ، فهو لا يرى المرأة الا لمحا ، انه يراها عندما تخرج من خيمتها او عندما تركب دابتها او عندما تطل من هودجها في لحظة وداع ... اذا ما هي الا لمحات خاطفة ونظرات قليلة سريعة لا يرى فيها الشاعر الا مظهرا خارجيا يشده فيصف المرأة كشيء مادي ظاهري كما رآها بعينه المجردة .

ان طبيعة الحياة البدوية وانشغال الرجل بالغزو والحروب اوجدت نوعا من الانفصال بين الطرفين ، فالرجل اذا لم يخالط المرأة في مجلس او يجتمع معها في عمل او يشاركها في اهتمام ما ، فكيف يتسنى له والحالة هذه ان يصف نفسها المعنوية وهو لم يعرف تلك النفس ولم يتلمس تلك الصفات الخفية عن قرب يتيح له فهمها وتشربها . اليس في هذا سبب قوي لاندفاع الشاعر الجاهلي نحو الغزل الحسي حتى اصبح هذا الاتجاه من اهم العناصر التي تميز بها ؟ ■■

الكويت ـ نجمة أدريس

الزواج ماله وما عليه

* الزواج تأمين ضد الطيش في سن الشباب ، والوحدة في عهد الرجولة . والمرض في أيام الشيخوخة .

اما اقساط هذا التأمين فهم الاطفال الذين نشقى في تربيتهم وتعليمهم .

بعدما ودعت عصرها الذهبى :



العمامة المملوكية

بقلم : جمال الغيطانى

« .. للعمامة مكانة في التاريخ ، بل مكانة هامة جدا ، ويبدو ذلك واضحا في العصر المملوكي ، فحجم العمامة ، ولونها ، وطريقة تفصيلها توضح المكانة ، والفئة والطبقة ، والمهنة ، والدين . ولاعجب ، في أن تحتل اعلى جزء في جسم الانسان ، الرأس ، وما يلحق ذلك من مهابة ، ومكانة ، وطلعة ، وللعمامة تاريخ ابعد بكثير من العصر المملوكي . كان سعيد بن العاص بن امية يتميز بين العرب القدامى بجمال عمامته ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعتم بعمامة كانت معروفة باسم السحاب ، وقد اورثها ، او تنازل عنها لعلي بن ابى طالب »

يقول رينهارت دوزى في « المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب » ان لهذه الكلمة (العمامة) مدلولين . الاول يشير الى العمامة بقفها وقضيضها ، اى الكلوتة وقطعة القماش المحيطة بها ، اما المدلول الثاني فيعالج قطعة القماش وحدها ، وهي التي تلف عدة لفات حول الطاقية « الكلوتة » . غير اننا هنا سنعالج العمامة في منظرها الكلى ، وفي عصر محدد هو العصر المملوكى ازهى عصور العمامة خاصة في فترات ازدهاره . اذ نلاحظ انه في فترات الرواج الاقتصادى كان ذلك ينعكس على العمامة من حيث المضمون والشكل ، العظمه والابهة ؛ وفي فترات القحط يتضاءل الحجم ، وتقل نوعية القماش ، ولان العمامة المملوكية مقسمة الى اقسام ، فلابد من معالجتها كذلك ، اذا من اين البداية ؟من اعلى المناصب ، من عمامة السلطان ذاته ..

العمامة السلطانية

لانستطيع ان نتخيل سلطانا مملوكيا بدون عمامة ، انهم يطلون علينا جميعا من ابار التاريخ البعيدة وفوق رؤوسهم عمائم متنوعة الاشكال والالوان ، لكن المهم ، اننا دائما في مواجهة عمامة سلطانية فخمة ، صغرت او كبرت ، ان العمامة باختصار هي شعار السلطنة الرسمي . واول شيء يرتديه السلطان عند تنصيبه ، عمامة سوداء ، واللون هنا هو شعار الولاء للخلافة العباسية ، وعندما ارسل الخليفة العباسي ملابس التتويج الى الظاهر بيبرس كان اهم قطعة فيها هي العمامة السوداء المنسوجة بخيوط الذهب ، ونلاحظ ان السلطان كان يرتدي في حفلات التتويج زي رجل دين ، وكان رجال الدين يرتدون اضخم العمائم حجما ولذلك حديث لاحق . وعندما يخرج السلطان في موكب كان يرتدي عمامة صغيرة ، اسمها « تخفيفة » ، ويهتم ابن اياس بوصف هذه التخفيفة التي اشتق اسمها من فعل « خف » ، وكانت التخفيفة من الملابس الخاصة بالسلطان ، او الامراء . وحدث ان قاضيا ارغم على حضور حفل ساهر عند احد الامراء ، ويذكر المؤرخون انه تجرد من ملابسه ، وهذا التجرد يعني انه خلع عمامته الكبيرة ، وارتدى تخفيفة ، عمامة صغيرة لا تليق بمكانته كرجل دين . غير ان التخفيفة السلطانية كانت تنقسم الى قسمين ، تخفيفة صغرى ، وتخفيفة كبيرة كان السلطان يرتديها في المناسبات فقط . اطلق عليها الناس اسم « الناعورة » ، ومن اوصاف ابن اياس لها نلاحظ تطابقها مع شكل الساقية السورية المعروفة بهذا الاسم ، حيث نجدها مسننة كتروس الالة ، وعندما يلبس السلطان التخفيفة الكبيرة فانها مناسبة كبرى ، يفرد لها ابن اياس سطورا عديدة . يقول صاحب بدائع الزهور ..

« وفي يوم الاثنين رابعه طلعت الامراء الى القلعه على العادة ، فخرج لهم السلطان من الدهيشة[1] وهو ماشي على اقدامه وقد لبس التخفيفة الكبيرة المسماة بالناعورة ، وهي الآن في مقام التاج لملوك مصر من حين تولوا بها الاتراك ، وكانت التيجان يلبسها ملوك الفرس من الاكاسرة ، فصارت التخفيفة الكبيرة التي بالقرون الطوال لسلاطين مصر هي التاج لهم ، كما كان التاج لملوك الفرس ، وقد جاء في بعض الاخبار ان العمائم تيجان العرب ، وكان السلطان له نحو من اربعة اشهر لم يلبس هذه التخفيفة الكبيرة ولا جلس على المصطبة التي بحكم عليها بالحوش ، فلما خرج تمشي وجلس على المصطبة قباسوا له الامراء الارض ، وهنوه بلبس التخفيفة الكبيرة .. »[2]

واعاد السلطان الغوري لبس تخفيفة صغيرة ، بل انه ظهر بها في احد المواكب ، في صفر من عام ٩٢٠هـ ، ويبدو انه كان هناك نوع مدور من التخافيف الصغيرة ، ويبدو الغوري باحداها عند عودته من الاسكندرية في الخامس عشر من شهر ذي الحجة عام ٩٢٠هـ (٣١ يناير ١٥١٧) ، ولم يكن ذلك يشير الاستياء في عصر الغوري ، بعكس ما كان عليه الامر قبل ذلك ، في سنة ٩٠٧هـ (١٥٠١ ميلادية) حضر السلطان محمد بن قايتباي صلاة الجمعه وهو يرتدي « تخفيفة صغيرة » فاثار استياء الامراء كلهم . وكان السلطان يلبس العمامة الكبيرة فقط ، ولا يسمح لاحد غيره بارتدائها ، وفي لحظة نادرة كان السلطان يشعر بالرضا على احد رجاله ، عندئذ يهديه عمامة كبيرة ، يقول ابن اياس :

« وفيه انعم السلطان على اركاس من طراباي الذي كان نائب الشام وحضر الى القاهرة يتقدمه الف ، وجعل له مرتبا على الاخيرة من غير اقطاع ، ورتب في كل شهر له الف دينار وفي كل سنة الف اردب قمح ، ورسم له بان يقف في المواكب فوق الامير طراباي راس نوبة النوب ، واحضر له تخفيفة من تخافيفة التي بالقرون الطوال فألبسها له ، وقلع من عليه سلاري وشق وألبسه له ، فحصل له في ذلك اليوم غاية الجبر من السلطان »[3]

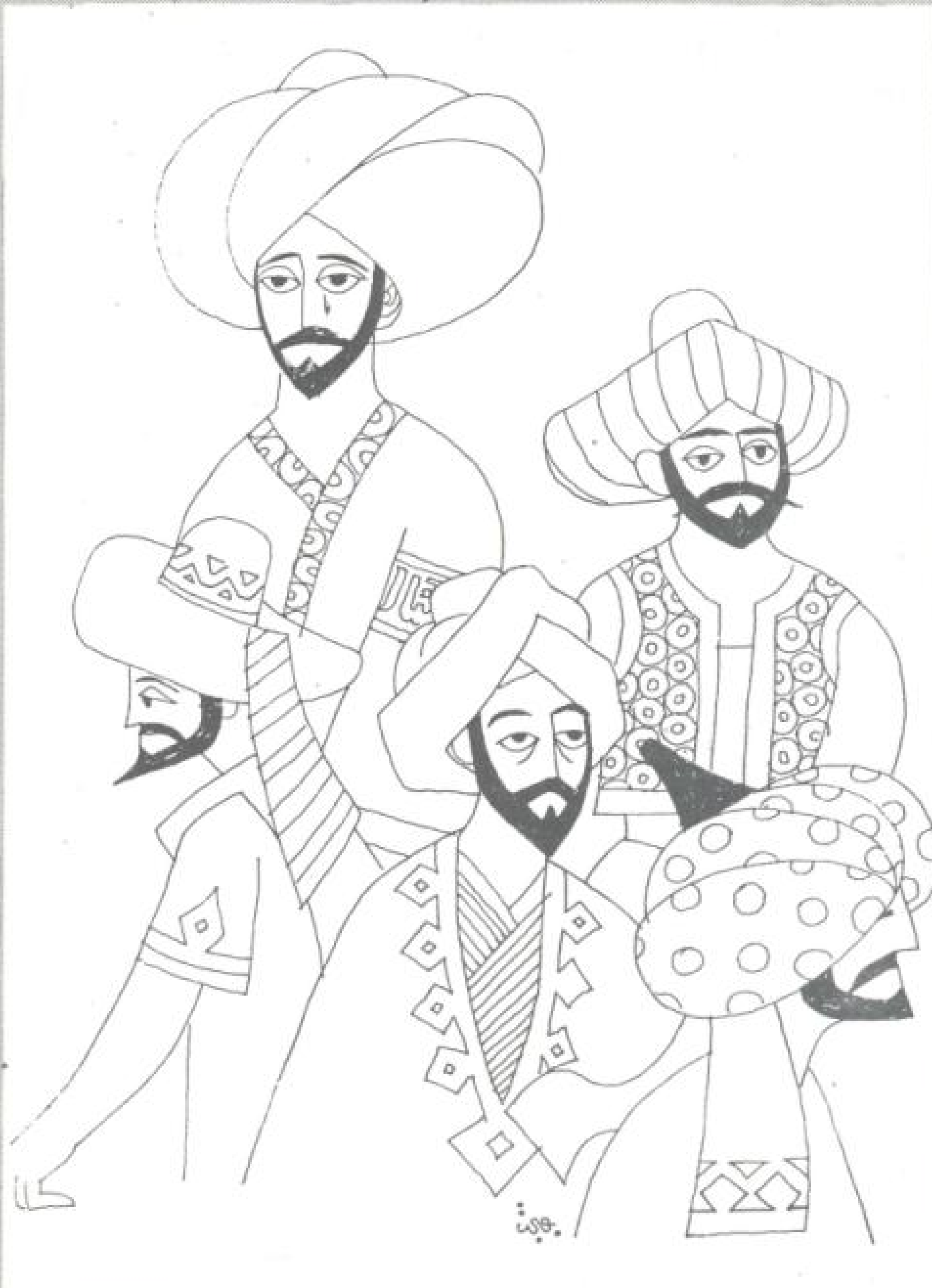
من ناحية اخرى كانت العمامة تتغير مع الفصول ، فعند بداية الصيف بين الحادي عشر والسادس والعشرين من مايو يرتدي السلطان عمامة بيضاء اللون ، ومع بداية فصل الشتاء بين السادس والتاسع والعشرين من شهر نوفمبر ، كان يرتدي العمامة السوداء . وهذه التواريخ تقارب نفس المواعيد التي يغير فيها جنود الشرطة والجيش أزياءهم الان ، وكان تغير السلطان لزيه

---

١ ـ احدى قاعات القلعة

٢ ـ ابن اياس الجزء الرابع ص ٣٢٢ طبعة محمد مصطفى وكاله ..

٣ ـ ابن اياس الجزء الرابع ص١٠٠ .



ولعمامته من الاحداث الهامة التي يسجلها المؤرخون . وهناك لوحة مشهورة تمثل السلطان الغوري وهو جالس في استقبال سفير البندقية ، وهذه اللوحة موجودة في متحف اللوفر الآن . ويبدو الغوري فيها مرتديا العمامة الضخمة « التاعورة » بقرونها الطوال ، وتعتبر اللوحة ارشيفا حيا للعمائم . كانت هناك عمامة اخرى تحتل مرتبة كبيرة في الاهمية ، وهي عمامة الخليفة العباسي ، ولونها اسود ، مدورة ولها طرف « عذبة » يتدلى خلف الظهر ، واسم هذا الجزء الرفوف ، وطوله نصف ذراع ، وعرضه ثلث ذراع .

تلك هي عمائم السلطنة والحكم والخلافة فماذا عن بقية العمائم ؟

الكلوتات والشرابيش

عمائم الامراء اقل حجما بالطبع ، لها اسم خاص ، مفرده « شربوش » ، وصفه المقريزي بانه يشبه « التاج » ، يبدو مثلث الشكل ، وهو يوضع فوق الرأس بدون أن يلف حوله قماش ، وعندما كان المملوك يرقى الى رتبة فارس ، كان يلبس العمامة من يدى السلطان ، ويبدون ان الشربوش كان منتشرا في العصر الايوبي ، وعصر المماليك البحرية وانه اصبح اقل انتشارا في عصر الجراكسة ، وكان هناك سوق باكمله اسمه سوق الشرابشيين . حيث تصنع اغطية الرأس الخاصة بالامراء ، ومكان هذا السوق اليوم منطقة الغورية في القاهرة . وقد استعارت احدى مدارس دمشق الاسم . يقول ابن بطوطة انه نزل بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية ، وكانت « الكلوتة » اخف من الشربوش ولكنها تعادله في الرتبة والقيمة ، اذ انها كانت غطاء راس الامراء ايضا ، ومع الزمن اصبحت رمزا للقادة والضباط الكبار ، وكان السلطان نفسه باعتباره قائدا على الجيش يرتدى « كلوتة » صفراء ، وكانت الكلوتة بسيطة المظهر تشبه الى حد كبير الطاقية في عصرنا ، ولكن السلطان خليل بن قلاوون اصدر اوامره الى رجال عهده بارتداء « الكلوتة » المطرزة .

يقول القلقشندى في صبح الاعشى (جـ٤ ص٤٠) « فاما ما به تغطية رؤوسهم فقد تقدم انهم كانوا في الدولة الايوبية يلبسون كلوتات صفر بغير عمائم ، وكانت لهم ذوائب شعر يرسلونها خلفهم ، فلما كانت الدولة الاشرفية « خليل بن قلاوون » رحمه الله ، غير لونها من الصفرة الى الحمرة وامر بالعمائم من فوقها . وبقيت كذلك حتى حج الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله في اواخر دولته فحلق راسه ، فحلق الجميع رؤوسهم ، واستمروا على الحلق الى الان ، وكانت عمامتهم صغيرة تزيد في قدرها » .

لقد اصبح للكلوتة شأن كبير بعد عهد السلطان خليل بن قلاوون ، وحدث في سنة ٧١٠هـ (١٣١٠ ميلادية) ان قبض على الامير جيراى نائب السلطنة بالشام ، فنزعت عمامته « الكلوتة » والقيت على الارض ، والبسوه عمامة صغيرة بدلا منها ، وكان هذا يعنى فقدانه لكل نفوذه . ثم تطور حجم « الكلوتة » وأصبحت ضخمة ، بها عدة انتفاخات ، ويبدو ان ثمنها كان مرتفعا ، او ان هواية جمعها وجدت عند البعض ، اذ يحدثنا المقريزى عن الوزير عبد الله بن زنبور الذى وجدوا في ثروته ستة الاف عمامة من طراز الكلوتة !

حدث تطور اخر في شكل « الكلوتة » خلال العصر الجركسي ، ولكنها استمرت بنفس الخطوط الخارجية حتى نهاية العصر المملوكي في « ١٥١٧ » على ايدى العثمانيين . ثمة عمامة اخرى كانت تخص العسكريين فقط واسمها « سراقوج » ويبدو ان اصله تترى ، وكان هناك نوع آخر من العمامات ، وهو « الطاقية » ، ولا تزال موجودة حتى اليوم في الاحياء الشعبية بمصر ، كانت في العصر المملوكي مدورة ومسطحة ، وارتفاعها يبلغ سدس ذراع تقريبا ، وفي عصر فرج بن برقوق ارتفت الطاقية ، عندئذ حدث تغيير بسيط في الجزء الاعلى منها فصنع على هيئة قبة صغيرة كثر فيها الحشو بمادة الورق ، وزين بفراء القندس ، ثم ضاقت الطاقية في سنة ١٤٨٦ عند القاعدة ، وصنعت من لونين مختلفين ، والطاقية بقيت الى يومنا هذا ولكن في شكلها البسيط الاولي .

وكان هناك نوع آخر من العمامة ، اسمه « زمط » ويعترف دوزى في المعجم بانه يجهل هذا اللباس . لكن ماير في كتابه « الملابس المملوكية »[4] يوضح انه غطاء للرأس ويبدو انه كان عمامة للفقراء لكن في فترة معينة صدر قرار بتحريم لبسه على الفلاحين ، ثم اصبح الزمط جزءا من الزى العسكرى الشركسي ، وعندما كان يصدر الامر بمعاقبة احد الامراء كان يوضع على راسه زمطا قديما .

٤ ـ الملابس المملوكية ل . ماير ترجمة صالح الشيتي القاهرة ١٩٧٢

رجال الدين

اضخم العمائم حجما كانت من نصيب رجال الدين ، وهي اهم جزء في ملابسهم ، كما انهم لايرتدون غيرها كغطاء للرأس ، ومازالوا حتى اليوم ، وقد اطلق عليهم « المتعممون » نظرا لأنه من المستحيل ان يظهروا بدون عمائم ، وكانت عمامات رجال الدين تستند الى الطبقة التي ينتمي اليها صاحبها في المركز الاجتماعي ، وفي القرن الرابع عشر كان من المألوف أن يرتدى رجال الدين عمائم كبيرة شاذة في حجمها ، وكان لبعضها ذوائب طويلة . وكان رجال الدين الفقراء يرتدون عمائم اقل حجما ، وكان خطيب الجمعه يرتدى عمامة سوداء يوضع فوقها طرطور اسود

وكان للأشراف ، اى سلالة النبي عليه الصلاة والسلام عمائم خاصة تميزهم عن غيرهم ، وقد بدأ هذا التمييز في عصر السلطان شعبان عندما امرهم بتثبيت قطع قماش خضراء في عمائمهم ، ثم تطور الامر عندما اصبحت العمامة كلها خضراء ، ومازال رجال الدين من الاشراف يرتدون العمامة الخضراء حتى اليوم ، خاصة في ريف مصر بينما آخرون منهم يرتدون عمامة سوداء . وحتى سنة سبعمائة لم يكن للعمامة علاقة بالاديان الثلاثة ، ولكن الوضع تغير بعد ان جاء الى مصر وزير مغربي فاجتمع بالملك الناصر محمد بن قلاوون ونائبه الامير سلار ، وتحدث معهم في امر اليهود والنصارى ، وهاله ما رآه من تمتعهم بالحقوق ، وقال انهم عندهم في غاية الذل والهوان ، فأثر كلامه عند اهل الدولة ، لاسيما الامير بيبرس الجاشنكير فامر ان تغير عمائم النصارى واليهود ، فيلبس النصارى العمائم الزرق ، واليهود العمائم الصفر (القلقشندى ـ صبح الاعشى . جـ١٣ ص٣٧٨) ولم يستمر هذا الوضع كثيرا فيما يبدو لان السلطان الصالح صالح ابن الملك الناصر امر في سنة ٧٥٥ بمنع اليهود والنصارى من عدة امور والزمهم بارتداء العمائم الزرقاء والصفراء ويبدو ان العمائم التي كان يرتديها افراد الشعب كانت تستخدم لغرض آخر وهو استعمالها كمكان لحفظ النقود . وهذا مستمر حتى الان في الريف ، عندما تفاجأ باحد الفلاحين وقد مد يده الى عمامته واخرج من طياتها ورقة نقدية ، ولهذا السبب كثر خطف العمائم في الطرقات اثناء الاضطرابات التى كان يتسبب فيها المماليك ، اذ انهم كانوا يخطفون اكياس نقود ، وليس مجرد عمائم ..



النساء والعمائم

في شهر محرم سنة ٦٦٢ هجرية ، صدر مرسوم يحرم على النساء ارتداء العمامة ، ومن الواضح ان ارتداء النساء للعمائم كان مثار جدل بين الفقهاء ورجال الدين ، ولكن العمامة لم تكن زيا شائعا للنساء ، انما كن يرتدين قماشا يطلق عليها اسم « العصابة » وهو اسم مازال يطلق حتى الآن على الطرح والمناديل الحريرية في الاحياء الشعبية المصرية ، الا ان عصب النساء في العصر المملوكي كانت تحلى بالجواهر ، والزخارف الفنية ، وخلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر حل « الطرطور » محل العمائم . وفي رجب سنة ٨٧٦هـ ، اصدر السلطان قايتباى امرا يوجب على كل امرأة ان تمتنع عن ارتداء « عصابة قفزعة » او « سراقوس » من الحرير ، وصدرت الاوامر لرجال المحتسب بان يضربوا اى امرأة ترى في الاسواق مرتدية هذه العصب ، وسرى الخوف الى النساء فصرن يخرجن حاسرات الرءوس ، وداخل منازلهن كن يرتدين غطاء الرأس المحرم .

لقد ولى العصر الذهبي للعمامة مع انتهاء العصر المملوكي عام ٩٢٢هـ ـ ١٥١٧م ، مع الغزو العثماني ، وعندما جاء ادواردلين في بداية القرن التاسع عشر لم يكن يبقى الكثير من طبقات العمائم وانواعها ، انه يصف لنا غطاء للرأس يكاد يكون هو الموجود حاليا والذى يرتديه رجال الدين المسلمين ، قلنسوة قطنية صغيرة مطابقة للرأس ، ثم طربوش احمر من الجوخ ، ويلف بقطعة طويلة من الحرير ، اندثرت العمامة الزاهية اذا ، التاعورة ، والكلوتة ، والشربوش ، واصبح لفظ العمامة يعبر الان احيانا عن السخرية ، خاصة عندما يقول الناس « اصله لبس العمة » اى خدع ، لانه مغفل ، اصبحت العمامة توحي بالغفلة والبله ، بعد ان كانت رمزا للسلطان والغضب ، والجاه ، وللطبقة الاجتماعية ، ولديانته ، وسبحان مغير الاحوال ! ■■

جمال الغيطاني

كل الصفات المشتقة المؤنثة تلحقها تاء التأنيث

في صفحة سابقة (العربي/العدد٢٦) تحدثنا عن ظاهرة التأنيث في لغتنا ، وتغلغلها في كلماتها : أسماء وصفات وأفعالا حتى الضمائر (شخصية واشارية وموصولة) بل بعض الحروف ايضا . ومع ذلك نجد جلة علمائنا يتوقفون عند بعض الصفات المشتقة المؤنثة فيمنعون ان تلحقها تاء التأنيث ، أو يجيزون لحاقها بها مع تفضيلهم حذفها ، واقفين في ذلك عند حد السماع حيث لا يلزم السماع شيئا ، متغاضين عن القياس والذوق اللغوي والادبي ، بل متغاضين عن الوظيفة الكبرى للغات وهي البيان والتمييز بين المعاني ، وتوسعة مضايق الكلام ، كأنهم في تمسكهم بالسماع قد أحاطوا علما بكل ما تكلمت به العرب ، ولم يدع احد هذه الدعوى ، وكأنما القواعد او الضوابط اللغوية لم توضع لتفسير الظواهر اللغوية اسهل التفسيرات وأشملها لكي يقاس عليها بعد ذلك فيلحق الجديد بالقديم كما لو كان منه ، دون تعسف في تأويلات وهمية لاسند لها من عقل ولا خبرة بذوق اللغة . وكأنما كثرة الاستثناءات في اي لغة لا تربك الفكر ولا تثقل الحافظة بالتفصيلات الاستثنائية .

هم يرون ان هذه الصفات المشتقة المؤنثة قسمان : قسم لا تلحقه التاء مطلقا ، وقسم يجوز ان تلحقه التاء، والافضل حذفها منه ، لان هذه الصفات عندهم مما يستوي فيه المذكر والمؤنث .

اما القسم الاول فاشهر أوزانه اربعة

١) فعول (بمعنى فاعل مع المبالغة شدة او كثرة) ، مثل : اكول ، وشروب ، وصبور ، فيقال جمل او ناقة اكول وشروب وصبور ، فاذا صادفوا ما يخالف هذا ، مثل « عدوة » قالوا ان هذا مقصور على السماع ، أو انها تشبه صديقة ، او مثل : امرأة ملولة وفروقة (خوافة) قالوا : ان التاء للمبالغة لان العرب تقول رجل ملولة وفروقة .

واما اذا كان « فعول » بمعنى مفعول فانهم يجيزون تأنيثه بالتاء فيقولون : ناقة ركوبة وحلوبة ، بل يجيزون التأنيث في وصف المذكر ، فيقال : الجمل ركوبتنا ، وحمولتنا .

٢) مفعال : (بمعنى فاعل مع المبالغة ايضا) مثل امرأة مفراح ، ومهذار ، ومكسال ، ومطراب ، كما يصفون المذكر .

٣) مفعيل (بالمعنى نفسه) فيقال مثلا : رجل او امرأة منطيق (بليغ او بليغة) ومعطير (كثير التعطر او كثيرته) فاذا وجدوا كلمة تخالف قاعدتهم مثل « مسكينة » قالوا : انها شاذة ، وتعللوا بأنها مثل : فقيرة .

٤) مفعل : فيقال مثلا : رجل او امرأة مغشم (جريء او جريئة) ، مهذر (كثير الهذر أو كثيرته)

والقسم الثاني نوعان من الصفات المشتقة المؤنثة ، يجيزون فيها الحاق التاء ، ويفضلون حذفها فيها

١) ما كان على وزن فعيل (بمعنى مفعول) حين يقترن بموصوفه : ظبية قتيل وجريح ، لدلالة الموصوف على تأنيث الصفة ، فلا لبس ، واذا كانت « فعيلة » بمعنى « فاعل » فان الحاق التاء بها مطرد ، فيقال : « امرأة خفيفة ، وظريفة وأليفة » ، ويوجبون الحاق التاء اذا استعملت الصفة كالاسم المجرد ، مثل : ذبيحة ، ونطيحة ، وسبية .

٢) الصفات المشتقة التي تدل على معنى خاص بالانثى ، مثل : « حائض ، طامث ، مرضع » وهم يفضلون هنا حذف التاء .

من هذا العرض نرى انهم قد استعصى عليهم وضع

بقلم : محمد خليفة التونسي

قاعدة شاملة سهلة لهذه الصفات واتخذوا قاعدة قاصرة ، فلما خرجت عنها بعض الصفات عدوها شاذة ولجئوا الى التعلات الوهمية . الا نستطيع ان نضع قاعدة أيسر وأشمل !

إن علينا ان نحاول معتمدين على اصل لغوى عقلي اثبت ، دون الاعتماد على احصاء الامثلة وحده ، ولكن لابد أن نستأنس به .

يفترض علماؤنا في هذا الموضوع ان المذكر هو الاصل ، وأن المؤنث فرع له ، ويعللون بذلك بقاء صفات المذكر كما هي عند وصف المؤنث ، ولا سند لهذا الرأى ، ومهما يكن فليست له قيمة عملية في اللغة ، وحسبنا ان ظاهرة التأنيث وجدت في اللغة ، وانتشرت في الاسماء والصفات بل الضمائر وغيرها كما اشرنا هنا قبل ، وعمل اللغة مجاراة العقل في تمييز المؤنث من المذكر ، والدلالة على هذا الفارق لتجنب اللبس ، فينبغي ان يكون لكل مؤنث ما يميزه عند خوف اللبس ، والافضل ان يكون للمؤنث ما يلائمه ولو عند امن اللبس لكي تطرد الظاهرة أو القاعدة[1] واطرادها افضل لتحقق انسيابه في مجراه مع القاعدة .

كل صفة من هذا النوع تجرى مع فعلها ، والفعل يؤنث مع المؤنث ، فكذلك ينبغي ان تكون الصفة المؤنثة ، فتكون لها علامة التأنيث كالفعل .

اسهل حروف التأنيث واشيعها استعمالا في الاسماء والصفات هي تاء التأنيث ، لانها تضم الى المفرد المذكر بلا تغيير فيه ، فتدل على التأنيث .

لهذا نقول .

الصفات المشتقة المؤنثة على اختلاف أوزانها ودلالتها على الفاعل او المفعول تلحقها التاء لتمييز المؤنث من المذكر ، لأن هذا شائع في اللغة وهو ما يوافق العقل .

هناك صفات من هذا النوع سمع عن العرب استعمالها للمؤنث كأنه مذكر ، ولابد من قبولها على ما هي عليه ، وان خالفت القياس السابق ، لانها سماعية ، واشهر هذه الصفات الانواع الاربعة الاولى السابقة هنا ، وهي ما كان على وزن « فعول » و « مفعال » ، او « مفعيل » ، او « مفعل » ، اذا كان بمعنى فاعل مع المبالغة ، واذا لحقته التاء وجب قبوله لجريانه على القياس واما الصفات التي وردت فيها التاء من ذلك سماعا مثل عدوة ، وميقانة ، ومسكينة ، فهي مقبولة سماعا وقياسا [2]

اذا استعملت اى صفة من هذه الصفات استعمال الاسم لزمتها التاء مثل : نطيحة ، نتيجة ، أكيلة ، ذبيحة ، سبية ، جريدة ، كتيبة ، كريهة ، عصيدة ، هريسة ، حريرة ، سرية .

كلمة « فروقة » ، و « ملولة » ونحوهما للمذكر والمؤنث ، يدل وزنها على المبالغة (ككل ما هو على وزن فعول) ولكن التاء في المؤنث تدل على التأنيث وتأكيد المبالغة مع التأنيث ، وتدل في المذكر على مجرد توكيد المبالغة كما في رجل نسابة وعلامة . فالتاء في كل صفة لمؤنث تدل على التأنيث وان دلت على شيء معه .

دلالة الصفة المشتقة على شيء خاص بالمؤنث لا تمنع زيادة التاء فيها اذا لاحظنا انها تجرى مع الفعل (اى تدل على حدث طارىء) ، او لاحظنا انها تدل على طبيعة خاصة بالانثى مثل مرضعة .

الخلاصة

كل صفة مشتقة دالة على مؤنث تلحقها التاء وجوبا ولكن تلحقها جوازا إذا كانت مما يستوى فيه المذكر والمؤنث ولا توجد صفة من هذا النوع يمتنع لحاق التاء بها ولو وردت بغير تاء .

(١) للشعر ضروراته ، فينبغى ان تراعي على شرط أمن اللبس .

(٢) اليس هذا أولى من ان نستثنى من القاعدة العامة كل الصفات التي يستوى فيها المؤنث والمذكر ثم نستثنى من هذا الاستثناء هذه الكلمات الثلاث وما سمع نحوها ، فنقول : إنها شاذة اى انها شذوذ عن شذوذ ، ثم نتمحل لها تعلة وهمية هي شبهها بكلمة كذا ، او حملها على كلمة كذا ، مع انها جاءت مطردة مع الاصل الاعم او العام ، وهو تمييز المؤنث من المذكر بعلامته ، وهي التاء .

نبات الكرابيت او الدهنيه





نبات القربه او الحويصلة

نبات الندية

نباتات تتغذى على اللحوم!

بقلم الدكتور صلاح بركات

استاذ مساعد بكلية العلوم ـ مراكش ـ المغرب



تناقلتها الاساطير وحكى عنها المسافرون .. ثم جاء العلم الحديث لينقل لنا الكثير عن حقائقها .. انها موجودة ، فهي لم تعد اذن اسطورة « نباتات تتغذى على الحشرات والديدان .. ونباتات تتغذى على الطيور .. بعضها يجد الغذاء على سطح الارض ... وبعضها يغوص بفخاخه تحت الماء .. ولكنها كلها تعيش في الاراضي الفقيرة حيث ينعدم الغذاء الطبيعي والتربة العضوية .

في العشرين من أيار مايو سنه ١٨٧٨ أرسل كارل ليشي تقريرا من مدغشقر الى زميله الدكتور فريد لوسكى الذي كان يطلع على الوثائق العلميه قبل طباعتها في الجريدة العلميه كارلسرو Karlsruhe يصف فيه احتفالا عند أقوام المكودوسي يضحى فيه بأضحيه بشريه للأشجار الآكلة للحوم ، وهذه ليست المرة الاولى التي يشار بها الى وجود هذا النوع من الاشجار اللاحمة Cannibalisme ، بل كانت موجودة في قصص وحكايات المسافرين ، من عدة قرون خلت ، اضافه الى الروايات الشعبيه التي كانت تثير هذه الصورة ، من خلال وصف رعب الضحيه المقدمه لهذه الاشجار ، ومما ساعد في دعم هذه القصص والاساطير انذاك لهذه الاشجار ، نقصان المعلومات الصحيحه والدراسات حول هذه الظاهرة النباتيه الغريبه .

ولكن العلم الحديث اليوم قد بين كثيرا من الحقائق حول هذه النباتات ، فأطوالها تقاس بالسنتيمتر بل وحتى بالمليمتر ، كما في حاله الفطريات الدقيقه « كجنس » ومنه النوع « اليجوسبورا » المعروف في تغذيته على صيد الديدان الارضيه الدقيقه الخيطيه الشكل بمااتود بواسطه شبكتة اللزجه ، وطريقة الصيد عند هذا الفطر عبارة عن حلقة مؤلفة من ثلاث خلايا ، فحين مرور الدودة داخل هذه الحلقة وملامستها لها ، فإن هذه الخلايا تنتفخ بشكل كبير وسريع محاصرة الفريسه خلالها بحيث لا تدع لها مجالا للهرب . وسرعان ما تنقض على جسم الفريسه شعيرات من جسم الفطر ، تحلل جسم الفريسه بواسطه عصاراتها الهاضمة وبعد عملية الهضم تبدأ هذه الشعيرات بعمليات الامتصاص لجسم الدودة المتحلل . وقد استفاد الانسان من هذه الفطريات لمكافحه الديدان الارضيه الخيطيه الصغيره في الاراضي الملوثة بها والتي تسبب تلف المزروعات .

ست عائلات !

يطلق اسم « النباتات اللاحمه » على تلك النباتات التي تبدى أشكالا خاصه قادرة على صيد الفرائس الحيه ، ويصل عدد انواع هذه النباتات الى ٤٥٠ نوعا تتبع ست عائلات نباتيه مختلفه ، ووجود هذه النباتات لا يقتصر على المناطق الاستوائيه فحسب ، بل يتعداها الى المناطق الشمالية من الكرة الأرضيه متواجدة على التربه العضويه غير المتحللة . هذه النباتات ليست متطورة جدا في طريقه صيد الفرائس ، وكما أن بعضها ليست تماما نباتات لاحمه ، وانما تكون مسؤوله عن احداث الموت لعدد كبير من الحشرات كما في حاله نبات شوك الدرّاج .

ويمكن تقسيم فخاخ هذه النباتات الى قسمين حسب حركة وسكون الفخ :

الفخاخ الثابتة :

وهي الفخاخ التي تصطاد الحشرات بدون تدخل فعال من قبل النبات أي أن النبات لا يقوم بفعل حركي لصيد الفرائس ، وهناك عدة انواع من الفخاخ الثابتة :

الفخ الكاذب : والفخ هنا عبارة عن تجويف يتجمع فيه ماء المطر ، فتغرق فيه الحشرات كما في حالـه فخ نبات شوك الدراج .

الفخ ذو شكل الوعاء الجرابي : ويأخذ هذا الفخ شكل الانبوب ، أو البوق ، فتحته متجهة الى اعلى ، ومغلقه بشكل نصفي بغطاء مائل يقي الفخ من دخول مياه الامطار الى داخل الفخ كما في حالة نبات السلوى التابع للجنس ونبات البوقية التابع للجنس .

الفخاخ المتحركة : وهذه الفخاخ تتحرك عند صيد الفريسه فتنغلق تماما عليها كما في حالة الفخ المسمى فخ الذئب أو الفخ القلاب ، الموجودة عند النبات المسمى آكل الهوام .

مهمة الصيد

وهناك أنواع اخرى كثيره من الفخاخ ، كاستعمال الشبكه عند « القريبه » Utricularia وطريقه تصميغ الذباب أو فخاخ الدبق كما في نبات النديه ، والنبته

الاوربيه المسماة الكراسيت أو الدهنيه ، بسبب ملمسها (صورة رقم ١) تستخدم أيضا فخاخ الدبق لصيد فرائسها ، والوان أزهارها مختلفة ما بين الأبيض والازرق والبنفسجي ، واوراق هذه النبته ، هي التي تقوم بمهمه الصيد ، عن طريق تقديم سائل لزج القوام وزيتي ، ناتج عن افرازات الغدد الكثيرة ٢٥٠٠ سنتيمتر مربع الموجودة على سطح الورقه ، اضافة الى أن هذا السائل جاذب للحشرات ، فان سطح الورقه البراق المزخرف يجعلها ذات جاذبيه لا تقاوم بالنسبه للحشرات ، فما أن تهبط الحشرة على الورقه حتى تجد نفسها ملتصقه بالطبقه اللزجه ، وبينما تحاول الحشرة التخلص والفرار ، تجد أن حواف هذه الورقه بدأت تلتف ببطء حول الحشرة ، وبعد اتمام عمليه اللف هذه يزداد نشاط الغدد المفرزة للعصارات الهاضمه ، وخلال يومين أو ثلاثة تهضم الفريسه كليا ، ومما يزيد في فعاليه صيد الاوراق للحشرات قرب مستوى الأول من سطح الأرض .

فاذا كانت أوراق نباتات الكراسيت لا تتميز عن أوراق النباتات العاديه الا القليل ، فان نباتات البوقيه الامريكيه « صورة ٢ » ونبات السلوى الاسيوي ، تتصافان بسلسله من الاوراق المرتبه الرقيقه ، تأخذ شكل الاوعيه الجرابيه المحكمه السد ، مكونه بذلك فخا ، بشكل بئر أو بوق ، مفتوح في قسم من جزئه العلوي ، الذي يكون مغطى بسدادة ثابته نصف متقلبه ، والوعاء الجرابي لنبات البوقيه يكون أضيق وأطول من نبات السلوى ، الذي يكون بشكل مستدير بعض الشيء ، وعلى الجدار الداخلي لهذا الفخ يوجد عدد من الغدد الرحيقيه ، افرازاتها كافيه لجذب الحشرات الى داخله فحين دخول الحشرة الى الفخ ، تزداد العوائق والموانع ، لتمنع الحيوان من الخروج ، فالجدار الداخلي للفخ يصبح أملس تاعما ، بحيث لا تستطيع الحشرة الوقوف عليه ، بل يجعلها تتزحلق ، كما تظهر فيه الزغابات الصلبه ، والمتجهة نحو الاسفل ، أي باتجاه قعر الفخ ، مما يزيد في صعوبه خروج الحشرة .

مقاومه وحرب

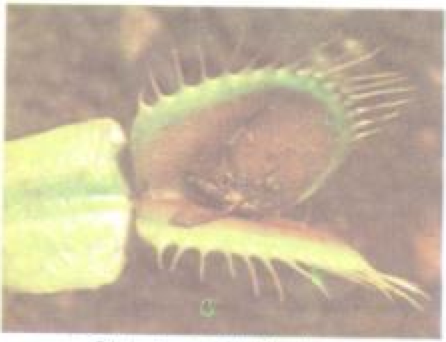
وتنتهي مقاومه الحشرة بأن تغرق في نهايه الفخ ، لكن ليس في ماء ساكن عادي ، لان الغطاء المائل الذي يغطي الفخ ، يمنع سقوط الماء الى الداخل ، وانما تغرق في سائل اخر رهيب ، عبارة عن سائل مركز من العصارات الهضميه ، عاليه الاذابه ، وهناك حجوم مختلفه من هذه الفخاخ ، أكبرها يمكن أن يحتوي على اربعة ليترات من هذا المزيج الخطر ، لذلك يمكن لهذه النباتات أن تصطاد وتتغذى على العصافير ، بل وحتى على الحيوانات اللبونه ، كالفئران والجرزان ... لكن هناك نوعا من الزنابير البريه ، لا يخشى من مهاجمه هذه النباتات ، وتخريب هذه الفخاخ ، عن طريق احداث ثقوب لاخراج هذه السوائل ، وعندما تصبح نظيفه من تلك ، تبني هذه الحشرة عشها داخل هذا الملجأ الامين !! . وهناك نوع البعوض من جنس Wyeomyia لايخشى هذه النباتات رغم سطوتها ، فهي تهبط بشكل عمودي ، كالطائرة العموديه ، حتى سطح السائل لتضع بيوضها ، ومن ثم تعود لتجد طريقها بدون أيه متاعب تذكر ، وهذه الحشرة تملك مضادات انزيميه ، تقوم بحمايتها من العصارات الهضمية ، أما بيوضها فتعطي يرقات تنمو وتتطور بسرعة ، بفضل تغذيتها على الحشرات المصطادة والمتحلله بواسطة هذا النبات .

أما نبتة القريبه ـ تصغير لكلمة قربه ـ صورة ٣ فتتواجد على الأوساط المائيه كمستنقعات سويسرة ، وبلجيكا ، وفرنسا ، أزهارها متجمعه ، ومتجه نحو الاعلى ، جميلة المظهر ، صفراء اللون وتحت هذا المظهر الرائع تختفي آلة جديدة ، ومختلفة للصيد ، وعملية الصيد للحيوانات هذه ، تحدث تحت سطح الماء ، حيث تنتشر الاوراق الليفيه للنبات ، والمجهزة بعشرات الالاف من القرب الصغيرة والحويصلات الصغيرة جدا ، والتي كانت تعتبر لفترة طويلة كعوامات بسيطة ، تكون فتحة كل حويصل .. مقفوله بواسطة مصراع ومحاطة بشعيرات طويلة ، فحينما تلمس هذه باحدى الحيوانات القشريه الصغيرة ، فان هذه الحويصلات تقوم بعملية امتصاص سريع للماء ، يتم خلال ١٫٣٥ من الثانية فيدخل الحيوان مع هذا الماء الممتص ، ويصبح سجين الفخ ، وبعد عشرين دقيقة تكون عملية الهضم قد انتهت ، وبفضل هذه القربيات والحويصلات الامتصاصية الآلية ، فان النبات يؤمن حاجته من المواد الغذائيه بدون صعوبات .

فخ على الاوراق

اما نبات الندية Drosera (صورة ٤) فطريقة حياته تقترب من الاساطير فهي ذات حجم صغير ، غير ملفت للنظر ، تتواجد على التربة العضوية الغير متحلله ، تصطاد الحشرات بواسطة مادة لزجة تعلق بها ، أما لقبها ندى الشمس Rosee du soleil ، فلا يفيد في معرفة حقيقتها المدهشة ، لكنه يجعلنا نتساءل أولا عن

طبيعة وسر هذا الندى الغريب ، او الطل النادر ، المتواجد على النباتات طوال اليوم ، بدون أن يتأثر بشمس الظهيرة ، وثانيا عن الشعيرات الوبريه المغطاة للاوراق الدائرية الشكل ، وأول من أجرى دراسه متعمقة حول نبته الندية هذه ، هو العالم داروين فقد لاحظ في البدايه ، أن الحشرات تنجذب لهذا النبات بواسطة الندى ، المؤلف من القطيرات العديده المتواجدة على أوراقه ، وعلى شعيراته الوبريه ، هذه القطيرات المائية تلعب بأشعة الشمس ، فتزيد من بريقها ، وتوهجها ، وربما يوحي ذلك للحشرة ، بوجود الماء ، فتنجذب لاطفاء ظمئها ، ولكن ما أن تلمس هذه



صوره نبات اكل الهوام نرى فيها الفكين وقد تخليا عن هيكل الحشرة الغير قابل للهضم .

نبات البوقيه .. وقد وقعت نحله في اسره .





جزءا الفخ وقد امسكا بحشرة .



الحشرة أصبحت الآن تماما سجينة الفخ



بداية عمليات
الهضم للحشرة .

الشعيرات ، حتى تجد نفسها ، قد التصقت بها ، نتيجة وجود مواد دبقة مفرزة من قبل غدد موجودة على هذه الشعيرات .

هذا الندى المسمى بماء النار ، ما هو الا عباره عن طعم لجذب الحشرات واصطيادها ، ولايقف الامر عند هذا الحد ، بل نجد أن الشعيرات القريبه من منطقة سقوط الحشرة ، تميل على الحشرة للاحاطة بها من كل جانب ، وهذه الشعيرات فعالية اكثر من الاوراق ، فهي عبارة عن لوامس حقيقية ، تعمل على تقييد الحشرة بشكل متين ، ونصول (جمع نصل وهو الحامل) هذه اللوامس تنطوي حول نفسها ، مفرزة عصارات هضميه ، تحلل وتهضم الفريسه .

قام العالم داروين باجراء بعض التجارب على هذه النبته ، فأخذ جزءا من شعرة وزنه ٨ من الف من الجرام ، فوجد أنه كان كافيا لاطلاق حركة الشعيرات ، وعمل اللوامس ، وهذه الحركة لاتميز بين طبيعة المواد ، فسقوط حبة رمل ، أو قطعة زجاج على الشعيرات مثلا ، يحرض على فعل الانحناء السريع لها ، لكنه متبوع بعودتها السريعه الى الوضع الاصلي ايضا ، بينما سقوط مواد ازوتيه مثل الحليب والالبومين واللحم ، يحدث امالة مستمرة ودائمة للشعيرات ، ومتبعة بافرازات الانزيمات الهضميه ، أي أن عمل هذه الشعيرات يكون على هدى ، فلا يمكننا خدع النبات بفرائس اصطناعيه مزيفه ، وهذه الفعالية الكبيره للنبات تمكنه من اصطياد ما لايقل عن الفي حشرة خلال الصيف .

لاسبيل للنجاة

اما نبات أكل الهوام ومصيدة الذباب صوره « ٥ » فذات حجم متوسط تنمو في مستنقعات كارولينا في امريكا الشمالية ، أوراقها بشكل وريده (تصغير لكلمه ورده) ، ومنتهيه بعضو غريب الشكل ، والذي يشبه فخ الذباب ولكن بحجم صغير ، ويتألف من فكين جوانبها ، محاطة بأوبار صلبة ، ومثناة نحو الداخل ، وعلى السطحين الداخليين من التركيب ، يوجد على كل واحد منها ثلاث شعيرات طويلة ، اضافة لذلك يحتوى كل سطح على غدد ، تفرز مواد سكرية تجذب الحشرات اليها ، فيا أن تمس الحشرة المتعطشة لهذا الرحيق للشعيرات ، فإن الفخ ينغلق بعنف شديد وسريع ، ومرحلة الانغلاق هذه لا تتجاوز ٠١. والى ٠٢. ومن الثانيه ، بحيث لا تترك للفريسة أية فرصة للنجاة ، وعند الانغلاق تكون أوبار الحواف مرتبه بشكل متناوب ، ومتشابكة مع بعضها بعضا مثل كلاليب الفخاخ المعدة للذئاب ، ويتحكم في اغلاق الفخ الطعم الذي هو عباره عن مرقة لحم ممزوجة بالدقيق ، أما عند هذا النباتات الآكل للحشرات ، فان أمر اغلاق الفخ لا يأتي الا اذا كانت احدى الشعيرات قد لمست مرتين ، أو لمست شعيرتين على التعاقب ، فالفخ اذا لا يدخل في عملية الحركة أو العمل ، الا اذا كانت هناك حركة اهتزاز ، ولهذا الفخ القدرة على التمييز بين الاجزاء الحية ، او الغير حية ، الساقطة عليه ، كما أن مدة بقاء انغلاقه متغيرة تتوقف على حجم وقوة الفريسه ، ففي حالة الحشرات القوية ذات الخطاطيف ، يبقى الفخ منغلقا مدة اثنى عشر يوما ، وفي وسط هذا السجن النباتي تتم عملية الهضم الطويلة ، وبعد انتهائها يتم انحلال الفكين ، وتظهر لنا الفريسة عبارة عن هيكل خال ، من مواده ومن سوائله .

تتواجد هذه النباتات اللاحمة عادة ، على الاراضي الفقيرة بالمواد الغذائيه ، كالمستنقعات ، والتربه العضويه الغير متحلله ، وتغطى عجزها ، من المواد الآزوتية باستثمار ازوت البروتينات الحيوانية ، ورغم كل ما لهذه النباتات من مظاهر حيوانيه ، من احساس وحركة ، والتغذية على اللحوم ، فان لها القدرة ايضا ، في بعض الحالات على التزهير ، أو اعطاء الازهار ، بالتالي تكوين البذور لاستمرار وجودها على وجه البسيطه . ■■

د . صلاح بركات

شباب المرأة

● سمعت الممثلة الفرنسية « سيسيل سوريل » ان نساء الاسكيمو يبلغن دور الكهولة سريعا ، فقالت : ولماذا لا يعملن مثلنا ؟ .. فعندنا يمضي على كتابة شهادات ميلادنا اربعون عاما ، لا نكون قد جاوزنا سن الخامسة والعشرين !

على البئر

شعر الدكتور محمد عبده غانم

اذرع سمراء تمتدّ الى الحبل وتشرع
كلّما امتدّت بدا للعين منها ما تلفع
من بياض الزند يمتدّ الى الابط وأرفع
وتئنّ البكرة العجفاء بالحبل المشبّع
ويئنّ الحبل مشدودا الى اعلى ليطلع
ممسكا في الطرف الاسفل بالدلو المرقّع
وخيوط الماء تجري في ثقوب الدلو تهرع
في جهات اربع ما بينها تنساب اربع
يرتقي الدلو وماء الدلو قد سال فأسرع
عائدا للبئر في لحن على القاع موقّع
وعلى الحبل أكفّ ما تني للحبل ترفع
واخيرا يصل الدلو وما فيه تجمّع
من يسير صبّ في الجرّة ان النزر ينفع
ويعود الدلو في البئر الى القاع ليكرع
وتعود الاذرع السمراء نحو الحبل تشرع

■■





● مربي الصقور

الفنان جمال كامل وحنين دائم للبشر

بقلم : راجي عنايت

● وجه

في السابعة من عمره ، هادىء ، متأمل ، دائما منبهر بالاشياء انبهارا مزدوجا ، انبهار الطفل والفنان . يجلس الى جوار خاله ، خارج المقهى المقابل لاحدى دور السينما الشعبية بالاسكندرية ، يتطلع الى الملصق الكبير الذي يشغل حائطا كاملا ، والذي يعلن عن احد افلام رعاة البقر .. العراك العنيف ، والتعبيرات الحادة ، المسدسات المنطلقة ، والجياد الثائرة .. ثم هذه الوجوه العملاقة التي تمثل ابطال الفيلم ، تبتسم وتكشر وتتألم . عالم مثير ، يختلف كل الاختلاف عن حياته الهادئة في مدينة بني سويف .

كان ما ان ينتهي العام الدراسي ، حتى يصطحبه خاله الذي يعيش بالاسكندرية ، طوال الشهور الاربعة ، يتسلمه من والده الموظف بمديرية بني سويف بصعيد مصر ، ليسلمه اليه في نهاية العطلة الصيفية . لكنه لم يكن يسلمهم نفس ذلك الطفل الذي تسلمه منهم ، كان يسلمهم طفلا جديدا ، يرتج كيانه بخبرات جديدة مثيرة ، تعتمل داخله رغبات واشواق لم يعرفها من قبل ، وفضول لمعرفة الانسان والتآلف معه ، ومحاولة اقتناصه على طرف قلم من رصاص .

عندما وصل الى الاسكندرية لاول مرة ، وتوجه به خاله الى منزله بحي محرم بك ، اسرع يفتح النوافذ ، باحثا عن البحر الذي سمع عنه ، مشتاقا لرؤيته . وعندما وعده الخال باصطحابه الى البحر صباح اليوم التالي ، لم ينم ليلته هذه ، وظل مؤرقا ، يحلم بذلك اللقاء المنشود .

في صباح اليوم التالي ، كان يمسك بيد خاله ، يرتقيان مرتفع شارع صفية « زغلول » ، وعندما وصلا الى اعلى ارتفاع له ، قبل ان يبدأ الهبوط ، انكشف امامه البحر بكل اتساعه وعظمته ، فوقف في مكانه لا يصدق ما يرى . فقد كانت صورة الماء عنده لا تتجاوز الترعة او النيل ، في اسيوط التي ولد بها عام ١٩٢٦ ، او في بني سويف التي انتقل اليها بعد ذلك . لم يكن ، مهما شط به الخيال ، ليتصور بحر الاسكندرية على هذه الصورة من الضخامة الآسرة . لحظتها ، عشق البحر ، وأدمن زيارته ، وتلذذ بالسباحة فيه . كان وهو يضرب الماء بيديه قريبا من الشاطىء ، تتوالى على عقله صور القراصنة ومغامراتهم البحرية التي رآها في ملصقات الافلام السينمائية ، فيتصور نفسه قائد سفينة تتعرض للمخاطر ، يخوض المغامرات ، للقضاء على الاشرار ، اعداء الانسان .

لكن ، مع كل هذا العشق للبحر ، عندما كان يخط خطوطه على صفحات الورق ، لم يكن يظهر عليها سوى الانسان .. فالانسان ، كان وما يزال ، محور اهتمامه ومصب فضوله .. والوجه البشري كان دائما مفتاح اسرار الكيان الانساني ، والوسيلة الفعالة لتحقيق الالفة معه .

منذ ذلك التاريخ البعيد ، وحتى يومنا هذا ، بقي الفنان جمال كامل على ولائه لهذا التوجه . انه يرسم ليعبر عن حنينه الى الانسان ، عن رغبته الدائمة في التآلف مع البشر . وهو يرسم الوجوه لانها اكثر اعضاء الانسان تعبيرا عن العالم الكامن داخله . اصبحت حياته عالما من الوجوه البشرية ، يتعرف عليها ، ويسبر اغوارها ، ويعكس رؤيته على الورق ، بكل الطرق الممكنة .

طموح اقوى من الطفولة !

منذ المرحلة الابتدائية ، كشف الطفل جمال عن مقدرة براعة في الرسم . براعة جعلت مدرس الرسم يلجأ اليه في رسم نماذج الدروس التي يسجلها في كراسة تحضير الدروس ، ليتباهى بعرضها بعد ذلك على مفتش الرسم ، باعتبارها من رسمه هو . ولم تكن لتنجح هذه المؤامرة الصغيرة ، لو ان الطفل جمال كان يرسم كباقي الاطفال ، تعكس رسومه لزمات رسوم الطفل المعروفة .

فالطفل جمال لم يمر في تطور رسومه ، بالاطوار التي يمر بها الاطفال عادة . لقد كان طموحه اقوى من طفولته ، فلم تظهر في رسومه اللزمات التقليدية للطفل . ومن المعروف علميا ، ان للطفل لزمات في رسمه ، سواء عاش ذلك الطفل في المنطقة المتجمدة الشمالية ، او في غابات افريقيا الوسطى ، او في صحارى استراليا . لزمات تشبه الى حد بعيد ، تلك اللزمات التي تظهر في فنون المجتمعات البدائية المعاصرة ، والتي ظهرت في فنون المجتمعات القديمة ، عندما كانت البشرية تجتاز مرحلة طفولتها .

من بين هذه اللزمات ، تضخيم الشخص او العنصر محل الاهتمام في الصورة ، قياسا على غيره من العناصر او الاشخاص . فالملك او الزعيم او الاب يبلغ في طوله اضعاف غيره من البشر الذين يظهرون في الرسم . ثم لزمة الشفافية ، او ظاهرة الاشعة السينية ، التي تسجل ما بداخل الشيء وكأنه أصبح شفافا ، فيظهر الجنين داخل بطن الام ، وتظهر اللعبة التي بداخل الصندوق المغلق . كذلك لزمة التسطيح ، فيرسم الطفل بيته ، ليس كما يبدو لعين الانسان من الزاوية التي ينظر منها ، لكنه يرسمه كما يرى من جميع الزوايا .

لكن الطفل جمال كامل لم يكن كباقي الاطفال . لم تعكس رسومه هذه اللزمات ، بل كانت دائما تحمل رغبة ملحة في نقل الواقع الذي يراه ، بكل المهارة والحرفة . كانت عينه مدربة منذ الصغر على اكتشاف طاقة الجمال في واقع الاشياء كما هي ، كانت يده الصغيرة تكافح ، قدر طاقتها ، لتسجل ذلك الجمال على صفحات الورق .

صفقة بنصف قرش

كان طفلنا يعود من الاسكندرية الى بني سويف ، في نهاية العطلة المدرسية ، وقد تعلق بالمشاهد المثيرة ، التي تسجلها ملصقات الدعاية السينمائية . وكان هو في بني سويف ، يحن اليها ويحلم بها ، لذلك كانت فرحته لا توصف ، عندما نجح في عقد صفقة مع عامل سينما الاهلي ببني سويف ، تتيح له تسلم الملصقات الصغيرة للافلام التي انتهى عرضها ، مقابل نصف قرش . ففي ذلك الوقت كانت الدعاية للافلام التي تعرضها دور السينما في الاقاليم ، تتم عن طريق عربة يجرها حمار ، ترتفع فوقها لوحتان خشبيتان تميلان على بعضهما ، بحيث تلصق الملصقات الخاصة بالافلام على اللوحتين . وكان العامل يسحب الحمار ، ويمضي في انحاء المدينة ، مناديا بين الحين والاخر ، معلنا الجماهير بالافلام الناطقة الجديدة التي تعرضها دار السينما .

عقد الطفل صفقته مع العامل ، طالبا منه الحرص في انتزاع الملصق ، حتى يستحق نصف القرش الذي سيأخذه . وعندما كان الطفل يختلي بالملصق في حجرته بالبيت ، لم تكن الدنيا تسع فرحته . كان يمضي الساعات الطويلة ، متسمرا في مكانه ، يتأمل الرسم الذي يتضمنه الملصق ، ثم يبدأ محاولاته الدائبة ، لنقل هذه الرسوم .

واذا كان طفلنا قد بدأ بالملصقات الرخيصة المثيرة ، لافلام رعاة البقر ، وافلام فلاش جوردن ، فان حسه الفني الاصيل جعله يتمرد على ذلك بعد فترة ، فكان ينتقي من بين الملصقات ما يحمله الى حجرته ، ينتقي الافضل فنيا ، والارقى ذوقا . ولا ينسى من بين هذه ، ذلك الملصق الفني الخاص بفيلم « جسر ووترلو » . كان يمضي الساعات الطويلة يتأمل الوجوه المرسومة على ذلك الملصق ، ويغرق في هوايته الدائمة ، تأمل الوجوه البشرية ، ورسمها .

وكما تمرد الطفل جمال كامل ، في مرحلة الدراسة الابتدائية ، على لزمات الطفل في الرسم ، تمرد الصبي جمال كامل ، على جمعية الرسم في المدرسة الثانوية . لم يكن يعجبه ما يمليه مدرس الرسم على اعضاء جمعية الرسم من موضوعات ، فتعالى على ذلك ، وآثر ان يمارس هواية الرسم في بيته ، بالطريقة التي يحبها .

ثم كانت نقطة التحول ، من خلال تقصير ارتكبه في واجبات اللغة الانكليزية ، دفع مدرسها الى ارساله الى ناظر المدرسة ، حتى يتلقى على يديه العقاب المناسب . قاده فراش المدرسة الى حجرة الناظر ، وكان عليه ان ينتظر في الردهة الصغيرة خارج الحجرة ، حتى ينتهي الناظر من لقاء زواره . انصرف الفراش ، وبقي الصبي في الحجرة الصغيرة ، تتسارع دقات قلبه خوفا من ذلك اللقاء المرتقب . فهو لم يكن ابدا طفلا مشاكسا مشاغبا ، ولم يتلق من قبل عقابا على يد ناظر المدرسة .

اخذ يتطلع حوله ، فوقع نظره على لوحة معلقة على الحائط ، انسته كل مخاوفه ، والوقت الطويل الذي قضاه وحيدا في تلك الردهة . كانت اللوحة عبارة عن نسخة للوحة من رسم الفنان العالمي رامبرانت ، رسمها لوجه زوجته الثانية . راح صبينا يتأمل ذلك الاسلوب الدراماتيكي الخاص الذي رسم به رامبرانت زوجته ، الخلفية السوداء القاتمة ، التي تقفز منها ملامح الوجه ، من خلال لمسات الضوء العالية على بروزات الوجه . غرق الصبي في تأملاته ، واخذت ملامح اللوحة تغوص في مخيلته ، حتى انه عندما انتهى من مقابلة الناظر وعاد الى بيته ، لم يكن يتذكر سوى تلك الطريقة المدهشة التي صور بها الرسام ذلك الوجه .

رامبرانت والشهقة العالية

كان الصبي جمال ضعيفا في اللغة الانجليزية ، وكان لهم جار يدرس اللغة الانجليزية بالمدارس ، وذلك الجار كان يتمتع بحاسة جمالية لا بأس بها . وعندما رأى رسوم الصبي ، ابدى لوالده اعجابه بهذه الموهبة المبكرة ، فشكا له الوالد من انصراف الصبي عن استذكار دروس اللغة الانجليزية الى هذه الرسوم . همس المدرس للوالد « عندي العلاج الاكيد ! » اصطحب الجار الصبي الى شقته ، واعطاه كتابا فنيا من تأليف الفنان وليام اورين ، عضو الاكاديمية الملكية للفنون بانجلترا ، وطلب منه الجار الا يقتصر على مشاهدة اللوحات ، بل يحاول ان يعرف شيئا عن اللوحة والفنان الذي رسمها ، من خلال قراءة النص الانجليزي .

فرح الصبي فرحا شديدا بهذا الكنز الذي وقع بين يديه ، فأغلق عليه حجرته ، وراح يقلب صفحات



● الفنانة سناء جميل

● وجه



الكتاب بحرص شديد ، يتطلع الى لوحات كبار الفنانين العالميين . وفجأة ، شهق عاليا ، عندما طالعته على احدى صفحات الكتاب ، تلك اللوحة المحفورة في ذاكرته ، والتي رآها في ردهة حجرة الناظر .. قرأ الصبي بفضول شديد ، وعلى قدر ما سمحت له حصيلته في اللغة الانجليزية ، قرأ عن الفنان رامبرانت ، وعن اللوحة .. ثم قرأ عن غيره من الفنانين العالميين .. ولاحت منه التفاتة الى حائط حجرته ، فأبصر تلك الملصقات الخاصة بالاقلام ، فاحس بها قبيحة بالقياس الى اللوحات التي يضمها هذا الكتاب ، وهب على الفور ، ينتزعها من فوق الجدار ، ويمزقها ، ويلقيها ، ثم تفرغ بعد ذلك لمحاولة نقل هذه اللوحات الفنية ، مستخدما اقلامه الملونة .

لم يقتصر اثر ذلك الكتاب على الارتقاء بالذوق الفني للصبي ، بل كان بمثابة رد اعتبار له . لقد تحمل كثيرا ، اللوم من اهله على انصرافه عن دروسه الى ذلك العبث بالالوان والاوراق . لكنه عندما شاهد اللوحات التي يضمها الكتاب ، وطالع تاريخ كبار الفنانين العالميين ، عرف ان الرسم ليس عبثا ، وانه اذا ما تفوق في رسمه ، من الممكن ان يحظى باحترام مجتمعه ، وان يشيع ذكره في انحاء العالم ، وتطبع رسومه في كتب ، تتضمن تاريخا لحياته ..

ظلال زرقاء وخضراء

قامت الحرب العالمية الثانية ، فتعرضت الاسكندرية لقنابل الجيش الالماني ، وهكذا امتنع على الصبي السفر الى خاله الذي يقيم بالاسكندرية ، فسافر بدلا من ذلك الى خال آخر له ، يقيم بمدينة المنيا ، بصعيد مصر ، بمجرد ان بدأت العطلة الصيفية .

وما ان وصل الى المنيا ، حتى اخرج اوراقه واقلامه ، وراح يرسم من بداية اليوم وحتى نهايته . كان يريد ان يتعرف على خاله وزوجة خاله واولاد خاله ، واصدقاء خاله ، من خلال رسم وجوههم . وكان من بين زوار البيت ، صديق للخال يعمل مدرسا ، ورأى رسوم الصبي وأعجب بها ، وقرر تقديمه الى مدرس الرسم في المدرسة التي يعلم بها . قال الضيف ان زميله هذا من خريجي الفنون الجميلة . وكانت هذه اول مرة يسمع فيها الصبي عن شيء يسمى الفنون الجميلة .. اول مرة يعرف فيها أن بمصر دراسة عليا محترمة يتوجه اليها أصحاب المواهب في الرسم والحفر والتصوير .

تمت الزيارة الموعودة ، وجرى اللقاء مع مدرس الرسم ، لكن نقطة التحول الحقيقية في حياة الصبي ، كانت عندما اوفده مدرس الرسم ، الى شقيق له ، ما زال طالبا بالفنون الجميلة ، عندما دخل الصبي جمال على ذلك الطالب ، رآه يرسم لوحة ذاتية (سيلف بورتريه) . كان يجلس امام المرآة ، يتطلع الى صورته فيها ، ثم يسجل رؤيته بألوان الباستيل على لوحة أمامه . وبلغت دهشة الصبي غايتها ، عندما رأى ذلك الطالب ، يرسم ظلال اللوحة بالالوان الخضراء والزرقاء ، وليس بالألوان البنية والسوداء ، التي اعتاد أن يعتبرها الألوان الوحيدة لرسم الظلال ، كما رأى في لوحات رامبرانت وغيره من رسامي عصر النهضة .

عاد الصبي الى بني سويف ، بعد ان انتهت العطلة الصيفية ، فاشترى علبة الوان باستيل ، وحمل مرآة كبيرة نوعا الى حجرته ، وبدأ يرسم نفسه .. وقد حرص على استخدام الألوان الخضراء والزرقاء في رسم الظلال ، والاهم من هذا ، انه عاد من رحلته هذه ، وقد ايقن انه ، حتى في مصر ، يعتبر الرسم شيئا مشروعا ، له احترامه وقيمته ، وتخصص له المعاهد العليا .. وهكذا ، تقرر مصيره .

الانتصار !

عندما انتهى الفتى جمال كامل من دراسته الثانوية ، جاء مجموع درجاته محددا ، لا يسمح له بدخول كلية الطب . فقد كانت العائلة قد استقر رأيها على ادخاله كلية الطب . ظن الفتى ان ما حدث سيضع حدا لاصرار العائلة على دخوله كلية الطب ، مما يتيح له دخول كلية الفنون الجميلة . لكن والده اصر على ان يعيد دراسة السنة النهائية ، عسى ان يحصل على مجموع افضل يسمح بدخوله كلية الطب .

رضخ الفتى لرغبة العائلة ، واعاد السنة ، وحقق مجموعا افضل ، لكنه كان طوال هذه السنة يتأهل لدخول المعركة الحاسمة مع العائلة ، ويتزود بكل الطاقة اللازمة للتصميم . وعندما حلت ساعة الاختيار ، صمم على تقديم اوراقه الى كلية الفنون الجميلة ، ورغبة في تأجيل حسم الموقف ، تعهد امام والده وامام باقي افراد العائلة بالتنازل عن رغبته هذه ، اذا لم يكن ترتيبه الاول على جميع المتقدمين لامتحان القبول في كلية الفنون الجميلة .

عندما ذهب الفتى جمال كامل الى كلية الفنون الجميلة بالقاهرة ، لتقديم اوراقه ، وادرج اسمه ضمن

المتقدمين لامتحان القبول بتفوق . وهكذا عرف الفتى طريقه الى (البدروم) الرطب لاحد بيوت حي شبرا ، يهبط من الطريق عدة درجات ليصل الى مرسم الطالب الفنان ادوار مهنا . عندما استعرض الفنان انتاج الفتى الذي كان يحمله ، اعجب بقدراته ، وتحمس له ، وقرر ان يساعده . وفي نهاية اللقاء ، كانت دهشته كبيرة ، عندما قال الفتى القادم من بني سويف بلهجة تقريرية « ليس هدفي مجرد اجتياز هذا الامتحان ، اريد ان اكون الاول على الجميع .. هكذا وعدت والدي ! »

طوال الفترة التى سبقت الاختبار ، والتي امتدت الى أسبوعين ، كان الفتى يمضي النهار وبعض الليل ، في ذلك المكان ، يرسم ويرسم ، ويتشرب المعارف والخبرة من استاذه الجديد ، ويحاول ان يجسدها في رسومه . ونتيجة للجلسة الدائمة دون حركة ، ونتيجة لرطوبة المكان ، تورمت ساقه ، وادى الاختبار يعاني من الام ساقه هذه .. ومع هذا ، فقد كان الأول على جميع المتقدمين .

وهكذا انتهت معارضة العائلة ، بل تعاطفت مع احلام الفتى ، فكان والده يردد امام كل من يلتقي به « لقد نجح جمال في امتحان الفنون الجميلة ، وكان الاول على القطر ! »

مرحلة التوافق

كانت فترة الدراسة بكلية الفنون الجميلة ، فترة توافق وانسجام في حياة الشاب جمال كامل فاغلب الدراسات رسم لاشخاص ووجوه ، هوايته المحببة . وهو بمهارته وقدراته الحرفية كان يحقق النجاح بعد النجاح . كان استاذه الفنان الراحل يوسف كامل يعجب برسومه ، لكنه كان يعجب لتلك الخلفيات السوداء التي يختارها جمال كامل للنماذج البشرية التي يرسمها . فلم يكن يعلم ذلك التأثير العميق للفنان رامبرانت على فناننا .

ذات يوم ، واثناء حديثه مع استاذه السابق ادوار مهنا ، ذكر جمال عشقه الدائم لرسم وجوه البشر . فقال له الفنان مهنا « خسارة كبيرة انك لم تتتلمذ على استاذ رسم الوجوه في مصر .. الفنان الرائد احمد صبري » سأل جمال باهتمام « واين هو الآن ؟ » اجاب مهنا « يعطي دروسه لطلبة القسم الحر بالكلية » .

وهكذا ، التحق جمال كامل اثناء دراسته النظامية ، بالقسم الحر ، لكي يتتلمذ على الفنان الراحل احمد صبري ، احد الرواد الاوائل للفن التشكيلي بمصر . وكان تاثير احمد صبري على جمال قويا . وفي هذه الفترة بالذات ، تعرف جمال على اعمال الفنان العالمي فلاسكيز ، فتعلم عن احمد صبري التعبير بالبقع اللونية المحددة ، وتعلم عن فلاسكيز الاستغناء عن الخلفية السوداء التي يلتزمها رامبرانت ، وشغف بالتصوير الواقعي ، الذي تتميز به لوحات فلاسكيز .

في ذلك الوقت الذي كان جمال كامل يزهو فيه بقدراته الفنية ، وبتفوقه ، بدأ الزحف القوي للمدارس الفنية الحديثة على مصر ، وانقسم معظم فناني مصر الى معسكرات ، وكل معسكر ينتمي الى مدرسة من هذه المدارس . ورغم ان تأثير هذه المدارس كان سابقا على ذلك الوقت ، الا ان الفنان جمال كامل افاق على ذلك الزحف عندما اشتد وشاع ، وصنف الفنانين المصريين الى فصائل ، ينتمي بعضها الى المدارس البنائية ، كالتأثيرية والتكعيبية ، والتجريدية ، والبعض الاخر ينتمي الى المدارس الذاتية ، من تعبيرية وسيريالية .

كان الموقف المبدئي من هذاالتيار ، عند جمال كامل ، هو الرفض التام ، والادانة الكاملة ، كان يرى في اندفاع هؤلاء الى احضان المدارس الفنية الحديثة ، هروبا من اصول التصوير ، وجبونهم عن استخدامهم قدراتهم الفنية . وكان الفنان جمال كامل محقا بعض الشيء في موقفه هذا ، فالكثير ممن توجهوا الى المدارس الحديثة ، كانوا وما زالوا ، يفعلون ذلك ، لا عن اقتناع واحساس ، بل لضعف في قدراتهم الحرفية والفنية ، ولرغبتهم في عدم الخضوع للاشتراطات التقليدية للعمل التشكيلي .

ومن ناحية اخرى ، صدم الفنان جمال كامل ، عندما رأى هؤلاء يرددون اسلوبه المتخلف في التصوير ، وينظرون اليه باعتباره جمودا ونقصا في القدرة على هضم مظاهر التطور .

هذا الرفض المتبادل خفت حدته ، عندما لجأ جمال كامل الى استاذه السابق الفنان ادوار مهنا ، فراح يشرح له جوهر هذه المدارس الحديثة ، وكيف انها تعبير عن فلسفات خاصة ، ورؤى محددة للحياة والفن ، وانها ليست مجرد هروب من الاداء الاكاديمي التقليدي . هكذا تنازل جمال عن موقفه السابق ، وتعرف بقلب مفتوح ، وعين قابلة ، على اعمال المدارس الفنية الحديثة ، وعشق من بين رواد هذه المدارس ، الفنان بول سيزان ، رائد التكعيبية ، فتأثر به ، وظهر هذا التأثر في كثير من رسوم الوجوه ، التي قام بها جمال كامل بعد ذلك .

عمر مع الصحافة

عندما انهى جمال كامل دراسته بكلية الفنون الجميلة متفوقا ، كان من الطبيعي ان يتم تعيينه معيدا بالكلية ، فقد كان الأول على دفعته ، ونال درجة الشرف والامتياز على مشروع الدبلوم . ومنذ ان بدأ جمال كامل دراسته في الفنون الجميلة ، كان يحلم بالتفوق الذي يحقق له العمل ضمن هيئة التدريس بالكلية ، حتى يبقى طوال حياته في جو الخلق الفني الخالص . لكن ظروف الكلية واعتياداتها لم تسمح بتعيين معيدين في تلك السنة . وعندما عرض عليه الفنان عبد السلام الشريف العمل بدار الهلال ، لحاجة مجلاتها الى من يرسم القصص المنشورة بها ، اظهر جمال بعض التردد ، خشية ان يؤثر هذا العمل على تحقيق حلمه بالعمل في الكلية ، لكن الفنان الشريف قال له « اذهب هنا ، وتسلَّ .. الى ان يتم تعيينك بالكلية » ..

هكذا ، بدأت قصة جمال كامل مع الصحافة ، تلك القصة التي تواصلت حتى وقتنا هذا .

لقد استهواه رسم القصص ، بما فيها من انفعالات ، واعاد ذلك الى ذاكرته شغفه القديم بملصقات الافلام السينمائية . وقد حرص الا يتعامل مع رسوم المجلة باستخفاف ، وعندما تسلم القصة الاولى التي سيرسمها ، اختار الموقف الذي يصوره ، وعاد الى مرسمه ليرسم لوحة كاملة بالباستيل ، استعان فيها بنموذج بشري (موديل) . لم يكن يريد لنفسه ان ينجرف في تيار العمل الصحفي السطحي ، واراد ان يرتقي به الى مستوى العمل الفني .

في دار الهلال تعرف جمال كامل على الأديب والكاتب احسان عبد القدوس ، الذي ما ان اصبح رئيسا لتحرير مجلة روز اليوسف ، حتى عرض عليه العمل معه . ورغم ان العمل في مجلة روز اليوسف المعرضة دائما للمصادرة والمتاعب المالية نتيجة لمواقفها السياسية ، كان يعتبر مغامرة بالنسبة لذلك الاستقرار شبه الحكومي الذي كانت تتسم به دار الهلال .. رغم هذا ، فقد شعر جمال كامل ، ان طقس العمل في روز اليوسف ، سيتيح له انطلاقا ابعد . وهكذا ، انتسب الفنان جمال كامل الى دار روز اليوسف عام ١٩٥٠ ، بعد ان كان قد تنازل عن حلمه القديم بالعمل كمعيد في الكلية ، راضيا بالمتعة الفنية ، والشيوع ، اللذين يحققهما له العمل الصحفي .. وبقي منتسبا الى روز اليوسف حتى وقتنا هذا .

ورغم ان العمل الصحفي ، قضى على الاحلام الفنية للعديد من الفنانين ، وحرمهم من متعة الانتاج الفني خارج حدود واجباتهم الصحفية ، الا ان الفنان جمال كامل استطاع ان يحل هذه المعادلة الصعبة . فحتى اليوم ، ما زال يتعامل مع العمل الصحفي تعامله مع العمل الفني . ومعظم رسومه التي تظهر على اغلفة مجلة « صباح الخير » هي في واقع الأمر لوحات فنية كاملة ، يغرق في رسمها بكل حماس وانغماس الفنان التشكيلي الذي يتهيأ لانتاج عمل ، يشوقه ان يظهر على حوائط المعارض العامة .

ومجموعة اللوحات التي يضمها المعرض الذي اقامه جمال كامل اخيرا بالقاهرة ، والتي حظيت باعجاب واقبال الجمهور واهل التخصص ، هي في واقع الامر اغلفته التي نراها على غلاف مجلة صباح الخير ، عمل نفس ولائه القديم والدائم للوجه البشري ، وحنينه المتصل للتآلف مع الناس ، من خلال تأمله ورسمه لهذه الوجوه . ■■

راجي عنايت

عدوى احب الناس الى !

× قيل لكسرى : اى العقلاء احب الناس اليك ؟

قال : عدوى !!

فقيل له : وكيف ذلك ؟

فاجاب : اذا كان عاقلا .. كنت منه في أمن وعافية !

مقالات في كلمات

■ فكر فيما سوف يكون عليه شعورك في الغد ، فالامس مضى واليوم يوشك على الانتهاء .

بلزاك .

■ هذا الرجل يقول كل الحقيقة ، ولذلك فانه لا يجد احدا يصدقه او ينصت اليه .

« لنكولن »

■ كنت اكتب ولكن احدا لا يقرأ ما اكتب ، فلما بدأ الناس يقرأون ما اكتب احسست بأنني لم اعد اعيش وحدي .

« سومرست موم »

■ انها امرأة عظيمة ، لانها عرفت ان اقصر طريق الى قلب رجلها هو تلك الابتسامة الحلوة التي تستقبله بها ، وهو مهموم عابس مكدود .

« كوليت »

■ الحياة .. ما الحياة .. انها وقفة مع كل صورة حلوة ورحلة مع كل صورة معذبة .

« دستويفسكي »

■ الانسان لم ياكل وحده ابدا الا عندما كان يخرج لاصطياد الوحوش في الغابة .

« اندريه مالرو »

■ اكتبوا على لساني : « كل من عرف الحب ، لم يعرف الملل لحظة واحدة .. فالحب شباب وعطاء وغذاء .

« ايمرسون »

■ كنت ابحث عن نفسي دائما وسط الاحياء الفقيرة في باريس كلما خرجت اجول فيها وحدي ليلا .

« روسو »

■ لا يمكن للرجل ان يحيا حياة سعيدة وفاضلة مالم تكن بقربة زوجة

(رشستر)

■ الزواج قوام العالم هو الذى يبنى المدن والقرى ويملأ البيوت والمعابد

(تللر)

الأم والطفل في أرجوزة ابن سينا

بقلم : الدكتور محمود الحاج قاسم

يحتفل العالم في هذه السنة بذكرى مرور الف عام على وفاة « ابن سينا » الطبيب والفيلسوف الموسوعي الثقافة والكتابة . واحتفال العالم به ليس لكونه المع نجم ساطع في سماء الحضارة الطبية العربية الاسلامية فحسب بل لكونه رائدا « من رواد الفكر الانساني وعلما » من اعلامها . وهنا سوف نحاول القاء الضوء على جزء صغير مما كتبه ابن سينا في مسألة الأمومة والطفولة ، مساهمة متواضعة في الاحتفاء بذكراه .

لقد كان تسهيل الدراسة والتعليم باستنباط وسائل لمساعدة الطالب على الحفظ والتركيز ، من القواعد التربوية الأساسية التي اعتمدها العلماء والأطباء العرب والمسلمون ومن ذلك كان نظم العلوم المختلفة في شكل مجاميع شعرية ومنظومات جذابة سهلة الحفظ . وكان حظ الطب من هذا الفن الشيء الكثير ، حيث نظم ابن سينا ثلاثة ارجوزات كانت على التوالي .

الأولى ـ (الأرجوزة في الطب)[1] وهي اكبرها وأكثرها عددا ، حيث بلغ عدد ابياتها (١٣٢٦ بيتا ») ، عرض فيها كل ما يتعلق بصناعة الطب بشكل مختصر وجامع وعلى شكل اشعار من بحر الرجز . وقد ترجمت للاتينية في القرن الثالث عشر الميلادي باسم كانتيكوم أو كانتيكا ومعناها الأغنية يعني القصيدة . وسوف نستعرض فيما بعد الجزء المتعلق بالأم والطفل موضوع بحثنا .

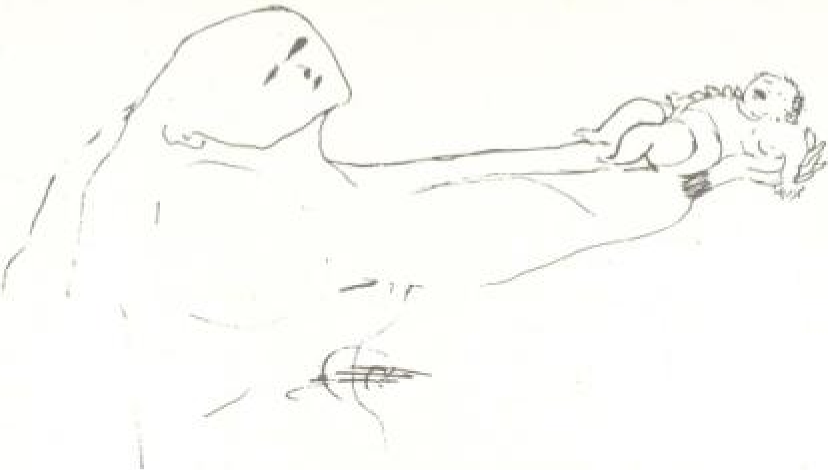
الثانية ـ (في المجربات) وتشتمل على (١٣١ بيتا » .

الثالثة ـ (في الوصايا الطبية) ولها (٧٦ بيتا ») .

واطول ارجوزة ذكرت للأطباء العرب كانت ارجوزة ابن طفيل (المتوفى عام (٥٨١ هـ/١١٨٥م) حيث بلغ عدد ابياتها (سبعة الاف وخمسمائة بيت) وهي لازالت مخطوطة . تبحث في الطب العلاجي والتداوي بالأعشاب وفي تاريخ تطور الأدوية بين الصيدلة والكيمياء وفي استقصاء انواع المرض وتاريخ الدواء والداء[2] .

وهناك ارجوزات اخرى لأطباء آخرين منها[3] .

ارجوزة الفصد للطبيب ابو الثناء سديد الدين محمود بن عمر الشيباني (القرن السابع الهجري) .



ارجوزة وضعها ميرزا محمد بن زين العابدين .

ارجوزة لأحمد بن حسن الخطيب القسطنطيني (القرن الثامن الهجري ومؤلفه من ٣٢٠ بيتا ») .

واخيرا (وضع ميرزا قوام الدين القزويني ارجوزة للطب وذلك في القرن الثاني عشر الهجري .

وبعد هذه المقدمة لنعد الى موضوع بحثنا « الأم والطفل في ارجوزة ابن سينا »

عرض ابن سينا في ارجوزته علم ذلك الزمان وآراءه في مسألة العناية بالأم الحامل وبالولادة والعناية بالجنين اثناء الحمل والطفل عند الولادة واختيار المرضعة الملائمة بأسلوب سلس ممتع لم يسبقه الى ذلك احد من قبل . ولأجل الاحاطة بكل ذلك رأينا تقسيمها الى اربع مجاميع ، ذاكرين ارقام الأبيات في بداية كل منها[٤] .

من الحمل الى الرضاعة

المجموعة الأولى : يؤكد ابن سينا في هذه المجموعة بأن الطفل يختلف عن الكبير في بنائه الجسمي والعضوي ، الأمر الذي يستوجب تمييزه عن الكبير في المعالجة والعناية ، وقد جاءت تأكيداته هذه في اماكن متفرقة من الأرجوزة وهي دون شك لا تخلو من الصحة/يقول

(٥٤) والحي يختلف في الأسنان .... كلامنا منه على الأسنان

(٥٥) حرارة الشبان والأطفال ... مزاجها مقترب الأحوال

(٥٦) لكنما الشبان لليبوسة .... والطفل ذو رطوبة محسوسة

---

(١) اعتنى بطبع ونشر نصها ونص الترجمة اللاتينية لها ، وقام بنقلها الى اللغة الفرنسية الدكتور جان جايي والشيخ عبد القادر نور الدين الأستاذان بجامعة الجزائر ـ باريس ١٣٧٥ هـ/١٩٥٦ م .

(٢) صالح مدني / ابن طفيل قضايا ومواقف ص ٧٦ .

(٣) الكيالي ـ الدكتور طه اسحق / ارجوزة الشيخ الرئيس ابن سينا في الطب ـ بحث قدم للندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ـ حلب ١٩٧٦ .

(٤) الأرقام هي كما جاءت في طبعة الجزائر .

(٣٩٣) والطفل نبضه سريع رطب ... والكهل نبضه بطيء صلب

(٧٨٣) كالشيخ والناقه والطفل ... فضعفهم مختلط بالكل

المجموعة الثانية : شملت كل ما يتعلق بمسألة العناية بالأم الحامل لكي ينمو الجنين في بطنها نموا « سليما » ويولد ولادة طبيعية . فمن ذلك العناية بغذائها وشرابها . وعدم فصدها او اعطائها المسهلات . وعدم تعريضها الى شدات خارجية كالوثبة او الضربة . ومن نصائحه عند اقتراب الولادة ادخالها الحمام وتدليكها وتغذيتها غذاء « جيدا » وان تقوم القابلة بمساعدتها عند الوضع لتسهيل ذلك . ولمعالجة اختلاطات الولادة كالنزيف الشديد او عدم نزول المشيمة ، يصف الأدوية اللازمة . وللمرضعة عنده كما هي الحال عند اغلب الأطباء العرب شروط لابد من توفرها لكي تكون اهلا « للقيام بذلك . ان عرضه لهذه الأمور كلها كان عرضا « علميا صحيحا » وبطريقة شاعرية جميلة /

الطفل في بطن امه :

(٩١٣) الطفل يحفظ ببطن امه ... كي لاتصيب آفة في جسمه

(٩١٤) فاحتط على الحامل في معدتها ... كي لاترى الفساد في شهوتها

(٩١٥) ويصلح الدم وينفي الفضل ... ذاك الذي يكون منه الطفل

(٩١٦) والظثر ان تطعمه او تسقيه ... فاختر له مدة سن التربية

(٩١٧) ان هاجها دم فلا تفصدها ... بل بالبرود وبالنطاق اقصدها

(٩١٨) او هاجها خلط فلا تسهلها ... بل بالتلطيف عاملها

تدبير المخاض :

(٩١٩) فإن دنا وقت لوضع حملها ... فشب امور وضعها يسهلها

(٩٢٠) الدلك في الحمام للأخصار ... وما يلي الحمل من الأقطار

(٩٢١) بالدهن كيما يستلين العصب ... ولايكون عند وضع تعب

(٩٢٢) واجعل غذاءها من السمين ... واحسها من مرق دهين

(٩٢٣) واحذر عليها صيحة او وثبة ... او روعة او صرخة او ضربه

(٩٢٤)واسقها في وضعها من شدة ... طبيخ تمر فيه ماء حلبه

(٩٢٥) واجعل لها قابلة في فطنه ... تمد رجليها بغير حته

(٩٢٦) ثم اذا تقيمها بمرة ... عاصرة لبطنها بحكمه

(٩٢٧) ان سال منها زائد من الدما ... فاسقها اقرصة من كهربا

(٩٢٨) او لم يسل منها دم من ضر ... فاسقها اقرصة من مر

(٩٢٩) وان مشيمة بها لم تنزل ... فاستعمل التبخير بالمحلل

(٩٣٠) كالمر والقطران او كالأبهل ... ومثل كبريت ومثل حنظل

اختيار المرضعة :

(٩٣١) واختر له المرضع من فتاة ... في سنها من متوسطات

(٩٣٢) لحمية ليس بها من رهل ... مزاجها يقرب من معتدل

(٩٣٣) جسيمة عظيمة الثديين ... نقية الرأس مع العينين

(٩٣٤) سالمة من كل ضر داخل ... صحيحة الأعضاء والمفاصل

(٩٣٥) ذات لبان ليس باللطيف ... في رقة وليس بالكثيف

(٩٣٦) ابيض لون حلو طعم طيب ... لامنتن متصل اذ يسكب

(٩٣٧) وغذها بالحلو والدهين ... والسمك الرطب مع السمين

« ناغيه بالاصوات في تعليم »

المجموعة الثالثة :

افرد ابن سينا لمسألة العناية بالوليد حديث الولادة ، استقباله ، العناية بجلده ومضجعه وغذائه ، فصلا باسم

(تدبير الطفل في خاصته) واقواله فيها جاءت اختصارا « لما ذكره في القانون في باب تدبير المولودكما يولد الى ان ينهض ، وكان صائبا » في اكثر ما ذكره/

(٩٣٨) ادهنه بالقابض عند شده ... حتى ترى صلابة جلده

(٩٣٩) وحه تنظف من اخلاطه ... ووسط الشد على قماطه

(٩٤٠) ولاترضعه كثيرا فيتخم ... ولاتمانعه زمانا فيحم

(٩٤١) ولاتعامله بشيء يقلقه ... يمنعه المناما او يؤرقه

(٩٤٢) الزمه ان اردت ان يناما ... مهدا وطيئا يره الظلاما

(٩٤٣) وامزج له الخشخاش بالطعام ... ان منع الضر من المنام

(٩٤٤) الزمه في يقظته الضياء ... كيا يرى النجوم والسماء

(٩٤٥) كثر له الألوان بالنهار ... لكي تدربه على الأبصار

(٩٤٦) ناغيه بالاصوات في تعليم ... كيا تدربه على التكليم

(٩٤٧) العقه من عسل او حنكه ... وامسح به لسانه ودلكه

(٩٤٨) واجعل قليل رب سوس فيه ... وكندر وخله في فيه

(٩٤٩) واسعطه يا هذا لكي تشفيه ... من سدة في الأنف او تصفيه

(٩٥٠) لأن هذا مصلح احساسه ... وصوته ومطلق انفاسه

(٩٥١) وامنعه ان يفصد او ان يسهلا ... حتى تراه يفعة قد اعتلى

(٩٥٢) وما اعترى من ورم او حب ... فلا تقابله به بجذب

المجموعة الرابعة : وهي الأخيرة جمع فيها ابن سينا اسباب التشوهات التي تحصل في الطفل بشكل دقيق وشامل وكأنه يتكلم بلسان اطباء اليوم ، ويمكن اجمال الأسباب التي ذكرها بما يلي /

١ ـ التغيرات في غذاء الحامل .

٢ ـ التغيرات في تركيب الرحم .

٣ ـ التغيرات في المني .

٤ ـ اصابات الولادة غير الاعتيادية .

٥ ـ سوء تدبير الطفل في مضجعه .

٦ ـ الحوادث ، وسوء معالجة الكسور .

٧ ـ نتيجة اصابته ببعض الأمراض كالجذام ، والارتخاء والشلل والتشنج .

٨ ـ الأورام .

يقول /

(٢٦٩) والسبب المفسد للأشكال ... يكون في اعداد ذي الأمثال

(٢٧٠) بسبب في رحم ردي ... او قل الانقياد من المني

(٢٧١) او من ولاد ساء في الخروج ... يحدث سوء الشكل بالتعويج

(٢٧٢) والظئر اذ تسيء في القماط ... او رضاع منه او انحطاط

(٢٧٧) وكثرة في الخلط كالجذام ... وقلة كالكسل في الدوام

(٢٧٨) او لقوة من ارتخاء عصبه ... او مثل تشنج يميل الرقبة

(٢٧٩) واثر الأورام والقروح ... قد تفسد الأشكال في السطوح

(٢٧٣) او ربما كثرت الطعاما ... او ربما اساءت الفطاما

(٢٧٤) ويقع الطفل بضعف ان ترك ... فتكسر الوقعة افريز الورك

(٢٧٥) وتشدخ الأنف فيعوره الفطس ... ولا يرد الطب ما قد انتكس

(٢٧٦) ان حرك الذي يقل صبره ... عظما « كسيرا » لم يتم جبره

د . محمود الحاج قاسم محمد
الموصل ـ العراق

الحادثة التي جرت

قصة : مجيد طوبيا

جنحت الشمس الى اقصى الغرب ، قرص احمر يتأهب للمغيب ، ويتسلل هابطا للمبيت .. ودعتها العصافير بتغريد كالضجيج ، وعندما صار الوقت بين النهار والليل صعدت الى اوكارها لتنام اسوة بالشمس . ما ان حط الظلام حتى نامت مطمئنة الى مخزون القمح الوفير .. منذ اسبوعين كانت « الشونة » خالية منه ، ثم اذا بالرجال يحضرون عشرين زكيبة ، زادت تباعا حتى امتلأ المكان بتلال من الزكائب ، التي تسرب منها بعض الحب الى الارض ، وجدت الطيور فيه رزقا سهلا ...

بعد اقل من ساعة تصاعد في سكون الليل صوت رجالي مشروخ ، ناح حزينا مرددا : « يا ليل يا عين ، يا عين يا ليل » .. لحظات وكانت العصافير قد استيقظت ونهضت تستطلع السر . رأت الفلاحين جالسين متلاصقين صامتين ، وفي مواجهتهم رجل غائر العينين ، يعزف على آلة الربابة نغما باكيا ، يهتز عنقه الطويل يمينا ويسارا ، وتنفر عروقه منشدا موالا مؤثرا ، يستقبله المستمعون بالتجاوب وهز الرؤوس وطلب المزيد !! ولم تفهم العصافير معنى الاغنية !!

وكان يسكن في اعلى فرع للشجرة غراب واسع العلم والحيلة ، أقلقته هذه الاصوات وجافاه النوم فطار هابطا الى العصافير يستأنس بها .. ما ان لمحته حتى هللت مرحبة ، اذ كان صديقا لها ، متعلما يفهم لغة الانسان .. طلبت منه العصافير ان يترجم لها ما يقال ، مال برأسه ينصت ثم تكلم : يبدو انهم يحتفلون بمناسبة ما ، وان الرجل غائر العينين ينشدهم موالا شهيرا لديهم

اصغى من جديد ثم قال :

ـ انه يحكي عن الحادثة التي وقعت على السبع شرقاوي ، الاسم ادهم لكن اللقب شرقاوي .. سألته العصفور ذو الحوصلة الصغيرة والريش الطويل ان كان السبع شرقاوي هذا اسدا !!... فابتسم واجاب :

ـ بالطبع لا ايها الطيب ، انهم يصفون الرجل الشجاع بالسبع ، والمرأة الرشيقة بالغزال ، والأغبياء بالحمير ، وينعتون السذج بأن لهم اجسام البغال ، واحلام العصافير !!

امتعضوا من هذا التجني ، لكن الغراب عاد الى تفاصيل الموال ، يوجزها في ترجمة فورية ، اذ حدث ان اغتال احد الفجار عم ادهم ، فما كان منه الا ان ثأر بقتل ابن القاتل .. جاءت الحكومة وسألت : لماذا قتلته يا ادهم ؟!.. اجاب : وماذا فعلتم عندما قتل عمي ؟!..

اندمجت العصافير وراحت تهز رؤوسها تعاطفا مع بطل الموال .. وكان اكثرهم طربا هو العصفور الشاعر الذي همس لجاره متحسرا :

ـ انني احسد هؤلاء الناس ، لهم بطل ينشدون عنه موالا ، اما نحن معشر العصافير فليس لنا بطل او موال او سيرة !!

في الليل المتأخر انتهى الغناء وانفض الجمع ، وأوى الغراب الى فرعه الاعلى ، ونامت الطيور حزينة من نهاية الموال الفاجعة : كان عدو ادهم خطيرا فاجرا ، مسنودا من السلطة والشرطة وكان أدهم شجاعا هماما وفي النيشان صياد .. لكنهم طاردوه وبعشرات العسكر حاصروه ... اول رصاصة في الكلية جاءت ، والثانية في صدره مرقت ، والثالثة بين القلب والسرة غدرت .. سقط الفتى فوق الحصى ، في بحر من دماء عام ، في النزع الاخير قال انتهيت يا ادهم انتهيت ، عار عليك يا رصاص ان تأتي في جسم الحر وتهزه . الثأر امانة يا خلان للحادثة التي جرت على سبع شملول ، وطارده العسكر ، قتلوه !!



من اقصى الشرق تسلل الضوء هزيلا واهنا ، يبشر بشروق جديد .. واندهش الفجر لان العصافير لم تغرد له كعادتها !! احتار ، وعندما عرف من اخيه الليل انهم قد سهروا طويلا لم يعلق ، وراح يؤدي وظيفته الازلية ، مرسلا بالمزيد من نوره ، ورغم هذا ظلوا يغطون في نومهم مثلهم مثل اهالي البلدة .. وقع ما ايقظهم فزعين ..

من خارج الحدود جاءت اصوات كالرعود النائية ، اقتربت ودنت حتى غدت زمجرة مرعبة ، اهتزت منها النوافذ والأسرة ، والاشجار والاوكار ، فهبت الطيور من نومها جزعة ، ومن كان منها صغير العمر صاح بان هذه علامات الساعة ، لكن العصفورة الجدة فضحت جهلهم وقالت :

ـ انها بالفعل علامات الساعة ، ليست القيامة ، وانما كارثة اخذ زكائب القمح !

ـ الى اين ؟؟

ـ الى مكان يخرج عن نطاق اجوائنا .

امام اعينهم الملتاعة دخلت عربات النقل هادرة ، مثيرة التراب وصياح الاوز ونباح الكلاب .. وتجمع الرجال والنساء والأطفال وزاد الضجيج وتضاعف ..

وكان الغراب قد استيقظ وانهمك هو ايضا يراقب ، رأى السيارات تتوقف والآلات تصمت تباعا ، وموظف « الشونة » يرحب بالجميع ، ويبالغ في الحفاوة بشخص غريب ذي شارب كث عجيب ، بينما بدأ الرجال يحملون الزكائب من الشونة الى عربات النقل ولم يكن الامر يهمه من قريب او بعيد ، ولم يعجبه هواء الفجر وقد تلوث من عادم البنزين ، فراح يمسح منطقة نفوذه بعينيه النفاذتين باحثا عن فأر غير حذر ينقض عليه ، لم تكن من شيمته التهام العصافير ولا حتى افراخها العاجزة عن الطيران ، لهذا كان محبوبا من الجميع ، عدا بني البشر الذين يعرف انهم يكرهونه .. لكنهم اليوم منشغلون عنه تماما ، والفرصة سانحة لقنص طعام اليوم من بين كتاكيتهم ودواجنهم « المستعبدة » ، والتي يطعمونها ويسمنونها ثم ينحرونها ويلتهمونها ، انه اولى بها منهم !!

فرد جناحيه القويين في جولة استكشافية ، غير ان نظرة جانبية منه الى غرفة موظف الشونة جعلته يجنح عن مساره ، ويهبط واقفا على ضلفة النافذة المفتوحة ، اذ رآه ينفرد بالرجل ذي الشارب الكث العجيب فدفعه حب الاستطلاع الى التجسس لمعرفة سر هذا التكتم ، ووقف يصغي كان الموظف ممتقعا والرجل يهاجمه في مكر ودهاء :

ـ زعمت في العام الماضي ان نسبة الفاقد من القمح زكيبتان من كل مائة ... وهي نسبة مبالغ فيها لكنني تغاضيت !!

ـ فضل من سيادتك وتعطف ، غير ان عصافير هذه المنطقة من نوع شرس فتاك ، تهتك خيوط الزكائب بمناقير كالمناشير ، ثم تنهال على الحبوب التهاما واتلافا !! اقسم على هذا !!

ـ مهما كانت شراستها فان الفاقد لا يتجاوز الزكيبة الواحدة .. صمتا لا تقاطعني .. انك اخذت لنفسك واحدا بالمائة من اجمال غلة المنطقة ، وهذا يسمونه سرقة !

ـ غير صحيح ، والجميع يشهدون بأني رجل يعرف الله ويخافه .

ـ كلنا ذلك الرجل ، خاصة الكبار في المدينة ، لقد دونوا في سجلاتهم نسبة الفاقد على انها عشرة بالمائة ، يعني عشرة زكائب من كل مائة .

ـ هذه هي السرقة ، وسرقة مكشوفة !.. اخبرني عن التحقيق الذي جرى ...

ـ التحقيق الذي جرى !!... من يحقق مع من ؟.. لقد تفاهموا وتعاونوا ، وتقاسموا كل حسب منصبه ودرجته .

ـ والرؤساء ؟؟

ـ لهم نصيب الأسد ، المبلغ ضخم ، وعندهم تصب محاصيل شون البلاد كافة ..

غطى العرق جبين الموظف ، فغر الغراب منقاريه دهشة .. وقال ذو الشارب الكث :

ـ هذا العام وبالنسبة لهذه الشونة ، فان ما أكلته الطيور الشرسة قيمته عشرة بالمائة .... صمتا ولا تقاطعني .. سنقتسم هذا المقدار بيننا ، كل حسب منصبه ودرجته ، وطبقا للعرف الجاري .

وقف ريش الغراب غيظا .. تلعثم الموظف :

ـ سيقولون في المركز الرئيسي انها نسبة عالية .

ـ الم يحتسبوها هم بهذا المقدار في العام الماضي ؟.

ـ وان حدث واعترضوا ؟؟

ـ نرد عليهم بطلب مبلغ من المال لشراء المعدات والمبيدات لمقاومة الطيور ، وكله مكسب .

اهتز الغراب غضبا ، فاصطكت خلفه النافذة ، ولمحه الموظف فلعن جنس الغربان وهو يهب محضرا البندقية من ركن الغرفة .. قبل ان يصوب كان الطائر قد اقلع مرتفعا الى اعلى ما يستطيع ، والى أن بدت عربات النقل من تحته كالدمى الصغيرة .. اكثر ما يمقت من جنس الانسان هو تلك الالة الرهيبة التي يتطلق منها الرصاص ، واكثر من مرة حاولوا قتله ، خاصة هذا الموظف ، ومن غير سابق عداوة ، وانما لمجرد اعتقاد فارغ بان الغراب ـ اي غراب ـ نذير شؤم !!

●

توسطت الشمس السماء ، وصارت لهيبا ، وبدأت تنجذب نحو الغرب .. وعندما سمع الغراب اصوات المحركات تدور ضمن ان السيارات في سبيلها الى الرحيل ، فتسلل الى الموقع من جديد وحط فوق الشجرة يشاهد العربات وهي تهدر بحمولتها الضخمة بعد ان توزعت تلال الزكائب عليها . كلما مضت حمولة زادت لوعة العصافير على ضياع القوت السهل ... وابتعدت عربة ثم اخرى فثالثة ، تسع عربات ، وبقيت العاشرة رابضة .. ضمن انها نسبة العشرة بالمائة ثم راح يتأمل وجوه الاهالي وجسم الجريمة ماثل امامهم !!.. تسلل مختبئا بين غاب البوص ، متلصصا على بعض المتهامسين ، اصغى وهو صامت كالجماد ، بعد اقل من الدقيقة ادرك ان شكهم يكاد يكون يقينا ، لكنهم ايضا خائفون ، يتلفتون حذرين ثم يتشتتون منكسرين !!.. رآه احدهم فرماه بحجارة ، لكنه كان اسبق الى الانطلاق ، مندفعا كالبرق ، حتى وقف الى جوار العصافير لاهثا . سألته العصفورة الجدة عما حدث ، بعد ان التقط انفاسه قال :

ـ جيرة الشجرة تحتم على البوح لكم بما عرفت ، فالامر يخصكم .

تواثبوا مقتربين منه .. أومأ الى العربة الرابضة :

ـ هل ترون حمولة القمح هذه ، لقد التهمتموها انتم وعن آخرها !

تبادلوا نظرات المكر الصغيرة ، لكن الجدة سارعت تقول في تأدب :

ـ عفوا ايها الصديق الموقر ، كيف يكون ذلك وهي ما زالت هنالك !!

وعلى الفور راح يشرح مجمل المؤامرة التي حيكت ..

وهم مصدومون ، شاعرون بالغبن ، ثم بالظلم ثم بالغضب .. بعد ان انتهى تصايحوا محتجين هائجين .. الى ان اسكتهم متسائلا عما سيفعلون ؟!

وجموا حائرين ، ثم ارتعش صوت الجدة مكلوما :

ـ نفعل الصمت .

ـ تفعلون ماذا ؟!

نفعل الصمت ، الارض لهم والشجر لنا ، والصمت حكمة .

احتج العصفور ذو الحوصلة الصغيرة بأن هذه حكمة الخانعين ، فنقرته الجدة مؤنبة . ثم حدث ان تكلموا جميعا في ذات الوقت ، حتى تبرمت الشجرة وتضررت ، واستاء الغراب وطار الى فرعه العالي .. لكنهم عندما زمجر محرك الحوية ... رقة تنصتوا ، ورأوا الرجل ذا الشارب الكث يركب ا... ... السائق .. فقال العصفور ذو الريش الطويل :

ـ لنمنعها ، انها دليل الجريمة .

ـ ايها الغر الحالم كيف تمنع طيور صغيرة جبلا تحركه الة ؟!

تنقض جميعا على السائق ، بغتة واحدة ، تنقر وجهه تعض كفيه تدق على ام رأسه . بامكاننا ان نفقأ عينيه ، ونوقفه عاجزا عن القيادة ، او تنحرف العربة وترتطم وقد تنقلب ، وبهذا ينفضح الامر . زقزقوا مستخفين .. تحفز وفرد جناحيه في حماس القائد الجسور :

اتبعوني .

ثم انقض صوب السيارة المتحركة ـ اصاب الشلل اجنحتهم ـ اندفع كالمغوار نحو نافذة السائق ، دفعه بظهر كفه بعيدا ، شعر بالدوار ، صاح مثل الهمام يستحثهم ـ انتقل الشلل الى عقولهم ـ عاود الهجوم ، دار دورة ثم واجه السيارة ، كأنه يمنعها بجسده الغض ، صدمته ، في بحر من دمائه عام ، في النزع الاخير صاح : الثأر امانة يا خلان للحادثة التي جرت على صقر شلول .. ثم وطأته العربة ، قتلته ، سحقته ... استاء الغراب !!

ـ طائش معتوه !!

ناح العصفور الشاعر من فوق غصنه الوارف :

ـ عار عليك يا حديد تمشي فوق جسم الحر وتطأه !!

ابتعدت العربة تاركة الغبار ، حط صمت كريه على القرية ، دون تغريد العصافير من غير نقيق الضفادع ، بلا نباح الكلاب ، حتى الديوك حان اوان اذانها ولم تفعل !

قبيل الغروب حدث العصفور الشاعر نفسه : مات زميلي ذو الريش الطويل ، ومن واجبي ان اخلده والا فما فائدة ان اكون شاعرا ؟!... الم يتغن الناس بالحادثة التي جرت على السبع شرقاوي ؟.. سأمشي على نهج موالهم .

ثم كان ان قطع صمت الكآبة واخذ يدندن ، في خفوت ثم بصوت مسموع .. تنبهوا اليه تباعا وبدأ ينشد بزقزقة مشروخة : « يا ليل يا عين .. يا عين يا ليل » .

التفوا من حوله مطرقين بائسين ، بدأ يحكي عن الحادثة التي جرت على « الصقر شرقاوي » فانصتوا وتأثروا وبكوا ونهنهوا .. وعندما انتهى وعاد السكوت تنهدت الجدة ارتياحا :

ـ الآن اصبح للعصافير موال يتغنى عن بطل منها .

ثم صاروا يطالبونه بانشاده قبيل كل غروب ، وهو يلبي طلبهم .. لكن الغراب لاحظ انه يضيف في كل مرة تفاصيل جديدة لم تحدث ويروي اعمالا خارقة لم يفعلها زميلهم القتيل ... تعجب من امرهم ، صارت الحكاية خرافة !... كما لاحظ بعد اسابيع ان العصافير القريبة حفظت الموال وراحت تنشده ، تنقلته عنها زميلاتها البعيدة ، التي اسمعته بدورها الى العصافير الواقفة على اسلاك البرق والهاتف ، وهؤلاء بثوه من عمود الى عمود !!.. حتى ظن الغراب انهم روّوه شفاهة الى كافة جنسهم في جميع البلدان والنجوع .. فهز رأسه ساخرا :

ـ احلام العصافير !!

لكنه عندما تأمل ضآلة اجنحتهم وصغر مناقيرهم ادرك كم هم ضعفاء ، واشفق على بؤسهم ، وشعر نحو الاهالي اسفله بالمقت والبغض ، وقرر ان ينتقم منهم بأن يلتهم اكبر قدر من كتاكيتهم الذليلة ، وعندما تذكر تشاؤمهم من صنف الغربان زاد غله وكرهه لهم ، وتمنى لاول مرة في حياته ان يصبح هذا الاعتقاد حقيقة ، وان يكون لصوته فعل اللعنات المستجابة ، ولنظره سخط الابالسة والشياطين .. ثم فرد جناحيه طائرا فوق الدوار ، البيوت والزرع والزرائب صائحا بصوته الذي يكرهونه :

ـ اللعنة ايها الناس ها انذا احوم فوقكم نذيرا ، ابث الشؤم وانشره !

■ ■

مجيد طوبيا

حوار القراء

المعرفة التطبيقية

● وقف مدرسنا ـ يوسف خليل ـ جزاه الله خيرا أينما كان ، وبيده العدد الاول من « العربي » وقال هذا مولود جديد ، قادم من الكويت ، فاقرأوه .. ومن يومها ونحن نقرأ « العربي » . والناظر الى حركة الثقافة العربية ، يلمس اثر « العربي » في المجلات والصحف التي صدرت بعده .... فقد اعطت « المجلة » اسلوبها لكل المجلات التي جاءت بعدها ... ولقد كبرنا وكبر « العربي » ومازالت ثقافتنا ومعرفتنا نظرية ... اننا لا نشكو اليوم من قلة المجلات ...

فهناك سيل هادر من المطبوعات يغمر الاسواق اسبوعيا او شهريا ..

لماذا لا تأخذ « المعرفة التطبيقية » طريقها في المنشورات التي تحمل الينا كل اسبوع ؟ لقد ظللت سنوات ارجو ان اجد يوما مقالا مثل « كيف تصبح تجارا ماهرا » .. او كيف ترسم مثلا ... او كيف تتعلم التصوير الفوتوغرافي ؟ ولكني لم أجده ....

مصطفى محمد ياسين
سكاكا / السعودية

« الام » .. والامام الشافعي

● استشهد فهمي هويدي في مقاله « هم أصحاب حق » في حديثه عن موضوع السير بكتاب (الأم) المشهور نسبته الى الامام الشافعي .

والحق ان هذا الكتاب رغم انه قد شاع الاعتقاد منذ عدة قرون بنسبته الى الامام الشافعي نظرا الى انه يبسط مذهبه وفتاواه .. الا ان الحقيقة هو ان الكتاب لم يكن من تأليف الشافعي او تصنيفه .. بل كان ذلك من احد تلاميذه وقد اثبت هذه الحقيقة أديب العروبة الدكتور زكي مبارك في مقال له في احد اعداد جريدة « البلاغ » المصرية انذاك ... وقامت بينه وبين المعاصرين حينئذ بعض المشادات الادبية حول تحقيق هذا الموضوع .

وقد نسق الدكتور زكي مبارك هذا الموضوع في كتيب من كتبه في مارس عام ١٩٣٤ وصدر اخيرا من مطبعة المكتبة العصرية في صيدا بلبنان .. وقرر فيه ان كتاب « الام » من تأليف أبي يعقوب البويطي احد تلاميذ الامام الشافعي النجباء ... واذا كان المؤرخون قد درجوا منذ عدة قرون على ان هذا الكتاب هو للامام الشافعي تأليفا او تصنيفا ، فمن الثابت الآن عدم صحة هذه الدعوى .

عبد الله عبد الكريم المشارى
الرياض / السعودية

الشباب المسلم

● تعقيبا على مقال الدكتور احمد كمال ابو المجد الذى نشره العربي في عدد ابريل / ٨١ تحت عنوان « اربعة وجوه لمأساة الشباب المسلم » اقول ان مأساة الشباب المسلم اليوم ليست في فكرهم ، وانما في موقف الآخرين نحوهم ، فلماذا لا نستثمر صلاحهم واستقامتهم وبعدهم عن المعاصي وتفوقهم الدراسي ... لماذا لا نفتح قلوبنا لهم .. ونعطيهم الامان والثقة في الفكر وفي التعامل ، حتى يجلسوا الينا ويرغبوا في الحوار معنا ، وحينئذ يمكن الوصول الى تصحيح الافكار وسلامة الوصول الى القرار .

سليمان ابراهيم سليمان
المجلس الاعلى للفنون والاداب ـ القاهرة

نداء من المغرب

● نشكو نحن المغاربة من التأخير الطويل لمجلتنا والذي يدوم شهرا كاملا .. وهذا كما تعلمون يحرمنا متعة القراءة كما يحرمنا من الاشتراك في المسابقة .

نأمل ان تصلنا المجلة في اول كل شهر دون تأخير .

امنيي رشيد
طنجه/المغرب

المحرر : نضم صوتنا الى صوتك !

امريكي يتحدث

● يقول الكاتب الامريكي جيم تيلور مؤلف كتاب « بيرل هاربر » « ان الرئيس الامريكي رونالد ريغان وحكومته يعتبرون العرب قوما لا اهمية لهم ... الامريكيون مندهشون كيف ان العرب لا يقدرون على استعادة بلادهم ..

ويستطرد الكاتب الامريكي فيقول : ان الطريق الوحيد لاستعادة العرب لبلادهم هي اثارة القلاقل في الضفة الغربية وقطاع غزة حتى يحترمهم الغرب . »

كلام بسيط واضح ولكن هيهات ان يدرك العرب اهمية نسيان مشاكلهم الخاصة مؤقتا وتوحيد صفوفهم لخلق قوة تستطيع ان تعيد الحق الى نصابه وتفرض على الآخرين احترامهم . القوة معيار الحق في هذا الزمان ... ولن تملك الامة العربية ناصية القوة الا اذا اتحدت .

اكرم الناصر
عمان/ الاردن ـ وادى السير

انهم سيف الاسلام

● حول ما كتبه الاستاذ فتحي رضوان في عدد فبراير / ٨١ من العربي تحت عنوان « مشكلات طرحت منذ خمسين عاما اود ان اسجل هنا جواب فضيلة شيخ الازهر الشريف عندما سئل فضيلته من هم الدروز ؟ فاجاب ان الدروز فرقة اسلامية من الشيعة الباطنية لها في الجهاد والدفاع عن حوزة العروبة والاسلام ما ليس لفرقة اسلامية اخرى .. وهذا معنى قول شيخ الأزهر انهم سيف الاسلام .

اسعد صبر الاعور
قرنايل / لبنان

« نوبل » .. والسياسة

● قرأت في العربي العدد ٢٦٧ فبراير ١٩٨١ وفي باب « حوار القراء » للاخ كمال بلكين من العراق ما يلي : « والحقيقة ان هناك ادباء ومفكرين في تركيا الاسلامية وصلوا الى مراتب عالمية كالروائي يشار كمال الذى نال جائزة نوبل » ، اكتفي بهذا القدر لاقول للاخ كمال بلكين من اين جئت بهذا النبأ ؟ ان الروائي التركي (ياشار كمال) وليس يشار كما تقول لم يفز حتى الآن بجائزة نوبل للآداب وهنا أورد مقطعا من حوار مع الروائي التركي الكبير عزيز نيسين اجراه معه محمد نور الدين في مجلة المسيرة اللبنانية/ يقول عزيز نيسين : « ان ياشار كمال روائي جيد وروياته ممتازة ولكن هناك كتاب آخرون . لقد تعب ياشر كمال من أجل أن ينال جائزة نوبل لكني لست معه في هذا الطموح وهذا التعب . ان هذه الرغبة الموجودة عنده لا احبذها ، فالكتاب الذين نالوا جائزة نوبل لا شك بانهم كبار ولكن هناك الكثير من الكتاب الكبار الذين لم ينالوا الجائزة ، ان نيل الجائزة شيء هام ولكن عدم نيلها شيء هام ايضا » ... ويجب الا ننسى ان الدوافع السياسية تلعب دورا كبيرا في منح الجائزة لهذا الكاتب او ذاك .

شيخموس العلي
سورية/ المسكة

العرب والاتراك

● عطفا على ملاحظات السيد وليد حسن الحلبي (العربي العدد ٢٦٨) « حوار القراء » ، اود ان اوضح انني عندما أشرت الى ثورة جبل الدروز وثورة الكرك عام ١٩١٠ نتيجة لقرار الدولة العثمانية باحصاء النفوس وجمع السلاح والتجنيد الاجباري - انما كنت اذكر حوادث تاريخية وقعت بالفعل ، ولم اكن اعطي آراء شخصية . ويؤسفني ان السيد الحلبي اخذ ذلك الانطباع الذي لم اقصد ان اعطيه ، ولم يخطر ببالي ان انكر على الدولة العثمانية حقها في القيام بالاصلاحات التي تراها ضرورية . ولكن في الوقت نفسه لم يخطر ببالي ان « أطوع » مفاهيم الناس في تلك الايام الى مفاهيم الناس في ايامنا هذه . ولنذكر ان تلك الاحداث وقعت قبل نيف ٧٠ عاما ، وان الناس في تلك الايام كانوا يرون في التجنيد الاجباري وجمع السلاح واحصاء النفوس تعسفا من الدولة يستدعي القيام بالثورة . اما الحديث عن « الاقليات » بهذه الصورة التعميمية فأمر مؤسف ، لان الدروز واهل الكرك عرب اقحاح ولهم في سجل النضال القومي تاريخ حافل .

سليمان موسى
عمان / الاردن

جواز قولهم « قد لا يكون »

● نشر الأستاذ « عباس خضر » في العدد ٢٦٩ ص ٥٦ من « العربي » القراء ما نصه « والتعبير » « قد لا يكون » يعد كذلك من الاخطاء الشائعة ، لان « قد » لا تدخل على النفي والصواب ان يقال « ربما لا يكون » .

ولكن التخطئة يرد عليها بما ورد في الشعر الجاهلي والنثر الفصيح واذا ما ثبت ذلك يجوز اذا استعمال العبارة كما هي دون تعديل .

(أ) يقول الاعشى ميمون :

وقد قالت قتيلة اذ رأتني
وقد لا تعدم الحسناء ذاما

(ب) ويقول النمر بن تولب :

واحبب حبيبك حبا رويدا
فقد لا يعولك أن تصرما

(ج) وفي الاقوال السائرة المثل المشهورة

« قد لا يقاد بي الجمل »

والملاحظ ان (قد) دخلت على المضارع المنفي بـ « لا » ، وبذلك يندفع قول من منع ذلك والدلائل واضحة ، ولا يجوز اضعاف الاستدلال به ، فارجو التنبيه .

عبد الجواد محمد الخضري
مصر

طاهر ابو فاشا

● في العدد الاخير من المجلة (٢٦٩) وفي مقالة الاستاذ طاهر ابو فاشا الذي عاد بعد غياب طويل يكتب على صفحات العربي القراء وجدنا المادة الأدبية الدسمة ، فهل يشبعنا الاستاذ طاهر ابو فاشا بكتاباته الرائعة ام سيتركنا في صراع مع الانيميا التي تجتاح دنيا الادب !!

عبد الرحمن محمد عوض
القاهرة / جمهورية مصر العربية

« ان ما توصل اليه اوجستو بول شديد الروعة ، شديد الاصالة ، شديد التحطيم للمألوف بدرجة تجعلني لا أتردد في وصف كتابه بأنه اهم مؤلف نظري في المسرح الحديث ـ اصدر هذا الحكم دون ان اعاني قصورا في الذاكرة فيما يتعلق بكل من استانسلافسكي ، وآرتو ، وجروتوفسكي . »

جورج ويلوارث

حاجتنا الملحة الى امعان النظر داخل ذواتنا وتقليب صفحات تراثنا ونشرها وبعثها واستلهامها ، والتواصل المستمر والملح بين ابداعاتنا الثقافية في كافة اقطار الوطن العربي ، لا تقل عن حاجتنا لمتابعة كل ما يدور في العالم الخارجي ، ويضاف الى التراث الفكري شرقيه وغربيه .

واذا كانت هناك جهود تبذل في كل هذه المجالات ، لاشك انها بحاجة الى المزيد من الانتشار والتكثيف والتعميق ، فان هناك عالما بأسره ، نكاد نهمل ثقافته اهمالا تاما ، وهو العالم الثالث ، بالرغم من شدة التشابه بيننا وبين غالبية اقطاره في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية في مختلف الظروف التاريخية والاوضاع والاهداف الراهنة والمستقبلية ، وبالرغم من اصالة تراث معظم شعوبه ، وخصوبة تجاربها واجتهاداتها الحديثة للخروج من مرحلة التخلف مع الحفاظ على اصالتها القومية ، وبخاصة في مجالات تعليم الكبار وتنظيم الاسرة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وغير ذلك مما نحن في اشد الحاجة الى متابعته والافادة منه .

ومن الغريب ان يكون العالم الغربي المتقدم احرص منا على متابعة ثقافة العالم الثالث ، التي نحن جزء منها ، ودراستها والافادة منها وتمثلها ، بحيث لا نكاد نعلم شيئا عنها الا عن طريق القنوات الغربية .

واضرب لذلك مثلا واحد مستمدا من المسرح ، وهو موضوع حديثنا ، فقد عرف المسرحيون العرب الكاتب والمخرج الالماني بيرتولت برشت وتأثر الكثيرون منهم بمذهبه في الاغراب او التغريب ، ولكن قلة منهم هي التي تعلم انه استمد اهم مقومات هذا المذهب من المسرح الصيني القديم ، واننا حين نهمل اصول هذا المسرح القريب منا ، ونتلمس بعض آثاره عند برشت او غيره من الاوربيين نصبح كجحا الذي يأبى ان يصل الى اذنه من اقرب طريق ، بل يلف ويدور .. وقد لا يجدها في النهاية .

وما ينطبق على برشت يصدق ايضا على هذا الكتاب الهام الذي نعرف به اليوم ، فلو لم يهتم به الدارسون الغربيون ، ويترجم من الاسبانية الى الانجليزية لما سمعنا به !

وترجع اهمية الكتاب الى ان مؤلفه قد جمع بين خصائص رجل المسرح العملي ، فهو مخرج ومؤلف وممثل ومدير فرق مسرحية عديدة ، والمنظر المتعمق في فهم تاريخ المسرح العالمي في مختلف مراحله واتجاهاته ، وانتهى من ذلك كله الى الايمان بأن المسرح سلاح سياسي خطير يمكن ان يوظف في خدمة الشعوب ، كما استخدم كثيرا في قمعها والسيطرة عليها ، وهو يواجهنا بهذه الحقيقة الاساسية في السطور الاولى من كتابه :

« يحاول هذا الكتاب ان يوضح ان كل مسرح سياسي بالضرورة ، لان كل انشطة الانسان سياسية ، والمسرح واحد من هذه الانشطة . واولئك الذين يحاولون فصل المسرح عن السياسة يحاولون تضليلنا ، وهذا نفسه موقف سياسي . »

واذا كان الكتاب في اجزائه الاولى عبارة عن تحليل نظري لكتاب « فن الشعر » لارسطو واهم اتجاهات المسرح الاوربي والسينما الامريكية ، فانه في جزئه الاخير تسجيل لتجارب المؤلف العملية في توظيف المسرح ضمن الحملة القومية لمحو الامية في جمهورية « بيرو » بأمريكا الجنوبية ، ثم في انشاء « مسرح الساحة » بسان باولو بالبرازيل ، مع شرح العديد من التجارب والتدريبات والالعاب المسرحية التي اسفرت عنها هاتان التجربتان الهامتان .

ويعتبر « مسرح الساحة » البرازيلي من اهم المسارح التي عرفتها امريكا اللاتينية ، بدأ في الخمسينات ، واستمر بالرغم من المعوقات والقيود التي فرضها عليه الحكم العسكري ابتداء من سنة ١٩٦٤ ، وقبض على اوجستو بول سنة ١٩٧١ ، وعذب في

السجن ، ثم افرج عنه بعد ثلاثة اشهر وقضت المحكمة ببراءته ، ولكنه اضطر لمغادرة البرازيل ، وتكرر نفس الشيء في بوينس ايرس بالارجنتين ، فلجأ الكاتب الى البرتغال حيث يعيش الآن .

« عدالة » .. عدم المساواة !

في البداية كان « المسرح » ناسا يغنون بحرية في العراء ، والعرض المسرحي صنعه الناس من اجل الناس . كان احتفالا يشارك فيه الجميع بحرية تامة . ثم جاءت الارستقراطية فانشأت تقسيمات : البعض يدخلون المسرح ، ولا يسمح بالتمثيل لسواهم ، في حين يظل الباقون جالسين ، مستقبلين ، سلبيين ـ وهؤلاء هم المتفرجون ، الجموع ، الشعب .

ولكي تضمن الارستقراطية ان يعكس العرض المسرحي الايديولوجية السائدة انشأت تقسيا آخر : بعض الممثلين يصبحون ابطالا (وهم من الارستقراطيين دائما) ، اما الباقون فهم الجوقة التي ترمز للجماهير .

والمأساة عند « ارسطو » .. تحاكي الفعل والحياة ، والسعادة والشقاء من نتائج الفعل .. والناس يكونون سعداء او غير سعداء بسبب افعالهم .. »

ويعود المؤلف الى كتاب « الاخلاق » لارسطو ليجد ان اقصى درجات السعادة تتمثل في العدالة ، وان العدالة هي المساواة .

ولكن مفهوم المساواة مختل عند ارسطو ، فقد رفض قانون القصاص العادل (العين بالعين والسن بالسن) ، لان الناس غير متساوين في الواقع ـ في نظره ونظر مجتمعه ، ومن ثم فان عيونهم واسنانهم غير متساوية . فعين العبد لا تساوي عين السيد ، وسن المرأة اقل قيمة من سن الرجل .

ومصدر الخلل عند الفيلسوف الكبير انه يسأل : هل ينبغي ان نبدأ بالمبادىء المثالية المجردة ، ثم نهبط الى الواقع ام العكس ، اي ننظر في الواقع القائم ثم نصعد منه الى المبادىء ؟

ويأخذ ارسطو بالاسلوب الاخير ليسلم بـ « عدالة » عدم المساواة القائمة فعلا ، دون ان يخطر بباله امكانية تغيير عدم المساواة . فما دام هناك في الواقع احرار وعبيد فهذا فهو المقياس الاول لعدم المساواة ، وكونك رجلا يجعلك افضل من المرأة .

ويترتب على ذلك ان يحتل الرجال الاحرار اسمى مكانة ، تليهم النساء الحرائر ، فالرجال العبيد ، ثم النساء العبدات في اسفل درك .

تلك كانت الديمقراطية الاثينية ، القائمة على مبدأ الحرية « المطلقة » ، ولكن لم تكن كل المجتمعات الاغريقية قائمة على نفس المقاييس ، فالاوليجاريكيات (وهي حكم القلة) تعتمد مثلا على القيمة المطلقة للثروة ، من يملكون اكثر يعتبرون افضل . فينبغي دائما ان تبدأ من الواقع كما يريد ارسطو .

وهكذا تنتهي الى ان العدالة ليست المساواة كما ذهب الفيلسوف الاغريقي في البداية ، بل العدالة نسبية ، ومقياس النسبية يحدده النظام السياسي المسيطر فعلا في المدينة ، ومن ثم فهو يختلف من مدينة لاخرى ، ويتكرس عن طريق القوانين التي يقوم بوضعها دائما السادة والاثرياء .

المأساة القمعية

وينتهي اوجستو بول بالاستعانة بكتاب « الاخلاق » الى تعريف ادق للمأساة كما فهمها ارسطو وهو :

« المأساة تحاكي اعمال نفس الانسان العاقلة ، وانفعالاته التي تحولت الى عادات ، خلال بحثه عن السعادة التي تتمثل في السلوك الفاضل ، البعيد عن التطرف . واقصى غايات السعادة هي العدالة المجسدة في افضل صورها في القوانين »

فان السعادة في التحليل النهائي تتمثل في اطاعة القوانين ، التي يضعها دائما الاحرار والاقوياء والاثرياء . وتلك هي رسالة ارسطو بعد حل رموزها .

واذا كان كل شيء على ما يرام بالنسبة لمن يقومون بوضع القوانين ، فماذا عن اولئك الذين لا يشتركون في وضعها ؟

من الواضح انهم سيتمردون ، ويرفضون قبول مقياس عدم المساواة الذي يقدمه الواقع الراهن ، طالما كان هذا المقياس قابلا للتعديل شأن الواقع نفسه . لذلك فان الطبقة الحاكمة تحرص دائما على ان تبقى هؤلاء المتمردين سلبيين ، على الاقل فيما يتعلق بقبولهم لمقاييس عدم المساواة ، وتلجأ لتحقيق ذلك الى اشكال عديدة من القمع : كالسياسة ، والبيروقراطية ، والعادات ، والتقاليد .. والمأساة الاغريقية .

وقد تبدو هذه العبارة الاخيرة جريئة بعض الشيء ، فنهج المأساة الذي قدمه ارسطو ونظامها الوظيفي (وما زالت كل اشكال المسرح تتبع بناءه العام الى اليوم) ليس مجرد نظام قمعي ، بل تشترك في تكوينه عناصر اخرى جمالية » ولكن اوجستو بول مع تسليمه بهذه الحقيقة يرى ضرورة التركيز على الجانب القمعي لهذه النظرية ، وهو المتمثل في مبدأ « الكاثارسيس » او التطهير الذي تهدف المأساة بكل عناصرها الكيفية والكمية الى احداثه في نفس المتفرج .

الاندماج العاطفي

وفكرة التطهير المأساوي من اكثر تصورات ارسطو غموضا واكثرها اثارة للخلاف ، ولكن « س . هـ . بوتشر » قدم في كتابه « نظرية ارسطو في الشعر والفن » شرحا لما عثر عليه في كتاب « السياسة » لارسطو ، حيث استخدم كلمة « الكاثارسيس » للدلالة على الاثر المهدىء الذي يحدثه نوع معين من الموسيقى الصاخبة في تهدئة الاضطراب العقلي الذي يصاب به المرضى بالهوس الديني . ويقرر ارسطو ان المرضى الذين عولجوا بهذه الطريقة عادوا الى حالتهم الطبيعية ، وكأنهم تناولوا مسهلا ـ وهذا هو معنى « الكاثارسيس » او التطهير .

ويذهب هيبوقريطس الى ان « الكاثارسيس » هو التخلص من عنصر مؤلم او مزعج في التركيب العضوي ، ومن ثم يعود الجسم نظيفا صحيحا . وينتهي « بوتشر » من ذلك الى ان استخدام المصطلح نفسه في مجال المأساة يعني ان عاطفتي الشفقة والخوف اللذين تثيرهما المأساة في نفس المتفرج هما عنصرا الم وازعاج ، ومن ثم تحرص على ازالتهما عن طريق التطهير .

ويقر اوجستو بول هذا المنطق ، ولكنه لا يوافق على اعتبار الشفقة والخوف رذيلتين ومظهري ضعف جديرين بالاستئصال ، فارسطو نفسه لم يذكرهما ضمن الرذائل والاخطاء العديدة التي حصرها في كتابه « الاخلاق » ، وانما اعتبرهما كذلك في « فن الشعر » في اطار نهجه القمعي للمأساة الذي يلخص اوجستو بول آليته على النحو التالي :

يبدأ العرض ، ويظهر البطل المأساوي فينشىء معه الجمهور نوعا من الاندماج العاطفي . وتتوالى الاحداث ، وندهش حين نرى البطل يرتكب خطأ جسيا (يسميه أرسطو « هامارتيا ») وندهش اكثر حين نعلم انه بفضل هذا الخطأ او « الهامارتيا » توصل البطل الى حالة السعادة التي يعيشها . وعن طريق الاندماج العاطفي تستثار في المتفرج نفس « الهامارتيا » الكامنة فيه ، ولعله قاها ، او مارسها .

وفجأة يقع حدث يغير كل شيء ! تيرسياس مثلا يخبر « اوديب » انه هو نفسه ـ اي اوديب ـ القاتل الذي يبحث عنه) فاذا بالشخصية التي صعدت الى تلك القمة العالية بسبب « الهامارتيا » تتعرض للسقوط من هذا الارتفاع . وهذا ما يسميه « فن الشعر » التحول « وهو تغير جذري في مصير الشخصية . واذا بالمتفرج الذي استثيرت « الهامارتيا » الخاصة به يتزايد شعوره بالخوف .

ولكي لا ينفصل المتفرج عن الشخصية الدرامية عند تلك النقطة ، التي يتبعها اتجاهها عند الشقاء ، يرى ارسطو انها يجب ان تمر بما يسميه « التعرف » ، وهو اعتراف البطل بخطئه ، ومناقشته وشرحه ، ومن ثم يتقبله ، ويقر بفساده ، وهو ما يحدث للمشاهد ايضا عن طريق الاندماج العاطفي .

ولكي تثبت في ذهن المشاهد العواقب الجسيمة لارتكاب الخطأ بصورة عملية ، يطالب ارسطو ان تنتهي المأساة دائما نهاية اليمة يسميها « كارثة » ، والنهاية السعيدة غير مسموح بها .

هذه العناصر الثلاثة المترابطة (التحول ، والتعرف ، والكارثة) هدفها النهائي احداث التطهير (الكاثارسيس) في المتفرج بنفس القدر الذي يحدث للشخصية المسرحية او اكثر فيتخلص من خطئه الذي ارتكبه ، فيعد به عن سلوكه الفاضل الساعي نحو السعادة المتمثلة في الخير الاسمى ، وهو في نظر ارسطو ـ كما سبق ـ يتجسد في اطاعة القوانين .

فكأن هدف « التطهير » المأساوي هو تفريغ الشخصية من العنصر الدخيل غير المرغوب فيه الذي يعوقها عن بلوغ اهدافها . وهذا العنصر الدخيل معاد للقانون ، انه خطأ اجتماعي واثم سياسي .

« شارع سمسم »

هذا هو مضمون النهج القمعي للمأساة كما أوضحه المؤلف ، وقد ظل هذا النهج الاغريقي حيا ومستخدما بكفاءة عالية مع بعض التعديلات التي ادخلها عليه تطور الحياة الاجتماعية والسياسية عبر العصور التالية . ذلك ان ارسطو قد انشأ منهجا تطهيريا شديد الاحكام ،

هدفه استئصال كل ما يخالف المجموع قبل تحقيقه بما في ذلك الثورة ، ويظهر هذا المنهج باشكال متنكرة في التليفزيون والسينما والسيرك ، والمسارح . يظهر بأشكال ووسائل عديدة ومتنوعة ، ولكن مضمونه واحد لا يتغير ، وهو كبح جماح الفرد ، وجعله يتوافق مع الاوضاع القائمة .

فاذا كان هذا ما نريده ، فمنهج ارسطو يحققه بكفاءة تفوق اي نهج آخر ، اما اذا كنا على العكس نريد استثارة المتفرج ليغير مجتمعه ، ويصحح مساره ، ففي هذه الحالة علينا ان نبحث لنا عن نظرية اخرى .

ولقد كانت اهم محاولة في هذا السبيل هي التي قام بها بيرتولت برشت في مسرحه الملحمي الذي تابع فيها تجارب استاذه ارفين بيسكاتور في استخدام الافلام السينمائية ، والشرائح واللافتات ، والرسوم البيانية والموسيقى والغناء ، وكل الاليات والمصادر التي يمكن ان تساعد على توضيح الحقيقة التي يتضمنها النص المسرحي .

هذا التحرر الكامل في شكل العرض المسرحي ، وتضمينه كل تلك العناصر الغريبة عليه يهدف الى تحطيم حالة الاندماج ، وايجاد مسافة بين المتفرج والعرض . فبرشت لا يريد ان يترك المتفرجون عقولهم مع قبعاتهم قبل دخول المسرح كما يحدث عادة في المسرحيات التقليدية ، ولا يريد ان يخرج المتفرج وقد احس بالراحة والتوازن ، بل على العكس يريد ان يقلقه ويدفعه الى التفكير ، ومن ثم يفقد توازنه ، ليسعى الى استعادته عن طريق العمل الايجابي الخلاق .

ولكي نقدر اهمية الدور الذي قام به برشت في مجال المسرح يجب ان نفهم طبيعة الدور الخطير الذي يقوم به الاندماج في المسرحية والفنون المرتبطة بها في السينما والتليفزيون .

ان آلية الاندماج تتمثل في التداخل بين شخصين ، احدهما خيالي وهو الشخصية الدرامية والاخر حقيقي وهو المتفرج ، تنتهي بأن يتنازل الانسان الحي للصورة عن قدرته على الفعل واتخاذ القرار .

ونتيجة لهذه الالية استطاعت السينما الامريكية بأفلامها العاطفية « بريئة » المظهر ان تحدث تخريبا في عقول الجماهير يفوق بكثير ما احدثته بأفلامها السياسية المباشرة .

المتفرج بطلا

ونظرية مسرح المقهورين التي يدعو اليها اوجستو بول تعتمد على تجاربه العملية العديدة في مدينتي ليما وتشيكاليو بجمهورية بيرو ضمن حملة محو الامية سنة ١٩٧٣ ، وكان يصدر فيها عن الرغبة في تغيير الناس ، اي المتفرجين ، من كائنات سلبية تجاه الظاهرة المسرحية ، الى فاعلين او ممثلين ، وعناصر تغيير ايجابية للحدث الدرامي .

فاذا كانت نظرية ارسطو تعتمد على تنازل المتفرج عن فاعليته للشخصية الدرامية ، فان برشت لم يلغ هذا التنازل ، وانما احتفظ للمتفرج بحق التفكير لنفسه في اتجاه معارض للشخصية الدرامية . في الحالة الاولى يحدث تطهير ، وفي الاخرى يقظة وعي تقدي قد يؤدي الى العمل الايجابي خارج المسرح .

اما مسرح المقهورين فلا يتنازل فيه المتفرج عن فاعليته للشخصية الدرامية او الممثل الذي يؤديها ، ليتصرف ويفكر نيابة عنه ، بل على العكس يضطلع بنفسه بدور البطولة ، ويغير الحدث المسرحي ، ويحاول التوصل الى حلول ، ويناقش خطط التغيير ، باختصار يدرب نفسه على العمل الحقيقي .

وخطة تحويل المتفرج الى ممثل تتلخص في تعرفه على طبيعة جسده وامكاناته وقدراته على التأقلم من خلال سلسلة من التدريبات ، ينتقل بعدها الى استخدام هذا الجسد في التعبير مع اهمال وسائل التعبير الاخرى ، ويمارس اثناء ذلك مجموعة من الالعاب تحقق هذا الهدف .

ويقدم المؤلف اساليب ونماذج عديدة لتحقيق هذا المسرح ، كمسرح الجريدة الذي يعتمد على قراءة بعض الاخبار المختارة والتعليق عليها بمختلف وسائل العرض المسرحي ، كالالقاء الساخر والموسيقى الصاخبة ، والمسرح المتنكر الذي يعتمد على تقديم مشهد معد من قبل في مطعم او سوق ، بحيث لا يدرك المتفرجون انهم يشهدون تمثيلا ، ومسرح التخلص من القهر الذي يطلب فيه من المتفرج تذكر موقف بعينه احس خلاله بالقهر واضطر للخضوع لارادة اقوى من ارادته ، ويقوم بتمثيله مع من يختارهم من المتفرجين ، تمهيدا لتحليل المشهد ومناقشته .. الى غير ذلك من الاشكال والاساليب المسرحية .

وكل تلك الاساليب اشكال من التدريبات المسرحية ، نعرف كيف تبدأ ولكننا لا نعرف كيف ستنتهي . فالمتفرج وقد تحرر من سلبيته وقيوده وبدأ يمثل اخيرا دور البطل ، لا نستطيع ان نتنبأ بالآفاق التي سيبتكرها . على ان تلك التدريبات ما دامت تستجيب لاحتياجات حقيقية لدى الجماهير فانها تؤدي عادة بمرح وحماسة ونجاح كبير .

الفن والحب

ومن اهم ما حققته تجربة المؤلف في « مسرح الساحة » البرازيلي اسلوب « المعلق » ، او « الجوكر » ، الذي يعتبره الحصيلة النهائية لتجاربه السابقة ، واهم قفزة حققها مسرحه .

فاذا كان المسرح يفتقد اقبال الجماهير ، ولا يملك الموارد المادية الكافية ، ويفتقر الى العون الرسمي ، بالاضافة الى قيود الرقابة والضرائب التي تثقل كاهله ، فباستطاعة اسلوب « المعلق » ان يواجه كثيرا من هذه المشكلات .

فبتطبيق هذا الاسلوب يصبح من الممكن تقديم اي مسرحية بعدد ثابت من الممثلين بصرف النظر عن عدد شخصياتها ، ودون حاجة الى ديكورات ضخمة باهظة التكاليف . فممثلو الفرقة ينقسمون الى جوقتين : انصار البطل واعداؤه ، ولكل جوقة منها رئيس ، وباستطاعة كل ممثلي الجوقة الاولى ان يؤدوا اي دور مؤيد للبطل ، اي الادوار التي تجسد فكرته الرئيسية ، والشيء نفسه مع الجوقة المقابلة ، على ان يتزيى افراد كل جوقة بزي بسيط موحد مخالف لزي الاخرى .

اما « المعلق » فيخلق على خشبة المسرح واقعا سحريا ، يخترع حوائط وقصورا ، ويقيم معارك ، ويسير جيوشا .. وباستطاعته ان يؤدي بكلماته كل شيء ، بما في ذلك اداء دور البطل ، او غيره من الشخصيات ، اذا كان هناك ما يعوقها عن القيام بعمل معين .. بالاضافة الى قيامه بدور الشارح والمفسر والمعلق على الاحداث ..

ومن الواضح ان هذا الاسلوب الاخير وغيره من الاساليب والتدريبات المسرحية المبتكرة التي وصفها اوجستو بول في كتابه لا يمكن استيعابها او الافادة منها الا اذا تبناها مخرج قادر متحمس في مجال جماهيري متحرر .. ولكن هل يسمح القاهرون للمقهورين ان يصنعوا من مسرحهم ؟ تلك هي المشكلة العويصة التي لم يتعرض لها الكتاب ..

اما آراؤه النظرية فهي اقرب للتطرف ، وبخاصة فيما يتعلق بدحضه لنظرية ارسطو ، وهذا شأن كل صاحب نظرية جديدة تناقض النظريات المتوارثة السائدة . فاذا كانت مؤاخذاته على النهج الارسطي لا تخلو من صحة ووجاهة ، فلا ينبغي ان ننسى ان عظمة الفيلسوف الاغريقي تتمثل في قدرته على استخلاص المبادىء الدرامية من المسرحيات التي عرفها عصره ، وصياغتها في نظرية نقدية محكمة سيطرت على الفكر المسرحي الى يومنا هذا ، لان احدا لم ينجح بعد في تقديم نظرية اقوى واصدق منها .

وعلى الرغم مما قد يكون في نظرية ارسطو من سلبيات ، فلا شك ان كثيرا من كتاب المسرح قد ابدعوا وفقا لمبادئها ، وبالرغم منها ، روائع انسانية باقية على الزمن ، فليس كل المسرح العالمي قمعيا وسلبيا ، كما يقول اوجستو في مواضع عديدة ، بل ان السينما الامريكية ، التي تتفق معه في آثارها المخربة ، قد قدمت هي الاخرى روائع انسانية عظيمة تناصر المقهورين ، وتفضح القاهرين والمستغلين ، ذلك ان الفن الاصيل أكبر من كل تعميم وتقعيد .

لذلك فاذا كنا نرحب بهذه النظرية الدرامية الجديدة ، وندعو الى دراستها والافادة من تجاربها في اثراء مسرحنا وتطويره وعلاج سلبياته ، فاننا لا نتصور ان يعني ذلك اهمال كل روائع تراث المسرح العالمي والعربي ، او الاعراض عن تقديمها لجماهير مسرحنا المتعطشة لكل فن اصيل والمؤلف نفسه يقول :

« .. لاشيء يمنع جمهورا شعبيا من ممارسة اشكال المسرح الجاهزة . ففي بيرو استخدم كثير من الاشكال التي سبق تطويرها في بلاد اخرى ، وبصفة خاصة في البرازيل والارجنتين » .

وفي موضع آخر يقول :

« ان الفن اصيل في نفوس الناس جميعا ، وليس مقصورا على قلة ، ولذلك فالفن يجب الا يباع تماما كالتنفس والتفكير والحب . الفن ليس تجارة ، ولكن كل شيء بالنسبة للبورجوازية سلعة ، الانسان نفسه سلعة ، ومن ثم فكل ما ينتجه سلعة ايضا . وفي النظام البورجوازي يتحول كل شيء الى عهر ، يستوي في ذلك الفن مع الحب . »

وفي ذلك نحن معه الى آخر المدى . ■■

فؤاد دوارة

نزهة العقل الذكي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العدد بقطعها منه .. اما الكوبون المنشور فى أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضرورى ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التى مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد » ٢٧٢ ـ وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول سبتمبر (١٩٨١) .

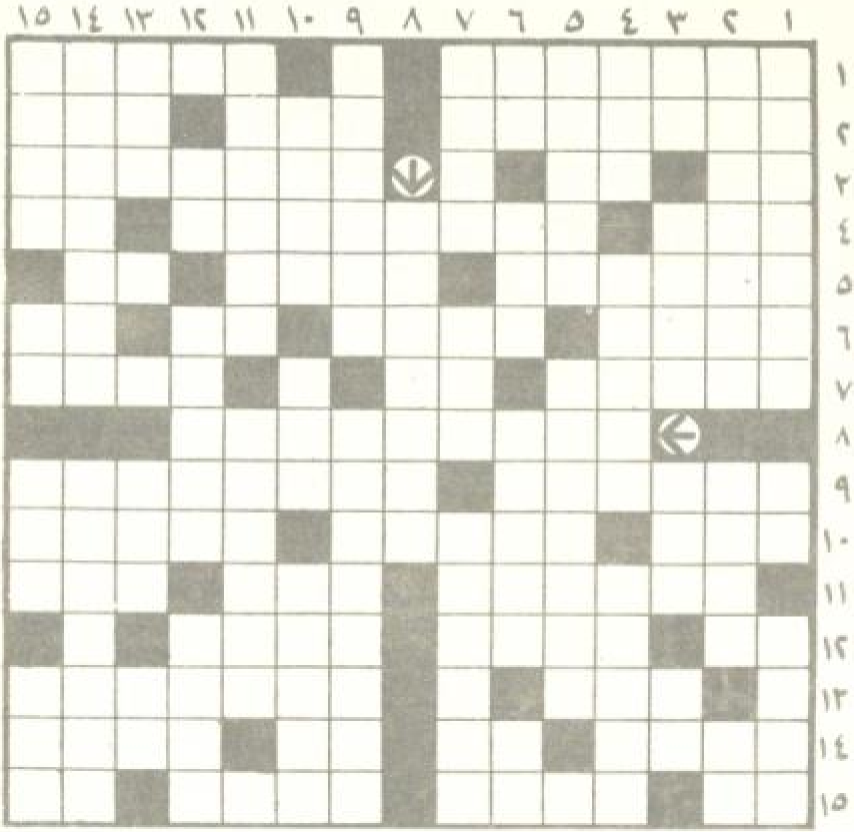
اثنتان فى واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد فى (٨) أفقيا اسم رياضى وفلكى اسلامى ، كما ستجد فى (٨) رأسيا اسم أديبة عربية راحلة .

كلمات أفقية :

(١) نوع من الأفاعى الأفريقية ـ فى الفم .
(٢) طاغية الثورة الفرنسية الذى مات على المقصلة ـ تجدها فى كلمة (لبلاب) ـ تأنق .
(٣) نما ـ من الاسماء الحسنى ـ ولاية أمريكية .
(٤) لهو ـ دويلة أوربية ـ نصف كلمة (سبيل) .
(٥) يرفضها ـ يقبل ـ فى العين .
(٦) اقترن . كسبت ـ نصف كلمة (عادت) ـ من أجزاء الذراع .
(٧) قطر عربى ـ مقام موسيقى ـ من الطيور .
(٨) رياضى وفلكى اسلامى .
(٩) امتحان ـ بطل قصة معروفة من تأليف سيرفانتس .
(١٠) من القوارض ـ مستعد ـ من الاسماك .
(١١) من الزهور ـ ألقى ـ قبيلة عربية معروفة .
(١٢) من الوالدين ـ ساحر ـ تصمت .
(١٣) رضاب ـ الدكتاتور الوحيد فى تاريخ انجلترا .
(١٤) رتبة عسكرية ـ فى الشطرنج ـ حرفان متشابهان ـ تقترب .
(١٥) أجاب ـ سكن ـ من الأشجار ـ كثير .

كوبون مسابقة العدد ٢٧٢



كلمات رأسية :

(١) عالم يونانى شهير عاش قبل الميلاد ـ لفظة ضيق ـ من الألوان .

(٢) أعلى صوت بين المغنيات من النساء ـ من الحلى ـ جذب .

(٣) حرفان متشابهان ـ سرور ـ تبصر ـ مقام موسيقى .

(٤) محا ـ فى الفم ـ كثيرة .

(٥) وحدة عرقية وسكانية ـ الفقر الشديد .

(٦) مقام موسيقى ـ حرف أبجدى ـ حيوان ـ حرف استفهام .

(٧) من الزهور ـ من الأشجار ـ من أشهر فلاسفة العرب بالاندلس .

(٨) أديبة عربية راحلة .

(٩) من فروع علم الاحياء ـ مكتشف جرثومتى الكوليرا والسل .

(١٠) دور ـ ثقل ـ سعيد .

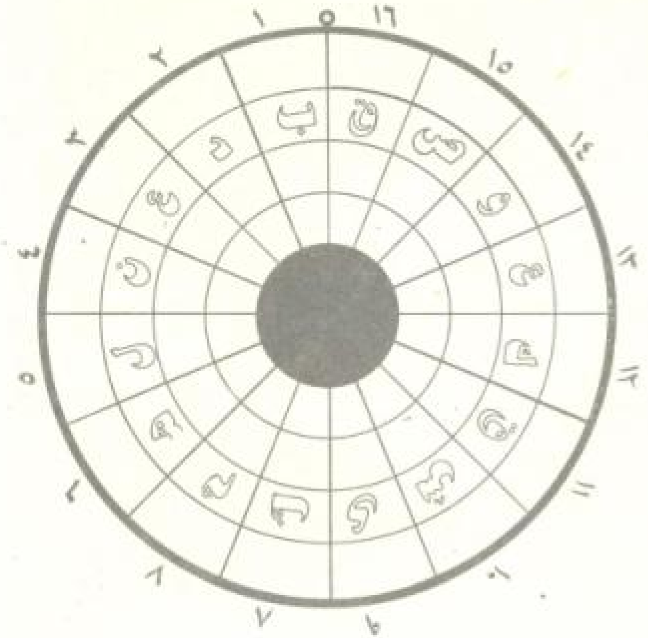
(١١) فى الجهاز الدورى ـ عاصمة المكسيك .

(١٢) نصف كلمة (مجود) ـ تبديل ـ محظر .

(١٣) حظر ـ غنى ـ رغب .

(١٤) من القارات ـ ولاية أمريكية .

(١٥) تعتمد ـ حيوان ـ من الالعاب الرياضية ـ عتاب .



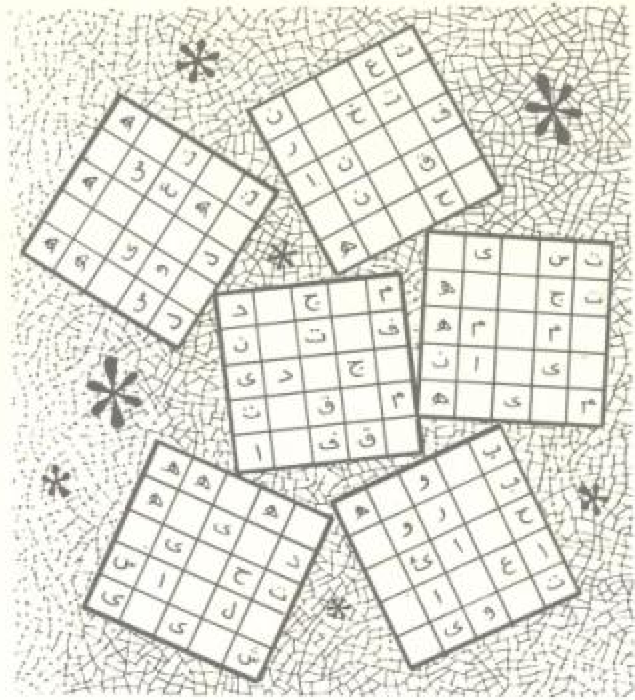
حول الدائرة السوداء

ضع الكلمات ذات الحروف الأربعة ، والتى تعطيك معانيها ، فى أماكنها وفقا للأرقام . يساعدك وجود الحرف الثانى من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

عالم ايطالى اخترع الترمومتر الزئبقي

(١) أشرع (٢) يعلم (٣) من الملابس (٤) توجع (٥) عند قمم الجبال العالية (٦) صوت الحصان (٧) ناعم (٨) نعوت (٩) عاصمة بيرو (١٠) سرت (١١) يعنف (١٢) أزيد (١٣) نحيا (١٤) عاصمة توجو (١٥) من أوقات النهار (١٦) أبعد .

العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات ثقيلة . فى كل مربع منها خمس كلمات أفقية ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة من المربعات الستة ، ثم رتب هذه الحروف ، لتصنع اسم عاصمة .

مثل عربى



أمامك مثل عربى ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة ، نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل فى موضعها . المثل يشير الى :

حسن اختيار الكلام ، ليناسب الوضع

الحلول

العواصم :

مقديشو .

حول الدائرة السوداء :

ايفنجلستا تورشيلى .

مثل عربى :

لكل مقام مقال


وست إند
تضبط الوقت بدقة . الرائدة في صناعة ساعات الكوارتز
WEST END WATCH Co
W
SWISS
اليوم تقدم وست اند
أكبر تشكيلة من ساعات
الكوارتز المصنوعة
بأحدث التصاميم
وأروعها
الوكيل العام يعقوب يوسف بهبهاني
ص.ب : ٣٣٤ - الصفاة - الكويت - هاتف : ٤٣٣٥٨٥ - ٤٢١١٣١

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت
يوليو - تموز
١٩٨١ م

الإسلام في الصين

تأليف :
فهمي هويدي

٢٥٠ فلساً

الكتاب الثالث والأربعون

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمى

سلسلة ثقافية

تصدرها فى مطلع كل شهر

وزارة الإعلام فى الكويت

أول يوليو ١٩٨١

١٤٢

المستر دولار

تأليف : برانيسلاف نوشيتس - ٣

ترجمة وتقديم : د. فوزى عطية محمد

مراجعة : د. سمية محمد عفيفى

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

مجلة فصلية محكمة ، تقدم البحوث الأصيلة والدراسات الميدانية والتطبيقية في شتى فروع العلوم الانسانية والاجتماعية باللغتين العربية والانجليزية .

تصدر عن جامعة الكويت

صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١م.

رئيس التحرير	**د. خلدون حسن النقيب .**
مدير التحرير	**عبد العزيز السيد أحمد .**

- أول مجلة عربية تصدر على مستوى عالمي وتتناول الجوانب المختلفة للعلوم الانسانية والاجتماعية بما يخدم القارىء ، المثقف والمتخصص .
- تتناول المجلة الميادين التاليــة :

اللغويات النظرية والتطبيقية – الآداب والآداب المقارنة – الدراسات الفلسفية – الدراسات النفسية – الدراسات الاجتماعية المتصلة بالعلوم الانسانية – الدراسات التاريخية – الدراسات الجغرافية – الدراسات التربوية – الدراسات حول الفنون (الموسيقى – التراث الشعبي – المسرح – الفنون التشكيلية – النحت .. الخ) – الدراسات الآثارية (الأركيولوجية) .

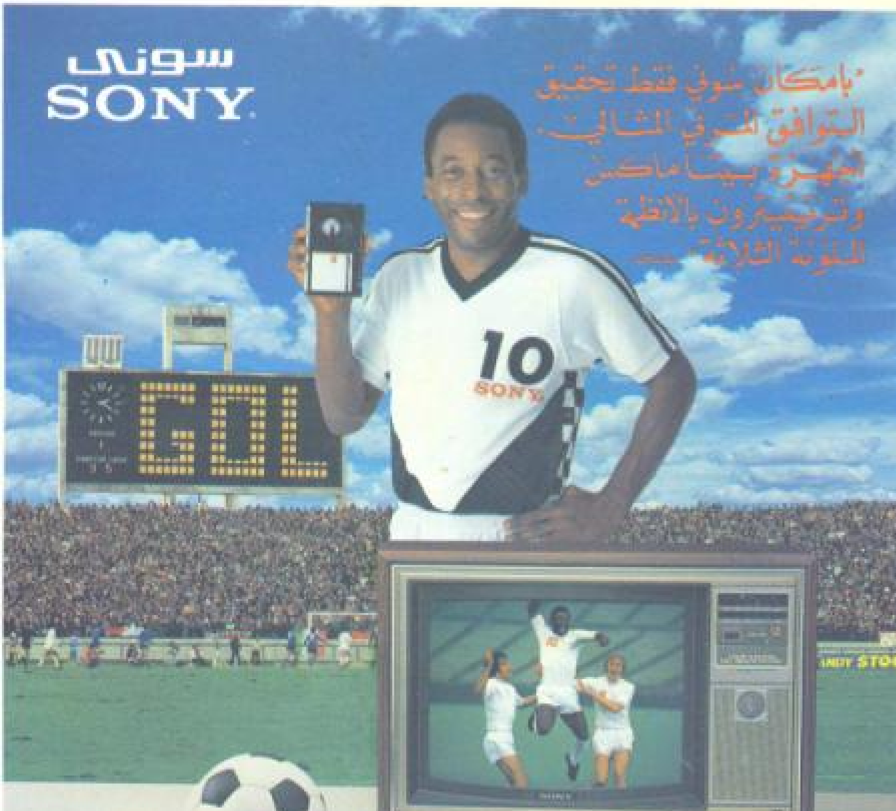
- تقدم المجلة معالجاتها من خلال نشر :

البحوث والدراسات – مراجعات الكتب – التقارير العلمية – المناقشات الفكرية

- مواعيد صدور المجلة : كانون ثاني – نيسان – تموز – تشرين أول
- تنشر المجلة ملخصات للبحوث العربية باللغة الانجليزية ، وملخصات بالعربية للبحوث الانجليزيــة .

ثمن العدد :	للأفــراد	٤٠٠ فلس
	للطــلاب	٢٠٠ فلس
• الاشتراكات السنوية	للمؤسسات	١٠ د.ك.
	للأفــراد	٢ د.ك.
	للاساتذة والطلاب	١ د.ك.

- تقبل الاشتراكات في المجلة لمدة سنة أو عدة سنوات .
- **قواعد النشر تطلب من رئيس التحرير .**
- **جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير** . ص. ب : ٢٦٥٨٥ (الصفاة) **الكويت – (الشويخ – ت : ٨٢١٦٣٩)**
٨١٧٦٨٩
٨٢٤٤٥٣


سوني
SONY
بامكان سوني فقط تحقيق
التوافق المرئي المثالي.
لأجهزة بيتاماكس
وترينيترون بالانظمة
الملونة الثلاثة .....
GOL
10
SONY
SL-T7
KV-2032ME
سوني بيتاماكس
Sony Betamax T7
Betamax

نعطيك العالم باكمله



Beta
β

شاهد كل شيء تريده بنظام بال/سيكام وَ ان تي اس سي ، وَتخطي كلّ مالاترغب في مشاهدته بآلية البَحث عَن الصُورة .

لافرق أن تحصل على أشرطتك من أيّ مكان في العالم ، فرنسا ، المانيا أو الولايات المتحدة الامريكية ، لأن بيتا سانيو يعرضها بشكل ممتاز وهكذا يستطيع حتى الطفل تشغيلها ببساطة .

بامكان ڤيديو سانيو VTC 9455 أنت يعمل في أيّ مكان من العالم آلية البحث عن الصورة تعمل على الأنظمة الثلاثة وبذلك تستطيع مشاهدة ماتريد وتخطي مالاتريد إضافة إلى مؤقت لمدة ٧ أيام وعداد الكتروني مع الذاكرة والتسجيل الصوتي والتحكم عن بُعد ونقاط توصيل الكاميرا . مع جهاز سانيو لكافة الأنظمة نعطيك العالم باكمله .

VTC 9455

GOLDEN SERIES
المجموعة الذهبية



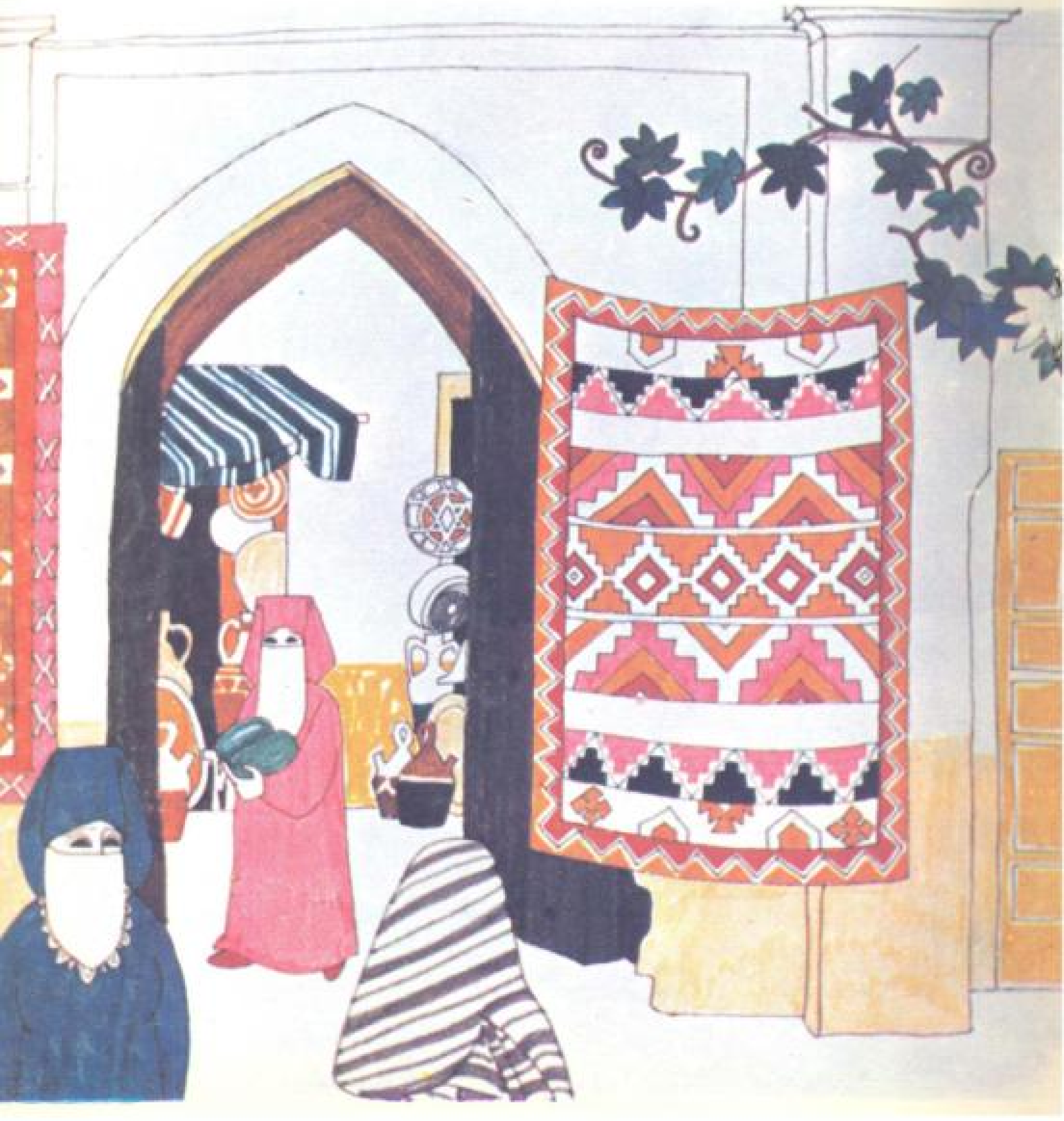
صنع هي الحياة

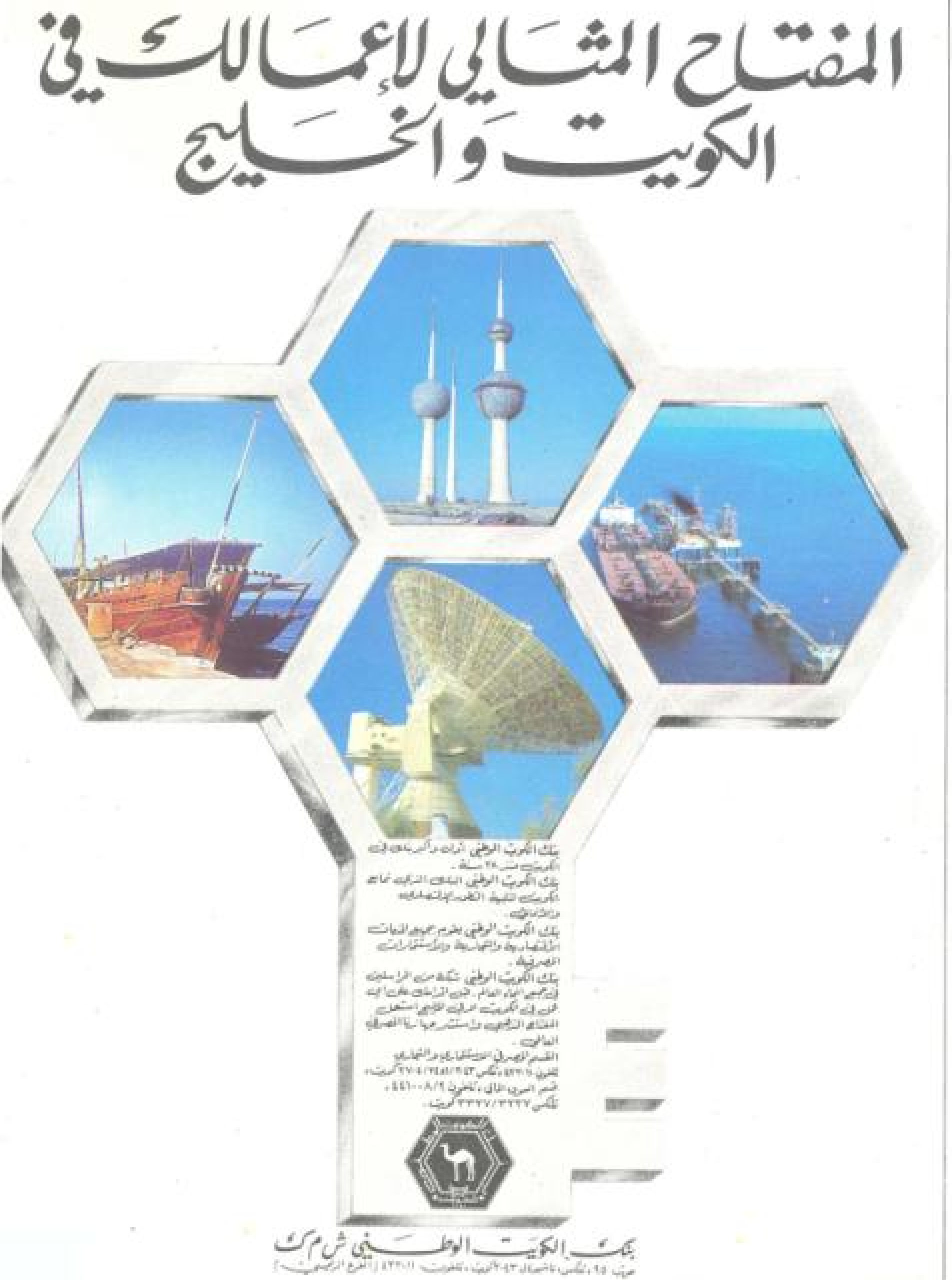
SANYO سانيو

العربي

شوال ١٤٠١ هـ أغسطس ١٩٨١

لوحات فنية متكرره .. معرض حي في الهواء الطلق ، انه الشارع المغربي .




المفتاح المثالي لأعمالك في الكويت والخليج
بنك الكويت الوطني ش م ك

عزيزي القارئ

يصل هذا العدد من مجلة العربي اليك ، مع ايام عيد الفطر المبارك ..

والسؤال هو : ماذا ترك شهر رمضان في نفوسنا وقلوبنا ؟ ..

هل كان شهرا صمنا فيه عن الطعام والشراب ، وكأنه مرحلة لا بد ان تمر بها شهرا كل سنة ، فلا يكاد ينتهي حتى نقول مع الشاعر

رمضـــان ولى هاتهـــا يا ساقي مشتاقـــة تسعـــى الى مشتاق
بالامس قد كنـــا اسـيرى طاعة واليوم من العيد بالاطـــلاق

ان رمضان ليس صوما عن الطعام والشراب . ولا هو مقصود به مجرد احتمال المشقة . انما كل مشقة في الاسلام لها حكمة ولها سبب . ومشقة الصوم البسيطة حكمتها ان يشعر من يجد بمن لا يجد . وحكمتها ان يروض الانسان نفسه على ارادة الحرمان . وليس الحرمان من الطعام والشراب فقط ، ولكن قلة الاهتمام باعراض الدنيا المادية . بكل انواعها ، وضبط النفس ازاء منزلقات الاغراء . واكتشاف القيم الاخرى غير المادية في الحياة . والاسلام يطلب من المؤمنين ان يحبوا الحياة وان يتمتعوا بما فيها . فهو ليس دين حرمان . ولكنه دين توازن واعتدال وحكمة . فهو يرغب في حب الحياة دون ابتذال . والتمتع بها دون اسراف . والتصرف في ظروفها دون جموح . ومن لم يعرف هذا ويتعلم لم يعرف رمضان .

ما نريد أن نقوله ان رمضان ليس شهر الفضائل بمفرده بين شهور السنة . انما هو اكثرها فضلا لانه يعلمنا او يذكرنا بما نكون قد نسيناه من اسلوب كريم امين في الحياة . انه وقفة بين شهور السنة ، لنتذكر ما يجب علينا ان نمارسه طول السنة من قيم واخلاقيات .. فيما عدا الصيام عن الطعام والشراب . الذى هو وسيلة لا غاية .

وسيلة الى تعلم تجنب الكبائر . والترفع عن الصغائر . والابتعاد عن الدس والفتنة والنفاق والانانية .. طول السنة ، وليس خلال الشهر الحرام وحده .

وكل عام وانتم بخير

« المحرر »



صورة الغلاف

● في مدينة مراكش عاش الفنان بهجت اياما يتسكع في شوارعها ويسجل بريشته وألوانه صورا من الحياة كما رآها بحسه المرهف. لماذا مراكش؟ « لأنني احبها، وأحن لها وأتمنى دائما أن أعود إليها؟ » (اقرأ أحاسيس بهجت ص ٦٨).

تربية وعلم نفس

تاريخ وشخصيات

استطلاعات مصورة

أبواب ثابتة

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير : أحمد بهاء الدين
مدير التحرير : فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من اراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ١١٠ فلوس ، الخليج العربي ريالان قطريان ، البحرين ٢٠٠ فلس بحريني ، العراق ١٢٠ فلسا ، سوريا ١٠٠ قرش ، لبنان ١٠٠ قرش ، الاردن ١٠٠ فلس ، السعودية ريالان سعوديان ، السودان ١٠ قروش ، ج . م . ع ١٠ قروش ، تونس ٢٥٠ مليا ، الجزائر ٢.٥ دينار ، المغرب ٢.٥ درهم ، اليمن ٢.٥ ريال ، ليبيا ١٥٠ درهما ، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ٢٠٠ فلس .

الاشتراكات : يراجع طالب الاشتراك :
١ ـ الشركة العربية للتوزيع وعنوانها : ص . ب (٤٢٢٨) بيروت/لبنان .
٢ ـ مؤسسة توزيع الأخبار وعنوانها : ٧ شارع الصحافة/القاهرة/مصر .
« للمشتركين في جمهورية مصر العربية »

الاعـــلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراســـلات : باسم رئيس التحرير
عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤١
تلغرافيا « العـــربي »

AL—ARABI. No. 273, August, 1981
P. O. Box 748, KUWAIT

أحمد بهاء الدين يعتذر عن حديثه الشهري ، لتغيبه في اجازة الصيف

هكذا يجددون حياتهم !

الديمقراطية على الهواء !

بقلم فتحي رضوان

في اعقاب ثورة باريس في ١٤ من يوليه (تموز) سنة ١٧٨٩ ، وما تلاها من ثورات في سنة ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ، ١٨٧١ ، سادت العالم ديمقراطية واحدة ، هي الديمقراطية الفرنسية ـ الانجليزية التي انتقلت الى الولايات المتحدة حينما ثارت على الانجليز سنة ١٧٧٦ ، ونفضت عن نفسها نير حكم الملك جورج الثالث .

وكانت هذه الديمقراطية ، سياسية ، او عرف الناس انها ديمقراطية سياسية ، بعدما تطورت الامور ، ونشأت انظمة جديدة للحكم ، بفعل نشوء مذاهب جديدة لم يسمع عنها الناس من قبل .

وقد كانت هذه الديمقراطية ، بسبب انها انصبت على اصلاح اساليب للحكم ، ولم تعن بما عداها . وكان الذين بشروا بها ، وعملوا لها ، وكتبوا في بيان مزاياها وفضائلها امثال جان جاك روسو ، ومونتسكيه (الفرنسيين) ، وهوبز ولوك البريطانيين ، يعتقدون انه اذا صلح حال الحكم ، واستقام الحاكم ساد العباد عدل حقيقي ، تتوفر بفضله الارزاق ، وتستقيم به الامور في الاسواق ، فتنحسر عن الناس حالة الضيق والفقر ، فلا يشكو احد جوعا ، ولا تحرم طبقة من طعام هنيء ، وبيت مريح ، وصحة سابغة .

الا ان مضي الايام ، اثبت ان هذا الحلم لم يتحقق منه شيء . فالديمقراطية السياسية كان الصوت الانتخابي ، اداتها ووسيلتها ، به تقوم ، وبغيره تسقط او على الاقل تذبل ، وتضعف ، فيطمع فيها الطامعون من اهل السلطة ، او اصحاب المال .



جان جاك روسو



الملك جورج الثالث

ذلك ان الديمقراطية قامت على اساس نظرية اهتدى اليها الخيالي، صاحب الاسلوب الجميل والتجربة الانسانية الفذة السويسري جان جاك روسو، الذي لجأ الى فرنسا، وعاش فيها واكتسب جنسيتها، لمجرد صدفة. فقد كانت كل المدن في الشرق والغرب، تحاط بأسوار عالية ومنيعة، يفتح فيها ابواب ثقيلة بمزاليج ضخمة، فاذا جاء الليل، اغلقت هذه الابواب فلا تفتح حتى تبدو في الافق تباشير اليوم الجديد، كل ذلك خوفا من عدوان المدن المجاورة، والعصابات المتجولة، والمسلحة، التي تتخذ من الغزو توطئة للسلب والنهب، تجاراتها وصناعتها، ومصدر رزقها، واساس جاهها، وقد خرج (روسو) من بلدته جنيف يوما لبعض شأنه، وعاد فاذا بابها العتيد، قد اغلق، ولم يجد عند حراسه، الاشداء، غلاظ الاكباد، اذنا تسمع، او قلبا يرق، فهام على وجهه، حتى وصل في ظهر اليوم التالي الى باريس، فدخلها، فطابت له فيها المعيشة، فأقام واستقر، حتى اضطر الى الفرار من باريس، حينما طلبته السلطة قبيل ثورة سنة ١٧٨٩، لانها اعتبرته مهيجا وداعيا الى الثورة.

بعدي الطوفان !

وفي الفترة التي هدأت فيها نفس (روسو)، تدفق قلمه بعدد من الكتب التي بقيت الى اليوم، تقرأ وتستعذب، وتلهم اهل الفكر، من الادباء والمشرعين، ورجال السياسة والحكم، والفلسفة والقانون منها ((اعترافاته)) الشهيرة، ومنها خطاباته الى (اميل)، ومنها كتابه (العقد الاجتماعي)، وفي هذا الكتاب تصور ان الانسانية في مرحلة من مراحل حياتها، رأت ما راه الشاعر العربي الذي قال :

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم سادوا

يعني ان الشعوب الاولى، بعد ان خرجوا من الكهوف، والتمسوا شيئا من المعرفة التي اثبتوها على حجر او جذوع النخل، وجريده، ليرثها من يأتي بعدهم، فيسد نقصها، ويقوم معوجها، وينفض عنها زيفها، في هذه المرحلة احسوا انه لا مناص من سلطة، تلزم الفاسدين، واهل البطش حدهم، وتحمي اهل الفقر والمشقة والضعف، وتقيم له اودهم. ولما كان الناس انذاك سواسية كأسنان المشط، فقد رأوا ان هذا الحاكم او تلك السلطة التي ستحقق لهم السلامة والأمن، وترسم لهم سبيل النجاح والتقدم، لن يستطيع ان يؤدي رسالته، الا اذا نزل كل منهم عن شيء من حريته الواسعة التي لا تحد، لتنشأ من هذا القدر الصغير الذي سيتبرع به كل فرد من الامة، سلطة، يلزم بها الناس قواعد، سيضعها لهم جميعا، لا يفرق بين فرد وفرد، ولا يميز بين عشيرة وعشيرة ـ وهذا الاتفاق، الذي انشأ السلطة، التي انشأت الحكومة، هو ما اسماه السويسري الفرنسي (الحالم) ((العقد الاجتماعي)). وبطبيعة الحال، لم يستطع ان يرشد عن تاريخ ابرم فيه العقد، ولا عن مكان ولد فيه، ولا عن صيغة كتب بها، وانما اطلق هذا القول، وكأنه حقيقة، قرأ لها وثيقة مكتوبة.

وكان الظلم سائدا في اوروبا، فقد كان الملك، في فرنسا مثلا اكبر دول اوروبا واعظمها حظا في الثقافة والاناقة والتعليم، ـ كان الملك في تلك الدولة يقول: (الدولة انا)، فيفخر الشعب كله، بهذه الكلمة، وتتمايل اعطافه زهوا، وخيلاء، اذ يحس ان الملك يمثله، وانه لا ينطق عن هوى، وان كلامه هو الحكمة وفصل الخطاب، ومن ثم فقد سمي لويس الرابع عشر ((الملك الشمس))، واصبح بلاطه، نموذجا يحتذى، بل ان فسقه وضلاله، كانا مثلا للملوك الصغار، في اطراف القارة واعطافها، يقلدونه ويحاكمونه، ولا يستطيعون ان يصلوا الى عشر معشاره.

وجاء بعده خليفته لويس الخامس عشر، فاحس ان الارض تميد تحت اقدام الملوك العتاة، فهز كتفيه في غير اكتراث قائلا: بعدي الطوفان.

وكأنما كان يقرأ في كتاب مفتوح، فان الطوفان جاء بعده حقا، اذ قامت الثورة، كالسيل الجارف لا تبقي ولا تذر، حتى خلعت رأس الملك لويس السادس عشر

وزوجته الجميلة ماري انطوانيت عن اكتافهما ، وألقت بهما في سلة وضعت تحت مقصلة ، لتستقبل عددا لا حصر له من رؤوس الامراء والاشراف ثم زعماء الشعب ، ثم قادة الرعاع ، ولم يكن ابو العلاء المعري قد ولد ، ولكنه قبل ذلك بقرون قال ، ما يصح وصفا لما يجري في هذه السلة اذ قال في داليته الشهيرة :

رب لحد قد صار لحدا مرارا
ضاحك من تزاحم الاضداد

ولكن الذي يهمنا ان الناس لشدة ما عانوا من الظلم ، لم يدققوا في كلام الحالم (روسو) ، ولم يسألوه من اتى بهذه النظرية البديعة ، واعتنقوها ، وروجوها ، وهم يروجون كتابه سرا ، والسلطات تتعقب المؤلف والقراء معا ، حفاظا على كلمتها النافذة ، وارادتها التي لا تنقضي . فان الشعب ، ممثلا في ملايين افراده الصغار المجهولين ، المجردين من السلطة والسيادة ، اسعدهم ان يكونوا مصدر السلطات ، وان يكون كل منهم صاحب نصيب في النفوذ والهيمنة التي تبسطها الحكومة على الدولة وارضها وسمائها وجيوشها وشرطتها والعاملين في خدمتها ، ومنهم الوزراء ، والمديرون ، الذين يتبدون في مواكبهم القاخرة ، وثيابهم الرائعة والحراس يجرون بين يديهم ، والحجاب يقفون ببابهم .

الردة الاولى

فلما قامت الثورة وضعت لنفسها بيانا او اعلانا ، ونقلت اكثر ما فيه من نصوص وبنود عن كتاب (جان جاك روسو) ، وكأن هذا الكتاب قد اعد ليكون انجيل الثورات ، يلهمها ويوهمها ، ويذهب بها الى ـ اقصى ـ ما تصل اليه شطحات الانسان ، الذي تضيق به الارض ، فيحلق بخياله في السماء .

ولكن حينما هدأت الفورة الاولى للثورة ، جلس المشرعون ليقننوها ، فوقعت الردة الاولى ، اذ كبر على هؤلاء الثوار ، الذين قطعوا رؤوس العهد البائد ، وكأنهم يقطعون الشر من اصوله ، كبر عليهم ان يصلوا في الواقع الى اقصى ما وصل اليه روسو في الخيال . فكانت نظرية (روسو) ان السلطة يجب ان تقسم على جميع افراد الشعب ، بغير نظر الى اصل او فضل ، ولا الى وظيفة او طبقة ، ولا الى مرتبة او مكانة ، ولا الى ثروة او نفوذ . وكان مقتضى هذه النظرية ان يكون لكل فرد في المجتمع صوت انتخابي مساو تماما للصوت الذي يتمتع به اكبر الناس بروزا في المجتمع ، واعظمهم حظا من المال والجاه . ولكن هذه المساواة ، ان كانت تمثل ثلث شعار الثورة (الحرية ، والمساواة ، والاخاء) ، اعتبرت في التطبيق دمارا للمجتمع ، اذ كيف يتساوى الجاهل ، بالعالم ، وكيف يتساوى صاحب المال الذي يحرص على استتباب الامور ، وحسن وسائل استثمار النقود ، بالمفلس الذي لا يهمه رواج صناعة ، او ازدهار تجارة ، اذ حسبه هو ان يجد لقمة تسد رمقه ، وجرعة ماء تبل عطشه ، ومكانا يأوي اليه ، ويحميه من المطر النازل ، او الحر القائظ ، ومن هنا حرم من الصوت الانتخابي ، كل من لا يملك عقارا ذا قيمة ، او كل من لا يؤدي ضريبة تبلغ كذا من الفرنكات ، او من كان خادما ، او سبق ان امتهن هذه المهنة .

وكان ذلك كما قلت الردة عن شعار الثورة ، او النكوص عن النظرية التي قامت عليها .

وكان لابد ان تقوم ثلاث ثورات متعاقبة ، جرت خلالها الدماء انهارا ، وسقطت فيها الوف الرؤوس ، حتى تحققت المساواة التي دعا اليها ـ (روسو) وقامت على نظريتها الثورة ، واصبح معروفا في ظل الديمقراطية السياسية ان الصوت الانتخابي هو سر الرفاهية ، وصلاح الاحوال ، واستقامة الامور ، وخضوع الحكام لرقابة الشعب .

وسارت دنيا السياسة على هذا المنوال زمنا رغدا ، والانتخابات تجري ، والحكومات تقوم ، وغيرها يسقط ، والناس جميعا ، او اكثرهم على الاقل ، يعتقد انه ليس في الامكان احسن مما كان ، حتى خرج على الناس ، يهودي الماني انتقل الى المسيحية ، بانتقال ابيه المحامي اليها ، واعني به كارل ماركس ، الذي هزأ من هذه الديمقراطية السياسية ، وقال ماذا يساوي الصوت الانتخابي ، اذا كان صاحبه جائعا ، ان صاحب هذا الصوت مستعد لان يبيعه لمن يدفع فيه ثمنا بخسا دراهم معدودات وهكذا الحال بالنسبة لجموع العمال في المصانع الكبرى ، فان عددهم كبير ، ولكنه كغثاء السيل ، حسبهم ان يتلقوا امرا من صاحب المصنع ، حتى يتدافعوا لتنفيذه يوم الانتخابات ، فاذا اشار عليهم صاحب المال ، ورب العمل : ان انتخبوا فلانا لم يتردد واحد منهم في الانصياع للاشارة والاذعان للامر . فنحسب نحن ان الصوت الانتخابي اشرك الشعب في توجيه امور الدولة ، وان القوانين لن تصدر الا اذا حققت مصلحة الجموع وجاءت على مقتضى حاجة الاغلبية ، والواقع ان هذه القوانين ، تصدر بناء على ارادة اصحاب الاموال ممثلة في المصانع والمزارع والودائع .



مونتسكيه

ومنذ ظهرت نظرية رأس المال القائمة على الواقع ، والرافضة للخيال والفروض ، تقلصت نظرية الصوت الانتخابي وسارت الامور ، في اتجاه جديد قوامه ما سمي بالديمقراطية الاجتماعية ، خلاصتها ان المساواة الحقة هي المساواة في الدخل ، والرزق والمال لا مساواة في الانتخابات وامام صناديقها .

أزمة الديمقراطية

وصاحب هذا التطور ، تطور آخر ، وهو عزوف الناخبين شيئا فشيئا عن الانتخابات حتى في بلاد الديموقراطية السياسية ، التي شهدت مولدها ، ولا تزال تؤمن به ، واعني بذلك بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا والولايات المتحدة الى جانب دول الشمال الاسكندناق .

ولعل عدم اقبال الناخبين على صناديق الانتخابات في بلادهم راجع الى ما وصلت اليه شئون الاقتصاد في الدنيا بأسرها الى درجة من التأزم والضيق بحيث لم يعد لها حل ، فمنذا الذي يعرف من خبراء الاقتصاد في أعظم الدول على كيف يعالج التضخم ، او الغلاء ، ومنذا الذي يستطيع منهم ان يقف في وجه غول البطالة الذي يتوخى سعادة مئات الالوف من عائلات العمال ، والحكومات لا تفعل اكثر من ان تمنح ضحايا هذا البلاء مسكنات كحبوب الاسبرين ، يهدا معها الالم حينا ولكن لا يزول .

ولا يشغل جموع الناخبين شاغل الا ظروف معايشتهم وما يستطيعون ان يحصلوا عليه ، بالدخل الذي يصل الى أيديهم . والحكومات لا تملك في كل انتخابات تجري الا بذل الوعود السخية لتحسين الحال السيئة . فاذا ما وصلوا الى الحكم تبخرت الوعود وبقي كل شيء على حاله . وقد اعيا مرض الديموقراطية المتمثل في السأم من الانتخابات ، وعدم الثقة في وعود المرشحين وضعف الاهتمام ببرامجهم لفرضوا العقوبات على الناخب المتخلف حينا ، وبحرمانه من بعض حقوق السياسة حينا اخر وبالتشهير به في دائرة سكنه او مقر عمله بنشر اسماء العازفين عن الانتخابات في قوائم تعلق في اكثر من مبنى عام بالدائرة الانتخابية .

وقد قال يوما جيرالد فورد رئيس الولايات المتحدة عقب انتخابات الرئاسة في بلاده ، ان الذي يحكم الولايات المتحدة هو ٢٢٪ من اصحاب الحقوق السياسية اذ ان الذين اشتركوا في اكثر الانتخابات اهمية ٤١٪ من الناخبين . واغلبيتهم هي التي اختارت رئيس البلاد .

ولقد حدث في بريطانيا ثم في الولايات المتحدة حدثان كانا من اكثر الاحداث في البلدين اتصالا بالديموقراطية فيهما .

ففي بريطانيا عرض على مجلس العموم اقتراح بجواز تصوير جلسات المجلس ومناقشات اعضائه وعرضها على شاشة التليفزيون وامواج الاثير ، في وقت واحد . وفي الولايات المتحدة صدر حكم المحكمة العليا بالموافقة على عرض المحاكمات الجنائية على الجمهور من خلال التليفزيون ايضا .

ولقد كانت مناقشة الاقتراح الاول في مجلس العموم البريطاني ، مناسبة هامة شغلت الرأي العام كله ، والمعلقين السياسيين في الصحف واساتذة العلوم السياسية في الجامعات ، لبيان ما انتهت اليه الديموقراطية في بريطانيا وفي الغرب كله .

وكانت ظاهرة قلة اقبال الناخبين على صناديق الانتخابات ، هي التي استأثرت بالتحليل والتعليق باعتبار ان الانتخابات هي حجر الزاوية في البناء الدستوري كله . فالانتخابات هي التي تخرج النواب ، الذي يشرعون للامة . والذين يراقبون الحكام ، والذين يقيمون الحكومات ويسقطونها . فاذا كان الذين يقومون بهذه المهام هم ممثلو قلة من الشعب . فان نظرية الامة مصدر السلطات وان كل شيء يرجع اليها ويصدر عنها ، هراء ، ولا نصيب له من الحق .

وقد اظهرت المناقشة ان ظاهرة اهمال الناخبين حقهم ، تصل الى مجلس العموم اى مجلس الشعب ، فان

النواب لا يحضرون الجلسات ولا يتابعون المناقشات ، ولا يساهمون في دراسة مشروعات القوانين ، بالقدر الذي يحقق سلطة الشعب حقا ويبسط رقابة النواب على الحكومة ويجعل التشريع صدى مباشرا لرغبات الشعب وميوله .

الخلاصة ان هذه المناقشة عرت النظام السياسي في بريطانيا تعرية كاملة . واشفق كثير من زعماء البلاد من ان تكون هذه التعرية فرصة ينتهزها خصوم الحريات السياسية من اليمين واليسار الى الفاشيست والشيوعيين ، ليطعنوا هذه الحريات ، طعنة صميمة تنتهي بالتخلص منها والقضاء عليها .

لماذا على الهواء

وقد برز بعض انصار الديموقراطية ليؤيد اقتراح اذاعة جلسات البرلمان ويقول انها ستدفع بكمية جديدة من الدم في عروق الديموقراطية البريطانية التي شاخت لثلاثة اسباب :

السبب الأول ، ان عدسات التليفزيون وامواج الاثير ، بجاذبيتها الشديدة ، ستقرب العمل السياسي من ابناء الشعب ، فبعد ان كانت متابعة أعمال مجلس البرلمان اي مجلس العموم واللوردات ، تقتصر على الذين يستطيعون الحصول على مضابط هذين المجلسين ، ممن تقتضي مصلحتهم هذه المتابعة كأساتذة الجامعات ، او اصحاب الاعمال الذين يتأثر نشاطهم بما يصدر من المجلسين من قوانين وقرارات ، او رجال السياسة والاحزاب الذين تمكنهم هذه المتابعة من تنظيم الحملات على خصومهم السياسيين ، والدفاع عن انفسهم ، ستصبح في متناول جميع الناس . ولا شك ان المنافسة بين الاطراف المتنازعين في المجلسين ، واساليبهم في الخطابة ، وطرائقهم في الاستنتاج والتحليل ، واساليبهم في المناورة والمداورة ، ستكون منصة عظيمة لافراد الشعب الذين اخلدوا الى بيوتهم بعد ساعات العمل واسترخوا ، فاسلموا انفسهم لتأثيرات صور التليفزيون التي تكشف لهم عن تفاصيل العمل السياسي ، وتقربها منهم ، فتتم المراقبة الشعبية حقا .

وذكر الدارسون اثرا متوقعا لعرض جلسات المجلسين على الشعب عن طريق الاذاعة المسموعة والمرئية ، هو اقبال النواب والشيوخ على حضور الجلسات ، لانهم سيرون صورهم على الشاشات في البيوت والمحال المختلفة والاندية وسيسألهم اصدقاؤهم وزملاؤهم ، وربما جيرانهم ، عن اشياء وقعت في الجلسات المعروضة ، فيخجلون ان يظهروا بمظهر المقصر والمتخلف عن اداء واجبه السياسي .

ويعتقد الفريق المؤيد لاذاعة جلسات المجالس النيابية على الشاشة وعن طريق الاذاعة ان آفة الانصراف عن الانتخابات وعدم الاهتمام ستقل كثيرا لان الناخبين سيحسون ان كل ما يجري في المجال السياسي ، معروض عليهم فانهم يدرون كيف يبدأ وكيف يتطور ، وحجج كل فريق . وان اسماء الساسة واشخاصهم معروفة لديهم وقريبة منهم قرب الفنانين الكبار والصغار الذين يشاهدونهم في السينما والتلفزيون والتمثيليات والبرامج المختلفة ... ويعجبون قطعا ببعض الشخصيات العامة ـ وسيحرصون على سماع خطبهم ، وعلى المناقشات التي يشاركون فيها .

الا ان بعض المتشائمين ، اشفقوا من اثر العرض التلفزيوني والاذاعي لجلسات المجلسين النيابيين ، وهولوا كثيرا جدا في مضار هذا العرض ، بل حذروا الامة من الموافقة عليه بحجة ان هذا العرض سيؤدي الى فساد الحياة السياسية افسادا كاملا ، اذ تتحول الحياة السياسية الى لون من العرض المسرحي ، وسيتحول رجال السياسة الجادين ، الذين كانوا يحرصون على عرض وجهات نظرهم في ايجاز ورصانة ، الى مهرجين ، او ابطال تمثيليات : ينافقون ويطيلون كلامهم ويزوقونه ويزخرفونه ، لكي يكسبوا اعجاب الشعب واعجاب الجنس اللطيف من هذا الشعب . وان فرص المزايدة والمبالغة ، ستزيد ، لان النواب والشيوخ ، بعد ان كانوا يتكلمون فيما يشبه قاعات الدرس والبحث في الجامعات ، بعيدا عن اعين الجماهير ، سيحسون بقرب الناس منهم ، فيجبنون عن ابداء الرأي الذي يغضب الشعب او يعرضون الاراء التي ترضي الناس ، ويميلون الى كل ما هو جذاب وشائق ومطلوب لدى الناس .

ولكن الذين يهمهم تجديد شباب الديموقراطية ، قالوا : دلونا على تجديد واحد لم تصحبه خسارة من نوع ما ، ولا سيما في البداية ، حتى اعظم الاقتراحات نفعا ، قاومها فريق من ابناء الامة واعتبروها نذير شؤم وخراب ثم تكيف لها الناس والفوها ومضت الحياة بفضل هذه التطورات والتجديدات اعظم رخاء ويسرا .

هذا جانب من حياة الامم الكبيرة السياسية ، ترينا كيف تركن هذه الحياة حتى تحتاج الى ما يحركها ، ويبعث فيها الدفء والحيوية ويصلها بالناس ، ويصل الناس بها ففي تأمل هذه التطورات ، ما يعيننا على اصلاح الامور لدينا .

■■

فتحي رضوان

« جاك بيرك ابو المستشرقين المعاصرين ، ومن اهم الذين كتبوا عن الاسلام والعروبة ، تقاعد هذا الشهر من عمله كاستاذ في الكوليج دي فرانس . واقيمت له حفلة كبرى وقد كتب الشاعر هذه القصيدة تحية له . »

يُوتوبيَا

الى جاك بيرك



فلنقل نحن هنا اندلسيونَ ،
فلا نطلبُ في الارضِ
سوى ما يطلبُ الحجّاجُ أبناءُ السبيلْ
ولنا مِن لغةِ الله كلامُ
نتهجّاه على تجعيدة الصخر ،
ونقرؤه مع الطيرِ هديلاً بهديلْ
وإتحدنا بالمسافاتِ ، وبالوقتِ ،
فما عاد لنا بدءٌ ،
وما عاد وصولْ
ولنا البرزخُ والمعراجُ فينا
واتصال القدم العاري بماء البحرِ ، أو بالرملِ ،
عشق ، وحلولْ
واكتشفنا وطناً في زهرة الدِّفلى ،
ووقتاً صافياً يرشح في الوديان ،
مِنْ كرِّ الفصولْ
ثمّ وجهُ الله ،
والكونُ الذي يمتدُّ ما بين امريءِ القيس الى لوركا ،
ومن دلفي إلى قبر الرسولْ
ولنقلْ إنّك شيخُ الوقتِ ،
فانهض ايها الشيخُ الجليلَ
آنَ للاندلسيينَ الرحيلُ !

باريس ـ أحمد عبد المعطي حجازي



الدكتور زكي نجيب محمود يكتب

الكتاب أولاً .. والكتاب آخراً

الوسائل الثقافية كثيرة ومتنوعة ، ولكل منها خصائصها المميزة ، التي قد يصدق عليها مالا يصدق على سواها ، برغم انها جميعا تنخرط في حياة ثقافية واحدة وموحدة ، كما تنخرط الخيوط المتعددة الالوان في رقعة واحدة من النسيج ، فقد يقال عن الالحان في الموسيقى مالا يقال عن الالوان في التصوير ، او عن الكلمات في التعبير الادبي ، ولكن تباين هذه الوسائل لايمنع ان تكون جميعها اجزاء متكاملة في كيان واحد ، هو الكيان الثقافي عند شعب من الشعوب .

على ان هذه الوسائل الثقافية ـ رغم تكاملها احداها مع الاخريات ـ فهي ليست متساوية في اقدارها من حيث سعة الانتشار وعمق الاثر وليس من شك في ان اداة « الكلمة » قد كانت في المقدمة بين سائر الادوات ، سعة انتشار وعمق تأثير ، وربما ساعدها على ذلك ، انها تجمع في طبيعتها كل الطبائع الموزعة على الوسائل الاخرى ، ففيها النغم ، وفيها التصوير ، او بعبارة اخرى ـ هي تجمع بين فن التعبير وفن التشكيل في ان معا .

ولشرح ذلك اقول : ان العمل الفني ـ على اطلاقه ـ اما ان يكون ذا طبيعة زمنية ، بمعنى ان القطعة الفنية لابد لها ان يمتد استعراضها لدى المتلقى فترة زمنية معينة ، كالمعزوفة الموسيقية ، او قصيدة الشعر او الرواية ، او المسرحية ، فهذه كلها اشياء لاتكفيها لحظة زمنية خاطفة ، ليلم المتلقى بكل اجزائها دفعة واحدة ، بل لابد لها من فترة تمضي منذ يبدأ سماعها او مشاهدتها الى ان ينتهي ، واما ان يكون العمل الفني ذا طبيعة « مكانية » ، وذلك عندما يكون معروضا كلية دفعة واحدة في رقعة مكانية واحدة ، وعندئذ تكفيه اللحظة من المتلقى ليعلم كل ماهنالك ، حتى ولو احتاج بعد ذلك الى تحليل العناصر المكونة له تحليلا متأنيا ، وذلك هو الموقف بالنسبة الى صورة ، او تمثال ، ولقد اصطلحنا على ان نطلق على ان العمل الفني ذي الطبيعة الزمنية اسم « الفن التعبيري » ، وعلى العمل الفني ذي الطبيعة المكانية اسم « الفن التشكيلي » .

وكل وسيلة من الوسائل الثقافية اما تقع في مجال التعبير او في مجال التشكيل ، الا « الكلمة » فهي

تشكيل وتعبير معا ، او قل انها مكانية وزمانية معا ، مما يجعلها ـ كما اسلفنا ـ اوسع الوسائل انتشارا واعمقها اثرا ، فقد يسبق الى وهم المتسرع ، بان الكلمة الواحدة المعينة ـ مثل قولنا « نهر » او « صحراء » او اية لفظة شئت ـ انما هي كائن واحد في عالم الواقع ، ذو شكل واحد وهوية واحدة ، ولكن وقفة قصيرة من النظر والتحليل ، تظهر لنا فروقا شاسعة بين صور اربع في حياة الكلمة التي عددها واحدة ، فهي في صورتها « المنطوقة » مصنوعة من موجات يهتز بها الهواء ، وفي صورتها « المسموعة » ذبذبات في جهاز السمع ، وفي صورتها « المكتوبة »كتلة من مادة ـ كالمداد او الرصاص او الطباشير ـ كاية كتلة مادية اخرى في الطبيعة ، ثم هي في صورتها « المقروءة » ذبذبات في جهاز الابصار ، وواضح ان لكل من هذه الصور مميزاتها الخاصة ، على ان هذه الصور الاربع ـ عادة ـ تقترن معا اثنتين اثنتين ، فاذا كانت « منطوقة ـ مسموعة » كانت ادخل في مجال التعبير ذي الطبيعة الزمنية ، واما اذا كانت « مكتوبة ـ مقروءة فهي عندئذ ادخل في مجال الفن التشكيلي ذي الطبيعة المكانية .

نقول هذا كله ، ليتهيأ به ذهن القارىء للمقارنة التي نجريها بين حياة الانسان الثقافية عندما تكون وسيلتها الاولى هي « الكتاب » ، وتلك الحياة عندما تكون وسيلتها الاولى اذاعة بالصوت وحده ، او بالصوت والصورة المرئية معا ، ولماذا نقارن ؟ لان بيننا اليوم من اخذ يتساءل فيم عناء الكتابة والقراءة في عصر اصبحت فيه اشرطة التسجيل الصوتي بهذا اليسر كله وهذا الشيوع كله ؟ فاجيبهم انا كاتب هذه السطور ـ بانه لاثقافة الا اذا كان كتاب ، اعني الا اذا كانت كتابة وقراءة ، لماذا ؟

لاننا ننظر في حياة الناس الثقافية كلها ، فلا نكاد نرى موقفا واحدا لايتضمن الكتاب (او قل « الكتابة ») بطريق غير مباشر حتى وسائل التسجيل الصوتي نفسها ، يندر جدا الا تكون مسبوقة بنص مكتوب ، قرأه قارىء ليتم التسجيل الصوتي ، يضاف الى ذلك ان عملية الكتابة والقراءة منطوية على خصائص ذات اثر في التكوين الثقافي ، مما يستحيل أن يتحقق لو اكتفينا بالصوت المسموع وحده وذلك لان العملية الرمزية التي تؤديها الحروف والكلمات والجمل ـ عندما تكون مكتوبة ثم مقروءة ـ تتضمن حركة عقلية لاتتوافر للانسان الا وهو في درجة عليا من درجات النماء والتطور ؟ واما الصوت وسماعه ، في قدرة الطفل منذ العام الاول بل هي قدرة في طبيعة الحيوان ، وحين يقول القائلون عن الانسان انه يتميز دون سائر الحيوان باستخدامه للرموز ، فهم انما يعنون رموز اللغة اول ما يعنون ، ثم هم يشيرون في تلك الرموز اللغوية الى الرموز المكتوبة المقروءة اول مايشيرون ، وذلك لان عملية الكتابة (فالقراءة) فيها من التحليل والتركيب اكثر جدا مما تتضمنه من ذلك عملية النطق (فالسمع) ففي وسع الطفل ذي العامين ان يسمع جملة كاملة ثم ينطق بها دفعة واحدة ، مع ان هذه الجملة نفسها لاتستطاع كتابتها الا بعد ادراك تحليلي لكلماتها وحروفها ، اي انه لابد من معرفة الاجزاء الاولية وطرائق تركيبها .

ونضيف الى فاعلية العقل في عملية التحليل والتركيب اثناء الكتابة والقراءة فاعلية عقلية اخرى ليس لها مايوازيها في التلقي عن طريق السمع الا الى حد ضئيل ، واعني بها ذلك الحوار الصامت الذي ينشأ بين القارىء والكاتب ، واما في حالة الاستماع الى اذاعة ، فالسامع اقرب الى واقف مرّبه قطار ، اطل من نافذته راكب يتكلم ، فاما سمعه ووعاه ، واما ضاعت منه الفرصة الى الابد .

ولم اقل شيئا عن المادة العلمية حين تكون متصلة ومستفيضة ، وحين تكون مكتوبة في ارقام ومعادلات واحصاءات وخرائط ، وحين يكون الموضوع عن فن التصوير والنحت والعمارة ، وحين يكون الكتاب معجما او موسوعة او اي مرجع اخر نلجأ اليه حينا بعد حين ... ولو كانت ثقافات الاقدمين في شرائط صوتية لامدونة في كتب ، فهل كان يمكن احياؤها ؟ الا ان الكتاب الكريم « قرآن » واولى اياته : اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم .. »

ايديولوجية الترجمة

بقلم : صلاح هاشم

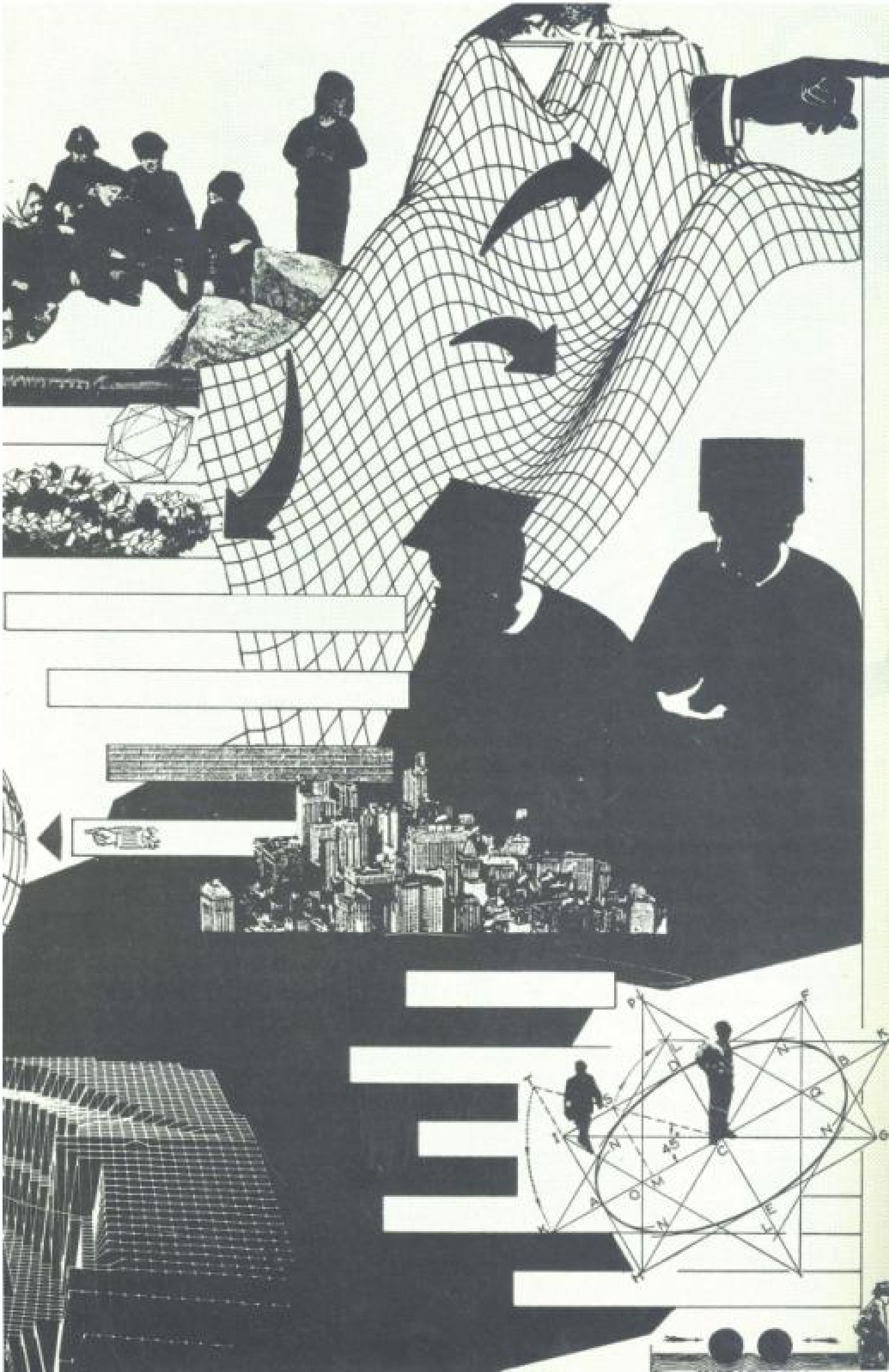
لماذا يجب علينا ان نكثف جهودنا في الاعوام القادمة لنقل العلوم الحديثة الى اللغة العربية ..؟

بالنظرة الى أن هذه المقالة تمثل دعوة ملحة الى اعتناق فكرة يتمنى لها ان تحظى بانتباه المسئولين والمثقفين في الاقطار العربية ، فقد ارتأيت طرحها على هيئة نقاط (theses) على غرار ما كان يفعله المفكرون الاوربيون في القرن التاسع عشر بهدف تركيز الفكرة وترسيخها في النفوس . »

أولا : لقد اصبح كوكبنا هذا عالما واحدا نتيجة للثورة الكبرى في وسائل الاتصال وتبادل المعرفة البشرية التي حدثت في القرن العشرين ، بحيث لم يعد في مصلحة مجموعة بشرية في الوقت الحاضر ان تنطوي على نفسها وتقف بمعزل عن بقية العالم الا اذا ارادت أن تحكم على نفسها بالزوال . ويفرض هذا علينا ان نتخلص من اية فكرة تقول باننا شعب له مصيره الخاص به ، مما يدفعنا الى اتخاذ موقف سلبي من بقية البشرية والطريقة الى التقريب بيننا وبين الشعوب الاخرى هي الاعتراف بان التراث الحضاري للبشرية تراث مشترك ، حدث وان اسهمنا فيه في الماضي ، وانه الرباط الوثيق الذي يربطنا ببقية الانسانية .

ثانيا : لا مماراة في ان الانفجارة العلمية الحديثة انما تدين بها البشرية للغرب (مضافا اليه المعسكر الاشتراكي واليابان) غير انهم لم يحصلوا على هذه المعرفة من العدم بل كانت نتيجة لما ورثوه هم ، الشعوب السابقة ، ثم طوروه وزادوا عليه زيادة كبرى في القرنين الاخيرين دفعت بعجلة التقدم شوطا بعيدا الى الامام فحدثت الانفجارة العلمية والتقنية التي تعيشها البشرية الان .

ثالثا : ورغما من تقدم الغرب واحتكاره للعلم والتقنية في ايامنا هذه فليس هناك ما يمنعنا من اللحاق به بل والتفوق عليه في المستقبل ، لان المعرفة البشرية ليست وقفا على شعب دون اخر . ولكن الاضطلاع بمحاولة تشبه الطفرة التي قامت في اواخر القرن التاسع عشر لربما احتاج الى طاقة قد لا نستطيع تجميعها في فترة تاريخية محددة ، ولكن لا حياة مع اليأس خاصة وان عددا من الشعوب العربية يتصرف في هذه اللحظة في ثروة كبيرة من عائد النفط قد تعاون في تحقيق هذا الهدف في المستقبل غير البعيد . واذا كانت حفنة من الصهاينة توالي اعتداءاتها علينا دون ان نقدر على ايقافها . فما احرانا وقد تهيئت لنا الان الامكانيات ان نعبيء الجهود للقيام بمحاولة اخيرة صادقة كتغيير اسلوب حياتنا وتفكيرنا بعملية تحديث كبرى خلال الاعوام المتبقية من هذا القرن تعتمد علىالعلم والتحديث والتقنية .





رابعا : واول خطوة في هذا السبيل حسب قناعتي هي تكثيف الجهود وتركيزها في نقل العلوم الحديثة الى لغتنا العربية خلال العشرين عاما القادمة . ولو علم المواطن العربي بما تقوم به اليابان والاتحاد السوفييتي في هذا الصدد بل وبنشاط حركة الترجمة التي تجرى سنويا بين اللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية بحيث لا يخرج كتاب هام في واحدة منها الا ويرى النور خلال عام من ذلك في بقيتها لادرك حقا سعة الفجوة التي تفصل بيننا وبينهم . وتحقيق مشروع النقل هذا من شأنه ان يسد هذه الفجوة ويترك بين يدى الجيل القادم من ابنائنا رصيدا وافرا من الذخيرة العلمية يستطيعون البناء فوقه لتحقيق الانفجارة العلمية التي ستسوقنا الى التكافؤ مع ركب البشرية المتقدم وفقط بعد استيعاب هذه المعرفة العلمية والتقنية يستطيع الشباب العربي المتطلع ان يتلقف قصب السبق العلمي من جديد ويدفع عجلة التقدم البشري الى الامام . اما الحديث عن فضل لنا مزعوم على بقية الامم فهذا وهم من صنع الخيال ، وسيسوقنا الى التقاعس في تحقيق هذا الغرض فنحكم على انفسنا بالتبعية الثقافية الى الابد ، وهذا هو الزوال والفناء الذى اعنيه .

خامسا : اذن لم يبق لنا في هذه اللحظة من تاريخنا سوى ان نسير قدما في نقل المادة العلمية من اللغات الغربية الى اللغة العربية . ولعل عددا من العرب المحدثين ينسى ان الظروف حبتنا بلغة قومية ممتازة ، تعتبر من اللغات البشرية القليلة التي جمعت الى ثراء اللفظ وضوح التعبير مما جعل منها مركبا سلسا لحمل المادة العلمية . وقد اثبتت هذه اللغة جدارتها في الماضي فانتجت ادبا وفكرا كانا من اميز ما جادت به قريحة الانسان ، وشارك في هذا الانتاج ابناء العالم الاسلامي من مختلف العناصر والعقائد . كذلك بذلت الدوائر العلمية في العالم العربي في الخمسين عاما الاخيرة جهدا مشكورا في سبيل تعريب المصطلحات الحديثة وذلك بالمجامع اللغوية في عدد من الاقطار العربية (مصر ـ سوريا ـ العراق) ، وشارك في هذا النشاط العلماء من كافة الدول الناطقة بالضاد بل ومن بين المستشرقين ايضا .. وتعتني جامعة الدول العربية حاليا بتدعيم مكتب تنسيق التعريب (بالمغرب) ليداوم نشاطه في ميدان توحيد المصطلحات المعربة .

سادسا والقيام بحركة نقل هائلة بالصورة التي بسطتها يحتم انشاء « الديوان العربي للترجمة اسوة بما حدث ايام المأمون (دار الحكمة) ويتبع هذا الديوان لجامعة الدول العربية ويختار لمقره المدينة العربية المناسبة . ومن الاهمية بمكان عدم الخلط بين هذا الديوان ومكتب تنسيق التعريب الذى نود له ان يظل متابعا لنشاطه في تعريب المصطلحات العلمية الحديثة وتعميم استعمالها بين الدوائر في العالم العربي اما ديوان الترجمة وان كان سيفيد كثيرا من اعمال مكتب التنسيق ويتعاون معه معاونة وثيقة الا ان مهمته الاساسية هي اختيار المصنفات العلمية التي يجب نقلها الى العربية وتكليف العلماء الذين سيوكل اليهم مهمة الترجمة ثم نشر هذه الترجمات وعلى نطاق واسع . لذا فهو سيحتاج الى العون والدعم من كافة الدول الاعضاء في جامعة الدول العربية .

●

سابعا : واول خطوة في سبيل تنفيذ المشروع هو تكوين لجنة تضم ، قل معي ، عشرين من اساطين العلم بين العرب في مختلف فروع العلوم الطبيعية والاجتماعية تجتمع بمقر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لدارسة الفكرة ، وتحديد المصنفات التي يجب نقلها في كل فرع من فروع العلوم ، واحصاء العلماء العرب الذين يستطيعون القيام بمهمة النقل كل في مجال تخصصه هذا مع تحديد المراحل التي يتم فيها تحقيق كل خطوة من خطوات هذا العمل . ولا مانع من ان تصبح اللجنة بالتالي المكتب الدائم للديوان ، مع انتخاب امين عام له . هذا وتستطيع اللجنة او امينها العام الاستعانة بوزارات التربية والمؤسسات العلمية في الأقطار العربية لتحضير بطاقات مفصلة باسماء العلماء العرب ومجالات اختصاصهم وهل سبق لهم العمل في نقل المؤلفات العلمية الاجنبية الى اللغة العربية . كما يمكن في هذا الصدد الاستعانة بالمترجمين المؤهلين الذين مارسوا فن الترجمة الكتابية (لا الشفوية) وتدربوا عليها . اى بعبارة موجزة تعبئة العقول العلمية في العالم العربي التي تستطيع تحقيق هذه المهمة .



ثامنا : ولعل افضل طريقة لاختيار المصنفات الجديرة بالنقل هي بتوزيع قوائم اسئلة (Questionnaire) لاستفتاء قطاعات عريضة من العلماء والمفكرين بل والدوائر الاكاديمية العالمية ، حول المصنفات والمداخل الاساسية في مختلف فروع العلوم التي يرون انها تستحق النقل . وارى لزاما على ان اوضح ان الامر انما يتعلق بنقل العلوم وليس الادب بمعناه الفني مثل القصص والمسرحيات والشعر وما شابه ذلك لان هذا الضرب الاخير له هواته ومريدوه الذين يعملون بدأب على نقله الى لغة منذ عهد طويل . ولكن ما اهدف اليه هو نقل العلوم بالمعنى الدقيق للفظ ، لا الانتاج الادبي الذى يخاطب العاطفة والوجدان . والعلوم في هذا الصدد تشمل العلوم الطبيعية (الفيزياء ، الكيمياء ، علم الحيوان ، علم النبات ، الجيولوجيا ، الاستروفيزياء ، الكوزمولوجيا الخ (، كما تشمل العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع ،! التاريخ فلسفة التاريخ ، الجغرافيا ، النقد الادبي الخ ، مضافا الى هذا بطبيعة الحال الرياضيات والفلسفة ، ولعله من الافضل تحديد العدد بالف كتاب تنقل على مدار عشرين عاما ، ، ومن الجلي ان نقل خمسين كتابا في العام ليس بالامر العسير اذا ما قام الديوان وتوفرت له الامكانيات الضرورية لمزاولة نشاطه . كذلك يجب الاهتمام بنقل دوائر المعارف لتكون الحلقات الموصلة بين الكتب ، مثل دائرة المعارف البريطانية الحديثة (او ربيبتها الفرنسية « دائرة المعارف العالمية ») ودائرة المعارف السوفيتية الكبرى وايضا دوائر المعارف المتخصصة كدائرة معارف العلوم الاجتماعية ، ودائرة معارف العلوم الطبيعية والتقنية ، ودائرة المعارف الفلسفية ، ومعجم سير العلماء ، ومعجم تاريخ الافكار الخ .

تاسعا : ان عملية الترجمة لم تؤخذ مأخذ الجد في مجتمعنا العربي المعاصر ، ولم تنل الاهمية الجديرة بها . واذا ما القينا نظرة الى الخلف على الترجمات االتي ظهرت بالقاهرة وبيروت خلال الخمسين عاما الاخيرة ، وهي ما يمكن ان نطلق عليه اسم « الترجمات التجارية » ، لوجدناها لا تشرف الادب

العربي الحديث في شيء ، وجيلنا يتذكر جيدا كيف اغرقت اسواق الكتب بالقاهرة والعواصم العربية في الثلاثينيات « روايات الجيب » فاصبح النشيء العربي اعرف باعمال ارسين لوبين منه باعمال اينشتين وفرويد .

اما الترجمات الجيدة من تلك التي يمكن ان يطلق عليها اسم ترجمات علمية فلم يتجاوز عددها اصابع اليد . ولعل الجميع يتفق معي الان على ان ذلك الوضع لم يكن وضعا صحيحا وان من الواجب علينا نحن العرب المحدثين أن نأخذ بعين الجد عملية الترجمة ونوليهاالعناية والاهتمام الذى اولاه إياه اسلافنا . والترجمة عملية اخلاقية في المكانة الاولى . فالناقل يجب ان يتحلى بالنزاهة حتى لا يعبث بالنقص عن قصد او غير قصد . ولعله ها هنا اقرب الى الطبيب الذى يقسم بيمين ابقراط قبل مزاولته لمهنته . وللايطاليين قوله مشهورة هي traduttore tradittore اى « المترجم خائن » ، ولهذا فان الدوائر العلمية تلجأ عادة الى المراجعة وذلك بان تكلف احد المتخصصين بمراجعة الترجمة قبل ذهابها الى المطبعة . وكان استاذ الجيل الدكتور طه حسين طيب الله ثراه يتشدد حول هذا اقصى التشدد عندما تولى الاشراف على الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ويرفض اية ترجمة لم تراجع . وفي حديث له قبل اعوام من وفاته نعى مستوى الترجمات التي تخرج في العالم العربي .

●

عاشرا : ومشروع النقل هذا يستند إلى اعتقاد راسخ من كاتب هذه السطور في ان نقل العلوم من حضارة الى اخرى يسوق دائماالى اثراء الحضارة الثانية والى حدوث انفجارة علمية بها تغتني البشرية جمعاء . وقد حدث هذا في تاريخنا مرتين إيام المأمون عندما تم نقل جميع العلوم والرياضيات والفلسفة اليونانية الى اللغة العربية فساق ذلك الى الانفجارة العلمية الكبرى في تاريخ الاسلام التي بلغت الاوج في اعمال الفارابي والبيروني وابن سينا ومحمد بن زكريا الرازى وابن الهيثم وغيرهم كذلك فطن محمد علي باشا بعد ان الت اليه مقاليد الأمور بمصر في بداية القرن التاسع عشر الى ان غلبة الاوربيين علينا انما مردها الى تقدمهم في العلوم والتقنية وان اللحاق بهم يحتم قيام نهضة علمية بالأقطار العربية ، فارسل البعوث الى فرنسا والزم افرادها بنقل العلوم الاوروبية الى اللغة العربية ومن المؤسف ان تلك المحاولة الجادة لم يكتب لها الاستمرار في عهد خلفائه .

امام هذا لم يبق لنا الا ان نهيب بجميع المسئولين في البلاد العربية وبافراد هذه الامة من اصحاب العزة القعساء الذين لا يرضون لشعبهم أن يكون في مؤخرة البشرية مهددا بالتدهور والفناء لينشطوا في تدارك هذا النقص الكبير . ومن المؤكد ان غارة الصهاينة على المفاعل الذري العراقي ـ بشهد من جميع البشرية لم تكن دوافعها كما يريدون ان يوهموا العالم ـ هو اجهاض هجوم ذرى يهدد حياتهم في المستقبل . بل هي خطة سياسية مرسومة لمنع العرب من ولوج ميدان العلم الحديث والتقنية لانهم يعلمون تمام العلم ان مجيء ذلك اليوم سيكون اول مسمار في نعش دولتهم المزعومة . وبنفس الطرقة تبصرهم يهتمون بتشجيع البحث ويقومون بنشاط فعال في ميدان الترجمة .

وبعد فهذه دعوة لا ترمي الى تبخيس مجهودات العلماء العرب او المؤسسات العلمية العربية . كما لا ترمي الى التحرش بمجموعة من الناس او بنظام من النظم في الاقطار عربية ولكنها تهدف الى توضيح الخيارات المطروحة امامنا . او اذا رأى البعض في طريق العودة الى الماضي حلا لمشاكلنا ، فمن حق البعض الاخر ان يبصر الحل في العلم الحديث وفي التقنية .

المنصور والخوارج

قال المنصور لأحد الخوارج ، وقد اتى به اليه اسيرا .

اخبرني ، اى اصحابي كان اشد في مبارزتكم ؟

فاجابه الخارجي : ما اعرف وجوههم مقبلين ، وانما اعرف اقفاءهم ، فمرهم أن يديروا ظهورهم لاعرفك اشدهم ادبارا !

الصرخة الفلسطينية وأصداؤها في مصر

بقلم اكرم زعيتر

تتجلى الفكرة العربية في مصر اروع ما تتجلى تأييدا للقضايا العربية التحررية : انتصارا لثورات وطنية ، ورفدا الجهاد ، وتمجيدا لاستشهاد ، ويدا ممدودة الى الثائرين ، وبلسما لجراح المناضلين ومناخا صالحا لنشاط الاحرار النازحين او المبعدين ، كما كانت قضايا مصر تلقى من تأييد الدنيا العربية ذلك القدر الضخم . ولا اضرب الامثال وهي جمة ، ولكن الحديث عَبْر صفحات الاشراق والتحدى قد وصل بنا الى الثورة الفلسطينية الكبرى واضرابها التاريخي العظيم قبل خمس واربعين سنة .

وما يهمني اثباته هنا ان اللجنة الملكية البريطانية التي حققت في اسباب الاضراب والاضطراب قد اصدرت تقريرها في السابع من تموز « يوليو » سنة ١٩٣٧ ، وجاء التقرير صادقا في وصف الاسباب مبرئا الثورة من اى شائبة حاولت الصهيونية ان تلصقها بها ، مؤكدا ان العرب قد ثاروا تشدانا للاستقلال الذى يتقدم كل مطلب وكراهية للصهيونية ، وفزعا من تدفق الهجرة اليهودية وانتقال اراضيهم الى اليهود .

وفي التقرير ما ينم على التفاعل بين الحركات الوطنية في مصر وبلاد الشام مما يتصل بموضوعنا اذ قال : (وقد كان للمعاهدة الانكليزية المصرية والمعاهدة الفرنسية السورية اللتين عقدتا مؤخرا تأثيرها في اذكاء الروح القومية عند العرب الفلسطينيين » ولكننا ما كدنا نقف على اول التوصيات وهي تناقض المقدمات ولا تعدو المسكنات حسب قول اللجنة حتى طرقتنا التوصية القاصمة وهي تقضي بتمزيع فلسطين وقيام الدولة اليهودية على اهم واخصب واوسع قطعة من فلسطين بما فيها جميع اراضي الجليل وحشد العرب فيما تبقى في الاراضي الجبلية ...

وقد احسسنا ان صاعقة قد انقضت على رؤوسنا ولم يخطر على بالنا ان يكون هذا ثمن ألوف الضحايا التي بذلناها وذلك الاضراب التاريخي الفذ ... وفزعنا الى الاقطار العربية نترقب ما يكون موقفها من هذه النازلة واني متحدث هنا عن الصدى في مصر لان مقالاتي

تدور على العربية فيها وناهيك بما كان عليه موقف العراق وبلاد الشام من روعة .

استغاثة ورد حاسم

وأصل برقية ابرقت بها السيدة انيسة الخضراء ، رئيسة لجنة السيدات بعكاء ، وزوجة الزميل الاستقلالي صبحي الخضراء وشقيقة القائد العبقري فؤاد سليم ، الى السيدة هدى شعراوى رئيسة الاتحاد النسائي المصرى تشف عن قوة الصدمة وحرارة الاستغاثة وفيها تخاطب المصريين : « ياجيرة الارض المقدسة ، الم تأتكم انباء ما حل باخوانكم فيها ؟ فاجعة كالطوفان توشك ان تحل بجانبكم تستبدل معالم امة وتمحو من الوجود اقدس بقاع الاسلام....أتتركوننا وحدنا وفيكم لسان يتكلم وقلب ينبض ؟ اسألوا حليفتكم : ما شأن الاربعمائة الف مسلم والخمسمائة مسجد ؟ اسألوها : ماذا سيحل بجامع الجزار ومدينة الجزار ... اتتهود الارض المقدسة وفي مصر خمسة عشر مليونا من المسلمين ؟ اللهم يقظ مصر من سباتها لترى هول الفاجعة وفداحة النازلة . اللهم انك ربنا وهذه المقدسات مقدساتك ، فاحم اللهم دينك وانقذ بيتك وانا لله وانا اليه راجعون » .

وما اسرع ما تعالت صرخات مصر : فمحمد محمود باشا ، رئيس حزب الاحرار الدستوريين يقول في برقيته الى السيد امين الحسيني ، رئيس اللجنة العربية العليا : « ابناء مصر يشاركون ابناء فلسطين ، بلاد الاماكن المقدسة في الاحتجاج على تجزئة وطنهم وتمزيق ربوعه ويتضامنون واياكم في رفض النتائج التي انتهتها اللجنة البريطانية الملكية بشأن التقسيم في تقريرها الاخير . وهم يلفتون نظر الحكومة البريطانية الى ان السياسة العربية التي تم الاتفاق بينهم وبين ممثل العرب في سنة ١٩١٥ (اشارة الى عهود ماكماهون الى الشريف الحسين بن علي ابي الثورة العربية) هي وحدها السياسة التي تتفق مع التعهدات الاساسية للحكومة البريطانية والتي تكفل طمأنينة العالم العالم العربي الى مواثيق انكلترا واتفاقاتها ، ولذلك يقف العرب والمسلمون في مختلف بقاع الارض يؤيدون فلسطين في المطالبة بتنفيذ هذه السياسة .

واني باسم ابناء مصر الذين يؤيدون الفكرةالعربية والاسلامية من اعماق قلوبهم ارجوكم ان تبلغوا ابناء فلسطين اشتراكنا واياهم في عواطفهم ومطالبهم ، ويقيننا ان قضيتهم العادلة منتصرة لا محالة بفضل ثباتهم وايمانهم ومؤازرة العالمين العربي والاسلامي لهم مؤازرة صادقة في سبيل حقهم المقدس .



النحاس باشا

وبادر الدكتور محمد حسين هيكل عضو مجلس الشيوخ الى تقديم استجواب برلماني وجهه الى رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا والى وزير الخارجية (واصف غالي باشا) قال فيه انه يقدمه لمناسبة صدور تقرير اللجنة الملكية بتقسيم فلسطين للمناقشة وهو : اولا : في سياسة الحكومة المصرية ازاء هذا الوضع الجديد لفلسطين بنوع خاص وسياستها ازاء الشعوب العربية والشعوب والاسلامية بوجه عام . ثانيا : سياستها ازاء الحلف العربي الذى اتخذت منه جاراتنا العربية وسيلة للدفاع عن نفسها ضد كل اعتداء عليها . ثالثا : سياستها ازاء ما لمصر من زعامة في البلاد العربية تدعوها هذه البلاد في كل مناسبة لتحمل تبعاتها ، وما اذا كانت الحكومة المصرية تعمل لتأييد هذه الزعامة وتبعاتها وباى مقدار ؟ » .

وسارع النحاس باشا الى مجلس الشيوخ ليدلي ببيان يقول فيه : « تحرص الحكومة المصرية كل الحرص على توطيد صلات الود والاخاء وتبادل المنافع التي تربط بين مصر والشعوب العربية او الاسلامية وتعمل دائما على اعلاء قدر مصر وعزها والمكانة بينها ... اما من حيث شعور الحكومة المصرية نحو القضية الفلسطينية فانه ليسرني ان اعلن أن اهتمامي بهذه القضية لا يرجع الى الوقت الحاضر بل كانت في هذا الصدد ابحاث



امين الحسيني



الدكتور محمد حسين هيكل



السيدة هدى شعراوى

ومناقشات مع الحكومة البريطانية بواسطة ممثلها في مصر اولا ثم بطريق الاتصال بلندن في صيف ١٩٣٦ ولم ينقطع اتصالي بالحكومة البريطانية بالوسائل الدبلوماسية المختلفة » .

وفي مذكرة للنحاس باشا بعث بها الى بها الى الحكومة البريطانية بصفته بصفته رئيسا للوفد المصرى مطالبا فيها بحل عادل للقضية الفلسطينية اكد ان مصر لا تستطيع ان تقف مكتوفة الايدي تجاه ماتجرى في فلسطين . وتعتبر ان بريطانيا التي تتخذ من وعد بلفور وسيلة تبرر بها سياستها قد نفذت هذا الوعد الجائر وبرت بما ادخلت من مهاجرين يهود الى فلسطين وقد ورد في يوميات السفير البريطاني اللورد كليرن وفي تقريره أن النحاس باشا قال انه لا يستطيع ان يحس بالاطمئنان حين يفكر في قيام دولة يهودية على حدود مصر وهو يتساءل : ما الذى يحول دون ادعاء اليهود فيا بعد ان لهم حقا في سينا » ؟ »

غضبة مصر

وتتالت المؤتمرات في مصر وقد دعت لجنة الدفاع عن فلسطين الى اجتماع كبير في جمعية الشبان المسلمين حيث تقرر استنكار تقرير اللجنة الملكية والاحتجاج عليه واعتبار القضية قضية عربية اسلامية لا قضية فلسطينية محضة ، كما عقد اتحاد طلاب الجامعة المصرية في القاهرة وفي الاسكندرية واتحاد الازهر والسيدات المسلمات والاتحاد النسائي المصرى اجتماعات لهذه الغاية وقد فتح الاتحاد النسائي اكتتابا لمنكوبي الثورة وابرق الى وزيرى خارجية ومستعمرات بريطانيا ومجلس العموم مطالبا بوضع حد للسياسة الخرقاء وناشد نساء العالم تأييد نساء فلسطين في قضية العرب القومية ، واجابت السيدة هدى شعـراوى على برقية عكاء قائلة : « يروع مصر هول المصيبة التي ادمت قلوبكم فلا تقنطوا من رحمة الله . اننا معكم بقلوبنا ... نستنكر تعدى اللجنة البريطانية الملكية اختصاصها بمشروعها الجائر .

ووجهت خطابا مفتوحا الى النحاس باشا رئيس الحكومة تقول فيه : ... ولقد روعت الاقطار العربية من خطورة هذا المشروع العجيب الذى سيغير معالم الاسلام ويقضي على لغته ويهدم كتلته » ومصر لا تقل في شعورها عن غيرها من البلاد العربية والاسلامية فضلا عن اعتبارها زعيمة البلاد العربية فماذا أعددتم لمناصرة المستنجدين بكم ... » كما ابلغت السفير البريطاني باسم نساء مصر احتجاجها على تصرف الحكومة البريطانية الذى لم يسبق له مثيل في التاريخ واكدت ان موقف بريطانيا يفقدها صداقة كل الشعوب العربية » وقد تلقت من السفارة البريطانية انها ارسلت خطابها إلى وزارة خارجية بريطانيا » .

وتلقت فلسطين برقيات صارخة من علماء الازهر ومن شباب الحزب الوطني ومن محمود بسيوني القطب الوفدى الذى كان نقيبا للمحامين يترأس جمعية الرابطة العربية بمصر وغيرهم .

واجمعت الصحف المصرية على استنكار قرار اللجنة واندفعت في تفنيده ، ولعل قول الصديق الاستاذ ابراهيم المازني في صدر مجلة « الرسالة » يمكن ان يكون مثالا لما كتب في صحف مصر : « .. فلن يكف اليهود عن التطلع الى ما بقي في ايدى العرب من البلاد لان دولتهم ستضيق بهم لا محالة ولان مالهم وعلمهم وما يحسون من العطف البريطاني عليهم خليق بهم ان يغريهم بالقمع في بقية فلسطين . واما العرب فغير ان يصبروا على هذا الظلم او ان يكفوا عن الحنين الطبيعي الى ما فقدوا او ان تفتر رغبتهم في استرداده فهي الحرب لا مفر منها ولا هوادة فيها ولا حيلة لاحد في اجتنابها

في مؤتمر بلودان

ودعت لجنة الدفاع عن فلسطين في سورية الى مؤتمر قومي يعقد في بلودان ، (قرب دمشق) في ٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٧ ، للبحث في الواجبات المترتبة على العرب في مختلف اقطارهم واتخاذ التدابير الفعالة لمقاومة اخطار الصهيونية التي تهدد الوطن العربي بانشاء دولة يهودية في جزء من اجزائه : فلسطين » ... واشهد ـ وقد كنت من اعضاء المؤتمر ـ انه كان اعظم مظاهرة قومية عربية شهدتها ....

وما يهمني ان اسجله هنا ، والحديث حديث مصر ، انه قد مثل مصر فيه محمد على علوبة باشا وزير المعارف والاوقاف السابق ومن كبار المحامين ، وحين اختير محمد على علوبة وكيلا اول له ، والامير شكيب ارسلان وكيلا ثانيا والمطران اغناطيوس حريكة وكيلا ثالثا . كما مثل مصر الدكتور عبد الحميد سعيد رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين والرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين ، وقد اختير مراقبا عاما للجان المؤتمر .

وقد استمعنا الى علوبة في جلسة الافتتاح يقول : « انا اقول كعربي من مصر : ان الامة العربية اذا وجب عليها الدفاع عن فلسطين فاولى اقطارها بالدفاع هي مصر التي يجب ان تكون حكومة وشعبا صفا واحدا في حماية فلسطين . اما الامر الذى لا يحتاج الى بحث فهو اننا متفقون على ان فلسطين يجب ان تبقى بيد العرب ابد الآبدين ، وان وجود اى شعب غريب عنا في تلك البقعة من بلادنا يعتبر « غرغرينة » في جسد وطننا ... ولا يقولن احد ان الخطيب يتكلم باحساسه القومي العربي فقط لأن الواقع هو انني اتكلم كمصرى ايضا ، واقول ان وجود امة يهودية في فلسطين يهدد كيان مصر الخاص كما يهدد كيان العرب اجمعين ، وعلى الذين ينظرون الى الامام ان يفكروا في ان امة طامعة جديدة ستدخل في جوارهم : في جوار لبنان وسورية والعراق والجزيرة العربية ومصر . وهذه الامة سيكون عددها لا مليونا واحدا من اليهود بل سبعة عشر مليونا بعددهم واسلحتهم واموالهم وسط هذه الامة العربية الناشئة التي تعمل على تكوين نفسها لتكون نفسها لتكوين اداة للسلم العام . وستكون هذه الدولة الصهيونية حائلا بين العرب وبين تأدية رسالتهم الانسانية ... ولا يظنن ظان ان اليهود سيقتصرون على البقعة التي يراد اعطاؤهم اياها . كلا بل ان استعمارهم الممقوت يتنقل لا سمح الله بقيوده الذهبية الى شرقي الاردن وسورية ولبنان ومصر العراق ليكبلها بسلاسل من الذهب ... » .

ونهض العملاق المصرى الدكتور عبد الحميد سعيد ، وابصارنا نحوه شواخص يهدر بخطبة مدوية يفند فيها التقسيم وينشنها غارة شعواء على الانكليز ، ويعلن ان قبول التقسيم قبول للانتحار ورضاء بالذل والصغار ، ولقد كتب الذل والصغار على غيرنا فيا بالنا نتقبله الآن ونستسيغه » . واثار العملاق المصرى مشاعرنا وهو يقول « ... وما لنا نلوم الانكليز ونلعن اليهود ونستغيث بدول الغرب ونستصرخ جمعية الامم ، وقد علمنا التاريخ ان هؤلاء جميعا لا يعملون الا لمصالحهم الشخصية وان خالفت نواميس الانسانية وتعارضت مع القوانين السماوية والوضعية وهم يعتقدون اعتقادا جازما ان الشرق ما خلق الا ليكون متاعا لهم ونهبا مباحا بينهم ، يستوى في ذلك الاعتقاد محافظهم وحرهم واشتراكيهم . غنيهم وفقيرهم . عالمهم وجاهلهم ، فاذا كنتم عازمين على انقاذ فلسطين وصيانة الاماكن المقدسة وتخليص شرفكم وكرامتكم فلا تعتمدوا الا على انفسكم ، ولا تعولوا الا على سواعدكم ووالله لم يطمعهم فينا الا استسلامنا وتوانينا ، واعتقادهم اننا نرهب باسهم ونخشى غضبهم .

وقد تهاطلت على المؤتمر برقيات التأييد من انحاء القطر المصرى واذكر منها برقية بتوقيع محمد فهمى الناضورى باسم مؤتمر انعقد في جمعية الشبان المسلمين في الاسكندرية بحضور الامير عمر طوسون ـ وكانت لهذا الامير في مصر منزلة وحرمة ـ واخرى بتوقيع حسن البنا باسم الاخوان المسلمين وثالثة بتوقيع محمد الخضر حسين رئيس جمعيات الهداية الاسلامية (اصبح بعد شيخا للازهر) وبرقيات باسم رشيد مرتضى ، ومن المجتمعين من اهالى سيدى جابر بالاسكندرية وقسم المنشية ولجان من الحزب الوطني واهالى الرمل والقبارى والدخيلة ...

وتلى في المؤتمر كتاب علماء الازهر الاعلام ... **على سرور الزنكلوني ومحمود شلتوت ومحمد عبد اللطيف دراز وعبد السلام العسكرى وفكرى ياسين ومحمد على الماضي .**

لا فينيقية ولا فرعونية

كان مؤتمر بلودان مظاهرة عربية رائعة ، وقد وصف الاستاذ جبران التويني احد اعضاء المؤتمر وصاحب « النهار » كبرى صحف لبنان ، روح المؤتمر ومما قال : « ... وانه لمما يشرح صدر هذه الروح القومية التي رفرفت في جو المؤتمر وهزت نفوس المؤتمرين دلت اوضح

دلالة على ان الفكرة العربية التي كانت خيالا يضحك منه بعض المتشائمين والشعوبيين والاستعماريين اصبحت حقيقة ملموسة فليعتبر الذين لا يزالون متمسكين بالفينيقية والفرعونية والاقليمية والشعوبية ، وليعلموا ان الاقطار العربية التي بدأ كل منها حريته بعد ان استعاد العرب وعيهم القومي ليحملوا نصيبهم في خدمة الانسانية والحضارة كما حملوه من قبل ولله الامر من قبل ومن بعد » .

وتتلخص مقررات مؤتمر بلودان برفض تقسيم فلسطين واقامة دولة يهودية فيها واعتبار فلسطين جزءا لا ينفصل عن الوطن العربي والمطالبة باستقلالها .

وكانت مصر الدولة العربية الثانية التي دخلت عصبة الامم . اما الاولى فكانت العراق وجرى في ٢٧ ايار (مايو) سنة ١٩٣٧ في جنيف احتفال بدخول مصر العصبة حضره النحاس وغالي ومكرم وعلى الشمس طرابيشهم . وكان ترحيب مندوب العراق صبيح نجيب بدخول الدولة المصرية العربية العصبة اخويا حارا .

وانعقدت الدورة الاولى للعصبة في ايلول (سبتمبر) وتولى رئاسة الوفد المصري وزير الخارجية واصف غالي كما تولى سكرتيرية الوفد الدكتور محمد صلاح الدين المعروف لدى القوميين العرب بروحه العربية منذ ترأس جمعية الثقافة العربية بباريس ايام الطلب . والصورة المنطبعة في اذهاننا عن واصف غالي باشا انه عضو في الوفد وانه كان صديقا ورفيقا الزعيم العظيم سعد زغلول . ولما ابعد سعد الى جزيرة سيشيل وتألفت الطبقة الثانية للوفد كان في عداد الذين حكموا بالموت فهتف واخوانه حين صدور الحكم : « تحيا مصر » وهو أديب مقتدر وشاعر مرموق بالفرنسية ... وتطلعنا وتطلعنا نحو جنيف ونحن نتساءل : ماتكون باكورة مواقف مصر في العصبة ؟

واصف غالي يتكلم

وفي ٢٠ ايلول (سبتمبر) القى واصف غالي خطابا بفرنسية راقية ، وحملت الينا البرقيات خلاصة الخطاب وعظيم وقعه ثم تلقفنا نصه الرائع وقد افتتحه قائلا : « ان مصر هي اخر الدول التي جلست بينكم تثق ثقة تامة بمبادىء عصبة الامم . ولهذا السبب ارادت حكومتها ان تبسط قضية من ادق القضايا المعروضة والتي يجب البحث في ايجاد حل عادل لها . وان قضية فلسطين تهم مصر حكومة وشعبا الى اقصى حد بالنظر الى علاقات الجوار الدائمة بينها وبين فلسطين والى العلاقات التاريخية والدينية التي تربط مصر بتلك البلاد المقدسة بروابط اخوية قائمة على اسس من وحدة اللغة والدين والحضارة التي تربطنا بالشعب الفلسطيني . والى علاقات الصداقة القائمة بين مصر والدولة المنتدبة على فلسطين » . ودعا واصف غالي الى « حل يكون اساسه تنفيذ مبادىء الحق والعدل وهما يقضيان بان تظل فلسطين للفلسطينيين » . ثم تحدث عن تعهدات بريطانيا سنة ١٩١٥ للشريف حسين ، شريف مكة واميرها بالاعتراف باستقلال العرب وضمان هذا الاستقلال في داخل حدود تشمل فلسطين . وقارن بين تصريح بلفور الذي يقتصر على النظر بعين العطف الى انشاء وطن قومي لليهود والعهود الصريحة المقطوعة للعرب قبل صدور تصريح بلفور بسنتين ، والقاضية بوضوح بالاعتراف وقد استند الى تصريحات وبيانات للويد جورج رئيس الوزارة البريطانية في اثناء الحرب وغيرها . ثم اعرب عن قلق مصر العظيم لتطورات المسألة الفلسطينية التي انتهت الى مشروع التقسيم . وراح يسرد في بلاغة وقوة حجة الاسباب التي تحول دون تحقيق التقسيم ، كرفض العرب اياه ومناقضته للعهود وكونه لا يحقق السلم ولا يحل مشكلة اليهود العالمية واسباب اخرى وتطرق الى أن الفكرة التي اوحت بانشاء وطن قومي لليهود هي معاملة بعض البلاد الاوروبية لهم وتساءل :

هل يجوز عدلا وحقا ان يدفع العرب تعصب هذه الشعوب الاوروبية ودعا الى عقد معاهدة بين انكلترا وفلسطين على اساس المعاهدات المعقودة مع البلاد العربية الاخرى وناشد العصبة التي انشئت لاقامة السلم وحمايته ان تزيل اسباب الاضطرابات وان تتداركها ، وبعد ان اشار الى دور العرب في الحضارة وفي انهاض اوروبا انهى خطابه قائلا : « عسى ان يستطيع بعض مؤرخي المستقبل ان يقولوا عن فلسطين المستقلة ما قاله الكاتب الشهير رينان عن الاندلس في القرن العاشر وهو : « لقد اقامت العلوم والفنون الجميلة في تلك البقعة المختارة من بقاع العالم التساهل الذي لا نجد له مثالا في العصر الحديث لقد كان المسلمون والمسيحيون واليهود يتكلمون لغة واحدة ، وانهارت يومئذ جميع الحواجز التي تفصل بين البشر واشترك الجميع في بناء صرح الحضارة المشتركة » . ■■

بيروت ـ اكرم زعيتر

أقوال معاصرة



■ نحن نتفهم تماما دوافع اسرائيل في قصف المفاعل النووي العراقي ، واعتبارها ذلك من قبيل الاعمال الدفاعية .

الرئيس الامريكي رونالد ريجان

■ أؤيد اقامة وطن للفلسطينيين ، ولكني لن افعل شيئا يضر باسرائيل .

الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران

■ خلال عام ١٩٨٠ انفق العالم مليون دولار في كل دقيقة لشراء السلاح .

من تقرير معهد ابحاث السلام في استوكهولم



■ اننا نريد ببساطة ان تظل سماء لبنان مفتوحة تماما امام طائراتنا .

مناحيم بيجن ـ رئيس وزراء اسرائيل

■ الابداع أن يستطيع الفنان اطلاق وعيه .. عندئذ فقط يصبح أدبه صادقا ويكون مستحقا للحياة .

الاديب الفلسطيني امين حبيبي .



■ دعوة الشعب الى الوقوف ضد المخالفات الصارخة ليس تحريضا على الثورة . وانما هو نداء الى احترام القانون .

الرئيس الايراني ابو الحسن بني صدر

■ اسرائيل تحصل على ثلثي استهلاكها للمياه من مناطق وراء حدود ما قبل حرب يونيو ٦٧ .

اريل شارون ـ وزير الزراعة الاسرائيلي



■ لا سبيل لردع اسرائيل بدون اتخاذ الاجراءات لكبح جماحها .

الشيخ صباح الاحمد

نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية

■ عثرت السلطات السوفيتية على رجل روسي مختبأ تحت الارض منذ الحرب العالمية الثانية ، خوفا من العقاب على تعاونه مع قوات النازي !

جريدة برافدا السوفيتية .



■ كل الكمية المعطاة من الحرية في الوطن العربي ، لا تكفي كاتبا واحدا .

الدكتور يوسف ادريس

■ كل فلاح باكستاني او هندي يستهلك اقل مما يستهلكه زميله في كاليفورنيا بـ ٤٠٠ مرة . ذلك يعني ان ١٠ آلاف من المواليد الامريكيين اشد خطورة على التوازن العالمي من ٤ مليارات من الجياع .

الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي .



الحلال والحرام في علاج الرجل للمرأة

بقلم : الدكتور حسان حتحوت

ماهي وجه نظر الشرع في علاج الرجل للمرأة ، او العكس ؟

لقد كان السلاح الطبي لجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم مكونا من طائفة من السيدات المؤمنات ذوات البصر بالتطبيب اطلق عليهن اسم الآسيات ؛ فكن يخرجن مع الجيش ومعهن ادوات العلاج وربما ضربت لهن الخيام على حافة ساحة المعركة فكانها ما نسميه اليوم مستشفيات الميدان .... فاذا سقط الجريح حملنه وطببن جراحه في اى مكان جسمه كانت ، واستقر ذلك منذ بدر واحد دون ان يثير جدالا او خلافا ، ومنهن من برعن في أداء الخدمة ، بل منهن من جاوزت العمل الطبي الى العمل القتالي المباشر كنسيبة بنت كعب التي قاتلت في أحد ، وأشاد بها النبي عليه الصلاة والسلام

ذلك بان امر العلاج امر ضرورة .. ولئن بين التشريع احكام العورات في الرجال والنساء ، لقد كان جليا ان داعي العلاج هو استثناء من القاعدة العامة .. ولم يجدوا في هذا الاستثناء حرجا ولاغضاضة ولا مجافاة للدين ، فلم يصروا على ان يجعلوه مجالا للحرج او الاحتجاج .

وعلى ذلك جرى الفقه حتى الآن .. تظل عورة الرجل حراما على الرجل والمرأة ... وتظل عورة المرأة حراما على الرجل والمرأة كليهما ...ولا ينحسر هذا التحريم الا في شأن العلاج ومقام الطبابة ، وطالما توفر هذا الشرط أي الحاجة الطبية وتوفرت تقوى الله وصلاح النية فلا اثم ولابأس .

ويلتبس الامر على بعض الاخوة المسلمين فيعبرون عن قلقهم من ذلك في حقل امراض النساء والتوليد بالذات . ولكن الناظر الى المهنة الطبية نظرة البصير ، والناظر الى الشريعة الاسلامية نظرة البصير كذلك ، يستطيع ان يجد في كلٍّ مايرفع عنه إصر ذلك الحرج . ذلك بان بدن المرأة عورة كله الا وجهها وكفيها ... فان تركنا تخصص امراض النساء والتوليد جانبا فماذا عن الباطني الذي يفحص الصدر والبطن والظهر والاطراف ؟. وماذا عن الجراح الذي قد يتناول الثديين بالجس والحس ليطمئن الى خلوهما من ورمة قد تكون سرطانية .

اعتبارات خاصة

الحق ان في العمل الطبي اعتبارات خاصة لاتكمن الا فيه . فالجسم فيه تركيب وتشريح وتكوين سوى او غير سوى . لقد يمكن المرض في جزء دون جزء او يحل جهازا في الجسم فينعكس على جهاز اخر او على الجسم كله ...

وينظر الطبيب الى الجسم نظر المهندس الى البناء او الميكانيكي الى الماكينة . ولايعود البصر ولا البصيرة - يترجم الجسم الى فتنة أو عورة أو غواية او اغراء ، كما هو الحال خارج المهاسة الطبية ، وعملية اعداد الشاب والفتاة ليكونا طبيبين تسبكهما في هذا القالب الحرفي الذي قد لايراه من لم يكن من اهل المهنة ، يبدأ ذلك من اول الطريق خلال دراسة تشريح جسم الانسان وتركيبه ووظائف اعضائه وتداخل هذه الوظائف واشتباكها ، ثم في باقي الطريق في دراسة الانسان كيف يصح ؟ وكيف يمرض ؟ وكيف يعالج ؟ ولو صحب هذا الاعداد تزكية للايمان والتقوى وتنشئة على

الخلق القويم لانعدمت تلك النماذج الشاذة والنادرة ، والتي توقت منها المهنة الطبية فجعلت من ركائز دستورها ان فحص الطبيب لمريض من الجنس الآخر لابد وان يكون في حضور طرف ثالث من المهنة الطبية ، هو عادة الممرضة او مثلها .

وآراء فقهاء المسلمين في القديم والحديث على هذا الرأي ، ولهم منذ مئات السنين احكام تعد بمقاييس عصرنا غاية الاستنارة وسعة الافق وتفهم روح الشريعة ونصوصها ، جامعين في ذلك مابين العاطفة الاسلامية الدافئة والعقل المسلم الرصين . والادلة كثيرة .. فان اردنا المثال لا الحصر طالعتنا في الجزء السادس من كتاب المغني لابن قدامة ص ٥٥٨ « ويباح للطبيب النظر الى ما تدعو اليه الحاجة من بدنها فانه موضع حاجة » .... ومن اللطيف ماقرأناه في كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلي (الجزء الثاني ص ٤٦٤) : وقال المروذي قلت لابي عبد الله المرأة يكون بها الكسر فيضع المجبر يده عليها ؟ قال هذه ضرورة ولم ير به بأسا قلت لابي عبد الله : مجبر يعمل بخشبة فقال لابد لي من ان اكشف صدر المرأة واضع يدى عليها ؟ قال طلحة يؤجر . فسألت رأى ابن مضرس قال هذه ضرورة ولم ير به بأسا . وتورد نفس الصحفة : فان مرضت امرأة ولم يوجد من يطببها غير رجل ، جاز له منها نظر ما تدعو الحاجة الى نظرة منه وكذا مع الرجل . وقال ابن حمدان : وان لم يوجد من يطببه سوى امرأة فلها نظر ما تدعو الحاجة الى نظرة منه . وفي حاشية ابن عابدين الحنفي جزءه ص ٢٣٧ « وينظر الطبيب الى موضع مرضها بقدر الضرورة » .. الخ

عن الضرورة وحدودها

على ان فريقا من الاخوة المسلمين يقفون وقوف القلق على تعبير « الضرورة » » او « اذا لم يوجد من يعالجها غير رجل » ... وما الى ذلك ، ونتمنى لو امتد حبل التفكير الهادىء بنا معا قبل القطع بالنتائج ... فهذه التحفظات لاتقتصر على العمل في التوليد والامراض النسائية فقط ، وانما تشمل العمل الطبي بعامة ...

كذلك ينبغي ان تعلم ان نظر المرأة الى عورة المرأة ليس مباحا على اطلاقه ولكنه ايضا استثناء من القاعدة العامة من اجل الضرورة وهي هنا الضرورة الطبية ... فالاصل ان المرأة المسلمة تنظر من المرأة كما ينظر الرجل من الرجل (حاشية ابن عابدين ج ٥ ص ٢٣٧) فان ولجت تخصص التوليد والامراض النسائية . فبحكم الاستثناء الذي افضت اليه ضرورة العلاج فانحسرت عنه القاعدة العامة .

ولاجدال ولاخلاف كيفما دار الامر على وجوب ان يكون في المجتمع اطباؤه وطبيباته وان تباينت الاراء من بعد ذلك على توزع العمل بينهما . ولكن ينبغي العلم ان عملية اعداد الطبيب او االطبيبةتوجب ان يطلع كل منها على كل جسد الجنس الآخر من البداية .. فلن يتكون اطباء من الرجال اذا حذف جسم المرأة كله او بعضه من مقررات الدراسة .. ولن تتكون طبيبات من النساء اذا حذف جسم الرجل كله او بعضه من مقررات الدراسة ... فطبيعة الدراسة الطبية تجعل ذلك محالا ، ولا يكون التخصص في فرع الطب الا من بعد الدراسة العامة الشاملة ، فالتخصص يفرض معرفة عامة بالكل يتلوها تعمق في احد الابواب ، والا كان المتخصص كالناظر من ثقب المفتاح لاينظر الا الى جزء من صورة لايدرى ما حوله وما يسبقه وما يتلوه وما يتفاعل معه وما يتشابك فيه . واريد بذلك ان اطمئن نفرا من الابناءوالبنات الحريصين على دينهم او دخولهم كلية الطب وظنهم انهم يرتكبون معصية بالنظر الى الجنس الاخرجثة او مريضا . واذا كان اعداد الاطباء والطبيبات واجبا شرعيا فان ما لايقوم الواجب الابه فهو واجب ، ولا اثم هناك ولامعصية .

ونعود للرأى المنادى بقصر العمل في التوليد والامراض النسائية على النساء .. فنرى أنه كان الاولى بالنداء هو قصر علاج النساء على الطبيبات وقصر علاج الرجال على الاطباء في كافة فروع الطب من جراحة او صدرية او قلبية او باطنية او غددية او جلدية او مفصلية او اشعة او عصبية او سوى كل ذلك .... وليس في مجال التوليد والنساء فقط ، لان العمل في كل هذه الفروع قد يقتضي معاينة المرأة في اى موضع من جسمها .

فكرة غير عملية

فهل الى ذلك من سبيل ؟ ...

وهل نقصر اباحة الاطلاع لفترة التلمذة فقط ثم توزع العمل بعد ذلك في كل فروع الطب فالاطباء للرجال والطبيبات للنساء ؟ .

الوقع ان هذا غير عملي

لان عدد الطبيبات في أى تخصص طبي وحتى بغير تخصص طبي لن ينهض للقيام بهذا العبء ، عبء

علاج النساء والنساء نصف المجتمع ... ولا يطمح تخطيط طبي في ان يكون نصف القوة الطبية في كل تخصص طبي من النساء .

ونود ان نصحح مفهوما واسع الانتشار خارج الوسط الطبي ... خاصا بتخصص التوليد وامراض النساء ، الذي يظنه الاكثرون هو التخصص الذي تتجه اليه الطبيبة المرأة بحكم أنوثتها .

ولسنا هنا نعني القابلة العادية او تدبير امر الولادات الطبيعية ... فهذا امر تقوم به القابلات والمولدات من افراد الهيئة التمريضية سواء في المستشفيات او مراكز التوليد وهو امر معمول به بالفعل منذ زمن .

وانما موضع الحاجة الى الطبيب المختص عندما يكون الامر خارج النطاق السوي او يتعسر او يتفاقم او تعتوره الطوارىء والمضاعفات للوالدة او للجنين .

وهنا نقول بحق ان العمل في هذا التخصص هو من أشق الأعمال في الحقل الطبي ، ان لم يكن اشقها على الاطلاق . فهو من انواع الجراحة التي قد تدعو لاتخاذ اخطر القرارات في لحظات من الزمان وتنفيذها في حسم وسرعة وجرأة ، لايؤثر في ذلك نوم ولا يقظة ولا ساعات عمل طوال الليل او النهار . وهو تخصص لايتهيأ الا لذي العزم الاكيد والجسم الحديد والبديهة النشطة والدقة في ميزان الامور والتصرف الفوري الحكيم دون تعجيل او تأجيل .

واهل المهنة يعلمون ان هذا الطراز غير وفير لا في الرجل ولا في النساء ، ولعله عن طبيعة النساء ابعد ، وهذا فالنابهات فيه من النساء قليل ، وهن ولاشك يبذلن تضحية غير هينة من راحتهن ورعاية اطفالهن وبيوتهن وانفسهن وليست الغالبية من الطبيبات على هذا الاستعداد .

ومنذ جربنا ان تمر الطبيبة في فترة التدريب بعد التخرج على طائفة من التخصصات تقضي بكل منها فترة ، اتضح لنا ان اغلبية الطبيبات لاتختر التخصص بعد ذلك لا في الجراحة سواء في الجراحة أو في امراض النساء والولادة ولكن فيما هو اقل مشقة في سائر التخصصات واخف وطأة .

ويقول قائل من بعد فلا تقحموا الطبيب المختص ولاتستدعوه إلا إن تأزم الموقف وتفاقمت الحالة واوشكت ان تودى بالمريضة الى الهلاك ... فهي أنذاك الضرورة الواضحة التي تسمح بها الشريعة ويقرها الدين ....

وهو في الواقع قول احسبه يصادف هوى في نفس الطبيب المختص ... فالطبيب الكبير يجب ان يدعى الى الامر الكبير والا اهدر وقته على الغث دون السمين من القضايا . ولكن كيف تأتي لهذا الطبيب الكبير مقامه ذاك وما توفر له من خبرة ومران ودراية يسوس بها المواقف الصعبة الا مرورا بما دونها وتدرجا في السهل ثم الصعب ثم الاصعب ؟ وهل يبلغ القمة الا من مربالسفح فما فوقه فما فوقه ؟ ان عملية اعداد الطبيب الكبير المرجع لغيره من الاطباء تستدعي ان يبدأ في مستهل حياته بممارسة الامور السهلة والعادية ثم يرتقي رويدا رويدا في حصيلته وحنكته وخبرته ومهارته حتى يتسنم الذروة التي نريد . ولو تهيىء ذلك لقضينا على انفسنا ونسائنا ان تظل عالة على الاجانب عن ديننا في العلاج ، الذين ليس ضمن مفاهيمهم مفهوم التقوى والحلال والحرام او هي عنهم تخالف ما نؤمن به وندين .

ونعود فنقول إنه إن كان اعداد الطبيب المتخصص المتفوق في مجتمعاتنا فرض كفاية وواجبا ، فان ما لايتم الواجب الا به فهو واجب .

●

وقبل ان نختتم لابد نعرض بالذكر لبعض من السيدات اللاتي يجدن حرجا في ان يعاينهن رجل ، فالواجب يقضي بالحرص قدر المستطاع على ان تفحصهن طبيبة ، لابداعي الحل والحرمة ، ولكن بداعي الرفق الذي هو من حق المريض على الطبيب ، وبداعي مراعاة المشاعر واحترامها وبداعي اننا امرنا ان نخاطب الناس على قدر عقولهم .. فان لم يتيسر اجابة رغبتها في الحال ضربنا لها موعدا تتيسر فيه ، وان كان الامر لا يحتمل التأجيل بينا لها وجه الضرورة وطمأناها الى انها ليست بعاصية ان عالجها طبيب .

وبعد ... فهذه كلمات توسمنا مقدار الحاجة الى الافضاء بها من واقع احاديث مع شبابنا وطلابنا وبعض اخوتنا المسلمين وفقهم الله ، اردنا بها ان نعرف برأى الاسلام في هذا الموضوع ، وان نضع عنهم وزرا لايضعه الاسلام على ظهورهم ، واصرا لم يحمله الله عليهم ، وان نحفظ عليهم رقعة الحلال فلا تنكمش ، وان نطمئنهم الى مباح تبقى العمدة فيه على النية الحسنة ومراقبة الله وخشيته . وبين الاطباء من اتاهم الله ذلك وزيادة والحمد لله ... فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم ■■

د . حسان حتوت

محاكمة القرن في بريطانيا



سفاح يوركشاير

صوت الرب.. أم نداء الشيطان؟

رسالة لندن بقلم : جمال الكتاني

الجريمة التي شغلت الرأي العام في انجلترا وشدت انتباه الناس واستحوذت على مشاعرهم ، ودوت اصداؤها في المحكمة رقم واحد في « اولد بيلي » (اللندنية) وهي اكبر محاكم الجنايات في بريطانيا هي قضية الدولة ضد سفاح يوركشاير .

هو سائق « لوري » اسمه بيتر وليام ستكليف من سكان مدينة برادفورد ، جذبت محاكمته طوابير الناس يصطفون خارج مبنى المحكمة قبل بزوغ الشمس ليحصلوا على مكان داخل قاعة المحكمة ... القاضي الذي ترأس جلسات هذه المحاكمة هو « القاضي بورام » ومهمته الرئيسية ، الى جانب توجيه ما شاء من اسئلة الى جميع اطراف المحاكمة ، هي تلخيص اقوال الشهود ، والنيابة والدفاع ، وشرح النقط القانونية لاعضاء هيئة المحلفين وعددهم ١٢ شخصا من الرجال او النساء او من الرجال والنساء . وواجبهم هو تقرير ما يرون انه الحقيقة واتخاذ قرار الادانة او عدم الادانة ، الذي يترجمه القاضي الى حكم يصدره بالصيغة القانونية ... والمطلوب منهم في هذه المحاكمة هو تقرير ما اذا كان السفاح المعترف بجرائمه ، مصابا بمرض عقلي مما يدخل جرائمه تحت مادة القتل دون سبق الاصرار ، أو أنه سليم العقل مما يدينه بالقتل العمد ....

ومهمة القاضي بورام في هذه القضية بالذات دقيقة للغاية لان عليه ان يشرح للمحلفين الوصف المحايد لمرض انفصام الشخصية وان يفند للمحلفين شهادة ثلاثة من اشهر الاطباء النفسانيين في انجلترا ، وان يلخص آراء هؤلاء الشهود تلخيصا موضوعيا محايدا ....

ويمثل النيابة في هذه المحاكمة ، النائب العام نفسه وهو السير مايكل هيفرز ، ومعه مستشار الملكة هاري او جنول اما ممثل الدفاع فهو مستشار الملكة جيمس شادوين ، واستغرقت المحاكمة التي جرت في شهر مايو ١٩٨١ زهاء ثلاثة اسابيع واحتلت تفاصيلها صفحات وصفحات من جميع الصحف البريطانية وعدد من الصحف الاجنبية .

لم يكن بين النيابة والدفاع خلاف حول ادانة السفاح « ستكليف » او براءته لانه قد اعترف فعلا بمحاولة قتل سبع نساء ، وقتل ١٣ امرأة اخرى .... ففيم كان الخلاف اذن ؟ وماذا كان موضوع هذه المحاكمة الطويلة ؟

بحث الدفاع عن منفذ في القانون يوصله لتخفيف العقوبة على متهم خطير أعترف بارتكاب جرائمه الوحشية ، فلم يجد وسيلة الا ان يحاول اثبات ان المتهم مريض بعقله ، وان عقله المريض يحد من قدرته على تحمل المسئولية القانونية ، ويجعله غير مسئول قانونا عما ارتكب من جرائم .... ولقد ذهب محامي الدفاع الى ان موكله مريض بانفصام الشخصية وحاول إثبات ذلك بأن دعا للشهادة ثلاثة من اكبر الاطباء النفسانيين في بريطانيا ... وقال ثلاثتهم امام المحكمة ان المتهم في رأيهم مريض بعقله ، ويجب ألا يدان بتهمة القتل العمد بل بتهمة القتل دون سبق اصرار ....

اما موكل النيابة فقد هاجم شهادة هؤلاء الاطباء بغيرهوادة وعنف في استجوابهم حتى خيل للبعض انهم هم المدانون وليس السفاح .

دارت رحى هذه المعركة العنيفة بين شهود الدفاع وممثلي النيابة .... الاطباء الاخصائيون يؤكدون ويصرون على أن المتهم مريض بعقله ، ويسوقون الدليل الطبي تلو الدليل ، فاذا ما انتهى محامي الدفاع من استجواب شاهده ، تناوله ممثل النيابة في غير رحمة او هوادة ، وضيق عليه الخناق حتى يقر امام المحكمة بأن ما ذهب اليه من مرض المتهم قد لا يكون حقيقة مؤكدة ، الخناق حتى يقر امام المحكمة بأن ما ذهب اليه من مرض المتهم قد لا يكون حقيقة مؤكدة ، وان هناك احتمالا ان يكون المتهم وهو ذكي جدا ، قد ضلل الأطباء لانه يعرف اعراض مرض انفصام الشخصية معرفة اكيدة لانه عايش المرض اعواما طوالا ايام كانت زوجته نفسها مصابة به .. فمعرفته بالمرض وبأعراضه تمكنه من تقليدها ومحاكاتها بسهولة .

استغرقت شهادة الطبيب الاول الذي استدعاه الدفاع للشهادة ، وهو الدكتور هوجو ملن ، عشر ساعات بالتمام والكمال ، اضطر في آخرها ان يعترف بأن المتهم يمكن ان يكون قد موه الامر عليه وخدعه .... وتقدم طرفا من استجواب القاضي وممثل النيابة لشاهد الدفاع الثاني

وهو الدكتور « مالك كلاك » .

القاضي ـ اجاز الطبيب الذي سبقك بالشهادة احتمال ان يكون المتهم قد كذب عليه وانه قد لا يكون مريضا وانما يتظاهر بالمرض .

الدكتور ـ من الممكن ان يكون قد كذب !

النيابة ـ اذا كان ما قال المتهم كله كذبا ، فهو اذن لا يعاني من نقص في القدرة على تحمل مسئولية تصرفاته .... اليس كذلك ؟!

الدكتور ـ اذا لم يوجد تشخيص اخر ، فالمعقول انه حتما مسئول عن تصرفاته .

النيابة ـ تقول انه مسئول عن تصرفاته اذا لم يوجد تشخيص اخر لحالته ؟

الدكتور ـ نعم هذا صحيح .

النيابة ـ العبرة اذن ، والحكم يتوقف على ما اذا كان المتهم قد استطاع ان يخدعك ام لا .

الدكتور ـ هذا صحيح بوجه عام .

النيابة ـ اتظن انه ضللك او خدعك بأي صورة من الصور ؟

الدكتور ـ أنا متأكد من انه ضللني في بعض ما قال لي ، واعتقد ان احتمال ذلك كبير .

النيابة ـ اذا كان ما قاله المتهم لك كذبا فما هو تشخيصك للحالة ؟

الدكتور ـ ينهار تشخيصي .

هذه عينة من الطريقة التي اتبعها القاضي والنيابة للوصول الى لب الموضوع قبل اصدار حكم المحكمة على سفاح يوركشاير ، الذي اطلق الناس عليه هذا اللقب على نحو ما لقب به سلفه « جاك السفاح او البقار » الذي اشاع الرعب في قلوب مومسات لندن ونسائها عام ١٨٨٨ ، وان كان سفاح يوركشاير لم يبقر بطون ضحاياه او يحمل معه بعض احشائهن كما كان يفعل جاك السفاح من قبل .

الصدفة قادت اليه

ارتكب سفاح يوركشاير عشرين جريمة من جرائم القتل او الشروع فيه راح ضحيتها عدد من المومسات ، بدأت عام ١٩٧٥ واستمر يمارس هذه الهواية الجهنمية الدامية حتى قبض عليه بمحض الصدفة يوم ٢ يناير ١٩٨١ دون ان يدرك الشرطيان اللذان قبضا عليه انهما قد حققا معجزة لم يستطع الالاف من زملائهم تحقيقها طوال اعوام .

في امسية يوم ٢ يناير ١٩٨١ وقفت في حي البغاء سيارة فيها شاب وسيم قصير اللحية والقامة ومعه فتاة زنجية لا تمت للجمال بصلة .... كان الشرطيان روبرت رنج وروبرت هايدز يقومان بدورية لبلية روتينية يفتشان فيها حي البغاء .... لمح احدهما سيارة من طراز روفر ، فيها شخصيان عرف منهما المومس الزنجية اوليفيا ريفرز التي كان يمكن ان تكون الضحية الحادية والعشرين .... اتصل احد الشرطيين بالمخفر عن طريق جهاز اللاسلكي وتحرى عن رقم السيارة وعرف ان النمر التي تحملها زائفة .... وسأل الراكب في ذلك فادعى انه سرق النمر لان حكم محكمة كان قد صدر ضده يفرض عليه عدم قيادة السيارات .... فسأله عن الزنجية فادعى انها صديقة قديمة له فلما سأله عن اسمها لم يعرفه وتشكك البوليس في امره وتقرر القبض عليه بتهمة سرقة نمر السيارة .... وهنا طلب الراكب السماح له بأن يقضي ضرورة ، وراح بعيدا وتستر بالقرب من صهريج كبير ، وعاد بعد فترة .....

واستمر استجواب البوليس للرجل مدة ٤٨ ساعة راوغ فيها البوليس وضللهم وامعن في انكار كل شيء ... وتذكر احد الشرطيين ان الرجل كان قد قضى وقتا قرب الصهريج الكبير قبل القبض عليه ، فراح الى المكان فوجد هناك ، تحت اوراق الشجر ، مطرقة وسكينا وكان البوليس قد عثر في جيب الرجل على حبل طوله قدمان ، ثبت باعتراف المتهم انه استعمله في قتل طبيبة هندية شريفة هي الدكتورة ياندارا ، كانت احدى ضحاياه الابرياء .

وواجه البوليس المتهم بالمطرقة والسكين وضيقوا عليه الخناق ، والحوا في سؤاله فيما يتعلق بكثرة تردده على احياء « المصباح الاحمر » .... فانهارت مقاومة السفاح وقال :

ـ اظنكم تلمحون الى شيء معين وتمهدون للوصول الى نتيجة معينة ؟

ـ ماذا تعني ؟

ـ اعني سفاح يوركشاير ...

ـ ماذا عن سفاح يوركشاير ؟

ـ انا هو ... سفاح يوركشاير ، وانا سعيد بهذه النهاية .. كنت على وشك ان اقتل المومس الزنجية التي كانت معي في السيارة ... اريد ان اخبر زوجتي بما فعلت ... هي وحدها التي تهمني ... لا تهمني نفسي ...

ـ اذا كنت انت السفاح حقا فكم امرأة قتلت ؟

ـ احدى عشرة امرأة ... لم ارتكب جريمة مدينة برستون ، كنت هناك ولكني لم اقتل احدا فيها .

ـ هل انت صاحب الشريط المسجل والرسالتين ؟

ـ لا لم اكتب شيئا ولم اسجل شيئا .. احسست بالاطمئنان وانتم تعتمدون في بحثكم عن السفاح على رجل له اللهجة المسجلة على الشريط ولست ممن يتكلمون بلهجة « صندرلاند » .

ـ هل تعرف اسماء من قتلت من النساء ؟

ـ كل الاسماء في رأسي تذكرني بأني وحش .. قتلت ١٢ امرأة وليس ١١ كما قلت .. كلما فكرت فيهن ادركت مدى وحشيتي .

ادلى السفاح باعترافه بمحض ارادته واستغرقت كتابة اعترافه ١٥ ساعة و ٤٥ دقيقة ... سرد فيه وصف ما ارتكب من جرائم وحشية .. ونورد هنا في ايجاز شديد بعض ما ورد في الاعتراف وادلى به الشهود من اقوال .

جاء في شهادة صديق للسفاح ، اسمه تريفور بيردسول ، انه كثيرا ما كان يصحب السفاح في رحلاته ومغامراته الليلية في في احياء « المصباح الاحمر » . وان الشك داخله تجاه صديقه السفاح « بيتر ستكليف » منذ عام ١٩٧٦ يوم خرج معه الى حي البغاء في مدينة برادفورد ـ حيث يعيشان ـ ونزل ستكليف وغاب عنه فترة ثم عاد مسرعا يلهث ويقول وهو يركب السيارة « سق بسرعة .. بسرعة » فلما تحركت السيارة ، اخرج السفاح حجرا كان في جورب والقى به من النافذة وقال للصديق « لقد ضربت به احدى الموسات على رأسها ولا ادري ما أصابها » .

مسلسل الشر

ارتكب السفاح اول جريمة اعترف بارتكابها ، في يوم ١٥ اغسطس ١٩٧٥ .. وقال البوليس اذ ذاك ان مجهولا حاول قتل مومس اسمها اوليف سملت ، وكان السفاح قد صحب صديقه بيردسول في تلك الليلة في جولة صاخبة بحانات مدينة هاليفاكس ، عادا بعدها في طريقها الى مدينة براد فورد . فلما بلغا « بوث تاون » ، اخذ ستكليف شيئا من السيارة ، وابتعد وبعد غيبة عشرين دقيقة عاد ساهما يبدو عليه الهدوء ـ .

كانت « سملت » نجت من الموت باعجوبة ، تعمل خادما تنظف المكاتب . وكان من مألوف عادتها ان تخرج في امسيات الجمعة مع صديقة لها تشربان وتمرحان في حانات المدينة .. وفي يوم ١٥ اغسطس زارت المرأة عددا من الحانات وجرعت من الخمر ما جرعت ، ثم غادرت اخر الحانات التي زارتها في تلك الليلة ، في سيارة مع رجلين اوصلاها الى نقطة تبعد حوالي ٤٠٠ ياردة من بيتها ... واحست المرأة بأن هناك من يتبعها في الطريق ، فلما ادركها الذي كان يمشي وراءها ، دار بينهما حديث .. ولا تذكر المرأة بعد ذلك الا انها افاقت فوجدت نفسها في المستشفى .. اما الذي حقق لها النجاة من الموت فهو انه في اللحظة التي كان السفاح ينهال على رأسها بضربات مطرقته دخلت الشارع سيارة فاتحة انوارها الكشافة وفي ضوئها رأى السائق المرأة مسجاة على الارض .. والغريب في الامر هو انه لم ير السفاح .. وهكذا نجت المومس اوليف سملت من موت محقق وكتبت لها الحياة لتشهد محاكمة الوحش الذي كاد يغتالها .

اما أولى من متن نتيجة لاعتداء السفاح فكانت « ويلما ماك كان » .. امرأة تعيش مع اطفالها الاربعة بعيدا ع زوجها .. امرأة منحلة تفرط في شرب الخمر وتفرط في عرضها ولا تبخل بجسدها على احد .

في الليلة الموعودة خرجت « ويلما » وطوفت بعدد من النوادي والحانات .. وفي الطريق دعاها ستكليف السفاح لركوب سيارته .. وفي الصباح التالي عثر بائع اللبن على جثتها مطروحة على الطريق .. وقال الطبيب الشرعي الذي فحص الجثة إنها تلقت ضربة ثقيلة بمطرقة كسرت جمجمتها فلما سقطت على الارض طعنها القاتل عدة مرات .

وجاء في اعترافات السفاح انه خرج في تلك الليلة ينشد من المومسات صيدا يقتله . فلما ركبت ويلما سيارته ، وتأكد انها مومس ضربها على رأسها ، فلما بدأت تصرخ طعنها بسكينه عدة طعنات .

كانت ضحيته التالية مومسا في الثانية والاربعين ، اسمها اميلي جاكسون ، كانت متزوجة من قواد يعيش على بيعها لعرضها .. وكان الزوج ينقلها في سيارته كل ليلة الى مدينة ليدز لتمارس تجارتها الرخيصة وتبيع جسمها لكل من يدفع الثمن ... عثر البوليس على جثتها والى جانب الجثة اثار حذاء ، ثبت فيما بعد انه حذاء السفاح .

جاء بعد ذلك مقتل المومس ايرين رتشارد حين وعمرها ٢٨ سنة قال الطبيب الشرعي انها ماتت لان عظام جمجمتها غارت الى عمق بوصة كاملة في المخ بسبب ضربة مطرقة .. وكانت الفترة التي مضت بين

هذه الجريمة والتي سبقتها حوالي عام كامل .. فلما سئل السفاح في ذلك قال انها كانت فترة تردد وحيرة « دار في عقلي صراع وساد الاضطراب تفكيري .. هل اواصل القتل ام لا؟ ؟ »

واختلفت الجريمة التالية عن سابقاتها مما ارتكب السفاح لانها وقعت في داخل بيت القتيلة . وقرر الطبيب الشرعي ان الضحية وهي المومس باتريشا اتكنسون ماتت بعد ان طعنها القاتل عشرين طعنة .. وعلل السفاح ذلك بأن المومس استعملت في حضرته كلمات نابية ولغة فاحشة .. ولله في خلقه شئون !

ومن خبراء الجريمة من يرى ان اشنع ما ارتكب السفاح ، كانت جريمة قتل مومس من مدينة مانشستر اسمها جين جوردان ، لم تكتشف جثتها الا بعد زمن طويل مما مكن السفاح من العودة الى مكان الجريمة بعد تسعة ايام والاعتداء على الجثة ومحاولة تقطيعها وفصل الرأس عنها .. فلما اكتشفت الجثة في اليوم العاشر عثر البوليس بالقرب منها على ورقة بنكنوت جديدة من فئة خمسة جنيهات كانت لا شك السبب الرئيسي لعودة القاتل الى مكان الجريمة .. ولقد توصل البوليس بعد تحريات دامت ٢٧٠٠٠ ساعة واستجواب ستة آلاف شخص من الوصول الى الشركة التي صرفت الورقة المالية كجزء من اجر احد موظفيها .. واستجوب البوليس السفاح ولكنهم اخلوا سبيله كالمعتاد !

في يوم ١٤ ديسمبر ١٩٧٧ اعتدى السفاح على المومس مارلين مور بعد ان قبلت دعوته وركبت سيارته ، فلما طلب منها الانتقال للمقعد الخلفي واحنت رأسها لتدخل مؤخرة السيارة ضربها على رأسها ثلاث ضربات فسقطت على الارض وهي تصرخ صراخا مخيفا ودب الرعب في قلب السفاح الذي اشاع الرعب في قلوب الناس فولى الادبار قبل ان يجهز عليها . وبعد علاج طويل في المستشفى تماثلت للشفاء واعطت البوليس اوصاف السفاح ...

مهمة سماوية !!

وعلى هذه الوتيرة سار السفاح في طريق رصفه بجثث ضحاياه .. ولكنه بدأ في عام ١٩٨٠ يقتل بنات وسيدات من ذوات العفة والسمعة الحسنة . ونذكر من هؤلاء جوزفين ويتكار ـ ١٩ سنة ـ وكانت موظفة في احدى شركات المباني ، ثم اغتال باربرا ليتش وكانت طالبة في جامعة رادفورد ثم مرجريت وولز ، ٤٧ سنة ، موظفة في وزارة التربية والتعليم .. وكانت آخر ضحاياه من بنات الشرف والعفة طالبة جامعية اسمها جاكلين هل ، قتلها السفاح وهي على مرمى حجر من المساكن الجامعية !

يعلل السفاح ارتكابه لهذه الجرائم المروعة ، ويفسر فترة الارهاب التي استمرت خمس سنوات ، بأنها كانت مهمة سماوية كلفه الرب بها وامره بقتل المومسات .. ولكن السفاح لم يعلل قتله او اعتداءه على غير المومسات ومنهن طبيبة هندية وطالبات في الجامعةوموظفات .. وقال انه كره المومسات بعد ان استغفلته احداهن وسلبت منه عشرة جنيهات .. وادعى السفاح انه يرى تهيؤات وخيالات ، وتعتريه نوبات من الكآبة والقنوط بعد ان اصيب في حادث سيارة نارية ..

اما بيت القصيد في دعواه ، وهو ما بنى عليه شهود الدفاع رأيهم بأن عقله مريض ، فهو انه قال انه سمع صوت الرب يحدثه من فوق صليب منصوب على مقبرة رجل بولندي في المدافن التي كان في وقت ما يعمل فيها حفارا للقبور قبل ان يحترف قيادة اللوريات .. كان الصوت ـ على حد قوله ـ يأمره بالحاح « اقتل ، اقتل ، اقتل » .

وشهد ضابط من ضباط السجن الذي كان ينزل فيه السفاح ، انه سمع هذا المجرم يقول لزوجته لما زارته « اتوقع ان يصدر الحكم بسجني ٣٠ سنة .. لكن اذا استطعت ان اوهم المحكمة بأنني مجنون فقد تحكم بحجزي عشر سنوات في احدى المستشفيات العقلية » والمهم ان المتهم اعترف في تبجح وصلف ان هذه الشهادة صحيحة تماما ، وانه قال ما قال لكي لا تنزعج زوجته او ينفطر قلبها عليه !!

أغرب من الخيال !

وصحبت هذه القضية ملابسات واقعية ولكنها تفوق في غرابتها كل خيال .. فالبوليس البريطاني معروف بدقته ، واسكتلاند يارد يتمتع بسمعة عالية وهو مضرب المثل في المهارة البوليسية .. ولكن الذي حدث هنا ان البوليس البريطاني لابد انه قد أصيب بامساك عقلي وعميت بصيرته وضعفت حيلته لمدة ستة اعوام .. ويكفي ان نقول ان البوليس استدعى هذا السفاح لاستجوابه تسع مرات وكان يفلت من ايديهم كل مرة .. وظل يمارس القتل أو الشروع فيه وهو تحت انف البوليس ، يحميه شيطان مريد او قوة اخرى اكثر « عفرتة » من كل شيطان ...

وتضافرت عدة ظروف وتكاتفت على مساعدة هذا السفاح .. من ذلك مثلا صديقه تريفور بيردسول الذي تشكك في امره منذ عام ١٩٧١ ولم يتحرك الا في عام ١٩٨٠ اذ ارسل اول الامر للبوليس خطابا من مجهول ، ثم زار مخفر الشرطة بعد ذلك وادلى بأقواله .. ومع ذلك لم يقبض البوليس على السفاح الا بطريق الصدفة في يناير ١٩٨١ .

اما الدرع الذي كان حصنا واقيا للسفاح ، وهو ما ضلل البوليس وعصب اعين رجاله بعصابة كثيفة اعمت بصائرهم وطمست على قلوبهم ، فهو ان مجرما آخر سجل رسالة على شريط ، بلهجة اهل « سندرلاند » ـ ولهجة السفاح تختلف عنها كثيرا ـ اكد فيها انه هو السفاح ثم اتبع الشريط برسالتين خطيتين ادعى كذلك انهما من السفاح .. وانصافا للبوليس نقول ان الشريط احتوى على معلومات عن جريمة قتل وقعت في المنطقة ولم يكن السفاح هو القاتل وابتلع البوليس هذا الطعم المسموم وامنوا ايمانا راسخا بأن الشريط والرسالتين من السفاح .. ولا تسأل ايها القارىء كيف وقع البوليس في مثل هذا الفخ المخزي ـ فكانوا كلما حامت شبهة حول شخص سجلوا صوته وخطه وقارنوا الصوت والخط بالشريط والرسالتين .. فاذا اختلف الصوت ـ بصفة خاصة ـ او الخط اعتبر المشتبه فيه بريئا مهما قويت ضده الشبهات .. ومن هنا كان إخلاء سبيل السفاح تسع مرات متتالية ، لان الصوت لم يكن صوته ، ولا كان الخط خطه .. ولعل هذه اكبر حماقة ارتكبها البوليس البريطاني طول تاريخه الحافل .. وستبقى هذه وصمة عار تلوث المسئولين ما عاشوا ، لان الشريط اعمى بصائرهم تماما .

اكثر من ذلك ان رجلا من رجال الشرطة ، ممن يبحثون وراء السفاح ، احس بقناعة تامة ان « ستكليف » هو السفاح فكتب تقريرا رسميا رفعه الى رؤسائه وطالب باعادة فتح ملف السفاح والتحقيق معه تحقيقا دقيقا .. ولم يلتفت احد الى تقرير ذلك الضابط .. وذهب التقرير مع الريح ـ ..

ومن غرائب الملابسات ، ان مورين لونج ، وهي مومس نجت من الموت بعد اعتدائه عليها عام ١٩٧٧ ، لقيته وجها لوجه في احد شوارع براد فورد ـ حيث يسكن ـ فعرفها لتوه ولكنها لم تتعرف عليه .. أرأيت الى الاقدار تلعب بنا الى هذا الحد ؟

ترى من هو هذا السفاح الذي رعته ربة الحظ ؟

هو بيتر وليام ستكليف ، من اسرة فقيرة مكونة من ستة اشخاص .. واصل دراسته الى سن ١٥ ثم بدأ يزاول العمل .. اشتغل اولا عند احد المقاولين ، ثم عاملا في أحد المصانع ثم حفارا للقبور في الجبانة التي ادعى انه سمع فيها صوت الرب يأمره بالقتل ، وعمل بعد ذلك سائقا للوريات .

في اغسطس ١٩٧٤ تزوج ستكليف من احدى المعلمات وعمرها اذ ذاك ٢٤ سنة وعمره ٢٨ سنة .. وقرر الاطباء ان زوجته كانت مصابة بمرض عقلي هو نفس المرض الذي اكد المتهم انه مصاب به .. بعد الزواج عاش ستكليف وزوجته في دار اهل زوجته ثم انتقل مع زوجته بعد ذلك الى بيت خاص بهما في برادفورد ولكن الثابت انه بدأ مغامراته الوحشية وهو يسكن دار حميه .

سجن مدى الحياة

في يوم ٢٠ مايو ١٩٨١ وهو اليوم الثالث عشر من ايام هذه المحاكمة التاريخية ، بدأ القاضي بورام تلخيصه للقضية والقى خطابه على هيئة المحلفين ، وهي في هذه المحاكمة مؤلفة من ستة رجال وست نساء ، فتناول بالشرح والتحليل شهادة الشهود وفند كلا منها ثم عرج على حجج الدفاع وتأكيده ان المتهم بيتر وليام ستكليف ـ سفاح يوركشاير « مصاب بمرض عقلي ، ثم لخص القاضي بعد ذلك رد النيابة على دعوى الدفاع .

تساءل القاضي « بورام » عن الدافع الذي حرك هذا المجرم لان يقتل ويقتل ويقتل ... ثم تساءل : هل قال المتهم الصدق لما اشار الى صوت الرب وقال ان الرب اتخذه رسولا مختارا ليقتل المومسات ؟.. ثم قال « لعل المحلفين يرون ـ وهم في ذلك على حق ـ ان اهم شهود هذه القضية هو المتهم نفسه .. ومن السهل ان ندرك ان نية المتهم كانت هي قتل من اعتدى عليهن ، ولكن الصعب العسير هو ان نعرف الدافع الذي حفزه على ذلك .. فعلم ذلك عند الله والمتهم وحده » .

واشار القاضي الى العناصر التي يقوم الدفاع على أساسها وقال ان من واجب المحلفين إن يسألوا انفسهم ثلاثة اسئلة تنير الطريق امامهم .

اولا : هل كان المتهم يعاني من اي شذوذ عقلي في الوقت الذي ارتكب فيه كلا من اجرامه ؟

فالعقل هو الذي يوفر لنا القدرة على الحكم الصحيح السليم ويمكننا من ممارسة قوة الارادة بصورة يرتضيها الحكم السليم .. لقد قال الدفاع ان عقل المتهم كان تحت تأثير قوة سماوية خارجية ، وان عقله كان غير طبيعي لانه كان خاضعا لتوجيه هذه القوة .. وقال المتهم عن

نفسه انه كان يرى تهيؤات وتخيلات .. فهل كانت هذه من الشدة بحيث تجعل عقله مريضا ؟

ثانيا : هل الامر الاكثر احتمالا هو ان المتهم كان فعلا يعاني من هذه الحالة العقلية غير الطبيعية ؟ اذا كان الجواب ايجابا فهناك سؤال ثان « هل الشذوذ العقلي جاء نتيجة لمرض عقلي ؟ » .

هل بلغ شذوذ ستكليف العقلي درجة تعطل وظائفه العقلية تعطيلا شديدا وتجعله غير مسئول عن تصرفاته واعماله ؟ هل كان على مشارف عالم الجنون ؟ او هل كان نصف مجنون ؟

قال القاضي ان الاطباء الاخصائيين الثلاثة وهم شهود الدفاع مجمعون على انهم اصدروا حكمهم بمرض المتهم على اساس ما قاله المتهم لهم ، فاذا كان المتهم قد كذبهم ، فان تشخيصهم يصبح باطلا .. والشهود الثلاثة يصدقون ما قاله المتهم من انه سمع صوت الرب في المقبرة يناديه و يأمره بأن يقتل .. واقر أحد الاطباء بأنه اذا كان ما ادعاه المتهم باطلا فان تشخيصه لحالة المتهم العقلية ينهار من اساسه .. ثم ان الشاهد الدكتور ملن قال ان بيت القصيد في القضية هو ان المتهم كان يؤمن ساعة ارتكاب كل جريمة ، بأن ضحيته مومس ، فاذا كان المتهم ، يدرك ان بعض من قتل لم يكن من المومسات انهارت قضية الدفاع تماما .. وذكر القاضي بهذه المناسبة ان اخر ست جرائم ـ التي راح ضحيتها بنات ونساء شريفات ـ ارتكبت جميعها بعيدا عن حي « المصباح الاحمر » ، وان المتهم لم يطلب من اي من الضحايا الست الاخيرة ان تركب سيارته على حين انه كان دائما يدعو المومسات للركوب ... فهل كانت هذه مجرد صدفة أو لعله كان يعلم ان الست كن من غير المومسات ، وانهن لن يقبلن دعوته لركوب سيارته ؟

واشار القاضي الى ان المتهم قدم للمحكمة كدليل على سماعه صوت الرب يأتي من قمة صليب منصوب فوق مقبرة شخص بولندي ، قدم صورة فوتغرافية للمقبرة وقال شأن المتهم في ذلك شأن من يدعي انه غير بحر المانش فاذا تشككت في قوله اصطحبك الى الساحل واراك البحر !

انتهى القاضي من تلخيص القضية حوالي الساعة العاشرة صباحا من يوم الجمعة ٢٢ مايو ١٩٨١ ، وخرج المحلفون في الساعة ١٠,٢٠ وذهبوا الى قاعة المداولة التي لا يدخلها غيرهم وهم في خلوتهم .. وغاب المحلفون خمس ساعات واستدعاهم القاضي في الساعة ٣,٢٠ بعد الظهر وسألهم عن قرارهم فلما قال مقدم المحلفين انهم لم يستطيعوا الوصول الى قرار اجماعي قال القاضي انه يقبل منهم قرار اغلبية عشرة اصوات لصوتين .

وعاد المحلفون الى قاعة المداولة ثم عادوا إلى قاعة المحكمة بعد ساعة وذلك في الساعة ٤,٢٠ بعد الظهر .. وقرر مقدم المحلفين انهم وصلوا الى قرار بأغلبية عشرة اصوات لصوتين .. والقرار هو ان المتهم بيتر وليام ستكليف مذنب وان تهمة القتل العمد مع سبق الاصرار قد ثبتت عليه في جميع جرائمه التي راح ضحيتها ١٣ امرأة .

ولما كان القانون البريطاني لا يبيح عقوبة الاعدام ، فان القاضي وجه كلامه للمجرم وقال :

بيتر وليام ستكليف .. لقد أدانك المحلفون ، فأنت قاتل مع سبق الاصرار ، وانا احكم عليك بالسجن مدى الحياة ،! فانا لا اشك في انك مجرم خطير وان جرائمك كلها وحشية ... واستمع سفاح يوركشاير للحكم دون ان تطرف له عين .

وهكذا اسدل الستار على اكبر محاكمة جنائية شهدتها بريطانيا في القرن العشرين ، والذي لاشك فيه اننا سنرى في متحف الشمع ـ مدام توسو ـ تمثالا لهذا السفاح ، بين اقرانه المجرمين في قاعة الرعب .. ولعل الناس في غير حاجة الى ما يذكرهم بهذا الوحش الذي سجل بدم ضحاياه صفحة تشين الانسانية .. صفحة مرعبة لا نظير لها في تاريخ الجريمة . ■■

جمال الكناني

الطلاق .. واتفه الاسباب

سئل مرة الكاتب الفرنسي اندريه موروا : « لماذا يتم الطلاق الآن لاتفه الاسباب ؟ » فاجاب : لان الزواج يتم الان لاتفه الاسباب !!!



نابليون هذا المهدى المنتظر



سموم الاستشراق

باريس ـ محمد صالح القمودى

● يظل الاستشراق من الموضوعات بالغة الأهمية التى لم تلق عناية الدارسين بعد . وكتاب الاستشراق لادوارد سعيد ، الفلسطينى الذى يدرس الأدب الانجليزى والمقارن فى جامعة كولومبيا بنيويورك ، ما زال يثير اهتمام الباحثين فى الشئون العربية الاسلامية منذ صدور ترجمته الفرنسية خلال الربع الأخير من السنة الماضية (١٩٨٠ م) .

يؤكد سعيد فى كتابه أن مؤلفات المستشرقين لم توضع فى أغلبها خدمة للعلم ، وانما وضعت خدمة للاستعباد . أبرز مثال على ذلك ، الحملة الفرنسية على مصر التى قادها بونابرت سنة ١٧٩٨ م . هذه الحملة ما كانت لتتحقق لو لم يسبقها صدور كتاب وضعه الكونت دى فولنى سنة ١٧٨٧ بعنوان (رحلة الى مصر وسوريا) .

كلما أقدمت دولة أوروبية على احتلال قطر عربى .. لجأت الى دراسات المستشرقين لتنجز الاحتلال بأقل ما يمكن من التكاليف .. فهل تحقق لها ذلك ؟ هل تطابقت التوقعات مع وقائعها ؟ أم أن الوهم لاينجم عنه غير التضليل ؟! أسئلة سنحاول الاجابة عنها من خلال منشورين أعدهما المستشرقون الأوربيون : الأول وجهه بونابارت الى عرب مصر فى ٦ يوليو ١٧٩٨ م ، والثانى وجهه (كانيفا) الى عرب ليبيا فى ١٥ اكتوبر ١٩١١ م .

انا المهدى المنتظر

بسم الله الرحمن الرحيم ـ لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه .. هكذا يبدأ منشور بونابارت بنفى قاطع للتثليث رافضا بذلك التصور الكاثوليكى للمسيحية ، معتنقا ـ لفظيا على الأقل ـ التصور الاسلامى بما يفرضه من توحيد . الاستشراق يدعى العلمية والموضوعية .. ترى كيف تعامل مع هذا الموقف الذى اتخذه قائد الحملة الفرنسية ؟ لقد تعامل معه بالتزييف والمواربة طيلة قرنين من الزمان تقريبا . دليلنا على ذلك ، كتاب صدر فى باريس سنة ١٩٧٩ م بعنوان (مذكرات أحد أعيان القاهرة خلال الحملة الفرنسية ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ م) وهو عبارة عن ترجمة لفصول من كتاب (تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) لعبد الرحمن الجبرتى . جوزيف كوك المترجم يراعى

الدقة في نقله ، لكنه يحذف الجملة التي ينفي فيها بونابرت التثليث . هكذا يخون المستشرق الأمانة العلمية في الربع الأخير من القرن العشرين وقد زال التعصب الديني من أوروبا أو كاد .. فما بالك بمن سبقه ممن عاشوا في عصر الظلام والتعصب .

ويقول بونابرت مخاطبا عرب مصر :

يا أيها المصريون ، قد قيل لكم بأنني ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين وانني أكثر من المماليك عبادة لله سبحانه وتعالى .. أحترم نبيه والقرآن العظيم .

لقد جاء بونابرت اذن ليخلص شعب مصر من الطغاة ، انه المهدي المنتظر .. ولكن المهدي مسلم ، فهل أسلم بونابرت ؟!

المنشور الذي يحمل توقيعه لايدع مجالا للشك :

ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك انهم قد نزلوا في رومية الكبرى (روما الحالية) وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة المسلمين ،ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها (الكوالرية) الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين .

بونابرت مخلص الشعوب .. المهدي المنتظر .. المسلم الغيور على الاسلام الذي حطم الفاتيكان .. جاء الى مصر حاملا الرخاء :

طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير ، فيصلح حالهم ، وتعلو مراتبهم . طوبى أيضا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ، فاذا عرفونا بالأكثر .. تسارعوا الينا .

ثم فجأة يتبدد الوهم ، وتسقط الأقنعة .. فاذا بالمتحدث قائد جيش يسعى الى تحقيق أهدافه بالقوة العسكرية ، ويصدر أوامره الحادة التي لا أثر للايمان فيها :

جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية .. يجب عليها أن ترسل وكلاء الى قائد العسكر حتى يعرف أنها أطاعت وانها نصبت علم الفرنساوية .

كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوية .. تحرق بالنار .

تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة ، والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال : أدام الله اجلال السلطان العثماني ، ادام الله اجلال العسكر الفرنساوي لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية !

تمزيق الحجب

عرضت منشور بونابرت على الاستاذ أوليفيه المتخصص في تحليل النصوص بكلية الدراسات الاجتماعية بباريس ، فقال :

كل نص خطابي .. يمكن أن يستخرج منه التحليل اللغوي خمس شخصيات متباينة كالشخصيات الرئيسية التي تتصارع فوق خشبة المسرح : المرسل ، المرسل اليه ، الفاعل ، المؤيد ، المعارض .. تدور حول الموضوع . واذا حللنا منشور بونابرت الى أهل مصر ، استخرجنا منه العناصر التالية :

المرسل هو الله الذي بعث بونابرت ليخلص المصريين من طغيان المماليك ويقيم العدل .. المرسل اليه هو شعب مصر .. الفاعل هو بونابرت قائد الحملة الفرنسية .. والمؤيد هو السلطان العثماني ومن خلفه الأتراك .. المعارض هو جمع المماليك .. أما الموضوع فهو التواجد الفرنسي في مصر بما يحمله من ممارسة حضارية .. يسعى الى زرعها على ضفاف النيل مما يضمن له رعاية مصالحه الاقتصادية ، التجارية منها خاصة والتي يشير اليها النص صراحة .

متحدثا عن أكبر المستشرقين في عهد بونابرت ، يقول سعيد في كتابه (الاستشراق) : ان حياة (سيلفيستر دي ساسي) لها محوران : الجهد البطولي والفعالية التربوية . ومع ذلك فان هذا العالم الجليل لم يتورع عن اخفاء منشورات بونابرت عندما أصدر كتابه (المنتقيات الادبية العربية) سنة ١٨٠٦ م .. مبررا فعلته بما يلي :

عندما أعددت الطبعة الأولى من كتابي ، ترجمت منشور بونابرت ، غير انني لم انشره خوفا من العواقب الوخيمة التي كانت ستلحق بي من جراء التذكير بنص يفتخر فيه قائد الجيوش الفرنسية بتدمير البابوية .

وعندما سقط الامبراطور نابليون الأول سنة ١٨١٥ سارع « العالم الجليل » باعادة طبع كتابه



مدرجا فيه المنشور الذى يدين بونابرت . لكنه يدين أيضا ممارسات المستشرقين اذ انه من صنعهم .. وصنعوه ليثبت صحة ارائهم . وعندما أخفق فى تحقيق هذا الغرض .. أنكروه وألصقوه بنابليون بعد سقوطه .

والأسئلة التى يجيب عنها المستشرقون هى :

ـ لماذا أخفق منشور بونابرت فى تحقيق الغرض من اعداده ؟ لماذا انتفضت القاهرة يوم ١٠ أكتوبر ١٧٩٨ م بعد أقل من اربعة أشهر من توزيع المنشور ؟ لماذا توالت الانتفاضات حتى خرج الجيش الفرنسى من مصر يوم ٢ سبتمبر ١٨٠١ م ؟

بعد قرن من الزمان

عندما قررت الحكومة الايطالية تنفيذ خططها الخاصة بغزو ليبيا .. لجأت الى المستشرقين : هكذا يقول الكاتب الفرنسى (البير دوزا) فى كتابه (التوسع الايطالى) . منشور (الجنرال كانيفا) أعد وطبع باللغة العربية فى روما . لقد ساهمت فى اعداده أكثر الشخصيات كفاءة وأوسعها دراية بشئون الليبيين وعاداتهم . كل كلمة من كلمات المنشور .. اختيرت فى عناية فائقة لتحدث أطيب الآثار وأعمقها فى نفوس العرب .

وفى الخامس من أكتوبر ١٩١١ م .. عندما استولى (كانيفا) على القلعة الحمراء فى طرابلس بعد أن غادرها الاتراك .. وزع على الليبيين منشورا جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . والصلاة والسلام على كافة المرسلين صلى الله وسلم عليهم أجمعين .

نلاحظ أن (كانيفا) لم يبدأ منشوره بنفى التثليث مثلما فعل بونابرت . والسبب فى ذلك ليس تعلقا بالكاثوليكية . وانما هو مراعاة للفاتيكان الذى مكن من تحقيق التغلغل الاقتصادى الايطالى فى ليبيا بما ساهم به من استثمارات مالية من خلال فرعى بنك روما فى طرابلس وبنغازى ..

ومثلما فعل بونابرت .. أوضح (كانيفا) لأهل البلاد أين تكمن مصالحهم الحقيقية . وكشف لهم أعداءهم وكأنهم لايعرفونهم .. ثم لجأ الى القرآن الكريم ليبرهن أنه مبعوث العناية الالهية وأن طاعته واجبة :

ايا سكان طرابلس وبرقة .. اذكروا ان الله قال فى كتابه العزيز (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين) .

ثم بعد الاستشهاد خمس مرات بالآيات القرآنية .. خلص (كانيفا) الى القول التالى : ارادة الله ومشيئته سبحانه قضتا أن تحتل ايطاليا هذه البلاد لأنه لايجرى فى ملكه الا مايريد . فهو مالك الملك وهو على كل شىء قدير . فمن أراد أن يظهر فى الكون غير ما أظهره مالك الملك رب العالمين . المنفرد بتصرفاته بملكه الذى لاشريك له فيه . فقد جمع الجهل بأنواعه وكان من الممترين . وبناء عليه يلزم على كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلقت به الارادة الربانية وأبرزته القدرة الالهية . فالملك له سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء .

وعلى الرغم من أن المنشور حاول تبرير الاحتلال الايطالي بجعله نابعا من الارادة الالهية فقد أوكل احترام تلك الارادة الى القوة العسكرية :

واذا وجد من لايحترم الشرائع أو يثور على العناية الالهية التي أرسلت ايطاليا الى هذه البلاد ، وباسمها صدرت لي هذه الأوامر وقبلتها ممن يملك حق الأمر ، فسيكون الانتقام منه عظيما ، وسأحافظ على تنفيذها بالقوة الموكلة لعهدتي .

بعد ١٨ يوما من توزيع هذا المنشور .. هجم المجاهدون الليبيون على القوات الايطالية . واشتبكوا معها في معركة هائلة دارت في منطقة الهاني على بعد ثلاثة كيلومترات من أسوار مدينة طرابلس .. وانهزمت القوات الايطالية شر هزيمة ، غير أن هزيمة المستشرقين الذين أعدوا منشور (كانيفا) كانت أشد مما جعل رد فعلهم أعنف .

تغطية الفشل

ما أن تلقى (كانيفا) الامدادات العاجلة التي طلبها ، حتى أصدر أوامره الى قواته بالهجوم على المنشية حيث يقوم الفلاحون العزل الذين يزودون مدينة طرابلس باحتياجاتها من الخضراوات . تغطية لهزيمتها يوم الهاني . قتلت القوات الايطالية أربعة الاف من المدنيين أغلبهم من النساء والشيوخ والأطفال وذلك خلال الفترة من ٢٦ الى ٢٩ أكتوبر ١٩١١ م .

تلك كانت تغطية الفشل التي لجأ اليها العسكريون ، اما تغطية الفشل التي لجأ اليها المستشرقون ، فقد تمثلت في صرف النظر عن الاستشهاد بالآيات القرآنية لاثبات شرعية الاحتلال ، والجهت الى البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع بحثا عن نقاط الضعف التي يمكن المرور عبرها لتحطيم تلك البنية .

وهكذا استبدل المستشرقون الايطاليون الدسائس بالمناشير ، فزرعوا بذور الفتنة في خبث في العقلية البدوية المفطورة على الصدق ، وجعلها تضيع أحيانا في متاهات النزاعات الهامشية التي تخدم الغاصب الدخيل .

... وبعد ،

الجملة الأخيرة من كتاب ادوارد سعيد تقول :

ربما كان للتعرف على الاستشراق معنى ، وهو اظهار الكيفية التي تتدهور بها المعرفة ،أية معرفة .

وحتى يوضع حد للسموم التي ينفثها بعض المستشرقين من خلال دراساتهم للأقطار العربية والاسلامية ، فان على ابناء هذه الأقطار أن يدرسوا الاستشراق دراسة واعية كما فعل ادوارد سعيد ، وأن ينافسوه في البحث والدراسة ، متفوقين عليه بالصدق . ■■

محمد صالح القمودي

لو شنق

قال احد المعجبين مرة للسيرة ونستون تشرشل :

ـ ألايسرك ان تعلم انه في كل مرة تلقي فيها خطبة ، تزدحم القاعة بالناس حتى لا يصبح فيها موضع لقدم ؟

واجاب تشرشل :

ـ الا ترى انني لو شنقت ، لكان عدد الحاضرين ثلاثة اضعاف الذين يحضرون للسماع

مقالات في كلمات

■ يا لها من حياة مملة محيرة لا تعرف ماذا تصنع بها وفيها لو ان الله شاء ان يكشف لنا كل اسرار الطبيعة .

« جوتيه »

■ اضحك ، تضحك مع الدنيا ، ولكن اذا ارتفع صوت شخيرك فسوف تجد نفسك تنام وحدك .

« ايان روبنر »

■ عظمة الرجل تقاس بمدى استعداده للعفو عمن اساء اليه .

« ج . يانج »

■ انني افضل الاخطاء التي تصدر نتيجة للحماس ، على الشعور باللامبالاة من جانب رجل يتصف بالحكمة .

« اناتول فرانس »

■ الشعور بالاذلال ، شعور غريب ، ففي اللحظة التي تظن انك تعرضت له ، تكون قد تخلصت منه .

« د . هالس »

■ الزواج عند المرأة رحلة جديدة مثيرة ، اما عند الرجل فهو تجربة يخوضها في هذه المرة امام اعين كل الناس .

« كوليت »

■ انت لا تستطيع ان تبني لنفسك شهرة على اساس ماتنوى ان تفعله في المستقبل .

« هنري فورد »

■ بعض الناس يشكون من الشوك الذي يحيط بالورد ، انا شخصيا اشكر هذه الاشواك التي اعطتني وردا .

« الفونس كار »

■ ربما تكون علاقة المضيف بالضيف ، هي اسعد علاقة يمكن ان تقوم بين الاب وابنه .

« افلين واف »

الحبُّ الخالدُ

بغداد — د . عاتكة الخزرجي

كان ما كان .. والتقى قدرانا / أوتدري ما كنت منك وكنتا ..؟!
لم أزل ها أنا طفلةَ الأمـ / ـس .. فهل انت لم تزل .. ام كبرتا ..؟!
نُبْني يا فتاي يا أجمل الخلـ / ـق .. مليكي ومالكي .. كيف انتا ..؟!
كيف يا سيدي نسيت وانت الـ / ـفكر والذكر لحظة ما عدوتا ..؟!
أين أين الوفاء يا مالكَ القلـ / ـب ؟ وانت الفتى سموا وسمتا ..؟!
يا فتايَ الفتى (١) ويا سيد الصحـ / ـراء يا ابن الشموس صيتا وبيتا
هاك عَتْبي تمليه ضيعة قلبي / حين أسرفت في أذاي وجُرْتا ..
أين أين الوفاء يا مالك القلـ / ـب ؟ اجبني كفاك بالله صمتا ..!
كم عشقت الدمى ولم ترع عهدي / وفتنت الجمال حتى افتتنتا !
كلُّ يوم أرى غريما جديدا ..! / بل الوفا تجدُّ إمّا التفتّا ..!
وانا .. قد اضعت في زحمة النسـ / ـيان لم تدر ما الذي قد اضعتا !
اولست « الفتى » اذا ما تنادوا ..؟(٢) / اولست « الفتى » اذا ما استجبتا ..؟
اولسنا احفاد قيس وليلى / باركتنا الصحراء غرسا ونبتا ..؟
اولسنا ممن احبوا فعفُّوا / ثم ماتوا .. وخلدوا الحب موتى ..؟(٣)
فيم يا مالكي اذن خنت حبي ؟ / واتهمت الوفاء حين اتهمتا ..؟
وقطعت العهود ثم قطعتا ؟ / وانتمناك غفلة وغدرتا ؟..؟!

×× ×× ××

شهد الله أن قلبي أمينٌ / كان من كان في المحبة ثبتا ..
قانعٌ منك بالسراب .. بلمح / من سناك الجميل معنى وسمتا
كلُّ يوم يلقاك طيفا مع الاطـ / ـياف يعفو مهلا ما خطرتا
خاشعا ضارعا إليه لتبقى / اي معنى للعيش لولاك انتا ..؟



أنــا من قد جهلــت او من تجاهلــ ـــت .. فهــلا مولاي هلا التفتا ..؟
انــا من قد بذلــت فيك النفيســ ـــن(٤) رخيصــين حسبــة وبخلتا ..!
كل حرف نحتــه من فؤادي لك تاجــا وصولجانــا وتحتا
ان قلبــي وقف عليك ، اتدري ؟ ليت شعــري ماضرٌ ان لو دريتا ..؟!
انــا ظمــأى ظمــأى لوجهــك ، والكل رِواء من عذب ماقــد سقيتا.
فيم هذا الهجــير أصــلاه وحدي ؟ وارى الظــل وارفــاً قد افأتا ؟
ان ظلمــي تأبــاه أنــت ، فانــت الـ ـــعــدل يا منصفــي ، اذا ما حكمتا
انــا آمنــت يا مليكي بعينيــ ـــك .. وعينــاي فيهما كم ضللتا ..!
انــا اخشى العيون امــا تراءتــ ـــك واخشى المرآة امــا رنوتا
الغــرور الغــرور يقصيك عني يا حبيبــي لكم جنــى وجنيتا !
طفلــة غرة أنــا كنــت في حبــ ـــك دومــا فما الــذي انــت كنتا ؟
انــا لولاك لم يكن لي وجود ..! من انــا ؟ ما القصــد ؟ لولاك انتا ..!
وغــدا ان مضيت ماذا سيبقى يا حبيبــي ؟ ومــا الــذي ابقيتا ؟
ليس الا اشــلاء قلــب تهاوى هي آي الوفــاء امــا اذكرتا !

---

(١) المراد بالفتوة في معناها الخاص: كل المثل العربية العليا من فروسية وشجاعة وشهامة ونجدة وكرم وعفة ووفاء .. الخ متمثلة في رجولة الرجل ..

(٢) اشارة الى بيت طرفة المشهور

اذا القوم قالوا « من » فتى خلت انني عنيت ، فلم اكســل ولــم أتبلد

(٣) اشارة الى الحديث المأثور عنه صلى الله عليه وسلم « من احب وعف وكتم ومات فهو شهيد » !

(٤) القلب والقصيد .

مساواة نعم .. وتفرقة أيضاً !

بقلم : فهمي هويـــدي

هل يقبل أن يرأس شخص مسلم ، دولة أغلبيتها غير مسلمة ؟

هل يقبل أن تتصدر مساجد المسلمين واجهات مدينة مسيحية الطابع والملة ؟

هل يقبل أن يؤذن جماعة من المسلمين للصلاة عبر مكبر للصوت ، خمس مرات كل يوم ، فى مجتمع أوروبى غير مسلم ؟المنطق والذوق ، وربما المصلحة أيضا ، تفرض علينا أن نجيب على تلك الأسئلة بالنفى .ذلك أن هناك ميزانا يجب أن يراعى ضبطه بأحكام فى علاقة الأغلبية بالأقلية ، يقوم أساسا على مراعاة مشاعر الأغلبية ، وهو ما يشكل أحد أوجه النظام العام للمجتمع .وهذا المنطق يسلم ابتداء بالتزام الأغلبية بواجب احترام مشاعر الأقلية .

ان دعوتنا الى الاحترام المتبادل بين الأغلبية والاقلية ، وتمسكنا بان ثمة حقوقا اساسية يجب عدم المساس بها (حدها الأدنى يتمثل فى حقوق الانسان بالتعبير المعاصر) ، ثم مطالبة الاقلية باحترام مشاعر الأغلبية . هذه الدعوةلاتنسحب فقط على على الأقليات غير المسلمة فى المجتمع الاسلامى ، ولكنها تنسحب أيضا على الأقليات المسلمة فى المجتمع غير الاسلامى . اذ يظل من واجب الاقلية المسلمة أن تحترم النظام العام والشعور العام للأغلبية حيث وجدت ، طالما ان الحقوق الاساسية للاقلية مصانة بغير مساس كما قلنا .

لنطرح السؤال محددا وبوضوح : ماذا تريد الاقلية الدينية أو المذهبية فى أى مجتمع معاصر ؟

والرد الطبيعى فى هذه الحالة هو أن الاقلية تريد ضمان حرية الاعتقاد وتحقيق المساواة فى الحقوق والواجبات مع الآخرين .

واذا أردنا أن نناقش مدى استجابة المجتمع الاسلامى لكل من هذين المطلبين ، فلن يختلف معنا احد فى أن قضية حرية الاعتقاد من المسلمات المحسومة والبديهية فيما يتعلق باصحاب الديانات السماوية ، والتى بلغت حد كفالة هذه الحرية ـ قبل ألف سنة ـ للمجوس والزرادشتيين غير أن هناك جدلا حول الشعائر والمعابد تستوقفنا فى صدده ثلاثة أمور :

الأمر الأول : انه ليس فى نصوص القرآن والسنة قيد من أى نوع على حق غير المسلمين فى ممارسة شعائرهم . بل ان العكس هو الصحيح ، فاعتراف القرآن بأصحاب الديانات الأخرى ، والتوجيه الالهى الداعى الى التعامل معهم بالبر والقسط ، بمثابة دعوة ضمنية لاحترام حق غير المسلمين فى اداء الشعائر واقامة المعابد .

الأمر الثاني : ان الواقع والممارسات التاريخية في هذا الصدد ، لم تخل من دس واختلاق ، الأمر الذى يدعونا الى الحذر الشديد في التعامل معها . ومن أشهر النماذج الدالة على ذلك ما يسمى بـ « العهد العمرى » المنسوب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . ومع ذلك فان ماهو صحيح من تلك الوقائع والممارسات يظل قابلا للمناقشة والمراجعة ، في ضوء اعتبارات المصلحة الراهنة ،طالما أنه في النهاية اجتهاد خاص ، لا التزام فيه الا بقدر موافقته للكتاب والسنة الصحيحة ، نصا وروحا .

الأمر الثالث : ان جانبا من قضية الشعائر والمعابد يظل محكوما باعتبارات النظام العام والشعور أو الذوق العام ، وتلك مسألة تقديرية قد يختلف فيها الرأى باختلاف الزمان والمكان ، فضلا عن تعذروضع صيغة ثابته ومحددة لاحكام معالجتها . غير أنه يمكن أن يقال هنا أن الاقلية ـ وقد كفلت لها حرية العبادة كقاعدة ـ ينبغى أن تتصرف في ممارسة عبادتها ، بالشكل الذى لايجرح الشعور العام والذوق العام للأغلبيه .

بعد ذلك يجيء دورنا مع المطلب الثانى للأقلية ، وهو : المساواة في الحقوق والواجبات مع الأغلبية .

هنا تتدخل النصوص الشرعية ، ولا تدع مجالا للبس في تقرير الأساس والمبدأ ، حيث تواجه بحشد من الآيات والأحاديث التى تضع الجميع منذ البداية ليس فقط على قدم المساواة ، بل تؤكد أصلهم الواحد ، مشددة على كرامة الانسان وحصانته ، وهو ما فصلناه من قبل .

واضافة الى عنصرى الأصل الواحد وحصانته الآدمية لذاتها ، يطرح التصور الاسلامى دعامة أخرى لها دورها ، هى اعترافه بأنبياء اليهود وبالمسيح عليه السلام . فاضاف الاسلام في أسس التعامل مع الآخرين وشيجة إيمانية ، الى جانب الوشيجة الانسانية .

ان الأساس القوى للمساواة قائم في نصوص القرآن والسنة ، حتى يكاد يصبح بدوره من المسلمات في التصور الاسلامى للعلاقة مع الآخرين . فحديث رسول الله ﷺ : من آذى ذميا فليس منا ، أو فأنا خصيمه يوم القيامة ، لاينصب فقط على ما يتصوره البعض ايذاء ماديا أو جسديا ، ولكنه يشمل ايضا الايذاء المعنوى ، الذى يقوم اساسا على احترام الشعور والكرامة . ولفظ الايذاء استخدم في القرآن الكريم في عدة معان ، بينها ايذاء الشعور ، ففى مقام توجيه المسلمين الى التأدب والتوقير في معاملة النبى ودعوتهم الى عدم دخول بيته بغير اذن ، يقول الله تعالى « ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم » (الأحزاب من الآية ٥٣) .

ثم الا تؤكد هذه المساواة تلك القاعدة الفقهية التى تقرر أن « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » وكلمة الامام على « انهم قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا » ، ثم يقول واحد من مشاهير الفقهاء هو السرخسى « ولأنهم قبلوا عقد الذمة ، لتكون أموالهم وحقوقهم كأموال المسلمين وحقوقهم » .

وانطلاقا من هذا المفهوم ـ يروى يحيى بن آدم القرشى في كتابه الخراج » ص ٥٥ ـ حُكِىَ أن رجلا من المسلمين قتل رجلا من أهل الكتاب ، فرفع الأمر الى النبى (ص) فقال ـ انا أحق من وفى بذمته ثم أمر به فقتل .

وقد ذهب الفقه الاسلامى مدى أبعد في هذا الاتجاه ، فلم يكتف بتقرير المساواة بين المسلمين وغيرهم ، بل زاد على ذلك أن أعطى غير المسلمين حق مباشرة التصرفات التى تتعارض مع ما تقضى به الشريعة الاسلامية ، ما دامت شرائعهم ودياناتهم تسمح بها . واباحة الخمر وتربية الخنزير لهم أبرز مثال على ذلك . وافتوا بانه اذا اتلف احد من المسلمين خمر الذمى او خنزيره كان عليه غرمه . وفي « الدر المختار » ، « ويضمن المسلم قيمة خمره وخنزيره اذا اتلفه وتاريخيا ، فقد بقيت لأهل الذمة محاكمهم

المذهبية ، تفصل بينهم في امور الزواج والطلاق والنفقة والنسب والوصية والوقف والحضانة والارث وتحرير التركات ، وسائر ما هو من الاحوال الشخصية . او من الخصومات الطائفية الصرفة ، التي لا تهم المسلمين ولا تمس كيان الدولة . حتى كان للبطريرك في دمشق سجن متصل بالكنيسة ، يحبس فيه من يستحق التأديب من النصارى ●

ان هذا التاكيد على قيمة المساواة ، لابد ان يقابله تحديد لمعنى المساواة . ذلك اننا لانتحدث هنا عن فكرة رومانسية او قيمة مطلقة ومجردة ، انما نحن بصدد قيمة اجتماعية ، تنشد مثلا اعلى بغير شك ، لكنها تظل محكومة بخريطة الواقع ، ومزروعة في ارض البشر .

ان حق الاغلبية في ان تحكم ـ مثلا ـ لا يخل بقاعدة المساواة باى حال . وهو الاساس الذى تقوم عليه الديمقراطيات الغربية . والامريكيون يصوغون القضية في التعبير الشائع ، « حكم الاغلبية وحقوق الاقلية » ـ Majority rule,Minority rights . بل ان العرف الامريكي يذهب في قمة الديمقراطيات الغربية الى اشتراط ان يكون الرئيس من فئة ذات مواصفات محددة . تعرف باسم « واسب » W.A.S.P. (1) ـ وهي اختصار لمواصفات : ابيض ، وانجلو سكسوني ، وبروتستانتي ، ولم يستثن من هذه القاعدة الا الرئيس كيندى الذى كان كاثوليكيا .

وقيام الدولة على العقيدة يرتب نتيجة بديهية اخرى هي حق الدولة في ان تستخدم كوادرها على رأس المواقع ذات الصلة ـ البعيدة والقريبة ـ بتلك العقيدة ، فضلا عن حقها في ان تصون خصوصيات المؤمنين بعقيدتها ، عن طريق ادارة ومباشرة تلك الخصوصيات من خلال كوادرها المؤهلة للقيام بتلك المهام .

ان انتقال الرئاسة الامريكية من حزب الى حزب ، يقضي حسب العرف الامريكي ، بان يقدم حوالي الفين من الموظفين الكبار في الادارة السابقة استقالاتهم الى الرئيس الجديد ، حتى يتسنى له ان يعيد بناء ادارته الجديد باكبر قدر من التوافق والانسجام .

والدول الاشتراكية نموذج آخر ، فكونها قائمة على اللينية الماركسية ، رتب نتيجة منطقية هي اتجاه هذه الدول الى دفع كوادرها الى جميع مواقع القيادة والتوجيه في الدولة ، ما اتصل منها بالعقيدة وما انفصل . حتى ان أعضاء الحزب لهم الاولوية ليس فقط في تولى المناصب في الادارة والسياسة ، بل انهم يتمتعون بميزة الاولوية هذه ايضا في الحصول على السلع الاستهلاكية !

وان كنا لا نقر ان تصل الامور الى هذا المدى ، لكننا نتفهم الفكرة الاساسية في هذا التوجه ، التي تقضي بحق الدولة التي تقوم على العقيدة ـ ايا كانت ـ في ان تسلم مقاليد الامور فيما يتصل بالتوجيه الى المؤهلين المؤمنين بتلك العقيدة .

وقد يساعدنا ذلك على فهم موقف الاسلام من تلك القضية الدقيقة . فهو اذ يقر بالمساواة ويؤكدها فيما يتعلق بالجميع ، الا أنه يقبل استثناءات ترد على هذه القاعدة ، يفرق فيها بين المسلم وغير المسلم ، ليس انطلاقا من أفضلية المسلم على غيره ، ولكن استيفاء لشروط معينة في مواقع بذاتها ، تفترض ان اعتناق الفرد للاسلام ، عنصر يوفر قدرا أكبر من التوافق والانسجام ، والمصلحة بالتالى . واشتراط

● محمد الغزالي ـ حقوق الانسان بين تعاليم الاسلام واعلان الأمم المتحدة ـ ص ٤٩

1) white — anglo — saxon — protestant

الاسلام هنا هو من قبيل مواصفات ومؤهلات الوظيفة وينبغى الا يحمل باعتباره انحيازا يقوم على التفرقة الدينية أو الطائفية .

أي أن ذلك يتم في اطار التصنيف classification وليس التمييز discrimination والتصنيف لايتعارض مع المساواة ، لكن التمييز يتعارض مع العدل .

واذا كان مقبولا أن يعاد تعيين الفي موظف كبير في الادارة الأمريكية مثلا ، لمجرد انتقال الادارة من رئيس الى رئيس لكي يضع الرئيس الجديد في المواقع الحساسة من هم على التزام شخصي بسياسته ، فلا بد أن يكون مقبولا أيضا أن تعطى الدولة الاسلامية حق تعيين كوادرها في المواقع التي تفترض في شاغليها التزاما شخصيا بالاسلام .

واذا أثيرت هنا مسألة تبادل المواقع بين الأحزاب في الديمقراطيات الغربية ، وكون القيادة والصدارة ليست حكرا على حزب بذاته ، الأمر الذي يتيح للآخرين فرصا مماثلة ، فان ردنا على هذه النقطة يتمثل في تساؤل واحد هو : «اليست « الأغلبية » هي التي تحكم في النهاية ؟

ان التفرقة بين البشر فيما هو دنيوى حسب اعتقادهم أو جنسهم أو لونهم ليس من منهج القرآن في شيء . اذ القاعدة هي المساواة ، والجميع في ديار الاسلام « امة واحدة » ، والخلق كلهم عيال الله ، بالتعبير النبوى ، فضلا عن ان الناس خلقوا « من نفس واحدة » ، بالتعبير القرآني .

غير أن هناك بعض الكتاب والفقهاء يحتج بثلاث آيات من القرآن الكريم ، في دعوتهم الى تفضيل المسلمين على غيرهم في ادارة المجتمع الاسلامي بوجه عام ، وفي كافة مرافقه وانشطته . والآيات الثلاث هي :

« لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، الا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، والى الله المصير . آل عمران ـ ٢٨ » .

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم ، لايألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون » . آل عمران ـ ١١٨»
ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء . المائدة ـ ٥١

ان أية قراءة لسياق النصوص القرآنية ، قبل وبعد تلك الآيات ، تقودنا على الفور الى أنه لاصلة البتة بينها وبين التعامل العادى مع غير المسلمين في المجتمع الاسلامي . « فهى جميعا واردة في المعتدين على الاسلام ، والمحاربين لأهله ، وتنفير أفراد الأمة من خصومها واجب يتجدد في كل عصر » [١] .

فالاية الأولى (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ....)تقول للمؤمنين ما معناه :لاتتخذوا أيها المؤمنون الكفار (أهل الكتاب ليسوا معنيين بالخطاب هنا) ظهرا وانصارا توالونهم ، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين ، وتدلونهم على عوراتكم ،فانه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء . يعنى بذلك ، فقد برىء من الله ، ويرىء الله منه بارتداده عن دينه ، ودخوله في الكفر . الا أن تتقوا منهم تقاة ،

---

(١) محمد الغزالى ـ التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام ـ ص ٤٠

الا أن تكونوا فى سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم ، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم ، وتضمروا لهم العداوة ، ولاتشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ، ولاتعينوهم على مسلم بفعل [٢]

أما الآية الثانية (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم ...) ففيها نهى الله المؤمنين أن يتخذوا بطانة ممن قد عرفوه بالغش للاسلام وأهله ، والبغضاء اما بأدلة ظاهرة دالة على ان ذلك من صفتهم ، واما باظهار الموصوفين بتلك العداوة ، والشنآن والمناصب لهم .. (ومن لم يثبت فى حقهم ذلك ، فلم ينهوا عن مصادقته ومخالطته ، كما يقول الطبرى) .

« وانت ترى أن هذه الصفات التى وصف بها من نهى عن اتخاذهم بطانة ، لو فرض أن اتصف بها من هو موافق لك فى الدين والجنس والنسب ، لما جاز لك أن تتخذه بطانة لك ، ان كنت تعقل ... (بينا) خفى على بعض الناس هذه التعليلات والقيود فظنوا أن النهى عن المخالف فى الدين مطلقا [٣]

أما الآية الثالثة (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ..) فيكفينا ما يقول فى شرحها الشيخ محمد الغزالى [٤] : يجيء أحدهم الى هذه الآية ، فيبترها عما قبلها وما بعدها ، ويفهم منها أن الاسلام ينهى نهيا جازما عن مصادقة اليهود والنصارى ، ويوجب قطع علاقتهم ، ويهدد المسلم الذى يصادقهم بأنه انفصل عن الاسلام والتحق باليهودية والنصرانية . والمعنى بهذا التعميم باطل . والآيات اللاحقة بهذه الآية ، المرتبطة بها فى موضوعها ، تحدد الموضوع بجلاء لايحتمل خلطا .

ثم يضيف الشيخ الغزالى قائلا ان الآيات نزلت تطهيرا للمجتمع الاسلامى من الاعيب المنافقين ، ومن مؤامراتهم التى تدبر فى الخفاء لمساعدة فريق معين من أهل الكتاب ، أعلنوا على المسلمين حربا شعواء ، واشتبكوا مع الدين الجديد فى قتال ، هو بالنسبة له قتال حياة أو موت . فاليهود والنصارى فى هذه الآية قوم يحاربون المسلمين فعلا ، وقد بلغوا فى حربهم منزلة من القوة جعلت ضعاف الايمان يفكرون فى التحبب اليهم والتجمل معهم ، فنزلت هذه الآية ، ونزل معها ما يفضح نوايا المتخاذلين فى الدفاع عن الدين الذى انتسبوا اليه : « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ـ المائدة ـ ٥٢ » .

ثم تستطرد الآيات فى توصية المؤمنين بتدعيم صفوفهم أمام المتربصين والمتهجمين ، تطالبهم بمقاطعة المحاربين للاسلام من أهل الكتاب ، مسوغة هذه المقاطعة بأنها رد للعدوان . « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله ان كنتم مؤمنين ، واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا » ـ المائدة ٥٧ ـ ٥٨

ويتساءل الشيخ الغزالى بعد هذا الايضاح : هل هناك ضير على دين ما ، اذا منع اتباعه من مصادقة الذين يتهكمون ويسخرون من شعائره ؟

ولأجل السياق الذى نحن بصدده اضيف تساؤلا آخر : هل حقا تشكل هذه الآيات قيدا على اشتراك غير المسلمين فى تسيير شؤون ومرافق الدولة الاسلامية ؟

ان تفاسير الآيات وشروحها تقول انها جميعا لاتضع قيدا على حركة وممارسات الآخرين من المسالمين ، غير المعتدين ولا المتآمرين . .

---

(٢) ابن جرير الطبرى ـ جامع الأحكام ج ٣ ص ٢٢٨

(٣) محمد رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ : ج ٤ ص ٦٨

(٤) محمد الغزالى ـ التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام ـ ص ٤١



رأي المنفلوطي في كتاب مصر والشام

بقلم : الاستاذ عجاج نويهض

قبل اليوم باكثر من سبعين سنة كانت في بيروت مجلة « المنقذ » يصدرها ميرزا محمد الباقر من تلاميذ السيد جمال الدين الافغاني ، والمجلة علمية اجتماعية انتقادية فنية ، وسنتها عشرة اشهر او عشرة اجزاء ، صدرت سنتين « ١٩٠٩ و ١٩١٠ » ثم بعد السنتين توقفت عن الصدور لأسباب اقتصادية وكان الباقر يصدر في الوقت نفسه جريدة أسبوعية اسمها « البلاغ » فبعد توقف المجلة استمر في اصدار البلاغ حتى الحرب العالمية الاولى ، وكان ميرزا محمد الباقر فضلا عن كونه من حملة عقائد الافغاني ، رجل أدب وثقافة عالية .

وكان مصطفى لطفى المنفلوطى في مصر في فلك ازدهاره وقتئذ ، وكانت مقالاته الاسبوعية ، « النظرات » ، تنشر في « المؤيد » الجريدة العربية الاسلامية الكبرى للشيخ علي يوسف وتلقى من الصدى المقبول المستحب في الرأى العام شيئا بالغ الحد . ثم أن المنفلوطي جمع مقالاته هذه ونشرها في كتابه الشهير « النظرات » وانتشر كتابه هذا في مصر والشام خاصة انتشارا واسعا .

وفي سنة اعلان الدستور في المملكة العثمانية سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٤ اي سنة وقوع الحرب العالمية الاولى ، اشتد الوعي العربي في مصر والشام والعراق وبعض جزيرة العرب . اشتدادا عظيما فقامت صيحات النهضة في هذه الاقطار ، باصدار الصحف وانشاء الاندية والجمعيات والمدارس العالية فضلا عن الابتدائية . وبقيت هذه البلدان في مهرجان الاحتفاء بانتهاء عهد الاستبداد وبدء عصر الحرية سنوات عديدة ، وظانة ومؤمنة أن المملكة العثمانية انتقلت الى عصر حر جديد . سنة ١٩٠٨ اعلن الدستور كما قلنا ولكن لظهور حركة مدبرة في الاستانة اسمها « الجمعية المحمدية » تعارض الدستور ، ونسب تدبيرها الى السلطان عبد الحميد ، وبقي عبد الحميد سلطانا بعد اعلان الدستور ، ثم يخلع ولم يرخلعه سنتئذ ، اما الان سنة ١٩٠٩ والامور تتخبط في مخاضات سياسية علنية وسرية ، شديدة ، واستشرت دعوة « الجمعية المحمدية » فخلع عبد الحميد خلعا ، ووقعت فتنة « رجعية » ، ذهب في سبيلها شهداء منهم النائب عن اللاذقية الامير محمد مصطفى أرسلان من لبنان (كان مرشح النيابة يجوز له ان يرشح نفسه او يترشح عن أي لاية أو منطقة انتخابية في المملكة » وتقل جثمان ، الامير الشهيد محمد الذي اغتيل على درج البرلمان الى لبنان ، وكان له مأتم ضخم في بيروت وبلدته اللبنانية « عين عنوب »

« قرب » الشويفات حضرته وفود من دمشق وحلب وحماة واللاذقية وطرابلس والسويداء فضلا عن انحاء « متصرفية لبنان » . ولعل هذا المأتم لم ير لبنان له مثيلا حتى اليوم ، ماعدا مأتم شهيد العروبة في لبنان كمال جنبلاط رحمها الله .

على مؤرخي هذه الحقبة في بلاد العرب عامة ، ان يزدادوا تنبها الى اهمية ابتهاج الامة العربية قاطبة باعلان الدستور سنة ١٩٠٨ وخلع عبد الحميد سنة ١٩٠٩ (سجن في سلانيك على الراجح وعاش حتى ١٩١٨ فتوفي اخر سني الحرب الاولى) اذ اعتقد العرب ساسة ورأيا عاما ، ان الانقلاب الدستوري هذا لا غش فيه وهو كسائر الانقلابات السياسية الحديثة بعد الثورة الفرنسية اواخر القرن الثامن عشر ، واشتط العرب في اماهم السياسية حتى إذا أخذت الأمور تظهر على حقيقتها اوحلها ظهرت جمعية « الاتحاد والترقي » الطورانية الاهداف فكانت مع « الدونمة » ، وهم اليهود الذين اعتنقوا الاسلام في تركيا بعد اخراجهم من اسبانيا والبرتغال وبقوا في سرائرهم على اليهودية المبطنة وتوغلوا في مناصب الدولة كمسلمين ويعملون سرا للصهيونية .

« وجمعية الاتحاد والترقي » ، التركية عصبا وشرايين ، والعثمانية اسميا للتضليل ، كانت سبب خراب المملكة كلها في النهاية فنوت نياتها العداونية نحو العرب وهم اكثر من نصف سكان المملكة شعبا واضعاف الاناضول مساحة جغرافية ، وكانت النهاية خريف ١٩١٨ وظلت تركيا تتقاذفها الدول الاوروبية كالكرة حتى قام مصطفى كمال (اتاتورك) فرد عدوان اليونان والمطامع الاوربية وحرر الاناضول كله مع الاستانة ثم أخذ في ما يسمونه « التغرب » اى اللحاق بكيانات الدول الغربية مدابرا العرب والاسلام .

استطردنا الى هذه الناحية من الموضوع الذي عنوانه « الكتاب والشعراء سنة ١٩١١ في مصر والشام » لسبب مهم في نظرنا ونظر القارىء كما نعتقد ، وهو أن حقبة اعلان الدستور وما تلاها في ست سنوات حتى ١٩١٤ » كانت حقبة نشاط الشعر والنثر في البلاد العربية ، ولو جمعت اليوم قصائد كبراء الشعراء في مصر من شوقي وحافظ وفي العراق في الرصافي واخوانه ، وفي سوريا ولبنان ، لكان منها كتاب ضخم يسجل فوران العواطف السياسية في هذه الاقطار ، مما كان اخر عهد ان العرب في المملكة يؤلفون حزمة سياسية واحدة ، وبالانتهاء الى امة متماسكة واحدة ثم كانت الانتدابات او المنتهيات وتفرقت الحزمة الاولى .

وامتازت مصر بعد اعلان الدستور العثماني بأن قويت فيها تيارات الطموح الى الحرية والمثل العليا ، ودب في عروقها نشاط سياسي اجتماعي صحافي ، ولعل من هنا ، في هذه التيارات شرب المنفلوطي سهمه وهو في ابان ازدهاره . يقول كاتب ترجمته انه كان يبعث بالمقالة من بلده منفلوط الى « المؤيد » في القاهرة ، وهذه المقالات اسبوعية منتظمة مطردة ، ويطلب من وكيله في القاهرة أن يبرق اليه في الصباح انها ظهرت كالعادة تحمل اراءه كاتبا ومصلحا اجتماعيا ، وهو من تلاميذ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ومن أبر تلاميذ الامام .

من نواحي الاجنحة الادبية عند المنفلوطي ان عن له أن يصف كتاب مصر كلا بعبارة وجيزة حسب ميزانه وقسطاسه . فصنع هذا ونشر في مصر ، وصحف خارج مصر نقلته ربما عن « المؤيد » او صحف اخرى . والموضوع ترقص له النفوس والخواطر في كل بلد لدقته ورقاقة موازينه .

والمنفلوطي لم يغب عنه يوم خطر بباله ان يصف كتاب مصر سنة ١٩١٠ ومصر كعبة البلاد العربية ويتردد عليها أدباء العرب وساستهم ، وكان الشيخ عبد المحسن الكاظمي منذ اول هذا القرن قد انتقل من العراق وحل في مصر فتلقاه الاستاذ الامام بكل حفاوة وتأهيل ـ لم يغب عن المنفلوطي ان موازينه هذه تجتذب اليها ادباء العرب جميعا في تلك الايام . وهو نفسه اى المنفلوطي امام الكتاب العرب ويحسوبهم وكان كتابه « النظرات » قد صدر وجعله يطير كل مطار في بلاد العروبة ويتلقاه الأدباء فتحا جديدا في الكتابة مميزا . بيان ضاحك مشرق في اسلوب سهل التناول عربي الروح .

نثر المنفلوطي في مصر مايلي :

طبقات الكتاب في مصر

الكتاب في مصر اربعة يختلفون باختلاف الاساليب الأربعة التي يكتبون بها وهي ١ ـ الاسلوب العربي ، وهو الذي يحاكي فيه صاحبه اسلوب المتقدمين في كتاب العرب ٢ ـ الاسلوب العلمي وهو الذي يتقيد فيه صاحبه بالاصطلاحات العلمية الخاصة بالموضوع الذي يكتب فيه ، ٣ ـ الاسلوب الصحافي وهو اسلوب الذين يتقيدون في الكتابة السياسية باصطلاحاتها الخاصة بها فاذا ارادوا الخروج عنها الى غيرها كانت قيدهم حيث ساروا ، ٤ ـ الاسلوب الافرنجي وهو اسلوب اولئك الكتاب الذين أخذوا في اللغات الافرنجية بنصيب لم يأخذوا بمثله من اللغة العربية . فهم ان ترجموا كانوا مقلدين وان كتبوا كانوا مترجمين .

وانا ذاكر لك كل اسلوب من هذه الاساليب بحسب تفاوت طبقاتهم وترتيب درجاتهم في ذلك الاسلوب بعينه لا على جهة الاطلاق في مثل هذا الموطن . فالاطلاق في مثل هذا الموطن متعذر ، مادام لكل اسلوب مقام لا يقوم به الا رجاله المحسنون فيه . فإن رأيت بين من تعرف من الكتاب من لم اكتب عنه شيئا فاعلم انه اما ان يكون ممن لم اقرأ لهم شيئا وإما ممن لم اعتد بما يكتبون .. انتهت مقدمة المنفلوطي ثم شرع يصف ارباب كل اسلوب فقال :ـ

الاسلوب العربي

حافظ ابراهيم : بلغ الغاية القصوى في « بؤسائه »[1] ثم حاول ان يكتب بعد ذلك فما صنع شيئا .

ابراهيم المويلحي : يهجو فيقذع ، ويتهكم فيفجع ، ويجد فينطق بالحكمة وفصل الخطاب .

محمد المويلحي : لولا انه اغفل ذلك القليب (البئر) من الادب حتى نضب ، ماصر بجانب قلمه قلم .

توفيق البكري : اقام من « صهاريجه » (هو اسم الكتاب « صهاريج اللؤلؤ) معرضا جمع فيه بدائع المعاني ، وروائع المباني جمعا ابدع في نظامه ، واغرب في هندامه ، ثم عرضها على الناس فافتتنوا بها وان لم يجدوا بين مصنوعاتها أثرا من أثار يديه .

ابراهيم اليازجي : يضع القالب اللفظي المتين ثم يصب المعنى فيه صبا محكما . ولو انه ابتدأ من حيث انتهى لكان افضل الكاتبين .

حفني ناصف : لولا تبذله في اسلوبه لكان « بديع » هذا الزمان .

ولي الدين يكن : تتراءى معانيه اللامعة من خلال تراكيبه المتعاظلة كأنها انوار الحباحب في ظلمة الليل البهيم .

الاسلوب العلمي

محمد عبده : يكاد يكتب الشريعة الاسلامية بلسان صاحبها .

محمد شاكر : يشتد وراء الامام (الشيخ محمد عبده) عدوا والامام لا يشق له غبار .

محمد الخضري : نفحة من نفحات « الغزالي » .[2]

عبد القادر المغربي : يدور من الاصلاح الديني في دائرة لو خرج منها لادركه العثار .

عبد العزيز جاويش : لولا مقامه في « اللواء »[3] ، ومذهبه في الهجاء ، لكان هو وفريد وجدي سواء .

يعقوب صروف : لو لم يكن كاتبا فصيحا لانطقه علمه .

---

(١) هو كتاب « البؤساء »

(٢) بديع الزمان الهمذاني ـ ١ ـ « احياء علوم الدين » اهم كتبه

(٣) احدى الصحف للزعيم مصطفى كامل .

جرجي زيدان : يتبذل في تراكيبه تبذلا لا يكشف الستر عن معانيه حتى يكاد يلمسها من قام بالراح .

رشيد رضا : كأن كتابته الهيكل العظمي لا لحم له ولا دم .

احمد زكي : يحرجه الموقف فيلجأ من الاسجاع الى حرز غير حريز .

علي يوسف[4] : سيف لا يزال في غمده صدئا حتى يجلوه القراع .

فارس نمر[5] : لو ادعى ان السارية ذهب لأقام عليها الحجة .

لطفي السيد : اعلم الكتاب بأدب الكتابة وارحبهم صدرا في مواقف القتال واوسعهم خطوة وراء الغاية التي يريدها حتى يدركها ، ولو اسلست له الفاظه كما اسلست معانيه ما فضله في الصحافيين احد .

حافظ عوض[6] : لولا ان شغل بنفسه عن أمته لقادها بقلمه .

داود بركات : تشفع له دقة سياسته في ركة عبارته

الاسلوب الافرنجي

عبد العزيز محمد : ترجمته والأصل كالحسناء وخيالها في المرآة .

فتحي زغلول : رأيته مترجما فرأيته مقيدا بسلاسل من ذهب ثم لم اعلم بعد ذلك من امره شيئا .

قاسم امين : ما رأيت باطلا أشبه بالحق من باطله .

نجيب الحداد : له اسلوب لو ترشفه الظمآن في حارة القيظ لاطفأ غلته .

خليل مطران : يكاد يلمسك خياله ويسمعك رنين أوتار قلمه .

سليم سركيس : يستنتج عظام العظات من صغار المشاهدات .

فرح انطون : كأن صرير قلمه رنين ثكلى فقدت وحيدها .

طانيوس عبده : حسنة من حسنات نجيب الحداد .

ثم ختم المنفلوطي كلامه هذا بقوله :

هذا ما رأيته في الموازنة بين كتاب مصر في هذا العصر . وهذا ما يراه اكثر النقاد الذين يعجمون من الكلام عوده فيعرفون صلبه ولينه ، ويتذوقون طعمه فيدركون حلوه ومره . والله يعلم اني ما أردت من كتابة هذه الرسالة الا خدمة الأدب بارشاد طلابه الى درجات رجاله على اني لم اعد في ذلك شأن جميع النقادين في جميع الأعصر الذين أرادوا مثل ما أردت . فذهبوا الى مثل ما ذهبت . فان كان بين الكتاب من يغضبه او يجرح قلبه حكمي ، فليعلم اني هكذا قدرت وعلى هذا الحساب اقدمت .

مصر ـ **مصطفى لطفي المنفلوطي**

وعلقت « المنتقد » بعد هذا بكلمة موجزة فقالت : ـ

« المنتقد » : « يقترح على كاتب سوريا الكبير معارضة المنفلوطي ووصف كتاب سوريا المشهورين » ، ولم يزد « المنتقد » على عبارته هذه شيئا .

---

(٤) صاحب « المؤيد » . ثلاث صحف تعاصرت وكانت ألسنة العرب والاسلام : « الجوائب » في الأستانة لاحمد فارس الشدياق ، « والمؤيد » للشيخ علي يوسف في مصر ، « وثمرات الفنون » للسيد عبد القادر القباني في بيروت . واطول هذه الصحف بقاء « المؤيد » اذ بقيت الى ماقبيل الحرب العالمية الاولى .

(٥) احد اصحاب مجلة « المقتطف »

(٦) هو صديقي الحميم صاحب جريدة « كوكب الشرق » ومن تلاميذ مبادىء الافغاني ومن اكبر المناصرين لسعد زغلول وكانت جريدته تنتصر للثورة السورية بقيادة سلطان الاطرش فتنشر جميع الرسائل التي تبعث بها اليه رحمه الله .

السيلينيوم
هذا السم المفيد للجسم !

بقلم الدكتور السيد عمار

هذا سم له فى مستقبل فى علاج الانسان !

ان السيلينيوم معدن يستخدم حاليا في صناعة الالكترونيات والترانزستور وكاميرات التلفزيون وصناعة الخزف والزجاج وفى ماكينات تصوير المستندات المعروفة بالزيروكس . كما ان مركبات السيلينيوم تستخدم لاعطاء اللون الاحمر لزجاج اشارات المرور الضوئية والاضواء الخلفية للسيارات . وفى السنوات الاخيرة اتضحت اهمية معدن السيلينيوم الحيوية لجسم الانسان والحيوان على السواء . فهو معدن نادر بالجسم رغم انه معدن سام .

ويرجع اكتشاف عنصر السيلينيوم كيمائيا الى العالم السويدى جون برزيليوس الذى اكتشف هذا العنصر في عام ١٨١٧ ، ورغم ان السيلينيوم له ليست له كل صفات المعادن فهو شبه معدن ، الا انه اصطلح على ان يطلق عليه اسم معدن فيما يتعلق باهميته الحيوية وأثاره على الجسم وهو يشبه عنصر الكبريت في خواصه الكيمائية . ويوجد في الطبيعة متحدا مع بعض المعادن الاخرى مثل الرصاص والنحاس والزئبق والفضة على شكل سلينيد هذه المعادن . واكبر كمية من السيلينيوم في العالم توجد في نورآندا بمقاطعة كويبك في كندا . وهو في حالته العنصرية عبارة عن مادة رمادية فضية اللون يمكن طحنها الى مسحوق اسود اللون .

انطلاقا من ظاهرة التسمم

والسيلينيوم يوجد على سطح الكرة الارضية في التربة وفي مياه المحيطات والانهار . وان كانت نسبة وجوده تختلف من مكان الى آخر .

واستعمالات السيلينيوم الطبية الى وقت قريب كانت محدودة جدا وتقتصر على استعمال كبريتيد السيلينيوم « كشامبو » لازالة القشر من الشعر .

ومنذ اربعين عاما اكتشف ان معدن السيلينيوم له تأثير سام على الحيوانات التى تتغذى على النباتات التي تنمو في مناطق تزيد فيها نسبة السيلينيوم الاف المرات على المعدل العادى . وهذه المناطق تتميز بالتربة القلوية التى تحول المعدن الى املاح سيلينات الصوديوم وسيلينيت الصوديوم التى تمتصها هذه النباتات وتركزها بدرجة كبيرة جدا في انسجتها . والاراضى والنباتات التى تحتوى على كميات عالية جدا منه تعرف باسم الاراضى او النباتات السلينية واشهر مناطقها ولاية جنوب داكوتا الامريكية ، وكذلك في بعض مناطق ايرلندا والارض المحتلة في فلسطين . وعلى العكس توجد أراض ذات

كميات ضئيلة جدا من السيلينيوم في نيوزيلندا واستراليا .

ولقد لوحظ ان الماشية وحيوانات الحقل التي تتغذى على النباتات التي تحتوي على كميات هائلة من معدن السيلينيوم تصاب بمرض يسمى بالمرض القلوي ، واعراضه فقدان الحيوية والعرج وضعف العضلات ونقص الوزن وسقوط الشعر والتخبط في المشي نتيجة ضعف الابصار والعمى وضعف القدرة على التكاثر تليف الكبد وتساقط الحوافر . ومن المثير حقا ان الرحالة ماركوبولو كان قد اشار الى مرض يسبب تساقط حوافر جياده وان كان لم يعرف السبب ، وهو بالطبع انها كانت ترعى في مناطق ذات كميات عالية من السيلينيوم .

ونتيجة لظهور اعراض التسمم المزمن بالسيلينيوم على الحيوانات فقد اجريت دراسات احصائية على السكان في ولاية جنوب داكوتا . ووجدت علاقة بين الكميات الكبيرة من السيلينيوم وظهور اعراض مرضية مثل الصداع والكسل والتوتر العصبي وضعف القدرة على التركيز واضطرابات في الجهاز الهضمي وتسوس الاسنان وظهور رائحة مثل رائحة الثوم في النفس والعرق . ولقد لاحظت مديرة منزل برزيليوس مثل هذه الرائحة وقالت انه يبدو ان برزيليوس يأكل كثيرا من الثوم . والحقيقة ان برزيليوس اثناء عمله على اكتشاف السيلينيوم تعرض لهذا المعدن الذي دخل جسمه عن طريق الرئتين او الجلد وتحول المعدن داخل الجسم الى احد مركبات السيلينيوم يعرف باسم ثنائي ميثيل السيلينيوم ، وهو مادة لها رائحة الثوم ومتطايرة تخرج من الرئتين اثناء التنفس ومن الغدد العرقية .

ولقد كانت ظاهرة التسمم المزمن بالسيلينيوم سببا في ان يندفع البحث العلمي في دراسة الآثار الحيوية للمعدن في الانسان والحيوان . وكشفت الابحاث العلمية عن حقيقة هامة وهي ان معدن السيلينيوم معدن نادر في جسم الانسان والحيوان وانه ضروري لوظائف الجسم الحيوية وان نقصه يؤدي الى اختلال الوظائف الحيوية للجسم . وتقدر كمية السيلينيوم في جسم الانسان من ١٣ـ٢٠ ميللجرام . ويدخل معدن السيلينيوم في تركيب انزيم سيلين يعرف باسم الجلوتاثيون بيروكسيداز Glutathione Peroxidase ، وهذا الانزيم يلعب دورا هاما في التخلص من المواد المؤكسدة التي تنتج عن عمليات التمثيل الغذائي . فانسجة الجسم تتكون بها مادة فوق اكسيد الايدروجين (ماء الاوكسجين) وكذلك اكاسيد الدهون وهذه المواد المؤكسدة قادرة على تدمير خلايا الجسم . لهذا يقوم الجسم باختزال هذه المواد المؤكسدة بواسطة بروتين يعرف باسم الجلوتاثيون . ويقوم الانزيم الذي يحتوي على السيلينيوم بدور العامل المساعد الذي يخلص الخلايا من المواد المؤكسدة القاتلة .

عندما نما ـ السيلينيوم

وفي التجارب التي اجريت على الفئران اتضح ان حرمان الفئران من معدن السيلينيوم في الغذاء يؤدي الى نقص وزنها وفقدان الشهية وضمور في خلايا الكبد وضعف في فاعلية الانزيم لسيلين . وعندما عولجت الفئران بمعدن السيلينيوم عادت الى حالتها الطبيعية . وعندما اعطيت كميات كبيرة من السيلينيوم حدثت نفس الاعراض التي تشبه اعراض نقص السيلينيوم . اي أن نقص هذا المعدن او زيادته عن المعدل الضروري يؤدي الى اختلال الوظائف الحيوية للجسم .

وفي التجارب التي اجريناها عن تأثير المعدن على الجهاز العصبي عن طريق حقن مركبات السيلينيوم في مخ الفئران مباشرة ، تبين لنا ان الجهاز العصبي شديد الحساسية للمعدن ، وان مركبات السيلينيوم العضوية مثل الاحماض الامينية السيلينية اقل نسبة من مركبات السيلينيوم غير العضوي مثل سيلنيت الصوديوم . وهذا يؤكد حقيقة هامة وهي ان مركبات السيلينيوم العضوية التي يتناولها الانسان في غذائه غير سامة اذا ما تنوولت بالكميات المناسبة .

وحيث ان الغذاء هو المصدر الاساسي لمعدن السيلينيوم في الجسم فقد اقرت منظمة الصحة العالمية في عام ١٩٧٣ ان السيلينيوم عنصر غذائي هام ضروري للحياة وان كانت لم تحدد الكمية اللازمة للجسم يوميا او الكمية التي يجب الا يتعداها الانسان .

وقررت الهيئات المسئولة في امريكا وكندا اضافة معدن السيلينيوم الى غذاء الماشية والدواجن لتحسين نموها وتكاثرها . وحددت الكمية اللازمة للانسان يوميا من ٦٠ ـ ١٢٠ ميكروجرام من المعدن واما اقصى كمية يمكن ان يتناولها الانسان يوميا بدون تعرض للاثار الضارة للمعدن هي خمسمائة ميكروجرام يوميا (نصف ميلليجرام) .

واذا كان الغذاء هو المصدر الطبيعي لحصول الانسان على احتياجه من معدن السيلينيوم فان كمية المعدن تختلف في الاغذية المختلفة وكذلك تختلف في غذاء معين طبقا لاختلاف موطن هذا الغذاء سواء كان امريكيا او اوروبيا او آسيويا . ونورد على سبيل المثال

بعض المواد الغذائية وكميات السيلينيوم بها وفي متوسطات للاغذية الامريكية .

الارز ٣٣. ميكروجرم سيلينيوم/ جرام ارز
الدقيق الكامل ٦٣ ميكروجرام سيلينيوم/ جرام دقيق
اللحوم ٢٠. ـ ٥٠. ميكروجرام سيلينيوم/ جرام لحم
الكلي والكبد ١,٩ ميكروجرام سيلينيوم/ جرام
الاسماك ٧٠. ميكروجرام سيلينيوم/ جرام
صفار البيض ١٨. ميكروجرام سيلينيوم/جرام
الثوم او الفجل ٣٠. ميكروجرام سيلينيوم/جرام
اللبن ٠٥. ميكروجرام سيلينيوم/ جرام

ويحصل الانسان على ٩٩٪ من احتياجه اليومي من السيلينيوم من اللحوم والخبز والاسماك . حيث يوجد المعدن متحدا مع البروتين على شكل مركبات عضوية .

ويوجد السيلينيوم بكميات كبيرة في خميرة العجين . والدراسات التي اجريت على نقص معدن السيلينيوم بينت ان نقصه يشبه النقص في فيتامين هو (E) ولكن لا يمكن ان يعوض هذا الفيتامين النقص في معدن السيلينيوم . فهو المسئول الاول عن ضعف النمو وضعف وظائف الخصيتين وافرازات الحيوانات المنوية في الذكور وضعف قدرة المبيض على افراز البويضات في اناث الفئران .

وفي الاغنام اتضح ان نقص معدن السيلينيوم يسبب ضعف العضلات والقلب وتأخر نمو الاجنة او موتها .

تاثيره على الاطفال

اما فيما يتعلق بنقص المعدن في الانسان فانه يتمثل في مرض يصيب الاطفال الصغار نتيجة للنقص الشديد في البروتينات في الغذاء ، ويعرف هذا المرض باسم مرض كواشيوركور Kwachiorkor واعراض نقص حاد في الوزن والنمو وورم الاطراف والوجه واضطرابات في الجهاز الهضمي والتهابات الجلد وتغير لونه الى ما يشبه جلد الفيل ، وكذلك تليف الكبد والانيميا والنزيف . وقد وجد ان معدن السيلينيوم يحقق نتائج علاجية ممتازة في الاطفال المرضى بمرض كواشيوركور . وهو ضروري لنمو الاطفال ويقدم في لبن الام بحوالى ١٣ ـ ١٧ ميكروجرام / جرام وفي اغذية الاطفال من ٤ ـ ٣٥ ميكروجرام / جرام .

ويتقدير معدن السيلينيوم في الغذاء اليومي لمختلف سكان العالم وجد ان غذاء الامريكي يحتوى على ١٥٠ ـ ١٧٠ ميكروجرام والياباني ١٠٠ ميكروجرام والبريطاني ٦٠ ميكروجرام والكندى من ١٢٠ ـ ٢٢٠ ميكروجرام . وفي ٢٧ دولة اخرى وجد ان الغذاء اليومي يحتوى على كمية من السيلنيوم من ١٦٠ ـ ٢٩٠ ميكروجرام .

وهذا المعدن يمتص من الجهاز الهضمي ويتوزع على اعضاء الجسم المختلفة طبقا للترتيب التنازلي التالي الكلي ـ الكبد البنكرياس ـ الرئتان ـ القلب ـ الطحال ـ المخ ـ والعظام . ومن المؤكد ان معدن السيلينيوم يدخل في تركيب البروتينات من خلال الجسم حيث انه يحل محل عنصر الكبريت في بعض الاحماض الامينية ويكون احماضا امينية تدخل في تركيب البروتينات ويتخلص الجسم من الكميات الزائدة من السيلينيوم عن طريق البول والمرارة واللعاب والرئتين (رائحة الثوم) وافرازات العرق .

كما ان المعدن يعبر المشيمة في الرحم الى انسجة الجنين ويتركز في هذه الانسجة تقريبا بنفس النسب التي يوجد بها في انسجة الام .

وهذا المعدن اساس للنمو الطبيعي للجنين ومع هذا فانه من الملاحظ ان السيدات اللاتي يتعرضن لمعدن السيلينيوم بكميات كبيرة جدا في عملهن يصبحن عرضة للاجهاض .

ولابد ان نذكر ان اعراض التسمم او الآثار الضارة للسيلينيوم تحدث فقط عندما يتناول الانسان كميات منه توازى مئات الالاف من الكميات المطلوبة يوميا . ولم تحدث للان اية حالة تسمم حاد من فقد المعدن كما تحدث من باقي المعادن الاخرى . وتوجد حالة واحدة لفتاة في سن الثامنة عشرة حاولت الانتحار باحد مركبات السيلينيوم وامكن انقاذها وعلاجها .

ونظر الاختلاف كمية السيلينيوم في الغذاء، فقد اجريت دراسات احصائية على سكان ٣٤ مدينة نصفهم يتناول غذاء من كمية مناسبة منه والنصف الاخر يتناول غذاء يقل به هذا المعدن عن المعدل المطلوب وكانت النتائج الصحية لهذه الدراسات مدهشة للغاية ، وجدت علاقة بين معدن السيلينيوم وقدرته على الوقاية من امراض القلب وتصلب الشرايين والوقاية من السرطان وكشفت الاحصائيات ان نسبة الاصابة بامراض القلب والشرايين الذين يتناولون معدلات مناسبة من المعدن اقل من نسبة الاصابة بهذه الامراض بين الذين يتناولون غذاء به كميات غير مناسبة منه . اى ان السيلينيوم يقلل من الاصابة بامراض القلب والشرايين .

كما وجدت ايضا علاقة عكسية بين معدلات السيلينيوم في الغذاء ونسبة الاصابة بأمراض السرطان . فنسبة الاصابة بسرطان الكبد والقولون وانواع اخرى من السرطان تقل بين الاشخاص الذين يتناولون معدلات مناسبة من معدن السيلينيوم وعلى العكس تزداد الاصابة بهذه السرطانات بين الاشخاص الذين يتناولون كميات قليلة من المعدن في غذائهم .

احتمالات عرجية

ولقد كان من المدهش حقا ان تثبت التحاليل ان دماء مرضى السرطان وتليف الكبد تحتوى على كميات من السيلينيوم اقل من المعدل العادي . واوضحت الدراسات الاحصائية ان نسبة الوفيات بين السيدات نتيجة لسرطان الثدى تقل في المناطق بها كميات مناسبة من السلينيوم في الغذاء والماء وتزداد من المناطق التي يقل بها المعدن عن المعدل المطلوب يوميا .

وتأثير السيلينيوم المضاد للسرطان يعتبر فريدا في نوعه فمن المعروف ان المعادن الاخرى مثل الكادميوم والزنك والنحاس والزرنيخ والرصاص تزيد من نسبة الاصابة بالسرطان . وقد اثبتت البحوث العلمية ان معدن السيلينيوم قادر على منع التأثير لهذه المعادن عندما يتعرض لها الانسان عن طريق تلوث البيئة والغذاء والماء .

وفي دراسة حديثة جدا نشرت منذ شهور اتضح ان معدن السيلينيوم يمنع التأثير السام لمعدن الكادميوم على الخصية ويعيد الوظائف الطبيعية للخصية مثل افرازات الحيوانات المنوية والهرمونات الذكرية .

ونظر للاهمية الحيوية لمعدن السيلينيوم واعتراف المنظمات الصحية والأكاديمية بانه معدن نادر بالجسم ، فقد اصبح هذا المعدن مطروحا للاستعمال على شكل اقراص من الخميرة تحتوى على مركبات المعدن العضوية او على شكل اقراص الفيتامينات مضافا اليها معدن السيلينيوم بمقدار ٥٠ ميكروجرام من كل قرص .

ورغم ان السيلينيوم معدن له اثاره السامة ويجب ان يوضع حد اقصى للتعرض له سواء في العمل او الهواء والغذاء والماء ـ الا انه ينتظر ان يكون لهذا المعدن دور علاجي هام ليس فقط في معالجة اعراض نقصه بل في علاج عديد من الامراض التي تسبب اختلال وظائف القلب والشرايين والكبد والعقم .

ومن المؤكد ان الجمع بين معدن السيلينيوم وفيتامين هو (E) سوف يحقق فاعلية علاجية اكثر .

ولقد اقرت الهيئات البيطرية استعمال هذه الادوية في علاج المياه البيضاء في العين للكلاب والتي تسبب عتامة العين والمعروفة باسم كتاركت .

ومع مزيد من البحث سوف تفتح افاق جديدة لاستعمالات السلينيوم العلاجية رغم كونه معدنا ساما .

ولكن القاعدة المعمول بها في مجال الدواء والعلاج هي ان كل مادة سامة اوضارة والفرق بين كونها سما او دواء هو الكمية التي يتعاطاها المريض . ■■

د . السيد عمار
استاذ الأدوية والسموم بجامعة ولاية أوهايو

اينشتين أمي

حدث مرة ان ذهب العلاقة اينشتين الى احد المطاعم ، وكان قد نسي نظارته التي لم يكن يستطيع القراءة بدونها ، وعندما حضر الجرسون بقائمة الطعام ، همس العلامة في اذنه : « أرجو ان تقرأ لي القائمة » .

فابتسم الجرسون وكان لا يعرفه وقال : اسف ياسيدى فانا امي مثلك تماما . »

كانت كفيلة بتفجير الحرب العالمية الثالثة !

وصية بطرس الأكبر المزيفة

هناك كثير من الاكاذيب التاريخية التي يجري تداولها دون تمحيص بحيث تتحول مع الزمن الى حقائق ثابتة يصعب دحضها . ومن هذه الاكاذيب ما يعزي الى بطرس الاكبر قيصر روسيا (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥) من انه ترك لخلفائه الوصية التالية :

« من واجبنا ان نتوسع باستمرار على طول بحر بلطيق وشواطئ البحر الاسود ... اذ علينا ان ننتهز كل الفرص التي تمكننا من الزحف صوب القسطنطينية (استانبول) والهند . فمن يستطيع الاستيلاء على هذه النقاط يمكنه ان يتحكم بالفعل في مصير العالم » .

بقلم الدكتور : أحمد عبد الرحيم مصطفى

ومن الثابت ان الدعاية الفرنسية هي التي اختلقت هذه الوصية لاستعمالها سلاحا ضد روسيا قبل حملة نابليون الشهيرة على هذه البلاد في عام ١٨١٢ . ومنذ ذلك الوقت ترددت اخبار الوصية في مناسبات عدة للتحذير من « الخطر الروسي » سواء في العهد القيصري او في عهد السوفيت خاصة وان الدولة الروسية ـ التي اصبحت احدى دول العالم العظمى تمثل اكبر بلد في العالم .فمساحتها ـ البالغة حوالي ٨،٧٠٠،٠٠٠ ميل مربع والممتدة في قارتي اسيا واوربا ، اي ثلاثة اضعاف مساحة الولايات المتحدة الامريكية ـ تشغل سدس مساحة الكرة الارضية ، على حين قدر عدد سكانها في عام ١٩٦٦ بما يزيد على مائتين واربعة وثلاثين مليونا .

روسيا والعثمانيون

المساحة التي شغلتها ـ ولا تزال تشغلها ـ روسيا خلال التاريخ الحديث والمعاصر قد جرى احتلالها على يد الشعب الروسي عبر عملية تاريخية استمرت عدة قرون . فحين ظهر هذا الشعب على مسرح التاريخ فيما بين القرنين الثالث والتاسع الميلاديين ، لم يكن يشغل سوى الركن الغربي لاوراسيا الواقع شمال البحر الاسود ـ ومن هذا الركن الصغير انتشر صوب الشرق الى ان وصل المستوطنون الروس في اواسط القرن السابع عشر الميلادي الى المحيط الهادي ، وبعد ذلك بقرنين امكنهم ان يصلوا الى تين شان في اواسط اسيا . ولم يكن الدافع الرئيسي الذي وجه الشعب الروسي صوب الشرق مرتبطا بطموحات الزعماء الروس ، بقدر ما كان مرتبطا بالحتمية الجغرافية التي تحكم التاريخ باسره . وفي خلال القرنين التاسع والعاشر طرأ عامل جديد مالبث ان اصبح ذا اهمية قصوى بالنسبة الى تاريخ الثقافة الروسية ـ فقد اعتنق الروس الديانة المسيحية بشكلها البيزنطي الارثوذكسي الذي لم يكن قد انفصل رسميا عن الشكل الكاثوليكي الذي اخذت به روما ، وبالتالي ـ اصبحت روسيا ـ ولو الى حين ـ جزءا من العالم المسيحي الغربي ، الى ان جاء الوقت الذي اصبح فيه المذهبان ينتميان الى عالمين منفصلين . وحين انهارت الدولة البيزنطية على أيدي الاتراك العثمانيين في عام ١٤٥٣ اعتبر الروس بلادهم زعيمة للمذهب الارثوذكسي.وحينئذ كانت الدولة الروسية قد وطدت اقدامها حول موسكو تحت زعامة ال رومانوف . ثم ما لبثت ان وجهت الشعب الروسي في زحفه صوب الجنوب ـ فقد شهد القرنان ونصف التاليان لعام ١٣٥٢ الاستيلاء على قازان واستراخان واستيطان سيبيريا . وفي عام ١٦٩٦ بدأ بطرس الاكبر مرحلة جديدة حين انتزع من الاتراك


● ترومان


● ستالين

العثمانيين قلعة ازوف الواقعة عند مصب نهر الدون . وبعد ذلك اعتبر قياصرة روسيا انفسهم الورثة الطبيعيين لاباطرة بيزنطة بحيث شكلوا العدو الاكبر للدولة العثمانية التي كانت تسير صوب الانحلال .

والى جانب العامل الديني والحضاري لعبت الجغرافيا دورها في تشكيل موقف قياصرة روسيا من الدولة العثمانية : والدردنيل : فالدولة العثمانية كانت تسيطر على مداخل البحر الاسود (البسفور والدردنيل وبحر مرمرة) التي اعتبرها الروس « مفتاح بابهم الخلفي » بعد ان اصبحوا احدى دول البحر الاسود الذي انزلوا فيه اساطيلهم ، خاصة وان بريطانيا حرصت على المحافظة على املاك السلطان العثماني حرصا منها على ضمان سلامة طرق الامبراطورية صوب الهند . وأغرت آل عثمان بالتحكم في البسفور والدردنيل لغير مصلحة روسيا ، التي شكلت العدو التقليدي لكل من بريطانيا والدولة العثمانية طيلة القرن التاسع عشر

وهكذا اصبح ظهر روسيا معرضا للخطر ، في حالة دخول الاساطيل الغربية الى البحر الاسود (وهو ما حدث خلال حرب القرم : ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦) ، في الوقت الذي لم يكن فيه الروس مطمئنين الى تدفق صادراتهم ـ وبخاصة قمح اوكرانيا وروسيا البيضاء ـ باستمرار الى العالم الخارجي عبر مياه البحر المتوسط الدافئه وهنا تبرز من جديد اهمية الجغرافيا في تفسير التاريخ : فالمساحات الواسعة التي امتدت فيها روسيا غير منفتحة بصورة كافية على خطوط الملاحة البحرية : فبحر بلطيق يتجمد شتاء ، وكذلك المحيط المتجمد الشمالي . وفي الشرق (اقصى سيبيريا) لايوجد الاميناء فلاديفستوك الذي لا يصلح للملاحة في فصل الشتاء ، اما بحر قزوين فهو بحر مغلق لا يصلح للاتصال البحري بالعالم الخارجي .

تطلع الى المياه الدافئه

لهذا كله تطلعت روسيا عبر تاريخها للوصول الى « المياه الدافئه » ، البحر المتوسط والخليج العربي والمحيط الهندي ، مما ادى الى اصطدامها بالدول التي



● روزفلت



● تشرشل

تقع بين اراضيها وبين هذه المناطق وظهورها بمظهر الدولة الطامعة في اراضي الغير .

وهكذا نجد الامبراطورية الروسية منذ اواخر القرن السابع عشر حتى الثورة البلشفية (اكتوبر ١٩١٧) تمتد بالتدريج صوب الحدود الطبيعية لاوراسيا . وفي خلال هذه الفترة كان موقف اوروبا من روسيا مشوبا بالشك وسوء الفهم : فديانتها تختلف عن المذاهب المسيحية الاوروبية ، وطبيعة شعبها ومدى تطوره ، مما جعل الاوروبيين يعتبرون الروس شعبا ـ اسيويا متخلفا اكثر منه اوروبيا . ولم يكن الشعب الروسي ذاته يضم الكثير من القيم الاوروبية : فبلده هي البلد المؤمن الذي يتحلى بكل ما في الريف الزراعي من فضائل ، في الوقت الذي كان الغرب يموج بشتى الافكار والممارسات التي اعتبرها الروس وليدة الانحلال والالحاد . كما ان الروس قد عانوا من التدخل العسكري الغربي :فقد تعرضوا لغزوة نابليون في عام ١٨١٢ ، وما لبثوا ان عانوا من الهجوم الالماني خلال الحرب العالمية الاولى ، ثم من الهجوم النازي منذ عام١٩٤١ . وهو الهجوم الذي خرب مساحات واسعةمن بلادهم وكلفهم من الضحايا اكثر من عشرين مليونا ، بين قتيل وجريح .

وقد قدر للشكوك المتبادلة بين روسيا والغرب ان تتزايد بعد استقرار النظام الشيوعي في بلاد القياصرة . فقد بدا البولشفيك للغرب حفنة من المستهترين الخارجين على القانون الذين يهدفون الى قلقلة استقرار العالم جريا وراء نشر المذهب الشيوعي والثورة العالمية . وفسر الدعاية الشيوعية باعتبارها قناعا يخفي وراءه اطماعا توسعية من نوع جديد . لهذا عمد اقطاب السياسة الغربية ، حتى قبل انتهاء الحرب العالمية الاولى ، الى التدخل العسكري في روسيا للقضاء على النظام الجديد ـ وحين فشلت هذه المحاولة فرضوا عليه الحصار بهدف اسقاطه ، وحصر دعايته الا أن النظام البلشفي صمد للحصار بالصورة التي صمد بها للتدخل الخارجي ، ومضى ستالين في بناء الاشتراكية في بلد واحد فاستطاع ان ينقل الاتحاد السوفيتي من حيز التخلف الى مصاف الدول الصناعية الكبرى وان يعزز فعالية قواته المسلحة ، بحيث امكنه دحر الغزوة النازية الشرسة ويلعب دوره في تدمير الة الحرب النازية بالتحالف مع الغرب الرأسمالي . وخلال تعقب الجيش الاحمر للقوات النازية اكتسح اراضي اوروبا الشرقية والبلقان التي سرعان ماسيطر الشيوعيون على الحكم فيها وحينئذ عادت من جديد مخاوف الغرب من التوسع الروسي مما ادى الى ازدياد الشكوك المتبادلة بين الطرفين وبدء ما عرف في المصطلح السياسي باسم « الحرب الباردة » .

وممن ازدادت مخاوفهم من نوايا الروس الرئيس الامريكي هاري ترومان الذي امسك بمقاليد الحكم في الولايات المتحدة خلال اواخر مراحل الحرب على اثر وفاة الرئيس فرنكلن روزفلت .وكان ترومان طيلة حياته شديد الولع بقراءة التاريخ التي اعتبرها اكثر من مغامرة رومانسية ، بل توجيها راسخ القدم وتعليما عقلانيا !! وعندما كنت لا ازال طفلا امكنني ان ادرك ان التاريخ يتضمن بعض الدروس ذات القيمة الكبيرة التي نتلقتها منه .

ترومان لم يقتنع

ولقد ثابر ترومان باستمرار على قراءة التاريخ حتى تشير مذكراته في اكثر من موضع الى « دروس » تاريخية كان لها اثرها في القرارات الرئاسية التي اتخذها ـ ومن ذلك قوله في الروس : « لست ادري ما الذي يتوقعه الناس من حكومات يمثلها مولوتوف وفيشنسكي وجروميكو ـ انها تسترشد بافكار ثابتة حددها بطرس الاكبر في وصيته » . وهكذا نجد الرئيس الامريكي يسخر حصيلة معلوماته التاريخية في تفسير سياسة الاتحاد السوفيتي الخارجية ، في ضوء ما تناقله الكتاب عن وصية بطرس الاكبر التي قيل انها حددت خطى التوسع الروسي التدريجي على حساب السويد وبولنده وتركيا وغير ذلك من جيران روسيا بهدف السيطرة على العالم . لهذا كان ترومان على استعداد مسبق للاعتقاد بان لدى الزعماء الروس افكارا ثابتة خاصة بالاستيلاء على العالم » ، الا ان بعض المسئولين الامريكان كانوا يخشون ان يؤدي سوء الفهم هذا الى اتخاذ قرارات من شأنها ان تزيد في حدة التوتر الدولي على اثر اشتداد الحرب الباردة مما يؤدي الى اندلاع الحرب العالمية الثالثة . لهذا لفتوا نظر الرئيس الى الابحاث العلمية التي اجراها بعض المؤرخين الروس المقيمين بالولايات المتحدة ، وبخاصة فرنادسكي وسيمونز وكاربوفتش ـ وهي

الابحاث التي اثبتت ان هذه الوصية المزعومة انما جرى تزييفها على ايدي الفرنسيين بهدف اخافة دول اوروبا من النوايا الروسية ، قبل غزو نابليون لروسيا في عام١٨١٢ .

ولكن الرئيس ترومان لم يعدل موقفه من الاتحاد السوفيتي وبخاصة بعد ان فرض الروس الحصار على برلين في ٢٤ يونية ١٩٤٨ ، بل انه ظل يتحدث في مجالسه الخاصة عن وصية بطرس الاكبر ويصر على ان لدى الزعماء السوفيت « افكارا ثابتة » للسيطرة على العالم ، مما يرجح انه كان لايزال مقتنعا بصحة الوصية .

اما كيف وصلت الوصية المزيفة الى الرئيس الامريكي ، فيبدو انه حصل على نسخة منها من الاميرال وليم ليهي ـ رئيس هيئة الاركان المشتركة ـ في اواخر صيف عام ١٩٤٦ . ويبدو ان ليهي ، الذي كان يشك في الروس وفي الاجانب بوجه عام وكان من المستشارين المقربين ، قد احيط علما بالوصية اثناء محادثة جرت اثناء حفلة كوكتيل اقيمت في اغسطس ١٩٤٦ بينه وبين الفيلد مارشال سير ميتلاند ولسون احد اعضاء بعثة الاركان البريطانية المشتركة في واشنطون . وبعد ان اقتنع ولسون بصحة الوصية بعث الى ليهي بنسخة منها حازت على اعجابه بحيث اعتبرها « دليلا مثيرا على البرنامج السياسي للحكومة السوفيتية الحالية في روسيا يتابع بدقة الاهداف والطريقة التى حددها بطرس الاكبر منذ اكثر من مائتي عام » . وحينئذ تحمس ليهي لارسال نسخ منها الى الرئيس ترومان ومستشاره كلارك كليفورد .

بين التاريخ والسياسة

ومصدر معرفة ترومان بوصية بطرس الاكبر وتوقيتها على جانب كبير من الاهمية . فقد حصل الرئيس على ما اعتقد انه دليل دامغ على رغبة السوفيت في السيطرة على العالم ، في نفس الوقت الذي تلقى فيه مذكرة كليفورد الخاصة بالعلاقات السوفيتية الامريكية التى تضمنت تفسيرا سلبيا بوجه خاص لنوايا السوفيت ، بحيث كان لها اثرها الحاسم في تصور ترومان للحرب الباردة .

وهكذا ترسبت وصية بطرس الاكبر في ذهن الرئيس الامريكي برغم مابذل من محاولات من جانب بعض الدوائر الاكاديمية الامريكية لاقناعه على اساس البحث العلمي بان الوصيه كانت من تلفيق اجهزة الدعاية الفرنسية قبل حملة نابليون على روسيا . ذلك ان الرئيس ترومان ، وقد اولع بالتاريخ وبالتفاصيل التاريخية المغمورة ، كان على استعداد لتصديق فحوى وصية بطرس الاكبر وان يفسرها على ضوء فهمه لنوايا السوفيت وما كان يتردد عن رغبتهم في السيطرة على العالم .

فقد اعتبر الايديولوجية السوفيتية فداة لسياسة الكرملين الخارجية التي اعتبرها قائمة على التوسع .فسواء ادرك الرئيس ترومان ام لم يدرك ان وصية بطرس الاكبر كانت ملفقة ، وسواء اكان قد ميز باى شكل من الاشكال بين الاسس التاريخية والايدلوجية لسياسة السوفيت الخارجية ، فان من الواضح انه جعل من التوسع الستاليني والتوسع القيصري شيئا واحدا ، ونخلص من ذلك كله الى خطورة الخلط بين التاريخ والسياسة ، حقيقة ان الدراسات التاريخية توسع الافق وتوضح جذور القضايا والمشاكل بحيث تسهل على السياسي اتخاذ القرار المناسب ، الا ان الخلط بين الماضي والحاضر واعداد قوالب جاهزة لوضع الحلول السياسية او محاولة تكرار اساليب معينة ثبت نجاحها في الماضي قد يؤدى الى الخلط والخطأ . فالتاريخ لا يعيد نفسه باى حال من الاحوال . ونجاح حل ما لمشكلة ما ليس معناه نجاح حل مشابه لمشكلة مماثلة . واصطناع قوالب جامدة في الحقل السياسي بناء على قراءات تاريخية مبتسرة من شأنه ان يركب السياسي مركب الشطط . فالسياسة تحتاج الى المرونة ومواجهة المشاكل في حد ذاتها بعقلية متجردة تبني حلولها على اساس الواقع وحده دون تعلق باذيال السوابق التاريخية ايا كان بريقها . ففهم الرئيس ترومان للسياسة السوفيتية على ضوء وصية بطرس الاكبر المزيفة كان كفيلا بتفجير الحرب العالمية الثالثة ، خاصة وان الولايات المتحدة حين تم حصار برلين في عام١٩٤٨ كانت تمتلك قنابل نووية لم يكن الاتحاد السوفيتي يمتلك شيئا منها الى حين ـ ومن ثم ماكان يروج له البعض من امثال ونستون تشرشل ـ من ضرورة استغلال فرصة تفوق الغرب في المجال النووى للتخلص من الخطر السوفيتي مرة واحدة والى الابد ، هذا في الوقت الذي كان فيه الاتحاد السوفيتي يلعق جراحه التى نزفت بغزارة بفعل الغزو النازى ويخطط لاعادة بناء ما خربته الحرب .

احمد عبد الرحيم مصطفى

الأكاديمية العربية للعلوم بدلاً من مجمع اللغة العربية

الخرطوم ـ عبد الوهاب احمد الافندي

هنالك حقائق لاننتبه لها ... ولكن نصطدم بها .

على امتداد سنوات طويلة ، طفقت أملأ القسيمة بعد القسيمة بطلب من المؤسسات التعليمية او المخدمين لاتحافهم بالمعلومات عن شخصي الضعيف . ومن بين اسئلتهم كانت هناك طائفة لاأتردد لحظة قبل الاجابة عليها ، مثل السؤال عن اللغات التي تتقنها . اولا وقبل كل شيء، كنت اسارع الى تحديد اللغة العربية ، على انها اللغة الام التي اتحدثها بطلاقة ، واجيدها قراءة وكتابة وافهمها ولا احسن !

وقبل وقت قصير كانت المفاجأة اكتشافي بصورة مفجعة انني ابعد ما اكون عن اتقان اللغة العربية .

اولا كان علي ان اترجم عملا اعددته للنشر باللغة الانجليزية . وعجبت من نفسي بعد ان هالتني كثرة التعابير التي عجزت عن وضعها في قالب عربي سليم . وخلال اسابيع ظللت اتصارع مع النص الذى اعددته بنفسي ، واستعين بالاصدقاء الذين ازعجني ايضا قلة غناء الكثير منهم .

لم تمض على هذه التجربة اسابيع حتى وقعت في يدي مجلة عربية صادرة عن بلد غير عربي .

طغى علي وانا اقلب صفحاتها شعور افتقدته زمانا من ايام التلمذة ، حين كنت اتلقى الفرنسية كفاحا من الكتب بغير معلم ، واقاجأ بتلك التعابير التي اعرف معناها ولكنني واثق من انني لم اسمع بها من قبل ، وذلك بعد كل سطرين .

الذي اقض مضجعي من كل هذا لم يكن الاكتشاف بان اللغة العربية بحر أنا منه على الساحل ـ هذا لم يكن اكتشافا ـ وانما شعور عاش معي العمر كله ، متجددا في كل لقاء لي مع كنوز الادب العربي او صنوف المعرفة المكنونة في لغة الضاد . ولكن ما راعني هو هذا العجز الذي عم صنوف ابناء يعرب عن امتلاك ناصية اللغة كأداة تعبير .

وقبل ايام قرأت لمفكر عربي يشكو من ان معرفة جمهور العرب بلغتهم لايتعدى « الكليشيهات » او اللغة القالبية ، تشهد بذلك كتاباتهم التي لاتمثل اللغة شريكا حيا حتى في الاعمال الادبية منها .

من رأى بلية غيره هانت عليه بليته .

الآن جاء دور آخر

سقيا لها من ايام

كنا ومجلة « العربي » كفرسي رهان .... صبانا وصباها .

تفتح وعينا وتفتحت هي زهرة في قلب العالم العربي . وخلقا جديدا .

ما الذي استهوانا فيها ؟

حدائق الادب النضرة ام الفكاهة الرصينة ام العلم الغزير المقدم على أطباق شهية ؟

لاشيء من هذا .. وانما وجهة النظر .

لقد حملت المجلة لواء كان قد آل للسقوط .. وتبنت

قضايا حيوية

ايجاد لغة عربية عصرية تتدفق بالحياة .

لاأحد يستطيع ان يقول انها لم تنجح . مسافة طويلة قطعت منذ ان كانت الكلمة الوحيدة لوصف السيارة في اللغة العربية هي « الاتومبيل » ، ومنذ ان كانت الولايات المتحدة تترجم بواسطة اديب مرموق بكلمة « ايتازوني » (اسمها الفرنسي) .

مسافة طويلةقطعت منذ ان كان مجمع اللغةالعربية مادة السخرية الاولى في الاوساط الثقافية العربية .

ودارت الايام ..

وها انا الان اطالب بحل مجمع اللغة العربية ...

لماذا يحتاجون لمجمع لغة ؟

هنالك امثلة قليلة في التاريخ لتأثير هذا النوع من المؤسسات في توجيه السلوك اللغوى .

اما في العادة فان اللغة تولد وتنشأ وتتطور في الشوارع والبيوت والتجمعات العلمية وغير العلمية .

اللغة تتأثر بكل احداث الحياة ماعدا مداولات مجامع اللغة .

قبل مدة طالت شاركت في حوار حول التعريب .

وقبل مدة قصرت قرأت رايا عنه

وتطابق الرأى وخلاصة الحوار : ان التعريب في كل علم لايقوم به الامباشرو ذلك العلم .

ولنا في الحياة شواهد .

انظر الى الميكانيكيين والعاملين في التمريض ومختلف المتمهنين ممن لم تغزُهمْ اللغات الاجنبية ، تر عجبا من كيفية تطويعهم اللغة لخدمة اغراضهم والنجاح الباهر الذي حققوه في خلق مصطلحاتهم .

ومن هنا يظهر مفتاح اعادة فتوة اللغة العربية

الطريق يبدأ اولا بحل مجمع اللغة العربية .

لقد ظلت « العربي » زمانا تتبنى قضية المجمع وتتصدر المدافعين عنه والمروجين له .

وهو موقف حمدناه لها .

الآن جاء دور آخر يجب ان تضطلع به : التبشير بالاكاديمية العربية للعلوم . فهذه قضية الوقت .

ان ينشأ في مكان ما في الوطن العربي صرح علمي شامخ يأزر اليه العلم ، وتهوى له افئدة طالبيه وحلته ، وينبجس منه رحيق المعرفة وخلاصتها ، ويكون محل اجماع الامة العربية ، وموضع احترام العالم اجمع ، ذلك هو الهدف الذي ينبغى السعي اليه .

ان القضية ليست قضية لغة .

انها مصادفة فقط كوننا نشترك في هذه اللغة المتحدرة من الفصيلة السامية .

انما القضية قضيتنا كأمة ، وضعها قدرها في هذا المكان من العالم ، في هذه الظروف المعينة ، وبهذه الامكانيات ، وهذه اللغة .

القضية هيَ أن تحيا هذه الامة المُعَنْيَة ، وتترك بصماتها على التاريخ ، بغض النظر عن ماضيها ولابد للحياة من المنافسة وفي ظروفنا هذه مجال التنافس الاكبر هو التقدم العلمي .

ولكن هل يأتي العلم من ابتداع المصطلحات لتسمية جمهور الآخرين ؟

ان ما ينقصنا ليس هو معجما عربيا كاملا شاملا لمصطلحات العلم الحديث ، ولكن مؤسسة علمية لغتها العربية وتحت تصرفها امكانيات العالم العربي من تراث ومال ولغة وعلم وقدرات بشرية . مؤسسة تجمع خيرة ابناء الامة ، وتضع لهم اسمى الغايات ، وتحكمهم باقسى الشروط ، وتضع لهم المعايير المتفوقة على ارفع المستويات العالمية ، حتى تكون الدرجات التي تمنحها غاية المنى ، والجوائز والشهادات التقديرية الصادرة عنها حافزا عظيما للابداع والبحث العلمي .

هذا ما نحتاجه فعلا : الاكاديمية العربية للعلوم .

دفاع عن الشخصية العربية

ابو ظبي ـ عمر عباس العيدروس

المقال الذي تناوله الدكتور سامي القباني في العدد (٢٦٩) من مجلة « العربي » بعنوان « من سلبيات الشخصية العربية » شد انتباهي كثيرا ، وأثار تأمل طويلا .

وأرجو في البداية أن لايؤخذ تعليقي هنا على انه من وحي رد فعل انفعالي ، فالموضوع أولا وأخيرا حيوي ويمس صميم شخصيتنا العربية . ولايصح اسقاطها أو الارتفاع بها دون إحاطة الموضوع إحاطة كاملة من الدراسة الموضوعية .

وحتى لا تكون هذه المشاركة متسمة بالشمولية والعمومية ، بحيث تضيع معها الحقائق التفصيلية ، ونفقد معها بالتالي ذاتنا العربية ، أرى من المفيد أن تكون المساهمة في التحليل على أساس مناقشة النقاط الرئيسية التالية :ـ

(١) قد نتفق على ان التاريخ العربي حفل بكثير من صور التفاخر والاعتزاز ، والمدح والتقريظ وما الى ذلك .

وقد يعاب أولا يعاب على هذه الصفات ، غير أني لاأتصور أن العصر الحديث لايزال متمسكا بهذه الخصائل التي تعتبر حميدة في وقتها ، بل ولا يضير التمسك بها في حدود المحيط والتقاليد ، ولن تحجب بذلك الانظار عن الرؤية الى مجريات التطورات الاخرى .

(٢) أما العبارات الخطابية الافتتاحية التي أوردها الكاتب في صدر المقال ، على سبيل المثال ، فهي إن وردت في مجتمعاتنا ، فهي واردة ايضا لدى كثير من الامم الاخرى ولاسيما (التقدمية) منها ، ولم يؤثر ذلك على مسيرتها الحضارية . غير أن ما نأسف عليه اننا نستورد أحيانا عبارات وشعارات من الخارج هي غريبة على أسماعنا ، ودون أن ندرك الغايات الخفية والمستورة منها .

(٣) إن من أخطر ما نادى به الكاتب مطالبته علماء النفس والمجتمع والتاريخ في الجامعات العربية لتفحص وتحليل خصال العرب غير الحميده في محاولة نقد ايجابي للذات تهدف لتوسيع ادراكنا لأنفسنا كأفراد ومجتمعات ، وتعزيزقدرتنا على اللحاق بركب العالم المتقدم لنؤدي رسالتنا من جديد (كذا) .

وقد أورد في سبيل المثال بعض مايبدو له ان أهم الصفات غير الحميده للشخصية العربية والمجتمع العربي في عصرنا الحاضر :ـ

ـ من الصعب على العربي أن يعترف بخطئه .
ـ من الصعب على العربي أن يعترف ان أحدا أفضل منه .
ـ من الصعب على العربي أن يعمل ضمن مجموعة .
ـ العربي « انفعالي » بطبعه .
ـ من الصعب أن يخطط العربي ويعمل لأهداف بعيدة .
ـ العربي يضيع في « عبقرية » لغته .
ـ العرب .... والمرأة .
ـ العربي يفتقد « الضمير الاجتماعي » .

لست أدري في الواقع لماذا خصص الكاتب ، العرب وحدهم ، بهذه الصفات ، وهي من خصال كل أمة متخلفة لاتملك غير معايير التقاليد تحكم او ضاعها . وبالتالي فانها ليست صفات متأصلة يتعذر اقتلاعها ، فالثقافه التي أخذت آفاقها تتسع في معظم الاقطار العربية ، الى جانب وسائل الاتصال الحديثة التي تقرب أقطار العالم مع بعضها كفيلة بأن تغير كثيرا من الاخطاء والرواسب .

ولعل الكاتب قد أحس بذلك عن غير وعي منه حين أشار بما يقرب الى ذلك في الفقرة الاخيرة من مقاله

أما الدعوه الى مايشبه التظاهرة للقيام بحملة من قبل علماء الباحثين في العلوم السلوكية لدراسة خصال العرب غير الحميدة ، فهي دعوة خطيرة لن نقرها ولن نجنح الى مجردالتطرق اليها .

إن مثل هذه الدعوة ، في ظروف أليمه كتلك التي نعايشها في الوقت الحاضر ، ستفتح منافذ عديدة للشعوبية والمبادىء المستوردة لكي تفتت في أوصالنا الممزقة بدلا من رأب الصدع ومعالجة الجراح ، مما قد يؤدي بالتالي الى ضياع ذاتنا العربية .

هل يكفي التمرد ؟

وما ذكره الكاتب عن « الخصال غير الحميدة » للعرب، فانها في الواقع جوانب سلوكية ـ عدا اللغة ـ وهي تتغير في المجتمعات بتغيرها عند الافراد مع انتشار العلوم والثقافة . ولايمكن القول بأن ذلك لن يتحقق بالضرورة الا عن طريق (تشريح) تلك الخصال .

أما « اللغه » فليست مما يدعو النظر اليها بهذه الرؤية القاتمة التي تشبه الاكتئاب ثم « الانفعال ! » ففي كل عصر من العصور يتقابل هناك اتجهان مختلفان أحدهما تغلب عليه المحافظه ، والآخر يغلب عليه التجديد ثم ، يتوسط بينهما اتجاه معتدل ، حسبما رواه الفيلسوف (هيجل) في أطوار الامم وأدوار التاريخ .

(٤) إن مانحتاج اليه في الوقت الحاضر ونحن نمر بأخطر مراحل تاريخنا العربي، أن نعمل على ما يوقظ هممنا ويؤجج حماسنا وندفن كل مامن شأنه أن يؤدي الى إشاعة اليأس عن طريق القاء اللوم على الذات ، وهو نوع من التنفيس الذي قد ينتج عنه في النهاية التخلص من التبعة بصورة مفتعلة .

انني أرى ان الكاتب قد ابتعد كثيرا عن متطلبات وضعنا الحالي بما سرده من نقائص الشخصية العربية الى الحد الذي قد يوحي الى أن يشعر العربي بالخجل في انتمائه وأصالته . وأنه بذلك قد تجنى كثيرا على الشخصية العربية ، التي لايمكن تصويرها بصورة البدوي الجاهل المنفرط عن مجتمعه والذي لايحلو له الا التغني بأمجاد أسلافه ولايتحدث أو يفكر الا من وحي الانفعال والتوتر ، وأنه قد فقد ضميره ولايعترف الا بذاته الى اخر ذلك .

إنني لاأدعي اننا قد تغلبنا على جميع السلبيات من الصفات وأصبحنا في مصاف الشعوب المتمدينة في أخلاقنا ومعاملاتنا . من الصعوبة بمكان أن نرتفع الى مستوى امالنا ونحن نعيش حالة تمزق وانقسام واختلاف ... ولكن ياترى هل نستطيع ان نتغلب على هذه الحالة بالتمرد على ذواتنا والتمثيل بشخصيتنا وتصوير العرب بأنهم أحط الامم وأوطأها « لعيوب متأصله في طباعهم ، وكانت السبب الخفي وراء هزائمهم ونكساتهم عبر التاريخ ، ولم تصلح وتعظم شوكتها الا لفترة وجيزه في التاريخ » حسب تعبير الكاتب .

تلك مغالطة ولاشك في تاريخنا مهما تخلله من نكسات ، فهناك عصور تميزت بالتألق والازدهار ، سببها الاول هو الاتحاد بعد الانقسام والتجمع بعد التشتت .

ولست أدعو هنا الى الرجوع الى التاريخ فصفحاته مفتوحه ولا تطويها المزاعم والادعاءات .

إنه لشيء جميل أن يثنى على الفرد الاوربي الذي لايجد غضاضه في أن يقول « لقد كان خطيء ... إني أعتذر ... وسأحاول الا يتكرر الغلط مرة أخرى » وتلك خصلة جميلة ولاشك ، ويالتيها تنتقل من الفرد الى المجموع المتمثل بالدولة التي تصر على الخطأ وتستمر فيه حين قامت بالاعتداء الفاضح على أراضينا وشعبنا قبل وبعد الاستقلال ، والذي وصل الى أبشع صورة حين عمدت على تسليح ربيبتها اسرائيل للانقضاض على ارض العرب وشعبه وتشريده وتجويعه وابادة الآلاف منه . وفي هذا الصدد فانها لن تقول « بأنني أخطأت وأعتذر ولن اكرر ذلك » .

ولا أعتقد ، والحالة هذه بأن الشخصية الاوربية بما تملك من خصائص الحضارة قد ارتفعت عن « الخصال غير الحميدة للعرب !!! » .

.. وسلبيات أخرى

حلب ـ الدكتور محمد مروان السبع
استاذ في جامعة حلب

أوافق الدكتور سامي القباني في كل ماكتبه عن سلبيات الشخصية العربية . واحب ان اضيف بعض النقاط الاخرى السلبية التي نلاحظها في الشخصية العربية حتى نلم بكافة جوانب هذا الحوار الحيوي الهام .

١ ـ اللامبالاة وعدم الاهتمام بامور المجتمع : فالمواطن العربي لا يحس بالمبالاة تجاه قضايا المجتمع ولا ينفعل بمشاكله اليومية . ولا يتجاوب بالمشاركة في حلها وكأنه يعيش منفردا في واحته او خيمته في الصحراء دون اي اهتمام بمجريات الامور حولها وخارجها . واعتقد بان هذا الشعور بعدم المبالاة وعدم الاهتمام بامور المجتمع قد نشأ تتويجا لاحوال العصر وظروفه القاسية وتعقيداته الصعبة مما افضى الى انشغال المرء بمشاكله الخاصة دون اي اهتمام بالمسؤولية تجاه مجتمعه متذرعا بالحجة المعهودة والنغمة المعروفة « هذا شيء لا يخصني » .

واذكر مرة عندما كنت في احدى عواصم الدول الشرقية منتظرا دوري في صف طويل من الناس من اجل ركوب الباص ، حدث ان سمعنا كسرا في احد ألواح الزجاج لكشك الهاتف ، حطمه رجل سكران مفرط في الشراب غائب عن الادراك فامتعض الناس الواقفون ايما امتعاض وسرت الاستنكارات العلنية في الصف الطويل من المواطنين ولكن بعد ان حطم الرجل السكران اللوح الثاني من كشك الهاتف الموجود على الرصيف لخدمة المواطنين ، اسرع شابان خرج احدهما من اخر الصف وثانيهما من اوله باتجاه الرجل السكران وابعداه عن الكشك واوسعاه ضربا وامسكا بتلابيبه لئلا يهرب منهما . وانتظرا حتى ذهب رجل ثالث من الصف ايضا الى رجل الشرطة فاستدعاه وسلموه الرجل لينال جزاء فعلته واساءته بحق مجتمعه . ان هذه الحادثة ونتائجها تدل على معان عميقة يندر رؤيتها في مجتمعنا بل على العكس تماما . اذ نجد ان الصبيان الاشقياء (تلامذة المدارس الرسمية والخاصة) يتصيدون المصابيح الكهربائية برشقها بالحجارة ويتباهون بكسرها غير عابئين بما يحل من ظلام دامس في الأزقة والشوارع . او ترى هؤلاء الصبية ـ والكبار احيانا ـ يخربون ويحطمون كل ما هو ملك عام للمجتمع ، وكأنه مال حلال تحطيمه وتخريبه لازم . مثل لوي الشواهد والشاخصات المنصوبة لتبين مواقف الباصات ، او لتدل على اشارات السير المعروفة . او يتبارون في قلع الاشجار المزروعة على الارصفة وتكسيرها وقطع الورود والازهار في الحدائق والساحات وما الى ذلك . فهل تجد احدا من المواطنين يحاول ان يعاقبهم او يتهددهم او يزجرهم واذا ما حاول احد ذلك فانه قد يلقى التعنيف والرد القاسي والسباب والشتائم تنهال عليه من الصبيان . بل ومن اوليائهم في بعض الاحايين .

اما في المجتمعات الاوربية فاننا نلاحظ الاطفال الصغار منذ نعومة اظافرهم يتلقون مع حليب امهاتهم الارشادات والتوعية تجاه ممتلكات المجتمع ويسمعون التقريع واوامر الزجر من اجل الحفاظ على كل شيء يمتلكه المجتمع ويوصونهم بالحرص عليها حرصهم على ممتلكاتهم الخاصة . ولا مجال لذكر امثلة في هذا المجال فهي كثيرة ومعروفه تماما لكل عربي زار اية دولة اوروبية فوجد ممتلكات المجتمع مصانة ومحفوظة لا تلمسها يد مؤذية ولا يخربها صبي طائش ولا يحطمها انسان جاهل .

٢ ـ ادعاء الشطارة الحمقاء والتباهي بها : ويقصد بالشطارة هنا الاستغلال والتحايل . وهي بمعنى « الفهلوة » باللهجة المصرية . فنجد المواطن العربي يتبجح بمقدرته على التحايل ضد انظمة المجتمع او يتباهى بشطارته في استغلال اموال المجتمع وما يملكه البسطاء والسذج من اخوانه المواطنين وكأن عمله هذا مشروع وحلال شرعا وعرفا . بينما في الواقع ـ يكون عمل هذا « الفهلوي » مناف للشرع والعرف وتأباه النفوس الصالحة وتتقزز منه . ومن المؤسف حقا ان نجد

هذا الفهلوي يتحلق جماعة من انداده واصحابه ومريديه يسرد عليهم طرفا من شطارته ونتفا من فهلوته ، مزيدا عليها ما شاء من خيالاته واوهامه ليحيط حوله بهالة من الشطارة وإكليلا مزيفا من الفخار ويرسم لنفسه صورة البطل القادر على استغلال الناس وانتهاز الفرص الدنيئة .

٣ ـ الكذب والدجل : وهو مرض خطير شديد الوطأة متفش في اغلب المجتمعات العربية ان لم يكن كلها ينخر في جسم الشخصية العربية . وتقف هذه الآفة على قمة السلبيات الواجب التصدي لها وتخليص المجتمع منها . ويخال المرء ان الكذب قد اصبح عادة مستحكمة في بعض النفوس يصعب التخلي عنها ، ومقولة عامة يتعامل بها العربي في شؤونه اليومية وللاسف فان الطفل العربي ـ منذ تفتحه على الدنيا وبداية تعرفه الى واقع مجتمعة وتعامله مع افراده ـ يصدم صدمات نفسية عنيفة عندما يكتشف ان افراد اسرته والمحيطين به يتعاملون في حياتهم اليومية بواقع بعيد عن صدق غريب عن فطرته الطفولية وبراءته المشهود بها عبر الحياة . فهذا الطفل البرىء المتأصلة في طبعه خصلة الصدق يجد ان أباه يكذب امامه . بكل بساطة ـ مخلفا بوعوده التي قطعها على نفسه ومناه اذا نجح في صفه او تفوق في دراسته . فاذا كان الاب يعلم عجزه عن الوفاء بوعوده والتزاماته لطفله ، فالاولى به الا يعد ابنه بشيء ويكون صريحا معه ولا يكذب عليه . وكذلك يصدم الطفل من كذب امه امام جارتها او صديقتها بذكرها الاشياء غير صحيحة البتة ولم تقع في محيط الاسرة اطلاقا . او تجد هذا الطفل محتارا مرتبكا في اكراه والده له واجباره على الكذب عمدا عندما يطلب منه الرد على الهاتف او معرفة طارق الباب والايجاب بان والده غير موجود في البيت . ويضيع الطفل في كيفية تفسيره لهذا الكذب غير المبرر اطلاقا .

وهكذا ينشأ الطفل في محيط اسرته . فاما ان يصبح وضعه تجاه افة الكذب عندما يكبر ويشتد عوده ، او يتعلم الكذب ويصبح متقنا له ماهرا في اجادته .

٤ ـ الرياء والنفاق : وهو مرض آخر ينخر في جسم الشخصية العربية ، ومن الواجب التصدي له بمواجهة الحقائق والاعتراف بالصراحة والنقد كاسلوب للتعامل .

فمن الضروري ان يكشف الموظف لمديره عيوب الادارة واخطاء القرارات اليومية المتخذة حتى لا تقع الدائرة في اضرار وخسائر تضر بالمجتمع ككل وتؤخر من تقدمه .

٥ ـ ضيق الصدر بآراء الاخرين : فهذه الخصلة الذميمة ، لاتزال متفشية في بعض الاسر والمجتمعات العربية فالأب يضيق صدره بنقاش ابنه الذى بلغ مبلغ الرجال ونال الشهادات العالية . وهو مايزال يعتبره قاصرا عاجزا عن الوصول الى مستوى تفكير والده واتخاذ القرار السديد . والمعلم في مدرسته قد يضيق ذرعا بنقاش تلاميذه له حول معضلة علمية اوادبية كانت مثار الجدل . ومعلم الحرفة يأنف من مناقشة صانعه في آرائه معتبرا اياه حدثا في الحرفة واسرارها ولا يفقه بداخلها . وهكذا نجد هذه الآفة متفشية في بعض خلايا المجتمع العربي من الواجب التخلص منها .

٦ ـ الحسد : وهي افة هذا العصر في مجتمعنا العربي ولا يسلم منها اى فرد مهما علا شأنه او خمل ذكره . ونجد هذه الآفة مستحكمة بشكل خاص في المجتمعات الصغيرة الضيقة وان كانت المجتمعات الكبيرة والمفتوحة لا تخلو منها ولكن على نطاق اضيق مع توسع العمران وتكاثر السكان . فالحاسد لا يعترف للمحسود بسعيه الدائب لتحسين ظروف حياته ولا يقر له بنشاطه المتميز عن اقرانه وانداده ، واجتهاده وجده المتواصل ، وتعبه وعرقه وكده في سبيل ان يؤدى لنفسه وللمجتمع خدمات وفضائل ينبه بها شأنه ويعلو بها مركزه . بل لاهم للناس المحيطين به الا أن تشير اليه بعين الحسد وتغمز وتتجسس عليه وتتساءل عن كيفية وصوله الى هذا المركز ونواله تلك المزايا . فكأنه قد سرقها من ايدى الناس

وبعد فاننا في هذه المقالة ندعو العلماء والمختصين بعلم الاجتماع الى سبر اغوار الشخصية العربية من اجل اصلاح وترميم لها ، بغية اصلاح المجتمع عن طريقها وتخليصه من هذه الافات التي تعرضت لها مقالة الدكتور القباني ومقالتنا هذه ولنتعاون سوية في التخلص منها تدريجيا ولنبدأ بهذا التغيير والاصلاح منذ الآن ولنطبقه على اجيالنا الفتية الصاعدة في المدارس والبيوت ونحاول ان ندرأ عنها مفاسد الاجيال السابقة بتوعيتهم وتبيان الخصال الحميدة في المجتمع وغرسها في نفوسهم .



قصه قصيرة

الفأر

بقلم :
يوسف الشاروني

عدت الى مكتبي بعد اجازتي الصيفية ، لأفاجأ بوجود فأر - لابد - في ادراج المكتب . كان قد ترك لي اثاره : فضلات جافة في حجم الديدان الدقيقة السوداء ، لمحتها متجمعة في غير نظام في احد اركان الارضية الخشبيه لأوسط أدراج مكتبي واكبرها .

وترجع خبرتي بهذه الفضلات الى صباي ، حين كنا نسكن في بيت عتيق ، وكانت أمي تضع خزين البيت ـ الذي ترسله لنا جدتي من الصعيد ـ في احدى شرفاته ، فنعثر من حين لآخر على هذه الفضلات .

لم أعر الامر كبير اهتمام ، فسرعان مانسيت ذلك الموضوع اذا تشغلت بموضوعات اكثر أهمية تتعلق بعمل الذي كان قد تراكم . ولكن يبدو ان الفأر لم تعجبه مني هذه اللامبالاة ، وكأنما اراد ان يؤكد لي وجوده ان كنت في شك منه . فقد عثرت بعد ايام على علبة سجائر ـ اقدم منها لضيوف المكتب فأنا لاادخن ـ وقد تأكل نصفها بطريقة غير منظمة ، وخرجت احشاء السجائر الصفراءالداكنه لتختلط بمزيد من الفضلات الدقيقة السمراء .

عندئذ ادركت ان الفأر يتحداني وانه على أن أقبل التحدي . بادرت بفتح جميع ادراج المكتب متوقعا ان يقفز الفأر من احداها ، ولكني عبثا غثرت عليه ، وان كنت قد انتهزتها فرصة لجرد اوراقي والقاء الكثير منها سلة المهملات . وعندما كنت اعيد ترتيب مابقى منها في كنت أعجب كيف يمكن ان يتسلل فأر له سمك ولابد من مسافات ضيقة للغاية هي التي تسمح ـ بالكاد ـ للادراج ان تنزلق عند فتحها وغلقها .

بعدئذ استدعيت الساعي وشرحت له الموضوع ، وأمرته أن يشترى مصيدة يضعها في الحجرة حالما أغادرها ، فلن أعود للعمل هذا المساء ، وان يضع فيها مايغرى الفأر بزيارتها : نصف خياره او نصف ثمرة طماطم وأضاف عم فتح الله : بل خبزا مدهونا بالسمن .

في الليل ، في صباي ، وانا بين اليقظة والنوم ، كنت احرص ان اكون أول من يكتشف الفضلات في شرفة بيتنا العتيق لأذيع الخبر باهتمام وفرح ، فستعقب ذلك احدى فرجتين : الفأر وهو يحاول عبثا ان يخرج من المصيدة حتى يدمى طرف أنفه لكثرة اصطدامه باسلاكها ، فاذا كان ذيله قد انحشر في باب المصيدة اصابه رعب يدفعه الى محاولات مستميته للتخلص من هذا السجن تنتهي باقلاته ذيله لكن بعد ان يكون جلده قد انسلخ وبدا كنهاية الجزرة ، فيصبح طرفاه : انفاه وذيله داميين .....

في الصباح كانت المصيدة ماتزال فاغرة فاها كأنها فم الفأر يضحك ساخرا مني ، فقد ترك الطعم الشهي وفضل ان يقرض أطراف بعض الاوراق المصلحية والمستندات التي لايمكن اعادة نسخها ، والتي احتفظت



بها داخل ادراج مكتبي لأهميتها . قال لي فتح الله : الفأر حيوان ذكي ليس من السهل خداعه . عندي قطة في بيتي سأنقلها في مكتب سيادتك الليله وأحبسها مع الفأر ونجرب .

في اليوم التالي لم نعرف ما اذا كانت القطة قد التقت بالفأر والتهمته لحما وعظما ، فلم نجد أية بقايا منه . كما لم يبد على القطة انها ازدادت وزنا ، ولكن لم نعثر على آثار الفأر التقليديه .اطمأن قلبي بعض الشيء وان كان الشك مايزال يساورني . فطلبت من فتح الله ان يترك القطة ليله أو ليلتين أخريين . واختفت آثار الفأر فاطمأننت الى مفعول القطة ، فاما ان تكون قد التهمته وأدت بذلك واجبها ، واما ان يكون الفأر قد خاف منها فغادر مكتبي الى غير رجعة . وهكذا أعاد فتح الله القطة من حيث أتى بها .

فرجتنا الاخرى في صباي لم تكن متاحة الا حين يكون عندنا قط ، فنحبسه في الشرفه لنراه بعد قليل يلاعب الفأر لعبة مروعة كأنما في دائرة مغناطيسية حوله لا يتعداها : يقذف به الى اعلى ثم يتلقفه بين أسنانه ، يهبه من الحرية ما يجعله يعتقد انه يستطيع الافلات ، فما يكاد يهم حتى يعود للامساك به بين مخالبه ، ونحن متوترون نخشى ان ينجح الفأر في الافلات مرة ، حتى اذا مل القط لعبته اختفى بفريسته تحت دولاب أو سرير لنسمع قرقشة العظام .

عندما عدت بعد أجازة نهاية الاسبوع لمحت أثـار الفأر الملعون بجميع انواعها : فضلاته السمراء ، وبقع صغيرة صفراء على الاوراق لابد انها كانت قد ابتلت ببوله وجفت الآن ، وتشارة ورقية .... الـخ . كانـت اريد ان أراه مرة واحدة ، ولو ألمحه يمرق كالبرق أو السهم من ركن الى ركن ، حتى اعرف ان كان فأرا أو اثنين ، صغيرا أو كبيرا ..... الخ . لكنه رفض ان يلبى رغبتي ويشبع فضولي . تنازلت عن رؤيته وتعمدت اكثر من مرة ان أفتح باب مكتبي في هدوء داخلا على أطراف أصابعي على أسمع صوت حركته ، خشخشة أوراق ، أرجله الدقيقة تعبث بها أو اسنانه الحادة المدببة تقرضها . لكنه فضل ان يظل في الخفاء ، بعيدا عن الانظار والاسماع .

عندما زارني أحد اصدقائي ورويت حكاية الفأر معي أشار علي بسم موصوف مجرب للفئران : مسحوق اسود ترش منه على قطع صغيرة من أطعمه الفأر المفضلة ، وستعثر حتما على جثته الملعونةفي صباح اليوم التالي . جربته في بيتي بعد أن ضجت زوجتي من الفئران ، فاختفت تماما بعد ايام .

ليس هنا أطفال أو حيوان تعتزبه تخشى عليهم ان يقتربوا من الطعام المسموم .

وافقت على الفكرة فورا . اشترى فتح الله المسحوق . رش منه على قطع صغيرة مما يفضل الفأر ان يأكله ، ووزعة في اركان الغرفه وادراج المكتب ، في اليوم التالي بحثت في قلق وحب استطلاع مع فتح الله عن جثة الفأر ولكن عبثا . انتظرنا يوما آخر فيوما ثالثا فأسبوعا . وفي كل يوم أتوقع من فتح الله ان يفاجئني بالخبر المنتظر . لم تظهر جثة الفأر ولكن انقطعت آثاره ايضا . تعمدت ان اترك علبة السجائر في مكانها بالدرج ـ بعد ان اصبحت آخذها معي يوميا ـ فظلت بلاخدش كما أتركها ، لافضلات ، لابقع ، ولاورق متآكل .

ارتحت من مشاكل الفأر . لكن راحت فرصتي في ان أراه حيا أو ميتا . ومع ذلك فمن يدري ، فطالما لم أر جثته فهناك احتمال دائم : ان تعود آثاره للظهور يوما ، وقد يتاح لى ان ألمحه عندئذ ، فأنجح فيما لم أوفق فيه هذه المرة .. ■■

يوسف الشاروني

تحملها يا أخي

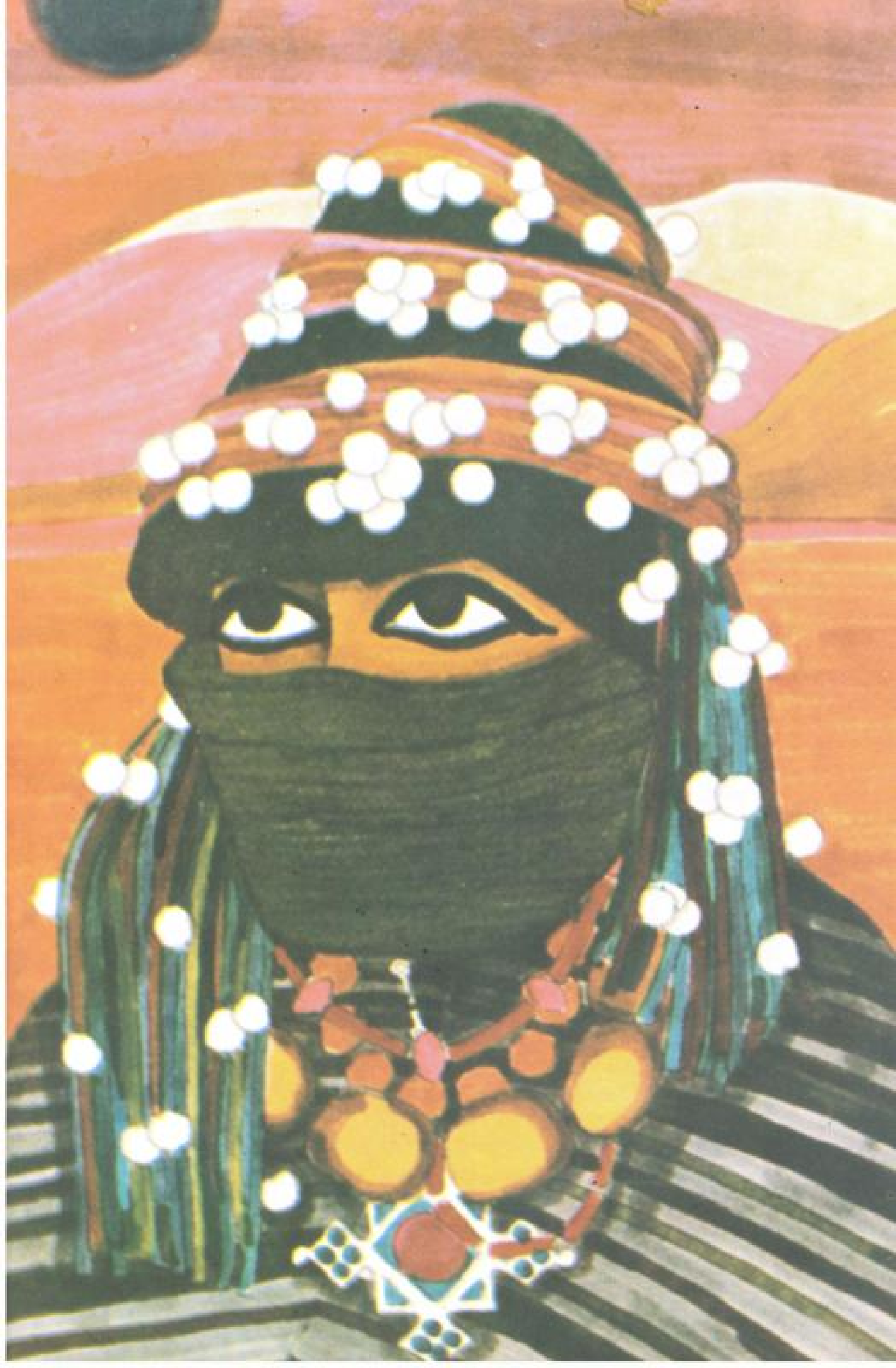
جاء رجل الى عمر بن الخطاب يشكو اليه خلق زوجته فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها وهو ساكت ، وراه عمر منصرفا فناداه : ما حاجتك يا أخي ؟

ـ جئت اشكو إليك استطالة زوجتي على فسمعت زوجتك كذلك .

قال عمر ـ : تحملتها لحقوق لها علي ، فانها طباخة لطعامي ، خبازة لخبزي ، غسالة لثيابي .. مرضعة لولدي .. وليس ذلك بواجب عليها .. ويسكن قلبي بها عن الحرام ...

قال الرجل : ـ وكذلك زوجتي .

قال عمر : فتحملها يا اخي .. فانما هي مدة يسيرة ، والعهد قريب .



مدينة مراكش

بريشة وقلم الفنان بهجت





يدخل النسيج الخام الى المصبغة .. ويخرج منها لحن ساخن رائع من الالوان الصارخة .. ويعلق عاليا في الشوارع الضيقة المحيطة بالمصبغة ليزيدها دفئا وبهجة .. وتحتها يقف ساقي الماء بزيه المميز المتناسق مع الخام المصبوغ .

الجمال والسحر والغموض .. تعكسها طبيعة المكان على احدى بناتها .. انها جبال الاطلس تمشي على قدمين . (الى اليمين)



الوشم عند البربر .. علاقات لونية محسوبة تنسجم تماما مع غطاء الرأس والعقود التي تزين الصدر كأنها لوحة لفنان مزخرف أصيل .

اعترف مسبقا بانني قد احببت المغرب .. وكلما أصابتني لسعة الحنين الى السفر اجد صورة المغرب تطغى في مخيلتي على كل صور الدول والبلدان التي زرتها من قبل .. واجدني مشدودا اليها بحبل من الحنين الجارف .. ولقد زرتها مرات عديدة .. وأرجو ان يتيح لي العمر ان ازورها مرات اخرى .. لانني في كل مرة زرتها خرجت وانا اشعر باحساس النملة التي تمشي على ظهر فيل .. عشت فيها أياما واحببت مدنها القديمة بشوارعها الضيقة التي تفوح بعطر الاصالة ودخلت بيوتها ذات الابواب القصيرة والنوافذ الصغيرة العالية . هذه البيوت التي تشعرك واجهاتها برفضها للفضوليين والغرباء . فاذا دخلتها صديقا .. فالرحب والسعة مقاصك . ولقبالك ، الفناء الداخلي الواسع . بنافورته العربية ذات الخرير الساحر .. هذا الفناء يفتح لك صدره مرحبا بذراعين من شجرة عطر الليل .. مضمخا انفاسك بعطره النافذ .. وابواب الحجرات ونوافذها تطل عليك مرحبة لقدومك ... مزغردة لاستقبالك بنغمة لونية رائعة من القيشاني العربي الذي ينتشر في اجوائها .. كاسيا جدرانها .. هذا هو البيت المغربي القديم .. قبل ظهور البنايات الشاهقة الحديثة واكواخ الصفيح المتواضعة .. وهذه هي طباعه وعاداته .. اذا دخلت احدى القاعات المطلة على الفناء .. وجدت أريكتها الواحدة .. التي تمتد على طول جدرانها الاربعة باستمرارية رائعة .. لتقول لك انها ما صنعت لاستقبالك ساعة فقط .. بل لاستضافتك ماشاء لك ان تقيم .. جالسا عليها متحدثا .. او متناولا طعامك وشرابك في النهار .. نائما عليها في الليل .. تحرسك صينية الاتاي « الشاي » الفضية .. واقفة طوال الليل والنهار .. لتزودك بهذا المشروب المحبب الذي يضج برائحة النعناع .. تفوح من الابريق الفضي المميز في شكله .. يقف شامخا كالمايسترو وسط اطباق الحلوى المغربية المتنوعة . وعلى الرغم من ان البيت ذو عدة طوابق الا ان المطبخ يطل ايضا على الفناء الداخلي في الدور الارضي .. حتى لكأن الطعام ما اعد الا للضيوف .. يا الله على البيت المغربي القديم وعلى حنانه وروعة استقباله .. هذا هو الباب والشباك والبلاط القيشاني والجدران والنافورة والزرابيه « السجادة » وشجرة عطر الليل .. النافورة والابريق .. كلها تحولت الى انسان عربي اصيل المشاعر .. يفيض بالمحبة .. اساسه الضيافة .. اذا نفذت الى قلبه سكنت فيه الواجهة ذات الابواب الضيقة والنوافذ الصغيرة لم تكن تعبيرا عن الجهامة ولكن كأنها تستحي ان تعلن عن وجودها او كأنما تحصن رقة مشاعرها ورهافة احاسيسها بمسحة من الجدية حتى لاتتدفق هذه العاطفة الجياشة .. وهذه الرقة ليست علامة ضعف .. بل العكس ... فالابواب القصيرة الضيقة .. ايضا ترفض ان تدخلها غازيا مختالا رافع الرأس .. والا فستصطدم راسك حتما

من الرقص الشعبي في مراكش .. بالثياب الزاهية والحلي الفضية يصطف طابور النساء في حلقة واسعة .







بالصخر .. وليس البيت المغربي وحده هو الذي يحمل هذه الصفات .. فالشارع يحملها ايضا . يعتذر لك عن ضيقه بسعة افقه ، ورحابة صدره ... يسع في قلبه ـ دون تفرقة ـ السيدة المحجبة بعباءتها المغربية والشابة الصغيرة بفستانها القصير ... السيارة الفارهة ، وراكب الحمار القادم من الريف .. بنت قرى الشمال بزيها المخطط بالاحمر والابيض ، وقبعتها المزركشة ذات الحواف العريضة التي تشبه قبعة المكسيك .. وايضا ابن الصحراء بوجهه الاسمر والجلباب الازرق الجميل ذي الجيب الكبير على الصدر ... الفتاة المغربية بالزي الاوروبي ، والأوروبية بالزي المغربي ... الشارع المغربي يتسع قلبه لكل شكل وكل لون وكل جيل بلا رفض أو حتى مجرد تذمر ..

وهو ايضا حنون .. يضيق ليحميك من لسعة برد او حرارة قيظ .. يزرع لك شجرة .. او يخرج لك من دكان فيه مظلة .. واذا أحس انك ستطيل فيه مكوثك .. صنع الشارع لنفسه سقفا من الخشب ليلطف لك الجو .. يمنع عنك حرارة شمسه .. سامحا لضوئها بالدخول من خلال فتحاته الصغيرة فارشة لك على ارض الشارع سجادة من الظل والنور ..

والشارع المغربي ايضا رفيق بك .. فهو ينحني كلما استطاع الانحناء حتى يكسر لك حدة طوله .. حتى لاترى أخره ، فتستشعر التعب من طوله .. او بالسأم من تكرار رؤية منظره .. فعند كل انحناءة تجد له شكلا جديدا وعند أخر كل انحناءة تبدأ في الاشتياق الى الجديد ..

وهو ايضا مضياف .. واجهة دكاكينه دائما تدعوك .. الى صحن من الطعام .. زجاجة باردة من الشراب .. كتاب .. رداء .. قطعة موسيقى او اغنية .. هدية لصديق .. كرسي في مقهى لتريح اقدامك .

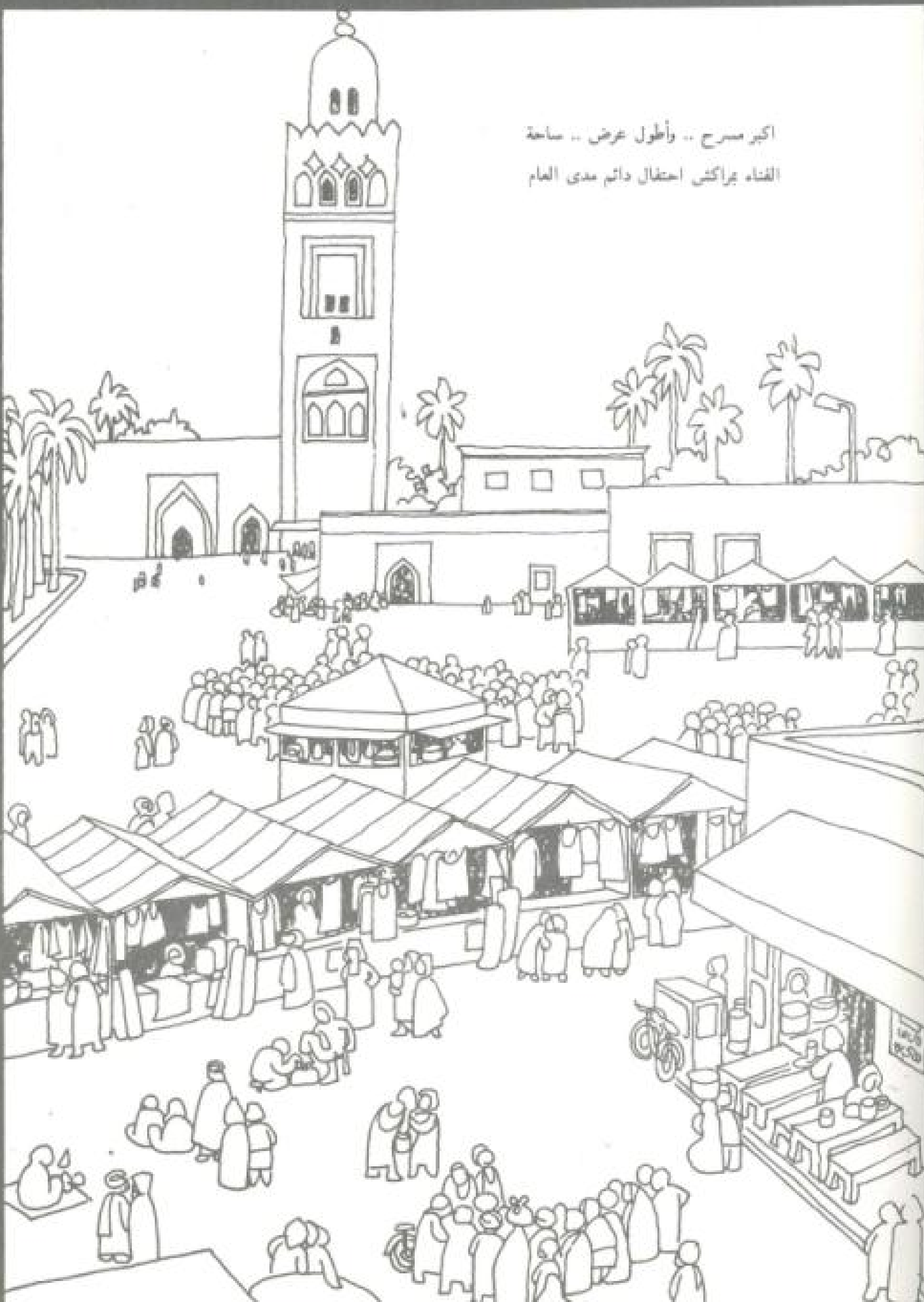
يوما ما ذهبت مع اسرتي الصغيرة الى مراكش .. كان صيفا .. وكان الجو شديد الحرارة .. والفندق غير مكيف على غير العادة نظرا لدراهمنا القليلة .. ومع ذلك فقد فتح لنا الشارع قلبه .. كنا عندما نتعب من كثرة التقلب في الفراش طول الليل من شدة الحر .. نسرع بالنزول في الخامسة صباحا فيحتوينا الشارع بحنانه ورفقه وحسن ضيافته حتى أخر الليل .. يدهشنا .. يضحكنا يطعمنا .. يكسونا .. يثرينا بما يحويه من معارف .. ينسينا وطأة الحر الشديد .. يثلج صدورنا بصحبته الرائعة .. يدفئنا بحرارة مشاعر من فيه ... وعندما تغيب الشمس وتهب نسمة الشمال الرقيقة الباردة .. يقذف بنا الشارع الى ساحته الواسعة .. لا اعرف كيف يمكن ان تسمى هذه الساحة التي تضج بالحياة بساحة الفناء ..

امواج من البشر تسعى بهدير رائع .. وسط سيمفونية ضخمة من جميع اشكال العروض المسرحية على مر العصور .. العاب بهلوانية يقوم بها اطفال في زي المهرجين على انغام فطرية تبعث من الات لم تسمع بها الموسيقى من قبل .. تمثيلية مرتجلة تدور بين شخصين .. واحيانا شخص واحد .. ساحر يرقص مع مجموعة من الثعابين السامة .. ديكور سريالي لمجموعة من فروع الاشجار مزروعة في اصص مختلفة مزينة بازهار ورقية ملونه .. وتدور في اجوائها مجموعة من الحمائم البيضاء المزازة والفنان المبدع يجلس وسط هذه اللوحة كجزء منها .. ايضا منتظرا ترجمة اعجاب الجماهير الى دراهم .. مجموعة اخرى من الخطباء كل في حلقة بجوار الاخرى ..

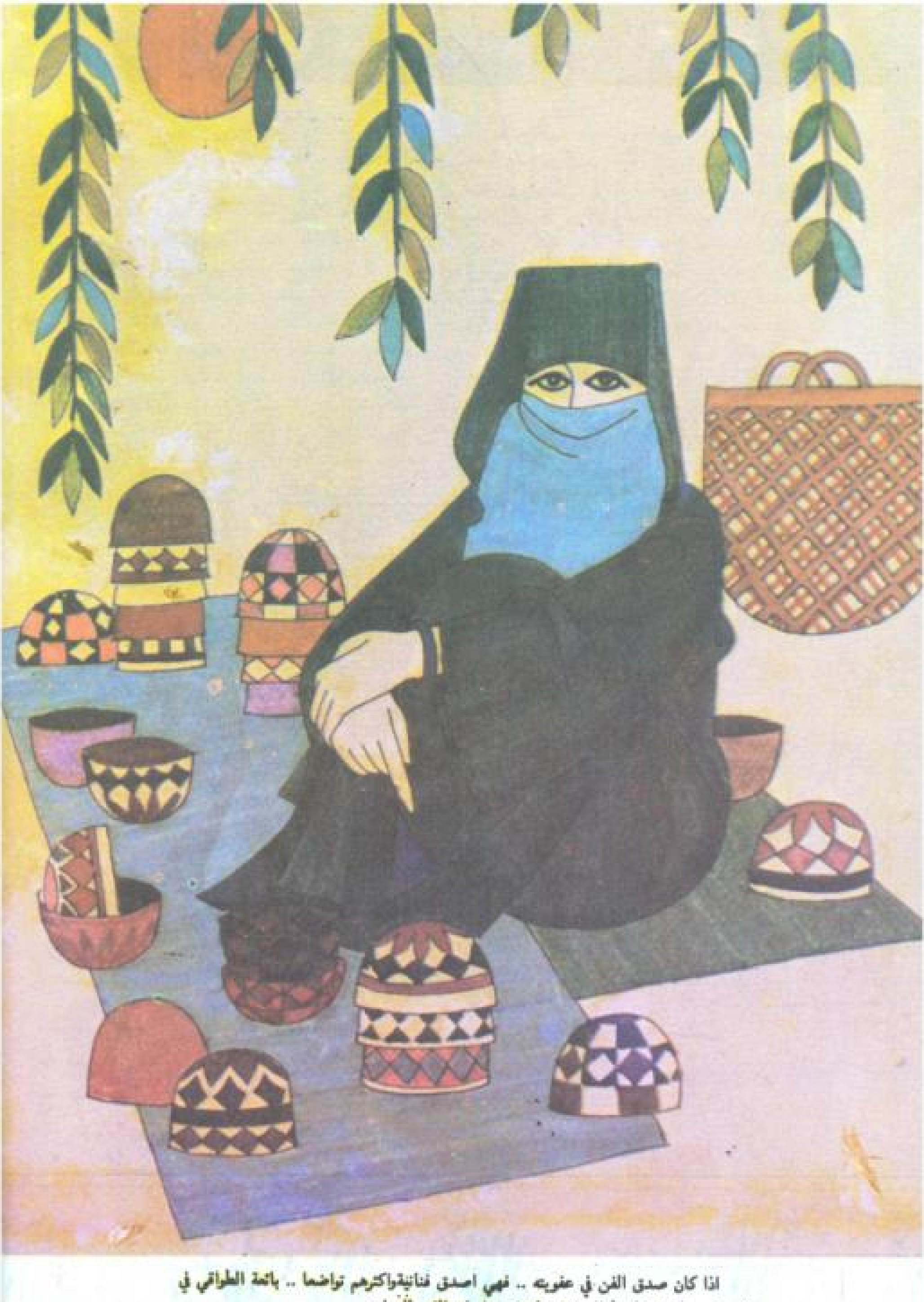
احدهم يدعو الناس الى البعد عن شراك المرأة .. فهي الغواية وهي الشيطان .. بجانبه اخر يروج لدوائه العجيب الذي يزيد من فحولة الرجال اما الثالث فعنده الحجاب الذي يجعل من تحب طوع يمينك !!

حفل ختان ابناء صديقي المغربي .. صورة تذكارية مهداة لهم خصيصا من عمهم بهجت .. داعيا لهم بـ .. « بعد غد افضل » .

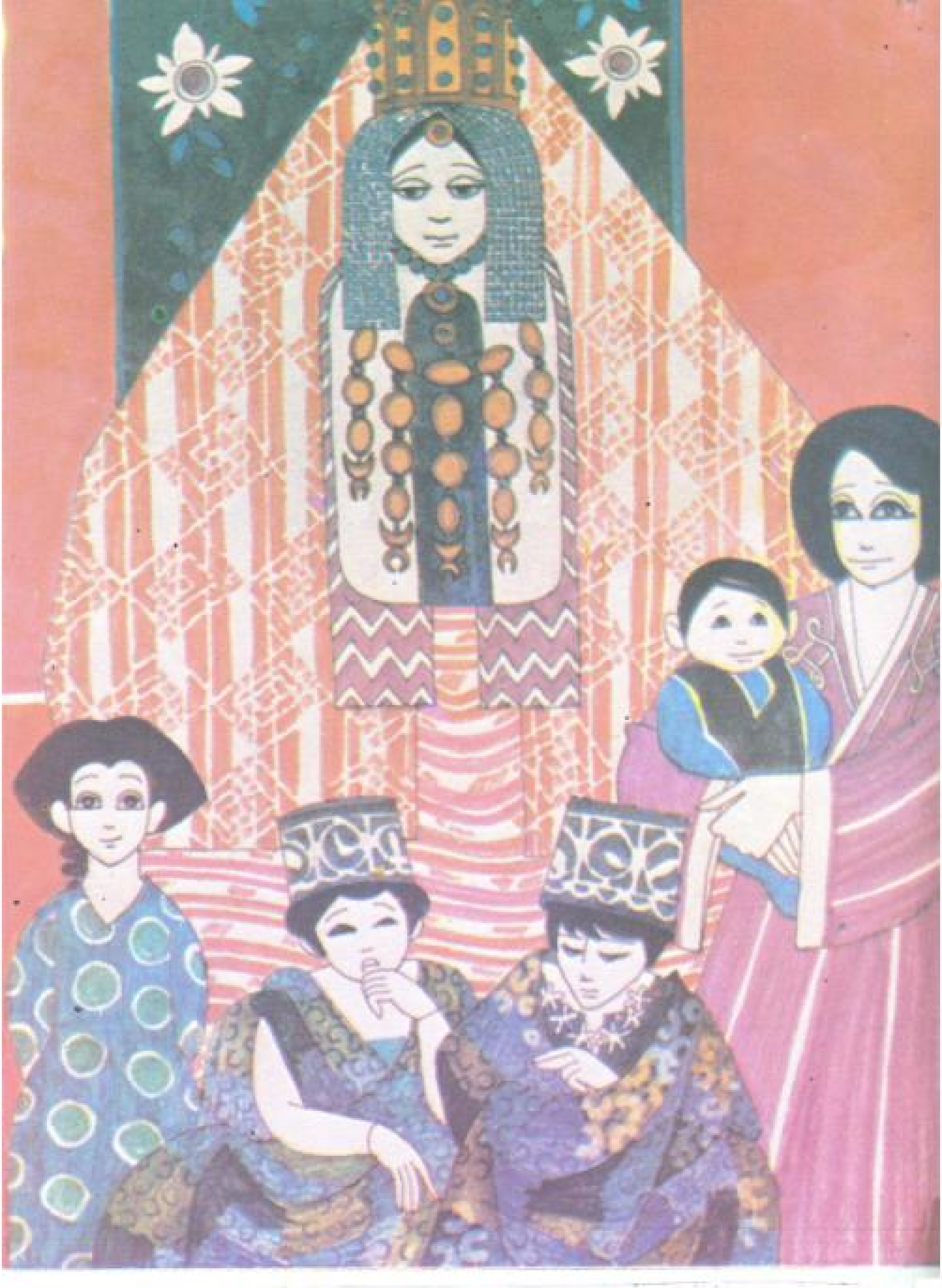
نصب تذكاري لمشاركة المرأة العربية في العمل على مر العصور يقف شامخا في وجه الذين يدعون الى ان المرأة مكانها البيت .. صانعة وبائعة القدور .



اكبر مسرح .. وأطول عرض .. ساحة
الفناء بمراكش احتفال دائم مدى العام



اذا كان صدق الفن في عفويته .. فهي اصدق فنانيةواكثرهم تواضعا .. بائعة الطواقي في السوق .. تحيل المحيط الى اغنية لونية تقول ان الفن للجماهير ..



في حفل ختان ابنائها .. تذكرت الام انها لم تحتفل بزفافها على الطريقة المغربية .. لم ترتد زي الزفاف التقليدي عن عسر .. فارتدته بعد اليسر .



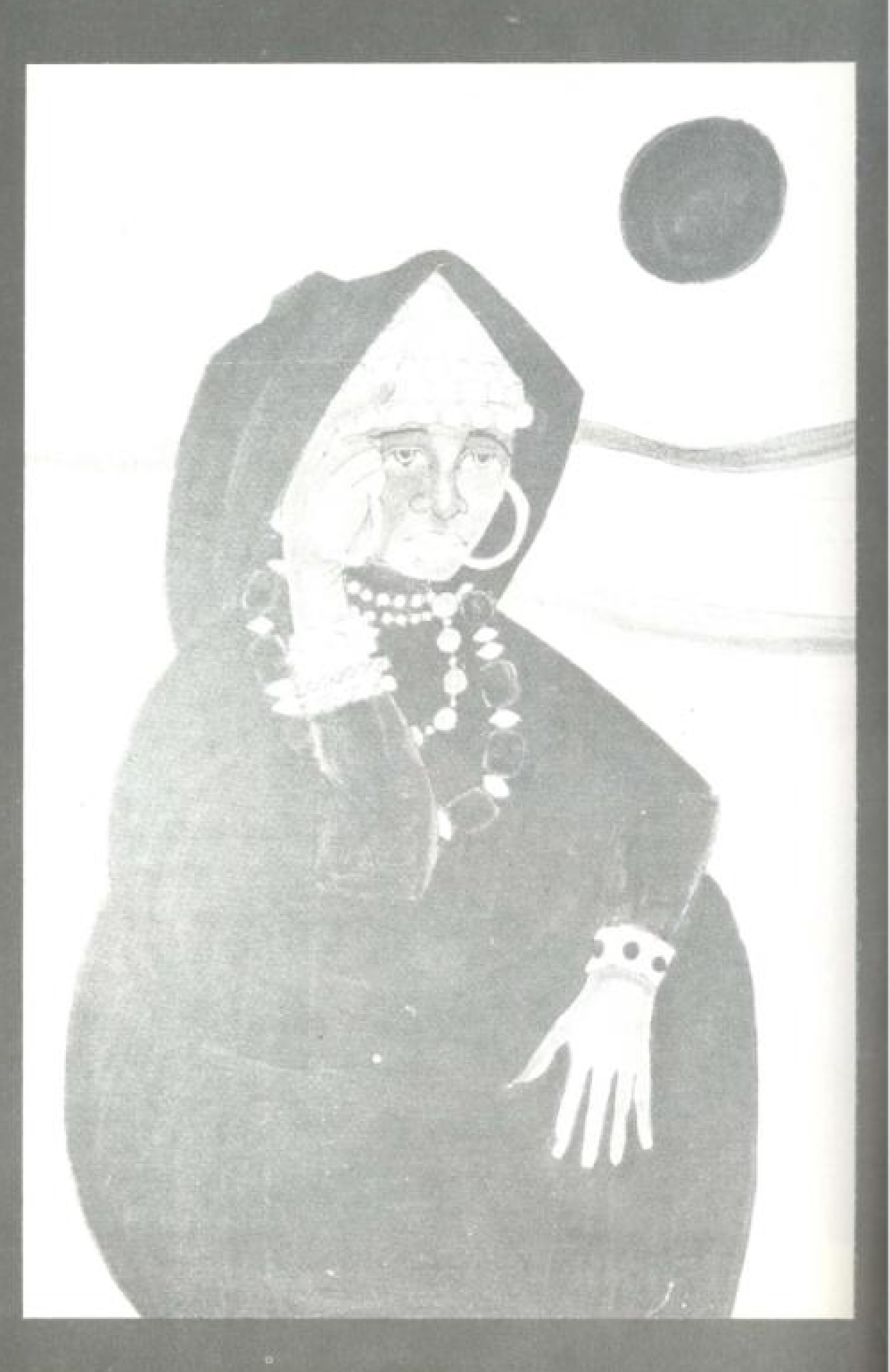
في صبيحة اليوم الثاني للزواج يقام هذا الاحتفال الذي يشترط فيه اعداد كبيرة من المنشدين والطبالين .

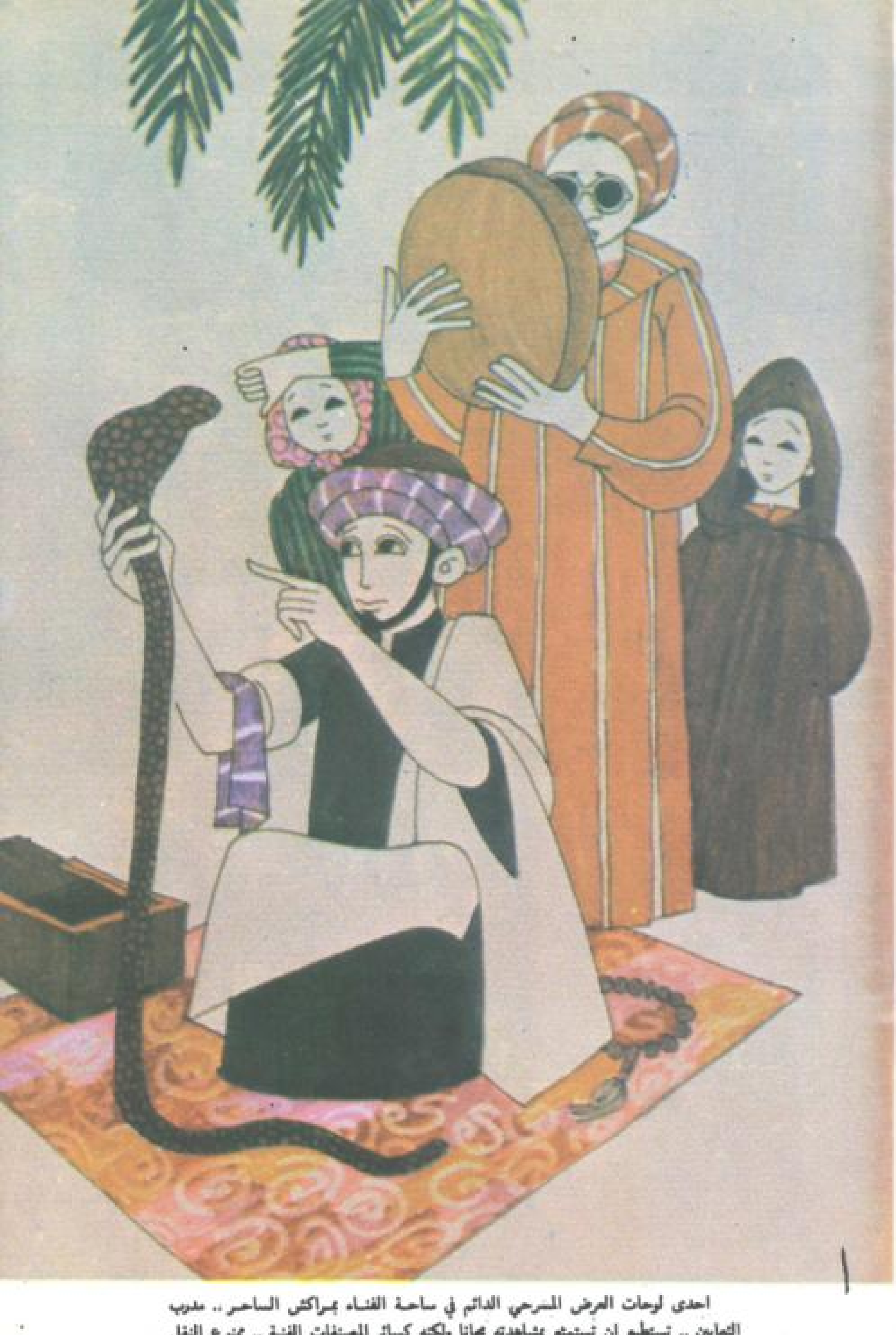
الساحر .. والمهرج .. والممثل والمؤلف والمخرج .. والراقص .. ومهندس الديكور .. عالم من الفنانين الفطريين يعرضون فنهم طوال النهار والليل بدون استراحة والعرض قائم .. هم المسرح والاعلان والممثل والديكور والمتفرج احيانا .. تنتقل من حلبة الى حلبة .. ومن عرض الى آخر .. باستمتاع شديد .. لاينتابك الملل لحظة .. اذا جعت او عطشت .. فالمطاعم موجودة ومحملة باشهى الاطعمة والمشروبات في انحاء الساحة .. تأكل وتشرب دون ان يفوتك العرض .. وامواج البشر تسعى .. كرنفال رهيب من الازياء واللغات .. عرض آخر مستمر متحرك .. الازياء تبدأ بلباس البحر وتنتهي بالعباءة والحجاب .. اللغات العربية والاسبانية والانجليزية والبربرية والفرنسية .. يا له من خليط ...

في مراكش .. حافلة مكتوب عليها خط سيرها .. باريس ـ مراكش انها تعبر فرنسا واسبانيا والمغرب .. وهي من اطول المسافات التي تقطعها مثل هذه الحافلات عادة ... كل هذا من اجل المشاركة في هذا الكرنفال .. من اجل السياحة ..

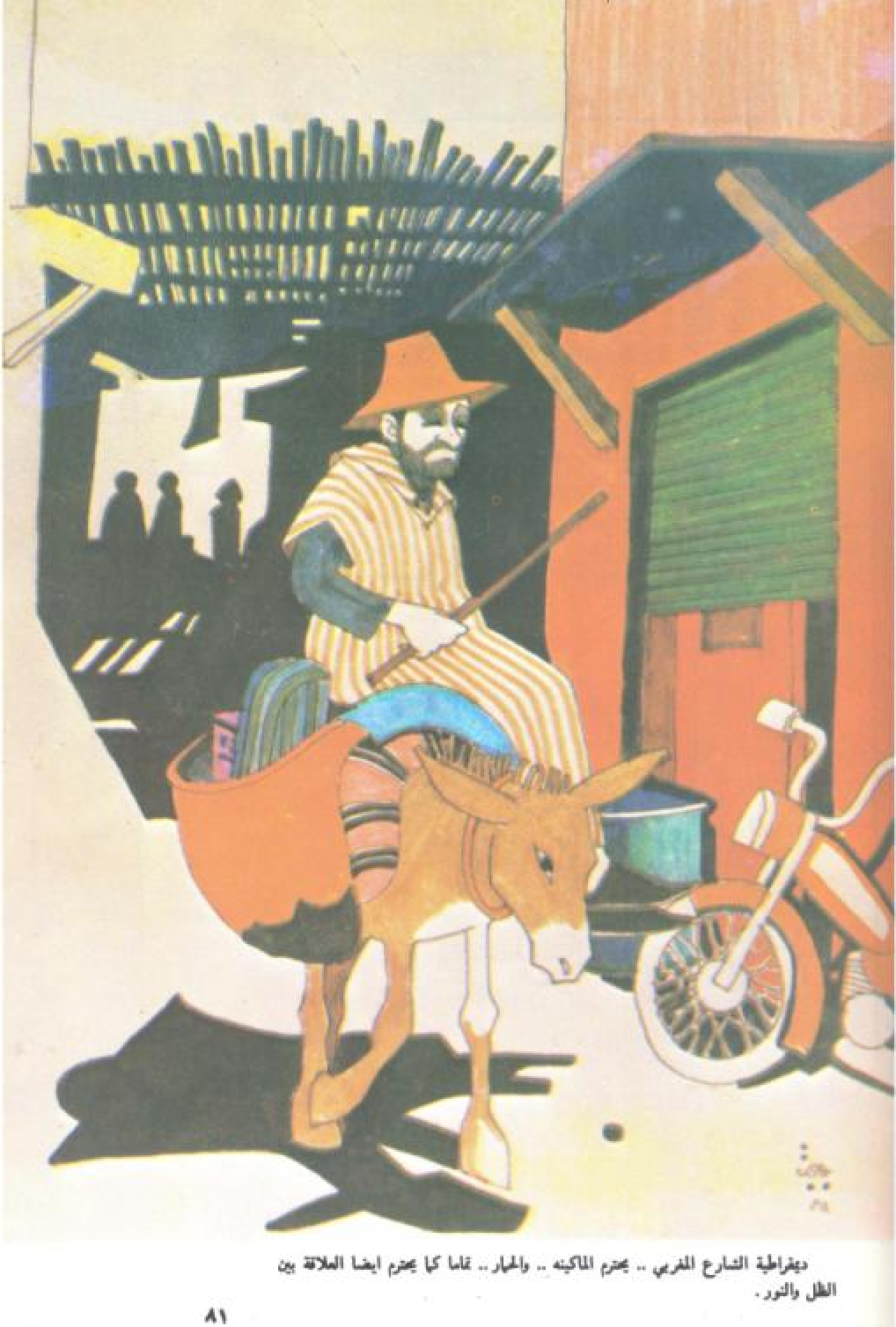
ولكن .. لكل دولة همومها واحلامها .. طموحاتها ومشكلها .. وانا في وسط هذا الخضم لم استطع ان انتاساها .. لان المغرب جزء من وطننا الكبير .. ولكن الحديث يحتاج الى مجال آخر .. بصور ورسوم اخرى .

عندما يجتمع الفقر المادي والثراء الفني ...





احدى لوحات العرض المسرحي الدائم في ساحة الفناء بمراكش الساحر .. مدرب الثعابين .. تستطيع ان تستمتع بمشاهدته مجانا ولكنه كسائر المصنفات الفنية .. ممنوع النقل بالكاميرا او الرسم دون ان تدفع حق الاداء !

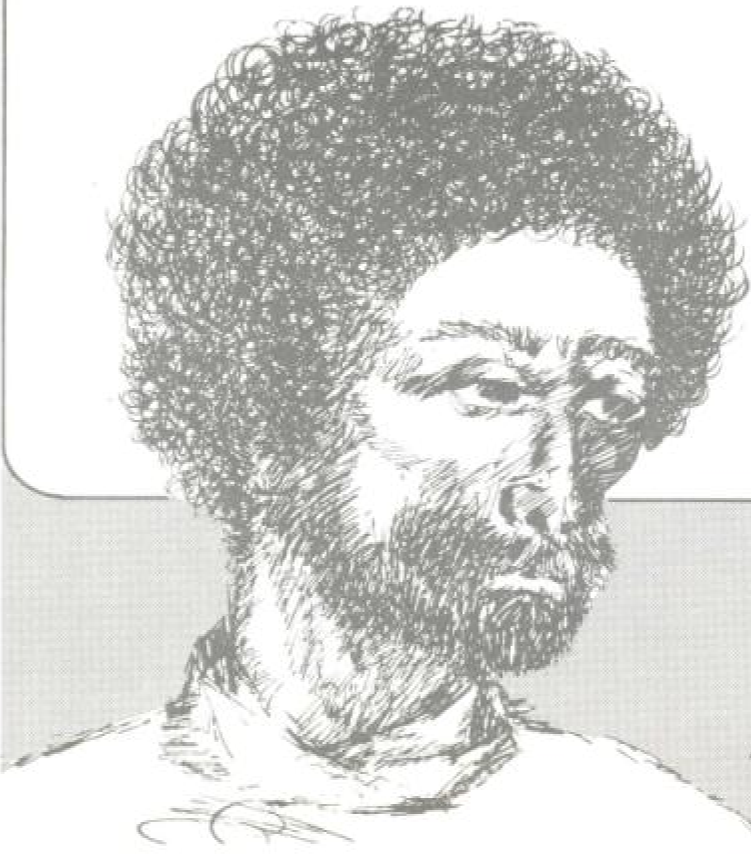


ديمقراطية الشارع المغربي .. يحترم الماكينه .. والحمار .. تماما كما يحترم ايضا العلاقة بين الظل والنور .

زنوج وعرب في يوغوسلافيا

بقلم : الدكتور جمال الدين سيد محمد

ليس من الغريب ان تلقى الآن في اماكن عديدة من يوغسلافيا مواطنين يوغسلاف سود البشرة ويتراوح سوادهم بين السمرة الغالبة في الدول العربية وبين اللون الاسود الداكن الذى لا يرى الا في افريقيا .



واول انطباع قد يتبادل الى ذهنك ان هؤلاء الزنوج اليوغسلاف او العرب اليوغسلاف هم نتاج للزيجات المتعددة التي كثرت مؤخرا بين اليوغسلاف وبين العرب والافارقة . الا أن الأمر الذى من المؤكد انه سيزيد من دهشتك ان بعض هؤلاء الزنوج او العرب اليوغسلاف متقدمون في السن الى حد كبير ، وبعض منهم يدينون حتى الأن بالاسلام ويعرفون اللغة العربية وبعضهم يعرف معرفة مؤكدة وقاطعة انه من اصل عربي أو افريقي .

ومما يذكر ان هؤلاء الزنوج اليوغسلاف يتركزون في مدينة اولتسيني التي تقع على ساحل بحر الادرياتيك الذى يتبع جمهورية الجبل الاسود بيوغسلافيا ، ويبلغ تعداد سكان هذه المدينة حوالي ستة الاف نسمة .

وقد لفتت هذه الظاهرة انظار الباحثين فأدلى كل منهم بدلوه في هذا المضمار بحثا عن اسباب وجود هذا العدد الكبير من الزنوج في يوغسلافيا عامة وفي مدينة اولتسين على وجه الخصوص ، وكيف ومن اين أتى اسلاف هؤلاء الزنوج اليوغسلاف ؟ وما هو اصلهم الحقيقي ؟ هل هم زنوج من افريقيا ام عرب سود البشرة .

وقد سنحت لي الفرصة بشكل مباشر خلال كتابتي لرسالتي للدكتوراه (١) لأن أبحث بحثا علميا مستفيضا عن اسباب هذه الظاهرة ولأن أجرى فحصا دقيقا لكل ما كتب عن هذا الموضوع وأن اخرج في النهاية برأى مدعم بالادلة التاريخية والوقائع .

ومن المحتم في البداية أن ألفت نظر القارىء إلى أن اليوغسلاف لا يفرقون بين الزنجي والعربي ، فينعتون الزنجي بانه عربي والعربي بانه زنجي . أى أن للكلمتين مدلولا واحدا ولا فرق بينهما عند اليوغسلاف بل لقد وصل الخلط بين اللفظتين الى درجة ان بعض القواميس والمعاجم اليوغسلافية القديمة ذات الاهمية العظيمة والقيمة العلمية تفسر كلمة عربي على انها تعني اسود وزنجيا . ومن الجلي ان هناك سوء فهم للفظين وخلطا بينا بينهما له اسبابه ودوافعه التي سنوردها فيما بعد .

ويجدر بنا ان ننوه بأن الباحثين اليوغسلاف كانوا الى عهد غير بعيد يعتقدون أن أية علاقة للشعوب اليوغسلافية بالمسلمين وبالعرب على وجه الاطلاق ـ بيضا كانوا او سودا ـ تبدأ مع احتلال الامبراطورية العثمانية للاراضي اليوغسلافية في القرن الخامس عشر الميلادى . ولكن بمرور الزمن وبتعدد سبل البحث والدراسة وتعمقها ثبت بما لا يدعو للشك خطأ هذا الاعتقاد وبطلانه . وبدأت الأضواء تسلط بشكل مركز على هذه العلاقات وتعود بها الى تاريخها الاول ، أى الى ما قبل الاحتلال العثماني للاراضي اليوغسلافية ، وبدأت كتب التاريخ القديمة تفتح اوراقها الصفراء وتثبت وجودها وتقدم الاسانيد التاريخية على وجود علاقات متعددة ومتنوعة الاشكال بين العرب قبل احتلال الاتراك العثمانيين للاراضي اليوغسلافية بزمن بعيد .

العرب والسلاف الجنوبيون

ويقتضينا الامر ان نعود الى الماضي البعيد وبالتحديد الى القرن السادس الميلادى حيث أخذ اسلاف اليوغسلاف وهم السلاف الجنوبيون (٢) يتدفقون بشكل متواصل عبر نهر الدانوب ، ويستوطنون في شبه جزيرة البلقان خلال القرن السادس وحتى العقود الاولى من القرن السابع الميلادى . وقد ادت هذه الهجرات الى تغيرات عنصرية اساسية وجذرية في شبه جزيرة البلقان وامتدت الى المناطق اليونانية جنوب شبه الجزيرة التى كانت تتاخم حدود الامبراطورية البيزنطية وقد اعتبر الحكام البيزنطيون هذه الهجرات السلافية بمثابة تهديد لسلامة وامن الامبراطورية ، وادى ذلك إلى نشوب معارك وغارات عديدة بين الطرفين تتراوح بين دخول الجيش البيزنطي املاك واراضي السلاف الجنوبيين واغارة السلاف على اراضي الامبراطورية البيزنطية .

وفي بداية القرن السابع الميلادى لم يكن لدى الامبراطورية البيزنطة ما يكفيها من الجنود لذا فقد شرع الامبراطور هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١ م) في تشكيل

---

١) كان موضوع رسالتي للدكتوراه هو « شخصية البطل العربي في النثر اليوغسلافي » وقد نشرت مجلة العربي « مقالة عن هذه الرسالة في عددها الصادر في سبتمبر ١٩٨٠ .

٢) السلاف الجنوبيون اسلاف الشعوب اليوغسلافية الحالية هم مجموعة من الشعوب التي نشأت عن الفرع الاندو اوروبي ويعيشون في شرق وجنوب شرق اوروبا وفي المناطق الاسيوية من الاتحاد السوفيتي وكان قدامي العرب يطلقون عليهم لقب « الصقالبة » وهو لقب محل خلاف كبير .

جيش بيزنطي جديد عن طريق ادخال نظام الاجناد او الثغور . ويتمثل جوهر هذا النظام في استقرار الجند بأقاليم اسيا الصغرى ـ وجرى اطلاق كلمة اجناد (THEMES) على الاقاليم الحربية التي تشأت حديثا وترتب على ذلك ان الكلمة التي كانت تطلق على لواء الجند صارت تطلق على الارض التي تحتلها القوات العسكرية . وتقرر منح الجنود مساحات من الارض على شريطة ان تكون الخدمة العسكرية وراثية مقابل ذلك . وفي البداية جرى توطين الجنود البيزنطيين ، الا ان عددهم لم يكن كافيا بالمرة وكانت هذه مشكلة من اصعب المشاكل التي واجهها الامبراطور هرقل .

الا ان العجز الناشيء في صفوف الجيش البيزنطي لم يكن يستطيع سده الا السلاف الجنوبيون الذين اصبحوا في ذلك الحين بالذات على اتصال وثيق بالامبراطورية البيزنطية نتيجة لهجرتهم الى الاراضي البيزنطية ثم اقامتهم بها . وهكذا انضم السلاف الجنوبيون الى الجيش البيزنطي لكي يعملوا به جنودا ومزارعين يحصلون بعد استيطانهم على اراض زراعية . واصبح هؤلاء الجند الفلاحون النازلون في الاجناد (او الثغور) عنصرا ثابتا في قوات الجيش البيزنطي وامدتهم في قطاعاتهم بالوسائل الاقتصادية التي تكفل لهم سبل العيش وتدربهم تدريبا عسكريا فضلا عن انهم كانوا يتقاضون رواتب منتظمة . وهكذا تم تطعيم الجيش البيزنطي بدماء شابة جديدة من السلاف الجنوبيين الذين يرجع اليهم الفضل في الانتصارات التي سيحققها الجيش البيزنطي فيما بعد .

وقد قام الامبراطور جستنيان الثاني بعد عامي ٦٨٨ ـ ٦٨٩م بتهجير كثير من السلاف الجنوبيين من منطقة شبه جزيرة البلقان الى ثغر الابسيق الصغرى حيث تم من قبل توطينهم . وفي عام ٦٩٢م كون الامبراطور من هؤلاء السلاف المهجرين جيشا قوامه ثلاثون الف جندي وتوجه بهم لمحاربة العرب في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان . واضطر العرب رغما عنهم الى قبول الحرب المفروضة ، الا ان قائد الجيش العربي نجح في رشوة قائد الجيش البيزنطي وهو القائد السلافي نيقولا ، وكانت غالبية جنوده من السلاف الجنوبيين . وعلى اثر ذلك انتقل القائد السلافي الى صف العرب ومعه ٢٠ الفا من اتباعه في المعركة التي جرت عند سناستيبول بقليقيا ، وبذلك تمكن العرب من الانتصار وانهزم البيزنطيون هزيمة منكرة .

واخذ العرب يوطنون اللاجئين من السلاف الجنوبيين في سوريا واستخدموهم كجنود في معاركهم التالية مع بيزنطة وبعد ذلك مباشرة قام العرب بالهجوم على الامبراطورية البيزنطية . ولا شك ان السلاف الجنوبيين قد ادوا للعرب خدمات جليلة نتيجة لمعرفتهم بالاراضي البيزنطية الا ان السلاف الجنوبيين لم يساعدوا العرب في هجماتهم على القسطنطينية . وفي عام ٦٩٣ ـ ٦٩٤ قام بعض العرب بالاشتراك مع السلاف الجنوبيين في نهب مناطق آسيا الصغرى . ومما يذكر ان مروان بن محمد عين اثنين من السلاف الجنوبيين ولاة على المناطق الواقعة على الحدود العربية البيزنطية

وقد ظل اللقب العربي الذى اطلقه العرب على السلاف الجنوبيين وهو « الصقالبة » مسجلا في اسم القلعة السلافية « حصنُ الصقالبة » وحسب ما كتبه ابن خرداذابه في كتابه « المسالك والممالك » فان الحصن يقع بالقرب من لولون وهو قلعة بيزنطية تقع على الحدود بين سوريا وقباد وكانت تحرس الممر الرئيسي عن طريق طاوروس . واطلاق هذا اللقب يفترض انه كان يوجد بالجيش العربي جنود يعرفون اللغة السلافية .

ومن المؤكد ان السلاف الجنوبيين قد اشتركوا في الحرب الاهلية بين الأمين والمأمون (في حوالي ٨٠٩ ـ ٨١٩) نظرا لان كلا منها كان يملك جيشا كاملا من مختلف انواع واجناس العبيد .

ومن الاحداث الهامة كذلك في تاريخ العلاقات بين العرب والسلاف الجنوبيين مؤازرة الخليفة المأمون لثورة توماس السلافي ، وبفضل المساعدات العربية تم تتويج توماس امبراطورا على انطاكية ، الا ان الثورة فشلت في عام ٨٢٣ .

ان ما اوردناه حتى الان ليس الا نبذة يسيرة عن تطور العلاقات بين العرب والسلاف الجنوبيين منذ القدم . والتاريخ القديم حافل ـ وما اعجب ما يحفل به التاريخ ـ بامثلة عديدة متشابهة تؤكد بلا ريب انه منذ ظهور الاسلام وعبر القرون التي تلته والسلافي الجنوبي يعرف العربي معرفة جيدة ويشيد بشجاعته وبطولاته . وما زالت كتب تراثهم الباقية تصور هذا اللقاء الأول وتحكي الكثير عن العرب وتسجل كذلك الكتب العربية الكثيرة عن دور السلاف الجنوبيين وعن علاقاتهم بالعرب . اما دولار السلاف الجنوبيين في أسبانيا فيحتاج الى دراسة كاملة نظرا لأهميته . ولوصول السلاف الجنوبيين الى أعلى المراتب خلال حكم العرب لاسبانيا ومن المرجح ـ بل من المؤكد أنه ـ نتيجة لهذه العلاقات المتعددة والمتنوعة عبر التاريخ ظهر الزنوج والعرب في يوغسلافيا .

تجارة الرقيق ودورها

ولا يستطيع احد ان ينكر دور التجارة بوجه عام وتجارة الرقيق الابيض والاسود بشكل خاص في تطور العلاقات بين العرب والسلاف الجنوبيين . فقد اشتهر بعض العرب عبر التاريخ بتجارتهم للرقيق ، وكانوا يقدرون تقديرا خاصا الرقيق من الفرنجة والاتراك والسلاف . وفي المجتمع الاسلامي كان السلاف والاتراك هم اشهر الرقيق الابيض ، مع ملاحظة ان العرب كانوا لا يستخدمون العبيد الاتراك الا في حالة عدم وجود العبيد السلاف . وقد وصل العرب حتى براغ بتشيكوسلوفاكية الحالية بحثا عن الرقيق من السلاف وكانت براغ في القرن العاشر الميلادى احد اشهر واكبر اسواق الرقيق الابيض في العالم .

ويجدر بالذكر انه منذ القرن الثالث عشر الميلادى ومدينة دوبروفنيك اليوغسلافية الواقعة على ساحل بحر الادرياتيك ـ على علاقات تجارية منتظمة مع مصر وتونس وغيرها . وكانت تنقل البضائع على سفنها سواء أكان لحسابها ام لحساب غيرها من الدول . وهناك وثائق محفوظة في يوغسلافيا تتحدث عن العلاقات الديبلوماسية والتجارية وعن المشاكل التي نشأت بين جمهورية دوبرفنيك وبين الدول العربية المغرب والجزائر وطرابلس ومصر .

وقد سجل المؤرخون انه منذ بداية القرن الرابع عشر اخذت تنتشر بدعة امتلاك العبيد الزنوج من افريقيا ، وهي بدعة سادت قصور الامراء والاثرياء وقواد السفن وكبار التجار في دول البحر الابيض المتوسط . وقد نشأت هذه البدعة نتيجة للعلاقات التجارية المتكررة مع دول المشرق حيث كان الحكام المسلمون وكبارهم يحيطون انفسهم بالحرس وبالعبيد الزنوج الذين كانوا يباعون في المواني البحرية في المنطقة الممتدة من الجزائر وحتى بور سعيد في مصر . وكان من المعتاد ان يتم استبدال العبيد والزنوج بالقمح وبالشاى والسكر ومختلف السلع الغذائية . وكان البحارة يبيعون في اغلب الاحيان هؤلاء الزنوج في مواني البحر الابيض لاشخاص يعقدون معهم مسبقا اتفاقات مكتوبة .

من اسهامات القرصنة

وليس من قبيل المصادفة ان الحمل كان رمزا لمدينة اولتسيني اليوغسلافية حتى منتصف القرن السادس عشر . وكانت هذه المدينة تعيش حياة مسالمة خوفا من القراصنة ومن الحروب وكان سكانها يعيشون على الزراعة لوجه عام وعلى زراعة الزيتون بشكل خاص وكذلك على الحرف اليدوية وعلى التجارة ولكن لم تكن هذه المدينة تمتلك سفنا خاصة بها .

وفي اكتوبر عام ١٥٧١م ، حدثت معركة عند « ليبانت » وانهزم الاسطول التركي انهزاما مريعا امام اسطول الحلف المقدس ، الا انه بعد انتهاء المعركة مباشرة وقعت مدينة اولتسيني تحت السيطرة التركية وترك السكان الاصليون مدينتهم . وسمح السلطان التركي للقرصان العربي « على » بان يوطن رجاله في المدينة المهجورة المدمرة كدليل على العرفان بالجميل والشكر من جانب السلطان التركي مقابل الخدمات التي اداها له القرصان المشهور الذى كان قد اشترك في صف الاتراك في المعركة المذكورة . ولكن مساعدته لم تستطع ان تغير من مصير الاسطول التركي . الا ان القرصان العربي علياورجاله من القراصنة الشجعان حاربوا بشرف من اجل تركيا .

وقبل القراصنة بحماس بالغ عرض السلطان التركي ، وكان معظم هؤلاء القراصنة من الجزائريين واستوطن حوالي اربعمائة منهم في مدينة اولتسيني اليوغسلافية وكان بينهم عدد كبير من الزنوج ومنذ تلك الايام وحتى يومنا هذا والزنوج والعرب يعيشون يتزاوجون ينجبون الاجيال المتلاحقة في هذه المدينة اليوغسلافية الواقعة في اقصى جنوب الساحل الادرياتيكي .

وبعد استيطان القراصنة من الزنوج والعرب في مدينة اولتسيني استأنفوا حرفتهم القديمة الا وهي القرصنة . وفي هذه المدينة كان لديهم جميع الظروف المواتية للقرصنة من ساحل كثير الحفر التي تصلح للاختفاء والاختباء ، ومن صخور مرتفعة عالية لمراقبة السفن في غدوها ورواحها . وما لبثت ان اصبحت لهؤلاء القراصنة السيادة المطلقة على ساحل الادرياتيك كله . وكان بعض زعماء القراصنة يطلق على نفسه اسما او لقبا معينا للشهرة مثل « السيف » او العين السوداء » او « سوط صقلية او ما شابه ذلك . وبغض النظر عن هذه الاسماء والألقب فقد كان لكل زعيم من زعماء القراصنة عدد من الزنج على سفينته . وكان القراصنة يقدرون ايما تقدير هؤلا الزنوج الموجودين على سفنهم . ولم يكن هذا التقدير غريبا او بلا سبب : فكلما هاجم القراصنة سفينة كان الزنج هم اول من يهجم عليها ويقتحمها في

جسارة وبلا تهيب . وكان القراصنة الزنوج يستلون في ذلك الحين سيوفا ضخمة . وحيث إنهم كانوا يرتدون ملابس مزركشة فقد كانوا يدخلون الرعب في قلوب أفراد السفينة المهاجمة . وكانوا يصيحون ويهتفون اثناء هجومهم على السفينة بالاسم الفظيع المرعب لزعيمهم . وعلى اثر هذا الصياح المفزع وهذا الهتاف المرعب يستسلم بحارة السفينة المهاجمة بلا أدنى تردد .

وكان القراصنة يوزعون الغنائم كلها بالتساوي فيما بينهم وبين الزنوج ويتم اقتياد الاسرى من المسافرين والبحارة الى مدينة اولتسيني حيث يتم بيعهم في سوق العبيد . وحيث كانت توجد بين الاسرى شخصيات هامة فقد كان القراصنة يحصلون على مبالغ ضخمة من الاموال فدية لهم .وتذكر السجلات الرسمية لهذه المدينة انه على سبيل المثال اضطرت السيدة لوتسيا زوجة السيد ايليا مرفيتسا من قرية برتشانيا بوغسلافيا ان تفتدى زوجها بمبلغ كبير . وتذكر كذلك أن السيد بوجا تريبوف وهو أيضا من قرية برتشانيا توفى وهو ما زال عبدا فاقدا لحريته في مدينة أولتسيني في الخامس عشر من أغسطس ١٦٦٨ م .

ويذكر العارفون بماضي وتاريخ مدينة أولتسيني أنه توجد وثيقة في مدينة نيس الفرنسية يتضح منها أن الكاتب الاسباني المشهور سيرفانتس مؤلف رواية « دون كيشوت » كان عبدا لدى قراصنة مدينة أولتسيني . ولكن تم اطلاق سراحه بعد تدخل فينيسيا مباشرة . ورغم كثرة الحديث عن هذه الوثيقة الا انها لم تظهر علانية ابدا

وخلال القرون التالية كانت توجد على الدوام بمدينة أولتسيني من اثنتى عشرة الى عشرين جماعة من القراصنة . وكان لدى كل جماعة سفنها العديدة التى كانت تستخدم لنقل الزيتون والزيت . وبعد تحميل السفينة وتحريكها وهى تحمل راية الدولة التى تكون على صلات طيبة مع الدولة صاحبة السفينة يقترب منها القراصنة ويبدو أن هجومهم عليها وسلبهم لها ولحمولتها . ونتيجة ذلك اكتظت أقبية منازل القراصنة بالثروات المتنوعة .

حياة الزنوج

وكان الزنوج يقيمون منازل جميلة لتشكل والبناء بجانب منازل زعمائهم في الغالب . وكان زعماء القراصنة يهتمون اهتماما بالغا بتزويج هؤلاء الزنوج ولا يبخلون في المال في هذا المجال . ويتم في ذلك الحين تزيين احدى السفن بأجمل الزينات وترحل وعليها العريس الزنجى الى أحد الموانى الافريقية حيث يختار عروسا له . وحينما تعود السفينة بالعروس الى أولتسيني لايجرؤ بل ولا يفكر أحد من القراصنة التابعين لأى جماعة في سلب السفينة أو حتى الهجوم عليها . وعند وصول السفينة الى المدينة حاملة العريس وعروسته . يستقبلها أهل المدينة استقبالا حافلا رائعا ويرافقونها بالغناء والرقص والموسيقا حتى منزلها . وكانت من عاداتهم أن يقدم العريس الزنجى بعد زواجه مباشرة الاقتراع الجديد بعملية القرصنة التالية ذلك لانهم كانوا يعتقدون انه سعيد الحظ وأن هذه العملية ستأتى بالوفير من الغنائم .

ومن الأساطير الطريفة التى تحكى حتى الآن في مدينة أولتسيني اليوغوسلافية أساطير تتعلق بالحياة التى تحياها زوجات الزنوج . فقد كن ـ تشبها بزوجات باقى القراصنة ـ يتعودن بسرعة على الوحدة وعلى النظر لمياه البحر والتأمل فيها انتظارا لعودة الزوج . ونادرا ما يحدث ألا تنجب زوجة الزنجى . واذا ما حدث ذلك فقد كان الزوج يهجر زوجته . .لم يكن يتركها في أولتسيني بل كان يصحبها الى مكان بعيد . وغالبا ما يصحبها إلى إفريقيا من حيث أتى بها . وفي أحيان أخرى كان ببساطة يلقى بها من السفينة ويذهب الى أى ميناء آخر لاحضار عروس جديدة .

وكانت زوجات الزنوج في أولتسيني يفزعن من هذا التصرف . وكان يتملكهن الخوف والفزع في الشهور الأولى للزواج لان حياتهن في هذه المدينة كانت جميلة للغاية . وكانت الزوجة التى لاتحمل بعد سنة تبحث فورا عن أى علاج . وتقول احدى الأساطير أنهن كن يجدن العلاج في مكان قريب من أولتسيني . وقد كان بعض هؤلاء الزوجات يحلم بأن عليه أن يغطس في مياه البحر حتى النصف وأن يعبر ثلاث مرات من تحت الصخرة الموجودة في البحر والواقعة وراء التل الصغير القريب .

وكان قراصنة أولتسيني يهاجمون في مرات كثيرة التجار الأتراك الأثرياء . وذلك رغم أنهم كانوا يميلون ميلا شديدا نحو الباب العالى الذى كان يستخدمهم على الدوام كلما لزم الأمر . ومع ذلك فقد كان سكان فينيسيا يلقون من هؤلاء القراصنة أشد المتاعب . ولذا فقد طالب سكان فينيسيا الباب العالى في معاهدة كارلوفاتس أن يمنع قراصنة أولتسيني من القرصنة وأن يسمح بحرية الملاحة في بحر الادرياتيك

وقد عقدت هذه المعاهدة في عام ١٦٩٩ م بين

فينيسيا والنمسا وروسيا وبولندا ، وهي الدول التي كانت تكون الحلف المقدس ، وبين تركيا من جهة أخرى ولم تؤد هذه المعاهدة الى النتائج المرجوة فتلتها معاهدة أخرى لنفس الغرض . ووعد الباب العالي بأن يمنع قراصنة أولتسينى من ممارسة القرصنة والسماح بحرية التجارة والملاحة .

ولم يهتم أهل أولتسينى كثيرا بقرارات الدول العظمى آنذاك واستمروا في هجماتهم على السفن وعلى المدن الساحلية . وحرمت معاهدة بلغراد لعام ١٧٣٩ على أهل أولتسينى ممارسة القرصنة ولكن دون جدوى فهناك وثيقة ترجع لعام ١٧٦١ . تشكو فيها ادارة التجارة بجمهورية فينيسيا من ازدياد قوة قراصنة أولتسينى لدرجة أنهم أقاموا لهم مستوطنات في الموانى الرئيسية لسوريا ومصر .

وقد كانت هناك مناقشات عديدة عن قراصنة أولتسينى حتى عام ١٨١٥ م حينما صدرت اتفاقية باريس بمنع القرصنة . ومن العسير الاعتقاد بأن سكان أولتسينى كانوا يحترمون مواد هذه الاتفاقية لولم تسيطر السفن البخارية على البحار وتسود مياهها وكان هذا في الحقيقة يعنى نهاية القرصنة

وهكذا انتهى عهد القرصنة في أولتسينى اليوغسلافية وظل الزنوج والعرب في يوغسلافيا يعيشون ويتعايشون حتى يومنا هذا .

العربى الأسود

وكان هناك عدد ضئيل من الزنوج في أولتسينى يختار مهنة له في الحياة غير تلك المهنة التي تربطهم بالبحر ومياهه . ولذا ما حدث أن فضلوا التغيير فانهم كانوا يختارون مهنة البناء والعمارة . ويقولون ان بعضا من هؤلاء الزنوج شيد أجمل المبانى والعمائر في مدينة أولتسينى . وقد تحدث الأديب اليوغسلافى ايفو اندريتش - الحائز على جائزة نوبل في الآداب العالمية لعام ١٩٦١ في روايته « جسر على نهر درينا » عن أحد هؤلاء الزنوج فيقول عنه :

« وفي نهاية السنة الثالثة وقعت مصيبة من تلك المصائب التي يندر الا يقع مثلها في أعمال البناء العظيمة . وكانوا على وشك الانتهاء من بناء العمود الأوسط الذي يزيد قليلا في علوه وعرضه عند الذروة عن سائر الأعمدة لأنه سيحمل البوابة الكبيرة وكان العمال يحتشدون حول الكتلة الحجرية المربعة الضخمة التي كانت متعلقة فوق رؤوسهم وقد ربطت بحبال غليظة ولم تتمكن من نقلها الى مكانها بالضبط . وهرول « العربى » مساعد الاسطى انطونيوقد نفذ صبره وشرع في صيحات حانقة صاخبة « بتلك اللغة الغريبة التي تكونت خلال السنين بين هؤلاء الناس القادمين من شتى أنحاء العالم) يصدر الأوامر الى العمال الذين كانوا يحركون الرافعة تحت عند الماء . وفي تلك اللحظة انقطعت الحبال بطريقة غامضة وهوت كتلة الحجر بزاوية من زواياها أولا وبكل ثقلها ثانيا « على العربى » الثائر الذى كان لاينظر الى أعلى بل ينظر الى الماء . ومن قبيل المصادفة العجيبة أن الحجر سقط حيث يجب أن يسقط تماما ، لكنه اثناء سقوطه جرف معه « العربى » وسحق نصفه السفلى كله . وحدث هرج ومرج وصياح واستغاثة . وعلى وجه السرعة حضر الأسطى أنطونيو . وكان « الشاب الزنجى » بعد أن أغمى عليه في أول الأمر قد عاد الى وعيه ، وكان يئن وهو يكز على أسنانه وينظر في حزن وزعر الى عينى الاسطى انطونيو ...

وكان دفن « الزنجى » حدثا مهيبا ظل الناس يتذكرونه مدة طويلة وخرج المسلمون جميعا ليشيعوه وليحمل كل منهم مسافة بضعة أمتار النعش الذى كان يرقد فيه النصف الأعلى من جسم الشاب لأن باقى الجسم ظل تحت كتلة « الحجر » .

ويلاحظ هنا وصف الكاتب اليوغسلافي للشاب العربي بأنه زنجي أسود . وقد كان غيره من الكتاب اليوغسلاف يلصقون بالعربي نفس الصفة . ورغم اننا تعرضنا لهذه الظاهرة بالبحث والتحليل في مجلة العربى من قبل ، الا اننا نعود ونركز على ان هذا الخلط بين العرب والسود او هذا النعت للعرب بانهم زنوج ناتج عن خلط من الاساطير والخرافات والحقائق التاريخية التى امتزجت وتشابكت عبر القرون الماضية . ■■

د . جمال الدين سيد محمد

■ هل لاحظت انه لم يعد من الضرورى ان نشجع الشباب على اشعال النار في العالم ؟

« ارنولد جلاسو »

خالد العدساني
عندما تختلط السياسة بالأدب والتجارة !

في حياة خالد سليمان العدساني تختلط السياسة بالتجارة ، وتختلط التجارة بالسياسة ، وتختلط هذه وتلك بالأدب ، ثم يرتد الأدب و يتقهقر لتطغى عليه السياسة ، وتتأرجح التجارة بين هذه وتلك . لكن الأدب لا يتقهقر أمام السياسة إلا ليلتقط النفس ، ومن ثم يُحليها بحلاوته ، والأدب حلية السياسي ، وحلية التاجر ، بل حلية الانسان على اختلاف مشاربه .

إن السياسة تتحلى بالأدب ، وتتزيا بزيه ، وتتوشح بوشاحه ، وتختال بتاجه . وليس للأدب تاج إلا الشعر ، مُرصع بالمعاني ، متجلبب بجلاليب البلاغة والبيان . إنه الشعر تاج الأدب وصولجانه . ومتى ما كان السياسي رافلا بهذه الحلل ، متوشحا بهذه الأوسمة ، شق طريقه في الحياة ، وراح يسوس أموره وأمورها بالعقل وبالمنطق وبالحكمة . إنه يسوس الأمور بقدر ما يحمل من عقل سائس حكيم ، وأدب ناقـع رصـين ، والا تعثـر في طريقه ، وتلكأ في اندفاعه ، أو سقط من صهوة الجواد ، وانقلبت به العربة . وليس كل سياسي أديب ناجحا في سياسته ، وليس كل أديب سياسي ناجحا في أدبه ، وهكذا قس على ذلك التاجر في تجارته ، والطبيب في طبه ، والمهندس في هندسته وغير هذا وذاك . فالمواهب تتباين ، والطبائع تختلف ، فرب مهندس بلغ الغاية في الشعر ، وطبيب بلغ الغاية في الأدب ، ومفكر بلغ الأوج في الاثنين معا ، في الأدب وعلى رأسه تاج الشعر .

وهكذا تتداخل الأمور وتختلط في حياة الانسان ، وفي خضم هذا التداخل لا سيما بين الأدب والسياسة والتجارة يسير خالد سليمان العدساني في حياته ويشق طريقه ، طورا تتدخل التجارة لتفسد عليه الأدب ، وتارة تعصف السياسة بالتجارة وبالأدب معا . ولو بعد حين ، وهكذا صار ، حيث أبعدته السياسة عن الأدب وعن التجارة معا ، بل عصفت به من مسقط رأسه الكويت إلى خارجها ، إلى البصرة وبغداد أولا ، وبعد ذلك إلى بيروت ، وكلها أجزاء من وطنه الممزق المهان . طوقته السياسة ، واستبدت به وبفكره وعقله فآزر رجالها وأيدهم في ثورتهم ، وأصبح واحدا منهم فعصفت به وبهم في الكويت ، فنجا بجلده وفر هاربا متنكرا عن طريق الصحراء إلى البصرة بمساعدة أحد الرجال الأفاضل رحمه الله تعالى ، الذي قص قصته على بلجوئه إليهم في خيمتهم في البر ـ أي الصحراء ـ (البدع) خلال فصل الربيع واختبائه عندهم . وكان مطاردا للقبض عليه كما

بقلم : عبد الله زكريا الانصاري



خالد العدساني

قبض على زملائه . حيث تم تهريبه في لباس التنكر إلى البصرة . وهذه قصة من قصص لا أدري إن كان الوقت سيتاح ، والعمر سيمتد لشرحها وتسجيلها وذكر ملابساتها ، أم نتركها للتاريخ وللمؤرخين الذي يعرفون تفاصيلها أكثر ، ويدركون ملابساتها بصورة أوضح وأقدر ، وهم الذين عايشوها وذاقوا حلوها ومرها .

أقام خالد العدساني ردحا من الزمان في البصرة ثم انتقل إلى بغداد ، وبعد بغداد انتقل إلى بيروت وقر قراره فيها . ولم تفارقه السياسة في هذه البلاد ، لكنها بصورة أقل عنفا . بل لعلها بصورة هادئة رخية . وفي هذه الحال وجد الأدب مكانه . واشتد عوده . وتردد صداه شعرا ونثرا . وكاد أن يزهر شعره ويزهو بالغزل المستمد من الجمال الذي لا يقدر على مقاومته . ولا يستطيع أن يصمد أمامه . لولا التجارة قاتلها الله . إذ تدخلت فأفسدته شاعرا أديبا ، وسدت أمامه الأبواب الواسعة التي كاد أن يدخلها . لولا شقوق أضواء ضعيفة تسرب من خلالها ضوؤها الباهت .

إذن فخالد سليمان العدساني متمرد ثائر . عصفت به ثورته . وثار به تمرده . وتاجر متأرجح بين تيارات التجارة . لا تتخلى عنه . ولا يستغني عنها في عيشه . وأديب سياسي . أو على الأصح سياسي أديب يعطي الأدب بقدر . وتأخذ منه السياسة قسطا أوفى وأشمل مما يأخذ الأدب . وربما تركت التجارة مجالا أوسع للسياسة . ولم تترك بقدر هذا المجال للأدب . والأدب عنده في نظري . نظريٌ أكثر مما هو عملي . وإن انطبق شيء من الشعر على شيء من الواقع .إنه أديب في حواره . وأديب في حديثه . ومعظم أدبه ليس مسطورا . ولا مرسوما . ولا مسجلا على الورق . وقسم من أدبه مبعثر على صفحات حياته اليومية . وما سجل منه وسُطر وما رسم على الورق قليل . وأقله الشعر . وأكثر ما كتب من نثر مبعثر على صفحات الجرائد والمجلات العربية . ولعل تنقله وعدم استقراره في مكان واحد أضاع عليه الكثير . وأفقد بعض أشعاره التي يتذكر بعضها ولا يحفظها لذلك أصبح من الصعب رصد نتاجه . وملاحقة ما نشر منه . وتتبعه في مظانه . وحصره وتسجيله من هذه المظان . ومن المجلات والجرائد المنتشرة هنا وهناك في طول البلاد العربية وعرضها . ولو لم تُنشر البقية المتبقية من شعره سنة ١٩٧٨ باسم (عدسانيات) لضاعت مثل غيرها الذي ضاع .

لقد قضيت ردحا من الزمن مع الأخ خالد سليمان العدساني في القاهرة وفي الكويت . وحدثني بالكثير من شئونه وشجونه . وهو متحدث لبق . ذلق اللسان سلس

الأسلوب ، حلو الحديث ، حاد العبارات أحيانا ، وصريح أحيانا أخرى إلى حد التجريح .

ميلاد باليوم والشهر فقط !

يقول إنه من مواليد شهر رجب بالذات ، بل يحدد اليوم قائلا ، انه ولد في اليوم الثالث من شهر رجب وعندما تسأله عن السنة يتلكأ ، ويتردد ، ويراوغ ويتململ قائلا بأنه لا يتذكر السنة بالضبط ! وتعيد السؤال عليه كرة أخرى وتقول له ، كيف تتذكر اليوم والشهر ولا تتذكر السنة ؟ فيجيبك بأن هذين الشيئين رسخا في ذهني منذ الصغر ، لكن السنة لم ترسخ رسوخ الشهر واليوم اللذين حددتهما لك . ولعل ذكر السنة يثير له المتاعب ، ويسبب الحرج ، بل يخلق له المشاكل مع اللاتي يتظاهر أمامهن بمظهر الشاب الفاتن المرح ، أو الشاعر المتشبب الغزل ، وهكذا يعمل كثير من الرجال الذين طووا السنين الكثيرة من حياتهم ، وما زالوا يتمسكون بها ، ويتشبثون بأذيالها ، ويهوون أن يأخذوا منها ما شاء لهم الأخذ ، ويستمتعون ما شاء لهم الاستمتاع ، وصاحبنا على رأس هؤلاء ، يحب المتع ، ويحب اللهو ، ويحب جمال الحياة وروعتها وبهاءها ، وهو الشاعر الغزل الذي تذيبه الأعين النجل وان كان هو نفسه لا يذيب الحديد ، وهو من القوم الذين قال فيهم الشاعر :

نحـــن قوم إذا نظرنـــا عشقنا
قلنـــا أعـــين وفينـــا قلوب

وليس من أولئك الذين قال فيهم :

نحـــن قوم تذيبنـــا الأعـــين النجــ
ـــلُ على أننـــا نُذيب الحديدا

فقد يكون من الذين يذوبون بالأعين النجل ، لكنه على كل حال ليس من الذين يُذيبون الحديد ، ولست أدري إن كان يوافقني على هذا الرأي ، والا فكيف به يذيب الحديد ؟ والشاعر العربي ما كان يعني أبدا إلا أولئك الرجال المتمرسين بالحروب في ليلهم ونهارهم . يطاعنون الأعداء ، ويقاتلونهم بالسيف والرمح ، واذا ما ألقت الحرب أوزارها عرجوا في حياتهم على متع الحياة وملذاتها ، وعلى لهوها ومرحها وأصبحوا رمية للسهام ، وهدفا للنبال ، سهام العيون ونبالها .

إن قلب صاحبنا ابدا يخفق للحسان ، ومن ذا الذي لا يخفق قلبه لهن ؟ وعيناه أبدا تنظران للوجوه الجميلة ولا تتحولان عنها ، ولسانه لا ينطق إلا بذكر الجميلات الفاتنات ، وإن كان الزمن أخيرا قد حد من هذا التدفق وكبح جماحه وكاد أن يلوي عنقه ، لولا نظرات مليئة بالشوق والحنين .

ومع تهرب صاحبنا من ذكر أو تحديد سنة ميلاده فلا بد من ذكر حقيقة واقعة وهي أن الكويت في الماضي لها حال تختلف عن أحوال غيرها في تسجيل المواليد والوفيات . أو حتى ما يحدث بين الوفاة والميلاد وهو الرباط المقدس ، أعني رباط الزواج . فالناس يولدون ويأتون إلى هذه الحياة ، ويرتبطون برباط الزواج ، وأحيانا يقطعون هذا الرباط أعني يطلقون ، ثم يموتون ، دون تسجيل أو تقرير ، ودون ضبط أو ربط ، تعصف بهم الأيام طورا ، وتارة تمر بهم رخاء . يخرجون من بطون أمهاتهم ويمضون إلى بطن الأرض ، دون شروط ولا قيود ، لا تسجل مجيئهم وذهابهم دفاتر ، ولا ترصد حركاتهم في غدوهم ورواحهم أوراق ، فلا الأقلام تهتم ، ولا السجلات تعتني ، ولا الوثائق تحفظ ، إلا ما علق بالذاكرة ، والذاكرة سرعان ما تتلاعب بها تقلبات الأيام والليالي ، وتنطبع عليها مختلف الذكريات ، وتتراكم مفارقات الوقائع والأحداث ، فتضيع بينها الرؤية ، وتختلط الحقائق ، ويمتزج الصواب بالخطأ . تلك هي حال الكويت ، فمن يحالفه الحظ من أهلها يولد أو يتزوج أو يموت في حدث من الأحداث الهامة التي لا تُنسى والتي يرصدها الراصدون ويسجلونها في قلوبهم وعقولهم وفي دفاترهم ، وأحداث الحياة كثيرة ، مثل الحروب أو الكوارث التي تأتي بها الطبيعة ، ككارثة الطبعة ، أو كارثة المطر الغزير ، أو كارثة الحريق ، أو كارثة المرض ، الوباء ، أو موت عظيم ، أو حتى موت ملك أو أمير ، وهكذا .

ولهذا فأنت ترى أن بعض الكويتيين يعرفون سنة ميلادهم من خلال هذه الأحداث أو الكوارث ، أو حتى من الأحداث السارة المهمة ، إذن فلنعذر صاحبنا ونستمع إليه يحدد سنة ميلاده . فيقول انه ولد في اليوم الثالث من شهر رجب بين سنة ١٣٢٣ أو ١٣٢٤ هجرية أي بين ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ ميلادية ونستطيع أن نحصر تاريخ ميلاده حسب قوله هكذا :

إما يوم الثالث من شهر رجب سنة ١٣٢٣هـ أي يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٠٥ م .
أو يوم الثالث من شهر رجب سنة ١٣٢٤ هـ أي يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٩٠٦ م
والله وحده أعلم .

ويقول بأن عائلة العدساني أصلها من نجد وربما

من العدسية بالذات في الجزيرة العربية ، وهم بقايا العداسنة ، قدموا إلى الكويت وعملوا فيها ، ولا سيا في القضاء .

ورحلته في الأدب

والده سليمان العدساني من رجال الكويت الأفاضل الذين أدوا أجل الخدمات للكويت بكل تجرد وبكل إخلاص ، خاصة عندما تولى إدارة المعارف بعض الوقت ، وكان نظيفا نزيها حازما صريحا ، أذكر أنني كتبت له من القاهرة وكنت محاسبا لبيت الكويت فيها ❋

كتبت له كتابا عنيفا قاسيا أملته علي سورة الشباب وتطرفه ، وحسبت أنه سيؤدي إلى فصلي من العمل ، وكنت أنتقد إدارة المعارف لأنها حولت مرة حوالة لمصاريف بيت الكويت بواسطة (بنك زلخا) وهو بنك يهودي ، وكانت القاهرة تعيش أولا ثورتها بقيادة الزعيم الخالد المرحوم جمال عبد الناصر ، وبينما كنت أتحسب الفصل من العمل إذا بي أتسلم رسالة شكر واعتذار وتعهد بعدم إعادة الكرة ثانية ، وانه رحمه الله أعطى تعليمات مشددة بعدم تحويل أي مبلغ بواسطة هذا البنك ، مهما كانت أسعاره مغرية ، فاكبرت في الرجل وطنيته وصدقه واخلاصه وشهامته ، واعتززت أيما اعتزاز برسالته ، ولم يمض بعض الوقت حتى عصفت الثورة بهذا البنك وبجميع البنوك والشركات اليهودية والأجنبية والمشبوهة ، ومضت الثورة في طريقها لتنظيف الاقتصاد الوطني بمصر .

ومع هذه الوطنية للمرحوم سليمان العدساني والد صاحبنا ، فقد كان أديبا وشاعرا ، إلا أنه كان شاعرا مقلا لم يحفظ لنا التاريخ أي شيء من شعره عدا بعض الأبيات المنشورة في كتاب (تاريخ الكويت) للمرحوم عبد العزيز الرشيد ، لاسيما قصيدة قالها تحية للاستاذ الشنقيطي عند زيارته الكويت من الزبير سنة ١٣٤٣ هجرية ، حيث أقام له النادي الأدبي حفلة تكريم ألقى فيها هذه القصيدة ، ومطلعها :

يا قوم إن نزيلكم
هذا هو الرجل الوحيد

ويقول فيها مخاطبا الشنقيطي :

أما الزبير فكم لَكُمْ
فيها من الأثر الحميد
فلكم أشدتَ مدارسا
فيها وكم أثرا مجيد
لو كان مثلك عشرة
فينا لما بعد البعيد
عجبي لقوم أغضبو
كَ أما بهم رجل رشيد

إلى آخر القصيدة ، وعلى الذين يودون الاطلاع عليها أن يرجعوا إلى (تاريخ الكويت) الذي ألفه المرحوم الشيخ عبد العزيز الرشيد والذي طبعه لأول مرة في جزءين في العراق بالمطبعة العصرية سنة ١٣٤٤هـ ١٩٢٦ ميلادية .

هذا هو الده ، أما خالد الابن الذي نحن بصدده فقد

❋ بيت الكويت في القاهرة أُنشيء سنة ١٩٤٥ ليرعى شئون الطلبة الذين كانوا يدرسون في مصر ، بعضهم في القاهرة ، وبعضهم في المعادي ، إحدى ضواحي القاهرة والبعض الآخر يدرسون في الاسكندرية ، وقد كان بيت الكويت في حي الزمالك رقم ٢٥ شارع اسماعيل محمد ، مقابل منزل عبود باشا الرجل الثري ، الذي كانت أمواله تتحكم في إسقاط الوزارات وتعيينها أيام الملك فاروق ، وكانت آخر وزارة أسقطها ، وزارة نجيب الهلالي ، حيث دفع مليونين من الجنيهات ، مليوناً للملك ، ومليوناً آخر وُزع على البقية ، وكان ذلك قبيل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي أطاحت بالملك وبحكمه .

ظل بيت الكويت في الزمالك حتى أوائل سنة ١٩٥١ ، حيث انتقل إلى شارع عدي بالدقي مدة سنة واحدة ، وبعد ذلك انتقل إلى شارع قاسم رقم ٧ بالدقي قرب شارع عدي ، ثم بُني له بناء خاص في الدقي أيضا (١٢ شارع بدراوي) وافتتحه الرئيس جمال عبد الناصر ، وظل حتى تحول إلى سفارة للكويت سنة ١٩٦٢ ، ولا زال حتى اليوم في محله .

درس بمدرسة السيد هاشم على طريقة الكتاتيب في ذلك الوقت ، أي على الطريقة البدائية القديمة في الكويت التي أساسها تحفيظ القرآن الكريم بعيدا عن العلوم الحديثة . وبعد مدرسة السيد هاشم درس بالمدرسة المباركية ، كما درس بالمدرسة الأحمدية بعد ذلك . وكانت هاتان المدرستان نواة للحركة الفكرية والأدبية وانفتاح الكويت بعض الشيء على العلوم الدينية واللغوية والعلمية الحديثة . وسارت الأمور هكذا سيرا متثاقلا بطيئا ، لكنه حمل في طياته نواة طيبة ، وعاش صاحبنا هذه النواة وتفاعل معها ، وأثرت فيه تأثيرا قويا .

يقول المرحوم الشيخ عبد العزيز الرشيد في كتابه (تاريخ الكويت) :

« رأى ثلة من الشباب الغيورين تأسيس ناد في الكويت يلم شعثهم ، ويجمع شملهم ، ويكون واسطة لتبادل الآراء والأفكار . وكان من أغراضه السامية تهذيب الأخلاق ، ونشر بعض العلوم النافعة ، وإلقاء المحاضرات المفيدة . وأول من فكر بهذا المشروع الشاب الأديب « خالد سليمان العدساني » .

إذن فقد تأثر خالد سليمان العدساني بهذا الانفتاح الفكري وتجاوب معه وفكر في إنشاء النادي . لاسيما وأن المكتبة الأهلية عملت عملها ومهدت للنادي ، ودفعت فكرة إنشائه إلى الأمام . وكانت المكتبة الأهلية قد افتتحت سنة ١٣٤١ هجرية ، أي قبل افتتاح النادي الأدبي بسنة واحدة . وهكذا صار ، ونضجت الفكرة وتمّ وافتتح النادي سنة ١٣٤٢ هجرية .

إن المكتبة الأهلية كانت انفتاحا جيدا على الفكر ، والفكر حبل ما ان تمسك بطرفه إلا أوصلك إلى ما ترتجيه وتبغيه من الأفكار النيرة ، والآراء الجيدة ، والعلوم الحديثة المتطورة المطورة . يقول أبو العلاء المعري :

الفكرُ حبلٌ متى يُربطْ إلى طرفٍ
منه يُنَطْ بالثريا ذلك الطرف
والعقلُ كالبحرِ ما غيضَت غواربُه
شيئا ومنه بنو الأيام تغترف

ولا شك أن صاحبنا اغترف الكثير من الأفكار التي كانت تنشر على صفحات المجلات والجرائد التي كانت تصل إلى المكتبة مثل مجلة الهلال ومجلة المقتطف ، ومثل صحف الأهرام والبلاغ والقبس السورية وغيرها من المجلات والجرائد ، بل اغترف من الكتب التي كانت ترد إلى المكتبة . وكان صاحبنا في عنفوان شبابه في ذلك الحين ، فتفتح عقله وقلبه معا على الأفكار المستنيرة ، والآراء المجددة وحوله نخبة من رجال الكويت الذين أوجدوا هذه المكتبة ، وفتحوا نوافذ الكويت على الخارج لتجدد هواءها ، وتتنفس بملء رئتيها ، وتستنشق نسائم الفكر والعلم والأدب . ولا بد أن أمثال هؤلاء الرجال أخذوا بأيدي الشباب وشجعوهم على اغتراف العلم والمعرفة من أية جهة كانت ومن هؤلاء الشباب خالد العدساني الذي دفعه حماسه ، وهداه فكره المتفتح إلى اقتراح تأسيس ناد أدبي ليكمل المكتبة ويكمل مسيرتها ، فعمل مع الشباب ومع الشيوخ أيضا مؤسسي المكتبة على إنجاح الفكرة فتأسس النادي الأدبي وأصبح مركز إشعاع للفكر والأدب . وأقيمت فيه الاحتفالات الأدبية والمهرجانات الشعرية ، فأحدث نهضة أدبية شعرية ، وأوجد حركة سياسية أيضا .

وثائق تنتظر النشر

بعد ذلك أي بعد أن ترعرع على المكتبة وعلى النادي اختير مع مجموعة من الشباب وأوفد معهم ضمن بعثة علمية إلى العراق وذلك سنة ١٣٤٣ هجرية بحدود عام ١٩٢٤ م وكانت هذه البعثة مكونة من : فهد بن سالم الصباح ، وخالد سليمان العدساني ، وأحمد بن عمر العلي ، ومحمود بن عبد الرزاق الدوسري ، وعبد الكريم بن محمد آل بدر ، وسليمان العنزي ، وعبد الله المدير أي أن عددهم كان سبعة أفراد ، فاستقبلتهم الكلية الأعظمية في بغداد وأكرمتهم .

الأخ خالد يقول انه درس في العراق في (كلية الامام الأعظم) ثم في (جامعة آل البيت) مدة سنتين وثلاثة شهور تقريبا ، وأنه بدأ بدراسة الحقوق لكنه لم يكمل سنة واحدة ، بعدها عاد الى الكويت ، حيث زاول الكتابة بجانب التجارة ، فكتب في صحف العراق ، كما كتب في جريدتي المقطم والأهرام اللتين تصدران في القاهرة ، وكان طابع كتاباته حينها سياسيا ، وظل هكذا سياسيا تاجرا أديبا ، ويذكر أنه له مراسلات أدبية مع كل من خالد الفرج وعبد اللطيف النصف ، وخالد أحمد المشاري ، ضاعت مع كثير من أوراقه من جراء كثرة تنقلاته ، وعدم استقراره في مكان .

يقول في إحدى مقابلاته الصحفية انه بعد أن ترك الدراسة عمل في التجارة ، ثم طُلب منه في عهد المرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح أن يتولى سكرتارية مجلس الأمة التشريعي فلبى الطلب ، وقام بالعمل في عهد المجلس الأول ثم في عهد المجلس الثاني اللذين لم يكن بينهما إلا أيام كما نعتقد . لكن هذا القول مقتضب ، ويحتاج إلى المزيد من الايضاح .

في أواخر عام ١٩٣٨ كان المجلس ، أو كان مجلس الأمة التشريعي الذي يشير إليه يصارع الموت ، أو يلفظ انفاسه الأخيرة ، فأدرك سكرتيره الأخ خالد العدساني أن الواقعة ستحل بالمجلس لا محالة مما حداه إلى التفكير بالحفاظ على أوراقه قبل أن يجرفها الطوفان ، فراح يلملم ما تفرق منها ويجمعها ، ويضمها إلى بعضها قبل أن تبطش بها الأيام ، وتذروها الرياح ، وتضيع في المياه ، فأحكم لملمتها ، وأجاد جمعها ، فلم يجد طريقة أجدى لحفظها والبقاء عليها خيرا من حفظها تحت الأرض ، فدفنها بعناية في التراب عند عتبة غرفة نومه في منزل والده الذي كان يقع في حي الصالحية (شارع فهد السالم) حاليا ، فظلت مدفونة في التراب تحت الأرض ردحا من الزمن ، ولم تر النور إلا بعد حين عند عودته من الخارج كما يقول . لكنه ما زال يمتنع عن ترتيبها ونشرها بحجة ما تحتوي عليه من مواقف صعبة ، وأمور بالغة تمس بعض الشخصيات الذين أصبح الكثير منهم أصدقاء أعزاء عليه كما يردد القول ، ولا ندري متى ستظل هذه الوريقات أو الأوراق محبوسة ، ومتى سترى النور لتلقي ضوءا على مرحلة تاريخية مرت بالكويت ، لا سيما وقد مضى عليها أكثر من أربعين عاما .

إن كثيرا من الوثائق تنشر بعد مرور فترة من الزمن تكون قد فقدت حساسيتها وما قد تسببه من حرج ، والكويت اجتازت كثيرا من المراحل ، بل إن الحياة فيها تطورت تطورا كبيرا بعد هذه الفترة ، ولا شك أن نشر مثل هذه الأوراق أو المذكرات سيتيح للناس الاطلاع عليها وعلى الحقائق التي تتضمنها ، بل لابد أن يطلع عليها الجيل الذي يرصد الأحداث ، ويهتم بتسجيل الوقائع ، وحتى تظهر الحقائق جلية واضحة في تاريخ الكويت ، وإلا تخبط الناس في نقل الوقائع ، وحرفوا الحقائق ما شاء لهم التحريف ، وزيفوا ما شاء لهم الزيف ، وهذا لا يخدم تاريخ الكويت ، بل يُسيء إليه كل الاساءة ، كما أن نشرها لابد منه ما دام الكثيرون من الذين عاشوا هذه الأحداث ، وشاهدوا وقائعها ، طوتهم الأيام ، ووضع الموت حدا لمصائرهم ، وما دام الزمن قد دار دورته ، وما دامت الأوضاع قد تغيرت وتطورت ، وسارت الأمور في مجراها المرسوم والمكتوب لها ، وما دامت الكويت تغيرت شكلا ومضمونا ، وزالت الحساسيات ، ولانت المواقف الصعبة ، وأصبحت الكويت دولة ينظم حياتها الدستور أبو القوانين كما يسمونه ، وتقنن أمورها في شتى الميادين القوانين والأنظمة ، إذن لابد من كشف وثائق الماضي ونشرها على الناس ، كما تفعل كثير من الأمم التي لا تخشى حقائق التاريخ ، ولا تتحرج من ذكر أمور حدثت وطوت الأيام صفحاتها .

مع ذلك فقد نشر الأخ خالد بعضا من هذه الوثائق سنة ١٣٦٦ هجرية أي بعد اكثر من ربع قرن على سقوط المجلس ، وسماها (نصف عام للحكم النيابي في الكويت) أهداها للمرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح ، وهذا « النصف عام » الذي يحمل وثائقه هذا الكتيب بدأ في ٢ جمادى الاولى سنة ١٣٥٧ وانتهى في ٢٥ شوال سنة ١٣٥٧ أي ستة شهور فحسب ، وفي تصدير هذا الكتيب يقول الأخ خالد (إن التبسط في الكلام وتفصيله عن أسباب وتطورات اليقظة الفكرية والحركات الوطنية في الكويت فلذلك كتابنا الطويل المفصل الذي سيصدر بمشيئة الله في ظروفه وميعاده المقدور) فمتى يا ترى تأتي ظروفه ، ومتى يحل ميعاده المقدور ؟

قصة المجلسين

إن خالد العدساني نفسه كثيرا ما يقول ويردد القول من أن ذلك الكتيب الصغير اقتصر فقط على الوقائع ونشرها مجردة دون تعليق أو شرح أو استطراد ، ومع ذلك فقد صادرتها مديرية الأمن العام في ذلك الوقت بعد صدورها وحال وصول نسخ منها إلى الكويت ، وطاردت موزعيها وكنت أحدهم ، ولكن ما إن هدأت النفوس ، وارتاحت الخواطر حتى طلب الرئيس المسئول عن المصادرة والمطاردة ورجاني بنفسه شخصيا أن أعود إلى الكويت وطني العزيز الذي نشأت فيه وتعلمت ، والذي عودني على التفكير الحر والذي تفتح فيه عقلي وقلبي ، وبذر في بذرة حب الوطن ، وحب الوطن من الايمان . فقررت العودة بناء على هذا الرجاء ، وعدت ثانية إلى وطني الكويت ، وكان ذلك عام ١٩٥٠ .

ويتضح ان الاخ خالد العدساني يخشى إن هو اقدم على نشر كتابه الطويل المفصل كما يقول ، وكما يسميه ، أن يخسر صداقة المتبقين من اخوانه الأعزة عليه ، ومهما كلف الأمر فان التاريخ سوف يدور دورته ، وسيمضي بنا وبأصحابه الأعزاء عليه إلى المصير المحتوم المقدر على كل إنسان ، والذي أبدا ينتظره في ليله أو نهاره ، وحينئذ يزول الحرج ، وتنتهي الخشية ، وينشر التاريخ صحائفه وتظهر الوقائع ، وتتضح الحقائق بتفاصيلها ، لكن الخوف كل الخوف أن يعبث الضياع بالأوراق وبالكتاب المفصل الطويل ، وأن تمتد إليها أيدي الاهمال ويصير مآلها الفناء .

لابد أن يقوم تساؤل عن المجلسين اللذين يشير إليها الأخ خالد والذي تولى مسئولية (سكرتاريتها) ، وواقع الحال أن المجلس الذي قام بمختلف الاصلاحات هو المجلس الأول . أما المجلس الثاني فلم يكد يبدأ حتى انتهى ، ويقول الأخ خالد إن تفاصيل ذلك سوف يضمها كتابي الطويل المفصل ، ولعل الخوض في هذه التفاصيل في الوقت الحاضر يثير بعض المشاكل ويسبب الاحراج له ، لكن المجلس الأول كما يسميه هو المجلس الأصل الذي بيت له مناوئوه بليل ، وانطلقت

عند عودة الأخ خالد العدساني إلى الكويت عام ١٩٥٠ بطلب من رئيس الأمن العام الشيخ عبد الله المبارك الصباح وكان مقيما في لبنان كما يذكر بعد سقوط المجلس التشريعي الثاني ، عمل بالتجارة ، وعمل على ما أذكر مع الحاج صبيح براك الصبيح . وبعد استقراره في الكويت اختير للعمل في لجان كثيرة ، منها لجنة التعمير ، ولجنة الأسعار ، ثم اللجنة الدستورية التي عهد إليها بوضع القوانين برئاسة الدكتور عبد الرزاق السنهوري الذي طلبته الكويت من حكومة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بصفة خاصة لوضع القوانين التي تحتاجها الكويت والتي مهدت لقيام المجلس التأسيسي الذي وضع دستور الكويت .

ويقول الأخ خالد بأن الشيخ عبد الله السالم كلفني بعد ذلك بعضوية هيئة التنظيم التي ما لبثت أن وُحّدت مع المجلس الأعلى حيث عُين فيه عضوا مع أركان العائلة الحاكمة ، وكانت صلاحيات هذا المجلس هي جميع صلاحيات الدولة تشريعيا وتنفيذيا .

ومع هذه الأعباء الرسمية ظل تاجرا وأديبا كما كان منذ صغره ، تطوح به السياسة ، وتشغله التجارة ، ويتناغى مع الأدب ، ويترنم بالشعر ، ويغطي فتفول بشيء من التفصيل والسرد ، وبشيء من تسجيل التواريخ : وضبط أرقامها حتى لا يتسلط عليها النسيان ويمحوها من الذاكرة ، تقول :

في عام ١٩٥٨ أو على التحديد في ١٩٥٨/٣/٤ اختير عضوا لمجلس إدارة المعارف من قبل اللجنة المنبثقة من المجلس الأعلى .

وفي ١٩٥٩/٣/٢١ اختير عضوا من قبل المجلس الأعلى نفسه في لجنة الدوائر المنوط بها القيام بدراسة شاملة للنواحي المالية والفنية والادارية لجميع الدوائر في الدولة .

وفي شهر اكتوبر من عام ١٩٦١ عُين سفيرا مفوضا للكويت بوزارة الخارجية .

وفي ١٩٦١/١٢/٢ نقل من وزارة الخارجية سفيرا مفوضا فوق العادة لدى المملكة الأردنية الهاشمية بعمان .

وفي ١٩٦٣/٤/٢١ نقل من عمان إلى القاهرة سفيرا مفوضا فوق العادة لدى الجمهورية العربية المتحدة .

وفي ١٩٦٥/٥/١٠ قدم أوراق اعتماده إلى الملك ادريس السنوسي بطبرق سفيرا مفوضا فوق العادة محالا لدى المملكة الليبية بجانب عمله كسفير في القاهرة .

وفي ١٩٦٦/٤/٢٥ انتهت خدماته كسفير مفوض لدى كل من الجمهورية العربية المتحدة والمملكة الليبية .

وفي ١٩٦٦/٥/٣ نقل إلى روما كسفير مفوض فوق العادة لدى الجمهورية الايطالية .

وفي ١٩٦٩/٥/١٥ انتهت خدماته كسفير مفوض في إيطاليا ونقل الى وزارة الخارجية ، وأحيل إلى المعاش .

وبتاريخ ١٩٧١/٢/٢ صدر مرسوم بتشكيل الوزارة وعُين فيها الأخ خالد وزيرا للتجارة والصناعة .

وبتاريخ ١٩٧٥/٢/٨ قدم استقالته من وزارة التجارة والصناعة وانتهت خدماته من الدولة ، وأخلد إلى الراحة والاستجمام .

وبين هذه التواريخ أحداث وحكايات وقصص ومفارقات ، ونشاطات سياسية وأدبية ، ومداعبات شعرية ، ليس هذا مجالها ، ونرجو أن يتاح الوقت لتسجيلها ، أو تسجيل بعض منها ، لا سيما ما يتعلق بالحكايات والمداعبات الشعرية والأدبية . ■■

عبد الله زكريا الانصاري

لن يتزوج

نصح بعضهم احد الآباء ان ينتظر حتى يصبح ولده عاقلا ثم يزوجه فاجاب قائلا : « لن اتبع نصيحتك » فان ولدى اذا اصبح عاقلا فهو لن يتزوج ابدا » .



اسوالدو بيكادو

شاعر المقاومة في السلفادور

للاديبة السلفادوريه م . أ . لوبيث

ترجمها عن الاسبانية

الدكتور : محمد عبد الله الجعيدي

هذا شاعر تقدم طلائع المناضلين في امريكا اللاتينية ..

ان اسوالدو اسكوبار بيلادو ينتمي الى جيل من الكتاب اوفى بالتزاماته تجاه الجماهير ونزل الى الشوارع التي هزتها اضرابات ابريل ومايو سنة ١٩٤٤ حتى بات اكثر الشعراء تمثيلا لذلك النضال المطالب بالعدل والحرية

عن ذلك يتحدث (شعر اسوالدو) ، عن مأساة جيل من الشعراء والكتاب توجب عليه ان يشرع البندقية كي يحقق الحرية التي خنقت بالقوة ، جيل ألقي به الى المنفى الطويل الرهيب ، وهو ليس نفى الخروج والعودة الذي يستدعه الشعراء بصورة غنائية بل هو منفى اللاجئ الذي لا وطن له ، ولا وثيقة تحقيق شخصية يحملها ، فمعاناة اسوالدو اسكوبار بيلادو في هذه التجربة التي دمرت اعذب احلامه تنبع من اعمق اعماقه . وبهذه المعاناة ينهض ـ دون شك من قاع البئر ليدعونا الى مواصلة النضال .. هذا هو موضوع (شعر اسوالدو) الذي يثور النشيد فيه منضرما كجندي منطق بقنبلة يدوية .

وشعر اسوالدو هذا يشير الى مراحل ثلاث مربها الشاعر عبر رحلته التي ينشر خلالها ثلاثة دواوين وقصائد متفرقة في العديد من المجلات والجرائد ، وفي هذا النتاج يتواصل النمو الشعري عند هذا الشاب الغريب مرهف الشاعر ، اخر رواية مشرد يعود من المنفى بقيثارة بين يديه لينشدنا اناشيد التمرد ويرفع الصوت بـ « اني أتهم » « شعراء » « الدخن » و « شعراء » « الورود » ... انه مغني الشعب كالرواة في العصور الوسطى ، كان اسوالدو اسكوبار بيلادو يأتي بناي اورفيو ساحبا حتى الحجارة ومحولا صوت الجميع الى شعر اصيل .

ولان اسوالدوا سكوبار بيلادو ملك الحس المرهف للغناء الاجتماعي والتصور الخلاق لتحويله الى شعر فلم يكن من قبيل المصادفة ان يصبح لجيلنا شخصيته المميزة فور اعلانه عن مذهبه الشعري بظهور الشعر الجماعي كما انه لم يكن عبثا ظهور جماعات الطليعة ـ جماعه الستة ولجنة الكتاب ضد الفاشية ـ متطوعة للنضال والالتزام بقضايا الجماهير ، فقد قام ذلك الجيل

بواجباته على اكمل وجه حتى ولو كان ذلك على حساب تدمير حياته الخاصة ، فالذين اعدموا رميا بالرصاص منهم تحملوا ايضا الكثير من اجلنا ، فكثيرون منا سيظلون مدفونين فيهم وآخرون سيعيشوننا بتلك الاغاني الشعبية الرهيبة . فقد توجب علينا ان نحمي التفاؤل وننقذه من الكدر .

ولكن شيئا دقيقا من الداخل كان قد انقطع . والقطعة الدقيقة والمسح المتذبذبة لم يكن بالامكان استرجاعها . هكذا هي مأساة اسوالدو اسكوبار بيلادو ، ورغم ان اخرين منا قد تجشموا نفس التجربة فان اسوالدو سيظل ابدا بالنسبة لنا حزنا دائما في العيون .

ايها الشعراء

ثم ان اسوالدو اسكوبار ما كان يوما شاعر بلاط ولا واضعا نفسه في خدمة الاستبداد السائد . لقد كانت لديه جرأة دفعته الى النزول الى منتصف الشارع تاركا لغيره ان يصرخ « كطبل اجوف » .

ايها الشعراء

الى مواصلة الصراخ ادعوكم

اما انا فقد جئت مغنيا

لقد وجد اسكوبار في الشعر ملجأ وتعويضا عن الحياة الناقصة ، ومنه ترك شاهدا للعالم الذي عاش فيه . ترك شعرا هو تاريخ لتلك الايام ، فالقصائد تواصل مسيرة الزمن بكل تاريخه وعقباته ، المنفى والالم والظلم . فقد وعي الشاعر بعمق تلك المأساة التي هي اصل حاضرنا ، وحشد المعاناة نحو المستقبل كي يتحرر هناك من العبء الثقيل . لقد دخل حياة الشعب بكل زخمها بوعي مستنير ، دخل حياة الشعب الذي انهكه الظلم ولاتزال لديه المقدرة على تقرير مصيره بنفسه .

فشعر اسوالدو بمثابة رسول الى الشعراء الذين يواصلون اليوم المسيرة ويشعرون بالمسؤولية كالنسر يخفق جناحيه ، انه تراث شاعر ترك لنا انطباعه عن الزمان وعن الحياة ، عن الحب وعن الموت ، ان الشاعر بمروره على هذه الدنيا يرقد « جسده النحيل » في مثواه الاخير قد كشف لنا عن طبيعة الانسان المتوترة التي تتنبأ بامكانية قيام انظمة جديدة حيث لامكان لتسلط الانسان فيها ، ولا للبؤس المعاش لامكان فيها لطرد المستأجرين الفقراء من البيوت ، انظمة جديدة تزدهر فيها الثقافة وتنتشر بين الجميع حيث الجامعة ام روحية توجه وتضيء طريق المستقبل . في هذه الموضوعات البسيطة والعالمية صب اسوالدو اسكوبار بيلادو شعره .

فليس اسوالدو بشاعر الحجارة الكريمة الذي يحرث هيكل البيت الشعري عاشقا للجمال الخالص . ولا هو بشاعر الورشة ، شاعر التقنية والاستعارة الفارغة هو على معدن هؤلاء الاسلاف الصلب يستند ويسجل - كما لو كان يفعل ذلك على درع جندي - نشيده المتحدي .

ساموت
وبموتي سادعوكم
لمواصلة الزعيق
بالامس كنت اقول ،
قلت
ان الظلم في العالم
ككلب مسعور يتسكع .
ولكن ذلك القول
لايساوي اليوم شيئا ...احق يا «لونا » ؟

احق يا « ثاباتا » ؟

اليس كذلك يا « فارابوندو » ؟

فالظلم دون عائق

يسير ويعرف

على من يقع الى الابد ....

فالحياة القصيرة التي عاشها اسوالدو تجدها في شعره ، فديوانه « تكتب القصيد والعيون مقفلة » المنشور في غواياكيل (الاكوادور) سنة ١٩٤٣ ... يضم قصائد كتبها الشاعر في شبابه ، حيث نجد محبوبه الحي والشفق الرومانسي ومواعيد الحب الاولى اما ديوانه « عشرة انغام » لألف عامل او اكثر (١٩٥٠) فانه يتضمن لوحات من الحياة الواقعية ، حيث صخب النضال والتعرية للمجتمع

وهنا يقصر اسوالدو وشعره على الاطروحة الهادفة ، ففي هذه المرحلة يبدأ النشيد المقاوم حيث ينضم الشاعر الى ذلك النضال العالمي ويتداخل بشعره في حياته بصورة لاتقبل الفصل .

يقرأ طالع الوطن

فاسوالدو يغني شعره للوطن ولامريكا الوسطى فيقرأ طالعها ، يقرأ الدروب الخمسة للجرح البرزخي : هندوراس ارض الصنوبر الاشم والسيوف الرنانة .

وجواتيمالا حيث النسر (الامريكي) يفاجيء صدر الجبل النابض الذي يهتز كقوس . ونيكاراجوا في الشمال قاتلك ساندينو ـ اسدك الذي بوثبته ينمحي الظلام ـ روبن الذي اليك ينتمي . وكوستاريكا ، الوطن الصغير ، حيث نباتات السحالي المرتعشة . وبنا الجريح والممزق ، الذي يجعل قلبك ينزف دما ... » .

ثم السلفادور الارض الزرقاء « حيث الامل يعبر » . هذا القصيد يضم انغاما كاملة لوسط امريكا ورسومات رائعة .. فالصورة مؤثرة ـ اليست التأثيرية مرحلة شعرية انتقالية نحو الواقعية ؟ ـ فهو شعر موضوعي ذو صور (سريعة التحميض والطبع) عاطفية . يغني زهرة « الابنوتي » ووردة جواتيمالا (وطن الورود الدائمة) ، يغني زهرة الذرة زهرة روبن ، ويغني زهرة غريبة ، زهرة الكاكاو ونبات السحالي الذي يزين السقف ، ويغني الايل :

والايل يعبر كسهم من ذهب

ملطخ بالكوبلت

بقفزه رنانة
حيث السهل يبدو صغيرا

بالنسبة للوثبة

ولكن اسوالدو في ديوانه « امريكا اللاتينية : كوبا » (١٩٦٠) يغير من وصفه للطبيعة حيث تصبح ، الانشودة الثوريه ، الاغنية الزراعية لكوبا ، انشودة ابطال ثكنة مونكادا وسييرا ما يسترا ، كوبا الحوض الجديد ، كوبا فيدل :

لتألق نجمك

يمكنك ان تسمى .

سييرا مايسترا
او فيدل او كاميلو

او باسم بطل شهيد .

وفي قصيدة « رسالة من السبوتنيك يقول :

صغير جدا هو العالم

تقسيمه حماقة لاتغتفر
ينبغي ان يظل للجميع

لكن لاتكون السعادة

حكرا على قلة قليلة

قرص شهد من البشر !

وفي قصيدة اخرى يرسم الشاعر الغاضب وطنه فيقول :

هذه هي بلادي

كومة من البشر ،

ملايين البشر قرص شهد من البشر

لايعرفون حتى من اين تأتي

نطفة حيواناتهم

شديدة المرار

هذه هي بلادي

نهر من العذاب في قميص سري
وقبضة لصوص

على دم الفقراء

في وضح النهار تغير

هذي هي الحقيقة

هذي هي بلادي

اربعة عشر مستقلا

وملايين تموت دون دم في عروقها

هذا هو الواقع

ولذا لن اصمت

ولو كانت روحي هي الثمن !

والواجهة الاخرى هل هي الوطن الاصغر ؟ لمحفوظ في قلب كما لو كان في عمق الخزانة ، « فاغنية الى صونصوناتي » تقدم الواجهة الاخرى للوسام ، وهي منظر طبيعي اخر قاس وبيئة جغرافية جافة مذبوحة :

الانهار العميقة كشرايين مبتورة

من السواعد العزلاء لكثرة المقتولين بالرصاص
الذين يسكنونك .

نعم . فليقل الاخرون وليغنوا الامسيات البحرية ، فاسوالدو اسكوبار يريد ان يتكلم « فقط عن الذكريات التي يحبها / ربما من اجل المعذبين التاهو ايتالكو ،

المأساوي ، احمر كالبقعة التي تصرخ / على طوق عذراء الكرمن / من كثرة عمليات القتل بالرصاص » ... » كيف يمكنني الان ان اغنيك الصدى !

الا بماساة فلاحيك القتلى

مغطيا الليلة العظيمة للوطن المفجوع !

حدس الموت

وعم يأتي حدس الموت الرهيب فيقبض قلبه الجريح ، بعد ان اصبح على وعي بمهمته ورسالته ـ هكذا نجده مأخوذا بفأل موته ولكنه ليس نفس الموت المعروف عند الوجوديين ، فموضوع الموت يبرز لكي يبرر النشيد ، لكي يبرر صرخة شعره الرنان : الشعر القديم الجديد ، ومن هنا يأتي تصوره الصحيح :

الظلم هو المفتاح الجبار

لمن اراد ان يعيش الحاضر . .

لمن يرتجف امام عالم اكثر انسانية ،

لموزع الحليب والبذور ،
الساري عند الفجر حيث الحبه

ستكون للانسان الذي اليوم
يبذر وهو على ركبتيه .
قولوا معي .
غنوا معي .
اصرخوا معي
مواطن عالمي في الافق يلوح
حيث القمح سيعطينا بهجته
كي تزهر أمامنا ابتسامته ....
وستعرف الضحك من القلب
والشر سيخفي حجره المكلس .
والسلام كملاك يسلم جبهته
كي يقبلها مغنيا رفيق من الرفاق ..!
مختلفا كل شيء سيكون ...
حتى الحب اكثر نقاوة سيكون

وتأتي « رسالة الى الام الميتة » لتؤكد من جديد ان موضوع الموت ليس مجرد بكاء ، بل هو موضوع فيه ينزف الشاعر دما ، يرى دمه نازفا من بين ابيات شعره ، ومع هذا يعتصر الالم وينشد :

يؤلمني أنك لاتنظرين للعالم الذي احلم به
لا اطيق رؤية موتك ابدا ماثلة امامي
موتك الذي انكره لانني اعلم بانك تعيشين
في كل عثرة في طريقي اجد متسعا
فقط لتضميد جرحي المثخن

حزني اسمه مارية

انه يهدي امه افضل شعره ، يهديها « وطن بدونك » التي كتبها سنة ١٩٦٠ في الذكرى السنوية الاولى لموتها . انه شعر ترجمة ذاتية مكتوب بنغمات صحيحة . فالشاعر اصبح الان يتحكم في التقنية . والعاطفة بحثت عن مسلك رجولي رزين كملاحظات يوميات الرحلة مع نغمة الوطن المتكررة وغيبة الام اللتين تحولتا الى حنان ، الى حب حيث الشاعر ينطلق من عقاله تماما ويسمى حزنه اما .

حزني اليوم اسمه ماريه
فقط ، هكذا ، وببساطة ، ماريه
البحر الازرق الذي جنبيك قد مات .

فالموت عند اسوالدو ليس الموضوع الدائم للكدر دون مخرج ، ولا هو بالموضوع الرومنسي حب ـ موت ، انه غياب الام ـ الصديقة التي كانت على الدوام الى جانبه ايام النضال والامل الذي حققه في النهاية والوطن محرر ، وطن المستقبل .

هذه الام مرهفة الشعور ـ ماريه بيلادودي اسكوبار ـ بدمها منحته وصية الشعر منحته فضيلة الغناء ، لانها كانت تنحدر من اسرة شعراء :

كاليكستو بيلادو ، فرانثيسكو اريره بيلادو اول شعراء الحداثة من جيل غاقيديا ومن المجموعة التي كانت لها القدرة التي ابداها فريق « لاكينثينا » الذي جمع افضل ما في الادب السلفادوري في مطلع هذا القرن .

فكاليكستو بيلادو ولد سنة ١٨٥٧ وتوفي سنة ١٩٤٧ وكان جد الشاعر لامه ، وفرانثيسكو اريره بيلادو ، كان خاله ، وهكذا فاسوالدو اسكوبار بيلادو شاعر ذو نسب ـ شاعر ذو اصالة ، وشجرة نسبه تعود بجذورها الى ايثالكو حيث يولد كاليكستو بيلادو ، شاعر من دمه . وفي سونسوناتي تولد امه ، وتتزوج السيد سيمون اسكوبار بيديس من عائلة سانتينكية شريفة ـ وفي مدينة سانته آنه يولد اسوالدو اسكوبار بيلادو في ١٩١٩/٩/١١ ويتوفى وهو في ريعان الشباب في ١٩٦١/٧/١٥ .

عندما عدت الى الوطن سنة ١٩٥٧ بعد سنوات نفي طويلة وجدت ان اسوالدو اسكوبار بيلادو ايضا قد عاد الى الوطن سنوات قليلة من قبل ، وتقاسمنا جائزة ادبية .كان اسوالدو قد فاز بقصيدته « الذرة والانسان والسيد اليرتو » وبدأنا نلتقي في مناسبات كثيرة ، فقد كنا ننتمي الى جيل شعري واحد والى مجموعة ادبية واحدة ، كانت تسمى حينئذ « مجموعة الستة » « ولجنة الكتاب والفنانين ضد الفاشية » وفي سنة١٩٤٤ كنا نكتب في الصحف اليومية والمجلات ، كنا نجتمع حول « العالم الحر » التي كان يحررها ميداردو ميخيا والفونسو موراليس ، هذا الاخير هو ايضا من جيلنا ، كانت تجمعنا صداقة جميلة فقصائد اسوالدو الاخيرة مكتوبة بيد كان الموت ملهمها : « الم عظيم » ، « الشروق في الربيع الزاهي » انشودة على لساني ، اتذكر ذلك الاثر الذي تركته في تلك الابيات بالتحديد ، اتذكر عندما حل في دار الصحة ، وكان يسأل عن اصدقائه ، عني وعن الجميع .

ـ ولكن يجب عليه ان يأتي لرؤيتنا .

توجب علي ان اكون هناك ، فقد كنت مدينة لك بالكثير يا اسوالدو . كنت مدينة لك بذلك الشعر الذي كتبته يطفح انسانية وتعاطفا عالميا . مدينة اليك بعدم استطاعتي صون غضبك مدينة اليك بتركك وحيدا بينما كنت انت تنتظرنا ....

الاطفال والكلاب !

والملاحظات الاخيرة التي يمكننا تسجيلها عن شعره بعد موته الموسوم بالالم تتلخص في مثالياته الثابتة التي لم تتغير . ومن خلال المعاناة قويت ، مثاليات يستحضرها من معاناته الرهيبة :

افكر في الاطفال الفقراء في بلادي ...
في كولورادو لايوجد اشرار ...
« ... هنا الكلاب تتناول الافطار
من الحليب والخبز الطازج
تجهل معاناة الصيام
كم هو شديد ذلك الالم :
كلب في كولورادو يعيش افضل
من طفل فقير هناك في السلفادور !

وقد ظهر اسوالدو اسكوبار بيلادو في كولورادو اسبرنغ عندما ذهب للاستشفاء ، للبحث عن خلاص من مرض قديم مستعص الشفاء ، هناك يتذكر صباح وطنه ، يتذكر المناظر الطبيعية الاستوائية ويقارن ذلك بالصبح في كولورادو اسبرنغ :

الثلج يتساقط ، الصباح قصير
اليوم بهدوء يذوب
كوردة بيضاء معطرة
تتحول تدريجيا الى برد

في هذا الجو يتجرأ العقل ،
لحد التفكير في امر
ان القديس خوسه
هو الذي يملا الصباح الجميل
بنشاره البرد .

كم هو مختلف الشتاء في منديلي
كم هو مختلف ذلك السماء عن هذا ،
اية نعمة موسيقية يبعثها عالمه الصغير
من بعد ، من هناك فلتمر العاصفة
الحقل اخضر كالنعناع يبقى
واليوم البهيج به يتأثر

فما زال اسوالدو يبعث الحياة ويبعث الامل الاخضر في الذاكرة . والشاعر بالرغم من شوقه اللامتناهي للحياة وصل جريحا جراحا مميته ، وهكذا يصب هذه التجربة في اخرقصيدة له : « انشوده الى لساني » :

اشعر باللسان مجروحا
اعاني من السرطان
الى كولورادو اسبرنغ
وصلت للاستشفاء
في اسبرودي لودج اقيم
لا اطيق ... لا اطيق ... يا اخواني .
لم اعد استطيع مواصلة الكتابة .
هذا اللسان يحرقني يصليني
من كل فج يخرج ، من الراديو من التلفزيون .
عبر الليالي احس به كالحوت الذي ابتلع يونس .
ضخم يكسر فكي العذبين .
بضربة ذنب جبارة .
وابكي .
ابكي بلادي التي ربما يا اصدقائي
الى الابد لن اراها .

مدريد ـ د . محمد عبد الله الجعيدي

جلد أصطناعي خلقوه من جلد البقر

وغضاريف سمك القرش

● الجلد هو درع الجسم الواقي ...فاذا تلف جانب كبير منه ، بالاحتراق او خلافه ، ارتبكت بعض وظائف الجسم الحيوية .. اذ تنفر منه بعض سوائله الضرورية ، وتضعف وسائل دفاعه ، او مناعته الطبيعية ، فتعجز عن مقاومة الالتهابات البكترية . ـ فتحدث الوفاة في كثير من الحالات ...

وقد درج الاطباء في معالجة هذه الحالات على تغيير الجلد التالف بجلد اخر سليم ينتزعونه من جانب اخر من جسم المريض نفسه ... ويتعذر ذلك احيانا نظرا لتلف معظم جلده وعدم توافر السليم بالمساحة المطلوبة ... عندئذ يعمد الاطباء الى جلد الخنازير ، او جلد الموتى للحصول على جلد بديل يغطون به ما انكشف من جسم المريض .

ولكن جسم المريض هذا غالبا ما يرفض هذه الجلود باعتبارها اجساما غريبة ... وذلك في غضون ٣ اسابيع او تزيد قليلا ... تلك هي المشكلة التي عاني منها الكثيرون ... فما هو الحل ... ؟

الجلد الاصطناعي هو الحل الناجع للمشكلة ، كما يؤكد الكثيرون ، وكما اعلن مؤخرا نفر من علماء بوسطن ... الذين نجحوا في تطوير الجلد الاصطناعي المناسب خلال السنوات دالعشر الماضية ... والعالمان المبتكران هما جون برك (John f. Burke)احد كبار جراحي مستشفى ماساتشوستس العام .. وايوانس يانس (Ioannis V . Yannos)احد المهندسين الميكانيكيين البارزين العاملين في الجامعة الشهيرة (M. I. T)

وما كان هذان العالمان ليعلنا عن ابتكارهما الجديد لولا النجاح الذي احرزه هذا الابتكار في التجارب التي اجريت عليه ... فقد استعملا الجلد الاصطناعي في معالجة عشرة مرضى تراوحت اعمارهم بين ثلاث سنوات وستين سنة ، وعانوا كلهم من حروق خطيرة(من الدرجة الثالثة) غطت جانبا كبيرا من اجسامهم ، وأتلفت مابين ٥٠ ٪و ٩٠٪ من جلدهم الطبيعي .. ومضى ستة عشر شهرا على تطعيم اجسامهم بالجلد الاصطناعي الجديد ، فلم يرفضه جسم اي منهم ، ولا ظهرت اية التهابات في المناطق المطعمة او حولها ، وذلك دون استعمال مستحضرات خاصة بهذا او ذاك . فالظاهر ان اجهزة الدفاع في اجسام اولئك المرضى تقبلت الجلد الاصطناعي ولم ترفضه ، كما كانت الحال حين يجري التطعيم بجلود الحيوان وجثث الموتى ...

والجلد الاصطناعي الجديد مكون ، كالجلد الطبيعي ، من طبقتين رئيسيتين : الطبقة الداخلية والطبقة الخارجية (Epidermis) او البطانة ، اي ما يقابل الطبقة المسماة Dermis في الجلد الطبيعي وقد صنعا الاولى من مزيج جمعا فيه بين



اعـداد : يوسف زعبلاوي

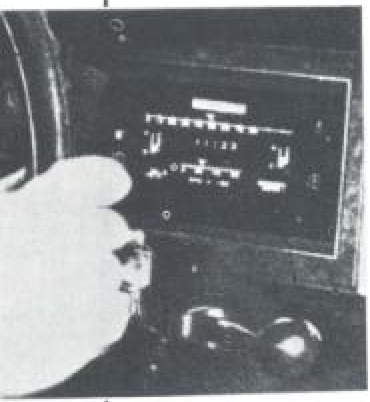
مادة بروتينيه حصلوا عليها من جلـد البقـر ، وخليـط من الكربوهيـدرات انتزعـوه من غضاريف سمك القرش ... وما اسرع ما تحولت المادتـان الى اليـاف قصيرة بيضاء لدى وضعها في محلول حمضي ... ثم تحولت الاليـاف الى صفحـة بيضاء ذات مسامات على نحـو ماترى في الصورة وذلك بعـد تجفيفهـا بالبـرودة العميقـة ومعالجتها في الفراغ وقد وضعت الصحـاف البيضاء اخـيرا ، في فرن وعـرضت لدرجـة حرارة عالية .

امـا الطبقـة الخارجيـة فقدصنعهـا العالمـان من مادة بلاستيكية لزجة طلياها الطبقة الداخليـة ، او الصحـائف البيضاء التي ذكرنا ، ثم جففاها بالتبريد العميق ... وأنهيا بذلك عملية صنع الجلد الاصطناعي

ويمتاز هذا الجلد بنعومـة ملحوظـة ومرونـة تشبـه كثـيرا مرونة الجلد الطبيعي .. ولايزيد سمكـه على سمـك منـاديل الـورق ، ورق المطابـخ ... ولاتزيد مساحة الصحـائف على ٦ بوصات ×١٠ بوصات ...

والغريـب ان الاوعيـة الدموية والشعيرات العصبيـة والانسجة الواصلـة لاتلبث ان تلتحـم في صحـائف الجلـد الاصطناعي لدى تطعيم الجسم بها ... بحيـث يستـرد الجسم حساسيته في المناطق المطعمة ... وان كانـت دون الحساسيـة الطبيعية .

حاسب الكتروني عجيب للسيارات .....



● هذا جهاز الكتروني جديد ابتكرتـه احـدى الشركـات الامريكيـة في المـدة الاخـيرة ليحل محل لوحة السيـارات التقليدية .. اللوحة التي تحمـل عدادات السيارة الهامـة .. عداد السرعـة والحـرارة والوقـود والديناموالخ فالجهـاز الجديـد يغني عن هذه العدادات جميعـا ليعطـي السائـق اضعـاف المعلومات التي تعطيها ، وبدقـة بالغـة تفـوق كل ماعهدنـاه في العدادات القديمة .

والجهاز الجديد جهاز فيديو يبلغ السائق معلوماتـه كتابـة يقرأها على شاشة الجهاز او اصواتا يسمعها باذنيه .... وتشمـل المعلومات التي يضعها في متناوله كافة التفاصيل التي تمده بها العدادات القديمة ... من سرعة وحرارة ووقود وأداء الدينامو ... ولكنها تشمل فوق ذلك ماقد يطلبه السائق من معلومات لاتخطر ببال كالمسافة المتبقية من الطريق للوصول الى الهدف او كمية البنزين الباقية في خزان السيارة ... ! ومعدل استهلاك السيارة للبنزين ومعرفة عدد الكيلومترات التي تقطعها بالجالون الواحد في المتوسط ... وقد ينسى السائق اخر موعد بدل فيه زيت السيارة فلا يدري ان كانت بحاجة الى تبديل الزيت مجددا وما عليه في تلك الحال الا ان يضغط على احد الازرار فيوافيه الجهاز بما يريد من معلومات ...

على الجهاز الجديد لايقف عند المعلومات الخاصة بالسيارة او الرحلة التي تقوم بها ....فباستطاعتـه تزويـد السائـق ايضا بالخرائط والمعلومات السياحية ...وذلك لدى الضغـط على ازرار خاصة تعمل وفق برمجة مسبقة ..

وهذا والجهاز صغير نسبيا ولاتزيد مساحة شاشته على ٣×٨ بوصات .

بشرى لهواة التصوير

● كانت طباعة الصور الملونة وتكبيرها مصدر ازعاج لهواة التصوير .. فهي عملية معقدة دقيقة تتطلب عددا من المواد الكيماوية التي ينبغي مزجها بعناية فائقة فضلا عن الحفاظ عليها على درجة حرارة معينة ... لاعجب اذن ان عزف اكثر هواة التصوير عن هذه العملية وتركوها للمحترفين ....

هذا في الماضي القريب ... وقبل ان يظهر في الاسواق جهاز جديد يقوم بالعملية الدقيقة المعقدة بسرعة واتقان ... فهو يمكن المصورين الهواة والمحترفين على السواء ، من طبع صورهم الملونة بمساحة ٥×٧ أو بمساحة ٥×١٠ بوصة في غضون ربع ساعة على اكبر تقدير ...

ويعمل الجهاز بما يشبه طريقة الكاميرة الفورية فما عليك الا أن تضع الفلم (الذي تم تحميضه مسبقا) في طبق خاص داخل الجهاز ... حيث يوجد المحلول الكيماوى المناسب .... ليغب من ذلك المحلول مدة عشرين ثانية اى ثلث دقيقة ... ثم تمضي بعد ذلك بضع دقائق ... فينتزع الفلم عن الورق ... وتحصل على الصورة الملونة الكبيرة ...

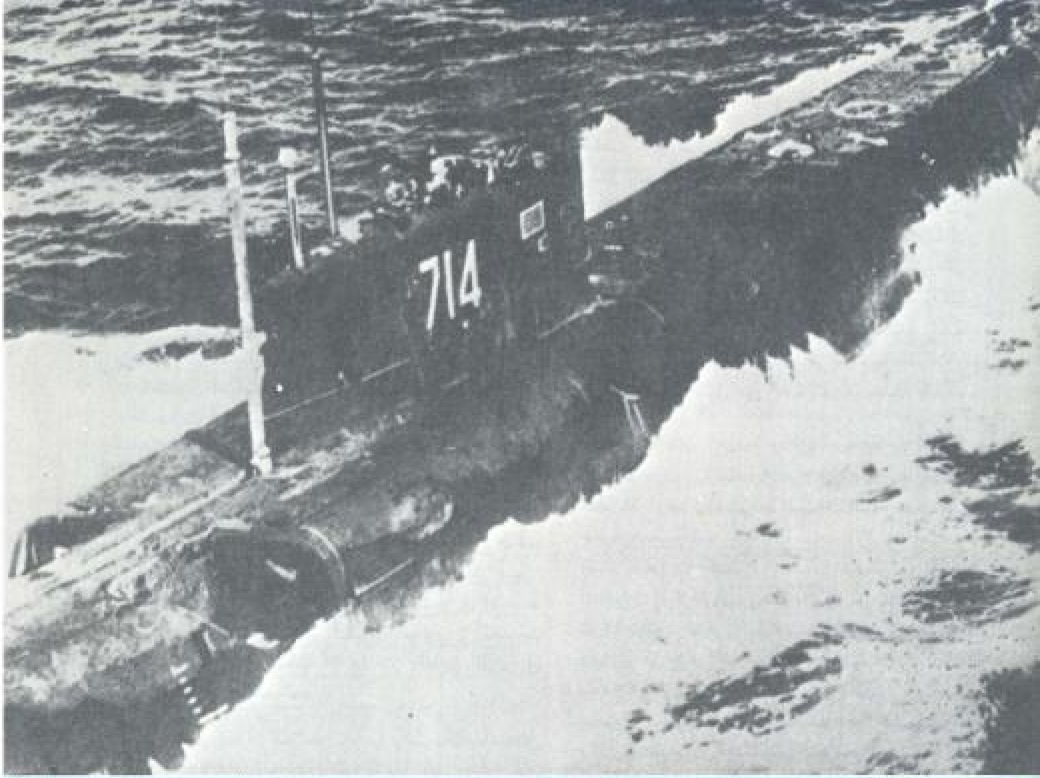


من تحت الدلف الى تحت المزراب

● اقبل الكثيرون من المدخنين على السجاير الجديدة ذات النسب المنخفضة من النكوتين والقطران فى طمأنينة وراحة بال .. وشعروا بانهم فى منأى عن مخاطر التدخين جميعها مادامـوا لا يدخنـون سوى السجاير الجديدة ولا يسرفون فى تدخينهـا وابتـلاع دخانهـا .. والظاهر انهم مخطئون فى ظنونهم هذه .. هذا على الاقل ما يؤكده التقرير السنوى الاخير الصادر عن دائرة الجراح العام ، او كبير الجراحين ، فى الولايات المتحدة الامريكية General U. S. Surgeon وقد صدر فى مطلع هذه السنة ، كالعادة .

فالسجاير الجديدة لا تحد مطلقا ، كما يثبت التقرير ، من احتمالات الاصابة بامراض القلب او التهاب القصبات (Bronchitis) . او الامفزيما (Emphysema) ، وهى امراض تصيب المدخنين بنسبة عالية ، تبلغ اضعاف النسبة التى تصيب بها غير المدخنين .

ولا ينفى التقرير خاصة السجاير الجديدة فى الحد من احتمالات الاصابة بسرطان الرئة .. ولكنه يبين انها لا تحد من هذه الاحتمالات الا قليلا ..



غواصة ذرية سوفيتية

أنجح عمليات الخداع

رغم أنف الأقمار الصناعية

بقلم : المهندس سعد شعبان

تمت عملية انتشال غواصة ذرية سوفيتية فى الخفاء على مدى سبع سنوات من غرقها فوق قاع المحيط الهادى . بواسطة سفينة ليس لها مثيل على سطح الأرض . وأفلحت الخطة فى خداع مئات الأقمار الصناعية فى الفضاء .

منذ بضعة شهور سمع طاقم الباخرة البريطانية العملاقة « جارى » أثناء رحلتها الى اليابان اشارة استغاثة ، فحولت السفينة وجهتها نحو مصدر الاشارة حتى وصلت الى غواصة سوفيتية متوقفة وسط المحيط بعد أن أصابها العطب على أثر اشتعال حريق في بعض أجزاء منها . وعندما حاول طاقم السفينة البريطانية مد يد العون الى طاقم الغواصة رفضوا تقبل شيء غير بعض من ماء الشرب ، وجهاز ارسال لاسلكي للاتصال بالسفينة السوفيتية التى على مسافة بعيدة . وكان هذا التصرف غريبا بالنسبة لتقاليد الملاحة فى أعالى البحار ، ولكن طاقم السفينة البريطانية تبدد استغرابه ، عندما عرف أن القطعة البحرية السوفيتية غواصة ذرية ، من الجيل الأول للغواصات التى انتجت فى الستينات . وقد أبلغ البحارة السوفييت عن وفاة تسعة جنود من طاقم الغواصة واصابة ثلاثة على أثر اشتعال الحريق فيها . غير أن الحادث على بساطته أثار جدلا كبيرا فى الأوساط اليابانية خوفا من انتشار التلوث الذرى فى مصايد الأسماك التى فى المنطقة اذا ما كان المفاعل الذرى فى الغواصة قد أصابه العطب .

ومعروف أن كلا من روسيا وأمريكا بدأتا فى التسابق لانتاج الغواصات الذرية منذ الخمسينات ، على أساس قدرة الطاقة النووية على تسيير هذه الغواصات التى تستطيع البقاء تحت الماء عدة شهور . والتى تستطيع عبور قبة الجليد فى منطقة القطبين الشمالى والجنوبى وهى فى غنى عن التزود بالوقود التقليدى . وفى نفس الوقت تستطيع حمل الصواريخ التى قد تطلق من فوق سطح الماء أو من تحته .

ولكن اعراض طاقم الغواصة الذرية عن تقبل العو [illegible] فينة البريطانية ، له سبب قوى يرجع الى ادا [illegible] لذ عدة سنوات وكان بمثابة الدرس الأليم الذى تلقاه الروس ويحكى قصة من أروع قصص الخداع فى عالمنا المعاصر ، وكان محله غواصة ذرية سوفييتية أخرى فى مكان آخر فى العالم .

العملية جنيفر

فقد شهد عام ١٩٦٨ حادثا دوليا مثيرا وكان مسرح الحادث منطقة تقع فى شمال غرب المحيط الهادى ، وكان محله غواصة ذرية سوفيتية تعرضت لحادث انفجار وهى تمر فى هذه المنطقة من المحيط . وقد هوت الغواصة الى قاع اليم وبداخلها طاقم يتكون من أكثر من مائة ضابط وبحار ، ولم يستطع أحد منهم أن ينجو من الحادث ، كما لم يستطع الطاقم أن يفعل شيئا ، غير ارسال إشارة استغاثة صغيرة ، لم تلبث أن توقفت . وقد استطاعت بعض أجهزة الاستطلاع الالكترونى الأمريكية أن تلتقط هذه الاشارة لأن موقع الغواصة كان قريبا الى حد ما من الشواطىء الأمريكية ، ولكن أجهزة البحرية السوفيتية لم توفق فى التقاط الاشارة ، وبالتالى فقد ظل موقع الغواصة الغارقة مجهولا لدى القيادة البحرية السوفيتية لمدة دامت أكثر من سبع سنوات ولم تعرف أية تفاصيل عن الحادث الا بعد هذه المدة الطويلة .

ولم تعرف أية تفاصيل عن الحادث الا بعد هذه المدة الطويلة . ولقد شهدت هذه السنوات السبع عملية خداع عالمية ضخمة تمت رغم أنف مئات الأقمار الصناعية ، وقام بتنفيذها أكثر من ٤٠٠٠ شخص من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ولفيف من المتخصصين فى شركة لوكهيد الأمريكية لصناعة الطائرات . وكانت العملية من الكبر الى حد أن تكاليفها فاقت تكاليف برنامج أبوللو الأمريكي للهبوط على سطح القمر سبع مرات ، اذ بلغت هذه التكاليف ٣٥٠ مليون دولار . وكان الدافع وراء العملية أن الغواصة السوفيتية كانت تحمل صيدا ثمينا فى ثلاثة رؤوس نووية يمكن أن يؤدى انتشالها الى الكشف عن الأسرار العسكرية النووية لدى السوفييت . كما كان لدى الأمريكيين الأمل فى الكشف عن أسرار أجهزة التشفير السوفيتية ، ومعرفة خصائص الأسلحة البحرية التى فى هذه الغواصة ، وفى سرية تامة بدأت خطة أضخم عملية انتشال لجسم ثقيل من قاع المحيط ، وأطلق عليها العملية « جنيفر » . وكان الهدف الأساسى لدى الأمريكيين هو ابعاد أنظار السوفييت عن المنطقة التى تتم فيها العملية ، لصرف أنظارهم عن حقيقة مراسيهم . بما فى ذلك خداع الأقمار الصناعية السوفيتية التى يمكن أن تلتقط الصور للعملية .

وفى الوقت الذى ضاعت فيه كل الجهود السوفييتية سدى للبحث عن الغواصة الغارقة وسط تيه المحيط ، حدد الأمريكيون أكثر المناطق احتمالا لغرق الغواصة بمربع طول ضلعه خمسة كيلومترات ، وراحوا يركزون كل جهودهم فى العمل داخله . وتوزعت هذه الجهود فى الكشف عن الغواصة وتحديد مكانها فوق القاع ثم العمل على انتشالها الى أعلى . ولكن هذه العمليات لم تكن من السهولة بمكان اذ تمثلت صعوبتها فى أن الغواصة ترقد فى مكان معلوم على عمق أكثر من ثلاثة كيلومترات تحت سطح ماء غائر وسط محيط تتلاطم فيه

الأمواج . وأن وزن الغواصة كان يبلغ أربعة آلاف طن ، لذا كانت عملية البحث تقتضي استخدام عدد كبير من أجهزة التسمع الألكتروني المعروفة باسم « سونار » فضلا عن أجهزة تصوير يلزم الغوص بها تحت الماء ، مع استخدام عدد كبير من الأنوار الكاشفة التي تعمل على تبديد الظلام تحت سطح الماء ،بالاضافة الى استخدام المستشعرات المغناطيسية ليمكنها تحديد مكان الأجسام المعدنية فوق قاع المحيط . كما كانت عملية الانتشال تقتضي استخدام روافع ضخمة يلزم أن توضع فوق جسم طاف ضخم يطفو على السطح ، وتمتد منها سلاسل ضخمة لترفع هذا الجسم الثقيل .

سرية مذهلة

ولتوفير الستار الذي يمكن أن يخفي حقيقة أهداف العملية ، اتفقت المخابرات المركزية الأمريكية مع شركة « هيوز » على القيام بالعملية تحت ستار البحث عن المعادن في قاع المحيط ، كاستخراج التيتانيوم والمنجنيز واليورانيوم . ومن أجل ذلك قام البليونير الأمريكي « هيوز » بوضع امكانياته المالية العريضة لتصميم سفينة ضخمة لتكون بمثابة المنصة العائمة التي تدار من فوقها عمليات الغوص والانتشال . ولم تعرف البشرية سفينة في مثل تصميمها ، فقد بلغت حمولتها ٣٦٠ ألف طن ، وكانت تجر خلفها عائمة خاصة بها ، لها مساحة تبلغ مساحة ملعب لكرة القدم . وكان يتدلى من قاع هذه العائمة مخالب للانتشال صممت خصيصا لتستطيع رفع الغواصة الغارقة ، بواسطة روافع تديرها معدات ثقيلة على سطح الباخرة والعائمة معا .

وجابه الذين صمموا العائمة مشكلة أنها عريضة الى حد لايسمح مرورها عبر قناة بنما لتعبر من المحيط الأطلسي الى المحيط الهادي . لذلك اضطروا إلى المرور بها بعد تمام بنائها حول القارة الأمريكية وبدأت في يونيو ١٩٧٤ عملية الانتشال تحت ستار البحث عن المعادن . ولأن المراقبين يعلمون أن عيون الأقمار الصناعية يمكن تهتك كل أسرار العمليات التي ستدور فوق السفينة فقد عمدوا الى خطة خداعية ، وذلك بصناعة غطاء بيضاوي الشكل يظلل سطح العائمة العلوي ويحجب ما يجري فوقها عن عدسات التصوير من الفضاء . هذا بينما تتدلى ستة مخالب ضخمة من قاع العائمة الى حيث تستقر الغواصة فوق قاع المحيط .

ولقد ظلت عمليات الانتشال تتم عدة شهور في تؤدة وروية وعيون السوفييت مخدوعة بمظنة أن العائمة تقوم بالبحث عن المعادن . وعندما كللت عملية الانتشال بالنجاح ، وأمسك الأمريكيون بصيدهم الثمين بواسطة المخالب الستة الضخمة ، تراقص الأمل في فضح كل أسرار الغواصات الذرية السوفيتية . ولكن ما كادت الغواصة تقترب من سطح العائمة حتى تكسرت الى جزئين ، وهوى الجزء الأكبر منها ويمثل ثلثي جسمها الى القاع ثانية ، وبقي الثلث الأمامي وحده معلقا في المخالب . ورغم ذلك فقد اعتبروا ذلك صيدا ثمينا في حد ذاته ، ولم يكشفوا الأستار عن العملية الا عام ١٩٧٥ . وما زالت العملية « جنيفر » في نظر كثير من المراقبين واحدة من أعقد انجازات التكنولوجيا في القرن العشرين وواحدة من أنجح عمليات الخداع التي تمت رغم ألف مئات الأقمار الصناعية التي تدور في الفضاء . ■■

القاهرة ـ مهندس سعد شعبان

عضو لجنة الفضاء بالاتحاد الطيران الدولي بباريس

عند الطبيب النفساني

التقى صديقان عند مدخل عيادة احد الاطباء النفسانيين فقال الاول :

ـ هل انت قادم او منصرف ؟

واجاب الثاني : لو كنت اعرف .. لما جئت الى هنا ؟

١٠ مواقف للأهل تفسد شخصية الطفل



بقلم : الدكتور نبيه الغبرة

يعرف الجميع ان لتربية الطفل وبيئته أثرا كبيرا في تكوين شخصيته (طباعه وخلقه وسلوكه) . بل قد يبالغ البعض منا فينسبون للتربية والبيئة كل شيء يتعلق بالشخصية . فان اعجبوا بفتى او فتاة قالوا : « شيء طبيعي ، انهم ربوا تربية جيدة » . وان رأوا اعوجاجا من احد قالوا « أنه لم يرب تربية جيدة » . وصبوا اللوم على اهله .

ولقد اكد علم النفس الحديث هذه الحقيقة وان لم يهمل الجوانب الوراثية المختلفة المتعلقة بهذا الموضوع . وتوصل الباحثون الى كثير من الحقائق المهمة في هذا المجال ويحسن بنا ان نشير الى بعضها بايجاز :

١ ـ ان تأثير البيئة يبدأ منذ الايام الاولى بعد الولادة . وعدم تذكر الانسان للحوادث والتجارب التي يمر بها في سنيه الاولى لا يعني تأثيرها على تكون شخصيته . بل العكس هو الصحيح . اذ ان حصيلة هذه التجارب تختزن في الجانب اللاشعوري في عقل الانسان . لتشكل القاعدة الاساسية لسلوكه العضوي في المستقبل .

وهذا يعني ان علينا ان نهتم بالسنين الاولى من حياة الطفل ايما اهتمام حتى لا نسيء الى شخصيته النامية .

٢ ـ اصبحنا نعرف اليوم تطور الطفل الطبيعي ، وكيفية نمو قدراته وامكاناته الجسمية واليدوية والذكائية والاجتماعية والكلامية . ومدى الاختلافات الطبيعية بين طفل واخر . بحيث اصبح من السهل علينا معرفة ما يتوقع من الطفل وما يستطيعه في كل عمر من الاعمار .

٣ ـ معاملة الطفل السليمة وسياسته الحكيمة هي التي تتماشى مع درجة تطوره والتي تنمي مواهبه وقدراته بحيث ينتقل من مرحلة الاعتماد الكلي على الاهل الى مرحلة الاستقلال التام بسلام وامان وبصحة نفسية وجسمية جيدة لا عوج فيها . ومن هذه المنطلقات نشأ حديثا في الطب ما يسمى بالطب النفسي الوقائي تمشيا مع القاعدة العامة بجعل الطب طبا وقائيا ما امكن الى ذلك سبيل . ووضع العلماء نظريات للتربية الوقائية ، كما نبهوا على مواقف الاهل التربوية السيئة التي ان ازمنت ساعدت على حدوث الانحرافات السلوكية والعصابات لم نقل الامراض النفسية بالذات .

وهذه هي محاولة للتعريف السريع بمواقف الأهل المرضية الاكثر شيوعا مع شيء من التفصيل القليل للثلاثة الاولى منها ، ثم عرض لنظرية الاحترام المتوازن المتبادل بين افراد العائلة كاساس للتربية الصحية مع بعض الاقتراحات العلمية لتنفيذها . مما يؤمن للطفل توازنا نفسيا وتطورا سليما .

الخضوع الزائد لرغبات الطفل

يظن بعض الاهل ان الخضوع الزائد لرغبات الطفل امر مرغوب فيه وانه دليل المحبة ويعبر عنه باللغة العامية بالتدليل ، وقد تتباهى الامهات بدرجة تدليل ابنائهن ، بل قد تتباهى الام نفسها بعظم تدليل اهلها لها لما كانت صغيرة ، وكيف انه كان لايرد لها طلب او امنية . ولكن في هذا السلوك خطرا مؤكدا على شخصية الطفل النامية . فكما ان من حق الطفل ان تلبى طلباته وبسرعة في السنة الاولى من العمر لانه لا يدرك حقائق الاشياء ، ولا يعي متطلبات الظروف . ولانه لا يطيق صبرا على الحرمان او عدم الاستجابة فيبكي لا تفه الاسباب ولاقل حرمان . لكن من الواجب ومن تمام محبة الطفل ان نعوده من مطلع السنة الثانية من عمره ، بالتدريج وبالشكل المتوافق مع درجة تطوره وفهمه ، ان هناك حدودا عليه لا يتخطاها وان هناك ظروفا عليه مراعاتها ، وان هناك آخرين لهم حقوقهم كما له هو حقوقه .

فيجب ان يفهم الطفل في السنة الثانية مثلا ، ان ليس له الحق في السيطرة على لعب اخيه واشيائه ولكن لا بأس بان يستعيرها لبرهة محدودة . وان يفهم بانه من غير المسموح له ان يكتب على الحائط او يفسد شيئا من المتاع او الاثاث . او ان يستأثر بالحلوى دون سائر اخوته او حتى ان يأخذ كمية كبيرة منها .

وان كبر قليلا ودخل في سنته الثالثة واصبح يحب الخروج خارج المنزل للفسحة او لشراء الأشياء المختلفة ، يجب ان يفهم بانه لن يلبي طلبه بالخروج من المنزل في كل مرة يطلب فيها ذلك ، او يشترى له كل شيء يشتهيه . وهكذا الى مئات الأشياء .

والقاعدة العلمية المنطقية ، وهي النظرية المعتدلة ان تلبي رغبات الطفل في حدود حاجاته الفعلية وذلك منذ البدء . والا فان الطفل يتمادى في غيه ولا تنضج شخصيته بالشكل السوي ، ويتعود الخضوع لرغباته ونزواته الابتدائية . او بالاحرى يصبح اسيرا لها بعد ان عودة اهله الخضوع لرغباته غير الناضجة وغير المتوافقة مع سنه . والنتيجة هو ان يصبح الطفل نزوانيا غير مكترث بالاخرين انـريا (انانيا) ، عجولا سريع الغضب في حال عدم تلبية رغباته ومن اقوال الامهات اللواتي يراجعن الاطباء حول سوء سلوك اولادهن والتي تدل على وجود الحالة المتقدمة العبارات التالية والمسجلة من تلك الاقوال :

ـ ان ابني طائش يتصرف دون ادراك للعواقب ، يرفع صوته كثيرا ، ويضرب اخوته احيانا .

ـ ان ابني اذا اراد شيئا فلا بد من تنفيذه ، والا فانه يثور وتضطر لاسكاته وارضائه باي ثمن .

ـ انا اكثر تساهلا من زوجي ولذا ، فان اولادي يستغلونني من هذه الناحية ـ اذا لم ألب طلبات ابني فانه يلجأ الى كسر الاواني او تمزيق الثياب اوافساد اي شيء او يهددني بذلك . ولذا كان من الاسهل على ان ارضخ لرغباته .

طلب الكمال

ويقصد به مطالبة الطفل بانجازات على درجة من المهارة والاتقان هي اعلى من مستواه وقدراته العقلية ودرجته التطورية . وهذا الموقف الخاطيء كثير المصادفة ان لم نقل انه عام . ولكن على درجات متفاوته . ويقف الاهل هذا الموقف بدافع من حرصهم على تفوق ابنهم وسرعة نضجه . فكثيرا ما نلحظ نحن الاطباء ان الامهات يردن لاولادهن التفوق على بقية الاولاد في كل شيء او مجاراتهم على الاقل ، ويشعرن بالغيرة في حالة تقصير اولادهن هذا لم يبلغ بهن الحال الى درجة الحزن والقلق .

فقد تطلب الام من ابنها او ابنتها المحافظة على الاناقة والنظافة التامة والتزام قواعد الكبار وآدابهم في التحية والجلوس والطعام والشراب وما شابه ذلك . واذا طلبت من ابنتها عملا ما ، ترتيب غرفة او تنظيفها او القيام باي عمل من الاعمال المنزلية ، فهي لا تغض الطرف عن اى تقصير او خلل .

واذا ما كان الطفل او اليافع في المدرسة فانه لا ينال رضاء أهله الا ان كان حائزا على الدرجات الممتازة ، والا ان كانت كتبه ووظائفه واشياؤه المدرسية مرتبة على الوجه الاكمل . فهو مطالب دائما بانجازات اعلى من مستواه .

وفي مثل هذه الظروف يستجيب الطفل ببذل الجهد والطاقة ، ويبدي اهتماما ذهنيا زائدا لتحسين سلوكه وانجازاته . ولكن حين لايدرك المستوى المطلوب يبدأ بانتقاص نفسه . ويبدأ مركب النقص بالتشكل عنده .

من الأقوال المسجله في مثل هذه المواقف قول الأم .

ـ ان ابني لا يبذل جهده في الدراسة ، انه ذكي ويستطيع ان يحصل على علامات اعلى وهو لا يبلغ المستوى الواجب عليه ان يبلغه .

ـ اني كنت اطالب ابني والاحقة كي يدرس كثيرا . ولكني لم اعد افعل ذلك الآن انه هو الان الذى يطالب نفسه بمستوى اعلى . ويتحسر انه لا يستطيع الحصول على الدرجات العالية .

ـ ان ابني اصبح شديد الحساسية يبكي لاقل هفوة او تقصير . ومما يقوله الطفل نفسه .... ان امي تنتقدني دائما لاني لا احصل على علامات جيدة في المدرسة . ولكن ابي اكثر صبرا من امي وان كان يغضب بسببي احيانا . اني اشعر بضيق شديد عندما لا اقوم بواجباتي المدرسية .

ـ ان امي تثور غاضبة عندما الهو قليلا او عندما العب . انها تريدني ان أقرأ طوال الوقت .

الافراط في التوجيه

ويقصد بذلك زيادة مراقبة الطفل وتوجيهه او اعطائه الاوامر في كل كبيرة وصغيرة . فلا يترك الاهل لطفلهم حرية التصرف او المبادرة او انجاز الاعمال بالطريقة التي يريدها . فهم يتدخلون بشكل غير معقول في حياة طفلهم او يافعهم في سلوكه واعماله ، رغم انه اصبح في غنى عن توجيههم او ان له الحق بان يتصرف بشكل آخر غير الذي يرونه هم ليتعلم من تجاربه واخطائه .

ان الطفل لا يستطيع فكاكا من اهله بطبيعة الحال . فلذا نراه يستجيب تجاه هذا الموقف المرضي بالتخاذل والاعتياد على التوجيه الخارجي ، وبالمماطلة والتردد والنسيان . او على العكس من ذلك بالتمرد والعصيان والعناد . اى ان استجابة الطفل تكون بالمقاومة الخفية او بالمقاومة الظاهرة .

ومما تقوله الام عندما تشتكي سوء سلوك ابنها نتيجة هذا الموقف السيء قولها :

ـ ان زوجي شديد الانتقاد يصدر الاوامر وكأنه ضابط فظ . وعلى ان اطيعه بشكل فوري وبدون تفكير .

ـ اني شديدة القلق على ابني فهو يعصيني ولا يريدني ان انصحه بشيء ابدا ، او ان أصحح له خطأ ، او ان ارشده ، وكلما طلبت اليه شيئا انتحل الاعذار المختلفة ليتهرب من الاستجابة .

ـ ان ابني لا يعمل شيئا حتى الح عليه مرات ومرات . واصبح لا يخبرني اين يذهب .

ـ ان ابنتي دائمة الشرود تجلس للقراءة ولكنها لا تقرأ واصبح لزاما علي ان اساعدها في كل شيء .



اغراق الطفل بالحاجيات والافراط بالخدمات

ويقصد بذلك اغراق الطفل بالالبسة واللعب والحاجيات والخدمات بشكل يفوق حاجته الفعلية اضعافا مضاعفة . ويظن الاهل بذلك انهم يفعلون بابنهم خيرا .

ومن الواضح ان هذا الموقف يكثر في الطبقات الغنية المترفة وخاصة في بعض الظروف المساعدة كان يكون الطفل بكرا أو وحيدا او مفضلا لانه ذكر بعد عدة اناث او انثى بعد عدة ذكور او عوفي بعد ان اصيب بمرض خطر اشرف معه على الهلاك .

ولكن ما هي استجابة الطفل لهذا الموقف ؟ ان الاستجابة الطبيعية لهذا الموقف هو شعور الطفل بالملل والضجر ، وضعف المبادهة والحماس والقدرة على بذل الجهد والكفاح ، اذ ان ظروفه لا تجعله يفكر انه بحاجة الى شيء ، او أن يتعلم اي شيء ، أو أن يبذل جهدا في الحصول على شيء او الحفاظ عليه فكل شيء هو مؤمن وموفر .

الاهتمام الزائد بالجسم ووظائفه وامراضه

وهو ما يسمى بلغة الطب بداء المراق . ولكن الاهتمام هنا ينصب على الطفل بدلا من ان ينصب على النفس . فالاهل يهتمون لدرجة الوهم او الوسوسة بصحة الطفل ووظائف اعضائه وان كان هو في واقع الامر في احسن صحة . كما ان الاهل يبالغون في الاعراض المرضية الطفيفة التي تصيب ابنهم . ويتخذون من الاحتياطات الوقائية اضعاف ما يتخذه بقية الناس .

فهم يتوهمون مثلا ان الطفل شاحب اللون او مزرق ما حول العينين ، او انه قليل الشهية او انه لايكبر ضعيف المقاومة الى غير ذلك ، واذا ما اصيب بعارض طفيف او حتى شبه عارض كشيء من العطاس او السعال او الزكام واضطراب التبرز وما شابه ذلك فلا بد من استشارة الطبيب واخذ الاحتياطات من تدفئة وراحة وقياس درجة الحرارة عدة مرات في اليوم وسؤال الطفل في كل حين : كيف حالك يابني هل يؤلمك رأسك ؟ هل يؤلمك بطنك ؟ هل انت بخير ؟

هذا ناهيك عن قلقهم واهتمامهم في حال الوقوع في الامراض العقلية الشديدة التي لابد ان يتعرض لها كل طفل بين الحين والاخر .

وتكون استجابة الطفل لهذا الموقف بكثرة الشكايات المرضية ـ المزعومة ـ او المتوهمة والقلق حول الاحساسات الجسمية والاضطرابات الخفيفة .

الافراط في العقاب

وهذا الموقف كثير المشاهدة في البيئات المتأخرة خاصة ، يعني معاقبة الطفل على كل خطأ كبير او صغير وبشدة لا تتناسب مع درجة الخطأ . بل قد يكون الخطأ نتيجة عدم نضج الطفل وعدم ادراكه لنتيجة تصرفاته . وفي هذا الحال لا تجوز المعاقبة ، بل الواجب تنبيه الطفل وارشاده الى طريق الصواب . واما في حال تكرار الخطأ وتعمده رغم التنبيه الكافي ورغم نضج الطفل فيجب المعاقبة ولكن بشروط معينة . فالعقاب يجب ان يتناسب مع درجة تطور الطفل وان يكون المقصود منه واضحا للطفل وان يتوقع منه ان يكون مجديا ، وان لا يترافق بالانفعالات الشديدة ، وان يكون هدفه الواضح للطفل هو مصلحة الغير او مصلحته التي يجب المحافظة عليها ، لا حب الانتقام او التشفي او التفريغ عن الكبت ، او التعبير عن كراهية او حقد حتى ولو من وجهة نظر الطفل .

ان استجابة الطفل لكثرة العقاب هي الشعور بالخوف

والتردد والشعور بالضعف والنقص وسلوك السلوك المستدعي للعقاب .

ويقصد بذلك توقع الفشل من الطفل وعدم قدرته على تحقيق النجاح او الكفاءة في الاعمال المختلفة التي يقوم بها ، سواء كانت جسمية او سلوكية او ذكائية . وقد يستعمل الاهل غير المثقفين تعبيرات بذيئة او غير لائقة ، اما المثقفون منهم فقد يلجأون الى كلمات مؤدبة لكنها في حقيقتها اشد ايلاما ولذعا وايذاء كقولهم : انت خائب طوال عمرك . وهل انت تحسن شيئا ، او انت قليل الفهم اوانت ليس عندك ادراك او ذكاء او انت لا تحسن التصرف في شيء ، وامثال ذلك كثير .

واستجابة الطفل لهذا الموقف ان استمر وازمن هي انتقاص الذات وتشكل مركب النقص عنده . والميل لسلوك السلوك الذي يؤنبه عليه اهله اي أنه يبدو وكأنه يتعمد ان يظهر بمظهر الشخص غير الكفء لتكال له عبارات الانتقاد .

تحميل الطفل مسؤوليات فوق طاقاته

وهذا يحدث في ظروف مختلفة ومناسبات عديدة ، فقد يطلب الى الطفل او الطفلة القيام باعمال الكسب لمساعدة الاهل ويحرم بذلك من عيش الاطفال وفرص التعليم ، وهذا ما اصبح محرما دوليا كما هو معروف . ولكن غير منفذ في بلادنا مع الاسف ، فاينما ذهبت ترى الاطفال يقومون بالوظائف والاعمال المختلفة التي ولا شك هي فوق طاقاتهم ، وقد ترهق الام ابنتها الصغيرة بتحمل مسئوليات تربية اخوتها او تدبير الاعمال المنزلية . وقد يترك الاهل ابنهم في المنزل وحيدا او في رعاية اخوته وهو ما زال بعد صغيرا على تحمل مثل هذه الاعباء . والامثلة على ذلك كثيرة .

ان استجابة الطفل على ارهاقه بالمسؤوليات وتحمل الاعباء تسبب الاحساس بمشاعر مختلطة من العداء والكراهية وانتقاص الذات . وعدم القدرة على الانخراط في لعب الاطفال ولهوهم وانشطتهم المختلفة والظهور بمظهر الحزم والجد .

الاهمال

وهو يعني عدم توفير الوقت الكافي للاعتناء بالطفل ومشاركته في اهتمامه والعابه بما يتناسب وتطوره العقلي والنفسي . فالطفل بحاجة ماسة الى ذلك ويجد متعة كبيرة في ملاعبة اهله له فيأنس بهم ويتعلم منهم السلوك الواجب اتباعه مع الآخرين . كما يتعود عقد صلات الصداقة الطيبة مع الآخرين . ويحدث الاهمال دون قصد عند انشغال الأهل بالوظائف والاعمال لاوقات طويلة خارج المنزل . او لعدم وجود الرغبة وتفضيل ترك الطفل الى المربية . او في حال كثرة الاولاد وضيق المكان وفي ظروف اخرى كثيرة .

والنتائج المتوقعة لهذا الاهمال هي عدم قدرة الطفل على عقد صلات حميمة هادفة مع اترابه ومع زملائه وعدم الشعور بالسعادة التي يشعر بها كل انسان عادة من عقد هذه الصلات . ويستمر هذا الاتجاه مع الاسف حتى الكبر ويترافق بميول نزوانية اثرية (انانية) في كثير من الاحيان .

الطرد

ويقصد به عدم ضمان عش القبول للطفل ضمن اطار العائلة .

وهذا لا يحدث طبعا الا في الظروف العائلية السيئة كعدم علاقات طبيعية بين الوالدين ، او كون احدهما شاذا في تصرفاته وسلوكه ، كما يساعد على ذلك ايضا وجود اوضاع اقتصادية سيئة . والاستجابة الطبيعية لهذا الموقف هي شعور الطفل بالمرارة والقلق والوحدة والعداء بالاضافة الى الشعور بالنقص .

نظرية الاحترام المتوازن

ان هذه الصور المتتابعة تدعونا الى مناقشة نظرية الاحترام المتوازن المتبادل وكيفية تطبيقها والمحافظة عليها .

ما المقصود بنظرية الاحترام المتوازن المتبادل ؟؟؟

ان هذه النظرية ترى لكل فرد من افراد العائلة الحق في ان يكون محترما بين افرادها الآخرين . وان يتمتع بحقوق من ناحية العيش والتصرف المناسبة لعمره ومستواه التطوري وان يوقف بحزم عندما تؤدي تصرفاته الى تعدي حقوق الآخرين من افراد العائلة . ويجب ان تكون الحدود الموضوعية على التصرفات المتجاوزة للحدود حازمة للدرجة التي تجعل كل فرد من افراد العائلة يتمتع بحقوقه بيسر واستمرار .

ويقول اصحاب هذه النظرية إن معظم الانحرافات السلوكية تنجم نتيجة للخروج على الاحترام المتبادل وان الخروج على هذا الاحترام المتبادل لمرة واحدة او مع

الصدف في النادر ما يؤدي الى الاضطرابات السلوكية ، ولكن من المؤكد تقريبا ان الخروج الدائم المتكرر على هذه القاعدة يؤدي الى الاضطرابات السلوكية . واذا لم يعالج هذا الخلل فان الاضطرابات النفسية لابد وان تتظاهر على الاغلب في سن الكهولة .

ان الاهل ولا شك يسعون جهدهم ويبذلون كل ما يستطيعون في سبيل خير اولادهم ، ولكنهم غالبا ما يكونون معتادين عادات او حاملين لافكار تجعل من العسير عليهم أن يوفروا هذا الاحترام المتوازن المتبادل .

كيف نحقق هذا الاحترام المتوازن المتبادل وكيف نحافظ عليه ؟

لايجاد هذا هذا الاحترام المتبادل على الاهل قبل كل شيء ان يضعوا حدودا حازمة للتجاوزات ، لانه بذلك يتعلم الطفل ان يضع حدودا لنفسه أولا وان يحترم حقوق الاخرين ثانيا ، ثم على الاهل ان يجعلوا لطفلهم بعد سن الخامسة شيئا من الواجبات المنزلية .

وعلى الاهل ان يعطوا طفلهم الحرية الكافية للتصرف ضمن هذا الاطار . فالطفل بحاجة الى الحرية الكافية لتنمو شخصيته بشكل طبيعي .

الحدود

على الاهل ان يضعوا حدودا معقولة لطلبات الطفل ورغباته ولكل تصرفاته التي قد تسيء للاخرين وبالطبع لا توجد قاعدة معينة او خط واضح فاصل ، فالمهم ان يتدخل الاهل وان يضعوا الحد عندما يشعرون بان تصرف ابنهم بدأ بالتجاوز . فكما ان على الاهل ان يحموا طفلهم الصغير من مخاطر التمديدات الكهربائية وتناول المواد السمية والادوية ومخاطر الحرق والغرق والسقوط والمرور في الشوارع وما شابه وان يعلموه ويرشدوه الى طرق الوقاية منها . عليهم ايضا ان يضعوا له الحدود لتصرفاته الابتدائية اللامسئولة .

وعلى الاهل ان يعاقبوا ابنهم في حال تعديه وتجاوزه الحدود الموضوعة له واصراره على ذلك مع شيء من الانفعال والغضب وذلك بعزله في غرفته لبرهة قصيرة ، على ان يسمح له بالعودة والجلوس معهم عندما يهدأ غضبه ويشعر بانه قادر على ضبط نفسه . واذا ما عاود تجاوزه يحسن اخذه لغرفته بحزم مساعدة في السيطرة على نفسه .

واذا ما اضاع الطفل او افسد بعض الاشياء التي ليست له يجب ان يطالب ولو بالتعويض الجزئي عنها ، ولكن دون توبيخ او انتقاد او محاضرات .

٢) الواجبات المنزلية :

ويقصد به تعيين شيء من الواجبات المنزلية على الطفل بعد سن الخامسة ، ويحسن ان تكون محددة معقولة وفي وقت معين لاحسب الحاجة . وبالطبع فان للطفل الحق ان يحتج على ما يطلب منه القيام به ولكن على الاهل ان يصروا على ادائه . وبالطبع ايضا يجب ان يترك للطفل حرية التصرف بعد انجازه لواجبه المفروض عليه . وعلى الاهل ان يساعدوا اولادهم بلطف في البدء ، حتى يصبح الطفل قادرا على القيام بما يوكل اليه بيسر وسهولة .

ويحتاج معظم الاطفال ايضا الى اوقات معينة للدراسة عندما يصلون الى الصف الثالث او الرابع الابتدائي . وبدون مذياع او مرناة (تلفزيون) .

٣ ـ لندع اطفالنا يتطلعون بحرية ودون قلق :

لتنمو الطفل طبيعيا صحيحا يجب ان تترك له الحرية الكافية فيما وراء ما ذكرناه ـ مع وضع الحدود على السلوك المتعدي والواجبات المنزلية والحماية من المخاطر ـ فيجب ان يجنب ما من شأنهما يحدث له القلق والارهاق كالواجبات الكثيرة والمسؤوليات الثقيلة ومن التدخل والانتقاد فيما يخصه هو بالذات . كالطعام والثياب والهوايات والاصدقاء، وما شابه ذلك .

والخلاصة ان طريقة الاحترام المتوازن المتبادل التي طبقت ما يزيد على خمس وعشرين سنة اثبتت انها طريقة حكيمة ومعقولة في سياسة الاطفال وانها تنشر راحة وسعادة لجميع افراد العائلة .

وتقي من الاضطرابات السلوكية ومن انحرافات الشخصية .

وعلى الاهل الذين اعتادوا المواقف المرضية المذكورة سابقا وامثالها ، ان يكبحوا جماح انفسهم ، وان ينتهجوا هذا الموقف الجديد . الذي وان كان فيه شيء من الصعوبة في البدء . لمخالفته ما اعتادوه وما الفوه لكن سيكون مريحا لهم مع التعود عليه وسيجنبهم وابناءهم الاما كثيرة في المستقبل . ■■

دمشق ـ د . نبيه الغبرة

بقلم : منير نصيف

قلب اب حزين يصفح عن ابنته التي اساءت اليه . . ثم يتوقف القلب الكبير ولكن بعد ان يكون قد سجل مشاعره . . « انني اصفح عنك . ارجوك ان تصفحي بدورك عني . انني احبك . احبك »

وقلب ام حرمها زوجها من ابنتها . . لقد حملها ورحل بها الى حيث لاتدري . وتقضي الام حياتها تبحث عن ابنتها ، وعندما تعثر عليها شقيقتها تكون الام ذهبت في رحلتها الاخيرة . . صور من الحياة في قصتين قصيرتين مترجمتين .

وقت الحب قصير ..!

بدأ المستشفى في هذا اليوم من أيام الشتاء البارد القاتم ، هادئا لاشيء فيه يثير الازعاج ، إلا انه كان هدوءا اشبه بالهواء الساكن الذى يسبق العاصفة .. كانت الساعة قد جاوزت التاسعة مساء ، عندما أسرع الطبيب الى الغرفة رقم ٧١٢ ، وفتح الباب في هدوء ، واتجه الى حيث رقد المريض الذى نقل الى المستشفى منذ لحظات ووضع السماعة على صدره فوق مكان القلب تماما وراح ينصت ... القلب ينبض قويا ، ربما ببطء ، ولكنه ينبض .. لا شيء يوحي بأن صاحبه قد أصيب بنوبة قلبية حادة منذ بضع ساعات .

واعاد الطبيب الغطاء فوق جسم المريض وهم بترك الغرفة ، ولكنه ما لبث ان توقف عندما أحس بيد ضعيفة تمسك بطرف معطفه .. وتطلع إلى وجه صاحبها .. كانت عيناه غارقتين في الدموع .

وبدأ يتكلم في صوت خافت متردد : « ارجوك يادكتور .. اتوسل اليك ان تتصل بابنتي تلفونيا .. انني اعيش وحدى وليس لي في هذه الدنيا سواها ... انها كل أسرتي ! » وعاد اليه الهدوء وشبح ابتسامة خافتة على وجهه الضعيف ، ولكن شفتيه كانتا ترتجفان ، ونبضه بدأ يسرع .. فقد كان يتعجل هذا اللقاء .

وقال الطبيب : « بكل تأكيد ياسيدى .. سوف اتصل بابنتك فورا » .

وامسك بطرف الغطاء ، ومال بجسمه الى الامام ، وتمنى في هذه اللحظة لو أنه استطاع ان يصل هو الى التليفون ليقول لابنته انه يريد ان يراها .. وقال اخيرا : « هل تتصل بها الآن يادكتور .. أرجوك » وتلاحقت انفاسه سريعة .. سريعة جدا .

ومد الطبيب يده يربت بها على كتفه : « بكل تأكيد . بكل تأكيد .. كل ما أرجوه منك الآن ان تحاول ان تستريح .. » وفي هدوء اطفأت الممرضة الضوء ، وبدا



وكأنه يحاول ان يغمض عينيه .. كان في الخمسين من عمره او ربما تجاوزها بقليل ...

ولكن الممرضة لم تغادر الغرفة .. اتجهت في هدوء الى النافذة .. ومن وراء الزجاج رأت الغيوم الباردة تغطي سماء الليل وفجأة تذكر شيئا ، وأحست به وهو يتقلب في فراشه ، وجاءها صوته ضعيفا متوسلا « هل تستطيعين ان تأتي لي بورقة وقلم ، ووضعت الممرضة يدها في جيبها واخرجت قلمها وقطعة من الورق ، وضعتها على المائدة الصغيرة بجوار فراشه .. ثم نظرت اليه وابتسمت وتركته وحده ليستريح !

وسمعت صوتها أخيرا .. صوت ابنته بعد ان اعطاها الطبيب رقم تليفونها وطلب اليها ان تتصل بها ، وقالت :
ـ « إنني الممرضة ياسيدتي .. لقد نقل والدك الى المستشفى الليلة إثر إصابته بنوبة قلبية بسيطة .. » ولم تكمل الممرضة حديثها ، فقد قاطعتها الابنة وهي تصرخ : « هل مات أبي ؟ انه لم يمت اليس كذلك .. أرجوك ! كان في صوتها توسل وكان فيه شيء آخر لم تفهمه الممرضة حتى هذه اللحظة .

ـ لا إن والدك لم يمت ياسيدتي ، وهي يلقى كل رعاية !

ـ ارجوك لا تتركيه يموت .. لا تدعيه يفترق عني !

وارتعشت سماعة التليفون في يد الممرضة .. وهي تؤكد للابنة ان والدها بخير !

وعادت الابنة تكمل حديثها وهي تبكي : « هناك شيء يجب ان اقوله لك .. شيء هام جدا .. لقد تشاجرت مع أبي منذ عام تقريبا ، ولم أره طوال هذه الفترة الماضية .. كنت طوال هذا الوقت أرغب في العودة اليه واطلب منه ان يصفح عني .. ولكنني لم افعل .. هل تعرفين ماذا كانت آخر كلمة قلتها له قبل ان نفترق : « انني اكرهك نعم اكرهك يا أبي » ثم تركت البيت لاقيم مع احدى صديقاتي في الجامعة » .

ولم تسمع الممرضة كلمة واحدة بعد هذا الحديث ، فقد راحت الابنة تجهش بالبكاء ، ثم انقطع الاتصال التليفوني ...

لا بد انها في طريقها الآن الى المستشفى ....

وعلى مقعد قريب ، جلست الممرضة تجفف دموعها .. لقد كانت تبكي هي الأخرى ... أب وابنته وليس لديهما في هذا العالم شخص ثالث ينتميان اليه او ينتمي اليهما .. ووجدت نفسها بالرغم منها تفكر في ابيها هي الذي تفصله عنها مئات الاميال .. ترى متى كانت آخر مرة قالت له فيها : « انني أحبك يا أبي » وعادت الى منديلها تجمع به دموعها التي كانت تسيل على وجهها

دون أن تدري .

وقفزت من مقعدها واتجهت فورا عائدة إلى الغرفة رقم ٧١٢ ، واضاءت النور .. واقتربت من الفراش ، وأحست بقدميها تتسمران في الارض .. إن الاب المسكين لا يتحرك .. لا يتنفس لقد توقف قلبه المتعب . وبلا شعور اقتربت المرضة الى وجهه ووضعت شفتيها فوق شفتيه وراحت تنفخ الهواء بقوة الى رئتيه .. مرة ومرتين وعشر مرات .. ولكن قلبه بقي صامتا هادئا لا ينبض .. وجاء الأطباء والممرضات والمعدات .. وبدأت المحاولات من جديد .. تدليك القلب .. والصدمات الكهربية .. ولكن قلب الأب توقف تماما .. لقد فارق الحياة وبدأ الجميع يغادرون الحجرة التي دخلوها منذ ساعات في وجوم .. وبقيت الممرضة التي تعرف قصة الأب مع ابنته تنظر الى هذا الوجه الهادىء وهي تبكي .

وعندما تركت الغرفة ... لقيتها على بعد أمتار قصيرة من الباب ، وكان الطبيب يقف معها ثم تركها لتستند الى الحائط وقد امتلأت عيناها الجريحتان بالدموع ، فلم تعد ترى ، ولم تعد تسمع .. وامسكت الممرضة بيدها وقادتها الى غرفة استراحة الممرضات .. واجلستها على مقعد صغير .. ولكن احدا لم يستطع ان يخرجها عن صمتها .

واخيرا تكلمت : « لقد أحببته .. احببت ابي كما لم احب انسانا في الدنيا . ليته يعرف ذلك ليته يسمعني » .

ثم وقفت ، وقالت للممرضة : « خذيني اليه ارجوك »

ـ ولماذا المزيد من الالم ؟

وسارا معا عبر الممر الطويل الى الغرفة ٧١٢ ودخلت الابنة واتجهت الى الفراش الذى يرقد عليه الأب رقدته الاخيرة ودفنت وجهها في الغطاء الابيض وراحت تبكي وتبكي ..

وفجأة اصطدمت يد الابنة بقصاصة صغيرة من الورق فوق الفراش .. وفضتها .. انها تعرف هذا الخط .. انه خط والدها .. وراحت تقرأها بعينيها الغارقتين في الدموع ... واذا بها تقول ..

« ابنتي الحبيبة .. انني اصفح عنك .. وارجو ان تصفحي انت ايضا عني .. انا اعرف انك تحبينني .. انا أحبك .. احبك .. احبك .. »

وامسكت بالورقة الصغيرة تقبلها .. ثم انحنت تلثم اليد التي خطت هذا الكلمات قبل ساعات قصيرة من رحلتها الاخيرة .

وعندما غادرت الغرفة مع جثمان والدها في الصباح ، سمعت صوتا يقول : « إنني أحبك .. أحبك يا أبي هل تسمعني » . وبدا لها وكأنها هي صاحبة هذا الصوت ! ونظرت حولها فوجدت الممرضة تتحدث الى والدها في التليفون !

عن الـ ريدرز دايجست بتصرف

الشقيقتان

عاشت الشقيقتان التوأم ، ولكن كلا منهما في مكان يبعد عن الاخر بآلاف الاميال .. احداهما مع الام في ضاحية صغيرة من ضواحي مدينة جلاسجو بانجلترا .. والثانية مع الاب الذي حملها وهاجر بها الى استراليا .. فقد انفصل الزوجان بالطلاق بعد ان رزقت الام طفلتيها التوأم باربعة اعوام ! وافترقت الطفلتان بدورهما !

وكانت « سيلفيا » التي تعيش مع امها اسعد حالا بكثير من شقيقتها ماريون التي سرعان ما وجدت نفسها تعيش في بيت غريب ومع امرأة غريبة تزوجها الأب روبنسون بعد وصوله الى استراليا لتعتني به وبابنته الصغيرة . فقد دخلت سيلفيا المدرسة وتعلمت ، وعاشت امها لها وحدها ، وكانت امرأة عاملة ، وكان دخلها من وظيفتها يكفيها ويزيد ..

وانهت الفتاة تعليمها الثانوي ، وحاولت ان تلتحق بعمل كي تريح امها المتعبة .. ولكن الام صممت على ان تكمل ابنتها تعليمها الجامعي ! وتخرجت الفتاة في كلية الطب .. وارتاحت الأم اخيرا بعد ان احست انها قد

ادت رسالتها ولكن صورة ابنتها الاخرى ماريون لم تغب عن عينيها لحظة واحدة طوال هذه الاعوام .. لا هي ولا شقيقتها التي كانت تجلس امام امها تستمع اليها وهي تحكي لها ذكرياتها معها ، خلال السنوات القصيرة التي عاشتها معها ، وكيف كانت تخلط بينهما اذا نسيت ان ترسم علامة صغيرة على قدم احداهما ، في مواعيد ارضاعهما ! فقد كانا توأما متشابها « تماما » شيء واحد بدأ يميزها قبل رحيل ماريون بأشهر قليلة .. وهو انها كانت اقل سمنة من شقيقتها ، فقد بدأت تفقد شهيتها للأكل وكأنها كانت تشعر انها سوف تفترق عن أمها !

وقررت سيلفيا ان تبدأ في البحث عن شقيقتها .. ولكن كيف . ومن اين تبدأ .. واتجهت الى الصحف ، وبعثت اليها بصورتها هي ، أليست ماريون هي شقيقتها التوأم .. اذن فلا بد انها ستكون صورة طبق الأصل منها .. وكتبت تحت الصورة تدعو صاحبتها الى مراسلتها .. ووصلت الصحيفة الى استراليا ، والى الشقيقة الغائبة التي حملتها في لهفة وذهبت بها الى والدها تسأله : « لماذا تنشر الصحف صورتي ؟ قل لي يا أبي . ولكن هذه الصورة اجمل مني بكثير .. كيف حصلوا عليها ؟ انا لم اذهب الى مصور ابدا ! »

ويبتسم الاب في خبث ، ويقول لابنته : « انا التقطت لك هذه الصورة .. انها جميلة مثلك يا حبيبتي ! » ويسكت ، وتسكت الفتاة التي بلغت الثامنة والعشرين من عمرها . فقد كانت تجهل القراءة والكتابة .. انها لم تذهب الى المدرسة ، فقد كان هناك عمل آخر ينتظرها في البيت بعد وصول هذه السيدة الغريبة اليه .. كانت « خادمة » لها !

وتمر بضعة اشهر .. وتعود سيلفيا من عملها الى البيت وتقول لأمها : « سأسافر الى استراليا يا امي في مهمة تتعلق بعملي .. هل تحدث معجزة واعثر على شقيقتي ؟ صلي من اجلي !

وسافرت سيلفيا .. وفي حقيبة يدها الصغيرة صورة لها مع شقيقتها منذ اكثر من ربع قرن من الزمان .. وهبطت الطائرة في ملبورن وفي المطار سمعت الفتاة اسمها ينقله الميكروفون : « مس روبنسون .. نرجوك التوجه الى استعلامات المطار .. هناك رسالة عاجلة لك من لندن ! » وتسرع سيلفيا الى الاستعلامات .. ثم تقف فجأة وقد تسمرت قدماها بالارض .. ماذا حدث ؟ لقد وجدت نفسها تقف وجها لوجه ولأول مرة امام شقيقتها التي افترقت عنها طوال هذه الاعوام فهي ايضا مس روبنسون وما كادت تسمعهم ينادون اسمها حتى أسرعت تلبي النداء وأحست وكأنها تنظر الى وجهها في المرآة .. نفس الابتسامة .. نفس العينين .. كل شيء فيها .. يا الهي حتى الفستان الذي ترتديه كان من نفس القماش ونفس اللون تقريبا .. والقت بنفسها بين ذراعيها .. وماريون في ذهول : « انا شقيقتك .. انا اختك يا حبيبتي ! وروت لها القصة كاملة ! فقد اخفى عنها والدها كل شيء عن اختها وامها ..

ـ وما الذي جاء بك الى المطار في هذه الساعة ؟

ـ جئنا نودع « والدتي » .. فقد قررت ان تعود الى سيدني بعد ان انفصلت عن ابي بالطلاق !

ـ والدتنا يا حبيبتي في جلاسجو وهي تنتظر عودتك معي ، ثم اخرجت الصورة من حقيبة يدها !

وعادا معا .. ولكنها لم ترامها ، فقد كانت الرسالة العاجلة تحمل لها النبأ الحزين : « لقد ماتت امك هذا الصباح اثر اصابتها بنوبة قلبية ! » ■■

■ تعلم كيف تتقبل الامور التي لابد من حدوثها ، حتى تستطيع ان تحولها الى شيء تستفيد منه .

« تاليران »



سفراء الكويت في الجامعات المصرية

استطلاع : صادق يلي

تصوير : صلاح آدم

المكتبة والكتب والمراجع هو الشغل الشاغل لطلبتنا وطالباتنا الذين يدرسون في جامعات مصر ، هذه المكتبة وضع بذرتها الرعيل الأول من خريجي هذه الجامعات أمثال عبد العزيز حسين وأحمد مشاري العدواني وعبدالله زكريا الأنصاري .





مشرفة سكن كاظمة تسأل احدى الطالبات عن مواعيد ذهابها وخروجها من وال الجامعة .

هم شريحة من جيل الشباب الكويتى الذى شد رحاله لأجل الدراسة والتحصيل

والكويتيون رحالة وجوالون منذ الزمن القديم ، رحالة فى عرض البحر وأعماقه . كما أنهم رحالة فى أرجاء الدنيا ... ولايزالون .

ومنذ ثلاثينات القرن الحالى وقوافل الدارسين تخرج من الكويت الى العواصم العربية فى طليعة القافلة الأولى كان « الطلاب » عبد العزيز حسن وأحمد مشارى العدوانى وعبد الله زكريا الانصارى وعبد العزيز الفريلى ويوسف مشارى البدر ، وصالح شهاب ... وهم جميعا يحتلون الآن مواقع متقدمة فى مختلف مجالات المسئولية بالكويت وعلى رأسهم وزير الدولة عبد العزيز حسين ... على الطريق ذاته مضت قوافل اخرى ولاتزال . أول قافلة نسائية رحلت للدراسة فى القاهرة عام ١٩٥٥ وكانت تضم سبع فتيات ، فضة أحمد الخالد وفاطمة حسين القناعى وليلى محمد الحسين القناعى ونورة مبارك الفلاح ونورة محمد ونورة مبارك الفلاح ونورية يوسف الحميضى وشيخة أحمد العنجرى ونجيبة محمد جمعة .

وفى سنة ١٩٥٩ عمدت وزارة التربية الى تنظيم البعثات الدراسية المرسلة الى الخارج بعد أن كانت ترسل جميع الحاصلين على الشهادة الثانوية العامة فى بعثات دراسية للخارج ففى تلك السنة وضع نظام خاص للبعثات ففى تلك السنة وضع نظام خاص للبعثات الدراسية حددت فيه نسبة المستفيدين من تلك البعثات بحوالى ٨٠٪ من القسم العلمى و ٧٠٪ من القسم الأدبى ، بينما ترسل جميع الطالبات الحاصلات على شهادة الثانوية العامة بقسميها الأدبى والعلمى .

وكان لافتتاح جامعة الكويت الاثر الكبير فى تقليل عدد البعثات الطلابية الى الخارج فلم تعد وزارة التربية ترسل أية بعثات لكليات الآداب والعلوم أو لكليات الحقوق والتجارة والاقتصاد واقتصرت البعثات على الكليات العلمية والفنية التي لم تنشأ بعد فى جامعة الكويت مثل كلية الطب والصيدلة وكلية الهندسة وغيرها من التخصصات العلمية والفنية المتعددة التى تحتاجها الكويت فى مختلف الميادين ويلاحظ أنه إثر اقرار النظام الجديد للبعثات زادت نسبة اعداد الطلبة الذين يدرسون فى الخارج على نفقتهم الخاصة ، فوزارة التربية لم تعد ترسل بعثات دراسية لدراسة متوفرة فى جامعة الكويت كما أن جامعة الكويت حددت نسبة القبول بالجامعة بحوالى ٥٥٪ فأكثر ولذا تضطر الفئة التى لا تحصل على المجموع المناسب الى الدراسة فى الخارج على نفقتها الخاصة أو نفقة جهات أخرى تقدم منحا دراسية سنويا مثل مؤسسة الخطوط الجوية الكويتية وشركة البترول الوطنية والهيئة العامة لمنطقة الشعيبة الصناعية وشركات أخرى مساهمة .

سكنات الطالبات

والطالبات الكويتيات اللآتى يدرسن فى جامعات مصر يسكن فى ثلاثة مساكن أو سكنات كما يطلقون عليها ، فهناك سكن الجهراء وسكن صباح السالم وسكن كاظمة . يقوم بالاشراف المباشر على هذه المساكن المكتب الثقافى فى السفارة ، تقول السيدة سهيلة عبد الله النورى المسؤولة عن سكن الجهراء ، وكاظمة ، ان الطالبات يدرسن دراسات مختلفة فى كافة مناحى العلم

من نشاطات اللجنة الثقافية لطلبة جامعاوطالبات الكويت



السيدة سهيلة النورى المسؤولة عن سكن الطالبات





الاستاذ أحمد الدويسان الملحق الثقافي : نعمل على تلافي أي نقص وحل أي مشكلة تعترض سبيل طلبتنا .

وأكثر هذه الدراسات دراسات علمية مثل الطب والصيدلة وطب الاسنان والهندسة . وهناك دراسات فنية وفنون جميلة ودراسات أدبية مثل وثائق ومكتبات وخدمة اجتماعية وتتابع السيدة سهيلة النوري حديثها فتقول : اننا نقوم بالاشراف على جميع النواحي التي تخص الطالبات من تسجيلهم ومتابعة نتائجهم وحل مشاكلهم ان وجدت كما تقوم المشرفات على السكن بالاشراف على الجوانب الصحية والاجتماعية والنفسية وتغذيتهم ونظافة المكان وكل ما يخص الطالبات من هذه النواحي فكل طالبة لها غرفة خاصة ، فيها كل ما تحتاجه من خزانات ملابس ومكتبة وخزانة كتب وتسريحة وهي في جملتها ممتازة ، وعلى كل خمس غرف عاملة نظافة تقوم بتنظيف الغرف وغسل ملابس الطالبات وكيها ، كما أن لكل سكن ثلاث مشرفات وكل مشرفة مسؤولة عن جانب خاص بها ، فهذه مشرفة على التغذية وأخرى على النظافة وثالثة مسؤولة على السيارات ومواعيد خروج الطالبات الى الجامعة ورجوعهن الى السكن .

وتقوم سيارات خاصة لنقل الطالبات من مساكنهن الى كلياتهن في المواعيد المناسبة لكل طالبة ، كما ان هناك فرقة خاصة لكل سكن من الطباخين لتجهيز الوجبات الغذائية الكويتية وهم على مستوى جيد كما يتوفر في كل سكن قاعات للمذاكرة وصالات استقبال تتوفر فيها أجهزة التلفزيون والراحة أما الحفلات الاجتماعية والترفيهية فانها تقام عن طريق اتحاد الطلبة فرع القاهرة حيث يقدمون حفلات سمر وتعارف أو رحلات جماعية ترفيهية الى خارج القاهرة وخاصة أيام العطلات والأعياد وفي بعض الأحيان تقام بعض الحفلات الترفيهية داخل سكن الطالبات وذلك بمناسبة رأس السنة والاعياد الاسلامية كعيد الفطر وعيد الأضحى ، وتسترسل السيدة سهيلة النوري في كلامها تقول : ان الطالبات ولله الحمد ينلن القسط الوافي من العناية والرعاية وهن جديرات بهذا الاهتمام فهن مجدات ومتفوقات في دراستهن يقدرن المسؤولية ونحن نعتز بهن أيما اعتزاز .

تقول السيدة شريفة يوسف المعتوق وهي أم وطالبة دراسات عليا تحضر رسالة ماجستير في علم اللغة عن لهجة العجمان في الكويت انني افضل حياة السكن لتفرغي الكامل للدراسة وهذا الجو يساعدني كثيرا للتفرغ للدراسة والبحث ولا يشغلني عن شيء آخر الا الدراسة والدراسة فقط ، وان انتاجي وأنا في بيت الطالبات يتضاعف عنه وأنا في سكن خاص لتوزع المسؤولية في البيت بين الأولاد والزوج ، وأقولها كلمة حق انني لا أحس بأية نواقص من أكل وشرب ومواعيد مضبوطة وهذا عامل كبير لأنجز ما أريده لهذه الدراسة .

أما الآنسة نديمة سليمان القناعي وهي طالبة في كلية طب الاسنان في جامعة القاهرة تقول : ان السكن يوفر لنا كل احتياجاتنا وخاصة مواعيد ذهابنا وخروجنا من والى

في مطعم سكن الجهراء مجموعة من الطالبات يتناولن وجبة الغداء





الملحق الصحي الاستاذ عبد اللطيف المنصور: مكتبنا الصحي في القاهرة جانب مشرق من جوانب نهضتنا المباركة.

في مختبر التحليلات ممرضة مختصة تأخذ عينة من دم احدى الطالبات لتحليلها.





الدكتور حسن العوضي المستشار بمكتب الكويت الصحي بالقاهرة يقوم بارشاد المرضى الموفدين للعلاج في مصر .



طبيب الاسنان يقوم بعلاج احدى الطالبات .

الجامعة ولا ينقصنا أي شيء وليس علينا الا الاهتمام بالدراسة واستذكار المحاضرات . لقد اخترت هذه الدراسة في مجال طب الأسنان لأنه جانب متقدم في الدول الأجنبية أكثر من دول عالمنا العربي ، وان الأسنان تلعب دورا هاما في صحة الانسان مثل أمراض السكري والقلب . والحقيقة أن هناك بعض الصعوبات في حصولنا على الأدوات الطبية كما أنها غالية الثمن وغير متوفرة بصورة سهلة لذلك أرجو من وزارة الصحة في الكويت أن تعيرنا هذه الأدوات كي نستفيد منها على أن تسترجع بعد الانتهاء من دراستنا لهذا النوع من الطب .

أما الطالبة ابتسام عبد الله السويدان وهي الأخرى طالبة في كلية طب الأسنان فتقول : ان السكن يوفر احتياجاتنا العامة والخاصة الى جانب الترابط الأسري الموجود بين الطالبات فانه يعطينا احساسا بأننا بين أهلينا وذوينا ، الملحق الثقافي دائما يتابع السؤال عنا وعن سير دراستنا والحقيقة أنه لايوجد أي تقصير واذا وجد فانهم يحاولون تذليله وملافاته ، العيب الوحيد هو عدم حصولنا على نتائج العام الدراسي بالسرعة المطلوبة ، كما اننا نلاقي صعوبة في حصولنا على الأدوات الطبية التي نحتاجها في دراساتنا اضف الى ذلك بأنها باهظة الثمن .

أما الآنسة عزيزة خميس الزعابي وهي طالبة في كلية التربية الرياضية : انها سعيدة بوجود هذه المجموعات المتآلفة من الطالبات مما يخلق روحا جميلة من الترابط الروحي بيننا ، ونحن على اتصال يومي دائم مع أهلنا في الكويت ، ونستطيع أن نسافر في أيام الاجازات الدراسية بكل حرية ومع ذلك يبقى شيء من الاحساس بالغربة ولكن هذا الاحساس نستطيع أن نتغلب عليه بتواجدنا هنا في السكنات وكذلك وجودنا في بلد عربي مسلم يخفف من هذا الاحساس .

طالباتنا وتخصصاتهم

يقول الاستاذ أحمد سعيد الدوسان الملحق الثقافي في سفارتنا في القاهرة : يبلغ عدد الطلبة والطالبات الذين يدرسون في الجامعات والمعاهد العليا المصرية ٦١٨ طالبا وطالبة منهم ٢٧٤ طالبا هم طلبة وطالبات بعثة و ١٧١ طالبا وطالبة يدرسون على نفقتهم الخاصة و ٨٨ طالبا يدرسون على نفقة سمو الأمير وسمو ولي العهد وبعض الشركات المساهمة والأفراد وهناك ٨٨ طالبا وطالبة مجازين دراسيا . معظم التخصصات دراسات علمية مثل الطب البشري وطب الأسنان فعندنا ١٠٣ طالبا وطالبة في كلية طب القاهرة و ٤٣ طالبا في طب عين شمس و ٤٦ طالبا في طب الاسكندرية وهناك مجموعة من الطلبة يدرسون في كليات الآداب بالاضافة الى ٢٧ طالبا وطالبة يعدون لدراسة الدكتوراه و ٦٣ للماجستير و ٢٠ للدبلوم . وحول شكوى بعض طلبة الطب من غلاء بعض الأدوات الطبية قال الاستاذ الدويسان : ان المسؤولين في وزارة التربية راعوا هذا الجانب فصرفوا لطلبة الدراسات العلمية مبالغ مناسبة ومكافآت سنوية تبلغ ٥٠٠ جنيه للدراسات العلية و ٣٠٠ جنيه لطلبة الدراسات النظرية و ٢٠٠ جنيه للأدوات العلمية و ١٠٠ جنيه للدراسات النظرية .. وعن تأخر وصول نتائج الطلبة قال الاستاذ الدويسان ان هذا التأخير سببه أننا نتسلم النتائج بعد اعتمادها رسميا من الجامعة وليس بعد تعليقها من هنا يأتي التأخير وخوفا من حصول أي

في الصالة الرئيسية لسكن كاظمة الطالبات في حديث عن الدراسة والمقررات





أمام سكن الجهراء السيارات المخصصة
لنقل طالباتنا الى الجامعة .

أخطاء فاتنا نقوم بتسلم النتيجة بعد اعتمادها رسميا ، واعتماد النتيجة الطبية بطبيعة الحال يأخذ بعض الوقت ، وهذا هو سبب التأخير ، والحقيقة أن طلبتنا نتائجهم جيدة ويبدون تفوقا ملحوظا في كافة الدراسات التي يوفدون من أجلها ، ونحن هنا نحاول تذليل كل الصعوبات قد تواجه طلبتنا من نواح دراسية أو أمنية .

نشاطات الاتحاد

يقوم الاتحاد العام لطلبة الكويت في القاهرة بعدة نشاطات طلابية فالهيئة الادارية للاتحاد هي المسؤولة عن النواحي الادارية في الاتحاد وهي منتخبة من الجمعية العمومية التي تعقد سنويا لانتاج هؤلاء الاعضاء . وهناك عدة لجان منها اللجنة الثقافية واللجنة الاجتماعية الرياضية ولجنة شؤون الطلبة فاللجنة الثقافية مثلا تقوم باصدار مجلة الندوة تتناول بعض المقالات الثقافية والاجتماعية والدينية ثم اصدار مجلة حائط . كذلك قامت ندوات دينية وثقافية بالاضافة الى اقامة معرض للكتاب . أما اللجنة الاجتماعية تقوم

بتنظيم الحفلات ومن ضمنها الحفل السنوي وحفلات التعارف للطلبة المستجدين وحفلات تكريم الخريجين ، كما أن الهيئة الادارية تقوم بتنظيم رحلة سنوية في اجازة نصف السنة الى بلد تقرره الهيئة الادارية وتقوم بدفع جزء رمزي مساهمة منها في تنظيم هذه الرحلة . وهناك رحلات داخلية وهي رحلات ترفيهية وعلمية داخل جمهورية مصر والقصد من ذلك خلق روح الاخوة بين الطلبة ، أما اللجنة الرياضية فهي تهتم بأنشطة الطلبة الرياضية وإقامة دورات رياضية في تنس الطاولة والسلة واليد كما تصدر مجلات حائطية توضح فيها معالم أنشطتها الرياضية وتهتم كذلك بجلب أشرطة الفيديو لعرض المباريات الرياضية ومتابعة الرياضة في الكويت ومن الجدير بالذكر أن الهيئة الادارية لفرع الاتحاد الوطني لطلبة الكويت في القاهرة تقوم باجتماعات دورية مع الملحقين الثقافيين يدور البحث خلالها على المشاكل والصعاب التي تعترض الطلبة اثناء دراستهم ، ثم ايجاد الحلول المناسبة لهذه المشاكل

المكتب الصحي

من النشاطات الكويتية ذات الاهمية البالغة في هذا الاطار ، افتتاح المكتب الصحي سنة ١٩٧٦ الذي يستهدف علاج الطلبة والطالبات والاشراف عليهم صحيا ، ويشتمل هذا المكتب على عيادة باطنية وأطفال وجراحةوامراض نساءواسنان ومعمل للتحاليل الطبية وصيدلية كما يقوم المكتب الصحي بالاشراف على علاج المرضى الذين تبعثهم وزارة الصحة في الكويت للعلاج في مصر وكذلك تسهيل مهمتهم العلاجية وحجز الغرف في مستشفيات مصر ، ويقوم المكتب بعلاج بعض الحالات الطارئة للمواطنين الكويتيين المتواجدين في مصر ، ويحوي المكتب كذلك على مكتبة طبية تشتمل على بعض الأجهزة الطبية الحديثة والمراجع الدراسية القيمة ، يحرص طلبة الطب في الجامعة على مراجعتها والاستعانة بها في دروسهم وبالاضافة الى ذلك فان المكتب الصحي يقوم بعقد لجان للمرضات والاطباء الذين يوفدون للعمل في مستشفيات الكويت ويقوم بمهمة تسهيل سفرهم كما يشرف المكتب على جميع العاملين في بيوت الطالبات من الناحية الصحية ويجري لهم كشوفا دورية سنويا ، ويقوم كذلك بالاشراف على اختيار الأطباء والممرضات والفنيين للعمل في مستشفى الكويت في الجمهورية العربية اليمنية . ■■

صادق يلي







يقضى معظم طالباتنا جزءا من وقت فراغهم ف مقر اتحاد الطلبة فرع القاهرة حيث تتوفر بعض الألعاب المسلية . كتنس الطاولة والفليبرز . (الى اليمين)

احدى طالبات سكن الجهرا تتناول وجبة الغداء ف مطعم السكن .



مجموعة من طلبتنا أمام مقر اتحاد الطلبة ف القاهرة

● حل مسابقة العدد ٢٧٠ ●

١٥	١٤	١٣	١٢	١١	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
ن	ا	م	ر	ج	ل	ا	■	ن	و	د	ى	س	و	ب	١
ت	ن	و	د	■	ا	ه	■	ى	■	ن	ج	ت	ن	ر	٢
ا	ك	ن	ى	م	و	د	■	ا	م	■	ا	■	د	ش	٣
■	ا	ت	■	ن	س	ا	■	ج	ن	ا	ر	ج	ا	ل	٤
ا	ر	ف	ا	س	■	ب	ع	ر	■	ه	ى	ا	ل	و	٥
ل	■	د	ل	ق	ا	■	ب	ا	ع	ل	■	ب	■	ن	٦
د	ا	ى	ج	■	ل	ب	ا	■	ق	■	ن	ر	و	ه	٧
س	ن	و	ى	ن	ب	ن	س	ح	ل	ا	و	ب	ا	■	٨
ت	ج	■	ن	و	ر	ك	ب	ى	■	ى	ا	ن	ل	ا	٩
و	ل	■	ا	ه	ا	ر	ن	■	ن	و	ل	ح	ت	ى	١٠
ر	ى	س	ت	■	ن	ى	ف	ا	ر	ب	■	ى	ر	ن	١١
■	ك	د	■	ل	س	ا	ر	ت	ن	■	ع	ا	ر	ش	١٢
ن	ا	ى	ع	ى	■	س	ن	ا	■	ه	ف	ن	ا	ت	١٣
ه	ن	د	ه	ل	ا	■	ا	ب	ظ	ا	و	■	ل	ى	١٤
ر	■	ه	د	■	ر	ى	س	ع	■	ن	ت	و	ى	ن	١٥

أُفقيا :

أبو الحسن بن يونس

رأسيا :

عباس بن فرناس

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : أبو الحسن بن يونس . ينتمي الى أسرة يمنية استوطنت مصر درس الفلك والرياضة ، وساعد على اختراع اللوغاريتمات . ومن أشهر مؤلفاته كتاب « الزيج الحاكمي الكبير » . وينسب اليه اختراع رقاص الساعة .

(٨) رأسيا : عباس بن فرناس . نشأ في قرطبة ، وكان شاعرا وفيلسوفا ، وعالما بالفلك ، ومخترعا . يقال انه أول من استخرج الزجاج من الحجارة بالاندلس . يرتبط اسمه بالطيران ، اذ حاول الطيران بأن كسا نفسه بالريش ، وعمل لنفسه جناحين .

الفائزون بالمسابقة

■ الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : منى جاسم النصراوي بصرة / العراق .
■ الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : مجدي محمد امين اسلامي ـ جدة / السعودية .
■ الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : ابراهيم عبد الحميد عبد الفتاح ـ ابو ظبي / الامارات

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

١ ـ محمد عبده عبد الرزاق ـ عدن / اليمن الديمقراطي .
٢ ـ عبد الرزاق كمون ـ صفاقس / تونس .
٣ ـ احمد حسين حمدان ـ الزرقاء / الاردن .
٤ ـ محمد تاج الدين آلا ـ حلب / سوريا .
٥ ـ عوض حسن سليمان ـ اسوان / مصر .
٦ ـ قتيبة علي الدوب ـ ضاحية عبد الله السالم الكويت .
٧ ـ كوزي الشريف ـ تطوان / المغرب .
٨ ـ محمد علي الشامي ـ صيدا / لبنان .

الأزهار في عيون الحشرات تختلف عمّا يراه الإنسان

بقلم : الدكتور صلاح بركات

ليس صحيحا ان الوان الازهار تمتع اعين الناس وحدهم ، لان لها وظيفة لا تقل اهمية لا تخاطب البشر ، ولكن تخاطب الحشرات بالدرجة الاولى .. ولكن ، هل ترى الحشرات الوان الازهار كما نراها نحن ؟؟

إن التركيب الحيوي ، وخاصة الشكلي للازهار ، مرتبط إلى حد بعيد بسلوكية الحشرات فحبوب اللقاح ـ حبات الطلع ـ والغدد الرحيقية ، والروائح تعمل على جذب الحشرات ، وانتقالها من زهرة لاخرى ، وكذلك تلعب الالوان الزاهية للازهار ـ خاصة بتلاتها ـ دورا هاما في هذا المجال . رغم أنه لا يشترط أن ترى الحشرات ألوان الازهار بالالوان التي نراها نحن . فالازهار التي نقول بأنها ذات لون أبيض ، قد تراها الحشرات بلون آخر ، فلو قدر للنحل الكلام لقال بأنها ذات لون ازرق مخضر ؟! ربما !! ولم لا !! ربما عيونه لا تخدعه كما تخدعنا السراب مثلا ؟ ونظرا لتجنب الحشرات الاماكن المظلمة فإن الازهار تسعى لايصال الضوء إلى أعضاء التكاثر الموجودة في مركزها بطرق متعددة منها :

ـ أن ألوان بتلات الازهار (مفردها بتلة) ، وهي التي تعطي لون الزهرة الساحر) غالبا ما تساعد على نفوذ الضوء ، فلا تتلون بألوان قاتمة ، ممتصة بذلك جميع الاشعاعات الضوئية .

ـ تتخذ الازهار أشكالا تسهل دخول الضوء إليها كما في نبات « الجريسة » (صورة ١) فأزهاره مفتوحة لاقصى درجة حتى يستطيع استقبال أكبر كمية من الضوء .

ـ كما نجد أن هناك بعض الازهار التي تتبع حركة الشمس في السماء ، فصباحا تكون في جهة مشرقها ، ومساء في جهة مغربها ، كما في حالة النبات « عباد الشمس » . إن وصول الضوء بشكل واف للزهرة يكسبها لمعانا وبريقا ، مما يجعل الحشرات تتهافت عليها .

وظاهرة تمييز الالوان عند الحيوانات ، يجعل بعضها يميل إلى ألوان معينة ، فنجد أن العصافير والطيور تقوم بتلقيح أزهار نبات العايق الاحمر في أمريكا ، بينما يقوم النحل بتلقيح السلالات الزرقاء من نفس النبات في بريطانيا ، بالرغم من أن لكلا السلالتين نفس الشكل والتركيب للازهار ، والفرق الوحيد بينهما هو اختلاف اللون . ولما كانت حشرات النحل تقوم بالعبء الاكبر من عمليات تلقيح النباتات ، بمقارنتها ببقية الحشرات ، بسبب جسمها الممتلىء ، والمغطى بالاوبار (صورة ـ ٢) ، فإننا نجد أنه من المهم دراسة ظاهرة تمييز الالوان عند النحل ، لان هذه الظاهرة ترتبط ، ارتباطا وثيقا بعمليات اللقاح .

النحل والالوان

أوضح كريستيان سبرنجل في كتابه المنشور سنة ١٧٩٣ ، ان تعدد الوان الازهار لم يكن إلا من أجل الحشرات ، إلا أنه لم يبين فيما اذا كانت رؤية الالوان عند الحشرات تماثل رؤيتها عند الانسان ، بمعنى أن الانسان حينما يرى زهرة حمراء فإن الحشرة تراها بنفس هذا اللون أيضا .

أما كارل فون هسي فقد بين في تجاربه المنشورة عام ١٩١٢ حول « تمييز الالوان عند النحل » بأن النحل لا يدرك أو يميز الالوان ، فقد كتب قائلا:

(من المعلوم أن التجارب التي أجراها سبرنجل كانت ترتكز على أن زيارات الحشرات للازهار ليس سببه إلا رؤية الحشرات لالوانها ، ورؤيتها هذه تتطابق مع رؤية الانسان لهذه الالوان . لكننا لا نستطيع الجزم بأن الالوان البهية والساحرة لعين الانسان ، تكون كذلك لعين الحشرات ، كما أن تواجد حاسة إدراك الالوان



نبات الجُرَيسة ذو الأزهار الشبيهة بالجرس



تتميز حشرة النحل بجسمها الممتلئ والمغطى بالأوبار .

تظهر زهرة الخشخاش المنثور للنحل بلون فوق بنفسجي يرمز له بلون رمادي غامق (داخل الدائرة) .





أرض معشبة خضراء اللون

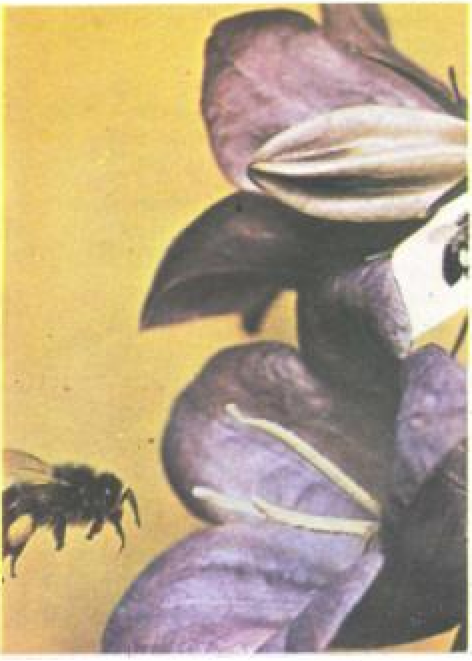
تظهر لأعين النحل رمادية باهتة





تظهر لعيون النحل أزهار أشجار الفاكهة
البيضاء بلون أزرق مخضر (داخل الدائرة)

يرى النحل أزهار الدورونج
بألوانها الحقيقية الصفراء .



لا تتغير رؤية ألوان زهرة نبات الجريسة الزرقاء
البنفسجية اللون عما هي في حالتها الطبيعية !



وتمييزها عند الحشرات ، تماثل ما عند الانسان ، فهذه الفكرة بعيدة عن الواقع أيضا ، وبحسب نتائج تجاربي فإن ما اقترحه سبرنجل مستبعد نهائيا .

ولو بحثنا بشكل مختصر في تركيب الضوء ، لوجدنا أنه مؤلف من إشعاعات مرئية ، أمواجها ذات أطوال مختلفة ، تقاس بأجزاء من البليون من المتر (ج . ب . م .) فالانسان يدرك الطيف من الاشعة الشمسية الواقع ما بين ٣٨٠ ـ ٧٨٠ ج . ب . م .) والاشعاعات التي أطوال أمواجها ما بين ٣٠٠و ٣٨٠ ج . ب . م . تكون اطوال أمواجها ما بين ٧٨٠ و ١٢٠٠ ج.ب.م.) ويتضح لنا من ذلك بأن الانسان لا يرى الاشعة تحت الحمراء ولا الاشعة فوق البنفسجية .

لو تساءلنا عن لون أزهار نبات الخشخاش المنثور مثلا والتي تبدو لنا بلون أحمر ، هل هي حقا حمراء اللون ؟! (صورة ٣) إن سطح بتلات أزهارها تستطيع امتصاص اللون البنفسجي ، والازرق ، والاخضر ، والاصفر لضوء النهار ، ولكن الضوء المرتد منها ، والواصل إلى عيوننا هو الضوء الاحمر ، ولهذا نرى أن لونها أحمر ، فما نراه من ألوان الاشياء ما هو إلا اللون المرتد منها . أما كيف يراها النحل فهذا ما بحث فيه كارل فون فريش استاذ علم الحيوان بجامعة ميونخ ، ونال على أبحاثه التي تدور حول الكيفية التي تؤدي أعضاء الحس عند النحل عملها ، جائزة نوبل للسلام عام ١٩٧٣ فقد كان فريش منذ بداية إجراء تجاربه ، غير مقتنع بأن النحل محروم من حاسة تمييز الالوان ، فاستعمل في تجاربه هذه ، الماء المحلى ، والعسل في أوعية زجاجية ، واستخدم أوراقا ملونة لقياس ردود فعل النحل ، تجاه الالوان ، ومع كثير من الصبر ، تبين له أن النحل يستطيع تمييز بعض الالوان وحتى القريبة من بعضها البعض ، كاللون الازرق والرمادي ، واتضح له أن النحل لا يحس بالاشعاعات التي لها أطوال موجات تتعدى الـ ٦٥٠ ج ب م رأي أن مدى الاحساس بالاشعاعات عند النحل يفوق إحساس الانسان بحيث أنها تحس بالاشعاعات فوق البنفسجية الموجودة ما بين ٣٠٠ و ٣٨٠ ج ب م ، والتي لا يشعر بها الانسان .

وكما نعرف فإن النحل يحط بشكل عادي على أزهار نبات الخشخاش المنثور ، أي أن النحل يستطيع أن يرى هذه الازهار ولكن بأي لون ؟! إن بتلات أزهار الخشخاش المنثور ليست ذات لون أحمر : بالنسبة للنحل ، لان اللون الاحمر ، ناتج عن موجات ذات أطوال ما بين ٦٥٠ و ٧٥٠ ج ب م ، وهذه تتعدى مقدرة ادراك الالوان عند النحل ، فلا تشعر بها ، لكن بتلات أزهار الخشخاش تعكس أيضا الاشاعات فوق البنفسجية ، التي لها أطوال ما بين ٣٠٠ و ٣٨٠ ج ب م ، والتي لها تأثير لوني في أعين النحل ، فترى لون الزهرة بلون الفوق بنفسجية كما في الصورة (٣) فالنحل والانسان يريا نفس الاشياء بلون مختلف .

إن ألوان أزهار أشجار الفاكهة البيضاء (صورة ٤) تظهر لعيون النحل وكأنها ذات لون أزرق مخضر ، وإن اللون الاخضر ، لون الحقول ولون أوراقه وسوق النباتات ، يبدو في عيونها بلون رمادي (صورة ٥) ، وهناك بعض الالوان يراها النحل كما نراها نحن ، فمثلا زهرة نبات الدوروني (صورة ٦) ، تظهر لعيون النحل بلونها الطبيعي ، وهو اللون الاصفر ، فإذا ما وجدت زهيرات داخل الحقول الخضراء ، فإنها تبدو للنحل بشكل بقع متميزة اللون على لوحة ذات لون رمادي .

إن النحل يستطيع تمييزا الالوان الزرقاء ، ولكننا لا نعرف بالضبط درجة ظهور هذا اللون في عيونه ، فأزهار نبات الجريسة الزرقاء البنفسجية اللون (صورة ٧) ، تبدو لعيون النحل بلونها الازرق ، ولكن في أية درجة ؟ هل هي ذات لون ازرق باهت ؟ أم ذات لون أزرق قاتم ؟ أم بين بين !! مما تقدم يظهر لنا بشكل واضح وجود القدرة والفعالية لدى النحل على تمييز الالوان ، كما نرى إن النباتات تظهر أزهارها بلون يخالف لونها المعتاد ، وهو اللون الاخضر ، مما يسهل على الحشرة تمييز الازهار عن بقية أعضاء النبات بسرعة ، دون إضاعة للوقت ، وبذلك تستطيع الحشرة زيارة أكبر عدد ممكن من الازهار خلال وقت قصير ، مما يؤدي الى رفع نسبة تلقيح هذه الازهار ، والنتيجة من التلقيح ، هو تكوين البذور اللازمة لاستمرار وجود النبات على الارض ، والتي تشكل أيضا الغذاء لكثير من الكائنات الحية .

وعن طريق البراهين التي أتت بها التجارب الحديثة والتي ، أثبتت صحة نظرية سبرنجل فإنه بذلك أصبح مؤسس علم بيولوجيا الازهار ، هذه البراهين أكدت أيضا بأن الوان الازهار الزاهية لم توجد من أجل عيون الانسان فقط ، وإنما قبل كل شيء من أجل عيون الحشرات ، التي تقوم بنقل حبوب اللقاح . أما نصيب الحشرات من هذه العملية فهو تأمين غذائها المكون من حبات الطلع ، ومن الوان الرحيق السكرية الطعم ، إضافة إلى الروائح التي تفوح من الازهار ، والتي يشارك الانسان الحشرات في الاستمتاع بها . ■■

د . صلاح بركات
مراكش ـ المغرب

نداء الهمس

يمينا كان سيرك ام يسارا   وجوًا طرت ام خضت البحارا
وخلفك ام امامك ما ترجي   ام الماضي بحاضرك استدارا
وربما كان خطوك حين تخطو   على الاحداث ام كان العثارا
فما هو في الخريطة غير خط   قد انفجر الطريق بيّ انفجارا
يؤدي ما استطال الى حفير   فندفن فيه كرها لا اختيارا
فكل واشرب ونم واطرب او احزن   مع الاطيار ليلا او نهارا
الينا خطوة لاذت بأخرى   متى طالت وقد كانت قصارا
انادي ام اجيب اذا دعاني   مناد ام اجاري ام اجارْى
وما لي والعواصف حين هبت   تريد بنا اليمين ام اليسارا
وكم من نملة وهبت جناحا   فطارت حيث لاتدري قرارا
وكانت قبل لا تشكو ضياعا   ولا تخشى البحار او القفارا
اذا ادى الجناح الى ضياع   فلا خفق الجناح ولا استطارا
ابالتحليق يدرك كل غور   اذا ما التيه بالابعاد غارا
تبارك من كسا خديك نارا   فعادت بعد لمسك جلنارا
وما يدريك انك قرمطي   كأحمد في الشباب دعا فثارا
ونودي « لا » فقال نعم ولكن   متى كان النداء « بلاء » عارا
وربّت دعوة لما تورات   تمردت الشعاب عن توارى
وكان الصمت يبتلع المنادي   فعاد الصمت قصفا واستعارا
وصاغ الشاعر المشروع همسا   يلوك الصمْت يلفظه شعارا
شعارا يولّدولاب سير من امام   وخلف فهو في الجهتين دارا
وفي فصل الشتاء له ربيع   ويشتو في الربيع فلا يبارى
ندى الخليات هذا ام صديد   فتمتصْ الشفاه له الشفارا
ليبرى في دماء القصد سما   فينهار البناء له انهيارا
وهل يختار حرٌ حين يدعى   اذا عبث النداء به وجارا
« تمتع من شميم عرار نجد »   فلا وابيك لن تلقى العرارا
تفاءل ما استطعت فكل شؤم   يزول اذا المجير له استجارا
ولا تسأل عن المعنى فقدما   اريد اللفظ للمعنى ستارا

■■

صنعاء ـ د . محمد عبده غانم

ألف التأنيث .. مقصورة وممدودة

علامات التأنيث في لغتنا كثيرة ، أوضحناها في صفحة سابقة « العربي ٢٦٨ » ومن هذه العلامات حروف التأنيث الثلاثة التاء ، والألف المقصورة ، والألف الممدودة التي تلحق الأسماء والصفات . وقد تحدثنا عن تاء التأنيث في صفحتين سابقتين « العربي ٢٧٠ ، ٢٧١ » ونتحدث هنا عن الألف مقصورة وممدودة » .

هذان الحرفان أقل استعمالا في لغتنا من التاء ، كما أنها قد سقطتا منذ قرون من لهجاتنا الدارجة ، بل حلت التاء محلهما في معظم الأسماء والصفات كما سنبين هنا ، وليس لهما أثر في سائر اللغات العروبية « السامية » .

واذا وجدت الألف المقصورة في بعضها فانها تؤدي معنى آخر غير التأنيث ، فهي في السريانية مثلا تزاد في آخر الأسماء للتوكيد أو التعيين ، وكانت قديما بمنزلة أداة التعريف ثم فقد فيها هذا المعنى ، والغالب على الأسماء مفردة وجمعا في السريانية أن تأتي في حالة التوكيد ، ويلاحظ في كثير من اللغات كالعربية والفرنسية والانجليزية أن الأعلام المؤنثة تنتهي بألف مقصورة .

ألف التأنيث المقصورة

تأتي هذه الألف في أوزان عدة ، وتكثر أمثلتها في بعض الأوزان وتقل أو تندر في بعض ، وأهم هذه الأوزان هو ما تكثر أمثلته ويشيع استعمالها لسهولتها والحاجة اليها ، وهذه الأوزان ثلاثة .

١) فُعْلى (بضم فائها) تكثر في الصفات والمصادر ، وتندر في الأسماء (والغالب أنها منقولة عن اسم أو مصدر) .

ومن الصفات (وتدل على التفضيل) أولى ، أخرى ، صغرى ، كبرى ، عظمى ، سعدى عزّى ، مُثلى عليا ، دنيا ، سفلى ، حسنى ، سوءى ، يمنى ، يسرى ، وسطى فضلى ، طولى .

ومن الصفات التي لا تدل على تفضيل : حبلى .

ومن المصادر : رجعى ، بشرى ، يسرى ، عسرى ، زلفى ، بؤسى ، نعمى ، قربى ، رحبى ، عمري ، رقبى ، طوبى (وقد تستعمل طوبى اسما) . ومن الأسماء : لبنى ، حبى ، عزى .

٢) فَعْلَى (بفتح فسكون) وتكثر أمثلتها في الصفات مفردة وجمعا ، وتقل في المصادر ، وتندر في الأسماء (الا أن تكون منقولة عن صفة أ مصدر) .

فمن أمثلتها في الصفات مفردة : شبعى ، عطشى ، ظمأى ، سكرى ، عجلى ، غيرى ، ومذكر هذه الصفات على وزن « فعلان » غالبا وقد تستعمل هذه الصفات نفسها صفة للجمع باعتبار أن كل جمع مؤنث .

ومن أمثلتها في صفات الجموع : قتلى ، جرحى ، ومرادفه : كلمى ، وحزنى ، صرعى ، هلكى ، زمنى ، حمقى ، ومرادفة نوكي .

ومن أمثلتها في المصادر : تقوى ، طغوى ، دعوى (وثلاثتها وردت في القرآن الكريم ») بلوى ، سلوى ، شكوى ، فوضى .

ومن أمثلتها في الأسماء : علقى ، أرطى (نوعان من النبات) أروى (أنثى حيوان كالغزال للمفردة والجمع) ليلى ، ريا ، .

٣) فَعَلى (بفتحتين) وتقل أمثلتها في المصادر مثل : حيدى ، جمزى ، بشكى (بمعنى السرعة ، ويستعملون المصدر هنا صفة للمؤنث والمذكر) ومثل : الوجلى (الوجل) ، والغزلى (الغزل) ، وقد استعملها بشار بن برد في شعره حين نهاه المهدي ـ ثالث خلفاء العباسيين ـ عن الغزل ، وأشار عليه الناصحون بالحذر من مخالفته ، فقال من قصيدة :

بقلم : محمد خليفة التونسي

والآن أقصر من « سمية » باطلي
وأشار « بالوجل » على مشير

ومن قصيدة أخرى :

على « القرّل » منى السلام ، فانني
أموت بها في ظل مرموسة زهر

وتندر أمثلتها في الأسماء ، ومنها : بردى نهر بالشام) والخطفى (جد الشاعر جرير)

٤) فِعْلى (بكسر فسكون) وتقل في المصادر ، وتندر في الأسماء جموعا وفي الصفات ، ومن أمثلتها في المصادر : ذكرى ، فكرى ، علنى ، طيبى ، دينا .

ومن الاسماء مجموعة : حجلى (من الطير) وظربى) جمع ظربان (دويبة كالهرة منتنة) .

ومن الاسماء المفردة : الدفلى (نبات) والزفرى (العظم خلف الأذن)

ومن الصفات : ضيزى (وفي القرآن الكريم « تلك إذا قسمة ضيزى » أي ظالمة .)

٥) فَيْعَلى (بفتح فسكون ففتحة) وتندر في المصادر ومنها : الخيزلى ، الهيذبى ، ومنه قول المتنبي في تفضيل الخيل على النساء ، حين خرج من مصر هاربا من كافور :

ألا كل ماشية الخيزلى
فدى كل ماشية الهيذبى

(الخيزلى : المشي البطيء الثقيل ، والهيذبى : المشي السريع) ومعنى البيت : كل امرأة حسنة المشية فدى كل فرس سريعة ، لأن الخيل بسرعتها تنجي من الكروب .

وهناك أوزان أخرى أمثلتها نادرة مهملة الاستعمال اليوم تركناها .

ألف التأنيث الممدودة

وأمثلتها نحو عشرين وزنا وأهمها هذه الثلاثة :

١ ـ فَعْلاء (بفتح وسكون) وتكثر صفة للمفرد ، فيما يدل على حلية أو عيب ، أو لون .

من أمثلة الحلية : زهراء ـ جيداء ـ غيداء ـ هيفاء ـ عجزاء ـ تلعاء ـ

ومن أمثلة العيب : شوهاء ـ بكماء ـ صماء ـ خرساء ـ عرجاء ـ حولاء ـ هجراء ـ برصاء .

ومن أمثلة اللون : حمراء ، لمياء ، بيضاء ـ سمراء ـ شقراء ـ خضراء .

وقد تنتقل الصفة الى الاسمية مثل : خضراء ـ صحراء ـ جهراء .

ومن المصادر : رغباء (رغبة) .

ومن أسماء الجنس : حلفاء ـ طرفاء (نوعان من النبات) .

٢ ـ أفْعِلاء ، وتكثر في جمع ما يكون صفة على وزن « فعيل » او « فعول » ، عينها ولامها سواء) مثل طبيب ، حبيب ، فيقال في الجمع ـ أطباء ـ أحباء ـ أوداء ـ أشداء ـ أعزاء ـ أذلاء ـ أجلاء ـ

٣ ـ فُعَلاء (بضم ففتح) وتكثر في جمع ما يكون صفة على وزن « فعيل » عينها ولامها حرفان مختلفان ، مثل : نجيب ، ورحيم فيقال في الجمع : نجباء ، ورحماء ، فقهاء ، نبهاء ، شرفاء ، حلماء وهناك بضعة عشر وزنا أكثر أمثلتها حوشية مهملة في كلامنا الآن ، ونكتفي هنا بذكر الأمثلة المستعملة ، ومن السهل معرفة أوزانها ، منها : خيلاء ـ كبرياء ـ عاشوراء ـ قرفصاء ـ

تعقيب

ويلاحظ أن الف التأنيث المقصورة والممدودة مانعة من الصرف ، سواء لحقت بمفرد أو جمع ، .

وقد أشرنا سابقا الى انقراض ألفي القصر والمد في لهجتنا الدارجة ، وحلول التاء محلها مثل : كبرى وصغرى ومثل خضراء وصحراء ، فنحن ننطقها في الدارجة : كبرة ، وصغرة ، خضرة ، صحرة ، ونزيد أن هذا يعم كل مقصور وممدود ولو لم يكن مؤنثا ففي الكلمات : الصفا والفتى وفي : الرجاء ـ والوفاء ـ تقول : الصفه ، الفته ، الرجه ، الوفه ، وقد حدث هذا منذ عشرة قرون ، بل نلاحظ فيما هو على وزن أفعلاء (جمعا) أن ألف التأنيث الممدودة في الفصحى يمكن أن تصير تاء مع فصاحة الكلمة فتقول : أطباء ، و أطبة ـ أحباء وأحبة ـ أعزاء وأعزة ـ أجلاء وأجلة . ■■

سيف بن عمر

الراوية الأشهر للفتوحات الإسلامية

بقلم : احمد عادل كمال

هو واحد من القلة الثقات الذين نذروا انفسهم وكرسوا جهودهم لرواية الفتوحات الاسلامية . هو سيف بن عمر ، الذي روى الكثير عن حروب الردة وعن فتوح العراق والشرق وعن فتح الشام ، كما قدم عن الفتنة الكبرى أخبارا كثيرة ، حتى ان أكثر كتابنا الذين يتناولون هذه الحقبة من التاريخ ـ ان لم يكونوا جميعهم ينقلون أكثر ما ينقلون عن روايات سيف بن عمر .

والطبري عمدة التاريخ الاسلامي يأخذ جل رواياته في تلك الاحداث التاريخية عن سيف ، ثم اقل منها حجما عن ابن اسحق وأسطرا قليلة عن المدائني والواقدي . وفي هذا كله يسوق الطبري رواياته مسندة ـ كذلك تجد روايات سيف عند ابن عساكر في كتابه « تاريخ مدينة دمشق » مسند ايضا ـ ويقول الطبري في تقديمه لكتابه في التاريخ « ... فما يكون في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه او يستشنعه سامعه من اجل انه لم يعرف له وجها في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا وانما أتى من قبل بعض ناقليه الينا ، وأنا انما أدينا ذلك على نحو ما أدى الينا » . وإذ يحتاط الطبري لنفسه بهذا انما يضع المسئولية في أعناقنا نحن القراء والباحثين من بعده .

رواية التاريخ والحديث

فاذا ذهبنا نبحث عن هؤلاء الرواة في المصادر الخاصة بعلم الرجال وجدنا نهجا متشددا ، فقد وضع علم الرواية والاسناد أصلا ليقاس بمقتضاه ما روى من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالأمر يتعلق بارساء قواعد الدين من عبادات ومعاملات وشريعة وعقيدة ، أما رواتنا الذين نتناولهم هنا فهم رواة التاريخ ، ومن التعنت ان تطبق على المرويات التاريخية ذات القواعد التي وضعت لتأصيل الدين .

ولقد كانت العناية برواة التاريخ أقل كثيرا من العناية برواة الحديث . يقول ابن تيمية « ان المنقولات التي يحتاج اليها في الدين قد نصب الله الادلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره ، ومعلوم ان المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم . قال الامام احمد : ثلاثة أمور ليس لها اسناد ، التفسير والملاحم والمغازي .. »

. فاذا ذهبنا اليوم نبحث عن رواة الاخبار في مصادر وضعت اصلا لرواة الحديث انما نسلك ـ أردنا أولم نرد ـ ذلك النهج المتشدد في فحص الرجال . روى أن عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي كان يقرأ على الناس كتابه في الجرح والتعديل « قواعد تقييم رواة



الاحاديث » فقال له يحيى بن معين « انا لنطعن على أقوام لعلهم حطوا رحالهم في الجنة منذ أكثر من مائتي سنة ! » فبكى عبد الرحمن وارتعدت يداه حتى سقط الكتاب من يده . يضاف الى هذا ان الجهل في المؤرخين اكثر منه في اهل الجرح والتعديل ، حتى لقد ذهب المؤرخ رشيد الدين فضل الله الهمداني الى التحذير من اشتراط يقينية روايات التاريخ ، لان هذا يؤدي الى حرمان الناس من مزايا معرفة التاريخ .

والآن فلنحاول ان نتعرف على صاحبنا سيف صاحب هذا التراث وعلى مكانه بين الرواة .

معلومات قليلة

سيف بن عمر الضبي ويقال التميمي البرجمي ويقال السعدي الكوفي ، ولم نقف في نسبه على اكثر من هذا ، مصنف « الفتوح الكبير » و « الردة » و « الجمل وسير عائشة » . وهو من ابرز رواة الفتوح وأغزرهم مادة ، توفي في بغداد في خلافة هارون الرشيد سنة ٢٠٠ هـ ، وقيل سنة ١٨٠ هـ ، وقال ابن حجر العسقلاني توفي بعد ١٧٠ هـ .

وليس بين ايدينا كثير عن الرجل بل لعله اقل من القليل رغم وفرة ما رواه . لم يذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى ولا ابن خلكان في وفيات الأعيان ولا الكتبي في فوات الوفيات ولا ياقوت في معجم الادباء ولا الذهبي في الثقات الذين ضمنهم كتابه تذكرة الحفاظ ، ولم يذكره البخاري في كتابه عن الضعفاء ولا النسائي في كتابه الضعفاء والمتروكين ولم يذكره ابن حجر العسقلاني في الضعفاء الذين ضمنهم كتابه لسان الميزان ، ولكن ذكر عنه في تقريب التهذيب انه ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ .

ويروي سيف عن هشام بن عروة ورجاء بن حيوة وعمرو بن ميمون الاودي وأبي اسحق سليمان الشيباني وعبيد الله بن عمرو وجابر الجعفي كما يروي عن كثير من المجهولين .

قال الذهبي في ميزان الاعتدال « كان اخباريا عارفا روى عنه جبارة بن المغلس وأبو معمر القطيعي والنضر ابن حماد العتكي وجماعة . قال يحيى بن معين : ضعيف . فلس خير منه (ولم نقف على أي تقييم لفلس هذا) . وقال أبوداود : ليس بشيء . وقال ابو حاتم متروك . وقال ابن عدي : عامة حديثه منكر ... وكان يضع الحديث » .

ويذهب المستشرقان فلوسن وكايتاني الى انه اقل دقة من غيره من ثقات المحدثين وان كان اكثر تفصيلا . ونحن قد لاحظنا ان رواياته اكثر تفصيلا ولكننا لا نستطيع مشاركة المستشرقين في انه كان اقل دقة ، ولا ندري الاساس الذي استندا اليه في حكمهما . ولقد ذكر بعضهم انه تميمي الرواية .

روايات سيف

ولم يبق من جميع كتب سيف شيء ، ولكننا نجد رواياته في كتب الذين جاءوا من بعده ، فعليه أكثر اعتماد الطبري فيما يروى عن الردة وعن الفتوح ، كما ينقل عنه الحافظ ابن عساكر كثيرا من رواياته ، ولكنهما يأخذان عنه بالرواية والاسناد وليس نقلا عن كتبه ، رغم ان الطبري توفي بعد سيف بما يزيد عن قرن ، ويفصل ابن عساكر عن سيف اكثر من ثلاثة قرون من الزمان ، فيقول الطبري : حدثني السري قال حدثني شعيب عن سيف ... الخ ، أو كتب الى السري (بن يحيى) عن شعيب (بن ابراهيم) عن سيف ... الخ . ولقد استطاع احمد عرموش ان يجمع له من المصادر المختلفة « الفتنة ووقعة الجمل » في نحو من مائة وخمسين صفحة ، ولو جمعنا رواياته عن الفتوح لكانت اضعاف ذلك . كذلك نجد روايات سيف عند ابن عساكر في « تاريخ مدينة دمشق » بسلاسل من الرواة طويلة تتصل بالسلاسل ذاتها التي اخذ عنها الطبري دون ان يأخذ ابن عساكر عن الطبري ولقد ذكر الخزرجي ابنه عمار بن سيف الضبي فقال : ابو عبد الرحمن الكوفي ، روى عن هشام ابن عروة والاعمش ، وروى عنه اسحق السلولي ومالك ابن اسماعيل ، قال العجلي : ثقة ثبت متعبد صاحب سنة . وقال ابو حاتم : شيخ صالح ضعيف الحديث . وقال ابن معين : ليس حديثه بشيء .

لقد درسنا فتوح العراق والجزيرة وايران وكان جل اعتمادنا فيها على روايات الطبري عن السري بن يحيى عن شعيب بن ابراهيم عن سيف بن عمر ، ورأينا فيها من روائع الفن الحربي على ايدى أكابر القادة المسلمين ابي بكر وعمر وخالد والمثنى وسعد والنعمان ومن رواهم حتى أصغر جندي في تلك الجيوش ، وفقا لما طابقته آراء المحللين العسكريين والمعقبين الحربيين ، ما يستحيل على سيف بن عمر أو غيره من ابناء عصره ومن بعدهم بقرون كثيرة ان يضعه او يؤلفه من عنده ما لم يكن قد حدث فعلا في جملته وفي اكثر تفاصيله ، بحيث نستطيع ان

تطمئن الى صحة ما لا يقل عن ٩٥٪ من روايات سيف . تلك التجربة وما ابانت عنه في دراسة فتوح المشرق تمنح روايات سيف بن عمر عندنا من الثقة اكثر مما جاء في تجريحه او اغفال ذكره على ما مر بنا او ما قيل عن بعض شيوخه انه كان يروى عن مجهولين .

وان من يدرس حركة الفتوح الاسلامية ويحقق ويدقق ليلحظ ان روايات سيف في فتوح العراق وفارس تقدم كثيرا من اسماء الرجال والقبائل بما يعين كثيرا على تصوير المعارك تصويرا دقيقا واستخراج التفاصيل التكتيكية لكل منها . اما رواياته عن فتوح الشام فقد جاءت اقل في تفاصيلها والبيانات اللازمة لايضاحها بحيث تحتاج اكثر الى تدعيمها وتغذيتها بروايات الرواة الآخرين . نخرج من هذا انه لو كان سيف بن عمر يضع الروايات لجاءت اخباره عن فتوح الشام مماثلة لتلك الخاصة بفتوح العراق والشرق . ولكن الفارق بين هذه وتلك لم يكن في شخص سيف بن عمرو ، وانما في اشخاص شيوخه وشيوخ شيوخه ، فقد اهتم الذين نقل عنهم فتوح العراق والشرق بما لم يهتم به الذين نقل عنهم فتوح الشام فظهر هذا التباين بين هؤلاء وهؤلاء ، وسيف بينهم بريء هنا هناك . انما كان ينقل ولم يكن يضع .

جامع الاخبار

كتب ايريك موريز في كتابه « مدخل الى التاريخ الاسلامي » تعتبر الوصفات المذهبية عملا خاصا بالكتاب العسكريين وهم على اربعة اشكال :

- الاساتذة المرتبطون بالضرورة بالمذهب ومطابقته ولا يساهمون في تطوير الفكر العسكري الا مساهمة ثانوية ولن يكون لهم اى تأثير في المستقبل .

- على حين يدفع التطوير كل من القادة العمليين في الحرب وهم الذين يصممون ويطبقون مذهبا من المذاهب .

- والمؤرخون التحليليون الذين يلاحظون آثار التطبيق .

- والمؤرخون الذين يقيمون ميزان هذه الآثار .

فأي صنف من هؤلاء كان صاحبنا سيف بن عمر ؟

ولا واحد !

كان كما وصفوه اخباريا . جامع اخبار ليس الا .

فاذا لم يكن صادقا في رواياته امينا على اخباره فماذا كان ؟

أكان مؤلف روايات ليزهو بتاريخ ابناء دينه ؟

هذا هو المحال ! لان سيف بن عمر لم يكن من قادة الجيوش ولا من كتاب الفكر الحربي ، فهو أعجز من ان يضع هذا التاريخ الذي قدمه لنا بما فيه من تخطيط ، اما اذا كانت وقائعه قد حدثت فعلا فانه يرويها ... انه مجرد راوية .

فاذا ما جرحه اساتذة الحديث وعلماء الرجال فانما كان ذلك عن الحديث ولم يكن عن التاريخ ولقد كان لفحص رجال الحديث كما ذكرنا مقاييس متشددة ، فضلا عن ذلك فان حركة الفتح الاسلامي التي ساهم سيف في نقل اخبارها انما جاءت عن غيره ايضا فهم يؤيدونه وهو يؤيدهم بشكل عام حتى لو اختلفوا في بعض الجزئيات ولو كثرت ، فزاد عنهم أو زادوا عنه في بعض التفاصيل .

فان قيل انه كان يروى عن مجهولين فلم يكن ذلك ذنب سيف ، كان يرى عن رواة يعرفهم فاذا جعلهم آخرون جاءوا بعد عصره مجهولين فلا سبيل الى اعتبار الرجل مذنبا . ولا شك أنه لو لم يرو سيف بن عمر ما روى لأصيبت المادة التاريخية بخسارة جسيمة وعلينا الا ننسى ان كتب سيف قد ضاعت كلها لم تصلنا منها قصاصة ، وكل ما وصلنا انما كان من نقل الآخرين عنه بالرواية ولا ريب انهم نقلوا اشياء واغفلوا اشياء .

●

حين يجهل علماء الرجال حال راو نظروا فاذا روى عنه اثنان من الثقات اعتبروها شهادة له فوثقوه ، وعلى هذه القاعدة وجدنا أن سيف بن عمر قد روى عنه السرى بن يحيى ثقة وثقه النسائي وروى عنه محمد ابن عيسى الطباع . قال أبو حاتم ثقة مأمون أخرج له البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي كما خرج روايات سيف محمد بن جرير الطبرى الثقة والحافظ ابن عساكر الثقة . ويكفينا من أمر سيف قول ابن حجر انه كان عمدة في التاريخ وقول الذهبي انه كان اخباريا عارفا أما من ضعفه في مجال رواية الحديث فلسنا في ذلك المجال حين ندرس التاريخ . وعليه فان رواية سيف بن عمر في تاريخ الفتوح عندنا معتمدة ما لم تصطدم بما هو أوثق وارجح منها . ■■

احمد عادل كمال

مخترق الجدران !

قصة : مارسيل إيمي

ترجمة عبد الحميد بن هدوقه

في حي « مونمارت » بنهج « أورشان » رقم ٧٥ مكرر ، كان يسكن بالطابق الثالث رجل طيب اسمه « دوتيلول » له قدرة غريبة على اختراق الجدران بدون مشقة ولا أذى . يلبس نظارة من النوع الذي يثبت على الأنف ، له لحية سوداء . وكان مستخدما من الدرجة الثالثة بوزارة التسجيل . في الشتاء يذهب الى مكتبه بالحافلة ، وفي الفصول المعتدلة يذهب الى عمله راجلا يلبس قبعة منتفخة بطيخية الشكل .

عندما اكتشف قدرته الغريبة على اختراق الجدران كان عمره قد دخل في عامه الثالث والأربعين . كان ذلك ذات مساء ، وهو بشقة العزوبة الصغيرة التي يسكنها ، واذا بالتيار الكهربائي ينقطع . تعثر قليلا في الظلام ، وعندما عاد النور ، وجد نفسه خارج الشقة بردهة الطابق الثالث ! وبما أن الباب كان مغلقا بالمفتاح من الداخل ، أخذ يفكر في الطريقة التي يدخل بها الى بيته . واستقر رأيه على الدخول اليها كما خرج ، أن يخترق الجدار وتم له ما أراد .

وهذه القوة الغريبة التي لم تكن تستجيب كما يبدو ، لاي رغبة من رغباته ، جعلته يشعر بشيء من الحيرة .

وفي الغد اغتنم فرصة عدم العمل يوم السبت على النمط ليذهب الى طبيب الحي يشرح له حالته . لم ير الطبيب ما يدعو الى عدم تصديقه ، وبعد الفحص اكتشف السبب : عثر على تصلب في جوف غدة بالرقبة ، نتيجة للارهاق . أعطاه غبرة حجر « التيترافلانت » ممزوجة بدقيق الأرز وهرمونات النسناس . يأخذ منها بمقدار قرصين في السنة .

تناول دوتيلول القرص الأول ووضع الدواء في درج . ومن ذلك الحين لم يتذكره . أما الارهاق الذي كان مصابا به فلم يكن يخشى مضاعفته ، حيث أن نشاطه على غرار الموظفين الآخرين ، ليس فيه تجاوز ولا ما يسبب ارهاقا .

وكان يقضي أوقات فراغه في قراءة الجريدة ومع مجموعة الطوابع البريدية التي يملكها . وكل ذلك لا يكلفه انفاقا مجحفا من طاقته .

مرت سنة كاملة ولكنه بقي محتفظا بقدرته الغريبة على اختراق الجدران . غير أنه لم يكن يستعملها الا سهوا . فهو لم يكن فضوليا يحب المغامرات ، ولا سلس القيادة لاتباع الخيال . لم يخطر بباله حتى الدخول الى بيته من غير الباب ، ومن غير ادارة المفتاح في القفل . ربما لأنه كبر في سلام عوائده ، بدون أن يكون هنالك ما يغريه لأن يختبر هذه القوة الغريبة التي يتمتع بها .



لكن حادثا خارقا للعادة وقع بصورة مفاجئة غير كل حياته .

لقد نودي السيد « موران » رئيسه الذي كان يشغل وظيفة نائب رئيس المكتب ، لمهام أخرى ، وخلفه آخر يدعى السيد « ليكويي » وهو رجل مقتضب الكلام ، مقصوص الشارب .

ومنذ اليوم الاول نظر هذا الرئيس الجديد الى مرؤوسه « دوتيلول » بعين الاستخفاف . لنظارته ذات السلسلة ولحيته السوداء . وعامله معاملة شيء قديم مقلق وقليل النظافة . لكن ما كان أخطر من ذلك كله هو أنه زعم ادخال تغييرات هامة في مصلحته ، من شأنها تعكير حياة دوتيلول الوادعة . فمنذ عشرين سنة كان دوتيلول يبدأ رسائله بالعبارة التالية :

« بالرجوع الى رسالتكم الشريفة المؤرخة بكذا من الجاري ، وتذكيرا بالرسائل المتبادلة بيننا سابقا ، أتشرف باعلامكم ... » ، وهي عبارة ارتأى السيد « ليكويي » تعويضها بعبارة أخرى أمريكية النمط : « جوابا على رسالتكم المؤرخة بـ ... أعلمكم ... » .

لم يستطع دوتيلول التعود على هذا النمط من التعبير في المراسلات . كان يجد نفسه بالرغم منه

يستعمل العبارات التقليدية ، مضطرا لذلك اضطرارا آليا . الأمر الذي ضاعف غضب رئيسه عليه ، وصار جو العمل في وزارة التسجيل غير محتمل لديه .

يذهب الى عمله صباحا متخوفا ، وفي الليل يجد نفسه في كثير من الأحيان يفكر في عمله مع هذا الرئيس الجديد ، مدى ربع ساعة قبل أن يستسلم الى النوم .

« بيد أن السيد « ليكوبي » كان ممتعضا لما أبداه مرؤوسه من تمسك بعقلية بالية عرقلت نجاح اصلاحاته الادارية ، فأقصاه من مكتبه الى مكان ضيق مظلم ، الدخول اليه من باب ضيق منخفض يؤدي الى الممر ، متصل بمكتب نائب رئيس القسم ، بينما ما يزال مكتوبا على الباب : حجرة مهملات !

قبل « دوتيلول » هذه الاهانة التي لا مثيل لها بقلب منكسر ، ولكنه وهو في بيته يقرأ الأحداث الدامية التي تقع يوميا ، بالجريدة ، يخيل اليه أن السيد ليكوبي هو الضحية .

ذات يوم دخل السيد ليكوبي فجأة الى مكتب دوتيلول وفي يده رسالة وهو يصيح :

ـ أعد لي هذا الوسخ ! هذا الوسخ الذي يلطخ شرف مصلحتي !

أراد أن يحتج دوتيلول لكن السيد ليكوبي أخبره بصوت مزمجر : أنه حشرة روتينية . وقبل أن يغادر المكان فرك الرسالة ورماها على وجهه .

كان دوتيلول متواضعا ولكنه ذو كبرياء ، بقي وحده لحظات في مكتبه الضيق ، وكانت الحرارة مرتفعة قليلا ، وبغتة وجد نفسه طعمة للأوهام . قام من كرسيه ودخل الحائط الذي يفصل بين مكتبه ومكتب رئيسه . لكنه دخل بحذر ، بحيث كان رأسه وحده الذي برز من الجهة الأخرى ، أما جسمه فبقي في مكتبه . كان السيد ليكوبي جالسا الى مكتبه ، بصدد تغيير فاصلة بقلمه الذي يبدو في حالة ترفزة في نص قدمه اليه أحد المستخدمين ليصادق عليه ، واذا به يسمع سعالا في مكتبه ! رفع بصره فذهل لما يرى ! رأى رأس دوتيلول بالحائط ، كما تعلق رؤوس حيوانات الصيد ! مع فارق : الرأي الذي يراه حي ! ورآه ينظر اليه من وراء نظارته المثبتة على أنفه ذات السلسلة المتدلية ، نظرات كراهية وسخط .

واكثر من ذلك ، فان الرأس أخذ يتكلم :

ـ أيها السيد ، انك أرذل ، أحمق ، وقح !

ففر ليكوبي فمه هلعا مما يسمع ، ولم يستطع تحويل نظره عن الشبح الذي برز له من الحائط ! وأخيرا خلع نفسه من مقعده واندفع الى الممر مهرولا ، فدخل مكتب دوتيلول فوجده جالسا في مكانه المعتاد والقلم بيده ، وهو في حالة تدل على الهدوء والانقطاع للعمل . فنظر ليكوبي اليه مليا ، وتمتم بكلمات ثم عاد الى مكتبه . وما ان جلس حتى برز رأس دوتيلول من جديد بالحائط :

ـ أيها السيد ، انك أرذل ، أحمق ، وقح !

ولم ينقض هذا اليوم حتى برز رأس دوتيلول ثلاثا وعشرين مرة . وفي الأيام التالية برز له بنفس الكثافة . واعتاد دوتيلول على مرونة على اللعب بالحائط ، ولم يعد يكتف بشتم رئيسه ، صار يهدده بتهديدات غامضة . يصرخ بصوت رهيب ، تتخلله ضحكات جنونية وهو يقول :

ـ كردمانة ! كردمانة ! شعر الذئب ! (ضحك) . ان قشعريرة تحوم هنا كافية لقلع قرون البوم ! (ضحك) .

أما ما كان يسمعه ليكوبي فقد جعل لونه يمتقع أكثر فأكثر ، ويضطرب أكثر فأكثر . وجعل شعر رأسه يقف مستقيا من الذعر ، وجعل العرق يسيل على ظهره بقوة كأنه في حالة احتضار .

في اليوم الأول نقص وزنه برطل . وفي الأسبوع التالي ، فوق كونه أخذ يذوب على مرأى العين تقريبا ، صار يأكل المرق بالشوكة ، ويحيي عسكريا رجال الأمن ! وفي بداية الأسبوع الثاني جاءت سيارة اسعاف الى بيته نقلته الى احدى المصحات .

ولما تخلص دوتيلول من طغيان رئيسه السيد ليكوبي عاد الى استعمال عباراته العزيزة : « بالرجوع الى رسالتكم الشريفة المؤرخة بكذا من الجاري ، وتذكيرا بالرسائل المتبادلة بيننا سابقا ، أتشرف باعلامكم ... » . لكنه مع ذلك لم يكن راضيا عن حاله . كان شيء في نفسه يدفعه الى تلبية هذه الحاجة الجديدة الضرورية المتمثلة في اختراق الجدران .

كان يستطيع تحقيق تلك الرغبة مثلا في بيته بسهولة . وقد كان يحققها فعلا . لكن الرجل الذي يملك قدرة خارقة كتلك ، لا يمكن أن يقتنع طويلا بمزاولتها مزاولة منحطة . ثم ان اختراق الجدران لايشكل غاية في نفسه ، فهو بداية انطلاق لمغامرة لها تطور وامتداد . بكلمة ، لها نتيجة ! أدرك ذلك دوتيلول جيدا . أحس في نفسه بالحاجة الى الخروج من حدوده الضيقة . حاجة متزايدة الى تحقيق ذاته وتجاوزها . أحس بنوع من الحنين الى ما يمكن أن يسمى بنداء من وراء الجدار ! لكن لسوء الحظ لم يكن له هدف . بحث في قراءة الجريدة عما يلهمه ، وخاصة في أبواب السياسة والرياضة ، اللتين كانتا تبدوان له أنهما نشاطان مشرفان ، ولكنه في النهاية وجد أن ليس فيهما ما يستغل بالنسبة لمن يخترق



الجدران . واخذ يقرأ في باب الحوادث فوجده أكثر ايحاء بالمشاريع .

كانت أول سرقة قام بها دوتيلول هي في مؤسسة للقرض بالضفة اليمنى (لنهر السين) . فبعد أن اخترق حوالي اثني عشر جدارا وحاجزا دخل في عدد من الخزائن الفولاذية . فملأ جيوبه بالأوراق المالية ، وقبل أن يخرج أمضى سرقته بالطباشير الأحمر ، تحت اسم مستعار هو « غارو ـ غارو » ، بخط جميل ، ظهر من الغد في كل الجرائد .

ولم يمض أسبوع حتى صار هذا الاسم « غارو ـ غارو » أشهر من نار على علم . ولاقى لدى الناس تعاطفا بدون تحفظ . انه سارق معتبر ، اذ ازدرى بالشرطة ازدراء كبيرا !

وكان في كل ليلة يقوم « بمأثرة » على حساب بنك أو صائغ أو ثري . ولم تبق أمرأة تميل الى الخيال ولو قليلا ، سواء في باريس أو « البروفانس » لم ترغب الرغبة الجامحة في أن تهب نفسها الى هذا الرجل الخطير ، « غارو ـ غارو » .

وبعد سرقة الماسة الشهيرة التي تملكها « بورديغالا » وسرقة القرض البلدي ، اللتين وقعتا في نفس الأسبوع ، وصل حماس الناس الى حد الهذيان ، اعجابا بهذا السارق الخطير . فاضطر وزير الداخلية الى الاستقالة ، وجر في طريقه وزير التسجيل ، الذي استقال بدوره . لكن دوتيلول الذي أصبح واحدا من الأثرياء الكبار بباريس ، لم يتخلف يوما عن عمله ، وعن وقته المعتاد . وأخذ الحديث يدور حول اسمه لاسناد وسام الأكاديمية له ... وفي كل صباح بوزارة التسجيل ، كان أمتع لذائذه هي الاستماع الى التعليقات التي يعلق بها زملاؤه على جلائل أعماله بالليلة السابقة . كانوا يقولون : « ان غارو ـ غارو » هذا رجل عظيم ، خارق للعادة ، عبقري » . وكان يحمر خجلا وهو يستمع الى ذلك الاطراء ، وكانت نظراته تلتمع وراء نظارته بالمحبة والاعتراف بالجميل لهؤلاء الزملاء .

وذات يوم جعله هذا الجو الودي يثق الثقة الكاملة بهم ، فلم ير مبررا لاخفاء سره عنهم طويلا .

ببقية من خجل ، نظر الى زملائه المجتمعين حول جريدة تتحدث عن سرقة بنك فرنسا ، فصرح بصوت متواضع : « أتعرفون ، غارو ـ غارو » هو أنا . » فعلا ضحك كبير ، متواصل ، تهكما وسخرية به . ولقبوه بـ « غارو ـ غارو » . وفي المساء ، عندما حان وقت الخروج من العمل بالوزارة ، كان قد صار محل سخرية بدون حد من قبل رفاقه ، وبدت له الحياة أقل جمالا .

بعد أيام من ذلك ، ترك غارو ـ غارو نفسه لأن يلقي عليه القبض من طرف دورية ليلية في متجر مجوهرات بنهج السلام . كان قد وضع امضاءه على المكتب ـ الخزانة ، وراح يغني أغنية شرب وهو يكسر زجاج مختلف الواجهات بكوب من الذهب الخالص . كان بامكانه أن يدخل في حائط وينجو من دورية الليل ، ولكنه أحب ، على ما يبدو أن يلقى عليه القبض . ولعله فعل ذلك لاحراج زملائه الذين آلمته سخريتهم منه .

وبالفعل ، فقد فاجأتهم صورة دوتيلول التي نشرتها الجرائد في الغد على صفحاتها الأولى ، وندموا بمرارة على جهلهم برفيقهم العبقري . وكتحية له تركوا لحاهم تطول . والبعض منهم ذهب به الاعجاب الى مد يده الى محافظ وساعات أصدقائهم ومعارفهم .

لم يكن لدوتيلول ليسمح بأن يلقى القبض عليه من طرف الشرطة الا ليدهش بعض زملائه . ان ذلك من خفة العقل بمكان ولا يليق برجل فريد مثله . لكن قوة الارادة لا تعد شيئا بالنسبة الى ما وصل اليه تصميمه . ان دوتيلول ظن أنه عندما تخلى عن حريته قد فعل ذلك من أجل رغبة الانتقام الى كبريائه ، بينما هو في الواقع لم يفعل سوى أن انزلق على منحدر قدره المقدور . بالنسبة لرجل يخترق الجدران ليس هناك ما يجذب النفس أكثر من تجربة السجن ولو مرة .

عندما دخل دوتيلول الى سجن « لاصانتي » خيل اليه أن القدر قد حياه . لأن سمك الجدران كان بالنسبة اليه أجمل لعبة . ففي غد اليوم الذي ألقي فيه القبض عليه اكتشف الحراس بدهشة بالغة أن السجين قد ضرب مسمارا في حائط زنزانته وعلق فيه ساعة من ذهب لمدير السجن . سئل فلم يقدر أو لم يرد أن يكشف عن الطريقة التي حصل بها عليها . أرجعت الساعة الى



صاحبها . ثم من الغد اكتشف الحراس عند وسادة « غارو ـ غارو » نفس الساعة مع الجزء الأول من قصة « الفرسان الثلاثة » الذي أخذ أيضا من مكتبة مدير السجن .

لقد مل عمال سجن « لاصانتي » من أعماله الغريبة . وتشكى الحراس من أنهم يتلقون ضربات أرجل من الوراء بدون أن يعرفوا مصدرها . وخيل للجميع أن الجدران لم تكن لها آذان فقط ، بل أرجل !

وذات صباح عندما دخل مدير السجن الى مكتبه ، وقد كان مضى على سجن « غارو ـ غارو » أسبوع ، أسبوع ، وجد الرسالة التالية :

« سيدي المدير رجوعا الى محادثتنا بتاريخ ١٧ من الجاري ، وتذكيرا بتعليماتك العامة الصادرة يوم ١٥ ماي من السنة الماضية ، أتشرف باعلامكم بأني قد انتهيت من مطالعة الجزء الثاني من قصة « الفرسان الثلاثة » ، واني عازم على الهروب من السجن هذه الليلة ، بين الساعة الحادية عشرة وخمس وعشرين والحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة .

أرجو سيدي المدير ، أن تتقبل عبارة احترامي العميق . »

« غارو ـ غارو » .

بالرغم من الحراسة المشددة التي كانت على دوتيلول فقد استطاع أن يهرب من السجن الساعة الحادية عشرة وثلاثين دقيقة !

ومن الغد صباحا علم الناس بالخبر فأعجبوا به اعجابا بالغا .

ثم قام بسرقة أخرى رفعت شعبيته الى الذروة . لكنه لم يبد عليه أنه كان يهتم باخفاء نفسه . بالعكس ، كان يتجول بحي « مونمارت » بدون أي احتياط . وبعد ثلاثة أيام من هروبه من السجن ألقي عليه القبض من جديد بنهج « كولانكور » بمقهى « الأحلام » قبيل الظهر ، حيث كان بصدد شرب كأس من النبيذ الأبيض بالليمون مع الأصدقاء .

اقتيد الى سجن « لاصانتي » من جديد ، وأغلق عليه بثلاثة أقفال في زنزانة مظلمة . ففر منها في مساء ذلك اليوم نفسه . وذهب الى شقة مدير السجن ، ونام بحجرة الضيوف . وفي صباح الغد عند الساعة التاسعة تقريبا ضغط على الجرس لتأتيه العاملة المنزلية بالفطور .

وجاء الحرس فألقوا عليه القبض وهو في الفراش بدون أن تصدر عنه أية مقاومة .

اشتط المدير غضبا ، وأقام مركز حراسة أمام باب زنزانة دوتيلول ، وأوصى بأن يقدم له الخبز وحده ولاشيء سواه . في حوالي الساعة الثانية عشرة خرج دوتيلول ليتناول طعام الغداء بمطعم مجاور للسجن . ولما أتم قهوته هتف الى مدير السجن :

ـ ألو ! السيد المدير ، اني أشعر بالخجل وأنا أكلمك بالهاتف لكني نسيت عند خروجي من السجن أن آخذ محفظة نقودك . انني الآن بالمطعم وليس معي ما أدفع به ثمن الغداء .. أرجوك أن تكون طيب النفس فترسل من يدفع حق الغداء . »

هرع المدير بنفسه ، الى المطعم ، واشتاط غضبا الى درجة أنه أخذ يشتم ويهدد .. لكن دوتيلول شعر بالاهانة فهرب من السجن في الليلة التالية ناويا عدم الرجوع اليه أبدا .

بعد أن هرب دوتيلول من السجن أخذ كل احتياطاته فحلق لحيته السوداء ، واستبدل نظارة من العاج بنظارته الأنيقة ذات السلسلة ولبس قلنسوة رياضية وبدلة بمربعات عريضة سروالها مشدود الرجلين من نوع « الغولف » فتغير تماما . وسكن شقة صغيرة في شارع « جونو » حيث كان ، منذ المرة الأولى التي ألقي عليه القبض فيها ، وقد نقل أثاثه وبعض مقتنياته الثمينة اليها .

وأخذ يضيق بالضجة التي تثيرها شهرته . اذ منذ اقامته بالسجن صار لا يلتذ باختراق الجدران لكثرة ما اخترقها ... ان الجدران الأكثر ثخانة والأكثر كبرياء ، صارت تبدو له الآن كحواجز بسيطة . انه الآن يحلم باختراق بعض الأهرامات الضخمة . وراح يفكر في مشروع القيام برحلة الى مصر . وأثناء هذه المدة كان يحيا حياة هادئة ، يقضيها بين مجموعة طوابعه البريدية والسينما والتجوال في حي « مونمارت » . ولشد ما تغير شكله وهندامه بلباسه ونظارته وسمته الجديد ، حتى

« ر يمر أمام أعز أصدقائه فلا يعرفه أحد ، ما عدا الرسام « جان بول » الذي لا يمكن أن يخفي عنه أي تغيير مهما كان وجه ساكن قديم من سكّان الحي . فهو وحده الذي استطاع التعرف على هوية دوتيلول الحقيقية . لقد وجد نفسه ذات صباح وجها لوجه مع دوتيلول في زاوية نهج المورد . فلم يمسك نفسه عن الكلام وقال له بلهجة شعبية :

ـ انني أراك متنكرا في هندام جميل من أجل تضليل رجال المباحث .

فأجاب دوتيلول متمتما :

ـ ها ! كيف عرفتني ـ

ارتبك لذلك وقرر التعجيل بسفره الى مصر . لكنه في عشية ذلك اليوم نفسه أصبح عشيقا لشقراء جميلة ، التقى بها مرتين في مدى ربع ساعة بنهج « لوبيك » فنسي مجموعة الطوابع البريدية ، ومصر ، والأهرام ! وكانت هي من جهتها قد نظرت اليه بكثير من الاهتمام . فليس هناك ما يغري الفتيات في يومنا هذا كسراويل « القولف » ونظارات العاج . ان ذلك يوحي بالمهنة السينمائية ، ويجعل الفتيات يحلمن بالحفلات والسهرات وليالي كاليفورنيا . لكن من سوء الحظ ، فان الرسام أخبر دوتيلول بأن حسناءه متزوجة برجل فظ غيور . وكان هذا الزوج المرتاب الغيور الذي يحيا حياة مضطربة ، يترك زوجته وحدها دائما من الساعة العاشرة ليلا الى الرابعة صباحا . ولكنه قبل أن يخرج ، كان يأخذ احتياطاته فيغلق عليها غلقا محكما . حتى الشبابيك يغلقها بأقفال . وفي النهار يراقبها عن كثب ، وكثيرا ما يتبعها متجسسا من حيث لا تشعر في أنهج مونمارت .

قال جان بول لوتيلول :

ـ ان هذا الزوج من الأشرار ذوي الطبائع الشرسة الذين لا يرضون أن يذاق رحيقهم . لكن هذا التحذير لم يزد دوتيلول الا تحرقا . ومن الغد التقى بالمرأة الشابة في نهج « تولوزي » فتجرأ على ملاحقتها بدكان اللبان . وبينما كانت تنتظر دورها خاطبها قائلا : انه يحبها باحترام ، وأنه يعرف كل شيء : زوجها شرير ، والباب مغلق بالأقفال وكذلك الشبابيك ، ولكنه مع ذلك سيزورها بغرفتها .

فاحمر وجه المرأة الشقراء ، واهتز في يدها كأس اللبن ، وعيناها مبللتان بالحنان وقالت بتنهد : « يا حسرتاه ! أيها السيد ، ان ما تقوله مستحيل ! »

وفي مساء ذلك اليوم الجميل ، عند الساعة العاشرة ليلا تقريبا ، كان دوتيلول بنهج « نورفان » يراقب سورا ضخما لدار لا يظهر منها الا دوارة الهواء والمدخنة . انفتح باب في السور وخرج رجل منه . وبعد أن أحكم اغلاقه هبط الى شارع « جونو » انتظر دوتيلول حتى غاب الرجل عن نظره بعيدا في منعطف الهبطة ، وعد عشرة ، ثم انطلق بخطى رياضية من جدار الى جدار حتى وصل الى غرفة الحسناء المسجونة . فلاقته بهيام ... وقضيا ليلة حب الى ساعة متأخرة من الليل .

وفي الغد تذمر دوتيلول من جراء صداع شديد أصابه . طبعا لم يكن الأمر خطيرا بحيث يجعله يتخلف عن موعده . لكنه عثر صدفة على بعض الأقراص بالدرج فشرب قرصاً في الصباح وثانيا بعد الظهر . وفي المساء كان صداعه قد انخفض ، وأنساه فيه موعده الذي كان ينتظره بشوق .

كانت المرأة الشابة تنتظره بكل فارغ الصبر الذي أحدثته فيها ذكريات الليلة السابقة .

قضيا ليلتهما متحابين الى الساعة الثالثة صباحا . ولما غادر دوتيلول حبيبته وأخذ يخترق الحواجز وجدران الدار أحس كأن شيئا يحتك بكتفيه ووركيه على خلاف العادة . لكن لم يكن يعتقد أن ذلك الاحتكاك يستحق الاهتمام . ولم يحس بمقاومة حقيقية الا لما دخل السور . أحس كأنه يمخر مادة لزجة تتكثف وتتعجن أكثر فأكثر ، تقاوم جهوده المبذولة في المرور داخل السور . وشعر أنه لا يتقدم . وتذكر بذعر الأقراص التي تناولها ظانا أنها من « الاسبرين » ، بينما هي في الحقيقة تحتوي على غبرة حجر « التيترافلانت » التي أعطاها له الطبيب في السنة الماضية ...

ان أثر الدواء مضافا اليه الارهاق برز بصورة مفاجئة !

وهكذا تحجر دوتيلول داخل السور ! وهو الى الآن متداخل مع الاحجار . والذين لهم عادة المشي وهم نيام ويتزلون مع نهج « نورفان » ، عندما تهدا كل ضجة وتزول كل اشاعة بباريس يسمعون صوتا عميقا كأنه آت من الآخرة . كأنه شكوى صفير الريح في مفترقات طرق « البوت » . انه « غارو ـ غارو » دوتيلول الذي يندب النهاية السوداء لأيامه المجيدة ، ويتأسف عن حبه الذي كان أقصر من عمر الزهور .

يحدث أن يأخذ الرسام « جان بول » قيثارته في بعض ليالي الشتاء ، ويغامر في وحدة ذات أنغام بنهج « نورفان » ليسلي بأغنية السجين البائس دوتيلول فتطير الأنغام من بين أصابعه التي جمدها البرد القارس وتتسلل الى قلب الحجر حيث دوتيلول ، كقطرات تنزل من ضياء القمر ! ■■

الجزائر ـ عبد الحميد بن هدوقة

حوار القراء

الخليج وحدة متكاملة

● نشرت « العربي » في عدد مايو / ٨١ استطلاعا عن عروس الكويت .. وقد لاحظت ان الكاتبة دينا العيسى توحي للقاريء ان هناك اختلافا في العادات والتقاليد بين اقطار الخليج ... وباعتقادي ان هذا يشكل ضررا اذا اعتبرنا الحديث هو حديث عن التراث مما قد يشتم معه القاريء رائحة الاقليمية او الخصوصية .

فتراث الخليج العربي تراث واحد متجانس ... فمثلا نجد ان الثوب الكويتي هو نفسه الموجود في البحرين والسعودية وقطر .. وتسمية « الثوب » هي تسمية حديثة .. فلا يجوز اعلاميا ان تقول « الثوب البحريني » او « الثوب الكويتي » الخ .. فمنطقة الخليج تكاد تكون وحدة متكاملة .

المهندس عبد الله الشايب
السعودية

ماذا ننقل عن الغرب

● قرأت في العدد ٢٧٠ من مجلتكم القراء لقاء الشهر فجاء ذخيرة فكرية هائلة . وقد ركز الاستاذ الدكتور صلاح هاشم في حلوله او في رؤياه لمستقبل الامة بأن نقوم بعملية ترجمة واسعة للمعارف الغربية الى اللغة العربية وهو يرى بأن تكون الترجمة مقتصرة على المواد العلمية دون الادبية وهذا رأي ثاقب ومنطق صائب . اذ نحن في اشد الحاجة الى المواد العلمية الغربية ، لان الآداب الغربية هي ظاهرة اجتماعية معينة وما زالت الدراسات الاجتماعية تعاني الكثير من التحيز والمحاباة الشخصية والثقافية والدينية والاقتصادية والسياسية والقومية ونحن في غنى عن ذلك ، فما نحتاجه من الغرب هو علومه التقنية .

ولكن مشكلتنا ليست في الترجمة وحدها وليست قراءة ما يترجم وانما المشكلة كلها هي في تطبيق ما نقرأ . فبجانب الترجمة لابد من وجود معاهد تطبيقية متخصصة وأن تكون تلك المعاهد التقنية مزودة بأحدث المعامل حتى نطبق ما نقرأ .

ابراهيم عبد الله سليمان
كلية الدراسات الهندسية
السودان

سلبيات الشخصية العربية

● نشرت مجلة العربي في عددها ٢٦٩ الصادر في ابريل ١٩٨١ مقالا للدكتور سامي القباني تحت عنوان (من سلبيات الشخصية العربية) والمقال له وجه من النظر الصحيح ، واود ان ابني على ذلك المقال الملاحظتين التاليتين :

١ ـ ان معظم نكباتنا وهزائمنا نابعة من الاغراق في الفردية الذاتية وانه من العبث ان نطالب بوحدة عربية وثمة سلبيات خطيرة ملتصقة بشخصية هذه الامة والسؤال المطروح هو كيف يمكن توجيه الفردية الذاتية وتصعيدها نحو التفرد المتميز بشكل يكفل لهذه الامة البقاء ويبعد عنها شبح الزوال .

٢ ـ ان الفردية الذاتية لم تكن طبعا في الانسان العربي وانما هي رد فعل دفاعي تجاه العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تعاقبت على امتنا العربية منذ عصور قديمة والى ايامنا هذه ، واخشى ما نخشاه في هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ امتنا ان تتأصل تلك الفردية في النفوس بشكل يصعب اجتثاثها ولهذا ينبغي على كتابنا ان ينبروا لمعالجة هذه المشكلة وطرح الحلول اللازمة لها والا فلا تقدم ولا حضارة ـ يقول الله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

خليل ازبيدي
المسكة ـ سوريا

حمل غير متوقع رغم الحبوب !

● هذا الموضوع جزء من رسالة دكتوراه وهو يهم الملايين من السيدات .

ففي بعض الاحيان تجد السيدة نفسها - بدون مقدمات - حاملا وذلك بالرغم من تناولها حبوب منع الحمل بصفة منتظمة وليت المشكلة تنتهي عند هذا الحد .... بل ربما تلد طفلا مشوها .

فكيف يحدث ذلك ؟.... يحدث ذلك اذا تناولت السيدة احد المضادات الحيوية القوية الآتية : التتراسيكلين ، الكلور مفنيكول ، الامبسلين ، النيومايسين .

وتعزى ظاهرة حدوث الحمل المستتر هذه لتأثير المضادات الحيوية على البكتريا النافعة والموجودة جنبا الى جنب للبكتريا الضارة في تجويف الامعاء . وللبكتريا النافعة في الامعاء وظائف متعددة منها دور هام تجدر الاشارة اليه في هذا المجال لتوضيح ما يمكن ان نطلق عليه « عدم التوافق بين الادوية » ، فهذا الدور الذي تقوم به البكتريا النافعة في الامعاء هو اعداد هورمونات منع الحمل من صورتها المعقدة لتصير قابلة للامتصاص من تجويف الامعاء لتصل الى تيار الدم ، ومن ثم تتوزع في الانسجة المتعلقة بالاخصاب . ولذلك فحين تتناول السيدة هذه الادوية عن طريق الفم فمن المتوقع ان تعيق رحلة الهورمونات الموجودة في حبوب منع الحمل فتبقى بدون امتصاص ليتخلص منها الجسم مع البراز . وبدون ان تدري السيدة بما حدث فمن البديهي ان تستمر في تناول حبوب منع الحمل . وأحيانا اخرى تستمر في تعاطي المضادات الحيوية وكلاهما يمثل سلاحا ذو حدين ، وهذه هي أحرج الفترات في مراحل تكوين الجنين حيث تزداد فرصة حدوث التشوهات الجنينية لتؤدي في نهاية الحمل الى العيوب الخلقية في المولود .

وجدير بالذكر ان فرصة حدوث الحمل تزداد كلما تناولت السيدة هذه المضادات الحيوية اثناء فترة انطلاق البويضة من المبيض وتقل فترة الامان . ولكن فترة الامان هذه لا تخلو من المضاعفات ايضا اذا تناولت السيدة هذه الادوية خلالها . فبفقدان مفعول حبوب منع الحمل يحدث نزيف رحمي كما لو كانت السيدة قد اقلعت فجأة عن تعاطي حبوب منع الحمل فتتصور ببساطة ان ذلك مجرد عدم انتظام في مواعيد الطمث . ومما يزيد فرصة النزيف هنا هو ما تحدثه المضادات الحيوية من نقص في فيتامين « ك » المنظم لتجلط الدم .

د . السيد الخضري
مدرس العلاج بكلية طب المنصورة
مصر

المستعمرات الاسبانية

● كان موضوع الاستطلاع المصور في العدد ٢٦٩ من مجلتنا « العربي » الغراء موضوع المستعمرات الاسبانية في شمال المغرب الاقصى ، هذه الجيوب التي اسدلت عليها ستائر النسيان لدى الرأي العام العربي . حتى جاءت مجلة العربي « لتقدم لقرائها في مشارق الارض ومغاربها الاحوال التي عليها تعيش هذه الجيوب ، وما تقوم به الدولة المستعمرة من طمس للحقائق ، وخير دليل على ذلك استبدال الاسماء الاجنبية بالعربية حيث اصبح اسم « سبتة » « سيوتا » كما ذكرتم في المجلة « والجزر الجعفرية » « شفارين » .... ورغم حذركم فانكم وقعتم فيما تهربتم منه ، فاسم المدينة العربية المستعمرة هو « مليلية » اما انتم فقد اتخذتموه معربا عن الاسبانية وهو « مليلة » .

كما نود ان ننبهكم الى خطأ آخر ، عن المدينة المقابلة لحجر باديس حيث ورد اسمها في الخريطة « اغادير » وفي المقال جاء اسمها على نحو « أجادير » . الا ان اسمها الحقيقي هو أجدير بالدال او بالذال اما اغادير فهي مدينة سياحية تقع في الجنوب على الساحل الاطلسي .

مزيان الترباني .
الناظور / المغرب

الحبيب العربي الامريكي

● الحديث عن اللوبي الصهيوني وقربه من اصحاب القرار في الولايات المتحدة لم يعد سرا خافيا على احد . فهنري كيسنجر اليهودي الامريكي لعب دورا حاسما لحساب الصهيونية العالمية ابان رحلاته المكوكية كوسيط في اعقاب حرب ١٩٧٣ .

والآن يتردد وسيط آخر في المنطقة العربية ونكتشف انه امريكي من اصل عربي هو فيليب حبيب ... فهل يلعب هذا الحبيب لحساب أصله العربي ما لعبه هنري كيسنجر لحساب اصله الصهيوني .

لطفي عثمان
عمان / الاردن

« حول المذكر والمؤنث مجازيا »

● اطلعت على ما نشر في الصفحة اللغوية من مجلة العربي « العدد ١٦٨ » حول المذكر والمؤنث مجازيا ... بقلم الاستاذ خليفة التونسي واستخلاص « قاعدة » يقترح « فيها » العمل على اساس « التأويل » في الاسماء التي تخلو من علامات التأنيث ما دام « التأويل » سهلا ...

وانا في الوقت الذي أؤيد هذا الرأي اود ان اشير الى الاهتمام باتباع اسلوب الكتاب العزيز والحديث النبوي الشريف وقد وردت فيهما كلمات من قبيل ما اشار اليه الاستاذ التونسي وهي اكثر من ان تحصر فينبغي ان نختار لغة القرآن الكريم والحديث الشريف فهما وثيقتنا وسندنا ....

محمد رضا آل صادق
مدرس اللغة العربية بجمعية التحرير

العقول المهاجرة

● اتفق معكم تماما فيما تضمنه حديث الشهر الماضي في مجلة العربي لشهر ابريل / ٨١ بشأن معاملة العمال العرب في اوروبا .

فما يحدث معي حاليا في انجلترا اعتقد انه يحدث مع آخرين على المستوى الاوربي . فرغم خبرتي في مجال التعليم والبحث العلمي في مجال الهندسة الميكانيكية والتي تمتد الى ثمانية عشر عاما ورغم حصولي على درجة الدكتوراه ثم الزمالة الجامعية منذ اكثر من خمس سنوات من احدى جامعات انجلترا ، فانني ورغم مئات الطلبات التي تقدمت بها الى الشركات والمؤسسات البريطانية لم أتمكن من العثور على عمل وذلك منذ بداية هذا العام .

وقد قيل لي خلال عدة مقابلات مع مسئولين في شركات كبرى ان العقبة التي تقف امام تعييني هو تحذير الداخلية البريطانية لكل الشركات والمؤسسات من تعيين الاجانب .

والمحزن في الامر « كما يبدو لي » ان الصورة ليست بأي حال احسن على المستوى العربي ايضا فقد قمت بالكتابة الى عدة جامعات عربية ولا مجيب .

لقد تحدثنا طويلا في المشرق العربي عن مشكلة هجرة العقول والخبرات العربية الى اوروبا وامريكا . فها هنا الان الكثير من العقول العربية المدربة تتوق الى العمل في اي بلد عربي .. فهل من مجيب ؟؟

د . انجلو كامل تادرس
انجلترا

كتاب من موسكو





بين عملاقين :
تولستوي وتشيخوف

عرض وتقديم : هاشم حمادي

تعتبر مؤلفات ليون تولستوي وأنطون تشيخوف ذروة الادب العالمي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

فقد ساهم ذان العملاقان مساهمة كبيرة في رفد التراث العالمي بعطاء لا ينضب معينه ، ولعبا دورا بالغ الاهمية في الانعتاق الروحي لملايين الناس المستضعفين ، ليس في روسيا وحدها ، بل وعلى نطاق العالم كله .

وهذا بالذات ما جعل العديد من المتخصصين في مجال النقد الأدبي يؤكد وجود عرى داخلية عميقة ووثيقة تربط بينهما . وعلى الرغم من ان طابع هذه العرى (ونفس الشيء يمكن ان يقال عن التأثير المتبادل بين هذين الفنانين البارزين) لا يزال غير واضح المعالم بشكل تام ، فان وجودها يعتبر واضحا بالنسبة للأجيال العديدة من القراء في العالم كله ، وضوح وجود الخلاف في وجهات نظرهما ازاء العديد من المسائل ذات الطابع السياسي ـ الاجتماعي والجمالي والابداعي .

الماضي أم المستقبل

فما هي مدى قانونية نقاط الالتقاء المختلفة الفكرية والفنية بينهما ، وفي نفس الوقت ما هي سمات كل منهما الخاصة ، التي تجعل منه نسيج وحده ، وفي قطب آخر ؟

على هذا السؤال البالغ الأهمية والتعقيد تحاول الاجابة مجموعة من الباحثين السوفيت في الكتاب الجديد الصادر عن دار « العلوم » في موسكو في نهاية ١٩٨٠ بعنوان « تشيخوف وليون تولستوي » . ❋

في مقدمة هذا الكتاب يشير الباحث خليزيف ف . الى ان أبحاث المقارنة بين فنانين كبيرين ، لكل منهما عالمه المتميز ، يمكن ان تتخذ أحد اسلوبين : اما الكشف عن نقاط الالتقاء والمتوازيات ، في نتاجهما ، واما البحث عن نقاط الالتقاء هذه في مبدأيهما ، الابداعيين وتفكيرهما . والواقع ان هذا الكتاب يستخدم كلا الاسلوبين ، ويكشف ، ليس فقط عن اوجه الشبه بين تراث تولستوي وتراث تشيخوف ، بل وعن السمات التي تميز احدهما عن الاخر .

ان كون نتاج تشيخوف قد تبلور وبلغ ذروة نضجه الفكري ـ الفني بعد ان اصبح اسم ليون تولستوي على كل شفة ولسان ، بعد اكتشافه لما اصبح يعرف بـ « ديالكتيك الروح » ، لا يعني ابدا ان تشيخوف قد اكمل اكتشاف المعلم العظيم بشكل مباشر » . وعلى الرغم من وجهات نظرهما المختلفة الى الفن والتطور الاجتماعي ـ التاريخي (كان تولستوي يعتقد ان « العصر الذهبي » للبشرية يكمن في الماضي ، اما تشيخوف فكان يراه في المستقبل » ، وعلى الرغم من البون الشاسع بين موقفيهما من الدين ، فانهما قد عبرا عن الشعور بعدم الرضا عن النظام القائم ، وكشفا في انجذابهما الى مختلف اشكال الكمال البشرى (خارج التغيير الثورى للمجتمع) عن الحدس بالتغييرات الجذرية . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فقد كشفا افتقار الجماهير الشعبية المستضعفة الى النضج السياسي والفكري ، وساهما مساهمة كبيرة في تبديد الاوهام التي كانت تعشش في عقول هذه الجماهير حول امكانية « تحسين » النظام القائم او « تصحيحه » .

حول مشكلة السيد والفلاح

كان تشيخوف يهفو للاجتماع بتولستوي ، فقد كان يجل انسانيته ويكن كل الاجلال والتقدير لريشته البارعة ، التي ابدعت تلك الاعمال الخالدة امثال « الحرب والسلام » و « انا كارينينا » و « البعث » ، ولكنه كان يرغب ، في الوقت نفسه ، ان يبقى متحررا منه ومستقلا عنه في آرائه الحياتية منها والجمالية . كان يقيم عاليا في تولستوي الصدق والاخلاص وعدم المهادنة ، ولكنه لم يكن يتبنى « تعاليمه » ، وبدوره كان تولستوي يكن لتشيخوف التقدير والاحترام ، مع بعض التحفظ في مجال الدين ، فقد وصفه بأنه « فنان لا يشق له غبار » و « كافر ، وان كان في غاية الطيبة » .

وقد التقى الكاتبان ثلاث مرات في ياسنايا باليانا وخاموفنيكي وغاسبرا . اما لقاءاتهما غير المباشرة ، على صفحات اعمالهما ، فقد كانت اكثر من ان تحصى . فغالبا ما كان تولستوي ينكب على اعمال تشيخوف ، وقد امتدح اكثر من اربعين منها . وبدوره كان تشيخوف معجبا بـ « الحرب والسلام » و « أنا كارينينا » . حتى لمن بعض الباحثين يرون بعض الشبه في ملامح « السيدة والكلب الصغير » و « انا كارينينا » وبين « الجثة الحية » لكل منهما . ومع ذلك فان لكل منهما عالمه المتميز . فليس بالامكان فصل تشيخوف عن طبقة المثقفين وعن الفئات الاجتماعية المتوسطة التي صورها في اعماله . اما تولستوي فقد اعتمد على مقاييس المخطط الاجتماعي القديم : السيد والفلاح . وتكمن عظمة تولستوي في التقارب والتلاحم مع الفلاح ، في التحرك نحو مركز عملية التحضير للثورة في روسيا ،

❋ « تشيخوف وليون تولستوى » تأليف مجموعة من الباحثين ، دار « العلوم » موسكو ١٩٨٠ ٣٣٠ صفحة من الحجم العادى .

والتي كانت « المسألة الفلاحية » مضمونها الاساسي . ومن هنا اللامهادنة التولستوية ازاء كل من كان يتربع على كاهل الفلاح . ولكن تولستوي في نقده للاسياد وتقديره للفلاحين لم ير الفئات المتوسطة الواقعة بين هذين القطبين ، علما ان هذه الفئات بالذات هي التي بدأت تكتسب الاهمية المتزايدة في موقفها من الثورة عقب اصلاحات عام ١٨٦١ المعروفة .

واذا كان تولستوي قريبا من مركز التحضير للثورة فان تشيخوف يقف بعيدا عن هذا المركز . فمشكلة السيد والفلاح ، لا بالمفهوم التولستوي ولا بمفهوم « الشعبيين » ، لم تترك بصماتها على اعماله . لقد صور في اعماله تلك الفئة المتوسطة ، ولكن ليس ذلك « الانسان الصغير ، الذي صورته « المدرسة الواقعية » ودستويفسكي ، بل كل انساني وكل ما هو غير انساني في هذه الفئة .

المتحجرون روحيا

لقد كان نتاج تشيخوف مرآة للاحداث والتغيرات الهامة التي عصفت بروسيا في النصف الثاني من القرن الماضي ، فقد صور روسيا في مرحلة تفسخ الناس ، ذوي المهمة التاريخية الوهمية ، والعاجزين عن القيام بأي دور ، وأدان هذه الحياة المفعمة بالآلية والعادات البالية والكلمات الجوفاء والافكار الهابطة حيث لم يبق من الاخلاق ومشاعر الواجب والالتزامات سوى الشكل والقشور .

لقد ابدع تشيخوف في تصوير اتساع الهوة بين اقوال الناس وأعمالهم ، حيث لم يبق سوى الاقوال التي لا قيمة لها . ومع ذلك احس الكاتب بأن العاصفة الجديدة ستجتاح الحياة الروسية عما قريب .

ان اسلوب تشيخوف في التحليل النفسي يختلف اختلافا بينا عن اسلوب تولستوي ، وللوهلة الاولى يبدو اسلوباهما في التحليل النفسي غاية في التباين ، ان لم نقل التناقض التام .

فشخصيات تشيخوف الشاب الفكاهية ليست اقنعة بلا روح ، بل قادرة على المعاناة والفرح ، مثل ابطال تولستوي ودستويفسكي ، ولكن علاقة تشيخوف بشخصياته كانت من نوع خاص .

ان شخصيات تشيخوف الفكاهية تمثل نفس الفئات الدنيا ، التي اكتشف دستويفسكي في رحابها ابطاله « المذلين والمهانين » ، الذين لا يتورعون عن تخطي « العتبات المقدسة » ـ القوانين الاجتماعية والاعراف الاخلاقية . ولكن ، وبالاختلاف عنه ، فان تشيخوف لم يعبر في اعماله عن التعاطف اللامحدود مع ابطاله . بل ان موقفه منهم ذو ملامح ساخرة ، فقد كان تشيخوف يسخر من هؤلاء الناس « الصغار الحمقى ، الغارقين في طين الحياة واوحالها ، والمتوقفين في تطورهم الروحي .

ان اعمال تشيخوف تخلو من ابطال دوستويفسكي (راسكولنيكوف وسفيدريغايلوف في « الجريمة والعقاب » وميشكين في « الابله » وآل كارامازوف في « الاخوة كارامازوف » وابطال تولستوي : اليتين في « القوزاق » و « بيير بيزوخوف » في « الحرب والسلام » ونيخلودوف في « البعث » . فقد كان بوسع الكارثة ان تحطم تشيرفياكوف « موت الموظف » وبريشيبيف « الحرباء » وأمثالهم من ابطال تشيخوف ، ولكن لم تكن بقادرة على تغيير عالمهم الداخلي . ان شخصيات تشيخوف الفكاهية تفتقر الى مستقبل التجدد الروحي : حيث يبدو وكأنهم قد تحجروا روحيا .

التزام بالسيكولوجية السرية

ولكن ، ومع نهاية الثمانينات ، يطرأ تغير جوهري على أسلوب تشيخوف في التحليل النفسي . ففي قصصه التي ظهرت من التسعينات نجد ابطاله الجدد امثال البروفيسور العجوز في « قصة مملة » ولايفسكي في « المبارزة » والمدرس نيكيتين في « مدرس اللغة » وغروموف وراغين في « العنبر رقم ٦ » وبوركين وتشيمشا ـ هيملايفسكي واليخين في (« الانسان المعلب » و « عنب الثعلب » و « عن الحب ») وغوروف في « السيدة والكلب الصغير » ، اناسا من نوع جديد . صحيح انهم اناس مختلفون . ولكل منهم شخصيته الاصيلة المتميزة ، ومع ذلك فان ثمة قاسما مشتركا بينهم ـ ان عالمهم الداخلي في وضع لا يعرف الاستقرار ، فهو يتغير بتغير التأثيرات الخارجية .

وقد كان تشيخوف ذا موقف متزمت من شتى اشكال الكتابة المعقدة بما فيها في مجال التحليل النفسي ، وكان يفضل « الكتابة البسيطة » حتى في مجال تصوير العوالم الداخلية لابطاله . ففي احدى رسائله التي تحمل تاريخ العاشر من ايار ١٨٨٦ كتب تشيخوف يقول : « من الافضل تجنب وصف الوضع النفسي للابطال ... يجب جعل هذا الوضع مفهوما من خلال سلوك الابطال » .

وهنا يتجلى مبدأ تورغينيف المعروف ـ بـ « السيكولوجية السرية » .

اما التحليل النفسي لدى تولستوي فقد كان درجة ارفع من « السيكولوجية السرية » في الكشف عما يعتمل في داخل الشخصيات . ولو أن تشيخوف استخدم المبدأ التورغينيفي بحذافيره وبشكل صرف ، اذن لكان نتاجه خطوة الى الوراء ، وتكرارا لما هو معروف سابقا ، وهكذا فقد قرن تشيخوف بين المبدأ التورغينيفي « السري » وبين المبدأ التولستوي البالغ العمق والدقة والكمال .

فالتأمل لدى ابطال تولستوي يستغرق نفس الفترة الزمنية اللازمة للتفكير ، وليس الفترة الزمنية ، التي تسمح بها الظروف الفعلية ، ونفس التي يمكن ان يقال عن الاشكال الاخرى للتصوير النفسي ـ وصف « البورترية » على سبيل المثال ـ ان الحديث عن الافكار والمشاعر والاحاسيس ، التي تراود هذه الشخصية او تلك خلال عدة دقائق او عدة ثوان ، يمكن ان يمتد الى عدة صفحات ، فالزمن الفني هنا يختلف بشكل حاد عن الزمن العادي . (اما لدى تشيخوف فنجد ههذين الزمنين في غاية التقارب ان لم نقل التطابق) . فالتحليل النفسي لدى تولستوي يتم بشكل مستمر ، لتتبع افكاره من البداية الى النهاية ، او لتصوير مسرى تغير انفعالاته . ونجد ان كل شريحة من شرائح النص ، تتضمن « بورترية » نفسية او مونولوجا داخليا او غيرهما من اشكال التحليل النفسي ، عبارة عن شريحة كاملة خالية من « الشوائب » ، وفيها يركز الكاتب كل ما يراه ضروريا للتحدث به عن العالم الداخلي لبطله في هذه اللحظة .

اما في نتاج تشيخوف فلا نجد هذا التركيز ، على العكس نجد الكاتب ينثر لمسات لوحات ابطاله في مختلف ثنايا النص ، حيث تختلط هذه اللمسات بالاحداث والوقائع . وهكذا فان لوحة ابطال تشيخوف تتبلور بالتدريج ، لمسة من هنا وأخرى من هناك ، وبشكل لا يكاد يلفت انتباه القارىء .

ثم ان تشيخوف يستخدم اشكالا غاية في التنوع لرسم العالم الداخلي لابطاله ـ يبدأ اولا بالحديث عن السلوك الخارجي للشخصية ، ومن ثم ينتقل الى الحديث عن افكارها ، وبعد ذلك يدخل هذه اللمسة النفسية او تلك .

كما ان الكثير من جوانب النفس البشرية يبقى غامضا لدى تشيخوف ففي قصته « ارخيري » نقرأ ما يلي : « فجأة تغيرت حالته النفسية . كان ينظر الى امه وهو لا يفهم من اين ظهر هذا التعبير الجليل والمتردد على وجهها ، وفي صوتها ، لدرجة انه لم يعرفها ، وهذا ما حز في نفسه » . وفي قصته « الراهب الاسود » ـ : « على حين غرة خطرت له ، ولسبب ما ، فكرة انه سيتمكن خلال الصيف من التعلق بهذا الكائن الصغير والضعيف والكثير الثرثرة » . ان هذه الـ « لسبب ما » لا يمكن مطلقا ان تصادف في نتاج تولستوي ، اذ ان عدم الايضاح بالنسبة له يعني الغموض المطلق . بينما يتبنى تشيخوف مبادىء فنية أخرى ـ فهو يفضل الكشف عن الظاهرة من خلال تصويرها ، دون ان يضيف اي ايضاح . اذ أنه لا يهدف الى جعل المبهم واضحا ولا الى التعبير عما لا يعبر عنه . بل الى الكشف عن هذا « المبهم والتعبير عما لا يعبر عنه » بمهارة تجعل القارىء يتقمص الحالة الانفعالية لهذه الشخصية التشيخوفية او تلك .

عندما يتقمص القراء

لقد اجاد تولستوي وتشيخوف اكثر من اي كاتب روسي آخر في الكشف بوسائط الفن الروائي عن « ما لا يطاله التعريف ، ويحيط به الرؤية » . ولكن حلهما لهذه المهمة كان مختلفا ، وقد تناولاها من وجهتي نظر مختلفتين . فقد وسع تولستوي ، الى الحد الاقصى مجال الظواهر ، التي يطالها التعريف ويمكن التعبير عنها بكلمات دقيقة . ولكن « شيئا ما » في عوالم ابطاله الداخلية « لم يطله التعريف » . أما تشيخوف فقد تمكن من الخلق الفني لهذا « الشيء الما » . الذي لا يمكن تحديده ولا حتى وصفه بالكلام ، بل يمكن الشعور به وجعل القارىء يشعر به . فتشيخوف لا يصف حالة ابطاله النفسية ، بل يعيد خلقها في قالب فني ، لان مجرد محاولة نقلها بالكلام يفقدها شيئا ما يصعب ادراك كنهه . وقد يكون هذا « الشيء ـ الما » هو الشيء الاساسي ، الذي تفقد لوحة الحالة النفسية جوهرها المميز ، وبالتالي فان ادراك القارىء لها سيكون مختلفا ـ اكثر جفافا واغترابا ، وليس بذلك القدر من الحيوية والتعاطف .

فكيف يتمكن تشيخوف من الابداع في المقارنة بين عمق التصوير النفسي ودقته وبين « التوفير والتقتير » في اسلوبه النفسي ؟ انه يبلغ ذلك ، قبل كل شيء ، عن طريق مخاطبة القارىء . ففي النظام الفني التشيخوفي يختلف موقف الكاتب من ابطاله عن موقف قرائه منهم .

بينما نجد موقف تولستوي متهم هو ـ على الاغلب ـ موقف المراقب ، الباحث ، الذي يدرس الموضوع بشكل يكاد يكون محايدا . ومن الطبيعي ان يتبنى القارىء موقف الكاتب . اما تشيخوف فيسعى جاهدا من اجل ان يتقمص القراء ، وبشكل لا شعوري ، شخصية ابطاله ، ويشعروا بمشاعرهم . ففي احدى رسائله الى سوفورين ، التي تحمل تاريخ الاول من نيسان ١٨٩٠ كتب تشيخوف يقول : « حينما اكتب اعتمد على القارىء اعتمادا كبيرا في اضافة العناصر الذاتية ، التي تنقص القصة » .

وبالفعل فان تشيخوف يستدعي ذكريات القارىء وخواطره وكل خبراته لبلورة لوحات العالم الداخلي لأبطاله . وهاكم ـ على سبيل المثال ـ اللوحة التالية من قصة « الفلاحون » : « هبط نيقولاي ، الذي لم يغمض له جفن طوال الليل ، هبط عن الفرن ، وأخرج رداءه الرسمي من الصندوق الاخضر . ثم لبسه واقترب من النافذة وراح يمسح كميه .... ثم ابتسم . وبعد ذلك نزع رداءه الرسمي وخبأه في الصندوق واستلقى من جديد » .

لقد جاءت هذه اللوحة النفسية غاية في الاتساع . فقد شملت ، عبر هذا الاطار البالغ الضيق ، ذكريات نيقولاي عن حياته في موسكو ، ومشاعر الاسى والاسف ، وفكرة ان حياته تكاد ان تنتهي ، بالاضافة الى العديد من التفصيلات الاخرى .

عن مشكلة الثقافة والشعب

اتخذت مشكلة الشعب والثقافة ، التي طرحت في قالب جديد في الستينات ، اتخذت مع بداية الثمانينات من القرن الماضي ، طابعا اكثر حدة . حيث تجلت كل تعقيدات وتناقضات عملية اعطاء الثقافة الروسية طابع الديمقراطية .

فقد بدأ ممثلو الاوساط الديموقراطية « الدنيا » يشعرون بالحاجة المتزايدة الى الثقافة . وقد ادى اتساع نطاق انتشار الثقافة الى ضحالة مجراها ، ولكن الى حين . فقد كان القارىء البورجوازي الصغير ، الذي وصفه سالطيكوف شيدرين بـ « الشارع » يشترط في الادب ان يكون في متناول ذوقه الجاهلي المحدود ، وتصوراته الايديولوجية البدائية . وفي نفس الوقت فان استمرار اتساع نطاق جمهور القراء ، بفضل اتساع نطاق التعليم بين ابناء الشعب ، قد طرح مهمة غاية في الالحاح ـ تعريف الشعب الروسي بالثقافة العالمية بأفضل نماذجها .

وكان من الطبيعي ان تقض مشكلة الثقافة والشعب مضاجع جميع الرواد الاجتماعيين ، بمن فيهم عمالقة الأدب الروسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تولستوي ، دستويفسكي . سالطيكوف شيدرين تشيخوف وليسكوف وغيرهم . كان يوحد بين هؤلاء جميعا حب الشعب والرغبة في خدمته ، ولكنهم كانوا يختلفون ، ليس فقط في فهم مضمون الثقافة الديمقراطية الجديدة وطرق خلقها ، بل وحتى في تحديد مفهوم « الشعب » نفسه .

ففي مقالته « ما هو الفن ؟ » (١٨٩٧ ـ ١٨٩٨) كتب تولستوي يقول : « ليس ثمة من شك في ان فن الطبقات الرفيعة لا يمكن ابدا ان يصبح في الشعب كله » . ولم يستثن تولستوي من ذلك سوى عدد قليل جدا من عيون الادب العالمي (مؤلفات ديكينز وهيجو ودستويفسكي) . وابان اشرافه على دار نشر « الوسيط » الح تولستوي كثيرا على ضرورة اغناء معارف الشعب بأعمال غولدسميث وفولتير وروسو وشيللر « اللصوص » وليسينغ « ناتان الحكيم » وسويفت « رحلات جوليفر » وسيرفانتس « دون كيشوت » ...

بحثا عن وسيط دولي

ففي احدى رسائله الى تشيرتكوف كتب تولستوي بصدد « الوسيط » يقول : ستقوم هذه الدرا بنشر كل عيون الادب العالمي الالماني والفرنسي والانكليزي ، التي صدرت اكثر من مرة ، وترجمت الى لغات العالم الحية .

كان تولستوي ، كما اعلن في اكثر من مرة ، يخطط لـ « ترجمة واختصار المؤلفات الكلاسيكية ، التي ظهرت لدى مختلف الشعوب على مر العصور بهدف نشرها في طبعات شعبية .

وهكذا فقد كان نشاط تولستوي التطبيقي اوسع من نشاطه النظري ، على الرغم من بعض التحفظات في هذا المجال .

ففي آذار ١٨٨٨ عاد تولستوي فكتب في رسالته الى تشير تكوف يقول : « لقد خطرت لي فكرة تأسيس « وسيط » دولي في لايبزغ ، غير خاضع للرقابة ، بثلاث او اربع لغات ، على ان يقوم بنشر كل كنوز البشرية في شتى المجالات : الحكمة ، التاريخ ، الشعر والفن ، بحيث يكون في متناول فهم الجماهير العمالية الكادحة ، ولا يتناقض مع التعاليم الاخلاقية للمسيحية » .

لقد كان تفكير تولستوي غاية في الوضوح : « اذا لم يكن بوسع جميع الناس الاستفادة ، بشكل متساو من ثمرات الحضارة ، واذا كانت هذه الحضارة تتطور على حساب البعض ولصالح البعض الآخر ، فان من الافضل رفض سلوك هذا الطريق » . كان تولستوي يعتقد ان كل الاختراعات التقنية والاقتصادية إنما تؤدي الى زيادة استرقاق الشعب ، ويرى ان طريق النجاة من اهوال الواقع الرأسمالي الزاحفة انما يكمن في العودة الى نمط الحياة الابوية .

اما تشيخوف فقد تبلور كأديب في وقت آخر وفي بيئة اجتماعية اخرى . فقد كان من فئات المجتمع الدنيا ، وحفيد فلاح مسترق ، فكان تفكيره « بعيدا عن تقديس الحق الخاص للشعب » ، الذي كان تولستوي يراه في الفلاح الروسي .

كان تشيخوف يعتقد ان طريق الشعب الى الحياة الافضل يكمن في اتقان جميع الانجازات الثقافية ، التي تراكمت لدى البشرية على مر العصـــور . ولـم تكن المشكلة بالنسبة لتشيخوف تكمن فيما اذا كانت الثقافة وليدة الطبقات المتعلمة ، مفيدة للشعب او ضارة به ، بل في كيفية مساعدة الشعب في الاحتكاك بهذه الثقافة واتقانها .

وفي تناوله لحياة القرية الروسية يصور تشيخوف ، والالم يحز في نفسه ، الحياة الروتينية الريفية ، والجهل المتفشي بين الفلاحين ، وعدم قدرتهم على التمييز بين الصديق والعدو ، ووعي المنفعة الخاصة . ففي قصة « حياتي » يتبنى الفلاحون من بناء المدرسة ، المخصصة لتعليم ابنائهم ، موقفا معاديا ، فيسرقون الاحجار والحديد والطوب ، ولا يودون المساهمة في بنائها ، لابل يقفون حجر عثرة في طريق انجاز هذا المشروع النبيل .

ولكن كيف يرتسم المستقبل في مخيلة تشيخوف ؟ في قصته « المنزل ذو العلية » يطور تشيخوف افكاره حول المجتمع المثالي ، الذي يكفل لجميع ابنائه ، بدون استثناء ، الاشكال الابداعية والروحية للنشاط ـ « يجب تحرير الناس من العمل الجسدي القاسي ... واتاحة الوقت لهم للتفكير بالله والروح ، والتعبير عن امكانياتهم الروحية بشكل اوسع ... لو أن جميع سكان المدن والارياف وافقوا ، دون استثناء ، على تقاسم العمل ، الذي يخص البشرية جمعاء ، فيما بينهم ، اذن لما اصاب الفرد اكثر من ساعتين الى ثلاث ساعات في اليوم » .

وأخيرا لا يسعنا الا ان نتفق مع الكاتب السوفيتي البارز قسطنطين سيمونوف ، اذ يقول في خاتمة هذا الكتاب : « اخشى ان لا اتمكن من الكشف عن نقاط الالتقاء ، او من ابراز نقاط الاختلاف بين هذين العملاقين » في هذه الصفحات القليلة . ■■

هاشم حمادي
جامعة موسكو ـ كلية الصحافة

قيمة الانسان

● ذهب احد الاشخاص الى طبيب نفساني في محاولة لعلاج بعض العقد النفسية التي يعاني منها . ووصل الى العيادة الفخمة حيث وجد على بابها لافتة تقول : « اذا كنت مريضا فاتجه الى اليمين ، واذا كنت سليما فانتظر في الصالة » وبما أن صاحبنا مريض ، توجه يمينا فوجد أمامه لافتة اخرى تقول : اذا كنت متزوجا « ادخل من هذا الباب ، واذا كنت اعزب فادخل من الباب الاخر » .

وكان صاحبنا متزوجا وله عشرة اولاد فدخل من باب المتزوجين ، ومشى قليلا ليجد امامه لافتة ثالثة تقول : اذا كان دخلك الشهرى اكثر من ٥٠٠ دينار فادخل فورا ، واذا كان دخلك اقل فادخل من الباب الثاني . وبما انه مسكين من عباد الله الموظفين ، فقد فتح الباب الثاني ومشى ليجد نفسه فجأة على رصيف الشارع !

نزهة العقل الذكي بجوائز العربي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وإرسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العدد بقطعها منه أما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد » ٢٧٣ وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول اكتوبر (١٩٨١) .

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم مفكر ومصلح وفقيه اسلامي هندي ، كما ستجد في (٨) رأسيا اسم شاعر أموي .

كلمات أفقية :

(١) ايطالي اخترع ارسال الرسائل باللاسلكي ـ من أعضاء الجسم .

(٢) طائر ـ عالم فلك عربي وضع « الزيج الحاكمي » .

(٣) حكت ـ ولاية أمريكية ـ أخفى .

(٤) نصف كلمة (رياش) ـ رمز جبري ـ مؤدى ـ عسى ـ للتفسير .

(٥) واظبوا ـ ناشد ـ من أجزاء الجسم .

(٦) رغب ـ مكاسب ـ لغة .

(٧) غير مستيقظين ـ في الفم ـ من فصول السنة .

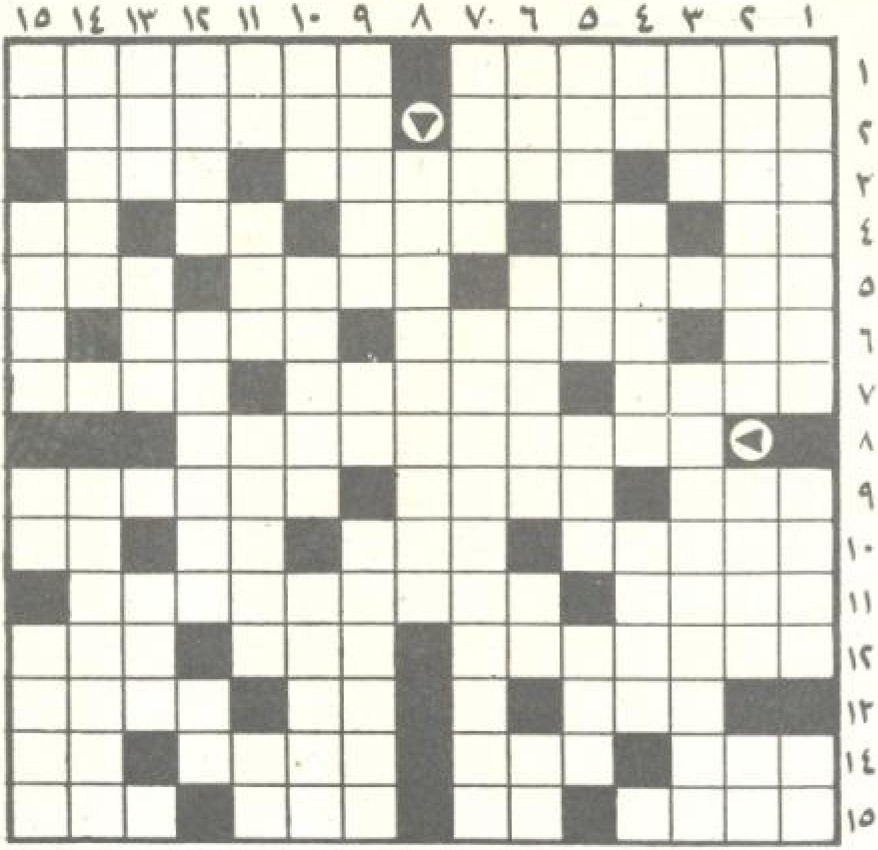
(٨) مفكر ومصلح وفقيه اسلامي هندي .

(٩) من أجزاء الجسم ـ قصر ـ عاصمة جنكيز خان .

(١٠) وحدات قياس طولية ـ حيوان ـ حرف نصب ـ رغب .

(١١) آلة موسيقية وترية ـ عالم بصريات عربي قديم .

كوبون مسابقة العدد ٢٧٣



(١٢) دولة من القارة الأمريكية ـ خير ـ حرف أبجدي .

(١٣) سهولة ـ نصف كلمة (بليد) ـ حيوان .

(١٤) في القصيدة ـ نسيان ـ حول مجرى النهر ـ حرفان متشابهان .

(١٥) جسم سماوي ـ جواهر ـ حصيف ـ من الأقارب .

كلمات رأسية :

(١) معركة بين الفرس والاغريق ـ ناسك ـ من الحبوب .

(٢) صاحب مدرسة أبللو الشعرية ـ ترأسوا ـ حرفان متشابهان .

(٣) أطالت النظر ـ موقعة انتصر فيها نابليون على الروس .

(٤) للاستفهام ـ بلا أزواج ـ اله الحكمة عند الفراعنة .

(٥) قصر ملكي انجليزي ـ يسعد ـ حيوان ركوب .

(٦) سلم ـ من الماشية ـ للتفسير ـ دلة .

(٧) يضرب بقبضة اليد ـ عاصمة منغوليا .

(٨) شاعر أموي .

(٩) قاطعة ـ من أسماء الرسول ـ كاتدرائية انجليزية معروفة .

(١٠) خير ـ الحب الشديد ـ نبات متسلق .

(١١) نصف كلمة (مسكن) ـ تجهم ـ أبصرها ـ خيط .

(١٢) عملة عربية ـ أتعبني ـ للتفسير .

(١٣) من العناصر ـ من الفاكهة ـ حيوان .

(١٤) في العين ـ دولة أوربية .

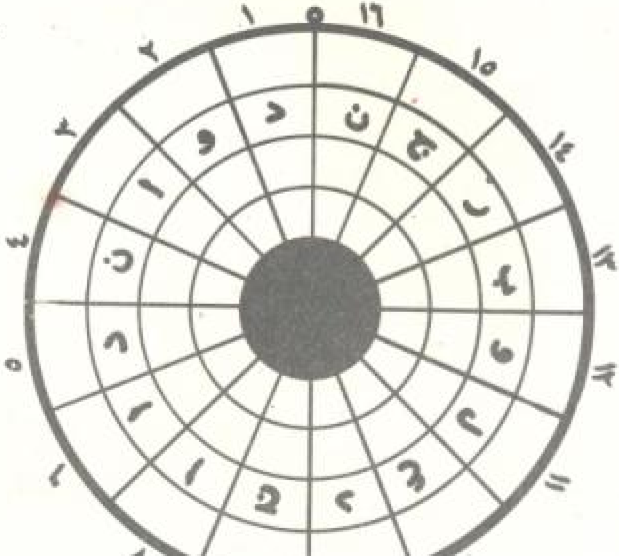
(١٥) حرفان متشابهان ـ يجزم ـ بسط ـ ثقيل .

حول الدائرة السوداء

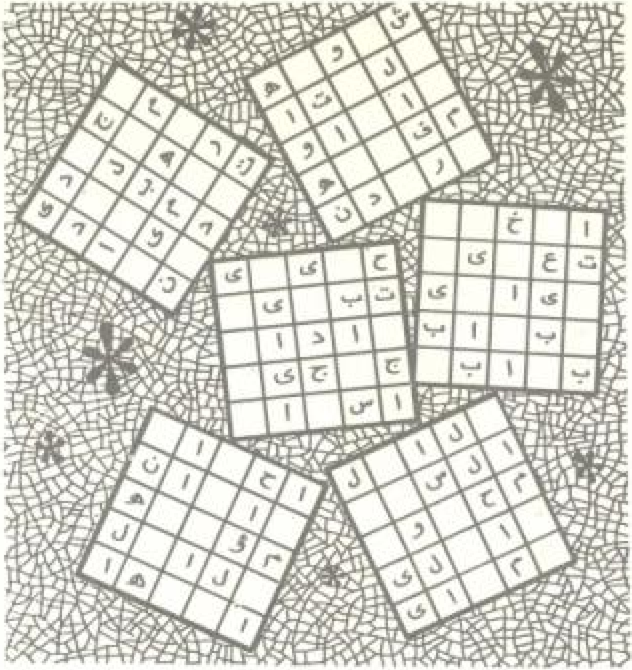
ضع الكلمات ذات الأحرف الأربعة ، والتي نعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

فيزيائي وكيميائي انجليزى اكتشف البلاديوم والروديوم

(١) أقترب (٢) شهر هجرى (٣) ظاهر (٤) أخبر (٥) يستمر (٦) هدف (٧) أفلا (٨) يعدو (٩) حبر (١٠) أجرى (١١) مريض (١٢) عاصمة أوربية (١٣) تجهم (١٤) مرتست (١٥) أوضح (١٦) لجام .

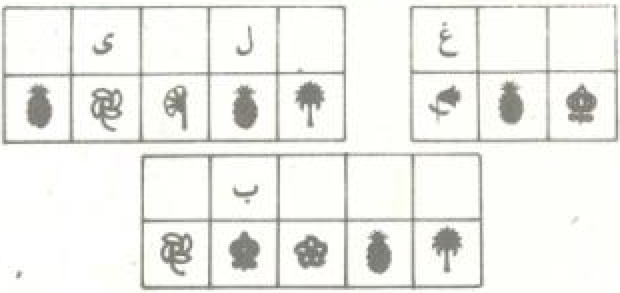


العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات ثقيلة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات أفقية ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحرف الناقص في المربعات الستة . ورتب الحروف الستة لتصنع اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة ، تعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في موضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل اذا عرفت أنه :

يضرب للشيء يتجاوز مداه ويشتد

الحلول

العواصم :

بروكسل .

حول الدائرة السوداء :

وليام هايد ولا ستون .

مثل عربي :

بلغ السيل الزبى .

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

أغسطس / آب
١٩٨١م

اتجاهات نظرية في علم الاجتماع

تأليف
الدكتور عبد الباسط عبد المعطي

الكتاب الرابع والأربعون

٢٥٠ فلساً

المراسلات:
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

من المسرح العالمى
سلسلة ثقافية
تصدرها فى مطلع كل شهر
وزارة الإعلام فى الكويت

أول أغسطس ١٩٨١

١٤٣

زوجة كريج

تأليف : جورج كيلي
ترجمة وتقديم : محمد الحديدي
مراجعة : د. طه محمود طه

مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

مدير التحرير
عبد العزيز السيد أحمد

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ١٢٥,٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالى ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - ببليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٤٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١- كتاب التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .

٢- كتاب آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .

٣- كتاب حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .

٤- كتاب الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .

٥- دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها : -

الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .

إربح

١٣٪ في السنة

لومبارد

ودائع ذات المدة المحددة

المدة المحددة للايداع :

سنة	١٢ ½٪ في السنة
سنتين	١٢ ¾٪ في السنة
٣ سنوات	١٣٪ في السنة
٤ سنوات	١٢٪ في السنة
٥ سنوات	١٢٪ في السنة

الحد الأدنى للايداع: ١٠٠٠ جنيه استرليني، تدفع الفوائد سنويا.
أسعار الفوائد المذكورة سارية إلى حين ارسالها للطباعة.

هذه بعض المنافع للودائع ذو المدة المحددة لدى لومبارد :

- سيربح رأس مالكم معدّل فائدة محدد لمدة الايداع
- جميع الفوائد تدفع بدون خصم أية ضريبة
- الاحتفاظ على السرية الكاملة في جميع المعاملات
- نظرا إلى عدم وجود رقابة النقد في المملكة المتحدة سوف ترد أموالكم أما بالعملة الاسترلينية أو بأية عملة أخرى حيثما كنتم
- أموالكم مأمونة. نتبع إلى أحد المجموعات المصرفية الكبيرة في العالم

هناك أسعار فوائد أخرى تتراوح مدتها بين السنة والخمس سنوات حيث ان الفائدة المستحقة تدفع شهريا أو كل ثلاثة أشهر أو نصف سنويا أو ودائع ذو إخطار للسحب بعد ثلاثة أشهر أو ستة أشهر. للحصول على تفاصيل لبرامج الايداع وأسعار الفوائد نرجو من سيادتكم ان تملأوا الكوبون وارساله إلى مدير حسابات الايداع.



Lombard
North Central
Deposit Accounts

إلى :
LOMBARD NORTH CENTRAL LTD.
DEPT. 182,
17 BRUTON STREET,
LONDON W1A 3DH, ENGLAND.
Telephone: 409 3434.

أرجو أن ترسلوا لي تفاصيل برامج حساب الايداع لديكم.

الاسم : ______________________

العنوان : ______________________

____

عضو في مجموعة الناشيونال ويستمنستر بنك والتي يفوق رأسمالها واحتياطاتها عن ١.٨ بليون جنيه استرليني.

العنوان المسجل Lombard House, Curzon Street, London W1A 1EU, England

المجلة العربية للعلوم الإنسانية

مجلة فصلية محكمة ، تقدم البحوث الأصيلة والدراسات الميدانية والتطبيقية في شتى فروع العلوم الانسانية والاجتماعية باللغتين العربية والانجليزية :

تصدر عن جامعة الكويت

صدر العدد الأول في يناير ١٩٨١م .

رئيس التحرير **د. خلدون حسن النقيب .**

مدير التحرير **عبد العزيز السيد أحمد .**

- أول مجلة عربية تصدر على مستوى عالمي وتتناول الجوانب المختلفة للعلوم الانسانية والاجتماعية بما يخدم القارىء والمثقف والمتخصص .
- تتناول المجلة الميادين التالية :

اللغويات النظرية والتطبيقية – الآداب والآداب المقارنة – الدراسات الفلسفية – الدراسات النفسية – الدراسات الاجتماعية المتصلة بالعلوم الانسانية – الدراسات التاريخية – الدراسات الجغرافية – الدراسات التربوية – الدراسات حول الفنون (الموسيقى – التراث الشعبي – المسرح – الفنون التشكيلية – النحت .. الخ) – الدراسات الآثارية (الأركيولوجية) .

- تقدم المجلة معالجاتها من خلال نشر :

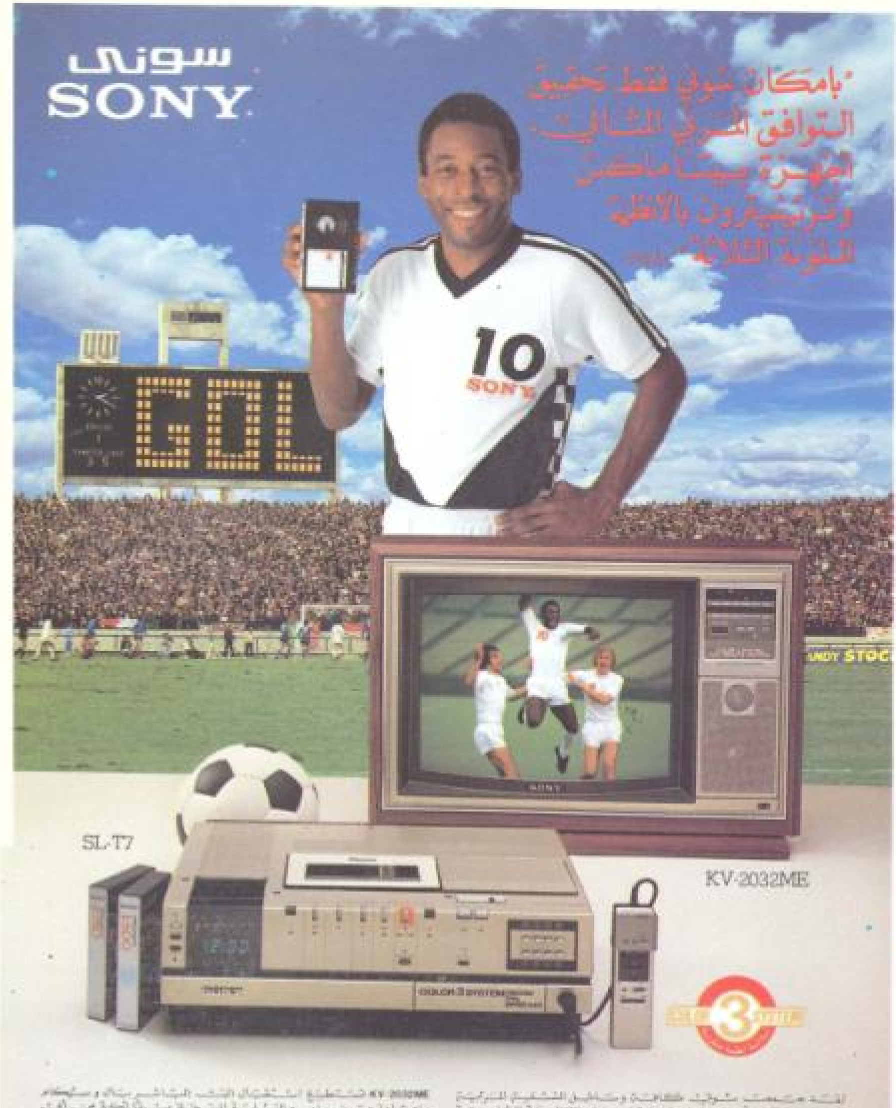
البحوث والدراسات – مراجعات الكتب – التقارير العلمية – المناقشات الفكرية

- مواعيد صدور المجلة : كانون ثاني – نيسان – تموز – تشرين أول
- تنشر المجلة ملخصات للبحوث العربية باللغة الانجليزية ، وملخصات بالعربية للبحوث الانجليزيــة .

ثمن العدد :	للأفــراد	٤٠٠ فلس
	للطــلاب	٢٠٠ فلس
• الاشتراكات السنوية	للمؤسسات	١٠ د.ك.
	للأفــراد	٢ د.ك.
	للاساتذة والطلاب	١ د.ك.

- تقبل الاشتراكات في المجلة لمدة سنة أو عدة سنوات .
- **قواعد النشر تطلب من رئيس التحرير .**
- **جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير** . ص. ب : ٢٦٥٨٥ (الصفاة)

الكويت – (الشويخ – ت : ٨٢١٦٣٩)
٨١٧٦٨٩
٨١٥٤٥٣ .



سوني
SONY
بامكان سوني فقط تحقيق
التوافق المثالي
لأجهزة بيتاماكس
وترينيترون بالأنظمة
الملونة الثلاثة
GOL
10
SONY
SL-T7
KV-2032ME
سوني بيتاماكس
Sony Betamax T7
Betamax

عطيك العالم باكمله



Beta

دكل شيئ تريده بنظام
سيكام وَ ان تي اس سي ،
نطي كلَّ ما لاترغب في مشاهدته
ة آلية البحث عن الصورة .
ن أن تحصل على أشرطتك من أي مكان في
م ، فرنسا ، المانيا أو الولايات المتحدة
يكية ، لأن بيتا سانيو يعرضها بشكل ممتاز
كذا يستطيع حتى الطفل تشغيلها
ساطة .

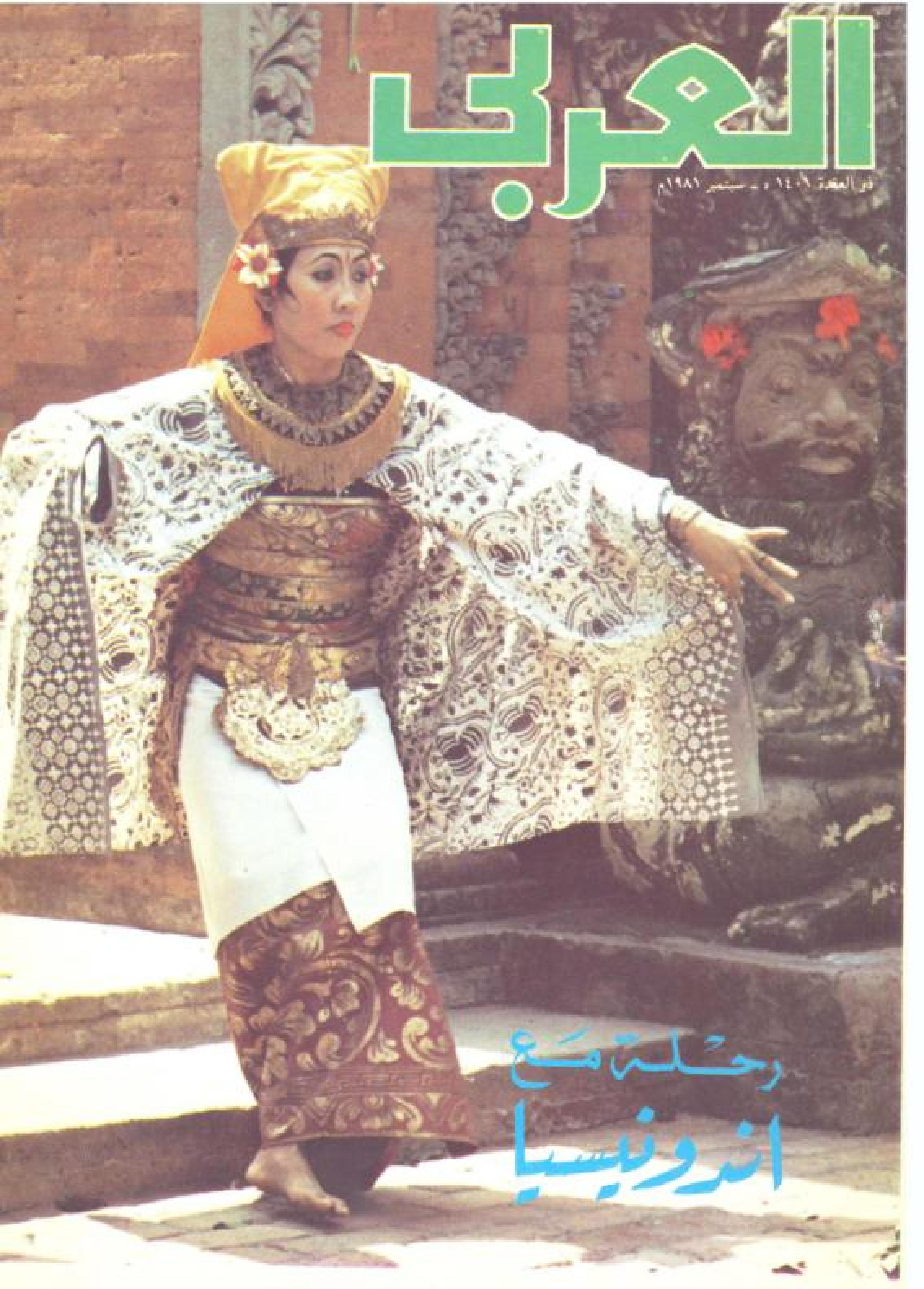
بامكان فيديو سانيو VTC 9455 أن يعمل في أي مكان من العالم آلية البحث عن الصورة تعمل على الأنظمة الثلاثة وبذلك تستطيع مشاهدة ما تريد وتخطي ما لا تريد إضافة إلى مؤقت لمدة ٧ أيام وعداد الكتروني مع الذاكرة والتسجيل الصوتي والتحكم عن بعد ونقاط توصيل الكاميرا . مع جهاز سانيو لكافة الأنظمة نعطيك العالم باكمله .

VTC 9455



سانيو SANYO

هذه هي الحياة


العربي
ذو القعدة ١٤٠٦ هـ - سبتمبر ١٩٨٦م
رحلة مع
اندونيسيا

المفتاح المثالي لأعمالك في الكويت والخليج



بنك الكويت الوطني أنشأه رجال الأعمال في الكويت منذ ٢٨ سنة.
بنك الكويت الوطني [illegible]
بنك الكويت الوطني يقدم جميع الخدمات [illegible] والتجارية والاستشارات المصرفية.
بنك الكويت الوطني شبكة من المراسلين في جميع أنحاء العالم [illegible]
[illegible]

بنك الكويت الوطني ش م ك

ص.ب ٩٥ ، تلكس [illegible] الكويت ، تلفون ٤٢٢٠١١ (الفرع الرئيسي)

عزيزي القارئ

وسط دوامة الهموم العربية التي تزداد كما ونوعا كل يوم ، تنفذ اسرائيل خطة جديدة لحفر قناة تربط فيما بين البحر الابيض المتوسط والبحر الميت ، اهدافها باختصار شديد هي : توجيه ضربة اقتصادية موجعة للاردن ، لان ارتفاع منسوب مياه البحر الميت بواسطة مياه المتوسط القادمة عبر القناة الجديدة سيؤدي الى اغراق ترسبات البوتاس ، الذي يشكل المصدر الثاني بعد الفوسفات الذي يعتمد عليه الاردن في اقتصاده ـ دعم الامكانيات الاقتصادية الاسرائيلية ، عن طريق الافادة من فارق مستوى مياه المتوسط والبحر الميت في توليد الطاقة الكهربائية ، التي توفر عليها نصف احتياجاتها من الطاقة عام الفين (قيمتها حوالي ٧٥٠ مليون دولار) ثم توفير المياه للمشروعات الصناعية الاسرائيلية قرب البحر الميت ، واحياء منطقة النقب .

هذه هي الخطة التي بدأت اسرائيل تنفيذها في سنة ١٩٨٠ بينما بدأ الحفر فعلا في شق القناة في شهر يوليو الماضي . وحتى الآن لم يصدر اى فعل عربي يذكر ، باستثناء احتجاج الاردن لدى الامم المتحدة (!) رغم ان القناة تمر في قطاع غزة وهي ارض عربية محتلة ، ورغم ان البحر الميت ـ على اسوأ االفروض ـ ليس الا بحرا اردنيا ـ اسرائيليا مشتركا ، ليس لاسرائيل ان تتصرف من جانبها في شأنه .

الصمت العربي مستمر ، والخطة الاسرائيلية مستمرة ـ هذه هي الخلاصة ، ويوم يتم شق القناة ، ويصاب الاقتصاد الاردني بكارثة تهدد دخله القومي ، يومئذ قد يستيقظ العرب ويبدأ النضال على تلك الجبهة الجديدة عبر الوسائط المعهودة في الامم المتحدة وبقية المنظمات الدولية ، ومن يهمه الامر من المحسوبين على الضمير العالمي ....الا ينبغي ان يتحرك العرب سياسيا وعلى نطاق واسع لكشف الخطة الاسرائيلية التي تحاك في الظلام وبعيدا عن الاعين ؟

الا يستطيع العرب ان يضموا الى قوائم المقاطعة كل مؤسسة مالية او صناعية تسهم في تمويل المشروع ؟

الا يحتاج الامر الى تحرك عربي يتدارك البلاء قبل وقوعه ، ولو مرة واحدة ؟!

(المحرر)

صورة الغلاف

● خامس اكبر بلاد العالم ، يعيش فوق جزرها السابحة في مياه المحيطين الهندي والهادي مائة وخمسون مليون نسمة وهي بلاد بعيدة ولكن يربطها بنا صلات قوية عريقة .. سافرت « العربي » اليها لتقدم هذه الصورة السريعة لشعب يحبنا ، ولكننا لانعرف الكثير عنه .. (اقرأ رحلة مع اندونيسيا ص ٦٨) .



قضايا عامة

عروبة واسلام

قضايا حيوية

أدب وفنون

طب وعلوم

استطلاعات مصورة

شخصيات وتاريخ

ابواب ثابتة

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير أحمد بهاء الدين

مدير التحرير فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ١١٠ فلوس ، الخليج العربي ريالان قطريان ، البحرين ٢٠٠ فلس بحريني ، العراق ١٢٠ فلسا ، سوريا ١٠٠ قرش ، لبنان ١٠٠ قرش ، الاردن ١٠٠ فلس ، السعودية ريالان سعوديان ، السودان ١٠ قروش ، ج . م . ع ١٠ قروش ، تونس ٢٥٠ مليا ، الجزائر ٢٫٥ دينار ، المغرب ٢٫٥ درهم ، اليمن ٢٫٥ ريال ، ليبيا ١٥٠ درهما ، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ٢٠٠ فلس .

الاشتراكات : يراجع طالب الاشتراك :

١ ـ الشركة العربية للتوزيع وعنوانها : ص . ب (٤٢٢٨) بيروت/لبنان .

٢ ـ مؤسسة توزيع الأخبار وعنوانها : ٧ شارع الصحافة/القاهرة/مصر .

« للمشتركين في جمهورية مصر العربية »

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراسلات : باسم رئيس التحرير

عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤١

تلغرافيا « العربي »

AL-ARABI — No. 274 September 1981

P.O. Box 748 — KUWAIT

في الانحطاط

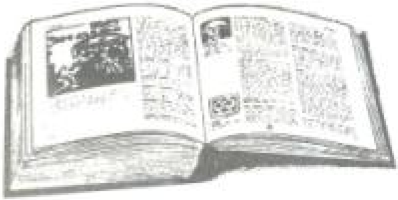
اذا كان هذا العنوان يصدم القارىء ، أو يوحي اليه بتشاؤم ليس مستعدا لاستقباله . فانني أعتذر اولا ، واقول له ثانيا ان الحديث ليس فيه تلك الدرجة من التشاؤم التي يوحي بها العنوان . غاية الامر أنني وضعت عنوان الموضوع بشكل مباشر ، دون ان أحاول كما يجب البحث عن عنوان جذاب ...

وقد يزول التشاؤم من ذهن القارىء الى حد كبير ، اذا قلت له مقدما ان ظاهرة الانحطاط الثقافي التي أراها ، ظاهرة عالمية ، ولها أسبابها العالمية واذا كان لابد ان أركز أغلب الحديث على الجانب العربي ، فهذا أمر طبيعي لان ما يجب ان نعرفه ونحاول معالجته ، هو المرض الذى في جسمنا قبل المرض الذى في جسم الاخرين .

والناس جميعا اذا جلسوا بعضهم الى بعض أبدوا جميعا دون استثناء سخطهم أو مللهم من كل ما يعرض عليهم .. في الصحافة ، في السينما ، في الاذاعة والتلفزيون ، أو في الكتب . وهم يتساءلون : أين الكتاب ؟ أين الشعراء ؟ .. ماذا يقول فلان وماذا يكتب علان ؟ وأين نجوم السينما والمسرح الكبار ؟ .

ولعل جزءا من أسباب انتشار « الفيديو » هو انه مكتبة من نوع جديد يمكن الناس من اقتناء أشياء قديمة لم تعد تعرض بعد . فيجدون في العودة الى ما سبق لهم ان شاهدوه متعة أكبر وغذاء أشهى ... تماما كما اذا اشتاق قارىء أي شعر جيد .. بحث عن ديوان المتنبي أو عن « الشوقيات » .

هل هذا صحيح ؟ أم أنه من طبيعة الانسان ، في كل زمان ومكان ، ان يقلل من قيمة



الثقافي.. داؤه ودواؤه!

بقلم: أحمد بهاء الدين

الجديد والمعاصر والمتاح له بسهولة ، بينما تزداد في نظره قيمة القديم المعتق ، لانه صار نادرا ولكن ماذا ينتج منه مرة أخرى ؟ ...

على أي حال ، فالمؤكد ان « الشعور بالانحطاط العام » في هذه المجالات . وان هذا الشعور اذا كان خطأ أو صوابا فهو شعور موجود . وهذا في حد ذاته حقيقة كافية لان نقف عندها ونتأملها .

❋

وهذه الظاهرة ، اذا نظرنا اليها من الزاوية الضيقة ، قد نجد بعض الصواب في ما يقول به كثيرون من مؤرخي الفكر والفنون والثقافة العامة .. وهو أن أجيال المبدعين في هذه المجالات لا تتوالى وراء بعضها البعض في تسلسل متواصل .. ولكنها اشبه بحركة الموج في البحر .. تجد بين كل قمتين من الموج العالي ، نقطة منخفضة ... كذلك أجيال المبدعين الكبار ، بعد كل موجة عالية ، هناك موجة منخفضة قبل ان تأتي موجة أخرى عالية ...

فاذا كنت في عصر ما ـ على سبيل المثال ـ تجد كاتبا أو فنانا مثل العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم ، ومحمد عبد الوهاب ، وام كلثوم ، وفيروز ... فلا بد ان يتلو هذه الموجة العالية ، انكسار في الموج ، قبل ان يتلو الهبوط صعود موجة عالية جديدة ...

وهناك من يضيف الى ذلك ان جيلا من القمم ، من طبيعته ان يلقي ظله على الجيل التالي مباشرة فلا تتوفر له الفرصة الكاملة للنمو . تماما كالشجر الضخم الذي لا تنضج نباتات أخرى في ظله ، اذ أنها تحجب عنها الشمس ، وتمتص منز' الماء ، فلا تنمو حولها الا

الحشائش . فلا بد ان يبعد جيل الصعود بعدا زمنيا معقولا ينحسر فيه اثره ، بحيث تتاح فرصة كاملة لنبت جديد ...

وقد يكون هذا التصور صحيحا . ولكنه لا يكون صحيا في تقديرى الا اذا كانت كل الظروف الاخرى ثابتة غير متغيرة . أما اذا تأملنا ما هو أوسع من ذلك من ظروف واعتبارات ، والعالم السريع المتغير الذى نعيش فيه ، فاننا سوف نشرف هنا على مساحة شاسعة من الاسباب والمبررات المؤدية الى الانحطاط العام الذى نتحدث عنه ..

وبعض هذه الاسباب مرضي ، بمعنى المرض الذى يحتاج الى علاج حقيقي ...

وبعض هذه الاسباب صحي ، أو بتعبير أدق ان أمراضه من أمراض النمو كالامراض التي لا بد ان يمر بها المخلوق البشرى في مراحل الطفولة والصبا والمراهقة قبل أن يصل الى شباب جديد معافى ، وتضج متقدم عما كان موجودا من قبل .

ولنبدأ بتأمل نموذج من « أمراض النمو » أو أهم نموذج في الواقع في مجال ما يمكن ان يسمى « أمراض النمو » ..

لا شك أننا جميعا قد نادينا ، ودعونا ، وعملنا ، من أجل هدف نبيل من أهداف العصر ، وهو « ديمقراطية الثقافة » ...

وليس فينا الا من عاصر ، أو سمع ، أو قرأ ، عن صيحة طه حسين المدوية في مصر ، وانتشر صداها في كل العالم العربي حين قال : ان التعليم يجب ان يكون كالماء والهواء ! ومعنى ذلك أنه حق طبيعي لكل انسان مهما كان وبصرف النظر عن كل اعتبار وان كل دولة ملتزمة بالتالي أن توفره ولو بالمجان ؛ لكل انسان .

وأذكر وقتها ـ وكنت طالبا ـ ان هذه الصيحة أثارت حماسة الجميع . وصارت بالنسبة للبعض هدفا قوميا في مستوى هدف الاستقلال والدستور ....

وأذكر ان الجدل يومها ثار بشدة وعنف هائلين ...

طه حسين يرى ان العبرة بالقاعدة العريضة . وبالتالي فأول أسباب التقدم ومظاهر العدالة هو في توفير التعليم الذى هو ضرورى كالماء والهواء لكل انسان .

وكان العقاد انطلاقا من ايمانه بالنخبة ، يقول : ولكن الماء اذا ترك في أى نهر يتدفق دون حساب ، فانه قد يغرق كل ما حوله ويقضي على الاخضر واليابس . وانما الاستفادة بتدفق الماء تكون بضبطه وربطه ، باقامة الجسور من حوله ، والخزانات في طريقه ، وشق الترع منه ...

وهذان القولان ، يلخصان معركة دارت عشرات السنين في مصر . حتى جاء طه حسين وزيرا للتعليم فبدأ بسرعة في مجانيات التعليم ، والتوسع في انشاء الجامعات ، وحرك موجة لم يكن ممكنا ايقافها بعد ذلك . فقد كانت موجة العصر . بصرف النظر عن ارادات الافراد وآراء المفكرين ...

ولن أترافع هنا عن ضرورة وقيمة ان يكون التعليم كالهواء والماء . فهي قضية حسمت نهائيا . واذا كان فيها من عيوب فهي عيوب عدم اكتمالها . مثل ضحالة التعليم الذى يقدم للناس . وعدم كفايته حتى الان اذ أن نسبة الامية في عالمنا العربي مازالت هي الأعلى . وان التعليم صار تلقينا سطحيا ، او مجرد تعريف بالقراءة والكتابة . فالعيب هنا في القصور عن إكمال الرسالة ، وليس في الرسالة ذاتها . ومع ذلك فالموقف يتحسن ولا يسوء . ثم انه لا



العقاد



طه حسين



محمد عبد الوهاب

يمكن المقارنة في هذا العصر بثوراته العلمية والمعلوماتية والتكنولوجية .. بين شعب متعلم، وشعب أغلبه غير متعلم ... ولاشك انه كما ان دائرة التعليم قد اتسعت، فان دائرة مستوى المعيشة، المادية المعقولة قد اتسعت ايضا، وهذه اشياء ايجابية. والواجب هو المضي فيها بجدية اكثر وخطوات اسرع ؟

ولكن كيف اثر هذا على الثقافة في مفهومها العام .... وكيف يساهم في انحطاطها الذى تشير اليه ؟ ..... وكيف ينتج عن الخير بعض الشر ؟ ....

نعم، هذا ما حدث في مجالات كثيرة .....

فقد حدث أمران في وقت واحد :

الامر الاول : هو انتشار ما يسمونه وسائل الاعلام وما أحب ان أسميه وسائل التثقيف العام، او هكذا يجب ان تكون ...وهذا في حد ذاته كان كافيا لان ينشر رسالته في دائرة اوسع، ولم يكن هذا ممكنا الا اذا حملته موجة اوسع من الجماهير. فامكانيات التعلم حين كان العالم في عصر المخطوطات، لاتقاس الى امكانياته حين ظهرت المطبعة الاولى، وامكانيات المطابع الاولى في اصدار الكتب لا تقاس الى امكانيات المطابع الحديثة، وظهور الصحف الاسبوعية ثم اليومية، العشرات في البداية صاروا بالالاف، والالاف تحولت الى ملايين، والملايين تحولت الى عشرات ومئات الملايين بمجرد تقدم وسائل الطباعة وصناعة الورق ، وانتشار القراءة والكتابة.

وجاء بعد ذلك ظهور الاذاعة ثم السينما ثم التلفزيون. وهذه وسائل تذهب الى البيت وتدخله وتعاشر سكانه مهما كان نائيا، ولا تنتظر حتى يذهب سكانه اليها .....

ثم انها كما تهم من نال من التعليم، فانها تخاطب لاول مرة من لا يقرأ ولا يكتب. فهي تخاطب المتعلمين والاميين وهي اكثر تأثيرا عليهم، لانهم بحكم الامية وانعدام التكوين الثقافي اقل مقاومة واقل مناعة لما تقدمه اذا كان نافعا او ضارا، وهذه هي الامر الثاني.

هذه التطورات العلمية والتكنولوجية السريعة، التقت في عالمنا بالموجة التي تحدثنا عنها من انتشار التعليم نسبيا، ومن ارتفاع مستوى المعيشة نسبيا، وحدث بين الامرين تفاعل كيائي خطير.

فقد أصبحت منابر التثقيف العام الهائلة من اقدم وسائلها وهي الكتاب الى احدثها وهي التليفزيون، محكومة باعتبارين معا :

الاعتبار الاول ان جمهورها الاكبر والاوسع صار من الجمهور الامي . او شبه المتعلم او المتعلم غير الناضج ، وهذه الوسائل لكي تعيش عليها تفضل ان يكون زبائنها بالملايين من هؤلاء على ان يكون جمهورها آلافا قليلة من المثقفين . وبالتالي انتشر الانتاج السهل الهابط المستوى ، واحيانا المنحط القائم على الجنس والجريمة والاثارة دون اي قيمة فنية ، او اجتماعية ...

فاذا اردت ان تصدر جريدة ذات مستوى ، فعليك ان تقنع بعشرات الالاف من القراء ...

اما اذا اردت ان تصدر جريدة توزع الملايين . فعليك ان تزيح من ذهنك قضايا المستوى الثقافي والفني والرسالة الثقافية العامة ...

الاعتبار الثاني ، ان وسائل التثقيف العام هذه بحكم تكاثرها وتعددها صارت كالمعدة الشرهة التى مهما اعطيتها من وقود فهي تقول :هل من مزيد ؟.

الصحيفة صارت عدة صحف ، المجلة صارت عشرات المجلات ، الموجة الاذاعية او القناة التليفزيونية صارت موجات وقنوات وزادت ساعات ارسالها حتى كادت تغطى الاربع والعشرين ساعة في اليوم .

وكل هذا يحتاج الى انتاج . الى طعام للمعدة الشرهة .

وهكذا صارت تتلقف اى شيء يقدم اليها لكي تنشرة او تذيعه ، او تملأ به ساعات الارسال التليفزيوني .

لم تعد هناك اى صعوبة في النشر ....

كل منا قرأ الكثير من حياة اعظم الكتاب والمفكرين والموسيقيين والصحفيين ، وكيف ان كل واحد منهم قاسى وتعب وربما عرف الجوع سنوات ، قبل ان يعترف به ناشر ، وان يرى اسمه على شيء منشور . ذلك ان الباب كان ضيقا بالفعل ، وكان الدخول من هذا الباب الضيق يحتاج الى جهد حصين ، والى تفوق واضح ، او اضافة هامة قبل ان يلتقط صاحب الابداع انفاسه ، ويمر من عنق الزجاجه ... ويتبدى عمله للجماهير (القليلة نسبيا) .

وربما مات العبقرى ولم يعرف الا بعد موته بسنوات ....

فان جوخ الرسام العظيم مات جوعا . ولكن بيكاسو الذى جاء في عصر الاعلام ، الواسع تكدست بين يديه مئات الملايين التى لا يعرف ما يصنع بها .

كان هذا الكفاح ماضيا وقد فات ....

الآن ، يستطيع الشاب ان ينشر اول مقال يكتبه في حياته ، وان يرى على شاشة التليفزيون اول رواية تخطر على باله . فالطلب في هذه السوق اكثر من العرض بكثير فالمشترى في حاجة الى شراء الثمار الناضجة مع الثمار الجافة التي تعطنت . ان يريدها كلها .... وبالتالي فان مهمة المنتج البائع صارت في غير حاجة الى المعاناة القديمة ....

هذا هو ابرز اسباب ما اسميه بالانحطاط الثقافي ولكنني في الحدود التي شرحتها ، اضعه في مجال أمراض النمو .... لانني لا اتصور مستقبلا للانسانية الا في ازدياد التعليم ، وبعد ازدياده عددا لا بد من ارتقائه نوعا . واول جيل لمسه تيار الثقافة لابد ستعقبه اجيال تعمقت فيها قيم الثقافة .

فمواجهة مرض « النمو » لن يكون برده الى الوراء . ولا بتركه يصل بصاحبه الى الموت ...

ولكن مواجهته تكون بتوقعه ، وبعلاجه ، حتى يصل الى مرحلة النقاهة ثم الصحة الكاملة . او هذا هو المستقبل الوحيد فيا عدا الموت بالمرض .....

❋

على ان هناك امراضا اخرى ، غير صحية ، وتحتاج الى علاج ، لانها اذا تركت تصبح امراضا مستعصية ، وليست أمراض النمو التي تاخذ مجراها

والحدث هنا عن امرين اكتفي بهما في هذا الحديث ..... القضية الاولى هي انه صار لامفر في تقديرى من ان تتدخل الدولة بصفتها نائبة عن المجتمع وممثلة لمصالحه في هذا المجال . في بلاد نامية مثل بلادنا .. لابد ان تتدخل الدولة ابتداء من تحسين التعليم ، بل تغيير فلسفته من مجرد تلقين الى عملية تكوين يشمل العقل والذوق ومختلف الحواس ..... انتهاء الى ايجاد ورعاية للمؤسسات التى قد لاتخدم اليوم الا النخبة ، ولكن لابد من المحافظة عليها حتى تلحق بها الجماهير ....

من يوجد معاهد المسرح ؟ ومعاهد الموسيقى ؟ ....

ومعاهد التراث ؟ والفرق التي تخرج من هذا كله ؟

من يترجم لنا امهات الكتب العالمية ؟ من يرعى البحوث الدقيقة المتخصصة ؟

من يمكنه ان يوجد المجال لهذه الجذوة المتميزة ؟ ويحوطها ويحميها من هبات الريح المتقلبة ؟ غير الدولة حين تدرك انها مسئولة عن مستقبل الثقافة ومستواها تماما كمسئوليتها عن زيادة الانتاج ورفع مستواه ؟ .....

وهنا نحتاج الى ان تفرق الدولة بين ماتسميه « اجهزة الاعلام » وبين ماتسميه « اجهزة التثقيف العام » ، فلا تأخذ هذه الرسالة على انها مجرد دعاية لنفسها ، او مباهاة بكثرة مطبوعاتها .... او بان يكون لديها مطبوعات فاخرة لمجرد انها رموز تقدم كحرصها على ان يكون لديها فنادق فاخرة ... للسياح وكبار الزوار .

والقضية الثانية ، هي محاولة تخليص تدخل الدولة من العيوب التي تعلق به كثيرا ، وتقتل رسالة التثقيف العام قتلا ... او « شنقا حتى الموت » كما يجيء عادة في منطوق الاحكام بالاعدام .....

ذلك هو حين يكون تدخل الدولة سياسيا بالدرجة الاولى والاخيرة . التدخل الذى هدفه استخدام الثقافة وليس خدمة الثقافة ، وتحديد الابداع بمسارات معينة ، بدلا من تحريره من الاسر حتى يتمكن من الانطلاق .

ان اعرق بلاد اوروبا صارت حكوماتها تعين المسارح الجادة ، وفرق الموسيقي القومية والابحاث والكتابات العلمية والادبية .... وبعد ان غمرتها ايضا موجة مشابهة لكل ما شرحناه من قبل مع اختلاف في المستوى وليس في النوع .....

ولكن تدخلها للدعم لا للحكم ، للتحرير وليس للتخدير .

بهذا ـ على الاقل ـ نجعل من ديمقراطية الثقافة حقيقة . ونجعلها علاجا للانحطاط الثقافي ، وليس داء من أدوائه .

عندما يسأل الفرد نفسه في ظروف هذا العصر : ماذا يترك لابنائه ؟ ... ... يرد قائلا : ازودهم باحسن تعليم وتكوين ، ثم يشقون طريقهم من بعدى بانفسهم .

وما نريده من الدولة هو ان تسأل نفسها : ماذا تترك للاجيال المقبلة ؟ ثم يكون الرد ازود شعبي باحسن تعليم وتثقيف وتوعية وتكوين .. ثم اطمئن الى ان شعبى سيبنى مستقبله احسن ما يكون البناء .

■ ■

أحمد بهاء الدين

من كل ٢٠ شخصا يصاب خمسة بالسرطان !

فضيحة العصر

بقلم : الدكتور عبد العظيم أنيس

نحن نعيش فى عصر وصول الانسان الى القمر ، فى عصر استعداده لغزو كواكب أخرى ، فى عصر الطاقة الذرية بتطبيقاتها السلمية المذهلة واستخداماتها الحربية المرعبة ، فى عصر الهندسة البيولوجية التى سمحت بتدخل إرادة الانسان الواعية لاختراع أشكال حياة جديدة كاستخراج البروتين من منتجات البترول باستخدام كائنات دقيقة فى عملية التحويل ، الى درجة أن المحكمة العليا الفيدرالية فى الولايات المتحدة الأمريكية أصدرت فى يونيو ١٩٨٠ أغرب حكم سمع به انسان ... وهو أن من الممكن أن يسجل المواطن فى ادارة البراءات اختراعا ، لا لآلة جديدة ، وانما لشكل حياة جديد !

الميكرو معالج

نحن نعيش أيضا فى عصر (الميكرو معالج) هذا الاختراع المذهل فى عبقريته ورخصه ، والذى أدى - وسوف يؤدى - الى أخطر النتائج الاجتماعية وأعمقها فى مجالات الانتاج والخدمات والتربح على نحو ما فصلنا فى مقال سابق .

نعم .. نحن نعيش فى عصر الاكتشافات العلمية والتكنولوجية المذهلة الذى حققت فيه معرفة الانسان وارادته خلال سبعين عاما من البحث العلمى والانفجار التكنولوجى ما لم تحققه خلال الوف السنين من قبل .

ومع ذلك فنحن نعيش فى عصر السرطان - فضيحة القرن العشرين - حيث عجزت ارادة الانسان وبحوثه حتى اليوم عن حصار هذا المرض الفتاك ، وعن الوصول الى علاج حاسم لانواعه المختلفة .

انه المرض الذى يموت به كل عام مئات الالوف من البشر ، ومن كل الأعمار « الصغار والكبار » ، بل وتزيد نسبة الذين يصابون به والذين يموتون به كل عام .

حتى اليوم أنفقت مئات من الملايين من الدولارات فى بحوث دون نجاح حقيقى فى محاصرته . ولم يكن العجز العلمى هو مصدر هذا الفشل بقدر ما كانت عقبات المصالح . فالشركات الصناعية العملاقة تحقق أرقاما

فلكية من الارباح فى ظل الأوضاع الحالية من التلوث البيئى الذى هو المصدر الأول لمعظم أنواع السرطان . ولقد حاولت هذه الشركات بكل الاساليب ـ وستظل تحاول على الارجح ـ الوقوف أمام جهود الانسان لمحاصرة تلوث بيئته .

ولقد قيل فى الماضى ان السرطان هو مرض المجتمعات الصناعية ، وهو قول غير دقيق . فالسرطان ليس نتاج المجتمع الصناعى فى حد ذاته ، وانما هو نتاج التلوث الصناعى بأوسع معانيه . واذا استطاع الانسان أن يسيطر على هذا التلوث فقد استطاع أن يحاصر مرض السرطان . وليس هذا تحليلا جديدا وانما هو ما ورد فى تقرير معهد السرطان القومى فى الولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٥ ، وما وصلت اليه هيئات طبية وطنية عديدة فى أوروبا ، وما أكدت عليه الوكالة الدولية لبحوث السرطان .

مؤشرات الخطر

نبدأ أولا بالصورة الاحصائية لانتشار المرض فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، حتى نبرر قولنا بأنه فضيحة العصر . ان الاحصاءات الرسمية تشير الى أنه فى هذه المجتمعات بين كل عشرين من البشر يصاب اليوم خمسة بالسرطان ، ويموت من هؤلاء الخمسة أربعة بسببه .

اليس هذا بشعا فى حد ذاته ؟ لكن الأبشع من ذلك أن السرطان هو المرض الرئيس فى العالم الذى تتصاعد معدلات الاصابة به .

فى بريطانيا مثلا تزداد معدلات الوفيات بسبب السرطان بنسبة ١ ٪ سنويا للذكور ، وبينما هبطت معدلات الوفاة بالسرطان بين الاناث هبوطا بطيئا خلال الفترة ١٩٤٣ ـ ١٩٦٣ الا أنها عادت للتصاعد من جديد بعد عام ١٩٦٣ .

وفقا لاحصاءات عام ١٩٧٨ فى بريطانيا فان السرطان هو السبب الاول للوفاة لمن تقع أعمارهم بين الخامسة والثلاثين وأقل من الخامسة والخمسين . أما هؤلاء الذين تقع أعمارهم بين الخامسة والخمسين وأقل من الخامسة والسبعين فانه يلى مرض القلب فى الأهمية كسبب للوفاة .

نتساءل بعد ذلك ما هو موضع هذا المرض لمن تقع أعمارهم بين الخامسة والأقل من الخامسة والثلاثين ؟

والاجابة الاحصائية هى أنه السبب الثانى للموت بعد الحوادث لهؤلاء الذين تقع أعمارهم فى هذه الفترة ، لكنه المرض القاتل الذى يأتى فى المقدمة لهذه المجموعة .

وهذه الاحصاءات لاتختلف كثيرا فى بريطانيا عنها فى الدول الاوربية الأخرى أو فى الولايات المتحدة ، ومع أننا لا نملك إحصاءات عن دول العالم الثالث ، الا أن هناك شواهد عديدة على تزايد نسبة الاصابة بالمرض خصوصا فى دول العالم الثالث التى قطعت شوطا فى اتجاه التصنيع ، أو التى اتسعت فيها أنماط الاستهلاك الغربية .

وكما هو معروف فان السرطان يتميز بنمو غير مسيطر عليه بالانسجة . وهذا النمو يؤدى عادة الى ظهور ورم فى الجزء المصاب ، لكن سرطان الدم (ليكوميا) ليست له أية مظاهر واضحة .

وليس صحيحا أن هناك « علاجا » معروفا للسرطان على الرغم من مئات الملايين من الدولارات التى انفقت بحثا عن هذا العلاج . وهناك شبه اتفاق الان على أنه اذا كان المقصود من العلاج هو اجراء عكس لعملية النمو السرطانى فى الجزء المصاب فان هذا ليس الا وهما . فأقصى ما يطمع اليه مريض السرطان هو القضاء على هذا الورم عن طريق الأشعة أو ازالته عن طريق الجراحة . أما الى أى حد يكون هذا الاجراء ناجحا وشافيا فيتوقف على ما اذا كان المرض قد أكتشف فى مراحله المبكرة أم لا .

ففى حالة سرطان الثدى (أو الجلد) يكون التدخل فى الوقت المناسب فعلا فى التغلب على المرض ، وأكثر من نصف النساء اللاتى يصبن بسرطان الثدى يعشن فى حالة جيدة بعد الجراحة ما دمن يواظبن على العلاج ومراجعة الاخصائى .

أما فى معظم حالات السرطان الأخرى فان نمو المرض يكون فى أجزاء غير ظاهرة من جسم الانسان ، والآلام المصاحبة له فى البدء لا تكون شديدة ، وهكذا فان كثيرا من الناس يعيشون سنوات عديدة وفى أجسامهم نمو سرطانى دون أن يدرك أطباؤهم ذلك . وعندما تشتد الآلام وتظهر الأعراض الحاسمة تكون فرص الشفاء قد فاتت فى غالب الاحيان . ينطبق هذا بشكل خاص على سرطان المعدة وسرطان الرئة ، وفى الحقيقة فان فرصة الشفاء من سرطان الرئة لم تتحسن عما كانت عليه منذ أربعين عاما . فمن كل بين مائة يصابون بسرطان الرئة يعيش خمسة فقط لمدة خمس سنوات منذ تشخيص حالتهم !

السرطان والسياسة :

سيقول القارىء : وهل هناك علاقة بين السرطان والسياسة ؟ وما دخل السياسة في موضوع كهذا ؟ والاجابة هي أنه اذا كان المقصود بالسياسة الجهد الجماعي للانسان لرفع مستواه المعيشي واعلاء انسانيته في مواجهة كافة العقبات التي تحول دون ذلك فان للسرطان ـ أكثر من أي مرض آخر ـ صلة وثيقة بالسياسة .

ثمة شبه اتفاق الآن على أن السرطان هو في المحل الأول مرض التلوث الصناعي بأوسع معانيه (التلوث في أماكن العمل ، في هواء المدينة ، في الغذاء ، السجاير .. الخ) وانه على هذا الاساس يمكن أن يمنع انتشاره وازدياد خطره . لكن الشركات العملاقة الدولية المتعددة الجنسية تقف موضوعيا خصما عنيدا ضد هذا ، لأن محاصرة التلوث البيئي سوف يؤدي الى خفض أرباح هذه الشركات أو ضياعها . ويكفي أن نشير الى المعركة الدائرة اليوم بين هيئات الصحة الدولية وشركات الالبان الصناعية ، وخصوصا شركة نستلة ، كمثال حي على حقيقة الموقف الذي تواجهه اليوم .

ولهذه المعارك على الشركات الدولية العملاقة تاريخ طويل أذكر بعض أمثلته هنا فيما يتعلق بالسرطان بالذات .

المثال الاول : يأتي ضمن خبرة شخصية غريبة وقعت لي عام ١٩٥١ عندما كنت أدرس بالكلية الامبراطورية بجامعة لندن . كنت آنذاك أحضر كل اسبوعين « حلقة بحثية » في علم الاحصاء الرياضي تنعقد بالكلية ، وكان المعتاد ـ بطبيعة تخصصنا ـ أن يدعي للمحاضرة في هذه الحلقة اساتذة من الجامعات ومعاهد البحوث البريطانية ، كانوا يملأون السبورة في القاعة بالمعادلات والرموز الرياضية . وفي احد الأيام قال لنا استاذنا أن محاضر اليوم طبيب وأنه سيتحدث عن العلاقة بين سرطان الرئة والتدخين !

انه الطبيب البريطاني ريتشارد دولز (الآن سير ريتشارد دولز) ،وحتى اليوم ما زلت أذكر ابتسامته الوديعة وصوته الهادىء وفانوسه السحري الذي أتى به معه . أما سبب وجوده في هذا المكان الغريب فيرجع الى أن « براهينه » على العلاقة بين سرطان الرئة والافراط في التدخين كانت احصائية في المحل الأول وليست اكلينيكية . فقد تتبع لسنوات طويلة حالة مجموعتين من البشر ، احداهما لا تدخن ، والأخرى يدخن كل فرد من أفرادها أكثر من الثلاثين سيجارة يوميا . وقارن نسبة الاصابة بالمرض في المجموعتين ووصل بالاختبارات الاحصائية الى أن نسبة الاصابة بسرطان الرئة في مجموعة المدخنين تختلف اختلافا حقيقيا عن نسبة الاصابة به في مجموعة غير المدخنين . وقال انه منذ وصوله الى هذه النتيجة وهو يدور على النقابات العمالية بفانوسه السحري محاضرا ومحذرا ، وان شركات الدخان تشن على نتائجه حملة ضارية وتشكك فيها من الناحية العلمية ، حتى وصل الأمر الى أن دفعت مبالغ كبيرة لأبي الاحصائيين « فيشر » الاستاذ بجامعة كمبردج ليكتب كتيبا يسجل فيه اعتراضاته الاحصائية على نتائج ريتشارد دولز . ولقد حاولت شركات الدخان اغراء ريتشارد دولز لاخفاء نتائج بحوثه أو على الأقل تأجيل اذاعتها ، لكنها فشلت في ذلك .

ثم أعيدت هذه التجارب الاحصائية في بلدان أخرى ـ بعد تلافي مآخذ فيشر ـ وأصبحت العلاقة بين سرطان الرئة والتدخين فوق كل ريبة وشك

لكن شركات الدخان العالمية لم تيئس حتى اليوم . فمنذ أشهر فقط أعلن أحد العلماء البريطانيين ـ وسط استهجان نقابة الاطباء البريطانيين أنه يشكك ـ بناء على بحوث أجراها ـ في العلاقة بين سرطان الرئة والتدخين ، لكنه اعترف في نفس الوقت أن شركات الدخان هي التي تمول بحوثه !

والمثال الثاني : يتعلق بحادثة معروفة دوليا اليوم وهي تثبت كيف أخفت الشركات الكيماوية الأوروبية أبحاثا هامة عن موضوع السرطان حتى أجبرتها الظروف بعد سنوات على اذاعتها . والقصة تبدأ في أواخر الستينات حيث لوحظت أعراض مرض جلدي على عمال الشركات الكيماوية الذين يتعرضون لغاز (V.C.M) .

وأن بدء انتاج هذا الغاز في الصناعة على نطاق واسع يعود في الحقيقة الى الثلاثينات ، ولقد زاد انتاجه بمعدلات عالية بعد الحرب العالمية الثانية اذ انه مادة خام اساسية في صناعة البلاستيك .

ولقد حاول العالم الايطالي فيولا أن يولد نفس المرض الجلدي بتعريض حيوانات معملية لنفس هذا الغاز الا أنه لاحظ عام ١٩٧٠ أن بعض هذه الحيوانات ظهرت بها أورام سرطانية بعد تعرضها لجرعة عالية من غاز (V.C.M) .

ولقد دفعت هذه النتائج عددا من الشركات الكيماوية

الى أن تنتهى دراسة واسعة عن وسائط السرطان فى الحيوان تحت اشراف ا العالم الايطالى مالتونى . وفى أواخر ١٩٧٢ أكد مالتونى نتائج زميله قبولا وعممها .

وبدلا من أن تعلن الشركات الكيماوية نتائج مالتونى اختارت أن تظل فى طى الكتمان . بل وصل الأمر الى أنه عندما سأل المعهد القومى الامريكى للامن المهنى والصحة هذه الشركات عن أى بيانات عن غاز (V.C.M) فى يناير ١٩٧٣ قررت الشركات الاوروبية أن تغلق فمها فلا تقول شيئا عن بحوث مالتونى !

لقد كان من الممكن أن يظل الوضع على حالة الكتمان دون حدود لولا حادثة وقعت بعد ذلك بنحو عامين فى شركة جود ريتش التى تتعامل مع هذا الغاز بكثرة ، اذ مات ثلاثة من عمالها بنوع نادر من السرطان يصيب الأوعية الدموية للكبد . عندئذ وعندئذ فقط تنبهت الشركات الكيماوية التى تستخدم هذا الغاز الى مخاطره ، وهذه بدورها اتخذت اجراءات سريعة لخفض مستويات تعرض العمال للغاز ، بل اضطرت بعض الشركات الى اغلاق بعض مصانعها لحين اعادة تنظيم هذا الانتاج بما يتكافأ مع الخطر المكتشف حديثا . وتحركت الحكومات لوضع قواعد وقوانين جيدة لضمان خفض مستويات تعرض الملايين لهذا الغاز .

وعندئذ فقط نشرت نتائج مالتونى واصبح دور غاز (V.C.m) للسرطان أمرا معترفا به دوليا .

أما المثال الثالث فيتعلق بمادة بنزدين Benzidine

وهى مادة خام تدخل كعنصر هام فى صناعة الاصباغ . لقد أصبح معروفا اليوم فى الأوساط العلمية والصناعية أن شركات الصناعات الكيماوية كانت لديها منذ الثلاثينات أدلة حاسمة على أن هذه المادة وسيط لسرطان المثانة . ولقد تمثلت هذه الادلة الحاسمة فى جثث العمال الذين ماتوا من هذا السرطان بالاضافة الى تجارب معملية على الكلاب . ومع ذلك ظلت هذه المادة تنتج فى بريطانيا حتى منتصف الستينات ، بل لاتزال أصباغ معتمدة على هذه المادة تستخدم فى الصناعة حتى اليوم !

هل يمكن عمل شيء ؟

اذا كان ثمة أمل فى محاصرة السرطان فى المستقبل فلا بد أن تبدأ من المنبع الاول لهذا المرض ، أعنى التلوث الصناعى بأوسع معانيه . وهذا يقتضى من الحكومات اجراءات صارمة من الأمن الصناعى فى مواجهة الشركات والمصانع على النطاق الوطنى ، كما يقتضى توفر مناخ تعاون دولى واسع النطاق لتبادل الخبرات والمعلومات والدخول فى مشروعات بحثية دولية مشتركة .

والخطوة الأولى لهذا التعاون الدولى ينبغى أن تتجه للتعرف على المواد الكيماوية التى هى وسائط للسرطان ان هناك ستين الف مادة مستخدمة صناعيا وتجاريا لم يختبر - من زاوية السرطان - الا مائة وثلاثون منها فقط !

حول هذه النقطة بالذات تتباين فى أوروبا وجهة نظر أصحاب المصانع والشركات مع وجهة نظر النقابات . فبينما يقول أصحاب الصناعات أنه لكى تحدد أن مادة ما هى وسيط للسرطان لا يكفى أن تثبت التجارب المعملية على الحيوانات ذلك لأن المادة الكيميائية قد تكون وسيطا للسرطان فى الحيوان ولا تكون كذلك فى الانسان (وهذا صحيح نظريا) ، يقوم موقف نقابات العمال على أساس أن كل مادة كيميائية يثبت أنها وسيط للسرطان فى الحيوان ينبغى كاجراء وقائى - اعتبارها كذلك بالنسبة للانسان الا اذا كان هناك دليل حاسم على عكس ذلك . وهذا الموقف للنقابات تدعمه هيئات دولية عديدة كالوكالة الدولية لبحوث السرطان . والحقيقة أن كل المواد الكيماوية التى ثبت أنها وسيط للسرطان فى الانسان ثبت أيضا أن لها نفس التأثير على الحيوان ولذلك فالقاعدة العكسية ينبغى أن تكون مقبولة ، حتى لو أدت الى خطأ ما فإنه سيكون خطأ فى هامش الأمان وليس العكس .

والخطوة الثانية التى تلى التعرف على وسائط السرطان فى كل المواد الكيميائية المستخدمة صناعيا أو تجاريا هى وضع استراتيجية عامة ازاء التعامل مع هذه المواد .

هنا أيضا تتفاوت الآراء ، فبينما يقول البعض ان الاجراء الصحيح الوحيد ازاء هذه المواد هو منع انتاجها تماما ، يدرك آخرون أن مثل هذا الاجراء العنيف قد يؤدى الى اغلاق مصانع باكملها وبالتالى زيادة البطالة ، وهم لذلك يقولون ان الحل الواقعى هو خفض مستوى التعرض لهذه المواد فى المصانع بما يضمن أمن العمال واستمرار الانتاج . والمشكلة هنا أن هذه المستويات الملائمة التى تصيب الانسان بالسرطان غير معروفة بشكل علمى دقيق بالنسبة لعدد من المواد التى ثبت أنها

وسيط للسرطان ، وأي تجارب على الحيوانات في هذا المجال لن تكون بالضرورة صالحة للانسان .

والخطوة الثالثة بعد ذلك ينبغي أن تستهدف منع ظهور انواع جديدة من السرطان باشتراط أن أي مادة كيائية جديدة ينبغي قبل استخدامها في الصناعة أن تحصل على ترخيص من الدولة باتاجها صناعيا واستخدامها . وقد استحدثت عدة دول اليوم هذا النظام حيث تشترط اليوم على الشركات اختبار الادوية الجديدة والمواد الكيميائية الجديدة والمواد التي تدخل في الصناعات الغذائية من زاوية وساطتها للسرطان ، وأن تقدم الشركات هذه الاختبارات الى الدولة قبل أن تقوم هذه الشركات بتسويق سلعها الجديدة .

أما الخطوة الرابعة فتتعلق بضرورة اتخاذ اجراءات أمن صناعي دقيق في كل مصنع وأن تشترك النقابات بشكل حاسم في الرقابة على هذه الاجراءات باعتبار أن أعضاءها هم المصابون أولا وأخيرا .

لكن هذا كله ينبغي أن تصاحبه حملات اعلامية واسعة النطاق ذات طابع علمي ضد وسائط السرطان المعروفة ، من أجل انقاذ الاجيال الجديدة على وجه الخصوص من عادة التدخين . ان هناك دلائل عديدة على أن شركات الدخان تركز في حملات تسويقها على الدول النامية بعد أن اشتد الحصار من حولها في الدول الغربية المتقدمة .

ان من المهم أن يدرك الرأي العام أن مكافحة السرطان ليست مشكلة طبية فحسب ، وانما هي مشكلة تمس صميم موقف الرأي العام من الشركات الصناعية الكبرى التي ترك لها الحبل على الغارب في الماضي لانتاج ما تريد صناعيا دون اعتبار كاف لمقتضيات أمن العاملين فيها أو المستهلكين لانتاجها . وكل نضال جاد ضد السرطان لا بد بالضرورة أن يصيب بعض مصالح هذه الشركات ماليا أو تجاريا .

ان هذه النظرة هي النظرة الوحيدة السليمة للقضية اليوم . أما الجري وراء الأوهام التي تروج لها شركات الادوية الكبرى حول اكتشاف دواء حاسم في الشفاء من كل أنواع السرطان فليس الا سرابا . فالأدوية الكيميائية التي كثر الحديث عنها في السنين الأخيرة لم تثبت فعاليتها الا في حالات قليلة جدا من السرطان ، فضلا عن آثارها الجانبية السيئة .

ان علينا في دول العالم النامي أن ننتبه إلى خطورة زحف هذا المرض على شعوبنا مع تزايد اتجاهنا الى التنمية الصناعية واستيرادنا لتكنولوجيا الغرب وتزايد تبنينا لانماط الاستهلاك الغربي واتساع استيراد منتجات الغرب الاستهلاكية وعلى كل حكومة جادة أن تبدأ كخطوة أولى بتشكيل لجنة وطنية على أعلى المستويات يشترك فيها الاطباء وعلماء الاجتماع والسياسيون ورجال الصناعة لدراسة الموقف الحالي لمشكلة السرطان ولرسم استراتيجية جادة تستهدف محاصرته . ■■

د . عبد العظيم أنيس

عروس مجنونه :

طلب شاب دميم الخلقة من احد مكاتب الزواج في باريس ان يدله على زوجة جميلة ومهذبة وغنية ومن اكرم العائلات المعروفة ...

وقال له مدير المكتب : « ان فتاة تتوافر فيها هذه الصفات لا يمكن ان تقبل الزواج منك الا اذا كانت مجنونة » .

وكان جواب الشاب الدميم : « لا تهمني حالة الفتاة العقلية ما دامت تتوافر فيها هذه الصفات التي اطلبها » .









ثلاث ظواهر في العالم الثالث

بقلم : جميل مطر

الظاهرة السياسية تعبير عن تعميم يتعلق باحداث تكاد في تشابه ظروفها تتخذ شكل النمط . ولا شك ان للتعميم في السياسة عيوبا ، لانه يتجاهل احيانا خصوصيات القضايا او المناطق ويغفل التفاصيل ، ولكن للتعميم مزايا ايضا ، لانه يكتشف ظواهر السياسة ومتغيراتها الاساسية ويساعد على فهم الصورة الكلية للاوضاع السياسية الدولية . لذلك فحين نتحدث عن ظواهر في العالم الثالث فاننا في الواقع لا ننكر ان هناك احداثا او مواقع في العالم الثالث تتناقض مع هذه الظواهر ، ولكنها من القلة بحيث لا تنفي وجود الظواهر .

الظاهرة الاولى :

ظاهرة استقرار النظم في العالم الثالث

يلفت النظر ان نظم الحكم في العالم الثالث لم تعد تتبدل بنفس المعدل الذى كانت تتبدل به خلال عقدى الخمسينات والستينات . ويزيد من الاهتمام بهذه الظاهرة الادراك بانها لا تقتصر على منطقة دون اخرى ، بل تشمل جميع مناطق العالم الثالث . كما يزيد الاهتمام بها ادراك علماء السياسة ان اغلب المتغيرات التي كانوا يكتشفونها كأسباب ومبررات لعدم استقرار نظم الحكم في العالم الثالث لم تزل قائمة .

كثيرا ما كتب علماء السياسة والاجتماع في الغرب عن ثقافات شعوب العالم الثالث وكيف ان بعضها يتسم بالعنف ، وان هذا العنف يسمح بالانقلابات والثورات . وكتبوا عن ثقافات سياسية تميل الى التسلط والدكتاتورية ، مما ساعد على ان تتسم عملية تبدل الحكام بسمات الاستيلاء على السلطة . فالسلطة كما يراها الفكر الليبرالي الغربي حق من حقوق الانسان تجاه الكيان السياسي الذي ينتمي اليه ، كحقه في الغذاء والكساء .

ومن حق المواطن ان يسعى دائما للوصول الى السلطة ، فاذا توفر نظام ديمقراطي كان سعيه عن طريق المؤسسات الانتخابية والحزبية . واذا لم تتوفر سعى للسلطة بالعنف والقوة .

وكتبوا ان التبدل السريع لنظم الحكم في دول العالم الثالث تسببت فيه حداثة استقلال هذه الدول ، وحاجتها الى تعبئة طاقاتها . والمعروف ان الاستعمار لم يترك خلفه مؤسسات قوية قادرة على تعبئة طاقات المجتمع سوى المؤسسة العسكرية . وفي اكثر دول العالم الثالث تدخلت هذه المؤسسة بادعاء تنظيمها العصرى وتقاليدها في الانضباط والنظام لتتولى مهمة الحكم .

قيل ايضا ان المؤسسة العسكرية كانت المؤسسة الوطنية الوحيدة التي تمثل وحدة الوطن في دول تتعدد فيها الولاءات والانتماءات . ففي كثير من دول العالم الثالث رسم الاستعمار حدودا مصطنعة لم تراع وحدة الشعوب او القبائل . وحين ظهرت الدولة بعد حصولها على الاستقلال لم يكن يجمع بين سكانها الا العداء ضد الاستعمار . ومع رحيل المستعمرعادت صراعات القبائل تفتت الدولة الناشئة فتقدمت المؤسسة العسكرية لتحمي وحدة الدولة . ولم تفلح المؤسسة العسكرية في تحقيق استقرار الحكم . لانها حين ارادت الغاء السياسة في المجتمع ، تسربت السياسة الى داخل صفوفها ، وحين ارادت كتم صراعات المجتمع ، دمرتها من داخلها صراعات السلطة بين القادة العسكريين .

كذلك تعددت النظريات الاقتصادية والاجتماعية حول ظاهرة عدم الاستقرار السياسي في العالم الثالث . احداها وجدت تفسيرا لعدم الاستقرار في واقع التخلف الاقتصادي الشديد الذى تحدى زعماء الاستقلال واحزابهم ، واخرى وجدت تفسيرا في عدم وجود طبقة وسطى قوية ، وثالثة في واقع عدم وجود قاعدة عمالية نشطه ، ونظريات اخرى حفلت بها مئات الكتب التي ظهرت في تصدى الخمسينات والستينات تناقش موضوع الاستقرار والتنمية في العالم الثالث .

وجاءت السبعينات . ودخلت نظم العالم الثالث مرحلة من الاستقرار لم تعرفها من قبل . كثيرون ممن كتبوا عن عدم الاستقرار ونظروا له كانوا يترقبون استمرار ظاهرة عدم الاستقرار . وبالتدريج بدأ يقل عدد الكتب التي تناقش هذاالموضوع . ثم انفرط الكتاب الى ميادين اخرى . لقد ظلت المتغيرات تحدث فعلها بقوة ـ ربما في بعض الحالات ـ اشد واقسى مما كانت تحدثه في السابق . ومع ذلك استقرت نظم الحكم في دول عديدة في العالم الثالث .

لم تتغير ثقافات الشعوب ، فالديانتان الكاثوليكية او الاسلامية اللتان قيل انهما تخلقان ثقافة تسلط وعنف وتتسببان في ظاهرة الانقلابات العسكرية ، بقيتا ، بل وفي احيان اشتد الوعى بهما . ولم تتحول الشعوب الى البروتستانتية لتكتسب فجأة رشدا وتعقلا وقدرة على الابداع وميلا الى الاستقرار السياسي .

ولم تتحسن الاوضاع الاقتصادية للاكثرية الساحقة لدول العالم الثالث الى الدرجة التي ينتهي عندها تذمر الشعوب او القوى السياسية المعارضة . بل ان المؤكد هو ان عددا اكبر من دول العالم الثالث تدهور اقتصاده وصار في وضع أسوأ لقد كشف آخر احصاء وضعته الامم المتحدة ان دول العالم الفقيرة ازدادت فقرا ، وان ثلاثين دولة من دول العالم الثالث صارت تشكل ما يعرف بالعالم الرابع بسبب انتكاس النمو الاقتصادي فيها ، وان الفجوة التي تفصل بين الدول الغنية والدول الفقيرة والتي كانت في اواخر السبعينات تصل الى الضعف ، اصبحت خمسة اضعاف . وان ست دول جديدة تقدمت تطلب ضمها الى مجموعة العالم الرابع .

ونعلم ايضا ان التغيرات الاجتماعية في معظم دول العالم الثالث لم تتجه نحو الافضل .فالانسان لم يكتسب حقوقا جديدة ، والقوى السياسية المعارضة لم تحصل على معاملة احسن ، او اتسعت آمالها في الوصول الى السلطة بالطرق السلمية ، بل تعلم بالتأكيد ان اساليب القمع صارت اشد قسوة ، وفي اكثر دول العالم الثالث لم يتبلور النظام الطبقي الى شكل مستقر . ظهرت فئات جديدة على سطح مختلف المجتمعات النامية ، واحاطت بالحكام وسيطرت سيطرة تامة على قطاع الوساطات التجارية . هذه الفئات تحيا في مستوى لم يحلم به مواطنو الدول الاستعمارية خلال حكم الاستعمار . ولا شك ان هذه الفئات تكتسب قوةمضافة نتيجة اتصالاتها الكثيفة مع المؤسسات المصرفية والشركات الدولية الكبرى في الخارج . ولا شك ايضا ان مظاهر الترف والسفه التي تحيط بحياة هذه الفئة تثير غضبا وحقدا . وبالرغم من ذلك ، بالرغم من الغضب والحقد ، وبالرغم من تفاوت الفقر والثروة ، وبالرغم من القمع وطول احتكار السلطة ، وبالرغم من انتعاش الطائفية والقبلية ، بالرغم من استمرار هذه المتغيرات ـ وشدتها في كثير من الحالات .. يستحق عقد السبعينات ان يطلق عليه عقد استقرار نسبي في نظم الحكم في العالم الثالث .

الظاهرة الثانية :

ظاهرة عدم الاستقرار الاقليمي

من واردات السلاح وصل الى اكثر من ٧٠٪ من واردات السلاح العالمية ، وان نصف هذه الواردات كان من نصيب دول الشرق الاوسط وحدها .

والحروب ـ في حد ذاتها ـ ليست ظاهرة جديدة في العلاقات الدولية ، لانها بدأت مع نشأة المجتمعات البشرية . وقد تعددت الاراء حول اسبابها واختلفت اتجاهات الاراء مع اختلاف مشارب الكتاب العلمية والعقائدية ـ فمن الاراء ما يعزو الحروب الى « الشر المتأصل في الانسان » ، او الى الشر الذي يختاره الانسان وسيلة لتحقيق اغراضه . ويقول بعض علماء النفس ان الحروب مسؤولية الحكام كأشخاص ، لان قرار الحرب يصدر عن الحاكم ، ولذلك فمن الضروري لفهم اسباب الحروب البحث عن الدوافع داخل شخصية الحاكم . قد تنشب الحرب اذن لان احد الحكام يريد ابراز زعامته او يسعى لاعلاء مكانته داخل بلاده او في المنطقة المحيطة ببلاده ، او لانه غير متزن وسريع الانفعال . وللنظرية السيكولوجية في تفسير الحروب وجاهتها وان كانت لا تفسر ولا تغطي مختلف العوامل التي تؤدي الى الحروب . اذ لا شك ان شخصية الحاكم او الزعيم تلعب دورا اساسيا في اشعال الحرب . فالحاكم الذي يتحدى حاكما آخر لتسوية خلافاتهما على حلبة الملاكمة لا يختلف كثيرا عن حاكم آخر يختار ساحة القتال لتسوية الخلافات . المهم في الحالتين ان قرار المواجهة اتخذه الحاكم بناء على ما تكون لديه من معلومات ، وبناء على تحليله لهذه المعلومات . اي بناء على حصيلة ادراكه للعلاقات مع دولة اخرى .

وهناك آراء تقول ان الحروب تنشب لاسباب اقتصادية ، كالتنافس على مصادر المياه والمواد الاولية والمناطق الزراعية الغنية . فمنذ نشأة المجتمعات الانسانية تنشب الحروب بسبب نزاعات على الواحات ، او السيطرة على طرق التجارة ، او الاستيلاء على الكنوز والثروات . ومع تطور العلاقات الدولية ظهرت القوى الاستعمارية فنشبت الحروب بينها وبين المجتمعات التقليدية بسبب حاجة القوى الاوروبية والامريكية الى اسواق لمنتجاتها ومصادر للمادة الخام وعبيد لمزارعها ومصانعها . ونشبت حروب بين القوى الاستعمارية بعضها البعض في سباق دموي على المستعمرات ، ثم نشبت حروب التحرير بين سكان المستعمرات وجيوش القوى الاستعمارية . وبعدها تطور النظام الدولي بشكل يسمح باستمرار استنزاف العالم الثالث باقل قدر من المواجهة ، ولكن باستخدام اكبر قدر من اساليب التدخل السياسي واثارة مشكلات اقليمية وتفتيت تكتلات الدول المنتجة للمادة الخام .

وتنشب الحرب ـ او التهديد بالحرب ـ لان نظاما سياسيا شعر بضرورة الحرب من اجل تعبئة الشعب خلف النظام ، او لاغراض التنمية الاقتصادية ، او لمنفعةاقتصادية غير مباشرة . ففي بعض نظم التحالف قد تصبح الحرب دافعا لكي يقوم الحلفاء بمد الدولة المتحاربة الحليفه بالمعونات . وفي تجارب معروفة وجدت بعض النظم السياسية ان اثارة عدم الاستقرار السياسي والعسكري في منطقتها يحفز الدول العظمى ـ او غيرها من الدول ـ على زيادة معوناتها اما لمنع التدهور في المنطقة ، او لانها مستفيدة من التدهور وعدم الاستقرار في المنطقة ، واحيانا تأتي المعونة في ان واحد من كلا الطرفين : طرف يخشى استمرارالتدهور وطرف مستفيد من التدهور . وتصبح الحرب في هذه الحالةمصدرا للرزق اواداة لكسب التأييد السياسي .

وقد تختلف دولة مع دولة اخرى بسبب توجيهات ايديولوجية وتخشى من امتدادات هذه الايديولوجية فتشن الحرب عليها . واحيانا تختلف دولتان بسبب اختلاف تطبيقاتها لأيديولوجية او عقيدة واحدة تشتركان في الانتماء اليها فتندلع الحرب بينهما . كذلك تنشب الحروب بسبب قضايا الحدود السياسية وهذه تكثر في العالم الثالث بسبب الحدود التي رسمها الاستعمار دون مراعاة للتكامل القبلي او الاقتصادي او الجغرافي للكيانات السياسية الناشئة .

ومن الاسباب السياسية الاخرى لاندلاع الحروب رغبة الدول في التوسع على حساب دول اخرى باستخدام مبررات الامن او لدوافع تتعلق بعقيدة توسعية يؤمن بها المجتمع . كذلك تتحارب الدول لاسباب تتعلق بالتمييز العنصري واضطهاد الطوائف ولاختلال موازين القوى العسكرية والسياسية واختلال نظم الاحلاف .

ولكن ـ وايا ما كان السبب المباشر للحرب ، وايا ما كانت الظروف التاريخية التي مهدت لنشوبها ، فان المؤكد ان شخصا ـ او مجموعة من الاشخاص ـ قد اصدر قرارا بشن الحرب او بالدخول فيها . فقرار الحرب كأي قرار اخر يتكون نتيجة حصيلة من المعلومات تصل الى صانع القرار السياسي عبر العديد من القنوات . ان صانع القرار لا يتخذ قراره بشأن الحرب الا اذا توفرت لديه معلومات تشكل في محصلتها النهائية امرين : انه لابد من الحرب ، وانه لن يخسر الحرب ، او على الاقل سيحقق فوائد من الحرب .

الظاهـرة الثالثـة :

نظـام عالمي جديد للمخابرات

التخابر اداة من أهم ادوات العلاقات بين المجتمعات السياسية ـ وقد علق في اذهاننا منذ وقت طويل ان الوظيفة الرئيسية لاجهزة المخابرات هي وظيفة التجسس وسرقة وثائق العدو اوخططه العسكرية والاقتصادية التي تكشف عن مواقع وقدرات قواته .

وتقدم فن التخابر مع تقدم وسائل العلم وسيطرة دول قليلة على معلومات الاقمار الصناعية وكثافة العلاقات بين الدول وزيادة انتقال الافراد . وبرزت مكانة المخابرات في عملية صنع السياسة الخارجية حتى صارت تتبوأ مركز الصدارة . واتسعت امكانياتها المادية والبشرية . وتشعبت مهامها فصارت تدرس التطورات الاجتماعية والقوى السياسية الناشئة وتضع قوائم لاتجاهات الصفوة وتتدخل لتغيير الحكومات . وتصنع الانقلابات العسكرية . او تحذر منها .

ونذكر انه في بداية المرحلة ـ مرحلة توسيع مهام اجهزة المخابرات بعد الحرب العالمية الثانية ـ ارتفعت اصوات كثيرة في العالم الثالث تحذر من نشاط المخابرات الاجنبية . وخلق حالة عدم استقرار في دول العالم الثالث . وكان الرد على هذه الاصوات جاهزا . ان مسؤولية عدم الاستقرار تقع على الدول ذاتها . والادعاء بوجود ايد اجنبية انما كان من قبيل التهرب من المسؤولية .

وفجأة ـ وبفضل حرب فيتنام ومشكلات الرئيس نيكسون الداخلية ـ حدثت الشروخ داخل جهاز المخابرات الامريكية . وظهرت عشرات الكتب والمقالات الفها رجال عملوا بالتخابر . وتبين ان الاصوات التي ارتفعت في العالم الثالث تحذر من المخابرات الاجنبية كانت على حق . تبين ان المخابرات الاجنبية تدخلت في كل مكان في العالم الثالث . اقامت حكومات واسقطت بل واغتالت زعماء . دمرت مصانع وخربت طاقات . نشرت الشائعات لتغتال سياسيا من لم تتمكن من اغتياله جسديا . انشأت ومولت حركات ارهابية . ساهمت بالمال والسلاح في تدعيم حركات معادية تناهض سياسة الدول التي تتبع لها . وتبين بالتحديد مثلا انها كانت تساهم بالمال والافراد في حركات معادية لحرب فيتنام وحركات يسارية في الولايات المتحدة . وعشرات من التنظيمات المناهضة للاستعمار الامريكي في العالم الثالث .

واستمر تطور عمل وقدرات اجهزة المخابرات مع تطور النظام الدولي . فنشأ ما يمكن ان نطلق عليه بأنه نظام عالمي للمخابرات ، بمعنى شبكة واسعة من التفاعلات المتطورة وغير المتطورة المتصلة والبالغة التعقيد والتشابك بين اكثر اجهزة المخابرات في العالم . توجد مثلا مؤشرات على وجود علاقات ـ مباشرة او غير مباشرة ـ بين جهازين يتبعان نظامين متناقضين في العقيدة والاهداف . كلاهما يتخابر على الاخر ولكنهما يتعاونان فيما يعود عليهما بالفائدة المشتركة . نعرف ان العلاقة بين دولتين لا يمكن ان تكون علاقة صراع كامل او علاقة مواجهة كاملة . فالعلاقة الدولية خليط بين التعاون والمواجهة . والمخابرات كاداة من ادوات العلاقات الدولية تعمل في المجالين معا .

وتظهر قوة العلاقة بين نظام المخابرات الدولية وللنظام الاعلامي العالمي من كثرة دام كل منهما للاخر في خدمة الاهداف المشتركة . نذكر مثلا التقرير الذي نشرته الصحافة الغربية عن توقعات المخابرات الامريكية لازمة نفط حادة في الاتحاد السوفيتي . لقد بدا التقرير جادا مزودا باحصائيات وتحليلات خطيرة ، وبعد نشر التقرير نشطت اجهزة السياسة الخارجية ، وارتفعت اصوات التحذير لدول النفط بدعوى ان الاتحاد السوفيتي ات حتما لاحتلال المنابع . ووضعت الخطط العسكرية ، وعقدت صفقات السلاح ، وانشئت القواعد والتسهيلات العسكرية ، واندلعت حروب محدودة ، وانعقدت مؤتمرات ونشأت احلاف . وفجأة تنشر الصحف تقريرا آخر عن نفس مصدر التقرير الاول يؤكد ان الاتحاد السوفيتي لديه فائض من النفط لسنوات طويلة . الامر المؤكد انه خلال الفترة بين نشر التقرير الاول ونشر التقرير الثاني سادت حالة من عدم الاستقرار الاقليمي في منطقة حساسة مناطق العالم الثالث .

في مجال آخر ، تلعب المخابرات الدولية دورا رئيسيا في خلق واستمرار حالة عدم الاستقرار الاقليمي . فبحكم تشابك العلاقات داخل نظام المخابرات العالمي تتسرب تقارير ومحاضر اجتماعات تثير الاحقاد والعداء بين دول متجاورة ، وتتسرب تقارير تبدو مؤكدة عن نظام حكم يوشك ان يسقط ، وان ضربة عسكرية مفاجئة ومحكمة كفيلة بتعجيل سقوطه وتحقيق النصر السريع ، وتقارير مزودة بصور من الفضاء عن مواقع عسكرية غير محصنة تتسرب الى دول عن دول تتخاصم معها . فتنشب الحروب وتتواصل ، وتتدهور الامكانيات والطاقات ، ويتشتت الجهد السياسي ، ويشتد احتياج الدول المتحاربة الى السلاح والقروض ، وتنقسم دول المنطقة الى مؤيدة ومعارضة . ولا يكتشف الحكام المتحاربون انهم كانوا ضحية معلومات تسربت الى اجهزة المعلومات في دولهم ، ومن هذه المعلومات صنع قرار الحرب .

الخلاصة :

ثلاث ظواهر في النظام الدولي الراهن . ظاهرة استقرار سياسي نسبي لنظم الحكم في العالم الثالث ، اكثرها معرض للسقوط باقل جهد من التآمر الداخلي او الخارجي ولكنه لا يسقط . بعضها يعلن عداء لقوى عظمى يفوق العداء الذي سقطت بسببه في الخمسينات والستينات نظم أقوى واكثر شعبية ، ولكنه لا يسقط . وكثير منها مشترك بشكل مباشر او غير مباشر في حروب وصراعات اقليمية دامية لم يشهد مثلها عقد الخمسينات او الستينات ، وتستنزف طاقاته وثرواته ، ولكنه لا يسقط .

وظاهرة عدم استقرار سياسي اقليمي في العالم الثالث . عدد من الحروب في عقد السبعينات اكثر واعتى من حروب الخمسينات والستينات . دول انشغلت في الماضي بمشكلة عدم استقرارها السياسي صارت منشغلة بحروبها المحدودة . دول اثرت وتجمعت لديها ارصدة واستعدت لممارسة التأثير الدولي بدأت تفقد ثروتها على التسلح والحروب المحلية . وتخضع لابتزاز تقارير التخويف والاثارة .

وظاهرة قيام نظام عالمي للمخابرات . نظام يتجاوز الحدود السياسية والفلسفات العقائدية والهياكل السيادية والدستورية . نظام تتسرب وحداته وتفاعلاته الى داخل جميع قطاعات مجتمعات العالم الثالث . يجمع المعلومات ويعيد توزيعها . يحمي ويهدد ويبتز ، ويشترك باذكى الاساليب في رسم سياسات عدد كبير من دول العالم الثالث ، ويتوجه بها الى حيث يشاء .

ظواهر ثلاثة ، لا ترى العين المجردة صلة بينها . ■■

جميل مطر

قيمة السعادة

الولد : اصحيح يا أبت ان الرجل لا يعرف قيمة السعادة الا بعد ان يتزوج

الوالد : نعم يا بني ، لان الشيء لا تعرف قيمته إلا بعد فقده .

أقوال معاصره



■ لااوافق على ان حرية المرأة مرهونة بتحررها الاقتصادى ، انها حرة ايضا عندما تساعد زوجها وتسهم في بناء بيت سعيد ومستقر .

احمد بن بيللا الرئيس الجزائرى الاسبق .

■ لقد حفيت اقدامنا من الجري وراء التضامن العربي .

عبد العزيز حسين وزير الدولة الكويتي .



■ الحكم الذاتي لايعني السيادة ، وعلى جميع المعنيين قبول ذلك .

اسحاق شامير وزير خارجية اسرائيل .

■ الولايات المتحدة الامريكية ليس لديها سياسة ثابتة ازاء الشرق الاوسط . وكل ما تمارسه هو بمثابة ردود افعال في مجال واحد ، هو دعم وتاييد اسرائيل سواء كانت على حق ام على باطل .

الملك حسين ملك الاردن .



■ الولايات المتحدة بطلة ومنارة العالم الحر ، وقد ساعدت بلدانا كثيرة في الحفاظ على حريتها .

الرئيس الباكستاني الجنرال ضياء الحق .

■ ان قتل طفل لم يولد بعد ، يعني قتل الحب وقتل رمز الله .

الام تيريزا الراهبة الفائزة بجائزة نوبل للسلام .



■ رد الفعل الامريكي تجاه القصف الاسرائيلي لمفاعل بغداد النووى كان مذلا للعرب ومهينا لهم .

عبد الله بشارة الامين العام لمجلس التعاون الخليجي

■ لانملك شيئا نخسره

ياسر عرفات رئيس اللجنه التنفيية لمنظمة تحرير فلسطين

■ اذا استمرت الامور على ماهي عليه ، فان الذين هتفوا لنا في الماضى ، سوف يرجموننا بالاحجار في المستقبل .

ليش فاليسا ـ الزعيم العمالى البولندى .

هذه الطريقة الجديدة سوف تقدم للهندسة الحيوية ما قدمه الترانزستور لعلم الالكترونات •

إنهم يصنعون الحياة

بقلم : د .عبد اللطيف ابو السعود

ان المستر لسلي جليك يكسب عيشه عن طريق صناعة اشياء حية . انه يقوم بمزج المحاليل بعناية كبيرة في انابيب الاختبار ، بهدف تحوير جينات بكتيريا الحدائق ، لينتج انواعا جديدة متخصصة في اعمال معينة ، مثل انتاج الانسولين او تحويل القمامة الى وقود .

والدكتور جليك مهندس جينات . انه ينتج انواعا من الحياة يمكنها انتاج سلع مفيدة ويبدو انه يعلم جيدا انه وزملاءه في هذه المهنة الفريدة انما يقومون بانشاء صناعة جديدة : ألا وهي صناعة الحياة . وهو يرى انها

لاتختلف عن اية تكنولوجيا جديدة . ولكن الفرق الوحيد هو انه للمرة الاولى توصل علماء البيولوجيا الى شيء له امكانيات تجارية .

ان هذا الشيء هو ذلك التكنيك الغامض الذي سمى بوصل الجينات .

ان جزيء الحمض النووي الديوكسي ريبوزي (ح ن د) عبارة عن لولب مزدوج ، يتكون من خيطين حلزونيين ملتفين حول بعضهما البعض . ويتكون كل خيط من سلسة متصلة من سكر خماسي هو ديكوسي ريبوزي بالتبادل مع مجموعة فوسفات . ويرتبط الخيطان ببعضهما بقواعد عضوية حلقية تتصل بجزيئات السكر في الخيطين .

وتوجد جزيئات هذا الحمض في خلايا جميع الكائنات الحية ، وتحتوي على الجينات التي تضم خريطة بناء الحياة .

وعن طريق تكنيك وصل الجينات يمكن فك هذه الجزيئات واعادة تركيبها بطرق جديدة ، كما يمكن انتاج بكتيريا جديدة ، يمكن إستخدامها لانتاج الكيماويات الدوائية بتكاليف أقل ، أو انتاج الكيماويات بكفاءةاكبر ، او تنظيف المخلفات السامة ، او زيادة سرعة انتاج الغذاء .

بداية القصة

منذ ثمانية اعوام ، نجح العلماء في كاليفورنيا في ادخال جينات مأخوذة من جزيء ح ن د من خلية بكتيرية معينة ، في جزيء ح ن د الذي يخص خلية بكتيرية أخرى . بطريقة بلغ من دقتها انهم تمكنوا من تكوين كائن جديد يحتفظ بالخصائص المطلوبة لكلتا الخليتين الاصليتين .

لقد اعتمد هؤلاء العلماء على النتائج التي توصل اليها العالمان جيمس واطسون ، وفرانسيس كريك ، من جامعة كامبردج ، اللذان تمكنا من فك شفرة التركيب الحلزوني لجزيء ح ن د قبل ذلك بعقدين من الزمان .

ان هناك طرقا اخرى لتكوين الكائنات الدقيقة ، ولكن طريقة وصل الجينات جعلت الطرق الاخرى تبدو غير دقيقة نسبيا ، وعلى ذلك فقد اعلن العلماء ان هذه الطريقة الجديدة سوف تقدم للهندسة الحيوية ما قدمه الترانزيستور لعلم الالكترونات .

لقد كانوا على حق . ذلك ان حوالي عشر شركات صغيرة هي على وشك ادخال منتجات تجارية الى الاسواق . هذه المنتجات تمت صناعتها عن طريق تكنيك وصل الجينات . وينتظر ان يتوالى التقدم السريع في هذا المجال ، خاصة بعد ان حكمت المحكمة العليا الامريكية بان انواع الحياة الجديدة التي يتم تخليقها في المعامل يمكن تسجيلها في براءات اختراع .

شركات جديدة

ان شركة جينيكس هي احدى شركات ح ن د التي تبشر بنجاح كبير . لقد انشأ هذه الشركة في عام ١٩٧٧ الدكتور جليك ، وهو احد علماء البيولوجيا الجزيئية وبيولوجيا الخلية .لقد جاء رأس المال من شركة استثمار تسمى اينوفن . وفي العام الماضي اشترت من شركة كوبرز ثلث شركة جينيكس بحوالي ثلاثة ملايين دولار . واليوم يرى الدكتور جليك ان شركته تساوي ٧٥ مليونا من الدولارات . ان شركة اينوفن تملك خمسة وعشرين في المائة من اسهم شركة جينيكس . ويقف خلف شركة اينوفن شركة مونسانتو ، وشركة امرسون الكهربية .

وهناك شركات اخرى تركز على الطرق القديمة لتخليق الكائنات الدقيقة الجديدة ، معتقدة انه ما زال هناك مجال واسع للتجديد في ميدان الهندسة الحيوية . وهناك شركات تتخصص في المواد والمعدات اللازمة للشركات التي تقوم بابحاث في هذا الميدان .

ان هناك حوالي الف معمل أبحاث في الولايات المتحدة تقوم بابحاث في ميدان وصل الجينات . ومعامل ابحاث بيتيدا هي واحدة من المعامل التي تبيع انزيمات الابحاث (وهي المواد الخام التي يستخدمها مهندس الجينات) الى معامل الابحاث المختلفة . وبعض هذه الانزيمات يتم انتاجها باستخدام تكنيك وصل الجينات .

كما تقوم هذه الشركة بابحاث خاصة بها . لقد استخدمت التكنيك الجديد في صنع جين ذي اهمية كبيرة في تخليق حمض أميني رئيسي ، هو اللبنة الرئيسية في بناء البروتين . كما تقوم الشركة بابحاث للوصول الى طرق لتحويل السليلوز والنشا الى وقود .

عقبات في الطريق

لقد سارعت الشركات الكبيرة الى الاسهام في هذه الصناعة الجديدة . كما اشتركت مجموعة من الشركات

الرئيسية مع عدد من الشركات الصغيرة التي تعمل في هذا المجال ، وذلك لتكوين مشروعات مشتركة . وحتى عهد قريب ، كانت شركات الاستثمار المشترك ، وعقود الابحاث ، تحجم عن إنشاء برامجها الخاصة . وكان هذا يرجع في جانب منه الى الخوف الذي سيطر على الناس ، في فترة من الفترات ، من الاخطار التي قد تؤدي اليها بحوث الجينات . كما كانوا يخشون الاساءة الى سمعتهم ، والتورط مع التعليمات الحكومية ، ذلك أنه في عام ١٩٧٨ ، وبعد عامين من البحث الدقيق لمخاطر هذا الموضوع ، اصدرت معاهد الصحة القومية الامريكية توجيهاتها في ابحاث الجينات .

وبالتدريج ، وبعد ان توالت ساعات البحث العلمي في المعامل دون ان يتسرب منها نوع قاتل من البكتيريا ، بدأت هذه المعاهد في تخفيف قيودها .

لقد وجد الباحثون ان تجاربهم قد ادت الى مفاجآت قليلة العدد . ولكن حتى يتأكدوا من كل شيء ، فانهم قاموا بانتاج خلية بكتيرية ضعيفة ليجروا عليها ابحاثهم ، وذلك حتى تجد هذه الخلية صعوبة في البقاء ، اذا ما حدث فيها تحول خطير غير مرغوب فيه .

لقد تمكن العلماء من تخليق خلية بكتيرية ، لتلتهم البترول المسكوب من اباره داخل البحار . وهذه الخلية البكتيرية لا يمكنها العيش بدون ماء . وبعد ان تلتهم الزيت ، فانها تموت ، وتصبح جزءا من سلسلة الغذاء .

مشروعات جديدة

وعندما خفت حدة الاهتمام بموضوع الأمان ، بدأت معظم شركات الادوية الرئيسية في وضع برامج الابحاث الخاصة بها ، ونسجت على منوالها الشركات الكيمائية وغيرها من الشركات .

وفي شهر يونيو من عام ١٩٨٠ قدمت شركة شل للبترول مليوني دولار للابحاث الكيميائية على مادة الانترفيرون . كما تتفاوض هذه الشركة لاقامة مشروع مشترك بالتعاون مع شركة هندسة الجينات .

اما شركة ديبُون دي نيمور فانها قد بدأت برنامجا عريضا في مجال الجينات ، يشمل تكنيك وصل الجينات ، وذلك منذ اكثر من عام . ويعمل اليوم في معاملها عشرة من حملة شهادة الدكتوراه ، للبحث عن طرق لانتاج الكيماويات الدوائية ، والبروتينات ، والكيماويات المستخدمة في الصناعة والزراعة ، وذلك بطرق تعتمد على الجينات .

ان العلم الذي تقوم عليه الهندسة الجزيئية علم مدهش ، ولكن العملية نفسها بسيطة للغاية ، وهنا تكمن جاذبيتها التجارية . فمعمل ابحاث وصل الجينات لا يختلف عن اي معمل للميكروبيولوجيا ، في تجهيزاته واجهزته ومعداته .

وما ان ينجح الباحثون في تخليق الكائن الدقيق المطلوب ، حتى يبدأوا في مزجه بالغذاء المناسب ، وتبدأ عملية التخمير على مراحل ، في انية اكبر في كل مرحلة تالية .

ان الكائن الدقيق ينسخ نفسه ، ويهضم الغذاء ليكون الناتج المطلوب .

اما على المستوى الصناعي ، فان المعدات المستعملة تشبه اواني التخمير التي تستخدمها صناعة الدواء لصنع المضادات الحيوية ، منذ حوالي ٤٠ عاما .

خطوات واسعة

وحتى اليوم ، نجد ان الباحثين الذين يركزون جهودهم على انتاج الكيماويات الدوائية قد خطوا اوسع الخطوات . ولعل ذلك يرجع الى ان هذا العلم وثيق الصلة بتلك الصناعة . لقد تمكنوا من انتاج عدد من الهورمونات ، بما في ذلك هذا الذي ينبه النمو ، والذي قد يستخدم في علاج قصر القامة ، ومساعدة الجروح على الالتئام بسرعة . كما نجحوا في انتاج الانسولين البشري لعلاج مرض السكر ، والذي ينتظر ان يحل محل ذلك الانسولين الذي يستخرج من الخنازير والأبقار ، والذي يسبب اعراضا جانبية غير مقبولة في حوالي عشرين في المائة من مرضى السكر الذين يجب عليهم استخدام هذا الهورمون ، الذي يتزايد ثمنه باستمرار .

كما تمكنوا من انتاج نوعين من الانترفيرون ، تلك المادة التي ينتجها الجسم بكميات صغيرة ، والتي ينتظر من استخدام الكميات الكبيرة منها ان تنجح في مقاومة الفيروسات والسرطان .

وهم يأملون في انتاج انواع من الكائنات الدقيقة التي يمكنها ان تزيد من سرعة العمليات التي تستخدم اليوم في صناعة المضادات الحيوية . كما يأملون في اختراع ادوية لعلاج عدد من الامراض المستعصية .

ان مهندسي الجينات لا يرون سببا في استخدام هذا التكنيك الجديد في صناعة الدواء اكثر من استخدامه في صناعات اخرى . بل ان الكثيرين منهم يعتقدون بانه سوف يكون له اثر كبير على الصناعات الكيميائية .

وشركة سيتاس في مدينة بركلي بولاية كاليفورنيا هي واحدة من اقدم الشركات التي تعمل في هذا المجال ، ويرى المستر امون ، نائب مدير هذه الشركة ان وصل الجينات ما هو الا تكنولوجيا جديدة تنتظر التطبيق الصناعي . لقد بين المستر امون ان الكائنات الدقيقة الطبيعية تستخدم اليوم فعلا في استعادة النحاس الزائد من المواد التي تتخلف عن عملية تنقية الخامات . كما ينتظر تخليق كائنات دقيقة اخرى لتستخدم في تحسين استعادة الزيت من رواسبه التي يصعب استخلاصه منها ، وانتاج الكيماويات بطرق أرخص ، وبدون منتجات جانبية سامة .

ان واحدا وستين في المائة من اسهم شركة سيتاس ملك لشركة ستاندرد اويل ، وشركة التقطير الكيميائية ، وتعمل شركة سيتاس في ١٢ مبنى مختلفا ، ويعمل بها ٢٥٠ شخصا ، وتساوي هذه الشركة اليوم ٣٠٠ مليون من الدولارات مع ان رأسمالها يبلغ عشر هذا الرقم .

وتستخدم هذه الشركة الهندسة الجينية التقليدية لعمل كائنات دقيقة تستخدم في صناعة المضادات الحيوية ،وفي معامل الشركة يحول العلماء الى استخدام تكنيك وصل الجينات في صناعة اكسيد الاثيلين ، وهو مشتق بترولي يستخدم كمادة اولية في صناعة كيماويات أخرى وعددا من اللدائن . كما يصنعون جليكول الاثيلين ، وهو المكون الاساسي في مانعات التجمد ، والفركتوز ، وهو الصورة البسيطة للسكر الذي يوجد في الفواكه .

كما يحاول علماء شركة سيتاس اتقان بكتيريا خميرة يمكنها تحمل درجات الحرارة العالية ، وتركيزات الكحول العالية ، بحيث يمكنها ان تساعد في انتاج الجازوهول (او الوقود الكحولي)

وقد صرح المستر امون بان شركة سيتاس سوف تعلن قريبا عن انشاء مشروع مشترك لانتاج الانترفيرون ، وهو العقار المضاد للفيروسات .

الانترفيرون

لقد كانت شركة بيوجين السويسرية اول شركة تنتج الانترفيرون .وستة عشر في المائة من اسهم هذه الشركة تملكه شركة شيرنج ـ بلو ، واربعة وعشرون في المائة من هذه الاسهم ملك لشركة انكو . لقد تقدمت شركة شيرنج ـ بلو مؤخرا بطلب الى معاهد الصحة القومية الامريكية ، للبدء في انتاج عقار الانترفيرون ، على نطاق نصف صناعي ، مستخدمة في ذلك الخلايا البكتيرية التي انتجتها شركة بيوجين السويسرية .

وهذا يعني بدء السباق بين شركة بيوجين وبين شركة جيننتك ، في جنوب سان فرانسيسكو ، والتي يعتبرها خبراء الصناعة الشركة القائدة في مجال وصل الجينات .

وتركز شركة جيننتك نشاطها على صناعة العقاقير ، وقد اعلنت عن نجاحها في انتاج عدد من العقاقير والهورمونات ، بما في ذلك الانترفيرون وذلك باستخدام تكنيك وصل الجينات ، يفوق في عدده ما انتجته اي شركة اخرى .

لقد كونت مشروعا مشتركا مع شركة ليلي ، التي تخطط لتسويق الانسولين البشري الذي تنتجه الكائنات الدقيقة التي انتجتهاشركة جيننتك .

إن هناك كميات صغيرة من الانسولين البشري تستخلص اليوم من غدد البنكرياس المأخوذة من جثث الموتى ، ليستخدمها مرضى السكر الذين لا يمكنهم استخدام الانسولين المأخوذ من الخنازير والابقار . وهذه الكميات من الانسولين البشري كميات محدودة وسوف تبدأ شركة ليلي في اواخر عام ١٩٨٠ في اختبار الانسولين البشري المخلق في المعامل والذي ينتظر ان يكون اول ثمار تكنيك وصل الجينات ،الذي يطرح في الاسواق .

لقد صرح المستر سوانسون مدير شركة جيننتك بأنه لم يبق الا الحصول على موافقة الحكومة .ذلك انه قد تم حل جميع المشاكل الفنية والهندسية ، ولم يبق الا بعض الضبط الدقيق لعمليات الانتاج .

ويبلغ المستر سوانسون من العمر ٣٦ عاما . لقد درس الكيمياء العضوية وادارة الاعمال ، وبدأ شركة جيننتك في عام ١٩٧٦ برأسمال قدمته عدة شركات منها شركة ليوبريزول التي تصنع زيوت التزييت ، وشركة اينوفين التي تشترك فيها شركة مونسانتو وشركة إمرسون الكهربية ، واليوم نجد نصف اسهم الشركة مملوكا للعاملين فيها ، بينما تملك شركة ليوبريزول عشرين في المائة منه .والباقي موزع بين شركة اينوفين وعدد من المستثمرين . وتزيد القيمة السوقية لهذه الشركة عن مائة مليون دولار .

ان شركات جيننتك ، وبيوجين وسيتاس ، وجينيكس هي اكثر الشركات صيتا في مجال وصل الجينات . ويرجع ذلك جزئيا الى أنها من بين الشركات

القليلة التي تنشر نتائج بحوثها في هذا المجال الذي تسوده السرية . إلا ان قائمة الشركات التي تعمل في هذا المجال تنمو بسرعة . ان العديد من هذه الشركات يتجمع في ولاية كاليفورنيا ، حيث نشأت هذه التكنولوجيا الجديدة ، في منطقة بيتسدا ، موطن معاهد الصحة القومية الامريكية ، وفي منطقة بوسطن - كامبريدج حيث تجرى ابحاث ح ن د على قدم وساق في جامعة هارفارد وفي معهد ماساشوستس للتكنولوجيا .

وبالاضافة الى معامل ابحاث بيتسدا ، هناك أبحاث بيوتك في روكفيل ، وانزيبوكيم في نيويورك ، وانسز بيولوجيكاك في تورنتو ، ومعهد بحوث النبات الدولي في سان كارولوس ،وشركة جينتكس الجزيئية في إدينا ، وشركة جينتكس المتعاونة ومعامل بيو نيوانجلند بالقرب من بوسطن .

ميزانيات في طي الكتمان

ولا يعرف الا القليل عن ميزانيات شركات مركب ح ن د ، ذلك ان ميزانيات جميع هذه الشركات ، فيا عدا شركة انزو بيوكم ، مازالت موضع سرية وكتمان . لقد تأسست هذه الشركة في عام ١٩٧٦ ، واصبحت شركة عامة في منتصف شهر يوني من عام ١٩٨٠ . لقد طرح اصحابها ٧٧٠ الف سهم في السوق ، بسعر ٦٫٢٥ دولارات للسهم ، وبالرغم من ان بيانات الشركة تبين انها قد حققت خسائر في العام الماضي عن بيع الانزيمات ، فان الشركة لم تجد صعوبة في بيع هذه الاسهم ، بل ادى اقبال المستثمرين الى ارتفاع ثمن السهم بمقدار الثلث ، الى ٨٫٣/٨ دولارات .

ويحذر بعض خبراء المال بانه من المنتظر ان تقوم بعض الشركات الجديدة باصدار أسهم رخيصة الثمن ولكنها عديمة القيمة . وانه قد يمضي زمن طويل قبل ان تحقق الشركات الهامة ارباحا عن هذه الصناعة الجديدة .

وبناء على المعاملات الحالية ،نجد ان القيمة الورقية للشركات الرئيسية الاربعة قد تضاعف منذ بداية هذا العام ، الى اكثر من ٥٠٠ مليون دولار ، او ربع القيمة الحالية لاسهم شركةمونسانتو الامريكية المعروفة . الا ان مبيعات هذة الشركات مازالت غير ذات قيمة ولو انها مازالت تظهر امكانيات كبيرة .

ان شركات الابحاث كثيرا ما تحقق خسائر كبيرة . ولكن الكثير من منتجات ح ن د يبدو مبشرا بالآمال العريضة في الوقت الحالي ، مثل الانترفيرون ، ولكن الكثير من هذه المنتجات قد يتبين انها ليست كما تبدو اليوم ، اضف الى ذلك ان المنافسة الحادة قد تؤثر في ربحية اكثر هذه الاختراعات الجينية نجاحا .

ان قرار المحكمة الامريكية العليا بامكان تسجيل صور الحياة المصنوعة في براءات اختراع ، كان خطوة على الطريق لها اهمية نفسية عظيمة . الا ان بعض الخبراء يرون انها قد لاتؤدي عمليا الا إلى القليل . ذلك ان العقاقير التي هي اقرب المنتجات الى الاسواق بما في ذلك الانسولين البشري ، توجد في الطبيعة ، وعلى ذلك فانه لايمكن تسجيلها .

ويرى المستر كنتج ، وهو احد المحللين المعروفين ، انه يوافق على معظم التقديرات المتفائلة لمايمكن ان تؤدي اليه هذه التكنولوجيا الجديدة ، ولكنه يشك في الاطار الزمني الذي وضعه البعض في اذهانهم . ان هذا التكنيك الجديد يشبه اختراع اشباه الموصلات ، ولكن يجب ألا ننسى اننا لم نر حاسبات الجيب الرخيصة الا مرور ٢٥ عاما من اختراع الترانزيستور . ■■

د. عبد اللطيف ابو السعود

الاستاذ بكلية الهندسة جامعة الكويت

لم ينطق

ماذا قال المسكين قبل وفاته ، ما هي كلماته الاخيرة ؟

- لم تكن له كلمات اخيرة ، لان زوجته كانت دائما الى جانبه .

الروح العربية في غضبات مصرية

بقلم : اكرم زعيتر

« ... يا أهل العربية والاسلام لستم من الوطنية في شيء
حتى تؤمنوا أن وطنكم هو كل البلاد العربية والاسلام »

كان لبيان واصف غالي صداه في البلاد العربية ، وقد علقت عليه جريدة القبس الدمشقية لسان الكتلة الوطنية في سورية بمقال لصاحبها الكبير الاستاذ نجيب الريس جعل عنوانه : وجدنا من يدافع عنا في قلب عصبة الامم » وما ورد فيه بعد التوجه الى مصر باعمق الشكر : « ... واذا كان موقف العراق من فلسطين منتظرا ومأمولا ، فان موقف مصر كان موضع التساؤل وحديث التخمين لان مصر لم تقل كلمتها الرسمية في قضية فلسطين الا في اجتماع العصبة اول امس ولكنها كانت حكيمة عظيمة وكان موقفها رائعا ، فقد غمرت نفوس العرب والاسلام بالسرور والغبطة ، لقد بدد واصف غالي وزير الخارجية المصرية وعضو الوفد الامين وصديق سعد العظيم وزميل النحاس الشجاع كل وهم تسلط على بعض الناس من ان مصر لا تخرج عن ارادة بريطانيا صاحبة وعد بلفور ومشروع تقسيم فلسطين فاذا بمصر التي استقلت منذ سنة تقف من بريطانيا موقف الدول المستقلة وتدافع عن وجهة نظر العرب دفاعا مجيدا صادقا ومعقولا ، واذا بوزيرها الكبير يدهش اكابر رجال السياسة بخطابه الرائع وبيانه الساحر ، لان فلسطين في هذا الموقف أصبحت فخورة معتزة وجدت لها دولتين عربيتين مستقلتين تدافعان عن حقها وعن حياتها في قلب العصبة ، وهذه شهد الله اول ثمرة من ثمرات استقلال مصر الشقيقة العظيمة والامة البارة ذات الحكومة الوطنية والزعامة المنظمة المطاعة وهذا ماكنانرجوه من استقلال مصر ودخولها في عصبة الأمم وبعد حديث عن اثر استقلال مصر في مستقبل العرب قال : « لقد قالت مصر كلمتها واعلن مندوبها انها لا توافق على قيام دولة يهودية في جوارها » واوضح استحالة قيام هذه الدولة التي يحاولون ان تقوم على اساس الدين من شعوب واجناس مختلفة مضطربة . وان اليهود الموجودين في فلسطين يستطيعون ان يصبحوا مواطنين فلسطينيين فهل ذلك ظلم يقع على اليهود بعد هذا ؟ » .

وحدث ان اقال الملك فاروق وزارة النحاس باشا في اليوم الاول من سنة ١٩٣٨ وكانت الثورة الفلسطينية في عز اندفاعها ، وكانت عواطفنا مع الوفد ولكن عزانا عما جرى ان محمد محمود باشا الذى تولى رئاسة الوزارة كان مندفعا في نصرة فلسطين وشجب التقسيم ، وقد عرف ان اول ما حدث به السفير البريطاني السير مايلز لامبسون هو قضية فلسطين واهتمام مصر بها ، وقد رو السفير في تقريره المرفوع الى حكومته ان الرئيس



اقطاب مصر في اجتماع لنصرة الثورة الفلسطينية من اليمين : محمد عبد القادر حمزه (صاحب البلاغ) - الدكتور منصور فهمي - محمد توفيق خليل - الشيخ حسنين مخلوف - جميل الرافعي - صالح حرب - اسماعيل الازهري - محمد علي علوبة - الشيخ حسن البنا - عبد الحليم محمود - علي ماهر - د . اسعد سلهب - الشيخ عبد المجيد سليم - موريس درقس - الشيخ عبد اللطيف دراز - الخوري سويطي - الشيخ شلتوت .

المصرى أعرب له عن قلقه الشديد واشتغال باله لما يجرى في فلسطين وانه ، اى السفير ، اكد له ان حكومة جلالته تعير القضية كل الاهمية ...

وقبل ان اتحدث عن الموجة العربية العارمة التى اجتاحت مصر سنة ١٩٣٨ يتصل بموضوع ما أكتب ان اشير الى ما كان للمؤتمرات الطبية من اثر في تمتين الاواصر القومية وما كان للدكتور علي ابراهيم والدكتور سليمان عزمي من جهود في قيادة هذه الحركة وحدث ان يممت بغداد في شباط (فبراير) ١٩٣٨ تلبية لدعوة لجنة الدفاع المركزية عن فلسطين في المدن العراقية واشتراكا في تأبين الزعيم العراقي الكبير ياسين الهاشمي وقد عقد المؤتمر الطبي العربي العاشر في التاسع من شباط وحضره اربعمائة طبيب عربي ومما أذكر ان الاطباء المصريين والعراقيين والسوريين واللبنانيين ، والفلسطينيين اصدروا بيانا بتواقيعهم احتجوا فيه باسم الروابط القومية على ما يجرى في فلسطين واستهجنوا الاعمال التنكيلية الانكليزية الفظيعة في فلسطين وحيوا مجاهديها . .

شاعر العروبة

وقد كان ابلغ ماثر في المؤتمر وفي الشعب العراقي في ذلك المهرجان القومي الرائع قصيدة رائعة للشاعر المصرى علي الجارم القاها بصوت اخاذ ثم جرى تلحينها فدخلت كل بيت وشداها كل تلميذ ولقب الجارم بعدها بشاعر العروبة وهي في ثمانين بيتا ومطلعها :

بغداد يا بلد الرشيد
ومنارة العز التليد

وقد هز الاعطاف وهو يهيب بامته العربية :

يا امة العرب اركضي
ملء العنان ولا تهيدى
سودى فآمال المنى
والعبقرية ان تسودى
هذا اوان العَدْو
لا الابطاء والمشي الوئيد
المجد ان تتوثبي
واذا وثبت فلا تحيدى
وتحلقي فوق النجوم
بلا شبيه او نديد

وهتفت مصر ببغداد بلسان شاعرها :

بغـداد إنـا ـ وفـد مصر
نفيض بالشـوق الاكيد
جئنـا نحـي العلـم والآداب
في العـدد العديد
لقياك عيد للمنى
فزنـا بهـا في يوم عيد
اهلـوك اهلونـا وابناء
العشـيرة والجدود
بـين القلـوب تشوف
كتشـوف الصـب العميد
حـي يكاد يحـب نخلك
نخـل اهلي في رشيد(١)
شطـت منازلنـا ومـا احتاج
الفـؤاد الى بريد
الرافـدان تمازجا
في الحـب بالنيل السعيد

مؤتمر مصرى كبير

وقدمت الى فلسطين اللجنة الفنية للتقسيم برئاسة السير وودهيد في اواخر نيسان « ابريل » لتخطيط حدود التقسيم فاجمع العرب على مقاطعتها واحباط مهمتها ولم تكد تشرع في عملها حتى تلقت سيلا من برقيات الانكار والاستنكار وفي مقدمتها لجان الدفاع عن فلسطين وجمعيات الشبان المسلمين في مصر وسارت مظاهرة ضخمة صاخبة في القاهرة تدعو الى انقاذ فلسطين اصطدمت بقوات البوليس واعتقل اربعة وعشرون من المتظاهرين .

ومما حدث بتأثير هياج الازهريين ان وجه الاستاذ المراغي شيخ الجامع الازهر الى محمد محمود باشا رئيس الوزراء نداء طلب فيه باسم الازهر ان تتدخل الحكومة المصرية فعليا لحل قضية فلسطين ، ولم يكن جواب الباشا على نداء الازهر كافيا ولا شافيا لانه اكد شعوره بحالة فلسطين المحزنة وانه يترك الامر لعدل بريطانيا وحكمتها وما اسرع ما عقد في جمعية الشبان المسلمين في ٣٠ نيسان (ابريل) مؤتمر كبير حضره عدد ضخم من شيوخ مصر ونوابها ومحاميها واطبائها وادبائها وتجارها برئاسة الدكتور عبد الحميد سعيد رئيس اللجنة العليا للدفاع عن فلسطين وبعد نقاش قرر المؤتمرون توجيه رسالة قوية الى رئيس وزراء مصر « وهي الدولة التي تربطها بفلسطين روابط لا تنفصم دين ولغة وجوار ودم وتقاليد ومصالح سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية » واعدت الرسالة واقرها المؤتمرون وعهد الى رئيسه في توقيعها باسم المؤتمر ، وقد وضعت مظالم بريطانيا وفظائعها في فلسطين والاجتراء على حرمة المقدسات (وان استقرار اليهود بفلسطين بواسطة الهجرة اليها انما هو بلاء على العالم العربي بأسره وفي مقدمته مصر التي لا يمكنها قط ان تقبل وان تتساهل في انشاء دولة يهودية على تخومها الشرقية » وطالبت الرسالة الحكومة المصرية بالتدخل الجدي لدى الحكومة الانكليزية لتكف عن اعتداءاتها الفظيع على بيت المقدس وحل قضية فلسطين حلا عاجلا يصون حقوق العرب ويحفظ كيانهم المهدد بالفناء العاجل » ...

وظلت الغضبة المصرية تشتد ، وعقد الوفد المصرى اجتماعا في الاسكندرية برئاسة مصطفى النحاس باشا واصدر بيانا دعا فيه جميع المصريين الى التبرع والاكتتاب لمنكوبي فلسطين وقد افتتح هو واعضاء الوفد الاكتتاب بسخاء ..

صارخة العريان

وتتالت البيانات والمقالات وعلى سبيل مثال ما كان يكتب اذكر ان الصديق المصرى الاديب الاستاذ محمد سعيد العريان قد دعي الى فلسطين ليذيع حديثا عن الاستاذ مصطفى صادق الرافعي فقضى فيها اسبوعا ـ وكانت الثورة تستعر في نجودها والاغوار فاجتمع بطائفة من شبانها ونخبة من ادبائها وسبر غور حركتها وذكاء ثورتها وخلوص وطنيتها .. وعاد الى مصر ليكتب في « الرسالة » اروع ما يخطه يراع في وصف فلسطين ، ومكانة مصر لدى الفلسطينيين .. وارسلها صارخة عربية مصرية قد لا تدانيها الا صارخة احمد زكي باشا وعبد الوهاب عزام والمازني والزيات ودياب ومما جاء فيها : « امصرى انا ؟ لا . ان وطني لأكبر من ذاك . ان لي اهلا هنا وأهلا هناك . ان تراث الاجيال ليتحرك في دمي الساعة فيذكرني ما لم اكن اعرف . ما هذا ؟ ؟ لكأن لي في كل مكان ذكرى قريبة وما رأته عيناى قبل ان تراه عيناى . ان قوة من وراء التاريخ تربطني الى هذا

(١) رشيد بلد الشاعر علي الجارم في مصر



السيدة هدى شعراوى

المكان وتستوقفني عند ذاك الاثر وتقف بي عند ذلك المنعطف ، وتذكرني بشيء في هذا الحي . ان هنا قبسا من روح اعرفها ترف حولي ، ونفحة من عطر اتشممها تلامس روحي ، وان لي هنا لخفقة قلب ، وان لي هناك لدمعة عين ، وانني لالقى خواطر وذكريات لم تكن من خواطرى وذكرياتى ... وانني لاحس وانني لاشعر ... فما اشك ان لي تاريخا قبل تاريخي في هذا المكان وان لي ذكريات ابعد من ذكرياتي في هذا الحي . وان الماضى الذى كان قبل ان اكون هو ارث في دمي تحدر الى في اصلاب اسلافي ذكريات غامضة لا تكاد تبين الا خفقات في القلب وزفرات في الفؤاد .

« ايها البلد الطيب . ايتها الارض المقدسة لقد عرفت بك اهلي ووطني وتاريخ قومي ... كفرت بالوطنية ان لم أومن بانى منك في اهلى ووطنى . يا بلاد العربية والاسلام اتشرى لواءك وابعثي ماضيك حتى تنتظم رايتك كل عربي وكل مسلم . يا اهل العربية والاسلام لستم من الوطنية في شيء حتى تؤمنوا ان وطنكم هو كل البلاد العربية والاسلام . »

وتحدث الاستاذ العريان عن قوة الحركة الوطنية وانتهى الى القول : « فما في فلسطين اليوم ثورة وطنية كبعض ما نعرف من الثورات السياسية في التاريخ ، ولكنه جهاد الاحياء للحياة ، فاما ظفروا فعاشوا في بلادهم آمنين كما يعيش كل شعب في بلاده ، واما كانت فلسطين هي الاندلس الثانية : لا يذكر فيها اسم الله ولا ينطق فيها بكلمة التوحيد . »

● الروح العربية في غضبات مصرية

وأواصل القول في الاهتمام المصرى بالقضية فقد عقدت جماعة كبار العلماء اجتماعا برئاسة الاستاذ الاكبر المراغي في ١٨ اغسطس واستعرضت حالة فلسطين التي هي نتيجة للسياسة التي انتهجتها حكومة الامبراطورية البريطانية وقررت :

١ ـ ان تحتج على استمرار هذه السياسة وعلى مشروع التقسيم على اية صفة يجرى عليها التقسيم ، والمطالبة بان تبقى للبلاد صفتها العربية الاسلامية وان يحافظ على كيانها القومي .

٢ ـ تدعو جماعة كبار العلماء زعماء بلاد الاسلام الى التكاتف واتخاذ ما يرونه مفيدا من الطرق للمحافظة على بلاد فلسطين .

٣ ـ تدعو جماعة كبار العلماء المسلمين الى تذكر قضية فلسطين ليلة المعراج وان يتوجهوا الى الله سبحانه في تلك الليلة بان يحفظ هذه البلاد مما يراد بها وان يحفظ مقدساتها من الاخطار القريبة والبعيدة .

البرلمانات العربية

واذكر انني كنت ازور الاستاذ فارس الخورى رئيس المجلس النيابي السورى وعلمت منه انه تلقى كتابا من محمد علي علوبة باشا يخبره فيه بنبأ تأليف لجنة برلمانية في مصر للدفاع عن حقوق فلسطين ومقاومة الصهيونية ، وطرح في الكتاب فكرة عقد مؤتمر برلماني عام يمثل برلمانات الاقطار العربية والاسلامية وطلب انضمام مجلس النواب السورى الى هيئة اعداد هذا المؤتمر وقد اجابه شاكرا له واخوانه جهادهم النبيل في سبيل الامة العربية ومكبرا فيهم اصابة الراى وفضيلة السبق الى دعوة مستجابة وعمل وطني مبرور واعلمه أنه كلف نائب رئيس المجلس النيابي السورى ونائب دمشق الاستاذ لطفي الحفار رئاسة اللجنة البرلمانية السورية للدفاع عن فلسطين والعمل على انجاح فكرة المؤتمر وتعيين موعده .... وجرت اتصالات بين اللجنة البرلمانية المصرية والبرلمانات العربية أسفرت عن الاتفاق على عقده في مصر وتولى محمد علي علوبة باشا الدعوة الى برلمانات مصر والعراق وسورية ولبنان واللجنة العربية العليا وكبراء ذوى صفة تمثيلية في المغرب واليمن والهند والصين ويوغسلافيا والمهاجر الامركية الى حضور المؤتمر الذى تقرر عقده في ٧ تشرين الاول (اكتوبر)

الزعيمة هدى شعراوى

وفي الحين ذاته كانت تجرى مخابرات بين لجان السيدات للدفاع عن فلسطين في دمشق وبيروت

والقدس وبغداد من جهة وبين السيدة هدى شعراوى رئيسة الاتحاد النسائي المصرى لعمل نسائي عربي مشترك لانقاذ فلسطين . وفي السابع من تموز (يوليو) ارسلت الجمعيات النسائية في لبنان وسورية وفلسطين والعراق تفويضا للسيدة هدى شعراوى تعلق فيه :

« نفوض عصمتك تفويضا تاما بالدفاع عن قضية فلسطين امام لجنة الانتدابات والمؤتمر النسائي الدولي ولدى اية هيئة يمكنها نصرة هذه البلاد المقدسة التي مضى عليها عشرون عاما وهي تجاهد في سبيل تحريرها واستقلالها وتسعى لانقاذها من الخطر الصهيوني الذى يهدد كيانها ومقدساتها كما نرجو عصمتك السعي الحثيث لدى عصبة الامم ووزارة المستعمرات وغيرهما من المراجع السياسية لتأمين الحل العملي العادل الوحيد لهذه القضية على قاعدة الاعتراف بحق العرب في الاستقلال التام في بلادهم .

(١) العدول عن تجربة الوطن القومي لليهود .

(٢) انهاء الانتداب البريطاني وتبديله بمعاهدة مماثلة للمعاهدة البريطانية العراقية او المعاهدة البريطانية المصرية بموجبها تنشأ في فلسطين دولة ذات سيادة مستقلة .

(٣) وقف الهجرة اليهودية وبيع الارض وقفا تاما .

وقد وقع التفويض : ابتهاج قدورة رئيسة الاتحاد النسائي العربي وزليخة الشهابي وشاهندة درزدار سكرتيرتا لجنة السيدات العربيات بالقدس ، وبهيجة العظمة سكرتيرة لجنة السيدات للدفاع عن فلسطين في سورية ونازك علي جودت عن الجمعيات النسائية العراقية .

واتفق راى الجمعيات النسائية العربية على ان تدعو السيدة هدى شعرواى الى المؤتمر النسائى العربى بالقاهرة الذى تقرر عقده في ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) وقد وجهت نداء الى الجمعيات النسائية العربية ناشدتها ايفاد مندوبات الى المؤتمر .

ولما استكملت الاستعدادات لعقده اذاعت نداء الى سيدات مصر دعتهن الى واجب الترحيب والتعضيد لنساء البلاد العربية الشقيقة . »

وهنا اشير ان اولى ممارسات السيدة هدى شعراوى للتفويض العربي ان انتهزت فرصة اتفاق ميونيخ الذى حال دون اشتعال الحرب سنة ابرامه فابرقت الى المستر تشمبرلن رئيس الوزراء البريطاني ببرقية تقول فيها :ـ

« باسم الجمعيات النسائية العربية اهنئكم قلبيا بنجاح جهودكم لانقاذ اوروبا من ويلات الحرب واثقة انه سيدفعكم نفس الشعور الانسانى الى انصاف عرب فلسطين ضمانا للسلام في الشرق ايضا .

وقد تلقت جواب شكر من دون اشارة الى فلسطين .

وفي الحديث القادم تبدو الاشراقات العربية القومية اروع ما يكون ويلتقي في رحابها القومي عرب المشرق والمغرب ، ويزهر الاتحاد النسائى المصرى بالفضليات النيرات من نساء العرب في اول لقاء تاريخي ، ونعيش من انتصار الفكرة العربية في مهرجان . ■■

اكرم زعيتر

متى وجد الطلاق

يروى فولتير قصة الطلاق فيقول :

« ان الطلاق وجد في العالم مع الزواج في زمن واحد تقريبا » . غير اني اظن ان الزواج اقدم ببضعة اسابيع . يعني ان الرجل ناقش زوجته بعد اسبوعين من زواجه ثم ضربها بعد ثلاثة اسابيع ثم فارقها بعد سنة » .



الأقدار

شعر : أحمد محمد آل خليفة

وقفت في معرض الدنيا أرى قدري — مصورا وحياة الناس أقدار
شاهدت طاحونة الأعمار دائرة — ترتاع منها لمرأى الهول أبصار !
تطوي الخلائق في دولابها وبها — من الأنام غبار الدهر دوار
قرأت صفحة عمري كلها صور — مُشَوَّشَاتٌ لها في القلب منظار
رأيت طفلا صغيرا فوق رابية — يَبْكي وفي كَفِّه لِلْحُبِّ مزمار !
يرنو الى روضة في السفح ذابلة — شَحَّتْ عليها من الأقدار أمطار
عرفته إنه الحب الذي غرقت — فيه حياتي وفاضت منه أنهار !
وتلك واحة عمري فهي مجدبة — أوْدَى بها في خريف العمر إعصار

....

أهكذا أنت يا دنيا مخادعة — مثل السراب عليك العمر ينهار !
اذا عشقناك خلنا الدار عامرة — وأنت أخبث من تشقى به الدار !!

الأزهر الجامع والجامعة

بقلم : الدكتورة نعمات احمد فؤاد

ليس مسجدا فحسب ، ولكنه جامعة .. ورسالة .. وثقافة .. وحضارة .

على امتداد نيف وعشرة قرون منذ قام في (٣٦١هـ ـ ٩٧٢م) . بناه جوهر الصقلي للخليفة المعز لدين الله الفاطمي . ويروي أن البناء الاول للمسجد كان به طلسم وهو صورة طيور منقوشة على ثلاثة أعمدة حتى لا يسكنه طير ولا يفرخ فيه . وحكاية الطلسم هذه أشار اليها القلقشندي أيضا في الجزء الحادي عشر من صبح الأعشى .

جامع وجامعة . رسالة وثقافة ، وأحس بهذا الحكام والمحكومون على السواء فكان الأولون يضيفون اليه في البناء ، والآخرون يركنون اليه في الشدائد .

وجاء الايوبيون وحاولوا الغض منه او الاعراض بالعناية عنه ، ولكنه ما لبث ان ذاع صيته من جديد بعد انقضاء عهدهم ....

راحوا وبقي الأزهر كعبة للعلم ، ومحرابا للدين ، وحارسا للحضارة ، حين داهمت الحضارة غزوات المغول في الشرق ، وانقضاض الغرب في اسبانيا ..

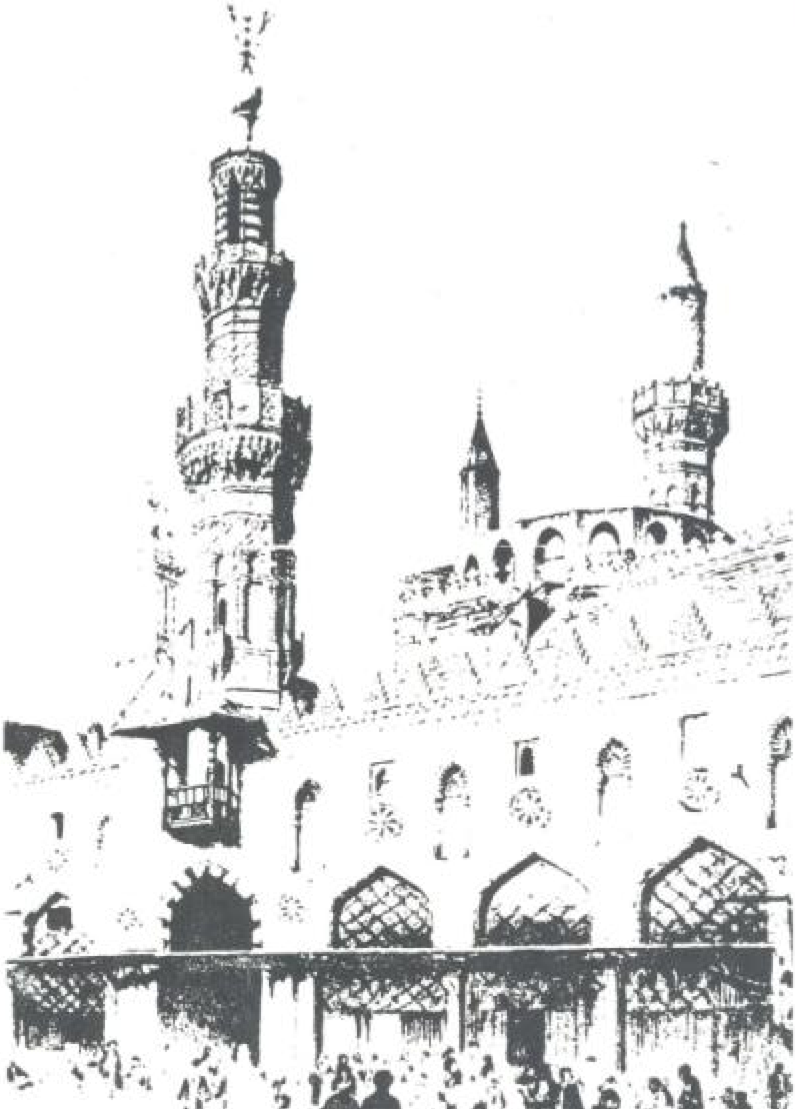
وحين تهدد مجد الاسلام هنا ، وتبدد حكم الاسلام هناك ، لاذ الدين ومن ورائه اللغة العربية ، بالازهر في مصر حيث كانت من خلاله تشع العلم وتجري الرزق .

قام الازهر مقام مدارس بغداد في المشرق ، ومدارس قرطبة في المغرب والذي انفرد (بامامة العلم في بلاد الاسلام .)

أقبل المسلمون من كل صوب على الجامع الأزهر طلبا للعلم وتفقها في الدين .

كانت هناك مدارس اسلامية خارج مصر كالمدرسة البيهقية والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية ، ولكنها منفردة ومجتمعة لم تبلغ شأو الأزهر في نشر العلم وتخريج العلماء بل عفت جميعا وبقي الازهر يؤدي دورا بعيد المدى في الحياة الفكرية الاسلامية . يقول الكاتب السوري الدكتور أسعد طلس في حديثه عن العهد العثماني بالشام (ولولا الازهر في مصر لانطفأت شعلة العلم في الشام .)

ويقول في كتابه (مصر والشام في الغابر



والحاضر) : (استطاع الازهر خلال المحنة الشاملة أن يستبقي شيئا من مكانته فيغدو ملاذا اخيرا لعلوم الدين واللغة . ويغدو ينبوعا خاصا ومعقلا حصينا للغة العربية تحتفظ في أروقته بكثير من قوتها وحيويتها . ويدرأ عنها التدهور النهائي ويمكنها من مغالبة الفاتحين ومقاومتهم ... وربما كانت هذه المهمة السامية التي ألقى القدر زمامها الى الجامع الازهر في تلك الاوقات العصيبة من حياة الامة المصرية والعالم الاسلامي بأسره هي أعظم ما أدى الازهر من رسالة . وأعظم ما وفق لاسدائه الى علوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل .)

الازهر من العالم الاسلامي واسطة العقد فهو يؤمه وضعا ويتوسطه موضعا يقوم على ارض الحضارات والعلوم والفنون منذ القدم مما يمده بالبقاء والأصالة والاقتدار ... وهو لا يبعد عن الحجاز مهبط الوحي ومهد الرسالة وموطن الرسول .

وهو في الشمال من افريقيا .

وفي الغرب من آسيا .

وفي الجنوب من أوربا .

وكلها تسعى اليه وتلتقي عنده .

ولعل نظام الاروقة الذي يسود به خير شاهد على هذا . والرواق كما جاء في دائرة المعارف الاسلامية هو الفضاء الواقع بين عمودين كان يقرأ فيه المدرس في الازمنة السابقة لجماعات صغيرة وكانت تقام فيه الأذكار وتحتدم الجدل والنقاش .

أروقة الأزهر

والأزهر به ٣٦ رواقا يؤمها المسلمون من مشارق الارض ومغاربها . يتدارسون فيها علوم الدين وشعائره .

وقد أخذت بهذا جامعات أوربا في العصور الوسطى وهو نواة التخصص الذي يسير عليه العصر الحديث .

ومن أهم الأروقة بالأزهر :

رواق الصعايدة وهو أهم أروقة المالكية . وكان أكابر الازهر يتخذون مجلسهم بجوار هذا الرواق حيث يتشاورون في المهمات كما يقول علي مبارك في الخطط التوفيقية . وبجوار هذا الرواق . وحبا فيه وفي أهله من الصعايدة وشيخهم الشيخ العدوي . بنى عبد الرحمن كتخدا مدفنا له - رواق الحرمين مكة والمدينة - رواق الزكارنه وهو خاص بأهل تكرور وسنار ودارفور وغيرها - رواق الشام - رواق الجاوة وغيرهم من أهل جزر الهند الشرقية . - رواق السليمانية وهو لأهل افغانستان وخراسان - رواق المغاربة لأهل شمال افريقية الغربي وهو رواق كبير وهام - رواق السناريه وأنشأه محمد علي - رواق الاتراك - رواق الحنفية - رواق الفشنية - رواق ابن معمر وهو رواق عام لجميع الناس . وغير هذا من أروقة .

والتقسيم الى أروقة يتبع تارة الجنسيات ويتبع تارة أخرى التقسيم المذهبي .

وأعظم دلالة على مكانة الازهر في العالم الاسلامي وعلو مقامه في الشعوب الاسلامية . هو (ثبت أسماء الذين يؤمونه من أقطار خارج مصر تمتد من أواسط افريقية الى الروسيا . ومن أقاصي الهند الى مراكش) كما تقول دائرة المعارف الاسلامية . ويطرد عدد هؤلاء المجاورين قلة وكثرة وفقا للحالة السياسية والاقتصادية في كل قطر من هذه الأقطار .

وكلمة (المجاورين) نسبة الى سكنى طلاب الازهر بجواره . ويقول علي مبارك باشا في خططه (ط اولى ١٣٠٦ هـ) ان الازهر كان به ٧٨٠ ١ مجاورا منهم ٣٦٥١ شافعيا و ٣٨٢٦ مالكيا و ١٢٧٨ حنفيا و ٢٥ حنبليا . وقد تضاعفت هذه الاعداد في القرن العشرين .

تقاليد الازهر

وللأزهر تقاليد وأصول وقواعد .. منها أن « المدرسين » فيه يسمون أنفسهم (خدمة العلم) .

وكان الازهر يدرس لطلابه علوم التوحيد والفقه والحديث والتصوف ثم علوم اللغة والعروض والبلاغة والمنطق وعلم الهيئة وهذا الاخير قصد به عمل التقاويم وتحديد مواقيت الصلاة . وكثيرا ما كانت العلوم تنظم شعرا ليسهل على الطلاب استظهارها .

كما يدرس الازهر لطلابه خاصة في عصور ازدهاره وازدهار مصر بعامة . علوم الادب والتاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية والرياضية .

ومن تقاليد الازهر ان القائمين بالتعليم فيه اصطلحوا على تخصيص ساعات البكور حين يكون الذهن نشيطا حاضرا لدراسة علوم الدين . اما بعد الظهر فلدراسة العلوم العقلية .

ويخص المساء بالاستذكار والحوار والتأمل .

ومن تقاليد الازهر الذ[illegible]ية : احترام العلماء فقد كان **للعلماء على (المجاورين) أي الطلاب سلطان كسلطان الوالد على ولده .**

فالطلاب يحترمون شيوخهم احتراما عظيما .. يقبلون ايديهم بل يحملون نعالهم ويؤدون لهم مختلف الخدمات .

وهم ينادون شيوخهم بكلمة (استاذ) او (مولانا) .

ومن تقاليد الازهر عندما يتوفى شيخ من الشيوخ أو طالب من الطلاب أو عالم من العلماء ، أن يقرأ المؤذنون آية الأبرار من أعلى المنارات وتقام الصلاة ، وتردد الأذكار .

وللشيوخ كساوى تشريف يلبسونها للتمايز ، في المناسبات والأعياد .

ومن تقاليد الازهر في الدرس ، أن (الاستاذ) عندما يحاضر يجلس على كرسي من الجريد أو الخشب ، أو يتربع على الحصير ، مستندا الى عامود ويتحلق حوله الطلاب الذين يكتبون عنه بعد الدرس لا أثناءه . ويصف الاستاذ احمد حسن الزيات في كتابه وحي الرسالة (ج ١ ، ط ٥ ص ١٩٥) طلاب الازهر بقوله : (كانوا يتحلقون حول كرسي الشيخ من غير نظام ولا ضابط فيكون لهم على السبق الى الامام عراك دام وصخب يصم ، حتى اذا ما أقبل خشعت الاصوات وسكنت الحركات كأن شيئا علا الانفاس فلا تنسم ، وعقد الشفاه فلا تبس . وربما نزل اللجاج على لسان أحدهم في اثناء المناقشة فيغضب الشيخ فلا يكون أنكى في عقابه من الاشارة اليه بالخروج من الدرس ، أو الدعاء عليه بالقطيعة عن الازهر ! والقطيعة عن الأزهر أقصى ما يتصوره الازهري من شقاء الحياة !

فاذا انقضى الدرس وقال الشيخ (والله أعلم) ، تضامت أطراف الحلقة عليه ، وأنحى الطلاب بالقبل على يديه وردنيه ، فما يشق طريقه بينهم الا بعد لأي .)

ومن تقاليد الازهر ، أن الطالب ، لكي يتخرج ، لابد أن يجيزه أستاذه . وهذه (الاجازة) شهادة لها قيمتها . وقد أورد صبح الأعشى صيغا من هذه الاجازات .

ومما يذكر أن الازهر في عهده الأول لم يتبع نظام (الامتحان) إلا بعد الحملة الفرنسية وتأثر مصر بالغرب ، وامتداد هذا التأثير الى الازهر فيما يتعلق بنظام الامتحانات . وقد ألفت لجنة من ستة أعضاء ، وعينت المواد التي يجب أداء الامتحان فيها عند التخرج . وقسمت العلوم الدينية والشرعية الى احدى عشرة مادة يؤدى فيها الامتحان وتقرر للطلاب مكافآت دراسية .

ولم تكن الاجازة شيئا سهل المنال . فلم تكن تمنح إلا للقادر على الفهم والاضطلاع بمسئولية التدريس .

وتاريخ الازهر يضم طرائف تروق .

يذكر ابن اياس ان السلطان قايتباي كانت له عادة غريبة فقد اعتاد الذهاب الى الجامع الازهر متخفيا في زي مغربي ليصلي ويسمع في الوقت نفسه ما يقوله الناس عنه .

ويذكر ابن اياس انه كان يتلى في الجامع الازهر أجزاء من القرآن أو من البخاري دفعا للأوبئة أو المجاعات .

كما كانت تقام به صلوات الاستسقاء من أجل فيضان النيل .

ومن طرائف تاريخ الازهر ما أورده المقريزي من أنه في عهد السلطان برقوق استصدر الامير بهادر ناظر الجامع مرسوما ينص على أن من مات من مجاوري الازهر عن غير وارث شرعي وترك شيئا فانه يئول الى المجاورين في الجامع ونقش ذلك على حجر عند الباب البحري الكبير .

أول عمل معماري فاطمي

الجامع العتيق أو الازهر أول عمل معماري فاطمي صاحب مولد القاهرة المعزية وبقي معها حتى اليوم .

بدأ العمل به في ٢٤ جمادي الاولى سنة ٣٥٩ هـ - ٩٧٠ م وانتهى من تأسيسه وأقيمت به أول جمعة في ٧ رمضان سنة ٣٦١ هـ - ٩٧٢ م وهو بهذا أقدم جامعة فقد انشئت جامعة بولونيا سنة ١١٠٠ م ، وجامعة باريس سنة ١١٥٠ م ، ثم قامت الجامعات في اوربا وامريكا تحذو حذوه وتترسم خطاه .

وتختلف الروايات والتفسيرات في اسمه : الازهر ، هل هو نسبة الى فاطمة الزهراء بنت الرسول التي انتسبت اليها دولة الفاطميين قاطبة ؟ ويعزز هذا الرأي المقصورة التي أقيمت في هذا الجامع وسميت باسمها . أم الازهر نسبة الى القصور الزاهرة التي أحاطت به عندما أنشئت القاهرة ؟ أم الازهر تيمنا بما سيصير اليه وما ينتظر العلم والدين على يديه من إزهار وازدهار مكانة ؟ أم الازهر ردا على مدينة الأمويين بالاندلس : الزهراء . التي سبقت مولده بأربعة وثلاثين عاما (٣٢٥هـ) .. تلك المدينة التي أشار اليها ، وأشاد بها شاعر الاندلس ابن زيدون في رسالته الى ولادة :



إنــي ذكرتــك بالزهــراء مشتاقا
والأفــق طلــق ووجــه الماء قد راقا
وللنسيم اعتــلال في أصائله
كأنمــا رق لي فاعتــل اشفاقا

تفترق هذه التفسيرات أو تلتقي فان جامعنا الاكبر بها، أو بدونها ... أزهر .. ومنارة للعلم والدين منذ جلجلت فوق سامقات مآذنه كلمة : الله أكبر .

إن تخطيط المدينة الاسلامية يحتفي بالمسجد وينزله منها أعز مكان ... وقد راعى هذا التقليد قائد المعز ، جوهر الصقلي عندما أنشأ مدينة القاهرة عاصمة الفاطميين وعاصمة للمشرق وعاصمة للاسلام بما حملت من أعبائه . وحفظت من تراثه . وأعلت منه في السلم ، ونافحت عنه في الحرب . وكانت له فيها ، وبها ، دولة وصولة وخلافة وحضارة .

ومنذ اليوم الأول لبناء الازهر أريد به أن يكون جامعا وجامعة فقد كان الهدف من انشائه ان يكون عدلا لجامع عمرو وجامع ابن طولون ، تقام به الصلاة ، وتناقش به السياسة ، وتقوم الدعوة لمذهب الشيعة عقيدة الدولة الحاكمة .

وقد امتد الجامع الازهر عمرا وعمارة فلم يكد يمضي على انشائه اربع سنوات حتى جدده الخليفة العزيز بالله وتبعه الحاكم .

وقد وقف المقريزي في (خططه) وابو المحاسن بن تغري بردي في (نجومه الزاهرة) عند محاريب الازهر وقبابه وابوابه ونقوشه . وذيل الكاتب عبد الحميد نافع خطط المقريزي بكتاب مخطوط في مكتبة الازهر أحصى فيه أروقة الازهر وعدد طلبة كل رواق .

كما أحصاها وحددها ، الشيخ سليمان في كتابه (كنز الجوهر في تاريخ الازهر .)

ويبدو ان الجبرتي يؤثر من هؤلاء « الامير عبد الرحمن كتخدا » الذي ترجم له في الجزء الثالث من عجائب آثاره فسجل له انه (أنشأ وزاد في مقصورة الجامع الازهر مقدار النصف طولا وعرضا ، يشتمل على خمسين عمودا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المقوصرة المرتفعة المتسعة من الحجر المنحوت ، وسقف أعلاها بالخشب النقي ، وبنى به محرابا جديدا ومنبرا ، وأنشأ له بابا عظيما جهة حارة كتامة وبنى باعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الايتام من اطفال المسلمين القرآن ، وبداخله رحبة متسعة وصهريج عظيم وسقاية لشرب العطاش المارين (..... ص ١٣٦) . ويضم الازهر عدة مدارس بناها أصحابها إضافة اليه كالمدرسة الطيبرسية وأجمل ما بقي منها محرابها الجميل بفسيفسائه المذهبة النادرة ذات الاشجار بفواكهها ، والمدرسة الاقبغاوية وبها الآن مكتبة الازهر المنشأة سنة ١٨٩٦م . وهذه المكتبة بها أكثر من ٤٠,٠٠٠ مجلد منها ١٥,٠٠٠ مجلد مخطوط وهي ليست المكتبة الوحيدة بالازهر فإن بعض الأروقة تضم مكتبات خاصة حافلة بالمجلدات .

ويتوالى تجديد الازهر والاضافات اليه ولكنه مع هذا يحتفظ بالكثير من الأصول الفاطمية في عمارته كعقود المجاز الأربعة الاولى من الجانبين وما اشتملت عليه من زخارف وكتابات كوفية ترجع إلى عهد جوهر .

والزخارف الكتابية حول الشبابيك الجصية الباقية في الجانب الشرقي والغربي .

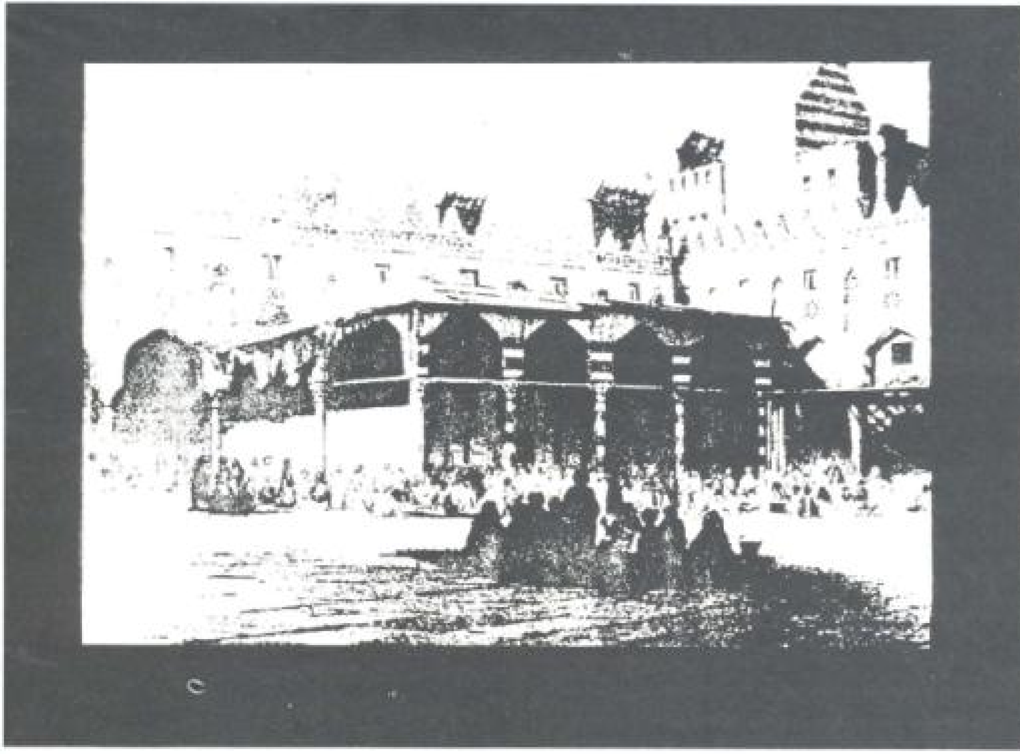
والمحراب الكبير الاصلي بكتاباته ونقوشه التي نوه بها الأثري حسن عبد الوهاب . وزخارف مؤخر الايوان الشرقي وقبو البهو . ونقل منه الى متحف الفن الاسلامي ، باب خشبي من مصراعين باسم الحاكم بأمر الله ، ومحراب خشبي متنقل ، باسم الآمر بأحكام الله سنة ٥١٩ هـ - ١١٢٥ م وقبة البهو يحفل باطنها بالزخرف والكتابات الكوفية المتنوعة التي تبلغ من الجمال والتنوع ، ذروة تعد ثروة فنية بل تعد أساسا وثبتا لتطور الزخارف والكتابات الكوفية في العصر الفاطمي .

ويقرنها الاستاذ محمد عبد العزيز مرزوق بالكتابات الاندلسية في تلك الفترة (القرن الرابع الهجري) وخاصة التحفة العاجية التي يحتفظ بها متحف اللوفر والتي تزدان بسطر من الكتابة من طراز كتابة الازهر .

وكأن أول درس ألقي بالجامع الازهر في شهر صفر سنة ٣٦٥ هـ - ٩٧٥ م عندما جلس القاضي علي بن النعمان وأملى مختصر أبيه في فقه الشيعة وهو مؤشر الى شمولية رسالة الأزهر .. مؤشر لم يخطئه المقريزي فسجله في الجزء الثاني من خططه .

وإحساسا بهذه الرسالة الكبيرة الجامعة كان الخلفاء يحبسون الاوقاف على الازهر لعمارته ، وتعزيز رسالته ، واعزازا لمكانته وتمكينا له .

ولعل أشهر المنح الجامعية التي خص بها الازهر ما وقفه الحاكم عليه سنة ٤٠٠ هـ .. وقد أورد المقريزي تفاصيل هذه الوقفية في تفصيل .. نلمس منه تعاظم العناية بالازهر والبذل له .



لقد كان الازهر يشع العلم من الداخل ، ويتلألأ بالنور من الخارج حتى بلغ من اعجاب الخليفة المعز بأنواره الساطعة ومناراته المزينة أن أنشأ في قصره منظرة سماها « منظرة الجامع الازهر » .

ويصف أبو المحاسن موكب الخليفة الى الجامع الازهر وصفا رائقا وفائقا حافلا بالطرائف (ج ٤ ص ١٠٢ ـ ١٠٤)

أكبر من الدول والملوك

حاول الايوبيون النيل من الازهر نكاية في الدولة الفاطمية ، ولكن الازهر كان أكبر من الدول والملوك الراحلين والغاضبين على السواء . فان للبقاء والخلود كل علم وفن ودين وكمال من القيم والمعاني ، اما ما عداه فزائل مهما طال به الزمان أو وسعه المكان .

لم تكد تمضي دولة الايوبيين حتى عادت للأزهر خطبة الجمعة . أعادها اليه الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ وتسابق المماليك وسلاطينهم الى تجديده وتعميره والاضافة اليه حتى تضاعفت مساحته . أضاف أمراء المماليك اليه ثلاث مدارس .

وقد بقي من العمارة المملوكية في هذه المدارس الثلاث مئذنتان رشيقتان : إحداهما للسلطان قايتباي وهي الى يسار الداخل من الباب الموصل لصحن الجامع الحالي ، والثانية مئذنة الغوري وهي على يمين الداخل من الباب نفسه وهي منارة ضخمة ذات رأسين وتمتاز (بتلبيس القاشاني في بدن دورتها الثانية كما تمتاز بوجود سلمين فيما بين دورتيها الاولى والثانية صمما بحيث لا يرى الصاعد في احداهما ، الآخر .. وهي احدى الحيل المعمارية القاهرية في مآذن الازهر . وقد أنشئت هذه المنارة سنة ٩١٥ هـ ـ ١٥١٠ م . وتعد احدى الطرائف في العمارة الاسلامية .

فلم ينته القرن التاسع الهجري حتى انتشرت في القاهرة المنارات ذات الرؤوس المزدوجة كمنارتي الازهر ....

مكانة الأزهر

إن الازهر على مسار ألف عام ، يقوم علامة مضيئة بارزة في تاريخ الاسلام ، وفي تاريخ مصر على السواء وفي تاريخ الامة الاسلامية .



لقد قام جامع الزيتونة في تونس ، وجامع القرويين في المغرب ، والمدرسة النظامية في بغداد كما أشرت ولكنها كلها منفردة ومجتمعة لم تغن غناء الازهر وان أدت في مكانها وقدمت . بل إن مدارس القاهرة تنشها على كثرتها وتولي أكابر العلماء الأساتذة . التدريس فيها ، لم تضاه الازهر ولا كانت تشاتيه بل لعلها كانت بمثابة فروع زاكية من تلك الدوحة العظيمة أو روافد لذلك النهر الكبير .

إن الازهر أقدم جامع في القاهرة وأقدم جامعة في العالم الاسلامي وهو بهذا ، الجامع الأكبر والجامعة الأم .

لقد اشترك الازهر في صنع الأحداث بمصر والمنطقة العربية بل والعالم الاسلامي . ففي رحباته قام الخطباء والزعماء المصلحون وأهل الفكر من أنحاء العالم الاسلامي بالدعوة الى اصلاح الدين والدنيا بما يعنيه الاسلام من شعائر وشرائع .

ومن رجال الازهر رفاعة الطهطاوي وسعد زغلول وعلي مبارك والشيخ محمد عبده والشيخ المراغي والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ شلتوت والشيخ عبد الحليم محمود .

إن النهضة الحديثة تدين للازهر بروادها كتابا وأدباء ومفكرين وعلماء حتى اولئك الذين انسلخوا منه في فورة الشباب وثورة الطموح أمثال الدكتور طه حسين وصاحب الرسالة الاستاذ احمد حسن الزيات والاستاذ الزناتي ولكنهم لم ينسوا الازهر في حياتهم أو في كتاباتهم .. أيامهم به وآمالهم فيه .

حين ترجم الاستاذ الدكتور احمد أمين لحياته وقف وقفة طويلة عند الازهر ....

بل ان الذين تخرجوا من القضاء الشرعي انما يمتدون بجذورهم العلمية الى الازهر فقد كانت تجهيزية الازهر وسيلتهم الى مدرسة القضاء وأحد هؤلاء الاعلام الاستاذ امين الخولي .

وفي الازهر تحلقت حول جمال الدين الافغاني الندوة .. والى الازهر اشرأب الملوك والسلاطين والاباطرة يجسون نبض شعوبهم على وقع كلمات الاصلاح تنادي بها السلطة الحقيقية وهي السلطة الروحية ممثلة في علماء الازهر ورجال الفكر والعلم حتى لقد طلب الشاه وساطة سلطان تركيا عند جمال الدين الافغاني أن يوقف الحملة عليه فقال العالم في عزة المؤمنين الذين قرنهم الله برسوله في الآية (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) قال الافغاني رادا على رسالة سلطان تركيا : (قد عفوت عن شاه العجم ....)

وكم للازهر ورجالـه من مواقف في حياة العالم الاسلامي ، وكم للازهر ورجاله من منازل في قلوب المسلمين في مختلف ديارهم .

الازهر بما هو ملتقى المسلمين من آسيا وافريقيا واوربا وجميع انحاء العالم ، الازهر هذا ومن ورائه مدينة البعوث الاسلامية ينهض برسالة شاملة اليوم كالامس . رسالة دينية واجتماعية وسياسية .

به اتصلت حياة الاحرار واصحاب الدعوات كالكواكبي حين جاء من سوريا ، بل من الازهر سافر الشيخ محمد عبده الى الشام فالتف حوله السوريون سنة ١٨٨٥ م (يتلقون عنه دروس العلم والحكمة والخير) كما يقول الدكتور أسعد طلس .

كما ترك الشيخ محمد عبده في بيروت أثرا عظيما .

بل ان بعض الدعوات الاجتماعية في بعض بلاد الشرق ، نهض بها ابناؤها ممن تلقوا العلم في الازهر . وليس الى الشك من سبيل أن جزءا كبيرا من تاريخ باكستان المعاصر قد كتب في رحاب الازهر وفي رحابه كتبت فصول من قصة تحرير اندونسيا .

بل كذلك تونس والمغرب وليبيا والجزائر وكثير من بلاد افريقيا وآسيا .

ان الازهر حلم الملايين في القارتين .

وفي الازهر قامت الدعوة الى الاصلاح الديني على يد الشيخ محمد عبده والشيخ المراغي .

كما يمثل الازهر « الساهر » على الثقافة الاسلامية .

إن أضبط مصحف كتابة ، ورسما ، وشكلا من عمل الازهر .

والمصحف المرتل .

والمصحف المجود .

وفي القرن السابع الهجري عندما كثرت في الاسلام الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينها ، تطلع الاسلام والمسلمون الى الأزهر ليحسم الموقف كدأبه في الازمات الكبرى . فاتفق رأي العلماء على الشيخ تقي الدين السبكي ليوفق بين المذاهب الاربعة ويخرج منها ، مذهبا ينقاد الناس له ويرتاحون اليه ، ويقرون عنده .

وقام الازهر بهذا الدور مرة أخرى في عهد الشيخ الشعراني وهو بلدي السبكي وأصيل في الفقه فوق كونه صوفيا من الطراز الاول . وقد حاول الشيخ الشعراني

بدوره التوفيق بين المذاهب الاربعة كمحاولته للتوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال . ويقول الباحثون الغربيون إنه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا .

وحسب الازهر تزكية قيامه بهذا التوفيق الفقهي الذي لا نسمع فيه لهذا العصر صوتا أجهر من صوت الازهر .

وممن تصدروا بالازهر من اعلام الفكر الاسلامي عبد اللطيف البغدادي وابن خلدون .

لقد قام الازهر بدور كبير في الثقافة الاسلامية ومعه جامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص بل سوق الوراقين حيث كانت تدار في دكاكين الكتب ، المناظرات . لقد أحصى المقدسي في المسجد الجامع وقت العشاء مائة وعشرين مجلسا من مجالس العلم .

وبعد غارات المغول والتتار في الشرق وحركات الافرنج في الغرب (اسبانيا) كثرت الرحلة الى الازهر وتجمعت الحركة الفكرية فيه .

وقد حفظ الازهر ، في هذه الفترات ، تراث العرب الديني والادبي والفني ونشره بينهم في مختلف ديارهم .

ولما كان الاحتلال العثماني في القرن العاشر الهجري ، بقي الازهر يحمل المشعل ، فحفظ للامة تراثها من القرآن والسنة واللغة والعلوم .

وفي نهاية القرن الثامن عشر الميلادي نهض الازهر ، بأعظم كفاح لطرد الغزاة الفرنسيين ، وها هو ذا اليوم يحمل تبعاته في نهضة الامة الاسلامية كجامعة كبرى لعلوم الدين والدنيا ، من كليات أصول الدين والشريعة واللغة . الى كليات الحقوق والطب والهندسة والعلوم والزراعة وغيرها .

الأزهر والرجال

يقول علي باشا مبارك (كانوا » الطلبة والمشايخ « عند الامراء والاعيان في منزلة كبيرة من التعظيم والاجلال ونفوذ الكلمة لما كانوا عليه من التمسك القوي بالشرع الشريف وما زالوا دائما في كل وقت في احترام وتوقير فلا يجرفون الجسور ولا يحفرون الترع ولا يؤخذ منهم عساكر النظام .)

ويقول (إن الازهر حرم أمن حتى أنه يحتمي به من ليس قصده طلب العلم .)

ويسجل في موضع آخر أن الشيخ ابراهيم البيجوري تولى مشيخة الازهر سنة ١٢٧٧ هـ ثم (حصل التشديد في طلب الشبان للعسكر فاضطر بعض مشايخ القرى لدخول الازهر للقبض على أشخاص محتمين بالأزهر بسيمة طلب العلم . وكلموا الشيخ في ذلك وهو على كرسي درسه فنهرهم وصرخ في وجوههم وأمر بضربهم فقام عليهم المجاورون بالنعال والأكف والعصي حتى اسكتوهم ثم رفعوا) ج ٤ ص ٤٠ .

بل إن الشيخ البيجوري كان (عباس باشا في جلوسه على تخت مصر يزوره في درسه بالأزهر فلا يقوم له بل يوضع له كرسي من جريد يجلس عليه خارج الدرس هنيهة ثم يخرج) ج ٤ ص ٤٠ .

من اعتداده بكرامة العلم وحرمة الازهر ، اعتد بنفسه واحترم رسالته الدينية والعلمية . ولو تصاغر لصغر في عين عباس . وويل للأمة التي تسقط فيها هيبة العلم والعلماء فيسود الجهل والجهلاء .

وفي سيرة علم آخر من أعلام الأزهر هو الشيخ العطار يقول انه (كان يجتمع على المرحوم محمد علي باشا فيبجله ويعظمه ويعرف فضله .)

كان الشيخ العطار كريما على نفسه فغدا كريما على الحياة والناس .

تولى الشيخ العطار مشيخة الازهر (وله تآليف عديدة منها حاشيته على جمع الجوامع نحو مجلدين ، وحاشية على الازهرية في النحو ، وحاشية على السمرقندية ، ورسالة في كيفية العمل بالاسطرلاب ... ورسائل في الطب والتشريح وغير ذلك . وكان يرسم بيده المزاول النهارية والليلية .)

هذه نماذج عالية من رجال الازهر الذين حفظوا حرمته وحفظوا كرامتهم وكرامته فتمثلت فيهم سلطة الامة بما مثلوا السلطة الروحية فكانوا سدا منيعا بين الشعب وبين الجور والبغي .

لقد تحيف اتباع محمد بك الألفي . أهل بلبيس في عهد الشيخ عبد الله بن حجازي الشرقاوي شيخ الجامع الازهر ، فثار الامام الاكبر (وحضر الى الازهر وجمع المشايخ وقفلوا ابواب الجامع وذلك بعد أن خاطب مراد بك وابراهيم بك فلم يبديا شيئا . وأمر المشايخ الناس بغلق الاسواق والحوانيت ثم ركبوا ... وتبعهم كثير من العامة وازدحموا امام الباب والبركة ـ حيث يسكن ابراهيم بك ـ فأرسل اليهم أيوب بك الدفتردار فوقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم فقالوا :

ـ نريد العدل وابطال الحوادث والمكوسات التي



ايتدعتموها .

فقال لا تمكن الاجابة الى هذا كله فإنا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش فقالوا له :

ـ ليس هذا بعذر عند الله وما الباعث على الاكثار من النفقات والمماليك والامير ، يكون أميرا بالاعطاء لا بالأخذ .

واستجاب مراد بك وأرسل الى العلماء وشيخهم الشرقاوي (والتمس منهم السعي في الصلح .) فانعقد الصلح على رفع المظالم .

وهكذا كان دور الازهر في عهد الظلم والظلام .

لقد كان الازهر وراء النهضة الحديثة لانه من خلال طلابه كان قوام البعثات الدراسية التي ارسلها محمد علي الى اوربا بعامة والى فرنسا بخاصة . ولعل ألمع هؤلاء الشيخ رفاعة الطهطاوي وهو وحده علامة طريق .

وتعزو دائرة المعارف الاسلامية ازدهار الازهر وأثره البعيد الى ان (غزوات المغول في المشرق قضت على معاهد العلم فيه وان الاسلام أصابه في الغرب من التفكك والانحلال ما أدى الى دمار مدارسه الزاهرة ... وكذلك انقراض الحضارة العربية في الاندلس . وتضيف الى ذلك عوامل أخرى هي وقوع الازهر في مكان يتوسط العالم الاسلامي ، وقربه من الحجاز وأهمية مصر الاقتصادية وصبغتها العربية وامتداد القارة الافريقية فيما يلي مصر وأهم من هذا كله ما لوادي النيل من ثقافة عقلية قديمة العهد تركت فيه بذورا صالحة لنمو العلوم والآداب .)

ويقول ابن اياس في جزئيه الثاني والثالث ان الازهر في القرون الوسطى كان ملجأ اللاجئين .

وكان للمتصوفة دار وأشهر روادها منهم « ابن الفارض » صاحب التائية الكبرى .

الرسالة الكبرى

وقد لخص الاستاذ الزيات سنة ١٩٤٤ رسالة الازهر بكتابه (وحي الرسالة) في :

١ ـ تنقية الاسلام من العقائد الواغلة والمذاهب الباطلة ، والعادات الدخيلة . وسبيل ذلك أن يفسر القرآن على هدى الرواية الصحيحة ، وفي ضوء العلم الحديث ، تفسيرا يجمع بين ما صح من أقوال السلف ، وما صلح من آراء الخلفاء ، ثم يؤلف في الحديث كتاب جامع لما لا ريب فيه من الكتب الصحاح ، ويستعان على شرحه وتبويبه بعلوم التاريخ والاجتماع والاخلاق والفلسفة ، ثم يصنف في الفقه كتاب شامل على المذاهب الصحيحة يوضع متنه مواد كالقانون ، ثم يشرح شرحا فنيا يستوعب أصوله ، ويستقصي فروعه ، في غير حشو ولا استطراد ولا تعمية . ثم تكون هذه الكتب الثلاثة المطولة مادة الدراسة ومرجع القضاء ومصدر الفتوى ، فتقرر في الازهر ، وتنشر في الجمهور ، وتترجم الى اكثر لغات الشرق وأشهر لغات الغرب . ثم ترسل الى كل بلد يعرف الاسلام أو يريد أن يعرفه .

٢ ـ اعداد الوعاظ والدعاة من أهل اللسن والخلق والورع ، وامدادهم بالثقافة الحديثة واللغات الحية ، وايفادهم الى الامم الاسلامية البعيدة عن مهبط الوحي وموطن العروبة . ويدخل في ذلك العناية اليقظة بالبعثات الاسلامية في الازهر ، فانهم أقدر من غيرهم على إرشاد قومهم باللغة والقدوة والنفوذ .

٣ ـ جعل اللغة العربية لغة المسلمين كافة ، فيكون لكل مسلم في الارض لغتان : لغة لوطنه الأصغر ، ولغة لوطنه الأكبر . والوسيلة أن تحمل المشيخة أقطاب الرأي في البلاد الاسلامية ، بالمفاوضة أو بالائتمار ، على أن يجعلوا تعلم اللغة العربية ، والتكلم بها اجباريا في مراحل التعليم المختلفة ، وأن تتكفل بارسال المعلمين من المتخصصين في الازهر . فإن في شيوع العربية بين المسلمين تمكينا لفهم الدين ، وتثبيتا لمعنى الأخوة . (ج ٢ ص ٣٩ ـ ٤٠) .

وتعد رؤية الاستاذ الزيات امتدادا وتأكيدا لقانون الشيخ المراغي أو مذكرته الاصلاحية سنة ١٩٢٨ بل إن هذه المذكرة نصت فضلا عن هذا على أن (تدرس الأديان ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود في الدين الاسلامي ليظهر للناس يسره وقدسه وامتيازه عن غيره في مواطن الاختلاف . ويجب أن يدرس تاريخ الاديان وفرقها وأسباب التفرق وتاريخ الفرق الاسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها .

كما دعت المذكرة المراغية الى دراسة الأدب المقارن لاثراء اللغة العربية وهي جزء من الدين . تقول المذكرة في هذا الصدد :

(يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف وأن يضاف الى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث في بحث اللغات وآدابها .)

كما دعت مذكرة الشيخ الاستاذ الامام الى تهذيب

العقائد والعبادات واضطلاع الازهر بتنقيتها مما جد فيها وابتدع وتهذيبهـا بحيث تتفـق وقواعـد الاسـلام الصحيحة .

مسيرة اصلاح الأزهر

وأستاذ الجيل احمد لطفي السيد يرى (في كتابه المنتخبات) أن مسيرة الاصلاح في الأزهر اجتازت ثلاث مراحل أو (نقلات) كما يسميها : الاولى في عصر جمال الدين وان لم تؤت أكلها في عهده . والثانية : في عهد الامام محمد عبده ولاقي من أجلها عنتا ومصاعب . والثالثة : في عهد الشيخ المراغي الذي وضع قانون الازهر سنة ١٩٢٨ فلما لم يصدر قدم استقالته .

وأهم ما جاء بهذا القانون الذي لم يصدر في حينه : تقسيم القسم العالي بالازهر الى كليات ثلاثة :

- كلية اصول الدين
- كلية الشريعة
- كلية اللغة العربية

وإنشاء قسم للدراسات العليا كما أدخل فيها بعض اللغات الاجنبية بغية نشر الثقافة الاسلامية في بلاد لا تعرف العربية ، في وعي بعيد النظر والمدى برسالة الاسلام الذي يعرف أنه هدف لبعض رجال الأديان الاخرى ولأصحاب النظريات مما يستوجب ألوانا من المعرفة وفي عمق بعيد أو كما يقول ، مفصلا ، يتطلب معرفة اللغة وفقهها ، ومعرفة التاريخ العام (لا الاسلامي فقط) وتاريخ الاديان والمذاهب ، وتاريخ التشريع وأطواره ، والعلم بقواعد الاجتماع .

وقد تحققت هذه الأمنية ، وبعد أن كان الازهر يسمى علوم الجغرافيا والتاريخ والحساب (العلوم الحديثة) مع أن للمسلمين في العصور الوسطى . في هذه العلوم ، اضافات جوهرية يفرد لها ويطول الحديث ، وبعد ان كان الاستاذ الامام محمد عبده كما يحكى عنه الاستاذ احمد لطفي السيد ، يحتال لارضاء الازهر بأن يسمى علم الطبيعة (علم خواص الأشياء التي أودعها الله في الأجسام .)

بعد هذا التجمد ، شكل قانون الامام المراغي بعد تنفيذه ، انطلاقة كبيرة فأصبحت الكليات التي دعا اليها واقعا مشهودا .

ومن اضافات الشيخ المراغي في مجال اصلاح الازهر ، وضعه مشروع المدينة الازهرية التي تجمع كلياته ، ومكتبته العامة ، ومساكن الطلبة .

كما أنشأ الشيخ المراغي لجنة الفتوى بالازهر ، مثابة للمسلمين من جميع انحاء العالم الاسلامي لاقرار الصحيح وايضاح ما خفي أو دق .

واستن الشيخ المراغي أو قل أحيا سنة دارسة وهي حميدة وذات دلالة .. وأعني بهذا ان يكون رجل الدين اماما للملوك والحكام فأخذ يلقي على الملك فاروق ورجال دولته وعلى الشعب دروسا في الدين وتفسيرا مضيئا للقرآن الكريم على امتداد عشر سنوات .

واستقبل العالم الاسلامي صنيعه هذا استقبالا طيبا مقدرا .

ومن لفتاته الانسانية والاصلاحية ، الغاؤه الجراية التي جاء عوضا عنها بالنقود ، صونا للعلماء والطلاب ، وكرامة .

❋❋❋

ويتبع الازهر عدد من المعاهد الدينية ... هذه المعاهد تستمد منه وتؤدي عنه .

وللازهر بعثات في كل من سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية والعراق والكويت والسودان والفلبين . وله مركز ثقافي في لندن .

هذا هو الازهر في حياة الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية ، والشعوب الاسلامية بعامة والشعب المصري بخاصة .

لمحة من حياة ، وبارقة من وفاء ، وعارفة من فضل ، ونافلة من تمجيد ■■

د . نعمات احمد فؤاد

انك سعيد

زوجي تحلم دائما اثناء نومها انني اصبحت مليونيرا ...

- انك سعيد . فزوجتي ترى ذلك . ولكن اثناء اليقظة ..!

ملتزم ومبتعد ، ايجابي وسلبي ، متفائل ومتهكم ، وما أكثر ما يبدو موزعا بين صفاء المثل الأعلى وطين الواقع الأرضي ، بين رؤيا الغد المتغير ورؤيا اليوم غير المتغير !

برتولت بريشت .. وصراع مع النفس !

بقلم عبد الحليم البشلاوى

كان يجمع بين الوضوح والغموض ، وبين البساطة والتعقيد ، وهو فنان ملتزم ، ومع ذلك فهو فنان منقسم على نفسه أشد الانقسام .

يقول « رويرت بروستاين » : ان بريشت بعضه ناسك وبعضه شهوانى ، بعضه أخلاقى وبعضه شيطانى ، بعضه مثال متعصب ، وبعضه متساهل ساخر ، فهو بذلك خليط مركب من بسائط كثيرة متباينة .

ويقول مارتين اسلين » : ان بريشت شديد التعقيد والتناقض ، خاضع وأرعن ، ذكى وأحمق ، مرح وفاجر ، بعيد وقريب ، وعبقرى .

وخشية أن يتبادر الى ذهن القارىء أن بريشت شخص مجهول ، نسارع فنقول انه بحق عبقرى من عباقرة المسرح المجددين ما فى ذلك شك . عبقرى يزداد فهم الناس له بمضى الزمن ، فيزداد فنه رسوخا وانتشارا . عبقرى أنتج من المسرحيات ما لانظير له فى تاريخ المسرح . فليس بريشت مجرد كاتب مسرحى ، وانما هو شاعر درامى غنائى ، هجاء ، شرس فى هجوه ، وثائر ، عنيف فى ثورته .

كان أبوه كاثوليكيا وكانت أمه بروتستانتية ، فكان ذلك أول انفصام فى حياته . كان نيها أكولا ، وكان شهوانيا عربيدا ، وقلما نجد من هو أشد منه افتتانا بالجوانب البهيمية والشيطانية فى الطبيعة الانسانية . ومع ذلك فقد سئل ذات مرة عن الكتاب الذى كان له أكبر أثر فى نفسه فقال لسائله : « لا تضحك ! انه التوراة » .

وهذا الذى يقول ان التوراة كان لها أكبر أثر فى نفسه ، هو هو الذى شن على الأديان حملة شديدة فى مسرحياته . ولم يكن اهتمامه بالأخلاق والفضائل عن نزعة دينية بل عن نزعة شيوعية .

صراعه مع نفسه

يقول رويرت بروستاين[1] :

« ان استحواذ الجانب القاتم فى الانسان على بريشت ، ناجم عن صراعه مع نفسه ، وكذلك الأمر فى علاقته بالأيديولوجية . ففى حين أن « فـابية » شو

---

(١) فى كتابه « المسرح الثورى » ترجمة عبد الحليم البشلاوى .
الناشر : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر : القاهرة .

امتداد لشخصيته المرحة المنطقية المتعقلة . اذا بشيوعية بريشت نظام يفرضه على نفسه بارادة جبارة شخص هو في جوهره معتل ، وشهواني ، وفوضوي ، فقد استهل بريشت حياته كثائر وجودي ، غارق الى حد غير عادي في الجريمة وفي اشباع الغرائز اشباعا أعمى ، وفي الانحلال ، ولم يصبح ثوريا اجتماعيا الا بعد أن سلك كل السبل العمياء في عدميته الأولى . ان الأيديولوجية الشيوعية تعينه على أن يجعل مشاعره موضوعية وفنه عقليا وتشجعه على أن يعزو ما يجده في الحياة من قسوة وجشع وشهوة الى سبب خارجي ، ولكنها أيديولوجية لا تطابق قلقه الميتافيزيقي أبدا مطابقة تامة . وقد يحاول بريشت أن يقنعنا بأن غرائز الانسان العدوانية نتاج للنظام الرأسمالي ، ولكنه هو نفسه لايبدو أبدا مقتنعا بذلك ، وخصوصا عندما يصعب عليه التحكم في غرائزه العدوانية . وحتى في أشد حالاته الموضوعية العلمية ، يظل محتفظا بنغمة ذاتية . وحتى في أشد حالاته الاجتماعية والسياسية يظل في جوهره شاعرا أخلاقيا ودينيا » .

ان بريشت ثائر اجتماعي . وثورته الاجتماعية ثورة موضوعية ، ايجابية ، علاجية ، واقعية ، وهو كذلك ثائر وجودي . وثورته الوجودية ثورة ذاتية ، سلبية ، رومانسية . والصراع بين هاتين الثورتين شائع في مسرحياته الجدلية المنطقية ، وهو صراع لايحسم تماما الا في ختام حياته .

الطبيعة عند بريشت

ان الطبيعة في نظر بريشت غابة ، والانسان هو أقسى الوحوش فيها . ولقد كان بريشت مشهورا بأنه زير نساء لا يرتدع ، يكاد على الدوام يقرن الانغماس في الشهوات بنوع أو آخر من العقاب المروع . ان ارضاء الجسد يؤدي في رأيه الى كارثة ، وقد يفسر لنا هذا لماذا يلجأ « بلادي فايف » Bloody Five في مسرحية الانسان انسان » و « لوفر » Loafer في مسرحية المدرس » الى وسائل يائسة مثل الخصي لكي يسيطرا على نفسيهما . وليس الجنس وحده هو مصدر قلق بريشت ، بل كذلك أية عاطفة لا يمكن السيطرة عليها : الغضب ، انتهاك الحرمات ، الذعر ، الثأر ، العنف ، كلها عناصر نابضة في مؤلفاته ، وكلها تقابل بالاستنكار او الرفض .

ولعل بريشت كان يحاول السيطرة على هذه الانفعالات في داخل نفسه ، لأن مؤلفاته تكشف عن رغبته في الخضوع المطلق ، رغبته في حالة من الكينونة يستطيع فيها أن يقهر مشاعره الجامحة ، حتى يندمج في العالم الخارجي بدلا من أن يشتبك معه . ولقد كان من شأن محاولاته الدائبة للسيطرة على غرائزه المتمردة عن طريق الخضوع لنظام خارج عن نفسه ، أن أدت به هذه المحاولات الى الاستسلام للشيوعية ، وأدت ـ فيما بعد الى تطلعه الى مذهب عدم الاحساس الذي يصبح الانسان بمقتضاه مطية في الكون : مذعنة ، طيعة ، بدون ارادة . ومهما يكن من أمر الشكل الذي تتخذه رغبة بريشت في التجرد من ذاته وفي التحكم في نفسه ، فهي رغبة تعبر عن حاجته الى الهروب من جاذبية الجسد ، عن حاجته الى اخضاع الغرائز التي تجبره على الاسهام في الحياة اسهاما لا ارادة له فيه .

فوضى الكون !

ان مسرحية « في غابة المدن » تدور حول مايراه بريشت في الطبيعة من جنون وما يحس به في الكون من فوضى . وهنا يقول « مارتين اسلين » ان « الشيوعية أذابت كابوس السخف الذي كان يجثم على صدر بريشت ، وأزالت شعور الاضطهاد الذي كان يجعله يرى أن هناك قوى كبيرة مجهولة « تتحكم في الحياة » . ومن هنا نستطيع أن نعزو انجذاب بريشت نحو الشيوعية الى كونها نظام تجنيد ، أي نوعا من السيطرة الفعلية على فرديته المخيفة وذاتيته المرعبة . ومعنى ذلك أن رغبة بريشت في السلبية ، انما هي رغبة نابعة من خشيته من الايجابية . كما أن رغبته العارمة في النظام هي في الواقع امتداد لرغبته في الانسياق مع المد أو التيار ، لأن الشيوعية عنده تمثل مدا له اتجاه ذو معنى . لقد كان بريشت يعاني من شخصيته . كان يريد أن يهرب منها ، وأن يكون ذرة واحدة بين ذرات كثيرة .

لقد كان بريشت في أول عهده يربط بين الشر والقدر ، ويسلم بأن ذلك أمر ثابت . ولكنه باعتناق الشيوعية راح يربط بين الشر والمجتمع البورجوازي ويسلم بأن ذلك أمر قابل للتغيير . فهو يقول على سبيل المثال : « كان الأولون يقولون ان الانسان عاجز أمام تصرفات القدر . وفي رأي برتولت بريشت أن قدر الانسان هو في يدي الانسان نفسه » . فبعد أن كان بريشت يرى أن هناك غريزة عمياء تتحكم في كل شيء ، اذا بايمانه بالعقل والارادة يزداد . في هذه المرحلة الثانية من حياة بريشت نجد أن شخصياته ضحية مجتمع

قاس . فبعد اعتناقه المذهب الماركسي تصبح الجوانب الاجتماعية والاقتصادية هي محور انتاجه الفني . لقد انقلب الثائر على الطبيعة ثائرا على النظام الاجتماعي ، فاذا بريشت يقدم لنا في مسرحياته معرضا لا نهاية له من اللصوص والأفاقين والمحتالين والعاهرات ورجال العصابات وأصحاب الأملاك والنازيين ، وكلهم يخفون وراء ابتساماتهم الجذابة اسنانا حادة مسنونة . وسواء أكان هؤلاء وحوشا بهيمية أم انتهازيين غشاشين ، فهم جميعا تستبد بهم الشهوة الحيوانية ولا يخضع عالمهم الا لأخلاق الغابة .

بين العقل والغريزة

يقول « ستاينر » : « من الواضح أن حياةشخصيات بريشت الأولى كانت تخضع لنوازع فوضوية ، بينما تبدو شخصياته التالية متراوحة بين الفوضى العاطفية والسيطرة العقلية ، فهي أنا خاضعة لجذب غرائز طبائعها ، وأنا مسيطرة على هذا الجذب بينما يعلق « اسلين » على وجود هذا الصراع الواضح عند بريشت بين العقل والغريزة فيقول انه يتمثل في الشخصيات المنفصمة في مسرحياته . ذلك أن شخصيات بريشت الأخيرة كلها منفصمة الى حد ما ، فهي تتأرجح بين العقل والغريزة في دوار وحيرة مثلما يتأرجح الابطال الكلاسيكيون بين الحب والواجب . وهذا الصراع يدل على بعض التناقضات الكامنة في ثورة بريشت المزدوجة ، فهو كماركسي مقتنع بأن المجتمع قائم على المنفعة الذاتية العقلية ويؤمن بأن استخدام العقل بطريقة أقل أنانية سيجعل الانسان أفضل مما هو ، والعالم خيرا مما هو . وهو كثائر وجودي أكثر تشككا في سلطة العقل البشري ، وما بقي في نفسه من آثار الفوضوية يضطره الى مواجهة توحش الغرائز ولا معقولية الحياة .

ان بريشت يرى أن غرائز الانسان طيبة ، رحيمة ، عطوف ، مجاملة . ولكن الانسان الذي يعيش في مجتمع قائم على التنافس ، مضطر الى كبت هذه المشاعر الطبيعية والى استخدام منطق الانانية لكي يعيش . هذا هو الصراع الرئيسي عند بريشت الذي يقول في احدى قصائده : « عندما تكون الاقدام حافية والبطون خاوية ، ينقلب حب الفضيلة دائما الى جشع » . وهو يقول على لسان احدى شخصياته : « نحن نود أن نكون طيبين لا غلاظا غير مهذبين ، ولكن الظروف لا تسمح لنا بذلك » .

فنان منقسم

والسخرية من أفكار نفسه ومن أفكار غيره عنصر هام في فن بريشت . وفي ذلك يقول بروستاين : « وقد تفسر لنا لهجة بريشت الاستهزائية سبب عدم تقبل البلاد الشيوعية له تقبلا تاما ، وكذلك الدول الغربية فيما يتعلق بهذه النقطة . فهو قلما يستطيع أن يصوغ تلك الاثباتات الحارة التي يعشقها رجال الفكر والثقافة في الكتلتين . فهو يسخر من حساسية الغرب وانسانيته ومثاليته ، مثلما يحجم الى حد غريب عن الاشادة بالجانب البراق في الشيوعية . أما كيف استطاع بريشت أن يحتفظ بتشككه وابتعاده وسخريته بينما يعلن ولاءه التام للقضية الشيوعية ، فذلك واحد من أبرع الانجازات في الأدب الدرامي . ولكنه انجاز رجل منقسم نصفين ، فهو ملتزم ومبتعد ، ايجابي وسلبي ، متفائل ومتهكم ... ومن ثم فما أكثر ما يبدو موزعا بين صفاء المثل الأعلى وطين الواقع الأرضي بين رؤيا الغد المتغير ورؤيا اليوم غير المتغير » .

ولعل خير ما تصور به كل هذا الذي أوردناه عن بريشت أن نلخص مسرحيته « الأم شجاعة وأولادها » التي تعتبر بدون جدال من أروع ما ظهر في المسرح الحديث ، والتي يعتبرها بروستاين « ذروة أعمال بريشت الفنية » .

الأم شجاعة

تسير أحداث المسرحية في خطين : أما الخط الأول وهو خط ظاهري فهو حرب الثلاثين عاما التي دارت رحاها في القرن السابع عشر بين السويد والمانيا والتي يعتبرها بريشت حربا بين السويديين البروتستانتيين والالمان الكاثوليك ، وما تخلل تلك الحرب من كر ، وفر ، وحصار ، وهجوم ، وتراجع ، وانتصارات ، وهزائم ، تلك الاحداث التي هي عماد التاريخ . وأما الخط الثاني ، وهو الخط الحقيقي ، فيدور حول الحروب كافة ، كما يراها شخص يمقت البطولة العسكرية . ان الصراع الحقيقي في المسرحية يدور حول المال والطعام والكساء .. ففي عنفوان هذه الحرب نجد « الأم شجاعة » التي تمتلك عربة « كانتين » جائلة تتنقل بها بين القوات المتحاربة لتكسب قوت يومها من التعامل مع الجنود تبيع لهم وتشتري منهم ، لا يهمها ان كان ذلك مع الكاثوليك أو البروتستانت . وفي الوقت الذي تجري فيه وراء المكاسب التجارية وعقد الصفقات مع الجنود ، يذهب أولادها ضحايا على مذبح الحرب واحدا بعد آخر .

يذهب أولادها ضحايا على مذبح الحرب واحدا بعد آخر . وفي نهاية المطاف تبقى وحيدة مع عربتها ، عجوزا عاجزة بائسة . لكنها تمضي في جر عربتها كسبا للقوت .

مر عامان !

ان بريشت يسخر من الحياة العسكرية وأخلاقياتها ، فهو لا يركز على المعارك الحربية ولكن على النشاط اليومي العادي الذي يقوم به الهاربون من الجيش ، ومن يتمتهم الحرب ، وغير هؤلاء من الشخصيات الثانوية . وهذا التركيز يضفي على البطولة العسكرية تناقضا غير بطولي . ذلك أن بريشت يروي أحداث الخط الأول الظاهري أو الخارجي في عناوين يقرؤها المتفرج كما يقرأ الصحف اليومية . ونذكر على سبيل المثال أن العناوين التي تسبق المشهد الخامس تقول : « مر عامان . الحرب تمتد الى اراض أوسع فأوسع . العربة الصغيرة الدائبة الحركة تعبر بولندا ، ومورافيا ، وبافاريا ، وايطاليا ، ثم تعود الى بافاريا . عام ١٦٣١ . انتصار ايطاليا في « مجدبيرج » يكلف الأم شجاعة خمسة قمصان » .

هذا هو بيت القصيد عند بريشت . ان الحرب التي يتسع نطاقها وتمتد من بلد الى بلد لا تعني شيئا عند بريشت الا كونها تكبد الأم شجاعة خسارة خمسة قمصان . وحتى اسم هذه المرأة « الأم شجاعة » انما هو اسم ينطوي على سخرية لاذعة . فهي تبدي شجاعة فائقة في اختراق صفوف المتحاربين أثناء قصف المدينة بالقنابل . ولكن القصد من هذه البسالة لم يكن الا انقاذ بعض الأرغفة من التلف .

وهنا نعود الى الاستشهاد بتحليل بروستاين البارع لشخصية « الأم شجاعة » اذ يقول :

« ليست الأم شجاعة مجرد شخصية تعاني معاناة سلبية تلعب بمشاعر الجمهور ، ولكنها أيضا مصدر للمعاناة الايجابية . قد تكون هي ضحية حرب ، ولكنها أيضا أداة حرب وتجسيد للشرور . وموجز القول أن ثورة بريشت تظل ثنائية . فان الأم شجاعة تنوب عن ثورة المؤلف . كما أنها هي الشيء الذي تقوم الثورة ضده في آن واحد . فان تصميمها على التزام طريق السلامة يجعلها عدوا للنفاق . ولكنه يجعلها أيضا باردة مقبوضة اليد . ومع أن تمسكها بالحياة بسلامة نية أمر يدعو الى العطف فيما يتعلق بأولادها الثلاثة الا أنه يغدو مجرد توسع بالنسبة لولدها الرابع : العربة . فهذه الأداة المسرحية التي تكاد تكون بشرية ، هي تذكار مرئي دائم يذكرنا بأن الحرب عند الأم شجاعة « ليست الا حرفة أخرى » . وكما يفعل المضاربون في سوق الأوراق المالية تجني هي الأرباح من تقلب سير الحرب فتبيع وتشتري في حياة الناس . فليست الأم شجاعة اذن شخصية باكية حزينة ، ولكنها هي التي تسعى الى هلاك نفسها . انها واحدة من رأسمالي الطبقة الوسطى الذين كان بريشت يخلقهم على الدوام . وهي كما يصفها راعي الكنيسة « ضبع الميدان » ، ومن يعش في الحرب فلا بد أن يموت بها » .

ان ما تتضمنه مسرحية « الأم شجاعة » من انفعالات وأحداث رائعة تهز وجدان البشر ، أمر يقتضي تحليله صفحات . كما أن التكنيك الرائع العجيب الذي انفرد به بريشت وهو وسيلة « المؤثرات التغريبية »[1] أمر يتطلب هو الآخر فسحة في المكان .

لغة للشرق والغرب

كذلك يضيق النطاق عن التعرض لايديولوجية بريشت ، فذلك يتطلب بحثا خاصا ، ولكننا نشير الى ما قاله « جون ويلت » في كتابه العظيم عن « مسرح برتولت بريشت » من أن بريشت الذي كان يجمع بين الماركسية والخبرة الغربية المعاصرة ، استطاع أن يهتدي الى لغة تحمل شيئا الى الغرب والشرق على السواء . كما أنه أثبت لديمقراطية الغرب ـ من ناحية أخرى ـ أن الاساس الاشتراكي الذي يبني عليه الفنان الملتزم انتاجه الفني ، ليس بالأمر المستهجن ، وأن الفنان الملتزم يستطيع أن ينتج أعمالا فنية رائعة تظفر باعجاب النقاد والجماهير معا .

يقول بريشت في احدى مسرحياته :

من أنتم ؟
« فلتنغمسوا في الأقذار ،
« ولتعانقوا الجزار ،
« ولكن ،
« فلتغيروا دنيانا ،
« فهذا هو الأمر الملح .

القاهرة : عبد الحليم البشلاوي

١) ترجمة لمصطلح ألماني مقصود به نظرية مشهورة عند بريشت مؤداها أن يبدو كل شيء بمظهر غير عادي وفي ضوء جديد ، بحيث يثير في المشاهد نزعته الى الانتقاد حتى اذا كان الامر يتعلق بمسائل كانت تؤخذ من قبل قضايا مسلما بها .

التاريخ الإسلامى بين الفقيه المؤرخ والمؤرخ الفقيه

بقلم : فهمى هويــــدى

نفهم ان يعجز المثقفون عن تصحيح شيء في الحاضر ، لسبب او آخر ، لكن الذي لا نفهمه ، بل وتندهش له ، هو لماذا يسكت المثقفون عن تصحيح الماضي ؟!

ذلك انه من غرائب حياتنا الثقافية والفكرية ـ وما اكثرها ـ اننا لانزال حتى الان غير قادرين على كتابة التاريخ الاسلامي على حقيقته ، واننا نقرأ الكثير من صفحات هذا التاريخ وهي منقوصة او مشوهة . ولأضرب مثلا محددا ..

فقصة التحكيم بين الامام علي بن ابي طالب ، ومعاوية بن ابي سفيان نقرؤها في كتب التاريخ على النحو التالي : انه بعد الاتفاق على التحكيم ، انتدب كل فريق من يمثله ، فاجتمع عمرو بن العاص ممثلا لمعاوية ، وابو موسى الاشعري ممثلا لمعسكر الامام علي ، وبعد ان تداول الاثنان في الامر اتفقا على خلع علي ومعاوية كليهما .. وعندما قررا اعلان اتفاقهما ارا د ابو موسى ان يقدم عمرو بن العاص ليكلم الناس اولا ، ولكن عمرا قال له : ان الله قد قدمك قبلي في الايمان والهجرة ، وانت وافد اهل اليمن الى رسول الله ، ووافد الرسول اليهم .. ثم انت فقل .

فقام ابو موسى فقال (بعد ان حمد الله واثنى عليه) اني رأيت وعمرا ان نخلع عليا ومعاوية ، ونجعلها (الخلافة) لعبد الله بن عمر (بن الخطاب) ، فانه لم يبسط في هذه الحرب يدا ولا لسانا . وعندئذ قام عمرو بن العاص فقال : يأيها الناس ، هذا ابو موسى شيخ المسلمين وحكيم اهل العراق ، ومن لا يبيع الدين بالدنيا ، وقد خلع عليا ، وانا اثبت معاوية . وهنا قال ابو موسى : مالك ؟ عليك لعنة الله ! ان انت الا كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث : فقال له عمرو : ولكنك كمثل الحمار يحمل اسفارا . فاختلط الناس ، وتشاتم عمرو وابو موسى » !!

هذه رواية ينقلها الدكتور محمد سليم العوا * عن كتاب ابن قتيبة « الامامة والسياسة »

* د . محمد سليم العوا ـ في النظام السياسي للدولة الاسلامية ص٩٦

وهي ذاتها موجودة في كل كتب التاريخ الاسلامي الاساسية ، وان اختلفت فيها التفاصيل غير الجوهرية .

ولكننا لو تأملنا جيدا تلك القصة التي استقرت في اذهاننا جميعا ، فسوف نجد فيها خلطا بين المعقول واللامعقول ، وثغرات لا يقبلها العقل ولا المنطق السليم ..

وقد حاول الدكتور العوا ان يفند القصة ، وركز فيها على ثغرات ثلاث :

● ثغرة تتعلق بموضوع النزاع من الاساس ، ذلك ان القصة الشائعة تعطى انطباعا بان الخلاف بين علي ومعاوية كان موضوعه الخلافة ذاتها ، ومن منهما احق بها . وهو انطباع خاطيء لأن الخلاف كانت له صورة اخرى ، اذ ان معاوية رفض اعلان البيعة لعلي بحجة انه « قصر » في توقيع القصاص على قتلة عثمان بن عفان . اي ان القضية لم تكن تتعلق بالخلافة ، ولكنها كانت تدور حول مدى وجوب البيعة لعلي قبل توقيع ذلك القصاص . فاذا ترك الحكمان هذه المسألة الاساسية وهي ما طلب اليهما الحكم فيه ، واتخذا قرارا في شأن الخلافة ، فهل يمكن القول انهما حكما فيما حكما فيه ؟

● ثغرة تتعلق بالمركز القانوني لمعاوية ، ذلك ان معاوية كان واليا على الشام في خلافة عمر بن الخطاب ، واقره عثمان بن عفان على ولايته ، ولكن الامام عليا لم يقر معاوية ، الذي يعد بذلك فاقدا لمركزه القانوني كحاكم للشام . وبتوقف معاوية في الامتناع عن بيعة علي انتظارا للقصاص من قتلة عثمان بن عفان ، وفي عدم انفاذ اوامره في الشام ، اصبح معاوية ومن تبعه في حكم الثوار او الخارجين على الخليفة علي .

وذلك يعني ان قرار الحكمين ، فيما تزعم الرواية ، بعزل علي ومعاوية ، وقد ورد في حق معاوية على غير محله له . فمن المتصور ان يعزل الحكمان عليا من منصب الخلافة ، اذا افترضنا جدلا انهما كان يحكمان فيه ، ولكن عم يعزلان معاوية ؟... وهل عهد التاريخ في اي حقبة منه ان يعزل ثائر عن زعامة الثائرين معه بقرار يصدره قاضيان ؟!

● الثغرة الثالثة في الرواية تتعلق بشخص كل من ابي موسى الاشعري وعمرو بن العاص ، ذلك ان القول بان ابا موسى في التحكيم كان ضحية خديعة عمرو بن العاص ، ينافي الحقائق التاريخية التي تشهد للأشعري بالفطنة والرصانة ورجاحة العقل ، فهذا الرجل المحنك الذي تقلب في الحكم والولاية منذ عهد النبي (ص) ، حيث استعمله علي زبيد وعدن ، وعينه عمر بن الخطاب واليا على البصرة ، كما استعمله عثمان بن عفان على البصرة ثم الكوفة ، هل يمكن ان يكون هذا الرجل بتلك السذاجة التي تجيز عليه مثل الخدعة التي يرويها الناس عن قضية التحكيم ؟

ثم يتساءل الدكتور العوا : اذا علمت ان مدار حياة الناس في ذلك العهد ـ في سلمهم وحربهم ـ كان على فقه القرآن والسنة ، وعلمت مكانة ابي موسى في ذلك : حتى خصه عمر بن الخطاب بكتابه المشهور في القضاء وسياسة الحكم ، فكيف يمكننا تصور غفلته فلا يفقه حقيقة النزاع الذي كلف بالحكم فيه ، ويصدر فيه قرارا لا محل له (قرار عزل معاوية المزعوم) ويقع منه ما ينسب اليه عند اعلان القرار وبعده ؟

واذا كان علم الاشعري ، وخبرته بالقضاء يحولان دون ان يخطيء في القضية التي اوكل اليه امرها ، فان ذلك ايضا شأن ابن العاص ، الذي كان من أذكياء العرب وحكمائهم ، فقد امره الرسول بان يقضي بين خصمين في حضرته ، وبشره عندما سأل : يا رسول الله اقضي وانت حاضر ؟؟؟ بان له اجرين ان اصاب ، واجرا ان اخطأ .

يضيف الدكتور العوا : « ان قبول الرواية الشائعة عن التحكيم يعني ان الاشعري وابن العاص لم يفقها موضوع النزاع ، ولم يحيطا بموضوع الدعوى . ولذلك حكما فيها الحكم الذي ترويه القصة الشائعة ولأن ذلك غير مقبول لانه غير معقول فاننا نقرر باطمئنان ان هذه القصة لا يمكن ان تكون مطابقة لحقيقة الواقعة التاريخية لحادثة التحكيم » .

وفي رأيه الذي استند فيه الى بعض الادلة والشواهد ، ان قرار الحكمين كان يقضي بالرجوع الى الصحابة في مسألة الخلاف حول بيعة معاوية للامام علي ، وليس مسألة الخلافة ذاتها ولكن القرار لم ينفذ بسبب رفض مجموعة من جيش الامام له ، ورفضهم لمبدأ التحكيم ذاته ، ثم خروجهم على الجميع ، مما كان بداية لظهور الفرق الاسلامية من خوارج وشيعة ومعتزلة .

***

ذلك نموذج من واقعة هامة ، كانت فاصلة في التاريخ الاسلامي بين عهد الخلافة الراشدة ، والعصر الاموي ، تثار الشكوك حول صحتها وخطأ اعتقادنا في اكثر ما نتداوله عنها .

والنماذج الاخرى كثيرة ..

ـ فلا تزال الاسباب الحقيقية لحروب الردة التي قادها ابو بكر الصديق تحتاج الى دراسة وتحقيق .. اذ ان الامتناع عن دفع الزكاة لايعد بحد ذاته دافعا كافيا لاعلان هذه الحرب وفكرة ان تكون هناك دوافع اخرى مثل غيرة بعض القبائل من قريش ـ وهو ما يفترضه الدكتور سعيد عاشور استاذ التاريخ الاسلامي ـ هذه الفكرة جديرة بالتأمل والدراسة .

ـ ونحن نقرأ ان التطبيق الاسلامي الحق كان مقصورا على مرحلة الخلافة الراشدة وما بعدها ، كله درجات في الانحراف والسقوط ، وهو امر يثير الدهشة ، لأن رحلة الدولة الاسلامية قطعت اكبر اشواطها في ظل العصر الاموي ، الذي لم يخل من رجال كانوا يخشون الله ولا يبتغون الا وجهه ..

ـ ونحن نقرأ ان التاريخ الاسلامي هو العصران الاموي والعباسي ثم المملوكي والعثماني ، بينما ذلك في حقيقة الامر ليس الا تاريخ المشرق وليس تاريخ الاسلام . ذلك ان رحلة الاسلام في آسيا ، كما رحلة الاسلام في شمال افريقيا وغربها ، لا تزال تعد منه الصفحات الناصعة والمطلوبة في العقل الاسلامي .

ـ ونحن نقرأ ان المغول هم اولئك الهمج المتوحشون ، الذين دمروا بغداد واهلكوا الحرث والنسل ، ونجهل انهم اسلموا ، وان الفرع المسلم فيهم اقام دولة عظيمة في آسيا ، وادى للاسلام خدمات جليلة لا مجال لنكرانها ..

ـ ونحن نقرأ ان المماليك هم اولئك الاطفال والصبية الذين اشتراهم تجار الرقيق من اسواق النخاسة ، ولم يمارسوا سوى حياة الترف والمجون والتآمر عبر اجنحة الحريم ، ونجهل ان عصر المماليك هو عصر الموسوعات الاسلامية الكبرى التي لا نزال ننهل منها الى الآن ، وان هؤلاء المماليك هم الذين حموا الاسلام وصدوا غزوات الصليبيين عبر قرنين من الزمان .

ـ ونحن نقرأ ان الانحطاط هو عنوان الدولة العثمانية وسمتها منذ ولدت وحتى زالت ، ونجهل ان الانحطاط كان سابقا على الدولة العثمانية ، وان العثمانيين ورثوا تركة محملة بخطايا الاخرين ، وان منهم ـ

من سعى جاهدا لأن يؤسس دولة اسلامية متينة البنيان ، ومنهم من وقف وقفات شامخة في الدفاع عن ديار الاسلام .

❊❊❊

ولا اريد ان استرسل في طرح النماذج ، وانما اردت فقط ان ادلل على اننا نواجه محنة حقيقية في قراءة التاريخ الاسلامي ..

فمن الاقدمين من كتب التاريخ متأثرا بهوى السنة او الشيعة ، وطوع وقائعه لصالح الاتجاهات المذهبية والسياسية .

ومنهم من كتب التاريخ بروح الوعظ والارشاد ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مهتما بالتوجيه باكثر من اهتمامه بالتحقيق .

ومن المحدثين من كتب التاريخ من باب اشباع الهواية ، او الحماس للدين .

ومنهم من كتب التاريخ باعتباره قصصا مثيرة ولقطات تجذب الانتباه وتسلي القراء ..

اما المستشرقون ، وهم الاكثر اهتماما بما هو مجهول لدينا من صفحات التاريخ ، فاننا لا نطالبهم بما عجزنا عن ان نطالب به انفسنا من جهد وانصاف وتجرد ..

واذا استثنينا جهودا فردية تطل علينا بين الحين والاخر ، فاننا لا نكاد نجد مؤرخين مسلمين محدثين ، قدموا لنا صياغة علمية للتاريخ الاسلامي ..

ان اهم الكتابات القديمة في التاريخ الاسلامي باشرها فقهاء اجلاء ، مثل الطبري واليعقوبي والمسعودي ، وبعدهم ابن كثير وابن الاثير ..

بينما نجد بين كتاب التاريخ الاسلامي المحدثين هواة ، مثل احمد امين في فجر وضحا وظهر الاسلام ، وطه حسين في الفتنة الكبرى والعقاد في العبقريات ، وتوفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوي فيما كتباه عن سيرة الرسول !

لقد انقضت مرحلة الفقيه المؤرخ ، ولا نزال في انتظار المؤرخ الفقيه ..

اننا نريد ان نقرأ تاريخا يكتبه مؤرخون متخصصون ، ولا دعاة او هواة !

اننا لا نفهم ان يتقاعس الباحثون عن اداء هذه المهنة الجليلة ، لمجرد ان هناك طرفا عربيا هنا او هناك يرفض فكرة اجتماع علماء المسلمين من مختلف الملل والنحل ، لتبادل الرأي فيما هو مختلف عليه ، خصوصا وجهات نظر السنة والشيعة في العديد من صفحات التاريخ الاسلامي .

ان انتظار الاذن والضوء الاخضر من الحكومات لن يقودنا الى اي نتيجة ايجابية ، فضلا عن انه تكرار للدور السلبي والفادح الذي لعبه السلطان في كتابة التاريخ ... ذلك ان من السلاطين من لا يقتنع بمصادرة الحاضر والمستقبل لحسابه ، لكنه يتمنى لو صادر الماضي ايضا !

لماذا لا يبادر الباحثون المسلمون الى اقتحام هذا الميدان ، دون انتظار تشكيل اللجان وصدور القرامانات السلطانية واعلان خطط العمل الثقافي العربي الموحد ؟!

ان الامر ليس بحاجة الى شهداء ، ولكنه فقط يحتاج الى قدر من الجدية والاحساس بالمسؤولية ورغبة في العمل لأجل العلم ولوجه الله وحده !

تلقيت عديدا من التعقيبات على مقالات « المسلمون والاخرون »، اخذت منها هذا التعقيب للاستاذ محمد الحاج ناصر ، الذي اختار ان يناقش مع تلك المقالات كتابات اخرى نشرت في هذا المكان ، ولاهمية المقال ، وحتى يعطي الحوار حقه ، فاننا ننشره كاملا ..

منطق الطير

بقلم : الدكتور عبد العزيز كامل

بدأت القصة مع ببغاء .. نعم ببغاء !

الاطفال يحبون الحيوانات الصغيرة ، والطيور بخاصة . يرسمون صورها . يشاهدونها في حديقة الحيوان . يسمعون قصصها . واذا كان للطفل طائر افاض عليه من حبه وحنانه .

يطعمه ويسقيه . ويحدثه احيانا كأنه يعي مايقول .

بدأ الطير يدخل حياتنا بعدما ماقرأت ابنتي عنها . وحددت جائزتها اذا تفوقت في دراستها ان يكون لها ببغاء .

واعترف انني لست خبيرا في هذا المجال ، ولاتجربة لي فيه . وسألت من يعرف ، ولم يكن عني بعيدا .

وفي يوم ، في طريق العودة من العمل ، قال لي صاحبي وهو يقود السيارة : الببغاء معنا .
ونظرت خلفي حيث اشار فاذا هما زوجان اثنان .
قلت : كان حديثنا عن واحدة .
قال : كانا عند صديق ينوى السفر ، اوصاني الا افرق بينهما . زوجان متحابان . اذا افترقا سادت صحة كل منهما . قد تفارق الحياة حزنا على صاحبها . والامر اليك . لك صديق كلفني بشراء واحدة . استطيع أن أخذها اليه ولكن .. حرام ان تفرق بين زوجين متحابين .

وكان هذا اول المطاف .
اخذنا الزوجين المحابين الى البيت . وفي الطريق قال لي صاحبي .

الا ترى ان القفص ضيق عليهما ؟ كيف يتحركان ويلعبان ؟ هل يعيشان في الضيق ؟
من الافضل ان تشترى لهما قفصا كبيرا .
وانتقل الزوجان من الاسكان الضيق الى الاسكان المتوسط .
وجاء السؤال الثالث :
وماذا يأكلان ؟
قال : طعام مخصوص . بذور عباد الشمس . الفواكه ..

قلت : الا يأكلان البذور المعتادة عندنا . اللب الاسمر . اللب الابيض . بذور اليقطين (القرع) شجرة سيدنا يونس عليه السلام . ولها فوائدها الطبية .
قال : لا ، بذور عباد الشمس .

لامجال للتراجع . وجاء القفص . وجادت بذور عباد الشمس . وشارك الزوجان في الفاكهة .

وسألت صاحبي : ومتى يتكلمان ؟
قال : كل شيء بالتدريب والصبر ، مجوعان قيصر خان . تقول ابنتك الكلمة وترددها وفي يدها الطعام ، حتى تقولها البغاء ، فتعطيها الطعام جائزة وفي المساء تغطيها لتنام مستريحة . لاترفعوا اصواتكم الى جوارها ولا تزعجوها بضوء الصباح الباكر الساطع ...
وعاش الزوجان . في نظراتهما حذر . يبتعدان اذا اقترب منها احد . عندهما استعداد عدواني . يثوران لاى صوت مرتفع مفاجيء . كانا نشيطين في الطعام . بطيئين في التعلم . وصبرت ابنتي على تعليمهما وقت فراغها ، فنطقا اسماء قصيرة . او هكذا خيل الينا وتوقف عند هذا المستوى .



وعدنا الى مراجع طيور المنطقة الحارة نقارن بين البيغاء عندنا وما فيها . وتوخينا الدقة هذه المرة في الدراسة نعم ... انها خضراء اللون . الخضرة على ظهرها يانعة . ولون البطن فاتح الخضرة . لاتختلف في هذا عن الاسماك . لحكمة الهية هي نوع من الحماية والستر . كأن بطن الطائر جزء من صفاء السماء اذا طارت . والظهر جزء من الارض اذا حطت عليها .

وحول العنق هلالان . اسود اسفل وأحمر اعلى . وعلى الجناح شريط احمر والمنقار ـ قرمزى جميل ...

ومع هذا الجمال البادي . ماذا قال الكتاب ؟ انها بيغاء شعبية متواضعة . رأسمالها جمال الصورة . تعيش في الغابات وفجوات الاشجار . وشقوق الحوائط في المدن .. مرتفعة الصوت غير قادرة على النطق الا بكلمات محدودة جدا . اما المزايا فكثرة الحركة كانها (بهلوان) . القدرة على القيام بعمليات الفك والتركيب . وهذا فسر لي كيف عبث الزوجان بالقطع المعدنية الصغيرة في القفص . واستطاعا ان يفكا المسامير بصبر ودأب . كأنما عاملان مجدان . او أسيران يبحثان عن مخرج .. وان ينحتا بالمنقار . القوى القرمزى العارضة الخشبية التي يقفان عليها . فرقت ثم رقت .. ولم أجد وسيلة الا ان استبدل بها انبوبة حديدية . واخرى اعلى منها قليلا يمارسان عليها بالارجل والمنقار ...

وقلنا لهما : ايها الصديقان .. فلنجرب معا اطعمة شعبية من ديار العرب .. هذه عمتنا النخلة ... وهذا خير طعامنا وطعام الصالحين من قبلنا ... التمر .. واقبلا على السواء نحتا وتذوقا . وعلى التمر بغسانته في الماء وبمتصاته .. وشيئا فشيئا اتسعت دائرة التعاون والتفاهم بيننا . وان ظلت الكلمات محدودة . والصراخ اذا جمعتنا مائدة الطعام . كأنه دعوة الى المشاركة . ان نأكل معا .. واكتشفنا فيهما حبا للموسيقا الهادئة ... وللضوء الهادىء ... وللمياه الهادئة .. ومن منا يرغب في الضجيج والعنف ؟

●

وذهبنا يوما الى جيران لنا عاشوا في الهند فترة قبل العودة الى الكويت ـ الوطن الاول ـ واستمعت الام الى قصة البيغاء وهي صامتة باسمة ..

الام سيدة في جلال السن واتساع التجربة . ونور العبادة . الشعر الابيض فوق الوجه الابيض . القلب الابيض يفيض بالكلمة البيضاء الطاهرة . قالت لي الام :

اقترب انا ادلك على افضل طريقة لتربية الطير ...

واقتربت . ثم نظرت الى ودارت عيناها فينا جميعاً ، اولادها واحفادها واهلي .. وهي تقول :

افضل طريقة ان يكون الطير حيث اراد الله ان يكون . في سمائه . في الغابة على الشجرة . في الحقل . في العيش .. لو فتحت باب القفص لترك الطائر هذا الجهد الذي تقوم به ، واسرع الى فضاء الله .. الحرية .. لاشيء اغلى منها : للانسان . للطائر

ولكن هذا طائر مسكين . اخذوه بعيدا عن وطنه لوكنا في الهند لقلت لك اطلق سراحه فورا . هكذا كنت اصنع في الهند مع اى طير في البيت . ولهذا كان الابناء يحتفظون باى طائر بعيدا عن يدى اذا ارادوا اللعب معه . ولكن هنا .. لو اطلقت سراحها تعذبت وضاعت . من اين تشرب ماء عذبا ؟ من اين تأكل ؟ سيطاردها الصغار . احتفظ بها مادامت غريبة عن ديارها . اكرمها اكرام الغريب . سماؤها ليست هنا . وارضها ليست هنا . حريتها هناك كانت الام تتحدث وفي ذهني قول الله تعالى :

« اولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن . مايمسكهم الا الرحمن انه بكل شيء بصير الملك ـ ١٩ ثم حديث النبي عليه الصلاة والسلام الذي يوصينا فيه بالطيور خيرا فيقول : في كل ذات كبد رطبة أجر ـ متفق عليه رواه البخاري ومسلم .

وودعت الام الطيبة وفي ذهني قولها :

اكرمها اكرام الغريب . مادامت بعيدة عن وطنها ...

وحدثتني نفسي ...

كم كانت سعيدة هذه البيغاء في وطنها ، وبحياتها مع اترابها .. هناك حيث الغابة والشجر ، والظل والماء . تستقبل انداء الفجر وتباشير الصباح وافراح الضياء .. وتغدو على رزقها في فضاء الله العريض . حدودها الارض والسماء . وتأوى الى عشها وتهتدى اليه في ضوء النهار وظلمة النهار وظلمة الليل . لارقم له ولابطاقة . ولا قيد ولا باب كيف يهتدى كل طائر من هذه الالاف الى عشه ؟ والعيش بيت ووطن ؟ ..

ومرت ايام ...

وجاءت قصة البيغاء امام صديق من رجال التربية فقال :

لقد حاولتم مع البيغاء ان تكلفوها ما لاتطيق . وما يتفق مع طبيعتها . مهارتها في الحل والتركيب لا في الكلام ... ونحن البشر .. الا نقع نحن في هذا الخطأ مع أبنائنا ؟ نحاول ان نحدد لهم خطا يتفق مع امالنا فيهم ، فنرهقهم العسر في امرهم وندفعهم الى تخصصات لايؤمنون بها واذا امنوا لايقدرون عليها . فنجعل من امالنا اقفاصا واسلاكا حولهم . نقدم اليهم الطعام والشراب ، ولكن نحرمهم حرية الاختيار ... انهم طيور حبيسة في اقفاص من امالنا .

اننا نفعل الخير ، لو عاونا ابناءنا على اكتشاف مواهبهم الحقيقية واعناهم على التجديد فيها . واتحنا لهم فرص الاختيار واثبات الذات عن طريق الانتاج ، وحب ما ينتجون وما يعملون .. بهذا يعيشون . وبهذا يبدعون .

هذا ما قاله الصديق . ومن قبله ما قالته الام الطيبة .

وصدق الله العظيم : « قل كل يعمل على شاكلته فربكم اعلم بمن هو اهدى سبيلا . (الاسراء ٨٤)

وتحية لمنطق الطير .. كنا معه في حوار حول الابداع الذاتي . وعلاقته بتربية جيل جديد .

د . عبد العزيز كامل

اجازة من المدرسة

سأل الاب طفله الصغير : هل اخبرت الناظر ان والدتك وضعت توأمين ؟ فقال الطفل : ـ كلا .. لقد اخبرته انها وضعت طفلا واحدا فقط لكي استطيع الحصول على عطلة اخرى في الاسبوع القادم ، عندما اخبره بنبأ الطفل الثاني !!!



● خير الدين الزركلي



● شفيق جبري

شعراء الشام في مطلع القرن العشرين

بقلم : عبد الغني العطري

شاعر الشام » لقب كبير ، حمله اربعة من فحول الشعر في الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن .

كانوا شبانا ناهضين ، ادمنوا حب اللغة والشعر والوطن ، وتباروا في هذا الحب بالهيام تتلمذوا على مدرسة واحدة ، وتوالت لقاءاتهم واجتماعاتهم ، واخذوا يتبارون في تصوير خلجات الامة العربية ، واذكاء شعورها الوطني .

كان لكل منهم الباع الطويل ، والقدح المعلي في الشعر ، وكانوا من المجلين في رفع رايته ـ بعد ان سقطت طويلا في عصر الانحطاط ـ كذلك من السباقين الى وصف الشام ، والتغزل بها وذكر امجادها ، والاشادة ببطولات ابنائها ومن هديها ، والتنديد بالمستعمر الذي دنس ارضها ، واراق الدم الزكي فيها .

هؤلاء الشعراء الاربعة ، هم دون ريب طليعة شعر النهضة في مطلع هذا القرن انهم الاساتذة الاعلام : خير الدين الزركلي ، خليل مردم بك ، محمد البزم ، شفيق جبري .

وفي مقالنا هذا ، سنحاول ان نلقي قليلا من الضوء على هؤلاء الكبار ، واثرهم الكبير في دنيا الشعر و النهضة الحديثة ، ومرحلة ماقبل الاستقلال في سورية :

خير الدين الزركلي

ابصر الزركلي النور في العام ١٨٩٣ ببيروت من

ابوين دمشقيين ، ونشأ في دمشق وترعرع فيها ، ودرس على علمائها امثال : جمال الدين القاسمي ، وعبد القادر بدران ، وأبيامثال : جمال الدين القاسمي ، وعبد القادر بدران ، وأبي الخير الميداني ، لقنه ؤلاء الكبار حبه العربية ادبا ولغة وقومية ووطنا .. ولاغرابة بعد هذا ان كانت لشاعرنا مواقفه الوطنية ونشاطه السياسي ، الامر الذى دفع المستعمر الفرنسي الى الحكم عليه بالاعدام . ولكن شاعرنا كان حينذاك يتنقل بين مكة المكرمة والقاهرة وعمان ، وينشر قصائده الوطنية ، في وصف معركة ميسلون وغيرها ، ويصور الفاجعة التي حلت بوطنه الغالي . وكانت الصحف تتناقل هذه القصائد التي تتساقط على الاجنبي سهاما مسمومة ، وسياطا لاهبة ، تفضح باطله وتستثير الرأى العالمي ضده .

لنستمع الى خير الدين يصور معركة . ميسلون وهي المعركة غير المتكافئة بين الحق والباطل :

الله للحدثان كيف تكيد
بردى يغيض وقاسيون يميد
غلت المراجل فاستشاطت امة
عربية غضبا ، وثار وقود
زحفت تذود عن الديار ومالها
من قوة ، فعجبت كيف تذود
الطائرات محومات حولها
والزاحفات صراعهن شديد

وفي مصر اقيمت سنة ١٩٢٦ حفلة لمؤازرة الثورة السورية فوقف شوقي ـ والقى قصيدته الخالدة :

سلام من صبا بردى أرق
ودمع لا يكفكف يادمشق

في هذه الحفلة وقف الزركلي ، وانشد قصيدته الرائعة :

الاهل اهلي والديار دياري
وشعار وادى النيرين شعاري

فقوبلت بالتصفيق والاستحسان والدموع .

لقد غنى خير الدين افراح الشام وبكى اتراحها ، وكانت له مواقف مشهودة محمودة ، تضيق هذه السطور عن استيعابها وكان في معظم شعره الشاعر الوطني المحلق ، الذي يرفع صوت الشام وينطق بلسانها ، ويعبر عن خلجاتها ومشاعرها ، كان حقا شاعر الشام ، وكان ابنها البار وكان صوتها المدوى .

ورحل الزركلي عن دنيانا هذه في العام ١٩٧٦ ، بعد ان ترك لنا تراثا شعريا نعتز به وبعد ان ترك درته النفيسة « الاعلام » الذي صدر في ثلاثة اجزاء ، عدا مجموعة من الكتب والمؤلفات .

خليل مردم بك .

اما خليل مردم بك ، فقد سبق ان خصصته بمقال (١) تحدثت فيه عن « شاميته » الاصيلة .

وتعلقه بحب الشام ، ولابد لنا من عود على بدء .. بل لابدلنا من ان نستعيد بعض ماقلناه : وصف خليل مرد بك الشام وصفا دقيقا : تكلم عن بردى ، وقاسيون ، الغوطة ، والنيربين . وتغزل بمائها وهوائها وطيرها وغصنها وكل ماضمته جوانحها . ولم يكتف بذلك بل وضع كتابا يوم انتخابه عضوا في المجمع العلمي العربي عن « شعراء الشام في القرن الثالث للهجرة درس فيه : العتابي وديك الجن ، وابا تمام والبحترى . كذلك وضع كتابا عن « الشعراء الشاميون » درس فيه حياة وشعر سبعة من الشعراء الشاميين المغمورين ، وحقق ونشر دواوين ثلاثة منهم ، بعد ان كانت ضائعة او في طي النسيان ، وهم ابن عنين ، وابن الخياط ، وابن حيوس .

ويقول الاستاذ عدنان مردم بك ، نجل شاعرنا الكبير ، ان والده « انسان شامي الى ابعد مافي هذه الكلمة من حدود ، اغرم بالشام ، بتاريخها ، وبتراجم اهلها وسيرها ، والم بكل شيء شامي حتى الجزئيات فكأن الشام لديه قصيدة مختارة من حر الشعر ، ودمشق بيت القصيد ... »

اما مواقف الخليل الوطنية والقومية فليست موضع جدال او نقاش ، ويكفي ان نشير الى ان النشيد الوطني لسورية ، نشيد « حماة الديار عليكم سلام » ، الذي نستمع اليه كل يوم ، من شعره وذوب قلبه وعاطفته .

لقد استحق خليل مردم بك لقب شاعر الشام عن جدارة ، لان عشقه للشام قل ان نجد من يضاهيه فيه ، او ينافسه عليه .

ورحل خليل مردم بك عن دنيانا هذه ، في الحادى والعشرين من تموز عام ١٩٥٩ ، بعد ان شغل منصب رئيس المجمع العلمي العربي سنوات طوالا كما شغل

(١) اقراء مجلة العربي العدد ٢٣٩ تشرين الأول ١٩٧٨



خليل مردم بك

اكثر من منصب وزاري ، وكان ذات يوم سفيرا لسورية في بغداد .

لقد خسرت سورية والعروبة بفقده ركنا من اركان الادب والشعر ، لم يعوض حتى اليوم .

محمد البزم

ولد في دمشق في العام ١٨٨٤ وترعرع فيها ، وينحدر اصله من العراق . كان عصامي النشأة فقد درس بنفسه في عصر شاعت فيه الامية ، على يد امرأة تدعى « الحجا » . الفت هي وامثالها تدريس بعض آيات القرآن الكريم وقليلا من القراءة والكتابة . وحين شب البزم ، أخذ يتردد على المكتبة الظاهرية ، بصحبة رفيقه خير الدين الزركلي ، ويعب مما فيها من ثروات ادبية لا تنفد .

تعلق شاعرنا بالمتنبي وأحب شعره ، واخذ منه المتانة والجزالة والقوة ، وقلده ، كما قلد اقرانه من فحول الشعر وانطلق ينشر في الصحف قصائد ومقطوعات ، يحث فيها على النهضة والوعي القومي والتحريض على المطالبة بالحقوق المغتصبة بين الاتراك العثمانيين . وظل البزم يعزف على هذا الوتر طوال حياته .

كان جادا عابسا متشائما لكثرة ما لحق به من الاحداث . فقد سجن ، بعد ان اتهم بجرم سياسي فقال :

لاالسجن يردعه ولاأغلاله
عن غاية تسمو لها اماله
مقتوه او تقسوا عليه جلاله
فسعوا به كي لايبين جلاله

وحين صار شاكر الحنبلي وزيرا للمعارف ، عينه استاذا للعربية في تجهيز دمشق وظل في هذا المنصب سبعة عشر عاما ، يقوم لغة طلابه ، ويشرح لهم اسرار الانة ، ويروضهم على تذوقها والتعلق بها ، وعلى يديه تخرجت اجيال لم تستطع كليات الاداب وجامعاتها ان تخرج امثالهم ، قوة لغة وتعلقا بادابها واسرارها وفنونها .

وللبزم عدد من المؤلفات منها : « الجواب المسكت » والجحيم» و« النحو الواقع » . الأول مجموعة كبيرة لكل جواب مسكت قالته العرب . والثاني اقام فيه الدليل على ان العربية سهلة جميلة وقادرة على السير في كافة فنونها ، وبه يحمل على الشعوبيين من النحويين والنجاة ، الدين عقدوا قواعدها . والثالث حرره نتيجة تجاربه في تدريس اللغة وقراءته في آلها . ولكن هذه الكتب وغيرها ضاعت وماتت مع صاحبها ـ ولم يعثر عليها احد ، ولم يظهر من اثاره سوى ديوانه ، الذي قام بطبعه مجمع اللغة العربية .

احب البزم ديار الشام وتعلق بها وهام بها عشقا ونظم فيها عددا من القصائد الحسان ولكن درة هذه القصائد وعقدها الفريد ، قصيدته المطولة عن دمشق ، فقد وصفها وصفا كاملا وتغزل بنهرها وقاسيونها وغوطتها وهوائها . كما تحدث عن ماضيها وجمالها وبني امية الذين شيدوا دولتهم فيها .

ولهذه القصيدة الخالدة قصة طريفة ، فقد كنت في اوائل العام ١٩٤١ اتردد على البزم زائرا ، لأتزود ببعض شعره وبعض علمه . ورغم عبوسه الذي كان يستقبلني به ـ على عادته مع سائر الناس ـ فقد تابعت زياراتي له . وذات يوم دفع الي رحمه الله قصيدته عن دمشق ، وكان قد فرغ منها حديثا . ولعله اراد ان يعرف رأيي بها ، انا الذي اشاركه الغرام بد مشق . وقرأت القصيدة فاعجبت بها ، واحتفظت بنسخة منها . وما هي الا شهور حتى اصدرت مجلة « الصباح » الادبية وهنا تذكرت قصيدة البزم ، فاردت ان اسجل بها سبقا ادبيا وصحفيا ، فدفعتها الى النشر في صدر العدد الثاني من المجلة . وما كاد البزم يطلع على قصيدته والى جانبها صورته ، حتى جاءني مهرولا الى المنزل ، وهو غاضب ثائر ، لاني اقدمت على نشرها دون اذنه ، وقبل ان يفرغ من شرحها . فاعتذرت اليه ، واكدت ان الدافع لنشرها كان اعجابي بها والحرص على تقديمها الى القارىء .

ومات البزم في الثاني عشر من أيلول ١٩٥٥ وضاعت أثاره النثرية ولم يكتب عنه الا القليل . ولكنه رغم ذلك يحمل لقب « شاعر الشام الفحل » . واصدقاؤه

وتلاميذه يذكرونه ويحفظون كثيرا من شعره ، ، ويرددون طرائف لاتحصى عن غيرته على اللغة ، وتعلقه بها ، ودفاعه المجيد عنها .

شفيق جبرى

أبصر النور في دمشق عام ١٨٩٨ ، وعمر حتى بلغ الثانية والثمانين . وكانت وفاته في اواخر كانون الثاني من العام ١٩٨٠ تلقى علومه في مدرسة الأباء العازاريين ، فاتقن الفرنسية واجادها الى جانب العربية . وشغل عددا من وظائف الدولة . كان اخرها منصب عميد كلية الاداب في جامعة دمشق . وبعد ان احيل الى التقاعد انزوى في منزله بمصيف بلودان ، لايغادره الا الى المقهى القريب من داره ، ولايطل على دمشق الا لحاجة ملحة او امر طارىء .

غنى شفيق جبرى امال الشام وردد امالها ،وشكا بلواها بالمستعمر وكان صوتها الداوي في المناسبات الوطنية والقومية : يوم فجعت دمشق بالزعيم الوطني فوزي الغزي ، ردد شكواها وحين ضربها المستعمر بالقنابل في ايار ١٩٤٥ وقف ليزأر في وجهه :

يا يوم أيار والنيران ملهبة
على دمشق تلظيها جلاميد
الطفل في المهد لم تهدأ سريرته
مروع من لهيب النار مكدود

ويوم تحقق الجلاء وقف يغني :

أتكذب العين والرايات خافقة
ام تكذب الأذن والدنيا اغاريد

ووصف صمود دمشق في وجه الغاصبين والمتسلطين والطغاة فقال :

لكن جلق في ازدحام خطوبها
جبارة بكهولها وشبابها
لم تستنم لأذى فإن هاجت بها
دهم الخطوب ادت الى اقطابها
عركت عروبتها السنين فاقلقت
عيث السنين بحدها وبنابها
ظل العروبة وارف في جلق
متمكن في ارضها وسحابها

ولم يكتف شاعر الشام ، بهذا اللقب ، تغدقه عليه الصحف السورية بسخاء وجدارة ، لم يقنع شاعرنا بان يكون شاعرا محليا ، بل طرق باب النثر ، فكان فيه اميرا من امرائه ـ ورائدا من رواده . الف عشرة كتب عن المتنبي والجاحظ ، وكتاب الأغاني ، وارض السحر ، والشعر والنثر . ونشر عشرات المقالات في الصحف والمجلات وكان رحمه الله يخص مجلتي « الدنيا » في العام ١٩٦٢ بمقال كل اسبوعين ، حول عدد من قضايا الادب كما التزم في السنوات العشر الاخيرات من حياته بكتابة مقال واحد لمجلة مجمع اللغة العربية ، التي تصدر اربع مرات في السنة .

ولعل اخر قصيدة نظمها شاعرنا الكبير قبيل رحيله كانت بعنوان « بعد الثمانين » والتي نشرتها « المجلة العربية » في عددها المزدوج رقم ٤و٥ من سنتها الثانية الصادر في ايار ١٩٧٩وفيها يقول :

ان الثمانين التي استنفذتها
احيت مشيبي بعد موت شبابي
لمعت كما لمع السراب بقفرة
اين السراب واين لمع سراب
يتناهبني في كل ليل طيفها
يا لوعتي من طيفها المنتاب

ويقول فيها ايضا :

ماقيمة الدنيا اذا فرشت لنا
من بعد زينتها فراش تراب ؟

وتبلغ القصيدة واحدا وثلاثين بيتا ، وتعتبر من روائع الشعر ، وهي ذات نزعة فلسفية ، تجنح الى اليأس والتشاؤم .

وبعد فان الحديث عن الزركلي ومردم بك ، والبزم وجبرى ، حديث ذو شجون يحتاج الى اربعة مجلدات كبار ، يحلل كل جزء منها ادب وشعر كل شاعر من شعراء الشام الاربعة ... هؤلاءالفحول العظام هم الرعيل الاول في دنيا الشعر ، الذين قادوا الوثبة الادبية ، ورافقوا النهضة الفكرية في مصر ، التي كان عمادها :

حافظ وشوقي ومطران ، والرافعي والمنفلوطي وغيرهم .

●●

دمشق : عبدالغني العطرى

■ احصل على سعادتك بعملك لئلا تجهل ما هي السعادة الحقيقية .

قضايا حيوية

نحو موسوعة علمية

بقلم : عبد اللطيف السعيد

تلبيسة . حمص . سوريا

تطالعنا الصحف بين وقت واخر معلنة عن مشروع جديد لاقامة موسوعة عربية تصدرها احدى المؤسسات الثقافة العربية ..

الا ينبغي في مشروع ثقافي كبير ، ان يكون مشروع عربي موحد ، يوكل الى منظمة الثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية ، والتي تتولى تنسيق الجهود ، والقيام بهذا العمل الكبير ..

ان النهضة الفكرية والعلمية والثقافية ضرورية للقضاء على بذور التخلف والجهل ، التي زرعها الاستعمار في مجتمعنا العربي . من هنا ، وامام هذا الوضع الذي وصلت اليه امتنا العربية انبثقت فكرة الموسوعه العربية ، في محاولة لاحياء التراث العربي ، بروح علمية ، ولتحقيق التوازن بين الروح العربية والفكر الانساني ، وتجسيدالمطامح امتنا ، ولا سيا ان الموسوعات في هذا العصر قد اصبحت معيار المستوى الفكري الذي بلغته الشعوب والمجتمعات .

لقد جرت محاولات عديدة لوضع موسوعة شاملة للمعارف الانسانية ، كان ابرزها كتب الطبقات التي تترجم لطبقات الشعراء والادباء والنحويين واللغويين ، واخرى يمكن اعتبارها موسوعات مصغرة تؤرخ لأهم العلماء العرب وادبائهم ومفكريهم ، كمحاولات الزركلي وبطرس البستاني ، ومحمد شفيق غربال . الا ان هذه المحاولات ظلت قاصرة عن بلوغ الغاية المرجوة منها .

فلم تأت بعمل علمي كبير مدروس يحقق اضافة حقيقية الى رصيد الثقافة العربية .

وقد نوقشت قضية انشاء موسوعة عربية شاملة في مجامع اللغة العربية ، وطرحت اكثر من مرة في جلسات الجامعة العربية ، واتخذ بها اكثر من قرار ، الا ان الفكرة لم تبرز الى حيز التنفيذ الا عندما تبنت الجمهورية العربية السورية هذا المشروع العربي ، وقد اقدمت وزارة الدفاع على تحمل عبء هذا المشروع الضخم ، وتم تشكيل لجنة ، وشرعت بتنفيذ مخططها في العمل معتمدة في اختيار موضوعاتها على ثلاثة مصادر :

١ ـ تكليف باحثين عرب بكتابة كل ما يختص بالتراث العربي وتاريخ اعلامه .

٢ ـ تكليف مترجمين مختصين لترجمة الموضوعات الاجنبية من مواطنها باللغات المختلفة .

٣ ـ استقاء بعض الموضوعات الاجنبية من مصادرها ، كالموسوعات الاجنبية ، والتوسع في معالجة هذه الموضوعات .

يتولى ادارة الموسوعة العربية الكبرى والاشراف عليها مجلس ادارة تعاونه هيئة علمية تسمى مجلس الامناء تشرف على وضع الخطة العامة للموسوعة ، ومراقبة موادها ، وتتابع منجزاتها . الى جانب بعض الهيئات الاخرى كالهيئة التنفيذية التي اسند اليها تسيير العمل في مختلف فروع المؤسسة . والجهاز الاداري الذي يراقب سير العمل . اضافة الى هيئة التحرير التي تتولى انتقاء الموضوعات والباحثين . ورفع موضوعاتهم الى مجلس الامناء لاقرارها ، وهي تمثل ابواب المعرفة جميعها .

ويتولى الجهاز الفني الاشراف على اخراج الموسوعة .

قضايا حيوية

اهداف الموسوعة ومنهجها

تسعى الموسوعة الى اغناء الفكر العربي المعاصر بالمعرفة ، وتيسر السبيل امام المثقف العربي للاطلاع على العلوم الحديثة ، وما توصل اليه الفكر الانساني في شتى حقول المعرفة ، وستعنى خاصة بالتراث الفكري العربي واثره على الحضارة الغربية ، لتكون رصيدا ثقافيا غنيا للدارسين العرب .

ستتناول الموضوعات المكتوبة على شكل مقالات ، جوانب المعرفة المتنوعة من جميع وجوهها ، وستأخذ هذه الموضوعات مكانها في الموسوعة على حسب تسلسلها هجائيا ، لتكون ايسر تناولا للمثقف العربي الذي الف الترتيب الهجائي للمواد المبثوثة في كتب الطبقات او المعاجم او كتب التراجم .

وتحرص هيئة الاشراف على ان يلحق كل مجلد بفهارس متعددة متخصصة ، فيكون هنالك فهرس يضم المواد الادبية ، وآخر يضم المواد التاريخية او الجغرافية ، بحيث ان مواد هذه الفهارس اذا جمعت الفت موسوعة متخصصة ، وستكون الموضوعات المتعلقة بالتراث العربي والحضارة العربية والاسلامية من تأليف الكتاب والمفكرين العرب ، بينما يقوم مترجمون مختصون بترجمة الموضوعات الاجنبية من مصادرها والتوسع بها ، ويمكن الاستعانة ببعض الكتاب الاجانب لاغناء هذه الموضوعات . وسيكون للموسوعة اطلس خاص يضم الاختصاصات الجغرافية والبشرية المتنوعة . وستقوم هيئة الاشراف باخراج معجم عربي لغوي وعلمي متعدد اللغات ، واصدار سلسلة من المؤلفات الفكرية والابحاث العلمية تحت عنوان « سلسلة منشورات الموسوعة العربية الكبرى » وانتاج موسوعات متخصصة .

رأت هيئة الاشراف ان تنسق الموضوعات المتنوعة ضمن ((٢٩) مجلدا ، يلحق بها مجلد اخر للفهارس بحيث يصبح عدد مجلدات الموسوعة ثلاثين مجلدا ، ويضم كل مجلد الف صفحة قياس ٢٩×٢١سم . وتحتوى المجلدات على ثلاثة عشر الف موضوع كبير . وسيكون للموضوعات العربية نصيب لا يقل عن ثلث مجموع مواد الموسوعة . اما الخرائط الجغرافية والمصورات والرسم فستحتل ٢٠٪ من مساحة الموسوعة

تقدر المدة اللازمة لاصدار الموسوعة من ٦الى ٩ سنوات ، على ان تصدر المجلدات تباعا وبفاصل زمني قصير . وقد بدأ العمل فعلا بهذا المشروع لتقديم باكورة النتاج الموسوعي اول مجلداتها الذي يحوي معارف الانسانية المبتدئة بحرف الالف مقارنة بين الموسوعة العربية والموسوعات الاخرى :

تبدو الموسوعة العربية الكبرى اذا ما قورنت بالموسوعات العالمية الاخرى ، في مستوى هذه الموسوعات لانها تستلهمهاجميعا ، فعدد مجلداتها يفوق عدد مجلدات الموسوعات الاخرى . فالموسوعة الانكليزية تقع في (٢٩) مجلدا ، والموسوعة الفرنسية في (٢٠) مجلدا ، بينما عدد مجلدات الموسوعة العالمية (٢٠) مجلدا ايضا .

ويساوى عدد صفحاتها البالغ ثلاثين الف صفحة عدد صفحات الموسوعة البريطانية ، بينما يبلغ عدد صفحات الموسوعة الفرنسية (١٢٩٣٦) صفحة ، وعدد صفحات الموسوعة العالمية (٢٣) الف صفحة . اما عدد كلماتها الذي يقارب (٤٠) مليون كلمة فيماثل عدد كلمات الموسوعة البريطانية ، ويفوق عدد كلمات الموسوعة الفرنسية (٢٣) مليون كلمة ، والموسوعة العالمية (٣٠) مليون كلمة .

اما عدد اللوحات والمصورات والذي سيبلغ حوالي (٧) الاف لوحة ومصور فهو ان كان يقل عن عدد لوحات ومصورات الموسوعة الانكليزية (٨) الاف لوحة ، الا انه يساوي عدد لوحات الموسوعة الفرنسية ومصوراتها ، ويفوق ما تحويه الموسوعة العالمية منها (٥) الاف لوحة ومصور .

اما عدد موضوعاتها الذي يقارب (١٣) الف موضوع ، فهو يزيد عن عدد موضوعات الموسوعة الانكليزية (٤) الاف موضوع ، والفرنسية (٨)الاف موضوع ، والموسوعة العالمية (١٠) الاف موضوع .

وبعد ، فقد اخذت الموسوعة العربية الكبرى سبيلها الى النور ، عملا جبارا يرقبه المثقفون العرب ، ويحظى باهتمامهم . كما يحظى باهتمام كتابنا ومفكرينا ، واننا نرجو ان تضيف الى رصيدنا الثقافي اضافة حقيقية فعالة .

محنة البحث العلمي في المجتمع العربي

بقلم : الدكتور عمر السباخي *

قرأت باهتمام مقال الدكتور فؤاد الزين« دعوة الى انشاء مركز عربي للبحوث العلمية » ، المنشور في العربي - عدد ربيع الاول ١٤٠١ هـ - فبراير ١٩٨١ . وبرغم ترحيبي الطبيعي بالدعوة التي تضمنها المقال ، الا انني أود أن اوضح في هذا التعقيب بعضا من الصعوبات والمشاكل التي تحيط بالدعوة ، ومن ثم فقد يقودنا ذلك الى دعوة أخرى ربما كانت اكثر تواضعا ولكنها في نظرى اكثر جدوى وفاعلية ، فان المنبت - كما يقول الحديث الشريف - لاارضا قطع ولا ظهرأبقى .

ذلك ان المقال المذكور قد اغفل تماما واقع المجتمع العربي ودور رجال البحث والفكر فيه . وكذلك وظيفة البحث العلمي في مجتمع له خصوصياته كالمجتمع العربي . وهذا ما سأحاول تبيانه باختصار شديد :

اولا : واقع البحث العلمي في المجتمع العربي

(١) ان اية دعوة لتنمية الابحاث وتشجيعها لايمكن ان تصادف نجاحا حقيقيا الا اذا نظر المجتمع نظرة احترام وتقدير الى الدور الرائد للباحثين ، لتحديثه وحل مشاكله .لكن للباحثين والمفكرين العرب يستشعرون - عموما - عدم ترحيب السلطة بهم ، بل واستبعادهم من مكانهم الطبيعي الذي يمكن لهم من خلاله الاسهام في حل مشاكل مجتمعهم . ويكفي ان تقارن دخول الباحثين واساتذة الجامعات في معظم مجتمعاتنا العربية بنظيراتها ، لفئات أخرى كالعسكريين والبيروقراطيين لتجد انها في المؤخرة .

لذلك فقد انعدمت الرغبة من جانب الباحثين في الخلق والابتكار ، اذ انهم في النهاية بشر يستهويهم التشجيع ويثبطهم الانكار والاهمال . وبدأت تلك الكفاءات العلمية تتسرب اما الى هيئات ادارية لتؤمن لنفسها الحياة المناسبة ، او الى الخارج حيث تجد كفاءاتها موضع تقدير واحترام .

(٢) نجد في عالمنا العربي مؤسسات عديدة للابحاث كان من المتوقع ان تدفع عجلة الابحاث وتساهم في حل مشاكل المجتمع ، لكنها تحولت الى واجهات لاتخفي وراءها شيئا ذا بال ، « وديكورا » تتباهى به الدولة تحت شعار من العصرية الزائفة . ويرجع ذلك - في المقال الاول - الى ان قيادات تلك المؤسسات قد اختيرت على اساس الانتماء السياسي ، او الطائفي او العائلي دون مراعاة للكفاءة العلمية او الخبرة .

(٣) هناك ظاهرة استجدت على عالمنا العربي أود أن الفت الانظار اليها ، وهي الحاكم والمفكر رب السيف والقلم ، الدولة والفكر . وماذا يملك الباحثون عندئذ - في مجال الدراسات الانسانية والاقتصادية - حين يجلو لهم صاحب السيف صارمه ويتلو عليهم باطله ؟ سؤال اجاب عنه ابو العلاء المعرى في بيت شهير :

جلوا صارما وتلوا باطلا
وقالوا : صدقنا فقلنا : نعم .

ان انتعاش حركة البحث مرهون بقدر معقول من حرية الرأى واحترام وجهات النظر الاخرى والتسامح وسعة الصدر . وهي أشياء عزيزة الآن في اغلب مجتمعاتنا العربية .

* جامعة الاسكندرية - جمهورية مصر العربية .

قضايا حيوية

ثانيا : طبيعة الابحاث في المجتمع العربي

ان معظم الابحاث في الوطن العربي مرتبط ارتباطا وثيقا بنظيرة في المجتمع الغربي .وذلك وضع طبيعي لان معظم الباحثين قد درسوا في الخارج . وفي هذه الحالة فان المستفيدالاول من الابحاث العربية هو المجتمع الغربي اذ انه القادر على استيعاب نتائج الابحاث وتنفيذها .بل اننا في هذه الحالة قد نستهلك امكانيات واموالا لتقديم حلول لمشاكل ليست مطروحة اصلاقي مجتمعنا . فنجد مثلا ابحاثا تجرى عن الغابات وبلادنا خالية من الغابات او عن تلوث البيئة من مخلفات الصناعة ولاصناعة لدينا .. وهكذا .

ومن هنا يبدو مفهوما ومقنعا موضوع تلك المساعدات التي يقدمها العالم المتقدم لانشاء مراكز للابحاث والدراسات في دول العالم الثالث .

ان مجتمعنا العربي لم يستوعب بعد معطياتعصر البخار . بل ان حياتنا في كثير من جوانبها تشابه حياة الانسان البدائي في مراحله الاولى بينما ابحاثنا العلمية تخاطب عالما آخر . لهذا يعيش الباحث العربي في اغتراب وقلق فهو- وان كان يعيش في المجتمع العربي سلوكا وروحا - الا ان مجال عمله وطموحاته العلمية مرتبطبمجتمع آخر .. ولا يكفي وجود مراكز للابحاث العلمية في الوطن العربي اذ لابد من صناعات تطبق تلك الابحاث ولابد من مشاركة من كافة اجهزة الدولة لعرض مشاكلها وتلقي الحلول .. وهكذا وفي غياب ذلك فان الابحاث العلمية لن تزيد عن ترف عقلي ربما امكن الاستغناء عنه .

وبعد فلعل القارىء يشعر بعد التوضيح السابق انه مالم يتغير المناخ العام بكل جوانبه ومالم يحدث التطوير على جهات متعددة فان انشاء هياكل جديدة للبحث العلمي سيقابل بالفشل . ولعله من الاجدى لنا ان تتضافر الجهود المخلصة لتوفر للباحثين درجة مناسبة من الاحترام الاجتماعي ومستوى المعيشه وقدرا معقولا من حرية الراي وسعة الصدر . وتلك مهمة صعبة لكنها حتمية اذا اريد - بحق وجدية - تنمية النشاط البحثي . اما مرحلة الهياكل التنظيمية فمرحلة لاحقه تاتي بعد ان تكون الطريق مفتوحة والارض ممهدة فتؤتي ثمارها الطيبة .

ماهو الفن ؟

بقلم : الدكتور عدنان رشيد *

الفن هو تعبير عن معنى وانعكاس للعالم الواقعي المحيط بالانسان . واحيانا تجرد بعض الفنون من اى معنى او مغزى هادف كالرقص الشرقي مثلا فالانسان مخلوق متحضر وكان منذ بداية حياته على الارض يعبر في فنونه عن طموحاته ورغباته من خلال صراعه اليومي . ولا يوجد لدى الشعوب فن دون ان يعبر عن المستوى الروحي والمحتوى الفكري للانسان .

ان تفكير الانسان القديم لادراك العالم الذى حوله وتجسيد الواقع الذى يعيش فيه ليس هبة من الطبيعة . لان الادراك لا يقتصر على النظر والحس فحسب . بل هو نتيجة لعمليات معقدة للاستيعاب الفكرى للانسان عن العالم .

ويمكن الاعتماد في ذلك على دراسة الابداعات والانتاج الفني للانسان الذى عاش في العصر القديم . فقد اثبت العلم بأن النقوش والحفر على جدران الكهوف لانسان العصر الحجرى القديم صنعها الانسان انذاك من تفكيره الذاتي وليس تقليدا لما هو موجود في الطبيعة فقط . ولا تتناول هذه الأعمال النسخ البسيط لمواضيع واقعية شاهدها الانسان وعاشها بنفسه . ان جميع فنون الانسان القديم تعكس لنا اشكالا توضيحية حول ملامح المجتمع الثانوية في حين لا نلمس هذه الغاية التجريدية في التشبيهات عن الحيوانات وفي كلتا الحالتين فان التصوير الفني لم يكن مجرد تدوين احاسيس عن رؤيا الانسان .

ومن اجل تجسيد التصوير الفني كان ينبغي على فنان العصر القديم تحليل عدد من الانطباعات وابراز الخواص الاساسية العامة للموضوع الذى يريد تصويره على ارضيه عقلية ثم توحيد هذه الافكار في صورة

* جامعة الرياض - كلية الآداب

واحدة يعبر من خلالها عن الانسان والحيوان وما استطاع اكتشافه بنفسه ، كما كان عليه تجسيد تصوراته ووعيه وانطباعاته في هذه الاعمال الفنية .

وبدون تفاعل هذه الظواهر ما كان بالامكان ظهور أي عمل فني ، وينعكس ذلك في رقص الصيادين في المجتمعات البدائية القديمة حيث يعبر الانسان فيها عن صراعه اليومي مع الحيوانات والنباتات ومع اخيه انسان الغابة ، وكذلك مع الاساطير البدائية التي تتحدث عن أصل ونشوء الحيوان والنبات . لقد مضى وقت طويل حتى استطاع الانسان أن يعيش في جماعات مشتركة ويتجه الى نشاط الانتاج اليومي الا انه حتى هذا الوقت لم يكن قد نشأ الفن بعد .... والسبب هو أنه في عصر الانسان القرد وفي مرحلة عصر الانسان الجليدي وفي انسان ما قبل التاريخ ، لم تكن الحركة الميكانيكية الجسدية المعقدة قد تعودت بعد تحويل الاحساس بالصورة الى ادراك حسي فني . وهذا يدل على ان الانعكاس الفني عن العالم كان منذ البداية أحد أشكال المعرفة عند الانسان .

أن الصيد الجماعي الذي اضطلع به الانسان للحيوانات الهائلة المخيفة كحيوان الماموث والديناصور وغيرها ، كان يتطلب من الانسان انذاك الالمام بمعارف مختلفة ، منها معرفة طرق معيشة الحيوانات وبنائها الجسمي وتصرفاتها ومعرفة خصائص الخشب والحجر والعظام التي كانت تصنع منها أسلحة الصيد ، ثم الالمام بظروف الطبيعة والبيئة التي تعيش فيها هذه الحيوانات ومعرفة المواسم التي تظهر فيها وتختفي ومعرفة الحرارة والبرودة والرياح وتقلبات الجو . كما ان التفكير الانعكاسي الفني لانسان ذلك العصر بلور خبرته وتجربته مع البيئة المحيطة به فصقلت فيه بالتدريج موقفه ازاء العالم الواقعي الذي يعيش فيه .

وقد نشأت من جراء ذلك الأساطير والرقص الجماعي والاغاني والنحت والحفر على جدران الكهوف لانها كانت الشيء الوحيد الذي استطاع الانسان أن يضطلع به ، ولذلك تطور تفكير الانسان المنطقي المجرد بصورة تدريجية وظل متخلفا عن التفكير الحسي والتشبيهي ، وعلى هذا الاساس ظهر العلم كجزء من تاريخ الثقافة في حياة الانسان نفسه بصورة متأخرة عن الفن ....

وكان الفن في المجتمع البدائي القديم الوسيلة الوحيدة للانسان لمعرفة العالم ومعرفة نفسه من خلاله .

فعندما تهطل الامطار وتنعش الزرع يرقص الناس ويفرحون ، وعندما تضن السماء بمطرها على الانسان ويسود الجفاف يؤدي الانسان في جماعات مشتركة الرقص الحزين المعبر عن أحاسيسه لانه سيجوع في ذلك الموسم .

والفن ظل منذ نشأة الانسان ملازما له لان الانسان بطبيعته ، كما يقول ارسطو ، ميال الى المحاكاة والتقليد ، كما ان الانسان يجد في الفن في عصرنا الحالي تعويضا لانعدام التوازن في الواقع الراهن ، كما يرى فيه وسيلة لايجاد التوازن بينه وبين العالم الذي يعيش فيه ، الا ان بلوغ هذا التوازن أمر متعذر ، ففي العمل الفني يكن معادلة الشخصية فقط . والفن يشبع حاجات الانسان الروحية والفكرية كما انه استغراق في مشاكل الغير وهروب من الوجود لان الانسان يجد في الفن متنفسا له لتفريغ شحناته العاطفيه المكظومة ...

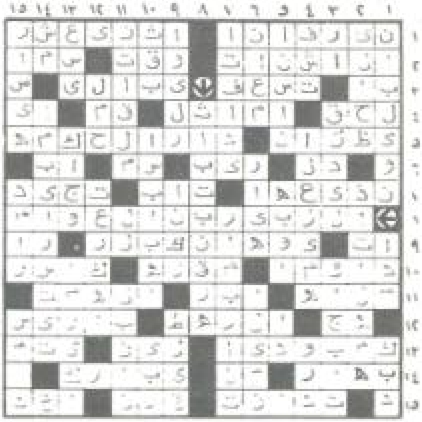
فعندما أحب شاعر المانيا جوته شارلوته خطيبة صديقه وليم عام ١٧٧٠ وكان عمر جوته انذاك واحدا وعشرين عاما ، شعر بالخيبة وحاول الانتحار ، ولكنه نهض في الصباح الباكر ولم ينفذ فكرة الانتحار بل صب عواطفه المشبوبة والخيبة في روايته المشهورة (الام فرتر) التي ظلت حتى اليوم خالده وترجمت الى عدة لغات منها اللغة العربية ، وهكذا فالشاعر ينفث ويبث همومه في الشعر في صورة فنية رائعة ، والرسام يرسم ما يحس به والكاتب كذلك ، فعندما لم يستطع العقاد الزواج من الكاتبة اللبنانية مي زيادة عكس لنا هذه الخيبة وهذه العواطف في قصته (سارة) ..

ان الانسان يبحث عن نفسه عندما ينظر الى لوحة فنية أو يقرأ رواية أو يشاهد فلما أو مسرحية ، والفن أيضا هو الاداة اللازمة لاتمام عملية اندماج الفرد مع الجماعة ....

فالفن يستطيع أن يرفع الانسان من التمزق والتشتت الى الوحدة والتكامل وينقذه من الفشل كما حدث مع شاعر المانيا جوته وكاتبنا العربي العقاد ومع شعرائنا وفناننا القدامى الذين تركوا لنا روائع فنية ناطقة عن تجسيدهم للواقع الذي تعاملوا معه أنذاك ...

كما ان الفن يساعد الانسان على فهم الواقع ، وهو ايضا نوع من التطهير النفسي لعواطف حبيسة ورغبات مكبوته ، ففي الفن تنعكس هذه العواطف والرغبات بأجل معانيها والفنان هو وحده القادر على تجسيد وتصوير هذه العواطف بشكل فني معبر .

● حل مسابقة العدد ٢٧١ ●



أفقيا :

الزبير بن العوام

رأسيا :

ثابت بن قرة

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : الزبير بن العوام . ابن عمة النبي . اعتنق الاسلام في صباه . هاجر الى الحبشة ، ثم الى المدينة . قاتل في جميع الغزوات مع النبي . اغتاله ابن جرموز وهو يصلي .

(٨) رأسيا : ثابت بن قرة . ولد في حران ، واشتهر بعلم الفلك . واستطاع أن يحسب طول السنة بدقة . وهو الذي مهد لايجاد حساب التفاضل والتكامل . ويعتبر أعظم من كتب بالعربية في علم الهندسة .

الفائزون بالجوائز

■ الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : الهادى صالح الحاج/ السجانة / السودان

■ الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : عبد الحميد فارع سعيد/ الحديدة / اليمن الشمالي .

■ الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فازت بها : آمال عبد المنعم ابو شوارب / الكويت

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

١ ـ محمد بهاء الدين قباني ـ ادلب/سوريا

٢ ـ السلياني عبد الغنى محمد ـ الناظفور /المغرب

٣ ـ جابر عبد الهادى حودة ـ عمان/ الاردن

٤ ـ على ضر غام عبد الرحمن ـ بعلبك /لبنان

٥ ـ فاطمة احمد ابو طالب ـ الاسكندرية /مصر

٦ ـ نايف عيسى رشوان ـ الدوحة/قطر

٧ ـ احمد الحوراني ـ الدمام/السعودية

٨ ـ زنوبيا الخطيب ـ برايتون/انجلترا

قصة قصيرة

الكنز في الدكان!

بقلم عبد الله الشيتي

اقفر شارع « الخليج العربي » من السابلة . وانطفأت انوار « النيون » من واجهات دكاكين كثيرة ، متناثرة هي ، على امتداد الشارع الطويل المطل على البحر ومع وشوشات الليل والسكون ، رقد الشاطيء مهجورا !

ولكن حركة السير ظلت نشطة . بعض السيارات الصغيرة والكبيرة ، بمصابيحها المشعة ـ مع ما في ذلك من خطر يطاله القانون ـ كانت تروح وتجيء من امام دكان « ابي ابراهيم » . كان اسم الدكان ـ كما في اللافتة التي هي دعاية واضحة لاحدى شركات المرطبات ـ بقالة « التعاون » . وابو ابراهيم لم يطلق تلك التسمية على بقالته عبثا . فهو دائم النصيحة لكل من حوله « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

انه رجل ورع . زبائنه يحبونه ويثقون به . في سمته وقار . وقد ناهز الستين من عمره . لم يقطع خلالها فرضا من فروض الصلاة او الطاعة لله . وكانت قسمات وجهه المتعب ، منبسطة الاسارير . لا يعرف التقطيب . كانت البسمة تلوح على ثغره . كلما التقى احدهم التحية عليه ، او بادره السؤال عن حاجة يشتريها ، او سعر يستفحشه فلا يملك ابو ابراهيم ، الا ان يقول للشاري مطمئنا ، بكلمات حانية تنم عن الصدق والامانة :



هذه هي الاسعار يا بني : الغلاء عالمي كما ترى .. هكذا اقرأ في الصحف ..

وحين يوافق الزبون ، يردد ابو ابراهيم حكمته اليومية الدائمة « من غشنا فليس منا » ثم يتمتم راضيا سعيدا « صدق رسول الله » .

وفوق رأس ابي ابراهيم ، بدت لافتة صغيرة كتبت بخط متعرج تقول :

ـ الدين ممنوع والعتب مرفوع والرزق على الله !

فاذا ما سألته عن السبب ، اجاب : الدين يجلب المشاكل : انا شخصيا لا اشتري شيئا لا امتلك ثمنه ! لماذا لا ارجىء الشراء حتى يتوفر ثمنه معي » ؟ ويتضاحك جذلا : ثم اني لا احب ان اعود الى دفاتري القديمة كلما شارفت على الافلاس ، كما يقال في الامثال ... واعتاده الزبائن هكذا : صريحا ، وصادقا ومستقيما : لا يغش ولا يحتكر . ويقنع بالقليل من الربح الحلال .

ولابي ابراهيم فلسفة في ذلك تسمعه يقولها وهو يزن هذا الشيء او ذاك :

ـ البيع الكثير في الربح القليل ، احسن الف مرة من البيع القليل في الربح الكثير ..! وهو ربح حرام اذا كان طمعا وجشعا وتشليحا لجيوب الناس ...

ذلك المساء اغلق ابو ابراهيم بقالته مبكرا . كانت قسماته مكفهرة . انه يبدو حزينا على غير عادة . وحين سأله الحارس وهو يمر من امامه مولجا المفتاح في قفل الباب العريض : اراك اغلقت دكانك مبكرا يا « ابو ابراهيم » ؟ اجاب الرجل باقتضاب : الولد ابراهيم رسب في الثانوية ، وكذلك اخوه عدنان عنده (اكمال) ... اما مروان ـ واحسرة قلبي ـ فقد رسب في الاعدادية هو الآخر .. حظي زفت !

ولما أراد الحارس الطيب ، ان يخفف عنه وقع الصدمة بقوله : ما يخالف ، يا « بو ابراهيم » البركة فيك ، وان شاء الله ينجحون في الدور القادم . زفر البقال الصبور زفرة كاوية ، وقتم مستاء : ولكني غير دائم لهم ! الحياة قصيرة يا اخي ، مهما تصورنا انها طويلة . والزمن غدار ... لا احد ينفع احدا ، الا ذراعه ... لا يدوم الا الحي القيوم ...

استوقف ابو ابراهيم « وانيتا » تباطأ في سيره بجانب الرصيف العريض ، وكان يحمل كيسا كبيرا املاه بما تيسر له ، من الخضروات والفاكهة المتبقية في الصناديق

وبعض المؤونة التي اعتاد ان يحملها الى بيته يوما بعد يوم . وبعد ان ذكر العنوان للسائق وهو يشق طريقه وسط تزاحم بعض سائقي الجحيم ـ كما كان يصفهم ـ وهم من الشبان المراهقين المدللين حتى الميوعة ، تراءت له اطياف غابرة من ماضي حياته ، كفاحا مريرا في سبيل اللقمة . وصمودا عجيبا لاجل ان يظل بيته واقفا على قدميه ، لا ينهار . وتذكر ام ابراهيم بصبرها وايمانها هي الاخرى . وقفت الى جانبه كل هذه السنين ، تحاول جاهدة ان تسيطر على هؤلاء الابناء الثلاثة الذين استغرقهم اللهو ، ولم تنفع فيهم نصائح الام ولا تهديد الاب ووعيده ، بطردهم من البيت اذا لم يجدوا ويجتهدوا .. او تشغيلهم « صناعا » واجراء ، ـ كما كان ينذرهم ـ عند القوال او القران او باعة الفلافل ! وهز رأسه بأسى مفرط ، وهو يتذكر كيف ان قلبه لم يطاوعه في ان ينفذ وعيده كلما قصروا في الامتحان او رسبوا . لقد كانت امهم تشفع لهم عنده : معليهش يا « بو ابراهيم » . ما زالوا صغارا . اعطهم الفرصة مرة اخرى . فهم اولادنا على كل حال ... وين نروح فيهم » ؟ ثم كادت تطفر من عينيه الكابيتين دمعة كبيرة ، حين تذكر كيف ان اولاد جاره ابي اسماعيل نجحوا في مدارسهم ! لم يرسب فيهم واحد قط ! اهو الحظ ترى ؟ ام ان ابناءه اغبياء .. ؟ ام انها ـ وهذا الاهم ـ رخاوة التربية وشقاوة هذا الجيل » ؟!

لم يشأ ان يحدد سببا . استفاق على صوت توقف سيارة الوانيت بمحاذاة بيته ، وبعد أن نقد السائق المتعب اجره ، حمل الكيس الكبير بعناء ، ودلف الى بيته الصغير لاهثا . كانت ام ابراهيم هي الاخرى سادرة في حزنها ، وحين حاولت ان ترسم ابتسامة باهتة على شفتيها وتحمل عنه « الكيس اليومي » دفعها ابو ابراهيم امامه برفق وقال لها : الاولاد ناموا ؟ فما عتمت أن هزت رأسها بالايجاب . وبعد ان استراح قليلا سألته ان كان يريد العشاء ؟ فأجاب باقتضاب مشوب بالحسرة : مليش نفس . نفسي مصدودة يا امرأة .

ولم تحر ام ابراهيم جوابا . فلو عقبت بأية كلمة سوف ينتهرها صائحا كعادته : كله منك .. هذا هو نتيجة دلعك لهم ! انا مش دايم لكم .. ايامي باتت قليلة بينكم ، والموت وراء الباب .

* * *

في اليوم التالي ، وبعد ان تناولت الاسرة فطور الصباح ، وقبل ان يمم ابو ابراهيم وجهه شطر الدكان ، التفت فجأة الى ابنه الكبير ابراهيم فوجده مطأطأ الرأس



كأنه مقر بذنبه . همس له ان تعال ، لي معك كلمة على انفراد يا ولد ..!

ومشى ابراهيم وراء ابيه كنعجة ، وتمتمت الام واجفة القلب تتوجس : ان شاء الله خيرا ؟ ثم تساءلت : لعله يريد ان يؤدبه .. مسكين ابراهيم ! اما الولدان الآخران فقد نفر كل منهما الى زاوية من زوايا البيت يريد ان يتوارى .

مضت لحظات صمت ثقيلة ، وابراهيم قد تدلى رأسه على كتفيه باستسلام مريع . حدجه ابوه بنظرات حادة ، ما لبثت ان لانت شيئا فشيئا وقطع حبل الصمت قائلا :

ـ اسمع يا ابراهيم ؟ انت اليوم شاب .. لم تعد صغيرا . ولقد اعتمدت على الله وعليك لتعينني وتحل محلي في فتح هذا البيت .. ترعى امك واخويك . لكنك لم تنجح ! وكذلك عدنان ومروان . يعني فشلتم . وانا رجل كبير في السن ، لم اعد اصلح للعمل .. تعبت يا بني . وانفقت الكثير عليكم لاجل ان تتعلموا وتتخرجوا ..

وحاول ابراهيم ان يقول شيئا . ان يؤكد لابيه ان سيحاول في السنة المقبلة لكن اباه استرسل محزونا : ايامي باتت معدودة ! انا مريض بالسكر يا بني واخفيت ذلك عنكم .. لكن لا بأس . الحمد لله في كل الاحوال .. والآن ، لا اريد ان اطيل عليك السيرة .. اسمع ..! لقد قررت ان تذهب منذ اليوم الى الدكان بدلا عني ...

هناك في الدكان كنز سوف تعثر عليه في (جارور) الغلة ! وبعد ان تعود في المساء ، سوف اكون في انتظارك هنا ، لاسمع رأيك بالكنز الذي خبأته لكم كل هذا العمر ، بعدما فشلتم في الامتحان ... مفهوم ؟

ردد ابراهيم باستهابة ورضوخ : مفهوم يابا !

تناول ابراهيم مفتاح الدكان ، وانحنى يقبل يد ابيه فسحبها هذا متباطئا ، يرد بصوت تشوبه مرارة والتياع : روح ، الله يهديك ويوفقك يا ابني .. الله يهديك ويوفقك يا ابني ...!

اعدت الام (زوادة) ابنها ابراهيم ، وهي لا تفقه شيئا مما دار بين الاب وابنه . واخواه الصغيران ينظران هما الآخران بدهشة وفضول صامت ...

ومضى ابراهيم في البكور ، تتراءى لعينيه احلام صغيرة عن الكنز الكبير في الدكان .....

فتح ابراهيم باب المحل بيد راجفة . انها المرة الاولى التي يشعر معها انه اضحى في مركز المسؤولية . هو ذا مثل الآخرين من الباعة والبقالين المنتشرين على الرصيف يفتح الدكان في الصباح ، وحيدا من غير ابيه .. وعذبه خاطر سري كالبرق أمامه : ماذا لو ان اباه مات فجأة ؟.. وسرت قشعريرة في داخله لم يدرك كنهها . وسمعه الزبون الاول وهو يلج الدكان يردد مقولة ابيه كلما جاء معه في ايام العطل والجمع يعاونه : يا فتاح يا عليم . يا رزاق يا كريم ... قالها ابراهيم بلهجة ابن الخمسين » .

وتساءل الزبون : خير ، (وين الحاج ابو ابراهيم) .

ووجد ابراهيم نفسه يجيب من غير ان يعي : مرتاح في البيت .. سوف اكون مكانه بعد اليوم .....

بعد ان انقطع سيل الزبائن والشارين . خلد ابراهيم الى الراحة قليلا . جلس قبالة جارو الدكان على الاريكة القديمة ، وسحب المظروف الاصفر المنتفخ الذي كان يقبع في اعماق الجارور بيد كادت ترتجف ..

وفتحه بحذر وهو يغالب دقات قلبه المتسارعة . لابد ان في المظروف مالا وفيرا . او حفنة كبيرة من الذهب والجواهر ؟ او ربما خاتم سليمان .. الكنز الذي طالما كانت امه تحدثه عنه في حكاياتها له قبل ان ينام ...

كان المظروف يحتوي على عقد الدكان الجديد باسم .. ابراهيم ، وقد ذيله ابوه بخطه الراعش المبتدىء بكلمات قليلة تقول :

ـ هذا هو الدكان لك ولاخوتك يا بني .. انه الكنز الوحيد الذي استطعت ان احافظ عليه كل هذاالعمر...

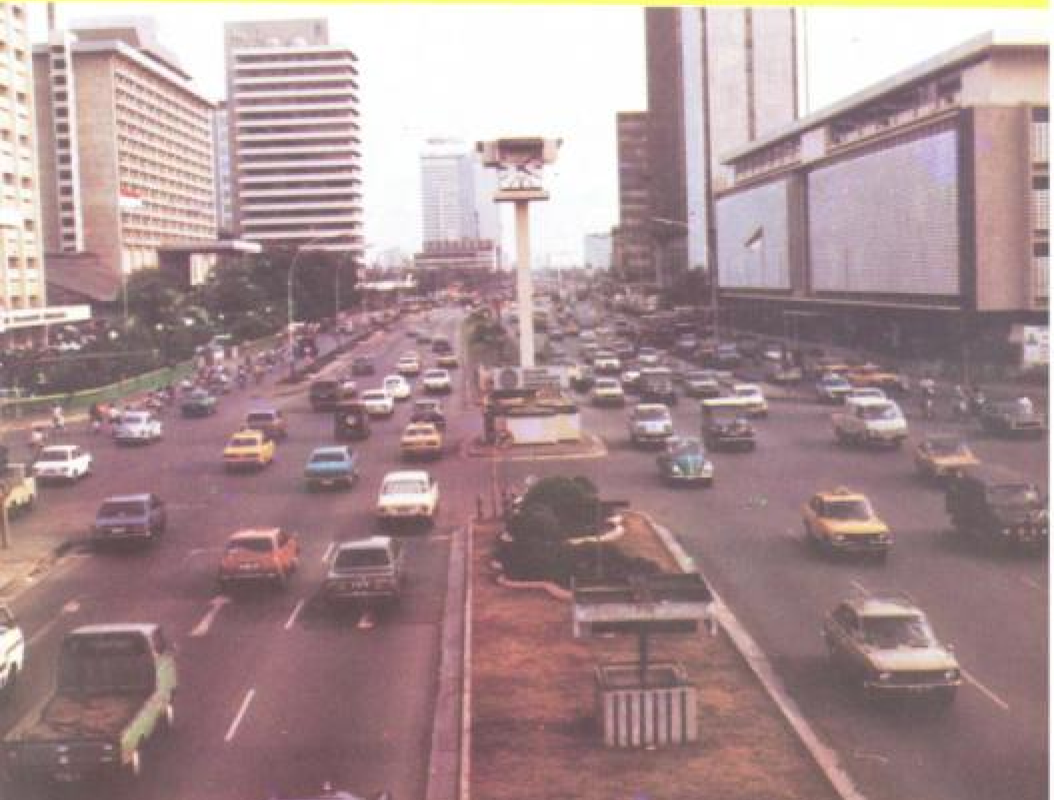
ومن لحظتها ، ادرك الفتى ان عليه ان يكون شيئا آخر ، بعد اليوم ...

الكويت ـ عبد الله الشيتي

رحلة مع اندونيسيا

استطلاع : منير نصيف ـ تصوير : اوسكار متري

الفن الفولكلوري صورة من حياة الشعب .. ورقصة من جزيرة بالي تحكي قصة وتنقلك معها الى عالم الأساطير



جاكارتا الجديدة .. احدث شارع في اندونيسيا .. شيدوا فيه الفنادق الفخمة يستقبلون فيها السائحين .. ومن هنا ينطلق الزائرون الى الجزر والغابات .. يستكشفون المجهول . انه شارع محمد حسني طمرين ، احد زعماء حركة المقاومة ضد الاستعمار .



في مطار سنغافورة صاح « الديك » .. صوت مألوف في الفجر .. ولكنه لم يكن فجرا عندهم . كانت الساعة تشير الى ما بعد العاشرة صباحا .. ولكنه كان فجرا عندنا ، كانت ساعتنا تشير الى الثالثة صباحا طبقا للتوقيت المحلي ، فلم نكن قد ادرنا عقاربها بعد لنلحق بهذا التوقيت الجديد الذي قفز بنا ست ساعات مرة واحدة .. وكنا نستعد للصعود الى الطائرة التي ستقلنا الى جاكارتا بعد رحلة طويلة من الكويت .. وفجأة اطلق رجل سمين ضحكة عالية .. ووجدناه ينظر حوله وكأنه يبحث عن صدى لضحكته .. ولما لم يجده ، قال كمن يريد ان يشرح لماذا كان يضحك : « لابد وانه جاء هاربا من اندونيسيا ! »

وسألناه من يقصد ؟

وقال : « الديك .. الم تسمعوا صياحه ؟ هل هذه اول زيارة لكم لاندونيسيا .. انني ازورها كل عام . ومن قبل كنت اعيش فيها مع اسرتي .. كنت ضابطا في الجيش الهولندي ، ولم يفتني مرة « صراع الديوك » .. انه قتال حتى الموت . وعندما تموت يذبحونها فورا ويأكلون لحمها . كان هذا صياح ديك هارب لا يريد ان يقاتل ! واطلق ضحكة أخرى !

وقلنا ، ولكن في همس هذه المرة ، لابد انه ديك « هولندي » هذا الذي سمعنا صياحه .. لقد كان قتال الاندونيسيون من أجل الاستقلال عن الاستعمار الهولندي طويلا وصريرا ، فلما انتزعوه منهم تركوه « للديوك » !

كان صاحبنا يزور اندونيسيا هذه المرة ، كما يزورها السائحون ، فهو لم يعد سيدا كما تعود ان يكون على مدى تلك الفترة الطويلة من الزمن التي امتدت لأكثر من ثلاثة قرون ونصف .. وهكذا كان ، كلما جاء لزيارة اندونيسيا طوال السنوات التي انقضت بعد ان نفضت البلاد عن نفسها تراب الاستعمار الهولندي ثم الاستعمار الياباني خلال الحرب الثانية .

وركبنا الطائرة ، وما كاد يحشر صاحبنا نفسه في مقعده حتى نظر الينا وقال : « نحن فيها الان » في اندونيسيا .. تستطيعون ان تأكلوا الارز ولحم الديك اذا شئتم ! »

ولكننا شربنا القهوة والشاي ، فقد كان الوقت بالنسبة لنا ما زال صبحا .. واكل هو الديك والارز ، وهبطت بنا الطائرة اخيرا بعد رحلة قصيرة .. وافترقنا في المطار الذي يعج بالسائحين ولكن طبق الارز ولحم الديك ظل يلازمنا طوال الأيام التي قضيناها في العاصمة ، ثم بعد ذلك في جزيرة بالي .. في الافطار وفي الغداء وفي العشاء .. كلهم يأكلون الارز .. الفقير والغني والفقير هو الشعب الذي يزرع الارز ويحصده ويختزنه ويأكله طوال العام ، فهو غذاءه الرئيسي ، وهو خبز الاندونسيين فهم يصنعونه ايضا من دقيق الارز .

وفي المساء ، ومن خلال نافذة الفندق الذي نزلنا فيه كان لقاؤنا بصورة حية للكفاح المسلح الذي عاشه الشعب الاوندونيسي من اجل انتزاع حريته واستقلاله .. تمثال كبير غارق في الاضواء المسلطة عليه من كل جانب يتوسط حديقة صغيرة في قلب ميدان فسيح وسط العاصمة .. وهو لجندي من جنود المقاومة شاهرا سلاحه وبجواره امرأة من الشعب تقدم له الغذاء .. لقد امتلأت الميادين الرئيسية بالتماثيل التي اقامها سوكارنو احد ابطال المقاومة الشعبية وهي تحمل معاني جميلة من حياة الشعب الاونددونيسي المكافح ..

١٣ الف جزيرة

بلاد بعيدة ، تفصلنا عنها ألوف الاميال .. ولكنها اقرب الينا من بلاد اخرى كثيرة ، قريبة منا .. كان الوصول الى اندونيسيا بسبب بعدها الجغرافي ، في الماضي ، ضربا من ضروب المغامرة فهي مجموعة من الجزر الهائلة العدد ، تسبح في مياه المحيطين الهادي والهندي ، ويشرف بعضها على بحر الصين الجنوبي .. اكثر من ثلاثة عشر الف جزيرة ، صغيرة وكبيرة .. مأهولة ومهجورة يعيش فوقها مائة وخمسين مليونا من البشر معظمهم في القرى التي يزيد عددها على ستين الف قرية ، وقلة قليلة نسبيا في العاصمة والمدن الرئيسية .. إنها الخامسة بين دول العالم من حيث الكثافة السكانية بعد الصين والهند وروسيا ثم امريكا .

تسعون في المائة من افراد الشعب الاوندونيسي يدينون بالاسلام . اي ان هناك اكثر من ١٣٥ مليون مسلم .. فهي اكبر بلد اسلامي في العالم ، ومع هذا فلم يصل الى اندونيسيا جندي عربي مسلم واحد .. لقد وصل الاسلام الى هذه البلاد النائية التي التفت من



خريطة اندونيسيا

الرحالة العربي ابن بطوطه او افلت هو منها خشية ان يغرق بين امواج بحارها او يهلك تحت حمم براكينها الثائرة .. وصل الاسلام اليها عن طريق التجار العرب المسلمين الذين وصلوا اول ما وصلوا الى الطرف الشمالي من جزيرة سومطره ، ومعهم دينهم الحنيف وتعاليمه واصوله .. ومن هناك انتشر الاسلام الى جميع الجزر الاندونيسية واطرافها السابحة في مياه المحيطين .

دفء وحرارة

والغريب في اي بلد يبحث اول ما يبحث في وجوه الناس .. كيف تبدو وكيف يراها ؟ كيف سيكون استقبالهم له وتعاملهم معه ؟ وعلى مدى الايام القصيرة التي قضيناها وسط هؤلاء الناس ، لم نشعر للحظة واحدة اننا غرباء عنهم .. دفء وحرارة ينبعثان من عيونهم ومن خلال حديثهم لا تملك الا ان تحس بأنك واحد منهم .. حتى لو كنت غير عربي ، ورابط وحيد يجمعك ... دينهم .. فقراء ولكنهم قانعون .. انهم لا يحقدون على الدنيا لانها لم تعطهم كل ما تمنوا .. وكل ما يحلمون به .. فهم راضون عن حياتهم وسط الارض التي يزرعونها ارزا .. وبين الصناعات التقليدية التي نبعت من بيئتهم فتفننوا فيها ووصلوا بها الى الابداع .. وفي قلب الغابات الشاسعة التي تزخر بالثروات الطبيعية كالنفط وخام الحديد والنيكل والنحاس والقصدير .

لعل اهم ما تجود به ارضهم بعد الغذاء الذي يتمثل في الارز ، اشجار المطاط .. وبسبب وفرة غابات المطاط في اندونيسيا ، ظلت هولندا تتشبث بهذه البلاد حتى تضمن وصوله لمصانعها التي كانت تعتمد اعتمادا كاملا على هذه المادة التي تدخل في العديد من الصناعات الحديثة اليوم وبالامس القريب والبعيد .

وهم يزرعون البقول ايضا وبعض انواع الخضروات التي تنمو في الاجواء الحارة ، او المناطق الاستوائية ، حيث تنقسم السنة الى فصلين .. احدها حار ممطر .. والاخر حار جاف .. وتنمو اشجار البن والفلفل الاسود وجوز الطيب والقرنفل والتبغ والقرفة وجوز الهند ويصدرون القسم الاكبر منه محصولاتهم للخارج .

ولكنهم يصدرون كل ما تنتجه اندونيسيا من النفط الخام ، ثم يعودون فيستوردونه بعد تصفيته وتصنيعه على الاقل في الوقت الحاضر . فهناك مشروعا ضخما لانشاء اول معمل لتكرير البترول وسط مناطق انتاجه .

واذا كانت هولندا لم تعد تحتكر مزارع المطاط ، فقد حرصت على ان تكون الدولة الاولى المستوردة للأخشاب والخيزران من غابات اندونيسيا الغنية .. ومنها تلتزم مصانعها بانتاج اجود انواع الاثاثات التي تبيعها في الاسواق العالمية بأسعار مرتفعة .

محطة في الطريق

وكان لقاؤنا بالشارع الاندونيسي في العاصمة جاكارتا في صباح اليوم التالي لوصولنا ... مشينا في



اشجار المطاط في الغابات .. ومن اجل المطاط بقي الهولنديون يحتلون اندونيسيا ثلاثة قرون ونصف !

حديقة النباتات في بوجور تبعد ستين كيلو مترا من جاكرتا .. زرعوها في غير أرضها .. وفت في التربة الجديدة تعانقت في الأرض الغريبة .. انها قصة الشعب الاندونيسي نفسه !



الارز .. مزارعه الشاسعة تغطي كل الارض الصالحة للزراعة .. فهو غذاؤهم الرئيسي ، يأكلونه الوجبات الثلاث ، ولا يكفيهم ما يزرعونه ، فيستوردون كميات كبيرة منه لسد حاجتهم .

الى اليمين .



شوارعها الفسيحة الأنيقة وتسكعنا في احيائها الشعبية الفقيرة .. وقفنا امام فنادقها الفخمة التي قامت كلها او نصفها في أحدث شوارع اندونيسيا واكبرها ... شارع محمد حسن طمرين احد زعماء المقاومة ضد الاستعمار ، وكان محافظا للعاصمة واستشهد . عمارات شاهقة تناطح

محمد حسن طمر احد زعماء المقاومة ضد الاستعمار ، وكان محافظا للعاصمة واستشهد . عمارات شاهقة تناطح السحب ، كلها تضم فنادق الدرجة الأولى التي يقصدها السائحون .. ومطاعم فاخرة صفت موائد الطعام فيها تحت الثريات التي تتدلى من الاسقف المطلية بماء الذهب .. والناس حولها يأكلون الاطباق الاوروبية والاطباق الشعبية . الحياة داخل هذه الفنادق الفخمة لا تمت من قريب او من بعيد لاسلوب الحياة البسيطة التي يعيشها اهل هذه البلاد ... بلا مبالغة انها اجمل من اي صورة يمكن ان تراها في اي فندق في اي بلد في أوربا او حتى امريكا ...

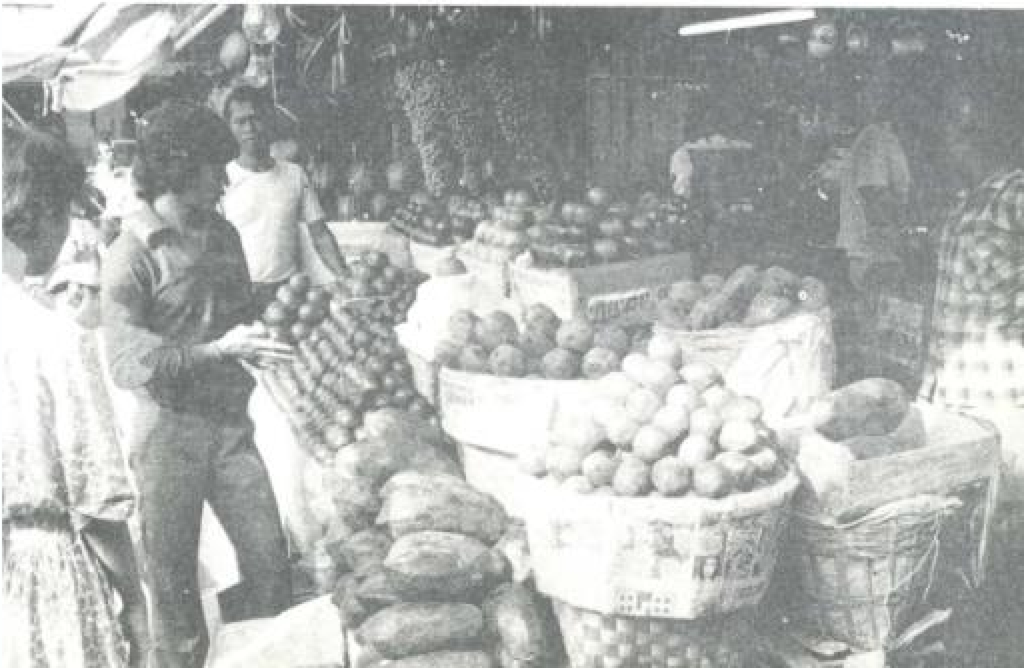
لماذا يأتون وماذا يجدون في اندونيسيا .. ما الذي يشدهم الى هذه البلاد البعيدة قال لنا مرافقنا الاندونيسي الذي يتحدث العربية كأحد ابنائها ... لقد تلقى علومه في الازهر الشريف وتخرج في كلية الشريعة وقضى في مصر اكثر من عشر سنوات ... قال : « بعض السائحين الذين تروتهم في بلادنا جاءوا يبحثون عن الدفء تحت شمسها التي لا تغيب ... وهم يمرون بالعاصمة مرورا ، لان وجهتهم في اغلب الاحيان هي بالي .. تلك الجزيرة القابعة في مياه المحيط او جزيرة الاحلام التي تحملك فيها مياهها واجواؤها الى عالم اخر يلفه الجمال والغموض » ..

وقد كانت بالي هي محطتنا المقبلة وسنعود للحديث عنها من مكان اخر ...

هؤلاء بعض السائحين ، فماذا عن غالبيتهم .. لماذا يجيئون ؟

ويمضي مرافقنا يكمل حديثه : « البعض منهم رجال اعمال جاءوا يعقدون الصفقات ويشترون ويبيعون .. والبعض منهم وهم ليسوا قلة كما قد تتصورون ، جاءوا يغزون غابات اندونيسيا .. جميعا يلتقون في جاكارتا .. ثم يخرجون في رحلات منظمة الى غابات جزيرتي جاوه وسومطرة في سيارات خاصة .. انهم يعشقون حياة الغابات العذراء التي ما زالت تشغل مساحات هائلة عند اطراف المدن والقرى الصغيرة فقد كانت كل جزر هذا الأرخبيل الهائل غابات كثيفة ، قبل ان يحولها الانسان الى هذا العالم الجديد » .

سوق جاكارتا .. الفواكه الاستوائية .. ما نجو واناناس وباباي (وهو نوع من الشمام) يقدم فيالافطار .. تزدحم فوق عربات متنقلة ، او في اماكن مخصصة لها .. وغيرها انواع كثيرة من الفاكهة الغريبة التي لا تنمو الا في هذه المناطق !



بين هذه الصورة الحديثة من صورة الحضارة وبين الشعب الاندونيسي ، كما يحدث في معظم دول العالم الثالث .. يقوم الجدار العالي الذي يخفي وراءه حياة هذا الشعب ، وهي حياة بسيطة فقيرة مليئة بالعمل والعرق والكفاح من اجل لقمة العيش .. فمتوسط داخل الفرد في اندونيسيا لا يزيد على المائة وخمسين دولارا في العام ، اي اقل من نصف دولار في اليوم الواحد ..

بائع الشمام

بيوتهم من دور واحد ، تخالها في بلاد تغطيها الثلوج ... ولكنها قامت هنا باسقفها الهرمية المصنوعة من الطوب الاحمر لتحمي البيت واهله من حرارة الشمس والرطوبة .. لباسهم الوطني ما زال هو الشائع باستثناء تلك الفئات بين الرجال وحدهم الذين يعملون في المصانع .. اما المرأة فنادرا ما تخرج من زيها الوطني ... الا اذا كانت موظفة او عاملة في البنوك والشركات اسواقهم فوق عربات متنقلة تحمل الفواكة والخضروات والاسماك واللحوم وتتجمع في اماكن مخصصة لها . تزدحم بالمشترين ويسمون هذا كله سوق .. وعلى مقربة منه سوق ثاني وثالث الى اخره .. وتتنوع السلع طبعا من سوق الى سوق . فهناك سوق للغذاء واخر للاقمشة وثالثا للاحذية وكلها فوق العربات .. ولكن بين الحين والحين كنا نصطدم ببعض هؤلاء الباعة المتجولين في الشوارع الرئيسية .. فقد أكلنا الشمام المثلج من عربة صغيرة يدفعها البائع امامه في حذر وهو دائم التلفت حوله حتى لا يقع في قبضة رجال الشرطة ، لان الباعة المتجولون ممنوعون من الظهور امام السائحين . ودفعنا خمسين روبية اندونيسية ثمنا لقطعتين من الشمام اي ما يوازي عشرة قروش .

وبائع السمك ايضا كثيرا ما يقلت بعربته التي يحمل فيها اسماكه قادما بها من مزرعة الاسماك وهو يبيعها حية ، لانه يحتفظ بها في الماء . فالأندونيسيون لا يأكلونه الا اذا رأوه حياة امامهم .

صور كثيرة استوقفتنا في كل مكان اليحت لنا فرصة المرور به والوقوف فيه احيانا ، وتسجيل ما يحدث حوله .. ولعل الشيء الذي استوقفنا طويلا هو منظر هذه المدينة الكبيرة التي تجري كلها على عجلات .. فكل او الغالبية الساحقة من اهالي جاكارتا يركبون الدراجات البخارية .. في العاصمة وحدها أكثر من مليون ونصف مليون دراجة .. ويستخدم الاندونيسي دراجته في الذهاب الى عمله والعودة منه الى البيت ، وهو يحمل أسرته كلها .. زوجته واطفاله وراءه على الدراجة .. وربما كان



اشجار جوز الهند ، تنتشر في كل مكان ، وهم يصدرون ثمارها للخارج ... وهولندا هي الدولة المستوردة الاولى للاخشاب والفواكه بحكم العلاقة القديمة !

هذا العدد الهائل من الدراجات البخارية من بين الاسباب الرئيسية لارتفاع نسبة التلوث .

جاوه عند العرب

عرف العرب اندونيسيا ، واحبوا هذه البلاد عن بعد ، وازدادت معرفتهم بها بعد انعقاد مؤتمر باندونج الذي التقى فيه زعماء حركة عدم الانحياز وابطالها (نهرو وتيتو وسوكارنو وعبد الناصر) في عام ١٩٥٥ ، وقد اصبحوا كلهم في ذمة التاريخ ... وكان العرب يسمونها جاوه ... وهو اسم الجزيرة التي تقع فيها العاصمة ، جاكارتا .. وهي اخصب جزر اندونيسيا واكثفها سكانا ، ولكنها الخامسة من حيث المساحة . فاكبر جزرها اطلاقا هي كاليمنتان يليها سومطره وايريان وسولاويسي واخيرا جاوه وتبلغ مساحة الجزر الاندونيسية مجتمعة ٧٣٥ الف ميلا مربعا . اكثر من ثلثها غابات عذراء وجبال وبراكين ما زالت حتى اليوم تقذف بالحمم التي تسهم في خصوبة التربة .

وقد ظلت اندونيسيا حتى سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية ، اي ما قبل الاستقلال تعرف باسم « الهند الهولندية » ، وكأن هذه المجموعة الهائلة من الجزر اصلا هندية ولكنها تابعة لهولندا . والغريب ان هذا هو اسمها حتى الآن ، حتى بعد ان حصلت على استقلالها يوم ١٧ اغسطس عام ١٩٤٥ ، بعد ان استسلمت اليابان





الدراجات النارية .. وسيلة المواصلات الشائعة في جاركاتا العاصمة وفي بقية مدن اندونيسيا المزدحمة بالسكان .. بعضهم حولوها الى سيارات صغيرة تجري على ثلاث عجلات وتجح « الموتوسيكل » في حل مشكلة المواصلات .. في جاكارتا وحدها مليون ونصف مليون دراجة وتعداد سكانها ستة ملايين !



بائع السمك في العاصمة .. انه يبيعه حيا ولكن داخل حدود المناطق الشعبية ، فهم لا يسمحون له بالخروج منها الى الاماكن التي يمكن ان يراه فيها السائحون .. فهناك جدار عال لا يجب ان يتخطاه من كان مثله !

بيومين اثنين .. فكلمة اندونيسيا مركبة من كلمتين ... « إندو » ومعاهنا الهند « ونيوس » وهي تعني باللغة الاغريقية « الجزر » .. فهي ما زالت اذن جزر الهند .. او جزر المولدين لان معظم سكانها وفدوا اليها من الصين ومن شبه القارة الهندية وامتزجوا وتعايشوا وتزاوجوا واصبحوا شعبا واحدا ...

وكانت الصين تسمح لرعاياها المقيمين في اندونيسيا في الماضي بأن يحملوا الجنسية الاندونيسية الى جانب جنسيتهم الاصلية ، ولكن حكومة اندونيسيا رأت بعد هذا ان تطلب اليهم الاختيار بين الجنسيتين ، فاختاروا جنسية البلد الذي استضافهم ، وذابوا في المجتمع الجديد ..

حديقة النباتات

في بوجور ، وهي ضاحية تبعد حوالي ستين كيلو مترا عن جاكارتا وكان الهولنديون قد بنوها وعاشوا فيها قبل الجلاء .. حاول بعضهم ان يثبت للأندونيسيين انهم شعب متعدد الاجناس لا ينتمي الى نفس التراب ، وان الفرقة والانقسام هما المصير الذي ينتظره في النهاية .. وانهم اي الهولنديين ـ اذا كانوا لا يريدون الجلاء ، فانما يفعلون ذلك حرصا على وحدة هذا الشعب !!

ومن اجل ان يؤكدوا لهم ما ما ذهبوا اليه .. جاءوا بمجموعة كبيرة من النباتات التي تنمو في اجواء مختلفة من العالم ... وزرعوها في مكان واحد من بوجور ... وقال الهولنديون : « لن يمر وقت طويل ، الا وتموت هذه النباتات التي نزعت من ارضها . »

ولكن الايام مرت .. سنوات طويلة ولم تمت النباتات ... لقد عاشت ونمت واصبحت اشجارا وارفة تجمعها مياه واحدة وتراب واحد .

وذهبنا لزيارة « حديقة النباتات » JARDIN BOUTANIQUE فوجدنا اشجارها تتعانق في حب ووفاء .. وتحت ظلالها يقضي الناس امتع الاوقات في ايام العطلات وبينها وحولها تمرح الغزلان .. وفي قلب هذه الحديقة الجميلة التي قامت فوق مساحة



بائع الشاي او « البابای » ، تسلل خلسة الى منطقة يحرم عليه الظهور فيها لأنها مزدحمة بعيون غريبة عليهم ولا يحب ان تراه مع سلعته الشعبية وعربته البدائية !

هائلة من الارض يقع قصر رئاسة الجمهورية ...

ومن هذه التجربة الحية الماثلة قامت البانتشاسيلا ... او المبادىء الخمسة ، الأساس الفلسفي لاندونيسيا ، وهي التي قام عليها نظام الحكم الجمهوري ، وكل مبدأ من هذه المبادىء متصل بالآخر ومكمل له .. الربانية المتفردة والانسانية العادلة والوحدة القومية الاندونيسية تحت ظلال شجرة وارفة ترمز لها وسلطة الامة الموجهة بالحكمة والحصافة في الحياة النيابية والعدالة الاجتماعية لكل افراد الشعب الاندونيسي .. واستوقفتنا الربانية المتفردة » .. وسألنا .

وقال لنا السيد عبد القادر محمد عيدروس وهو مسؤول كبير في وزارة الخارجية حرص على لقائنا عندما عرف اننا صحفيون عرب : « لقد وضع الشعب الاندونيسي هذا المبدأ في المقام الاول من فلسفة حياته .. ماذا تعني ؟ ان الاغلبية الساحقة تدين بالاسلام كما تعلمون ، ولكن هناك طائفة من الاديان الاخرى .. فهناك من يدينون بالمسيحية ، ومن يدينون بالهندوكية او البوذية وغيرها من المعتقدات .. وهناك بعد ذلك قلة قليلة لم تعتنق دينا ، ولكنهم يعترفون جميعا انطلاقا من ولائهم القومي ، بمبدأ الربانية المتفردة ، فقد اصبح هذا المبدأ من خصائص هذا الشعب » .

انا من اصل عربي

وكان صاحبنا يحدثنا بالعربية الفصحى ، حتى اذا ما وصل الى نهاية حديثه : قال : « انا من اصل عربي جاء ابي من حضرموت .. وعشنا وسط هذا الشعب وشاركنا في كفاحه ، واصبحنا منه ..

« انني اتحدث الاندونيسية ايضا وهي لغة غنية ، قد تبدو غريبة على من يسمع اهلها يتحدثونها وهي كذلك بالفعل لسبب بسيط فهي خليط من الملاوية والسانسكريتية والعربية والانجليزية والهولندية والبرتغالية .. ونحن نعتز بها ، فهذه هي اندونيسيا نفسها .. شعب متعدد الاجناس يعيش في هذه الجزر المتناثرة بين قارتي اسيا واستراليا في مياه المحيطين الهادي والهندي ، وتمتد طولا من الشرق الى الغرب لمسافة تزيد على الثلاثة الاف ميل ... ان لغتنا تمثل واقعنا » .

وفي قلب ميدان فسيح شاهدنا اكبر مسجد من نوعه في الشرق الاقصى .. انه مسجد الاستقلال الذي بدأ العمل في تشييده عام ١٩٦٣ واستغرق بناؤه خمسة عشر عاما .. وقام المسجد الكبير في نفس المكان الذي كانت



نموذج خشبي لطائر الجارودا الاسطوري الذي قيل انه كان يحمل في جسمه قدر اندونيسيا ، مع فتاة من بنات جاكارتا تتحدث العربية وتشغل منصبا رئيسيا في احد الفنادق الكبيرة أن المرأة عندهم تتمتع بكل حقوقها !

تحتله قلعة ضخمة بناها الهولنديون ، ولكنها بقيت في مكانها لاكثر من ثمانية عشر عاما بعد الاستقلال ثم بدأ العمل في ازالتها وبناء المسجد فوق انقاضها ، وبلغت تكاليف بنائه اكثر من ثلاثمائة مليون دولار ، وهو يتسع لحوالي مائة وخمسين الف مُصَلٍّ ، وفي وقت واحد .. وعلى بعد خطوات من مسجد جاكارتا الكبير قامت احدى اقدم كنائس اندونيسيا ، للكاثوليك ..

ومن اجل دعم الوحدة الوطنية ، قامت وزارة الشئون الدينية ، وفيها يجتمع رجال الاديان المختلفة باحدى قاعاتها الكبرى ، وهي اجتماعات دورية يجلسون فيها ويتباحثون في شئونهم وشئون اتباعهم ومشاكلهم ثم يبحثون عن الحلول وهي دائما موجودة بغير عناء .

الاستقلال الذي انتزعوه بكفاحهم المسلح وشارك فيه كل الشعب في المدينة وفي القرية وفي الغابة ... في الأرض والبحر ، اذاب كل ما يمكن ان يقوم بين افراده





داخل المتحف الوطني الذي شيده سوكارنو عام ١٩٦١ في قلب العاصمة . تستطيع ان ترى من خلال المجسمات داخل الصناديق الزجاجية الكبيرة . قصة اندونيسيا منذ عاش فيها رجل الغاب .. وهذا معبد يؤدى اسمه بوروبودور شيده البوذيون في جاوه الوسطى عام ٨٢٤ بعد الميلاد وهو احد عجائب الدنيا السبع .

الأخشاب .. غابات اندونيسيا غنية بها .. وهم يصدرونها . ولكنهم في الوقت نفسه يتفننون في حفرها وفي زخرفتها .. قبل تصديرها . وفي سوق الفنون تستطيع ان تقرأ تاريخ الشعب الاندونيسي في التماثيل الخشبية التي امتلأت به !



الحفر على الخشب ، صناعة تقليدية توارثها الابناء عن الاباء .. كلهم يحفرون الخشب في بيوتهم بعد ان ينتهوا من العمل في حقول الارز !

من حواجز عنصرية او طائفية او لغوية .. وهم لم يتركوا هذا اليوم الذي اعلنوا فيه استقلالهم مجرد ذكرى وطنية يحتفلون بها كل عام .. فقد حرص الرئيس سوكارنو ايام حكمه على تجسيد معنى الاستقلال في صورة قوية بارزة شامخة لا تخطئها عين .. ففي قلب احد ميادين جاكارتا الكبرى ، اقام مسلة عالية ، تحمل في قمتها شعلة الثورة التي لا تنطفيء ، والشعلة ليست من نار وانما هي من الذهب الخالص وتقدر قيمتها اليوم بحوالي ثلاثين مليون دولار .. وتحت المسلة ، قام المتحف الوطني الذي شيده ايضا سوكارنو ويحوي في داخله تاريخ اندونيسيا في منمنمات من التماثيل الحجرية داخل خزائن من البللور ، اشترك في صنعها أشهر فنانيها ..

وهي تروي القصة من اولها .. منذ ان سكن البلاد ابناء المغول الذين جاءوا اليها وقاموا بها من آسيا الوسطى قبل التاريخ حتى ما قبل الاستعمار الهولندي عام ١٦٦٨ م ، ثم محاولات البرتغاليين لاحتلال البلاد والكفاح المسلح الذي انتهى بطرد البرتغاليين ثم اليابانيين الذين احتلوا اندونيسيا مدة ثلاث سنوات ونصف قبل انتهاء الحرب الثانية العالمية ، وقد استغرق بناء هذا المتحف خمس سنوات من عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦١ وتكلفت المسلة والمتحف مبلغا يربو على الألف مليون دولار .

الجارودا

ثم انتقلوا يبحثون وينقبون .. وفي كتب التراث الاسطوري عثروا على طائر اسمه القارودا او الجارودا ، وهو يشبه النسر الى حد كبير ، او هو من فصيلة النسور ، ولا يعرف احد من الذي اوحي لهم بتأصل صورة هذا الطائر والوقوف عندها طويلا المهم انهم خرجوا في النهاية بشيء غريب . انه يحمل فوق جسمه قدر هذه البلاد .. ففي ريشه .. كتب لاندونيسيا أن تستعبد ، ثم تستقل وتتحرر في النهاية !! كيف لقد راحوا يعدون ريش كل جناح من جناحيه فوجدوها ١٧ ريشة في كل من الجناحين ... وانتقلوا الى ذيله فوجدوه يحوي ثماني ريشات ، ثم عنقه فوجدوا به ٤٥ ريشة ولم يكن الجارودا جديدا على اهل اندونيسيا ، فقد وجدوا صور هذا الطائر على جدران المعابد الهندوكية في الفترة الواقعة ما بين القرن السادس والسادس عشر الميلادي تماما مثلما وجدوه في كتب التراث .. لقد اعجبهم شكله فحملوه معهم الى معابدهم والى بيوتهم في بعض الاحيان .

وتمر القرون وتقع البلاد فريسة للمستعمر . ثم تستقل

في النهاية .. ويجيء يوم الاستقلال مطابقا لعدد ريش الطائر الاسطوري .. اليوم والشهر والسنة .. في اليوم السابع عشر من شهر اغسطس .. او الشهر الثامن من عام ١٩٤٥ اعلن استقلال اندونيسيا واصبح الجارودا في كل مكان وعلى كل شيء ... وهو اسم شركة الطيران الوطنية الاندونيسية .. وعلى طائراتها كان لقاؤنا لأول مرة بالمرأة الاندونيسية في ملابسها الوطنية .. انها النافذة التي اطلت منها في النهاية خلال سنوات ما بعد الاستقلال .. ومن خلالها اكتشف العالم ان المرأة في هذه البلاد البعيدة قد سبقت اختها في مناطق اخرى كثيرة .

فقد استطاعت المرأة في اندونيسيا ان تنتزع حقها في الانتخاب والترشيح في نهاية القرن التاسع عشر مع صيحة املين بانكهريست في انلجترا من اجل المساواة بالرجل . وقد رأينا المرأة في كل مكان .. في الحقل وهو ميدان العمل الكبير الذي يحتاج الى كل الايدي العاملة وحيث يعمل اكثر من ثمانين في المائة من سكان هذه البلاد .. ووجدناها في المصانع التقليدية القديمة التي تعتمد على الأيدي الماهرة المدربة على هذا النوع من الحرف المتوارثة . ومنها الحفر على الخشب وتطريز الاقمشة بخيوط الفضة والذهب .. وفي المصانع الحديثة .. وفي المكاتب الحكومية والشركات والبنوك والمؤسسات .. فهي هنا لابد ان تعمل من اجل كسب اكثر وحياة افضل .

سوكارنو يعود

ومنذ عام تقريبا خرج الشعب الاندونيسي يحتفل .. وكانت مناسبة خاصة دمعت لها عيون الكثيرين من ابنائه ... فقد ردت الدولة للرئيس الراحل سوكارنو وزميله في الكفاح محمد حتا اعتبارهما بعد مضي اكثر من عشر سنوات على وفاة سوكارنو .. وقصد سوهارتو رئيس الجمهورية الى الحديقة العامة في جاكارتا وازاح الستار بيده عن تمثالين كبيرين ، احدهما لسوكارنو والثاني لنائبه الاول الذي كان حتى شهر مارس من العام الماضي ما زال يكافح المرض ، ولعله العدو الوحيد الذي لم يستطع ان يهزمه فقد خرج من معركته الاخيرة معه مهزوما ، وهو الذي استطاع ان ينزل الهزيمة باعتى الغزاة .

وهكذا عاد سوكارنو بعد عشر سنوات من وفاته للظهور فوق قاعدة تمثال في حديقة عامة باعتباره احد رجلين قاما بتأسيس جمهورية اندونيسيا التي احتفلت في نفس هذا العام بمرور خمسة وثلاثين عاما على استقلالها .. ووقف الاندونيسيون يحيون « كانو الطيب » وزميله حتا الذي كان يخاطب الشعب من خلال كتبه ومؤلفاته عن الديموقراطية والفلسفة اليونانية الاقتصاد ، بعد ان عاد الى بلاده من روتردام يحمل الدكتوراه ويحمل الثورة في صدره على الاحتلال .

الوطنية لا تموت

وعند أدم مالك نائب رئيس جمهورية اندونيسيا وجدنا بعض الافكار عن حركة عدم الانحياز التي شهدت باندونج مولدها وعن الهوة السحيقة التي تزداد اتساعا بين الدول الغنية والدول الفقيرة .

قلنا : « لقد مات اخر ابطال حركة عدم الانحياز ، فهل يعني هذا العودة الى الانحياز وكنا نقصد بذلك تيتو رئيس يوغوسلافيا .

وقال ادم مالك : « هذا العملاق الذي ولد منذ اكثر من خمسة وعشرين عاما لن يموت ابدا . سوف تبقى حركة عدم الانحياز في قلوب الشعوب .. وهي وحدها التي تستطيع ان تقدم لنا زعماء جدد لقيادة بلادهم في هذا الطريق الذي اختارته الشعوب .. عدم الانحياز هو الوطنية .. والوطنية لن تموت .. ان ما نراه اليوم من انحياز الى الشرق او الى الغرب . ظاهرة مرحلية ... وعندما يلتقي زعماء الشعوب وتتكرر اللقاءات سوف تتغير الصورة .. هناك مشاكل ملحة افغانستان ، كمبوديا ، الشرق الاوسط ، ازمة الخليج .. لابد من صدور اعلان تحدد فيه دول عدم الانحياز موقفها من هذه المشاكل العالمية ، انني اقترح عقد مؤتمر عاجل في احدى الدول المحايدة ولتكن فيينا عاصمة النمسا » .

وعن الهوة السحيقة بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، يقول نائب رئيس الجمهورية ، « لابد من حدوث تغيير جذري في الاسلوب الذي تقدم الدول القادرة للدول المحتاجة مساعداتها على اساسه . الموضوع كله ، وهو موضوع حيوي ، في حاجة الى اعادة نظر للتخفيف من وطأة المعاناة في الدول الفقيرة التي تزداد فقرا . هناك المجاعات والانفجار السكاني والبطالة وازمة الطاقة والتلوث .. وكلها ازمات تشكل خطرا كبيرا على الدول النامية والدول المتقدمة على السواء .. على الفقير والغني الامر كله في حاجة الى تقييم جديد ..

وتركنا جاكارتا وذهبنا الى بالي وكان لنا معها رحلة اخرى .

■■

منير نصيف



تمثالان لسوكارنو ونائبه محمد حتا ، اقيما في احدى الحدائق العامة في قلب العاصمة ، وازاح الرئيس سوهارتو الستار عنهما في اغسطس عام ١٩٨٠ .. لقد رد الاندونيسيون الاعتبار لقائدي المقاومة بعد سنوات طويلة امضاها البعض في محاولات يائسة لاهمال دور هذين البطلين !

قشر الفول السوداني واصداف البحر صنعوا منها هذه الزهور الجميلة التي تمثل نماذج لما ينبت في أرضهم .. سوق الفنون تمتلىء بهذه الصناعات اليدوية النابعة من البيئة !

مسجد الاستقلال مسجد الاستقلال استغرق بناؤه خمسة عشر عاما ، وشيد في نفس المكان الذي كانت تحتله قلعة اقامها الهولنديون ايام الاستعمار .. وهو من اكبر المساجد في جنوب شرق آسيا ، ويتسع لأكثر من ١٥٠ الف من المصلين في وقت واحد .







اللعب

للأستاذ عباس محمود العقاد

« الحياة جميلة ... ولكن جمالها يقتضي أن يكون لنا زعماء للهو يصححون إدراكنا للحياة ، ويرهفون أذواقنا للجمال ، ويهيئون قلوبنا للسرور ، ويشغلون أوقات فراغنا بالمسابقات الرياضية ، والمهرجانات الوطنية ، والسياحات النهرية ، والملاهي الفنية ، والمواكب الشعبية .

كلام صادق

وربما كان أرفع من تقريظه بوصف الصدق تقريظه بوصف الجمال . فليس كل صادق بجميل .

لكن كم منا نحن المشارقة ، يا أخي ، يؤمن معك بحاجة اللهو الى زعامة ، وحاجة الأمة إلى لهو ؟

وكم منهم يؤمن معك بأن زعامة اللهو واللعب لها من الشرف والمنفعة كفاء ما للزعامات في الجد أو في الأمور التي تتراءى صبغة الجد عليها ؟

أقل من القليل .

أقل من القليل مع هذه الوقائع الناطقة التي تتوالى عليهم كل يوم بفضل الأمم التي تحسن اللهو واللعب على الأمم التي تتكلف التزمت والوقار .

وأقل من القليل مع تلك الشواهد التاريخية التي ليس يعمي عنها ذو بصيرة تشهد في الدنيا شيئا من الأشياء .

فما عرف التاريخ قط أمة أحسنت الجد ولم تحسن اللهو واللعب وما عرف التاريخ قط أمة من أمم القوة والسيادة لم تكن لها ألعاب ولم يكن لها زعماء في هذا المضمار .

وناهيك بالرومان وملاعبهم في كل مدينة وضعوا حجرا .

وبالفرس ومواكب الكرة والصولجان ، والعرب وميادين الفروسية ومنازه الصيد والقنص وما اقتبسوه من سائر الأمم والدولات حيثما ارتفع لهم عرش واستقرت لهم إمامة .

أما في التاريخ الحديث فيوشك أن يكون السبق في مضمار اللعب قرينا بالسبق في مضمار السيادة .

ويصدق من يقول إن بريطانيا العظمى تفردت بالسلطان العالمي يوم تفردت بالسبق في ألعابها ، وشوركت في ذلك السلطان يوم شوركت في تلك الألعاب فاللعب هو فيض الحياة .

ولن تكون سيادة بغير حياة أولاً ... ثم فيض في الحياة بعد ذاك .

●●●

لا يلعب الانسان وهو عليل .

ولا يلعب وهو محسور مغلوب .

ولا يلعب وهو مسلوب المشيئة .

ولكنه يلعب حين يصح ، وحين يفرح ، وحين يملك زمامه فيشاء ويفعل ما يشاء .

فاللعب والحياة الفائضة صنوان ، والسيادة والحياة الفائضة لا تفترقان .

لكنهم ضعفوا في الشرق فلم يفقهوا لغة الحياة ولم يلحنوا ما تقول حين تتكلم بكل لسان .

رأوا الطفل يلعب وهو قليل العقل .

ورأوا الشيخ يتجنب اللعب وهو كثير العقل أو كثير الاختبار فحسبوا أن اللعب ونقصان العقل متلازمان ، وأن الوجوم من اللعب ورجاحة العقل مترادفان .

فأخطأوا .

أخطأوا في الفهم كما أخطأوا في الشعور .

فما لعب الطفل لأنه أقل من الشيخ عقلا ، ولكنه لعب لأنه أوفر نصيبا من جدة الحياة .

الحكمة أن يلعب ويلهو ، ولعلمته بعد ذلك كيف يفتن في لعبه ويزيد في لهوه ، ويبز فيهما الأطفال والشبان .

● ● ●

وينبغي أن نفرق هنا بين اللعب الذي نعنيه ، وبين ما يلتبس به في بعض ظواهره ودواعيه .

فاللعب الذي نعنيه غير التسلية .

واللعب الذي نعنيه غير الرياضة .

لأن الورق والنرد والشطرنج تسمى ألعابا ولكنها لا تحتاج إلى فيض حياة ولا إلى تمام شعور . بل لعلها تحتاج إلى الكسل والراحة والفتور ، وهي في لبابها شغل من الأشغال ولكنه شغل فراغ .

ولأن الرياضة وسيلة إلى غيرها في كثير من الأحوال ، فهي بين رياضة تراد للحرب ، ورياضة تراد للعلاج ، ورياضة تراد لاحتمال المشقات ، ورياضة تراد للتجميل والتقويم .

أما اللعب الذي نعنيه فهو التعبير الملازم لحالة الفيض والاشراق فلا يراد بعد ذلك لغرض من الأغراض .

هو شيء كلمعان الزجاج حين ينتفي عنه الكدر وينجلي عنه النشاء .

فلا يقال إن الزجاج يلمع لهذا الغرض أو لذاك ، ولا يقال إن اللمعان وسيلة مقصودة ليبيعه البائعون ويشتريه المشترون ويصنعه الصانعون .

وكل ما يقال إنه يلمع لأن اللمعان طبيعة فيه ، وشعاع من نوره السابغ عليه .

وعلى هذا المعنى يدخل في باب اللعب ابتكار الفنان ، ووحي القريحة ، وتوقان النفوس الى العظائم ، وغرام العقول بالكشف عن المجهول ، ولألاء الجمال في الوجوه ، ولألاء الجمال في الأرواح .

وعلى هذا المعنى كذلك يعم اللعب فطرة الحياة حيثما وجد الأحياء فهو في الطير المغرد ، وفي الحوت السابح ، وفي الحيوان الطافر ، وفي كل ما يفيض بحياته فيندفع في ألعابه ، ويوشك أن يخرج من إهابه .

أما التسلية فليست من الفطرة .

وأما الرياضة فجانب فيها من الفطرة وجانب من ابتداع الجماعة الانسانية .

وليس اللعب الذي نعنيه تسلية ولا وسيلة اجتماع .

وإنما هو تعبير الحياة كلما امتنع الحائل بينها وبين التعبير .

● ● ●

وتبحث يا أخي عن زعامة للعب واللهو بين المشارقة « الموقرين » !

أعانك الله !

أتسبق الرياسة المرءوسين ؟

أم يسبق المرءوسون الرئيس ؟

علمهم أن يفهموا اللعب على معناه وأنت في غنى بعد ذلك عن تعليمهم معنى الجد أو تعليمهم معنى الحياة ، وفي غنى عن انتظار الزعماء ، وهم ما امتنعوا قط حيث وجد المستحقون لزعامة زعيم . ■■

عباس محمود العقاد

الرسالة ـ ١٢ فبراير ١٩٤٠



جوار قطع الكوبال تعيش اسماك بالوان متعددة .. وفي هذا المكان عثر الغواص على أربع قطع من اللؤلؤ ، تبلغ قطر كل واحدة منها ٣ مليمتر ، وكانت موزعة على خمسة امتار في هذه المنطقة .

(الى اليسار)



الغواص ومعدات الغوص التي يبلغ وزنها ما بين ٦٠ و ٧ كيلو جرام . (أعلا) يستخدم « الفلاش » تحت الماء في الليل وفي النهار ، وهو وحده الذي يكشف عالم الاسماك وعالم اللؤلؤ والمرجان . وتظهر مادة الكوارال ، والمنطقة قريبة من ميناء سعود .

البحر ذلك المجهول!

.. الخليج من القاع



البحر عالم ساحر مليء بالغموض ...

فهو الارض المغمورة والتي لم يستطع الانسان حتى اليوم أن يصل الى كل اسرارها ، انه هذه الدنيا الواسعة التي تسبح فوقها اليابسة ، وفيه ثروات هائلة يحاولون اليوم أن يصلوا اليها ويخرجوها الى السطح ، بعد ان ضاقت الارض بمن عليها ، وبعد ان استنفد الانسان كل مواردالثروة المطمورة في أعماق الارض فهو يتجه اليوم الى البحر يغوص في اعماقه ويتلمس كنوزه ...

قبل النفط في الكويت ، وقبل ان تكتشف الارض عما في جوفها من ثروات ، كان لاهل الكويت معرفة واسعة بالبحر ، فغاص العربي في اعماقه وانتزع محاراته في ظروف بالغة الصعوبة ، واخرج من جوفه اللؤلؤ النادر الثمين ، في تلك الايام لم يكن البحر غريبا ، بل كان محور حياة اهل الكويت وكان البحر اكثر سخاء من الصحراء .

والغوص اليوم هو الطريق الى اعماق البحر لكشف اسراره ، وهو هواية ورياضة تشغل الخيال ، وتقرب اليوم الذي يمكن فيه الحصول على احتياجات الانسان من أعماق البحر ، ولرياضة الغوص ناد خاص كجزء من النشاط الرياضي لشركة البترول الوطنية ...

ويمنح هذا النادي ترخيص الغوص الذي يمكنك من ممارسته في اي مكان من العالم .

وقبل ان نصل الى عالم الاعماق السحري نتوقف عند معدات الغوص فهي التي تمكن الغواص من الوصول الى العالم المسحور بكائناته البحرية وحيواناته ومحاراته ، فالغوص يحتاج الى وضع قناع الوجه المكون من نظارة زجاجية تغطي الانف وتمنع تسرب المياه للانف والعينين ، كما تمكن الغواص من التنفس عن طريق انبوبة الاوكسجين تحت الماء ...

كما ان الغوص العميق له استعدادات خاصة اهمها اجهزة التنفس تحت الماء التي استحدثت منها مقاسات مختلفة حسب العمق والوقت الذي يستغرقه الغواص تحت الماء .

وتمكن العلماء من الوصول الى تفاصيل فسيولوجية الغوص ووضعوا قواعد وجداول خاصة لها ، تحدد المدة التي يستطيع ان يمكثها الغواص في كل عمق من الاعماق المختلفة حتى اذا ماتعداها اصبح مهددا بالخطر ...

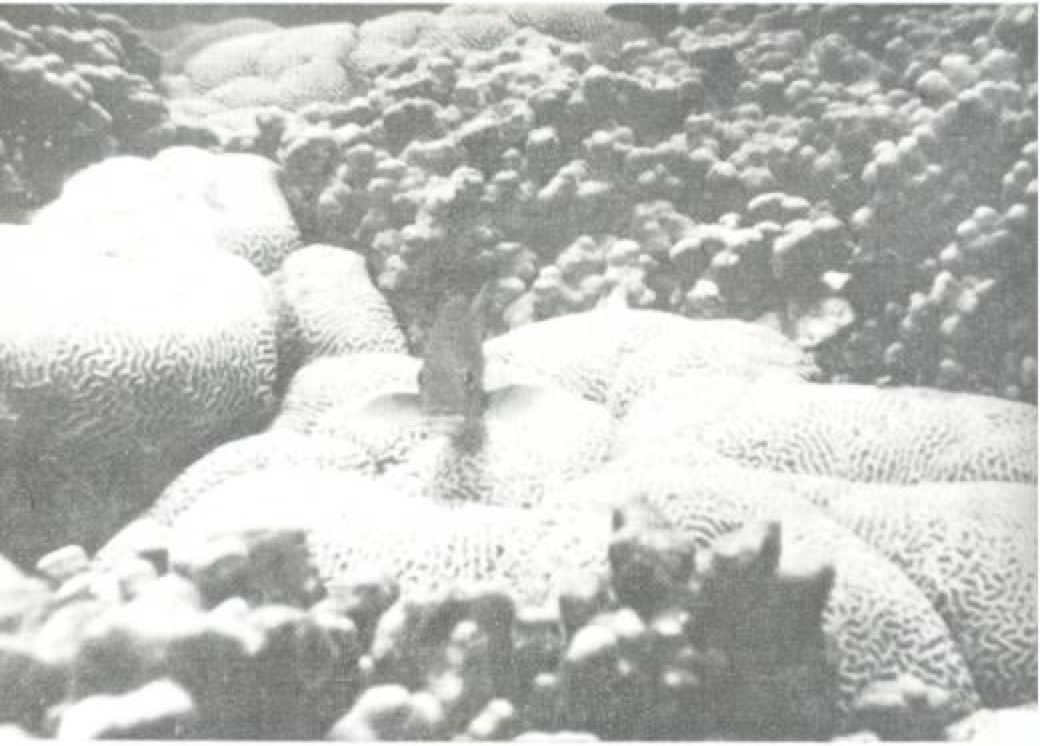
وتبلغ وزن معدات الغوص مابين ٦٠و٧٠ كيلو ...
والآن ماذا أنت واجد في اعماق الخليج ... ؟

قبل مصاحبة الغواص نتعرف على أعماق الخليج وعلى شعبه المرجانية التي تتكون من صخور كربونات الكلسيوم التي صنعتها الاحياء المائية ، وهي احياء حيوانية مابقيت في الماء ، وهي احياء صغيرة عندما تنظر اليها تجدها صماء لافتحة لها سوى في أعلاها وهي « الفم » ، وفوق الفم زوائد متحركة هي الملامس ، عددها ست من المرجانيات الاصيلة تحمل الطعام الى جوف الكيس ، وهذه الملامس خلايا تفرز السم الذي تحمله الى الضحية التي يسوقها سوء الحظ اليها ، وتلامس شعيرات تخرج من هذه الملامس قبل أن تلتهمها ، لذا تجد ان الجزر المرجانية والشعب المرجانية تبنيها كائنات دقيقة لا تكاد ترى بالعين المجرد من فرط دقتها وبسبب صغرها وبسبب استقرارها وعدم انتقالها ، ولاترى العين في هذه الصخور ما يوحي بوجود أية حياة ، سوى ان تجد ما له مظهر النبت فتحسبه نباتا ، ففيه الجذوع وفيه مايشبه الأوراق والأزهار ، وهي صخور ملونة كأن لونها جاء من انعكاسات البحر ، ولكن الحقيقة ، أن اللون من هذه الاحياء ذاتها ، فهي التي صنعته ، وهذه الاحياء المرجانية لها الوان متعددة ، ولكن كيف تتكون ..؟ .. إنها حيوانات صغيرة تعيش في ثقوب صغيرة على سطح التكوين المرجاني ، وتتجمع هذه الكيانات بعضها على بعض ، وهي تبلغ بلايين البلايين من الخلايا الحية ، تموت هذه الاحياء فيخلفها غيرها ، وهكذا تتكون الشعب المرجانية ....

ومن غرائب الطبيعة ان هذه الوحدات تحيا حياة متكافلة فتقوم بينها قنوات تحمل الطعام من حي الى حي ، فكل يصيد والجميع يتغذى ...

ولهذه الكائنات أهداب تعمل في حركة ذاتية لترشح غذاءها من ماء البحر الذي يحتوى على مواد عضوية وكائنات دقيقة للغاية تلتهمها حيوانات المرجان القابعة في ثقوبها او بيوتها ..

ولهذه الحيوانات قدرة مدهشة على امتصاص املاح



اعماق الخليج كما تظهرعند ساحل« القنطاس » ، الكوبال والمرجان والاسماك .

الكلسيوم الذائبة في ماء البحر ثم تفرزها لتبني بها بيوتها ، اى هياكل المرجان في هندسة رائعة وتشكيلات متعددة تختلف من مكان الى اخر ، يحار حياله العقل الانساني .... !

وافراد هذه الكائنات الدقيقة لاتخطىء ابدا في تشييد النموذج المميز « للمستعمرة » ، وافراد المستعمرة بدورها تفرز قواعد جيرية داخل الثقوب ، وبذلك تمتد ويعلو عرشها وفرعها حيث تسكن الاعضاء الحية للحيوان في الأدوار العليا التي بناها ، كما تبنى الافراد لها حواجز شعاعية ذات نظام هندسي بديع يدعم البناء ويُقَوّيه في مراحل نموه ..

وتنتشر هذه المستعمرات في المناطق الحارة لاحتياجها الى درجة مرتفعة من الحرارة وكمية من الضوء ، وحركة خاصة للماء تتولد بفعل الأمواج والتيارات .

وهناك المرجانيات الصخرية التي تعيش متحدة مع بعضها في مستعمرات كبيرة تضم الواحدة منها آلافا عديدة ، وكل منها يبنى لنفسه هيكلا متناسقا من المادة الجيرية التي تستخلصها خلاياه الحية من ماء البحر ،

وتتضافر هذه الهياكل مع بعضها البعض وتتخذ المجموعات المرجانية اشكالها المعروفة ...

●●●

وترى عجائب هذه المخلوقات في بيئتها الطبيعية يراها الذي يغوص في مياه الخليج ، فتفتنه بجمال ألوانها وبريقها ومزيجها الغريب من كل الوان الطيف المعروفة التي تختلف بين الاحمر والازرق والاخضر ، والاصفر والبنفسجي ، مع ماينتج من تداخل بعض هذه الالوان ...

وعندما تتكسر هذه الشعب المرجانية ويتعكر القاع تحت اقدام الغواص ، فانه يشاهد زحفا من قوافل هذه الأسماك التي يبدو انها ستهاجم الغواص ولكن الحقيقة انها تبحث عن الكائنات الدقيقة التي ستتناثر بسبب قلقلة قطع المرجان المكسورة ، او بسبب اهتزاز رواسب القاع مما يسهل عليها اقتناص الغذاء لهذه الاسماك ...

وبعض المرجان متشعب كالاشجار والبعض الأخر مثل قرون الوعول ، وبعضها كروى الشكل تلافيفه



سمك عروس البحر الذي يتراوح لونه بين الاصفر والبني ، وتظهر في الصورة احدى الاسماك النادرة ذات الالوان المخططة .



تشبه تلافيف المخ ، وهناك تجمعات تشبه المظلة او نبات « عش الغراب » ، واذا اقترب الغواص من حافة هذه الشعب المرجانية حيث المياه متجددة والتيارات المائية محسوسة فانه يجد مايشبه السياط الضخم تهتز مع حركة الماء ، كأنما هي حيات تسعى ..

هذا هو المرجان الذي تراه يزين جيد امرأة جميلة او فص خاتم قيم ..

!

وننتقل الان الى تجربة الغوص على سواحل الكويت كما مارسها أحد الهواة ، ونصحبه في رحلة غوص بعد ان ان نقل بالظلال والاضواء تجربته الحية عن طريق التصوير تحت الماء .

وجد راينر فندت الألماني في هواية الغوص مايملأ حياته ، وفتحت له هذه الهواية عالما مسحورا لايمل لحظة من مراقبته ورصده وتسجيل مااستطاع من لقطاته .

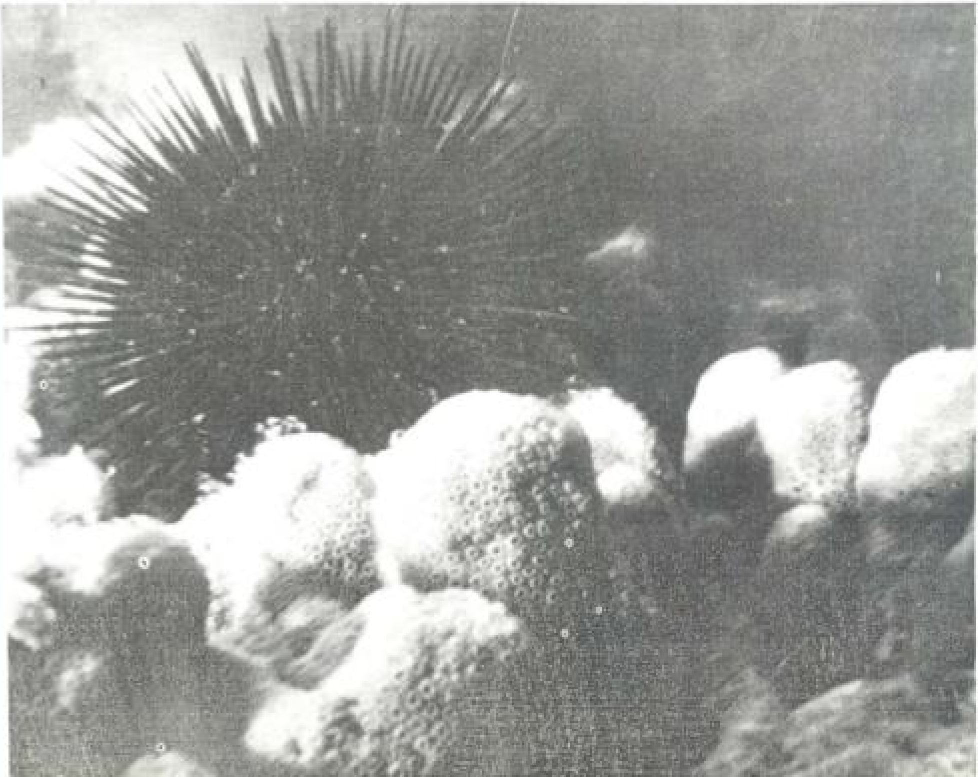
وندعه يروي تجربته ، يقول : « رياضة الغواص مملوءة بالاثارة ، تقدم لصاحبها فرصة لاتعوض لمشاهدة الجمال الآثر تحت الماء ، وتكشف لمن يمارسها مدى نقص معرفة الانسان باعماق البحار ، فمن خلالها ترى عالما باكمله لم يستكمل اكتشافه بعد ، وعندما تكتمل المعرفة باعماق البحر سيتوصل الانسان الى موارد جديدة لغذائه ، وامدادات لاتنفد من المواد الخام المطمورة ، وقد كان شاطىء الكويت هو نافذتي على هذا العالم .. فيها عثرت على العديد من الحيوانات البحرية مثل الاسفنج الذي تتجاوز منافعه النواحي الطبية ...

وكما تزايدت معرفة الغواص بأعماق البحار تزايدت متعته بغرائب الطبيعة وثرائها ، وقد ادركت في قاع البحر ذلك الخطأ الشائع بأن الصحراء الممتدة على طول البصر في الكويت هي مصدر المتعة الوحيد .....!

وسينقضي بعض الوقت حتى يتمكن الغواصون من كشف أسرار أعماق الخليج على سواحل الكويت ، ويقدمون مابه من متعة وجمال و يرصدون حركة أسماكه من الحبار الى عروس البحر ومن عالم الكورال الى المرجان ...

ويحتاج من يريد الوصول الى هذا العالم وكشف خباياه ، الى الصبر الطويل والى العين المدربة التي تلاحظ الكائنات البحرية وترصد طباعها .. »

« الاحياء المائية » ، الاشكال العجيبة كما تظهر في أعماق « ميناء سعود »





اشكال هندسية والوان متناسقة في اعماق الخليج .

ويضيف .. « وكان على لكي أنقل ماشاهدته بالكاميرا أن أبحث عن المناطق التي تتوفر فيها الرؤيا الواضحة ، ولم تكن كل رحلة غوص في البداية مجدية ، فمن الصعب النجاح في المرات الاولى ، وكان من الضروري لحصولي على الموضع الناجح من البحث الطويل عن المكان الصحيح ..

واقنعتني التجربة انه لكي احصل على افضل النتائج ، فلابد أن أقوم بالتصوير خلال الليل مع استخدام الاضاءة الصناعية ، وبالطبع لايمكن الحصول على نتائج جيدة بدون الاستعداد للمخاطرة ...

فمن المخاطر التي يواجهها الغواص اسماك التعابين التي تنتشر على سواحل الكويت وبعض هذه التعابين سام ينبغي تجنبه ، كما التقيت كثيرا باسماك القرش الصغيرة ، ولحسن الحظ لاتقترب الاسماك الكبيرة الخطرة من الساحل ، وهذه الأسماك الصغيرة ليست في خطورة الكبيرة منها ..

وعندما اواجه أيا من هذه الاخطار أتوقف تماما عن الحركة وأبقى ساكنا حتى يمضي الخطر ، وأعاود العمل من جديد .. »

ويمضي قائلا .. « ان اجمل النتائج التي حققتها كانت في منطقة قريبة من « ميناء سعود »فهناك تصفو المياه وتظهر مساحات كبيرة من الكورال الاحمر .

« وكان غريبا وجود هذا النوع في مياه الخليج ، فما ترد، الكتب يحدد وجود هذا النوع من المرجان قرب سواحل جزر المالديف ، ولاتذكر شيئا عن وجوده في اعماق الخليج ...

اما انواع الكورال العديدة فهي موجودة بكثرة بالقرب من مدينة الكويت وتنمو مع الوقت وتتسع مساحته ...

● البحر .. ذلك المجهول .. !! ؟

وقد لاحظت انه عندما اصل الى خمسة امتار تحت الماء تظهر الاعماق شديدة الوضوح ، وهناك تشاهد الاحياء المائية المتعددة الاسماك بانواعها المختلفة والوانها ساكنة خلال النهار كما يتغير الوان بعض هذه الاسماك مع الانتقال من النهار إلى الليل ..

وقد ساعدني على متابعة الغوص طوال العام أن هذه الرياضة يمكن ممارستها في كل من الصيف والشتاء وخلال الحر والبرد بفضل ملابس الغوص المجهزة لمواجهة الظروف المناخية المختلفة ..

وعالم الاعماق المثير لم يكتشف بعد ولم ينقل إلا القليل منه بالكاميرا ،وما اخشاه ومااريد ان انبه اليه ان سواحل الكويت في خطر كبير ، فكثير منها قد افسده التلوث سواء من المواد الكيماوية أو النفط الذي يتسرب اليه ، أو يلقى فيه ، ومن خلال طرق الصيد البدائية التي مازال يتبعها البعض ....

وكم أتمنى ألا يكون الساحل في الكويت من ضحايا التقنية الحديثة ..

ومازالت الاعماق تتمتع ببعض صفائها بعد القنطاس ، ومازالت الحياة البحرية قائمة في أجمل صورها هناك ، فترى عالم الاسماك البديع ، ومنها يمكن رصد السلوك المميز للانواع ، المختلفة من الاسماك ، فترى كيف تتضامن انواع من السمك لبناء بيئتها ثم تتضامن لطرد كل غاز او دخيل على موطنها الذي أقامته في تعاون يقدم درسا للانسان ..

وقد اصبحت من خلال تجربتي الطويلة في الغوص أعرف أماكن المجموعات المختلفة من السمك وفي بعض الاحيان انتظرها مايزيد على الساعة في مكان معين لكي أراها في رحلة عودتها ، وأجمل هذه الاسماك هي تلك المسماة بسمك الملاك الازرق Plue Angel Fish والاسماك ذات اللونين الاصفر والبني والتي تسمى Fish Butter Fly .

وأخيرا

ان هذا العالم الرائع ينبغي ان نحافظ عليه ، وان نسجل كل تفاصيله قبل فوات الاوان ، ونبحث عنه فلا نجده ...

لقد وجد المتحف الوطني فائدة في عدد من اللقطات لبعض الاسماك ، فرغم ان المتحف يحتفظ ضمن مجموعته بها ، الا انه لوحظ انها تفقد لونها مع الوقت .. ومازالت مهمة تسجيل كل ماتحتويه سواحل الكويت ، تنتظر من يقوم بها ، لتوضع أمام العلماء والباحثين ■■

ملك السمك King fish وموطنها الطبيعي مياه البحر الاحمر ، وشاهدها الغواص منذ تسعة شهور لاول مرة .



هذه الاسماك الملونة البنية والصفراء تسمى فراش السمك Butter fly fish ، وفي الاعماق يشاهد عالم بأكمله ، أصناف وألوان تعيش في ثقوب صغيرة على سطح التكوين المرجاني . وفي الصورة اشكال من الكورال ينتشر على طول السواحل الكويتية .





لاتصدق باعة الأدوية

علاجك في .. فيتامينات الأعشاب

بقلم : الدكتور صالح مهدي ذرب

في مزرعة الطبيعة حدائق كبيرة من اعشاب ونباتات غنية بالفيتامينات ... في الغابات والحقول وفي المحيطات ايضا . فهذه الفيتامينات موجوده على شكل نباتات (ثمار الارض) وتحضر بطرق كمالية ، وبقدرة الهية عظيمة .

ان سحر الفيتامينات العشبية هو في شفائها للناس واستعمالهم لها منذ الاف السنين ، وقبل اكتشاف الادوية المصنعة ، وبين الحديث والقديم والحاضر والماضي فالفيتامينات دواء نقي وطبيعي لا دخل لمصانع الادوية ويد البشر في تكوينه .

والقدماء كانوا يعلمون ان في ذلك العشب وتلك الاوراق مواد سحرية تساعد على شفاء العديد من الامراض تلك هي الفيتامينات ولقد عاش الاولون بصحة جيدة بفضل هذه المركبات السحرية

العرب والفرس والاغريق الاولون

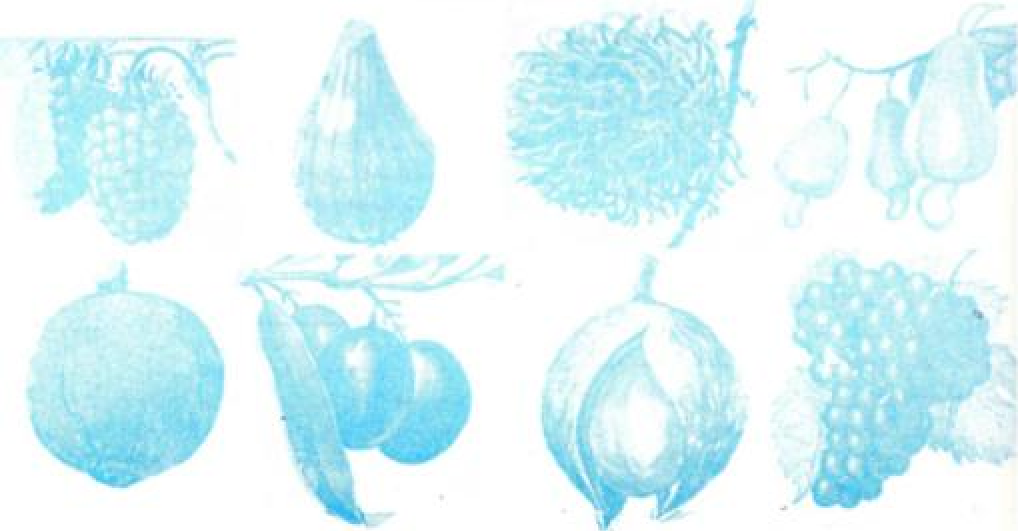
ان القدماء في منطقة حوض البحر المتوسط كان لهم معرفة جليلة بـ « قوة الشفاء » في الفيتامينات العشبية التي كانوا يسمونها بالادوية السحرية . وقد استعملت الاعشاب كعلاج طبيعي منذ ٢٥٠٠ عام قبل الميلاد ، واكتشف الباحثون الكثير من الكتابات السومرية في بلاد وادي الرافدين تدل على استعمال السومريين لطب الاعشاب . وحتى ١٦٠٠ ق . م كان للمصريين المعرفة والعلم الكبيران بهذا الطب . واعتبر الفرس والاغريق ان الاعشاب بما تحتويه من سحر هي طبهم المقدس اهدتهم الطبيعة اياه .

واليوم ... وكما كان الاقدمون فان الاعشاب بما تحتويه من فيتامينات تستعمل للوقاية من الامراض ولعلاج الجسم والعقل والمحافظة على التوازن الحيوي داخل الجسم .

سحر الفيتامينات العشبية

ان فيتامينات الاعشاب لها القدرة على مساعدة تنظيم وتثبيت عمليات الاحتراق داخل الجسم من خلال المساعدة في بناء وتلف ملايين الخلايا .

ان غذاء صحيا جيدا ومستمرا من الفواكه الطازجة والخضروات واللحوم والبذور كفيل باعطاء الجسم الفيتامينات العضوية . غير ان فيتامينات الاعشاب قد تساعد على علاج مرض معين في منطقة معينة من



الجسم . هكذا تعلمنا من الاولين وهكذا اثبت العلم الحديث ان هناك فيتامينات مستخلصة من الاعشاب ولها الفاعلية فى شفاء امراض مختلفة .

انت باستطاعتك السيطرة على مزاجك اليومي باستعمالك للفيتامينات العشبية التي تحميك من الضغوط النفسية والكآبة والامراض العصبية الاخرى ، وذلك بتطوير برنامج تغذيك اليومي . فامتناعك عن تناول بعض الاغذية يساعدك على انهاء ازماتك العصبية المتكررة . فهناك مادتان غذائيتان يجب عليك الامتناع عنها ولاتشركها فى غذائك اليومي ، اذا اردت ان تتمتع بحياة هادئة خالية من الضغوط العصبية ، وهاتان المادتان هما السكر وملح الطعام فبتخلصك منهما تكون قد وضعت قدميك على بداية طريق صحي وسليم .

حكت لى سيدة بدينة ذات يوم عن الظروف الصعبة التى كانت تعيشها تحت ظروف قاسية محاطة بضغوط نفسية مستمرة فجيرانها يزعجونها بضوضاء مستمرة وافراد عائلتها يتكلمون بصوت عال والبيت ممتلىء بالضيوف دائما . وما يجرى فى بيتها لا يمكن ان يطيقه انسان مرهف فهى تعمل فى مصنع كبير ، بضوضائه واصوات الناس والمكائن والتلفونات ، كل ذلك كان سببا فى تعاستها وجعلها عصبية المزاج دائما وكانت تعتقد انها ستصاب بنوبة عصبية يوما ما تقعدها فى مستشفى المجانين خصوصا ما تلاقى اثناء عودتها من العمل الى البيت من ازعاج المارة وزحمة المرور وضوضاء الشوارع المزدحمة . وهكذا فقد قررت ان تضع حدا لكل هذا قبل فوات الاوان وقررت تلك السيدة تخفيض وزنها وذلك بتخلصها من السكريات من الاغذية التى تتناولها . وبعملها هذا اخذت صحتها بالتحسن واخذت نوباتها العصبية بالاختفاء . وقد جربت مرة استعمال السكر فى غذائها ولاحظت اضطراب اعصابها مرة اخرى ، لذا قررت ترك السكر تماما وقد ساعدها فقدانها للوزن كثيرا فقد بدت رشيقة هادئة الاعصاب دون ان تقلل من كمية الغذاء الذى كانت تتناوله سابقا .

اين ذهب الصداع ! الى اين ولت تلك النوبات العصبية ؟ كانت تسأل وتجيب فقد اصبحت تعيش فى تلك الظروف بشكل طبيعي ... وشكرا للتخلص من السكر !

ولقد اثبتت التجارب ان التخلص من السكر والاكثار من الفيتامينات الطبيعية هو اهم الاسباب

التي تعطي الانسان حياة صحية خالية من الازمات العصبية .

ان احتراق السكر داخل جسم الانسان يعني استهلاك لفيتامين ب المركب الذي يساعد على تهدئة الجهاز العصبي ، وذلك عن طريق كسر الشبكة العصبية بمادة عازلة عن المؤثرات التي تسبب الازمات العصبية ، فغياب هذه المادة العازلة الناتج عن فقدان او نقص فيتامين ب المركب والذي يستهلك باحتراق السكريات ، هذا يعني ازمات عصبية وتدهور في الحالة النفسية للانسان .

احذر ملح الطعام

وكما ان للسكريات مضارها فملح الطعام له مضار اخرى ايضا فهو يزيد من الاضطرابات النفسية ويجلب الضيق والكآبة . وله تأثيرات مباشرة على الفيتامينات داخل الجسم وغيابه يساعد الفيتامينات في اداء عملها في بناء واعادة بناء الانسجة والاعصاب . ويبدو ان لملح الطعام الاثر في جعل الدم حامضيا اكثر الامر الذي يسبب في تلف العديد من الفيتامينات في الدم ، وكذلك بعض المعادن . وبصورة خاصة فان ملح الطعام يتسبب في نقص كمية البوتاسيوم داخل الدم وهذا يؤثر على الموازنة في الخلايا والانسجة ، الامر الذي يؤدي الى تدهور الحالة الصحية وهكذا فجميع الفيتامينات التي تعمل مع معدن البوتاسيوم سوف تقف عن العمل وتتأثر الاعصاب نتيجة لذلك ، مما يؤدي الى تفاقم الحالة العصبية غير أن تنظيم الغذاء والتخلص من ملح الطعام ولو لفترة سيكون سببا في تغذية الخلايا والانسجة بالفيتامينات الضرورية لها وبالتالي مساعدة الاعصاب وتهدئتها .

ان كثيرين من ذوي المزاج العصبي الحاد تركوا استعمال ملح الطعام في اغذيتهم لسبب او لآخر ، واكتشفوا سرا كبيرا حين عادت اليهم حياتهم النفسية الهادئة ، وغاب عنهم الصداع المستمر الناتج عن توتر الاعصاب وضعفها .

ان تركك للسكريات وملح الطعام في غذائك لايفقدك شيئا ويكسبك الكثير وتعاطي البذور المحمصة كبذور عباد الشمس والصنوبر وبذور الرقي بذور السمسم وغيرها مما يدعى « مسليات ليالي السهر » له الاثر الكبير في تهدئة اعصابك وتقويتها ، ففي هذه البذور كميات من الفيتامينات ب أ وب المركب .

وقوة للابصار

انك عندما تتعاطى الاغذية الغنية بالفيتامينات الطبيعية فانك ترسل تيارا مستمرا من الفيتامينات الى مجرى الدم وتعطي جسمك صحة افضل واعضاءقوية . وعيونك هي من تلك الاعضاءالتي تحتاج هذه المواد الساحرة ، وعندها فانك ستفوز بنظر قوي طوال حياتك خصوصا وان هناك علاقة بين قوة النظر وصحته وفيتامينات النظر .

لي صديق يعمل في مكتبة كبيرة مسئول عن جرد قوائم الكتب الطويلة ، وخلال عمله الشاق في جرد الاسماءوالارقام الكثيرة لاحظ ضعفا ملموسا في نظره رغم انه يستعمل نظارات طبية . وبضعف بصره اصبح من الصعب عليه مواصلة عمله . ومن مطالعاته كان هذا الصديق يعلم بوجود عصير يسمى« مقوي البصر » وهو عبارة عن قدح من عصير الجزر مع كمية قليلة من الكبد المسحوق وكمية من عصير الليمون لاعطاء العصير طعما جيدا ، ويستعمل هذا الخليط الغني بالفيتامينات المقوية للنظر عند الفطور والغذاء.ويستحسن ان يؤخذ ثلاث مرات يوميا .

وسر هذا الخليط في احتوائه على كمية كبيرة من فيتامين أ ، الذي يمتص الى مجرى الدم ويساعد في تكوين مادة رودوبسينRhodopsin وهي المسؤولة عن قوة النظر .

وهكذا تحسن نظر هذا الصديق بتناوله ذلك العصير ثلاث مرات يوميا وحسن برنامج تغذيته بتناوله كميات من اوراق الخضروات والمشمش المجفف مع زيت كبد الحوت الغني بفيتامين أ . الامر الذي مكنه من استمرار عمله بغير متاعب وبغير ذلك ، الصداع الذي كان يلازمه باستمرار

ان الجزر يحتوي على كميات كبيرة من مادة الكاروتين ، التي تتحول الى فيتامين أ داخل جسم الانسان وكما ان الكبدة المسحوقة تحتوي على كمية لا بأس بها من فيتامين ب المركب وهي عبارة عن قطع من الكبد الطازج تجفف بالتسخين الهادئ لازالة الشحوم والماء والالياف دون تلف المواد الغذائية فيه . وفيتامين ب المركب يقوي الخلايا والانسجة ويعمل مع فيتامين ـ أ في تغذية انسجة العين واعطائها نظرا افضل واقوى .

ان الفواكة الغنية بفيتامين ـ جـ تساعد في بناء الكولاجين الذي يدخل في تركيب قرينة العين وانسجتها ، وكما ان فيتامين ـ ج يساعد في تغذية السوائل التي تغسل العين . ويوجد هذا الفيتامين في الفواكه والخضروات .

الفيتامينات تقوي جهازك الهضمي

ان الفيتامينات الحية توجد في الاغذية الحية وتساعد على احياء جهازك الهضمي . والاغذية الطازجة هي مصدر مهم ومستمر للفيتامينات ، التي تقوم مع الانزيمات بدور كبير في بناء الجهاز الهضمي وابقائه في حالة جيدة .

وعلاقة الفيتامينات مع الانزيمات هي علاقة مهمة . وهذه العلاقة هي المسئولة عن الاسراع في جميع العمليات الحيوية داخل الجسم .وبغير هذين العنصرين فان عملية الهضم تكون بطيئة او قد تتوقف ويختل الجهاز الهضمي عندها . وعند تناولك الخضروات الطازجة وعصير الفواكه الطازج ، فانت ترسل الى جهازك الهضمي من القوة والمنعة ما يجعله يقوم باعماله طوال اليوم .

ومن المصادر الطبيعية التي تحتوي على تلك المواد ، أي الفيتامينات والانزيمات (فيتا انزايم) الفواكه الطازجة والخضروات الطازجة الحبوب الطازجة البذور الطازجة ، الزيوت الطازجة والعصير الطازج .

فاذا اردت ان تعيش بجهاز هضمي جيد فعليك بالاغذية الطازجة كل يوم . فانت بذلك تهدي جهازك الهضمي الفيتاانزيمات التي تجعله يقاوم كل الطوارئ العارضة ويعطيك هو بدوره صحة جيدة وسعادة مستمرة ، ففي هذه المركبات الطبيعية مفتاح تنظيم وتنظيف الامعاء الغليظة والدقيقة

عش بعيدا عن الروماتيزم

من خلال تغذية جيدة فانت تبني مقاومة لجسمك ضد الامراض الروماتيزية ، والمصاب بهذه الامراض باستطاعته التخلص منها ، فمفتاح الخلاص هو في نوع الاغذية المتناولة ليس الا . والفيتامينات هي الطبيب الطبيعي الذي باستطاعته اعادة ماتلف وإعادة التوازن وحماية الجسم من امراض المفاصل .

« فلا يصاب احد غذاؤه صحي وجيد بامراض الروماتيزم وامراض المفاصل . هذا ما يؤكده الاطباء الاخصائيون الذين يعالجون هذه الامراض .

وعلماء التغذية يعلمون بان الحالات العصبية والاضطرابات النفسية لها الاثر الكبير في فقدان الشهية ، وفي عملية الهضم والامتصاص وينتج عن ذلك تغيرات بايولوجية تؤثر على العظام والمفاصل .

وقد نجحت جميع التجارب التي اجريت على المرضى المصابين بامراض الروماتيزم وذلك بتغيير نوع الاغذية التي يتناولها . ولكل مريض حالته الخاصة وظروفه الخاصة . ولقد لوحظ ان جميع هؤلاء المرضى ينقصهم فيتامين ـ ج والبروتينات ، لذا فان كميات كبيرة من فيتامين جـ مع ثلاثة اقداح من الحليب الطازج الذي يحتوي على مواد طبيعية تمنع التصلب وتحديد كثير من تاثير المرض وآلامه .

ان الاسبرين هو احد الادوية الكثيرة الاستعمال في هذه الايام ، وعند استعماله عند الضرورة يجب ان يستعمل بكميات قليلة لانه يسبب في تلف فيتامين ـ ج رغم انه يخفي الالام . فعند استعمالك للاسبرين عليك بتناول عصير البرتقال الطازج لتعويض كميات فيتامين ج المتلفة .

والهرمونات الصناعية تتسبب في تلف عدد كبير من الفيتامينات والبروتينات ايضا .

ان الطبيعة هي مصدر الدواء والصحة فلنكن اصحاء بصاحبة ثلاثة عشر فيتامينا طبيعيا متوفرة في الاغذية النباتية والحيوانية والاعشاب .. ومنها فيتامين أ الذي يساعد على النمو الطبيعي ويساعد ايضا الجلد الخارجي للجسم على أن يبقى بحالة جيدة وطرية ويعطيه المقاومة ضد الالتهابات وفيتامين د هو الاخر ضروري للجسم فهو يساعد في بناء العظام والاسنان وهو في الحليب وبكميات قليلة في صفار البيض والزبد ، والكبد، كما يوجد بكميات كبيرة في سمك الساردين واسماك اخرى وزيت كبد الحوت الذي يعد مصدرا جيدا لفيتامين د . ■■

د .صيدلي : صالح مهدي ذرب/ جامعة الفاتح
طرابلس / ليبيا

اسمه أوليا جولبي :

تجربة مثيرة لرحّالة تركي

قضى ٤٤ عامًا في ٢٣ دولة

بقلم الدكتور محمد حرب

■ عندما كان في صوفيا ١٠٠ مسجد وفي بلغراد ٢١٧ وجزية اثينا وقفا على الحرمين .

هذه رحلة فريدة في نوعها ، قام بها رحالة تركي مسلم هو اوليا جولبي ، وقضى فيها حوالي نصف قرن .

لقد قام اوليا جلبي برحلته في القرن السابع عشر واستمرت ٤٤ سنة بدأها من استانبول ، وشملت ٢٣ دولة من الدول المعروفة اليوم هي : تركيا وروسيا والبانيا وبلغاريا واليونان ورومانيا ويوغوسلافيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا والنمسا وبولندا وايران والعراق وسوريا ولبنان والاردن وفلسطين والسعودية ومصر والسودان والحبشة والصومال وجيبوتي .

وقد ترجمت هذه الرحلة من اللغة التركية العثمانية الى : الالمانية والروسية والانجليزية والفرنسية والمجرية والبلغارية والصربية واليونانية والارمنية . كما ترجمت مقتطفات منها الى بعض اللغات الاوربية الاخرى ، وظهرت ترجمة عربية لبضع صفحات منها خاصة بالشام في مجلة المجمع العلمي بدمشق .



مسجد السلطان احمد باستانبول

■ صورة مفصلة لعواصم العرب في القرن ١٧ : القاهرة ودمشق وبغداد والقدس .

واهمية هذه السياحة او الرحلة التي طبعت بلغتها التركية في اوائل القرن في عشر مجلدات ضخمة . انها تحتوي على تسجيل دقيق لما شاهده هذا الرحالة اليقظ الذهن . تسجيل يهم المؤرخين في كل البلاد التي زارها وغيرهم من المؤرخين عامة . فهي تسد نقصا كبيرا في المعلومات عن هذه البلاد . فضلا عن أن جانبا مما سجله الرحالة التركي يهم جدا كافة المهتمين بتاريخ الطب ، لانه سجل بدقة الامراض التي رآها والادوية التي كانت تستخدم لشفائها . ايضا فان دارسي التراث الشعبي في الشرق وفي الغرب لابد وان يدركوا القيمة الكبيرة التي تحتويها الرحلة ، والذين يدرسون الاثار عموما ، والاثار الاسلامية خصوصا ، يشعرون بمدى اهميتها . اذ ان اوليا سجل ما رآه من آثار تسجيلا دقيقا بالاضافة الى انه نقل شواهد اثرية كثيرة كانت مكتوبة على الآثار الى رحلته . زالت بعض هذه الاثار ، وبقيت رحلة اوليا تحدثنا عنها الحديث المفصل الدقيق .

لم يكن اوليا مجرد رحالة ناقل مدون فقط ، وانما كان عالما يقرأ تاريخ البلدان التي يزورها ثم يسجل ما يراه ايضا . فاوليا جلبي هذا الرحالة التركي قد قرأ القزويني والمقريزي والطبري والذهبي وغيره في اللغة العربية ، بالاضافة الى مراجع في لغات اخرى ، قبل ان تطأ قدماه البلاد التي زارها .

اهتم اوليا جلبي بتدوين الارقام اهتماما بالغا ، بل انه نقل فقرات كثيرة من السجلات الرسمية والاحصاءات والتعدادات العامة للبلاد التي كتب عنها ، فقد دون نتائج تعداد استانبول عام ١٦٣٨م وتعداد دمشق في عهد الدفتردار زاده محمد باشا (ولايته من ١٦٥٢ ـ ١٦٥٥م) ، وتعداد القاهرة في عهد السلطان سليم الاول ، وتعداد القاهرة الثاني في عهد السلطان مراد الرابع .

اصل اوليا وصفاته

ولد اوليا جلبي في ٢٥ مارس سنة ١٦١١ م في استانبول ، منحدرا من اسرة سكنت اواسط اسيا ، جاء اجداده من ماهان مع ارطغرل (والد عثمان مؤسس الدولة العثمانية) عندما وفد الى الاناضول ، لكن اسرة اوليا لم تنزح الى استانبول الا بعد الفتح العثماني لها على يد محمد الفاتح .

من صفات هذا الرحالة الكبير انه كان كبير الرأس طويل القامة ، لم يكن قوي البدن وان كان سريع الحركة . كان حلو الكلام ، لطيف التشبيه ، حلو الصحبة ، لبق الحديث واسع الخيال ، سريع البديهة ذكيا ، فكها ، يحفظ القرآن ويجيد تلاوته ، خطاطا ، نقاشا للمعادن والذهب ، شاعرا واديبا ويقول ان له كتابا ـ غير رحلته ـ يسمى « شقانامة » أي كتاب التفكه ، الا ان هذا الكتاب مفقود .

والدته اباظية ، من القوقاز ، وهي قريبة الصدر الاعظم ملك احمد باشا ، وكان هذا متزوجا بابنة السلطان مراد الرابع العثماني وبواسطة احمد ملك باشا تألق نجم اوليا جلبي .

اما والده وهو درويش محمد ظلي ، فقد كان نديما للسلطان سليمان القانوني ، ورئيسا لمؤذني جامع السليمية الذي بناه المعمار سنان بناء على امر سليم الثاني في مدينة ادرنة بتركيا ، متصوفا على الطريقة النقشبندية ، مريدا للشيخ عزيز محمود هدائي .

والد اوليا جلبي هو الذي صنع الصندوق المحفوظ فيه اثر قدم النبي في مصر ، وهو ايضا الذي صنع المزراب الذهبي للماء فوق الكعبة ، اذ كان والده نقاشا للمعادن والذهب .

تعرف اوليا جلبي شخصيا بثلاثة سلاطين عثمانيين هم مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠م) واخيه السلطان ابراهيم خان (١٦٤٠ ـ ١٦٤٨م) وابنه السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧م) .

من مهارات اوليا جلبي انه كان يجيد الرمي بالسهم ، ويجيد ركوب الخيل ، ولعبة الجريدة والجوكان (لعبة الكرة بالخيل وهي اشبه بلعبة البولو اليوم) ، كما كان يجيد السباحة والصيد . لم يكن متزوجا لمرض الم به استمر ٢٧ عاما عقم بسببه ، ويحكي انه شفي من مرضه هذا فيما بعد ، واخذ جسمه يسمن بعد ان كان نحيلا . وتم شفاؤه بواسطة دواء يسمى الترياق الفاروقي يستخرج من الثعابين في مستشفى قلاوون بالقاهرة ، ولم يكن هذا الدواء يحضر الا في مصر ، ولمرة واحدة في العام ويصدر الى استانبول . لكن شفاء اوليا من هذا المرض يقابل وصوله الى سن الشيخوخة فلم يعد يتحدث ـ في رحلته ـ عن الزواج ، وان كان الحنين الى الاولاد يدفعه الى تأمل الاطفال في الاحتفالات العامة ويصفهم بما يشعر القارىء باشتياقه للابوة .

في ليلة عاشوراء (من عام ١٦٣٠ م) رأى اوليا جلبي رؤيا اثرت في حياته تأثيرا كبيرا . رأى فيما يرى النائم ، نفسه وسط جماعة كبيرة في جامع اخي جلبي في استانبول ، واذا به يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاراد ان يطلب منه الشفاعة ، لكن لسان اوليا تعثر فقال السياحة يا رسول الله ، وكان يريد ان يقول الشفاعة يا رسول الله . وكانت هذه الرؤيا هي الدافع لرحلته !

أنفق اوليا جلبي على رحلته من استانبول الى بروصة ـ أولى مراحل رحلته ـ من مال كان معه . اما بعد ذلك فمن كده وعمل يده ، ذلك لانه اشتغل في عدة اعمال خلال رحلته الطويلة : عمل مؤذنا واماما في المساجد ومصاحبا للامراء ، وكاتبا للضرائب ، وصيدليا يحضر الادوية لبعض امراض صادفها وعرفها .

وصف استانبول

تقدم رحلة اوليا جلبي وصفا دقيقا ومفصلا لاستانبول ، وهي مسقط رأسه ، وحاضرة الدولة العثمانية . ومما قاله عنها ان بها مؤسسة كبرى ، باسم مستشفى الفاتح للامراض العقلية بها (٧٠) حجرة و (٨٠) قبة (٢٠٠) خادم ، وكبير الاطباء فيها بدرجة مدرس عام ، وهذه الدرجة تعادل في جامعات اليوم درجة استاذ كرسي . في هذا المستشفى يأكل المرضى اكلا خاصا مثل لحم البلابل والحمام والعصافير . وللمرضى غير المسلمين مبنى مستقل ، وللنساء المريضات مبنى مستقل . وفي استانبول حمام عام باسم الفاتح ايضا يتسع لخمسة الاف شخص .

ويصف اوليا جلبي حي أبي أيوب الانصاري باستانبول فيقول عنه انه مدينة على بعد ساعتين من العاصمة ، بها (اي بالحي) مقابر كثيرة ، وكذلك بها العديد من مقابر المشهورين . وعد من مقابر هؤلاء قبر الغازي بارلاق مصطفى باشا ووصفه بانه بحار عظيم جاب البلاد العربية : مصر وبلاد العرب (الجزيرة العربية) وخليج البصرة (الخليج العربي) وشط العرب ، ووصل الى بغداد حيث التقى بالسلطان سليمان القانوني عند وصول هذا الاخير بجيوشه الى العاصمة العراقية .

يذكر اوليا جلبي ان في حي غالاطه (وهو حي الاجانب بالعاصمة العثمانية) ٢٠٠,٠٠٠ مسيحي و ١٠٠٠ يهودي مقابل ٦٠,٠٠٠ مسلم . ويلاحظ ان اليهود يخافون من المسيحيين ولا يخافون من المسلمين ، ويقول ان السبب في ذلك ان المسلمين يعاملون اليهود

معاملة طيبة في حين ان المسيحيين يظلمون اليهود . وملاحظة اخرى يدونها اوليا جلبي عن المهاجرين من مسلمي الاندلس فيقول ان في حي قراكوي باستانبول عربا مسلمين فروا من الاندلس (على عهد السلطان احمد الاول (١٥٩٠ ـ ١٦١٧م) ويختم اوليا ملاحظته هذه بقوله انه من المستحيل ان يدخل مسيحي احياء المسلمين العرب في قراكوي باستانبول .

شوارع استانبول كما رآها اوليا ـ في القرن السابع عشر الميلادي ـ شوارع نظيفة مرصوفة (يلاحظ القارىء ان الارصفة كانت مجهولة في اوربا في ذلك الوقت) . ويسجل لنا هذا الرحالة نتائج تعداد عام ١٦٣٨ م الذي استمر ثلاثة اشهر في استانبول واخبرنا من خلاله : فيما اخبر ـ ان استانبول تنقسم الى اربعة اقضية كبيرة (اسماها اربعة موليات جمع مولوية) تشمل ٦٧٠ ناحية تحتوي على ٩٩٩٠ شارعا تركيا مسلما و ٣٠٤ شوارع روميه (يوناني) و ٦٧٥ شارعا يهوديا و ٢٧ شارعا ارمنيا و ١٧ شارعا افرنكيا (يسكنه الاوربيون) .

العاب علمية

يحدثنا اوليا عن شخص اسمه احمد جلبي هزار فن ، وقف على مكان مرتفع في ميدان اوق باستانبول مرتديا جناحي نسر وطار في اتجاه الريح في تجربة للطيران ، وقام بهذا العمل ثماني مرات ثم صعد فوق برج غالاطه في العاصمة العثمانية وطار من قمته مع اتجاه الرياح ونزل في ميدان دوغانجيلر . وكان السلطان مراد الرابع يتفرج عليه ، وسر بذلك فكافأه بكيس مملوء بالذهب . في هذا المجال ايضا يحدثنا اوليا عن شخص يدعى حسن جلبي ركب جهازا يمكننا وصفه بأنه (ارهاصات الصاروخ) ركبه فاشعل تلامذته الفيتيك فشق الجهاز طريقه الى الجو وعليه استاذهم ، وعندما نفد البارود الملحق بأذرع الجهاز ، ارتدى حسن جلبي جناحي نسر وقفز من الجهاز ينزل في البحر حيث كان السلطان بانتظاره . خصص له السلطان مرتبا قدره سبعون أقجه .

صوفيا ـ بلغراد ـ فيينا

زار اوليا جلبي صوفيا العاصمة البلغارية الحالية ، زارها مرتين عامي ١٦٥٣ و ١٦٦١ . وقال ان فيها اكثر من مائة جامع اكبرها جامع قوجه محمود باشا (٢٠٠×٢٠٠ ذراع) . ولصوفيا واحد وعشرون منتزها عاما . ووصف اوليا لنا مدينة (كييف) بانها اكبر مدن اوكرانيا وانها مدينة مقدسة لدى الارثوذكس . ويتنازع ملكيتها كل من ملك بولندا والسلطان العثماني . لكن كييف كانت ـ في عهد اوليا ـ تابعة لقيصر روسيا . ولم يفته ان يسجل في رحلته ان (اوديسا) ميناء اهمله اصحابه .

وصف اوليا مدينة بلدراد وكان قد زارها مرتين عامي ١٦٦٠م و ١٦٦٣م . وادلى بمعلومات هامة عن هذه المدينة التي فتحها السلطان سليمان القانوني في حملته عليها عام ١٥٢١م . وعن معنى بلغراد قال صاحب الرحلة ان بلغراد كلمة صربية معناها (المعمورة) او (المزينة) او (المتينة) . ووصف قلعة بلغراد قائلا ـ فيما قاله فيها ـ ان بها ١١٦ برجا ، وبداخل القلعة خمسة جوامع و ٤٠٠ منزل . وقال ان مدينة بلغراد بقلعتها تمتد على مساحة ٢٠,٠٠٠ ذراع وعدد سكانها ١٥,٠٠٠ نسمة . وفي بلغراد ٢١٧ جامعا و ٦ بيوت قوافل . وقال ان بيت قوافل صعوللو يحتوي على ١٦٦٠ حجرة . كما قال ايضا ان في بلغراد ٨ كنائس أرثوذكسية ومعبدا يهوديا واحدا و ١١,٠٠٠ بئر . وعن زغرب ذكر لنا اوليا ـ انها ارض المانية يتنازعها العثمانيون والالمان .

بوخارست ـ اثينا ـ تبريز

. كانت رحلة اوليا جلبي الى فيينا (عاصمة النمسا الان) عام ١٦٦٥ . ومن ضمن كتاباته عنها ان بها سوقا فيه ٦٥٠٠ دكان . وفي بوخارست (عاصمة رومانيا الان) ٢١ جسرا خشبيا واربعة اديرة . وكنائس كثيرة . وقال ان كنيسة صخائيل الكبير في بوخارست تحتوي على مائة حجرة . وعن نساء بوخارست قال ان الكثيرة منهن سوداوات الشعر اكثرهن فاحشات واليهود في بوخارست قليلون وغير محبوبين .

كانت اثينا (العاصمة اليونانية الآن) عندما شاهدها اوليا ، عبارة عن قضاء كبير . اوقفت الحكومة العثمانية . الجزية التي تحصل من قضاء اثينا ، على الحرمين الشريفين . وكان باثينا وقتها ٣ جوامع و ٧ مساجد ومدرسة اسلامية كبيرة وثلاث مدارس اسلامية صغيرة و ٣٠٠ كنيسة بها ٣٠٠٠ راهب . كما كان باثينا في ذلك الوقت ٤٠٠٠ بئر ماء .

لاحظ اوليا جلبي ان تبريز (احدى المدن الكبيرة في ايران) التي وصل اليها في اكتوبر من عام ١٦٥٥م ، انها وان لم تعد العاصمة ، الا انها اكثر مدن ايران ازدحاما . وعن اهل تبريز قال انهم اتراك يتكلمون اللغة

التركية بلهجتها الاذرية . وفي قلعتها ٣٠٠٠ برج وهي قلعة ضخمة بها ستة ابواب وسكانها حسب الاحصاء الذي اجراه امير الامراء العثماني جعفر باشا ٨٠٠,٠٠٠ نسمة واكثر سكانها شيعة وفيها ١٧٨ شاعرا صاحب ديوان . وبالمدينة ـ كما جاء في الرحلة ـ اقلية ارمنية لها ٤٢ كنيسة .

وكان عن مدينة باكو ، التي بلغها في شهر فبراير ١٦٤٧ م ، ان اهلها اتراك مسلمون اكثرهم من اهل السنة ، وعن البترول في باكو في القرن السابع عشر الميلادي قال رحالتنا هذا ان النفط يستخرج من سبعة اماكن خارج المدينة .

بغــداد

قال اوليا جلبي وهو في بغداد عام ١٦٥٦م أنه .. ليس على وجه الارض مدينة بشهرة بغداد الا ما ندر » كما قال ان حرب استعادة بغداد من الايرانيين ـ التي شنها السلطان العثماني مراد الرابع ـ هي اعظم حرب وقعت في عصره فقد استمرت اربعين يوما واربعين ليلة متواصلة بلغت خسائر الايرانيين فيها ٧٨,٠٠٠ قتيل ووصف بغداد بأنها محاطة بسور يبلغ ٢.٥ فرسخا الا مائتي ذراع اي ٢٨,٨٠٠ ذراعا . وان ببغداد ٦٦٥ جامعا والمدارس الاولية ومدارس التعليم الثانوي والعالي (مدرسة المصطلح التركي) كثيرة جدا وببغداد ست دور للقراء (قراء القرآن الكريم) غير ٦٠ دارا للحديث وفي بغداد عين ماء و ١٠٠ سبيل يأتي ماؤها من دجلة . كما ان بها ٥٠٠ حمام عام وفيها ٨ كنائس و ٣ معابد لليهود ، كما يوجد بها ايضا الاكراد والاعاجم واليهود والارمن . وبغداد اداريا عبارة عن ٧٥ قضاء .

كانت بغداد ـ كما قال اوليا جلبي ـ في القرن السادس عشر ، مركزا صناعيا كبيرا . ومن الصناعات التي كانت متقدمة فيها آنذاك : نقش المجوهرات ، والجلود ، والحديد . وقال ان سيوف بغداد ذات شهرة عالمية . ومهنة الخياطة في بغداد مهنته متطورة

بيروت ـ القدس ـ دمشق

وعن بيروت قال اوليا جلبي ان لها ثلاث مسميات اخرى وهي : الموز ـ مدينة الموز ـ قلعة الموز وهي مركز لسنجق تابع لايالة صيدا وبالسنجق ٦٠٠ قرية تحميها قلعتان ، واهل بيروت خليط من السنيين ومن الشيعة والدروز ، غير ان الموظفين والعسكر اتراك .

وفي القدس التي وصلها هذا الرحالة العثماني في يناير ١٦٧٢ م قال ان العرب ينطقون اسمها : القدس ، والاتراك يسمونها : القدس الشريفة ، اما النصارى واليهود فيسمونها يروسالم . وهي مركز لسنجق تابع لايالة الشام . قال اوليا جلبي ان احتفال النصارى باكبر اعيادهم ، يقيمونه في القدس في كنيسة القيامة ويحضره النصارى من كل انحاء العالم . ويبلغ عدد الزوار المسيحيين هناك ما بين ٥٠٠ الى ١٠,٠٠٠ مسيحي يعودون بعد هذا الاحتفال الى اوربا ، وقد اتموا شعائر حجهم ، وعن الامن العثماني في القدس اثناء هذا الاحتفال ، قال ان قاضي مدينة القدس الشريفة وهو مسلم عثماني او امير القدس الشريفة وهو عثماني مسلم ايضا ، هو الذي يفتتح ذلك الاحتفال الضخم ، ويقوم الحرس العثماني بمرافقة المسيحيين الذين يحجون الى المدن المقدسة عندهم مثل الخليل والناصرة وبيت لحم .

ويصف اوليا جلبي دمشق ـ بأنها تشمل ٢٠,٠٠٠ مسكن ما بين دار وقصر وسراى . وبدمشق ـ القرن السابع عشر ـ ٧٥ شارعا كبيرا و ٣٨٠٠٠ شارع عادي يتولى الحراسة فيها ٢٠٠ جندي حراسة ، ويبلغ عدد سكان دمشق حسب تعداد الدفتردار زاده محمد باشا ٦٠٠,٠٠٠ نسمة . ودار الشفاء بدمشق كبيرة ينفق عليها سنويا ١٠,٠٠٠ قرش عثماني وفيها يقدم الاطباء (الحكماء) لمرضى الروح (المرضى النفسانيين بمفهوم العصر الآن) معاجين معينة من شأنها تقوية الروح . وللتسرية عن المرضى تصدح الموسيقى والاغاني ثلاث مرات في اليوم ، وكبير الحكماء بدار الشفا بدمشق يسمى يعقوب هدايا ، له كتاب في الطب الروحي (اي النفسي) بعنوان دواء الروح .

مصر

اهتم اوليا جلبي اهتماما ملحوظا بمصر ، فقد خصص لها اغلب الجزء العاشر من رحلته (وصل الى مصر اول مرة ١٦٧٢ وعاد اليها من سياحته في افريقيا ، عام ١٦٧٦م اما تاريخ مغادرته القاهرة آخر مرة فغير معروف) . وقد امدنا هذا الرحالة العثماني بمعلومات طريفة عن مصر ، منها ، انه حدثنا عن وجود معدن الزمرد في اسيوط ولفت نظره ان الدجاج يباع في مصر « بالكيلة » (آنية مفرغة تملأ بالحبوب عادة) ويقول ان هذا شيء لم يجده الا في مصر اذ ان الدجاج يباع بالواحدة في كل مكان زاره من قبل مصر ، وعن الجراد يقول اوليا : ان ليس في مصر جراد : وهو يأتيها من البلدان الاخرى ، لكن الجراد يموت سريعا في مصر .



مسجد احمد بن طولون بالقاهرة

وعن القاهرة يقدم لنا اوليا جلبي احصاءات طريفة ، وهي في نفس الوقت هامة للمؤرخين كل حسب اختصاصه . من هذه الاحصاءات عن القاهرة ان بها : ٣٠٠٠ معماري و ٧٠٠ مبتهل مطرب و ٦٠ جراحا و ٤٠ طبيبا و ٢٩٠ صيدليا هذا غير الذين يعملون في الحكومة من الجراحين والاطباء والصيادلة و ٣٠٠ نساج متخصص في ستائر الكعبة و ٣٠٠٠ ترزي في ٧٠٠ دكان و ٣٨٠٠ تاجر كبير يعملون في الاستيراد والتصدير و ٣٠٦٠ طحانا و ٦٠٠ فران يعملون في ٧٠ مخبزا ـ غير افران البيوت ـ و ٦٤٣ مقهى و ٣٠ : جزارا يهوديا يعملون في ٢٠ دكانا و ١٥٠ مجلدا للكتب و ٦٨ بائع ورق و ٨٠٠ حداد و ٣٠٠ حفار ابار ، و ٣٥٠ بناء حامات . اما عدد الحمامية بانواعهم ٣٢٥٦ شخصا وعدد دكاكين العطارة ١٢٠٠ يعمل بها ١٨٠٠ شخص وعدد الآبار ٧٤,٠٠ والمنازل ٢٦ الفا . وفي القاهرة يوجد الجامع الازهر ويدرس فيه ١٢,٠٠٠ طالب وهو عدد كبير لا تصل اليه اي مؤسسة تعليمية في دنيا الاسلام .

يصف اوليا . جامع ابن طولون بالقاهرة بأنه جامع فخم جدا ، ويدلنا على اسم الخطاط الذي كتب لوحة البسملة الكائنة في الجانب الايسر من حائط حرم الجامع ، فيقول انه الخطاط الشهير احمد القرا حصاري اشهر خطاطي السلطان سليمان القانوني . كتبها عندما مر على القاهرة في طريقه للكعبة ، ويبلغ طول لوحة البسملة هذه ٤٠ خطوة ، ويبلغ طول حرف الالف فيها ثمانية اذرع ، ويقول اوليا ان لكل من لوحة البسملة هذه وجامع ابن طولون نفسه شهرة عظيمة .

وفي مصر ـ القرن السابع عشر ـ ٦١٧٦ مدرسة اولية (كتاب) ثلث هذا العدد في القاهرة وحدها ومساحة خان الخليلي ـ كما يحدثنا أوليا ـ تبلغ ١٠٠×١٠٠ ذراع به ٢٠٠ دكان ومبناه مكون من اربعة ادوار وبالخان جامع صغير . وفي بولاق خان يحمل نفس الاسم ايضا : خان الخليلي . والقاهرة في رحلة اوليا جلبي . مركز عظيم لصناعة الادوية ، ويصدر منها الى بقية البلدان العثمانية والى اوربا .

وعد اوليا جلبي ان دمياط هي ثانية المدن المصرية بعد القاهرة اهمية ونشاطا وازدحاما بالسكان ، وان عدد سكانها ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، وبها ٢٦٠ شارعا . ولفت انتباه الرحالة التركي ـ والاتراك شعب نظيف ـ ان جميع شوارع دمياط نظيفة . كما حدثنا عن ارزها قائلا ان ارز دمياط مشهور في كل العالم وبها سبعون مضربا للارز . وقال ان المدينة الثالثة في مصر من حيث الاهمية وعدد السكان رشيد .

وفي اسوان مغارتان واحدة باسم مغارة الحكيم لقمان والاخرى مغارة ادريس وهما متجاورتان .

قصة اثر النبي

وعن اثر قدم النبي حدثنا أوليا جلبي قائلا ، ان السلطان احمد الاول عندما كان يبني جامعه المشهور في استانبول ، زينوا له بأن يحضر اثر قدم النبي من جامع قايتباي بالقاهرة ليضعه في جامعه تبركا وصيتا ، فأمر باحضار الاثر وارسله الى جامع ابي ايوب الانصاري في مراسم عسكرية وشعبية ضخمة ثم امر بنقلها الى جامعه .

لكنه رأى فيما يرى النائم انه في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقايتباي يشكوه للرسول ، ثم امر النبي السلطان أحمد الاول ان يعيد الاثر الى ضريح قايتباي ، في مصر مرة اخرى . ولما قص السلطان هذه الرؤيا على بعض اشخاص منهم والد اوليا جلبي ، اوصى الجميع باعادة الاثر . فأمر السلطان ، والد اوليا جلبي بصنع صندوق هو تحفة فنية ووشاه بالمينا من فضة وذهب ليوضع فيه الاثر ، وقد كان . وعاد الاثر بالصندوق الى مكانه .

يقول أوليا جلبي انه في اثناء سياحته بمصر زار اثر قدم النبي ورأى التحفة التي صنعها والده في اربعين يوما وعليه ابيات ثمانية من الشعر العربي في آخرها : بحرمة صاحب القدم المعلا له الدرجات العلا في الآفاق سلم .

في السودان وعقار ومقديشيو

وعن السودان يقول أوليا جلبي ان ملك الفونج يسكن مدينة دنقلة العجوز ، وان هذه المدينة هي اكثر

مدن السودان ازدحاما ، بها قلعة تحتوي على ٦٥٠ بيتا من اللبن و ٧ جوامع و ٩ مساجد و ٦ كتاتيب ومجموع مساكن دنقلة العجوز ٣٠٠٠ منزل واهلها على المذهب المالكي ، والخطبة تقرأ فيها باسم السلطان العثماني وملك الفونج .

دهش اوليا جلبي في السودان حينما استقبله ملك الفونج ورحب به متحدثا باللغة التركية العثمانية مما اسعد اوليا اذ انه - كما يقول - لم يسمع اللغة التركية منذ مدة ، وزالت دهشته عندما علم أن ملك الفونج ينتمي الى احدى القبائل الاسوانية ، وفي اسوان تعلم ملك الفونج اللغة التركية . قال لنا اوليا ان ملك الفونج تابع لوالي مصر العثماني . والناس في بلاد الفونج لا يعرفون الامراض الشائعة كالجزاء والفلج وغيره .

وفي عفار يصف اوليا جلبي « جامع سيدنا سليمان » بان قبلته متجهة نحو القدس ، ويسميه الاهالي هناك باسم جامع الكنيسة ، وهو - كما يقول اوليا - من اكبر جوامع الدنيا - وليس بهذا الجامع مئذنة ولا منبر .

وعن شعب مقديشو يقول اوليا جلبي بأنه شعب مسلم مالكي المذهب . ومليكه تابع للدولة العثمانية والخطبة هناك تقرأ باسم السلطان العثماني .

مات اوليا جلبي في استانبول عام ١٦٨٤ ، في اواخر عهد السلطان مراد الرابع وقد بلغ من العمر ٧٣ عاما . بدا رحلته من استانبول في ٢٧ ابريل عام ١٦٤٠ ، وعمره ٢٩ عاما ، واخر تاريخ ورد في رحلته هو ١٦٨٣ ورد اثناء حديثه عن هزيمة العثمانيين امام اسوار فينا .

ورحلته - وهي بالتركية العثمانية ، نشرت مقتطفات منها : بالقاهرة عام ١٨٤٧، وباستانبول اعوام ١٨٤٠، و ١٨٤٥، ١٨٦٢، كما نشرت مقتطفات منها في باللغة التركية بأحرفها الجديدة مرات عديدة مختلفة ، ونشرها واتسلن مختصرة في خمسة عشر جزءا . الا ان الرحلة نشرت كاملة في عشرة اجزاء ضخمة في استانبول بين عامي ١٨٩٦ و ١٩٣٨ .

ولما كان نشر الرحلة بلغتها الاصلية سواء في المقتطفات او المختصرات او كاملة ، غير دقيق وبه كثير من الأخطاء ، نتيجة عدم التحقق من كل المخطوطات مما اوقع الناشرين في حرج شديد ذلك الحرج يزيده عدم العثور على المخطوط الذي خطه اوليا جلبي بنفسه بعد . لذلك فان جهودا علمية تجرى الآن في تركيا لنشر الرحلة بصورة ادق وارقى . ■■

الدكتور محمد حرب

العرب تركوا الأندلس وبقيت لغتهم ..!

بقلم محمد عبدالله عنان



لم تسفر الفتوح الاسلامية فى الغرب عن نتائج متماثلة ، فهى قد انتهت فى شمال افريقية الى أن تخلق شعوبا عربية اسلامية فى مصر والمغرب ، ما تزال حتى يومنا تحتفظ بكيانها وعروبتها واسلامها ، ولكنها لم تنته الى مثل هذه النتيجة فى صقلية واسبانيا .

أجل لقد قامت أمة عربية اسلامية فى صقلية عاشت زهاء قرنين ونصف قرن (٨٣٠ - ١٠٧٢ م) وقامت أمة عربية اسلامية فى اسبانيا عاشت زهاء ثمانية قرون (٧١١ - ١٤٩٢) ولكن صقلية ، واسبانيا ، لم تلبث آخر الأمر ان عادت كلتاهما ارضا أوربية نصرانية وقد زالت الامة الاسلامية من صقلية منذ نحو وزالت الأمة الاندلسية من أسبانيا منذ نحو خمسة قرون ، وقد دثرت حضارة الاسلام فى صقلية ، ولم يبق منها حتى اليوم سوى آثار ضئيلة ، ولكن الأمر يختلف بالنسبة لاسبانيا . فقد تركت الحضارة الأندلسية فى شبه الجزيرة الأسبانية آثارا عميقة ، ما تزال تمثل حتى اليوم قوية وضاءة ، فى حياة الأمة الاسبانية ، وفى تكوينها العنصرى والثقافى ، وفى تقاليدها ولغتها . ويرجع ذلك أولا الى ذلك المدى الزمنى الطويل الذى عاشته الامتان الاندلسية والاسبانية معا فى شبه الجزيرة ، وثانيا الى ذلك الامتزاج القوى الذى تميزت به حياتها المشتركة ، والى التفاعل الحضارى العميق بين حضارتين عاشتا فى أرض واحدة ، وكانت احداهما وهى الحضارة الاندلسية تمتاز بتفوقها المادى والادبى ، على الحضارة الاخرى .

وانك لتشعر بعمق هذه المؤثرات الحضارية بنوع خاص فى جنوبى اسبانيا ، فى تلك الربوع التى تضمها ولايات الاندلس القديمة ، والتى تقع فيما بين نهر الوادى الكبير والبحر المتوسط ، ذلك أن هذه المنطقة كانت مثوى العناصر المستقرة من الحضارة الاندلسية ، وقد بقيت تحت حكم المسلمين زهاء ثمانية قرون ، ولم تخرج من أيديهم الا فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، وحتى بعد أن سقطت غرناطة ، آخر القواعد الاندلسية فى أيدى الأسبان ، فى سنة ١٤٩٢ م ، فان المؤثرات الحضارية الأندلسية ، بقيت تعمل عملها عصورا أخرى ، على أيدى بقايا الأمة الأندلسية المغلوبة ، التى عرفت عندئذ بالموريسكيين أو العرب المتنصرين .

عمق المؤثرات الحضارية

ولقد شهدنا فى الواقع بأنفسنا صدق هذه الخاصة شهدنا بأعيننا وأحاسيسنا خلال رحلاتنا العديدة الى اسبانيا ، وتجولنا فى سائر نواحيها ومدنها الاندلسية ، بل ونواحيها الاسبانية الأصيلة ، شهدنا من أحوال الأمة الاسبانية ، ومن مظاهر حياتها المادية والمعنوية ومن تقاليدها وعاداتها ، كثيرا مما يدل بعمق هذه المؤثرات الحضارية التى خلقتها الأمة الأندلسية الذاهبة ، فى وريثة أرضها وحضارتها الأمة الاسبانية .

واذا كنا نلمح المؤثرات الحضارية الأندلسية بارزة فى التقاليد والعادات الاسبانية ، فاننا من وجهة أخرى نعرف أن اللغة الاسبانية ، لم تكن بعيدة عن هذا التأثير الحضارى العميق ، وقد تطورت اللغة القشتالية (الأسبانية) عن اصولها الرومانية أو الرومانثى romance ، أو اللاتينية المحلية ، وهى اللغة التى كانت سائدة فى العصور الوسطى بين النصارى الأسبان ، سواء فى الشمال ، أو بين النصارى المعاهدين (المستعربين)

وهم الأقليات النصرانية الاسبانية ، التى كانت تعيش فى المدن الاندلسية الاسلامية ، ولا سيما فى القواعد الكبرى مثل قرطبة وبلنسية ومرسية وجيان واشبيلية . وقد كان من الطبيعى أن يقع التفاعل اللغوى بين العربية ، وهى لغة الأكثرية المسلمة ، وبين الرومانثى ، وهى لغة الاقلية النصرانية وأن ينقل المسلمون بعض الالفاظ اللاتينية الى لغة التخاطب فيما بينهم ، وأن ينقل النصارى المعاهدون كثيرا من الالفاظ العربية الى لغتهم الرومانثى » . وقد ظل هذا التأثير ينمو ويشتد ولا سيما بالنسبة للرومانثى أو اللغة القشتالية فيما بعد . وهو ما يرجع بلا ريب الى قوة المؤثرات الحضارية الاندلسية المتفوقة ، والى حاجة اللغة

القشتالية الى الاشتقاق من لغة أصحاب هذهالحضارة ، للتعبير عن كثير من الاشياء والمظاهر التي نقلت عنهم ، وذلك سواء في النظم الادارية أو العلوم أو الصناعة أو الزراعة أو العمارة أو غيرها .

وقد ترك هذا الاشتقاق من العربية أثره القوى في اللغة القشتالية أى الاسبانية . ونحن نعرف أن اللغة الاسبانية هى اللغة اللاتينية الوحيدة التى توجد بين حروفها (الخاء) gi ge j .

و (الثاء) z . ce . ci وتتمثل في كلمات بكثرة واضحة . وذلك على غرار ما هو حادث في اللغة العربية . وتوجد في اللغة الاسبانية كلمات كثيرة جدا ترجع الى اصول عربية . ومن القواعد المسلم بها أن كل كلمة اسبانية تبدأ « بأل Al» هى عربية الأصل تبدأ بأداة التعريف العربية . ونحن نقدم الى القارئ فيما يلي نماذج من الكلمات الاسبانية التى ترجع الى اصول عربية واضحة ، ومنها ما هو رسم فقط للكلمة العربية بالحروف اللاتينية :

منها في التعابير النظامية :

القاضي العمدة	Alcalde	المشرف	Almojarife
الفارس حامل العلم	Alferez		
الامين	Alamin		
الوزير	Alguacil		

ومنها في أسماء الزهر والمحاصيل :

الزهر	Alzahar	الزيتون	Aceituna
الريحان	Arravan	الأرز	Arroz
الياسمين	Jazmines	السكر	Azucar
الزيت	Aceite		

ومنها في أسماء أصحاب الحرف :

البناء	Albanil	الحجام	Alfageme
البيطار	Albeitar	الفخار	Alferero

ومنها من كلمات أخرى متنوعة :

القنطرة	Alcantra	المخزن	Almacen
البحيرة	Albufera	الخزانة	Alacena
القصر	Alcazar	الجوهر	Aljofar
الساقية	Acequia	الفندق	Alhondiga
البركة	Alberca	المسجد	Mezquita
الجب	Aljibe	القنديل	Candil
القرية	Alqueria	الشرفة	Axarfe
الربض	Arrabal	الشراب	Axarbe

وبعد فهذه نماذج قليلة من الكلمات الاسبانية المشتقة من اصول عربية ، ومنها كما ترى هو منقول عن اصله العربي بالاحرف اللاتينية . ويوجد في اللغة الاسبانية مئات بل الآف من هذه الكلمات . ويكفي ان تعلم ان هذه الكلمات الاسبانية ذات الاصول العربية ، قد جمعت في معاجم خاصة ، ومنها معجم للعلامة المستشرق رينهارت دوزى Dozy ومعجم آخر للمستشرق الاسباني ايجيلاث Eguilaz وفي ذلك ما يدل دلالة واضحة على مبلغ الآثار العميقة التي خلفتها اللغة العربية في اللغة الاسبانية ، منذ بدأت في صورة اللغة الرومانية (الروماثي) في العصور الوسطى ، ثم تطورت الى القشتالية او الاسبانية الحديثة .

فاذا أضفنا الى هذه المؤثرات اللغوية البارزة ما تشهده اليوم حين التجوال في ربوع الاندلس من تماثل عجيب بين العادات والتقاليد الاسبانية ، وبين العادات والتقاليد العربية والشرقية ، سواء في الحياة المنزلية ، او التصرفات الخارجية ، وسواء في تبادل التحية والحفاوة ، وفي آداب الطعام ، وفي ابداء الاستحسان ، وفي الوان المرح ، ولا سيما الرقص والغناء ، ادركنا عمق هذه الآثار الحضارية التي خلفتها الامة الاندلسية في الامة الاسبانية .

وقد اشاد البحث الاسباني الحديث بأهمية هذه المؤثرات الحضارية ، المادية والمعنوية التي ورثتها الامة الاسبانية عن الامة الاندلسية . وكما وضعت المعاجم الخاصة لتبيان الكلمات الاسبانية ذات الاصول العربية ، فكذلك تناول هذه المؤثرات الحضارية بالشرح والتحليل المقنع كتاب عظام مثل أندريس والتاميرا وكوتنالث بالنثيا وغيرهم . ويبدي الأستاذ بلنثا بنوع خاص في رسالته المشهورة de la Civilizacion Arabe Influencia (تأثير الحضارة العربية) ، ابداعا في الشرح ، وقوة في التدليل ، وحماسة في العرض تضفي على بحثه كثيرا من الاصالة والروعة . ويقول لنا بالاخص فيما يتعلق بتأثير اللغة ، ان اللغة العربية تمثل في الاسبانية في مصطلحات الجغرافيا والنظم والفنون ، واسماء الحيوان والنبات ، والحرف ، والالوان ، والادوات المنزلية وغيرها . وهو يجمل هذا التأثير في تلك العبارة الجامعة : « ان اللغة الاسبانية تعرض بلا ريب للسائح الامثل ، ذلك الاثر الخالد ، الذى تركته الحضارة العربية في ارضنا » .

وكفي بشهادة هذا العلامة تقديرا للأثر العظيم الذى خلفته الحضارة الاندلسية واللغة العربية في حضارة شبه الجزيرة الاسبانية وفي لغتها . ■■

محمد عبد الله عنان

المرأة والأسرة

هل تعرف نفسك ؟ وكيف تعرفها ؟. اى شيء تريد ان تفعله ؟.. اى شيء تريد ان تكونه ؟ ابدأ به الان ! « كيف تعني بحياتك ؟ » كتاب يحدثنا عن الغوص في اعماق النفس . عن الكرسي الذى يجب الا تجلس عليه . عن الانسان الذى يبحث عن نفسه وكيف يجدها ؟

أبداً لن يفوتنا القطار!

بقلم : منير نصيف

عندما دمر الزلزال مدينة سان فرانسيسكو وحولتها النيران الى اكوام من الدمار والركام في صباح ذلك اليوم المظلم من شهر ابريل عام ١٩٠٦ ، خرج عشرات الالوف من سكان المدينة المحترقة باحثين عن ملجأ بعيدا عن هذا الجحيم .. وفي الطريق الذى ازدحم بهم وهم يسيرون افواجا حاملين غذاءهم ومتاعهم رأوا شيئا غريبا .. القطار الذى كان من المقرر ان يصل الى المدينة يظهر فجأة .. لقد ظنوا انه لن يأتي ابدا ، ولكنه أتى ، كان يزحف فوق القضبان الحديدية المتهالكة ثم توقف اخيرا .. واتجهت عيونهم الى القطار يحشون في نوافذه عن الركاب القادمين الى هذا الأتون المشتعل .. ولكنهم وجدوا النوافذ خالية لم يطل منها وجه واحد .. لماذا جاء القطار اذن ؟ ومرت بضع دقائق ، وعلى السلم الحديدي وقف رجل يغطي راسه الصغير شعر كث ، له جبهة عريضة وعينان نافذتان لامعتان وأنف شامخ كالصقر .. وعرفوه .. إنه وليام جيمس عالم النفس والفيلسوف والمعلم الأستاذ الذى تعود ان يلتقي بتلاميذه كل صباح في احدى الجامعات القريبة من المدينة . وكان جيمس هو الراكب الوحيد على القطار الذى ظنوا انه لن يصل اليهم .. وتوقف القطار في المحطة ولم يتحرك ، وكأنه جاء من اجله وحده !

مع الناس

كان وليام جيمس يومها عجوزا جاوز الرابعة والستين ، وكان يقضي اجازة قصيرة في احدى المدن القريبة ، وعلم بما حدث للمدينة التي احبها وعاش فيها عدة سنوات بين تلاميذه .. فحمل حقيبته الصغيرة وجاء مسرعا اليها .. ولكنه لم يأت معلما في هذه المرة ، لماذا جاء اذن ؟ لكي ينفذ الى قلوب ورؤوس هؤلاء الذين عاشوا هذه المأساة .. وكان هو نفسه يحمل بين ضلوعه قلبا مريضا رقيقا .. ومع هذا فقد قضى الرجل اثنتى عشرة ساعة كاملة من الصباح ، ساعة وصول قطاره ، حتى ساعة متأخرة من الليل .. لم يفترق عنهم لحظة واحدة .. جلس بينهم وأكل معهم وتحدث اليهم .. وكأنما كان ظهوره المفاجيء ووصوله اليهم في هذه اللحظة التي بدأوا يستعدون فيها للرحيل والهرب ، دعوة اليهم بالبقاء والصمود .. وعلى مدى هذه الساعات الطويلة مضى وليام بدافع من فضوله الصحفي ، فقد عمل بالصحافة في بداية حياته ، يسأل ويسأل .. كيف كان شعوركم عندما بدأت الأرض تهتز تحت اقدامكم ؟ ماهي الافكار التى ومضت في اذهانكم في هذه اللحظة ؟



هل تسارعت دقات قلوبكم ؟ ماذا حلتم فوق اكتافهم بعد ان عاد الهدوء الى الأرض المضطربة التي احرقتها النيران ؟

كيف نعرف انفسنا ؟

هذه الرغبة الجامحة التي كانت تسيطر على هذا العالم النفساني والتي مضت تدفعه الى الغوص في اعماق الناس والعيش في تجاربهم هي التي جعلت منه واحدا من اعظم واشهر الرجال الذين عاشوا عصره . فقد عرف جيمس ان المفتاح الذي يجب ان يحمله الرجل في جيبه اذا كان يبحث عن النجاح ، هو ان « يعرف نفسه » .. قدماء الاغريق تحدثوا عن « اكتشاف الذات » . وشكسبير ، نصح « بان يكون المرء صادقا مع نفسه » !

ولكن كيف نتعلم ان نكون صادقين مع أنفسنا .. كيف نعرف انفسنا ؟

منذ قرن من الزمان ، او اقل قليلا .. ولد صبي انجليزي في مدينة باريس ... وكبر الصبي وصار شابا ، وفي رحلته من الصبا الى الشباب ، وجد نفسه فجأة يسير في الطريق الذي رسمه له والده قبل ان يرحل .. لقد تركته امه طفلا ومزقه حزنه عليها واصابه بعاهة ظلت تلازمه طول حياته .. لقد كان يعاني من التأتأة .. ولكن الأب كان مصمما على ان يدرس ابنه القانون ويصبح محاميا .. ولم يشأ ان يخرج الابن عن طوع ابيه .. فمضى في الطريق الذي اعده له .. ولكنه مالبث ان اكتشف الحرج الذي سوف يجد نفسه فيه عندما يقف مدافعا عن متهم ، وبين شفتيه الكلام الذي يريد ان يقوله ، ولكنه لا يخرج منها ، لانه مصاب بهذه العاهة ! وترك القانون وذهب يبحث عن مهنة اخرى بعيدا عن منصة القضاء وعيون الناس وآذانهم .. ووجد في دراسة الطب شيئا كثيرا من السرية والخصوصية التي يبحث عنها .. واصبح طبيبا .. ولم يكن يعلم انه حتى مع هذه المهنة الجديدة التي تعلمها ، مازال ضالا بعيدا عن الطريق الذي كان يتحتم عليه ان يختاره لنفسه .. فهو لم يكن قد عرف نفسه بعد ، لم يكن قد اكتشف مواهبه وقدراته !

لقاء .. غير حياته

ومع الطب قضى بضع سنوات في لندن ، الى ان كان هذا اللقاء بينه وبين الرجل الذي غير حياته كلها .. زاره مريض في عيادته ، وكان يشكو من علة .. وجلس الطبيب الشاب ، بعد ان فرغ من الكشف على مريضه ، يشرح له اسباب مرضه ويصف له الدواء .. ولكن الكلمات تعثرت على شفتيه .. انها هناك ، هو يعرف ماذا يريد ان يقول ، ولكن خروجها صعب !

واحس المريض بالحرج الذي يعاني منه طبيبه ، فقال في هدوء وهو يبتسم : « لماذا لا تكتب لي ما تريد أن تقوله .. انني مرتبط بموعد مهم ، ثم ان عيادتك مزدحمة بالمرضى الذين ينتظرون في الخارج . سأمر عليك غدا » وارتاح الطبيب فلم يشعر للحظة واحدة ان مريضه اراد ان يوفر عليه مشقة الكلام !

وجاء الغد ، وجاء المريض ، واخرج الطبيب من درج مكتبه تقريرا حاول ان يشرح فيه الحالة المرضية التي يعاني منها .. وراح الرجل يقرأ تفاصيل العلة التي اصابته .. كان واقفا يجري بعينيه مع الكلمات التي صفت بخط انيق .. ولكنه مالبث ان توقف ثم مد يده الى اقرب مقعد وجره اليه وجلس عليه امام مكتب طبيبه مباشرة ، ومن جديد اخذ يقرأ حتى وصل الى نهاية التقرير .. فنظر الطبيب اليه مستفسرا كما لو كان يتوقع ان يطلب اليه مزيدا من الشرح والايضاح ! ولكن شيئا من هذا لم يحدث .. لم يكن المرض او اسبابه او حتى العلاج الذي وصفه الطبيب لمريضه هو الذي شغل تفكيره في هذه اللحظة . كان الرجل مشغولا بهذا الوصف الدقيق والمعاني الجميلة التي امتلأ بها هذا التقرير الطبي !

ليس هذا مكانك

فقد كان المريض كاتبا وأديبا من اشهر ادباء عصره .. قال : « اسمع ياصديقي : « في هذه الورقة الصغيرة قرأت اشياء كثيرة قد يهمك ان تعرفها ، انا لم اجرب علاجك بعد ، وهكذا ترى انني لن استطيع ان احكم عليك كطبيب ، ولكنني تمتعت بكل تاكيد بهذا الاسلوب الرائع الجميل الذي صنعت به تقريرك عن حالتي .. ليس هذا مكانك .. فانت رجل فكر وقلم ! » وتركه ومضى ..

اما المريض فقد كان كاتب الانجليز هربرت جورج ويلز !

واما الطبيب الشاب الذي كان حتى هذه اللحظة يقف مترددا على عتبة الحياة التي اختارها لنفسه ، فقد كان سومرست موم الكاتب الذي اثرى المكتبة الغربية

والشرقية بكتبه ومؤلفاته على مدى مايقرب من قرن من الزمان . هو كل عمره الذى امتد به الى مابعد النصف الثاني من هذا القرن !

ويحدثنا موم عن هذا اللقاء الذي غير حياته فيقول :

« هناك اشياء نتوارثها ومن الصعب علينا ان نغيرها .. ولكنني في ذلك اليوم ، في تلك اللحظة التي وقفت فيها انصت الى كلام هذا الكاتب الكبير ، احسست انني لا يمكن ان اكون انتاجا بليدا خاملا اغلقوا عليه غطاء الصندوق باحكام ! احسست يومها ان كل شيء في رأسي وصدري مستعد للتغيير ، وانني بدوري قادر على الانطلاق في هذا الاتجاه الجديد .. وخلعت معطفي الابيض .. وتركت عيادتي ولم اعد ! »

من انت ؟

كيف نتعلم ان نعرف انفسنا ؟

يقول علماء النفس : « لاتبدأ بالجلوس على كرسي القاضي واصدر الحكم على نفسك ! لا تشغل تفكيرك في البحث عن مكانتك بين الناس ، وهل انت افضل حالا منهم او اسوأ ؟ .. بدلا من هذا حاول دائما ولا تيأس من المحاولة لاكتشاف نفسك .. من انت ؟ وماهي قدراتك ؟ »

وتقول ميلدريد نيومان في كتابها « كيف تعيش بحياتك ؟ » :

« هناك وقفات لابد منها امام اسئلة كثيرة تعيش مع المرء في حياته ولكنه لايأبه بها .. اذا استطعنا ان نجيب عليها بصراحة وصدق استطعنا ان نرسم صورة قد تكون غير واضحة تماما في بادئ الامر ، ولكنها لا تلبث ان تزداد وضوحا كلما عدنا الى التوقف عند هذه الاسئلة الملحة . المهم الا تيأس اذا جاءت الصورة في النهاية التي كنا نتمناها لأنفسنا . فربما كانت هناك اسباب لا حيلة لنا فيها ، أدت الى مانحن عليه . لابد لنا من ان نحترم الحياة التي نعيشها حتى لو كنا نريد ان نغيرها ! »

أبحث من جديد !

وتمضي ميلدريد في كتابها : « مثلا .. ما هو اهم شيء في حياتك ؟ ما الشيء او الاشياء التي تثيرك ؟ متى كانت آخر مرة شعرت فيها بان كيانك كله قد اهتز ؟ وما هو الحدث الذى أثر فيك بهذه الصورة ؟ ان اجابتك على هذه الاسئلة يمكن ان تقودك الى التعرف على حقيقة شخصيتك .. بعض الناس لا يثيرهم شيء ، او قلما احسوا بان هناك سببا او اسبابا قد تؤدى الى تأثرهم بتعبير ادق . اذا كان هذا هو حالك مع البعض . فابحث من جديد .. حاول ان تزيل الستار الذى يغطي حقيقة نفسك !

« ومن منا يعمل كل الوقت ؟ هناك في حياة الناس اوقات فراغ .. وهم يقضونها .. ولكن كيف يقضونها ؟ هل هناك شيء معين تقضي فيه او معه وقت فراغك ؟ اذا كنت احد هؤلاء الذين ينتظرون يوم العطلة او ساعة الفراغ ليخلو الى نفسه مع هوايته . فقد وضعت يدك على الخيط الذى يمكن ان يؤدى بك في النهاية الى كشف هذا الغموض الذى يحيط بشخصيتك !

« كثيرون هؤلاء الذين يقضون وقت فراغهم في النوم ، او في الاسترخاء مع احلام اليقظة او في مشاهدة برامج التلفزيون .. هذا الفريق الاخير انما هو في واقع الامر يقرأ شيئا جديدا مع نفسه يؤدى في النهاية الى تغيير حياته »

متعة العمل

هذا عن الفراغ في حياتنا وكيف نقضيه . فماذا عن العمل وعن اهتماماتنا فيه ؟ وتقول ميلدريد : « كيف تستطيع ان تصف شعورك في ساعات العمل ؟ ماهي الاشياء التي تحبها في عملك او في المدرسة او في الجامعة اذا كنت ما زلت طالبا ؟ ما هي الاعمال التي تؤديها وتشعر معها بالرضا والارتياح ؟

ان اكتشافك لشيء او لاشياء تثير اهتمامك في العمل الذى تؤديه مهما كان نوعه ، دليل على انك تتمتع بروح خلاقة وباستعداد لتكييف نفسك وحياتك فاذا وجدت متعة في تأدية عملك على الوجه الاكمل الذى تكون انت راضيا عنه قبل اى شخص آخر . فقد وجدت السعادة ووجدت طريقك الى النجاح .

« البعض يمل رتابة الحياة . وهؤلاء هم الذين ضاعفوا من حيث لا يشعرون ، من ثقل العبء الذى يحملونه . فالعمل بالنسبة لهم ، شيء صعب ، شيء ممل ، ولكنه واجب ولا بد لهم ان يقوموا به . »

« وحقائق الحياة .. هل تستطيع ان تواجهها ؟

ان من بين الأشياء التي تبعث على الراحة النفسية ، ادراكنا باننا فوق هذه الارض ، لسنا سوى بشر .. هناك بعض الناس الخيرين . هل انت قادر بالفعل على تقبل حقيقة عدم صحة الاشياء التي تقولها لنفسك ؟ هل انت

مستعد للاعتراف باخطائك ؟ ثم هل انت على استعداد لتغيير نفسك ؟

ان الانسان العاقل هو الذى يستطيع ان يقف في مكانه ، فلا يمضي دائما الى الامام ، ولكنه يخطو خطوة الى الوراء من أن لآخر عندما يشعر انه أخطأ ، ولابد من ان يفعل شيئا لاصلاح هذا الخطأ .. فنحن في مسيرتنا في طريق الحياة يجب الا يكف عن التقاط الاشياء او اضافة اشياء اخرى من شأنها ان تسهم في النهاية في استكمال شخصيتنا وبلورتها وتحسين صورتها .

مع أمنية العمر

« جاء رجل الى صديق له ، وكان يبدو مهموما قلقا حائرا ، وتكلم مع هذه الانفعالات التى طالما حرمته من لذة النوم والاستمتاع بالحياة ، قال : « لقد كانت امنيتي دائما ان اكون محاميا ادافع عن المظلومين المطحونين ، ولكنك كما ترى لا يمكن ان احقق هذه الامنية فقد تقدمت بي السن ، لقد بلغت الاربعين ، وعندما اتخرج ساكون قد جاوزت الرابعة والاربعين .. تصور رجلا يبدأ حياة جديدة في هذه السن المتأخرة ! »

وقال الصديق : « وماذا ستفعل خلال هذه السنين ، اذا لم تعمل الآن على تحقيق امنية حياتك ؟ » سوف اقنع بما انا فيه ، وامضي في عملي كمحاسب في تلك الشركة الكبيرة التي بدأت أعمل فيها منذ عشرين عاما » !

وعاد الصديق يسأل : « وماذا ستجنى بعد اربع سنوات من الآن ؟ »

ـ ربما يزيد مرتبي بعض الشيء .. ولكنني ساظل محاسبا !

ـ وسيصبح عمرك ٤٤ عاما على اية حال ! لماذا تضيع السنوات الاربع اذن من اجل مجرد زيادة في مرتبك ، في وظيفة تشعر نحوها بانها مجرد عمل يجب عليك ان تؤديه من اجل عيشك ورزقك !

وتحقق الحلم !

وافترق الصديقان .. وانقضت بضع سنوات ...

وفي قاعة احدى المحاكم في احدى المدن الرئيسية الكبرى في امريكا ، شاهد الصديق رجلا يقف امام منصة القضاة مدافعا بقوة وحماس عن احد المتهمين .. وفي قفص الاتهام كانت هناك امرأة شابة تقف في هدوء ترقب الانفعالات على وجوه اعضاء هيئة المحلفين .. وكانت التهمة الموجهة اليها هي السرقة .. لقد سرقت المسكينة لتطعم صغيريها اللذين تركهما والدهما ورحل !

وتداول المحلفون واصدروا حكمهم في النهاية « انها غير مذنبة » ونطق القاضي بالحكم بالسجن ولكن مع وقف التنفيذ .. وخرجت الام تحتضن صغيريها .. وخرجت الصحف في اليوم التالي تصفق للمحامي وتتساءل : « من هو ؟ »

انه نفس الرجل الذى قضى حياته يحلم بتحقيق امنيته في ان يصبح محاميا منذ اكثر من اربع سنوات !

مهما كان نوع العمل الذى تستطيع ان تؤديه او تحلم بانك قادر على ان تؤديه ، ابدأ به فورا ..

« في الجرأة عبقرية .. وفيها قوة وسحر . ابدأ الآن .. لم يكن الوقت ابدا متأخرا .. قطار الحياة هناك في انتظارك ! »

بهذه النصيحة تختتم ميلدريد كتابها « كيف تعنى بحياتك ! »

وعــد

قالت الزوجة لزوجها وهي على فراش الموت :

ـ عدني انك اذا تجوزت بعدى .. فلن تجعل امرأتك تلبس ملابسي .

ففكر الزوج حينا ثم قال :

اعدك .. وعلى كل حال ملابسك ليست مقاسها .

تعقيب على مقال :

حقيقة ما جرى بين

موسى بن نصير وسليمان بن عبد الملك

بقلم الدكتور محمد محمود زيتون

نشرت مجلة العربي في عددها رقم ٢٦٦ مقالا بعنوان : موسى بن نصير مأساة فاتح عظيم بقلم الدكتور محمد جبر ، حاول الكاتب فيه ان يتتبع الروايات التي تدين سليمان ابن عبد الملك وتبالغ فيما ازله بموسى بن نصير ، وهي روايات موجودة في بعض كتب التاريخ ، ويوجد بجوارها روايات اخرى تبين ان شيئا من ذلك لم يكن ، وان الوضع لم يكن على هذه الصورة .

مهمة الباحث في التاريخ الذى يحتوى على كثير من الروايات المتناقضة ان يتحرى الحقيقة ويقارن بين ارذايات حتى تظهر حقيقة الوضع دون تحامل على احد

وفي السطور التالية نظرة فاحصة مستمدة من كتب التاريخ الاصلية تبين حقيقة ما حدث لموسى بن نصير عند وصوله الى ادار الخلافة بدمشق .



فالمؤرخون يصورون لقاء موسى بالخليفة بان موسى قد لقي جزاء سنمار ثم يتحدثون عن المشادة بين موسى وطارق حيث يذكرون : « انه عندما قرب موسى بن نصير من دمشق وكان الوليد مريضا كتب ـ اى سليمان ـ الى موسى يامره بالتربص رجاء موت الوليد قبل قدوم موسى . فيقدم موسى على سليمان في اول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التي مارئي ولا سمع بمثلها . فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس . فأبى موسى من ذلك ومنعه دينه . وجد في السير حتى قدم والوليد حي فسلم له الاخماس والمغانم والتحف والذخائر . فلم يمكث الوليد الا يسيرا بعد قدوم موسى وتفى واستخلف سليمان فحقد عليه واهانه وامر باقامته في الشمس حتى كاد يهلك وغرمه اموالا عظيمة .. الخ [1] ويزيد الحجاري في المسهب »

وآلت حال ـ اى موسى ـ الى ان كان يطاف به ليسال من احياء العرب ما يفتك به نفسه وفي تلك الحال مات موسى وهو من افقر الناس واذلهم بوادى القرى سائلا من كان نازلا به (٢) » ويذكر ابن عبد الحكم في احدى رواياته قدوم موسى على الوليد والمنازعة التي قامت بينه وبين طارق حول المائدة التي غنمت من الاندلس بما فيتنافق مع جلال القائدين [3] . ويغض من الاهداف السامية التي يرمي اليها المسلمون من الفتح حيث يوجهون اهتماما كبيرا الى الغنائم ، ولذلك يقوم بينهم تخاصم وحساب عسير من اجل هذه الغنائم .

وان التحرى الدقيق لروايات المؤرخين يجعلنا لا نطمئن الى هذه الدعاوى التي تلصق بالخلفاء الامويين في عقاب قادتهم ومحاسبتهم . وربما نجد من يعلل ذلك بان اولئك القادة كانوا يريدون الانفصال عن الخلافة ، او انهم كانوا يحتجزون دونهم الاموال ، او ان القواد ومساعديهم كان يدس بعض ضد بعض ويغرى بعضهم بالبعض لدى الخليفة [4] مما ادى الى هذه النتيجة المشينة .

تساؤلات وشكوى

الا اننا نعلم ان الدولة الاموية قد انتهت دون ان يحدث اى انفصال في اجزائها ، وانما حدث الانفصال بعد سقوطها . مما يدعونا الى الشك فيما يسند الى خلفائها من عقاب قادتها على هذه الصورة المشينة . ولا سيما اذا علمنا ان من اسباب عقاب القادة ، وهو الانفصال المزعوم ، لم يتحقق في عهدها . واذا بطل السبب بَطُل المسبب . وكذلك فان من حق الخليفة ان يكون ساهرا على الغنائم باعتبارها حقا لبيت مال المسلمين . الا ان السهر على تحصيل غنائم الدولة ومواردها ، يجب الا يصل الى هذا الوضع المسف الذى يصورونه في معاملة القادة ومحاسبتهم . خاصة اذا علمنا ان اولئك القادة ذوو دين قوى واخلاق عالية تمنعهم من مثل هذا الاسفاف الذى لا يليق بدين او خلق .

ولنا ان نتساءل : هل يليق ان ينتظر سليمان وفاة الوليد وهو يعلم ان الاعمار بيد الله ؟

والغنائم ليست هى الاعمال الخالدة التي يحرص عليها وانما الفتح هو العمل الخالد وقد تم ذلك في عهد الوليد . ومع ذلك فان هذه الغنائم انما هي ملك للمسلمين وقد وضعت الغنائم بجواهرها وتيجانها في بيت المال [5] .

وانه لمِماَ يدل على عدم صحة هذه المحاسبات والمخاصمات هو التردد من المؤرخين في رواياتهم بين قدوم موسى على سليمان مرة وعلى الوليد مرة اخرى . وبين الرضا عنه مرة والسخط عليه مرة اخرى .

فابن عبد الحكم يقول مرة : « وخرج موسى حتى اذا كان بطبرية اتته وفاة الوليد فقدم على سليمان بتلك الهدايا فسر سليمان بذلك [6] ومرة اخرى يقول : « بل قدم موسى بن نصير على الوليد بن عبد الملك والوليد

---

(١) نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٢٦٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٥

(٣) انظر فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٢٨٥

(٤) انظر عنان ـ دولة الاسلام قسم ١ ص ٥٩

(٥) ابن عذارى ـ ليبياالمغرب ج ٢ ص ٢٩

(٦) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٢٨٤

مريض فاهدى اليه موسى المائدة فقال طارق انا اصبتها فكذبه موسى .. [7] الخ » وابن خلدون يوجز فيقول : « قدم على سليمان فسخطه ونكبه [8]

وكيف يسخط عليه وقد قدم اليه الغنائم التي قدم بها والتي يجعلها المؤرخون سبب الخصام والمحاسبة ؟

ليل جديد

وانه لمما يدل على عدم صحة ما يذكرون من عقاب سليمان لموسى ما يرويه ابن عذارى من مساءلة سليمان لموسى عما لقى في حروبه وعن الامم التى التقى بها من الروم والبربر واهل الاندلس والافرنج فقد قال سليمان لموسى : ما الذى كنت تفزع اليه عند خروجك ومباشرة عدوك ؟ قال : كنت افزع الى التضرع والدعاء والصبر عند اللقاء ؛ قال : فاى الخيل رايتها في تلك البلاد اسبق ؟ قال : الشقر . قال : فاى الامم كانوا اشد قتالا ؟ قال : هم اكثر من أن أصفهم . قال : اخبرني عن الروم . قال : أسد في حصونهم عقبان على خيولهم نساء في مواكبهم ، ان رأوا فرصة انتهزوها وان غلبة فأوعال تذهب في الجبال لا يرون الهزيمة عارا . قال : فاخبرني عن البربر . قال : هم اشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسيه ، غير انهم اغدر الناس لا وفاء لهم ولا عهد قال : فاخبرني عن الاندلس . قال : ملوك مترفون وفرسان لا يجبنون . قال : فاخبرني عن الافرنج ـ قال : هنالك العدد والعدة والجلد الشدة والبأس والنجدة . قال فاخبرني كيف كانت الحرب بينك وبينهم : اكانت لك او عليك ؟ فقال : اما هذه فو الله ما هزمت لي راية قط ولا بدد جمعي ولا نكب المسلمون معي منذ اقتحمت الاربعين الى ان بلغت الثمانين فضحك سليمان وعجب من قوله . ثم يذكر ابن عذارى ان سليمان كان يصحب موسى بن نصير اثناء خروجه للصيد وانه عندما حج ، اى سليمان ، خرج موسى معه حيث توفى ـ اى موسى ـ في المدينة وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك [9]

وعلى فرض ان سليمان قد ارسل الى موسى بن نصير بتاخير القدوم والوليد ارسل اليه بتعجيل القدوم تجد خلال هذه الروايات ما يبين حقيقة الروح والخلق الذى كان وهو ما يجب ان نلاحظه بالنسبة لكل الاطراف : الوليد ، وسليمان ، وموسى . فان قتيبة يذكر ان موسى قال حين وصله كتاب بالتثبط في مسيره : « خنت والله وغدرت وما وفيت والله لا تربصت ولا تأخرت ولا تعجلت ، ولكني اسير بمسيرى فان وافيته حيا لم اتخلف عنه وان عجلت منيته فامره الى ا [10] .

كل هذا يدل على الاختراع والتزيد في الروايات مما يشوه معه جلال تاريخنا الاسلامي ، ويقتضى من الباحثين بذل كل الجهد لتخليص حقائق التاريخ من الزيف الذى لصق بها نتيجة لعداوات في الصدور او جلبا لمنفعة ممن لديهم منفعة ترجى بتزييف الروايات التي ترضيهم .

واذا كنا نعلم ان التاريخ الاسلامي انما دون بعد سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية فان من الواجب ان تتجه بالشك القوى الى كثير من الروايات المتعددة التي تصوب التهم الى هذه الدولة وخلفائها حتى تعرف الحقيقة خالصة من الزيف والباطل . وليس معنى هذا ان كل التهم باطلة او انها كلها صحيحة . وانما يختلط فيها الحق بالباطل مما يجب ان يحمل المؤرخ على الحذر واليقظة والتثبت من الروايات ونقدها حتى يظهر الغث من السمين والصادق من الباطل : « فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال ـ (سورة الرعد آية ـ ١٧) .

■■

د . محمد محمد زيتون
استاذ مساعد بكلية اللغة العربية جامعة الازهر .

---

(٧) نفس المرجع ص ٢٨٥

(٨)تاريخ بن خلدون ج ٤ص ١١٨

(٩) ابن عذارى البيان المغرب ج٢ ص ٢١و ٢٢

(١٠) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ٨٣

سيف أوستن في ألف ليلة وليلة !

بقلم : عباس خضر

أرأيت الى هذا الذي يظهر على شاشة التلفزيون في بعض الحلقات الأجنبية بطلا لا يهزم ؟

قد صنعت له ـ كما قالوا ـ أعضاء بعد اصابته في حادث طائرة يقدر بها أضعاف ما يقدر الآخرون ، فلا يقدر عليه أحد ، وهو يقدر على كل واحد . تستخدمه الحكومة في مكافحة العصابات التي تهدد الأمن العام ، وتقع كلها تحت يده ، ويلعب بأشرارها لعب الريح العاتية بالأغصان وأعواد الشجر .

كذلك ، ومن قبل ذلك بمئات السنين ، كان البطل في حكايتنا الشعبية العربية في « الف ليلة وليلة » له مثيل في حكاية « عجيب وغريب وسهيم الليل وما يتعلق بذلك » التي بدأتها شهر زاد في الليلة الرابعة والعشرين بعد الستمائة .

أوصله القاص بالجن ، فتحالف مع الصالحين منهم ، وبث فيه روح الايمان بالله وبخليله ابراهيم ، فاستطاع بذلك أن يهزم قوى الشر من انس وجن ... واستخدمه « المجتمع » في مكافحة الملوك المستبدين الظالمين ، فحمل عليهم واكتسح جيوشهم وأبادهم حتى لم يبق منهم ديار ولا نافخ نار ، كما يعبر قصاصنا .

أصل الحكاية

اسمه غريب » وأصل حكايته أن أخاه « عجيب »

الملك الظالم المتجبر قتل أباه وحل محله فى الملك وقال للناس :

ـ يا قوم قد رأيتم ما وقع لملككم ، فمن أطاعنى أكرمته ، ومن خالفنى فعلت به مثله ، فلم يسعهم الا الخضوع والتسليم .

ثم رأى فى منامه رؤيا أزعجته ، أوّلها له المؤولون بأن مولدا من صلب أبيه تقع العداوة بينه وبينه وينتصر عليه ... فقال لهم :

ـ ليس لى أخ أخاف منه ، فقولكم هذا كذب . .

فقالوا :ـ

ـ أيها الملك العظيم ، قد أخبرنا بما علمنا ، فخذ حذرك من هذا المنام . وتشبه هذه الرؤيا رؤيا أب « أوديب » فى القصة اليونانية المشهورة ، ولاشك ان قاصنا لم يطلع على قصة أوديب ، وانما هو « وقع الحافر على الحافر » كما كان يعبر شعراؤنا ونقادنا القدامى ، والانسان هو الانسان فى كل زمان ومكان .

لم يذهب أثر الرؤيا وتأويلها هباء . فقد بقى فى فكر الملك المتجبر برغم تكوينه . فجعل يستعرض جوارى أبيه حتى وجد فيهن جارية حاملا فى الشهر السابع ، فأمر عبدين من عبيده أن يأخذاها ويرميا بها فى البحر . نظر الرجلان الى الجارية ، فوجداها بديعة الحسن والجمال ، فتساءلا لماذا نغرقها ؟ اننا نأخذها الى الغابة ونعيش بها هناك . واتجها بها الى الغابة ، ثم اختلفا واشتبكا فى قتال ، وطلع عليهما ناس آخرون ، اشتبكوا معهما وحملوا عليهما حتى قتلوهما .

تسللت الجارية الى داخل الغابة ، وصارت وحدها تأكل من ثمار الأشجار وتشرب من عيون الماء ـ حتى وضعت ولدا أسمر أسمته « غريب » لغربته وجعلت ترضعه وهى حزينة وحيدة ، وبينما هما فى يوم من الأيام على تلك الحالة اذا فرسان ورجال مشاة يدخلون الغابة ويرونها هى وطفلها ، اقتربوا منها وقالوا لها : ـ هل أنت انسية أم جنية ؟

ـ انسية يا سادة العرب .

وقع فى الحب

وكان على رأسهم مرداس سيد بنى قحطان ، خرج للصيد فى خمسمائة رجل من قومه ، فقصت عليه الجارية ما حدث لها من أوله الى آخره ، فأخذها وتزوجها واستولدها ولدا أسماه « سهيم الليل » نشأ مع غريب أخوين متحابين . وتعلما الفروسية ، وصارا من أشجع الشجعان . وحدث أن أغار قوم على بنى قحطان فى غياب الأخوين عن مضارب القبيلة . وسبى المغيرون فيمن سبوا « مهدية » بنة مرداس من امرأة أخرى ، فلما عاد غريب وسهيم ليلا كرا على المغيرين واستعادوا السبى ، ورأى غريب مهدية فوقع حبها فى قلبه ، وصار ينشد فيها الأشعار ، وذاع هذا الحب حتى وصل نبأه مرداسا فنقم على غريب وأراد الفتك به ، ودبر لقتله ، ولكنه فوجىء باغارة الأعداء عليه وأسره . ثم فكه غريب من الأسر ، وطلب منه يد مهدية ، فأجابه الى طلبه ظاهريا وهو يضمر له الشر ـ وأراد أن يحمله على مغامرة يكون فيها هلاكه ... فقال له :

أنا لاأريد منك مهر مهدية ، انما أريد رأس عدو لى اسمه غول الجبل « وهو عملاق قوى البأس .

ـ اطمئن ياعمى ـ سآتيك برأسه مهما كان .

وهنا يسلح قصاصنا بطلنا بأول الأسلحة التى تشبه الأطراف التى ركبت لاستيف أوستن ودفع لها ستة ملايين من الدولارات ، اذ يذهب غريب على رأس فرسان من بنى قحطان الى حيث « غول الجبل » فيلقى فى طريقه شيخا عابدا فى كهف ، ويقول له الشيخ :

ـ كأنك يا ولدى من الكافرين الذين يعبدون



الاحجار دون الملك الجبار خالق الليل والنهار والفلك الدوار .

دهش غريب من كلام الشيخ وارتعدت فرائصه وقال :

ـ يا شيخ أين يكون هذا الرب حتى أعبده وأتملى برؤيته .

ـ ياولدى ، هذا الرب العظيم لاينظره احد فى الدنيا ، وهو يرى ولا يرى وهو حاضر فى كل مكان ، خلق الانس والجان ، وبعث الانبياء لهداية الخلق الى الطريق الصواب ، فمن أطاعه أدخله الجنة ، ومن عصاه أدخله النار .

ياعم ، فماذا يقول من يعبد هذا الرب العظيم ؟

قل لا إله إلا الله ابراهيم خليل الله .

اسلم غريب قلبا ولسانا ، وأخذ عن الشيخ تعاليم الدين ، ثم حكى ما جرى له من أوله الى أخره حتى وصل الى « غول الجبل » الذى جاء فى طلبه ، فقال له :

هل أنت مجنون حتى تسير الى غول الجبل وحدك ؟

معى مائتا فارس .

ولو كان معك عشرة الاف ما تقدر عليه ، فهو الغول الذى يأكل الناس نسأل الله السلامة . وهو من أولاد حام وأبوه « هندى » الذى عمر الهند وسميت باسمه . وقد خلف هذا وسماه « سعدان الغول »فكان يا ولدى جبارا عنيدا وشيطانا فريدا ، ما له مأكول الا ابن آدم ، نهاه أبوه عن ذلك فما انتهى فطرده ونفاه ، فجاء الى هذه الأرض . وصار يقطع الطرق ، رزق خمسة أولاد غلاظ شداد عمالقة مثله طول الواحد منهم ثلاثون ذراعا ، وأنا أخاف عليك منه .

لاتخف وادْعُ لى .

اسأل الله تعالى أن ينصرك بكلمة التوحيد ، اذا حملت على الكفار فقل « الله أكبر » فانها تخذل الكفار .

واعطى الشيخ غريبا عمودا من فولاذ وزنه مائة رطل ، وفيه عشر حلقات ، اذا هزه حامله رنت حلقاته رنينا كصوت الرعد ، ثم قال له :

اذهب الى من معك واعرض عليهم الاسلام .

رجع غريب الى جنوده والى أخيه سهيم الليل ، وعرض عليه الاسلام على دين الخليل ابراهيم ، عليه السلام فأسلموا جميعا قلبا ولسانا .

غول الجبل

لما نظر غول الجبل « غبارالفرسان الذين يقودهم غريب قال لأولاده :

اركبوا وأتونى بهؤلاء . لما رأى غريب العمالقة الخمسة قد هجموا عليه لكز جواده واقترب منهم ، فقال له أكبرهم انزلوا عن خيولكم ، وليشد بعضكم وثاق بعض ، حتى نسوقكم الى أبينا لكى يشويكم ويأكلكم .. فانه مشتاق الى لحم أمثالكم .

فما كان من غريب الا أن حمل عليه وضربه بالعمود وهو يقول : الله أكبر ، فوقعت الضربة على كتفه ، فسقط مثل النخلة ، فنزل سهيم وبعض القوم وشدوا وثاقه ، وكذلك فعلوا بثلاثة آخرين أما الخامس فقد فر هاربا حتى دخل على أبيه ، فقال له أبوه :

ما وراءك ؟ وأين اخوتك ؟

اسرهم صبى ما خط عذاره .

نزل غول الجبل من حصنه راجلا ، لأن الخيل لاتستطيع حمله لكبر جسمه ، وسار وراءه ابنه ، حتى وصلا الى غريب وقومه ، فاقتلع شجرة كبيرة ، وحمل عليهم فهشم خمسة منهم بالشجرة ، وقصد الى سهيم الليل وسدد اليه ضربة بالشجرة . فزاغ منه سهيم ، فغضب الغول ورمى بالشجرة وانقض على سهيم فخطفه مثل ما يخطف العصفور .. فلما نظر غريب الى أخيه فى يد الغول صاح وهو يتجه اليه :

الله أكبر يا جاه ابراهيم الخليل ..

وهز العمود فارتفع رنين حلقاته ، ثم ضربه به على أضلاعه ، فوقع على الأرض فانفلت سهيم من يده ..

وما أفاق الغول ، من غشيته حتى وجد نفسه مغلول اليدين مقيد الرجلين . وحاول ابنه الفرار ولكن غريبا لحق به وأوقعه بضربة من العمود . وأخذ غول الجبل وأولاده أسرى مربوطين بالحبال وعرض عليهم غريب الاسلام على دين ابراهيم فأسلموا وحسن اسلامهم .

صار الغول وأولاده من أتباع غريب ، وكانوا سلاحا له على أعدائه . فقد خاضوا معا معارك كثيرة قاتل فيها الغول بالأشجار يقتلعها ويضرب بها ، فتقد الأضلاع وتجندل أشجع الفرسان .

ولما علم مرداس بما حدث فر الى الكوفة بأهله حيث لجأ الى ملك العراق ، وعلم غريب أن ملك العراق هذا ما هو الا « عجيب » أخوه الذى قتل أباه وحل محله فى الملك ، وشرد أمه ، وعلم كذلك أنه قتل أمه ، اذ كانت ضمن أهل مرداس اللاجئين .

الجن والعفاريت

ثم كان السلاح الثالث بعد التوحيد والغول ، هو الجن والعفاريت .. اذ حدث يوما ان كان غريب وأخوه يتنزهان وحدهما فنظرا طائرين فسددا اليهما السهام ، واصيب أحد الطائرين فانقض عليهما ماردان وحملاهما الى الجو طائرين بهما ، وذلك لأن الطائرين كانا من الجن والذى قتل منهما ابن ملك الجن « مرعش » قدم الاخوان الى مرعش فقال لهما :

قتلتما ولدى، وأشعلتما النار فى كبدى ، ولا بد من احراقكما فى النار .

وأتوا بتنور وأشعلوه ، فسجد الملك وتبعه الحاضرون ما عدا غريبا وسهيما ، فقال لهما مرعش : ياكلبان مالكما لاتسجدان ؟

قال غريب :

السجود لا يكون الا للملك المعبود الذى خلقنا وخلق النار التى تعبدونها ، وهو الذى ينجينا من شركم .

فأمسكوا بهما وهموا أن يلقوهما فى نار التنور وهما يدعوان الله أن ينجيهما من نار الجن واذا حجر يقع على التنور فينكسر وتنطفىء النار ، فصاح غريب : الله أكبر ، فقال له مرعش :

انك ساحر سحرت النار ، فجرى لها هذا الحال .

لو كانت النار الها لمنعت عن نفسها ما ضرها ...

وأشعلوا لهما نارا أخرى عظيمة ، فنزل عليها المطر وأطفأها .

خلا الملك بوزرائه وأعوانه ، وقال لهم :

ما تقولون فى هذين الرجلين ؟

يا ملك لولا انهما على حق ما جرى للنار ما جرى .

وبعد الحوار بين الملك وأعوانه أمر فاحضر غريب بين يديه ، فقال له : يا انسى ، ما تقول حتى نصير على دين ربك ؟

قولوا ــ لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله .

سيف يافث بن نوح

وصار غريب ومرعش منذ ذلك الحين صديقين حميمين . وكلما عزم غريب على الرحيل استبقاه ملك الجن فى ضيافته ، وقد طاف به على كثير من معالم الجن ، ومنها مدينة يافث بن نوح وقصره حيث نظر غريب فى دار السلاح سيفا معلقا فى وتد من ذهب ، قال مرعش عنه انه سيف يافث بن نوح الذى كان يقاتل به الجن والانس ، واسمه « الماحق » ما نزل على شىء الا محقه ، طوله اثنا عشر شبرا وعرضه ثلاثة أشبار ، أبدى غريب رغبته فيه ، فقال له مرعش : ان كنت تقدر أن تضرب به فخذه ، فأمسك به غريب فى يده كالعصا ...

ثم أصر غريب على أن يعود الى قومه وجنده ، فأعطاه مرعش هدايا كثيرة مما لامثيل لها فى عالم الانس ، وعهد الى ماردين أن يوصلا غريبا وسهيما الى بلادهما ويكونا فى خدمتهما ومعاونتهما .

واستمرت شهرزاد تحكى عن المعارك التى خاضها غريب وضرب فيها بسيف يافث وانتصر فيها ونكل بأعدائه الكفار أشد تنكيل ، يعاونه فى ذلك مردة الجن المؤمنون . وكان يعرض على مقاتليه الاسلام على دين الخليل فمن أطاع ودخل فى الاسلام صار من أنصاره ، ومن أبى وأصر على عبادة النار أصلاه نارا حامية من سيف يافث . وكان ينشر العدل بين الجميع ويحق الحق ويبطل الباطل .

وكان غريب يلاحق أخاه الملك « عجيب » الذى كان يلجأ الى الملوك الأخرين ويطلب حمايتهم فيجيبونه ويحاربون معه ، وحدث مرة أن أمر ماردا من الجن بأن يأتيه بعجيب من معسكر الكفار ، فذهب اليه وحمله حملا . وعرض عليه غريب أن يدخل فى دين الاسلام ويترك عبادة النار ، على أن يعفو عنه ويغفر له قتله لأبيه وأمه . فأبى وأصر على دينه ، فأمر غريب بقتله وصلبه ، وذهب الى الجحيم مع كل كافر أثيم .

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح !

■■

عباس خضر

مقالات في كلمات

■ سن الرجل رهن باحساسه .. وسن المرأة رهن بمظهرها .

« سومرست موم »

■ كانت المرأة الاغريقية تحصي عمرها من يوم زواجها .. لا من يوم ولادتها ..

« هوميروس »

■ هناك نوعان من النساء .. الاول : سهل بسيط ، اما الثاني : فمعقد مطلي بالألوان الزاهية .

« اوسكار وايلد »

■ قد تبدو أجمل الآلىء .. فصوص من الطين على صدور بعض النساء .

« جان كوكتو »

■ المرأة التي تصبغ شعرها لتخدع الناس .. تعتاد الخداع في كل شيء .

« بول بورجيه »

■ المرأة .. حرب لا هدنة فيها ..

« سقراط »

■ قبدت الحرب كل شيء .. الا لسان زوجتي .

« جان جاك روسو »

■ « للبحر مد وجزر .. وللقمر نقص وكمال .. وللزمن صيف وشتاء .. اما الحق فلا يتحول ولا يزول ولا يتغير ، فلماذا تحاولون تشويه وجه الحق ..

« جبران خليل جبران »

■ « ان السعادة هي ان تنجح في تحويل ليمونتك المرة الى شراب لذيذ » .

« ديل كارينجي »

■ كل انسان مدين لمعدته المنتظمة بصفاء ذهنه .

« دوماس »

■ القلب الشكور هو اب لكل الفضائل .

« شيشرون »

اعداد : يوسف زعبلاوي

الجلد الطبيعي نجحوا في زراعته

أوردنا في العدد الماضي نبأ جلد الاصطناعي .. الجلد الذي صنعوه من جلد البقر وغضاريف سمك القرش والذي تقبله جسم الانسان بحيث اعتبره البعض البديل المثالي لجلده .. ونورد اليوم نبأ النجاح الذي أصابوه في زرع جلد الانسان الطبيعي نفسه .. جلد المريض الذي أتلفت الحروق أو غيرها جانبا من جلده الاصلي فبات بحاجة ماسة الى جلد آخر يحل محله فيغطي ما انكشف من جسمه وينقذه من مخاطر قد تبلغ الموت أحيانا .. وقد تقبل الجسم الجلد المزروع هذا ولا عجب.. فهو ظهيره أو مثيله .. نجح العلماء في انمائه في المختبر من خلية انتزعوها من الجلد الاصلي وزرعوها في المحاليل المناسبة .

وتجدر الاشارة الى أن ابتكار هذا الجلد الطبيعي المزروع قد تم في نفس المكان والزمان الذي تم فيه ابتكار الجلد الاصطناعي .. في مدينة بوسطن ، وجامعة M.I.T بالذات ، وذلك في مطلع هذه السنة .. في شهر مارس على وجه التحديد . الا ان العلماء المبتكرين لم يكونوا هم أنفسهم في الحالتين .. وان انتموا الى جامعة واحدة ، جامعة M. I. T الشهيرة . وهم أربعة فيما يتصل بالجلد الطبيعي المزروع .. الدكتور يوجين بل وزملاؤه الثلاثة .. وقد انجزوا ابتكارهم بالتعاون مع معهد علمي مختص بالحروق في مدينة بوسطن .. وتحدثوا بتفصيل عن ابتكارهم وعن التجارب التي أجروها في سبيل تطويره في بحث علمي جاد ، نشرته لهم مجلة سيانس Science في عددها الصادر في ٦ مارس ١٩٨١ .

وتبدأ عملية زرع الجلد بخلايا الفيبروبلاست التي ينتزعونها من جلد المريض .. من الأدمة طبقة الجلد الباطنية(dermis)

ويضعون تلك الخلايا ، خلايا الفيبروبلاست ، في محلول مغذ (nutrient) ثم توضع بعد ذلك في محلول آخر يحتوي على بروتين الجلد الرئيسي (collagen) ، وعلى سيروم دم ، ومواد غذائية أخرى . فلا يلبث أن يتكون نسيج ليفي (fibrous tissue) ، هو نظيرطبقة الجلد الباطنية ولكن هذا النسيج الليفي لايكفي .. فهو بحاجة الى غطاء .. الى البشرة أو طبقة الجلد الخارجية التي لايكون جلد بدونها .. ويعمد العلماء في هذه المرحلة الاخيرة الى انتزاع خلايا من جلد المريض .. .. من بشرته ويرشون هذه الخلايا على سطح النسيج الليفي .. فلا تلبث هذه الخلايا ان تنزع وتنمو بسرعة لتغطي ذلك النسيج وتصبح بمثابة الطبقة الخارجية له .. وبذلك تكتمل عملية زرع الجلد الطبيعي هذه ..

ويقدر العلماء المعنيون الزمن الذي تحتاجه هذه العملية بحوالي شهر للقدم المربع ..ومعنى ذلك أنهم مضطرون لمعالجة المريض مؤقتا بجلد اصطناعي أو خلافه ريثما يتم الحصول على المساحة المطلوبة من جلده الطبيعي المزروع .

ويذكر هنا أن علماء آخرين نجحوا في العثور على مواد انتزعوها من الفئران تضمن نمو الجلد المزروع بمزيد من السرعة . وقد نشرت مجلة لانست lancetفي المدة الأخيرة بحثا لهم في هذا الصدد .

أما التجارب التي أجراها الدكتور يوجين بل وأعوانه فقد أجروها على الفئران في بادىء الامر .. اذ غطوا مساحة لايستهان بها (١٥ ٪) من أجسام ٥٢ فأرا ، بجلد مزروع ،

استنبتوه من خلايا انتزعوها من جلـود الفئـران ، وعالجوهـا بالمحاليل المغذية على نحو ما سبق أن بينا . وتقبل الفئران الاثنان والخمسون الجلد المزروع الذى رقعت به اجسامهم ، ولم يرفضه أي واحد منهم .. وكذلك لم يظهر أي تشويه على أى من الفئران .. وذلك بالرغم من مضى سنة كاملة على ذلك .

وأجـرى الدكتـور بل وصحبه تجارب أخرى على بنى الانسان فأحرزت مثـل النجاح الـذى أصابتـه تجاربهـم على الفئران .. ومـن طريف ما يذكر ان الدكتور بل نفسه كان أول الـذين أجـريت لهـم هذه التجـارب ، فكان المريض والطبيب المعالج فى أن واحد معا . ولولا ارتياحه التام للنتائج التى حصل عليها لما أقدم على اجراء تجاربه على أناس آخرين .

على أن الجلـد الطبيعـى المزروع ليس مثـل الجلـد الطبيعى الاصلى مائة بالمائة . فمنابت الشعر والغدد الدهنية لاوجود لهـا فيه أمـا الأوعية الدموية وكذلك بنية الخـلايا cell structure فقد ظهرت ولت فى الجلد المزوع على نحـو ما تكون فى الجلـد الطبيعـى الاصل .

عشبة ..

تحول دون تجلط الدم

● نشرت مجلة نيو انجلنـد الطبية فى أحد أعدادها الصادرة فى مطلع هذه السنة بحثا هاما حول نبات صينى يشبه الفول أو الفاصوليا ويعرف باسم .

(sihuanese hot be ancurd)

فقد اكتشف الدكتـور دل هامر شمدت ان النبات المذكور يحتوى على مادة تمنع تخثر الدم وتحـول دون تجلطـه .. وجـاء اكتشافه هذا بالصدفة .. عندما لاحظ أن احدى عينـات الـدم التى كانت فى مختبره لأغراض أخرى لم تتخثر ..

وتبين له أن صاحب تلك العينـة ، وكان رجـلا سليم

● ارتفعت اسعار البن فى الاسواق العالمية ارتفاعا هائـلا فى منتصف السنـة الماضية ثم انخفضت الى الحضيض فى شهر اكتوبر الماضى ... حسبما يبين الرسم البيانى المرفق .. وقد بلغت ١٨٠٠ جنيه استرلينـى للطن الواحد فى اقصى ارتفاعها ٩٥٠ جنيهـا فى ادنـى انخفاضهـا ... هذا فى الاسـواق العالمية . لا فى أسواقنـا .. فقد قفزت هنا وبلغت الذروة دون أن تنخفض أبدا ... وكأن أسواقنـا تعتـرف بالارتفـاع وتأبـى أن تعترف بالانخفاض !



الصحة ، كان قد تناول الفول الصيني الذي ذكرنا ضمن وجبة العشاء في الليلة السابقة في أحد المطاعم الصينية .. وعرف الدكتور هامر شميدت من ذلك الرجل أيضا أنه جرح جرحا بسيطا في صباح ذلك اليوم .. ولكن جرحه هذا نزف طيلة ٤٠ دقيقة ..

وعاد الدكتور الباحث الى الفول الصيني نفسه ، متحريا سره .. وما لبث أن نجح في اكتشاف عنصره الفعال ، المضاد للتجلط .. وكان هذا العنصر من فطريات الشجر السوداء ، ويعرف باسم (NO — er) . وأجرى الدكتور هامر شميدت تجاربه المخبرية والبشرية التي أثبتت كلها فاعلية ذلك العنصر في منع تخثر الدم . والظاهر أن أهل الصين كانوا على علم مسبق بالعنصر المذكور هذا ومزاياه .. ولطالما استعملوه للشفاء من الصداع ، الذي يمكن أن يحدث نتيجة لقلة ما يصل من الدم الى المخ ، أو بقصد الحيلولة دون تجلط دم المرأة في أعقاب الوضع .

وتبين الدكتور هامر شميدت فيما بعد ، ان ثمة فطريات بيضاء أشد فاعلية ضد التخثر من الفطريات السوداء .. وأن أهل الصين يصفون هذه الفطريات البيضاء للذين أصيبوا بنوبات قلبية وذلك بقصد الحد من احتمال الاصابة بنوبات أخرى جديدة .



مقعد جديد
للعجزة والمقعدين

قدرة الانسان على الحركة والتنقل نعمة كبيرة لايقدرها حق قدرها الا من فقدها .. ولعلها ترقى الى مستوى المعجزات الخارقة في نظر المقعدين .. من هنا نستطيع ادراك مشاعر النقص والكآبة التى تملأ قلوب المشلولين أو العاجزين عن التحرك والسير على قدمين ، ونستطيع أيضا ادراك مشاعر الثقة والفرح التى سيبعثها في نفوسهم كرسي المقعدين الجديد .

صنعته شركتان في اليابان وجهزته بالدواليب الصغيرة وبشتى الازرار والاجهزة بحيث يمكن المقعد من التحرك في شتى الاتجاهات .. الى الامام وإلى الخلف وذات اليمين وذات الشمال هذا فضلا عن الدوران دورة كاملة .. والارتفاع بالمقعد الى أعلى أو الهبوط به الى أسفل وذلك لدى الضغط على أزرار ..

ومن شأن الكرسي الجديد ، الذي سموه (jyrochair) ان يمكن المقعدين من العمل في المصانع ، والدوام في المدارس ، والتنقل بسهولة في المنازل .. ولعل الأهم من ذلك كله هو تمكين المقعد من القيام بشتى الأعمال والحركات التي يقوم بها الأصحاء في المطبخ والحمام أو المراحاض .

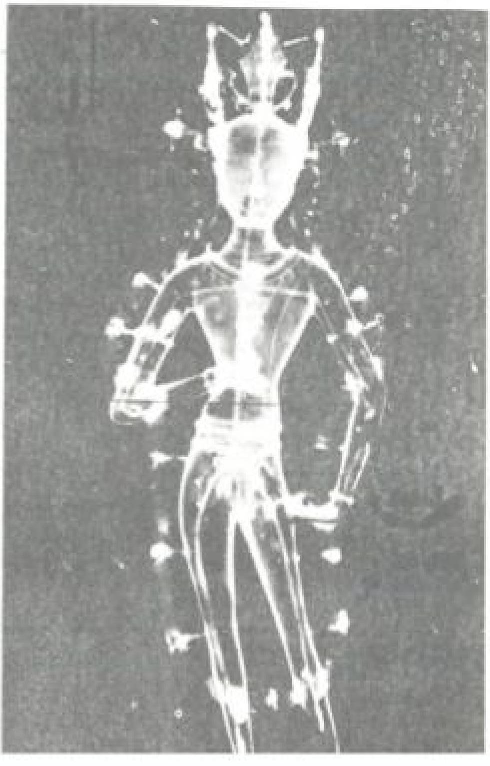
ضجة فنية تثيرها:

الحياة السرية لأعمال الفنانين

باريس ـ من سمير غريب

لم نكن نعرف ان هناك شاهدا جنائزيا فرعونيا صغيرا من الخشب بداخله جنين محفوظ الا بعد اقامة هذا المعرض .. ولم نكن نعرف ان لوحة الفنان كلود ديرية« المعروفةباسم « هنرى الرابع » عليها وجه خفي لأخت الملك هنرى نفسه الا بعد اقامة هذا المعرض .. ايضا لم نكن نعرف ان الكتابة التي محاها الزمن يمكن ان نقرأها مرة اخرى الا بعد اقامة هذا المعرض .. فما هي حكاية الضجة التي ثارت ولم تهدأ بعد في باريس عن تلك الاكتشافات وغيرها ؟

● تمثال هنرى في الأصل والأشعة





الحكاية تبدأ في ادارة المتاحف الفرنسية وفي المركز الوطني للابحاث العلمية ، وساهمت فيها معامل هيئة الطاقة الذرة ومعهد باستير وبعض المعامل الخاصة .. وجدوا ان لديهم نتائج وصورا لابحاث علمية اجريت على اعمال اثرية وفنية هامة ، فاتفقوا على اقامة معرض يوضح استخدام العلم في خدمة الفن ، وجاء هذا المعرض الكبير في المتحف الكبير « الجراند باليه » ليعطي اكتشافات مدهشة تحت اسم « الحياة السرية للاعمال الرئيسية » .

ضم المعرض ١٢ قسما توضح استخدام احدث وسائل العلم في مجالات : صيانة كهوف « لاسكو » الخزف ، الخشب ، المخطوطات ،المعادن ، التصوير ، النسيج ، الزجاج ، الحجر ، آثار ما قبل التاريخ ،وحفظ المعلومات .

في مدخل المعرض توجد ٤٠ صورة فوتوغرافية لاجهزة علمية مختلفة توضح طرق البحث في الاعمال الاثرية والفنية .. في نفس المدخل يشاهد الجمهور صورة فوتوغرافية للخاتم ذى الاحصنة « الذهبي للملك الفرعوني الشهير » رمسيس الثاني » ، هذا الخاتم محفوظ بقسم المصريات بمتحف اللوفر ، الا ان صورته المعروضة مجسدة ، اى تظهر الابعاد الثلاثة للخاتم ، وهي احدث طرق التصوير الفوتوغرافي .. وبنفس الطريقة هناك صورة لقطة مصرية يرجع تاريخها الى ٧٠٠ عام قبل الميلاد .

هذا الاسلوب يجعل من الممكن اقامة معارض اكثر قربا من الواقع لآثار هامة دون انتقال هذه الآثار ، الامر الذى تعاني منه الآن ـ مثلا ـ الآثار المصرية وعلى رأسها آثار توت عنخ امون .

بعد ذلك يدخل المشاهد داخل نموذج لكهف « لاسكو » شديد الشبه بالاصل في شكله ومقاساته والوانه مما يثير الدهشة الشديدة .

اكتشفت هذا الكهف الذي يقع في منطقة « مونتينياك» Montignae الفرنسية عام ١٩٤٠ للجمهور بعد ذلك بثمانية اعوام . لوحظ بعد فتحه ان تأثير الزوار ـ وبخاصة غاز ثاني اكسيد الكربون الذى يخرج من هواء الزفير ـ وتأثير الجو الخارجي يدمران التوازن الطبيعي والكيميائي والبيولوجي للكهف . هذا التوازن الذى حفظ الوان رسومه البدائية على مدى ٢٠ الف سنة . في البداية ظهر المرض الاخضر أى البكتريا

● بورتريه مارى تريز لبيكاسو



● أحصنة الكونكورد



الخضراء التي تنمو على الاسطح الملونة ، اكتشف فريق من البيولوجيين من معمل باستير والمركز الوطني للابحاث العلمية مساحات واسعة من هذا الخطر . فبدءوا العلاج برش المضادات الحيوية ، بينما بدأ هذا العلاج يعطي نتائج ايجابية ، بدأ أخطر آخر في البروز على الاسطح ، هو الهجوم البللوري ، اى تبلور جيري على السطح . وبدأت رحلة اخرى للقضاء عليه .

اليوم توقف الخطر ، لكن توازن الكهف يظل غير ثابت ، لذا ما زالت « لاسكو » مغلقة امام الجمهور لحفظ هذا العمل الفريد .

بالاضافة الى نموذج الكهف توجد صور كثيرة لتوضيح مراحل المرض المختلفة ـ وطرق العلاج .

العذراء والطفل

هناك آثار لا تحصى من الخزف في العالم ، ترجع الى مختلف العصور ، الآن اصبح من السهل معرفة كل المعلومات عن اثر خزفي ايا كان ، واصبح من الممكن ترميم الخزف حتى يشبه الاصل الى اقصى حد . مثلا ، في قسم الخزف بالمعرض هناك لوحة جدارية من الفخار عليها تصوير يمثل العذراء والطفل حولها ستة ملائكة ، هذه اللوحة توجد اصلا في متحف اللوفر وكانت مجهولة التاريخ والنسب أدخلوها المعمل وكشفوا عليها بالميكرسكوب وبجهاز التألق الحراري والتصوير بالاشعة ، فتوصلوا الى تحديد تاريخها بعصر النهضة الايطالي ونسبتها الى الفنان « دريلاروبيا » على توجه التحديد .

مثال اخر : استخدموا طريقة التحليل الطيفي للاشعة السينية على تماثيل صغيرة من الفخار الابيض ترجع للعصر الجالو روماني فتمكنوا من تحديد اماكن صنع هذه التماثيل .

مثال ثالث : عن طريق وسائل خاصة للتحليل لعمليات التزجيج والمينا الملونة تمكنوا من عمل نموذج طبق الاصل لتمثال فرس النهر المصنوع من القياس الازرق والذى يرجع لعصر الدولة الوسطى في مصر الفرعونية .

عدا ذلك هناك التحاليل الكيميائية التي توضح تكوينه طيف الفخار والتحاليل الجيوكيميائية للمحاجر التي تحدد اماكن صناعته وتطبيق علم تركيب الصخور على كسر من الفخار تساهم في معرفة اسلوب صناعته .

في قسم الاعمال الخشبية ، توجد اكثر الاعمال اثارة .. شاهد جثمانى فرعوني صغير من الخشب مستطيل الشكل طوله حوالي ٣٠ سنتيمترا عليه كتابات ورسوم هيروغليفية ملونة .. لا يبدو اكثر اهمية من غيره من الاثار الفرعونية ، الا انه باستخدام اشعة اكس اتضح ان بداخله جنينا بشريا محفوظا باستقامة وعناية ، وتعرض صورة الاشعة بجوار الاصل . ويقال ان هذا العمل هو بمثابة كشف ستكون له اهميته الكبيرة في دراسة تاريخ الاديان .

كما يوضح هذا القسم استخدام « كربون ١٤ » في تحديد عمر العمل الخشبي ، واستخدام التصوير بالاشعة لمعرفة الحالة الاصلية وتكنيك صناعته والمراحل التي مربها ، كما يساهم في التوصيل الى افضل الطرق لصيانته . .

وهناك عدة امثلة تطبيقية مثل تمثال لرأس المسيح لنحات من القرن الثاني عشر . وتعرض بجانبه لوحات توضح حالته الاصلية والمراحل التي مر بها .. وهناك جيتار مد موازيل « تانت » ابنة لويس الرابع عشر وهو من الخشب المطعم بالقشرة والعاج والصدف والابنوس ، كشف تصوير بالاشعة عن وجود حاجز داخل الخشب يؤثر في نغمات أوتاره .

وهناك ايضا الة « الهارب » المصرية التي يحتفظ بها متحف « اللوفر » وبجانبها لوحات بالاشعة تكشف عن بنائها وتكنيك صناعتها ، وهو نفس الاسلوب الثابت المؤسس على النسب والمستخدم في العمارة الفرعونية .

لكن الخشب يظل مادة هشة حساسة للتغيرات الجوية ، لذا فأهمية العلم انه يسمح بوقايته وصيانته . ومن طرق علاجه استخدام بولى ايثلين جلايكول « او تعريضه لانتشار أشعة جاما .

اما عن اعمال النسيج فيوضح المعرض أن الميكرسكوب الالكتروني والتصوير الفوتوغرافي الملون يسمحان ـ ليس فقط بتشخيص الالياف والالوان ـ بل بالتحديد الدقيق لطريقة الصنع والتاريخ .

ومن الامثلة على ذلك : قطعة نسيج شرقي مزخرفة محفوظة في فرنسا . منذ فترة طويلة كانت تعتبر ساسانية ترجع الى القرن السادس الميلادى ، الا ان وسائل العلم الحديث اثبتت انها ليست ساسانية وترجع الى القرن الثامن الميلادى .

« كذلك اجريت على قطع نسيج اخرى تحاليل بالاشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية لاستكمال طلاق

الصيانة . واجريت على قطع اخرى تحاليل بالاشعة السينية لاظهار الخطوط المعدنية بها .

نفس الوسائل العلمية السابقة تقريبا استخدمت في مجال التصوير او الرسم .. فهي كشفت عن اسلوب الفنان ومراحل تكوينه العمل وتاريخه وساهمت ايضا في حفظه وصيانته .

على سبيل المثال : ادخلوا اللوحة المعروفة باسم « الرحمة » للفنان « جون فوكيه » الى معمل ابحاث هيئة المتاحف الفرنسية .. هذه اللوحة اكتشفها بول فشرى عام ١٩٣١ وتحتفظ بها الان كنيسة « نوالى فونتين » Nouans Les Fontaine . في المعمل اجروا عليها التصوير بالاشعة وتحاليل للمواد الملونة ، ومقارنات بأعمال اخرى لفوكيه .. ثم خرجوا بتقرير متكامل عن اسلوب هذا الفنان الفرنسي الذى عاش في القرن الخامس عشر .

وكشف التصوير بالاشعة عن ان الفنان « بوسان » قد كبر قماش لوحته المعروفة باسم تنفس الشاعر وذلك باضافة شرائط من قماش اخر ملون على الجوانب الاربعة

اما اشعة اكس « فقد كشفت ـ في لوحة « كلودديريه » « المسياة » نصر هنرى الرابع عن وجه خفي لسيدة ، قام الفنان بتغطيته برسوم اخرى . واتضح ان هذا الوجه لكاترين دي بوربون ، دونة دي بار ، واخت الملك هنرى نفسه .

كما حددت نفس الاشعة مجموعة الالوان المعدنية التي استخدمها بيكاسو في لوحته « بورتريه مارى تيريز » .

وفي صورة وجه ـ بورتريه ـ للفنان المشهور « رمبرانت » كشفت الاشعة والميكرسكوب الالكتروني عن ان الفنان رسم أولا امرأة منحنية على مهد ثم محاها ورسم فوقها الوجه .

كذلك اجروا تجارب على مقاطع رقيقة من بورتريه للفنان « بارولو يشيللو » لابنة اخيه ، كشفت عن استخدام الفنان للبيض في الرسم كما حددت طبيعة الزيت المستخدم في الالوان .

وهكذا في باقي اقسام المعرض استخدمت احدث وسائل العلم في معرفة البنية الداخلية لتمثال هنرى من النحاس الاصفر وطريقة صبه .. ومعرفة وطريقة صناعة غطاء رأس مصرى نادر يرجع الى ١٦٠٠ عام قبل الميلاد .. واستخدمت ايضا في تحليل الورق ودراسة



● جهاز التألق الحرارى لفحص تمثال من الخزف

ألياف وحفظه ، بل أمكن عن طريق الاشعة فوق البنفسجية اعادة قراءة نصوص قديمة محاها الزمن ، وتم تطبيق ذلك على جزء من التوراة المكتوبة باللغة اللاتينية . كما امكن عن طريق التصوير التلسكوبي معرفة اسلوب صناعة ورق البردى .

واستخدم التحليل بواسطة الامتصاص الذرى والاشعة السينية على زجاج كاتدرائية بورج Borges لمعرفة طريقة صنعه والمواد المكونة له وملاحظة الصدأ والتلف وترميمه .

واظهرت الاشعة تحت الحمراء وجود كبريتات الكالسيوم بكميات كبيرة في المناطق السوداء من تماثيل الاحصنة الحجرية التي تزين ميدان الكونكورد في باريس ، وتبين ان هذه الكبريتات اتت بفعل التلوث الجوي وتهدد التماثيل فشرعوا فورا في علاجها .

هذه جولة سريعة على الورق في المعرض الهام « الحياة السرية للاعمال الرئيسية » ، اما الزائر له فيمكنه ان ينهي جولته بقسم المعلومات حيث يجد عقولا الكترونية ولوحات توضح طريقة استخدام الزوايا بانفسهم لها .. هذه العقول تحتوى على معلومات وصور حول نفس الموضوع لا يتسع المجال هنا لذكرها .

وفي النهاية يثير هذه المعرض تساؤلا « عربيا » ترى ماذا سنكتشف اذا استخدمت هذه الاجهزة العلمية على اعمال الفنانين العرب ؟؟ ■■

باريس ـ سمير غريب

السهم الأسود

قصة الحب والمغامرة والفروسية

بقلم الدكتور عبد الواحد لؤلؤة

يعد (روبرت لويس ستيفنس) واحدا من أهم كتاب الرواية الانجليزية في القرن التاسع عشر . ولد عام ١٨٦٧ ؟ ليدرس الهندسة ، مهنة أبيه ، ولكنه لم يلبث أن انقلب الى دراسة القانون فبدأ يمارس المحاماة عام ١٨٧٥ .

بدأ ينشر وهو في السادسة عشرة من عمره ، ولكن صحته العليلة جعلته كثير الاسفار والتجوال طلبا للشفاء من مرض السل . نجد وصفا لأسفاره المبكرة في « رحلات داخلية » وهي تدور حول جولات بالزورق في أرجاء بلجيكا وفرنسا ، وقد نشرت عام ١٨٧٨ ، كما نجد مثل تلك الاسفار في « رحلات على ظهر حمار » وقد نشرت في السنة اللاحقة . وقد سافر الى كلفورنيا على متن سفينة مهاجرين ، وتزوج في أمريكا وأقام ثلاث سنوات عاد بعدها الى انجلترا . ولم ينقطع (ستيفنس) عن الكتابة عن أسفاره ، وربما كانت « الليالي العربية الجديدة » أمتع كتاباته في هذه المرحلة (١٨٨٢) . وفي العهود اللاحقة أصبح (ستيفنسن من مشاهير كتاب الروايات والمغامرات عندما نشر « جزيرة الكنز » أعقبها بكتاب شهير آخر عام ١٨٨٦ هو « القضية الغريبة للدكتور هيجل والمستر هايد » . وفي نفس السنة نشر روايته الشهيرة « المخطوف » مع سلسلة من أدب الخيال والمغامرات منها « السهم الأسود » التي نشرت عام ١٨٨٨ في ذلك العام رحل (ستيفنس) الى جزيرة (ساموا) وقد كان شديد الولع بالبحار الجنوبية ، فاستعاد بعضا من صحته ونشر « هامش على التاريخ » عام ١٨٩٢ . ورغم ان جزر المحيط الهادي جعلته يرغب في الاقامة الدائمة هناك ، الا أنه توفي فجأة عام ١٨٩٤ ، وبعد أن خلف تراثا غنيا من الروايات التي تستهوي الأطفال والأحداث ومحبي أدب المغامرات ، والرسائل الطريفة التي كان يكتبها الى أصدقائه في انجلترا وأمريكا .

حرب الوردتين

تشكل رواية « السهم الأسود » نموذجا مما يدعى (أدب الرومانس وهي القصص الخيالية التي تدور حول المغامرات والبطولات والفروسية وخاصة ما يتعلق منها بالقرون الوسطى في أوروبا ، حيث كانت الحروب تشن بين الاسر المالكة أو كبار رجال الاقطاع ، وحيث كانت الكلمة الأخيرة للسيف والرمح والمبارزة وخوارق البطولة الفردية . امتدت القرون الوسطى بين حدود سنة ١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ للميلاد ، وكانت الكنيسة الرومانية المقدسة تسيطر على الدين والسياسة في أوروبا ، وكان



رجال الكنيسة بيدهم الحل والعقد ، لايقوى ملك ولا أمير على الخروج على سلطانهم حتى خرج الملك هنرى الثامن فى انجلترا . ذلك الملك المزواج الذى تجرأ على الخروج على البابا روما الذى لم يرق له تصرف العاهل الانجليزى . فلما كان من بابا (كليمنت السابع) الى أن أصدر « قرار التحريم » بحق الملك هنرى الثامن عام ١٥٣٣ ولكن هنرى الثامن صار يبتعد بالبلاد عن البابوية عن طريق تقويم (كنيسة انجلترا) والاقتراب من البروتستانتية فى أواخر عهده . ولم يمت هنرى الثامن الا بعد أن تزوج ست زوجات ، كان يحكم عليهن بالموت بعد فترة من الزواج . وبعد وفاته بفترة تولت ابنته اليزابيث الأولى حكم البلاد (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) وعرفت انجلترا عصرها الذهبى فى الآداب التى ظهر فيها شكسبير .

ولكن انجلترا فى العصور الوسطى لم تكن تختلف عن أوروبا من حيث تنافس رجال الاقطاع والملوك على الأراضى وامتلاك الأقاليم وضمها عن طريق الزواج . وكان ذلك هو اساس أغلب الحروب التى منها (حرب الوردتين) التى استعر أوارها فى انجلترا بين (آل يورك) وآل (لانكاستر) بين ١٤٥٥ ـ ١٤٨٥ . كان رمز آل يورك الوردة البيضاء ، بينما كانت الوردة الحمراء رمز (آل لانكستر) بين ١٤٥٥ ـ ١٤٨٥ . ولاتزال المدينتان تحملان هذين الاسمين الى اليوم فى شمال انجلترا . كانت (حرب الوردتين) سجالا بين الطرفين ، ولم تنته الا بعد أن تزوج هنرى السابع من (آل لانكستر) بالأميرة اليزابيث) من (آل يورك) فتوحدت بذلك السلالتان عام ١٤٨٥ .

تدور حوادث رواية « السهم الأسود » حول واحدة

من معارك (حرب الوردتين) التي كان من أبرز أشخاصها (سر دانيال براكلي) وهو وصولي سياسي ، يحارب تارة الى جانب (يورك) وأخرى الى جانب لانكستر) حسبما تتطور ظروف النصر والهزيمة في تلك الحرب العوان . كان (دانيال) قد استحوذ على كثير من الأراضي والأملاك والقصور بتنصيب نفسه وصيا على الأيتام الذين كانوا الورثة الشرعيين لتلك الأملاك بعد موت والديهم في تلك الحرب الضروس . كان دانيال قد وضع يده على (قصر الخندق) وفرض وصايته على الفتى اليتيم (ريتشارد شلتون ، المسمى « دك » الصغير) . وكانت الاشاعات تدور بان دانيال كان قد دبر مقتل (هاري شلتون) ليستولى على (قصر الخندق) ويفرض وصايته على (دك) ويستحوذ على أملاكه .

في قصر الخندق

وفي ذات ربيع أرسل (دانيال) مدير أعماله (سر أوليفر أوتس) ليطلب الى الفلاحين والاتباع المدافعين عن قصر الخندق أن يرسلوا نجدة اليه في (كتلي) حيث تدور معركة بين (يورك) و (لانكستر) . وسرى التذمر بين الرجال لأنهم لم يكونوا يثقون بالرجل القلب . كان دانيال يدبر لزواج (دك) وريث قصر الخندق بالفتاة (جوانا سدلي) وريثة مقاطعة (كتلي) وكان قد ذهب هناك ليفرض وصايته على الفتاة . لم يكن « دك » يعرف شيئا عما يضمره (دانيال) الخؤوف ، ولكنه قرر البقاء في قصر الخندق مع رجال الحامية . كان بين الرجال عجوز اسمه (نيقولا ابليارد) وهو من أبطال معركة (ايجنكورت) التي وقعت في شمال فرنسا عام ١٤١٥ وانتصر فيها هنري الخامس ملك بريطانيا على قوة فرنسية كبيرة . كان (نيقولا) كثير التذمر من ضعف حامية قصر الخندق ، وبينما كان يتحدث في أمر ذلك اذا بسهم أسود ينطلق من الغابات المحيطة بالقصر فيصيب منه مقتلا . كان السهم يحمل رسالة مؤداها أن (جون المصلح) ـ وهو مارق غامض ـ ، هو (قاتل نيقولا) .

ارتعدت فرائص (سر أوليفر أوتس) لدى قراءة الرسالة ، وزاد هلعه عندما وجد رسالة أخرى معلقة على باب الكنيسة يهدد فيها (جون المصلح) بقتل (سر دانيال) ومدير أعماله (أوتس) وتابع دانيال . وهنا فهم (دك) ان ذلك المارق الغامض يتهم هؤلاء الثلاثة وبخاصة (دنيال) بقتل والده (سر هاري شلتون) صاحب (قصر الخندق) . لكن (دك) قرر الاحتفاظ بهدوئه لا أن يسارع في اتهام الوصي الخؤون . ثم قرر أن يسير مع عشرة من المسلحين ليحمل رسالة (أوتس) الى دانيال حول تهديدات (جون المصلح) . كان (دانيال) ينتظر نتيجة معركة (كتلي) ليلتحق بالجانب المنتصر ، ولكنه في الوقت نفسه بدأ يخاف تهديدات (جون المصلح) فأمر (دك) أن يعود للدفاع عن (قصر الخندق) وتوجه الى حيث المعركة وهو يلعن حظه العاثر لان (جوانا سدلي) التي كان قد أخذها رهينة استطاعت الفرار متنكرة في زي فتى ، فأمر ثلة من رفاقه بالبحث عنها في طريق عودتهم الى (قصر الخندق) . وفي طريقة العودة لقى (دك) ذلك الفتى المتنكر الذي قال ان اسمه (جون ماتشام) ووعد أن يحميه حتى بلوغ الكنيسة . وفي الطريق وجدا جماعة اخرى من المارقين ممن بطش بهم (دانيال) كما وجدا رجال (دانيال) اشلاء على الطريق . كان هدير المعركة من بعيد يدل على أن الدائرة تدور على (دانيال) فصار (دك) يسائل نفسه ان كان وصية بين الغالبين او المغلوبين في تلك الساعة .

أقام (دك) والفتى المتنكر ليلتهما في الغابة ، وفي الصباح وجدا جماعة « دانيال » تجرر أذيال الهزيمة ، وبعدها وجدا متنكرا يسير في الغابة كمن أصابه الجذام ، فعرفا أنه دانيال) وليس سواه ، يغذ السير في الطريق الى (قصر الخندق) . وعندما بلغ الثلاثة (قصر الخندق) راح (دانيال) يتهم (دك) بالخيانة ويقسم أن لادخل له بموت أبيه ، وأرغم مدير أعماله أن يقسم على ذلك أيضا . وفي أثناء ذلك انطلق سهم اسود آخر الى الغرفة حيث كان الثلاثة يتجادلون فهرع (دانيال) للدفاع عن القصر وأمر بتحديد اقامة (دك) في غرفة فوق كنيسة القصر ومنع من رؤية صديقه الفتى المتنكر (جون ماتشام) .

وفي تلك الليلة تسلل (جون ماتشام) الى محبس (دك) وأخبره أن حياته في خطر ، فعرف (دك) ان الفتى المتنكر لم يكن سوى جوانا سدلي التي كان (دانيال) قد خطبها له . فهرب (دك) الى الغابات والتجأ الى جماعة المارقين فوعد رئيسهم بحماية (دك) وتدمير (دانيال) ورهطه .

الاسهم في الكنيسة

كانت المعركة قد دارت على (يورك) واصبح (آل لانكستر) هم المنتصرون ، وكان (دانيال) قد لحق بهم أنذاك ، فأفاد من الغنائم والاسلاب واتخذ لنفسه قصرا في مدينة (شوربي) التي كانت تعج باتباع

(لانكستر) طوال الصيف والخريف . ولكن (جوانا) لم تكن مع (دانيال) لانه كان قد أبقاها تحت حراسة زوجة تابع له في مدينة صغيرة عند البحر . واتفق (دك) مع أحد المارقين فذهب للبحث عن الفتاة في مخبئها . وتشاء الصدف أن يجتمع (دك) مع (لورد فوكسام) الوصي الشرعي على الفتاة وعدو (دانيال) اللدود . ثم وعد (فوكسام) اذا أمكن انقاذ (جوانا) فانها ستصبح عروس(دك) . وحاول الرجلان انقاذ الفتاة بعد أن سرقا زورقا لهذا الغرض ولكن عاصفة هوجاء كادت تقضى على الجماعة فاصيب (لورد فوكسام) من جراء ذلك . وفي اثناء الشتاء تسلل (دك) وصديقه المارق الى قصر (دانيال) في زي الرهبان فكسبا حماية (اليسا رايزنجام) صديقة (جوانا) وقريبة أحد اللوردات الأقوياء من (آل لانكستر)وعندما اجتمع (د ك) مع (جوانا) اخبرته انهم قد ارغموها على الزواج باللورد (شوربي) رغم ارادتها وان الزواج كان مقررا في الغد . اضطر (د ك)الى قتل احد جواسيس (لورد شوربي)فتأزم الجو في القصر وقدم (دك) امام (سر اوليفر اوتس) الذي وعد بالتستر عليه اذا قبل بالاقامة في الكنيسة هادئا حتى يتم زواج (جوانا) باللورد (شوربي) . وفي اثناء الليل جاءه صديقه المارق ليخبره ان رئيس المارقين في الغابة الذي سبق أن وعد بحمايته قد جاءللانتقام من جماعة (دانيال) والحيلولة دون اتمام الزواج .

واذا كان الاحتفال بالعرس قد بدأ في الكنيسة انطلقت ثلاثة اسهم سوداء فاصاب اثنان منها اللورد شوربي) فقتل في الحال وجرح (دانيال) جرحا بليغا فكشف (اتس) عن هوية (دك) ورفيقه المارق فاحضرا امام (ارل رايزنجام) لكن (دك) استطاع ان يدفع عن نفسه بمعونة (جوانا) و (اليسا) مما جعل (رايزنجام) يوافق على حمايتها في وجه (دانيال) . واذ علم (رايزنجام) من (دك) ان (دانيال) كان يتصل سرا (بال يورك)وافق على اطلاق سراح(دك) ورفيقه .

ولكن (دك) اذ هرب من جماعة (دانيال) سقط في يد الملاح العجوز الذي سرق زورقه في محاولة انقاذ(جوانا) من براثن (دانيال) وجماعته .

واذ افلح (دك) في الخلاص من غضب الملاح العجوز توجه في الغداة لمقابلة(دون جلوستر) بناء على طلب لورد فوكسام) فوجد الدوق محاطا بعدد من قطاع الطرق . استطاع (دك) بشجاعته ان ينقذ الدوق ويحارب الى جانبه في معركة (شوربي) حيث هزم جيش(لانكاستر) . من اجل ذلك خلع عليه الدوق لقب (فارس) . واذ راح الدوق يوزع التكريم على جماعته لم يطلب(دك) الا اطلاق سراح الملاح العجوز الذي كان قد سرق زورقه .

وراح (دك) يلاحق (دانيال) واستطاع ان ينقذ (جوانا) منه ، واكتفى بذلك غير راغب في منعه من الهروب . ولكن رئيس المارقين كان يترصد لعدوه القديم في الغابة فانقض عليه ولقي (دانيال) مصرعه ولكن (دك) طلب من رئيس المارقين ان يخلي سبيل(اوتس) مدير اعمال (دانيال) الذي خان الجميع .

وبعد ان دارت على الباغي الدوائر تزوج(دك) و (جوانا) في ابهى مظاهر العز وعاشا في رغد في (قصر الخندق) بعيدا عن صراعات (لانكاستر) و (يورك) . ولقى رفيق (دك) والملاح العجوز كل رعاية وتكريم ثم انقلب المارق في اخر ايامه رجلا صالحا بعد أن انتقم لنفسه من الخونة . فدخل سلك الرهبنة وتوفي على طريق الصلاح . ■■

د . عبد الواحد لؤلؤة

شعور واحد

طالبت زوجة بتطليقها من زوجها الشاعر ، لانه وجه اليها خطابا قال فيه :
« عندما تكونين بعيدة عني اشعر بالقلق والوحدة والملل والانقباض ولكن ياحبيبتي اشعر بها ايضا حين تكونين معي »

وادي العقيق
منتزه العرب.. والمصيف في المللى

بقلم رابح لطفي جمعه

غوطة دمشق وحدائق اللكسمبورج بباريس وحديقة الأزبكية بالقاهرة وجنة العريف بغرناطة ووادي العقيق بالمدينة المنورة .. كل هذه كانت ـ ولا يزال بعضها ـ منتزهات يخرج اليها الناس في أيام الربيع وليالي الصيف يتفيأون ظلال أشجارها ويجلسون تحت خمائلها وألفافها ويتنسمون أنسامها الندية العطرة بأريج الأزهار وشذا الورود والرياحين .

ولم تكن هذه المتنزهات مكانا يتخفف فيه الناس من شدة القيظ وحرارة الطقس ورطوبة الجو فحسب ، بل كانت منتديات يجتمع فيها الفنانون والأدباء والشعراء والمغنـون والظرفـاء ، يتجاذبـون فيهـا الأحـاديث ويتطارحون الأشعار ويستمعون الى الألحان والأنغام ويتنـدرون ويضحـكون ، وهـكذا كان وادي العقيق بالمدينة المنورة لعصر بني أمية ، متنزها لأهلها ومنتدى لسمارهـا ومجمعـا لأدبائهـا وشعرائهـا وملتقـى لمغنيهـا ومغنياتها ..

وقبل أن نتحدث عن ذلك الوادي الذي اشتهر في التاريخ والأدب ، يحسن بنا أن نتحدث في عجالة عن موقعة من المدينة . تقع المدينة باقليم الحجاز على خط عرض ٢٥° وهو نفس الخط الذي يمر بمدينة الأقصر المصرية ، يحضنها في الشمال جبل أحد وجبل ثور ومن الجنوب جبل عير ، بينما يحفها من الشرق والغرب مرتفعان يتألفان من حجارة سوداء نخرة هما حرتا واقم والوبرة ... وإذا فالمدينة تقع في منخفض تكتنفه المرتفعات والحرات يعلو بعضها بعضا ، ولكنها مع ذلك تمتاز بجو لطيف يزخر بظـلال النخيل والأشجار ، ولعـل أهم أسـباب اعتدال الجو فيها أن يكون في ارتفاعها عن سطح البحر بحوالي ستمائة متر مما يجعل جوهـا معتـدلا وخاصـة في الربيع والشتاء .

في هذا المنخفض الذي تقع به المدينة ، تكثر الوديان وتكثر العيون والآبار لغزارة ما يهطل من الأمطـار في الشتاء والربيع ، وأشهر هذه الوديان « وادي العقيق »

ويقع الى الغرب من المدينة وراء حرة الوبرة ويبعد عن المدينة بحوالي خمسة كيلومترات ، وأشهر آبار ذلك الوادي بئر رومة التي ذكرت كتب التاريخ أنها كانت ليهودي يبيع ماءها للمسلمين فاشتراها عثمان بن عفان منه بعشرين ألف درهم وجعلها للمسلمين . وحول هذه البئر ينبت النخيل والأشجار فتبدو المدينة كأنها واحة خضراء وسط بحار من الرمال الصفراء .

ويعد وادي العقيق من أجمل بقاع المدينة وألطفها جوا وأنداها نسمة وخاصة عندما تهطل الأمطار وتتجمع السيول فيه على شكل بحيرة صغيرة أو بركة كبيرة ، فتهب الانسام عليلة بليلة مضمخة بعبق الأشجار والخضرة ، وقد اشتهر الوادي بجماواته الثلاثة ، جماء تضارع وجماء أم خالـد وجمـاء عاقـل ، والجماء مرتفـع صخري أحمر اللون بارز تسيل منه مياه الأمطار وتنحدر في منظر بهيج كأنها شلالات مياه صغيرة ذات خرير ، والى هذه الجماء التي تحيط بالوادي يشير الشاعر العربي القـديم مفضـلا إياهـا على بعض الأمـاكن بدمشـق فيقول :

القصر فالنخـل فالجماء بينهما
أشهـى على القلـب من أبـواب جيرون

والى الشمال من العقيق نجد العرصة الكبـرى والعرصـة الصغـرى وهما من أفضـل بقاعـه وأكرم أصقاعه .



لذلك لم يكن من الغريب أن يتخذ أهل المدينة في العصر الأموي من وادي العقيق متنزها ومصطافا ، يخرجون اليه في أيام الصيف وقد ارتدوا أحسن ملابسهم وركبوا خير دوابهم ، يتفيأون ظلال أشجاره ويبتردون بمائه ويتنسمون نسماته الرطبة الندية ، ويقضون فيه أوقاتا طيبة يتحدثون ويتندرون ويضحكون ويغنون وينشدون الشعر ، بل لقد ابتنى بعض أعيانهم دورا لهم بهذا الوادي لاعتدال مناخه وكثرة الخضرة والمياه فيه ، فعلى الضفة الغربية منه ابتنى سعد بن أبي وقاص القائد الاسلامي الكبير دارا « رفع سمكها ووسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات » ، كما ابتنى طلحة دارا له بالجص والآجر وخشب الساج . أما السيدة سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب فيروي صاحب الأغاني أنها استبدلت بمالها بالزوراء قصرا في وادي العقيق يسمى « البربدي » ، ويروي أيضا أنه لما سال العقيق خرجت ومعها جواريها تمشي حتى جاءت السيل فجلست على جرفه ومالت برجليها في السيل تبترد

ثم قالت :

ـ والله لهذه الساعة في هذا القصر خير من الزوراء !

وكما تحدث الفونس دوديه عن حدائق اللكسمبورج وهيء اليه أن تماثيلها المرمرية المنصوبة فيها تحني هاماتها في دلال ورشاقة ترحيبا بمقدمه ، وكما تغنى فيكتور هيجو بأحراش الحديقة الكثيفة المتداخلة وأشجارها العتيقة الباسقة ونافوراتها ذات المياه الفضية وبركتها المزركشة بالزروع الخضراء كأنها جلد حية رقطاء ، وكما تحدث الأدباء وتغنى الشعراء بغوطة دمشق . وكما تحدث المؤرخون عن حدائق جنة العريف بغرناطة ، تلك الحدائق التي كانت متنزها لأهل المدينة يقصدونها للاستجمام والاستمتاع بجمال موقعها ويلجأون إليها في تمضية أوقات فراغهم ، يتفيأون ظلال أشجارها وينشقون عطر أزهارها وورودها ورياحينها ويسرحون النظر في برك مياهها الجارية ونافوراتها المتدفقة ، وكما تكلم المؤرخون وأطالوا الحديث عن

الأزبكية وحديقتها . تلك الحديقة التي أنشأها الوزير المملوكي أزبك قائد الجيش في عهد السلطان قايتباي وحفر بركتها ومدها بالماء وأقام حولها المنشآت فكانت المكان المفضل لأعيان مصر وأمرائها من المماليك والأتراك فتسابقوا في إقامة دورهم حول بساتينها الغناء وبركتها ذات المياه اللازوردية . كما صارت حديقتها وبساتينها متنزها لأهل القاهرة في الليالي المقمرة حيث يمتزج ضحك الماء في وجه البدور والقناديل . وصدى أصوات القيان والأغاني في ليال لا تعد من الأعمار كما يقول الجبرتي . نقول انه كما تحدث الأدباء والشعراء والكتاب والمؤرخون عن هذه المتنزهات . كذلك تحدث أبو الفرج الأصيهاني عن وادي العقيق بالمدينة المنورة .ولولا ماجاء في كتاب الأغاني عن هذا الوادي من أخبار وأحاديث لضاع علينا جانب هام من جوانب الحياة الاجتماعية والأدبية والفنية لأهل المدينة في العصر الأموي .

وملتقى الشعراء والظرفاء

فمن الأغاني ـ نعرف أن وادي العقيق لعصر بني أمية ـ كان ملتقى لأهل المدينة . يستمعون فيه الى المغنين والمغنيات ممن زخر بأسمائهم والحديث عن ألحانهم وأصواتهم كتاب الاغاني من أمثال طويس وفند وسائب خاثر والدلال ومعبد وابن عائشة ومالك ابن أبي السمح ويونس الكاتب ودحمان وعطرد وعزة الميلاء وجميلة وبرد الفؤاد ونومة الضحى ورحمة وهبة الله ونافع بن طنبورة وبديح المليح ونافع الخير وصبابة وسلامة القس وعقيلة العقيقية والشماسية وفرعة وبلبلة ولذة العيش وسعيدة وغيرهم كثير من المغنين والمغنيات الذين ذكرهم أبو الفرج الأصفهاني . يروى أبو الفرج أن وادى العقيق إذا سال أخذ المغنون يلقون فيه أغانيهم ولم تبق في المدينة مخبأة ولا شابة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يبصره .

وهذه الصورة التي يرسمها لنا الأصبهاني عن وادي العقيق وتلك الشهرة التي اكتسبها ذلك الوادي باجتماع المغنين فيه عندما يسيل واحتشاد الناس والتفافهم من حولهم . يشنفون آذانهم بالأنغام والألحان . تذكرنا بما كان لحديقة الازبكية بالقاهرة من شهرة ذائعة الصيت في عالم الغناء والطرب كما يسجلها المؤرخون العرب والافرنج في كتاباتهم . حيث كانت تقام بها في المناسبات المختلفة احتفالات كبيرة يجتمع فيها خلق كبير من أهالي القاهرة يتحلقون حول الشعراء والمداحين والمغنين والمغنيات ويستمعون الى ألوان من القصص الشعبي على أنغام الرباب وألوان من الغناء والموشحات .

ويروي الأصبهاني أن ابن عائشة أحد المغنين المشهورين بالمدينة لعصر بني أمية غنى أهل المدينة يوما في وادي العقيق فارتفعت أصواتهم : أحسنت أحسنت والتفوا حوله يزفونه الى المدينة !

هكذا كان وادي العقيق ملتقى لأهل المدينة يستمعون فيه إلى ألوان من الغناء يتنافس المغنون والمغنيات في أدائها بأصواتهم العذبة الشجية يصاحبهم العزف والضرب على الآلات الموسيقية .

كذلك نعرف من كتاب الأغاني أن وادي العقيق كان ملتقى يجتمع فيه الشعراء والأدباء والظرفاء يتناشدون الأشعار ويتجاذبون الأحاديث ويتندرون ويتسامرون ويتزينون عند الخروج للنزهة في أرجائه ويتأنقون في ملابسهم ويركبون أحسن ما لديهم من الدواب . يدلنا على ذلك ما رواه أبو الفرج من أن النصيب أبا محجن خرج هو وكثير عزة والأحوص غب يوم أمطرت فيه السماء فقال :

ـ هل لكم في أن نركب جميعا فنسير حتى نأتي العقيق فنمتع فيه أبصارنا !

فقالوا : نعم .

فركبوا أفضل ما يقدرون عليه من الدواب ولبسوا أحسن ما يقدرون عليه من الثياب ! ويورد الاصبهاني عن اجتماع الأدباء والشعراء بوادي العقيق أخبارا كثيرة لعل أطرفها ما رواه عن أبي السائب المخزومي من أنه مضى مع احد أصحابه الى العقيق فتناشدا وتحدثا ولم يلبث صاحبه أن أنشده بيتين للشاعر العرجي . فقال أبو السائب :

ـ أحسن والله . امرأتي طالق إن نطقت بحرف غيره حتى أرجع الى بيتي .

ومضى صاحبه فلقيهما عبد الله بن حسن فسلم ثم قال : كيف يا أبا السائب . فردد له أحد البيتين . فالتفت عبد الله الى صاحبه وقال له :

ـ متى أنكرت صاحبك ؟

فقال : منذ الليلة .

فقال : إنا لله ! وأي كهل أصيبت منه قريش !!

ثم مضى هو وصاحبه فلقيهما محمد بن عمران التيمي قاضي المدينة فسلم ثم قال :

ـ كيف أنت يا أبا السائب ؟

فردد أحد البيتين . فالتفت محمد بن عمران الى صاحبه فقال له :

ـ متى أنكرت صاحبك ؟

قال : آنفا .

فلما أراد المضي قال له صاحب أبي السائب :

ـ أفتدعه هكذا ؟! والله ما آمن أن يتهور في بعض آبار العقيق !

قال : صدقت . يا غلام قيد البغلة .

فأخذ القيد ووضعه في رجل أبي السائب وهو ما زال ينشد البيت ثم قال :

ـ يا غلام احمله على بغلتي وألحقه بأهله !!!

عقيلة العقيقية !

وتدلنا هذه القصة الطريفة على ما كان يدور في وادي العقيق من أحاديث ويروي فيه من اشعار جعلت من رجل صالح زاهد كأبي السائب يبدو كأنه مسلوب اللب مختل العقل حتى يقيده صاحبه من رجليه بقيد الدابة ثم يحمله على تلك الحال على دابته إلى أهله خشية أن يلقى بنفسه في أحد آبار العقيق !!

ليس هذا فحسب ، بل ان السيدة سكينة بنت الحسين كان يفد عليها في دارها المسماةبالبريدى بوادي العقيق كبار الشعراء المعاصرون لها من أمثال جرير والفرزدق وجميل وكثير وغيرهم ، فينشدونها ومن معها من نساء المدينة أشعارهم الغزلية وكانت تجيزهم وتعلق على أشعارهم وتفاضل بينهم وتناقشهم وتنقدهم بنقد يدل على ارتفاع في الذوق .

وكما اتخذ بعض أعيان المدينة دورا لهم بوادي العقيق ، فإن بعض المغنين والمغنيات اتخذوا هم أيضا مساكن لهم بذلك الوادي مثل المغنية عقيلة العقيقية نسبة الى الوادي ، وقد شغف الشاعر الأحوص بها وتغزل فيها بأشعار من ذلك قوله :

يا للرجال لوجدك المتجدد ولما توسّل من عقيلة في غد

يومي ويومك بالعقيق ، إذ الهوى منا جميع الشمل لم يتبدد

كذلك اتخذ المغني طويس مسكنا له بوادي العقيق ، وطويس على ما تروي الأخبار هو أول من تغنى في المدينة غناء يدخل في الايقاع أو ما يسميه أبو الفرج بالغناء المتقن ، وهو أيضا أول من صنع الهزج والرمل في الاسلام ، ويروي أبو الفرج أن عبد الله بن جعفر كان يتنزه ذات يوم مع بعض إخوانه في وادي العقيق فراحت عليهم السماء بمطر جود فأسال كل شيء ، فقال عبد الله لاخوانه :

ـ هل لكم في منزل طويس فإنه قريب منا فنستكن فيه ويحدثنا ويضحكنا ، فانه مليح خفيف لنا فيه أنس .

وتوجهوا الى المنزل حيث خرج طويس يتلقى عبد الله بن جعفر مقبلا وجاء يمشي بين يديه حتى نزلوا فأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث حتى جاء وقت الطعام فجاء طويس بعزاة سمينة ورقاق فأكل وأكل القوم حتى امتلأوا من كثرة الأكل !

بل إن عقد مجلس للغناء بوادي العقيق كان ـ على ما يبدو ـ مطمحا يتطاول إليه المغنون والمغنيات ، يدلنا على ذلك ما رواه أبو الفرج من أنه كان في المدينة جارية اسمها بصبص حلوة الوجه حسنة الغناء ، خفيفة الظل حاضرة البديهة ، وكان في المدينة رجل بخيل اسمه مزبد المدني يتحدث الناس عن نوادره في البخل ، وذات يوم التقى أشراف من أهل المدينة عند مولى الجارية ومن بينهم عبد الله بن مصعب وتذاكروا نوادر مزبد في البخل فقالت بصبص :

ـ أنا آخذ لكم منه درهما .

فقال عبد الله بن مصعب :

ـ أنت حرة لئن فعلت إن لم أشتر لك قلادة بمائة ألف دينار وإن لم أشتر لك ثوب وشي بما شئت وأجعل لك مجلسا بوادي العقيق وأنحر لك فيه ناقة لم يركبها أحد !!

فكان عمل مجلس بوادي العقيق للمغنية ودعوة الناس اليه ونحر الذبائح فيه ـ يعدل عتق الجارية ومنحها حريتها .

هذه بعض لوحات رسمها لنا ابو الفرج الاصبهاني عن وادي العقيق متنزه أهل المدينة في عصر بني أمية ، صور لنا فيها بعض ألوان من الحياة الاجتماعية والأدبية والفنية عند المدنيين في العصر الأموي ، ولولا تلك الاخبار التي بثها أبو الفرج هنا وهناك في كتابه عن ذلك الوادي لما عرفنا مكانته وشهرته التي اكتسبها في التاريخ والأدب . ■■

رابح لطفي جمعه

حياة بلا أمل

تأليف : سمرست موم

تعريب : حسن بو غنام

الشيء الذي يمكننا التأكد منه ، ان كان ممطرا او صحوا ، بردا او قيظا ، هو ان ذلك الرجل الاعرج لابد أن يمر منحنيا على عصاه المعوجة ، وسلته المغطاة بخرقة بالية تتدلى من كتفه ، وقد تناثرت حبوب « الكروندسل » التي تستعمل في اطعام الطيور ، وبعض « الكيا » الملفوفة بورقة قديمة بعناية بالغة .

كانت تبدو عليه معالم الصحة ، لكن وجهه المعروق الذي حفرت فيه حوادث الايام أيات بارعة ، ولحيته السمراء التي اخذت تظهر فيها الشعيرات البيضاء ، وساقه التي لاتفتأ تؤلمه من وقت لآخر .. كل ذلك يذكره بأيام هنيئة ، ايام كان يعمل بحارا في مقاطعة غربي لندن ، لقد كان منظره آنذاك مقبولا وان لم يكن يوحي بالاحترام .. اما اليوم ، وبعد ذلك الاصطدام المروع الذي كسرت فيه ساقه وبقيت الى اليوم اقصر من رفيقتها .. انها ذكريات قاسية ..

إنه يقف الآن على الرصيف ، وفي بقعة لايفارقها من الساعة العاشرة صباحا وحتى السابعة مساء ، يبيع هذه الحبوب ، هذا اذا صادف ورغب المارة في اطعام طيورهم ، فانهم يتفحونه ببعض الدريهمات لقاء شيء منها .

« ياله من عمل صعب » كنت دائما أسمعه يقول ، كان عليه أن يستيقظ في الخامسة صباحا ويستقل القطار المتوجه من لندن نحو الريف ، نحو الحقول البعيدة حيث تنبت تلك الحبوب ، ساحبا رجله القصيرة خلال الارض الرطبة الموحلة التي لم يكن ليزعجها احد سواه ، فينحني بشقة بالغة ليجمع تلك النباتات الخضراء التي تحوي تلك الحبوب ، ولكنه يجدها فارغة لاحياة فيها ، انها خالية من البذور ، لقد اتلفها الصقيع » كان يقول ، وعندما يرى انه جمع مافيه الكفاية ، يقفل راجعا مستقلا قطار العاشرة حيث يبدأ نهارا جديدا في بيع ما جمعه .

لم يكن الحظ يبسم له دائما ، وفي الاحيان التي تسوء فيها احواله ، تراه يجر نفسه متثاقلا في ساعة متأخرة من الليل .. في تلك المناسبات كنت ترى عينيه الزرقاوين اللتين لم تفقدا بريقهما وقوتهما ، تتطلعان بتهم نحو البحر ، كان يشعر ان اليأس قد خيم عليه بجناحيه ، فاينيهرب .. ؟

وفي الحقيقة ان العجوز لم يكن راضيا عن عمله هذا ، وكان يرى ان السنين التي قضاها في هذه المهنة لم تكن الا سرابا خادعا ، ولكنها الحاجة الملحة ، بل وماذا يشتغل .. ؟ وعلى العموم فانها افضل من بيع الزهور التي تتطلب من الانسان أن يريق ماء الوجه ويستجدي الاحسان ..

« حياة صعبة مملة » كان يقول هذه العبارة عندما لا يحالفه الحظ ، ويندر وجود حبوب « الكروندسل » ، او يقل عدد الزبائن ، او عندما تعلق قدمه في الارض



المرحلة ولايتطيع سحبها الا بالجهد ، هذه كانت شكاواه من دهره ، ولكنه كان يتحملها بارادة قوية ، وقد تراه ساهيا يراقب الناس ، تمر من امامه كالامواج الصاخبة التي كانت تتقاذف قاربه ايام الصيد ، فيقابل كل ذلك بصبر عجيب ينبثق من عينيه اللتين لاتنفكان ترنوان الى الافق .. الافق البعيد ..

كان منظره اذ ذاك كنموذج حي للصمود البشري ، ولايفتأ يردد « سأتحمل هذا حتى آخر صريعا » .

وقد تتساءل لماذا يجاهد هذا العجوز ويقضي معظم نهاره منقبا عن حبوبه في منحدرات « كورنيتز » الخطرة متحملا الالم الممض في ساقه ، إنك لاتعلم .. ان عليه ان يعول زوجته ، هذه الزوجة المريضة التي لاتنفك تشكو من « روماتزم » حاد لايفارقها ، والم في المفاصل يقض مضجعه ، وان عليه ان يدفع متأخر الايجار ..و ..

ان احدا لايعلم هذا عنه ، وما من انسان توقف عنده ليسأله مابه ، وقلما ينظر احد اليه حتى ولو اراد ان يبتاع حبوبه ، بل يخطف نظرة سريعة وينطلق لايلوي على شيء ، وما هو الملفت للنظر فيه ؟! لحيته الرمادية ، التجاعيد في وجهه ، رجله العرجاء .. لا احد يعلم كيف يحصل على حبوبه تلك ، واذا تنازل احدهم والقى عليه استفسارا ما فانه لابد مجيب « اجل ان كل ما يؤلمني هو تلك الساق » ، كان يقول هذا من غير ان ينتظر شفقة من احد ، كان يقول ذلك تنفيسا عن المه وكربه ، لقد اصبحت شكواه تقتصر على هذه الناحية فقط ، ولكن ما ان يسمعه المشتري حتى ينطلق مسرعا دون ان يسمع بقية الحكاية .

لقد كان له صبر البحار ، ولكن ساقه هي السبب ، لقد اصبحت تؤثر على اعصابه فينطلق لسانه من غير أن يدري ...

وكان يكف عن ذلك ايام اقبال الحظ ، يوم يوفق الى حبوبه وينفحه المشترون قروشا مضاعفة ، كان ذلك ينسيه المه وينشط معنوياته وقواه .

لم تكن لديه أيام اعياد ليستريح فيها ، بل لم يكن ليفارق مكانه الا في الايام التي يستبد بها الم ساقه فيصبح كتلة من الالم ، هذه المناسبات كانت ترميه في فيناضل حتى يبل ، وحين يشعر ببعض الراحة كان ينصرف الى عمله بجهد اكبر فينطلق بعيدا ويجمع كثيرا ليعوض ما فاته .

وعيد الميلاد كان عيده الاكبر ، ففيه يلتفت الناس



الى رفاهية طيورهم ، فيقبلون على الشراء وينفحونه علاوة كبرى بالنسبة اليه .

وعلى الايام هده المرض ومضى به الهزال قدما ، ففارت عيناه ، ولكن يديه النحيلتين المرتعشتين لاتفارقان سلة الحبوب ، ولايفارق ذهنه المكدود تلك الساق التي تؤلمه ، والتي يظهر انها تعبت من الصراع وودت لو تسلم الى الراحة ، ولكن اني لها ... عليه ان يؤمن العيش له ولزوجته المريضة ، انه يقول مفتخرا « كثير من الناس اصيب بما اصيبت به ساقي ، ولكن قليل من ارغمها على النضال حتى النهاية » .

ويمكن ان يبدر الى ذهنك تساؤل ، لماذا لايضع هذا العجوز حدا لحياته .. ؟بل ماذا يشده نحوها وليس فيها الاالمؤلم الممض ..؟ ومن المعقول ان رجلا مثله لايتعلق بهذه الحياة ، ولكن هناك زوجته ، معولها الوحيد ، كيف ستحيا بعده ..؟ وفي ايه حال ستعيش ..؟ لقد كانت تقول دائما « لا اعتقد ان هناك اسوأ من هذه الحياة » ، وقد صدقت ، فليس هناك اسوأ من ذلك ...

« ولماذا أناضل لأبقي شعلة هذه الحياة » سؤال لم يطرحه العجوز على نفسه ، بل تركه للايام لتجيب عنه ، لقد كان مما يبعث فيه الفخر انه يواجه بوضعه هذا التجارب والصعاب ، بل ويتغلب عليها .. حقا إنه من عبر الحياة التي تمر بها كل يوم .

وفي الطريق الرئيسي حيث يزدحم المارة ، وقف العجوز كعادته بوجهه الجامد التعب وجسده المكدود وبدنه تنحني على عصاه ، انه يمثل لنا نصب العظمة المحطم ، والفضيلة الانسانية المهانة . انه رمز الشجاعة المكتومة ، ولكنها شجاعة بلا مقابل ، وحياة بلا امل ... ■■

بيروت : حسن بوغنام

حوار القراء

مع الذين ادركتهم حرفة الادب

● اورد الاستاذ ابو فاشا في مقاله حالات من ادركتهم حرفة الادب نعيا او جحيا ، وجعل ابن حجة الحموي مثلا لمن نعموا بحرفة الادب « فقد رفعه الادب من عامل حرير الى قمة الوزارة ، فقد كان على ديوان الانشاء ، وكان من خاصة السلطان المؤيد واقرب المقربين اليه ، وعندما ترك مصر وعاد الى حماه عاش عيشة ادبية خصبة الى ان توفاه الله في الثلث الاول من القرن الخامس الهجري . »

وهذه الفكرة صحيحة لكن تاريخ وفاة ابن حجة الحموي خبر غير صحيح ، لان وفاته كانت في القرن التاسع الهجري سنة ٨٣٧ هـ واذا كان ابن حجة نجا من حرفة الادب فانه لم ينج من تجهيل تاريخ وفاته ، اذ نقله الكاتب من عصر المماليك الجراكسة الى عصر الفاطميين في مصر ، فسار به الى الوراء ثلاثة قرون تقريبا .

ومن المفيد ان نذكر ان ابن حجة ولد سنة ٧٦٧ هـ في حماه ووفد الى مصر سنة ٨٠٢ هـ ووصف السفر والبحر والسفينة التي ركبها ، وعند وصوله كانت قد قامت دولة المماليك الجراكسة بسلطنة برقوق والمؤيد نفسه من مماليكه ، وعلى مدى الايام صار المؤيد الرابع من ملوك الجراكسة وقد تولى الحكم سنة ٨١٥ هـ ، وكان له ميل الى الادب والادباء ، بل كان ينظم الشعر ويضمنه اسمه في احد ابيات القصيدة ، وابن حجة كان يومئذ « عين اعيان الشعراء » كما يقول ابن اياس في « بدائع الزهور في وقائع الدهور » فكان ان اتخذه المؤيد وزيره الذي يتولى ديوان الانشاء . وقد اخلص للمؤيد وآزره حين ثار عليه الامير (نوروز الحافظي) واستقل بالشام وجعل الخطبة للخليفة العباسي وحده .

السيد حسن قرون
وكيل مدرسة شبرا الثانوية / مصر

المهلا ام بن عبد ربه ؟

● في العدد (٢٧٠) شهر ايار « مايو » ، لفت نظري في مقال الاستاذ احمد بن محمد الشامي فن التراث اليمني ..) ابيات الشعر التي نسبها الى حسين بن ناصر المهلا المقتول سنة ١١١١هـ ـ ١٧٠٠ م فيما ذكر . وهي التي تقول فيها :

الا انما الدنيا حضارة ايكة
اذا اخضر فيها جانب جف جانب

بينما تجد في لعقد الفريد « ج /١٧٥/٣) ، نفس هذه الابيات قد نسبها صاحب العقد الى نفسه ، وهو الفقيه الاديب الوشاح احمد بن محمد بن عبد ربه المتوفي سنة ٣٢٨هـ . ولا اظن انه قد يخفى ان الفرق بينها يزيد على سبعمائة عام .

معاوية بن ابي سفيان

● على هامش الاستطلاع الذي نشره العربي حول دمشق تستوقفني كما تستوقف غيري شخصية معاوية بن ابي سفيان ، وللحقيقة والتاريخ تقول ان معاوية هو اول من اعطى الشخصية العربية ابعادها في الدولة الاسلامية وكان له دور لا ينكر ، اضافة لحنكته ودهائه وحصافته في ادارة الدولة وقيادة المجتمع وتعصب كثير من الناس له وتشيعهم حوله خاصة ابناء دمشق اذ بحنكته استقطبهم ، واسوق هنا حادثة طريفة ان

اعرابيا قدم الشام على ناقة فأعجبت بعض الناس فراودته نفسه ان يسلبه اياها فقال له : هذا الجمل لي يا اعرابي .. فاستنكر الاعرابي ولم يفده استنكاره ، اذ وجد نفسه امام حشد من الناس كلهم يصرخ به « اعطه جمله ! » واخيرا احتكموا لمعاوية فقال قولته المشهورة : « اعطه جمله » فصاح الاعرابي : لكنها ناقة .. ولم يستجب له احد بل سلب الناقة ..

ولما ولّيَ الناس طلب معاوية من احد الاعوان ان يعطي الاعرابي ناقة وجملا عوضا عن ناقته ، فاستغرب الاعرابي قائلا : كان الامير في غنى ان يخسر ناقة وجملا . فقال معاوية :

اخسر سبعين ناقة ولا اخالفهم في قضية ناقة .

وهو القائل : « لو كان بيني وبين الناس شعرة لما انقطعت .. ان شدوها ارخيتها وان ارخوها شددتها » ولهذا صُنف من دهاة العرب ، ومن هنا لا تنكر على صاحب كتاب المائة الاوائل اذ اختار شخصية معاوية ورشحها من بين شخصيات المئة الثانية .

محمد فتحي الحريري
دمشق ـ سوريا

الملك اوزبك خان

● قرأت مقال (ابن بطوطة الطنجي) للمؤرخ الكبير الاستاذ محمد عبد الله عنان (العربي ايار (مايو) ١٩٨١) ، ووجدت من الضروري التنبيه الى الامرين التاليين ، لان مقالات الاستاذ عنان تعتبر من المراجع التاريخية :

الاول ـ قوله ان التتر دخلوا بغداد عام ٦٠٦ هـ والصواب هو ٦٥٦هـ ، ولا شك ان هذا خطأ مطبعي .

الثاني ـ قوله ان آسيا الصغرى كانت تموج يومئذ بالامراء السلاجقة ولكن قبيلة عثمان كانت قد بدأت تظهر عليهم جميعا . وكان في الاناضول غير بني عثمان عدة ملوك اقوياء منهم اوزبك خان ملك الولايات الشماليه . اقول : ان هذا القول قد يوحي الى القارىء ان الملك اوزبك خان من السلاجقة ، والحقيقة غير ذلك . ان اسمه الكامل محمد غياث الدين اوزبك وهو الملك الثامن في اسرته التي تنتمي الى باتوسين بن جوجي بن جنكيز خان . ومعلوم ان جوجي هو عم هولاكو فاتح بغداد . وقد دام حكم الملك اوزبك من ٧١٢ ـ ٧٤١هـ .

المحامي صالح الشالجي ـ بغداد

الهواية المميتة

● انا طالب فلسطيني احب ان اكمل دراستي الجامعية في مادة الفيزياء الذرية ، ولكن ما حدث للدكتور المشهور عالم الذرة المصرى الذى اغتيل في فرنسا من قبل الصهاينة جعل منها هواية مميتة مع ان وطننا العربي بحاجة لعلماء الذرة وذلك لمسايرة ركب العلم والتقدم ولكن يظهر ان الصهاينة لا يريدون اى تقدم ذري في الوطن العربي ولن يسمحوا لاى عربي ان يبرز في هذا الميدان .. هل هناك مذلة اكثر من هذه ؟

عبد الله محمد احمد ـ الاردن

صعيد مصر

● طالعتنا مجلة العربي باستطلاعين في جمهورية مصر العربية احدهما عن قرية مجاويش السياحية بالبحر الاحمر والآخر عن قناة السويس ، وكم نود ونتمنى من العربي بان تقوم بعمل استطلاع عن صعيد مصر » بعاداته وتقاليده وتاريخه حيث الاثار التاريخية في الجيزة والمنيا وابيدوس ودندره ومدينة الاقصر اشهر مدينة بها اثار على مستوى العالم باعتراف هيئة اليونسكو ، كذلك السد العالي وابو سمبل وغيرها من الاماكن الكثيرة التي تفوح منها رائحة التاريخ .

بشرى فرح توفيق
نقاده ـ قنا

المستعمرات الاسبانية

● قرأت في مجلة العربي العدد (٢٦٩) ابريل ١٩٨١ م استطلاعا عن (مغامرة « للعربي » من سبتة الى مليلة) فتملكني العجب العجاب وعقدت الدهشة لساني ، مما ارى واسمع عن بني قومي من عرب شمال افريقيا ، وهم في حمى الصراع القاتل ، حول الصحراء ، وهناك مدن وجزر عربية على طول الساحل المغربي ، لا تزال حتى اليوم ترزح تحت وطأة الاحتلال الاسباني العاتي ، في زمن استقلت فيه بلاد وشعوب ، هي ادنى الى الضعف والتخلف من بلادي .

سليم المغربي

طرابلس / لبنان

انصفوا المسلمين

● طالعنا فهمي في الاعداد الثلاثة الاخيرة / ٢٦٩و ٢٧٠/و٢٧١/ عدة مقالات تحدث فيها عن حقوق اهل الذمة . ولقد اولاهم اهتماما كبيرا . اننا طبعا نشكره على اهتمامه باهل الذمة ولا ننكر حقوقهم ، ولكن حبذا لو وجه شيئا من الاهتمام للمسلمين الذين يعانون من الظلم والاستبداد في اغلب بقاع المعمورة . فهم مظلومون في اندونيسيا وفي افغانستان .

احمد ضياء الدين سلامة

سورية / دير الزور

حول مستقبل الثقافة

● لي تعليق على الحوار الذي نشرته مجلة العربي في عدد مايو الماضي مع الدكتور صلاح هاشم ، حول مستقبل في الوطن العربي .

١ ـ لقد وضع يده في بداية الحديث على داء الامة العربية ، المصابة به ، الا وهو ، ارتفاع نسبة الامية ، ثم توصيته بعمل (تحديث كبير ينقلنا من العصور الوسطى الى القرن العشرين وما بعده) وقد جاءت تلك التوصية مع وصف للداء ، في عين الصواب .

٢ ـ ولو انه استمر في التركيز على محو الامية ، واعتبرها المحور الاساسي والقاعدة الاساسية الصلبة التي يبنى عليها كل تطور ، لكانت معالجته ناجحة مائة بالمائة ، ولكنه فجأة تجاوز تلك القضية الاساسية ، وقفز فوقها قفزات سريعة وانتقل فجأة الى ضرورة (الفرملة في الانتاج الادبي والى نقل الحضارة من اوربا عن طريق الترجمة) .

٣ ـ لقد افترض الدكتور ـ هاشم ان التفكير في الوطن العربي لا زال ضمن منطق ارسطو ، فمن اين جاء بهذه الفرضية ؟ وكيف اثبت ذلك ؟

٤ ـ أما بالنسبة للتراث ودعوته (الى الاقتصاد في نشره مهما كان عظيما لانه لا يحل مشاكلنا) ان التراث في حقيقته هو الروح الاصيلة للشعب العربي ، وهو هويته المميزة ، واذا كان الغرب بالذات كل الغرب ، يهتم ويحتضن التراث ، وبشكل خاص تراثنا ويسعى جهده لجمع المخطوطات العربية باى طريقة كانت ولو كانت بالشراء او السرقة ، بما فيها الاثار ، ثم اللجوء لترجمة كثير من مؤلفات العرب الى اللغات الاوروبية ، ثم الاستشراق لدراسة تراثنا الادبي الديني لادركنا عندها ، خطر ما يدعو اليه الاستاذ الكريم لترك تراثنا (مهما كان عظيما) ، علما بان احياء التراث ونشره ، وبشكل خاص المهم منه ، ان هو الا بداية لتطور الوطن العربي ، ولان تراثنا ايضا ليس فيه ما يخجل ، بل هو مفخرة للعرب ، وحافز لهم

● وغريب حديث الاستاذ صلاح التالي (بداية انا ضد فكرة (الشخصية) هذه لانى اعتقد ان عوامل عديدة تعمل ضدها) فهل يريدنا ان نتخلى عن شخصيتنا ونمط الحياة الذى نختاره ؟ واذا ما تخلينا فرضا وجدلا عن شخصيتنا ونمط حياتنا ، فما هو البديل ؟ هل نقتبس الشخصية والعادات الانكليزية ، ام الفرنسية ، ام الالمانية ، ام الامريكية ، ام الروسية ؟؟

محمد سعد العصيمي ـ جدة

من مكتبة العربي

التعلم وتحديات المستقبل

تقديم الدكتور عبد العزيز القوصي

هذا عنوان لكتاب ظهر بعدة لغات منذ عامين * وظهر الآن باللغة العربية ، وهو من أهم ما ظهر في السنوات الاخيرة بل انه أهم ما ظهر في ميدان التربية في أواخر السبعينات

وقد وضع النص الانجليزي للكتاب ثلاثة علماء أحدهم يمثل العالم الثالث وهو عربي مسلم مغربي ، اسمه الدكتور مهدي المنجرة كان مديرا مساعدا لمنظمة اليونسكو لمدة ١٥ عاما ـ وهو استاذ بجامعة الرباط ورئيس الهيئة العالمية لاتحاد الدراسات المستقبلية ومقرها باريس .. وثاني هؤلاء العلماء الدكتور جيمس بوتكن الاستاذ بمعهد الدراسات التربوية العليا في جامعة هارفارد وهو يمثل العالم الغربي المتقدم . وثالثهم الاستاذ ميرسيا الذي كان وزيرا للتعليم العالي في رومانيا ومستشار الرئيس الروماني في مسائل التعليم واستاذ الرياضيات في جامعة بوخارست ، وله بحوثه ومحاضراته ومؤلفاته في المسائل الدولية بوجه عام والتربوية منها بوجه خاص ، وهو يمثل الكتلة الشرقية .

واما واضع النص العربي فهو كاتب هذا المقال الدكتور عبد العزيز القوصي استاذ علم النفس بجامعة عين شمس .

وقد صدر الكتاب اصلا عن نادي روما ، الذي هو عبارة عن هيئة من كبار الباحثين والعلماء تكونت بمبادرة من مفكر ايطالي كبير اسمه « اوريليو بتشاي » وقد كان رئيسا لمجلس ادارة الهيئة العالمية المعروفة باسم « ايتالكنسولت » ومقرها في روما وقد اوضح اتجاهه في كتاب سماه « صفة الانسانية » The Human Quality.

تمكن اوريليو بتشاي من دعوة عدد من العلماء ذوي البصيرة النافذة في شئون سكان هذا الكوكب ، واجتمعوا بدءا من عام ١٩٧٠ في سويسرا وامريكا وغيرها ، وجمعوا ما يمكن جمعه من البيانات ، ودرسوا ما حدث في بعض الظواهر الكبرى من سنوات ... ت ودرسوا التغيرات التي طرأت عليها ودرسوا ما يمكن توقعه من

* نشر هذا الكتاب بالاشتراك مع الجمعية المصرية لنشر الثقافة والمعرفة العالمية والناشر : المكتب المصرى الحديث ـ بالقاهرة .



تغيرات في السنوات المائة القادمة وقد تناولوا في دراستهم التغيرات السكانية او الديمغرافية حجما وتحركا والتغيرات في الانتاج الزراعي (والغذاء) والتغيرات في موارد الطبيعة (كالطاقة والمعادن والبترول) والتغيرات في الانتاج الصناعي وكذلك التغيرات الحادثة عنها في التلوث المحيط بنا . ودرسوا في خلال ذلك بعض الظواهر الاخرى كأسس التضخم واتساع الفجوة بين الناس بعضهم وبعضهم الآخر وما الى ذلك . عندما درس العلماء هذه الظواهر وجدوا انها جميعا كانت تسير ببطء في الماضي ثم ازدادت سرعتها . وقد اصبحنا الان نشعر بسرعة حركتها بل اصبحنا في قلق بالنسبة لما يمكن ان يقع في المستقبل من ظواهر واحداث لسنا مستعدين لمواجهتها .

نماذج من التغير

وواضح ان الانسان لا يدرك التغير لانه يعيشه ويعيش من خلاله ، شأنه في ذلك شأن راكب الطائرة فهو لا يدرك السرعة التي تطير بها ما دام هو جالسا مستقرا فيها . كذلك الانسان في هذه الحياة لا يشعر تماما بما يحدث من تغير لانه جزء منه .

ومن امثلة التغير المتزايد ما يحدث في حجم السكان فقد كان سكان العالم ٢٥٠ مليونا عند ميلاد السيد المسيح . ثم اصبح الضعف في ١٦ قرنا ، ثم اصبح الضعف مرة اخر في قرنين اي اصبح ١٠٠٠ مليون في القرن الثامن عشر ثم تضاعف في ١٢٠ عاما فاصبح ٢٠٠٠ مليون ، وينتظر ان يصبح ٧٠٠٠ مليون في عام ٢٠٠٠ وواضح تزايد السكان يحدث بسرعة متزايدة .

كذلك سكان الوطن العربي كانوا ٨٠ مليونا في عام ١٩٥٠ فأصبحوا ١٦٠ مليونا في عام ١٩٨٠ ، وينتظر ان يكونوا ٦٠٠ مليون في عام ٢٠٣٠ .

والسكان في مصر كانوا مليونين ونصف في عام ١٨٠٠ ووصلوا عشرة ملايين في عام ١٩٠٠ وبلغوا ١٥,٥ مليونا في عام ١٩٣٧ ثم ٤٢ مليونا في عام ١٩٨٠ وينتظر ان يصبحوا ٧٠ مليونا في عام ٢٠٠٠ . ويلاحظ ان الزيادة من عام ١٨٠٠ حتى ١٩٠٠ اربعة امثال ، وقد

وصلت في القرن الذي يليه سبعة امثال .

ولنفهم المقصود بالزيادة المتزايدة نقول ان الزيادة السكانية في مصر كانت ١،٦٪ ثم صارت ٢٪ ثم صارت ٢،٢٪ وهي في الوقت الحاضر ٢،٨٪ وقد تزيد وتتسبب الزيادة السكانية السريعة في تزايد التزاحم على الموارد وفي عدم كفاية السكن والغذاء وندرة الخدمات التعليمية والصحية والاجتماعية .

فاذا عرفنا ان الارض المنتجة للمحصول الزراعي لم تزد بنفس المقدار في القرن الماضي ، وان ما كان يخص الفرد في يوم من الايام كان قرابة الفدانين ، ويخصه الان اقل من سُبع فدان ومعروف ان المساحة المحصولية اكبر من المساحة الحقيقية ومع ذلك فان النقص في المساحة المحصولية كبير للغاية .

وقد دلت دراسة التغير في زيادة التلوث ونقص الطاقة ونقص موارد الطبيعة وزيادة التضخم وزيادة السكان على ان المستقبل لا يبشر بخير كثير ، وان الحياة في تعقد متزايد . مما يوحي بأن انهيارا او احداثا مفاجئة يمكن ان تقع في غضون السنوات القادمة .. وكانت صورة قاتمة .

وبذلك اتجه نادي روما بمجموعة أخرى من العلماء لتخطيط ما يمكن ان يعمل . وبعد دراسة استمرت سنوات اصدر تقريره الثاني « الانسان على مفترق الطرق » (١٩٧٤) وفيه يقرر ان الازمة ليست مؤقتة) ولا بد ان تشترك البشرية كلها في حلها ثم ان الوسائل التقليدية ليست صالحة ، فقد ثبت فشلها وهي تقوم على الانفرادية والانعزالية ، ولابد للحل من تشارك وتعاون يقوم به اهل الارض جميعا .

وبذلك اتجه نادي روما مرة اخرى الى ان الحلول العالمية التي تشترك فيها الدول جميعا هي الطريق الامثل لحل الازمة . وفي ضوء تقييم الاوضاع الدولية اتجه علماء النادي الى الحاجة الى صيغة جديدة للنظم الدولية يترتب عليها اشباع الحاجات الفردية والجماعية ، ويترتب عليها خلق نظم عالمية وأممية تتحقق فيها الفرص المتكافئة والعدالة والحرية والكرامة الانسانية تحققا واقعيا . واصدر النادي في هذا تقريره الثالث .

وقام النادي بعد ذلك بدراسة لاهداف البشرية وقد اصدر في هذا تقريره الرابع . وتناول في ذلك اهداف الحكومات السكانية والاهداف الصحية والاهداف الزراعية والاهداف الاسكانية والاهداف التعليمية واهداف الهوية الثقافية واهداف المؤيدين والمعارضين ، والاهداف الدينية والخلقية ، واهداف الاجزاء الاساسية للسكان (الذكور والاناث والطوائف وصفوة المتعلمين الطبقيين) ، ووصل من هذا كله الى صيغة للتماسك العالمي لابد للوصول اليها حتى يتم حل ازمة الانسان . ووصلت هذه الصيغة في اساسها الى ان المسألة ليست مسألة طاقة او سكان او موارد ، وانما المسألة هي في الانسان وبيئته وخصائصه وسلوكه وتعلمه وخلقه .

استثمار الثروة البشرية

ومن هنا جاء اتجاه في نادي روما لدراسة الانسان ونشأته وتربيته وتعليمه وتعلمه . وبذلك تزول النظرة القاتمة التي جاءت في التقرير الاول وتحل محلها نظرة اخرى تقوم على اعداد البشر لمواجهة التحديات وامكان التغلب عليها . وهكذا ظهر التقرير الخامس بعد دراسة دامت ثلاث سنوات ، وظهر في لغات اوروبية متعددة واخيرا ظهر باللغة العربية .

وتدور فكرة الكتاب حول الثروة البشرية ويقصد بها الثروة العقلية والخلقية والسلوكية ، ومعروف أن ما يقرب من البليون من سكان الارض هم من الأميين ولو ان هؤلاء كانوا قد تعلموا القراءة والكتابة وتزودوا بأسباب العلم والتكنولوجيا والتقدم ، لتغير الكثير من وجه العالم . ونعرف ان باليابان ١٠٠ مليون في ارض ضيقة لا ثروة فيها ولا طاقة ، ولكن اهلها بفضل تعلمهم قد سبقوا العالم وفرضوا عليه صناعاتهم وخدماتهم .

فأول تقرير من تقارير نادي روما وهو التقرير الذي يشرح حدود النمو يسبب اليأس ، اما التقرير الذي نعرض عنه الان وهو انه لا توجد للتعلم حدود او كما سميناه « التعلم وتحديات المستقبل » فانه يولد الامل اذ يجعل الانسان مسئولا عن التربية وعما يترتب عليها من تنمية وتقدم ووئام وسلام واخاء .

معروف كذلك اننا لا ننمي في الفرد عن طريق التربية كل مواهبه وكل طاقاته ، فالتربية في المدارس تقوم على تلقين التلميذ معلومات ليسترجعها يوم الامتحان وحتى عندما نظن اننا نعلم كيف يفكر فاننا نعطيه قوالب ونماذج ثم نعطيه مسائل يحلها على النماذج التي تقدمها له . وهناك ما يدل على اننا لا ننمي في التلميذ الا جزءا يسيرا من طاقاته . وبذلك كان شيوع الامية في سكان هذا الكوكب وكان اهدار طاقات الفرد وجهين من اوجه تسرب الثروة البشرية الهائلة دون الافادة الا بجزء ضئيل منها .

يقوم التقرير على فكرة التغير السريع المتسارع في المجتمع . وهو مجتمع يتميز بتفجر المعرفة وليس في نظمه التعليمية ما يمكن الانسان من متابعة ألوان المعرفة المتجددة المتلاحقة . فلابد من تعليم يترتب عليه ان يتمكن الانسان من تجديد نفسه تجديدا مستمرا اي اننا نعلم الانسان كيف يعلم نفسه .

ويقوم التقرير على فكرة ان التغير السريع المتسارع مما يترتب عليه الزحام على الموارد والتقاتل عليها ، ومن ظواهره سباق التسلح مما أدى الى ان مخزون السلاح النووي في العالم يكفي لتدميره سبع مرات ، وادى الى ان ما ينفق على اعداد الجندي يعادل ٦٠ مرة ما ينفق على اعداد التلميذ . كل هذا معناه ان العالم اذا سار على ماهو سائر فيه فانه يكون مقبلا على أحداث لم يُعد لمواجهتها .

نحو تعليم جديد

لهذا كله صدر هذا التقرير مناديا بالتعلم المجدد مكان التعليم التقليدي ، القائم على صيانة الاحوال الحالية على ماهي عليه . والتربية التقليدية تربية صيانية تهدف الى استقرار المجتمعات عن طريق تمسكها بماضيها ، ولكن التغير السريع يحتمل معه ان نواجه مجتمعا جديدا معقدا لم نهيأ له . وواضح ان التربية تدعونا لان نعد الشخص للمجتمع ، ولكنا نسأل انفسنا هنا اي مجتمع ؟ فالمجتمع الماضي قد تغير الى المجتمع الحاضر والمجتمع الحاضر سيصبح ماضيا في الغد القريب ، ثم اننا لكي نعد النشء لمجتمع فلابد أن نعده من خلال هذا المجتمع ولكن اين هو هذا المجتمع ؟ .

لهذا لجأ التقرير الى عدم التمسك التام بالتربية الصيانية التقليدية ، واللجوء الى التربية المجددة القائمة على الابتكارية والابداعية والينبوعية ، واستخدام القوى العليا من تفكير وتحليل وتركيب وابداع وابتكار . اما التربية الصيانية ، فانها تعتمد على الحفظ وعلى التذكر ، وهاتان صفتان يمكن ان تكونا آليتين يقوم بها « كمبيوتر » بصورة دقيقة يمكن الاعتماد عليها !

واذا نحن اعتمدنا على التعلم التقليدي الصياني فاننا يحتمل ان تفاجأ بما يصدمنا ، وقد مرت البشرية بعدد من الصدمات تعلمت منها ولكن التعلم بالمواقف الصادمة قد تكون فيه الضربة القاضية المدمرة ، فالتعلم الصدمي له علاقته الحميمة بالتعلم التقليدي الصياني مما يتمسك بتعاليم الماضي تاركا المستقبل لظروفه ومقاديره .

ومن ابواب التحسين على التعلم الصياني ما يسمى بالتعلم التلاؤمي وفيه يتكيف الشخص مسايرا ما يقع من تغير وبذلك يسير الشخص وراء الاحداث فلا يسبقها ولا يصاحبها . وقد تكون البيئة غير صالحة ، وكذلك قد يكون المجتمع غير سليم وبذلك يكون التعلم التلاؤمي او التعلم المساير تعلما لا يضمن تحقيق التنمية او التقدم او السلام .

لذلك كله اتجه البحث الى التعلم المجدد وبه نزود الشخص ونزود المجتمع بقدرات تجعله يتجدد في الاتجاه السليم . ويقوم التعلم المجدد على تنمية القدرات التوقعية وبناء عليها يتمكن الفرد ويتمكن المجتمع من استشفاف ما يمكن ان يقع في المستقبل . وبذلك يتمكن الانسان من ضبط هذه الاحداث ومن التحكم فيها دون ان يواجهها غير مستعد لها فيصدم بها ، ويحتاج التعلم التوقعي الى تعلم تشاركي ، ذلك ان احداث التزايد السكاني واحداث الهجرات الداخلية والخارجية واحداث التلوث واحداث استيقاظ البشر لحقوقهم واستيقاظهم تعهد الظلم والفقر والجهل والمرض ، كل هذا يحتاج الى تشارك على كل المستويات العالمية والاقليمية والامية .

ينشد الكتاب تعلما توقعيا تشاركيا دون ان تفقد الدولة ذاتيتها الثقافية وتتعرض الذاتية الثقافية للغزو . والذي نسعى اليه هو ان تنمو في كل بلد ذاتيته الثقافية مع الاحترام المتبادل مما يضمن احترام كل انسان لنفسه ولغيره في البشرية جمعاء .

مسئولية عن النفس

وتلخيصا لهذا الاتجاه نقول ان الكتاب يدعو لتعلم توقعي بدل التعلم الصياني ، ولتعلم تجديدي بدل التعلم التقليدي ، ولتعلم تشاركي بدل التعلم الانفرادي الانعزالي . وينادي باستنباط الطاقة البشرية وتنميتها الى اقصى ما يمكن تنميتها اليه . ومعنى ذلك اننا نريد ان نصل الى اقصى مردود بشري من عمليات التربية .

يضاف الى كل ما تقدم ان المجتمعات تتعلم ونحن لا نعلم حتى الان كيف تتعلم الجماعة وكيف يتعلم الفرد . ولابد ان نذكر هنا ان كل ما قدمه الينا علم النفس عن تعلم الانسان لا يتجاوز الوصف الظاهري لما يحدث ، اما ما يحدث في داخل الانسان فردا كان او جماعة مما تعرضت له مدارس علم النفس المختلفة فانه لم يفدنا كثيرا في توجيه عمليات التعليم والتعلم ، سواء

اكان هذا قد وصل الينا من المدارس السلوكية أم من المدارس الجشتالية والسياقية أم من مدارس التنشئة أم من مدرسة السيبرنطيقا أم من المدرسة البنيوية (بياجية) أم غير ذلك .

وبذلك يكون الكتاب قد اثار اتجاهات جديدة تحتاج الى ترجمة عملية على المستوى المحلي وعلى مستوى الدولة وعلى المستوى العالمي .

ويجد نادي روما في كتابه او تقريره الخامس (١٩٨٠) شعاع امل يبدد الصورة القاتمة التي خرجنا بها من تقريره الاول (١٩٧٢) .

ويختم الكتاب فحواه بأن يجعل نهايته مفتوحة ، فلو انه وضع معادلات ثابتة وحقائق نهائية لهزم نفسه وضل عن غايته ، ولكن نشر هذا التقرير يقصد به ان يكون دعوة للتفكير في العروض والمفاهيم الاساسية ودعوة لاثارة الحوار والمناقشة بين المسئولين في كل مكان ممن يشغلون انفسهم بموضوع التعلم ومستقبل البشرية . ■■

د.. عبد العزيز القوصي

أسرار إرتفاع ضغط الدم

تقديم الدكتورة صبيحة الدباغ

لا تزال الدراسات عن ضغط الدم واسبابه وعلاجه تتوالى تباعا . وهذا آخر كتاب وصلنا وهو في الاصل بالفرنسية الفه البروفيسور فيليب ماير استاذ الطب التجريبي بمستشفى نيكر بباريس وقد قامت بترجمته الى الانكليزية السيدة ماري اوزبورن بيلغرين ونشرته مطبعة جامعة اكسفورد .

ومما لا شك فيه ان ضغط الدم يهدد بتقصير أجل مالا يقل عن ١٠ في المائة من سكان العالم الغربي ، والكتاب الذي نقوم بتقديمه * عام شامل يضم احدث ما توصلت اليه التجارب العلمية . وهذا ما دعا الى اخراج ترجمة انكليزية له ، وقد ناقش بايجاز ودقة تشخيص المرض ومعالجته فضلا عن ميكانيكيته والعوامل المفضية اليه ، وهو مما لا غنى عنه للطبيب الممارس والجراح وطالب الطب وحتى المطالع الاعتيادي المثقف ثقافة طبية .

وقد قدرت خطورة المرض منذ عشرات السنين ، ولكن دراسته لم تلق العناية الكافية من لدن الاطباء الباحثين خاصة والمجتمع بل والحكومات عامة » ويقول المؤلف بكل تواضع ان كتابه الذي لا يتجاوز الخمسة فصول عبر نحو مائة وتسعين صفحة من القطع الصغير لم يكن غير حصيلة محاضرات سنتين ، القاها على طلبته . وقد خصص القسم الاكبر من الكتاب لميكانيكية الضغط من جهة وميكانية العقاقير المضادة له . فالمؤلف طبيب ممارس واستاذ ، ولكنه لا يؤمن بتدريس الطب كدراسة وصفية محضة من دون ان تكون تحليلية ، وعلى الاخص في موضوع ضغط الدم وعلاقته بالحجلة العصبية ،وقد اردف كل فصل من فصول الكتاب بجملة مؤلفات حديثة للتوسع في دراسة الفصل وعدم الاكتفاء بما جاء في الكتاب وحده .

ويصف فيليب ماير الشخص الطبيعي من حيث

---

* تأليف ـ البروفيسور فيليب ماير "HYPERTENSION, MECHANISMS AND CLINICAL AND THERAPEUTIC ASPECTS" BY PHILIPPE MEYER

السعر : عشرة جنيهات استرلينية ـ منشورات مطبعة جامعة اكسفورد .

ضغط الدم على رأي منظمة الصحة العالمية بأنه الانسان البالغ الذي لا يتجاوز ضغطه الانقباضي الـ (١٤٠مم) والانبساطي « التسعين ملغم » وان المريض بالضغط هو الذي يتجاوز عنده الانقباضي الـ (١٦٠مم)

والانبساطي الـ (٩٥مم) . اما اذا كان الانقباضي ما بين الـ ١٤٠ و ١٦٠مم والانبساطي ما بين الـ ٩٠ والـ ٩٥مم فهو مما يمكن ان يعتبر على « حافة الارتفاع » ولكن هذه الارقام تتفاوت بتفاوت العمر واختلاف الجنس ، فالضغط الشرياني عند النساء اخفض عادة منه عند الرجال في سن مماثلة . ويقسم المؤلف الضغط الى خبيث وغير خبيث ومتقلب ، ولو ان بعض الاخصائيين لا يعترفون بالصنف الاخير وهم ليسوا على صواب لان العوامل العصبية والنفسية تلعب احيانا دورا فعالا في ارتفاع الضغط المفاجيء بنوعيه الانقباضي والانبساطي او بأحدهما دون الاخر ، وقد يصيب ارتفاع الضغط مختلف الأعمار حتى الاطفال ، ويقدر عدد المرضى بالضغط في فرنسا عموما بثمانية ملايين مصاب .

وقد لوحظ ان ارتفاع الضغط مرض البلاد الصناعية فهو اذن قليل او نادر الوجود في الشعوب البدائية وعند الحيوانات ، لذلك فقد اجريت على الاخيرة تجارب مفيدة في هذا الميدان وتبين ان لملح الطعام اثرا في حدوث الضغط بسبب عنصر الصوديوم على عكس البوتاسيوم الذي يساعد على خفضه .

ولعل من امتع فصول الكتاب هو البحث عن « ضغط الدم المتقلب » والاعتقاد السائد بأنه قد يؤدي الى ضغط عال حقيقي اذا استمر فترة طويلة ولم يعالج . غير ان القضية كأكثر قضايا الضغط العالي معقدة تحتاج الى المزيد من التتبع ، ولاسيا اذا كان هذا الضغط المتقلب مصحوبا بالخفقان وبارتفاع الضغط الانبساطي ، وقد يكون مثل هذا الضغط في الطيارين وفي الذين يستعدون للدخول الى قاعة الامتحان او غرفة العمليات ، ويشير المؤلف الى أن ارتفاع الضغط عند النساء قد يكون مظهرا من مظاهر السن الحرجة (اي سن اليأس) ونتيجة الحمل او تناول حبوب منع الحمل .

مشكلة الملح !

ويبحث الفصل الخامس والاخير في العلاج الطبي للضغط باستعمال المدررات والعقاقير المؤثرة في الاعصاب السمبائية ، وعلى الطبيب ان يخبر مريضه عن حقيقة مرضه وخلق جو من الثقة بهما بينا على المريض ان يخبر طبيبه بين الحين والاخر عن التأثيرات الجانبية للعقار لاستبداله بسواه لئلا يحدث انقطاع عن المعالجة . وعلى المريض أيضا ان يحتفظ بسجل لضغطه في فترات مناسبة ، وقد يفضي الضغط المعتدل الى امراض القلب التاجية اكثر من حوادث النزيف الدماغي .

الا اننا لا نوافق الاستاذ المؤلف في تسامحه في تناول الملح لان انعدام الملح على ما يتصور هو قد يفضي الى الكآبة الناجمة عن عدم تلذذ المريض بطعام ماسخ عبر سنوات طويلة ، ولا سيا في الوقت الذي يستطيع فيه تناول المدررات التي تخلصه من الصوديوم الزائد عن الحاجة .

ويتردد الدكتور فيليب في تقرير ما اذا كان انخفاض الضغط يأتي نتيجة خفض الوزن حقيقة ام نتيجة التخلص من مادة الصوديوم بسبب ذلك ، ويؤكد المؤلف ان معظم شركات التأمين على الحياة تطالب بأقساط تأمين عالية للذين يعانون من ضغط يتجاوز الـ ١٣٠ انقباضا والـ ٩٣ انبساطا او الـ ١٥٠ انقباضا والثمانين انبساطا ، اما المصابون بالحالات الحادة فلا مجال لهم للتأمين اطلاقا غير ان اقساط التأمين تهبط في حالات المرضى الذين يكونون تحت العلاج الدائم اذ يكون المرضى تحت السيطرة الطبية المأمونة وعليه ان يقيس ضغطه كما يقيس وزنه ، بانتظام شريطة الا يتعدى حد المعقول فيتغلب عليه الوسواس الدائم .

وخلاصة القول ان كتاب فيليب ماير يعرف موضوع ضغط الدم للقاريء ويجعله مألوفا لديه ، وينصحه بأن يتعود على جعل العلاج جزءا من حياته الى ان يأتي ذلك اليوم الذي يضرب فيه الطب ضربته القاضية على جذر المرض ولا يكتفي بتقديم العلاج المستمر لايقافه عند حد معين ، وليس ذلك اليوم ببعيد اذا استمر البحث والاستقصاء بصورة جادة على نحو ما عليه اليوم . وعلينا ان نتذكر ان الاهتمام الحقيقي بدراسة ضغط الدم لم يبدأ الا بعد عام ١٩٤٨ ، اما قبل ذلك فكان الامر يقتصر على الراحة والحمية والمهدئات ، بينما الان اصبح من الميسور اكتشاف المرض في مراحله الاولى وتقديم اصناف عديدة من العلاجات مصحوبة بتتبعات واحصائيات وتجارب مختبرية ، ولابد لي من كلمة في اسلوب ترجمة الكتاب : انه موفق ولا يكاد الانسان يشعر بأن الاصل فرنسي الا عندما يصطدم بأرقام واحصائيات فرنسية بحتة !! ■■

اكسفورد ـ د . صبيحة الدباغ

نزهة العقل الذكي
بجهود القراء

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العدد بقطعها منه .. اما الكوبون المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري أن يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و ٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد » ٢٧٤ ـ وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول نوفمبر (١٩٨١) .

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم واحد من فتيان قريش وشعرائهم . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم فقيه مالكي ومفسر ومقرىء .

كلمات أفقية :

(١) قصة شهيرة عن صيد الحيتان كتبها ملفيل ـ يغلأقون.

(٢) دولة أفرقية ـ من الموازين .

(٣) من أجزاء الذراع ـ يدعيان العظمة والكبرياء ـ من الاحجا الكريهة .

(٤) مجرى ـ كوارث .

(٥) انصات ـ من الاسماء الحسنى .

(٦) عاصمة عربية ـ تثنى ـ نظير .

(٧) من العناصر ـ مرجع مرسوم انجزته الحملة الفرنسية على مصر .

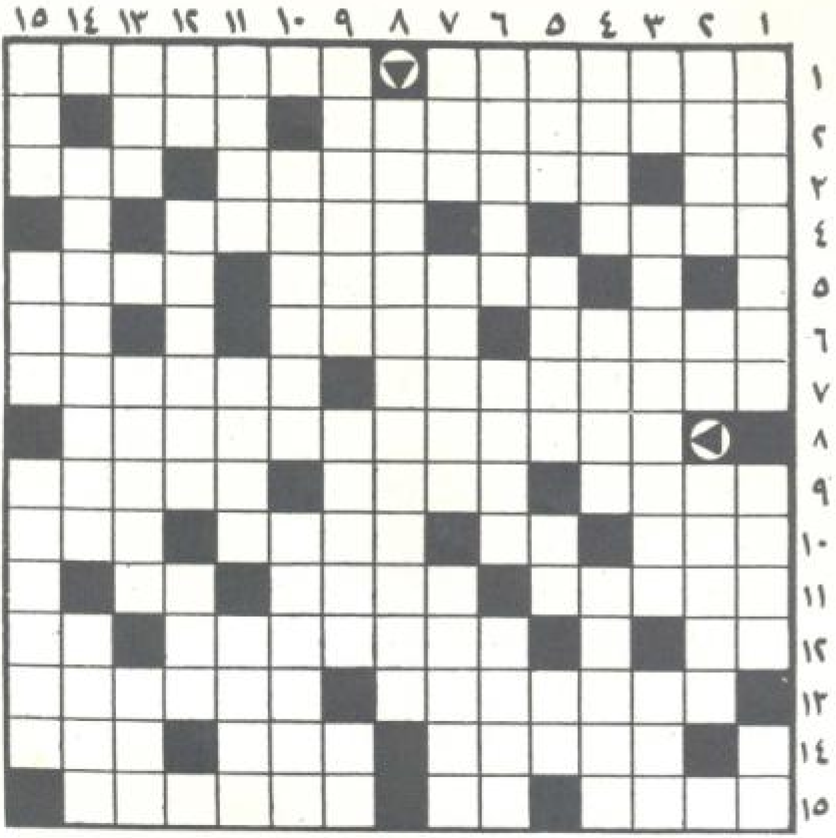
(٨) فتى من قريش ، وأحد شعرائها .

(٩) يقلل من الوزن ـ ينحه ـ في الجفن .

(١٠) نوم ـ ريبة ـ تنهك ـ من افرازات الجسم .

(١١) محاكاة ـ حين ـ نصف كلمة (قسوة) .

(١٢) نصف كلمة (بوار) ـ من الكليات الجامعية ـ حرفان متشابهان .

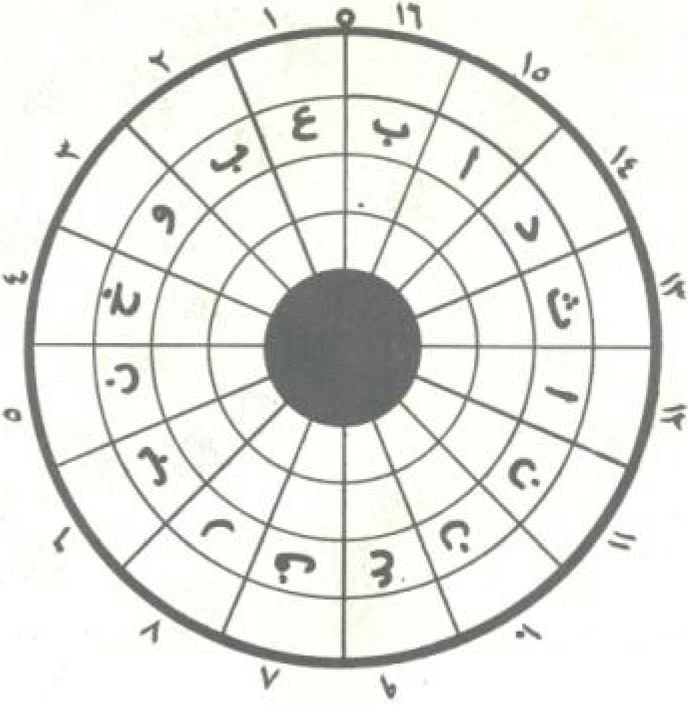


(١٣) معركة في فجر الاسلام ـ كيميائي فرنسي حصل على الصودا من ملح الطعام .
(١٤) في الساعة ـ يحتفل فيها المحرمة ـ الأنها ر
(١٥) عمودي ـ نصف كلمة (أهتف) ـ من أشهر فلاسفة العرب بالاندلس .

كلمات رأسية :

(١) أكبر أنهار أمريكا الشمالية ـ يدوّن ـ احسان .
(٢) حول مجرى النهر ـ نصف كلمة (غواص) ـ تقيوا .
(٣) نصف كلمة (بحار) ـ من الاحياء المائية ـ ارتدى .
(٤) يناسب ـ أعتاد ـ يقاسي .
(٥) وطأ ـ أقترب ـ جذب ـ حافة .
(٦٥) يرجو ـ يتبعك ـ من الغازات .
(٧) من القطائر ـ تعتزمه ـ من حروف الهجاء .
(٨) فقيه مالكي ومفسر ومقرىء .
(٩) يعدوان ـ كذب ـ نصف كلمة (كامن) .
(١٠) في الوجوه ـ طائر مفرد .
(١١) دولة افريقية ـ مشاق ـ ماطلن .
(١٢) في العين ـ تزيده ـ منح .
(١٣) من الأوراق المالية ـ مبتكرة ـ وسيلة انتقال مائية .
(١٤) التحول من الحالة الصلبة الى الحالة السائلة ـ من الأرقام .
(١٥) خلق ـ من أوجه القمر ـ من الخضروات .

كوبون مسابقة
العدد ٢٧٤



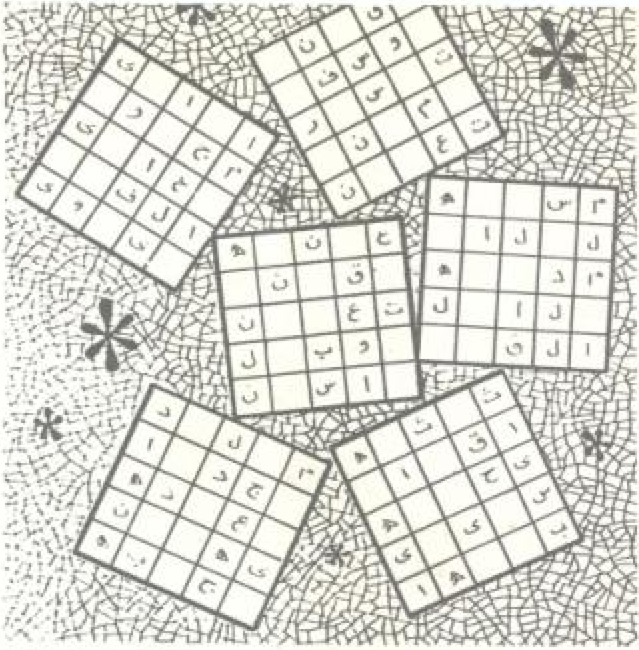
حول الدائرة السوداء

ضع الكلمات ذات الاحرف الاربعة ، والتي تعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

فيزيائي اسكتدلندي نال جائزة نوبل على اكتشافاته

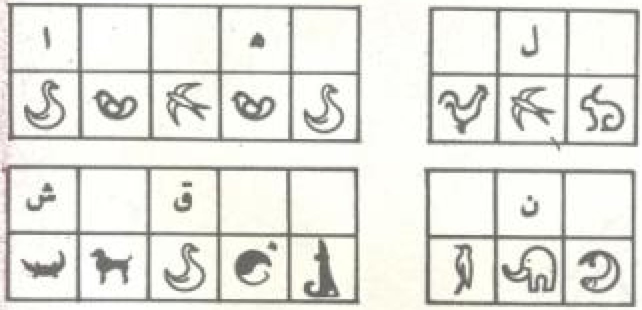
(١) يحيا (٢) أشرع (٣) من الحلي) (٤) مقتر (٥) القريت (٦) أختير (٧) سخي (٨) بلا مال (٩) يرتفع (١٠) أولاد (١١) أسلم (١٢) مرتفع (١٣) شبيه (١٤) يطأ (١٥) شهر ميلادي (١٦) رعديد .

العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية ثقيلة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات أفقية ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحروف .. اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة . رتب الحروف الستة لتصنع اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في موضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل اذا عرفت انه : يضرب للعمل الشيء يرتد الى صدر صاحبه

حلول ١

العواصم : نيروبي .

حول الدائرة السوداء : شارل تومسون ويلسون .

مثل عربي : على أهلها جنت براقش .



وست إند
تضبط الوقت بدقة . الرائدة في صناعة ساعات الكوارتز
WEST END WATCH Co
W
SWISS
اليوم تقدم وست اند
أكبر تشكيلة من ساعات
الكوارتز المصنوعة
بأحدث التصاميم
وأروعها
الوكيل العام يعقوب يوسف بهبهاني
ص.ب : ٣٣٤ . الصفاة . الكويت . هاتف : ٤٣٣٥٨٥ . ٤٢١١٣١

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

سبتمبر / أيلول
١٩٨١م

حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي

تأليف
الدكتور محمد رجب النجار

الكتاب الخامس والأربعون

٢٥٠ فلساً

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

لـؤلـؤة فـريـدة بين مغنيات الأوبرا، وسـاعـة رولكس



في الأول من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧١، ظهرت على مسرح دار الأوبرا الملكيّة في لندن مغنيّة سوبرانو مغمورة من سكان نيوزيلندا (الماوري) تدعى «كيري تي كاناوا». وما أن مرّت ثلاث ساعات على قيامها بدور الكونتس في مسرحيّة «عرس فيغارو» حتى أخذ نجمها يتلألأ في عالم الغناء.

وفي اليوم التالي كتب «أندرو بورتر» معلقاً: «لم يسبق لي أن استمعت الى مثل هذه الكونتس.» وكتب ناقد آخر يقول: «من الجليّ أننا أمام مغنيّة تبشّر بنبوغ خارق... في «كوفنت غاردن» الآن لؤلؤة ثمينة نادرة.»

ومنذ ذلك الحين، أخذ هذا النبوغ الكامن يتحقق على مسارح دور الأوبرا في جميع أنحاء العالم.

وقد جاء في وصف الآنسة «تي كاناوا» لدى قيامها بدور «ديزدمونا» من مسرحيّة «عطيل» في أداء حديث: «الجمل الموسيقيّة تنطلق بانسياب خلاّب ونبرات محبوكة قويّة تكاد تنتزع الدموع من الحجر الصلد.»

وبعيداً عن المسرح، تعيش الآنسة «تي كاناوا» في دوامة لا تهدأ. فمقابلاتها ومواعيدها وتمارينها متلاحقة، فضلاً عن ارتباطاتها الدوليّة وفق جدول زمني. جميع هذه النشاطات تنقل كاهلها الى حدّ تجعل أكثر المسافرين خبرة يصاب بدوار.

الآنسة «تي كاناوا» تلبس ساعة رولكس «أويستر بربتشوال ديت - جست». وممّا لا شك فيه، انها ساعة أنيقة رشيقة تعكس كل مظاهر الأنوثة.

كما أن حماس المغنيّة لهذه الساعة عمليّ كذلك، حيث تقول: لو أن قلقاً ينتابني حول ما إذا كانت ساعتي ستتوقف، لما وصلت الى أيّ مكان في الموعد المحدّد. الآن ساعتي رولكس تضبط الوقت بدقّة تامّة مهما فعلت بها. في هذه الصورة تبدو الآنسة «تي كاناوا» بملابس خاصّة بدور «فيا ردو ليجي» من مسرحيّة «كوسي فان توتي». وهي تقف على سلّم دار الأوبرا في باريس. وهذه إحدى المناسبات النادرة جداً التي لا ترتدي فيها ساعتها «أويستر». وحتى نحن في رولكس لا بدّ وأن نسلّم بأنها، فعلاً، ليست بحاجة إليها.

ROLEX
رولكس



ساعة رولكس ليدي - ديت جست المصنوعة من الذهب عيار ١٨ قيراطاً أو من فولاذ لا يصدأ مع سوار ينسجم معها.

عالم الفكر

المجلد الثاني عشر - العدد الثاني
يوليو - اغسطس - سبتمبر ١٩٨١

قسم خاص
عن چان بول سارتر

بالاضافة إلى الأبواب الثابتة

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مِنَ المسرح العَالَمِىّ
سِلسلة ثقافيّة
تصدرها فى مطلع كل شهر
وزارة الإعلام فى الكويت

أول سبتمبر ١٩٨١

العدد ١٤٤

ثلاثية الاصطياف

١ - التطلع إلى المصيف
٢ - مغامرات المصيف ٣ - العودة من المصيف

تأليف : كارلو جولدونى
ترجمة وتقديم : سعد أردش
مراجعة : د. سلامة محمد سليمان



سوني
SONY
بإمكان سوني فقط تحقيق
التوافق اللوني المثالي،
لأجهزة بيتاماكس
وترينيترون بالأنظمة
الملونة الثلاثة
GOL
10
SONY
SL-T7
KV-2032ME
COLOR 3 SYSTEM
سوني بيتاماكس
Sony Betamax T7
Betamax



موسيقى مترفة لذيذة العذوبة

من أجهزة نحيلة بالغة الحساسيّة

أحدث ما أبدعته تكنولوجيا الأجهزة السمعية مغلفة في عبوات نحيلة جديدة للاستعمال الشخصي ومصممة لتناسب وضعها على الرفوف أو أي ركن دون إزعاج، بينما تعزف لكم موسيقى الستيريو في أداء طبيعي لذيذ وصوت حقيقي مثير.
ان التصميم الجذاب والصوت المترف لتشكيلة أجهزة سانيوميني يجعلها، لاتقاوم.



SYSTEM 10

- مضخم ميني بطاقة إخراج ٢٠ واط لكل قناة.
- راديوستيريو ٤ موجات • كاسيت دك بنظام دولبي* NR وامكانية استخدام الشريط المعدني
- مكبر صوت ميني في اتجاهين "٢"



SYSTEM PLUS 20

- مضخم ميني بطاقة إخراج ٤٠ واط لكل قناة
- تحكم منفصل للمضخم مع رأس MC مبيّت للمضخم
- راديوستيريو AM/FM بمقياس PLL الكوارتز • كاسيت دك بنظام دولبي* NR وامكانية إستخدام الشريط المعدني
- مكبرصوت ميني في اتجاهين "٢" مع سماعة من الكربون / والمعدن لموسيقى الباص.

* دولبي هي العلامة التجارية لمعامل دولبي

SANYO سانيو


العربي
ذو الحجة ١٤٠١هـ - اكتوبر ١٩٨١م
عمان الثمانينات

عزيزي القارئ

ينبغي ان نضع وساما على صدر كل باحث جاد في بلادنا . وقد لا نبالغ اذا قلنا اننا يجب ان نعتبر كل واحد من هؤلاء شهيدا ، حيا كان أو ميتا !

ذلك ان مهمة الباحث الجاد في امتنا العربية باتت شاقة بقدر يفوق طاقة الانسان العادي ، بعد ان تشعبت فروع المعرفة في التخصص الواحد ، وتضاعف سيل الكتب والمراجع مرات ومرات ، واصبح الباحث العربي مطالبا بان يشق طريقه في هذا المحيط ، مستعينا بوسائل صارت في حكم العصر بدائية !

وتنتمي الى عالم انقرض في الغرب والولايات المتحدة .

ان سلاح الباحث العربي الجاد الذي يستخدمه الآن هو ذاته السلاح الذي كان يستعمله باحثونا منذ مئات السنين ، باستثناء استنساخ الكتب الذي استبدل به استنساخ المعلومات . وفي ذلك لم يختلف الباحث العربي عن الفلاح المصري مثلا ، الذي لايزال يستعين بالمحراث الذي كان يستخدمه الفراعنة !

ان اساليب ارشفة وتخزين المعلومات على العقل الآلي ، التي باتت شائعة في العالم ، توفر على الباحث الغربي ـ على الأقل ـ نصف الجهد الذي يبذله الباحث العربي ، حتى أن حدود المعرفة المتاحة لذلك الباحث الغربي في بداية رحلته في العشرينات من عمره لابد وان تفوق بكثير ما هو متاح للباحث العربي في الاربعينات او الخمسينات . لذلك فمن الطبيعي ان يكون الباحث الغربي قد نضج واستوى عوده في الثلاثينات ، وتربع على قمة نضجه في الاربعينات .. بينما باحثنا العربي لا يزال يحرث ويكد ، ويدفع من جهده وبصره ، حتى يقف على قدميه وهو على مشارف الأربعين ، بينما يبلغ درجة نضجه وهو في سن التقاعد !

لقد عاش عالمنا العربي وجرب مختلف انواع الثورات ، دون ان يخطر له ان يجرب ـ ولو مرة واحدة ـ الاقتراب من ثورة المعلومات ، التي هي طريقه الاكيد الى معرفة حقيقية ، ومن ثم الى تقدم حقيقي .

وتظل ريادة هذا المجال من مسئولية الجامعات والمؤسسات العلمية المختلفة ، بقدر ما يعد « تمويل » هذه « الثورة » من مسئولية اصحاب المال العربي ، وهم كثيرون ولله الحمد والشكر .

ونحن نثق في ان تنفيذ مشروع لتخزين المعلومات في حقل الثقافة لايكلف انفاق يوم واحد او يومين ، مما يدفع في تخزين السلاح في عالمنا العربي !

(المحرر)



صورة الغلاف

● هذه الصورة في قلب عمان الحديثة وعمان التاريخية ، حيث يقع المدرج الروماني وسط عمان الثمانينات ، وفيه وقفت هاتان الفتاتان ، احداهن بثوب فلسطيني والثانية بثوب اردني ، تجسيدا للمزيج الذي تعيشه المدينة الآن (انظر الاستطلاع ص ٦٨)

قضايا عامة

قضايا حيوية

عروبة واسلام

أدب وفنون

طب وعلوم

اجتماع وعلم النفس

استطلاعات مصورة

شخصيات وتاريخ

أبواب ثابتة

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير : أحمد بهاء الدين
مدير التحرير : فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ١١٠ فلوس . الخليج العربي ريالان قطريان . البحرين ٢٠٠ فلس بحريني . العراق ١٢٠ فلساً . سوريا ١٠٠ قرش . لبنان ١٠٠ قرش . الاردن ١٠٠ فلس . السعودية ريالان سعوديان . السودان ١٠ قروش . ج . م . ع ١٠ قروش . تونس ٢٥٠ مليما . الجزائر ٢,٥ دينار . المغرب ٢,٥ درهم . اليمن ٢,٥ ريال . ليبيا ١٥٠ درهما . جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ٢٠٠ فلس .

الاشتراكات : يراجع طالب الاشتراك :
١ ـ الشركة العربية للتوزيع وعنوانها : ص . ب [٤٢٢٨] بيروت/لبنان .
٢ ـ مؤسسة توزيع الأخبار وعنوانها : ٧ شارع الصحافة/القاهرة/مصر .
« للمشتركين في جمهورية مصر العربية »

الاعـــلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراســلات : باسم رئيس التحرير
عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧٦٤١
تلغرافيا « العربي »
Al - ARABI. No. 275 October, 1981
P.O. Box 748, KUWAIT



● طه حسين ●

زينب.. وفتحي غانم

هذا ليس مقالا في النقد الأدبي البحت . لانني لست ناقدا أدبيا متخصصا . ورغم حبي الشديد لهذا الفن الذي اندثر في حياتنا الأدبية ، فان الوقت فيما أظن قد تأخر بي حتى التحول الى محاولة التخصص فيه .

ورغم أنني اتعرض في هذا الحديث لرواية طويلة بالغة الأهمية والاثارة للعقل والشعور معا ، ورغم رغبتي في أن أقفز الى الحديث عنها مباشرة احتفاظا ببعض التشويق لدى القارىء ، في محاولة للاحتفاظ برغبته في قراءة هذا الحديث الى آخره .. الا أنني مضطر الى البدء بمقدمة قبل الدخول في الموضوع .

لقد نشرت هذه الرواية مسلسلة منذ حوالي تسع سنوات ! ولم تحدث الضجة التي تستحقها ومع ذلك فانا أجد في هذا العذر لانني شخصيا لا استطيع قراءة رواية طويلة مسلسلة . انما أحب ان انتظر حتى أقرأها في كتاب . وان كان هذا لايشمل كتاب الادب المتخصصين . ثم صدرت في كتاب . ولم يكن لها مع ذلك الصدى الذي يتكافأ مع قيمتها . بل لم أقرأ سطرا واحدا عنها لناقد واحد . وفي غمرة الأحداث والأيام ايضا لم أقرأها .

ثم تحولت رواية « زينب والعرش » الى مسلسل تليفزيوني . واذا بالمسلسل التليفزيوني يضرب أكبر رقم قياسي في اهتمام الجمهور الواسع . ولم تذع حلقات هذا المسلسل في أي تليفزيون عربي الا وتحلق الناس حوله كل اسبوع في اهتمام هائل . حتى ان كل تليفزيون اشترى الحلقات أذاعها مرتين في فترتين متقاربتين . بناء على طلب حقيقي من الجمهور .

وقد رأيت معظم الحلقات في عرضها الثاني . وبهرني المسلسل في السيناريو والتمثيل والموضوع والاخراج جميعا .

انفجرت الرواية كالقنبلة على شاشة التليفزيون وصارت حديث الناس طوال مدة عرضها . وهذا طبعا يؤكد لنا أولا ما نردده دائما من ان التليفزيون هو أداة المستقبل وانه يمكن بل ويجب ان يهتم به اهتماما يعادل هذه الحقيقة . كما يحدث في تليفزيون بلاد أخرى . والا تقتصر على جعله « أفيونا » للناس بالرقص والهلس وسخيف الاحاديث وهبوط الذوق وتفاهة الدراما . ونحن لسنا ضد التسلية والترفيه ولكن ما لا يدركه أهل التليفزيون . في بلادنا العربية ومعظم العالم الثالث ان



● توفيق الحكيم ●



● يوسف ادريس ●



● فتحي غانم ●

.. والعرش !

بقلم :
أحمد بهاء الدين

مواد التسلية والترفيه يجب ان تبذل لها عناية أكبر لأنها التي تتسلل بسهولة الى المتفرج وتكمن في لا شعوره . الأمر الأدعى الى الاهتمام بألا تكون تلك المادة بالذات مادة ملوثة ثقافيا او نفسيا او مزاجيا او حضاريا بوجه عام .

ليس هذا موضوعنا على أي حال ..

ولكنني بعد ذلك ، أتيحت لي فرصة قراءة هذه الرواية وانا في اجازة الصيف قبل سنة كاملة ، وإذا بي أجد نفسي امام عمل روائي ضخم وفذ بكل المعايير ، وانفعلت بالرواية انفعالا عنيفا . وقررت ان أكتب عنها . اي ان هذا الحديث كان موعده منذ سنة قبل ذلك . ولكن ، مرة أخرى ، جرفتني الاهتمامات الاخرى . وعندما عدت هذا الصيف الماضي ، قبل شهرين ، الى نفس البيت المعزول على الشاطىء البعيد . فوجئت بأشباح الرواية ومؤثراتها تطاردني . وتعود تؤرقني من جديد .. ورغم ان الرواية لم تكن هذه المرة في متناول يدي ، الا انني قررت ان اكتب هذا الحديث عنها ، اداء لرسالة ، وقياما بواجب نحو القارىء ، وخلاصا من أشباح الرواية التي عادت تتلبسني كما تتلبس العفاريت بعض الناس فلا تبرحهم الا بعد « زار » عنيف . وهذا ما يحدث لي عادة عندما أفرغ من قراءة عمل أدبي أو فني يهزني من الداخل . وهو بالنسبة لي ترمومتر على مدى جودة وانسانية وعمق العمل الفني ... لوحة كانت او قطعة موسيقية او رواية مكتوبة او ممثلة

وقد ثبت لي من تجربة رؤية المسلسل التليفزيوني ثم قراءة الرواية أمر آخر كنت ادافع عنه دائما . وهو أن عالم التعبير بالقلم سيظل غير عالم التعبير بالسينما ، حتى يظهر الفن المكتوب خصيصا للسينما او التليفزيون ، على يد كتاب في مستوى كتاب القصة العظام . فالجمهور الواسع الذي تجذبه روايات نجيب محفوظ الطويلة مثلا غير الجمهور الذي تجذبه قراءة الروايات نفسها . وكذلك يوسف ادريس مثلا . فمن ناحية كان يفيض احيانا للعمل المكتوب عناصر تنجح في نقله الى حد كبير الى مجال الشاشة مثل « دعاء الكروان » لطه حسين و « الحرام » ليوسف ادريس - كلاهما من اخراج بركات وبطولة فاتن حمامة - وهو ما لم يفيض لروايات نجيب محفوظ ولا حتى توفيق الحكيم . والعمل الأدبي او الفني العظيم تكون له عادة

« طبقات وشرائح ورواسب » مثل طبقات الارض الجيولوجية . فالقارىء البسيط يفهم منها شيئا ويتمتع به . والقارىء المتوسط يفهم منها اشياء اكثر ويتمتع بها . والقارىء المثقف اعلى ثقافة يغوص فيها أكثر ، ويرى فيها اعماقا اكثر واكثر ، ومتعا لا آخر لها ، تتفتح امامه كما تتفتح الزهرة ورقة بعد ورقة بعد ورقة . وكلما تفتحت تكشفت عن الوان ازهى وحياة أخصب .

من يستطيع ان يقول ان فيلم « الاخوة كراما زوف » العظيم في ذاته ، يحوي كل ماتجيش به رواية دستويوفسكي في أصلها المكتوب ؟ او « الحرب والسلام » لتولوستوي ؟ في حين أن مسرحية « بيجماليون » لبرنارد شو ، لانها كتبت في الاصل مسرحية ، اي للاداء التمثيلي ، وجدت ترجمتها السينمائية العظيمة في « سيدتي الجميلة » .. خصوصا حين أداها ريكس هاريسون وأودري هيبورن ورسم لها ملابسها فنان عظيم هو « سيسيل بيتون » . وأسف لانني لا اعرف اسم من وضع لها موسيقاها ..

ليعذرني القارىء في الاستطراد .. وان كنت اراه استطرادا لا يبعد بنا عن عالم النقد ولكنني اشرت الى قضية اريد ان اعود اليها في وقفة خاصة بها وهي مأساة النقد الادبي والفني التي نعاني منها الآن .

فانا لم اذكر عبثا فيما سبق ان الرواية نشرت مسلسلة منذ حوالي تسع سنوات . وانها صدرت في كتاب . وانها لم تحظ بكلمة من النقاد . وانها حين انفجرت على شاشة التليفزيون بجمهورها الواسع ، وجدت فقط تعليقات جيدة عليها من نقاد التليفزيون الذين قاموا بواجبهم .

ولكن المسافة بين العمل التليفزيوني والرواية مسافة واسعة . وتحليل العمل التليفزيوني لا يغني عن تحليل الرواية المكتوبة بحجمها الهائل الذي يستحيل تقديمه تليفزيونيا .

فقد قضى جمهور التليفزيون أكثر وقته في محاولة التعرف على اشخاص الرواية في الحقيقة . لانها تدور في عالم الصحافة والسياسة بنجومها من المشاهير .

هل « مذكور باشا » هو احمد عبود باشا أم فرغلي باشا أم اي باشا ؟ هل « عبد الهادي النجار » هو الاستاذ التابعي أم مصطفى أمين أم علي أمين ؟ .. هل ضابط الثورة الرقيب هو فلان أم فلان ؟

هل « يوسف » مؤلف الرواية هو فتحي غانم ام هو احمد بهاء الدين ام هو على الاغلب مزيج من الاثنين ؟ ومن هي زينب قبل كل شيء وبعد كل شيء ؟ هل هي الفنانة المشهورة فلانة ام هي سيدة المجتمع المعروفة علانة ؟..

انشغل قطاع كبير بتلك اللعبة اللذيذة الأشبه بمسابقات حل الفوازير . وكانت فرصة لأن يقول الناس آراءهم في بعض المشاهير وهي لذة اخرى طبيعية ومألوفة . وسأعود الى ذلك بعد قليل . ولكن المهم هنا ان الرواية في جوهرها العميق ونسيجها الشامل الغزير بالشخصيات والوقائع والاحلام والمشاعر ، هي غير هذا كله ..

وتلك مهمة توضيحية وتحليلية لم يقم بها اهلها ، وهم من يتصدون الآن للنقد الأدبي والفني .

لماذا ؟

بعض ذلك عن كسل . لأن الغوص في أعماق الرواية وقراءتها وتحليلها جهد كبير . والنقد بهذا المستوى عمل فني خلاق في حد ذاته . لا يقل احيانا عن قيمة العمل الفني الاصلي نفسه .

وبعض ذلك عن سطحية وعدم توفر المؤهلات الفكرية والخلفية الثقافية لعدد كبير ممن اصطلح الناس على تسميتهم « نقاد » بعد ان اختفى النقد من مجالاته الجادة وصار محصورا في اعمدة قصيرة لصحيفة مطلوب منها التسلية .

وبعض ذلك ، وهذا هو الأكثر ايلاما ، ما اعتبره « مؤامرة الصمت » التي يرتكبها النقاد أحيانا . فقد اختلط الحابل بالنابل . وتغلبت البيروقراطيات الادبية في كل مجال على صناع الادب وخالقيه . وصار الكاتب البيروقراطي الذي أوصلته الى « منصبه الادبي »



مدحت الأيوبي



خديجة السبع

اعتبارات أخرى يتحكم فيما ينشر ولا ينشر . وصار يكتب المقال والنقد والقصة والرواية والفيلم والمسلسل أي شيء .

وفي هذا الجو وجدت أخلاقيات جديدة ، صارت هذه « البيئة » الأدبية والفنية لا تفرح بمولد عمل فني جديد ، إنما تحرص على كيانه ووأده في الزحام . « فالمكانة » الأدبية الآن أصبحت تبلغ « بالاكتاف » لا بالاقلام !! وبقدرة الوصول الوظيفي ، لا بقدرة الخلق الفني !

أين أيام كان طه حسين يقرأ « مخطوطا » لوكيل نيابة مغمور اسمه توفيق الحكيم . فيكتشف الدرة الثمينة في تراب المنجم ، ويروح يقدمه ويبشر به في صوت جهير وفرح غامر الى قراء « الرسالة » أهم مجلة أدبية في عصرها ، فيصبح توفيق الحكيم نجما لامعا بجدارة قبل ان ينشر له كتاب واحد .

طبعا كان لابد للعبقرية ان تنشر شعاعها عاجلا او آجلا ، وكان لابد ان يكون توفيق الحكيم هو توفيق الحكيم . فطه حسين لم يخلقه . ولكن يكفي - كما يقول توفيق الحكيم - « ان طه حسين قد وفر علي عشر سنوات من طريق الشهرة والاعتراف » .

أين أيام كان لويس عوض يقدم لنا على صفحات الاهرام شعراء مثل صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي بمجرد ظهور بواكير انتاجهم الأول ، بيد الخبير الذي ينتقي من حقل الزهور اجمل زهرة وهي مازالت برعما ..

أين أيام نشر يوسف ادريس قصة قصيرة في برواز في أقل من ربع صفحة بعنوان « أرخص ليالي » فتغمر الفرحة جيلنا كله لظهور موهبة عظيمة جديدة ، وتفتح له كل الأبواب دفعة واحدة ؟

أين أيام كنت وزملائي في دار الهلال نشعر بالفرحة والفخر لاننا سننشر أول طبعة لرواية « موسم الهجرة الى الشمال » للطيب صالح .. الروائي السوداني الذي لم نره شخصيا بعد ونحارب ضد الرقابة لنشرها حتى ولو صودرت بعد ذلك لأنها عمل عظيم يستحق الترجمة الى عشر لغات ؟!

ان قول توفيق الحكيم ان طه حسين قد وفر عليه عشر سنوات .. يعبر في الواقع عن مهمة الناقد .

ويضاف اليها في عصرنا ذلك مهمة أخرى . فنحن في عصر تظهر فيه الاعمال الأدبية في العام الواحد بالمئات . والقارىء يقف أمام الكتب المرصوصة على الأرصفة حائرا لا يعرف أيها يشتري ! وبالتالي فمهمة الناقد هي ان يختار لنا . ويرشدنا . ويبصرنا .

تلك مهمة الناقد حتى الآن في أوروبا . قرأت في الطائرة المتجهة الى لندن هذا العام أكثر من نقد وتقديم في صحف الاحد عن كتاب صدر عن حياة زوجة تولستوي - وتولستوي طبعا - وفي يوم الاثنين طفت بالمكتبات لأجد ان الطبعة الاولى قد نفدت من يومين . وقبل اسبوع تمكنت بصعوبة من العثور على نسخة من الطبعة الثانية . اذ كنت سأترك لندن قبل نزول الطبعة الثالثة .

تلك هي مهمة الناقد الكبير ...

بل .. حتى في مجال تقديم أعمال الكتاب الاجانب .. نلاحظ انه منذ أيام مجلة « الكاتب المصري » التي صدرت بعد الحرب العالمية » ونحن طلبة « برئاسة تحرير طه حسين .. ومنذ ان قدم لنا طه حسين ومن معه في تلك المجلة : فرانسوا مورياك واندريه جيد وجان بول سارتر وسيمون دي بوفوار والبير كامو « وفيركور » مؤلف « صمت البحر » وهمنجواي وآرثر ميلر .. لم يقدم لنا أساتذتنا النقاد أسما جديدا ولا مدرسة جديدة . وحتى الآن يعيش القارىء العربي على هذه الاسماء التي اندثر بعضها وصار سائرها موضة قديمة .. وقد جاءت بعدهم موجات بعد موجات من الكتاب والتيارات .. لا يدري القارىء العربي عنها شيئا ..

يكفي لتلخيص المأساة ان صدر الدين خان زار

مصر الشتاء الماضي وقد دعا معه كاتبين امريكيين : أولها آرثر ميلر والثاني اسمه « وليم ستايرون » .

وقد احتفلت الصحف والدوائر الادبية والاعلامية بآرثر ميلر الذي انتهى في امريكا . أقصد انتهى عطاؤه لا قيمته . وكان « الكومبارس » في الرحلة . الذي كان اسمه يكتب خطأ في سياق أخبار دعوات العشاء بين المدعوين . هو « وليم ستايرون » النجم البازغ حديثا في الحياة الادبية الامريكية بروايتين كبيرتين هما « نات تايلور » و « اختيار صوفي » . وقد لا يسمع القارىء العربي عنه الا اذا مات او تحولت احدى اعماله الى فيلم سينمائي .. وهو الأغلب دعك ـ في الأدب الامريكي وحده - من الجبار هنري ميلر الذي مات اخيرا .. ووليم ساروبان الذي مات بعده .. ونورمان ميلر وترومان كابوت اللذين لما يموتا بعد . فانا في حدود علمي لم أقرأ عنهما أو لهما في اللغة العربية بعد لا نقدا ولا ترجمة ولا نعيا لمن مات منهم .

مأساة في المستوى .. وفي الاخلاق معا .

مأساة يطول فيها الحديث .. ولكن يكفي المثال الذي بين أيدينا عن رواية « زينب والعرش » التي استمرت مؤامرة الصمت حولها مايقرب من عشر سنوات .. وهي من اهم - او اهم - الروايات الادبية الجديدة - وأقصد الجديدة فنيا ايضا - في تلك السنوات العشر ..

ومن حق القارىء ان يسأل قائلا :

ولكن فتحي غانم بالذات ليس كاتبا ناشئا . انه الآن فوق الخمسين من العمر وله روايات نجحت بدرجات مختلفة مثل « الرجل الذي فقد ظله » و « الساخن والبارد » و « الجبل » . ثم انه كان دائما اسما صحفيا معروفا . فقد كتب في النقد الأدبي في أوسع المجلات انتشارا . ورأس تحرير مجلات . ورأس مجلس ادارة مؤسسات صحفية . وكتب في السياسة في تلك الصحف والمجلات سنوات . فهو ليس في حاجة الى تعريف .

طبعا انا هنا اتحدث عن تقديم العمل لا الشخص . الرواية لا المؤلف .

ولكن السؤال مع ذلك في موضعه تماما ..

وردي على هذا السؤال سيقودني الى الحديث عن شخص المؤلف وعن بعض ما ساهم في تكوين حياته . وهذا جزء من النقد الأدبي . وان كنا قد تعودنا ألا نعرض لهذا الجانب طالما كان المؤلف مازال بيننا على قيد الحياة .

الواقع ان الحاجز غير المرئي القائم بين جمهور القراء الواسع وبين فن فتحي غانم سببه هذه الاسباب التي ترد في تساؤل القارىء . او هذا هو رأيي على الأقل .

وانا اعرف فتحي غانم معرفة جيدة . وليس هذا سبب المقال والحماس للرواية (القارىء معذور في سوء ظنه لانتشار الشللية والمعرفة في عالم الكتابة) .

فأنا لم أقابل فتحي غانم منذ عشر سنوات تقريبا .

ليس فقط نتيجة ظروف الحياة التي تفرق بين الأصدقاء وحتى الاخوة ، ولكن في تقديري الشخصي بسبب فتور طرأ بيننا منذ عشر سنوات او اكثر . ولم يكن فتورا لسبب شخصي . ولكن في ظني انه بسبب هذه القضية بالذات .

فقد التقت طرقنا انا وفتحي غانم وآخرين من ابناء جيلنا في فترة ما . فترة حساسة في تكويننا الاول حين كنت مثلا اجرب كتابة المقال السياسي ، وفتحي غانم يجرب القصة . ونعمان عاشور يجرب المسرح .. الى آخره .

وتوثقت الصلة بيني وبين فتحي غانم بضع سنوات بشكل خاص . كنا لا نفترق تقريبا . ونتبادل القراءة والتعليق والتجارب والتساؤل . ولا ادرى اى أثر تركته هذه العلاقة فيه ؟. ولكنني اذكر بوضوح ـ ربما بين اشياء اخرى ـ ان فتحي غانم كان اول من فتح امامي بشكل جدى : الموسيقا الكلاسيكية كلها التى كنت غريبا عنها تماما ، ربما الى درجة النفور .. والفلسفة الالمانية التي كان غارقا فيها الى اذنيه يوم عرفته .. من هيجل وكانت الى نيتشه وشوبنهور وشبنجلر .

ومن صفات فتحي غانم المؤثرة دائما فيه ، أنه يعيش مراحل . وانه اذا انجذب الى شيء ، غرق فيه تماما بكل حواسه قبل ان يتخلص من تأثيره وينجذب الى دائرة مغناطيسية اخرى .

وقد أغرقني معه في تلك الفترة الاولى من لقائنا في الموسيقا الكلاسيكية التي اظن انه احد اعرف خبرائها في مصر من بين غير الموسيقيين طبعا والفلسفة الالمانية بكل وجوهها .



● عبد الهادي النجار ●



● حسن زيدان ●

● رسوم شخصيات الرواية بريشة الفنان حجازي ●

و كان لابد لنا طبعا بعد العودة الى الشاطيء من الغرق في بحار اخرى متتالية . فلسفية وفنية وسياسية وادبية ولم يستطع اغراقي معه في شيء ثالث هو الشطرنج ، الذي كان يدخل بطولاته ويفوز باستمرار على مستوى القطر المصري . ولكننا اكتشفنا معا عوالم واسعة من الفكر والادب والرسم والنحت .

وبينما كنا كلنا نتعجل النضج والنشر ، لم يكن فتحي غانم متعجلا على الاطلاق . ولان من طبائعه ان أشياء بسيطة جدا تترك في نفسه اثرا باقيا . قال لي مرة « لقد قرأ كفي احد الخبراء وقال لي انني سانجح في اللحظة الاخيرة » وكان كأنه مقتنع بهذا .

بهذا كله .. أذكر انه كتب قصة قصيرة عنوانها « بطيخة » . ولا اذكر منها الآن الا صورة الموظف المصري التقليدي العائد الى بيته في عز الظهيرة ومعه بطيخة (كان هذا تقليدا شائعا بين كل فئة الافندية ارباب العائلات في مصر) . ولكن المهم انني اذكر انه جعلني وبعض اصدقائنا نقرأ هذه القصة القصيرة عشرات المرات ربما على مدى سنتين . وهو يحور فيها . ويغير . كالرسام الذي وضع امامه لوحة صغيرة وعكف محاولا رسمها ومحوها عشرات المرات وفي كل مرة يجد انه « ليس هذا بالضبط ما يريده » فيمحوها ويعيدها من جديد . حتى صارت حكاية « قصة بطيخة » موضوع حديث دائم بين الجد والهزل في تلك الدائرة من الأصدقاء اريد ان اقول في التعريف بالمؤلف انه اكثر كاتب ادبي وروائي في جيلنا كان يعرف من البداية ان حياته هي ادب القصة . ولكنه مع هذا ، فقد استعد لذلك استعدادا كبيرا وطويلا ، اشك في ان يكون متكررا لدى اي كاتب قصة معاصر . سنوات وسنوات ، يقرأ التاريخ والفلسفة والادب ويسمع الموسيقا ويتأمل الرسم والنحت في رهافة حس لادراك كنه هذه العوالم كلها . وسنوات وسنوات وهو يصاحب شخصيات مختلفة تماما وبيئات غريبة ، يفني في كل منها فناء تاما ، كنت الومه احيانا عليه .. فيقول لي ردا تقليديا دائما هو ان فلانا ـ لا اذكر من ـ قال عن تشيكوف انه ولد ومعه اعظم صفة للمؤلف الروائي وهي انه لا شخصية له !!

بمعنى ان الفنان عليه ان يكون بدون شخصية بحيث يستطيع ان يتقمص اي شخصية !

وكان هذا الرد يغيظني ، خصوصا في بعض تطبيقاته فهو بعكس يوسف ادريس الذي انبثقت موهبته اذ كتب على سجيته دون ثقافة عميقة سابقة . ثم راح يصقلها . في حين أسرف فتحي في التجريب والتكوين والتأثر قبل ان يكتب . واحيانا يكون هذا عبئا على الموهبة في بدايتها .

ولعله بهذا المعنى .. انجرف وراء الصحافة بمعناها العام ، وقبل ان يكون رئيس مجلس إدارة وكالة انباء الشرق الاوسط مثلا رغم بعدها التام عن تكوينه .. واخذ يكتب مقالات سياسية ...

كان رأيي ، كصديق انه لن يكون كاتبا سياسيا ولا مديرا الا من الدرجة الثالثة .. وانه حرام ان يترك الفن الذي هو فيه من الدرجة الاولى الى تلك الاشياء ..

وقلت له ذلك بحكم الصداقة والثقة في موهبته في طريقه المرسوم . وقد قلت ذلك في الواقع لزميلين : فتحي في طريق الابداع الفني ، ومحمود أمين العالم في مجال النقد الفني والفكري . وكلاهما لم يسمع لرأيي وقضى سنوات هامة في عوالم براقة لم يبدع فيها .

وفي الحالتين شعرت بعد قليل ان محمود العالم أخذ ربي المتكرر فيا يشبه العداء وكرس نفسه نهائيا للعمل السياسي وفقدنا ناقدا عظيما . وفيا يتعلق بفتحي غانم فقد شعرت ان الماضي عليه ترك لديه نوعا من الفتور ، فقررت التوقف عن التدخل في شئونه . وكان هذا ما أعتقد انه سبب التباعد الشخصي الذي لم يكن شجارا ولا غضبا ، ولكن مجرد محاولة ايجاد مسافة بيننا . زادت بحكم ظروف ومشغوليات كثيرة فصرت لا أراه الا كل سنوات ، وكل مرة . مضت عشر سنوات تقريبا حتى كتابة هذه السطور .

ليست هذه ذكريات انها من جهة رد على شبهة التأثر بالصداقة والمجاملة ، ومن جهة فهي لمحة عن تكوين المؤلف الذي نحن بصدده ، ومن جهة ثالثة فهي تفسير لكون أدب فتحي غانم لم يأخذ حقه . فبينه وبين القارىء تركة يجب نسيانها من الصفات الصحفية والرئاسية والكتابات السياسية التي ليست مما يتقنه . ولا مما كان ناجحا لدى القراء . الأمر الذي قد تتطلب ازالته من الذاكرة بعض الوقت . وهنا ايضا تقصير النقاد او تعمدهم هذا التقصير .

والملاحظات السابقة ـ القديمة - او اللمحات السريعة عن مرحلة تكوين المؤلفات ، تجرنا أخيرا الى العمل الفني نفسه الى رواية (زينب والعرش) .

فلا شك ان القارىء للرواية في نصها الاصلي . سوف يدهش لقدرة المؤلف على الحديث عن بيئات مختلفة بهذه الدقة وهذا « التقمص » فهو يتحدث عن الباشوات في بيوتهم حول مائدة القمار . وعن الصحفيين العمالقة ، وعن الوصوليين الصغار ، وعن الضابط المثالي . والمرأة الساقطة ، ورواد المقاهي الشعبية ، ورواد الصالونات الفاخرة ، باتقان فني هائل في تصوير كل هذه الفئات المتباينة والبيئات المختلفة في نسيج متسقة ألوانه المختلفة .

فهناك رواية البيئة الواحدة بشكل أو بآخر بل وأحيانا كاتب البيئة الواحدة ، ولكن كلمة فتحي غانم القديم عن تشيكوف ، وما كنت أراه من قدرته على العرق في بيئات متباينة تماما حتى لكأنه منها . أحمد شيحته الخصبة في رواية « زينب والعرش » والكاتب هنا لا يفقد ذاته تماما . اذ لابد ان يكون هناك جزء منه يظل منفصلا يراقب ويختبر ويسجل .

وقد اختار فترة من أهم الفترات لأحداث روايته بين نهايات عصر فاروق وبدايات عصر ثورة ٢٣ يوليو في مصر . فترة من الزلازل السياسية والاقتصادية والاجتماعية . والزلازل في القيم والمفاهيم الحياة وحتى قاموس الكلام .

وتحت هذا الضغط العالي من الاحداث يتعرض البشر لما يتعرض له الحديد والمعادن في افران الضغط العالي . اذ يذوب الصلب ويعاد تشكيله ويصبح قابلا لألف تغيير . هكذا يحدث للبشر في معارك المنافسة والسباحة مع التيار او ضده او البحث عن تيار . ويظهر أعظم ما في الاشخاص وأحط ما فيهم .

وفوق ذلك . اختار فتحي غانم ان تدور القصة حول محور خاص هو مؤسسة صحفية ضخمة ، أي في بيئة غير هادئة او غير بعيدة عن الزلزال . بل انها في قلب الزلزال . فيزداد الضغط العالي علوا ، والجريدة فوق ذلك بطبيعتها مكان ليس في قلب الزلزال فقط ولكنه مكان يدخله ويحتك به كل انواع البشر ، المحافظ والفوضوي . المليونير والشحاذ ، الملائكة والشياطين ، الهوانم والغواني ، وكل القيم والمثل والأفكار تحت اختبار يومي شديد من الاحداث التي تتساقط على أي مؤسسة صحفية كالشهب المتساقطة . فيها البريق وفيها الدمار وفيها الخطر الحقيقي وفيها الالتهاب المبكر الذي تتحول معه الشهب الى تراب لا يصل الى الارض .

الصدق والكذب في الفن

ونجيء بعد ذلك الى النماذج البشرية الخصبة المتنوعة التي قدمها لنا المؤلف ... والى لعبة « حل الفوازير » التي شغل بها من شاهدوا المسلسل التليفزيوني في معرفة من هو هذا البطل ؟ ومن هي تلك البطلة ؟..

انها دلالة نجاح للمؤلف ان يعتقد القارىء ان هذا الشخص لابد ان يكون فلانا . ويدور يسأل القريبين من تلك البيئة من هو بالضبط ؟ ولا يصدقونك اذا قلت



صالح الأخرس

لهم انه فلان . فهذا معناه ان الشخصية مرسومة ومتكاملة ونقية الى اقصى الحدود . فهي لا يمكن الا ان تكون حقيقية .

وهنا اقول للقاريء : ان الفن العظيم لابد ان يكون في اسلوبه الفني الكذب . وفي هدفه الصدق ، او هو الذي يصل فيه الكذب الفني الى مستوى الصدق .

ونأخذ مثلا مبسطا من المقارنة في رسم صورة شخص ما بالكاميرا او بالريشة ..

ان الكاميرا صادقة في اسلوبها . انها تنقل الوجه كما هو تماما . وهذا صدق تسجيلي ولو سجل مؤلف رواية بنفس الاسلوب وهو نقل الحقيقة كما هي دون تصرف ، فانه يقدم لنا ريبورتاجا صحفيا ولا يقدم لنا رواية فيها خلق فني .

فلو جاء عشرة مصوري كاميرا والتقطوا عشر صور لنفس الوجه لما وجدنا بينها فرقا ...

اما لو جئنا بعشرة رسامين يرسمون هذا الوجه ، فسوف نجد ان كل رسام قد خرج بنتيجة مختلفة ، هنا يدخل كذب الفن وصدقه ...

فالرسام الفنان لن ينقل ملامح الوجه حرفيا والا لأغنتنا عنه الكاميرا . ولكن الرسام سوف يحاول النفاذ الى كنه هذا الوجه من وجهة نظره سوف يلتقط تعبيرا معينا يبرزه مصورا لنا الوجه وما وراء هذا الوجه . فهو هنا « يؤلف » ولكنه يؤلف بهدف الوصول الى الجانب الصادق في هذا الوجه ..

كذلك الحال في رسم شخصيات رواية ما ، ثم في نسج وقائعها ..

الفن العظيم يقدم لنا شخصية نشعر انها فرد حقيقي حي ، كما نشعر في نفس الوقت انها « نموذج بشري » ملامحه نجدها في آلاف الناس .

وفي العادة تكون ملامح الشخصية مركبة من عشر او عشرات من الشخصيات في الواقع الذي يختار عشرات الخيوط لينسج منها وجها واحدا ...

ولأني في تلك الايام التي كانت فيها بيني وبين فتحي غانم علاقة وثيقة ، وهي تقريبا الفترة التي تدور فيها أحداث الرواية . وازعم انني اعرف كل من كانوا في فلكنا وكنا في افلاكهم من اشخاص فانني أقول للقاريء انني استطيع ان أرى في كل نموذج قدمه فتحي غانم عشرة نماذج من الحقيقة على الاقل . اختار منها ببراعة خيوطا ملائمة لينسج من عشر الشخصيات شخصية واحدة . وصولا الى الهدف الاعظم وهو الصدق الفني . وهو كما ذكرنا اعلى من الصدق التسجيلي لانه ينفذ الى العمق ولانه يحيط بنظرة كلية اوسع نطاقا وابعد مدى . وهذا هو الفرق بين الفن الصادق والفن الكاذب الفن الرفيع والفن الركيك .

ان رواية « زينب والعرش » أحد أهم الأعمال الفنية في الثلاثين سنة الماضية أي منذ مقدمات ثورة ٢٣ يوليو لسنة ١٩٥٢ الى الآن . فهي تركز على مرحلة الانتقال البالغة الاضطراب والمتعددة الاعماق من هذه الحقبة ، وهي لا تقدم لنا بيئة واحدة او بيئات متقاربة ، بل تعطينا landscape واسعة او منظرا شاملا لمساحة واسعة ... وهي تمزج السياسة بالمشاعر الفردية ، أعم الأفكار بأصغر المصالح ، أعظم الدوافع وأتفهها ، في صراع هائل بين النفوس البشرية المختلفة وداخل كل نفس بشرية بمفردها . وكأن هذه الدار الصحفية هي مصر بكل ما فيها . ونحن نرى في كل نفس لهب الجحيم ونسائم الآمال الغامضة على السواء . وفي بعض استطراداتها . كالحديث عن أجداد زينب الشراكسة القادمين من جبال القوقاز ، على سبيل المثال . تعطينا صفحات من الرؤى التاريخية التي لا يقدر عليها الا من قرأ وتشبع بالكثير الكثير . وان كان في الرواية الطويلة صفحات لا لزوم لها قط . وهذا احد عيوب روايات فتحي غانم في بعض الاحيان . اذكر منها الآن ـ الرواية ليست أمامي ـ الصفحات الطويلة التي سجل فيها ما سماه انه مذكرات او خواطر زينب . في فصل كامل . حبذا لو حذف كله في الطبعات المقبلة . وهو شيء اقدم عليه الكثيرون من كبار الروائيين العالميين .

واخيرا ...

فان ما اتمناه هو ان يكون نجاح رواية « زينب والعرش » قد اقنع فتحي غانم بما لم افلح في اقناعه به منذ خمس عشرة سنة تقريبا . وهو ان يترك كل شيء آخر ، ويهب روحه وطاقاته كاملة لشيطان الفن فانه في هذا المجال قدير ان يقدم لنا ما لم يقدمه غيره .

احمد بهاء الدين



انجاز طبي كبير

هذه الطفلة ولدت مرتين !

مرة عندما خرجت من بطن امها ، ومرة ، عندما اخرجت من الحاضنة البلاستيكية التي عزلت فيها بعد الولادة الاولى مباشرة ، مدة ثلاث سنوات ونصف سنة .





الميلاد الثاني بعد ثلاث سنوات في بالون طبي

● للمرة الاولى تفتح الكوة في الحاضنة البلاستيكية وتعرف حرارة ذراعي امها

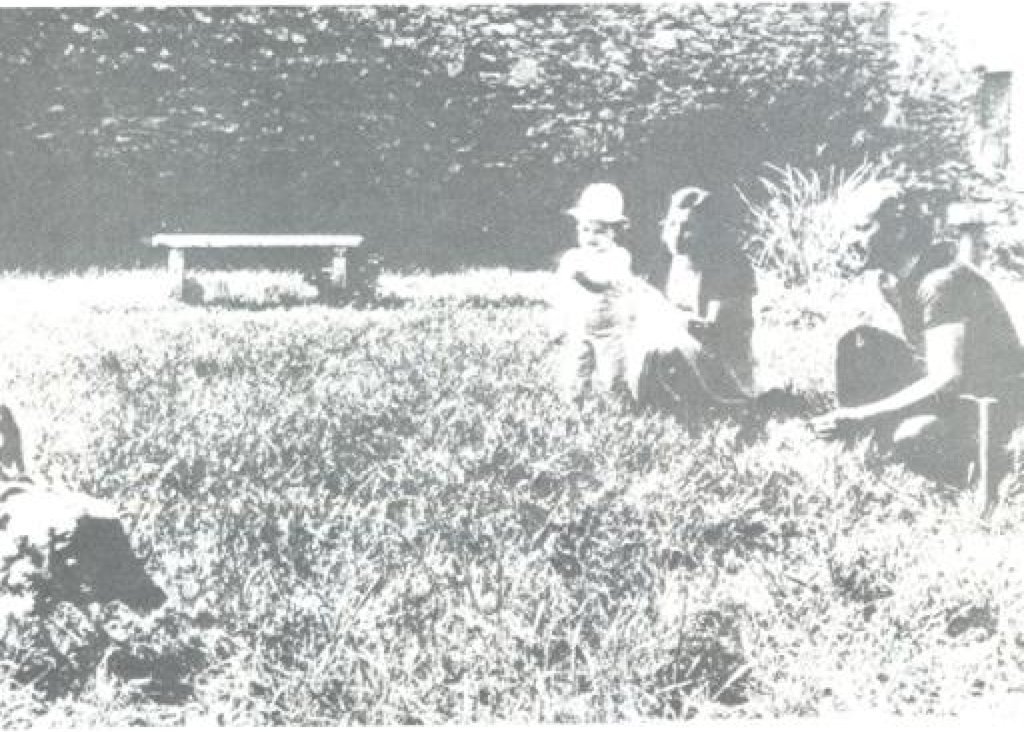


لقد ولدت اوريلي وهي مصابة بمرض فريد من نوعه . ولدت بعجز كامل في المناعة ضد اي شيء حتى كان الهواء بالنسبة لها سما زعافا ، وخطرا يهددها بالموت .

ومنذ اخرجت من الحاضنة وهي تصرخ صرخة الميلاد الثاني ، والصغيرة اوريلي بدأت رحلة التعرف على الحياة ، الزهور والاشجار والقطط والطيور .. الى اخر مكونات البيئة من حولها . ان الطفلة الشقراء ذات الخدود الممتلئة والعيون الواسعة الرمادية المائلة الى الاخضرار والتي اخذتها الدهشة من خلال ما رأت ، لا تتوقف عن طرح الاسئلة على امها .. وهو امر طبيعي ! لقد خرجت اوريلي كومبيه من حاضنتها البلاستيكية يوم الخميس الواقع في ٢١ ايار (مايو) الماضي في الساعة ١٦٫٤٠ وكانت تعيش بها منذ اليوم الاول لولادتها في ١٦ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٧٧ .

هذه الطفلة القابعة في داخل الحاضنة قد تم فصلها عن العالم وكأنها تعيش داخل بيضة . وكانت جميع انواع العناية المقدمة من قبل الممرضات تعطى لها بواسطة قفازات تلتحم باحكام على جدران الحاضنة المنفوخة مثل البالون . وكان من الواجب تعقيم اللعب

● انها تكتشف المنزل والحديقة اللذين ينتظرانها منذ ثلاث سنوات ونصف في منطقة الأردش الفرنسية ، ولم تعد الالوان الفاقعة وروائح العالم محظورة عليها .





● ها هي قد تعافت لقد اكتسبت المضادات التي تسمح لها بالعيش على غرار اي طفل

والملابس بشكل كامل قبل ادخالها بواسطة فتحة خاصة الى عالم الطفلة . وقد كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة لانقاذ حياة اوريلي التي ولدت وهي تعاني من ضعف مفرط في المناعة . ذلك لان هذه العاهة العائلية لاتسمح لها بالعيش الا لبضعة شهور . وبالفعل فقد كانت غير قادرة على الدفاع عن نفسها ضد اي التهاب مهما كان . فمنذ عامين مات اخوها من جراء التهاب رئوي وهو الاخر كان يعاني من ضعف في المناعة .

انتصار طبي كبير

ان هذا الانتصار الخارق للطب هو ايضا انتصار لكافة افراد الفريق الذي يترأسه الدكتور سوبيه في مستشفى ديبروس في مدينة ليون الفرنسية ، نصر لكل ممرضة ولكل مساعد ، اولئك الذين تناوبوا على السهر قرب سريرها . يعلمونها الكلام والسير ، حتى اللعب ايضا داخل حاضنتها البلاستيكية . وفي كل الايام على امتداد ثلاث سنوات ونصف كان ابواها ، السيد جان - بول والسيدة لوسيت ، يقطعان زهاء مائة كيلو متر ، وهي المسافة الفاصلة بين مدينة ليون وقريتها الصغيرة في منطقة الاردش . أما اليوم وقد غمرتها الدهشة فانهما يرمقان بكل الحب والامل ابنتهما الصغيرة الجديدة التي عادت اليهما سليمة معافاة ، والتي نجت من الموت باعجوبة .

« هذا الشفاء ، كما يقول الدكتور جيرار سوبيه البالغ من العمر ٤٠ عاما ، وهو طبيب اطفال واخصائي بامراض الدم ، لم يكن ممكنا الا بسبب الاكتساب البطيء لوسائل الدفاع والتي يمكن الحصول عليها من خلال زراعة اعضاء جنينية (الكبد والغدة الصعترية) من ثمانية الى ثلاثة عشر اسبوعا تشتمل على خلايا لمفاوية فتية . اذ ان التشكل الجديد للمناعة يتطلب وقتا طويلا ويستلزم عناية حازمة ومستمرة وهذه غير ممكنة الا تحت الحاضنة » .

اليوم وقد تعافت اوريلي ، فان باستطاعتها العيش كأي طفلة صغيرة لها نفس العمر وبنفس وسائل الدفاع . انها المرة الاولى التي يشفى بها طفل في فرنسا - وحتى في اوروبا - بعد فترة زمنية طويلة الى هذا الحد وتحت الحاضنة . لقد كان يوم الخميس ٢١ مايو (ايار) الاخير يوم عيد في مستشفى ديبروس . حيث وضعت الأزهار والهدايا واللعب في كل الارجاء ابتهاجا بالصغيرة اوريلي التي ولدت من جديد .

فلقد اخرجتها امها بنفسها من الحاضنة من خلال كوة بعد ان أدارت ظهرها حسب ارشادات الطبيب .

وكان ضربا من الخيال رؤية هذه الطفلة البالغة من العمر ثلاث سنوات ونصف سنة وهي تصرخ مثل وليد جديد يخرج من رحم امه ، وكانت تتعلق بحافة الحاضنة وهي منكمشة على نفسها . واخيرا اخذت تبكي بين ذراعي امها ، وكانت ذراعاها مرفوعتين كما لوانها تود ان تقي نفسها من عالم مجهول ومرعب وانفصلت عنه لفترة طويلة بواسطة غلاف من البلاستيك .

« والعجيب في امر هذه الطفلة . كما تقول امها ، هو سرعة التكيف التي تتمتع بها مع كل ما هو غريب عنها حتى اليوم . لم يكن لدى اوريلي اى ادراك عن اللمس والروائح والمسافة . وعند خروجها من الحاضنة وضعت في سرير صغير وسرعان ما سكنت اليه . انها تبتسم لي وتلمسني وتسحب يدها بسرعة كما لو انها قد احترقت » .

وفي اليوم التالي وللمرة الاولى في حياتها لبست اوريلي حذاء ، وكانت مذهولة . انها ظريفة وقد وجدت حذاءها جميلا جدا . اذ انه بعد بضع خطوات متعثرة سارت مباشرة مثل اية بنت صغيرة بنفس عمرها ، فمنذ اليوم التالي غادر المستشفى السيد جان ـ بول والسيدة لوسيت وبرفقتهما اوريلي التي حملت بنفسها وبمنتهى الفخر صك الخروج الى الممرضة المشرفة .

وفي السيارة احتضنتها امها بين ذراعيها . كانت اوريلي تنظر حولها بدهشة ومن ثم اخذت في الغناء . اذ انه ابان الشهور والسنين التي امضتها في المستشفى كانت الممرضات يعلمنها العديد من الاغنيات !

« قف ، قف صرخت بابيها عند المنعطفات . كدنا نسقط ! »

وعند الوصول الى القرية اجتمع الجيران قاطبة لرؤية هذه البنت الصغيرة ، التي تختلف عن مثيلاتها على حد ظنهم ولكنها بغتة تكتشف لهم بكل بساطة إنها ليس سوى طفلة سعيدة . بالطبع يتعين على امها ان تترصد يوما بعد يوم اندماجها من جديد في الحياة . ان اوريلي الصغيرة لاتعرف شيئا . النار ! ما هذا ؟؟ الفراغ ؟ هذا ليس خطرا . الم تكن تلقي بكل ثقلها على جدران حاضنتها البلاستيكية التى كانت تقفز عليها بكل حبور ؟ فمنذ اليوم الاول كان لزاما على امها أن توقفها عن القيام بمثل هذه الحركات : ذلك لان اوريلي كادت تقوم بنفس الحركة على الدرج من عل ! لقد كانت في حديقة والديها تلمس الازهار باصبع رقيقة وتتجنب الشمس كما لو انها تحرقها وتبتعد عن القط بهلع ، وتقبل اباها وامها على طرف انفها ، لانه الموضع الاكثر نعومة ، وتطرح اسئلة كثيرة .

من الذي يبكي ؟

لقد وضع لها ابوها بيضتين في يديها وكان قد احضرها المطبخ فما كان من اوريلي الا ان ضربتها الواحدة على الاخرى ، ولم لا ؟ ! كانت تتقدم في العشب بحذر وهي ترفع بشكل واضح رجليها الواحدة تلو الاخرى ، وتنظر الى نحلة وتود التقاطها في يدها ، وتتحسس الريح على وجنتها وفي شعرها وتسعى لوقاية نفسها منه بيد خائفة . اما بخصوص الحمام ، فان امها لم تحممها لفترة طويلة في البداية ، على اعتبار ان الماء هو الاخر عنصر جديد بالنسبة لها . فقد كان يجرى تنظيفها عندما كانت في الحاضنة بواسطة فوطة مبللة بالماء المعقم كلعبة سريعة العطب .

« لقد بدأت بتغطيس رجليها بالماء ، قالت السيدة لوسيت ، ولم تخف من جراء ذلك بل اكتفت بالسؤال كعادتها : « ماما .. ما هذا ؟ » . واوريلي تستيقظ كل صباح من سريرها الصغير وتجلس وتغنى اغنية « على ضوء القمر ... » وتلعب بلعبتها وتقول صباح الخير الى امها وتقبلها على انفها . وعندماتسمع صياح الديك تطرح السؤال التالي : « من ذا الذى يبكي ؟ » وعلى عجل تود الذهاب لتتنزه ولتكتشف هذا العالم المدهش الذى تجهل كل شيء عنه منذ ولادتها .

وتضيف السيدة لوسيت قائلة : « منذ عرفت اوريلي ان بوسعها الذهاب الى ابعد من حاضنتها البلاستيكية فانها تبغي رؤية كل شيء ومعرفة كل شيء . »

وكان من الواجب على امها ان تتعقبها خطوة اثر خطوة ذلك لانها لاتدرى ما الذى قد يلسع ؟ وما الذى قد يحرق ؟ ما هو سيىء وما هو صالح . غير ان اوريلي تتعلم وتتعلم بسرعة . فالطيور تطير وهي لاتدع نفسها تلتقط . والطباخ سيىء وهو يحرق والسكاكين تقطع .. حذار يا اوريلي لا تلمسي ! انها تصغي باهتمام وجدية وهي مفتونة !

وامها تطرح عليها السؤال التالي بكل فخر : « يا اوريلي ، كيف يفعل الكلب ؟ قولي ذلك الى السيدة ... »

ـ مياو ! مياو .. تجيب اوريلي .

ولكن الام تستدرك عليها بسرعة قائلة .. إن ذلك مواء القط ، حاولي مرة ثانية ان تتذكرى نباح الكلب !

اعداد منيب حمدان

من مجلة باري ماتش الفرنسيه

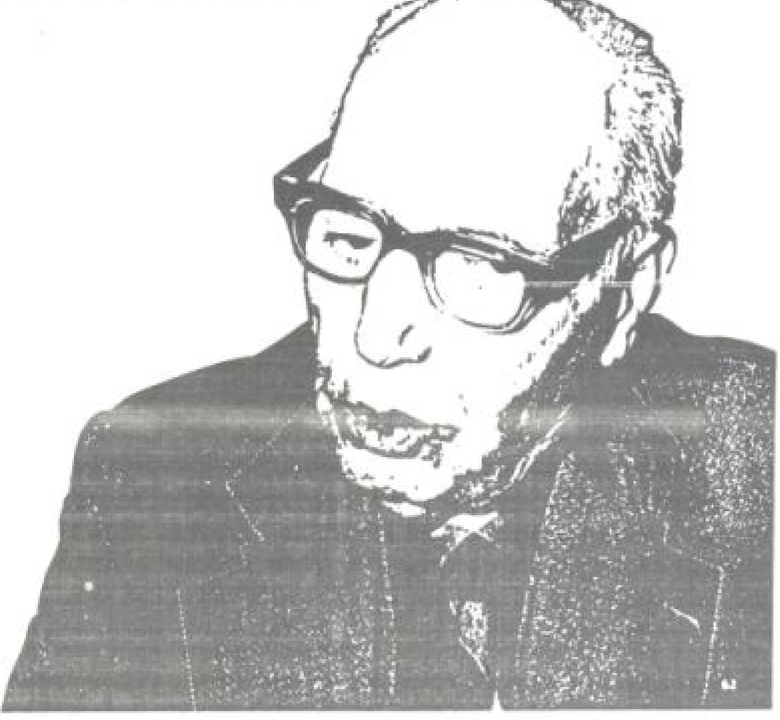
سعيد الجزائري

الجندي المجهول في دنيا الأدب الشامي

... مات سعيد الجزائري

اذن فتلك الجبهة الملتهبة بجمال الحرف قد بردت البرد الابدي ؟ اذن فرحلة البحث عن الكلمة المبدعة التي زرعت الجو الادبي في الشام ما بين اواسط الثلاثينات الى السبعينات ربيعا وشعرا وقصة ودراسة ونقدا واسماء لامعة ، تلك الرحلة قد انتهت ؟

بقلم الدكتور شاكر مصطفى



اذن قد استراح قلب دمشق الادبي الكبير ؟ وكل تلك الحيوية الادبية عادت الى الهمود الترابي الأزلي ؟ ارتدت يغني بعضها في بعض كينبوع النافورة الفوار يهوي بعد الذرا مياها من انبثاء ؟ ...

... وتتكون الاحرف ، تلوب في خاطري ، وعلى الورق ، وفي الغيب الاكمه كسحاب اثقله القطر ، تلوب كخشية تحل ضربتها العاصفة ، ماذا تقول الكلمة في هذا الرجل الذي وهب كل ذرة من كيانه لدنيا الكلمة ؟ قلائل هم صانعو الحياة الادبية في سورية ، اقل من هؤلاء هم اولئك الذين اعطوها كل شيء ولم يأخذوا شيئا . اقل من هؤلاء جميعا اولئك الذين وضعوا اكتافهم سلالم في المهرجان ليصعد الاخرون ، ورقصوا ايضا لصعود الاخرين ...

سعيد الجزائري كان من هذه القلة القليلة .

وحين يكتب تاريخ الحركة الادبية المعاصرة في سورية ، ويتكلم الباحث عن نجومه واقماره والشموس ، وعن هذا الشاعر المجنح ، وذلك القاص النباه ، وذياك الاديب ذي الريش كالعهن المنفوش ، فانه سيكون قصير النظر او جاهلا بالجذور والاجواء ان لم يكتشف ، وراء هؤلاء ، المخرج المجهول القابع في عتمة « الكواليس » : سعيد الجزائري ..

قرابة سبعين سنة استمر مشواره في الحياة ، فماذا كان حصاد المشوار الطويل ؟ جهده في الكلمة مجموعة واسعة من الاحاديث الادبية والمقالات الصحفية لم يجمعها ، ومذكرات مازال من اسرار غرفته ، ثروته ليست أكثر من مجموعة من الكتب القديمة وسلة من الدموع ، لم ينشد يوما أكثر من الرغيف اليومي وحلقة لاصدقاء وكأس الليل . اما تراثه الحقيقي فتلك الاقلام الادبية التي قدمها للناس وكان على الدوام وراء عطائها الاول وعلى التصفيق لوصول العطاء من بعد ...

في ندوة المامون

كان في حوالي العشرين من العمر حين بدأ المشوار الطويل . عدته كانت فقط الكلمة الجميلة ثم كان المشوار كله وراء هذه الكلمة . بداياته ذكرها في حديث نشر بعد الوفاة : « .... برحيل الوالدين ثم خالي الى رحاب الله كان لابد من العمل فتسللت الى مملكة الصحافة لاسحب منها الرغيف . وكل عدتي في هذا التسلل انني ملم . باللغة العربية » (❊) لكن جو الصحافة في تلك الايام ، كان مشاعا بين الخبر الصحفي والكلمة والادبية وقافية الشعر . الجريدة كانت مدرسة ادب يومي ، واصحابها كانوا يعتبرون انفسهم كتابا وادباء لا صحفيين فقط . وذلك الشاب المفتون ببلاغة القرآن وقوافي المتنبي والذي حفظ للحارث بن حلزة اليشكري وطرفة بن العبد والبحتري تماما كما حفظ لشوقي وحافظ . وفتن بالجاحظ فتنته بالمازني ، كان لابد ان يجد مكانه . ولكن الجو الثقافي في الشام كان يومئذ في العشرين حركة وموجا وثورة عواصف .

« لقد كانت ملامح الحياة الثقافية والفكرية ـ كما قال ـ في تلك الفترة غنية حتى الاسراف ، كان ثمة مجموعتان من الاقلام على جبهتين متناقضتين والمعركة على اشدها بين الجبهتين : انور العطار ، سليم الزركلي ، زكي المحاسني ، منير العجلاني ، علي الطنطاوي ، جميل سلطان . كانوا الابناء المدللين للمجمع العلمي العربي ويطمحون الى عبور ابوابه ذات يوم وقد التفوا حول ما سموه « بالمجمع الادبي » ينصبون انفسهم للتراث وحفظ الشنفرى والمباراة في خلاف الكسائي والفراء ... اما على الجبهة الاخرى فكان المتغربون « الذين درسوا في اوروبا واسرتهم الثقافة الغربية فروسهم تدور بروزبيرغ وجيد ونيتشه وغوركي ودوستويفسكي وتولستوي وبرغسون وزولا وبيرانديلو ... والرعيل الكافر كله . من هذه الجبهة كان : كامل عياد ميشيل عفلق ، فؤاد الشايب : علي الناصر ، كاظم الداغستاني ، قادر الكزبري ، نسيب الاختيار ، ليان ديراني ، سليم خياطة ، صلاح المحايري . وقد اسسوا « ندوة المأمون » تيمنا بحرية الفكر « وبالانفتاح المأموني » ، على الثقافة الاخرى . هؤلاء كتبوا المحاولات الاولى في القصة الفنية في سورية ونشروا أول قصائد الشعر الحديث الذي يتحدى الوزن والقافية . وحملوا في محمد مشير ، ورغم تهم الالحاد والشيوعية ، راية الجديد .

انها المعركة الخالدة الدائمة . ولكنها في تلك الايام من سنوات ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥ م ملأت اعمدة الصحف اشلاء وهجيات ورشق نبال وطعنات سخر وتجريح .. وتسأل سعيدا الجزائري عن دوره بين الجبهتين فيعترف : ـ « كان دوري في تلك المرحلة هو صب الزيت على النار ، كلما خمدت الحرب وهدأت ... » حركتها .

ولقد كان يطرق احيانا على الكتاب بيوتهم في طلب مقال او قصة او يخرجهم من تلك البيوت الى طاولته المسكينة في ادارة جريدة الايام ليكتبوا وينقل ما يكتبون فقرة فقرة الى اسنان المطبعة .. اينسى ذلك عفلق والديراني والزركلي ياترى ؟ وسعيد هو أول من لقب عمر ابا ريشة « بشاعر الحب والعبقرية والجمال » . كتبه

بعرض الصفحات وبالخط العريض ليكيد به اهل الشعر القديم ...

لقد وجد سعيد في هذا الدور احد جوانب ذاته . وكان مزماره الساحر في ذلك لباقة مهذبة ما خانته حتى آخر حياته . ولقد يتعامل في هذا السبيل مع بعض الدسائس البيضاء .. ولماذا لانقول انه كان يهواها ؟ كانت اسلوبه الاثير . فرحة ان يجدها قد ولدت قصيدة ، قصة ، مقالة ، نقدا كلمة ادبية ، اي كلمة تزيد في ثروة الادب . كان دوما مؤجج النار المقدسة ارأيت كهنة الزارادشتيين ، ولكنه يؤججها بردا وسلاما . اما اذا نبتت فيها ألسنة الشياطين فانه اذن اول جندي في الاطفاء ..

على ضوء الحرائق الادبية كان يتدفأ . يذيب جليد الاصابع والجباه . يثير صراع الديكة ويأخذ في جمع الحصاد . اين انتهي الصراع ؟ ليس يهم ... المهم ان المعركة كانت تنهل بالخصب . وحتى ايامه الاخيرة كانت اصداء تلك المعارك الاولى التي شارك في اثارتها وجمع وقودها بيديه ، ما تزال حية عند اذنيه . كان يعيشها حلما ذهبيا مضى . لقد خرج منها سعيد وسلاله ملأى بالثمار . التجربة الواسعة اغنته .. حتى الفقر .. كان هذا كسبه الوحيد منها ولكنه على اي حال خرج وله مكانه الخاص في دنيا الادب في دمشق وبين اهل الكلمة الجميلة ..

وفي اواخر تلك الفترة ١٩٣٩ جمع سعيد كل الحياة الادبية وفي سورية في عدد خاص اصدرته له مجلة « المكشوف » في بيروت كل اصحاب الاقلام في الشام كانوا هناك على صفحات العدد بايديولوجياتهم المتباينة وانواعهم الادبية المتفاوتة . ما كان باستطاعة شخص آخر غيره ان يفعل ذلك وان يستكتب لتقديم العدد اكبر زعيم سياسي واعظم خطيب عرفته سورية الحديثة . عبد الرحمن الشهبندر .

يا هذه الدنيا .. هجرتك

المرحلة التالية في حياة سعيد ، مرحلة الحرب العالمية الثانية ثم السنوات الاولى من استقلال سورية . انصرفت للعطاء الادبي . اسلوبه الرشيق سخريته اللبقة . ذوقه الرهيف كلها سكبها بعد جريدة « الجزيرة » . في جرائد « الايام » و« القبس » و« الاستقلال العربي » وفي مجلة « الصباح » ثم مجلة « الدنيا » و« العالمان » ولقد اختلط هذا العطاء ببعض الشعر ايضا . كان الشعر هوايته الكبرى .

ولقد قاله وتغنى به . ونشر أولى قوافيه « التجربة قوته ياترى ؟ » في مجلة « البرق » التي كان يصدرها ومذاك شاعر الوقت « الاخطل الصغير » في بيروت .كن « الرغيف » ثنى سعيدا عن القوافي . الشعر لا .اعم خبزا . والصحافة تنثر يومي لايرحم . واسنان ا الشيعة اين منها التنين المطارد ؟ وعليه ان يكتب ا. سحافة ليعيش . اذن فليكفر من الشعر الصدى الـ.كر ... ومن الادب كله هذه المقطوعات واللفتات التي تفرض نفسها بين الفينة والفنية ...

بالتدريج غارت ينابيع الشعر في صدره . حالت امطارا رمادية خرساء ، صارت جرحا يداريه بالرقص لكل شعر علوي . وانقطع الامكان الادبي الضخم . مع الركض اليومي وراء الرغيف ومع الخبر السياسي فهو على المزج ونقر الدف لكل قلم مبدع ... وتمزق الفنان فيه . لكن شفافيته الجمالية التي كانت تنبض كالبلور لم تتكسر . دنيا القافية ظلت اهزوجة في كيانه ونشوة كل الحضور . فاذا فاجأته يوما ببعض رصيده الشعري ، اذا قلت : يا سعيد هات من شعرك هات :

هجرتــك   ليس   لي   قلب
يدغــدغ   وجهــه   الحب
ونـثـرت   على   تقاليدي
فثـار   الاهــل   والصحب
وقــال   النـاس :   مجنون
وقالــوا :   عمــره   نهب
احــل .   يا   هذه   الدنيا
هجرتــك ..   ليس   لي   قلب

اذا فعلت ، قلب سعيد شفتيه ساخرا وقلب الحديث .

والكلمة الادبية ظلت عند سعيد صلاة المعبد وسدرة المنتهى . الف سوسنة كانت تنبت على صدغيه وهو يقرأ قطعة ادبية حلوة لكنك كنت حين تذكره بما كتب ينهي الحديث برواية نكتة ..

في هذه الأونة دخل دوامة السخر !

اتراه وجد العجز عن بلوغ القمة الادبية التي يشتهي ؟ قد يكون . ولـكن ذلك لم يكن السبب الوحيد .. لقد فجع بالعهد الوطني ومساوئه بعد الاستقلال ، ثم فجع بنكبة فلسطين ١٩٤٨ مع المفجوعين ، وفجع بفشله في حياته الخاصة وكان رد فعل الدفاعي هو السخر . انكمش الفنان فيه الى قيمة . تقوقع على الرفض ، دون ان تخمد ديناميكيته الحارة . طمر مأساته الذاتية وراء الف سور ، وجعل من الابتسامة على شفتيه لوحة ممنوع الدخول . اراد ان يميت بالسخر الالم ، ان ينتصر . كتب بسخر . سهر بسخر . جمال

المقاهي يسخر . الجو الذي اثاره من حوله جمع عددا من الاصحاب على السخر معه . وتألفت من هؤلاء « عصبة الساخرين » . (كانوا اثني عشر : منهم عبد السلام العجيلي ، عبد الغني العطرى ، حسيب الكيالي ، عباس الحامض ، سعيد القضماني ، ممتاز الركابي ، مدحة عكاش ...) كانت السخرية ، في الجو الادبي السياسي يومذاك ظاهرة رفض سلبي ، كانت تمردا لا يدرى بم يؤمن ؟ وكانت بحثا عن طريق ...

وانفتح الطريق السعيد حين جاءته الصدفة سنة ١٩٤٩ برئاسة تحرير مجلة « النقاد » واصدارها للادب والشعر والقصة .. لم يجد في هذه الصدفة فرصته فقط ولكن وجد مملكته المنشودة . كانت الصحافة الادبية هي ما يبحث عنه ليطلق جناحيه « حرا .. حرا .. حرا » كما قال . هل كانت (النقاد) مملكة ؟ لم تكن اكثر من مكتب متواضع من غرفتين ، مع محرر ومراسل و١٦ صفحة اسبوعية بحجم نصف جريدة . ولكن فاعلية سعيد ، صداقات سعيد ، ذوق سعيد الادبي كل ذلك جعل من هذه المجلة مؤسسة الادب السوري في الخمسينات .

دور في جمع الشمل

وسورية الخمسينات كانت اعراس النشاط في السياسة والفكر والعطاء . مهرجانا من الطاقات كان يلتقي فيها ويصطرع ... وينهل بالوعود . وفي هذا المهرجان طلق سعيد الشعر واهمل الكتابة الادبية فما يعاودها الا لماما وانصرف بكليته لمسؤولية « المملكة » ولان رسالة الادب كانت عند سعيد اقوى من انانيته فقد اخذت هذه المسؤولية طريقين صارا هواية وغراما عنده :

اولها : هواية سابقة عتيقة في دمه هي جمع الادباء واقامة الصلات والصداقات بينهم كان « جامع الشمل » دوما و« محرك » الجو الادبي .

الثاني : هواية لاحقة ـ لعلها التعويض عن ضمور ينابيعه ـ هي اصطياد المواهب الممكنة واحتضان كل متفتح على الكلمة . الدماء الادبية الجديدة صارت غوايته .

ودور سعيد في جمع الشمل قديم . منذ اوائل الاربعينات ما ورد دمشق من انحاء سورية صاحب كلمة ادبية الاتلقاه فحياه وبياه وفتح له صدور المجالس والصحف : بدوي الجبل . عمر ابو ريشة . حامد حسن نديم محمد . الاخوان كيالي . عزيزة هارون . عبد الباسط الصوفي . علي الجندي . رفيق فاخوري وصفي قرنفلي . حنا مينه . اسكندرلوقا . سعد صائب . ناجي شوح . كمال فوزي . شوقي بغدادي شكيب الجابري . جورج سالم . سليمان العيسى .. هؤلاء وامثالهم ما يكون احدهم في دمشق الا كان سعيد ثاني الاثنين .. ولا مر بدمشق قلم ادبي او شعري عربي الا كان الجزائري بجانبه يدور به ويجمع الاقلام ويعمل على التكريم وعقد الندى ..

فان تبغني في حلقة القوم تلقني
وان تلتمسني في الحوانيت تصطد

طه حسين . أحمد أمين . المازني . مهدي الجواهري . سعيد عقل . امين نخله . صلاح لبكي . عبد الكريم الكرمي . الشاعر القروي . جورج صيدح . الياس قنصل .. وغيرهم وغيرهم ولست احصيهم . كانوا بعض اصدقائه . ولكل رجل منهم « عند سعيد الحلقة التي تتفق مع هواه . وله الجماعة التي تنتقي للقائه . بعضهم اعضاء المجمع العلمي . وبعض له السهرة الماتعة مع اساتذة الجامعة . وبعض له الكأس والمزهر وبعض تجتمع حلقته حول فنجان قهوة في ثالث المقاهي الشهير بدمشق (البرازيل ـ الكمال ـ هافانا) الذي صار ابوعا بمقهى الطاحونه الحمراء ..

ترى هل يعرف الذين يتنقلون الان في (مؤتمرات الادباء العرب) بين تونس والجزائر والكويت وبغداد انهم يدينون بهذه السلسلة من المؤتمرات التي بلغت في العدد اثني عشر ، الى جلسة من جلسات مقهى ؟ لعله ما من احد على الاطلاق الان يعرف تلك القصة القديمة التي ولدت قبل سبع وعشرين سنة ، في مقهى ضيق ، على منضدة بين كراسي يزاحم بعضها ظهر بعض زحام افكار الجالسين عليها ...

ذات يوم من نيسان سنة ١٩٥٤ دعاني هاتف من سعيد الجزائري في الحاح : ـ في دمشق الان صلاح لبكي ويريد ان يتعرف اليك . نحن في مقهى البرازيل . ماكنت عرفت من هذا الشاعر الغنائي الرقيق سوى شعره . والتقينا على فنجان قهوة وتحدث الثالوث في كل شيء ..

اخذنا باطراف الاحاديث بيننا
وسالت باعناق المطي الاباطح

ساعة وساعتين وثلاثا ... ما شئت من شعر وطرفة وفكر . وعبر الاستاذ لبكي عن سعادته بهذا اللقاء وتمنى تكراره وندت « ليت » من هنا و« ليت » من هناك .

واتجه طموحنا الاول الى عقد ندوة ادبية مشتركة بين بيروت ودمشق ... ولكن من الذى ينفق عليها والذين ادركتهم حرفة الادب كانوا ابدا على الفقر والمتربة ؟

المؤتمر الاول للادباء

وافترقنا على شوق اللقاء دون الامل فيه ... بعد اسبوع وعلى الهاتف من بيروت كان صلاح لبكي يهتف :

ـ ما رأيك ؟ لقد تدبرت النفقات لعقد مؤتمر للادباء في لبنان .

انا قادم اليكم ...

صداقته الشخصية لرئيس الجمهورية اللبنانية « كميل شمعون » وضعت تحت تصرفه عشرين او ثلاثين الف ليرة لهذا المؤتمر . وبين بيروت ودمشق وبين مقهى واخر وضعت قوائم المدعوين لمؤتمر الادباء العرب الاول الذى عقد في بيت مرى صيف سنة ١٩٥٤

وافتتحه سامي الصلح « رئيس الوزراء يومذاك » بلغته العربية المضروبة بالتركية وحضره من مصر محمود تيمور واحمد رامي وامينة السعيد وحبيب جاماتي ومن سورية عمر ابو ريشة وشفيق جبرى ، وكامل عياد وفؤاد الشايب وخليل هنداوى وسامى الكيالي وصلاح الدين المنجد ومن العراق مصطفى جواد وحارث الراوى ورفائيل بطى .. ومن السعودية وفد ومن الاردن وفد ومن البحرين ، عدا وفد لبنان الذى ضم بين من ضم مارون عبود وفؤاد افرام البستاني وكمال الحاج وسهيل ادريس . ثم عقد مؤتمر الادباء الثاني بعد سنتين في بلودان صيف سنة ١٩٥٦ تنفيذا لوعد وعدناه في بيت مري وفاسينا المر في تنفيذه .. ثم توالت حلقات السلسلة الى بغداد ، الى الكويت ... لتكون الحلقة المقبلة الـ (١٣) في عدن ولينسى الأخرون فيها من كان الاولون ؟ هل يذكر احد ان سعيد الجزائرى كان في الاولين الاولين ؟

الهواية الاخرى لسعيد في اكتشاف الاقلام جعلته في الادب باب المريدين والسالكين ... سارقو النار المقدسة كانوا يجدون لديه الدفء والكتف القوية للمسير . كانت مرافئه مفتوحة لكل الاشرعة ترسو وتتزود وتعرض بضاعتها في السوق . على مسافة واحدة من ايديولوجياتها ونوازعها الفكرة كان يقف . لكنه كان ، بالمقابل يكتشف سر الحبة التي تعطي في كل سنبلة مائة حبة . عين « النقاد » فيه ما كان يفوتها التمييز السريع بين النجم والشهاب وبين فرقعة الاسهم النارية .

وصارت متعته الكبرى ان يتصيد الحرف الجميل ثم ان يظل وراءه حتى يبلغ محله ، وحتى ينهل شعرا ، قصة ، مقالة ، نقدا ... اذن فشيء من نشوة الخلق كانت تأخذه عند ذلك : لقد قدم شيئا للناس . وعلى طريقة البحترى الذي كان يتلفت ذات اليمين وذات الشمال وهو ينشد قوافيه سائلا في اعجاب : الا تقولون احسنت ؟ كذلك كان سعيد يسأل بعد كل جديد للنقاد : اليس برائع ؟ عبد السلام العجيلي . حنامينه ـ محمد الماغوط . فارس زرزور . مصطفي الحلاج . غسان الرفاعي . شوقي بغدادي . سعيد حورانية . نصر الدين البحرة . بديع حقي . عبد الله الشيتي . وليد مدفعي . اسكندر لوقا . صميم الشريف . كلهم بدأوا معه كما بدأت ايضا بعض الاقلام الاخرى اللاهثة كهذا القلم الذى يرثيه .

كل تلك الاسماء التي عمرت سماء الادب الشامي بين الخمسينات والستينات وصنعت جوه الدافيء الغني كانت بشكل او بآخر تدور في فلك النقاد « سعيد الجزائرى » . الذى صار ، بالنسبة للكثيرين ، عراب الادب الشامي . صار الاخ الروحي لجماعة الكهنة ولجمهور المصلين في الهيكل ، صار حارس الهيكل .. وفي زناده المفتاح . التكريم الوحيد الذى ناله من كل ذلك ومن كل اولئك هو المحبة .

وحين اختنقت الحرية الصحفية في الشام برمتها منذ سنوات وسنوات ، حين « اعتقلت ـ كما قال سعيد ـ حرية الاديب وحرية النشر وحرية المواطن » انهزم سعيد ذو الصداقات البوهيمية . انكمش الى الزاوية المنسية فيما يشبه المنفى الاجبارى . اجبر وهو « شيخ المحررين » على الا يحرر شيئا . لم يبق شيء يحرره . ومرت مياه كثيرة في بردى ، ذات الوان وألوان وهو قابع في وظيفة باردة كالصقيع في وزارة الاعلام يعاقر العزلة . السنوات الخمس عشرة الاخيرة من عمره كانت كلها صراخا في عتمة النسيان ، هل سحقته العتمة ؟ لقد كان يتجرعها كأسا مرة . يستعين عليها باصداء الصداقات الاولى لكنه لم يسمح لها يوما ان تسمم ايامه .. او قلبه .

ولقد دمرته الكأس ثم سحقه المرض حتى عرف الاقامة على البرزخ بين الحياة والموت اشهرا طويلة ، منذ سنوات ، وخرج من كل ذلك بملامح الاباء الوقورين وهدوئهم المهيمن .. لكنه ظل سعيدا الاديب الصافي ، والصديق الدافيء الصادقة . ولقد راح ليل النكران ، في السنوات الاخيرة يجتاحه وحشا عنيدا ، تملأ بالجسد المنهار المتماسك في وقت معا . انبت الطحلب في حنجرته لكنه لم ينبته في صدره ولا على قيمة . ظلت رسالة الادب في ذمه ، حتى حملت معه على الالواح ...

نهاية المشوار

ومنذ اسابيع معدودة انتهى المشوار الطويل ...

لم يعد سواد سعيد الجزائري يخترق الظلمة المعتقة في زقاقه القديم ، مع كل فجر عائدا الى منزله : مارد بعيون كالحجارة اختطف ذلك السواد . اخذ موجع النار العتيق واخذ معه جانبا من تاريخ الشام الادبي المعاصر . على ان الاطياف الباقية ماتزال على التجوال حية ، كاشباح القصور المجيدة ، في خواطر اصدقائه .

لقد عاش من الصحافة ولكنه عاش للادب والحرف الجميل . ولقد عانى مهنتي البحث عن المتاعب والبحث عن المواهب في وقت معا ، ومع انه كان في الاولى الابن المدلل للفقر العفيف فانه ظل في الثانية المترفع عن اقتدار الحسد . ما شعرت مرة انه يعاني الغيرة ممن ركبوا عربات السباق وطاروا الى البعيد البعيد . ولقد داست الكثير من السنابك الرعناء صدره وتركت حروق مساميرها النارية على اضلعه ولكنه عرف دوما كيف يحتفظ بسحره ... وبكرامته .

وكان استاذ في السخر . تحت رسم كاريكاتوري له ، قال للرسام اكتب : « الساخر من نفسه ومن الناس » . والساخرون اول عدتهم الحس المرهف وسعيد كان ابا الحس المرهف . وثاني عدتهم البديهة الحاضرة وكان ابا البديهة الحاضرة على الدوام . والساخرون تصغر الدنيا عندهم والايديولوجيات ، وتستوى القيم ، فهي قريب من قريب . وسعيد كان شيخ الساخرين في كل شيء الا في قيمتين : الوطنية الصادقة او الجمال الادبي . في هذين الحرمين لا سخر ولا مهادنة . ان جرحت احداهما انشب اظافره والاسنان . وويل يومئذ للجارحين ..

وكان القلم الرشيق اللبق . منذ كتاباته الاولى كسب لقب « الصحفي اللبق » فرفاقه الزملاء ظلوا على مداعبته به السنين الطوال . حتى جراحاته التي كان ينزفها في خصومه كانت قابلة للالتئام السريع وبسمة الرضا . كان يترك بينه وبين خصمه مسافة للقاء . خيطا تعرش عليه المحبة من جديد .

وكان الوفي للصديق . والوفاء في عالم السياسة والصحافة نقد نادر ، مخلوق غريب طريد ، ان لم يكن ايضا نبعا من الاذى المدمر ، ومع ذلك فقد كان الجزائري على الوفاء الصلب . من يبلغ عنده مرتبة الصديق يدخل في « الحمى » والمنطقة الحرام . ما كان لاحد ان يجرؤ على المساس باصدقائه امامه . سرعان اذن ما تتنمر عيونه ويضرب المنضدة .

ـ ارجوك انه صديقي ولا اسمح بمهاجمته . قد يكون الشيطان وتستطيع ان تتحدث عنه على المنضدة الاخرى بما شئت . ولكني لا اقبل ان اشارك في تمزيق صديق .

وكان كتلة من الدينامية المحركة . يومه تتلوه تحسبه مؤسسة للعلاقات العامة ، وثلاثة ارباعه للادب . كان الروح التي لا تهدأ . وتنمو كرمة الادب التي يرعى وتنهل خمرا . وتمتلىء الدنان لتفرغ لتمتلىء وهو على الركض الدائم .. وراء ماذا ؟ سألته مرة وراء ماذا فدمدم :

ان نفسي تريد شيئا ولكن
لست ادرى والله ماذا تريد !

وأخرا كان قبل هذا كله وفوق هذا كله ، كاهن الذوق الادبي وسيد الاحترام للكلمة . مهنته كانت عشق الكلمة ولو ان حياته كانت بحيرة الدمع الحار . كالسنديانة العتيقة المعاندة لمجرى النهر كان « ظل على الدوام » يتصدى لنخاسة الحرف لتطهير الكلمة . تخدش الجمالية الادبية ، لم يتورع عن التقزز علنا من كاتب سخيف او عن السخر من شويعر اوقعه سوء حظ في لسانه . قلب غجرى كان يسكن صدره ويفجع اذا وقع عن غلطة نحوية في مقال . تماما كما يرقص للكلمة الحلوة . ينتشي . يسكر ... فهو مردد لها سهرة كاملة وسهرات ...

ومع ان المد تجاوزه في سنواته الاخيرة مرات . شهابا منطفئا كان . شاخ فيه كل شيء .. ذل كل شيء . جسده الذي تهدم . قسماته التي تهدلت . عيناه ، حيويته . سخره . علاقاته ... كل شيء الا قيمته الادبية . الا هذه القيم . لقد ظلت قيم الشاب القديم الذي كان يؤجج النار ولا يهادن ولا يتهاون ... قبل وفاته بسنة وبعض السنة . يوم عقد آخر مؤتمر للادباء العرب بدمشق رفض سعيد ـ وهو عضو الوفد السورى الرسمي ـ حضور الامسيات الشعرية وكتب في هجائها مقالا جعل عنوانه : الحمد لله لقد نجوت من المذبحة الشعرية .

واليوم ، وقد انتهى بسعيد المشوار الطويل ، هل يكتفي اصدقاؤه رواد الغابات المسحورة بأن يضعوا باقة من زهرها الوحشي على بلاطة قبره ؟

الجنود المجهولون لهم في كل عاصمة قبر تحمل ، فوق صدورهم الشعلة الخالدة . صدر هذا الرجل كان يحمل طول حياته الشعلة الادبية الخالدة ، فهل تراه يحظى بشيء من تكريم الجندى المجهول ؟ ■■

د . شاكر مصطفى

أقوال معاصرة

■ لاتثقوا بالمصريين .. لاتثقوا بهم مطلقا

من تحقيق لوالدة اريل شارون وزير الدفاع الاسرائيلي



■ من السخف ان اجتمع بممثل لمنظمة تحرير فلسطين في باريس ، ثم ارفض الاجتماع مع رئيس المنظمة في بيروت

كلود شيسون - وزير الخارجية الفرنسي .

■ ان امريكا يجب ان تواجه يوما بضرورة طردها من الامم المتحدة واعتبارها عضوا خارجا على القانون ومصابا بجنون القوة .



الرئيس الليبي العقيد معمر القذافي

■ استغرب رفض المنظمات لمبادرة الامير فهد ، واقرارها لمبادرة الرئيس بريجينيف .

خالد الحسن

عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة تحرير فلسطين

■ ليس من الضروري اصدار حكم على ماذا كانت الغارة الاسرائيلية على المفاعل النووي العراقي اجراء دفاعي او هجومي .



الكسندر هيج وزير خارجية امريكا

بعد رفع الحظر على تصدير الطائرات لأسرائيل .

■ لم اجد وسيلة للتخفيف من احزان السود في امريكا البيضاء اسرع وافضل من اكون ملاكما محترفا

« محمد على كلاى »



■ كل ثوار العالم يتدربون في معسكرات « فتح » .

خليل الوزير (ابو جهاد)

عضو اللجنة المركزية لحركة فتح .

■ يعاني ٧٤٪ من السيدات و ٦٥٪ من الرجال من السمنة الزائدة بسبب الافراط في الطعام .

من تقرير لوزارة الصحة الالمانية الاتحادية



أسرار اللعبة الدولية لابتلاع فائض المال العربي

السلاح منشار مثلث الأطراف من الذهب والدولار والأوراق المالية

بقلم الدكتور عارف دليلة

> في البداية ، لايهمنا ان تكون اللعبة منظمة او عفوية . ما يهمنا هو فهم قوانين هذه اللعبة وكشف اوراقها وتحديد النتائج المتحققة منها ، وسبل الخروج عليها .

تكمن المشكلة في ان ٧٠٪ من سكان العالم لا ينتجون الا ٩٪ من الانتاج الصناعي العالمي ، واكثر من ثلاثين بلدا في العالم الثالث يشهد في السبعينات معدلات سالبة للنمو الاقتصادي ، اي انها تتراجع الى الوراء بدلا من التقدم الى الامام . وديون العالم المتقدم على العالم المتخلف تتجاوز الـ ٤٠٠ مليار دولار . وهنالك العديد من الدول الضعيفة التي تكاد جميع صادراتها لا تغطي اعباء الديون الخارجية . وتبدو البلدان النامية وهي تستنجد بالبلدان الرأسمالية الكبرى كالمستجير من الرمضاء بالنار . فهي تحاول اطفاء الحريق بصب المزيد من الزيت عليه . ذلك ان الدول الرأسمالية المتقدمة نفسها غارقة في مشكلاتها ، مثل انخفاض التشغيل وتدني معدل النمو وتضخم الانفاق العسكري وارتفاع العجز في الميزانية الحكومية وفي ميزان المدفوعات ، وبالتالي فان هذه البلدان تنظر الى العالم الثالث كاحتياطي ضخم لتصريف ازماتها وتصديرها اليه ، تتحول قضية التنمية في ظل هذه الظروف الى طريق مسدود .

خلال قرون عديدة كان العالم مقسما الى دول مستعمرة قليلة العدد تتطور بوتائر سريعة نسبيا والى امم كثيرة العدد موزعة في جميع القارات تخضع للاستعمار والنهب المكشوف . فالموارد التي نهبتها بريطانيا من الهند ، وهولندا من اندونيسيا ، واليابان من الصين كانت مصدرا هاما من مصادر التصنيع والتقدم التكنيكي الذي حققته الدول المستعمرة ، بينما تركت الشعوب المنهوبة في حالة من الركود والجمود عطلت تقدمها مئات السنوات .

رياح التغيير

في السبعينات من هذا القرن بدا وكأن هذه العلاقة آخذة في التغيير . فقد استطاع عدد من البلدان النامية خلال عامي ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ ، وبفضل حرب تشرين التي كان من المفترض ان تكون اول حرب تحريرية في تاريخ العرب الحديث ، ان يضاعف ثروته من تصدير مواده الاولية مرات عديدة . فقد تضاعفت اسعار النفط اكثر من اربع مرات خلال عام واحد تقريبا ، وتبعها ارتفاع اسعار المواد الخام والزراعية التي تصدرها الدول النامية الاخرى .

لقد ابرز هذا التغيير المفاجيء الخلل الخطير الذي يعاني منه الاقتصاد الرأسمالي العالمي ، وبالاخص التطور غير المتكافيء لمختلف دوله ، والذي يولد بينها تناقضات غير قابلة للتسوية ، والتطور المتفاوت لمختلف القطاعات الاقتصادية ، حيث تنمو بعضها بوتائر سريعة جدا بينما تنمو الاخرى بوتائر ضعيفة او بمعدل سالب . وكان من أهم مظاهر الازمة الاقتصادية الرأسمالية العالمية فيض كبير في الطاقات والمنتجات في نواحي معينة (الصناعات التحويلية) ونقص خطير في منتجات قطاعات اخرى (المواد الخام) . وظهر ذلك في ارتفاع الاسعار الذي يشكل اهم مظاهر التضخم النقدي في النظام الاقتصادي العالمي .

ولما كانت الدول النامية لا تملك غالبا الا سلعة وحيدة ، او عددا قليلا من السلع التصديرية ، فقد وجدت نفسها شبه عزلاء في مواجهة امواج الازمة القادمة باتجاهها من الغرب . ولم يكن هناك بد من ان تدافع عن نفسها بسلاحها الوحيد وهو رفع اسعار صادراتها بشكل يؤدي الى إلغاء ظاهرة التبادل غير المتكافيء وتوفير الوسائل الضرورية للتنمية وتسريع القضاء على التخلف الاقتصادي والاجتماعي . ولقد ترافق ذلك بنهوض سياسي عام في العالم الثالث على مدى الستينات والسبعينات من القرن العشرين .

الفوائض ظاهرة استثنائية

ان الاختلال الشديد في اسواق المواد الاولية بين العرض والطلب العالميين ادى الى ارتفاع مفاجيء في اسعار هذه المواد وموارد البلدان المصدرة لها ، فنشأت ظاهرة الفوائض المالية بنتيجة ضعف القدرة الاستيعابية لاقتصاد هذه البلدان للثروات الجديدة . وغابت عن الانظار في الكثير من الاحيان حقيقتان هامتان : الاولى هي ان هذه الثروة لم تكن ثمرة طاقة انتاجية حقيقية وانما استنزافا لثروة ناضبة خلال سنوات قليلة ولا تعوض بعدها ، والثانية وهي ان المال بحد ذاته ليس ثروة حقيقية الا اذا تجسد في قدرات انتاجية مادية (صناعية ـ زراعية) وبشرية ، وهذا ما يتطلب تحقيق تنمية سريعة ترفع بدورها من الطاقة الاستيعابية للاقتصاد الوطني وتختفي ظاهرة الفوائض المالية .

ان الفوائض المالية اذن ليست الا ظاهرة عابرة ، بل انها ظاهرة شاذة لم يعرفها التاريخ الاقتصادي قبلا . فلاول مرة منذ ظهور الاقتصاد الرأسمالي تتركز فوائض نقدية بهذا الحجم في يد دول معينة بينما تتركز الفوائض البضاعية في يد دول اخرى . ذلك ان النقود كانت دائما الوجه الاخر للانتاج ، تعبر عنه وترتبط به ، باستثناء الشكل الريعي لهذه النقود ، حيث تظهر الثروة كتصريف لحق الملكية .

وقدر ما تعتبر ظاهرة انفصال حركة النقود عن حركة البضائع (او الطاقات الانتاجية الفائضة) ظاهرة غريبة على الاقتصاد ، فان هذه الظاهرة لا تملك ، بفعل القوانين الاقتصادية نفسها ، القدرة الذاتية على الاستمرار ، وانما تتعرض للقوى المضادة التي تنحت بها من هنا وهناك حتى تلغيها نهائيا .

ولم يطل الوقت في بحث هذه الظاهرة عن حل لنفسها . فلم يأت العام ١٩٧٨ حتى تساوت الموارد المالية السنوية للدول المصدرة للنفط مع نفقاتها ، تقريبا وانخفضت الفوائض المالية السنوية الى ادنى حد منذ عام ١٩٧٣ (حوالي ٥ بلايين دولار) . فبينما تجمد ارتفاع اسعار النفط قفزت اسعار الصادرات الصناعية للدول المتقدمة بمعدلات عالية حتى التهمت زيادة قيم الصادرات العام للبلدان النامية . لقد اضطرت دول الاوبك بنتيجة ذلك الى رفع اسعار نفطها من جديد في عامي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ ، وحققت بذلك قفزة كبيرة في ارقام مواردها المالية وفوائضها النقدية رغم التوسع الكبير في الانفاق . ومن الجدير بالملاحظة ان ثلثي دول الاوبك تقريبا تنفق كامل وارداتها النقدية ، وبعض هذه الدول يضاف اليها قروضا اجنبية ضخمة ، كالجزائر والمكسيك ، مثلا ، بينما لا تتحقق الفوائض النفطية الوفيرة الا للدول النفطية التي تتصف بشكل اساسي بقلة السكان وبضعف امكانيات التنمية الزراعية .

وتتراوح الفوائض المالية للدول العربية الخليجية المصدرة للنفط والمستثمرة في الخارج حسب مختلف

التقديرات ما بين ٢٥٠ ـ ٣٠٠ دولار . وتتوزع هذه الاموال على مختلف أشكال الاستثمار من الاستثمار العيني في الصناعة والزراعة والعقارات ومشروعات الخدمات والسياحة الموزعة في مختلف القارات والبلدان ، وبشكل خاص في الولايات المتحدة التي تستأثر باكثر من ٧٠٪ من هذه الاموال ، حتى الاستثمار في السندات الحكومية في البلدان الرأسمالية المتقدمة . لكن القسم الاعظم من هذه الاموال يتخذ شكل النقود الساخنة التي تتحرك بين اكثر اشكال الثروة سيولة من الذهب الى الدولار والعملات الرأسمالية الاخرى والاوراق المالية ، متنقلة باستمرار من شكل الى آخر ، حسب اوضاع وتوقعات هذه الاسواق .

وتشير تقديرات الخبراء الآن الى ان الدول النفطية ستخسر تدريجيا حتى عام ١٩٨٤ الفوائد التي حققتها من رفع اسعار النفط خلال الاعوام الثلاثة الاخيرة ١٩٧٩ ـ ١٩٨١ . وذلك بنتيجة تجميد اسعار النفط ، من جهة ، واستمرار اسعار الصادرات الصناعية بالارتفاع ، من جهة اخرى ، وتخفيض الانتاج النفطي بسبب الفائض النفطي في الاسواق العالمية ، من جهة ثالثة .

المنشار مثلث الاطراف

لكن اخطر وسائل اهراق الفوائض المالية للدول المصدرة للنفط ، لا تقتصر على هذه الوسائل المتطورة الملموسة وانما تتمثل في وسائل غير ظاهرة تتركز بشكل اساسي على استخدام ما نطلق عليه « المنشار المثلث الاطراف » : الذهب والدولار والاوراق المالية » .

فبعد الموجة الاولى لارتفاع اسعار النفط وظهور الفوائض النفطية الضخمة ، شهدت الفترة ١٩٧٥ ـ ١٩٧٨ تقلبات واسعة في اسعار الذهب لعبت دورا خطيرا في التهام قسم هام من الفوائض المالية . فلقد تضاعفت قيمة الذهب أكثر من عشر مرات منذ مطلع السبعينات وحتى عام ١٩٧٩ ، (من حوالي ضعف سعره الرسمي وهو ٣٥ دولارا للاونصة حتى ٨٠٠ دولار للاونصة) ثم عاد لينخفض الآن الى مادون ٥٠٠ دوبين الصعود والهبوط ضاعت مليارات كثيرة من الفوائض المالية الساخنة الباحثة عن الامن والضمان والاستثمار المربح في مبادلة الذهب بالدولار والدولار بالذهب .

ونقرأ في التقارير الختامية لشركات الاستثمار العربية لعام ١٩٨٠ بان هذه الشركات تحملت خسائر جسيمة بسبب انخفاض اسعار الاوراق المالية . وبما ان القسم الاعظم من الاستثمارات العربية يتخذ شكل الاوراق المالية الحكومية وبالأخص الأمريكية التي خسرت جزءا هاما من قيمتها بعد ارتفاع اسعار الفائدة المصرفية على الودائع الدولارية الى حد لم يسبق له مثيل مما ادى الى رفع اسعار الدولار والتحول اليه في اسواق المضاربة ، فان مليارات اخرى من الاموال العربية تضاف الى الخسائر السابقة في عمليات مبادلة الذهب والدولار بالاوراق المالية او الاوراق المالية بالذهب والدولار .

تنويع الاستثمار

قد يقول قائل : ولكن تنويع اشكال الاستثمارات التي تتخذها الفوائض المالية يساعد على تجنب الخسارة ، فخسارة بعض هذه الاستثمارات تعوض بارباح الاستثمارات الاخرى . ففي الوقت الذي ينخفض فيه الذهب يرتفع الدولار والاوراق المالية والعملات الاخرى ، وفي الوقت الذي ينخفض فيه الدولار والعملات الاخرى يرتفع الذهب . وعندما تنخفض او ترتفع قيمة الاوراق المالية ترتفع او ينخفض الدولار او الذهب . وهكذا .

الا ان حوادث الواقع تناقض هذه التصورات . فالحصيلة الصافية لارباح وفوائد الاستثمارات العربية في الخارج لا تتجاوز حسب اكثر من التقديرات ٥٪ سنويا بالمتوسط . فاذا حسبنا ان اسعار الفائدة على الدولار وبعض العملات الاخرى زادت على ٢٠٪ سنويا ، وان معدل التضخم في الدول الرأسمالية المتقدمة يتراوح ١٠ ـ ٢٥٪ سنويا لتبين لنا ان الاموال العربية الموظفة في الخارج تخسر سنويا مالا يقل عن ٥ ـ ١٠٪ من قيمتها الحقيقية . وهذا ما اظهرته بعض الدراسات التي تقول بان الفوائض المالية العربية في الخارج تخسر سنويا من ١٠ الى ٢٠ مليار دولار من قيمتها الحقيقية ، رغم تزايد قيمتها الاسمية المطلقة بوتائر سريعة .

فهل ، يا ترى ، يعمل منشار الذهب ـ الدولار ـ الاوراق المالية هذا بصورة عفوية في السوق ام انه يدار من قبل الدول الرأسمالية الكبرى ، وبالاخص من قبل الولايات المتحدة بصورة مخططة بهدف ابتلاع ما يمكن ابتلاعه من الفوائض المالية المستثمرة في هذه الدول ؟

للاجابة على هذا السؤال لابد ان نحدد اولا مضمون الدور الذي يقوم به نقد دولة معينة في صورة نقد عالمي ، كما يفعل الدولار الامريكي اليوم .

الدولار والنقود العالمية

ان اشكال النقود التي لا تحمل قيمة في ذاتها ، كالعملات الورقية ، لا تستطيع اداء وظائف النقود الا اذا كانت رموزا للنقود المعدنية التي تحمل قيمة حقيقية باعتبارها سلعة تجسد عملا بشريا (الذهب والفضة) او مضمونة من قبل سلطة مركزية تمثل الطاقات الانتاجية للمجتمع ، ويطلق على هذه النقود عندئذ النقود التسليفية .

وبسبب افتقاد سلطة عالمية تقوم بدور الدولة في اصدار وفرض تداول نقود عالمية بضمانة الذهب او الانتاج العالمي فقد استمرت المعادن الثمينة تؤدي وظائف النقود العالمية حتى اواسط هذا القرن ، ولم يكن أحد يتصور في القرن الماضي بان النقود الورقية لبلد ما يمكن ان تلعب في يوم من الايام دور النقود العالمية .

لكن تجمع الاحتياطات الذهبية في يد دولة كبرى واحدة خلال الفترة من الحرب العالمية الاولى حتى الحرب العالمية الثانية والسنوات التي اعقبتها مباشرة ، حيث بلغت الاحتياطات الذهبية للولايات المتحدة ٧٠٪ من الذهب الاحتياطي في العالم ، ادى الى الافتقار الشديد في السوق العالمية لوسائل الدفع . وكان لابد من اجل اعادة الحركة الى الاقتصاد العالمي من طرح الاحتياطات في ايدي الدول الاخرى او اصدار ما يمثلها من اشكال نقدية اخرى تؤدي وظائفها . وبما ان اكتناز الثروة يخالف المنطق الاقتصادي الرأسمالي فان الولايات المتحدة وجدت افضل طريقة لاستثمار ثروتها الذهبية في اصدار دولارات بديلة عنها .

لكن سريان الدولارات كبديل عن الذهب كان يشترط قبل كل شيء قبول الآخرين لها . وقد تأمن ذلك بسهولة لسببين جوهريين : الاول ، وهو انها مضمونة بالذهب وحرة التحويل اليه بفضل الاحتياطات الضخمة لدى الدولة المصدرة لها ، والثاني وهو الحاجة الماسة لجميع دول العالم التي دمرتها الحروب الى المنتجات الامريكية من المواد الغذائية حتى الآلات والمعدات ، وبالتالي الحاجة الماسة الى وسائل الدفع الامريكية لشراء هذه المنتجات .

ومن المنطقي القول ان الدولار يفقد قوته السحرية بانتفاء هذين الشرطين ، وهو ما حصل في السبعينات . فقد انخفض الاحتياطي الذهبي الامريكي من ٢٤ مليار دولار عام ١٩٤٩ حتى ١٠٫٥ مليار دولار عام ١٩٧٢ . وظهرت بدائل قوية للانتاج الامريكي في السوق العالمية ، حتى وصل الامر الى تزايد العجز في ميزان المدفوعات الامريكي خلال الستينات ، وانتقال هذا العجز الى الميزان التجاري لاكبر دولة في العالم مع مطلع السبعينات .

وهنا اصبحت الكمية الضخمة من النقود الوطنية الامريكية المطروحة في السوق العالمية ، كاحتياطي للعملات الاخرى الى جانب الذهب او كبديل عنه ، وكوسيلة دفع دولية ، وغير ذلك مكشوفة ومفتقرة الى الضمانات الكافية . وقد نتج عن ذلك التسابق للتخلص من الدولار والاتيان باي حامل آخر للقيمة استقرارا وضمانا ، مما ادى الى انخفاض قيمة الدولار من ٣٥ دولارا حسب السعر الرسمي للاونسة الوحدة من الذهب في اواخر الستينات حتى حوالي ٨٠٠ دولار للاونسة في اواخر السبعينات .

البحث عن البدائل

وفي مطلع السبعينات لم يكن حجم الدولارات الامريكية التي تقوم بدور النقود العالمية يزيد على ١٠٠ مليار دولار . اما الآن فقد تجاوز هذا المبلغ الى ١٠٠٠ مليار دولار . فكيف يمكن ان نفسر استمرار الدولار باداء وظائفه كنقد عالمي رغم العجز الضخم في الميزان التجاري الامريكي والذي تزيد قيمة المستوردات النفطية فيه على ٦٠ مليار دولار سنويا ، بينما كان الدولار يفقد القدرة على اداء هذه الوظائف في مطلع السبعينات ولم يكن هذا العجز الضخم قد برز بعد ؟

لقد كان لتزايد الحاجة العالمية الى وسائل دفع دولية بسبب التوسع الكبير في المبادلات الاقتصادية بين مختلف الدول ، وبشكل خاص بسبب الارتفاع الكبير في قيمة المبادلات النفطية الفضل الاكبر في امتصاص الفوائض الدولارية من الاسواق العالمية بزيادة الطلب على الدولار لانعدام اي بديل عالمي آخر اكثر قبولا وتوفرا .لقد ساعد هذا الوضع الولايات المتحدة على الاستفادة من اصدار الدولارات وتلبية الطلب العالمي عليها بعد الحصول مقابلها على المنتجات والخدمات التي تقدمها الدول الاخرى والتي تحتاجها الولايات المتحدة في الداخل والخارج . وهذا يعني ببساطة ان الولايات المتحدة تدفع بالورق النقدي الاخضر ثمن الذهب الاسود وغيره من ثروات الشعوب الفقيرة . فتسجل على نفسها كل يوم زيادة كبيرة في مديونيتها تجاه العالم . واذا كان الميزان التجاري الامريكي نفسه

عاجزا تجاه العالم الخارجي فمن اين للولايات المتحدة ان تسدد مديونيتها الخارجية الهائلة هذه ؟

ان الوسيلة الهامة التي تتبعها الولايات المتحدة اليوم في تسوية التزاماتها تجاه حاملي الدولار هو تعريض ثروتهم الدولارية للتآكل والضياع بصورة تدريجية تختفي وراء التزايد الاسمي الكبير في هذه الثروة .

ولكن الانخفاض المستمر للدولار لا يمكن ان يخدم لوحده هذا الغرض لانه يصرف الاخرين عن التعامل به كليا ويحرم الولايات المتحدة من امكانية الاستمرار في استغلاله كوسيلة للحصول على حاجاتها من الخارج دون تكلفه آنية حقيقية . لذلك فان الولايات المتحدة تلجأ الى توزيع الادوار بين الدولار ، كمستودع للقيمة ،وبين بدائله الاخرى ، وبالاخص الذهب والاوراق المالية الامريكية ، بالاضافة الى العملات القوية الاخرى .

اما متى ، وكيف ولماذا ؟ فهذه هي اسرار اللعبة التي تدار الكترونيا من وراء الستار ، ويجب ان تبقى خفية على المشاركين فيها بدور سلبي حتى يمكن ان تستمر وتستمر معها امريكا المعجزة سيدة العالم !

لكن اللعبة انكشفت ولم يعد احد يقبل باقل من المشاركة الكاملة على اساس المصلحة المشتركة لجميع الشعوب . فالدولار ، مهما ارتفعت اسعاره بوسائل مصطنعه ، من نوع رفع اسعار الفائدة لتخفيض بدائله الاخرى مؤقتا ، لم يعد الا ورقا يفتقر الى الضمانة الكافية ولم تعد شعوب العالم تقبل بهدر ثروات وهبها الله لها وثروات تنتجها بعرقها ، محدودة بطبيعتها ، بطوفان لاحد له من الورق الاخضر الذي لا يمكن ان ينبت قمحا ولا يصنع دواء .

لقد اثبتت الوقائع التاريخية انه لا ضمانة لمال او ثروة الا في بلادها . وحتى المرابي والمصرف يضع جميع الشروط على المقترض ضمانا لاستعادة الاموال المقرضة له . والعلاقات بين الدول ليست في منحى من مخاطر العلاقات بين الافراد . فتجميد الاموال المصرية في بريطانيا عام ١٩٥٦ والاموال الايرانية في الولايات المتحدة ، بل وخارج ارض الولايات المتحدة ، عام ١٩٨٠ اكبر شاهد على ذلك .

اما تنويع اشكال الاستثمار فانه لا يحمل في ذاته اي ضمانة حقيقية . فجميع العملات الرأسمالية الكبرى تتعرض لانخفاض مستمر في قيمتها الحقيقية بسبب التضخم النقدي المتصاعد .

اما الاستثمار في اوراق مالية فيتركز ، كما تشير بعض المعطيات المنشورة ، في النشاطات التي تواجه المصاعب . ففي الولايات المتحدة لا تتجاوز نسبة المساهمات العربية في فروع الصناعة التي يشارك فيها راس المال العربي نسبة ١ ـ ٥٪ غالبا من راس المال . وليس من قبيل الصدفة ان اسعار السوق لاسهم الصناعات التي يشارك فيها راس المال العربي هي في معظم الحالات اقل بـ ١٠ـ ٣٠٪ من قيمتها الحقيقية المدفوعة ، وان الباب مغلق امام المساهمة العربية في النشاطات الاقتصادية المربحة والمستقبلية .

اما بالنسبة للذهب فان العرب مهما بلغت كمية مخزوناتهم منه لا يمكن ان يصلوا الى قدر ملموس من السيطرة على اسواقه ، وبالاخص وانهم بعيدون جدا عن مصادر انتاجه . وتجربة السبعينات تبرهن على انه اقوى اوراق اللعبة في يد الدول القوية لاستنزاف الاموال الفائضة من ايدي الضعفاء .

ان القوانين الاقتصادية تبرهن على ان اي ظاهرة اقتصادية شاذة انما تحمل في ذاتها تناقضاتها وعوامل اندثارها . ولهذا نرى ان الدول الرأسمالية القوية تخشى الفوائض في موازين مدفوعاتها مثلما تخشى العجز ، وتحسب لمنع ظهور هذا كما تحسب لمنع ظهور ذاك . فلكل منهما مخاطره وسلبياته . ومنذ اكثر من ثلاثة قرون سقط الفكر المركانتيلي الذي كان يعتقد ان الثروة تتجسد في المال وان المال هو السيد المطلق الذي يعكس القوة والقدرة على الفعل . غيرها كما اثبتت التجارب التي طبقت المركانتيلية وتمسكت بها اكثر من غيرها ، ان المال بحد ذاته يعتبر اسوأ اشكال الثروة . بينما اثبتت الدول الاخرى التي ذهبت الى تطوير الصناعة والزراعة وتنمية المجتمع وتحسين ادارته واستثمار الموارد بان الانسان المتطور ، والمجتمع المتقدم ، هو اصل كل ثروة ، ومصدر الثراء الدائم .

لذلك كله ، ليس امام الفوائض المالية العربية الا الأرض والانسان العربي ، والمجتمع العربي ، مكانا امثل للاستثمار ، وضمانة للمستقبل .

وهل يعجز العرب عن ايجاد نقد خاص بهم يعبر عن ثروتهم ويرتبط بها ، يحفظ قيمتها ويرفع مكانة اهلها ؟ فالدولار عاجلا أم آجلا ، سيعود نقدا وطنيا مباركا بين اهله ، والعالم ، آجلا ام عاجلا ، سيجد بدائل اخرى لا تأكل امة بواسطتها جهود غيرها من الامم . ■■

د . عارف دليلة .
المعهد العربي للتخطيط ـ الكويت

حتى عالم الهزيمة ، لا يخلو من قيم ايجابية !

تلك الحقيقة يؤكدها كاتب هذا المقال ، وهو لواء شرطة قضى في وظيفته ثلاثين عاما ، واستطاع ان يرى ويعايش الكثير مما لا يراه الناس ، وربما مما لايراه القانون ....

لنقرأ حيثيات مقولته !

مجرمون لكن شرفاء !

بقلم اللواء ابراهيم محمد الفحام

■ هارب من العدالة عالج سجانه ثم اصطحبه الى قسم الشرطة .

■ أحدهم قتل آخذا بثأر امرأة عجوز ... تطوعا ولوجه الله !

■ لا بد من الوفاء بالوعد والقتل من الظهر يشين القاتل !

التمرد على القوانين ، وان كان يشمل التنكر لبعض القيم والتقاليد السائدة ، والتنصل من التزاماتها وقيودها . الا ان ذلك كثيرا ما يستتبع ايجاد قيم وتقاليد اخرى بديلة لها ، دون ان تقل شدة التمسك بهذه البدائل عن مدى تمسك الغير بنظائرها من القيم والتقاليد العامة . ويحرص افراد الجماعات التي تعقد العزم على ارتكاب عمليات اجرامية مشتركة على ان يبروا برا اقسموا عليه من الاخلاص في اداء ما اتفقوا عليه ، وتكتم امرهم . كما يحرصون على البر بوعودهم مهما كلفهم ذلك من التضحيات ، وينظرون بعين الاحتقار للحانث منهم ، حتى ليظل يعاني من اهانات الاخرين وتعذيب ضميره طوال حياته .

نموذج للوفاء بالوعد

وساظل دائما اذكر مثلا فريدا من امثلة الوفاء بالوعد ضربه رجل من قبيلة « الجوابيص » التي تتعيش من الصيد والرعي في براري شمال الدلتا . وكان ذلك الرجل قد حكم عليه بالسجن مع الاشغال الشاقة نحو خمسة عشر عاما لادانته في جناية قتل . وظل مختفيا في أحراش تلك البراري حتى كشف شرطي مخبأه ، وقصده للقبض عليه ، فلما تم له ذلك ، واراد ان يتوجه به الى مركز الشرطة ، لدغت الشرطي حشرة مؤذية فتورمت ساقه وعجز عن الحركة ، ورأى المقبوض عليه ان يعتني بامره فصحبه الى بيته حيث داواه بشيء من العلاج البدوي حتى شفي بعد بضعة ايام ، نعم خلالها بحسن الضيافة والرعاية وصار قادرا على الحركة فاستأجرا المضيف سيارة صحبه فيها الى مركز الشرطة !

ولما قابلني بالمركز ، وعلمت من الشرطي قصته معه ، ناشدني ملحا ان اسمح له بالعودة الى اسرته لتلبية احتياجات بعض افرادها ، وكان قد سهى عليه ذلك لانشغاله برعاية الشرطي . وكنت قد تأثرت لتصرفه معه ، فاذنت له في التوجه الى اسرته ، على ان يعود لمركز الشرطة في موعد حددته له فانصرف شاكرا وكان تصرفي هذا يعرضني للمساءلة الادارية اذا اخلف وعده ، لان

الرجل يعتبر ـ وفقا للحكم الصادر عليه ـ من الخطرين على الامن العام ، وكان الشرطي قد اثبت القبض عليه واحضاره للمركز وتسليمه للمختصين به ، في الدفتر الخاص بذلك .

ولسوء الحظ لم تمض ساعات قليلة على انصرافه ، حتى قامت عاصفة عاتية ، وانهمرت امطار غزيرة كأنها تنصب من افواه القرب ، وفي مثل هذه الاحوال ، تتعطل وسائل الانتقال تماما بين انحاء تلك المنطقة من البراري وعانيت قلقا شديدا كان يتضاعف كلما اقترب الموعد المحدد لعودته . حتى حضر اخيرا في موعده ، وعلمت انه استأجر سيارة كذلك ، نظير اجر مضاعف ولكنه اصيب ـ بسبب تلك الاحوال الجوية القاسية بالتهاب رئوي تطلب الكشف عليه من الطبيب المختص ، وايداعه بالمستشفى تحت الحراسة . ولكنه لم يبق فيه طويلا ، اذ ادركته رحمة الله فتوفي قبل ان يرسل الى السجن لتنفيذ الحكم الصادر عليه ـ وكان الشرطي الذي قبض عليه قد استأذن في ملازمته بالمستشفى فسمح له بذلك ، وظل يعنى به ـ وفاء لدينه السابق حتى لقي الرجل ربه .

واشد القيم والتقاليد رسوخا والزاما تلك التي تحكم جرائم الثأر التي تنتشر اكثر ما تنتشر في محافظات الصعيد ، والتي يرفض مرتكبوها الاعتراف بطابعها الاجرامي ، ويصرون على اعتبارها واجبا اخلاقيا وعملا شريفا ، جديرا بالفخر والتكريم . وكثيرا ما يؤيد الرأي العام ذلك المعنى ويباركه ، ولذلك يتفانى الكثيرون في تقديم كل معونة ممكنة لمرتكبي هذه الجرائم ، وتيسير ارتكابهم لها ، ثم التستر عليهم واستضافتهم عندما يتعرضون للمطاردة الشرطية بعد ذلك ، ويعتبرون انفسهم شركاء في الفخر بما جنت ايديهم .

قتل لوجه الله !

ومن المأثورات الشائعة ان امرأة عجوزا قتل ابنها ، ثم توفي فجأة ابنها الاخر الذي كان يأمل ان يمتد به العمر حتى يثأر له . ولم يكن لهذين الاخوين اخوة او اقارب آخرون ، فسعت امهم الى التفاهم مع احد الاشقياء الذين يستأجرون للقتل ، لارواء غليلها حتى يهجع ولداها هانئين في قبريهما . ولما علم الشقي الذي سعت الى استئجاره بظروفها هذه وافق على ان ينفذ رغبتها بدون مقابل .

غير انه قبض عليه لسوء حظه بعد ان اوفى التزامه . وكانت الادلة قوية قبله ، ولكن المحققين تحيروا عندما عجزوا عن كشف الباعث الى ارتكابه تلك الجريمة ، اذ لم يتبين وجود اية صلة بينه وبين القتيل . وعندما سئل عن ذلك اجاب بكل فخر انه فعل ما فعل (لوجه الله تعالى) .

فقد كان ذلك المسكين يعتقد انه بتحقيقه رغبة الام الثكلى العجوز ، قد اتى عملا كريما يثاب عليه . وعندما اودع السجن ثابر على العبادة وعمد الى الاستزادة من العلم باحكام الدين عن طريق واعظ السجن ، وصار بعد الافراج عنه ـ مثلا لغيره في الوداعة والاستقامة ، وحظي باعجاب ابناء قريته وتكريمهم حتى اطلقوا عليه الشيخ « فلان » !

من تقاليد عالم الثأر

ومن القيم والتقاليد التي يحرص عليها طلاب الثأر ، الا ينال بطشهم امرأة ولا صبيا صغيرا ، ويعد ذلك من اسباب الفتور في الاستجابة للدعوة الى تحديد النسل اذ يؤدي الابناء في امان تام كثيرا من الاعمال الزراعية والتجارية نيابة عن آبائهم المطالبين بالدم ، الذين يضطرون للاختفاء مددا طويلة عن عيون مطارديهم .

وتقضي هذه القيم والتقاليد في بعض المناطق ألا يقتل صاحب الثأر غريمه غيلة . فاذا اطلق عليه رصاص بندقيته فأصابه في ظهره ، عيب عليه ذلك ، واصبح اقل استحقاقا للاعجاب والاطراء وخبت حرارة تهنئته على نجاحه في نيل ثأره .

والاسلوب الثاني لنيل الثأر ان ينبه صاحب الثأر خصمه ـ اذا صادفه في مكان منعزل ـ الى ما عقد العزم عليه ليمنحه فرصة الدفاع عن نفسه او الفرار فيصيح به :

ـ يا فلان .. اني قاصدك في ثأر فلان .

ولا يفعل ذلك عادة الا قوي الثقة في نفسه ، والذي يوقن ـ او يريد ان يوحي الى خصمه بانه اكفأ منه في سرعة استخدام السلاح واصابة الهدف ، وانه قادر على اللحاق به مهما افلح في الفرار وبالغ في الحذر والاختفاء .



ويقال ان المقصود من تحذير صاحب الثأر لخصمه ، هو التباهي عليه بهذه الكفاءة ، والتمتع بمرآه عندما يتملكه الخوف ، والتشفي فيه عندما يعمد الى الفرار وهو من اشد مظاهر المذلة والهوان .

وكثيرا ما يصر الخصم على الصمود ، ويلقى مصيره بشجاعة وثبات ، حتى يفوت على الراغب في قتله ما يثلج صدره ، عندما يراه خائفا ، يستغيث بالناس او يولي هاربا .

وقد حدث في احدى مدن الصعيد ، ان لقي صاحب ثأر غريمه في طريق عام ، مزدحمة بالمارة والباعة ، فكشف له عن شخصه وعن نيته ، وكان الرجل يستطيع ان يستغيث او يطلق ساقيه للريح ، فيختفي بين المئات من الناس ، ولكنه آثر الموت على ان يجعل نفسه موضعا للشماتة او السخرية ، وذلك لان توفر ذلك العدد الكبير من الناس الذين يستطيعون نجدته كان يعني - في الوقت ذاته - توفر ذلك العدد من الشهود الذين يمكن ان ينشروا نبأ الذعر الذي انتابه وفضيحة هربه .

فما كان منه الا ان طلب من صاحب الثأر ان يعجل بتنفيذ مشيئته ، وعندما سقط صريعا برصاص مسدسه فوجيء الناس الذين تجمعوا برؤية القاتل وهو ينحني فوق جثة قتيله يقبل وجنتيه ويبلل وجهه بدموعه ، ويعلن اعجابه بشجاعته ، لتفضيله الموت على عار الاستغاثة او الفرار .

وكان ذلك من اعجب الاحداث التي ظل يرويها الناس زمنا طويلا .

من الجدير بالقتل ؟

وتقضي التقاليد بان ينحصر الثأر في اقارب القاتل - من نفس بدنته - حتى الدرجة الخامسة ولمن يتجاوز هذا النطاق من اقاربه ان يأمن على نفسه .

اما الحق في المطالبة بالثأر فيتدرج وفقا لدرجة القرابة من القتيل ، والاخ الشقيق احق من سائر الاخوة بالثأر له ، ومع ذلك فقد يتنافس اولئك الاقارب على الظفر بذلك الحق متعللين بحجج مختلفة ، وقد يحتدم خلافهم حتى يكادوا يتقاتلون فيما بينهم . ويستعان في البت في مثل هذا الخلاف برجال من كبار السن يدعون (مشايخ العرب) ، وهم من شيوخ البدو قريبي العهد بالتحضر وتحظى احكامهم باحترام كامل من الرأى العام .

ومن العجيب ان بعض الغرباء قد يشتركون في تلك المنافسات ويعتبرون انفسهم احق بالثأر للقتيل من اقاربه ، وخاصة اذا كان قتله بسبب مجاملته لهم او دفاعه عنهم .

ومن امثلة ما يروى عن ذلك ان ريفيا من احدى قرى محافظة اسيوط اعتزل مجتمعات الناس زمنا طويلا لمطالبته بدم من عائلة قوية طاغية ، حتى ايأس خصومه من الظفر به ، وذات يوم علم بوفاة رجل من الاعيان ، كان يتمتع باحترام الجميع في تلك المنطقة لكرمه ومروءته ، وخرج مئات الناس من ابناء القرى المجاورة لاداء واجب العزاء فيه فابى ان يتخلف عن المشاركة في اداء ذلك الواجب ، وغادر منزله ، الذي لم يعتد ان يبرحه ليلا على مدى سنوات طويلة ، وسلك طريقا ملتويا الى قرية المتوفى وعندما دلف الى السرادق الكبير المقام عند مدخل القرية لاستقبال المعزين ، وشهده الحاضرون ، دهشوا لمجازفته بالحضور في ذلك الوقت المتأخر من الليل ، على شدة حذره .. وشعر اهل المتوفى بمدى التضحية التي تنطوي عليها تلك المجاملة .. لقد كانت مجاملة تفوق التقدير لانها ترفع من شأنهم في المنطقة وتدعم مكانتهم في النفوس ... فها هو ذا رجل يعرض حياته ـ التي وفق في الحفاظ عليها زمنا طويلا ـ للخطر ، باصراره على الحضور في ذلك الوقت لتعزيتهم في مصابهم ، فنهضوا للترحيب به ، والتعبير له عن شكرهم ، وتقديرهم لمجاملته التي وعدوه بان تظل دينا في اعناقهم مدى الحياة .

وظلت عيون الحاضرين تتفرس الرجل في عجب واعجاب حتى عزم على الانصراف ، وسلك في عودته الى منزله طريقا آخر ملتويا غير الذي اتى منه ، حتى استطاع ان يصل سالما الى باب منزله ، ولكن قبل ان يفتح له الباب انطلق الرصاص عليه من حيث تربص به خصومه فسقط قتيلا ، وخرج ابناؤه الذين تلقوا نبأ الفجيعة فيه بصبر وهدوء ، ونقلوا جثته الى الداخل وذاع الخبر في جميع القرى المجاورة .

شيخ العرب حسم القضية

وفي الليلة التالية اجتمع اقاربه في بيته يتحدثون في الثأر ، واذا بباب البيت يقرع ، ويقبل عليهم وفد من ابناء الرجل الذي كان والدهم قد ذهب للتعزية فيه . فقابلهم الحاضرون بوجوم وفتور ، فقد ظنوا انهم قدموا للتعزية في قتيلهم ، وفي ذلك امتهان لمشاعرهم . اذ تقضي التقاليد الا يتلقى اهل القتيل العزاء فيه الا بعد ان يثأروا له ، ولو بعد سنوات . فعندما يسقط القاتل صريعا ترتفع اصوات الزغاريد وصيحات الفرح من بيت صاحب الثأر ، ثم ترتفع اصوات العويل على قتيلهم السابق ، وعندئذ فقط يبدؤون تلقي العزاء في قتيلهم مقترنا بالتهنئة على الثأر له .

اما التعجل بتقديم العزاء لاهل القتيل ، فيعتبر اهانة شديدة لهم ، اذ ينطوي على الاعتقاد بانهم لايثورون للثأر لقتيلهم ، للتقاعس او العجز .

وكان ذلك هو السر في المقابلة الفاترة التي تلقى بها اقارب القتيل زائريهم ، ولكنهم ادركوا ذلك السر فشرعوا في شرح سبب مجيئهم .. لقد جاءوا ليوضحوا لاهل القتيل انهم ـ دون غيرهم ـ اصحاب الحق في الثأر له . لانه لولا انه جازف بالخروج من بيته لتعزيتهم ـ برغم ما يعلم من تربص خصومه وسهولة قتله اثناء ذهابه او عودته ـ لما لقي مصرعه . ورفض اهل القتيل ذلك المنطق الذي يعرضهم ـ لو قبلوه ـ للسخرية والاحتقار .

وتطور النقاش بينهم حتى غلت الدماء وارتفعت الاصوات ، وكادت تقع بين الجانبين معركة دامية حيث تمسك كلاهما بحقه في الثأر للقتيل حفظا لكرامته امام الناس حتى رئي الاستعانة بأحد مشايخ العرب ، الذين يحتكم اليهم في مثل هذه الامور .

وكان الذي حكم به ذلك الشيخ ان الثأر في هذه الحالة من حق ابناء المتوفى الذي خرج القتيل لتعزيتهم ، فهو في حماهم ، حتى يعود الى بيته سالما . ولما كان قتله قد حدث عند باب بيته ، وقبل ان يدخله فهو يعتبر قتيلهم ، وان قتله يعد اعتداء عليهم ، وتحديا لهم وان تخليهم عن ذلك الحق او انتزاعه منهم ينطوي على اهانة شديدة لهم لا تمحوها الا الدماء الغالية .

ولم يملك اقارب القتيل الا الاذعان لذلك الحكم على ان يتولى ذلك الشيخ اذاعته بنفسه ، تبرئة لكرامتهم امام الرأي العام ، وحتى لا يعتقد احد انهم تقاعسوا عن اداء واجبهم .

وكان ذلك من اعجب الاحداث التي قضي فيها بان يكون حق المطالبة بالثأر لغير اهل القتيل . ■■

القاهرة ـ لواء ابراهيم محمد الفحام

آخر ما كان يخطر على البال ان يكون نوى المشمش الذى كنا نجففه في طفولتنا لنلعب به او نثقبه من محتواه لنصنع منه صفارات نلهو بها ، هذا النوى قد يصبح مصدرا لدواء يعالج السرطان . وتلك المادة البيضاء التي بداخل النواة هي الدواء الذى يلهث وراءه مرضى السرطان هذه الايام في الولايات المتحدة الامريكية ، املا في تخفيف آلامهم وشفائهم ، وهي المادة المتوفرة في نواة الخوخ ايضا ، الذى ينتمي الى ذات العائلة النباتية التي تضم المشمش .

وهم أم حقيقة :

نوى المشمش دواء للسرطان !

بقلم الدكتور السيد عمار

ومن غرائب الابحاث العلمية في هذا الصدد ان تتسع الدائرة حتى يكاد اكل اللوز يعتبر علاجا للسرطان . ويعد اللوز المر اقوى من اللوز الحلو لاحتوائه على المادة المرة الطعم التي تعتبر دواء لعلاج السرطان المرض الخبيث ، وتثير جدلا حول فاعليتها في الاوساط العلمية والتي اصبح لها مؤيدون ومعارضون .

ولقد استحوذ هذا الموضوع على اهتمام الرأى العام الامريكي ، وتكونت جماعات تعمل على اباحة علاج السرطان بنوى المشمش وباللوز المر او بالمادة النقية الفعالة التي تحتويها هذه البذور .

وقصة استعمال نوى المشمش واللوز المر كدواء قصة ذات جذور عميقة ، ففي الطب الشعبي ورد ما يفيد ان لب نواة المشمش واللوز المر قد استعمل في علاج بعض الاورام والبواسير والالتهابات منذ قرون عديدة . ويرجع الطعم المر في نوى المشمش او اللوز المر الى وجود مادة تعرف باسم اميجدالين (Amygdalin) ويطلق عليها ايضا اسم فيتامين ب ١٧ وهي مادة جلوكوزيدية اى تحتوى على الجلوكوز بجانب مادتين اخريين هما البنزالدهايد (Benzaldehyde) ومادة السيانيد (Cyanide) المعروفة بانها مادة سامة جدا .

ويحضر الاميجدالين من نوى المشمش والخوخ ومن اللوز المر بازالة المواد الدهنية اولا ثم استخلاص الاميجدالين بالكحول . والاميجدالين سهل الذوبان في الماء ويتحلل الى مكوناته بواسطة الانزيمات او الاحماض . وقد امكن تحضيره كيميائيا في عام ١٩٢٣

والاميجدالين الذي يحضر من نوع المشمش او من اللوز المر يستعمل كدواء لعلاج السرطان تحت اسم لايتريل (Laetrile) ، الذي بدأ أستعماله في علاج العديد من السرطانات في الخمسينات ويقال ان نوى المشمش واللوز المر قد استعمل في علاج حالات مشابهة للسرطان الحالي منذ حوالي قرن ونصف قرن . وعلى الرغم من ذلك لم يحظ هذا الدواء بالبحث والدراسة سوى في السنين الاخيرة ، ابعد ما يقرب من عشرين عاما من استعمال اللايتريل في علاج السرطان بصفة غير رسمية .

في ٣٠ دولة بالعالم

وقد اشتد اقبال مرضى السرطان على العلاج باللايتريل وهم يؤكدون انه علاج ناجع قد شفي الكثير منهم ، وأضعف من آلامهم ومن حدة انتشار السرطان في اجسادهم حتى اصبح اللايتريل يستعمل حاليا في علاج السرطان في ثلاثين دولة من دول العالم .

وبالرغم من ذلك فان استعماله في امريكا غير مصرح به رسميا على مستوى الولايات المتحدة كلها . وتحت تأثير الرأى العام ومطالبة المرضى باباحة استعماله ، بدأت بعض ولايات امريكا في التصريح باستعماله . ويلغ عدد الولايات التي تسمح بعلاج السرطان بخلاصة نوى المشمش او اللوز المر او بدواء اللايتريل ٢٣ ولاية . وبسبب ان االدواء غير معترف من جانب الحكومة فان المرضى يحصلون عليه من خارج الولايات المتحدة او من بعض المعامل التي تحضره على شكل حقن واقراص رغم انه غير مقبول رسميا كدواء . وقد يكون ذلك غريبا او متناقضا ولكنها الحقيقة الواقعة نظرا للجوانب القانونية لسلطة الولايات والاطباء في علاج المرضى تحت مسئوليتهم الخاصة .

والمكسيك من اشهر البلاد التي تعالج السرطان بخلاصة نوى المشمش والخوخ واللوز المر او ما يعرف بدواء اللايتريل حيث توجد هناك مستشفيات متخصصة في العلاج بهذا الدواء الذي يثير الجدل وباتباع نظام معين في الغذاء والعلاج بالفيتامينات .

ويعبر حدود امريكا يوميا مئات المرضى الى المكسيك للعلاج باللايتريل . ومن اشهر هؤلاء المرضى الممثل الامريكي ستيف ماكوين ، الذي اصيب بنوع نادر من سرطان الرئة ، وفي ايامه الاخيرة ذهب الى المكسيك لالتماس العلاج بالدواء الجديد ولكن القدر وافاه هناك .

ومع هذا فان مرضى السرطان الذين عولجوا بدواء اللايتريل في المكسيك يؤكدون انهم تحسنوا تحسنا شديدا ، ويؤكد العديد منهم انهم شفوا تماما من انواع عديدة من السرطانات .

ونظام العلاج باللايتريل يتضمن الحقن بهذا الدواء في الوريد لمدة واحد وعشرين يوما ثم يؤخذ عن طريق الفم على شكل اقراص كل منها يحتوى على نصف جرام ثلاث مرات يوميا . وذلك بالاضافة الى اتباع نظام غذائي معين على الوجه التالي : فيتامين ا ، ٢٥ الف وحدة يوميا ، فيتامين ج ، جرامان يوميا ، فيتامين هـ ، ٤٠٠ وحدة يوميا ، فيتامين ب المركب مع المعادن ومادة البنكرياتين المهضمة . واما الغذاء فيتطلب عدم تناول البيض ومنتجات الالبان والدهون والشاى والقهوة والكولا والسكريات ، ويتناول المرضى غذاءهم من الفواكه والخضروات والخبز الاسود والبندق والبلح والزبيب والقليل من اللحم .

ويعد استعمال اللايتريل في علاج السرطان دون سابق اجراء التجارب اللازمة على الحيوانات ، مثالا نادرا للادوية التي تستعمل في العصر الحديث دون مرورها بالمراحل المختلفة التي تؤكد فاعلية الدواء واضراره .

تجربة لم تنجح

وقد يكون من الغرابة بمكان ان ينتبه الى ذلك البحاث ، وان تجرى اول الابحاث في امريكا على الحيوانات في عام ١٩٧٥ حيث اجريت دراستان على الفئران التي نقلت اليها بعض انواع السرطان المختلفة . وعولجت الفئران بدواء اللايتريل ولم يتضح من هذه الدراسة ان اللايتريل له خاصية معالجة السرطان ، حيث انه لم يطل في عمرها او يقلل من انتشار السرطان بها . واكدت هذه الابحاث ان خلاصة المشمش او اللوز المر تتحول في الجسم الى مادة السيانيد والتي يعزى اليها المفعول ضد السرطان في الانسان . حيث يقترح ان مادة السيانيد توقف عملية التنفس في الخلايا السرطانية وبذلك تقتلها .

وبالرغم من هذه النتائج غير المشجعة في الفئران ، فان ذلك لم يوقف الضغط الهائل لمطالبة المرضى واهاليهم باتخاذ قرار باباحة استعمال هذا الدواء رسميا في امريكا .

وفي عام ١٩٧٨ اتضح ان اكثر من سبعين الف مريض امريكي بالسرطان قد عولجوا بالدواء المعروف

بلايتريل الشارع ، حيث انه يحصل عليه من الشارع وليس من الصيدليات ، وقرر المعهد القومي للسرطان اجراء دراسات باثر رجعي على المرضى الذين عولجوا بهذا الدواء الجديد ، وارسل في طلب البيانات من ٣٨٥ الف طبيب و ٧٠ الفا من اعضاء المهن الصحية الاخرى عن المرضى الذين عولجوا بدواء اللايتريل . وبالرغم من ان سبعين الفا من المرضى قد عولجوا بهذا الدواء الا انه لم يمكن الرجوع الا الى ٦٧ حالة اعتمدت على الدواء وحده ، بينما عولجت حالات اخرى بهذا الدواء وبالعلاج لكيماوى المستعمل حاليا في علاج السرطان . وعرضت هذه التقارير على لجنة من اثنى عشر اخصائيا للسرطان من امريكا حيث تدارسوا الحالات دون اعلامهم بنوع الدواء المستعمل في كل حالة ، واقرت اللجنة بان ستة فقط من المرضى الذين عولجوا بخلاصة نوى المشمش قد استجابوا للعلاج .

وزاد الرأى العام من ضغطه على الجهات الحكومية لاقرار للايتريل كدواء رسمي يسمح باستعماله في كل الولايات ، ويمكن الحصول عليه في كل المستشفيات ومن الصيدليات .

وفي يوليو عام ١٩٧٩ قرر المعهد القومي للسرطان تبنى دراسة خاصة تحت اشرافه في ثلاثة مستشفيات فقط بامريكا حيث عولج ١٥٦ مريضا في حالات ميئوس منها بدواء اللايتريل ، وبعد ثمانية اشهر فقط اعلن المعهد القومي للسرطان ان ١٠٢ مريض قد توفوا ، وان هذه النتيجة لا تختلف عن النسبة التي تحدث بين المرضى اذا لم يتلقوا اى علاج .

وبمعنى آخر فان الدراسة قد اقرت عدم فاعلية اللايتريل في علاج السرطان ، وعلى الفور قامت جمعية حرية الاختيار في العلاج لمرضى السرطان برفع قضية ضد المعهد القومي للسرطان . وتطالب هذه الجمعية باحقية مرضى السرطان في اختيار الدواء الذى يعالجون به سواء سمحت بذلك الحكومة ام لا .

من المتهم بالشعوذة ؟

وقد نقضت هذه الجمعية القرارات التي اعلنت في اجتماع جمعية اطباء السرطان الامريكية محتجة ان دواء اللايتريل الذى استعمل في هذه الدراسة دواء يحضر صناعيا وقد استورد من المانيا الغربية وقام معهد السرطان القومي بتنقيته . وان هذا الدواء يختلف عن المادة الفعالة الطبيعية الموجودة في نوى المشمش والجوز واللوز والتي يستعملها المرضى بانفسهم دون اللجوء والعلاج بالفيتامينات .

وفي الاجتماع الذى اعلن فيه الاطباء عدم فاعلية اللايتريل في علاج السرطان وقفت سيدة عجوز تحتج على ذلك وتقول ان هذا يتعارض مع تجربة آلاف المرضى الذين شفيوا بهذا الدواء ، فلماذا لا تقرونه بناء على تجربتهم وعلى تجربة السابقين . ورد رئيس جمعية السرطان على السيدة قائلا بان هناك اقوال على ان دهانات التمساح تعالج الكثير من الامراض ولكن ليس هناك دليل علمي على ذلك .

وبالرغم من ان هناك من يصف العلاج بنوى المشمش واللوز المر بانه شعوذة ودجل ، الا ان هناك من يقول ان علاج السرطان التقليدي هو الشعوذة والدجل والاستيلاء على اموال المرضى . فالعلاج التقليدى بالادوية الاخرى مؤلم وباهظ التكاليف ، كما ان العلاج الجراحي والعلاج بالاشعة اكثر ايلاما وتكاليف ، وان التصريح باستعمال دواء اللايتريل في علاج السرطان سيوقف العلاج بالطرق الاخرى وسوف يؤدى ذلك الى خسائر مادية باهظة للمؤسسات التي تعالج السرطان حاليا .

يقول بعض الناس أن منع دواء اللايتريل عن مرضى السرطان هو جريمة قتل لأنه قد يؤدى الى موت مريض اذا لم يستعمله . وقد يؤدى الى شفاء هذا المريض اذا عولج به ، بل يتعدى البعض ذلك الى القول بان دواء اللايتريل لم يثبت انه يقتل المريض حتى لو كان غير مفيد ، بينما تقتل الادوية الاخرى مرضى السرطان كما تقتلهم العمليات الجراحية والعلاج بالاشعة .

وكل يوم يزداد عدد مرضى السرطان الذين يلتمسون العلاج بدواء اللايتريل بانفسهم . واما المرضى الذين لا يمكنهم الحصول على الدواء فانهم يكسرون نواة المشمش او الخوخ ويأكلون ما بداخلها او يأكلون اللوز المر مع الفيتامينات واتباع النظام الغذائي المذكور سابقا .

وهذه العلاج سهل وبسيط وغير مكلف ويمكن اتباعه في اى مكان دون دخول المستشفيات او التردد على العيادات .

هل يمكن القول بان المعجزة قد حدثت فعلا ، وانه رغم انفاق الملايين على تخليق ادوية لعلاج السرطان لم يثبت ان اى واحد منها قد اصبح دواء حاسما ، وان هذا الدواء موجود داخل نواة المشمش ؟

ان استمرار الدراسات والبحوث هو الكفيل بالاجابة على السؤال . ■■

اوهيو د . السيد عمار

الانتماء للإسلام
ليس ختماً ولا علامة مسجلة

بقلم : فهمي هويدي

لابد ان يكون هناك فرق في التعامل فيما بين الفكرة والسلعة !

ليس فقط لان الفكرة موقف والسلعة شيء ، ولا لان الفكرة تخاطب العقل بينما السلعة تشبع الرغبة والهوى ، ولكن لان الفكرة ذات مضمون ولا يمكن ان يكتفي في قبوله باللافتة والشعار ، في حين ان السلعة قد يكتفي فيها بالعلامة المسجلة وبالصيت والشهرة .

لكن البعض منا يريد ان يتعامل مع الفكرة باعتبارها « شيئا » محسوسا لابد من لمسه باليد والعين ، بل ان منا من قلب الحال وصار يكتفي في الفكرة بالعلامة المسجلة والشهرة بينما بات يدقق في السلعة ، خصوصا بعدما قفزت الاسعار وصار الدفع باهظا ومكلفا .

اقول ذلك بمناسبة اصرار الكثيرين على وضع ختم الاسلام ولافتته على كل شيء ، معتبرين ان ما هو اسلامي ينبغي ان يحمل اللافتة والعلامة المسجلة ، وما دون ذلك فليس اسلاميا ، وربما ضد الاسلام !

وذلك بالضبط هو منطق التعامل مع السلعة ، وهو ذاته الذي يتعارض مع الفهم الاسلامي الصحيح ، دعك من انه مدخل سهل لاستغلال المسلمين والضحك على ذقونهم باسم الاسلام ، خصوصا في زماننا هذا الذي يشهد رواجا للافتة وتشوقا حقيقيا لكل ما هو اسلامي .

كنت في زيارة لبلد آسيوي مسلم ، وشهدت هناك صورا عديدة للظلم والقهر والاستغلال والانبطاح في مواجهة الهيمنة الامريكية ، بينما الناس في حالة سكون واستسلام غير طبيعية ، وسألت بعض مثقفي ذلك البلد ، هل الناس راضون عن تلك الاوضاع ؟ فكان الرد : انهم قانعون ويحمدون الله ، وبعضهم متحمس للغاية وسعيد ... أتدري لماذا ـ ثم أجابوا :
لان النظام لبس العمامة !

اثار فضولي الرد ، فالححت في الايضاح فقالوا ان سياسة الدولة الجديدة اعلنت على الناس في اخراج لاينقصه الذكاء ، انه قد حان اوان تطبيق الشريعة الاسلامية ، وان كل شيء من الان فصاعدا لابد وان يحمل سمة شريعة الله ، فالزكاة لابد ان تجمع ، والقوانين لابد ان تراجع ، والحدود لابد ان تطبق ، وبرامج الاذاعة والتليفزيون لابد ان تكون معبرة عن هذا التوجه الجديد بالاكثار من تلاوة القرآن والمواعظ والمدائح النبوية ، وانجازات النظام الجديد !

واضافوا ان ملايين المسلمين الطيبين هللوا لتلك القرارات ، وفي غمرة حماسهم وفرحتهم سحب النظام منهم اعز ما يملك ويحمي بلدا العدل والحرية ومع ذلك ظل الناس بقسمتهم راضين !

من ناحية اخرى ، روى لي احد الناشرين العرب انهم باتو يواجهون مشكلة في توزيع الكثير من الكتب رغم قيمتها الجيدة ، بسبب بسيط هو ان تلك الكتب لا تحمل على اغلفتها ختم الاسلام وتوقيعه ، وقال ان احد قادة الحركة الاسلامية في مصر اراد ان يسجل في كتاب تجربة نضال الشباب ضد الاحتلال البريطاني في الخمسينات ، وصدر الكتاب فعلا بعنوان يعبر عن هذا المضمون ، ولكنه لم يلق قبولا في التوزيع ، رغم انه من الكتابات النادرة التي تؤرخ لتلك الحقبة . عندئذ فطن الناشر الى الحل ، فنزع غلاف الكتاب ، واعاد طبعه باسم جديد فيه ختم الاسلام ، فنفد الكتاب خلال ثلاثة اسابيع !-

وفي حديث اذاعي سئلت : ما هو السبيل لان تقدم الاذاعة برامج اسلامية تجذب المستمعين ؟ فقلت ان البرامج حتى تكون اسلامية فليس واجبا ان تكون قراءة مباشرة للكتاب والسنة ، ولا ينبغي ان تكون مقصورة على الوعظ والارشاد ، بل اكاد اقول ان مثل هذا الفهم هو الذي يدفع الكثيرين الى الاعراض عن تلك البرامج ، فالمادة المقدمة تصبح اسلامية اذا عبرت عن قيم الاسلام ، او اذا لم تتناقض مع تعاليمه .. ثم قلت للمذيع قدم في هذه الحدود فنا او ثقافة او علما أو تسلية وضحكا ، وثق انك على الطريق الصحيح وانك تقدم برامج اسلامية ترضي الله وتجذب المستمعين .

عندئذ اعتبرها المذيع « فتوى » جديدة ، واكتشافا لابد من تسجيله !

ولا اريد ان استرسل في النماذج التي تعكس فهما قاصرا لما هو اسلامي ، انما اكتفي فقط بحكاية اخيرة عن ذلك المليونير اليوناني الذكي الذي التقط الاشارة في وقت مبكر ، فاعلن على المسلمين قبل سنوات انه خصص بواخر للسياحة الاسلامية . لم يضف اليها سوى مكانا مخصصا للصلاة ، وصورا على جدرانها للقدس والكعبة والمدينة المنورة ، واستغل المشروع لنقل افواج الحجاج ، فيما اعتبره سياحة اسلامية لقيت اقبالا لاحد له من الاف المسلمين الطيبين واضافت الى رصيد صاحبنا في اثينا عدة ملايين من الدولارات ! .. وهو ذاته المنطق الذي دفع المصانع الالمانية الى انتاج سجادة اسلامية ثبتت عليها بوصلة لتحديد القبلة ، بينما انتجت المصانع السويسرية « ساعة اسلامية » جديدة يصدر عنها اذان الصلاة في مواعيدها .. والبقية تأتي !

اننا اذا حاولنا فهم الظاهرة وتقصي جذورها ، فسوف نجد عديدا من الاسباب بعضها يتعلق بالمناخ العام والبعض الآخر يتعلق بفهم الكثيرين للاسلام .

فمن الاسباب المتعلقة بالمناخ العام :

اننا نعيش عصر السرعة والتركيز والاختصار . عصر « الساندويتش » الذي يخطفه المرء أثناء هرولته ، والكتاب الذي يمر عليه الواحد بطريقة « القراءة السريعة » التي ابتكرها الامريكان ، والاقراص التي تحمل الغذاء والدواء ، ولاتتطلب من المرء اكثر من ان يقذفها في حلقه ويبتلعها في لحظة ، لتؤتي مفعولها خلال ساعات ! ... وكما ظهرت ما يسمى بصحافة « السندويتش » التي تكتفي بالعنوان المثير والخبر في سطرين ، فلماذا لانتعاطى الفكرة بنفس الاسلوب ، في حبة او قرص واحد ، فيه الشفاء والكفاية .

ان هناك توجها عربيا افرزته عصور الضعف والانحطاط يعيش في الكلمة بديلا عن الفعل ويعتبر ان التعبير البليغ عن الموقف يغني عن تمثل هذا الموقف وتجسيده ، وهو ما عبر عنه استاذنا الدكتور زكي نجيب محمود بغلبه حضارة الكلمة على حضارة الأداء .

ـ ان العجز العربي الراهن ، وهو ابن شرعي لعصور الضعف التي خلت ، صار يستخدم لغة اللافتات والشعارات بصورة لم يسبق لها مثيل ، ان اردت ديمقراطية فقلها في نظم جذاب ، ثم انثرها في الشوارع والميادين ، وادخلها في الاغاني واحاديث الاذاعة ، وبذلك ينعم الجميع بالديمقراطية التي لن ينكرها الا الجاحدون . وان اردت نصرا فافعل نفس الشيء حتى اذا هزمت وانتكست ، بل انك اذا اردت تصنيعا او انجاز مشروعات زراعية ضخمة ،فاقم ما تشاء في دنيا اللافتات وعلى صفحات الصحف ونم وانت مستريح الضمير ، سعيدا بالرخاء الذي حل ، وعلى المكابرين من الخصوم والحاقدين ان يطالعوا الصحف ، ان ارادوا التثبت من « الحقيقة » الناصعة !!

ومن الاسباب الناشئة عن سوء فهم الكثيرين للاسلام :

ان هناك خطا فادحا في فهم المعنى المقصود بكلمة الدين ، متأثرا الى حد كبير ، بالمفهوم الغربي الذي لايتصور الدين لاكنيسة وصلاة وقسيسا ، وهو التصور الذي يحصر الدين والتدين في دائرة محددة، ثم يجسده في علامات بذاتها ، ملموسة ومرئية . وهي صيغة تختلف جذريا عن فكرة الاسلام ومنهجه ،بحيث يدخل الدين في نسيج حياة المسلم كلها ، وتغطي العبادة كل حركاته ونشاطاته ، بغير حاجة الى تجسيد الدين في شيء ، او تحويله الى علامات واماكن مقدسة .

ان من بين اصحاب المدارس العتيقة في الفكر الاسلامي من قال بان المعرفة هي علوم الدين وحده ، اي تلك التي تتفرع عن الكتاب والسنة ، وتدور في فلك الفقه واللغة والتفسير ، وذلك تراث تسرب الى ساحة الفكر الاسلامي كرد فعل لتغلغل تيارات الفلسفة اليونانية ، الامر الذي دعا البعض الى محاولة صد الموجة بوضع ذلك الحاجز الذي يغلق الباب امام ما تصوروه خطرا على فكرة المسلمين وعقائدهم ، في مرحلة كادت تستغرقهم فيها امور الجدل والفلسفة والسفسطة .

ان هناك مدرسة فكرية قائمة ولها انصارها تستريب في كل مالا يحمل ختم الاسلام ، فترفضه او تعاديه ، مستندة في ذلك الى تفسير خاص للنصوص ، التي منها قوله تعالى : اليوم اكملت لكم دينكم (المائدة ـ ٣) وقوله : ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء (النحل ـ ٨٩) وقوله : ما فرطنا في الكتاب من شيء (الانعام ـ ٣٨) . وهؤلاء لايميزون بين الغث والثمين الا بهذا المعيار ، الامر الذي يكرس اتجاه البحث عن العلامة المسجلة ، والاكتفاء بها في اغلب الاحيان .

هذه الظروف في مجموعها ، اسهمت بنصيب أو آخر في تشكيل هذا الموقف الذي يهتم بالاطار واللافتة ويتجه الى « تعليب » الدين كلها امكن ، بحيث ينتهي الى قوالب بذاتها ، مميزة العلامة ، سهلة المنال مضمونة المفعول .

هل يقبل منطق اللافتة في التعبير عن الهوية الاسلامية ؟

وهل « الاسلامي » هو وحده فقط ما ورد في الكتاب والسنة ؟

لا تحتاج اجابة السؤال الاول الى جهد ، وانما فقط تحتاج الى تنبيه وتحذير ، تنبيه من انه اذا كان هذا المنطق مقبولا في اي زمن مضى ، فانه يجب ان يصبح مرفوضا على طول الخط في زماننا هذا على وجه التحديد ، لان وسائل وفنون التزوير ـ في الافكار والمعتقدات خاصة ـ بلغت مدى لم يحدث من قبل ،

ولان القدرة على العبث بعقول الناس عبر وسائل الاعلام وحيلها الماكرة ، لم تعد حكرا على احد . وتحذير من ان دول العالم الثالث ، بارتفاع نسبة الامية فيها والقصور في وعي جماهيرها ، هي الحقل المؤهل اكثر من غيره لاستقبال مختلف تلك الممارسات والتأثر بها ، وتسريب مختلف الشرور والانحرافات الفكرية وغيرها اليها ، في ابهى ثياب واتصعها !

ان الشكل في الاسلام لم يصبح له دوره البارز الا في غيبه الوعي بالمضمون ، واللافتة لم تجد لها مكانا الا عندما تزايد حجم الخواء واتسعت رقعته . والتركيز على العلامة المسجلة لم يتم الا بعد اشهار الافلاس !

ان الامارة على المسلمين في عز شباب الاسلام وفتوته لم تكن تحتاج في توصيفها لاكثر من لقب في كلمة واحدة هو : « الخليفة » ، الذي كان يفهم على انه خلافة لرسول الله . ولكن هذه القيادة ذاتها عندما رفعت على بابها لافتة ضخمة مثل « سيف الدين وشمس الدولة وكهف الملة » ، كان ذلك ايذانا بحلول المغيب ، وعلامة من علامات التدهور والسقوط . فقد كانت تلك المقابلة تعبيرا عن الانتقال من مرحلة الاداء الى مرحلة اللفظ والكلمة ، من الوظيفة الى اللافتة ، ومن الفعل الى القول .

ا التدقيق مطلوب ، والموقف الواضح مطلوب ، بصرف النظر عما تقوله اللافتة ، بل عما اذا كانت ثمة لافتة ام لا .

ان الذين يستريبون فيما ليس مختوما بختم الاسلام وظاهرة عليه علامته المسجلة ، لا يختلفون كثيرا عن القائلين بانه « لا سياسة الا ما وافق الشرع » ، وهو الذي رد عليه العلامة ابن عقيل بقوله : السياسة هي الفعل الذي يكون معه الناس اقرب الى الصلاح وابعد عن الفساد ، وان لم يضعه الرسول صلى الله عليه وسلم او نزل به وحي .

« فان اردت بقولك ما وافق الشرع ، اي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح ، وان اردت لا سياسة الا ما نطق به الشرع ، فغلط وتغليط للصحابة » .

وهذا المعنى الذي ذكره ابن عقيل اكده ابن قيم الجوزية عندما كتب في « اعلام الموقعين » ان الله ارسل وانزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السماوات والارض : فاذا ظهرت امارات الحق او قامت دولة العدل ، واستقر صبحه باي طريق كان ، فثم شرع الله ، ودينه ورضاه وامره .. والله تعالى لم يحصر طرق العدل وادلته واماراته في نوع واحد ، وابطل غيره من الطرق التي هي اقوى منه وادل واظهر بل بين بما شرعه من الطرق ان مقصوده اقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط ، فاي طريق استخرج بها الحق وعرف العدل . وجب الحكم بموجبها ومقتضاها » .

وفي ذلك يقول ابن تيمية : ان تصرفات العباد من الاقوال والافعال نوعان ، عبادات يصلح بها دينهم ، وعادات يحتاجون اليها في دنياهم . فباستقراء اصول الشريعة ، نعلم ان العبادات التي اوجبها الله او احبها لا يثبت الامر بها الا بالشرع . واما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما لا يحتاجون اليه ، والاصل فيه عدم الحظر ، فلا يحظر منه الا ما حظره الله سبحانه وتعالى . وذلك لان الامر والنهي هما شرع الله والعبادة لابد ان يكون مأمورا بها ، فما لم يثبت انه مأمور به ، كيف يحكم عليه بانه محظور ؟

ان العبادات وحدها هي التي لا يثبت امرها الا بالشرع . اما مجال حركة الانسان خارج هذه الدائرة فمفتوح على مصراعيه . اذ الاصل في الاشياء الاباحة ، والاستثناء هو التقييد والتحريم . وهذا الاستثناء حق لله سبحانه وتعالى وحده ، ليس لاحد ان يلج بابه او ان يزعم حقا فيه .

ان ابراز شهادة الاسلام وسمته ليسا ضروريين للقبول والصلاحية ، اذ يكفي ان الا يكون التوجه ضد الاسلام ، ويكفي ان يكون تعبيرا عن الحق والعدل ، عندئذ لا يكون فقط مقبولا من الله سبحانه وتعالى ، ولكنه ايضا يعد من شرع الله ودينه وامره .

وفي الحديث الشريف : الحكمة ضالة المؤمن ، اني وجدها فهو أحق الناس بها .

وفيه ايضا : ما احل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام . وما سكت منه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فان الله لم يكن لينسى شيئا » .

اما القول بكمال الدين ، والاحتجاج بقوله ما فرطنا في الكتاب من شيء ، فلم يتصرف فيه المعنى الى احتواء الكتاب على علوم الاولين ، والاخرين ، ولا الى كل حركة وسكنة . اذ لم يقل بذلك احد من اهل العلم والثقة ، فضلا عن ان سلوك النبي وصحابته كان على غير ذلك ، وقد فصل الامام الشاطبي هذه القضية ، تفصيلا في الجزء الثاني من كتابه الموافقات ، الذي عالج مسألة الادلة الشرعية ، وفي حديث معاذ بن جبل الشهير تدليل واضح على ان كتاب الله هو المرجع الاول ، وما لا يقضي فيه يحال الى السنة ، وما لا تعالجه السنة يترك امره للاجتهاد ، اذ سئل معاذ الذي كان قد ولي امارة اليمن : بم تحكم ، قال : بكتاب الله ، قال : فان لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ؟ ، قال فان لم تجد ؟.. قال اجتهد رأيي ـ رواه ابو داود والترمذي والدارمي .

ان ذلك لا يتعارض مع الكمال ، ولا مع النصوص الاخرى التي تصب في هذا الاتجاه ، اذا ما فهمنا الكمال على وجهه الصحيح ، الذي عبر عنه ابن عباس وتبعه عليه الجمهور ، من ان المعنى بتلك الآيات كمال الدين ، بعقائده ، واحكامه وادابه . اي العبادات وما في معناها بالتفصيل ، والمعاملات بالاجمال ، ونوطها باولي الامر كما يقول الشيخ رشيد رضا .

ان الذين يحاولون تخريج كل شيء من الكتاب والسنة ، يحملون الكتاب والسنة ، بما لم يطالبا به ويخصصا له . الامر الذي يوقعهم في حرج لا حدود له ، اذا لم يلجأوا الى تلك الاساليب المتعسفة التي تلجأ الى ليّ النصوص وافتعال تأويلات بعيدة لها . وهؤلاء لا يختلفون كثيرا عن اصحاب بدعة استخلاص النظريات العلمية في الطبيعة والفلك والجيولوجيا وعلوم الفضاء ، من نصوص القرآن ، اذ يسيء كلاهما الى كتاب الله من حيث اقحامهم له في امور بعضها متقلب ومتغير ، وبعضها من « العفو » الذي ترك لعقول الناس واجتهادهم .

ولكن البعض يعز عليه فيما يبدو ان تفلت واردة او شاردة ، بغير ان يظهروا عليها ختم الاسلام ، وعلامته المسجلة ..

ربما لانهم يعطون لانفسهم حقا في حمل الختم ، وحقوقا في التسجيل !

اكبر من غربة المستحيل

شعر حسن عبد الله القرشي

راحل قلتها

وانطلقت الى الفلوات تغذ المسير
وبكى القلب حين ترحلت
وانفجرت فى حناياي حمر الدموع
راحل قلتها
ما دريت ولم تدر أى العواصف إثرك
سوف تثور ؟
أى زوبعة فى ضميرى
وفى خاطرى

❋

وعلى شرفة الشمس تعبر كل الجسور
أى خارطة قد طمست معالمها برحيلك
أية بوصلة قد نزعت مؤشرها
أى خطب مثير ؟؟

❋

ليتنى قلتها لك
أنك شوقى ، وباصرتى
وعزائى الوحيد غداة الرحيل
فيك كل خضيات نفسى
وأشواقها ومداها ؟

❋

فيك أمواجها
فيك أفراح قلبى وروحى
يسيجها فيك حزنى الجميل
لم ترحلت ؟

يفجونى منك هذا الرحل
يملؤنى بالعذاب الرهيب
يؤرق كل طمأنينتى منك هذا الرحيل !
لم ترحلت ياذوب فجرى المغنى
وشبابة الروح
يازارعا فى فؤادى نجوى الفضول !
قلت لى ستعود ! تعود !
متى ستعود ؟

❋

متى يورق القفر ملء الصحارى
متى ينبت الورد ؟
هل ينبت الورد وسط الزعازع ؟
عبر الصحارى
وفوق النجود ؟
وفوق السهول ؟ !

❋

أنت لى الحاضر المستحيل
ولا من بديل لحاضرى المستحيل
أفديك دوما
أحبك أكبر من حب كل الورى للحياة
أحبك أكبر .. أكبر .. من غربة المستحيل ! !!

❋ حسن عبد الله القرشى

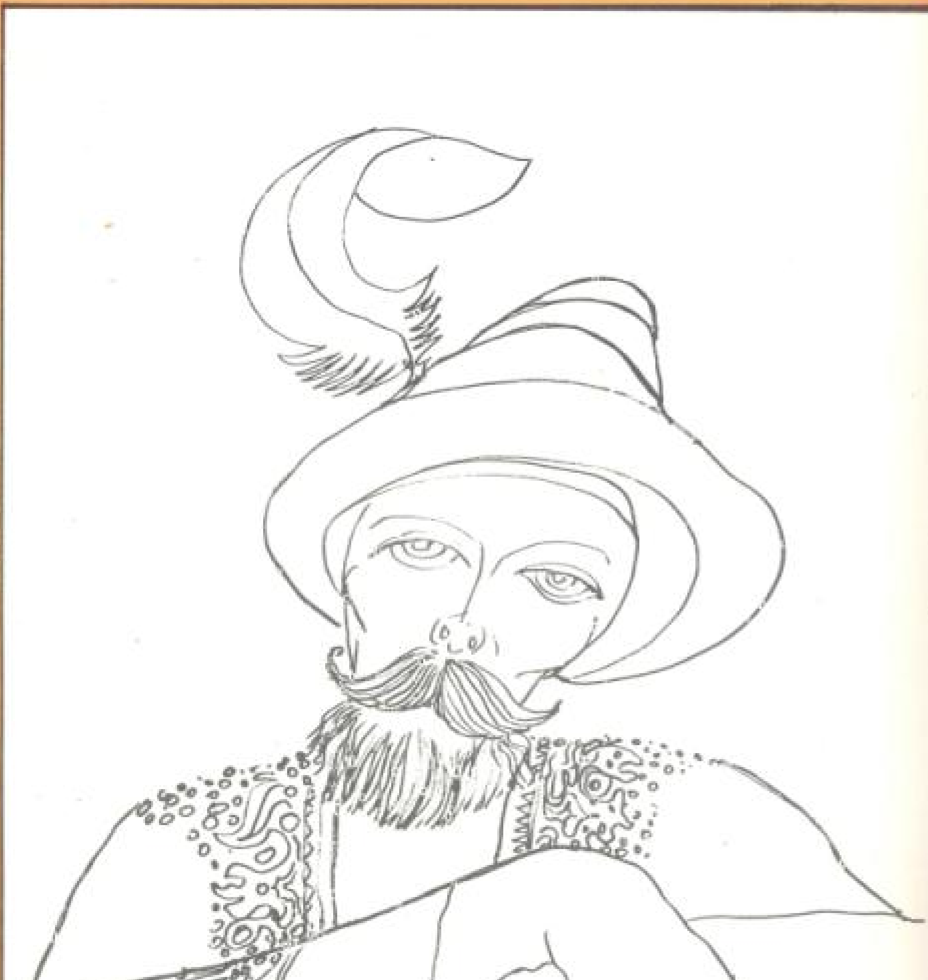
الأمراء الرقيق!

بقلم الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

« الشائع بين الناس أن عصور المماليك كانت كلها عصور انحطاط . ولكن الحقيقة غير ذلك . ومرحلة المماليك ظلمها المؤرخون . »

حراس الاسلام

ربما جاء اسهام غير العرب من الشعوب التى دخلت فى الاسلام فى حمل الأمانة ومواصلة حركة المد الاسلامى خير دليل على نجاح العرب فى التبشير بالاسلام وايصاله مكتملا الى تلك الشعوب والتمكين لمبادئه فى قلوبهم ، بحيث غدوا فى مرحلة لاحقة عدة الاسلام واداته فى الجهاد ومن هذه الشعوب ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ البربر ، الذين ما كادوا يدخلون فى دين الله حتى أسهموا بقيادة زعيمهم طارق بن زياد فى فتح الأندلس . وظل البربر طوال عدة قرون يمثلون حراس الاسلام فى المغرب الاسلامى ، فى حين غدت بلادهم فى شمال أفريقيا بمثابة المخزن البشرى الكبير الذى يمد دولة الاسلام بالاندلس بالجند والمجاهدين كلما اشتد الضغط المسيحى عليهم ، ويضيق المقام فى هذه العجالة عن تتبع جهود البربر فى عصر المرابطين وزعيمهم يوسف بن تاشفين ، سواء فى نجدة المسلمين بالأندلس أو فى نشر الاسلام فى قلب افريقية وغربها .



وفي ذلك العصر ـ في القرن الحادي عشر للميلاد ـ عندما اشتد ساعد البربر في الدفاع عن الاسلام ضد الهجمات الصليبية في الأندلس ، ظهرت في المشرق عناصر غير عربية الأصل ، دخلت في الاسلام في وقت متأخر نسبيا وآمنت به ايمانا دفعها الى تزعم حركة الجهاد في المشرق .

وهنا نلاحظ أن الاسلام في جوهره وشريعته لايقر التفرقة بين واحد وآخر من العناصر والأجناس والشعوب التي دخلت في الاسلام ، وانما ساوى بينها جميعا ، وجعل منها على اختلاف اصولها وتباين الوانها أمة واحدة هي أمة الاسلام . واذا كان الله سبحانه وتعالى قد اختار من بين أمم الأرض أمة جعل منها خير أمة أخرجت للناس ، فان هذه الأمة هي أمة الاسلام لاأمة العرب وليس من روح الاسلام في شيء ما ظنه البعض من أن العرب ينبغي أن يكون لهم نوع من الوصاية أو الاسبقية على غيرهم من الشعوب الاسلامية . فالكل سواء أمام الخالق في الحقوق والواجبات ، ومن هذه الواجبات حماية الاسلام والدفاع عن أرضه . حسب العرب أن الله عز وجل قد اصطفى من بينهم خاتم أنبيائه عليه الصلاة والسلام ، وأنزل عليه كتابه الكريم بلسان عربي مبين ، واختار بيته الحرام على أرضهم قبلة للمسلمين في مشارق الارض ومغاربها . وفي هذا كله نوع من التكريم لا التفضيل اذ لافضل ـ تحت مظلة الاسلام ـ لعربي على أعجمي الا بالتقوى

وانما هي بالتقوى

ومن ناحية أخرى ، فانه لا يقلل من شأن بعض هذه العناصر التي انبرت للدفاع عن الاسلام بعد أن استنفد العرب جل طاقتهم ـ انها دخلت في دين الله في وقت متأخر نسبيا ، لان أفضلية مسلم على آخر ليس بالأقدمية وانما هي بالتقوى لايعيب شعبا من الشعوب أن رسالة الاسلام وصلته متأخرة زمنيا ، وانما العبرة بأنه آمن بها واستوعبها وتغلغلت في قلوب أبنائه وتغلغلا جعلهم يتحمسون لها وينبرون للدفاع عنها ، ويضحون في سبيل ذلك بالنفس والنفيس ....وربما كان من أسرار عظمة الاسلام وقدرته على الصمود في وجه الأخطار التي هددته أواخر العصور الوسطى أنه كان قادرا على تجديد دمائه مع الاحتفاظ باصوله .

وترتبط بهذا ملحوظة أخرى لها بهميتها ، هي أن العصور الوسطى تحظى في المصطلح التاريخي باسم عصور الايمان ، بمعنى أنها عصور العقيدة وعصور الدين . فالقوة الكبرى التي هيمنت على قلوب الناس في تلك العصور ـ سواء في ظل الاسلام أو المسيحية هو قوة الدين .والدين هو الذي تحكم في تصرفات الناس وفكرهم ونشاطهم وحدد نظرتهم الى الحياة. والناس في تلك العصور اعتبروا أهل الاسلام أمة واحدة ، وأرض الاسلام بلدا واحد ، عبروا عنه باسم « ديار الاسلام » . ومن هذا الواقع أحس الجميع أن أمانة الدفاع عن كل شبر من أرض الاسلام تقع على كواهل المسلمين جميعا دون تفرقة بين جنس وآخر .

وهكذا ما كاد يضعف دور العنصر العربي في مدافعة أعداء الاسلام في أواخر العصور الوسطى ، حتى برز دور الأتراك السلاجقة والتركمان والأكراد ثم المماليك فالأتراك العثمانيون وجميعهم كانوا بمثابة دماء جديدة زودت أمة الاسلام بطاقات كبرى مكنتها من الصمود ـ بل التغلب على الأخطار الكبرى التي تعرض لها المسلمون ـ وخاصة في شرق البحر المتوسط ـ في أواخر العصور الوسطى .

وليس معنى ذلك أن دور العنصر العربي قد توقف تماما عن مواصلة الجهاد فى تلك المرحلة ، اذ تسمع عن بعض القبائل والامارات العربية فى بلاد الشام والعراق التى أسهمت بشكل أو بآخر فى الدفاع عن الكيان الاسلامى ضد الغزو الصليبي فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد . ومن هذه القبائل بنو منقذ وبنو عقيل وبنو مرداس وبنو عمار وغيرهم ، ولكن الحقيقة التاريخية التى لا مفر من الاعتراف بها أن الصفحة المشرقة التى سجلها الحمدانيون فى معركة الجهاد ضد الروم فى القرن العاشر الميلادى ، تعتبر بمثابة خاتمة لدور العنصر العربى فى مدافعة لأعداء الاسلام فى الشرق الادنى أواخر العصور الوسطى .

لولا التفتت السياسى

وهكذا جاءت المقاومة الرئيسية التى صادفها الصليبيون عندما وصلت حملتهم الأولى الى بلاد المسلمين فى الشرق الأدنى من جانب الاتراك السلاجقة ، سلاجقة الروم وسلاجقة الشام وسلاجقة فارس . وربما صارت هذه المقاومة أكثر فاعلية . لو أن القوى الاسلامية ، فى الشرق الادنى وحدت صفوفها وتناست خصوماتها السياسية والمذهبية ، ولكن التنافس بين القوى السياسية بعضها البعض والعداء المذهبى بين الخلافة الفاطمية فى مصر والخلافة العباسية فى بغداد والتفتت السياسى الذى شهدته بلاد الشام ... كل ذلك مكن غزاة الفرنج من تحقيق انتصارات سريعة ضخمة على حساب المسلمين فى الشرق لأدنى .

وعندما أفاق المسلمون وفطنوا الى حقيقة موقفهم ، وأدركوا حاجتهم الماسة الى وحدة تضم شملهم انبعثت حركة الجبهة الاسلامية فى الشرق الأدنى من بين صفوف السلاجقة الأتراك بالذات وتزعم هذه الحركة اتابكة البيت الزنكى بالموصل فى القرن الثانى عشر . وبفضل جهود عماد الدين زنكى ثم ابنه نور الدين محمود امتدت الجبهة الاسلامية المتحدة من الفرات الى النيل ، أى من الموصل الى القاهرة ، مرورا بحلب ودمشق ولم يكن عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود عربيا . كذلك لم تكن الجيوش التى اعتمد عليها هذان البطلان مؤلفة فى جوهرها من عناصر عربية ، وانما جمعت بين مجاهدين أتراك وأكراد وتركمان ، ألف الاسلام بين قلوبهم ، وأقبلوا مختارين على الجهاد دفاعا عن الاسلام وأهل الاسلام وأرض الاسلام .

وفى حوادث الصراع بين نور الدين محمود من ناحية وعمورى ملك الصليبيين فى بيت المقدس من ناحية أخرى حول الفوز بمصر ، ظهر على مسرح الأحداث القائد الكردى شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب . وقد استطاع الأخير أن يرث سيده نور الدين فى دولته الواسعة ثم فى سياسته ضد الصليبيين . والثابت فى التاريخ أن سلاطين بنى أيوب وملوكهم اعتمدوا فى حركة الجهاد الواسعة التى قاموا بها دفاعا عن ارض الاسلام وبخاصة فى الشام ومصر ـ على جيوش مؤلفة فى غالبيتها من « الاتراك والاكراد » على قول المؤرخ أبى شامة ، وان ضمت أقليات بنسبة

متفاوتة من العرب والتركمان وغيرهم . هذا بالاضافة الى ما جاء فى المصادر المعاصرة من أن ملوك بنى أيوب كانوا يتفاهمون أحيانا مع بعضهم البعض « بالعجمية » أي بلسان غير عربي .

(المماليك)

وفى العصر الأيوبى بالذات أخذت ظاهرة اقتناء المماليك تزداد وضوحا وانتشارا ، اذ حرص كل أمير أو ملك أو سلطان أن يقتنى ـ حسب سعته ـ مجموعة من المماليك ، ينسبون اليه ويعتمد عليهم . والمعروف أن المملوك وجمعه مماليك ، اسم مفعول مشتق من الفعل العربي « ملك » ويقال عبد مملكة بفتح اللام وضمها اذا سبي وملك دون أبويه . وجاء المعنى فى بعض آيات القرآن الكريم وعباراته ، مثل « ملكت أيمانكم » « وملكت أيمانهم » و « ملكت يمينك » .

على أن اللفظ اتخذ معنى اصطلاحيا خاصا فى تاريخ الاسلام ، فأصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض الذين يصبحون رقيقا إما نتيجة للخطف أو الأسر فى الحرب ، ويجلبهم التجار الى بلاد الاسلام حيث اشتد الطلب عليهم ودفعت فيهم الاثمان المرتفعة ، أما الرقيق الأسود فقد اصطلح على اطلاق اسم العبيد عليهم .

وكان الخلفاء العباسيون هم أول من أكثر من استخدام المماليك أو الرقيق فبالغ بعضهم وخاصة منذ أيام المأمون فى شراء اعداد من الترك ، وأخذوا يعتمدون عليهم تدريجيا فى دعم نفوذهم وسلطانهم ، ولم يلبث أن شاع استخدام المماليك فى كثير من أرجاء الدولة الاسلامية ، فأدى انتشار الحركات الاستقلالية عن الخلافة ورغبة حكام الولايات فى الاستقلال بحكم ولاياتهم الى اعتمادهم على جيوش يؤلفونها من المماليك الذين يشترونهم صغارا ، ويعلمونهم فى مرحلة معينة فنون القتال والفروسية ، ليجعلوا منهم أداة فى تنفيذ مطامعهم وحماية مصالحهم وكثيرا ما كان يزداد نفوذ بعض هؤلاء المماليك ليسيطروا بدورهم على مقاليد أمور البلاد والعباد .

ويكفى أن نشير بسرعة الى أن طولون ـ الذى أقام ابنه أحمد الدولة الطولونية فى مصر فى القرن التاسع للميلاد ـ كان مملوكا تركيا للخليفة المأمون العباسي ، حتى اذا ما استقل ابنه أحمد بحكم مصر ، رأى أن يدعم استقلاله بقوة ضاربة من المماليك الديالمة والاتراك ، حتى ان المؤرخ ابن اياس ذكر أن عدد مماليك أحمد بن طولون بلغ أربعة وعشرين الفا . أما محمد بن طغج الاخشيد الذى أقام دولته فى مصر فى القرن العاشر الميلادى فقد بلغت عدد مماليكه ـ على قول المؤرخ بن تغرى بردى ـ ثمانية آلاف مملوك ـ واذا كان الخلفاء الفاطميون الأوائل قد اعتمدوا فى قوتهم الحربية على المغاربة والسودان ، فان الأواخر منهم أكثروا من الاعتماد على المماليك للحفاظ على كيانهم .

الصالح نجم الدين أيوب

على ان استخدام المماليك بأعداد كبيرة أظهرتهم فى صورة طبقة ضخمة تمكنت فى نهاية الامر من السيطرة على شئون الحكم ، يرجع الى العصر الذى أعقب وفاة صلاح الدين الأيوبى فى أواخر القرن الثانى عشر للميلاد . ذلك أن ملوك بنى أيوب الذين اقتسموا الدولة بعد وفاة مؤسسها غرقوا فى حروب داخلية أملتها المنافسات فيما بينهم وبين بعض . فى الوقت الذى كان الصليبيون قابعين على أرض الشام يمثلون خطرا عليهم وعلى الاسلام والمسلمين فى المنطقة . ولمواجهة تلك الأخطار الداخلية والخارجية ، لم يجد ملوك بنى أيوب فى مصر ودمشق وحلب وحماه والكرك وبصرى وبعلبك .. وغيرها بدأ من خلق عصبيات يعتمد عليها كل منهم فى الاحتفاظ بكيانه والدفاع عن مصالحه وتحقيق أطماعه . لذا أكثروا من شراء المماليك ، وعنوا بتدريبهم وتربيتهم ليكونوا لهم عدة وسندا .

واشتهر من حكام بنى أيوب السلطان قبل الأخير من سلاطينهم فى مصر ـ وهو الصالح نجم الدين أيوب ـ لعنايته بتكوين فرقة خاصة به من المماليك حتى قال عنه المؤرخ العينى انه « جمع من المماليك الترك ما لم يجمع غيره من أهل بيته ، حتى كان أكثر أمراء العسكر مماليكه ، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه وسماهم البحرية » .

ومهما يكن من أمر تسمية هؤلاء البحرية ـ وهو ما شرحناه فى مؤلفاتنا عن تاريخ المماليك ـ فالذى يعنينا هو أن نفوذهم أخذ يزداد تدريجيا وخاصة بعد أن تمكنوا من انزال ضربة قاصمة بلويس التاسع وحملته الصليبية على مصر عند منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، مما أضفى عليهم هالة من المجد ، وأظهرهم فى صورة الابطال القادرين على حماية ديار الاسلام وهكذا لم يصادف المماليك صعوبة كبيرة فى الاستئثار بالحكم بعد التخلص من تورانشاه ـ ابن الصالح أيوب وآخر سلاطين بنى أيوب فى مصر ـ فأقاموا دولة حكمت مصر والشام أكثر من قرنين ونصف من الزمان ، ومدت نفوذها فى صورة أو أخرى على بعض بلاد الشرق الادنى

أجناس شتى

والحق أن عصر المماليك يبدو لنا من أطرف العصور التاريخية وأوفرها مادة وأكثرها خصبا فى الجوانب الحضارية ، وهو مع هذا كله من أشد العصور التاريخية تعقيدا فى دراسته ، ذلك أن طبيعة نظام المماليك وأصولهم وطريقة تنشئتهم ، ونظرتهم الى المجتمع الجديد الذى جلبوا اليه وصاروا جزءا منه ، وموقفهم من الاسلام وأهله ، وحرصهم على الدفاع عن أرضه وديار وما تحقق لهم من ثروة مفاجئة لم يحظ بها غيرهم من الحكام المعاصرين أو السابقين أو اللاحقين وأثر هذه الثروة فى خلق نوع جديد من الحياة الاجتماعية ، وفى خلق نهضة حضارية توجت الحضارة الاسلامية فى أواخر العصور الوسطى ... كل هذه عوامل كفيلة بأن تجعل من عصر سلاطين المماليك فى مصر والشام أشد العصور التاريخية استثارة للباحث .

وحسبنا أن نشير فى هذه العجالة أن هؤلاء المماليك الذين تزعموا العالم الاسلامى فى عصر من أشد عصوره التاريخية حساسية لم يكونوا من أصل عربى ، بل لم يكن منهم مملوك واحد من أصل عربى . وأكثر من ذلك أن كثيرا منهم انحدروا من أصل غير اسلامى ، ومن أوروبا ومن آبا ، وأمهات لم يعرفوا الاسلام ، وربما لم يسمعوا عنه . وعلى الرغم من أن المصطلح التاريخى جرى على أن يطلق على الشطر الأول من دولة سلاطين المماليك اسم دولة الترك أو الاتراك ، وعلى الشطر الثانى من تلك الدولة اسم دولة الجركس أو الجراكسة الا أن البحوث الدقيقة أثبتت لنا أن سلاطين الدولة الاولى لم يكونوا جميعا من الأتراك ، وأن سلاطين الثانية لم يكونوا جميعا من الجراكسة . لقد كان المماليك تشكيلة كبيرة من الرقيق ، متعددة الاصول والأجناس ، وفق ما يتوافر فى سوق الرقيق ، متعددة الاصول والاجناس ، وفق ما يتوافر فى سوق الرقيق من بضاعة وما تيسر للتجار من أصناف .

من ذلك انه ثبت أن اثنين من سلاطين دولة المماليك البرجية ، أو الجراكسة كانا من أصل يونانى أو رومى ، هما خشقدم وتمربغا ، أما فى دولة المماليك البحرية أو الأتراك ، فان السلطان كتبغا كان مغولى الأصل أسر فى موقعة حمص فى حين كان السلطان لاجين من الشماليين « الفايكنج » ثبت أن مسقط رأسه بعض البلاد الواقعة على شاطىء البحر البلطي . وقد ذكر الرحالة ، الألمانى « ارنولد هارف » فى القرن الخامس عشر أنه تعرف فى القاهرة على اثنين من المماليك أحدهما أصله من مدينة بال والآخر من مدينة دانزج . أما الرحالة بيروتافور فقد اكتشف أن مندوب السلطان الذى استقبله فى القاهرة أصله من مملكة قشتالة المسيحية من مواليد أشبيلية بالذات .

سوق الرقيق

وهناك عوامل عدة تحكمت فى كثرة او قلة المعروض فى السوق من جنس معين بالذات . من ذلك أنه عندما اجتاح التتار بلاد الأتراك فى آسيا الوسطى وشردوهم وأسروهم ، ازداد المعروض فى أسواق الرقيق من مماليك الترك . فى حين أنه عندما تعرضت بلاد الجركس لنفس المصير بعد قليل ، كثر فى السوق المعروض من مماليك الجركس . ومن ناحية أخرى فان اسعار البضاعة كانت تتأثر دائما بالعرض والطلب ... فعندما ازداد المعروض من مماليك الجركس انخفض سعرهم ، بحيث أصبح متوسط الرأس » من الجراكسة ـ فى أواخر القرن الثالث

عشر للميلاد ـ مائة وخمسة عشر دينارا فى حين كان متوسط ثمن مماليك الترك مائة وخمسة وثلاثين دينارا ..

ويلاحظ أن الطلب فى السوق كان على صغار المماليك بالذات ، بحيث يكون المملوك دون سن البلوغ ويفضل من كان منهم فى حوالى الثامنة من عمره ، حتى يسهل تشكيله عقائديا وخلقيا ونفسيا ، وتعليمه وتنشئته ، وفق اسلوب محدد وخطة معينة وسياسية مرسومة . وفى عملية المساومة أثناء البيع والشراء تباينت اسعار المماليك وفق ما يكون فى أحدهم من ميزات ترفع من قيمته ، أو عيوب تحط من قدره . فالمطلوب فى المملوك دائما أن يكون حسن الصورة ، سليم البنية ، ذكيا فطنا ، قادرا على أن يحقق الغرض منه . فلا داعى لأن يشترى أحدهم بضاعة فاسدة أو مملوكا عليلا ضعيفا خاملا .

ومن الطريف أن تشير الى ان السلطان الظاهر بيبرس كان تركى الأصل ، من مواليد بلاد القوزاق ـ جنوب روسيا ـ حيث قضى الدور الأول من طفولته . وعندما أغار التتار على تلك البلاد فى النصف الأول من القرن الثالث للميلاد ، وقع الصبى أسيرا . فاشتراه أحد تجار الرقيق فى سيواس وما زال يتنقل فى صحبة تجار الرقيق ، حتى وصل ـ ومعه زميله ـ الى حماه ، حيث عرضهما التاجر على صاحبها الملك المنصور الأيوبى ، ويرى كل من المؤرخين ابن واصل وابن تغرى بردى أن الملك المنصور هذا كان صغيرا السن عندئذ ، وانه اعتاد عندما يشترى مملوكا أن يستشير أمه . وعندما عرض الملك المنصور الغلامين ـ بيبرس وزميله ـ على أمه لأخذ رأيها ، وافقت الأم على أن يشترى ابنها زميل بيبرس فقط . أما بيبرس نفسه ، فقد أشارت اليه وقالت « لا يكون بينك وبينه معاملة ، فان فى عينيه شراء لائحا » .

أنساب المماليك

وهكذا أعرض الملك المنصور صاحب حماة عن شراء الظاهر بيبرس فحمل الى دمشق حيث بيع بثمانمائة درهم ولكن الذى اشتراه لم يلبث أن رده الى التاجر عندما اكتشف بياضا فى احدى عينيه وأخيرا اشتراه الأمير علاء الدين ايدكين البندر قدار ـ أحد مماليك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر ـ وقد اشتراه بثمن بخس لما به من عيوب ، فنسب اليه وعرف ببيبرس البندقدارى ..وفى مصطلح المماليك ، أطلق لفظ « الاستاذ » على السيد الذى اشترى المملوك وامتلكه وتعهده بالتربية والتنشأة ، وكان المماليك ينسبون غالبا الى اساتذتهم أى سادتهم الذين اشتروهم من التجار . فالمماليك الأشرفية نسبة الى السلطان أشرف ، والمماليك الظاهرية نسبة الى السلطان الظاهر ، وهكذا ، فاذا وجد أكثر من سلطان بلقب واحد ، ذكر اسم السلطان بعد لقبه ، فيقال المماليك الأشرفية خليل ، والمماليك الأشرفية برسباى ، والمماليك الأشرفية اينال . وكذلك يقال المماليك الظاهرية ببيرس والمماليك . الظاهرية حقمق .. وهكذا .

وربما انتسب المملوك الى تاجره الذى جلبه ، اذا كان ذلك التاجر معروفا بحسن السمعة وجودة البضاعة وبأنه لا يجلب الا الانواع الممتازة من المماليك . ومن أمثلة ذلك أن يلبغا السالمى منسوب الى التاجر الذى جلبه ، وهو تاجر معروف اسمه سالم . وهناك المماليك العثمانية وهم منسوبون الى عثمان فخر الدين ، وهو من كبار التجار الذين جلبوا كثيرا من المماليك والجوارى الى سلاطين مصر . ويروى ابن قاضى شهبة أن التاجر عثمان هذا هو الذى جلب برقوق ليصبح فيما بعد من أشهر سلاطين المماليك . وفى بعض الحالات ينتسب المملوك الى المبلغ الذى اشترى به ، اذا كان قد دفع فيه مبلغ كبير يدل على مافيه من مواهب وميزات . من ذلك أن السلطان المنصور قلاوون انتسب الى قيمته التى اشترى بها ، وهى الف دينار ، لأنه مبلغ كبير يستحق الفخر ويدل على ما لمسه مشتريه فيه من صفات طيبة ومواهب ممتازة . . ولذا عرف فى التاريخ باسم قلاوون الالفى .

المملوك الأمير

وعندما يشترى السلطان مملوكا فانه يرسله أولا الى الأطباء لفحصه ، حتى يتأكد من سلامته قبل أن يسمح له بالاختلاط بغيره من المماليك القدامى ، واهتم السلاطين اهتماما كبيرا بتعليم مماليكهم الصغار وتربيتهم وتأديبهم ، فخصصوا لهم الفقهاء لتعليمهم القرآن الكريم وأحكام الدين وآداب الشريعة وعينوا لهم المؤدبين

للاشراف على تربيتهم ومراقبة تصرفاتهم ، ومعاقبة من يخرج عن اصول الأدب فاذا كبر المملوك وأدرك سن البلوغ بدأ تعليمه فنون الحرب من « الرمى بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل وأنواع الفروسية » على قول المقريزى .

ثم أن الاستاذ كان حريصا دائما على أن يشعر مماليكه أنه بمثابة الوالد لهم ، فلا يضمن عليهم بالعطف والحنان ، ويحاول دائما أن يشدهم اليه ويربطهم به ، ولذلك كان يجود عليهم بالارزاق والكسوة والاطعمة الطيبة من لحوم وحلوى وفواكه . وربما لايتناول الاستاذ طعامه مع أولاده واسرته ويفضل أن يتناول الطعام مع مماليكه لأنهم بالنسبة له عدة المستقبل فاذا شب المملوك خصص له استاذه « جامكية » . أى مصروفا . يتدرج من ثلاثة دنانير الى خمسة ، حتى يصل الى سبعة عشر فى الشهر .

وفى مرحلة معينة يحرر الاستاذ مملوكه ، فيشق طريقه مثلما فعل استاذه من قبل ، ويمر بنفس الأدوار ويرتقى فى درجات الامارة من أمير خمسة الى أمير عشرة ، الى أمير طبلخاناه ، حتى يصل الى أعلى درجات الامارة وهى أمير مائة مقدم الف . فاذا كان أمير خمسة فان له أن يقتنى بدوره خمسة مماليك ، واذا صار أمير عشرة صرح له بامتلاك عشرة مماليك . أما أمير مائة مقدم الف فمن حقه أن يمتلك مائة مملوك ويقود فى وقت الحرب ألف محارب .

وقام نظام المماليك على اسس اقطاعية ، فكان متوسط اقطاع الأمير مساحة تتراوح بين زمام قرية وعشر قرى ، فى حين تراوح اقطاع الجندى المملوك بين زمان قرية ونصف قرية . ومهما يبلغ المملوك من مكانة ، فانه يظل دائما ابدا مرتبطا باستاذه الذى اشتراه وتعهده بالتربية . فاذا تحرر المملوك وصار بدوره أميرا ، فانه يولى مماليكه الذين يشتريهم حظا من العطف والرعاية ، مثلما نال هو من استاذه . وربما كانت رابطة الخشداشية ـ أى الزمالة ـ أقوى الروابط التى تربط مجموعة من المماليك بعضهم ببعض ويقصد بها أن هذه المجموعة كان أفرادها مماليك لاستاذ واحد ، ينتسبون اليه ويعتزون باسمه .

الأقوى والأكثر حيلة

وفى ظل هذا النظام ، أحس المماليك أنهم متساوون ، لاميزة لأحدهم على آخر . فالكل أغراب الأصل عن البلاد ، والكل كانوا رقيقا فى يوم من الأيام ، والكل مروا بنفس المراحل حتى تحرروا وصاروا أمراء . وسلطان المماليك نفسه كان رقيقا وهو صغير وتدرج مرحلة بعد أخرى حتى شق طريقة الى منصب السلطنة ولعل هذا الاحساس بالمساواة هو السر فى عدم وجود نظام ثابت لولايةالسلطنة . فالاقوى الأكثر حيلة وذكاء يمكن أن يحل محل السلطان القائم اذا مات أو قتل . ولعل هذا هو السر ايضا فى عدم ايمان المماليك بمبدأ الوراثة فى الحكم ، لأن ابن السلطان ولد حرا ولم يكن رقيقا فى يوم من الأيام ، ولم يمر فى نفس الأدوار التى مر بها أفراد طبقة المماليك . وكفى أن كبار الامراء خضعوا لواحد منهم عندما صار سلطانا ، فلا يصح أن يخضعوا لابنه من بعده . واذا وجدت حالات طبق فيها مبدأ الوراثة فى الحكم فهى حالات محدودة أشهرها بقاء السلطنة فى بيت قلاوون نحوا من قرن من الزمان .

ويرتبط بذلك ما كان يحدث من اضطرابات عقب وفاة السلطان أو مقتله ، بسبب عدم وجود قاعدة ثابتة لتولى الحكم مما يجعل كل واحد من كبار الأمرا' متطلعا الى منصب السلطنة . وكثيرا ما كا يلجأ الأمراء' فى هذه الحالة الى تنصيب ابن السلطان الراحل مكان أبيه ، لا ايمانا منهم بأحقيته فى أن يرث أباه فى منصبه وانما كاجراء مؤقت الى ان ينجلى الموقف بين كبار الأمراء ويظهر بين صفوفهم الرجل الأقوى ، وعندئذ يسهل عزل ذلك الابن عن منصبه .

وبعد ، فان الكلام عن نظام المماليك يطول ، ومهما تتباين أحكام المؤرخين على هذا النظام فان الحقيقة التى يتفق الجميع عليها هى أنه فى ظل هذا النظام استطاع المماليك ، أن يبرزوا فى صورة فرسان الاسلام الذين نجحوا على الاخطار الكبرى التى هددته فى أواخر العصور الوسطى . وهذا ما نرجوا أن نوضحه فى كلمة قادمة . ■■

د . سعيد عبد الفتاح عاشور

من التراث الحديث

الدين والعامة

محمد كرد علي

لا شيء اضر على الدين والدنيا من اشتراك العامة فيما هو من شأن الخاصة ومن تصدر الصغير في مكان الكبير وانزال الجاهل منزلة العالم . ومما يؤسف له أن كانت الامة الاسلامية في كل دور من ادوارها ألعوبة بأيدي الجاهلين والمتخرقين وهدفا لعامة الخراصين والاغبياء الثرثارين فكان دينها ودنياها تتناولها عوامل الفوضى في كل عصر ومصر اللهم الا في بعض الازمان التي انتظمت فيها السياسة ـ والسياسة متى نهجت القصد في امة يستقيم لها كل شيء في الغالب ـ كعصر الخلفاء الراشدين وفي عصر افراد من الخلفاء والسلاطين كعمر بن عبد العزيز والمأمون وصلاح الدين ونور الدين وبعض ملوك بني أمية في الاندلس جاءوا على حين فترة من ازمانهم وخالفوا اخلاق اسرائهم وبيئاتهم فأحسنوا القبض على السلطتين الدينية والمدنية وتوفروا على اصلاح السعادتين الدنيوية والاخروية فصح ان تدعي حكوماتهم حكومات خاصة لا حكومات عامة . وكلما اتصف الرئيس بصفات الخاصة وبعد عن صفات العامة يستقيم أمر مرؤوسيه على تلك النسبة وكلما شرفت المبادىء شرفت المقاصد ومتى صلحت العين صلحت سواقيها .

ولعل من ينظر في هذه المقدمة يظن انني اعني بالعامة ذاك الغوغاء من الناس من سوقة واهل فلاحة وصناعة وتجارة . كلا وانما اعني بالعامة ما عناه اهل الاعتزال ممن حكموا العقول في المنقول . اريد بالعامة ارباب الحشو وانصار التقليد واللغو ممن يدخلون في سياسة اهل الاسلام ودينهم ومنهم الفقيه والنحوي والكاتب العامل والصانع والزارع وكل من تطاول الى ما ليس من شأنه . وتعدى طوره واستعداده فحسب نفسه عالما بكل شيء مطالبا بالجزئيات والكليات والعلويات والسفليات .

وبعد فان من توفر على دراسة احوال الناس وايامهم في هذا الشرق العربي يتجلى له ان عامة المسلمين وهم دهماء القوم وسوادهم واكثرهم نفيرا بالطبع وان لم يأخذوا من الدين الا قشوره وبعض شعائره ما القوه بحكم العادة مما يرحوا حكامهم والمحكوم عليهم منهم يخلطون كل ما يقع تحت حسهم من آثار الموجودات فيما عرفوه انه الدين . الرئيس دينيا كان او مدنيا يثير من يثير باسم الدين وهو منه أعرى من مغزل . والمرءوس يقوم بما يقوم به باسم الدين وكلا الفريقين لا هم له الا ارضاء صاحبه وشهراته ومطامعه .

فدعوى العلماء او العامة في انهم يقومون لنصرة الدين قضت على من سماه الخاصة « حجة الاسلام » الغزالي ان يقوموا عليه في القرن الخامس ويزروا عليه آراءه فيما ذهب اليه من الجمع بين العقل والنقل فاخذت فئة من عامة الفقهاء تثير كوامن النفوس عليه ولولا هجرته زمنا من العراق الى فلسطين والشام لامتدت يد الايذاء الى شخصه . وتابعهم الحكام في ذلك . وتواطئوا معهم عليه واعنتوه اعنات غيره من قبل ومن بعد ممن ارادوا الاصلاح ونصحوا ما استطاعوا وأوذوا في سبيل الله . فاكتفى من عقاب الامام بتحريق كتبه وخصوصا كتاب احياء علوم الدين الموصوف بأنه لو ضاعت كتب الدين برمتها لألفيت مجموعة فيه . فحرق في بغداد كما حرق في ساحات غرناطة وما خجلوا مما افتوا به في حياته حتى اذا لقي ربه اخذوا يخففون من تعسفهم ويتناسى خلفهم ما قام به سلفهم .

ودعوى العامة في النضال عن الدين اقام القيامة على « محدث الامة » وعالمها ابن جرير الطبري في اوائل القرن الرابع فلما لم يصلوا اليه بمكروه في حياته حالوا بينه وبين دافنيه بعد مماته فاضطر اصحابه ان يدفنوه في داره ليلا . وسبب ذلك كما قال ابن الاثير جمعه كتابا ذكر فيه اختلاف الفقهاء لم يصنف مثله ولم يذكر فيه احد ابن حنبل فقيل له في ذلك فقال لم يكن فقيها وانما كان محدثا فاشتد ذلك على الحنابلة وتابعهم غيرهم واتوا من ذلك بما اتوا .

ودعوى العامة في التفاني بالدين اخذهم بمخنق الامام البخاري صاحب الجامع الصحيح الذي هو اجل كتب الاسلام وافضلها على ما روى الذهبي . فانه بعد ان طاف معظم بلاد الاسلام في طلب الحديث وتعليمه الناس جاء سمرقند فكاد يهينه اميرها خالد بن محمد الذهلي لولا ان الله عجل في عقوبته . « ولما خرج البخاري من بخاري كتب اليه اهل سمرقند يخطبونه الى بلدهم فسار اليهم فلما كان بخرتنك وهو على فرسخين من سمرقند بلغه انه وقع بينهم بسببه فتنة فقوم يريدون دخوله وآخرون يكرهونه وكان له اقرباء بها فنزل عندهم حتى ينجلي الامر فأقام اياما فمرض . ثم دعا بعد ان فرغ من صلاته « اللهم قد ضاقت علي الارض بما رحبت فاقبضني اليك » فمات في ذلك الشهر سنة ٢٥٦ .

ودعوى العامة في الغيرة على الدين دعت الامام مالك بن انس ان ينقطع عن شهود الجمعة والجماعة وحضور الجنائز وعودة المرضى وقضاء الحقوق والاجتماع باصحابه « وكان ربما قيل له في ذلك فيقول ليس كل الناس يقدر ان يتكلم بعذره » . وسعي . الى جعفر بن سليمان عم ابي جعفر المنصور « وقالوا انه لا يرى ايمان بيعتكم هذه بشيء ، فغضب جعفر ودعا به وجرده وضربه بالسياط ومدت يده حتى انخلعت كتفه » . وذكر ابن الجوزي ان الامام ضرب سبعين سوطا لاجل فتوى لم توافق غرض السلطان .

ودعوى العامة في الاحتفاظ بالدين قيامهم على شيخ الاسلام بن تيمية في القرن الثامن بأنه خالف الدين في كتبه ومجالسه فاخذوا في تشريده وسجنه مرات اعواما طويلة اذ اقنع عامة العلماء عامة الامراء بأنه مبتدع لا سبيل الى ايقاف تياره الا باخفائه عن اعين القوم مع ان ما دعا اليه الامام هو لب اللباب مما قال به جمهور اكابر علماء الامة وتآليفه ومصنفات تلامذته الاعاظم شاهد عدل مدى الدهر بأن اعداءه من العامة قاوموه باسم الدين من اجل الدنيا .

ودعوى العامة في الاستمساك بعرى الدين قيامهم على ابن حزم الاندلسي المحدث الفقيه الفيلسوف لما مال عن رأي محمد بن ادريس الشافعي في الفقه الى قول اصحاب الظاهر مذهب داود بن علي ومن اتبعه من فقهاء الامصار ونقحه ونهجه وجادل عنه فتألأ العامة من الفقهاء على بغضه . قال ابن بسام في الذخيرة « ردوا قوله واجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو اليه والاخذ عنه فاخذ الملوك يقصونه عن قربهم ويسيرونه عن بلادهم الى ان انتهوا به منقطع اثره بتربة بلدة من « بادية لبلة » (بالاندلس) وبها توفي سنة ست وخمسين واربعمائة وهو مواظب على التأليف وبث الدعوة والاكثار من التصنيف حتى كمل من مصنفاته في فنون من العلم وقر بعير لم يعد اكثرها « بادية لبلة » وحرق بعضها باشبيلية ومزقت علانية .

ودعوى العامة في نصرة الدين قيام العامة الفقهاء على الامام شهاب الدين السهروردي الفيلسوف الاصولي الخطيب « لانه لم يناظر احدا الا بزه ولم يباحث محصلا الا اربى عليه » قال ابن ابي اصيبعة انه ناظر الفقهاء بحلب ولم يجاره احد فكثر تشنيعهم عليه فاستحضره السلطان الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب واستحضر الاكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليسمع ما يجري بينهم وبينه من المباحث والكلام فتكلم معهم بكلام كثير وبان له فضل عظيم وعلم باهر وحسن موقعه عند الملك فعملوا محاضر بكفره وسيروها الى دمشق الى الملك الناصر صلاح الدين وقالوا ان بقي هذا فانه يفسد اعتقاد الملك الظاهر وكذلك ان اطلق فانه يفسد اي ناحية كان من البلاد . وزادوا عليه اشياء كثيرة من ذلك فبعث صلاح الدين الى ولده يقول له لابد من قتله فاختار الامام ان يترك في مكان

مفرد ويمنع من الطعام والشراب الى ان يلقى الله تعالى ففعل به ذلك في اواخر سنة ٥٨٦ بقلعة حلب وكان عمره نحو ست وثلاثين سنة وقيل ان عامة من العلماء افتوا في دمه حتى قيل ان الملك الظاهر سير اليه من خنقه وانه بعد مدة نقم على الذين افتوا في دمه وقبض على جماعة منهم واعتقلهم واهانهم واخذ منهم اموالا عظيمة .

ودعوى الخوف على الدين دعت العامة الى اثارة الافكار على سيف الدين الآمدي شيخ المتكلمين في زمانه المتوفي سنة ٦٣١ قال الذهبي انه نسب في مصر الى دين الاوائل وكتبوا محضرا باهراق دمه فهرب وسكن حماة ثم تحول الى دمشق فولاه الملك المعظم ابن العادل تدريس المدرسة العزيزية ولما ولي اخوه الاشرف موسى عزل عنها ونادى في المدارس من ذكر غير التفسير والحديث والفقه او تعرض لكلام الفلاسفة نفيته فاقام سيف الدين الآمدي خاملا في بيته الى ان توفي . ومن العادة ان يعمد الملوك الى ما يريحهم فاذا رأوا العامة حانقين على الفلسفة والفلاسفة منعوها وشردوهم واذا شاهدوا العامة يميلون الى احد المذاهب ارهقوا ما عداه ارضاء لهم . وقد حبس الحافظ جمال الدين المزي من اصحاب ابن تيمية لقراءته فصيدة في الرد على الجهمية من كتاب افعال العباد للبخاري تحت قبة النسر بالجامع الاموي بدمشق فلم ير نائب السلطان ارضاء للفريقين الا ان نادى في البلدان الا يتكلم احد في العقائد ومن عاد الى ذلك حل ماله ودمه ونهبت داره وحانوته فسكنت الامور .

ومن جملة من سفك دمه في زمن السلاجقة عين القضاء الميانجي بهمذان كان من اكابر الائمة وقد خلف ابا حامد الغزالي في المؤلفات الدينية فحسده جهال الزمان المتلبسون بزي العلماء ووضعهم الوزير عليه فقصدوه بالايذاء وافضي الامر به الى ان صلبه الوزير بهمذان .

هذا طرف من حال العامة مع الدين ولو استقصيت لأتيت من امثال هذه الامثلة بالعشرات ومن دخول العامة في مصاف الخاصة ما هو من المضحكات المبكيات . قامة لعامتها ان يدخلوا في كل حال من احوالها متى احبوا و يقوموا على كبار ائمتها وفلاسفتها بدعوى ما يقال له دين في نظرهم ايرجى لها ان تنشط من عقالها وقد استحكمت فيها هذه الملكات على مر السنين والاجيال . نعم عومل خاصة الخاصة على ما رأيت تلك المعاملة الجافية في العصور السالفة ايام كان للعالم كلمة نافذة وللناقدين من اهل البصيرة قول يسمع فما بالك في القرون الاخيرة وقد ركدت من العلم ريحه وخبت مصابيحه ولو كان في البلاد الاسلامية من يحصي لها كل يوم ما يقع من استيلاء الجهل على العلم واعنات نفوس الراغبين في الاصلاح والتجديد واهانة زعماء الحرية ومطلق الفكر لألفت المجلدات الضخمة وما وفيت الحال حقها من الوصف .

ناهيك بعامة بلغ بهم الاسترسال في الجهل ان حرموا بفتاواهم القهوة والشاي لما عرفا ولو لم يغلب العلم الجهل بعد و يسقط العمل بتلك الفتاوى بحكم العادة والرغبة في المفيد لكان خاصة الامة الى اليوم يتحامون تناول اقداح ذينك المشروبين واكوابها . ومثل ذلك لقي التبغ والتنباك حين انتشارهما فباين العامة الخاصة في تحريمها وكتبت في ذلك الرسائل والاسفار وما اغنت وبقي الحكم للزمن في حل هذه المعضلة التي اقامت قيامة العامة وجعلت لهم حديثا تلوكه السنتهم زمانا .

ولعمري ماذا اعدد من هذه الوقائع من اصرار العامة من العلماء على القول بتحريم المعاطف (جاكيتات) والسراويل والصدر ولبس الاحذية والطربوش والقبعة لانها من لبوس الافرنج وصنعهم ثم كاد يؤلف استعمالها كلها استحسانا لها وتقديرا لنفعها . كل هذا مما يبرهن على صدق خاصة الامة في شكاويهم من العامة . فان ارتعش علماء الغرب اليوم لذكرى ما وقع للعالم غاليليو لما قال بحركة الارض اليومية وللحكيم فيفاني لمخالفته القوم في طبيعة الخالق واعناتها وقتل الثاني شر قتلة فان مؤرخي المسلمين لهم مما أعنتوا من علمائهم امثلة يرمض ذكراها سواء كان في القرون الوسطى او الحديثة وان تكن الامة من حيث ارتقاؤها العقلي والعملي لم تبرح بعد كأنها في صميم القرون الوسطى ظلمات بعضها فوق بعض .

أيها المترجم.. أيها الخائن !

بقلم : محمد عبد الله الشفقى

الترجمة ليست عملا هينا ، ولكنها مغامرة خطرة ، أسهل ما فيها أن تعرف معانى الكلمات كما وردت فى القاموس ، وأصعب ما فيها أن تفهم هذه الكلمات بصورتها الصحيحة التى جاءت فى السياق ، وان اختلفت عن القاموس !.

وللايطاليين قولهم المأثور traduttore — traditore ومعناها : المترجم ـ خائن . ولعلهم قصدوا بذلك ضربا من الترجمة لا تنقل المعنى المقصود بأمانة ، بل تذهب أحيانا الى أبعد من هذا فتؤدى الى سوء فهم . وقد يسفر سوء الفهم ، فى مجال السياسة والعلاقات الدولية ، عن كارثة . ولعل أكثر الحكايات اثارة فى هذا المجال ما قيل من أن ترجمة انجليزية للفعل اليابانى Mokusatsu جعلت أمريكا تلقى قنابلها الذرية على هيروشيما ونجازاكى !كان الامريكيون قد طالبوا اليابان بأن تستسلم فورا ، دون قيد أو شرط . وردا على هذا استخدم رئيس وزراء اليابان ، سوزوكى ، الفعل اليابانى mokusatsuهذا الفعل قد يعنى « لا تعليق » أو « القتل بالصمت » سارع الحلفاء الى الأخذ بالمعنى الثانى . وبدا وكان رئيس الوزراء اليابانى قد رفض الانذار باحتقار واعتبره « غير جدير بالاهتمام . » غير أن الانباء أكدت أن رئيس الوزراء انما كان يعنى أن حكومته قررت عدم اتخاذ أى اجراء وعدم التعليق ، الى أن يتم استيضاح المقصود من وراء المطالبة بالاستسلام دون قيد أو شرط .

يروى أيضا أن وزارة الخارجية الامريكية تلقت يوما مذكرة فرنسية تبدأ بعبارة nous demandons وكان الفهم الحرفى لهذه العبارة هو « نحن نطالب » « أو نحن نطلب » we demand . وتساءل المسؤولون الامريكيون فى عصبية « وهل من حق الفرنسيين أن يعتبروا هذا مطلبا ؟ هل من حقهم أن يطالبوا بـ ...؟» لكن ترجمة المعنى المقصود كانت تعنى بأدب « نحن نسأل » أو « نحن نرجو » we reg uest . ونشأ يوما سوء تفاهم بسبب ترجمة من الروسية الى الانجليزية . فقد وردت عبارة تتناول اعادة تسليح المانيا الغربية جاء فيها ne dudyet miritsya ، وترجمت الى الانجليزية لن تسمح will not tolerte . ثم تم التوصل فى النهاية الى ترجمة أكثر دقة ، فاذا بالعبارة التى تبدو حادة واستفزازيةتصبح « لا نتصور » أو « لا نستطيع أن نسلم ... » with will not reconcile

وكادت أزمة دوبلوماسية تنشب يوما مع فرنسا داخل الأمم المتحدة لأن ثمة فقرة اشارت الى أن التلويح بانهيار أوروبا الغربية أمر متوحش « drutal » !

كانت الكلمة الانجليزية ترجمة حرفية للكلمة الفرنسية brutal ثم خف التوتر عندما قيل أن الكلمة فى التعبير الفرنسى ترادف الكلمة الانجليزية « خطير » serious وليس « متوحش » .

هذه الحكايات كلها وردت على لسان ماريو بى mariopei فى الفصل الذى تناول فيه قضية الترجمة بكتابة « قصة اللغة the story of language يؤكد هذا كله أن الترجمة الحرفية أى الترجمة من القاموس بلا احتراس ، قد تسفر عن نقل غير أمين . ان الكلمة انما تكسب معناها من السياق وليس من القاموس. ولو كان القاموس هو الوسيل المضمونة للترجمة لأمكن وجود آلاف المترجمين طالما أنهم اشتروا قاموسا سمينا .

قد تكون للكلمة اذن عشرات المعانى ، والمهم هو الغوص وراء المعنى المقصود . أن العبارة الاسبانية « los toros bravos » لا تعنى حقا « الثيران الشجاعة » ففى هذا ترجمة حرفية لكلمة brvos ، وانما المقصود الثيران الطائشة ، أو المجنونة أو حتى الوضعية .

فى محكمة اسرائيلية

لنعد الى السياسة . وسنصادف هذه المره صورة للترجمة تكاد أن تكون تطبيقا حرفيا للعبارة الايطالية « المترجم - خائن » والقصة هذه المرة من كتاب من تأليف فيليتشيا لانجار Felicia Langer وظهر بعنوان « رأيت بعينى » أو اذا شئت « شاهد عيان » with my own eyes وكان قد ظهر أول ما ظهر بالعبرية ثم ترجم الى الانجليزية والفرنسية وربما إلى لغات أخرى . وهو يحكى الأوضاع التى سادت الأراضى الخاضعة للاحتلال الاسرائيلى فى الفترة من ١٩٦٨ حتى ١٩٧٣ .

ويعنينا هنا فصل بعنوان « الترجمة » وهو يتحدث عن كيف لعبت الترجمة دورا أخر بفلسطينيين شبان كانوا يحاكمون أمام محكمة عسكرية اسرائيلية .

كان ذلك فى السنوات العصيبة التالية على حرب الأيام الستة ... فى نهاية عام ١٩٧١ على وجه التحديد . ففى ديسمبر من ذلك العام قبض على ستة من الشباب الفلسطينى (أحدهم فى السادسة عشرة من عمره) من القدس ورام الله .

وجهت اليهم تهمة الانتماء الى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . ووجهت إلى بعضهم تهمة توزيع أو حيازة منشورات تشجب احتلال ايران لجزر الخليج العربى . اقتيد المحتجزون الى سجون رام الله ، كفر يوناح ، تل الموند ، الرمله حوكموا أمام محكمة عسكرية .

قامت فيليتشيا لانجار بتمثيل المتهمين . وفى جلسة ١٠ مايو كان عزرا تزور يمثل الاتهام . وهو أيضا الذى أخذ أقوال المتهمين فى مركز الشرطة . كان المتهمون قد كتبوا اعترافاتهم وقام تزوز بترجمتها الى العبرية . ولم يكن القض[illegible] حكمة العسكرية يعرفون العربية ، لذا اعتمدوا عل[illegible] رجمته العبرية للاعترافات العربية . وفى نفس الوقت [illegible]ت الاعترافات العربية موجودة فى ملفات القضية .

استند القضاء الى الاعترافات كما هى مترجمة الى العبريه (وهى اعترافات تمت تحت التعذيب) واعتبروها دليلا فى القضيه . وكان أن طلبت فيليتشيا لانجار أن تتاح لها فرصة مراجعة الترجمه كلمة كلمة . وأجابها القضاة الى طلبها ، رغم أن ذلك كان سيستلزم وقتا طويلا . . اقتضى الأمر أن يقرأ تزور النص العربى الأصل أمام المحكمة ، وتمسك هى بالترجمة العبرية لتراجع دقتها . وهنا يحكم مترجم المحكمة بما اذا كانت ترجمة تزور هى الصحيحة أم ترجمة لانجار .

والى القارىء عينات من النتيجة :

(١) قال أحد المتهمين « وقال لى أنه سيجد نفسه يوما وقد تعاطف مع المنظمة » فاذا بتزور يترجم تعاطف الى « وقد أصبح عضوا فى المنظمة » .

(٢) جاء فى الأصل « وقال لى أنه سيعرفنى برجل يرتب الأمر فى القدس » وترجمها تزور الى « رجل يدير لى المنظمة فى القدس »

(٣) جاء فى الأصل « أوفدنى عصام اليه حتى يعرفنى بالوظيفة » وترجمهاتزور الى « حتى يعرفنى بالمنظمة ويساعدنى فيها » .

(٤) وجاء فى اعترافات متهم آخر « قال لى ، اتفقنا ، وقد تنضم الى المساكين والتعساء » وترجمها تزور « ستنضم الى المساجين » .

بعد المراجعات المستفيضة وافقت المحكمة على تصحيح الترجمة وبدأت لانجار ، ممثل الدفاع ، توجه أسئلتها الى تزور ، ممثل الاتهام : - س : مستر تزور ، اليس صحيحا أنه لاتشابه بين الكلمة العربية « متعاطف مع ... » وكلمة « عضو فى ... » ؟

ج : هذا صحيح ، لكن ...

س : لا أسمح بلكن » . كل ما فى الأمر أنك أردت الصاق التهمة به وكنت تأمل أن لايراجع أحد الترجمة ، اليس كذلك ؟

ج : ليس هذا صحيحا .

س : وأين عثرت على كلمة « منظمة » ، رغم أن سلحب (أحد المتهمين الفلسطينيين) لم يذكرها ؟ لقد كررتها مرتين ، وعن عمد ، اليس كذلك ؟

ج : ليس صحيحا ، وماذا تقصدين ، الم يقصد « منظمة » حين أشار الى « عمل » ؟

س : اذن فنحن محقون ان قلنا أنك لم تترجم كلماته وانما « خمنت » معناها ، ترجمت فهمك لما يعنيه بها ، ولم تترجم ما قاله حقا ، اليس هذا صحيحا ؟

ج : ليس صحيحا ، ولماذا تجعلين من الحبة قبة ؟ هل المسألة كبيرة الى هذا الحد ؟

س : وكيف تترجم كلمة محمد عودة « المساكين » الى « المساجين » هل القضية هنا قضية المعنى المقصود أيضا ؟

هنا تدخل رئيس المحكمة وأوقف الأسئلة وغادر تزور منصة الشهادة !

كارتر ومترجمه

لعلها من أحدث قصص سوء التفاهم . فوقائعها ترجع الى أواخر عام ١٩٧٧ ومطلع عام ١٩٧٨ . ومشاهدها الأولى تقع فى مطار وارسو . وأطرافها الرئيس جيمى كارتر ، ومترجمه الفورى ، والمسئولون ، وجماهير الشعب البولندى التى كانت فى استقبال كارتر خلال زيارته لبولندا فى ٢٩ ديسمبر من عام ١٩٧٧ .

ولعلنا نستطيع تقسيم القضية الى ثلاثة مشاهد ، كما نشرتها الصحافة فى ذلك الوقت :

المشهد الأول : ـ

وعنوانه « عندما أخطأ المترجم فتحدث عن الرغبات الجنسية بدلا من أمانى شعب بولندا »

تتحدث صحف العالم عن ستيفن سيمور ، مترجم الرئيس كارتر الى اللغة البولندية ، الذى اصطحبه معه أثناء زيارته الرسمية لبولندا . فقد تسبب فى فاصل كوميدى مثير عندما وقف الرئيس الأمريكى يتحدث عن أمانى الشعب البولندى فى المستقبل .. وكانت مفاجأة عندما أخذ المترجم يحدث الحاضرين عن « الرغبات الجنسية العارمة » مما تسبب فى عاصفة من الضحك والقهقهة .. وعندما قال كارتر ، وهو يتحدث عن الولايت المتحدة ، « لقد تأسست دولتنا » .. حولها المترجم الى « لقد ترنحت دولتنا » .. ولما قال الرئيس الأمريكى .. « ان بولندا هى الوطن الأصل لحوالى ٦ ملايين أمريكى » .. اذا بالمستر سيمور يقول « ان بولندا هى الوطن الأم لحوالى ١٠ ملايين أمريكى .. » وكان طبيعيا أن تجرى بسرعة عملية تغيير للمترجم . وقيل ان وزارة الخارجية الأمريكية استغنت عن خدماته نهائيا وخاصة بعد أن وصف البولنديون لغته البولندية بأنها غير عصرية وقالوا انها لغة قديمة ... مجلة (أكتوبر) المصرية عدد ١٩٧٨/١/٨

المشهد الثانى : ـ وعنوانه « المترجم يتحمى باللائمة على الطقس » نيويورك ١٠ يناير ١٩٧٩ .

فى مقابلة صحفية مع ستيفن سيمور نشرتها نيويورك تايمز قال سيمور ان الأخطاء مرجعها عدم حيازته لنص (خطاب كارتر فى مطار وارسو) سلفا ،ومرجعها أيضا سوء الأحوال الجوية . وكان استيفن سيمور ، المترجم الفورى بوزارة الخارجية الأمريكية ، موضع سخرية بسبب أخطائه فى الترجمة البولندية لكلمة الرئيس كارتر لدى وصوله الى وارسو .

وذكر سيمور ل « نيويورك تايمز » أنه اطلع على ملاحظات المستر كارتر للمرة الأولى بعد أن لمست طائرة الرئيس مطار وارسو فى ٢٩ ديسمبر ، حين أعطاه أحد رجال الأمن نسخة من النص .وقال للتايمز« لم تكن هناك سوى دقائق ويبدأ الرئيس فى الكلام . ولم يحتج لى الا استعراض الصفحة الأولى فقط . »

« ويملؤنى فخرا ما أنجزته فى ظرف صعب كهذا . يملؤنى فخرا ما أنجزته رغم أن وجهى كان يعانى من برودة وكانت يداى تعانيان من التجمد والخدر . وكنت غارقا فى مياه المطر . ما جعلنى أخفق هو عدم وجود نص ، والأحوال السيئة تماما . »

وقد غيروا مستر سيمور عندما عقد الرئيس كارتر مؤتمره الصحفى فى اليوم نفسه . وقال سيمور للتايمز انه لم يبلغ بأمر التغيير وانما قال له المسئولون الأمريكيون انه قد تم احلال بعض البولنديين محله لأنهم غير متأكدين ما اذا كان سينتهى من (ترجمة) المباحثات الرسمية قبل بدء المؤتمر الصحفى

(الاسوشيتدبرس)

المشهد الثالث : ـ وعنوانه « رسالة خاصة لمترجم سيء الحظ » .

رغم أن ستيفن سيمور مترجم اللغة البولندية الخاص بالبيت الابيض قد تسبب لسوء الحظ فى اشكالات واحراجات وارتباكات أثناء زيارة كارتر لوارسو فى الأسابيع الأخيرة .. وبرغم الهجوم الذى تعرض له سيمور حين جعل البولنديين يضحكون لسوء الترجمة أثناء الكلمات التى القاها الرئيس الأمريكى ،الا أن مفاجأة سارة كانت فى انتظار المترجم الخاص بعد أن تلقى منذ أيام رسالة مكتوبة تقول :

« ولا يهمك ـ لا تجعل الانتقادات المفرطة مصدرا لقلقك .. فكل الذين حللوا ترجمتك فى وارسو قالوا ان أخطاءك كانت مجرد هفوات .. ومع ذلك لقد ساعدت على جعل زيارتى لبولندا إنجازا ناجحا وممتعا تشكرا لك » والتوقيع « صديقك جيمى كارتر » .. والوظيفة رئيس الولايات المتحدة . وطبعا أسرع مستر سيمور الى أحدث القواميس يجدد بها معلوماته عن اللغة البولندية ! ـ وكالات الأنباء .

مؤشرات قديمة جديدة في دنيا الثقافة والأدب

بقلم الدكتور يوسف بكار
جامعة اليرموك - اربد - الأردن

- ١ -

لابد للمتتبع الجاد والعارف الحاذق والناقد الموضوعي الواعي لحالنا الادبية والثقافية والتعليمية في هذه الايام من أن يتذكر ، بعد ان يطلع على المقدمة الهامة التي وضعها العالم والناقد القديم ابن قتيبة الدينوري ، من القرن الثالث الهجري ، لكتابه المعرفة « ادب الكاتب » مثل : « أيعيد التاريخ نفسه ؟ » و (ما أشبه الليلة بالبارحة ! » . وان تسأل : لماذا ؟، يأتيك الجواب : لأن في هذه المقدمة ما يصدق على جوانب كثيرة من واقعنا الثقافي والادبي المعاصر الذي اختلط فيه « الحابل بالنابل » ، ونبذت المنابع والاصول ، فأصبحنا خير مصداق للحديث الشريف « إن المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا أبقى » .

لقد لاحظ ابن قتيبة في ذلك الزمن السحيق على ما شهد من انشطة وتيارات علمية وفكرية وادبية جمة ، كهذه التي نشهدها في هذا الزمان . لقد لاحظ ، وهاله ما لاحظ ، جوانب وامورا ما احرانا نحن ان نلاحظها ونقف عندها نتدبرها ونجب التروي فيها اكثر فأكثر ، او نتلافاها قبل ان يفوت الاوان وتضيع الفرصة .

لست ارغب في أن اسوق ما لاحظ ابن قتيبة جميعا ، بل اكتفي ، للتذكير والموازنة بتسجيل ثلاث ملاحظات مما لاحظ الرجل دونما تفسير او تعليق ، لانها واضحة المعالم والسمات والمغزى ، سهلة التدبر والفهم :

قضايا حيوية

ـ ٢ ـ

الملاحظة الاولى عن حال الادب واهله والذين « اصابتهم حرفته » والمتلقين له . يقول ابن قتيبة :

« فاني رأيت اكثر اهل زماننا عن سبيل الادب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولاهله كارهين : أما الناشيء منهم فراغب عن التعليم ، والشادي (من حصل شيئا) تارك للازدياد ، والمتأدب في عنفوان الشباب ناس او متناس ، ليدخل في جملة المجددين (المحظوظين) ، ويخرج عن جملة المحدودين (المحرومين) . فالعلماء مغمورون ، وبكرة الجهل مقموعون حين خوى نجم الخير ، وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع اهله ، وصار العلم عارا على صاحبه ، والفضل نقصا .... والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق (بفتح اللام) ، وآضت المروءات في زخارف النجد وتشييد البنيان ، ولـذات النفوس في اصطفاف المزاهر ومعاطاة الندمان .... ، وجهل قدر المعروف ، وماتت الخواطر ، وسقطت هِمم النفوس ، وزهد في لسان الصدق وعقد الملكوت .

ـ ٣ ـ

اما الثانية ، فعن واقع الادب والادباء والكتاب وركونهم الى الراحة ، وايثارهم السلامة .

يقول الناقد القديم :

ـ « ... فاني رأيت كثيرا من كتاب اهل زماننا ، كسائر اهل زمانه ، قد استطابوا الدعة واستوطئوا مركب العجز ، واعفوا انفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكير ، حين نالوا الدرك (بفتح الراء) بغير سبب ، وبلغوا البغية بغير آلة ، ولعمري كان ذاك ، فاين همة النفس واين الانفة من مجانسة البهائم ؟ واي موقف اخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه ، وارتضاه لسره ، فقرأ عليه يوما كتابا ، وفي الكتاب : (مطرنا مطرا كثر عنه الكلأ) فقال له الخليفة ممتحنا له : وما الكلأ ؟ فتردد في الجواب وتعثر لسانه ، قال : لا ادري . فقال له ـ اي الخليفة ـ : سل عنه .. » .

ويقال ان الخليفة هو المعتصم ، وان الرجل هو احمد بن عمار بن شاذي ، ويروي ايضا ان الخليفة ، وقد كان امياً ، قال له : انا لله وانا اليه راجعون ، خليفة امي وكاتب امي !!

ـ ٤ ـ

واما الاخيرة ، فعن خطر من يدعون العلم ويزمزمون بشيء او اشياء شتى من ثقافة امة او اكثر من الامم الاخرى ويتشدقون بمعرفتها تشدقا وهم يجهلون كثيرا من اصول معارفهم هم ومقوماتها ، على الناشئة الاغرار واليفعة الاغمار . يقول ابن قتيبة :

ـ « فاذا سمع الغمر والحدث الغر قوله (قول المدعي) : (الكون والفساد) و (سمع الكيان) ، والكيفية والزمان والدليل ، والاخبار المؤلفة ، راعه ما سمع ، وظن ان تحت هذه الالقاب كل فائدة وكل لطيفة ، فاذا طالعها لم يحل (يظفر) منها بطائل .. »

× × ×

فهل جأر ابن قتيبة بهذا ـ وغيره ايضا ـ ترفا أو تحاملا ؟ وهل نسوقه نحن اليوم جزافا او انتقاصا ؟ لا . انه جزء من واقع نحياه ونتحرك في جنباته ونعيش لظاه . وإن يكن ابن قتيبة قد الف « أدب الكاتب » ، فماذا نحن فاعلون ؟!

الاستقلال العلمي

بقلم : الدكتور أحمد عساف

لابد للتطور الاقتصادي والاجتماعي بأن يتبع الاستقلال السياسي ليصبح الأخير ذات أي معنى .

والعلم في عصرنا الحاضر هو من المقومات الاساسية للبناء الاجتماعي والاقتصادي . فاذا أهمل ذلك سقطت جميع الاستقلالات معا . وللانتقال من عصر الجهل الى عصر العلم والمعرفة لابد ان توضع خطة مدروسة ، ولا يتم ذلك بطريقة عشوائية . والطريق الى الامام فقط يمر عبر العمل المنظم والتخطيط المدروس .

في التاريخ الانساني مثالان ساطعان نستطيع ان نتوقف عندهما لنتبين كيف انتقلت امم من عصر الجهالة الى عصر التقدم والمعرفة . المثال الاول في انشاء الدولة العربية الاسلامية والثاني في انشاء التقدم الاوروبي المعاصر . نستطيع ان نقسم مراحل الانتقال هذه في كلتا الحالتين الى اربع مراحل :

١ ـ الاحتكاك .

٢ ـ النقل والترجمة .

٣ ـ الهضم .

٤ ـ الابداع الذاتي .

١ ـ الاحتكاك :

في كلتا الحالتين بدأ عصر النهضة بالاحتكاك مع حضارات اخرى اكثر تقدما . ففي الحالة العربية كان الاحتكاك بواسطة الفتوحات الجديدة ، بحضارات سابقة وعلوم امم مختلفة مثل الحضارات اليونانية والفارسية والرومانية والهندية والصينية . اما في حالة الحضارة الغربية فقد بدأ الاحتكاك بالحضارة العربية الاسلامية في اسبانيا ، مصنفات البحر المتوسط والغزوات الصليبية . ففي كلتا الحالتين احتكت امم متخلفة بأمم اكثر تقدما وراعها الفارق بين الجهل والعلم وكان هذا حافزا على الخطوة التالية .

٢ ـ النقل والترجمة :

كان الاحساس بالفارق العلمي والحضاري حافزا على ترجمة الكتب العلمية والفكرية في كلتا الحالتين . ففي حالة الحضارة العربية الاسلامية انكب العلماء على ترجمة كتب الحضارات المذكورة ، وخاصة اليونانية ، الى اللغة العربية وحيث شهد عصر المأمون فترة من اعظم فترات التاريخ بنقل العلم والمعرفة ، وكانت الترجمة تعني بتوجيه من هم قادة الامة والدولة .

وفي الحالة الثانية ترجمت الالوف من الكتب العربية الى اللاتينية واللغات الاوروبية الاخرى .. وكان نقل الحضارة العربية الشغل الشاغل في القرون الثاني والثالث والرابع وكانت الكتب التي اعتمدت لدى الجامعات الاوروبية التي انشئت في تلك المرحلة نقلا عن نظام الجامعات العربي هي كتب ترجمت من اللغة العربية او الفت بتأثير كبير بما حوته تلك الكتب .

الهضم :

بعد الترجمة توفرت المعرفة العلمية لمن يريد الاطلاع . ففي حالة الحضارة الاسلامية لم تنتشر المعرفة انتشارا كافيا ، ولكن انتشرت بمقدار كان كافيا لبدء المرحلة الرابعة ..

اما في الحالة الاوروبية فقد توفرت العلوم بصورة اكبر وأعم وخاصة بعد اختراع الآلة الكاتبة ، فقد تم هضم العلوم العربية الى القرن السابع عشر ..

لكي تهضم اي امة اي ثقافة علمية او فكرية لابد ان تكون المعرفة بلغتها الاصلية ، لأن ذلك يساعد على ان تتعمق المعرفة في النفس الانسانية ويكون لها التأثير العميق المطلوب الذي يؤدي الى الابداع ..

اما المعرفة التي تقرأ من كتب بلغة غير لغة الطفولة واللغة التي تعودت النفس عليها في مرحلة التكوين واعتمدتها في اسلوب الحياة فان تلك المعرفة تكون

سطحية التأثير وفي غالب الحال لن تحدث التفاعل النفسي العميق المؤثر كما في حالة اللغة الام ، لأن جزءا من الطاقة الفكرية يكون مشغولا في هضم اللغة الجديدة بحد ذاتها والتعود عليها .. فيمكن تلخيص فوائد توفر المعرفة باللغة الأم على دون ذلك بما يلي :

أ ـ تكون المعرفة متوفرة لكافة القراء من المختص الى العام ، وبذلك تساعد على ظهور كوادر علمية جديدة ربما لم تظهر لو لم تكن تلك المعرفة غير متوفرة بتلك اللغة ..

ب ـ اعتياد تلك المعرفة في ثنايا العقل الانساني لحل مشكلات الحياة اليومية لذلك المجتمع ..

جـ ـ تغلغل تلك المعرفة في ثنايا النفس عبر الطريق اللغوي التي اعتادت عليه النفس منذ الصغر ما ييسر الاستيعاب والعمق والتفاعل المنتج ..

الابداع :

بانتهاء عملية الهضم يكون الابداع نتيجة ذاتية من الطبيعة الانسانية وبدون الهضم وتغلغل المعرفة في ثنايا الفكر لن يكون هنالك الابداع المطلوب بل يكون قاصرا بدرجة قصور الهضم ..

كان الابداع في الحالة الاسلامية موجودا ولكن عدم انتشار المعرفة انتشارا واسعا وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي الوقت الكافي لم يمكن المعرفة العربية من الابداع السريع المتلاحق .. وان وقفت على ابواب ذلك .. ولو امتدت فترة الاستقرار تلك الى عدة قرون اخرى ربما تحقق ذلك .

في اوروبا بدأ الابداع الذاتي في القرن السابع عشر وساعد مع ذلك اختراع الآلة الكاتبة مع استمرارية الاستقرار السياسي والاجتماعي الى حد ما ، اضافة الى البدء من درجة التطور العلمي والاسلامي والتي شكلت نقطة البدء .. اضافة الى ذلك لقد ساعد على دفع عجلة التطور العلمي التحديات التي حصلت عن طريق الحروب العالمية الاولى والثانية ..

لنقارن واقعنا العلمي بهذه المراحل التي ذكرتها ، ولنحلل مدى ما وصلنا اليه من التطور العلمي المطلوب .

أولا : لقد تم الاحتكاك لأمتنا التي كانت في جهل عميق بالحضارة الغربية منذ حوالي قرن . وتم ذلك عبر طرق مختلفة منها :

ـ الدراسات في الخارج .

ـ الاحتلال والاستعمار .

وسائل الاتصال الحديثة بما فيها المواصلات وأجهزة الاعلام .

لقد تحقق العامل الاول ، وكان تأثيره بالعمق المطلوب ولكن لكي تحدث النتيجة المطلوبة لابد من أن تحدث الخطوة التالية .

ثانيا : النقل والترجمة : للاسف لم يحدث هذا على النطاق المطلوب . ان معظم الترجمات التي حصلت في هذا القرن من الاحتكاك وان كانت نادرة الى حد ما متعلق بالادب ولا يخدم اي هدف ، بل كانت الترجمة تحصل بطريقة عشوائية تتراوح فيها الفائدة من ذات قيمة رفيعة الى دعائية .

ان هدفي من هذا المقال هو تبيان النقص الذي تعانيه المكتبة العربية من عدم وجود خطة مدروسة ومكثفة لترجمة الكتب العلمية الحديثة . الى اللغة الام .

والمطلوب الآن هو انشاء خطة عربية للترجمة العلمية ولا ينقص المال ولا الكفاءات وما ينقص هو التخطيط والتنظيم .

يتبع هذه الخطوة ـ ويخطط له سابقا ـ تعريب التعليم في الجامعات العربية وبهذا تنسجم الجامعة مع الواقع الذي تعيش فيه وتتجاوب معه .

ومن هذا تحقق الفوائد التالية :

أ ـ هضم المعرفة بالطريقة التي تؤدي الى الابداع كما ذكرت سابقا .

ب ـ يكون الاتصال ذاتيا بالتقدم العلمي الخارجي وتتم عملية النقل بصورة منظمة .

جـ ـ ستكون هجرة الكوادر العلمية نادرة في هذه الحالة وخاصة مع توفر التشجيع الداخلي .

ان هذا ممكن وسيؤدي الى الاسراع في التطور العلمي في البلاد العربية والانتقال من موقع التابع الذي يرمي له بالفتات والمخلفات الى الموقع المبدع الذي يساهم في بناء الحضارة الانسانية من موقع متقدم ، اضافة الى ما يوفره ذلك من استقلال علمي والذي سيؤدي بالتالي الى الاستقلال الاقتصادي والتقدم الاجتماعي الذي لابد منه للتخلص من التبعية والاحتلال .

ناقلات النفط العملاقة وقناة السويس

بقلم جورج حليم

منذ تأميم قناة السويس ، وبعد اغلاق القناة في حرب سنة ١٩٦٧ ، وهناك محاولة لتقليص أهمية قناة السويس كأحد الممرات المائية العربية ، وكانت إقامة ناقلات النفط العملاقة ، أحدى الوسائل لتحقيق ذلك .. فهل نجحت هذه المساعي ؟!

تنقل هذه السفن الضخمة المواد البترولية في صهاريجها المتسعة ، وهي تتميز عن سائر السفن بوجود المضخات المعدة لسحب البترلو وتفريغه على سطحها ، كما ان فيها عددا محدودا من القمرات لاقامة ضباطها وبحارتها ، ولا يسمح للركاب بالسفر عليها . وقد ازدادت حمولة اسطولناقلات البترول عالميا زيادة كبيرة ، بعد الحرب العالمية الثانية ، كما هو مبين بعد :

١٩٣٩	١١٥٨٦٠٠٠ طن
١٩٥٠	١٧١٧٤٠٠٠ طن
١٩٦٠	٤١٤٦٥٠٠٠ طن
١٩٧٠	٨٦١٤٠٠٠٠ طن
١٩٧٥	١٥٠٠٥٧٠٠٠ طن
١٩٧٩	١٧٤٢١٣٠٠٠ طن

وترجع الزيادة المطردة في حمولة اسطول ناقلات البترول الى الحركة الدائبة في بناء ناقتلا البترول في العالم ، نظرا الى الارباح الطائلة التي يجنيها اصحابها من وراء تشغيلها ، بصفة مستمرة ، على مدار السنة .

وتمثل حمولة اسطول نا‌‌قلات البترول ٤٢٪ من حملة الاسطول التجاري العالمي تقريبا ، وتعد ليبيريا واليابان وانجلترا والنرويج واليونان على الترتيب اولى دول العالم في نقل البترول ، وتقدر حمولة ناقلاتها بحوالي ٦٠٪ من الحمولة العالمية للنقالات .

الانتاج العالمي للبترول

وتتهافت شركات البترول على التعاقد على استئجار ناقلات البترول وهي لا تزال في طور البناء ، لمواجهة الزيادة الدائمة في الانتاج العالمي للبترول الذي قفز من ٤٦٧ مليون طن متري في سنة ١٩٤٨ الى ١٢١٥ مليونا سنة ١٩٦٢ و ٢٢٧٧ مليونا سنة ١٩٧٠ و ٢٩٨٦ مليونا سنة ١٩٧٧ بفضل اكتشاف آبار جديدة ، وزيادة استثمار الآبار القديمة في العالم اجمع وعلى الاخص في شمال افريقيا ومنطقة الخليج العربي اعتبارا من ١٩٤٦ حتى اصبح انتاج الدول العربية يمثل اكثر من ٣٠٪ من الانتاج العالمي للبترول .

الاحتياطي العالمي للبترول

يبلغ هذا الاحتياطي ، حسب آخر احصاءات الامم المتحدة ٧٤٥٨٧ مليون طن متري في ١٩٧٧ ، ويقدر احتياطي البترول في الدول العربية بحوالي ٥٥٪ من الاحتياطي العالمي ، ونصيب السعودية منه ٢١٪ والكويت ١٤٪ والعراق ٧٪ وليبيا ٥٪ وبقية الدول العربية ٨٪ ، هذا في حين ان احتياطي الاتحاد السوفيتي ١١٪ وايران ٩٪ والولايات المتحدة الامريكية ٦٪ وبقية دول العالم ١٩٪ من الاحتياطي العالمي للبترول .

تطور حمولة ناقلات البترول

● دخل البترول التجارة العالمية منذ حوالي مائة عا وكان ينقل ، في بادىء الامر ، في عنابر السفن داخل براميل خشبية استبدلت بعدئذ بخزانات حديدية اخذ حجمها في الزيادة تدريجيا ، وتبعا للفائدة المترتبة عن نقل البترول وزيادة انتاجه ، اتجهت الافكار الى استغلال عنابر السفن كخزانات لنقله ، وهذا لم يتيسر الا في سفن من الحديد بدلا من السفن الخشبية المستعملة قبل ذلك .

● من المحتمل ان تكون اول سفينة بنيت لنقل البترول في عنابرها الحديدية هي السفينة « جلوكوف »

سنة ١٨٨٥ وحولتها ٢٣٠٧ اطنان ، وكان وقتئذ استخدام الآلات البخارية والخزانات في السفن المعدة لنقل البترول في مراحله الاولى .

● اول ناقلة بترول محملة عبرت قناة السويس هي الناقلة « موركس » وحولتها ٥٠١٠ أطنان ، وعبرتها في رحلتها الافتتاحية سنة ١٨٩٢ ، بعد مفاوضات طويلة مع ادارة القناة .

● ارتفعت حولة ناقلات البترول ، تبعا لزيادة انتاجه ، من ٥٠٠٠ طن في ١٨٩٠ ، الى ٩٠٠ طن في ١٩١٠ ، و ٢٢٠٠٠ طن في ١٩٣٠ طن في ١٩٤٥ ، وكانت اقصى حولة لناقلات البترول التي تكون الاسطول العالمي تتراوح ما بين ٥٠٠٠٠ و ٦٠٠٠٠ طن للناقلة في ١٩٥٥ .

● تطورت صناعة بناء ناقلات البترول تطورا عجيبا ، وقفزت حولتها قفزات سريعة في الستينات بعد ان كانت الزيادة فيها تكاد تكون منتظمة على مدار السنين . فارتفع تبعا لذلك عدد السفن التي عبرت القناة السويس وتجاوز عرضها ٣٠ مترا من ٣٧ سفينة في ١٩٥٥ الى ٣٥٧ سفينة في ١٩٦٠ ، ثم الى ٣٠٩١ سفينة في ١٩٦٥ ، وزاد هذا العدد بدرجة كبيرة في السنوات التي اعقبت عودة الملاحة في القناة ، بينما ارتفع عدد ناقلات البترول التي لا تستطيع عبور القناة ، بسبب ضخامتها ، من ١٠ ناقلات في ١٩٥٥ الى ١٧٠ ناقلة في ١٩٦٠ و ٦٠٠ ناقلة في ١٩٦٥ و ٧٣٨ ناقلة في ١٩٧٥ و ١٠٢٢ في ١٩٧٩ .

● تتزعم اليابان صناعة بناء السفن في العالم ويبلغ انتاجها ٤٥٪ من الانتاج العالمي وتليها السويد ثم ألمانيا الاتحادية فاسبانيا ففرنسا .

ناقلات البترول العملاقة

● تتنافس الترسانات العالمية في ميدان بناء السفن العملاقة ، فبنت احداها ناقلة حولة ١٥٠٠٠٠ طن ، وبنت ترسانة يابانية ست ناقلات حولة كل منها ٣١٢٠٠٠ طن ، وبنت اخرى ثلاث ناقلات حولة كل منها ٤٨٤٠٠٠ طن تعد اكبر ناقلا بترول في العالم ، هذا في الوقت الذي تقوم فيه بعض بالترسانات العالمية بدراسات لبناء ناقلات حولة مليون طن .

● الناقلة « ايدميتسو مارو » حولة ٢١٠٠٠٠ طن بنيت في اليابان في سبعة شهور ، ويبلغ طولها ٣٤٢ مترا وعرضها ٥٠ مترا ، وغاطسها ٥٨ قدما (١٧,٦٥ مترا) وسرعتها ١٦,٣٥ عقدة في الساعة ، وعدد افراد طاقمها ٣٢ فردا ويبلغ ثمنها حوالي ١٥ مليون دولار ، والناقلة « نيسي مارو » حولة ٤٨٤٣٣٧ طنا بنتها الترسانة اليابانية ايهي « IHI » سنة ١٩٧٥ ويبلغ طولها ٣٧٩ مترا وعرضها ٦٢ مترا وعمقها ٣٦ مترا وعمقها ٣٦ مترا وغاطسها ٩٢ قدما (٢٨,٢) مترا ومحركها الرئيسي توربيني قدرته ٤٥٠٠٠ حصان وسرعتها ١٤,٧ عقدة في الساعة ويتكون طاقمها من ٣٤ فراد فقط ، والناقلة مزودة بأجهزة لمنع الانفجار والتصادم والجنوح ، وتنظيف مستودعاتها اوتوماتيكيا ، والثبات التام على سطح الماء ، وتسلم إشارات من الاقمار تمكنها من تحديد موقعها بدقة متناهية واختيار الطريق الملاحي الامثل .

● عبرت قناة السويس في اول يونيو ١٩٨١ ناقلة البترول السويدية العملاقة « سي ساجا » وحولتها القصوى ٣٥٧٠٠٠ طن ، وتعد اضخم ناقلة عبرت القناة منذ انشائها ، ويبلغ طولها ٣٦٠ مترا وعرضها ٦٥ مترا وغاطسها ٩٠ قدما .

● يبين الجدول التالي عدد وحولة ناقلا البترول العربية التي عبرت قناة السويس في ١٩٨٠ . وجدير بالذكر بانه عبرت القناة خلال هذه السنة ثلاث ناقلات بترول سعودية وناقلة كويتية حولة كل منها اكبر من ٢٠٠٠٠٠ طن ، وتمثل حولة ناقلات البترول العربية التي عبرت القناة ٩٪ من الحمولة الكلية لناقلات البترول العابرة للقناة في نفس السنة .

الترتيب	الدولة	العدد	الحمولة الصافية طن
١	السعودية	١١١	٢٥٦٢٠٠٠
٢	الكويت	٤٤	١٦٦٣٠٠٠
٣	العراق	٢٢	١٥٥٠٠٠٠
٤	المغرب	٦٨	٩٩٤٠٠٠
٥	مصر	٧٦	٥٠٦٠٠٠
٦	الجزائر	١٥	٢٠٨٠٠٠
٧	تونس	٢٩	١٩٩٠٠٠
٨	الامارات العربية	٣	١٩٨٠٠٠
٩	قطر	٢	١٣٥٠٠٠
١٠	اليمن الجنوبية	٢	٣٠٠٠

وتلطخ وجه الحب

امضي في الزحمة لا أتبين طريقي .. تعصف في داخلي افكاري المشوشة .. اختلط على كل شيء .. الحب والكراهية .. الصح والغلط عاملت الحياة والناس بعفوية وبحب،لم أخجل أن اعلن للملأ افكاري كنت اصخب .. امرح .. لا أستحي أن اعلن حقيقة مشاعري ... نعم أحب حمدي وليعرف الجميع هذا .. لم اجد في الحب جريمة تكرهني أن اخفي علاقتي بحمدي .. وضعت يدي في يده واخذت أجوب معه كل مكان ... نعم انا فتاته واحب انتمائي اليه ...

بعد تخرجنا من كلية الهندسة .. وجد حمدي عملا في احدى الشركات.فرصة العمل امام المهندسة اقل بكثير منها امام المهندس، رغم اننا تخرجنا بنفس التقدير .. جيد .. كانت سعادتي كبيرة وانا اتابع نجاح حمدي في عمله .. وفوزه باعجاب رئيسه .. ولكن لم املك ان امنع شعورا بالحزن غمرني وحمدي يخبرني ان الشركة اختارته ليكون على راس العمل التابع لها في الصحراء الغربية .. وسافر حمدي ... وبعدها بفترة وجدت عملا في شركة صغيرة وكتبت لحمدي رسالة ... ابثه فيها أشواقي.وفي نهاية الرسالة التي حملتها كل احساساتي المشتاقة الى حبيبي .. اخبرته اني وجدت عملا .. وانه حان الوقت لأن نكون معا ولانفترق .. باختصار خطبته لنفسي .. وشعرت بكثير من الرضاء والفرح وانا القي بالرسالة في صندوق البريد .. لقد قلت فيها كل افكاري واحلامي بلا خجل ولامواربة .. وبلهفة طفقت أنتظر رده على رسالتي .. لابد ان كلماتي الصريحة التي حملتها حقيقة عواطفي ستفجر فيه الجراة وتدفعهليكتب الى بنفس الصدق .. كان دائما شحيحا بكلمات الحب .. يستحي ان يعلن بالكلمات حقيقة مشاعره ... لكم انا مشتاقة لكلمات حب كبيرة حلوه ..... واخيرا لاح ساعي البريد .. يحمل رسالتي التي انتظرتها بشوق . وبيد مضطربة مزقت الغلاف .. واذ بالكلمات تمزق كل احلامي .. وتبتر احساساتي وتلطخ وجه الحب.يقول .. انه لم يعدني بشيء .. ولايفكر في الزواج لسنوات قادمة.انه يحلم فقط أن يبني مستقبله ويحصل على الدكتوراة .. وفي نهاية الرسالة يتمنى لي التوفيق مع الرجل الذي سيتقدم لي في المستقبل لانه قطعا سيسعدني أكثر منه ... وضاعت من عيوني بقية الكلمات .. كفاية ياقاتلي لقد فهمت كل شيء ..

وسكن داخلي سؤال كبير .. لماذا تخلى عني ..

وتغيرت .. حتى تعابير وجهي تغيرت .. لم اعد ندى التي كنتها ..

فقدت حماسي وحيويتي .. كنت من قبل شعلة من التوقد والحماس .

ضحكتي مجلجلة خطواتي سريعة .. بل كنت أمشي وانا أقفز وأتنطط ..

لقد كبرت مرة واحدة ..ثقلت خطواتي وما عاد شيء يشدني وفقدت القدرة على التسامح والحب .. ولم تمض أشهر قليلة حتى عرفت من زميل مشترك لنا .. أن حمدي تزوج من احدى قريباته .. وعاد الجرح يدمي ولأعيش في عذاب ... ومن أجل ألا أقتل نفسي غما .. أغرقت نفسي في العمل وقررت ألا ادخل في علاقة حب جديدة .. يكفيني مالقيت من أحب الناس الى نفسي من غدر .



أري الاعجاب في عيون زملائي ورؤسائي للنشاط والجدية التي تتسم بها تصرفاتي وعملي .. لو يعرفون الحقيقة في أن وراء هذا محاولة نسيان قصة حب فاشلة تركت بصماتها فوق روحي ..

وفي يوم كنت قد تخلفت في المكتب لأنجز رسومات طلبها المدير .. واذ بزميل لي يتخلف معي هو الآخر .. وبعد مقدمات وأسئلة لاحد لها .. سألني إن كنت مرتبطة بانسان ما .. قلت بسخرية .. الحمد لله لا اعرف احدا .. فوجئت يقول اذا كنت اقبل به زوجا ..

جمدتني المفاجأة .. قلت وكأني أهم أن اضربه .. ونوال حبيبتك .. التي تكلمها في التليفون .. تواعدها كل يوم في مكان لقاء ..نوال التي تأتي الى هنا تنتظرك بالساعات لتخرجا معا .. نوال التي اعتدنا أن نترك لك الغرفة وانت تكلمها عبر أسلاك التليفون حتى لا تحرجنا كلمات الحب الكبيرة التي تغدقها عليها بلا خجل .. كل هذا الحب الذى تحمله لها في داخلك أين ذهب .. مجرد كلمات لاتعنيها .. تتسلى بعواطفها البكر .. ماذا أصاب هذا الحب الكبير .. فوجئ بلهجتي وحماسي .. قطعا لم يفهم دوافع أسئلتي قال بعد أن تمالك نفسه قليلا .. الرجل منا يبحث عن زوجة تعطي حياته الأمان .. يتركها خلفه وهو واثق أنها ستكون أمينة على حبه وشرفه ..انا نشأت في اسرة لها مقاييس تحدد سلوك البنت ..لن أخفى عنك حقيقة أفكاري .. من حقك أن تسألي وأن تعرفي الحقيقة .. نوال تعمل في الصحافة مهنتها تحتم عليها أن تخرج في اي وقت .. تقابل نوعيات مختلفة من الناس .. قد يكون من بينهم السيء.ماذا أدراني أنها لن تسيء التصرف على المدى الطويل .. هل اقبل ان تجلس الى رجل على انفراد .. هل استطيع ان أثق في حسن تصرفها .. صعب على أن أقبل بهذا الوضع .. وصعب اكثر أن اتخلص من طريقة تفكيري .. قلت وأنا بحالة من الذهول .. إذن حكمت عليها حتى قبل ان تخطئ .. لم تعطها الفرصة لتغير لك افكارك المسبقة المجمدة في قالب التقاليد .. تركتها تتعلق بك .. تحبك .. تغزل لك من عواطفها شالا يدفء فراغ أيامك ... كانت خطيئتها التي لن تغفرها لها ابدا انها احبتك بصدق وعبرت عن عواطفها بعفوية بلا عقد .. ووثقت بك وتساهلت في الخروج معك .. ولم تكن المسكينة تدري أن صدقها هو النار التي ستلتهم احلامها .. تخطبني انا .. الغريبة عن عالمك .. ماذا تعرف عني ؟. عن افكاري .. احلامي .. هل أحمل لك في أعماقي حتى عاطفة اعجاب .. طبعا هذا كله لا يهمك .. المهم في تصورك الذي جسمه لك خيالك المريض .. اني انسانة جادة .. طاهرة .. لا افكر الا في عملي ..الآن وبفضلك عرفت لماذا تخلى عني حمدي؟.ينظر الى بدهشة .. يقول .. حمدي .. أقول بسخرية متعمدة أن اصدمه .. نعم حمدي حبيبي سابقا .. انه يشبهك .. بل توأم لك،ليس المهم أن تعرفه لحما وعظما .. ولكنك تعرفه جيدا لأنك تحمل أفكاره .. تتبنى مثله مفاهيم بالية توارثتها جعلتك تتعامى عن رؤية الحقيقة الساطعة لعينيك .. الحقيقة التي تطمس معالمها بارادة واعية .. حب نوال الكبير لك والذي لاتستحقه .. يقول بدهشة .. أنا لاأفهم ماذا تقصدين؟. اقاطعه .. حمدي هو الرجل الذي أحببته في يوم من الايام .. أيامها كنت مثل نوال مرحة ..

أحتضن الحياة بحسب .. وكأنني امتلك الدنيا بأسرها .. دائما اجد الوقت لأكون بجانبه .. معه .. ارى الدنيا من خلاله .. وخاف مني ...بالضبط كما خفت أنت من نوال .. ثم تزوج واحدة اخرى .. ما أدراه المغفل انها هي الاخرى بقايا امرأة احبت رجلا آخر ولم يتزوجها .. كأني بكم نعام تخبئون وجوهكم في الجهل حتى لاتواجهوا الحقيقة ..

هل سهل عليك ان تنسى نوال .. ابدا ستبقي تحت جفونك .. في مسامك .. كلماتها .. همساتها ستعيش معك لتزرق ايامك بالشوق اليها ..

عرضك على بالزواج بقدر ما أثار دهشتي وغضبي امدني بالعزاء ، الآن فقط عرفت لماذا تركني حمدي ؟. ليس لعيب في شخصي كما تصورت ..ولكن لانه مريض بمرض مزمن اسمه التقاليد البالية التي تسجن إرادة الانسان وعواطفه ورغباته ... ارفضك يازميلي .. وارجو ان ترفضك نوال اذا ماغيرت رأيك وخطبتها .. لأنك غير جدير بها ولأنها اقوى منك ..

تركته مكوما في مكانه بعد أن أمطرته بكمية كبيرة من الحقائق الصريحة ..وأنا واثقة أنه سيبقي اياما مذهولا بعد أن عرف أني مثل نوال عرفت الحب .

خرجت الى الدنيا بعد أن ارجأت عملي الى الغد .. خسارة الايام التي امضيتها اجتر وأمضغ أحزاني.

.. الحياة اروع من ان نترك الاحزان تعزلنا عنها .. هناك سهرة في منزل هيام وكنت اعتذرت عن الحضور لأنني كنت وبالغبائي اعيش منطوية على نفسي بعد هجر حمدي لي .. وبخطوات اقرب الى القفز كنت أهرع الى منزل هيام حتى لايفوتني شيء من الحفل ....

سلمى شلاش

مقالات في كلمات

■ اننا بالنهار جزء صغير من العالم الواسع الكبير ، ولكن العالم الواسع الكبير كله جزء من مدركاتنا حين ننظر اليه بالليل وهو في غمرة السبات ، أو في غمرة الظلام .

(عباس محمود العقاد)

■ وقـد تعوضـت عن كل بمشبهه ... فما وجـدت لايام الصبـا عوضا
(ابو العلاء المعري)

■ كن فيلسوفا ، ولكنك عليك خلال فلسفتك ان تكون رجلا .

(دافيد هيوم)

■ خل النفـاق لاهله ... وعليك فالتمس الطريقا
واربـأ بنفسـك ان ترى ... إلا عدوا ، او صديقا
(ابو اسحاق الصولي)

■ الخير الوحيد في العالم هو المعرفة ، والشر الوحيد فيه هو الجهل .

(سقراط)

■ الشهوة لا تشبع ، ومن يفهم انها قصيرة الاجل ، وانها جلبة للالم ، فهو حكيم عاقل .

(كنفوشيوس)

■ رب حلـم أضاعـه عدم الما ... ل وجهـل غطـى عليه النعيم
(حسان بن ثابت)

■ لا سعادة تعادل راحة الضمير .

(الفيلسوف الروماني سينكا)

■ اريد فلا اعطي ، وأعطي ولم ارد ... ويقصر علمـي ان انـال المحجبا
واصرف عن قصدي ، وعلمي ثاقب ... فأرجـع ، ماأعقبـت الا التندما
(بشار بن برد)

عمّان الثمانينات

تتربع فوق ١٤ جبلا



استطلاع فهمي هويدي

تصوير: صلاح آدم



استطلاع فهمي هويدي
تصوير: اوسكار متري

هذه هي عمان الثمانينات: مدينة تتربع فوق ١٤ جبلا، بعدما حققت رقما قياسيا في القفز فوق التاريخ وفوق الجغرافيا!

لقد اكتشفت عمان انها كبرت قبل الاوان، وانها بنموها الانفجاري صارت تملك جسدا اكبر مما ينبغي، وقامة اطول مما قدرت، وعضلات لم تحلم بها من قبل!

ولم يكن ذلك اختيارا لعمان، ولكنه قدر كتب لها وعليها، تمثل في مسلسل الاحداث التي مرت بالامة العربية خلال الاربعين عاما الماضية، وفي مقدمتها هزائم الحروب من ناحية، والثراء الذي حل بالعرب نتيجة مضاعفة اسعار النفط من ناحية اخرى. فكما ان الهزائم صبت في عمان عشرات الالوف من البشر، فان ثورة النفط صبت في عمان عشرات الملايين من الدنانير، حتى كتب ايضا لعمان الثمانينات ان تعكس في آن واحد وجهي المفارقة العربية المدهشة: الثراء والعجز، أو القيمة وقلة القيمة!

وكأي كيان، فان تضخمه ونموه غير الطبيعي ليس مشكلة بحد ذاتها، انما المشكلة تتمثل اولا في كبح جماح هذا النمو واخضاعه للسيطرة؛ ثم تتمثل ثانيا في ترويض هذا الكيان، وتمكينه من التعايش مع الظروف المحيطة به، ليدخل بأي ثمن في نسيج الحياة الطبيعية.

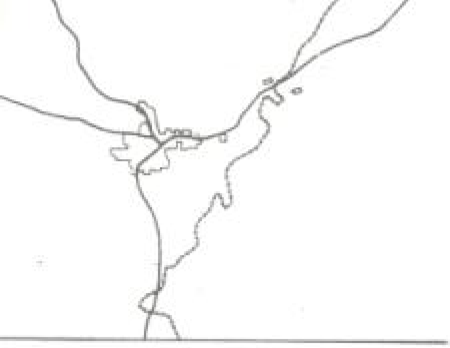
والمفاجأة الحقيقية في عمان انها، برغم كل ما تنوء به من احمال، لا تزال صامدة، تجتر همومها في شجاعة، وتحاول ما وسعتها الطاقة ان تستوعب تلك القفزات التي فرضت عليها، وان تخرج من تلك الرياضة القسرية باقل قدر من الخسائر والتشوهات!

لقد نما جسم مدينة عمان خلال السنوات الخمس الاخيرة بمعدل ١٠٪ سنويا، اي ما يعادل ثلاثة اضعاف المعدل المتعارف عليه دوليا. وتكدس فيها البشر، الفلسطينيون خاصة، حتى اصبح عدد سكانها الآن ٦٥٠ الفا من البشر، وهي التي لم تكن مؤهلة لاستيعاب اكثر من ربع مليون على احسن الفروض. وتضاعفت مساحتها حتى باتت ٨٠ كيلو مترا مربعا، وتمددت عبر الجبال والتلال حتى ابتلعت جيرانها، ودخلت بلدانها المجاورة فيما يسمى الان «اقليم عمان» او عمان الكبرى، الذي بات تضم مليونا وربع مليون نسمة، في بلد تعداد سكانه مليونان و ١٥٠ الفا.

لم تعد عمان بلد الجبال السبعة، التي كانت عنوانا لاستطلاع مجلة العربي الذي نشر عام ١٩٥٩، بل باتت المدينة تتمدد الان - بارتياح - فوق تلك الجبال الاربعة عشر!

والذين يعرفون عمان جيدا، كانوا قبل سنوات يذرعون أرضا موحشة ومسافات تغطيها النباتات الشوكية وكتل الحجارة، ليصلوا الى جيرانها، وادي السير وجبيهه وصويلح والزرقاء وقويسمه. الآن صارت كل هذه الضواحي جزءا من عمان، تبلغها السيارات في دقائق عبر الشوارع الممهدة التي انشقت عنها الأرض فجأة خلال السنتين الاخيرتين.

ان محافظ العاصمة، عصام العجلوني، يضرب كفا بكف وهو يقول: من يصدق ان عمان تسير فيها كل يوم حوالي ٤٠٠ الف سيارة، بين كبيرة وصغيرة!.. من يصدق أنه في سنة ٦٧ كان مجموع سيارات الاردن ١٨ الفا، وانه في سنة ٧٩ وحدها تم تسجيل ١٧ الف سيارة





مخطط لعمان قبل وبعد قفزاتها الكبرى ، الاولى قبل حرب ٤٨ والثانية بعد نزوح ٦٧ وثورة النفط .. والمقابلة بين حجم المدينة في كل من الصورتين ليس بحاجة الى اي تعليق .

في عمان ؟ من يصدق ان عدد سيارات المرسيدس في عمان يفوق عددها في شتوتجارت ، مدينة مصانع المرسيدس ذاتها ؟

من يصدق ان مدينة ينابيع المياه اصبحت مضطرة لان تستورد ١٠ ملايين متر مكعب سنويا من « الازرق » لتلبي احتياجات سكانها الذين بات نصيب الواحد منهم ٤٣ لترا في اليوم ، ولا تطمح الخطط الحالية لان توفر له اكثر من ٨٥ لترا ، بينما الحد الادنى لنصيب الفرد من المياه في عواصم حوض البحر الابيض المتوسط لا يقل عن ١٠٠ لتر ، وقد يصل الى ١٥٠ و ٢٠٠ لتر .

ان امين العاصمة يقدر حجم الاموال التي حولها الاردنيون والفلسطينيون المقيمون في الخارج ـ الخليج اساسا ـ الى عمان هذا العام بحوالي ٦٠٠ مليون دينار اردني ، اي ما يزيد على الفي مليون دولار ، بينها حوالي ٢٦٠ مليون دينار حولت رسميا عن طريق المصارف المحلية وحدها .

ولهذا السبب فقد صار رقم مليون دينار شائعا في اسعار قطع الاراضي في العاصمة الاردنية . بل ان المدينة عرفت في السنتين الاخيرتين فيلا المليون دينار ، التي بات البعض يدفعها بغير عناء يذكر لقاء تكاليف التجهيز والبناء ، دون الديكور والاثاث بطبيعة الحال .

لهذا السبب ايضا فقد عرفت المدينة مؤخرا ايضا طلائع الكوريين الذين زحفوا الى الدول النفطية بوجه اخص ، يبيعون مهاراتهم في البناء السريع واللاهث وراء الرغبة العارمة في تشييد المجمعات واشباه الناطحات . حتى بدأت المدينة تتخلى عن استخدام خاماتها التقليدية في البناء ، مثل الحجر ، لتحل محله الحوائط الاسمنتية الجاهزة ، التي تؤذن بدخول عصر التكييف المركزي ، بديلا عن التكييف « الطبيعي » الذي كان يتكفل به الحجر .

وفي مقابل منتهى الغنى عرفت عمان منتهى الفقر !

الغنى تركز في الشرق حيث اجتمع الذين افرزهم الثراء العربي ، والفقر تركز في الغرب ، حيث المخيمات وبيوت الصفيح التي يسكنها ضحايا العجز العربي !

وللدقة فان الفقر ليس سمة جديدة على عمان ، فلم يعرف عن البلد ثراء في تاريخها الحديث ، انما الجديد هو حجم هذا الفقر ، الذي عبرت عنه ارقام رسمية تقول انه في داخل عمان توجد ٢٠٠ الف نسمة تنقصهم الخدمات ، وثمة عدد مماثل لهؤلاء يعيش بنفس المعاناة خارج عمان ، في نطاق الاقليم .

ان في عمان الاقليم ٦٠٪ من سكان المملكة الاردنية كلها ..

وداخل نطاقها تقع ٨٣٪ من مؤسسات الدولة و ٧٦٪ من مصانع المملكة ، التي تنتج ٩٥٪ من الانتاج الصناعي على المستوى القومي . فضلا عن انها تؤمن العمل لحوالي ٩٥٪ من القوى العاملة في غير النشاطات الزراعية .

لقد اصبحت محصلة هذا كله ان صارت عمان بالنسبة للمملكة بمثابة القلب والعقل ، وهي العضلات والاعصاب الدقيقة والحساسة . حتى اننا لا نبالغ اذا قلنا إن الاردن تقف في حقيقة الامر محمولة على اكتاف عمان ، وان العكس ليس صحيحا !

احد شوارع عمان الحديثة ، سيل السيارات لا يتوقف ، وكيف يتوقف وشوارعها تمر بها ٤٠٠ الف سيارة ؟ . وفي الصورة التحتية لقطة من سوق قلب المدينة ، حيث تباع اشياء كثيرة على الرصيف ، بينها البقالات



احد جوانب خريطة فلسطين المتحركة في شوارع عمان ، والتي تتمثل في لافتات العودة ، والفلسطينيات اللاتي يسرن في الشوارع بثياب المدن الفلسطينية المختلفة ، والزاهية الالوان (الى اليسار) .





الشركس : الزراع والبناة

علمنا بعمان قرية !

هكذا يقول المثل الفلسطيني الشائع ، الذي لابد انه يتحدث عن عمان اوائل القرن الحالي ، وصورتها مازالت ماثلة في اذهان الكثيرين من شيوخ المدينة . لاننا لو رجعنا قليلا الى الوراء ، الى اواخر القرن الماضي ، فسوف يعد هذا الوصف مجاملا الى حد كبير ، اذ لم تكن هناك قرية ، بل لم تكن عمان سوى مجموعة من الاطلال والخرائب والآثار الرومانية التي تتخللها ينابيع المياه !

لقد قدر للرحالة السويسري بوركهارد ان يزور عمان في عام ١٨١٢ ، وان يترك لنا وصفا لتجربته المثيرة ، حيث كانت عمان تابعة لبلدة السلط التي تبعد عنها بمسافة ١٥ كيلو مترا ، ولم تكن العشائر البدوية تتوقف عند خرائبها الا لتسقي الاغنام من ينابيع مياهها الغزيرة ، وذات القيمة الحيوية في الصحراء .

قصد الرحالة السويسري الوالي التركي في السلط وطلب منه ان يساعده في ان يبلغ عمان التي قرأ عنها في كتب التاريخ ضمن بقايا الحضارات المندثرة ، فوضع الوالي تحت تصرفه اربعة من الرجال المسلحين ، لمرافقته في الرحلة من السلط الى عمان ، ولكن المفاجأة التي حدثت هي ان زوجات الرجال الاربعة خرجن مجتمعات يندبن حظهن ، ويحذرن الازواج ، ويوبخنهم لانهم قبلوا الاشتراك في هذه المغامرة التي قد تقودهم الى التهلكة ، واحدث التحذير اثره ، وامتنع الرجال الاربعة عن التورط في تلك المغامرة غير مأمونة العاقبة !

لكن القدر كان يخبيء اولى المصادفات السعيدة في تاريخ عمان الحديثة !

لقد استولى قيصر روسيا على القفقاس في اوائل القرن الماضي ، ضمن الخطط الروسية للتوسع وبناء الامبراطورية ، التي اخضع بموجبها ملايين المسلمين للحكم القيصري . ولم يجد مسلموا القفقاس من الشركس الذين رحلهم الروس قسرا الى تركيا بالبحر ، سوى خليفة المسلمين يلجأون اليه ، ليبحث لهم عن مأوى في بلاد المسلمين الواسعة . فبعث السلطان عبد الحميد بستمائة شخص منهم الى ذلك الموقع الفقير جنوبي الشام ، التابع لبلدية السلط : عمان .

كان ذلك في عام ١٨٧٨ ..

وكان الشركس زراعا مهرة بطبيعتهم ، يجيدون فلاحة الارض وتربية الماشية . وكان حلولهم في هذه البقعة وفيرة المياه ، هو فرصتهم المواتية لبدء حياة جديدة . وهي الفرصة التي اهتبلوها بكفاءة وبغير تردد .

اقام الشركس قرية صغيرة على جانبي المجرى الذي كانت تتجمع فيه المياه بالوادي ، وهو ما عرف فيما بعد بالسيل ، وكانت بيوتهم اقرب الى الكهوف المبنية من الطين والحجارة ، تغطيها اسقف من البوص ، اذ لم تكن في المنطقة « خامات » افضل منها .

استقر الشركس وزرعوا ، وربوا الاغنام والماشية ، وخلقوا في منطقة الخرائب حياة غريبة عليها ، وغريبة على مجتمع البادية الذي يكره الزراعة وربما يأنف منها .

ولم تعد المياه وحدها هي التي تغري البدو بالتوقف عند موقع القرية ، فقد ظهر فيها مورد آخر للعيش والاغراء ، وهو منتجات الزراعة . وفي مرات عديدة ، صد الشركس محاولات البدو سلبهم نتاج زراعتهم وماشيتهم ، الامر الذي اضطرهم الى التسلح والاضطلاع بالحراسة والدفاع فضلا عن الزراعة .

وبدأت القرية تكبر ، حتى وصل عدد سكانها في عام ١٨٩٣ ، الف نسمة ، ثم استمر تمددها على جانبي السيل حتى وصلت مساحتها في اوائل القرن الحالي الى ٣ كيلو مترات مربعة .

وكان ثاني الاحداث السعيدة في تاريخ عمان ، يوم مر بها خط سكة حديد الحجاز ، الذي يربط فيما بين دمشق والمدينة المنورة .

بعض الاحياء يذكرون ذلك اليوم ، السادس من اغسطس ١٩٠٢ ، عندما وصل خط سكة الحديد من دمشق الى عمان ، بعد جهد شاق استغرق سنتين ، اغضب البدو واثار حفيظتهم ، لان وجود سكة الحديد يعني قطع عيشهم من السطو على القوافل السائرة الى الحج كل عام . حتى انهم لم يترددوا في محاولة تخريبية والاعتداء على العمال والمهندسين الذين كانوا يباشرون العمل فيه . بعد عام وصل الخط الى معان ، وبعد سنتين اخريتين امتدت سكة الحديد الى المدينة المنورة ، حتى استغرق المشروع كله ٥ سنوات .

ولم تعد عمان ينبوعا غزيرا للمياه فقط ، ولا منطقة مزروعة فقط ، ولكنها صارت ايضا محطة للسكة الحديد !



محمد علي بدير شيخ تجار عمان : الازدهار يقوم على اكتاف التجار الاردنيين والفلسطينيين

واكتملت لعمان عناصر اساسية في النمو : المياه ، والزراعة ، وطريق الوصول والاتصال .

حتى بدا ان عمان باتت مؤهلة لان تحتل مكانا على الخريطة في الشام .

لم تمض سنوات قليلة حتى اصبحت عمان قرية لها كيانها ، ووصل عدد سكانها الى ثلاثة آلاف نسمة ، اعترفت بوجودها السلطة العثمانية ، وعينت لها في عام ١٩٠٩ اول رئيس للبلدية هو اسماعيل بابوق . حتى اننا لا نبالغ اذا قلنا ان تاريخ الميلاد الشرعي لعمان في السجلات العثمانية هو عام ١٩٠٩ ، اذ فيه انتقلت عمان من كونها ناحية وقرية تابعة للسلط ، الى بلدية محترمة لها كيانها المنفصل عن غيرها .

ريح الثورة العربية

ثم تتابعت الاحداث بعد ذلك ..

في عام ١٩١٤ ، دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى ضد الحلفاء . في عام ١٩١٦ شبت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين ضد الاتراك . وانطلقت جيوش الثورة العربية الى الشام بقيادة الامير فيصل بن الحسين لتحريرها من الحكم العثماني ، في عام ١٩١٨ انسحب الاتراك من عمان بضغط من القوات الانجليزية التي كانت تدعم القوات العربية . في العام ذاته غدر الانجليز والفرنسيون بقيادة الثورة العربية ، ونكثوا بعهودهم لها ، واتفقت الدولتان على تقسيم بلاد الشام الى ثلاث مناطق عسكرية ، اذاع الجنرال اللنبي بيانا بها ، ونص على ان تتولى السلطات الانجليزية ادارة المنطقة الجنوبية (فلسطين) ، ويتولى الامير فيصل بن الحسين ادارة المنطقة الشرقية (سورية الداخلية وشرق الاردن) ويتولى الفرنسيون ادارة المنطقة الغربية (لبنان والساحل السوري كله) .

ودخلت عمان ضمن الدولة العربية ، التي بات يدير امورها الامير فيصل باسم والده ، الشريف حسين ، وكانت آنذاك مجرد قضاء ضمن لواء البلقاء (١) .

فشلت جهود الامير فيصل في حث حكومتي فرنسا وانجلترا الحفاظ على استقلال سوريا .

ولم يجد اعضاء المؤتمر السوري مفرا من ان يضعوا الجميع امام الامر الواقع ، واعلنوا في عام ١٩٢٠ استقلال سورية الطبيعية (سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن) ، ونادوا بفيصل ملكا عليها ، وبذلك اصبحت عمان تحت الحكم الفيصلي المستقل (٢) .

لم يستمر الحلم ، فوقعت معركة ميسلون في العام ذاته ، واستولى الفرنسيون على دمشق ، واستجاب الملك فيصل لطلب الفرنسيين منه مغادرة البلاد .

وفرضت بريطانيا نفوذها على فلسطين . وشجعت زعماء شرق الاردن على اقامة حكومات محلية في اربد والسلط والكرك ، وكانت عمان تابعة لحكومة السلط .

في تلك الظروف كان احرار سوريا على اتصال بالشريف حسين في مكة ، وقد طلبوا منه ايفاد احد ابنائه لقيادة المقاومة العربية ، وكان الامير عبد الله هو رجل هذه المهمة ، الذي وصل الى عمان بالقطار من بلده معان في ١٩٢١ ، متخذها مقرا له ، باعتباره نائبا لملك سوريا (الملك فيصل) .

في العام ذاته سعت بريطانيا للاتفاق مع الامير عبد الله ، فاجتمع معه ونستون تشرشل في القدس ، وتم الاتفاق على ان يؤسس الامير عبد الله امارة شرق الاردن ، ومركزها عمان .

خلال تلك الفترة ، كانت المدينة تموج بالمناضلين العرب ، الذين قدموا اليها من كل مكان ، مناضلين من سوريا ، فروا الى عمان بعد مذبحة ميسلون ، ومناضلين من فلسطين ولبنان ومصر والمغرب . جذبتهم رايات الثورة العربية ، بكل ما مثلته في اعماقهم من طموحات واحلام .

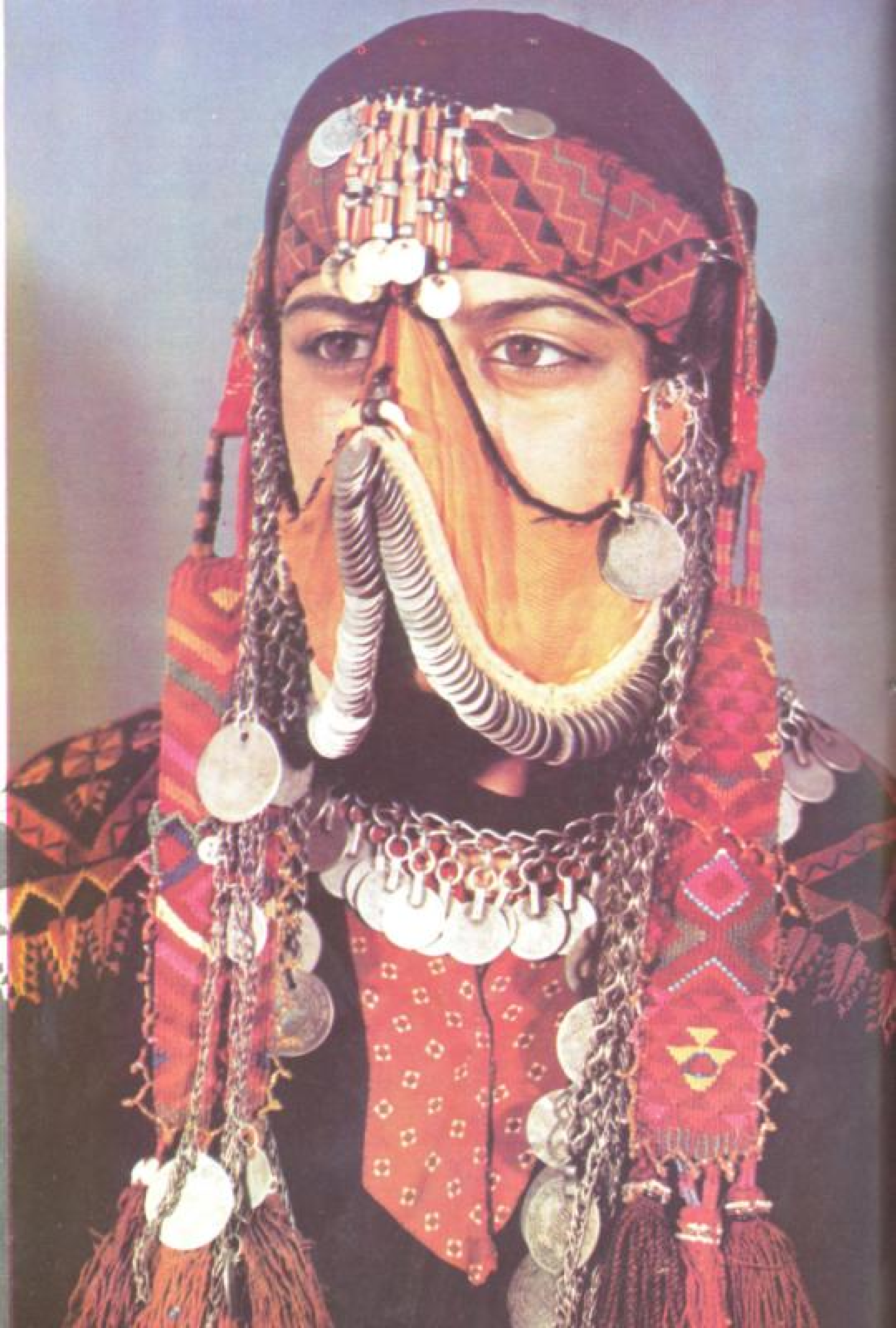
وشكل هؤلاء المناضلون نواة لعبت دورا لا يزال قائما في قسمات المدينة ، التي اكتست بالطابع القومي منذ قدر لها ان تكون عاصمة للامارة ثم المملكة من بعد .

ومنذ العشرينات انتقلت عمان من كونها مجرد كيان جغرافي وشقت طريقها لتصبح مدينة لها وظيفة ودور . اي انها انتقلت في الواقع من الجغرافيا الى التاريخ .



هذه الصور الثلاث ترسم بعضا من معالم فنون الأزياء الفلسطينية البديعة التي ما زالت باقية في عمان . فعلى هذه الصفحة نماذج من ثياب النسوة في نابلس ورام الله ـ وعلى الصفحة المقابلة وجه لفتاة ترتدي ثياب بنات بئر السبع وصحراء سيناء . وهن الوحيدات من بين الفلسطينيات اللاتي يضعن شبه الحجاب هذا على الوجه ..





وكانت هذه بسمة حظ جديدة للمدينة ، وثالث الاحداث السعيدة في سجل عصرها الحديث ..

ومضت رحلة الاحداث ..

لم تحقق ثورة الشريف حسين أ هدافها ، وازاء انتصار الوهابيين في الجزيرة العربية ، فقد آل عرش الحجاز الى اسرة آل سعود ، وغادر الحسين جدة الى العقبة في عام ١٩٢٤ ، بعد تنازله عن العرش .

وفي عام ١٩٢٨ وضعت الاردن تحت الانتداب البريطاني . وفي عام ١٩٤٦ اعلن الاستقلالللمملكة الاردنية الهاشمية ، وهو الاستقلال الذي لم يعترف به رسميا ، ولم تلغ بمقتضاه معاهدة التحالف مع بريطانيا ، الا في سنة ١٩٤٨ .

النقطة الفاصلة

على ان سنة٤٨ هذه كانت النقطة الفاصلة في تاريخ عمان . ورغم ان الحدث لم يكن سعيدا بأي حال ، اذ شهد ذلك العام اول هزيمة عربية امام اسرائيل ، الا ان نصيب عمان المدينة ـ ضمن نتائج التصفية الاخيرة ـ كان ١٥٠ الف نسمة ، وصلوا اليها خلال اول شهر للهزيمة (مايو ـ ايار) وكان هؤلاء ضعف عدد سكان عمان وقتئذ !

ورغم ان المدينة صارت عاصمة لدولة اكبر ، بعد اتحاد الضفة الغربية مع شرق الاردن ، وادخالها في عام ١٩٥٠ ضمن المملكة الهاشمية ، الا ان العبء السكاني الذي حل بعمان لم يكن اقل جسامة من العبء السياسي الذي باتت تتحمله وهي في صف المواجهة الاول ..

ثم كان نصيب عمان من الهزيمة الثانية اكبر .

فقد قذفت اليها هزيمة ٦٧ بمائتي الف لاجيء جديد ، واصبحت المدينة تنوء بعبء لا تحتمله لا رقعتها السكانية ، ولا مرافقها وخدماتها ..

ورغم ان مسألة الاسكان تم حلها ذاتيا ، اذ اتجه الوافدون الى اول اراض فضاء صادفتهم ، واقاموا فيها بيوت الصفيح والطوب التي بنيت حيثما اتفق ، فضلا عن المخيمات بطبيعة الحال ، رغم ذلك فقد ظلت مشكلة توفير الخدمات لهذه التجمعات الكثيفة ـ ومازالت ـ هما يؤرق القائمين على المدينة .



المحافظ عصام العجلوني

ومع كل نزوح ، كان تعداد المدينة يقفز قفزة مفاجئة وبعيدة ، ثم كان ذلك يعني ايضا تزايد معدلات الخصوبة والانجاب ، وهو سمة التجمعات الفلسطينية التي تعد من قبيل الدفاع الشرعي ازاء محاولات الابادة الموجهة ضدهم ، حتى ان الارقام الرسمية تشير الى ان معدل الخصوبة في المدينة وصل الى ٤,٥٪ وتلك من اعلى نسب الاخصاب في العالم .

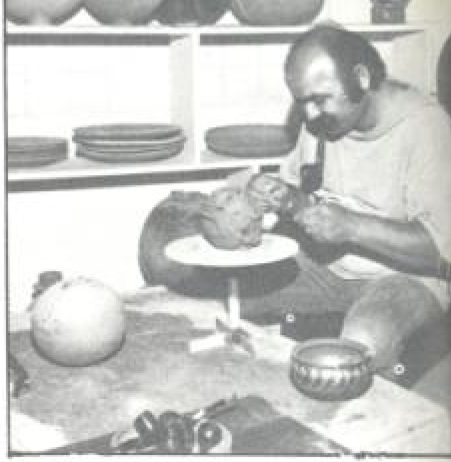
ولم تكن عمان هدفا للنزوح الاجباري فقط ، ولكنها ايضا ظلت هدفا لتيار الهجرة الداخلية من الريف الى المدينة ، خصوصا وانها باتت تلعب الدور الاساسي في اقتصاد المملكة ، وباتت فرص العيش والدخل فيها اوفر منها في اي مدينة اردنية اخرى .

وكانت محصلة ذلك كله ان اصبح ثلاثة ارباع سكان مدينة عمان من المهاجرين اليها ، وهو ما تشير اليه دراسة جرت بناء على احصاء ١٩٧٧ (٣) .

اي ان ٧٥٪ من سكان عمان وافدون اليها ، ولم يكن وجودهم بهذا المعدل الضخم في حسبان مخططها ولا القائمين عليها .

غير ان مضاعفة الثراء النفطي العربي ، نتيجة مضاعفة اسعار البترول فيما بين عامي ٧٣ و ٧٥ كان له صداه البعيد في النمو الاقتصادي لعمان ، وقد كان نصيب عمان من تلك الرياح الجديدة ـ غير الدعم المقدم الى حكومة الاردن ـ تجارة راجت بغير حدود وتحويلات للمهاجرين في تزايد مستمر ، اضيف الى رصيد عمان فيها ما كان يبعث به المهاجرون الى الضفة الغربية للادخار والاستثمار ، ثم اوقف بعد احتلال الضفة في عام ٦٧ .

ايضا ان هناك جانبا من متطلبات رجال الاعمال لا تستطيع ان تقدمه عمان في كل الاحوال ، هو حياة الليل التي كانوا يجدونها بيسر في بيروت ، وافتقدوها ، ولا يزالون ، في عاصمة الاردن . ومع ذلك فان المحافظ يعتبر ان عمان الثمانينات استعادت قدرتها على ان تكون وريثة لبيروت ، وان كانت المشكلة الآن ان تلك النشاطات التي نزحت من بيروت قد استقرت خلال تلك السنوات في مدن اخرى ، موزعة بين اثينا وقبرص والبحرين والكويت .



النحات محمود طه ، احد المعالم الفنية لعمان

وبدا ان الحظ يوشك ان يبتسم لعمان ، بعد طول عبوس !

ثم كانت الحرب الاهلية في لبنان ، التي انطلقت شرارتها في عام ٧٥ ، والتي كان نصيب عمان منها في البداية ٦٠ الف وافد قدموا اليها في اسبوع واحد ، وسببوا للمدينة شحا في المياه عانت منه شهورا . الا انها كانت الرابحة في النهاية ، بعد ان تحول اليها بعض كبار تجار لبنان ، واصبح في مقدور عمان التجارية ان تتخلص من وصاية بيروت ، التي كانت الوسيط الدائم لمستورداتها من الخارج !

وصارت محصلة الحرب اللبنانية ، في ميزان عمان ، هي قليل من اللاجئين او الوافدين ـ عاد بعضهم بعدما طالت الحرب ـ وكثير من الرواج والحركة التجارية . حتى رجحت كفة الكسب على الخسارة . وبات في مقدورنا ان نقول انها من نوع المصادفات التعيسة لبنانيا وعربيا والسعيدة عمانيا واردنيا !

غير انها سعادة منقوصة في الواقع ، لان عمان كانت تطمع في ان تكون الوريث الشرعي لبيروت ، بسوق خدماتها والمؤسسات الدولية التي اجتمعت فيها ، ولكنها كانت تنوء باعبائها الجسام ، فلم تستطع ان توفر الظروف الملائمة لتلك النشاطات ، حتى يقول امين العاصمة الاردنية باسف ان عمان استطاعت ان تستوعب عشرات الالوف من اللاجئين . في الاربعينات والستينات ، لكنها لم تستطع في السبعينات ان تستوعب مؤسسة متقدمة واحدة !

وهو لا يعزو ذلك الى عجز في قدرة المدينة فقط ـ رغم انه يسلم بانه العنصر الاساسي ـ ولكنه يضيف

مع التاريخ القديم

ان القفز سمة لازمت تاريخ عمان الحديث ، وقفزها فوق الجبال المحيطة لا يعادله الا قفزها الذي يثير الانتباه ، فيما بين الصفوف العربية . وهي قصة لا يشاهد مثلها الا في روايات السينما ، ان تتحول في قرن واحد من الزمان تلك الاطلال المحاطة ببيوت الطين والبوص ، التي يسكنها الشركس ولا يتوقف عندها البدو الا لاغتراف المياه ، الى عاصمة تموج بالحياة والرواج والقصور والمخيمات ، لدولة لها وزنها ودورها المؤثر في المنطقة ..

هل نبالغ اذا قلنا ان عمان نموذج للقدرة على القفز فوق التاريخ وفوق الجغرافيا ؟

اذا صح ذلك ، فانه ينسحب فقط على عمان الحديثة ، التي تحررت لها شهادة الميلاد عام ١٨٧٨ . لكن من حق عمان علينا ان نذكر لها ماضيا يحفظه لها التاريخ وتشهد به الاثار الباقية الى اليوم .

ويظل المدرج الروماني الكبير القائم وسط المدينة اعلانا لا تنقصه الصراحة عن تلك الحقيقة ، وقرينة يقودون اليها كل زائر ، ليدللوا بها على ان عمان ليست بلدا حديث النعمة ، ولكنه عريق الاصل والحسب ، جار عليه الزمن ـ في سلسلة من المصادفات غير السعيدة ـ طوال اربعة قرون .

فمنذ الازل ، اتاح لها موقعها الفريد على سيف الصحراء ، وفي منطقة وسط بين الشام والجزيرة العربية ، ان تكون معبرا للتجارة القادمة في الهند والصين واليمن والساحل الافريقي ، الامر الذي شكل ـ مع وفرة مياهها ـ عنصرا اساسيا في استمرار رخائها . وفي قيام الحضارات على الرقعة المحيطة بها .

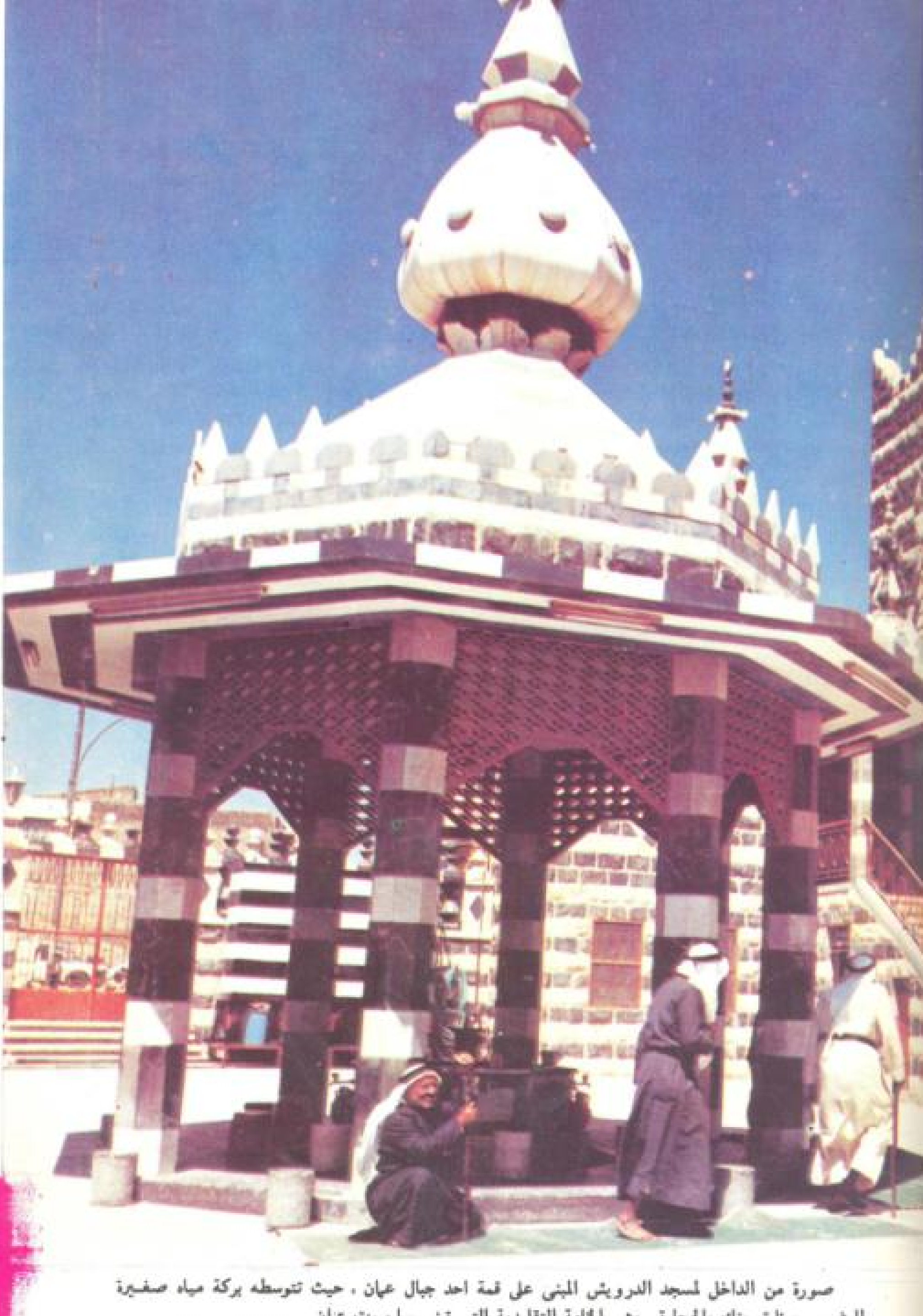


ـة البادية ، بثيابهم المميزة
ـطها الحمراء ، والازار الذي
ـغطي الجزء الاسفل من الجسم ..
نشاطهم اغلبه في البادية ومقرهم في
عمان

وجهان لعمان ، منتهى الغنى ومنتهى الفقر ، الغنى قدم الى عمان على غير انتظار والفقر فرض على المدينة ، ولم يكن لها فيه اختيار .. حتى نبتت فكرة التطوير الحضري ، التي تحاول انقاذ ما يمكن انقاذه من فقر المدينة .







صورة من الداخل لمسجد الدرويش المبنى على قمة احد جبال عمان ، حيث تتوسطه بركة مياه صغيرة للوضوء ، بينما تم بناؤه بالحجارة ، وهي الخامة التقليدية التي تبنى بها بيوت عمان .

لقد ذكرت المدينة في المصادر القديمة ، ومنها التوراة ، باسم عمون ، وربة عمون ، وعمان . وهي عاصمة العمونيين الذين قامت مملكتهم في المنطقة منذ ١٢٠٠ سنة قبل الميلاد [٤] .

ورغم ان عددا غير قليل من المصادر العربية تنسب اسم المدينة الى عمان بن لوط ، الا ان ياقوت الحموي يفسر الاسم بقصة طريفة ، يقول فيها ان لوطا لما خرج من سدوم لم ينج غيره واخوه وبنتاه ، وقد خافت البنتان ان ينقطع نسلها ، فقررتا ان تقيا نسلا من الاب والعم ، واسقتاهما نبيذا ، ثم ضاجعت كل واحدة منهما واحدا في غير وعي منهما . وكانت النتيجة ان ولدت واحدة ابنا اسمته عمان ، نسب الى العم ، وولدت الثانية ولدا اسمته مآب (الكرك حاليا) من الاب . ولما كبرا وصارا رجلين ، بنى كل واحد منهما مدينة بالشام ، وسماها باسمه وهما متقاربتان في برية الشام » !

غير ان الباحثين يرجحون ان يكون اسم عمان تحريفا من ربة عمون ، وهو اسم سامي احتفظت به عمان على مدى عصور التاريخ ، رغم تغيرها الى فيلادلفيا في العصر الهلليني والروماني والبيزنطي ، الا انها سرعان ما عادت الى اسمها القديم ، بعد التسلط البيزنطي عليها ، ودخولها في فلك الحكم الاسلامي القادم من الجزيرة العربية .

تشير الكشوف الاثرية الى ان مدينة عمون كانت مقامة فوق جبل يطل على قلب المدينة الحالية ، ويعرف باسم جبل القلعة ، وانها كانت على علاقة تجارية طيبة مع مختلف المراكز الحضارية في حوض البحر المتوسط ، كمصر وقبرص ومايسينا في بحر ايجه . وبعد العمونيين خضعت عمان لحكم الاشوريين ثم البابليين ، وبعدهما الفرس الذين ورثوا املاك البابليين بعد انهيار دولتهم .

وفي القرن الثالث قبل الميلاد دخلت في حكم الاغريق ، وسميت « فيلادلفيا » نسبة الى احد ملوكهم فيلادلفيوس ، او بطليموس الثاني .

ولكن الرومان عندما دخلوها اعادوا بناءها وادخلوا فيها الابنية العامة التي امتازت بها المدن الرومانية ، كالمدرج الذي ما زال قائما وسط المدينة ، والحمامات ودار القضاء . وظلت عمان طوال الحكم الروماني مركزا تجاريا هاما تملؤه بضائع الصين والهند وافريقيا ، من حرير وعاج ومجوهرات وتوابل ، وخشب الصندل .

وطوال الحكم الروماني كانت عمان من المحطات الهامة على طريق القوافل العربية ، حتى ان ابا سفيان ، زعيم قريش ، كانت له قبل ظهور الاسلام ضيعة بالبلقاء ـ حول عمان ـ تدعى « بقس »[٦] وانتقلت الضيعة بعد وفاته الى ابنه معاوية . ثم كان فتح عمان في جملة الفتوح الشامية ، على عهد الخليفة ابي بكر الصديق .

ثم شاء القدر ان تنتقل الخلافة من مكة الى دمشق في بداية العصر الاموي ، الامر الذي افاد عمان واسهم في ازدهارها ـ في مصادفة سعيدة اخرى ـ حيث اهتم الخلفاء الامويون ببادية الاردن ، اذ كانوا يضيقون بدمشق ويتلهفون للانطلاق في البوادي ـ[٧] فاسسوا حول عمان ـ في البلقاء ـ القصور الخلوية التي ما زالت آثارها قائمة الى اليوم . واتخذوها مواضع للصيد والراحة .

ورغم ان الموقف تغير نسبيا ، عندما انتقلت الخلافة من دمشق الى بغداد في العصر العباسي ، الا ان عمان لم تفقد اهميتها ، اذ ظلت معبرا للتجارة وسوقا رائجة ومركزا للاتصال فيما بين الجزيرة العربية والشام والعراق ، حتى يصفها المقدسي في تلك المرحلة العباسية بأنها عامرة وافرة الغلال والثروات كثيرة التجارات [٨].

وقد كفل لها موقعها الحيوي ان تحتفظ بدورها واهميتها خلال العصور اللاحقة ، حتى بدأت الحملة الصليبية التي تعرضت لها الشام في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وانشأ الغزاة امارة صليبية في الكرك ، بينما ظلت عمان والبلقاء خاضعة للحكم الاسلامي وتابعة لدمشق ، واصبحت فيما بعد مركزا لنقل الغلال الى القرى التي توقفت فيها الزراعة بسبب الحروب الصليبية ومسرحا لتحركات جيوش القائد المسلم نور الدين محمود ، ومن بعده صلاح الدين ، ونقطة انطلاق لتلك الجيوش نحو تحرير ديار المسلمين في الشام ، وعلى رأسها مدينة القدس . وفي اعقاب الانتصار الكبير (٥٨٤ هـ ١١٨٩ م) اقطع صلاح الدين الكرك لاخيه الملك العادل ، وكانت البلقاء (عمان) والسلط ضمن ما آل اليه .

وظلت عمان تؤدي دور المعبر والسوق الرائجة الى العصر المملوكي ، حتى تدخل القدر ، وبدأ نجم عمان في الافول ، بعد ان تلاحقت عليها سلسلة من الاحداث الجسام والكوارث الطبيعية ـ ابتداء بغزو التتار وتدميرهم للمدينة بعد سقوط دمشق في عام ١٢٦٠ م ، وانتهاء بانتشار وباء الطاعون في العالم ، وزحفه على مصر والشام في عام ١٣٤١ م ، بما احدثه من خراب وفناء في الحرث والنسل ، واعقبت الطاعون كارثة اخرى

عام ١٣٦٨ م تمثلت في اجتياح اسراب الجراد العظيمة للمنطقة ما بين مكة وبلاد الشام ، وكان نصيب شرق الأردن منها كبيرا ، حتى شلت الحياة في بلدانها وكانت بينها عمان [٩] التي لم تستطع ان تصمد امام تلك الضربات القاسية والمتلاحقة .

.. ومنذ اوائل القرن العاشر الهجري (الخامس عشر الميلادي) تحولت مدينة عمان الى قرية صغيرة ، وانزوت بعيدا في الظل ، ولم يعد لها دور يذكر .

منذ ذلك الحين ، خرجت عمان من التاريخ ، وبقيت موقعا جغرافيا لا اكثر، حتى حان موعدها مع التاريخ مرة اخرى ، منذ حلت بها جماعة الشركس في اواخر القرن التاسع عشر . فنهضت ، ودبت فيها الحياة من جديد ، وحققت قفزاتها البعيدة ، كأنما اريد لها ان تعوض ما فاتها طوال قرون الغياب ، في عشرات محدودة من السنين .

بوابة الخليج والجزيرة

وظل موقعها الجغرافي يلعب الدور الاساسي في الحياة ، التي عادت تدب فيها .. حتى تكاد تقول ان عمان دخلت التاريخ اولا من باب الجغرافيا !

كانت ميزة عمان انها بوابةالشام وأحد منافذ تجارة الشرق الى الغرب ، كانت القوافل تعبرها منذ عصر الاغريق حاملة تجارة الهند والصين القادمة عبر البحر الاحمر ، فيما كان يعرف وقتئذ باسم طريق البخور ، والمتجهة الى دول البحر الابيض .

وهي الان تؤدي نفس الدور ، ولكن في اتجاه عكسي . فالتجارة العابرة من عمان يتجه ثقلها الاساسي من الشمال الى الجنوب . من الشام الى دنيا النفط في الخليج وشبه الجزيرة العربية .

لقد بقيت عمان تؤدي وظيفة البوابة والجسر ، وظلت التجارة هي دعامة اقتصادها وركيزته الثابتة .

يؤكد ذلك شيخ تجار عمان ، محمد علي بدير ، الدمشقي المولد ، والذي يعمل بالتجارة في المدينة منذ اكثر من نصف قرن ، بعدما قدم ابوه الى عمان اثناء الحرب العالمية الاولى ، بحثا عن امان لم يكن متوفرا بدمشق .

سجلات غرفة التجارة التي يرأسها تضم حوالي ٧٦٠٠ تاجر تقوم السوق على اكتافهم في عمان ، بل في الاردن كلها . نصف هؤلاء من المستوردين ، لان سوق عمان ما زالت تعتمد اعتمادا كبيرا على الاستيراد من الخارج . ليس فقط بسبب ظروف الصناعة المحلية المبتدئة ، ولكن ايضا نتيجة التنامي الملحوظ في معدلات الاستهلاك المرتبط بنمو السكان من ناحية ، وبزيادة القدرة الشرائية ـ وهذا هو الاهم ـ من ناحية اخرى . حت بلغت قيمة السلع المستوردة في عام ٨٠ حوالي ٧١٦ مليون دينار (كانت ٤٥٩ مليونا في سنة ٧٨) .

وعبر بوابة عمان ، مرت بالبر الى الخليج والجزيرة في سنة ٨٠ بضائع قيمتها ٥٢٩ مليون دينار ، تمثل سلعا قادمة من سوريا ولبنان بشكل اساسي (خضر وفاكهة) وذلك بخلاف الانتاج الزراعي الاردني المصدر الى دول المنطقة .

ومن الارقام ذات الدلالة في هذا الصدد ان قيمة السلع العابرة الى شبه الجزيرة العربية في عام ٧٩ كانت ٢٨١ مليون دينار ، بينها منتجات سورية قيمتها ٢١٥ مليون دينار (بنسبة ٩٥٪) ، اتجه منها الى المملكة العربية السعودية وحدها ما قيمته ٢٠٥ ملايين دينار .

وعندما تذكر التجارة في عمان ، لابد وان يذكر معها الخلايلة والنوابلسية . اي اهل مدينتي الخليل ونابلس الفلسطينيتين ، الذين يعدون اشطر التجار واكثرهم مهارة ودربة . ورغم ان الجيل الاول من تجار الاردن هم الشوام . ابناء دمشق الذين ينتمي اليهم شيخ التجار الآن ، وقد سادوا لمرحله في انواع التجارة الصغيرة مثل البقالات والمنيفاتورة ، الا ان العنصر الفلسطيني الاردني هو سيد الساحة الآن ، يتقدمهم الخلايلة والنوابلسية ، ملوك التجارة الكبيرة بغير منازع .

وبسبب حجم التجارة واتساع قاعدتها ، فان المحاسبين مثلا يشكلون عملة نادرة في عمان ، ولا تجد اعلانات وظائف المحاسبين الشاغرة التي تنشر في الصحف من يستجيب لها ، حتى ان قرارا صدر بمنع اصحاب هذه التخصصات من السفر للعمل بالخارج .

وبسبب طابع المدينة التجاري ، فان الصناعة لم تتمكن من شق طريقها والصمود في السوق رغم ان سجلات غرفة التجارة تقول ان في عمان ٣٦ مؤسسة صناعية كبيرة ، رأسمالها مليون دينار فصاعدا . وباستثناء صناعات الاسمنت والفوسفات ومصفاة البترول ، فان بقية الصناعات الاخرى تعمل في مجالات

ثلاث لقطات من عمان الحديثة

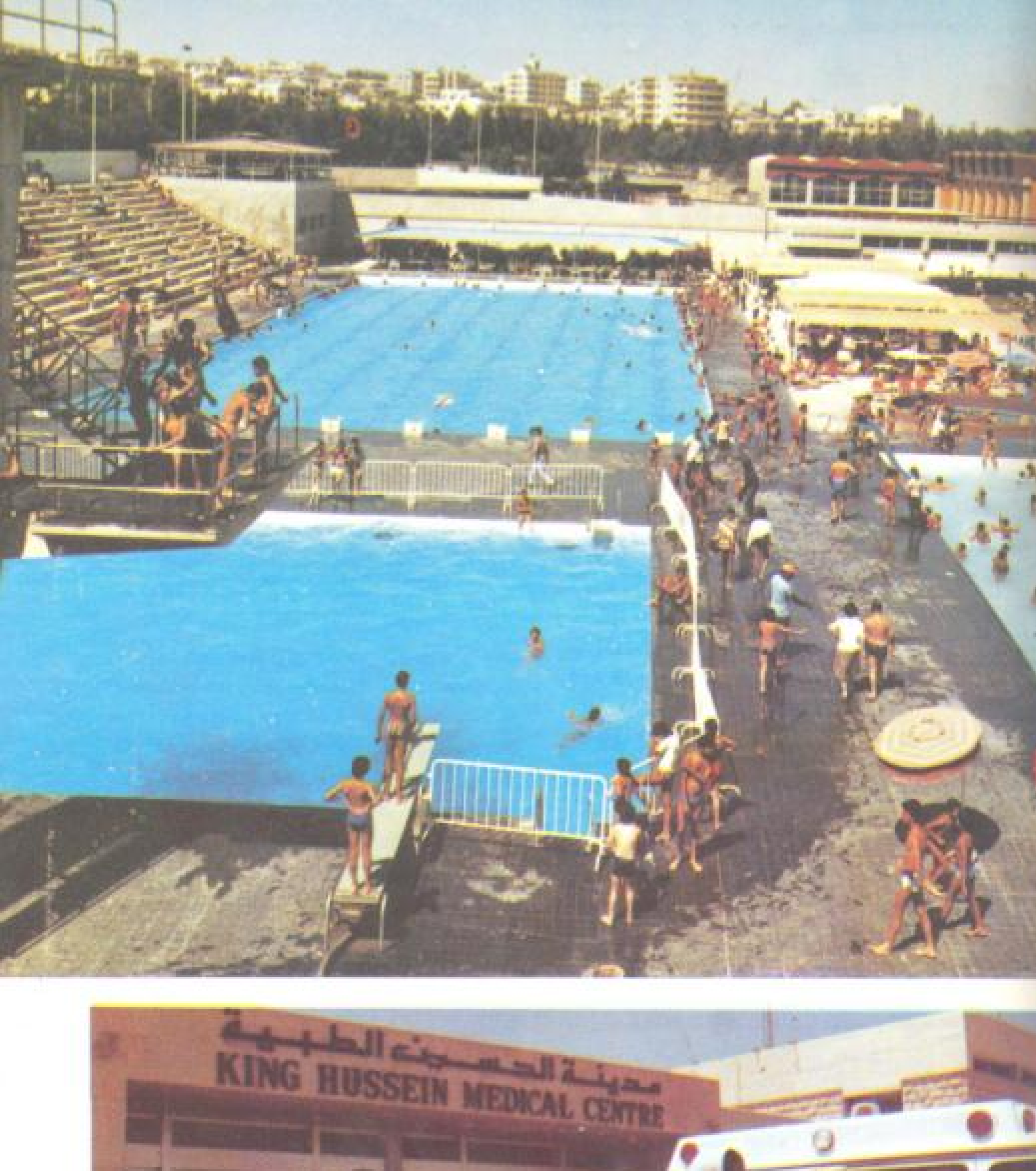


من المدينة الرياضية الضخمة ، الرئة الكبرى للمدينة

درس عملي في كلية الزراعة بالجامعة الاردنية



مدخل الاستقبال لمدينة الحسين الطبية ، التي بدأت بعلاج العسكريين ثم مدت نشاطها لعلاج العديد من الامراض المستعصية في العالم العربي .




مدينة الحسين الطبية
KING HUSSEIN MEDICAL CENTRE

هامشية ، وتظل مبتدئة في الاغلب ، مثل صناعات البلاستيك والجلود والمواسير .

وفي رأي محافظ العاصمة ، ان قيام الصناعة على اكتاف التجار هو الذي اضعفها ولم يتح لها فرصة النمو الكافي ، رغم توفر هذه الامكانية . ذلك ان الصناعة المحلية تحتاج الى حماية لكي تنمو ، خصوصا في مرحلة الابتداء ، والحماية تعني تقييد الاستيراد بالمنع او بفرض رسوم باهظة على السلع المستوردة ، بينما يتعارض منطق حرية التجارة السائدة في عمان مع هذا الاتجاه . وكانت النتيجة ان ادى فتح سوق عمان امام مختلف السلع الصناعية المستوردة ، الى مصادرة فرصة النمو امام الصناعة المحلية .

مدينة المهاجرين

كنا جلوسا نستعرض قسمات عمان في مقر امين العاصمة واستاذ الاجتماع السابق ، عصام العجلوني ، حيث يطل مكتبه على « السيل » غير بعيد من الموقع الذي كان يصطاد فيه السمك من بركة المياه ، مع رفاقه وهو صبي في الثلاثينات . على مرمى البصر ، وفي كل اتجاه ، كانت تطل عمان الثمانينات على قلب المدينة من فوق جبالها المحيطة ، وقد اصبحت مكسوة بغابة كثيفة من البنايات المتلاصقة ، التي لا تنافسها في الكثافة سوى صواري الاستقبال التلفزيوني ، لم تخل منها حتى بيوت الصفيح والمخيمات .

من نافذة المكتب كانت طوابير السيارات تملأ شوارع المدينة في « عرض مستمر » على مدى ساعات النهار ، حتى ليشك الناظر انها ثابتة في مواقعها لا تتحرك ، وان كل الشوارع الرئيسة قد استحالت مواقف انتظار ، وليست شرايين تصل فيما بين الجبال الاربعة عشر ، لا تجدي معها كثيرا جهود « شرطة السير » الذين يلاحقون المرور باستماتة ، ويتعاملون بصرامة بالغة مع كل مخالف . ومثلهم « شرطة البلدية » التي تطارد كل من احتل بوصة واحدة من الباعة الجائلين ، اذ المدينة بحاجة الى تلك البوصة ، ربما لتتنفس منها !

قال محافظ عاصمة الاردن ان رحلة عمان اسهمت في تكوين شخصية المدينة على نحو متميز فشخصية عمان الممر ، هي ذاتها شخصية عمان المقر . فكما ان الممر يكتسب قيمته واهميته من كونه مفتوحا للجميع ويسع الجميع ، كذلك عمان المقر . انها نموذج التعايش مع الاخرين وبلد المهاجرين الذي تتعدد فيه القسمات ، حتى ان الغريب لا يمكنه ان يحدد ملامح بذاتها لابن عمان تميزه عن غيره من ابناء العواصم العربية . ذلك ان الاصول امتزجت فيها واختلطت ، بين ما هو شركسي وشامي وفلسطيني وبدوي . حتى لا تكاد تجد عائلة اردنية الا ولها اصول او فروع ممتدة خارج الاردن . والذين ولدوا في عمان لا تتجاوز نسبتهم ٢٥٪ من سكانها الان . الباقون كلهم مهاجرون من كل مكان ، ليس فقط من خارج عمان ومختلف مناطق العالم العربي القريبة ، لان المدينة عرفت مثلا هجرة بعض ابناء بخارى اليها في الثلاثينات ، وسوق البخارية لا يزال قائما في قلب المدينة ، ليس بعيدا عن سوق « اليمانية » الذي كان ملتقى التجار اليمنيين منذ عقود خلت .

ان محافظ المدينة ذاته يجسد هذه الحقيقة . فرغم انه من مواليد عمان ، الا ان امه شركسية ، وأباه من اصول بدوية ، وزوجته من دمشق . وكذا الجميع في عمان ، ربما يكونون قد ولدوا في المدينة ، ويحملون هويات وجوازات سفر اردنية ، ولكنهم في النهاية لابد وان يكونوا تركيبة مختلطة بالآخرين .

لقد باتت تأثيرات البادية في عمان محدودة للغاية ، حتى يكاد يتحول بعضها الى رموز تاريخية وغير مألوفة ، ورجال شرطة البادية ينظر اليهم الناس باعتبارهم بقايا عصر في سبيله للانقضاء ، وثيابهم التي يفترض انها عسكرية والتي يميزها الازرار يغطي النصف الاسفل محل البنطلون ، ثم غطاء الرأس المرقط بالاحمر ، وعلامات حمراء اخرى ، هذه الثياب تلفت انظار الكثيرين باعتبارها ثيابا فولكلورية ، تمتع الناظر بأكثر مما ترهبه !

ولهجة البادية زحفت عليها اللهجة الشامية ، واسهمت الى حد كبير في تخفيف حدة خشونتها ، وان كان الجيل القديم لا يزال يعتبرها لهجة الرجولة ، متندرا على الشامية بأنها لهجة « الستات » !

وان كانت واجهات بيوت عمان ما زالت تبنى متجهة الى الشرق ، تأثرا بمنطق البدو في اقامة خيام الشرق ، وحرصهم على ان تصل فتحة الخيمة الى الشرق لتستقبل الشمس منذ طلوعها . فان الاغلبية الساحقة من هذه البيوت ذاتها تتجه من الداخل الى اي ناحية الا الشرق ، بمعنى التأثر بمنطق البادية .

فاذا لم يكن الاثاث عربيا بالكامل ، فانه لابد وان يكون مطعما بعناصر « شامية » كحد ادنى ، بل ان حجرة النوم التقليدية في عمان تعتبر صندوق الثياب المصنع في حلب والمطعم بصدف بيت لحم ، قطعة

اساسية تحرص على اقتنائها كل عروس في بيتها الجديد .

باختصار ، فانه اذا كان الاردن الدولة محمولا على اكتاف وعضلات عمان المدينة ، فان قسمات عمان ذاتها ، وقلبها وعقلها ، ليست سوى نتاج تفاعل عناصر تمتد لتشمل امة العرب في العرق والهم .

وهذا هو قدر عمان ، الذي التقت عنده الجغرافيا مع التاريخ..

لقد شاءت المقادير ان يكون موقع عمان الممر فيما بين الشام والجزيرة سببا في ان يجذب اليها الجميع . ومنذ وفدت اليها رموز الثورة العربية ، ازداد ارتباطها القومي عمقا ، فقد كانت وقتئذ تابعة لدمشق ، وداخلة ضمن حكم فيصل الاول ملك العرب ، ومقاتلوها كانوا جنودا في الجيش العربي ، الذي لا يزال الاسم الرسمي لجيش الاردن الى الان .

خريطة كاملة لفلسطين

ومنذ احتلال فلسطين ، فان اول الاصداء كان ـ ولا يزال ـ مسموعا في عمان قبل اي عاصمة عربية اخرى غيرها . حتى باتت فلسطين هي الهم الاول الذي تصبح فيه عمان وتمسي كل يوم .

وحيثما ذهبت في شوارع المدينة لا تقع عيناك الا على فلسطين . بل انك تكاد تقرأ في شوارع عاصمة الاردن خريطة كاملة لفلسطين ، ثابتة في لافتات المحال التجارية ، ومتحركة في جموع البشر الذين يملأون الشوارع .

فالاغلبية الساحقة من المحال التجارية في شوارع المدينة تحمل اسماء المدن الفلسطينية ، وتحتل كلمة القدس القاسم المشترك الاعظم بين لافتات تلك المحال ، بصورة تعيد الى الاذهان سلوك اللاوعي العربي تجاه اسماء المدن والمواقع الاندلسية ، قرطبة وطليطلة وغرناطة والحمراء . وهي الاسماء التي ما زالت معلقة على الواجهات في اكثر المدن العربية ، اعلانا ببقائها في الذاكرة ،بديلا عن احيائها في الواقع . وكذا الحال في عمان ، اللافتات تحكي قصة « عودة وهمية منذ اواخر الاربعينات !

وفي متاجر المصنوعات اليدوية والحرف ، لا تقع عيناك الا على زجاج من الخليل واخشاب من القدس واصداف من بيت لحم ، وتطريز صنعته نسوة المخيمات ، وقلادات بغير حصر ، ومن كل نوع لخريطة فلسطين ، مرسومة على رقيقة من الذهب مرة ، ومن الفضة مرة اخرى ، ومنحوتة على اخشاب شجر الزيتون القادمة من القدس مرات ومرات .

غير المحال التجارية ، فبين اللافتات المثبتة على البنايات تطل دائما لافتات تحمل اسماء الروابط المختلفة التي ينشؤها ابناء الاسر الفلسطينية الباقون في عمان ، ليجمعوا شتات الاهل المبعثرين في انحاء الكون . ١٥٣ رابطة مشهرة في عمان وحدها ، تحاول ان تبقى من الماضي على خيط ، حتى ولو كان لافتة وختما ورقما في سجلات حكومة الاردن .

وفي الشوارع لابد ان يقع بصرك على الثياب الفلسطينية بتطريزها البديع والوانها المبهجة . وترسم تلك الثياب جانبا اخر من خريطة الوطن الضائع . ذلك ان لكل منطقة في فلسطين تصميما متميزا للرسوم واحيانا للثوب ذاته ، رغم ان رسم شجرة السرو يميز الثياب الفلسطينية بوجه عام ، فثياب بنات يافا مطرزة برسوم زهر البرتقال والليمون ، وثياب الخليل مطرزة بفروع واوراق الكروم ، وثياب سيناء وبئر سبع يضاف اليها حجاب يغطي الوجه دون العينين ، وثياب رام الله من القماش الابيض ، وثياب اريحا مفتوحة يطل منها قميص .. وهكذا ..

تصادفك تلك الخرائط المتحركة حيثما يكون هناك بشر ، مثلما تصادفك ايضا نماذج اخرى ـ لافتة للنظر ـ تعبيرا عن حقيقة التزاوج بين ما هو اردني وما هو فلسطيني . ذلك ان ثياب نسوة البادية يميزها اللون الاسود غير المطرز ، بينما يعد التطريز عنصرا اساسيا في الثوب الفلسطيني . الآن ظهرت ثياب اردنية التصميم فلسطينية النقوش ، سوداء مطرزة برسوم فلسطينية تستخدم الخيط الابيض ، وليس الخيوط الملونة .

وتلك ملاحظة لا ترصدها الا عين خبيرة ، مثل السيدة وداد قعوار ، التي تعد الآن سجلا شاملا ومصورا ، لمختلف فنون التطريز والزينة في جميع المدن الفلسطينية .

هموم أخرى

هم العرب هو خبز عمان اليومي . هذا صحيح . لكن لعمان هموما اخرى تدور في فلك الاصرار على ان تتعايش المدينة بأمان مع مختلف الظواهر التي استجدت عليها ، كما تعايشت باقتدار مع كل الذين وفدوا اليها .



وجه في احد نوادي الاطفال لا تنقصه معالم الشقاوة والتحدي .. انه الجيل الجديد شئنا ام ابينا .

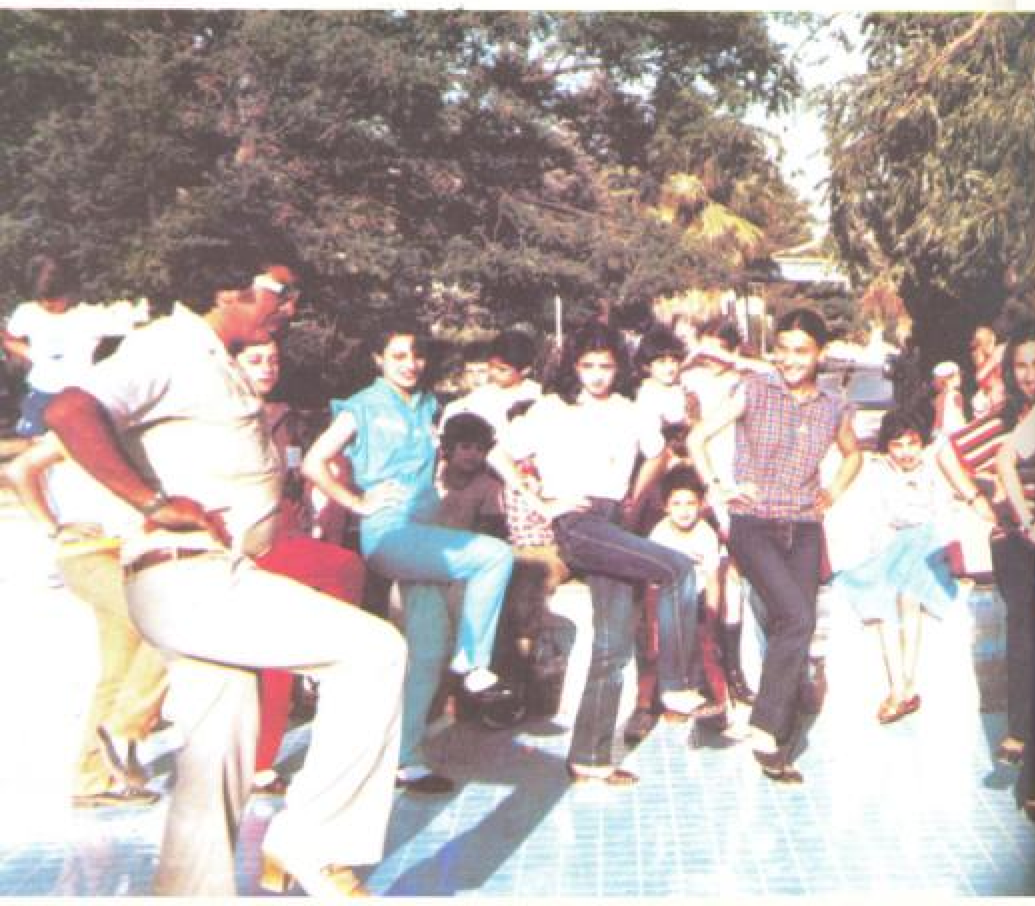






الوان .. وظلال

درس في الدبكة داخل حديقة تابعة لنادي اصدقاء الطفل ، يقدمه مدرب هاو لبعض فتيات النادي ، في محاولة لتثبيت الدبكة الاردنية ، التي تختلف عن السورية واللبنانية



وانصهروا في بوتقتها .

ازاء ذلك كان لابد ان يكون لامانة العاصمة « عقل » يدرس ويفكر ويخطط . وقد كانت دائرة الدراسات التي انشئت حديثا هي ذلك العقل الذي يحاول ان يبحث عن حلول علمية لهموم المدينة ، ابتداء بشبكات الطرق والمياه والانارة والهواتف ، وانتهاء بالحفاظ على آثارها وبصمات تاريخها القديم . ويعمل في هذه الدائرة مجموعة من الشباب المسلح بالخبرة العلمية الحديثة ، والمليء بالحماس والرغبة في ان تتمكن عمان من النهوض بدورها كعاصمة عربية عصرية ، من اجل ذلك فهم لجأوا الى اجراء عمليات مسح شاملة خلال السنتين الاخيرتين لأهم معوقات التنمية في المدينة ، واخضعوا هذه العناصر لخطط عاجلة تستهدف الانقاذ السريع ـ مثل مشكلة المواصلات بين جبال عمان وتأثيرها على قلب المدينة ـ وخطط اخرى يحتاج تنفيذها الى آجال طويلة ، مثل شبكات الطرق والمياه . واستطاع هذا الفريق من الشباب الذي يقوده المهندس غسان غانم ان يجري جراحات سريعة لتجميل وجه عمان خلال فترة لا تتجاوز سنة ، حاولوا بها ان يزيلوا بعض النتوءات والتشوهات ، وان يحاصروا الاراضي غير المبنية بما لا يخل بشكل المدينة وطابعها في خط مواز ، تتحرك دائرة اخرى تحمل اسم « التطوير الحضري » تشغلها هموم فقراء المدينة دون غيرهم ، ويقودها الدكتور هشام الزاغة الذي بات تستغرقه احزان عمان واوجاعها ، بحكم طبيعة مسئوليته ووظيفته . وتنفذ الدائرة بالتعاون مع الامم المتحدة مشروعات لاقامة ٥٢٠٠ مسكن لفقراء خمس مناطق داخل المدينة وحولها ، محرومة من الحد الادنى من الخدمات . ويستفيد من تلك المشروعات حوالي ٥٥ الف نسمة ، من الذين لجأوا الى عمان قسرا واقاموا في بيوت الصفيح والطين ، على اول ارض وجدوها ، وانشأوا مجتمعات فرضت امرا واقعا بالغ التعقيد وتنقصه مختلف مقومات الحياة الطبيعية . ولم تجد الدولة مفرا من شراء تلك الاراضي من اصحابها ، ثم محاولة اقامة تلك المساكن الصحية عليها ، وتمليكها لاهل المنطقة مع مطلع عام ١٩٨٥ .

على خط دفاع آخر ، يحاول مخطط عمان ان تمتد مظلة العدالة لتشمل اطفال المدينة ايضا ، فكانت فكرة انشاء نوادي اصدقاء الطفل ، التي توفر امانة العاصمة بمقتضاها أرض المبنى والامكانيات الاساسية ، ثم تسلم تلك المقار الى الجمعيات الاهلية التي تتولى هي ادارتها شغلا لوقت فراغ الصغار وتنمية لمواهبهم . وتلقى هذه النوادي اقبالا شديدا ، ليس فقط من جانب الأسر واطفالهم ، ولكن ايضا من جانب العديد من الشبان الذين تطوعوا للاسهام في تحقيق رسالة تلك النوادي .

ومن هذه المنطلق ايضا انشئت حديقة الطيور الجميلة والغريبة ، التي تضيف ـ مع غيرها ـ الى جو عمان لمسات رقيقة مختلفة الايقاع ومتميزة في الهدف .

والمؤكد ان تلك المشروعات والطموحات لا تشكل اهم ما في عمان ، وانما تمثل فقط احدث ما في عمان .

اننا لو شئنا الانصاف ، لوجدنا في معالم عمان المدينة علامات حديثة لا تخطئها عين ، بينها الجامعة الاردنية ، ابنة الستينات التي باتت الآن صرحا علميا في عنفوان شبابها ، واصبحت تضم عشر كليات واحد عشر الف طالب وطالبة وحوالي ٥٠٠ من اعضاء هيئة التدريس .

من تلك العلامات ايضا ذلك الصرح الطبي الكبير المتمثل في مدينة الحسين الطبية ابنة السبعينات ، التي بدأت بخدمة القوات المسلحة ، ثم وسعت خدماتها حتى باتت تستوعب مرضى الامراض المستعصية من سوريا والعراق ولبنان والسعودية ودول الخليج واليمن ، واصبحت تجري فيها ادق عمليات القلب المفتوح والمخ وزراعة الكلى . وتحولت المدينة الى مركز علاجي بارز ومركز علمي له سمعة عالمية جيدة . وتنامت امكانياته حتى انشأ مركزا للقلب ، وآخر للعلاج بالذرة ومستشفى خاصا بالاطفال ، وكلية للتمريض ، وثلاث طائرات عمودية لنقل المرضى في الحالات العاجلة من الاماكن النائية في المملكة ..

من علامات عمان ايضا ، مدينتها الرياضية الضخمة ابنة السبعينات الممتدة على الف دونم والتي تضم استادا مترامي الاطراف يغطي كل انواع الرياضة ومدرجات تسع مائة الف مشاهد ، ومعهدا رياضيا وسوقا تبيع مختلف مستلزمات الرياضة .. غير مجمع ثقافي يضم مكتبة وقاعات للمحاضرات والندوات والعروض السينمائية .

اننا لو مضينا على طريق الانصاف الى نهايته ، فلابد ان نسجل لعمان الثمانينات تلك الروح الجديدة التي تسري فيها ، والتي تسعى لحل تلك المعادلة الصعبة التي تتمثل ـ كما قلت ـ في ترويض كل شذوذ طرأ على جسم عمان ، وادخاله في نسيج الحياة الطبيعية والصحية ، املا في الذهاب الى ما هو ابعد ، ان ينمو قلب عمان وعقله ، بقدر نمو جسم المدينة وعضلاتها . ■■

فهمي هويدي .

الأحجار الكريمة على العرش في دنيا الجمال

اذا كان عالم الجمال مليئا بالاسرار ، فان دنيا المجوهرات تختلط فيها الاسرار بالاساطير ، والواقع بالخيال ، بينما تظل المجوهرات دائما عنصر جذب يشد انتباه الجميع ، ويبهر عيون النساء والرجال على السواء . وعلى القمة في دنيا المجوهرات ، تتربع الاحجار الكريمة منذ قرون ، بغير منافس ولا منازع .

اعداد : دينا العيسى — تصوير : اوسكار متري .....

لقد استطاع الباحثون في علم المعادن ان يعرفوا حوالي ٢٠٠٠ مادة ومركب من محتويات الكرة الارضية ، وقد صنفوها وفرزوا منها مائة نوع ، اعتبروها احجارا كريمة ، وصنفت المائة درجة ما بين عالية الثمن ومتوسطة الثمن (SEMI — PRECIOUS STONE) . فمثلا يعتبر الالماس والياقوت والزمرد من مجموعة الاحجار العالية الثمن ، بينما يعتبر الاونيكس ، والعقيق ، والامتست ، والاوبال ، والتوباز ، من عائلة الاحجار متوسطة الثمن .

سر الجمال :

من المعروف قديما ان من اسرار جمال الشيء ندرته ، سواء كان ذلك الشيء حجرا ثمينا او طعاما ، او شرابا ، او غير ذلك ، وفي عالم الاحجار الكريمة هناك مجموعة من اسرار الجمال سوف نحاول كشفها ، واول هذه الاسرار - اضافة لعامل الندرة - هو النقاوة فكلما كان الحجر نقيا خاليا من الشوائب كان اكثر قدرة على اضفاء الشفافية ونال مزيدا من اللمعان ، وهنا تكون النقاوة عاملا هاما في اضفاء المزيد من جمال الحجر وصفاء رونقه . والوزن عنصر اخر يشكل احد مصادر الجمال في الاحجار الكريمة ، اذ يقدر وزن جميع الاحجار الكريمة بالقيراط ، والقيراط وحدة قياس طبيعية تعرف ببذرة الخروب ، وهي ما يعادل خمسة جرامات ، ولعل التساؤل هو : ما هي العلاقة بين الوزن والجمال ؟!

بكل بساطة نبين دائما ان زيادة وزن الحجر يعني زيادة القدرة على الانعكاس ، وهي تعني مزيدا من الالوان ، ومزيدا من الجمال ، وبالتالي يكون الوزن عاملا مهما في زيادة ثمن الحجر الكريم .

كما يعتبر لون الحجر سرا من اسرار الجمال ، وعاملا في تحديد قيمته ، ويؤثر بشكل كبير على جمال الحجر الثمين ، وهنا تدخل عملية الذوق الانساني ، ففي الامثال (لولا اختلاف الاذواق لبارت السلع) وهذا يعني ان الذوق يختلف من فرد لآخر ، فما هو جميل في عين احد الناس ربما يكون قبيحا او اقل جمالا في عيون الاخرين .

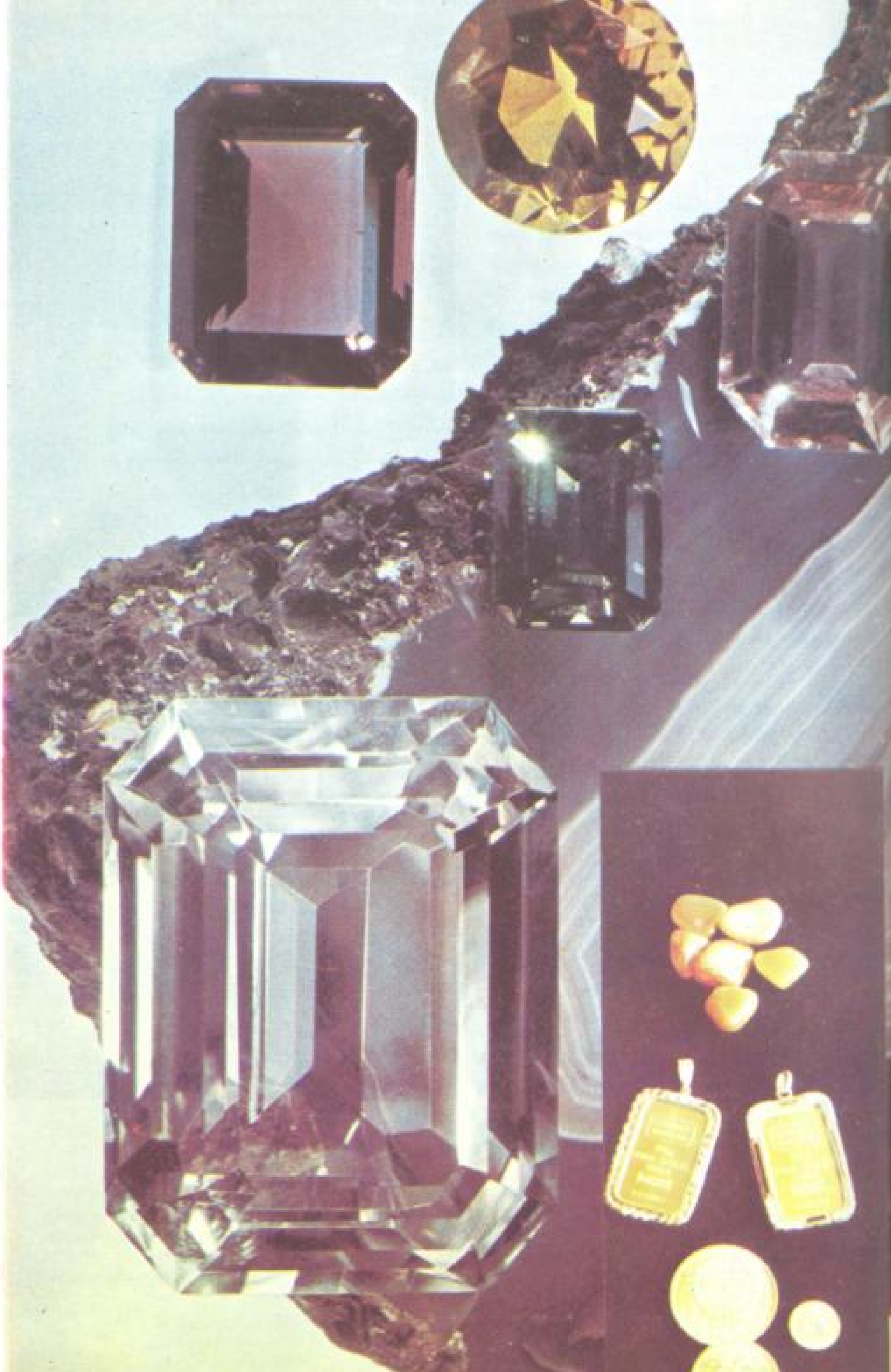
ولكن في عالم الاحجار الكريمة شبه اتفاق حول عامل اللون ، واثره في اضفاء الجمال ، لأن لون الحجر يؤثر بشكل مباشر على القيمة الفعلية له . ومثال ذلك حجر الالماس فأحيانا تصنف الوانه ثماني درجات ، ابتداء من الابيض المائل للزرقة ، وهو اثمن انواع الالماس ، الى الابيض النقي ، الى الابيض المصفر ، وهناك الاخضر الغامق ، والوردي ، والازرق ، حتى الالماس الاحمر أحيانا ، وما ينطبق على الالماس ينطبق على الاحجار الأخرى ، مثل الياقوت الاحمر ، والازرق ، فكلما كان لون الياقوت باهتا قل ثمنه ، وفي الوقت نفسه قلت منافسته لجمال الياقوت ذي اللون الروبان الزاهي .



الأحجار الكريمة على العرش في دنيا الجمال



التاج والصولجان من ضمن مجموعة المجوهرات والاحجار الثمينة التي تخص ممتلكات التاج البريطاني . و ا الى اليسار) كل هذا الجمال كان مدفونا تحت باطن الارض بين التراب والصخور ..



اما السر الخامس والاخير ، وربما لا يكون الاخير مع تقدم الاكتشافات في عالم الاحجار الكريمة ، هذا السر هو الهندمة والشطف ، والصقل ، وهي تعتبر اختصاصا قائما بذاته في عالم الاحجار . وعملية الصقل وتشكيل الاحجار ليست بالعملية السهلة فهي تحتاج الى العمل والمعرفة ، وخبرة تامة بتركيب الاحجار الكريمة وتحتاج الى فن رفيع لاظهار الحجر بشكل جميل يضفي عليه مزيدا من التألق ..

ثم ان هذا التألق وحسن الهندمة يساهم في رفع قيمة الحجر ، ومن اشهر بلاد العالم في عملية الصقل والشطف : بلجيكا ، وسويسرا ، وبلاد العدو الاسرائيلي .

الآن وقد عرفنا اسرار الجمال الخمسة (الندرة ـ النقاوة ـ اللون ـ الوزن ـ الصقل والشطف) لابد ان نذكر عاملا اخر لا يقل اهمية وهو عامل النسبية فمسألة الجمال مسألة نسبية وعملية التفاوت بين العناصر الخمسة في الاحجار الكريمة هي التي تعطي لكل حجر ميزاته ، وقيمته ، ونسبة جماله ، وتبقى عملية الذوق والاختيار متروكة للمشتري .

جاذبية الالماس :

تلك الألماسات النادرة الوجود ، وتلك الخواتم والقراريط الماسية التي تفتن النساء ونراها تبرق وتتلألأ في واجهات المحلات التجارية بريقا ماسيا يجذب الباعة والمشترين ـ فمن أين كل هذا البريق .؟

من مفارقات القدر ان يجيء هذا الحجر الساحر من الكربون النقي المتبلور بفعل الضغط والحرارة العالية ، وان يتميز الحجر بدرجة عالية من الصلابة ، فالالماس اصلب من الحديد ، ولذا لا يمكن قطعه وصقله الا بادوات ومعدات حادة مصنوعة خصيصا لهذا الغرض ، انها لحقيقة مثيرة ان تكون تلك الرقة والجمال في الألماس مجتمعة مع صلابة اعلى من الحديد اما سبب بريق هذا المعدن الثمين فهو تخلل الضوء داخل زوايا الحجر لأن للالماس عدة اوجه اذا تخللها الضوء فانه يتكسر معطيا الوان الطيف الجميلة ، وتعكس تلك الزوايا المتقابلة الوان الطيف فتبهر الرائي .

أين يوجد ذلك الكنز ؟

مصدر هذا المعدن الثمين هو الحجر الأم المسمى (الكمبرليت) وهو بمثابة صخور بركانية بين ثنايا الحجر يتكون فيها الالماس على عمق ١٦٠ مترا تقريبا وتحت حرارة تراوحت ما بين ١١٠٠ ـ ١٣٠٠ درجة مئوية . واول مكان اكتشفت فيه هذه التراكيات هو الهند ، ثم تم اكتشاف الالماس في البرازيل عام ١٧٥٠ ، وظلت البرازيل مصدرا رئيسيا للالماس الى حين تم اكتشافه في جنوب افريقيا عام ١٨٨٦ .

اما اهم مناطق تعدين الألماس في العالم فهي انجولا ، واندونيسيا ، والاتحاد السوفيتي ، وجنوب افريقيا ، والهند ، والبرازيل ، وغانا وليبيريا .

واهم مراكز الصقل بلجيكا ، والولايات المتحدة ، والبرازيل ، وهونج كونج ، وفرنسا ، وهولندا ، وسويسرا ، واسرائيل .

أما الأسواق الرئيسية فهي : امريكا ، لندن ، فرنسا ، ايطاليا ، جنوب افريقيا ، واليابان ، وكندا .

اقدم الماسة في العالم :

واقدم الماسة في العالم تدعى (الكوهينور) وقد وجدت هذه الالماسة في احدى الضواحي القريبة من المدينة القديمة (جولكندا) في الهند ومما يشاع انها كانت بحوزة « راجا الملاو » في عام ١٣٠٤ ومن ثم وقعت في يد اول امبراطور مغولي هو السلطان بابر ، وظلت هذه الجوهرة من ممتلكات اباطرة المغول لمدة قرنين . ثم في عام ١٧٣٩ استطاع الامبراطور الافغاني « نادر شاه » غزو الهند واستولى على دلهي ، وظل في العاصمة الهندية ثمانية وخمسين يوما ، سلب فيها ونهب ، وظل يبحث عن الجوهرة الثمينة (الكوهينور) الى ان ارشدته امرأة عجوز الى ان الجوهرة مخفية في عمامة امبراطور الهند ، وحينئذ قرر نادر شاه دعوة الامبراطور الى احتفال كبير تبودلت فيه العمائم كعنوان على المحبة والألفة ، وكان ضياع الجوهرة من يد الامبراطور ثمنا للمحبة والألفة ، وحين خلا نادر شاه الى نفسه وفتح العمامة وجد بها الجوهرة « الكوهينور » صاح من شدة فرحه « وجدت جبل الضياء » .

وفي عام ١٧٤٧ اغتيل نادر شاه ، ويقال ايضا ان ابنه قد مات معذبا مفضلا ذلك على تسليم الجوهرة ـ وقد قيل قديما ان اقتناء الجواهر الثمينة مصدر لعنة وسبب شقاء لمن يمتلكها ، وقد ظلت اساطير الجواهر التي تجلب اللعنة على اصحابها تدور بين الناس من عصر لآخر .

المهم ان نعرف الآن ما هو مصير « الكوهينور »؟.

يقال انها انتقلت من يد لأخرى من الافغانيين الى السيخ الى حين وجدها اثنان من الضباط البريطانيين في احد كنوز لاهور عاصمة البنجاب عام ١٨٤٩ وقدمت تلك الجوهرة هدية للملكة « فكتوريا » وتم صقلها من جديد في عام ١٨٥٢ بأمر من الملكة لتقطع الى جوهرة بوزن ١٠٨,٩٣ قيراط من اصل ١٨٦ قيراطا ووصل سعرها انذاك ٤٠ ألف جنيه استرليني ، وكانت الملكة فكتوريا ترتدي الالماسة على اعتبار انها من ضمن ممتلكاتها الشخصية ، ومن ثم اوصت بها لابنتها الملكة « الكسندرا » التي ارتدتها في حفل تتويج الملك ادوارد السابع عام ١٩٠٢ ، ثم في عام ١٩١١ ارتدت الملكة ماري تاجا يشع منه بريق الجوهرة « الكوهينور »، وبعد ستة وعشرين عاما ارتدت الملكة اليزابيث زوجة الملك جورج السادس تاجا صنع لها خصيصا ، لترتديه بمناسبة تتويج زوجها ، ويعرف هذا التاج الان بتاج الملكة الأم ، والذي منه يسطع نور « الكوهينور ».

وهكذا انتهى مطاف الجوهرة الكوهينور بعد رحلة طويلة لتصبح من نصيب ممتلكات التاج البريطاني .

وأكبر الماسة في العالم :

هي « الكولينان » (CULLINAN)وقد وجدت عام ١٩٠٥ في المتجم الرئيسي في جنوب افريقيا ، ولقد اهدتها حكومة الترانسفال الى الملك ادوارد السابع العاهل البريطاني ، كعربون للصلح بعد حرب البوير ، بعد ان كانت حكومة الترانسفال قد اشترتها بمبلغ ٧٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني وقد كان وزن هذه الماسة ٣١٠٦ قراريط ، وكان شكلها بحجم قبضة اليد ، والبعض يشير الى ان حجمها بحجم قدم الانسان ، وبناء على رغبة الملك ادوارد تقرر ارسال الالماسة لمصنع في امستردام لتقطيعها واعادة صقلها من جديد ، وقد تم تقطيعها الى ٩ ماسات بحجم كبير و٩٦ الماسة بحجم اصغر ولعل اكبر هذه الالماسات واشهرها (نجمة افريقيا الكبرى) التي تزين الصولجان البريطاني ضمن مجموعة مجوهرات التاج في لندن ، ويبلغ وزنها ٥٣٠ قيراطا وهي اكبر الماسة موجودة في العالم الى الان .

اما الالماسة الاخرى فهي ايضا تزين التاج الامبراطوري البريطاني ويبلغ وزنها ٣١٧ قيراطا وتوجد ايضا ماستان من ذوات الوزن الكبير ، تتزين بهما الملكة في المناسبات الخاصة ، وتزن احداهما ٩٤ قيراطا ، والثانية ٦٣ قيراطا ، كل هذا مشتق من الالماسة الام « كولينان » انها بالفعل اعجوبة العجائب .

اشهر الماسة في العالم :

ومن اكثر الاحجار الكريمة شهرة في العالم ماسة « الامل » كان مشاعا لدى عشاق المعتقدات بأنها مصدر للعنة ، فما من احد ملك هذه الماسة الا وحلت به اللعنة الى ان انتقلت ليد اخرى وتبدأ رحلة هذه الجوهرة الثمينة التي يبلغ وزنها ١١٢٥ قيراطا ، عندما اكتشفت في احد مناجم الهند ووصول هذه الماسة الى فرنسا بعد ان تعرضت لسرقة اللصوص ، واشتراها تاجر الاحجار « جان تافيرنر » ثم باعها للملك لويس الرابع عشر ، وقام الملك بصقلها من جديد على شكل قلبين يزن كل منهما ٦٧ قيراطا وسميتا « بالماس الازرق للتاج » ثم ورثهما لويس السادس عشر وماري انطوانيت ، وفي ظروف غامضة اختفت الالماسة في باريس بعد سرقتها عام ١٧٩٢ ، وظهرت مرة اخرى في لندن عام ١٨٣٠ ، وبوزن جديد ٤٤,٥ قيراطا واشتراها رجل الاعمال البريطاني « هنري هوب » ودفع ٩٠,٠٠٠ جنيه ثمنا لها ، وبعد وفاته عانى ورثته كثيرا من المشاكل حتى قبل ان احد الورثة « فرانسيس هوب » توفي معدما من المال ، وانتقلت الجوهرة بعد ذلك الى اوروبا الشرقية حيث اهداها احد الامراء الى احدى الممثلات ، وبعد فترة ماتت الممثلة مقتولة برصاص الامير .







هذه صور بعض القطع الفنية النادرة التي عرضت في عدة معارض للمجوهرات اقيمت على ارض الكويت . وزة عبارة عن قطعة نادرة من اللؤلؤ الثمين مصاغة مع الماس وأحجار كريمة . وخنجر مرصع بالاحجار الكريمة وبالطبع الصناعة اوروبية والفكرة مستوحاة من كنوز الشرق . واحد المعارض الكبيرة التي اقيمت في الكويت وعلى ما يبدو ان القطع الثمينة بهرت عيون النساء قبل الرجال . وطقم مكون من حجر التركواز مع الالماس يعتبر من الاطقم الحديثة واخيرا عقد من المرجان .







وبعد ذلك لم تتوقف لعنة الجوهرة ، فقد امتلكها تاجر يوناني لقي مصرعه هو وافراد عائلته اثر حادث تصادم أليم ، ومن ثم انتقلت الجوهرة ووصلت ليد السلطان عبد الحميد الثاني ، وامتلك الجوهرة لعدة شهور ثم اطيح به اثر انقلاب عسكري قامت به جماعة « تركيا الفتاة » عام ١٩٠٩ .

واستمرت رحلة تلك الجوهرة الغريبة . اذ تعتبر السيدة « ايفلين ويلش ماكلين » اول اميركية تمتلك جوهرة الامل وقد صاغتها على شكل قلادة من ٦٢ ماسة بيضاء وقد قام باعادة صياغتها الصائغ الفرنسي المشهور « بيير كارتير » ودفعت السيدة ماكلين ١٨٠,٠٠٠ جنيه استرليني ثمنا لامتلاك الجوهرة ، ولفرط سعادتها كانت السيدة ماكلين تعرض قلادتها أينما ذهبت ، وفي كل مكان ، الى ان روعت بنهاية فاجعة اذ مات اثنان من ابنائها ، واصيب زوجها بمرض عقلي . وبعد وفاة السيدة ماكلين عام ١٩٤٧ اشترى الجواهري « هاري ونستون » جميع مجوهراتها بما فيها جوهرة الامل ، وتبرع بالجوهرة لمؤسسة « سميث سونيون » الاميركية عام ١٩٥٨ وربما يكون سبب تبرعه بالجوهرة خوفه من ان تصيبه لعنة الجوهرة .

قد تكون قصة هذه الجوهرة احدى الاساطير التي صنعها الخيال وربما تكون الرواية حقيقية وعلى العموم فان سحر هذه الجوهرة يستقطب ٣ ملايين متفرج سنويا في مؤسسة « سميث سونيون ».

اما ماسة « الاورلوف » التي يقال انها كانت تشكل عين الاله براهما في احد تماثيله ، والاله براهما هو « اله الحكمة والتقوى » او اله « الحكمة والزهد » كما عرفه الهنود سابقا ـ ويقال ان جوهرة الاورلوف تنقلت من يد لاخرى حتى وصلت الى امستردام ، ثم اشترتها امبراطورة روسيا كاترينا الثانية ، وهي الان في متحف كنوز الكرملين في موسكو .

ليس كل ما يلمع الماسا :

هناك انواع من الاحجار الكريمة اذا لم تكن فيها شوائب فانها تنافس الالماس جمالا وقيمة ، وفي كثير من الاحيان تفوق الالماس سعرا حين تكون نقية صافية . وتدخل هذه الاحجار الكريمة في عائلة الاحجار الثمينة .

فمثلا الياقوت الاحمر المسمى « الروبي » (RUBY)والياقوت الازرق المعروف باسم « سفاير (SAPPHIRE) وان افضل انواع الياقوت الاحمر والازرق يكون موطنها في آسيا ، وعلى وجه التحديد في بورما ، حيث تعتبر منطقة « موجوك » في بورما من اغنى مناجم العالم في انتاج الياقوت بنوعيه ، حيث كانت تلك المناجم معروفة منذ عصر ما قبل التاريخ . كذلك تعتبر تايلاند (بلاد التين) وسيلان من اشهر دول العالم في انتاج الياقوت ، ويعتبر الياقوت الازرق في تلك البلاد المنافس الاول للياقوت البورمي ومثلما كان للالماس حظ في القصص والاساطير وعجائب الروايات كذلك هناك غرائب القصص التي لعب فيها الياقوت دور البطولة .

وتعتبر الولايات المتحدة من الدول المحظوظة لامتلاكها اثنين من اجمل ياقوت العالم وأثمنه ، احداها تزن ١٠٠ قيراط وهي دي لونج روبي (DE,LONG,RUBY) وهي ياقوتة حمراء صافية محفوظة في المتحف الامريكي للتاريخ الطبيعي في مدينة نيويورك والاخرى ايضا من الياقوت الاحمر وتزن ١٣٨ قيراطا ، وهي معروفة باسم روسر ريفز روبي

(ROSSER REEVES RUBY)

وهي موجودة في أول مؤسسة للابحاث العلمية في الولايات المتحدة وانشئت عام ١٨٤٦ .

(S MI ,ITHSONIAN)

الزمرد :

ويدخل الزمرد في عائلة الاحجار الثمينة ، وكثيرا ما تنافس الزمرد غيره من الاحجار الكريمة جمالا وسعرا ويعرف الزمرد باسم (E M ,ERALD)

وهناك نوع اخر من الزمرد هو زمرد صابوني ويعرف احيانا باسم الزمرد المصري نسبة الى وجوده في مصر قديما وكان يستخرج من جبال زبارا في مصر القديمة منذ ١٦٥٠ قبل الميلاد .

اما مناجم الزمرد حاليا فهي منتشرة ما بين العالم القديم والعالم الجديد ، فهذا الحجر الثمين موجود في

الاتحاد السوفيتي ، والنمسا ، والهند ، وشمال كارولينا ، ولكن تظل كولومبيا دون منافس مصدر افضل احجار الزمرد ، وكثيرا ما يوجد حجر اخر من الاحجار الكريمة بالقرب من مناجم الزمرد ، ولكن يدخل ضمن عائلة SEMI — PRECIOUS STONE اي عائلة الاحجار المتوسطة الثمن هذا النوع الاخر يسمى اكوامارين اي ماء ملح او ماء البحر وعادة يشتق الزمرد والاكوامارين من نفس المنجم الا انه على الرغم من هذا التجاور في الموطن يظل الاختلاف في التركيبة الجيولوجية سببا في اختلاف لون الحجرين وقيمتها .

فالزمرد عادة يكون ذا لون اخضر ، نتيجة لتأثير معدن الكروم في حجر الزمرد ، اما الاكوامارين فانه يكون مائلا للزرقة بتأثير معدن الحديد .

وهذه التركيبة الجيولوجية هي الحكم في قيمة كلا الحجرين وستوضح الفرق بين سعريهما حين نعرض بعض نماذج الاحجار الكريمة في سوق الكويت للاحجار الكريمة .

فارس القديمة والاسطورة المتلألئة :

من اكبر كنوز الأرض واثمنها ذلك الكنز الفارسي القديم الذي مازال موجودا في ايران ويحتوي هذا الكنز على مجموعة من اندر المجوهرات والاحجار الكريمة واثمنها في العالم ، وتعتبر هذه المجوهرات من الممتلكات الوطنية التي لا تقدر بثمن ، والتي تساعد الميزانية الايرانية بحوالي اربعمائة بليون دولار .

ومن المعروف قديما انه في عام ١٧٣٩ عندما استولى « نادر شاه » على مدينة دلهي وسلب ونهب كل خيرات المدينة ، عاد محملا بصناديق الزمرد واللؤلؤ والالماس وما يحويه الكنز الايراني الان هو حصيلة سنوات مضت ، ويقال انه يحتوى على ١٣ ألف صندوق مملوءة فقط بعملات من الذهب والفضة ، هذا بالاضافة الى عدد كبير من الصناديق المملوءة بالألماس والأحجار الكريمة ، وقد ظل ذلك الكنز الايراني زمنا طويلا بعيدا عن الانظار خلف الحرس والاقفال حتى عام ١٩٦٠ ، حين بدأ البنك الوطني في طهران عرض المجوهرات الملكية ، وافتتح المعرض الدائم لتلك المجوهرات النادرة التي اذهلت العالم ، وقد كان من بين المعروضات ذلك العرش المطلي بالذهب والمرصع بالمجوهرات والاحجار الكريمة بالاضافة لعدد من التيجان ، والسيوف ومئات عقود اللؤلؤ واحجار الزمرد ذات الحجم الكبير واللون البديع ، تعادلها ايضا كميات من الياقوت الصافي ، بين تلك المجوهرات تقبع تلك الجوهرة الثمينة وهي قطعة من الالماس يبلغ وزنها ١٨٥ قيراطا والمسماة « دريارنور » وتعني بحر النور .

والله وحده العالم بمصير هذه الثروة الضخمة في ظل الاوضاع الايرانية الحالية فبعد تشتت افراد الاسرة المالكة ربما يكون قد اخذ ما اخذ ، ونهب ما نهب ، وذهب ما ذهب مع الريح .

لنواصل طريق الاجداد :

الكويت مركز تجاري منذ القدم فمن ايام الغوص والبحث عن اللؤلؤ كان للكويت طريق تجاري ما بين البحرين والهند واليمن ، وقديما كان الطواويش (تجار اللؤلؤ) هم وسطاء تجارة اللؤلؤ ما بين الكويت والخليج والهند ، فكانوا يشترون اللؤلؤ من النواخذة ويتاجرون به في الكويت والخليج والهند وبالرغم من كون الوسائل والامكانيات محدودة ، اذ كان البحر هو الوسيلة المعروفة للمواصلات ، والانتقال من بلد لاخر بواسطة السفن الشراعية شبه مخاطرة ومجازفة في سبيل توفير لقمة العيش ، ولكن رجال الكويت اثبتوا كفاءتهم وقدرتهم على تحمل المخاطر وطوال سني ما قبل اكتشاف النفط كانوا يسافرون ويشتغلون بالتجارة دون كلل او ملل ، وفي كل الظروف ، وبكل عزم واصرار وبعد اكتشاف البترول بدأت مرحلة جديدة في عالم التجارة وتنوعت وسائلها وتعددت العلاقات التجارية ، واصبحت الكويت مركزا تجاريا ضخما تتعامل مع كل دول العالم ، ومع حركة النهضة وتقدم العمران الذي شمل شتى المرافق بما فيها التجارة اصبحت الكويت سوقا تجاريا للذهب والمجوهرات والاحجار الكريمة وتزايد عدد المحال التجارية ، واقيمت المعارض العالمية للمجوهرات على ارض الكويت بين الحين والآخر عارضة اجمل وارقى المصوغات العالمية ومن هنا كانت لنا جولة في اسواق ومعارض المجوهرات والاحجار الكريمة في الكويت .

■ دينا العيسى ■

السعيْ بَين الصَّفاوبَين المرْوة

اذا قلنا « أقيم جسر بين شاطئي النهر » جاز أن نعتبر الجسر معبرا يصل أحد الشاطئين بالآخر ، أو حدا فاصلا بينهما . فكلمة « بين » تفيد الوصل كما تفيد الفصل ، وهي في الحالين تدل على التوسط .

وتكون « بين » ظرف زمان مثل : « سنسافر بين الظهر والعصر » او ظرف مكان مثل : جلسنا بين الجدار والمكتب ، او شبه ذلك مثل « الشجاعة بين التهور والجبن » .

ويظهر ان « بين » في الاصل مصدر ، بمعنى الظهور ، ومن ثم جاءت معانيه الأخرى كالفراق ، والاختلاف والغربة .. . يقال بأن الصبح يبين بيناً وبينونة » ، « وبان الحق من الباطل » أي ظهر وتميز » ومثله « « تبين النضج في الثمار » » و « لاتطعم الثمر حتى يبين نضجه » . والظهور يتحقق للشيء أو فيه حين يتميز وينفرز مما جاوره باي صورة من صور الحركة : وليس من الضرر ان تكون النقلة أوالحركة من مكان الى مكان أو من زمان الى زمان . فقد تكون من حال الى حال كالنقلة من البرودة الى السخونة ،او من الرطوبة الى الجفاف ، او من الخضرة الى الحمرة ، وبذلك يختلف الشيء عما كان عليه . مثال ذلك « بانت القافلة عنا » اي ارتحلت وفارقتنا ، ومثله قول ابن زيدون من قصيدة له الى صاحبته ولادة بنت المستكفي .

« بنتم وبنا ، فما ابتلت جوانحنا
شوقا اليكم ، ولاجفت مآقينا »

وبانت المرأة من زوجها أي انفصلت بالطلاق « و « رأيي يباين رأيه» أي يفارقه ويختلف عنه . وهكذا يأتي « « البين » بمعنى « الفراق »ومنه قول البارودي يتحسر على فراق أحبته ، وذهاب شبابه قبل قضاء مآربه :

محا البين ما أبقت عيون المها مني
وشبت ، ولم أقض اللبانة هن سني

وفي ادب الاسلاف ولاسيما الشعراء تتكرر كلمة« غراب البين » لانهم كانوا يتشاءمون من نعيب الغراب ويتوهمونه نذير سوء بموت عزيز او سفره او خصومته . ولهذا نسبوه الى « البين » . ومثاله قول يزيدبن معاوية ـ وكان شاعرا ـ بعد ان اقتحم جيشه الشامي مدينة النبي فاستباحوها في جواره

يا غراب البين ، أسمعت فقل
انما تنطق شيئا قد فعل

وتقول : « كان عمر بن الخطاب بائن الطول » وكان عبد الله بن مسعود بائن القصر »اي ظاهره ، ومتميز به

« والبون » قريب من « البين » لفظا ومعنى ، كقولنا « البون واسع بين المدينتين » أي الفرق» المسافة » أو «بين الشاعرين بون واضح » .

وقد انتقلت كلمة « بين » من المصدرية الى الظرفية فصارت تستعمل ظرفا مبهما ، ولكن معناه يظهر بالاضافة الى ما بعده ولابد ان تكون اضافته الى اثنين او اكثر ، مثل « جلست بين الصديقين » او « عدل القاضي بين الخصوم » .

وقد يكون المضاف اليه مستعملا للفرد ، ولكنه يقوم مقام اثنين او اكثر في معناه كقوله تعالى « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » اي بين الاسراف والتقتير ، وكقوله تعالى على لسان المؤمنين وتصديقهم بالانبياء جميعا « لانفرق بين احد من رسله» لان كلمة « احد » تستغرق جنس الرسل ، وكذلك حين تقول : الولد ابوه طويل وامه قصيرة وهو بين ذلك . فكلمة « ذلك » تدل على الطرفين .

وقد تنقطع « بين » عن الاضافة . فيجب تكرارها ، وتفهم حينئذ دلالتها من السياق قبلها ، مثل : الولد ابوه طويل ، وأمه قصيرة وهو بين بين » وتعرب بين بين » على فتح الجزأين ، مثل الاسماء المركبة « ليل نهار ، صباح مساء ، احد عشر » .

واذا اضيفت « بين » الى احد الطرفين أوالاطراف عطف ما سواه عليه « بواو » العطف غالبا . كقوله تعالى في قصة الملكين ببابل « فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » .

وبعض الباحثين يوجب ان يكون العطف هنا بالواو . هذا الرأي كثير مما جاء في تراثنا الأدبي شعرا ونثرا ، فيجوز أن حرف العطف « الفاء » للترتيب والتعقيب أو يكون بجمع « ثم » للترتيب مع التراخي فتقول : يسعى الحاج والمعتمر بين الصفا فالمروة » أو « بين الصفا ثم المروة » ويشهد لذلك قول امرىء القيس في مطلع معلقته .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح ، فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجته من جنوب وشمأل

اي : ان طلل منزل الحبيبة يقع عند منقطع الرمل بين هذه الأماكن الاربعة « الدخول » « وحومل » « وتوضح » و « المقراة » وهي هكذا

بالترتيب

وإذا جاز ان تكون الفاء عاطفة هنا ، جاز ان تكون « ثم » ايضا .

ويجوز ان نقول : « سعينا بين الصفا الى المروة . » كما قال بشار :

اعرضا حاجتي عليها وقولا :
انسيت السرار تحت الرداء
ومقامي بين المصلى الى المنبر ،
ابكي عليك جهد البكاء

ويمنع بعض الباحثين ان تتكرر - بعد حرف العطف بين - الطرفين ، فيخطئون ان يقال مثلا : القيلولة صيفا ما بين الظهر وبين العصر » وخطأ ما زعموه ، فتكرار « بين » في مثل هذه العبارة كثير الشواهد شعرا ونثرا في مأثورنا الادبي ، فمن خطبة للنبي عليه السلام : ان المؤمن بين مخافتين بين اجل قد مضى لايدري ما الله صانع به ، وبين أجل قد بقي ، لايدري ما الله قاض فيه . ومنه قول العجير السلولي في الحب وهو من العصر الاموي(ت ٩ هـ ؟)

الم تعلمي بالحي سفلى ديارهم
بفلج واعلاها بصارة والقهر .
وللعاديات القهقري بين ربة
وبين الوصاف من كماة ومن شقر

(فلج ، وصارة ، والقهر اماكن : الري الظمأ ، والوصاف : الصوت)

ومثل هذا ايضا الشاهد المشهور لذى الرمة :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل
وبين النقا ، أأنت أم سالم

وقول أبي تمام من قصيدة غزلية :

ألف الأسى فكأنما بين الأسى
« قرب ، وبين غوامض الاحشاء »

وقوله من قصيدته المشهورة يهنئ المعتصم العباسي حين فتح« عمورية » منتصرا على الروم . ويقرن الشاعر بين هذه الموقعة وموقعة بدر :

« ان كان بين صروف الدهر من رحم
موصولة ، او ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها
وبين أيام بدر اقرب النسب

وقول حاتم الطائي يرد على رجل تهدده :

ايها الموعدي ، فإن لبوني
بين حقل وبين هضب ذباب
حيث لا ارهب الخزاة وحولي
ثعليون كالليوث الغضاب . « ١ »

وكذلك تتكرر « بين » اذا اضيفت الى ضمير كقوله تعالى على لسان العبد الصالح يخاطب موسى عليهما السلام :

« قال : هذا فراق بيني وبينك » وقوله تعالى : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين .

ويجيز الكوفيون عدم تكرارها حين اضافتها الى ضمير ، لتجويزهم العطف على الضمير المتصل مباشرة فيقال مثلا « اصلحت بينه وصديقه » وهم في ذلك يتابعون شيخهم الكسائي في قراءة قوله تعالى (واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام) بجر الارحام عطفا على الضمير اي تساءلون به وبالارحام » (٢)

ونفضل تكرارها اذا طال الكلام على كلا الطرفين ليكون الفصل بينهما واضحا ، فنحن مثلا نعلم ان الحرب العالمية الثانية قد وقعت بين جهتين إحداهما دول المحور : المانيا وإيطاليا واليابان ، والثانية الدول الحليفة : بريطانيا وفرنسا وروسيا وعشرات من الدول الاخرى .

فنحن حين نقول : « وقعت الحرب بين ... ونسرد اسماء هذه الدول معطوفة لانميز بين الجهتين فنعمد احيانا الى الحيلة ، فنقول « وقعت الحرب بين كذا وكذا من جهة وكذا وكذا ... من جهة اخرى » ، ولكننا اذا كررنا « بين » اغنانا ذلك ، فنقول : وقعت الحرب بين كذا وكذا .. وبين كذا وكذا ... » وتكون « بين » مبنية على الفتح مثل « اصلحت بين الخصمين » » ووفقت ما بين الرأيين » وتكون مجرورة بالكسر اذا وقعت بعد حرف جر ، مثل : « اخذت الكتاب من بين يديه » ، أو وقعت مضافا اليه كقوله تعالى في التوفيق بين الزوجين « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها »وتكون مرفوعة اذا وقعت مباشرة بعد فعل ، كقراءة بعضهم « لقد تقطع بينكم ، اي وصلكم » ويجوز نصبها كما جاءت به قراءة اخرى وكذلك اذا وقعت مباشرة بعد «شتان » فيجوز رفعها ، ونصبها ، مثل شتان بين الرجلين » فان سبقتها « ما » امتنع الرفع كما في قول الشاعر

فشتان ما بين اليزيدين في الندى
يزيد سليم والأغر ابن حاتم

(١) لبوني : ابلي ، وحقل وهضب ذباب : موضعان والثعليون : بنو ثعل ، عشيرة حاتم

(٢) القراءة المشهورة الارحام بالنصب عطف على لفظ « الله » اي « اتقوا الله والارحام » .

الآباء يزرعون الحصرم

بقلم : منير نصيف

هل كانت هذه هي النهاية التي يريد ان يصل اليها ؟
شيء في داخله كان يصرخ بقوة « ماذا صنعت » ؟ .. رحلته الاخيرة هذه كانت أصعب واقسى رحلة ، ومع ذلك فقد مضى فيها دون ان يتوقف للحظة واحدة يحاول ان يلتقط فيها انفاسه او يفكر فيما يمكن ان تصير اليه الامور بعد ان ينتهي كل شيء !

في مساء هذا اليوم الذي انتهت فيه رحلته مع العذاب ، احس لاول مرة انه رجل غريب ..! « البيت الجديد » الذي انتقل اليه منذ عدة اسابيع لم يعد هو نفسه الذي اعتاد ان يلجأ إليه في مساء كل يوم بعد ان ينتهي من عمله .. في هذا اليوم رأى فيه شيئا اخر .. لقد احس وهو يلقي بجسمه المتعب فوق الفراش الصغير الذي يتوسط الغرفة انه يعيش في « سجن » وراء جدران عالية !

❋ ❋ ❋

كان عائدا لتوه من المحكمة التي قضت بطلاقه من زوجته بعد حياة زوجية دامت لاكثر من عشر سنوات ، انجبت له فيها طفلين اكبرهما في السابعة .. وحكم القاضي للزوجة بحضانة الطفلين والنفقة ، والاقامة في البيت الصغير الذي كانت تعيش فيه الأسرة السعيدة قبل ان تبدأ الخلافات بين الزوجين ، ولكن أية خلافات ؟ وسرح الزوج الأب وهو يحاول ان يتذكر .. وصدمته المفاجأة عندما لم تسعفه ذاكرته بحادث واحد مما كان يقع بينهما ... كل الذي يذكره هو ذلك اليوم الذي جمع فيه ملابسه وخرج من البيت غاضبا ، ليقيم في هذه الغرفة الصغيرة بأحد الفنادق القريبة من مقر عمله . وفي هذا « البيت الجديد » عاش الشهور الاخيرة التي اعقبت اتمام اجراءات الطلاق .

مع الوحدة !

واقبل الليل ، واغمض جفنيه واسلم نفسه للنوم .. ونام ، ولكنه ما لبث ان صحا مذعورا فقد خيل اليه ان ابنه يناديه ويدعوه الى غرفته ليروي له قصة ما قبل النوم كما تعود ان يفعل .. وكاد يترك فراشه ليذهب اليه ثم تذكر انه لم يعد قريبا منه .. لقد ابتعد عنه وعن شقيقه الصغير وعن امهما .. ولكن لماذا تنتابه كل هذه الاحاسيس اليوم فقط وقد ابتعد عنها منذ شهور طويلة ؟ هل هي الحرية التي حصل عليها بعد ان كان يظن انه لن ينعم بها ابدا ؟ هل هو « المستحيل » الذي أصبح ممكنا ؟ في وقت ما كان يتصور ان شجاره المرير مع زوجته لن ينتهي الا اذا افترقا .. ولكن كيف يكون الفراق ؟ ، وهل يحتمل ايضا فراق طفليه ؟



وكان حائرا لا يدري ماذا يفعل ؟ ولا كيف يكون موقفه من هذه الحياة الصعبة التي يعيشها مع امرأة لا تريد ان تفهمه حتى بعد ان اصبحت أما لطفليه ؟ !! ثم كان المستحيل الذي اقدم عليه في النهاية !

.. بل كانت زوجة وفية

وترك الفراش وجلس على مقعد قريب منه وذهب بفكره في رحلة حياته مع زوجته وطفليه .... هل كانت امرأة صعبة حقا ؟ ووجد نفسه دون أن يشعر يجيب على السؤال الذي قفز الى ذهنه في تلك اللحظة التي تصور انه سوف يفتح لها فيها صحيفة « سوداء » مليئة بالاخطاء » ، بل كانت امرأة مرحة مليئة بالحياة ، ربما لسانها حاد بعض الشيء ... ربما كانت سريعة الغضب .. ولكنها كانت صريحة وفية تحب بيتها وتعبد طفليها . »

ومرة اخرى حاول أن يتذكر : « لماذا كانا يختلفان إذن ؟ ما الذي كان يحدث بينهما ؟ ولكنه لم يصل الى شيء وطرق اذنيه صوت ابنه وهو يدعوه لمشاركته في اللعب في حديقة البيت ... وكاد يقفز من مقعده ويتجه الى الباب ليفتحه ، ولكنه عاد يغوص في مقعده من جديد ويحتضن رأسه بيديه .. وقد استبد به شعور بالذنب .. لقد اصبح رجلا غريبا الآن ... غريبا على كل هؤلاء الذين احبهم ثم تخلى عنهم في لحظة غضب لم يعد يعرف عنها شيئا اكثر من انها هروب من الحياة .

واستبدت الدهشة به من نفسه وهو يتمنى لو انه عاد في تلك اللحظة الى بيته وزوجته وطفليه !!



احصاء

ما الذي حدث لهذا الزوج ؟ هل كان حقا يريد الطلاق ؟ يقول الباحثون الاجتماعيون ان اكثر من ٨٠٪ من حالات الطلاق بين المثقفين تحدث نتيجة لشعور الزوج والزوجة بالكبرياء ، وهو اسوأ ما يمكن ان يحدث بين الزوجين .. فقد يكون سبب الخلاف الذي ادى الى الانفصال بالطلاق من التفاهة بحيث لا يعيش في ذاكرة الزوج وزوجته حتى وهما ماضيان في اجراءات الطلاق الى النهاية فقد تأبى كبرياء احدهما أو الاثنين ، الاعتراف بالخطأ الذي وقع .. ويتساقط البيت .. وفي اكثر من ثلاثين في المائة من حالات الطلاق طبقا لاحصائية اعلنتها وكالات الامم المتحدة المتخصصة يعود الزوجان المطلقان عندما يصحو الزوج او تصحو الزوجة على ادراك حقيقة ما حدث بينهما وخاصة اذا كان لديهما اطفال .

الجرعة المريرة

يقول الدكتور دافيد جودمان في كتابه « دليل الآباء للمتطلبات العاطفية عند الاطفال » : « خلال سنوات تجاربي مع الازواج الذين كانوا يجيئون الي حاملين مشاكلهم ومتاعبهم التي تنتهي بالطلاق ، كنت اشعر دائما بأن معاناة الزوج في الطلاق اكثر بكثير من معاناة الزوجة ... فهو يفقد صلته بأطفاله حتى وهو يزورهم ويراهم ويشاركهم في لهوهم ايام عطلاتهم .. لانه يشعر مع الوقت بحكم اقامتهم مع امهم ، انه قد اصبح غريبا عليهم لم يعد معهم عندما يصحون من نومهم في الصباح ولم يعد يراهم عندما يعودون من مدارسهم في المساء ليعاونهم في تأدية واجباتهم المدرسية ، ولم يعد



يشاركهم حياتهم داخل البيت ، كما كان يفعل قبل خروجه منه .. فهو يلتقي بهم خارج البيت تجنبا للقاء اخر بين طرفي الخلاف .. ان حرمان الاب من مشاركة ابنائه حياتهم ، اكثر جرعات الطلاق مرارة ..

هذا الفراق يستمر لحين عندنا ، اما عندهم ففي معظم الحالات ، وسواء أكانت الأم هي المخطئة ام لا ؟ ، يحكم لها بحضانة الاطفال .

حصاد الطلاق

ويقول الدكتور جودمان : « حقيقة ان الام اقرب دائما الى اطفالها ، واكثر نفعا لهم في حياتهم اليومية ، ولكن الاب ايضا قد يكون في حالات كثيرة قريبا عاطفيا من اطفاله وقد لا يطيق الحياة بعيدا عنهم ، ثم هو في مراحل اخرى متقدمة من عمر الطفل نرى دوره اكثر نفعا ووضوحا ، فالاب يلعب دورا هاما في تطوير شخصية ابنه وتنميتها ، واذا افتقد الابن والده في سن معينة ، فقد يؤدي به هذا الى فقدان شخصيته وربما ايضا فقدان الطريق الذي كان الطفل يتمنى لو انه سار فيه مع ابيه ليصبح مثله .

« والمعاناة .. معاناة الابناء ومعاناة الآباء هي حصاد هذه الحماقة التي اصطلحوا على تسميتها بالطلاق او الانفصال .. في بعض الاحيان كان الازواج يفكرون مرتين وعشرات المرات قبل الاقدام على هذه الخطوة .. الطلاق ، او غلطة العمر .. فقد كان الاطفال يقفون سدا منيعا في وجه هذه المأساة قبل حدوثها ..

دموع وتوسلات .

« جاء زوجان الى عيادتي يوما وهما مصممان على ان يضعا نهاية لحياتهما الزوجية التي دامت لاكثر من اثني عشر عاما .. وكان الزوج رجل اعمال كبيرا يحب عمله ولكنه يحب بيته اكثر من عمله ، ولكنه كان كثير الأسفار بحكم هذا العمل ، ولم تحتمل الزوجة الشابة حياة الوحدة التي كانت تشعر انها تعيشها مع اطفالها الثلاثة .. وفشلت محاولاتها للوصول الى حل وسط ، واخيرا جاءا يحملان الشيء الوحيد الباقي الذي امكنهما التوصل اليه .. الانفصال بالطلاق . وفشلت بدوري في ان اجد حلا لمشكلتهما .. ثم حدثت المفاجأة عندما اقتحم الغرفة صبي صغير في العاشرة ولم يكن وحده ، كانت مع العمر .. عرفت فيما بعد انها مربيته الخاصة .. واندفع الطفل نحو امه يقبلها ، ثم القى بنفسه بين ذراعي والده وتعلق بهما .. وبعدها راح يبكي .. واخيرا توقف عن البكاء وقال يخاطبني أنا في هذه المرة : « أنا لا اعرفك يا سيدي .. ولكنني اعرف لماذا جاء والـديّ اليك انهما يريدان ان ينفصلا .. هكذا قالت لي المربية .. وانا لا اريد ان يحدث هذا لا اريد ان اعيش مع احدهما دون الاخر .. اريد ان اعيش مع امي وابي في بيت واحد . اتوسل اليك ان تفعل شيئا ..

« وخرج الزوجان يحملان ابنهما الى البيت الذي جمع بينهم مرة اخرى . لقد كانت توسلاته اقوى من كل الخلافات التي تراكمت بين ابويه ..

ولكن في معظم الحالات ، كان صوت الغضب اعلى من كل صوت .. حتى اذا ما وصل الطرفان الى النهاية حمل كل منهما همومه وذهب بها الى حيث اختار ان يبدأ حياته الجديدة .....

« وكانت الأيام تمر ويعودان الي .. البعض ـ وهم قلة ـ كانوا نادمين ، ومع شعورهم بالندم كانوا يعودون ، وتعود الحياة الى ما كانت عليه .. والبعض كانوا ايضا يعودون ولكنها مجرد عودة يسجلون فيها صورة لحياتهم الجديدة وما صنعته بهم الايام .. ثم يمضي كل منهما في طريقه !

ندم .. ولكن

جاءني أب مضى على طلاقه من زوجته ام اطفال اكثر من ثلاثة اعوام . قال وهو يذكرني بنفسه

وقصته : « كنت اتوقع ان اتمكن من ان ابدأ حياة جديدة بعيدا عن بيتي وزوجتي واطفالي .. ولكنني فشلت .. انني ما زلت احن الى البيت الذي قضيت فيه ست سنوات مع طفلتي وامها قبل ان اتركه للمرة الاخيرة ... مازلت اعد الايام التي سألتقي فيها بابنتي في نهاية كل أسبوع .. حتى زوجتي التي تصورت في لحظة جنون انها شيطان في ثياب امرأة . أدركت اليوم انني ظلمتها ...

« ان اقسى اللحظات التي اعانى منها هي تلك التي اعود فيها وحدي الى بيتي في نهاية الاسبوع ، بعد ان اودع ابنتي التي قضيت النهار في صحبتها ..

« ففي شقتي الحالية ، الا من صورها هي وامها أجلس هناك مع الصمت الذي يلف كل شيء من حولي واحدق في الجدران الصماء التي تبدو وكأنها توشك ان تطبق علي .. واحس بالألم يمزق صدري ! »

لماذا لا يعود الى بيته وزوجته وابنته ؟ لماذا لا يصحح الخطأ الذي وقع فيه هو او هي او الاثنان معا ؟ في اغلب الاحيان يكون الوقت متأخرا .. فقد يتزوج الاب ، ولكنه يظل يعيش مع الذكريات التي تؤرقه وتعذبه ، او قد تتزوج الام .. وربما يبقى الاثنان بلا زواج ولكنها غالبا الكبرياء التي حطمت ، ولا تزال تحطم كل احتمال لعودة الحياة بينهما الى ما كانت عليه مرة أخرى .

ليتها تعود

كتب بول جاليكو الكاتب الايطالي الذي طلق زوجته يطلب الحرية ثم اكتشف ان الحرية التي كان يبحث عنها لم يجدها الا معها .. كتب يقول : « ليتها كانت بجواري في تلك الليلة . يومها فقط اكتشفت انني قد اضعت اجمل شيء كنت انعم به .. اصابع يديها الحنون وهي تداعب جبيني ورأسي والحمى تفتك بي في المستشفى الذي نقلت اليه . كانت الممرضة ترتدي ملابس بيضاء حقيقة ، وكانت تبدو طيبة القلب ولكنها لم تكن هي .. لم تكن زوجتي ليتها عرفت انني مريض وانني في حاجة اليها ولكن احدا لم ينقل لها الخبر .. فقد كانوا جميعا يعرفون انني تركتها .. طلقتها .. اخرجتها من حياتي فماذا يقولون لها .؟ »

منير تصيف

● انهم يفقدون اعصابهم بسرعة لانهم يعرفون انهم مخطئون . « ويلسون ميزنر »

● المرأة الفاضلة كتاب مغلق لا يقرؤه الا الرجل الذي اختارته ليشاركها حياتها .
تشارلز دكنز

● قيمة الزواج ليست في انجاب الاطفال فحسب ، بل في نمو الاطفال ليصبحوا رجالا . « بيتر دي فري »

● عندما يشعر المرء بالامان في بيته يتمنى لو انه قام بمغامرة ، وعندما يقوم بمغامرة ، يتمنى لو انه عاد الى بيته ليعيش في امان . « ثورنتون ويلدر »

● الناس يعدون اخطاء هؤلاء الذين يتركونهم ينتظرون . « مثل فرنسي »

درس في اليوجا

بقلم : أنج اميل خطار

لقد درس اليوجيون القدامى بامعان ولعشرات السنين تأثير التمارين البدنية والاوضاع المتعددة والتنفس العميق والغذاء الصحي على الاجسام الحية . وكذلك راقبوا الحيوانات وخبروا طرقها في التنفس والاسترخاء واساليبها في تكييف انفسها حسب تقلبات الطقس وفي حالات المرض والاخطار الطارئة . وبالصبر ودقة المراقبة معا استطاعوا كشف بعض الطرق الغامضة والمتعلقة بعلم الاحياء . تلكالطرق التي تمكنوا من تطويرها وتوجيهها بصواب لتحسين صحة الانسان وزيادة نشاطه واطالة عمره . وبالرغم من ان تعاليم اليوجا قد استنبطت منذ آلاف السنين فان اساليبنا العصرية لم تنجح في التفوق عليها والحلول محلها . والذي يدعو حقا الى الدهشة هو ان معظم الاكتشافات الحديثة في حقلي التغذية والتربية البدنية كانت معروفة عند اليوجيين القدامى ، الا انهم كانوا يزاولونها بسرية تامة ، وما ان قرروا رفع ستار الكتمان عن تعاليمهم حتى تمكن نفر قليل من المستشرقين من الالمام ببعض هذه التعاليم وممارستها .

وجماعة اليوجا يعيرون اهتماما كبيرا لاجسامهم ويحافظون على جمال شكلها وسلامتها ونظافتها من الداخل والخارج . ولما كان الجسم بالنسبة لهم هو هيكل الروح الخالدة فهم يعتقدون ان من واجبهم الابقاء عليه في اسمى حالات الكمال تماما كما يحرص عازف القانون على آلته لكونه بدونها لا يستطيع اظهار فنه . فاليوجي يحافظ على جسمه لانه الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها الترفيع عن روحانيته . وهكذا فقد حاولوا بكل وسيلة ممكنة ان يوحدوا ، خلال المدة الوجيزة التي يعيشها الانسان على وجه هذه البسيطة ، ما بين الروح والجسد .

لقد امضوا اجيالا عدة في اختباراتهم مستعملين اساليب مختلفة وتمارين جسدية وعقلية لا حصر لها . وبعد الكثير من التجارب والابحاث المضنية ونبذ كل ما هو طالح واستصواب كل ما هو صالح ، تمكنوا من تبني السبل والتمارين الفعالة التي تنشط خلايا الجسم وتساعد اعضاءه على تأدية اعمالها بدقة وانتظام . وعندما نجحوا في هذه الاختبارات نظموا نتائج جهودهم وصنفوها وسموها علوم اليوجا .

على التلميذ المنتمي لليوجا ان يحافظ على متانة الخلق ونقاوة القلب وهدوء الفكر والطهارة والمحبة والبر والصدق والصبر والقناعة والاجتهاد والغفران عند المقدرة . وكذلك ان يتجنب الاعمال التخريبية والحاق الاذى بالغير والحسد والكذب والسرقة واشتهاء ما للغير والرياء والغدر والكسل ، وكل ما يثقل ضميره او ما يعتقد ان القدرة السرمدية تأباه وتبغضه .

وبعد بحوث مضنية وجهود جبارة تبين لهم ان الحالة المثلى التي يطمح اليوجي المبتديء للارتقاء اليها ، يمكن نيلها اذا ما طبق بكل دقة التعليمات الواردة في الامور التالي بيانها :ـ

أولا : التنفس العميق

هل استرعت انتباهك بصورة جدية عملية التنفس العميق التي هي اهم وظائف الجسم ؟
او هل خطر ببالك قط أن العامل الاكبر للاضطرابات الجسدية والعقلية ناتج عن عدم تنفسنا تنفسا صحيحا ؟ اذن فالحياة نفس وتوقفه يعني الموت والحياة تدب في عروقنا طالما نحن نتنفس والعكس بالعكس . اننا نبدأ الحياة باول نفس وننهيها باخر نفس ، وهذه العملية لا تتوقف سواء كنا مستيقظين او نياما . وباستطاعتنا البقاء على قيد الحياة بدون طعام لأسابيع لا بل لشهور ، وبدون ماء لأيام ، اما بدون هواء فلا يمكننا البقاء الا لبضع دقائق .

ان الهواء يلعب الدور الاكبر في تنشيط دمائنا وتغذيتها والتي بدورها تغذي خلايا الجسم وانسجته وجهازه العصبي . فجميع فاعليات ابداننا ونشاطاتها كتنقية الدماء من الشوائب وهضم الاطعمة وحتى التفكير المبدع وغيرها تعتمد على درجة تدفق الدماء وعلى كمية الاكسجين المتوفرة في الجسم . فالطعام لا يمكن ان يؤدي وظيفته الغذائية ان لم يتحول بطريقة صحية الى دماء وانسجة وخلايا وان الاكسجين الذي هو واهب الحياة لكفيل بانجاز هذه الاعمال . ومهما كان الطعام جيدا وحسن الطهي وسهل الهضم وكان هناك نقص في الاكسجين ، فعملية تحليل الجزئيات الى مواد مغذية تظل ناقصة ويبقى الطعام غير ملائم الا جزئيا لحاجات الجسم . لذا فالتنفس العميق المنتظم يعتبر اسرع الطرق لتنشيط الاجسام المتعبة وانجعها .

ولكي يتمتع المرء بصحة جيدة يحتاج تقريبا الى ستين نفسا عميقا يوميا . فكلما طرأ نقص بالاكسجين في الجسم حصلت هنالك دائما زيادة مقابلة في ثاني اكسيد الكربون السام . اما الدماغ فيحتاج الى ثلاثة امثال ما يحتاجه الجسم من الاكسجين لتأدية عمله بدقة . فاذا لم تتوفر له تلك الكمية اخذها من احتياطي الجسم . ولذا فاجسام من يزاولون اعمالا تحتاج الى مجهود فكري تبقى ضامرة هزيلة .

واني ، اذ انقل هنا رسالة اليوجا بخصوص التنفس العميق ، اود مخلصا ان اؤكد ان الفكر النير هو النتيجة المحتمة لمزاولة هذا النوع من التنفس وان ممارسة التمرين التالي سيضفي عليك دون شك حياة جديدة مفعمة بالصحة والنشاط والحركة المبدعة .

تمرين التنفس العميق : قم بتمرين التنفس العميق في غرفة حسنة التهوية او امام نافذة مفتوحة ان لم يكن الطقس باردا . واياك القيام به ومعدتك ممتلئة او وانت ترتدي ملابس ضيقة واحزمة مشدودة .

اجلس على كرسي وضع يديك على ركبتيك واحتفظ بعمودك الفقري مستقيما ـ فهذا مهم جدا . واذا لم تستطع الجلوس باستواء لامر ما فقم بالتمرين واقفا منتصبا . واذا كنت طريح الفراش فزاوله مضطجعا ومنبسط الجسم .

ابدأ بالتنفس قليلا وضيق البلعوم بعض الشيء لاغلاق الطلطلة جزئيا ، ثم استوعب النفس محتفظا بفمك مغلقا ولسوف تسمع فحيحا خافتا صادرا من مؤخرة البلعوم ، فهذا دليل على القيام بعملية التنفس الصحيح لا ترفع صدرك بينما انت تستنشق النفس ، ولكن اجعل قفص الصدر يتمدد من الجانبين ، والآن ابق فمك مغلقا وافرغ ببطء ما بصدرك من الهواء بنفس الفحيح بينما انت تضيق قفص الصدر وتشد معدتك قليلا الى الداخل . ها انت قد اخذت للتو نفسا عميقا . خذ فقط ثلاثة انفاس وافرغ مثل ذلك العدد من صدرك لا اكثر في بادىء الامر ، وباستطاعتك ان تعيد الكرة ظهرا ومساء . اما في الاسبوع الثاني فتستطيع ان تأخذ اربعة انفاس عميقة في كل مرة وهكذا استمر باضافة نفس واحد كل اسبوع الى ان تتمكن من تحصيل ما مجموعه ستون نفسا في اليوم الواحد . اي عشرون نفسا صباحا ، واخرى ظهرا ومثلها مساء . ولسوف تدهش للنتائج العجيبة التي سيسبغها عليك تمرين التنفس العميق هذا . انك ستشعر حتما بانتعاش وانطلاق لم تشعر بمثله منذ صباك .

ثانيا : التغذية

ان اهمية الطعام الصحيح تأتي مباشرة بعد التنفس الصحيح . فالطعام الصحي يبقي المرء في تمام الصحة والعافية . وعليه قيل : « ان المرء ما يأكل » .

ان تعدد الوان الاطعمة الحسنة المذاق تولد يوميا امراضا عدة واغلبيتنا لا تراعي سوى اللذة في الطعام ،

ولا تبالي اذا كان الطعام ثقيلا على المعدة وكثير الدهن وغير صحي . ولذا تدفع ثمن ذلك غاليا من عسر في الهضم ، والامساك والتهاب المعدة والقرحة والحموضة وغيرها . وقد صرح العديد من الاطباء ان جميع الوفيات الطبيعية (باستثناء الشيخوخة) هي النتيجة المحتومة لتشبع الجسم بالحموضة المتزايدة .

ليس هناك تدبير غذائي مثالي يمكن تعميمه فما يصلح لي ربما كان ضارا لك والعكس بالعكس . فكل شخص يجب ان يختبر على نفسه انواع الاطعمة وتأثيرها على جسمه وهكذا يمكنه اختيار ما يناسبه منها . على انه يوجد هنالك بعض النصائح الغذائية التي يمكن تعميمها وهي :

ان العصارة هي بحق افضل ما في المطبخ من الات فانت بحاجة ماسة الى كأس صباحي من عصير الفواكه والى اخر مسائي من عصير النباتات الخضراء النضرة . وتذكر ان الاستعاضة على قدر الامكان بالعسل بدلا من السكر هو من الضرورة بمكان . وان تناول السلطة والفواكه الطازجة والخضار غير المطبوخة كالخس مثلا شرط ان تطهر وتغسل جيدا ، والخضروات المطبوخة كالسبانخ وغيرها هو مصدر القوة والنشاط . وان تناول لونين من الطعام فقط (كالارز والتفاح) لأسبوع واحد ولونين مختلفين لكل من الأسابيع التالية يخفض الوزن . وانه يقتضي الا يجمع في الوقعة الواحدة بين الاطعمة النشوية والكبريتية والبروتينية والحمضية .

تجنب الأطعمة المحمرة بالسمن من لحم وغيره لانها تكون مادة الاحتراق الدهني التي تهيج معدتك تماما كما تؤثر رائحتها على عيني الطباخ الذي يحمرها . فضلا عن أن مثل تلك الاطعمة تتطلب وقتا طويلا كي تتمكن المعدة من هضمها .

لا تفرط في الاكل اذ ليس بالكمية التي تتناولها او تشربها ينتعش جسمك ، ولكن بالقدر الذي تستطيع هضمه وتحويله الى أنسجة حية وما زاد على ذلك يتحول الى فضلات تثقل المعدة . لا تأكل في الوجبة الواحدة اكثر من صنف واحد يدخله النشاء . فعادة يلتهم الشخص الواحد كمية هائلة من النشاء كالخبز والبطاطا مثلا .

امضغ طعامك جيدا ولكه مع اللعاب وخاصة اذا كانت تلك الاطعمة نشوية . فانها وهي بالفم تتحول بواسطة اللعاب الى غلوكوز ودكسترين (مادة صمغية قابلة للتحليل مصدرها النشاء)، والا بقيت مختمرة في المعدة لعدة ساعات . وحتى السوائل وخصوصا الحليب يجب ان يحتسى بتؤدة وببطء بدلا من جرعه بسرعة لانه اذا لم يرتشف ببطء ينتج عنه عسر في الهضم .

واخيرا استفد من الماء الذي تطهى به الخضار لانه يحتوي على مبع الاملاح الضرورية للجسم .

ثالثا : الاسترخاء

اننا لا ندرك مقدار الضغط والضيق الذي يجابهه الشخص الذي يعيش في مدينة كبيرة . فتعرضه اليومي لمثل هذه المجابهة يحيله مسنا قبل الأوان ، ومريضا محطم الاعصاب وتنتابه سلسلة متواصلة من الكدر ويحيا حياة لا بارقة امل فيها . اذن يجب ايجاد العلاج الناجع لهذه البلوى ، وليس هنالك افضل من تمرين الاسترخاء الذي يتناول استرخاء العقل والجسد ويلعب دورا رئيسيا في تمارين اليوجا . فاليوجيون يدركون ان الاستنارة الروحية لا تتاح لذي عقل غير هادىء او لاخر ذي عضلات متوترة ، ولهذا ابتكروا تمارين بدنية وعقلية من شأنها اراحة العقل والعضلات واسترداد الوجه لنضارته ، وازالة كافة التجعدات التي سببتها الهموم ، واسترجاع العينين لبريقهما الأخاذ . وهذه التمارين لاتقتصر على أفكاره وأحاسيسه فحسب بل تساعده على الانسة عضلاته . وبمزاولة تمرين الاسترخاء التالي باستمرار يتعلم المرء كيف يطرد من مخيلته الافكار المزعجة البغيضة .

تمرين الاسترخاء : قبل الشروع في عملية الاسترخاء ، اخلع سترتك وحذاءك ، وحل حزامك ، وربطة عنقك ، وضع جانبا نظارتك . والآن افرد السجادة واضطجع علي ظهرك وتمدد . ابسط ذراعيك فوق رأسك وعلى مسافة منه ، وادفع رجليك ممدتين جاعلا جسمك بأسره يتوتر بقدر المستطاع . وبعدئذ أنزل يديك بسرعة الى جنبيك تاركا جسمك يسترخي . وبعينين مغمضتين ركز فكرك على اطراف إبهامي القدمين وحاول ان تجعلهما

يسترخيان . وتصور ان قدميك وساقيك قد غمست في ماء دافيء منعش ، وان جميع عضلاتك وذراعيك ويديك واطراف الاصابع تتراخى . ثم أتح لذقنك ان تتدلى لتسترخي وكذلك عضلات وجهك . تصور ان جسمك قد ثقل اكثر الى ان غاص في السجادة وانك لا تشعر بوزنه . ابق كذلك لبضع دقائق وانت مسترخ تماما وتخيل نفسك كسحابة سابحة . ثم بعد برهة عد فاطرد تلك الرؤيا من مخيلتك وحاول ان تبقي ذهنك صافيا ولا تكافح مانعا توارد الافكار . انما دعها تمر متخيلا نفسك تغوص في خضم نسيان كامل . وخلال هذا الشعور جرب وعيناك مغمضتان ان تدير كرتي العينين وبعدئذ وجهها الى اسفل . انك اذن مسترخ تماما ، وقبل ان تنهض تمط وتثاءب وانقلب على جنبك الايمن وقوس ظهرك ثم على الجنب الايسر وتمدد ثانية . استلق هكذا بهدوء برهة ثم انهض بهدوء . ان الشخص الذي يتعلم كيف يسترخي ، سيلم بخفايا الحياة الصحية الناجحة .

رابعا : الغدد الصماء

لتحول الآن انتباهنا الى جهاز الغدد الصماء المعروفة احيانا بالغدد الصماء اللاقنوية ، اي التي لا قنوات لها ، والتي تفرز هرموناتها رأسا في الدورة الدموية . ويشتمل هذا الجهاز على الغدد التالية :
النخامية والصنوبرية ـ وهما في فجوة الجمجمة ، والغدة الدرقية ـ وهي في اسفل العنق ، والغدتين المجاورتين للدرقية ، ثم الغدة التيموزية ـ وهي فوق القلب ، والغدتين الكظريتين ـ وهما فوق الكليتين والغدد التناسلية .

تتعاون هذه الغدد بعضها مع بعض في نشاطاتها المشتركة او المتممة وتلعب دورا مهما في صحة كل فرد . لشخصية المرء مثلا تتحكم بها هذه او تلك من الغدد وتتوقف على افرازها الطفيف والمسمى هرمونا مسئولية الفرق بين العبقري وضعيف العقل ، والقزم والعملاق ، والسعيد والتعس . من الصعب تصديق ما لها من فاعلية فتأثيرها يشمل جميع ما نقوم به وما نحن عليه لكون عملها يتحكم بالحركة والنشاط ، والبهاء والتقرير والتنظيم وبعث القوة الحيوية في عمليات الحياة في اجسامنا حتى انها تساهم في تصميم شكل اجسامنا وعمل عقولنا . تعتبر الغدة النخامية الغدة الرئيسية بالجسم اذ أنها تتحكم بالحركة الداخلية للجهاز الغددي وتوعز لبقية الغدد لتتبع اشارتها . انها تعمل على نمو الجسم المناسب وتحافظ على فاعلية كافة الاعضاء وتركيبها بما في ذلك التطور الجنسي . ان الشخص الذي يتمتع بصحة تامة وتشيع في نفسه روح البهجة والسرور هو الذي يتمتع بغدة نخامية صحيحة فعالة . ولقد ثبت ان جنوح الاطفال ينشأ عن عيب في فاعلية الغدة النخامية .

ان اليوجيين هم اول من اكتشفوا الطريقة الطبيعية البسيطة لضبط عمل الغدد الصماء والحفاظ عليها بحالة سليمة وذلك بواسطة تمرين وقفة الرأس ، والتنفس العميق . اما وقفة الرأس هذه فما هي الا محض انجاز بهلواني يكتسبه المرء بالمواظبة والتمرين المتواصل مستعينا بالارتكاز على اليدين ، وهذا التمرين يعطي ثماره عادة قبل انقضاء شهر واحد فيسترجع الشخص الذي يزاوله رشاقته ، وتزول التجاعيد عن وجهه الذي يمسي جامدا وناعما ويصبح بريق عينيه خاطفا وتبدو هيئته نضرة اخاذة تلفت اليها الانظار . اذن فما على القاريء الا المواظبة ، والمثابرة على محاولة الوقوف على رأسه في وسط غرفة دون اية مساعدة من احد . وليثق انه لن يمضي وقت طويل حتى يصبح بامكانه تأدية هذا التمرين بسهولة فائقة .

تذكر ان الغدة النخامية الموجودة في الرأس هي الغدة الرئيسية التي تتحكم بكافة الغدد الصماء ، لذا فان الوقوف على الرأس يعتبر افضل تمارين اليوجا قاطبة فتأثيره منشط لا للغدة النخامية فقط بل لكافة الغدد والاعصاب والعقل والاعضاء فيكون له مفعول السحر اذا ما مارسه المرء بانتظام مع التنفس العميق .

خامسا : الذبذبات الصوتية

لك ان تترنم ما شئت لكي تتمتع بصحة تامة ، فالذبذبات الصوتية تلعب دورا مهما في سلامة البنية اذ أن الابتهال بعض الالحان الصوتية المحببة يجعل غددنا تهتز وتنشط فتتمكن من تطهير اجسامنا من ادرانها .

لقد ثبت لليوجيين انه بتكرار الالحان الصوتية يستعيد العليل صحته لما لها من تأثيرات اهتزازية مهدئة على الناحيتين الذهنية والروحية . وعليه ارتأوا انه بالتنفس العميق الصحيح والذبذبة الصوتية يمكنهم تحقيق هدفهم الثلاثي الأسسي وهو سلامة البنية ، واطمئنان الفكر ، والتفتح الروحي .

الا ان عجلة المدنية قد داهمتنا فابطلت ويا للأسف العديد من عاداتنا المفيدة ، حتى ان الترنم بقصد التمتع بنشوة الطرب قد اخذ بالتلاشي . قليلون هم الذين استطاعوا الافلات من هذه العجلة البغيضة وما زالوا ليومنا هذا يمارسون الغناء بقصد التسلية واللهو .

انا لا اتحدث عن المحترف الذي يغني لكسب رزقه بل عنك وعني ، فانا لا اريدك ان تكون مجرد مستمع بل مرافقا للمغني تشاركه الغناء بصوت عال لان الالحان وحتى الاصوات القوية المجلجلة (ان كنت لا تتمتع بصوت شجي) تحدث جميعها التأثير المرغوب على الجهاز الغددي . ويعتقد اليوجيون ان الذبذبات الصوتية المتكررة تؤثر على الغدد فتجعلها تفرز هرمونات تصحح العيوب الجسدية سواء كانت تلك العيوب في الخلايا او في المعدة (كالقرحة مثلا) او كانت صداعا في نصف الرأس او تشوها عضويا .

عليك اذن بممارسة الغناء بصوت عال واهتمام زائد وبصورة منتظمة ، فالصوت العالي نثرا او ترنيا يلعب دورا رئيسيا في الحفاظ على سلامة صحتنا لصلته المتينة بطاقاتنا الداخلية التي يطلقها الابتهال من عقالها . ولذا فجميع الاحتفالات الدينية في كافة المذاهب السماوية ترافقها التراتيم الشجية .

سادسا : الوقفة الصحيحة

انك ولا شك تدرك الشأن العظيم الذي تضفيه وقفتك على مظهرك العام . فهي تماما كالمرآة تعكس حالة الشخص الجسدية والعقلية . ايجابية كانت ام سلبية . فحالة الشخص المريض الذي فقد لذة الحياة وثقته بنفسه تدل عليها فورا وبوضوح تام وقفته غير الصحيحة . وصاحب العمود الفقري المستقيم يتمتع دوما بالشباب والصحة والتفاؤل والشجاعة والمرح .

هل سبق لك وشاهدت أشخاصا خارجين من سجن رهيب او معتقل و اناسا محطمين اخلاقيا ، فالعمود الفقري لأمثال هؤلاء قلما يكون مستقيا . ومن هنا نشأ القول المأثور : « لقد فقد عموده الفقري » . وهذا بالطبع لا يعني اولئك الذين تضرروا بحادث ما او ولدوا بخلل فقري .

فالعمود الشوكي المستقيم تواكبه الوقفة الصحيحة . فالرأس والكتفان والبطن تبقى تلقائيا في محلها الصحيح اذا كان الظهر مستقيا . والوقفة الرديئة لا تولد الا الارتباك واليأس . اذن تذكر أنك كي تحتفظ بعمودك الشوكي مستقيا وكتفيك مستويين وبرأسك منتصبا وكي تسير بصورة طبيعية رشيقة وبراحة تامة ، يلزمك ان تواظب على الوقوف وقفة صحيحة أينما كنت وأنى اتجهت .

سابعا : الصوم

لقد كان الصوم معروفا منذ القدم كعلاج للاضطرابات الجسدية ، وليس اليوجيون وحدهم الذين يوصون به ، فالديانات السماوية قاطبة تفرض اتباعه لتنقية الجسم وتطهير الروح . حتى ان قدماء الاغريق قد بنوا معبدا يؤمه كل من اراد الصوم وتركيز الفكر . وهكذا اعتاد ارباب السياسة ان يطرقوا المعبد كلما ارادوا البت في قرار خطير . ولربما كان عالمنا احسن حالا لو ان ساستنا اتبعوا هذه العادة المستحبة .

كثيرون هم الذين يصومون لتخليص الجسم من العلة التي ألمت به . وأنه من الغباوة بمكان ان يتناول المرء الطعام وهو محموم لأن جهازه الهضمي يكون متعطلا عن العمل وغدد جسمه لا تفرز ساعتئذ عصارتها كالمعتاد . ومن المسلم به ان الاطعمة اذا لم تتحلل جزيئاتها وتتحول الى مواد مغذية تسبب الحمض والغازات والتعفن . وبدلا من ان تغذي المريض تسممه ويتطلب حينئذ الداء وقتا اطول للشفاء . لذا وجب الامتناع عن اعطاء المريض الحليب والمرق لأنهما يولدان البكتيريا والمواد السامة في جسم المحموم .

بيروت ـ انج اميل خطار

رواية من المهجر

بقلم مجيد طوبيا

هناك حركة قد تبلورت الآن أو هى فى طريقها الى التبلور ـ يمكن أن نسميها رواية المهجر أو قصة المهجر .. وتلك حركة تلزمنا أن نضع تعريفا دقيقا محددا ، على خلاف تعريف شعر المهجر الفضفاض ، والذى يطلق على جميع ما كتبه المهاجرون ، بصرف النظر عن الموضوع !.. ومن أجل هذا أقدم اقتراحين متكاملين :

الثنائية اللندنية

هذا الابداع أولا يتصدى له مجموعة من العرب ، انتقلوا الى أوروبا وهم فى سن الوعى ، الوجدان شرقى والتطلع غربى ، ومهما جاهدوا فى التأقلم فان اصولهم ما زالت تؤثر ، ومن العسير أن تنمحى تماما منهم ، وان كان هذا جائزا بالنسبة لأجيالهم التالية .

ثم ان هذا الابداع ـ ثانيا ـ يتناول كموضوع تفاعلهم مع الواقع الجديد ، مع أو ضد ، سواء بالاحداث اليومية المباشرة ، أو بأحداث أوطانهم التى تنقلها اليهم وسائل الاتصال العصرية .. وهنا يتقابل الشرق والغرب ، صراعا أو حوارا أو التقاءا ، وتبقى العلاقة بينهما مهددة بالتمزق تحت ارهاب عبارة محتملة ، يمكن أن يلقيها مواطن أصلى فى وجه أحدهم :

حسن ان لم تكن تعجبك حياتنا هنا ، فلتعد الى وطنك !!

واعترف بأن النماذج المقصودة قليلة العدد ، ربما لصعوبة النشر فى بلاد الغربة ، وان كانت هذه العقبة قد زالت بانتشار المطابع العربية فى معظم عواصم الغرب .. والبدايات دائما هكذا لكن ، الجسور أن تمتد بينهم وبيننا ..

وسأكتفى هنا بتقديم رواية واحدة كمثال متكامل لهذا النوع من الأدب العربى .. رواية اسمها « الثنائية اللندنية » .. مطبوعة فى لندن باللغة العربية ، وكاتبتها السيدة سميرة المانع ، وهى أديبة عراقية الأصل نشأت فى أسرة أدبية ، ثم رحلت الى لندن منذ حوالى خمسة عشر عاما لتبقى هناك مع زوجها الشاعر الدكتور صلاح نيازى ولينشأ أنجالهما بلسان عربى اكتسبوه من البيت ، ولسان انجليزى سليم اكتسبوه من الحياة اللندنية .

وهذه الرواية هى كتابها الثالث ، وتبتعد كثيرا كبناء عن الشكل العادى ومكوناته ، يختفى فيها الصراع التقليدى بين شخصيات محببة وأخرى مناوئة ، وينحصر تقريبا فيما يشبه تضارب الافكار ، وكأنه حوار حضارى بين أنماط متفاوتة من طرق الحياة والتفكير .. ولا يعنى هذا أن شخصياتها أجساد لأفكار ، وانما تمضى الرواية فى سلاسة شاعرية كشف عن توتر درامى .. وان وقعت أجزاء منها فى شرك السرد المألوف ...

الشرق والغرب :

يتكون نسيج الرواية من ثنائيات عديدة تجيب احداها على تساؤلات الأخرى .. الثنائية الأساسية تتكون من « سليم » ومن بطلة الرواية الشابة « منى » ، والتى تركت العراق منذ تسع سنوات ، سعيا وراء حبيبها طالب العلم ، شابة عادية بلا قضية محددة سوى الحب .. ولكن تلك كانت البداية فحسب ، فهى ليست شابة عادية ، ورحيلها هكذا يعد ـ ولا شك ـ تحديا لأسرتها وتمردا على مجتمعها الشرقى !

ذهبت الى لندن فى وقت تخلت فيه المدينة عن تزمتها الانجليزى ، عملت أولا فى سفارة عربية ، ثم التحقت كمترجمة فى دار نشر .. » ولم تكن العربية الوحيدة فى تلك الشركة البريطانية . كانت لندن تعج بالملونين والأجانب من أصناف شتى ، جاءوا بشهادات ميلاد مختلفة ، مع عاداتهم وأطعمتهم ودياناتهم .. » .. ويسرت مدينة الضباب لهم سبل العيش .. » وما ان علم الموظفون أن الموظفة الجديدة عربية ، حتى قبلوها بينهم ببساطة » .. سؤال واحد وجهه اليها زميلها « ستيفن » بسذاجة وبدون قصد سيء ..

ـ هل ترقصين هز البطن ـ ؟!

لكن هذا التسامح الانجليزى ليس كذلك بالنسبة للصحف .. فهى تسكن لدى عجوز طيبة اسمها مسز « روجز » .. كان الحوار بينهما نادرا فى البداية ، الى أن جاءت حرب اكتوبر وما صاحبها من انتصارات لم تعجب جريدة « صن » العامرة بالفضائح والصور العارية ، فنشرت بتاريخ ١٩٧٣/١٠/٣٠ موضوعا يشغل صفحتها الأولى تحت عنوان : « جولدا مائير تذهب الى مصر ، انها تقدم عشرين أسيرا مقابل أسير واحد » .. ما ان قرأته مسز روجز حتى شعرت بالاستفزاز

منه ، وبالتعاطف مع منى فتخلت عن حياتها الانجليزى وقالت لها :

« ربما تكونين واحدة من هؤلاء الأسرى العشرين ، تستحقين أن تعاملك بأحسن من هذه المعاملة ، أنت تساوين أي واحد « معقول » في هذا العالم !!

من وقتها اهتمت العجوز الانجليزية بالسياسة ، بعد أن كانت تتركها للنائب الذى تنتخبه كل أربع سنوات ثم تنساه ، مكتفية بأخبار الجرائم أو بفضائح العائلة المالكة أو بزيادة أسعار الخبز والزبدة وصارت تشترى الصحف الجادة وتبحث فيها عن كل ما يخص العرب ، وكأن وجود الفتاة المسالمة في بيتها قد ألقى عليها المسئولية ..وبالتالى وجدت منى نفسها فى خضم الأزمات الحربية والسياسية للشرق الأوسط ، على الرغم من ابتعادها آلاف الأميال .. صارت في نظر العجوز وغيرها من البريطانيين الذين يعرفونها ، صارت في نظرهم جميع البلاد العربية وليس العراق وحده .

لهذا تستاء مسز روجز عندما تقرأ نبأ اغتيال أحد القادة الفلسطينيين في لندن ، وتظن - مع صحيفتها - أن قاتله عربى فتقول ساخطة :

متى تعلمون أنكم لا تحتاجون الى قتل بعضكم البعض ؟ أنتم في حاجة الى الوحدة !وتعنى بالوحدة طبعا تعاونا اقتصاديا وثقافيا ، اسوةبالسوق الاوربية المشتركة .

ثنائيات الارض

ثم تفاجأ منى ذات يوم بموظف جديد ينضم اليها والى ماجى وكيت وستيفن ، اسرائيلى لديه جنيستان وراتبان ، وكل شىء مضاعف !! .. » ولأول مرة في لندن تجد نفسها وجها لوجه في مكان واحد مع اسرائيلى .. لقد شاهدت الكثير منهم صدفة ، في القطارات أو في المتاجر ، يعرفونها وتعرفهم بطريقة ما ، فينكمش كلاهما بعد ذلك ، بصورة تدخل الأسى على القلوب » .. ومن قبل تعرفت على الاسرائيلى عن طريق غير مباشر ، عن طريق المشردين واليتامى الفلسطينيين في شوارع بغداد أثناء وبعد قرار التقسيم ، عن طريق تسول الأرامل الفلسطينيات على عتبة بيتها وبيت غيرها ، عن طريق تزايد النفقات الحربية الباهظة والشعب العربى في بداية استقلاله الوطنى !!!

« ولأن من المحتمل أن يهاجم هذا الاسرائيلى البريء القسمات بصفته جنديا سكان دمشق أو عمان أو بيروت أو سيناء » .. انه يخبرها الآن متوددا : بأن لديه أصدقاء عربا في اسرائيل أغلبهم في أحسن الأحوال المادية » .. لكنه ما يلبث أن يكشف نفسه قائلا :

- لو أعطينا نهر الليطانى فقط ، سيسقى هذا النهر معظم الأراضى عندنا ، لو أعطانا لبنان هذا النهرفقط !!

وثنائية عاطفية

ثنائية منى العاطفية طرفها الآخر هو سليم الذى يدرس الذرة في النمسا ، جاء الى أوروبا بأفكار جاهزة ، متبنيا بأفكار الشباب وقتها ، بعقلية المتعصب لمعتقداته دون تردد ..بينما جاءت هى بعقلية محايدة ، ترى الأمور من زوايا انسانية بحتة ، والالوان عندها متدرجة وعديدة وليست مجرد أبيض وأسود كما هى عنده .. قبل رحيله الى النمسا أمسك بيدها قائلا :

اتريتها هذه اللمسة ، لن تشعرى بها بعد الزواج ، ستكون مثل جس الطبيب ...

وصدقته .. « كان متحمسا منذ سنوات للافكار المنتشرة آنذاك في أوربا ، العالم العائلى يتساقط من حوله .. مؤسسة الزواج التقليدية ترتعش ، التحرر الاقتصادى للمرأة الجديدة ..دروس لقنها لها منذ تعرفت به ، وكان يقولها في صدق .. أما الآن فهو يتراجع ويتغير ، من الانبهار الى السخط !! وتتعرف عليه من خلال رسائله المطولة اليها ، لقد تعلم طوال سنواته الاوربية كل ما يفقد الانسان البراءة والعفوية ، المدن الصناعية ركائز من البيانات القاتلة للخيال ،

ايقاع الالات يتنافر وإيقاع الانسان ، والاعلانات تفقد المرء الاستقرار والقناعة !! .. كل هذا لا يجعل الانسان محبا للحضارة الغربية ، انها أوروبا وليست الهند التى ينتحر فيها الناس !! حتى موسيقى بتهوفن لم تعد كما هى ، وانما هى الموسيقى التى ظهرت كبداية للتوسع الأوروبى وانشاء المستعمرات واحتكار الثقافة ، كل هذه الافكار ليست لها علاقة ببتهوفن طبعا ، لكنه لم يعد يستطيع تجنبها ،ان يفصل بعضها عن بعض .. والحضارة هى دائما حضارة الطبقة المسيطرة . عبث اقناع أوروبى الان بأن قصائد المعرى أكثر عمقا من جيته وشيلر !!

لكن منى لم تعد تأخذ جميع أقواله قضية مسلما بها ، فهى مثلا « لا تستطيع أن تكف عن حب الموسيقى الكلاسيك ، لقد صارت جزءا من تركيبها النفسى ، لا علاقة لها بالسياسة الاستعمارية أو بالجوع والاحزان الشرقية » .. لقد أكسبتها التجربة تفكيرها المستقل ..

أعوذ بالله

انها تحاول أن تتلمس أصل البلاء ، العلل كثيرة ، وأشد ما يؤلمها نظرة الشرقي للمرأة . تلتقي في المقهى بصديق عربي تزوج امرأة خليجية ، ليكتشف بعد القران انها مصابة بمرض مزمن لقد تزوجها طمعا في مال ابيها ودون سابق معرفة رغم أنه زوج وأب !! .. وان كان لا يعرف قيمة الترابط الاسري فكيف يدرك قيمة الترابط العربي ؟!

وكأن منى تعود بجذور المشكلة الى الاساس الاسري ، وجميع الاسباب تتداخل .. تكتب لحبيبها متذكرة « خير الدين نعمان بن أبي الثناء » في مخطوطته* « أما تعليم النساء القراءة والكتابة فاعوذ بالله ، اذ لا أرى شيئاً أضر منه بهن ، فانهن لما كن مجبولات على الغدر ، كان حصولهن على هذه الملكة من أعظم وسائل الشر والفساد .. فاول ما تكتبه المرأة رسالة الى زيد ورقعة الى عمرو .. واللبيب من الرجال من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمى ، فهو أصلح لهن وأنفع !!

لكن سليما يذكرها بما كتبه قاسم أمين مع مطلع هذا القرن دفاعا عن المرأة وحقوقها في كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » .. ثم يضيف مفسرا : « يعيش الرجل العربي اغراء متواصلا بلا تنفيذ وبلا وعد بالتنفيذ ، انه لا يعيش حياته بصورة طبيعية ، واذا سمحت الظروف وتعرف على المرأة فانه يعيش مغامرتين معا ، مغامرة تعرفه عليها ثم مغامرة اخرى حينما يتحدث عن تعرفه بها أمام أصدقائه ، ولذا فان علاقته بالمرأة تبقى مشوشة ، ولا يدرى أى المغامرتين أهم من الثانية !! » ..

وعلاقة منى بسليم علاقة حب بلا زواج ، ولعلها من أجل هذا لا تعود الى اسرتها .. لكننا نلتقي من خلالها بالعلاقة الزوجية ، وعن طريق صديقتها الانجليزية « بولين » ..المرأة المتزوجة » والتي اعترفت بعد تسع سنوات مع زوجها الانجليزي انها اخطأت .. كانت تريد شريكا في الحياة ، فاذا بها تعود من عملها منهكة لتغسل الأواني وتكوى وتطبخ وتعتني بالأطفال بمفردها » .. « في أيام سخطها وبرمها » وفي ذلك الوقت المناسب صادفها شاب عربي ، بغناه العاطفي وحرارة حرمانه .. جاءها كما جاءت الأقوام الأخرى الى لندن .. وزاد نفورها من زوجها الكسول الاناني .. واقبلت بعزم على فراقه وعلى الطلاق واصبحت تستيقظ من نومها

والعربي الى جوارها لتسائل نفسها : «من ذا الذي رأسه على الوسادة قربي ؟ .. ذو الشعر الأجعد والبشرة السمراء ؟ ..أمن أجله سأترك أطفالى وزوجي ؟..يريد منى صبيا ، واذا جاءت فتاة هل تصبح مثل فتيات قومه يمنعها عن الحب ؟.. ألا يرى كيف تعيش منى وهي عربية ؟؟ ... سيرد غاضبا ـ ان كان مستيقظا ـ تعيش منى في الحرام !! ... لم هذا الافتراض ؟ انها لم تؤذ احدا ... أهذا حرام ؟ .. ما قوله في السرقة والنميمة والجشع والنفاق والقتل ؟ .. وتعقب منى : عزيزتى ، مجتمعك صبور وأنت محظوظة ، اذ يتركك تدرسين المسألة قبل الاقدام على الزواج مرة أخرى ..

الجد واللهو ..

تناقض الثنائيات يزعج منى ويجعل حياتها الهادئة في المهجر هائجة صاخبة وكأنها لم تبتعد عن المنبت .. « لقد فقد جيلها بالتدريج الأخوة البشرية المتسامحة ، وامتلأت شوارع مدنه بالمظاهرات الغاضبة ، بالاختلافات السياسية المريرة ، بضياعه ، بخوفه !! » .. الا انها تحلم ، تتمنى حياة آمنة لأهلها .. واحدة من زميلاتها تقضي اجازتها في أسبانيا ، تعمل بجد وتجد وقتا للهو .. وفي كل مكان ساعة الغروب ، عندما يكون الجو بديعا ، يقف الأحبة زوجين ، تبلات على الشفاه ، والحديقة غناء .. بينما هي وحيدة ..

نسيج الرواية مركب طموح ، وتأثير الحياة الانجليزية المتصلة على الكاتبة يبدو واضحا في بعض الجمل والعبارات ، حيث المفردات عربية لكن التركيبات أجنبية ، وكأنها في الأصل انجليزية ترجمت حرفيا الى العربية .. تقول المؤلفة على لسان مسز روجز : « انت تساوين أى واحد معقول في هذا العالم » ولعلها تقصد « عاقل » .. أو : « أنا رجل تعبان ولست كبعض الكسالى » وكسالى هنا تجعلنا نعتقد أنها تعني « رجلا يكد » أو « مكافحا » مكان كلمة تعبان .. أو كقولها : « ما أزعج هذا ؟ وأفعل التفضيل هنا غير مستساغ .. تكتب « ماذا حصل ؟؟ » وتريد « ماذا حدث ؟؟

هذا طبعا من تأثير تغربها الطويل وتعودها المستمر على اللغة الانجليزية بصريا وسمعيا مثالا طيبا لحركة الرواية المهجرية بالمعنى المحدد الذى ذكرته من قبل « تلك الحركة التى أدعو الدارسين الى رصد نموها .. فهي بشكل أو آخر تعبير حى عن جزء من الوجدان العربي لا يصح تجاهله .

■■

لندن : مجيد طوبيا

---

* الاصابة في منع النساء من الكتابة » والمنشورة عام ١٨٩٨ .



شوقي الشاعر الضاحك

بقلم : عبد الوهاب شكرى

لم يختر القدر « شوقي » لامارة الشعر الا بعد فترة ركود طويلة مؤيسة لم يظهر خلالها ـ قط ـ شاعر فى موهبته الفذة . وهو اختيار لم يكن عبثا ولا اتفاقا اعتباطيا ، اذ أجمع النقاد المعاصرون ماعدا الشعراء كما قال احمد حسن الزيات ان « شوقي كان تعويضا عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر ويجدد ما اندرس من نهج الادب ويحفظ للبيان العربى قسطه المأثور من التعبير الملهم عن كلمة الله المنبثة فى الكون واسرار الجمال فى الطبيعة ومعاني الخير الغامضة فى الحياة » .

وغايتنا هنا ان نبسط الحديث عن جانب طريف من عطاء الشاعر هو الفكاهة التي يهمنا منها ـ فقط ـ الجانب المتعلق بـ « المحجوبيات » . وحسب شوقي ان العديد من الدارسين والنقاد لم يتركوا جانبا من عطائه الا اوسعوه درسا وتقويما . وذاك عمل جليل ينبيء عن ضخامة الاهتمام الذى لقيه شوقي بين اوساط المثقفين سواء داخل مصر او خارجها بغض النظر عما تضمنه ذلك الاهتمام من حكم له او عليه .

نسق الدعابة وماهيتها :

وما دمنا بصدد الحديث عن محجوبيات شوقي فلا بأس من ان نبدأ بتعريف الفكاهة كخطوة اولى فنقول : انها عمل فني ذو مغزى (انتقادي) اصيل منبثه العقل والقلب ، وتجد في الاشراك الشعوري او الوجداني من لدن قائلها مجالا فسيحا للتعبير عن الخلجات والخواطر والافكار ، ثم للترويح عن النفس من عناء الجد وازاحة الهموم والملل عنها ، وتعكس بالتالي الانبساط والاشراقة والتفاؤل لأنها (.. دليل الرغبة في الحياة) عند غوركي ، ثم هي (ميل العقل والقلب الى قول الحقائق باسلوب مرح) عند هيكل ، وذلك وفق نسق معين يجري تكييفه بحسب الغرض المطلوب .

وكما يتميز بعض الشعراء بالدعابة والظرف فقد تثقل ارواح بعضهم الآخر طالما انهم يفتقرون الى صفاء الطبع والى حساسية الوجدان وعذوبية الاحساس والذوق واصالة الابتسامة .

والمفروض في ذوي الذكاء والاريحية من الشعراء الاحتياط من المجازفة بالقول ، اذ من الغضاضة ارسال الكلام على عواهنه لأن توجيه الدعابة يتطلب منتهى اللباقة والحرص الشديد والاعداد المسبق للمخاطب بها اعدادا نفسيا وتهيئة المناخ الملائم حتى تصب في وعائها بكل حذر لتفادي العواقب الوخيمة والسهام الطائشة فعل .

وشوقي في دعابته المنطلقة من خفة الروح انما يوجهها لصديق له تجمعه واياه أواصر المودة والصداقة هو الدكتور محجوب ثابت وقد كان بين الرجلين ـ ولاشك ـ مسامرات ومداعبات اوحت للشاعر ان يقول في شعر الفكاهة ما عدته تقريبا ـ وليس على وجه التحديد ـ اربع قطع في ثلاثة وستين بيتا سميت بـ (بالمحجوبيات) نسبة الى محجوب ثابت المذكور الذي هو في نفس الوقت صديق للشاعر . وتحتل تلك المحجوبيات آخر ركن من الديوان ، وهي لاتخلو من طرافة ومتعة يجدها القارىء وهو يقلب الطرف في ابياتها ويتصفح معانيها فيحس ان« شوقي » قد اجاد في ابتكارها وابدع في وصفها مما يدل على تضلع كبير وقدم راسخة في هذا المضمار بالرغم من ان الصورة الشعرية تأتي احيانا باهتة هزيلة لاترقى الى درجة الجودة . وقد تتجنى على الشاعر حين تلزمه بأن يقولب دعابته وفق الانماط العالية من التعبير . والذي لاجدال فيه ان من الخصائص الشكلية للدعابة الشعرية البساطة والشفافية .

(والملاحظ ان المصريين اكثر العرب ضحكا وتنكيتا) حتى والدجى متلاطم اذ أن (النكبات التي لاقتها مصر في تاريخها الطويل وكذا تعاقب القوى الاجنبية في حكمها هو ما خلق لديها الميل الى الضحك والسخرية من جور الحاكمين . وفي اثناء احداث (١٩١٩) التي ارخت على الساحة السياسية ظلالا قاتمة ابت الطبيعة المصرية المراحة ممثلة في شوقي من جانب (كشاعر مصر الاول وروحها المتكلم) الا ان تؤكد حضورها كخاصية متميزة تحتفظ بنكهتها الاصيلة للتعويض عن المناخ الثقيل الذي يرزح تحت وطأته واقع مصر آنذاك ، والذي بدأت تهب عليه نسمات التغيير ويسعى الى الانعتاق من سيطرة الاستعمار وهيمنته . وفي هذه الفترة بالذات ظهرت الـ (المحجوبيات) في ثوبها المرح كما سترى .

الحيوان وصدمة المستقبل :

ان الاكتساح الحضاري المفاجيء وما رافقه من نتائج خطيرة وازمات للتكيف قلب الموازين عند الانسان ولاسيما في العالم الصناعي وزعزع ثقته بنفسه اذ لم يكن هناك مجال للاستعداد والتدرج تتهيأ معه النفوس لتقبل معطيات العصر . ومن الطريف ان تنسحب نتائج هذا الاكتساح المفاجيء حتى على الحيوان ايضا ممثلة في (مكسويني) حصان محجوب الذي نستأذنه في أن نقتحم عليه حياته الهادئة بعد اقتحام الشاعر لسرها المكنون ولساحتها التي شهدت وقائع نضالية ملحمية فان (مكسويني) عانى هو الآخر مما يدعى (بصدمة المستقبل) اذ استعاض عنه صاحبه محجوب بسيارة (اوفرلاند) ، وغدا بين عشية وضحاها في مواجهة صريحة امام التحديات ، مثلما عبرت عن ذلك دعابة (بين مكسويني والاتموبيل) التي نقتطف منها هذه الابيات حيث يقول شوقي :

أدنيا الخيل (يامكسي)
كدنيا الناس غدارة ؟
لقد بدلك الدهر
من الاقبال ادباره
فصبرا يافتى الخيل

فنفس الحـر صباره
أحـق أن (محجوبا)
سـلا عنـك بسباره
وبـاع الابلـق الحر
(باوفرلانـد) نعاره
ولـم يعـرف له الفضل
ولا قدر آثاره

وان مكسويني ليبدو هنا كمن ادبرت عنه الدنيا من بعد اقبال ، وهو مال يستحق معه صحبا يواسونه في محنته ويشدون من ازره يقولون له : (لا تهلك اسى وتجمل) .. وقد بادر شوقي فعلا بالتعبير عن مواساته في دعابته (مكسويني) قائلا :

تفـديك ـ يامـكسي ـ الجياد الصلادم
وتفـدى الأسـاة النـطس من أنـت خادم
(الأبيات)

وتكتمل الصورة المأساوية الهزلية التي تزيح الستار عن الحقوق الضائعة حيث يطنب الشاعر في تعداد فضائل مكسويني وخدماته الجلى التي كان يسديها على المقياس البطولي الشامخ مجانا كقوله من نفس الدعابة الاولى :

كأن لم تحمـل الراية
يوم الـروع والشاره
ولـم تركب الهول
ولـم تحمـل على الغاره
ولـم تعـطف على جرحى
مـن الصـبية نظاره
فمضروب برشاش
ومقلـوب بغدازه
ولا والله ما كلفت
(محجوبـا) ولاباره
فـلا البـرسيم تدريه
ولا تعـرف نواره

ومن حسن الطالع ان يقوم الانسـان مقام الآخر بطريقة او باخرى في حال انهيار الصلة بين انسان وحيوان ويتمكن اللؤم من فرض سيطرته وعنجهيته ، فيعلن الانسـان الخلف عن تعاطفه الدائم مع الحق الضائع لافرق في ذلك بين حيوان ناطق وغير ناطق حتى ولو كان الموقف محض فكاهة حيث يبرز المغزى الحقيقي للانسانية النبيلة ويختفي في بحرها اللانهائي شبح الاهمال واللامبالاة وتنطمس معالم العنصرية البغيضة والنظرة الدونية وتزول آثار الاستعلاء والجبروت من قاموس العلاقات ليحل محلها الوجدان والتسامح والقلب الانساني في اقصى انفعالاته يرفض المعطيات السلبية للسلوك والتعامل ويفضح المأساة وان كان الشاعر لايلوح بهذا الا على وجه الدعابة ، وكأني بشوقي هنا يضحك حيث يبكي يعزف على اوتار ينبعث منها نغم حزين بالرغم من الطابع المحمولة عليه دعاباته طرا . ويأبى الا ان يكفكف دموع الاسى والحزن العميق التي تنسكب صامتة من مقتل مكسويني ببارقة أمل يهمس بها في اذنيه قائلا :

عسى الله الـذى ساق
الى (يوسف) سياره
فكانـت خلفهـم دنيا
لـه في الارض كباره
يهـي لك هوارا
وايـن هـواره
فـان الحـظ جوال
وان الارض دواره

وان الصبر والتفاؤل والثقة بالنفس هي بحق وسائل حاسمة ومجدية لمقاومة الشعور بالهزيمة والضياع والغربة والتمزق وسائر التحديات . وقناعة ماكسويني بهذه الفلسفة شرط ضروري ليجد هويته الضائعة عندما تنيخ المحن بكلكلها وتتصاعد الخطوب وتحل الصدمة بويلاتها .

وتلك هي قسمة ونصيب مكسويني على كل حال في دنيا الخيل كما هي في الناس . وغالبا ما يكون الانسان وراء كل تجربة قاسية يمر بها الحيوان . وعلى الدهر الملامة .

دعابة في الادخار :

وهنا لابد من اشارة عابرة لنرى دور المال في تحديد معالم الشخصية التي من طراز محجوب بعد ان رأينا دورها في تعكير صفو حياة الحيوان . ذلك أن ادخار المال ، و كنزه هو الذى يفسر النظرة المستقبلية للانسان وعلى اساسها يتشكل نمط السلوك والتفكير والتعامل مع وسائل العيش وسائر الاحلام والاماني ، ويختلف هذا

❋ مجلة العربي العدد ٣٤ سبتمبر سنة١٩٦١ .
❋ قبيلة عربية يشتهر بنوها بالكرم ، ومنها بطن تستوطن صعيد مصر .

الشكل عند الانسان حسب الموقف النفسي الذي يخلقه وتحدده قيم الاشياء في ذاته ومدى فعاليتها الحاسمة في التأثير عليه وانجذابه نحوها وانصرافه عنها بفعل مانتفثه فيه من سحر او ما تحمله عليه من اعتدال او فتور او زهادة . ويظل الدعابة عند شوقي قد اختار الادخار ليؤكد حبه للمال بالشكل الذي عبرت عنه هذه الابيات مشيرة الى الفي جنيه كان محجوب قد اكتنزها وحرص على ادخارها في بنك مصر حيث تقول :

قـل لابـن سينـا لا طبيب
اليوم الا الدرهم
هـو قبـل بقـراط وقبلك
للجراحـة مرهم
والنـاس مذ كانـوا عليه
دائـرون وحـوّم
وبسحـره تعلـو الاسا
قـل في العيون وتعظم
يا هل ترى الالفـان وقف
لا يمس ومحرم
بشـك (السـعيد) عليهما
حتـى القيامـة قيم
لا (شيك) يظهـر في البنو
ك ولا (حوالـة) تخصم

وهكذا فان نظره البخيل الى المال تتحول الى واقع ملموس تحددها نوعية القيم والمفاخر والمثل عنده . فهو في حرصه عليه انما يعتبره اكسير الحياة واحد مصادر الطاقة والفعالية وعلو الشأن يدل على ذلك هذه الرموز المادية والمعنوية التي حفلت بها الابيات الاربعة الاولى من الدعابة وهي (الطبيب ، والدرهم ، مرهم ، سحره ، تعلو ، تعظم ، دائرون ، حوم) . وهي جميعا تؤكد حاجة البخيل الى تلك الاشياء التي ترفع معنوياته وتدعم مركزه الاجتماعي . وكنتيجة لتلك النظرة يطالعنا فجأة من خلال الابيات الثلاثة الاخيرة عنصر الاستجابة والتقديس للمال عند الرجل في هذه الصـور المتقابلة المتتابعة من الاحكام والمناعة والحرص كقوله : (وقف ، لايمس ، محرم ، قيم ، لاشيك يظهر ، لا حوالة تخصم) .

ومن هنا نرى ان فلسفة البخل عند بطلنا من وجهة نظر الدعابة تقوم كما هي عند امثاله من البخلاء على الجمع والادخار لاعلى الكسب والانفاق .

براغيث محجوب :

ويختم شوقي دعابته بهذه الابيات المرحة التي تتصاعد منها الشكوى المرة من براغيث محجوب العضوضة حيث اجاد الشاعر هنا اجادة تامة في ابتكار الوصف والمعنى اذ يقول :

براغيث محجـوب لم انسها
ولـم انس ما طمعـت في دمي
تشـق خراطيمهـا جوربي
وتنفـذ في اللحـم والاعظم
وكـنت اذا الصيف راح احتجمت
فجـاء الخـريف فلـم احجم
ترحـب بالضيـف فوق الطريق
فبـاب العيادة فالسلم
قد انتشرت جوقـة جوقة
كما رشـت الارض بالسمسم
وتـرقص رقص المواسي الحداد
على الجلـد والعـرق الاسحم

وتمضي الدعابة على هذا النسق مبرزة موقف الاهمال واللامبالاة في سلوك الرجل وحياته وتعكس اللاوعي بالمسؤولية كطبيب (تفديه الاساة النطس) حيال نفسه بله الآخرين !! مع ما في هذا كله من مغالاة اقتضتها طبيعة الدعابة اذ يقول شوقي :

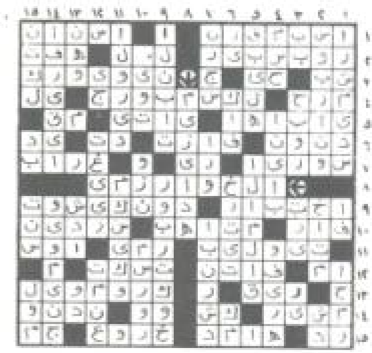
بواكير تطلـع قبـل الشتاء
وترفـع الـوية الموسم
اذا ما (ابـن سينـا) رمـى بلغها
رأيت البـراغيث في البلغم
وتبصر حول (بيبـا) الرئيس
وفي شاربيه وحـول الفم
وبـين حفافـر اسنانه
مـع الســوس في طلـب المطعم

هذا هو الوجه الآخر لشوقي الشاعر الضاحك ، وقد رسمه لنفسه بنفسه قبل أي احد ، ولقد احسن صنعا حين فعل . ■■

عبد الوهاب شكري
ورزازات ـ المغرب

❋ ابن سينا والرئيس كناية عن الدكتور محجوب نفسه . (الديوان) .

● حل مسابقة العدد ٢٧٢ ●



أفقيا: الخوارزمي

رأسيا: مي زيادة

اثنتان فى واحدة :

(٨) أفقيا : الخوارزمى . من خوارزم ، وعاش فى بغداد ، عالم بارع فى الرياضيات والفلك والجغرافيا والتاريخ . كان أول من آلف فى علم الجبر ، وهو واضع تسميته . اشهر كتبه وأهمها كتاب « الجبر والمقابلة » .

(٨) رأسيا : مى زياده . أديبة لبنانية تعلمت لغات الغرب وأتقنت العربية ، وساهمت فى النهضة الأدبية . من مؤلفاتها « باحثة البادية » ، و« المساواة » ، و« سوانح فتاة » ، و« كلمات واشارات » .

× الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : حسن علي عبد القادر/ عمان/ الاردن .

× الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز عمر خضر غنيم/طرابلس/ لبنان .

× الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : ابراهيم رمزي/ مراكش /المغرب .

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها

١ ـ عبد المنعم على الامين/ شندى/ السودان .

٢ ـ احمد حسن حلوه/ حماه/ سوريا .

٣ ـ عبود خميس المتيرف/ السالمية/ الكويت .

٤ ـ علي طلب محمد مجاهد/ البحيرة/ مصر

٥ ـ احمد عبد الرحمن باعقيل / المعلا/ اليمن الديمقراطي

٦ ـ نعيم اصطيفان زيونه/ البصره/ العراق .

٧ ـ محمد محمد كامل عاشور/ بلجرشي/ السعودية .

٨ ـ احمد احمد شلبي/صنعاء / اليمن .



الكلام عند الأطفال رحلته ومشكلاته

بقلم الدكتور : غسان حتاحت

يعتبر الكلام والنطق من أهم الوظائف الغريزية التي يتصف بها الانسان ، حتى أنه يعرف بها فيقال إن الانسان حيوان ناطق . وهذه الوظيفة على جانب كبير من الدقة والتعقيد مما يجعل اضطراباتها كثيرة ومتنوعة .

ويعتبر كثير من الاخصائيين في هذا المجال تطور الكلام واللغة عند الطفل مؤشرا هاما على امكانات الطفل وقدراته على التعلم في المستقبل . فالطفل الذي يتكلم مبكرا وبصورة جيدة تكون قدراته على التعلم أكبر من الطفل الذي يتأخر في الكلام ويكون كلامه غير واضح . على أن لكل قاعدة شذوذا ، فبعض الأطفال الموهوبين كان تطور الكلام لديهم بطيئا .

وان تطور الكلام يسير عادة بصورة طبيعية وبسهولة ويسر ، بحيث أن معظم الأطفال يصلون الى درجة جيدة من المعرفة بأصول لغتهم ومعظم قواعدها (السماعية طبعا) حوالي السنة الخامسة من العمر دون أي جهد خاص من الأهل .

وتعرف كلمة اللغة في هذا المجال بأنها معرفة مجموعة الرموز المستعملة في الاتصالات الصوتية . بينا يعرف الكلام بأنه المقدرة على اظهار المعرفة باللغة بأصوات مسموعة .

واستنادا لذلك يمكن القول ان استجابة الطفل بحراكاته وتعابيره للتعليات الصوتية تدل على معرفته باللغة . بينا يدل تلفظه ببعض الكلمات على قدرته على الكلام .

خلال السنة الاولى

وفيا يلي أذكر بعض النقاط الهامة في مراحل تطور الكلام لدى الطفل الصغير :

ـ ففي الشهر الثالث مثلا ينظر الطفل الى جهة المتكلم ويبتسم له ، ويخرج بعض الأصوات التي تضم حرفي الكاف والغاء .

ـ وفي الشهر الخامس يستدير الطفل عندما ينادي باسمه كما أنه يحاول تقليد بعض الألفاظ التي تخرج غير واضحة طبعا .

ـ وفي الشهر السابع يبدي الطفل استجابة حركية لبعض الطلبات مثل : تعال أو قف أو « باي باي » .

ـ وفي الشهر التاسع يتوقف الطفل عن اللعب والحركة اذا نودي باسمه أو قيل له لا .

ـ وفي الشهر الحادي عشر يجيب الطفل على سؤال بسيط بالاشارة أو النظر كأن يسأل أين هي اللعبة الفلانية ؟ فيلتفت نحوها أو يشير اليها . وفي هذا الوقت تقريبا يبدأ أولى كلماته .

ـ وفي الشهر الخامس عشر يبدأ بتمييز أسماء بعض أعضاء الجسم .

وقد ركزت على هذه المراحل من التطور والتي تحصل خلال السنة الأولى نظرا لثباتها لدى كل الأطفال تقريبا ، خلافا لمراحل التطور في السنوات التالية .

ان الطفل كما ذكرت يبدأ بالتلفظ ببعض الحروف كالكاف والغاء حوالي الشهر الثالث وان تكرار هذه الحروف هو الذي يثبتها لديه . ثم يبدأ فيا بعد بتلفظ بعض الأصوات كبابا أو دادا دون مدلول معين . لكن الأهل هم الذين يجعلون لهذه الكلمات معنى عن طريق تردادها من جهة وربطها بحصول الطفل على نتائج مرضية بعد تلفظها من جهة أخرى ، كأن تطعمه أمه أو تغير ما اتسخ من ثيابه عندما يقول ماما ، أو أن يحمله أبوه ويداعبه بعد تلفظه بابا . وهذا المدلول يختلف من لغة لأخرى ، فلفظ دادا لدينا يشير الى الأخ بينا يشير لفظ دادي بالانجليزية الى الأب .

وبين السنة والسنة والنصف يبطؤ تطور الكلام لدى الطفل لأنه ينشغل باكتشاف امكاناته الحركية كالمشي والانسجام النسبي في النشاط العضلي . ثم بعد السنتين يعوض عن ذلك ويبدي اهتماما شديدا بالكلام والاستفسار عن كل ما يراه . غير أن قاموس الكلمات لديه يبقى محدودا ، مما يؤدي الى حدوث التأتأة حيث يحاول الطفل التعبير عما يريد دون أن يجد الكلمة المناسبة . فالتأتأة هنا هي مرحلة طبيعية ، وان محاولة استعجال الطفل أو تأنيبه هي احدى العوامل التي تثبت التأتأة لدى الطفل بعد انقضاء هذه المرحلة الغريزية .

ولقد كان الاعتقاد سائدا في الماضي أن الفترة الحرجة في تطور الكلام تمتد بين ٩ ـ ٢٤ شهرا غير أن الدراسات الحديثة قد أظهرت أن الفترة تبدأ أبكر من ذلك بكثير .

ويتأخر عادة تطور القدرة على التعبير أكثر من تطور القدرة على الفهم بحيث أن الطفل يستطيع أن يفهم اللغة أكثر مما يستطيع الكلام (وهذا ما يحصل معنا عندما نتعلم لغة أجنبية جديدة) .

ارشادات منطقية

ويكون التطور في هذين المجالين على أشده بين ٢ ـ ٤ سنوات . غير أن السيطرة على ارتفاع الصوت ونغمته خلال هذه الفترة لا تكون كاملة بحيث أن الطفل قد يتكلم بصوت عال جدا رغم عدم وجود ضرورة لذلك . كما أن التصويت لديه قد لا يكون على جانب كبير من الدقة بحيث قد تختلط مخارج الحروف المتقاربة مثل السين والشين مثلا أو الراء والواو والغين .

كما أن سيطرة الطفل على لفظ الكلمة تبدأ بسيطرته على لفظ أول الكلمة بحيث أن الطفل قد يلفظ أول الكلمة بصورة صحيحة بينا يحذف حرفا من منتصفها أو آخرها .

في هذه الفترة ننصح الأهل ببعض الارشادات المنطقية البسيطة :

١ ـ يجب أن يضرب الأهل المثل المطلوب بأنفسهم بحيث يتكلمون أمام الطفل بصورة هادئة رزينة عادية . وفي الوقت نفسه يجب أن لا يعطوا الطفل سيلا

من التعليمات مثل : تكلم على مهلك أو خذ نفساً أو اصمت الخ ...

٢ ـ مساعدة الطفل عندما يتعثر في ايجاد كلمة ما وذلك بتزويده بالكلمة المناسبة بصورة طبيعية وعادية .

٣ ـ اعطاء الطفل الوقت الكافي والاهتمام والاصغاء اليه باهتمام وتمهل عندما يكون لديه خبر مثير يود أن يرويه لأهله .

وان الأطفال الطبيعيين يستطيعون أن يتعلموا لغتين مختلفتين تماما في نفس الوقت منذ الطفولة الاولى وبنفس الدرجة من البراعة ودون أن يخلطوا بينهما . غير أن سن السيطرة الكاملة على هاتين اللغتين قد يتأخر قرابة عام عن سن السيطرة على لغة وحيدة ، وهو ثمن ليس غاليا لتعلم لغتين معا .

وهذا ما يجب أن يفعله كثير من العرب المهاجرين الذين يعيشون في الخارج ويعلمون أبناءهم لغة المهجر فقط ويتركون العربية وما تعلمها على أطفالهم بعسير ، كما أن هذا ما يجب أن تفهمه بعض الأقليات التي تعيش في عالمنا العربي اذ يبدؤون بتعليم أطفالهم لغتهم الأصلية ولا يعرفونهم على العربية حتى يبلغوا سن المدرسة فيعيش الطفل طيلة حياته وهو يتكلم العربية بلكنة أجنبية تجعله يحس بنفسه غريبا وهو في بلده وتؤثر عليه من النواحي النفسية .

ان تطور الكلام بصورة طبيعية يقتضي ما يلي :

١ ـ سلامة السمع منذ الولادة . وان تكرر التهابات الاذن الوسطى عند الأطفال تحت السنتين من العمر (وهو مرض شائع جدا) يؤثر بصورة أكيدة على سلامة السمع كما ثبت مؤخرا .

٢ ـ سلامة الجهاز العصبي المركزي .

٣ ـ سلامة الجهاز الحركي بما في ذلك عضلات الخدين واللسان . وان مراقبة الطفل أثناء تناول الطعام تعطينا فكرة عن التوازن الحركي لديه . وبالتالي عن دور ذلك في تطور الكلام في المستقبل .

٤ ـ أن يعيش الطفل في محيط يشجعه على الكلام والتعبير عما يريد .

اقعد واسكت !

ان الاعضاء المسؤولة عن الكلام كثيرة . لكنها في نفس الوقت ليست متفرغة للكلام بل لديها أعمال أهم منه بكثير . فالحنجرة (بفتح الحاء) هي عضو التصويت . لكن وظيفتها الأهم هي مرور الهواء الى الرئتين . والتنفس أهم من الكلام كما تعلمون !! .

كما أن اللسان وعضلات الخدين لهم وظيفة رئيسية هي مضغ الطعام وهي وظيفة ما اخال أحدا يعارضني في أنها أهم من وظيفة الكلام (خلا بعض الثرثارين) .

وفيما يلي أذكر بعض المشاكل التي يجب أن تثير اهتمامنا وقد تشير الى وجود اضطراب في تطور الكلام . وهذه الاضطرابات عادة تصادف لدى الذكور اكثر من الاناث كما هي الحال في كل اضطرابات الكلام :

عدم تلفظ الطفل بأية كلمة حتى عمر (١٨) شهرا .

عدم وضوح الكلمات للأهل حتى سن (٢ر٥) سنة أو للغرباء حتى سن (٣) سنوات .

عدم استطاعة الطفل ذكر جملة من كلمتين في نهاية السنتين وجملة من ثلاث كلمات في نهاية الثلاث سنوات .

وجود نغمة في الصوت مخالفة لسن وجنس الطفل .

عدم لفظ الطفل الحروف الأولى من بعض الكلمات .

بقاء التأتأة بعد بلوغ الطفل خمسة أعوام .

تشكيل جمل غير صحيحة بعد (٦) .

عدم خروج الأحرف من مخارجها الصحيحة في أي وقت (بعد السنة والنصف طبعا) .

شعور الطفل أن تكلمه غير طبيعي أو شعوره بالحرج من طريقة كلامه في أي وقت .

ان الحديث عن تطور الكلام عند الطفل شيق وذو شجون . ولذلك نجد الأهل يتابعون تطور الكلام لدى طفلهم باهتمام كبير . كما يتابعون تطور المشي لديه . ويظلون يستحثون الطفل على الكلام والمشي . فاذا مشى وتكلم قيل له :اقعد واسكت .

واذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . ■■

دمشق ـ د. غسان حتاحت



آلام الظهر

د . محمد أبو شوك .

❋ أساس الألم ومصدره ❋

العمود الفقرى هو بحق عمود متين يتركب عليه جميع أجزاء الجسم ، واكتسب قوة أكثر وأكثر فى الانسان عندما صوره الخالق القادر وأعطاه الاستقامة وجعله يمشى على رجلين . وهو يتركب من فقرات متتالية تختلف فى التركيب حسب المنطقة التى تنتمى اليها .فهناك الفقرات العنقية ، والظهرية ، والبطنية والعجزية . وهذه الفقرات مرتبطة بعضها البعض ولها جزء أمامى قوى هو جسم الفقرة بينها غضاريف تحتوى بداخلها أقراص يتوسطها جسم يعرف بالنواة وهذه لها أهمية فى الحالة التى يحدث بها انزلاق غضروف ، ففى بعض الحالات يبرز هذا الجزء الذى يتوسط الغضروف ويضغط على الأعصاب ويشد هذه الفقرات أربطة متينة .

❋ أما الجزء الخلفى من الفقرات فيلتحم بعضه البعض مكونا قناة بطول معظم العمود الفقرى قناة قوية أخرى تحمى النخاع الشوكى والذى يزود الجسم بالاعصاب التى تحمل الى أجزاء الجسم ومنها الى المخ وأجزائه المختلفة . والجزء الموجود فى الرقبة والموجود فى أسفل الظهر هو أكثر أجزاء العمود الفقرى حركة لذا كان تعرضها للامراض أكثر حدوثا .

❋ أنواع الألم ❋

والآلام التى تعترى الظهر يمكن حصر معظمها فى أربعة أنواع :

الم موضعى : ويحدث نتيجة الأمراض المختلفة فى أجزاء العمود الفقرى شريطه أن تحتوى على أعصاب للحس تنقل الالم الى مركز الالم بالمخ . وهكذا نجد أنه فى حالة من الحالات التى تصيب عظم العمود الفقرى الذى لا تحتوى على أعصاب للحس يشعر المصاب بألم الا اذا تسرب المرض ووصل الى الأنسجة التى تحتوى على مثل هذه الأعصاب مثل الغشاء الذى يغطى العظم ، أو الأربطة التى تحيط بها ، أو العضلات ، أو الغشاء الرقيق الذى يبطن المتصل وكذلك عندما يصيب القرص داخل العظم العمود الفقرى والذى يحدث النتوء المعروف بالانزلاق الغضروفى ويلاحظ فى الألم بالضغط على المنطقة المصابة .

والملاحظ كذلك أن الألم الموضعى يزداد بحركة الجزء المصاب .

أو الم يحدث فى العمود الفقرى ، ولكن يشعر به المصاب فى موضع آخر من الجسم كان يحسه مثلا فى البطن أو الساقين السفليين اذا أصيب أسفل العمود

الفقري . أما اذا كانت اصابة العمود ، في منطقة الظهر فان المصاب يحس بالألم في الصدر ، والاصابة في عمود الرقبة يحس له صدى في الذراعين أو أعلى الصدر وفي بعض الحالات يحدث المرض في عضو داخل البطن أو الصدر ويحس المصاب الالم في العمود الفقري .

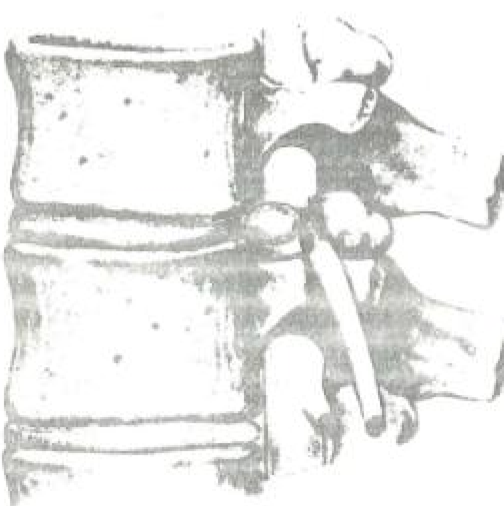
والالم في هذه الحالات يكون عميقا ، ومقلقا وينتشر في جزء كبير من الجسم .. والالم الذي يبدأ من عضو داخل البطن ويحس المريض منه الاما بالظهر يعتمد على العضو المصاب فألم المغص الكلوى ، أو التهاب عنق الرحم أو التهاب البنكرياس كلها تختلف في موضع الالم ونوعيته ومدى انتشاره ، ونوع المرض الذي يصيب العضو ان كان التهابا أو التواء ورما ، أو تضخما في العضو يسبب التهابا أو ورما أو غيرها من الامراض

مثل التيار الكهربائي

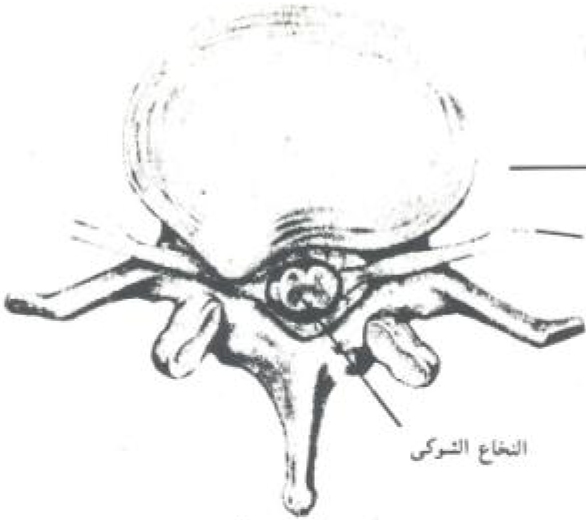
ثم الألم الذي يسري في الجذور العصبية التي تخرج من العمود الفقرى وهذه النوع من الألم يكون شديدا ، وينتشر انتشارا كبيرا حسب انتشار العصب الذي يسري فيه . وهو كما يصفه المريض كان تيارا كهربائيا يسري من ظهره الى قدمه . وينتج اما عن التهاب بالعصب ، أو شد عليه أو ضغط عليه بجسم خارجى ، أو تهيج العصب بمواد كيميائية أو أجسام غريبه ومن الملاحظ ان أثر هذا الالم الشديد يزداد بالسعال أو بالعطس أو عند زيادة الضغط داخل البطن أثناء عملية الاخراج ويزداد الالم كذلك بالحركات التي تساعد على شد العصب مثل رفع الساق دون أن تثنى عند الركبة ، واذا أصيب العصب المكون من الجزر التي تخرج من الفقرات القطنية الاولى والثانية والثالثة كان الألم شديدا أمام عظم الفخذ تسبب ذلك ألما خلف الفخذ والساق الى أن يصل الى الاصبع الكبير في الرجل أو الصغير بها . ويعرف ذلك بألم (عرق النسا ولعل أكثر أمراض الظهر انتشارا يرجع الى سوء استعمال العمود الفقري سواء في الوقوف أو الجلوس أو أثناء العمل ويلاحظ ذلك في الاشخاص النحاف والذين لايمارسون أى نوع من أنواع الرياضة البدنية فتكون عضلات الظهر ضعيفة وتتبع ذلك تشوهات في العمود الفقرى فيكون الأحدب والملتوي الى الامام وهي تسبب ألاما في الجزء المصاب ويزداد هذا الالم اذا استعمل الجزء المصاب والعضلات التي تتبعه وما أكثر الشكوى بين الطلاب الذين لايجلسون الجلسة الصحيحة أثناء الدوام والمذاكرة والعامل المنحني على صنعته طول اليوم ، والحامل في شهرها الأخير وغير ذلك ممن يتعرضون يوميا لوقوف خاطىء أو جلسه غير صحية تكون نتيجتها الألم الذي يحدث في المكان المصاب ويخف هذا الالم بالراحة في الفراش ولكن لايلبث أن يعود مع العمل .

وهناك آلام الظهر الناتجة من التشوهات الخلقية التي تحدث في العمود الفقري وبالرغم أن الشخص المصاب يولد بها الا أن أعراضها لاتظهر الا بعد نمو الجسم





● النخاع الشوكي في الرقبة ● انزلاق غضروفي ●



فترى الأعراض في الصبية أو الشاب . وتكتشف هذه التشوهات الخلقية بعد عمل أشعة على العمود الفقري ومن هذه التشوهات التحام بعض الفقرات القطنية بالعجزية وينتج عن ذلك ضغط على الاعصاب تسبب آلاما في الظهر وينتشر الالم في الطرفين السفليين . وكذلك تتوتر بعض العضلات مسببة آلاما مبرحة في بعض الحالات .

نتيجة اصابة قديمة

ثم آلام الظهر التي تحدث من الاصابات المختلفة وهي كذلك تشكل نسبة كبيرة وتختلف شدتها تبعا لنوع الاصابة (الجزء الذي تأثر من الاصابة) وفي بعض الحالات تكون الاصابة طفيفة بحيث لاتسترعي انتباه الشخص المصاب ولكن تظهر أعراضها بعد مرور وقت طويل أو قصير حتى أنه في بعض الحالات لايتذكر المريض هذه الاصابة الا بعد جهد . والاصابة ربما أثرت على العضلات والاربطة فقط أو أنها تسبب في بروز القرص الذي بين الفقرات أو كانت شديدة بحيث انها قد تسبب كسرا في جزء من الفقرة أو في عدة فقرات .

ويعتمد التشخيص في هذه الحالات على فحص المريض فحصا دقيقا ثم بالفحص الشعاعي .ومنه نعرف اذا كانت هناك اصابة للعظام أو أن الالم يعود الى شد بالعضلات أو الاربطة أو تمزق بها ففي حالة الاصابة الطفيفة يحصل شد في العضلة أو الاربطة مع آلام في الموضع الذي حدثت فيه الاصابة ، واذا زاد الشد تمزقت العضلة وزاد الالم ويتعذر على المصاب القيام بأي حركة في المنطقة المصابة ، ويقل الالم الى حد كبير لو أراح المصاب المنطقة المصابة

آلام في أسفل الظهر

آلام الظهر المصحوبة (بعرق النسا)

وهذه أيضا من الأمراض المنتشرة ، ولو تتبعنا حالة كل مريض لرأينا أن المريض في غالب الأحيان يشكو من آلالم في أسفل الظهر لفترة طويلة لتعاوده على فترات ثم أنه يلاحظ أنه عندما يقوم برفع كتل من على الأرض وهو محني الى الأمام يحس وكأن شيئا قد خرج من عظام ظهره وضغط على عصب الساق السفلى اليمنى أو اليسرى مع ألم شديد وكأنه كهرباء يسري من الظهر الى الساق ويصل في بعض الأحيان الى أصبع القدم الصغير أو الكبير وربما يكون الألم شديدا الى حد يمنع المصاب من القدرة على تحريك ساقه ويزداد هذا الالم بالسعال أو العطس أو عند قضاء الحاجة أو اذا حاول المريض السير أو جلس لفترة طويلة ويقل الألم عندما يستلقي على ظهره خصوصا لو استعمل فراشا على الارض لكي لاينثني ظهره عند النوم عليه .

واذا حدث نتوء في الغضاريف الموجودة في الفقرات القطنية الثلاثة الأولى يكون الالم في الجزء الأمامي من الفخذ واذا استمر الضغط على الأعصاب لفترة طويلة فانه من الملاحظ أن العضلات التي تمدها الاعصاب المصابة في الضعف ، وفي الحالة الشديدة والمزمنة يحدث ضمور في العضلات مع قصور في حركة الساق .

من هذا يتضح أن علاج هذه الحالات في أول الاصابة من الأهمية بمكان حتى لاتحدث مضاعفات يكون من الصعب علاجها والعلاج يتركز على الراحة مع الاستلقاء على الظهر لفترة طويلة مع اعطاء المسكنات

اللازمة فى مثل هذه الحالاتالتى تساعد على ارتخاء العضلات ورجوع الغضروف الى مكانه وبذلك ينجو العصب من الضغط عليه وبالتالى يقل الألم تدريجيا وتتحسن حالة المريض ويمكن السير دون ألم وينصح بعد ذلك أن لا يرفع أشياء ثقيلة وهو حانى الظهر وأن يقوم بتمرينات رياضية خفيفة تساعد على تقوية عضلات الظهر ويستعمل حزاما الظهر ليقيه من الانزلاق الغضروفى .

وفى الحالات الشديدة التى لا تستجيب الى علاج دوائى وبالراحة ، ويبدأ الساق فى لتأثير مما يؤثر على عمل المصاب وهنا يجب استشارة الجراحة لتتدخل الجراحى لازالة النتوء الغضروفى الذى يضغط على العصب المصاب

التهاب مفاصل الظهر

واصابة المفاصل فى الظهر إما أن تكون جزءا من التهاب المفاصل فى جميع أجزاء الجسم أو أن هذا الالتهاب خاص بمفاصل الظهر كما هو الحال فى التهاب شبه الروماتيزمى للمفصل بين عظمةالايليا وعظمة الحوض وفى بعض الحالات يمتد إلى مفصل الفخذ وتصاب المفاصل فى الظهر كسائر المفاصل الأخرى بالروماتيزم ، وشبه الروماتيزم ، وتآكل الغضاريف بين المفاصل .

ففى حالات التهاب المفاصل الشبه روماتيزمى نجد أن المريض يشكو من ألم مستمر بالظهر مع تيبس فى عضلات الظهر وآلام الايليا هذا الالم يزداد بالحركة خصوصا اذا كانت هذه الحركة بعد فترة راحة كما هو الحال عند الاستيقاظ من النوم أو فى الليل . وتقل حدة الألم اذا انشغل المصاب بالعمل بعض الوقت وكذلك اذا استعمل مركبات الأسبرين كمسكن .

أما فى حالة التهاب المفاصل المصحوب بتآكل فى الغضاريف والذى يحدث عادة بعد سن الاربعين فنجد أنه يشبه الى حد ما النوع الشبه روماتيزمى فى تيبس الظهر وقصور حركته ، ويحس المصاب براحة أكثر اذا استراح ويقل الالم أثناء الليل ، ويلاحظ المصاب وجود صوت عند حركة العمود الفقرى خصوصا فى منطقة الرقبة . والفحص بالاشعة وعمل التحاليل اللازمة يميز بين النوعين ويظهر أصل المرض جليا ويمكن تبعا لذلك معالجة المريض

تشوه عظام الظهر

أما أن تكون نتيجة لالتهاب فى العظمة سواء كان من ميكروبات أو من الاصابه بسل العمود الفقرى ، أو الاصابة بميكروب التيفويد ، أو الحمى المالطية وغيرها من الميكروبات والملاحظ فى هذه الالتهابات أنها فى بعض الحالات تؤثر على عظمة العمود الفقرى ومن الممكن تسبب خراجا نتيجة لذلك دون أن تسبب آلاما شديده ويحدث الأم عندما يصل الالتهاب الى الأعصاب وفى بعض الحالات يتكون « خراج » حول العظمة دون أن يحدث ضغطا على الأعصاب التى تخرج من العظمة

وكذلك الحال فى حالات انتشار سرطان عضو من الاعضاء ووصوله الى عظمه العمود الفقرى فاننا نجد أن بعض هذه الخلايا السرطانية ربما تكون قد وصلت الى العظمة وتسبب ضغطا على العصب دون أن تتلف العظمة نفسها ويشكو المريض من ألم شديد فى المنطقة المصابة .والألم الذى يحس به المريض فى هذه الحالات يبدأ خفيف الوطأة ويزداد بمرور الأيام شدة حتى يصل الى حده الأعلى فيستمر فى الألم فى شدته ليل نهار سواء تحرك المريض أم لم يتحرك وعندما يضغط على الأعصاب الخارجية من العظمة يحس المريض بألم يسرى مسار هذا العصب المصاب

ومن الامراض الشائعة فى هذا المجال هو مرض آلام الظهر الذى يحدث فى كبار السن وفى النساء بعد سن اليأس فنجد أن العظمة قد فقدت ما بها من كالسيوم وصارت لينة حتى أنها فى بعض الحالات تتقلص ويتغير شكلها وتشبه الى حد كبير عظام السمكة .

وفى هذه الحالات يشكو المريض أو المريضة من آلام ليست شديدة فى منطقة الصدر وأسفل الظهر

أمراض أعضاء البطن الداخلية

ولقد وجد ان كل عضو داخل احشاء البطن له عصب يمده بالاحساس ويتبع هذا العصب من النخاع الشوكي ويخرج بين الفقرات المكونة للعمود الفقري . ومن هنا نرى أن الاعضاء الموجودة فى اعلى البطن يحس بآلامها فى منطقة الفقرات الظهرية السفلية ، وفى تلك التى تحدث فى وسط البطن يكون الألم فوق الفقرات القطنية . والألم الاعضاء داخل حوض البطن يكون على الفقرات العجزية .

وعلى سبيل المثال اذا اصيب الشخص بقرحة في الاثنى عشر خصوصا اذا تعمقت القرحة الى الخلف فان الالم يحس في منطقة الفقرات الظهرية السفلى والفقرات القطنية العليا . ويتحسن هذا الالم عندما تتحسن القرحة بتناول الطعام او الادوية المهدئة لثورة القرحة وكذلك الآلام التي تنتج من التهاب او تورمات في الاعضاء الحوضية في البطن في المنطقة القطنية فان المريض يحس بألم وينتشر هذا الالم الى اعلى الفخذ والخصية . والآلام التي تحدث نتيجة لالتهاب او تقلصات او اورام بالقولون يمكن ان تنتشر ويحس المريض آلاما على الفقرات القطنية . اما في حالات الامراض التي تنتاب الاعضاء التي تشغل الحوض كالرحم في المرأة والبروستاتا في الرجل . ففي حالات تورم الرحم او اثناء العادة الشهرية المصحوبة بألم او التهابات حول الرحم او انحناء الرحم الى الخلف كلها تسبب آلاما في المنطقة العجزية من العمود الفقري وكذلك الحال في التهاب البروستاتا وتورمها يكون آلامها شديدا في هذه المنطقة أيضا من الظهر .

أسباب نفسية

وكباقي أمراض الجسم لابد أن لا تنسى أن هناك أسبابا نفسية تسبب الاما في الظهر . ولكن قبل أن نصل الى هذا التشخيص لابد وأن تفحص المريض فحصا دقيقا وتعمل له كل الفحوصات المخبرية والشعاعية . ويلاحظ لفترة أو بعدها نقرر اذا كان هذا المرض عضويا أو نفسيا لكي لانترك المريض ونعتمد على تشخيصنا النفسي وهو يعاني من مرض عضوي ربما ازداد استفحالا بمرور الوقت وتكون العاقبة وخيمة .

ويشكو مرضى الهستيريا والتوتر العصبي والاكتئاب النفسي من الام في أسفل الظهر ويلاحظ أن المريض في هذه الحالات ينقصه وصف المرض وصفا دقيقا ويتغالى في شكواه وتزداد الشكوى أمام الناس ، في حين أن ذلك يتلاشى لو انفرد الشخص بنفسه .

آلام الرقبة

لابد من التعرض بصفة خاصة للآلام التى تعترى الفقرات العنقية من العمود الفقرى ، فالرقبة كأى جزء من العمود الفقرى تتعرض لجميع الأمراض التى تعترى هذه العظام وينتج عن ذلك آلاما فى الرقبة مع تحركها من جهة أخرى ، ولما كانت حركة العمود الفقرى فى الرقبة سهلة فانه فى هذه الحالة يتعرض أكثر للأمراض وبالتالى تقل حركة الرقبة . ولعل أكثر الأمراض حدوثا فى الرقبة هو ما يسمى ببروز الغضاريف بين العظام وضغطها على الأعصاب التى تخرج من النخاع الشوكى فى الرقبة ويبدأ المرض بتيبس فى عضلات الرقبة مع ألم عند تحركها من جهة الى أخرى . وعندما يضغط النتوء على العصب يحدث الألم الذى ينتشر الى الذراع حتى يصل فى بعض الحالات الى الخنصر والبنصر ، فى حالة اصابة الغضاريف أو الى الابهام والأصابع الأخرى فى حالة اصابة الغضاريف العلوية ، ولما كان الجزء العلوى من الصدر تأتيه الأعصاب من الرقبة فانه يتبع الاصك الذراع آلام فى الصدر ، ويزداد تخوف المريض عندما يكون هذا الالم فى الجهة اليسرى من الصدر لأن ذلك يشبه إلى حد كبير آلام الذبحة الصدرية

أو الجلطة فى شريان القلب ، ولكن الملاحظ هنا أن هذا الألم يزداد بحركة الرقبة فى جهة أخرى وأنه ليس له علاقة بالاجهاد كما هو الحال فى حالة الذبحة الصدرية ، وانه يقل مع عدم حركة الرقبة وتثبيتها . ويكون تخطيط القلب طبيعيا .

وفى حالة تشابه الأمور واختلاطها لابد أن تأخذ الأمور بحيطة شديدة ، فلا تقول أن هذا الم الرقبة ما دام هناك تآكل فى الغضاريف ويكون هذا بدء الاصابة بجلطة فى شريان تاجى القلب . فيجب وضع المريض تحت الملاحظة خصوصا أن الاصابة بمرض الغضاريف يحدث بعد سن الأربعين ويتفق ذلك مع زيادة الاصابة بجلطة بشريان القلب .

هذه بعض أمراض الظهر وضعتها أمام القارىء ليعرف أنها عديدة ... وما زال المثل القائل ينطبق فى حالة الظهر أيضا « الوقاية خير من العلاج » . ■■

د . محمد أبو شوك .

حوار القراء

الابجدية الفينيقية ...

● ورد في العدد رقم ٢٧٠ من العربي مقال للدكتور اسحق عبيد بعنوان أذن تبصر وعين تسمع » ففي المقدمة قال :

« نشأت الحروف الابجدية للكتابة عند الفراعين » يقصد الفراعنة » فتلقفها عنهم الفينيقيون ثم الاغريق ، الذين نقلوها بدورهم الى الغرب الاوروبي .. »

وهذا خطأ تاريخي لان الالف باء نشأت لاول مرة في العالم عند الفينيقيين الساميين ـ كنعانيين ـ الذين سكنوا على الساحل السوري وكانت عاصمتهم « اوغاريت » السورية . وقد اكتشفت الابجدية الاولى ، والحجر المنحوت عليه الابجدية موجود حاليا في متحف دمشق الوطني وقد اكتشفت حوالي عام ١٨٢٠ من قبل احد العلماء الفرنسيين . وقد شاع آنذاك ، وتعلمنا في المدارس ان اول ابجدية في العالم اكتشفت في اوغاريت ، على الساحل السوري وتعتبر الابجدية اعظم هدية قدمها الشعب السامي الى شعوب العالم ...

علما بان مفردات الابجدية الفينيقية وكلماتها اقرب الى اللغة السامية التي منها العربية بعيدة عن هيروغليفية الفراعين . وهم شعوب حامية وليست سامية بخلاف الفينيقيين .. وطبيعي ان يكونوا مهرة في اختراع الابجدية لانهم امة خاصة لا هي بالحربية ولا الادبية البحتة انما شعب تاجر يجوب افاق الدنيا بحاجة الى ابجدية موحدة تعم العالم ...

زياد دياب
سورية

التراث اليمني

تحية طيبة وبعد

● قرأت في العدد « ٢٧٠ » من مجلتكم مقالا للاستاذ « احمد بن محمد الشامي » تحت عنوان « التراث اليمني في المتحف البريطاني » وفي الصفحة « ١٣٤ » وتحت العنوان الفرعي (كتاب من ٥٠ ألف بيت) عدد من ابيات الشعر ، منها

الا انما الدنيا غضارة ايكة
اذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال الا فجائع
عليها وما اللذات الا مصائب

ولاحظت ان الكاتب قد نسب هذه الابيات للشاعر اليمني الشهيد القاضي حسين بن ناصر المهلا ، ولكن هذه الابيات ليست لهذا الشاعر وانما هي لشاعر آخر من الاندلس وهو شاعر الزهد « ابن عبد ربه » هذا من جهة ومن جهة ثانية فثمة خطأ صغير في البيت الاول وهو

الا انما الدنيا غضارة أيكة
اذا اخضر منها جانب جف جانب

والصحيح هو :

الا انما الدنيا نضارة أيكة
اذا اخضر منها جانب جف جانب

عبد المجيد صديق
سوريا ـ حمص

حوار القراء

النقاط على الحروف

● في عدد أول مايو كتب الدكتور زكي نجيب محمود مقالة بعنوان (درس نتعلمه من الاوائل) فهي رد غير مباشر على مقالة كتبها الدكتور عون الشريف قاسم بعنوان « مقاومة الانهزام الثقافي اولا » في العدد (٢٦٥) وقد عقب عليها الدكتور صلاح عبد بمقالة عنوانها (مقاومة لا مبرر لها) في العدد (٢٦٧) . فالدكتور زكي نجيب محمود قد وضع النقاط على الحروف في تلك القضية الحيوية الهامة وما زالت هناك بعض الافكار في تلك القضية تستوجب على مفكرينا وادبائنا ان يناقشوها لكي تكمل الصورة وتبدو واضحة .

القاهرة ـ عبد الرحمن محمد عوض

هل العربية لغة ؟

● لقد اثار انتباهي المقال المنشور في العدد ٢٦٨ تحت عنوان « لماذا نهمل الترجمة الى العربية ؟ » انه دعوة مخلصة للعودة الى لغتنا العربية المهددة بالنسيان ، والواقع ان اللغة العربية قد وصلت الى حالة يرثى لها في بعض بلداننا العربية حيث اللغة الاجنبية هي لغة التعليم في المدارس والجامعات وحيث لا غريب الا اللغة العربية .

ان حجة القائلين ان المراجع العلمية تكون باللغة الاجنبية ليست عذرا لكي نتنكر للغتنا الام التي كانت وما تزال من اعظم رموز الحضارة العربية الزاهرة .

وهنا تحضرني حادثة مؤلمة . بينما كان استاذ الفيزياء يشرح الدرس باللغة الفرنسية سأله احد رفاقي عن معنى احد المصطلحات بالعربية . وهنا غضب الاستاذ وقال : وهل العربية لغة ؟. من يصدق ان كلاما كهذا يمكن ان يصدر من استاذ عربي ؟!

الطالب يوسف سليمان

أميون / الكورة / لبنان

وحدة الاراء

● لمجلة العربي اثر كبير في فكر كل عربي وفي عقائده وهذا فضل لا ينكره احد ، لكن هناك شيء يجب ان تأخذه المجلة بعين الاعتبار وهو دعم الوحدة العربية ، وذلك عن طريق ان يتعارف عرب المشرق وعرب المغرب وان يوحدوا آراءهم ، وليس هناك وسيلة لذلك ـ بالاضافة الى المجلات ـ الا المراسلة ، لماذا لا تفتحون بابا للمراسلة لتكمل مسيرة وحدة الاراء حتى لو كان ذلك من قبيل توحيد وتضامن اجهزة البريد في الوطن العربي .

احمد صالح سلوم

سورية

إقتراحات

● ١ ـ حبذا لو افردتم صفحة او صفحتين من كل عدد كباب جديد تحت عنوان مناسب ، تخصص للنكات والنوادر ويشدد على ضرورة الالتزام بقواعد الادب وعدم الخروج عن اطار التقاليد والقيم السائدة في بلادنا . فلقد اصبحت الابتسامة من ضروريات حياتنا الحاضرة الحافلة بالكثير من المشاكل والهموم .

٢ ـ بالنسبة لباب (اقوال معاصرة) فهو باب جيد جدا ، ولكن حبذا ايضا لو فتح المجال فيه للقراء لكي يشاركوا فيه ، لان الاقوال السديدة التي تحمل طابع التوجيه والحكمة ليست وقفا على الشخصيات المعروفة سواء كانت سياسية او ادبية او غير ذلك ...

احمد مختار الجاني

حماه / سوريا

مصر بين الاشراق والتحدي

● تابعنا على صفحات مجلة العربي خلال العام المنصرم ١٤٠٠ / ١٩٨٠ ما دبجه يراع الكاتب الكبير الاستاذ اكرم زعيتر (عروبة فلسطين ومصر) تحت عنوان (مصر بين الاشراق والتحدي) وهزتنا كلماته الواقعية وحوادثها الحقيقية ولا سيا في هذه الايام التي تتحدى فلسطين ومصر كل القوى لتثبيت عروبتها الاصيلة وبكثير من الحوادث والشخصيات التي اتيح لنا حضورها ومقابلتها مما جعلنا نرى فيها وكأنها عتاب جميل - والعتاب هدية الاحباب او الاصحاب او على الطريقة النابلسية (صابون الاحباب والاصحاب ..)

ان في مصر ارض الكنانة شعبا عربيا اصيلا يجب ألا ينسى ماضيه ومشاركته في مواقفه العربية والاسلامية ضد الهجمات الاوروبية والتترية .

محمد عارف النابلسي
عمان / الاردن

المناضل زياد ابو عين

● لقد سمعتم الكثير عن قضية زياد ابو عين المناضل العربي الفلسطيني الذي يرزح في سجون امريكا منتظرا قرار تسليمه الى السلطات الاسرائيلية .

وكما تعلمون فانه وخلال ٣٤ سنة من قيام (دولة اسرائيل) لم تجرؤ اية حكومة في العالم على تسليم اي شخص فلسطيني او عربي الهوية اليها . فاذا تم تسليم المناضل زياد ابو عين لاسرائيل فانها ستكون سابقة خطيرة لها عواقب وخيمة على الساحة العالمية .

ان لجنة الدفاع عن زياد ابو عين ترى ان اعتقال المناضل زياد يشكل تحديا لابسط المفاهيم الانسانية والديمقراطية ، يجب على كل عربي التصدي لهذا التحدي لان زيادا ليس فقط رهيننا فلسطينيا سياسيا في امريكا ، بل هو رمز للصمود العربي في كل مكان ، انه رهين الامة العربية بأجمعها .

هيا ايها العرب استيقظوا واستفيقوا اليس من واجب كل انسان عربي ان يشارك زيادا في اعيادنا الوطنية والدينية بارسال البرقيات والرسائل ، ليشعر زياد بانه ليس وحيدا داخل قضبان السجن وليشعر ان هناك شعبا وامة تفكر في قضيته دوما وتشاركه نضاله وتؤيد صموده .

ارسلوا الدعم المعنوي بواسطة البرقيات والرسائل الى زياد في السجن على العنوان التالي :

MR. ZIAD ABU EIN C/O M. C. C.
71 W. VAN BURAN CHICAGO 11160605
U. S. A

لجنة الدفاع عن زياد ابو عين

مات الميكروب يحيا الإنسان

بقلم : الدكتور عبد الملك ابو عوف

فمثلا كيف يتأتى لدواء ان يلاحق الميكروب المتغلغل في خلايا الجسم البشرى دون ان يضر بهذا الجسم ؟

كيف يمكن لهذه الجزيئات المشيدة من عناصر انتقتها اراده الانسان وصممتها بصيرته أن تميز بين خلايا الميكروب وخلاياه وكأنها فرازة تفرز بين خلايا وخلايا ، رغما عن تشابهها جميعا فيا تضمه جدرانها من سيتوبلازم وبروتوبلازم ونوايا ونويات وأجهزة ورقائق تسبح في هلام تغوص فيه الجينات والريبوسومات وكأنها بحر لجى يترقرق بلمعان يخطف الأبصار .

خذ عندك مثلا مركبات السلفا ومرادفات البنسلين وغيرها من المضادات الحيوية وما تحتشد به ترسانه الطب من علاجات تستولدها كل يوم من هذه الرميات أو الفطريات التي كانت تعيش يوما عالة على الكون فاذا بها اليوم تمده بأجل وأعظم عوامل الصحة والحياة .

والواقع ان مركبات السلفا هذه كانت العلامة البارزة في هذا المضمار بل كانت نقطة التحول في ميدان العلوم البيولوجية من عصر الى عصر .. ولم يك هذا نظرا لقدرتها على ابادة الميكروبات والقضاء على سلالاتها بل لما أسفرت عنه من حقائق خلقت ثورة حقيقية في فن العلاج تنعم الآن بنتائجها وما حققته من نعم وخيرات .

ومركبات السلفا مركبات بسيطة المبنى ، سهلة التخليق والتحقيق تحتوى على ذرة كبريت واحدة ، وذرتين من الايدروجين وذرة واحده من النتروجين تجتمع في مجموعة واحده هى العلامه المميزة لهذه المركبات وتسمى المجموعة السلفاميليه — SO 2 NH 2 — Sulfamyl group وهى بكليتها ترتبط باحدى الزوايا الستة لنواة البنزين حيث يقع في الواقع المقابل لها مجموعة تلورية أمينية تتكون من ذرة واحده من النتروجين وذرتين اثنتين من الايدروجين — NH 2 —

والعجيب ان هاتين المجموعتين اذا تجاورتا أو تبادلتا فقدتا سرهما العتيد وأصبح المركب المنطوى عليهما مجردا من الفاعلية لا قدرة له على الميكروب الذى يمرح حينئذ مختالا فخورا .

وليدة الصدفة البحتة

ومما يطامن من غرور الانسان ويكسر من حدة اختياله وكبريائه ان هذه المركبات كغيرها من أخطر الاكتشافات ، لم تكن وليدة التفكير والتدبير بقدر ما كانت وليدة الصدفة البحتة وغوث الرحمة التي تتنزل من السماء كلما أراد الخالق الاعظم ان يهب الانسان سرا من أسرار خلقه وأن يفضى اليه بجديد من عظيم صنعه . فمركبات السلفا لم تخلق أساسا لتصبغ حياة الانسان بالبرء والشفاء وانما شيدت لتكون صبغات أساسيه لما يعوزه من أنسجه ويستعمله من أصواف وكانت تطويرا لصبغة أزويه حمراء تسمى كريسويدين chrysoidine تحتوى على مجموعة من ذرتي نتروجين متصلتين برباط مزدوج — N - N — هى المجموعة الأزويه سيمة الكثير من الصبغات ولما كانت ستستعمل في صبغ الاصواف وهى بروتينات مركبه فقد شاءوا في معامل باير للصبغات ان يضيفوا اليها شطيرة حمضية تثبتها هى مجموعة السلفاميل السالف ذكرها .

وفعلا تم تحضير مركب البرونتوزيل الاحمر Prontosil rubrum وكان الرأى ان المجموعة الأزوية تعمل عمل الخطاف فتعلق بجزيئات البروتينات

فتصيبها وتلصق بها وهي النظرية التي وضعها بول ارلخ تحت اسم Anchoring Theory وشيد على أساسها مركبات السلفرسان محتوية على مجموعة زرنيخيه من ذرتي زرنيخ — AS - AS — أسوة بالمجموعة الآزويه ليعالج بها الزهرى باعتبار ان الزرنيخ هو جار النتروجين في جدول مندليف الدورى وان هذه المجموعة ستقوم مقام الخطاف . ولقد نجحت مركبات السلفرسان نجاحا عظيما في شفاء صرعى الزهرى هذا الداء الخبيث الذى كان يتسرب في الجهاز العصبي وغيره من الانسجه فيتلفها بالشلل والتشوهات .

ولقد ظلت مادة البرونتوزيل الحمراء تستعمل في الصباغه حتى هاجت الحمى القرمزيه طفله كان يعالجها الطبيب دوماج Domagk ويقال انها كانت بنته وقد ارتفعت درجه حرارتها فوق ٣٩م مما كاد يعرضها للوفاه . وهنا طرأت الفكرة لهذا الطبيب المحظوظ ان يستعمل البرونتوزيل لمهاجمة ميكروب هذه الحمى عساها تعلق به بخطافها الآزوى فتبيده طالما هي بروتينات شبيهه ببروتينات الصوف وكان ذلك سنة ١٩٣٥ أى بعد نحو ربع قرن ، وكم كانت دهشته عندما شفيت الفتاة وبدت عليها علامات البرء والشفاء من هذا الداء العضال . وقفز دوماج سلالم المجد وارتقى قمة الخلود ومنح جائزة نوبل سنة ١٩٣٨ وكسب في ضربه واحده من ضربات الحظ السعيد هذه الجائزة الرفيعه وحياة هذه الطفله البريئه .

الثورة العلاجية

ولكن هل كان أرلخ مصيبا في نظريته وقد أتت اكلها في السلفرسان والبرونتوزيل ؟ الحقيقة كلا ، كان التطبيق صادقا وكانت النتائج حقيقة باهره ولكن كان التنظير عكازا من عكازات العلم يستند عليه حتى يستبدل الحقائق بدل الفروض ثم يرمى به بعيدا ليكون معلما في تراث الانسانية وشاهدا عدلا على عظمة عقلية الانسان . لقد اتضح ان البرونتوزيل انما يفرز في البول على هيئة مادة بسيطة تحمل مجموعة السلفاميل والمجموعة الأمينية مشيرة الى ما اعتراها من كسر في الرباط الآزوى تحت تأثير خميرة مهدرجة تعمل عملها في الجسم الحى . وان هذه المادة التي سميت سلفانيلاميد Sulfanilide هي المادة الفعاله من جزيء البرونتوزيل . وانها تتحول الى مشتق من مشتقات حمض الخل وانها لا علاقة لها بالنظرية الخطافية انما تعمل عملها بطريقة بيولوجية وليس بطريقة ميكانيكية كما صورها أرلخ أو فكر بها دوماج وان هذه الطريقه البيولوجية هي مؤشر هذه الثورة العلاجية التي انبجست في علم الطب منذ عام ١٩٤٠ على يد وودز Woods وفايلدز Fildes وسميت في الاول نظرية الأيض التنافسي اى تنافس مادة مع مادة في عملية التمثيل البنائي للميكروب .

وحقيقة الأمر ان خلايا البكتريا انما تحتاج لنموها الى عامل مساعد يسمى حمض الفوليك Folic acid اعطاها الله القدرة على تشييده وسلبها القدرة على الانتفاع به اذا واتاها من الخارج . بينما خلية الانسان ولو انها عاجزة عن تخليق هذا الحمض الا انهـا قادرة على الانتفـاع به وتحصيله من الخارج من موارد عديدة .

وعليه فان تعطيل تخليق حمض الفوليك في خلية البكتريا انما يعصف بها ويوقف نموها وقد يميتها بينما الانسان في أمان من ذلك . وحمض الفوليك جزيء معقد يتكون من ثلاثة قطاعات أو شطائر أوسطها هو شطيره حمض البنزويك المقابل P-amino Benzoic acid وهذا الحمض أشبه ما يكون بالسلفانيلاميد حتى في ابعاد ذراته تلك الابعاد التى تقاس بالانجستروم فاذا ما وجد جزيء السلفانيلاميد حل محل جزيء حمض البارابنزويك الأميني وعطل تكامل جزيء حمض الفوليك لذلك قيل في تعريف مركبات السلفا انها المركبات التى يبطل تأثيرها حمض البارا أمينوبنزويك والعكس صحيح .

ولكن ما اثر مضادات الحيوية الأخرى كالبنسلينات والسيفالوسبورينات والكلورومالستين والتراسيكلينات وباقي هذه العصبة من المواد التى تستخلصها من تربة الكرة الارضية وتختلف باختلاف مواقعها فيها ! وكيف تعمل كل هذه المضادات على خلايا البكتريا وسلالاتها . الحقيقة ان لكل منها أثره وأليته ونشاطه وفعاليته فبعضها يؤثر على المكونات الاساسية لجدران الخلايا فتهن ولا تقوى على تحمل الضغط الاوزموزى وغيره فتنفجر . وبعضها يؤثر على ريبوسومات الخلايا واحماضها النووية أو تتخطف أثار المعادن الدقيقة التي من غيرها لاتستقيم للبكتريا حياه بينما خلايا الانسان لا تخضع لكل هذه التأثيرات وهذا نتيجة الخلاف الشديد الذى ساقته الفطره بين خلية وخليه وبروتين وآخر . وما كان هذا ليتأتي لولا هذه الرحابه في الخلق وهذا الاعجاز في النشأه وهذا التباين في مكونات الحياة رغم تشابهها وكأنها كلمات محفوظة في وثيقة الخلق وضع شفرتها الابجدية هذا الخالق الاعظم الذى قد ينفد البحر قبل ان تنفد كلماته ـ وهو على كل شيء قدير . ■■

د . عبد الملك أبو عوف
استاذ الكيمياء الصيدلية كلية الصيدلة
جامعة المنصورة

إعداد يوسف زعبلاوي

تلسكوب الفضاء

●من المعروف ان المراصد والتلسكوبات الارضية تعمل تحت عجز ..فغلاف الارض الجوي ،بل قل غازاته وغباره بالتحديد ،·يفسد على تلك التلسكوبات اداءها ، ويحد من فاعليتها . من هنا كان الحرص على انشاءالتلسكوبات الضخمة كتلسكوب (بالومار) في الولايات المتحدة (٢٠٠بوصة) وتلسكوب القفقاس في الاتحاد السوفياتي (٢٣٦بوصة) .. على ان هذه التلسكوبات الضخمة لم تحل المشكلة ولم تضمن تخطي المؤثرات الجوية ..

ومن هنا ايضا اتجه خيال العلماء وتفكيرهم الى تلسكوب الفضاء ، وقد تحدث العالم الفلكي الألماني هرمان اوبرت Hermann Oberth ، سنة ١٩٢٣ عن مزايا ذلك التلسكوب الذي يعمل بعيدا عن جو الارض وعن مؤثراته . فمن شأن هذا التلسكوب ان ينفذ الى أجواز الفضاء ويكشف عن اسراره بقدر تعذر واستحال على التلسكوبات التقليدية مهما كبرت . واكد اوبرت امكانية اطلاق تلسكوب الفضاء الى مداره خارج الغلاف الجوي ليعمل في منأى عن مؤثراته .. ولكنها كانت مجرد امكانية نظرية في تقديره ..

ومضت الايام ، ونجح الانسان في غزو الفضاء ،وتفنن في صنع الاقمار الصناعية التي صنعهالتخدم شتى الاغراض والتي اطلقها بالجملة حتى ملأت السماء او كادت ، ونجح كذلك في صنع سفينة الفضاء القادرة على حمل الأجرام الثقيلة الى الفضاء .. وهكذا اصبحت الامكانية النظرية التي تحدث عنها العالم اوبرت امكانية عملية .. بل مشروعا او برنامجا مقررا سيعهد الى مكوك الفضاء (كولمبيا) بتنفيذه سنة ١٩٨٥ .

وسيبلغ طول تلسكوب الفضاء هذا ٤٣ قدما ووزنه نحو ٩ اطنان (٢٠٫٠٠٠ رطل انجليزي بالتحديد) . لاعجب اذن ان تعذر على الصواريخ التقليدية حمل هذا التلسكوب الى الفضاء ،وان بقيت تلك المهمة على الرف طوال السنوات الماضية ريثما تكتمل اعمال تطوير سفينة الفضاءالمكوكية (كولمبيا) .فهذه السفينة مجهزة بمستودع رحب كبير وقادرة على الانطلاق الى الفضاء بحمولة قد تصل الى ٢٩ طنا .. فهي اذن شاحنة فضاء ضخمة وهذه هي ميزتها الكبرى .. ولا نغالي ان قلنا بان هذه الميزة لا تقل خطورة عن الميزة الاخرى التي اشتهرت بها السفينة وسميت بالمكوك بسببها .. وهي قدرتها على العودة من الفضاء والقيام برحلات عديدة ومتكررة اليه .

ولا غرابة ان كانت مهمة حمل تلسكوب الفضاء إلى الفضاء ، ووضعه في مداره حول الكرة الارضية في طليعة البرامج المقررة للسفينة المكوكية كولمبيا .. وقد حددوا سنة ١٩٨٥ موعدا لانطلاقها بالتلسكوب ، كما ذكرنا . ..ليأخذ مداره على ارتفاع ٣١٠ اميال ، ويدور حول الكرة الارضية مرة في كل ١٠٠ دقيقة . ويرجح الخبراء ان يطول امد تلسكوب الفضاء هذا ١٥ سنة على الاقل .. وقد يعمّر اكثر من ذلك نظرا لاعمال الصيانة المنتظمة التي اصبح في الامكان القيام بها بفضل السفينة المكوكية .

اما مرآة تلسكوب الفضاء فسيبلغ قطرها ٩٤ بوصة .. وسيكون له مرآة اخرى ثانوية بقطر ١٢ بوصة . وتبدو هذه الابعاد متواضعة جدا لدى المقارنة بمقاسات تلسكوب بالومار وتلسكوب القفقاس .. وبالرغم من ذلك فان تلسكوب الفضاء سيبلغ من الفاعلية اضعاف ما تبلغه هذه التلسكوبات الضخمة التي تعمل على سطح الارض ، وضمن غلافها الجوي ..



وحسبك ان تلسكوب الفضاء سيتيح للفلكيين اعمال الرصد بوضوح يفوق الوضوح الذي سمحت به التلسكوبات الارضية بحوالي عشرة اضعاف ..وسيمكنهم من ان يروا من الكون ٣٥٠ ضعف ما سمحت لهم برؤيته مراصد بالومار والقفقاس وغيرها . وهكذا سيصبح في وسع علماء الفلك مشاهدة اجرام السماء النائية التي يبلغ بعدها عنا ١٠,٠٠٠ مليون سنة ضوئية او يزيد .. ومعنى هذا انهم سيتمكنون من الكشف عما لم يخطر لهم ببال من اسرار الكون .. اسرار بدايته ونهايته وظهور الحياة على الكرة الارضية وغير ذلك من اسرار ..

وغني عن البيان ان تلسكوب الفضاء سيكون مجهزا بمختلف اجهزة الرصد والتصوير .. نذكر منها على سبيل المثال جهاز (Photometer)لقياس حدة الضوء واجهزة (Spectrometer) لتحليل الضوء .. هذا الى جانب الاجهزة الاكترونية والتلفازية المتنوعة الكفيلة بجعل تلسكوب الفضاء رجلا آليا اكثر منه جهازا علميا عاديا .

ومما يذكر عن اداء التلسكوب الجديد انه سيحول مشاهداته الى اشارات الكترونية يرسلها الى الارض بمساعدة اقمار صناعية تكفل تلك الاشارات مزيدا من دعم وتقوية . حتى اذا وصلت تلك الاشارات الى المحطة الأرضية ، عمدوا الى ردها الى اصلها وتحويلها الى صور ورسوم .. واستخلصوا منها ما تنطوي عليه من معلومات .





التلفاز والاقمار الصناعية

● يشهد القرن العشرون ثورات تكنولوجية وصناعية عديدة ، لا ثورة واحدة ، كما كانت الحال في القرنين السادس عشر والسابع عشر .ولعل الثورة التي تشمل الاتصالات السلكية واللاسلكية وتشمل اجهزة خزن المعلومات (الكمبيوترز) .. وسواها من مختلف الاجهزة الالكترونية ..هي في طليعة ثورات القرن العشرين .. على ان مايهمنا هنا من امر هذه الثورة ما اتصل منها بالتلفاز .. وباقماره الصناعية بالذات .

فالتلفاز الذي اقتصر حتى الآن على قناة او قناتين ، وخيرنا بين عدد محدود من البرامج ،يوشك ان يلحق بالراديو في مستقبل قريب جدا ، من حيث كثرة المحطات والبرامج التي سيضعها في متناولنا .

هذا على الاقل هو ما يتوقع تحقيقه عما قريب مشاهدو التلفاز الاوروبيون البالغ عددهم نحو ٢٥٠ مليون نسمة .

والاقمار الصناعية هي سبيلهم الى ذلك ،كما قد لا يخفى ..ونخص بالذكر قمرين من تلك الاقمار، هما (i — tdf)و (Tv — Sat — i)وقد تقرر اطلاقهما الى الفضاء الخارجي في غضون السنتين او الثلاث القادمة .. على ان يلحق بهما اقمار اخرى ليصبح مجموع الاقمار الخاصة بنقل اقنية التلفاز وبرامجه عشرة اقمار ، وذلك قبل نهاية الثمانينات .

ولما كان في استطاعة القمر الواحد حمل ثلاث اقنية في آن واحد .. كان عدد ما ستتيحه تلك الاقمار بمجموعها ثلاثين قناة .. ومثل ذلك من البرامج على اقل تقدير .. بحيث يصبح في وسع المشاهد في بلدان اوربا الغربية ، في المانيا وفرنسا بخاصة ، أيختار ما يروق له من تلك البرامج .. اما البقعة التي سيغطيها القمر الواحد من تلك الاقمار فواسعة كما يتضح من الخريطة المرفقة .

ولا يخفى ان اللغة تعتبر عقبة في سبيل تحقيق هذا المشروع .. ولكنها عقبة غير كاداء ..وقد اصبحت الترجمة الفورية بواسطة اجهزة الكمبيوتر سهلة المنال . واصبح الاوروبيون قاب قوسين او ادنى من صنع وبرمجة اجهزة الترجمة الخاصة بمشروع اقمارهم التلفازية .

الولادة.. تحت سطح الماء

من اطـراف ماوردالينـا منانباء الطب والعلم .. نبأ المولود المائي .. فقد نجح احد العلماء السوفيات في توليد احدى النساء في حوض ، تحت سطح الماء .. والعالـم المذكور واسـمه ايجورتشاركوفـسكي Ijor Charkovsky من الباحثين العاملـين في معهـد موسـكو للابحـاث العلمية الخاصـة بالتربية البدنية . وحوض الماء الذى تمت فيه عملية الولادة الغريبة في مطلع هذه السنة موجود في مبنى معهد موسكو بالذات .. اما الدافع على اجراء هذه العملية فهو التحقيق فيما اذا كان المولد المائي يتمتع حقا بذكاء خارق ، كما يعتقد بعض العلماء .

وثمة نبأ طريف آخر ..هو العـودة الى كرسي الـولادة القديم ..مقعد القابلة الذي طالما تقلـه معها الى حيث سكنت الحامل الموشكة على الوضـع .

ولعـل الكثـيرين من قراء هذه السطور مدينون بفضل للكرسي القـديم .. الـكرسي الـذي عزف عنه الجميع واعتبروه من الطرق التقليدية البالية مطلع القـرن العشرين ،اي بعـد عزوف الاوروبيين عنه بحوالي قرنـين من الزمن ...

اما الباعث على العودة الى طريقة الولادة العمودية القديمة التي تتمثل في كرسي القابلة فهو مزايا هذه الطريقة وحسناتها .. فهي تختصر الزمن الذي تحتاجه الحامـل للوضـع الى الثلث ..ساعـة بدلا من ثلاث ساعـات على سبيل المثـال .. وهي تخفف من الام الوضـع وتحد من احتمالات تجلط الدم في الساقـين .. اضف الى ذلك مشاعر الثقة والارتياح النفسي التي تشعر بها الحامل التي تلد وهي جالسة على الكرسي ..

تقول الدكتور وارنـر ناش W. nash في مستشفى لينوكس هل Lenox Hill في مدينـة نيويورك : « الوضعان المثاليان للـولادة هما القرفصاء ووضـع الجلـوس على مقعد ..ويعـزي ذلك الى طبيعة حوض المرأة من جهة والى قوة الجاذبية من جهة اخرى .. » ويضيف الدكتـور ناش الى ذلك قولـه «ان الحامل ،لـو تركت وشأنهـا ، لاختارت الـولادة العمـودية ، بالفطـرة ودون تفـكير ، هذا اذا تركت وشأنها بالفعـل دون ان يتدخـل في الامـر طبيب او ممرضة .. »

وتجـدر الاشـارة الى ان الطريقـة الحديثـة في الـولادة ، طريقـة الوضـع افقيا وفي الاسرة .. هي الطريقة المفضلة من وجهة نظر الطبيب المولِّد .. اذ يسهـل عليه الاصغـاء الى نبضـات قلـب الـوليد والمرأة الحامل مـستلقية على ظهرها .. كما يسهـل عليه اسـتعمال (سماعة الصـدر أو المسماع) كذلك (الملقط) لمساعدة الوليد على الخروج من القناة ..

على ان الـكرسي الجـديد الـذي صنعـوه في نيويورك يختلف قليلا عن كرسي الوضع القديم ، الذي يعود ابتكاره الى قدامى اليونان ، كما يقولـون ، والـذي بلـغ اقصى رواجـه في اوربـا في البندقية في القـرن السادس عشر فهو اكثر تنسيقـا ويختلـف من حيث المادة البلاستيكية التي صنـع منهـا ومن حيث المرونة وقابلية الحركة التي تتمثل في كل اجزائه .. وقد وزعـوا منـه حتـى الآن حوالي ٢٠٠ مقعد ..



الكاتب الساخر جوناثان سويفت

لقد كره الناس والاطفال ، ولكن الناس أحبوه ومجدوه ، وقتع الاطفال بكتاباته على مدى قرنين ونصف !

في الثامن والعشرين من تشرين الاول / اكتوبر ١٩٧٦ حلت ذكرى مرور مائتين وخمسين عاما على نشر كتاب (رحلات جلفر) بلندن وهي التي امتعت اجيالا عديده من الاطفال خلال تلك السنوات الطويلة .

بقلم :

الدكتور صفاء خلوصي

وهي حقيقة لو علم بها جوناثان سويفت لدهش لها ايما دهشه ، لانه لم يكتب كتابه هذا للاطفال باي حال من الاحوال . ومن مفارقات القدر أن سويفت كان يكره الاطفال ، بل كان في الواقع كارها للناس جميعا ، ذلك لانه اصيب بخيبة امل ، فغدا حاقدا على البشرية جمعاء .

لقد ولد هذا الكاتب الهجاء الحاقد الساخر في آخر يوم من ايام تشرين الثاني / نوفمبر من عام ١٦٦٧ وتوفي في التاسع عشر من تشرين الاول / اكتوبر عام ١٧٤٥ فيكون بذلك قد عمر ثمانية وسبعين عاما . ولد في العاصمة الارلندية (دبلن) من ابوين انكليزيين ،

وكان الشاعر « درايدن » ابن خال له ، كما انه كان يدعي بصلة قربى مع الشاعر هيريك .

رحلة تعيسة

ولد سويفت يتيما فقد مات ابوه قبل مولده فكانت هذه فاتحة النكبات في حياته ، فترعرع في فقر مدقع ، وكان من زملائه في المدرسة الكاتب المسرحي كونكريف ، ومع ان سويفت دخل كلية الثالوث بجامعة دبلن ، فانه لم يظهر اي قابلية او مقدرة وكان مشاكسا عكر المزاج سيء الطبع . وكانت الدرجة العلمية التي حصل عليها هبة من الجامعة اكثر منها نتيجة جهد شخصي او قابلية خاصة ، ثم التحق بامه بعد الثورة التي اجتاحت البلاد ، وكانت يومها تقطن في ليستر فعرفته على السير وليام توميل ، ليعمل سكرتيرا له .فافاد من مكتبته واستغل هذه الفرصة احسن استغلال وشرع يقرض الشعر فما كان من ابن خاله درايدن الا ان قال له بصراحة : « يا ابن خالي العزيز ياسويفت لن تصبح شاعرا ! »

وفي هذه المرحلة التقى بستيلا ، او ايستر جونسون ، الابنة غير الشرعية للسير وليم تيمبل ، وقد لعبت دورا خطيرا في حياته وهو مدفون اليوم الى جانبها ، على ما اذكر من زيارتي لقبره بدبلن منذ اعوام طوال خلت .

ولم يلبث سويفت أن ترك خدمة السير وليم تيمبل سنة ١٦٩٤ غاضبا متعضا بحجة انه متقاعس في العمل من اجل تقدمه الحقيقي في الحياة العامة ، فرحل عائدا الى ارلندة ليعيش بالقرب من بلفاست وخلال اقامته هناك الف كتابه « حكاية حوض غسيل » ، وهي نقد لاذع ساخر لفساد الدين والعلم في المجتمع الارلندي ، ووضع كذلك كتابه « معركة الكتب » of the Books The Battle واصفا باسلوب تهكمي معركة بين القدامى والمحدثين .

وبعد اربع سنوات من فراقه لوليم تيمبل عاد اليه بدعوة خاصة منه لحاجته الملحة الى صحبته ومساعدته ، وشاء الاقدار أن يموت تيمبل بعد عودة سويفت بعام واحد فيقوم بطبع آثاره ويعود قافلا الى ارلندة من جديد ، وقد قام في هذه الفترة بزيارات متعددة للندن وارتبط بصداقة مع اساطين ادباء زمانه ومنهم اديسون ، وستيل ، وكونكريف واخرج العديد من البحوث القصيرة والكراريس ووثق روابطه مع حزب المحافظين . ولكنه ما لبث ان اشمأز منهم لاهمالهم اياه فقلب لهم ظهر المجن والتحق بخصومهم ، وشهدت السنوات القلائل التالية مشاحنات سياسية فهاجم المحافظين في العديد من المقالات الصحفية والنشرات والكراريس ، فاصبح مساعدا لاسقف كتدرائية سانت باتريك ، وهو اقصى ماوصل اليه في حياته ، لان عداءه للملكة آن حال دون حصوله على المزيد من التقدم .

وامام ركام آماله المحطمة لم يربدا من العودة الى ارلندة والاعتزال فيها حتى وافته منيته وقد امتلأ قلبه قيحا من الحزن والالم والموجدة على بني الانسان .

يوميات ستيلا

وشرع سويفت بكتابة ما اسماه يوميات ستيلا ، سنة١٧١٣ ، وتلقي هذه اليوميات الكثير من الاضواء على اخلاقه الغريبة ، ومع انه تزوجها بعد عودته الى ارلندة ، فانهما لم يعيشا تحت سقف واحد ، وفي الوقت ذاته انقطعت علاقته مع « فانيسا » ، التي احبته ودخلت واياه في مراسلات غرامية طويلة واهدى لها قصيدته كادينس وفانيسا

وبالرغم من انه كان يمقت الارلنديين ويعتبر الاقامة في ارلندة ضربا من ضروب النفي ، فقد اهتم بالشئون الارلندية وكتب مدافعا عنها ، واحرز شعبية خارقة بعد وضع كتابه الموسوم « برسائل درابير Letters Drapier,s .

وعندما زار انكلترة سنة ١٧٢٦ شارك « الشاعر اليكساندر بوب » وأربثنوت Arbuthnot ، في نشر « متوعات » ، وفي السنة ذاتها نشر (رحلات جلفر) اشهر كتبه وابقاها على الدهر ، وهو تهكم مر لاذع ، وفي راي بعضهم فانه موجه ضد البشرية ومنطو على كرهها .

وشهدت سنة ١٧٢٧ آخر زيارة له لانكلترة وفي السنة التالية ماتت (ستيلا) التي ربما كانت أحب الناس اليه . وبالرغم من انه كان محاطا بحلقة من الاصدقاء في دبلن ومتمتعا بشعبية هائلة لدفاعه عن المظلومين في اوقات شدتهم ، فقد اخذت الدنيا تظلم في عينيه وتتكاثف حوله الاشباح القاتمة . واخذ خوفه من الجنون ، ذلك الخوف الذي لاحقه طوال حياته ، تشتد وطأته عليه . فازداد عبوسا ووحشية وكرها للبشرية ولو انه كانت هناك فترات صحو واستجماع قوي استطاع خلالها ان ينتج بعض مؤلفاته الرائعة ومنها (نشوة الشعر) و (اقتراح متواضع) وهو تهكم فظيع ولكنه آية من آيات البيان الساخر ، ولعل قصيدته (ابيات في موت الدكتور سويفت) رثاء لشخصه بالذات ، ولكنه مع ذلك كله كان في تدهور مستمر في ملكاته وقابلته الادبية .

حتى يغيظ العالم

وقد يأتي زمان تنسى فيه آثاره جميعا باستثناء (رحلات جلفر) فانها خالدة وقد كتب عنها في رسالة الى بعض اصدقائه يقول فيها : « لقد انهيت رحلاتي .. انها جديرة بالتقدير ، وستصلح العالم بشكل مدهش » .

والحق انها كتبت لتميط اللثام عن حماقات البشرية ورذائلها ، وعلى حد تعبيره هو : « لتغيظ العالم بدلا من تسليته » ولكن الذي حدث كان عكس ماتوقعه سويفت تماما فان العالم ولاسيا صغار ابناء العالم لم يشعروا باي غيظ ، بل على العكس استمتعوا بالكتاب كل الاستمتاع فكان نجاحه منقطع النظير حال ظهوره في الاسواق . واذا ما استعرضنا الكتاب بصورة عامة وجدناه ادب محاكاة تهكمية ساخرة لقصص الرحالة التي كانت شائعة يومذاك الى حد اذا ما احتاج سويفت الى ان يصور عاصفة او زوبعة بحرية عمد الى استنساخ ذلك من كتاب خاص بالرحلات البحرية بالحرف الواحد .

و (جلفر) رحالة يقوم بمغامرات ومخاطرات في اربعة اقطار خيالية مختلفة ، ويستغل سويفت كل قطر من هذه الاقطار الاربعة للتهكم من البشرية باشكال متباينة اولها واكثرها انطباعا في الذاكرة هي بلاد « الليليوت » ، حيث سكانها مؤلفون من افراد يبلغ حجم احدهم جزءا من اثنى عشر جزءا من الحجم الاعتيادي للانسان ، فيقع (جلفر) في قبضتهم اسيرا وهو نائم ، ويؤخذ الى الامبراطور فيصف سويفت الامبراطور ورجال حاشيته ساخرا متهكما بصورة غير مباشرة من البلاط الانكليزي المعاصر له وكان يومها جورج الاول على عرش بريطانيا ، ولكن ذكريات الملكة آن التي ناصبته العداء كانت لاتزال عالقة في ذهنه ، وهاهي ذي مثلا فيها الوضع السياسي يومذاك :

« هناك حزبان في هذه المملكة ، يتميز احدهما بالكعوب العالية والاخر بالكعوب الواطئة ، غير ان كعب حذاء صاحب الجلالة اخفض من كعوب حاشيته ولو ان ولي العهد يبدي بعض الميل الى الكعوب العالية ، فاحد كعبيه على الاقل اعلى من الاخر مما يجعله يعرج في مشيته ويتراقص في خطواته » .

ولو رجعنا الى التاريخ الانكليزي لوجدنا ان جورج الاول لم يكن على وفاق مع ولده الوحيد وولي عهده الذي اصبح فيما بعد جورج الثاني ، الى درجة انه اقام بلاطا ثانيا مستقلا عن ابيه لان الاخير منعه من دخول بلاطه ، فاضطر هذا الى ان يقيم بلاطا خاصا به مع زوجته الاميرة كارولاين وحولها جميع الناقمين على جورج الاول ووزرائه .

فبلد الليليوت او الاقزام في رحلات جلفر تصوير ساخر لما كان عليه الامر بين جورج الاول وولي عهده ، ويهرب (جلفر) من بلاد (الليليوت) ليجد نفسه في « بروبد ينكناك »بلد العمالقة فيتقزز جلفر من منظر الجسم البشري وقد تضاعف حجمه ، ويدهش كذلك عندما يرفض ملك العمالقة تعلم سر صناعة البارود منه ، وهو تعليق ساخر من سويفت على استعمال البارود بنطاق واسع في العالم الواقعي ، وتكون الرحلة الثالثة الى الجزيرة الطائرة في (لابوتا)المليئة بالعلماء وهم شاردو الذهن الى حد انهم لايعون او يسمعون شيئا مالم يدع قيم خاص يعرف بصاحب المخفقة ليضربهم بمخفقته ضربا رفيقا على آذانهم فيجتذب انتباههم ، ويفصح (سويفت) في هذه الرحلة عن كراهيته للعلماء فقد كان يعاني من موجدة شخصية ازاء الرياضي الشهير اسحق نيوتن صاحب نظرية الجاذبية ، فيصف (سويفت) بتهكم اكاديمية لمشاريع مضحكة سخيفة من نحو استخلاص اشعة الشمس من مادة الخيار . اما الرحلة الرابعة والاخيرة فاكثرها مرارة ، اذ يزور (جلفر) بلدا حيث مسخت الخيول الذكية الاصيلة الى حيوانات تعرف « بالياهو » ، وهي ضرب من البهائم لها هيئة انسان ركبت فيها جميع الرذائل التي يتصورها العقل (واللفظة من ابتداع سويفت) . ولايزال الكثير من تهكمات سويفت رائجا في ايامنا هذه فالشخصيات العظيمة لاتزال في بعض اقطار عالمنا المعاصر محاطة باصحاب المخفقة او السكرتارين الذين يقررون اي شخص يجب ان يزور العظيم ويقرب منه واي شخص يجب أن يمنع ويبعد

ورغم كراهية سويفت للجنس البشري فقد اوقف ثلثي وارداته لوجوه البر والاحسان ، وكان له بعض الاصدقاء الذين يقول عنهم : (مبدئيا انا اكره ذلك الحيوان الذي يسمونه الانسان رغم انني احب من صميم قلبي جون وبطرس وتوماس ومن اليهم) وكان قبل نشر رحلات جلفر بنحو ثلاثين سنة قد صمم عند بلوغه الشيخوخة على الا يتزوج شابة والا يصطحب الشباب مالم يرغبوا في ذلك من قرارة انفسهم والايغرم بالاطفال او يسمح لهم بالاقتراب منه اطلاقا . ■■

صفاء خلوصي ـ اكسفورد

منزل تحت التفتيش

تأليف الاديب المجرى اندريه الليس

ترجمة : محمود امين مساد

خرج فابيان وزوجته من احد المطاعم في وسط المدينة ، باتجاه منزلها . لقد كانا مسرورين جدا اثناء تناول العشاء هناك ، وتحدثا بغبطة تامة ، حيث قضيا وقتهما في ملاحظة الآخرين من رواد المطعم والتندر على تصرفاتهم ومظهرهم الخارجي .

حول الطاولة المجاورة لطاولتهما ، جلست امرأة ، عصبية المزاج داكنة الشعر ، ورجل اصلع ، ذو وجه يشبه وجه الحصان .

قال فابيان : « انها تضع باروكة على رأسها . وعمرها اربعون عاما على الاقل . »

« انها في الخمسين على الاقل » ، قالت زوجته ، محاولة تفخيم عدد السنوات ، « الا ترى التجاعيد .على جفونها ، انها لا تعتني بها . ويبدو انها تفزع من ذلك . »

في هذه الاثناء كانت تنقض يد المرأة الداكنة الشعر بلهفة على قائمة المأكولات المتوفرة في المطعم ، وتتفحصها بدقة متناهية ، كما لو كانت تريد ان تحفظها غيبا . واخيرا تتفق مع الرجل الذى يقابلها في الجانب الاخر من الطاولة على طلب شوربة هليون .

« هذا سيساعد زوجها على مقاومة النعاس الذى ينتابه . » قالت ذلك السيدة فابيان معلقة ، فيا هي تتابع ملاحظتها لهؤلاء الاثنين .

أحضر النادل للمرأة الداكنة الشعر نبيذا في ابريق من السيراميك ، وللرجل حليبا باردا . وبعد الشوربة ، طلبت المرأة وجبة من الخضار والزبدة . اما الرجل فقد ابدى نوعا من التردد وضعف الارادة ، فيا يريد طلبه ، لكنه تجرأ في النهاية ، وطلب فروجا محشيا ـ على ان يتقاسمه مع زوجته .

وكان المطعم جيدا ، بحيث ان الزبائن نالوا كميات اضافية من الزبدة .

« بماذا ستبدأين ، لو كلفت بكتابة تقرير عن هذين الزوجين ؟ »

سأل فابيان زوجته ..

« انهما سبب نفاذ المواد الغذائية . » قالت الزوجة متكهنة ، « ولقد ذبح لهما خروف سمين في الريف ، ولهذا اصبح لديهما الآن ، كميات كافية من اللحم والدهن والمقانق . وبالرغم من الظروف الصعبة التي تمر بها في هذه الايام ، الا انه باستطاعتهما الحصول على الطحين والبازيلا والعدس ، والارز . »

« كما وانه يمكنالعثور عندهما في حجرة المؤونة ، على كميات كافية من السكر . فلديهما مالا يقل عن عشرة كيلو جرامات من السكر الفضي على وجه الخصوص . » قال ذلك فابيان بصورة لاشعورية محاولا من خلاله التركيز على بعض الاشياء .

« سأبلغ المختصين ، بانه يجب تكليف حارس المنزل بمراقبتهما . كما يجب عليه ان يستعلم عن الاشياء التي جلبها لهما ، ومن اين ، ومن يقوم بذلك . »

« هل لهما عمل ؟ »



« لابد ان الرجل تابع لاحدى تجمعات المحامين ، والمرأة تابعة لقسم المحاسبة ، او ما شابه ذلك . ولهذا فان باستطاعتها الاكل في المطاعم ، نظرت السيدة زوجة فابيان الى جارها وذهبت بخيالها بعيدا .

« تبدو حجرة مؤونتها من الداخل ، كما لو كانت معرضا لخيرات احدى بلدان العالم الشهيرة . وعلى كيس الطحين مثلا توجد عبارة : « هكذا يعيش المنتفعون »

« تجار السوق السوداء ، هذا تعبير اشد وقعا » . قال ذلك فابيان ، محاولا تصحيح الكلمات التي تقترحها للتقرير .

وطلبت هي الاخرى فروجا محشيا . وبعد وهلة اعادت النظر حولها .

« وماذا عن المسيح ، ذي الشعر الاحمر هناك ، وبجانبه الزوجة البدينة ذات الفستان الطحلبي الاخضر .. هل تراها ؟ بجانب الطاولة الرابعة .. »

وامعن الزوج نظره بالرجل ذي الشعر الأحمر وقال : « هذا الرجل يمكن تحمله .. »

« لكن من اى جانب ؟ » سألته زوجته .

« عند تفحصه عن قرب ، سيتجلى الامر حالا .. »

لم ينج احد من رواد الفندق من مثل هذه العملية .

« والفتاة الشقراء والشاب .. هناك في الجهة اليمنى .. انها شاحبة . »

واومأت السيدة زوجة فابيان بالايجاب .

« ستذهب هذه الفتاة للاسقاط غدا .. انها يشعران بفزع شديد ، ويخشيان من ان احدا سيبلغ عنهما . »

وفي طريق العودة الى المنزل ، كان الزوجان متأبطين ذراعي بعضهما . لقد احتسيا نبيذا هما الاخران ، وعرجا على بعض الشوارع المظلمه في وسط المدينة . واحيانا كانا يقفان امام احد المتاجر ، يتأملان من خلف الزجاج البضائع ، التي تصعب رؤيتها بسبب الظلمة . كانت الشوارع هادئة . ولقد قضى الزوجان أمسية ممتعة . واستمرا في السير ، ثم توقفا قليلا وبكلمات قليلة تبادلا الحديث اثناء السير بضع مرات . « المسيح الذي يمكن تحمله » ، « الذاكنة الشعر ذات الجفون المجعدة » ، « هكذا يعيش تجار السوق السوداء » ، هل لا حظت كيف ان الفتاة الشاحبة اللون وصديقها دفعا حسابهما بسرعة ، كما لو انهما اراد الفرار ؟ »

وتلذذ الزوجان ، باستعادة تلك الذكريات الطازجة .

« عملي سيبدأ غدا صباحا على (الكاونتر) . ساعود الى العمل مرة اخرى غدا صباحا . ان هذا يزعجني منذ هذه اللحظة : هكذا قالت الزوجة بمرارة . وهذا يعني بالنسبة لها انها ستجلس ، كمساعدة في قسم الاشعة ، وستستلم اوراق تحويل المرضى ، لتنجزها . وكل هذا يزعجها ، خاصة وانها ستتعامل مع اولئك المرضى ، الذين لا تنبعث منهم الروائح الطيبة .

ـ لقد ادركا الان الشارع الذي يسكنا فيه . ومن الجانب الاخر للشارع القيا نظرة على البيت ذي الطوابق الاربعة . وكان هذا البيت عبارة عن كتلة معتمة هو الاخر . ولا يشذ فيه عن هذه القاعدة ، سوى بعض النوافذ التي تجازف من هنا وهناك ، وتخرج الاضواء البيضاء والصفراء الخافتة .

وفجأة ارتد السيد فابيان الى الخلف . وكانت حركته عنيفة ، حتى ان زوجته اوشكت على فقدان توازنها والوقوع بين ذراعيه .

« انظري »

ونظرت الزوجة حولها باندهاش . وبحثت بنظرها على الشارع عن الشيء الذي يقصده زوجها .

« هناك اناس في المنزل . » همس الزوج بصوت غدا مبحوحا ، واشار بيده الى اعلى ونظرت الزوجة الى الطابق الرابع ، فشاهدت هي الاخرى الان خطوط الضوء الفاضحة ، والمنبعثة من تحت الستائر المسدلة خلف الشباك . لقد بانت تلك الخيوط الضوئية ، وكأنها مرسومة على المسطرة .

« النور مشتعل .. » تمتمت الزوجة .

« في غرفتي »

« ربما نسيته مشتعلا »

« انا متأكدة من انني اطفأته »

وراقبا خطوط الضوء الثابتة .

« ربما يكون احد اللصوص ! » سألت الزوجة .

لا يمكن ان تتصوري ، ان اللص سيشعل النور ، وتحت الاضاءة التامة يقوم بنهب متاعنا »

« من سيكون هذا إذا ؟ »

«لست اعلم »

وينتاب الزوجة فزع شديد ، وتسري الرجفة في جسدها كله ..

« ربما تركناه مشتعلا فعلا .. »

« انا لم اتركه مشتعلا .. »

« لكنه الآن مشتعل .. »

« اري ذلك .. انا لست اعمى ! »

« من ياترى يكون في الغرفة ؟ »

« لا اعلم . »

وضيق الخوف الخناق على رقبة الزوج ايضا . وفجأة قال لزوجته « تعالي ! » واخذها من ذراعها . وبخطى سريعة فر وإياها من الشارع .

وعندما عادا بعد ساعة ونصف ، هطلت على المدينة امطار صيفية خفيفة . وطاردتهم هذه الامطار باتجاه المنزل . لقد كانا مبتلين ، منهكي القوى ، منفوشي الشعر ، كما لو انهما نجيا من مطاردة ساخنة .

ووقفا من جديد على الجهة الاخرى من الشارع ، ونظرا الى اعلى ، فوجدا ان خيوط الضوء التي كانت تنبعث من تحت الستائر قد تلاشت . ■■

عمان ـ محمود امين مساد .

من مكتبة العربي

بحثا عن فاعلية الإنسان

تأليف : دونالدو . ماكنون
تقديم : الدكتور عبد الله محمود سليمان

كيف يتقدم المجتمع دون أن ينمو الانسان فيه ؟
سؤال لو طرحناه ، واجتهدنا في الاجابة عليه ، لتغير الكثير من ممارساتنا ، ولتصرفنا في الحياة - كأفراد ومجتمعات - بشكل مختلف .

والكتاب الذي بين ايدينا نموذج للبحوث التي اهتمت بقضية الانسان . هو كتاب يلخص قصة البحث عن فاعلية الانسان ، كتبه واحد من المبرزين في دراسة الانسان هو الاستاذ دونالد . ماكنون ، الاستاذ بجامعة كاليفورنيا ـ بركلي .

واهمية هذا الكتاب تأتي من ثلاثة عوامل :

اولا :

وهو يوضح قصة البحث عن الفاعلية الانسانية ، وما هي العوامل التي ادت الى الاهتمام بها ، وشجعت على دراستها .

ثانيا :

يلخص جهود المؤلف وزملائه في ما يزيد على نصف قرن ، منذ ان كان المؤلف تلميذا في جامعة هارفارد ، ثم مجندا بالجيش الامريكي تحت قيادة استاذه هنري موري (وهو علم من اعلام علم النفس الحديث ومن اصحاب النظريات فيه) ، واخيرا باحثا واستاذا ومؤسسا لمعهد تقدير وبحوث الشخصية في جامعة كاليفورنيا ـ بركلي .

ثالثا :

يعد الكتاب للمتخصصين والعلماء نموذجا لدراسة الانسان ، وهو يزخر بالدروس الكثيرة التي لو انصت اليها الباحث ، لاهتدى الى الطريق المفيدة ، والاساليب المبتكرة في فهم الانسان .

يقدم ماكنون كتابه قائلا : « حينما اعود الى التفكير في عملي كأخصائي نفسي مهني ، والذي استغرق اكثر من خمسين عاما ، أتحقق من ان الموضوع الرئيسي الذي اثار اهتمامي ووجه عملي كان البحث عن الفاعلية الانسانية » .

لقد اسعد ماكنون الحظ فاصبح تلميذا ثم زميلا لهنري موري لمدة خمس سنوات في جامعة هارفارد . وقد كان هنري موري اكثر من اي عالم آخر هو الذي ادخل دراسة الشخصية الانسانية في علم النفس الاكاديمي ، وبرهن لتلاميذه ، وغيرهم من الدارسين ، على ان ظاهرة معقدة كشخصية الانسان ، يمكن ان تدرس في المعمل او العيادة .

علم النفس والحرب الثانية

يتندر علماء النفس فيقولون : كان من فوائد الحرب العالمية الثانية انها س عدت على نمو علم النفس . وهل للحرب فوائد ؟ ان الحرب تمثل قمة المأساة في الحياة الانسانية ، هدفها التدمير وسلب حرية الانسان . وكان لابد للانسان ان يهزم الحرب . ولكي يهزمها كان لابد له ان يتسلح بمهارات فائقة ، وخصائص خارقة في شخصيته وذكائه . وهكذا انهيء في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الامريكية مكتب الخدمات الاستراتيجية اثناء الحرب العالمية الثانية . وهنا اسعد الحظ ماكنون فعمل مع استاذه هنري موري مرة اخرى . كان موري يعدل اساليب دراسة الشخصية التي توصل اليها في جامعة هارفارد من اجل هدف عملي هو تقويم خصائص واستعدادات الافراد الذين يوفدون الى الخارج لكي يعملوا في مهام غير عادية في الحرب ، مثل التجسس ومقاومة التجسس وقيادة مجموعات المقاومة .

وبعد ان عمل ماكنون في مكتب الخدمات الاستراتيجية ، ورأى ما يمكن ان تحققه اساليب قياس الشخصية في اختيار الافراد لمهام غير عادية وفي البحث العلمي لفهم الافراد وخصائصهم ، كان امله ان يستمر بعد الحرب استخدام وتطوير اساليب تقدير الشخصية في دراسة الافراد الذين يعملون بفاعلية كبيرة . وبالتعاون مع آخرين ، وبتشجيع كثيرين ، ، اسس ماكنون في عام ١٩٤٩ « معهد تقدير وبحوث الشخصية » . وقد تم تأسيس هذا المعهد والاتفاق عليه بواسطة منحة سخية من مؤسسة روكفلر (لاحظ كيف يشجع الاساتذة الكبار تلاميذهم وزملاءهم على الانجاز ، ولاحظ ايضا ، كيف تنفق المؤسسات العامة على البحث العلمي) .

كان موضوع بحوث المعهد تطوير اساليب تق ير الشخصية واستخدامها لالقاء الضوء على سؤالين ، دام تجاهلها طويلا ، وهما :

١ ـ ما هي خصائص الافراد الذين يتميزون بالفاعلية العالية في حياتهم الشخصية وحياتهم المهنية ؟

٢ ـ كيف يمكن « انتاج » هؤلاء الافراد الذين يتميزون بفاعلية عالية في المجتمع ؟

ومنذ الايام الاولى ، تركز اهتمام الباحثين على ما تصوروا انه يمكن ان يحقق نتائج جيدة في فهم الفاعلية الانسانية ، وهو مدى ما يتمتع به الافراد الذين سيقوم

الباحثون بدراستهم من اصالة وشمولة ومعقولية . كان هؤلاء الافراد هم طلاب الدكتوراه ، ودارسو الطب ، والاخصائيون الاجتماعيون ، والاطباء العقليون ، والاخصائيون النفسيون ، وضباط الجيش ، وغيرهم . وقد توصل الباحثون الى ان ما اسموه بالاصالة هو : الابتكار . وقد اتجهت جهود الباحثين منذ عام ١٩٥٦ الى دراسة الافراد المبتكرين . ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ١٩٧١ ساعدت منح مؤسسة كارنيجي السخية على دراسة الابتكار والافراد المبتكرين .

كان كل باحث في المعهد يقوم بدراسة مجموعة او اكثر من الافراد الذين يتطلب عملهم قدرا من الابتكار . درس فرانك بارون الطلاب والكتاب المحترفين ، ودرس هاريسون جوخ طلاب الهندسة والعلماء الذين يعملون بالبحث في الصناعة ، ودرست رافينا هيلسون طالبات الجامعة والنساء المتخصصات في الرياضيات ، كما اشتركت مع ريتشارد كريتشف في دراسة علماء الرياضيات ذكورا واناثا . ودرس ماكنون مؤلف الكتاب مع ولاس هول المهندسين المعماريين وطلاب الهندسة المعمارية والمخترعين .

وقد جاء الكتاب خلاصة لبحوث المؤلف وزملائه على مدى خمسين عاما ، ويقع في ستة عشر فصلا .

دراسة الانسان الفعال

علم النفس علم حديث ، هو اصغر ابناء الفلسفة ام العلوم ، وقد « انفطم » عنها ولا أقول انفصل ، منذ عهد قريب ، اذ اكمل في سنة ١٩٧٩ ، مائة عام من عمره المديد (يحدد مولد علم النفس العلمي بعام ١٨٧٩وهو العام الذي افتتح فيه ولهم فنندت اول معمل لعلم النفس في مدينة ليبزج وتقع الآن في المانيا الشرقية) .

لم يركز علم النف في بداية عهده في مطلع هذا القرن على دراسة الانسان الفعال ، وانما اهتم بدراسة الانسان المضطرب والمنحرف ، كما اهتم علماء النفس الاكاديميون بدراسة مشكلات بسيطة مثل استجابات الانسان الحسية والحركية والادراكية .

ويعود الفضل الى مكتب الخدمات الاستراتيجية ، اثناء الحرب العالمية الثانية ، فقد ادى تعاون فريق من المختصين في علم النفس الى اعداد برنامج يهدف الى اختيار وتدريب عدد كبير من الافراد لكي يعملوا في مهام غير عادية مثل الجاسوسية وقيادة المقاومة خلف خطوط العدو ، وخلق دعاية تهدف الى تحطيم الروح المعنوية للعدو ، وهكذا . فقد رأى الباحثون انه لكي يتم الفرد اداء هذه المهمات بنجاح ، يجب ان تكون لديه خصائص وقدرات غير عادية اذ سرعان ما سيكون هؤلاء الافراد بمفردهم في أرض غريبة ، يتحدثون لغة غريبة ويواجهون مواقف غريبة وصعبة . وقد اتفق على انه من الخصائص الهامة لمثل هذه الاعمال تمتع الفرد بدرجة غير عادية من المرونة ، والرغبة في تحمل المسئولية في اعمال غير عادية ، والاخلاص للهدف ، كما كان للاستقلال في الحكم اهمية خاصة بين هذه الخصائص .

كان العاملون بمكتب الخدمات الاستراتيجية يعتقدون ان الفاعلية الانسانية ذات ابعاد معقدة . وبالتالي لم يكن امامهم مقياس واحد لتقديرها . كما كانوا يعتقدون انها يجب ان تقاس وتلاحظ في المواقف الاجتماعية ، ولهذا السبب كان الافراد موضع الدراسة يستقدمون الى المركز الذي يقع في المكتب ليمكثوا عدة أيام . وكان هذا المركز يقع في منطقة ريفية خارج واشنطن . وهناك كان المتخصصون يقومون بدراساتهم باستخدام عدة وسائل ابتداء من تعريض الافراد موضع الدراسة لمواقف حقيقية الى اشراكهم في تجارب لحل المشكلات . وهكذا كانت تقدر سمات شخصيات هؤلاء الافراد ، وميولهم واتجاهاتهم وقيمهم ، كما كان يستقصي تاريخ حياتهم .

وكانت شخصيات الافراد الحقيقية تحجب عن بعضهم البعض وعن الباحثين . فقبل ان يأتي الفرد الى المركز كان ينزع كل الملابس التي تمكن من الكشف عن شخصيته ورتبته ، وكان يطلب منه ان يختار اسما وهميا وان يبتكر قصة خيالية عن حياته يحجب بها ذاتيته الحقيقية ، ويحاول ان يكون متسقا بقدر الامكان . وهكذا نجد ان الفرد هنا تنزع عنه ذاته وشخصيته (التي اصبحت غير معروفة للاخرين) بما فيها من الاساليب المعتادة للسلوك ، وما يرتبط بها من مركز واتصالات وعلاقات اجتماعية تمنح الفرد التأييد والمؤازرة ، وبذلك يجد الفرد نفسه منذ البداية في موقف يجب ان يظهر فيه كل امكانياته وقدراته ، ويحتم عليه ان يتصرف بأكبر قدر من الفاعلية .

دراسة الشخصية

كان الدرس الهام الذي تعلمه ماكتون من عمله في مكتب الخدمات الاستراتيجية ، هو ان الطريق الوحيد الى فهم الشخصية الانسانية هو دراستها ككل متكامل ، ومن ثم كان الفرد يدرس من عدة زوايا بواسطة ادوات بحث عديدة تهدف الى الكشف عن الاتجاهات الاساسية في الشخصية كما كان يشارك في هذه الدراسة فريق من الباحثين في رسم الخطط وتحليل النتائج .

كان برنامج مكتب الخدمات الاستراتيجية يمثل اول برنامج يدرس فيه عدد كبير من الافراد المتميزين بالفاعلية العالية ، ويقوم بدراستهم اخصائيون في علم النفس والطب العقلي . ولقد دهش الباحثون حين اكتشفوا ان حياة هؤلاء الافراد تتميز بكثير من الاحباطات والحرمان والخبرات المؤلمة . وطبقا لما كان سائدا في نظريات الشخصية في ذلك الوقت كان يجب ان يكون هؤلاء الافراد مضطربين عقليا ، ولكنهم لم يكونوا كذلك .

لقد ادرك الباحثون في هذا البرنامج قلة ما يعرف عن الشخصية الانسانية والحاجة الملحة الى دراسات في هذا الميدان . ولكي يشبعوا هذه الحاجة أنشئوا في عام ١٩٤٩ معهد تقدير وبحوث الشخصية في جامعة كاليفورنيا ـ بركلي كما سبق ان اشرت . وكان الهدف العاجل لهذا المعهد هو تطوير اساليب تقدير الشخصية لاستخدامها في دراسة مشكلات نمو الشخصية ودينامياتها (العوامل الدافعية والوجدانية التي تتكون منها الشخصية) ، كما كان التركيز في عمل هذا المعهد على دراسة خصائص الافراد الذين يعملون بفاعلية ، والعوامل التي اثرت في حياتهم وساهمت في نمو فاعليتهم .

وكان منهج التقدير يتضمن دراسة متعمقة وشاملة للافراد الذين يقرر الخبراء على اسس متفق عليها انهم يتميزون بالاصالة والمعقولية والابتكار . وكان عدد الافراد الذين يدرسون عادة عشرة افراد يأتون دفعة واحدة ليمضوا عطلة نهاية الاسبوع في مركز التقدير ، وتقوم بدراستهم مجموعة من الباحثين تماثلهم في العدد تقريبا لمدة ثلاثة ايام . وفي خلال هذه الفترة تجري عليهم مئات الفحوص والمقاييس والتقديرات ، كما كان الباحثون يقومون بتسجيل انطباعاتهم عنهم بشكل كمي .

أربع مراحل

يرى المؤلف ان هناك اربع مراحل لعملية الابتكار هي الاعداد والدراسة ، والحضانة والاشراق والتحقيق ، والشخص المبتكر هو الذي يشعر بأن هناك شيئا ما خاطئا او غائبا او غامضا . انه هو الذي يرى مشكلات لا يراها غيره ، ولهذا السبب يصبح شخصا غير محبوب .

على ان عملية الابتكار معقدة ، تشتمل على عمليات الدافعية والوجدانية التي تكون متضمنة في الادراك والتخيل والتقدير والتخطيط ، وهناك عدة عوامل تؤدي الى كف الابتكار واعاقته ، ولعل اهمها هو الفشل في رؤية المشكلة حيث توجد . فالانسان الذي يزداد رضاؤه عن نفسه وعن بيئته سوف يعمي عن رؤية نقائصه ونقائص بيئته . كذلك يجب ان تدرك المشكلات بشكل ملائم . وحيث انه من الصعب عادة ادراك المشكلات بوضوح او تعريفها بدقة ، فان من الشروط الهامة في عملية الابتكار ان يكون الشخص المبتكر ذا مرونة معرفية في تنظيم واعادة تشكيل المشكلة . ومن العوامل التي تعيق حل المشكلات حلا ابتكاريا امكانية الحصول على المعلومات والمعارف المرتبطة بالمشكلة وكميتها . فكثرة المعلومات ، والخبرة ، والتدريب العالي ، والتحليل الدقيق ، برغم فوائدها ، الا انها قد تعوق الحل الابتكاري للمشكلات . ومما يثير الاهتمام ان كثيرا من الاختراعات والابتكارات توصل اليها أفراد ليسوا مختصين في مجال اختراعاتهم . فالفرد المبتكر هو الذي ينزع في محاولاته العقلية الى التوفيق بين المعرفة المتخصصة والتربص الطفولي للادراك البدائي والطازج . وبالمثل ، فان ما يحتاج اليه الفرد لكي يصل الى اعادة تنظيم ابتكاري للمشكلات هو « نظرة تلقائية حرة للموقف كله ، وفهم ساذج وطفولي لما هو موجود » . ذلك ان مثل هذا الاتجاه هو الذي يشجع استخدام الخيال في صوره المختلفة .

الانتاج الابتكاري

اي شيء يصنعه الانسان او يخبره ، يمكن ان يكون شيئا مبتكرا ، سواء كان فكرة او عملا فنيا او نظرية علمية ، او تصميم مبني . لكن هناك شروطا يجب ان تتوافر في الشيء قبل ان يعتبر مبتكرا : واول هذه الشروط هو الجدة والاصالة

فالشيء المبتكر ، يجب ان يكون جديدا . لكن ما هو معيار الجدة ؟ ان الطفل يفكر كل يوم في اشياء تعتبر جديدة بالنسبة له . لكن اذا كانت الاشياء التي يفكر فيها شائعة بين غيره من الاطفال فهي لا تعتبر جديدة . فلكي يعتبر الشيء جديدا او مبتكرا ، يجب ان يكون جديدا بالنسبة للجماعة والحضارة . وهكذا تكون الندرة الاحصائية هي معيار الجدة . ثانيا : يجب ان يكون الشيء ملائما للواقع ، اي ان يشبع حاجة ما ، او يحل مشكلة ، او يحقق هدفا . ثالثا : يجب ان يطور التنظيم الجديد للانتاج الابتكاري ، وينمي ، ويوصل الى الجماعة . وهناك شرطان ، لا يعتبران ضروريين تماما ، ولكن بقدر ما يتوفران ، بقدر ما يكون العمل ابتكاريا ، رابعا : ان يكون الشيء أنيقا ، جميلا ، ويؤدي الى السرور ، خامسا : وهذا هو اعلى شروط الابتكار ، ونادرا ما يتحقق ، لانه يتطلب ان يخلق العمل الابتكاري ظروفا جديدة للوجود الانساني ، متجاوزا ومعدلا خبرة الانسان ، وذلك بتقديم مبادىء جديدة تتحدى ما هو معروف ، وتخلق للانسان نظرة جديدة للعالم . ويضع ماكنون في هذا المستوى من الابتكار نظريات المركز الشمسي لكوبرنيقوس ، ونظرية التطور لداروين ، ونظرية التحليل النفسي لفرويد .

يزخر الكتاب بخصائص الشخص المبتكر ، كما كشفت عنها الدراسات المختلفة ، والمنهج الذي تبعه الباحثون هو محاولة التعرف على خصائص الافراد الذين انتجوا مبتكرات في مجالات الحياة المختلفة في مقابل الافراد الذين لم يكن لهم انتاج ابتكاري . ويؤكد ماكنون انه بالرغم من ان الافراد المبتكرين يوجدون في مجالات مختلفة فانهم يشتركون في عدة خصائص ، الا ان هناك من الخصائص ما يميز الافراد المبتكرين في مجال واحد .

ما هي الخصائص التي تتميز بها ظروف حياة الافراد المبتكرين ؟ ما هو المناخ الاجتماعي والمناخ الثقافي ومناخ العمل الذي ييسر او يعيق ظهور الافكار والاعمال المبتكرة ؟

عندما نتحدث عن بيئة الابتكار ، فان ذلك يعني اننا لا نعتبر الابتكار سمة ثابتة في الشخصية ، بل ينظر اليه كسلوك ؛ يمكن ان يتغير مع الزمن ، ويمكن ان يدعم او يثبط . لكن السؤال الان هو ما هي بالضبط الظروف التي تشجع على الابتكار ؟ في الاجابة على هذا السؤال يختلف العلماء . وهذا يعني اننا نحتاج الى مزيد من الدراسات للكشف عن جوانب بيئة او بيئات الابتكار . غير ان ماكنون يضع لنا حقا الاطار للاجابة عن هذا السؤال ، اذ ليس هناك بيئة واحدة ، او مجموعة واحدة من الظروف التي تيسر ظهور الابتكار ، بل ان الظروف التي تساعد فردا على الانتاج الابتكاري في موقف معين ، قد لا تساعده لتحقيق هذا الهدف في موقف اخر .

وربما تساعدنا دراسة خصائص المبتكرين وسمات البيئة التي تنمي الابتكار على تصور صحيح للانسان الفعال الذي يستطيع تطوير بيئته ومجتمعه .

خصائص المبتكرين

هل تريد لمجتمعك أن ينمو ؟ اذن ادرس خصائص المبتكرين ، ثم انظر حولك الى الاشخاص المؤثرين في حياتك . هل هم يتمتعون بقدر من هذه الخصائص ؟ اذا كان الجواب بالايجاب ، فثق ان في مجتمعك امكانية النمو اما اذا كانت الاجابة بالسلب ، فيجب ان تسارع الى التنبيه ، فاننا يجب ان ننمي في شخصيات قادة الغد خصائص الفرد المبتكر ـ بل يجب ان يهتم تنمية هذه الخصائص في شخصية كل انسان .

وقد توصل ماكنون وغيره من الباحثين الى الكشف عن عدد من خصائص الافراد المبتكرين ، كان الافراد كان الافراد الذين درسهم الباحثون مبتكرين فعلا . وكانت المجموعة التي درسها ماكنون هي مجموعة المهندسين المعماريين . والهندسة المعمارية ميدان يتطلب من المتخصص ان يكون فنانا وعالما . (في الفن يعبر المبتكر عن شيء من ذاته : ميوله ووجداناته وافكاره ورؤيته للعالم . اما في العلم ، فان المبتكر يعمل كوسيط لاشباع حاجات وتحقيق اهداف محددة للمجتمع . وبينما يعمل الفنان على تحقيق المتعة ، فان العالم يعمل على تحقيق الفائدة والدقه) . ولقد اتفق في اختيار هذه

المجموعة من المهندسين المعماريين المبتكرين عدد من المختصين في مجال الهندسة المعمارية ، وكان الاساس في الحكم هو الانتاج الفعلي لهؤلاء المهندسين . كذلك اختار ماكنون مجموعتين من المهندسين المعماريين اقل ابتكارا .

لقد وجد ماكنون ان المهندسين المعماريين المبتكرين يتصفون بالخصائص الآتية :

× كان المهندسون المعماريون المبتكرون واثقين من انفسهم . وهذه الثقة في انفسهم كانت تسمح لهم بان يتكلموا بصراحة عن انفسهم ، ولذلك كانوا ينتقدون انفسهم .

× في حين وصف المهندسون المبتكرون انفسهم بأنهم مخترعون ، مصممون في سلوكهم ، مستقلون في احكامهم ، يتصرفون بفردية وحماس ، ومجتهدون ، وصف المهندسون العاديون انفسهم بأنهم يتصرفون بمسئولية واخلاص ، واتساق ، ويمكن الاعتماد عليهم ، وان تفكيرهم واضح ، ويتصفون بالتحمل والفهم . وهنا نلاحظ انه في حين يبرز المبتكرون خصائصهم الفردية ، نجد ان المهندسين العاديين يعجبون بما لديهم من فضائل وشخصية حسنة ، وبعقلانيتهم وتعاطفهم واهتمامهم بالاخرين .

× يتمنى المهندسون المبتكرون ان يكونوا اكثر حساسية ، بينما يتمنى المهندسون العاديون ان يكونوا اكثر اصالة ، وفي نفس الوقت اكثر تحكما في الذات .

× فيما يتصل بالصحة النفسية ، حصل المهندسون المبتكرون على درجات مرتفعة في مقياس مينسوتا للشخصية المتعددة الاوجه ، مما يوحي بوجود اعراض للمرض النفسي .

ولكن الامر ابعد من ذلك . اذ تكشف هذه النتيجة عن ذكاء هؤلاء الافراد وتعقد وثراء شخصياتهم ، وعدم وجود الرغبة في الدفاع عن الذات ، والصراحة في وصف الذات ، وبمعنى آخر الانفتاح على الخبرة ، وعلى خبرة الانسان الداخلية . وبالرغم من اننا قد نجد ما يشير الى بعض الاضطرابات في الشخصية لدى المهندسين المبتكرين ، الا اننا نجد لديهم ايضا وسائل ملائمة للتحكم وضبط السلوك والمشاعر .

عقيد في حد ذاته ، وانما لانهم يفضلون ثراء التعقيد على ضحالة البساطة . ويبدو انهم يستجيبون للتحدي الذي يفرضه ما في الاضطراب من تعدد ، مما يثير فيهم حاجة قوية توازرها قدرة عالية على تحقيق تنظيم صعب لا يسهل الوصول اليه للاشياء الفنية .

× كانت القيمة النظرية هي اعلى القيم عند العلماء المبتكرين تليها القيمة الجمالية . وبالنسبة للمهندسين المعماريين المبتكرين كانت القيمة الجمالية هي اعلى القيم تليها القيمة النظرية بنفس الدرجة تقريبا . اما بالنسبة لعلماء الرياضيات المبتكرين ، فقد كانت القيمة النظرية والقيمة الجمالية مرتفعتين لديهم . والسؤال الآن هو كيف استطاع المبتكرون ان يجمعوا بين قيمتين متعارضتين كالقيمة النظرية بمكوناتها المعرفية والقيمة الجمالية باهتماماتها الوجدانية .

يجيب ماكنون ان الشخص المبتكر لديه القدرة على احتمال التوتر الذي يحدث نتيجة تعارض نوعين من القيم ، وهو يحاول في نضاله الابتكاري ان يوفق بينهما . فبالنسبة للشخص المبتكر لا يكفي ان تحل المشكلة ، وانما يجب ان يكون الحل مبتكرا ، فالمبتكر يبحث دائما عن الحق والجمال .

يبقى بعد ذلك سؤال هام هو : ما هو مغزى هذه الخصائص بالنسبة لتربية الافراد المبتكرين ؟ وقبل ان نجيب على هذا السؤال ، يجب ان نتساءل : هل خصائص الافراد المبتكرين التي تحدثنا عنها ، تشبه خصائصهم عندما كانوا صغارا ، وقبل ان تتحقق امكانياتهم الابتكارية ؟ لقد كشفت الدراسات التي اجريت عن ان خصائص التلاميذ ذوي الامكانيات الابتكارية تشبه خصائص الراشدين المبتكرين الذين تحققت انجازاتهم ، ولكن ليس في وضوح خصائص الراشدين .

وظروف البيئة

اذا اردنا ان نربي الامكانيات الابتكارية في ابنائنا وبناتنا ، فلابد من ان ندرس البيئة التي نشأ فيها الافراد الذين حققوا انجازات ابتكارية . اذ اننا اذا ما استطعنا ان نحدد هذه الخصائص ، ربما تمكنا ان نوفر مثل هذه البيئات للافراد الذين لديهم امكانية الابتكار . وبذلك نشجعهم على تحقيق امكانياتهم . لكن هناك تحفظان .

أ ـ ان تحديد هذه الخصائص غالبا ما يتم عن طريق سؤال الافراد المبتكرين ، وهذا يعني ان هذا التحديد يخضع لتصورات هؤلاء الافراد ، والتي ربما تكون تصورات متحيزة وغير دقيقة .

ب ـ ان هذه التصورات حتى ولو كانت صحيحة ، فلن نستطيع ان نتأكد من ان الظروف السائدة في المنزل والمدرسة والمجتمع ونوع العلاقات بين التلميذ والمدرس ، ومظاهر عملية التعليم التي يبدو انها اسهمت في تنمية الابتكار في جيل سابق ، ستعمل لو وجدتاالان على تشجيع الابتكار في هذا العالم المختلف تماما عن عالم الجيل السابق .

وهذا يعني اننا يجب ان نستمر في دراسة نماذج مختلفة من بيئات المبتكرين ، ونحاول تحديد الظروف التي تعمل على تيسير الانتاج الابتكاري وتشجيع المبتكرين .

ولننظر الان في بعض الخصائص التي اكتشفها ماكنون في بيئة المهندسين المعماريين المبتكرين .

× وجد ماكنون في حياة هؤلاء الافراد من الظروف التي ساهمت في سنينهم المبكرة في اتاحة الفرص ، كما حتمت تنمية احساس بالاستقلال الذاتي ، والالتزام المتحمس لمهنتهم .

× كان والدا مهندس من المهندسين المبتكرين يتميزان باحترام عادي للطفل ، وثقة في قيامه بالتصرف الملائم . لهذا لم يترددا في اعطاء الطفل الحرية لكي يستكشف العالم من حوله ، ويتخذ القرارات الملائمة بنفسه ، حتى في الطفولة المبكرة . وكان الوالدان يتوقعان ان يتصرف الطفل باستقلال ومعقولية . ويبدو ان هذا قد ساهم كثيرا في احساس الطفل بالاستقلال الشخصي ونموه الى درجة كبيرة .

× لم يكن هناك ارتباط وثيق بين الطفل واحد والديه (عادة ما يكون الوالد الاب) او كليهما . كذلك لم تكن هناك علاقة وجدانية قوية ايجابية او سلبية بين الطفل والوالدين ، كما لم يكن هناك نوع العلاقة التي تؤدي الى الاعتماد المتزايد ، او الرفض الحاد . وهكذا نرى ان المسافة الاجتماعية بين الوالدين والطفل ، كان لها تأثير تحرري ، كما ان افتقار العلاقة الى القرب الوجداني جنب الطفل الاستغلال الوجداني الذي نجده عند والدي كل طفل من الاطفال الذين يأتون الى العيادة السيكولوجية .

× كانت علاقة المهندسين المعماريين بالوالدين يفتقر الى وضوح في التوحد (اتخاذ الوالد او الوالدة نموذجا وتقليد نمط سلوك احدهمابشكل لاشعوري) ، فهم كانوا يميلون الى التوحد مع كل من الوالدين ، او عدم التوحد مع اي منهما على الاطلاق . ولم يكن ذلك نتيجة حرمان الطفل من النماذج البشرية التي يستطيع ان يتوحد معها ، وانما لان البيئة قدمت له عديدا من النماذج البشرية الفعالة ، بالاضافة الى الاب والام والجد والجدة والاعمام والاخوال (العمات والخالات) الذين احتلوا مراكز هامة في المجتمع .

× وايا كانت طبيعة التفاعل الاجتماعي بين الاب والابن ، فقد مثل الاب دائما نموذجا للسلوك الفعال بشكل واضح وغير عادي . كذلك فان ما يسترعي الانتباه في اسر المهندسين المعماريين المبتكرين هو تكرار وجود الامهات المستقلات اللاتي عشن حياة نشطة ، وكانت لهن ميول وحياة مهنيةخاصة بهن ومستقلة عن ازواجهن .

× كانت هناك معايير واضحة للسلوك في اسر هؤلاء الافراد المبتكرين كما كانت هناك افكار محددة عما هو صواب وما هو خطأ ، لكن كانت الاسرة تتوقع من الطفل استكشافا نشطا وتبنيا لاطار خاص وشخصي عن السلوك .

× كانت الاسر تتنقل كثيرا ، كما كان الافراد المبتكرون يعطون الحرية لكي يستكشفوا البيئة من حولهم ، وقد ادى هذا الى تعريضهم الى نماذج غنية من البيئات الثقافية والاجتماعية .

× ادى التنقل الكثير للاسرة الى ابتعادهم عن جيرانهم ، كما ان الافراد المبتكرين افادوا بأن اسرهم كانت مختلفة في قيمهم عن هؤلاء الجيران .

× اظهر المهندسون المعماريون ميولا ومهارات في الرسم . كما كانت الميول الفنية متوفرة لدى احد الوالدين على الاقل ، وغالبا ما كان هذا الوالد هو الام التي كانت مثلا تدعم الميول الفنية في المبتكر الصغير .

×× ×× ××

هذه هي قصة البحث عن فاعلية الانسان ، وهي كما ترى قضية بالغة الاهمية للانسان والمجتمع والثقافة . وهذه هي خصائص الافراد الفاعلين والبيئات التي ينشأ فيها الافراد الفعالون ،ان فيها من الكنوز والحكم ، مالو فهمناه لافدنا كثيرا منه في تطوير ذواتنا ومجتمعاتنا .

د . عبد الله سليمان .

نزهة العقل الذكي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لا تشوه صفحة العدد بقطعها منه أما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا الجائزة الثالثة ١٠دنانير و٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد » ٢٧٣ وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول اكتوبر (١٩٨١) .

اثنتان في واحدة

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم واحد من أقدم المؤرخين في الاسلام ، كما ستجد في (٨) رأسيا اسم كاتب وشاعر ومُغَنٍّ عربي قديم .

كلمات أفقية :

(١) من الزهور ـ من الألوان .

(٢) من أعظم علماء الرياضة في القرن الثامن عشر ـ عندهم .

(٣) نصف كلمة (عيون) ـ نصف كلمة (يابس) ـ يسهل ـ طائر .

(٤) من المحسنات البديعية ـ جهاز لقياس الضغط ـ اكتمل .

(٥) ... كأسنان المشط ـ نصف كلمة (نابي) ـ من الحلي .

(٦) نصف كلمة (تسيل) ـ حرف نصف ـ في الفم ـ ثنت .

(٧) على نفس الايقاع ـ بدون ـ وقرت .

(٨) من أقدم المؤرخين في الاسلام .

(٩) أشارك ـ عش ـ بلا أزواج .

(١٠) من الطيور ـ أعمالهم العظيمة ـ اقترب .

(١١) لفظ تعجب ـ انجب ـ تمارس ـ كثير .

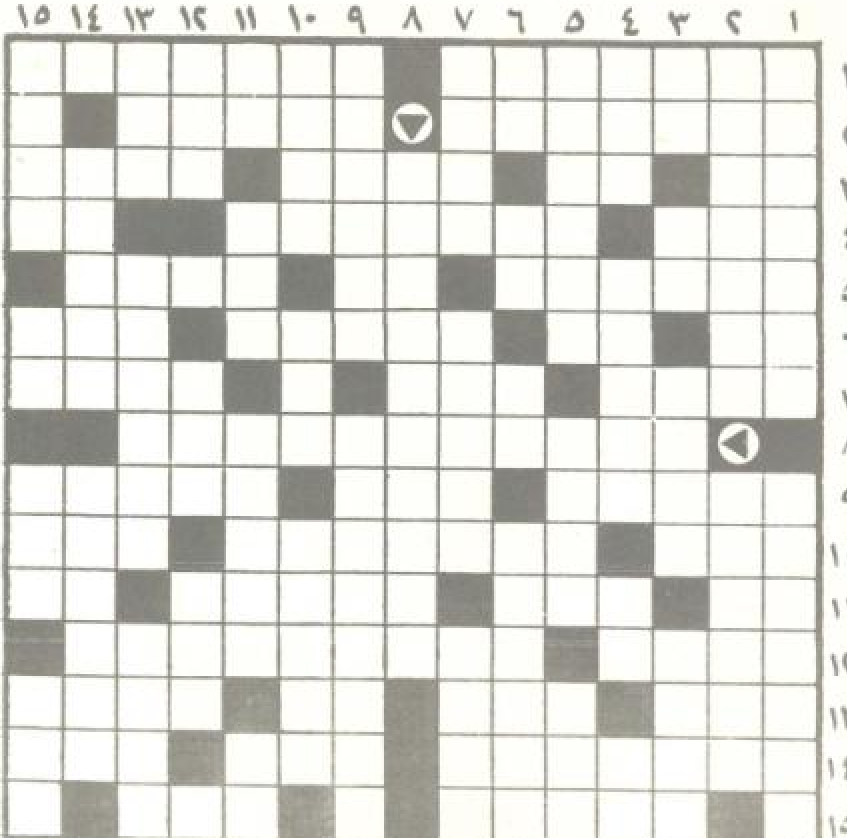
(١٢) نعم ـ من أنواع الفخار الثمين .

(١٣) حساء ـ حلا ـ نصف كلمة (يوسف) ـ فضة .

(١٤) اتباعه ـ أطالت النظر ـ ثقل .

(١٥) يصل الى غايته ـ ترغب .

كوبون مسابقة العدد ٢٧٥



كلمات رأسية :

(١) كاتدرائية انجليزية من العصور الوسطى ـ شاعر عباسي معروف .

(٢) من الأحياء المائية ـ دولة أوربية .

(٣) نصف كلمة (سراج) ـ نصف كلمة (عادى) ـ من الطيور ـ عارض .

(٤) سبيل ـ عائمة ـ نظير ـ حرف جر .

(٥) من الزهور العطرية ـ يلتقى مع الدائرة فى نقطة ـ مر .

(٦) نصف كلمة (عيون) ـ لفظة ألم ـ مناص ـ من الالعاب الرياضية .

(٧) حبيس ـ القمة ـ لاعب .

(٨) كاتب وشاعر ومغن عربى قديم .

(٩) من الطيور ـ شاعر انجليزى من القرن التاسع عشر .

(١٠) استطاعت ـ ضمير ـ من الانبياء .

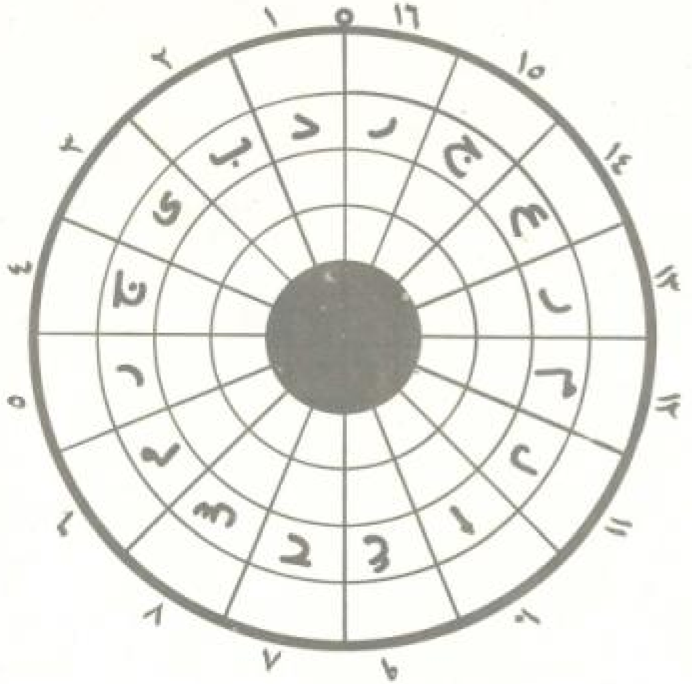
(١١)من الاسماء الحسنى ـ حبل الدابة ـ معجم ـ حرفان متشابهان .

(١٢) مسح ـ من أوجه القمر ـ حروف متشابهة .

(١٣) رجاء ـ من الخيل ـ يمنح .

(١٤) من مصادر الطاقة ـ من العناصر الكيميائية .

(١٥) يحيى ـ حرفان متشابهان ـ حرف أبجدى ـ فى العين .

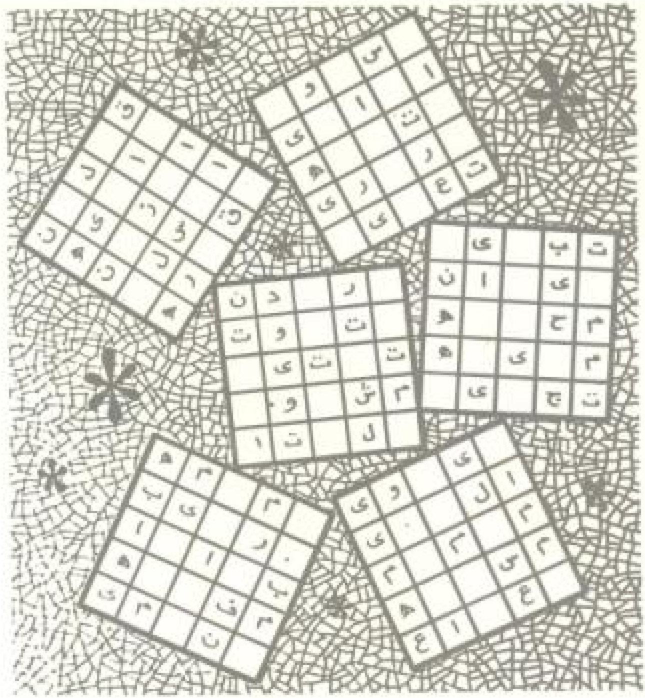


حول الدائرة السوداء :

ضع الكلمات ذات الأحرف الاربعة ، والتى نعطيك معانيها ، فى أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثانى من كل كلمة . ستجد حول الدائر السوداء اسم :

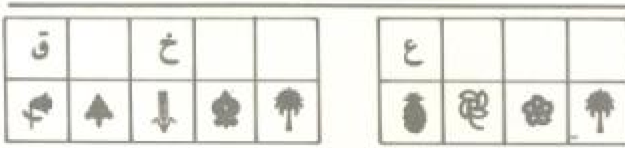
كيميائى الماني بارز ومخترع موقد بنزن

(١) حائط (٢) يظهر (٣) أقول (٤) أنفع (٥) حبور (٦) قاتل (٧) يبذر (٨) تقى (٩) أبرر (١٠) وحدة قياس زمن (١١) من أوجه القمر (١٢) فى القلب (١٣) دانى (١٤) مساعد (١٥) يمرر (١٦)زواج .



العواصم :

أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية ثقيلة ، فى كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات أفقية ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة فى المربعات الستة ، ورتب الحروف الستة لتصنع اسم عاصمة عالمية .





مثل عربى :

أمامك مثل عربى ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل فى موضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل ، اذا عرفت أنه يشير الى :

الوضع الميئوس من علاجه

العواصم :

كتمندو .

حول الدائرة السوداء :

روبيرت فيلهلم بنزن .

مثل عربى :

اتسع الخرق على الراتق .

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

اكتوبر - تشرين اول
١٩٨١ م

دعوة الى الموسيقى

تاليف: المايسترو
يوسف السيسي

الكتاب السادس والاربعون

٢٥٠ فلساً

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

مِنَ المسرح العالمي
سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام في الكويت

أول أكتوبر ١٩٨١

العدد ١٤٥

اللصوص

تأليف: فريدرش شلر

ترجمة وتقديم: د. عبد الرحمن بدوي

تقنيّة متفوقة : أداء أرفع



أجهزة بايونير المتكاملة تأتيك بأداء [illegible] الرائع . [illegible] جميع منجزاتها التقنية .. عبر تصميم نظام كامل .
تصميم بايونير للنظام الكامل يعني أكثر من مجرد جمال شكلي . إنه معادلة تامة عبر النظام المركزي للأجهزة بخواصه وروعة منجزاته .

ومضخم الصوت "A-9" يعني [illegible] TM [illegible] DC [illegible] في مركز القيادة .

والموالف "F-9" يعني تنغيم "PLL" [illegible] FM [illegible] IF [illegible] ٦ محطات FM و ٦ محطات AM [illegible] .

وآلة التسجيل "CT-9R" [illegible] CT-9R [illegible] .

أما "البيك آب PL-L800" فيعني ذراع TM "بولي غرافيت" [illegible] MC خاص للرأس .

نظام بايونير الكامل ، [illegible] "الأداء الأرفع" [illegible] .

أجهزة بايونير معروضة في المحلات التجارية التي تحمل هذا الشعار .

COMPONENTS
PIONEER

PIONEER بايونير

نصائح من أكبر مؤسسة لتصدير اللحوم والمواشي في العالم

تعتبر استراليا في طليعة البلدان المصدرة للحوم والمواشي ، وهي تتعامل في هذا المجال مع مايزيد عن مائة دولة في مختلف أنحاء العالم .. وقد بلغت الصادرات الاسترالية من لحوم الابقار والاغنام والماعز المبردة والمثلجة في العام الماضي نحو مليون طن .



وتتولى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تصدير مثل هذه الكميات الكبيرة من اللحوم والمواشي . وللشركة عدد من المكاتب في الشرق الاوسط ، والاسواق العالمية الكبرى .

وتهتم هذه المكاتب بترويج اللحوم وتقديم الاستشارات والمساعدات المباشرة للمستورد .

كيف تساعد الشركة المستورد

يعمل لدى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي خبراء متخصصون بالتسويق والاقتصاد والتنمية وفن الاعلان بهدف تنشيط التجارة مع استراليا .



فاذا كنت بحاجة الى بعض المعلومات عن توفر اللحوم والمواشي ونوعياتها واجراءات الشحن والشروط الصحية وسواها من المعاملات والاعلان . فما عليك الا أن تتصل بالمدير الاقليمي للشرق الاوسط . السيد فيليب روسال أو المدير الاقليمي للمكتب الاوروبي السيد رالف هود .

الشحن

تقوم الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بدراسة وتحديد كميات وأسعار اللحوم والمواشي المراد شحنها وكذلك وسائل الشحن الممكنة عبر الطرق الدولية .

AUSTRALIAN MEAT & LIVE-STOCK CORPORATION

التأكيد على النوعية

ان الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تستخدم جهازا من الفنيين داخل استراليا وخارجها لمساعدتك في تقديم طلباتك والتأكد من أن المنتجات التي أرسلت لك تطابق المواصفات المطلوبة بما في ذلك ذبح المواشي على الطريقة الاسلامية

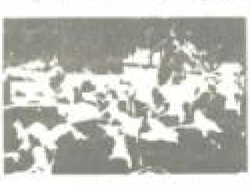
وهناك كتيبات تتضمن معلومات عن كافة اعمال الشركة والاصناف التي تتعامل بها يمكن الحصول عليها من المكاتب الاقليمية للشركة .

أذون التصدير

تطبق الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بعض الشروط المالية والانتاجية في تعاملها مع المصدرين حتى تجنب العملاء، أي اشكالات أو مضايقات هم في غنى عنها .

أين تجد النصيحة

في امكانك الحصول على أي نصيحة او استشارة في هذا المجال عن طريق :



السيد / فيليب روسال
ممثل الشركة الاسترالية للحوم والمواشي
ياتيمن سنتر ٥
ص . ب (٥٦٢٢)
هاتف ٢٤٤٠٠٩
تلكس ٩٤٧٦٠٤٩ AMLC BN
المنامة / دولة البحرين

أو

MR. RALPH HOOD 9 KINGSWAY LONDON, WC. 2 ENGLAND

مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

مدير التحرير
عبد العزيز السيد احمد

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ١٢٥٫٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - بيبليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٤٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١- كتاب **التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .**
٢- كتاب **آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .**
٣- كتاب **حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .**
٤- كتاب **الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .**
٥- **دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .**

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها : -

الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٢٤

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .

أيّ رحّالة دوليّ حقّ يجد في ساعته رولكس ما لا يقدّر بثمن

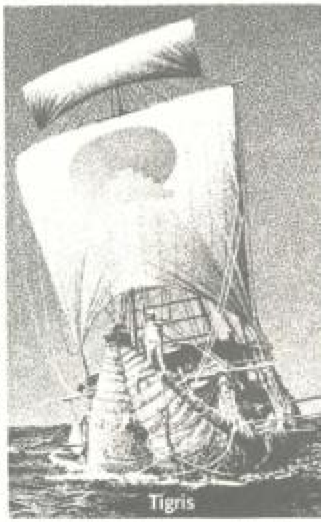
في عام ١٩٢٧ ، رَاح يراود مخيّلة « ثور هيردال » حلم حول ما إذا كانت الحضارات القديمة لكل من المكسيك والبيرو وجزر الباسفيك ومصر ووادي ما بين النهرين تنبع من مصدر واحد . حلم أراد أن يثبت معه ان عبور المحيطات الثلاثة كان ممكنًا قبل إقدام الأوروبيين على تحقيق ذلك بأمد بعيد .

وبعد عشر سنوات ، عام ١٩٤٧ ، أقلع هيردال من ساحل البيرو بطوف من خشب « البلزا » أطلق عليه إسم « كون - تيكي » . مئة يوم ويوم رسا الطوف « كون - تيكي » بعدها على جزر الباسفيك .

وفي عام ١٩٧٠ ، غادرت أفريقيا « رع ٢ » ، سفينة « ثور هيردال » المصنوعة من قصب البردي . وبعد سبعة وخمسين يومًا ، وصلت « رع ٢ » الى « بربدوس » في الجانب الآخر من الأطلنطي .

وفي العراق ، خلال ١٩٧٧ - ٧٨ ، قام « هيردال » ببناء السفينة « تايغرس » ، أي دجلة ، من القصب ، وأبحر فيها مارًا بمحاذاة باكستان وسلطنة عمان حتى مدخل البحر الأحمر حيث حالت الحرب المحلية دون مواصلة الابحار . ورغم ذلك ، أثبتت « تايغرس » انه كان من الممكن ان تتفاعل الحضارات القديمة لكل من سومر ووادي الأندوس ومصر بطريق البحر .

ويقول هيردال ، « المحيطات لم تفصل بين الحضارات القديمة ، بل انها ربطت فيما بينها . »



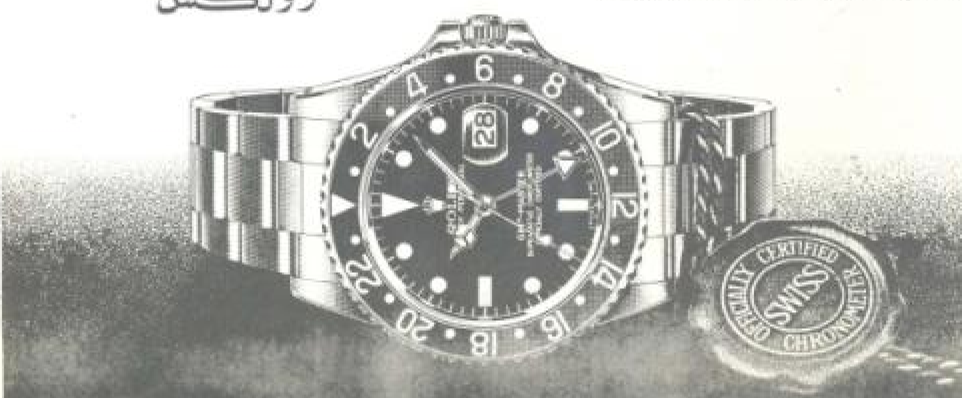
وتستند نجاح حملات « هيردال » الى التخطيط الواضح والدقة التامة في كل شاردة وواردة .

ويضيف هيردال ، « لقد أنزلنا الى البحر نماذج مطابقة تمامًا للسفن الأولى التي بناها البحارة القدماء ، واستخدمنا طرقهم في شد الحبال والأشرعة والصواري وفي التوجيه ، واقتدينا بما كانوا يفعلون ، واخترنا أجهزة الملاحة البدائية التي استعملوها . ولكن ، من أجل تحديد المسار بطريقة علمية دقيقة وبالاتصال اللاسلكي الاضطراري لدى دخولنا الموانئ الحديثة والطرق الملاحية ، كنا بحاجة الى ما كان باستطاعة الانسان القديم الاستغناء عنه : ساعة حديثة بالغة الدقة جديرة بالاعتماد . »

إنه الاطراء في توجيه مجاملة كهذه الينا ، خاصة وقد جاءت على لسان أشهر رحالة دولي في العالم .

الساعات التي كان يلبسها « ثور هيردال » وبحارته هي من صنع رولكس .

ROLEX
رولكس



رولكس « جي . إم . تي . ماستر » متوفرة بالذهب عيار ١٨ قيراطا ، أو فولاذ لا يصدأ ، مع سوار متلائم .

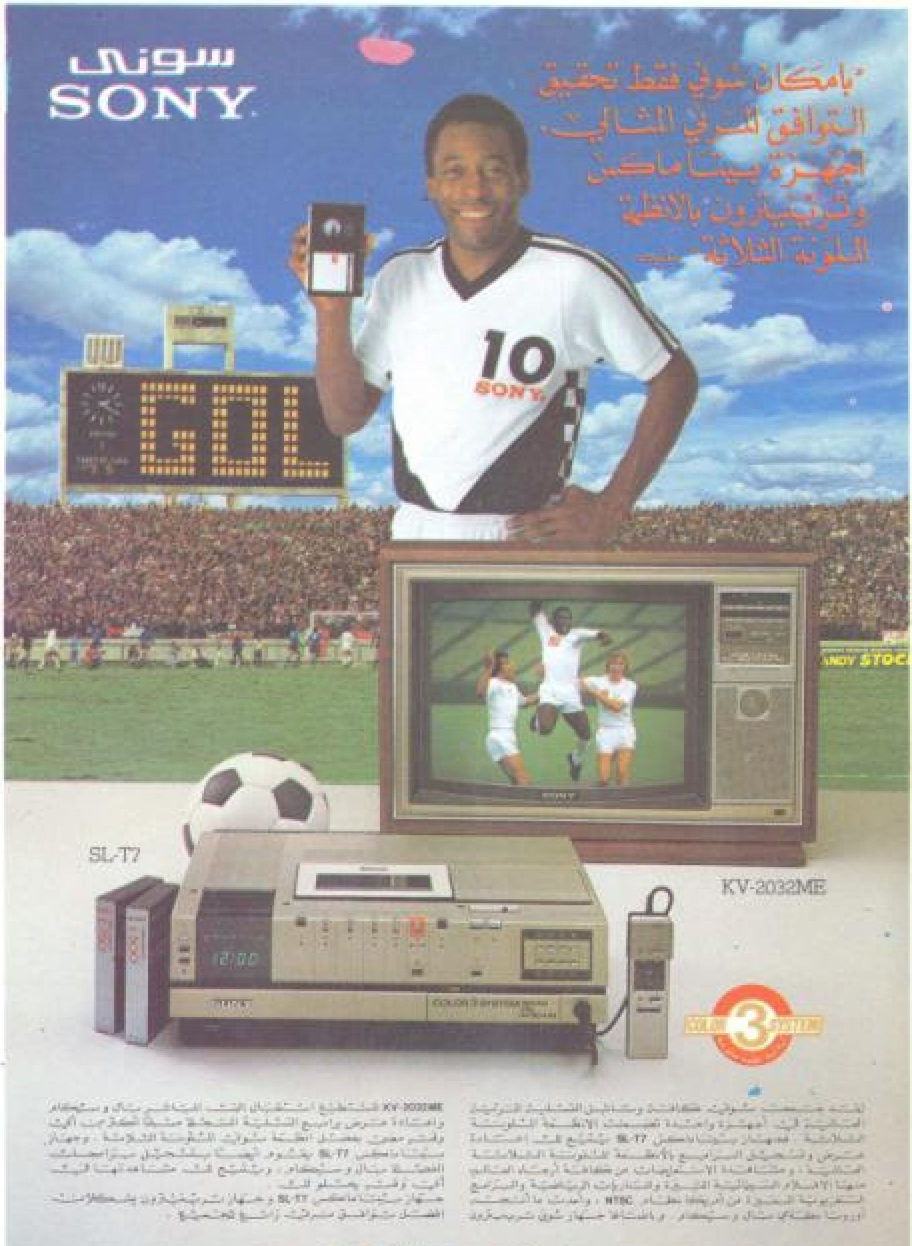
استثمارات

مستثمرونا العرب والاوروبيون ممنونون جدا من نجاحنا في تحقيق افضل الارباح لهم نتيجة استثمارنا لاموالهم في اسواق الاسهم والسلع الاولية في البورصات العالمية. والجدول التالي يعطيك صورة موضحة عن تطور اسعار بعض المواد الاولية الجاري التعامل بها لدى هذه البورصات:

بعض المواد الاولية المتعامل بها	عام ١٩٧٠		عام ١٩٧٥		عام ١٩٨٠		عامي ١٩٨١-١٩٨٢	
	السعر الادنى	السعر الاقصى	السعر الادنى	السعر الاقصى	السعر الادنى	السعر الاقصى	السعر الادنى	السعر الاقصى
القهوة	٣٢٢	٤٣٧	٣٨١	٩٠٠	٩٢٥	١٨٣٠	؟	؟
النحاس	٤٤٠	٧١٠	٥٢٠	٦٥٠	٧٨٠	١٣٦٠	؟	؟
السكر	٣٠٢,٥٠	٤٦٤	١٢١	٤٦٥	١٦٨	٤٤٦,٥	؟	؟

فاذا كنتم انتم ايضا راغبين في استثمار اموالكم في اسواق المواد الاولية المختلفة وتحقيق افضل الارباح نتيجة الاستفادة من تغير وتطور اسعار هذه المواد الاولية، فاكتبوا الينا على عنواننا المذكور ادناه. ويسرنا ان نرسل اليكم المزيد من المعلومات باللغة العربية والانكليزية (طبعا بمكنتكم الكتابة الينا بلغتكم العربية). بقي ان نعلمكم اننا نعمل في مجال ادارة واستثمار الاموال وبنجاح منذ عام ١٩٦٥.

KDB DEPOTBETREUUNG
GmbH
اتصلوا بنا على العنوان التالي:
HANS-THOMA-STR. 19/2
P.O. BOX 700650
6000 FRANKFURT / MAIN 70
WEST-GERMANY



سوني
SONY
بإمكان سوني فقط تحقيق
التوافق المرئي المثالي،
أجهزة بيتاماكس
وتليفزيون بالأنظمة
الملونة الثلاثة....
GOL
10
SONY
SL-T7
KV-2032ME
COLOR 3 SYSTEM
سوني بيتاماكس
Sony Betamax T7
Betamax

نعطيك العالم بأكمله



Beta

شاهد كل شئ تريده بنظام
بال/سيكام وَ ان تي اس سي ،
وَتخطي كلّ ما لاترغب في مشاهدته
بآلية البَحث عَن الصُورة .

لافرق أن تحصَل على أشرطتك من أيّ مكان في العالم ، فرنسا ـ المانيا أو الولايات المتحدة الامريكية ، لأن بيتا سانيو يعرضها بشكل ممتاز وهكذا يستطيع حتى الطفل تشغيلها ببساطة .

بامكان ڤيديو سانيو VTC 9455 أن يعمل في أيّ مكان من العالم آلية البحث عن الصورة تعمل على الأنظمة الثلاثة وبذلك تستطيع مشاهدة ماتريد وَتخطي مالاتريد إضافة إلى مؤقت لمدة ٧ أيام وعداد الكتروني مع الذاكرة والتسجيل الصوتي والتحكم عن بُعد وَنقاط توصيل الكاميرا . مع جهاز سانيو لكافة الأنظمة نعطيك العالم بأكمله .

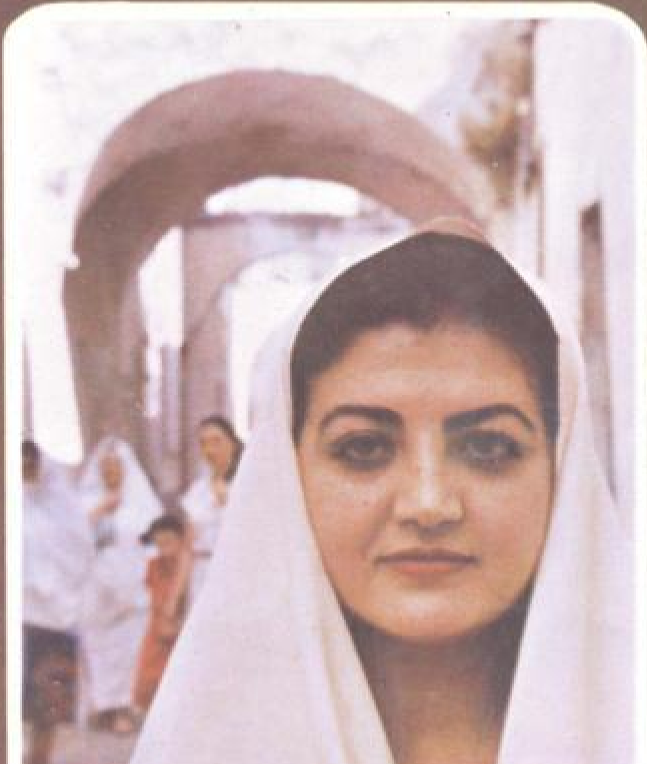
VTC 9455

GOLDEN SERIES
المجموعة الذهبية



العربي

محرم ١٤٠٢ هـ - نوفمبر ١٩٨١ م

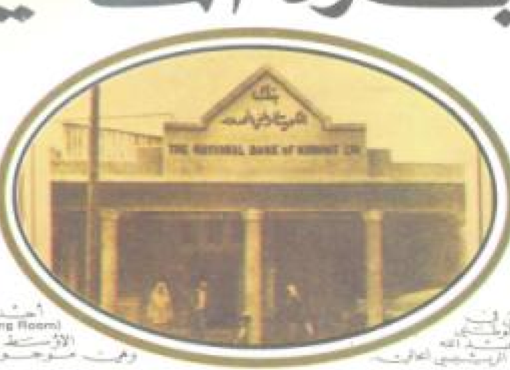


جامع الزيتونة وسط رياح التغيير في المغرب

الفتاوى الشرعية وصراعات السياسة

آخر صيحة: العلم يحدد لك ساعات النحس والسعد!

خبرة الماضي



١٩٥٢
أول بنك كويتي نشأ في الكويت هو بنك الكويت الوطني وكان موقعه في شارع عبد الله السالم مقابل المركز الرئيسي الحالي.

١٩٨١
أحدث غرفة لتداول العملات (Treasury Dealing Room) في الشرق الأوسط مجهزة بالأقمار الصناعية وهي موجودة في المركز الرئيسي.



وأحدث الخدمات العصرية

بنك الكويت الوطني كان ولا يزال الرائد في مجال التطور على مدى ٢٩ عاماً. هذا التطور الذي وضع التكنولوجيا الحديثة في خدمة الزبائن الكرام، والذي أدى الى توسيع البنك فأصبح يملك ٤٠ فرعاً متصلة جميعها بالكمبيوتر المركزي وذلك لتأمين خدمات فورية للعملاء الكرام.

ان هذا التطور أدخل مقياساً جديداً على الخدمات المصرفية في الكويت دون ان يمس بتقاليد اللياقة وروح الخدمة التي كانت موجودة يوم أنشأنا أول فرع لنا عام ١٩٥٢.

بنك الكويت الوطني ش.م.ك

المركز الرئيسي: شارع عبد الله السالم، ص.ب ٩٥ الصفاة، الكويت

عزيزي القارئ

يتعرض الرواد من أعلام الحضارة الاسلامية في زماننا هذا لعملية توزيع جغرافي جدير بالتأمل والتصحيح ، اذ تلجأ الدول ـ وينساق وراء سياساتها بعض الباحثين ـ الى محاولة احتكار بعض هؤلاء الاعلام ، بحجة انهم ولدوا ضمن حدودها في تلك القرون البعيدة . ربما اذكاء لحس اقليمي ، او اعلانا عن نجاح سياساتها منذ الازل !

واحدث نموذج على هذا التوجه هو احتفال الاتحاد السوفييتي بالذكرى الألفية لابن سينا ، وتخصيص وكالة نوفوستي السوفيتية جائزة دولة سنوية باسمه ، على اعتبار ان ذلك العالم الموسوعي الكبير من مواليد بلدة اصفهان التابعة لجمهورية طاجكستان السوفيتية .

والنماذج الاخرى في حياتنا الثقافية عديدة ، حتى نسمع من يقول بأن طارق بن زياد بربرى الاصل وصلاح الدين كردى الاصل ، وابن خلدون يمني ، وابن قيم الجوزية دمشقي .. الى اخر القائمة .

وما ينبغي ان ننتبه اليه ان تلك وقائع تاريخية صحيحة ، وان ذلك كله حق ، ولكنه ليس كل الحق . لان انتماء هؤلاء جميعا الى الحضارة الاسلامية هو الحقيقة الكبرى والمهمة . فهم ابناء شرعيون لتلك الحضارة قبل ان يكونوا من مواليد قرية هنا او من نسل عرق وقبيلة هناك . واذا كان ابن سينا من مواليد اصفهان الا ان تكوينه الثقافي والعقلي كله ينتمي الى تلك الحضارة الاسلامية العريقة . فضلا عن أن اهم كتاباته كانت باللغة العربية وليـ[illegible]ـارسية . وكذلك الحال مع سيبويه الذى ولد في شيراز وصار من اهم الذين كتبـ[illegible] النحو العربي . ومع الافغاني الذى يختلف البعض هل هو ايراني ام افغا[illegible] قيمته الحقيقية في انه كان مسلما وثائرا لدينه ولأمته . وابن خلدون نموذج [illegible] ، فهو وان كان حضرمي الاصل ، الا انه من مواليد تونس ، وتنقل بين المغرب والاندلس وانتهي به المطاف اخيرا قاضيا للمالكية في مصر ، حتى توفي هناك ، وابن بطوطة عندما تولى القضاء في دلهي ، لم يتبوأ مقعده باعتباره من طنجة بالمغرب ، ولكنه احتله لانه مسلم بالدرجة الاولى .

ان الكتاب المسلمين لم يكونوا يذكرون ايا من هؤلاء الاعلام من خلال ارتباطه بوطن معين .فالكل كانوا ابناء ديار الاسلام ، وانما كان الواحد منهم يعرف باعتباره ـ مثلا ـ قرطبيا مولدا وازهريا علما ، وبغداديا مقاما ومالكيا مذهبا .. هكذا .

اما الخرائط الجديدة التى مزقت أوصال هذه الامة ، فانهم لم يعرفوها . ومن الظلم والعسف ان نحاول تطويع وتوزيع ابناء الحضارة الاسلامية ، ليصغر حجمهم بحجم حدود وجغرافية هذا الزمان .

ان اللوم الحقيقي ينبغي ألا يوجه الى الدول التى تمجد قائدا او عالما اسلاميا بذاته ، ولكنه يوجه بالدرجة الأولى الى المنظمات العربية والاسلامية ، صاحبة الحق الاصلي ، والممثل الشرعي لتلك الحضارة بمختلف رموزها .

لذا لزم التنويه !

« المحرر »



صورة الغلاف

● لقطة لاحدى الفتيات التونسيات ، في احد الاحياء القديمة التي تحيط بجامع الزيتونة ، والتي مازالت مرتبطة به في العتاقة والطراز والقيم ..

وجامع الزيتونة ، جامع وجامعة ، وكانت الجامعة أسبق من جامعة السربون بعد قرون واستمر كل من الجامع الازهر وجامع القرويين وجامع الزيتونة مراكز إشعاع في كل افريقيا ففي أروقة هذه الجوامع انتعشت المعرفة ، وازدهرت اللغة العربية .. [الاستطلاع ص ٧٦]

قضايا عامة :

عروبة واسلام :

طب وعلوم :

قضايا حيوية :

أدب وفنون :

اجتماع وعلم نفس :

استطلاعات مصورة :

شخصيات وتاريخ :

أبواب ثابتة :

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير : أحمد بهاء الدين

مدير التحرير : فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ١١٠ فلوس ، الخليج العربي ريالان قطريان ، البحرين ٢٠٠ فلس بحريني ، العراق ١٢٠ فلسا ، سوريا ١٠٠ قرش ، لبنان ١٠٠ قرش ، الاردن ١٠٠ فلس ، السعودية ريالان سعوديان ، السودان ٩٠ قرش ، ج . م . ع ١٠ قروش ، تونس ٣٥٠ مليما ، الجزائر ٢٫٥ دينار ، المغرب ٢٫٥ درهم ، اليمن ٢٫٥ ريال ، ليبيا ١٥٠ درهما ، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ٢٠٠ فلس .

الاشتراكات : يراجع طالب الاشتراك :

١ ـ الشركة العربية للتوزيع وعنوانها : ص . ب (٤٢٣٨) بيروت/لبنان

٢ ـ مؤسسة توزيع الأخبار وعنوانها : ٧ شارع الصحافة/القاهرة/مصر .

« للمشتركين في جمهورية مصر العربية »

الاعلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

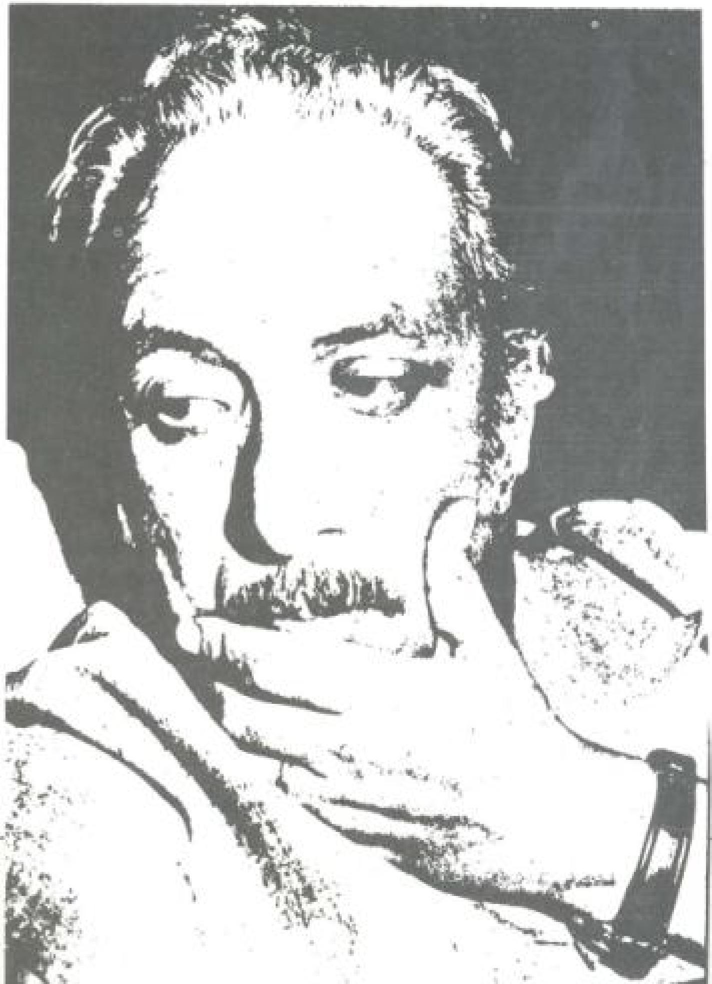
المراسلات : باسم رئيس التحرير

عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧١٤٦
تلغرافيا « العربي »

AL-ARABI,No.276,November,1981

P.O.Box 748,KUWAIT

كيف مات



صلاح عبد الصبور؟

بقلم : أحمد بهاء الدين

ليس الحديث عن وفاة صلاح عبد الصبور متأخرا ، رغم ان ذكرى مرور الاربعين على وفاته قد مضت ..

ذلك ان هذا الحديث ليس حديث « تأبين » لصلاح عبد الصبور .

وليس هذا حديث تقييم لشعر صلاح عبد الصبور وفنه ، فلست انا خير من يقوم بذلك . والأقدرون لم يتكلموا بعد . وسوف يتكلمون بالتأكيد كثيرا ، هم ومن بعدهم ، عن فن صلاح عبد الصبور وشعره . لأنه احد اهم من فتحوا باب الشعر الحديث عن قدرة وجدارة وموهبة ، مختارا في ذلك الطريق الصعب ، وليس الطريق السهل الذي يمرح فيه كثيرون تحت اسم انه « شعر حديث » وهو ليس بالشعر ولا بالحديث ..

ولكنه حديث عن « موت » صلاح عبد الصبور . لأنه يقودنا الى الحديث عن قضية هي قضية التزام الأديب ومعنى ذلك في حياتنا العربية بالذات ..

ولعلني اشعر انني مسئول ـ اقصد من بين المسئولين ـ عن « حياة » صلاح عبد الصبور وليس عن « شعره »... الذي كنت له على الدوام قارئا فحسب ، معجبا الى آخر الحدود .

ولعل القارىء يعجب ان يكون « موت » صلاح عبد الصبور قضية يمكن ان تناقش . ذلك انه رغم ان « الموت » هو حقيقة الحقائق وقضية القضايا في « الحياة » الانسانية ... الا انه الشيء الوحيد غير القابل للمناقشة . لأنه الحتمية الوحيدة التي لا مجال للبحث فيها . وقد قيل قديما « تعددت الأسباب والموت واحد ». و « من لم يمت بالسيف مات بغيره » .. فالطرق مختلفة . ولكنها تلتقي كلها عند نهاية واحدة .

ولكن الحافز الى هذا الحديث هو ان موت صلاح عبد الصبور أثار كثيرا من الجدل والنقاش . كما ان كثيرا من الذي كتب عن موت صلاح عبد الصبور كان تأبينا خبيثا له ، خطته اقلام عبرت عن فرحتها باختفائه ، بالسير في جنازته . وكثير آخر كتب في رثاء « وكيل وزارة الثقافة » في مصر وليس في رثاء شاعرها المعاصر الأول .

مع جمهور لايعرفه

وقد كنت في اجازتي السنوية في مصر حين قرأت خبر وفاة صلاح عبد الصبور . وبعد ايام قرأت خبرا عن ندوة تقام في قصر ثقافة مصر الجديدة لتأبينه . وذهبت في الموعد ابحث عن مكان قصر الثقافة هذا حتى عثرت عليه . وحين حان الموعد رأيت ظاهرة غريبة : ان المدعوين لالقاء الكلمات لم يحضروا ، ولكن القاعة مع ذلك كانت مملوءة عن آخرها بالشبان والشابات . الذين هم تحت سن العشرين بقليل او فوق سن العشرين بقليل . لم يعرفوا صلاح عبد الصبور شخصيا ولم يروه رأي العين . ولكنهم جميعا من قراء شعره ومن جمهوره الواسع . وعشرات منهن ومنهم جاءوا ومعهم اشعار وقصائد كتبوها عن صلاح ، لعلهم يجدون منفذا لالقائها .

وقلت لجارتي في القاعة : هذا خير تكريم للانسان . تكريم جمهوره الذي لايعرفه ولكنه يعرف فنه .. فالفنان يكتب وينتج لهؤلاء الذين يشعر بهم ويعبر عنهم ولهم دون ان يراهم . هذا هو الفنان الحقيقي . ونجاحه غير نجاح الفنان « الاجتماعي » الذي ينفق نصف حياته في كسب الناس ، وفي البحث عن الشهرة ، وفي توثيق علاقته بالبيروقراطيات التي تسيطر على الادب ..

وكانت النتيجة ليلتها ان الدكتور عبد الفتاح الديدي المشرف على الندوة لم يجد مفرا من ان يدعوني للكلام دون استعداد ، لأملأ بعض فراغ الغائبين ، غير مدرك ان الطعنة في قلبي كانت دامية ، ووفاة صلاح كانت اكثر من ان تحتمل ، انه ابن جيلي مباشرة ، وصديق مرحلة وحياة وعمر ، حتى ولو كانت تمر السنوات دون ان نلتقي .

وما سوف اقوله هنا هو بعض مما ارتجلته تلك الليلة .. لعل ما اوصلته ليلتها الى المئات يصل هذه المرة الى مئات الآلاف ..

وكان اللغط قد دار ونشر في الصحف حول رواية تقول : ان صلاحعبد الصبور كان في حفل صغيرة احتفالا بعيد ميلاد ابنة رفيقه في طريق الشعر والفن ، شاعرنا الخفاق احمد عبد المعطي حجازي ، عندما دخل في جدل مع بعض الضيوف الآخرين الذين كانوا يهاجمونه على مواقف سياسية وغير سياسية ، ضاق بها صدر عبد الصبور فطلب ان ينزل الى الشارع يتمشى مع احمد عبد المعطي حجازي طلبا لاستنشاق الهواء . ولكنه شعر بتعب اكثر وقال لصاحبه « أعود لارى زوجتي وابنتي » ولكن احمد حجازي وجد انهما امام مستشفى هليوبوليس فدخل به الى المستشفى . وجلس بجواره مع الطبيب الذي رحب بهما وراح يحدثهما . واذا بصلاح يهوي فجأة من مقعده على الارض . وفشلت محاولات الانقاذ .

وكل هذا صحيح ...

ولكن كتبة البلاغات الى السلطة انتهزوها فرصة لكتابة بلاغات جديدة في صورة تأبين للشاعر . من خاصمه ليلتها ؟ ومن ناقشه حتى قتله ؟ وماذا كان موضوع هذا الجدل العنيف ؟ الى آخره ..

شقاء الفنان بالوظيفة

وقد قلت للذين اجتمعوا لتأبينه في تلك الليلة : ان الناس قد يرون ان صلاح عبد

الصبور مات وقد صار في سن صغيرة نسبيا وكيلا لاكبر وزارة ثقافة في العالم العربي ، اي انه مات بعد ان حقق اغلى امانيه ، ولكنهم لا يعرفون ان صلاح عبد الصبور كان تعيسا بوظيفته . شقيا بها الى اقصى حدود الشقاء . لسبب بسيط جدا وهو ان النجاح الاداري البيروقراطي الوظيفي غير النجاح الفني . وان اجهزة الثقافة بآلاف رؤسائها وموظفيها والعاملين فيها انما تقوم لخدمة الفنان ، وليس العكس . وان البيروقراطية الثقافية في كل عهد تعيش بآلافها وتمضي بسبب وجود عشرات او اقل من المبدعين الفنيين ..

وان صلاح عبد الصبور كان يتمنى لو يسرت له الظروف ان يكون له دخل حياتي معقول ، يكفل الحياة له ولاسرته الصغيرة ، دون منصب ولا هيلمان ، حتى يجد الوقت الكافي للعكوف على فنه وابداعه ، فهو قد خلق لهذا . ولم يخلق لتوقيع الاوراق الرسمية وحضور اللجان الحكومية والنظر في ترقيات الموظفين .. الى آخره .

وقد كانت آخر مرة رأيت فيها صلاح عبد الصبور ، عندما جاء يزورني في البيت آخر الليل في موعد غير مألوف ، وفرحت برؤيته فرحا شديدا ولكنني ذهلت لأنه في مظهر بدا لي يومها شيخا في السبعين من عمره ، وقد اشتعل الشيب في رأسه فجأة . وكان كل حديثه عن آلامه واوجاعه وهمومه في منصبه الذي لم يسع اليه . وفي المسئولية ـ المأزق ـ التي لا يعرف مخرجا منها . وفي الايام التي تمر دون ان يجد فيها برهة يسكن فيها الى نفسه ، وتنطلق قريحته ، ويضيف الى احلامه الشعرية شيئا .

الشاعر الذي عليه ان يكون موظفا ليعيش . وعليه ان يعمل عشر ساعات في روتين قاتل لعله يظفر مقابلها بساعة يمارس فيها حياته الباطنية ، الفنية ، الحقيقية .

وهي مأساة كل المفكرين والادباء والفنانين في بلادنا ...

ذلك ان بلادنا تصل فيها نسبة الامية الى ٧٠٪ تقريبا ... لا يمكن ان يعيش فيها كاتب من قلمه ولا شاعر من شعره .

نحن لسنا بعد فرنسا ولا انجلترا حيث يعكف الروائي مثلا على رواية سنة كاملة لا عمل له سواها ، ثم يكون رواجها ونجاحها بحيث يزوده بزاد الحياة وقدرة الاستمرار على التفرغ .

لم نعرف بعد في بلادنا العربية كلها ، مبدعا واحدا عاش من قلمه فقط . انما عليه ان ينفق الساعات في وظيفة حكومية ، او عمل صحفي ، او اي شيء آخر يكسب منه رزقه ... وانتاجه على الهامش .

حتى بعد ان يصبح للواحد منهم فوق السبعين كتابا في السوق .. مثل طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ، فانه لا يستطيع ان يعيش منها ، واقل من عمل اعمالا غير التأليف ـ وهو عباس محمود العقاد ـ كان يضطر احيانا الى بيع الكتب النادرة في مكتبته سرا وعلى استحياء ، ليواصل حياته البسيطة الزاهدة ، وليس له زوج ولا ولد ..

في غيبة المؤسسات الحرة

في بلاد لها ظروف بلادنا ... يكون على الدولة ، بوصفها نائبة عن المجتمع قيمة على تقدمه ، ان تيسر لهم هذا .

ولكن الدول في بلادنا لها في مقابل ذلك شروط اقسى من ان يتحملها ضمير الكاتب او الفنان عادة . فيؤثر ان يفني معظم عمره في وظيفة تكفل له قوت يومه . في حين تتمتع

البيروقراطيات الادبية التي ما وجدت الا لخدمته ، بالحياة المرفهة المريحة !
فالذين يتحدثون عن التزام الاديب في بلادنا عليهم ان يضعوا في اعتبارهم بعض هذه الحقائق ، بدل ان ينقلوا نقلا ببغائيا ما يقرأونه عن التزام الاديب في فرنسا مثلا ...
الاديب يحميه جمهوره ... وتحميه مؤسسات ثقافية حرة .. تدرك قيمة الفن حتى ولو خالفها ..

وفي بلادنا لا توجد هذه المؤسسات الحرة . ولا توجد الجماهير المثقفة الواسعة بعد . الفنان او الاديب في بلادنا ينتج بلا حماية . ويبدع وهو عاري الصدر ، مكشوفا للطعنات .. والشاعر الذي سألته مرة ماذا يفعل منذ زمن ... فرد علي قائلا « انني ادافع عن قيثارتي ، فلا مجال لان اعزف الحاني ».. كان على حق !
واذا انتقلنا من هذا التعميم الى حياة صلاح عبد الصبور بالذات ماذا نجد ؟
في اول شبابه ، وفي اول ظهوره كاحد براعم الشعر الواعدة ، كتب قصيدة وهو في الخامسة والعشرين من العمر تقريبا .. قاسية ، جارحة ، جعلت السلطة تقلب له ظهر المجن ، وتنظر اليه نظرة ريبة وعداء ...
ونحن في عالم اذا « اشيع » عن احد ان صاحب السلطة غاضب عليه ، قلب له كل الناس ظهر المجن ، وتنكروا له ... وان ظلوا يطالبونه في نفس الوقت بالاستشهاد ..
وقد نسي صاحب السلطة هذه القصيدة وعرف ملابساتها ...
ولكن البيروقراطية الادبية من جهة ... والذين كسفت شمس صلاح عبد الصبور الصاعدة قناديلهم المزيلة من جهة اخرى ... بقوا له بالمرصاد .
ولم يكن صلاح عبد الصبور مقاتلا في هذه الساحة ... ولا نشيطا في خدمة نفسه ، ولا مصمما عنيدا الا في انتاجه وادبه . فكان يتقبل الظلم في هدوء غريب ... كهدوء الفلاح المصري ـ الذي هو من صلبه ـ الذي اعتاد ان يتحمل الظلم ويبتسم له ، لأنه لن يدوم ..

في الهند .. بحثا عن عمل مريح

لذلك ، صدم اولئك الشباب الذين احتشدوا في قصر الثقافة في مصر الجديدة :
ان بعض الذين ينعون صلاح عبد الصبور ، بعد ان راح ، حاربوه بكل سلاح . فحين لمع بشعره الحديث ، وكانت الشيوعية هي التهمة قالوا ان الشعر الحديث شيوعي . وحين كان الالحاد هو التهمة قالوا ان الشعر الحديث إلحاد وتنكر للاسلام والعروبة !
وصدم اولئك الشباب حين قلت لهم ان صلاح عبد الصبور بعد ان اصبح صلاح عبد الصبور يدعى الى اكبر المحافل الادبية في العالم ويترجم شعره .. قضى سنوات بلا عمل . يأتي وزير فيلحقه بوظيفة . ويأتي وزير آخر فيسحب منه الوظيفة باحدى الحيل الادارية التي يحار امام الغازها الفنان والاديب . وان كل المؤسسات الثقافية التي تسابقت الى نعيه كانت في وقت تتهرب من ان تعطيه مجالا للعمل والانتاج . بسبب سابقة غضب السلطة عليه .. التي مضت عليها سنوات .
وكان لا يشكو . بل يتحمل . ويحتفظ بكرامته . ولا يطلب شيئا ..
وعلمت يوما ان صلاح عبد الصبور عين ملحقا ثقافيا لمصر في الهند . واخذت ابحث عن عنوانه حتى وجدته وارسلت اليه خطابا اعاتبه على انه صار كسفينة الفضاء التي خرجت

عن مدارها فيعلن العلماء انها ستظل تدور في الفضاء مئات السنين حتى تحترق. والومه على انه لا يجعل اصدقاءه يعلمون اخباره ووسيلة الاتصال به . ودعوته بالحاح ان يخرج من المنفى بعقله لا بجسده وان يكتب لمجلة العربي .

ورد علي بخطاب لا انساه . بدد فيه وهما خطر لي ، ان يكون اراد السفر الى الهند لاستنشاق روائح حضارة اخرى غنية وعريقة . واكد ما خفت منه من انه سافر لانه لم يجد وسيلة اخرى الى عمل مريح ..

وارسل صلاح عبد الصبور من الهند الى « العربي » قصيدة .. وقصيدة ..

وعاد الى القاهرة بعد انتهاء مدة عمله هناك ، ليتدرج تدرجا روتينيا في وزارة الثقافة حتى صار وكيل الوزارة ...

والبيروقراطيون يحسدونه ويحسبون ان هذا هدف يسعى اليه .. في حين انه كان يصعد الهرم الوظيفي كارها .. لان كل خطوة تبعده عن حلم الشاعر ان يكون واقفا على الارض .. في السهل المنبسط .. يتنفس حياة الناس وغبار الواقع ولديه الوقت الفسيح للتأمل والانتاج .

بماذا يلتزم الاديب .؟

وتبقى بعد ذلك كلمة استكمالا لاشارة وردت في اول الحديث عن التزام الاديب والفنان ... الذين يتحدثون كالببغاوات لا يسألون انفسهم : بأي شيء يلتزم الاديب ؟

الاديب يلتزم بالقيم التي يؤمن بها هو . والمواقف التي يختارها هو . والرؤيا التي يراها هو . فهناك من يلتزم بقيم سياسية مباشرة . ومن يلتزم بقيم فنية خالصة . ومن يلتزم بقيم انسانية شاملة .

المهم انه يلتزم بما يختار « هو » الالتزام به ...

وليس ان يلتزم بما تختاره « نحن » له . او بما نلتزم نحن به .

فدعوة التزام الاديب ازدهرت واشتهرت في بلاد اقترن فيها الالتزام بالحرية ... ولا يمكن ان يوجد التزام بدون حرية . لأن الالتزام هو في البداية اختيار . وهو بغير الحرية الزام لا التزام .

فالزام السلطة للكاتب لا يجعله كاتبا ملتزما . والزام الرأي العام او اي قطاع منه للكاتب لا يجعله ملتزما .

نحن نطلب من الفنان الالتزام بما نلتزم به نحن . وليس بما يلتزم به هو من قيم ، وما يرتبط به من مجال يرى ان عطاءه فيه اخصب .

ونحن بهذا النظر الضيق نخنق الفنان .. ولا نجعله فنانا ملتزما .

وقد كان صلاح عبد الصبور فنانا ملتزما بقيم انسانية وفكرية وفلسفية وفنية . ولو كان من الذين يحيدون عن التزامهم هذا ، لربما كتب له العمر الطويل .. ولربما لم يتوقف قلبه تعبا وضنى وارهاقا .

استغفر الله ، فالأعمار بيد الله . والملتزم حقا يختار العمر الادبي الطويل ، الذي يمكث في الارض ، على العمر المادي الذي هو قصير في آخر الأمر ، مهما طال .

أحمد بهاء الدين

لماذا تتعثر دائرة المعارف العربية ؟

بقلم : الدكتور صلاح هاشم

لعله لا يوجد شعب في عالمنا المعاصر يعتز بنفسه الا وله دائرة معارف كبرى بلغته القومية ولا اغتني جانحا الى المبالغة لو قلت ان دائرة المعارف الآن اشبه بمستكملات الاستقلال والسيادة بالنسبة للشعوب ، بل رمزا لتقدمها العلمي والثقافي . ورغما من هذا فانه لا توجد لدى شعبنا العربي حتى هذه اللحظة دائرة معارف بالمفهوم الحديث . والأمر الذي يدعو الى التأمل بل الأسف ، هو ان الامكانيات لا تعوزنا لاخراج دائرة معارف من هذا القبيل ولكن وقف في وجه هذا نفس تلك العوامل المثبطة والتي سببت الفشل للامة العربية في كل مجهوداتها الراهنة وغير البعيدة ، مثل تفرق الكلمة بسبب المنافسات الاقليمية ، والخلط في الاسبقيات والاولويات ، وتخاذل المتعلمين والمثقفين العرب في تعبئة الجهود للاضطلاع بدورهم التاريخي في قيادة هذه الامة والسير بها في معارج التقدم والتحديث ، والا فكيف نفسر نجاح دول صغيرة ومحدودة الامكانيات في اخراج دوائر معارف جيدة ومواكبة لتطور المعرفة البشرية ، مثل بلغاريا واليونان بأوروبا ، ومثل سري لانكا بآسيا ودوائر المعارف الحالية بالعالم يبلغ عددها الألف ، فهل يليق بنا الا توجد من بينها دائرة معارف عربية واحدة الى هاته اللحظة ؟

لسنا عاجزين

والاغرب من ذلك ان لاسلافنا اعمالا مجيدة في هذا الصدد ، تستند على مجهودات فردية ، فعدد من موسوعات عهد المماليك بمصر يمكن اعتبارها دوائر معارف بالنسبة لعصرها ، خذ مثلا لذلك « نهاية الأرب في فنون الأدب ». للنويري المتوفي عام ١٣٣٢م) الذي وصل به المؤلف الى ٣٦ مجلدا ، ونفس القول يصدق على مصنف القلقشندي (المتوفي عام ١٤١٨م) « صبح الاعشى في صناعة الانشا » في ١٤ مجلدا . و « مسالك الابصار في ممالك الامصار »للعمري » المتوفي عام ١٣٤٨م في حوالي الثلاثين مجلدا . وهي وان كان لا ينطبق عليها المفهوم الحديث لدائرة المعارف انطباقا تاما الا انها تقف دليلا ـ ان اعوزنا الدليل ـ على ان امتنا ومجتمعنا العربي لا يوجد ما يعجزها عن القيام باعمال علمية سوى ثبوط الهمم واختلاف الكلمة حول الاولويات والاسبقيات كما حدث وان اشرت .

ولم يكن ظهور دوائر المعارف باوروبا في القرن الثامن عشر من باب الصدفة بل اقترن ذلك بعاملين

اساسيين ، احدهما الانفجارة العلمية التي حدثت بأوروبا عقب عصر النهضة وذلك في القرنين السادس والسابع عشر على يد العلماء التجريبيين من امثال كوبرنيكوس وغاليليو وبيكون ونيوتن ، تلك الانفجارة التي نقلت الغرب من العصور الوسيطة الى العصور الحديثة وضمنت له السبق في مضمار المعرفة ثم الغلبة السياسية على بقية العالم ، اما العامل الثاني فكان انتشار فن الطباعة عقب اختراعها على يد الالماني غوتنبرغ (مات عام ١٤٦٨) مما سهل انتشار الكتب وتداولها اكثر من ذي قبل .

أول دائرة معارف

واول دائرة معارف بالمعنى الحديث هي التي توفر على نشرها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر لفيف من علماء فرنسا الذين نشطوا في ذلك العهد الفكري الحافل المعروف باسم « عصر التنوير » ، وذلك باشراف ديديرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) وظهرت في ٣٥ جزءا في الفترة ١٧٥٠ ـ ١٧٨٠ بعنوان « الانسكلوبيديا او المعجم الميسر للعلوم والفنون والحرف » وشارك في تحريرها عدد كبير من علماء فرنسا ومفكريها آنذاك نذكر من بينهم فولتير وروسو ومونتسكيو من بين المفكرين ودالمبير وكانديالك وهولباخ وبوفون من بين العلماء ، وترجو ونيكر من بين رجالات الاقتصاد السياسي ، ومن المؤكد ان دائرة المعارف الفرنسية هذه قد عكست الغليان والفوران الفكري الذي كان مسرحه فرنسا في ذلك الوقت والذي أدى فيما بعد الى انفجار الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر .

اما بريطانيا وان عرفت دوائر المعارف قبل فرنسا وذلك بظهور دائرة معارف شامبرز في عام ١٧٢٨ ، في جزأين الا ان دائرة معارفها الاساسية وهي دائرة المعارف البريطانية لم تر النور الا في الاعوام ١٧٦٨ ـ ١٧٧١ في ثلاثة اجزاء . وقد نمت وتطورت سريعا في العهود التالية لذلك حتى اصبحت اهم دائرة معارف عالمية خاصة بطبعتها الاخيرة ، التي ظهرت في السبعينات من قرننا هذا وبلغت الثلاثين جزءا عدا ما تلا ذلك من الحوليات والملحقات .

وللروس جهد محمود في اخراج دوائر معارف باللغة الروسية لا تقل في شيء عن رصيفاتها الغربية ، بل وتفوقها في جوانب معينة ، وكانت اول دائرة معارف كبرى تخرج باللغة الروسية هي دائرة معارف بروكغاوس وافرون في ٨٢ جزءا ظهر آخرها في عام ١٩٠٧ . وهي تحوي جماع المعرفة الروسية في بداية هذا القرن . وقد توقفت طبعتها الثانية بانفجار الثورة البولشفية ، هذا واهتم السوفيت بعد ان استتبت لهم الامور بامبراطورية القياصرة السابقة باخراج دائرة معارف سوفيتية ، فابتداء من عام ١٩٢٥ اخذت في الظهور الطبعة الاولى لدائرة المعارف السوفيتية الكبرى التي اكتملت في عام ١٩٤٧ في ٦٥ جزءا آخرها جزء ضخم عن الاتحاد السوفيتي ، وفي عام ١٩٤٩ بدأت في الظهور الطبعة الثانية التي اكتملت في عام ١٩٥٨ في خمسين جزءا آخرها مفرد للاتحاد السوفيتي ، وتلا ذلك الجزء الحادي والخمسون الذي يحوي الاستدراكات وجزءان للفهارس ، كما تتابعت الحوليات الى عام ١٩٦٩ . وهي دائرة معارف عظيمة تشهد للروس بالمقدرة في هذا الحقل ، وقد حظيت بالاحترام والتقدير من جميع الدوائر العلمية بالعالم واحتلت مكانها بجدارة بين دوائر المعارف العالمية الكبرى . هذا وقد بدأ السوفيت منذ ١٩٧٠ في اخراج الطبعة الثالثة لدائرة معارفهم الكبرى فاكتملت في عام ١٩٧٨ في ثلاثين جزءا . وكان الغرض منها اختصار مواد الطبعة الثانية واخراجها في عدد اقل من المجلدات ، وايضا استدراك ما جد في عالم المعرفة خلال العشرين عاما التي انقضت منذ بداية ظهور الطبعة الثانية ، ولعل ما يقدح بعض الشيء في قيمة دوائر المعارف السوفيتية هو الميل الى التحيز ، او على الاصح نظرتها الى المعرفة البشرية من زاوية معينة غير مقبولة لمن لا يدين بالمذهب الماركسي اللينيني .

ما العمل ؟

ولعل من اطرف ما حدث في هذا الميدان اضطلاع عالم مصري هو محمد فريد وجدي باخراج ما اسماه « دائرة معارف القرن العشرين » في عشرة مجلدات (١٩٢٣ ـ ١٩٢٥) وبالرغم من اعترافنا له بالشجاعة وبعد الهمة الا ان مثله يقف دليلا على عدم جدوى

المجهود الفردي في هذه الميادين، وعلى ان الطريقة الوحيدة لاخراج دائرة معارف حديثة هي الطريقة الجماعية في تعاون وثيق مع الهيئات والمنظمات . وخير مثال لهذا الضرب من العمل هي « الموسوعة العربية الميسرة » التي ظهرت بالقاهرة في مجلد واحد ضخم عام ١٩٦٥ باشراف استاذنا محمد شفيق غربال ، وشارك في تحريرها شخصيات عربية لامعة نذكر من بينهم ابراهيم مدكور واسماعيل مظهر وزكي نجيب محمود وقسطنطين زريق وفؤاد صروف ومريت غالي .

هناك طريقتان لا ثالثة لها . احداهما ان يضطلع العرب انفسهم بهذه المهمة . ولا يخفى على القارىء الفطن ان هذا الامر سيحتاج الى عملية تنظيم هائلة وفحص دقيق للامكانيات الفكرية والعلمية بالعالم العربي قد يتطلب وقتا طويلا . ثم ان العقبة الكبرى في طريق تحقيق هذا هي ان العلماء العرب رغما من مقدرتهم المعترف بها في جميع فروع العلوم لاتوجد تحت تصرفهم المكتبات والمؤسسات العلمية اللازمة لتحضير مواد الدائرة بصورة مرضية . اخيرا فقد نوقشت الفكرة على اعلى المستويات وعلى مدى سنين عديدة فلم تخرج من عالم القول الى عالم الفعل .

امام هذا فلم يبق لنا سوى الطريقة الثانية ، وهي نقل احدى دوائر المعارف الكبرى الحديثة من لغتها الاجنبية الى اللغة العربية ، على ان يقوم بهذه العملية المتخصصون من ابناء العرب كل في دائرة اختصاصه يعاونهم عدد كبير من المترجمين المحترفين ، ومن الضروري ان نلفت نظر القارىء الى ان تعريب دائرة معارف ما ليس امرا غير معهود في ايامنا هذه . فمنذ الثلاثينيات شرع بعض الاساتذة المصريين في نقل دائرة المعارف الاسلامية من الانجليزية الى العربية ، ولكنهم لم يذهبوا بعيدا في مجهودهم هذا ليصلوا بها الى بر السلامة ، وفي ايامنا هذه نقل اليابانيون دائرة المعارف البريطانية الى لغتهم . كذلك شرعت دار ماكميلان بنيويورك في اخراج ترجمة كاملة للطبعة الثالثة لدائرة المعارف السوفيتية فبلغت بها حتى اللحظة الجزء الثاني والعشرين ، ولم يبق سوى ثمانية اجزاء لاستكمال العمل ، من كل هذا يبدو واضحا ان نقل دائرة معارف من لغة الى اخرى ليس فيه ما يعيب البتة . لان المعرفة انما هي تراث البشرية اجمع تنتقل من شعب الى شعب ومن ثقافة الى اخرى دونما اي حجر او تعسف .

ليس في مصلحتنا

اما لماذا فاقت الطبعة الخامسة عشرة لدائرة المعارف البريطانية غيرها من دوائر المعارف الحديثة ، فلهذا قصة . وكما سبق وان ذكرنا فان دائرة المعارف البريطانية بدأت في الظهور لاول مرة في عام ١٧٦٨ بمدينة ادنبرة باسكتلنده وتمت في ثلاثة اجزاء بعام ١٧٧١ ، وخرجت الطبعة الثانية في عشرة اجزاء (١٧٧٧ ـ ١٧٨٤) والثالثة في ١٨ جزءا (١٧٨٨ ـ ١٧٩٧) وتتالت الطبعات بعد ذلك وشارك في تحرير المواد عدد كبير من مشاهير علماء بريطانيا ، وكانت اشهر طبعاتها الحادية عشرة (١٩١٠ ـ ١٩١١) التي خرجت في ٢٩ جزءا ، وكانت بحق موسوعة علمية بمعنى الكلمة ضمت جميع اطراف المعرفة البشرية آنذاك وامتازت بروحها الاكاديمية .

اما المجموعة الثانية فحملت اسم « الميكروبيديا » وتعني باليونانية المعرفة الصغرى ، وفي الواقع تحوي اجزاؤها العشرة الاشارات الاوجز التي يود القارىء العام الرجوع اليها في كل ما يريد الاستفهام عنه او التأكد منه ، وهي في ذات الوقت دائرة معارف مختصرة وايضا بمثابة فهرس عام للماكروبيديا . وتغطي اجزاؤها ١٠٢ الف مادة موزعة حسب حروف المعجم ، ويبلغ عدد الفاظها ١٤ مليون كلمة ، وهي مزودة بعدد كبير من الرسوم والجداول والخارطات .

ولا يسعني في آخر المطاف سوى ان اكرر قولي دائما بأن التلكؤ ليس في مصلحتنا واننا على ميعاد مع الاقدار في نهاية هذا القرن ، فاما ان نقوم بمجهود جبار ينقلنا من العصور الوسيطة الى القرن العشرين وما بعده ، واما ان نظل فريسة لتخلفنا فنعرض انفسنا للتلف والهلاك . ورحم الله احد اسلافنا عندما قال « ان ما يتقدم في طلبه ينال في وقته ، وما يطلب في وقته ينال في غير وقته وما يفرط في طلبه يفوت فلا ينال » . ■■

د . صلاح هاشم

بحث ميدانى

ماذا يقرأ الشباب فى الكويت ؟

اعداد : الدكتور اسحاق يعقوب القطب

ماذا يقرأ الشباب فى دولة نفطية مثل الكويت ؟هذه الدراسة الميدانية الهامة تجيب على السؤال ، وتطرح مؤشرات لا تخلو من دلالة ، منها ان اقبال الشباب على المجلات والصحف أكثر من اقبالهم على قراءة الكتب ، وان الشباب فى المراحل المبكرة أكثر قراءة من الأكبر سنا .

يقصد بالمطالعة الاتصال بين الفرد والكلمة المكتوبة والمنشورة سواء على شكل كتاب ، مجلة ، صحيفة ، كتب أو نشرة تتضمن مختلف الموضوعات وتصدر بمختلف الأشكال والأحجام وتتفاوت فى طرق وأساليب اخراجها وطريقة وصولها الى الجمهور . وعملية الاتصال تتأثر بعدة عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية وتتحدد بموجبها خصائص ومميزات الاتصال ذاته . المرسل ـ من يقوم باعداد الكتب والمجلات والصحف ، ومن يمتلك حق النشر ، وما هى هوية الكتاب ومستوياتهم ، وتوفر حرية الكتابة ، وما هى الأهداف التى يسعى « المرسل » الى تحقيقها من خلال الوسيلة ، وهى الكتب والمجلات والصحف بأشكالها وأحجامها المختلفة والتى تتضمن الرسالة ـ التى يرمى المؤلف والكاتب والناشر ايصالها الى جمهور القراء من قطاعات المجتمع المختلفة : الشباب والأطفال والكبار والاناث والعاملين فى المهن المختلفة .

والمطالعة ـ كعملية اتصال جماهيرية ـ تتسم بالديناميكية وهى متصلة الحلقات ترتبط بمتغيرات اقتصادية واجتماعية ونفسية وثقافية ، وأصبحت من النشاطات التى يتسع نطاقها فى المجتمعات الحضرية .

وتشمل المطبوعات الكتب والمجلات والصحف على اختلاف أنواعها ولكل منها خصائص ومميزات ومعطيات وآثار على جمهور القراء .

تتنوع المطبوعات المفضلة لدى الشباب لأسباب

مختلفة . منها ما هو مرتبط بالميول الذاتية للشباب ومنها ما هو متعلق بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الخاصة بالمطبوعات بصورة عامة (مثل المطبوعات المحلية والمستوردة . الرسمية وغير الرسمية . الخاصة والعامة اليومية والشهرية والفصلية . العلمية وذات الطابع الثقافي الشامل .. الخ) هذا بالاضافة الى عوامل أخرى تتعلق بثمن المطبوعة وامكانية وسهولة الحصول عليها .

وهناك عنصر هام في درجة اقبال الشباب على المطبوعات مرتبط بعوامل نفسية وادراك الشباب لمدى تلبية هذه المطبوعات لحاجاتهم وميولهم وتساؤلاتهم حول مختلف شئون الحياة الروحية والاجتماعية والعاطفية ، بالاضافة الى مدى ما تشبع به المطبوعات نزعة حب الاستطلاع حول القضايا العلمية والأدبية .

عينة من الثانوي والجامعة

وقد توليت الاشراف على دراسة في هذا الصدد حول اتجاهات الشباب في المجتمع الكويتي المعاصر . واشتملت العينة على ١٨٧٩ من الشباب الذكور والاناث من الكويتيين والوافدين العرب الذين تقع أعمارهم بين ١٦ و ٢٦ سنة منهم من هو في مرحلة الدراسة الثانوية والجامعية ومنهم من يعمل في مختلف المهن في القطاعين الحكومي والأهلي .

وفي نطاق الانفتاح الثقافي في العقدين الاخيرين من خلال اتفاقيات التبادل الثقافي بين الكويت والدول الخليجية والعربية والأجنبية ، فان المكتبات الخاصة والعامة تستقبل آلاف المطبوعات منها الكتب والمجلات والصحف اليومية والاسبوعية والشهرية والفصلية .

وتجدر الاشارة الى اهتمام الشباب الوافدين والكويتيين بقراءة المطبوعات الصادرة في الخارج سواء باللغة العربية حيث يتابع الشباب الأحداث في المطبوعات التي تستورد من بلدانهم أو تلك التي لها جمهور خاص مثل المجلات والصحف الخاصة بالمرأة أو الرياضة أو المجلات الدينية .

وقد اهتمت الدراسة باستقصاء درجة اقبال الشباب على قراءة المطبوعات المختلفة ومنها المجلات العربية والأجنبية والكتب العربية والأجنبية والصحف العربية والأجنبية .

ويوضح الجدول التالي توزيع أفراد العينة حسب درجة اقبالهم على قراءة المطبوعات المشار اليها .

توزيع أفراد العينة حسب درجة اقبالهم على قراءة الكتب والمجلات والصحف

المطبوعات	دائما	٪	احيانا	٪	لايقرأ	٪
المجلات العربية	٨١٥	٤٣,٤	٩٨٩	٥٢,٦	٧٥	٤
المجلات الاجنبية	٦٦	٣,٥	٤٤٤	٢٣,٦	١٣٦٩	٧٢,٩
الكتب العربية	٦٣٠	٣٣,٥	١٠٨٢	٥٧,٦	١٦٧	٨,٩
الكتب الاجنبية	٦٩	٣,٧	٣١٥	١٦,٨	١٤٩٥	٧٩,٦
الصحف العربية	١٤٤٥	٧٦,٩	٤١٥	٢٢,١	١٩	١
الصحف الاجنبية	٧٠	٣,٧	٢٩١	١٥,٥	١٥١٨	٨٠,٨

يتضح من الجدول أن هناك علاقة عكسية بين درجة اقبال الشباب على المطالعة وهوية المطبوعات . اذ أن نسبة الاقبال على مطالعة المطبوعات العربية اعلى بدرجة كبيرة من اقبالهم على مطالعة المطبوعات الأجنبية سواء المجلات أو الكتب أو الصحف .

ويرجع ذلك الى أن الشباب العربي في المجتمع الكويتي لا يتقن اللغات الأجنبية بالمستوى الذي يوفر له مجال الاستمتاع في قراءة المطبوعات كما يتضح على انخفاض نسبة الشباب الذين يقبلون على قراءة المطبوعات الأجنبية بصورة دائمة .

بالنسبة للشباب الذين يطالعون بصورة دائمة فقد اتضح أن الصحف العربية تحتل المرتبة العليا من بين المطبوعات المفضلة تليها المجلات العربية ثم الكتب العربية .

أما بالنسبة للقراء من الشباب الذين يطالعون أحيانا فقد احتلت الكتب العربية المرتبة الأولى تليها المجلات

العربية واحتلت الصحف العربية المرتبة الأخيرة .

وهناك الشباب الذين لا يقرأون فقد اتضح ان غالبيتهم لا يقرأون الكتب العربية ثم المجلات العربية وأخيرا الصحف العربية .

وفيما يتعلق بالمطبوعات الاجنبية فلم تتضح اية فروق جوهرية في درجة التفضيل بين الشباب الذين يطالعون بصورة دائمة ، وتزيد درجة الاقبال على المجلات والصحف الاجنبية على الكتب ، اي ان من بين المطبوعات الاجنبية التي لا يقبل الشباب على مطالعتها تحتل الصحف المرتبة الأولى تليها الكتب ثم المجلات .

الصغار والكبار

ولدى تحليل العلاقة بين المطبوعات المفضلة وبين الفئات العمرية من ناحية والمستوى التعليمي من ناحية أخرى فقد أشارت نتائج الدراسة الى الحقائق التالية :

١ . ان أكثر من نصف الشباب (٥٤,١٪) الذين يفضلون المجلات العربية تتراوح أعمارهم بين سن ٢١ سنة فأقل ، وكلما ازداد العمر قل الاهتمام لقراءة المجلات العربية بين الشباب الذين يطالعون بصورة دائمة . وينطبق نفس الاتجاه على الشباب الذين ذكروا أنهم يطالعون المجلات العربية أحيانا ، حيث بلغت نسبة الفئة العمرية الصغرى أقل من ٢١ سنة (٦٩٪) .

وبعبارة أخرى فان اقبال الشباب على مطالعة المجلات العربية يزداد بين الشباب الذين يطالعون بصورة دائمة أو أحيانا وبصورة خاصة في الفئة العمرية الصغرى ، وتنخفض درجة اقبال الشباب على مطالعة المجلات العربية في الفئة العمرية الكبرى .

٢ . ان غالبية الشباب الذين يطالعون المجلات العربية بصورة دائمة (٦٠٪) هم من مستوى المرحلة الثانوية بفرعيها العلمي والأدبي ، في حين تتساوى نسبة الشباب الجامعيين (في مختلف التخصصات العلمية) والحاصلين على مستوى الشهادة المتوسطة فأقل (١٩٪) لكل منها .

٣ . أما فيما يتعلق بخصائص الشباب الذين يطالعون الكتب العربية فقد دلت نتائج الدراسة أن غالبية الشباب الذين يطالعون بصورة دائمة (٦٧,٤٪) تتراوح أعمارهم بين ٢١ سنة وأقل بينما يقل اهتمام الشباب في المرحلة العمرية المتقدمة بقراءة الكتب .

وينطبق الوضع كذلك على فئة الشباب الذين يطالعون الكتب العربية أحيانا حيث بلغت نسبة الفئة العمرية الصغرى (٦٨ ٪) .

وبعبارة أخرى فان الشباب في المرحلة العمرية المبكرة أكثر اقبالا من الشباب في المرحلة العمرية المتأخرة نحو مطالعة الكتب العربية سواء أكانت المطالعة بصورة دائمة أو أحيانا .

٤ . لا توجد فروق جوهرية بين درجة الاقبال على الكتب والمستوى التعليمي ، فقد دلت النتائج ان نسبة الشباب الحاصلين على مستوى الثانوية العامة فاقل والذين يطالعون الكتب العربية بصورة دائمة (٥١,٩٪) تتعادل تقريبا مع نسبة الحاصلين على المستوى الجامعي في مختلف التخصصات العلمية والأدبية . وتزيد نسبة الشباب من ذوى التعليم المنخفض الذين يطالعون الكتب أحيانا (٦١,٩٪) عن نسبة الحاصلين على المستوى العلمى الجامعى .

أى أن الشباب من ذوى التعليم الثانوى فأقل أكثر اقبالا على قراءة الكتب العربية بصورة دائمة أو أحيانا . ويرجع السبب في ذلك ربما لادراك الشباب الحاصلين على مستوى تعليمي دون الجامعي للحاجة الى قراءة الكتب التي تلبي حاجاتهم وتشبع ميولهم وتساعدهم على التعويض عما فقدوه بسبب توقفهم عن مواصلة الدراسة الجامعية ، أو ربما لادراكهم لاهمية الكتب في حياتهم العملية أو الدراسة الخاصة .

٥ ـ أما بالنسبة لخصائص الشباب الذين يطالعون المجلات العربية حسب السن ، فقد اتضح أنه لا توجد فروق دالة بين نسبة الشباب في الفئة العمرية الصغرى (٢١ سنة فاقل) والذين في الفئة العمرية الكبرى (٢٢ ـ ٢٦ سنة) من حيث درجة الاقبال على مطالعة الصحف العربية سواء بصورة دائمة أو أحيانا حيث بلغت النسبة لكل منها حوالى ٥٠ ٪

٦ ـ تزيد النسبة المئوية للشباب الذين يفضلون مطالعة الصحف العربية والحاصلين على مستوى تعليمي بمستوى المرحلة الثانوية فاقل سواء أكانت مطالعتهم بصورة دائمة (٥٧٪) أم أحيانا (٦٦,٧٪) عن نسبة الشباب الحاصلين على الشهادة الجامعية .

وبعبارة أخرى فان الشباب الحاصلين على معدل تعليمي بمستوى الشهادة الثانوية العامة فأقل أكثر اقبالا على قراءة الصحف العربية من الشباب بمستوى الدراسة الجامعية ، وقد يرجع ذلك الى عدة أمور قد يكون منها وقت الفراغ ، أو الارتباط بالعمل العادى والانشغال أو

النشاط الرياضي .

مشكل اللغات الأجنبية

واذا نظرنا الى مدى اقبال الشباب على المطبوعات الأجنبية فقد أشارت النتائج الى انه يوجد فرق جوهري في نسبة الشباب الذين يطالعون الصحف والمجلات الاجنبية بصورة دائمة في مستوى الشهادة الجامعية (٦٥,١٪) وبين الشباب الحاصلين على مستوى الشهادة الثانوية فما دون (٣٤,٩٪) ، ويقل الفرق بين الشباب الذين يطالعون الصحف والمجلات الأجنبية أحيانا حيث بلغت نسبة الجامعيين (٥٧,٤٪) ونسبة المجموعة الأخرى (٤٢,٦٪) .

أما السبب في هذا الفرق فيكمن في زيادة خبرة الجامعيين في ممارسة اللغات الأجنبية وسعة الاطلاع ومتابعة الأحداث الأجنبية من خلال الصحف الأجنبية

وبالرغم من قلة عدد الشباب الذين يطالعون المطبوعات الأجنبية - حيث بلغت نسبتهم (١٩ ٪) معظمهم يطالعون أحيانا - فان ذلك يدل على وجود بوادر ايجابية في هذه المرحلة من تطور المجتمع الكويتي ، وقد يكون السبب في ذلك راجعا الى الانفتاح الحضاري واستيراد المطبوعات الأجنبية وعرضها في المكتبات المدرسية والجامعية والتجارية في معارض الكتب السنوية التي تقام في دولة الكويت .

وأما من حيث الفروق بين الذكور والاناث بالنسبة للاقبال على المطبوعات المختلفة فقد اتضح ما يلي :

١) تزيد نسبة الذكور (٢٤,٧٪) على نسبة الاناث (١٨,٧٪) من بين الذين يطالعون المجلات العربية بصورة مستمرة ويزداد الفرق بين النوعين اللذين يطالعان أحيانا . أي درجة تفضيل المجلات العربية بين الذكور أعلى من الاناث اللاتي يطالعن دائما .

٢) بالنسبة للمجلات الأجنبية فان نسبة الذكور تزيد على نسبة الاناث بفارق بسيط بين الذين يقرأون دائما أو الذين يقرأون أحيانا [١]

٣) كذلك ينطبق الوضع بالنسبة للكتب العربية فقد اتضح ان درجة اقبال الذكور على الكتب العربية تزيد على الاناث اللاتي يطالعن أحيانا بينما زادت نسبة الاناث عن نسبة الذكور الذين يطالعون دائما .

٤) لا توجد فروق بين النوعين بالنسبة لمطالعة الكتب الأجنبية .

٥) تزيد نسبة الذكور الذين يفضلون مطالعة الجرائد العربية بصورة دائمة (٧٨,٣٪) عن نسبة الاناث (٧٤,٦) ، بينما تزيد نسبة الاناث (٢٤,٦٪) عن نسبة الذكور (٢٠,٦٪) الذين يطالعون أحيانا وذلك بفارق بسيط .

٦) كما لم تتضح أية فروق بين النوعين بالنسبة لمطالعة الصحف الأجنبية .

نستخلص مما تقدم أنه بينما توجد فروق بين الذكور والاناث في مطالعة الصحف والمجلات والكتب العربية سواء بين الذين يطالعون دائما أو أحيانا ، فان الفروق بين النوعين بالنسبة للمطبوعات الانجليزية غير جوهرية .

وختاما نلاحظ أهمية التعرف على اتجاهات الشباب نحو المطبوعات المفضلة ، لأن ذلك يساعد المخططين في نطاق التنمية الاجتماعية والاقتصادية الى استخدام الكلمة المطبوعة في كافة أشكالها وبأساليب متنوعة لجذب الشباب نحو المطالعة واكتساب المعرفة اللازمة لأهداف التنمية .

كما أن هناك حاجة ماسة الى المزيد من البحوث والدراسات التي تتناول تحليل العلاقة القائمة بين المطبوعات المختلفة ودرجة اقبال الشباب عليها والعوامل التي تؤثر في ذلك . هذا بالاضافة الى أهمية تحليل مضمون هذه المطبوعات المفضلة للوقوف على عوامل الجذب وأسبابه من أجل اتباع سياسة تربوية قومية في تعميق الاصالة في الثقافة العربية والاسلامية وايصالها الى الشباب في المجتمعات المعاصرة ، واستخدام المطبوعات كوسيلة من وسائل التنمية والتحديث .

د . أسحق يعقوب القطب .

استاذ علم الاجتماع المساعد

بكلية الآداب جامعة الكويت

(١) بلغت نسبة الذكور (١٣,٣٪) والاناث (١٠,٣٪) .

أقوال معاصرة



■ استخدام البترول كسلاح ـ مع وجود الفائض البترولي الكبير ـ في الوقت الراهن ضرب من الخيال

أحمد زكي يماني

وزير البترول السعودي .

■ لولا هتلر لما كان هناك شيء اسمه اسرائيل

برونو كرايسكي المستشار النمساوي .



■ اذا لم ينتبه الغرب الى ضرورة تدارك الموقف في جنوب افريقيا ، فستشهد تلك البلاد حريقا هائلا ، ستبدو معه احداث الثورة الفرنسية كما لو كانت مجرد نزهة !

كينيث كاوندا

رئيس جمهورية زامبيا .

■ الحب مرض جميل ، ومن الحماقة والجنون والعبث الا يكون له مكان في حياتي .

الكاتبة الفرنسية فرانسوا ساجان



■ لابد ان يكون لدى الانسان ايمان ما ، فالايمان يعطي توازنا عقليا ، بغيره تصبح الحياة صعبة للغاية

عذرا بني صدر

قرينة الرئيس الايراني الاسبق ابو الحسن بني صدر

■ في سنة الفين . سيصل سكان العالم الى ستة مليارات نسمة ، ٩٠ ٪ منهم في الدول النامية وحدها .

من تقرير لدائرة تنمية السكان بالامم المتحدة

■ لم يكن ممكنا أن يسمح الرئيس ريجان ببيع طائرات اواكس للسعودية لو انه اعتقد ان ذلك سيعرض امن اسرائيل للخطر .



الكسندر هيج

وزير خارجية الولايات المتحدة

■ الدول الكبرى لا تنظر الينا كشعوب ، ولكن كمناطق نفوذ

انديرا غاندي رئيس وزراء الهند .

■ ليست هناك حاجة الى الحديث عن حق تقرير المصير للفلسطينيين لان لديهم دولة بالفعل هي الاردن .

اسحاق شامير وزير خارجية اسرائيل .



■ اريد ابعاد عرب اسرائيل ، لانني لا اريد ان اقتلهم كل اسبوع بسبب كثرة مواليدهم .

الحاخام الاسرائيلي مئير كاهانا

■ يحيا قداسة الملك ـ الاله .

من هتاف لانصار الدالاي لاما في بكين

دنيا العرب

هل ادركت امم العروبة داءها فاستنهضت لعلاجه حكماءها ؟
هلا تلافت امرها من قبل ان تقوى الجراح فلا تطيق شفاءها
هل تستجيب وقد تعالت في الفضا صيحاتنا ، فتجاهلت اصداءها ،
الطب اعجز ان يداوي امة مرضت ، واصبح داؤها ابناءها
يا امة كانت تقود فاصبحت منقادة تجري الى من شاءها
عصفت بمركبها الخطوب وزلزلت بنيانها ، واستهدفت افناءها
تاهت وضاعت في المفاوز يوم ان اعطت اعنة حكمها سفهاءها
فعثوا فسادا واستباحوا عرضها وترابها وجوارها ودماءها
نسيت ـ بما تلقاه من اخوانها الاكثرين عداوة ـ اعداءها !
ما للسياسة بوأت صهواتها حمقى الرجال ، وسودت غوغاءها
تخذوا السياسة للرياسة سلما ومطية ، واستخدموا عملاءها
واستوردوا من كل ارض مذهبا ومناهجا ما اسعدت ابناءها
خدعوا الشعوب واوهموها ان في تلك المذاهب عزها وثراءها
لو كان فيما يصدرون سعادة لبني الحياة رأيتهم سعداءها
تلك المذاهب شر ما منيت به امم العروبة وابتلى جهلاءها
غامت سماء العرب حتى اصبحت ومضاتها هي صحوها وصفاءها
لا ينعش الآمال صحو عابر وبشائر تهدي لنا اشذاءها
الا وعاد الغيم واحتجب الضيا واسترجعت دول الاخاء عداءها
واستلت الايدي السيوف وايقظت أحقادها وتعمدت اذكاءها
لم يثنها دين ولا قربى ولم تسمع حناجر لا تمل رجاءها

× × ×

هل حققت قمم العروبة مطمحا لشعوبها ؟ هل كفكفت أهواءها ؟
هل افلحت في صنع امتنا التي تسعى لترفع في الوجود لواءها
وهل استطاعت ان توحد شملها وتضم وهي طوائف اعضاءها

شعر : محمد الحلوى

والقدس باكية تودع في اسى ... وتجلد مستكبر شهداءها
يا من اساءوا للعروبة لستم ... قسما - وان كابرتم - ابناءها
حتى تترجم حبكم اعمالكم ... وتشيدوا فوق القلوب بناءها

× × ×

لا خير في حكم يسخر امة ... تبدي الولاء فيستغل ولاءها
واذا الشعوب استسلمت في طاعة ... عمياء ضلل حبها رؤساءها
والحاكمون الراشدون من اعتلوا ... عرش القلوب وقربوا عقلاءها
واستبصروا بهدى السماء ونورها ... وترسموا في حكمهم إيحاءها
يا امة قد وحدت في دينها ... ربا ولم تشرك به اشياءها
لِمَ لَمْ توحد في الحياة طريقها ... لِمَ عدّدت في حكمها آراءها ؟
لِمَ اعرضت عن دينها وهو الذي ... صنعت قواه وجودها وبقاءها ؟
ان لم تجد في الدين ما يهدي فلن ... تلقى سواه مبددا ظلماءها
دنيا العروبة مأتم في مأتم ... ومحافل تخفي الدموع وراءها
واذا استطابت امة اوضاعها ... وفسادها لم تعتزل اخطاءها !
اني لأخجل من . تمزق امة ... قد أيأست من رشدها صلحاءها
فمتى تعي ؟ ومتى توحد صفها ... ومتى تعيد الى القلوب نقاءها ؟

× × ×

يا امة بالامس كانت امة ... تهدي وتنشر في الوجود ضياءها
وتسوس بالحسنى وبالعدل الذي ... غمر الحياة سنا وكان رواءها
لا تتركي الآمال في اعماقنا ... تذوي ولا تستمهلي احياءها
انا هنا في مغرب الاحرار لم ... نفتأ ندعم صرحها وبناءها
ونمد ايدينا لاخوتنا فلا ... نلقي يدا لاخ تريد لقاءها ؟
يا امة بالامس كانت امة ... تهدي وتنشر في الوجود ضياءها
اني افضل ان اموت مخافة ... من ان اعيش وان اصوغ رثاءها !

الضجة حول أسعار النفط مناورة أم مؤامرة!

بقلم الدكتور حميد القيسي

كل الشواهد تقول ان الضجة حول أسعار البترول هى مناورة ـ أو مؤامرة ـ غربية أمريكية لتغطية الاستمرار فى نهب ثروة الدول المنتجة والجور على حقوقها . وكل الشواهد تقول ان اتهام مضاعفة أسعار البترول بالمسئولية عن الغلاء والتضخم فى العالم ، ليس الا مغالطة كبرى ، تكشفها الدراسات التى تقول ان البترول ساهم بنسبة ١ ٪ فقط فى ارتفاع الأسعار بالدول الصناعية .

لقد كانت مسيرة أسعار البترول العالمية طويلة واتسمت بالتأرجح والتذبذب أحيانا ، وبالاستقرار أحيانا أخرى خلال الأربعين سنة الأخيرة على الأقل . وأسباب هذه الحالات كانت تحت سيطرة المهيمنين على صناعة البترول فى أكثر الأحيان .

لقد احتلت أسعار البترول مكانة مهمة فى الاقتصاد بعدما احتل البترول مكانة بارزة فيما بين مصادر الطاقة التى اعتمدتها البشرية . وكان ذلك بالضبط فى منتصف هذا القرن ، عندما فاق البترول بأهميته مكانة الفحم الذى اعتمدته الأقطار الصناعية منذ القرن الثامن عشر كمصدر أساسى للطاقة واحتل البترول هذه المنزلة المفضلة لصفات مميزة خصته على الفحم كان أهمها بخس ثمنه ونظافته وسهولة نقله وخزنه . فمنذ أواسط هذا القرن والبترول يستحوذ على النسبة الكبرى بين مصادر الطاقة المختلفة التى تعتمد عليها البشرية فى الحصول على الطاقة للصناعة وللاستهلاك البيتى .

ومما زاد اهمية البترول تطور تكنولوجية استخدام مشتقاته كلقيم لصناعات عديدة اهمها الصناعة الكيماوية التى استفادت من هذه المشتقات فى صناعة المئات من البضائع المصنعة والتى اكتسبت لقب « الصناعات البتروكيماوية » اسما جديدا لها .

محاولات التغيير

كانت أسعار البترول العالمية وحتى شهر اكتوبر من عام ١٩٧٣ تحدد بصورة أساسية بواسطة الشركات الكبرى العاملة فى صناعة البترول وبالذات من قبل الشركات السبع الكبرى المعروفة بلقب الأخوات السبع » [١] . وكانت أسعار البترول المنتج فى مختلف بقاع العالم مرتبطة بصورة أو أخرى بأسعار البترول المنتج فى الولايات المتحدة الأمريكية وبترول فنزويلا المسيطر عليه من قبل الشركات الكبرى . وكانت هناك « أسعار معلنة » تذيعها هذه الشركات بالنسبة لأنواع

(١) الشركات السبع الكبرى هى شركة اكسون للبترول وشركة شل الملكية الهولندية وشركة غلف للبترول وشركة ساكوني موبيل وشركة ستاندرد كاليفورنيا وشركة تكساكو ، وشركة البترول الوطنية .

البترول وبالنسبة للمناطق المنتجة له في شتى أنحاء العالم .

شهدت الستينات محاولات عدة لتغيير طريقة تحديد أسعار البترول . وكان أولها انشاء منظمة الأقطار المصدرة للبترول (الأوبيك) في عام ١٩٦٠ . الا ان هذه المنظمةلم تفلح في زيادة الأسعار ، بل نجحت الى حد ما في ايقاف انخفاض الأسعار الذي ساد الصناعة البترولية خلال عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٠ والذي دفع الأقطار المصدرة للبترول الى انشاء المنظمة بدعوة من العراق . كما حاولت حكومة الجزائر ـ بعد الاستقلال ـ عقد اتفاقات ثنائية مع الشركات صاحبة الامتيازات في أراضيها ، تحدد بموجبها ما سمي « بأسعارالاشارة » التي كان بموجبها تحتسب عوائد الدولة . الا ان هذه الاسعار لم تختلف كثيرا عن القاعدة الأساسية في تحديد الأسعار وعلاقتها بأسعار البترول الأمريكي . وهكذا عمدت حكومة ليبيا بعد ثورة الفاتح من سبتمبر أيلول ١٩٦٩ الى عقد اتفاقيات مع الشركات العاملة تم بموجبها رفع أسعار البترول الليبي ، الا أن الأساس كان أسعار البترول الأمريكي ، والزيادة التي تحققت غطت المميزات المفضلة في البترول الليبي ، الخاصة بقربه من مناطق التسويق الأوروبية ، بعد غلق قناة السويس على اثر حرب حزيران ١٩٦٧ ، وميزة محتواه الواطيء من الكبريت ، وخفة وزنه بالمقارنة مع أنواع البترول المختلفة المنتجة في الشرق الأوسط . ومن ثم كانت محاولة مؤتمر طهران في الرابع عشر من شهر فبراير« شباط » ١٩٧٢ ، التي زادت من أسعار البترول المنتج في منطقة الخليج العربي آخذة بنظر الاعتبار ارتفاع أسعار البضائع المصنعة التي تستوردها الدول المنتجة للبترول ، وزيادة الطلب على البترول نتيجة للشتاء القارص الذي مرت به أوروبا ، والانتعاش الاقتصادي الذي مارسته الأقطار الصناعية الأوروبية . الا أن ارتفاع الأسعار بموجب اتفاقية طهران والاتفاقيات التي لحقتها في عام ١٩٧٢ وخاصة اتفاقية طرابلس الثانية ، لم تأت بزيادات في مستوى الأسعار مما يجعلنا نستنتج بأن البترول خارج الولايات المتحدة الأمريكية قد اكتسب قيمته الحقيقية أو اختلف بأسعاره كثيرا عن البترول الأمريكي .

حرب أكتوبر

ان منعطف الطريق في تصحيح أسعار البترول غير الأمريكي كان في مؤتمر الكويت الذي عقدته أقطار الخليج العربي في السادس عشر من شهر اكتوبر عام ١٩٧٣ ، والذي قررت فيه رفع أسعار بترولها بنسبة (٧٠) بالمائة دون الحصول على موافقة الشركات العاملة في تلك الأقطار . وكانت هذه هي المرة الأولى من نوعها في تاريخ استغلال الموارد الهايدروكاربونية في البلاد المنتجة للبترول بمنطقة الشرق الأوسط التي ترفع بها الأسعار من طرف واحد . وعلى أثر جلسة السابع عشر من أكتوبر ١٩٧٣ واجتماع ديسمبر من نفس السنة ، قررت أقطار الخليج العربي المنتجة للبترول حظر البترول العربي عن الدول التي ساندت اسرائيل في حربها مع العرب عام ١٩٧٣ ، كما قررت تقليص الانتاج بنسب تراوحت بين (٥ ـ ١٠) بالمائة .

في فترة النصف الأول من عقد السبعينات وعلى أثر تصاعد الوعي القومي لدى شعوب الأقطار العربية المنتجة للبترول ، عمت هذه البلاد حركة تأميم للموارد البترولية . فقد أممت حكومة الجزائر في عامي ١٩٧٠ و ١٩٧١ حوالي (٩٥) بالمائة من الشركات الأجنبية . وأمم العراق الشركات الأجنبية العاملة في أراضيه وذلك في الأول من شهر حزيران عام ١٩٧٢ .وقامت حكومة ليبيا بتأميم أكثر من (٥٠) بالمائة من المصالح البترولية الأجنبية وذلك خلال الأعوام (١٩٦٩ ـ ١٩٧١) . كل ذلك زاد من قابلية الأقطار المنتجة للبترول في الشرق الأوسط في الهيمنة على عملية تحديد أسعار ما تنتجه من بترول . الأمر الذي جعلها تجتمع في أوقات متفاوتة ، وتحت مظلة منظمة الأوبيك خلال ما تبقى من عقد السبعينات ، لتصحيح أسعار البترول ، آخذة بنظر الاعتبار تفاقم التضخم النقدي العالمي وتدهور سعر الصرف للدولار ، العملة التي تدفع بموجبها قيم البترول .

ان حظر البترول العربي عن الولايات المتحدة وهولنده وبلجيكا ، وهيمنة الدول المنتجة للبترول على مواردها البترولية ، وسيطرتها على عملية تعيين أسعار

البترول ، قد ولد « صدمة » لدى الأقطار الأوروبية المستهلكة للبترول ، والتي اعتادت شراء البترول بالكميات والأسعار التي ترغب بها .. وقد عبرت عن هذه الصدمة بتسميتها « أزمة الطاقة » والحقيقة هي « أزمة امدادات البترول » . اذ اكتشفت الأقطار المستهلكة للبترول لأول مرة انها في وضع غير مطمئن له بالنسبة للامدادات المستقبلية من البترول .

وأوروبا التي اعتادت على البترول الرخيص كمصدر أساسي للطاقة ، أصبحت و الحالة هذه ، في مركز غير مضمون الامدادات البترولية ، وبالتالي أصبحت صناعاتها مهددة في أي لحظة . كل ذلك دفعها بصورة هيستيرية نحو ايجاد بدائل للطاقة ، والتعاون فيما بينها ، بهدف تخزين البترول وتقنينه وقت الحاجة ، وتقليل اعتمادها على البترول المستورد . فظهرت « وكالة الطاقة الدولية » عام ١٩٧٥ لتحقيق هذا الهدف . ونشطت أقطار منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية وأقطار السوق الأوروبية المشتركة لتنفيذ هذه الاهداف . وهي نشيطة وفعالة حتى يومنا هذا في تحقيق ما خططت له في هذا المضمار وخاصة في اكتشاف بدائل طاقة تنافس بأسعارها البترول . وتتمثل هذه البدائل في الطاقة النووية والوقود الصناعي المنتج من الفحم والمسجيل النفطي ورمال القار والطاقة الشمسية . الا ان هذه المؤسسات وغيرها لم تجد لحد الآن منافسا بديلا للبترول يتميز بنفس ميزاته من ناحية السعر والكفاءة الحرارية . ولا زالت أوروبا والولايات المتحدة ومنذ عام ١٩٧٣ تعيش تحت كابوس امكانية نفاد البترول خلال الخمسين سنة القادمة ، الأمر الذي يوجب ايجاد بديل له بالسرعة الممكنة . وبناء على ذلك فتعتبر الأقطار الصناعية نفسها تمر في « مرحلة انتقالية »الى عصر ما بعد البترول .

ضجة ظالمة ومجحفه

على الرغم من أن أسعار البترول قد تضاعفت عدة مرات منذ عام ١٩٧٣ ، الا ان القوة الشرائية لعوائد البترول لم تزد بعرف أسعار عام ١٩٧٤ الى أكثر من (٧٥) بالمائة ، وذلك نتيجة للتضخم النقدي العالمي والارتفاع المطرد والمستمر في أسعار البضائع المصنعة .وعلى الرغم من هذه الحقيقة المرة ، تدعي الأقطار المستهلكة للبترول بأن ارتفاع أسعار البترول قد أدت الى تفاقم التضخم النقدي العالمي والى عرقلة النمو الاقتصادي وزادت من عجز ميزان مدفوعاتها . انه ادعاء باطل بقلبه وقالبه . اذ كل الدراسات الاقتصادية المتوفرة ، والتي قامت بها مؤسسات تنتمي الى الأقطار الصناعية نفسها أشارت بكل دقة ووضوح الى حقائق مناهضة لما تدعيه أبواق الأقطار الصناعية . فبالنسبة لمساهمة أسعار البترول في التضخم النقدي العالمي ، تشير هذه الدراسات الى أن تكاليف الوقود لم تتعد نسبة (٣) بالمائة من اجمالي تكاليف انتاج البضائع المصنعة ، وهذه النسبة الواطئة ليس لها الأثر الأكبر في رفع مستوى أسعار البضائع [٢] . ان تكاليف العمل وأرباح أرباب العمل لها الأثر الأكبر في ارتفاع أسعار هذه البضائع . كما دلت هذه الدراسات ، على أن ارتفاعا في مستوى أسعار البترول قدره (١٠) بالمائة يعرقل النمو في الناتج القومي بمقدار (٠ , ٣) بالمائة فقط . لذا فليس من المعقول أن يكون تصحيح أسعار البترول كان السبب الرئيسي للكساد التجاري الذي يسود العالم الصناعي منذ فترة تزيد على عشر سنوات . كما أن العجز في بعض موازين مدفوعات الأقطار الصناعية كانت سمة موجودة حتى قبل تصحيح الأسعار عام ١٩٧٣ . لذا فليس ارتفاع أسعار البترول هو السبب في ظهور مثل هذا العجز .ان تخلف التكنولوجيا في بعض أقطار أوروبا الصناعية هو السبب في تأخر صادرات تلك الأقطار ، وليس ارتفاع أسعار البترول .

الا أنه على الرغم من تصحيح أسعار البترول منذ عام ١٩٧٣ ، غير أن البترول لم يأخذ حتى يومنا هذا قيمته الحقيقية . ان أسعار البترول في الوقت الحاضر ، والتي هي كمعدل أقل من (٤٠) دولارا للبرميل دون القيمة الحقيقية لهذه المادة الناضبة . فأسعار البترول في

(٢) قدر خبراء الأوبيك بأن ارتفاع اسعار البترول قد ساهم بنسبة (٩) بالمائة في ارتفاع أسعار البضائع المصنعة في الاقطار الصناعية .

تطورات أسعار نفط أوبك ١٩٦٠ ـ ١٩٨٠
(دولار للبرميل)

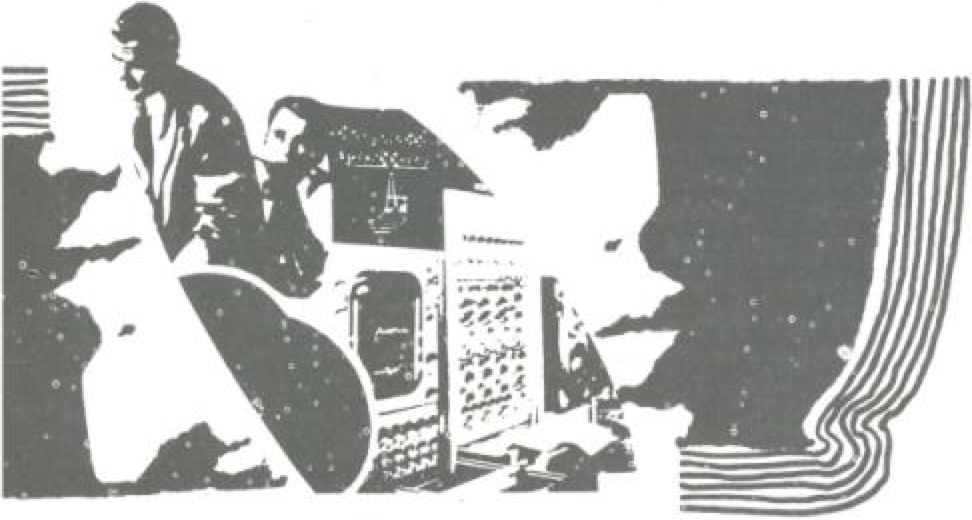
السنة	خام الشرق الاوسط الخفيف كثافة ٣٤			الشرق الاوسط الثقيل كثافة ٣١			الافريقي الخفيف كثافة ٣٧/٤٠		
	السعر المعلن	الرسمي	الفوري	السعر المعلن	الرسمي	الفوري	السعر المعلن	الرسمي	الفوري
١٩٦٠	١,٨٦	١,٨٦	١,٦٣	١,٦٤	١,٦٤	١,٦٤	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠
١٩٦١	١,٨٠	١,٨٠	١,٥٧	١,٥٩	١,٥٩	١,٤١	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠
١٩٦٢	١,٨٠	١,٨٠	١,٥٩	١,٥٩	١,٥٩	١,٣٨	٢,٢٣	٢,٢٣	٠٠٠
١٩٦٣	١,٨٠	١,٨٠	١,٥٠	١,٥٩	١,٥٩	١,٣٥	٢,٢٣	٢,٢٣	١,٨٥
١٩٦٤	١,٨٠	١,٨٠	١,٤٥	١,٥٩	١,٥٩	١,٣٣	٢,٢٣	٢,٢٣	١,٧٣
١٩٦٥	١,٨٠	١,٦٦	١,٤٢	١,٥٩	١,٤٥	١,٣١	٢,٢٣	٢,٠٠	١,٦٨
١٩٦٦	١,٨٠	١,٥٣	١,٣٦	١,٥٩	١,٣٨	١,٢٨	٢,٢٣	١,٩٠	١,٦٣
١٩٦٧	١,٨٠	١,٥٠	١,٣٣	١,٥٩	١,٣٥	١,٢٧	٢,٢٣	١,٩٥	١,٧٦
١٩٦٨	١,٨٠	١,٤٥	١,٣٢	١,٥٩	١,٣٢	١,٢٤	٢,٢٣	٢,٠٠	١,٨٨
١٩٦٩	١,٨٠	١,٤٠	١,٢٧	١,٥٩	١,٣٠	١,٢٠	٢,٢٣	١,٩٥	١,٨٣
١٩٧٠	١,٨٠	١,٣٥	١,٢١	١,٦١	١,٣٠	١,١٥	٢,٢٣	٢,١٠	١,٢٦
١٩٧١	٢,١٩	١,٧٥	١,٦٦	٢,١١	١,٦٨	١,٦٦	٢,٥٤	٢,٢٥	٢,٦٦
١٩٧٢	٢,٤٤	١,٩٠	١,٨٢	٢,٣٧	١,٨٠	١,٧١	٣,٣٩	٢,٨٠	٢,٦٩
١٩٧٣	٣,٣٣	٢,٦٤	٢,٨١	٣,١٢	٢,٠٤	٢,٠٧	٤,٧٥	٣,٢٠	٣,٤٠
١٩٧٤	١١,٥٥	٩,٥٦	١٠,٩٨	١١,٤٨	٩,٤٤	١٠,٢٥	١٤,٦٩	١١,٤٠	١٢,٩٢
١٩٧٥	١٢,٣٨	١٠,٤٦	١٠,٧١	١١,٤٠	١٠,٣٧	١٠,٢٥	١٢,٧٧	١١,٦٦	١١,٥٠
١٩٧٦	١٢,٣٨	١١,٥١	١١,٧٣	١٢,١٥	١١,٢٦	١١,٢٥	١٣,٨٠	١٢,٩٧	١٣,١٤
١٩٧٧	١٣,٣٣	١٢,٤٠	١٢,٥٧	١٣,٢٠	١٢,٢٧	١٢,٣٣	١٥,٤٦	١٤,٤٨	١٤,٣٠
١٩٧٨	٠٠٠	١٢,٧٠	١٢,٩١	٠٠٠٠	١٢,٢٧	١٢,٢٦	٠٠٠٠	١٤,١٠	١٤,٣١
١٩٧٩ الربع ١	٠٠٠٠	١٣,٤٨	١٨,٢٥	٠٠٠٠	١٣,٠٨	١٦,٩٠	٠٠٠٠	١٤,٨٤	٢١,٠٥
الربع ٢	٠٠٠٠	١٦,١٥	٢٢,٢٥	٠٠٠٠	١٦,٢٢	٢٥,٩٠	٠٠٠٠	١٩,٥٢	٢٩,٩٠
الربع ٣	٠٠٠٠	١٨,٨٩	٣٢,٩٠	٠٠٠٠	١٨,٩٦	٢٩,٥٠	٠٠٠٠	٢٣,٤٦	٣٥,٧٥
الربع ٤	٠٠٠٠	٢٢,٨٤	٣٨,١٧	٠٠٠٠	٢٢,٣٩	٣٤,٥٠	٠٠٠٠	٢٦,١٤	٤٠,٣٣
١٩٨٠ الربع ١	٠٠٠٠	٢٧,٧٢	٣٦,٥٥	٠٠٠٠	٢٧,٩٠	٣٣,٧٥	٠٠٠٠	٣٤,٦٧	٣٨,٩٢
الربع ٢	٠٠٠٠	٢٨,٨٢	٣٥,٥٢	٠٠٠٠	٢٩,٢٢	٣٣,٨٥	٠٠٠٠	٣٦,٧٢	٣٨,١٥
الربع ٣	٠٠٠٠	٣٠,٩١	٣٣,٣٠	٠٠٠٠	٣٠,٨١	٣٢,٠٨	٠٠٠٠	٣٧,٧٣	٣١,٧٧

الوقت الحاضر لم ترتفع بالوتائر التى ارتفعت بها أسعار البضائع المصنعة التى تستوردها الأقطار المصدرة للبترول . ان ارتفاع أسعار البضائع المصنعة وتفاقم التضخم النقدى العالمى جعل من عوائد البترول أن تتآكل على مر السنين . كما أن أسعار البترول فى الوقت الحاضر لا تأخذ بنظر الاعتبار أن البترول مادة ناضبة لا يمكن تجديدها . كما أن البترول يباع كمصدر للطاقة بأسعار واطئة اذا ما قورنت هذه الأسعار بتكاليف الحصول على الطاقة من البدائل المختلفة المتمثلة بالطاقة النووية أو الوقود الصناعى المنتج من الفحم والسجيل النفطى ورمال القار والطاقة المنتجة من الشمس . ان أسعار الطاقة من هذه البدائل المتجددة وغير المتجددة هى أعلى بكثير من أسعار البترول فى الوقت الحاضر .

لذا فالضجة حول أسعار البترول التى تقوم بها أجهزة الاعلام الغربية ضجة ظالمة ، ومجحفة بحق الأقطار المنتجة للبترول . ان العالم الغربى الصناعى اعتاد على نهب ثروات الدول النامية ، ودفع أسعار بخسة لمواردها الأولية ويصعب عليه أن يرى أبناء هذه الدول ينهضون مطالبين بأسعار عادلة لما ينتجون من مواد أولية . المطلوب من الأقطار المنتجة للبترول أن تجمع الصف وتوحد الكلمة للرد على هذه الحملات الظالمة ولا بد من حملة اعلامية بترولية مكثفة بقيادة الأقطار العربية المصدرة للبترول لتحقيق هذا الهدف . ■■

د . حميد القيسى

استاذ اقتصاديات البترول بجامعة الكويت



آخر صيحة :

العلم يحدد ساعات النحس والسعد

بقلم : المهندس فتحى عبد الفتاح

العلم هذه المرة وليس المنجم او العراف او قارىء الكف او الفنجان ، هو الذى يتحدث عن وجود ايام « سعد » وايام « نحس » في حياة الانسان ، وعن ان هذه الايام حتم يولد به المره ويرتبط بساعة مولده ، وعن أنه لا مفر من اخذ الانسان هذا الحتم الطبيعي بعين الاعتبار والاسترشاد به فى انشطته ، حتى لا يعاند قدره من حيث لا فرصة له في المعاندة ، وحتى يفهم نفسه ويتجاوب مع نبضها بما يجعله يحقق افضل النتائج فى جوانب حياته المختلفة . وبالحسابات التى يقترحها العلماء هذه المرة اتضح ان مارلين مونرو انتحرت فى يوم « نحس » بالنسبة لها ، وان ادوارد كنيدي تعرض لحادث السيارة المعروف في يوم « نحس » ايضا ، وان السباح الامريكى سبيتس فاز بسبع ميداليات اولمبية في يوم « سعد » .

ان حياة الانسان لا تسير على وتيرة واحدة فهو يوما ممتلىء صحة وعافية يطفح بشرا وقوة وحيوية ، وتطفر منه علامات العافية والنضارة وتوقد الذهن ، وينعكس ذلك كله تصالحا مع المحيطين به وسلاسة فى عمله ، كما ينعكس على كل العالم حوله فيجعلة رحبا بهيجا ... لكن كثيرا ما تمر بالانسان ايضا ايام ضيق وانقباض ، يشكو فيها من الارهاق وخور الحيوية وتبلد الذهن ، ويكون اسرع تهيجا وانفعالا ، ويعانى من اضطراب المزاج ، بل وتنخفض مقاومته للامراض وينعكس الامر على كل شىء حوله فيرى العالم مقبضا وكئيبا .

ويرى بعض العلماء ان كل هذه الحالات لا تأتى خبط عشواء وانها نوبات مد وجزر لدورات موجية منتظمة ، ويقولون ان الابحاث ساعدت على تحديد ثلاث من هذه الدورات تتحكم فى حالة الانسان البدنية والعاطفية والذهنية ، يبلغ ترددها ٢٣ و٢٨ و٣٣ يوما على التوالى ، وتحسب من ساعة مولد الانسان ولكل دورة منها طوران أحدهما (موجب) (مد) والآخر سالب (جزر) ويرى العلماء أن نقاط الانقلاب من الطور الموجب الى السالب أو العكس (انظر الشكل المرفق) وهى نقاط تقاطع منحنى الدورات مع محور الأساس ، نقاط حرجة وبالتالى تكون الأيام التى تقابلها فى حياة الانسان أياما حرجة . واذا تطابقت نقطتا تقاطع منحنى دورتين مع المحور تضاعف حرج اليوم ، بينما يعنى تطابق نقاط تقاطع الدورات الثلاث ما يمكن أن يطلق عليه يوما « أسود » فى حياة صاحبها ، كما يرون أن اتفاق قمم الدورات الثلاث يعنى أن الانسان وقع فى « برج سعده » .

ويرى هؤلاء العلماء أن المرء يحس فى أيام المد البدنى بفيض من القوة والنشاط ، ويتحمل الاجهاد على نحو أفضل وتزداد مقاومة جسمه للأمراض ، كما ان هذه الفترة تكون أنسب الفترات لاجراء العمليات الجراحية ، والعمل البدنى الشاق ، والوصول بلياقة الرياضيين البدنية الى القمة . لكن ما أن يقضى المرء أحد عشر يوما ونصف يوم فى هذه الحالة حتى يفقد انتعاشه ، وتنخفض مقاومته للأمراض ، ويقع فريسة للتعب بسرعة كما تنخفض قوة تحمله . ذلك بينما تؤثر الدورة العاطفية على مزاج المرء فيكون فى مرحلة المد متفائلا اجتماعيا سعيدا ودودا ، ويرى كل ما حوله عبر منظار وردى الا أن زجاج هذا المنظار يتحول فى مرحلة الجزر (بعد ١٤ يوما) الى لون قاتم فيصبح المرء ضجرا سهل الاستثارة وينزوى اهتمامه بكل ما يحيط به .

وتؤثر الدورة الذهنية على المرء فتستيقظ فى فترات المد



اعلان نشر فى احدى الصحف العربية عن الآلة الحاسبة التى « تنبئك يوميا بحالتك الجسمية والنفسية والفكرية » اعتمادا على الايقاعات الحيوية .. والآلة تباع فى الأسواق فعلا !

اهتماماته الابداعية وتزداد قدرته على التذكر ، ويستوعب المعارف الجديدة بسهولة بينما يصعب الدرس فى فترات الجزر وتنحدر قدرة الانسان على التعميم النظرى .... الخ . وفى الأيام الحرجة يفقد المرء السيطرة على حالته لهذا يمكن أن يقدم على تصرفات غاية فى العبثية ، وتقل حساسيته لما يدور حوله وبالتالى يمكن أن يروح ضحية أية حادثة بسيطة .

فى ساعة نحس !

ويورد أصحاب هذه النظرية كثيرا من الأمثلة التى يؤكدون من خلالها صحة نظريتهم ويرون أن السباح الأمريكى سبيتس مثال جلى لتأثير الدورات الحيوية الايجابى على الانسان ، فقد فاز بسبع ميداليات أولمبية بينما كان منحنى حالته البدنية والعاطفية فى الذروة . وأن مارلين مونرو انتحرت فى يومها الحرج بدنيا ، وأن هذا اليوم كان يقع فى الطور السالب لحالتها العاطفية . وأن السناتور ادوارد كنيدى تعرض لحادث السيارة الذى وقع له هو وسكرتيرته فى يوم « حرج جدا » تطابقت فيه نقطتا انقلاب منحنيى حالته الذهنية والبدنية .

وخلافا لهذه الحالات الفردية يقدمون أدلة كثيرة من قبيل صحة التنبؤ بنتائج المباريات والمسابقات الرياضية ، وتحديد فرص الرياضيين الذين يشتركون فى المسابقات والبطولات المختلفة انطلاقا من معرفة دورات حالاتهم الثلاث . ويقولون ان دراسات بعض الأطباء كشفت عن ارتفاع نسبة حالات الموت بدرجة عجيبة خلال الأيام الحرجة والحرجة جدا . وكذا خلال أطوار الحالات البدنية والعقلية والعاطفية السلبية كما يشيرون الى أنه أمكن خفض عدد الحوادث بنسب بلغت خمسين فى المائة فى كثير من شركات النقل فى اليابان والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، عن طريق اعفاء العاملين من القيادة فى أيامهم الحرجة . ومن الجدير بالذكر أن السبيل الذى سلكه الباحثون للتوصل الى هذه النتائج هو الدراسات الاحصائية وأن كثيرا من الباحثين يدحضون النظرية سالكين نفس السبيل !

موجة ليست جديدة

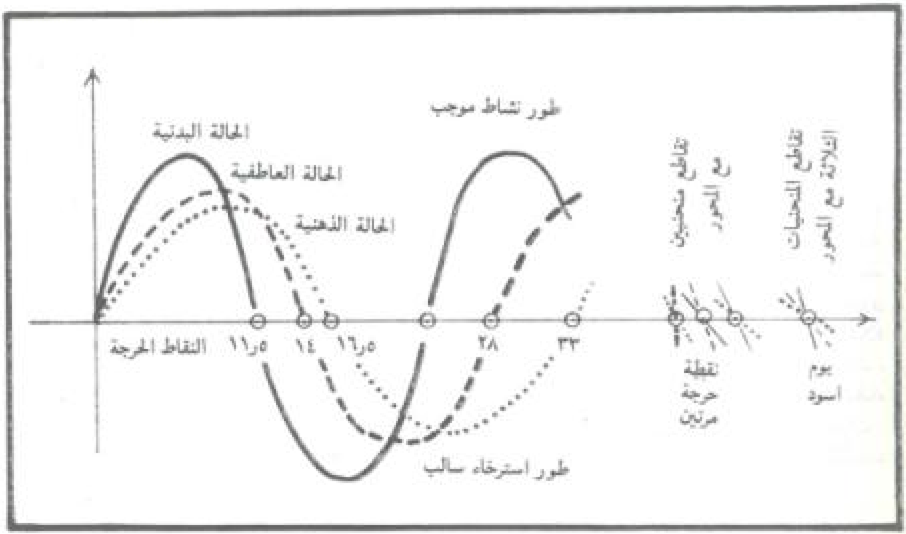
وموجة رواج الدورات الحيوية ليست فتحا جديدا ، ومثلها مثل كثير من الموضات ليست سوى عودة الى اتجاه قديم منسى . وان كانت براعمها الاولى قد ترجع الى حضارة ما بين الرافدين ، التى نقل الاغريق عنها كثيرا من المعارف الفلكية والعلمية والطبية . وان كان ابقراط أبو الطب قد أشار الى وجود أيام مناسبة وأيام غير مناسبة للعلاج الا أن البحث العلمى الحقيقى لموضوع الدورات الحيوية المعنية جاء بعد ذلك بفترة طويلة . ففى نهاية القرن الماضى كان ويلهيلم فليس وهو طبيب من برلين بين أول من أعلنوا عن خضوع نشاط الانسان لدورات حيوية متعددة الأيام . فقد لاحظ الرجل أن نوبات الربو وبعض الأمراض الأخرى تصيب مرضاه عادة كل ٢٨ يوما ، وفى بعض الحالات كل ٢٣ يوما . وانطلاقا من ذلك أدلى بوجهة نظر مؤداها أن حالة الانسان المزاجية والبدنية تخضع لدورتين مختلفتين تردد الأولى ٢٣ يوما وهى تتحكم فى صفات مثل القوة والمثابرة وقوة التحمل والاقدام ، أى انها دورة بدنية (رجالية) ، وتردد الثانية ٢٨ يوما ، وتتحكم فى صفات مثل العواطف والمشاعر والحب والقدرة على الحدس أى أنها درورة عاطفية (انثوية) .

هذا كما ظهرت فى بداية القرن العشرين معطيات جيرمان سفوبودا عالم النفس النمساوى حول اصابة مرضاه بنوبات البرد والأزمات القلبية فى دورات ترددها ٢٣ و ٢٨ يوما ايضا . وبعد فترة لفت مواطنه المهندس المدرس القرد تيلتشير الأنظار الى أن مقدرة الطلاب على استيعاب المواد الدراسية ومستوى اعدادهم واجباتهم يتغير وفق دورة ترددها ٣٣ يوما . ولعل أوضح وأرسخ مثال على الدورات الحيوية المتعددة أيام الدورة الشهرية للتبويض فى المرأة . ويشير الكثيرون ممن درسوا حياة المرأة العاطفية الى وجود دورة شهرية تتزامن بشكل من الأشكال مع دورة التبويض .

وانطلاقا من كل المعطيات السابقة (وما شابهها) نشأت نظرية الدورات الحيوية التى تقول بأن الناس يخضعون فى نشاطهم البدنى والعاطفى والذهنى لدورات موجية ثلاث ترددها ٢٣ و ٢٨ و ٣٣ يوما على التوالى .. كما تحدث العلماء عن دورات حيوية أخرى تتحكم فى الحالة المزاجية ، وفى قدرة الانسان على العمل ... الخ .

الى حيز التطبيق

لكن تلك النظرية القديمة تعرضت لفترات من الرواج والاضمحلال ومن المد والجزر كما اختلف الكثيرون حولها . الى أن جاءت الفترة الأخيرة بامكانياتها فدفعت بالنظرية الى مرحلة نوعية جديدة ولم يعد الأمر يقتصر على الابحاث والمناقشات المحدودة اذ خرجت النظرية الى حيز التطبيق على نطاق واسع : فعلى



رسم يوضح طريقة عمل الآلة الحاسبة الجديدة

سبيل المثال تقوم شركات التأمين الآن بالاسترشاد بمنحنيات الدورات الحيوية ، ضمن ما تسترشد به فى عمليات التأمين ضد الحوادث .. كما تقوم كثير من مؤسسات النقل والطيران باعفاء العاملين فيها من العمل أيام حالاتهم الحرجة .. وتقوم هيئات مختلفة بتقديم نصائحها الى الراغبين فى الزواج على أساسها ، وتستعين هيئات أخرى بها فى نصح الآباء والأمهات بصدد تحديد جنس المولود .. هذا ـ كما يقرر بعض الجراحين ـ توقيت عملياتهم الحساسة وفق أنسب الأطوار لدوراتهم الحيوية الخاصة ودورات مرضاهم . أى أن النظرية صارت تضطلع بدور خطير فى مجالات لها تأثيرها على حياة الناس وصحتهم .. ..

وحتى ندرك النطاق الذى اتخذه شيوع هذه النظرية تكفى الاشارة الى أن توزيع كل من كتابى « الدورات الحيوية ـ اعرف نفسك » لجيتلسون ، و « هل هذا هو يومك ؟ » لجورج تيومين بلغ أرقاما قياسية تقدر بالملايين . » والأمر هنا لايقتصر على الرغبة فى الاطلاع أو التسلية ، اذ يحاول الكثيرون ـ اعتمادا على ما يقرأون ـ تحديد أيام « السعد » وأيام « النحس » الخاصة بهم وبالمقربين اليهم ، ولا يخفى على أحد ما يمكن أن يستتبعه ذلك على سير حياتهم .

هذا كما تحولت الدورات الحيوية الى تجارة رائجة تخصصت فيها كثير من المؤسسات حتى أن شركة جيتلسون بيوريتم كمبيوتر انيكور بورتيد » تبيع شهريا آلافا من منحنيات هذه الدورات (البدنية والعاطفية والذهنية) للافراد بينما توزع « سكور ـ مور بروداكتس انيكوربوريتد » يوميا آلافا من مجموعات الدورات الحيوية التى تستخدم فى التنبؤ بنتائج المباريات الرياضية ، كما تحقق « كاسيو اينكو بوريتد » وكوسموس انترناشنل » أرباحا طائلة من انتاج حاسبات مبرمجة تقدم المعلومات الخاصة بالدورات الحيوية .. وتنتج شركة « تيبرتين » السويسرية ساعة بها نتيجة حيوية تضبط للزبون عند الشراء !!

وقد يرى البعض أن شيوع الاسترشاد بهذه الدورات علامة صحة بالذات اذا سلمنا مع القائلين بأن الدورات حتم لا فكاك منه . لكن الأمر للأسف ليس على هذه الصورة ، ومن المفيد ـ قبل أن نوضح الأسباب ـ الالمام الماسة سريعة بموضوع الدورات الحيوية بوجه عام .

يرى العلماء ان جوهر اى ظاهرة حيوية بوجه عام هو تكرارها فى دورات منتظمة ، وان الخلل فى دورة من الدورات يعنى المرض ، وبلوغ الخلل مدى يقضى على الانتظام تماما يعنى فناء هذه الظاهرة الحيوية . كما يرون أن صحة الجسم الحى تكمن فى انتظام دورات وظائفه

المختلفة وهارمونيتها وان الدورات الحيوية حتم يرتبط بمولد الانسان .

وان كانت دورات كثير من الوظائف الحيوية مثل حركة القلب والتنفس والنشاط الكهربي للمخ ودرجة حرارة الانسان ... جلية محددة لا يمكن الاختلاف حولها . فان كثيرا من الدورات الحيوية الأخرى ليست على هذه الدرجة من الوضوح لتعقيدها وتشابكها ، ولأن كثيرا من المؤثرات والعوامل الخارجية المختلفة تجعل امواج المد والجزر فيها اقل تحديدا ، اى انها تطمس اطوارها المختلفة (ومن هذه الاخيرة الدورات المتعددة الايام التى نتناولها في موضوعنا) . ذلك بالاضافة الى ان كل الدورات الحيوية دورات لها صبغتها الذاتية بجوار النواميس العامة التى يمكن ان تحكمها بالنسبة لهذا النوع البيولوجي او ذاك بوجه عام . واذا صح ما ذكرناه على دورات حيوية بسيطة فما بالك والحديث يدور عن العمليات العاطفية والذهنية وهى عمليات معقدة للغاية في مجتمنا المعاصر تؤثرفيها مثيرات ومحطات خارجية بالغة التعقيد والسطوة . ان هذه الامور مجتمعة تعوق حتى الآن مسألة اقامة النظرية على دعائم صحيحة مائة في المائة .

ولاشك في ان القارىء يدرك ـ بعد ما تقدم من حديث عن مجالات شيوع النظرية ـ مدى خطورة انتشارها دون ان تكتمل اسسها . وللاسف فان ذلك هو ما يحدث الآن ، بالرغم من وجود اعتراضات كثيرة عليها . واذا تجاوزنا اوجه الاعتراض العامة التى ألمحنا اليها واوجه الاعتراض الثانوية التى يمكن تفنيدها بسهولة ، تبقى لدينا مجموعة من الاعتراضات الاساسية والمنهجية التى لا يمكن اغفالها .

اعتراضات على النظرية

ولعل ابرز هذه الاعتراضات صعوبة مثل هذا الفصل التعسفي بين حالات الانسان البدنية والعاطفية والعقلية . لقد اثبت علماء وظائف الاعضاء وجود علاقة وثيقة بين القدرات البدنية وبين المشاعر والاحاسيس الاخرى ، ومن المعروف ايضا ان نشاطا عاطفيا بل ونشاطا عضليا يصاحب نشاط الدماغ .

ولهذا يرى اصحاب هذا الاعتراض انه من غير الممكن وجود الانسان في حالة ذهنية رائعة ، مثلا ، بينما حالته البدنية او العاطفية ليست على ما يرام . وبما ان هذا الفصل التعسفي بين الحالات مستحيل فلا مجال للحديث الا عن تغير في التناسب بين الانشطة البدنية والذهنية والعاطفية .

واذا افترضنا جدلا ان الفصل بين الدورات الثلاث ممكن لوجدنا انفسنا امام مشكلة اخرى هى نقطة بدء كل من هذه الدورات . ويرى تيومين الاخصائي الامريكي في مجال الايقاعات الحيوية ان ميلاد الانسان ، وبصفته لحظة حرجة في حياته يجعل اطوار الايقاعات الثلاثة للمولود ـ وقد كانت مختلفة قبل الميلاد ـ تلتقي جميعا عند نقطة البداية ، اى عند الصفر . ويعترض علماء آخرون على ذلك بدعوى انه حتى مع التسليم بان صدمة الميلاد قادرة على احداث تغيير حاد في اطوار الايقاعات ، لاتوجد ضرورة تفرض ان يقتصر التغيير على التقاء اطوار الدورات الثلاث عند نقطة الصفر بالذات . وهكذا نجد ان منطلقا اساسيا ثانيا من منطلقات النظرية مازال دون حسم .

والمسألة الثالثة الجديرة بالاعتبار هى الجانب الذاتي في الدورات الحيوية ويمكن ان تلقي ضوءا كاشفا هنا دورة راسخة مثل التبويض في المرأة . فان كان المتعارف عليه انها تستغرق اربعة اسابيع فهى تتم لدى بعض النساء كل ٢٦ او ٢٧ يوما ولدى بعضهن كل ٢٩ او٣٠ او حتى ٣١ يوما ، ولدى بعضهن كل ثلاثة اسابيع ...

زد على ذلك ما هو متوقع من تجلي الايقاعات الثلاثة بصورة متباينة في الوظائف المختلفة في جسم الفرد الواحد ناهيك عن الافراد المختلفين ، اذ تلعب امور مثل الطبع والجنس والعمر دورا هاما هاما ولا بأس من اخذ الدورة العاطفية كمثال هنا . ولما كان من المسلم به ان تأثير تغيرات الايقاع العاطفي مثلا يزداد كلما ازدادت عاطفية الانسان فما بالنا والعواطف هى المسيطرة على سلوك الغالبية العظمى من الناس وهى ما تدفعهم الى الفعل حتى قبل ان يكد العقل ليدلى بدلوه . وما بالنا بانعكاس الطور السلبي للدورة العاطفية على قليل التجربة الحياتية او على من عانى طويلا من التوترات العصبية والنفسية .

ان هذه وغيرها مشاكل اساسية لا يمكن ـ دون بحثها باسهاب ودون البت فيها ـان نمضي بثقة واطمئنان في نشر تطبيقات نظرية الدورات الحيوية (البدنيةوالعاطفيةوالذهنية) على نطاق واسع . ولا جدال في ان الحاجة ماسة الى تطبيقها على مجموعات تجريبية محدودة بغرض مواصلة البحث . وينبغي الاشارة

هنا الى ضرورة خروج الابحاث التى يتصب معظمها الآن على عينات من الرياضيين نتيجة لاسباب وملابسات عدة ، الى عينات نوعية اخرى . لأن الرياضيين تعودوا بحكم ممارساتهم كبح تأثير هذه الدورات بدرجة من الدرجات ، ودربتهم على التحكم في النفس بدرجة تفوق ما يستطيعه الانسان العادى ، تجعلهم عينة خاصة قد تدفع الى تشوش البحث . ان واجب العلم بل وواجبه المقدس ان يساعد الانسان على فهم امكانياته بشكل افضل لكن أن تتحول هذه النظرية الى وسيلة لابتزاز اموال السُذّج ، فذلك عبث يصل الى حد الجريمة .

مجمل القول انه لاجدال في احتواء نظرية الدورات الحيوية على حقيقة ما . لكن العلماء لم يتمكنوا بعد من تحديد هذه الحقيقة بصورة قاطعة ، ومازال الوقت مبكرا للجرى وراء اغراء تطبيقها حتى لاتسف الى مستوى التنجيم او قراءة الكف او الفنجان . والبحث العلمى مطالب الآن بالجد في ارساء قواعد هذه النظرية وتحويلها الى قوانين محكمة لاتعرف ادنى تناقض . وربما كان على حق في هذا الصدد من يرى ضرورة تناول المسألة من طرف بعيد وتركيز البحث لا على دورات الحالات البدنية والعاطفية والذهنية وانما على الاسباب الكامنة وراء حدوث مثل هذه الدورات فربما كمن مفتاح الموقف كله في هذه الاسباب .

وربما كان المنطق هو ربط هذه الدورات بحركة الاجرام السماوية . وبالفعل ظهرت علوم كثيرة تعمل في هذا الاتجاه الآن ، لكن لا توجد نتائج عملية نهائية بصددها بعد ، وان كانت هناك افتراضات كثيرة وجيهة حول ميكانيزمات تأثير القمر والشمس والكواكب والنجوم ... وتأثير المد والجزر المرتبطين بالقمر في سوائل الجسم . ولهذا لعل اقرب التصورات الى الصحة هو ربط الدورات الحيوية المعنية بتردد اساسى هو ٢٨ يوما اى دورة قمرية تقريبية . يتحكم في ترددات مختلفة اخرى هى الاسبوع ومضاعفاته ... لكن هذا موضوع آخر .

ولا يسعنا في النهاية الا أن نؤكد مرة أخرى ان الأمر لا يتصل هنا بتاتا بالرجم بالغيب او التنبؤ بالمستقبل .... الخ ، وانما المقصود هو فهم نواميس معينة يجب على الانسان أخذها بعين الاعتبار لتنظيم شئون حياته ، حتى يتجنب المخاطر والأعمال الحساسة في الفترات غير المواتية ، ويستفيد من الفترات المواتية على امثل وجه . ■■

القاهرة ـ فتحى عبد الفتاح

● صنع ميكائيل انجلو تمثالا لموسى عليه السلام ، هو من غير شك اروع تمثال نحتته يد فنان .. فلما انتهى من صنعه نظر اليه مندهشا مذهولا ، وهو لايكاد يدرى : اهو موسى بلحمه ودمه ، ام هو تمثال من حجر اصم .. وظل واقفا امام التمثال اياما وليالى وهو يصيح به : تكلم .. انطق ياموسى ! حتى خر أمامه يبكى وينتحب ، فقد الم به مس من الجنون .. ثم لم يلبث ان كف بصره وأظلمت عيناه ، فكان يتلمس تماثيله بيديه في الم وحسرة ، بينما الناس ينظرون اليها ويستمتعون بروعتها !

● لست اشك في ان القدرة الالهية تنتقم من كل انسان ينسى انه بشر ضعيف ، وان له حدودا لايصح ان يتجاوزها شى بيتهوفن هذا ، فجمع من موسيقاه كل ما يتجاوب في الطبيعة من اصوات واصداء والحان وانغام .. فكيف كان جزاؤه ؟ اصيب بالصمم . فكان يبكي ويصيح ويشد شعره حتى ينتزعه من رأسه ، لانه لا يستطيع ان يسمع موسيقاه التي يستمتع بها الناس .

فصل في غربة العربي !

بقلم : فهمي هويــــدي

الى متى تستمر غربتنا في العالم العربي ؟

هذا السؤال يحمله معه كل عائد من اوروبا ، قدر له ان يتنقل بين ربوعها ، مارا بمختلف الحواجز المفترضه بينها .. نقط الحدود ومراكز الجوازات والجمارك ، ثم يقارن بين ما رآه وما يعيشه في الواقع العربي .

السؤال ذاته طرحه الكثيرون مرارا ، حتى مله السائلون والمسئولون ، واكتشف الجميع ان غربة العربي في بلاده احدى سمات المرحله ، فقرروا ـ على غير اتفاق ـ ان يتعايشوا معهـا في ممارساتهم اليومية ، غير عابئين بحشد اللافتات فوق رءوسهم الذي يؤكد انهم امة واحدة ، من المحيط الى الخليج !

وقد كنت واحدا من هؤلاء الذين سألوا والحوا ، ثم ملوا حتى هتفوا في صمت مر : طوبي للغرباء ! ، الى ان جاءني صديق قضى اجازة صيف في اوروبا لاول مرة هذا العام ، واقتضته رحلة العودة ان يتوقف في عاصمتين عربيتين ، متنقلا بين موطن الذاكره ومصدر الرزق .

جلس صاحبنا مقهورا وقال : في اول مطار اوروبي مررت على موظف الجوازات ، فامسك بجواز السفر ، وفي اول فراغ وضع الختم ، ثم اعطانيه في لحظة زمن . لم يكلف خاطره حتى ان يتثبت من وجود تاشيرة الدخول ، فقط القى نظرة سريعة على هيئتي وهو يناولني الجواز . فوجئت بتصرفه ، وايقنت ان هناك مرحله تاليه يتم فيها فحص الجواز والتثبت من الهويه ، ومراجعة القوائم السوداء . تلكأت وادرت عيني بحثا عن ذلك المسئول الذي سوف امثل امامه ، لأؤكد براءتي وصحة وثيقتي ، ووقفت ورائي اسرتي ، حتى شعرنا اننا عطلنا السير في الممر . عندئذ تقدم مني موظف آخر ، وربت على كتفي مشيرا الى المنعطف المؤدي الى مكان الحقائب .

التقطت الحقائب وتأهبت لمرحلة الجمارك والتفتيش . لم يكن معي شيء محظور ، لكني بحس غريزي كنت متوجسا .. فمن يدري ؟ ، ربما قيل لي ان علب السجائر اكثر مما ينبغي ، وربما صادر « كشاف » الجمرك ما احمله من كتب لانها مكتوبة باللغة العربية ، الامر الذي قد يبعث الشك في نفسه ، ويدفعه الى عرضها على المسئولين زيادة في الاحتياط . وربما قلب الرجل في زجاجات الادوية واحتجز الحبوب المنومة او دواء الهضم ، مشتبها في انها مخدرات ، وربما .. وربما .. وربما .

ظلت تلك الهواجس تتقلب علي ، وانا ابحث عن طاولة الجمرك ، التي افترضت انها لا بد وان تكون قريبه من مكان الحقائب . تلفت وادرت النظر فلم ار طاوله أو جمركا ، راقبت من كانوا معي ففوجئت بان الواحد منهم يخرج بحقيبته من باب على بعد خطوات ، يقف عنده موظف لايختلف في هدوئه عن رجل الجوازات الذي صادفته .

لم اصدق عيني ، وعندما لاحظ الاولاد دهشتي قال اكبرهم ساخرا : يظهر ان هذا البلد « سايب » ! .. لا ضبط ولا ربط ، لا شرطه ولا تفتيش ، لا سؤال ولا تدقيق .

كان لدي يقين لا يتزعزع بان الخروج لا يمكن ان يتم بغير تفتيش ، وان اجتياز الباب دون ذلك جريه قد تعرضنا للمطاردة طوال اقامتنا .

لقد تعلمت من المطارات العربيه طوال سنوات سبع انني متهم بالتهريب ، فضلا عن التسلل غير المشروع . امام الجوازات كنت اثبت براءتي من تهمة التسلل ، وامام رجال الجمارك كنت اثبت البراءة من جريمة التهريب . واعتدت على هذا الموقف وألفته حتى اعتبرته من المسلمات الامنية اللازمة

ذلك اليقين بكافة مسلماته ، انهار كله خلال الدقائق العشرين التي مرت منذ نزولي من الطائرة واجتيازي مكتب الجوازات ، والتقاطي للحقائب ثم وقوفي على باب الخروج ، ومروري الى الشارع .. هكذا بغير تفتيش !

●

ومضى صاحبنا المقهور يروي قصته ..

بعد ذلك كان علينا ان تنتقل من بلد الى آخر بالسيارة مع بعض اقاربنا المقيمين هناك ، الأمر الذي كان يقتضي ان نجتاز الحدود لنصل الى هدفنا . خرجنا في سيارتين ، واحدة قدتها وفيها الاهل ، والثانية تقدمتنا وقد اندس فيها فريق الاقارب . وكان مقدرا ان نصل الى نقطه الحدود في ساعة زمن . توكلنا على الله وسرنا ، وبعد مضي الساعه لمحنا رجلا واقفا عن بعد يشير بيده الى السيارات ، فظننته يريد الركوب معنا فلم اعبأ به . صارت الساعة سبعين دقيقه ثم ثمانين ، ولا اثر لحاجز الحدود ولا مراقبي الجوازات او الجمارك . خشيت ان نكون قد ضللنا الطريق ، فنبهت السيارة المتقدمه باطلاق الزمور على فترات متقطعه ، واشرت على قائدها بالوقوف ، فجاءني قلقا ليطمئن على سلامتنا . سألته ان كان متأكدا من اننا نسير في الطريق الصحيح ، فرد بالايجاب . وعندئذ سألته ان كان ثمه خطأ في تقدير المسافه ، فاجاب بالنفي . عندئذ سألته لماذا لم نصل الى نقطة الحدود اذن ، فضحك وقال ، هل تذكر ذلك الرجل الذي اشار الينا قبل عشرين دقيقه ؟ .. انه حاجز الحدود وموظف الجوازات وكشاف الجمرك . هو الحكومه هنا !

لم اصدق ، وظننته يمزح ، حتى اقسم باغلظ الايمان باننا الان في داخل حدود البلد الثاني ، وان كافة « اجراءات » الدخول قد تمت ! قلت ، حتى دون ختم جوازات السفر ؟ قال ، سيختمون الجوازات عند الخروج . وانصرف ليواصل السير .

●

في موطن الذاكرة كانت تنتظرنا مفاجأة ـ قالها صاحبنا المقهور بأسى ـ في المطار وقفنا في صف طويل كالمعتاد امام موظف الجوازات ، وعندما جاء دورنا اخيرا قلب الموظف جوازات سفرنا ، وبعدما دقق في الاسماء واستوضح الهمزات والنقاط الفوقية والتحتيه وطابق الصور على الاصول ، دفع بالجوازات الى آخر بجانبه ، الذي رجع الى دفتر ضخم مليء بالاسماء الموزعه حسب الحروف الابجدية ، وامام الاسماء علامات حمراء وخضراء وزرقاء . وبينما كان الرجل يمر بطرف قلمه على الاسماء ، كانت زوجتي تبادلني نظرات زائغه ، وكنت اسمع صوت دقات قلبي يعلو شيئا فشيئا ، بينما شيء يتداعى في داخلي ويوشك على الانهيار ، حتى رفع الرجل راسه واعاد الينا جوازات السفر باستثناء بطاقة واحدة .. بطاقتي انا . قبل ان افتح فمي بالسؤال ، سمعته يقول بثبات القاضي الذي ينطق حكما لاطعن فيه : اذهب مع الرقيب الى النقيب فلان ، الذي يريد ان يلقاك . تماسكت بعدما سمعت صوت الانهيار ، اقتادني الرقيب الى مكتب النقيب ، الذي قال لي بلطف انها « شغلة بسيطه » سوف يستوضحها مني العقيد فلان مساء غد ، ثم يسلمني هناك جواز السفر . ومشكورا سمح لي بالخروج وانا ذاهل عما يجري . كانت اسرتي بانتظاري في لهفة وجزع . اخفيت انهياري ، وطمأنتهم قائلا ان النقيب اكد لي انها « شغلة بسيطة »

لملمنا حوائجنا واتجهنا صوب موظف الجمرك . سألني الرجل وهو يمد يده ليلقي نظره على جواز سفرنا ، انت الذي استدعاك النقيب ؟ قلت في انكسار : نعم . فقال على الفور : هات الشنطات . وضعنا كل ما تحمل على الطاوله ، وفتحنا حتى الخطابات المرسله معنا الى الاقارب ، ووقفنا مثل طابور الاسرى ننتظر النطق بالحكم . مضى الرجل يفتش باهتمام بالغ ، وكانت الصحف والكتب اول ما احتجزه ، هممت بان اشرح له ان الكتب بعضها للتسليه ، والبعض الاخر اكاديمي مما صدر حديثا ، لكن زوجتي رمقتني بنظره توسل فلزمت الصمت ، وعدت الى الذهول مرة اخرى . قلب الرجل الحقائب راسا على عقب ، وقرأ كل الخطابات ، وفتح علب الادوية ، واحتجز ربطة عنق وزجاجة عطر ، بينما نحن ماثلون امامه في صمت .

بعد دقائق كان الرجل قد اتم مهمته ، وكانت الحقائب قد تحولت الى تل مبعثر من الثياب . عندئذ اشار الينا بيديه وقال : تفضلوا . شكرناه على لطفه وهممنا بالانصراف بينما عيناي على الاغراض التي احتجزها ، لكني آثرت السلامه فلم انطق بحرف .

خرجنا جميعا نجرجر اقدامنا ، بعدما اغلقنا الحقائب كيفما اتفق . وهمست زوجتي قائله : احمد ربك ان المسأله وقفت عند هذا الحد .

لقينا الاهل المنتظرون في الخارج وقد اقلقهم تأخرنا ، فاقبلوا متسائلين : عسى ما في شر ؟ قلت مصطنعا الهدوء : الرائد فلان قال انها شغلة بسيطه ! قال واحد من المستقبلين ، خير ، غيركم انتظرناه ولم يخرج ! ومضى موكب الأسري الى البيت !

رغم الاعياء لم تنم من الغم ، وانقضى دهر قبل ان يحل المساء و يقترب موعد العقيد . ظللت على الجمر طوال اليوم ، ولم استطع حتى اللحظة الاخيرة ان اجد تعريفا لتلك « الشغلة البسيطة » التي تستوجب مساءلتي امام ضابط كبير . على باب العقيد جلست وقد هيأت نفسي لاسوأ الاحتمالات ، بعدما اوصيت زوجتي بنفسها وبالاولاد . وكتبت لها توكيلا ، وودعتها ، في مشهد الرحيل الى الآخرة . بغير مقدمات سألني العقيد ، وانا اتظاهر بالثبات : هل صحيح انك هاجمت الحكومة في محاضرة امام الطلاب ، يوم كذا الساعة كذا ؟

صفعني السؤال . فانا لست متهربا ولا متسللا ، بل مصيبتي اكبر من ذلك بكثير ، انا ضد الحكومة ومتهجم عليها . تماملت ، واستجمعت قواي وقلت : ياسيدي هل يعقل ان يشتم استاذ حكومته في بلد آخر ، ثم يجيء بنفسه اليكم بعد ذلك . من اختار ان يسب حكومته من على اي منبر في الخارج ، فقد اختار من البداية الا يعود الى وطنه . وهو ما لم افعله ، بدليل انني قدمت مع اسرتي لنرى الاهل ونشبع شوقنا الى الوطن . قلتها وسكت ، كمن ينطق بكلماته الاخيره قبل ان ينفذ فيه حكم الاعدام .

ادهشني ان بدا العقيد متفهما لوجهة نظري ، وظل يسأل وانا ارد في يأس ، حتى قال في الختام انهم كانوا متاكدين من ولائي وحسن سلوكي ، لكنه اراد ان يتعرف علي فقط ، راجيا ان تتعزز الثقة ويستمر التعاون بيننا . ولم افهم قصة « التعاون » هذه الا بعد ان سألني عن نشاطات بعض الزملاء ، فقلت له كلاما لايضر ولاينفع ، معتذرا بانني لم اكن جاهزا لمثل تلك الاسئله .

ويبدو انه لاحظ ارتباكي ، ففتح ملفا امامه عليه اسمي ، وسحب منه جواز السفر واعطانيه في هدوء ماكر ، ثم دعاني لان نشرب فنجان قهوة في لقاء آخر . احتضنت البطاقه خلسة وسألته ، هل استطيع ان اسافر من المطار بغير عقبات . فاكد لي انني « حر » تماما ، وان الشغله البسيطه قد انتهت ، وان صفحتي عند الحكومة باتت بيضاء كالحليب .

هرولت متجها الى البيت ، عند مشارفه لمحت الزوجة والاولاد والاهل يتطلعون ملهوفين من النوافذ والشرفات .

وعندما وضعت رجلي على عتبة الشقه قلت لزوجتي وانا الهث : سنسافر الليله !

اجلسوني مبهوتين ، وامطروني بالاسئله ، وعندما استردت انفاسي واستجمعت قواي قلت لهم بلهجة قاطعة ان قرار السفر لا رجعه فيه . قالوا نحن في موسم العودة وخطوط الطيران مشغوله . قلت نسافر بالبر . ليذهب كل واحد من الاهل الى شركة طيران ، فاذا فشلت المحاولة نبحث عن اول سيارة مسافره

رفضت كل حججهم في محاولة استبقائنا يومين او ثلاثة .وعندما يئسوا من ثنيي عن عزمي سلموا ، وامتثلوا لتعليماتي . عندئذ فقط استرحت وهدأت اعصابي . وبالتدريج بدا لقاؤنا مع الاهل يأخذ صورة اقل توترا . مضينا حتى منتصف الليل نتحدث عن القاصي والداني ، واخبار البلد ، ناسها وايامها .

وحتى اذان الفجر لم انم . كان شريط الرحلة يتتابع في رأسي كانه كابوس مزعج . كيف بدأنا وكيف انقلب العرس الى مأتم . سخرت من فكرة ان المطار هو القفص ، متى خرجت بريئا منه فانك تصبح مطلق السراح وتتصرف بارادتك كانسان . اكتشفت ان القفص اكبر بكثير مما تصورت . ان البلد كله صار قفصا . والدليل هو رقدتي هذه ، والانهيار الذي حدث في داخلي . والكمد البادي على وجه زوجتي . والصدمة التي اصابت الاولاد حتى اخرست ألسنتهم واختطفت البسمات من وجوههم . لقد دخلنا مخلوقات سوية ، وصرنا في ساعات حيوانات مذعورة !

قبل الظهر كان قد جاءنا النبأ السعيد . ثمة سيارة راحله باسرة صغيرة بعد الغداء ، نستطيع ان نحشر فيها ونسافر . وقد تم ترتيب الامر مع صاحبها ، الذي كان من اقربائنا البعيدين .

في الطريق الى الحدود سمعت زوجتي تتمتم بما تحفظه من آيات القرآن الكريم والادعيه . وهي مغمضة العينين . حتى لمحنا عن بعد طوابير من البشر والسيارات ، مصلوبة تحت الشمس التي آذنت بالمغيب . انضممنا الى طابور الاسرى الطويل ، حيث يصطف العرب جميعا امام مكتب ، بينما خصص للاجانب مكتب آخر . كان الاجنبي لايكاد يقف امام الموظف المختص حتى يمرق كالسهم . اما نحن فعلينا ان ندفع ثمن عروبتنا وننتظر الفحص والتدقيق والمراجعه فضلا عن التفتيش وخلافه .

هدنا الاعياء المقرون بالخوف من المجهول ، حتى تحولت السياره الى ما يشبه سرادق العزاء.الكل صامت ومهموم ، باستثناء ام العيال التي علا صوتها وهي تتمتم بالآيات والادعيه . بين الحين والآخر كنت اختلس النظر الى مكتب الاجانب ، وانا اكتم صرخات الاحتجاج .

صبرنا وصبرنا ، حتى نام الاولاد ، واخيرا جاء قائد السيارة متهللا وقال : هاتوا الجوازات . هناك رقيب من ناحيتنا تسلم عمله في ورديه الليل . فرحت !

ناولته البطاقات بسرعه ، ثم غاب ربع ساعه وجاء يهرول ناحيتي ، وسألني بقلق : لماذا يريدك الجماعه ؟ صعقت . شعرت بان صخرة سقطت فوق رأسي فاصابتني بالدوار وافقدتني النطق . اعاد على صاحبنا السؤال ، فلم اجد ردا ، ونهضت لاصحبه . في الطريق استجمعت قواي ورويت له ماحدث معي في المطار ، مؤكدا انها « شغلة بسيطة » مثلما اكد الرقيب والرائد والعقيد !

امام الرقيب ابن الناحية فهمت انني مطلوب . واستنتجت ان ثمة لبسا في الامر ، وان هذه هي التعليمات التي سبقت لقائي بالعقيد ، شرحت له القصة كاملة ، وشددت على ذكر كل كلمة قالها العقيد بعدما اطمأن الى براءتي وحسن سلوكي . ثم توسلت اليه ان يجري اتصالا بمكتب العقيد ليتثبت من صحة اقوالي . وبعد الحاح منا نحن الاثنين ، وافق الرجل على ان يتوسط لنا عند رئيسه لكي يتولى هذا الاتصال . وعندما اختفى الرقيب القيت بنفسي على اول مقعد ، ووجدتني اردد ـ ايضا ـ كل ما احفظه من آيات قرآنيه وادعية ، مستغفرا عن كل ما اقترفته من ذنوب ، مستعيذا بالله من شر ما خلق .

وبينما انا اردد آيات الله ، وذهني مشتت هنا وهناك ، انفتح الباب ودخل الرقيب مبتسما وهو يقول : الحلوان ؛ فهمت الاشارة . قفزت من مقعدي واحتضنته وقبلته ، ثم احتضنت صاحبي ، اخرجت كل ما

معي من نقود واعطيتها لذلك الرجل الذي حل اي البشرى . وانطلقت مسرعا لازف النبأ الى زوجتي

معتذرا لقريبنا عما سببته له من تأخير وازعاج . القيت بنفسي في المقعد الخلفي للسيارة الى جانب زوجتي ، التي دبت الحياة في وجهها ، ومضت تلهج بشكر الله على منته الكبرى ، واستجابته لتوسلاتها ودعائها بان يخلصنا الله من « اولاد الحرام » ، وان نعبر الحدود سالمين .

كان صوته قد تهدج ، وبدا عليه الاعياء ، فاخرج قرصا من جيبه وابتلعه ، ثم مضى صاحبنا المقهور يقول وكانه يستعيد شريط كابوس لم ير اتعس منه .

هل تعرف كم مرة على الطريق فتشونا ، وانزلوا كل امتعتنا ، وفحصوا السيارة قطعه قطعه ، حتى الابواب والعجلة الاحتياطيه ؟ هل تعرف كم سؤال وجه الينا حول الاصل والفصل والانتماء ؟ .. ثم اجاب : اربع مرات توقفنا ، في كل مرة كان يحيط بنا الجنود المدججون بالسلاح ، التي ترسل اعينهم عشرات من اشارات الارتياب والاتهام . وكنا نبدأ من الصفر رحلة اثبات البراءة والولاء وحسن السلوك . وفوجئنا في احدى المرات بعمال فنيين آسيويين ، يدخلون تحت السيارة ويدسون ادواتهم في « الموتور » ، ويخلعون اجزاء ثم يردونها ، بحثا عن شئ خطير لم نعرف كنهه .

لم يحدث ذلك معنا وحدنا ، لكنه تكرر مع جميع العابرين ، خصوصا اذا ثبت في حقهم انهم عرب . الاجانب كانوا يقابلون بكل رقه واحترام ، ويمرون دون ان تمس لهم كرامة او تقلب لهم حقيبة ،

اخيرا وصلنا الى حيث مصدر الرزق . وكنا مهيئين تماما لكافة صور التفتيش والتدقيق ، بعدما اعتدنا على نظرات الشك والاتهام . فلم يصبنا شئ يذكر ، ومرت مراحل عبورنا بامان . لكن ما رأيته بعيني زادني غما وحزنا . كان بعض العرب متكومين في ركن جانبي لان اجراءات التصريح لهم بالدخول ناقصه . كانوا لا يستطيعون العودة من حيث اتوا ، وعاجزين عن الدخول الى حيث أرادوا ، فخيمت على وجوههم كل علامات التعاسه واليؤس .

الادهى من ذلك ان جماعة من الاجانب اقبلوا في سيارة « جيب » ودخلوا في اعتداد وثقة الى موظف الجوازات ، ولم يكونوا يحملون سمات دخول ، بسرعة وهمة تتابعت الاختام على جوازاتهم ، تفتح لهم الابواب وترفع الحواجز . غير ان الموظف توقف عند احدى البطاقات واعاد قراءة بيانات صاحبها ، ثم سحب ذلك الجواز في هدوء ووضعه جانبا . لقد تبين ان ذلك الرجل الاجنبي مطعون في صفاء انتمائه للغرب ، وانه ولد ـ لنحس طالعه ـ في عاصمة عربية !

كان هذا الاكتشاف كفيلا بان يشكك في جدارته باجتياز الحدود العربيه ، اذ ان ذلك وحده كان كفيلا بادانته في شبهة الانتماء العربي !

لم اعرف كيف حلت المشكله ، وكيف برأ الرجل نفسه من جريمة اقترفها ابواه ، لكني رايت الموظف المختص يشير اليه في هدوء بان ينضم الى العرب الجالسين القرفصاء في الركن الجانبي !

●

وهو يمسح عرقه ، قال صاحبي : هل تعرف صديقنا فلان ؟ .. وذكرني به قائلا انه استاذ التاريخ الذي ارسل الي معه آخر كتبه ، وكان الكتاب الرابع عشر في سلسلة ابحاثه ..

تذكرته فقلت ، نعم نعم ، اين وكيف هو الان ؟ .

قال : كان اعقلنا جميعا فيما يبدو . فقد ابلغوني انه هاجر مع اسرته الى كندا منذ ثلاث سنوات ، ويدير الآن محطة بنزين !

حل مسابقة العدد ٢٧٣



أفقيــاً

ولي الله شاه

رأســياً

وضاح اليمن

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : ولي الله شاه . عاصر محمد بن عبد الوهاب في نجد . كانت تعاليمه أساسا لحركة الاصلاح الاسلامية العصرية بالهند . دعا الى التوحيد بين المذاهب . أول من ترجم القرآن إلى الفارسية . توفي عام ١٧٦٣م .

(٨) رأسيا : وضاح اليمن . شاعر اشتهر بالغزل في العصر الأموي شبب بزوجة الوليد بن عبد الملك التي كانت تسمى « أم البنين » ، فأمر بدفنه حيا ، حوالى عام ٧٠٨م .

الفائزون بالجوائز

■ الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : ابراهيم بن احمد بوسنكار / الدار البيضاء / المغرب .

■ الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : صالح ابراهيم محمد الجهاني / بنغازي / ليبيا .

■ الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : يوسف فضل موسى غانم / عمان / الاردن .

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينار كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

١ ـ محمد عبد الوهاب صالح حسن / الاسكندرية / مصر

٢ ـ ناصر يعقوب خليل / الخرطوم / السودان .

٣ ـ اسيا عبد الحموي / بيروت / لبنان .

٤ ـ نجيب محمد علي الشيباني / تعز / اليمن الشمالي .

٥ ـ محمد خليل جاد ابراهيم / مسقط / سلطنة عمان

٦ ـ عادل خالد حيدر / يبرود / سوريا

٧ ـ عزيزة صالح العامري / عدن / اليمن الديمقراطي

٨ ـ غفار غازي ابو دقه / راس الخيمة / الامارات العربية .



سميح القاسم قاصا :

الحب المستحيل بين عربي واسرائيلية

بقلم : فؤاد دواره

« اية علاقة طبيعية يمكن ان تنمو في الظرف الراهن ؟ شعبها في حالة هجوم مستمر على شعبه ، وشعبه في حالة مقاومة مستمرة .. »

في صفحات قليلة لاتكاد تتجاوز السبعين .. استطاع الشاعر الفلسطيني المناضل سميح القاسم ان يخطو خطوته الاولى الواثقة في مجال القصة السياسية المقاتلة ، بعد مشواره الشعري الطويل في تأكيد عروبة الشعب الفلسطيني داخل الأرض المحتلة ، واصراره على استرداد الارض والحقوق المغتصبة ، وفضح بشاعات الاحتلال الصهيوني الاستيطاني ، وانتهاكه المستمر لكل القيم الانسانية .

ان اقصوصة « الصورة الاخيرة في الالبوم » خطوة اخرى على الطريق نفسه .. ان كانت استبدلت النثر بالشعر ، والاطار القصصي بالقصيد ، فانها لم تتخلى عن الروح الشاعرية ، ولا خيال الفنان المصور بالكلمة ، وهو يحدد ملامح شخصياته ، ويوزع علاقاتها ، ليدفع بها الى مصيرها المأساوي المحتوم في ظل الاوضاع الشاذة المفروضة على العرب داخل الكيان الاسرائيلي المصطنع .

موضوع شائك

في يوميات سميح القاسم التي كتبها في السجن ، ونشرها سنة ١٩٦٩ في مجلة « الجديد » العربية التي تصدر في الارض المحتلة .. نقرأ هذه الفقرة :

« .. على الغلاف صورة فتاة زنجية عارية . العنوان « تعال الي يا ابيض اللون » . تكون لدي انطباع بانه من الكتب الرخيصة التي يملأ بها السجناء والعاطلون والكسالى اوقات فراغهم . لكن الكاتب الن بتون الذي ملأ العالم بكتابه الرائع « ابك يا وطني الحبيب » والذي فضح فيه عنصرية البيض في جنوب افريقيا ، هذا الكاتب لا يمكن ان ينحدر الى الدرك بهذا التطرف في السرعة . وباشرت القراءة فاكتشفت انني اسأت الظن . فقد وجدتني امام رائعة ادبية تصور العذاب الذي يتعرض له رجل ابيض يقع في حب زنجية من جنوب افريقيا ، وكيف ان هذا الحب دمر الشاب واسرته كلها .. »

والتشابه الواضح بين موضوع هذه الرواية وموضوع اقصوصة سميح القاسم يجعلنا نرجح ان قراءته لتلك الرواية كانت بمثابة المحرك الاول الذي حفزه لعلاج هذا الموضوع الشائك الحساس ، الذي يصعب علاجه في قصيدة مهما طالت ، اعني موضوع العلاقات العاطفية التي لابد ان تنشأ بين الشبان العرب والفتيات الاسرائيليات بحكم التجاور والاحتكاك اليومي المستمر .

واذا كانت اللقاءات الحسية العابرة هي الطابع الغالب على تلك العلاقات ، فانها لا تصلح موضوعا لفن رفيع ، يفجر قضايا انسانية واجتماعية وسياسية جادة ، لذلك فقد اكتفى « سميح » في اقصوصته باشارة سريعة الى هذا النوع من العلاقات :

« ابراهيم معروف في البلد كواحد من اولئك الشبان الضايعين في المدينة والذين يكثرون من مرافقة اليهوديات » .

كان على الكاتب اذن ان يعدل عن هذا النوع من العلاقات الشائعة المبتذلة الى نوع آخر اقل شيوعا ، ولكنه اصدق تعبيرا عن المأساة التي يعيشها العرب داخل اسرائيل ، ويشاركهم فيها نفر من الاسرائيليين المتمردين على المؤسسة العسكرية بحكم ثقافتهم ووعيهم الانساني .. ويدقق في اختيار بطليه

بحيث يمثلان جانبي الصراع اصدق تمثيل ، ويستطيعان التعبير عنه ، مع قابليتهما في الوقت نفسه للتحاور العقلي الموضوعي والتجاذب العاطفي الحار ..

وانسكب الحساء !

« أمير »شاب عربي مثقف ، حصل على ماجستير العلوم السياسية من جامعة القدس العبرية .. وسرعان ما اكتشف ان شهادته العالية لاتصلح في دولة العنصرية الذميمة ولا حتى « كورقة تواليت » مادام حاملها عربيا ، بل من المنافحين عن حقوقهم ايضا ..

تقول امه وهي تبكي وتولول :

ـ « الله يغضب عليهم اولاد الحرام .. شهادتك وسع الملحفة وما من عمل .. السياسة يا بني . قلت لك دائما ان السياسة لا تجلب الا الويلات ولكنك لم تسمع مني .. لجنة الطلاب العرب .. لجنة الدفاع عن الارض .. وجريدة التقدم .. كل ذلك هو السبب في انهم لا يعطونك شغلا اولاد الميتة .. » .

والى جوار هذا الجرح الحي دائم النزف في نفس « امير » جرح آخر قديم اعمق واكثر ايلاما ، يتمثل في مصرع ابيه نتيجة للتعنت الاسرائيلي ..

« لقد صادرت الحكومة القطعة الخصبة من ارضهم ، وما ظل منها لايكفي لدفع ضريبة الاملاك المفروضة عليهم . تحول والده من مزارع صغير الى عامل بناء . كانت هذه الصنعة جديدة عليه . لذلك لم يسيطر جيدا على توازنه فوق السقالة المعلقة على جدران الطابق الرابع في (مستعمرة) نتانيا .. وهبة الريح الشتائية تلك كانت كافية للتطويح به من أعلى السقالة ليهوي على ارجوحة الاطفال المنصوبة حديثا في حديقة الشقة الجديدة .. شطرته الارجوحة المعدنية شطرين .. » !!

وحينما يئس « امير » من الحصول على عمل يتلاءم مع مؤهله العالي ، اضطرته الحاجة الى قبول عرض صديقه « ابراهيم » للعمل معه بمطعم في تل ابيب .

وبينما يقدم الطعام لضابط اسرائيلي كبير اذ انسكبت قطرات من الحساء على كتف الضابط فثار في وجهه ، وبخاصة حينما ادرك انه عربي :

« ـ انتم لاتصلحون حتى لمهنة غرسون .. يا الهي ! .. ماذا نستطيع ان نفعل بكم ؟ » .

واذا بامير يندفع نحو المطبخ ، ويعود حاملا شهادته ويقذف بها في طبق الحساء :

« ـ أجل ياحضرة الضابط ، انا لا اصلح لمهنة الغرسون ، لكنني اصلح معلما للعلوم السياسية !! انتم فرضتم علي ان اصبح غرسونا ويجب ان تتحملوا النتائج .. »

وفي اليوم التالي فوجيء « امير » بابنة الضابط تطلبه لتصالحه ، فهي طالبه بكلية الآداب ، وتصرف ابيها بالأمس لم يرضها .. ويبدأ الحوار ..

نبوءة الشـــاعر

ومع احتدام الحوار تتخلى « روني » عن كثير من المعتقدات والمعلومات الخاطئة التي لقنت لها طوال ثلاث وعشرين سنة .. فقد زارت قرية « امير » وتعرفت على والدته وشقيقه الصغير « علي » ، وتفهمت ـ على الطبيعة ـ الاوضاع الظالمة المفروضة على العرب في اسرائيل وشيئا فشيئا يتسلل حب « امير » الى قلبها ، ومعه نفور متزايد من ابيها ممثل المؤسسة العسكرية في اسرائيل ..

« ـ الدولة هي الجيش والجيش هو الدولة .. لولا الجيش لما كنت هنا الآن تتناولين فطورك بأمن وطمأنينة .. لولا الجيش لكنت الآن سبية في حريم الامراء العرب ! »

هذا الاب المتعصب هو صاحب « الالبوم » الذي اخذت منه الاقصوصة عنوانها .. وهو « تيس البوما بكل معنى الكلمة .. انه اضبارة تضم صور الفدائيين الفلسطينيين الذين تقتلهم فرقته والتفاصيل المتوفرة عن هؤلاء الفدائيين .. »

وكلما قلبت « روني » في هذا الالبوم الرهيب ازداد نفورها من ابيها .

وفي الجانب الآخر يحصل « علي » شقيق امير على الشهادة الثانوية بتفوق كبير ، ولكن الجامعات الاسرائيلية ترفض قبوله بكلية الطب التي يرغب في الالتحاق بها .. فيفر الى سوريا لتحقيق امله .. وعلى الحدود تقتله القوات الاسرائيلية ..

وتفاجأ « روني » بالنبأ في صدر الصحيفة ، والى جواره صورة ابيه وعند قدميه جثة « علي » تسود الدنيا

في عينيها وتصاب بانهيار عصبي .. وفي المستشفى تظل حالتها تزداد سوءا ..

وفي لحظة احتضارها « تحول عينيها ببطء وقسوة نحو حقيبة يدها .. تهرع الام وتدفع اليها بالحقيبة .. الومضة الاخيرة قبل بدء العتمة .. ببطء وقسوة ، تخرج « روتي » بطاقة هويتها .. ببطء وقسوة تنزع صورتها من الهوية .. الومضة الأخيرة .. يتجمع كل ما ظل فيها من طاقة في ذراعهاالنحيلة .. ترفع ذراعها وقد امسكت صورتهاباطراف اصابعها .. الومضة الاخيرة .. توجه الصورة نحو والدها كأصبع الاتهام .. تحاول ان تقول شيئا ما .. انها تقول شيئا ما وقبل خمود الرمق الاخير كانت روتي قد اتمت عبارتها :

« لتكن .. هذه الصورة .. الاخيرة .. في الألبوم ! »

وهكذا حكم المؤلف على الارهاب الاسرائيلي الذي يمثله الأب ان يقضي في النهاية على اعز الناس لديه .. على ابنته .. وهي امتداده الوحيد في الحياة .. فكأنه قضى على نفسه في حقيقة الامر ..

فالى اي حد يمكن ان تتحقق في الواقع نبوءة الشاعر القاسم ؟

لابد ان يأتي يوم تتحقق فيه ، بالرغم من كل المعوقات والمثبطات والغيوم الملبدة في سماء الامة العربية .. والتاريخ شاهد صدق على ان الارهاب لم ينجح يوما في اغتصاب حق يصر اصحابه على الدفاع عنه .. ابتداء من جنكيز خان وهولاكو حتى هتلر وشاه ايران والارهاب الامريكي في فيتنام .. غير ان التاريخ يحدثنا ايضا بأن كل الشعوب التي انتصرت على الارهاب لم تكن منقسمة على نفسها ينهش بعضها لحم بعض .. فلعلنا نعي الدرس البسيط الواضح قبل فوات الاوان ..

بين الرواية والاقصوصة

لم يكن من الصعب على سميح القاسم ان ينمي اقصوصته لتصبح رواية مكتملة العناصر ، او رواية قصيرة على الاقل .. لعل جرأة الموضوع وحساسيته هي التي صرفته عن ذلك ، وربما عدم تمرسه بفن القصة ، او حرصه على توصيل فكرته من اقصر طريق ممكن ..

ايا كان الامر فالنتيجة اقصوصة ، او « قصة قصيرة طويلة » ان اردنا الدقة .. فهي اطول من الحجم المعتاد للقصة القصيرة ، واقصر في الوقت نفسه من الرواية ..

واذا كان هذا الشكل القصصي يقترب في الحجم من « الرواية القصيرة » ، فانه يختلف عنها من حيث ميله الى التركيز وتكثيف الحدث في اقل فترة زمنية ممكنة ، واعتماده على اقل عدد ممكن من الشخصيات ، وكلها من خصائص القصة القصيرة ، مع البعد ـ قدر الامكان ـ عن التفريعات والتفصيلات والمواقف الجانبية ، وعدم الاسهاب في تقديم الشخصيات الثانوية ، وكلها كما نعلم من سمات الرواية .. ومن ثم فنحن نظلم «الصورة الاخيرة في الالبوم » اذا ناقشناها على اعتبارها رواية قصيرة ..

غير اننا في حدود الاقصوصة ، او القصة القصيرة الطويلة ، لاتملك الا ان نلاحظ ان العلاقة العاطفية بين البطلين ، وهي الموضوع الرئيسي ، كانت بحاجة الى مزيد من التفصيل والتعميق حتى يبدو انهيار « روتي » في النهاية اكثر حتمية واقناعا .. وكذلك طغيان الهدف السياسي في بعض المواقف على السياق الفني ، فاذا بامير يلقي على « روتي » ما يشبه المحاضرة المدعمة بالاحصاءات عن اوضاع العرب في اسرائيل ، ومثلها على ابراهيم عن دور الحزب الشيوعي في مساندة نضال العرب داخل اسرائيل .. وغير ذلك مما قد يصعب تقبله فنيا ، وان كان مبررا ومطلوبا على المستوى السياسي والنضالي .

وعلى العكس من ذلك يسرف الكاتب احيانا في ايراد تفصيلات لاقيمة لها ولا تخدم تطور الحدث الرئيسي ، كمشهد تعري « روتي » وهي وحيدة بحجرتها تتحسس جسدها وتشتهي « امير » بخيالها .. وكوصفه للذرات البيضاء المتساقطة من شعر « امير » على قميصه ونحو ذلك ..

والاسلوب النثري الذي كتبت به الاقصوصة لا يختلف كثيرا عن الاسلوب الذي تميز به شعر سميح القاسم .. البساطة والوضوح والمباشرة ، والبعد عن كل تعقيد وافتعال .. وقلة التشبيهات والاستعارات ، مع اهتمام واضح بتفصيلات الحياة اليومية ذات الدلالة الانسانية ، وقدر من الغنائية وتقديم الهدف السياسي النضالي على كل ما عداه .. وهو ماأكسب الاقصوصة قيمة انسانية رفيعة تغفر لها ما قد يشوبها من هنات فنية . ■■

فؤاد دواره .

سلاح الفتاوى في الصراعات السياسية

بقلم : ابراهيم محمد الفحام

دائما كانت الفتاوى الشرعية أحد الاسلحة الخطيرة المستخدمة فى الحياة السياسية فى بلدان العالم الاسلامى .. وهو سلاح بحدين . كان يستخدم حينا لتصفية الخصوم وتحقيق الاطماع والنزوات بحجة الثورة على الضلال والمروق ، بينما استخدم فى حين آخر لاستنهاض الجماهير ومقاومة الاستعمار والذود عن حياض المسلمين .

وتعد هذه الظاهرة من أبرز السمات التى اتسم بها تاريخ الدولة العثمانية . فعندما توفى السلطان مراد الأول سنة ١٣٨٨ م ، اتفق أركان الدولة على تولية ابنه الأكبر بايزيد الأول . وكان له أخ يدعى يعقوب يصغره قليلا ، ويتصف بالشجاعة وعلو الهمة والاقدام فخيف أن يدعى حقه فى الملك ارتكانا الى ما حدث بعد وفاة السلطان عثمان من اتفاق أمراء الدولة وقواد جيشها على تولية ابنه أورخان خلفا له بدلا من أخيه الأكبر علاء الدين ، الذين استصدر فتوى شرعية بقتله منعا لحصول الفتنة (والفتنة أشد من القتل) .

فتاوى العزل والقتل

وتكررت تلك الظاهرة مرارا فى تاريخ تلك الدولة ، حتى شمل القتل الاخوة الأصاغر سنا . فكان من عادة السلاطين الجدد أن يبادروا عند توليتهم الحكم ، الى قتل اخوتهم جميعا ، واعتقالهم حتى الموت ، ليأمنوا محاولات اغتصاب الملك . حتى لقد قتل السلطان محمد الثالث - عند وفاة أبيه السلطان مراد الثالث سنة ١٥٦٩ م - تسعة عشر أخا له . فأمر بخنقهم قبل دفن أبيه ودفنوا مع أبيهم تجاه أيا صوفيا !

وعندما تولى السلطان مصطفى الأول بعد وفاة أبيه السلطان أحمد الأول سنة ١٦١٧ ، لم يفعل ما كان يفعله أسلافه ، من قتل الاخوة المنافسين . فلم تنقض على توليته ثلاثة أشهر حتى تآمر على عزله أركان الدولة ، وفى مقدمتهم المفتى واغا السراى ، وانضم اليهم الانكشارية ، طمعا فى الهبات التى كانت توزع عليهم عند تولية كل سلطان جديد ! فعزل فى سنة ١٦١٨ وولى مكانه أخوه السلطان عثمان الثانى . فكان من أول أعماله تقليل اختصاصات المفتى ، ونزع ما كان له من سلطات فى العزل والتعيين ، حتى يأمن شر دسائسه . ولكن تلك الحيطة لم تحل دون عزله واعتقاله . عندما ثار عليه الانكشارية سنة ١٦٢٢ ، وأعادوا أخاه السلطان مصطفى الأول ، الذى عزل مرة أخرى فى العام التالى ، وتولى مكانه ابن أخيه السلطان مراد الرابع ، وكان صغير السن ، مما ساعد الانكشارية على التمادى فى طغيانهم ، وتسلطهم طوال السنوات العشر التى اعقبت توليته .وعندما توفى سنة ١٦٤٠ وخلفه السلطان ابراهيم الأول ، أراد أن يفتك بزعماء الانكشارية فتآمروا على عزله ، واجتمعوا بمسجد (أورطة جامع) وانضم اليهم بعض العلماء والمفتى عبد الرحيم أفندى ، واستصدروا فتوى بعزله ، وولوا بدله ابنه السلطان محمد الرابع الذى لم يتجاوز السابعة من عمره ، وتم لهم ذلك سنة ١٦٤٢ .

وعندما حاول السلطان سليم الثاني قمع مفاسد الانكشارية ، تآمروا على عزله ، فعزل سنة ١٧٠٣ وولوا بدله السلطان أحمد الثالث الذي وزع عليهم أموالا وفيرة ، استرضاء لهم ، ووافقهم على قتل المفتي فيض الله أفندي ، لعدم استجابته لبعض مطالبهم .

نظامات الافرنج !

وفي حكم السلطان سليم الثالث سنة ١٧٦٣ ، الذي وجه اهتمامه نحو اتباع الأساليب الأوروبية المتقدمة ، من تنظيم الجيوش ، وأنشأ تشكيلات عسكرية جديدة على هذا النمط ، خشي الانكشارية أن يؤدي ذلك الى الغاء تشكيلاتهم ، وتقويض نفوذهم ، بعد انكشاف مدى التدهور الذي يعتري أنظمتهم العتيقة البالية ، فانتهزوا فرصة وفاة الجنرال دوبايت الفرنسي في سنة ١٧٩٧ ـ وكان قد استحضر لتطوير انظمة الجيش ـ فأثاروا العلماء الذين كانوا لا ينظرون بعين الارتياح الى محاولات التحديث ، وتمكنوا من الغاء الفرق العسكرية المستحدثة .

ولكن سفر أكبر قادة الانكشارية في مهمة الى مصر ، شجع السلطان على المضي في انشاء مزيد من الفرق العسكرية الحديثة ، ونجحت تلك الفرق في بعض المهام الحربية التي كلفت بها ، ونشط الاتجاه نحو تعميم ذلك النظام ، وصدر في سنة ١٨٠٥ (خط شريف) الى جميع الولايات بجمع كل الشبان من الانكشارية والمدنيين الذين بلغوا سن الخامسة والعشرين ، لتجنيدهم على النظام الجديد ، ولم يفت السلطان أن يحصل على موافقة المفتي على ذلك التطوير .

ولكن الانكشارية رفضوا تنفيذ تلك الأوامر وجاهروا باظهار تمردهم ، وخاصة بعد وفاة المفتي الذي أصدر الفتوى المؤيدة للتنظيم الجديد ، فاستمالوا كثيرا من العلماء ـ وعلى رأسهم المفتي الجديد ـ الذين كانوا يتوجسون خيفة من اتباع أنظمة النصارى ـ فاتصلوا ببعض المجندين الذين شملهم التنظيم الجديد ، وافهموهم ان ارتداءهم الملابس الاوروبية يخالف احكام الدين ، فتحفزوا للثورة ، كما اندلع غضب عدد كبير من الشبان الذين جمعوا لاخضاعهم لذلك التنظيم ، وهاجموا القوات النظامية في ثكناتها ، وشرعوا في الزحف نحو العاصمة ، تحت قيادة شخص يدعى (قباقجي أوغلي) اتخذوه زعيما لهم ، فبلغت جموعهم ساحة (آت ميدان) بالآستانة في أواخر مايو سنة ١٨٠٧ ، وقرىء عليهم أسماء جميع المعضدين للتنظيم العسكري الجديد ، وصرح المؤيد للثائرين بأن (كل سلطان يدخل نظامات الافرنج



السلطان مراد الاول

وعوائدهم ، ويجبر الرعية على اتباعها ، لا يكون صالحا للحكم) .

وفي الشهر التالي أفتى ذلك المفتي بعزل السلطان ، وكلف بالتوجه لابلاغه شخصيا بتلك الفتوى ، فأبلغه اياها متظاهرا بأسفه لاضطراره لاصدارها تحت ضغط الثائرين ، فاذعن السلطان وتنحى عن الحكم ، وولي بدله السلطان مصطفى الرابع ، بينما تفرق الجنود النظاميون ، وأهمل استكمال مشروع التنظيم الجديد .

وفي العاصمة ارتفعت بعض الأصوات المؤيدة للسلطان المعزول مطالبة بعزل المفتي الذي أفتى بعزله ، واضطر السلطان مصطفى الرابع لعزل ذلك المفتي ، ولكن أنصار السلطان المعزول تعاظمت قوتهم وزحفت جموعهم نحو القصر السلطاني الذي كان معتقلا به ، مطالبة باعادته الى الحكم ، فأمر السلطان مصطفى بقتله والقاء جثته الى الثائرين ، حتى يدب اليأس في نفوسهم ، ولكن ثورتهم ازدادت اشتعالا ، وطالبوا بعزل السلطان مصطفى فعزل واعتقل بالمكان الذي كان يعتقل فيه سلفه ، ولكنه لم يلبث أن قتل بعد قليل ، وحل محله السلطان محمود الثاني ، فعقد العزم على اخضاع الانكشارية للتنظيم الجديد ، واخضاعهم لسلطته ، فجمع اعيان الدولة ووزراءها ، ووقف الصدر الاعظم الجديد خطيبا فيهم فأقنعهم بمزايا التنظيم الجديد وحتميته ، وان الانظمة العسكرية الحديثة التي تتبعها الجيوش الأوروبية هي سر تفوقها فيما تخوضه من الحروب ، فأيده جميع الحاضرين ، ولم يفض الاجتماع قبل أن يتحصل على فتوى صريحة بوجوب تطبيق التنظيم الجديد على الانكشارية ، والضرب على أيدي المعارضين ، فشرع في تنفيذ ذلك فعلا ، وعين الضباط

النظاميون فى أغلب الوظائف العسكرية العليا ، فأثار ذلك الانكشارية ، واعلنوا تمردهم .

عبث الانكشارية

واتجه الانكشارية نحو القصر الذى كان السلطان مصطفى الرابع معتقلا به ، لمحاولة ارجاعه الى الحكم ، فتصدى لهم الصدر الأعظم ومعه بعض الفرق النظامية ، وبادر الى قتل السلطان مصطفى والقاء جثته على الثائرين ، كما فعل ذلك السلطان سلفه من قبل ، فازداد هياج الانكشارية ، وأضرموا النيران فى القصر السلطانى ، ليجبروا الصدر الأعظم على الفرار منه ، ولكنه آثر الموت على الاستسلام ، فاستمر فى القتال حتى مات حرقا . ولكن عددا من كبار القادة أقبلوا بقواتهم ، واستمروا فى محاربة الانكشارية ، الذين انتشروا فى أنحاء العاصمة ، يشيعون فيها الخراب .

ولما أوشكت النيران على التهام العاصمة جميعها ، اضطر السلطان محمود الثانى للتظاهر بالاذعان لمطالب الانكشارية ، وارجاء تنفيذ التنظيم الجديد .

ووجه السلطان اهتمامه ـ بعد اخماد تلك الفتنة ـ الى تنفيذ بعض الاصلاحات الداخلية ، وتطبيق الانظمة المستحدثة فى بعض المجالات مستعينا فى تهدئة الرأى العام ، وكسب تأييده ببعض الفتاوى التى كان يسعى الى استصدارها ، مؤجلا صدامه الحاسم مع الانكشارية وغيرهم من الاعداء التقليديين لكل جديد ، الى الوقت الملائم .

فعقد العزم على اتمام المشروع الذى بدأ تنفيذه السلطان سليم الثالث ، وجمع كبار القادة والأعيان فى بيت المفتى سنة١٨٢٦ وقام الصدر الأعظم الجديد بتوضيح ما بلغته أحوال الانكشارية من الفوضى والضعف ، وأوهن ذلك القدرات العسكرية للدولة بالنسبة للدول الأخرى المعاصرة لها .

وعندما أبدى الحاضرون اقتناعهم بما سمعوا تلا عليهم « مكتوبجى » الصدر الأعظم (أى كاتب سره) مشروعا من ست وأربعين مادة يتضمن التنظيمات المطلوب اتباعها فأيده الجميع حتى الحاضرون من ضباط الانكشارية أنفسهم ، ولم ينفض الاجتماع قبل أن يصدر المفتى فتواه بصحة العمل بهذا المشروع شرعا ، ووجوب معاقبة كل من يعارضه .

ولكن ، ما إن بدأ التنفيذ ، تحت اشراف بعض الضباط الأوروبيين حتى أحس قادة الانكشارية بما سيحققه التنظيم الجديد من تقييد سلطاتهم على اتباعهم ، والانتقاص من امتيازاتهم التى اكتسبوها فى اطار ما ألفوه من الفوضى والتخلف ، فشاعت عنهم حركة تدعو الى الثورة على ذلك التنظيم ، ونجحوا فى استمالة كثير من المحافظين ، باسم الذود عن تقاليد البلاد ، وتجنب التشبه بأعداء الدين .

وفى ١٥ يونية سنة ١٨٢٦ تعرض بعضهم للجنود أثناء تدريبهم على الأساليب الحديثة فاصدر السلطان أمره بمعاقبة المعترضين بالقتل ، تنفيذا لفتوى المفتى ، فتجمع الثائرون فى مساء ذلك اليوم وتآمروا على العصيان العام .

وجمع السلطان العلماء ، وأخبرهم بتمرد الانكشارية فأعلنوا استنكارهم لتصرفاتهم ، وشجعوه على مقاومتهم ، فاستدعى فرق المدفعية التى تلقت قدرا وافيا من التدريب الحديث واستعد لقتالهم

وفى صباح اليوم التالى أخرج السلطان العلم النبوى الشريف وسار خلف ذلك العلم ، يتبعه جنود المدفعية النظاميون وبعض العلماء وطلبة العلم فاتجهوا جميعا الى ساحة (ات ميدان) حيث اجتمع الثائرون .. فأحاط بهم جنود المدفعية من مواقع مرتفعة تشرف على تلك الساحة ، وسلطوا عليهم نيران المدافع ، فساد الهرج والمرج بينهم ، واتجهوا نحو ثكناتهم ولكن قذائف المدافع لاحقتهم ، فدمرت تلك الثكنات ، وأشعلت فيها النيران

واستنادا الى الفتوى المؤيدة للتنظيم الجديد ، أصدر السلطان فى اليوم التالى أمره بالغاء نظام الانكشارية وفض تشكيلاتهم (فى جميع الممالك المحروسة) ، ونودى بذلك فى الطرقات العامة ووجهت الأوامر الى جميع الولايات بتعقب فلولهم ، والقبض على من يوجد منهم واعدامهم .

وابتهج الخديو توفيق ـ المتعاون مع قوات الاحتلال ـ بذلك الاعلان فعهد الى محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب المصرى ، بتوزيع نسخ من صحيفة (الجوائب) التى نشرته ، وتوزيع منشورات تتضمن صيغته على ضباط الجيش المصرى ، واعيان البلاد ، لاضعاف تأييدهم لعرابى ، الذى اعتبر ثائرا على امير المؤمنين

وكانت قد صدرت قبل ذلك فتوى شرعية من بعض علماء الازهر بمروق الخديو توفيق عن الدين لانحيازه الى الجيش المحارب للبلاد ، عندما اصدر قرارا بعزل عرابى فى ٢٠ يوليو ١٨٨٢ .

اذا جن إمام المسلمين ؟

واستمر صدور الفتاوى بعزل السلاطين العثمانيين لأمور نسبها اليهم خصومهم ، فعزل السلطان مراد الخامس ـ الذى نسب اليه اختلال عقله ـ بموجب فتوى من شيخ الاسلام ، وكان نص الاستفتاء كما يلى (اذا جن إمام المسلمين جنونا مطبقا ، ففات المقصود من الامامة ، فهل يصح حل الامامة من عهدته ؟) .

وأشر شيخ الاسلام على ذلك الاستفتاء بالعبارة التالية (يصح ، والله اعلم) وولى بدله السلطان عبد الحميد الثانى . وذكر ولى الدين يكن فى الجزء الأول من كتابه (المعلوم والمجهول) (ص ٩) أن السر فى المكانة التى كان يحظى بها الشيخ أبو الهدى الصيادى عند السلطان عبد الحميد أنه كان يحتفظ بصورة فتوى بخلعه مكتوبة بخط شيخ الاسلام عريانى زاده ومختومة بخاتمه . وكان الشيخ أبو الهدى يقول لاخصائه انه لن ينشر تلك الفتوى الا اذا أوجس خيفة الى نفسه من السلطان .

وامتد بالسلطان عبد الحميد العمر حتى خلع فى الثورة الدستورية التى أنهت حكمه سنة ١٩٠٩ .

وكان خلعه بموجب فتوى شرعية من شيخ الاسلام السيد محمد ضياء الدين ردا على الاستفتاء التالى :

(اذا اعتاد زيد الذى هو امام المسلمين ـ أن يرفع من الكتب الشرعية بعض المسائل المهمة الشرعية ، وأن يمنع بعض هذه الكتب ويمزق بعضها ويحرق بعضها ، وأن يبذر ويسرف فى بيت المال وينصرف فيه بغير مسوغ شرعى ، وأن يقتل الرعية ويحبسهم وينفيهم ويغربهم بغير سبب شرعى ، وسائر أنواع المظالم ، ثم ادعى أنه تاب وعاهد الله ، وحلف أنه يصلح حاله ، ثم حنث وأحدث فتنة عظيمة ، جعلت أمور المسلمين كلها مختلة ، وأصر على المقاتلة ، وتمكن المسلمون من ازالة تغلب زيد المذكور ، ووردت أخبار متوالية من جوانب بلاد المسلمين أنهم يعتبرونه مخلوعا ، وأصبح بقاؤه محقق الضرر ، وزواله محتمل الصلاح ، فهل يجب أحد الأمرين : خلعه أم تكليفه بالتنازل عن الامامة والسلطنة ، على حسب ما يختاره أهل العقد والحل ، وأولى الأمر من هذين الوجهين ؟) .

فأشر شيخ الاسلام على ذلك بما يلى (الجواب : يجب) وأضاف العبارة التالية : (وكتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين ـ عفى عنه)

وتليت هذه الفتوى فى اجتماع سرى للمجلس العمومى الذى يضم الأعيان والمبعوثين ، فى ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ فقرر المجلس خلع السلطان .

ليس كل العلماء

ولم يكن رجال الدين المختصون يذعنون دائما لما يطلب منهم اصداره من الفتاوى ، فقد حاول ابراهيم باشا أثناء حملة الشام ـ بناء على أوامر والده ـ أن يستصدر فتاوى من بعض علماء الشام تؤيد أفعاله ـ وخاصة عندما أمعن فى الزحف نحو الشمال ـ باقناعهم بأن تلك الحملة تستهدف تخليص البلاد من مظالم العثمانيين الذين خالفوا أحكام الدين .

ويبدو أن تلك المحاولة لقيت معارضة شديدة من أولئك العلماء أو بعضهم ، اذ يقول محمد كرد على فى الجزء الأول من كتابه (المذكرات) (ص ٩٣) :

(أراد ابراهيم باشا أن يستصدر فتوى من علماء دمشق تخدم سياسة والده فى نزع القطر من العثمانيين ، فاعترض كبير علمائها الشيخ سعيد الحلبى ، على صيغة الفتوى ونقضها من عدة جهات ،فأخفق القائد فى الوصول الى عزمه . وغضب وزاد فى غضبه أنه سبق للشيخ أن زار الباشا كسائر المشايخ ، كما هى العادة ، فسأل (أين يجلس الشيخ ؟) فقالوا له فى الجامع الأموى) وله غرفة فيه يقرىء فيها تلاميذه . فتحين الباشا وقت وجود الشيخ فى حجرته ودخل عليه ، وجلس فما التفت اليه ولا قام اجلالا له ، حتى أتم الدرس ، وهو يمد رجله ، ثم حول وجهه الى الباشا ، وسلم عليه سلاما عاديا ولم يغير جلسته . فاستاء الباشا من هذا الاستقبال البارد ، ومن الغد ارسل الى الشيخ صرة بها جنيهات ، فردها وقال للرسول : ان اشكر الباشا على عنايته ، وأرجو أن تقول له .. ان من يمد رجله لا يمد يده ، قال الباشا لخواصه : لوقبل الشيخ صرة الدراهم لقتلته . لأنى أعرف عنه عندئذ أنه منافق ، ظاهره غير باطنه .

وذكر ميخائيل شاروبيم فى الجزء الرابع من كتابه (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث (ص ١٠٩) أن والى مصر عباس باشا الأول ـ حفيد محمد على باشا ـ طلب من الشيخ ابراهيم البيجورى شيخ الأزهر اصدار فتوى بنفى الأقباط الى السودان ، فرفض الشيخ ذلك ، وذكره برعاية الاسلام لأهل الذمة ، قائلا له : الحمد لله لم يطرأ على ذمة الاسلام طارىء ، ولم يستول عليها خلل ، حتى تغدر بمن هم فى ذمته الى اليوم الآخر .

فاضطر الوالي أن يعدل عن فكرته .

المستعمرون والفتاوى

أدركت السلطات الاستعمارية التي استولت على بلاد يسكنها مسلمون ، أهمية الفتاوى كسلاح قادر على توجيه الرأي العام واجباره على الخضوع لما يفرض عليه من الانظمة والتشريعات ، وكانت تسعى الى استصدار الفتاوى أو التصريحات المؤيدة لها ، ولكن ذلك كان يقابل بمعارضة عنيفة من رجال الدين الوطنيين .

ومن أشهر ما يذكر في هذا المقام ، ما حدث عندما صدر قانون التجنيس في سنة ١٩٢٣ وكان يستهدف حمل التونسيين على التجنس بالجنسية الفرنسية ، فيترتب على ذلك اخضاعهم للقانون المدني الفرنسي دون الشريعة الاسلامية . واستجاب أفراد قلائل للاغراءات التي أعلنتها سلطات الاحتلال وكونوا - بمساعدة تلك السلطات - جمعية تدعى جمعية المسلمين الفرنسيين ، تعمل على بث الدعوة الى التجنس بتلك الجنسية ، واستطاعت تلك السلطات أن تغري عددا محدودا من العلماء بأن يفتوا بجواز الاستجابة لذلك القانون ، ومنعوا عددا كبيرا من العلماء الذين عارضوا ذلك القانون ، من نشر فتاويهم المعارضة ، بينما وفق بعض العلماء مثل الشيخ أحمد عياد والشيخ التهامي عمار من نشر فتاواهم بردة المتجنس بالجنسية الفرنسية ، وعدم جواز معاملته معاملة المسلمين ، وأيدتهم في مواقفهم هذه فتاوى مماثلة أصدرها بعض علماء الأزهر وغيرهم في مصر مثل الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر والسيد رشيد رضا صاحب المنار والشيخ علي سرور الزنكلوني والشيخ يوسف الرجوي .

وحدث أن توفي أحد المتجنسين في مدينة بنزرت ، فامتنع مواطنوه عن قبول دفنه في مقابرهم باعتباره مرتدا عن الاسلام ، ولجأت سلطات الاحتلال الى استفتاء مفتي البلدة الشيخ ادريس الشريف ، ولكنه أفتى بردة المتوفي وعدم جواز دفنه بمقابر المسلمين ، فدفن في الجزء المخصص للغرباء والمجهولين من مقابر غير المسلمين !

ونقمت السلطات على المفتي ، فلجأت الى استجوابه والتضييق عليه ، تخويفا له ولغيره من العلماء ثم لجأت الى الوزير الأكبر للباي ، والى شيخي الاسلام المالكي والحنفي ، للحيلولة دون تفاقم الأمر ، فاستجابوا لضغوط تلك السلطات ، حفاظا على مصالحهم ومناصبهم ، واتفقوا على اعداد استفتاء بصيغة معينة وتقديمه الى المجلس الشرعي المالكي والمجلس الشرعي الحنفي ، والرد عليه بفتوى ترضي تلك السلطات ، واغتنموا عطلة عيد الأضحى لاتمام ذلك الأمر ، حتى يفاجأ الناس بالفتوى المقرر اصدارها .

ولكن الناس علموا بما يدبر لهم في الخفاء ، فاتجه وفد من الحزب الحر الدستوري التونسي عشية ثاني أيام العيد ، الى كل من الوزير الأكبر ، وشيخي الاسلام ، وأبلغوهم احتجاج الأمة على تلك المحاولة ، وأنذروهم بوخامة العاقبة .

واستجاب معظم اعضاء المجلسين الشرعيين للضغوط التي فرضت عليهم ، بينما رفض الاستجابة لتلك الضغوط الشيخ عبد العزيز جعيط « المالكي المذهب » والشيخ حميدة بن مراد والشيخ محمد بن الخواجة « من الاحناف » . وعلق الأول قبول توبة المتجنس ورجوعه الى حظيرة الاسلام على رجوعه الى الأحكام الشرعية والجنسية التونسية . وهو أمر مستحيل قانونا ، وامتنع الآخران عن الموافقة على قبول التوبة من المتجنس لاستحالة رجوعه الى أحكام الاسلام قانونا .

وأعلن طلبة جامعة الزيتونة (الاسلامية) . وكان عددهم يقدر بثلاثة آلاف وخمسمائة طالب - أنهم قرروا الاضراب عن حضور الدروس الى أن يتنحى عن ادارة الجامعة شيخها ، وهو شيخ الاسلام المالكي .

وفي يوم الجمعة قرر الناس عدم الصلاة خلف جميع الأئمة الذين شاركوا في الافتاء بصحة قانون التجنس .

وأصدر علماء جامعة الزيتونة فتوى مشتركة بعدم جواز الاستجابة لقانون التجنس . كاعتراض ايجابي على موقف شيخهم .

وفي الهند كان مما ألهب مشاعر المقاومة لسلطات الاحتلال البريطانية فيها ، تلك الفتوى التي أصدرها مولانا شاه عبد العزيز الدهلوي شيخ المحدثين في سنة ١٨٠٣ وأعلن فيها أن البلاد الاسلامية في الهند - بعدما تسلط عليها الانجليز ، وتحكموا في كل أمر فيها - أصبحت دار حرب يجب على المسلمين والمسلمات أن يجاهدوا الانجليز فيها ويقاطعوهم ، حتى يغادروا تلك البلاد لأنهم أعداء المسلمين المحاربون لهم .

وكانت تلك الفتوى أساس نظرية العصيان المدني للمسلمين في الهند ، اذ أصدر سائر العلماء فتاوى على نمطها تدعو الى مقاطعة المدارس الانجليزية وعدم التعاون مع سلطات الاحتلال ، ومحاربتهم أينما يكونوا .

■■

ابراهيم محمد الفحام

عائد في ضفتيه

مرثية الى الشاعر صلاح عبد الصبور



شعر : أحمد الحوتي

انتهى وقت القصيدة
أفرغي النيل من المجرى ولمي ضفتيه
ربما يغفو قليلا .. ربما ..
أهفو اليه
ربما يفرغ بعض الحزن
او يهتز فرع الذاكرة
معذرة ...
ربما تصحو على طعم المراثي القاهرة

....

هل ذكرت الآن أمي ..؟
هل ذكرت الشيخ « محيي الدين »؟

....

عفوا ...

متعب قلبي لحد الموت
عفوا ...
هل ذكرت الموت ..؟
عفوا ....
لا تبالي ..
أفرغي النيل .. ونامي
ربما أغفو قليلا ..
ربما يهتز جسم الارض ،
تجفوه الليالي المقمرة .
انتهى وقت القصيدة ..
ها هو الصوت الذي لاقيته في الحزن دوما
يتعطى مهر الجراح
ليس وقت الحب ..
وقت الحرب ،
وقت الشوق ..
وقت الشعر .. آه
أيها السيف المحمي
أيها الويل الذي يغتال عصفورا .. ويشوي
فوق إبريق الصباح
ازدرد قلبي .. وخذني
حلني حرفا فحرفا

حلتني طميا ، وكتانا ، وقطنا ..
ثم أرجعني الى نهري القديم ،
إنني أهواك يا حزني المقيم
مثل فخار الأواني
إنني أهواك .. وحدي
ايها الموت المصفي
قد سمعنا .. ، ما أطعنا
إننا في آخر السطر .. استرحنا
ينتهي وقت القصيدة
ما أطعنا ..
ايها الموت المخادع
يبتدي وقت الرثاء ..
كان ياما كان
ما أقسى المنايا
حينما تنسل في الليل وتغتال صديقا للصباح
جاءه الموت ، غلي وجهه المصري
ـ أغفي لحظة ـ
ثم استراح
كان ياما كان ، ان مات « صلاح »
منصتا عذبا ، وكان الكون ثرثارا
وكنا لا نبالي بالحياة
حينما الموت أتاه
حينما الموت غلي وجهه المصري ، كنا لا نبالي
آه .. يا طول الليالي
ثم خط الشعر في عينيه
خط الشوق في عينيه
خط الحب في عينيه
خط الحزن في عينيه
كانت كفه تمتد في صمت تؤسي زوجه
ام طفلتيه !
آه يا وحدي ، ويا عيني عليه
أفرغي النيل ولمي ضفتيه
من حقول القمح والأرز وأشجار النخيل
تهرب الدلتا ..
متى .. يا أصدقاء
يبتدي وقت القصيدة
ينتهي وقت الرثاء ؟



عائد من البرازيل

الأدب العربى في الأمريكتين يحتضر!

بقلم : على شلش

كل الشواهد تشير الى أن الأدب العربى فى الامريكتين يعيش مرحلة احتضار .. وهذه النهاية المحزنة لها قصة

فقد عرف الأدب العربى الحديث ظاهرة نشأت فى الأمريكتين وأخذت تنمو وتترعرع منذ بواكير هذا القرن ، وأنتجت عددا من الأعمال الأدبية الجيدة ولا سيما فى الشعر ، ثم تواضع الباحثون على تسميتها باسم « أدب المهجر » ، وهى تسمية تحتاج الى اعادة النظر.

وقبل أن نمضى فى مناقشة هذه الظاهرة يحسن أن نتوقف عند نقطتى نظام اذا صح التعبير . أما النقطة الأولى فهى أن أصحاب هذه الظاهرة اللامعين لم يولدوا أدباء فى العالم الجديد ، أولم يجعلهم العالم الجديد أدباء ، ولكنهم جاءوا اليه وهم على موهبة حقيقية صقلتها التجربة الجديدة الشاقة ، وأمدتها بأفكار وموضوعات لم يألفوها من قبل . ويكفى أن نذكر أن بعضهم على الأقل كان قد نشر فى وطنه كتابا أو اثنين قبل هجرته ، مثلما حدث مع ايليا أبو ماضى الذى نشر ديوانه الأول فى الاسكندرية عام ١٩١١ أو ميشال مغربى الذى نشر ديوانه الأول أيضا فى حمص عام ١٩٢٢ . وأما النقطة الثانية فهى أن تسمية « أدب المهجر » التى شاعت عندنا وعندهم حتى صارت من البديهيات تسمية غير دقيقة من عدة نواح . فهى قد تعنى نوعا أدبيا له خصائصه الذاتية ، وقد تعنى أن الأدب الذى ينتج خارج الوطن منفصل عن الأدب الذى يكتب داخله ، وكلها فى النهاية عناصر تفرقة لا تجميع ، وانفصال لا اتحاد . وأدق من هذه التسمية أن نقول « الأدب العربى فى الأمريكتين » مثلما نقول « الأدب العربى فى العراق أو مصر أو سوريا أو فى أسبانيا » ، أو نقول « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية » كما قال الشاعر المهاجر الراحل جورج صيدح حين عنون كتابه الضخم فى الموضوع بهذا العنوان

الصحافة كانت أسبق

ثمة نقطة أخرى لم ينتبه اليها دارسو هذا الأدب كثيرا ، وهى أن ظهور الصحافة العربية فى الأمريكتين قد سبق ظهور الأدب العربى فيها . وهذا أمر طبيعى بلا شك . فقد كان المهاجرون أشد حاجة الى الصحافة من حاجتهم الى الأدب .

لقد صدرت أول صحيفة عربية فى أمريكا الشمالية عام ١٨٨٨ ، وكان اسمها « كوكب أمريكة » ، وصدرت

أول صحيفة عربية فى أمريكا الجنوبية عام ١٨٩٤ وكان اسمها « الفيحاء » ، اصدر الأولى أولاد رجل يدعى عربيل . وأصدر الأخرى الأخوان سليم ودعيبس بالش . وكانت الصحيفتان متواضعتى الصفحات والتبويب والاخراج . ولكنهما لم تتخليا عن الأدب ، ولا سيما الشعر الذى كانتا تنشرانه منقولا عن محفوظ الشعر القديم أو عن المجلات المحلية فى الوطن العربى أو مؤلفا على أيدى المهاجرين الأوائل . غير أن الصحيفتين لم تستمرا طويلا . فقد توقفتا بوفاة أصحابها الذين كانوا فى الأصل صحفيين فى لبنان قبل هجرتهم ، ولا زالت بعض أعداد « كوكب أمريكة » محفوظة بمكتبة الكونجرس فى واشنطن ، وكذلك بعض أعداد « الفيحاء » التى يحتفظها بعض المهاجرين فى البرازيل . ولا شك أن أحدا لم يتصد بالبحث لهذه الصحف المبكرة أو المتأخرة فى الأمريكتين ، لا عندنا ولا عندهم . ولا شك أيضا أن كتابة تاريخ أدبنا هناك لا بد أن تتعرض مباشرة لهذه الصحف . فقد بلغت الدوريات العربية حتى العقد الأول من القرن العشرين حوالى ٣٠ دورية فى البرازيل وحدها ، وهو رقم يدل على أنه كانت ثمة نهضة صحفية فى أول عهد المهاجرين بالهجرة ، نهضة ترتبت على الأعداد المتزايدة من المهاجرين فى ذلك الوقت . وكان المهاجرون الى أمريكا الجنوبية يفوقون المهاجرين الى أمريكا الشمالية ، نظرا لسهولة الهجرة الى أمريكا الجنوبية فضلا عن ازدياد فرص العمل والمغامرة فيها . وبذلك انتشروا فى أرجائها ابتداء من المكسيك وفنزويلا وكوبا فى الشمال حتى الأرجنتين فى الجنوب ، ولكنهم تركزوا بأعداد كبيرة فى البرازيل ، وزاد عددهم فيها على عددهم فى أى قطر أمريكى جنوبى آخر ، على حين تركز المهاجرون الى أمريكا الشمالية فى الولايات المتحدة ، كما انتقل بعضهم الى كندا فى وقت لا حق .

ومن المعروف أن الأدباء الذين هاجروا الى أمريكا الشمالية كانوا أقل عددا من زملائهم الذين استقروا فى القارة الجنوبية ، ولكنهم فى الحقيقة كانوا أنشط وأشد تأثيرا وان قالوا أقل صلة بوطنهم . وقد عرف منهم أمين الريحانى وجبران وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة وعبد المسيح حداد وايليا أبو ماضى . وهم الذين شكلوا « الرابطة القلمية » فى نيويورك عام ١٩٢٠ . وكان حداد قد أسس مجلة « السائح » عام ١٩١٢ فجعلها لسان حال الرابطة . وكان عريضة قد أسس أيضا مجلة « الفنون » عام ١٩١٣ مثلما أسس أبو ماضى مجلة « السمير » عام ١٩٢٣ . أما الأدباء المهاجرون الى أمريكا الجنوبية فكانوا أكثر عددا وانتشارا فى القارة . فقد استقر محبوب الشرتونى فى المكسيك وجورج صيدح فى فنزويلا قبل هجرته الى الأرجنتين ، على حين استقر فى البرازيل عدد كبير آخر من أبرزهم : ميشال معلوف ، حبيب مسعود ، جورج حسون معلوف ، رشيد وقيصر الخورى ، رشيد عطية ، خليل سعادة ، توفيق قربان ، توفيق ضعون ، الياس فرحات ، نظير زيتون ، شكر الله الجر ، فوزى وشفيق المعلوف ، فيليب لطف الله ، نبيه سلامة . وقد شكل هؤلاء « العصبة الأندلسية » فى سان باولو عام ١٩٣٣ ،وكانوا ينشرون انتاجهم فى مجلة « الاندلس الجديدة » التى أنشأها شكر الله الجر .ثم أنشأوا عام ١٩٣٥ مجلة خاصة تحمل اسم « العصبة الاندلسية » خلفت نحو ١٣ مجلدا . وكانت تقدم لقرائها هدايا سنوية مثل مسرحية « ابن حامد » لفوزى المعلوف ، ومجموعة « أقاصيص » لجورج المعلوف « .

وبينا كان الأدباء المهاجرون الى البرازيل انشط والصق بالأدب كان زملاؤهم المهاجرون الى الأرجنتين أميل الى الصحافة ، ربما بسبب شدة اهتمام الجالية العربية هناك بالصحافة وقلة اكتراثهم بالأدب . ومع أن الصحافة العربية فى الأرجنتين تعرضت للانكماش إبان الثلاثينات والأربعينات ، ومع أن عددها لم يزد على خمس صحف وثلاث مجلات يتراوح عدد قرائها بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ، فقد استطاع الأدباء النازحون الى الأرجنتين أن يؤسسوا « الرابطة الأدبية » التى رأسها جورج صيدح . ولكن هذه الرابطة توقفت بعودة صيدح الى الوطن فى أواخر الخمسينات . ولم يعد باقيا من أعلامها فى الأرجنتين اليوم سوى زكى والياس قنصل .

ماضى كله حياة

لا شك أن أدباءنا العرب فى الأمريكتين قد جمعت بينهم قضيتان أساسيتان هما قضية الوطن ، وقضية

العروبة . وكانت هاتان القضيتان على رأس أية قضايا أخرى ذاتية أو موضوعية . وكان لبعث القضيتين داخل الوطن العربي خلال الخمسينات بصفة خاصة أثره الواضح فيمن بقى على قيد الحياة منهم أو على قيد الهجرة. فضلا عن أنهم حيوا خطوات البعث الوطني والعربي ، وتغنوا بها في أشعارهم ، فقد عاد بعضهم الى الوطن وكأن أحلامه قد تحققت ، وكأن القضيتين اللتين كافح من أجلهما قد حلتا . وعلى هذا النحو عاد القروى والياس فرحات ونظير زيتون . وبقى الأول والثالث في وطنيهما بلبنان وسوريا . وعاد الثاني مرة أخرى الى مهجره في البرازيل حيث مات بعد سنوات . وقد جاء ثلاثتهم الى القاهرة في أواخر الخمسينات ومطالع الستينات حيث لقوا ترحيبا وتكريما كبيرين . وبالمثل لقوا ترحيبا وتكريما مماثلين في العواصم اللبنانية والسورية .

ولا شك أيضا أن هاتين القضيتين « الوطن والعروبة » كانتا وراء ما أبدعه المهاجرون من شعر ونثر عن الغربة والحنين للوطن ووراء كافة مظاهر التجديد التي أحدثوها في الشعر والنثر على السواء . ودون الدخول في تفصيلات كثيرة نقول ان مساهمة المهاجرين كانت محل نظر الدارسين والنقاد في الوطن على الدوام . ومن الثابت أن مساهمة المهاجرين الى أمريكا الشمالية تختلف عن مساهمة زملائهم المهاجرين الى امريكا الجنوبية . فقد ركز الشماليون جهودهم في النثر . وكانوا اسبق من الجنوبيين في الظهور . على حين كان هؤلاء أظهر في الشعر واقل اعتدادا بالنثر . وبينما دعا الشماليون الى تجديد الشكل ومارسوه في شعرهم ونثرهم على السواء . التزم الجنوبيون في شعرهم بالأصول العربية القديمة في الشكل .

لقد التقت دعوات التجديد التي دفعها ادباء الشمال بنظائرها في مصر ابان العشرينيات والثلاثينات . وكان التجديد الذي ذهب اليه صاحبا « الديوان » (العقاد والمازني) ومطران وجماعة ابوللو متفقا مع مادعا اليه صاحب « الغربال » (ميخائيل نعيمة) في امريكا الشمالية وزملاؤه أعضاء الرابطة القلمية وكذلك أعضاء العصبة الأندلسية في الجنوب ولاسيا فيا يتعلق بالشعر . بل ان حصيلة التجديد الذي أحدثه مهاجرو الشمال والجنوب في الشعر بخاصة كانت من المؤثرات البالغة الأهمية في كافة حركات التجديد في الوطن العربي على اتساعه ابتداء من الثلاثينيات حتى الخمسينيات . وكانت القصص القصيرة التي كتبها ميخائيل نعيمة وجمعها فيا بعد في مجموعته « كان ما كان » من أنضج نماذج القصة القصيرة في وقتها زمن الحرب العالمية الأولى . وكذلك كان شعر « أبو ماضي » والقروى وفرحات وآل المعلوف من اغنى الشعر العربي الحديث تعبيرا عن عواطف الحنين والحب للوطن والدعوة لوحدته وتجميع صفوفه . ولعل جبران هو أكثر هؤلاء وأولئك جميعا اليوم صلة بالآداب واللغات غير العربية . فقد ترجم معظم أعماله الى الانجليزية . أما ما كتبه هو نفسه بالانجليزية فقد ترجم الى الاسبانية والبرتغالية ، وأصبحت ترجماته ـ كما لمست في أمريكا اللاتينية ـ مقصد القراء غير العرب .

كان ذلك هو ماضي الأدب العربي في الأمريكتين حتى انتهاء عصره الذهبي مع نهاية الخمسينات . وهو ماض كان حافلا بالأحداث والابداع المتميز لامن حيث الكم فحسب وانما حيث النوع أيضا .

حاضر مشوب بالاحتضار

أما بعد الخمسينات فقد تعرض هذا الأدب لانهيارين كبيرين . وجاء الانهيار الأول من أمريكا الشمالية حين زال الأدب العربي بها بعد وفاة أعضاء الرابطة القلمية في نيويورك وعودة ميخائيل نعيمة الى لبنان . ثم جاء الانهيار الآخر من أمريكا الجنوبية حين عاد الى الوطن بعض أقطاب العصبة الأندلسية في البرازيل مثل القروى ونظير زيتون والياس فرحات والرابطة الأدبية في الأرجنتين مثل جورج صيدح ، وكذلك حين توالى سقوط أقطابه الباقين في أمريكا الجنوبية أمام الموت . فقد توفي الياس فرحات وآل المعلوف ونعمة قازان وفيليب لطف الله وميشال مغربي وغيرهم .

وقد أتيح لي اثناء زيارتي للبرازيل في خريف ١٩٨٠

أن أراجع بعض ماكتب ونشر في صحفها حول الادب العرب في الامريكتين ، وأن التقي بالعديد ممن بقوا على قيد الحياة من ادبائها العرب . ولفتت نظري دراسة مطولة كتبها جورج حسون المعلوف ونشرتها مجلة « المراحل » في سان باولو في ثلاثة اعداد عام ١٩٥٨ . وهي بعنوان « الأدب العربي المعاصر في المهجر » . وفي هذه الدراسة قام حسون ، وهو نفسه أديب وقاص ، بتتبع ماضي هذا الأدب وحاضره . وكأنما كان يتنبأ بحاضر هذا الأدب حين قال .

« ويخيل الى متمم النظر في أدب المهجر أنه أخذ يقطع مرحلته الأخيرة . وقد لايمر عقد من السنين حتى يفقد طرازه المعلم وألوانه الخاصة .

وفي موضع آخر من دراسته ذكر حسون ان الأدب العربي في البرازيل قد دخل في دور الاحتضار ، وأن ذلك « لقلة عدد القراء وقلة المدد أو عدمه من عناصر أدبية تملأ فراغه وتسد ثلم جدره حتى تحول الى مجلتين انبقتي المظهر تعنيان خاصة بنشر أحداث الجالية الاجتماعية ونشر رسوم الأثرياء وذوي الجاه في أفراحهم وأتراحهم مع قسم أدبي .. »

وعلى الرغم من أن هاتين العبارتين قد ظهرتا قبل عشرين عاما فهما تبدوان صحيحتين كل الصحة اليوم . وقد لمست صحتهما بنفسي طوال زيارتي . فقد أجمع كل من حدثتهم في هذا الموضوع على ان هذه هي المرحلة الأخيرة في الأدب العربي في الأمريكتين ، أو على التحديد في امريكا الجنوبية آخر معقل من معاقل هذا الأدب أو بتحديد اكثر البرازيل ... معقل أدبائنا في جنوب امريكا .

ثمة عوامل ادت الى هذا الاحتضار أو الانقراض الوشيك . بعضها يتعلق بالصحافة وبعضها الآخر يتعلق بالأدباء أنفسهم .

أما ما يتعلق بالصحافة وهي من أهم عوامل تنشيط الأدب وتطوره في العصر الحديث كما أشرنا ـ فقد لاحظت ضمور عدد الصحف العربية في البرازيل . ففي الوقت الذي تصدر فيه بالبرازيل ٢٨٠ صحيفة . ٦٢٠ مجلة لايوجد من هذا العدد الكبير سوى ثلاث صحف عربية أسبوعية فضلا عن مجلة واحدة شهرية .

والصحف العربية الثلاث هي :

١ ـ برازيل لبنان . أسسها رشيد عطية (احد اعضاء العصبة القلمية الراحلين) عام ١٩٢٠ باسم « فتى لبنان » ثم تغير اسمها عام ١٩٥٦ عقب وفاة مؤسسها . تصدر حاليا مرتين في الأسبوع . وهي صحيفة سياسية عامة من أربع صفحات . يرأس تحريرها منير عطية .. ابن مؤسسها .

٢ ـ الأنباء . أسسها عبد اللطيف اليونس عام ١٩٦٩ ويرأس تحريرها نواف حردان . وهي أسبوعية « حرة جامعة » من ثماني صفحات منها صفحتان بالبرتغالية .

٣ ـ النفير العربي . أسسها سامي عاذار عام ١٩٦١ وهي أسبوعية سياسية جامعة من ثماني صفحات .

ويتراوح توزيع الصحيفة الواحدة بين ألف وألفي نسخة في جالية يصل عددها الى أكثر من مليوني نسمة ! بل ان ثمة صحيفة أخرى تصدر اسبوعية بالبرتغالية اسمها « المنارة » توزع اكثر من أية صحيفة عربية داخل الجالية العربية ذاتها . وقد أسسها عام ١٩٦٦ عربي يدعى ادوارد بزهر ، ويهتم فيها بأبناء الجالية وشئونها !

وأما المجلة الشهرية فهي « المراحل » التي أسستها مريانا دعبول الفاخوري عام ١٩٥٥ عامة شهرية . وتضم جزءا مصورا بالبرتغالية تغلب عليه صور المناسبات الاجتماعية لأفراد الجالية العربية . ولكنها في الحقيقة يمكن أن تعد سجلا للأدب العربي في أمريكا الجنوبية طوال ذلك التاريخ .

وجميع هذه الصحف لا يدفع أية مكافآت للأدباء أو الشعراء الذين تنشر لهم . ولايوجد بها أقسام للتحرير أو محررون . ولكن يتوفر على تحرير كل منها فرد واحد أو اثنان .

المرحلة الصعبة

وأما ما يتعلق بالأدباء فهو كثير في الحقيقة .

لقد هاجر هؤلاء الأدباء ـ كما هاجر غيرهم من غير الأدباء ـ بحثا عن حياة جديدة ، ولكن الحياة الجديدة التى واجهوها لم تكن سهلة أو ميسورة من البداية الى النهاية . فما أكثر ما تعرضوا للضنك وما أكثر ما قطبت الحياة جبينها فى وجوههم ، ومع ذلك غالبوها . ومن خلال ما سمعته منهم فى البرازيل يكاد السامع يخرج بتسط عام لبداية واحدة تقريبا . اذ يأتى الواحد منهم من بلاده ملتسا قريبا أو صاحبا مهاجرا فينزل عليه حتى تستقيم ساقاه على الأرض ، ثم ينزل الى ميدان التجارة فيحمل « مخلاة » أو « خرجا » تطور فيما بعد فأصبح حقيبة ، ثم تطورت الحقيبة أخيرا فأصبحت سيارة نصف نقل . وفى هذا الخرج أو الحقيبة أو السيارة يحمل المهاجر ما يستطيع حمله من بضاعة ـ وغالبا ما تكون ملبوسات أو سلعا استهلاكية ـ ثم يتوجه الى المدن الصغيرة أو الريف فيبيع بضاعته ، ويقتسم ربحها مع تاجر الجملة ، وهذه كانت حال القروى وفرحات ونظير زيتون وغيرهم . فاذا نجح الواحد منهم فى عمله بعد ذلك وكون مالا افتتح متجرا او مصنعا صغيرا أو وكالة . وتلك كانت حال فرحات وميشال مغربى وهى اليوم حال شكيب تقى الدين وسواه . ومع ذلك كله فقد عاش القروى وفرحات وأبو ماضي وغيرهم حياة كفاف طوال وجودهم فى الغربة . ولعل القروى قد لخص ذلك كله فى بيت واحد من الشعر قال فيه :

انى صعدت الى مجدى على جبل

مما تهدم من روحى ومن جسدى

ولأن الأدب والشعر لا يدران دخلا يكفى الحياة ـ كما نعرف ـ كان من العسير على المهاجر ان يحترفها وان يتعيش منها . فلا الصحيفة تكافئه بمال ولا الجمهور يطعمه . وهكذا قدر لهؤلاء المهاجرين ان يجعلوا من الأدب صناعة على الهامش أو وظيفة لبعض الوقت .

ومع مرور الزمن ومحاولة المهاجرين الاندماج فى المجتمعات الجديدة بالزواج منها أو تعلم لغاتها بدأت الاجيال الجديدة تفقد صلتها باللغة العربية شيئا فشيئا . وساعد على ذلك ـ من ناحية ـ اغلاق باب الهجرة أو تقييده على الاقل مما أدى الى هبوط عدد المهاجرين هبوطا شديدا ابتداء من أواخر الستينيات . ومن ناحية أخرى أدت دورة الحياة الطبيعية الى اختفاء كثير من وجوه الأدب اللامعة . فقد طوى الموت فى السنين الأخيرة فى البرازيل وحدها عددا كبيرا من الشعراء كما طوت الشيخوخة عددا كبيرا آخر . ولم يعد يوجد بين الأدباء والشعراء الذين على قيد الحياة واحد تحت سن الأربعين . وربما كانت حالة توفيق برير تستحق الذكر هنا . فقد هاجر من لبنان فى سن السادسة عشرة عام ١٩٣٧ دون ان يكون قد كتب حرفا من الشعر فى وطنه . ولكن موهبته حركتها التجارب والقراءة ـ كما روى لى ـ فى الدنيا الجديدة .

وهكذا عملت الصحافة بتخلفها وضمورها والأدباء بموتهم وشيخوختهم وانعدام عددهم على اضعاف حاضر الادب العربى فى آخر معقل له ، وهو البرازيل ، أو سان باولو ان شئنا الدقة . أما الأرجنتين فلم يعد فيها ـ كما قلت من قبل ـ سوى الأخوين زكى والياس قنصل اللذين دخلا مرحلة الشيخوخة فى الوقت الذى تخلفت فيه الصحافة العربية وتدهورت هناك أيضا .

يبقى بعد ذلك قسم اللغة العربية الذى انشأته جامعة سان باولو فى أوائل الستينيات ، وهو قسم لم يساهم فى الحقيقة فى نهوض الأدب العربي هناك ، فجهوده تنحصر فى تعليم اللغة العربية لطلاب معظمهم من غير العرب أو من غير الأصل العربي . فضلا عن فقر امكاناته المادية . اذ لا يوجد به سوى رئيسه المصرى الدكتور حلمى نصر ومساعده اللبنانى المولد الدكتور جبران المر . وهما وحدهما لايكفيان لتطوير رسالة القسم المنشودة .

ذلك هو حاضر الأدب العربي فى الأمريكتين : تقلص نهائيا فى أمريكا الشمالية ، وأخذ فى التدهور والانقراض فى أمريكا الجنوبية ، أو هو حاضر لخصه لى الشاعر نبيه سلامة ابن حمص وشيخ الشعراء العرب فى البرازيل حين وصف الشعر هناك بأنه « صار شعر مناسبات » . وكأننا عدنا الى العصر المملوكى أو التركى المملوكى فى أدبنا !

لندن ـ على شلش



كل مريض كتابه قائم بذاته !

مدارس جديدة في العلاج النفسي

بقلم الدكتور عبد العزيز القوصي

يتميز القرن العشرون بأنه القرن الذي ظهر فيه علم النفس كعلم ، وظهر فيه التحليل النفسي والعلاج النفسي كأساليب لا نقول انها تستند على علم النفس بمعناه الواسع ..

.. ولكن نقول انها تجد تفسيراتها ومبرراتها واسانيدها فيه . وفي اوائل القرن برز فرويد وبرز جانبه وغيرهما من اتباعهما امثال « أدلر » و « يونج » و « مورتون برنس » وغيرهم . غير أن واحدا من هؤلاء لم يأخذ بأفكار فرويد على ما كانت عليه ثم ان احدا منهم لم يتخل عن اساسيات أفكاره .فبقدر ما قوبل به فرويد من نقد ورد فعل بقدر ما قوبل به من تقبل وتقدير واجلال . وكان فرويد يعلن أن هذا إن دل على شئ فانما يدل على صحة أفكاره ونظرياته فلكل تصرف بشري وجه مقبول ووجه غير مقبول ، وفي القبول كما في الرفض أدلة على صحة النظريات .

والآن نجد اننا أمام عدد من المدارس تنادي كل واحدة منها بأنها مدرسة قائمة بذاتها لها أساسها النظري المنبثق من الواقع .ثم إن كل مدرسة تختلف عن غيرها ولها مميزاتها ، فهذه مدرسة العلاج السلوكي وتلك فنيات « فيكتور فرانكل » Viktor Frankl ونجد ان كل مدرسة تدعي ان مالها لا يقتصر على الفنيات ، فهناك بنية فكرية نظرية وهناك الفنيات ، وهناك امر جديد ، أو حدث جديد ، في ميدان العلم وفنونه يمسح الماضي ويزيله ويحل محله ، فالعلاج « بالمعنى » يحل محل التحليل النفسي وجوانبه الجنسية . ذلك في نظر فرانكل واتباعه . فاذا كانت حياة الانسان لها معنى عند الانسان فانه



يعيش في توازن وهدوء وسعادة وما ينطبق على حياة الانسان بوجه عام ينطبق على تفاصيلها فهناك حياته مع اسرته وحياته مع عمله وحياته مع أصدقائه وغير ذلك ... وبذلك يحل المعنى الوجودي محل الجنس ،فاذا كانت حياة الانسان مع زوجته حياة ذات قيمة وذات معنى فان تلك القيمة وهذا المعنى يكون لهما اثرهما في تقبل الانسان لنفسه وتقبله لمن حوله . وهذا الذي يقال عن الزوجة يقال عن المسكن وعن الأسرة وعن الغذاء وعن الكساء ،وكانت لقمة العيش بالنسبة لفرانكل ايام ان كان في معسكرات الاعتقال النازية ذات معنى كبير مما جعله يرى في الحياة بصيصا من الامل .

الصحة في تكامل الشخصية

ومن مدارس العلاج النفسي مدرسة الجشتالت او مدرسة العلاج الجشتالتي ، التي تقوم على النظرة الكلية أو النظرة التكاملية .. وواضح ان تعارض الاتجاهات في الشخص الواحد يفصل احيانا بين اجزاء الشخصية وقد يوجد بينها التناقض والتوتر ، فاذا دفع حب المال شخص الى ان يهدر كرامته ، ودفعه اعتزازه بكرامته الى مقاومة المال ، كان الشخص في حالة صراع فلكي ينتهي الصراع ويحل الهدوء محل الاضطراب ويعود الاتزان الى الشخص بعد فقده فلا بد من اندماج الامرين : جمع المال وصيانة الكرامة ولابد من تكاملهما . هذا مثال ساذج ولكن يعود بنا الى فكرة ان الصحة النفسية هي في تكامل الشخصية وان الصحة هي من كلمة صحيح اي متكامل اي غير منقسم ، وفكرة مدرسة العلاج الجشتالتي اعمق في الواقع واوسع من هذا بكثير اذ يهدف العلاج الجشتالتي الى تحقيق التكامل النفسي دون الالتجاء الى التحليل أو التنقيب في أعماق الماضي البعيد ، وعلى غير طريقة التحليل النفسي يقوم المعالج بمحاصرة المريض بأسئلته مما يساعده على ان يضطر نفسه الى مواجهة نفسه سعيا الى التكامل .ويهدف العلاج الجشتالتي كذلك الى ربط المريض بواقعه الفعلي والحسي وهذا لاحداث التكامل بين المريض وبين واقعه مما لا مفر له منه . ولا يؤمن المعالج الجشتالتي بوجود صفات انفعالية طفلية عنيفة تكمن وراء المرض النفسي (او البدني النفسي) . وانما يرى ان المريض ينكص الى الحياة الطفلية ويتمسك بمسالكها (كالبكاء والانهيار والهروب والانزواء والاستغاثة) لكي يعفي نفسه من تحمل المسئوليات وتبعات حياة الكبار وكي يعتمد على غيره اعتماد الطفل على والدته .

وكما قلنا يلح المعالج الجشتالتي على ضرورة معايشة المريض للواقع وعلى ضرورة التركيز على الحاضر وعلى المستقبل القريب .. وبذلك ترتبط مجالاته الداخلية والخارجية بأبعادها المكانية والزمانية النفسية وغير النفسية .. ونلحظ في الاساليب الجشتالتية استخدام اساليب الافراغ واساليب السيناريو وذلك باستخدام فنية المقعد الخالي ..وتأدية حوار يجري بين المريض وبين اي شخص هام في حياته ويحتاج آخر الامر من غير شك الى توحد واندماج تأميني .

وهناك مدرسة اخرى يمكن تسميتها « المدرسة الواقعية » ويتزعمها « جلاسر » وهو يرى ان كل المرضى يتفقون في عجزهم عن اشباع حاجاتهم الاساسية ، واهم ما فيها الاندماج الحميم مع شخص صادق واحد يمنحه المريض حبه ويتلقى منه الحب .ولا يكفي وجود اشخاص حول المريض يحبونه حبا صادقا ويولونه خالص اهتمامهم اذ يجب ان يكون المريض قادرا على تقبل حبهم وقادرا على منحهم حبا مخلصا صافيا صادقا ، وبدون هذه الحركة الحرة المتبادلة تصبح المشكلات عسيرة الحل .

ويذهب جلاسر إلى أن المشكلات تنشأ عندما يفشل الشخص في إشباع حاجاته الاساسية في عالم الواقع بطريقة حقيقية مقبولة اخلاقيا واجتماعيا .وعندما يفشل ينكر الواقع من حوله انكارا جزئيا اوكليا ويحاول اشباع حاجاته بطريقة تخيلية كما لو كانت بعض جوانب العالم غير موجودة اوكما لو كان هناك تحد لوجودها ..

..ويلح جلاسر على تجاهل الحياة الماضية للمريض ويركز على حياة المريض الراهنة وحاجاته الاساسية في اطار الواقع الراهن .هذه هي آراء جلاسر . وواضح انها كآراء الاخرين تقبل المناقشة ويمكن ان تقف الى جانبها بدائل اخرى .. واساس الطريقة تحقيق الاندماج الصحيح القائم على علاقة إنسانية صادقة تماما يدرك المريض ان شخصا ما يهتم به بدرجة كافية لا لمجرد تقبله ولكن لمساعدته على إشباع حاجاته في عالم الواقع . ولعل هذا النوع من العلاقة يظهر في حياته لاول مرة .

العلاج العقلاني

ومن مدارس العلاج النفسي الحديثة مدرسة العلاج العقلاني الانفعالي ،وهي تعزو ما يظهر على الفرد من اضطرابات نفسية الى ان تفكير المريض يكون غير منطقي .. ويرى اصحاب هذه المدرسة ان المريض يمكنه التخلص مما عنده من تعاسة وبؤس اذا عرف كيف ينمي تفكيره المنطقي العقلاني . ذلك لان ما يصيب الفرد من حالات نفسية يرجع الى نظرته الى الامور والى تأويله



لها .. وعلى المعالج ان يحث المريض على التخلي عن تمسكه بافكاره غير المنطقية . ولهذا تتبع الخطوات الآتية :

(١) ... إيجاد علاقة ألفة وتفاهم وتقدير بين المعالج والمريض حتى يتمكن المعالج من معاونة المريض على التعبير عما في نفسه بصورة صادقة وعلى إدراك انه قادر على إحداث التغيير وعلى فهم اصل المشكلة .

(٢) ... يعبر المريض عن انفعالاته تعبيرات ينقلها من مجرد الانفعال الى الفهم .

(٣) ... يعطي المعالج للمريض مساندة نفسية تحفظ له وحدته وكيانه .

(٤) ... يفيد المريض من العلاج الاستبصاري التأويلي ويتدرب عليه بمساعدة المعالج .

وجملة القول أن العلاج العقلي يقوم على الهجوم المنسق للجوانب غير المنطقية في سلوك الفرد كما يقوم على تشجيع الفرد للانخراط في أنشطة من شأنها تغيير الاتجاهات السالبة المدمرة .

فبالاقناع يفهم المريض نفسه ويفهم اللامنطقية لبعض تصرفاته ومشاعره ، ويتشجع على الاقلاع عنها وعلى استبدالها بغيرها مما يعتمد على المعقولية في مقبوليته . وهناك مدرسة علاجية يمكن تسميتها مدرسة العلاج الاستفزازي ، وهناك تقارب بينها وبين مدرسة كارل روجرز .. وذلك بمساندتها وتعاطفها وغير المشروط مع المريض من ناحية وبتمسكها بالمواجهة المباشرة الحاسمة للمريض من ناحية أخرى وتؤمن هذه المدرسة بصلابة عود المريض وقدرته على استيعاب تغييرات جذرية في فترة وجيزة بدلا من انتهاج النزعة التدريجية البطيئة مما تسلكه مدرسة التحليل النفسي فتستغرق وقتا طويلا جدا .

وفي هذه الطريقة يستفز المعالج المريض بتسخيف مسالكه المدمرة للذات وبالتهكم عليها والسخرية منها أو بتهوينها لدرجة تثير ضحك المريض على نفسه .. وبإشعار المريض بانه ليس بالعجز الذي يتصوره عن نفسه .

وخلاصة القول .. ان العلاج الاستفزازي لا يقوم على الاشفاق والتباكي مع المريض لمعاناته من العالم والحياة خارج العيادة النفسية وانما يقوم على تدريبه وتقوية عوده وشكيمته حتى يمكنه ان يرتطم بالحياة الخارجية وان يواجه مصاعبها وجها لوجه .

والعلاج بالصرخة

ومن المدارس العلاجية مما ظهر في السنوات الاخيرة مدرسة العلاج بالصرخة البدائية (الاولية) وزعيمها « ارثر يانوف »وأساس نظريته ان سبب العصاب او الذهان او انفصام الشخصية هو في الواقع تعرض المريض لصدمة طفولية اما في شكل صورة واحدة تقع مرة واحدة او في شكل متكرر يتراكم على مدى السنين والأيام ... ويكون في الغالب مؤداها ان الطفل يشعر انه غير محبوب (أو مرفوض) من والديه احدهما اوكليهما . كذلك قد يشعر الطفل بالرعب من احدهما او من كليهما كل هذا قد يؤدي الى ان يفكر الشخص بواقعه من حوله وينهار وعيه بذاته ومشاعره وتتشوه ادراكاته لذاته ولواقعه من حوله مما يجعله يعيش في عالم من الاوهام والمخاوف .. ويرى يانوف أن علاج المريض يكون بتقريبه من الموقف الصدمي بداخله حتى يعيش الصدمة بانفعالاتها ومشاعرها مما يجعل الالم يحتويه ويغلفه .. وبذلك يجد ألم الصدمة متنفسا في البكاء والصراخ فيطلق صرخة مدوية تخترق حاجز الالم وبذلك تقضي على اثار الصدمة الطفلية الاولى .. ويختلف يانوف عن غيره من اصحاب المدارس العلاجية في كونه يصر على انه ما دام ألم الصدمة موجودا في الجهاز النفسي فانه يحول بين ادراكه لمشاعره الداخلية من ناحية .. وبين ما يثير الالم في داخله من مثيرات الواقع الخارجي .. ويرى يانوف ان العلاج يكون بالافراغ المنهجي لمستودع الالم بداخل المريض .

وللطريقة جوانب أخرى منها منع المريض قبل العلاج وأثناءه من تناول اية مهدئات اومخدرات حتى لا تضعف عنده الدفعات ثم انه يمنع من النوم في الليلة السابقة للعلاج حتى لا ينفس عن مؤثراته من خلال الاحلام .. ثم ان مهمة تأويل الاحلام تترك كلها للمريض نفسه ولا يناقش المريض عادة في موضوع الطرح .

... ونلاحظ من عرض هذه المدارس العلاجية أنها تأخذ بكثير مما جاء في أراء فرويد وانها تتخلى كذلك عن كثير مما جاء به .. ولكننا نلاحظ كذلك ان اعراض الاضطراب النفسي وجذورها متعددة متنوعة متباينة .. مما يجعل الطريقة تختلف باختلاف المريض واختلاف المعالج ويشعر ذوو الخبرة ان كل مريض يكاد يكون كتابا قائما بذاته له ظروفه وله ملابساته وله بنيته .

■■

د . عبد العزيز القوصي



من التراث الحديث

أزمة المجلات الأدبيّة

للدكتور زكي مبارك

انشاء مجلة فى مصر أو غير مصر عمل لا يعرفه الا من يعانيه ، وتزيد متاعب هذا العمل اذا أريد أن تكون المجلة مقصورة على الأدب الصرف ، بحيث لا تكون لها موارد غير عواطف القراء ، والقارىء لايدفع قرشا في مجلة أدبية الا اذا وثق بأنه من الغانين ، ولا تظفر المجلة بثقة القارىء الا بعد جهود تفر من حملها الجبال .

كنت أقول أن العقل هداه الى أن الضمير المصرى لا بد له من اسلوب مجلة لا تهتم بغير الأدب الصرف ، ولا تقبل مواجهة الجمهور بغير الفكر المشرق في الاسلوب الجميل .

ثم جدت شواهد أقنعتني بان روح التضحية هو الاصل في انشاء المجلة الأدبية .

فالصحافة الأدبية مسيرة بالضمير الأدبي ، وهو يأبى على أصحابه أن يتزايدوا على الناس طاعة للأهواء ، أو طاعة للأحزاب ، فيا خوف الناس منا ونحن لا نملك غير الصدق ولا نصاول الا في حدود الأدب والذوق ؟؟

المجلة السياسية تصل الى أيدي الوزراء قبل أن تصل الى أيدي الجمهور ، لأن الوزراء يحبون أن يعرفوا ما يقال فيهم بحق أو بغير حق ، فهل تلقى منهم المجلة الأدبية بعض هذا الاهتمام الطريف ؟؟ وكيف وهم من ظلم المجلات الأدبية في أمان ؟؟

ان مجلة مثل (الرسالة) تقدم للجمهور شواغل نبيلة بالحديث عن العلوم والآداب والفنون ، ولو التفتت الحكومة لأدركت ان انتشار مثل هذه المجلة يريحها كثيرا أو ـ قليلا ـ من شيوع الاكاذيب والأراجيف .

من الآفات التي تعوق الادب في هذا العصر ان الكتاب والشعراء لا يصبرون على طي ما يكتبون وما ينظمون ، وانما يبادرون الى النشر في الجرائد والمجلات ثم تكون النتيجة أن يضطروا الى مراعاة الجماهير المختلفة في أكثر الشئون فيخلو أدبهم من الصراحة ويغلب عليهم ما يشبه الرياء من أمراض الكتمان ؟

أهم المصاعب التي يعانيها الأدب أنه صار من الوسائل الشريفة لكسب الرزق الحلال ، ومن الخير للأدب أن صار كذلك ليعرف من لم يكن يعرف أن القلم نعمة من النعم السوابغ ، أو أنه خليق بان يفتح لحامليه كرائم الآفاق ..

ولكن من الشر للأدب ان صار كذلك ، فقد أصبح أهله أسارى للمجتمع من قرب أو من بعد ، وأصبح من المحتوم أن يراعوا طوائف من الرقباء ، فالرقباء الحقيقيون هم القراء ومداراة القارىء مرض قديم في الصحافة المصرية وتلك المداراة هي علة العلل في جسم الأدب الحديث ، ونحن نحارب هذه العلة

أقول هذا وقد مزقت خمسة أحاديث قبل هذا الحديث فقد تحدثت فيها عن أشياء لا يجوز نشرها في هذا الوقت وان كانت في الصميم من دخائل النفس الانسانية فقد يقول عاقل أو جاهل اننا في أيام لا تتسع للحديث عن سرائر النفوس كأن الضمير الأدبي يخضع لظرف الزمان وظرف المكان ، وكأن العبقرية

الروحية تعرف الرسوم والحدود ، وكأن مخاطر الحرب ومتاعب البؤس ومصاعب التموين تصد الروح الظامىء عن هواء في ورود ينابيع الوجود .

عند الأمم الأوروبية تقاليد أدبية تستأهل التسجيل فهنالك يؤمن الكاتب بأمته فيؤلف كتابا في مئات أو ألوف من الصفحات لينشر بعد موته بأعوام طوال ..

فيا معنى ذلك ؟؟

معناه بأن الكاتب يثق بأن الضمير الأدبي في بلاده سيعيش ويعيش الى أن ينصفه من زمانه ولو بعد حين .

ومعناه أن الكاتب يؤمن بالخلود ..

ومعناه أن الكاتب يشعر بثائرة الحقد بعد أن يموت .

ومعناه أيضا أن الكاتب يعرف كيف ينتقم وهو في غيابة الفناء أو حصانة البقاء .

فأين الأمة العربية لتودعها دفائن صدورنا من أبناء هذا الزمان ؟؟

وأين من يفتش في دفاترنا بعد الموت ، ليرى ما سطرناه في أخلاق هذا الجيل ؟؟

جهادنا في خدمة القلم أضيع من الضياع ولولا الايمان بأننا نؤدي خدمة قومية لقصفنا القلم بلا رحمة ولا إشفاق .. وعند الله .. عند الله .. وحده الجزاء ..

الجيش المرابط في الميادين الفكرية هو جيش الأدباء الصابرين على مكاره الحياة الأدبية وهي حياة لا يصبر على مصاعبها الثقال إلا من تقهره الفطرة على الانس بالادب في جميع الأحوال .

وقد شهد التاريخ واعترف بأن الأمم لا يقام لها ميزان إلا يوم يثبت أن لها حظا من الروحانية الفكرية والأدبية لأن الفكر والأدب لا يكونان من أنصبة الشعوب إلا بعد النضج المنشود في العقول والقلوب .

وأقول للمرة الأولى بعد الألف أن الأديب المفكر ليس أجيرا لزمانه وليس أجيرا للوطن ولا للمجتمع فمن توهم أن الأديب المفكر مسئول أمام قوة غير قوة الضمير فهو من أكابر الجاهلين .

نحن نخدم الوطن بأقلامنا خدمة لا يعرفها المتحذلقون من عبيد الشواغل اليومية ، نخدمه صادقين لا كاذبين ولا ننتظر منه أي جزاء لأن خدماتنا تجل عن الجزاء .

وماذا يملك الوطن حتى يكافىء المجاهدين من أرباب الأقلام ؟؟ أيمنحهم الألقاب ؟؟ أيمنحهم الأموال ؟؟ وأي لقب أفخم من لقب الأديب ؟؟ وأي ثروة أعظم من روح الأديب ؟؟

أستغفر الله وأعتذر إلى الوطن الغالي ..

فجزاء الأديب من وطنه مضمون .. مضمون لان الوطن لا يتحدث بأفراحه وأتراحه إلا إلى الأديب .

ولا يجود بسرائره الروحية لغير الأديب ولأن الوطن يأبى أن يكون أساته من طبقة غير طبقة الأوفياء من الأدباء ..

خدام الوطن في غير ميدان الأدب يجزون بالألقاب والأموال لأن خدماتهم تحتاج إلى تشجيع من ألوان الجزاء ، أما خدام الوطن في ميدان الأدب فهم أعز وأشرف من أن تصدهم عن الواجب عوادى النكران والجحود ..

الآن عرفتك يا وطني ، عرفتك عرفتك ..

لا تستطيع الخطوب أن تخرس بلبلا يغرد في رياضك الغناء ولا يملك الدهر أن يسكت صرير القلم في صحائفك البيضاء ..

وطني

لو ظهرت أشراط الساعة نذيرا بقيام القيامة ، وخرست الألسنة وجفت الأقلام وشغل المرء عن أخيه وزوجته وبنيه لرأيت من واجبي أن أرفع القلم لصوتك وفضلك وأن أجعل آيتك في البيان خاتمة آيات الوجود ..

(*) العدد ٤٧٠ من مجلة الرسالة ٦ يوليه سنة ١٩٤٢ .

التعليم والمستقبل العربي

الدكتور . على عبد المنعم – طرابلس الغرب

● يقف العالم العربي المعاصر على أبواب مرحلة هائلة من التحولات والتغيرات العميقة . . في نمطه الحضاري وأسلوب حياته . فهو يسعى الى تحديث هذا النمط الحضاري حتى يلحق بركب الحضارة . ويعيش العرب حياة العصر ومستواه .

ومن ثم أصبح متعينا على العالم العربي ازاء هذه التغيرات ـ من داخله ومن خارجه ـ أن يعيد النظر في نمطه الحضاري بجميع عناصره المادية وغير المادية .

واذا كان من المسلم به أن الشخصية القومية متصلة مترابطة . كان لزاما على العالم العربي أن يواجه نمطه الحضاري من جوانب ثلاثة :

ا ـ استقراء تراثه قصدا الى التخلص من سلبياته . ودعما لايجابياته .

ب ـ مسح الحاضر ورصده وتحليله سعيا الى المواءمة بين الامكانات المتاحة والأهداف المنشودة .

ج ـ ربط الاستقراء والمسح بالصورة التي يرجوها لمستقبله الذي يتطلع الى ارتياد افاقه . وهذه النظرة التي تأخذ في اعتبارها الفواصل بين الماضي الحي للعالم العربي وحاضره ومستقبله تواصلا تشده لحمة النسب وأواصر القرابة . ترتكز على الايمان بمبدأ (الشمول) . الذي يرى الحياة الانسانية بأبعادها الزمانية والمكانية كلا واحدا . فما يحدث في جانب بعينه في مكان بعينه لا بد أن نجد صداه في الجوانب الأخرى وفي غيره من الأمكنة .

والعالم العربي لايمكن أن يعيش بمنأى عن العالم بحكم خلفيته الحضارية وموقعه الجغرافي وثروته الطبيعية . بل لا بد أن يتأثر به ويؤثر فيه .

وأداة هذه النظرة الشاملة التعليم . اذ هو وسيلة انماء الوعي والادراك لدى الأفراد . لذلك كان ضروريا أن ننبذ نظرتنا الضيقة اليه . والمحصورة في وظائفه التقليدية كأداة للمحافظة على التراث ونقله من جيل الى جيل . ونتبنى نظرة جديدة اليه بوصفه أداة للتغيير في حركة المجتمع لها علاقتها العضوية بالأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولها مقوماتها وحركتها الديناميكية وفق مطالب العصر المتغير .

حتى يحقق التعليم هدفه

وهذا التغيير أو التغير الذي يتسم به مستقبل العالم العربي يتميز بسرعته وتلاحقه وشدة وقعه . فقد أصبح التغير حقيقة وضرورة : حقيقة تؤكدها الجهود التي تبذل . والانجازات التي تتحقق في مجال التصنيع بأساليبه الحديثة . وفي مجال النظام

الاجتماعي . وفي وسائل الاتصال الجماهيري وما يطرأ عليها من تطوير . وما ينشأ عنها من آثار . ومن تعاظم الرأي العام . ومن انتشار المبادىء الديمقراطية بمضامينها المتعددة وأشكالها المختلفة .. وضرورة تدفع المجتمع الى المزيد من التقدم والقدرة على الاسهام في بناء حضارة الانسان على الأرض .

وهذا من شأنه أن يضع الانسان العربي أمام سيل جارف من الاختيارات التي تتطلب الاستجابة السريعة المواتية . وبالتالي فهو في حاجة أكثر من أي وقت مضى لاستخدام فكره في حسم الاختيار وتحديد الاستجابة .

وهنا يبرز دور التعليم باعتباره النظام الاجتماعي المنوط به تنمية قدرات الفرد الفكرية ,وملكاته الذهنية . ومشاعره الوجدانية . حتى يتيسر له حسن الاختيار ومواكبة الاستجابة وسرعة التكيف والتوافق مع ما حوله من متغيرات .

ولكي يؤتي التعليم ثماره لا بد ان يكون تعليما عصريا . وهذا لا يأتي الا باعادة النظر ومداومته في أشكال التعليم ومحتوياته وأهدافه . وقبل كل شيء في القائمين على أمره وبخاصة المعلمين . والعالم العربي ينشد في تغييره أن يسود حياته المستقبلية الاسلوب العلمي في التفكير وما يتصل به من تخطيط وطيفيه . وصولا الى تحقيق مستوى حياتي أفضل . باستخدام الوسائل الحديثة في الانتاج من حيث زيادته ورفع معدلاته . وتنظيم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد .

والوسيلة الى ذلك هو التعليم الذي يرسخ مفهوم الوظيفية بتخليصها من الثنائيات التي رانت على فكرنا حقبا طويلة من الزمن . كالفصل بين الفكر والواقع وبين المعرفة والعمل . وبين العلم والتطبيق وبين التعليم وحركة المجتمع .. ويهدف الى تنمية قدرات الأفراد الفكرية وطاقاتهم الوجدانية والى تنمية الوعي بمبدأ التخطيط وغرسه كاتجاه للفرد في حياته .

وحجر الزاوية في ذلك كله هو « المعلم » وما يتمتع به من قدرات . وما يتزود به من خبرات ومهارات تجعله قادرا على الاسهام في تنمية ملكات الأفراد وقدراتهم الى أقصى حد ممكن . يتيح لهم التكيف مع ما يطرأ حولهم من مستحدثات .

٤ ـ ولعل أبرز ما يميز قسمات المستقبل العربي هذه اليقظة الشعبية ـ التي أدت الى أن ينفض العالم العربي عن نفسه كثيرا من ألوان التبعية والخضوع . وتنامت في الوقت ذاته نتيجة لهذا التخلص من التبعية والخضوع .. وما تستتبعه هذه اليقظة من تغير في النظرة الى الحرية والمسئولية وتكافؤ الفرص . فلم تعد الحرية تعني حرية طبقة دون طبقة في المجتمع . ولا المسئولية مسئولية حفنة من الناس يتحكمون في غيرهم . ولا الفرصة فرصة يحتكرها بعض الأفراد دون سواهم . انما أصبحت الحرية تعني حرية كل مواطن بمعنى حقه في الحياة والعمل . اذ لا حرية بدون عمل . ومسئوليته في أن يشارك بعمله في رفع كفاية كل المجتمع . وفرصته في الاستمتاع بنوعية الحياة وثمرات التنمية الشاملة التي تتخذ الانسان اداة وغاية معا .

وهذه اليقظة الشعبية التي تؤكد أن الشعوب هي صاحبة القيادة في صنع المستقبل . ستتمخض عن وحدة عربية شاملة . تذيب الفوارق المصطنعة بين الشعوب العربية . وتدك الحواجز التي أقامتها المصالح الضيقة والأهواء الذاتية . وتدعم التكامل بين جزئيات هذا العالم العربي على أسس علمية صحيحة قوية .

وهذا من شأنه أن يلقي على عاتق التعليم عبئا جسيما . اذ هو أداة تنمية الوعي والادراك لدى هذه الجماهير . وتعريفها بحقوقها وواجباتها حتى تكون خطاها على بصيرة في تعميق مفهوم الوحدة العربية المرتقبة ودعمها . ولا يتسنى للتعليم في العالم العربي أن يؤدي دوره في تدارك تخلف الماضي وملاحقته لسرعة التغير المعاصر الا اذا نظرنا اليه من منظور مغاير لما توارثناه . اذ لم يعد التعليم خدمة يلتزم بها المجتمع نحو أفراده . انما هو عملية استثمار يقوم بها المجتمع في أعز ما يملك وهو القوة البشرية . وهي تفوق في مردودها ما يستثمره في التصنيع والاستزراع وغيرها من مجالات الاستثمار .

تعقيب على مقال

هل تدهورت حقاً مكانة رجال الدين ؟

بقلم ياسر صاري ـ اللاذقية

تلقت « العربي » عددا من التعليقات على مقال الاستاذ حسين احمد امين « هذا تدهوت مكانة رجال الدين » ، المنشور في العدد « ٢٧٢ » ،اخترنا منها هذا التعليق :

ليست القاعدة أن يكون الفقهاء تبعا لأهواء الحكام في تاريخ الاسلام ، بل الصحيح أن الفقهاء كانوا دائما عامل أمان يرد الحكام ـ قدر المستطاع ـ الى جادة الصواب ، ووجود فقهاء سوء خالفوا هذه القاعدة طمعا في دنيا يصيبونها يعتبر الاستثناء الذي يقف منه الناس موقف الشك والحذر . ولقد كان هؤلاء موضع سخرية الجماهير دائما ، ولا يدخلون تحت لفظ الفقهاء الامن باب المجاز . لذلك ماتوا بموت حاميهم ونصيرهم ، وبقيت آراء اولئك الذين كانوا دعاة خير ، وأصحاب فكر ، وأعوان حق . أما ما نراه من تطاول بعض الناس على الفقهاء فسببه أمور أهمها :

(١) التعميم دون تثبت واعتبار الفئة الشاذة هي الأصل لبروزها اجتماعيا والعمل من قبل أولياء نعمتها على إظهارها دون جدوى . ذكر صاحب المقال قصة الفقيه الخراساني لابس خلعة السلطان المتحلي بالذهب والديباج ، واعتبره مثالا يقاس عليه ، بينما الواقع خلاف ذلك بدليل أننا لا نعرف اسم الرجل ولا هويته ، فهو رجل خراساني كان يتسكع على أبواب الملوك . وكم أخرجت خراسان من عالم جليل القدر أو من فاسق منحرف الضمير . والعجيب أن تستشهد بما كان عليه الفقيه الخراساني النكرة وتتناسى ما كان من محنة الحاكم الشهيد المروزي صاحب كتاب الكافي ، ومن سجن الامام السرخسي صاحب كتاب المبسوط ، ومن موقف الامام الغزالي عندما رفض مشيخة المدرسة النظامية في بغداد بعد استشهاد نظام الملك . وكل هؤلاء من خراسان ، ولم تقتصر خراسان عليهم بل لهم أشباه ونظائر ، كما ان خراسان ليست الا اقليما من أقاليم العالم الاسلامي .

دفاعا عن أبي يوسف

(٢) إلصاق التهم بالفقهاء والدعاية ضدهم حرصا على مصالح فئة خاصة أو اتباعا لهوى نتيجة خلاف فكري وسياسي . ذكر صاحب المقال قصة منقولة من كتاب (نشوار المحاضرة) للتنوخي يطعن فيها على الامام أبي يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب أبي حنيفة فيقول :

(انه قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة .ثم حدث أن بعض القواد حنث في يمين فطلب فقيها يستفتيه فيها فجيء بأبي يوسف فأفتاه أنه لم يحنث .فوهب له دنانير ، وأخذ له دارا بالقرب منه واتصل به ... ثم كان أن دخل القائد يوما على الرشيد فوجده مغموما . فلما سأله عن سبب غمه قال : شيء من أمر الدين قد أحزنني ،فاطلب لي فقيها أستفتيه . فجاء بأبي يوسف واذ دخل أبو يوسف القصر اذا به يرى ابنا

فهارون محبوسا في حجرة يومىء اليه باصبعه مستغيثا . فلم يفهم عنه ما يريد . ثم مثل بين يدي الخليفة وسلم . فسأله الرشيد : ما تقول في إمام شاهد رجلا يزني . هل يحده ؟ففهم أبو يوسف على الفور أن الزاني هو ابن الخليفة المحبوس ، وأن الخليفة يكره أن يوقع عليه الحد . فقال لا يوقع عليه لأن النبي قال : ادرءوا الحدود بالشبهات . قال الخليفة : وأي شبهة مع المعاينة ؟ أجاب أبو يوسف بقوله : ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى ، والحكم في الحدود لا يكون بالعلم لأن الحد حق الله تعالى ، والامام مأمور باقامة الحد . فكأنه قد صار حقا له . وليس لأحد أخذ حقه بعلمه ، وانما يقع الحد بالبينة . فسجد الرشيد حمدا لله وأمر لأبي يوسف بمال جزيل طالبا منه أن يلزم القصر . فما خرج حتى جاءته هدية الفتى الزاني وهدية ثانية من أمه . ثم مازال حاله يقوى عند الرشيد حتى عينه قاضي القضاة .)

والقصة السابقة مختلقة لا أصل لها واليك الدليل :

ـ الثابت تاريخيا أن أبا يوسف كان قاضيا زمن الهادي والمهدي قبل أن يلي هارون الرشيد الخلافة . فليست هناك حاجة لقائد يحنث بيمينه ، فيتعرف على أبي يوسف ثم يقدمه الى الخليفة ، والخليفة أعلم بأبي يوسف يوم كان قاضيا زمن أبيه وأخيه .

ان شخصية أبي يوسف من خلال مؤلفاته تخالف تماما ما حاول التنوخي أن يبرز من صفاته . ومن أشهر مؤلفاته كتاب (الخراج) الذي ألفه بناء على اقتراح الخليفة هارون الرشيد ليكون دليلا لكتاب الدواوين والعاملين في دوائر الدولة . وقد استهل الكتاب بخطاب موجه الى الخليفة باعتباره المسؤول الأول في الدولة . يقول بلسان الفقيه الذي يعتز بدينه ويحترم علمه مخاطبا الخليفة :

(... لاتؤخر عمل اليوم الى الغد . فانك إن فعلت ذلك أضعت . ان الأجل دون الأمل ، فبادر الأجل بالعمل ، فانه لا عمل بعد الأجل . ان الرعاة مؤدون الى ربهم ما يؤدي الراعي الى ربه . فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ، فان أسعد الرعاة عند الله راع سعدت به رعيته . ولا تزغ فتزيغ رعيتك . واياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب . واذا نظرت الى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا ، فاختر أمر الآخرة على امر الدنيا ، ، فان الآخرة تبقى والدنيا تفنى . وكن من خشية الله على حذر ، واجعل الناس في أمر الله سواء القريب والبعيد ، ولا تخف في الله لومة لائم . واحذر فان الحذر بالقلب وليس باللسان ، واتق الله فانما التقوى بالتوقي ، ومن يتق الله يقه .

ان ثقة العلماء بالامام أبي يوسف وثناءهم عليه تجعل تلك القصص الواردة في كتب الأسمار ككتاب (نشوار المحاضرة) موضع شك .

مكانتهم لم تتدهور

ـ وأخيرا فان الحديث (ادرءوا الحدود بالشبهات) هو حديث صحيح وهو أصل معتبر في الحدود . ومسألة حكم الامام أو القاضي بعلمه مسألة مطروحة على بساط البحث قبل أبي يوسف . قال القاضي أبو يعلى في كتابه (الاحكام السلطانية) متحدثا عن ولاية القاضي : (... استيفاء الحقوق من الممتنع عنها . وايصالها الى مستحقيها . بعد ثبوت استحقاقها بالاقرار أو البينة . ولا يجوز الحكم بعلمه .) وقال الماوردي في أحكامه السلطانية أيضا : (... واختلف في جواز حكمه فيها بعلمه . فجوزه مالك والشافعي في أصح قوليه . ومنع منه في القول الآخر . وقال أبو حنيفة : يجوز أن يحكم بعلمه فيما علمه بولايته . ولا يحكم بما علمه قبلها .)

(٣) انبهارنا بالحضارة الغربية جعلنا ننظر الى التراث والمشتغلين به ـ ومنهم الفقهاء ـ نظرة غير موضوعية دون تمييز الغث من الثمين ، ودفعنا الى حالة من السلبية جعلتنا نلقي التبعة على الآخرين . فاذا كان الاسلام لا يعترف بطبقية رجال الدين ، وهذا حق لا ريب فيه ، واذا كنا واياهم سواء أمام الله وأمام الناس فلماذا لا نكون نحن القدوة الحسنة أمام أبنائنا وأمام الآخرين ؟ ومن ثم علينا أن نتساءل : هل كانت مواقف الشعراء أفضل من مواقف الفقهاء أو مماثلها ؟ وهل بين الأدباء والكتاب والفلاسفة رجل كأحمد بن حنبل ؟

«الشخصية العربية»
تفاعل بين الفرد والمجتمع

الدكتور ـ معن خليل عمر - فاس ـ المغرب

بهذا المقال نختتم الحوار الذي جرى خلال الاعداد الاخيرة حول قضية الشخصية العربية ، الذي اثاره مقال الدكتور سامي القباني في العدد ٢٦٩ ، حول سلبيات تلك الشخصيه ، في محاولة لاستنهاض هذه الشخصيه وتطهيرها من كل ما يكبلها .

تتكون معظم سمات الشخصية من خلال مؤثرات ثقافية وحضارية يمارسها عليه المجتمع الذي يعيش فيه الفرد . ولا توجد سمات متأصلة بطبيعة الفرد ، اي لا توجد هناك سمات شخصية متأتية من عوامل بايولوجية او فسيولوجية متوارثة من جيل الى اخر عن طريق الجينات ، بل معظم صفات الشخصية تكتسب عن طريق التفاعل المستمر بين الفرد والمواقف والاتجاهات الاجتماعية التي يمر بها خلال ممارساته اليومية ، بالاضافة الى الافراد الذين يتفاعل معهم في نشاطاته الاجتماعية اليومية .

لقد صور لنا الدكتور القباني بان للشخصية العربية سلبيات وهذا قول مسلم به الا ان الصفات السلبية التي طرحها لا يمكن قبولها ابدا لانها تمثل (تعميمات مطلقة) بعيدة كل البعد عن الدراسة الموضوعية المبرهنة ، اي لم تختبر هذه الصفات عن اية فئة اجتماعية عربية صغيرة كانت او كبيرة ، حضرية أم ريفية متعلمة او غير متعلمة ، ذكرية او انثوية .

لقد ذكر كاتب المقال بان هذه « المقالة » عبارة عن محاولة لنقد ايجابي للذات العربية ، ونحن بدورنا نتساءل : هل يمكن للناقد الذي يتناول مثل هذا الموضوع ان يوجه انتقاداته بشكل عشوائي بدون وجود دراسة مسبقة لدراسة الشخصية العربية ؟ او دون وجود قاعدة نقدية يستخدمها كمنطلق لتقييم الذات العربية ؟ اضافة الى ذلك لا يمكن للناقد ان يستخدم حالات فريدة وفردية لبعض افراد المجتمع وتعميمها على ملايين من البشر . جاء في المقال بانه من الصعب على العربي ان يعترف بخطئه وهذا تعميم يفتقر الى الدراسة المتخصصة في هذه الصفة . علما بان الثقافة العربية تتضمن ضوابط اجتماعية تحث الفرد على الاعتراف بالخطأ مثل (الاعتراف بالحق فضيلة) وهذا يعني ان المجتمع العربي لا يشجع افراده بالتهرب من اخطائه بل الاعتراف به . والتصحيحات السلوكية التي تحصل

عند الفرد العربي الم يكن اساسها الاعتراف بالخطأ ؟

والانسان (سواء كان عربيا أم عجميا) يتعلم ويكتسب عن طريق (الخطأ و الصواب) وهذا يعكس صفة الاعتراف بالخطأ . بيد ان الانسان يقدم تبريرات لأخطائه في بداية الامر لكن اذا ثبت له الخطأ اعترف به (ان لم يكن أمام الآخرين فامام نفسه) .

وقدم الكاتب سلبية ثانية وهي ان العربي (لا يعترف بان احدا افضل منه) وهذه مغالطة اجتماعية كبيرة لأنه لا يوجد مجتمع دون تمايزات اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية . والجميع يمارس ذلك كل يوم في كل موقف واتجاه اجتماعي .فالاسرة العربية مثلا تمارس المفاضلة التربوية بين ابنائها والمدرسة العربية ، يمارس فيها المعلم المفاضلة بين الطلبة عن طريق توزيع الدرجات المختلفة بين الطلبة كل حسب اجتهاده وقدرته . والدوائر الحكومية تعين موظفيها على اساس المفاضلة الانجازية في التحصيل العلمي والمهني . الى غير ذلك من التنظيمات الرسمية وغير الرسمية . فالفرد العربي يعيش في جميع هذه التنظيمات ويتفاعل مع مفاضلاتها كل يوم وفي كل موقف وممارسة اجتماعية .

العربي والعمل الجماعي

صفة سلبية ثالثة تناولها الكاتب مفادها « من الصعب على العربي ان يعمل ضمن مجموعة » . وهذا مخالف للواقع الاجتماعي الذي يعيشه الفرد العربي . فالعربي يولد داخل اسرة ويتعايش مع جميع افرادها في سلبياتها وايجابياتها (علما بان نمط الاسرة العربية من النوع الممتد الكبير الذي يضم ثلاثة اجيال معا) معنى ذلك ان دائرة تفاعلاته تكون واسعة ويخضع لضغوط وشروط اسرته كجماعة .ويتنمي الفرد العربي الى الزمرة الصداقية في المحلة او الحته يلعب معها ويحصل على الكثير من صفاته الشخصية في فترة عمرية معينة ، اضافة الى ذلك وجوده في المدرسة يدفعه للتعاون مع غيره والعمل الجماعي المشترك ، وهناك احزاب ونواد ينتمي اليها الفرد العربي ويعمل ضمنيا مع الجماعة .

سلبية رابعة ذكرها المقال وهي ان العربي انفعالي بطبعه . وهذه صفة ايجابية اكثر مما هي سلبية . لانها توضح الحس المرهف والذكاء اليقظ عند الفرد العربي . وبالوقت ذاته تكشف عن إداركه الاجتماعي وعمله ضمن الجماعة اجتماعيا . وهذا يعني ان هذه الصفة تتناقض مع الصفة التي سبقتها . اي ان كاتب المقال وقع في تناقض صفتين نسبهما الى سلبيات الشخصية العربية .

اما سرعة الغضب والرضى فترجع الى ادرجة المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يواجهها الفرد العربي والى متغير الثقافة التي يحملها ولا يمكن ان تأخذ بهذه الصفة كسمة عامة مطلقة .

ذكر الكاتب « انه من الصعب ان يخطط العربي ويعمل لاهداف بعيدة » . ويبدو ان الكاتب استعمل مفهوما بعيدا عن دلالته . حيث هناك تخطيط اجتماعي يهدف الى تنمية وتطوير المجتمع . بينما لا يوجد هناك نسق او نمط ثابت لا يتغير ولا يتأثر بمتغيرات ثقافية او حضارية . حيث هناك مواقف واتجاهات ورؤى يتخذها الفرد ازاء الحياة الاجتماعية اليومية وهناك خبرات فردية تتراكم خلال سني عمر الفرد العربي يستخدمها كاطار لتحديد مسيرته الاجتماعية اليومية فالفرد عموما لا يخطط لكل نشاطاته اليومية بل يضع اهدافا وطموحات يبغي تحقيقها انما لا تكون على شكل تخطيط مقنن .

اخيرا طرح الكاتب بان الفرد العربي « يفتقد الضمير الاجتماعي » وهذا حكم قاس جدا . حيث لا يوجد مجتمع انساني دون ان يضع ضوابط اجتماعية تمثل الضمير الاجتماعي وبشكل خاص المجتمع العربي الذي يتصف بضوابط اجتماعية قيمية . والتراث العربي مليء بذلك فاذا اخذنا رب الاسرة العربية ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ نجده يقدم مصلحة اسرته على نفسه والمعلم يركز على مصلحة التعليم العامة على مصلحته الخاصة وموظف الدولة يقدم خدمات عامة لكافة المواطنين (بحكم عمله) ولا يقدم لنفسه خدمات خاصة بشكل مباشر .

هذه في الواقع مجرد ردود على بعض الصفات السلبية التي ذكرها كاتب المقال . الا انه اصاب في موقع المرأة العربية داخل المجتمع العربي والتجريحات اللغوية التي يمارسها البعض واحتقار الفرد العربي للاعمال اليدوية .بيد ان هذه الصفة الاخيرة بدأت تقل تدريجيا بسبب تصنيع المجتمع العربي وتقديمه المحفزات المادية للعامل العربي .

الحرب الدائمة

قصة : « أحمد عودة »

كان أخوف ما يخافه أن يصبح مجنونا . إن الجنون في هذا العصر لم يعد غريبا أو عجيبا » .
صديقه « حليلة » بالأمس ـ والأمس فقط ـ كان عاقلا جدا ، يدير حديث السهرات بلباقة مشهودة ..

يتصدى لكل سائل ويجادل بالباع والذراع ، وفي الصباح يمضي الى عمله في الدائرة دون كلل او ملل . الكل يحترمه لرجاحة عقله وحسن منطقه ، فما الذي قلب دماغه بين يوم وليلة .فمضى يهرول في الأزقة والصبية من خلفه يرجمونه بالحجارة صائحين بنغمة واحدة « هيو المجنون يا أولاد » . قلبه يتقطع كلما رأى صديق عمره ملعب الصبية يأكل الارز مع الملائكة . انه يبكيه ويبكي نفسه قبله . ليس ببعيد ان ينام وينهض وقد فقد عقله ، ثم يدور في الشوارع ليجد الصبية ملهاة اخرى يتلهون بها . يخشى الجنون ويحلم يقظان ونائما انه بالفعل مجنون . أصوات الصبية تلاحقه أنى ذهب . أمه هي الأخرى تنظر اليه بريبة وتوجس .
لابد انها تتهمه بالجنون . لعله يهذي دون ان يدري ، ربما هو مجنون فعلا وهو لايدري .

فهل يدري « حليلة » مثلا انه مجنون ؟ آه انه لشيء فظيع أن يفقد الانسان عقله . تغدو البهائم أفضل منه ، فهي على أية حال لا تثير فضول أحد . أما الانسان فماذا يساوى من غير رأس عامر يزخر بشتى الاهتمامات ؟ الجنون بداية رحلة محزنة الى حياة افضل منها الموت .

انه يتخلى عن كل شيء على ان يظل يتفيأ دوحة العقل »

تصيبه حالة من الصرع كلما فكر أنه مجنون بالفعل أو أنه في طريقه الى الجنون .

يحدب على « حليلة » ويرعاه . يطرد عنه الصبية . يأخذ بيده الى بيته . يخلع عنه معطفه الجديد ويلبسه اياه ، يجلسه أمام الموقد . يأتي له بالخبز الساخن والجبن . يجلس قبالته يسكب له الشاى من إبريق مفضض . يرمقه بين الفينة والفينة . يراه يبتسم للنار المتأججة مادا لها يده يصافحها ، وحين تلسعه يهب صارخا ، يرميه بأقذع الصفات . يبتسم بمرارة ويطيب خاطره . يجلس ليلتهم الخبز ثم يلحقه بالجبن . يسكب إبريق الشاى على النار ، وحين يقطع لسانها الأحمر يصرخ مبتهجا ويستلقى رافعا ساقيه في الهواء يداعب اشباحا مجهولة .

يتألم لحاله ويبكيه بدموع خرساء حتى اذا انتهت ثورة « حليلة » واتخذ وجهه سمات الوقار ، يستبشر برجوع العقل الى صاحبه . يراه يلتفت اليه قائلا بلهجة العاقل .

ـ الناس يتحاربون بحجة انهم جائعون . الحمد لله انا شبعان . يربت على بطنه مؤكدا شبعه ، فيؤخذ بكلامه ويقول شيئا مما كان يجرى على لسان حليلة في السهرات .



الامريكان والروس مجانين .

يستشيط غضبا ويزعق من اعماق صدره
اتتهمني يا هذا بالجنون ؟
ويرفع يده ليصفعه . فيمسك بها بقلب واجف ؟
ويتمتم :

معاذ الله . ولكنني أقول : الامريكان والروس . ألا تعرفهم ؟
وتكون هذه بمثابة نكتة يضحك لها ضحكة فارغة حتى تبين نواجذه الصفراء .
كيف لا . ورأسي متورمة من كثرة ما يتساقط عليها من حجارة ؟

ويمد رأسه اليه . فيعبث بشعره مؤمنا على كلامه بحزن .
صبية شياطين . عديمو التربية .
ينتزع رأسه من بين يديه ويحملق فيه بعينين محمرتين ويزعق :

انت الشيطان . انت عديم التربية .
يبسط كلتا يديه ضارعا .
ولكنهم يسخرون منك ويعيرونك بالجنون !
يضحك باستخفاف ويقول وهو يرمي بنظراته بعيدا .
ولكن في اصواتهم موسيقا . نغمات عذبة لاأجدها في كلامك الفارغ .

وينهي كلامه ببصقة لايهمه أين تسقط ثم ينزع عنه المعطف ويقذف به في وجهه ويخرج معرضا صدره العاري لبرد الشتاء . يدفن وجهه بين يديه يسكب فيهما الدموع ويهمس « يا ألهي كيف ستغدو حالي ان أنا فقدت عقلي .

تكالبت عليه الهواجس تنهشه . أضحى ذابلا كنبتة منع عنها الماء والفصل صيف قائظ . صراخ الصبية لايفتأ يلاحقه حيثما اتجه . نظرات أمه لاتكف عن اتهامه بالجنون . تعامله بحذر بالغ . تتجنبه كما لو كان جيفة نتنة . عيون من يصادفهم تدفعه أن يسأل نفسه باستمرار « هل أنا عاقل فعلا ؟ » يأتيه الجواب مزمجرا في صراخ الصبية وفي حذر أمه ومن عيون الآخرين .
يفتش بين غوارب الموج عن ذاك الذي كان يرعى « حليلة » ويحدب عليه . ألفاه يضرب في الأزقة يطرد عنه الصبية فيطاردونه صائحين « هيو المجنون يا أولاد » يهرب منهم بعدما كانوا يهربون منه . يطرده رئيسه من العمل . تنهشه البطالة أكثر من خوفه من الجنون . أمه تطرد عنه الصبية . تأخذ بيده . تجلسه أمام الموقد . تأتي له بالخبز والجبن . تسكب له الشاي من إبريق مفضض . يلتهم الخبز والجبن كلا على حدة . يدلق الابريق على النار .تنطفيء . يضحك بانبساط رافعا ساقيه في الهواء يداعب أشباحا مجهولة . ■■

عمان ـ احمد عودة

«الأشباح» المضيئة في ظلمات البحار!

بقلم : الدكتور عبد المحسن صالح

في كل يوم تشرق الشمس وتغيب ، فيتعاقب الليل والنهار ، ويتبادل النور والظلام ، وتسير الأمور على هذا الحال في دورة أزلية ، ما بقيت الأرض والشمس في هذا الكون الواسع .

ولليل وحشة ، وللظلام قسوة .. وقد يبزغ القمر ، فيبدد بعض معالم الظلام ، او تتلألأ النجوم ، فتؤنس الانسان في ليله وظلمته ، وقد يستعين الانسان على ذلك بنار يوقدها ، أو كشافات يحملها ، أو مصابيح كهربية يضيئها ، ليشق في الظلام طريقه ، ويؤدي مهامه الليلية الى أن يشرق نهار جديد .. لكن الغريب أن هذا النهار لم يشرق أبدا على مخلوقات كثيرة ذات عيون .. إذن ، لماذا جاءت العيون رغم وجودها في ظلام دائم ؟ .. لذلك قصة مثيرة .

قد نسمع من الناس من يقول : ما أقسى الظلمات ـ ظلمات القبور ، لكن القبور ـ على أية حال ـ تضم أمواتا ، والأموات لا تسمع ولا ترى ولا تحس بنور أو ظلام ، فالموت ـ في حد ذاته ـ ظلمة ما بعدها ظلمة !

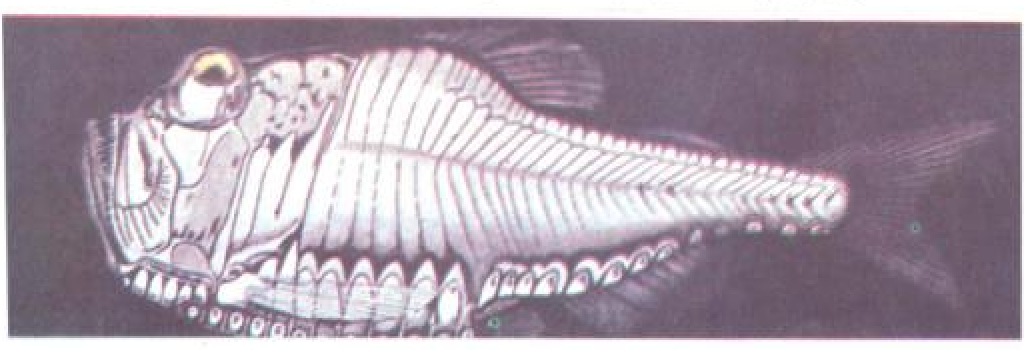
ومع ان القبور تبنى وتهدم وتزول ، ليحل محلها مزيد من القبور ، أو على حد شعر ابي العلاء المعري « رب لحد قد صار لحدا مرارا » .. الا أن هناك قبرا أزليا .. ليله سرمدي ، وظلامه أبدي ، لكنه مع ذلك يضم أحياء من كل صنف وحجم ونوع وجنس . أحياء تقدر اعدادها بملايين الملايين .. ثم أنك لو اطلعت عليها ، لحسبتها اشباحا ، وما هي بأشباح ، بل مخلوقات غريبة ومثيرة .. تأكل وتتنفس وتتزاوج وتتكاثر ، لكن لها حياة اخرى تختلف عن حياتنا ، أو حياة المخلوقات التقليدية التي تعيش معنا على هذا الكوكب !

والقبر الذي نحن بصدده ، ليس كقبورنا التي ندفن فيها الاموات ، لكننا استعرنا هذا التشبيه ، لأن كل



انواع مختلفة وغريبة من كائنات الظلمات ، لكن أهم مايميزها هي المصابيح الصغيرة الحية ذات التوزيع المتباين ، والالوان المختلفة لتعطيها صفة التميز .. وفي وسط الصورة احد انواع جراد البحر وهو ينفث امامه ساترا ضوئيا ليعشي به عيون الكائنات المهاجمة ، ثم يتقهقر ويفر هاربا .. ثم ان السهم يشير الى سمكة تواجهنا بفمها الواسع جدا وقد انفرج عن اخره ، وتميز باسنان حادة مضيئة تظهر معالمه .. لاحظ ايضا وجود ثلاثة انواع من الاسماك ذات الشعر المضيء (تميز بعلامة ×) ، فللواحدة منها شص طويل جدا يبرز من فكها الاسفل ، وللثانية ثلاثة ذات اضاءة صفراء ، وللثالثة شص وذيل مضيء تستخدمه كذلك في الصيد .

« مهرجان » من المصابيح الضوئية الصغيرة تمتد تحت بطن سمكة الاعماق ، بداية من الرأس حتى الذيل ، وبتنظيم خاص لتصبح بمثابة « هوية » في عالم الظلمات .. لاحظ ايضا « الشبح » الضوئي الموجود الى يمين اسفل الصورة كما يبدو في ظلام اعماق البحار .. انه لسمكة اخرى ، لكنه جاء بنظام ضوئي مختلف .

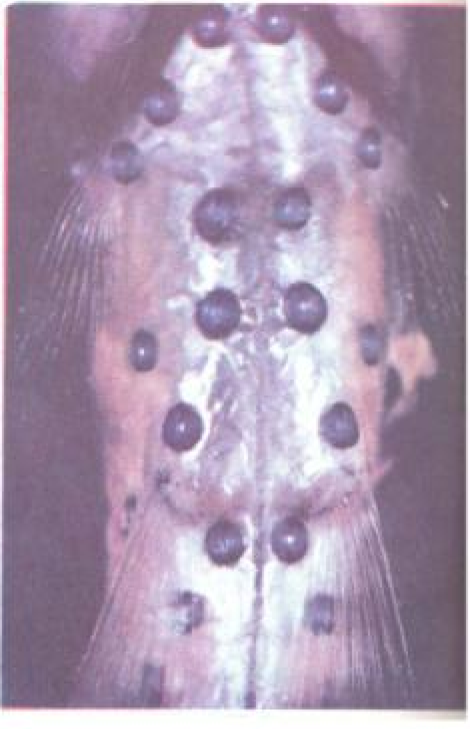




قد تحسبه طوربيدا ، اومركبة فضائية ، او مخلوقا من المخلوقات التي يتخيلها الناس آتية من الفضاء ، أو أي شيء آخر ، الا ان تعرف أن هذا المخلوق هو أحد مخلوقات الاعماق التي ظلت مختفية في ظلماتها عشرات الملايين من السنين ، حتى كشف العلماء عنها الحجاب ..بقي ان تعرف ان الكائن اسمه « خنزيرة الاعماق »



« وحوش الاعماق (الى اليمين) وهي تتجه الى نوع من الاسماك الصغيرة لتلتهمها بأفواهها الواسعة .. لاحظ كيف توزعت الاضواء هنا بألوانها المختلفة ، وكأنما هي « غواصات » أو « طائرات » مصغرة ، لتعطي للظلمة بعض معالمها .



ليس هناك ماهو أروع من ذلك التنظيم المذهل الذي انتشر على بطن هذه السمكة وكأنما هي فصوص من الاحجار الكريمة ... وماهي بكذلك ، بل مصابيح صغيرة غاب ضوءها بعد موت السمكة .

الكائنات الحية التي تموت في البحار والمحيطات ، لابد مدفونة في قيعانها لأنها ـ لاشك ـ هابطة اليها ، ثم ان المخلوقات التي تعيش في ظلمات القيعان تعتبر في حكم المدفونة ، لأنها لم تر في حياتها قط نور الشمس ، ولا ضوء القمر ، ولا هي كذلك بقادرة على ان تترك متاهاتها المظلمة ، لتتجول في الطبقات السطحية من مياه البحار ، ولو فعلت ، لانفجرت وماتت ، لأن عالمنا لايناسب حياتها !

العلماء الذين يبحثون عن امكان وجود مخلوقات في الفضاء ، قد لا يعرفون شيئا عن مخلوقات أعماق الماء ، ولو اطلعوا عليها في مواطنها السوداء المظلمة ، وتأملوا حياتها وحركاتها وسلوكها وصراعها ، لوجدوا فيها من الأسرار المثيرة ما قد يلهيهم عن البحث عن مخلوقات الفضاء التي تبدو لنا في الوقت الحاضر كسراب لا يمكن اللحاق به ، او الوصول اليه !

لكل مخلوق بيئته المناسبة .

وطبيعي أننا لا نستطيع ان نرى مخلوقات الظلام الكائنة في اعماق البحار ، لأن لنا حدودا لانستطيع ان نتخطاها .. لا في أجواز الفضاء ، ولا في اعماق الماء ، ولكي نتخطى هذه الحدود ، كان لزاما علينا ان نتسلح بأسلحة علمية وتكنولوجية تحمينا من كل بيئة غريبة علينا ، ومعادية لحياتنا ، فلقد نشأنا وتكيفنا بالمناخ السائد حولنا ، ولهذا لا نستطيع أن نحيد عنه ولا نيد ، واذا اردنا حيودا ، فلا أقل من أن نستنبط وسائل مناسبة لترد عنا بلاء أعماق الماء ، أو ويلات الفضاء .

ولاشك أننا قد سمعنا كثيرا عن غزو الفضاء بصواريخ قوية ، او اقمار صناعية ، أو كبسولات فضائية تحمل روادا ، وتحمل معها أيضا مقومات الحياة الأرضية .. أي ضغطها وحرارتها وأوكسجينها وما شابه ذلك ، لكن معلوماتنا قليلة ومحدودة عن غزو آخر يتم في أعماق البحار والمحيطات ، فلهذا الغزو امكانياته وأجهزته وكبسولاته واحتياطاته وعلماؤه ، أضف الى ذلك ان علماء البحار قد حققوا انجازات هائلة ، وكشفوا لنا عن اسرار مذهلة ، وجمعوا حصيلة علمية ضخمة ، ربما أكبر وانفع مما حققه علماء الفضاء ، خاصة اذا عرفنا ان قيعان البحار والمحيطات العميقة تمتد على مساحات أكبر من نصف مساحة الكرة الارضية ، ورغم ذلك ظلت كما مجهولا ومهجورا الى وقت قريب ، مع انها تنطوي على ثروات هائلة قد لاتخطر لنا على بال ، لكننا لن نتعرض لذلك هنا لضيق المجال .

ان الصاعد الى الفضاء ، او الهابط الى اعماق الماء ، سوف يصطدم ببلاء ما بعده بلاء .. ففي الفضاء ينفجر ويتناثر على هيئة اشلاء ، وفي قاع البحار يضغط وينسحق كما ينسحق الانسان تحت « وابور زلط » وزنه عشرات الاطنان ، فيدق عظامه بلحمه ، ويساويه بأرضه ، ومغزى هذا أو ذاك لا يخفى على لبيب .. فالفضاء فراغ ، اي لا ضغط فيه ولا هواء ، ولهذا تنفجر فيه كما تنفجر البالونة !

لكن الامر يختلف مع من يغوص الى القاع ، فكلما غاص فيه ، زاد الضغط عليه ، فالذي يغطس في الماء لعشرة أمتار ، يتقبل على كل سنتيمتر مربع من جسمه ضغطا يعادل الضغط الناشىء من كيلوجرام (او بالتحديد ١٠٣٣ جراما) .. ثم يتضاعف الضغط بعد ذلك كل عشرة امتار ، حتى اذا وصلنا الى عمق خمسمائة متر ـ وهو عمق متواضع على أية حال ـ احس الانسان (هذا لو بقي حيا) بقوى رهيبة تسحقه سحقا ، فعلى عينه مثلا يضغط الماء بقوة كالضغط الناشىء من كتلة وزنها ١٥٠ كيلوجراما ، وعلى رأسه وحدها يحل ضغط يعادل الضغط الناشىء من ١٢ طنا ، ولندعك بعد ذلك تحسب له الضغط الواقع على كل جسمه ، لو اردت ذلك !

لكن قيعان المحيطات أعمق من ذلك بكثير ، فلو انك القيت في الماء بكرة من الصلب تزن رطلا واحدا ، فان هذه الكرة لن تصل الى جزء في قاع المحيط الباسيفيكي الا بعد مرور ٦٣ دقيقة ، تكون قد قطعت فيها مسافة تقدر بحوالي ١١ كيلومترا ـ هي اعمق أخدود واسع في ذلك المحيط ، ومع ذلك فان متوسط عمق البحار والمحيطات يتراوح ما بين ٣٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ متر ، وهو عمق بلاشك رهيب ، وعنده يصبح الضغط ما بين ثلث ونصف طن على كل سنتيمتر مربع واحد ، أي ان رأس الانسان وحدها تتقبل ضغطا يكافىء الضغط الناتج من ١١٥ طنا ، ومع ذلك فمساحة الرأس متروكة لتقديرك !

كيف تتحمل الضغوط الرهيبة ؟

ولاشك ان سؤالا محددا سوف يطرأ على الاذهان : كيف ـ اذن ـ تعيش هذه المخلوقات في تلك الاعماق السحيقة دون ان تسحقها الضغوط الرهيبة الواقعة عليها ؟

قد يقول قائل : لابد ان بناء اجسام هذه الكائنات يختلف عن بناء اجسام المخلوقات التي تعيش على البر ، او في الطبقات السطحية من البحر ، ولاشك ان تكوينها قوي جدا ومقاوم للضغط جدا ، او غير ذلك من

تصورات لا تقوم على اساس .. لأن العكس هو الصحيح .. فهياكلها العظمية هشة ، وأنسجتها رخوة ، كما ان معظمها يتكون من مادة حية هلامية ، اي تشبه « الجيلي » الذي نعرفه تمام المعرفة .. اضف الى ذلك أنها أضعف تكوينا من كثير من الكائنات البحرية التي تعيش قرب السطح ، فهذه الاخيرة - اي الكائنات السطحية - تتعرض للتيارات والامواج البحرية ، ولابد ان يكون لها من بناء أجسامها ما يساعدها على المقاومة ، في حين ان كائنات الاعماق تعيش في وسط ساكن كسكون القبور ، وكأنما كل شيء حولها في ركود ، اضف الى ذلك ان برودة الماء في الاعماق لا تساعد كثيرا على بناء هياكل عظمية متينة ، ثم هي ليست في حاجة اليها ، مادامت الامور حولها ميسرة .

اذن .. كيف تتحمل الضغوط الرهيبة ؟

الواقع انها تحس بأن كل شيء حولها على ما يرام ، تماما كما يحس الانسان على كوكبه ، ان كل شيء قد جاء لصالحه ، رغم انه يتعرض ايضا لضغوط رهيبة من « المحيط » الهوائي الذي يحيط به من كل جانب !

ولكي نوضح اكثر ، كان لزاما علينا ان نذكر ان الهواء مثلا يضغط على رؤوسنا وحدها بما يعادل الضغط الناتج من ربع طن ،او ان اكتافنا وحدها تتحمل ضغطا يساوي حوالي نصف طن ، اما الجسم ذاته ، فعليه ضغوط تقع في حدود عدة اطنان ، لكننا مع ذلك لانحس بشيء غير عادي ، لأننا نشأنا وتكيفنا مع ضغوط المحيط الهوائي ، ثم اننا نستنشق الهواء بضغوطه ، فيتخلل كل وعاء دموي ونسيج وخلية ، وهكذا يتساوى الضغط في داخلنا مع الضغط الكائن خارجنا ، والذين ركبوا الطائرات النفاثة يحسون بضغط جزئي على طبلتي الاذن صعودا او هبوطا ، رغم ان الضغط داخل الطائرة هو بالتقريب نفس الضغط الكائن قرب سطح الارض ، لكن الصعود يؤدي الى خلخلة الهواء قليلا ، فينتج عنه ذلك الاحساس الغريب ، وبعد ذلك تتوازن الامور ، ثم لو حدث ثقب في الطائرة وهي على ارتفاع كبير (٣٥ الف قدم مثلا) ، لأدى ذلك الى كارثة ، نتيجة لهروب الهواء الى الخارج ، وما يتبع ذلك من عملية تفريغ تؤدي الى اغماء ونزيف وموت !

كذلك يكون الحال مع مخلوقات الاعماق ، فلقد نشأت بدورها وتكيفت بضغوط الماء الرهيبة ، والماء بضغوطه يتخلل اوعيتها وأنسجتها وخلاياها ، فيتساوى بذلك الضغطان او يتعادلان ، ثم انها لو تركت الاعماق ، واتجهت الى أعلى (اي قرب الطبقات السطحية) ، فانها تنزف وتنهار وتموت ، ولهذا فقد جاء كل مخلوق لما هو له ميسر !

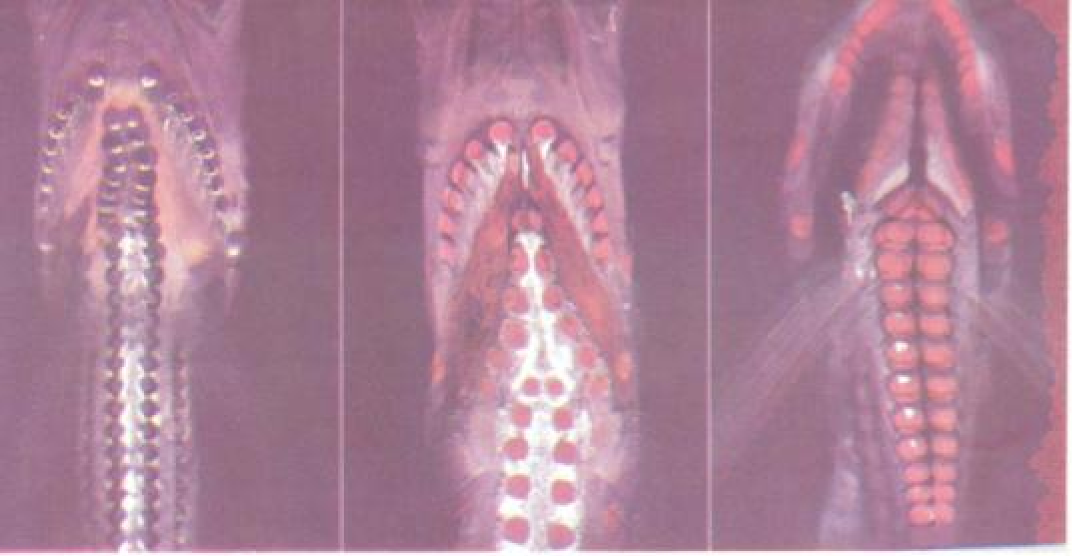
حياة صعبة وشرسة !

والعلماء الذين يسعون الى الكشف عن خبايا هذا العالم الواسع المظلم المجهول ، يعلمون تماما ضخامة الاخطار والأهوال والصعاب التي يجب ان يعملوا لها الف حساب وحساب ، خاصة في اعمق قيعان البحار التي تمتد في عمقها الى عشرة كيلومترات او يزيد ، وطبيعي ان بعضهم قد مات أثناء البحث عن المعرفة ، لكن المعرفة احيانا تستحق التضحية !

والذين غاصوا الى اعماق البحار ، ورأوا فيها « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت » ، حبسوا الأنفاس من روعة ما رأوا ، ولا شك أنهم في سلوك مخلوقات الاعماق قد دهشوا وتحيروا ، لكنهم في النهاية قد أيقنوا ان الحياة أقوى وأعظم مما تصوروا ، فها هو المسرح منصوب في ظلمات أشد من ظلمات القبور ، لكن الظلمات قد تحولت الى مهرجانات حية لا تمل العين مرآها ، وكأنما لسان حالها يقول : هل من جديد ؟ .. هل من مزيد ؟

والجديد والمزيد دائما موجودان ، لأن الانسان لم يكتشف من اسرار الأعماق الا القليل ، وبقي امامه الكثير ، وكأنما هو - في الاعماق - يقف على مشارف غابة مجهولة ، او قارة « بكر » غير مطروقة ، أو كأنما هو يتجول في كوكب آخر غير كوكبه ، لأن صور الحياة هناك تنطق بكل ما هو مثير ومرعب وغريب .. اضف الى ذلك ان القيعان العميقة تمتد على مساحات اكبر من مساحات كل القارات مجتمعة ، فلا غرو اذن من وجود تنوع هائل في اشكال المخلوقات وانواعها وأحجامها وصورها وسلوكها - صحيح ان العلماء قد اكتشفوا اكثر من الف نوع ، لكن ذلك لايمثل الا نزرا يسيرا ، لأن البحث عن المخلوقات في محيط الظلمات ليس بالأمر الهين ،لأن الأعماق والظلمات للانسان « عدو مبين » ، ولهذا فبقاؤه فيها محسوب ، وبحثه محدود ، وصيده خشن ، وآفاق الرؤية فيها قصور ، لأن الظلمة هناك اقسى من ظلمة القبور بالنسبة للأحياء ، ولا شأن لنا هنا بالأموات !

ان صيد مخلوقات الاعماق بغية التعرف عليها صيد اعتباطي ، وايضا تحكمه الصدفة ، فليس من يصطاد في النور ، كمن يصطاد في الظلام ، وليس من يسعى ويتحرك وراء الصيد بحرية تامة ، كمن هو مقيد ومحبوس داخل كبسولة من أمتن انواع الصلب واشده سمكا ، وهو لايستطيع ان يخرج منها ، والا صعقته

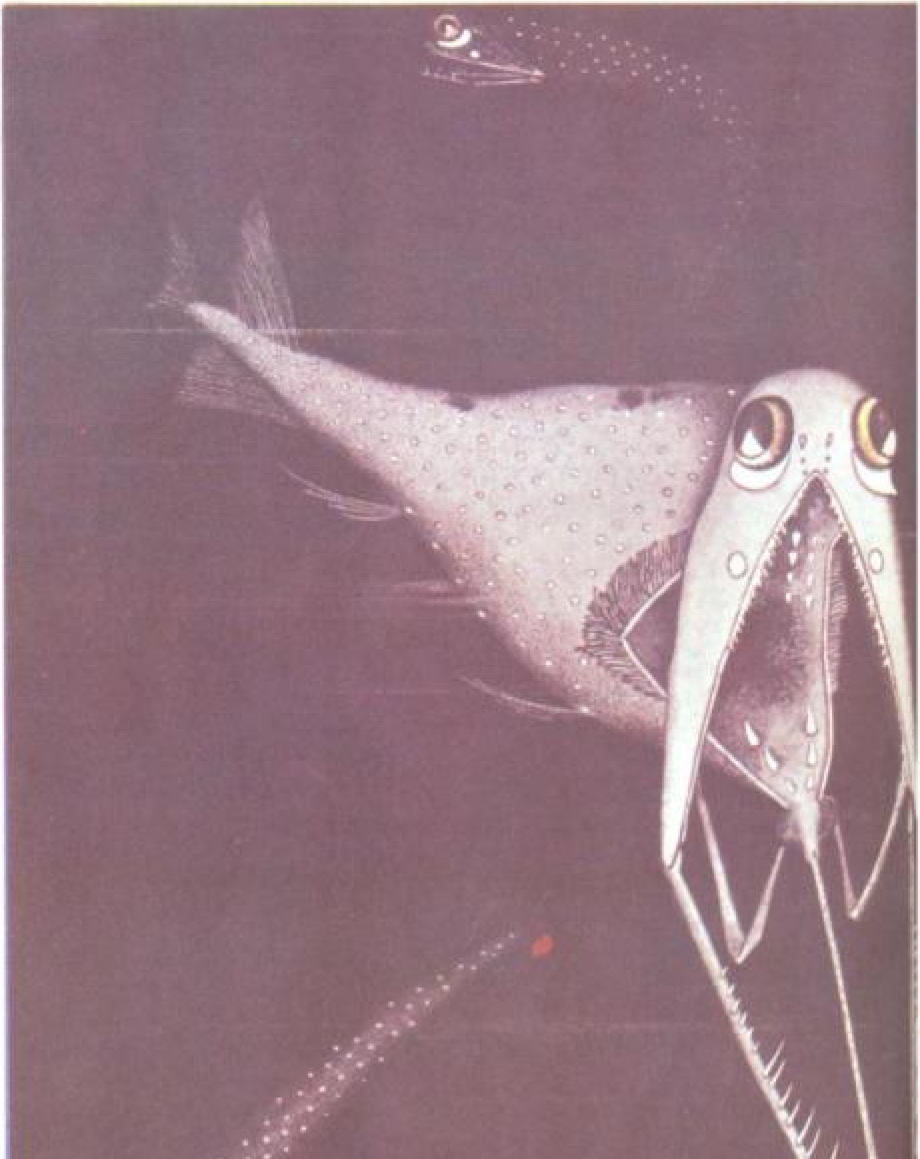


تشكيلة مثيرة من توزيع الاضواء على بطون ثلاثة انواع من الاسماك ، وليس لنا من تعليق الا القول : كم تفننت الحياة وأبدعت .

هذا « الكهف » المفتوح بمثابة مقبرة حقيقية لكائنات تلجأ اليه ظنا منها انه ملجأ تحتمي فيه وتلوذ ، لكنه فخ رهيب ، كل من يدخله مفقود .. لاحظ ان هذه السمكة المتوحشة تجذب صيدها بستة مصابيح .. اثنان في عينيها ، واثنان تحتها ، واثنان على فكيها .. بالاضافة الى عدد من البروزات المضيئة في فمها الواسع جدا (لقد ازيلت الانسجة اللحمية من الفك الاسفل ليظهر على حقيقته) .. هناك أيضا بقع ضوئية تنتشر على جسمها بالعشرات .

سمكة تعيد الى اذهاننا بعض اساطير القدماء ، لان السمكة جاءت بجزئها الامامي المظلم كسمكة ، والجزء الاكبر كأنه ثعبان طويل ، لكنه مضيء بلون أحمر ، وفي نهايته بعض « الخطاطيف » التي تستخدمها في الصيد ، وبها توصل الوليمة الى فمها الواسع ذي الاسنان الحادة المضيئة .





الضغوط الجبارة .

ومع هذه الصعوبات الجمة ، فقد تمكن العلماء من صيد بعض كائنات الأعماق او تصويرها بوسائل متطورة . لكن دعنا من هذه التفاصيل ، فليس لها هنا مجال . فالذي يهمنا هنا ان البحث عن الطعام في متاهات الظلمات أمر غير ميسر ولا سهل في حياة هذه الكائنات ـ فمنها ما يعيش على ما تجود به الطبقات السطحية من البحار والمحيطات من بقايا كائنات تموت وتهبط الى الاعماق ، ومنها ما يتميز بأفواه واسعة جدا ، وبطون كبيرة جدا ، وأسنان حادة جدا ، لأن الصيد الميسر لا يتكرر عادة ، ولهذا عوضتها الحياة بشراهة هائلة لصيد وابتلاع كائن قد يكون اكبر منها حجما ، فتحتفظ به في افواهها أو بطونها الواسعة لأيام قد تطول ، الى ان يأتيها صيد جديد ، أو قد لا يأتي الا بعد صوم طويل !

والموضوع بعد ذلك طويل ومتشعب ، لكنه قد يقودنا الى تساؤل هام : كيف ترى هذه المخلوقات صيدها ، رغم انها تسبح في ظلام قاتل ؟

الواقع ان بعضها اعمى ، وبعضها الآخر ضعيف النظر ، ولهذا زودتها الحياة بلوامس واعضاء استشعار رفيعة وطويلة جدا ، لتصبح لها في ظلماتها اكفأ من عصا الأعمى مهما طالت . اضف الى ذلك ان هذه اللوامس تحمل « خطافات » حية دقيقة مسنونة ، حتى اذا لامست صيدا مناسبا ، تحركت حركات محسوبة ، لتطبق عليه وتشله ، ليصبح لها لقمة سائغة .

وطبيعي ان وجود عيون في هذه الظلمات الأبدية رفاهية ليس لها معنى ، لأن العين قد جاءت اساسا لترى في النور .. ومع ذلك فلمعظم كائنات الظلام عيون كبيرة وواسعة وقوية ، وليس ذلك عبثا في الخلق ولا رفاهية ، لأن تلك المخلوقات قد امتلكت مصابيح لتهديها في ظلمات القاع ، وتنير لها الطريق .. الى هنا نكون قد وصلنا الى أكثر عناصر الموضوع إثارة وجاذبية !

مصابيح حية .. فيها مآرب شتى

ان اهم ما يميز معظم كائنات الأعماق انها جاءت لتنير ظلماتها بمصابيح تناسب حياة الظلام التي قدر لها ان تعيش فيها ، ومن اجل هذا كانت عيونها .. ولو قدر لك وشاهدت مع علماء البحار حياة كائنات الظلام القاتل ، لرأيت عجبا ، ولعشت مع مشاهد لن تنساها ابدا .. فكأنك انت امام صور من الأشباح المضيئة المتحركة في الظلمات .. فمنها ما يتلوى ، ومنها ما يتهادى ، أو ينطلق كسهم مارق ، أو يقف مكانه كالصنم . وكأنما هذه المخلوقات المضيئة تعيد الى اذهانناقصص الأشباح التي وردت في اساطير القدماء ، وما هي بأشباح ، بل كائنات تأكل وتنمو وتتنفس وتتزاوج وتخلفها ذرية على شاكلتها ، لتكرر فصول القصة الأزلية ، ولكي تستمر الحياة في الظلمات دون ان تنقرض ، فلابد من نور ، فكان نور ، وفي النور حياة وهداية وتيسير ، لا تختلف في ذلك كائنات الأعماق والظلمات .. عن كائنات البر .. عن كائنات الطبقات السطحية من البحر !

لقد تكفلت الحياة بمخلوقاتها ، ومنحتها من التسهيلات ما يحيل حياتها من عسر الى يسر ، فكانت فكرة هذه المصابيح الحية التي تستخدمها في التعارف ، او في البحث عن صيد ، او لجذب صيد ، أو للهروب .. الى آخر هذه الأمور التي تتطلبها حياتها ، والسعيد منها من يعرف كيف يستخدم «تكتيكه» الضوئي بكفاءة تؤهله للانتاء والصمود في هذا العالم المتصارع بكل ابعاده ومعانيه !

فعندما يخرج الانسان مثلا بسفن صيده الى عرض البحر ليلا ، تراه يجذب الأسماك الى سفنه او شباكه بمصابيح ضوئية . لكن هذه الفكرة قديمة جدا ، اذ فعلتها كائنات الأعماق قبل ان يظهر الانسان على هذا الكوكب بعشرات الملايين من السنين .. فلقد استخدمت مصابيحها الحية في الظلمات لجذب صيدها .. فأحيانا ما تكون اسنانها مضيئة ، او افواهها الواسعة مضيئة ، وعندما تفتحها عن آخرها ، تنجذب الكائنات الاصغر الى هذا « الكهف » المضيء ، فيطبق عليها « بمصراعيه » القويين ، ليغيب الصيد في البطون كوليمة سهلة لا تعب فيها ولا نصب !

لكن أغرب انواع الصيد هناك يتمثل لنا في فكرة الشص الذي نضع فيه طعما ليجذب سمكة جائعة جاءت لتأكل ، فتتشبك في الشص لتؤكل . لكن هذه الفكرة البشرية ، قد سبقتها بملايين السنين فكرة سمكية ، فتجعل فكرتنا تبدو بجوارها بدائية ، لأن أسماك الأعماق لها خيط حي طويل او قصير ، فيخرج من موقع محدد على رؤوسها ، وفي نهايته بروز آخر حي ومضيء ، وكأنما هذا البروز بمثابة الشص ذي الطعم ، وبه تلوح في الماء ، فيجذب بضوئه سمكة اخرى جائعة ،فتحرك السمكة ذات الشص الحي خيطها ، نحو فمها الواسع المفتوح على آخره ، حتى اذا وصل الصيد

المخدوع الى الفم ، أطبق عليه ، ليتحول الآكل الى مأكول ، وبعدها تبعث السمكة بشصها المضيء الى الظلمات ،انتظارا لصيد جديد .. اضف الى ذلك ان الشص الذي تستخدمه الأنواع المختلفة ، قد جاء ايضا بطرازات مختلفة ، والوان ضوئية مختلفة ، لكننا لن نتعرض لأصول هذه « التكتيكات » هنا لضيق المجال .

ثم ان فكرة الانسان في استخدام ساتر من الدخان الكثيف في الحروب ، ليستره عن عيون أعدائه في التقدم او التقهقر ، فكرة بدائية وقديمة ، لأن بعض انواع الكائنات التي تسكن الظلمات قد استخدمتهاقبله بعشرات الملايين من السنين ، وطبيعي ان هذه الكائنات لاتستخدم ساترا من دخان اسود او رمادي أو ما شابه ذلك ، فليس لذلك من فائدة تذكر ، لأن البيئة نفسها مجللة بالسواد والظلام الحالك ، ولهذا كانت أكفأ وأجمل فكرة هي استخدام ساتر من نور تنشره امام عيون الكائنات المهاجمة ، فتعشى فيها عيونها ، وتتركها في حيرة ، حتى يهرب الكائن بجلده في ظلمات اكثر امانا ، وساتر النور هنا يتكون من بكتيريا مضيئة تحتفظ بها بعض الكائنات في « جيوب » خاصة في اجسامها ، لتنفثها في عيون الأعداء كلما تطلب الأمر ذلك .

وأسرار أخرى كثيرة ومثيرة يضيق بها هنا المجال !

الهوية من نور ،

لقد حلت معظم كائنات الأعماق مصابيحها على رؤوسها ،أو حول عيونها ،أو على أطرافها وبطونها ،أو على جوانبها ،أو في جيوب خاصة ..الخ ،لكن هذا المهرجان الحي المتحرك بأضوائه قد يؤدي الى حياةتشوبها الفوضى والارتباك .. فمن يأكل من ؟.. ومن يتزاوج مع من ؟ ومن يعرف نوعه فيتآلف معه ، او عدوه فيهرب منه ؟ ..الخ .. الخ .

لا تحمل لذلك هما ، فقد وضعت الحياة شرائع وقوانين تنظم بها أمور تلك الكائنات ،ولقد استخدمت في ذلك فكرة المصابيح الضوئية الحية ..لكن الضوء الناتج منها ليس لونا واحدا ، بل يجيء على هيئة الوان عدة .. فمنها ما يعطي نورا عاديا ، ومنها ما يشع ضوءا أحمر ، أو أزرق ، أوأرجوانيا ، او فوسفوريا ، او اصفر مشوبا بخضرة باهتة .. الخ ، ومن ذلك التنوع يكون التميز ، وكأنما الحياة - بهذه الفكرة - قد اعطت اشارات المرور أو الهجوم أو التوقف او الهروب لكائناتها ، وبها تعرف ما ينفعها وما يضرها .

لكن هذه التشكيلة من الألوان الضوئية لاشك محدودة ، خاصة لو توزعت على آلاف الأنواع من كائنات الظلام ، ويعني ذلك ان عشرات ومئات الانواع سوف تشترك في لون ضوئي واحد فيكون التشابه لا التميز ، والتشابه قد يؤدي الى نوع من التضليل بين الأنواع المختلفة ، لأنها ترتدي « زيا » ضوئيا واحدا ، ولابد من فكرة جديدة تساند تلك الفكرة ، حتى تعطيها اصالة فوق اصالتها .

وقد كان .. فلقد جاء توزيع المصابيح الحية على اجسام هذه الكائنات بتشكيلات بديعة ومذهلة ، وكأنما هي - كما تراها في الصور المنشورة هنا - قد تحولت الى نوع من البصمات المضيئة ، فكما يعرف كل انسان منا ببصماته ، كذلك تعرف كائنات الأعماق ببصماتها الضوئية ، وهي تمارس حياتها على هذه الأسس ، ومن لا يعرف اصولها ، ويمارس فنونها ، فلا يلومن الا نفسه ، لأن الحياة هناك لاتعرف التواكل .. بل ان التنمر والحرص هو رائدها .

لكن ذلك ليس كل المراد من رب العباد ، فلقد ساند هذه التكتيكات «الضوئية »تكتيك آخر جديد ومثير ،ذلك ان تنظيم اللقاء بين افراد النوع الواحد - خاصة فيا يتعلق بلقاء ذكوره مع اناثه في عمليات التزاوج والاخصاب - هذا التنظيم يعتمد على بث اشارات ضوئية ذات توقيع أو تردد زمني محدد لكل نوع من الانواع ، اي ان المصابيح الحية تنطفيء وتضيء كل ثانية ،او ثانيتين ، او ثلاث ، او اكثر ، وبهذا التوقيت المضبوط ، يهتدي الذكر الى انثاه دون مضيعة للوقت والجهد في هذا التيه المظلم الذي يتدحرجها بغير حدود .

نفس هذه الفكرة قد نقلها «الانسان عن هذه الكائنات (دون ان يدري ،او يدري) واستخدمها في فناراته الضوئية لتهدي السفن ليلا الى موانيها ، وطبيعي ان لكل فنار اشاراته الضوئية الموقوتة ، لتميزه عن كل فنار آخر .. « ولا جديد تحت الشمس » ،خاصة فيا يتعلق بالافكار التي ظنها الانسان أنها من بنات أفكاره ، مع ان الافكار قديمة قدم الحياة على هذا الكوكب .. لكن ما اكثر ما يخفي على السمع والحس والبصر والفؤاد .

اذن ، فكل مخلوق جاء لما هو له ميسر .. « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » . ■■

الاسكندرية د . عبد المحسن صالح



أحد مخطوطات مكتبة الزيتونة، ومنظر عام للمدينة التي يقع جامع الزيتونة في وسطها.

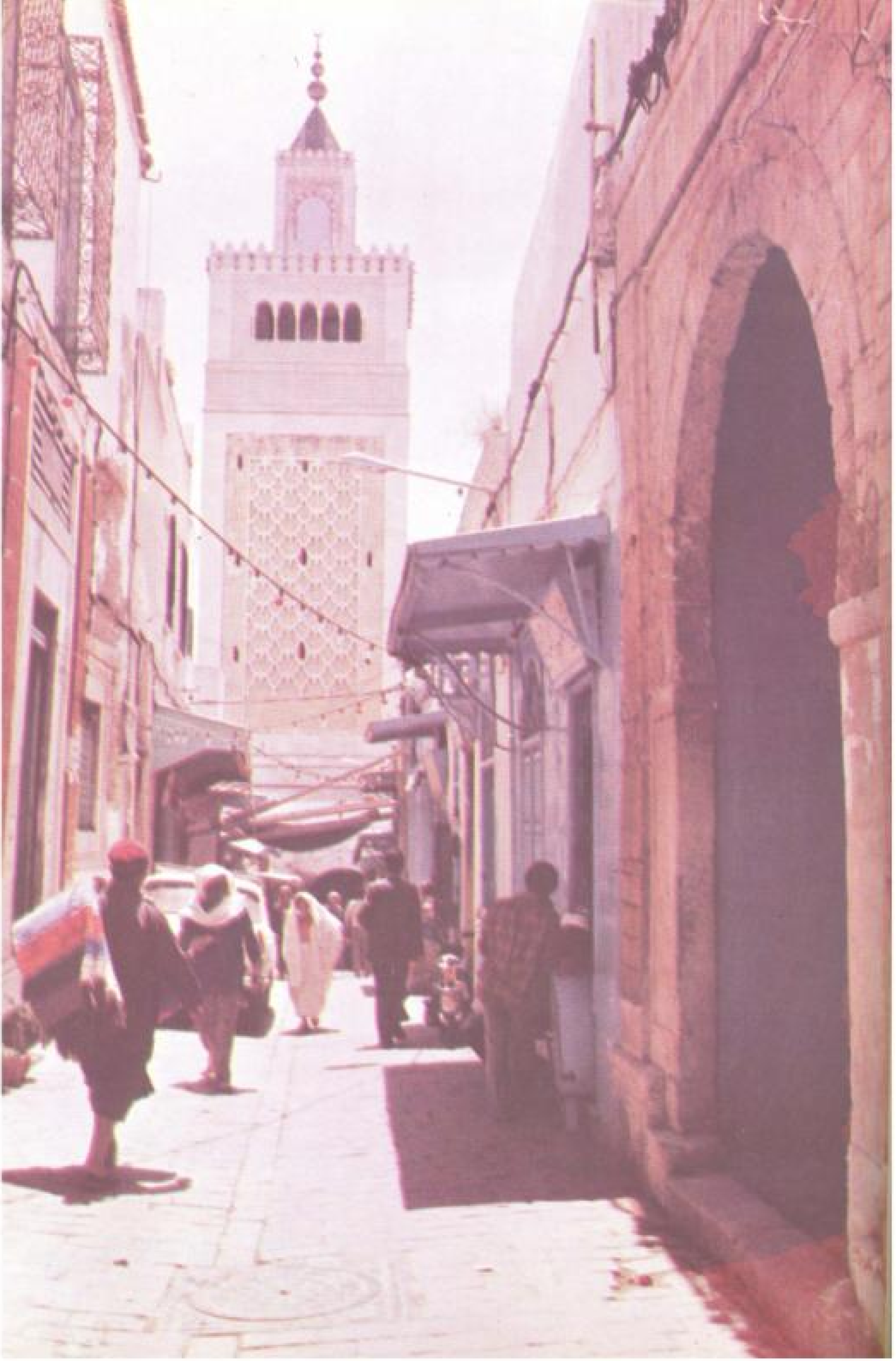
جامع الزيتونة

وريح التغيير في تونس

استطلاع : مصطفى نبيل

تصوير :أوسكار متري





جامع الزيتونة ، أحد مراكز الثقافة العربية ، وأحد حصون التراث العربي الاسلامي منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنا ، وقد لعب دورا بارزا في مقاومة الغزو الاستعماري ، وبقي على الدوام أحد مراكز النهوض الوطني ..

سلاحه الكلمة والفكرة والحفاظ على الهوية ، ومادته المعرفة والتجربة النامية والمتراكمة في وجدان أبناء المغرب العربي ..

وبقي كل من الجامع الأزهر وجامع القرويين وجامع الزيتونة مراكز اشعاع المعرفة في كل افريقيا ، وفي أروقة هذه الجوامع وتلك الجامعات انتعشت الشريعة وازدهرت اللغة العربية ..

وهذا التاريخ النابض لهذه المؤسسات يلقي على الأجيال الجديدة ، مهمة مزدوجة : إحداها ، الحفاظ على هذه المؤسسات كحامية للتراث العربي والاسلامي ، والثانية ، تطويرها حتى تواكب العلوم الحديثة ، وحتى يبقى دورها وتأثيرها ، ويصل اشعاعها الى كل العقول والقلوب .

الحياة صاخبة حول جامع الزيتونه في قلب مدينة تونس ، تمتد حول الجامع الأسواق والمكتبات والأزقة والحمامات ، والجامع ليس بعيدا عن الدوائر الحكومية ، ولا يخرج الجامع في ذلك عن القاعدة في كل المدن الاسلامية ، حيث يكون المسجد الجامع بؤرة المدينة وتجرى من حوله كافة النشاطات الاقتصادية والاجتماعية . انها ذات الصورة التي تراها حول الجامع الأزهر في القاهرة ، وحول جامع القرويين في فاس ..

ويقودك الى الجامع الأحياء العتيقة والأسواق العربية بطابعها المميز ، سوق العطارين ، سوق الصوف ، سوق البلغجية ، سوق النحاسين .. وهكذا ، ترى في هذه الأسواق المصنوعات اليدوية ذات الطابع المميز والمحبب ، وتجد الى جانبها المنتجات الأجنبية .. تقترب من الجامع وتظهر صومعة الزيتونه كالبرج الشامخ الذي يشير الى السماء ، تقود المنارة والقبة كل من يقصد الجامع ..

وقد رأيت بهاء جامع الزيتونة أول مرة من نافذة غرفة الفندق ساعة المغيب عندما يبدو المسجد بمنارته وقبابه من بعيد وكأنه الشيء الوحيد مع الأفق ..

أصل الى ساحة الجامع التي يزدحم حولها السياح الأجانب ، وأرى كافة المشاهد مختلطة ، الملابس المغربية التقليدية الى جانب كرنفال ملابس السياح الأوروبيين ، ويصمد وسط هذا الكرنفال صاحب مكتبة قديمة . أصر ذلك الشيخ على الاستمرار وسط الساحة يبيع الكتب العربية القديمة الى جوار غيره من التجار الذين يبيعون أرقى ما انتجته المصانع الأجنبية !

يظهر فوق الدرج الذي يقود الى الجامع عدد من السائحات يسترحن من جولة الأسواق ، يشق طريقه بينهن كهل يتوكأ على ابنه في طريقه الى داخل الجامع ..

تبهر عمارة جامع الزيتونة السياح ، يتأملون الصومعة والقباب والأقواس والأعمدة الرخامية والخطوط العربية وأعمال السيراميك ، أطوف حول المسجد الذي يحيطه صحن مسقوف وقد حطت أسراب الحمام حول سبيل ماء وسط الصحن ، هنا ترى كيف حققت العمارة الاسلامية ، المعادلة بين اقامة مسجد رائع والحفاظ في نفس الوقت على البساطة والوقار الصامت ...

أتجول في أنحاء المسجد في صحبة مرافقي المتخصص في فن العمارة الاسلامية ، لا يكف خلال جولتنا عن الحديث ـ بلهجة العاشق ـ شارحا أسرار تلك العمارة ، يقول : « ان العناصر المعمارية في مسجد الزيتونة هي المنارة والقبة وبيت الصلاة والصحن بأعمدته الأندلسية ثم المحراب والمنبر ، وعمارة الجامع على نسق مساجد شمال أفريقيا والأندلس .. »

يبدو جمال الجامع من الصحن ، ويظهر شكله العام وقيمته ، وأجمل ما فيه صومعته ـ أي منارته ـ وهي تقوم على قاعدة مربعة مثل مآذن شمال أفريقيا ، تدلف اليها من باب ذي عقد حدوة حصان ، وينفذ الضوء اليها من شبابيك مستطيلة تصاحب السلم الداخلي الضيق الذي



الجامع الاعظم صاحب الدور البارز فى حياة تونس

ينتهى بشرفة الأذان ، والتى يقوم فى وسطها مكعب آخر أصغر من الأول ، على كل ناحية خمسة أقواس على الطراز الأندلسى يقيمون على أعمدة يضيفون الى المنارة الجمال والذوق ، ثم تنتهى بقبة صغيرة خضراء ...

وهذه الصومعة وصفها الشيخ محمد الحشائشى فى كتابه عن جامع الزيتونة بقوله « ان الصومعة تحاكى ما صنع من جوامع الجزيرة الخضراء فى عهد شبيبة الحضارة الأندلسية » وإلى جانب الصومعة تقوم قبتان ، أتقن خلالها المعمارى العربى جعل القبة والمنارة وحدة جمالية لشكل المسجد ، تقف القبة مزينة بالنوافذ المتقنة ، تتغير الوانها مع الظلال ...

وأمضى فى جولتى أسمع وأرى وأتأمل ، ألاحظ جمال بوابات المسجد المصنوعة من خشب الساج وذات الطابع العربى الخالص ، فلم يتعرض المغرب الى تيار ثقافى خارجى حتى مطلع العصر الحديث ، مما أتاح للمعماريين فرصة الحفاظ وتطوير فنهم على ذات الأصول وفى نفس الخطوط الأصيلة ..

أول ما يواجهك داخل الجامع غابة الأعمدة والثريات على طول اتساعه ، ولا يفوتك أن تلحظ أن تيجان الأعمدة ليست على نسق واحد ، فبعضها على هيئة أغصان النخلة أو تفرع الزهرة ، وقدم الجامع للأعمدة كامل بهائها وهى تقوم فى فراغه الفسيح متراصة صفوفا تحمل العقود ، يخلق تشابهها وتواليها شعورا عميقا بالتواصل والاستمرارية ..

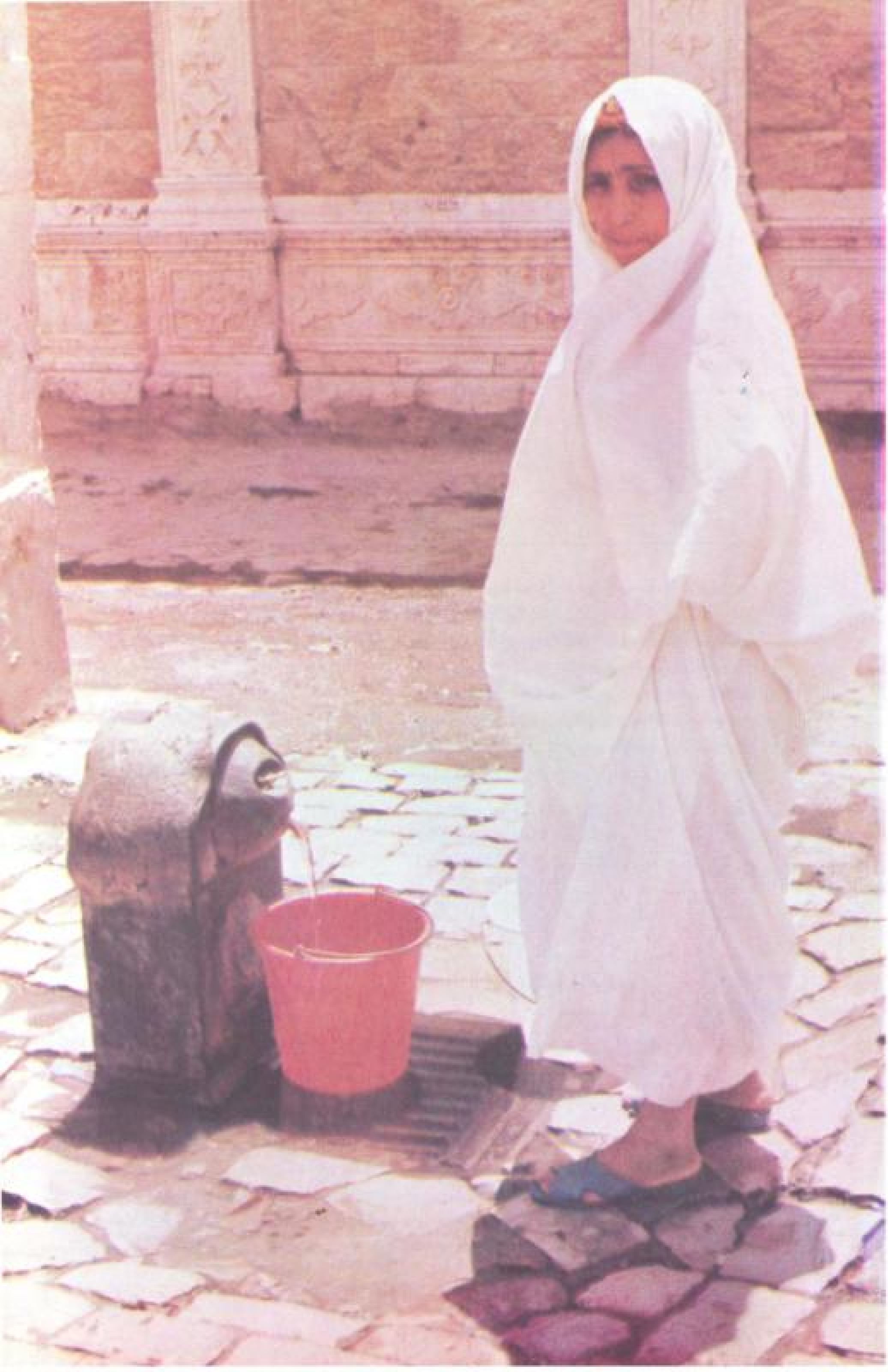
وتظهر البساطة فى الحصر التونسية التى فرش بها المسجد ، وتتركز الفخامة فى ثريات الكريستال المنتشرة على طول الجامع ، ويلجأ الفنان العربى الى الزخرفة يملأ بها الفراغات معتمدا على عنصرى التكرار والتوازن ، وجعل من الخط العربى المغربى ميدانا من الميادين الرئيسية لزخرفة الجامع بايقاع فنى متناغم ، نجده فى الأعمال الجصية وفى الحفر على الخشب وفى اللوحات التى تروى تاريخ الجامع ..

أما المحراب فقد ميزته زخارف جصية ، كما استخدم الخط العربى ، وأشكال من الزجاج الملون الذى يلقى الأضواء مختلفة الألوان على المكان ، وأخذ مرافقى يشرح الجهود العلمية التى بذلت من أجل تحديد اتجاه الجامع واستخدام علم الفلك لضمان توجهه نحو الكعبة الشريفة .

تونس والقيروان

هذا هو الجامع الذى لعب دورا ثقافيا هاما فى حياة تونس والمغرب العربى ، ففى هذا المكان وحول هذه الأعمدة كان يجلس عدد كبير من فقهاء العرب وعلمائهم محدثين وشارحين . وفيه تطورت المعرفة على امتداد التاريخ منذ أوائل القرن الهجرى بعد فتح قرطاجنه على يد حسان بعد النعمان ..

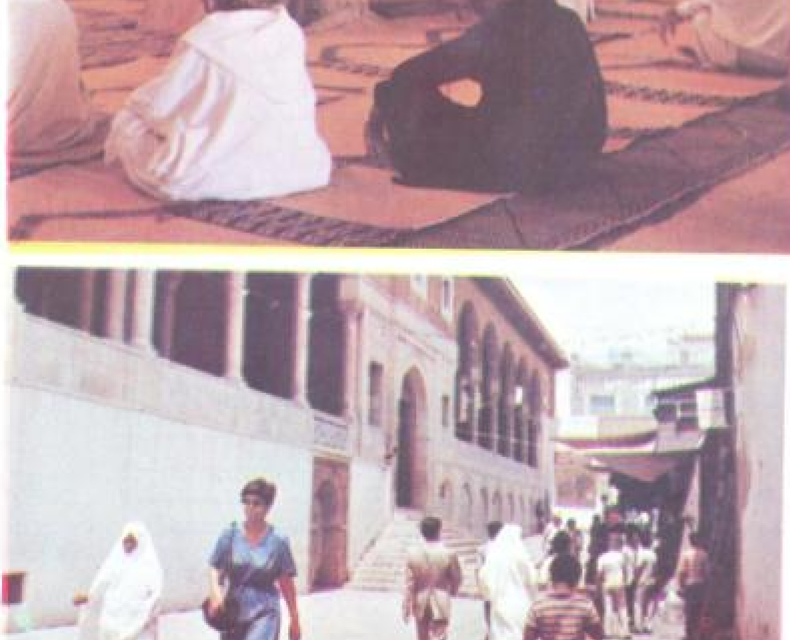
وعندما ورثت تونس دور القيروان التى كانت فى البداية عاصمة البلاد ، انتقل دور جامع القيروان الذى



احدى سيدات
تونس تملأ المياه من
« سبيل » جامع
الزيتونة ، وقد كان
جامع الزيتونة على
الدوام يروي شعب
تونس المتعطش الى
المعرفة .



لقطة من داخل
جامع الزيتونة ويظهر
بيت الصلاة ، وقد
شهدت هذه الأروقة
حلقات العلماء جيلا
بعد جيل ، ويظهر
المحراب والمنبر
والثريات والاعمدة .



جامع الزيتونة
والاسواق من حوله ،
والساحة التي أمامه ،
وتظهر الأزياء
المختلفة لرواد
الساحة .

اختطه عقبة بن نافع الى جامع الزيتونة ، بعد أن اتخذ عبد المؤمن بن علي مدينة تونس دارا للامارة وبقيت عاصمة حتى اليوم ، ومن يومها ارتبطت حياة الزيتونة بحياة تونس ، وأصبح تاريخ الجامع هو ذاته تاريخ مدينة تونس خلال القرون الأربعة عشر الأخيرة ..

واذا قلبنا صفحات التاريخ نستلهم منه حكمة الزمن ونستخرج دروس الأيام ، تبين لنا مكانة جامع الزيتونة التاريخية ..

نبدأ بالعودة الى تلك الأيام التي انتقلت خلالها العاصمة من القيروان الى تونس ، والتي أقيم فيهاجامع الزيتونة .

بدأ بناء جامع الزيتونة حسان بن النعمان سنة ٧٩هـ ، وأتى بعده عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٤ هـ وأتم تجميله ، عندما كان واليا على مصر وأفريقيا والاندلس . يقول البكري (سنة ٤٨٧ هـ) في كتابه المسالك والممالك ، « ان دور مدينة تونس أربع وعشرون الف ذراع ، وفي سنة أربع عشرة ومائة بنى عبيد الله بن الحبحاب المسجد الجامع ودار الصناعة .. » لاحظ اقتران المسجد بدار الصناعة .

وجاء هذا التطور بعد أن أصبحت تونس خالصة للاسلام وجسرا للاندلس وصقلية ، ورأينا أن المسجد الجامع في تونس جاء المسجد الثاني بعد مسجد عقبة بالقيروان ، ووصفه ابن الشماع في كتابه « الأدلة البينة النورانية » « بأنه مليح الصنعة ، حسن الوضع ، مطل على البحر .. »

وتحكي المنافسة بين تونس والقيروان ، تغير موقف العرب من البحر وابتعادهم عن المدن الساحلية التي يمكن أن تتعرض لغزو الأساطيل .. فكان عقبة بن نافع يرى أن يستقر عساكره في مكان يبعد عن البحر فأقام القيروان عاصمة له ، ولكن بعد مضي الوقت وخوض الاسطول البحري العربي المعارك المنتصرة وتثبيت دعائم الدولة الاسلامية ، دفع هذا عبيد الله بن الحبحاب على نقل العاصمة الى تونس ، وهي التي تجمع بين الحصانة في البر والمكانة البحرية بمرساها الفريد في الخليج التونسي . »

وخاصة ان تاريخ مدينة تونس يكشف أنها « مشتل مدني خالد » على حد تعبير الدكتور جمال حمدان ، فعليها قامت قرطاجنة الفينيقية عام ٤٨٠ ق . م ، وأوتيكا الرومانية ، ثم تنس وأخيرا تونس العربية التي أقيم جزء منها بمخلفات وبقايا قرطاجنة ، والتي تجري اليوم على قدم وساق حفريات وعمليات تنقيب عن آثارها .

ومنذ ذلك الوقت قامت تونس الحفصية التي أصبحت قطب الرحى في أفريقيا ، ومن كبريات مدن الاسلام ، وحتى وقت قريب كانت تونس كبرى مدن المغرب العربي بما في ذلك مدينة الجزائر والدار البيضاء .

ولم يطلق على مسجد تونس جامع الزيتونة في البداية لأن المتعارف عليه في تسمية المساجد أن تكون باسم البلد الذي أقيمت فيه ، ولكن عندما تتعدد المساجد في البلد الواحد يضطرون الى تسميتها باسم خاص ، لذلك رأينا أنه عندما أقيم مسجد القصبة الذي تم بناؤه سنة ٦٣٣ هـ ، وعرف باسم مسجد تونس بدأت تسميته باسم بجامع الزيتونة ..

ولعل هذه التسمية جاءت من الآية الكريمة .. « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولولم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » أو لعلها تعود الى ما اشتهرت به تونس الخضراء من زراعة أشجار الزيتون ...

ذاكرة تونس

ومع تنامي دور وأهمية مدينة تونس تعاظم دور جامع الزيتونة ، وانتقلت اليه المعرفة قادمة من الشرق ، من مصر والشام والعراق ، ومن المغرب من بلاد الاندلس ، وأخذ يصلها ويعبرها اجتهادات علماء الشرق والغرب ، فهي التي تقع بين قطبين للثقافة . ومنذ القرن السادس الهجري أي منذ انتقال العلم والعلماء من القيروان الى تونس وهي محط رحال طلاب العلم ،وقد انتعش منذ تأسيسه كجامع وجامعة ، ويمثل منذ قيامه ذاكرة تونس الثقافية والفكرية يسجل علماؤه كافة التطورات السياسية التي تشهدها تونس ، كما بدأت تتوالى عليه اثار ما يحدث في عالم الاسلام .

ويسجل علماؤه هجرة جماعة من علماء الأندلس وأهل الصناعة والفن هربا من الاضطهاد الاسباني خلال بداية الانكسار العربي في الأندلس . ويصدق على الزيتونة القول المأثور .. « انه لولا جامع الزيتونة لبقيت تلك البلاد في عذاب من الجهالة مهين ! .. »

ازدهار الزيتونة

اتصل دور جامع الزيتونة ، منذ قيامه واستمر أعلام الفكر العربى والاسلامى يلقون دروسهم ويجلسون من الفجر حتى العشاء يسندون ظهورهم الى احدى اسطوانات الجامع ويحيطهم تلاميذهم فى شكل حلقة ، وقد القى الدروس فيه أحد أصحاب الامام مالك بن أنس فى القرن الثانى الهجرى ، ومن أبرز علمائه ابن عرفة والمفكر العربى عبد الرحمن بن خلدون الذى عاش حياة حافلة بالفكر والممارسة تنقل خلالها بين جامع القرويين وجامع الزيتونة والأزهر الشريف ، ومنهم التيجانى وأبو الحسن الشاذلى الصوفى ، ودرس فيه فى القرن الخامس أبو الحسن على الحصرى صاحب القصيدة التى أصبحت مطلع العديد من القصائد والتى تقول :

يا ليل الصب متى غده

أقيام الساعة موعده

ونظام الدراسة فى جامع الزيتونة لا يختلف عما هو عليه فى الجامعات الاسلامية الأخرى ، فيكون الدرس تفسيرا لمتن وتقريرا لأقوال شراحه والنظر فيما بينها من اختلافات ، وقد يقود الحديث الى الاستطراد ، فاذا كان شيخا حاذقا مادته واسع الاطلاع تفوق الفائدة من دروسه ما يوجد فى كتابه .

واذا كان الدارس يواظب على الحضور يحق له أن يتقدم الى الاستاذ بطلب اجازة تكون بمثابة اطروحة ، وتدرس فى الجامع العلوم العقلية والنقلية فى الصباح والمساء على السواء الا أن الغالب تخصيص الوقت بين المغرب والعشاء بالدروس الدينية الخاصة بالعبادات لحضور أصحاب الحرف المختلفة بعد انصرافهم عن العمل ...

ويؤكد أبناء الزيتونة أن جامعتهم هى أصل المراكز العلمية ، يقول محمد الخشاشى فى كتابه تاريخ جامع الزيتونة « انه من جامع الزيتونة انطلقت جيوش تونس لفتح الأندلس وتأسس فى المغرب الأقصى جامع القرويين الذى احتذى جامع الزيتونة فى نشر مبادىء الاسلام واعلاء صرح العلم وحماية اللغة العربية وآدابها ، ومن ربوع افريقيا خرجت جحافل جوهر الصقلى ليؤسس مدينة القاهرة معقل جامع الأزهر الشريف الذى حمل رسالة جامع الزيتونة ... »

ويقول رئيس اتحاد كتاب تونس محمد العروسى المطوى .. « انه من جامع الزيتونة خرج الرجال الذين أقاموا عدوة القرويين فى فاس وأقاموا جامع القرويين ، ومن تونس خرج الرجال الذين أقاموا الجامع الأزهر والذين صاحبوا جوهر الصقلى الى القاهرة ... »

وليس غريبا ما يعتقده أهل تونس من أن جامع الزيتونة حصن الدفاع عن الثقافة العربية والتراث الاسلامى .

الخيول فى الجامع

رأينا كيف جذبت تونس عددا من علماء الاندلس هربا من الضغط الاسبانى ، ولم يمض وقت طويل حتى امتد الغزو الأيبيرى (الأسبانى) الى تونس ذاتها ، واحتل الأسبان تونس سنة ١٥٣٥ م ٩٤٢ هـ وبسطوا نفوذهم وصاحب ذلك أفول نجم العلم فى الزيتونة عندما ضعفت الدولة الحفصية ، وانصرف عدد من العلماء الى الحرف المختلفة وسادت الأحوال التى وصفها أحد المؤرخين العرب الذين عاصروا تلك الفترة بقوله ... « كان رجال السبانيول وعساكره حيوانات فى صورة اناس ، ومن قبائح فعلاتهم مع التونسيين وعبثهم فى البلاد ، ان ربطوا خيولهم بجامع الزيتونة ، وحفروا حفرة صغيرة فى بلاط صحنه كى لا تتعثر بها خيولهم ، واستباحوا ما بالجامع الأعظم من الكتب العلمية ، وما بالمدارس والجوامع منها فداسوها بخيولهم بعد أن القوها بالطرقات ومزقوها بسيوفهم .. »

ويصف المؤرخ العربى هنا بداية التداعى ، ويبين كيف يوجه الأعداء سهامهم نحو الحصن الثقافى الذى يمكن له أن يحرك المقاومة ضد الغزو .

واستعانت تونس للتخلص من الأسبان بالدولة العثمانية خلال عنفوانها ، فحل الأتراك محلهم سنة ١٥٧٥م لتخليص البلاد من الغزاة ، لذلك نجد أن المرحلة العثمانية تتمتع بقدر من التعاطف والتقدير على عكس الموقف منها فى المشرق العربى ، فاذا كان المشرق قد عرف العثمانيين كفاتحين أجلاف ، الا أنهم فى المغرب العربى كانوا المدافعين عن البلاد ضد الغزو الايبيرى !.

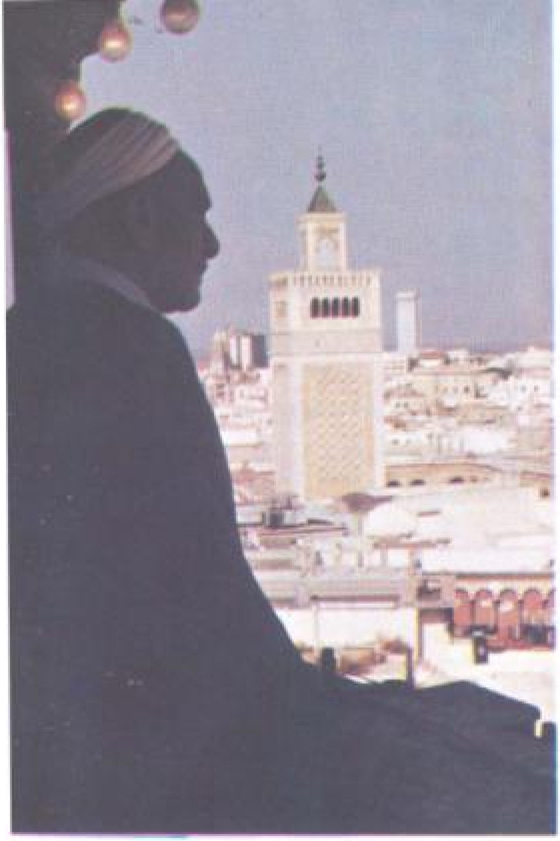
ويبقى معلقا أحد الأسئلة التاريخية حول مسار الدولة العثمانية ، فلماذا لم تتحالف الدولة العثمانية مع المماليك فى مصر والدولة الصفوية فى فارس لمواجهة الغزاة .. ؟ بدلا من إنهاك الدولة الاسلامية فى حروب داخلية مع كل من مصر وفارس .. ؟



أحد أبواب جامع
الزيتونة ويظهر دقة صنعه
وطابعه العربي الخاص .



منظر عام للجامع
وتظهر القبة ، والأعمدة
والأقواس الاندلسية .



منارة جامع الزيتونة بطرازها الذي يميز مآذن شمال افريقيا . وهي تهيمن على قصبة تونس اي تونس القديمة .

هذا الشيخ أصر على أن يبيع الكتب العربية القديمة في ساحة جامع الزيتونة .



وهذا السؤال ليس مطروحا في المغرب العربي الا أن العثمانيين نقلوا سمات حكمهم التي تتمثل في استيلاء العسكرية على السلطة في بلاد الاسلام ، ففرضوا النظام ودافعوا عن البلاد ضد الاسبان ، ولكنهم في ذات الوقت نالوا من حركة الابداع الفكري ومن مسار التطور في البلدان الخاضعة لحكمهم ...

بشائر الاصلاح

وقد استمرت تونس ولاية مستقلة داخل الدولة العثمانية ترتبط بولاء اسمي للخليفة وظهرت بها بشائر الاصلاح في منتصف القرن التاسع عشر ، وبدأت هذه البشائر من جامع الزيتونة وقد كان الموجه الفكري الروحي لحركة الاصلاح هو خير الدين التونسي السياسي الحكيم الذي قام بجولات في البلاد الاسلامية والبلاد العربية .. وسجل ملاحظاته في كتابه « أقوم المسالك في أحوال الممالك » . والذي كان عبارة عن صيحة تنبيه للمسلمين على تأخرهم في عالم يتغير ، مقارنا مع ما تحقق في الدول الأوروبية ، ورسم الطريق لبني قومه لبناء مجتمع اسلامي متطور ، ومما قاله خير الدين :

« ان المعرفة هي أساس التقدم ، وان العلوم والمعرفة لا يمكن تحقيقها الا في مجتمع تسوده الحرية والعدالة ، وليس هناك ضمان لاستمرار حكم العدالة والحرية الا بواسطة المؤسسات التمثيلية .. » وتمكن خير الدين بالفعل من وضع أفكاره موضع التنفيذ ، وقام بتأسيس مجلس تونسي كخطوة أولى نحو انشاء حكومة نيابية ...

وأدخل خير الدين الاصلاحات في جامع الزيتونة كما اصدر قانون إصلاح التعليم الزيتوني من ٦٧ مادة ، وأهدى الزيتونة مكتبة عظيمة جمعت من العديد من المساجد ، وقدم مكتبته الخاصة البالغة الفي مخطوط الى مكتبة جامعة الزيتونة ، وأدخل تطويرا كبيرا على المواد التي تدرس فيها ، وكان كثير التردد على الجامع يشهد حلقات الدروس ، ويشترك في مناقشاتها .

وجاءت هذه الحركة الاصلاحية في أوج المد الاستعماري ، وكان الفرنسيون يتربصون بتونس ، وتنقل التاريخ رد فعل نابليون الثالث امبراطور فرنسا عندما قدم له نسخة من دستور المجلس التونسي والذي علق عليه قائلا .. « اذا تعود العرب على الحرية والعدالةفلن يكون بيننا وبينهم عدالة !! .. »

من هنا نرى أن قصة السيطرة الفرنسية على تونس تشبه قصة السيطرة البريطانية على مصر في ذات الوقت ، ففي كلا البلدين كانت هناك حركة اصلاحية قوية رأى المستعمر ضرورة القضاء عليها ، وسارعت كل من فرنسا وبريطانيا تقطع على كل منها الطريق ، وفي كلا البلدين كانت الديون الأجنبية سببا في فرض الرقابة المالية التي أعقبها فرض السيطرة السياسية وفرضت في تونس الضرائب المرهقة لسداد الدينالأجنبي ، وثار الشعب عندما شعر بفداحة العبء المالي واستغلت فرنسا هذا الوضع لتعلن الحماية على تونس ، بعد أن كان خير الدين قد غادر تونس الى استانبول وأصبح صدرا أعظم

فرنسا والزيتونة

عانت تونس من الحماية الفرنسية ٧٥ عاما ، قامت فرنسا خلالها بكل ما تستطيع للهيمنة على العقول ، والتغلغل في وجدان الشعب والقضاء على تراثه ، ومعروف عن الاستعمار الفرنسي انه لا يكتفي بالأرض بل يستهدف الضمائروالأرواح ، وكان الهدف فرنسة المجتمع العربي في تونس وتحويله عن اللغة العربية ، وأقيم نظام تعليمي يقتلع الشباب من جذورهم الثقافية ، على وهم أن تصبح تونس والجزائر الامتداد الطبيعي لفرنسا على الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط .

ومرة أخرى يتحول جامع الزيتونة ويصبح معقلا لمقاومة سياسة الهيمنة الفرنسية ، وتمكن خلال تلك الأيام السوداء أن يسجل مقاومته ، وأصبح الملاذ الاخير لعلوم الدين ومعقلا حصينا للغة العربية ، التي احتفظت في أروقته بكثير من حيويتها وقوتها ومنع عنها التدهور ومكنها من مغالبة الغزاة ، فكان يدفع بأبنائه والدارسين فيه مشكلا حركة دائمة ضد الفرنسة ..

وتتابعت فصول الصراع بين الادارة الفرنسية والزيتونة ، وعندما بادر المستعمر بعد سبعة عشر عاما من احتلاله الى تأليف لجنة من بعض العلماء لاحداث تغييرات في جامعة الزيتونة بحجة تطوير مناهج التعليم ، وقوبل المشروع بالرفض والتوجس ...

وأخذت الادارة الفرنسية تبحث عن اسلوب للتعامل مع هذا الحصن ، فتارة تجعل جامع الزيتونة تابعا في ادارته الى وزير المعارف الفرنسي ، وتارة يلحق بوزارة الداخلية الفرنسية . وفي كل الأحوال كان من الضروري عرض شئونه على الكاتب العام ووزارة الداخلية ..

ومن علامات معارك الزيتونة مقاومتها لقانون التجنس وابطال فعله . فكان على التونسي الذي يريد أن يستمتع بكافة حقوق المواطنة أن يحصل على الجنسية الفرنسية ، وفتح باب التجنس على مصراعيه ، فأصدر جامع الزيتونة فتوى شرعية باعتبار المتجنس مرتدا » يحرم دفنه بمقابر المسلمين ، مما أجبر الفرنسيين على اقامة مقبرة خاصة بهم ، وتقلص عدد طالبي الجنسية الفرنسية ...

كما امدت الزيتونة الحركة الوطنية المطالبة بالاستقلال بكل قياداتها وعلى رأسهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي ، وكان من ابناء الزيتونة شاعر الحرية أبو القاسم الشابي الذي قال :

اذا الشعب يوما أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر

وكانت الحركة الوطنية نتاج جهد وفكر انطلق من جامع الزيتونة ، وكان رئيس أول اتحاد عام للشغل من أبناء الزيتونة وهو الشيخ محمد الفاضل بن عاشور والذي ساهم في تأسيس الاتحاد عام ١٩٤٦ ...

ومن الجهود الفكرية التي أقامها ابناء الزيتونة عقد مؤتمر للغة والآداب والفنون العربية عام ١٩٣١ ، للرد على استخفاف المستعمر بالثقافة الوطنية ...

وقامت الزيتونة مع جمعية العلماء ومعهد ابن باديس والطلبة الجزائريين الذين درسوا في الزيتونة بتشكيل خط الدفاع الرئيسي عن العروبة والاسلام .

وحافظ جامع الزيتونة على دوره كعبة للعلم ، ومحرابا للدين وحارسا للحضارة .

الثقافة الوطنية

وكان على رجال الزيتونة تطوير الدراسة في الجامعة ادراكا منهم انه لايكفي الايمان والاخلاص والرغبة الملحة في الخلاص بل ينبغي التسلح بالقدرة على تجديد الفكر العربي بتنقية التراث من العقائد الواغلة والمذاهب الباطلة والعادات الداخلية ، وان عليهم اعداد نوعيات جديدة من الدعاة وامدادهم بالثقافة الحديثة واللغات الحية ، والعمل على تقديم الثقافة البديلة عن الثقافة الفرنسية .

ونشبت معركة حادة بين التعريب والفرنسة ، وكان أمام رجال الزيتونة حركات الاصلاح التي اطلقها خير الدين التونسي وجمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، وأمامهم محاولات التطوير التي سبقت الاحتلال الفرنسي ...

ويستعرض جانبا من هذه المحاولات احد ابناء الزيتونة والذي تولى مشيخة الازهر في القاهرة عام ١٩٥٢ بعد لجوئه الى القاهرة هربا بعقيدته من العسف الفرنسي ، وهو الشيخ محمد الخضر حسين . يقول :



خير الدين التونسي وخطر الحرية والعدالة





لقطات مختلفة من الأسواق التي تحيط بجامع الزيتونة ، سوق العرائس وسوق النحاسين بمصنوعاته اليدوية والملابس التونسية المميزة ... وبعض السياح يتجولون في ساحة جامع الزيتونة .









الشيخ محمد عبده خلال زيارته لتونس

« اخذت تونس في العهد العثماني تخرج كبار الفقهاء ، ورأى الامير محمد حسين باي أن البلاد في غنى عن القضاة الذين يبعثون من الأستانة ، وعين من الوطنيين قاضيا مالكيا ، وقاضيا حنفيا ، وكان الامير يصطفي لمجلسه صفوة العلماء ، فاقام للعلم سوقا نافعة ، وما ان اقبلت السنة الثالثة عشرة حتى كانت تونس عامرة بأجل الفقهاء ، وجاء الامير احمد باي ونظم التعليم بجامع الزيتونة سنة ١٢٥٦ هـ ، فازدادت النهضة العلمية قوة على قوتها واشتهرت بيوت باقبال أبنائها على العلم كآل النيفر وآل عاشور بين فقهاء المالكية ، وآل بيرم وآل ابن الخوجة من فقهاء الحنفية .

وكان نظام التعليم من أسباب تنافس اصحاب المذهبين في ميدان العلم ، وقد رأى المشير احمد باي سنة ١٢٥٨ هـ ان ينتخب للتدريس بجامع الزيتونة خمسة عشر عالما من المالكية ومثلهم من الحنفية ،ولكل أن يقرىء الدرس في أي فن اراد ، واذا فقد أحد هولاء المدرسين انتخب نظار الجامع بدله أعلم الموجودين ، واذا اشتبه عليهم الحال فيمن يستحق ولاية التدريس عقدوا مسابقة بين من يرغبون في احرازها ، ومن وقع عليه الاختيار فصل في تعيينه المشايخ النظار .. »

خلال تجربة التطوير هذه ، أوشكت تونس على وضع صيغة للعلاقة بين الاصالة والمعاصرة ، ففي الوقت الذي تم فيه تطوير التعليم في الزيتونة ، اقيمت مدرسة حربية في باردو ، وقدم اليها اساتذة اجانب عام ١٢٥٥هـ ، كما بدأت حركة ترجمة واسعة ، واصدر الأمير احمد بن مصطفى باي قرارا يمنع الرقيق وعتق كل من كان بها من الأرقاء .

في حياة تونس

وتونس اليوم مجتمع يتغير ، وخلال تغيره تقوم فيه كافة المدارس الفكرية ، ويشهد خلافا بين هذه المدارس من اجل استكمال تطوره ، وهو يسعى للتخلص من الهياكل التي اقامها المستعمر والآثار التي خلفها ، وتتركز لعبة شد الحبل بين المدارس المختلفة حول التعريب كبديل للفرنسة ، بعد ان أصبحت الفرنسية هي لغة النخبة من المثقفين والأثرياء ، وهذه المعركة تلعب فيها الجامعة الزيتونية وخريجوها دورا بارزا في تأكيد الهوية العربية ...

وبعد أن انتقلت الجامعة من الجامع الى مبنى

حديث ، وبقي الجامع يجذب كل من يحن الى الماضي ، وأصبح في تونس كما في الأقطار العربية الأخرى نوعان من التعليم ، احدهما التعليم الزيتوني الذي يطلق عليه هنا التعليم الاصيل ، والتعليم العصري في المدارس والجامعات والذي يستخدم اللغة الفرنسية ...

ولندع عميد الكلية الزيتونية الشيخ الشاذلي النيفر يستعرض التطورات التي شهدها التعليم الاصيل ، يقول .. « بعد الاستقلال عام ١٩٥٦ فصل التعليم الثانوي الزيتوني عن جامع الزيتونة ، واطلق اسم « الجامعة الزيتونية » على التعليم العالي للعلوم الشرعية الاسلامية وعلوم اللغة العربية وآدابها ، وسمي شيخ الجامع عميد جامعة الزيتونة ، واصبح بالجامعة خمس كليات هي : كلية الشريعة وكلية اصول الدين ، وكلية الآداب وكلية اللغة العربية ، والمعهد العالي للقراءات ، واستمر هذا الوضع حتى عام ١٩٦٠ فتحولت الجامعة الى احدى الكليات التي تتألف منها الجامعة التونسية وسميت بالكلية الزيتونية للشريعة واصول الدين ، واصبح عدد طلابها ٩٧٠ طالب بعد ان كان عشرة آلاف ، واقتصر عمل خريجي الزيتونة على الوعاظ ومدرسي التربية الدينية والوطنية ، ولم يعد التوجه الى التعليم العالي حرا ، بل تحدده وزارة التعليم العالي ... »

ويطلب الشيخ الفاضل أن يساهم المال العربي في دعم الكلية الزيتونية ليتسنى لها اتمام عمليات تطويرها وتجهيزها بكل ما يلزمها ، ولكي يعود دورها الى سابق عهده .

ويكمل مفتي تونس الشيخ الحبيب بلخوجه قصة جامع الزيتونة يقول :

« اصبحت مهمة الكلية الزيتونية خدمة الثقافة الاسلامية والعمل على احياء التراث الحضاري ويتخرج من شعبة الدراسات باحثون يجمعون بين النظرة الشاملة للثقافة الاسلامية ومصادرها والاتجاهات الفكرية المعاصرة ، ولاشك ان هذه الخلية الحية في الجامعة التونسية تقوم بدور كبير في تكييف الحياة وتوجيهها الديني والعلمي ، ويتولى الخريجون مهمة الدعاة الذين ينتصبون للامامة والخطابة ، ومنهم كتاب ومؤلفون يعتنون بالتراث الحضاري الاسلامي ، ونشر العديد من المؤلفات والمصنفات الاسلامية التي لاتتسم بالطابع الاقليمي بقدر ما تكشف عن دور الحضارة الاسلامية .

وهذه الكلية ورثت عن الجامع الاعظم جامع الزيتونة رسالته الكبرى ، وهي تعمل لتخلفه في دور الحفاظ على الاصالة في جميع اشكالها ، وقد اصبحت قضية مراكز البحث الاسلامي اليوم تستقطب كل محاولات الفكر الاسلامي لجعل الكلمة العليا للاسلام .. »

تأتي الآن على نهاية جولتنا والتي لايفوت الملاحظ ان يدرك ان جامع الزيتونة التاريخ والحاضر هو رمز تاكيد الهوية العربية ، وهو الذي كان العقبة الرئيسية امام المشروع الاستعماري ..

ومازال ابناء الزيتونة يطالبون بتغيير يوم العطلة من الاحد الى الجمعة ، ويلحون في المطالبة بتعريب مناهج التعليم والبدء بالمواد الاجتماعية ، وقد كان نقل جامعة الدول العربية الى تونس من العوامل التي ساندت ابناء الزيتونة في مطالبهم .

وبقيت مدرستان تتصارعان :

إحداهما : تنادي بالاصالة والمحافظة على الموروث كبداية للتطور الذي يقوم على اسس راسخة ويحرك الشعب التونسي جميعه ..

اما المدرسة الثانية : فتدعو للالتحاق بالغرب والارتباط بحضارته للخروج من التخلف ، على امل اختزال التطور وكسب الوقت ، والبدء من حيث انتهى المجتمع الصناعي . كما يصب في طاحونة التغريب أولئك الذين يبذلون جهدا كبيرا لاثبات خصوصية التاريخ التونسي ، ويؤكدون الاقليمية ويستلهمونه من تاريخ الدولة القرطاجية الهامهم ..!

ويعتمد اصحاب هذه المدرسة على حجتين ، اقتراب تونس من اوربا ، وما ردده لي احد المطالبين باستمرار اللغة الفرنسية بقوله : ان تجربة المشرق العربي تميزت بكثرة المثقفين الذين يحترفون الحديث والكتابة والنقاش العقيم ، ولكننا هنا نريد العالم والمهندس اللذين يستطيعان ان يطورا البلاد ، وهذا لايمكن ان يتوفر الا عن طريق اللغة الفرنسية !!

هذا ويعيش المواطن العادي في ظل حيرة كبيرة ، بل ويعيش عدد من المثقفين تائها في الارض الحرام بين ماض موروث وعصرية كاسحة ..

ولايزال الصراع مستمرا في تونس بحثا عن المعادلة المفقودة بين الاصالة والمعاصرة .

مصطفى نبيل

رؤية فنية

الفن العربي الحديث .. بين الهوى والهوية

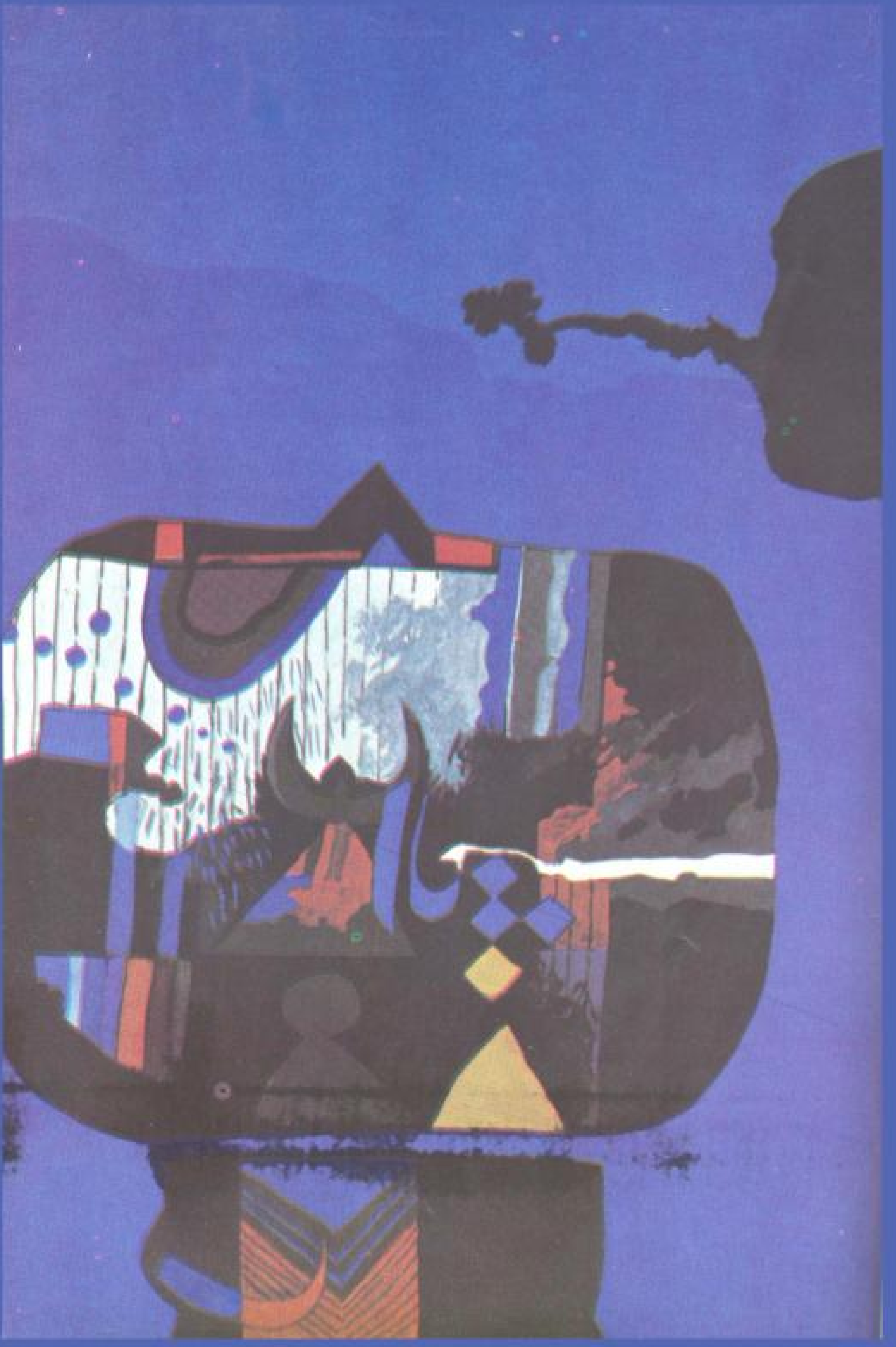
بقلم : الدكتور عفيف البهنسي

لم تكن مشاكل ومزايا الفن الحديث في البلاد العربية واضحة قبل السبعينات ، ذلك أن الالتقاء بين الفنانين كان ضعيفا ، ونادرا ما التقت أعمالهم في معرض واحد .

محمد شرقاوي ـ المغرب

ضياء عزاوي ـ العراق





بيد أن ظهور اتحاد الفنانين التشكيليين عام ١٩٧١ ابان انعقاد المؤتمر الأول للفنون الجميلة الذي انعقد في دمشق في كانون الاول (ديسمبر ١٩٧١) ، ثم صدور نظام الاتحاد في بغداد عام ١٩٧١ أثناء انعقاد المؤتمر العام الاول للاتحاد ، وبدء المعارض المشتركة منذ عام ١٩٧٣ أدى الى اظهار الفن العربي الحديث ضمن اطار واحد ، مما ساعد على التعرف عليه والتوسع في دراسة أعمال الفنانين وأساليبهم ومقارنتها مع نظائرها ، وأصبح البحث عن مشاكل الفن العربي الحديث من المسائل القومية والتي لايمكن تناولها من خلال تجربة اقليمية ضيقة ، كما أصبح مجال نشاط الفنانين واسعا ينتشر في جميع أنحاء البلاد العربية . واحتل الفنانون المتقدمون في أعمالهم وتجاربهم مكانة جيدة خارج حدود أقاليمهم ، وتهافت الناس على التعرف على اعمالهم التي انتشرت في أكثر الاقطار العربية ، واتجهت الأنظار الى توسيع حدود متاحف الفن الحديث وجعلها شاملة أعمال الفنانين في البلاد العربية كلها الى جانب أعمال الفنانين المحليين .

لقد تحقق هذا اللقاء في فترة وجيزة ، وابتدأ بذلك عهد فن عربي حديث موحد ، يعاني نفس المشكلات والهموم ، ويطمح الى تحقيق أهداف واحدة ، ويعيش في مناخ بحث حضاري قومي واحد .

قضية بناء الهوية

يعاني الفن العربي الحديث اشكالية بناء الهوية ، لقد استمر الفن الحديث شكلا ومضمونا منتسبا الى أصوله الغربية ، ومع أن اللوحة والتمثال على اختلاف ارتباطها بالأسلوب المستحدث هي من سمات فن الغرب ، فلقد كان من الممكن أن يكون للفنان العربي دور في تكوين أسلوب جديد يحمل هويته الثقافية العربية .

ان اشكالية بناء الهوية هي نتيجة اشكالية الانتماء القومي . فالقومية لم تأخذ معناها الصحيح في حركاتنا الاصلاحية أو الثورية ، ويرجع ذلك الى أننا مازلنا نمارس القومية من خلال مفهومها الذي انتقل الينا من الغرب يوم ازدهرت فكرة القومية في القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ، وقامت على أسس عنصرية دموية ، ولعلها أخذت أشكالا ملطفة يوم فسرت على أساس التاريخ واللغة .

وعدا ذلك فان القومية كثيرا ما فهمت على أنها بديل ونقيض للدين . ان هذا التفسير المشوه أو الخاطىء كان سبب اشكالية الانتماء القومي . فعلى الرغم من التقارب العربي الذي نشهده اليوم الا أنه لم تعمم تماما على وحدة الانتماء بقدر ماهو قائم على وحدة الهموم والمشاكل والأهداف . فهو لقاء ذرائعي أكثر منه لقاء قومي .

ولم يفطن المنظرون الى حقيقة القومية من أنها الحضارة . فاذا كانت الأمة هي مجموعة انسانية ذات روابط تاريخية ولغوية ومستقبلية ، فان القومية هي مجموعة عطاءات هذه الأمة عبر التاريخ ، انها الحضارة .

ومن هنا فان الكلام عن بناء الهوية في الثقافة والفن ، هو كلام في الانتماء القومي أو الانتماء الحضاري . وبناء الهوية يعني أيضا انهاء حالة الاستلاب الثقافي أو الاستعمار الثقافي . فالفن العالمي هو مجموعة تجارب قامت بها أمم من خلال معطيات حضارتها ، وهو ثقافة لابد منها ، ولكن محاكاته ونقله يعني ضياع الهوية .

وعملية الانتماء القومي هي ثورة بحد ذاتها ، هي الثورة الثقافية التي كثيرا ما نتحدث عنها دونما تحديد لمسيرتها .

وهكذا فان بناء الهوية الفنية يدخل ضمن عملية الانتماء الثقافي القومي والتحرر الثقافي والثورة .

رياح قادمة من الغرب

أمام هذه الرؤية الأكثر وضوحا للحضارة والقومية العربية ، نستطيع أن نحدد خلفية أساسية مشتركة لمشكلة الهوية العربية في جو يتفرد فيه الفنانون للبحث عن سمة خاصة ، كل على هواه لاتسعفه مبادىء ولا تساعده تجارب .

وكل ما استطاع فعله أكثر الفنانين هو أنهم حاولوا تقليد المدارس والاتجاهات الوافدة والتي أصبحت موضة الفن في أوروبا . ولكن هذا التقليد كان سطحيا في كثير من الاحيان ، وكان الخروج عنه لايعني تجاوزه بقدر مايعني التقصير عن فهم أبعاده وخلفياته . وهكذا فإن أكثر الفنانين الذين يقلدون اتجاهات الفن الحديث لم يقدموا شيئا جديدا يغني الفن العالمي أو يغني الفن العربي . فلقد فرضوا على أنفسهم التبعية وارتبطوا بتقاليد فن غريب ، وقد كان عليهم أن يمارسوا تجربة حرة وأن يرتبطوا بتقاليد فنهم العريق .

ولكن لابد من القول بان الفن الحديث فن اللوحة والتمثال بحسب ماعرفه الغرب منذ عصر النهضة في القرن الخامس عشر ، هو فن غريب على تقاليدنا الفنية ، وكان من البدهي ، وقد تلقينا فنا دخيلا ، أن نمارس

اتجاهات هذا الفن الغربية أيضا . وأن نعيش (سطحيا فقط) نفس المشاكل والأزمات . وهكذا فان الفنانين العرب ، وقبل أن يمروا بالمراحل التقليدية الأولى للفن الأوربي ، تسابقوا نحو ابتكار واختراع أشكال من الفن ليس لها ناظم أو ضابط ، ولا تخضع لأي جمالية محددة . وكثيرا ما كنا نرى أعمالا تافهة أو غير نامية تحاول أن تفرض نفسها في عالم الابداع ، متذرعة أولا بحجة الابتكار والطرافة ، ومعتمدة أيضا على ضعف ثقافة الجمهور في مجال مدارس واتجاهات الفن الحديث .

ولكن فن اللوحة والتمثال ـ على الرغم من دخوله الى عالمنا مع دخول الثقافة الغربية ـ فلقد أخذ مكانه من نشاطنا ، ولكنه بقي غريبا ، فهو غريب لانتمائه الكامل للجمالية الغربية ، وهو غريب لشطط الفنانين في اتباع الهوى والبحث عن الغرابة ، وهو غريب لأنه منفصل الجذور عن تقاليد فننا وبعيد عن أذواقنا .

والواقع أن هذا الفن الذي ندرسه في معاهدنا ونقيم به المعارض والمسابقات لم يطرأ على بيوتنا ولم نشعر بالتصاقه بأذواقنا وثقافتنا الفنية . لقد كان الجمهور أسرع من الفنان في التعبير عن رفض هذه الأنماط من الالواح والتماثيل التي لم تعبر عن حاجته الفنية الصحيحة .

واتجه الفنانون الى ذلك الرفض ، كما انتبهوا أيضا الى تخلف دورهم الفني في المجال العالمي . لقد كان عليهم أن يرفدوا تيارات الفن العالمية بتيار عربي أصيل يغني الثقافة الفنية ، وكان عليهم أيضا أن يساهموا في حل مشكلات الفن العالمي : مشكلة القلق ومشكلة المجانية والعبث .

ومنذ الستينات ، وقد خبى وطيس التقليد ومحاكاة الاتجاهات الفنية المستوردة ، من سريالية أو تجريدية أو تعبيرية وكثر أتباعها ، كنا أوضحنا أن طريق هؤلاء الفنانين مسدود ، وأن نشاطهم الفني ينطلق من نقطة خاطئة ، وأنهم حكموا على أنفسهم بالعزلة والتبعية .

لقد كانت دعوتنا الى تأصيل الفن العربي تعتمد على بناء فن حديث يقوم على جمالية عربية ، وهذه الجمالية ـ كما أوضحناها ـ مختلفة تماما عن جمالية الغرب ، كما هي مختلفة عن جمالية الفن الهندي والصيني والافريقي ، وأكدنا دائما أن الجمالية الغربية ليست مقياسا لجميع الفنون القديمة ولفننا خاصة ، وليست هي خلفية ثقافية لجميع الفنون الحديثة الأخرى ذات التقاليد المتميزة .

ان فناء فن حديث على جمالية غربية هو العامل الأساسي في عدم وضوح شخصية الفن الحديث العربي وهو السبب في ضياع هويته . ومع أن أبعاد الجمالية العربية أصبحت واضحة فيما قدمناه من دراسات ، فان عملية بناء الهوية الفنية مازالت في بدايتها تنتقل من تجربة الى أخرى على أيدي الفنانين الطليعيين .

لقد كان أمام الفنانين عدد من المجالات التي بدت صالحة لعملية تأصيل الفن . فلقد اعتقد بعض الفنانين أن الاستيحاء من البيئة الشعبية طريق للتأصيل . واعتقد البعض الآخر أن الأصالة هي التزام القضايا العامة والمشاركة في تحمل مسؤولية هذه القضايا بتسخير العمل الفني لصالحها .

الطريق الصعب

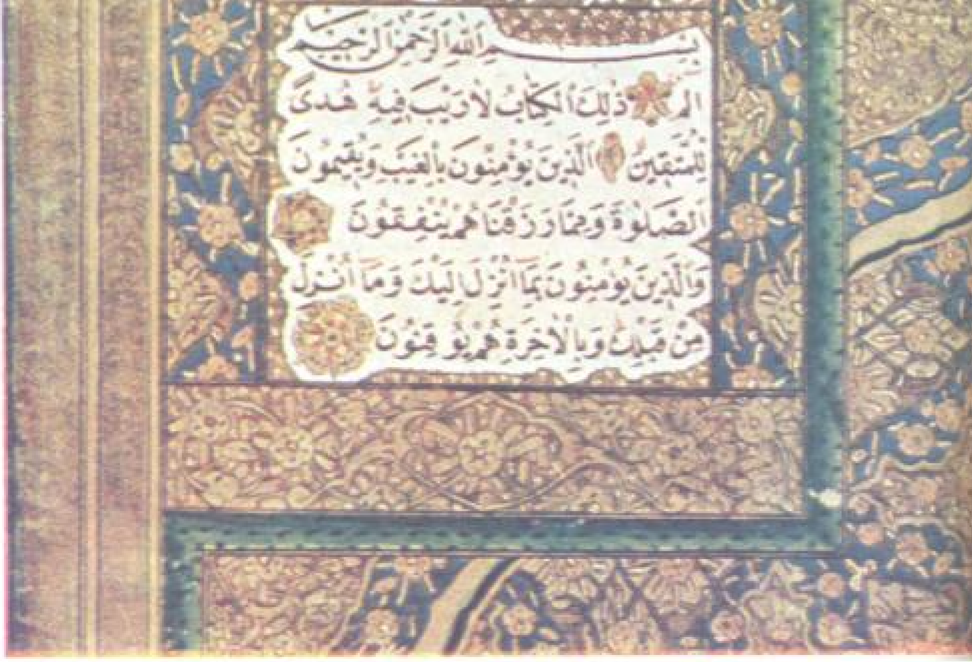
هاتان الزمرتان من الفنانين اعتمدتا في تحديد هوية الفن الحديث على التزام (المواضيع) الشعبية أو القومية . ولكن الفن ليس موضوعا وحسب ، فقد نعبر عن مواضيع محلية بأساليب دخيلة ، ولذلك فان فريقا من الفنانين يبحث عن أسلوب فني أكثر أصالة ، فمضى الى فن المنمنمات الاسلامي ، وهو فن معبر دقيق يمثل قصة ما ذكرت في ديوان شعر كديوان نظامي ، أو في كتاب ملحمي ككتاب الشاهنامه للفردوسي . وفي هذا الرسم الدقيق يختلط التشكيل التصويري المشبه بالتشكيل الزخرفي الهندسي وبالكتابة ، كل ذلك بألوان منسجمة ، لكي يقدم لوحة صغيرة في مخطوط بديع .

ان هذا الاتجاه لم يكن سهلا ، ذلك أن تقليد المنمنمات يتطلب مقدرة عالية في التصوير ، وصبرا هائلا لانجاز لوحة صغيرة في وقت طويل . ومع ذلك فان رواد الفن في الجزائر كانوا من أوائل من سار في هذا الاتجاه الصعب ، ولكنهم طوروه مستعيرين من مبادىء الفن الغربي مايساعدهم على تحقيق صورة أكثر محاكاة للواقع ، خارجين بذلك عن تقاليد المنمنمات التي أراد الفنان فيها ألا يحاكي الواقع ، بل أن ينشىء واقعا جديدا .

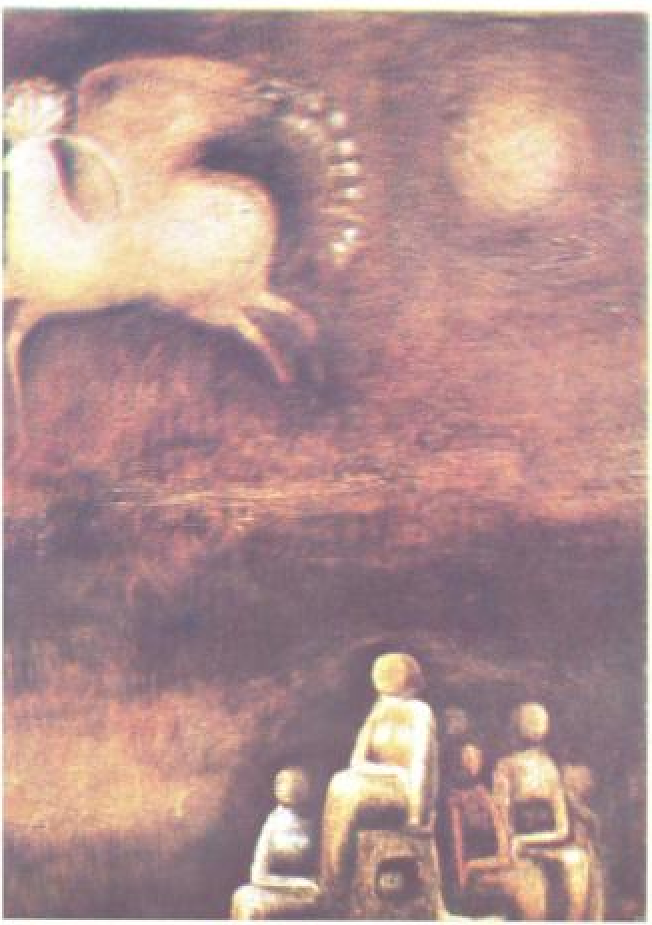
واتجه فريق من الفنانين نحو الرقش العربي الهندسي والنباتي ، يحاولون تقليده مع التأويل والتحديث ، فكان لديهم فن تجريدي متميز عن تيارات الفن التجريدي .

وعدد كبير من الفنانين استفاد من الكتابة العربية ، حرفا وكلمة وقام باضافتها الى لوحته ، أو جعل من الكلمة أو الحرف صيغة فنية في لوحة تجريدية ، أو لعله خلق من الكتابة أشرطة تعبيرية تزداد أهميتها بالكلمات





جزء من رقش عربي في مصحف شريف ،
لنموذج عن الفن العربي التقليدي



نوري الراوي ـ العراق

الشعرية والحكمة التي تحملها . فالكتابة هنا تحمل وظيفتين ، وظيفة فنية ووظيفة بيانية . ان القصد من وراء هذا النوع من الفن الكتابي ، هو انقاذ اللوحة التجريدية في الغرب من المجانية والعدمية ، واضافة الكلمة الى اللوحة لكي تعبر عن معنى ، اذا قصرت عنه الصيغة المجردة . فان الكلمة قادرة على التعبير عنه بجلاء . ولقد سعى الفنانون الى تصوير الكلمة أو الحرف بأشكال لاحد لتنوعها ، فكانت بوقت واحد دلالة بيانية وصيغة فنية في جو تلويني جذاب . ولم ترفد هذه المحاولات فلسفة واضحة فيا عدا بيان جماعة (البعد الواحد) في العراق الذين نادوا بشعار الفن يستلهم الحرف) .

ولكن السؤال الذي يمكن أن نطرحه بعد زيادة الاقبال على هذا النوع من التصوير والنحت ، هل في ذلك تحديد قاطع للهوية الفنية ؟ وهل الرسم بالكلمة في كل بلد من بلاد العالم يعتنق لغة وكتابة متميزة ، هو تحديد للهوية ؟ وهل نقبل بفن وسيلته الاصلية هي الصورة ، أن ينقلب الى فن وسيلته الكلمة ؟

لقد كانت الكلمة صورة يوم كتب الأولون بالكتابة الهيروغليفية ، وكانت الكتابة متممة للصورة يوم أضيفت للايضاح في أعمال المصريين والرافديين والمسلمين ، ولكن أن تصبح الكلمة بديل الصورة ، فانه اتجاه جديد طريف ، ولكنه خطير .

ان تجربة الفنانين الكتابيين مقبولة ضمن حدود المحاولة للبحث عن هوية أصيلة في الفن الحديث . ولكن لايمكن أن تكون مقبولة كمآل لعملية تأصيل الفن . لذلك أصبحنا نرى عددا من الفنانين الذين يشعرون بمسؤولية دورهم القيادي في بناء هوية عربية للفن الحديث يخففون من دور الكتابة لكي يبرزوا الصورة بأسلوب وألوان أكثر استقلالا عن نفوذ تيارات الفن العربي .

بعد قومي وآخر عالمي

والخلاصة أن الدعوة الى تحديد ملامح هوية فنية أصيلة ، تتجه أولا الى حماية الفن من خلال المحاولات العابثة والفاشلة والمقلدة ، ثم هي تتجه الى انشاء فن ابداعي يقوم على خلفية جمالية متميزة ، وذلك لبناء حركة فنية عربية أصيلة ، ولكي تستطيع هذه الحركة الفنية أن تجد لها مكانا في تاريخ الفن الحديث . لقد كان فننا وكانت بيئتنا الأصيلة مصدر الهام في القرن الماضي لفناني أوروبا بدءا من دولاكروا وديشامب ودوزا ومارلاء وحتى ماتيس وبول كلي وبيكاسو نفسه . بل ان كلا من تيارات الفن الكبرى قد أخذ نصيبه من استلهام الثقافة العربية ، عدد من الانطباعيين عاش واستوحى من البلاد العربية وجميع الفنانين التابيين (الأنبياء) مروا ببلادنا وأخذوا منها نصيبا وافرا من الوحي ، والوحشية استعارت من ألوان الشرق والتجريدية أخذت منطلقاتها من الرقش العربي .

لقد شارك فننا التقليدي القائم على جمالية خاصة في تكوين تيارات الغرب التي استوردناها فيا بعد وتبنينا أكثرها . ولكن الفن في الغرب وقد استنفد تجربته فيها واتجه بصورة أقوى نحو العدمية ، أو نحو معاصرة لقرن القلق والاكتشاف القاتل والصعود الى الفضاء والتعبير عن الآلة والحركة مبتعدا عن الصورة مقتربا من الشيء بذاته ، وقد اعترف بعدم جدوى الواقعية في الفن ، كان لابد أن نشارك مرة أخرى ، بتقديم مصادر استيحاء أكثر ارتباطا بمفهوم الفن وتنتسب الى شخصية واضحة ، كشخصية الفن العربي .

وهكذا فان أهمية تحديد الهوية في الفن الحديث . ذات بعدين : بعد قومي يوضح مرحلة من مراحل تطور فن كان قد أغنى الحضارة العربية منذ القديم ، وبعد عالمي عندما تأخذ تيارات الفن العربي الأصيلة مكانتها في اغناء الحركة الفنية العالمية وانقاذها من العدمية والشيئية التي استغرقتها . ■■

د . عفيف البهنسي

مع الصبر

● مع الصبر تستطيع ان تحقق كل شيء .. حتى اغتراف الماء بالمصفاة ، تستطيع ان تحققه اذا صبرت حتى يتجمد الماء .

« حكيم »

تماثل بين شاعرين في رؤية الدنيا

مصطفى التل وفهد العسكر

القاسم المشترك بين الأردن والكويت

بقلم الدكتور فتحي مقبول *

ان من يقرأ بتمعن قصائد مصطفى وهبي التل، المولود في اربد من الاردن عام ١٨٩٧ والمتوفي في عمان عام ١٩٤٩، وقصائد فهد العسكر المتوفي في الكويت عام ١٩٥١ يجد تشابها كبيرا بينهما من حيث المعنى وبراعة التعبير، لا سيما بالنسبة للقصائد السياسية والاجتماعية والغزلية والتغني بالراح نظرا لما مثلته من صورة حية لافكارهما وسجل صادق لحياتهما الخاصة وحياة مجتمعيهما.

لقد عاشا حياة صاخبة، غريبة متناقضة، حافلة بالالام، مليئة بالمفاجآت والمتناقضات، غارقة في الكأس والبأس معا. زد على ذلك ما لقياه من نقد لاذع وما تعرضا اليه من غمز ولغو بسبب تمردهما على مجتمعيهما المحافظين المتمسكين بعاداتها وتقاليدها حتى رماهما الناس بالكفر والالحاد، وأكثروا من لومهما، وقد

خاطب مصطفى وهبي التل لائميه في قصيدته «بقايا ألحان وأشجان» قائلا:

ماذا على الناس من لهوي ومن عبثي
ماذا على الناس من جهلي وعرفاني
ماذا على الناس من صفوي ومن كدري
ماذا على الناس ان دهري تحداني

* مدير المركز الثقافي بروما ـ ومدرس اللغة العربية في جامعة نابولي

ماذا على الناس من حبس مكحلة
بين الخرابيش أهواها وتهواني(●)

وفي قصيدة «مناجاة العيد» اي عيد المولد النبوي الشريف يتطرق فهد العسكر الى الهوة الكبيرة بين الغني والفقير، وينتقد بشدة تهالك الاغنياء على الذهب والتفاخر بالغنى، بينما الفقراء يعيشون غارقين في فقرهم دون معين او مجير فيقول:

أما الفقير فلا تسل عن حاله
حال تثير الهم والأحزانا
مسكين لايشكو ويندب حظه
وتصم دون شكاته الاذانا
اما الغني فقلبه ويمينه
لا يعرفان العطف والاحسانا
يختال في حلل الهنا بينا ترى
الف التعاسة ذاك والحرمانا
او ما ترانا بالمبادىء والضمائر
كيف نفدي الاصفر الرنانا
والكل منا بالموائد والملابس
والاثاث يفاخر الاقرانا....

وكذلك مصطفى وهبي التل الذي اختار اسم «عرار» لتوقيع قصائده. فقد هاجم الاثرياء المتزين الذين اثروا على حساب الطبقة الكادحة وعامة الشعب كما صب نقمته على المرابين الجشعين الذين كانوا يتصون دماء الفلاحين في كل سنة دون رحمة. ففي قصيدته «اخواني الصعاليك» التي نظمها في شهر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٣٣ حين كان مأمورا للاجراء في اربد يقول ساخطا على اولئك المرابين:

قولوا لعبود عنّي القول يغنيني
ان المرابين اخوان الشياطين[١]
وانهم لا اعز الله طغمتهم
قد أطلعوا - رغم تنديدي بهم - ديني
فذا يقول غريمي كيف تمهله
وذاك يصرخ لم تجبه مديوني

كأنما الناس عبدان لدرهمهم
وتحت إمرتهم نص القوانين
يا رهط «شيلوخ»[٢] من يأخذ بناصركم
يجني على الحق والاخلاق والدين
ومن يسهل امرا فيه مصلحة
لكم فملعون حقا وابن ملعون
فليس ظلمكم ظلم القريح ولا
كفتككم بالوري فتك الطواعين
أأسجن الناس إرضاء لخاطركم
وخشية العزل من ذا المنصب الدون
هذي الوظيفة ان كانت وحاتيها
وقفا عليكم فعتها الله يغنيني..

ولكن برغم كل هذا فقد كان حظ الشاعرين من المجتمع سيئا، مما زاد من ألمهما وحزنهما وخيبة املهما، كما سنشاهد من تذمر الشاعرين لهجران اصدقائهما لهما وابتعاد الناس عنهما. وفي هذا المجال يقول مصطفى وهبي التل (عرار) في قصيدته المعنونة «يامي»، التي نظمها في شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٣ مخاطبا فتاة اسمها مي شاكيا لها سوء حظه وخذلان اصدقائه له:

يا مي ما ذنبي اذا دهري عتا
وسواد حظي لج في طغيانه
فالمرء يدرك ما يشاء من المنى
بالسعي والتأييد من اخوانه
وأنا الذي جحد الأحبة فضله
وأعان أصدقهم على خذلانه..

وفي هذا المجال شكا فهد العسكر كذلك ظلم الناس له وتعديهم عليه كما اظهر ما يعانيه من عزلة ووحدة وضيق ويأس ويمكن معرفة ذلك من الابيات التالية من قصيدته التي نظمها عام ١٩٤٦ بعنوان «شهيق وزفير» المتعددة المواضيع كغيرها من معظم قصائده:

وطني وما سامت بغير
بنيك - يا وطني - ظنوني

● الخرابيش هي خيام الشعر والقماش المصنوعة من الخيش.

١ - عبود هو الشيخ عبود النجار كان احد رجال الدين في الاردن جاء من الحجاز الى الاردن عام ١٩٢١ مع الامير عبد الله بن الحسين (الملك عبد الله فيما بعد) وعمل في القصر ثم قاضيا شرعيا في الاردن.

٢ - شيلوخ (شيلوك) هو من شخصيات شكسبير المسرحية، تاجر يهودي كان يتعاطى الاقراض بالربا في مدينة البندقية وقد جعل منه شكسبير مثالا في الشح والقسوة.

انــا لم اجــد فيهــم خدينا
أو مــن لي بالخدين
واضيعــة الامــل الشريد
وخيبــة القلــب الحنون
رقصــوا على نوحــي واعــ
ــوالي واطربهــم انيني
وتحــاملــوا ظلمــــا وعــد
وانــا علــي وارهقونــي
فعــرفتهــم ونبــذتهم
لكنهــم لـــم يعرفونــي
وهنــاك منهــم معشر
اف لهــم كم ضايقونــي ....

وهكذا لجأ الشاعران الى الحان والالحان ، ليداويا بها قلبيها الحاصين وليخففا من أحزانها وآلامها وما يدور بنفسيها الثائرتين على الأوضاع ، وخاصة بعد ان خابت أمالها باصدقائها والمقربين اليها وبعد أن عجزا عن إقناع الناس في تفهمها . ونظرا لضيق هذا البحث الذي لايسمح للتعرض وللمقارنة بين نماذج من قصائد الشاعرين في كافة المجالات فانني سأكتفي بالتعرض لبعض الاشعار التي اخترتها في حقلي الغزل والخمريات بسبب تعدد قصائدهما في هذين الحقلين وما تعكسه من صورة حية لحياة الشاعرين وسجل صادق لمواطفها ونفسيها الثائرتين .

الشاعران وباطية الشراب

لقد كانت حياة الشاعرين ، دون شك ، غريبة شاذة ، مليئة بالمفاجآت والمتناقضات ، غارقة في اليأس والكأس والهوى فكانت هذه الحياة هي الموضوع الأساسي الذي دارت حوله معظم أشعارهما ، كما يقول مصطفى وهبي التل في قصيدته « عشيات وادي اليابس »[3] المتعددة المواضيع ، كغيرها من أشعاره ، والتي نشرتها جريدة الاردن في عددها الصادر يوم ١٩٣٣/٧/١٥ فان الشاعر يحاول ان يبرر تعلقه بالخمر ناسبا ذلك للحالة اليائسة التي يعيشها حيث يقول في ختام قصيدته :

هات اسقني ـ قعوار ـ ليس يهمني
قـول الوشـاة عرار سكرانان[4]
فالـكأس لولا اليأس ما هشـت له
كبـد ولا حدبـت عليه يدان
والخمـر لولا الشعـر ما انسـت به
شفـة الاديب وريشـة الفنان

وفي قصيدته « يا جيرة البان » التي نشرتها جريدة الاردن عام ١٩٣٤ يؤكد سبب تعلقه بالشرب في سبيل ان ينسى آلامه وما يعانيه من حرمان وعزلة ، حيث يقول :

اصبحـت امـا وبأسـا فادن خابيتي
أسبـح الـكأس او أستغفـر الحانا
وقـل لعيـود ان انحـى بلائمة
لا تبـذل الوعـظ يا استـاذ مجانا

لقد حاول « عرار » اكثر من مرة ان يتوب عن شرب الخمر الا انه سرعان ما كان يعود لمعاقرتها من جديد كما يظهر من بعض ابيات القصيدتين المتناقضتين التاليتين « توبة » و « توبة عن التوبة » اللتين نظمهما في شهر آذار (مارس) عام ١٩٣١ . ففي الاولى يؤكد لرئيس الوزراء الاردني آنذاك الشيخ عبد الله سراج بانه تاب عن شرب الخمر وارسل لحيته وعكف على قراءة القرآن حيث يقول :

أمولانـا أمولانـا
هجرنـا الـدن والحانا
وبدلنـا من المنظوم
والمنثـور قرآنـا
فمـن هود الى طه
نرتلهـا وريحانا
لنسبـح به يرمت
مخـارج قول سبحانا
ومـن ورد فتحـت له
بسـوق الـذكر دكانا
وقـد للـكأس تهفـو نفس
مـن يسلـوه احيانا
وذو الشـوق القـديم اذا
تـذكر عاد ولهانا
ألا من يشـري بالحان
والالحـان تقوانا

---

٣ ـ وادي اليابس يقع الى الشمال من مدينة عجلون في شمال الاردن وهو غزير المياه وكانت تقيم فيه بعض عشائر الغور ومن هذه القصيدة اخذ اسم ديوانه « عشيات وادي اليابس »

٤ ـ قعوار كان تاجر خمور في عمان وكان صديقا للشاعر ، اما عرار فهو الاسم المستعار الذي اختاره الشاعر لتوقيع قصائده .

بـعـمـر صـلاة أسبوع
يـعـش الـكأس ملآنا ..

وكذلك اشعار فهد العسكر في التغني بالصهباء او ابنة النخيل ، كما كان يحلو للشاعر ان يسمي الخمر ، جاءت لتعكس من خلالها حياة الشاعر وآلامه ويأسه وحرمانه .

وفي قصيدته « يا ضفاف الخليج » التي نظمها عام ١٩٤١ يأمل الشاعر من خلال شربه للراح ان تزول الامه وتخف احزانه حيث يقول :

هات يا ساق هات بنت النخيل
فعساها تشفي عساها غليلي
هات كأسي فيم التردد واشرب
فهي حسبي في محنتي ووكيلي
هاتها علني اذوب ارتياحي
فيها ودع هراء العذول
واترك العود واسقنيها على نوح
فـؤادي خدن الضنى وعويلي
جاه تحريمها وليس علينا
بل على كل سافل وجهول ..

وهكذا يمكن للقارىء ان يلاحظ اوجه الشبه في هذا المشهار بين الشاعرين .

الغزل في اشعارهما

نظم الشاعر عشرات القصائد الغزلية المتشابهة من حيث العاطفة وصدق الاحساس وبراعة التعبير كما يلاحظ من الامثلة المختارة في هذا البحث القصير .

ـ لقد تغزل مصطفى وهبي التل (عرار) في الفتيات العربيات والشركسيات على السواء كما تغزل في جميلات النور ، وتغنى بفتيات وادي السير [٥] كما تغزل بجميلات عمان وشقراوات الشركس . مع انه ـ كما يبدو ـ ليس كل من تغزل بهن كن يبادلنه نفس الشعور والعواطف .

ففي قصيدته « مالي وبرفين » التي نظمها عام ١٩٣٣ فان الشاعر يتغزل بفتاة شركسية رائعة الجمال اسمها « برفين » تكرر اسمها في قصائد اخرى له ، الا انها ـ كما يظهر ـ لم تكن تأبه بهذا الحب ، فلم تكن تعرف عنه شيئا . وهذه بعض الابيات من قصيدته السائرة الذكر التي نظمها بعد عودته من منفاه في مدينة العقبة :

مالي وبرفين يا عشاق « برفينا »
« اضحى التنائي بديلا من تدانينا »
وبدل الشيب احلام الصبا ورعا
« وناب عن طيب لقيانا تجافينا »
اني ـ كما قلت ـ من رقت صبابته
ومن تقاعد لادنيا ولا دينا
فلا اوانس وادي السير تذكرني
ولا الكواعب في ارباض عجلونا
« ما كل ما يتمنى المرء يدركه »
فارفق بقلبي ، فقد اصبحت مسكينا
وحيي عني ـ زكاة منك تدفعها
عن الشباب ـ فتاة الظهر برفينا
واشد على مسمع منها مقالتنا
« انا محبوك يا برفين حينا »..

وفي قصيدته « من ليالي الشوبك » التي نظمها في شهر آذار (مارس) ١٩٣٠ فان الشاعر يذكر حبه وغرامه مع فتاة اسمها « هند » حيث يقول :

يقول عبود ان الحشر يجمعنا
يا هند مالي وما يرويه عبود
مازال وصلك مارقت ذوائبه
على فؤادي وظل الحب ممدود ..

ان الشاعر لم يكتف بالتغزل بالفتيات العربيات والشركسيات ولكنه تردد بكثرة على مضارب النور وعاشرهم وعاش معهم وشرب وطرب لالحانهم وتغنى بفتياتهم ورقصاتهم .

ان صداقة الشاعر للنور كانت مشهورة ، لذا فقد تعرض للنقد واللغو ، ولطالما عاب عليه الناس تردده على مضاربهم والتغني بفتياتهم ومدح اخلاقهم ، ولكنه لم يأبه بذلك بل بقي وفيا في مصادقته لهم والمدافعة عنهم ، ويقول في قصيدته « بقايا ألحان وأشجان » بهذا الصدد :

قالوا : ذوو الشأن في عمان تغضبهم
صراحتي ولذا افتوا بحرماني
قالوا ذوو الشأن في عمان قد برموا
بمسلكي واصطفائي رهط بحان
واستنكروا شر الاستنكار هرولتي
الى الخرابيش مع صحبي وندماني

---

٥ ـ وادي السير هي قرية تقع غربي عمان

ما كان اصدق هذا القول لو عرفت
عمان مذ خلقت انسان ذا شان ..

وفي قصيدته المعنونة « بين الخرابيش » التي نظمها في شهر حزيران (يونيه) ١٩٣٩ فان الشاعر يتحدى خصومه وناقديه كما لا يفوته ان يغمز من قناة كبار المسؤولين ويتهكم بتعاليمهم :

بين الخرابيش لا عسري يضيع سدى
ولا يضيق الهوى ذرعا بأطواري
ولا يرى « الهبر » باسا في منادمتي
وشرب كأس من الكنياك فعواري[٦]
بين الخرابيش لا عبد ولا امة
ولا ارقاء في ازياء احرار
ولا جناة ولا ارض يضرجها
دم زكي ولا اخذ بالثار
ولا قضاة ولا احكام اسلمها
بردا على العدل أتون من النار
بين الخرابيش لا حرص ولا طمع
ولا احتراب على فلس ودينار
الكل في مساواة محققة
تنفي الفوارق بين الجار والجار ..

فهد العسكر

لقد كتب فهد العسكر كزميله مصطفى وهبي التل عشرات القصائد الغزلية الملتهبة التي تبين مدى الحزن الراسخ في نفسه ، اذ قلما نجد له قصيدة لا تظهر من خلالها الحالة النفسية المضطربة والاحزان المتراكمة التي كانت تحز في قلبه كما هو الحال بالنسبة لزميله التل لقد ذكر اسماء متعددة للنساء اللواتي تغزل بهن ومن المحتمل ان تكون تلك الاسماء اسماء مصطنعة او مستعارة . ففي قصيدته « في الاحدي » مزج الشاعر بابداع الغزل مع التغني بالراح باسلوب رائع حيث يقول :

بابي وامي من مددت لها يدي
بعد العشاء مصافحا في الاحمدي
غيداء عرج بي عليها أغيد
في دارها أنعم بذاك الاغيد
ليت داعيها وصافح قلبها
قبل اللقا قلبي وقبل تفيدي

ذقت الهوى وكأنني ما ذقته
حتى دخلت ولامست يدها يدي ..
قالت وقد سحت دموعي لا تنح
ومعي اعتبق يا عندليب وغرد
قد قيل لي بالامس انك شاعر
فاشرب على نخبي ، فلم أتردد
ما كان أرخم صوتها وأرقه
حين انتشت وشدت وقالت انشد

وفي قصيدته التي عنوانها « النقبا سرا لكيلا » فان الشاعر يمزج الغزل بالراح بأسلوب رائع يعبر عن مقدرة الشاعر الفنية ومواهبه الابداعية :

اترعي الاقداح يا حوا
فان الليل عسعس
وينم الورد ان شاء
اذا الصبح تنفس
وأديري الكأس بالله
فيا اعطش قلبي
فابنة العنقود تحيي
كل ميت ، إي وربي
عانقيني صدق الله
« فبعد العسر يسرا »
سكرت روحي فهل
روحك يا حواء سكرى

وهكذا فان القارىء لأشعار شاعر الاردن الكبير مصطفى وهبي التل وشاعر الكويت الموهوب فهد العسكر لابد وأن يتوصل الى الانطباعين التاليين .

١ ـ لقد كانا ، دون ريب ، شاعرين موهوبين ، ولأشعارهما ميزة خاصة تسوق القارىء الى العيش معها والشعور بألامها لما فيها من صراحة ودقة في التعبير .

٢ ـ كانت أشعارهما مليئة بالانسانية ومعبرة عن ثورة نفسية ضد الاوضاع الاجتماعية والسياسية في بلديهما آنذاك كما تعبر عما كان يحز بنفسيهما من ضيق وآلام واحزان نتيجة للعزلة ومضايقة المجتمع لهما ، ولقد عبرا بذلك حتى في قصائدهما الغزلية المتعددة ، مما جعلهما يلوذان بالصهباء ويكثران من التغني بها . ■■

روما ـ د . فتحي مقبول

---

٦ ـ الهبر هو نوري واسمه الحقيقي محمد الفحل وقد اطلق عليه الشاعر لقب الهبر لضخامة جسمه وبشاعة خلقته وكثيرا ما تردد اسمه في قصائده .

ليس بالحب وحده!

بقلم : منير نصيف

شيء ما تغير .. لم يعد كما كان ! ما الذي حدث ، هي لاتدرى ! ولكن الذي تشعر به ـ وشعور الزوجة لايخطىء ـ ان حياتها مع زوجها قد انتابها بعض الفتور . لم تعد مثلا تتطلع الى ساعة الحائط عندما يقترب موعد عودته الى البيت ! النافذة المطلة على الشارع والتي كانت تفتحها وتقف وراءها ترقب وجوه القادمين باحثة بينها عن الوجه الذي عرفته واحبته طوال السنوات الست التي انقضت على زواجها ، بقيت مغلقة منذ اكثر من ثلاثة او أربعة اسابيع عندما جاءوا لاصلاح زجاجها المكسور !

حتى عندما تسمع صوت مفتاح الباب يدور ، لم تعد تسرع للقائه كما تعودت ان تفعل .. انه يدخل بيته الان في هدوء ويذهب رأسا الى غرفة طفليه الصغيرين ويقضي معهما بضع دقائق ثم يقصد الى غرفته ينتظر سماع صوت زوجته وهى تدعوه لتناول طعام الغداء !

وحتى الطعام نفسه اصبح له مذاق آخر .. الاطباق الشهية التي يحبها لم تعد تتوسط المائدة ، او ربما كانت هناك ، ولكنها لم تعد هى ، الحديث عن العمل ومشاكله وعن البيت ومتاعبه ، وقد كان دائما حديثا حلوا ممتعا لم يعد يثير فضولهما .. صمت غريب اصبح يلف الدقائق القصيرة التي يمضيها الزوجان في تناول الغداء بسرعة .. وبعدها ينتهى اللقاء القصير ويتفرغ كل منهما لاهتماماته .. هى مع طفليها ، وهو مع كتبه وصحيفته وربما شاركته جلسته امام التلفزيون عندما ينام الاطفال ، ولكن في هدوء وصمت مرة اخرى .. غريبان تحت سقف واحد بين جدران اربعة وراء باب مغلق .. ماذا حدث لهذين الزوجين ؟ !

لماذا يتزوجون !

يقول ولیام لیدرار في كتابه « اوهام الزواج » وهو يحدثنا عن هذين الزوجين وعما حدث لهما ، ولكنه قبل هذا الحديث ينقل لنا رأيا ربما يكون جديدا عن الزواج نفسه يقول :

« بعض الناس يتزوجون عن حب ، او لانهم يعتقدون ان الحب هو الذي دفعهما الى هذا الاختيار ، ان يرتبطا بالزواج ، والواقع ان هذا الذي اسموه « حبا » هو شيء آخر لا يمت الى الحب بصلة ! الذى يدفع الرجل او المرأة الى الزواج عند هذا البعض هو الخوف من ان يعيش بلا حب ، هو الرغبة في الانصات الى « الموسيقى » التي تعزفها عبارات الاطراء والاستحسان القادمة من الطرف الاخر .. هو الهروب من حياة الوحدة .. والحب اكبر واعظم من كل هذه الاسباب التي تدفع بهذا البعض الى الزواج !

لماذا يتزوج غالبية الشباب ؟ لان هذه هى طبيعة الاشياء . هذه هى الحياة من اجل استمرار الحياة . لان المجتمعات تتوقع من الشباب في سن معين وفي ظروف معينة ان يتزوجوا .. ويلعب الآباء دورا هاما في الضغط على ابنائهم في هذه السن لكى يتزوجوا انهم يشعرون



بقدر كبير من الخزي والعار اذا وجدوا ان ابناءهم لم يتزوجوا في نفس السن التي تزوج عندها ابناء اصدقائهم واقاربهم !

ووسط هذه الغالبية نجد اسبابا ودوافع اخرى كثيرة للزواج .. فالبعض يتزوج من أجل تأمين مستقبله .. فتاة فقيرة تتزوج شابا ثريا .. او العكس .. ثم هناك من يتزوجون ، لانهم يتطلعون الى حياة افضل .. انهم يبحثون عن « شركاء » تتوافر فيهم صفات يفتقرون اليها متصورين ان هذه الصفات لن تلبث ان تنتقل اليهم في هذه « الشركة » الجديدة !

ثم يقول ليدرار : « يبقى هؤلاء الذين يتزوجون هربا من الوحدة .. وما اسرع مايكتشفون ان اشد انواع هذه الوحدة عذابا هي تلك التي يعيشها المرء ، رجلا كان ام امرأة ، مع شخص آخر !

علاقة غير صحية !

ونعود الى السؤال الذي وصلنا اليه وتوقفنا عنده بعد سرد قصة الزوجين الشابين اللذين وجدا نفسيهما فجأة يعيشان حياة يلفها الصمت .. ويحاول وليام ليدرار الذي قضى جانبا كبيرا من حياته يغوص في اعماق البشر وطباعهم ، ان يفسر لنا في كتابه اسباب هذه الظاهرة التي يشكو منها عدد كبير من الازواج .. يقول : « هل هو الملل ؟ هل هي رتابة الحياة ؟ هل هو هذا « الاكتشاف الجديد » الذي توصل اليه الزوج او الزوجة او الاثنان معا بخيبة الامل في هذا الزواج ؟ »

« انها كل هذا .. ولكن ليست هذه اسباب وانما هي نتائج لعلاقة غير صحية ولدت ونمت بين الزوجين .. فعندما يعيش رجل وامرأة تحت سقف واحد في ظل الزواج ، لابد وان تنشأ بينهما الخلافات والمنازعات .. كيف يواجهان خلافاتهما .. وماذا يصنعان بها ؟

هناك المرأة التي تخزن عواطفها ، وتكظم غيظها تماما كما تفعل مع الأتربة التي تغطي ارض الغرفة ، فهي بدلا من ان تجمعها وتلقي بها في صندوق القمامة ، تكتفي بازاحتها مؤقتا تحت السجادة التي تتوسط غرفتها .. وتظل اسباب التوتر تتراكم وتتراكم .. ويمتلىء جو البيت برائحة التراب المكتوم .. انها رائحة الغضب التي تسمم حياتها مع زوجها !

الهروب من العاصفة !

« والزوج ايضا .. انه يهرب امام اقل عاصفة ، فهو يفضل الا يدخل في اية مناقشة حول اى موضوع اختلف عليه مع زوجته .. فتراه يمضي نهاره خارج البيت حتى اذا اقبل الليل ، تسلل عائدا الى بيته في هدوء ليضع راسه المتعب المثقل بالهموم على فراشه وينام !

ثم يروى ليدرار قصة الزوجة التي جاءته يوما تشكو الوحدة التي تعيشها : « زوجي ياسيدي رجل طيب كريم .. انه يحبني ويحب بيته واطفاله ، ولكنه رجل غريب الاطوار .. انه لايرفض لى طلبا .. لا يعترض على شيء ولا يثور ولا يغضب حتى عندما تكون هناك اسباب تستوجب هذا الغضب . انني اتعمد غيظه لاخرجه عن بروده وصمته في بعض الاحيان ،

وبالرغم من هذا فانه لايتحرك . انه يبتسم في هدوء وكأنه يريد ان يقول لي انه يدرك ما أهدف اليه ثم يمضي الى حال سبيله ! لقد حرت في أمره ياسيدي . اريد ان اسمع منه كلمة « لا » ولومرة واحدة . اريد منه ان يمسح هذه الابتسامة التي تعلو وجهه دائما . لماذا لايغضب مني ، لماذا لاينهرني ؟ انني اغبط جارتي ، بالامس سمعت ضجيجا وصخبا .. ثم جاءت في المساء تزورني ، وكانت تبكي .. لقد تشاجرت مع زوجها ، وفي ثورة غضبه تذكر الآنية الفخارية الجميلة التي تحبها وتعتز بها فما كان منه الا ان امسك بها وحطمها ! وفي صباح اليوم التالي ، كان الزوجان يجلسان في حديقة البيت يحتسيان اقداح الشاي ويداعبان اطفالهما وهم يستعدون للذهاب الى المدرسة !

ظاهرة خطيرة !

ويقول ليدرار : « موقف هذا الزوج وتصرفه مع زوجته هو اخطر مايمكن ان يحدث للرجل والمرأة في الزواج ، فهو « يختزن » انفعالاته ويسيطر على مشاعره ، وربما كانت اقسى العبارات اخف اثرا بكثير من هذا الصمت الذي يحتويه !

« ان علماء النفس يؤكدون ان المناقشات الهادئة أو حتى غير الهادئة ، بشرط ان تجيء في الوقت المناسب وحول نقطة الخلاف بذاتها دون تشعب ، مع قدر كبير من الصراحة والموضوعية ، هي الاكسير الذي يطيل عمر الزواج .. انها تصنع بالزوجين ما يصنعه الشهيق بالرئتين عندما تطردان الهواء الذي فسد وتملئان بالهواء النقي !

« يرى البعض ، وهم مخطئون في هذا الرأى ، ان الخلافات بين الزوجين تعني ان الزواج يوشك ان يصطدم بالصخور ، وان السفينة مثقلة بالأحمال غارقة لامحالة !

« والصواب ان الزوجين لابد ان يختلفا ، فالاتفاق بينهما على كل شيء وفي كل مناسبه ، يعني ان شيئا ما لايسير في الاتجاه السليم ، فالناس مختلفون ، هكذا خلقهم الله ، ولايمكن لهذا الرباط وحده ـ الزواج ـ ان يذيب هذه الاختلافات .. الامزجة مختلفة .. الاهتمامات مختلفه .. المواقف مختلفة .. الاذواق مختلفه .. ولابد من حدوث تصادم بين الرجل وامرأته .. ولابد من حدوث تنازلات من الجانبين حتى يمكن ان يلتقيا في منتصف الطريق .. ولو ان هناك خلافات لايمكن ان تجدى معها الحلول الوسط . فاذا اصر الزوج مثلا على الذهاب الى حفل يعرف هو تماما ان زوجته لاتريد الذهاب اليه ولا تطيق البقاء فيه لحظة واحده فقد يرى أن ليس أمامه الا ان يذهب وحده ، وفي هذه الحالة يكون قد أساء اليها ، لانه جعلها تشعر ، ربما عن غير قصد ، ان وجودها معه لايهمه كثيرا . اما اذا اعتذر هو الآخر عن حضور الحفل من اجلها ، فقد اعطاها كل ماتنشده المرأة من الرجل الذي تريد ان ترى فيه دائما ابا واخا وزوجا يحرص على مشاعرها ويصون كرامتها فقد اعطاها حبه !

الاطفال عبء جديد !

ويمضي ليام لدرار يحدثنا عن الاطفال في الزواج يقول : « كثيرون يتصورون ان مجيء الاطفال يسهم بصورة فعالة في انقاذ الزواج المضطرب . وهذا خطأ شائع بين الناس الذين يرون في وصول الطفل اصلاح كل شيء . ويصل الطفل في النهاية ، وتكون النتيجة اضطرابا اكثر . فالاطفال في حاجة الى رعاية والى نفقات والى تفرغ من جانب الأم التي قد لاتكون متفرغة حتى وقت مجيء طفلها ، فتجد نفسها مضطرة الى ترك وظيفتها لكى تعنى بطفلها وترعاه . وقد يعني هذا في النهاية مزيدا من الاعباء على الأسرة الصغيرة التي لم تكن بعد مستعدة لاستقبال الضيف الصغير . وقد يؤدى هذا الوضع الجديد الى مزيد من الخلاف بين الزوج وزوجته ، والى مزيد من اضطراب في حياتهما . وقد يكتشفان ، ولكن بعد فوات الاوان ، ان تسوية خلافاتهما قبل وصول الاطفال ، كانت اسهل بكثير منها بعد وصولها !

الشعور بالملل !

ومن بين الاسباب التي تؤدى الى اضطراب الحياة بين الزوجين ، اعتياد الزوجة على زوجها بصورة تامة ، بحيث يشعر في النهاية انها اصبحت تشكل عبئا جديدا فوق الاعباء التي يحملها ، وخاصة اذا كانت لاتعمل . وينصح مؤلف الكتاب كل زوجه بان تبحث لنفسها عن اهتمامات خاصة بها وحدها . طبعا اذا استطاعت ان تجعل زوجها يشاركها هذه الاهتمامات فقد نجحت في ان تخرجه من عزلته في البيت بعد انتهاء يوم العمل ، ونجحت في ان تزيل اسباب الشكوى التي تتردد على شفاه بعض الازواج : « انني اخاف العودة الى البيت ! »لماذا ؟ « انني اقوم بعمل طول النهار ، وهو عمل شاق يتطلب جهدا ، ذهنيا كبيرا ، وعندما اعود الى البيت متعبا منهوكا ، اجد زوجتي في انتظاري وقد احتواها الشعور بالملل . وهي تريد مني بعد ذلك ان ازيل عنها هذا

الشعور .. ان اجعلها تحس بانها مازالت تتمتع معي بكل دقيقة من وقتها ! »

هى أيضا تتعب في البيت ، وربما ايضا في عملها ، اذا كانت اما عاملة ولكن الزوج ايضا في حاجة اليها .. الى المرأة التي تزوجها وكانت تمتلىء بالحياة والحيوية !

اخذ .. وعطاء !

العلاقة بين الرجل وامرأته لايمكن ان تكون من جانب واحد .. هو يعطي وهي تاخذ ..العطاء لابد ان يأتي من الجانبين .. وربما تكون الزوجة مطالبة بعطاء اكثر . واذا كانت سنوات الزواج قد اغلقت دائرة اهتمامات الزوجين بحيث اصبحت لاتتعدى مشاكل الاطفال ، فواجب الزوجة ان تبحث ولاتمل البحث عن اشياء جديدة تعيد الشباب الى حياتها ، وخاصة بعد ان يكبر الاطفال ويخرجون الى هذا العالم الجديد الذى يلتقون به لاول مرة في الكتب وفي المدرسة !

وفي اللقاءات المتجددة بالناس من خلال ، اعمال الخير وفي النوادى الرياضية والاجتماعية يستطيع الزوجان ان يكتشفا جوانب اخرى من شخصيتها .. جوانب ربما كانت خافية عليها طوال هذه السنين ..

المهم بعد هذا كله ان تصبح الزوجة اقل اعتمادا على زوجها ، بحيث يستطيع ان يتطلع في نهاية يوم عمله الطويل المرهق الى صحبة طيبة مع زوجته واطفاله بعيدا عن اي شعور قد ينتابها بالضجر او الملل او السخط على الحياة ورتابتها !

زوجان سعيدان !

يقولون ان الحب بين الزوجين عامل اساسي لاستمرار الحياة الزوجية السعيدة . ولكن ماالحب ؟ انه تضحية وصداقة وتفاهم واحترام متبادل . هذه هي الترجمة الصحيحة للحب بين الزوجين .. ولكن هذا لايعني انه في ظل هذا « الحب » يجب ان تذوب كل الخلافات بين الزوجين ، فلامعارك ولاشجار ولاغضب ! فلا يمكن ان تكون هناك حياة زوجية سعيدة بدون هذا كله .. فهذه المعارك بين الزوجين هي ملح الحياة ! المهم ان تشعر الزوجة انها تفضل صحبة زوجها على اى صحبة اخرى . وان يجد الزوج دائما شيئا جديدا يقوله لزوجته ويحدثها فيه عندما تكون وحدها معه .. اذا شعرت الزوجة انها تعيش في وحدة كلما ابتعد عنها زوجها .. واذا احس الزوج ان العالم قد خلا من الناس عندما تبتعد عنه زوجته فهما زوجان سعيدان رغم انف كل مايحدث بينهما من معارك وخلافات ! ■■

منير نصيف .

مصيدة المرأة

● كل المصائد تصيد وهي مفتوحة .. الا مصيدة واحدة لا تصيد الا وهي مغلقة !

تلك هي مصيدة المرأة : فكلما ظلت مغلقة جذبت اليها كل الرجال .

المرأة لا تهرم

● سأل برنارد شو حماته ذات مرة ، وكانت تبلغ حينئذ ثمانين عاما : في اي سن تفقد المرأة حبها للرجل ؟

فعركته في اذنه وقالت : « يا ابني جورج ، وجه هذا السؤال الى سيدة اكبر مني سنا ! »

النقود العربية

غزت أوروبا القرون الوسطى

بقلم الدكتور امين توفيق الطيبي



ان قيام الدولة العربية المترامية الأطراف في رقعة شاسعة امتدت من الصحراء الكبرى وأقاليم السودان جنوبا الى تخوم روسيا وأوروبا الجنوبية شمالا ، ومن اواسط آسيا شرقا الى البحر المحيط غربا ، هذا الانتشار الكبير ، كان حافزا قويا على النشاط التجاري وتبادل السلع بين شعوب هذه المناطق . كما كان لازدياد الطلب في المدن الاسلامية على المواد الأولية اثر حافز لاقتصاد اوروبا مما ادى الى تنشيط التجارة وتداول العملات ونشوء المدن .

ان الكشوف الوفيرة من النقود العربية التي تم العثور عليها في اماكن نائية ، وبخاصة في اسكندناوة ومنطقة بحر البلطيق وأودية الأنهار في روسيا دليل ملموس على قيام تجارة واسعة بين العالم الاسلامي وهذه المناطق النائية . والنقود كالآثار تساعد المؤرخ على ضبط الأسماء والتواريخ وتعطي فكرة عن الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ولذلك فان هذه النقود العربية تعتبر مصدرا مهما لمؤرخي تلك الأقطار في أيامها الأولى .

لقد كان للدينار العربي اثر كبير على اقتصاد اوروبا ، ولعب دورا رئيسيا في المبادلات التجارية الدولية وقلده الأوروبيون في عملاتهم كالفلورين والدوقة الايطاليين ، كما قلده الصليبيون في المشرق الدنانير الفاطمية . وانتشرت النقود العربية خارج نطاق العالم الاسلامي ، فأصبحت منافسة قوية للعملة المسيحية في جنوب روسيا وغرب اوروبا .

كان الغرب يفتقر الى الذهب بينما توفرت مصادره في الدولة العربية ، وخاصة ذهب السودان الغربي الذي كان عاملا مهما في الرخاء والازدهار اللذين نعمت بهما الدول التي تعاقبت في شمال افريقيا في سجلماسة وفاس وتيهرت والقيروان ومراكش وتلمسان . وقد احتكر الفاطميون في القرن العاشر الميلادي ذهب السودان بعد سيطرتهم على بلاد المغرب ، وجمعوا ثروات طائلة ساعدتهم على فتح مصر . وفي عهدهم انتشر استعمال ربع الدينار المعروف بالرباعي في صقلية ، وانتقل منها الى مدن جنوب افريقيا حيث عرف باسم tari d'oro ، وظل الرباعي متداولا في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا حتى بعد انتهاء سيادة العرب على الجزيرة . كما كانت الدنانير المرابطية والموحدية هي العملة المتداولة في ممالك اسبانيا المسيحية ، حتى بعد تقلص نفوذ المسلمين وأراضيهم في الأندلس .

وفي شمال شبه جزيرة ايبرية ، ظهرت عملة تعرف

باسم mancus (لعله من العربية منقوش) وهي تسمية شاعت في بعض الممالك المسيحية في اسبانيا للدينار العربي ، الذي اخذت هذه الممالك في محاكاته في فترة ملوك الطوائف .

أما الدينار او المثقال المرابطي ، فكان واسع الانتشار وعليه إقبال كبير في ممالك اسبانيا المسيحية . وقد عرف في القشتالية القديمة والبرتغالية باسم metcal , metical , mitical — وكلها صيغ مشتقة من (مثقال) العربية . فالمرابطون الذين امتدت رقعة امبراطوريتهم من نهر إبرو شمالا الى نهر السنغال جنوبا ، وسيطروا على مواطن الذهب في غانة وعلى تجارة القوافل عبر الصحراء ، ضربوا دنانير من الذهب الخالص ، وكان عليها إقبال كبير في داخل امبراطوريتهم وخارجها . وقد قلدها الفونس الثامن ملك قشتالة وليون ، فضرب دنانير على غرارها سنة ١١٧٣م عرفت باسمه le morabeti alfonsi .

وكالدينار ، كان للدرهم العربي تأثير اقتصادى كبير على بيزنطة والغرب . والعملة البيزنطية الفضية المعروفة باسم miliaresia ، التي بدىء بسكها في اوائل القرن الثامن الميلادي ، كانت بوحي من الدرهم الأموي . لابل إن كثيرا من الدراهم البيزنطية في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ضربت على سكك ضرب الدراهم العربية ذاتها .

واصبح من المؤكد الآن ما كان للدراهم العربية من اهمية بالغة في التجارة بين اراضي الخلافة في المشرق من جهة ، وبين روسيا وشرق اوربا وبلاد اسكندناوة من جهة اخرى ، بعدالعثور على كميات كبيرة في هذه المناطق من دفائن الدراهم العربية . وتتراوح تواريخ ضربها مابين سنة ٨٠٠م وسنة ١١٠٠م . كما تم العثور في انجلترا وفرنسا على عدد اقل من هذه الدراهم . وسنستعرض هنا مظاهر هذا النشاط الاقتصادى العربي الذي تمثل في انتشار النقود العربية ، وآثار ذلك في اربع مناطق هي : اسكندناوة وشمال اوروبا ، جزيرة كريت والبر اليوناني ، صقلية وجنوب ايطاليا ، وشبه جزيرة ايبرية .

اسكندناوة وشمال أوروبا

تعرف الفترة مابين سنة ٨٠٠ وسنة ١١٠٠م في تاريخ اسكندناوة بعصر الفايكنج او النورسميين ، وهم سكان اسكندناوة الذين نشطوا بحرا آنذاك ، فأغاروا على كثير من سواحل اوروبا الشمالية والغربية والجنوبية والجزر القريبة منها واستقروا في بعضها . كان هؤلاء الشماليون او الفايكنجز (norsemen/vikings) ، الذين أطلق عليهم اهل الأندلس اسم المجوس يقدرون الفضة ويسعون جاهدين لاقتنائها . فكانوا يخزنونها ، او يتزينون بها ، ويستعملونها لشراء السلع ، ويدفنونها في قبورهم . وقد عثر خلال القرنين الماضيين على كميات هائلة من الدراهم الفضية العربية في دفائن (hoards) في اكثر من ألف موقع معظمها في جزر بحر البلطيق ، وفي شرق بلاد السويد ، وقرب ضفاف الأنهار في روسيا . اذ كان الفايكنجز يتاجرون مع المسلمين عن طريق روسيا وأنهارها وخاصة نهر الفولجا . وكان التجار المسلمون يشترون منهم الفراء والجلود والعنبر والعبيد الذين كان الفايكنجز يحصلون عليهم عن طريق الاغارة .

كان المصدر الرئيسي للدراهم الفضية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين العالم الاسلامي ، وتعرف هذه الدراهم العربية عند علماء النميات بالنقود الكوفية (cufic) ، لأن الكتابة عليها بالخط الكوفي ، ومما يزيد من اهمية هذه الدراهم العربية لدى الباحثين أنها تحمل سنوات الضرب ، بخلاف العملات الأوروبية المعاصرة التي كانت خلوا منها . وقد عثر حتى الآن على حوالي ٦٢,٠٠٠ قطعة نقدية عربية في بلدان اسكندناوة ، وهي في معظمها مضروبة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين .

ومما يدل على اتساع حجم تجارة الفراء بين العالم الاسلامي وبين شمال اوروبا قبل القرن الحادى عشر الميلادى هذه الكميات الهائلة من النقود الاسلامية التي عثر عليها في اجزاء مختلفة من شمال اوروبا وقرب سواحل بحر البلطيق . ان هذه النقود مصدرها التجار المسلمون الذين كانوا يدفعونها ثمنا لما يحصلون عليه من السلع الأولية وخاصة الفراء . ومن الصعب تحديد النقطة التي بلغها تجار المسلمين بحثا عن الفراء ، الا ان ملاحظة احد الجغرافيين العرب بانه في إحدى المحطات التجارية التي كان يشتري فيها تجار المسلمين الفراء كان الليل اقل من ساعة من الزمن ، تدل على ان بعض هؤلاء التجار لابد وانهم على الأقل قطعوا مسافات كبيرة الى الشمال من اوطانهم .

وقد وصلت بعض النقود العربية الى المانيا في القرن العاشر الميلادى . فالرحالة والسفير الأندلسي إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي رأى حوالي سنة ٩٧٣م في السوق بمدينة مينز دراهم ضربت في سمرقند في سنتي ٣٠١ -

٣٠٢ هـ /٣ ـ ٩١٥م .

لقد كان للنقود العربية تأثير على العملات المضروبة في الأراضي المتاخمة لدار الاسلام ، وحتى في البلاد النائية عنها . فدينار الملك أوفا (offa) ، ملك مرسية (mercia) في انجلترا . (حكم من ٧٥٧الى ٧٩٦ م) ، إن هو الا تقليد للدينار العباسي المضروب عام ١٥٨ هـ / ٧٧٤ م .

جزيرة كريت (إقريطش) والبر اليوناني

قامت إمارة عربية اندلسية في جزيرة كريت (إقريطش) في الفترة مابين ٢١٢ ـ ٣٥٠ هـ / ٨٢٨ ـ ٩٦١م ، اي انها عاشت قرابة قرن ونصف القرن . وقد لعب عرب جزيرة كريت دورا بارزا في ميداني التجارة والغزو البحري في منطقة بحر إيجة وشرقي البحر المتوسط .

وقد عثر في السنوات الأخيرة على احدى عشرة قطعة نقدية عربية من عملة اقريطش في موضع السوق (agora)في مدينة أثينا وفي مدينة كورنث . ولعل لوجودها في اثينا صلة بالنقوش الكتابية المهمة من المسجد العربي بأثينا ، وهي النقوش التي عثر على قطع منها في مكان السوق وعلى مقربة منه ، مما يدل على وجود مستوطنة عربية في أثينا لعلها بقيت حتى اوائل القرن العاشر الميلادي . ومع ان تاريخ النقوش غير معروف على وجه التحديد ، الا ان معظم النقود الاقريطشية التي عثر عليها في اثينا تعود الى القرن التاسع الميلادي ، وفي ذلك دليل على احتمال وجود العرب في اثينا في ذلك القرن . وقد يكون هؤلاء العرب قدموا من جزيرة إقريطش غازين ، او أسرى حرب ، او تجارا ، او قد يكونون عبروا عبورا . ومن الممكن ايضا ان تكون القطع النقدية قد حملها من جزيرة اقريطش تجار يونان او أسرى حرب يونان بعد الافراج عنهم .

أما بالنسبة لمدينة كورنث ، فانه يكاد يكون من المؤكد ان بعض القطع النقدية التي عثر عليها في المدينة تعود الى القرن التاسع الميلادي . وتشير المصادر الكتابية الى قيام العرب بالاغارة على منطقة كورنث في سنة ٨٧٩م ، ولعلهم احتلوا المدينة فترة من الزمن .

ان النقود العربية التي عثر عليها حتى سنة ١٩٧٠م في جزيرة كريت وفي بلاد اليونان بلغت في مجموعها ٢٦٨ قطعة معظمها من الفلوس النحاسية . ومما يذكر ان من بينها درهما يحمل سنة الضرب وهي « سنة خمسين وثلاثمائة » . ومكان الضرب هو مدينة الخندق حاضرة إمارة اقريطش العربية . وهذا الدرهم محفوظ في خزانة العملة الملكية بمدينة ستوكهلم ، اذ كان قد عثر عليه في السويد .

صقلية وجنوب ايطاليا وسويسرا

بدأ افتتاح العرب لجزيرة صقلية في عهد ثالث امراء بني الأغلب زيادة الله الأول في سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م ، وانتزعوها من ايدي الروم البيزنطيين ، واتخذوا بلرم عاصمة لهم . وقد ظلت جزيرة صقلية تحت السيادة العربية اكثر من قرنين ونصف القرن من الزمن (٢١٢ ـ ٤٨٤هـ ٨٢٧ ـ ١٠٩١م) .

كانت صقلية في القرن التاسع الميلادي ولاية تابعة للأغالبة في القيروان ، ثم اصبحت تابعة للعبيديين الفاطميين في افريقية اولا ثم في مصر . وفي عهدهم بلغت الجزيرة في القرن العاشر الميلادي أوجها الحضاري كما تميزت بالازدهار الزراعي ، والنشاط التجاري ، وبخاصة مع افريقية ومصر ومدن جنوب ايطاليا . وكانت حاضرة الجزيرة بلرم تضاهي قرطبة الأموية عمرانا وازدهارا ثم انتزع النورمان جزيرة صقلية من أيدي العرب وحكموها قرنا من الزمن (١٠٩١ ـ ١١٩٤م) . ولما كان النورمان قلة وحديثي عهد بالحضارة ، فانهم اعتمدوا على العرب في الادارة وفي الدواوين والبلاط الملكي وفي اعمال البناء والتشييد . وطوال فترة حكم النورمان لجزيرة صقلية ظلت عملاتهم تضرب وعليها كتابة عربية بالخط الكوفي ، وبعضها يحمل التاريخ الهجري وعبارة (محمد رسول الله) .

إن عملة رجار الثاني كان عليها لقبه العربي تقليدا للفاطميين ، فضلا عن لقب مسيحي باللغة العربية (ناصر النصرانية) . وفي عهد ملوك النورمان الثلاثة الأوائل ، ظل الرباعي ـ أي ربع الدينار ـ الفاطمي متداولا ، وعلى منواله ضربت عملة نورمانية تعرف باسم Tari ، وكانت هذه العملة كالرباعي شكلا وقيمة .

وفي بحث مستفيض للدكتور صاموئيل ستيرن ، يدلل على ان العملة المعروفة عند النصارى باسم Tari مشتقة الاسم من الكلمة العربية (طرى) ، بمعنى حديث الضرب ، وهي صفة استعملت للرباعي في لهجة صقلية العربية .

وبعد النورمان ظل الطري متداولا في عهد الملك فردريك الثاني (حكم ١٢١٢ ـ ١٢٥٠ م) ، وفي عهد

شارل صاحب أنجو (حكم صقلية ١٢٦٦ ـ١٢٨٥ م) ، لا بل إن فرسان مالطة اتخذوا الطري من الفضة عملة رئيسية لهم منذ بداية حكمهم لجزيرة مالطة سنة ١٥٣٠م ، وظلوا يستعملونه حتى استيلاء نابليون على مالطة سنة ١٧٩٨ م .

ويوجز دكتور ستيرن بحثه القيم والممتع فيقول : « إن (طري) بمعنى نقود حديثة الضرب كثيرا ما كانت تستعمل لنعت العملات ، ولعلها في صقلية استعملت لنعت ربع الدينار او الرباعي الذي كان العملة الرئيسية المتداولة في الجزيرة . ثم حلت الصفة ذاتها محل الموصوف (الرباعي) إما في لهجة صقلية العربية ، واما حينما استعارها النصارى في جنوب ايطاليا ..وبعد ذلك استعملت كلمة Tari في لغة التخاطب بين النصارى وفي وثائقهم اللاتينية ، بمعنى ربع دينار إسلامي . ولما بدأت مدن جنوب ايطاليا في القرن الحادي عشر الميلادي تضرب عملاتها تقليدا للرباعي ، عرفت هذه العملات باسم Tari . وقد قدر لهذه الكلمة أن يكون لها تاريخ حافل وطويل في فترة حكم النورمان والهوهنشتاوفن لجزيرة صقلية . كما انها بمدلولات جديدة ظلت حية حتى القرن التاسع عشر ، لابل والى يومنا هذا » .

وفي سويسرا عثر قرب قرية شتيكبون (Steckbon) على ثلاثين درهما فضيا عربيا ، يحمل أقدمها سنة الضرب ١٦٩هـ / ٥ ـ٧٨٦ م ، ويحمل أحدثها سنة ١٨٢هـ / ٨ ـ٧٩٩ م .

وكلها مضروبة في القيروان عاصمة افريقية ، باستثناء درهم واحد ضرب في عهد موسى دولة الأدارسة في شمال المغرب الأقصى . ويرى بعض علماء النميات أنها دخلت سويسرا عن طريق فرنسا على يد النورمان .

كما عثر على دفينة اخرى من المسكوكات العربية في مودون بسويسرا ، من بينها قطعة ضربت في افريقية سنة ١٧٠هـ / ٦ ـ ٧٨٧م ، وقطعة ضربت في بغداد سنة ٣٦١ هـ ٩٧٤ م ، ويرى البعض أنهما وصلتا الى سويسرا بطريقة سلمية ثمنا لبضائع . بينما يرى الأمير شكيب أرسلان أن دفينة مودون هي مما تركه العرب الذين غزوا سويسرا من جنوب فرنسا .

شبه جزيرة إيبرية

كانت العملة الوحيدة المضروبة في الأندلس منذ أواخر القرن الثامن الميلادي هي الدراهم الفضية الى ان ضرب الأمير عبد الرحمن الثالث (الناصر) ، في الوقت الذي اتخذ فيه لقب الخلافة سنة ٣١٦هـ / ٩٢٩م ، اول دينار ذهبي . وكان الناصر قد بسط نفوذ خلافة قرطبة على المغرب الأقصى ، وسيطر بالتالي على موارد ذهب السودان ، فأخذ في ضرب دنانير في سجلماسة وفاس . يقول ابن عذاري : « وفيها [سنة ٣١٦ هـ] أمر الناصر باضافة دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب الدنانير والدراهم ... وأقام الضرب فيها من هذا التاريخ من خالص الذهب والفضة ... وكانت مثاقيله ودراهمه عيارا محضا » .

وفي عصر ملوك الطوائف (القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) ، بدأ صاحب برشلونة رامون برنجوير الأول سنة ١٠٣٥ م في ضرب عملة باسم mancusos (منقوش) . وهو الاسم الذي اطلقه النصارى على الدينار العادي . مقلدا بذلك عملات ملوك الطوائف في شرق الأندلس . وتفيد ملحمة السيد القمبيطور (poema del Cid) ان أمراء كاريون بقشتالة ، لما طلقوا زوجاتهم ، أرجعوا سيوفا وبغالا من مهورهن ، اذ لم تكن عندهم نقود متداولة .

ومن المعروف ان الدراهم كثيرا مازيفت وأنقص عيارها زمن ملوك الطوائف واصبحت تحوي نسبا متفاوتة من النحاس مع الفضة ، الا ان الوضع سرعان ما تبدل بعد مجيء المرابطين الذين حققوا للأندلس وحدة نقدية فضلا عن الوحدة السياسية .

لقد عثر في السنوات الأخيرة في شلب Silves بأقليم الغرب بجنوب البرتغال على دفينة من الدراهم تضم سبعين درهما تتراوح تواريخ ضربها بين سنة ١٥٣ هـ وسنة ٢٦١ هـ (٧٧٠ ـ ٨٧٥ م) . وقد وجد ان اثنى عشر درهما منها قد ثقبت بآلة حادة وأضيفت اليها قطع صغيرة من الدراهم طويت عند حافتها . كما ان بعضها ثقب الا ان القطع المضافة إما انها سقطت وإما انها نزعت منها . ويرى عالم النميات مايلز ان صاحب الدفينة لعله اراد ان يجعل الدراهم الناقصة الوزن تصل الى الوزن المطلوب ، وهو ٢٫٦٥ جرام للدرهم ، وذلك باضافة قطع صغيرة اخرى قليلة الوزن اليها .

وعثر في انجلترا سنة ١٨٠٧ م على درهم اندلسي في اطلال دير بمقاطعة دورسيت Dorset ، وذكر الشخص الذي عثر عليه آنذاك انه يبدو من حلقة السلك المثبتة بالدرهم ان صاحبه كان يستعمله حجابا ، وأن من المرجح انه دفن معه في قبره في ارض الدير . وقد تبين الآن ان الدرهم المذكور يحمل سنة الضرب وهي ٣٩٠ هـ (

٩٩٩ ـ ١٠٠٠ م) ، اي انه ضرب في خلافة هشام الثاني (المؤيد) . وهو درهم فريد ، اذ لا يتوفر مثله من تلك الفترة في مجموعات النقود . كما انه اكثر الدراهم التي عثر عليها في انجلترا تأخرا زمنيا . ويستبعد الباحث دولي (Dolley) ان يكون الدرهم قد وصل الى انجلترا من الاندلس مباشرة ، ويرجح بانه وصل اولا الى السويد ، ومنها جلب عن طريق الفايكنجز الى انجلترا . الا اننا لانشاطره هذا الرأي ، بل نميل الى الاعتقاد ، على ضوء ما عثر عليه من دراهم مخرومة في شلب ، بأن الدرهم المذكور لا يستبعد ان يكون قد وصل الى انجلترا مباشرة من غرب الأندلس . اذ من المعلوم انه منذ اوائل القرن التاسع الميلادي قامت علاقات تجارية عن طريق المحيط الأطلسي بين الجزر البريطانية وبين موانيء غرب الأندلس ، كشلب ولشبونة وقصر أبي دانس (alcacer do Sal) . وكان يؤتي الى هذه الموانيء من الجزر البريطانية بالعبيد ، وبشحنات من القصدير والفراء والسيوف .

تذكر الحوليات القشتالية عدة عملات أولاها العملة المسماة el maravedi de oro (اي الدينار المرابطي من الذهب) نسبة الى المرابطين ، والعملة الثانية هي المسماة el dinero de plata (اي الدينار من الفضة) وهو متوسط القيمة . ويشار اليه احيانا باسم adarham .

وقد قام الباحث ميسير (messier) بتحليل كيمياوي لعدد من النقود المرابطية بالنسبة للفترة من سنة ١٠٥٠م الى سنة ١٢٠٠م للتدليل على صحة ماذهب اليه المؤرخون الاقتصاديون من ان ذهب السودان الغربي لعب دورا بارزا في الحياة الاقتصادية لبلدان حوض البحر المتوسط في القرون الوسطى . وقد اثبتت هذه الدراسة الدور الكبير الذي قام به المرابطون في توزيع ذهب افريقيا الغربية في منطقة البحر المتوسط ، حيث كان لتجارهم نشاط كبير ، كما حظيت عملتهم بسمعة كبيرة في الأوساط التجارية الدولية .

فقد استعمل الدينار المرابطي كوحدة نقدية في اوروبا المسيحية . ففي سنة ١١٦١ م ، وعد كونت بروفانس ان يدفع للامبراطور مبلغ ١٢،٠٠٠ marabotins (اي دينار مرابطي) . لابل إن الدنانير المرابطية ذاتها جرى تداولها في اوروبا الغربية . فقد عثر على دنانير مرابطية في دفائن في دير Del Camp جنوبي مدينة طولوز ، وفي فيرنو (Vernoux) ، وفي سانت رومان .

وكان التجار المغاربة الوافدون على الاسكندرية يحرصون على ان يتقاضوا اثمان سلعهم بالعملة المرابطية . التي كانت بالتأكيد اكثر قيمة من غيرها من العملات المتداولة في مصر آنذاك . لا بل ان سمعة العملة المرابطية امتدت الى ابعد من مصر شرقا ، فثمة وثيقة صينية مؤرخة في سنة ١١٨٧م تقول إن « mulabni (وهي محرفة عن كلمة مرابط العربية) هي المركز التجاري لأقطار المغرب الأقصى » .

كانت العملة الفاطمية في مصر وشمال افريقيا تحتل مكان الصدارة من حيث جودة العيار ، الى ان قامت دولة المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وأخذت تضرب دنانير ذهبية ذات عيار ممتاز في سجلماسة ثم في اغمات وفاس ومراكش ونول لمطة وتلمسان . ولعل السبب في ذلك ان الدنانير او المثاقيل المرابطية ضربت من ذهب كان يتمتع بشهرة عالمية آنذاك ، وهو ذهب غانة الذي اشتهر بكونه اجود انواع الذهب وأنقاها . وكان المرابطون قد استولوا على أودغست سنة ٤٤٦هـ / ـ ١٠٥٥ م ، ثم على سجلماسة ٤٤٧هـ / ٥ ـ ١٠٥٦م ، وهما المحطتان الرئيسيتان لاستقبال ذهب السودان الغربي . فلم يكن من قبيل الصدفة ان اخذ المرابطون بعد سنتين من استيلائهم على المدينتين في ضرب دنانيرهم في دور السكة في سجلماسة .

يذكر البكري ان دنانير اهل تادمكة « تسمى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة » . ولعل هذه « الدنانير الصلع » كانت تنقل شمالا كما هي ، وتختم بالكتابات المرابطية ، اذ ليس ثمة مايدل على تداولها في السودان الغربي ذاته .

فالهالة التي كانت تحيط بسمعة ذهب غانة انتقلت بعد ذلك الى الدنانير المرابطية .

وكان لقيام دولة الموحدين في أعقاب دولة المرابطين أثره كذلك على نظام العملة في الممالك النصرانية في شمال شبه جزيرة ايبرية . فظهرت العملة المعروفة باسم dobla (ضعف الدينار) ، وحلت محل الدينار المرابطي . وكانت نصف الدويلة تعرف باسم mazmudina ، وهي مشتقة من اسم قبائل المصامدة التي قامت على اكتافها دولة الموحدين . وقد ظلت هذه الدويلات المتداولة لدى النصارى تضرب في اراضي المسلمين الى ان هزم الموحدون في وقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢م . فاضطر الفونس العاشر بعد ذلك الى ضربها في مملكته . وقد ظلت الدويلة مع ذلك متداولة

كوحدة للذهب في قشتالة حتى زمن فرديناند وايزابيلا ، اي الى اواخر القرن الخامس عشر الميلادي . ومما يذكر انه بحلول الدويلة محل الدينار المرابطي ، اصبحت التسمية maravedi تطلق على العملة الفضية في اواخر القرن الثالث عشر الميلادي .

ولعل مما يجدر التنويه به في الختام وجود عدد من المفردات العربية الاقتصادية في اللغات الاوربية ، فهي دليل على انه كان للتجارة والتقاليد العربية الاسلامية تأثير عميق على الحياة الاقتصادية وتطورها في البلدان الأوربية . فالكلمة الأيطالية Zecca مشتقة من (دار السكة) . وكلمة Cheque مشتقة من كلمة (صك) العربية . وكانت الصكوك معروفة في المغرب على الأقل منذ وقت مبكر . فابن حوقل يقول « ولقد رأيت صكا كتب بدين على محمد بن ابي سعدون بأودغشت ، وشهد عليه العدول باثنين واربعين الف دينار » ـ كان ذلك في منتصف القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد .

بل ان الكلمة sterling الانريقية الأصل وصلت اللغة الانجليزية عن طريق العربية . والمصطلح الجمركي TARIFF من العربية (تعريف) . ولعل كلمة traffic بمعنى المتاجرة هي ايضا مشتقة من الكلمة العربية (تفريق) .

وفي اللغة الأسبانية العديد من التسميات لمناصب ذات صبغة مالية وتجارية ما زال بعضها مستعملا . وهي من اصول عربية منها : almojarife من (المشرف) وكان في العهد الاسلامي مراقبا للخزانة والشؤون المالية ، و alcabala (وفي الفرنسية gebelle) من كلمة (القبالة) العربية ، وكانت ضريبة تفرض على المبيعات في الأسواق . و alfarda من العربية (الفرضة) ، وكانت ضريبة فرضها المرابطون على اليهود ، للمساعدة في تجهيز الحملات العسكرية لأغراض الجهاد . ■■

د . امين توفيق الطيبي
جامعة الفاتح ـ طرابلس الغرب ـ الجماهيرية الليبية

● ومن الجدير بالذكر ان موزمبيق اتخذت في منتصف يونيو ١٩٨٠ عملة جديدة بدلا من عملة إسكودو البرتغالية ، وتُعرف العملة الجديدة باسم **metical** ، وهو اسم محرّف عن (مثقال) ـ الدينار المرابطي الذي ذاع تداوله في شبه جزيرة ايبرية حتى القرن السادس عشر ، أي حين بدأ استعمار البرتغال لموزمبيق .

أقوال مأثورة

■ مثل الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به ، كمثل أعمى بيده سراج يستضيء به غيره وهو لا يراه ..

■ لا تشرب السم اتكالا على ما عندك من الترياق .

■ شعاع الشمس لا يختفي ، ونور الحق لا يطفأ ..

■ الدهاء يحتاج إلى ثياب ، ولكن الحقيقة تحب أن تسير عارية .

■ ليس النبوغ الا القدرة على الصبر .

■ من لم يجلس في الصغر حيث يكره ، لن يجلس في الكبر حيث يحب .

■ وجه رغبته اليك ، وجبت اعانته عليك .

■ سئل أرسطو : ماذا يستفيد الناس من الكذب ؟ قال : عدم تصديق الناس لهم اذا صدقوا .

البكتيريا الجديدة تلتهم البترول وتقضي على التلوث

سبق ان اوردنا في هذا الباب خبرا عن بكتيريا مخلقة جديدة تلتهم البترول وتقضي على تلوث البحار .. وذكرنا في حينه ان شركة جنرال الكتريك الامريكية هي الشركة التي اخذت على عاتقها صنع او تخليق هذه البكتيريا .

فهذه الشركة ، بل مجموعة الشركات ، التي تعتبر في الطليعة في الهندسة الكهربائية وصناعاتها تعتبر ايضا من رواد التكنولوجيا البيولوجية الحديثة ، فمنذ اواخر الستينات وهي تولي هذا الميدان اهتمامها الكبير . وقد حملت الينا المجلات العلمية في مطلع شهر يونيه الماضي نبأ نجاح الشركة لا في انشاء او تخليق البكتيريا الجديدة فحسب ولكن في تسجيلها لدى دائرة البراءات ايضا ، وكأن البكتيريا الجديدة آلة اخترعتها الشركة ، او مادة ابتكرتها ، فوجب تسجيلها رسميا لحماية حقوقها ومصالحها ...

اما التخليق فتتلخص قصته بان علماء الشركة اختاروا صنوفا ثلاثة من البكتيريا الموجودة في الطبيعة . اختاروها لان كل صنف منها يتميز بقدرته على التهام البترول جزئيا ... اي اكل جزء او جانب واحد من بنيته .. ولما كانت ضالتهم المنشودة تطوير البكتريا القادرة على التهام البترول ، لا جزئيا ولكن ككل ، مضوا في اعمال تهجين صنوف البكتريا الثلاثة .. وهي أعمال دقيقة مضنية ، تستوجب تطعيم بعضها او زرعها بخصائص بعضها الآخر ، وذلك بالتلاعب بجينات أو مورثات تلك الصنوف المختلفة .واثمرت تلك الاعمال فكانت البكتريا الجديدة التي لا وجود لها في الطبيعة والتي تستطيع التهام البترول كليا .. وما على المرء الا ان يلقي البكتريا الجديدة

اوربا .. وصاروخها آريان

● منذ اواخر السبعينات ووكالة الفضاء الاوروبية (ESA)تعمل جاهدة من اجل تطوير صاروخ اريان (Ariane) . ذلك ان دول اوروبا الغربية الاعضاء الاحد عشر في الوكالة المذكورة ، وفي طليعتها فرنسا والمانيا الغربية وايطاليا في المقام الاول ، وبريطانيا ولكسمبورغ والبلاد الاسكندنافية وغيرها في المقام الثاني ، عز على هذه الدول المتقدمة في العلوم والتكنولوجيا ان تتخلف بصدد الفضاء وابحاثه ورحلاته ، وان تترك هذا الميدان للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي واليابان فتقف منه موقف المتفرج .. فلا تستطيع اطلاق اقمارها التلفازية او تلك الخاصة بالمناخ ، او سواها من الاقمار الصناعية ، الا بالايجار ! وعز عليها ايضا الا تسهم بدور فعال منذ الآن في ميدان سيكون له شأن كبير في حروب المستقبل .. حروب الفضاء ..

لا عجب اذن ان بلغت ما انفقته الوكالة الاوروبية في سبيل تطوير صاروخها (اريان) نحو ٥٠٠ مليون جنيه استرليني .. وهو مبلغ ضئيل جدا لو قورن بما أنفقته الولايات المتحدة من اجل تطوير سفينة (كولمبيا) المكوكية والبالغ حوالي ١٠٫٠٠٠ مليون دولار ! وهو مبلغ ضئيل ايضا لو قورن بالسوق الرائجة المزدهرة التي بدأت تقوم منذ حين على صناعات الفضاء المربحة ، لاسيا صناعة الاقمار الصناعية الخاصة بالتلفاز وبشتى الاتصالات اللاسلكية .. والتي يقدرون حجمها بحوالي ٢٥٠٠ مليون جنيه سنويا ..

وكانت المرة الاولى التي اطلق فيها صاروخ اريان في شهر

اعداد : يوسف زعبلاوي

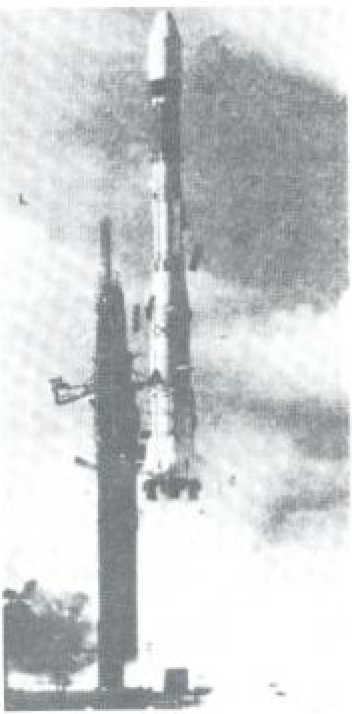
بكمية محدودة في مياه البحر الملوثة فلا تلبث تلك الكمية ان تتكاثر وتلتهم في طريقها كل ما تجده من بترول حتى لا يبقى منه شيء، فتحمي البيئة من التلوث .. ومن خصائص البكتريا الجديدة انها تموت لدى امتلائها بالبترول ...

واما التسجيل لدى دائرة البراءات فلم يكن سهل المنال .

بل ان هذه الدائرة رفضت طلب الشركة في البدء باعتبار تخليق البكتريا عملا يختلف اختلافا كبيرا عن اختراع الة او ابتكار طريقة ..فاضطرت الشركة الى اقامة الدعوى على الدائرة الحكومية لدى المحكمة العليا التي حكمت بوجاهة طلب الشركة .. فتم التسجيل على كره من الحكومة .

البروتينات .. نجحوا في صنعها من النشويات

من المعروف ان البروتينات هي عنصر الغذاء الرئيسي للانسان والحيوان .. وان ما يمكن الحصول عليه منها سواء من عالم الحيوان او عالم النبات ، تقل .. اقل بكثير من الكاربوهايدرات او النشويات .



ديسمبر سنة ١٩٧٩ .. والثانية في مايو سنة ١٩٨٠ ونجحت المحاولة الاولى نجاحا كبيرا ، وفشلت الثانية فشلا ذريعا ، وواصلت الوكالة الاوروبية العمل على تصحيح الاخطاء حتى كانت المحاولة الثالثة في ١٩ يونيه الماضي ..وكانت محاولة ناجحة تماما .

فقد انطلق اريان من مركز ابحاث الفضاء الفرنسي في كورو في غيانا الفرنسية ، بطوله البالغ ١٥٠ قدما وبالقمرين الصناعيين اللذين حملهما الى المدار المقرر لهما في الفضاء . ومن طريف ما يذكر ان احد هذين القمرين واسمه أبل ـ Abble ، قمر هندي صنعه الهنود على سبيل التجربة وبقصد محاولة تحقيق اغراض معينة فيما يتصل بالاتصالات اللاسلكية . اما القمر الثاني واسمه متيوسات meteosat فاوروبي ويستهدف الاسهام في اعمال الارصاد الجوية ...

ويتحدث الاوروبيون بفخر ورضا عن البرنامج الحافل الذي سيضطلع باعبائه صاروخهم (أريان) .. فقد بلغ عدد الاقمار الصناعية التي سيحملها الى الفضاء ، بالايجار ، ولقاء ١٠ ملايين جنيه عن كل واحد ، تسعة وعشرين قمرا .. هذا الى جانب الاقمار الاخرى الخاصة بوكالة الفضاء الاوروبية بالذات .

بقي ان نذكر ان صاروخ أريان هذا هو الذي سيحمل الى الفضاء اقمار التلفاز الاوروبي التي نتحدث عنها في مكان آخر من هذا الباب .

من هنا كان سوء التغذية وكانت امراضها .. ومن هنا كانت المجاعات والمخاطر التي يحذرنا منها العلماء .. مخاطر انفجار السكان .. فلو كانت الكمية المتاحة من البروتينات بقدر الكمية المتاحة من النشويات لكانت البشرية في امن وسلام .

لا عجب اذن ان انصبت جهود الكثير من العلماء منذ اواسط الستينات على امكانية تحويل النشويات الى بروتينات .. وذلك باجراء تعديل جذري في بنيتها ، وبواسطة ما يعرف بالهندسة او التكنولوجيا البيولوجية ..

والظاهر ان احدى الشركاتالبريطانية قد نجحت في اجراء التحويل المطلوب .. بدليل انها ظفرت بالترخيص الرسمي من وزارة الزراعة والمصايد والطعام .. فهذا يقر البروتينات المخلقة الجديدة ويعتبرها طعاما صالحا للانسان ويسمح بصنعها على نطاق واسع .. وما كانت الشركة المعنية لتسعى للحصول على هذا الترخيص لولا انها فرغت من دراسة الاسواق والجدوى ،والتوصل الى افضل النتائج المرضية .

وتطلق الشركة على البروتينات المخلقة اسم (ما يكروبرتين) .. وقد اقامت مصنعا صغيرا لانتاجها بكمية ١٠٠ طن سنويا وذلك بقصد التجربة العلمية .. ووضعت الخطط لانشاء مصنع ينتج الميكروبروتين بكميات تجارية .. (١٠,٠٠٠) طن سنويا او يزيد ..

وتجدر الاشارة الى ان اعمال تطوير الميكروبروتين قد كلفت الشركة ١٠ ـ ١٥ مليون جنيه وان التخمير هو الطريقة التي تجري بها تحويل النشويات الى بروتينات ..



جهاز جديد وصغير يصور ويسجل الصوت في آن واحد

الكاميرة المسجلة التي ترى في الصورة ليست كاميرة تلفاز عادية .. انها كاميرة وجهاز تسجيل في ان واحد ... كاميرة تلفاز ملون وجهاز تسجيل فديو .. اجتمعا في وحدة واحدة لا يزيد وزنها على ١٠ كيلو غرامات ، ولا تحتاج لاستعمالها الا لرجل واحد ... خلافا لما عهدناه حتى الآن في اجهزة التسجيل للفديو .. فقد احتاجت هذه الى رجلين فنيين لتشغيلها .. واحد للعناية بالكاميرة والاخر للعناية بجهاز تسجيل الصوت ...

اما شريط التسجيل الذي تحتاجه هذه الكاميرة المسجلة فهو كاسيت بعرض نصف بوصة ، اخس من الشريط الشائع حاليا ، وعرضه ٣ بوصات .. ويستغرق هذا الشريط ٢٠ دقيقة ... ويعطي صورا اوضح من الشريط القديم ... ولعل في هذه المزايا ماتجعل الكاميرة / المسجلة الجديدة الجهاز المثالي للانتاج التلفازي وللافلام الوثائقية .. وغير ذلك . واكثر ما يستدعي الانتباه في الاختراع الجديد انه ثمرة التعاون الوثيق بين شركتين كبيرتين : امريكية ويابانية ... ارسي اي (R.C.A) وماتسو شيتا في اوزاكا .

رسالة من يوغسلافيا

مؤثرات مصرية في الأدب الألباني الحديث

بقلم الدكتور : محمد موفاكو

من الثابت ان الادب الالباني الحديث يحمل بصمات لاتنكر لمؤثرات مصرية عديدة . وكان قد بدأ احتكاك الالبانيين بمصر وبالمصريين في وقت مبكر ، في القرن التاسع عشر ، مع قدوم الولاة والعسكريين الالبانيين الى مصر ، في اطار الامبراطورية العثمانية . ومن اولئك يمكن ان نشير الى الوالي سنان باشا ، الذي تولى مصر خلال اعوام ١٥٦٧ ـ ١٥٦٨ و ١٥٧١ ، ١٥٧٤ ، والذي اقام منشآت عمرانية كثيرة ، تلك التي بقي منها الى اليوم جامعه المعروف في القاهرة .

الا ان هذا الاحتكاك لم يك الامقدمة للصلات التي ستجمع بين الالبانيين والمصريين في القرن التاسع عشر ، ففي بداية هذا القرن جاء محمد علي مع جنوده الالبانيين الى القاهرة ، حيث قدر له ان يلعب دورا كبيرا في تاريخ مصر الحديث . ومع ان محمد علي ، كما يقول المؤرخ والكاتب الالباني المعروف الكسندر جوفاني A. Xhuvani ، قد وهب نفسه لمصر وليس لوطنه البانيا ، الا ان الالبانيين يفتخرون مع ذلك به وبدوره . وكما هو معروف ، فقد استمرت سلالة محمد علي في حكم مصر حتى ثورة ١٩٥٢ ، مع انها لم تحافظ على تراث محمد علي الوطني والتحرري . ومن ناحية اخرى ، فقد تشكلت منذ اوائل القرن التاسع عشر جالية البانية مدنية ، تمركزت في الاسكندرية والقاهرة والمناطق المحيطة بها . وقد تشكلت هذه الجالية الكبيرة من قدوم الالبانيين ، وبشكل خاص من المناطق الالبانية الجنوبية ، الذين اضطرتهم ظروف الحياة الصعبة للبحث عن لقمة العيش . وقدر لهذه الجالية ان تقوم بدور كبير في الثقافة الالبانية من خلال الادب الذي ابدعته باللغة الالبانية ، ذلك الادب الذي يحتل مساحة هامة في خارطة الادب الالباني ككل . ومن الطبيعي الا يكون هذا الادب بمعزل عن المحيط المصرى الذي ابدع فيه ، الشيء الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

وقبل ان نتحدث عن هذه المؤثرات المصرية ، يودنا ان نوضح شيئا فيما يتعلق بالادب الالباني الحديث فيما يخص هذا الادب . هناك شبه إجماع على تحديد سنة ١٨٣٦ كسنة فاصلة بين الادب الالباني القديم والادب الالباني الحديث ، اى في السنة التي انطلقت فيها الرومانتيكية الالبانية من ايطاليا . الا ان هذا التحديد

لايمس من قيمة شاعر كبير هو محمد تشامي Muhamet Gami (١٧٨٤ ـ ١٨٤٤) ، الذي يعتبر جسرا واصلا بين الادب الالباني القديم والحديث وفي الحقيقة يهمنا الحديث عن هذا الشاعر ودوره ، وذلك لعلاقته بمصر .

وبهذا نود ان نوضح ان انتقال المؤثرات المصرية الى الادب الالباني قد تم عبر اتجاهين

١ ـ عن طريق الادباء الذين أتيحت لهم الفرصة للذهاب الى القاهرة للدراسة ، ومن هؤلاء لدينا الشاعر محمد تشامي كمثل على ذلك .

٢ ـ عن طريق الجالية الالبانية في مصر .

دور الازهر

وفيما يتعلق بالاتجاه الاول ، نرى من الضروري ان نشير الى ان القاهرة ، ونقصد هنا الازهر ، كانت تشد اليها الطلاب الالبانيين لمتابعة دراساتهم الاولية ، التي كانوا يتلقونها في مناطقهم ، وليس هناك من شك في ان اولئك الطلاب قد حملوا معهم ، لدى عودتهم للمناطق الالبانية ، مؤثرات حياتية وثقافية مختلفة . ومن هؤلاء ، كما قلنا ، لدينا الشاعر محمد تشامي كمثل على هذا الاتجاه .

ولد تشامي في كونيسبول Konispol ، وبعد ان انهى دراسته الاولية في القرية ارسله عمه لمتابعة دراسته في الازهر ، في اوائل القرن التاسع عشر ، حيث مكث في القاهرة احدى عشرة سنة ، وقد عاد بعد انتهاء دراساته الى قريته ، حيث اصبح شيخ القرية ، وبقي على هذه الحالة الى وفاته ١٨٤٤ ، ولاشك في ان اقامته الطويلة في القاهرة أتاحت له الفرصة ، اضافة لاتقانه اللغة العربية ، الى التعرف على الادب العربي ، وقد اثمرت هذه المعرفة ، مع شاعريته ، على حقل الادب الالباني بدم جديد ، فبالاضافة الى ترجماته الشعرية للالبانية ، كترجمة قصيدة البردة للبوصيري مثلا ، قام محمد تشامي بنقلة فنية كبيرة في الادب الالباني ، وذلك بابداعه اولى القصائد الشعرية الطويلة في هذا الادب ، ويكفي ان نشير الى موضوع هذه المطولات الشعرية لنعرف مدى ارتباطها باقامته في مصر . ففي المطولة الاولى « فتح ميسولنجي » ، التي تتألف من ٦٠٠ بيت ، يتحدث فيها الشاعر عن انتصارات ابراهيم باشا بن محمد علي ، في حملته على اليونان (١٨٢٢) ، على حين انه يتحدث في القصيدة الطويلة الثانية ، التي تتألف من ٢٤٣٠ بيتا ، عن « يوسف وزليخة » ، اما القصيدة الطويلة الثالثة (اروى) التي تتألف من ٨٥٦ بيتا فهي تعتبر من اهم اعماله الشعرية . وموضوع هذه القصيدة الطويلة ورد في اكثر من كتاب عربي كما « في ألف ليلة وليلة » وغيره ، الشيء الذي يحملنا على الاعتقاد بان محمد تشامي قد اطلع عليه خلال اقامته في مصر ، وقد لقيت هذه القصيدة الطويلة نجاحا كبيرا ، حيث تحولت ايضا الى مسرحية مازالت تعرض بنجاح كبير حتى ايامنا هذه ، وفي الحقيقة ، يمكن ان نقول ان هذه المؤثرات المصرية لدى هذا الشاعر الالباني الكبير تحتاج الى دراسة مطولة ، ولا يمكن ان تغني عنها هذه الاشارات العامة .

والجالية الألبانية

اما فيما يتعلق بالاتجاه الثاني لانتقال هذه المؤثرات ، اي عن طريق الجالية الالبانية في مصر ، فنرى من المفيد ان نتعرض قليلا لهذه الجالية ، التي تميزت بدورها الهام في النهضة القومية الالبانية ، سواء في اطارها القومي او في اطارها الثقافي . فقد تميزت هذه الجالية اولا بنشاطها الواسع في اصدار الصحف الالبانية ، تلك التي كانت توزع على بقية الجاليات وتهرب الى داخل المناطق الالبانية ، التي كانت تحت السيطرة العثمانية .

ويكفي ان نشير الى ان هذه الجالية قد اصدرت ما بين اعوام ١٩٠٠ ـ ١٩٢٦ تسع صحف باللغة الالبانية .



آي شكريلي .. الشاعر الالباني من كوسوفا الذي اشتهر بقصيدته عن هجوم الاسرائيليين على مدرسة بحر البقر بمصر .



الشاعر الالباني تشايوبي من مصر رائد الواقعية في الادب الالباني الحديث

وبالاضافة الى هذه ، فقد اصدر احد الالبانيين ، حافظ حلمي الارناؤوطي ، جريدة يومية باللغة العربية ، « الاستقامة » تلك التي صدرت خلال سنوات ١٩٠٩ ـ ١٩١١ . ومن ناحية اخرى ، تميزت هذه الجالية بنشاطها في تأسيس الجمعيات الالبانية في القاهرة والاسكندرية ، التي لعبت ايضا دورها في بث الوعي القومي وفي المشاركة بالنضال في سبيل الاستقلال القومي . ومع هذا وذاك يمكن ان نقول ان اهم اسهام لهذه الجالية كان في مجال الادب الالباني الحديث . فقد قدمت هذه الجالية عددا من ابرز كتاب وشعراء الادب الالباني الحديث ، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، الذين اغنوا الادب الالباني الحديث بابعاد واتجاهات جديدة . ويكفي ان نعرف ان كتاب وشعراء هذه الجالية قد اضافوا الى الادب الالباني الحديث فنا جديدا (المسرحية واتجاها جديدا (الواقعية) .

وفي الحقيقة ، ان هذا الاسهام الكبير يرتبط بشكل خاص باسم الكاتب والشاعر الالباني المعروف اندون زاكو تشايوبي Andon Zako Gajupi (١٨٦٦ـ١٩٣٠) ، الشيء الذي قد يبرر لنا ان نتناوله ببعض التفصيل .

ولد تشايوبي في قرية شيبري Sheperi قرب مدينة جيروكاسترا ، في البانيا الجنوبية في وسط عادي فقير ، وقد اضطر والده بسبب صعوبة الظروف الحياتية الى الهجرة بحثا عن لقمة العيش فجاب عدة بلدان قبل ان ينتقل الى اليونان ومنها الى مصر . وفي عام ١٨٨٢ لحق تشايوبي الابن بابيه الى الاسكندرية ، حيث التحق بمدرسة الليسة الفرنسية ، حيث بقي فيها حتى عام ١٨٨٧ . وفيما بعد ذهب الى سويسرا حيث حصل على دكتوراه في القانون ، ومن ثم عاد الى القاهرة في عام ١٨٩٢ حيث انخرط بحماس في سلك المحاماة . الا ان هذه المهنة صدمته منذ البداية ، حيث تحمس في الدفاع عن احدى القضايا التي كان للخديوي توفيق يد فيها . ومع انه ربح هذه القضية ، الا انه كسب غضب الخديوي وحاشيته ، الشيء الذي اضطره الى ترك هذه المهنة والاتجاه نحو الاعمال الحرة ، حيث عمل لفترة من الزمن في تجارة الدخان ، قبل ان يتفرغ تماما لكتاباته .

وقد شارك تشايوبي بكتاباته وافكاره ، بشكل فعال في الحركة القومية الالبانية ، التي توجت باستقلال البانيا سنة ١٩١٢ وفيما بعد ، بعد الحرب العالمية الاولى واحتلال البانيا ، كان من المشاركين في اعداد « مذكرة الالبانيين الى مؤتمر الصلح في باريس ، وبعد استقرار الكيان الالباني ، جاءت ثورة ١٩٢٤ الديمقراطية في البانيا ، تلك التي حياها ودافع عنها بحماس ، الا ان هذه الثورة اسقطت بتدخل من الخارج وأعادت احمد زوغو الى السلطة الذي اعلن نفسه ملكا على البانيا عام ١٩٢٨ . وقد جاء هذا ليغلق ابواب البانيا امام تشايوبي وليزيد من اصرار الشاعر على موقفه من عودة الديمقراطية . كما ادت الحال الى استمراره في الغربة حتى عام ١٩٣٠ ، حين مرض وتوفي في هليوبوليس بالقاهرة ، وقد توفي تشايوبي فعلا في غربة كبيرة ، حيث ان الصحف الالبانية لم يسمح لها بان تشير الى موته باكثر من ثلاثة سطور .

وفيما يتعلق بمؤلفاته الشعرية المسرحية ، يبدو ان تشايوبي قد كتب معظمها في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، مع انها نشرت فيما بعد وفي فترات متباعدة . فقد نشر تشايوبي اول مجموعة شعرية له بعنوان « بابا توموري » .

في القاهرة ، في سنة ١٩٠٢ ، وفيما بعد سنة ١٩٢٠ ، نشر في القاهرة كتابه الثاني « حكايا خرافية » الذي اقتبس وطور حكاياته عن الكاتب الفرنسي لافونتين . وبعد سنتين ، في ١٩٢٢ صدر له في القاهرة كتابه

الثالث ، ازهار الهند ، الذي تضمن اشعارا سنسكريتيه ترجمها عن اللغة الفرنسية . وبعد وفاته بفترة ، نشر له احد اقربائه في البانيا ، في سنة ١٩٣٧ مسرحيتين له ، « رحل العالم » و« بعد الموت » ، اللتين كان قد كتبهما في فترة مبكرة ، وفي الخمسينات ، اكتشف له ديوان شعري « العهد القديم » ، حيث طبع لاول مرة في تيرانا ، في سنة ١٩٥٧ ، مع مجموعة من مؤلفاته المختارة .

ميلو دوتشي

ومع تشايوبي يمكن ان نشير الى معاصرة الكاتب المعروف ميلو دوتشي milo duqi (ت ١٩٣٣) ، الذي كان كتلة نشاط لاتعرف الملل والكلل ، وقد كان دوتشي على رأس النشاط القومي والصحفي والابداعي للجالية الالبانية في مصر ، فقد انتخب منذ عام ١٨٩٧ رئيسا للرابطة الالبانية « الاخوة » في القاهرة . وفي المجال الصحفي اصدر عدة صحف البانية ، كان اولها « العهد » (١٩٠٠) واخرها « الاحاديث » « ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ » الا ان اهم اسهاماته كانت في الفن الجديد بالنسبة للادب الالباني في ذلك الوقت ، اي في كتابته للمسرحيات ، ومع المعروف ان دوتشي كتب خمس مسرحيات اصيلة ، الا اننا لانعرف منها الا مسرحيتين ، الاولى « القول » التي نشرها في القاهرة عام ١٩٢٢ والثانية « ابن البيك » التي نشرها في القاهرة ايضا في السنة التالية ، ١٩٢٣ وبالاضافة الى هذا ، فقد عرف دوتشي ايضا باشعاره القومية والوجدانية .

ومن شعراء هذه الجالية ، الذين يحتلون موقعا كبيرا في الادب الالباني ككل ، لابد ان نذكر ايضا الشاعر المعروف فيليب شيروكا filip Shiroka (ت ١٩٣٥) ومع ان شيروكا قد عمل لفترة في جمع الفولكلور الالباني في مصر ، الا انه قد اشتهر كواحد من اكبر شعراء عصر النهضة القومية الالبانية منذ قصيدته الاولى « اذهب ايها السنونو » التي صدرت عام ١٨٩٥ ، مع ان مجموعته الشعرية الاولى ، « صوت القلب » ، التي اتمها في مطلع القرن العشرين ، لم يتح لها ان تنشر الا في عام ١٩٣٢ في البانيا ، ويتميز شيروي عن غيره بكونه قد تزوج من عربية من لبنان ، وقد انتقل الى لبنان سنة ١٩٢٣ ، حيث مرض وتوفي في بيروت بعد سنتين ١٩٣٥ ولاشك في ان اقترانه من عربية جعله اقرب من غيره الى الثقافة العربية ، ومن هذا نجد في ديوانه قصيدة بعنوان رئيس « تعاليم العربي » حيث اشار لها بعنوان فرعي « مأخوذة من قصائد عربية » .

ان ادب هذه الجالية ، كما سبق وقلنا ، له اهمية كبيرة في الادب الالباني ككل ، من حيث اغناء هذا الادب بفن جديد (المسرحية) وباتجاه جديد (الواقعية) ، كما كانت الجالية الالبانية في ايطاليا قد اغنت هذا الادب بالرومانتيكية ، وهنا يطرح السؤال : هل للمحيط المصري علاقة بهذا ام لا ؟ والجواب : نعم .

التأثيرات المصرية

ففيما يتعلق بالمسرحية ، نعرف ان نشوء وتطور المسرحية يرتبط بنشوء وتطور المسرح في بلد ما ، ومن هنا نرى ان المحيط المصري ، الذي تميز بنشوء مبكر للمسرح ، قد ترك اثره على كتاب الجالية الالبانية ، الشيء الذي جعلهم يتعرفون على المسرح ويتعلقون به ، فمصر على حد قول د . شوقي ضيف في كتابه « الادب العربي المعاصر في مصر » ، استقبلت المسرح الفرنسي مع الحملة الفرنسية .

اما فيما يتعلق بظهور الاتجاه الواقعي في الادب الالباني الحديث ، على ايدي الشاعر تشايوبي من مصر ، فنجد ان تأثير المحيط المصري أصبح مسلما به من قبل النقاد الالبانيين المعاصرين ، ومن هؤلاء نجد ان الناقد المعروف د . رجب تشوسيا يعترف في كتابه الاخير من « التنبط الى التعصير » بان اتجاه الواقعية ، الذي برز مع الشاعر تشايوبي جاء كنتيجة للاشكال الاجتماعي الحاد ، الذي كان سائدا آنذاك في مصر ، ان هذا الشيء يدفعنا الى ما كنا نريد توضيحه في البداية بان هذه الجالية لم تكن مرتبطة تماما بالعائلة الالبانية الحاكمة كما يمكن ان يفكر البعض ، بل نراها تنتقد رأس هذه العائلة . وهذا الشيء يبدو واضحا في اشعار تشايوبي ، وخاصة في مجموعته الشعرية الاولى « بابا توموري » ، التي نشرها في القاهرة سنة ١٩٠٢ ، ففي احدى قصائد هذه المجموعة يتعرض الشاعر بعنف الى وضع الأقلية التي لاتعرف ماذا تملك والتي تتحكم بالاغلبية التي لاتعرف ماذا تأكل :

هنا لدينا امراء وباشوات
وبكوات اكثر من الحمير
لديهم من الثروات التي لا يعرفون مقدارا لها
على حين اغلبية الناس لاتملك ما تأكل
وفوق الجميع لدينا افندى
يحكم البلد باوامر الانكليز .

وفي ديوانه الثاني « العهد القديم » نجد قصيدة طويلة تتألف من ثمانين بيتا بعنوان « فرعون

والعرب » . وهذه القصيدة تتمتع باهمية كبيرة من حيث انها في رأينا ، تتناول برمزية الخديوي نفسه من خلال الرمز « فرعون » ، كما انها ترمز بمعاناة العربي ، كما يدعوهم تشابوبي ، في بناء الأهرامات الى معاناة العربي في شق قناة السويس :

كلهم حفاة عراة ، كما يبدو اليوم بعض الدراويش ،
يتغذون ويتعشون
الخبز والبصل ،
رجال ونساء دون تمييز ،
لا يستر اجسامهم شيء ،

وبهذه الرمزية ايضا يخاطب الشاعر تشابوبي العرب في مصر ، في الابيات الاخيرة من قصيدته حيث يحرضهم بالثورة على وضعهم المزري :

ايها العرب التعساء ،
طالما الفرعون حي يرزق
ستكونون له خدم
وستعملون في سبيله كما يريد

ومن الطبيعي ان يتعلق الشاعر تشابوبي بمصر ايضا ، ذلك الوطن الثاني الذي ارتبط به طيلة حياته تقريبا ، ففي مجموعته الشعرية الاولى « بابا توموري » نجد قصيدة بعنوان (مصر) يتحدث فيها عن مصر وعن نيلها ، الا انه يتوقف طويلا لدى معاناة ، « الفلاحين العراة الذين تحرق الشمس ظهورهم » والذين يعيشون في (اكواخ من الطين) إلخ ويبدي تشابوبي تعلقه بمصر في قصيدة اخرى من هذه المجموعة ، حيث وكأنه يردد فيها مايقوله المصريون « مصر ام الدنيا » :

من كل البلدان
مصر كانت وستبقى
افضل البلدان

....

وتفاعل عربي

بالاضافة الى هذه المؤشرات في الادب الالباني الحديث ، لدينا مؤثرات مصرية اخرى في الادب الالباني المعاصر ، تلك التي يمكن ان نسميها « موتيفات » مصرية ، والتي تطالعنا في الشعر الالباني المعاصر ، ويمكن بسهولة أن نعيد هذه الموتيفات الى تعلق الالبانيين بالعرب عامة ، وخاصة منذ الخمسينات ، التي حفلت باحداث هامة في العالم العربي ، ومن هنا لدينا عشرات القصائد عن الثورة الجزائرية وعن الجزائر وعن فلسطين والفلسطينيين الخ . ان هذه القصائد التي تحمل موتيفات عربية ، تنطلق من متابعة الالبانيين عموما ، وحتى الشعراء ، بكل مايحدث في البلدان العربية ، الشيء الذي ينطبق ايضا على مصر ، الشيء الذي يمكننا من القول بان الشعر الالباني من اغنى الاشعار الاوربية بالموتيفات العربية ، ومن هذه الحوادث ، التي تتحول الى موتيفات شعرية ، والتي تتعلق بموضوعنا ، يكفي ان نشير الى حادثة الهجوم الاسرائيلي الغادر على مدرسة بحر البقر الابتدائية في مصر ، في سنة ١٩٦٦ ، التي رآها تحولت الى هم شعري لدى الشاعر الالباني من كوسوفا ادم شكريلي Adem Shkreli (١٩١٦) . ففي ديوان هذا الشاعر « القلب الكثيف » نجد قصيدة بعنوان « حزن النيل » تتألف من ٣٨ بيتا ، وهذه القصيدة المؤثرة تتناول اطفال تلك المدرسة الابرياء وهم يستعدون للعودة الى بيوتهم بلهفة للقاء الاهل الذين ينتظرون عودتهم ، وبكل براءة يتابع هؤلاء الاطفال حكايتهم علينا :

نحن لم نتوصل ان نعرف بعد
كل الاشياء ،
نحن لم نعرف اكثر من ان نركض
خلف الفراشات
وخلف قوس قزح
من اين جاءت هذه الطيور المعدنية السوداء
التي زرعت فوق رموسنا اللهب ؟
يا خالة غولدا ويا عم موشيه
هل في داخلكم قلوب
ام ما الذي يملء صدوركم ورؤوسكم ؟

انسيتم
ان العالم كان معكم ،
سفح الدم والدموع
حين ارادت النازية
ان تمحوكم من الوجود ؟
الآن ،
نحن المذنبون القاصرون ،
اختفينا ولن يجدوا قط أشلاءنا
فهل يمكن ان تحفظينا في جوفك
اينها الارض ،
طالما اننا لم نرتكب بعد اي ذنب ؟

■■

برشتنا (يوغوسلافيا) د . محمد موفاكو

رسالة من امريكا

الدواء المعجزة
يبحث عن صك الإعتراف

بقلم : الدكتور السيد عمار

يطلقون عليه اسم الدواء المعجزة او الدواء المدهش واحيانا الدواء الساحر وماهو بدواء رسمي بعد .

انه مذيب عضوي يستعمل في ازالة الطلاءات وفي صناعة البلاستيك وفي اذابة الدهون والشحومات وتنظيف الملابس . ويعرف كيماويا باسم ثنائي ميثيل أوكسيد الكبريت (DIMETHYLSULFOXIDE) (D.M.S.O) ، انه في نظر المرضى الدواء الذي يشفي من كل داء وان كانت استعمالاته في العلاج غير معترف بها رسميا . هذا المذيب العضوي حضره كيماويا لاول مرة العالم الروسي الكسندر زايتسف في عام ١٨٦٧ باكسدة مركب كبريتي . وفي حالته النقية فهو سائل عديم اللون له طعم مر ويمتزج بالماء بسهولة .

وقد حضر مركب (D.M.S.O) وعلى مستوى صناعي في الاربعينات من هذا القرن حيث امكن الحصول عليه كناتج ثانوي في صناعة الورق من لب الخشب . ولم يحظ اى دواء في العصر الحديث بمثل ماحظي به هذا الدواء من مناقشات علمية ودعاية اعلامية حيث اصبح قضية علمية وقضية رأي عام ايضا . ولقد بدأت استعمالاته الحيوية كدواء عندما استعمل طبيا في الحفاظ على اعضاء الجسم المجمدة لنقلها الى مرضى يحتاجون اليها . وكذلك في الحفاظ على السائل المنوي للماشية من اجل التلقيح الصناعي . وكمذيب للادوية لتسهيل امتصاصها . ومنذ أوائل الستينات بدأ اجراء الابحاث على الدواء . ولوحظ انه عندما يدهن به الجسم فهو يزيل آلام الروماتيزم وآلام الظهر والمفاصل وجزع القدم وشد العضلات . واهتمت جامعة ولاية اوريجون بابحاث هذا الدواء واقامت لها مركزا علميا .

وأجريت تجارب على الحيوانات مثل الفئران والأرانب والكلاب والقرود لدراسة الآثار السامة لهذا الدواء ووجد أنه غير سام في الجرعات التي تعطي تأثيرا علاجيا .

وفي عام ١٩٦٤ اهتمت ست شركات أدوية عالمية باجراء الدراسات على المرضى تجريبيا وانعقدت ندوة دولية حول هذا الدواء الساحر في عام ١٩٦٥ ببرلين . ولكن هيئة الدواء والغذاء الامريكية (F.D.A) اوقفت تجريب هذا الدواء على المرضى في عام ١٩٦٥ نظرا لان النتائج التي أجريت على الحيوانات قد بينت ان دواء (D.M.S.O) يسبب آثارا ضارة على العين في بعض هذه الحيوانات وليست كل أنواعها .

نتائج مشجعة

ونظرا لان مجموعة كبيرة من الاطباء والباحثين

مقتنعون بفائدة هذا الدواء فقد واصلوا ابحاثهم واثاروا اهتام الدوائر العلمية بهذا الدواء المعجزة . فانعقد عام ١٩٦٦ مؤتمر دولي ثان تحت رعاية اكاديمية نيويورك للعلوم . اكد فيه الباحثون فاعلية هذا الدواء في العلاج . وفي نفس العام عقد مؤتمر دولي ثالث في فيينا بالنمسا تحت رعاية جامعة فيينا . واشار المؤتمر الى ان النتائج الأولية للأبحاث على هذا الدواء تعتبر مشجعة للغاية .

وطالب المؤتمرون باستمرار تجريبه على المرضى . وبعد عدة شهور وتحت ضغط الرأى العلمي والرأى العام وافقت ادارة الغذاء والدواء الامريكية على التصريح بتجريبه على المرضى مرة اخرى .... ونظرا لان اي دواء جديد قد يكون له تأثير نفسي على المريض يوحي اليه بالشفاء فان الهيئات المسئولة عن الدواء تتطلب اجراء دراسة مزدوجة عمياء . بمعنى أن يعطى لمجموعة من المرضى الدواء الجديد وتعطى لمجموعة اخرى مادة خاملة لا تأثير علاجي لها . ثم تقارن نتائج المجموعتين حيث لايعرف الطبيب او المريض الدواء الحقيقي من الدواء الخامل الا الذي يعرف ذلك افراد اخرون مشتركون في الدراسة . ونظرا لان الدواء يتحول في الجسم الى مادة لها رائحة الثوم تخرج مع نفس المريض وبذلك يمكن للمريض ان يعرف انه يعالج بالدواء الجديد .فقد قررت الجهات المسئولة وقف اجراءات استعمال الدواء الجديد وعدم التصريح به سوى في حالة واحدةوهي علاج التهابات المثانة البولية وذلك عن طريق حقنه في مجرى البول حيث يصل الى المثانة ويتخللها بسرعة كبيرة وينتشر بين خلاياها . ويزيل الالام من نوع معين من التهاباتها لايمكن لاى دواء آخر ان يفيد في علاجها . وانتج دواء (D.M.S.O) لهذا الغرض فقط تحت اسم ريمسو-٥٠ (RIMSO 50) .

ورغم ذلك فقد استمرت ابحاث العلاج بذلك الدواء في بلاد كثيرة في العالم وفي ولاية اوريجون الامريكية وفي ولاية فلوريدا حيث لايلزم القانون الفيدرالى الولايات بعدم استعمال الدواء تجريبيا ويعتبرها مسئولة عن موقفها .

وفي دراسة أجريت على ٤١٨٠ مريضا وجد ان استعمال الدواء موضعيا بدهانه على الجلد لم يسبب آثارا ضارة سوى التهابات جلدية طفيفة . ولم تحدث اى تغيرات في الدم وكذلك لم توجد آثار ضارة على عدسة العين في المرضى الذين عولجوا لمدة عامين بهذا الدواء .

واجريت دراسة في اليابان على ٢٧٤ مريضا بالروماتيزم والتهابات المفاصل باستعمال هذا الدواء كدهان للجسم في تركيزات مختلفة ٩٠٪، ٧٠٪، ٥٠٪ ووجد ان المرضى الذين عولجوا بتركيز ٧٠٪ قد تحسنوا تحسنا شديدا بكل المقاييس مثل عودة حركة المفصل وازالة الآلام .

وكذلك اجريت مثل هذه الدراسة على المرضى بآلام العضلات والعظام من مناطق العنق والظهر والجزع والاصابع في اليد والأرجل ووجد ان دهان موضع الآلام بحوالي عشرة ملليمترات اى حوالي ملء ملعقتى شاى من محلول ٧٠٪ (D.M.S.O.) ثلاث مرات يوميا له تأثير درامي في ازالة الآلام في اكثر من ٨٠٪ من الحالات في خلال ٢٤ ـ ٤٨ ساعة . واثبتت دراسات عديدة ان الدواء مخدر موضعي ومفيد في حالات تمزق اربطة العضلات وتيبسها . كما انه مفيد في علاج التهابات الأذن الوسطى . كما ان دراسة اجريت على حالات احتقان الخصيتين التي تسبب آلاما شديدة لايستطاع معها ممارسة الجنس اثبتت ان دهان الخصيتين بذلك الدواء قد ادى الى علاج هذه الحالة .

ومن ناحية اخرى برهنت الدراسات على ان دواء (D.M.S.O) قاتل للبكتريا وله بعض خصائص المضادات الحيوية وانه مفيد في علاج التهابات العينين . كما وجد انه مدر للبول .

واجماع علمي

وفي الابحاث التي اجريت على علاج سرطان عنق الرحم وجد ان استعمال الكورتيزون مع الدواء قد زاد من فاعلية الكورتيزون وزاد من نسبة الشفاء من سرطان الرحم .

وامتدت الآثار العلاجية للدواء الى العمليات الجراحية . حيث وجد ان دهان موضع الجرح الناتج عن العملية به يزيل الآلام ويساعد على الحركة الطبيعية للمرضى كما أنه يقلل من احتياجهم للمورفين لازالة آلام مابعد الجراحة .

واغرت كل هذه الفوائد العلاجية لهذا المذيب العضوى الكثير من الاطباء والباحثين الى مزيد من البحث لكشف خصائص هذا الدواء المعجزة والدواء الساحر كما يسميه كثير من الاطباء والمرضى .

وثبت انه يوسع الأوعية الدموية ويسبب زيادة الدورة الدموية في العضلات والجلد واطراف الاصابع مما يساعد على ازالة الألم وعودة الحركة الطبيعية لهذه الاعضاء .

واكتشفت ايضا خاصية علاج تقرحات الجلد به حيث انه بفاعليته ضد البكتريا وتوسيعه للأوعية الدموية قادر على علاج القرحة الجلدية بسرعة كما انه يعالج الحروق .

وفي دراسة اجريت على ستين مريضا بالصداع نتيجة لالتهابات الجيوب الأنفية او التهابات عصبية وجد ان استعمال دواء (D. M. S. O) كدهان للوجه والعنق او كنقط للانف له مفعول السحر في علاج هذا النوع من الصداع .

كما أثبتت دراسات عديدة ان الدواء له خاصية علاج الفطريات التي تنمو بين اصابع الأرجل او من مناطق اخرى من الجسم .

ان الاجماع العلمي على فائدة الدواء لانظير له وهو ان ٩٠٪ من الدراسات التي بلغت مايقرب من ٥٠٠ بحث قد اكدت فاعلية الدواء العلاجية ، وانه احسن من العلاج بالاسبرين ومشتقاته والكورتيزون والعلاج الطبيعي والراحة والاربطة الضاغطة في علاج آلام العضلات والعظام .

ولقد توقفت لهفة المرضى على هذا الدواء لمدة عشر سنوات حيث عادت في العام الماضي المطالبة باستعماله من جانب الاطباء والمرضى . ولكن الحكومة الفيدرالية في امريكا مازالت مصرة على عدم التسرع باستعماله . واتجه المرضى الى مستشفى جامعة اوريجون الذي يعالج بهذا الدواء ، واجمع المرضى جميعا على تحسنهم الشديد وشفائهم من الامهم ، وقاد العلماء المقتنعون بفائدة هذا الدواء العلاجية حملة اعلامية ضخمة في الصحف والاذاعة والتلفزيون ضد ادارة الغذاء والدواء الامريكية ، ومما زاد لهيب هذه الحملة ان جورج والاس حاكم ولاية الاباما السابق المرشح المستقل سابقا لرئاسة الحكومة الامريكية والذي اطلق عليه الرصاص فأقعده عن الحركة وألزمه الكرسي المتحرك ، قد ذهب الى ولاية اوريجون للعلاج بدواء (D. M. S. O) وقد يكون من المصادفة الغريبة انه اعلن مؤخرا ـ اي بعد علاجه بالدواء المعجزة بعدة شهور ـ زواجه من حسناء في نصف عمره وهو في الستينات !

تحايل للحصول على الدواء

ونظرا لعدم وجود هذا الدواء بالصيدليات فقد لجأ المرضى الى الحصول عليه من مصادر اخرى وهي محال بيع المواد الكيماوية التي تبيعه للاستعمالات الصناعية .

ونظرا لشدة إقبال المرضى على هذا الدواء فقد ارتفعت اسعاره في محلات الكيماويات ارتفاعاشديدا وبلغ سعر نصف اللتر من هذا المذيب العضوي عشرين دولارا . بينما سعره الحقيقي اقل من ذلك بكثير جدا . ولقد لجأت مخازن بيع المواد الكيماوية الى اساليب جديدة للدعاية لهذا الدواء بحيث لاتقع تحت طائلة القانون وعلى ذلك فقد عمدت الى ان يعلن عن وجود الدواء في صورة نقية وفي تركيز ٧٠٪ وهو التركيز المناسب للعلاج كما عمدت الى ان تكتب على الزجاجات او عبوات البلاستيك انها ليست للعلاج الطبي . وهي تعلم علم اليقين بانها ستذهب كلها للمرضى المتلهفين على العلاج الساحر المدهش .

وأذكر ، في غمرة التزاحم على العلاج بهذا الدواء الذي لم يقنن استعماله بعد ان اصيب احد الزملاء بجرح في قدمه وتمزق في العضلات وهو يلعب التنس . وظل يعاني من الآلام رغم استعماله الادوية العادية دون تقدم سريع وفاعلية قائلا لماذا لانجرب ذلك الدواء المعجزة وسارع بدهان مكان الآلام بهذه المادة الكيماوية وبعد ٢٤ ساعة عادت قدمه الى حالتها الطبيعية وقررنا ان نجرى ابحاثا على الدواء وذكرني ذلك بالدراسات التي اجريت على المرضى الذين عولجوا بالدواء الجديد والمرضى الذين عولجوا بالادوية الكلاسيكية التقليدية ، ووجد ان المرضى الذين عولجوا بدواء (D. M. S. O) قد حصلوا على اجازات مرضية اقل من المرضى الاخرين وبالتالي فان انتاجهم وعملهم قد زاد نتيجة للعلاج بهذا الدواء الجديد ، وقد لايكون من المتناقضات ان كندا سمحت باستعمال هذا الدواء في حالات تيبس العضلات وجمودها والمعروفة باسم (SCLERODERMA) .

كما ان امريكا وافقت على استعمال هذا الدواء في علاج الجياد من آلام العضلات وسمح للاطباء البيطريين بوصفه للخيل لتخفيف آلامهم . وتشتد الحملة الآن من جانب العلماء ومن جانب الرأي العام للضغط على ادارة الغذاء والدواء بالتصريح باستعمال الدواء لعلاج المرضى من البشر ، ان لم يكن لفاعليته وخواصه العلاجية فربما لمساواة البشر بالجياد في العلاج بهذا الدواء الساحر ، وربما تستثنى من ذلك السيدات في مرحلة الحمل حيث وجد ان ذلك الدواء قد يسبب آثارا ضارة وعيوبا خلقية في أجنة حيوانات التجارب ، وان كان ذلك لم يحدث في الانسان بعد . ■■

ولاية اوهايو ـ د . السيد عمار



المسرح الإنجليزى :
ماذا بعد الإحتجاج ؟

بوادر ثورة المشاهدين على البذاءة والاباحية

بقلم جمال الكتانى

الأمر الذى لا يدركه الكثيرون أو يتعرض النقاد لتفسيره هو أن المسرح الغربى قد اصبح اليوم المجال الأدبى الذي يجذب من شباب الكتاب كل من يحس أن عنده ما يقول ، أو يريد أن ينقل رسالة الى الجماهير التى تتكلم الانجليزية ، وبذلك احتل المسرح تلك المكانة التى كانت تحتلها الصحافة والرواية الطويلة من قبل . ونتيجة ذلك أن المسرحيات البريطانية المعاصرة قد سيطرت فى السنوات الأخيرة على مسارح برودواى فى نيويورك ، وكل مسرح جاد فى أوروبا . ولم يدرك الناس بعد الابعاد الكاملة لما أخذ المسرح البريطانى من تطور خلال العشرين سنة الأخيرة ... فعلى حين ان الغالبية من أهل الانجليزية تعرف الكثير عن جون أوزبورن وتمثيليته « الشاب الغاضب »

وعن أورنولد وسكر صاحب حوض المطبخ وعن الألاعيب اللفظية التى سخرهاه هارولد بينتر » الا أن أحدا لم يقدر أن يقيم أثر هذه المدرسة ... مدرسة « المحتجين » على خلفهم وعلى مستقبل المسرح بأسره .

نجح خلفاء مدرسة أوزبورن « المحتجون » فى بناء أساليب جديدة وصنعة جديدة ...ونجحوا فى توسيع وتغيير نواحى الحياة التى يمكن معالجتها على المسرح وجعلوها أقرب ما تكون للحياة الحاضرة ومشاكلها ، وبذا وضعوا أسسا جديدة للدراما البريطانية .

وليس بين الجيل الجديد من كتاب المسرح من لا يعترف بأثر أوزبورن وبينتر وما لهم من فضل فى خلاص المسرح واعتاقه من نير القواعد القديمة .

تأثيرات واضحة

ولقد صرح ديفيد مارمت الكاتب المسرحى الأمريكى الذى ذاع صيته عام ١٩٧٧ بأنه يتعذر على أى كاتب مسرحى أمريكى معاصر أن يتجنب أو يتفادى أثر كتاب المسرح البريطانى من أمثال بينتر وستورى .... ويجدر بنا فى هذا الصدد أن نقول أن أوزبورن كان أقل أثرا على المسرح الامريكى ، لأن كتابا أمريكيين مثل تنسى وليامز . وارثر ميللر نقلوا الى مسرحياتهم لغة الحانات والشوارع ...

كانت لغة المسرح قبل أوزبورن هى اللغة الرقيقة المهذبة ... لغة الطبقة الوسطى ، فاذا اضطر كاتب مسرحى الى استعمال لغة الطبقات العمالية مثلا فانه كان يهذبها ويصقلها الى أبعد حد ممكن . والفضل للكاتب المسرحى بينتر فى تعريفنا كيف تستعمل اللغة بصورة غير واقعية ، أو بصورة غامضة تدعم الأثر الدرامى وتقويه وهى صنعة فى الكتابة احترفها الكثيرون بعد ظهورها .

لقد زاد مؤخرا عدد كتاب المسرحية فى بريطانيا ، كما زاد انتاجهم بدرجة مذهلة حتى لا يكاد الناقد المسرحى المتمكن أن يلم بكل ما يكتب هوارد برنتون أو هوارد باركر ، أو يحدد الفرق بين مايكتب هذا أو يؤلف ذاك . فالتشابه القوى يعم كتاب هذه الحركة المسرحية الجديدة التى يطلق عليها اسم « الدراما الجديدة ... ويخرج على هذا التعميم كاتب مثل بيتر ترسون صاحب تمثيلية « زيجار .. زاجار » وتعتبر مسرحية كلاسيكية تستعين بأغانى « الميوزيك هول » لترسم صورة قوية لحياة شباب المدن الذين يشجعون نوادى كرة القدم ، وما يسود حياتهم من فراغ وخواء وملل وتذمر .... ويخرج على هذا التعميم أيضا كتاب تعتبرهم على هامش هذه الحركة الأدبية من أمثال ناجل بولدوين ورتشارد كرين وبارى كيف وغيرهم .

من السهل أن نتعرف على الدراما البريطانية الجديدة وليس من الميسور أن نقدم لها تعريفا دقيقا .... كانت التمثيليات المثيرة التى تعرض على المسرح البريطانى قبل ظهور أوزبورن ، ووسكر وبنتر تأتى كلها تقريبا من نيويورك وباريس . أما اليوم فتكاد أن تكون جميعا من أصل بريطانى . والعكس صحيح اذ تسيطر المسرحية البريطانية حاليا على نيويورك وباريس ، على عكس ما كان مألوفا منذ ربع قرن ، حين كان ارثر ميللر وتنسي وليامز وجان بول سارتر وغيرهم يسيطرون على مسارح العالم الغربى رغم أنهم عاصروا عددا من كبار كتاب الانجليز من أمثال بريستلى وراتيجان ممن كانوا يكتبون باسلوب زالت عنه لعتبه لأنهم كانوا يتمسكون بالكتابة عن الطبقة الوسطى فى بريطانيا ، وما لها من قيم ليرالية ومدركات فلسفية ، ويصرون على معالجة الاسرة التقليدية والمشاكل العائلية ... وكانت التمثيليات اذ ذاك تكتب باسلوب مهذب لا يتعرض لمناقشة المحرمات من أمثال الجنس أو الدين أو المؤسسات التقليدية فى البلاد .

كانت تلك التمثيليات تكتب بأساليب مسرحية تقليديةتقتضى مناظر واقعية وتحتوى على عقد حسنة الاعداد والتنظيم ، ولها خاتمة منطقية معقولة . والحاصل أنها كانت تمثيليات محبوكة تقدم على مسرح تقليدى له أنواره التقليدية وستاره الأمامى .

تهمة الرواية المحبوكة

وتغير ذلك كله الآن ... صحيح أن جمهور المسرح ما زال الى حد كبير ينتمى للطبقة الوسطى ، الا أن الغذاء الأساسى لهذا الجمهور هو المسرحية التلفزيونية أكثر من تمثيلية المسرح .فالجيل الجديد من جمهور المسرح يتربى على شاشة التلفزيون منذ الطفولة وقبل أن تكون له القدرة على زيارة المسرح ... لهذا فمن واجب المسرح أن يقدم لهذا الجمهور شيئا جديدا مثيرا شيئا مختلفا مغايرا للمألوف ... شيئا أكثر مسرحية يطمئن اليه الجمهور ويحطم الحواجز التى كانت الى حد ما ، تفصل المسرح عن جمهوره ...

الكاتب المعاصر حر فى أن يغير الحركة من مكان الى مكان ، وأن ينقل الزمان من الحاضر الى الماضى أو

المستقبل ... من أى زمان وأى مكان الى أى زمان وأى مكان آخر شاء .. .. فعنصر الاثارة فى المسرحية المعاصرة والترفيه والتسلية أهم ألف مرة من تطوير عقدة المسرحية بصورة مستمرة .. .. والمؤثرات البصرية الدرامية والحوار الفكه خير من أى نقاش منطقى ... وبذا تصبح عبارة « رواية محبوكة » سبة لأى تمثيلية .

والمخرج الجديد يعمد الى تذكير جمهور المشاهدين بأنهم داخل المسرح ، وأن التمثيلية فى متناول كل منهم .. .. ومن المخرجين من يجعل التمثيلية فى متناول الجمهور فعلا ، وذلك بابراز خشبة المسرح بحيث يحيط بها الجمهور من ثلاث جهات أو يحيط بها الجمهور احاطة تامة . والمسرح الجديد فى مدينة مانشستر أشبه ما يكون بحلقة « السيرك » ، وفى لندن وغيرها عديد من هذا النوع من المسارح .

وليس هذا الطراز من المسارح جديدا أو مبتكرا فهو قديم قدم المسرح الاليزابيثى ، منه ما يرجع الى ابتكار الأمريكيين والأوروبيين . أما الذى ماز مسرحيات « الدراما الجديدة » فهو مادتها ومحتواها وليس اسلوبها . فمسرحية « الشباب الغاضب » لاوزبورن مكتوبة بالصورة التقليدية ولها عقدة منطقية التطور يسهل تتبعها . أما ما فيها من جديد فهو صراحة لغتها ونقدها الصريح الصارخ للمؤسسات التقليدية ، وبطلها المفكر المفوه الذى ينتمى لطبقة العمال .

ولقد أصبحت مادة المسرحية البريطانية اليوم أكثر ثورية وأشد هجوما على التقاليد والطقوس الدينية ، وتمادت فى ذلك الى درجة لم تعرف فى أى دولة أخرى . ولعل السبب هو أن الدول الغربية الأخرى لم تمارس ثورة اجتماعية قوية كاملة كتلك التى شهدتها بريطانيا خلال العشرين سنة الماضية .ولعل الشعور بالقنوط وبحتمية القضاء مما استولى على بريطانيا لم يتسرب أو يمتد الى غيرها من الدول الغربية .

ولقد تحدث كتاب المسرح البريطانيون عن افلاس بريطانيا وانهيارها الأخلاقى قبل أن يتحدث غيرهم عن افلاسها وانهيارها الاقتصادى بفترة طويلة . وتنبأ بعض هؤلاء الكتاب بانهيار النظام السياسى والاقتصادى انهيارا كاملا .. ومنهم من هلل لذلك ومنهم من انفطر قلبه أو ساوره القلق .

ثورة المسرح

أما الناحية الثورية فى المسرح البريطانى فى السنوات الأخيرة فمرجعها أن العديد من خيرة الكتاب البريطانيين يرفضون الأساس الذى يقوم عليه المجتمع فى بريطانيا .فهم لذلك لا يسعون وراء تحسينه ولكن وراء تدميره دون أن يرسموا صورة بديلة لمجتمع جديد ...فالذى يعنون به هو انتقاد المجتمع القائم . وحتى من يرغب من هؤلاء الكتاب فى الابقاء على المجتمع بدلا من تدميره ، وهم الفريق الذى ينادى بالتطور بدلا من الثورة ، فانهم بدورهم قد شكلوا ، شعوريا أولا شعوريا جزءا من « مسرح الاحتجاج » ... فعلى الرغم من تفاوت أساليبهم واتجاهاتهم نجد أنهم جميعا يحتجون ... يحتجون على المجتمع .. ويحتجون على الطريقة العقيمة التى على أساسها يتغير المجتمع ... يحتجون على الاتجاه الذى يتغير المجتمع نحوه .

ولا يخلو هذا الموقف من سخرية .. فالمؤسسات التى يهاجمها المحتجون هى نفسها التى يسرت لهم سبل النجاح .. فليس من بين كتاب المسرح الجدد الا حفنة تعد على الأصابع كان يمكنهم أن يكسبوا قوتهم بالتنفيس عن آرائهم على صفحات الجرائد أو عن طريق كتابة الروايات الطويلة ... فالجو الاقتصادى المعتم الذى يغلف بريطانيا حاليا يجعل هذه المنافذ غير عملية أو مربحة . أما المسرح ، وهو مصدر رزقهم ، فتعينه الحكومة ومجلس الفنون والمجالس الاقليمية والشركات بمبالغ ضخمة ...

ولقد أصبح الاحتجاج أسهل مما كان من قبل ، بل قل انه أصبح مباحا بعد الغاء سلطة الرقابة على المسرح عام ١٩٦٧ ... وكان من المحرم قبل ذلك التاريخ استعمال أى لغة اباحية نابية على المسرح .. وكانت بعض الفاظ السباب محظورة ولم يكن اللواط والسحاق من الموضوعات التى يجوز معالجتها على المسرح ، بل ان تصوير الجنس كان محظورا بكامله ، وكان العرى غير مسموح به اطلاقا ، كما كانت النكت والفكاهات ضد طقوس الكنيسة مما يعاقب عليه القانون .

وعلى الرغم من أن هناك قوانين تحرم بعض ما ذكرنا ، الا انها لا تطبق حاليا على المسرح وظهرت بعد الغاء الرقابة عام ١٩٦٧ مسرحيات مليئة بالفاظ العيب والسباب تناقش اللواط والسحاق وتعرض النساء العاريات على المسرح وكأن هذه الاتجاهات أمر يفرضه الفن المسرحى أو يقتضيه . وبدا وكأن الكتاب والنقاد والمخرجين يجمعون على أن الفحش فى القول والتناهى فى الاباحية هو غاية المراد وأعلى مراتب الأدب .. ولسنا نفكر هنا أن هذه الحرية الجديدة قد مكنت الكتاب من طرق مواضيع كانت تهمهم حقا وتشغل بال الشعب البريطانى بدرجة متزايدة .. ..طرق الكتاب هذه المواضيع وعالجوها

بطريقة واقعية طبيعية ، واستطاع الكتاب الجدد من اتباع مدرسة « الدراما الجديدة » أن يناقشوا وأن يرفضوا القواعد التقليدية الخاصة بما يتعلق بالجنس وتقاليد الزواج وحياة الاسرة . وأخذ هؤلاء الكتاب يسخرون من زعماء المؤسسات السياسية والاجتماعية والدينية وينعمون بما نالوا من حرية جديدة .

تحطيم القيم

كان في تحطيم ما أطلق عليه برنارد شو عبارة « أخلاق الطبقة الوسطى » ما يعكس أكبر تغيير دخل على الحياة الاجتماعية منذ الحرب الكونية الثانية . ونعني بذلك تحطيم الفوارق بين الطبقات وزيادة الحركية الاجتماعية بدرجة مذهلة . فلم تعد المدارس الخاصة المكلفة ـ مثل ايتون ورجبي وهارو ـ شرطا أساسيا لازما لدخول الجامعات « الممتازة » . اكسفورد وكمبرج ..ولم تعد الدرجات التي تمنحها هذه الجامعات هي دهليز القوة الذي يوصل لأعلى المناصب .

عدد كتاب المدرسة الجديدة .. « مدرسة الدراما الجديدة » عدد ضخم من كتاب متكافئين يتعذر علينا أن نقدم منهم واحدا على واحد .. ولذا نختار عددا منهم بطريقة عشوائية ، فنتحدث عن هوارد برنتون الذي سبقت الاشارة اليه ...

هو هوارد برنتون من مواليد بورتسماوث عام ١٩٤٢ ... واصل تعليمه حتى تخرج في جامعة كمبردج .. وعمل مديرا مساعدا في عدد من المسارح .. ثم اختار أن يكرس كل وقته لكتابة المسرحيات وبعض السيناريو للسينما .. وفاز بجائزة جون وايتنج عام ١٩٧٠ ... له مؤلفات عديدة اشهرها « انتقام ١٩٦٩ » وكريستي العاشق ١٩٦٩ » ، الاسلحة والسعادة ١٩٧٦ » و « أبرم دوانز ١٩٧٧ » .

وبرنتون ، مثل صاحبه من نفس مدرسة « تريفور جريفت » كاتب سياسي متطرف في يساريته برم ببلاده بريطانيا كما هي اليوم ، ولكنه لا يعتمد في تعبيره عن سخطه على حوار عقلاني ، بل على الخيال والمؤثرات البصرية المسرحية يصور بها ما يريد أن يقول . وكثيرا ما يكون حواره متكلفا مصطنعا سيرياليا يحاول من خلاله أن يظهر الناس على حقيقتهم وهم يستترون وراء غشاء أو غلالةمن السلوك التقليدي والحديث المهذب ... ويعتبر برنتون عبدا لوسواس العنف الذي يكمن متحفزا تحت جلود من يتظاهرون بمناصرة النظام والقانون ، ووسواس الطريقة التي بها يجمع هذا العنف المكبوت بين الظالم والمظلوم ، بين العامل المجد الكادح والمجرم ، بين رجل السياسة ورجل الشرطة وفي نتيجة هذه المحاولة ما يعتبر طريفا مخيفا في آن واحد .

أول ما ظهر لهذا الكاتب على مسارح لندن تمثيلية بعنوان « انتقام » تعتبر شخصياتها ولغتها أصيلة للغاية ولكنها سرعان ما تصبح عادية مألوفة ، وهذا في الواقع شأن كل ما يكتب برنتون .

والعنف والفكاهة التي تطمس معالم ما تنطوي عليه من نقد اجتماعي ... وهذه ظاهرة تتجلى كذلك في مسرحيته « كريستي العاشق » وهي مسرحية يتحدث فيها الكاتب عن مجرم سفاح حقيقي عاش غير بعيد من دار الكاتب وقتل عددا من النساء ودفن جثثهن في بيته ... في هذه المسرحية يهتم برنتون بالعلاقة بين المجرم ورجل الشرطة .

وبرنتون كغيره من العديد من الكتاب اليساريين يرفض الاصلاح الاجتماعي التدريجي الذي تحققه الحكومات العمالية في بريطانيا « نحن لا نرى من التقدم الا سرابا ، خادعا للبصر فالظلم الاجتماعي ما زال قائما ونسبة الأغنياء للفقراء لم تتغير منذ عشرين سنة » ... وهو يدعي معرفة طريقة تحقق العدل الاجتماعي ولكنه يرى أن يهتدي المصلحون « بكابوس تاريخ أوروبا ، أرض المعركة القديمة ، والتقاليد الشيوعية ... من الناس من يتطلع الى الصين كمثل أعلى لأنها من بعيد تبدو نقية صافية ... ولكننا أوروبيون ... واجبنا أن نتعلم من أوروبا » ... ويحاول برنتون في مسرحيته « أسلحة السعادة » أن يصور عاملا شيوعيا دربا محنكا ، وهو يقدم النصح لعامل بريطاني عديم التجربة .

بين الاصلاح والثورة

أما ثاني من أشرنا اليهم من كتاب هذه المدرسة فهو هوارد باركر ، من مواليد لندن عام ١٩٤٦ ... كان أبوه عاملا في أحد المصانع .. تعلم هوارد باركر في جامعة ساسكس وحصل منها على درجتين في التاريخ .. مارس كتابة الشعر والقصة القصيرة والرواية الطويلة وهو بعد في المدرسة والجامعة ... « فلما رأيت مسرحية ادوارد بوند وعنوانها « المنقذ » طاف بخاطري انى أستطيع أن أفضلها » .

واقترح بعضهم على أن أكتب تمثيلية للراديو ففعلت .. وتفرغت للكتابة منذ عام ١٩٧٠ اكسب قوتي

من وراء ما أكتب من تمثيليات اذاعية وسيناريو للسينما ... وتذكرت مسرحية بوند فكتبت مسرحية تعارضها .. » وكتب الكثير بعدها مثل « شمع ١٩٧٦ » « مذبحة عادلة ١٩٧٧ » وما بيننا من خير ١٩٧٧ » .

أهم مسرحيات باركر .. أو ان شئت من أهم مسرحياته « الفا الفا » وهى عبارة عن شقيقين يعانيان من عقدة « أوديب » قررا فى عزم أن يتحديا المجتمع ... ومن الواضح أن المؤلف يشير الى مجرمين شقيقين من أخطر مجرمى بريطانيا اسمها « الأخوان كراى » ... يستعمل المؤلف فى هذه المسرحية لغة مقذعة غاية الاقذاع نابية كل النبو وخاصة حين يبحث الشقيقان فكرة سفاد أحدهما على الآخر .. وبعد أن يتم لهما ذلك تهدأ أعصابهما .. فاذا ما قام بينهما عراك استعملا من لغة السباب مالا يخطر على عقل غير منحرف ... ويحاول باركر أن يلقى تبعة انحراف الشقيقين واجرامهما على حرمانهما فى الصغر وبالتالى على المجتمع الذى يعتبر مسئولا عنهما .

من كتاب « الدراما الجديدة » نذكر كذلك تريفور جريفت . من مواليد مدينة ما نشستر عام ١٩٣٥ ومن خريجى جامعة مانشستر ... الف العديد من المسرحيات ، منها « الوظائف ١٩٧١ وجميع الطيبين ١٩٧٥ » والكوميديون ١٩٧٦ ... ويعتبر كما أسلفنا كاتبا سياسيا تدور مسرحياته حول موضوع الاشتراكية وتهتم بالناس والمشاكل التى يواجهونها . وهم يحاولون التوفيق بين مثلهم العليا وبين واقع الحياة التى يعيشونها وحاجتهم الى حياة خاصة مرضية رضية . فالمثل العليا راديكالية دائما ، سياسية عادة ... والمسرحيات غالبا ما تحتوى على خطب ومواعظ دون ان تعتبر مسرحيات وعظية ، ويتوقف نجاحها أساسا على المهارة التى بها يستطيع جريفت أن يوازن بين المشاكل السياسية والعملية والعاطفية وأن يعرض شخصيات تمثيلياته عرضا عميقا كاملا .

ويفترض جريفت أن الاصلاح أو الثورة الاجتماعية تستأهل أن نكافح من أجلها ولكنه يؤكد صعوبة ، أو حتى استحالة ، تحقيق ذلك الاصلاح .

ونلحظ فى مسرحيات جريفت ترابطا بين الجنس والسياسة وافراطا فى استعمال كلمات معينة نابية تشير الى أعضاء التناسل وغيرها ... ولعله هو من بين كتاب هذه المدرسة الجديدة من يمثل مجتمع الاباحية أصدق تمثيل .

البندول يتراجع

الدراما البريطانية على تنوع مواضيعها وتعدد اساليبها تشترك فى شىء واحد ... كتاب المسرح جميعا يعبرون عن الشك والقلق تجاه حالة بلادهم ، دون أن يتقدموا بأى حل جاهز للمشاكل التى تواجهها بلادهم ، كما أنهم لا يقدمون لجمهورهم وصفة شافية تمكن الناس أن يعيشوا حياة أفضل بل ويرفض هؤلاء الكتاب أن تنتهى مسرحياتهم نهاية واضحة قاطعة حاسمة ، ويؤثرون أن تكون النهايات غامضة مائعة .

هناك علامات تنبىء بان بندول المجتمع البريطانى ينحرف ثانية تجاه اليمين ، وأن الناس قد بدأت تثور على ما ساد المجتمع من اباحية ... وهناك حاليا رغبة أكيدة فى أن يعود المجتمع الى قواعد تطبق على الأخلاق والسلوك بكل صراحة ... وقد ينعكس ذلك كله على المسرح فى القريب ... ومن يدرى ؟ وقد تظهر مدرسة جديدة محافظة تعارض المدرسة المعاصرة ، يعود كتابها إلى الاسلوب التقليدى المألوف فجمهور المسرح يطالب بأن تعود للمسرحيات عقدها المنطقية وبناؤها المألوف .

ولقد دهش النقاد المحترفون لما لم يطل دوام ثلاث من أقوى مسرحيات الدراما الجديدة على المسرح وهى « الكوميديون » لجريفت و« اسنان وابتسامات » لديفيد هير « وسكر المدينة » لبوليا كوف .. هذه المسرحيات الثلاث فشلت ولم تعمر على خشبة المسرح الالفترات جد محدودة . ورد البعض ذلك لخلوها من أى بناء أو عقدة أو نتيجة تنتهى إليها ، فالفكاهة وحدها لا تكفى لارضاء الناس .. فجمهور المسرح فى أكثره يؤثر المسرحيات المحبوكة .

على الرغم من الأزمة الاقتصادية التى تمر بها بريطانيا حاليا ، وعلى الرغم من أن المعونة المالية التى تقدمها الحكومة البريطانية للفنون قد تتدهور ، فان الأمل ما زال معقودا على أن يستمر كتاب المسرح فى الكتابة ...

ويقينى أن مسرحيات الغد قد تشكل ثورة جديدة ، أو قد تتجه الى معارضة الثورة الحالية وتنصرف الى فحص ما قد تحقق والبحث عن الوسائل الذى تجعله مقبولا لعدد أكبر ، أو لأكبر عدد من رواد المسرح ■■

لندن ـ جمال الكتانى

بينما العسر إذ دارت مياسير

بقلم : محمد خليفة التونسي

أشرنا في العدد الماضي « ٢٧٥ ـ ص١٠٠ » الى كلمة « بين » ومعانيها وأصلها مصدرا ، وتطورها ظرفا للزمان ، أو للمكان ، أو لشبهه ، واستعمالها مفردة ومكررة ، ونشير هنا الى صورتين اخريين لها ، هما « بينما » و « بينا » وكلتاهما تدل على اقتران شيئين في لحظة زمنية قصيرة واستعمالها يختلف عن استعمال « بين »، وقد وردت « بين » بجميع معانيها عشرات المرات في القرآن الكريم ولم ترد فيه الكلمتان الأخريان ، وان وردتا في عشرات من الأحاديث النبوية والنصوص الأدبية الفصيحة شعرا ونثرا كما سنمثل لها هنا .

وأصل الكلمتين هو كلمة « بين » ، فأما « بينما » فاتصلت بها « ما » كما اتصلت في كلمات اخرى مثل : حيثما ، طالما ، كلما ، كيفما ، عندما ، أينما ، متى ما ، لما ، ريثما ، ربما (بتشديد الباء او تخفيفها) ، ربتما ، انما ، لكنما ، كأنما ، ليتما ، لعلما . .

واما « بينا »، فامتدت فتحتها الأخيرة ، فصارت ألف مد .

بينما

تستعمل « بينما » كاستعمال « كلما » ، « ولما » ، و « حينما » ، و« اذا » وكلها تدل على اقتران شيئين زمنيا : أحدهما شرط ، والثاني جوابه ، ويليها الشرط دائما ، ويكون لها صدر الجملة الشرطية ، او ابتداؤها .

اما الشرط الذي يليها فيكون جملة فعلية أو اسمية ، أو مبتدأ لا خبر له .

فمثال الجملة الفعلية قول عمر بن أبي ربيعة :

بينما ينعتنني أبصرنني
دون قيد الرمح يعدو بي الأغر[1]

والجملة الاسمية قد تبدأ بنكرة او معرفة ، فالنكرة كما في الحديث « بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق ، فأخره ، فشكر الله له ، فغفر له ».

والحديث : « بينما ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر » والمعرفة قد تكون اسما ظاهرا كقولنا « بينما محمد يسير على شاطيء البحر اذا حوت يسبح »

وقد تكون المعرفة ضميرا كقول النبي عليه السلام « بينما أنا نائم رأيتني أطوف بالكعبة فاذا رجل آدم »

وكقول شاعر من بني أمية أيام دولتهم في دمشق :

بينما نحن بالبلاكث فالقا
ع سراعا ، والعيش تهوي هويا
خطرت خطرة على القلب من ذكراك
يوما فما استطعت مضيا
قلت « لبيك » اذ دعاني لك الشو
ق وللحادين « حثا المطيا »[2]

وقد يقع بعدها اسم مبتدأ بلا خبر» مثل « « لولا » كما في البيت الأول من البيتين الآتيين :

(١) أي بينما يتحدثن بوصفي رأينني قريبا منهن ، يجري بي حصاني « الأغر » .

استغفر الله خيرا وارضين به
فبينما العسر اذ دارت مياسير(٣)
وبينما المرء في الأحياء مغتبط
اذ صار في الرمس تعفوه الأعاصير
تبكي عليه ـ وقد امست حليلته
وذو قرابته في الحي مسرور

بينا

ويقال في « بينا » ما قيل في « بينما » وهذه أمثلة لها

١) الحديث : بينا رجل بفلاة من الأرض ، فسمع صوتا .

٢) بينا أنا نائم رأيتني في الجنة .

٣) قول الحرقة بنت النعمان بن المنذر ملك الحيرة في الجاهلية بعد قتل كسرى لأبيها وذهاب ملك أسرتها .

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا
اذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فأف لدنيا لا يدوم نعيمها
تقلب تارات بنا وتصرف

٤) قول امرأة تسمى أم العلاء من بني غني كانت تعشق فتى من بني هلال فضاع منها :

تكنت كفيء الغصن بينا يظلني
ويعجبني إذ زعزعته الأعاصر

٥) قول شاعر جاهلي

فبينا الفتى في ظل نعماء غضة
تباكره أفياؤه وتبارح
إلى أن رمته الحادثات بنكبة
تضيق به منها الرحاب الفسائح

٦) قول الحطيئة :

فبينا هما عنت على البعد عانة
قد انتظمت لها وقد طبقت شحا

اتفاق بينما وبينا في الجواب

ويلاحظ هنا ان جواب كل من الكلمتين قد يبدأ بكلمة « اذ » او « اذا » وكلتاهما فجائية . وقد يتجرد منها ، ويكون جملة فعلية او اسمية كما في الامثلة السابقة . واذا ابتدأ الجواب باحدى الكلمتين « اذا » او « اذ » جاز ان يقع المبتدأ بعدها دون ذكر خبر . فيقال مثلا « بينما نسير في الطريق اذا المطر » او « اذ المطر » وتأتي « بينما » و « بينا » في ابتداء العبارة وتدخل على الشرط ثم يأتي الجواب . ويرى بعض اللغويين ان هذا لازم ، فلا يجوز ان يتقدمه الجواب . والا كان هذا خطأ كما في قولنا « صفق الجمهور بينما الزعيم يخطب » ويرون ان يقال مثلا « صفق الجمهور على حين كان الزعيم يخطب » ونرى نحن صواب هذه العبارة قياسا على أدوات الشرط المشابهة ومنها « ان » ، « واذا » « وكلما » فيقال : « سأكرمه ان حضر » او « سأجيزه اذا نجح » و « يكرمني كلما زرته » وذلك بتقديم الجواب . والقول في ذلك ما يقوله النحاة من ان الجواب هنا مفهوم يدل عليه ماسبقه « وهو الجواب المقدم » « وان كنا نحن لا نرى حاجة الى هذا التأويل . فالكلام على هذا النحو تام مفهوم » والتقديم كالتأخير .

الاختلاف بين بينما وبينا :

المسند إليه بعد « بينما » و« بينا » يكون مبتدأ سواء كان اسما او ضميرا شخصيا او إشاريا ، او موصولا ولكن الاسم والضمير بعد « بينا » يجوز جره بالاضافة ايضا ، ويجيز الاصمعي ذلك اذا صلح ان يحل « بين » محل « بينا » ، مثال الاسم الظاهر قول الشاعر .

بينا تعنقه الكماة وروغه
يوما أتيح له جريء سلفع

ومثال الضمير قول شاعر جاهلي :

فبيناه يشري رحله قال قائل
« لمن جمل رخو الملاط نجيب »

فبينا هنا مثل « لولا » اذ يقال « لولاه » و « لولاي » ■■

(٢) كان قد افتقر ، فدفعته زوجته ـ وكانت غنية ـ الى قصد اغنياء الامويين بدمشق حتى يتمول منهم ، وفي طريقه اليهم ذكر هذه الزوجة ، فحن اليها ، فعاد قبل بلوغه اليهم دون مال ، وقص عليها قصته ، فقبلت عذره بل شاركته غناها ايضا .

(٣) مياسير : واحدها ميسور ، وهو مصدر مثل « اليسر » وان جاء بصيغة اسم المفعول .

الرسول ..

شاءت ارادة الله أن لا يعيش للنبى صلى الله عليه وسلم ولد ذكر على الرغم من أن المشهور عند جمهور المسلمين أنه رزق من السيدة خديجة رضى الله عنها بولدين اثنين هما القاسم وعبد الله ، كما رزق بابراهيم من مارية القبطية . أما البنات فقد ولد له اربع هن زينب وأم كلثوم ورقية و« فاطمة » ، وقد ولدن جميعا فى الجاهلية وادركن المبعث وثلاث منهن متزوجات .

كان حبه صلى الله عليه وسلم لبناته وأحفاده مضربا للأمثال وباعثا على الدهشة فى بيئة كانت تكره انجاب البنات وتنفر منهن الى الحد الذى كان الواحد منهم يغمره الحزن والحسرة وتعلو وجهه الكآبة والسواد حينما يبشر بولادة انثى مما سجله القرآن الكريم « يتوارى من القوم من سوء مابشر به . أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب » ليس هذا فحسب بل لقد وصل الأمر الى حد وأد البنات بمجرد ولادتهن . وأيا ما كان السبب فى ذلك راجعا سواء الى الخوف من العار أو خشية الفقر والاملاق أو كان بقية متخلفة من عبادة وثنية قديمة كانت الاناث تقدم فيها قرابين الى الآلهة ، فقد حرم الاسلام هذا الفعل الشنيع تحريما تاما ونهى عن هذا التقليد الذميم نهيا مطلقا واعتبره اثما عظيما وخطئا كبيرا ، قال عز وجل« ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » كما قال منذرا بيوم الهول الأكبر « واذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت » .

فى هذه البيئة الجاهلية الجامدة القلوب ، المتحجرة العواطف ، تفجرت اعذب ينابيع الرحمة والحنان فى قلب الرسول الكريم نحو بناته ، فمارس صلى الله عليه وسلم معهن « فن الأبوة » بكل ما فى هذه الكلمة من معانى العطف والحنان والرحمة والرأفة والبر والعناية والشفقة والرعاية ، حتى لقد كان حبه موضع دهشة ومحل تساؤل من بعض أصحابه لما كانوا يشاهدون من تدليله وملاعبته لأحفاده ، روى ابو هريرة أنه كان صلى الله عليه وسل يدلع لسانه للحسين فيرى الصبى حمرة اللسان فيهش اليه ، وقد شهده بعضهم فى احدى المرات فدهش لذلك وقال متعجبا : يصنع هذا بهذا !! فوالله ان لى الولد وما قبلته قط !

فقال صلى الله عليه وسلم : من لايرحم لايرحم . كما يروون أيضا أن رجلا يقال له الأقرع بن حابس زار النبى صلى الله عليه وسلم فلما أخذ مجلسه واستقر به

أباً وجداً

بقلم : رابح لطفي جمعة

المقام أقبل الحسن على الرسول صلى الله عليه وسلم فرحب به وضمه الى صدره وقبله بين عينيه فتعجب الأقرع من فعل الرسول وعطفه الغامر وحنانه الدافق ولم يقدر أن يستر دهشته فقال للنبى متعجبا :

أتقبل الأطفال ؟

فقال له النبى : نعم وأية غرابة فى هذا ؟

قال الأقرع : والله ان لى عشرة من الأولاد ما قبلت واحدا منهم قط !

وعندئذ قال له الرسول : وما ذا أفعل لك اذا كان الله تعالى قد نزع الرحمة من قلبك ؟ ان الله رحيم يحب الرحماء ومن لا يرحم لا يرحم .

وبقدر ما ادهش حب النبى صلى الله عليه وسلم لأبنائه وأحفاده بعض معاصريه بقدر ما أدهش حبه صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة الزهراء كثيرا من المستشرقين . حتى انهم زعموا أن ما روى عن هذا الحب من أخبار وأحاديث انما اخترعته الشيعة بعد ظهور حركة التشيع فى الاسلام . وقد فات هؤلاء وأولئك أن الله عز وجل قد فطر رسوله الكريم على الرحمة وطبعه على الشفقة فكان بالمؤمنين رؤوفا رحيما وبالمسلمين شفوقا رفيقا .قال عز وجل « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . فلا غرو اذن ان يفيض هذا الحب الذى ملأ قلبه صلى الله عليه وسلم نحو الناس جميعا ـ على أهله وأبنائه وأحفاده .

أحب أهلى الى

لم ير اكرم من النبى صلى الله عليه وسلم فى معاملة بناته والترفق بهن والانتصاف لهن والاشفاق عليهن ، ولا نعلم أحدا ممن عاصروه وحاربوه وناصبوه العداء قد مس حبه الغامر لبناته .

وبقدر ما كان يبتهج كلما بشر بمولد بنت من بناته ويأمر بأن تنحر الذبائح احتفالا بمولدها ، بقدر ما ابتهج واهتز قلبه فرحا وانبسطت نفسه سرورا وأخذه ما يأخذ كل أب من هزة وبهجة عندما أنجب ولده ابراهيم ، وعندما اختطف الموت الوليد حزن النبى على موته وفاضت عيناه بالدمع وقال « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يغضب الرب وانا بك ياابراهيم لمحزونون » .

ويهمنا فى هذا الصدد أن نؤكد على أن حبه صلى الله عليه وسلم لفاطمة الزهراء ـ مما سنتحدث عنه فيما بلى ـ لم يكن الا صورة ونموذجا لحبه لأخواتها الأخريات . فان تلك المكانة الخاصة التى كانت لفاطمة عند أبيها صلى الله عليه وسلم لم تنقص حبه لأخواتها الثلاث . و يكفينا فى هذا المقام أن نروى ما حدثت به السيدة عائشة من أن

الرسـول أهـديت اليه هدية فيهـا قلادة من جزع فقال :لأدفعنها الى أحب أهلى الى فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبي قحافة (يعنى عائشة) . ولكن الرسول دعا حفيدته امامة بنت بنته زينب فأعلقها فى عنقها ، ومفاد هذا الخبر أن أمامة كانت أحب أهلـه صلى الله عليه وسلم اليه ، وقد أراد أن يظهر عطفه على حفيدته الطفلة التى حرمت من امها ، ولعله صلى الله عليه وسلم وجد فى امامة ما يخفف من حزنه على زينب بعد وفاتها فكان يأنس بالطفلة الصغيرة ويهش لها ويدللها وقد يحملهـا على عاتقه ويصلى بها فاذا سجد وضعها حتى يقضى صلاته ثم يعود فيحملها ، كما كان يردف أخاها عليا خلفه كما فعل يوم فتح مكة ، ولا يخفى أن حب الحفيد أصله ومنشؤه حب الأب لابنه أو ابنته .

ولنعد الى ذلك الحب الأبوى الذى غمر النبى صلى الله عليه وسلم به ابنته فاطمة فنقول ان بنت الشاطىء قد عللت هذا الحب فى كتابها عن « بنات النبى » تعليلا لأراه سائغا ولا مقبولا ، اذ ذهبت الى أن الرسول فى حبه لفاطمة كان متأثرا بما كان يظن من عدم ترحيبه بمولدها بعد أن سبقتها أخوات ثلاث ، فأراد أن يحبوها مزيدا من عطفه حتى لا تحس ـ ولو على سبيل الوهم ـ انها غير مرغوب فيها ، ولا يخفى ما فى هذا التعليل من ظلال تصبغ هذا الحب بالتكلف والتصنع ، وحاشا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلف أو يتصنع أمرا ضد طباعه وفطرته الشريفة ، والذى أراه مقبولا أن حظ الزهراء من حب أبيها ربما يكون قد ازداد بعد موت أخواتها وأصبحت هى الابنة الوحيدة فى البيت المحمدى ، يرى صلى الله عليه وسلم فيها طيف زوجته خديجة رضى الله عنها ويلتمس فى وجهها صورة امها الحبيبة الراحلة ، وقد تضاعف هذا الحب بعد مولد الحسن والحسين وانحصار ذريته صلى الله عليه وسلم فى نسل هذه الابنة الوحيدة التى بقيت له .

رضا فاطمة من رضاي :

لقد كان عليه الصلاة والسلام يفرح بلقاء ابنته ويسر برؤيتها ويهش للقائها ويقول لها « مرحبا يا ابنتى » كما كان يسر برؤية أولادها ويرحب بمقدم زوجها على بن أبى طالب ، وكان يعتبرها بضعة منه وفيهـا يقول « خير نساء العالمين أربع مريم وآسية وخديجة وفاطمة » وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها ذات يوم « ان الله ليرضى لرضاك ويغضب لغضبك » كما قال « رضا فاطمة من رضاى وسخط فاطمة من سخطى فمن أحب فاطمة ابنتى فقد أحبنى ومن أرضى فاطمة فقد أرضانى ومن اسخط فاطمة فقد أسخطنى » .

وقد وقف النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم موقفا ان دل على شىء فانما يدل على ماكان يحمله قلبه الشريف من حب غامر لابنته ، ذلك أنه عندما هم على بن أبى طالب بالزواج عليها من بنت أبى جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى ، شعر أبو الزهراء أن هذا الزواج لا بد وأن تألم منه ابنته أشد الألم ، ولا بد أن يمس مشاعرها واحساسها ، كما أنه فى أبوته الرحيمة يؤذيه أن تروع أحب بناته اليه بضرة ويشفق عليها من ذلك ، فاقبل صلى الله عليه وسلم على المسجد مغضبا وخطب فى الناس منكرا على على أن يتزوج على ابنته فاطمة من بنت أبى جهل عدو الله الذى اقترف فى حق الرسول والمسلمين آثاما وصنوفا من الاضطهاد والايذاء فقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام :

« ان ابنتى بضعة منى يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها .. وانى لست أحرم حلالا ولا أحل حراما ولكن الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله ببيت واحد أبدا » .

وكان صلى الله عليه وسلم يسعده كل السعادة أن يصلح بين ابنته وزوجها على . فقد حدثنا رواة السيرة أنه صلى الله عليه وسلم رؤى ذات ليلة وهو يسعى الى دار ابنته فاطمة مهموما قلقا على أثر خلاف وقع بينها وبين زوجهـا . فامضى هنـاك وقتا ثم خرج ووجهه الشريف يفيض بشرا فقال قائل من الصحابة : ـ يا رسول الله ! دخلت وأنت على حال وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك فأجاب صلى الله عليه وسلم :

ـ وما يمنعنى وقد أصلحت الى أحب اثنين الى

وقد بادلت السيدة فاطمة أباها حبا بحب ، وآثرت أن تكون بجواره بعد رحيل أمها السيدة خديجة ، تهب لأبيها الحبيب الراحة والسكن حتى لقد كانت تدعى بأجمل وأرق كنية عرفتها لغات العالم وأدلها على هذا الحب ، فكانت تدعى « أم أبيها » . فلا غرو اذن أن يقول ابن جريج « قال لى غير واحد كانت فاطمة أصغر بنات النبى صلى الله عليه وسلم وأحبهن اليه » .

هذه بعض لوحات مشرقة وضيئة وصور انسانية نبيلة عن حب النبى لبناته وبخاصة فاطمة الزهراء رضى الله عنهاوأرضاها ، رسمتها لنا كتب السيرة والحديث .

النبى الجد :

أما عن النبى صلى الله عليه وسلم الجد ، فان كل ما نظمه شاعر قرننا العظيم فيكتور هيجو فى حفيديه

جورج وجان من قصائد شائقة تحت عنوان« فن أن يكون الانسان جدا » عبر فيها باسلوب عذب رقيق عن عاطفته وحنوه على حفيديه . وكل ما اشتهر عن هذا الشاعر الكبير من حب للأطفال . ليتضاءل ولا يعد شيئا مذكورا بجانب ما وصلنا من أخبار عن حب النبي صلى الله عليه وسلم لأحفاده وخاصة الحسن والحسين رضي الله عنهما . فلقد تدفقت ينابيع ذلك الحب من قلبه الشريف منذ اللحظات الاولى لمولد الحفيدين الغاليين ، واستمرت دفقاتها فياضة غامرة إلى أن لقى صلى الله عليه وسلم وجه ربه .

فعندما وضعت السيدة فاطمة مولودها الأول الحسن وابلغ الرسول بذلك خف اليها فرحا مستبشرا . فلما دخل عليها وجد ابنها مدثرا بقطعة من القماش الأصفر فنزعها عنه وأمر بأن يجعل مكانها قطعة بيضاء ثم قال :

ـ أروني ابني .

فدفعوه اليه فشمه وقبله وقال وهو يرفع يديه الى السماء :

ـ اللهم انى أعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم .

واختار على لأبنه اسم « حرب » وعندما عاد النبي بعد اسبوع لزيارة حفيده سأل عنه وقال : بماذا سميتموه ؟

قالوا :

ـ لقد سماه على بحرب .

فكره النبي له هذا الاسم وقال : سموه الحسن .ثم أقبل على الحفيد وعق عنه بكبش أملح شكرا لله . كما حلق شعر رأسه وتصدق بوزن شعرة فضة على الفقراء والمساكين . ودفع بالوليد الى لبابة أم الفضل زوجة عمه العباس لتقوم برضاعته وتربيته . وكان صلى الله عليه وسلم يتردد عليها ويأخذه منها فيقبله ويداعبه ويناغيه ويضمه الى صدره في شوق وحنان . وقد حدث أن دفعته أم الفضل يوما إلى الرسول فبال في حجره الشريف . فغضبت أم الفضل عليه وضربته على كتفه قائلة : أوما تعرف قيمة ما صنعت ؟ أو تبول في حجر جدك الرسول ؟فلما رأى النبي ذلك منها قال لها في غضب يلومها : لقد أوجعت ابني يرحمك الله .فخجلت من قوله وعلمت أن الرسول يكره أن يؤذى الحسن أو يهان .

وكان الحسن ـ عندما شب عن الطوق ـ يذهب الى أمه فاذا اشغلت عنه أخذه البكاء . فكان النبي يعاتب ابنته برقة ولطف ويقول لها : ـ أوما علمت أن بكاء الحسن يؤذيني . فلا تنشغلي عنه بغيره فان بكاءه يبكيني .

وحدث في احدى المرات أن النبي صلى الله عليه وسلم ابنته وزوجها قد غلبهما النعاس والحسن يبكي ويطلب طعاما . فلم يهن على الأب الرحيم أن يوقظ النائمين . بل أسرع الى غنمة كانت تقف بساحة الدار فحلبها وسقى الحسن من لبنها حتى ارتوى . .

لقد تعلق قلب النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بحفيده الحسن حتى انه كان لا يرى في البيت ولا يشاهد في المسجد الا والحسن معه . إما فوق ركبته واما على كتفيه . تروى كتب السيرة أنه صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد ذات يوم وهو يحمل الحسن على ظهره فرآه أحد الصحابة فقال له وهو يضحك :

ـ نعم المركب مركبك ياحسن !!

فقال النبي في سرور وبهجة ـ ونعم الراكب هو .

وكان صلى الله عليه وسلم عندما يشتاق الى رؤية حفيده ، يرسل أبا هريرة ليأتيه به ويقول له : علي بالحسن ائتني به الساعة . فيسرع الصحابي الجليل الى بيت علي ويتلطف بالحسن حتى يذهب معه الى مجلس الرسول . وكان اذا اقترب من المجلس هرول مسرعا في براءة الأطفال الى جده حتى يقع في حجره الشريف . وكان عليه أفضل الصلاة والسلام اذا أحس بقدمه بسط له وجهه ومد ذراعيه مرحبا فاذا استقر على ركبتيه ضمه الى صدره في شوق وحنان ثم طبع على جبينه قبلة حانية .

بل هو الحسين :

وعندما وضعت الزهراء ابنها الثاني الحسين خف النبي الى بيت ابنته الحبيبة . فلما دخل عليها هنأها بسلامتها ثم قال لأهل البيت :

ـ أروني ابني لأشمه .

فدفعوه اليه فاحتضنه وقبله بين عينيه ثم حنكه بريقه الشريف وأذن في أذنيه ودعا له بالخير والبركة ثم قال لهم :بم سميتموه ؟

فقال علي :

ـ سميته حربا يارسول الله

فقال الرسول : لا بل هو الحسين .

وفي اليوم السابع من ولادته عق عنه النبي بكبش أملح وقال لأمه :

ـ احلقي رأسه وتصدقي بزنة شعره فضة .كما فعل بأخيه الحسن من قبل .

ويروون أن فاطمة انحلت لما ولدت الحسين وجف لبنها فطلب الرسول مرضعة فلم يجد فكان يأتيه فيلعقه ابهامه فيمصه الطفل وقد جعل الله في ابهام الرسول رزقا يغذي الحفيد ، وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك أربعين يوما وليلة .

وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ بكتفي الحسين وقدماه على قدميه الشريفتين يرقصه ويلاعبه قائلا : ترق ترق . فلا يزال الصبي يرقى حتى يضع قدميه على صدر جده فيقول له : افتح فاك . فيفتحه ويقبله وهو يقول :

ـ اللهم أحبه فاني أحبه .

وخرج صلى الله عليه وسلم ذات يوم في نفر من صحابته الى طعام دعوا اليه فاذا بالحسين في السكة مع غلمان من أترابه فتقدم الرسول أمام القوم وبسط يديه محاولا أن يمسك بحفيده والغلام يفر ها هنا وها هنا فرحا مسرورا فما زال صلى الله عليه وسلم يضاحكه حتى أخذه فوضع احدى يديه الكريمتين تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه ثم قبله وقال : حسين مني وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسينا .

لقد كان الحفيدان الكريمان قرة عين جدهما لا ينفك طول أوقات فراغه يلاعبهما ويداعبهما ويضاحكهما ويغمرهما بحبه وحنانه ويخلع عليهما كل ما في قلبه من محبة ورحمة ، وكان يعتبرهما ابنيه فكان يقول لفاطمة ادعي الى ابني . فاذا حضرا شمهما وضمهما اليه ولا يبرح حتى يضحكهما ويتركهما مسرورين .

انما أموالكم وأولادكم فتنة :

ويروون أنه صلى الله عليه وسلم خرج في احدى صلاتي العشاء وهو حامل الحسن او الحسين فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة ، قال راوي الحديث : فرفعت رأسي فاذا الصبي على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت الى سجودي فلما قضى الصلاة قالوا: يا رسول الله انك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك . قال : كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله .

كما يروى أنه صلى الله عليه وسلم قام يخطب المسلمين فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويتعثران فنزل عليه الصلاة والسلام من فوق المنبر حتى وصل اليهما فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال :

ـ صدق الله« انما أموالكم وأولادكم فتنة » نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما .

وكان صلى الله عليه وسلم يدعو لحفيديه وهما جالسان على ركبتيه ويرفع يديه الى السماء ويقول : اللهم اني أحبهما وأحب من يحبهما !

ويروى الترمذي عن اسامة بن زيد أنه قال « طرقت باب النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الحاجة فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو فلما فرغت من حاجتي قلت : ما هذا الذي انت مشتمل عليه يا رسول الله ؟ فكشفه فاذا الحسن والحسين وقال : هذان ابناي وابنا ابنتي اللهم إني أحبهما فاحبهما وأحب من أحبهما .

وجاء في مسند أحمد أن فاطمة الزهراء جاءت الى أبيها يوما وفي يدها الحسن والحسين ، فلما كانت بين يديه دفعت بهما في حجره وقالت : ـ يا نبي الله ! انحلهما من أخلاقك وشيمك .وكانت هذه عادة من عادات القوم يأتون بأطفالهم الى شيوخهم ليهبوهم شيئا من طباعهم وسجاياهم ، فلما فعلت فاطمة بابنيها ذلك قال النبي لها : ـ انني منحت الحسن المهابة والحلم ومنحت الحسين المحبة والرضا .

هكذا كان حب النبي صلى الله عليه وسلم لحفيديه الغاليين صورة حلوة جميلة رقيقة عذبة ونموذجا نادرا من الحب الأبوي ، لا يملك الانسان حياله الا أن ينعطف قلبه رقة وحنانا ، حتى لقد أصبح الحسن والحسين في عداد تلك الشخوص الرمزية التي تتخذ منها الأمم عنوانا للحب .

لقد كان لهذا الحب الذي أسبغه النبي على حفيديه أعمق الأثر في اسعاد ابنته الحبيبة ، يملأ نفسها بالبهجة والسرور ويفعم قلبها بالسعادة والغبطة .فلقد أسعد « أم أبيها » أن تكون أما لهذين الطفلين الكريمين الأثيرين عند جدهما صلى الله عليه وسلم ، وأرضاها ان استطاعت بفضل الله أن تهيء لأبيها الحبيب هذه المتعة التي كان يجدها في سبطيه الغاليين .

القاهرة ـ رابح لطفي جمعة

السيد عمر عباس العيدروس كتب مقالا في العدد ٢٧٣ من مجلة العربي دافع فيه عن الشخصية العربية وقد وافق القباني فيما ذهب اليه لكنه خلع الخصال غير الحميدة تلك على كافة الشعوب المتخلفة .

وكرد على السيد عمر أقول : دعك من غيرنا ، ولننظر الى انفسنا ، فنحن متخلفون وهذه مسلمة لا يشك فيها احد ، بغض النظر عما اذا كان غيرنا يتصف بها اولا .

ان ما سقته من أن كل الشعوب المتخلفة تتسم بهذه الخصال ليس الا هروبا من الواقع العربي ، أو من أجل تصديق المقولة « من رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته » وأحسب أن تمسكنا بهذا التبرير قد جنى علينا كثيرا لاننا مازلنا ننظر الى دول امريكا الجنوبية وافريقيا ونعقد المقارنة ثم نقول « لازلنا بخير » .

واذا كنت تشتم ـ رائحة الشعوبية في دعوة القباني الى سبر الشخصية العربية فاعلم أن الشعوبيين ما قاموا بحملاتهم المستمرة على أمتنا العربية أيام ازدهارها إلا لأنهم كانوا حسادا . بالله عليك هل نحن في وضع نحسد عليه ؟ هل نحن متقدمون وأوروبا متخلفة حتى تحسدنا اوروبا وتجعل لنفسها أتباعا من العرب يروجون الأقاويل والأكاذيب ؟

أمين / ضرغام عارف السعيد ـ جامعة دمشق

المعنى وأل التعريف

« تطالعنا الصحف وتحدثنا نشرات الأخبار عن منظمة (تضامن) العمالية البولندية ... وينبغي لأهل لغة الضاد ان يسترعيهم عدم تعريف (تضامن) بالألف واللام ، مما هو خطأ لا يقل عنه خطورة السكوت عليه .

فلفظة (تضامن) اسم معنى في جميع اللغات ، وتختلف اللغات من حيث استخدام أسماء المعاني نكرة او معرفة ، وذلك عندما تقع مبتدأ او مفعولا به مثلا . فاللغة العربية تضيف (أل) التعريف إلى أسماء المعاني عند الابتداء بها أو استخدامها مفعولا به مثلا ، فنقول :
التضامن واجب اجتماعي ، أو نقول : يجب أن نشجع التضامن بين الناس . وتنحو المنحى نفسه لغات مثل الالمانية والفرنسية والاسبانية والايطالية ، على حين لا تفعل ذلك اللغة الانجليزية . فنرى إذن أن العربية اضافت (أل) إلى كلمة (تضامن) لتصبح (التضامن) الواقعة مفعولا .

فاذا نحن جميعا وعينا ذلك تماما ـ خصوصا وان غالبية النقل يتم من اللغة الانجليزية وجب أن تقول الصحف ونشرات الأخبار : منظمة (التضامن) العمالية البولندية ، لا منظمة (تضامن) مما لا تقبله الأذن العربية ، حتى لو ابتعدت عن اسم المعنى وأصول استخدامه .

ابراهيم عبد الله حسن
مترجم ـ الاسكندرية

« واجبات مجلة العربي تجاه الاسلام »

انني كقارىء لهذه المجلة العريقة فكرا وعلما أتمنى ككل قارىء مسلم أن تهتم بنشر التراث الاسلامي كتفسير القرطبي وابن كثير وأمهات الكتب الاسلامية : كمراجع لا غنى عنها لكل مسلم في مجلدات وبأسعار وأحجام وطباعة مجلة العربي على الاقل راجيا من مسئولي وزارة الاعلام بالكويت وضع هذا الاقتراح المتواضع موضع التنفيذ في أقرب وقت خدمة للاسلام والمسلمين .

محمد حسين كثير
القاهرة / مصر

هل الحق هو القوة ؟

(القوي يأكل الضعيف) مبدأ يعمل بموجبه حتى أولئك الذين يدعون الى العدل والمساواة والحق .. الامر الذي جعلني في حيرة من أمري .. فالذين ينادون بالحق والعدل والاخاء والمساواة يمارسون عكس ما ينادون ، فتراهم في ممارساتها ذئابا .. وتسمع أقوالهم . لتجد انها لا تنطبق على أفعالهم بحال .

السؤال الذي تحيرني الاجابة عليه : هل يقول الناموس العام للطبيعة أن الحق للقوة .. وان الضعيف لا مكان له تحت الشمس ؟ والا لماذا يأكل السمك الكبير الصغير .. ومن وضع له هذا النظام ؟ والغابة بوحوشها من وضع لها نظامها ؟

أدعو القراء للتأمل في معنى قيمة الحق ...

الدكتور وليد مرقة
الاردن

العربي والعراق

مضت أشهر الصيف الثلاثة دون ان أجد لمجلتي المفضلة (العربي) اثرا في بلدي العراق وكنت أمني النفس لقضاء الاجازة بصحبتها .. ولكني لم أجدها .. هل عندكم تفسير لذلك ؟

بشير رزيك
محافظة الانبار ـ العراق

هل تعلم ؟

ان القلب يضخ حوالي ثلاثة آلاف جالون من الدم يوميا ، او ما يعادل ٧٧ مليون جالون خلال حياة تمتد ٧٠ عاما .. وهذه الكمية تكفي لملء ناطحة سحاب ، ويستلزم دفعها قوة كافية لرفع جسم يزن عشرة أطنان الى ارتفاع عشرة أميال ... وخلال ساعة واحدة يستطيع القلب ان يرفع رجلا داخل مصعد من الطابق الارضي الى الطابق الخامس .

هدى عبد الرحمن البناي
الكويت

مسابقات العربي

لي ملاحظة على المسابقة التي تنشرها المجلة شهريا فحبذا لو تضمنت المسابقة أسئلة علمية أو أدبية تختبر فيها ثقافة القارىء وتنميها عن طريق البحث والاستقصاء عن الاجابة الصحيحة ... أما الكلمات المتقاطعة التي تنشرها المجلة فإنها تحتاج إلى ثقافة عالية ، ومعرفة بألفاظ اللغة العربية في حين يتعذر على ذوي الثقافة المحدودة حلها وفك طلاسمها .

محمد المصمودي
صفاقس ـ تونس

مقعد جديد للمقعدين

قرأت في العدد (٢٧٤) سبتمبر ١٩٨١ ـ عن مقعد جديد للعجزة والمقعدين الذي أنتجته شركتان في اليابان ـ وفيه ما يساعدني على قضاء حاجتي إذ إنني مصاب بالعجز الكامل والشلل الرباعي منذ ١٢ عاما .

فأرجو مساعدتي بنشر عنوان الشركتين المنتجتين له في مجلتنا ويا حبذا لو أمكن إعطائنا فكرة عن سعره ودعائي لله ان يكون في متناول من يحتاجه .

وأرجو منكم أن يكون النشر في أقرب فرصة ممكنة ..

محمد احمد محمد عبد الرحمن
مصر ـ الزقازيق

العربي : ليس من السهل العثور على عناوين الشركات من المجلات العلمية ... ولا الوقوف على أثمان المنتجات أو المخترعات التي تتحدث عنها تلك المجلات ... ولكننا سنبذل قصارى الجهد ونأمل ان نوفق الى هذا او ذاك .

العربي واليمن الديمقراطية

أوجه لكم هذا النداء من اليمن الجنوبي كقاريء من قراء هذه المجلة الحبيبة الى نفسي .. فالمجلة تصلنا دائما متأخرة إما في نصف شهر الصدور وإما في اخره .. مما يحرمنا متعة قراءتها في أول أيام شهر الصدور ـ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد صفحات العدد ممزقة ... اذ ما يبدأ الواحد منا في قراءة مقال حتى يفاجأ بصفحة او صفحتين وقد قصتا من العدد ... أمل ان تتمكنوا من معالجة هذه المسألة .

عوض بن عوض
المنصورة ـ اليمن الديموقراطية

الدروز وأمير الشعراء

تعقيبا على ما نشره العربي للاستاذ فتحي رضوان يحضرني قول أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته المشهورة التي أنشدها في حفلة أقامتها الشقيقة مصر لمنكوبي الثورة العربية السورية أجتزيء منها هذه الابيات .

دم الثوار تعرفه فرنسا
وتعلم انه نور وحق
بلاد مات فتيتها لتحيا
وزالوا دون قومهم ليبقوا
وما كان الدروز قبيل شر
وان اخذوا بما لم يستحقوا
ولكن زادة وقراة ضيف
كينبوع الصفا خشن ورق
لهم جبل أشم له شعاف
موارد في السحاب الجون بلق
لكل لبوة ولكل شبل
نضال دون غابته ورشق
كأن من السموأل فيه شيئا
فكل جهاته شرف وخلق

فارس سعيد السلمان
فنزويلا

العربي والمملكة العربية السعودية

نحن قراء مجلة العربي في المملكة العربية السعودية بتنا نفتقد هذه المجلة التي نعتبرها بمثابة الزاد لأرواحنا وعقولنا ... فقد اخذت المجلة في السنوات الأخيرة تخصص صفحات مشرقة وأبحاثا قيمة لشريعتنا السمحاء .

نرجوكم ألا تبخلوا علينا بكميات وافرة من هذه المجلة العزيزة .

عبد العزيز الخميس
القصيم ـ السعودية

ردود خاصة

الى القاريء نزار حسين ـ حلب : عنوان الدكتور دري حسن عزت هو مستشفى الأمراض النفسية بوزارة الصحة ـ الكويت .

الشطرنج

الشطرنج رياضة ذهنية مفيدة ... وقد خصصت « العربي » في مسابقاتها الشهرية نزهة للعقل الذكي فحبذا لو أضفتم إلى هذه النزهة فقرة إضافية ، وذلك بوضع مسألة شطرنجية في كل عدد يستفيد منها هواة لعبة الشطرنج في العالم العربي .

خالد وليد الاغوالي
محمد لؤي الجبان ـ دمشق

● قصة قصيرة ●

الأعمى

تأليف : جي دو موباسان

ترجمة : محمد مصطفى

■ ما هذه الفرحة التي تشع مع اول خيوط الشمس ؟ ولم يملأ هذا الضوء الساقط على الأرض الحياة بالسعادة ؟

السماء صافية الزرقة ، والريف مفعم بالخضرة ، والبيوت يجللها البياض وعيوننا المفتونة تحدج هذه الألوان الحية ، فتستحيل بهجة تغمر ارواحنا ، تثير فينا فرحة الشمس رغبة في الرقص اوميلا الى الجري ، او توقا للغناء ، يمنح الفكر خفة ضاحكة ونوعا من الحنان الشامل ، فيجد المرء نفسه راغبا في تقبيل الشمس .

المكفوفون على عتبة الابواب ، افقدتهم ظلمتهم الأبدية الاحساس ، يبقون هادئين كما هي الحال دوما ، وسط هذه البشاشة المتجددة ، ودون ان يعرفوا هذا الواقع ، يهدىء احدهم في كل دقيقة كلبه الذي يريد أن يثب .

وحين يعودون مع نهاية اليوم ، يتأبط كل منهم ذراع اخ شاب او اخت صغيرة ، فاذا قال الطفل « لقد كان اليوم طقسا رائعا » ، يجيبه الأخر : « انني لحظت ذلك تماما ، فقد كان طقسا جميلا ، و(لولو) (١) لم يلبث في مكانه قط » .

عرفت أحد هؤلاء الرجال الذين كانت حياتهم كحياة واحد من اكثر الشهداء معاناة ، فيها من القسوة مالا يمكن ان يخطر على بال .

كان فلاحا ، ابنا لمزارع نورماندي . ولو ان والديه كانا على قيد الحياة لشعر ببعض العناية تحوطه ، اذ قلما تألم الا من عاهته المرعبة . ولكن حينما فارق العجوزان الحياة بدأ الشعور بوجوده القاسي ينخر فيه ، تعهدته راعية ، فقد كان جميع الناس في المزرعة يعاملونه كمتسول يقتات من خبز الأخرين . وفي كل وجبة طعام يقرب اليه الغذاء .

وكان يلقب بالخامل وينعت بأنه فارغ . وبالرغم من ان صهره قد استولى على نصيبه من الميراث فقد كان يعطي حساء كرها ، يقتات به كي لا يموت جوعا .

كان شاحب الوجه ، عيناه الكبيرتان المبيضتان تشبهان برشامتين ، ورغم وقع الاهانةعليه بقي متبلد الاحساس منكفئا على ذاته بحيث لم يكن يعرف ايحس هذه الاهانة ام لا ؟

لم يكن قد لامس شغاف قلبه اي حنان قط ، فأمه التي كانت معاملتها له مشوبة بالجفاء قلما شعرت بالحب نحوه . ذلك ان الاشخاص العاطلين هم في نظر هذه البيئات الزراعية مصدر سأم ، يعاملهم الفلاحون هذه المعاملة عن رضا وطيب خاطر ، كمعاملة الدجاج الذي يقدم على قتل افراده الضعاف اذا ما تواجدوا معه . وبمجرد ان ينتهي من ابتلاع الحساء كان يتجه في الصيف الى عتبة الباب يجلس عليها ، وفي الشتاء الى المدفأة يجلس قبالتها دون ان يغير من جلسته هذه حتى المساء .

لم تكن تصدر عنه اية حركة ، اوتنم عنه اية اشارة ما عدا جفنيه المختلجين بفعل الم عصبي ، كانا يطبقان احيانا على القذى الابيض في عينيه .

ترى هل كان يمتلك روحا كالآخرين ؟ هل كان له فكر ؟ هل تحيا فيه طوية صافية عن حياته ؟ ان شخصا ما لم يخطر بباله ان يتساءل هذا السؤال .

مضت الامور على هذا النحو بضع سنوات ، ولكن عجزه الذي لم يأت بشيء اكثر من وجومه أدى الى ان يبلغ حنق اهله عليه حدا جعل من شخصه شهيدا للسخرية ، بل فريسة قدمت لقمة سائغة لوحشية غريزية ، او اعطيت الى متعة ضارية لأناس قساة

---

(١) اسم الكلب



يواكبون حياته . لقد كانت عاهته مصدرا استلهمت منه كافة السخريات اللاذعة ، ذلك انه لكي يدفع ضريبة ما كان يأكل من طعام فقد نتجت عن وجباته ساعات من التلذذ يلهو بها جيرانه ، كانت ساعات من العذاب في نفس هذا المخلوق الضعيف .

كان الفلاحون في البيوت المجاورة يتداعون الى هذا النوع من التسلية ، وكان الناس يتناقلون الدعوة لهذه المتعة من بيت الى بيت ، حتى يكاد مطبخ المزرعة يغص بمن فيه كل يوم . اذ كان يوضع على الطاولة وامام مقعده حيث يبدأ باغتراف الحساء كلب او قطة ، ويستشعر الحيوان المغلوب على امره بغريزته عجز الرجل ، فيقترب بهدوء ، يأكل دون ان يحدث ضجة ويلعق الحساء بتلذذ ، وما ان ينم عن لسانه اي صوت حتى يتنبه ذلك الشيطان المسكين ، فما يكون من الحيوان الا ان يبتعد بحذر ليتجنب ضربة الملعقة التي يخبط بها الرجل حينذاك امامه خبط عشواء ، فتتعالى اذ ذاك الضحكات ، وتتدافع المناكب ويخبط المتفرجون الذين تجمعوا على طول الجدران باقدامهم على الأرض . ودون ان ينبس المسكين ببنت شفة يعاود تناول طعامه بيده اليمنى ويستبقي اليسرى متقدمة يحتمي ويدفع بها عن جلسته .

كان يحمل أحيانا على مضغ سدادات الفلين او قطع الخشب او الاوراق بل ايضا القاذورات التي لم يكن بامكانه تمييزها . ثم يستولي التعب على الجميع حتى من هذه السخريات ، فيقوم صهره الممتلىء غيظا من اطعامه بضربه ولطمه دونما انقطاع ، ضاحكا من محاولات الأخرين غير المجدية في منع اللكمات عنه او صدها . ويكون ذلك حينئذ بمثابة لعبة جديدة : لعبة الصفعات ، فيترك لحظتئذ عمال المرات والخادم وبقية الحشم أيديهم ترقي عليه مارة بوجهه ، الامر الذي يطبع على جفنيه حركة مضطربة . لم يكن يدري اين يختبىء ؟ كان يظل دائما مادا ذراعيه ليتحاشى بذلك الاصطدام بهم .

واخيرا اجبر على التسول ، فوضع على الطرقات ايام العمل ، وما ان يتناهى الى سمعه وقع خطا او صرير عربة حتى يميل قبعته متمتما : « الصدقة من فضلكم » .

بيد ان الفلاح هنا لم يكن مبذرا ، فطوال اسابيع بكاملها لم يكن يحصل المسكين خمسة قروش . لقد وقفت في وجهه كراهية قاسية لا عقال لها اودت به الى الموت : ففي الشتاء والارض مغطاة بالثلج الذي تجمد تجمدا مخيفا ، قاده صهره ذات صباح بعيدا على طريق طويلة ليحمله على طلب الصدقة ، تركه هناك طوال النهار ، وحين اقبل المساء عاد صهره ليؤكد امام رجاله انه لم يعثر له على اي اثر قط ثم أضاف :

« كفى ! يجب الا تشغل به ، فربما سيؤويه احدهم ، اذ ان الطقس بارد . انني اقسم انه لن يضيع وسيرجع غدا ويتناول الحساء » .

وجاء اليوم التالي ولكنه لم يرجع .

اذ انه بعد بضع ساعات من الانتظار وقد استولى عليه البرد ، واستشعر الموت سلك سبيل العودة دون ان يتمكن من التعرف على سكته التي تكفنت تحت هذا الزبد من الجليد ، وصدفة ضل الطريق وهو يفتش عن منزل يؤويه ناهضا من حفرة واقعا في اخرى وقد عقد لسانه الصمت .

لكن جبل الثلوج بدأ يغزو قواه شيئا فشيئا ، ولم تعد ساقاه تقويان على حمله ، فاتخذ لنفسه جلسة وسط سهل ، لم يكتب له بعدها ان ينهض قط . فقد كفنته الندف الصغيرة البيضاء التي تتساقط دائما ، واختفى جسمه المتوتر تحت ركامها المتزايد دون ان يكون ثمة شيء يدل على المكان الذي ترقد فيه الجثة .

انهمك اهله في استقصاء خبره والبحث عنه بلا طائل ثمانية ايام ، بل انهم بكوه بعد ذلك .

كان شتاء قاسيا ، ولم يذب الجليد تلك السنة بسرعة ، وفي أحد ايام الآحاد لاحظ المزارعون اثناء سيرهم الى القداس سربا كبيرا من الغربان يحوم دون انقطاع فوق السهل ، ثم ينقض كالمطر الاسود في ركام واحد على المكان نفسه ، غاديا رائحا بشكل متواصل .

في الاسبوع التالي لاحظ المزارعون الطيور السوداء بنفس المكان ايضا يتجمعن من كل ناحية من نواحي الافق مثل غيمة تحملها السماء ، ثم ينقضضن وقد ارتفع نعيبهن فوق الثلج المتشقق الذي كن يوسخنه بصورة غريبة ويحفرن فيه بعزيمة لاتلين .

هرع احد الصبية يستطلع ما الذي كانت الطيور تفعله ؟ واذا به يكتشف جسم الأعمى وقد التهم نصفه وقطع اربا اربا . اختفت عيناه الشاحبتان ، افترستهما المناقير الطويلة الشرهة .

ومنذ ذلك الحين لم استطع قط ان احس السعادة في الأيام المشرقة دون ان تخالجني ذكرى بائسة ، او تخامرني فكرة حزينة عن المتسول الذي حرم من كل ميرات ، في حيات كان خمودها المفزع راحة لاولئك الذين عرفوه . ■■

من مكتبة العربي

THE HIJAZ RAILROAD

سكة حديد الحجاز

القصة والمغامرة .. والنهاية !

William Ochsenwald

تأليف : د . وليم اوكسنوالد

تقديم : سليان موسى



لو أراد أمرؤ أن يعدد المنشآت الكبيرة التي تركها العثمانيون في البلاد العربية بعد سيطرتهم الطويلة التي استمرت أربعة قرون ، فربما يتبين له أن خط سكة حديد الحجاز كان من أهم تلك المنشآت ـ ان لم يكن اهمها وأضخمها على الاطلاق . فكيف انشىء هذا الخط ؟ وما هي الدوافع التي كانت وراء انشائه ؟ وما هي المراحل التي مر بها والمصاعب التي واجهها ذلك كله يرويه لنا كتاب جديد نشر في الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو من تأليف استاذ التاريخ الدكتور وليم أوكسنوالد . وهذا الكتاب ملخص لرسالة الدكتوراه التي وضعها المؤلف بعد جهد استغرق عدة سنوات ، زار خلالها بلاد العرب وتركيا ، باحثا منقبا مستطلعا ، لكي يتعرف على قصة انشاء هذا الخط من البداية الى النهاية ، ولكي يعمل على سد فجوة في التاريخ الحديث لسوريا الطبيعية والحجاز . ثم أن الكتاب لا يقتصر على سرد تاريخ عمليات البناء والانشاء ، بل يتناول أيضا عدة قضايا سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية أثارها انشاء الخط .

السلطان عبد الحميد

قامت الفكرة على مد خط السكة من مدينة دمشق حاضرة ولاية سوريا ، الى المدينة المنورة ومن بعدها الى مكة المكرمة في الحجاز . كان المسلمون ولا يزالون يحجون الى هاتين المدينتين المقدستين سنويا من مختلف أقطار العالم . وفي تلك الحقبة كانت رحلة الحجاج من دمشق الى المدينتين المقدستين تستغرق نحو شهر ونصف ذهابا ومثلها ايابا . وكان الحجاج يتحملون في اثناء ذلك صنوفا شتى من المتاعب والمشاق وهم يركبون الجمال عبر البوادي والصحاري القاحلة الجرداء وتحت حرارة الشمس الشديدة أو في أثناء فصل الشتاء وقره وقسوته ، وكانوا يقطعون درب الحاج الشامي مرحلة بعد مرحلة لكي ينالوا قسطا من الراحة ويتزودوا بالطعام والماء . ولم يكن الأمر يقتصر على المتاعب والمشاق وصعدة السفر الطويلة ـ بل كان هناك خطر التعرض لغارات القبائل البدوية واعتداءاتها . ذلك أن الدولة العثمانية لم تكن تسيطر على مناطق البادية والصحراء ، اذ لم يكن يتوافر لديها حينذاك الوسائل الآلية من طائرات وسيارات وأجهزة لاسلكي ، من أجل ملاحقة البدو في أعماق الصحاري وفرض الأمن والنظام في مناطقهم . ومن هنا أخذت الدولة تعقد الاتفاقات مع شيوخ القبائل التي كان درب الحاج يمر في أراضيها ، فتدفع لهم المساعدات لقاء منع الاعتداءات على الحجاج . ولكن كان يحدث في بعض السنين أن يخل أمير الحاج بالاتفاق فلا يدفع المبلغ المتفق عليه ، وعندئذ يعمد البدو الى مهاجمة قافلة الحجاج وينهبونها ويفتكون بالجنود الذين يرافقونها .

لقد اعتزم السلطان ومستشاروه أن يكون خط سكة الحديد مشروعا عثمانيا اسلاميا في تمويله وادارته . كان ذلك طموحا ضخما في دولة لاتملك سوى قسط ضئيل من الخبرة والوسائل الفنية . أما تأمين الأموال اللازمة من مصادر داخلية فقد كان يبدو في غاية الصعوبة لأن الدولة كانت يومذاك على حافة الافلاس . كانت الدولة تعيش في ظل الديون المرهقة والامتيازات الأجنبية التي تكبل ارادتها وتحد من حريتها . وكان من جراء تلك الامتيازات أن شركات اجنبية تولت انشاء معظم خطوط سكك الحديد في اراضي الدولة . وكانت تمتلك تلك الخطوط وتتولى ادارتها بقدر كبير من الحرية . وفي سوريا الطبيعية بالذات (سوريا ولبنان والاردن وفلسطين) كانت الشركات الفرنسية هي صاحبة الامتياز بالنسبة لجميع خطوط السكة ، ولم تكن فيها خطوط سكة أخرى تمتلكها الدولة أو أية اجهزة جهة غير فرنسية .

أعمال الانشاء

عين السلطان لجنتين رئيسيتين للعمل على تنفيذ المشروع : الأولى في استانبول ومهمتها جمع التبرعات ، والثانية في دمشق برئاسة الوالي ناظم باشا ومهمتها الاشراف على عمليات الانشاء . وقد عين المهندس (مستر) رئيسا للمهندسين ، وكان قد اكتسب خبرة واسعة في انشاء خط سكة حديد بغداد ، ومنحه السلطان لقب باشا . كما عين اللواء كاظم باشا لتنسيق اعمال

الانشاء ، وعين صادق باشا المؤيد العظم مساعداًلمشير باشا .

حاول السلطان ومستشاروه أن يتم انشاء الخط بأيدى أشخاص عثمانيين وبمواد من انتاج أقطار الدولة العثمانية ، ولكن لم يلبث أن تبين أنه لا بد من استخدام موظفين فنيين أجانب للاشراف على عمليات الانشاء . وهكذا عمد مشير باشا الى استخدام مهندسين أوروبيين كان اكثرهم من الالمان . وقد بلغ عدد المهندسين الاجانب ما يقارب نصف عدد المهندسين الذين اشتغلوا فى انشاء الخط . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، اذ أن النقص فى الرجال الفنيين والصناع المهرة ، اضطر المسؤولين الى استخدام فنيين أجانب لبناء الجسور والعبارات والانفاق . وقد استخدم الصناع المصريون مكان الصناع الأوروبيين ابتداء من محطة الأخضر (٧٦٠ كيلومترا الى الجنوب من دمشق) حتى المدينة . أما الأعمال العادية التى لا تحتاج الى مهارة فنية خاصة ، فقد قام بها جنود الجيش . وفى بادىء الأمر تم استخدام جنود سريتين (نحو ٦٠٠ عسكرى) ، ثم أخذ العدد يرتفع بالتدريج حتى وصل الى ٥٧٠٠ رجل فى عامى ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ والى ٧٥٠٠ رجل عام ١٩٠٧ . وكان أولئك الجنود يقومون بتمهيد الأرض التى سيمر خط السكة عليها ، فأحيانا يعملون فى حفر التلال المرتفعة وأحيانا أخرى ينقلون التراب لرفع مستوى الأرض المنخفضة . وقد عانى الجنود من الحر فى الصيف والبرد فى الشتاء ، ومن قلة الماء ، كما انتشرت بينهم أمراض التيفوئيد والكوليرا والدوزنطاريا ، فقضى كثيرون منهم نحبهم . ولم تتخذ الدولة ترتيبات صحية وافية الا فى سنة ١٩٠٧ ، أى قبل انتهاء العمل بسنة) . وكانت الدولة تشجع العسكريين على العمل بأساليب عدة من جملتها تقصير مدة الخدمة الاجبارية ، إذ كان العمل فى الخط مدة ثلاث سنوات يحتسب بديلا للخدمة أربع سنوات فى أى موقع آخر ، كما كان العاملون فى انشاء الخط يحصلون على علاوة مالية فوق رواتبهم المعتادة . وكان الضباط يحصلون على ترقيات استثنائية ، وأحيانا على أوسمة اذا أبدى أحدهم نشاطا ملحوظا .

حاولت الدولة تأمين المواد اللازمة لبناء الخط من مواردها الداخلية ، ولكن محاولاتها لم تحرز نجاحا كبيرا ، فابتاعت معظم المواد المصنوعة من أوروبا وأمريكا ـ وعلى الأخص من ألمانيا وبلجيكا . وكانت القضبان الحديدية أكثر المواد ثمنا .

بدأ العمل الفعلى بانشاء خط للتلغراف من دمشق الى المدينة . وقد تم بناء أول قسم من خط السكة من المزيريب ـ الى درعا الى الزرقاء وطوله ٢٥٠ كيلومترا (١٩٠٢ ـ ١٩٠٣) ثم تلاه قسم دمشق ـ درعا (١٢٤ كيلومترا) ، وبعده قسم الزرقا ـ القطرانة (١٢٣ كيلومترا) . وفى أيلول ١٩٠٦ (عيد جلوس السلطان) تم افتتاح قسم المدورة ـ تبوك(١٢٠ كيلومترا) . وفى أثناء أعوام ١٩٠٣ ـ ١٩٠٥ تم انجاز الخط الفرعى من حيفا الى درعا (١٦٨ كيلومترا) . وفى آب ١٩٠٨ كان قد تم انشاء قسم تبوك ـ المدينة وطوله ٦١٠ كيلومترات ، وبذلك تم الاتصال بين دمشق والمدينة بصورة نهائية . وطول المسافة التى قطعها الخط بينهما ١٣٠٢ كيلومترا .

كان بناء الجسور من أضخم عمليات انشاء الخط ، وقد تم بناء ٩٥٠ جسرا على الخط الرئيسى وفروعه . وكان أهمها وأطولها فى وادى اليرموك ووادى الاردن (بين حيفا ودرعا) منها ستة جسور حديدية والأخرى من الحجر . وتم شق ستة انفاق تراوحت أطوالها ما بين ٤٠ و ١٧٠ مترا . وقد سار الخط من دمشق الى المدينة قريبا من درب الحاج الشامى التاريخية ، وفى مناطق قليلة الوعورة نسبيا ، الا أن فرع حيفا ـ درعا ـ مر بوادى اليرموك الكثير المنحدرات ، وكان الدافع لانشاء هذا الفرع نقل القضبان الحديدية وغيرها لأن سكة حديد بيروت ـ دمشق ـ المزيريب (وتملكها شركة فرنسية) كانت تتقاضى أجورا عالية .

وقد نشأت عن عمليات بناء الخط أزمة بين الدولة العثمانية وبريطانيا كادت تؤدى الى الحرب . فقد أرادت الدولة أن تنشىء ميناء فى موقع (طابة) على البحر الأحمر (وجد المهندسون أن موقع طابة أفضل من موقع العقبة لضيق رقعة البحر على رأس الخليج) . فأوصلت خط التلغراف الى العقبة عام ١٩٠٥ وفى السنة التالية أرسلت قوة عسكرية الى طابة . ولكن الانجليز تحركوا وأعلنوا أن طابة جزء من سيناء،وأن سيناء تابعة لمصر (الواقعة تحت حكمهم الفعلى) ، ثم وجهوا انذارا الى السلطان فاضطرت الدولة الى الرضوخ وسحبت جنودها من طابة . وقد وضعت الخطوط الدولية عام ١٩٠٦ بين فلسطين ومصر طبقا لرغبة بريطانيا . وكانت فكرة انشاء الميناء فى طابة ناشئة عن حاجة عسكرية ، اذ كانت الدولة فى السابق ترسل قواتها برا من دمشق الى معان فالعقبة ، ومن هناك بحرا الى اليمن .

انشأت الدولة العثمانية خطوطا فرعية أخرى لخط سكة حديد الحجاز ، وهى :

ـ خط حيفا ـ عكا وطوله ١٨ كيلومتراً، وانشىء خلال ١٩١١ ـ ١٩١٣

- خط درعا - بصرى وطوله ٣٩ كيلومترا
- خط القدس - بئر السبع
- خط عنيزة - الشوبك

ويمكن القول أن نسبة تكاليف انشاء الخط كانت أقل بكثير من تكاليف خطوط السكة التى انشأتها الشركات الأجنبية فى أراضى الدولة العثمانية . وكان مجموع التكاليف بما فى ذلك القاطرات والعربات ٢٨٣،٠٠٠ ، ٤ ليرة عثمانية . ويعود الفضل فى سرعة الانجاز وقلة التكاليف الى استخدام الدولة للجنود . والى منح مستر باشا صلاحيات واسعة والى أن الخط انشىء على القياس الضيق .

فى ١ أيلول ١٩٠٨ (عيد جلوس السلطان) أقيمت حفلة افتتاح الخط فى المدينة .ولكن الانقلاب الدستورى الذى كان قد وقع فى استانبول قبيل ذلك غطى على الاحتفال الى حد ما . ومن المفارقات العجيبة أن عزت باشا العابد - وكان من أكبر المشجعين على انشاء الخط ومن أكثر الناس حماسة وجهدا لانجازه - كان قد عزل من وظيفته وأرسل الى المنفى . فلم يذكر أحد اسمه فى اثناء الاحتفالات .

ويبدأ تشغيل الخط

ومنذ عام ١٩٠٨ بدأ سير القطارات على الخط بأكمله . وفى عام ١٩١٤ كانت هناك ثلاث سفرات فى الاسبوع من دمشق الى المدينة تستغرق الواحدة منها ٥٦ ساعة (بالحساب الرسمى) وسبع سفرات من حيفا الى دمشق تستغرق كل منها ١٢ ساعة . ولكن فى واقع الأمر كانت الرحلة من دمشق الى المدينة تستغرق ثلاثة أيام . وهذه على كل حال مدة ممتازة اذا عرفنا أن الحجاج كانوا فى السابق يقضون اربعين يوما تزيد أو تنقص) بين دمشق والمدينة .

توقف الخط عند المدينة ، وبقى السفر من هناك الى مكة بواسطة القوافل كما كان فى السابق ، وبقى الحجاج القادمون بحرا الى ثغر جدة يقطعون الطريق الى مكة والمدينة على الجمال . وبقى حجاج العراق يأتون الى الديار المقدسة عبر الصحراء . وأخذ المحمل المصرى يأتى فى بعض السنين من الاسكندرية الى حيفا بحرا ومن هناك بالقطار الى المدينة . والسبب الرئيسى هو الرغبة فى تفادى غارات البدو الذين هاجموا قافلة الحجاج سنة ١٩٠٨ .

أثناء الحرب الأولى

وعندما دخلت الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى ، أصبح خط سكة حديد الحجاز وسيلة مهمة للمواصلات مع شبه الجزيرة العربية ، وخاصة لتعزيز القوات المرابطة فى اليمن والحجاز ، بعد الحصار الذى فرضته بريطانيا على سواحل الدولة . وتتبين أهمية الخط فيما نتج عن الحرب التى دارت بين قوات الثورة العربية (التى تزعمها الشريف حسين عام ١٩١٦) وبين القوات العثمانية المتمركزة فى الحجاز ، فقد استطاعت قوات الثورة أن تستولى على المواقع العثمانية فى جدة ومكة والطائف وغيرها وأن تأسر القوات المرابطة فيها ، ولكنها لم تستطع تحقيق شىء من ذلك فى المدينة بسبب اتصالها بخط السكة ووصول التعزيزات والمؤن بواسطة ذلك الخط .وهكذا استطاعت حامية المدينة أن تستمر فى المقاومة نحو ثلاث سنوات ، ولم تستسلم الا بعد انتهاء الحرب بشهرين ، وكل ذلك بفضل سكة الحديد . ومن هنا اعتبر العرب خط السكة هدفا عسكريا فى الدرجة الأولى من الاهمية ، فأخذوا يشنون الغارات عليه ، ويعملون على نزع قضبانه وتدمير جسوره ومحطاته وتخريب ونسف القطارات التى تسير عليه ، ولكن العرب لم يكونوا يملكون الطاقات الفنية والحربية الكافية لتعطيله بصورة نهائية . وقد كان فرع حيفا - درعا ذا أهمية كبيرة فى تزويد القوات العثمانية المتمركزة فى فلسطين بالمؤن والتعزيزات . وقد عمل العثمانيون فى اثناء الحرب على انشاء خطوط فرعية تخدم غاياتهم العسكرية ، فأنشأوا خطا فرعيا من محطة عنيزة الى الشوبك فى شرقى الاردن لنقل حطب الأشجار (كى تستعمل وقودا للقاطرات بدل الفحم الحجرى الذى انقطع وصوله من أوروبا) . كما انهم نزعوا قضبان سكة الحديد (الفرنسية) بين دمشق والمزيريب ، وبين حمص وطرابلس وبين يافا والرملة ، وكذلك قضبان خط حيفا - عكا وخط درعا - بصرى ، واستعملوا كل ذلك لتمديد خط الى القدس ومنها إلى بئر السبع . لذلك يمكن القول أن خط السكة كان صاحب الفضل الأول فى صمود القوات العثمانية فى جنوبى فلسطين نحو عامين فى وجه قوات بريطانية متفوقة .

نتائج أخرى هامة

كانت للخط أهمية اقتصادية بالنسبة للمناطق التى مر بها ، اذ استعمله الاهلون لأسفارهم ولنقل محصولاتهم

الزراعية الى المدن الكبيرة والموانىء . وقد تبدت فوائده أكثر ما تكون في القسم الممتد بين دمشق ودرعا وحيفا ، اذ كان ينقل اكثر من ثلاثة ارباع البضائع التى ينقلها الخط بأكمله . وكذلك الأمر بالنسبة لعدد الركاب . وكانت دمشق أكبر سوق تجارية في سوريا الطبيعية يومذاك ، ولذلك كان معظم الركاب يتجهون اليها أو يسافرون منها ، وكذلك الأمر بالنسبة للبضائع . وكان من تأثير وصول الخط الى حيفا ، أن عدد سكان هذه البلدة الصغيرة ارتفع من ٤ ـ ٦ آلاف في عقد ١٨٧٠ ـ ١٨٨٠ ، الى ٢٢ الفا عام ١٩١٤ ، وبذلك شهدت أعظم نمو سكاني في فلسطين في تلك الفترة .

عارضت قبائل البدو انشاء الخط لأسباب اقتصادية ، اذ كان البدو يؤجرون آلاف الجمال كل سنة لنقل الحجاج (على مراحل) من دمشق الى المدينة (ومنها الى مكة) ثم نقلهم مرة أخرى في طريق العودة . وكان هجوم البدو عام ١٩٠٨ على المدينة نابعا في الأصل من خوفهم أن يفقدوا ذلك المورد الاقتصادي المهم . كما أن البدو كانوا يدركون أن الخط سيمنح الدولة وسيلة آلية ضخمة وسريعة لحشد الجنود ضدهم في مناطق لم تكن الدولة تجرؤ في السابق أن تدفع جنودها اليها . أما الشريف حسين (الذى عين أميرا للحجاز عام ١٩٠٨) فقد عارض بشدة تمديد الخط من المدينة الى مكة ، ولم تكن معارضته نابعة من دوافع اقتصادية فحسب بل كانت تنبع في الدرجة الأولى من خشيته على فقدان التوازن السياسي الذى كان حتى ذلك الحين قائما بين قوة منصب الأمير من جهة وقوة منصب الوالي من جهة ثانية .أي أن الشريف كان يخشى أن يفقد أمراء الحجاز استقلالهم الداخلي المحدود ، وأن يصبح الحجاز تدريجيا ولاية يديرها الولاة الاتراك مثل ولايات الدولة الأخرى . وفي عام ١٩١٤ بلغ الجدل والخلاف بين الشريف حسين والوالي حدا اندفع بسببه الاهلون (من بدو وحضر) الى الثورة فقطعوا المواصلات بين مكة والمدينة وبين مكة وجدة ، ولم يتوقف الاضطراب الا بعد أن وافقت الدولة على تأجيل موضوع تمديد خط السكة الى الجنوب من المدينة .

التنافس الدولي

وفي عام ١٩١٢ كانت الدولة العثمانية بحاجة ماسة الى مبالغ كبيرة من المال ، اتضح أنه لايمكن استدانتها الا من بورصة باريس . كما كانت الدولة بحاجة الى موافقة فرنسا على زيادة نسبة الرسوم الجمركية . وبدأت المفاوضات في باريس بين الدولتين . وبطبيعة الحال طالبت فرنسا بامتيازات جديدة لقاء موافقتها على مطلبي الدولة العثمانية . وكان من جملة الامتيازات المطلوبة بنود تتعلق بخط سكة حديد الحجاز . واضطر الوفد العثماني للموافقة على مطالب الفرنسيين اذ كانوا يريدون تقوية جيشهم بعد الهزائم التى لحقت بهم في البلقان وليبيا . لذلك وافق العثمانيون (بموجب اتفاقية ١١ أيلول ١٩١٣) على أن تبنى الشركات الفرنسية خط سكة حديد من الرياق الى الرملة ، من أجل أن يتصل خط دمشق ـ بيروت بخط يافا ـ القدس . ووافقوا على بند آخر يقضي بأن يتولى أحد الفرنسيين ادارة خط سكة حديد الحجاز لمدة عشر سنوات ، وبأن تمنح مرافق الموانىء في طرابلس وحيفا ويافا إلى شركات فرنسية وكان هناك بند آخر ينص على أنه اذا ارادت الدولة العثمانية أن تؤجر خط السكة من دمشق الى معان ، فينبغي أن يكون التأجير لخطوط السكة التى تملكها الشركات الفرنسية . ان هذه الاتفاقية لم تحظ بمصادقة مجلس الوزراء العثماني ، فتم التوقيع على اتفاقية جديدة(٩ نيسان ١٩١٤) وافقت الدولة بموجبها على ايقاف العمل في تمديد سكة الحديد الفرعية من العفولة الى القدس ، كما وعدت بأن تكون ادارة الخط بين دمشق ودرعا وحيفا في أيد فرنسية . ولكن الحرب العالمية الاولى لم تلبث أن نشبت فلم توضع هذه الاتفاقية موضع التنفيذ . وكان من المفارقات أن العثمانيين ـ الذين دخلوا الحرب الى جانب المانيا ـ وضعوا أيديهم على الخطوط الفرنسية باعتبار انها من ممتلكات العدو .

هذه خلاصة انتقائية لكتاب الاستاذ وليم أوكسنوالد عن خط سكة حديد الحجاز ، منذ انشائه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . ويمكن القول أن القطارات استأنفت سيرها بصورة متقطعة على الخط بين دمشق والمدينة خلال أعوام ١٩١٩ ـ ١٩٢٤ ، ولكن الاحداث السياسية في بلاد العرب أدت الى توقف العمل على الخط بين معان والمدينة . ومنذ عشرين عاما والمواطن العربي يسمع عن لجان تجتمع ودراسات تعد ، من أجل اعادة بناء الأجزاء التى خربت وتآكلت مع مضي الزمن . ولكن حتى الآن لم يتم التوصل الى نقطة البدء بالعمل .

لا شك في أن هذا الكتاب يسد فراغا في مصادر التاريخ الحديث لهذه المنطقة من العالم . ولمؤلفه فضل يذكر في تتبع الموضوع وفيما أضاف الى الكتاب من بيانات احصائية وخرائط وصور نادرة ، مما يزيد من قيمته العلمية . ■■

الأردن : عمان سليمان موسى

نزهة العقل الذكي

مسابقة العـــدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لاتشوه صفحة العدد بقطعها منها أما المنشور في أسفل الصفحة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير ـ و٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد ٢٧٦ وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول يناير (١٩٨٢) .

اثنتان في واحدة :

اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم كاتب و وزير عباسي ، كما ستجد في (٨) رأسيا اسم فقيه شافعي و مؤرخ .

كلمات أفقية :

(١) دولة أوروبية ـ أواظب .

(٢) أحد الوالدين ـ أرض مرتفعة ـ من الحشرات ـ قبل اليوم .

(٣) ولاية أمريكية ـ البحث .

(٤) في قاعة المحكمة ـ كثيرة الدهن ـ من سور القرآن الكريم ـ مقام موسيقى .

(٥) وكالة أنباء عالمية ـ مغنى ـ الجوارى المغنيات .

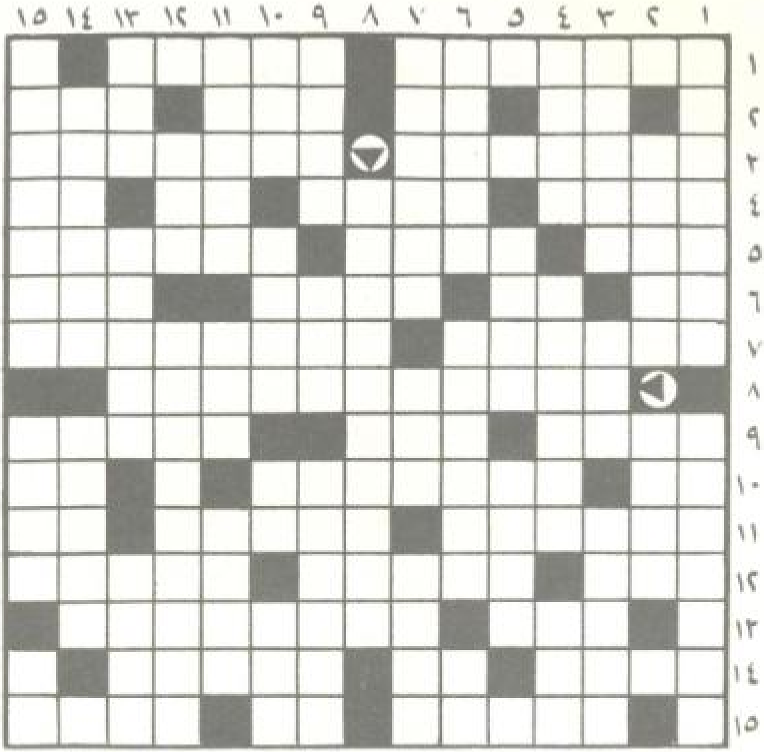
(٦) نصف كلمة (يجبن) ـ من أجزاء الذراع ـ عاصمة عربية ـ أتقاعس .

(٧) عشق الذات ـ فنان تشكيلي رومانسي من القرن التاسع عشر .

(٨) كاتب ووزير عباسي .

(٩) آلة ايقاع ـ غذاء طبيعي كامل ـ تعب .

(١٠) نصف كلمة (لقاء) ـ دولة أوروبية ـ



حرفان متشابهان .

(١١) في الجيش ـ أرجو و أمل ـ نصف كلمة (نياط) .

(١٢) خالص وصرف ـ غير تامة ـ حركة أسسها بادن باول .

(١٣) معبود ـ أول عالم جغرافي رسم خريطة سليمة للعالم .

(١٤) أشيد ـ من الأقارب ـ صاحب نظرية التطور .

(١٥) من الأحجارالكريمة ـ بحر ـ في المسرح .

كلمات رأسية :

(١) رائد النظرية النسبية ـ أول عاصمة للعباسيين .

(٢) يبدل المقام ـ طائر .

(٣) طائر ـ عنق ـ دولة في القارة الأمريكية .

(٤) أفتى ـ ينجدان ـ نصف يوم .

(٥)خل ـ صبغته .

(٦) لايحسم الأمر ـ دولة أوروبية ـ حرفان متشابهان .

(٧) البوار ـ حيوان مفترس ـ خليج بالبحر الأبيض المتوسط .

(٨) فقيه شافعي و مؤرخ .

(٩) صبر ـ حرف أبجدى ـ يتبختر .

(١٠)سكران ـ أحاكي ـ كثير ـ استمر .

(١١) من المنسوجات ـ حروف متشابهة ـ تعيد .

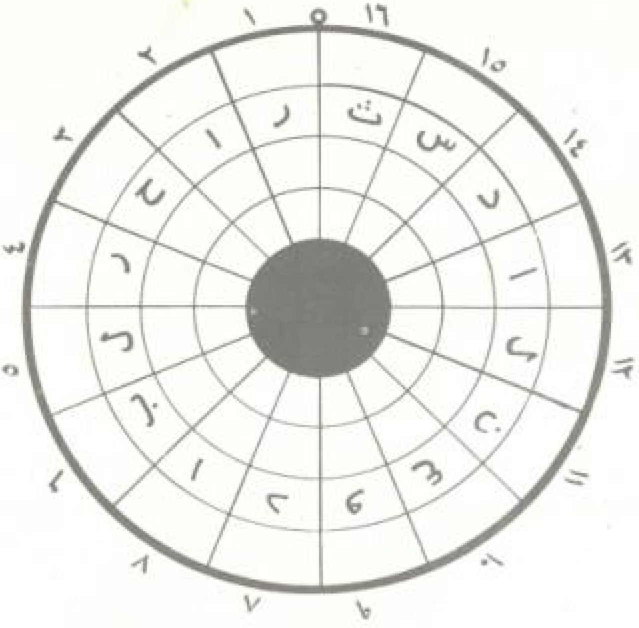
(١٢) نظام ـ حكيم صيني قديم .

(١٣) أعجب ـ وحدة قياس أطوال ـ المياه اذا تغير طعمها ولونها .

(١٤) مدينة صناعية إيطالية ـ الانكار .

(١٥) دولة من دول حوض البحر الابيض المتوسط ـ من أعضاء الجسم ـ احسان

كوبون مسابقة العدد ٢٧٦



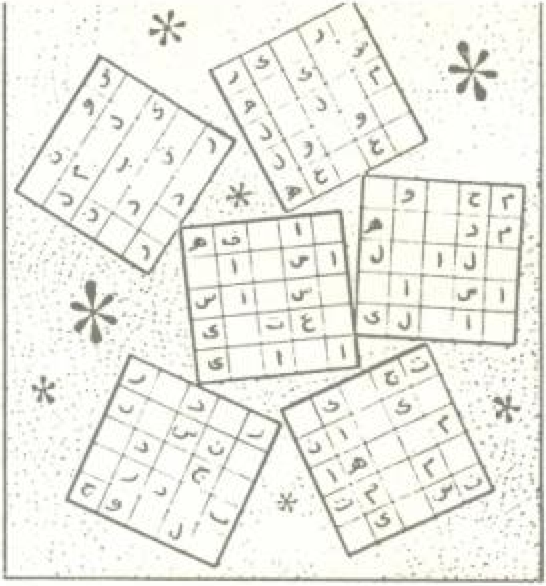
حول الدائرة السوداء

ضع الكلمات ذات الحروف الأربعة ـ والتي نعطيك معانيها ـ في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

عالم طبيعي اسكتلندي شهير من القرن التاسع عشر

---

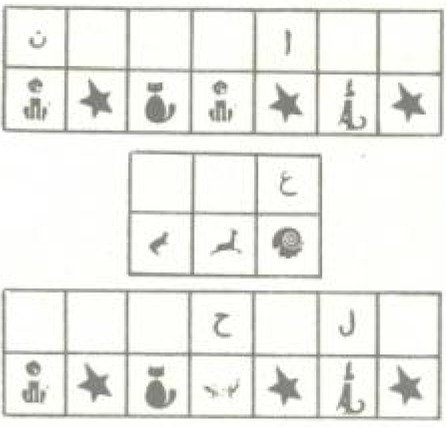
(١) للاضاءة (٢) مرتفع (٣) شهر هجري (٤) من الزهور (٥) تصرف (٦) طريق (٧) دولة إفريقية (٨) فلك (٩) غيرك (١٠) مدرس (١١) أخير (١٢) يمضغ (١٣) شهر ميلادي (١٤) يقترب (١٥) من اللون (١٦) نحات .



العواصم

أمامك ستة مربعات ذات اطارات خارجية ثقيلة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات أفقية ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحرف الناقص في المربعات الستة ، ورتب الحروف لتصنع اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي ، يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم ، بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في موضعها . هل يمكنك الوصول الى المثل ، اذا عرفت أن المثل يشير الى :

اظهار قيمة فعل الخير للآخرين وأثر ذلك عليهم

الحلول

العواصم :
أبدجان .

حول الدائرة السوداء :
جيمس كلارك ماكسويل .

مثل عربي :
الانسان عبد الاحسان .

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت

نوفمبر - تشرين ثاني

١٩٨١ م

فكرة القانون

تأليف : اللورد دينيس لويد

ترجمة : سليم الصويص

مراجعة : سليم بسيسو

الكتاب السابع والأربعون

٢٥٠ فلساً

المراسلات :

توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

استثمارات

مستثمرونا العرب والاوروبيون ممنونون جدا من نجاحنا في تحقيق افضل الارباح لهم نتيجة استثمارنا لاموالهم في اسواق الاسهم والسلع الاولية في البورصات العالمية. والجدول التالي يعطيك صورة موضحة عن تطور اسعار بعض المواد الاولية الجاري التعامل بها لدى هذه البورصات:

بعض المواد الاولية المتعامل بها	عام ١٩٧٠		عام ١٩٧٥		عام ١٩٨٠		عامي ١٩٨١-١٩٨٢	
	السعر الادنى	السعر الاقصى	السعر الادنى	السعر الاقصى	السعر الادنى	السعر الاقصى	السعر الادنى	السعر الاقصى
القهوة	٣٢٢	٤٣٧	٣٨١	٩٠٠	٩٢٥	١٨٣٠	؟	؟
النحاس	٤٤٠	٧١٠	٥٢٠	٦٥٠	٧٨٠	١٣٦٠	؟	؟
السكر	٣٠٢,٥٠	٤٦٤	١٢١	٤٦٥	١٦٨	٤٤٦,٥	؟	؟

فاذا كنتم انتم ايضا راغبين في استثمار اموالكم في اسواق المواد الاولية المختلفة وتحقيق افضل الارباح نتيجة الاستفادة من تغير وتطور اسعار هذه المواد الاولية. فاكتبوا الينا على عنواننا المذكور ادناه. ويسرنا ان نرسل اليكم المزيد من المعلومات باللغة العربية والانكليزية (طبعا يمكنكم الكتابة الينا بلغتكم العربية). بقي ان نعلمكم اننا نعمل في مجال ادارة واستثمار الاموال وبنجاح منذ عام ١٩٦٥

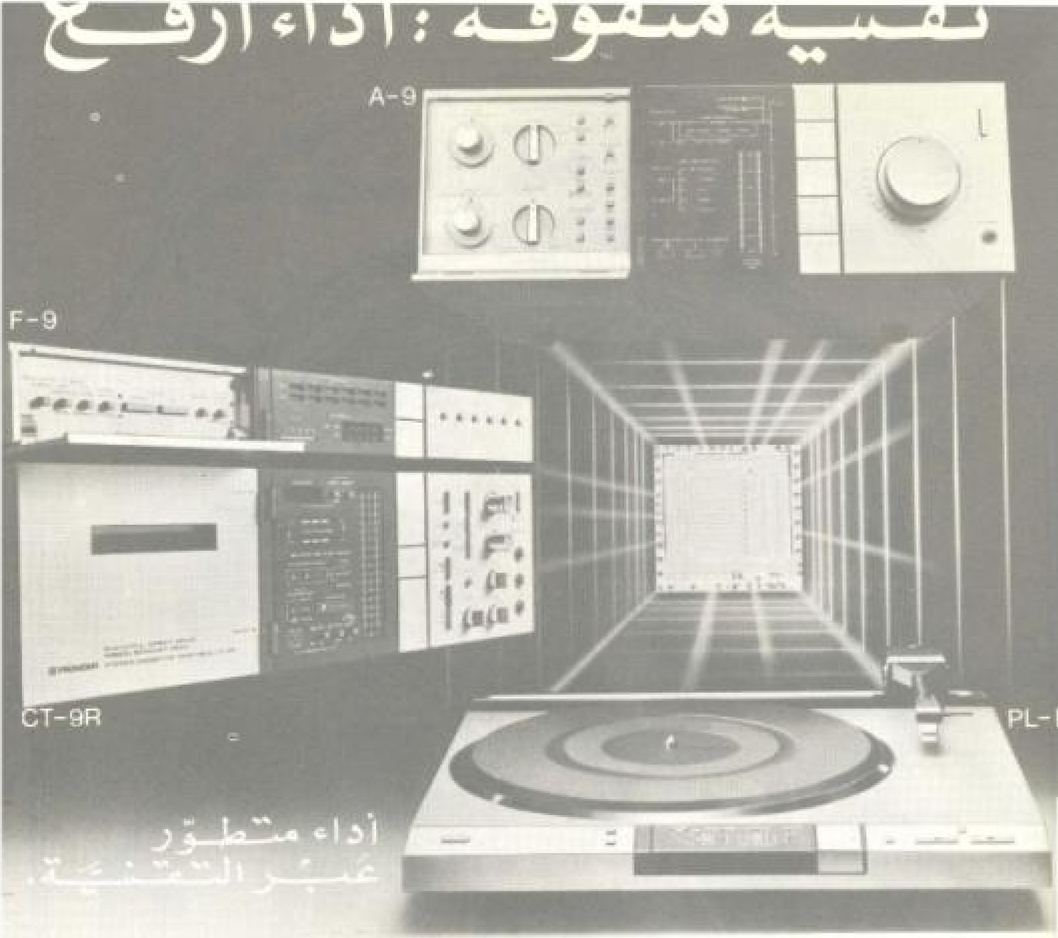
KDB DEPOTBETREUUNG
GmbH
اتصلوا بنا على العنوان التالي:
HANS-THOMA-STR. 19/2
P.O. BOX 700650
6000 FRANKFURT / MAIN 70
WEST-GERMANY

البنك الدولي
لسبع
دول
خليجية

اسست بنك الخليج الدولي حكومات كل من البحرين والعراق والكويت وعمان وقطر والمملكة العربية السعودية والامارات العربية المتحدة .

ان تواجد بنك الخليج الدولي في البحرين ولندن ونيويورك علاوة على خبرته الواسعة بالمراكز المالية والاسواق المصرفية العالمية يقوي من قدرته على تلبية احتياجاتكم من الخدمات المصرفية في المجالات التجارية والاستثمارية .

بنك الخليج الدولي ش . م . ب .
بناية طارق ــ شارع الحكومة ، ص . ب ١٠١٧ المنامة ــ دولة البحرين
لندن ــ ص . ب ١٥٦ ، ٨ ــ ١٢ كينغ وليم ستريت ، لندن إي سي ٤
نيويورك ــ ١٩٩ بارك افينيو ، نيويورك إن واي ١٠٠٦٢



أجهزة بايونير المتكاملة تأتيك بأداء يرضاهيه دقة إلا تصميمها الرائع . ولتضع بين يديك جميع منجزاتها التقنية . عبر تصميم نظام كامل .
تصميم بايونير للنظام الكامل يعني أكثر من مجرد جمال تقني . إنه معادلة تامة عبر النظام المركزي للأجهزة بضوابطه وإرجاعه ومؤشراته .

ومكبر الصوت "A-9" يعني نقاء الصوت عبر TM غير متحول ومجموعة أزرار DC مباشر . وشاشة تأكد مستقبلية الصوت النقي ، وضوابط الكترونية كباسة تضعك في مركز القيادة .

والموالف "F-9" يعني التنغيم "PLL" كوارتز حساس ودقيق . ضوابط شعبي / ضغط الجهة الـ FM والكشف رقمي التوسيع الرياضي . وإيجاد مرشحات الـ IF الغير متوازية . واستقبال مباشر حتى ٦ محطات FM و٦ محطات AM بضوابط ذاكرة كباسة .

والكاسيت ديك "CT-9R" ذو المحرك الشمولي للدفع المباشر يعني معادلة تستند إلى كومبيوتر بالإضافة إلى دقة أداء فائقة . أما الـ CT-9R فيتفوق الأداء بحيث يحدد مقاييس الأجهزة الشريط ومستوياتها وعوامل توازنها .

أما البيك آب "PL-L800" فيعني ذراع "TM بولار كراف" بالدقة المتناسبة مع الحديث و"كارترج" ذو طاقة إنتاجية عظمى لتعطي صوتاً نقياً أخاذاً دون الحاجة إلى مضخم MC خاص للرأس .

نظام بايونير الكامل ، ذروة إنجازاتنا لعشرات السنين عبر التطوير المتواصل لتقنية لا ترفع المستوى" . وربما يعتقد هذا بالنسبة "للأداء الأرفع" هو ما يجب أن تسمعه بنفسك لتستطيع تقديره .

COMPONENTS
PIONEER

أجهزة بايونير تعرض في المحلات التجارية التي تحمل هذا الشعار .

PIONEER بايونير

أجهزة بايونير متوفرة لدى

الكويت : كاجيرما الكترونكس . مقابل تلفزيون الكويت
مجمع اسار الروضة . ت : ٥٣٤٥٣
البحرين : ... ٢٤٠ شارع ... المنامة
٦٣٧٩٥
... : شركة ... ليمتد . شارع ... ، ... ٦ ... ت : ٣٧٦٢٠٩
الأردن : شركة الأردن لقطع الغيار . ص . ب ٢٨١ عمان ت ٣٠١١٣
... : كاجيرما (شركة ... كاجيرما) . شارع ... المركزي ت : ٤٣٤١٢٥

لبنان : أبناء جورج ... وشركاه . ...
ص . ب ٦٨٠ ... بيروت . ت : ٣٦٥٢٠٥ و ٣ ... ٩٠١٠٣
مسقط . عمان : ... ص . ب ٣٨٨ .
... سلطنة عمان . ت : ٧٠١٧٧٧
قطر : أحمد العثمان وإخوانه . ص . ب ٢١٨ الدوحة
ت : ٢٣٥٠٧٠
المملكة العربية السعودية : أحمد ... بارغيش .
شارع الملك خالد . الخبر . ت : ٤١١١٥ (صالة العرض الشمالية) . ت : ٤٦٧٨٦ (صالة العرض الجنوبية)

ص . ب ٨١٥ . جدة . ت : ٢٥٩١٤ / ص . ب ١١٣٥ .
الرياض . ت : ٢٦٨٢٧ . شارع الملك عبد العزيز /
ص . ب ١١٣٥ . الرياض . ت : ٦٥١٢٤ . شارع ...
سوريا : ... ص . ب ٥٩ . دمشق .
ت : ٢٢٤٥٢١
اتحاد الإمارات العربية : ... الشرق للتجارة .
بناية البنك العربي . مقابل البريد المركزي . ص . ب ٤٥
دبي . ت : ٢٢٧٠٩ / ... . ص . ب ٢٥٧٤ . أبو ظبي . ت : ٢٥٨٧٢

نصائح من أكبر مؤسسة لتصدير اللحوم والمواشي في العالم

تعتبر استراليا في طليعة البلدان المصدرة للحوم والمواشي ، وهي تتعامل في هذا المجال مع مايزيد عن مائة دولة في مختلف أنحاء العالم . وقد بلغت الصادرات الاسترالية من لحوم الابقار والاغنام والماعز المبردة والمثلجة في العام الماضي نحو مليون طن .



وتتولى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تصدير مثل هذه الكميات الكبيرة من اللحوم والمواشي . وللشركة عدد من المكاتب في الشرق الاوسط ، والاسواق العالمية الكبرى .

وتهتم هذه المكاتب بترويج اللحوم وتقديم الاستشارات والمساعدات المباشرة للمستوردة .

كيف تساعد الشركة المستوردة

يعمل لدى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي خبراء متخصصون بالتسويق والاقتصاد والتنمية وفن الاعلان بهدف تنشيط التجارة مع استراليا .



فاذا كنت بحاجة الى بعض المعلومات عن توفر اللحوم والمواشي ونوعياتها واجراءات الشحن والشروط الصحية وسواها من المعاملات والاعلان ، فما عليك الا أن تتصل بالمدير الاقليمي للشرق الاوسط : السيد فيليب روسال أو المدير الاقليمي للمكتب الاوروبي السيد رالف هود .

الشحن

تقوم الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بدراسة وتحديد كميات وأسعار اللحوم والمواشي المراد شحنها وكذلك وسائل الشحن الممكنة عبر الطرق الدولية .

التأكيد على النوعية

ان الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تستخدم جهازا من الفنيين داخل استراليا وخارجها لمساعدتك في تقديم طلباتك والتأكد من أن المنتجات التي أرسلت لك تطابق المواصفات المطلوبة بما في ذلك ذبح المواشي على الطريقة الاسلامية

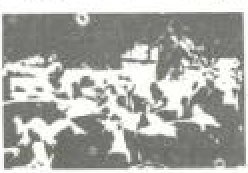
وهناك كتيبات تتضمن معلومات عن كافة اعمال الشركة والاصناف التي تتعامل بها يمكن الحصول عليها من المكاتب الاقليمية للشركة .

أذون التصدير

تطبق الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بعض الشروط المالية والانتاجية في تعاملها مع المصدرين حتى تجنب العملاء أي اشكالات أو مضايقات هم في غنى عنها .

أين تجد النصيحة

في امكانك الحصول على أي نصيحة او استشارة في هذا المجال عن طريق :



السيد / فيليب روسال
ممثل
« باتين سنتر »
الشركة الاسترالية للحوم والمواشي
ص . ب (٥٦٢٢)
هاتف ٢٤٤٠٠٩
تلكس ٩٤٧٦٠٩٠٤ AMLC BN
المنامة / دولة البحرين

أو

MR. RALPH HOOD 9 KINGSWAY LONDON, WC. 2 ENGLAND

AUSTRALIAN MEAT & LIVE-STOCK CORPORATION

مجلة
دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ١٢٥٫٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالى ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - ببليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٥٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي)

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١ - كتاب التكامل الاقتصادي في الخليج العربي (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .
٢ - كتاب آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .
٣ - كتاب حقوق الطفل في دولة الكويت (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .
٤ - كتاب الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية (بدوي خليل) ١٩٨٠ .
٥ - دور جريدة فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها : -
الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٢

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .

لؤلؤة فريدة بين مغنيات الأوبرا، وساعة رولكس

في الأول من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧١، ظهرت على مسرح دار الأوبرا الملكية في لندن مغنية سوبرانو مغمورة من سكان نيوزيلندا (الماوري) تدعى «كيري في كاناوا». وما أن مرّت ثلاث ساعات على قيامها بدور الكونتس في مسرحية «عرس فيغارو» حتى أخذ نجمها يتلألأ في عالم الغناء. وفي اليوم التالي كتب «أندرو بورتر» معلقاً: «لم يسبق لي أن استمعت الى مثل هذه الكونتس.» وكتب ناقد آخر يقول: «من الجلي اننا أمام مغنية تبشر بنبوغ خارق... في «كوفنت غاردن» الآن لؤلؤة ثمينة نادرة.»

ومنذ ذلك الحين، أخذ هذا النبوغ الكامن يتحقق على مسارح دور الأوبرا في جميع أنحاء العالم.

وقد جاء في وصف الآنسة «في كاناوا» لدى قيامها بدور «دزدمونا» من مسرحية «عطيل» في أداء حديث: «الجمل الموسيقية تنطلق بانسياب خلاب ونبرات محبوكة قوية تكاد تنتزع الدموع من الحجر الصلد.»



وبعيداً عن المسرح، تعيش الآنسة «في كاناوا» في دوامة لا تهدأ. فمقابلاتها ومواعيدها وتمارينها متلاحقة، فضلاً عن ارتباطاتها الدولية وفق جدول زمني. جميع هذه النشاطات تثقل كاهلها الى حدّ يجعل أكثر المسافرين خبرة يصاب بدوار.

الآنسة «في كاناوا» تلبس ساعة رولكس «أويستر برپتشوال ديت - جست». ومما لا شك فيه، انها ساعة أنيقة رشيقة تعكس كل مظاهر الأنوثة.

كما أن حماس المغنية لهذه الساعة عملي كذلك، حيث تقول: لو أن قلقاً ينتابني حول ما اذا كانت ساعتي ستتوقف، لما وصلت الى أي مكان في الموعد المحدد. الآن ساعتي رولكس تضبط الوقت بدقة تامة مهما فعلت بها. في هذه الصورة تبدو الآنسة «في كاناوا» بملابس خاصة بدور «فيار دوليجي» من مسرحية «كوسي فان توتي». وهي تقف على سلّم دار الأوبرا في باريس. وهذه إحدى المناسبات النادرة جداً التي لا ترتدي فيها ساعتها «أويستر». وحتى نحن في رولكس لابدّ وأن نسلّم بأنها، فعلاً، ليست بحاجة اليها.

ROLEX
رولكس



ساعة رولكس ليدي - ديت جست المصنوعة من الذهب عيار ١٨ قيراطا أو من فولاذ لا يصدأ مع سوار ينسجم معها.

من المسرح العالمي
سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر
وزارة الإعلام في الكويت

أول نوفمبر ١٩٨١

العدد ١٤٦

ثلاث قبعات كوبا

تأليف : ميجيل ميورا
ترجمة : نادية جمال الدين
مراجعة وتقديم : د. صلاح فضل


سوني
SONY
بامكان سوني فقط تحقيق
التوافق المرئي المثالي.
أجهزة بيتاماكس
وترينيترون بالأنظمة
الملونة الثلاثة
GOL
10
SONY
SL-T7
KV-2032ME
سوني بيتاماكس
Sony Betamax T7
Betamax



أجزاء متكاملة
C7
لتتنقل
SANYO
سانيو

العربي

صفر ١٤٠٢ هـ - ديسمبر
(كانون ١) ١٩٨١



أخلاق الإستبداد
وأخلاق الحرية

حقول الكهرباء
تملأ الفضاء سنة ٢٠٠٠؟

مسلمو كوسوفا
ألبانيون قلباً
يوجوسلافيون قالباً!

خبـرة المـاضي



١٩٥٢
أول بنك كويتي تأسس في الكويت هو بنك الكويت الوطني وكان موقعه في شارع عبد الله السالم مقابل المكتب الرئيسي الحالي.

١٩٨١
أحدث غرفة لتداول العملات (Treasury Dealing Room) في الشرق الأوسط متصلة بالأقمار الصناعية وهي موجودة في المكتب الرئيسي.



وأحدث الخدمات العصرية

بنك الكويت الوطني كان ولايزال الرائد في مجال التطور على مدى ٢٩ عاماً. هذا التطور الذي وضع التكنولوجيا الحديثة في خدمة الزبائن الكرام، والذي أدى الى توسع البنك فاصبح يملك ٤٠ فرعاً متصلة جميعها بالكمبيوتر المركزي وذلك لتأمين خدمات فورية للعملاء الكرام.

ان هذا التطور أدخل مقياساً جديداً على الخدمات المصرفية في الكويت دون ان يمس بتقاليد اللباقة وروح الخدمة التي كانت موجودة يوم أنشأنا أول فرع لنا عام ١٩٥٢.

بنك الكويت الوطني ش.م.ك

المركز الرئيسي: شارع عبد الله السالم. ص.ب ٩٥ الصفاة، الكويت

عزيزي القارئ

مع بداية العام الجديد ، يرفع سعر بيع المجلة بنسبة ٥٠٪ ، ليس بهدف تغطية تكاليف المجلة وتعويض ارتفاع اسعار الورق ، فذلك هدف قد يتحقق بالكاد اذا بيعت المجلة بثلاثة اضعاف سعرها الحالي ، ولكن بناء على طلب شركات التوزيع التي تلح على وزارة الاعلام بالكويت لهذا الغرض منذ اكثر من سنتين . وكانت لهم في ذلك أكثر من حجة ، أولها ان المجلة لم تعد تباع في اغلب انحاء الوطن العربي بالسعر المدون على غلافها ، وانما تباع دائما بضعف ثمنها ، وبثلاثة اضعاف الثمن في بعض الدول . وزيادة الخمسين بالمائة هي بمثابة تقرير للامر الواقع ، ولن تضيف جديدا الى عبء القارىء الذى يشتريها فعلا بهذه القيمة . .

وثاني تلك الاسباب ان الصحافة العربية كلها ضاعفت اسعارها خلال السنوات الاخيرة ، بينما « العربي » هي المجلة الوحيدة التي ظلت ثابتة على سعرها الذي كانت عليه قبل عشرين عاما . ولاعتبارات أدبية ارتأتها جهات التوزيع كان من المناسب ان يرفع سعر « العربي » بهذه النسبة ، التي لاتقارن بالمدى الذى بلغته اسعار الصحف والمجلات الاخرى .

ان قضية الربح ليست واردة من الاساس في فكرة اصدار « مجلة العربي ، » بل ان منطلقها الحقيقي هو المسئولية والرسالة ، التي سعت المجلة عبر عمرها الذي يقارب ربع القرن على ان تباشرها على جبهة ثقافية عريضة ، تغطي مختلف فروع المعرفة . بقدر ما تغطي رقعة العالم العربي والاسلامي .

لهذا السبب كان من الضروري ان يظل سعر « العربي » رمزيا ، ولهذا السبب ايضا قلصت المجلة مساحة الاعلان بها ، واعتذرت عن قبول الكثير من الاعلانات حتى تستثمر كل صفحات المجلة قدر الامكان لصالح القارىء بالدرجة الاولى .

وما نستطيع ان نقوله هنا ان تلك الزيادة في السعر بنسبة ٥٠٪ سوف يقابلها جهد من جانب المجلة ، بنسبة مائة بالمائة على الاقل ، يستهدف توسيع نطاق خدمة القارىء ، وتعميق معرفته واثرائها .

المحرر



صورة الغلاف

الصورة من كوسوفا ، اقليم الجنوب اليوغوسلافي ، حيث يعيش حوالي مليون مسلم الباني الاصل لايزالون على تقاليدهم ونمط حياتهم الذي ينتمي الى الشرق ، بل الى القرن الماضي في الشرق . واللقطة لواحد من الراقصين الشعبيين ، تنطق بحركات وايقاعات ابناء الجبل المقاتلين ، انظر الاستطلاع ص ٦٨

قضايا عامة

عروبة واسلام

قضايا حيوية

علوم

أدب وفنون

تاريخ وشخصيات

تربية وعلم نفس

استطلاعات مصورة

ابواب ثابتة

العربي

مجلة عربية مصورة شهرية جامعة

رئيس التحرير: أحمد بهاء الدين
مدير التحرير: فهمي هويدي

تصدرها وزارة الاعلام بحكومة الكويت
للعالم العربي وكل قارىء للعربية في العالم
الوزارة غير مسئولة عما ينشر فيها من آراء
والمجلة غير ملتزمة باعادة أي مادة تتلقاها للنشر

ثمن العدد : بالكويت ١١٠ فلوس . الخليج العربي ريالان قطريان . البحرين ٢٠٠ فلس بحريني . العراق ١٢٠ فلسا . سوريا ١٠٠ قرش . لبنان ١٠٠ قرش . الاردن ١٠٠ فلس . السعودية ريالان سعوديان . السودان ١٠ قروش . ج . م . ع ١٠ قروش . تونس ٢٥٠ مليما . الجزائر ٢٫٥ دينار . المغرب ٢٫٥ درهم . اليمن ٢٫٥ ريال . ليبيا ١٥٠ درهما . جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ٢٠٠ فلس .

الاشتراكات : يراجع طالب الاشتراك :
١ ـ الشركة العربية للتوزيع وعنوانها : ص . ب (٤٢٢٨) بيروت/لبنان .
٢ ـ مؤسسة توزيع الأخبار وعنوانها : ٧ شارع الصحافة/القاهرة/مصر .
« للمشتركين في جمهورية مصر العربية »

الاعـــلانات : يتفق عليها مع الادارة ـ قسم الاعلانات

المراســلات : باسم رئيس التحرير
عنوان المجلة بالكويت : صندوق بريد ٧٤٨ ـ تلفون ٤٢٧٩٤١
تلغرافيا « العربي »

Al — Arabi, No, 277, December, 1981.
P.O.Box 748 , KUWAIT.

سنة الآمال

ها نحن ـ أيها القارىء العزيز ـ نودع معا سنة أخرى مضت .وبداية سنة جديدة مسألة رمزية . ذلك أن عدد الأيام والليالى ، وتعداد السنوات .وتحديد متى تبدأ ومتى تنتهى ، انما هى أمور تواضع عليها الناس لكى ينظموا أمورهم ، ويحسبوا أعمارهم ، أما التاريخ فهو سلسلة متصلة لا يعرف اليوم ولا السنة ولا القرن الكامل .

البشر يتقيدون بالمواعيد ويحسبون بالمواعيد والتواريخ . ولكن حركة التاريخ ذاتها لا تراعى ذلك . انما هى كالنهر المتدفق .. يحسب ا لناس سرعته وارتفاعه وقوة اندفاعه ، ويضعون المقاييس والسدود والجسور ، ولكن النهر نفسه ماض فى طريقه الأبدى ، غير عابىء بشىء من ذلك . .

وقد اشتهر عن فيكتور هيجو الشاعر الفرنسى الخالد أنه كان جالسا فى الأكاديمية الفرنسية حين سمع المحاضر يقول : لقد بدأت اللغة الفرنسية تتدهور من سنة كذا . فوقف فكتور هيجو متسائلا : الساعة كم ؟ ؟

فهو يسخر من تحديد مواعيد للأحداث والتطورات . واذا كان المحاضر يحدد سنة فهو يسأله فى أى شهر وفى أى يوم وفى أى ساعة ؟ .

ولكن حيث ان هناك تواريخ وجداول ، وحيث ان الناس يتعاملون بها ويفكرون بها ، فهى ـ أى التواريخ ـ قد يكون لها قيمة وقفة التأمل على أقل تقدير .

انتظرنا الثمانينات !

وقد كان الناس منذ عشر سنوات ينتظرون « الثمانينات » فى ترقب ، وتعجل ، وخوف . . لأنها ستحمل عالما جديدا ، ولكنها اشارة الى اقتراب موعد آخر ، هو سنة ٢٠٠٠ التى يحس الناس ـ ربما لشدة وقع الرقم الجديد المثير ـ انها ستكون بداية عالم ونهاية عالم .

ولكن . . ها هى أول سنة من الثمانينات قد مرت ، ولا نرى بعد ملامح هذا الجديد الفاصل ، ولا مقدماته . . .

الضائعة!

بقلم: أحمد بهاء الدين



حسنى مبارك .. « للرسام الأمريكى ألبرت فوريس »

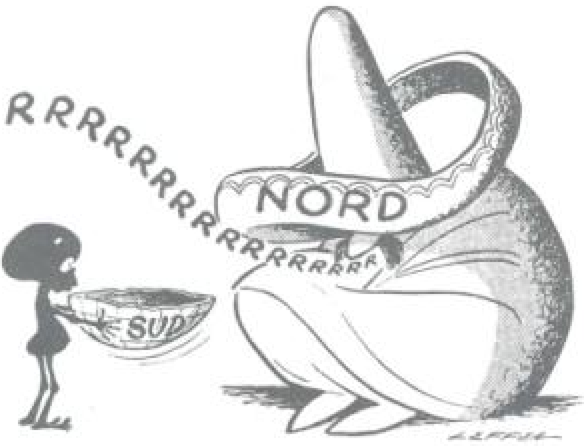
كل ما يمكن قوله كملاحظة عامة : ان العالم تفاقمت مفارقاته ومتناقضاته ، وانه صار كالبحر الهائج والموج المتلاطم والرياح والأمطار والبروق والرعود . . . وسفينة الكرة الأرضية تسبح فى هذا الجو ليس لديها « بوصلة » تحدد الاتجاه ، ولا « نشرة جوية » تتنبأ بالغد . وبالتالى فكل ما يمكن أن تفعله سفينة الكرة الأرضية هو أن تظل طافية ، وان تنجو من الغرق !

فى خلال سنة واحدة . . تسلم ريجان الحكم فى أمريكا ، فقلنا ان العالم يتجه الى اليمين . ثم نجح فرنسوا ميتران فى فرنسا وباباندريو ، فنقول ان العالم يتجه الى اليسار . وأغلب الظن أن الأمور اختلطت ، وأن « النظريات » نزلت عن عرشها كما قلت مرارا ، وأن الشعوب تهرب ، وأن الناس أميل الى مواجهة الحقائق الخاصة بذهن براجماتى . بدليل أن ميتران مثلا تبنى معظم سياسات ديجول الأساسية التى ظل يحاربها عشرين عاما متواصلة ! وأن الطبقة العاملة فى بولندا ثائرة على « حزب الطبقة العاملة » فى مواجهة مريرة .

والحرب العالمية لم تقع ـ فالسفينة لم تغرق ـ ولكن ركاب السفينة يتصارعون . . بحروب اقليمية خطيرة مثل حرب العراق وايران وحرب روسيا وأفغانستان ، وثورات مستمرة مثل ثورة فلسطين وأرتيريا وسلفادور ، وحروب أهلية مثل لبنان وكمبوديا « وتحرشات خطيرة كضرب اسرائيل للمفاعل الذرى فى بغداد ، وهجمات حكومة جنوب أفريقيا على أنجولا ، وحرب البوليساريو التى لامعنى لها ولا منطق . . وبراكين لا يعلم الا الله ما سوف تتركه حين تخمد مثل ايران . . .



الخمينى ـ باباندريو ـ أبوعمار ـ بريجنيف ـ « الرسام الفرنسى تيم »



الجنوب والشمال ! مجلة لوكانار الفرنسية

عودة العنف

وقد عاد العنف يتجه الى البارزين مرة أخرى . ففى سنة واحدة اغتيل أنور السادات فى مصر . واغتيل بهشتى ورجائى وعشرات معهم فى عملية نسف واحدة . وأطلقت النار على البابا فى ساحة الفاتيكان ورونالد ريغان فى واشنطن وهى نسبة عالية من هذا النوع من العنف الموجه الى الرؤوس ، لم يسبق له مثيل فى سنة واحدة .

وهناك عنف آخر ، تقوم به عصابات ما يسمى « بحرب المدن » . . التى كان أبطالها طوال السبعينات كارلوس » ، والجيش الأحمر اليابانى ، والألوية الحمراء فى ايطاليا ، « وبادر - ماينهوف » فى المانيا الغربية ، والجيش الايرلندى السرى الذى نقل نشاطه الى قلب لندن .

ومع اقتراب السبعينات من نهايتها ، أخمدت هذه الموجة من العنف تقريبا . ولكنه فى الشهور الماضية عادت وأطلت برأسها من جديد .

كذلك عادت الى الوجود ظاهرة أخرى هى المظاهرات الكبرى ، التى اشتهرت بها الستينات وكان سبب تفجيرها هو حرب فيتنام ، فقد أطلت هذه الموجة فى أول عام من الثمانينات ، عادت هذه المرة لسببين : الأول هو قرار أمريكا بوضع أسلحة ذرية هجومية فى أوروبا ، والثانى هو تفاقم البطالة بالملايين فى بلاد العالم المتقدم .

والعالم يهتم بأخبار البطالة فى أمريكا وأوروبا ، أكثر مما يهتم بالمجاعات التى يموت فيها الملايين فى أفريقيا وآسيا . مع أن أسوأ حال يصل اليه المتعطلون فى تلك البلاد يعتبر ترفا ونعيما اذا قيس الى أحوال بلاد المجاعات . .

الوجوه الجديدة

وقد تولى السلطة الأولى ومقاعد التأثير الكبرى وجوه جديدة على غفير توقع ولا انتظار . . أبرز الأمثلة الرئيس حسنى مبارك فى مصر ، وفرنسوا ميتران أول اشتراكى يتولى الحكم فى تاريخ

فرنسا ، وباباندريو فى اليونان ، وليك فاليسا عامل الكهرباء الذى صار شريكا فى السلطة فى بولندا ، مناصفة تقريبا ، وفى ايران هرب رئيس جمهورية من جمهوريته هو بنى صدر واغتيل رئيس الجمهورية الذى خلفه وهو محمد على رجائى ، وصار رئيس الجمهورية وجها جديدا هو آية الله خامنئى . وأزيح هواكوفنج خليفة ماوتسى تونج وحل فى مقعد السلطة بعده زياوبنج !

سنة الآمال الضائعة

والنظرة العالمية الشاملة توضح لنا أن « الموقف الانسانى » قد سار وتقهقر الى الوراء خلال عام ١٩٨١ ، الأمر الذى يجعلنا نرجو ألا يكون هذا نذير سوء للثمانينات .

فالحروب المحلية والثورات والعنف الفردى والجماعى . . زاد كما رأينا ولم يقل . .

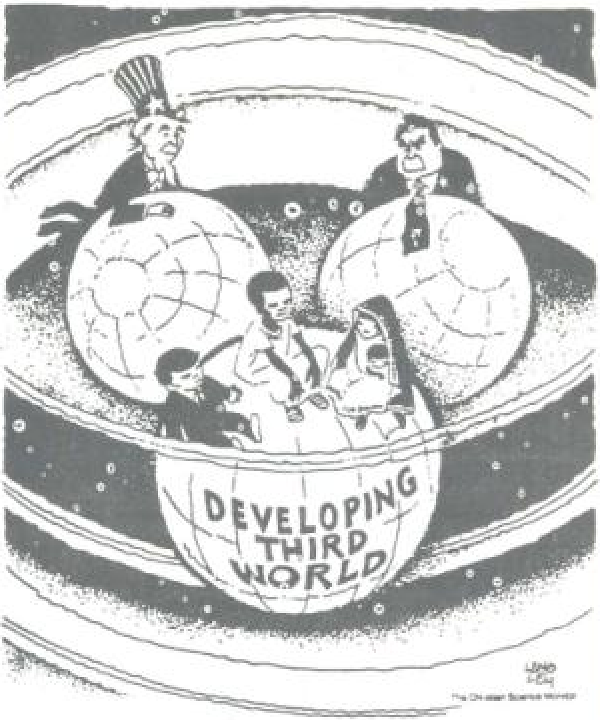
وسياسة الوفاق دمرت وحل محلها جو أقرب الى الحرب الباردة بين الشرق والغرب ، وعاد سباق التسلح الرهيب من جديد . فوصل ما ينفق عليه سنويا حوالى خمسمائة الف مليون دولار كفيلة بحل مشكلة الجوع فى العالم . وبلادنا العربية - فى الاحصاءات - أكبر مشتر للاسلحة ، اذ تشترى ما يوازى ٢٠ ٪ من كل تجار السلاح فى العالم .

وعاد منطق المساعدة ، من الدول الغنية الى الدول الفقيرة الى المساعدة بارسال السلاح ، سلاح الى السودان . سلاح الى باكستان . . .

وهكذا ، وتوارت مساعدات الطعام ، والتنمية ، والاستثمار . . .

ورغم كل المحاولات ، فان التضخم فى العالم يزيد ، والبطالة تزيد ، والحلقة الجهنمية المفرغة لم تتوقف عن الدوران .





العالم الثالث .. هل يخرج من مدار الفضاء ؟ ـ « بريشة لانجل »

الشمال والجنوب

وفى السبعينات بدأنا نشعر أن ضمير العالم المتقدم بدأ لأول مرة يحس بجريمة الفقر المرتكبة فى العالم الثالث . وأنه بدأ يرى أن من مصلحته ـ لتصريف صناعاته وتقليل بطالته ـ أن يساعد الدول الفقيرة ، لأنها الأسواق الجديدة التى يمكن أن تفك كربة الانتاج دون تسويق .

وبلغت قيمة التفاؤل بظهور « تقرير برندات » عن علاقات الشمال والجنوب . ولأول مرة تشترك أسماء ذات قيمة كبرى فى اعلان أن الشمال الغنى لا بقاء له الا بمساعدة الجنوب الفقير .

ولكن حتى هذا الأمل يحارب الآن متقهقرا . فالسيدة تاتشر رفضت مجرد بحث التقرير . وورونالد ريغان جاءت رسالته للفقرا تقول : علاجكم فى الاعتماد على النفس . ولم يسفر مؤتمر المكسيك لزعماء الدول الغنية والدول الفقيرة عن أى نتيجة .

الثورة العلمية

على أن هناك جبهة واحدة ، تتقدم فيها الانسانية بشكل مذهل فى تسارعه ، سرعة تكاد تكون انقلابية فى ايقاعها ، وهى الثورة العلمية ، والتكنولوجية ، و « المعلوماتية »

وقد كان المفروض أن يكون هذا التقدم المتسارع منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، خيرا على الانسانية ، ولكنه فى بعض نواحيه شر كما هو الحال فى اكتشاف القنبلة الذرية ، فى بعضه خير

لأصحابه وشر لنا ، لأنه رغم تقدمنا فان المسافة بيننا وبينهم تتسع دون أن تنتبه الى ذلك أو نقدره حق قدره .

لم تعد صناعة السيارات والقطارات وحتى الطائرات مثلا ، هي صناعات المستقبل (وهي ليست لدينا على أية حال) .

المستقبل في صناعة الكمبيوتر وكل أجهزة الدقة والتصويب والحساب ، وتخزين المعلومات والحصول عليها بضغطة على زر ، ونقل صور صفحات الصحف كاملة بالتلفزيون عبر الاقمار الاصطناعية . . فتظهر الجريدة في لندن وجدة ونيويورك في وقت واحد ولحظة واحدة .

السباق في هذا المجال هائل وعنيف . حتى الدول المتقدمة صار فيها في هذا المجال المتقدم والمتخلف ، فالرهان على هذا السباق حاليا محصور في اليابان والولايات المتحدة والباقون يأتون بعدهما بكثير . . .

ان السياسة معلومات ، والحرب معلومات ، والبحث معلومات . والتأليف معلومات . والصناعة والاختراع معلومات .

وقد تابعت في لندن مثلا المؤتمر الأخير لحزب المحافظين . . . وكان الهجوم من الحزب على حكومتهم قاسيا ، والسؤال الملح عن سر تراجع انجلترا وراء اليابان والمانيا وفرنسا بلا جواب ، وكان أهم وعد قالته مارجريت تاتشر رئيسة الحزب والوزراء ،والذى حظى بأكبر قدر من التصفيق والحماسة ، حين قالت : « ان الحكومة الانجليزية قررت أنه في خلال سنتين سيكون في كل مدرسة ثانوية انجليزية كمبيوتر صغير . »

كل مدرسة ثانوية !!

فانجلترا التي ارتادت مجال الصناعة والتكنولوجيا قبل غيرها ، تراجعت ، وهي تحاول الآن اللحاق بغيرها . . .

لم يعد مهما الطائرة ، المهم أجهزة جمع المعلومات الثورية التي فيها ، كما نرى في حكاية طائرات الأواكس » الشهيرة . نفس الشيء على كل سلاح برى وبحرى وجوى ، وينطبق على ادارة كل شركة أو مصنع أو بنك أو مؤسسة علمية أو معهد أبحاث .

الآن باشتراك بسيط ، في بعض الدول تضغط على أزرار التلفزيون فترى على شاشته أسعار البورصة والنشرة الجوية ، ومواعيد خطوط الطيران ، وأى شيء يخطر على البال ، وقريبا سوف تخرج لك الجريدة اليومية التي تشترك فيها من جهاز صغير في بيتك . . .

معنى هذا اعطاء هذه المجتمعات دفعة هائلة في سرعة التقدم ، وفي اختصار المجهود وفي مراقبة العدو من بعد ألف ميل .

هذه الثورة هي التي سوف توجد حقا ، مع سنة ٢٠٠٠ ، عالما جديدا . .

أقصد عالما جديدا . . في بعض أجزاء هذا العالم . فالعالم تعيش أجزاؤه في قرون مختلفة وعصور متباينة ، وان كان الكل على كرة أرضية واحدة . . .

ترى لو أجرينا الحسابات الدقيقة غير المظهرية ، في أى قرن نعيش ؟

الذى أعرفه عن يقين : أننا نحن العرب لا يمكن أن نقفز الى القرن الواحد والعشرين متفرقين ، فرادى ، ولكننا يمكن أن نحقق المعجزة ، لو قفزنا قفزة واحدة ، مجتمعين . □□

أحمد بهاء الدين

أخلاق الاستبداد وأخلاق الحرية

بقلم الدكتور احمد كمال ابو المجد

من الثابت الآن عند المؤرخين ، وعند علماء النفس والاجتماع ، ان سلوك الناس ، واخلاقهم مع انفسهم ومع الناس ، ليست ابنية ذاتية خالصة يصنعها الفرد لنفسه بعيدا عن المجتمع .. وانما هي - شأنها شأن كل ما يتعلق بالانسان - نتاج تصنعه اوضاع المجتمع من ناحية ... واداة تؤثر في المجتمع وتساهم في تغييره من ناحية أخرى ..

وقد انتبه كثير من المؤرخين الى تأثير الاوضاع الاقتصادية على الاخلاق .. وبينوا ما يطرأ على سلوك الناس من تغييرات تصاحب ما يصيبهم افرادا وجماعات من شدة وعسر ، او رخاء ويسر .. حتى ان عالما عربيا هو احمد بن علي الدلجي (من رجال القرن الخامس عشر) الف كتابا عن الفقر واثاره والفقراء واحوالهم سماه « الفلاكة والمفلوكون » ، وحتى وجدنا في تراثنا ان « الفقر اذا ذهب الى بلد قال له الكفر خذني معك » ، كذلك سجل المؤرخون منذ زمن بعيد اثر الغنى والترف على السلوك وما يورثه من رخاوة في الطبع وبطر بالنعمة والثرة وشح ، ونهم لا يشبع واستخفاف بآلام المحرومين ... وفي القرآن الكريم تحليل دقيق متكرر لنماذج السلوك والاخلاق التي تميز طائفة « المترفين » لا تخرج كثيرا عما نشاهده حولنا من نماذج « المترفين المعاصرين » .

ولكن الذي نعرضه اليوم ونتوقف عنده ان الاخلاق كما تتأثر بالاوضاع الاقتصادية وتؤثر فيها ... فانها تتأثر

كذلك ـ اعظم التأثر ـ بالاوضاع السياسة وتؤثر فيها .. ولا نريد هنا ان نتوقف طويلا عند اثر الاخلاق الفردية للحكام والقادة على سياساتهم وعلى الاوضاع العامة لدولهم . فذلك مقرر ومعروف وسجله التاريخي موثق ومحفوظ .. ابتداء مما كتبه مكيافيلي في كتابه « الامير » ومرورا بمؤامرات البلاط والحاشية في النظم الملكية في اوروبا خلال القرون الوسطى وما بعدها .. وانتهاء بفضيحة الووتر جيت في الولايات المتحدة ..

الخير والشر متجاوران

وانما نسجل ـ بكل العناية والاهتمام ان النظم الاستبدادية التي تقوم على القهر والقسر ، والتي تستند في قيامها او استمرارها على سلب الحريات .. واهدار الحقوق .. وامتهان الكرامات .. وتسليط اجهزة الاعلام والتوجيه على العقول والنفوس الى درجة حجب الحقائق وتزييف الوقائع .. وغسل الادمغة .. هذه النظم تترك بصمات ظاهرة على سلوك الناس ، وتصيب « بنيتهم الاخلاقية » بعاهات حقيقية يكشف عنها التأمل في انماط سلوك الناس تحت ظلالها القاتمة ..

ومن المؤسف في عالمنا العربي ، انه رغم الاهتمام الهائل من جانب المثقفين بالحديث عن الحرية ورفع شعاراتها ، فاننا لا نكاد نعرف دراسة جادة مفصلة لهذه الظاهرة بعد الكتاب الذي تركه لنا الكواكبي عن « طبائع الاستبداد » ..

وعلى الجانب الاخر نسجل ان النظم التي تستند الى الارادة الحرة للانسان ، والتي تتغذى شجرتها على المشاركة الحقيقية للافراد ، والتي تورق وتزهر وتثمر بقدر ما يودعه فيها الافراد من رحيق « الكلمة الحرة » الشجاعة ، هذه النظم ، تترك ـ هي الاخرى ـ بصماتها التي لا تخفى على اخلاق الناس وسلوكهم . ولطالما تساءل الباحثون وتساءلنا جميعا فيما بيننا .. كيف يحدث هذا والناس هم الناس ؟؟ اليس الاقرب الى الحقيقة ان اخلاق الناس لا تتغير وان الافراد هم الذين يتفاوتون .. وان نظم الاستبداد ونظم الحرية يستمين كل منها من يتناسب خلقه وسلوكه مع اوضاع النظام ومتطلباته .. فينحاز فريق من الناس الى نظام الاستبداد ويغذيه باخلاقه التي يحتاج اليها ..

ويتغذى هو على ثماره الخبيثة .. متصدرا المجالس والموائد .. معتليا المنابر منتشرا في الساحات .. بينما ينزوي الاحرار الذين يضيقون بطبعهم بالاستبداد ويضيق بهم .. اليس هذا دليلا على ان الاخلاق تنبع من ينابيع اخرى بعيدة عن السياسة ونظامها والحكم واساليبه ؟ ..

ان الجواب عن ذلك التساؤل هو حجر الزاوية من هذه الكلمات ... ان النفس الانسانية ، ذلك السر الاعظم اشبه بوعاء كبير ، يتجاور فيه الخير والشر ، وتتعايش فيه متناقضات النوازع والاخلاق ... الامانة والوفاء .. يجاوران الغدر والخيانة ..

والشجاعة تجاور الجبن والرضا بالمذلة ..

والرحمة الحانية تلاصق باكتافها في نفس الانسان القسوة الضارية والعنف الدموي الذي لا يعرف الحدود ..

التقوى ـ في كلمة واحدة ـ تجاور الفجور ..

كل هذه الاخلاق المتناقضة تعيش بذورها الحية داخل نفس الانسان ... وعلى باب هذه النفس صمام ... فيه من العقل والادراك نصيب ومن الارادة والاختيار نصيب ..

اذا رأيتم المداحين

وحين ينفتح تيار الحياة على نفس الانسان ... تمتد في داخلها يد تستخرج من هذا الوعاء ما يناسب المقام ... تكيفا مع البيئة ، وتلاؤما مع الظروف ، وتعايشا مع المتطلبات .. ومن بينها انظمة الحكم واوضاع السياسة ..

فاذا كان النظام نظام قهر .. انكمش الصدق .. وانزوى الوفاء .. وتوارت الشجاعة ونكس العدل رأسه .. واستعدت الرحمة للرحيل .. وارتفعت هامات الكذب والخيانة ... وتعالت اصوات النفاق والمداهنة ... وغنت النفوس قصائد المدح الوثني الذي يمتهن انسانية الانسان ... ويزري بالمادح والممدوح على سواء ... والذي قال فيه النبي (ص) : اذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب ..

واذا طال زمان القهر .. ونسيت البراعم الناشئة من جيل الشباب طعم الحرية تحول النفاق الى طبع مغروس ، وعادة تمارس بلا تفكير .. وصار الدرهم والدينار قبلة

الناس وكعبتهم . . فخرجوا - وهم لا يشعرون الى وثنية حقيقية تتسلل الى نفوسهم مع انفاس كل يوم يعيشونه في ظلال الخوف والقهر . . . حتى ينتهي بهم الامر الى عبادة فرد او افراد . . والى اسقاط كل القيم الموضوعية التي ترتبط بها في حياة الاحرار والمواقف والمشاعر والافكار . . . وهذا منتهى التدني وقاع الهبوط ، وهو اول الشرك الذي يصفه النبي (ص) بانه اشد خفاء في تسلله الى النفوس « من دبيب الذر على الصفا (اي الحجر الاملس) في الليلة الظلماء » . .

ان النظم الاستبدادية تفرز فوق ذلك اخلاقا عديدة تنبع من استغراق المشاعر كلها في التوجه الى الحاكم الفرد ، والتفاني في طاعته والحرص المطلق على رضاه . . وفي مقدمة هذه الاخلاق امران لا يخلو منهما نظام استبدادي . .

اولهما . . . ظاهرة المستبدين الصغار . . . ذلك ان الاستبداد الذي يمارسه حاكم مطلق يترك اثره في نفوس خاصته وحاشيته والمحيطين به . . . فيتحولون الى ظلال له واشباح تتحدث بلسانه ، وترى بعينه ، وتبطش بيده . . وقد يتجاوز بعض هؤلاء حدود ما يطلب منه ليفوز في سباق المنافسة الرخيصة على رضا المستبد الاكبر . . . فاذا به يذيق عامة الناس من صنوف الارهاب وصور القمع والاساءة ما لم يطلبه منه سيده اجتهادا منه ومبالغة في الطاعة . . واظهارا للولاء . .

ظاهرة الرؤية الواحدة

والظاهرة الثانية هي ظاهرة الرؤية الواحدة للامور . . وهي الرؤية التي يختارها المستبد ، وينقلها عنه المستبدون الصغار . . ويرددها المنافقون والخائفون ليل نهار . . حتى تلون الحياة كلها بلون واحد وتفسر الظواهر كلها على النحو الذي يراه الحاكم الفرد . . فلا يتجاسر عالم و مفكر على ان يفكر بعقله هو ، او يرى بعينه هو او يعلن موقفا من الامور العامة يخالف اجماع الخائفين المسبحين ليل نهار بذكاء المستبد وفطنته ونفاذ بصيرته اذ ان الجموع الخائفة من الناس ترى هذه الجسارة في مخالفة الحاكم في رأيه ورؤية مغامرة قد يصيبهم بلاؤها . . ومدخلا لموجات جديدة من القهر والظلم لا قبل لهم بدفعها . . . ولا صبر لهم على تحملها . والنتيجة الحتمية لذلك ان تسير الجماعة كلها على رأي حاكمها الفرد . . . وان يجمد الفكر . . . ويقل الابداع . . . ويتعرض العمل العام كله للعثرات نتيجة غياب النقد الذي يوجه ويبصر ويثري التجربة . . . ان المجتمعات التي تعيش في ظل الرؤية الواحدة لحاكمها الفرد قد يصلح حالها زمنا يطول او يقصر . . . ولكن عثراتها حين تقع عثرات مهلكة قاتلة . . ذلك ان تعدد الاراء يظل دائما اكبر الضمانات لترشيد حركة المجتمع وتأمينها . . . ومن هنا فان حماية الكلمة وضمان حرية الرأي يظلان في مقدمة الضمانات التي تحمي مسيرة الجماعة وافرادها . وفي هذا الضوء نفهم حرص الاسلام وهو يدعو الناس الى ابداء الرأي واعلانه بقوله سبحانه « ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا » على بان يحمي حريتهم وان يصون امنهم بقوله سبحانه « ولا يضار كاتب ولا شهيد » .

اما حين تكون الحرية هي القيمة العليا وتكون الشورى الصادقة هي النظام . . . وسيادة القانون هي مظهر الدولة . . . فان شياطين الاخلاق تولي هاربة مذعورة . . . ويرتفع على الاخلاق الكامنة في النفس دعاء الخير المعروف « يا باغي الخير اقبل ويا باغي الشر اقصر » . . فتسارع الى ساحة النفس والمجتمع اخلاق الحرية في موكب مهيب . . . على رأسه الشجاعة والصدق . . . ومن ورائها الامانة والوفاء . . . ومن حولهم جميعا - يدا بيد - الرحمة والعدل . . . ويعود لفرد - كائنا من كان - انسانا . . . بشرا سويا . . لا قزم ولا عملاق . يستمع اليه اذا قال ، وتحفظ عليه كرامته في كل حال . . . ويعطي نصيبه المفروض من المشورة والعدل حين يكون محكوما من الرعية ويوقر ويحب ويهاب ويعطي نصيبه المشروع من الوفاء والولاء والسمع والطاعة في المعروف . . حين يكون حاكما ومن الرعاة غير ان وعاء النفس ليس كأوعية الاطعمة والاشربة يؤمر فيطيع بلا تأخير . . . وينادي فيستجيب بلا تفكير . . . .

وانما هو وعاء ذكي لا يستخرج شيئا مما عنده الا بحساب . . . وبعد طول حذر واطمئنان . . . فاذا ارتفع القهر وزال الخوف لم يدفع الى الصدارة بشيء من اخلاق الحرية حتى يستوثق ويطمئن . . . فاذا اطمأن وبدأت اخلاق الحرية تجيب النداء ، فان اخلاق الخوف وطبائع الاستبداد التي استقرت في كيان المجتمع واتخذت لها في نسيجه اعشاشا واوكارا تظل تقاوم متشبثة بالحياة . . . فيرى الناس في أنفسهم وفي الناس من حولهم ما يحسبونه تناقضا يحارون في تفسيره . . . انظمة ومؤسسات وتشريعات تؤكد الحرية وتعلن الامن وتبشر بسيادة القانون . . . وبقايا اخلاق القهر والخوف . . . تموج بها المجتمع حتى لتكاد تسد الطريق على نظام الحرية وتفسد عليه امره .

حرية الرأي اولا

ويتساءل المصلحون عن المخرج من مثل هذا الموقف الذي يتكرر في بلادنا مع محاولات الاصلاح السياسي . والجواب ـ فيما نرى ـ لا لغز فيه ولا سر وراءه .

المخرج من هذا . . . مزيد من الحرية والديمقراطية حتى تستوثق النفوس المترددة وتستيقن ان « مجيء الحرية » مجيء حقيقي وليس خداعا ولا استدراجا يعقبه قهر جديد .

ومطاردة ـ بلا هوادة ـ للبقايا الباقية من اخلاق الاستبداد بمجمل لوامعها اصحاب الكلمة واصحاب القلم . . . ويضرب المثل فيها اصحاب الحكم والسلطان .

وليت الساسة والمثقفين في بلادنا يعرفون ان الحرية ليست مجرد تنفيس وشعار . . . ولكنها قبل ذلك ضمان حقيقي للرشد عند اتخاذ القرار . . . وهي ـ بعد ذلك ـ ينبوع كبير من ينابيع الخلق السوي والسلوك المستقيم . . . من احياها فكأنما احيا الفضائل جميعا . . ومن قتلها فقد سد الابواب في وجه تلك الفضائل . .

اننا ـ لهذا ـ نؤمن بما ذهب اليه بعض علماء السياسة والقانون من ان حرية التعبير عن الرأي « تختلف عن سائر الحريات وان لها بين تلك الحريات مكانا مفضلا او ممتازا Preferred Position لأنها في حقيقة الامر مفتاح لسائر الفضائل ، وضمان لبقية الحريات ، وهذا المركز الممتاز ينبغي ان يكون له مظهر تعليمي وتربوي يشرح صفتها هذه ويثبتها في العقول والقلوب ، كما ينبغي ان تكون له آثاره العملية والقانونية التي تقف في وجه كل تشريع او قرار يهدد تلك الحرية او يحول دون ادائها لوظائفها .

ان علماء السياسة والاجتماع في بلادنا العربية مدعوون الى ان يغيروا منهج حديثهم عن الحرية . . . فقد مل الناس الحديث في عموميات الحرية ، كما ملوا التناول الرومانسي الذي يحولها الى مجموعة الشعارات الغامضة . . وصارت الحاجة ماسة الى دراسات اكثر تحديدا وتفصيلا تبين للحكام والمحكومين على السواء ان للحرية وظائف في حياة الناس . . كما تبين ـ على وجه التحديد ـ امرين اثنين اولهما : ما تسميه فيولوجيا الحرية ، او وظائفها المختلفة المختلفة في حياة الافراد والجماعات . . . والثاني : ما تسميه « باثولوجيا الحرية » او امراضها . . . وما يطرأ على احوال الناس واخلاقهم ومصالحهم من فساد وضرر اذا غابت الحرية وحل محلها القهر والاستبداد والحجر .

وبغير هذه الدراسات . . . ستنشأ اجيال تتحدث عن الحرية وتنادي بها دون ان تكون مقتنعة بفائدتها . . . واهمية الحفاظ عليها . . مع ان هذا الاقتناع هو ـ في نهاية المطاف ـ الضمان الحقيقي لها من وراء سائر الضمانات الدستورية والقانونية . ■■

د . احمد كمال ابو المجد

القيام لله !

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، قام الناس بين يديه فقال : يا معشر الناس . ان تقوموا نقم ، وان تقعدوا نقعد ، فانما يقوم الناس لرب العالمين . من اراد ان يصحبنا بخمس : يوصل الينا حاجة من لا تصل الينا حاجته ، ويدلنا من العدل مالا نهتدي اليه ، ويكون عونا على الحق ، ويؤدي الامانة الينا والى الناس ، ولا يغتب عندنا احدا ، ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا .

أول ما أخذوه من العرب : البوصلة والبارود

ثمن الحضارة الغربية

بقلم : الدكتور شاكر مصطفى

هذه المعجزة الغربية قامت من الأساس على دماء وأقوات الشعوب الأخرى !

قال له صاحبه وهو يحاوره :

ـ مازلت اذكر وانا اناقش رسالتي للدكتوراة كيف احمرت آذان اثنين من اعضاء لجنة المناقشة وهما يرفضان ان اصف بالبربرية غزو الفرنجة الصليبيين للقدس وذبحهم سبعين الفا فيها . « انه كلام غير علمي » كذلك قالا . وقلت : قبل ان اجيب ، اود ان اسأل ماذا تسمون انتم في كتبكم العلمية بل والمدرسية ايضا فتح الهائز المغول وزعيمهم آتيلا لاوروبا ؟ والزحف الجرماني على الامبراطورية الرومانية ؟ وبماذا تنعتون احيانا ، وفي كتب الصغار ، دخول العرب الى اسبانيا ؟ ومعركة بواتييه (بلاط الشهداء) ؟

من هذه المصادر تعلمت الكلمة . انتم في الغرب تعودتم زمنا طويلا ان تكتبوا التاريخ وحدكم وان يقرأ الآخرون .. بعد الان سوف يكتب الآخرون بدورهم التاريخ ، ومن وجهات نظرهم ايضا وعليكم ان تقرأوا . وجهكم في المرآة لما تروه بعد وسوف يحمل الاخرون هذه المرآة ، عفن الماضي كله سوف يوضع ذات يوم قريب في سلالكم بدل الزهور ..

وقال لصاحبه : هب هذا الذي تقول كان حقا من الحق ، ولكن التاريخ انما يكتبه الاقوياء ، ويكتبه المتنصرون ، وستظل الحضارة الغربية تغطي حتى جرائمها بهذا الذي منحته للانسان من الابعاد الفكرية والكونية .

وقال له صاحبه : ولكن الثمن الذي دفع للوصول الى هذه الابعاد كان رهيبا . هل تعرف فداحة هذا الثمن ؟ ولقد دفعه العالم كله .. كله عدا اوروبا نفسها ! ان الصورة الاخرى لهذه الحضارة الغربية لما تكتب بعد .

الوجه الاخر لهذه الميدالية الماسية لم يفتضح .

التاعها الذي يخطف الابصار لمايسمح بعد برؤية نزيف الدم والاشلاء على الجانب الاخر ..

وقال لصاحبه : الآن أمنت ان للمأسوف على نبالته دون كيشوت سلالة ما تزال تعيش وتحارب طواحين الهواء . اتريد ان انسي آلاء هذه الحضارة وما قدمت للانسان لانظر في مشاكل التاريخ ؟ هل تستطيع ان تشد عيوني الى الماضي واخطاء الماضي فلا ارى وصول الانسان الى القمر ؟

وقال له صاحبه : ما اردت ان اقول الا ان لهذه الحقيقة وجها اخر مظلما ، كالوجه الاخر للقمر ... واننا شركاء اصيلون في بناء هذه الحضارة الغربية لا من خلال التراث فحسب ، ولكن من خلال جهودنا نحن ايضا ، نصيبنا فيها دفعناه من شرايينا . ويجب ان نعي هذه الحقيقة الوعي الكامل ، الا نمل تكرارها . الا تكون الالف باء لاولادنا ايضا . لا يهمني تاريخ هذه الحضارة بحد ذاتها ، ولكن تاريخها معنا وتاريخنا معها ، تاريخ العلاقات الوحشية التي اقامتها مع الشعوب المستضعفة والتي اقامت بها « المعجزة الغربية الحاضرة ..».

أأحدثك حديث هذه « المعجزة » وذلك الثمن ؟

مرحلة الابادة

انها ملحمة تمت على ثلاث مراحل . وكل مرحلة منها كانت كارثة انسانية . جاءت اولا مرحلة الابادة الجماعية والرقيق الاسود والتوسع الاخطبوطي ، ثم كانت مرحلة النهب العالمي ، واخيرا جاءت المرحلة الاخيرة التي نعيش : مرحلة تنمية التخلف !

١ ـ مرحلة الابادة والرقيق : بدأت الملحمة اول ما بدأت باداتين اخذتهما اوروبا الغربية عن العرب : البوصلة والبارود . البوصلة صارت اساس السفينة الضخمة المتعددة الاشرعة وفتحت الباب للقوة البحرية والانتقال الى البعيد . والبارود صار اداة القتل عن بعد ... بامتياز . ثم وضع كولومبوس لاشرعته التي ابحرت في بحر الظلمات ، وللاشرعة الغربية التي جاءت بعده قانون العمل : الزحف الى الغرب لتطويق الشرق ونهبه ! والشرق كان الغني والذهب ، كان العراقة وكان « الاخر » المحسود ! وما يزال الانتقال الى البعيد والقتل عن بعد ونهب الاخر هي « اهداف » هذا الغرب الى اليوم : وفي سبيلها دمرت ثلاث قارات . اربعة قرون ظل يدمرها ثم يدمر . فاما الاولى فمسح عن وجهها كل من عليها من البشر عرقهم الاحمر المسلح بالقوس والنشاب كان بمجربه التفنن الدموي لذوي العيون الزرق والبشرة البيضاء حملة البنادق والكتاب المقدس في الاخرى ... واما القارة الثانية فاستعبد كل من عليها من البشر . انهم مجرد زنوج ! هل لهم من روح ؟ ذلك موضع شك . اذن فهم لا يستحقون اكثر من ان يكونوا قوافل من العبيد !! واما القارة الثالثة فبشر بكثرة الدود وتكالب الدود ... لا يصلحون لغير الاستغلال والموت .. فليكونوا للاستغلال والموت !

وهكذا ذبح الغرب اربعين مليون انسان في الاولى ، واسترق مائة مليون عبد من الثانية ، وامتص دماء خمسمائة مليون في الثالثة ..

في القارة الاولى : امريكا ـ نزل الاوروبي مفترسا ، كل جشع الدنيا في عينيه . السكان الاولون الذين اطلق عليهم الاوروبي اسم الهنود الحمر استقبلوه على انه « الاله الابيض » . لكنهم سرعان ما ادركوا انه شيطان النار ! وانه التنين المفترس ذو الرؤوس السبعة !

كانت امريكا قبل كولومبوس دنيا كاملة من الحضارات : انظمة للحكم وطبقات اجتماعية وملوك وجيوش وقلاع واسوار وطرق وقصور ذهبية الابواب ومدن تفتن الاعين ، وفنون تغالب الخيال في النحت والرسم ، وكتابة وحساب وهندسة ومعارف فلكية دقيقة وطب وعلاج ، وحرف وزراعة تتسلق السفوح وشبكات محيرة من اقنية الري . ومصوغات اسطورية الجمال وتعدين للذهب والفضة والنحاس وتاريخ من العلاقات الانسانية ومن الحروب والامبراطوريات ومراسم الاحتفال وطقوس الدين والكهنوت ... الهندي الذي تقدمه لنا افلام « الكاوبوي » والزحف نحو الغرب ، عينا وحشية حمراء وقسمات نحاسية متقلصة بالحقد وسكينا غادرة تشق الخيمة البدائية ، هذا الهندي هو كذبة الاعلام الامريكي . انه لم يكن موجودا الا على الاطراف البعيدة لتلك الحضارات . الارض الامريكية من الشمال حتى اقصى الجنوب كانت تتوزعها حضارات الازتيك ذات المدن الخرافية في المكسيك والمايا في كولومبيا والتاينو في جزر الانتيل ومملكة الانكا ، ربة الشموس الذهبية ، في البيرو والتوبيناما في البرازيل والدواراني في الباراغواي والاروكانيين في شيلي .. ولكل حضارة طريق ..

عندما حل كولومبوس

وفجأة في القرن السادس عشر وقعت الكارثة بعد ان اطل عليها كولومبوس .. انطفأت هذه الحضارات

كلها ، الواحدة اثر الاخرى بضربات شيطانية ماحقة . اختنقت بدماء اصحابها وذهبهم . جنون الذهب الذي اصاب الغزاة افترس الجنس الهندي وابـاد حتى ظلال البيوت .. كورتيز ، دي كاسـادا ، بيـسـارو ازيفيدو ، كارفاخال ماردجيال الانذزو« عدو الجنس البشري » كما كان يحب ان يدعى ... هي اسماء من الجحيم ستظل الى الابد مجاورة لاسم جنكيز خان ! كتاب (تدمير الهنود) الذي صار يعرف باسم القصة السوداء حكى فيه صاحبه (لاس كاساس) بعض جرائمهم المرعبة ، وقد ترجم الى مختلف اللغات ولكن ... دون اي صدى .

وذلت الفلول الباقية من الهنود ، انحلت اعمدتهم الفقرية امام البارود الجبار والسنابك . ثم جاء الغزاة الى القارة الجديدة بالجدري وبالامراض الزهرية ايضا فحصدت الهنود بالالوف . وسكن الاسى الابدي قسمات احفادهم المبعثرين حتى اليوم ... بعد قرن وبعض القرن كان الهندي يكاد ينقرض في قارته الكبرى . وورث الاوروبي الارض وما عليها .

من اجل استغلال هذه الارض وقعت القارة الثانية : افريقيا في الكارثة . تسلطت الاساطيل الاوروبية على الشواطىء الافريقية تصطاد منها الزنوج ، ليكونوا الآت الحرث والتعدين والخدمات في امريكا ... بدورها ، لم تكن افريقيا التي صاروا يدعونها بالسوداء ، بلد الطبل المبحوح في الغابة والوجه الملطخ ، بالأصباغ والتشنج الهستيري حول الرماح ، والليل يتلوى كانه الثعابين العطشى . الزنجي وحش الغابة البدائي كذبة اخرى من اكاذيب الغرب . افريقيا القرن السادس والسابع عشر كانت بلدا للحضارة الاسلامية والممالك الواسعة والثقافة والانتاج ... بعد امبراطورية غانة الشاسعة التي كانت تقوم على قاعدة من الذهب هناك ، جاءت امبراطورية الماندنغو الاسلامية في مالي . عاصمتها تمبكتو ، كانت تزدحم بالعلماء والمساجد والمواكب والقصور والثروات والذهب والنحاس ، وفي اراضيها القطن والزراعات وعلى طرقاتها القوافل . وجاءت كذلك امبراطورية سنغاي ، الدولة النيجيرية بملوكها وبجيشها المنظم وشبكات الري الزراعي والفنون المتقدمة والصيد ونظم الحرب والسلم والمجتمع ...

وفعلت الاساطيل الاوروبية بهذه البنى الحضارية فعل الزلازل . لم تسلبها قواها الحية فقط ، لم تأكل كالاغوال ابناءها فترمي تسعة اعشارهم في البحر موتى وترمي الباقي للسياط وراء البحر ، ولكنها ايضا خلخلت بناها الاجتماعية حتى الاعماق واصابتها بالركود التكنولوجي وشوهت نظامها الانتاجي ، ودمرت العلاقات الاقتصادية فيها . وحولتها من الانتاج الى اصطياد البشر بعضهم لبعض والى القتال الوحشي ... بينما صارت النخاسة ، بالمقابل ، تجارة اوروبية كبرى من اربح التجارات ، لها الاساطيل القوية والشركات الضخمة ، ولها الصيادون والاسواق ، ومرافىء التصدير في ليفربول وبوردو ولشبونة ... ونزفت القارة الافريقية . نزفت حتى الموت .

الذهب الأمريكي ـ الافريقي والدم الهندي الزنجي كانا نهري الطاقة المجانية والخرافية للغرب الاوروبي . ولم يسمحا فقط ببناء قوته البحرية والاقتصادية الضخمة ، ولكنهما سمحا له ايضا بان يمد علاقات الاخطبوط الى شواطىء آسيا كلها ، وان يقيم عليها بالقوة نقاط الدخول ومراكز الاتصال والامتصاص .. وحين انتهت هذه المرحلة ، بعد حوالي القرنين ، كانت اوروبا سيدة البحار والنظام التجاري في العالم كله ..

مرحلة النهب العالمي

٢ ـ وجاءت بعد ذلك مرحلة النهب العالمي . انهم يسمونها مرحلة الاستعمار من قبيل تسمية الاضداد . هل نحن في حاجة لأن نصوغ اهجية جديدة في فضح الاستعمار بعد كل الذي عرفته الشعوب من آلامه الجهنمية ؟ كان التنين الغربي قد بلغ من القوة الدرجة التي لم يعد في العالم من قوة تقف في وجهه وقد تزايد جشعه في الوقت نفسه ، اضعاف ما تزايدت قوته ، لم تعد من ثروة تشبعه ، وبينما كان ينشر على موائده الاوروبية افكار التقدم والحرية والاخوة والمساواة ، كان نظام التحرك الاستعماري يتوطد ويتوطد معه نظام النهب العالمي .

ثالوث المبشر ـ الجندي ـ التاجر ، كان اداة التحرك . يدخل المبشر ليتعرف الى الارض ويلحق به الجندي ليدمر كل مقاومة ، ثم يصل التاجر (ممثلا بالشركات الكبرى) لتبدأ عملية « ضخ » الخيرات الى اوروبا . تكرر ذلك في كل مكان ، في الصين كما في موزامبيق وغانة وفي شواطىء الشام كما في الجزائر والخليج .

وتوطد نظام النهب باقامة الاقتصاد الخادم . الاقتصاد الذي يقدم فقط المادة الخام للمصانع الغربية على حساب الانتاج الغذائي ويستغل الايدي العاملة المحلية بالسخرة والسياط بدل نقلها عبيدا الى ما وراء البحر .. ان ١١٤ كم من السكة الحديدية المتجهة من

برازافيل الى النقطة السوداء احتاجت كي تتم الى ١٧ الف جثة !! اما باقي الدماء فتكفلت السوق الاستهلاكية المفروضة فرضا على اهل البلاد بامتصاصها . وهل ننسى حرب الافيون في الصين ؟ او الاستهلاك الاجباري للنبيذ في الهند الصينية ؟

وهكذا بينما كان الانتاج الاستعماري من الزيت او الفستق او القطن او الذهب والماس يباع احيانا بعشرة اضعاف سعر الشراء او بعشرات الاضعاف ، وبينما كان انتاج الفستق مثلا (لمصلحة شركات الزيت) يكتسح السنغال ليبلغ ٨٥٪ من انتاج البلاد وكانت الكروم والخمور (رغم اسلام الجزائر) تصبح موردها الاول ، والقطن في الهند ومصر يدير مصانع مانشيستر ... كان اهل البلاد يستوردون الطعام او يتساقطون على دروب الجوع .

وبينما كانت الحرف اليدوية تموت ، واقتصاد الغذاء يدمر ، كان شيء اخطر من هذا وذاك يتم على المستوى الثقافي هو تدمير الهوية الحضارية لهذه الشعوب . هو « التغريب » إلغاء اللغة القومية واحلال الاستعمارية محلها ، واستغلال الجهل الديني والازراء بالحضارة المحلية وقيمها ، ونقلها ... الى المتاحف الاوروبية ، طرفا ودلائل تخلف ...

وقبل ذلك كله او فوق ذلك كله كان توجيه التربية من اجل التخلف . التعليم كان هدفه تخريج الحد الادنى من المدجنين ليكونوا الجهاز المحلي للمصالح الاستعمارية ... بعد اربعة قرون من الاستعمار الافريقي الاسيوي ظلت نسبة الامية في القارتين تزيد على ٨٦٪ . دخلت فرنسا الى مدغشقر في القرن السادس عشر وفيها ١٤٠ الف طفل في التعليم ، وخرجت منها سنة ١٩٥٠ وفيها ١٠٤ آلاف ! في افريقية الغربية الفرنسية التي تضم ١٥ مليونا من السكان لم يكن عدد الطلاب سنة ١٩٣٨ يجاوز سبعين الفا اي نصفا في المائة من السكان ! في نيجيريا وكينيا كانت نفقات التربية سنة ١٩٣٥ تبلغ ٤٪ و٣٪ فقط من الميزانية العامة . وقد خرجت البرتغال من موزامبيق بعد ٤٠٠ سنة من الاحتلال وليس فيها طبيب موزامبيقي واحد !!

خلال ذلك كانت الاساطيل الغربية المتزايدة القوة والعدد ، تسوق كالاقنية الجهنمية دماء القارات الثلاث وخيراتها الى اوروبا لتزيد في قواها التكنولوجية والحربية وتمنحها التفوق الساحق ، ومع تكون البنى الرأسمالية الضخمة كان الفائض الحضاري المجاني يتراكم في الغرب في حلقة شيطانية لا تنتهي : فتزايد القوة الغربية كان يؤدي الى تزايد الاستغلال وتزايد الاستغلال يؤدي الى المزيد من الافقار والتخلف في المستعمرات . ومزيد من الافقار يعود فيؤدي الى تزايد القوة الغربية من جديد .

بهذا الفائض الحضاري المجاني والمتزايد تكونت مجموعة من التنانين الرأسمالية الوحشية ، هي عناوين القوى المحركة الاوروبية . اسماء باركليس ، روتشيلد يتسيبه ، والماس ، لوبيدز .. انما تجمعت ثرواتها الاسطورية من اصحاب الجلود السوداء والسمراء والصفراء . الاوروبيون الذين نزلوا أمريكا الشمالية مارسوا النهب نفسه ضد الاخلاط البشرية التي نزلت امريكا الجنوبية ، وانضموا الى الغرب المفترس ، بينما انضم الجنوبيون مرغمين الى العالم الثالث ... بتروهم ، نحاسهم ، قصديرهم ، فضتهم ، تتراتهم ... هي التي حكمت ـ كما حكمت علينا ـ بالتخلف ..

اخيرا : تنمية التخلف

٣ ـ واخيرا جاءت المرحلة الثالثة ، مرحلة تنمية التخلف ، هذه المرحلة هي الواقع الذي نعيش اليوم . وهل يحتاج هذا الواقع الى النبش ؟ الى البحث في الملفات ؟ الحلقة الشيطانية التي حسب الكثيرون انها كفت عن الدوران في اعقاب الحرب العالمية الثانية ومع بزوغ الاستقلالات ، تدور اليوم باقسى عنفها . تطحن العلاقات الانسانية بقيادة التنين الامريكي ـ ومن خلال الكارتلات ، العالمية المتعددة الجنسية . القوى التكنولوجية والنووية التي تفجرت بين ايدي الغرب تستخدم اليوم بكامل طاقاتها لا لتطويق العالم الثالث ونهبه فقط ولكن لتنمية التخلف فيه . بلى ، لتنمية التخلف . وللتحكم في الشعوب عن طريق تكويناتها الضعيفة وعن طريق الرغيف ..

الرغيف هو الرغيف هو الصاروخ المدمر في الغد .

لا اريد ان اذكر هنا بحوار الطرشان بين الشمال والجنوب ، وحكاية الدول المتقدمة والنامية وزيادة فقر الفقراء وغنى الاغنياء .. الحكاية معروفة لكن بعض الملامح والارقام قد تفجر مأساتها :

❋ كل قوى الدنيا اثيرت ضد العرب حين ارتفعت اسعار البترول سنة ١٩٧٤ استكثر الغرب ان يزداد الدخل القومي لبعض دول العالم الثالث . ومع ذلك فان الدخل البترولي العربي كله لا يساوي الانتاج القومي لايطاليا وحدها . وثلاثة ارباع عائداته انما تعود مرة اخرى الى المؤسسات الغربية اما لتسديد الاستهلاك واما

ودائع ابدية .. الله اعلم بمصيرها .

ودعونا من البترول ومن كارتلاته المفضوحة ولنأخذ في بعض الملامح الاخرى .

❋ شركة Exxon هي اقوى من اي بلد في العالم الثالث (عدا الهند والمكسيك والبرازيل) ان ميزانيتها كانت سنة ١٩٧٤ تبلغ ٤٤ مليار دولار وهي اليوم ضعف هذا الرقم .

❋ شركة جنرال موتورز ميزانيتها كانت ٣٢ مليار دولار قبل سبع سنوات وهي اليوم ٥٨ مليارا .

❋ شركة نستلة . ارقام ميزانيتها تزيد على الانتاج القومي لمعظم دول افريقيا ، انها في السنة الماضية قرابة ١١ مليار دولار .

مقابل ذلك يعود الى منتجي الموز ٦٪ من اثمان بيعه والى منتجي الشاي ١٠٪ والى منتجي الكاكاو ١٣٪ والى منتجي القهوة ٤٪ والى منتجي البترول ١١٪ .

حتى المنظمات الدولية تتحالف مع القوى الغربية ضد انسان العالم الثالث :

❋ صندوق النقد الدولي يضم ١٢٣ عضوا ، ويسيطر ٢٣ بلدا صناعيا على ٦٦٪ من اصواته .

❋ البنك الدولي يضم ١٤١ عضوا ويتحكم ٢٢ بلدا صناعيا بـ ٦٦,٢٪ من اصواته ومع ان ثلثي سكان العالم الثالث ريفيون فان هذا البنك لم يدفع في السبعينات سوى ١٥٪ من قروضه للزراعة !

ويتحدثون عن معونات الدول المتقدمة للدول المتخلفة ... ان ٧٣٪ من المعونات التي قدمت للعالم الثالث في السبعينات كانت تعود الى اصحابها في سنة دفعها نفسها ..

النهب المزمن القديم لا يستمر فقط ولكنه يزداد ، وتضاف اليه الان عمليات اخرى من التدمير لهذا العالم المنكوب :

ـ امتصاص خبراته البشرية الناشئة لئلا تتكون منها قاعدة تنموية قوية .

ـ الربط بعجلة الاستهلاك ليكون اكثر تأثرا بتهديد الجوع .

ـ اثارة جميع عوامل التمزق الاجتماعي والديني واللغوي والسياسي والاقتصادي في المجتمعات النامية لتكون اضعف من ان تستغل خبراتها او ترفض الخنوع ..

انها التنمية للبلاد النامية ولكن على الطريقة الغربية ، تنمية التخلف .

❋ ❋ ❋ ❋

هذا ما قال له صاحبه وهو يحاوره ..

هل كان هذا الحديث حقا بينه وبين صاحبه ؟ ام كان من الحديث الاليم مع الذات حول البشاعة البشرية ؟ ام نظرة تحد الى الشمس من خلال النظارة السوداء ؟ ام مجرد دعوة لاقامة التاريخ على قدميه والنظر الى الحقيقة من الجانبين ؟

لست أدري !

●●

د . شاكر مصطفى

كرامة العلم

حج هارون الرشيد ثم شخص بعد الحج الى المدينة ، وأراد ان يسمع الحديث عن مالك بن أنس فارسل يستقدمه ، فقال مالك للرسول « قل لأمير المؤمنين ان طالب العلم يسعى اليه ، اما العلم فلا يسعى الى احد » .

واذعن الخليفة وزار مالكا في داره ، ولكنه امر ان يخلي المجلس من الناس ، فأبى مالك الا ان يظل الناس كما كانوا وقال : « اذا منع العلم عن العامة ، فلا خير فيه للخاصة » .

واذعن الرشيد لرغبته مرة اخرى وسمح للناس بسماع الحديث .

أقوال معاصرة



■ سيكون اقتصاد اليونان في خدمة المجتمع بأسره ، وليس لخدمة مصالح فردية كما هي الآن .

اندرياس باباندريو

رئيس وزراء اليونان

■ عدد الأميين في العالم سيصل الى مليار نسمة مع نهاية هذا القرن .

احمد مختار امبو

المدير العام لليونسكو



■ باكستان لاتملك أسلحة دفاعية كافية ،ولكنها ليست عارية اليدين .

الرئيس الباكستاني ضياء الحق .

■ كلما اتسع نطاق المواجهة بين الدولتين العظميين ، كلما نظر الى قضيتنا بعين الاعتبار .

صلاح خلف (ابو اياد)

نائب رئيس منظمة فتح الفلسطينية .



■ سندخل في نفق مظلم لفترة من الزمن ، لكنى ارى الفجر بعدها .

ياسر عرفات

رئيس منظمة تحرير فلسطين .

■ لا أومن بالتناقض بين الشرق والغرب . . فتلك قضية مزيفة .

محمد مزالى

رئيس الوزراء التونسى



■ منذ ظهر ريجان على مسرح الحياة العامة ، وهو يوحي للآخرين بألا يأخذوا كلامه مأخذ الجد .

الصحفى الامريكى ديفيد برودر

■ اخراج العرب من اسرائيل يعتبر أكثر من قضية سياسية . انها قضية دينية ووصية والتزام ديني .

الحاخام اليهودي مائير كاهانا



■ لقد أصبح الأوروبيون يخشون الولايات المتحدة باكثر مما يخشـون الاتحاد السوفيتي .

جورج بوش نائب الرئيس الامريكي .

■ الوفاق مرادف للبنان ، وعندما ننادى بتحقيق الوفاق ، فانما ننادى باعادة تحقيق لبنان .

ميشال اده

وزير الاعلام اللبنان



■ ادارة ريجان استطاعت ان تخلق جوا من « التشنج » العام في المنطقة .

الامير حسن بن طلال ولي عهد الاردن

■ خلال السنوات الثلاث الأخيرة استهلك الامريكيون من مخدر الكوكايين ماقيمته ٣٥ مليون دولار ، وهي قيمة تربو بحوالى ١١مليون دولار عن مبيعات الماريجوانا في الولايات المتحدة .

من تقرير لادارة مكافحة المخدرات الامريكية

■ لا نريد عقارات ولا رئاسات ولا وزارات ، ولا تعهدات ولا اجازات استيراد . كل ما نريده هو قلم رصاص ، نكتب به احلامنا ، او نكتب به وصيتنا .



الشاعر نزار قباني

■ أفضل أن أكون اشتراكيا على أن أكون مسلما معاديا لحركة الشعوب .

الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بيللا

■ ما ذنبي أنا اذا كان أبي ديكتاتورا وفاشستيا .

رومانو موسوليني ابن الزعيم الايطالي

■ بعد ٤٠ عاما من العمل في الدعوة الاسلامية تبين لي أن أخطر ما يواجه العمل الاسلامي هو التدين الفاسد .



فضيلة الشيخ محمد الغزالي

■ أفضل طريقة لكسب الحرب من أمريكا هي تجنب خوضها معها .

الرئيس الكوبي فيدل كاسترو

■ اخترعنا الحرف في لبنان ، لكن تلاميذنا اليوم لا يحسنون الاملاء .

الدكتور عمر فروخ

بينما يتزايد الترابط الاقتصادي ، فان التفكك السياسي مستمر بقوة !

محنة الإقتصاديين وجناية السياسيين

بقلم : الدكتور حازم الببلاوي

قيل ان عصرنا هو عصر الاقتصاد . فالاقتصاد يقوم في حياة الشعوب بما قامت به الاديان في العصور الاولى . وهاهو ماركس يعلن لمريديه قبل اكثر من قرن ان التطور الاقتصادي هو اساس تطور المجتمعات ، وأنه يمكن رد معظم - ان لم يكن كل - التغييرات الى اسباب اقتصادية . وعلى الجانب الاخر نجد ان الفريد مارشال ، احد مؤسسي علم الاقتصاد الحديث ، يؤكد في مقدمة كتابه « اصول الاقتصاد » في نهاية القرن الماضي ، أن لا شيء يعادل الشعور الديني في تحديد سلوك الجماعات سوى المصلحة الاقتصادية .

ويكفي ان ننظر حولنا لنرى ان المعارك والمنازعات الدولية انما تدور حول قضايا اقتصادية وتستخدم فيها الحجج والبيانات الاحصائية مما جعل الاقتصاد والاقتصاديين في مركز الاحداث . ولم يعد غريبا ان تصبح بعض اسماء الاقتصاديين المعاصرين او القدامى من الاسماء الجارية في كل مناقشة . بل اصبحت بعض الكتب الاقتصادية تنافس روايات الجواسيس والاثارة في قائمة اهتمام القراء . ولعل اقرب الاشياء الى تصوير هذه الاهمية المتزايدة هو ما نراه من بروز القضايا الاقتصادية في المعارك الانتخابية . فمن عاصر المعركة الانتخابية الأمريكية الاخيرة بين كارتر وريجان لابد وأن استرعاه دور الحجج الاقتصادية . فقد كانت المناظرة التليفزيونية بينهما جدلا غلب عليه الطابع الاقتصادي سواء عند الحديث عن عجز الميزانية او زيادة عرض النقود او نظريات العرض ، وغرق المشاهدون في خضم من الارقام والبيانات الاحصائية . ولم تكن هذه نزوة امريكية جديدة ، فلم تختلف المعركة الانتخابية الفرنسية بين جيسكار ديستان وفرانسو ميتران عن ذلك كثيرا . واحتل الجدل الاقتصادي جزءا كبيرا من المناظرة التليفزيونية بينهما سواء عند تركيز جيسكار على اهمية نظام النقد الاوروبي ، أو الدفاع عن سياسة رئيس وزرائه بار للتقشف أو عند معارضة ميتران له والدفاع



تاتشر



فردمان

عن سياسات كينزيه للقضاء على البطالة وضرورة التأميم . وفي بريطانيا اكتسبت حكومة المحافظين لقبا من لغة الاقتصاديين وهو « التقديين Monetarists »كما أضاف برنامج ريجان الاقتصادي كلمة جديدة في قاموس السياسات الاقتصادية هو « الريجانو اقتصادية Reganomics » .

حتى النظرية الاقتصادية

وفي نفس الوقت الذي بلغ فيه الاقتصاد هذه الاهمية المحورية فاننا نجد ان حرفة الاقتصاد لم تكن اكثر ترددا وضياعا مما هي عليه الآن . ويصعب القول بانه يوجد الآن « كيان » متفق عليه من الاقتصاديين . فقد اصبح هناك من الآراء والسياسات الاقتصادية بقدر ما هناك من اقتصاديين . بل ان النظرية الاقتصادية الاكاديمية فقدت الكثير من الاحترام والرهبة الذي عرفته في السابق . فعندما وجه اكثر من اربعة وستين (٦٤) من اساتذة الاقتصاد في الجامعات البريطانية كتاب انتقاد للسيدة تاتشر فيما يتعلق بسياستها الاقتصادية



فرانسو ميتران

النقدية ، كان تعليق جريدة الفاينتشال تايمز اللندنية بالغ القوة والدلالة في نفس الوقت . فقد رأت هذه الجريدة المالية في هذا الاجماع الاكاديمي على معارضة سياسة رئيسة الوزراء البريطانية خير دليل على صحة وسلامة هذه السياسة !! وفي محاولة من مجلس العموم البريطاني لعرض وتوضيح الامور النقدية عقد جلسات استماع لعدد كبير من المتخصصين في الاقتصاد والبنوك ورجال الخزانة في بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية واوروبا . وكانت الحصيلة ثلاثة تقارير كل منها في عدة اجزاء تتضمن تأكيدا بأن كل الاراء صحيحة وباطلة في نفس الوقت !! . فقد وجد من رأي بأن السبيل الوحيد لمقاومة التضخم هو استخدام سياسة تقييد عرض النقود ، وهناك على العكس من رأى انها سياسة غير صالحة البتة ، وذلك مرورا بكافة درجات التقييد والتحفظ . وبهذا يتضح للقارىء ان النظرية الاقتصادية « حمالة أوجه » تصلح لدعم او هدم أي سياسة اقتصادية .!

واذا تركنا الجزيرة البريطانية - مهد الاقتصاد السياسي - لم تجد في الولايات المتحدة الامريكية - وريثتها في تطوير علم الاقتصاد - ما يساعد على مزيد من الاطمئنان . فالى جانب الخلاف المستمر بين انصار المدرسة النقدية في شيكاغو وانصار التقاليد الكينزية ، فان السياسة الاقتصادية الامريكية لا تبدو اقل ترددا . ويكفي ان نرصد سلوك اتحاد الاحتياط المركزي Fed - (وهو ما يقابل البنك المركزي) - فقد ابدى رجال الاعمال والمال في وول ستريت رضاءهم وسعادتهم عندما عين كارتر فولكر رئيسا لهذا الاتحاد في الربع الاخير من ١٩٧٩ وكان تطبيق سياسة نقدية متشددة في اكتوبر ١٩٧٩ محل اعجابهم الشديد .

ونتيجة لسياسات فولكر ارتفعت اسعار الفائدة في ٦ اكتوبر ١٩٧٩ بشكل مستمر وكبير لتصل الى حوالي ٥ر١٩٪ في اوائل ١٩٨٠ . وهو ما اعتبر بمثابة صدمة لاعادة الاستقرار الى الاقتصاد . وفي خلال هذه الفترة اهتزت الثقة في اسواق الاوراق المالية وقيل بان سوق السندات قد اصبح مهددا بالضياع . وعندما بدأ ال Fed في سياسة التخفيف انخفضت اسعار الفائدة بسرعة شديدة حتى وصلت الى اقل من ١٠٪ في ابريل عام ١٩٨٠ ، قيل يومها ان الاستقرار قد عاد من جديد لاسواق الاوراق المالية . وما هي الا شهور وقد عاد فولكر وال Fed من جديد الى رفع اسعار الفائدة حتى جاوزت ٢٠٪ لاكثر من سنة تالية رغم تأكيد كافة المحللين انه من المستحيل استمرار هذه الاسعار المرتفعة .

تخصص النصائح المدمرة !

ومع ضعف الثقة في تحليلات المحللين وعدم وضوح تعاليم النظرية الاقتصادية لجأ السوق الى ما يشبه المنجمين في قراءة الطالع . وأصبح التشاؤم والتفاؤل هما اساس التقدير بعد أن ضاعت اسباب التحليل الموضوعية . واصبح للمتشائمين عميد هو كوفمان (اقتصادي مؤسسة سولومون اخوان) والذي يتنبأ بشكل مستمر بأن اسعار الفائدة لم تصل بعد الى مستوياتها العليا . واصبحت نبوءات جرينفيل بانهيار السوق في احد ايام شهر سبتمبر ١٩٨١ أشبه بنبوءات العصور الوسطى عن نهاية العالم . والغريب - أو لعله ليس بغريب - هو ان السوق اصبحت تستجيب لنبوءات جرينفيل اكثر مما تثق في تصريحات وزراء المالية ومحافظي البنوك المركزية ..!

وليست احوال المنظمات الدولية بافضل حالا . فصندوق النقد الدولي يكاد يصبح متخصصا في تقديم نصائح مدمرة . فبرنامج الاصلاح الاقتصادي الذي اقترحه الصندوق على بيرو كشرط للحصول على قرض الصندوق ادى الى قيام المظاهرات والاضطرابات نتيجة لرفع اسعار المواد الغذائية والوقود طبقا لنصائح الصندوق . وعندما حاولت حكومة مصر الاستجابة الى سياسة ترشيد الاسعار التي اقترحها خبراء الصندوق قامت مظاهرات واحداث شغب في طول مصر وعرضها في يناير ١٩٧٧ . وتمتد القائمة لتشمل دولا اخرى مثل تركيا حتى باتت الصحافة واجهزة الاعلام تطلق اسم « شغب واضطرابات صندوق النقد الدولي » على نوع جديد من مظاهر الفوضى الناشىء عن تطبيق اقتراحات الاصلاح الاقتصادي لخبراء صندوق النقد الدولي . وهو نمط معروف وثابت ويبدأ برفع اسعار المواد الغذائية لينتهي بنزول رجال الشرطة لضبط الامن في الشوارع .

ماذا حدث ؟

فماذا حدث للاقتصاد والاقتصاديين ..؟

ليس من السهل اختصار المراحل التي مرت بها تعاليم النظرية الاقتصادية فيما يتعلق بالسياسة الاقتصادية . ومع ذلك فانه من المفيد ان نلقي نظرة سريعة على هذا التطور قبل ان نشير الى بعض بواطن الاختلال في اوضاعنا المعاصرة .

لعل اقدم السياسات الاقتصادية المستندة الى شيء من التحليل الاقتصادي ترجع الى ما يسمى بالسياسة التجارية . وهي السياسة التي غلبت على الفكر الاقتصادي والسياسي خلال القرنين السابع والثامن عشر . وهي سياسة كانت ترى ان هدف السياسة الاقتصادية هو تحقيق المزيد من ثروة الدولة - الملك - وذلك عن طريق التدخل المستمر وخاصة بزيادة الصادرات وتقييد الواردات .

وفي الربع الاخير من القرن الثامن عشر اخرج آدم سميث كتابه في « ثروة الامم » سنة ١٧٧٦ مفندا آراء التجاريين ومدافعا عن اهمية الحرية الاقتصادية وخطورة التدخل الحكومي . ومؤكدا فكرة اساسية لازمته وهي ان المصلحة الخاصة وحدها كفيلة بتحقيق المصلحة العامة وأنه ليس اخطر واضر على المصلحة العامة من هؤلاء الذين يدعون حماية هذه المصلحة العامة . وعلى العكس فان سعي الافراد لتحقيق مصالحهم الخاصة يدفعهم بيد خفية ودون ان يقصدوا الى تحقيق المصلحة العامة .

ومع آدم سميث استقر الفكر الكلاسيكي والذي يدعو الى الحرية الاقتصادية وعدم تدخل الدولة . ومع كتاب الفكر التقليدي اللاحقين ضبطت النظرية الاقتصادية هنا وهناك دون اي تغيير في الدعوة للحرية الاقتصادية .

وجاءت المعارضة الاساسية من الكتاب الماركسيين في اثر تطوير كارل ماركس لافكار ريكاردو في نظرية القيمة . وفيما عدا هذا التيار الاشتراكي المعارض للنظام الاقتصادي القائم ، فقد كانت السياسة الاقتصادية المعتمدة هي سياسة الحرية الكاملة .

وتعرضت النظرية الاقتصادية لاخطر اختبار مع

الازمة العالمية في ١٩٢٩ وما تلاها . وجاء الاقتصادي كينز ليقدم الاساس النظري اللازم لضرورة تدخل الدولة لدعم النشاط الاقتصادي في احوال الركود . واوضح كينز انه مع جمود الاسعار وعدم فاعلية الاجراءات النقدية ، فان تدخل الدولة عن طريق السياسات العامة المالية لدعم الطلب امر لازم للقضاء على البطالة . وكان تعاصر حكومة روزفيلت في الولايات المتحدة الامريكية مع سياستها الجديدة القائمة على التدخل اكبر تدعيم لافكار كينز الاقتصادية . واكتسبت افكار كينز خلال الحرب وبعدها انصارا عديدين ، وهم يعتمدون اساسا على اهمية سياسات الطلب وضرورة تدخل الدولة لتقويته في فترات الكساد وتقييده في فترات التضخم .

وقد عرف العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى نهاية الستينات اكبر فترة من الاستقرار والنمو الاقتصادي المستند اساسا الى افكار كينز الاقتصادية . ومنذ نهاية الستينات وخاصة في بداية السبعينات بدأت المشاكل الاقتصادية تخرج عن سيطرة الدول المختلفة . وعاصر هذا الوقت احياء لافكار المدرسة التقليدية في ثوب جديد وخاصة على يد الامريكي فردمان في شيكاغو . وهؤلاء يرون ان كينز قد اهمل اهمية دور النقود وزيادة عرضها في التأثير على التضخم وارتفاع الأسعار . على ان افكار مدرسة فردمان لا تقتصر على مجرد التأكيد على اهمية دور عرض النقود وهو ما ادى الى اطلاق اسم « النقديين » عليهم . ولكن هذه المدرسة تتضمن بشكل اساسي تغييرا ايديولوجيا يعارض تدخل الدولة ويقدس الحرية الاقتصادية . وهذه هي الرسالة الحقيقية لكتاب فردمان الاخير « حرية الاختيار - Free to choose » .

التضخم مع البطالة

وقابل هذا التغيير في التفكير النظري تغيير في طبيعة المشكلة . فعندما واجه كينز مشكلة البطالة كان هناك ركود عام مع انخفاض في الاسعار ، ولذلك امكن لاتباع كينز ان يضعوا نوعا من المعادلة بحيث تتناقض البطالة والتضخم . فالنظام اما ان يواجه مشكلة بطالة ترجع الى نقص الطلب او يواجه مشكلة تضخم تعود الى زيادة الطلب . والسياسة الاقتصادية المقترحة هي التأثير على الطلب لتحقيق التوازن المطلوب . واكتسب الامر ما يشبه الحقيقة العلمية مع ما يعرف بمنحنيات فيلبس .

ومنذ نهاية الستينات يواجه العالم شكلا جديدا



آدم سميث

يتعاصر فيه التضخم مع البطالة ، وهو ما اصبح يطلق عليه اسم الركود التضخمي Stagflation حيث يجمع مظاهر الركود والتضخم معا . وهو امر تجهله النظرية الكينزية تماما وترى فيه تناقضا غير متصور .

وبعد هذا الاستعراض السريع ، فهل حقا قصر الاقتصاديون في اداء مهمتهم ، أم انهم يواجهون فعلا مهمة صعبة ان لم تكن مستحيلة ..؟

الحقيقة التي لا مراء فيها هي ان علم الاقتصاد قد حقق تقدما وتطورا كبيرا وهو يمثل بالنسبة لكافة العلوم الاجتماعية قفزة هامة للأمام . وقد طور علم الاقتصاد اطارا نظريا صلبا يعتمد على منهج علمي راق ويستند الى تراث ضخم من التجربة الاقتصادية . وقد سخر الاقتصاد في هذا الصدد نماذج رياضية واساليب احصائية لاثراء تجربته . ومع ذلك يواجه الاقتصاد مجموعة من الصعوبات التي تجعل السياسة الاقتصادية قاصرة او حتى فاشلة في تحقيق نتائج ملموسة .

ولعل اول الصعوبات التي تواجهها السياسة الاقتصادية عدم وضوح الرؤية لدى رجال السياسة .

فالاقتصادي ليس من شأنه أن يضع الاهداف وترتيب الاولويات فهذه قضية سياسية . ولكن رجال السياسة لا يعرفون بالضبط ماذا يريدون ، أو بالاصح فهم يريدون تحقيق عديد من الاهداف المتعارضة ، ويسأل الاقتصادي في كيفية تحقيق هدف او اهداف معينة في الوقت الذي تسير فيه ماكينة الحكومة لتحقيق اهداف اخرى مناقضة لها تماما . كذلك فان عدم الوضوح لا يقتصر فقط على عدم تحديد الاهداف بل انه يمتد لعدم معرفة من هو صاحب القرار الحقيقي؟ هل هي الحكومة ؟ هل هو البرلمان ؟ هل هو الحزب ؟ هل هي نقابات العمال ؟ هل هي الصحافة ؟ هل هم المستهلكون ؟ ان رجل الاقتصاد يجد نفسه في حيرة ليس فقط فيما يطلب منه من اهداف غير محددة واحيانا متناقضة بل ايضا في التوجيهات المتعارضة التي تصل اليه من كل صوب .

مشكلة السياسي

ويرتبط بما تقدم اختلاف جوهري في افق كل من الاقتصادي والسياسي . فالسياسي يعمل وعيناه على الانتخابات القادمة ، وهي قد تكون انتخابات الرئاسة ، او تجديد البرلمان كله او جزء منه او انتخابات محلية . وفي الدول الصناعية الغربية يصعب ان تمر سنة دون ان يكون هناك انتخاب ما ذو اهمية لرجل السياسة . ومن هنا فان السياسي عجول لا يتحمل انتظار نتائج سياسة الاقتصادي . فهذا الاخير يتعامل مع هيكل الانتاج وتغيير الاذواق ، واكتساب خبرة جديدة ، وفتح اسواق بعيدة ، وكل هذا يتطلب وقتا لا يستطيع السياسي ان يتحمله . ولذلك فانه في اغلب الاحيان ما ان توضع سياسة اقتصادية قيد التنفيذ حتى يبدأ في نفس الوقت تقريبا تطبيق سياسات اخرى كفيلة بتخريب هذه السياسات الاقتصادية لاغراض انتخابية عاجلة .

وأخيرا فان العالم قد بدأ يعرف تطورين هامين ومتعارضين في نفس الوقت . فالارتباط الاقتصادي يزداد يوما بعد يوم . فيكفي ان تنظر الى الدولار الامريكي لكي تكتشف ان كل ما يمس هذا الدولار يؤثر في اقتصاد العالم اجمع . فسياسة اسعار الفائدة العالية في الولايات المتحدة الامريكية قد فرضت نفسها على كافة الدول الاوروبية التي اضطرت الى مجاراتها رغم انه لا مصلحة لها في رفع اسعار الفائدة ، وعلى العكس فان سياسة الولايات المتحدة الامريكية النقدية تبدو غير فعالة لدرجة كافية نظرا لوجود كتلة دولارية ضخمة خارج سيطرة الولايات المتحدة الامريكية (اليوروبولار) . والامثلة على الترابط الاقتصادي عديدة ، فانتعاش أو ركود الدول الصناعية معناه نمو او تراخي صادرات الدول النامية ومن ثم حياتها الاقتصادية . وارتفاع اسعار الطاقة اثر في انتاج العالم اجمع . والفائض المالي لدى الدول النفطية يعني عجزا مقابلا في موازين مدفوعات الدول الاخرى . وهكذا ، وهكذا ... وفي مواجهة هذا الترابط الاقتصادي المتزايد والقيود الكبيرة على الاستقلال في السياسات الاقتصادية نجد ظاهرة عكسية في الاتجاه السياسي . فالرغبة في االاستقلال في اتجاه للتزايد وليس العكس . ففرنسا بدأت ترفع صوتها معارضة لدول حلف الاطلنطي منذ الستينات مع ديجول ، وها نحن نعاصر دعوات مماثلة في المانيا الغربية واليابان . وفي الكتلة الشرقية لم تنفصل الصين ويوغوسلافيا عن بقية دول المعسكر الاشتراكي في وقت مبكر فقط ، ولكن رومانيا تأخذ خطا مستقلا منذ فترة ليست قصيرة ، وتؤكد احداث بولندا انها تسير في نفس الاتجاه . ومن يدري ماذا سيكون رد فعل بقية دول المعسكر الشرقي في حالة نجاح تجربة بولندا . وليس هذا فحسب ، بل انه داخل الدولة الواحدة هناك اتجاه متزايد للاستقلال السياسي . فكندا تجد صعوبة في وضع سياسة اقتصادية موحدة ، ومقاطعة ألبرتا تطالب بمزيد من الاستقلال في سياستها النفطية . وفي انجلترا لم يقتصر الامر على مطالبة ايرلندا الجنوبية بالاستقلال ، بل ان اسكتلنده بدأت تتساءل عن حقوقها في استغلال بحر الشمال . وحتى في الولايات المتحدة الامريكية بدأنا نسمع عن استقلال وتميز كاليفورنيا والجنوب . وهكذا ... وهذا التعارض بين حقائق الترابط الاقتصادي والانفصال السياسي يضع الاقتصادي في محنة حقيقية عندما يطلب منه تنفيذ سياسة تتحدد عناصرها الاساسية خارج الحدود السياسية التي يعمل في اطارها . الاقتصاد يتجه نحو العالمية في حين ان القرارات السياسية تتجه نحو الاقليمية والتجزئة . والسياسي هو في نهاية الامر من يحدد للاقتصادي دوره ومكانه .

وفي مثل هذه الظروف ليس من الغريب ان يفشل الاقتصادي في تقديم سياسة ناجحة ، فهو يعمل في ظل ظروف بطبيعتها لا تسمح بأي نجاح . وانما الغريب أنه قد يكون نجاحه في تقديم توصيات صالحة في هذا العالم المضطرب .

د . حازم الببلاوي

ريحان الممثل السياسي

في كتاب جديد

لقد كان دائما رجل سياسة .. كل ما في الامر انه اضطر الى قضاء بعض سنوات من عمره في السينما من اجل الـرزق !



١٩٣٩ : « المخابرات في الجو » اول فيلم من مجموعة افلام المغامرات التي اضطلع ريجان ببطولتها ويحكي قصة طيار مغامر ينضم الى المخابرات الامريكية ويشارك بطائرته في عمليات ضبط المتسللين الذين كانوا ينقلون جوا الى الولايات المتحدة .

ما كنا لنري كل هذا الاهتمام بماضي ريجان في السينما لولا انه رجل سياسة . بهذه العبارة القصيرة قدم توني توماس لكتابه « افلام رونالد ريجان » . وهو كتاب حديث صدر بعد انتخاب ريجان لرئاسة جمهورية أمريكا ودخوله البيت الأبيض . وصاحبه مذيع وكاتب ومنتج ، عمل في الاذاعة الكندية لأكثر من عشرين سنة ، كان اهتمامه فيها يتزايد عاما بعد عام بكل ما يحدث في عالم السينما . وضع عدة كتب عن نجوم كبار مثل بيتر اوستينوف ومارلون براندو وايرول فلين وغيرهم . وكأنه يريد ان يعتذر بهذه الكلمات القصيرة التي استهل بها حديثه عن الكتاب ، فلم يكن ريجان ممثلا كبيرا ، ولو أنه قضى أكثر من ثلاثين عاما يمثل ، وبلغ عدد الافلام التي اشترك فيها او اضطلع ببطولتها ٥٣ فيلما !

ثم يروي المؤلف قصة لقائه بريجان لاول مرة : « في عام ١٩٦٦ وقبل انتخابه حاكما لولاية كاليفورنيا بفترة قصيرة . « كلفتني شركة الاذاعة الكندية بتسجيل سلسلة من الاحاديث مع رونالد ريجان . كان المطلوب أن تتركز الأحاديث على شخصية الرجل ، لا ميوله السياسية . وكنت خلال عملي مع شركة الاذاعة قد اجريت احاديث مع العديد من نجوم هوليوود وتعلمت الا أبني حكمي عليهم من خلال الصور التي اراها لهم . بعضهم بدا في الأصل أفضل بكثير من الصورة ، وكان العكس صحيحا مع البعض الآخر ، ومع ريجان لم تكن المسألة مجرد انه افضل مما يبدو في صوره ، فقد اكتشفت انه رجل يتمتع بقدر كبير من المعرفة ، وبقدرة على شرح وجهات نظره باقناع أقوى مما قد يبدو من خلال ادواره في السينما !

« لقد كنت اشارك وجهة نظر الكثيرين التي تقول انه ممثل مجتهد يتمتع بشخصية محبوبة ، رغم أنه لم يكن ابدا ممثلا ممتازا ، ومع هذا فقد مضى يمثل كل هذه الاعوام الطويلة ، ولم يحدث ان استطاع اي ممثل ان يستمر يمثل ثلاثين عاما إلا اذا كان على قدر من الكفاءة

١٩٤٠ : وكانت « جريمة في الجو » هي آخر افلام المخابرات في المجموعة التي رأت شركة اخوان وارنر ان تقدمها للجمهور ، ويحكي الفيلم قصة الجاسوسية في امريكا ، وتبدأ القصة باحدى لجان التحقيق التابعة للكونجرس وهي تحقق في نشاط الجواسيس ، ثم يكلف ريجان بمطاردة احد الجواسيس والقبض عليه وتقديمه للمحاكمة .

١٩٣٩ : وفي « المزيفين » يكلف ريجان بمطاردة عصابة تخصصت في تزييف العملة الورقية (الدولار) ، وتنتشر الدولارات المزيفة في البلاد ويتظاهر ريجان بانه واحد منهم ويدخل السجن ، وهناك يكتشف ان العصابة تطبع الدولارات المزيفة داخل اسوار السجن الذي دخله .





وقوة الاحتيال . ثم يتساءل المؤلف « ترى لو بقي ريجان ممثلا ، ولم يتحول الى السياسة ، هل كان مؤرخو السينما يعطونه مكانا له اهميته في تاريخ هوليوود ؟ »

تاريخ الرجل نفسه يقول ان اشتغاله بالسينما هو الذي أوصله الى السياسة .. هناك البعض الذي يرى أن الممثل .. اي ممثل ما كان يجب ان يشتغل بالسياسة . ولكن هناك ايضا من يؤمن بان الخبرة التي يكتسبها المرء في التمثيل هي ميزة لها قيمتها الكبرى بالنسبة للسياسي المعاصر .. فهي تدعم قدرته على الاتصال بالجماهير ، وتضاعف من قوة الاقناع عنده في هذا العمل الذي تتزايد فيه اهمية الاتصال والاقناع ...

كانت البداية في عام ١٩٣٧ مع شركة اخوان وارنر وهي في قمة مجدها عندما وقف امام الكاميرا لاول مرة ، وكان وقتها في السادسة والعشرين من عمره ، ثم ما لبث ان ترك التمثيل وابتعد عن الشاشة عندما تقدمت به السن ، وأطلت وجوه الأجيال الجديدة الشابة لتبعده عن الطريق ، وكان قد جاوز السادسة والخمسين ...

ولم يكن يدري ان السنوات الطويلة التي ظهر فيها على الشاشة الكبيرة ثم الشاشة الصغيرة او التلفزيون فيما بعد ، قد بدأت تثمر .

فقد تعاقدت معه شركة « جنرال الكتريك » في عام ١٩٥٤ للظهور في « مسرحها على الهواء » بمرتب يزيد على مائة وخمسة وعشرين الف دولار في السنة للدعاية لمنتجات الشركة .. وكانت مفاجأة للذين جلسوا يرقبون ريجان في التلفزيون عندما تعمد في احدى حلقات « المسرح » ان ينسى الحديث عن منتجات جنرال الكتريك ، ويهاجم الحكومة الفيدرالية ، ويدعو الى التخفيف من اعباء دافعي الضرائب .. وشد حديثه الرجل العادي .. واثار اعجاب الكثيرين من صانعي الساسة في الحزب الجمهوري الذين وجدوا فيه « انتاجا جديدا يبشر بمستقبل ! » وكان ريجان « الديموقراطي » قد تحول الى الحزب الجمهوري بعد زواجه الثاني من نانسي دافيز زوجته الحالية .

فقد تزوج ريجان للمرة الاولى من الممثلة « جين وايمان » ، ولكنها ما لبثت ان هجرته بعد سبع سنوات من زواجهما وطلبت الطلاق وذهب كل منهما في طريق .. يومها قالت : « انني لا استطيع ان اشاركه اهتماماته ، انه رجل سياسة ، وانا لا افهم في السياسة شيئا ... انني اريد ان اتفرغ لعملي في التمثيل » .

١٩٥١ : وفي « حان وقت الندم يابونزو » يقوم ريجان بدور كوميدي لأستاذ علم النفس ، يحب ابنه عميد الكلية ، ويحاول ان يقنعه بقدرته على الغوص في اعماق النفس البشرية ، وان البيئة اهم من الوراثة ، ويحضر قردا اسمه « بونزو » ويحمله معه الى البيت ويحاول ان يربيه كما يربي الاباء اطفالهم مستعينا باحدى الممرضات

١٩٤٠ : وفي « لاعب الكرة » يموت ريجان اثر اصابته بالتهاب رئوي ، وكان دوره في الفيلم قائما على المباريات التي شارك فيها فريقه وحقق النصر ، ويرجو زملاءه قبل موته ان يكملوا مسيرة النصر .



كان هذا في عام ١٩٤٨ ، وانقضت سنوات طويلة حوالي ربع قرن او اكثر او اقل عندما صدر كتاب بعنوان « إنهم يدعونني كاهن صناعة السينما » . ومؤلف الكتاب كاهن بالفعل واسمه الاب روبرت بيريلا ، وكان صديقا لجين وايمان الزوجة المطلقة ، كتب يقول على لسانها وهي تحكي له اسباب الخلاف الذي ادى في

النهاية الى انفصالها عن ريجان وطلاقها منه : « كان شيئا مزعجا » ان أصحو في منتصف الليل لأستعد للذهاب الى العمل في الاستوديو ، فاذا جاء الصباح وجدت زوجي ريجان على مائدة الافطار ، والصحيفة في يده ، وقد وقف مؤيدا مدافعا عن اليمين مرة ، وعن اليسار مرة ، ثم عن المتطرفين اليمينيين ، ثم عن المتطرفين اليساريين ثم في النهاية عن هؤلاء الذين يقفون في الوسط بين هؤلاء وهؤلاء . كل هذا في جلسة واحدة مع صحيفة واحدة ونحن نشرب الشاي في الصباح » .

خارج هوليوود كان الكثيرون في دهشة ... كيف تحول هذا الممثل الى سياسي ناجح ؟ ولكن احدى الممثلات التي كانت تعرف ريجان منذ ايامه الاولى في السينما تقول : « لقد كان دائما رجل سياسة ، ربما هو نفسه لم يكن يدرك ذلك ، ولكن هكذا كان . كل ما في الأمر أنه اضطر الى قضاء بعض سنوات عمره في العمل في السينما من اجل الرزق والعيش .

هل كانت السياسة عنده هواية ؟ ربما ، ولكن قطعا قبل ان ينتخب حاكما لولاية كاليفورنيا ، فقد اثبت خلال السنوات الثماني التي قضاها في حكم هذه الولاية الكبيرة انه سياسي محنك ، ولكن « دافيد بلانـدي » مراسل صحيفة صانداي تايمز يؤكد ان ريجان لم يكن جادا في محاولته الفوز بترشيح الحزب الجمهوري له في انتخابات الرئاسة ، ففي شهر مايو من عام ١٩٨٠ ـ والحملة الانتخابية على اشدها ـ حدث ان وقف ريجان امام مجموعة من كبار الشخصيات في ولاية فيلادلفيا ، وكانوا يتوقعون ان يلقي المرشح خطابا سياسيا هاما يوضح لهم فيه سياسته الداخلية والخارجية .. ووقف ريجان على المنصة ، وراح يبحث في جيوبه .. جيوب سترته ثم جيوب بنطلونه ، واخيرا وقف يبتسم ويقول : « أسف ايها السادة ، لقد كنت فعلا أنوي ان القي خطابا ، ولكنني نسيت الخطاب في غرفتي بالفندق وأطلق ضحكة سينمائية ... وضج الحاضرون بالضحك .

هل كان ريجان يشتغل بالسياسة ويمثل ، او يمثل وهو يشتغل بالسياسة ؟





١٩٦٤ : آخر افلام ريجان « القتلة » ويقوم فيه بدور رجل شرير أمام الممثلة أنجي ديكنسوف التي اشتهرت في مسلسلات « الشرطية الحسناء » وقصة الفيلم لارنست هيمنجواي ، وقد اخرج الفيلم للتلفزيون الامريكي ثم وجدوا انه أعنف من ان يدخل بيوت الناس على الشاشة الصغيرة .

يقول مؤلف الكتاب : « ان النظرية السائدة بان الممثل يستطيع ان يكون مخادعا مثله في ذلك مثل السياسي ، نتيجة لمقدرته على الأداء .. هي نظرية غير دقيقة ولا مقنعة عند ريجان ، فهو يفندها بقوله : « ان الصورة التي يعرضها التلفزيون عن كثب أكثر كشفا لحقيقة الرجل ، مما قد يراه الجالسون وهو يقف امامهم على المنصة ... هؤلاء اصحاب المقاعد في الصفوف الاولى وحدهم ، هم الذين قد يرونه بوضوح ، اما بالنسبة للباقين ، فهو مجرد جسم صغير لرجل يقف على منصة .

ثم يقول توماس : « أن يقتحم الممثل ميدان السياسة أمر لا يرى فيه ريجان اي شيء غير عادي أو غير مألوف . فهو يقول ان الاعتراف بمسؤوليتك في الحياة العامة شيمة كل رجل بما في ذلك الممثل ، ففي حياتنا لحظات يشعر خلالها الرجل بان هناك من يدعوه لمواجهة مسؤولياته . وهو شيء يناقض تماما ما يشعر به الرجل الذي يدخل معترك السياسة ، لأنها تبدو له حياة مثيرة ، او حياة طيبة ! إن الممثل الذي يجد نفسه في مواجهة المسؤوليات لا يمكن لأحد ان يتهمه بأنه يسعى لهذه المواجهة من اجل تحقيق مكاسب شخصية ... لقد كانت لدينا ـ نحن الممثلين ـ حياة مليئة بالمتعة والتنوع ، اكثر من غالبية الناس غيرنا ، ولم نكن نشعر ابدا بالصداع الذي تحدثه المشاكل السياسية معها !

« في قلب مدينة امريكية صغيرة تعيش وسط اجواء مظلمة ، صحا ريجان يوما من نومه فوجد نفسه بلا ساقين ، وصرخ : « أين بقية جسمي . أين بقيتي » . كانت هذه هي قصة أحسن أفلام ريجان على الاطلاق ، وهي مأخوذة عن قصة للكاتب الامريكي هنري بيلامان ...

وفي الفيلم يقوم أحد الجراحين الحاقدين ببتر ساقي رونالد ريجان في غيبة الضمير وغفلة القانون ... وتمر الأعوام وتعيش الصيحة « اين بقيتي » وتصبح عنوانا للكتاب الذي يروى فيه ريجان قصة حياته .. حياة السياسي الممثل ... او الممثل السياسي » . ربما لأنه كان احسن افلامه فقد تقاضى عن دوره فيه ١٠٠ الف دولار لأول مرة ..

بين العلماء والأمراء

بقلم : فهمي هويدي

على الطريق فيما بين الفقهاء والامراء مجموعة من الحواجز والمتاريس ، اقامها بعض علماء المسلمين عمدا ومع سبق الاصرار . واحاطوها منذ قرون بحزام كثيف من الاسلاك الشائكة والالغام ، بقصد اعاقة السير وتعطيل المرور كلما أمكن !

ورغم انه لا خلاف على ان لكل منهما مكانته الجليلة والرفيعة ، حتى يقول ابن القيم ان قيام الاسلام بهما معا ، وصلاح العالم بصلاحهما معا . الا ان التراث الفقهي حرص على ان يؤدي كل منهما دوره من موقعه ، يجمع بينهما شرف الرسالة ونبل الهدف ، بينما تتباعد بينهما الطرق والمسالك .

والامام ابو حامد الغزالي ، الذي عاش في العصر العباسي الثاني (توفي في سنة ٥٠٥هـ - ١١١١م) يسجل في كتابه « احياء علوم الدين » صورة معبرة لمسار العلاقة بين الفقهاء والسلاطين ، يقول فيها : ان الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها الخلفاء الراشدون المهديون . وكانوا ائمة علماء بالله تعالى ، فقهاء في أحكامه ، وكانوا مستقلين بالفتاوي في الاقضية ، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء الا نادرا ، في وقائع لا يستغني فيها عن المشاورة . فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها . وكانوا يتدافعون الفتاوي وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا . وأقبلوا على الله بكنه اجتهادهم ، كما نقل من سيرهم .

« فلما افضت الخلافة من بعدهم الى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوي والاحكام ، اضطروا الى الاستعانة بالفقهاء والى استصحابهم في جميع احوالهم لاستفتائهم في مجاري احكامهم ، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الاول وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف . فكانوا اذا طلبوا هربوا واعرضوا ، فاضطر الى الالحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات . فرأى اهل تلك الاعصار (العصور) عز العلماء واقبال الائمة والولاة عليهم مع اعراضهم عنهم ، فاشرأبوا لطلب العلم توصلا الى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة ، فاكبوا على علم الفتاوي وعرضوا انفسهم على الولاة ، وتعرفوا اليهم ، وطلبوا الولايات والصلات بينهم ، فمنهم من حرم ومنهم من انجح ، والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال ، فاصبح الفقهاء - بعد ان كانوا مطلوبين - طالبين ، وبعد ان كانوا اعزة بالاعراض عن السلاطين اذلة بالاقبال عليهم .

والذين أقاموا هذه المتاريس وأحاطوها بتلك الاسلاك الشائكة والالغام ، ارادوا ان يحصنوا الفقهاء ضد الغواية ويبعدوا عنهم كل شبهة ، بحيث يصبحون كما قال الامام الغزالي « علماء الآخرة » لا يرون الا الله وحده ،

وتحسبا لهذا المصير ، الذي يزرع جرثومة الفساد في ضمير الأمة ، توالت النواهي ، وجرى « تلغيم » طريق الفقهاء الى الامراء ، حتى قال رسول الله(ص) :

- أبغض القراء الى الله تعالى الذين يزورون الامراء - رواه ابو هريرة

- خير الامراء الذين يأتون العلماء ، وشر العلماء الذين يأتون الامراء

- العلماء أمناء الرسل على عباد الله ، ما لم يخالطوا السلطان . فاذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل . فاحذروهم واعتزلوهم - رواه أنس رضي الله عنه .

وعلى الدرب ذاته مضت اقوال الصحابة واعلام الفقه بين المسلمين :

- قال حذيفة صحابي رسول الله : اياكم ومواقف الفتن ، قيل وما هي ؟ قال : ابواب الامراء . يدخل احدكم على الامير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه .

وقال ابو ذر لسلمة : يا سلمة لا تغش ابواب السلاطين ، فانك لا تصيب من دنياهم شيئا الا واصابوا من دينك افضل منه .

وقال سفيان : في جهنم واد لا يسكنه الا القراء الزوارون للملوك .

وقال الاوزاعي : ما من شيء ابغض الى الله من عالم يزور عاملا .

وقال ابن مسعود : ان الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه ، فيخرج ولا دين له ، قيل له : لم ؟ قال : لانه يرضيه بسخط الله .

وإمام اهل السنه ، احمد بن حنبل هو القائل ، الدنيا داء والسلطان داء ، والعالم طبيب ، فاذا رأيت الطبيب يجر الداء لنفسه فاحذره .

وقال سحنون : ما أقبح بالعالم ان يؤتى الى مجلسه فلا يوجد ، فيسأل عنه ، فيقال : هو عند الامير ، هو عند الوزير ، هو عند القاضي .

وقد ذهب ذلك الفقيه المالكي الكبير الى الافتاء بان العالم « اذا تردد على القاضي ثلاث مرات بلا حاجة ، فلا تجوز شهادته ..»

أفرد الامام الغزالي فصلا خاصا في احياء علوم الدين (ج٢) بعنوان : « فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم ، وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والاكرام لهم » واستهله بقوله : اعلم ان لك مع الامراء والعمال الظلمة ثلاث احوال : الحالة الاولى ـ وهي شرُّها ـ ان تدخل عليهم ، والثانية ـ وهي دونها ـ ان يدخلوا عليك ، والثالثة ـ وهي الاسلم ـ ان تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك ..

ومضى يقول : الداخل على السلطان معرض لان يعصي الله تعالى ، اما بفعله او بسكوته ، واما بقوله واما باعتقاده .

وفصّل فتواه قائلا : اما الفعل ، فالدخول عليهم في غالب الاحوال يكون الى دور مغصوبة ، وتخطيها والدخول فيها بغير اذن الملاك حرام .

فاما السكوت ، فهو انه سيرى في مجلسهم من الفرش والحرير وأواني الفضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ما هو حرام . وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك في تلك السيئة .. فان قلت ، انه يخاف على نفسه فهو معذور في السكوت ، فهذا حق ، ولكنه مستغن ان يعرض نفسه لارتكاب ما لا

يباح الا بعذر .. ومن علم فسادا في موضع وعلم انه لا يقدر على ازالته ، فلا يجوز له ان يحضر ليجري ذلك بين يديه ، وهو يشاهد ويسكت . بل ينبغي أن يحترز عن مشاهدته .

واما القول ، فهو ان يدعو للظالم او يثني عليه او يصدقه فيا يقول من باطل ..

اما الدعاء له ، فلا يحل الا ان يقول : اصلحك الله او وفقك الله للخيرات او طوّل الله عمرك في طاعته او ما يجري هذا المجرى . فاما الدعاء بالحراسة وطول البقاء واسباغ النعمة مع الخطاب بالمولى وما في معناه فغير جائز . فان جاوز الدعاء الى الثناء ، فسيذكر ما ليس فيه . فيكون به كاذبا ومنافقا ومكرما لظالم ، وهذه ثلاث معاص .

وينبغي ان تذكر هنا بان الامام الغزالي يتحدث عن عصره ، وان القيود التي وضعها والفتاوي التي انتهى اليها ، كانت نابعة من قراءة لحاضره واحترازا وجده ضروريا حتى يحفظ للعلماء مقامهم وكرامتهم . وللدقة نقول إنه لم يقطع تماما طريق الفقهاء إلى الامراء . ولكنه لم يمانع في دخول العلماء اليهم بشروط . ففي سياق حديثه الذي اختتم به ذلك الفصل يورد ما نصه : فان قلت ، كان علماء السلف يدخلون على السلاطين ، فأقول : نعم ، تعلم الدخول وافهم ثم ادخل .

اي ان تحفظ الغزالي ليس على مبدأ دخول العلماء على السلاطين والامراء ، ولكن على ممارسات العلماء في مواجهة ذوي السلطان .

والامام احمد بن حنبل ، الذي كان شديد الحساسية تجاه عطايا السلاطين وأموالهم ، سئل مرة : مال السلطان حرام ؟ فقال : لا ، وأحب اليّ ان يتنزه عنه . وكيف اقول انه سحت ، وقد كان الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وكثير من الصحابة يقبلون جوائز معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه .

وسأله ابنه عبد الله ذات مرة ، قد بقي عندنا شيء مما كان يبرنا به المتوكل ، أفأحج منه ؟ قال نعم . قال عبد الله ، فاذا كان عندك كذا فلِمَ لم تأخذ ؟ .. قال يابني ليس هو عندي حرام ، ولكن تنزهت عنه .

وعندما يذكر دخول الفقهاء على الامراء والسلاطين ، فيجب ان يذكر العز بن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠هـ) الذي يوصف احيانا بانه سلطان العلماء ، او بائع الملوك . وهو الذي خاطب الحكام باسمائهم مجردة ، بغير كنية ولا تعظيم . وظل طوال حياته نموذجا للفقيه الذي لا يخشى احدا في الحق ، حتى تمتع بجرأة لا حدود لها في مواجهة سلاطين زمانه وامرائه .

عندما قدم من دمشق واستقر بالقاهرة طلع مرة الى السلطان الملك الصالح نجم الدين ايوب في يوم عيد بالقلعة فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة . وقد خرج على قومه في زينته .. واخذت الامراء تقبل الارض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ الى السلطان وناداه : يا أيوب .. (وعاتبه أمام الملأ على سماحه ببيع الخمور في القاهرة) وسئل العز : اما خفته ؟

فقال سلطان العلماء : استحضرت هيبة الله تعالى ، فصار السلطان قدامي كالقط .

وعندما هدد التتار دمشق ، ووصلوا الى حلب ، ارسل الملك الناصر الى مصر يطلب النجدة ، فجمع قطز الفقهاء والقضاة وقال لهم ان بيت المال بحاجة الى مال لتجهيز الجند ، عندئذ سكت الامراء والقضاة والفقهاء على كلام مدعي السلطان ، ولم يجرؤ احد ان يعترض على ما عقد الملك الجديد ابو المظفر عزمه ، من فرض ضرائب باهظة على الرعية لتمويل الحرب ، وكادت جماهير الشعب ان ترزح وحدها تحت وطأة الضرائب الفادحة وتكابد الشدة والحاجة دون الاعيان والامراء وبيت السلطان لو لم يستدرك الشيخ عز الدين الموقف فقام وقال :

وقصته مع المماليك في عصر السلطان الصالح نجم الدين ايوب تمثل ذروة لشجاعة الفقيه في مواجهة الامراء . ذلك ان السلطان عينه قاضيا للقضاة في مصر ، بعد قدومه من الشام . وعندما بدأ يمارس عمله ، اكتشف ان امراء المماليك الذين يحكمون البلاد في ظل السلطان ، لا يزالون أرقاء من الوجهة الشرعية والقضائية ، ولم يتم عتقهم به . فحكم عليهم جميعا بانهم من املاك بيت مال المسلمين ، واذا ارادوا الحرية فلابد من بيعهم ، وليعتقهم المشترون بعد ذلك ..

ومضى الشيخ يمارس صلاحياته باعتباره قاضيا للقضاة ، فأبطل كافة العقود التي يبرمونها من بيع وشراء وزواج وطلاق ، الامر الذي عطل مصالحهم واثارهم جميعا ضده ، وكان من بينهم نائب السلطنة .

« فاجتمعوا وارسلوا اليه ، فقال : نعقد لكم مجلسا وينادي عليكم لبيت مال المسلمين ، ويحصل عتقكم بطريق شرعي . فرفعوا الامر الى السلطان ، فبعث اليه فلم يرجع . فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة ، حاصلها الانكار على الشيخ في دخوله في هذا الامر ، وانه لا يتعلق به .

« فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار ، وأركب عائلته على حمير أخر ، ومشي خلفهم خارجا من القاهرة ، قاصدا نحو الشام . فلم يصل الى نحو نصف بريد ، الا وقد لحقه غالب المسلمين ... لا سيما العلماء والصلحاء والتجار .. فبلغ السلطان الخبر ، وقيل له ، متى راح يذهب ملكك ، فركب السلطان بنفسه ولحقه ، واسترضاه وطيب قلبه .

« فرجع ، واتفقوا معه على انه ينادي على الامراء ، فأرسل اليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه ، فانزعج النائب وقال : كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الارض . والله لأ ضربنه بسيفي هذا » . وذهب الرجل الى بيت الشيخ عز الدين ، ولكن هيبة الفقيه الجليل أثنته عن عزمه في اللحظة الاخيرة ، وسأل الشيخ ان يعفو عنه ، وسلم امره اليه ،

فقام الشيخ عز الدين يبيع الامراء ونائب السلطة في مقدمتهم ، ونادى على الامراء واحدا واحدا ، وغالى في ثمنهم ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير . وهذا ما لم يسمع بمثله عن احد (١) » !

وبوفاته طويت صفحة رجل عرف قدر العلماء ، وعرف قدر الامراء ، ولم يعتزل ذوي السلطان ، ولكنه دخل عليهم بكلمة الحق ، مستحضرا هيبة الله وحده .

ان القضية اذن ليست في دخول الفقهاء على الامراء واعتزالهم ، انما القضية هي كيفية توفير الظروف التي تمكن الفقهاء من ان ينصرفوا الى رسالتهم بتجرد ، ودون خوف او طمع . وان يقولوا كلمة الحق في مواجهة ذوي السلطان انصافا للحق ، لا لكي « يدلوهم على الرخص ، ويستنبطوا لهم بدقائق الحيل طرق السعي فيما يوافق اغراضهم » ، كما قال الامام الغزالي .

ولابد ان نعترف بان هذا الامل يتعذر تحقيقه بينما ارزاق الفقهاء ومعاشاتهم محكومة بارادة ذوي السلطان . وقد اصبح الفقهاء والعلماء موظفين على درجات ويترقبون سلم الترقيات ، ويتحسبون لتقارير اعمالهم السنوية شأن عامة الموظفين والمستخدمين .

واذا قلنا ان بين الفقهاء والعلماء من امتلأ قلبه بهيبة الله سبحانه ، فلابد ان نقر ان الاغلبية الساحقة قد تسللت الى اعماقها هيبة الادارة وذوي السلطان ، واحتلت من قلوبها مساحات تتراوح بين الجزء والكل . وهنا مكمن الخطر وموطن الداء ...

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى - ج ٥ ص ٨٥

اننا لا نستطيع ان نطالب الفقيه ان يستقل برأيه ما لم يستقل بمورد رزقه ، او على الاقل يظل رزقه خارج دائرة نفوذ السلطان وهيمنة الادارة .

لقد بدأ توظيف الفقهاء في الدولة الاسلامية ، منذ عهد عمر بن الخطاب ، الذي كان اول من عين القضاة في الامصار الاسلامية المختلفة ، وخصهم بولاية القضاء وعدها ولاية عامة .

وكان القضاة يختارون من بين فقهاء الامة ، بينما كان هناك آخرون يرتزقون من اعمال يعملونها او بحرف يمارسونها ، وبمضي الوقت ظهر من الفقهاء من يتعيش على هبات السلاطين والامراء . وظلت الدائرة تتسع حتى وصلنا الى ما نحن عليه الآن ، وصار الكل موظفين يتقاضون رواتب من الخزانة العمومية .

وقد توفرت لفقهاء الشيعة فرصة مواتية لكي يمارسوا استقلالهم ، بعدما باتت مواردهم المالية تعتمد على ما يدفعه أتباع المذهب من الخمس والزكاة . ذلك انه في ظل احتمال دخول مال مشكوك في حرمة مصدره الى مال السلطان ، فقد قرر فقهاء المذهب ان يقطعوا الشك باليقين ، ويعتمدوا على اسهامات الأتباع او المقلدين .

وفي هذا الاطار فان كل فرد شيعي (مقلد) مطالب بان يدفع الى شيخه الذي يسترشد برأيه ، او يقلده طبقا للوصف المتداول ، خمس فائض ارباحه السنوية ، بالاضافة الى الزكاة ، ويتولى الفقيه توجيه هذه الاموال التي تتجمع لديه الى المصارف الشرعية المختلفة ، ويحصل منها على ما يغطي نفقاته ونفقات عائلته ، وكل ما تتطلبه مهمته من مصروفات واعباء .

وبهذه الطريقة ضمن الفقيه مورد رزقه ، ولهذا السبب كانت حرية الفقيه الشيعي في الحركة والاجتهاد اوسع بكثير من قدر الحرية المتاح للفقيه السني .

وقد كان لدى السنة مصدر يكفل تحقيق هذا الاستقلال للفقيه ، وهو الاوقاف التي كان يوقفها القادرون من المسلمين لصالح العلماء والوعاظ وغير ذلك من أغراض ، وحتى عهد قريب كان ريع هذه الاوقاف في مختلف البلاد الاسلامية كبيرا بالقدر الذي يمكن ان يؤمن احتياجات الفقهاء ويضمن لهم مورد رزق ميسور . وقد كان دخل الاوقاف في بلد كمصر ـ على سبيل المثال ـ يزيد على ايرادات البلاد من مرفق ضخم هو قناة السويس . ولكن تلك الاوقاف اصبحت تحت سيطرة الحكومات لسبب او لآخر ، الامر الذي ادى الى اغلاق ذلك الباب وصب كل ايراداتها في خزانة كل دولة .

ويظل ريع هذه الاوقاف - التي لم تندثر بعد - خيارا معقولا لتوفير قدر من الاستقلال المالي يؤمن الفقهاء ويحفظ كرامتهم .

ان القضاة الذين يفصلون في امور الدنيا لهم حصانة تكفل لهم حماية خاصة ، لكي يمارسوا اجتهادهم القانوني إرساء للعدل واحقاقا للحق ، والنواب اعضاء البرلمانات لهم حصانة تؤمن لهم الحماية لكي يعبروا عن آرائهم بحرية تامة تحت قبة البرلمان وفي حرمه ، ولا ندري لماذا تمتد هذه الحصانة لكي تشمل فقهاء الامة ايضا لكي يقولوا كلمتهم ، ومظلة الامان والحماية القانونية تظللهم بحيث تصبح تلك الكلمة خالصة لوجه الله سبحانه ولكي تظل قلوبهم ممتلئة بهيبة الله وحده .

ان الطريق لا يزال مفتوحا لكي نقيم علاقة صحية بين الفقهاء والامراء . تسهم في اقامة مجتمع قوي الاركان ، لا يعبد فيه احد احدا ، ويتجه الجميع فيه الى عبادة الله وحده ، وخشية الله وحده .. وذلك هدف يفترض اننا حريصون على تحقيقه ، للفقهاء ولغير الفقهاء .

اما اذا لم يكن الهدف واردا ، فلا محل للمناقشة من الاساس !

« واذا مرض الواحد منهم ضربوا له خيمة ناحية عنهم وطرحوه فيها » .

نزهة الأفئدة والنفوس في معرفة أحوال الروس

بقلم : حسين احمد امين

منذ اكثر من خمسة قرون عرف الرحالة العرب الروس وكتبوا عنهم اوصافا وانطباعات ، ترسم في مجموعها صورة مثيرة وممتعة .

فقد كان للمسلمين في المرحلة التي عرفت بالعصور الوسطى قصب السبق في ميدان الرحلات والدراسات الجغرافية . وساهمت في ذلك عدة اعتبارات :

* سيادتهم في البر والبحر ، وانبساط دولتهم من حدود الهند شرقا الى المحيط الاطلسي غربا ، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالا الى صحاري افريقيا جنوبا .

* ما جمع بين الدول الاسلامية ـ حتى بعد زوال وحدتها السياسية ـ من روابط الدين واللغة والثقافة ، مع ضعف القوميات الاقليمية في ذلك العصر .

* حاجة الحكام الى من يقوم برحلات في انحاء الدولة لدراستها ووصفها ومعرفة طرقها وحاصلاتها وخراجها وما الى ذلك ، تمهيدا لتطبيق احكام الشريعة .

* الرغبة القوية لدى الكثيرين في طلب العلم في مراكز الثقافة المتعددة في ديار الاسلام والدرس على مشاهير الفقهاء والمحدثين واللغويين والاطباء والفلاسفة والرياضيين .

* قيام الوف المسلمين باداء فريضة الحج كل عام ، ورحلتها الى الحجاز في شتى بقاع العالم الاسلامي ، مارة بمختلف البلدان .

* اتساع نطاق التجارة حتى شمل بلادا خارج حدود الديار الاسلامية .

* ايفاد امراء المسلمين الرسل والسفراء الى غيرهم من امراء المسلمين وملوك غير المسلمين .

* ما اسهم في تسهيل الرحلات من اعتبارات مثل عادة اكرام الضيف عند الشرقيين ، وبساطة العيش في القرون الوسطى ، وانتشار الرباطات والخانات التي يمكن للمسافرين الاقامة بها ، وحبس الاوقاف للانفاق منها في سبيل راحتهم ، وحث الاسلام على السفر واباحة



تعدد الزوجات بحيث يمكن للمسافر الذي يتغيب مدة طويلة عن بلده التزوج في البلاد التي ينزل فيها .

وقد خلف الرحالة والجغرافيون وغيرهم من المؤلفين المسلمين بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين (التاسع والخامس عشر الميلاديين) مؤلفات كثيرة حوت وصفا لرحلاتهم ، او تلخيصا لرحلات غيرهم ، كما ضمن المؤرخون المسلمون كتبهم ذكر العلاقات والحروب بين دولة الاسلام ودول غير المسلمين وملاحظاتهم عن سلوك الاجانب في الحرب والسلام .

وقد رأينا ان نجمع هنا بعض ما دونه عدد من هؤلاء الرحالة والجغرافيين والمؤرخين في وصف روسيا وعادات اهلها واخلاقهم ، نلحق به وصفا اورده المؤرخ مسكويه (توفي عام ٤٢١هـ/١٠٣٠م) في كتابه « تجارب الامم » لحادث غزو الروس واحتلالهم لارض من اراضي المسلمين عام ٣٣٢هـ / ٩٤٣م » ولمقاومة المسلمين لهذا الغزو حتى اضطر الروس الى الانسحاب ، ووصفا اورده المسعودي في « مروج الذهب » لغزو روسي اخر .

البلد والشعب

ارض الروس ارض واسعة ، الا ان بلادها قليلة ، وعماراتها منقطعة ، وبين البلد والبلد مسافات متباعدة . وهي بلاد وخمة . واهل هذه الارض من ولد يافث ، وينسبون ـ على ما زعم صاحب كتاب نزهة المشتاق (الادريسي) الى مدينة من مدنهم تسمى روسيا .[١] . ويقال انهم ينتسبون الى روس بن ترك بن طوج . والروم تسميهم اروسيا ، ومعنى ذلك « الحمر » . ويقال لهم « رس » بغير واو . وهم امة عظيمة ، لاتنقاد الى ملك ولا الى شريعة . وجملتهم على التقدير مائة الف انسان . وليس لهم زرع ولا ضرع . وانما يأكلون مما يحتملونه من ارض الصقالبة . وليس لهم عقار ولا قرى ، وانما حرفتهم التجارة في السمور والسنجاب وغير ذلك . وللروس في ارضهم معدن فضة كبير ، ويختلفون بالتجارة الى بلاد الاندلس وروميه والقسطنطينية والخزر .

واهل هذه الارض شقر الابدان ، صفر الشعور ، طوال القامات .

وهم اشر خلق الله تعالى ، ولهم لغة غريبة .[٢] وقد رأيت الروسية فلم ار اتم ابدانا منهم ، كأنهم النخل ، شقر حمر ، يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على احد شقيه ويخرج احدى يديه منه . ومع كل واحد منهم سيف وسكين وفأس لا يفارقها ابدا . وهم يحلقون لحاهم ، وبعضهم يفتلها مثل اعراف الدواب ويضفرها . وهم جثث ومنظر واقدام وبسالة ، فاذا نزلوا بساحة قوم لم ينصرفوا عنهم دون ان يهلكوهم ويستبيحوا حرمهم ويسترقوهم . وان استُنفرت طائفة خرجوا جميعهم ولم يتفرقوا ، وكانوا يدا واحدة على عدوهم حتى يظفروا بهم . ولهم بأس شديد ، لا يعرفون الهزيمة ، ولا يولي الرجل منهم حتى يقتل او يقتل[٣] . واذا ولد لرجل منهم مولود قدم الى المولود سيفا مسلولا فألقاه بين يديه وقال له « لا اورثك مالا ، وليس لك الا ما تكسبه لنفسك بسيفك هذا » . واذا حكم ملكهم بين خصمين بشيء ولم يرضيا به ، قال لهما : « تحاكما بسيفيكما ، فأي السيفين كان احد كانت الغلبة له »!.

وهم مستهترون بالخمر ، يشربونها ليلا ونهارا ، وربما مات الواحد منهم والقدح في يده ولا يدخل اليهم غريب الا قتلوه . ولهم مدينة تسمى « ارثا » لا يدخلها احد من الغرباء لانهم يقتلون كل غريب يصل اليهم البتة ، ولا يتجرأ احد ان يدخل ارضهم .

وهم اقذر خلق الله ، لا يستنجون من غائط ولا يغتسلون من جنابة كانهم الحمير الضالة[٤] ولا يبرز احدهم لقضاء حاجته وحده انما يصحبه ثلاثة نفر من رفقائه يتحارسونه بينهم ومع كل واحد منهم سيفه لقلة امانتهم والغدر الذي لديهم . فان الرجل اذا كان له قليل مال طمع فيه اخوه وصاحبه الذي معه فيقتله ويسلبه .

واذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم ، وطرحوه فيها ، وجعلوا معه شيئا من الخبز والماء ، ولا يقربونه ولا يكلمونه بل ولا يتعاهدونه ، لاسيا ان كان ضعيفا او مملوكا . فان برىء وقام رجع اليهم ، وان مات احرقوه ، وان كان مملوكا تركوه على حالة تأكله الكلاب وجوارح الطير . واذا اصابوا لصا جاءوا به الى شجرة طويلة غليظة ، وشدوا في عنقه حبلا وثيقا ، وعلقوه فيها ، ويبقى معلقا حتى يتقطع من المكث في الرياح والامطار .

نساؤهم وحياتهم العائلية

وهم يحرقون انفسهم اذا ماتوا ، ويحرق مع مياسيرهم

---

(١) مناهج الفكر للوطواط .

(٢) عجائب الأقطار لابن اياس .

(٣) ابن رسته

(٤) ابن فضلان

الجواري بطيبة من انفسهن . وان ماتت المرأة لم يحرق الرجل . وان مات عزب زوج بعد وفاته . والنساء يرغبن في تحريق انفسهن لدخولهن في ظنهن الجنة . وهذا فعل من افعال الهند[٥] .

وكل امرأة منهم على ثديها حقة مشدودة ، اما من حديد واما من نحاس واما من فضة واما من ذهب ، على قدر مال زوجها ومقداره ، في كل حقة حلقة فيها سكين مشدود على الثدي ايضا . وفي اعناقهن اطواق ذهب وفضة ، لأن الرجل اذا ملك عشرة الاف درهم صاغ لامرأته طوقا ، وان ملك عشرين الفا صاغ لها طوقين وكلما زاد عشرة الاف درهم يزيد لها طوقا اخر . فربما كان في عنق الواحدة منهن اطواق كثيرة . واجل الحلي عندهم الخرز الاخضر من الخزف ، يبالغون فيه ، ويشترون الخرزة منه بدرهم ، وينظمونه عقودا لنسائهم .

وبيوتهم كبار من الخشب . ويسكن في البيت الواحد العشرة والعشرون والاقل والاكثر . ولكل واحد منهم سرير يجلس عليه ومعه جواريه ، فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر اليه . وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحالة بعضهم بحذاء بعض . وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية ، فيصادفه ينكحها ، فلا يزول عنها حتى يقضي أربه .

ولابد لهم في كل يوم بالغداة ان تأتي الجارية ومعها قصعة كبيرة فيها ماء ، فتقدمها الى مولاها فيغسل فيها وجهه ويديه وشعر رأسه ، فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة ، ثم يتمخط ويبصق فيها ، ولا يدع شيئا من القذر الا فعله في ذلك الماء . فاذا فرغ مما يحتاج اليه ، حملت الجارية القصعة الى الذي يليه ، فيفعل مثل ما فعل صاحبه . ولا تزال ترفعها من واحد الى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت ، وكل واحد منهم يتمخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها .

الملك والديانة

ومن رسم ملك الروس ان يكون معه في قصره اربعمائة رجل من صناديد اصحابه واهل الثقة عنده ، فهم يموتون بموته ويقتلون دونه . ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل ويشرب ، وجارية اخرى ليطأها . وهؤلاء الاربعمائة يجلسون تحت سرير الملك . وسريره عظيم مرصع بنفيس الجواهر . ويجلس معه على السرير اربعون جارية لفراشه[٦] ، بأيديهن مجامر من ذهب وفضة وهي مطلقة بالبخور . وربما وطيء الملك الواحدة منهن بحضرة اصحابه . ولا ينزل عن سريره . فاذا اراد قضاء حاجة قضاها في طشت . واذا اراد الركوب قدموا دابته الى السرير فركبها منه ، واذا اراد النزول قدم السرير امام دابته حتى يكون نزوله عليه .

ولهم لغة ودين وشريعة لايشاركهم فيها احد . وساعة موافاة سفنهم بالمرسى يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم ولبن وبصل ونبيذ ، حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه وجه الانسان ، وحولها صور صغار ، وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت في الارض . فيوافي الى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقول « يا رب ، قد جئت من بعيد ومعي من الجواري كذا وكذا رأسا ، ومن السمور كذا وكذا جلدا » ـ حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته ، ثم يقول : « وقد جئتك بهذه الهدية » . ثم يترك ما معه بين يدي الخشبة ، ويقول : « اريد ان ترزقني تاجرا معه دنانير ودراهم ، فيشتري مني كل ما اريد ، ولا يخالفني في جميع ما اقول » ثم ينصرف . فان تعسر عليه بيعه وطالت ايامه عاد بهدية اخرى ثانية وثالثة . فان تعذر عليه ما يريد ، حمل الى صورة من تلك الصورة الصغار هدية وسألها الشفاعة وقال : « هؤلاء نساء ربنا وبناته » . فلا يزال الى صورة صورة يسألها ويستشفع بها ويتضرع بين يديها ، فربما تسهل له البيع فباع ، فيقول : « قد قضى ربي حاجتي ، واحتاج ان اكافئه » . فيعمد الى عدة من البقر والغنم ويقتلها ويتصدق ببعض اللحم ، ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها ، ويعلق رءوس البقر والغنم على ذلك الخشب المنصوب في الارض . فاذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت ذلك ، فيقول : « قد رضي عني ربي واكل هديتي ! » .

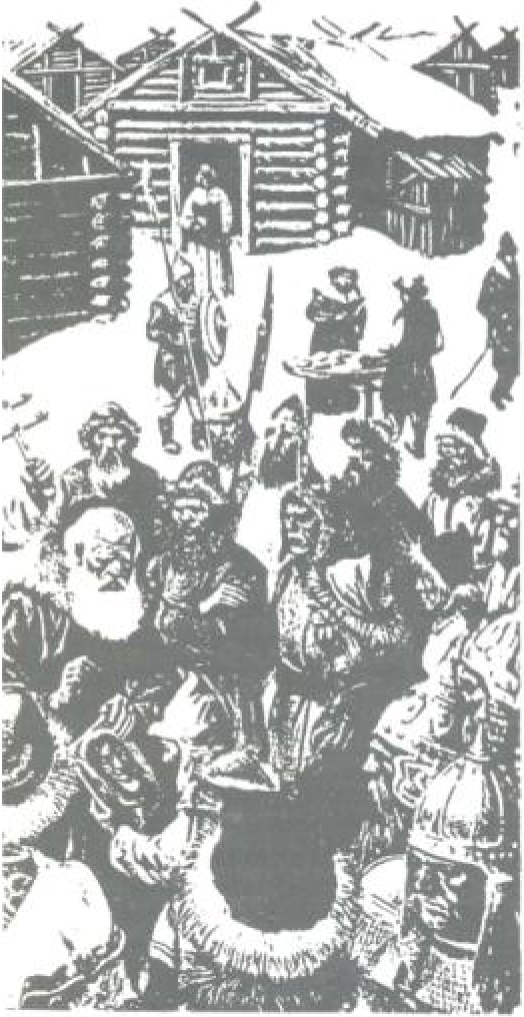
واما الآن ، فالمشهور من دينهم دين النصرانية .

الموت وطقوس الدفن

وكان يقال انهم يفعلون برؤسائهم عند الموت امورا اقلها الحرق ، فكنت احب ان اقف على ذلك ، حتى بلغني موت رجل منهم جليل . فجعلوه في قبر وسقفوا عليه عشرة ايام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها . وذلك ان الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة

(٥) المسالك والممالك للاصطخري

(٦) ابن أياس



ويجعلونه فيها ويحرقونها . اما الغني فيجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة اثلاث : ثلثا لاهله ، وثلثا يقطعون به له ثيابا ، وثلثا يشترون به نبيذا ويشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاها .

واذا مات الرئيس منهم قال اهله لجواريه وغلمانه : « من منكم يموت معه ؟ » فيقول بعضهم : « انا »! فاذا قال ذلك فقد وجب عليه لا يستوي له ان يرجع ابدا ولو اراد ذلك . فلما مات ذلك الرجل الذي ذكرته قالوا لجواريه : « من يموت معه ؟» فقالت احداهن : « انا » فوكلوا بها جاريتين تحفظانها ، والجارية في كل يوم تشرب وتغني فرحة مستبشرة . فلما كان اليوم الذي يحرق فيه هو والجارية ، حضرتُ الى النهر الذي فيه سفينته ، فاذا هي قد اخرجت وجعل لها اربعة اركان من الخشب ، ثم مُدت حتى جُعلت على ذلك الخشب . واقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا افهمه وهو بعد في قبره لم يخرجوه . ثم جاءوا بسرير فجعلوه على السفينة فلما وافوا قبره نحوا التراب والخشب ، واستخرجوه في الازار الذي مات فيه . فرأيته قد اسود لبرد البلد ، وكانوا جعلوا معه في قبره نبيذا وفاكهة وطنبورا ، فاخرجوا جميع ذلك ، واذا هو لم يتغير منه شيء غير لونه . فألبسوه سراويل وخفا وجعلوا على رأسه قلنسوة ، وحملوه حتى ادخلوه القبة التي على السفينة ، واجلسوه واسندوه بالمساند ، وجاءوا بالنبيذ والفواكه والريحان فجعلوه معه ، وجاءوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه . وجاءوا بكلب فقطعوه نصفين والقوه في السفينة . ثم جاءوا بجميع سلاحه فجعلوه الى جانبه . ثم اخذوا دابتين وقطعوهما بالسيوف والقوا لحمهما في السفينة . ثم احضروا بقرتين وديكا ودجاجة فقتلوها وطرحوها فيها .

[كل هذا] والجارية التي تُقتل ذاهبة وجائية تدخل قبة قبة من قبابهم فيجامعها صاحبها ويقول لها : « قولي لمولاك انما فعلت هذا من محبتك ». فلما كان وقت العصر جاءوا بالجارية فوضعت رجليها على اكف الرجال وتكلمت بكلام لها ، فأنزلوها ، ثم اصعدوها ثانية ففعلت كفعلها في المرة الاولى . ثم انزلوها واصعدوها ثالثة ففعلت فعلها في المرتين . فسألت الترجمان عن فعلها فقال : « قالت في المرة الاولى : هو ذا ارى ابي وامي . وقالت في المرة الثانية : هو ذا ارى جميع قرابتي الموتى قعودا . وقالت في المرة الثالثة : هو ذا ارى مولاي قاعدا في الجنة ، والجنة حسنة خضراء ، وهو يدعوني فاذهبوا بي اليه ».

ثم مروا بها نحو السفينة ، فنزعت سوارين كانا معها ودفعتهما الى امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت وهي التي تقتلها . ونزعت خلخالين ودفعتهما الى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها ، وهما ابنتا المعروفة بملك الموت . ثم اصعدوها السفينة ، ودفعوا اليها قدحا من نبيذ فغنت عليه وشربته . واخذت العجوز برأسها وادخلتها القبة ودخلت معها ، واخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجواري فلا يطلبن الموت مع مواليهن . ثم دخل القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية ، ثم اضجعوها الى جانب مولاها الميت ، وامسك اثنان رجليها ، واثنان يديها ، وجعلت العجوز في عنقها حبلا ودفعته الى اثنين ليجذباه . واقبلت ومعها خنجر عظيم عريض النصل ، واقبلت تدخله بين اضلاعها وتخرجه ، والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت .

ووافى اقرب الناس الى ذلك الميت فاخذ خشبة فأشعلها بالنار . ثم مشى القهقري نحو قفاه الى السفينة ، والخشب في يده الواحدة ويده الاخرى على استه وهو عريان ، حتى احرق الخشب المعبى تحت السفينة . ثم وافى الناس ومع كل واحد خشبة وقد الهب رأسها فيلقيها في ذلك الخشب ، فتأخذ النار في السفينة ثم في القبة والرجل والجارية .

وكان الى جانبي رجل من الروسية فسمعته يكلم الترجمان الذي معي ، فسألته عما قال له ، فقال : « انه يقول انتم معشر العرب حمقى لأنكم تعمدون الى احب الناس اليكم فتطرحونه في التراب فتأكله الهوام والدود ، ونحن نحرقه بالنار في لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته ». ثم ضحك ضحكا مفرطا . وما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والرجل الميت والجارية رمادا ، نصبوا في وسطه خشبة كبيرة وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس ، وانصرفوا[٧] .

الغزو الروسي لبلد اسلامي

قال المؤرخ مسكويه في كتابه « تجارب الامم » في حوادث سنة ٣٣٢هـ /٩٤٣م وفي هذه السنة خرج عسكر الامة المعروفة بالروس الى أذربيجان ، وقصدوا (مدينة) برذعة[٨] . فتوجه اليهم المرزبان بن محمد بن مسافر ومعه من المطوعة نحو خمسة الاف رجل لجهاد هؤلاء . وكانوا مُغْتَرِّين لا يعرفون شدة الروس ، وحسبوا انهم يجرون مجرى الارمن والروم . فلما صافوهم الحرب لم تكن الا ساعة حتى حملت الروسية حملة منكرة فهزموا العسكر ، وولت المطوعة بأسرهم وسائر العسكر الا الديلم ، فانهم ثبتوا ساعة فقتلوا كلهم . وهرب كل من كان له مركوب وتركوا البلد فنزلته الروسية وملكوه . وبادروا فنادوا فيه وسكنوا الناس وقالوا لهم : « لا منازعة بيننا وبينكم في الدين ، وانما نطلب الملك ، وعلينا ان نحسن السيرة ، وعليكم حسن الطاعة ».

ووافتهم العساكر من كل ناحية ، فكانوا يخرجون اليهم ويهزمونهم . وكان اهل برذعة يخرجون معهم ، فاذا حمل المسلمون على الروس كبروا ورجموهم بالحجارة ، فكانت الروسية تتقدم اليهم بأن يضبطوا انفسهم . فاما العامة فكانوا لايضبطون انفسهم ويظهرون ما في نفوسهم ويتعرضون لهم اذا حمل عليهم اصحاب السلطان . فلما طال ذلك على الروس نادى مناديهم بألا يقيم في البلد احد من اهله ، واجلوهم ثلاثة ايام من يوم ندائهم .

فخرج كل من كان له ظهر يحمله ويحمل حرمه وولده وهم نفر يسير . وجاء اليوم الرابع والاكثر مقيمون ، فوضعت الروسية فيهم سيوفهم فقتلوا خلقا عظيما لا يحصى عددهم ، واسروا بعد القتل بضعة عشر الف رجل وغلام مع نسائهم وبناتهم . ثم جمعوا الرجال الى المسجد الجامع ووكلوا بابوابه ، وقالوا لهم : « اشتروا انفسكم ». وتوقف الروسية عن قتل الرجال طمعا في المال ، فلما لم يحصل لهم شيء وضعوا فيهم السيوف فقتلوهم عن اخرهم الا عددا يسيرا . وربما وافق الواحد من المسلمين الروس على مال يفتدى به نفسه فيحضر معه الى منزله او حانوته فاذا استخرج ذخيرته وكانت زائدة على المال المتفق عليه لا يُمَكِّن صاحبها منها وان كانت اضعافا مضاعفة عليه ، فاذا علم انه لم يبق له عين ولا ورق ولا جوهر ولافرش ولا كسوة ، افرج عنه واعطاه طينا مختوما يأمن به من غيره (من الروس) : فاجتمع لهم من البلد شيء عظيم يجل قدره . وكانوا قد حازوا النساء والصبيان ففجروا بهن وبهم واستعبدوهم .

فلما عظمت المصيبة وتسامع المسلمون في البلدان بخبرهم تنادوا بالنفير . وجمع المرزبان بن محمد عسكره واستنفر الناس ، واتاه المطوعة من كل ناحية ، فسار في ثلاثين الف رجل . ومع ذلك لم يمكنه ان يؤثر في الروسية اثرا ، وكان يغاديهم القتال ويراوحه وينقلب عنهم مفلولا . واتصلت الحرب بينهم على هذه الصورة اياما كثيرة فكانت الدبرة ابدا على المسلمين .

واتفق ان الروسية لما ملكوا برذعة تبسطوا في أكل الفاكهة . وهناك انواع كثيرة منها ، فمرضوا ووقع فيهم الوباء ، لأن بلادهم شديدة البرد ولا ينبت فيها شجر وانما

---

(٧) رسالة ابن فضلان . وكان ابن فضلان في بعثة أرسلها الخليفة العباسي المقتدر عام ٣٠٩ هـ /٩٢١ م . الى ملك البلغار فمرت البعثة في طريقها ببلاد الروس .

(٨) برذعة : barda بلدة جنوب جبال القوقاز كانت فيما مضى قصبة أران ، وهي على بعد ١٤ ميلا تقريبا عن نهر الكر . وكانت في عهد الساسانيين الفرس ثم في عهد العرب حصنا على الحدود لصد غارات الغزاة من الشمال والغرب . فتحها العرب حوالي عام ٣٢ هـ /٦٥٢ م . وكانت وقت الغزو الروسي لها في أوج ازدهارها ، تشغل مساحة تمتد عدة أميال طولا وعرضا ، في منطقة خصبة تتوفر فيها مياه الري ، وتضارع في الحجم الري وأصفهان .

يحمل اليهم الشيء اليسير من البلاد الشاسعة عنهم . فلما قل عندهم فكر المرزبان في الحيلة ، ووقع له ان يكمن لهم ليلا ، وواطأ عسكره ان يبادروا الحرب ، فاذا حمل عليهم الروس انهزموا فيطمعون بذلك الروس في المسلمين ، فاذا تجاوزوا موضع الكمين ، عطف المرزبان ورجاله عليهم ، فاذا حصر الروسية في الوسط تمكنوا منهم . فلما اصبحوا تقدم المرزبان واصحابه وبرز الروسية واميرهم راكب حمار ، واصطفوا للحرب فانهزم المسلمون ، واتبعهم الروسية حتى تجاوزوا موضع الكمين ، واستمر الناس على هزيمتهم ، فلما رأى المرزبان ذلك اجتهد بالمسلمين ان يراجعوا الحرب فلم يفعلوا لما تمكن في قلوبهم من هيبة الروس . فرجع المرزبان وحده مع من تبعه ، وحينئذ استحى اكثر الديلم فرجعوا وخرجوا من وراء الروس وصدقوهم الحرب وقتلوا منهم سبعمائة نفس فيهم اميرهم وعاد الباقون الى الحصن في البلد وكانوا نقلوا اليه غلات كثيرة .

ولم يزل اصحاب المرزبان في قتال الروسية وحصارهم الى ان ضجر الروس . واتفق ان زاد الوباء عليهم . فكان اذا مات الرجل منهم دفنوا معه سلاحه . فاستثار المسلمون بعد زوال امرهم مقابرهم فاستخرجوا منها سيوفا يُتنافس فيها الى اليوم لمضائها وجودتها . فلما قل عددهم خرجوا ليلا من الحصن ، وحملوا على ظهورهم كل ما امكنهم من المال والجواهر والثياب الفاخرة ، واحرقوا الباقي ، وساقوا من النساء والصبيان والصبايا ما شاؤوا ، وقصدوا السفن التي خرجوا فيها من بلادهم ، فجلسوا فيها ومضوا ، وكفى الله المسلمين امرهم .

وسمعت ممن شاهد هؤلاء الروسية حكايات عجيبة عن شدتهم وقلة مبالاتهم بمن يجتمع عليهم من المسلمين . فمن ذلك خبر شاع في الناحية وسمعته من غير واحد ، ان خمسة نفر من الروسية اجتمعوا في بستان ببرذعة وفيهم غلام امرد وضيء الوجه من اولاد رؤسائهم ، ومعهم نسوة من السبي ، وان المسلمين لما عرفوا خبرهم احاطوا بالبستان واجتمع عدد كثير على حرب اولئك النفر الخمسة ، واجتهدوا في ان يحصل لهم اسير واحد ، فلم يكن اليه سبيل لانه كان لا يستسلم احد منهم ، ولم يمكن قتلهم حتى قتلوا من المسلمين اضعافا كثيرة لعدتهم . وكان ذلك الامرد آخر من بقي ، فلما علم انه يؤخذ اسيرا ، صعد شجرة كانت بالقرب منه ، ولم يزل يجرح نفسه بخنجر معه الى ان سقط ميتا .

غزو روسي آخر يصده المسلمون

وقد اورد المسعودي في « مروج الذهب » ذكرا لغزو روسي آخر تم في حوالي ذلك الوقت (اي النصف الاول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) فيقول :

ورد للروس نحوا من خمسمائة مركب ، في كل مركب مائة نفس ، فدخلوا خليج بنطس المتصل بنهر الخزر ، وراسلوا ملك الخزر في ان يجتازوا ببلاده وينحدروا في نهره فيدخلوا بحر الخزر (بحر قزوين) الذي هو بحر جرجان وطبرستان وغيرهما ، على ان يعطوه النصف مما يغتنمون هنالك من الامم على ذلك البحر ، فأباحهم ذلك فدخلوا . وانتشرت مراكب الروس في هذا البحر ، وطرحت سراياها الى الجبل والديلم وبلاد طبرستان ونحو بلاد اذربيجان . فسفكت الروس الدماء واستباحت النسوان والولدان ، وغنمت الاموال ، وشنت الغارات واخربت واحرقت . فضج من حول هذا البحر من الامم لأنهم لم يكونوا يعهدون في قديم الزمان عدوا يطرقهم فيه ، وانما يختلف فيه مراكب التجار والصيد . وكانت الروس تأوي عند رجوعها من غاراتها الى جزائر بقرب النفاطة . فاستعد الناس وركبوا في القوارب ومراكب التجار وساروا نحو تلك الجزائر . فمالت عليهم الروس فقُتل من المسلمين وغرق الوف . واقام الروس شهورا كثيرة في هذا البحر على ما وصفنا لا سبيل لاحد ممن جاور هذا البحر من الامم اليهم ، والناس متأهبون لهم حذرون منهم .

فلما غنم الروس وسئموا ما هم فيه ، ساروا الى فم نهر الخزر ومصبه ، وراسلوا ملك الخزر وحملوا اليه الاموال والغنائم على ما اشترط عليهم . وعلمت بشأنهم من في بلاد الخزر من المسلمين ، فقالوا لملك الخزر : خلنا وهؤلاء القوم ، فقد اغاروا على بلاد اخواننا المسلمين وسفكوا الدماء وسَبَوا النساء والذراري » . فلم يمكنه منعهم ، وبعث الى الروس فأعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم .

وعسكر المسلمون وخرجوا يطلبون الروس منحدرين مع الماء . فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها وصافوا المسلمين . وكان مع المسلمين خلق من النصارى ، فكان المسلمون في نحو من خمسة عشر الفا بالخيل والعدد . فأقامت الحرب بينهم ثلاثة ايام ، ونصر الله المسلمين عليهم ، فأخذهم السيف ، فمن قتيل وغريق ، ونجا منهم نحو من خمسة الاف ، تعلقوا بالبر ، فمنهم من قتله اهل برطاس ، ومنهم من وقع الى بلاد البرغر المسلمين فقتلوهم . وكان من وقع عليه الاحصاء ممن قتله المسلمون على شاطيء نهر الخزر نحوا من ثلاثين الفا .

ولم يكن للروس من تلك السنة عودة . ●●

حسين احمد امين

حقول الكهرباء

تملأ الفضاء في سنة ٢٠٠٠

بقلم :المهندس محمد فتحي عبد الفتاح

لقد اصبح ممكنا ، في ظل التقدم العاصف الذي يجتاح صناعة الاجهزة الفضائية ، تنفيذ مشاريع كانت تعد خيالية حتى وقت قريب . وحتى سنوات قليلة مضت كان المعتقد ان بناء المحطات الفضائية التي تحول الطاقة الشمسية الى طاقة كهربائية للاستخدام الصناعي لن يكون متاحا للانسان الا في اواسط القرن الحادي والعشرين . لكن الرأي السائد حاليا هو ان عام ٢٠٠٠ لن يأتي الا والفضاء عامر بمثل هذه المحطات . وقد وضعت مشروعات تفصيلية في هذا الصدد يرى اصحابها ان تكاليف توليد الكهرباء بالتكتيك الفضائي المتوفر حاليا لا تتجاوز ان لم تكن تقل عن ضعف تكلفتها بالاساليب العادية المتبعة حاليا .

ان حاجة البشرية الى الطاقة في تزايد مستمر . وليس ذلك بالأمر الطارىء بل هو ظاهرة موضوعية صاحبت التمدين منذ زمن بعيد ، الا أن وتائر هذه الحاجة قد تزايدت في المراحل الاخيرة حتى ان بوادر ازمة في الطاقة قد بدأت تطل برأسها على عالمنا ،ودفعت الى بذل جهود جدية في البحث عن مصادر جديدة للطاقة اكبر حجما واكثر دواما وتجددا من المصادر المستغلة حاليا .

والآمال معلقة في هذا الصدد على كثير من الطرق غير التقليدية في توليد الكهرباء وكما توهت ندوة اليونسكو الثانية للطاقة ، يحتل التحكم في حرارة الاندماج النووي كما تحتل الطاقة الشمسية مكانا بارزا بينها .

وان كان الانسان لم يتمكن بعد من بناء مفاعل اندماج نووي حراري فان الطبيعة قد زودتنا في النجوم ـ والشمس احداها ـ بمفاعلات جبارة من هذا النوع تتحد العناصر الخفيفة داخلها مكونة عناصر أثقل ، بينما يختلف عن عملية الاتحاد كميات هائلة من الطاقة .. وبوجه عام فالطاقة التي تصلنا من الشمس تزيد بآلاف المرات عن مجموع ما نستغله من مصادر الطاقة الأخرى في كوكبنا ، ناهيك عن ان الشمس مصدر لا ينضب للطاقة تقع نهايته وراء حدود حياتنا على هذا الكوكب .. غير ان وصول اشعة الشمس الى الارض على نحو غير منتظم وقف حجر عثرة في طريق الاستفادة من اشعتها مباشرة ودفع كثيرا من الخبراء الى التحفظ الشديد عند النظر اليها كمصدر لطاقة تستخدم على نطاق صناعي كبير .

غير ان عصر الفضاء قد هيأ للانسان ظروف حل مشكلة عدم الانتظام هذه ، اذ مكنه من الوصول الى مناطق تسطع فيها الشمس دوما ، لا تعرف تتابع الليل والنهار ، كما لا تعرف السحاب او حتى الجو ، تلك العوامل التي تتسبب في كسر حدة اشعة الشمس وعدم انتظامها .

وبالرغم من ان اجهزة الفضاء تزود حاليا بوحدات كهرضوئية تحول الطاقة الشمسية الى كهرباء تستخدمها هذه الاجهزة فيا زال يواجه الحصول على الكهرباء من الفضاء ، وعلى نطاق صناعي ، عدة مشاكل . ولعل اهم هذه المشاكل زيادة قدرة الوحدات الكهرضوئية الحالية بمئات الآلاف من المرات ، وكيفية نقل هذه الكهرباء الى الأرض . لكن الحسابات النظرية والتجارب والتصميات التي درست تبين ان الحضارة البشرية قادرة بمستواها التقني الحالي على حل مثل هذه المشاكل .

مكان المحطة في الفضاء الكوني

من المعروف ان زمن دوران الجهاز الفضائي المداري ـ القمر الصناعي ـ حول الارض يتزايد كلما ابتعد عنها . فمثلا يبلغ هذا الزمن ٩٠ دقيقة على ارتفاع ٢٠٠ كيلومتر و ١٢٠ دقيقة على ارتفاع ١٥٠٠ كيلومتر وحوالي ٢٤ ساعة على ارتفاع ٣٥٩٠٠ كيلومتر . وقد وجد ان هذا المدار الاخير هو الأنسب لبعض الانشطة التطبيقية (تعمل منه حاليا مثلا اقمار الاتصالات) ذلك لأن زمن دوران القمر الصناعي دورة واحدة هو نفس زمن دوران الارض حول محورها مما يجعله معلقا طوال الوقت فوق نقطة واحدة من نقطها . واذا تصورنا محطة فضاء تعمل من مدار على هذا البعد يميل ٥ر٢٣ درجة على مستوى دائرة البروج فان المحطة ستواجه اشعة الشمس ما يزيد عن ٩٩٪ من الوقت ، ولن تواجه ظل الارض بدلا من اشعة الشمس الا في بعض ايام التعادلين الربيعي والخريفي ، وبحد اقصى ٧٥ دقيقة يوميا .

وتبين الحسابات ان المتر المربع من الوحدات الكهرضوئية على هذا المدار سيتلقى حوالى ٥ر١ كيلووات من طاقة الشمس بالامكان تحويل عشرها تقريبا الى كهرباء . ولا يوجد في الفضاء الكوني ما يمنع زراعة هذه الوحدات على مساحات تقاس بالكيلومترات ، الأمر الذي يمكن من الحصول على طاقة تقدر بملايين الكيلووات ، وعلى سبيل المثال تستطيع محطة تبلغ مساحة كل من جانبيها ٦٠ كيلومترا مربعا ان تمد الارض بعشرة ملايين كيلووات من الكهرباء .

ويمكن تحويل الطاقة الشمسية الى كهرباء ايضا ، عن طريق استخدام مرايا هائلة لتجميعها وتركيزها في سيل حراري جار يستخدم في تحويل سائل ما ، الى بخار يدير توربينات متصلة بمولدات تحصل منها على الكهرباء ، وفق الطريقة المتبعة في محطات القوى البخارية .

وان كان هذه الطريقة ميزة ، فهي ان الانسان قد اجادها على الأرض . وبالرغم من انها لم تجرب في الفضاء بعد الا ان الحسابات التقريبية تبين امكانية الحصول على عشرة ملايين كيلووات من محطة فضائية واحدة من هذا النوع . هذا وبالامكان الاستغناء عن التوربينات اذا استخدمنا المولدات المغنهيدرو ديناميةذ (Magnetohydrodynamics)التي تحول الطاقة الحرارية الى طاقة كهربية بصورة مباشرة ، دون اجزاء دوارة .

نقل الكهرباء :

واذا افترضنا انه امكن توليد كمية كبيرة من الطاقة في مثل هذه المحطات بأية من الطريقتين وجب التفكير في كيفية استخدامها ونقلها الى الأرض .

وبالرغم من ان بعض العلماء يطرحون استخدام الطاقة المولدة من مثل هذه المحطات في مصانع تقام في الفضاء ايضا ، ومن ان الخبراء الامريكيين يدرسون بالفعل صنع طائرات تحصل محركاتها على الطاقة من مثل هذه المحطات بمساعدة اشعة الليزر التي تسلطها شبكة من الاقمار الصناعية الناقلة على الطائرات المتحركة حيث يجري تحويل طاقة الليزر الى طاقة حرارية في المحرك ، فان نقل هذه الكهرباء الى الأرض في المرحلة المعنية هو الأفق الاقرب والأعم .

ومن المعروف انه يمكن نقل القدرات الكهربية الكبيرة الى مسافات بعيدة بواسطة اشعة الليزر او الأشعة الميكروموجية (Micro Wave) لكن الاتجاه السائد يعطي الافضلية للطريقة الثانية . ويمكن ان تتكفل الجسور الميكروموجية بتوصيل الكهرباء من مثل هذه المحطات الفضائية الى الأرض مباشرة ، حيث تستقبلها على الأرض هوائيات يناهز قطرها بضعة كيلومترات ، لتحولها الى تيار كهربي عادي . ويمكن ان

تجري هذه العملية بيسر لأن البرودة الكونية لا يمكنها لا هي ولا السحب الكثيفة اعاقة هذه العملية .

ولا علاقة للخيال كما نوهنا من قبل بكل ما ذكرنا اذ توجد دراسات علمية جدية في هذا المجال تقف على ارض الحسابات والتجارب العملية وتعتمد على ما تم انجازه فعلا في مجال صنع الاجهزة الفضائية . ويتضح مدى ضخامة مثل هذه المشروعات اذا عرفنا ان « وزن » معدات محطة فضائية تولد ١٠ ملايين كيلووات يصل في حالة الوحدات الكهرضوئية الى ٣٥ الف طن ، وفي حالة المولدات التوربينية الى اكثر من ١٠٠ الف طن .

ويرى البعض ان الاصلح هو تجميع مثل هذه المحطة على مدار قريب من الأرض باستخدام سفن شحن اوتوماتيكية تقوم بتركيب الاجزاء النمطية المتشابهة مثل هياكل الوحدات الكهرضوئية او وحدات تركيز اشعة الشمس ، على ان يقوم مهندسون كونيون بتجميع واختبار الوحدات الاكثر تعقيدا . هذا على ان تبحر المحطة التي تم تجميعها على المدار القريب الى المدار الثابت لها بعد التركيب باستخدام مئات المحركات الموزعة على سطحها .

ومن الجدير بالذكر ان مهمة هذه المحركات لن تنتهي بعد الوصول الى المدار الثابت ، اذ ان المحطة ستحتاجها لتوجيه الوحدات الكهرضوئية بحيث تواجه الشمس باستمرار ، ولتصحيح الانحرافات التي تطرأ على مدار المحطة بتأثير « الرياح الشمسية » وبتأثير ردود الفعل الناتجة من بواعث الاشعة الميكروموجية خلال نقل الطاقة الى الارض ، وكذلك لضمان توجيه مرسلات المحطة بدقة نحو هوائيات الاستقبال على الأرض .

مخاطر العملية

وفيما يتعلق بمحطات الفضاء الكهرشمسية توجد قضايا اقتصادية واجتماعية وقانونية وايكولوجية لا تقل اهميتها عن الجوانب العلمية والتقنية . وان كان واجب البشرية ان تتعلم من اخطائها السابقة فان ذلك ينطبق اول ما ينطبق وبصورة خاصة على هذه المشروعات اذ انها لا تمس مناطق متباعدة معزولة او عوامل طبيعية متفرقة وانما تلقى بظلها على الكرة الارضية كلها وعلى ايكولوجيتها عامة . ويفرض ذلك كله تقصي المخاطر التي يمكن ان تسببها مثل هذه المشروعات والبحث عن سبل توقيها .

في المقام الأول ستؤثر الحزم الجبارة للاشعة الميكروموجية على القطاعات التي تخترقها من الجو وعلى طبقة الايونوسفير خاصة . وسوف تمتص هذه الأشعة ، وفي مناطقها الكثيفة بالذات جزئيات بخار الماء والاكسجين الأمر الذي يمكن ان يؤدي الى ارتفاع موضعي في درجة حرارة الجو . كما ان حزم هذه الأشعة ستتشتت عند اصطدامها بالامطار والثلوج فتتطاول على المناطق المجاورة لمساراتها . وبالرغم من ان حيز هذا التشتت لن يكون كبيرا وفق الاعتقاد السائد ، فان الامر يحتاج الى التأكد من ذلك تطبيقيا ، ناهيك عن اجراء دراسة تفصيلية لابعاد الخلل الذي ستتعرض له حرارة الجو .

لكن الخطر الاساسي يكمن على ما يبدو في التأثير المتبادل بين حزم الأشعة الميكروموجية وجزئيات الايونوسفير المشحونة ، وربما تغير توزيع هذه الجزئيات وتركيزها وسرعة حركتها مما يؤثر بالحتم على توزيع الحزم نفسها وعلى الاتصالات اللاسلكية واذا اخذنا بعين الاعتبار مدى تأثير العواصف المغناطيسية الناتجة عن دورات النشاط الشمسي على الارض* حاليا وجب علينا دراسة ما يمكن ان يحدث اذا اضفنا اليه تأثير الاضطرابات الاشعاعية الناتجة عن المحطة الكهرشمسية لا سيما وان الارض ستحاط بكثير منها مما سيكون مصدرا لاضطرابات اشعاعية مستمرة وعلى نطاق واسع .

اما بصدد الملاحة الجوية فيجب حماية الطائرات وركابها من التأثيرات الضارة للاشعة ، ومراعاة حصر الطيران عبر الحزم الاشعاعية في أضيق نطاق . وجدير بالذكر ان تعرض الطائرات لهذه الحزم بضع ثوان يمكن ان يؤثر على الحاسبات واجهزة الملاحة الالكترونية الامر الذي ينطوي على مخاطر بالغة . وربما كمن حل هذه المشكلة في « تغليف » هذه الأشعة او احاطتها بما يحذر

* من حيث الاصابة بالامراض ... والى الهزات الارضية القوية ، وتستغرق كل دورة من هذه الدورات ١١ سنة تقريبا ، وكانت ذروة آخرها في العامين الماضيين .

الطائرات من المناطق الخطرة ويعينها على الابتعاد عنها .

اراضي الهوائيات :

وتحتاج مسألة اماكن هوائيات التقاط الأشعة الى دراسة متأنية ايضا ، حيث لا يمكن وضع حدود صارمة لقطاعات الاشعة الميكروموجية فالاشعاع في المناطق المحيطة بالهوائيات سيشكل خطرا شديدا على الانسان بالرغم من أن كثافته ستكون اقل كثيرا منها عند مركز الهوائي . وبوجه عام تحتاج دراسة تأثير هذه الأشعة على الانسان ، وجهازه العصبي خاصة ، الى مزيد حتى يمكن تحديد النسب المسموح بوجودها من هذه الأشعة على نحو دقيق .

ويتخوف البعض من تحول منطقة الهوائي الذي ستناهز مساحته ٣٠٠ كيلومتر مربع الى اراض مقفرة ، وللانسان تجربة مريرة في هذا الصدد (مرتبطة باعمال قطع الاخشاب والمناجم ومفارغ المصانع ... الخ) . لكن يبدو انه من الممكن تجنب ذلك عن طريق رفع شبكة الهوائي قليلا عن سطح الارض حتى يمكن ممارسة الاعمال الزراعية تحتهـا . ذلك لان الشبكة تمتص الاشعاعات الميكروموجية بالكامل بينما تنفذ ٨٠٪ من اشعة الشمس . وبالامكان التغلب على التخوفات بصدد المناطق المحيطة بالهوائي عن طريق مد شبكته فوقها هي الأخرى عند الضرورة وربما كان من المنطقي اقامة صناعات من تلك التي تحتاج الى كمية كبيرة من الكهرباء ، والمؤتمتة الى اقصى درجة ، في هذه المناطق . وفي اسوأ الاحوال يمكن تشييد هوائيات الاستقبال في عرض البحر أو على الجزر غير المأهولة .

والتلوث الحراري الناتج عن مجموعات الاستقبال غير ذي بال هو الآخر ، فلن تتجاوز كمية الحرارة التي تلقى في الجو في اسوأ الاحوال نصف ما تلقيه المحطات الكهرحرارية العادية . ولا بأس من الاشارة هنا الى ان المحطات الفضائية ، حين تشكل نسبة معقولة من مصادر الطاقة التي يستخدمها الانسان ، يمكن ان تكون حلا لمشاكل تعاني منها البيئة حاليا من قبيل تجنب الكميات الكبيرة من غازات الكربون والكبريت وغيرها من النفايات الضارة التي تسمم المحطات الكهرحرارية البيئة بها .

هـذا كما يتطلب بناء المحطات الفضائية الكهرشمسية اسطولا كونيا جبارا . ومحركات الصواريخ العاملة بالوقود الكيميائي تلفظ في الجو بخار الماء واكاسيد الازوت . وسيؤدي تجمع هذه النواتج في مناطق خطوط النقل الفضائية الى تغيير تركيب الستراتوسفير (تقليل تركيز الاوزون خاصة)* وبالتالي خصائصه . وهذه مسألة تحتاج الى دراسة جدية ايضا .

ولا يمكن بالطبع في مثل هذا المجال حصر كل المشاكل الايكولوجية المرتبطة باقامة محطات فضاء كهرشمسية لكن من المسلم به ان الشروع في بناء مثل هذه المحطات يحتاج الى دراسة علمية مسهبة لكل العوامل الايجابية والسلبية المحيطة بها واختيار الحلول الافضل من وجهة النظر الايكولوجية بالرغم من احتمال كونها اكثر تكلفة . وربما كان الاشراف او التعاون الدولي ، في اطار هيئات الامم المتحدة المتخصصة مثلا ، امرا لازما فنحن نعيش فوق كوكب صغير قد لا تحتمل الحياة عليه معاملتها باستهتار على مثل هذا النطاق .

مهندس محمد فتحي عبد الفتاح

---

* من العوامل التي تؤثر على طقس الكوكب بصورة عامة ويمكن أن يؤدي الاخلال بها الى كوارث مصيرية بالنسبة للبشرية جمعاء .

رد مفحم

■ التقت فتاة بأحد خطابها السابقين في حفلة فقررت أن تتجاهله ، فلما قدمته اليها مضيفتها قالت : « آسفة فلم أكد التقط اسمك » فرد عليها : « أعلم ذلك ولكنك حقا بذلت غاية الجهد » .



قمة المأساة في حياة

بدر شاكر السياب وشعره

بقلم : الدكتور عيسى الناعوري

في رسالة كتبها بدر شاكر السياب من (المعقل) ، في البصرة ، بتاريخ ١٢/١٠/١٩٦٣ الى صديقه الدكتور سيمون جارجي ، من المنظمة العالمية لحرية الثقافة ، في باريس ، يقول السياب : « انتاجي الشعري هذه الأيام قليل جدا ، وذلك لانعدام أية تجربة شعرية جديدة » . ثم يضيف قائلا : « سئمت الضرب على وتر » أنا مريض « ، في ما أكتبه من شعر »[1] وهذه الجملة الأخيرة تجعلنا نتساءل تساؤلا غريبا ، ولا سيما اذا رجعنا الى تاريخ ٥/١/٦٣ ـ أى قبل الرسالة بشهور ـ حين كتب السياب قصيدته « هَرِم المغنى » ، التى ظهرت بعدئذ في ديوانه (منزل الأقنان) ، والتي تعتبر ارهاصة بما قاله بعدئذ في الرسالة المذكورة .

في هذه القصيدة يقول السياب :

بالأمس كنت اذا كتبت قصيدة فرح الدم فأغمغم
وأهيم ما بين الجداول والأزاهر والنخيل
أشدو بها ، أترنم :
زاد لروحي منذ سقسقة الصباح الى الأصيل .
زاد ... ولكن عنه قد صدفت ، تجوع ولا تريد
ما ينعش الآمال فيها .
هي حشرجات الروح أكتبها قصائد ، لا أفيد
منها سوى الهزء المرير على ملامح قارئيها .

---

(١) انظر (بدر شاكر السياب ، الرجل والشاعر) من منشورات (أضواء) ، في باريس ، ص ١٣٨

في البيتين الأخيرين نلمس شعور السياب بأنه قد أكثر من القصائد التى هي « حشرجات الروح » ... والتي بدأ يحس بأن القراء بدءوا يضيقون بها . فيمضي بعد ذلك ليقول :

هَرِم المغنى : هدّ منه الداء فارتبك الغناء
بالأمس كان اذا ترنم يمسك الليل الطروب
بنجومه المترنحات ، فلا تخر على الدروب .

هكذا كان احساسه يزهو شعره من قبل ، وأما اليوم ...

واليوم يهتف ألف آه ، لا يهزّ مع المساء
سعف النخيل ، ولا يرجّع زورق العرس المحلّ
بعيون آرام وفل
ورابك ارتعدت حناجرها فأرعدت الهواء .

بهذا الشعور الداخل يتألم الشاعر ، فوق ألمه بأوجاعه الجسدية الممضة ، فيفيض ألمه شعرا يستدر به عطف القراء ، ويتوسل اليهم أن يسعدوه بالاصغاء الى غنائه ...

هَرِم المغنى فاسمعوه ، برغم ذلك ، تسعدوه
هو مائت ، أفتبخلون
عليه حتى بالحطام من الأزاهر والغصون ؟
أصغوا اليه لتسمعوه
يرثي الشباب ولا كلام سوى تشنج ...
هَرِم المغني فارحموه !!!

من المشجع والدافع ؟

ان قمة مأساة الشاعر أن يحس بأنه لم يعد يجد من يقرأ شعره . ولم يكن السياب كذلك في الواقع ، غير أن كثرة القصائد الطافحة بالألم والشكوى والتذمر التي كتبها في أعوام المرض الأربعة الأخيرة من عمره ، جعلته يشعر بأن القراء قد ملوا شعر الألم ، وأصبحوا يحسبونه شعرا مشلولا مثل صاحبه . وتلك مرارة تزيد من ألم الشلل في أعماق نفس الشاعر .

ولكن الذى يقرأ القصيدة ، ثم يقرأ ما جاء بعدئذ في رسالة السياب الى الدكتور جارجي ، يحس بأن هنالك من كان يدفع السياب دفعا . بالتشجيع والاغراء ، الى الاكثار من قصائد الشكوى والألم ، والى الاكثار من تكرار عبارات (المرض) ، وصور (المرض) في شعره . ولهذا لم يلبث أن مل هذا التكرار ، وصار يشعر باعراض القراء عن قصائده الملأى بصور الشلل والمرض .

وفي يقيني أن هذه القصائد الطافحة بالشكوى والألم ، لو كانت نابعة من صميم الشاعر وحده ، دون دفع من الخارج وتحريض لما أحس الشاعر بشيء من هذا الذى يتألم منه في قصيدته (هَرِم المغنى) ، وفي رسالته الى جارجي .

أيكون سيمون جارجي نفسه هو المشجع والدافع ؟ وهل كان حقا انسان من الخارج يدفع السياب بالاغراء والتحريض على ذلك ، فوصل الأمر عند السياب الى رد الفعل هذا ؟

ليس لدى الدليل على ذلك . ولكن ، سواء أكان ذلك حقا أم لا ، فان قصائد الألم التي كتبها السياب في أعوام مرضه الاربعة الاخيرة ، هي القصائد التي حددت مكانة السياب شاعرا فريدا على قمة الشعر الحر الحديث ، وليس ما كتبه قبلها .

وأمضى من هنا لأصل الى القصيدة التى ختم بها السياب حياته ، وختم بها شعره .

آخر قصيدة كتبها السياب كانت بعنوان (عكاز في الجحيم) ، وقد كتبها في المستشفي الأميرى في الكويت بتاريخ ١٩٦٤/١١/٢٢ ، قبل وفاته بشهر واحد ، فقد توفي في المستشفى عينه بتاريخ ١٩٦٤/١٢/٢٤ .

ولكن قد كتب في المستشفي نفسه قبل هذه قصيدة أخرى ، بتاريخ ١٩٦٤/٨/١٤ ، كان عنوانها (المعول الحجرى) ، يقول فيها :

رنين المعول الحجرى يزحف نحو أطرافي
سأعجز بعد حين عن كتابة بيت شعر في خيالي جال
... وأسفح نفسى الشكل على الورق
ليقرأها شقيٌ بعد أعوام
ليعلم أن أشقي منه عاش بهذه الدنيا .

هذه القصيدة والقصيدة التى بعدها بعنوان (عكاز في الجحيم) ، تكتبان قمة مأساة بدر السياب في مرضه وشلله ، وفي مستشفياته الكثيرة التي لم تمنحه حتى أمل الشفاء ، ولكنها ختمت حياته بالموت في الكويت .

يقول السياب في آخر قصائدة ، مصورا شلله الطويل :

وبقيت أدور
حول الطاحونه من ألمي
ثورا معصوبا ، كالصخرة ، هيهات تثور
والناس تسير الى القمم

لكنّي أعجز عن سير ـ ويلاه ـ على قدمي
وسريري سجني ، تابوتي ، منفاي الى الألم
والى العدم !!

الرحلة الى القبر

من مستشفيات بيروت ـ حيث بدأت مأساة الشلل في حياة السياب ـ الى لندن ، الى باريس ، الى العراق ، الى المستشفى الأميري في الكويت ، سلسلة من الآلام طويلة ، من عام ١٩٦١ الى آخر عام ١٩٦٤ ، والشاعر المريض يعاني مرارة الألم ، ومعها مرارة الفقر الذي يجعله يفكر في أسرته المحتاجة الى العون : في زوجته اقبال ، وولده غيلان ، وابنتيه آلاء وغيداء الذين يعانون الجوع ، فيتضاعف ألمه ، ويتضاعف شلله .

قصة يقطر الألم من كل حرف فيها ، ومعها تتمزق نفس الشاعر حسرة ، مثلما يتمزق جسده تحت مباضع الجراحين . في البداية كان الأمل ، ثم ضاع الأمل ...

وأقول سيأتيني يوم من بعد شهور
أو بعد سنين من السقم
أو بعد دهور ،
فأسير ... أسير على قدمي
عكّاز في يدي اليمنى
عكّاز ؟ بل عكّازان
تحت الابطين يعينان
جسما من أوجاع يفنى
طللا يغشاه مسير دم
وأسير .. وأسير على قدمي ؟ !
لو كان الدرب الى القبر .

ولكن الأمل انتهى بعد أن طال الأمد ولا شفاء ، ولا حلم بشفاء :

الظلمة والدود القرّاس بألم فم
يمتدّ أمامي في أقصى أركان الدنيا . في بحر
أو واد أظلم ، أو جبل عال
لسعيت إليه على رأسي أو هدبي أو ظهري
وشققت الى ستر دربي ، ودحوت الأبواب السودا
وصرخت بوجه موكّلها :
لِمَ تترك بابك مسدودا ؟
ولتدع شياطين النار
تقتصّ من الجسد الهاري
تقتص من الجرح العاري
ولتأت صقورك تفترس العين وتنهش القلبا

لقد انتهى كل شيء في حياة الشاعر ، ولم يعد له غير أن يعد الأيام القليلة الباقية بينه وبين القبر . حتى الشعر لن يقول منه بيتا بعد الآن ، ولن يشمت به أحد ...

فهنا لا يشمت بي جاري
أو تهتف عاهرة مرت في نصف الليل على داري :
« بيت المشلول هنا . أمسى لا يملك أكلا أو شربا
وسيرمون غدا بنتيه وزوجته دربا
وفتاه الطفل اذا لم يدفع متراكم ايجار » ...

آخر أفكاره ـ وهو على عتبات الاحتضار ـ تذهب الى أسرته التي تركها للفاقة والجوع والقلق على المصير ، ولشماتة الشامتين . فيا لعذاب روحه ! وها هو ذا يصرخ صرخته الأخيرة في وجه الموت :

انثرني ويك أباديدا
وافتح بابك لا تتركه أمام شقائي مسدودا
ولتطعم جسمي للنار ....

وفي ١٩٦٤/١٢/٢٤ جاء الموت ينثر جسمه أباديد ، كما أراد ، ولكن ليكتب اسمه بعد ذلك بين أعظم شعراء الألم . ■■

عمان ـ د . عيسى الناعوري

من والد الى ولده

■ قال الوالد لولده : يا بني كن كريما أديبا في معاملة جميع الناس ، حتى الذين يسيئون الأدب اليك ، اذ عليك أن تذكر أنك لا تتوخى كرم النفس مع الغير ، لأنهم سادة كرام ، بل لأنك أنت سيد كريم . »

فرسان دولة البرين والبحرين



المماليك
"داوية" الإسلام

بقلم الدكتور . سعيد عبد الفتاح عاشور

شهد عصر الحروب الصليبية ظهور عدة منظمات في المعسكر المسيحي ، جمع افرادها بين حياة الرهبانية والنسك من ناحية ، وبين حياة الحرب والتصدي لمن اعتبروهم خصوم المسيحية من ناحية اخرى . ولهذا يطلق عادة على افراد هذه المنظمات اسم « الرهبان الفرسان » لأن حياتهم كانت قسمة بين التعبد والفروسية . ويميل بعض المؤرخين الى تشبيههم بالمرابطين في الاسلام ، وهم الذين جمعوا بين حياة العبادة والزهد من ناحية والجهاد في سبيل الله من ناحية اخرى ، متمسكين بقوله تعالى « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ».

واشتهرت من هذه المنظمات المسيحية في عصر الحروب الصليبية منظمتان ، الاولى منظمة فرسان المستشفى Hospitallers ، الذين اقاموا لهم على ارض الشام مستشفى ثم عدة مستشفيات واحترفوا العناية بجرحى الصليبيين ، الى جانب التعبد ومحاربة المسلمين . وقد حرف العرب المعاصرون الاسم ، فاطلقوا عليهم « الاسبتارية » . اما المنظمة الثانية فهم فرسان المعبد Templars او الهيكل لانهم اتخذوا هيكل سليمان مقرا لهم يتعبدون فيه ويوجهون منه تحركاتهم في محاربة المسلمين . وقد اطلق العرب المعاصرون على هذه الجماعة اسم « الداوية » .

وفي جميع الحالات لمس المسلمون صلابة هؤلاء الرهبان الفرسان في الحرب ، وشجاعتهم في القتال ، وحماستهم في الدفاع عن عقيدتهم حتى غدوا مضرب المثل في الاقدام والجرأة والثبات على المبدأ والايمان بالعقيدة . ويعنينا من هذا كله ان مؤرخا مسلما معاصرا شهيرا ـ هو ابن واصل ـ اراد ان يمتدح المماليك ، وحرصهم على الجهاد ، وشجاعتهم في الدفاع عن الاسلام واهله وارضه ، فوصفهم بانهم « داوية الاسلام » اي فرسانه وطلائعه وحماته ، تشبيها لهم بفرقة الداوية عند المسيحيين .

امام التتار والصليبيين

وقد اوضحنا في كلمة سابقة اصل المماليك ونشأتهم وظهورهم على مسرح الاحداث الى ان اقاموا دولة حملت اسمهم ، وحكمت مصر والشام منذ منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، ومدت نفوذها على كثير من البلاد والاقاليم المجاورة في شبه الجزيرة العربية وآسيا الصغرى وبرقة والنوبة ، فضلا عن مياه الجزء الشرقي من البحر المتوسط ، حتى اطلق المعاصرون على دولة سلاطين المماليك لقب دولة البرين والبحرين ، اشارة الى انها ملكت بر مصر وبر الشام ، وتحكمت في مياه بحر الروم ـ او البحر المتوسط ـ وبحر القلزم او البحر الاحمر .

على اننا نلاحظ في دراستنا لتاريخ دولة سلاطين المماليك ان هذه الدولة ولدت في ظروف صعبة قاسية ، اذ كان عليها لحظة مولدها ان تواجه مشكلتين كبيرتين هما في حقيقة الامر اكبر خطرين هددا الوطن العربي الاسلامي في الشرق الادنى عندئذ ، اعني خطر التتار وخطر الصليبيين .

ومع ان التشابه بين الخطرين التتري والصليبي يبدو واضحا في بعض الجوانب ، الا ان اوجه الاختلاف في جوانب اخرى لا تقل وضوحا . فنحن نرى ان الخطرين التتري والصليبي متفقان في ان لهما عدوا واحدا مشتركا كبيرا يتمثل في الاسلام والمسلمين . ومنذ وقت مبكر نظر العالم المسيحي بزعامة البابوية في الغرب نظرة امل ورجاء الى التتار وحركتهم التوسعية على حساب ارض المسلمين . وزاد من هذا الامل وذلك الرجاء ان الغالبية العظمى من التتار ـ عندما شرعوا في دهم بلاد الاسلام ـ كانوا وثنيين بوذيين ، مما جعلهم يبدون في نظر الكنيسة الغربية في صورة المادة الخام التي يسهل تشكيلها في قالب مسيحي ، لأن اية عقيدة وثنية لا تستطيع ان تثبت امام ديانة سماوية لها منطقها واساليب الدعوة اليها والتبشير بها .

وظل هذا الحلم الكبير يداعب اجفان البابوية ودعاة الحركة الصليبية منذ القرن الثالث عشر ، لأن تحويل كتلة تتار فارس والعراق بالذات الى المسيحية معناه حصر قلب العالم الاسلامي بين فكي الكماشة ، التتار من الشرق والصليبيون من الغرب ، وعندئذ يمكن سحق الاسلام والمسلمين نهائيا .

وقد بدأت الاتصالات بين التتار والبابوية قبيل منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، عندما سمعت البابوية بتحرك التتار ضد الجناح الاسلامي في المشرق ، فارسل البابا انوسنت الرابع مبعوثا من الفرانسسكان اسمه حنا دي بلانو كاربنيس سنة ١٢٤٥ الى خاقان التتار الاعظم في قراقورم بجوف آسيا ، يدعوه للدخول في المسيحية والقيام بعمل مشترك لسحق الاسلام . ولكن التتار اصروا دائما على دخول البابوية وكافة ملوك وامراء الغرب المسيحي تحت سيادتهم كشرط لاتمام تلك الخطوة .

في مواجهة التطويق

واستمرت الاتصالات جارية بين التتار من ناحية والقوى المسيحية من جهة اخرى . من ذلك ان لويس التاسع ما كاد يصل على رأس حملته الى جزيرة قبرص وهو في طريقه الى مصر حتى وفدت عليه في نيقوسيا سفارة تألفت من اثنين من نساطرة الموصل ، قالا انهما موفدان من قبل نائب الخاقان في فارس لعقد تحالف عسكري بين الصليبيين والتتار يستهدف القضاء على الخلافة العباسية في بغداد والقوى الاسلامية في الشام

ومصر . وقد رد الملك لويس التاسع بارسال سفارة من ثلاثة اعضاء من الرهبان الدومينكان ، اتجهت سنة ١٢٤٩ من قبرص الى جنطاي خان في اذربيجان .

والواقع ان القوى المسيحية والصليبية في الشرق الادنى وجدت في تحركات التتار ضد العالم الاسلامي فرصتها الذهبية . ونخص من هذه القوى مملكة ارمينية الصغرى المسيحية ، وهي احدى القوى التي افرزتها الحركة الصليبية في اقليم قيليقية في الركن الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى . وقد ذهب هيثوم ملك ارمينية الصغرى الى منكو ـ خاقان التتار في قراقورم ـ سنة ١٢٥٤ ليقدم له فروض الولاء والخضوع . وفي المحادثات التي دارت بين الطرفين اظهر الخاقان عطفه الشديد على المسيحية والمسيحيين ، واعلن وضع الكنيسة ورجالها في جميع البلاد التي يفتحها التتار تحت رعايته . واهم من هذا كله ان منكو خان اعلن في تلك المناسبة انه كلف اخاه هولاكو بالاستيلاء على العراق وتحطيم الخلافة العباسية « العدو اللدود » ، ثم اجتياح الشام واستعادة الاراضي المقدسة للمسيحيين .

والحق ان الترابط بين الخطرين الصليبي والتتري على الاسلام كان واضحا . فالتتار وفدوا من اقصى الشرق ، والصليبيون وفدوا من اقصى الغرب وجميعهم استهدفوا ضرب الاسلام كعقيدة واحتلال ارضه والنيل من اهله ، الامر الذي جعل المسلمين في القرن الثالث عشر يحسون بمرارة قاسية عندما رأوا انفسهم بين شقي رحى ضخمة تعمل لسحقهم والقضاء على كيانهم .

وقد عبر عن هذه الاحاسيس المؤرخ المعاصر ابن الاثير فارسل زفرة حزينة خطها قلمه ، جاء فيها :

« لم ينل المسلمون اذى وشدة منذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا الوقت مثل ما دفعوا اليه الآن . هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ماوراء النهر وملكوها وخربوها . والعدو الاخر الفرنج قد ظهر في بلادهم في اقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا الى مصر ، فملكوا دمياط واقاموا فيها .. فانا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ..».

وقبل ان تمر عشر سنوات على قيام دولة المماليك في مصر ، كان التتار قد اجتاحوا العراق واسقطوا الخلافة العباسية في بغداد ، ثم اندفعوا الى الشام فاقتحموا حلب ودام القتل والنهب فيها ستة ايام ، وبعدها سقطت دمشق « وجرى على اهلها شدة عظيمة ».

فرسان الاسلام

وبوصول التتار الى جنوب بلاد الشام بدأ الاستعداد لغزو مصر حيث كان المماليك قد اقاموا دولة في العاشرة من عمرها . واذا كان ملوك البيت الايوبي في بلاد الشام قد انهاروا امام الغزو التتري ، فاستسلم بعضهم وفر البعض الاخر فان المماليك في مصر اثبتوا انهم فرسان الاسلام المستميتون في الدفاع عن اهله وارضه . وقد حدث عندما تخاذل امراء الشام عن مدافعة التتار ، وقام احدهم ينادي بالاستسلام لهولاكو ويشيع بانه لا فائدة من المقاومة ان قام الامير ركن الدين بيبرس البندقداري ـ احد امراء المماليك ـ وصفع ذلك المتخاذل وصاح فيه « انتم سبب هلاك المسلمين »!!

والمعروف عن التتار انهم عرفوا سلاح الحرب النفسية ، فارسل هولاكو الى قطز ـ سلطان المماليك في مصر ـ يطلب منه الاستسلام ويذكره بان قوة واحدة لم تستطع ان تقف في وجه قوة التتار « وقد سمعتم اننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الارض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب . فاي ارض تأويكم واي طريق تنجيكم واي بلاد تحميكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص .. ».

ولكن السلطان المظفر قطز لم يهتز امام ذلك التهديد ، فقتل رسل التتار وعلق رؤوسهم على باب زويله ، ودعا الى الجهاد . ولما وجد ان بعض الامراء مترددون في الخروج لحرب التتار ، صاح فيهم « يا امراء المسلمين !! لكم زمان تأكلون اموال بيت المال وانتم للغزاة كارهون ؟ انا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته ، فان الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين !! ».

وفي موقعة عين جالوت ـ قرب بيسان على ارض فلسطين ـ دارت الموقعة الفاصلة بين المماليك والتتار سنة ١٢٦٠م . وقد تفوق التتار في اول الامر ، ولكن قطز ثبت في القتال ، واستثار روح الاسلام في قلوب رجاله ، فالقى خوذته عن رأسه على الارض وصاح « واسلاماه !! » . ولأول مرة منذ حركتهم التوسعية تحل بالتتار هزيمة شاملة كبرى ، فقتل منهم من قتل ، واسر منهم من اسر ومن نجا « ولوا الادبار لا يلوون على شيء » على قول المؤرخ ابن تغري بردى .

واستمر المماليك يطاردون التتار حتى اجلوهم تماما عن بلاد الشام ، الامر الذي ترتب عليه بسط سيادة

المماليك على الشام وعودة وحدة مصر والشام تحت زعامة سلاطين المماليك بالقاهرة ولكن تتار فارس ـ الذين اقاموا دولة قامت في فارس والعراق لبضعة قرون ـ لم يقتنعوا بالهزيمة التي حلت بهم في عين جالوت ، واستمروا بين فينة واخرى يخرجون الى بلاد الشام ليعتدوا على بلاد المسلمين مثل حلب وحمص وربما وصلوا الى دمشق . وفي كل مرة كانوا يصادفون ضربة قوية على ايدي المماليك الذين وقفوا لهم بالمرصاد ، وظهروا في صورة القوة القادرة على حماية ارض الاسلام ورد عدوان المعتدين .

وعندما يئس التتار من التغلب على قوة المماليك ، حاولوا مصالحتهم ولكن المماليك لم ينسوا لهم ما انزلوه ببلاد الاسلام من دمار وخراب فضلا عن قتل خليفة المسلمين في بغداد . وهكذا ظلت العلاقة بين سلاطين المماليك في مصر والشام من ناحية وايلخانات التتار في فارس والعراق من ناحية اخرى يغلب عليها طابع العداء ، حتى اخذ الاسلام ينتشر بين التتار بصورة واضحة ، وعندئذ امكن عقد صلح بين الطرفين سنة ١٣٢٠ . وربما ساعد على استقرار الاوضاع بين المماليك والتتار نسبيا منذ اوائل القرن الرابع عشر انحلال دولة التتار تدريجيا ، في الوقت الذي كانت دولة المماليك الاولى او البحرية تتعرض هي الاخرى لكثير من عوامل التفكك في عصر اولاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون واحفاده .

ولم يكن الخطر الوحيد الذي هدد المسلمين في الشرق الادنى في عصر سلاطين المماليك هو خطر التتار ، وانما كان هناك خطر اخر اعمق جذورا واطول عمرا واوسع انتشارا هو الخطر الصليبي . ذلك ان خطر التتار كان من النوع الداهم المفاجيء الذي لا يرتبط الا بالرغبة في التوسع والسلب والنهب ولا يتصف الا بسفك الدماء والتخريب . ومع عنف الخطر التتري ، فانه كان قصير العمر ظهر بعد مرور سبعة قرون تقريبا على مولد الدولة الاسلامية ، وخفت وطأته بعد ظهوره باقل من قرن ، وذلك عندما اخذ التتار يذوبون تدريجيا في محيط البلاد التي استقروا فيها ، ويتأثرون بالعقائد التي سادت فيها .

نمط مختلف من العداء

اما الخطر الصليبي على المسلمين فيرتبط باصول قديمة ، ترجع الى فجر الاسلام والى ايام حركة التوسع الاسلامي في القرن السابع للميلاد ، اذ لم ترض الكنيسة عن ضياع بلاد مثل الشام ومصر وشمال افريقية والاندلس بعضها يمثل المسرح الاول للمسيحية ، وكلها كانت فيها كنائس راسخة ، فاذا بالاسلام يغلب عليها تدريجيا ويتحول معظم اهلها الى قواعد راسخة في بناء الدولة الاسلامية . وبعبارة اخرى فان العداء بين الصليبيين والمسلمين كان يمثل خلافا عقائديا اما العداء بين التتار والمسلمين فلم يكن في جوهره عقائديا بقدر ما كان توسعيا استغلاليا رغم جهود القوى المسيحية في شد التتار الى دائرة المسيحية واستثارتهم ضد الاسلام واهله وتحويل هجماتهم على بلاد الاسلام الى هجمات صليبية .

ثم ان الحرب الصليبية التي شنها العالم المسيحي الغربي ضد الاسلام والمسلمين كانت أوسع نطاقا . لقد كان شعار الكنيسة الغربية : اضربوا المسلمين حيث تعثرون عليهم : في الاندلس ، في صقلية وجزر البحر المتوسط ، في شمال افريقية ، في الشام ومصر ، في اقليم الجزيرة واسيا الصغرى .. بل لقد خرج الصليبيون في البحر الاحمر لضرب مقدسات المسلمين في الحجاز ، واتصلوا بالحبشة بوصفها القوة المسيحية الكبرى في وسط افريقية لتطويق العالم الاسلامي من الجنوب والشمال .

وترجع اهمية الخطر الصليبي الى ان المركز الرئيسي لهذا الخطر كان قريبا من قلب الاسلام . فمن الغرب الاوروبي استمر خروج جموع الصليبيين في شكل حملات ليجدوا المسلمين على مقربة منهم . وعندما استقر الصليبيون في بلاد الشام واقاموا لهم عدة امارات وسط المحيط الاسلامي في الشرق الادنى ، كانت هذه الامارات على اتصال مستمر بالعالم المسيحي الغربي الذي حرص على ان يغذيها بالرجال وبالنساء وبالسلاح وبالمال ، مما مكن الدخلاء من الاحتفاظ باصولهم وساعدهم على عدم الذوبان في البيئة الجديدة ، وجعل منهم ركيزة لمزيد من الحملات الصليبية التي استمرت طوال قرنين تخرج من المغرب الاوروبي الى الشرق الاسلامي .

واذا كان المماليك قد وجهوا ضربتهم الاولى الكبرى على ارض الشام للتتار ، فليس معنى ذلك انهم اغفلوا خطر الصليبيين . لقد كانت المعركة ضد الصليبيين هي المحك الاول التي اظهر فيها المماليك قدرتهم العسكرية وشجاعتهم في الدفاع عن الاسلام على ارض المنصورة في دلتا النيل . ولم تغب عن المماليك حقيقة موقف الصليبيين ولكن المماليك كانوا ابعد نظرا فقرروا الا يدخلوا المعركة ضد العدوين في وقت واحد . واذا كانوا قد بدأوا بالخطر التتري فلأنه كان اكثر الحاحا واشد فتكا

واوقع اثرا . وفي الوقت الذي ولدت دولة المماليك كان الكيان الصليبي في بلاد الشام قد اعتراه الضعف والانحلال بعد ان مضى عليه اكثر من قرن ونصف قرن من الزمان . الف منها المسلمون الوجود الصليبي بينهم ، وتقلبت العلاقة طوالها بين الطرفين ، فاتجهت نحو الحرب حينا والصلح والمهادنة احيانا . لذلك لم يكن هناك ثمة ضرر ناشيء عن امهال الصليبيين بعض الوقت ، بل العمل على تحييدهم في المعركة الكبرى التي قرر المماليك دخولها ضد التتار . ويروي المؤرخ المقريزي ان قطز عندما خرج من مصر على رأس جيش المماليك لمنازلة التتار في عين جالوت ، فانه مر بعكا الصليبية وطمأن الصليبيين فيها « واخلع عليهم واستحلفهم ان يكونوا لا له ولا عليه ».

ولكن ما كاد المماليك يحققون نصرهم الكبير على التتار ويطردونهم من بلاد الشام ، حتى جاء دور الصليبيين .

بحثا عن الشرعية

ولا يخفى عنا ان المماليك واجهوا منذ مولد دولتهم مشكلة كبرى هي الرغبة في الحصول على غطاء يكسب حكمهم صبغة شرعية . فالمماليك في نظر معاصريهم اغتصبوا الحكم من اساتذتهم وسادتهم ملوك بني ايوب . والمماليك احسوا دائما بانهم يجرحون لانهم كانوا رقيقا في يوم من الايام وهو امر لم يغفره الرأي العام لهم . وقد جاء في المصادر المعاصرة ان قيام دولة المماليك جاء مصحوبا ببعض حركات العصيان من جانب فئات انفت من الخضوع لاناس « قد مسهم الرق ». واذا كان لملوك بني ايوب الاواخر مجد موروث اعتمدوا عليه في البقاء في الحكم رغم ضعفهم ، فان المماليك افتقروا الى دعامة من هذا النوع . وهكذا لم يبق امام المماليك الا ان يصنعوا لانفسهم مجدا يتفق ونشأتهم العسكرية فيواصلون سياسة الجهاد ويثبتوا للمعاصرين انهم حماة الاسلام واهله وارضه ، وعندئذ يرى فيهم الناس القوة الجديرة بالحكم ، مما يضفي عليهم هالة شرعية .

وكان للصليبيين في بلاد الشام عند قيام دولة سلاطين المماليك ثلاث امارات كبرى ، او بمعنى ادق ثلاثة معاقل في انطاكية وطرابلس وعكا عدا بضعة حصون ومعاقل صغرى ملحقة بها ومنتشرة هنا وهناك . ومهما يقال عن ضعف الصليبيين في بلاد الشام في تلك المرحلة وعن فتور الحماسة الصليبية في الغرب الاوروبي في ذلك الدور فان المعاقل الصليبية في بلاد الشام كانت تمثل خطرا مستوطنا على الاسلام والمسلمين في منطقة الشرق الادنى . وقد ادرك سلاطين المماليك هذه الحقيقة فشنوا حربا شعواء على الكيان الصليبي في بلاد الشام ، ووضعوا نصب اعينهم هدفا كبيرا لم يحيدوا عنه هو ضرورة اقتلاع ذلك الكيان من جذوره وتطهير البلاد تماما من الدخلاء الغاصبين .

وهكذا ما كاد قطز يفرغ من انتصاره الخالد على التتار في عين جالوت ، حتى بدأ خليفته السلطان الظاهر بيبرس المعركة ضد الصليبيين وهي المعركة التي توجها بالاستيلاء على انطاكية سنة ١٢٦٨ . والمعروف ان انطاكية كانت اول امارة اسسها الصليبيون منذ نحو قرنين في بلاد الشام وثاني امارة اسسوها في الشرق بعد الرها ، ولذلك جاء سقوطها ايذانا بتداعي بقايا البناء الصليبي الكبير . ولم يكن باستطاعة فرسان الداوا الاحتفاظ بقلاعهم في اقليم انطاكية فاستسلمت قلعة بغراس وهرب من كان فيها من الداوية وغنم المسلمون غنائم ضخمة حتى « قسمت النقود بالطاسات » على قول المقريزي . اما الاسرى فقد بلغ من كثرتهم انه « لم يبق غلام الا وله غلام ».

واذا كان المماليك قد صرفوا النظر مؤقتا عن الصليبيين في الشام فان ذلك جاء نتيجة لانشغالهم بامر التتار الذين ما فتئوا يعبرون نهر الفرات عند البيرة لتهديد الشام . ولعل هذا هو السر في ان الحرب التي شنها المماليك ضد الصليبيين جاءت متقطعة ولكنها حاسمة . وعندما جاء دور امارة طرابلس الصليبية هاجمها السلطان المنصور قلاوون على رأس جيش من اربعين الف مقاتل سنة ١٢٨٩ واستولى عليها وعلى توابعها من مراكز ومدن مثل بيروت وجبلة .

تطهير بلاد الشام

وبذلك لم يبق للصليبيين من مراكزهم الكبرى في الشام سوى عكا التي اتخذوها مركزا لمملكتهم الصليبية بعد ان استولى صلاح الدين على بيت المقدس منذ قرن تقريبا من الزمان . وكان السلطان المنصور قلاوون قد اعد جيشا للاستيلاء على عكا ولكنه توفي قبل ان يحقق امنيته ، فقام ابنه الاشرف خليل باتمام هذا العمل . وبعد سقوط عكا في قبضة المماليك سنة ١٢٩١ ، لم يصعب عليهم الاستيلاء على اخر البقايا الصليبية في بلاد الشام مثل صور وصيدا وحيفا وانطرطوس وعثليث « وتكاملت بهذه الفتوح جميع البلاد الساحلية للاسلام » على قول ابي الفدا .

لماذا تهمل الجامعات تاريخ الأندلس؟

العربي ـ العدد ٢٧٧ ـ ديسمبر ١٩٨١

وهكذا نجح سلاطين المماليك في تطهير بلاد الشام تماما من الدخلاء الغاصبين . وفي اثناء ذلك لم يغفلوا امر القوى الصليبية في الشرق الادنى التي ما فتئت تمد يد العون للصليبيين بالشام من جهة وتستثير اعداء المسلمين ـ مثل التتار ـ لمهاجمتهم من جهة اخرى . وتخص من هذه القوى مملكة ارمينية الصغرى ومملكة قبرص فارسل السلطان الظاهر بيبرس حملة حطمت الاولى ، كما ارسل اسطولا حاول غزو الثانية .

على ان دور المماليك في الدفاع عن ديار الاسلام ضد الهجمات الصليبية لم يقف عند حد طرد الصليبيين من بلاد الشام . واذا كان بعد المسافة قد حال دون تمكين سلاطين المماليك من تلبية نداء المسلمين بالاندلس عندما استغاثوا بهم ضد الهجمات المسيحية عليهم فان السلطان الظاهر بيبرس ما كاد يسمع بحملة لويس التاسع على تونس سنة ١٢٧٠ حتى اعد حملة للدفاع عن هذا البلد الاسلامي وشرع فعلا في حفر الابار في الصحراء ليعتمد الجند على مياهها في طريقهم من مصر الى تونس . ولكن الاخبار سرعان ما جاءت بموت لويس التاسع في تونس وفشل حملته .

ومن ناحية اخرى فان الحروب الصليبية لم تتوقف بطرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام في اواخر القرن الثالث عشر ، وانما لجأت البابوية ودعاة الحروب الصليبية الى شن حرب بحرية على موانيء المسلمين في شرق حوض البحر المتوسط ، واتخذوا من جزيرتي قبرص ورودس مراكز لهذه العمليات الحربية . ولم يكتف الغرب المسيحي بفرض حصار اقتصادي على شواطيء مصر والشام ليحرم دولة المماليك من المورد الاساسي لثروتها وقوتها وانما قام بطرس لوزجنان ملك قبرص بحملة صليبية كبرى على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ دمر فيها المدينة وانزل باهلها كثيرا من الخسائر .

وهنا اثبت المماليك ان شجاعتهم في البحر لا تقل عن فروسيتهم في البر ، فقام السلطان الاشرف برسباي بثلاث حملات بحرية على قبرص انتهت بالسيطرة على الجزيرة واسر ملكها جانوس سنة ١٤٢٦ ، كما قام السلطان جقمق بثلاث حملات على رودس (١٤٤٠ ـ ١٤٤٤) ادب بها فرسان الاسبتارية في الجزيرة .

وهكذا اثبت المماليك انهم داوية الاسلام ، اي فرسانه وحماة اهله وارضه . ويبقى ان نعرف ان عظمتهم لم تكن في ميدان الحرب والجهاد فحسب ، بل ايضا في رعاية اضخم حركة حضارية عرفها الاسلام في اواخر العصور الوسطى ■■

د . سعيد عاشور

وقع في يدي خلال وجودي بالمغرب ، كتاب من نوع خاص عنوانه « محنة الموريسكوس في اسبانيا » (سنة ١٩٨٠) لمؤلفه الاستاذ محمد قشتيليو ، والموريسكوس هم بقية الامة الاندلسية المغلوبة ، الذين ارغموا على التنصر ثمنا لبقائهم في الوطن القديم ، واطلق الاسبان عليهم هذا الاسم **Los Moriscos** ، اعني « العرب الاصاغر » ، ونفضل نحن ان نسميهم الموريسكيين او « العرب المتنصرين » . ومؤلف هذا الكتاب حسبما يخبرنا في كتابه هو مغربي من مدينة القصر الكبير ومن أصل أندلسي او بعبارة اخرى من اصل موريسكي حسبما يدل على ذلك اسمه . وقد كانت ثغور المغرب الشمالية ، ولاسيما مدينة تطوان ، والمناطق القريبة منها جنوبا وغربا حتى القصر الكبير وغيره ،منزل أعداد كبيرة من المهاجرين الاندلسيين ، قبل سقوط غرناطة النهائي في يد الأسبان في سنة ١٤٩٤ ، او بعده حينما تحولت بقايا الامة الاندلسية ، بعد التنصر المفروض الى طائفة الموريسكيين . وقد تلقى المؤلف في مدريد تربية اسبانية ، ونحن نعرف انه مازال حتى اليوم في مدينة تطوان ، وفي منطقتها ، عدد كبير من الاسر الموريسكية المحترمة ، ومنها الكثير ممن لايزالون يحملون اسماءهم الموريسكية القديمة ، مثل مليقة ومدينة ، ومرثين ، ومراريش (موراليس) والطريس ، وبرمنجو ، ومرشينة وقشتيليو ، وركينة ، ورافون وغيرها .

ويقدم الينا الاستاذ قشتيليو في كتابه عرضا وافيا لحياة الامة الموريسكية ، وما توالى عليها منذ سقوط غرناطة في سنة ١٤٩٢ حتى نفيها النهائي من اسبانيا في سنة ١٦٠٩ من ضروب الاضطهاد والمطاردات والمحن المروعة . ويشرح لنا كذلك موقف المدجنين الاندلسيين في شرقي الاندلس ، وهم الذين سبقوا الموريسكيين في تحديد اوضاعهم مع الملوك النصارى ، عقب سقوط اوطانهم في ايدي الاسبان ، وكانوا لظروفهم واعتماد النبلاء والسادة على جهودهم وأعمالهم في الزراعة والصناعة ، اسعد حظا واقل شقاء من الموريسكيين في منطقة غرناطة . وهو يعتمد قبل كل شيء على المصادر الاسبانية ، ولاسيما مارمول فيما كتبه عن ثورة الموريسكيين الكبرى ، وفلوريثيو خانير في كتابه « الوضع الاجتماعي للموريسكيين » ، وهو ينقل الينا معظم الاسماء التاريخية والجغرافية بصورها الاسبانية ، ولايقدم الينا منها سوى القليل بأسمائها العربية ، ويقدم الينا كتابا في اسلوب متواضع ولكنه مؤثر بالرغم من ذلك ، لروعة الاحداث والآلام التي يقصها علينا .

ومع ذلك فان صدور هذا الكتاب في موضوعه ، يعتبر حدثا أدبيا وتاريخيا . فانه لم يصدر في هذا الموضوع باللغة العربية في العصر الاخير سوى كتابي « نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، منذ نحو ثلاثين عاما وظهرت طبعته الثالثة في سنة ١٩٦٦ ، والمصادر الاسبانية هي وحدها عمدتنا في هذا الموضوع ، لانه بالرغم من كثرة ماكتب بالعربية عن تاريخ الاندلس ، وعن آدابها وحضارتها ، فانه لم يكتب عن تاريخ الموريسكيين سوى القليل ، وهو عبارة عن شذور اوردها الينا المقري في كتاب « ازهار الرياض في اخبار عياض » وعن فصل كتبه محمد بن عبد الرفيع الأندلسي الموريسكي عن احوال الموريسكيين ضمن مخطوط بالمكتبة الكتانية (مكتبة الرباط العامة) عنوانه : الانوار النبوية في آباء خير البرية » . واما المؤرخون الاسبان فانهم تتبعوا تاريخ الموريسكيين ، منذ سقوط غرناطة حتى نهايته بصدور قرار النفي ، ومن بعد ذلك في مؤلفات عديدة متوالية تاريخية ووصفية ونقدية . وقد كانت مأساة الموريسكيين تجرى تحت اعينهم تباعا ، ولديهم كل مايريدون الوقوف عليه من الاحداث والوثائق والقرارات الملكية . ومن ثم فانه يوجد لدينا كل مايجب الرجوع اليه من مختلف المصادر ومنها مصادر كثيرة تسبغ عطفها على الموريسكيين وتايدها لقضيتهم وتنقد السياسةالاسبانية في اضطهادهم ومطاردتهم ، وتشيد بجميل خلالهم وبراعتهم بالرغم من محنهم المتوالية . ومن ثم فان كتابا يقدم الينا قصة الموريسكيين ملخصة عن هذه المصادر الاسبانية يعتبر تصويرا حسنا لادوارها واسبابها ونتائجها .

ولقد قلنا ان صدور هذا الكتاب يعتبر حدثا ادبيا وتاريخيا ، لانه يعالج موضوعا اندلسيا قلما عولج بالعربية . وهذا هو الامر الذي نريد ان نلفت اليه النظر . فان تاريخ الاندلس ، وجغرافيتها وآدابها وجمال مدنها ، ومحاسن اهلها ، وحضارة الاندلس ، وروائع علومها وآدابها : كل هذه قد لقيت من الاقلام العربية اعظم الجهود ، وعولجت بالعرض والدرس على اوسع

نطاق ،وفي سائر العصور ، ولكن الموضوع الجوهري ، وهو موضوع سقوط الاندلس ، لم يلتفت اليه البحث ، ولم تتناوله الاقلام والبحوث الغربية باية صورة جدية ، وكذلك لم تتناوله الأقلام العربية باية صورة وافية ، وهذا مما يدعو الى اشد الاسف . فكثيرا ما تتمثل بمحنة الاندلس ونهايتها المحزنة . ولكنا لم نبذل اية جهود للبحث عن اسباب هذه النهاية ، التي تعتبر اعظم مأسى التاريخ الاسلامي ومأسى التاريخ الحديث .

لقد عرض علينا المقرى في « نفح الطيب » صورامن اروع وامتع الصور عن جغرافية الاندلس ، وعن حواضرها التالدة ، قرطبة واشبيلية وبلنسية ، ومرسية ، وطليطلة ، وغرناطة وغيرها وعن مروجها وحدائقها ، وعن اهلها وشعوبها ومحاسنهم . وعن آدابها وشعرها ، حتى ليكاد الانسان يعتقد ان المقرى قد عاش في تلك الوديان والمروج والحواضر العظيمة والامر بالعكس فان المقرى بالرغم من كونه قد عاش بالمغرب ،في الضفة الا خرى من بحر الاندلس ، لم ير الاندلس ، ولم يحاول ان يراها ، ولم يكن قد بقى من جنة الاندلس عندئذ سوى الذكريات المؤلمة ، وسوى العرب المتنصرين (الموريسكيين) يعيشون محنتهم القاسرة ، ولم يحاول المقرى ، بعد ان حدثنا طويلا عن جنة الاندلس ، ان يحدثنا عن اسباب محنتها وسقوطها . ولم يحاول اى كاتب او مؤرخ آخر ممن كتبوا عن الاندلس وعن تاريخها العظيم ، ان يقترب من هذا البحث . واما اللذين كتبوا عن تاريخ الاندلس من كتاب الغرب امثال كوندى ودوزى وسكوت ولاين بول ، وغيرهم ، فانهم تناولوا هذا الموضوع بصفة عابرة ، ولم يحدثنا احد منهم عن اسباب سقوط الاندلس بصورة واضحة مقنعة . واما نحن الكتاب المشارقة ، فلم نحاول ان نعالج هذا الموضوع باية صورة ومازالت جهودنا تقف عند كتابة التاريخ الأندلسي والاداب الاندلسية .

وانه لمن المؤسف ألايوجد في اية جامعة من جامعاتنا كرسى خاص لتاريخ الاندلس وحضارتها ، وان دراسة هذا الفرع توضع دائما تحت كرسى التاريخ الاسلامي او تحت كرسى تاريخ العصور الوسطى . ولعل هذا القصور في العناية بتاريخ الاندلس وحضارتها ، لايمكن ان يؤدى الى تهيئة اكابر العلماء المختصين في تاريخ الاندلس ، الذين يمكن ان يعهد اليهم بالدراسات العميقة المتخصصة ، التي يمكن ان تستخرج في ظلها النتائج والحقائق ، العلمية المرغوبة .

ان مثل هذا البحث في عوامل سقوط الاندلس وظروفها ، جدير بان يملأ كتبا، وان يستغرق اعواما ، وهو موضوع غزير المادة ، غنى بالاصول والتفاصيل . والمهم هو ان نبدأ المحاولة ، والمراجع لدينا وفيرة بين مطبوع ومخطوط ، ووثائق تاريخية لانهاية لها ، تشمل سائر عصور التاريخ الاندلسي .

ولما كانت هذه المهمة العلمية الخطيرة تفوق طاقة المجهود الشخصي ، فانه من الممكن ان تندب لها لجنة خاصة من العلماء المتخصصين في تاريخ المغرب والاندلس ، تعمل تحت رعاية احدى الهيئات العلمية الجامعية تتولى امدادها بالاعتمادات والبرامج اللازمة . وتنظيم رحلات اعضائها الى المغرب واسبانيا للقيام هنالك ببحوثها ودراستها العلمية والطبوغرافية

ويجب ان يكون لهذه اللجنة طابع دولى عربي اسلامي ، وان تقوم بمهمتها العلمية ، لحساب الامم العربية والاسلامية ، التي كانت الاندلس المسلمة خير ممثل لها لدى الامم الغربية والنصرانية ،والتي كانت حضارتها الزاهرة اغزر مستقى لامم الغرب ،وعالم العصور الوسطى . ومازالت امم الغرب تشيد حتى اليوم بديها العلمي والحضاري للامة الاندلسية ، ومازالت اسماء ابن زهر وابن رشد ، وابن طفيل وغيرهم من اقطاب الحضارة والعلوم الاندلسية تثير لديهم اعظم الاجلال والتقدير .

محمد عبد الله عنان

العـدد القـادم : عـدد ممتـاز

حول محنة البحث العلمي في المجتمع العربي

قرأت باهتمام بالغ مقال الاستاذ الدكتور عمر السباخي بعنوان « محنة البحث العلمي في المجتمع العربي » . المنشور في مجلة العربي ـ عدد ٢٧٤ الذي كتبه تعقيبا على مقال سابق للاستاذ الدكتور فؤاد الزين بعنوان « دعوة الى انشاء مركز عربي للبحوث العلمية » .

وقد تطرق الدكتور عمر الى الموضوع من مدخلين رئيسيين : اولهما واقع البحث العلمي في المجتمع العربي ، وثانيهما طبيعة الابحاث في المجتمع العربي .

تشجيع البحث العلمي

وفي مجال الحديث عن واقع البحث العلمي في المجتمع العربي ، ذكر الدكتور عمر « ان الدعوة لتنمية الابحاث وتشجيعها لن تصادف نجاحا حقيقيا الا اذا نظر المجتمع نظرة احترام وتقدير الى الدور الرائد للباحثين » ، كما بين عدم ترحيب السلطة بالباحثين ، واستبعادهم عن مكانهم الطبيعي ، وان دخول الباحثين واساتذة الجامعات في معظم مجتمعاتنا العربية تأتي في المؤخرة اذا ما قورنت بدخول فئات اخرى كالعسكريين والبيروقراطيين .

بعد الحصول على الدكتوراة ، يخيل الى بعض الباحثين العرب انهم قد وصلوا الى قمة العلم ، ولذلك نجدهم يتطلعون الى الوظائف القيادية ، والمرتبات الخيالية ، مكافأة لهم على المجهود الشاق الذي بذلوه في دراساتهم .

والواقع ان الحاصل على الدكتوراه لا يمكن اعتباره عالما او باحثا . فقد كان يبحث تحت اشراف استاذه وتوجيهه . ولعله لم يصل في بحثه الى نتائج هامة . ولكنه منح شهادته لاقتناع اساتذته بانه قد اصبح قادرا على القيام بالبحث العلمي بمفرده .

وعلى ذلك فهو ما زال في بداية طريق شاق طويل . وعليه ان يثبت للناس انه قادر على البحث والانتاج ، بدلا من ان يتصور في نفسه القدرة الخارقة على ذلك .

وبدلا من التفكير في حلول لمشاكل البحث العلمي التي تواجهه ، نجده يتحول الى التفكير في حلول لمشاكل المجتمع التي لم يؤهل لمواجهتها ، او يأخذ في مقارنة مرتبه بمرتبات غيره .

والملاحظ ان الباحث الحقيقي يقنع بالمرتب الذي يكفي الضروريات وجانبا من الكماليات . فالباحث بطبيعته مشغول بابحاثه طوال وقته ، داخل معمله او بين المراجع ، او في منزله . وعلى ذلك فان المرتبات الخيالية التي يتطلع اليها البعض ، تتعارض مع طبيعة عملهم وتقلل من فرصهم في النجاح في ابحاثهم .

وفي مقال عن تشجيع البحث العلمي ، اقترح كاتب هذه السطور مضاعفة العلاوات السنوية للباحثين عدة اضعاف ، على الا تمنح هذه العلاوة الا لمن ينشر بحثا ، وكان رد الفعل مذهلا ، فقد حمل البريد الى رئيس تحرير المجلة زكائب تحتوي على خطابات الباحثين الشبان ، يحتجون فيها على هذا الاقتراح ، ويشيرون الى حقهم في علاواتهم سواء انتجوا او لم ينتجوا .

وقد قدمت جامعات العراق مثالا يحتذى في مكافأة الباحثين ، فهي تقدم مكافأة مالية قيمة لكل من ينشر بحثا علميا في مجلة علمية متخصصة . الا ان التجربة

قضايا حيوية

قد دلت على ان قبول بحث للنشر في مجلة علمية متخصصة يدخل في نفس الباحث من السرور والرضاء عن النفس ، ما يفوق كل مكافأة مادية .

وكتب الدكتور السباخي عن مؤسسات عديدة للابحاث نجدها في عالمنا العربي ، كان من المتوقع ان تدفع عجلة الابحاث وتساهم في حل مشاكل المجتمع ، لكنها تحولت الى واجهات لا تخفي وراءها شيئا ذا بال ، وديكورا تتباهى به الدولة تحت شعار من العصرية الزائفة . وعزا الكاتب ذلك الى ان قيادات تلك المؤسسات قد اختيرت على اساس الانتماء السياسي ، او الطائفي ، او العائلي ، دون مراعاة للكفاءة العلمية او الخبرة .

والواقع ان كثيرا من مؤسسات الابحاث العربية قد اعدت على احسن المستويات العالمية وجهزت باحدث الاجهزة والمعدات ، اما العلماء العرب الذين يعملون في هذه المؤسسات ، فانهم قد تلقوا تعليمهم العالي في اعرق الجامعات في الدول المتقدمة ، وحصلوا على اعلى الدرجات العلمية وتلقوا تدريبا متقدما على احدث الاجهزة ، على ايدي خبراء متخصصين .

فاذا وجدنا بعضهم اليوم لا يقومون بواجبهم فاننا لن نجد لهم عذرا ، ان قيادات تلك المؤسسات التي يتهمها البعض بعدم الكفاءة العلمية ونقص الخبرة ، لا تملك ان تعوقهم عن القيام بالابحاث او الانتاج العلمي .

غير ان هناك سببا آخر لهذا كله ، ذلك انه عندما يحصل الباحث على درجته العلمية (الدكتوراة) ، يستقل فجأة عن اشراف المشرف على ابحاثه وعن توجيهه ، ويفتقد تلك المناقشات المفيدة التي كان يجريها معه ثم يجد نفسه وسط مجموعة كبيرة من الاجهزة الحديثة والافكار الجديدة ، وفجأة يجد نفسه يتوه في الزحام ، فيلجأ الى قيادة المؤسسة التي يعمل فيها ، فلا يجد عندها حلا لمشاكله ، فكل قد تخصص في اتجاه ، ولا يملك لزميله نفعا . ومن هنا تنشأ تلك الآراء في قيادات المؤسسات العلمية .

ان الباحث هو قمة في تخصصه ، وهو المرجع الاول فيه . وعليه ان يعمل وان ينتج ليثبت لنفسه انه يستطيع ان يقف على قدميه ، وليثبت للآخرين انه جدير بتلك المكانة التي وضعوه فيها ، وانه قادر على الخلق والابتكار وتحقيق ما ينتظرون على يديه من خير عميم .

رب السيف والقلم

ثم يكتب الدكتور عمر السباخي عن ظاهرة استجدت على عالمنا العربي ، وهي الحاكم والمفكر ، رب السيف والقلم ، الدولة والفكر .

ثم يبين ان انتعاش حركة البحث مرهون بقدر معقول من حرية الرأي واحترام وجهات النظر الاخرى والتسامح وسعة الصدر .

ولكن نظرة مدققة الى الوراء تبين لنا ان عهود الدكتاتورية كانت دائما عصورا ذهبية للعلم والعلماء . ذلك ان الحاكم المطلق يخطط ويعمل على توفير الامكانيات لتنفيذ خططه . كما انه لا يبخل على العلماء بالتشجيع ولا على المبرزين منهم بالتقدير وحسن الجزاء .

لقد كان العلم في أزهى عصوره في المانيا النازية ، وما عهدنا بذلك ببعيد .

ثم يبين الدكتور السباخي في مقاله ان معظم الابحاث في الوطن العربي مرتبط ارتباطا وثيقا بنظيره في المجتمع الغربي . ويرى ان ذلك وضع طبيعي لأن معظم الباحثين قد درسوا في الخارج . وفي هذه الحالة فان المستفيد الاول من الابحاث العربية هو المجتمع العربي . اذ انه القادر على استيعاب نتائج الابحاث وتنفيذها . بل اننا في هذه الحالة قد نستهلك امكانيات واموالا لتقديم حلول لمشاكل ليست مطروحة اصلا في مجتمعنا . فنجد مثلا ابحاثا تجري عن الغابات ، وبلادنا خالية من الغابات ، او عن تلوث البيئة من مخلفات الصناعة ، ولا صناعة لدينا وهكذا ..

والواقع ان البحث العلمي كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضا ، وان اية اضافات الى العلم يضيفها الباحثون العرب ، تفيد العلم في كل مكان ، وينعكس هذا على تقدم شعوب العالم اقتصاديا وصناعيا وصحيا .

واذا كنا نحن العرب قد لحقنا ببلاد العالم المتقدمة في مجال البحث العلمي ، واعددنا الباحثين وجهزنا مراكز

البحوث واذا كنا مازلنا متخلفين عنهم في مجالات الصناعة والتكنولوجيا ، فانه يجب علينا ان نساهم في تقدم البشرية عن طريق اسهامنا في تقدم العلم .

ان القول بان المستفيد الاول من الابحاث العربية هو المجتمع العربي انما هو قول لا يعتمد على اساس .

ويجب علينا ان نهتم بوجه خاص بابحاث ازالة ملوحة مياه البحر ، والطاقة الشمسية ، وزراعة الصحراء ، وتكرير البترول وتصنيعه ، وتلوث البيئة وغيرها من الموضوعات التي لها مساس بحياتنا اليومية .

الواقع ان القول بانه « لا صناعة لدينا » امر لا يستند الى اساس من الصحة .

فبلادنا غنية بصناعات التنقيب عن البترول ونقله وتكريره وتصدير خامه او مقطراته ، وهناك صناعات البتروكيماويات والاسمدة والاسمنت التي بدأت تزدهر في بلادنا العربية . وهناك صناعات التعدين وصناعات التجميع وصناعات الغزل والنسيج وغيرها من الصناعات النامية .

كل هذه الصناعات تطلق مخلفاتها الصلبة الى الاراضي المحيطة بها وتطلق مخلفاتها السائلة الى البحار ، وتطلق مخلفاتها الغازية الى الهواء . ثم هناك صناعة النقل المزدهرة ، والتي تطلق مركباتها العوادم السامة في الهواء .

اضف الى ذلك ان تلوث البيئة من مخلفات الصناعة قد اصبح خطرا يهدد جميع بلدان العالم وليس الدول الصناعية وحدها .

ان معظم بلادنا العربية تطل على بحار او محيطات ، وهذه متصلة ببحار العالم ومحيطاته والمخلفات السامة التي تفرقها الدول الصناعية في المحيطات قد تتسرب الى بحارنا ، او قد تصلنا بعض هذه السموم في صورة او في اخرى .

كما ان اجواء العالم متصلة وقد تدفع الرياح الى اجوائنا السموم التي تطلقها في الهواء مصانع في اوروبا او امريكا او اليابان .

ومن على منبر (العربي) يناشد كاتب هذه السطور علماء العالم العربي وباحثيه ، ان يخصصوا دقائق كل يوم لقراءة بعض ما ينشر عن تلوث البيئة ، ودقائق للتفكير في طرق درء هذا الخطر الزاحف ، ودقائق لعمل التحاليل الكيميائية المعملية التي تفيد في هذا المجال ، والتخطيط لعمل الدراسات والبحوث في سرعة انتشار هذه الملوثات ، واتجاهات انتقالها ، وان يقبلوا على كتابة ما يبصر الناس بالاخطار ، ويضيء لهم طريق الامان . ●●

د . عبد اللطيف ابو السعود

ذكاء فنان .

اراد احد الملوك ان ترسم له صورة وكان اعور اعرج اكتع ... فجمع الفنانين وطلب اليهم ان يصوروه من غير ان تظهر عيوبه فعجزوا عن ذلك . واخذ يبحث عن غيرهم وقيل له ان في احدى المدن فنانا ماهرا جدا لا يوجد امهر منه في المملكة كلها . فدعاه وطلب اليه ان يصوره . وقال له : « اذا لم تخترع وسيلة لاخفاء عيوبي قتلتك » .

فخرج المصور حائرا خائفا ... وفيما هو يفكر خطر له ان يصور الملك وهو يطلق بندقية للصيد وهو لابد له حينئذ :

اولا : ان يغمض عينه . ثانيا : ان يجثوا على احدى ركبتيه . ثالثا : ان يلوي يده .. واختفت في هذه الصورة عيوب الملك كلها . فسر منه وكافأه مكافأة سخية .



٣ حكايات عن الفئران

بقلم : يوسف الشاروني

منذ آلاف السنين وعدد الفئران في ارض مصر - فيما يبدو - لا يتغير كثيرا . وقد ينقص قليلا وقد يزيد قليلا ، لكنها زيادة ونقصان لا يثيران الانتباه . كذلك الامر مع اعداء الفئران : الحدأ والصقور والغربان الى ان تدخل الانسان .

كان الامر متروكا للتوازن الطبيعي ، فمياه الفيضان تقضي على جزء من التكاثر الفئراني والحدأ والصقور والغربان تقضي على جزء اخر ، ويبقى جزء ليستمر النوع ويمارس حياته على حساب الانسان ، كما تبقى البراغيث على حساب الفئران وكما يبقى الطاعون والتيفوس على حساب البراغيث . وفجأة اختل هذا التوازن .

الحكاية الاولى :

وقد بدأ الامر هكذا - على الاقل بالنسبة للسذج ومن يريدون تبسيط الامور ولا يستريحون الا اذا جعلوا لكل ظاهرة بداية محددة ولو وهما - كان سليم السلاموني طالب الطب الوحيد في قريتنا جالسا امام مكتبه قبيل منتصف الليل يستعد لامتحان التشريح وقد وضع جمجمة بشرية امامه وبجواره صندوق من الكرتون به بقايا هيكل بشري . وكان قد حرم على امه ترتيب غرفته او تنظيفها حتى لا تخل بنظام كتبه ومذكراته التي تناثرت فيما يحسبه غيره فوضى حتى لكأنها مرسم فنان او مخزن مهجور . كان التراب قد علا بعض المراجع التي لا بد انه كان يستخدمها في سنوات دراسته السابقة ولم يعد يحتاج اليها اليوم فلم يمسها منذ شهور وربما منذ سنين . وكانت تتناثر في اركان الغرفة شبه المظلمة صناديق فارغة وعلب نصف ملأى بخطابات وبطاقات قديمة وحديثة وصور تحمل ذكريات بهتت الان من ايام دراسته الثانوية واشرطة كاسيت . . . وضوء مصباحه المكتبي يضيء حيث جلس وحيث وضع الجمجمة ، بينما تسترخي الظلال على معظم انحاء الغرفة . وكانت امه تتشاءم اول الامر بما يحمله ابنها الى البيت من عظام آدميه . وترى ان في هذا اعتداء على حرمة الموتى ، وانه قد يطرد الملائكة ويجلب الشياطين . فلما حاول ابنها اقناعها بانها ضريبة الاموات في سبيل صحة الاحياء سكتت على مضض ، وان ظلت على توجسها بل توقعها ان يصيبها - او يصيب ابنها - سوء .

وعندما دخلت على ابنها تحمل له كوب الشاي الساخن لاحظت - كما لاحظ ابنها - ان الجمجمة تتحرك . فما كان منها الا ان صرخت باعلى صوتها ووقع منها الكوب فاندلق الشراب الساخن من يدها على يدها الاخرى ، فصاحب الجمجمة لابد انه بعث وها هي ذي الروح قد دبت في جمجمته ، بينما تملكت الدهشة سليما لحظات . وكانت الجمجمة قد عادت الان الى سكونها . غير انها ما لبثت ان عادت الى الاهتزاز كانما بفعل ريح خفية . وبينما كانت الام تبسمل وتحوقل كان سليم - الذي لم يجرؤ ان يمد يده الى الجمجمة - يبحث عن عصا رفيعة ، فلما وجدها ادخل طرفها في عين الجمجمة ، مما مكنه من ان يرفعها ببطء ليفاجأ بفأر صغير يقف حائرا في اسفلها ، كانما ضوء المصباح الباهر قد اعشاه . غير انه ما لبث ان هرول - مستغلا المفاجأة التي شلت سليم لحظات - وابتعد عن دائرة الضوء محتميا في عتمة الظل وفوضى الغرفة ، قبل ان يفيق سليم ويخلص العصا من الجمجمة في محاولة منه لينهال بها على . . . لاشيء .

ومن قبل ، وفي مساء احدى ليالي يونيو الماضي منذ ثلاثة اشهر ، كان عوض عوضين يهم بري حقله عندما احس بحركة شبيهة بتدفق المياه بين اعواد زراعته . في الصباح ابلغ عمدتنا الجهات المسئولة بالمركز ان قوافل الفئران غزت حقول قريتنا . بعدها توالت البلاغات من اهالي القرى المجاورة : غزالة ، والطاهرة ، وميت ركامة . وامتد الانتشار الفئراني من محافظة الشرقية الى محافظتي الدقهلية والقليوبية واصبح يفصلها عن المزارع التي تحيط بالعاصمة شمالا اقل من عشرين كيلو مترا فقط . ونشرت الصحف أن إنشاء السد العالي الذي منع ماء الفيضان وطميه عن ملء شقوق الارض حيث تبني الفئران جحورها ، وكذلك استخدام المبيدات الحشرية الذي قضى على اصدقاءالفلاح : الحدأ والصقور والغربان ، هي اهم اسباب هذا التكاثر الفئراني .

وقد هاجمت الفئران زراعات الطماطم فأبادت مساحات شاسعة منها ، ثم اغارت على زراعات البطيخ والتهمت سنابل القمح وتسلقت اعواد الذرة لتقشر كيزانها من اعلاها والتهمت ما بها من حبوب بل انها اكلت بذور الذرة وهي ما تزال مزروعة تحت الارض فلم تنبت اصلا وصعدت أبراج الحمام لتقضي على الافراخ مما اضطر اسرابه الى النزوح الى ابراج اخرى . وهاجمت حقول الارز ولوزات القطن وزراعات البرسيم وحدائق الفاكهة ثم ظهرت - وهي الحيوانات الليلية - نهارا ، فأعلن علماؤنا ان ذلك دلالة على وجودها بكميات كبيرة جدا تخالف - بسبب شدة زحامها - طبيعتها وسلوكها المعروفين . ثم تسللت الى مواقع الكتاكيت ومزارع الدواجن ، بل هاجمت دجاجة كبيرة في وضح النهار وهي ترقد على البيض فالتهمتها كما التهمت بيضها . ووصل الامر الى حد مهاجمة بعض صغار الماشية ، فأتت على حمار رضيع ، كما التهمت فخذا كاملا لعجل صغير وهو ما يزال على قيد الحياة .

الحكاية الثانية : (بعد اسبوع) :

بجوار كوبري النوبارية ، كمن المقدم سامي البراموني مع افراد قوته الصغيرة في انتظار تاجر المخدرات على عليوة . كان يرقد ممددا على بطنه في ظل حائط صغير الى خلفه . وقد نبتت بعض الاعشاب القصيرة حوله . وكانت قد مضت عليه قرابة الساعة وهو ساكن في رقدته وحواسه كلها متيقظة لاي همس او حركة . يلحظ من رقدته حركة الضوء والظل حينا ، والشقوق التي تتفاوت فتحاتها في التربة الجافة حينا . وثمة غراب وحيد حط على الارض على بعد امتار منه ثم نعق ثم قفز عدة قفزات والتقط ما يشبه الدودة ، ثم طار بعيدا حتى اختفى . كان يعرف اماكن رجاله الذين يكمنون معه على القرب منه بحيث يمكن ان ينجدوه لو تعرض لاية مقاومة او مكروه ، فلم تكن هذه اول مرة يقوم فيها بمثل هذه المهمة . كان الان يسترجع خليطا من الذكريات القريبة والبعيدة في قفزات بغير نظام متسائلا : هل تراه أخطأ باختيار هذه المهنة الشاقة ، والترقية الوشيكة ، وابنه الوحيد الذي بلغ سن المراهقة وبدأ يثير المشاكل في الداخل والخارج ، وذكرياته الحلوة والمرة في الصعيد عندما كان ملازما اول حديث لتخرج . . . وفجأة احس بحركة في المسافة الضيقة بينه وبين الحائط . . . لم يبق الا خمس دقائق على الموعد المتوقع لوصول التاجر طبقا لمعلوماته . رفع رأسه ببطء وحذر ونظر عن يمينه ، لدهشته لمح فأرين يتعاركان . . . تذكر مدرس الحساب في مرحلته الابتدائية كان فخورا بهوايته للعقارب . كان يحضر معه بعضها احيانا في اوان زجاجية شبيهة بتلك الاواني الموجودة بمعمل العلوم بالمدرسة الثانوية فيما بعد . وكان يمسكها بملقاط ليخرجها من هذه الاواني ويدخلها فيها وهو يحاول ان يبث الشجاعة في نفوسهم المرتعبة ، وذات مرة ظهر فأر صغير جدا مرق كالبرق في ارضية الفصل الدراسي فاضطرب هذا المدرس نفسه اضطرابا وصل الى حد الهرب خارجا من باب الفصل وسط ضحكات الطلبة الصغار الذين يتشفون الان فيه ولم يعد الى الدخول الا بعد ان تأكد تماما ان الفأر ذهب الى غير عودة . . . رأى الفأر اذن اكثر من مرة لكنه لم ير فأرين يتعاركان . . . اخطأ خطوه . . . كان قد اكل ساندويتشا - كانت زوجته قد اعدته له خوفا عليه من الجوع اذا طال تربصه - وقد التهمه الآن خوفا من ان يجوع في وقت غير ملائم . وفي نهاية الساندويتش كانت هناك قطعة من الخبز لم تصلها قطعة اللحم التي حشي بها فالقاها بعيدا عنه . . وهكذا جذب بفعلته الفأرين ليفسدا عليه خطته ، لكنه قرر الا يأبه بشجارهما وان يعود الى وضعه مترقبا متحفزا . غير ان الفأرين اللعينين ما لبثا ان قفزا فوق ظهره يستأنفان معركتهما . اذن فهما يعاملانه باعتباره شيئا . . . لو يعلمان ان الروح تدب فيه لاختفيا تماما . بذل جهدا اراديا مضنيا حتى لا يتحرك فيكشف موقعه راجيا الا تزداد المعركة اشتعالا . وقد نجح فلم ينتبه الفأران اليه ولكن في الوقت الذي كانت السيارة المتوقعة تهدىء من سرعتها بالقرب منه كانت المعركة قد انتقلت فوق رأسه وفي حركة لا ارادية مد يده فوق رأسه ينش بها الفأرين كما ينش ذبابة . كانت من العنف بحيث اطاح بهما بعيدا فقفز كل منهما في اتجاه ولكنها كانت كافية ايضا لكي ينتبه اليه سائق السيارة - وهو راكبها الوحيد - فعاد يزيد من سرعة سيارته في الوقت الذي كانت السيارة الاخرى قد وصلت غير انها ما لبثت ان اقتفت اثر السيارة الاولى ، واختفت بدورها عن الانظار .

وقد اعلنت المحافظات التي غزتها الفئران عن مكافأة قدرها خمسة قروش لكل من يأتي بفأر حيا او ميتا ، فاقبل الاهالي على شراء المصايد حتى ارتفعت اسعارها . بينما اعلن احد المحافظين انه على كل عريس في محافظته ان يسلم خمسين فأرا لعمدة قريته كشرط لاتمام زواجه ، ولما كان هذا الشرط متعذر التحقيق بالنسبة للعريس المشغول بعروسه وبالاعداد لاقامة حفل زواجه فقد اسرع شباب القرى باصطياد الفئران وبيعها لراغبي الزواج وكانت حصيلة الشراء في الاسبوع الاول ثلاثة الاف فأر ، تضاعفت في الاسبوع التالي . وقد تبين ان هذه الاعداد كان مبالغا فيها اما اظهارا للنشاط ، واما لان البعض كان يريد ان تتضاعف المكافآت دون ان يتضاعف الصيد . فتوالد الفئران كان اكثر كثيرا مما قضى عليه منها . وكما

ازدادت عددا فانها ازدادت حجما حتى ان مصيدة جارتنا سويلم اصطادت فأرا كبيرا استطاع ان يسير بمصيدته بضع خطوات محاولا الاختفاء بها في مكان بعيد عن الانظار .

الحكاية الثالثة : (بعد يومين)

تمددت جارتنا فاطمة عبد الغني ـ وهي ام لستة اطفال ـ بجوار اصغر اطفالها تهدهده الى ان يستغرقه النعاس ، لكنها ـ فيما يبدو ـ اغفت بدورها حتى ايقظتها قرصة في خدها . اعتقدت في غبشة الادراك وهي ما تزال تحت خدر النوم ، ان ابنها يبشها بقبضته التي اخذت تشتد اخيرا ، فمدت يدها تربع يده وهي تعاتبه : كدة صحيتني يا محمد ؟ لكنها فوجئت بصرخة حادة ثاقبة خاطفة لم تألفها اذناها فسحبت يدها في سرعة مفزوعة ، وثمة جسم ملمسه يختلف قطعا عن ملمس كف طفلها الرخصة ، انزلق على بطن يدها كالريح . . . كالحلم . . . ككابوس خاطف . وعندما مسحت هذه الطراوة الغريبة التي احست بها تنتشر على خدها ، ثم لمحت ـ في دغش المساء ـ لونها الدموي ، عندئذ فقط استيقظت حواسها لتدرك ان طفلها بريء مما اتهمته به ، وصرخت تستنجد به هذه المرة : الفأر عضني يا محمد . وعلى صوت صياحها ـ فلابد انها صاحت ـ هرول اليها زوجها ليستطلع جلية الامر ، وكان يجلس مع ضيوفه في قاعة البيت في انتظار ان تعد الشاي لهم بعد تنويم طفلها . وهكذا انتشر الخبر ، وانتشر وراءه الفزع : ان الفئران بدأت تهاجم البشر . وكان معنى ذلك أن على كل ان يتخذ مزيدا من الاهبة والحذر .

وقد ضبطت الشرطة في مدينة الزقازيق ـ بجوار المحطة الرئيسية لسياراتها العامة ـ جماعة من القرويين يحملون اجولة تتحرك فيها اشياء مريبة ، فلما فتحوا اجولتهم وجدوا بها مجموعات من القطط . فساقوهم الى مركز الشرطة وفي التحقيق اعترفوا بانها قطط ضالة جمعوها من ازقة الزقازيق بقصد بيعها في القرى لمكافحة الفئران التي ضايقت الخلق هناك ، فأكلت اكلهم ، واقلقت منامهم . فحرروا لهم محاضر تحرى ، واطلقوا سراح القطط ، ولما لم يكن مع القرويين بطاقاتهم الشخصية فقد حجزوا في مركز الشرطة الى اليوم التالي حين اطلق سراحهم بعد التأكد من شخصياتهم .

اما « قطنا » مشمش فقد فاجأنا ذات يوم وهو يقف مرتعدا امام فأر ـ وان لفتت انظارنا ضخامة حجمه النسبية ، الا انه كان ما يزال اقل حجما من مشمش ـ لكنه كان من الواضح انه اكثر منه شراسة وتوحشا ، فقد وقف امام القط في شبه تحد حتى حين سمع حركتنا ولمح اجسامنا وكان هذا كافيا لأن يجعل « مشمش » يقف امامه كما يقف امام كلب غريب او قط قوي منافس . . . ظهره مقوس وشعره منفوش ويخرج مواء هو اقرب الى العواء ، بحيث عدل الفأر عن مهاجمته وفر هاربا . غير ان هذا لا يعد نصرا لقطنا الذي طالما دوخ الفئران ولاعبهم لعبة الموت في تفوق ملحوظ قبل ان يقرقش عظامهم . وقد ظل « مشمش » منزويا منطويا على نفسه عزوفا عن الطعام اياما كثيرة بعدها ، كانما اصابته حمى خفية او هزة نفسية ، ولعله خجل من هزيمته امام فريسته الازلية التي لم يتصور ان ترقى الى مستوى عدوه ، يوما من الايام .

وروى سالم سيالم ـ مؤلف المواويل ومغنيها في قريتنا ـ انه قلق ذات ليلة قبل اذان الفجر ، ففتح نافذة بيته المطل على حقول قريتنا فرأى ـ في ضوء بقايا قمر على وشك الغروب ـ فأرين كل منهما في حجم قطنا « مشمش » تسلقا جذع نخلة مقطوع حتى وصلا اعلا وهناك مضيا يتداعبان ويتلاطفان على نحو ما تفعل الكلاب في شوارع قريتنا ، ثم انتصب كل منهما على قائمتيه الخلفيتين واخذا يتراقصان ـ في ضوء القمر الشاحب ـ وما لبث ان انضم اليهما فأر ثالث فرابع ، وهي تتقافز وتتصادم وتتفرق في مرح كان الدنيا لا تسعها . حتى اذا شقشق الفجر لاذت بالفرار وابتلعتها الارض .

واستوردت احدى الشركات اجهزة تطلق موجات فوق صوتية تدفع الفئران الى الجنون ، فتترك اماكنها وتهرب الى مناطق اخرى بعيدة ، مما يدفع بفئران المنطقة الاخرى الى مهاجمة الفئران الغريبة الغازية والفتك بها . غير ان الاجهزة ما لبثت ان تعطلت لسوء استخدامها وقلة صيانتها مما جعل تكاليفها باهظة ، ومما ترتب عليه توقف الشكرة عن استيراد مزيد منها .

ومن قرية دهشور التابعة لمركز البدرشين جنوبي العاصمة اعلن الاهالي في ركن الشكاوي باحدى الصحف اليومية البلاغ التالي : قامت مئات الآلاف من الفئران الكبيرة بمهاجمة حقولنا ومنازلنا وتصدت لها مقاومة الاهالي ، ولكن المقاومة فشلت وتفوقت الفئران وتفوقت الفئران وتقدمت واحتلت الآن معظم حقول القرية ومنازلها ومازالت المقاومة مستمرة .

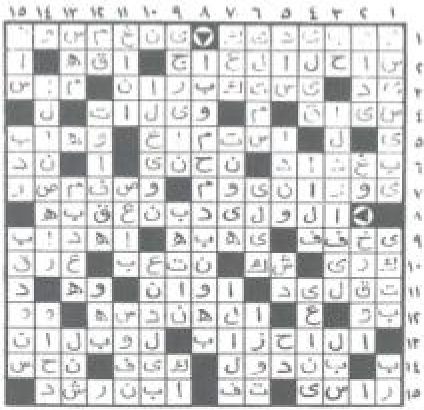
وكان معنى هذا ان العاصمة أصبحت محاصرة بالفئران من شماليها وجنوبيها معا .

وفي العاصمة نفسهاأعلنت المصلحة البيطرية بوزارة الزراعة ان مسئولية مكافحة الفئران من اختصاص مديريات الصحة التابعة لوزارة الصحة ، بينما اعلنت مديريات الصحة انه ليس اختصاصها بل اختصاص وزارة الزراعة .

بعد اسبوعين كان سليم السلاموني عائدا من آخر امتحان له بعد ان اجاب على أسئلته اجابة رضي عنها حين تذكر الفأر الذى أفزع أمه منذ أيام فابتسم ابتسامة خفيفة . وكان الجرح الذى سببته عضة الفأر على خد فاطمة عبد الغني قد اندمل ، لكنه ترك ندبة واضحة عليه ، اما ضابط المباحث المقدم سامي البراموني فكان يقرأ تحقيقا صحفيا عن التكاثر الفئراني في مصر جاء فيه ان الفئران تتجمع في جحورها السرية الآن في مطالع الشتاء لتتكاثر فتلد كل انثى منها ما بين خمسة وستة بطون ، في كل بطن ما بين ستة وثمانية فئران ، وذلك استعدادا لفصل الربيع حين تخرج زاحفة على العاصمة ■■

يوسف الشاروني

● حل مسابقة العدد ٢٧٤ ●



أفقياً

الوليد بن عقبة

رأسياً

أبو محمد بن وهب

اثنتان في واحدة :

(٨) أفقيا : الوليد بن عقبة . أخو عثمان بن عفان لامه . اسلم يوم فتح مكة ، وتولى حكم الكوفة . عزل لاتهامه بشرب الخمر . رثى عثمان ، لكنه اعتزل الفتنة بين علي ومعاوية . مات بالرقة عام ٦٨٠ م .

(٨) رأسيا : أبو محمد بن وهب . ولد بمصر ، وتوفي بها عام ٨١٣ م . صحب الامام مالكا عشرين سنة . من مؤلفاته كتاب « الموطأ » ، وكتاب « الجامع » في الحديث ..

الفائزون بالجوائز

- الجائزة الاولى وقيمتها ٣٠ دينارا فاز بها : اسامة هلال مسوتي/حلب/سوريا
- الجائزة الثانية وقيمتها ٢٠ دينارا فاز بها : فتحي اسماعيل العسيري/صنعاء/اليمن
- الجائزة الثالثة وقيمتها ١٠ دنانير فاز بها : عبد المنعم علي الامين/شندي/السودان

٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها خمسة دنانير فاز بها كل من :

١ ـ هالة مروان موسى نجيب/ام القيوين/الامارات العربية
٢ ـ بشار خالد شناعة/صيدا/لبنان
٣ ـ نجدي عبد السلام سيد احمد/دسوق/مصر
٤ ـ عبد الرزاق داود ابو زيد/الزرقاء/الاردن
٥ ـ حسين عبد الله الحنيان/مجلس التخطيط/الكويت
٦ ـ بدرية فهيم الشرقاوي/الدوحة/قطر
٧ ـ صفية علي احمد الوطني/المنامة/البحرين
٨ ـ محمد علي مبروك/صلالة/سلطنة عمان

مسلمو كوسوفا

ألبانيون قلباً

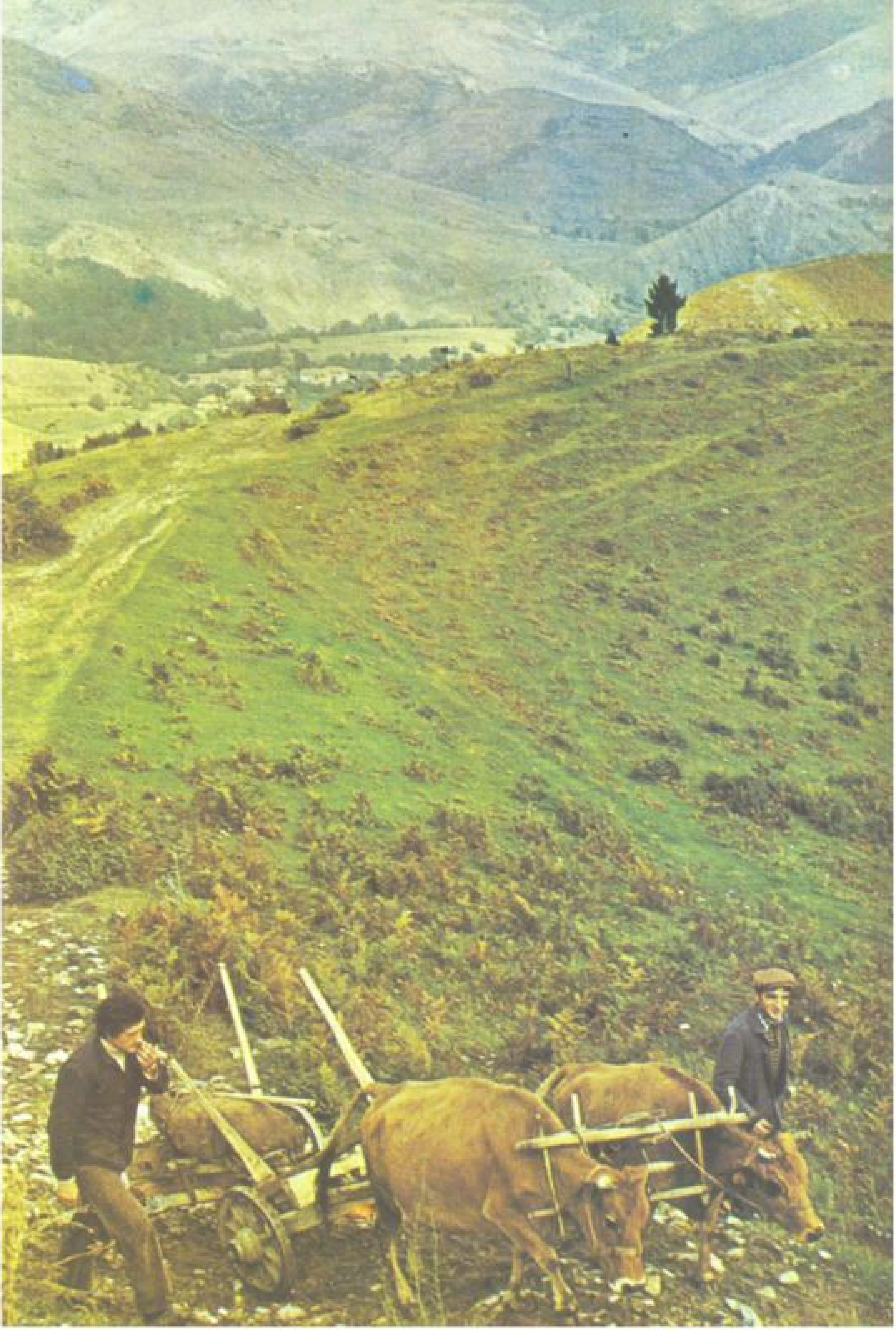
يوجوسلافيون قالباً



استطلاع : فهمي هويدي

ثلاثة رموز من كوسوفا . تمثال البريد بوتيكا . اقدم اثر عثر عليه حتى الآن . ثم وجهان من جيل الامهات والبنات . وعلى الصفحة المقابلة لقطة من مساحات الزراعة . يشقها المحراث الذي انقرض من اوروبا .





دخل اقليم كوسوفا عالم الشهرة من باب الشغب ، وبعدما سجل اسمه في مخافر الشرطة اكثر من مرة خلال الصيف الماضي !

فمنذ شهد هذا الاقليم تظاهرات ومصادمات اثناء الصيف ، ظهر اسم كوسوفا في الصحف العالمية ، واستدل الجميع على هويته وعنوانه ، لكثرة ما نشر له من خرائط ، وما نقل عنه من صور . وقتئذ فقط عرف العالم اسم ذلك الاقليم الراقد في صرة البلقان . واكتشف الناس ان هذا الاقليم مشكلة ، وان هذه المشكلة خرجت فجأة تعلن عن نفسها في الشوارع والميادين .. حتى وصلت الى سجلات الشرطة والمحاكم ، قبل ان تشق طريقها الى الصحف ووكالات الانباء العالمية .

واعترف انني واحد ممن لم يعرفوا شيئا عن كوسوفا قبل الشغب الذي حدث فيها ، وارجح ان كثيرين يشاركونني هذا القدر من الجهل .

وهنا لابد ان نعترف بان جهلنا هذا موقف ينبغي ان نتعامل معه بشعور عميق بالذنب ، وقد اقول الخجل . ليس لأن اهل كوسوفا ينتمون الى العالم الثالث الذي نتقاسم معهم همومه . وليس لانهم شرقيون حتى النخاع وان عاشوا في قلب اوروبا . ولكن لانهم ، وهذا هو الاهم ، مسلمون موحدون بالله ، يصومون ويصلون ويزكون ويحجون كلما تيسر . ولا يزالون ، رغم كل الصعاب ، قابضين على الجمر .

هم مسلمون دينا ، احناف مذهبا وشيوعيون احيانا ، البانيون قلبا ، يوجوسلافيون قالبا .. اما كيف تمت هذه التركيبة الغريبة ، وكيف تعايشوا مع عناصرها ومتناقضاتها ، فذلك لغز كوسوفا ، وتلك فصول قصتها المثيرة ..

من الجو يبدو اقليم كوسوفا مجموعة من القرى منثورة وسط الجبال والاحراش وعلى ضفاف الانهار .

على الارض كانت الارقام تترجم الصورة : صفحة الاقليم تغطي حوالي ١١ ألف كيلومتر مربع توزعت عليها ١٣٤٨ مدينة وقرية ، تتصدرها سبع مدن كبرى . الناس وصل عددهم في احصاء عام ٨١ الى مليون و٥٨٤ الف نسمة . السهول والوديان تشكل ٣٦٫٥٪ من المساحة ، المرتفعات والجبال والغابات تحتل نفس النسبة . المساحة الباقية لحساب الانهار ، واهمها نهر مبيلي دريم (١١٢كم) وايبار (٨٥كم) ونياكا (٦٧كم) .

تجد بريشتنا ـ عاصمة الاقليم ـ ومدن أخرى ـ قضية التعدد في الهوية على الطبيعة . لكن ذلك التعدد يبقى محصورا في دائرة الأوراق الرسمية واللافتات ومؤسسات الادارة الحكومية ، اذا ما خرج المرء من العاصمة وطاف بمختلف القرى انك في عاصمة الاقليم وبعض المدن الصناعية ترى وجها يوجوسلافيا وآخر البانيا أو اسلاميا . بينما في القرى وفي المدن الثانية ، لا ترى الا وجها البانيا واضح المعالم وغائر القسمات .

ما وراء الأحزان

ان الكثير من الغاز كوسوفا ـ وربما احزانها ـ لا يجد تفسيره الا في التاريخ ، الذي تشكل صفحاته مفاتيح اساسية لفض اسرار الحاضر وغوامضه .

واذا كانت خريطة البلقان الحالية قد تشكلت في ضوء ما اسفر عنه صراع القوى والمصالح الذي تمثل في الحرب البلقانية عام ١٩١٢ ، واقرتها عصبة الامم بعد الحرب العالمية الاولى ، الا ان ثمة خيوطا قديمة ودقيقة يتعين الامساك بها لكي نقف على الخلفية الدرامية للقصة من البداية .

ذلك ان أحدث الدراسات الاثرية والتاريخية تشير الى ان هذه المنطقة الالبانية كانت مسكونة بالبشر منذ العصر الحجري . وان الاليريين الاوائل عاشوا في جبالها واحراشها منذ الفي سنة قبل الميلاد . حتى بسطت عليهم الامبراطورية الرومانية نفوذها الذي استمر قرونا عديدة . ومنذ انفصل الالبان عن سلطان الرومان ، وحتى القرن الثاني عشر الميلادي ، تعاقب على حكمهم البيزنطيون والمكدونيون والصربيون .

لكن صفحة جديدة بدأت في تاريخ المنطقة عندما طرق العثمانيون ابواب البلقان في النصف الثاني من القرن الرابع عشر .

كانت الاندلس وقتئذ توشك ان تضيع من المسلمين ، وربما خطر للسلطان العثماني ان تكون البلقان هي البديل الذي يعوض تلك الخسارة . ولم يكن ممكنا ان يتم النفاذ الى البلقان دون السيطرة على كوسوفا ،



خريطة ليوجوسلافيا بجمهورياتها الست
واقليميها .. اقليم كوسوفا أحدهما

التي تعد موقعا حيويا عند مفترق الطرق المؤدية الى مختلف انحاء شبه الجزيرة . فتقدمت القوات العثمانية بقيادة السلطان مراد نحو كوسوفا في عام ١٣٨٩ وهناك واجهت قوات التحالف البلقاني التي قادهـا ملك الصرب . وانضوى تحت لوائها البلغار والالبان مع الصربيين .

وفي كوسوفا دارت معركة شرسة ، انتصر فيها العثمانيون ، بينما قتل السلطان مراد وملك الصرب .

ورغم الانتصار ، فان الجيوش التركية انسحبت سريعا من المنطقة لمهام اخرى ، حتى ان نفوذ السلطان العثماني لم يعترف به في البانيا الا في سنة ١٤٢٣ . وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، استطاع العثمانيون ان يبسطوا نفوذهم على منطقة البلقان . وان يعينوا ولاة يمثلون الاستانة في كل اقليم او « ايالة » عثمانية . وظلت البانيا ركيزة أساسية للحكم العثماني ، وبات رجالها الاشداء دعامة هامة في جيوش الامبراطورية.

لكن ثمة استدراكا هنا ينبغي الاشارة اليه ، وهو ان دخول الاسلام الى البلقان لم يرتبط بالفتح العثماني كما يردد الكثيرون ، ليعطوا انطباعا ان الاسلام دخل هذه المنطقة بحد السيف العثماني .

ذلك انه من الثابت ان بلاد العرب كانت الجسر الذي تعبر عليه تجارة الشرق الى الغرب ، وانها كانت تنقل عبر موانيء الشام الى روما والبندقية ، على الساحل الاوروبي . الامر الذي فتح بابا واسعا للتعامل والاتصال بين العرب والاوروبيين . وكانت جسور التجارة هذه هي القنوات التي نقلت الاسلام الى تلك المناطق .

ويذكر ياقوت الحموي ان ملك بلغار واهلها قد اسلموا في ايام المقتدر بالله (٢٩٥هـ ـ ٩٠٨م) وارسلوا الى بغداد رسولا يعرفون المقتدر ذلك ، ويسألونه في انفاذ من يعلمهم الصلوات والشرائع .

وثمة شاهد في كوسوفا يعزز فكرة وصول الاسلام الى البلقان قبل وصول الاتراك . ويتمثل هذا الشاهد في ضريح لواحد من الاولياء ، اسمه ساري سلطاكو ، يرقد جثمانه في مدخل مدينة بيا ، ليس بعيدا عن اشهر معمل للفضيات في الاقليم .

وايا ما كانت الروايات التي نسجت حول هذه الشخصية ، فانها تتفق على ان ساري سلطاكو كان موجودا في تلك المنطقة قبل الفتح العثماني بعدة عشرات من السنين ، وان الاسلام عرف طريقه الى البلقان قبل ان تظهر سيوف الاتراك وخيولهم على مشارف كوسوفا .

كوسوفا دفعت الثمن

وقد دفعت البانيا ، وكوسوفا بوجه اخص ، ثمنا باهظا عندما آذنت شمس الامبراطورية العثمانية الى المغيب ، وبدا للجميع ان نجمها الذي سطع فوق البلقان على وشك الافول .

فعندما تنامى سلطان الاتحاديين اتباع اتاتورك في

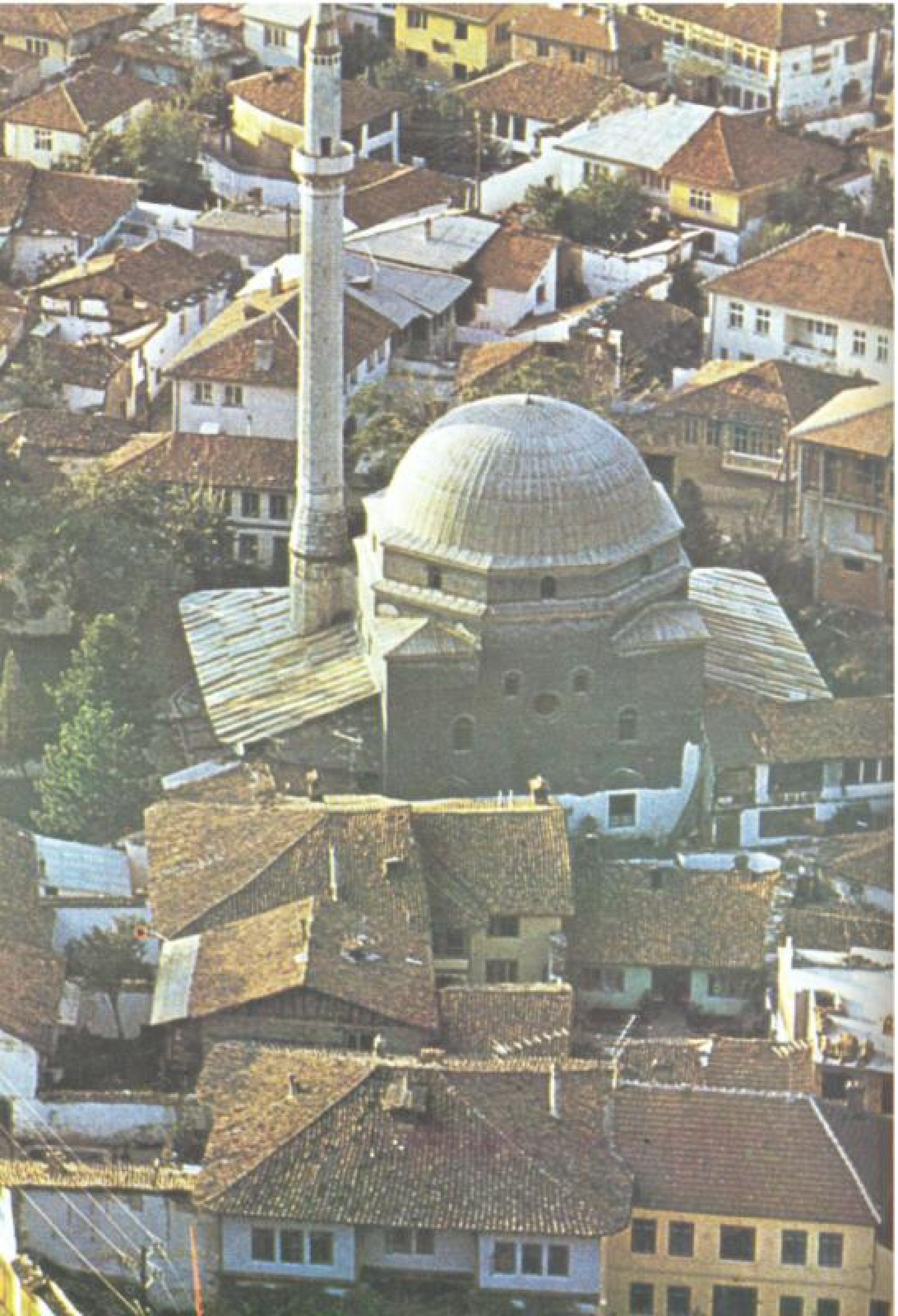
مئذنة بلا مسجد ! ـ هدم المسجد وبنيت مكانه عمارة صغيرة ، وبقيت المئذنة شاهدا ينطق بالقصة .



بريزرن ، المدينة المتحف ، عاصمة الحكم العثماني التي مازالت تحتفظ ببصمات التاريخ ورائحته .

داخل البيت الالباني .. لقطة معاصرة من القرن الماضي ، لاحظ غطاء الرأس والغليون .





تركيا ، وتصاعد معه الحس القومي في ارجاء الامبراطورية ، سعى الالبان الى الاستقلال مع نهاية القرن التاسع عشر ، خصوصا بعدما سرت الموجه في البلقان ، وصار لليونان ولاهل الجبل الاسود وللصربيين دول مستقلة ، وبعد ان خلع البلغار تبعيتهم للسلطان .

وقد حدث ما كان متوقعا ، واعلنت البانيا استقلالها في نوفمبر عام ١٩١٢ ، بينما حرب البلقان الشهيرة قد اشتعل اوارها بين تلك الدولة حديثة الاستقلال ، الامر الذي ادى الى تمزيق البانيا ، واستيلاء جيرانها الطامعين فيها على اجزاء منها . فاحتلت مملكة صربيا اقليم كوسوفا ، واقتطعت اجزاء منها لتضم الى اليونان ومكدونيا والجبل الاسود .

وقد صادف قيام البانيا المستقلة نشوب الحرب العالمية الاولى ، فاختلت امور البانيا اختلالا كبيرا ، واصبحت ارضها نهبا للناهبين . حتى احتلت الجيوش النمساوية والايطالية اجزاء منها .

وفي معاهدة لندن السرية التي عقدتها في عام ١٩١٥ الدول الكبرى آنذاك (ايطاليا وروسيا وفرنسا وانجلترا) اتفق على تقطيع اوصال تلك الدولة ذات الاغلبية المسلمة ، فاطلقت فيها يد ايطاليا ، واتفق على تقسيم شمالي وجنوبي البانيا بين اليونان والصرب والجبل الاسود بشرط ان يبقى للالبان وطن مستقل صغير ، تهيمن ايطاليا على علاقاته الخارجية ... لكن قيام حكومة قوية في العاصمة الالبانية « تيرانا » افسد ذلك المخطط واستطاعت تلك الحكومة ان تلملم شعث البلاد ، وتنقذ ما امكن انقاذه من اشلاء البانيا باستثناء ما استقطع منها في الشمال والشمال الشرقي .

ولم يكن هذا الجزء المستثنى سوى اقليم كوسوفا الذي احتلته مملكة صربيا .

وحين انشئت عصبة الامم بعد الحرب العالمية الاولى ، اعترفت بالوضع الذي كان لالبانيا بعد تقطيع اوصالها . مما كان يعني اعترافا بضم كوسوفا الى صربيا ، واضفاء الشرعية على عملية فصل ذلك الاقليم عن البانيا الام . وفي ظل الامم المتحدة ، التي انشئت بعد الحرب العالمية الثانية ، فان المنظمة الدولية اقرت تلقائيا ما اعترفت به عصبة الامم لصربيا ، التي اصبحت تحمل اسم يوجوسلافيا ، بضم اقليم كوسوفا الى اراضيها .

وحينما انهار التفوق العثماني ، تألبت الممالك والامارات المجاورة على البانيا ، اثناء حرب البلقان ، ليس طمعا فيها فحسب ، ولكن لتصفي معها الحسابات القديمة ، ولتنتقم من شعبها الذي اقبل على الاسلام ، وان كان المسيحيون الشرقيون لم يسلموا من ذلك الانتقام .

ويسجل تاريخ البلقان مذابح دموية رهيبة شهدتها البانيا بعد عام ١٩١٢ ، راح ضحيتها الوف المسلمين ، والوف المسيحيين الارثوذكس ، الذين لم يغفر لهم الكاثوليك انتماءهم الى الكنيسة الشرقية .

وازاء ذلك المشهد المأساوي ، خرجت قوافل الالبان مهاجرة من الجحيم ، وباحثة عن ملاذ وملجأ . المسيحيون اتجهوا الى الغرب ، واستوطنوا في ايطاليا واليونان والولايات المتحدة الامريكية .

بالنسبة للمسلمين ، كانت استنبول هي مقر الخلافة والقبلة السياسية لكل مسلمي العالم . وكانت دمشق هي « الشام الشريف » التي شاع بينهم منذ ان ارتد عنها الصليبيون والتتار انها مدينة محروسة بالانبياء ومستعصية على سلطان الكفار ، الامر الذي يمكنهم من العيش فيها بامان (لا يزال في دمشق الى الان حي المهاجرين الذي استوعب افواجهم منذ ذلك الوقت).. وكانت مصر ركيزة ثالثة باعتبار وجود جالية البانية بها ، منذ تولي الحكم فيها محمد علي باشا الالباني الاصل ، في بداية القرن التاسع عشر واسس الاسرة المالكة التي زالت بقيام ثورة يوليو ٥٢ .

رحلة الشتات

ومثلما كانت مذابح عام ١٩١٢ بداية رحلة الشتات في التاريخ الالباني الحديث ، فانها ايضا كانت بداية رحلة الاحزان بالنسبة للذين بقوا في كوسوفا ، وقدر لهم ان يعيشوا غرباء تحت حكم الملكية اليوجوسلافية .

فقد عومل مسلمو كوسوفا باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية . والذين عاصروا تلك المرحلة القاتمة لا يزالون يذكرون كيف حرموا من كل شيء ، من التعليم ومن الوظائف الحكومية ومن اي خدمات كانت تقدمها الدولة ، حتى لغتهم الالبانية منعوا من استخدامها .

ويذكر العجائز الذين لا يزالون على قيد الحياة ان النظام الملكي في يوجوسلافيا حدد موقفه بوضوح من قضيتهم انهم يريدون ارضهم الغنية بمختلف الموارد الزراعية والتعدينية ولا يريدون البشر تماما كما تفعل اسرائيل الان في المناطق العربية المحتلة .

كانت الادارة اليوجوسلافية تعلن على الجميع ان المسلمين ليس لهم مكان في كوسوفا ، وان مكانهم

الطبيعي هو في تركيا ، حيث الخلافة والقيادة الاسلامية .

وترجم هذا الموقف في اتفاقية رسمية وقعت بين البلدين في عام ١٩٣٧ - اي حتى بعد سقوط الخلافة والغائها - تقضي بتهجير الالبانيين من كوسوفا الى تركيا نظير مبلغ من المال . ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ ، حال دون تنفيذ تلك الاتفاقية . وان لم يمنع من استمرار سياسة التهجير التي كانت تنشط وتهدأ تبعا للظروف .

ورغم ان انتقال يوجوسلافيا من الملكية الى الجمهورية بعد الحرب العالمية الثانية كان يمثل انقلابا شاملا في مختلف نواحي الحياة ، وانتقالا من النظام الملكي الاقطاعي والرأسمالي الى النظام الاشتراكي والشيوعي ، الا ان هذا الانقلاب لم يغير من اوضاع مسلمي كوسوفا شيئا .

فقد ظل مسلمو كوسوفا في حقيقة الامر عنصرا غير مرغوب في استمراره . وظل الاتجاه العام هو تهجير هؤلاء المسلمين الى تركيا ، حتى شهدت الخمسينات حملة تهجير واسعة النطاق ، لم تمانع الحكومة التركية في قبولها . وان اشترطت على كل مهاجر ان يوقع اقرارا بانه تركي الاصل، حتى لا يطالب باية حقوق باعتباره البانيا .

وبسبب تلك الملابسات التعيسة ، فقد ظلت كوسوفا حتى الخمسينات بؤرة للتخلف والجهل ، فضلا عن كونها مستودعا لاحزان المسلمين الالبان حتى تسجل الارقام الرسمية انه في سنة ١٩٥٠ بلغت نسب الامية في ذلك الاقليم ٩٠٪ . ولأن استخدام اللغة الالبانية كان ممنوعا حتى عام ١٩٤٥ ، فقد طبع اول كتاب بتلك اللغة في كوسوفا (ديوان شعر) في سنة ٥٢ ، بينما صدرت أول رواية البانية في بريشتنا عام ١٩٥٧ .

ثلاث مراحل

والاتجاه السائد بين الباحثين الالبان في كوسوفا ، يميز في حقبة ما بعد الملكية أوما بعد التحرير بين ثلاث مراحل اساسية . واحدة تبدأ من عام ٤٥ الى ٤٨ ، والثانية من ٤٨ الى ٦٨ ، والثالثة من ٦٨ فصاعدا .

في المرحلة الاولى التي استمرت ثلاث سنوات فقط كان مسلمو كوسوفا قد خرجوا لتوهم من عسف الملكية ، وقد عاشوا حالة من الانفراج النسبي ، خصوصا وان العلاقات كانت جيدة وقتئذ بين يوجوسلافيا والبانيا حتى وصفت بانها بمثابة « شهر عسل » بين النظامين



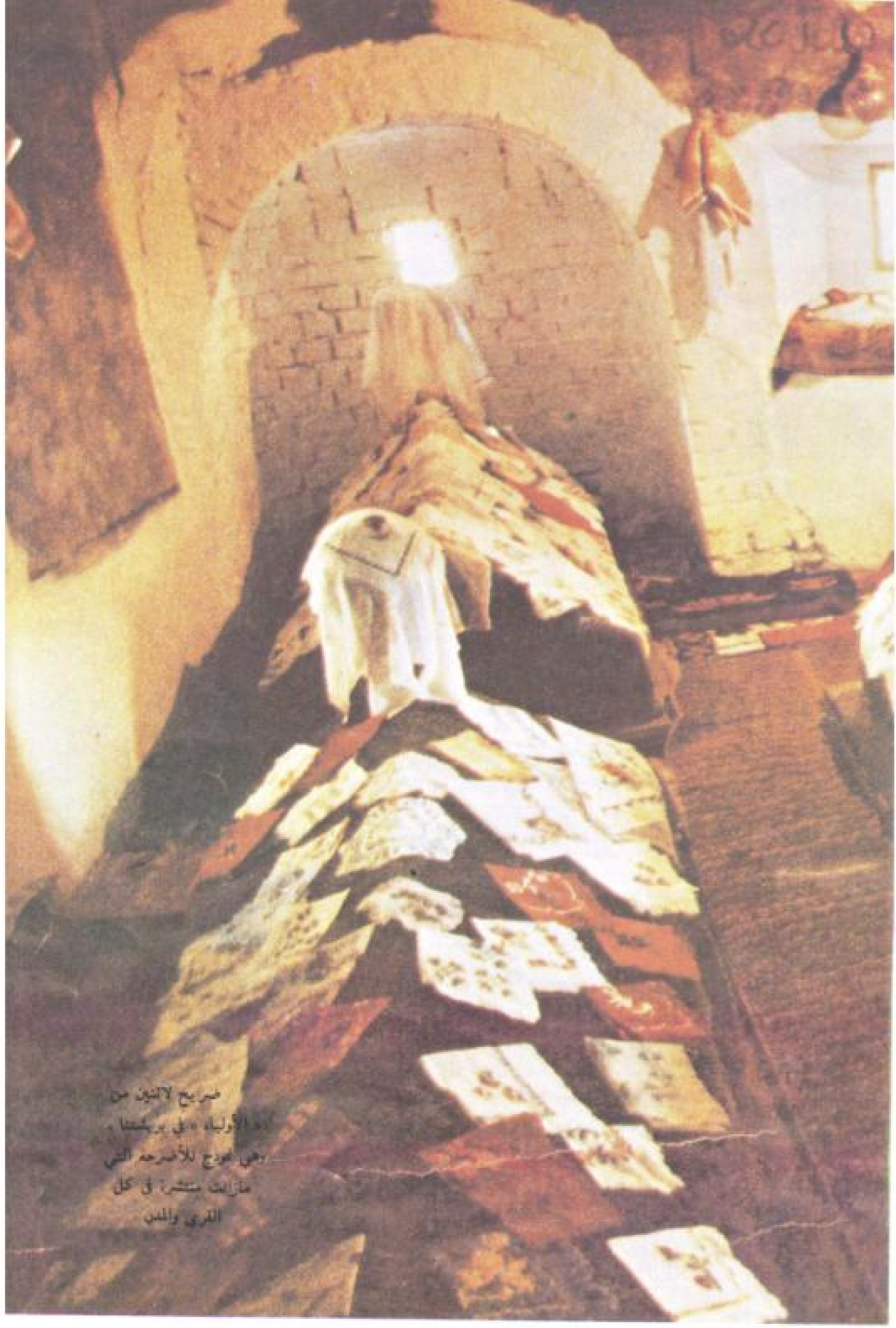
لوحة للفنانة الالبانية فاتمير (فاطمة) كريبا - امرأة من منطقة هاس قرب مدينة بريزرن

الشيوعيين اللذين تسلما السلطة في بلجراد وتيرانا .

لكن الازمة التي حدثت بين ستالين وتيتو ، وانحياز قادة تيرانا الى صف ستالين ، اصابت علاقات البلدين بالتوتر والقطيعة ، ومن ثم الخصومة . وكان مسلمو كوسوفا هم ضحية هذه الازمة ، التي كانت اول شرخ اصاب دول الكومنترن .

ولم يقتصر الامر على واقع تغير وحلم تبدد ، وانما قدر لمسلمي كوسوفا ان يعيشوا كابوسا ثقيلا طوال العشرين سنة التالية ، اي في المرحلة الثانية التي استمرت من ٤٨ الى ٦٨ وهي المرحلة التي عاشت يوجوسلافيا طوالها في ظل ما سمي بسياسة « القبضة القوية » .

خلال تلك الفترة كانت مقاليد الحكم في يوجوسلافيا منوطة عمليا الى الجناح المتشدد في قيادة الحزب ، الذي كان يقوده الكسندر رانكوفيتش ، وهو الرجل الذي يحمل



ضريح لاثنين من
الأولياء في بركشتنا ،
وهي نموذج للأضرحة التي
مازالت منتشرة في كل
القرى والمدن



أسرة ألبانية ، الأب لديه تسعة من الاولاد والبنات ، والحديث عن القنبلة السكانية ليس مستغربا .

الان مسئولية كل عمليات المصادرة للحريات والقمع ، والظلم الذي وقع على ـ اليوجوسلاف والمسلمون في المقدمة ـ على مقدار تلك السنوات العشرين .

وكانت جريرة اهل كوسوفا التي لم تغتفر لهم انهم غرباء ومسلمون ، فنالهم عسف مضاعف كما مر بنا قبل قليل . وامتد الظلم حتى شمل جهود التنمية في الاقليم .

فقد اهملت الزراعة والمراعي ، وهما ثروة اساسية في كوسوفا ، ونقلت معادن الاقليم الذي يعد من اكبر مصادر الرصاص والزنك والنيكل في اوروبا كلها ، فضلا عن الفحم الذي يشكل ٥٥٪ من احتياطي يوجوسلافيا ، نقلت هذه المعادن والخامات الى خارج كوسوفا ، ولم يترك للاقليم سوى بعض الصناعات الثقيلة التي ارهقتها ، ولم تلب احتياجات اهله العاجلة والملحة . في تلك المرحلة ، ازداد المسلمون خوفا وحزنا ، وازدادوا فقرا ايضا ! ولازالت تأثيرات تلك المرحلة مستمرة ، حتى ان دخل الفرد في كوسوفا يعد الان احط الدخول بيوجوسلافيا كلها .

وفي احصاء اخير نشرته مجلة « نين » اليوجوسلافية لمتوسطات الدخول في مختلف اقاليم وجمهوريات يوجوسلافيا ، تبين انه في الفترة من سنة ٥٣ الى ٧٩ ، زاد دخل الفرد في جمهورية سلوفينيا (لاحظ انها في الشمال) من ٩٣٥ الى ٤٩٣٦ دولارا ، اما جمهورية صربيا التي تطوق كوسوفا من ثلاث جهات ، فقد زاد دخل الفرد فيها خلال تلك الفترة من ٥٦١ الى ٢٣٩٠ دولارا . وفي جمهورية الجبل الاسود الملاصقة للاقليم من ناحية الغرب ، زاد الدخل من ٤٣٣ الى ١٥٣٤ دولارا اما في كوسوفا فان دخل الفرد في سنة ٥٣ لم يتجاوز ٢٦٨ دولارا ، وبعد اكثر من ربع قرن صار الكوسوفاري وهو على مشارف الثمانينات لا يزال اقل بحوالي ٢٥٠ دولارا من الدخل .. دخل الفرد ٦٧٦ دولارا . اي ان دخل المواطن كوسوفا الذي كان يحققه زميله في سلوفينيا في اوائل الخمسينات !

المرحلة الثالثة التي يرصدها الباحثون الالبان في كوسوفا ، هي تلك التي اعقبت سقوط رانكوفتش ، وسقوط سياسة « القبضة القوية » معه ، ابتداء من سنة ٦٨ والى الان .

وبالمقارنة بين المرحلتين ، يعتبر الكوسوفاريون ان صفحة جديدة بدأت منذ عام ٦٨ ، اعطوا خلالها مزيدا من الحقوق كفلتها التعديلات الدستورية التي تمت في عامي ٧١و٧٤ . واعترف للمسلمين بان يعلنوا عن اسلامهم في الاوراق الرسمية ، وهو ما كان محظورا من قبل ، وسمح لهم بقدر اكبر من الحريات الدينية التي شملت اقامة المنظمات وجمع الزكوات وترميم المساجد.

وفي ظل هذا الوضع الذي استجد اعطى اقليم كوسوفا قدرا اكبر من الاهتمام في خطط التنمية ، وسمح للسلطة المحلية فيه بتصنيع خامات الاقليم التي كانت تنقل الى خارجه لتصنع في جمهوريات يوجوسلافية اخرى .

وقد قدر لي ان ازور كوسوفا وقد قطعت شوطا في ظل هذه المرحلة الثالثة ..

في المشيخة الاسلامية

الان تعد بريشتينا هي بوابة الاقليم ومقر السلطة والادارة . هي عقل كوسوفا المفكر والمدبر في حقيقة الامر . لكن ضمير كوسوفا التاريخي مازال يرقد على بعد ٧٠ كيلو مترا ، حيث مدينة بريزرن العاصمة القديمة طوال القرون الخمسة الماضية ، ومنارة العلم والثقافة . اما قلب الاقليم ونبضه ، فيتوزع في مدن تريشا وجاكوفا وليبليان حيث مناجم الزنك والكروم والمغنيسيوم ومختلف الصناعات .

منذ اوائل الخمسينات نقلت العاصمة من بريزرن الى بريشتينا ، وفهم وقتئذ ان القطيعة التي حدثت بين البانيا ويوجوسلافيا كانت وراء اتخاذ هذا القرار . اذ لما كانت بريزرن اقرب الى الحدود الالبانية ، فقد كان مبررا في ظل تلك القطيعة ان تنقل العاصمة الى مسافة ابعد قدر الامكان عن الحدود ، وكانت بريشتينا هي التي رشحت لخلافة العاصمة القديمة .

سلكنا عدة شوارع ضيقة في سوق البازار ـ هكذا ينطقونها ـ قبل ان نصل الى مقر المشيخة الاسلامية في بريشتنا ، التي تباشر ادارة النشاط الديني ، المساجد والائمة اساسا ، في جمهورية الصرب واقليمي كوسوفا وفوبقودينا . ذلك ان مسلمي جمهوريات يوجوسلافيا الست يتوزعون على ٤ مشيخات او ادارات دينية ، كل واحدة تباشر مسئولية رعاية شئون المسلمين الدينية في رقعة معينة قد تضم اكثر من جمهورية .

اجتزنا بابا خشبيا لنمر بحديقة تفتقد إلى العناية ، تناثرت فيها جماعات من البشر حتى وقفنا على عتبات مبنى متواضع من طابقين ، هو مقر المشيخة الاسلامية في بريشتنا وليس مبنى المشيخة هو أول ما يصادف العابرين في فناء الحديقة لأن ثمة مسجدا تنطق ملامحه بالعراقة والقدم ، يستقبل الداخلين على الفور ، يحمل

اسم السلطان العثماني محمد الفاتح . في ركن آخر من الفناء شيد قائم صغير برزت منه صنابير للوضوء ، واحاط به مجرى للمياه . بينما طوق المكان كله بسور متداع التصقت به بعض النسوة والرجال العاجزين .

كان ذلك يوم الجمعة التي سبقت اول ايام عيد الفطر . ورغم ان الوقت كان لايزال مبكرا عن موعد الصلاة ، الا ان حلقات الجالسين ملأت المكان ، وقد غطى الجميع رؤوسهم بالطواقي البيضاء السميكة المصنوعة من اللباد او صوف الغنم ، والتي يطلق عليها الالبان اسم بليس او كلاش .

وفهمت فيا بعد ان هذا الحشد من البشر توافد الى مقر المشيخة لدفع الزكاة . ففي الطابق الاول للمبنى المواجه للمسجد كان الموظفون يتلقون من كل مسلم زكاته ، ويعطونه ايصالا بذلك ، وقيل لي ان حصيلة الزكاة في اقليم كوسوفا كله تقدر كل سنة بحوالي ٣٠ ألف دولار امريكي ، يفترض ان تذهب لحساب ترميم المساجد ، ولكنها منذ عشر سنوات توجه لبناء مدرسة ثانوية اسلامية جديدة بالمدينة بديلا عن مدرسة علاء الدين .

في الطابق العلوي ، التقيت بالشيخ اسماعيل حقي ، رئيس المشيخة الاسلامية في صربيا واقليمي كوسوفا وفويفودينا . وهو رجل تجاوز الستين من العمر ، قصير ونحيف ، ويلتقط انفاسه بصعوبة من جراء معاناته من مرض الربو ، الذي يجعل من استمراره في الحديث عملية مرهقة للغاية . وفي مكتبه مكيف الهواء كان يجلس بعض الائمة ورجال الدين ، الذين اشتركوا في الحديث تخفيفا عنه ، وتفصيلا لبعض ما لم يستطع ان يفصله .

بلغة عربية فصيحة وصحيحة ، ما زالت عالقة باذهانهم منذ كانوا تلامذة المدارس والكتاتيب المنقرضة ، كانوا جميعا يتحدثون ، باستثناء الشيخ حقي ، الذي كان يفهم العربية ولا يجيد التعبير عن نفسه بها .

كانت المعلومات التي حملتها من آخر دراسة حول مسلمي يوجوسلافيا ، لواحد من الباحثين اليوجوسلاف البارزين ، هو الدكتور احمد اسماعيلو فيتش تشير الى انه بين كل ستة مواطنين يوجوسلاف واحد مسلم ، وان مجموع المسلمين الذين يبلغ عددهم اربعة ملايين هناك حوالي مليون و٤٠٠ الف يدخلون في نطاق مسئولية مشيخة بريشتينا . كما انه من بين ٢٧٠٠ مسجد في انحاء البلاد ، ثمة ٦٧٠ مسجدا في دائرة اختصاص مشيخة بريشتنا ، كما انه من بين ١٩٥٠ من الائمة في كل يوجوسلافيا ، يتبع مشيخة بريشتنا ٥٠٠ امام

تسعيرة للغسل والدفن !

وكان مما قاله الشيخ اسماعيل حقي ومساعدوه ان مسلمي اقليم كوسوفا وحدهم حوالي مليون شخص ، وانه الى جانب مسئولية المشيخة الاسلامية عن الائمة والمساجد ، فان لديها جهازا خاصا للاشراف على الاوقاف ، تتبعه في انحاء كوسوفا ٣٠ دائرة ، تجمع ريع ما تبقى من عقارات موقوفة على المساجد ، لضمها الى ميزانية صيانة المساجد وترميمها .

سألتهم : من اين يتقاضى الائمة رواتبهم ؟

قالوا : ان المسلمين هم الذين يتحملون هذه الرواتب ، وكل رب اسرة يدفع بصفة ثابتة ما يعادل دولارا امريكيا كل سنة لامام المسجد الذي يسكن في نطاقه . ولكن الامام يمارس نشاطات اخرى تدر عليه دخلا كافيا ، واحيانا مجزيا . خصوصا وان الامام يقوم بوظائف متعددة ، مثل عقد الزواج ، وغسل الموتى ودفنهم . وتكاد تصبح هذه الوظيفة الاخيرة من واجبات الامام التي لا سبيل الى التحلل منها . لأن ثمة اعتقادا شائعا في أن وجود الامام الى جانب المتوفي في رحلة انتقاله الى الاخرة ، وتلاوته القرآن الكريم على روحه ، مما يخفف عنه العذاب في الاخرة .

ونظرا لاهمية هذه المسألة ، فقد اعدت لها المشيخة « تسعيرة » محددة ومفصلة ، معلقة في كافة المساجد . وهي تفرق بين اجر عملية الغسل اذا قام به الامام ، واذا قام به المؤذن . كما تفرق بين الاجر بحسب جنس المتوفي وعمره .

وتحدد التسعيرة الاجور مقومة بالدينار اليوجوسلافي على الوجه التالي ، علما بان الدولار الامريكي يعادل حوالي ٣٥ دينارا يوجوسلافيا .

× بالنسبة للامام ، اذا كان عمر المتوفي الرجل فوق ١٥ سنة فان اجر الغسل عليه ٦٠٠ دينار واذا كان تحت ١٥ سنة ينخفض الى ٤٠٠ دينار ـ اما اذا كانت امرأة فوق ١٥ سنة ، فان الاجر يصبح ٤٥٠ دينارا ـ واذا كانت اقل من ١٥ سنة فان الاجر يصل الى ٣٠٠ دينار .

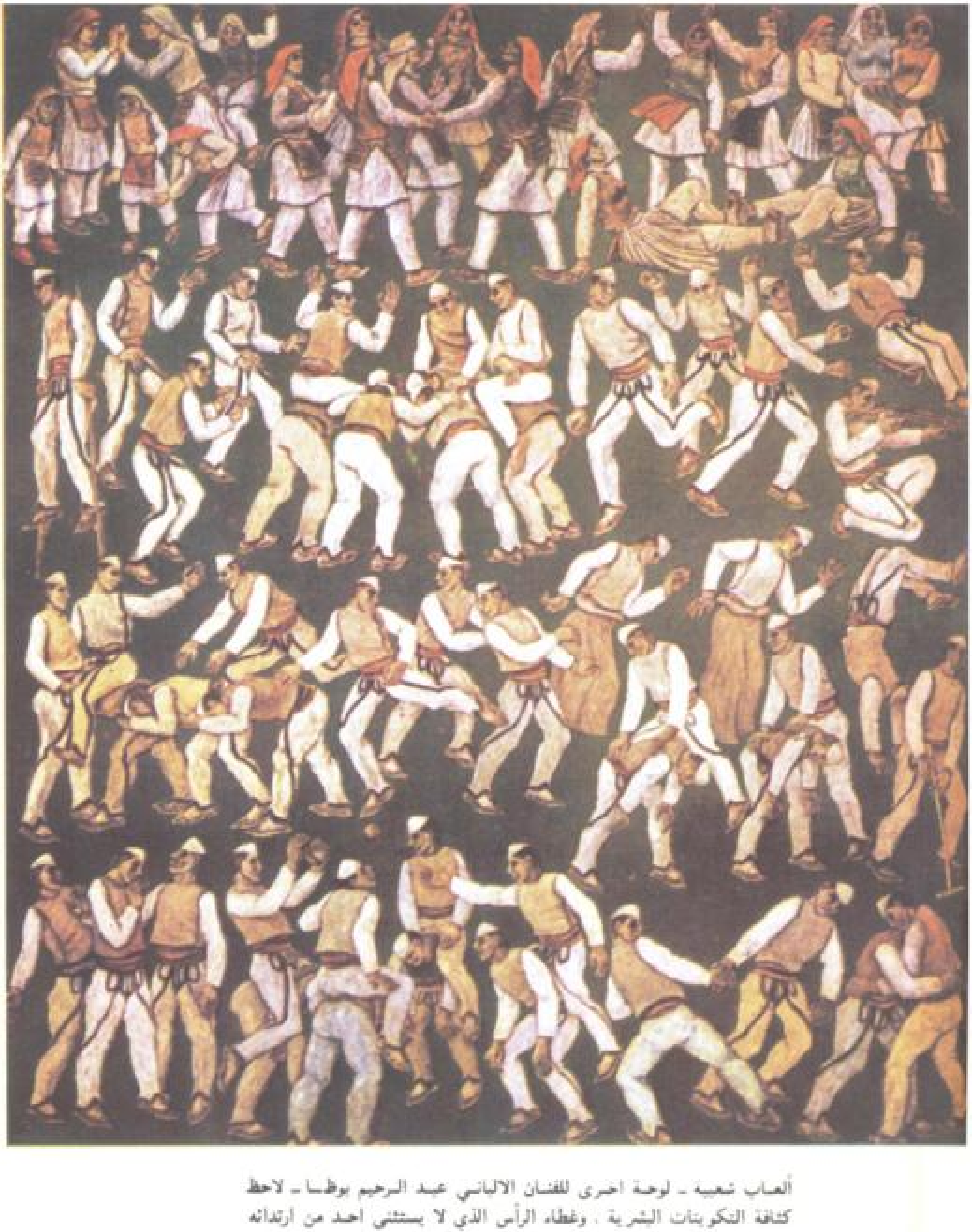
× في حالة المؤذن : اذا كان المتوفي رجلا وفوق ١٥ سنة فان اجر غسله ٣٥٠ دينارا ـ واذا كان اقل من ١٥ سنة ، يصبح الاجر ٢٥٠ دينارا ـ اما اذا كانت امرأة فوق ١٥ سنة فيكون الاجر ٣٠٠ دينار ـ واذا كانت اقل من ١٥ سنة يصبح الاجر ٢٠٠ دينار فقط .



لوحة عرس كوسو فاري للفنان الالباني عبد الرحيم بوظا ، العروسان في عربة مقفلة يجرها اثنان من الثيران .

عندما يلتقي أبناء البلد ويحنون الى رقصاتهم الشعبية بالسيوف ، يرقصون على دقات طبول الحرب !





ألعاب شعبية ـ لوحة اخرى للفنان الالباني عبد الرحيم بوظـا ـ لاحظ كثافة التكوينات البشرية ، وغطاء الرأس الذي لا يستثنى احد من ارتدائه

صوفيون ومن اهل الشيعة

وعندما تطرقت المناقشة الى عقائد الناس وعوائدهم ، قالوا ان سيادة المذهب الحنفي منذ تبني العثمانيون ذلك المذهب ، غالبة وليست مطلقه . وان هناك نسبة قليلة من الشيعة تتركز في بلدة جاكوفا ، وهم يسمون انفسهم علويين ويضعون الامام علي بن ابي طالب فوق الصحابة اجمعين . وقالوا ايضا ان الطرق الصوفية لا يزال لها وجود في كوسوفا ، وان « القادرية » اشهر هذه الطرق في بريشتنا وهي التي يرتبط اسمها بالصوفي البغدادي الاصل عبد القادر الجيلاني . وان ثمة طرقا اخرى تمارس نشاطاتها مثل الرفاعية ، والخلواتية والسعدية ، والنقشبندية التي تتفرع منها طريقة باسم اللامية ، وذلك غير البكتاشية وهي من الطرق التي ذاع صيتها في ظل الحكم العثماني .

ولكن المفاجأة الحقيقية ان نشاط هذه الطرق محصور في دائرة الشيعة . اذ المألوف والمتعارف عليه في مختلف دول آسيا وافريقيا ان تلك الطرق تجد تربتها الخصبة بين اتباع مختلف مذاهب اهل السنة بالدرجة الاولى . وعندما ابديت هذه الملاحظة ، قال احد الائمة الجالسين ان اهل السنة لا علاقة لهم بتلك الطرق الصوفية . ويستنكرون نشاطاتها وما يتخلل ممارساتها من بدع .

واضاف قائلا ، ان بعض المنتمين الى هذه الطرق ذهبوا بعيدا الى الحد الذي يعد خروجا عن الاسلام . ومن هؤلاء من لا يؤدي فريضة الصلاة ، اكتفاء بحلقات الذكر . ومنهم من يستخدم بعض النصوص للتحلل من واجباتهم كمسلمين . البعض يؤول الآية الكريمة « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ، بمعنى ان العبادات المفروضة على المسلمين تمارس حتى مرحلة معينة ، هي بلوغ اليقين . وبما انهم وقد وصلوا الى هذا القدر من اليقين في معرفة الله ، فانهم يعفون من العبادات !! علما بأن « اليقين » في الآية يقصد به الموت .

ومنهم من يستند الى الحديث الشريف « اذا احب الله عبدا لم يضره ذنب » ، لكي يرتكبوا كل ما يخطر على البال من معاص وذنوب ، على اعتبار ان ذنوبهم مغفورة ... وهكذا ...

قلت : اين تنشط هذه الطرق ؟.. قالوا في القرى بوجه اخص ، وفي بعض المدن .

قلت : هل تستقطب الشباب ؟

قالوا : ان الذين ينتمون الى تلك الطرق اكثرهم من كبار السن وبسطاء الناس الذين لا يعرفون شيئا عن دينهم ، وليست امامهم قنوات شرعية لتوصيل المعرفة الصحيحة اليهم ، فيتصوروا ان الدين هو هذه الطريقة او تلك .

قلت ، وائمة المساجد . ما دورهم ؟

قالوا : الامام يقول كلمته مرة كل اسبوع ، والناس يعيشون في عالم آخر ، يرفض الدين ويجرح تعاليمه الاساسية بقية الاسبوع .

واضاف احدهم ، ان الامام يجمع الصغار ليحفظهم بعض آيات القرآن في المسجد ، ولكن الاباء يبعثون باطفالهم الى المساجد قبل ان يلتحقوا بمدارس الحكومة ، واذا ما دخلوا المدارس وتدرجوا بين صفوفها ومراحلها نسوا كل شيء .

١٦ ركعة لصلاة الجمعة

كان قد حان وقت صلاة الجمعة وارتفع صوت المؤذن مكبرا ومنبها . فهبط الشيخ اسماعيل حقي من الطابق الثاني الى الطابق الارضي للمشيخة ، حيث اخليت غرفة من المكاتب وفرشت بالسجاد . وهناك جلس الرجل والى جواره بعض الشيوخ والموظفين ، ولم يذهب الى المسجد المجاور ، ربما بسبب اعتلال صحته ، او تجنبا لزحام لا يحتمله جسده الواهن .

وتبين لي ان الذاهب الى صلاة الجمعة يصلي ما مجموعه ١٦ ركعة ، في حين أننا في المشرق نصلي اربع ركعات فقط ، اثنتان سنة دخول المسجد ، واثنتان للجمعة . اما هم فيصلون اربع ركعات سنة الدخول ، ثم ركعتين للجمعة . ثم اربع ركعات سنة الجمعة . وبعدها اربع ركعات اخرى لصلاة الظهر تعقبها ركعتان سنة الظهر .

والسبب في انهم يصلون الجمعة ، ثم يصلون الظهر ، يرجع الى انهم يشكون في جواز صلاة الجمعة في غيبة وجود امام للمسلمين ، فيعوضون ذلك بصلاة الظهر اخذا بالاحوط . وهذا التصور تقره بعض فرق المسلمين ، ومن بينهم الشيعة .

كان اليوم التالي هو اول ايام عيد الفطر ...

وعندما خرجت في الصباح الباكر لالحق بالمصلين في مسجد السلطان مراد ، لم يكن في شوارع المدينة اية اشارة الى ان اليوم عيد عزيز على اغلبية سكانها . حتى

لمحت عن بعد حشد الرؤوس المغطاة بالطواقي البيضاء ، فادركت انني اقتربت من ذلك المسجد العتيق . كان اكثر المصلين من الشيوخ والصبية الصغار ، الذين ارتدوا ثيابا جديدة . وبدت اغطية رؤوسهم ناصعة البياض من الجدة ، وربما من قلة الاستعمال .

بعد الصلاة وخطبة العيد ، اصطف كثير من الفقراء على الرصيف ليأخذوا صدقاتهم بينما خرجت الجموع الكثيفة الى الشارع ، تتبادل التحية والتهنئة بالعيد . كانوا يتصافحون ويميل كل واحد براسه على كتف الاخر فيما يشبه العناق ، ثم يقول : برهير بيرامي . وهي عبارة بالالبانية معناها ، عيد سعيد (هير هي كلمة خير) .

وخلال اقل من عشر دقائق ، كان الجمع قد انفض ، وانصرف كل الى حال سبيله ! لحقت بالشيخ آدم ، خطيب المسجد وسألته ، هل انتهى العيد ؟ ـ فرد بالعربية ضاحكا وقال : كل سنة وانت طيب . لن تستطيع ان ترى العيد في المدينة ... واذا كنت مصمما على رؤيته فلاذهب بعيدا عن العاصمة ، حيث لم تطفيء بها بهجة العيد بعد .

وقبل ان ينصرف اقترح علي ان اصحبه الى قريته التي يأتي منها الى برشتنا كل صباح . ولما اعتذرت له بسبب ارتباطي بمواعيد اخرى ، قال ان امامي فرصة اخرى واخيرة في اليوم التالي ، الاحد . وعندئذ سألته عن عدد ايام عطلة العيد ، قال انه ليست هناك عطلة سواء في عيد الفطر او الاضحى . وانها كانت مصادفة بحتة ان جاء عيد الفطر هذا العام مع العطلة الاسبوعية ، العادية ، يومي السبت والاحد ، مما اتاح الفرصة لمن يريد ان يحتفل بالمناسبة .

الريف بغير قناع

طبقا لنصيحة الشيخ آدم ، خرجت في سيارة صديق هو الدكتور محمد موفاكو ، السوري الجنسية والالباني الاصل ، لرؤية العيد خارج بريشتنا ...

كانت وجهتنا هي بلدة بيا ، وهي مدينة صغيرة تبعد عن عاصمة الاقليم بحوالي ٨٠ كيلو مترا ، والطريق اليها يمر بعديد من القرى ، التي كانت تبدو من بعيد مثل جزر طافية وسط بحر واسع من الحقول المكسوة بزراعات القمح والذرة ، او بزهور عباد الشمس ذات الصفرة البديعة ، التي تشكل بذورها مصدرا هاما للزيوت تميزت به منطقة كوسوفا .

عند مداخل القرى كان الصغار يلعبون بثيابهم الجديدة ، وكانت جماعات من الفتيات قد تحلقن في دوائر منفصلة تحت ظلال الاشجار ، بضفائر ذهبية طويلة تطايرت في الهواء ، وثياب منقوشة ولامعة تميزها السراويل الطويلة والفضفاضة ، التي تعرف باسم « شيرفل » وهو الزي القومي للالبانيات الذي اختفى من المدن .

احيانا كانت النسوة من الجيل الذي لا يزال متمسكا بالتقاليد القديمة في الزي ، يتمنطقن بحزام فوق السروال ، تتدلى منه على المؤخرة قطعة من القماش الاسود على شكل نصف دائرة ، يفترض انها لحماية السروال من الاتساخ عند الجلوس على الارض .

في قرى اخرى كانت النسوة يضعن على الخصر قطعة مستطيلة من الخشب تغطي بازار يلتف حول الجزء السفلي ، واصلا الى القدم ، بحيث تؤدي قطعة الخشب وظيفة حامل الستارة . ويفترض في هذه الحالة ان وضع الازار على ذلك النحو يعطي حرية اوسع في الحركة ، وقدرا اكبر من الاحتشام ، اذ ان المرأة وهي سائرة في الطريق ، تبدو كما لو كان نصفها الاسفل يتحرك داخل « برميل » كبير .

واكتشفت في اول بيت دخلته ان خلع الحذاء على الباب تقليد يلتزم به الجميع . وهو نابع فيما يبدو من الحرص على التشدد في مسألة طهارة المكان ، خشية ان يلوث الحذاء طهارة البيت ، اسوة بتقاليد الدخول الى المسجد .

مع طقوس العيد

في بيت الحاج محمد اسلامي ، الذي ادى فريضة الحج اربع مرات ، وكان مسئولا عن شئون الائمة في البلدة حتى العام الماضي ، كان واضحا ان غرفة الاستقبال على الاقل تنتمي الى العصر العثماني ، باراتكها الملتصقة بطول الجدران الاربعة ، والحشايا المكسوة بالقماش المنقوش والمطرز .

قال الحاج اسلامي ان الناس في العيد يخرجون من المساجد الى زيارة قبور اقاربهم كما يفعله كثيرون من المسلمين في المشرق . ثم يأتي الرجال لزيارة امام مسجد الناحية في اليوم الاول ، ويقوم هو في اليوم التالي برد الزيارة لكل الذين هنأوه بالعيد . وتظل الزيارات التي يتخللها تناول الحلوى التركية هي السمة الاساسية لاحتفال الكبار بالعيد .

وكانت لنا تجربة صعبة مع تقاليد العيد . فعندما



الاعلام الالبانية ضرورية في كل عرس كوسوفاري ، كانت الاعلام محظورة باوامر من السلطة اليوجوسلافية حتى عام ١٩٦٨ .



من الرقص الشعبي الالباني ، الذي لا يزال له وجود ، باعتباره جزءا من هوية وتراث اهل الاقليم ، رغم انه شديد التأثر بالمرحلة العثمانية ، وتكوين بشرى غريب في أوروبا ، ينطق بالعلامات الشرقية ، الصورة من كوسوفا ، لكنها مكررة في كل بلد في المشرق (الى اليسار)



زرنا اسرة البانية اخرى ، لم تلبث دقائق حتى جاءت ربة البيت بشراب مثلج يتناولونه مع قطع صغيرة من الشيكولاته . مرت علينا السيدة بصينية الشراب ثم وقفت تنتظر حتى فرغنا ، وجمعت الكؤوس الفارغة . ثم غابت دقائق لتعود بالصينية ذاتها وعليها صحن كبير تتربع فوقه فطيرة ميزت فيها السكر والعسل . وكررت ربة البيت نفس القصة . وزعت علينا انصبتنا ووقفت تنتظر ، حتى فرغنا ، ثم جمعت الاطباق وغادرت القاعة . واختفت بعض الوقت ثم عادت حاملة الصينية بحذر . خشية سقوط اي من الاطباق التي رصت عليها . وتبين لنا ان الاطباق احتوت على ارز باللبن اضيف اليه قليل من الملح وليس السكر كما اعتدنا . كان الطبق عبارة عن كتلة شهية من الدسم المعتبر . ظلت ربة البيت في انتظار انتهائنا من هذه الحلقة الثالثة في مسلسل الاستقبال ، حتى حملت الاطباق وغادرت القاعة لتعود في مرة رابعة بالقهوة المضبوطة ، التي اختتم بها المسلسل الذي يتكرر مع كل القادمين !

اثار انتباهي ايضا ان الالبانيين في القرى خاصة ، لا يزالون يعيشون مرحلة المجتمع المنفصل ، الذي تتباعد فيه المسافات بين الرجال والنساء . حتى قيل لي انه في كثير من القرى الالبانية لا يزال الزواج يتم عن طريق الوسطاء . والوسيط هناك رجل وليس امرأة (خاطبة) طبقا لما هو معروف عندنا . وهم يسمونه (مسيت) اي وسيط ايضا . وهو عادة من الشخصيات التي يحترم دورها في القرية . وكلمته مسموعة لأن الثقة في شخصه تكون كبيرة في العادة .

يقوم (المسيت) بالاتصالات التمهيدية ، واذا كللت مساعيه بالنجاح ، تبدأ مراسم الزواج بمبلغ من المال يدفعه والد العريس لاسرة العروس لتغطية نفقات تجهيزها ، على عكس ما يحدث في الصرب اذ تتولى العروس التجهيز ، وتنتهي تلك المراسم بعقد الزواج على يد امام القرية ، حيث يذهب العريس الى بيت العروس في موكب لابد ان يتصدره العلم الالباني بلونه الاحمر القاني ، وهو ما كان محظورا حتى سنة ٦٨ ، ثم ابيح للناس الخروج به في مثل تلك المناسبات . وخلف العلم يسير اهل العريس ، وجماعات من حملة الطبول والمزامير واهل القرية ، الى حيث يتم العقد في بيت العروس .

ورغم ان الزواج بواحدة هو الاصل الذي يعترف به القانون ، الا ان تعدد الزوجات لايزال قائما ، ولم يستطع القانون ان يوقفه ، بل انهم استطاعوا ان يفيدوا من نصوص القانون في تقرير حقوق الابناء من الزوجتين الثانية والثالثة !

عندما سألتهم قالوا لي ان التعدد موجود وان ظل استثناء ، وفي القرى من هو متزوج باثنتين وثلاث . ان القانون لا يسمح الا بتسجيل الزواج الاول ، وان كان لا يمانع في قيام علاقات للرجل مع اخريات ، شأن ما هو سائد في كافة الدول الاوروبية .

قلت لمحدثي وهو خطيب احد المساجد ، لكن ذلك يسبب مشكلات للزوجة الثانية وابنائها في حالة وفاة الزوج . فقال ان القانون يجيز توريث ابناء الرجل من اية امرأة اخرى ، حتى وان لم تكن زوجته ، اذا شهد اثنان بان الرجل عاشر تلك المرأة وانجب منها . ولكن القانون لايجيز توريث الزوجة الثانية ، التي عادة ما تدير امورها مع الابناء او تصبح وصية عليهم ان كانوا صغارا .

ونستطيع ان نضيف تعدد الزوجات الى اسباب زيادة حجم الاسرة الالبانية . لكنه يظل سببا ثانويا ، لأن التعدد لايزال يشكل استثناء وليس قاعدة . اذ من الثابت ان اسرة الابناء العشرة لا تزال موجودة بكثرة في القرى الالبانية ، اما في المدن فان متوسط عدد الابناء في الاسرة يصل الى خمسة او ستة ، وهو معدل مرتفع باي معيار ، حتى تشير الدراسات الرسمية الى ان معدل الانجاب والتزايد السكاني في كوسوفا يفوق كل متوسطات الانجاب في يوجوسلافيا بل وفي اوروبا

ونتائج الاحصاءات الرسمية ، تشير الى ان هذا الوصف ليس مبالغا فيه على الاطلاق ..

القنبلة السكانية

فعند مقارنة المجموع العام للسكان في يوجوسلافيا طبقا لاحصائي ٧١و٨١ يتبين ان سكان البلاد زادوا بحوالي ٢ مليون نسمة خلال تلك السنوات العشر (سكان يوجوسلافيا في عام ٨١ اصبحوا ٢٢ مليونا و٣٥٢ الفا).. ويلفت النظر هنا ان اقليم كوسوفا قد اسهم في تلك الزيادة بنسبة ١٧٪ ، في حين ان سكان الاقليم لا يمثلون سوى ٦٪ من مجموع سكان يوجوسلافيا .

وفيما يتعلق بكوسوفا ، فان سكانها في احصاء ٨١ وصلوا الى مليون و٥٨٤ الف نسمة تقريبا بزيادة ٣٤٠ الف نسمة عن تعداد ٧١ . ولابد ان نقرر ان سكان كوسوفا ليسوا كلهم البانا ، وليسوا كلهم مسلمين . ولكن نتيجة لعمليات الاتصال والتهجير التي كان ضروريا ان تتم عبر السنوات الماضية ، فان نسبة الالبان في

كوسوفا اصبحت ٧٧,٤٪ ـ اغلبيتهم الساحقة (٩٥٪) من المسلمين . بينما يشكل الصربيون ١٨,٥٪ .

وفي هذا الصدد ، فثمة اشارة لها مغزاها ظهرت في نتائج الاحصاء الاخير . ذلك ان جداول الاحصاء لم تكن تتضمن في الماضي اية بنود تتعلق بديانة الناس ، وانما كان تصنيفهم يتم في ضوء تقسيمات جغرافية او قومية ، كما هو السائد في كافة الدول الاشتراكية التي تلغي مسألة الدين من جداول الاحصاء . لكنه منذ عام ٧١ سمح للناس لاول مرة بان يعلنوا عن دينهم في الجداول الرسمية للتعداد . وجاءت نتيجة احصاء ذلك العام مشيرة الى ان الذين اعلنوا رسميا عن انهم مسلمون ٢٦,٣٥٧ شخصا ، اما في احصاء٨١ فقد تجاوز الرقم الضعف ، واصبح ٥٨,٩٥٠ شخصا . اي انه من بين حوالي مليون مسلم في كوسوفا (طبقا للاحصاء الاخير فان الالبان وحدهم وصل عددهم الى مليون و٢٢٧ الف و٢٤٢ نسمة) ، فان ٥٩ الفا فقط هم الذين تشجعوا واعلنوا عن اسلامهم في استمارات تعداد السكان .

اما توزيع السكان بحسب متوسطات العمر فيكاد يوحي انه حدثت « هجمة » على الانجاب حتى ان ٥٢,٢٪ من السكان تقل اعمارهم عن ٢٥ سنة ، اي ان اكثر من نصف السكان من الشباب والاطفال . بينما ٤٢,٦٪ من السكان من الرجال والنساء في متوسطات العمر ، ويمكن ضمهم الى قوى الانتاج الفعالة ، اما الشيوخ فلا تتجاوز نسبتهم ٥,٢٪ .

والمؤكد ان « هجمة » الالبان في كوسوفا على الانجاب هي من قبيل تثبيت الهوية وتأكيد الوجود والدفاع عن الذات .

لقد كانت تلك الهجمة على الانجاب مقدمة لهجمة مماثلة على التعليم ، الذي تدرس فيه المواد باللغتين الالبانية والصربية ، مما شكل في النهاية ضغطا متزايدا على سوق العمل لم يحتمله اقتصاد كوسوفا النامي ..

إن التعليم الجامعي الذي بدأ في عام ١٩٦٠ بعدد لا يتجاوز ٩٥ طالبا ، يستوعب الان ، بعد عشرين عاما فقط ، ٤٥ الف طالب وطالبة بينهم ٣٢ الف طالب الباني . وهؤلاء ليسوا كل الذين انتهوا من تعليمهم الثانوي لان كليات الجامعة لا تستطيع ان تستوعب كل حملة الثانوية . وعلى سبيل المثال فقد انتهى ١٧ الف طالب من التعليم الثانوي في عام ٨٢/٨١ ـ ولكن الجامعة لم تقبل غير ٩ الاف فقط ، اما الباقون وعددهم ثمانية الاف فقد اضيفوا تلقائيا الى سوق العمل . ولهذا السبب فليس مستغربا ان يصل مجموع عدد العاطلين الى ٧٠ الف شخص ، يتزايدون بمعدل ١٤ الفا سنويا ، طبقا لتقدير السلطات المحلية .

ان هموم كوسوفا كثيرة ، لكن الشاغل الاول للمسئولين في الاقليم هو قضية التنمية الاقتصادية ، التي يرون فيها المفتاح الاول ، ان لم يكن الاوحد لحل كل مشكلات بلدهم ...

نهاد اسلامي وزير الاعلام المحلي قال لي ان تنمية البشر قطعت شوطا كبيرا ، لكن اي إنجاز على هذه الجبهة قد يعد عملا سلبيا اذا لم تواكبه تنمية اقتصادية وبالقدرات المتوفرة لدينا فان حركتنا ستظل بطيئة لاننا مقيدون بمواردنا الذاتية . وهي لا تغطي طموح « الانطلاقة الذي نأمل فيه » .

صلاح الدين الايرائي وزير الاقتصاد قال لي ان كان ثمة خلل في البناء الاقتصادي في الاقليم ، اذ رغم وفرة محاصيله خصوصا القمح والذرة والشعير والفواكه ، ورغم مراعيه الهائلة وثروته الحيوانية ذات الجودة المتميزة ، رغم هذا وذاك ، فان اقتصاد كوسوفا كان يقوم بنسبة ٨٥٪ على الصناعة . التي استثمرت معادنه ومصادر الطاقة فيه .. وفي السنوات الاخيرة بدأت عملية الاهتمام بالزراعة والري والسياحة . وتلك مجالات « بكر » ما زالت بحاجة الى اكتشاف جديد ، ويستطيع رأس المال العربي ان يلعب دورا نشطا فيها .

الياس الياس مدير اكبر المصارف (مصرف كوسوفا) ابدى دهشة من انه لا توجد اية علاقات بين المؤسسات الاقتصادية في كوسوفا وبين العالم العربي « حتى علاقات المراسلة والحوار غير قائمة » ويذكر ان بلجراد لم تعد الباب الوحيد ليوجوسلافيا ، وانه في ظل السياسات المتبعة حاليا اصبحت هناك ابواب اخرى وقنوات اخرى يمكن ان يتحقق عبرها الكثير من المصالح الاقتصادية لكافة الاطراف .

ويبتسم الرجل وهو يقول ان كل تعاملنا مع العرب يتم الان عبر مضخات البترول التي تصب لدى السلطات الفيدرالية في العاصمة ، وحتى هذه المضخات يتقلص دورها الان بعدما ارتفع سعر النفط ، وصرنا نعتمد في التدفئة بصورة متزايدة على الفحم والخشب الوفيرين في كوسوفا .

ليس مسلمو كوسوفا الذين هم بحاجة الى ان يستعيدوا موقعهم في الذاكرة العربية الاسلامية ... ولكن حكومة كوسوفا ايضا تطرح المطلب ذاته ، وان خصت به المصارف العربية !

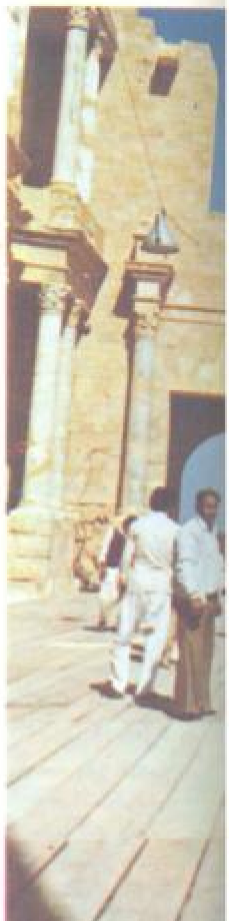
اويا الأمس
طرابلس اليوم



ح الروماني في مدينة صبراتة وقد استغله [illegible]



استطلاع : صادق يلي
تصويـر : صلاح آدم



زارها الرحالة العربي ابن بطوطة ، ووقف أمام آثارها القديمة ، كما كان يفعل دائما كلما حط رحاله في أي مكان يبحث فيه عن التاريخ ... وخرج من وقفته القصيرة هذه وهو يتساءل : لماذا عاشت طرابلس أو أويا ، وهذا هو اسمها القديم ، وبادت المدينتان الأثريتان الاخريان : صبراته ولبده الكبرى ، وقد كانت هذه المدن الثلاث مدينة واحدة ؟

لم تطل وقفته مع تساؤله ، ففي ترابها وبين آثارها وعلى الاحجار التي تبقت من سورها الروماني القديم ، عثر ابن بطوطة على الاجابة التي كان يبحث عنها . لقد عاشت أويا لانها اكثر هذه المدن الثلاث خصوبة . من ارضها كان يأكل الرومان الزيتون والحبوب فقد كانت من اخصب بقاع شمال افريقيا واكثرها عطاء .

ذهبنا اليها لنكمل الرحلة مع التاريخ . ما هي قصة هذه المدن الثلاث ؟ وماذا ترك الرومان الذين استعمروا هذه المنطقة العربية لاكثر من ستة قرون من الزمان ؟ وكيف تبدو طرابلس العاصمة الليبية أو أويا اليوم ؟

ونبدأ من حيث تنتهي تساؤلاتنا ... وصلنا اليها في الربيع ... مدينة جميلة ولكن اكثر دقة فهي مدينتان لا مدينة واحدة ... مدينة قديمة ببيوتها ، بأسواقها ومقاهيها العربية . وأزقتها الضيقة المسقوفة ومساجدها الأثرية وسورها القديم .

ثم هناك بعد ذلك طرابلس الحديثة بشوارعها الفسيحة واشجار نخيلها الوارفة ومبانيها الحديثة ، ثم شواطئها الجميلة التي تمتد بمحاذاة البحر المتوسط في هذا العناق الابدي بين الماء والارض ، مصيف من اجمل ما وقعت عليه اعيننا في المغرب العربي ، ولكن يبدو ان أحدا لم ير معنا ما رأيناه ، او هو رأي ولكنه مضى دون ان يتوقف لحظة يتأمل منها هذا الجمال الذي وهبته الطبيعة بسخاء لهذه المنطقة التي يمكن ان تصبح مصيفا عالميا . ولكن أليس هذا هو حال معظم المدن العربية التي عاصرت تلك الحقبات البعيدة الموغلة في التاريخ .. قديم وحديث ماض وحاضر ... ولكن تبقى بعد هذا صور هذا الماضي البعيد حية ماثلة في كل اثر يحكي فصلا من هذا التاريخ .

ذهبنا كما ذكرت لننقل جانبا من صور هذا التاريخ القديم لمدينة أويا والمدن الثلاث التي قامت عليها مدينة طرابلس الحالية .

يرجع تأسيس مدينة اويا الى الألف الأول قبل الميلاد على يد الفينيقيين الذين كانوا من انشط الشعوب القديمة في التجارة ، فأخذت سفنهم تجوب حوض البحر المتوسط ، وهناك كونوا محطات يتزودون منها بالماء والمؤن ، وكبرت هذه المدن واصبحت مدنا غاصة بالسكان ، فكانت لبدة الكبرى وأويا وصبراته محطات لتجارتهم كما ان هذه المدن كانت تزخر بسلع اولية هامة في تجارة العالم القديم مثل الاحجار الكريمة والعاج وخشب الأبنوس والحيوانات المتوحشة التي كانت تستخدم في حلبات المصارعة ، وقد ارتفع شأن هذه المدن بعد ان حولها الفينيقيون بمشاركة ليبية الى مستوطنات لها اهميتها الاقتصادية والسياسية .

وقد بلغت مدينة أويا وهي طرابلس الحالية أوج ازدهارها في القرن الثاني الميلادي ، ويظهر ذلك من خلال المكتشفات الاثرية التي ترجع الى تلك الفترة ، ولو ان معظم معالم أويا الاثرية قد طمست ولم يبق منها الا النزر اليسير ومن اهمها قوس مركوس اوريليوس الذي يقع قرب باب البحر بالمدينة القديمة بطرابلس ، بل هو اهم معلم تاريخي لمدينة طرابلس الحالية . اذ أن ظروف مدينة أويا التي بنيت مدينة طرابلس على انقاضها ، جعلت اعمال الحفر صعبة وتكلف الكثير ، وبالرغم من ذلك فقد ادت المصادفات الى الكشف عن معالم اثرية عند إقامة بعض المشاريع العمرانية ، او شق بعض الطرق الجديدة .

قوس ماركوس اوريليوس

يعد قوس ماركوس اوريليوس بمنطقة باب البحر امام ميناء طرابلس من أهم معالم المدينة هو الاثر الوحيد الذي لا يزال باقيا والذي يدل على عظمة تلك الحقبة التاريخية لليبيا . وقد كلف المسؤولون الليبيون عالم الآثار (جاكو موكابوتو) والمعماري (فاوستوا) سنة ١٩٣٧ بترميم القوس ، وظهرت دراسة متكاملة عن هذا القوس في إحدى الدوريات التي تنشرها ادارة الآثار .. والمتاحف الليبية تذكر ان هذا القوس بني سنة ١٦٣م تكريما للامبراطور ماركوس اوريليوس والامبراطور لوكيوس فيروس على نفقة أحد أبناء اويا ، واقيم هذا

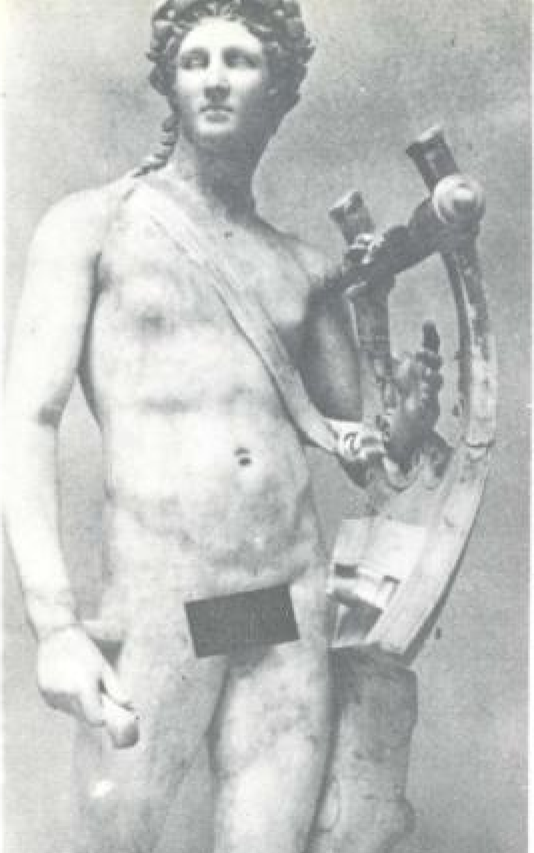
القوس عند تقاطع الطريقين الرئيسيين في مدينة اويا ، وللقوس اربع واجهات ، كل واجهة تقابل أحد جانبي الطريقين ، يعلو القوس قبة مثمنة الاضلاع ومداخل القوس جميلة على شكل نصف دائرة ، وقد زينت واجهاته ببعض المنحوتات الرخامية ورسوم لبعض المؤلفات القديمة وتماثيل للاباطرة ومنحوتات أخرى لآلهة الحب ممسكة بأكاليل الغار ثم شعارات إلهة النصر المجنحة (فكتوري) والالهين (ابولو ومنيرفا) .

لقد ذكر الرحالة العرب هذا القوس ووصفوه في كتبهم أمثال الرحالة المغربي العبدري الذي مر بطرابلس سنة ٦٨٨ هجرية والرحالة التجاني سنة ٧٠٦هـ وقال عنه انه : من المباني العجيبة وهو على شكل قبة من الرخام المنحوت ، وهناك الكثير من الرحالة العرب والاجانب الذين وصفوا قوس ماركوس اوريليوس ، وذكروا تفاصيله كأحد المعالم الهامة لمدينة طرابلس .

يقول مدير متحف السراي الحمراء الذي جمعت فيه آثار ليبيا : انه من حسن حظ ليبيا ان الايطاليين الذين استعمروا بلادنا في العصور الحديثة كانوا يعتقدون انهم لن يخرجوا من ليبيا ابدا ، وان ليبيا جزء لا يتجزأ من ايطاليا ، لذلك لم يحاولوا نقل اي اثر تاريخي من تماثيل رخامية او لوحات اثرية الى ايطاليا وبذلك بقيت كل الاثار المكتشفة في مواقعها في مدن ليبيا الاثرية دون ان تسرق او تهرب الى اي مكان كما حدث في كثير من بلادنا العربية الاخرى . وملاحظة اخرى يجب تسجيلها هنا وهو ان ابناء ليبيا قد اهتموا بالدراسات التاريخية القديمة التي تخص بلادهم وصدرت لهم عدة كتب ودراسات تناولت تاريخ ليبيا ، حتى ان جامعة طرابلس كلفت بعض أساتذتها وطلبتها بمتابعة هذه الدراسات ومراجعة وجمع كل ما كتب او نشر من مقالات او كتب وخاصة في ايطاليا واليونان ، وبذلك حوت المكتبة التاريخية في ليبيا عدة بحوث ودراسات قديمة تناولت تاريخهم القومي .

لبدة الكبرى

اما المدينة الاثرية الثانية التي تمثل واحدة من المحطات التجارية فهي لبدة الكبرى وتقع الى الشرق من مدينة طرابلس على بعد ١٢٣كم على الطريق الساحلي ، وتعد لبدة من المدن التاريخية الكبرى لعظمة آثارها الباقية ، لقد كانت لبدة من بين اكبر المدن واوسعها عمرانا في العصر الروماني وبصورة خاصة في عهد الاباطرة من اسرة سويروس ١٩٣ - ٢٥٥م الذين



تمثال جميل من الرخام الابيض للاله (أبولو) رب الموسيقا عثر عليه في حمامات هادريان في لبدة الكبرى ، ويعود الى القرن الثاني الميلادي .



مجموعة من طلبة المدارس في طريقهم لمشاهدة آثار مدينة صبراته التي تقع على بعد ٧٠ كيلومترا غرب مدينة طرابلس .

◀

إحدى المدرسات تشرح لطالباتها درسا في تاريخ ليبيا القديم بين أطلال مدينة صبراته الأثرية .



جانب من حمام الامبراطور هردبان في مدينة لبدة الكبرى وبقايا الاعمدة والتماثيل الرخامية





ينحدرون من أسرة عريقة من مدينة لبدة نفسها . فتمتاز هذه المدينة بكثرة آثارها القائمة من اقواس وميادين وشوارع ومعابد . وبالامكان تتبع نمو المدينة واتساعها بالوقوف على التواريخ المتتالية التي اقيمت فيها المباني العامة كمبنى السوق والمسرح ثم توالي انشاء المباني الاخرى خلال القرن الاول والثاني الميلاديين والتي من بينها حمامات الامبراطور هارديان التي اقيمت سنة ١٢٦ - ١٢٧م ، وجددت في عهد الامبراطور سبتيموس سفاروس ١٩٣ - ٢١١م . ففي عهد هذا الامبراطور الليبي المولد حظيت لبدة بنهضة عمرانية كبيرة ، وكانت تتمتع بنظام اداري وتشريعي موروث ، فكانت تسميات كبار الموظفين مثل (السوتيط) ومعناها حاكم وناظر المال وقادة الجيش والجباة ، بل ان الطابع الوطني في المجالات الثقافية والسياسية كان يحمل الصبغة الليبية الوطنية .

الامبراطور سبتيموس سفاروس

ان هذا الامبراطور منزلة كبيرة في التاريخ الروماني وتاريخ مدينة لبدة بالذات ، وشخصيته تأتي في الدرجة الثانية بعد يوليوس قيصر ، ولد بلبدة سنة ١٤٦م ولما بلغ أشده دخل في الجيش الروماني باعتباره مواطنا منهم ، وشارك في عدة حروب في سوريا وآسيا الصغرى ، ولما ظهرت مقدرته الحربية والادارية عين قائدا عاما للجيوش الرومانية ، وفي سنة ١٩٣م زحف بجيشه الى روما فنصبوه امبراطورا عليهم ، ووصل الرومان في عهده الى اعلى درجات المجد واتساع الملك ، ولم ينس هذا الامبراطور مسقط رأسه لبدة فقد وجه اليها اهتمامه الزائد فتحسنت احوالها الزراعية والعمرانية وادخل ابناء ليبيا الاكفاء في مناصب الدولة فارتفع بذلك قدرهم ، وشيد لحماية الامن في مداخل ليبيا القلاع البرية واشغلها بالجند ومعداتهم الحربية كما اقام الحصون والابراج البحرية على سواحل ليبيا ، ويكفي لبدة فخرا انها انجبت الامبراطور سبتيموس سفاروس الذي بنى تلك المدرجات الضخمة ومدارج الالعاب واقواس النصر وبقايا القلاع والقنوات المائية .

والحقيقة التي يجب ذكرها هنا عن آثار لبدة بصفة خاصة وآثار بقية المدن الاثرية بصفة عامة هو ان عامل الرطوبة ورمال الصحراء قد أثرت كثيرا على تلك

منظر عام لقوس الامبراطور مركوس أوريليوس بباب البحر بالمدينة القديمة بطرابلس



المقتنيات الاثرية فأدت الى تصدعها وتآكلها لذلك فان الجهود المبذولة لترميم هذه الآثار باتت مجهدة ومكلفة وتحتاج الى كثير من العناد لاعادتها الى صورتها القديمة ، لذلك أولى المسؤولون في وزارة الاعلام الليبية هذا الجانب عناية فائقة فقد شاهدنا جيشا من الفنيين واخصائي الآثار يقومون بترميم هذه الآثار واعادتها الى صورة مشابهة لما كانت عليه ، فقد شاهدنا فريقا من العمال يقومون بترميم قوس الامبراطور سبتيموس سفاروس ، كما ان مدرجات لبدة وحمامات الامبراطور هاردريان أخذت جانبا من هذه الاصلاحات .

صبراته ، ثالثة هذه المدن الاثرية ، وهي تبعد عن طرابلس في اتجاه الغرب مسافة ٦٧كم حيث تواجه الزائر مناظر رائعة للبحر والآثار ، واطلال المسرح الروماني في الجانب الشرقي من المدينة ثم حفائر الحي السكني الممتد جنوب السور البيزنطي . يعود إنشاء مدينة صبراته الى مطلع السنة الأولى قبل الميلاد في الفترة التي تلت تأسيس المستوطنات الفينيقية في شمال صبراته الباقية ، فيرجع معظمها الى القرن الاول والثاني الميلاديين ، ومن اهم هذه الآثار المسرح والذي يعد من أبرز معالم المدينة ، وبفضل جهود علماء الاثار والمسؤولين في الدولة . استطاعوا مجتمعين ان يعيدوا هذا المسرح الى ما كان عليه وذلك باعادة أجزائه المتناثرة . والمسرح الدائري كان يستخدم لعروض المصارعة مع الوحوش المفترسة ، وبالامكان مشاهدة عرائن الوحوش والممرات السفلية التي توجد بهذا المسرح ، ثم الحمامات العامة وحلبات السباق ودور العدالة او ما تسمى بالبازيليكا وهو بناء مسقوف ، وكانت بالاضافة الى انها دور للعدالة فقد كانت سوقا للمزايدات التجارية ، وكان يسمح لعامة الشعب بدخولها للاستماع للمحاكمات او المحاضرات العامة .

الحياة العامة في مدن طرابلس

كان سكان هذه المدن يعبدون الآلهة الفينيقية مثل (ملكارت) و (اشمون) و (عشتار) ثم انتشرت بعد ذلك المؤلهات الرومانية مثل زيوس والتي عثر على رموزها بكثرة في مدينتي صبراته ولبدة ، اما دساتير هذه المدن فكانت على نمط الدستور الروماني وتتبع التقاليد الرومانية الى حد بعيد مع الاحتفاظ بالعادات والتقاليد المحلية . وقد سلكت مدن طرابلس الثلاث التي آلت تبعيتها للرومان مسلك التقليد في جميع وجوه الحياة العامة الرومانية ، فقد كان ميدان السوق او (الفورم) مركز المدينة ومحور الحياة فيها والسوق عبارة عن ساحة



وجه تمثال من الرخام الابيض للامبراطور (سبتميوس سويروس) من منحوتات القوس المشيد على شرفة تكريما له عندما زار مدينة لبدة الكبرى سقط رأسه .

كبيرة مكشوفة يحيط بها رواق مغطى ، وفي هذا الميدان توجد اهم المصالح الحكومية والمعابد والحوانيت وهو ملتقى الاجتماعات العامة والخاصة والمناقشات المختلفة ، وكان السوق مزدانا بتماثيل الاباطرة والشخصيات النبيلة بالمدينة ، وقد عثر بمدينة لبدة الكبرى على سوقين يعود الاول الى عصر الامبراطور اغسطس ، والثاني الى الامبراطور الليبي سبتيموس سفاروس ، وتماثيل رخامية ضخمة لاباطرة من اسرة الامبراطور اغسطس .

وقد كانت الحمامات من احب الاماكن لدى مواطني مدن طرابلس اذ يؤمها الناس ليقضوا بها بعض الوقت ، وكان الحمام الروماني يشبه الى حد كبير النوادي الرياضية في عصرنا الحاضر ، وكانت مقسمة الى العديد من الحجرات والقاعات الكبيرة مزخرفة ومزدانة بأجمل التماثيل الرخامية ، وارضيات مغطاة بالفسيفساء والرخام ، ونظرة فاحصة الى حمامات الامبراطور هارديان بمدينة لبدة توضح لنا المصاريف والاموال الباهظة التي كانت تتكبدها الدولة في سبيل اسعاد أبنائها ، وقد عثر

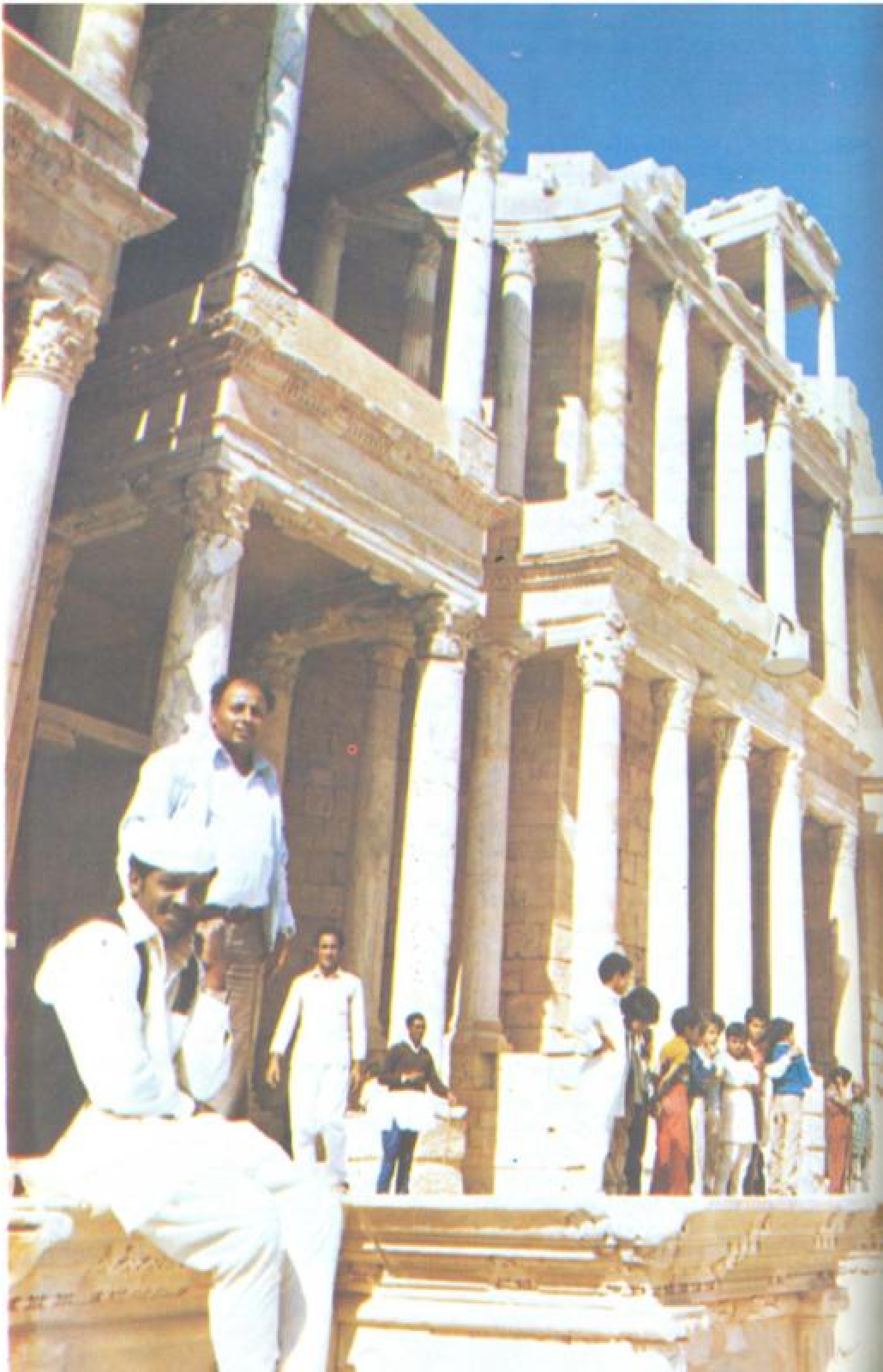


لوحة منقوشة بالفسيفساء في متحف السراي الحمراء بمدينة طرابلس لمجموعة من الاباطرة الرومان الذين حكموا مدن طرابلس التاريخية .

بقايا أعمدة لمعبد روماني قديم في مدينة صبراته الأثرية .

المسرح الروماني بمدينة صبراته من اهم معالم هذه المدينة الأثرية وخلفها تظهر أعمدة الأروقة وحجرات تبديل الملابس .





في كل من صبراته ولبدة على ثلاثة حمامات مقسمة الى عدة اقسام : منها ما يخص الالعاب الرياضية في الهواء الطلق وبعضها للالعاب الداخلية مثل المصارعة الرومانية ، ثم حجرات الاستحمام التي كانت مقسمة الى عدة اقسام تتفاوت درجة حرارتها ، وكانت بعض الحمامات بها اقسام خاصة للاقامة لعدة ايام مزودة بحجرات للنوم والاكل .

٣ اجزاء للمسرح

كان المسرح من اهم سبل الترفيه في العالم القديم وهو عبارة عن بناء ضخم داخل المدينة ويتكون من ثلاثة أجزاء :

أ - منصة التمثيل وهي قاعة مستطيلة يصل ارتفاعها حوالي متر ونصف تغطى بالواح من الخشب ، وارضيتها مغطاة بالرخام وخلفها توجد بعض الشرفات والاروقة وعلى الجوانب حجرات تغيير الملابس .

ب - الاوركسترا وهي على شكل نصف دائرة امام منصة التمثيل توضع بها مقاعد الجلوس الخاصة بعلية القوم .

ج - مدرجات الجلوس وكانت هي الاخرى نصف دائرية تلتف حول الاوركسترا (المسرح) وهي عبارة عن مدرجات تتخللها بعض السلالم الصغيرة توصل الى أروقة تمر أسفل المدرجات ثم ابواب الدخول والخروج .

وكانت تقدم على المسرح تمثيليات مأخوذة من واقع الحياة او مقتبسة من بعض المعتقدات والاساطير القديمة ، لقد كان المسرح الروماني في العصر الروماني أشبه شيء بما نعرفه اليوم باسم Music Hall بقاعة الموسيقا حيث تعزف الموسيقا ويرقص الراقصون على انغامها ، وتمثل المسرحيات التراجيدية والكوميدية ، وكان المسرح الهزلي يلقى رواجا عظيما فيقبل الناس على مشاهدته ترويحا للنفوس ، اما قصص المسرحيات الهزلية فكانت تستقى من الاساطير الاغريقية والممثل يؤدي دوره بالحركات والرقص معا كما كان يقوم بعدة ادوار لا دور واحد ، فيغير قناعه وملابسه بما يتفق وكل دور .

ولا تزال آثار هذه المسارح الرومانية قائمة الى اليوم في لبدة وصبراته ، وقد قامت وزارة الاعلام الليبية بالتعاون مع ادارة الاثار والمتاحف بترميم هذه المسارح ، واستغلت الجماهيرية العربية الليبية هذه المسارح احسن استغلال ، فقد اقامت عليها عروضا فنية وموسيقية دعت اليها فرقا فنية مشهورة من أنحاء شتى من دول العالم وخاصة فرقة البولشوي الروسية بالاضافة الى بعض الفرق المسرحية والفرق القومية الليبية .

المصارعة وميادين السباق

وتعتبر حلبة المصارعة وميادين سباق الخيل من مظاهر الحضارة الرومانية ، وهي بناء مستدير او بيضاوي الشكل كانت تبنى في الغالب خارج اسوار المدينة يحيط بها سور ثم مقاعد للجلوس تصنع من الاحجار تتخللها بعض السلالم لدخول المتفرجين ثم ابواب تؤدي الى السراديب السفلية للساحة ، بالاضافة الى حجرات خاصة لحجز الحيوانات المفترسة وادوات المصارعين ، ومن الملاحظ ان حفلات المصارعة كانت تستمر عدة ايام بين المصارعين انفسهم او بين المتصارعين والحيوانات المفترسة ، والعادة ان يكون المصارع من الاسرى او العبيد والمحكوم عليهم بالاعدام ، وقد عثروا على ملعب للمصارعة في مدينة لبدة سنة ١٩٦٠ يعود الى سنة ٥٦م كما عثروا على حلبة للمصارعة في حالة جيدة في مدينة لبدة شكلها بيضاوي تحيط بها مدرجات الجلوس .

اما ميادين سباق الخيل فهي من الاماكن المألوفة لدى الرومان ، وهي عبارة عن مكان مكشوف مستطيل تحيطه مقاعد المشاهدين ، وفي احد طرفيه اماكن لانطلاق عربات السباق ، والمألوف ان السباق يتكون من سبع دورات حول الميدان ، وكثيرا ما كانت تحدث حوادث دموية أثناء السباق . كما شاهدناها في بعض الرسوم الباقية من اطلال لبدة ، اما العربات فكانت بالوان متميزة ، وقد عرفوا المراهنات التي تثير الحماس والتشجيع ، ومما يجدر ذكره ان الخيول الليبية كان لها دور كبير في هذه السباقات .

وكلمة اخيرة لابد لنا ان نوردها هنا ، وهي ان المسؤولين في ليبيا لم يستغلوا هذه الاثار استغلالا سياحيا جيدا ، علما بان السياحة تعد في عالمنا اليوم من أهم الموارد الاقتصادية في عصرنا الحاضر ، والحقيقة اننا لم نجد أثناء تجوالنا بين هذه المدن الاثرية الاستراحات والفنادق السياحية اللائقة بل اقتصرت على الوفود الرسمية التي تأتي الى ليبيا ، لانجاز بعض المشاريع العمرانية او المشاركة في بعض المؤتمرات التي تعقد هناك . كما ان وزارة التربية والتعليم في ليبيا تحرص على تنظيم رحلات مدرسية لاعطاء الطلبة دراسة عملية عن هذه الاثار ومحاولة تطبيق هذه المادة التاريخية لطلبة المدارس في مراحل سنواتهم الدراسية المختلفة ..

التفسير الديني للتاريخ

بقلم محمود الشرقاوى

لم يعرف التاريخ البشري فترة لم يكن فيها الدين فيها الدين مؤثرا تأثيرا ايجابيا في حياة الانسان . وفي هذا المعنى يقول جوستاف لوبون في كتابه « سر تطور الامم » ان اول المسائل الاساسية في الازمان الغابرة وفي الازمان الحاضرة المسائل الدينية ، ولو ان الانسانية رضيت بموت جميع آلهتها ، لكان هذا الحادث اعظم الحوادث التي تمت فوق وجه الارض منذ ظهور المدنيات الاولى .

لا ينبغي لنا ان ننسى ان جميع الانظمة السياسية والاجتماعية قامت منذ بداية التاريخ على معتقدات دينية ، وان الآلهة هي التي لعبت اكبر دور في الحياة الانسانية ، وان الدين اسرع مؤثر في الاخلاق لا يدانيه مؤثر آخر إلا الحب ، والحب دين الا انه دين ذاتي غير دائم .

والسبب في قوة الدين العظيمة كونه العامل الوحيد الذي تتوحد به منافع الامة ومشاعرها وافكارها ، فيقوم المبدأ الديني بذلك دفعة واحدة مقام غيره من العناصر التي يتكون منها روح الامة .

والذي يجب الالتفات اليه قوة تمكن المعتقد في النفوس لاحقيقة المعتقد . « ويرد ارنولد تويتبي » الحضارات الى الاديان ، ذلك ان الامبراطوريات ليست هي مقياس الحضارة بل على العكس انها تمثل بداية مرحلة انهيار الحضارة ، اذ تعمد الاقلية المسيطرة الى التوسع حين تفقد مقومات الابداع ، وهي لا تحمل الا سلاما مؤقتا ولا تقدم حلولا جذرية لمشكلات مجتمعاتها ، وعلى عكس ذلك الاديان ، اذ وراء كل حضارة من الحضارات القائمة اليوم ديانة عالمية ، فالعقائد الدينية هي التي تسير مجرى التاريخ ، واذا كان هناك مستقبل لحضارة ما فذلك في حدود الدين وبسبب منه .

والواقع انه لا توجد قوة أثرت في حياة الانسان القديم مثل قوة الدين ، لان تأثيرها يشاهد واضحا في كل نواحي نشاطه ، ولم يكن اثر هذه القوة في اقدم مراحلها الاولى الا محاولة بسيطة ساذجة يتعرف بها الانسان على ما حوله في العالم ويخضعه بما فيه الآلهة لسيطرته ، فصار وازع الدين هو المسيطر الاول عليه في كل حين ، فما يولده الدين من مخاوف هو شغله الشاغل ،

وما يوحي به من امال هو ناصحه الدائم ، وما اوجده من أعياد هو تقويمه السنوى ، وشعائره ـ برمتها ـ هي المربية له والدافعة له على تنمية الفنون والاداب والعلوم .

الدين قبل الاقتصاد

ولما كان التفسير المادى للتاريخ الذى قال به كارل ماركس وانجلز يفسر دائما الناحية المعنوية في المجتمعات بانها تقوم على أساس تركيبها المادى ، ولما كان يجعل الحاجة الحيوانية محورا للتطور الانساني ، فقد كان هذا هو السبب نفسه في تفسيره الدين بانه مجرد ظاهرة عرضية لا اهمية لها من الوجهة الاجتماعية . وقد كتب احد اتباع ماركس فقال : « ما كان للدين او الفلسفة ان يوجدا دون الشروط الاقتصادية التى تجعل ظهورهما امرا « ممكنا » فما كان للمسيحية ان توجد دون الانقلاب الذى صحب الفتوح الرومانية ، وما كان للمذهب البروتستانتي ان يوجد دون نشأة الطبقة المتوسطة ، ويرى هذا المذهب بصفة خاصة جدا ان نظام توزيع الاراضي لعب دورا هاما ، ويفسر بعض الظواهر التى يبدو عليها غلبة الطابع الصوفي لاول وهلة مثل النبوات لدى اليهود ، او مجيء المنقذ لدى المسيحيين ، وهكذا لا تعكس اصول العقيدة والمعتقدات سوى المصالح الحيوية للطبقات الاجتماعية ، وسوى المنازعات الدينية والصراع بين هذه المصالح او بين هذه الطبقات .

ان الظاهرة المضادة هي التي تحدث في اكثر الاحيان ، وذلك منذ الازمان سحيقة البعد ، فتطور الدين هو الذى يغير النظام الاقتصادى لدى الشعوب .

وسنبين ذلك ببعض الامثلة :

لقد وضع « جيفونس » و« فريزر » و« ديناخ » فرضا يفسرون به اصول استئناس الحيوان ، وهو الفرض الذى يربط بين استئناس الحيوان وبين الديانه التوتمية ، ففي الواقع لما اكتشف الهولنديون استراليا ، كان اهلها يجهلون « ظاهرة » استئناس الحيوان ، وقبل الكشف الاوربي لم يكن اهل امريكا يعرفون من الحيوانات المستأنسة سوى حيوان « اللاما » ومع هذا فانا نعلم عن طريق المغارات والمدن المشيدة على شواطىء البحيرات ان الناس قد استأنسوا الكلاب والثيران منذ زمن بعيد ، فكيف كان هذا ممكنا ؟

من البديهي انه كان من الضرورى اولا ان توجد حيوانات وحشية يمكن استئناسها كالخيل والماعز والاغنام ، وفي البلاد التي لم تكن هذه الحيوانات موجودة فيها كامريكا ، لم يكن من الممكن ان توجد ظاهرة استئناس الحيوان . اما في البلاد التى توجد فيها ، فقد كان من الضرورى ان يمر الانسان بتجارب طويلة حتى يستطيع التمييز بينها وبين الحيوانات التي تظل عصية على الاستئناس . وفيما عدا هذا كان من الممكن ان ينجم الاستئناس عن الصيد مباشرة ، لان الصائد الجائع يقتل جميع الحيوانات التي يمكن ان تقابله . وقد كان من الضرورى ان توقفه خشية خرافية حتى يقلع عن هذه المجزرة . ومن ثم فان التابو Taboo وحده هو الذى يكف يده . وحينئذ فما الحيوانات المحرمة ؟ انها الحيوانات التوتمية فبدلا من ان تقتل الشعوب الهمجية هذه الحيوانات نيء ، على عكس ذلك ، انها تحاول الاحتفاظ بها على مقربة منها ، وتعمل على تربيتها ، لان هناك رباطا خفيا يربط بين حياة توتمها .

وهكذا يمكن تفسير نشأة استئناس الحيوان . ويبدو هذا العرض مقبولا .

ويرى « منيهوف » ان استئناس الحيوان كان يهدف في باديء الامر الى ضمان بقاء الفصائل الناقصة في القرابين التي تقدم للآلهة . ومن المحتمل ان يكون الناس قد حاولوا استئناس جميع الحيوانات في اول الامر (كما تدل على ذلك الصور البارزة في الآثار الآسيوية التي تبدو فيها عربات تجرها أسود) . وفيما بعد فرقوا شيئا فشيئا بين الفصائل الحيوانية عن طريق استخدامها . فتربي قبائل الجالا « جنوب اثيوبيا » الديوك من اجل القرابين لاغير ، فلا يأكلونها ابدا ، كما لا يأكلون الدجاج والبيض ابدا ، ويعد حلب البقر عيدا دينيا لدى قبائل الـ« نيورو » ولا يقام هذا العيد الا مرة واحدة كل سنة ، فهو طقس ديني يشترك فيه الجميع ويحتفظ باللبن اولا للكهنة وللملوك الالهية كشراب صوفي . وفي كل حال ترجع ظاهرة استئناس الحيوان دائما الى اصل ديني ، مهما تكن طبيعة الفرض الذى يرتضيه المرء .

الزراعة .. والقبور

ويبدو « لجرانت الين » و« ميتهوف » ان الامر كان كذلك بالنسبة الى الزراعة ايضا ، فالبدائيون لا يقلبون باطن الارض ظاهرها الا عندما يدفنون الموتى ، ثم ينثرون على الارض بعد قلبها مباشرة بعض البذور البرية كطعام معد لغذاء الجثة ، ثم يسكبون الماء ، او الدم المراق ، او اللبن ، ويساعد تحلل الجثة والاسمدة المراقة في إنبات البذور وفي ازدهار النبات فكأن ارواح

القدامى تشكر الاحياء على اعمالهم التقية .

وهذا هو السبب في ان زراعة البطاطا ، في « بولينيزما » تبدو على هيئة القبور ، وبالتدريج يزدهر النبات البرى ويطغى على القبر .

وهكذا تنشأ زراعة الأرض عن عبادة الاسلاف بطريقة مباشرة . وتؤدى الظاهرة الدينية المسماة « البوتلاتش » الى تركيز الثروة في ايدى الرؤساء ، وان النظام الهندى الخاص بتحديد وظائف الطبقات يرجع الى اسباب دينية ، وان الهيئات النقابية الاغريقية مثل نقابات الحطابين وتجار الخشب ونقابات صناع المعادن كانت طوائف للسحرة في اول الامر . فبدلا من ان تعد الدين مجرد ظل للحياة الاقتصادية يجدر بنا ان نقول بان الدين هو الذى يسبق التغيرات الاقتصادية في اكثر الاحيان .

ولقد مرت القرون منذ ذلك الحين وبقيت هذه الفكرة صائبة على الدوام . فقد بين كثير من الاقتصاديين مثل « دولافيلي » ان رخاء الشعوب يتوقف على عقائدها ، وعندما يرى المرء ان البروتستانتيين اللاتينيين يتفوقون على الشعوب الجرمانية الكاثوليكية ، وعندما يلاحظ ان تقدم البروتستانت اكثر سرعة واطرادا من الكاثوليك في نفس البلد وفي نفس الجماعة ومن نفس اللغة والاصل ، فمن العسير جدا الاينسب تفوق هؤلاء على اولئك الى طبيعة العقيدة التي يؤمن بها كل منهم .

ومع ذلك فبعد ان قرر « ماكس فيبر » ـ على خلاف التفسير المادى للتاريخ ـ ان الاصلاح البروتستانتي لم يكن ظلا لظهور الطبقة الوسطى ، ابرز على ضوء الاحصاءات وجود علاقة بين المذهب البروتستانتي والنظام الرأسمالي في اسمى درجاته ، واذن فالحل الوحيد الذى يبقى امامنا هو ان تقول بان النظام الرأسمالي كان بالاحرى احد نتائج المذهب البروتستانتي ، وليس معنى هذا ان البروتستانتي يفوق الكاثوليكي في اتجاهه المادى ، فان « للمتطهرين » المتشددين في التمسك بحرفية الكتاب المقدس ـ فكرة تقوم على التشاؤم من هذا العالم ، والزهد فيه . ولكن لما كان الزهد يحفز الى الاقتصاد فقد ساعد على تركيز رؤوس الاموال ، وهكذا استخدم على نحو غريب كدعامة للنظام الرأسمالي .

اضف الى هذا ان البروتستانتي لما كان يتخذ عمله المهني سبيلا الى تحقيق سعادته الاخروية فانه يؤدى عمله على اكمل وجه طبقا لما يوحي به اليه ضميره .

وفيما عدا هذا لم يقف « ماكس فيبر » عند حد دراسة العلاقات بين المذهب البروتستانتي والنظام الرأسمالي ، لان بعض البحوث الاخرى ـ وبخاصة فيما يتعلق بالاقتصاد الهندى والصيني ـ اكدت له وجهة نظره الخاصة ، وهي ان النظام الرأسمالي الذى يبدو للوهلة الاولى انه لا يرجع الا الى اصول مادية يحتاج في نشأته ونموه الى بيئات دينية ملائمة . ويبرهن في هذا المثال بوضوح على وجود علاقة وثيقة بين النظم الدينية والاقتصادية ، ويدل بصفة خاصة على تأثير النظم الاولى في النظم الثانية .

في عصور الفراعنة

كان الدين هو العامل على انشاء الحضارات ، واقامة المدنيات على مدى التاريخ عندما نشأت في مصر في اول تاريخها فكرة ايجاد حكومة مركزية يرأسها حاكم واحد هو الملك ، لقى ملوك الاسرتين الاولى والثانية الصعاب في تحقيق هذه الوحدة ، تحقيقا ماديا طوال القرون التى عاشتها هاتان الأسرتان ، ولذلك عمد اصحاب الوحدة الى القول بان مصر لم يحكمها رجل من الصعيد ، او آخرمن الدلتا ، ولكن الذى كان يحكمها هو «اله» تتمثل فيه « القوى » التي تهيمن على كل من القطرين هو « حوريس » الصقر ، اله السماء هو الذى المحدث في شخصيته الأختان « نخبت » ربة مصر العليا ، و« واجيت » ربة مصر السفلي ، بل لقد ادعى الملك انه الابن الشرعي لاله الشمس « رع » وهو اعظم الآلهة جميعا . وقد نجحت هذه الفكرة ، واستقرت في نفوس الناس ، واخذوا يعتقدون ان هذا الفرعون الذى يجلس على عرش مصر لم يكن انسانا زائلا ، ولكنه إله قوى قادر .

كان الملك بصفته إنما هو الدولة ، وهو البؤرة التي تتجمع فيها كل الخيوط التي تهيمن على شئون الحكم في البلاد . لقد كانت كلمته هي القانون ، ولكن هذا القانون كان خاضعا للرضا الالهي ، وظيفته كإله ، ثم لتلك الفكرة التي عبروا عنها بكلمة « ماعت » والتي تعني الصفة الطيبة للحكم الصالح ، او الادارة الصالحة ، هي « الحق » والعدل « والنظام » ، هي ذلك الشيء الذى ينبع من عالم الآلهة ، واصبح بمثابة المنظم للظواهر التي تم خلقها على سطح الارض . ان الملك الاله يتمسك باهدابها ، ويقدمها كل يوم للآلهة التي تسكن السماء ، كبرهان على أنه ينوب عنهم في وظيفته الالهية في حدود « الماعت » .

وكان لهذا التقديس أثره العميق في توطيد نظام الملكية في مصر وتثبيت دعائمها ، فحرص المصريون على الثقافة للدين والدنيا معا ، واعتبروها افضل سبيل الى كرامة المنصب وحسن السمعة وقد ارجع انصار هذه العقيدة الى اصل ديني ، وردوها الى معبود كريم اسمه « تحوتي » ونسبوا اليه انه هدى الناس الى اسلوب الكلام ، واسلوب الخط ، ووهب النجاح لمن اتبع هديه من اهل العلم والعرفان ـ ونسبوا الكتابة والحساب الى ربة اخرى سموها « سثات » اى الكاتبة ، وادعوا انها كانت اول من خط بالقلم ، واول من حسب ، وقد نشأ الفن المصرى في احضان الدين ، فكانت التماثيل في المعابد المصرية تمثل الاله نفسه ، في خلوده وتساميه ، وعزلته عن الناس .

تأثيرات في الفن والرياضة

والى الدوافع الدينية ترجع اقامة التماثيل في المنابر ، وتماثل حقيقة اصحابها الى حد بعيد ، وكان احترام الموتى فرضا اساسيا عند المصريين .

كانت معتقدات الانسان في عالم الغيب سبب اختراع فنون التحنيط ، ونحت التماثيل والعمارة ، ذلك أن حرص الاقدمين على حفظ جسم الميت ، ورغبتهم في عمل صورة شبيهة به في حياته ، واقامة المباني لوقاية هذا الجسم ، ولتسهيل اقامة الطقوس اللازمة لاعادة الحياة الى الميت وتغذيته بعد عودته اليه . ان هذا الحرص وهذه الرغبة هما اللذان اوحيا بهذه الفنون المختلفة ، بل إن الذى بعث في نفوس الاقدمين الرغبة في ركوب البحر وبناء السفن التى تجوب عباب البحر هو حاجتهم الى الراتنج والبخور والاخشاب التي يحتاجونها في هذه الاغراض سعيا منهم وراء الامل في الخلود .

ولقد كانت الطقوس الدينية التي يزعم الاقدمون انها تؤدى الى حدوث خوارق الطبيعة منشأ التمثيل والرقص ، والموسيقا ، ومعظم الالعاب التي يتألف منها القسم الاكبر في ضروب التسلية في هذا العصر .

وليس الرقص الا بقية من الطقوس التي يتوصل بها الى اغراض سحرية . ولعبة شد الحبل ـ مثلا ـ نراها منقوشة على جدار قبر مصرى بنى منذ اكثر من ثلاثين قرنا ، على انها عراك مقدس بين مندوبين عن الوجهين القبلي والبحرى بغية الحصول على جثة الملك المحنطة ، ومازالت نفس الفكرة في جوهرها باقية الى يومنا هذا في « بورما » ، حيث يشد الحبل اثناء جنازة الراهب ليعرف اى الطرفين ينال شرف وضع الجثة على كومة الحطب لحرقها .

ومعظم العاب المهارة مثل كرة القدم ولعبة الكركت والتنس والبولو ـ لها صلة وثيقة مازالت قائمة مع الكنائس والحفلات الدينية في اوربا واذا رجعنا بتاريخ هذه الالعاب الى ابعد من هذه العهود وجدناها هي نفسها في صورة مباريات بين الملوك ، وتكون المملكة من نصيب الفائز فيها ، وإذا رجعنا الى ابعد من ذلك في عهود التاريخ وجدنا جزاء الفائز فيها هو الخلود ، ذلك انه يصير ملكا ، ومن ثم يصبح إلها .

كان الدين هو العامل المؤثر في كل ركن من اركان الحياة الانسانية ، وكانت نظرة ارض الرافدين « العراق » الى الادب والقانون والفن هي نظرة الشرق الادبي كله قديما ، فلم يكن ينظر اليها الا في نطاق الدوافع الدينية ، وكانت هذه الدوافع متغلغلة في كل مظهر من مظاهر الحياة ، فكانت قوام الجوهر العميق لتلك الحياة ، ولعل هذا ابرز خصائص الحضارة في الشرق الادنى القديم ، فكان الدين خلاصة القيم ، وقد فسر السومريون والاكاديون اصل الانسان بان المعبود صنعه من كتلة من الطين وانه خلق من اجل خدمة الآلهة .

كان اول واجب في الدين هو الخوف من المعبود ، وكان حورابي يخشى الآلهة ، وكان نبوخذ نصر الثاني ، بكل قلبه المؤمن يحب خشية معبوداته ، ويرتعد امام سطوتهم . وكان الواجب الثاني في الدين هو الدعاء او الصلاة والتضحية .

« قدم الخضوع كل يوم لالهك :

التضحيات ، والصلوات ، والبخور الواجب

ليكن قلبك نقيا امام ربك ٠

ان هذا هو ما يرضى المعبود

إن أنت قدمت التوسل والدعاء والصلاة والسجود في كل صباح

فإنه سيمنحك كل الكنوز .

وسوف تزدهر ايامك بفضل إلهك

الخوف يولد الرفق او العاطفة

والتضحية تطيل العمر

والصلاة تخلص من الاثم » .

كان مصدر كل خير للانسان رضا إلهه عنه ، وكان

فقدان هذا الرضا أصل كل المتاعب . ولكي يشعر الانسان بالاطمئنان والراحة النفسية لا بد ان يتوب توبة نصوحا بعد ان يعترف بما ارتكب من إثم وخطيئة .

ان الوازع الديني هو الذي حمى الضعفاء من النساء والاطفال والعبيد ضد شرور الاقوياء ، كما ان الدين استخدم في الأمور الصحية لأنه اجبر الناس على عزل الجثث .

وقد كان الدين مفيدا للاخلاق ، لأنه كان شبيها بفن ، لتربية الارادة ، ولما علم الدين الانسان كيف يتحرر من رغباته الذاتية ، وكيف يسيطر على مصالحه المادية ، وكيف يقهر عنف اهوائه ـ ارشده الى التضحية ، وانكار الذات . وكان الناس يعتقدون انهم اذا خالفوا اوامر الاله وارتكبوا المعاصي ، وساد بينهم الظلم والفساد ، فان الاله يوقع عليهم عقوبات مروعة ، كالفيضانات التي تحيل البشرية طينا ووحلا ، والقحط والمجاعة والأوبئة ، وفي كل هذه المصائب كان الاله يظهر نفسه دائما عطوفا يسعى الى انقاذ البشر .

أصول دينية للأدب

ويستمد الادب اصوله من الدين ، فالشعر الغنائي في ارض الرافدين ديني كله ، فهناك تراتيم ومزامير غفران وصلوات تعبر في صور مختلفة عن عبادة الآلهة ، تلك العبادة التي كانت بمثابة الجواهر من حياة تلك الشعوب .

وجزء كبير من الادب النثري الاكبر ديني ايضا في محتواه ، وتوجد نصوص كثيرة من نصوص الطقوس ، تصف اعمال الكهنة والاحتفالات المقدسة ، ولا سيما الاحتفال بالعام الجديد في مدينة بابل ، وتشتمل هذه النصوص على فقرات شعرية في صورة ، تراتيم وصلوات ترتل خلال الطقوس .

وكان هناك ايضا ادب استنبائي عريض يحتوي على النداءات والصلوات الخاصة التي كان يتجه بها الامراء الى الآلهة ، يستنبئونها عن المستقبل ، ولا سيما فيما يتعلق بالمشروعات الحربية ، والاجابات التي ترد بها الآلهة مع الامراء .

وقد ارتبط المجد السياسي لايران « فارس » قبل الاسلام بمدى تمسكها بدين زردشت فكلما روعي تطبيق قواعد الدين ارتقت ايران ونهضت ، وحين يضعف الروح الديني تخمل وتخور ، ويغلبها الرومان وتفسد فيها حياة الناس ، ومنذ ذلك الوقت وضع دستور ايران على اساس الفكرة المشهورة الدين والدولة توأمان .

مما سبق يتضح لنا ان للعقائد الدينية دورا خطيرا للغاية في مجريات التاريخ ، ومصداقا لهذا الرأي ، كما يذكر المؤرخ البريطاني توينبي :

١ ـ تولدت الحضارتان المسيحيتان « الغربية والشرقية » عن الحضارة الهلينية ، عن طريق العقيدة المسيحية .

٢ ـ تولدت حضارة الشرق الاقصى عن الحضارة الصينية عن طريق بوذية المهايانا .

٣ ـ تولدت الحضارة الهندية عن الحضارة السندية عن طريق العقيدة الهندوكية .

٤ ـ تولدت الحضارتان العربية والايرانية عن طريق السريانية عن طريق الاسلام .

ويرى توينبي انه لن تتحقق للبشرية وحدتها المرتجاة من غير مشاركة الله ، فلو أسقطت المرشد العلوي من اعتبارها ، لاندفع الانسان الى الفتنة والتنافر ، وهو ما يجافي طبيعته القائمة على الألفة والمعاشرة ، ولعذبه ذلك الحس الكامن في نفسه بحكم كونه كائنا اجتماعيا ، ذلك العناء الذي يزداد حدة كلما ازداد الانسان قدرة على ان يرتفع بحياته الى تحقيق الاحتياجات المغترية لطبيعته الاجتماعية ، طالما سعى الانسان الى ان يلعب دوره في مجتمع نبذ الاله الواحد الفرد الصمد ، وهذا العناء ناجم عن ان الجهد الاجتماعي الذي يبذله المرء ليستكمل ذاته ـ يتعدى بمراحل حدود حياته على الارض زمانا ومكانا ، وعلى هذا يصبح التاريخ عند كل امرىء يشارك فيه منفردا ، مجرد حكاية ابله ، لكن هذا الشيء الذي لا معنى له يكتسب معنى روحانيا عندما يكشف المرء فعل الاله الواحد الحق .

وعلى هذا النحو ، قد تكون الحضارة ، اية حضارة ، ميدانا للدراسة مفهوما بعض الوقت ، الا ان ملكوت الله هو ميدان العمل الوحيد المسلم به اخلاقيا .

وعند الاستاذ توينبي ان الاديان العليا تهيىء للنفوس البشرية اكتساب زعامة ملكوت الله على الارض . وها هنا يتاح للانسان المساهمة بقسط غاية في الضآلة في سير التاريخ الدنيوي وهو قسط يكفل له تأدية دوره في الارض . ولكن على اعتبار انه مساعد ذو ارادة لاله يضفي سلطانه على جهود الانسان لتأدية رسالته في الدنيا ، يضفي عليها قيمة ومعنى ربانيين .

■■

محمود الشرقاوي

الى روح الشاعر العربي الكبير الراحل بدوي الجبل

أَلِفتُ قُربَكَ

شعر : عيسى درويش

ألفت قربك في حلي وفي سفري … فكيف تتركني في المجدب القفر
يامانح الناس سحرا يستطب به … من كان بالناس ذا هم وذا كدر
خذني بعطفك لا تهجر حمى وطن … قد كنت فيه كريم الغيث والمطر
كذا الندامى وكأس الشعر دائرة … وكم سكرنا بخمر غير معتصر
وكم حملنا على خيل مجنحة … من القوافي ولكن دونما سفر
ماللأماسي لاشعر ولا نغم … والسامرون بلا ليل ولا سمر
ما كان أحوجنا للشعر يدفعنا … دحر المرومات في داج من الخطر
والشعر والسيف ما أحلى اذا اجتمعا … كنغمة العود بين الكف والوتر
لله في خلقه شأن واعجبه ؟ ! … أن يجعل الشعر بعد الآى والسور

....

يا شاعر العصر .. كم ألهبت ساحته … وكم وضعت بجيد الشعر من درر
يمضي الزمان .. وتبقي أنت شاعره … والشعر يخلد مثل الشمس والقمر
فاهنأ « محمد » ان الموت حادثة … تأتي الينا بحكم الله والقدر
ونستريح لها دربا نسير بها .. … على الصراط لدنيا الأنجم الزهر

....

يا بن الجبال ؟ ! ومن غسان عزتها[1] … فرعا سموت به ـ والطيب من مضر
أكرم به نسبا يسمو ـ وأروعه … أن يجمع المرء مجد البدو والحضر
أن تسأل المجد ؟ ! يحكي السيف قصته … أو تسأل الفكر ؟ ! عندى أصدق الخبر
من هاشم ومناف عزة وحجا … وللنبوة مجد غير مندثر
سارت قريش بها ـ والله كرمها … فأنعم بايلافها والبيت والحجر[2]
« يابنت مروان » كم أهداك من نغم … لحن من الخلد ـ لاصنع من البشر
اعطاك حبا واخلاصا وعاطفة … وكم هجرت فلم يعتب ـ على هجر
لا الوصل أروى غليلا من تشوقه … والعمر أمضاه في درب المنى الوعر



وكان حبك غنجا كي يجن به ... وقد ظفرت .. فلم يغضب ولم يثر
والشام كم هام قلب البحترى بها[3] ... ومثله ضاع شوقي في هوى عمر[4]
يا حامل الجرح كبرا ـ ما شكوت به ... عذر المحبين من أنات محتضر
أشعلت قلبك نارا كي يضاء به ... والحقد أرجعته حبا لمنكسر
ورحت تبدع شعرا في صبا بردى ... والغوطتين وسحر الحور والحور
كأنك المتنبي في قصائده ... تزهو بها حلب في حسنها النضر
وما غررت بشعر أنت قائله ... وأنت بحر البيان العذب والصور

....

يا بن الصحارى رمال العز كم ظمئت ... لوابل من كريم المجد منهمر
خذتني لبدر ويرموك وقادسة ... وخيبر وتبوك .. في سنى الظفر
تعيد فيها جيوش الفتح جذوتها ... ويرجع المسجد الاقصى الى عمر
وتستعيد الصحارى القفر حلتها ... في سندس أخضر أو نرجس عطر
وترقص الارض والدنيا على نغم ... وتنتشي دونما خمر ولا سكر
حلمت « يا بدوى » بالشعر تنشده ... في وصف جيش بعون الله منتصر
فجر العروبة هل يا بشائره ... واسجد لباريك ـ هذى ليلة القدر

....

يا شام إن يبك ساح الشعر فارسه ... فانه بيننا كالماء والشجر
عذر القوافي اذا جاءت مقصرة ... في شاعر لفريد الشعر محتكر
يا شام عفوك هذا الشوق يحملني ... للغوطتين وعذب الماء والثمر
نفسي فداؤك في حطين موعدنا ... وان طليت علا .. لاتخش من خطر
فكم صبرت على الجلىّ وما برحت ... أياتك البيض ملء السمع والبصر
إن تغزين .. فخيل العرب مسرجة ... في جحفل بلهيب الثأر مستعر
شئت وشاءت لك الاقدار حادية ... قوافل العرب نحو النصر في كبر
فامضي بصون حماك في الوغى أسد ... في راحتيه لواء الحق والظفر

---

١ ـ اشارة الى قبائل غسان التي ينتسب لها بدوى الجبل

٢ ـ اشارة الى سورة ـ قريش ـ بالقرآن ـ وبيت الله الحرام والحجر الاسود

٣ ـ اشارة الى بيت البحترى :

والعيش في ليل داريا اذا بردا ... والراح نمزجها بالماء من بردى

٤ ـ اشارة الى أبيات شوقي :

جرى وصفق يلقانا بها بردى ... كما تلقاك دون الخلد رضوان
والحور في دمر او حول هامتها ... حور كواشف عن ساق وولدان

.. مع الحياة والعطاء

بقلم : منير نصيف

الحياة قصيرة .. اقصر مما قد نحتاج لاسعاد قلوب هؤلاء الذين يسافرون معنا في نفس الطريق ولا يملكون تكاليف الرحلة .. لا تتردد في اعطاء حبك .. لا تتوانى في اهداء عطفك .. الوقت يجري !

كان يحس ان الدنيا قد اعطته اكثر مما يستحق ، واجل مما كان يتوقع .. جمع مالا كثيرا من اعماله الناجحة ، وعلم ابناءه ورباهم وكبروا وتزوجوا واستقلوا .. وكان يجلس مع وحدته وشيخوخته يفكر في حصاد السنين التي امضاها يعرق ويتعب ويكد من اجل هذه الاسرة التي وهبها حياته ... وكانت تشاركه احيانا زوجته ورفيقة عمره في جلساته وسط حديقة البيت الكبير وفي رحلات فكره الى الماضي البعيد والقريب ... وكانت دائما ذكريات حلوة مليئة بالحب والحياة .

ولكن المرض لم يتركه طويلا مع هذه اللحظات السعيدة التي كان يعيشها وهو يقترب من نهاية رحلته .. لقد اصيب بشلل نصفي اقعده في فراشه ولكنه لم يستطع ان يفرض عليه تلك العزلة التي خشي ان تحرمه من لقاءاته بالحياة مع الاشجار التي زرعها ورواها في الحديقة .

لقد صمم على ان يمضي اليها ويجلس تحتها فوق كرسيه الذي يتحرك على عجل ويتحدى المرض ونجح ..

رحلة كل يوم

وكانت البداية وسط دهشة الاطباء ، عندما وجدوه يوما يقف على قدميه ويترك كرسيه جانبا ويستند الى شجيراته ويتنقل بينها ويقف عندها يتأملها ويرويها ويحكي لها ويجمع من اغصانها الاوراق التي جفت ، قبل ان تتساقط على الارض وتملأ حديقته برائحة جفافها .

وخرج .. وكانت اول مرة يفترق فيها عن بيته وحديقته منذ سنوات .. وتكررت « نزهاته » خارج البيت ، وكان يعود منها دائما راضي النفس متهلل الوجه سعيدا .. ولكن احدا في البيت لم يستطع ان يعرف على وجه التحديد اين يذهب الاب العجوز ، ولا كيف يمضي تلك الساعات الطويلة من الصباح حتى وقت المغيب . كل ما استطاع ان يكتشفه اهل البيت من سائق سيارته ، انه كان يقف به عند شجرة كبيرة تميل بأغصانها على مياه القناة العذبة ، حيث يجلس على شاطئها ويلقي بسنارته في الماء يصطاد السمك .. ولكنه لم يعد مرة واحدة بسمكة واحدة مما اصطاد من مياه القناة . وكان سائق سيارته يعود اليه في نفس المكان في الساعة التي يحددها له ليعيده الى البيت مع الغروب .



موعد مع الخير

وكانت الصدفة وحدها هي التي كشفت سر هذه الرحلات التي يقوم بها الاب يوميا على الشاطىء تحت ظلال الشجرة العجوز . لم تكن القناة ولا صيد السمك ولا الشجرة هي وجهته .. لقد كان الرجل على موعد كل يوم مع الاطفال الصغار الذي يمتلىء بهم الملجأ الذي يقع على الضفة الاخرى لقناته ، وكان يتظاهر بالجلوس على الشاطىء حتى تغيب السيارة التي أتت به ، ثم يستقل قاربا صغيرا يعبر به القناة ، ويذهب الى الملجأ .. الى اطفاله الصغار ويجلس وسطهم يحكي لهم القصص التي امتلأ بها رأسه ويشاركهم اللعب في غرفهم وفي حديقة الملجأ ويأكل معهم على موائدهم الصغيرة ويوزع عليهم الحلوى التي امتلأت بها جيوبه ، ثم لا ينسى وهو يقف يودعهم في نهاية اليوم ان يذهب الى ادارة الملجأ ويضع في يد القائمين عليه مبلغا من المال من اجل اصدقائه الصغار .

- ما هو الاسم الذي نسجله في ايصال التبرع ياسيدي ؟

- لا اريد ايصالا . ثم ما الذي يهمك في معرفة اسمي ؟

يكفي ان ارى هؤلاء الاطفال كل يوم .. وان اراهم سعداء في ملابس جديدة مع اطباق الطعام الشهية التي تتوسط موائد الغذاء .

مع ابنائه الصغار

وفشلت جهود كل من في الملجأ لمعرفة شخصية هذا الرجل .. كل الذي كانوا يعرفونه عنه هو ما يرونه منه ، وما يقدمه هو للاطفال ، وما يقدمه الاطفال له .. فقد كانوا ينتظرون وصوله في الصباح حتى اذا ما رأوه يقترب خرجوا يستقبلونه في مظاهرة لم يعرف الملجأ لها مثيلا ... وقد دوت هتافاتهم بالترحيب به والدعاء له .

وقد كان من الممكن ان يبقى اسم المحسن العجوز سرا لا يعرفه احد ، لولا ذلك اليوم الذي وقف فيه ينتظر سيارته لتقله عائدا الى البيت ولكن السيارة لم تصل . لقد تعطلت في الطريق في منطقة غير مأهولة ، وحار السائق ماذا يفعل وتشاء الصدفة ان يمر مدير الملجأ بنفس المكان وكان يستقل سيارته في طريقه الى قلب المدينة وشاهده هناك على شاطىء الترعة والسنارة في يده ، كما تركه سائقه في الصباح . واتجه اليه :

-.هل استطيع ان اصنع شيئا ياسيدي ؟

- اشكرك ، فانني انتظر وصول سيارتي !

- ولكن الظلام بدأ يخيم على المكان . دعني اصنع شيئا دعني اقدم لك اية خدمة ، فليس من المعقول ان اتركك وحدك في هذا المكان في هذه الساعة .

هذا ابي !

وقبل الرجل على مضض ولكنه اشترط على صاحبه ان يوصله بسيارته الى مكان معين ويتركه هناك حتى

يستطيع ان يتصل بالبيت ويأتي من يقله اليه .

وانطلقت بها السيارة .. وفي منتصف الطريق حدثت المفاجأة .. لقد سمع العجوز صوتا يناديه : « أبي .. أبي » وتوقف مدير الملجأ .. واقتربت السيارة الاخرى ونزل منها رجل في مقتبل العمر ما كاد صاحب السيارة يلمحه حتى اقبل عليه وعانقه بحرارة .. لقد كانا زميلين في الدراسة وافترقا بعد تخرجهما .. انه ابن العجوز المحسن الذي حاول جاهدا ان يخفي شخصيته !

واسقط في يد الاب عندما رأى ابنه يتجه اليه ويسأله : « ماذا حدث يا أبي .. اين كنت وأين سيارتك ؟ »

- سأشرح لك كل شيء عندما نعود الى البيت .

وافترقوا .. ذهب الاب مع ابنه ليوصله الى البيت ، ومضى مدير الملجأ في طريقه .. اذن فلم يكن هذا المحسن الطيب القلب سوى الثري الكبير الذي كان يحرص دائما على اخفاء شخصيته في كل عمل خيري اسهم في اقامه .

يقول نورمان فنسنت بيل : « كثيرون هم هؤلاء الذين يسعدهم الدفء الذي يشعرون به وهم يستمعون الى كلمات الشكر والثناء على ما قدموه او صنعوه من اجل غيرهم . ولكن هناك نوعا خاصا من الراحة النفسية التي يحس بها المرء عندما يقوم بعمل طيب في هدوء ودون ان يجعل احدا يعرف به .. هذا الفريق الاخير من اهل الخير الذين يخصون غيرهم بكل هذا الحب ، يدركون ان السعادة الحقة التي يبحث عنها الانسان هي في العطاء الهادىء الذي يبعث في النفس ذلك الشعور النبيل بالرضا والارتياح بعيدا عن كل العيون التي تبحث عن مصدر الخير . »

من اجل ولدي

ويروي فنسنت بيل قصة الام التي فقدت اصغر ابنائها في الحرب . لقد ابلغها رؤساؤه في الكتيبة التي يعمل بها ضابطا انه استشهد في القتال . ولكن شيئا ما كان يصرخ في داخلها : « ان ابنك لم يمت . » وظلت المسكينة تنصت لهذا الصوت الذي كان يملأ قلبها واذنيها ويرى صداه كل من كان حولها في عينيها اللتين امتلأتا بالدموع ، فقد كانتا تقولان شيئا اخر غير البكاء .. كانتا تبتسمان كلما رفعتها الى الصورة الكبيرة المعلقة على الحائط .. صورة الابن الذي لم يتوقف قلبها عن الحديث عنه مؤكدا لها انه لم يمت ، وانه عائد اليها .

ولكن ابتسامة الامل ما لبثت ان بدأت تخبو وشيئا فشيئا بدأ الحزن يعصر القلب المفجوع مع الليل الطويل ، الذي لا تريد الشمس ان تضع نهاية لظلامه المخيف .

الى ان كانت ليلة من ليالي الشتاء ، ألقت فيها الام بجسدها المتعب على فراشها البارد ، وخيل اليها انها لن تستطيع ان تقوم من رقدتها مرة اخرى . ولكن الشمس ما لبثت ان اشرقت من جديد وعاد الابن الغائب الذي ظنوا انه مات . كان اسيرا طوال هذه الاعوام . وعادت الحياة معه الى البيت والى قلب الام المسكينة الذي عاد بدوره يخفق بكل الحب الذي يمكن ان يتسع له قلب انسان ..

العمة الطيبة

وتمضي الايام .. وتعيش الام اسعد لحظات حياتها مع ابنها العائد .. وتسمع ان المستشفى الكبير القريب من بيتها في حاجة الى ممرضات .. ولكنها ليست ممرضة ولا تفهم شيئا في التمريض وقد تقدمت بها السن ، ولكن لماذا لا تحاول .. ربما وجدوا لها عملا .. اي عمل وذهبت وطرقت الباب : « انني لست ممرضة ، ولكنني استطيع ان اقوم باعمال كثيرة .. المهم ان اشعر انني قد صنعت شيئا من اجل هؤلاء المرضى والجرحى .. انني لا أطلب اجرا . وما دمت سأعمل بلا مقابل فلا اريد ان يعرف احد باسمي ، ولا من اكون . أنا ام لاربعة اولاد في سن الشباب » . ثم اخرجت من حقيبة يدها شهادة تؤكد كل ما ذهبت اليه في حديثها وهي تقدم لهم نفسها . وكانت الشهادة تحمل صورتها ولكنها لا تحمل اسما ، انها سيدة تنتمي الى اسرة طيبة وانهم يستطيعون ان يثقوا في امانتها واخلاصها .

وبدأت الام عملها الجديد في المستشفى .. كانت تصل اليه في ساعة مبكرة من الصباح وتغسل الارض وتجمع الملابس القذرة وتضع الملابس النظيفة مكانها . فاذا انتهت من اعمال النظافة ، حملت طعام الغذاء الى المرضى في فراشهم ، وانتظرت حتى ينتهوا من تناول طعامهم وهي تتنقل بينهم وتساعد من كان في حاجة الى مساعدة فيستندون الى ذراعيها العجوز الضعيف ، ليصلوا الى نافذة الغرفة ويتمتعوا باطلالة قصيرة على الحديقة يعودون بعدها الى اسرتهم بعد ان يملأوا عيونهم بدفء الحياة وجمالها من وراء زجاج النافذة .

كانت تحس وهي مشغولة بعملها الجديد انها قد عادت عشرين عاما الى الوراء ، واستمرت ، العمة الطيبة كما كانوا ينادونها ، تعمل ثلاث سنوات متصلة ،

ولكنها ما لبثت ان بدأت تشعر بالتعب .. يومها فقط قال لها ابنها : « كفي ياأمي ! » ثم توجه الى المستشفى ليقول لهم ان « الممرضة » التي احبوها لن تتمكن من الاستمرار في عملها فقد تقدمت بهذا السن واصبحت غير قادرة على الحركة .. انني احمل رسالة منها .. من امي انها تريد ان تشكركم ، فقد اعطيتموها اجمل ثلاث سنوات في عمرها !

يومها فقط ولاول مرة عرفت المستشفى شخصية « العمة الطيبة » ومن تكون .. لقد كانت ارملة الرجل الذي تبرع باكثر من نصف تكاليف هذا المستشفى الكبير الذي جاءت زوجته بعد ثلاثين عاما من انشائه لتعمل فيه ممرضة بدون مقابل !

السعادة في العطاء

ويمضي فنسنت بيل في كتابه « كيف نجعل من السعادة عادة ؟ » « ان تتعلم ان السعادة الحقيقية ليست في الاخذ فقط ، وانما هي في « العطاء » ايضا ، وبقدر ما يعطي الانسان تكون سعادته . ان الابتسامة التي تأتي بعد معاناة هي في الغالب تلك التي يحرص صاحبها على ان يشرك معه فيها اكبر عدد من الناس . »

« ففي البشر عادة جرع قوي الى اعتراف الآخرين بفضلهم عليهم وامتنانهم لهم كلما قدموا عملا طيبا ولكن سرعان ما يكتشف المرء انه اضاع اروع ما في العمل هذا عندما اخذ يعلنه على اكبر عدد من الناس . في احدى القرى الصغيرة عاش رجل مع الوحدة والالم اعواما طويلة قبل ان يكتشف طريقه الى الحياة من جديد . فقد ماتت زوجته بعد احالته الى التقاعد بسنوات طويلة قليلة ، وبحث حوله فلم يجد احدا ... لا ولد ولا قريب ولا حتى صديق ، فهو لم ينجب اطفالا .

وحار ماذا يفعل بحياته في وحدته ولكن حيرته لم تطل عندما فتح باب بيته ذات صباح ليأخذ زجاجة اللبن ، فقرأ عليها : « ابتداء من الغد ولمدة اسبوع على الاقل لن نتمكن من توزيع زجاجات اللبن على المنازل لتعطل سيارة التوزيع . نرجو ان تقبلوا اعتذارنا » .

وخطــر له خاطــر ... لماذا لا يذهــب الى الشركة ويعرض عليهم سيارته ... انه لم يستخدمها منذ شهور طويلة ، ثم هو ليس في حاجة اليها الان . اين يذهب بها ؟ كيف يقودها ، وقد خلا المقعد المجاور له من المرأة التي شاركته رحلة عمره . كل شيء في هذه السيارة يثير في نفسه الذكريات .

وذهب الى شركة الالبان ، ورحب مديرها به ، وشكره على تعاونه وخاصة لان الرجل لم يطلب اجرا ، ولكنه فوجيء بعد ذلك بشيء لم يكن في حسابه ابدا .. المدير يسلمه ملابس العمل البيضاء التي سيلبسها وهو يوزع زجاجات اللبن بسيارته .

وأحس بسعادة وهو يتسلم الملابس بلا تردد ، ويسأل عن مواعيد العمل .. وعادت زجاجات اللبن الى البيوت من جديد مع كل صباح .. وقضى الرجل في عمله الجديد ثلاث سنوات .. كان يعمل مقابل اجر رمزي ، فقط لانه لا يجوز لشركة ان تستخدم عاملا بدون اجر .

وفي كل صباح ايام الشتاء لم يأت الرجل ولم تصل سيارته ، وتعطل توزيع زجاجات اللبن على المنازل .. وبحثوا عنه واخيرا وجدوه .. كان في سيارته على بعد خطوات قصيرة من الشركة ، وقد غطتها الثلوج ، اما هو فقد مال بجسمه الى الامام واستقرت رأسه على عجلة القيادة ، وكان قد فارق الحياة .

وفي درج صغيـر بالسيارة ، ولاول مرة ، عرف الناس حقيقة شخصية موزع اللبن العجوز الذي لم يغب عن عمله يوما واحدا .. لقد كان استاذا في الجامعة ثم احيل الى التقاعد فترك المدينة وصحبها وجاء مع زوجته ليعيشا في أحضان الريف .

منير نصيف

■ حب الاستطلاع هو علاج الملل ، ولكن ليس هناك علاج لحب الاستطلاع للاسف الشديد ..

« الين بار »

■ تعلم لغة جديدة وانعم بروح جديدة .

« مثل تشيكي »

■ ليس هناك فن تجريدي . لابد ان تبدأ بشيء ، وبعدها تزيل كل اثار الواقعية فيه .

« بابلو بيكاسو »

■ الاقتصاد يعتمد على الاقتصاديين ، كما يعتمد الجو على ما تذيعه الارصاد الجوية .

« جان بول كوفمان »

تدمر

بين عمارة البشر وجن سليمان !

بقلم : الدكتور عفيف بهنسي

الى عهد قريب كانت تدمر تعتبر من آثار سليمان الحكيم أو هي من صنع الجن الذين كان يأمرهم سليمان لصنع المعجزات . وهكذا فان تدمر استمرت أثراً من الآثار المعجزة لا يقوى على صناعة نظيرها الا سليمان وجنوده من الجن .

زنوبيا ملكة تدمر



على أن الرحالة من الأوربيين ، ما كان يدفعهم الى تدمر على الرغم من صعوبة الأمر ، إلا البحث عن معالم أثرية لم تعرف ولم يكتب عنها . ومع أن عمليات البحث والوصف لم تكن علمية بحتة ، الا أن ما صوره الرسامون من أمثال كاساس والقس الانكليزي برتون الذي عمل مع الفنان اللبناني موراكتني ، وما تركه المؤلفون من وصف وشرح مثل أعمال وود ، وداوكينز وبورتر وغيرها ، ما زالت مصدرا هاما من المصادر المفيدة للعلماء والمنقبين الحديثين الذين توسعوا في التنقيب عن معالم تدمر وتاريخها وثقافتها .

ونحن ندين أولا الى الأب الفرنسي بارتلمي والعالم الانكليزي سوينتون اللذين تمكنا من حل رموز الكتابة التدمرية والتعرف على أبجديتها ، وقراءة نصوصها المنقوشة على الألواح والأعمدة والتماثيل ، وهي كتابة آرامية للغة آرامية .وبعد هذا الكشف ، ازدادت معلوماتنا شيئا فشيئا عن تاريخ تدمر بفضل العلماء اللغويين من أمثال شابو . كما ندين للأثريين سيريغ وشلومبرجيه وانغولت بما كشفوه ونشروه عن معالم تدمر .

لقد درج المؤرخون على الحديث عن تدمر كجزء من حديثهم عن التاريخ الروماني وحضارته ، بيد أن أسبابا كثيرة تدفعنا الى تأكيد أصالة تدمر واعتبارها جزءا عضويا من تاريخ وحضارة هذه المنطقة العربية .

بالعربية والآرامية

فشعب تدمر عربي آرامي يتكلم العربية والآرامية وهما لغتان شقيقتان ، وعقائده عربية قديمة ، فهو يؤمن باللات والعزى ومناة وأسد . وسياسته مستقلة ذات طموح قومي دفع زنوبيا الملكة أن تسعى الى الاستيلاء على عرش روما نفسه ، ولم لا ؟ فلقد كانت جوليا دومنه من حمص تحكم قبلها روما الى جانب سبتيموس سيفيروس من ليبيا . وكان زوجها اذينه قد أصبح ملك ملوك الشرق وحمل لقب امبراطور . ولقد ورثت زنوبيا كل تلك الألقاب ، وأضافت عليها عبارة اغستوس ، وكانت قد احتلت مصر وجزءا من الأناضول .

الأحداث التاريخية تتطلب صبرا ونحن نتابع دراسة وتحليل ما تركته كتابات تدمر . ولكن معالم تدمر لا تتطلب منا الا زيارة سهلة نقوم بها الى تدمر في قلب بادية الشام ، فنزور فيها المعابد والشارع الرئيسي بين قوس النصر والتترابيل (نصب تزييني) ، والحمامات والأغورا (ساحة المبادلات الثقافية والتجارية) والمقابر الحافلة بالتماثيل والفريسك (الرسوم الجدارية) .



أسد تدمر

تمثال اسد ووعل كان في مدخل المعبد الارامي الذي اصبح معبد بل في العهد الروماني ، ارتفاع التمثال ٤م تقريبا وعليه كتابة آرامية : « طوبى لمن يدخل المعبد ويداه نظيفتان من الدماء » .

لقد كانت تدمر موجودة منذ الألف الثالث قبل الميلاد . فلقد ورد اسمها في نص أشوري يرجع الى القرن ٢٣ ق . م . كما ذكرت في نص من مدينة ماري يرجع الى القرن ١٨ ق . م . كما ورد اسمها في نص اكتشف أخيرا في ايمار ومسكنة يرجع الى القرن ١٤ ق . م . ويتحدث عنها المؤرخون القدماء من أمثال بلين

ويوسيفوس ، على أنها دولة مستقلة في القرن الأول ق . م . ثم تظهر واضحة التاريخ بعد عام ٦٤ ق . م . أي بعد استيلاء الرومان على سورية ، وتتشكل أول فرقة عسكرية في عهد تراجان ثم تحمل تدمر اسم بالميراهادريانا ، وعرفت منذئذ الازدهار والتوسع وأنشئت أو جددت فيها روائع المعابد والأغورا والشارع الرئيسي . ثم تحمل اسم مستعمرة رومانية ، بما في ذلك من امتيازات ، وذلك في عهد أسرة سيفيروس الليبية السورية ، وأصبح أمراء تدمر العرب يتكنون بجوسس هذه الأسرة سبتيموس . ونعرف من الامراء اسم جيران المعروف « برأس تدمر » ويقوم ابنه أذينة بانقاذ الامبراطور فاليريان . ويصبح لقب أذينة (مقوم الشرق كله ، أو ملك الملوك (٢٦ م) أو امبراطور .

ومن مظاهر الازدهار التدمري توطيد العلاقات التجارية في قانون مالي جديد صدر عام ١٣٧ م بقرار من مجلس الشيوخ ونقش على لوح بطول خمسة أمتار تقريبا أمام المعبد . هذا اللوح الهام الذي اكتشف عام ١٨٨١ ما زال قائما في متحف الارميتاج في لينتغراد ، يخبرنا عن قواعد التعامل التجاري والرسوم والمستوردات وتنظيم السمسرة والجباية والبيع والرخص . وليست الأغورا الا الساحة التي شهدت هذا الازدهار الاقتصادي المنظم .

أما الازدهار الفني فإن معالمه ما زالت قائمة حتى الآن على الرغم من أعمال التخريب الرهيبة التي قام بها أورليان في حملته الثانية ، وما نقله الى روما من كنوز المعبد الكبير لكي يزين هيكل إله الشمس الشرقي الذي أقامه تخليدا لذكرى انتصاره على تدمر ، ويتحدث المؤرخون عن أعمدة المعبد المذهبة التيجان وعن أبوابه المذهبة وعن مباخره وأثاثه الثمين .

شخصية متميزة

وان الكتاب الأخير الذي أصدره مالكولم كوللدج قد أوضح خصائص هذا الفن وجمع الآراء المتباينة التي تناولت شخصيته وقامت بتحليل معالمه وطرازه .

ومما لا شك فيه أن هذا الفن يحمل خصائص متميزة عن الفن الاغريقي ـ الروماني ، نراها واضحة في مجال النحت والفريسك بصورة خاصة ، وباعتقادنا أن هذه الشخصية المحلية التي نراها موحدة بين فن الحضر (شمالي القرن) ودورا أوروبوس (على الفرات ـ سورية) ومنبج (شمالي سورية وتدمر هي مرحلة من مراحل تطور الفن في هذه المنطقة منذ العهد الصارغوني (القرن ٣ ق . م) وحتى العهد البيزنطي (القرن ٥) مرورا بفنون المصوريين والكنعانيين والآراميين والكلاسيين . بل ان الفن الاسلامي كان المرحلة الأخيرة من مراحل تطور هذا الفن الواضح المعالم والحدود .

وقد يبقى الأمر مختلفا فيما يتعلق بالعمارة ، ويعود ذلك لأسباب دينية فيما يتعلق بالمعابد التي تقاربت فيها الآلهة التدمرية بالآلهة الرومانية فأصبح « بل »معادلا لجوبيتر ، وأصبح عجليبول معادلا لسول وعقليبول معادلا للونا واللات هي منيرفا نفسها . كما يبدو واضحا من التمثال الذي اكتشف مؤخرا وهو تمثال Parthenos Kerakion Athena كما يعود لأسباب سياسية ، وهي ولاء تدمر للسلطة الرومانية وطموحها المستمر أن تكون حاضرة متميزة في هذه الامبراطورية الشاسعة . أو أن تكون هي مصدر السلطة الأساسية في هذه الامبراطورية . وتحل ملكة تدمر زنوبيا محل الامبراطور أورليان في حكم الامبراطورية . ويبدو ذلك من النقود التي سكتها دون أن تحمل اسم الامبراطور . ووجود المسرح ـ على صغره ـ دليل على الاهتمام بالفنون التمثيلية والرقص والموسيقا ، وقد تفيدنا مكتشفات قادمة في التعرف على تفاصيل هذا الفن .

لقد كان شعب تدمر يعيش عاداته الخاصة ، ويبني حضارته الخاصة التي حملت شكلا رسميا من الأشكال التي عممتها الامبراطورية ، بل التي كانت قد أصبحت

تمثال اللات الذي يحاكي تمثال فينوس



الشكل الحضاري السائد منذ حملة الاسكندر وانتشار الفن الهلنستي .

بيد أن الحديث عن خصائص الحياة التدمرية أمر لا بد منه لمتابعة الكتابة في حضارة تدمر .

فالبيت التدمري هو استمرار لشكل البيت التقليدي في هذه المنطقة وما زال ساريا حتى اليوم بتقسياته ومواد بنائه . أما أثاث البيت فيبدو واضحا من خلال التماثيل الجنازية . ويضم المنزل أسرة يحكمها الأب ويتعاون أفراد البيت في أعمالهم التجارية أو الزراعية . أما المرأة فكانت عضدا لزوجها ولم تكن لتبخل على نفسها في زينة أو زي جميل . ولقد تحدث الشاعر بودلير عن الحلي التدمرية . أما الزي التدمري فانه ما زال هو الزي الشائع في منطقة الفرات . وكان هذا الزي هو المألوف في المنطقة كلها . فيبدو واضحا في تماثيل الحضر في العراق .

وللتدمريين عيد قومي ديني . وتجري الاحتفالات في طقوس عربية محلية تسمى الطواف . اذ يحمل صنم الرب على سرير ذهبي ثم يحمل على جمل ويطاف به حول الهيكل ووراءه نساء محجبات . يشهد على ذلك لوح منقوش في سقف رواق المعبد .

أما الولائم والمآتم فهي تتبع التقاليد المتوارثة عند العرب الحضر ولعلها ما زالت قائمة حتى اليوم .

زنوبيا والاسطورة

وبعد فان الحديث عن تدمر لا يمكن أن يبدأ أو أن ينتهي الا بالحديث عن زنوبيا . هذه المرأة التي حملت طابع الاسطورة . بل ان أخبارها عند العرب قد اختلطت بأخبار التاريخ العربي القديم . وتناقلها الناس كقصة بطولية عربية خالدة . ولذلك فاننا نجد بونا شاسعا بين قصة زنوبيا في الروايات الشعبية وبين قصتها بحسب الدراسات الأثرية . ومع ذلك فان الناس يرغبون بسماع تلك القصص كما يرغبون بسماع قصة عنتر وبيبرس وسيف بن ذي يزن وصلاح الدين .

لقد كانت زنوبيا ـ عندما حكمت وصية على ابنها وهب اللات ـ نموذج الحاكم القادر الطموح . ولقد وهبت نفسها للحكم على الرغم من جمالها الذي لم يكن له مثيل . وهي اذ أثبتت دعائم الحكم بمعونة قائديها زبدا وزباي . قامت معهما بتوسيع نطاق مملكتها في أنحاء



نموذج من الالواح المدفنية محفوظ في المتحف الوطني بدمشق

سورية بل كونت امبراطورية جديدة تضم آسيا الصغرى ومصر . وكانت تطمح في الوصول الى عرش روما .

ولقد تحدث عن زنوبيا كثير من المؤرخين وأطنبوا في وصفها . ولكن قد يكون مثيرا أن نسمع خصمها العنيد وعدوها أورليان وهو يصفها قائلا : « لو يعلم الآخرون من هي هذه المرأة . لو كانوا يعلمون رصانتها في المجالس وارادتها في وضع القرارات الحاسمة وحزمها العسكري وتسامحها القادر . وان زوجها أذينة كان مدينا لها بانتصاره على سابور ملك الفرس ووصوله حتى طيسفون . لعرفوا ماذا يعني الانتصار عليها ! » .

تدمر هذه الحاضرة التي ما زالت تتصدر بادية الشام . كانت ذات يوم آية الفن والحضارة . وكادت سلطتها أن تصبح عالمية . وها هي اليوم مجموعة أثرية متكاملة تستطيع أن تتحدث أكثر فأكثر عن فصل هام من تاريخ العرب .

واذا كانت الحفريات ما زالت قائمة . فان أعمال الترميم تأخذ اهتماما خاصا فلقد وضعت خطة ثابتة لمتابعة ترميم هذه الحاضرة الخالدة بما يليق بآثارها الرائعة وتاريخها المجيد .

الدكتور عفيف بهنسي

رغم أننا نختلف في الكثير مما تقوله سيمون دي بو فوار ، إلا أننا نؤمن بأهمية التعرف على ما تقول ـ (العربي) .



سيمون دى بوفوار والجنس الآخر

بقلم : الدكتورة سامية احمد اسعد

لا شك أن الكثيرين يذكرون سيمون دي بوفوار ، رفيقة ج . ب . سارتر في الحياة والكفاح والكتابة . ولا شك ان الكثيرين يذكرون ايضا النبرة المبتكرة التي تميزت بها كتاباتها عامة ، وكتاباتها عن المرأة خاصة . وبعد مرور ما يزيد عن ثلاثين سنة على تلك الكتابات ، وبعد وفاة سارتر نتساءل : ما الذي يمكن ان تكتبه سيمون دي بوفوار عن المرأة اليوم بعد تجربتها الطويلة الشاقة ؟ هل تغيرت نظرتها الى بنات جنسها على ضوء الاوضاع السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على عالمهن ؟ وهل اصبح ما سبق أن قالته عنهن غير ذي موضوع اليوم ؟ نحاول هنا ان نعيد قراءة أشهر ما كتبت في هذا الصدد أي كتابها عن « الجنس الثاني » ولسوف نتبين ان كثيرا مما قالته ينطبق ـ للاسف او لحسن الحظ ، حسب وجهات النظر ـ على المرأة اليوم .

عام ١٩٤٩ ، بدأت سيمون دي بوفوار تنشر اعمالها الروائية ، بعد ان حققت حلما طالما راودها في فترة المراهقة ، الا وهو اكتسابها لحريتها على الطريقة الفرنسية . واذ تحقق الحلم تحملت مسئوليتها كاملة

وعاشت مع الفيلسوف سارتر ، ومن خلال رواياتها وابحاثها اصبحت قادرة على معاونة الآخرين على تحقيق ذاتهم . وفجأة كفت عن تخيل القصص والحكايات ووجهت لنفسها هذا السؤال المذهل البسيط : « ما انا ؟ » وردت قائلة : « انا امرأة » ومن ثم ، كان هذا السؤال الآخر : « وما هي المرأة ؟ » واستطردت قائلة : « تلك الحرية التي اكتسبتها بصعوبة واستخدمتها ، اكتسبتها وسط الخسائر المؤكدة ، وكنت الاقوى ، وسيطرت على مصيري ، لم تتكبد المرأة كل هذه المشقة لكي تكون امرأة ؟ » .

الانسان الحرية

إزاء هذه الاسئلة ، استخدمت سيمون دي بوفوار حريتها الشخصية ، والسلاح الذي صنعته لنفسها وكتبت عن « الجنس الثاني » (١٩٤٩) كتابا هاما لاقى نجاحا منقطع النظير ، وزاد من شهرة صاحبته .

ترى سيمون دي بوفوار ان قيمة الانسان تتوقف على الحرية التي اكتسبها ، وعلى مسئولياته نحو نفسه ونحو الآخرين ، ان حرية الاختيار معطاة تقريبا للكاتب ، والمثقف ، بينما على العامل ، والزنجي ، والمرأة ، الذي تجمع بينهم تبعيتهم للآخرين ان ينتزعوا حرية الاختيار هذه ، لم تكن مؤلفات الكاتبة تنبيء بشيء مما تضمنه « الجنس الثاني » من مطالب انسانية ، اولا قبل ان تكون نسائية . كل ما هنالك ان بعضا من بطلات رواياتها شعرن بالعجز عن الوجود ، والخلق والحياة ، واستسلمن لنوع من مركب الفشل . ولنوضح منذ البداية ، ان الكاتبة قالت انها لم تتألم قط لانها امرأة ، وانها بدلا من ان تتنكر لصفتها هذه ، اكدتها ، وتحملت مسئوليتها كامرأة كاملة .

في الجزء الاول من « الجنس الثاني » ، وعنوانه « الوقائع والاساطير » ، تصور الكاتبة وضع المرأة على انه ادنى من وضع الرجل ، وتقرب الصفحات الاولى بين المذلة التي يشعر بها كل من العمال والنساء والشعوب التي تنظر اليها شعوب اخرى نظرة عنصرية ، فمما لا شك فيه ان « المرأة الخالدة » مرادف « للروح الزنجية » . وايا كانت الدرجة التي وصلت اليها القضية اليوم ، فان المرأة ورثت ماضيا مثقلا بالمذلة والاستعباد . فهي لم تتساو مع الرجل ابدا ، من الناحية التاريخية ، والاسباب الاقتصادية لوضعها هذا معروفة للجميع . فلقد اختلط تاريخ المرأة بتاريخ الميراث ، قرونا عدة وظل مفهوم الزنا مرتبطا بمفهوم الملكية فترة طويلة ، الا ان النظرة الوجودية ، في « الجنس الثاني » ، تلقي ضوءا جديدا على المصادر النفسية لتاريخ المرأة الغريب .

وتلاحظ سيمون دي بوفوار ان الرجل كان ـ منذ فجر التاريخ ـ صانعا ومخترعا خلاقا ، بينما كانت المرأة مشغولة بالانجاب والوضع ، وان الفارس والمحارب كانا يجيئان دائما في المقدمة بالنسبة لرفيقاتهما ، لماذا ؟ لان الانجاب لا يعمل الا على استمرار الحياة المتكررة دوما ، داخل دائرة عيشية ظاهريا ، في حين ان الرجل « يوجد » بالقدر الذي يعمل به شيئا . هكذا ، لا تلتقي المرأة بالوجود ، وان كانت قد وهبت الاستمرار للحياة ، وهذا التناقض الجوهري بين الرجل والمرأة هو اول مفاتيح « الجنس الثاني » .

هكذا جعل الرجل للمرأة مرتبة أدنى من الناحية التاريخية ، ثم قادها الى قبول وضعها هذا نتيجة لسلسلة من الحيل والخدع ، فاخترع اسطورة « المرأة الخالدة » ، وعرف المرأة الحقيقية وفقا لاحتياجاته ورغباته الخاصة .

والشيء المبتكر حقا في هذا الكتاب ـ ضمن اشياء اخرى بالطبع ـ هو رجوع الكاتبة الى الوراء ، الى اصل الخدعة التي توصل الرجل بفضلها الى تجريد المرأة من كينونتها ، واذ تلقى سيمون دي بوفوار الضوء على هذه القضية ، يظهر الرجل امامنا في عزلته الاصلية التي يحاول تخطيها بفضل الرفيقة التي تعطيها له الحياة ، من خلال المرأة ، يحاول الرجل ان يصل الى سر الحياة . وتقول الكاتبة في هذا الصدد : « ينتظر الرجل من امتلاكه للمرأة شيئا آخر غير اشباع غريزة بعينها ، فهي الشيء المميز الذي يستعبد الطبيعة من خلاله » . لكن امتلاك الرجل للمرأة وانتهاكه سرها عاجز عن تخليصه من قلقه وشعوره الاصلي بالذنب . وتبدأ سوء نية الرجل عندما يسقط على المرأة هذا القلق وهذا الشعور بالذنب ، هكذا تصبح المرأة مرادفا للخطيئة والموت والكذب . وفي النهاية يعمل الرجل جاهدا على الفصل بين مظهري الانوثة : الأم ـ الموت ، والمرأة ـ الجسد . وتقف سيمون دي بوفوار طويلا عند هذا التناقض الاساسي لانه كان الى حد كبير سببا في وضع المرأة في الماضي وفي الحاضر . وعنه نشأت كل انواع استعباد المرأة جنسيا .

واذ ادرك الرجل انه محكوم عليه بالمرض والشيخوخة والموت ، اراد ان يرى في المرأة دواء لأمراضه تلك . فارادها جميلة شابة صحيحة . حتى لو اراد الرجل ان ينسى ان رفيقته كائن بشري مثله محكوم عليه بالشيخوخة والموت ، فحري بنا أن نذكره بالامر . فبأي

حتى يطالب المرأة بان تكون كاملة ثابتة لا تتغير ؟ .

طبيعة المرأة ومصيرها

والقضية التي تعالجها الكاتبة في الجزء الثاني من « الجنس الثاني » ، وعنوانه « التجربة الحية » اكثر جدية واثارة للجدل والنقاش ، ربما لانها تمس ما يمكن ان يسمى طبيعة المرأة . تقول سيمون دي بوفوار في مطلع الكتاب : « المرأة لا تولد ، بل تصبح كذلك ، ما من مصير بيولوجي ، او نفسي ، او اقتصادي كان يحدد وجه الانثى داخل المجتمع الانساني . »

وهذه أهم نقطة يعالجها « الجنس الثاني » . فالمرأة تخلق كلية نتيجة لتكوينها ، وتربيتها ووضعها . ويكاد يستحيل علينا ان نعرف ما اذا كانت قدرة المرأة على الانفعال واحساسها بالنقص امرين طبيعيين او لا . ترى الكاتبة ان مصير المرأة يتوقف على التربية . فالفتاة السلبية تتربى ، منذ مطلع حياتها ، على السلبية المصطنعة : التجربة العائلية التي تضع اباها في مكانة هامة ، ونصائح امها ، تلك الام التي تفضل ان تجعل من ابنتها امرأة حقيقية ، واساطير ادب الاطفال التي تصور الرجل على انه البطل والمنقذ دائما ، وتصور المرأة على انها الضحية الشهيدة دائما . واخيرا ، التربية المنسوبة الى الدين التي تعود الفتاة على التنازل امام الرجل . بالتالي بدلا من ان تعمل الفتاة المراهقة على تأكيد ذاتها ، والزيادة من قيمتها الانسانية ، تعلم ان كل تأكيد لذاتها يقلل من انوثتها ، وقدرتها على الاغراء . من الواضح اذن ان هنالك عيبا اساسيا في تربية البنات ، عيب ناتج عن ان الام عندما تربي ابنتها ، تضيف رغما عنها حلقة جديدة الى سلسلة الشعور بالنقص التي سبق ان كبلتها بها امها ، وتذهب سيمون دي بوفوار الى ابعد من هذا ، وترفض اي فرق طبيعي بين الولد والبنت .

وتعترف سيمون دي بوفوار بان الزواج هو المصير التقليدي للمرأة ، لكنها تفرق بين الزواج والحب . فالزواج يفهم على انه وظيفة اجتماعية اقتصادية . وفي هذا الموضوع كتبت هذه الكلمات التي اثارت كثيرا من الجدل حول « الجنس الثاني » : « مبدأ الزواج مبدأ فاحش ، لانه يحول الى حقوق وواجبات تبادلا يجب ان يقوم على الانطلاق التلقائي ... ان نطالب زوجين تربطهما بعض المصالح العملية والاجتماعية والمعنوية ، بان يمتع كل منهما الآخر طول حياته ضرب من العبث الخالص » . قد يكون كل هذا صحيحا ، والزواج القائم على الدوافع الاقتصادية ـ فحسب ـ أسوأ نوع من العبودية يمكن ان يكون . ومع هذا ، هناك حقيقة غنية عن البيان ، ألا وهي : ان الناس لم يجدوا حتى الآن علاقة اساسية بين الرجل والمرأة يمكن ان تحل محل الزواج .

وتبدأ س . دي بوفوار الفصل الخاص بالام بعرض موضوعي لموضوع الاجهاض ، وترى انه من الضروري في فترة يهدد فيها العالم التضخم السكاني ومجاعة عامة قد تشمل كوكب الارض كله ، ان نطرح صراحة للبحث موضوعا لم تجرؤ الاخلاقيات التقليدية على بحثه حتى اليوم ، موضوعا يجب تخليصه من طابعه السري واصدائه الفاسدة اولا وقبل كل شيء ، فضلا عن انه مشكلة يومية عامة اقرب الى كل منا اكثر مما تتصور . ان خطر الاجهاض يضع المرأة على مستوى يختلف كل الاختلاف عن مستوى الرجل في كل ما يتعلق بالجنس ، والحب ، والزواج والحياة ، لدرجة ان الطفل يصبح في قلب القضية النسائية ، حتى قبل ان يقبل او يرفض . فالانجاب هو القضية الكبرى لا بالنسبة للمرأة فحسب بل بالنسبة للرجل ايضا . فهو ايمان بالمستقبل وفعل خلاق بمعنى الكلمة ، ولا بد ان يفترض فلسفة معينة للوجود ، وعلى ضوء الفلسفة الوجودية بالذات ، علينا ان ننظر الى النتائج التي توصلت اليها الكاتبة في « الجنس الثاني »

كثيرا ما عاب النقاد على س . دي بوفوار عدم تفهمها لوظيفة الامومة عند المرأة وعدم اعطائها اهمية كافية للعلاقة التي تقوم ، في اغلب الاحيان بل وفي كافة الحالات ، بين المرأة الحامل والطفل الذي تحمله . ان التشاؤم الاساسي في الجنس الثاني « لا يفسره الا جزئيا رفض الكاتبة اعطاء الامومة المكانة التي تستحقها في حياة المرأة ، وهي مكانة يستحيل علينا تحديدها بالضبط . فكتاب س . دي بوفوار ينخرط في حركة اكبر منه ألا وهي ثورة الفلسفة الوجودية كلها على عبث الحياة التي تكتفي بتكرار نفسها . وعندما تعترف الكاتبة بانها تشمئز من سر الجنين الغامض « تلك المادة الرجراجة التي تتكون في الرحم » ، وعندما تتحدث عن الجنين الذي يبدأ حلقة تنتهي الى الموت ، تفعل ذلك بوصفها فيلسوفة : فالمادة اللزجة سالفة الذكر لا تخص داخل المرأة فحسب بل تختلط ايضا بغثيان الوجود الذي يعرفه الرجال ، واذا كانت تركز على الاغتراب المتمثل في الحمل ، وتجربة الوضع والعواطف المتضاربة التي تكنها الحامل للجنين الذي تحمله ، فذلك لان الحامل تخدم الحياة العبثية ، لا الوجود الواعي .

نتائج غير مقبولة

واذا نظرنا الى الكتاب من هذه الزاوية ، وجدنا انه يقترح على الاقل نتيجتين لا يمكن الا ان نقبلهما : الاولى ان الانجاب التزام ، بل اخطر انواع الالتزام ما دام يتوقف عليه مستقبل كائن بشري . والثانية ان المرأة جعلت لكي « توجد » بوصفها كائنا بشريا اولا ، وقبل كل شيء ، وتتلخص الفكرة الاساسية في الكتاب في ان الامومة ليست سوى احدى امكانيات اكتمال المرأة ، امكانية تنخرط في حركة فكرية كبرى ولا يمكن ان تكتمل ذات المرأة بالامومة الا اذا اختارت المرأة تلك الامومة بمنتهى الحرية .

اذن السبيل الوحيد الى الا تكون المرأة تلك المربية الهوائية ، القلقة تارة ، والصدامية تارة اخرى ، هي ابقاؤها على علاقتها الاساسية المحسوسة ، بالعالم الخارجي لكن الى اي حد يمكنها ذلك ؟ يتوقف مستقبل المرأة كله على الاجابة على هذا السؤال .

يصطدم تحرير المرأة اساسا بنوع من الرفض اللاشعوري والمقاومة المبهمة من قبل النساء انفسهن ، والرجال ايضا بطبيعة الحال ، والموضوعان مرتبطان .

ان مستقبل المرأة وخلاصها يتمثلان اولا ، فيما يبدو ، في مشاركتها الفعالة في المسئوليات التي تحملها الرجال وحدهم حتى الآن ، وانعكاس حريتها على العالم الخارجي اذن ، قد يكون النشاط المهني السبيل الوحيد الى ان تكتسب المرأة ، في آن واحد استقلالها الاقتصادي . وتلك ميزة لا تقدر بمال .

ان ارتقاء المرأة ، أمًا كانت او لا ، عاملة كانت او بورجوازية ، ينخرط في الواقع في الحركة العاملة التي تدفع البشرية الى درجة اعلى من الحرية والوعي ، بفضل مستوى معيشي اعلى . ويعد هذا التطور بقدر من الراحة المادية ، واستخدام منطقي للموارد التي تضعها الحضارة في متناول يد كل منا . وعلينا ان نتصور حياة المرأة مستقبلا داخل هذا المنظور المتغير دائما ...

هكذا حاولت س . دي بوفوار ان تحدد وضع المرأة في المجتمع الحديث منددة باسطورة الانوثة ، ذلك السراب الذي طالما ساعد المرأة على قبول تبعيتها للرجل وسلبيتها امامه . كما بينت ان الحدود التي تصطدم بها المرأة ليست طبيعية ، بل ناتجة عن القانون والاخلاق وان التبادل منعدم في العلاقة بين الجنسين اذا حاولت المرأة ان تستقل مهنيا او عاطفيا ، حاول الرجل المهدد في تفوقه الزعوم ان يعوق تطلعها الى المساواة ، عندئذ لا يسع المرأة الا ان تلجأ الى السلبية والكبت او العدوان . وكلتا الحالتين ابعد ما تكونان عن الاصالة .

كما حاولت الكاتبة ان تكتب من جديد تاريخ المرأة والشكل الذي اتخذته في اعمال بعض الكتاب امثال بريتون ، وكلوديل ود . هـ لورنس .. الخ .. ، لكي تؤكد الادوار المتناقضة المتكاملة التي تضطلع بها المرأة . وسواء كانت زوجة او أمًا ، خاضعة او متحررة ، فاضلة او مبتذلة ، تعرف المرأة ذاتها بالنسبة للرجل لا بالنسبة لنفسها . لكن التطور الاجتماعي والاقتصادي ساعد على اكتساب المرأة لاستقلالها على المستويين المهني والعاطفي ، واذا كانت المرأة المستقبلية تضطر احيانا ان تؤكد ذاتها على مستوى التحدي ، فذلك يرجع الى ان التطور النفسي متأخر بالنسبة لبداية التحرر ، والمساواة الكاملة بين الجنسين هي السبيل الوحيد الى تحرير المرأة داخليا ، وعلى الجنسين ان يتخليا عن سراب الانوثة من اجل حقيقة الاخاء والمحبة .

مذكرات فتاة عاملة

لم تقف س . دي بوفوار عند حد الحديث عن المرأة عامة بل تجاوزته الى الحديث عن نفسها وتجربتها الخاصة في سيرة ذاتية تغيرت عناصرها على مر السنين ، في هذا الصدد تعد « مذكرات فتاة عاقلة » (١٩٥٨) وثيقة لا تضارع ، تتحدث عن الظروف التي اختارت فيها فتاة تربت على احترام التقاليد بعض القيم ، اختارتها اختيارا حرا ، وان كان ثمن ذلك قطع صلتها بكل ما تلقته من ذويها .

في هذا الكتاب تتحدث الكاتبة عن طفولتها البورجوازية ، وتواصل الحديث الى ان تنتهي الى لقائها مع سارتر . وفي عام ١٩٦٠ ، واصلت س . دي بوفوار سيرتها الذاتية في كتاب ثان عنوانه « شرخ الشباب » ، غطت فيه الفترة بين ١٩٢٩ و ١٩٤٤ . تقول لنا الكاتبة ، في الصفحات التمهيدية ، انها نوت أن تقصر حديثها على العشرين سنة الاولى من حياتها . لكنها احست شيئا فشيئا ، بضرورة مواصلة الحديث ، يبدأ الكتاب مع خريف ١٩٢٩ ، لقد وضع نجاح س .دي بوفوار في « الاجريجاسيون » حدا لحياة التبعية ضيقة الافق التي تحدثت عنها في كتابها الاول . انها من الآن فصاعدا حرة في اختيار حياتها ، حرة في اكتشاف عالم البالغين الذي لا يصرف عنه إلا القليل .

لقد حدثتنا في كتابها الاول عن الظروف التي التقت فيها بسارتر ، اما الآن ، فقد ارتبطت حياة كل منها بالاخر ، بالرغم من الصداقات المختلفة التي ستحاول ان تفرق بينهما . في عام ١٩٣١ ، عين سارتر في ميناء الهافر ، بينما عينت سيمون في مارسيليا . لا بد اذن من ان ينفصلا . الاجازات وحدها ستمكنهما من ان يلتقيا . هكذا قاما باولى رحلاتهما الى اسبانيا وبريطانيا . وسرعان ما نقلت سيمون الى مدينة روان . وساعد هذا التقارب المفاجيء على تيسير الحياة لها ولسارتر . هكذا خاض الاثنان تجربة الحياة امام خلفية عاصفة متمثلة في فترة ما بين الحربين . ومن ثم ، كانت الاكتشافات والصداقات والرحلات ، والمحاولات الاولى في الكتابة . ودخلت حياتهما وجوه جديدة ، منها على سبيل المثال ، اولجا التي اوحت الى سيمون دي بوفوار بالملامح الرئيسية للشخصية النسائية الاولى في « الضيفة » . وعام ١٩٣٨ ، انتقلا الى باريس ، وبدأت سيمون كتابة « الضيفة » بينما كان خطر الحرب يزداد يوما بعد يوم ، وعام ١٩٣٩ بدأت مرحلة جديدة في حياة الكاتبين ، مرحلة سيطر عليها الالتزام السياسي والادبي ، واسر سارتر ، وهرب في ربيع ١٩٤١ ، واخيرا نشرت س . دي بوفوار روايتها الاولى ، وبدأت في الحال كتابة روايتها الثانية . وتنتهي هذه الوثيقة الهامة عن فترة تربو على الخمسة عشر عاما بالحديث عن تحرير باريس .

وفي عام ١٩٦٣ ، نشرت س . دي بوفوار الجزء الثالث من مذكراتها تحت عنوان « قوة الاشياء » التي تواصل فيها سيرتها الذاتية بصراحة خلت من الغرور ، وتتحدث فيها عن الفترة التي انقضت بين عام ١٩٤٤ وتحرير باريس . ومنذ عام ١٩٤٤ ، اصبحت كاتبتنا شخصية عامة ، واختلطت اكثر من ذي قبل بالاحداث السياسية . والملاحظ ان عددا من التجارب التي نشرت من قبل غابت في هذا الكتاب ، والذكريات هنا من كل نوع : ملامح من الحياة السياسية والاجتماعية ، حديث عن الكتب والاقلام ، لقاءات الخ ... وترى الكاتبة ان لكل شيء اهميته لان كل واقعة ليست جوهرية في حد ذاتها . وابتداء من الحرب ، تصبح قصة س . دي بوفوار قصة مؤلفاتها التي نشرتها على مر السنين ، الروايات اولا ، ثم كتابها عن « الجنس الثاني » ثم احداث مايو ١٩٥٨ وتولي الجنرال ديجول الحكم . وينتهي الكتاب عام ١٩٦٣ واستقلال الجزائر ، وتختتم الكاتبة كتابها بهذه الكلمات : « اهم شيء حدث لي ، منذ عام ١٩٤٤ ، هو انني تقدمت في السن » .

يتضح من كل هذا ان سيمون دي بوفوار وجه بارز مؤثر من الوجوه الادبية التي ترتسم على خلفية قرننا العشرين . ولربما كانت افضل مثال للكاتب الذي وفق الى المطابقة شبه التامة بين حياته ومؤلفاته ووقف موقف الفنان الصادق الاصيل المتعاطف الى اقصى حد مع الانسانية .

والآن في عام ١٩٨١ ، هل يمكن ان نقول ان المرأة قد تحررت ، كما تريد س . دي بوفوار ؟ والى اي مدى ؟ اذا اخذنا بعض الامثلة ، وجدنا ان المرأة الامريكية قد تساوت بالرجل الى حد جعل الرجل يطالب بالمساواة بها ، في حين ان المرأة في بعض بلاد العالم الثالث ، لا تزال مشدودة الى دائرة الاسرة والتقاليد واوضاع اقتصادية بعينها ، وبين هذين النقيضين نرى المرأة وقد تبوأت اعلى المناصب ، واصبحت رئيسة دولة ، ورئيسة وزراء ووزيرة وزعيمة . الخ ...

ان كثيرا مما طالبت به س . دي بوفوار قد تحقق للمرأة اليوم . ولنذكر ان الشريعة الاسلامية افردت للمرأة مكانة تليق بها ، واعطتها حقوقا تكفل لها الحياة الحرة الكريمة . واذا كنا نتفق مع س.دي بوفوار في كثير من النقاط ، فاننا نختلف معها في نقاط اخرى ، كاباحة الاجهاض ، الذي يعتبر بمثابة قتل للنفس المنهي عنه شرعا ، والمساواة التامة بين الرجل والمرأة . فهذا النوع من المساواة ـ علاوة على انه مستحيل تقريبا ـ قد يفضي الى قلب الاوضاع بحيث تكون المرأة هي اول من يدفع ثمن ذلك ... والحديث عن هذا الموضوع قد يطول ... وفيما يتعلق بعالمنا العربي خاصة ، نقول : ان المرأة ، سافرة كانت او محجبة ، عاملة كانت او ربة بيت ، لن تتحرر ... الا اذا تغيرت نظرة الرجل اليها .

د . سامية احمد اسعد
استاذة الأدب الفرنسي بجامعة القاهرة



التهجين

طريق المخلوقات إلى التنوع

بقلم : الدكتور محمد مروان السبع

لعل مما يلفت النظر في الكائنات الحية التي تملأ الكون هذا الاتساع العريض والكثرة الوافرة للانواع والاجناس والاصناف والتي تفوق الملايين عدا ، على الرغم من ان وحدة الخلق التي تجمع بينها واحدة ، وبالرغم من أن الفطرة الالهية التي تسير حياة هذه الانواع الحية وطبائعها واحدة . وبدون جدال فان هذا التنوع الهائل واحد من الادلة الكثيرة الجمة على روعة الخلق وابداع الهندسة في الاحياء .

ولا شك ان هنالك وسائل مختلفة ومتباينة تحقق هذا التنوع الهائل للكائنات الحية ، قد نتعرض لها في مقال خاص لاحق . ولكننا سنتعرض الى إحداها وأكثرها خطرا - من الناحية البيولوجية - الا وهي التفولة الوراثية .

فالتفولة او التهجين Hybridization يقصد به التزاوج بين فردين مختلفين في صفة وراثية واحدة او اكثر ، بحيث تنشأ في النسل الهجين صفات وراثية جديدة مرغوبة ، تحقق الغاية المطلوبة الا وهي التنوع الوراثي في الأنسال . وبصورة مغايرة لحالة القربى بين الافراد فان التفولة تعني عدم وجود قرابة على الاطلاق بين الفردين المتزاوجين . ولذلك فان النسل الهجين بعيد كل البعد عن النقاء الوراثي والاصالة في المورثات ، ولكنه في الوقت نفسه ذو صفات وراثية حسنة مثل ارتفاع الحيوية والكفاءة التناسلية والاخصابية ، وسرعة النمو وزيادة الانتاج وغير ذلك من الصفات الجيدة .

ومن المعلوم ان طريقة التهجين بين الافراد المتباعدة عن بعضها وراثيا متبعة من احقاب وعصور طويلة . واستخدمت لدى كل الشعوب والاقوام ، وطبقت على العديد من الانواع الحيوانية والنباتية (والبشرية) وسواء من اجل الفائدة الاقتصادية او بغرض البحث العلمي او لاشباع الهواية .

ولو سمحنا لانفسنا بالتعمق العلمي قليلا لقلنا بان الفرد الهجين يمتلك خاصية ممتازة معروفة لدى علماء الوراثة تدعى ظاهرة التهجين Heterosis وهنا يتفوق هذا الفرد على ابويه في صفاته نتيجة سيطرة المورثات السائدة الراجحة على المورثات المتنحية المقهورة ، وبالتالي لا تبين على الفرد الهجين الا الصفات الجيدة المرغوبة - وتكمن في الوقت نفسه - الخصائص السيئة المرذولة .

انواع التهجين

يتصف التهجين بكثرة طرقه وتعدد انواعه - فهو يبتدىء درجاته بسيطا على شكل تزاوج بين صفة واحدة هجينة فيدعى بالهجونة الاحادية . ثم يتعقد تدريجيا فيصبح بين صفتين (الهجونة الثنائية) وبين ثلاث (الهجونة الثلاثية) وبين اربع (الهجونة الرباعية) ...

وهكذا ومن الطبيعي ان الحصول على افراد ذات هجونة احادية سهل جدا في كافة الخلائق الحية بما فيها الانسان ، ولذلك اشبعت دراسة وتمحيصا . ومن ثم تصبح امكانية دراسة الهجونة الثنائية صعبة نوعا ما في الانسان والانواع الحية الكبيرة الحجم والقليلة الانسال . واما في الهجونة الثلاثية فتصبح مطبقة بشكل غالب في الانواع الحية الصغيرة الحجم والكثيرة الانسال كالارانب والدجاج والفئران والذباب وغيرها . واخيرا فان دراسة الهجن الرباعية وما بعد ذلك تصبح صعبة جدا بل ومستحيلة - تقريبا - بسبب كثرة الاحتمالات المتوقعة وتشتت الطرز الوراثية الكثيرة في الانسال الهجنية الناتجة .

ولا بأس علينا ان نبسط هذا الموضوع بوضع قاعدة حسابية سهلة يمكن لاي دارس ان يفهمها ويطبقها وهي (٢) ن . فالرقم ٢ يرمز الى ان كل صفة وراثية يمتلكها الفرد يسببها زوج من المورثات . واما حرف (ن) فيرمز الى اعداد الصفات الموجودة في الفرد نفسه . والان لنضرب مثلا على كل نوع من انواع الهجن التي ذكرناها ونطبق عليها القاعدة السابقة .

- الهجونة الاحادية : ان صفة العيون في الانسان يسببها زوج من المورثات . واللون البني راجح (سائد) على اللون الازرق او الاخضر . فاذا تزوج رجل ذو عيون بنية هجينة بامرأة ذات عيون بنية هجينة فاننا سنتوقع ان نجد في أنسالها الطرز الوراثية الاربعة : (٢)^{١}×(٢)^{١}=٤ اي ثلاثة افراد اعينهم بنية والرابع عيناه زرقاوان .

- الهجونة الثنائية : ان صفة استعمال اليد اليمنى في الانسان يسببها زوج من المورثات وهي راجحة على استعمال اليد اليسرى . فاذا تزوج الرجل السابق ذو العيون البنية ويستعمل يده اليمنى بشكل هجين بنفس المرأة السابقة وتستعمل يدها اليمنى بشكل هجين ايضا فاننا سنتوقع في أنسالها ١٦ طرازا وراثيا مختلفا اي : (٢)^{٢}×(٢)^{٢}=١٦ واحتال الحصول على مثل هذا العدد في هذه العائلة ضعيف جدا .

- الهجونة الثلاثية : ان صفة مرض الناعور (سيولة الدم، او الهيموفيليا Haemophilia) متنحية ومقهورة امام السلامة من هذا المرض والتي تكون راجحة وسائدة . فاذا كان ذلك الرجل السابق الذكر ذو العيون البنية ويستعمل يده اليمنى سليما من الناعور ، والمرأة التي تزوج بها ذات عيون بنية وتستعمل يدها اليمنى وسليمة من مرض الناعور بشكل هجين ايضا ، فاننا سنتوقع في أنسالها ٦٤ طرازا وراثيا متباينا اي : (٢)^{٣}×(٢)^{٣}=٦٤ واحتال الحصول على مثل هذا العدد في اية عائلة انسانية مستحيل طبعا . غير ان من الممكن الحصول على مثل هذه الطرز الوراثية في الحيوانات الصغيرة الحجم الكثيرة الانسال .

- الهجونة الرباعية : اذا اضفنا الى الرجل السابق والمرأة السابقة الذكر صفة الشفاه الغليظة الراجحة على الشفاه الرقيقة لكان احتال الانسال ٢٥٦ فردا اي : (٢)^{٤}×(٢)^{٤}=٢٥٦ طرازا وراثيا متنوعا . وهكذا ينطبق نفس التصاعد الهندسي في الطرز الوراثية المحتملة على الهجونة الخماسية والسداسية وغيرها .

وتتعقد الاحتالات الناتجة كلما ازدادت اعداد الصفات الداخلة في التزاوج بحيث تفوق تصوراتنا وتستعصي على افهامنا وتنبو عن حدود توقعاتنا . فلو فرضنا مثلا ان رجلا يمتلك عشر صفات وراثية سائدة هجينة قد تزوج من امرأة تمتلك نفس الصفات العشر السائدة الهجينة فاننا سنتوقع : (٢)^{١٠}×(٢)^{١٠}=١٠٤٥٧٦ طرازا وراثيا مختلفا . فيا ادرانا نحن بماهية الطرز الوراثية واعدادها في اي كائن حي يمتلك مئات بل الاف الصفات الجسمية واللونية والجنسية والنفسية والعصبية والفيزيولوجية وما الى ذلك من طبائع وسجايا وخلال ؟!

ومن هنا فان التنوع الهائل الواقع في الطرز الوراثية الناشئة عن الهجونة واسع وعريض جدا بحيث يسمح للكائنات الحية مهما عظمت افرادها وتباينت انواعها بالحركة البيولوجية المتسعة ، وتحقق الاختلاف الشديد فيا بينها وضمن كل نوع على حدة مما يجعلنا نثبت وبكل ثقة استحالة التشابه به والتاثل اطلاقا بين اي فردين من اي نوع من الانواع الحية على هذه البسيطة اللهم الا حالة التوائم الصنوية الشقيقة .

ومن الطريف ان الصدف وحدها تلعب دورا في مجيء الابن الهجين على شبه أبيه او امه او اخيه او عمه او خاله او غير ذلك من درجات القرابة . وكذلك فهي تصم الفرد بسمات السحنة العامة لابناء العائلة الواحدة . بحيث تحدد انتاء الفرد الى هذه العائلة او تلك دون سواها (غير اننا نستدرك فنقول ان كلمة الصدفة هنا يجب ان تلغى من قاموس العلم ، وقد آن الأوان كي نعترف بوجود توجيه سديد هاد ومحكم من قبل القدرة الالهية في هذا التنظيم الرائع للاحياء العامرة لهذا الكون . اذ لا تنفشي الصدف في غالب الاحيان الا الى فوضى واضطراب بيننا لا نستشعر اي شيء من ذلك في بنية الاحياء واساس حياتها وطبيعتها) .

مع صفحات التاريخ

لقد زعم بعض المؤلفين والعلماء الاوروبيين ظلما ان مواضيع التهجين والنغولة جديدة في قاموس الوراثة وليست له ارومة تاريخية عريقة ، وليس للعرب ولا للمسلمين اي دور في هذا المجال . غير ان من الانصاف والعدل ان نرجع الى المصادر الادبية والعلمية والتاريخية ابان الحضارة الاسلامية العريقة كي نثبت بما لا يدع مجالا للشك ان العرب وعلماءهم قد عرفوا النغولة ووصفوها بل ومارسوها وطبقوها في زمانهم ، وكان لهم باع طويل في هذا المضمار . فقد سموا الولد الذي ابوه عربي وامه عجمية (الهجين) وسموا الهجنة من قبل الاب (الاقراف) كما سموا الولد الذي يحمل محاسن ابيه وامه (النغل) . وفي مصادر التراث العربي الاسلامي شواهد جمة تدل على ان علم التهجين الوراثي قد عرفه العرب وحللوه بشكل علمي صحيح .

وللتهجين في اللغة العربية مرادفات كثيرة منها التخليط والاقراف والنغولة . فهذا الجاحظ قد ذكره في كتابه الرائع « الحيوان » وعلق عليه تعليقا علميا صحيحا ينطبق مع معلوماتنا الحاضرة تماما بحيث يشير الى الملاحظة العميقة والتحليل العلمي الدقيق اذ



يقول : « انا وجدنا بعض النتاج المركب (ويقصد الهجين) وبعض الفروع المستخرجة اعظم من الاصيل (وهذا يعني بمفهومنا الحالي ظاهرة الهجين Heterosis) . ويضيف الجاحظ ان الخلاسي من الناس وهو الذي يتخلق بين الحبشي والبيضاء يخرج اعظم من ابويه واقوى من اصليه . واما اليسرى من الناس وهو الذي يخلق من البيض والهندية فلا يخرج على مقدار ضخم الابوين ولكنه يجيء احسن واملح . وهنا نعقب فنقول اليس هذا الشرح الواضح دليلا على معرفة العرب والمسلمين بعلم التهجين ونتائجه في النسل ؟!

وكذلك فقد نقل الازهري عن هند بنت النعمان بن بشير اثر حلها بعد زواجها من روح بن زنباع وكانت غير ممتنة من زواجها وتخشى ان ألا يكون ولدها متحليا بصفاتها فقالت :

وهل هند الا مهرة عربية
سليلة افراس تحللها نغل
فان انتجت مهرا فلله درها
وان يك اقراف فما انجب الفحل

ولقد اتصف العلماء العرب المسلمون بتحليلهم للامور والحوادث وعدم القبول سراعا بمسبباتها ونتائجها بل كانوا يمحصون ويدققون . وكانت لديهم المقدرة العلمية الكاملة على التفريق بين الامور الواقعية في مجال التهجين وبين الخرافات والاباطيل التي كانت تنتشر ايامهم وتزعم امورا وهمية غير صحيحة : اذ يقول الجاحظ : « وقد تجاسر ناس على توليد ابواب من هذا الشكل (ويقصد به التهجين بين انواع حيوانية بعيدة بنسبها عن بعضها ولا يعقل ان تنتج نسلا) فادعوا امورا ولم يحفلوا بالتقريع والتكذيب عند مسألة البرهان وقد زعموا ان الزرافة خلق مركب بين الناقة الوحشية والبقرة الوحشية والذيخ (وهو ذكر الضباع) . وكذا فان السمع ولد الذئب من الضبع اذا كان انثى . واما اذا كان ذكرا فيدعى العسبار . وكذلك يتشكك الجاحظ في الاقوال حول تسافد الكلاب مع الثعالب والثعالب مع الهرة الوحشية . وهكذا نجد الجاحظ وكذلك زكريا القزويني في كتابه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » يفندان هذه الاقوال ، ويسفهان هذه الآراء ، وبان هؤلاء الناس ناقلون غير مدققين ، ومقلدون غير مطبقين . ومثل هذه الاقوال لا يحققها الامتحان وما عندنا معرفة بها . وعلى الرغم من سرد الجاحظ للاشعار التي تدور حول هذه الانواع من التهجينات الا انه لا يقبل بها من الناحية العلمية . وعلى نفس المنوال يرفض تصديق التناكح بين ادم والملائكة وبين الانس والجن .

نماذج من القديم الجديد

والآن سوف نستعرض امثلة من التهجينات بين الانواع الحيوانية مع وصف موجز لاهم خصائصها علما بان ما ذكره علماؤنا العرب المسلمون عن هذه التهجينات مطبقة فعلا في وقتنا الحاضر .

- التزاوج بين الحمار والفرس ينتج البغل وهو اشبه بامه بسبب كبر حجمه لكبر رحم امه .

- التزاوج بين الحصان والاتان ينتج النغل وهو اشبه بامه الحمارة . وهو صغير الحجم .

ولقد ذكر الجاحظ ان حالة البغل عقيم ولا يلد . وفعلا فانا حتى في الوقت الحاضر لا نعرف اخصابا ولا نسلا عند تلاقح البغل والبغلة .

- التزاوج بين الورشان والحمامة فيعطي الحمام الراعبي .

- التلاقح بين فوالج البخت مع اناث البخت يعطي الجوار . وهي القصيرة العنق التي لا تنال كلأ ولا ماء الا بمساعدة صاحبها . والبخت هي الابل الخراسانية التي تنتج من عربية ، وفالج وهو الجمل الضخم ذو السنامين ويوجد في كازاخستان وصحاري تركمانستان .

- واذا ضربت فوالج العراب تعطي الجواميز (والعراب نوع ممتاز من الابل العربية والجوامیز ابل ممتازة) .

وكذلك ينشأ عن هذا الضراب ابل البخت الكريمة التي تجمع عامة خصال العرب . وخصال البخت اكرم وافخم واثمن ما يكون من البخت (ويكون هذا الهجين بسنام واحد ولكنه شبيه في باقي صفاته بذي السنامين) .

اما اذا ضربت فحول العراب اناث البخت فانها تعطي الابل البهوتية . وهي اقبح منظرا واشد اسرا من ابويها .

- واذا ضرب حمار الوحش الحمار الاهلي فانه يعطي الحمر الاخدرية .

- والخلاسي من الكلاب وهو الذي يخلق من بين السلوقي وكلب الراعي .

واما الامام الحافظ الدمياطي فيذكر في كتابه فضل الخيل ان هجن الخيل كثيرة منها الهجن التي ابوها عربي وامها من البراذين (والبرذون وهو حصان الجر والعمل وليست فيه صفات الخيول العربية الكريمة الاصيلة) .

والهجنة في الناس والخيل انما تكون من قبل الام . فاذا كان عتيقا والام ليست كذلك كان الولد هجينا ، والمقرف هو الذي داني الهجنة من الفرس ، وغيره الذي امه عربية وابوه ليس كذلك .

واما موضوع التزاوج بين الاغنام والماعز فهو معقد وفيه اراء متضاربة وليس شبيها بأمثاله من الهجن السابقة فالجاحظ يقول : « ان التيس على شدة غلمته لا يعرض للنعجة وكذلك الكبش للعنزة فضلا عن ان يكون في هذا التلقيح نتائج . غير ان الجاحظ في مكان اخر من كتابه يقول : « وقد يكون بينهما تسافد وتلاقح الا انها تلقيه مليطا قبل ان يشعر وذلك اقل من القليل . (ولعمري ان قول الجاحظ هذا يتطابق بالفعل مع ما نجده من تضارب في الآراء حول حصول نسل عند التسافد بين الاغنام والماعز . اذ ان هنالك اراء تدعي عدم وجود نسل البتة . واراء اخرى تقول بوجود اخصاب ولكن الجنين يمتص ويجهض في المراحل الجنينية المبكرة . وآراء ثالثة تؤكد ولادة حالة نادرة جدا لهجين وسط في صفاته بين الكبش والعنز وله شعر طويل . غير ان هذه الحالة النادرة لا يمكن اعتبارها قياسا ولا قاعدة بيولوجية يمكن الاستناد اليها وتعميمها) .

كذلك يذكر الجاحظ بانه لا يوجد تسافد ولا تلاقح بين البقر والجواميس وبقر الوحش ولا يقع بين البقر والضأن تسافد . وكذلك لا يقع تسافد بين الظباء والمعز .

وصفوة القول في التهجين بين الانواع المتباينة ان يكون هنالك تماثل في اعداد الصبغيات وتجانس في المورثات الخلوية ، بحيث تؤمن وجود ازواج من الصبغيات تحاكي ما هو موجود عند ابائها .

فاذا اختلفت اعداد الصبغيات وانعدم التجانس ، فان ذلك يفضي الى عقم في النسل الناتج واستحالة حصول نسل على الاطلاق .

وبعد فان التهجين الوراثي بحر عميق الاغوار يحقق اهدافا جلى للانسان ويؤمن تنوعا عريضا بين الانواع الحية ويخلق ذخيرة وراثية وفيرة في الأنسال والاجيال المتعاقبة على كد الدهور والعصور . ولقد حض الرسول صلى الله عليه وسلم على تحقيق الهجونة في الأنسال كي تتحسن صفات العشيرة والمجتمع وذلك بالزواج بالبعيدات بالنسب من النساء ونهى عن الزواج بالقريبات .

د . محمد مروان السبع

استاذ الوراثة في جامعة حلب

قضية تاريخية في قصة عمانية



عبد الله محمد
الطائي

كيف اتحد أهل الخليج لمقاومة الاحتلال البرتغالي ؟

بقلم : عبد الرزاق البصير

تثير قصة « الشراع الكبير » العمانية اكثر من تساؤل حول الترتيبات التي تمت في الخليج العربي لاشعال الثورة وتفجير المقاومة ضد الاحتلال البرتغالي .

مؤلف هذه القصة هو المرحوم الاستاذ عبد الله محمد الطائي المولود سنة ١٩٢٧ في مسقط . تلقى تعليمه الابتدائي في المدرسة السعيدية في مسقط ، واكمل تعليمه الاعدادي والثانوي في بغداد ، تقلب في عدة مناصب هامة ، فقد كان نائبا لرئيس الاعلام والسياحة في حكومة ابو ظبي ، ثم اصبح وزيرا للاعلام ، ثم نقل وزيرا للشئون الاجتماعية والعمل في سلطنة عمان .

وافاه الاجل المحتوم في عام ١٩٧٣ ، وكان قد عمل في كل من البحرين والكويت قبل عمله في ابوظبي وعمان ، ولقد قدر لي ان أرافقه رحمه الله ايام عمله في وزارة الاعلام في الكويت ، أو وزارة الارشاد والانباء كما كانت تسمى وقتئذ اما سبب قدومه الى الكويت فانه يعود الى انه وجد شجرة الحرية ودوحتها في الكويت اوسع من غيرها في بعض اقطار الخليج العربي في تلك الفترة الامر الذي جعل نفسه تجد كل الراحة هنا في الكويت

واشهد انه كان رضي الخلق ، هادىء الطبع ، ظامئا دائما الى تثقيف عقله ، مستثمرا لهذه الثقافة . الى أبعد حدود الاستثمار ، يدل على ذلك ماخلفه من آثار قصصية وشعرية ودراسية ، بلغت احد عشر مؤلفا ، منها هذه القصة التي سماها « الشراع الكبير » فأنت لاتكاد تبدأ في قراءة هذا الاثر القصصي حتى تبدو لك افكار المؤلف وآراؤه الوحدوية متمثلة في هذه الفقرة التي تجيب عن سؤال ذلك الراكب الذي يقصد جزيرة « سقطرة » عن تابعية السفينة التي يريد ان توصله الى تلك البلاد فقد قال :

ـ وما هي تابعية هذه السفينة ؟

ـ انها من البحرين ، ألا يدل العلم على ذلك ؟

ـ اما العلم فلا يدل ، لان اعلامكم كلها واحدة .

وتدخل بحار ثان في الحديث فقال :

ـ كلنا ايه ياسيد ، كلنا ، نعم ، كلنا في كل شيء من

اول بحر العرب الى آخر خليج العرب كلنا واحد وفي كل شيء » .

كما ان اهتمام المؤلف متركز في الاهتمام بهذه المنطقة سياسة واجتماعا وثقافة .

وهذه القصة التي نود ان نعرض لها في هذه الكلمة تؤيد ماذكرناه من اهتمامات المؤلف ، ولقد كنت أتمنى من الذين نشروا هذه القصة ان يفسروا بعض المفردات ، لان بعض فصولها كتبت بلهجة محلية عمانية كلفظة « الخضرنج » ولفظة « الاستغفل » ومن الطريف أن المؤلف لاأدري أو الناشر فسرها « بالقشطة » وهو أمر زاد في غموض هذه اللفظة .

صفحة من التاريخ

ويبدو أن المؤلف قصد أن يسرد تاريخ احتلال البرتغاليين لجزيرة سقطرة وامتداد غزوهم الى مسقط ، فاتخذ القصة وسيلة الى ماقصد اليه . وفي رأيي أن المؤلف لو اتخذ نهج التاريخ المبسط اسلوبا له ، لكان اكثر توفيقا من هذا الاسلوب الذى اتخذه في هذا الكتاب ، فان فن القصة يعتمد على الخيال بحيث لايشعر قارئه انه يقرأ تاريخا ، فللقصة اسلوبها المعروف بين كتابها المتمكنين منها ، وكل مافعله المؤلف انه تخيل إبحار سفينتين ولقاء بعض ركابها ببعض واخبار احد الركاب بغزو البرتغال لجزيرة سقطرة . وعلى كل حال فان القارىء لايكاد يمضي قليلا في قراءة هذا الكتاب حتى يجد نفسه بين امور لايكاد يعرفها الا المطلعون على غزو البرتغال لجزيرة سقطرة في اليوم الثامن عشر من اغسطس ١٥٠٧ فنرى المؤلف يحدثنا عما قام به البرتغاليون من مذابح وانتهاك للاعراض ونهب للاموال ، وجدع للانوف في تلك الجزيرة العربية جزيرة سقطرة الأمر الذي قد يحير القارىء ، لانه لايجد سردا تاريخيا مرتبا ، وانما يجد سردا لذلك الغزو تتخلله عبارات خطابية تستنهض الهمم لمقاومة الغزو البرتغالي للخليج العربي .

ثم ان المؤلف يشير الى امور تحتاج الى توضيح نحو قوله : ان جزءا صغيرا من عمان يخضع لجزيرة هرمز ، وهو شيء لايعرفه الا المتتبعون لتاريخ تلك الفترة وان « محمد ابن اسماعيل » منشغل بانشاء دولته بعد ضعف استمر مدة طويلة ، وبروز شخصية عمانية تدعى « ابن مداد » وهي شخصية تتسم برفض الخضوع والاستسلام للاحتلال . كما يتبين ان لها اتباعا كثيرين ، وقد كنت أتمنى لو ذكر لنا المؤلف نبذة قصيرة عن ترجمة هذه الشخصية ـ ولو في حاشية من هذه القصة .



ان هذا الفصل يرسم كيفية احتلال البرتغال لمسقط ، وما ابداه شعبها من مقاومة شديدة ، الا ان البرتغاليين تغلبوا بقوة سلاحهم ، ثم رجعت المقاومة على ايدى العلماء والرؤساء ، واستجاب الشعب لتلك الدعوة التي تملأ النفس بالفخر والاعتزاز .

ويمضي المؤلف مفصلا كيفية ذلك راسما مدخلا يعتمد على تصور طريف مؤداه ان « باربرا » القائد البرتغالي كانت تمتلك قلبه فتاة برتغالية اسمها « داليا » وقد اشتاقت نفسه الى رؤيتها ، والتحدث اليها ، ولكن كيف يستطيع ذلك والبحار تفصل بينه وبينها مما يجعل نفسه تهتاج الى رؤيتها ، ولما كان تحقيق هذه الرغبة من الامور المستحيلة ، اخذت نفسه تتشوف الى التعويض ، مما جعله يبحث عن تحقيق هذه الرغبة الى ان يتصل بتاجر هندى اسمه « ناروبتم » كان قد انجب فتاة اسبغ الله عليها نعمة الجمال ، واقبل القائد البرتغالي يرسم تلك الفتاة بريشة مسبغا عليها خياله وغرامه ، واخذ يتقرب الى ذلك التاجر وذلك بأن اعطاه رخصة استيراد كميات من الارز والسكر والاثواب الحريرية ، مما جعل ثروة ذلك التاجر الهندى ، تتضاعف .

وقد شاعت هذه القصة في حين ان البلاد كانت تستعد لثورة عارمة للتخلص من البرتغاليين . وهنا يجرى المؤلف حوارا بين الزعماء الذين يهمون باشعال الثورة ، فكان ان دعا بعضهم الى الاستعانة بالفرس غير ان آخرين رفضوا هذا الرأى ، لان الاستعانة بالاجانب في التخلص من أجانب آخرين لاتجدى نفعا ، وفي هذا الفصل تمر بك شخصيات عمانية كان لها اثر في الثورة ضد المستعمرين مثل (ربيعه بن صالح بن سعيد بن حدان) سليل بعض الشعراء الذين كانت لهم مكانة مرموقة في النفوس ولربيعة هذا نشاط ملحوظ ، فهو الرسول الذي ذهب الى تقوية بيعة « ناصر بن مرشد » ـ احد أئمة عمان ـ على الثورة حاملا معه ماتبرع به

الاغنياء من نقود لتغذية الثورة ، وقد بلغت مئتي الف محمدية ، وهي عملة كانت متداولة في مسقط وزنجبار ، واستطاع هذا الامام العماني ان يشعل الثورة في طول البلاد وعرضها بل في الخليج العربي كله على الرغم من محاولة البرتغاليين اشعال نار الطائفية والقبلية ، لكن حب طرد المستعمرين والتخلص منهم ملأ نفوس العمانيين وجعلهم يملكون قوة لاتقف امامها أي قوة ، مما يوضح ان تضامن الشعب واتحاده هو القوة التي تستطيع ان تحقق كل شيء ، ولكن هذا التضامن العربي لم يتم الا بعد تنسيق وتنظيم دقيقين ، فقد بث الامام رسله في جميع اقطار الخليج العربي من عمان حتى البصرة ليوضحوا لحكام هذه الاقطار ان الحياة لايكون لها معنى الا بطردالاجنبي المستعمر .

مبعوث الثوار بالكويت

وقد ذكر المؤلف ان بعض هذه الرسل جاءت الى الكويت لنشر هذه المهمة ، وقال ان احد الرسل ابحر الى القرين وهو اسم من اسماء الكويت(ليبلغ اهلها عن التخطيط في مقاطعة سفن البرتغال) ومن يقف على هذا الفصل يتبين له مسيس الحاجة الى جميع الكتب التي تتحدث عن كيفية اجلاء البرتغاليين عن الخليج العربي ، فانك تجد في هذا الفصل حوارا يجريه المؤلف بين شخوص أعتقد انها لم تكن من خيال المؤلف ، وانما هي اسماء حقيقة اذ انهم هم الذين قادوا طليعة الاسطول العربي التي حاربت السفن البرتغالية ، وهي خمس سفن صنعت في الهند ، ودرب بحارتها على القتال البحرى ، ويستشف من هذا الحوار ان هذه السفن قد اطلق على احداها اسم « الجلندى » ابن المستكبر احد ائمة عمان ، لانه انقذ سقطرة من عدوان الروم ، وسميت السفينة الثانية جلفار « رأس الخيمة » لتذكير الناس باحراق البرتغاليين لها ، وسميت الثالثة « الرستاق » أحدى مدن عمان ، والرابعة « شاهين » تذكيرا بتلك السفينة الرائدة في التحذير من خطر البرتغال ، واطلق على السفينة الخامسة اسم « مصر » لما كان للمصريين من مساهمة في طرد الاجنبي . على اننا نجد في هذا الفصل امورا تاريخية هامة تستدعي تحقيقا دقيقا من المهتمين بتاريخ هذه المنطقة ، واهم هذه الامور قول المؤلف : ان احد رسل الامام العماني « ناصر بن مرشد » استطاع ان يجمع مبالغ وفيرة ، بلغت خمسئة الف محمدية من قرين والبحرين وقطر وجلفاروديبي ولبوا لتغذية الثورة ، وقوله (ص ٨٤) : ان الرسول استطاع ان يحصل على اربع سفن إحداها ، كانت من القرين ، واذا مارجعنا الى ماقاله المؤرخون عن لفظة القرين انها اسم جزيرة صغيرة تقع في الشويخ احد موانيء الكويت ، فكيف أن جزيرة صغيرة كل مالها من اهمية أن السفن ترسو عندها ، تتمكن من المساهمة بمبالغ مالية ، وسفينة كبيرة لها اهميتها .

هذه قضية تاريخية تعني بان القرين مدينة يسكنها جمع غفير من الناس ، بخلاف مايقوله عنها المؤرخون ، والفترة التي يتحدث عنها المرحوم الاستاذ عبد الله الطائي مؤلف هذه القصة تقع في سنة ١٠٥٠ هجرية (الموافقة لسنة ١٦٤٨ ميلادية) .

كما اورد المؤلف اتفاقية برتغالية عمانية بجعلها أن البرتغاليين يؤدون الجزية لامام عمان ، ويسلمون له المراكز الرئيسية ، ما عدا القلعة الرئيسية وقد وقع البرتغاليون هذه الاتفاقية ليحصلوا على وقت كاف ريثما يأتيهم المدد من البرتغال .

وتمضي بقية القصة الى نهايتها في سرد تاريخي قصصي لكيفية انتصار الثورة العربية على البرتغاليين ، وذلك بفضل وحدتهم وتضامنهم ، ويتكرر اسم القرين بشكل يوحي ان هذه الجزيرة ليست كما يصفها مؤرخو الكويت من انها جزيرة صغيرة غير مسكونة ، فقد جاء رجل من القرين على ظهر سفينته قادما إلى عدن يخبر الثائرين العمانيين بان سفينتين برتغاليتين كبيرتين تتجهان الى مسقط ومطرح ، وتستهدفان ضربها بالمدافع . كما ان وفدا من القرين شارك وفودا عربية تألفت من الخليج العربي في تهنئة « سلطان بن سيف » امام عمان بانتصار الثورة على البرتغاليين ، .

ومن المحقق ان ذلك ليس من خيال المؤلف ، وانما استمده المؤلف من كـ[illegible] ريخية كنا نتمنى ان يذكر اسماءها فقد يكون فيها تفصيل اكثر .

وجملة القول أن هذه القصة قصة قيمة اذ انها تشير الى امور تاريخية مهمة تحتاج الى تحقيق من المتخصصين في تاريخ هذه المنطقة ، كما انها تصور أراء المؤلف وافكاره الوحدوية الناصعة التي نحن في حاجة ماسة الى غرسها في النفوس .

بقي علينا ان نشير في ختام هذه الكلمة الموجزة الى ان ماكتب عن تاريخ نشأة الكويت وتكوين سكانها سيظل ناقصا ما لم يترجم كل ماكتبه الذين جاءوا الى هذه المنطقة من سياح وتجار ومحتلين ومؤرخين من عدة قرون .

عبد الرزاق البصير

الخط الكوفي المعماري

له مكانة في صناعات العصر

بقلم الدكتور عبد المجيد وافي

الخط الكوفي المعماري لون من الفنون الاسلامية الذي انتقل الى عالم الاسلام من اواسط آسيا واستقر ونضج في المشرق .. وهذه دراسة تروى قصته الكاملة .

منذ كرم الله سبحانه وتعالى القلم وما يسطره الناس عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عامة ، وكتاب الوحى خاصة ، بتجويد كتابة آيات القرآن الكريم ، وقد كانت ذروة هذا الاعتناء عندما أمر عثمان بن عفان رضى الله عنه بكتابة المصحف الامام استنساخا من الصحائف البكرية ، التى جمع فيها القرآن الكريم ، من العسب ـ جريد النخيل العريض ـ واللخاف ـ الحجارة المسطحة الرقيقة ـ وعظام الاكتاف ، لأول عهد أبى بكر بالخلافة بعد معركة اليمامة ـ التى استشهد فيها كثير من القراء .

وكانت المصاحف الاولى إماما لكل ما كتب من مصاحف حتى عصرنا الحاضر ، وكل ماكتب من المصاحف على غير الرسم العثمانى ، لا اعتبار له بين القراء والحفاظ والفقهاء .

واختلفت أقلام الكتابة الأولى بعد القرن الأول الهجرى ، في اساليبها واحجامها ، وطريقة رسم الحروف ، وان كانت كلها قد اشتهرت بأسماء الحجازى ، والمكى والمدنى ، والجزم والمائل والجليل ... الخ .وان عاصرها لون من ألوان التدوين السريع عرفته أوراق البردى التى تداولها عمال الولايات ، تطورت في القرن الثانى والثالث الهجريين ، فعرفت بأقلام النسخ .

وظل اشهر اسم لأقلام الكتابة ـ الكوفي ـ الذى انتقل من الحجاز ـ مكة والمدينة ـ الى العراق بعد تمصير الكوفة ، وكان امام الخطاطين والكتاب فيها أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكانت لكتابة المصاحف بهذا القلم شهرة خاصة حتى اشتهر باسم كوفي المصاحف ، وكتبت مصاحف القرن الاول والثانى بهذا القلم .

الكتابة على العمارة

ورغم أن الكتابة على العمائر لم تشتهر قبل ذلك في الاسلام ، الا أن هناك حجرا ـ شاهد قبر ـ وجد في اسوان من صعيد مصر قد حفر عليه اسم صاحبه وتاريخ وفاته ـ ٣١ هـ ـ وكذلك علامات الفراسخ على طرق القوافل في العصر الاموى ، وهذا الحجر موجود في المتحف الاسلامى بالقاهرة .

وأشهر نص كتب على عمارة المساجد يومئذ ، هو طراز التاريخ لعمارة قبة الصخرة المشرفة ـ في القدس الشريف ـ المؤرخ بسنة ٧٢ هـ وهو النص الذى انتزع منه عمال الخليفة المأمون ـ أثناء ترميم القبة ـ اسم عبد الملك بن مروان ـ الآمر ببناء القبة ـ ووضعوا مكانه اسم المأمون ، دون ان يغيروا التاريخ ، وهذا النص كتب

الله

بسم الله الرحمن الرحيم

قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد



بسم الله الرحمن الرحيم

بمربعات الفسيفساء « الموزاييك » . وإن كان هناك مايروى عن أمر عثمان رضى الله عنه أنه أمر بكتابة آى القرآن بماء الذهب في المسجد النبوى ، والكتابة على العمارة الاسلامية لم تقتصر على اسلوب واحد بل نفذت بالحفر على الحجارة بجميع أنواعها حفرا غائرا أوبارزا أو الجص المحفور ، أو المسوى على طريقة صنع القوالب ، كما استعملت الفسيفساء مبكرا ـ في القرن الاول ـ وكان ذلك في العصر الاموى وفي عمارة الصخرة والأقصى والأموى .

وانتقلت الكتابة على العمائر ، الى ربوع العالم الاسلامي ـ المتفتح مع انتقال كل وسائل الحضارة التى لبست ثوب الاسلام ، بل اصبح الاسلام لب التطور الحضارة ، ولم تقتصر الكتابة على العمارة ، على ..وص التاريخ للبناء ، ولكنها أخذت صفة أخرى ، .. كتبت سور القرآن الكريم على جدران المساجد والقه..رر بأساليب مختلفة وخامات أكثر اختلافا .

..نا القلم الكوفي يتنوع في تشكيلات حروفه ، مرونة .. فنا ، وتزدهر اطراف الحروف وقوائمها ، وتتعانق الألفات واللامات وتتضفر بأشكال غاية في الابداع والتصرف من الفنانين والصناع ، وحفر على الرخام والخشب ، وشكلت به بلاطات الخزف باحجام مختلفة حتى أصبح لكل قطر من الاقطار اسلوبه في الكتابة وطريقة في تنفيذها يتميز عن غيره ، من شرق بلاد ماوراء النهر الى قرطبة وطليطلة وإشبيلية في اسبانيا .

الكوفي المعماري

وما إن وصل المد الاسلامى الى أقصى اتساع عند حدود الصين ورافق وصوله ، تطور العمران والعمارة ، اقتداء بانشاءات خلفاء بنى أمية في دمشق وربوع الشام ، وعمارتهم للصخرة والاقصى والاموى ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسجد الحرام . عندئذ ظهر لون من الوان الكتابة على واجهات العمارة ، يبدو أن خامات البناء كانت عاملا في ظهوره ، بالاضافة الى عامل آخر هو تأثيرات الكتابات الصينية ، التى كانت تشكل نماذج تربيعية ، سرعان ما أملت على البنائين والخزافين لونا من ألوان الابتكار والتصرف في الحروف العربية .

فقد كان الطابوق« اللبن المحروق المستوى الاضلاع » وحدة معمارية استطاع البناءون مزاوجة وظيفته حيث امكن استغلال توزيعه كوحدة بناء بحيث يشكل وحدات زخرفية ذات طابع هندسي ، ويبدأ هذا الاسلوب باستخدام اللبنات بلونها الطبيعى ـ بعد الحريق .

كما تم استخدام ترابيع الخزف الملون ، ، بالصاقها على أسطح اللبن بالجص ، واتخاذ تبادل ألوان الخزف وتخالفه في تشكيل وحدات جمالية ذات عناصر مركبة من تربيعات متدرجة أو متساوية ، تشغل مساحات محدودة من الأسطح الخارجية للبناء ، أو الاسطح الداخلية ، ولاشك أن ذلك يعتبر تطورا في استعمال الخامات المتاحة وكلها من أصول صلصالية مع فارق اضافة اللون قبل الحريق أوبعده .

وأحيانا كان استخدام اللبن المحروق يتم بعدطلائه بالدهان ، أو طلاء سطحه الظاهر ، ثم اعادة حرقه لتثبيت الطلاء وإكسابه البريق المعدنى .

وكان ابتداء ظهور هذه الاساليب في نهاية القرن الثالث الهجرى في الشرق والغرب على السواء ، ولعل أبواب مساجد آسيا الوسطى ، والتى تعود الى تلك العصور ، وبقايا مدارس بغداد ونيسابور وما وراء النهر خير مثال على ذلك ، ولعل مآذن سمرقند وطشقند ، وخراسان « أفغانستان » ايضا خير مثال شاهد .

وقد عاصر تلك الفترة تطور مماثل ظهر في اسبانيا ، في واجهات جامع قرطبة الاعظم ومساجد طليطلة ـ باب المردوم ـ استخدم فيها اللبن وحده ، ثم استعمل ترصيع اللبن بأشكال تربيعية من لبن مخالف في اللون ، أو حجارة مفصصة متعددة الألوان .

ولما تبين الصناع قابلية هذه الخامات لتنوع التشكيل بدءوا في استخدامها ، لتشكيل نصوص

تعبيرية مثل الله أكبر ، الله ، محمد ، يارحمان ـ بألف بعد الميم أو من غيرها ـ الخ ، هذه الاختيارات وقد زاوج المصممون أحيانا بين النصوص الكتابية ، والوحدات الزخرفية المكملة ، بحيث اصبحت واجهات العمائر تبدو من بعيد ـ ولكبر مساحات الكتابات والزخارف ـ كوشي على الثياب ، تنوعت ألوانه وتعددت أساليبه .

وبعد فترة أصبح في امكان المزخرفين والبنائين أن يزاوجوا بين التشكيلات غير الملونة ، والتشكيلات الملونة على سطوح العمارة حتى اصبحت الاساليب متعددة ومنوعة في نهاية القرن الخامس الهجري وبداية السادس الهجري مع تمايز بين المنطقة الواحدة من بلد الى آخر .

وفي نهاية القرن السادس وبداية السابع انتقلت أساليب الكوفي المربع الى بعض عمائر العراق ، واستخدم فيه الخزف الملون بأنواعه ، ثم عبر الفرات الى سوريا ومصر ، واستخدم في توقيعه اسلوبان :اسلوب النقش على الحجر مباشرة كما هو موجود في قباب خانقاه قوصون ـ عصر الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٠هـ) مع تشابه كامل في مظهر القباب التي عرفت بالقباب السمرقندية نسبة الى قباب سمرقند وما حولها التي ترى نماذجها منتشرة فيما تبقى من آثار شاه زند في سمرقند .

اسلوب الترصيع بالرخام الابيض والاسود بدأ ايضا بالعصر القلاووني ـ حسن بن محمد بن المنصور قلاوون ثم استمر في العصر المملوكي وانتشر في عمائره .

ولم يقتصر على التشكيلات التربيعية ـ بل تعداها الى التشكيلات الثمانية والسداسية بل المستديرة

أسماء العشرة المبشرين بالجنة ـ الجامع الأزهر



أحيانا ،وان كانت القاعدة واحدة ، وهي التوازن التربيعي ـ بين الفراغ والكتلة ، كأسماء العشرة المبشرين بالجنة في محراب كتخدا بالأزهر ، وقد التفت لهذا اللون من التجريد التشكيلي فنان أميركي معاصر هو موندريان ، والفنان الفرنسي بول كليه . واقتبس كاندنسكي كثيرا من اساليبه التصويرية التكعيبية .

والتكوين الدائري يمثل الشهادتين في تكرار رباعي ، وكان على بعض العمائر المملوكية واندثر ، ولكن حفظه لنا كتاب الفن العربي لبريز دافين :

قواعد التشكيل :

اللبنة ـ الطابوقة ـ كانت هي مفتاح التشكيلات التربيعية زخرفية أو كتابية ، أملت نفسها على المعماري التشكيلي أولا ، ثم على الشكلين الفنيين على سطوح العمارة ، فلما استعان بها المعماري على تكوين تشكيلات حروف الكلمات ، ساعدته قابلية الحرف العربي للتشكيل اللين المرن أو المزوي ذي الزوايا الحادة ، ولم يبعد الفنانون في بداية محاولاتهم عن اشكال الحروف الاصلية كثيرا .

وقد كانت التشكيلات التربيعية تلتزم ، منذ ظهورها بقاعدتين :

ـ التزام سمك معين للحرف يقابله سمك مماثل للفراغات خلال شكل الحرف وتكوينه ، أو بينه وبين الحروف الاخرى ، بحيث تتبادل المساحة المشغولة بالحرف أو الفراغ حوله ، مما جعل ذلك الالتزام قاعدة توازنية للتشكيل الكتابي .وقد كان بعض الكتاب ـ على العمارة ـ يلتزمون ببعض ذلك أو قريبا منه في الكتابات الكوفية البسيطة أو المضفرة ، وعندما استعمل التزهير أو التوريق ـ حشوات ـ خلال الكتابة أو خلفيات لها ، ولم يؤثر على ذلك التوازن التشكيلي .

ـ اهمال استعمال النقاط التي اضيفت الى اشكال الحروف المتماثلة في القرن الثاني الهجري كالباء والتاء والثاء والجيم واخواتها الحاء والخاء .... الخ وهي التي سميت بعلامات الاعجام .

والتزم التشكيليون من الكتاب بنهايات متساوية ، بحيث يصل من ذلك التساوي الى تشكيل تربيعي

متساوي الابعاد والاضلاع ، أو تشكيل استطالي بنفس المواصفات . وعندما واجه الفنانون المعماريون تشكيلات مقوسة ، احتالوا على شغلها بالمخالفة بين القوائم المستطيلة في اطراف التشكيلات . وعندما كانوا يلتزمون بشغل مساحات معينة ، محدودة الفراغ كانوا لا يلتزمون باتجاهات سطور الكتابة ، وانما يحركون اتجاهات الكلمة أو الحروف حتى يتيسر موازنة الفراغ المشغول ، وربما أدى ذلك لانقلاب حرف أو جزء من كلمة أو أكثر . من ناحية اخرى ، بدأ الكتاب المعماريون ، يتبارون في تشكيل نص مأثور ، أو آية قرآنية ، في مساحات محدودة بحيث تبدأ من أحد اضلاع المستطيل أو المربع أو الشكل الثماني ، ويستدير معه النص حتى ينتهي في وسط الشكل ، وربما تجاوز الكاتب بعض التجاوز في شكل الحرف التقليدي .

ومن امثلة ذلك آية الكرسي ، وسورة الاخلاص ، وقد وجد نفس التشكيل للآية والسورة مشتركا في بعض عمائر سمرقند ، والعمائر المملوكية بالقاهرة .

وربما لجأ بعض الكاتبين الى استعمال اسلوب الطرد والاعتدال « الطرد والعكس » ـ وعندئذ تقرأ الكلمة أو الجملة طردا وعكسا . وربما لجأ آخرون ، لاحداث شكل جمالي ، الى تعانق الكلمة ـ عند طردها وعكسها ـ مع مثيلتها في حرف من حروفها أو اكثر ، كلفظ الجلالة ، واسم الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويعمد الكاتبون المعماريون أحيانا الى تشكيل تعانق رباعي أو خماسي للكلمة الواحدة ، فعلوا من لفظ « محمد » ﷺ ، وجد ذلك في ايران وافغانستان وسمرقند وعمائر قلاوون بمصر .

وخلاصة القول ان الكاتبين برعوا في تنوع التشكيلات ، وتبارى الصناع في تنفيذها ، وانتقل التنفيذ من العمارة الى صناعات الطرف والتحف خشبية أو معدنية !

وفي مرحلة متأخرة من التطور الفني تجاوز المشكلون ، فاستعملوا نقاط الاعجام لملء فراغ لازم ، وربما تجاوزوا واستعملوا علامات التشكيل لنفس الغرض ولم يكن القدامي يلجئون الى ذلك . ومن أمثلة ذلك نص معماري على واجهة أحد مساجد القاهرة المملوكية ، يتكون من البسملة والآية الكريمة : « انما يعمر مساجد الله .. الخ » من القرن الثامن الهجري .

وربما استعمل الكاتبون الكوفي المربع في تشكيلات مائلة مع المحافظة على قاعدة الفراغ والكتلة ، ولكن أغرب تشكيل لذلك النوع المائل ، كان على واجهة قصر بترو القاسي بإشبيلية حيث شكل المدجنون ـ عمال ما بعد استرداد الاسبان للاندلس ... شكلوا عبارة « ولا غالب الا الله » في تشكيل متكرر ، متقابل طردا وعكسا ، وجعلوا قوائم الكلمات مائلة ، ثم كسروها بحيث أصبحت القوائم كدرج السلم ، وقد شكل من الخزف الابيض والازرق ، في مستطيل العقد العاتق لمدخل القصر الملكي في اشبيلية ، وقد تكرر استعمالهم للنص والتشكيل ، على بعض الواجهات الاندلسية الاخرى بطريقة الجص في قوالب محفورة ، في أحواز غرناطة وفنادقها الاندلسية القديمة .

الامكانات المعاصرة

المربع :

ان الوحدة التربيعية ، عندما تستخدم بالتجاور يمكن أن تعطي امكانات استخدامية أو وظيفية للكلمة المشكل للكوفي المربع ، في الفنون الجمالية التشكيلية .

وكما استخدم الامويون ومن تبعهم الخزف والفسيفساء في تشكيل النصوص الكتابية على الجدران في طرازات أو معينات ، يمكن استخدام خامات الخزف التربيعي الصغير ذي الالوان المتعددة في تشكيلات كتابية متعددة الاغراض .

وفي غير مجال العمارة ، يمكن استخدام هذا اللون من الكتابة في صناعات النسيج اليدوي والميكانيكي ، المطرز الجكار ، بالمزاوجة بين الاشكال الزخرفية والكتابية ، أو انفراد كل بمساحة .

كما يمكن استخدام تلك التشكيلات في وحدات متوازنة من التطريز اليدوي على الثياب أو المفارش ، أو نطاقات السيدات أو أوشحتهن (الخمار) .

ولعل ابتكار الشعارات للمؤسسات العلمية أو الصناعية أو التجارية من أحدث الوظائف التي يمكن استخدام الكوفي المربع في تشكيل كلماتها ، أو حروفها الرمزية المفردة .

وهنا لابد لمن يستخدم هذا النوع من الكتابة الزخرفية أن يعرف قواعد تشكيلها حتى يضبط توازنها مع الالتزام بالاصول التي بلغ بها مبتكروها أشواطا بعيدة في روعة التشكيلات المبسطة أو المعقدة . ■■

د . عبد المجيد وافي

اعداد : يوسف زعبلاوي

الانسان الطائر

● منذ اقدم الازمان والانسان يرنو الى الطير ، ويتمنى لو كان له مثل اجنحته فيقلده في ارتفاعه فوق سطح الارض وفي طيرانه ... وشاءت الاقدار ان تبقى أمنيته هذه مجرد امنية عميقة متعذرةالتحقيق .. هذا بالرغم من كل الجهود التي بذلها في سبيل تحقيقها عباس بن فرناس وليوناردو دافنشي وغيرهما من كبار العلماء على مر الاجيال .

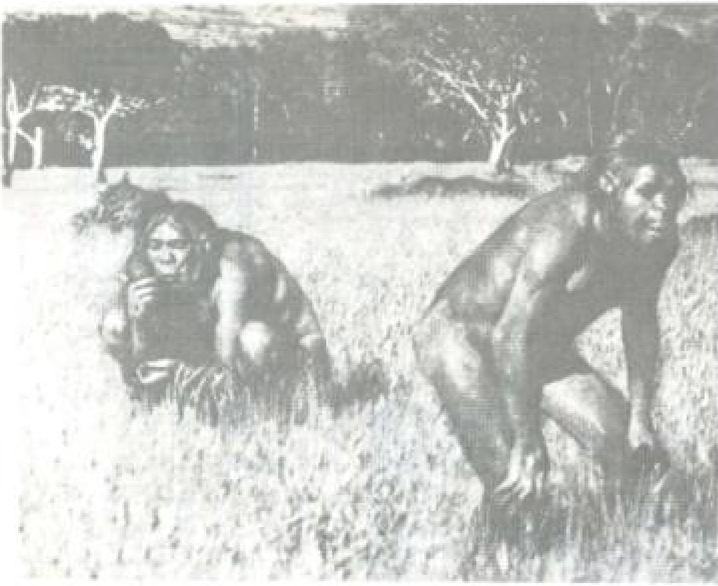
والظاهر ان القرن العشرين الذي حفل بشتى الاختراعات والاكتشافات الخارقة في مختلف المجالات ..بمجالات الفضاء والذرة والخلية والكمبيوتر الخ .. عز عليه الا يمكن الانسان من تحقيق امنيته القديمة .. امنية الطيران بجناحين وتقليد الطيور ، وهي كما لايخفى ، امنية سهلة المنال بالمقارنة مع سائر الاماني التي تسنى للعلم تحقيقها .. نقول سهلة المنال فيما لو وجد الهاوي /العالم الذي تتاح له فرصة البحث المركز في العراقيل التي احبطت تلك الامنية في التاريخ ، وفي كيفية الافادة من مبتكرات القرن العشرين الكثيرة للتغلب على تلك العراقيل ..



ودلت انباء العلم الاخيرة لا على وجود ذلك الهاوي /العالم فحسب ولكن على نجاحه في تحقيق الامنية .. فقد اخترع الاجنحة الكفيلة بتمكين الانسان من الارتفاع في الجو والطيران كما تفعل الطيور .. مع الفارق ان هذه الاجنحة الممتدة خمسة اقدام على كل جانب لا تعمل وحدها ، كما هي الحال في الطيور بل تعتمد على ما هو اهم منها .. على محرك نفاث واجهزة كمبيوتر وخلافها .. وذلك تطبيقا لنفس المبدأ الذي تطير بموجبه الطائرات ..

ويبلغ مدى سترة الانسان الطائر هذه حوالي ١٦٠ كيلومترا ومعدل سرعتها نحو ١٠٠ كيلو متر في الساعة .. وهي تزن ٦٠ كيلو جراما اذا كان خزانها ممتلئا بالوقود .. ولا تحتاج لاقلاعها الى اكثر من سرعة ١٥ ميلا في الساعة .. وهي سرعة سهلة المنال على محركها النفاث القوي ..وقد بدأت احدى الشركات الصناعية في نيويورك في صنع نماذج رائدة من سترة الطيران بقصد تجربتها على نطاق واسع ..

ويرجح الخبراء الا تتعدى سترة الطيران هذه حدود الهواية في المستقبل المنظورعلى الاقل .. ويلاحظ ان رايهم هذا مطابق لتوقعات الكثيرين في الطائرات بالذات في مطلع القرن العشرين ، حين نجح الاخوان رايت في صنع الطائرة الرائدة الاولى . ولكن الطائرات لم تقف عند حد الهواية كما تعرف جميعا .



عملاق الصين .. لا هو قرد تماما ولا انسان

كثرت الاشاعات بين اهل الصين عن وجود مخلوق عملاق في بعض المناطق الجبلية الوسطى من بلادهم . وبخاصة منطقة هوباي (Hubei)حيث الغابات الكثيفة .. غابات شنونجيا على وجه التحديد . وبدا ذلك العملاق قردا في روايات البعض .. وربما في روايات آخرين .. وانسانا جمع بين خصائص القردة حسب تأكيد الكثيرين .. ووقف العلماء موقف اللامبالي من تلك الاشاعات . واعتبروا المخلوق العملاق الذي تتحدث عنه ضربا من الاوهام .

وحدث في الصيف الماضي ما حمل العلماء على تخطي موقف اللامبالاة الذي ذكرنا ..فقد اتفق للآنسة زهو كسيانجون ان كانت تجمع بعض الاعشاب على مقربة من بيتها في منطقة هوباي السالفة الذكر . وفجأة شعرت الفتاة بوجود شخص غريب .. فرفعت رأسها ونظرت فرأت ما لم تصدقه عيناها .. فقد رأت على بعد حوالي ٢٠ مترا عملاقا ضخما يبلغ طوله حوالي مترين ونصف المتر ..وكان جسمه مغطى بالشعر الاحمر وذراعاه طويلتين وكأنه قرد لا انسان .

وانكرت الآنسة زهو ما رأت . وواصلت جمع الاعشاب بالرغم مما لا حظته من تحرك العملاق في اتجاهها .. ولكنها ما لبثت ان فقدت زمام نفسها حين اقترب العملاق منها كثيرا واصبح على بعد مترين او ثلاثة عندئذ انطلقت الفتاة هاربة الى بيتها باقصى سرعتها .. وما اسرع ما انتشر خبر الفتاة والعملاق في القرية .. وما اسرع ماتجمع عدد من الشباب المسلحين بالفؤوس والعصي . وقد دبت النخوة فيهم . فمضوا الى حيث كانت الفتاة . وبحثوا عن العملاق طويلا بلا طائل ..الا انهم رأوا آثار اقدامه الكبيرة التي فيها الدليل القاطع على صدق اقوال الفتاة ...

وكذلك وجد العلماء الذين عرفوا بالقصة فألفوا فريقا منهم للبحث عن العملاق ..ومضت شهور عديدة وتوافرت لاولئك الباحثين دلائل كثيرة على وجود ذلك المخلوق العجيب وعلى صفاته .

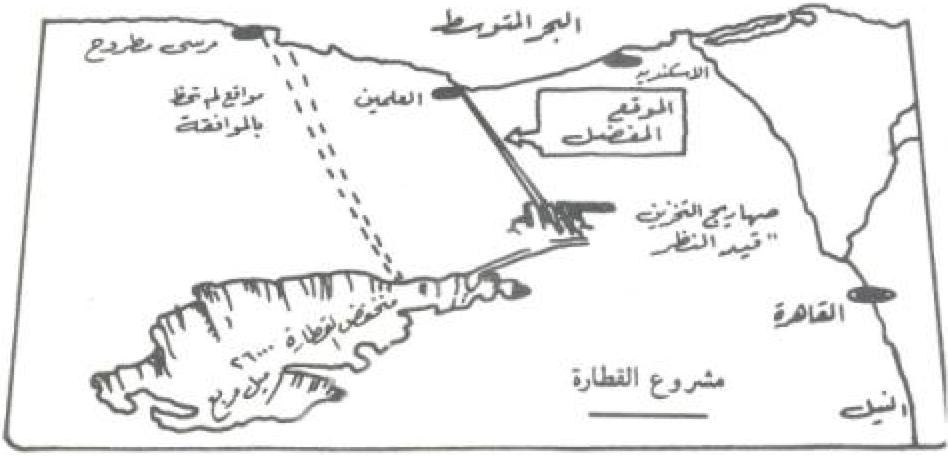
وكانت اثار الاقدام في طليعة تلك الدلائل ، وقد جمع العلماء حوالى ٢٠٠٠ نموجا منها وكانت متفاوتة الطول .. يبلغ بعضها ١٢ بوصة وبعضها الآخر ١٨ بوصة . ولم يزد الكثير منها على ٨ بوصات .. وكانت كثيرة ومختلفة الاشكال .. ومعنى هذا كما لا يخفى ، ان في غابات سنونجيا عددا من العمالقة لا عملاقا واحدا .. لعلها عشيرة او قبيلة ، او على الاقل ، اسرة عمالقة ،تضم الصغار والكبار والذكور والاناث .. واثبتت تلك الاثار للعلماء ان أقدام اولئك العمالقة انما هي اقدام بشرية ولا تختلف عن قدم الانسان الا في أصبعها الكبير الكثير الانحناء الى فوق . وتبين لهم ان الخطوات التي يسير بها اولئك العمالقة عريضة جدا ، ويتراوح عرضها ما بين ٢٫٥ ـ ٣ أمتار وهكذا أمكن الاستدلال على ان العملاق يزن بالمتوسط ربع طن ...

ووجد العلماء الباحثون دليلهم الثاني في الشعور التي عثروا عليها هنا وهناك والتي تساقطت من اجسام العمالقة المغطاة بالشعر الاحمر .. فقد تجلى في هذه الشعور ما يجعلها اشبه بشعور القردة منها بشعور الدّببة .. او الانسان .

اما دليلهم الثالث .. البراز فقد دل على ان العمالقة من اكلة اللحوم والنباتات معا ..وانها مغرمة باكل صغار الحيوانات البرية فضلا عن قصب البوص وهو طري ..

والظاهر ان قصب البوص هذا يلعب دورا هاما في حياة اولئك العمالقة .. فهو قوام الملاجىء او البيوت التي يقيمونها ليأووا اليها ويسكنوا فيها طوال ايام السنة ، باستثناء ايام البرد والمطر التي يلجأون فيها الى الكهوف ، لا سيما الكهوف الرحبة المرتفعة ذات المداخل الواسعة ...

ومازال العلماء ماضين في البحث عن عمالقة الصين ويعلّقون املا كبيرا على العثور على واحد او اكثر منهم في مستقبل قريب ...



هذه هي الخطوط العريضة لمشروع جر مياه البحر المتوسط الى منخفض القطارة في جمهورية مصر العربية .. وتقدر الطاقة الكهربائية التي سيتيحها المشروع لدى انتهائه في غضون عشر سنوات حوالى ٥ بلايين كيلو واط | ، أو ما يعادل ٢٠ ٪ من احتياجات الطاقة في مصر في سنة ٢٠٠٠

عبد الله بن ياسين

موحد الصحراء في المغرب الأقصى

بقلم : عبد الوهاب شكري

تظل قصة دولة المرابطين ومؤسسها عبد الله بن ياسين نموذجا فريدا يجسد الفكرة عندما تتلبس انسانا . فيهب حياته لأجلها . ويبلغ غايته في نهاية الأمر .

كان اللمتونيون - وهم من صنهاجة الصحراوية - يدينون بالمجوسية شأن برابرة المغرب . ومع أن الاسلام دخل الى المغرب منذ الفتح الاول لافريقيا والاندلس الا ان انتشاره بين اللمتونيين لم يبدأ الا في القرن الثالث الهجري . ولكنه انتشار محدود . هو في محض اسلام مبتور اذا ما لبس بقاء بعض العادات الموروثة كالزواج باكثر من اربع نسوة مع تفشي المنكرات والاقتصار على الشهادة دونما سواها من الاركان .

ولم ينفتح هؤلاء اللمتونيون شغاف قلوبهم لاستيعاب المضمون الحقيقي الشامل للاسلام الا في غضون النصف الاول من القرن الخامس الهجري اثر اندلاع حركة الداعية عبد الله بن ياسين في الصحراء الغربية .

الرحلة الى المشرق

ولقد كانت مؤشرات تلك المرحلة التاريخية بملابساتها الدينية والاجتماعية والسياسية مؤذنة ببزوغ تلك الحركة التي قدر لها ان تنشأ في احضان اللمتونيين . اما كيف ومتى ؟ فهذا ما نحاول الاجابة عليه ...

في سنة ٤٢٧ هـ خرج الامير ابو زكريا ابراهيم الكدالي واسطة عقد اللمتونيين من بلدة صنهاجة قاصدا المشرق العربي بهدف الحج والاطلاع على احوال المسلمين في عهد الحضارة والعمران العربي وريحان المدنية الاسلامية (٢) . وهو لا شك مخطط شامل يحمل في اعماقه تيارا كاسحا قلب الموازين راسا على عقب وغير مجرى الاحداث في تاريخ المنطقة بما ادى اليه من انبثاق تلك الصحوة التي اشادت ما حوطنا واشرقت بولبه متكامل للاسلام . اشرب المغاربة من يومئذ محبته الابدية بعد ردة متكررة . ولقد نظر هذا الامير في امر بلده فلم يرض له ما هو عليه من تخلف وجهل مطبق فآل على نفسه ان يسرع في فكه من إسارها والنهوض به عن طريق تغذيته بمقومات جديدة وقيم روحية ثابتة دعت اليها الحاجة الى التغيير .

---

(١) ابن خلدون المجلد ٦/٣٧٣ ط دار الكتاب اللبناني .
(٢) الجامعة اليوسفية بمراكش ج ١/١٦ .

وتأسيسا لهذه الفكرة الطموحة ، اتفقت آراء المؤرخين المغاربة على ان ابا زكريا لما قضى مناسكه اتجه الى القيروان التي كانت آنذاك منارا للعلم ومركزا للثقافة الاسلامية . وذلك بهدف لقاء علامتها والاسترشاد برأي الفقيه ابي عمران الفاسي في شأن ايفاد احد طلبته الى الصحراء لتعليم ابنائها وتفقيههم في امور الدين والعقيدة بعدما اعلمه فظاعة جهلهم بتلك الامور .

غير ان ابا عمران الفاسي لم يجد من بين طلبته من يتطوع لهذه المهمة اختيارا ، لصعوبة الاضطلاع بها في ظروف صحراوية قاسية ، فاحاله على تلميذه فقيه سوس وعلامتها وجاج بن زلو اللمطي الذي اسرع في تنفيذ امر استاذه ـ وكان قد تلقى عنه العلم بالقيروان ـ فاختار من بين طلبته من له بصر بالدين وعلم بالسياسة الحائز لصفات التأهيل . وكان ذلك الطالب هو عبد الله بن ياسين . ولم يكن هذا الاختيار مجرد مصادفة او حدس لا باعث له ، بل ان قيمته لتبدو حين ننظر في فكر الطالب عبد الله بن ياسين الذي انضجته ثقافة عالية تثقفها في الاندلس (٣) ايام ملوك الطوائف حيث لبث هناك ـ وقيل في قرطبة بالذات ـ سبع سنين يدمن القراءة ويستقي المعارف من ينابيعها الفياضة ويعب من موارد الحكمة حتى تحصل له من ذلك كله زاد وافر ثم عاد الى المغرب الاقصى . (٤) وقد تم على يد شيوخ كبار كانوا وراء نضجه الفكري وطموحه السياسي في الزعامة والاصلاح . غير ان المصادر التي تحدثت عن حياته في هذه الفترة لم تحفظ لنا اسماء شيوخه الاندلسيين الذين اخذ عنهم او تأثر بهم كما حفظت اسم شيخه المغربي وجاج الذي كان من رجالات التشوف . وباستطاعتنا ان نجزم ان فكر عبدالله بن ياسين في اصالته ونضجه هو نتاج البيئة الاندلسية قبل كل شيء وان كنا لا ننكر دور الشيخ وجاج في اثراء ثقافة تلميذه واغنائها خلال فترة التلقي وكذا تشجيعه له حين كان ينشر حركته في الصحراء . والا فبماذا نبرر زعامته الروحية الثابتة له ان لم يكن الامر كذلك !

وكان عبد الله بن ياسين بعدما عاد من رحلته العلمية الى الاندلس وجد ان الاوضاع قد تغيرت في معظم المناطق او هي كذلك منذ زمن غير يسير وآلت الى واقع اشبه بالجاهلية سلوكا وعقيدة ، وادرك من فوره ان في عنقه رسالة وان عليه ان يصدع بها وليس عليه الا البلاغ . وقد اتخذ هذا الاحساس مجراه العملي في الممارسة الشجاعة حين اجتمع ـ وهو في اوبته تلك ـ ببعض المصامدة فحاورهم في امور الدين والعقيدة وانكر عليهم ما هم فيه من ردة وانفة وعصبية وجاهلية بهدف حملهم على العودة الى الاسلام الصحيح والاعتصام بالعروة الوثقى تحت راية امام يحكم بينهم بشريعة الاسلام ويوحد كلمتهم (٥) . فلما لم يظفر منهم باجابة بارحهم الى شيخه وجاج لمتابعة الاخذ والتحصيل والتأهب للمرحلة القادمة .

منهج العمل

ولدى وصول ابي زكريا ابراهيم الى صنهاجة يرافقه عبدالله بن ياسين سارعت قبائل كدالة ولمتونة بقضها وقضيضها الى استقبال الرجلين والترحيب بقدومهما . وخصت الفقيه ابن ياسين بحفاوة بالغة تعظيما لعلمه وفضله ونبل مقاصده . وكان اول شيء شرع في انجازه في بداية مهمته سنة ٤٣٠ هـ هو اصلاح الاوضاع الاجتماعية الغارقة في ضروب من الاوحال والانحرافات فحدد لهم ـ مثلا ـ عدد الزوجات الذي تسمح به التعاليم بعد ان الفاهم يتزوجون باكثر من اربع نسوة في آن واحد ، ثم وجد فيهم الجهل فاشيا والمنكر طاغيا فاتشأ يلقنهم القرآن وتعاليم الدين في ضوء المذهب المالكي و (يبين لهم الشرائع والسنة ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر (٦) كما اشتد في عقاب المجرمين من سراق وزناة ونحوهم ، وضرب لهم مثلا في التقشف والقناعة والتواضع في المآكل والملبس . (٧) غير ان حركة عبدالله بن ياسين لم تحقق في هذه المرحلة ما كانت تطمح اليه من اصلاحات شاملة بسبب رفض هؤلاء الصحراويين لما اشتملت عليه من قيود واحكام لا طاقة لهم بها .

---

(٣) نفس المرجع ص ٣٤
(٤) الحلل الموشية ص ٢٠ البيان المغرب ج ٤/١٠ ، والمغرب عبر التاريخ ج ١٦٩/١ .
(٥) انظر نص الحوار بالبيان المغرب ج ٤/١٠ ط دار الثقافة .
(٦) الاستقصاء ج ٢/٧ الانيس المطرب ج ١٦/٢
(٧) المغرب عبر التاريخ ج ١٧٠/١ .

وهكذا انتهى به المطاف سريعا الى طريق مسدود اضطر معه الى الانصراف عنهم حتى يقضي الله امرا كان مفعولا ، بل ادت قسوة التعليمات التي اراد ان يفرضها عليهم الى حد انهم احرقوا منزله وطردوه من ديارهم (٨) فاعتزم اللجوء الى السودان الغربي ليستأنف من هناك حركته بين مسلميها ، غير ان ابا زكريا اقنعه بدلا عن ذلك بالمرابطة في مكان قاص ، ذكر ابن خلدون انه (ربوة يحيط بحر النيل (نهر النيجر) من جهاتها ، ضحضاحا في الصيف وغمرا في الشتاء) (٩) وهو معزل في الشاطىء (١٠) الاطلسي حسب رواية اخرى . وهناك انقطع الرجلان مع جماعة اسلامية صغيرة من الاتباع والمريدين للعبادة والنسك مدة اشهر ثلاثة حدث بعدها تطور جديد جعل هذه الحركة تنتقل من مرحلة التمركز حول الذات الى مجال ارحب واوسع شمولية .

المسار الجديد

واذا كانت حركة عبدالله بن ياسين سلفية في صميمها وجوهرها ، في ابعادها ومراميها فذلك لانها تقوم على اشياء ثلاثة ذكرها محمد عثمان المراكشي في مؤلفه (الجامعة اليوسفية بمراكش في سبعمائة سنة) كما يلي : (١١)

١) رسوخ مبادىء الايمان وتقويتها في النفوس .

٢) اقامة شعائر الاسلام وفق ما جاءت به السنة .

٣) الرجوع بالقانون الديني والمدني الى مذهب مالك . وذلك لخلق عاطفة دينية مشتركة بين تلك القبائل الصحراوية تكون اكثر ملاءمة للحضارة الاسلامية وللمجتمع العربي .

وهكذا والى عبدالله بن ياسين جهوده المكثفة لتحقيق هذه الاغراض التي جعلها اساسا لحركته والتي لم يستنكف عنها قط ولا شغله عنها اغراض المنكرين ، فرغم ما ابداه من يأس اوشك ان يعصف بكل آماله ظاهريا عند الصدمة الاولى فانه وجد في رفيقه ابي زكريا وفي تلك الجماعة الاسلامية الصغيرة من عطف وتأييد واخلاص ما اثلج صدره وشد من عزيمته وهو في دار هجرته تلك التي أمسى فيها سيد الموقف يرقب في صوفية ما يخبئه الغد من مفاجآت .

وما ان تسامع الغواة او اولئك الرافضون بالداعية المرابطي وهو على الحال التي ذكرنا حتى تابوا الى رشدهم وتاقوا الى اتباعه ، بعد ما تبين لهم من الهدى ما جعلهم يسارعون الى اللحاق والالتفاف حوله والتماس التوبة منه والتكفير عما صدر عنهم من غواية وضلال ، فقبلوا عن طواعية واختيار ما فرضه عليهم من قيود واحكام وما سنه لهم من تشريعات ، ثم اخذ يعدهم الى ما هو ابعد من ذلك ، ثم ما لبث ان اطلق على هؤلاء التوابين الذين اصبح عددهم حوالى الف شخص اسم المرابطين بعد ان اطمأن الى تأصل حركته في نفوسهم الى درجة العقيدة ، ثم دعاهم الى جهاد مخالفيهم من الصنهاجيين ، ويورد ابن ابي زرع الناصري السلاوي بالمناسبة نصا فيه اشارة صريحة لتحديد ماهية هؤلاء المرابطين بصرف النظر عن نسبتهم الى رباط عبدالله بن ياسين ، فيستفاد منه انهم يمثلون الواجهة الارستقراطية في صنهاجة وليسوا من عامتها لاسباب تتمشى مع منطق الاحداث ، اذ لا يجرز على عصيان قومه او عشيرته والخروج عن اعرافها وتقاليدها والانضمام لداعية لمجرد الاقتناع بحركته ، سوى اصحاب رياسة ونفوذ ممن يتخذون القرارات الحازمة ولا يجوز مساءلتهم عنها استنادا الى ما يتمتعون به من وزن اجتماعي او نفوذ سياسي او شوكة تحميهم . وهذا هو النص ننقله عن ذينك المؤرخين حيث يقول عبدالله بن ياسين لجماعته الاسلامية المرابطية المتحفزة التي اجابت دعوته للجهاد بالاجماع : (يا معشر المرابطين ، انكم اليوم جمع كثير ، وانتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد اصلحكم الله تعالى وهداكم الى صراطه المستقيم ، فوجب عليكم ان تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده . (١٢)

---

(٨) البيان المغرب ج ٩/٤ الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ص ٩٧

(٩) ابن خلدون المجلد ٣٧٣/٦ الجامعة اليوسفية ج ٣٢/١ المغرب عبر التاريخ ج ١٧٠/١

(١٠) الممالك الاسلامية في غرب افريقيا ص ٩٧

(١١) الجامعة اليوسفية بمراكش ج ١٣/١

(١٢) الانيس المطرب ج ١٤/٢ الاستقصاء ج ٩/٢ ابن خلدون م/٣٧٥/٦

نتائج ومعطيات

فيمثل هذه الكلمات القليلة المضيئة الحافزة ملك عبدالله بن ياسين ناصية اصحابه الذين شاركوا بدورهم في التمهيد لحركته والدعاية اليها بغمرهم الحماس الديني الفياض . وهؤلاء الاصحاب هم الذين كانوا نواة لجيش مرابطي قوامه ثلاثون الف مقاتل ، هو آية في الاحكام والتنظيم يلتهب افراده حماسا وبسالة . وبالقطع ما كان لرئيسه وقائده ان يفيد منه في نشر الايمان الصحيح بين مختلف الطوائف المرتدة والوثنية سواء في الشمال او في الجنوب ، لو لم يكن مهيا يتمتع بقدرة فائقة على التفكير والتنظيم المحكمين ، خصوصا وانه احاط نفسه باسماء لامعة كانت في مستوى القيادة السياسية والعسكرية وقد وفق في اختيارها الى ابعد الحدود . وكانت على التعاقب : يحيى بن عمر اللمتوني فاخوه ابو بكر ويوسف بن تاشفين مساعدا له بالاضافة الى ابي زكريا الاسبق . وهكذا استقام الامر لعبدالله بن ياسين في جميع انحاء الصحراء الغربية ومعها السودان المجاور ، وبذلك طارت شهرة هذا الداعية (المجاهد المرابط الورع الزاهد الصوام القوام مهدي المرابطين)[١٣] تلجلج في الافاق وتردد صداها الجنبات مما حببه الى النفوس وقربه منها حتى تاقت لمعانقة حركته وهي على البعد . ولا ادل على ذلك من الرسائل التي تلقاها من فقهاء درعة وسجلماسة وصلحائهم بهذا الخصوص ، وتضمنت نداء حارا بتخليصهم من اضطهاد الزناتيين ، ولم يكن عبدالله بن ياسين ليستبد برأيه اذا احتاج الامر الى مشورة ، ولا ليبأس من النصر حتى في احلك الظروف ، بل ظل وثيق الصلة بزعيمه الروحي وجاج يستلهمه السداد والمؤازرة مما كان له ابعد الاثر على السير بحركته نحو اهدافها بخطا متتابعة ، حتى ان وجاج نفسه كان لا يتردد في حمل طائفة من الناس على طاعة تلميذه والتهديد بتكفير كل من ابى (١٤) واعتبار من خالفه مخالفا للجماعة .

اما رعايته للفقهاء وطلبة العلم فثابتة لا جدال فيها ، ولا ادل على ذلك من الغنائم التي كان يوزعها على قدماء الاصحاب من مرابطي وجاج ، ولعل من مقاصده احياء تلك الاواصر العلمية بروح مادية تجعل اصحابه الاقدمين مطمئنين الى مركزه الديني في قبائل الصحراء . يضاف الى هذا ما كان قسمه بين فقهاء درعة وسجلماسة وصلحائها من اسلاب ومغانم كان قد اكتسحها هناك اثر حروب طاحنة مع الغراويين كما بعث بمال كثير مما اجتمع لديه من الزكوات والاعشار والاخماس الى طلبة العلم ببلاد المصامدة ، وادرك - ككل الساسة - ان المال يصنع القوة الى جانب العلم اذ (لم يبن ملك على جهل واقلال) ، فانشأ ادارة للمالية أشرف عليها بنفسه وجعل مواردها من الزكاة والمغانم . وكان هدفه رصد ميزانية خاصة (لشراء الخيل والدرق اللمطية وانواع الاسلحة المستعملة في ذلك العصر) لضمان السير العادي لعمليات الفتوح التي بدأها في الجنوب وتوجها بانتصاراته في الشمال على المصامدة في جبال درن بالاطلس الكبير وفي سهول اغمات بضاحية مراكش مرورا بمعبري جلاوة وكندافة ، ثم اوغل في زحفه على معاقل الوثنية والدجل والخوارق والبدع والنبوءات حيث دارت بينه وبين البرغواطيين رحى حرب عتيقة كان من نتائجها استشهاده رحمه الله سنة ٤٥١ هـ . ولما حضرته الوفاة كان آخر مقالته لأصحابه يحذرهم فيها مغبة التخاذل والاطماع ويوصيهم باجتماع الكلمة .

(يا معشر المرابطين ، اني ميت في يومي هذا لا محالة ، وانكم في بلاد عدوكم ، واياكم ان تجبنوا او تتخاذلوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وكونوا اعوانا على الحق واخوانا في ذات الله ، واياكم والتحاسد على الرياسة فان الله يولي ملكه من يشاء من خلقه ويستخلف في ارضه من اراد من عباده) . ثم دفن في مكان يعرف بكريفلة فيما بين الرماني وابن سليمان جنوب غربي الرباط العاصمة بعد حياة حافلة بالجهاد والنضال . وبموته اسدل الستار على شخصية من اقوى الشخصيات في تاريخ افريقيا) بعد ان وحدت حركته الكبيرة التي قادها خلال حياته الجهادية كل الصحراء الغربية ، واحكمت ربطها بالمناطق الشمالية من المغرب بما فيها سوس واغمات وسجلماسة وما والاها من الاقاليم الاخرى . وبذلك وضعت الاسس لامبراطورية مغربية شاسعة اجتمعت تحت لوائها كلمة المغرب والاندلس .

وتلك هي الامبراطورية المرابطة .

عبد الوهاب شكري
وزارات المغرب

---

(١٣) الانيس المطرب ج ١٢/٢

(١٤) المسالك الاسلامية في غرب افريقيا ص ٩٧

غرائب المشاهير

رغم شهرتهم وذيوع صيتهم في الدنيا ، فقد جمع بينهم انهم جميعا كانوا نماذج غريبة من البشر :

تولستوي ..

الكاتب القصصي الروسي الذي حاول اصلاح المجتمع بالعدل والمحبة ، ومن اشهر رواياته « انا كارنينا » و « الحرب والسلام » .. فشل في دراسته وكان في مطلع حياته ينفق امواله على الترف والبذخ . اما في الشطر الاخير منها فكان يرتدي ثياب الفلاحين ويصنع احذيته بيديه ويكنس غرفته بنفسه ويأكل في طبق من الخشب .

الكسندر دوماس ..

الكاتب القصصي صاحب « الفرسان الثلاثة » و « الكونت دي مونت كريستو » . كان اكولا وزير نساء فتبرأ منه ابناؤه بعد ان تعددت مغامراته النسائية ، حتى وهو في سن متقدم . وعاش ايامه الاخيرة في فقر و بؤس حتى اضطر الى بيع ملابسه ومحتويات بيته .

فولتير ..

الفيلسوف والاديب لم يكن يستطيع الكتابة الا اذا وضع امامه مجموعة من اقلام الرصاص وبعد أن ينتهي من الكتابة يحطمها ويلفها في الورقة التي كتب فيها ثم يضعها تحت وسادته وينام .

رينيه ديكارت ..

الفيلسوف والرياضي وصاحب عبارة « انا افكر اذن فأنا موجود » وصاحب المؤلفات التي وجدت اثرا بالغا في الفكر الاوروبي . كان ذا شخصية معقدة للغاية وعرف عنه غرامياته المتعددة بالغانيات وهو الذي كرس حياته لخدمة الانسانية

فرنسيس بيكون ..

السياسي والاديب ، اتهم اكثر من مرة بالرشوة ، وخان اقرب اصدقائه نظير مبلغ من المال وقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى .. تميزت شخصيته بالتناقض العجيب فبعد ان وضع مؤلفه العظيم « تقدم العلم » رأس غرفة التعذيب الخاصة بالبلاط الملكي .

بلـــزاك ..

الكاتب والقصصي الفرنسي الذي درس احوال عصره دراسة دقيقة . من العادات الغريبة التي عرفت عنه انه كان يسير في احد الشوارع ويسجل ارقام المنازل في ورقة ثم يجمع هذه الارقام فاذا كان المجموع مضاعفا للرقم ثلاثة ، شعر بسعادة غامرة لأنه كان يتفاءل بهذا الرقم . اما اذا لم يكن المجموع كذلك فإنه يغير اتجاهه الى شارع آخر :

اوسكار وايلد ..

الكاتب والشاعر الايرلندي كان غريب الاطوار اذ كان يطيل شعره كالنساء ويزين غرفته بالزنابق وريش الطاووس ، وقد حكم عليه بالسجن اكثر من مرة لاتهامه في جرائم اخلاقية .



● شـيلي ..

كرس كل حياته للشعر الذي استحوذ على كل تفكيره واهتمامه .. كانت حياته عبارة عن فترات متعاقبة من النوم والقراءة كما عرف عنه عدم اهتمامه بتناول الطعام حتى انه كان ينسى ان يتناول شيئا منه لعدة ايام متوالية .

● بايرون ..

الشاعر الانجليزي الثائر الذي استطاع ان يحرك التيار الفكري والاجتماعي في اوروبا بأسرها .. اتسمت شخصيته بالتعاظم الاجوف والثورة الطاحنة ، وكان احساسه بالذنب يعتمل في نفسه ، كما كان يشعر انه انسان شرير ورث الشر عن والدته ، وانه على رأس الخطاة جميعا وكأنه شيطان حتى انه تقمص في بعض اشعاره شخصية الشيطان .

● شـوبنهاور ..

الفيلسوف الالماني وصاحب مذهب التشاؤم وتعليله وجود التناقض بين العقل والارادة ؛ كان يعتقد ان الرجل العظيم هو الذي يفضل الموت على البقاء ، ورغم ذلك كان شديد الحرص على حياته . فقد فر من وباء الكوليرا الذي انتشر في برلين ومن وباء الجدري الذي انتشر في نابولي ، وقضى آخر سنوات حياته في خوف مستمر من القتل . ومما يروى عنه انه لم يكن يحب احدا يدخل غرفته حتى انه كسر ذراع خادمته حين رآها بداخلها ترتب له فراشه ! كما عرف عنه انه كان يتحدث الى نفسه في الطريق بصوت مرتفع . ويعرف عنه ايضا كراهيته الشديدة للنساء وخاصة لوالدته التي كان دائم النزاع معها .

● تشارلز ديكنز ..

الكاتب الانجليزي الشهير الذي ابدع في وصف حياة البؤساء من الناس وكانت رواياته تبدو وكأنها بركان ثائر من العبقرية والنبوغ ، عرف عنه غرابة اطواره وسرعة غضبه وتشدده في تربية أبنائه .. احيانا كان يغادر منزله في منتصف الليل ويظل سائرا في الطريق بلا هدف ، واحيانا كان يدخل بيوت اصدقائه من نوافذها وهو يرتدي ملابس البحارة . وحدث ذات مرة ان دعي الى تناول الطعام في حفل عام فاذا به يتوقف عن تناول الطعام ويخرج من جيبه « مشطا » راح يسرح به شعره ولحيته وشاربه على مرأى من الحاضرين وهم في دهشة من تصرفه .

● جورج صاند

الكاتبة الفرنسية المعروفة وصاحبة الشهرة العريضة عرف عنها الكثير من قصص الحب المبتذلة وكثير في غرامها الاشياء من أدنى المستويات .

● دوستويفسكي

الكاتب الروسي الروسي كان له تأثير ملموس في الفكر الروسي المعاصر بالمشارات رواياته بالتحليل النفسي منها « بين الموتى » و « الجريمة والعقاب » وكان مولعا بالمقامرة حتى انه فر من وطنه هربا من دائنيه وكان كثير



شعر كتب الى زوجته يقول لها : سيجيء الوقت الذي اصبح فيه جديرا بك فأكف عن سلبك مالك كاللص .

● نيتشه ..

الفيلسوف الالماني وصاحب مبدأ « البقاء للأصلح » واحد مؤسسي النزعة القومية الجرمانية . كان منطويا على نفسه منعزلا عن الناس والمجتمع . كما كان يحتقر المرأة ويصفها بأنها غير قادرة على الحفاظ على الود ولا هدف من وجودها الا الترفيه عن الرجل الذي يقع في حبها وعندئذ تنقطع دونه سبل الحياة وظل على هذا الحال حتى انتهت حياته بالجنون .

● باستير ..

العالم الفرنسي الذي كرس حياته لدراسة الامراض المنتشرة واكتشف علاج داء الكلب كان مصابا بداء النسيان وشرود الذهن .. يروى عنه انه في يوم زواجه اجتمع المدعوون وظلوا في انتظاره ، ولكنه لم يحضر فأسرع اليه احد اصدقائه يبحث عنه فوجده في معمله يجري احد التجارب !

● دارون ..

عالم الطبيعة الانجليزي وصاحب نظرية التطور في الاجناس فشل في دراسته ، وكان في بداية حياته انسانا فاشلا مستهترا يقضي وقته مع الكلاب وفي صيد الفئران وجمع الحشرات حتى ان والده قال له ذات يوم : ان وجودك عار ، على نفسك وعلى أسرتك .

● اينشتين ..

الفيزيائي الامريكي وصاحب نظرية النسبية الذي حل طلاسم الكون واسرار الدنيا وحصل على جائزة نوبل في الفيزياء ، كان يكره النظام في حياته كما كان غريب الاطوار فكان يغني في الحمام بصوت مرتفع ويرتدي الملابس المهلهلة .

● اديسون ..

الفيزيائي الامريكي الذي اخترع المصباح الكهربائي وآلة التصوير السينمائية والفوتوغرافية وحفظ عن ظهر قلب كل الحقائق العلمية التي تزخر بها المجلدات الضخمة في مكتبته وهو في المرحلة الابتدائية من دراسته ، كان مصابا بضعف الذاكرة وشرود الذهن . لذا كان يأتي في مؤخرة زملائه وكان كثيرا ما ينسى تناول طعامه ظنا منه انه تناوله .. ويروى عنه انه ذهب ذات يوم لتأدية ما عليه من ضرائب ووقف في الصف في انتظار دوره فلما جاء دوره لم يتذكر اسمه ولاحظ احد الواقفين بجواره ارتباكه فذكره بأن اسمه توماس اديسون !

● تاليران ..

وزير خارجية نابليون والسياسي البارع تزوج من احدى الغانيات وعرف عنه عداؤه لرجال الدين وتطرفه في آرائه وغرامياته المتعددة . واتهم اكثر من مرة بالرشوة وتدبير المؤامرات لنابليون مع احد اتباعه .

● بسمارك ..

السياسي الالماني الشهير وأحد الذين جاهدوا لتحقيق الوحدة الالمانية كان قلقا دائما مستبدا برأيه متعاليا على الناس لا يحترمهم ولا يحترم افكارهم .

● نابليون ..

امبراطور فرنسا وصاحب الانتصارات المتعددة واعظم عبقرية عسكرية عرفها التاريخ . لم يكن يشرع في رسم اي خطة حربية الا وهو يمتص اقراص السوس . كما كان خطه في الكتابة رديئا جدا ، حتى ان البعض ظن ان رسائله رموز او خرائط حربية . وقال عنه المقربون اليه انه كان غريب الاطوار طيب القلب حتى ان اي انسان يستطيع ان يخدعه .

● جورج واشنطن ..

الجنرال والسياسي واول رئيس للولايات المتحدة الذي خاض غمار حرب التحرير ضد انجلترا ، عرف عنه كبرياؤه وخجله الشديد ، حتى انه لم يكن يستطيع الخطابة في المجالات العامة ، وكان بطيئا في الافصاح عن مشاعره متعثرا في تفكيره ، كما كان يرتبك في وجود الغرباء فيلزم الصمت ولم تكن لديه الافكار التي تناسب منصبه كرئيس دولة عظمى واحيانا كانت تصدر عنه تصرفات شاب مراهق كغرامياته المتعددة بالحسناوات والتعبير عن احزانه بالشعر .

اعداد ـ محمد أمين عيسوي



لقطة من مسرحية تغريبة سعيد بن فضل الله

صندوق العجب

تجسيد للمسرح الفلسطيني المقاوم

بقلم : احمد المصلح

قدمت الى عمان من فلسطين المحتلة فرقة « صندوق العجب » المسرحية ، وأحيت عروضا لمسرحيتها « تغريبة سعيد بن فضل الله » على خشبة مسرح دائرة الثقافة والفنون للفترة ما بين الثاني والعشرين والسابع والعشرين من شهر تموز (يوليو) عام ١٩٨١ م .

وصندوق العجب فرقة مسرحية فلسطينية قوامها سبعة اشخاص بمن فيهم الكاتب والمخرج والممثل وصاحب الديكور والاضاءة .. الخ ، وهذا يعني ان عمل الفرقة عمل جماعي تأليفا واخراجا . ومعلوم ان صندوق العجب من انشط الفرق المسرحية في فلسطين المحتلة ، وربما يعود ذلك الى تمرس اعضائها بالمسرح منذ ان كانوا اعضاء في فرقة « بلالين » الفلسطينية المشهورة ، والتي قدمت اروع العروض المسرحية . وكان اهمها مسرحية « العتمة » التي أعيد اخراجها واداؤها في عمان في العام الماضي من لدن بعض الشباب المتحمسين للمسرح وعلى رأسهم مخرج المسرحية وعضو بلالين سابقا الفنان وليد عبد السلام .

يقول احد اعضاء فرقة صندوق العجب ردا على سؤال حول نشأة الفرقة وظروف عملها ما يلي :

منذ ظهور النشاط المسرحي في الارض المحتلة ، والذي بدأته فرقة بلالين في اوائل السبعينات ، أثبت المسرح انه وسيلة جيدة التوصل والتعبير عن القضايا المعاشة في ظل الاحتلال . وبعد تفكك فرقة بلالين ، وجد بعض اعضائها بان استمرار العمل المسرحي بحاجة

الى شروط جديدة . فكانت فرقتنا التي خاضت تجربة التفرغ للمرة الاولى سنة ١٩٧٦ ، لكنها ـ ولعدم توفر الشروط اللازمة للتفرغ ـ لم تستطيع الاستمرار . فعادت للعمل كفرقة هواة ملتزمة بالعمل المسرحي ، وهي تطمح بابقاء هذه العلاقة بينها وبين الجمهورية .

في الضفة الغربية

قلنا ان طاقم الفرقة مكون من سبعة اشخاص يشكلون فريقا مسرحيا متكاملا في التأليف والاخراج والاداء ، وهؤلاء الاشخاص هم : سونيا نمر ، عمر سيارة خلف طه ، عادل الترتير ، جمال حمزة ، عبد المجيد اسحق ، ومحمد انيس البرغوثي ، وجميعهم من الشباب الواعي لمسؤوليته التاريخية والمتمركزة اساسا حول مفهوم التشبث بالارض والتصدي لكافة الاساليب القاشية التي يمارسها الاحتلال الصهيوني ضد الارض الفلسطينية والانسان العربي الفلسطيني ، وبمختلف الادوات وعلى شتى الاصعدة .

ومن هنا يبرز ضخم الدور الذي يلعبه المسرح الفلسطيني في الداخل . دور لا نملك الا ان نفخر به ونعتز . ولئن كانت امكاناته متواضعة حاليا الا ان الدعم والتقدير والتشجيع الذي يلاقيه هذا المسرح من جمهوره في الداخل والخارج سيتمخض في المستقبل القريب عن تجربة مسرحية فلسطينية رائدة ومتميزة شكلا ومحتوى . تجربة مسرحية تشكل علامة مضيئة في مسيرة المسرح العربي المعاصر .

قدمت فرقة صندوق العجب حتى الآن الاعمال المسرحية التالية :

مسرحية لما انحنينا ، مسرحية راس روس ، مسرحية للاطفال مع سرية رام الله الاولى ، ومسرحية تغريبة سعيد بن فضل الله ، التي جاءت بها الفرقة الى عمان لتعرضها مرة اخرى امام جمهور المسرح في الاردن ، بعد ان عرضتها ومسرحياتها الثلاث الاخرى غير مرة في مختلف مدن وقرى فلسطين المحتلة .

مكان المسرحية هو الضفة الغربية لنهر الاردن المحتلة . وزمان المسرحية هو زمن الاحتلال الصهيوني لتلك الضفة ، وشخوص المسرحية منتزعون بذكاء من تلك البنية « الزمكانية » فهنالك المحتل الصهيوني ورمز اليه تارة باسم « المروض » وطورا آخر باسمه الحقيقي ، « الجندي الاسرائيلي » . وهنا لك ايضا شخوص عربية تمثل مختلف القطاعات : الملاكين والتجار واصحاب العقار والعمال ... الخ .

وهنا ربما يثور سؤال حول العنوان : لماذا التغريبة اصلا ؟ ولماذا سعيد بن فضل الله ؟ وحيثيات الاعتراض هنا تعود الى ان كلمة « التغريبة » تخدع المتلقي ، فيظن انه امام عمل ملحمي وليس دراميا . اما شخصية سعيد فقد توحي بان بطل المسرحية فردي في الوقت الذي تتقاسم بطولة المسرحية قوى شعبية من مختلف الطبقات الاجتماعية .

وفي الحقيقة فان شخصية سعيد بن فضل الله هذه تقترب من النمط الملحمي ، وهي تتشابه مع شخصية « زيد الياسين » في قصيدة « تغريبة زيد الياسين » للشاعر الفلسطيني الدكتور وليد سيف ، والمتضمنة في ديوانه الاخير « تغريبة بني فلسطين » الصادر عن دار العودة في النصف الاخير من عام ١٩٧٩ م . غير ان ما يميز سعيد بن فضل الله عن زيد الياسين ان الاول يسافر في البنية المكانية الزمانية الخاصة بالمسرحية ، بينما الثاني يجوب العالم العربي قبل ان يعود الى حيث بدأ من فلسطين المحتلة .

صراع على محورين

تقول المسرحية ان سعيد بن فضل الله انسان بسيط ، تصطدم امكاناته المتواضعة بشروط اجتماعية واقتصادية وسياسية قاسية بعد الاحتلال ، فلا يستطيع تحقيق عيشه الا من خلال بيع قوة عمله في السوق السوداء بشروط الشاري وحده ، هذه الشروط كانت بالنسبة لسعيد بن فضل الله ان يعمل كلبا في سيرك يملكه من يتقن لعبة الاستغلال . ويبذل سعيد جهده الى ان يتم قبوله رسميا في السيرك ، واثناء ذلك يكتشف انه قد دفع انسانيته واصبح كلبا ، ورآه الاخرون بهذه الملامح فكانت الصدمة مع الآخرين للبحث من جديد عن انسانيتهم التي ضاعت ضمن قوانين لعبة السيرك التي وضعها المروض ، ويدركون جميعا ان انسانيتهم لن تتحقق ببقاء لعبة السيرك كما هي ، وفي نهاية المسرحية يصلون الى صورة يضعون قوانينها بانفسهم ، ويبدأون اول خطوة نضال نحو تحقيقها .

ينعقد الصراع في المسرحية على مستويين رئيسيين :

الاول : الاستغلال ـ الفقر

والثاني : الاحتلال ـ التحرر الوطني

ففي المستوى الاول نلاحظ مجموعة من التجار والملاكين واصحاب العقارات في جانب وبعض العمال في جانب آخر. حالة العمال المادية سيئة جدا. ومع ذلك فهم محاصرون من قبل الملاكين واصحاب العقارات الذين يطالبونهم بدفع الديون واخلاء المساكن. وقد جسد هذا المشهد العامل سعيد بن فضل الله (عادل التزير) في قاعة المحكمة حيث اقام الدائنون قضية عليه. ويبدو العامل سعيد محاصرا حتى في المحكمة، فيمتنع من الكلام دفاعا عن نفسه، بينا يبدو إلحاح الدائنين على سعيد وعلى القضاة في أشده.

وفي المستوى الثاني يبدو العامل سعيد وعدد من العمال وقد تحولوا تحت غائلة الفقر الى (أجراء ـ حيوانات) لدى صاحب العمل المروض الصهيوني. كما يبدو الآخرون (التجار والملاكون) في صورة ذليلة امام السلطة الصهيونية ممثلة بالحاكم العسكري الذي لا ينفك يذلهم كلما تقدموا اليه بطلب رخصة او جمع شمل العائلات او بطلب تصريح لزيارة الاهل خارج فلسطين المحتلة.

وهنالك مستويات اخرى للصراع ولكنها ثانوية، كتلك التي تحدث بين العمال في حال مسخهم حيوانات وبين بقية الناس الذين يرفضون وضعية (المسخ)، او تلك التي تحدث بين اطراف السلطة الصهيونية نفسها مثل حالة العصيان التي ابداها الجندي الصهيوني (جمال حمزة) على السلطة السياسية ـ التجارية (خلف طه) برفضه اطاعة الاوامر.

وكمحصلة لكل ابعاد الصراع في الاشكالية العامة التي طرحتها المسرحية، نستطيع ان نؤكد ان الحل كان لصالح القوى الايجابية في حركة الصراع. وقد استطاعت المسرحية فعلا بجهد ان تبلور حالة من الوعي الذاتي والموضوعي لدى الشخوص التي تمثل القيم الايجابية.

ونستطيع القول ان تطور الصورة الدرامية في المسرحية سار في اتجاهين متكاملين:

الاول: الاستبطان الداخلي للشخصيات
الثاني: انضاج الظروف الموضوعية.

بحثا عن المخلّص

ففي الاتجاه الاول شاهدنا ارتقاء او تدرجا في الارتقاء النفسي والغريزي لدى الشخوص فالعمال ـ المسخ على سبيل المثال، بعد ان ساوت غريزة الجوع بينهم وبين الحيوانات، وتحول سلوكهم الى سلوك حيواني محض، بدأوا يتحررون شيئا فشيئا من سيطرة الغريزة (البحث عن الطعام لدى الصهيوني المروض) الى البحث عن (قيمة) تبلورت اخيرا بالتحقيق الكامل للذات. وهنا انتقل الهدف من مجرد الحصول على الطعام الى الحصول على الكرامة الانسانية، اي الى الشرط الانساني.

كذلك فالتجار والملاكون واصحاب العقارات ارتقوا تدريجيا من وضع الاستغلال الجشع الى وضع الحب، حب الناس وحب الوطن.

وفي الاتجاه الثاني: هنالك جملة من المواقف الدرامية تشير الى ان وعيا موضوعيا قد تشكل مثل:

أ ـ الاشارة الى منقذ او مخلص موجود خارج وضع العمال ـ المسخ، رمزت المسرحية اليه بالشاطر حسن. هذا الشاطر حديث الناس جميعا، يزورهم في الليل والنهار على جواده الابيض وسيفه يقطر دما، ليخلص المظلومين وينتصر للضعفاء المستعبدين.

ب ـ الاشارة الى الصوت ـ الصدى، اذ تسمع الشخصية، شخصية المسخ، نداء متكررا يحضها على قول لا في وجه الصهيوني المروض. وربما يكون هذا الصوت نداء الشخصية الداخلي الذي بقي محافظا على شرطه الانساني.

ج ـ الاشارة الى المظاهرات والاضرابات واشكال المقاومة للمحتل الصهيوني، وبعض هذه الاشارات جاء على لسان الشخوص العربية وبعضها جاء على لسان الجندي الصهيوني. وهذا يعني ان ثمة ظرفا موضوعيا هو ايضا يترقى الى حالة الثورة الشعبية العارمة في وجه الاحتلال.

وعلى ذلك، قلنا ان الحل الدرامي حاصل لصالح القوى الايجابية. وقد تبدى ذلك كما رأينا من خلال وعي ذاتي على مستوى الشخصية، اكتمل مع وعي موضوعي آخر على مستوى الواقع الاجتماعي خارج الذات. وقد التحم الوعيان في حركة جماعية اسميناها حركة التحرر الوطني، وظهرت في المشهد الاخير للمسرحية على شكل مسيرة هادفة تنبىء عن ثورة او شروع في ثورة ضد المحتل الصهيوني الغاشم.

اما مسألة (المسخ) التي اعتبرها البعض نشازا في السياق العام للمسرحية كونها تحط من شأن العمال العرب ، فاني انظر اليها من زاوية اخرى . وارى انها تغني المسرحية ببعد فكري تاريخي .

ففكرة المسخ علاوة على انها مطروحة من قبل عدد من الكتاب والروائيين العرب والعالميين فهي هنا في المسرحية موظفة بشكل موفق يرمز الى طبيعة الفكر الصهيوني اليهودي التلمودي ، اذ من المعلوم ان (يهوه) رب اليهود في التلمود حين جعل اتباعه شعبا مختارا حط من بقية الاجناس البشرية الى درجة الحيوانية . فاليهودي وحده هو الانسان ، والانسان الكامل في دين (يهوه) ، وما دونه فهم حيوانات واولاد خنازير ، خلقوا لامر واحد ووحيد وهو خدمة اليهود .

اذن فعملية المسخ ، تعرية للفلسفة الصهيونية العنصرية من جهة واشارة الى الاستراتيجية المبينة على تلك الفلسفة والقائمة على نفي واقتلاع وسحق الشعب العربي الفلسطيني . ولعل قراءة التلمود اليهودي تكشف عن هوس اليهود برؤية الدماء ، دماء غير اليهود ـ وهي تصبغ حتى جدران المعابد .

ملاحظات رغم النجاح

ولا يفوتنا في نهاية هذا التحليل للعرض المسرحي « تغريبة سعيد بن فضل الله » . ان ننوه بالاداء المرتفع فنيا الذي قام به الممثلون : سونيا عمر وخلف طه وعمر سياره وعادل الترتير وجمال حمزة ، وأخص الفنان المبدع عادل الترتير الذي تألق في اكثر من موقف ، كدور الانتقال من حالة الانسان العادي الى الانسان المسخ او بالعكس ، وكذلك الفنان خلف طه الذي ادى ادوارا مختلفة داخل المسرحية. ان عادل وخلف طاقة مسرحية كبيرة تنبيء عن مستقبل مسرحي ممتاز حقيقة .

ورغم نجاح المسرحية ، نسجل بعض الملاحظات التي لا نعتقد انها تنتقص من القيمة الفنية الكبيرة التي جسدتها ، وفي مقدمتها :

١ ـ كان بدء المسرحية ضعيفا من الناحية الفكرية ولا يتساوق مع العمق الفكري الذي يسم المسرحية بالاجمال .

فمشهد الافتتاح يتلخص في مقولة ثلاثية هي (لهو ـ حرب ـ رحيل) طفل يولد ويكبر ويلهو فتقع الحرب ، ثم يرحل الناس عن وطنهم . هكذا وبحيادية تامة اقرب الى العبثية . وكان بوسع النص ان يطور لنا ايجابية ما من خلال المقولة الثلاثية العدمية تلك ، ولا اعتقد ان البنية الزمانية المكانية للمسرحية تبخل بها .

٢ ـ ان تعقد الاشكالية المطروحة في المسرحية تجعل امر النهوض بها فنيا من خلال خمسة ممثلين مسألة بالغة الصعوبة . اذ يستحيل ان يتقمص ممثلون خمسة ادوارا مختلفة ومتناقضة في عرض متلاحق . للاحداث والمواقف .

٣ ـ ان غياب المخرج المتخصص اربك المسرحية الى حد ما ، ولهذا برز الخلل الذي اشرنا اليه قبل قليل في الاداء ، سواء كان في الصوت والتشكيل فوق الخشبة او كان في التحرك واستيعاب الشخصية الجديدة اثناء فترة الانتقال من وضع الى وضع مختلف .

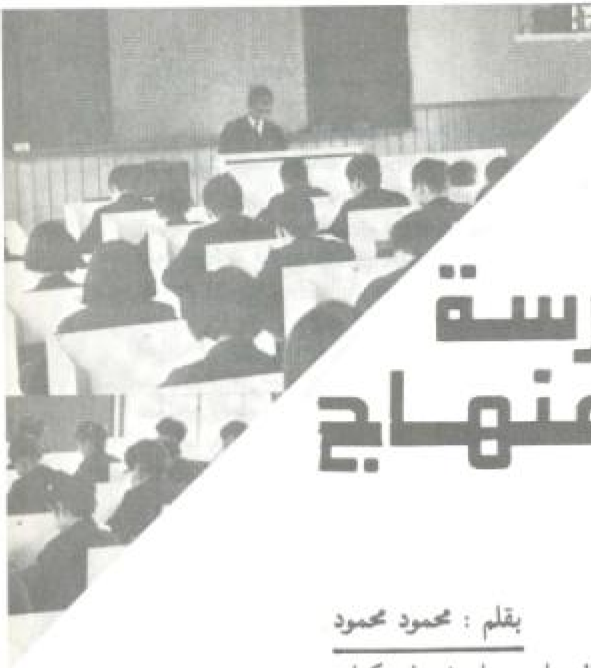
٤ ـ كما ان الديكور والملابس وربما الاضاءة والمؤثرات الموسيقية لم تكن منسجمة ومواكبة للشخصية في انتقالها المفاجيء غالبا ، او مع تطور الصراع الدرامي بشكل ادق .

٥ ـ كذلك فنهاية المسرحية كانت غائمة ، في الوقت الذي كان من الممكن ان تكون اشد وضوحا ـ وضوح ابعاد الصراع وصيرورتها باتجاه التركيب النهائي المنطقي والعلمي .

ان هذه الملاحظات لا تقلل من جدية العرض المسرحي ولا من القيمة الفنية التي جسدها ، خصوصا اذا وضعنا في حسابنا ان المسرح الفلسطيني في داخل الارض المحتلة يتطور من داخله هو ، ومن واقعه هو ، ومن تجاربه هو ، انه مسرح يسعى الى بلورة شكله الخاص به ، ومن الطبيعي ـ والحالة هذه ـ ان تظهر عليه اثناء تشكله بعض الملامح المقاومة حتى للاشكال المسرحية المعروفة .

ومع امنياتنا ان يصل المسرح في الوطن المحتل الى شكله الخاص ، وقوانينه الخاصة ، نشد على ايدي اسرة فرقة صندوق العجب المسرحية مباركين لهم جهدهم الطيب والرائع الذي قدموه لنا من خلال « تغريبة سعيد بن فضل الله » وانهم لمستحقون كل الدعم والتقدير ، لأن عملهم في التحليل الاخير ، عمل مسرحي فلسطيني مقاوم . ●●

احمد المصلح ـ عمان الاردن



تجربة فريدة من الدنمارك

مدرسة بغير منهاج



بقلم : محمود محمود

الأهم من المقرر الدراسي ، ان نعرف كيف يلقن الطالب المعرفة والخبرة بالحياة والعمل المنتج . فنحن حينما نتحدث عن التعليم لا نتصور الا انه عملية تتم في مدرسة وفق منهج معين - مدرسة لها نظامها في القبول والمواظبة والتخريج ، ولها خطة مرسومة ومقررات دراسية موضوعة ، ومعلم يقوم بالتدريس بطرائق تربوية معينة ، واختبارات فترية لقياس مدى تحصيل الطلاب وتقدمهم ، وادارة مشرفة على التنفيذ وسير العمل ، وغير ذلك من النظم المعروفة ، فالتعليم في هذه الحالة يكون مدرسيا منهجيا .

ولكن « التعليم » في واقع الامر قد لا يتم في مدرسة على هذه الصورة ، فيكون مثلا عن طريق الاذاعة المسموعة والمرئية ، او في حلقة من حلقات التدريب على مهارة معينة ولفترة محدودة ، ولكنه حتى يمثل هذه الوسائل يسير وفق منهج معين مرسوم ، فهو تعليم منهجي وان يكون بغير مدرسة .

ويتعلم المرء كذلك من الحياة مباشرة في البيت والشارع ، وفي الحقل والمصنع ، وبالخبرة والممارسة مدى الحياة ، بغير حاجة الى مدرسة او منهج معين أو معلم متخصص ، وهذا التعليم لا يتم في مدرسة ولا يسير في منهاج .

وتقوم في بعض البلاد مدارس خاصة تضع نظامها بنفسها ، ولا تخضع لاي منهج من المناهج المقررة . وهذا تعليم مدرسي وان يكن لا منهجيا .

وخلاصة ما تقدم ان التعليم يكون بصيغ أربع مختلفة ، فهو اما مدرسي منهجي ، واما لا مدرسي منهجي ، واما لا مدرسي لا منهجي ، واما مدرسي لا منهجي .

ومن رجال التربية المحدثين استاذ امريكي اسمه جون هولت له عدة مؤلفات يتحمس فيها بحرارة شديدة للتعليم اللامنهجي - مدرسيا كان أو غير مدرسي - لان التعليم الذي نألفه وهو الذي يتم في مدرسة ووفق منهج معين تخطط له فئة من الناس تعمل لمصلحتها هي ولا تضع في اعتبارها رغبات الدارسين او مصالحهم . تريد هذه الفئة المسيطرة ان تصوغ النشء وتشكله بما يحقق اهدافها او اهداف المجتمع كما يريدونه ان يكون . بغض النظر عن ميول الطلاب وقدراتهم ، وبذلك تحرم المتعلم - وبخاصة في المراحل المتقدمة - من ان يقرر لنفسه ما يدرس وما يتدرب على ادائه ، فتسلبه حقا من حقوق الانسان .

« الأداء » هو المهم

ان التعليم - كما يقول هولت - اذا كان تسلطا وتحكما من الكبار على الصغار ، او من اولي الامر الحاكمين على الرعايا المحكومين فلعله ان يكون من الخير ان نستغني كلية عن المدارس ، وان نترك الافراد كل لحاله يتعلم من الحياة مباشرة بقدر ما تسمح له قدراته ، ولا نحاول اصلاح المدارس وهي في اطارها الحالي ، الذي هو في صميمه تنفيذ اعمى لاوامر تهبط من سلطات بيدها الحكم ، ترى الرأي لكي يطاع بغير نقاش . لابد ان يملك المتعلم وذووه حق الرفض لما يفرض عليهم ، لان المرء ملك لنفسه وليس ملكا لغيره من الناس .

وليس معنى هذا ان يكون لكل امرىء الحق في ان يمارس اية مهنة من المهن كيفما شاء ، او اية حرفة من الحرف دون ان يكون لديه البرهان على قدرته على الاداء . فسائق العربة وقائد الطائرة والطبيب الجراح - مثلا - يجب ان يكون مرخصا له بذلك قبل قيامه بالعمل ، والا تعرضت حياة الافراد لخطر محقق . بل ان مثل هذا الترخيص ليتحتم كذلك في بعض الحالات التي لا تتعرض فيها حياة الناس للخطر ، وذلك عندما يكون العمل تعاونيا مشتركا ، لكي يتحقق الهدف المنشود . كأن يكون المرء عازفا في فرقة موسيقية او ممثلا في مسرحية - في مثل هذه الحالات يتطلب الامر اثبات القدرة المطلوبة . وليس الامر كذلك عندما يعمل المرء بمفرده لكي يمارس حقه في الحياة ، فهو في هذه الحالة يريد ان يكون حرا يتصرف في شأن نفسه على ما يحب ويهوى ، شريطة الا يلحق أذى بغيره .

ان كل ما نريده من العامل الذي يؤدي خدمة اجتماعية ان تكون لديه القدرة على « الاداء » وليس من الضروري ان يحصل على هذه القدرة عن طريق نظام معين مرسوم . ولا يقصد « بالاداء » ما يعمله المرء بيديه وعضلاته وآلاته فحسب ، انما يقصد كذلك ما يؤديه بفكره وعقله كأن يكون مديرا لعمل او استاذا في معهد . ومن الخطأ ان نفرق في القدرات بين « البدني » و « العقلي » فالبدن والعقل معا يؤدي بهما المرء اي عمل من الاعمال . فأنت لا تحرك جارحة من جوارحك بغير توجيه مسبق وتفكير ، تصلح سيارتك بيدك وفي ذهنك فكرة معينة عن طريقة الاصلاح ، وهل يستطيع المرء ان يلوك لسانه بالكلام ، او ان يقرأ في كتاب او ان يكتب او يصور على الورق - بل هل يستطيع ان يفكر او يحلم - بالعقل وحده دون الجسم ، او بالجسم وحده دون العقل !

ليس من الضروري ان يكون التعليم نظاميا ، فما اكثر ما يتعلمه المرء خارج المدرسة : من الرحلات ، والمسارح ، ومن المجلات والصحف ، ومن التعامل مع غيره من الناس .

كما ان التعليم - بطبيعته - لا ينبغي ولا يمكن ان ينفصل عن العمل وعن الاداء . وهل تتعلم العزف على الكمان بالمحاضرة دون ان تعزف !

ومن عجب ان المدرسة بنظامها الحالي تفصل بين التعلم والعمل . يلتحق الطالب بالمدرسة ويتلقى العلم بعيدا عن معمعان الحياة ، وبعد بضع سنوات مقدرة يخرج للعمل والانخراط في سلك المجتمع . ومن ثم كانت المنافسة البغيضة اثناء الدراسة لكي يجد الطالب فرصة للعمل بعد التخرج ، فان هو تخلف عن الدرس او التعليم وسمه المجتمع بالفشل او بالغباوة وفقد ثقته في نفسه وبدأ حياته العملية بكثير من الجبن والخوف .

ومن اجل ذلك يرى هولت ان يمارس الطالب العمل وان يؤديه منذ اللحظة الاولى التي يلتحق فيها بأي معهد من المعاهد .

مدرسة تي الصغيرة

ليس كل ما ذكرت من قبل من سبيل التفكير النظري الذي لم يجد طريقه الى التطبيق . فهناك ـ كما قلت في صدر هذا المقال ـ مدارس خاصة في بعض البلدان انشئت على اساس اللامنهجية . ومن هذه المدارس واحدة في الدنمارك يذكرها هولت في كتابه « هل من بديل عن التربية النظامية ؟ » هي مدرسة تي ليليسكول (أو مدرسة تي الصغيرة) نعرض لها هنا بشيء من التفصيل نموذجا مجسدا لبعض الآراء التي تقدمت ، وتوضيحا لما عرضناه من افكار

تضم هذه المدرسة خمسة وثمانين تلميذا فقط تتراوح اعمارهم بين سن السادسة والرابعة عشرة اي ما يمثل في تعليمنا المرحلتين الابتدائية والمتوسطة تقريبا . وبالمدرسة ستة معلمين فقط . ويتكون من التلاميذ والمدرسين مجتمع واحد صغير اشبه ما يكون بالاسرة يتعاون افرادها ولا تقوم بينهم منافسة .

في هذه المدرسة يجد الطفل حريته الكاملة ، اذ يسمح له ان يفعل ما يشاء باشراف من معلميه عن كثب ، او بمجرد المراقبة لكي لا يؤذي أحد احدا . ولا يقدم الاستاذ معونة لتلميذ الا عند الطلب .

ليس للمدرسة برنامج اكاديمي ، ولا تنقسم صفوفا معينة تحددها الاعمار او مستوى التحصيل ، فهي اشبه بالمجتمع خارج اسوار المدرسة ، حيث يضطرب الناس في حياتهم بغير فواصل . وليس هناك نظام للاختبار او لتقييم الدارسين دوريا . فكل طفل وحدة مستقلة لا يفعل ما يفعله غيره .

وتقوم المدرسة في ضاحية من ضواحي كوبنهاجن ، وهي في الطابق الاول من مبنى ذي طوابق اربعة ، وبها جيمنازيوم (صالة للالعاب) صغيرة المساحة ، وحجرة للاجتماعات ، واخرى للموسيقا ، وورشة للعمل اليدوي . وتنقسم الى غرف لا يفصل احداها عن الاخرى الا بضعة الواح خشبية يمكن تحريكها للتوسعة او للتضييق ، لان البناء المدرسي - في فلسفة مصممي هذه المدرسة - لا ينبغي ان يلزم صورة واحدة حتى لا يكون مبعثا للملل . والمدرسة بوجه عام مجهزة تجهيزا بسيطا قليل النفقات ، ولا تحجب الاجهزة عن الطلاب ، وانما هي في متناول كل طالب يستعملها كيفما شاء ووقتما شاء . ومكتبة المدرسة مفتوحة للاطلاع بغير قيود .

وتحتل الرحلات داخل البلاد وخارجها جانبا كبيرا من نشاط التلاميذ ، يتعلمون اثناءها بالمشاهدة والخبرة الحية .

التربية بالنقاش الحر

وليس هناك حصر لحضور الطلاب وغيابهم او موعد محدد لبدء الدراسة اليومية ، اذ المفروض ان الطفل الذي لا يحضر مشغول بعمل ما في مكان اخر ، كما ان كل فرد في المدرسة معروف لجميع من فيها من معلمين ومتعلمين ، ولذلك فسبب غياب الطالب معروف ، وهو يقرر عند عودته النشاط الذي قام به في غيبته او السبب الذي حال دون حضوره وذلك دون مساءلة ، لان الغياب مباح ، وقد ترتفع نسبة الغياب الى خمسين في المائة في الايام المشمسة التي يستحب فيها التجول في الحقول .

ومجالات النشاط المشترك بين الطلاب كثيرة متنوعة ، ومن امثلة ذلك اعداد الطعام ، فالطلاب هم الذين يقررون في اجتماعاتهم ماذا يأكلون ، ويقدرون التكاليف ، ويشترون المواد الغذائية ، ويطهونها ، ويقدمونها ، ثم يشتركون جميعا في التناول ، ويقومون بعمليات التنظيف اللازمة بعد الانتهاء . وفي هذه المشاركة في الاعداد والتناول والخدمة تسود المودة وروح التعاون بين الافراد وتتوثق عرا المحبة .

والاجتماعات العامة بالمدرسة مشتركة دائما بين المعلمين والطلاب ، والحديث فيها مباح في اي موضوع - لا حظر ولا رقابة ولا عقوبة - حتى ان كان الحديث مما يمس الحياة الخاصة والعلاقات الشخصية للتلاميذ وللمعلمين انفسهم ، لأن الصغار يغرمون بالاستماع الى قصة الحياة الشخصية لمن يكبرونهم سنا . وفي هذه الاجتماعات المشتركة يناقش الطلاب مع معلميهم سياسة المدرسة وميزانيتها وتمويلها واوجه الانفاق المختلفة . وحرية الرأي مكفولة . وعندما يكون الرأي موضعا للجدل والخلاف يطرح للتصويت ، ويكون للطالب عندئذ ما للمعلم من حق .

وبالنقاش الحر يتعلم الطلاب طلاقة الكلام وجرأة التفكير ، واحترام الرأي الآخر ، وتقوم السنتهم فتستقيم اللغة معهم ، وتكون لهم عونا على فهم ما يدرسون من مواد . وتصبح المدرسة بالفعل صورة مصغرة لما يجري في المجتمع الانساني الكبير .

ويمارس الطلاب التمرينات الرياضية كل صباح ، وتشمل الرقص التوقيعي على انغام الموسيقا التي يعزفها المعلمون والطلاب على حد سواء . والالعاب - فردية كانت او جماعية - تشكل جانبا من حياة الطالب بالمدرسة كل يوم .

وتهييء الورشة المدرسية فرص التدريب على جميع الحرف كالنجارة والحدادة والسباكة والاعمال الكهربائية واشغال المعادن والبرادة واللحام وغير ذلك .

ويدرس التلاميذ جميعا العزف الموسيقي . وحجرة الموسيقا مفتوحة لمن يعزف ومن يستمع سواء أكان من الطلاب ام من اولياء الامور ؟

واذا أخطأ طالب في معاملة زميل له او قام بخرق النظام العام تولاه احد المشرفين من المعلمين واخذ يناقشه فيما فعل حتى يقنعه بغير عقوبة .

كل الطرق التعليمية في هذه المدرسة تقوم اساسا على اكتساب الطالب خبرات شخصية متصلة لا تعترضها حواجز من الصفوف الدراسية او دقات الاجراس او تخصيص ساعات معينة لموضوعات محددة دون اعتبار لربط مواد الدراسة بعضها ببعض ، او اختبارات النقل وقواعد النجاح والرسوب ، وهذا هو ما يسميه ديتسون في كتابه « حياة الاطفال » بتواصل الخبرة .

ولا يشترط فيمن يقوم بالتعليم في هذه المدرسة الكفاءة في التدريس فحسب ، بل لابد ان يكون قد مارس اعمالا مختلفة من قبل ، ويستطيع ان يمارس صناعة من الصناعات ، وذلك امر من الاهمية بمكان في التربية ، لان الاطفال يحبون دائما من يستطيع ان يصنع شيئا ما . وذلك بخلاف ما نشاهده في المدارس الاخرى حيث المدرسون يلتحقون بمهنة التدريس مباشرة بعد الانتهاء من دراساتهم العامة والتربوية ، واكثرهم يقف عند حد ما درس ولا يمارس عملا يدويا او صناعة ، ومنهم من لا يحب مهنة التعليم ذاتها وبالتالي لا يظفر بمحبة المتعلمين .

كما يشترط فيمن يتولى التدريس بهذه المدرسة ان يكون من المتفائلين ، يحب الحياة في كل مراحلها ، ويشجع الاطفال على التطلع الى المستقبل والاستبشار به والتحمس له ، حتى لا يخرج الطالب ناقما على الدنيا او راغبا في الهروب منها .

بهذه الوسائل واشباهها وبهذه الروح التي حاولت ان اعرض لمحات منها نجحت مدرسة ني ليليسكول في مهمتها ، ونجح تلاميذها في دراساتهم وفي حياتهم بعدها كما دل على ذلك الاحصاء الذي أجراه المسئولون عن التربية في البلاد .

واني وان كنت لا أومن بتطبيق كل هذه الآراء المتحررة في مدارسنا العربية الا انني أنصح بالتخفيف من كثير من قيود النظام واعطاء كل مدرسة الحق في صياغة منهجها - او جانب منه على الاقل - في الصورة التي ترتئيها وتمليها عليها ظروف البيئة الطبيعية والاجتماعية المحيطة ، واعتبارها مجتمعا بشريا صغيرا تسوده المحبة والتعاون .

القاهرة - محمود محمود .

أعمل أولا أعمل !

● اذا اراد الانسان ان يقوم بعمل ما ، فان عقله يقوم بسبع عمليات فكرية ، هي :

١ ـ لن اعمل ٢ ـ لا استطيع ان اعمل ٣ ـ اتمنى أن أتمكن من العمل ٤ ـ اظن انني استطيع ان اعمل ٥ ـ استطيع ان اقوم بالعمل ٦ ـ سأقوم بالعمل عما قريب ٧ ـ شرعت في العمل فعلا .

ولكن معظم الناس لا يأخذون انفسهم بالصبر والمثابرة حتى تتم جميع هذه العمليات الفكرية . وكثير منهم يقف عند العملية الثانية ـ لا استطيع ان اعمل ـ ولا يتعداها . وبهذا يقفون دائما في بداية الشوط ، بينما يثابر غيرهم ـ ممن ليسوا اكثر منهم قدرة وكفاءة ـ حتى يبلغوا نهاية الطريق .

العـدد القـادم : عـدد ممتـاز

القلادة

قصة :جي دي موباسان

ترجمة : عيسى المصو



كانت من اولئك الفتيات من ذوات الجمال الساحر اللواتي يحسبن ولادتهن في اسرة من اسر الصناع خطأ من اخطاء القدر . ولم تكن تملك صداقا يحقق لها الزواج السعيد ، ولم تكن تملك امالا للتعرف على الناس فتفهم وتحب وتتزوج من رجل ثري مرموق المكانة .

فسلمت قيادها للحظ الذي زوجها بموظف صغير في وزارة التربية والتعليم .

لم تكن بسيطة الذوق الا لانها لم يكن في وسعها الانفاق عن سعة على زينتها . وكانت معذبة النفس ، وكأنها تزوجت من هو ادنى من طبقتها . فالنساء لا طبقة لهن ولا فئة ، فجمالهن وظرفهن وفتنتهن تقوم مقام الحسب والاسرة . فلا تفاوت او تمايز بينهن الا بالرقة الفطرية والاناقة الغريزية ، وحضور البديهة التي تساوي فتيات افقر الازقة مع ارقى سيدات البلد .

كان الالم يبرح بها وهي تشعر بانها ما خلقت الا للنعيم والترف . وعانت من مسكنها الحقير ذي الجدران الشعثة والمقاعد البالية والستائر الزرية .

وكانت هذه الاشياء التي لا تفطن اليها امرأة اخرى من طبقتها تعذبها وتثير كوامن الغضب في نفسها . وكان منظر الخادمة الصغيرة البريتونية التي تقوم على تدبير بيتها المتواضع توقظ في قلبها الحسرات والامال اليائسة .

كانت تحلم بالأواوين التي يخيم عليها الهدوء توشيها الطنافس الشرقية وتضيئها المصابيح البرونزية، وبالخادمين الفارهين في السراويل التي تصل الى الركبتين يرقدان في المقاعد الوثيرة متتشين بالحرارة المنبعثة من المدفأة . وكانت تحلم بالابهاء الفخمة المغشاة بالديباج القديم وبالاثاث الفاخر تجمله الرياش الثمينة والغرف الصغيرة التي تعبق بالعطر والتي اريد منها ان تكون لائقة للحفلات الصغيرة مع اخص الاصدقاء واشهر الناس الذين يسعى اليهم والذين تتوق النساء الى الحظوة بولائهم .

ولما جلست الى طاولة العشاء المستديرة التي لم ينظف غطاؤها منذ ثلاثة ايام مقابل زوجها ، رفع غطاء وعاء الحساء وصاح بلهجة راضية : « الله ما اطيب هذا الحساء ، اني لم أر ما هو اشهى منه ولا الذ » اما هي فكانت تحلم في الوجبات الفاخرة ، والادوات الفضية اللامعة وفي نسائج الوشي تزين الجدران بصور الاعلام البارزة في التاريخ ، والطيور الغريبة في غابة من غاب عبقر ، وحلمت في الطعام الشهي يقدم في الصحاف الرائعة ، وفي الملاطفات الغزلة الهامسة تسمع في بسمة لا يسبر غورها وهي تأكل لحم السمك المورد او اجنحة الدجاج المطبوخ بالهليون .

لم تكن تملك زينة ولا حُلِيًّا ولا شيئا مما تتبرج به المرأة ، وهي لا تحب الا ذلك ، ولا تظن نفسها خلقت لغير ذلك ، وطالما اشتاقت أن تكون محط الاعجاب ومنتجع العيون والافئدة .

وكانت لها صديقة غنية من رفيقات الدراسة ، ولكنها كانت تكره ان تزورها لأن الالم الممض كان يطغى عليها لدى عودتها الى بيتها ، وربما ظلت الايام الطوال تسفح الدموع الغزيرة حزنا واسفا ويأسا وشقاء .

وفي ذات مساء عاد زوجها وعلى وجهه بسمة الاعتزاز ، وفي يده غلاف كبير ، قال : خذي ، هاك شيئا لك ، وفضت الغلاف بسرعة واخرجت منه بطاقة مطبوعة كتبت عليها هذه الكلمات :

« يرجو وزير التربية والتعليم وعقيلته السيدة رامبونو ، السيد لوازيل وعقيلته ان يشرفاها بحضور الحفلة الساهرة التي ستقام في ديوان الوزارة يوم الاثنين ١٨ يناير (كانون الثاني) » ولكنها بدل ان تغتبط كما امل زوجها القت البطاقة على المائدة في سخط وغضب وهي تتمتم ماذا تريدني ان اصنع بهذه ؟.

ـ ولكني ظننت يا عزيزتي انك ستسرين بها ، انك لا تخرجين ابدا وهذه فرصة عظيمة . ولقد احتملت في سبيل الحصول على هذه البطاقة مشقة عظيمة . فكل الناس يرغبون فيها كل الرغبة ، والحفلة مقصورة على الخاصة ، وهم لا يعطون صغار الموظفين الا القليل جدا منها ، وسترين هناك علية القوم جميعهم .

فنظرت اليه نظرة ملؤها الغضب ثم انفجرت قائلة :

ـ وماذا تريد مني ان ارتدي من ملابس لهذه الحفلة !!

لم يكن الزوج قد فكر في هذا فأجاب في صوت متلعثم : « عندك الثوب الذي ترتدينه عندما تذهبين الى المسرح انه ـ على ما ارى ـ ملائم جدا » .

وغمرته الدهشة والتاث عليه الكلام حين رأى زوجه وقد شرعت في البكاء ، وابصر دمعتين كبيرتين تنحدران من زاويتي عينيها الى زاويتي فمها ، وقال متلعثما : ماذا بك ؟ ماذا حدث ؟

فتحاملت على نفسها بجهد عظيم متغلبة على حزنها واجابت في صوت هادىء وهي تمسح الدمع من على خديها .

ـ لاشيء ، غير اني لا املك ما اتزين به ، ولذلك لا استطيع حضور الحفلة ، فأعط هذه البطاقة الى احد زملائك ممن تكون امرأته احسن مني جهازا .

فعصفت اللوعة في قلبه وقال : أصغي الي يا ماتيلدا . كم سيكلفنا ثوب مناسب يمكنك ان ترتديه في مناسبات اخرى ايضا ثوب بسيط جدا ؟ ففكرت بضع ثوان وهي تحسب حساب الاسعار وكمية المبلغ الذي ستطلبه دون ان تثير الرفض العاجل وصيحة استنكار من زوجها الموظف المقتصد . واخيرا اجابت ببعض التردد .

ـ لا اعرف ذلك على وجه الدقة ، ولكني اظن ان اربعمائة فرنك تكفي .

اصفر وجه الزوج قليلا لانه كان قد ادخر هذا المبلغ بالذات ليشتري به بندقية يصطاد بها في الصيف القادم في سهل « نتنيير » مع بعض اصدقائه الذين كانوا يذهبون الى هناك ايام الاحاد لصيد القبرة . ومع ذلك قال لامرأته : ليكن . سأعطيك اربعمائة فرنك ، فاجتهدي ان تحصلي على ثوب جميل حقا بهذا المبلغ .

❊ ❊ ❊

ودنا يوم الحفلة ، الا ان السيدة لوازيل كانت ما زالت حزينة مهمومة وقلقة . فقال لها زوجها ذات ليلة .

ـ ما الامر ؟ انك منذ ثلاثة ايام في حالة غريبة .

فأجابته : انه ليحزنني الا تكون لي حلية ، فلا املك مما تتحلى به النساء شيئا من معدن او حجر ، وسأكون احقر من في الحفل زيا وهيئة ، وارى من الافضل الا اذهب الى هذه الحفلة .

قال : تحلي بالزهور الطبيعية فهي جميلة في مثل هذا الفصل من السنة ، وبعشرة فرنكات تبتاعين وردتين او ثلاثا من أندر انواع الورد .

الا انها لم تقتنع بهذا الكلام وقالت : كلا ، فان من اشد الاشياء هوانا ان تظهر في محضر الاغنياء بمظهر الفقراء .

ولكن زوجها صاح بها قائلا : يا لغباوتك ، اذهبي الى السيدة فورستييه صديقتك واستعيري منها بعض الحلي ، فان بينكما من وثيق الصداقة ما يبرر طلبك .

فصاحت صيحة الفرح وقالت : هذا صحيح ، ومن العجب انه لم يخطر على بالي . وفي صبيحة الغد ذهبت الى صديقتها فقصت عليها همها ، فلم تكد تسمع شكواها حتى اسرعت الى خزينتها فاخرجت منها صندوقا كبيرا وفتحته ثم قدمته الى السيدة لوازيل وهي تقول : اختاري ما يروقك يا عزيزتي .

فوقع بصرها اول ما وقع على الاساور ثم على عقد من اللؤلؤ ثم على صليب بندقي قد رصعته بالحجارة الكريمة رجل صناع اليدين . فجربت على نفسها الحلي في المرآة . ولكن الحيرة استبدت بها فلم تستطع البت فيما اذا كان عليها ان تتحلى بها ودأبت على السؤال . الم يعد لديك شيء آخر . فاجابتها صديقتها : بلى . ابحثي . فاني لا اعرف ما يروق لك .

وبغتة وجدت في علبة من الديباج الاسود عقدا فاخرا من الماس . فخفق قلبها خفقان الرغبة الملحة ، ثم تناولته بيد مضطربة وتقلدته حول عنقها على ثوبها وبقيت في نشوة عندما شاهدت نفسها . فسألت صديقتها في تردد وقلق : اتستطيعين ان تعيريني هذا العقد ـ لا شيء الا هذا العقد ؟

فأجابتها صديقتها : اجل بالطبع ـ فأهوت على نحرها واحتضنته في حمية ثم ولت بسرعة بهذا الكنز .

❊ ❊ ❊

وأزف يوم الحفلة . ونجحت السيدة لوازيل ، فكانت اكثر من حضرها من النساء رشاقة ولباقة وبهجة ، وقد غمرتها السعادة فاسترعت الانظار واستفسر الرجال عن اسمها متسابقين الى السؤال عنها . وتمنى وكلاء الوزارة جميعهم الرقص معها ، حتى الوزير نفسه .

كانت ترقص وقد طغت عليها نشوة الغبطة ، وقد امحى من ذهنها كل شيء الا انتصار جمالها ، ومجد انتصارها في ظل السعادة الغامرة الذي بسطته عليها مظاهر الاعجاب والولاء التي اغدقت عليها ، والرغبات التي اثارتها والفوز الشامل الذي يبهج بسحره قلب المرأة .

وبقيت في الحفلة حتى الرابعة صباحا . وكان زوجها منذ ان انتصف الليل قد غلبه النوم فاخذ مرقده في غرفة صغيرة خلت من الناس الا من ثلاثة مدعوين كانت زوجاتهم لا يزلن يمرحن ويتلهين في نشاط .

ولما هيا بالانصراف القى على كتفيها بالمعطف ، فقد كان الجو باردا ، وكان متواضعا مبتذلا يتنافر تماما مع اناقة ثوب السهرة . وقد شعرت هي بذلك فارادت ان تتسلل حتى لا تلمحها النساء الاخريات وهن يرتدين معاطف الفراء الفاخرة . غير ان زوجها منعها من ذلك

قائلا : انتظري ، فقد يصيبك البرد ، سأحضر عربة الا انها لم تكن تصغي اليه وانحدرت مسرعة على السلم فلما صارت في الشارع لم يجدا اية مركبة ، فاخذا يفتشان ، وكلما ابصرا حوذيا عن بعد صاحا به .

واتجها في مسيرتهما الى (السين) قانطين ومرتجفين من البرد ، وبعد لأي وجدا مركبة عتيقة على رصيف النهر لا تعمل الا ليلا ، ولا تشاهد في باريس الا بعد هبوط الظلام وكأنها تخجل من ان تظهر مهانتها في وضح النهار .

واوصلتهما الى دارهما في شارع (الشهداء) ، ودخلاها حزينين فبالنسبة إليها كانت تتحسر على انقضاء ما كانت فيه ، واما بالنسبة اليه فلأنه كان يفكر في واجبه الذي يلزمه ان يكون في مكتبه في الساعة العاشرة .. بعد ساعات قليلة .

ونضت عن كتفيها امام المرآة المعطف الذي تدثرت به حتى تتأمل نفسها مرة أخيرة وهي في مجدها . وما لبثت ان صاحت في فزع انها لم تجد العقد الماسي على جيدها ، واقبل عليها زوجها وكان قد خلع نصف ثيابه يسألها عما اصابها . فالتفتت اليه في جزع تقول : انا .. انا .. لا جد عقد السيدة فورستييه وأنتفض بدوره من الدهشة هو يقول : ماذا ؟ كيف ؟ هذا مستحيل .

وشرعا يبحثان في ثنايا الثوب ، وفي طوايا المعطف ، وفي الجيوب وفي كل مكان ، فلم يجداه .

سأل الزوج : انت على يقين من ان العقد كان في عنقك ساعة تركت الحفلة ؟ فاجابته: نعم ، وقد لمسته بيدي وانا في دهليز الوزارة فقال لها : ولكنك لو كنت فقدته ونحن في الشارع لكنا سمعنا وقعه حين سقط ، فلا بد اذن ان يكون في المركبة .

فقالت له : نعم ، هذا جائز ، فهل اخذت رقم المركبة ؟ فاجابها : كلا وأنت الم تلحظيها ؟

ـ كلا .

فرنا اليها ورنت اليه معقودي اللسان : واخيرا ارتدى لوازيل ثيابه وقال : سأعود الى الطريق التي اجتزناها مشيا فلعلي اجده ثم خرج وترك امرأته في ثياب السهرة مفتقرة الى القوة لكي ترقد على فراشها . واقعدها الخور على احد المقاعد منزوعة الارادة والقوة والتفكير . ثم عاد زوجها في الساعة السابعة دون ان يعثر على شيء .

وما لبث ان مضى الى مركز الشرطة ، ثم الى ادارات الصحف يعلن عن مكافأة لمن يجده ، ثم الى شركات العربات الصغيرة ، والى كل مكان يهديه اليه بصيص من الامل . وكانت هي تنتظر طول النهار على حالها من الذهول من جراء هذه الكارثة المروعة . وفي المساء عاد لوازيل الى البيت شاحب الوجه كاسف البال لانه لم يكتشف شيئا ، قال لزوجته : لابد ان تكتبي لصديقتك تخبريتها ان مشبك العقد قد انكسر وانك بسبيل اصلاحه ، فذلك يعطينا المهلة لنتخذ تدبيرا آخر . فكتبت ما املاه عليها .

وفي آخر الاسبوع كانا قد فقدا كل امل ، فاعلن لوازيل الذي بدا عليه وكأنه شاخ خمس سنوات ان لابد من وسيلة لشراء عقد بدل العقد المفقود .

وفي اليوم التالي اخذا علبة الحلي التي كانت تحوي العقد وذهبا الى الصائغ الذي كتب اسمه عليها فسألاه عنها . وبعد الرجوع الى سجلاته قال : لست انا يا سيدي الذي صنع العقد وانما قدمت المشبك .

فتنقلا من صائغ الى آخر يفتشان عن عقد يماثله وقد جمع بهما الندم وعصف بهما القلق . وفي متجر من متاجر (الباليه رويال) وجدا عقدا من الماس يشبه العقد المفقود الذي يفتشان عنه كل الشبه ، كان ثمنه اربعين الف فرنك ، ولكن الصائغ تنازل الى ستة وثلاثين الفا . ورجواه ألا يبيعه لاحد قبل ثلاثة ايام . وربما الامر معه بحيث يعود هو فيشتريه منهما باربعة وثلاثين الف فرنك اذا هما وجدا العقد الاول قبل اخر فبراير (شباط) .

كان لوازيل يملك ثمانية عشر الف فرنك تركها له ابوه . وعقد العزم على ان يستدين الباقي ، فاقترض الفا من هذا وخمسمائة من ذاك ومبالغ اصغر من هنا وهناك . وكتب على نفسه الصكوك ، واخذ على ذمته العهود الملزمة ، وتردد على المرابين والدائنين ، وكأنه رهن ما تبقى له من عمر وغامر بامضائه دون علم بكيفية الوفاء بتعهداته . وفي حال يرجف لها القلب خوفا من هموم المستقبل ، وما يتوقعه من بؤس العيش وما يخشاه من حرمان الجسم ، ذهب يشتري العقد الجديد فوضع على منضدة الصائغ ستة وثلاثين الف فرنك .

ولما اخذت السيدة فورستييه العقد من السيدة لوازيل قالت في لهجة عاتبة : لقد كان ينبغي ان ترديه قبل ذلك ، فقد كنت في حاجة اليه ، ولكنها لم تفتح العلبة ، فكفت بذلك صديقتها ما كانت تخشاه اذ كانت تقول لنفسها : ماذا عساها ان تظن اذا لاحظت ان العقد غير العقد ؟ الم تكن تحسبني لصة .

❋❋❋

ذاقت السيدة لوازيل عيش المعوزين المر الخشن ، ومن البداية تحملت نصيبها في بسالة ، فقد كان لابد من سداد هذا الدين المخيف واستغنت عن خادمتها ، وغيرا منزلها ، ونزلا غرفة تحت سطح احد البيوت وزاولت الاعمال الغليظة في البيت والامور البغيضة في المطبخ فغسلت الاطباق واتلفت اظافرها الوردية في فرك الانية الفخارية الخشنة والمقالي . وغسلت القذر من القماش والقمصان والخرق ونشرتها لتجف ، ونزلت الى الشارع في كل صباح لتصعد بالماء متوقفة عند كل طابق لتتنفس الصعداء من التعب . ولبست لباس النساء الفقيرات وترددت الى بائع الفاكهة والبقال والقصاب وعلى ذراعها السلة تفاصل فتشتم وتكافح في سبيل كل فرنك من نقودها القليلة . فاذا انصرم الشهر وجب ان توفي صكا وتجدد صكا لكسب الوقت .

وكان الزوج يشتغل في المساء في تدقيق حسابات احد التجار وفي الليل ينسخ صورا من بعض الاصول ، كل صفحة بربع فرنك .

ودأب الزوجان على هذه الحالة عشر سنوات ، وفي نهاية هذه المدة كانا قد اوفيا الدين كله وسددا دفعات المرابي والفائدة المركبة .

وبدا الهرم على وجه السيدة لوازيل ، وكان من طول قيامها بالشؤون المنزلية ان اصبحت قوية غليظة جافة ، تكاد لا تراها الا مشعثة الشعر مشوشة الملبس ، حمراء اليدين ، ترفع صوتها في الكلام وتغسل ارض الغرف بالماء الغمر ، ولكنك تراها في بعض الاحيان تجلس الى النافذة حين يكون زوجها في مكتبه مفكرة في تلك الامسية البعيدة في تلك الحفلة الساهرة التي كانت فيها مهوى القلوب ومراد العيون . ما الذي كان يحدث لو ان هذا العقد لم يفقد ؟ من يدري ؟ من يدري ؟ ان الحياة غريبة الاطوار ، سريعة التقلب ، ان دمارها وانقاذها رهن باصغر الاشياء .

وفي ذات احد من الاحاد بينما كانت ماتلدا لوازيل ترفع عن نفسها عناء الاسبوع في رياض (الشانزليزيه) وقع بصرها فجأة على السيدة فورستييه ، ومعها طفل تنزهه ، وكانت لا تزال تبدو عليها مظاهر الصبا والحسن والفتنة ، فاعتراها لدى مرآها بعض الاضطراب . اتذهب اليها فتكلمها ؟ اجل ، ولم لا ؟ فقد اوفت الان بكل ما عليها ، فلم لا تفضي اليها بكل شيء ؟ ودنت من صديقتها القديمة وقالت لها : صباح الخير يا جان .

ولكن صديقتها لم تعرفها وادهشها ان تسمع امرأة فقيرة تحييها بهذه الالفة ، وتناديها من غير كلفة . فتلعثمت وهي تقول : ولكني .. سيدتي .. انا لااعرفك ، لابد ان يكون الامر قد اشتبه عليك فقالت لها : كلا .. فانا ماتلدا لوازيل .

فصاحت صديقتها في دهشة قائلة : آه .. يا صديقتي المسكينة ماتلدا لشد ما تغيرت !!.

قالت : نعم لقد كابدت برحاء الهموم وعانيت بؤس العيش منذ ان شاهدتك آخر مرة وذلك كله بسببك .

بسببي . وكيف ذلك ؟

انك تذكرين ولاشك ذلك العقد الماسي الذي اعرتني اياه يوم حفلة الوزارة .

ـ نعم وبعد ؟

انني اضعته .

ـ وكيف اضعته وقد رددته الي ؟

ـ لقد رددت اليك عقدا آخر يشبهه كل الشبه . وها هي تلك عشرة اعوام قضيناها في اداء ثمنه . ولم يكن يسيرا علينا كما تعلمين ، فاليد خالية ، وقد انتهى الامر الآن والحمد لله واصبحت راضية ، وتوقفت السيدة فورستييه عن المشي قائلة : اتقولين انك اشتريت عقدا بدل عقدي ؟ .

ـ اجل،الم تلاحظي ذلك ؟ انه لا يختلف عنه في شيء ، وافترقت شفتاها عن ابتسامة تنم عن الكبرياء والسذاجة . ولكن السيدة فورستييه اخذت يديها في يديها قائلة في لهجة الاشفاق الشديد : مسكينة يا صديقتي ماتلدا . ان عقدي كان اصطناعيا وما كان ثمنه يزيد على خمسمائة فرنك .

نيويورك : د . عيسى المصو

● صفحة لغوية ●

النيّة والنيّات والنوايا

بقلم محمد خليفة التونسي

يقول النبي عليه الصلاة والسلام : « انما الاعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ مانوى » .

والنيات جمع نية ، وهي ما يقصده الانسان فيما بينه وبين نفسه ، وقد شاع في ايامنا هذه جمع آخر لكلمة « نية » ، اذ تجمع على « نوايا » فيقال مثلا « أعمال الانسان تدل على نواياه » وكلمة « النوايا » لايعرف لها الباحثون موردا في مراجعنا اللغوية من النصوص الفصيحة او المعاجم فهل تنكر فصاحتها وتطاردها كأنها غريبة او عامية ؟

يقول بعض الباحثين اللغويين المحدثين إنها خطأ ، ولهم في ذلك حجتان : احداهما انها لم ترد في المراجع اللغوية ، والحجة الثانية انها مخالفة للقياس فكلمة « نوايا » على وزن فعائل ، وفعائل لاتكون جمعا ، الا اذا كان المفرد اسما او صفة لمؤنث من اربعة حروف ثالثها حرف مد ، سواء كان مختوما بتاء التأنيث مثل سحابة وسحائب وركوبة وركائب ، وعظيمة وعظائم ، او كان المفرد المؤنث خاليا من تاء التأنيث مثل : عجوز وعجائز ، وشمال وشمائل .

ثم يقولون ان كلمة « نية » تتكون من ثلاثة حروف كلها أصلية ، فاصلها « نوية »زيدت عليها تاء التأنيث وفعلها « نوى ينوي » وليس هنا حرف مد ثالث .

ويعنينا هنا ان نقرر ما يأتي :

اولا : ان كلمة« نوايا » قد شاعت على الالسنة والاقلام في حياتنا اليومية ، فمطاردتها ـ حيث تظهر من اي قلم او اي لسان ـ جهد ضائع .

ثانيا :هي كلمة سائغة في النطق والاذن .

ثالثا : ينبغي ان نسأل : هل لها نظائر في اللغة يمكن ان تقاس عليها ام لا نظائر لها ؟ فان وجدنا لها نظائر ـ ولو نادرة ، يمكن قياسها عليها ـ قسناها عليها ، وكان ذلك شفيعا كافيا لاقرارها بين نظائرها دون تردد .

وهذا ما نحاوله هنا ، ولعله مقنع ، ولو على وجه مرجوح ، بل إنه مقنع على وجه راجح ، بل قاطع .

اولا : لاشك ان جذر الكلمة عربي فصيح وهو (ن . و . ي .) نقول : نوى ينوي ، ونزيد على ذلك ان من هذا الجذر ايضا « نواة » ، « ونوى » ونواة الثمرة قلبها الخفي « الذي تتخلق منه ، وكذلك نواة كل ثمرة ، وفي القرآن الكريم : ان الله فالق الحب والنوى » والنية المخبوءة في سريرة الانسان كالنواة المخبوءة في ثمرتها ، وعن نية الانسان المخبوءة تصدر اعماله ، كما ان نواة كل ثمرة هي التي تصدر عنها شجرتها .

ثانيا : في اللغة الفصيحة أسماء وصفات كثيرة مفردة ، اغلبها مؤنث مكونة من ثلاثة حروف مثل « نية » ومع ذلك جمعت في الفصيحة على فعائل ايضا او على هيئة فعائل ، اي جمعت على « فعالي » المنقوص او على فواعل ، وهذه بعض الامثلة :ـ

١ ـ حاجة وحوائج « على فعائل » كما في قول النبي عليه الصلاة والسلام : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » وقوله : « اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه »

٢ ـ ضرة وضرائر (على وزن فعائل) وضرة المرأة امرأة زوجها ، ومما يروى أن احد العلماء كان مشغولا بكتبه ، فكان ذلك يدعوه الى ما ظنته زوجته تقصيرا منه في حقها من عنايته فكانت لضيقها ، بذلك تقول له : « والله لكتبك هذه أشد علي من ثلاث ضرائر » .

٣ ـ كنة وكنائن (على فعائل) والكنة امرأة الابن او امرأة الاخ .

٤ ، ٥ ـ قعدة وقعائد (المراكب) وقبة وقبائب (على وزن فعائل) .

٦ ـ جزة وجزائز ، والجزة ما جز مرة واحدة من صوف نعجة أو خروف ، فلم يخالطه غيره ، أو ما جز من تمر نخلة مرة واحدة .

٧ ـ لصة ولصائص ، واللصة السارقة ، كما ان اللّص واللُّص هو السارق .

٨ ـ شبة وشبائب ، والشبة هي الشابة .

٩ ـ رَخصة ورخائص ، يقال : اصابع رخصة اي طرية ناعمة ، او سخية ، وعكسها اصابع كزة أي خشنة اوبخيلة .

١٠ ـ حلبة وحلائب ، والحلبة دفعة من الخيل في الرهان او السباق .

١١ ـ همّة وهمائم : والهمة : الشيخة الهرمة الفانية ، ومذكرها الهم : اي الشيخ الفاني واما همة بمعنى العزم فتجمع على همم .

١٢ ـ جَنْبة وجنائب ، والجنبة هي الجانب ، فيقال : جنبة الرجل ، اي جانبه ، أو شقه ، وجنبة الدار اي جانبها ، او الجزء منها .

١٣ ـ خَربة وخرائب ، والخربة ، مكان الخراب وتجمع خربة على خربات وخرب ايضا .

١٤ ـ خفرة وخفائر ، والمرأة الخفرة الشديدة الحياء ، والخفر محبوب في النساء ، وتجمع خفرة على خفرات ايضا ، وعليه قول الشاعر في وصف صاحبته .

من الخفرات البيض ود جليسها
اذا ما انقضت احدوثة لو تعيدها

١٥ ـ غدوة وغدايا ، حملوها على مقابلتها عشية وعشايا للمزاوجة ، والغدوة اول النهار والعشية آخره ، وتجمع غدوة على غدوات ايضا .

١٦ ـ الهافة والهوافي على وزن « فعالي » المنقوص ، والهافة هي الناقة التي تعطش سريعا ، وقد جاءت كلمة الهوافي في شعر شاعر مخضرم هو عمرو بن شأس الاسدي ، ذكره « ياقوت الحموي » في كتابه « معجم البلدان » تحت مادة « ارماث » وارمات هو اليوم الاول من ايام القادسية الاربعة التي انتصر فيها المسلمون بقيادة سعد على جيوش الفرس ، يقول هذا الشاعر .

تذكرت اخوان الصفاء تيمموا
فوارس سعد واستبد بهم جهلا
ودارت رحى الهيجاء فيها عليهم
فعادوا خيالا لم يطيقوا لها ثقلا
عشية ارماث ، ونحن نذودهم
ذياد الهوافي عن مشاربها عكلا

١٧ ـ عادة وعوائد ، وقد استعمل ابن خلدون هذا الجمع ، عشرات المرات ، وذلك في مقدمته المشهورة وهذه الكلمة شائع استعمالها اليوم على الالسنة والاقلام .

هذه سبع عشرة كلمة مثل « نية » ، جمعت على او : فعائل

ونزيد ان العرب جمعوا ليلة على ليال ، وكيكة (وهي البيضة) على كياكي ، والليالي والكياكي على وزن « الفعالي » مثل الصحاري .

كما جمعوا « ارض » على « اراض » و « اهل » على « أهالٍ » والاراضي والاهالي على وزن (الفعالي) أيضا .

وقالت العرب طلقة وطوالق (على وزن فواعل) يقال ليلة طلقة ، وليال طوالق اي لا حر فيها ولا برد .

والجنة هي الحديقة ذات النخل والشجر ونحن اليوم نجمعها على جنائن ، ويندر ان نجمعها على جنات وهناك وقعة و « وقائع » والوقائع : الأحداث وأخبارها ، وكل هذه الكلمات تتساند للدلالة على فصاحتها ، ولذلك نقول : ان كلمة « نية ونوايا » فصيحة لا شك في فصاحتها ومثل هذا الجمع كثير ، وان لم يكن قياسيا عند النحاة ، ولكن اذا شاعت مثل نية ونوايا وجب قبولها .

في الانحطاط الثقافي

● طالعت بشغف مقال رئيس التحرير في عدد سبتمبر /٨١ « في الانحطاط الثقافي داؤه ودواؤه» ولدي تعقيب يتلخص في ان الثقافة ظاهرة سيالة انماطها تنساب بعدة طرق ، فتنتشر فيتمثلها الانسان تلقائيا لتسهم في صياغة هيكل شخصيته . لهذا فان التخطيط الثقافي من اخطر القضايا والتحديات التي تواجه المسئولين في العالم العربي والافريقي ، وعليه يجب الانطلاق من ارض الواقع للاستفادة من معطياتها والاستعانة برصيد الشعوب من التجارب المعاصرة ، فنقيم من هذه الابعاد تصورا منطقيا لما ينبغي ان تكون عليه اهدافنا الآنية والمستقبلية في مجال الثقافة وذلك حتى نمسك بالمادة العلمية ونقوم بتطويعها لتتناسب مع اهدافنا القومية وتقديمها خلال جرعات مستساغة نمر بها في خطط مدروسة عبر المؤسسات والقنوات المتخصصة ، وبذلك نكون قد وظفنا الواقع المادي والمعنوي للثقافة وهذا يحتاج بالضرورة الى سفر في اعماق الذات بحثا عن اجابات للاسئلة الملحة التي مفادها من نحن ؟ وماذا نريد ؟ وكيف نحقق ما نريد ؟ وكيف كنا ؟ وكيف اصبحنا ؟ وماذا ينتظرنا ؟. وما هي امكاناتنا وقدرتنا على توظيفها ؟

صلاح الدين فرج الله ـ السودان

قنبلة النيوترون

● ان تصنيع قنبلة النيوترون هو اشارة لبدء اغراق شامل لانواع جديدة من الاسلحة ، ولكنه لا يجب ان ينسينا ذلك التهديد المخيف الذي تمثله لنا جميع الاسلحة النووية الاخرى . ومن اجل هذا دائما كنا نطالب بتحريم هذه الاسلحة وبتدمير المخزون منها .

اننا نطالب رسميا رؤساء الحكومات ان يبدءوا من جديد ـ مهما كانت اشكال هذا البدء ، وبدون شروط مسبقة ـ المفاوضات على اوسع نطاق .

ونحن كمشتغلين بالعلوم ، وعلى علم بمدى فداحة المخاطر التي تتعرض لها كل الشعوب ، فاننا نعلن انه ليس هناك مهمة اكثر الحاحا من هذه المهمة .

برفسورج « م » ليجي
سكرتير عام الاتحاد العالمي للمشتغلين بالعلوم
ليون ـ فرنسا

سلبيات الشخصية العربية

لقد استوقفني مادار من جدل على صفحات مجلة العربي حول موضوع سلبيات الشخصية العربية ويبدو لي ان موضوعا كهذا يستحق المزيد من البحث والتعليق ، واود من جانبي ان اوضح ان السلبيات التي عرضها الدكتور سامي القباني ، وكذلك الاخ الدكتور محمد السبع ليست خاصة بالشخصية العربية فقط ، وذلك ان الانسان العربي هو وليد ثقافة معينة تدخلت عوامل كثيرة في بنائها كالعادات والتقاليد والدين فضلا عن العوامل الوراثية ، ويبدو لي ان كثيرا من السلبيات التي نحن بصددها انما تنتج عن طغيان احد تلك العوامل على العوامل الاخرى في تكوين الشخصية العربية ، وهذه السمة سمة غريزية في اي مجتمع من المجتمعات فكل مجتمع يحاول ان يدافع عن عاداته وتقاليده لا لشيء، الا لأنها تعبير عن ملكيته الخاصة ، وهو ليس مستعدا لقبول ما هو خارج عن نطاق هذه العادات .

يونس طيش
رأس الخيمة / الامارات العربية المتحدة

استطلعوا المخيات في لبنان

● مجلة العربي خير من ينقل صورة عن الواقع المأساوي الذي يعيشه اللاجيء الفلسطيني في لبنان ... فلم يعد الفلسطيني هدف اسرائيل وحدها بل بات مستهدفا من كل القوى الشريرة في العالم ... حتى الاقربين ... ولم اجد الا مجلة العربي لاقترح عليها القيام باستطلاع عن هذا الفلسطيني الذي يتعرض لاقسى الظروف خصوصا بعد الاعتداءات الاسرائيلية التي اصبحت خبزه اليومي .

بكر مصلح / لبنان

ارتباط العربي الصغير بالكبير

● لاشك ان « العربي الصغير » قد سد فراغا بالنسبة لاطفالنا بما يحتويه من معلومات ، لهذا تجدني احرص على شرائه لاولادي كلما ذهبت لشراء مجلة العربي ، وفي الاشهر الاخيرة اخذ البائع يبيعني المجلة بدون « العربي الصغير » وعندما اطلب منه هذا الملحق يجيبني ان المجلة جاءته بدون العربي الصغير ، ومنعا للتلاعب اقترح ان يكون العربي الصغير ملتصقا بالمجلة الام التصاقا يتعذر معه فصله من قبل من يريد التلاعب ، واعتقد ان هذا لن يكلفكم شيئا .

احمد فؤاد محمد نصر
القاهرة ـ مصر

اول مؤسسة عربية اسلامية

● نشرت العربي في العدد ٢٧٠ تحقيقا بعنوان :.. اول مؤسسة عربية اسلامية .. في سويسرا ، ولما كان في هذا القول اجحاف بحق من كان الرائد في هذا المجال رأيت بأن اصحح الامر على الوجه التالي انصافا للتاريخ فاقول :ـ

ان المؤسسة العربية الحالية ليست اول مؤسسة من نوعها في سويسرا بل هي مسبوقة بمؤسسة قام بها الدكتور احسان حقي برفقة صديقه المغفور له الامير شكيب ارسلان ، وتفصيل ذلك ان الدكتور حقي الذي كان قد استقال من جامعة (عليكره) بالهند سنة ١٩٣٢ ونذر نفسه لخدمة الدعوة الاسلامية في اوروبا ، واسس في باريز مركزا اسلاميا باسم (الندوة الاسلامية) فأزعج بعمله هذا الفرنسيين الذين كانوا يرون في كل عمل اسلامي خارج عن نطاق جامع باريز مناهضة لسياستهم ، فمنعوا الدكتور حقي من اتمام رسالته فجاء الى جنيف وعمل مع الامير شكيب واسسا ما اسمياه آنذاك (المؤتمر الاسلامي الاوروبي) وقام الدكتور حقي على نفقته الخاصة بجولة في بلاد اوروبا الشرقية لحث اهلها على التكتل والانتصار للفكرة ، فوجد الترحيب . وانعقد اول مؤتمر اسلامي اوروبي في جنيف سنة ١٩٣٣ في قاعة فندق (فيكتوريا) على شاطيء البحيرة وانفض عقد هذا الجهد لان العالم الاسلامي لم يكن آنذاك مؤهلا لادراك اهمية هذه الخطوة فلم يجد القائمان بهذا العمل المساعدة المادية للاستمرار فكانت هذه الجلسة هي الاولى والاخيرة كما قرأنا ذلك بالصحف آنذاك .

ولو كان العالم الاسلامي كما هو اليوم من حيث الوعي والمادة لكان لهذين المجاهدين شأن كبير في خدمة الاسلام ولكانت (جنيف) قد عملت كثيرا في خدمة الاسلام ، خلال نصف قرن ولكننا نقول : ان الامور مرهونة بأوقاتها ، وكل ميسر لما خلق له وبكل الاحوال جزى الله العاملين خير الجزاء .

صبري فريد / دمشق

اجعلوا العربي نصف شهرية

● مجلة « العربي » مجلة شاملة جامعة لانواع شتى من المعارف ... وقد خطر ببالي ان اقترح عليكم جعل هذه المجلة نصف شهرية حتى يتمكن قراء العربي من ارواء ظمئهم .

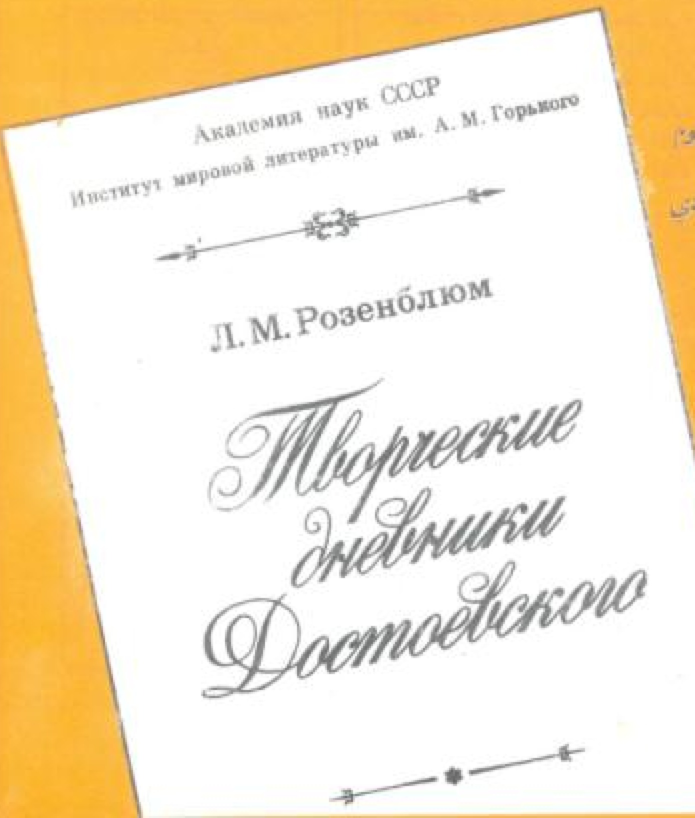
سامي محمد المصلي

كفر الشيخ ـ مصر

يوميات دستويفسكي

لأول مرة : دراسة سوفيتية لكل مدونات الكاتب الكبير

تعتبر اليوميات والملاحظات الابداعية ، التي سجلها دستويفسكي على مدى عشرين عاما ، مصدرا بالغ الاهمية ، للتعرف بشكل أوسع وأعمق ، على حياة الأديب وفكره ومسيرته الابداعية وتاريخ عيون تراثه الخالد وعمله الخلاق في ميدان الصحافة .



تأليف :
ميخائيلوفنا روزنبلوم

تقديم : هاشم حمادي

وفي وقتنا هذا قل أن تظهر دراسة عن دستويفسكي وتراثه لا يعتمد فيها الباحث ، بهذه الدرجة أو تلك ، على هذه اليوميات والملاحظات ؛ وليس ذلك بغريب ، فصفحات هذه اليوميات غنية بالملخصات والتكوينات ومسودات العديد من اعماله الخالدة : « الجريمة والعقاب » ، « الأبله » ، « الشياطين » ، « المراهق » ، « التمساح » ، « الزوج الخالد » . وبتكوينات العديد من الروايات التي لم يقدر لها أن ترى النور - « الزواج » ، « الامبراطور » « الالحاد » ، « سيرة الخاطئ الكبير » ، « الآباء والبنون » ، « الحالم » ، هذا بالاضافة الى خطط العديد من المقالات ، التي لم تكتب . عن « الاشتراكية والمسيحية » ، عن غوغول واستروفسكي ، عن تورغينيف وشيدرين . عن فن الكوميديا والتراجيديا ، وعن مسالك تطور الادب العالمي الخ . كما تطالعنا في هذه اليوميات والملاحظات آراء الاديب بصدد المقالات ، التي انتهى لتوه من قراءتها في الصحف والمجلات - مما يدل على اهتمام دستويفسكي اليومي بالواقع المعاصر .



دفاتر دستويفسكي

صدرت يوميات دستويفسكي وملاحظاته الابداعية لأول مرة في عام ١٨٨٣ ضمن أعماله الكاملة . ولكن تلك اليوميات اقتصرت على بعض الرسائل واليوميات العائدة إلى عامي ١٨٨٠-١٨٨١ . وفيما بعد قامت ارملة الأديب آنا غريغوريفنا بنشر عدد من مسودات أعماله التكوينية . وبعد موتها ، في عام ١٩١٨ ، انتقلت دفاتر دستويفسكي ، الى الأرشيف المركزي ، وقد جاء في مقدمة طبعة « وثائق في تاريخ الأدب والاجتماع . الاصدار الأول . ف . م . دستويفسكي » ، الصادرة في موسكو في عام ١٩٢٢ مايلي : « في الثاني عشر من تشرين الثاني من العام الجاري ... تم فتح الصندوق رقم ٥٠٣٨ ، الذي يحتوي أوراق دستويفسكي . وقد عثر في هذا الصندوق على ٢٣ قطعة : دفاتر واكياس ورزم من الرسائل وغيرها من الوثائق ، وقد كتبت على غلاف أحد هذه الدفاتر عبارة: En cas de ma mort ou une maladie grave » « في حال موتي او اصابتي بمرض عضال » ، ويتضمن هذا الدفتر وثائق آنا غريغوريفنا العملية وبعض ملاحظاتها وتوصياتها .

وفي هذا الدفتر نقرأ على الصفحتين ٥٢ و ٥٥ أن « فيدور ميخائيلوفيتش قد سجل خطط رواياته وبعض الملاحظات اليومية ومسودات رسائله في ١٥ دفترا وتضيف آنا غريغوريفنا : « ان كل ما هو ذو قيمة في هذه الدفاتر سينشر في المجموعة ، التي ستصدر قريبا ، والتي ستضم كل رسائله في الفترة ما بين ١٨٣٥ - ١٨٥٥ ، وأغلبها إلى أخيه ، وفي الفترة ما بين ١٨٦٦ - ١٨٨٠ ، إلى خطيبته ومن ثم زوجته - إن دفاتر الكاتب هذه ستسمح باعطاء صورة حية عن مسيرته الحياتية والابداعية ، وستسلط الأضواء على انكباب دستويفسكي على روائعه الخالدة - «الجريمة والعقاب» « الأبله » « المراهق » و « الشياطين » .

ومن المعروف أن دستويفسكي غالبا ما كان يستخدم ، لدى « ابتكار الخطط » - كما كان يسمي المرحلة التمهيدية في عمله - أكثر من دفتر ، في وقت واحد ، كما كان يسجل الملاحظات على أوراق منفصلةوكان دستويفسكي يكتب في هذه الدفاتر في غير نظام محدد ، حتى أنه غالبا ما كان يكتب على الصفحات المكتوبة ، في الأماكن الفارغة وعلى الهوامش وفي أعلى

الصفحات وأسفلها ، لا بل وبين الاسطر ... وفي أحيان كثيرة كان يكتب على الأوراق المقلوبة ، ويترك هذا الدفتر ـ فجأة ـ ليبدأ الكتابة في دفتر آخر ، مما يجعل من الصعوبة بمكان العثور على الطريق الصحيح ، في هذه الغابة ، المتعددة المسالك ، ولكن الباحثين تمكنوا ـ بفضل العمل المخلص ـ من وضع هذا التراث الدستويفسكي الهام بين ايدينا . ويأتي كتاب الباحثة السوفيتية ليا ميخائيلوفنا روزينبلوم « يوميات دستويفسكي الابداعية » الصادر عن دار نشر « العلوم » في موسكو في منتصف العام الجاري ١٩٨١ مساهمة جديدة وهامة في تسليط الأضواء على تكوينات دستويفسكي الفنية والفكرية .

يقع كتاب روزينبلوم في ٣٧٠ صفحة من الحجم العادي ، موزعة على مقدمة وستة فصول تلقي الأضواء على العديد من الزوايا الهامة في حياة دستويفسكي اليومية والابداعية .

الكاتب الذي يكره الكتابة

ان دستويفسكي لم يكتب يوميات بالمعنى العام لهذه الكلمة .ولعل ذلك يعود الى طبيعة الكاتب الخجولة والكتيمة ، والى عدم توفر الوقت الكافي والقوى الروحية اللازمة ، ولكن اهتمامه بالاحداث المميزة والانطباعات الساطعة في الاحتفاظ في ذاكرته بهذه الاحداث والانطباعات ، على أمل أن يضعها في متناول القراء في وقت ما .

ثم ان دستويفسكي لم يكن من أولئك الادباء المغرمين بالكتابة ، وغالبا ما كان يجد صعوبة كبيرة حتى في كتابة رسالة ما ، سيما إذا كان يضطر للتحدث فيها عن مشاعره وأحاسيسه . وكان يضطر ، لكتابة مثل هذه الرسالة ، لان يتغلب على نوع من الحاجز الداخلي ـ الخوف من أن تشوه الكليات أفكاره ومشاعره ،أو تبسطها ، حيث يقول : « من المستحيل وصف الحالة الداخلية والروحية في الرسالة ، ولهذا بالذات أكره كتابة الرسائل » . وفي إحدى رسائله إلى ميخائيلوف كتب يقول : « أحب استلام الرسائل ، أما كتابتها فأعتبرها غير ممكنة تقريبا ، وحتى غير معقولة : فلست قادراً على التعبير الايجابي في الرسالة .... وإذا ما دخلت الجحيم فسيكون علي ، بالطبع تكفيرا عن ذنوبي ،أن أكتب عشرات الرسائل في اليوم » .

صحيح أن الرسالة تختلف عن اليوميات ، في أن الأولى موجهة الى شخص آخر ، بينما الثانية للكاتب نفسه ، ولكنهما تتشابهان في كونهما تقومان على التعبير المونولوجي المباشر عن الأفكار والمشاعر. ومن المعروف أن النمط المونولوجي في التفكير كان غريبا على دستويفسكي .

ومع ذلك فقد خلف دستويفسكي يوميات متميزة : « يوميات كاتب » بالاضافة الى الدفاتر التي ظل يسجل فيها ملاحظاته على مدى العقدين الاخيرين من حياته .

اليوميات العلاجية

ومن المعروف أن هذه الدفاتر لم تكن تفارق دستويفسكي أبدا ، حيث كانت رفيقه الدائم في حله وترحاله .

كان عام ١٨٦٤ عاما قاسيا في حياة دستويفسكي ، ففي ١٥ نيسان توفيت زوجته ، وفي حزيران توفي أخوه الاكبر المحبوب الذي كان يكن له حبا عميقا . وحول احداث هذا العام كتب دستويفسكي في يومياته يقول : « ٢٥ تشرين الثاني ٦٣ السفر من موسكو . وفي ١٦ نيسان (....) وفي ١٠ تموز في السابعة صباحا ـ توفي أخي ميشا (....)ماشا وأخي المستقبل ، ومن ثم الحاضر » .

ويبدو أن دستويفسكي قد بدأ في عام ١٨٧٠ ، وبايعاز من الاطباء ، الكتابة بالتفصيل عن النوبات التي كان يتعرض لها ، حتى أنه في تموز ١٨٧٤ بدأ يكتب « يوميات العلاج في ايمس » : « ١٨٧٠ ٢٨/١٦ تموز. نوبة في الحلم . .. الحالة النفسية معذبة ... الحرارة رهيبة ... نضبت النقود ، لوبا في صحة جيدة ، كان من الممكن لصحة آنا أن تكون أفضل ـ على ضفاف الراين التقى حوالي ثلاثة آلاف ❊ وكل منهم على استعداد للانقضاض على الاخر . أسعار البورصه تتدهور ...

❊ يقصد دستويفسكي بداية الحرب بين المانيا وفرنسا .

١٨٧٠ ٩ ايلول ، في العاشرة صباحا (نوبة) في الحلم ، ولكنها ضعيفه . يحاولون فطام لوبا . أنا مرهقة جدا . قد أسافر الى براغ بعد ايام . الرواية (يقصد « الشياطين) تسير ببطء ... الحالة المادية سيئة . لم أتلق جوابا من « زاريا » .اليوم ١٤ ايلول . قد تكون الجيوش وصلت مشارف باريس » .

اننا نلاحظ في هذه اليوميات ظاهرة ، قد تبدو غريبة : القرن بين الأحداث الشخصية والاجتماعية ، بين المصائب الخاصة والارزاء العامة : والواقع أن هذه الظاهرة تطالعنا في مختلف يوميات دستويفسكي .

ان حياة دستويفسكي الروحية تنعكس في يومياته بشكل مباشر وواقعي ، طبعا في حدود امكانية التعبير عن الافكار والمشاعر ، بهذه العجالات والملاحظات السريعة . كما تسمح هذه اليوميات برؤية دستويفسكي غارقا في اعماله ومشاغله العائلية والصحفية وتكشف عن علاقته بمن يحيط به ، وتساعد على تفهم ذلك النضال المرير ، الذي ظل يخوضه على مدى حياته ضد الحاجة والفقر المدقع .

١٦ نيسان

تحتل تأملات دستويفسكي الفلسفية ، التي سجلها في اليوم التالي لوفاة زوجته الاولى ، في ١٦ نيسان ١٨٦٤ ، مكانة متميزة في يومياته . ففي هذه التأملات يحاول دستويفسكي ايضاح الخلود الذاتي ، والكشف عن أسباب تطور المجتمع البشري ، وامكانية الانسجام العالمي في المستقبل ـ كل ذلك يدل على مدى اتساع نطاق المصاب ، الذي رزيّ به الكاتب .

وفي هذه التأملات ينطلق دستويفسكي من تحليل حياته تحليلا صريحا وموضوعيا ، ويؤكد ان الانسان يهفو ، في حياته على الارض ، الى المثل الاعلى ، وأن سعادة الانسان لاتتحقق الا « بتلاحم قانون الأنا بقانون الانسانية » .

وفي هذه الصفحات ، المكرسة لموت زوجته ، يطالعنا وجه دستويفسكي كانسان ومفكر ، ومن المرجح ان تحليله الفلسفي العميق لروحه ، لروح الانسان المتحضر بشكل عام ، في هذه التأملات ، قد لعب الدور الحاسم في تبلور نظرية تطور البشرية ، التي صاغها الكاتب ، للمرة الاولى ، في رؤوس اقلام « الاشتراكية والمسيحية » والتي اصبحت الاساس لمجمل مسيرة الكاتب الابداعية ، فيما بعد .

فكرة الرواية الذاتية

في الوقت الذي كان دستويفسكي منكبا فيه على تأليف رواية « الشياطين » كان خياله الفني يمور بالمواضيع ، التي لاتمت بصلة مباشرة الى هذه الرواية بالذات . ففي ٢٨/١٦ شباط ١٨٧٠ تراود الكاتب ، للمرة الاولى والاخيرة ، فكرة تأليف رواية ، يكون بطلها قريبا منه ، بيوغرافيا وسيكولوجيا . وفي نفس اليوم يكتب دستويفسكي في يومياته « فكرة رائعة . يجب اخذها بعين الاعتبار » .

فالبطل في هذه الرواية ، التي لم تر النور ، كاتب روائي ، يعاني من النوبات المرضية والبؤس والفاقة ، مما ادى ، في النهاية ، الى اصابة مواهبه بالمرض .

والواقع ان مشروع هذه الرواية ، الذي لم يلق ، حتى الآن ، اهتمام الباحثين ، يعتبر ذا اهمية بالغة في فهم شخصية دستويفسكي . فهو على قناعة تامة بقدرته على أن يدلي بدلوه في الادب ، وبأن المرض والفقر هما وحدهما القادران على منعه من ذلك . المرض والفقر ، اللذان ظلا يرافقانه طوال حياته ، واللذان يطالعاننا في جميع صفحات يومياته ، على مدى عشرين عاما .

تبدأ الرواية بهذا الوضع المأساوي ـ المصير اليائس للكاتب الملفوظ ، والذي لم يتمكن من ان يقول الشيء الاساسي .

وفي تكويناتها تتجلى بوضوح المواجهة الاجتماعية بين دستويفسكي وتولستوي وبينه وبين تورغينيف . وهنا يتجاوز تفكير الكاتب حدود العلاقات الشخصية ، وينطلق من قناعته بأن ضعف أدبهما إنما يعود الى كونه « الانفاس الاخيرة للادب الاقطاعي المحتضر » .

ان « يوميات » الكاتب تلقي ضوءا ساطعا على المسيرة الحية لابحاثه الفكرية على مدى العقدين الاخيرين من حياته ، حيث يبدو التناقض في تفكيره وعلاقاته الواقعيه مع معاصريه أكثر تعقيدا مما كان معروفا حتى الآن ، ثم ان « يومياته » تمكن من الالمام ، بشكل اكثر شمولية ، وأكثر تحديدا ، بالتلاحم بين تفكيره الفني وبين منظومة آرائه الاجتماعية ـ السياسية والتاريخية ـ الفلسفية .

ولكن لابد من الاشارة هنا الى ان دستويفسكي لم

يتعرض في « يومياته » الى موضوع بالغ الاهمية ، كان ينوي أن يتناوله ، ولكنه لم يتمكن ، ونقصد بذلك مسألة الكيفية ، التي تغيرت فيها قناعاته بعد الاربعينات . « يصعب علي أن أروي تاريخ الولادة الجديدة لقناعاتي » .

وفي دفتر يومياته في عام ١٨٧٦ يتناول هذا الموضوع من جديد ، مؤكدا أنه لم تحدث أية ولادة جديدة ، ولم يطرأ أي تغير على أساس قناعاته .

دستويفسكي والثورة

في « يومياته » يهاجم دستويفسكي ، دون هوادة ، الثوريين والاشتراكيين والملحدين « يريد الاشتراكيون بعث الانسان وتحريره وتصويره بدون اله وبدون اسرة . وهم يعتقدون أن بوسعهم بلوغ هذا الهدف عن طريق تغيير الحياة الاقتصادية . ولكن الانسان لا يتغير للاسباب الخارجية ، بل بسبب التغير الاخلاقي فقط » .

وتدل يومياته على انه كان ينوي كتابة مقالة طويلة ، يتعرض فيها لاعمال تشرنيشيفسكي في النقد الأدبي والتاريخ وعلم الجمال . وفي اواسط السبعينات كتب دستويفسكي مقالة بعنوان « التعرف على بيلينسكي » ، ولكن مصيرها لايزال مجهولا . وقد اراد الكاتب ان يعلن فيها ـ كما تدل رسالته الى مايكوف ـ عن اتجاهه المعارض لافكار بيلينسكي واتباعه .

كان دستويفسكي يحلم بتطور ابناء الشعب بحرية وبأن تسود العدالة المطلقة بين جميع اعضاء المجتمع ، حيث نقرأ في يومياته : « لم اتمكن ابدا من فهم مغزى أن يحصل ١/١٠ الناس على التطور الرفيع ، بينما يقتصر دور ال ٩/١٠ الباقية على ان تكون مادة ووسيلة » ، وفي مسودات « الجريمة والعقاب » نقرأ مايلي : « غالبا ماتراودني الفكرة التالية : قد ترى فلاحا يحرث الارض ، ولكنه قد يكون نيوتن او شكسبير » . ونفس هذه الفكرة تطالعنا في يوميات دستويفسكي « قد نرى شكسبير ، ولكنه يعمل حوذيا ، وقد نرى رافائيل ، ولكنه يعمل حدادا . وقد نرى مثلا ، ولكنه يحرث الارض . هل يعقل ان تظهر حفنة صغيرة من الناس فقط ، بينما يهلك الباقون ! .. »

ان الكثير من القضايا الجمالية ، التي يعالجها دستويفسكي في يومياته ، ذات اهمية بالغة في فهم نظرياته الجمالية وابداعه الفني . ومن بين هذه القضايا :

.علاقة الفن بالواقع .

.المثل الجمالي .

.الواقعية بالمعنى الرفيع .

دستويفسكي والتحليل النفسي

تعتبر هذه المسألة واحدة من اكثر المسائل جدلا في الابحاث المعاصرة عن دستويفسكي ، حيث يختلف الكثيرون في تفسير العبارة التالية ، التي كتبها دستويفسكي في يومياته العائدة الى عامي ١٨٨٠ ـ ١٨٨١ « يسمونني سيكولوجيا ، هذا غير صحيح ، انني فقط واقعي بالمعني الرفيع ، اي اصور كل اعماق الروح البشرية ... » . ولكن هل يستطيع تصوير « كل اعماق الروح البشرية » إلا من كان سيكولوجيا ؟

وعلى الرغم من اختلاف وجهات نظر الباحثين في هذا المجال ، فان العديد من قضايا سيكولوجية دستويفسكي ، قد اصبح واضحا ، بما فيه الكفاية . فدستويفسكي يصور أبطاله في اللحظة الحاسمة ، التي تسبق حدوث العاصفة ، على حافة الهاوية ، او عشية حدوث انعطاف حاسم في حياتهم ، وهكذا فان دستويفسكي ـ السيكولوجي يصور البيوغرافيا الروحية لابطاله في اللحظات الحاسمة ، وغالبا ما يكون الحاضر فاتحة انعطاف نحو المستقبل .

ثم ان ابطال دستويفسكي يتميزون بالتناقض السيكولوجي في شخصياتهم ، فجميع ابطاله ، تقريبا ، يمكن ان يكونوا « اخيارا وأشرارا ، اقوياء وضعفاء ، ايجابيين وسلبيين » .

■ أخيرا يبقى ان نقول ان كتاب روزينبلوم محاولة جادة وناجحة لالقاء الاضواء ، للمرة الاولى ، على « يوميات » دستويفسكي بوصفها يوميات ابداعية ، ذات علاقة عضوية وصميمية بأعماله الروائية والصحفية . ■■

موسكو/هاشم حمادي

غمائم الخريف

ديوان للشاعر اللبناني رياض المعلوف

مراجعة الدكتور صفاء خلوصي

بوسعي ان اجامل اي انسان في اكثر من موضوع ... الا الشعر ، فما انا بمجامل فيه ، لانه يحتاج الى هزة ، وحيث لا هزة نفسية او روحية لا شعر ولا شاعر .

وبهذا المفهوم يكفيني ان اقول ان « غمائم الخريف » ديوان شعري ، ورياض المعلوف شاعر بحق وحقيق ، والى ذلك فهو انسان رائع ، كله محبة وتآخ وتسامح ، فهو القائل :

وليس التسامح ضعفا ولكن
هو النبل ، بل كرم المحتد

وابرز سمة في شعره انه خال من التكلف كأنه يتحدث حديثا يوميا اعتياديا ولكن بحلاوة موسيقية :

وحين افترقنا شعرت بكفي
تقبل كفك عند السلام

لذلك لم يخطيء من شبهه « بالبهاء زهير » فالشعر عند كليهما سليقة وجبلة لا تكلف فيه ولا اصطناع .

ومع ان شعر الحب الرومانطيقي هو الطاغي عليه فهو بارع في الوان القريض الاخرى ، في وصفه للكمنجة ، في صداقته للكتاب ، في الشعرة البيضاء في مفرقيه ، وفي الحرية ، وقد نظم في هذا اللون الاخير قولا مشهورا للخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رض) يوم قال لعمرو بن العاص وقد اعتدى ولده على احد اقباط مصر : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟ » فردد المعلوف ذلك قائلا (من بحر الوافر) :

قديما قيل قول عبقري
متى استعبدتمو للناس ولدا ؟
وقد ولدوا وهم احرار قوم
وعبر المهد كم حر تبدى ؟

ثم يخاطب الحرية قائلا :

بخور انت في الافاق يسري
صلاة انت في الاحداق تشدي

واذا كان مقياس الشاعرية الوصف فالمعلوف وصاف بارع ، واوصافه بل وموضوعات وصفه لا تخلو من ابتكار وقوة خلق ، فهو يصف الشمس قائلا :

ذهب على ذهب خيوطك جمعت
كالتاج فوق مفارق الجوزاء

وقد ابدع في وصفه الارق حين قال :

فكأن عيني لا جفون لها
مبتورة الاهداب والحدق

وله باع طويل في الصور البلاغية ، ولا سيا في الاستعارة والتورية ، ومن الاخير قوله والحديث عن ابنته :

هي وردتي بنت الربا ... ض « قطعتها من مهجتي .

وهو شديد التعلق بوالديه واسرته ووطنه ، ولعل حب الاسرة من تكامل الروح الوطنية في الانسان . انصت اليه وهو امام تمثال والده الفقيد عيسى اسكندر معلوف عضو مجامع اللغة العربية بالقاهرة ودمشق وبيروت ، ولعله اول شاعر رأى تمثال والده فخاطبه شعرا :

يهنيك عيشك مرتين على الدنا
عشت الحياة وعشت في التمثال
فالبس ثياب الخلد واهنأ يا ابي
من بعد ثوبك كل ثوب بال

ويتجلى بره بأبويه كذلك في مرثية لوالدته :

اودعت جسمك في الثرى واحسرتي
فكأنما قلبي هنالك ... مودع !
لا ليس امي من دفنت بلوعة
لكن حشاشتي التي تتقطع

وقد تذوق رياض طعم الابوة ـ كما يقول الاستاذ ميخائيل نعيمة فاضاف الى ربابه وترا جديدا لعله أغدق اوتارها :

اعــز على من المقلتين
« حياة » بعين و « نجوى » بعين

وحياة ونجوى هما كريمتاه .

ونعت ابنه بولي عهده ولكنه متحسر أسف لانه لن يورثه غير الادب :

ماذا سأورثه سوى ادبي
والشعر غير الشعر لم اجد

وحب الاسرة الحقيقي الصميم يمتد ليشمل الوطن باسره كما اسلفنا ، فلا بدع ان يكون رياض المعلوف متعلقا بتربة لبنان وامجاده :ـ

فيا ارز الخلود عظيم قدري
يعود اذا انتسبت اليك اصلا
فأنت السفر للاجيال تروي
تواريخ العلى فصلا وفصلا
فحدثنا عن الامجاد حدث
فذكراهم الى الابناء تتلى

اما اعظم شعره قاطبة فقصيدتاه في الرسول العربي الكريم محمد (ص) ففيهما يمثل رياض المعلوف السماحة في الدين ونبذ العصبية المقيتة :ـ

يا رسول الانام انت وعيسى
خير من يصطفى ويرجى ويقصد
وكفى العرب فخرهم بنبي
عبقري هو النبي محمد

ونسمعه رافعا عقيرته حين يقول :ـ

جمعتنا ام اللغات جميعا
حولها نحن كلنا نتوحد

وهو يقول في القرآن الكريم :ـ

عبر كله وقول بليغ
كلما طال عمره يتجدد

ويعترف في قصيدة (يا بني الاعراب) انه متأثر بلغة القرآن :ـ

واذا ما اجدت فيك قصيدي
عاد فضلي اليك في الهامي
جئت من بيعة المسيح وشعري
فيك انشدته فطاب كلامي

ويفصل في ذلك اكثر فيقول :ـ

كل قرآنك الشريف عظات
طاب تجويدها مع الانغام
سور في كلامها نفحات
تسحر العقل من بديع الكلام
وهي سلك من اللآلي نسق
فيه آيات شرعة الاسلام .

ما احوجنا اليوم الى امثال رياض المعلوف بين المسيحيين والمسلمين جميعا لتوحيد صفوف لبنان الاشم ، وما اجدر اللبنانيين اليوم بان يقولوا بفم واحد ، كلنا رياض المعلوف ، سنجعل روحيته السامية هدفنا ومبتغانا ومثلنا الاعلى وننهج على هذا اللحن السماوي الاخوي الخالد . ■■

اكسفورد/د .صفاء خلوصي .

نزهة العقل الذكي

مسابقة العدد

■ مسابقة هذا العدد هي (الكلمات المتقاطعة) .. والمطلوب ايجاد الاجابات الصحيحة لها وارسالها الينا .. ويمكنك اعادة رسم مربعات الكلمات المتقاطعة على ورقة مستقلة ، حتى لاتشوه صفحة العدد بقطعها منه اما المنشور في أسفل الصحفة المقابلة ، فمن الضروري ان يرفق بالاجابة حتى تفوز بواحدة من الجوائز التي مجموعها ١٠٠ دينار تمنح على الوجه الآتي .

الجائزة الاولى قيمتها ٣٠ دينارا ـ الجائزة الثانية ٢٠ دينارا ـ الجائزة الثالثة ١٠ دنانير و٨ جوائز مالية قيمتها ٤٠ دينارا كل منها ٥ دنانير .

ترسل الاجابات على العنوان التالي : مجلة العربي ـ صندوق بريد ٧٤٨ الكويت « مسابقة العدد » وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو أول فبراير (١٩٨٢) .

اثنتان في واحدة

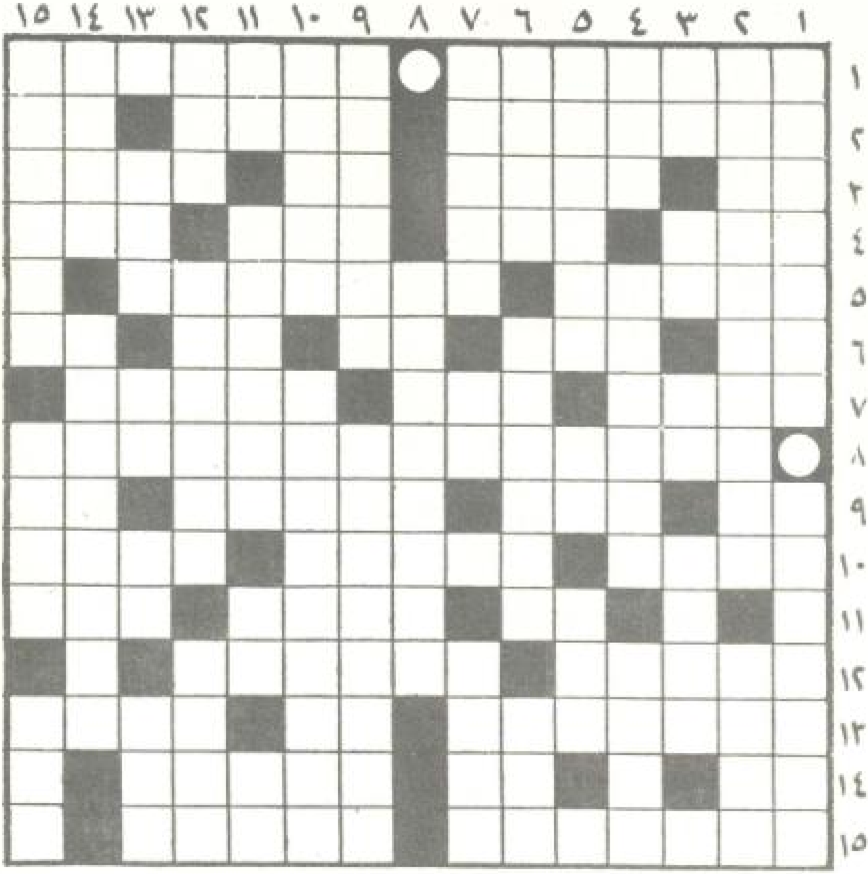
اذا استطعت حل مسابقة الكلمات المتقاطعة ، ستجد في (٨) أفقيا اسم فلكي ومهندس عربي قديم . كما ستجد في (٨) رأسيا اسم فقيه مالكي من القرن الثاني عشر .

كلمات أفقية :

(١) من دعاة الوحدة الايطالية ـ ولاية أمريكية .
(٢) أقاتلهم ـ يكرر ـ صديق .
(٣) أصلح ـ برا ـ حرف نفي ـ يقاد .

(٤) أوشكت ـ تجدها في (أسور) ـ ضمير ـ فوق .
(٥) ثقيلة ـ أعظم قواد قرطاجنة .
(٦) حرفان متشابهان ـ خلق ـ للتمنى ـ نصف كلمة (وليد) ـ مناص .
(٧) يجوز ـ جلبة لاتفهم ـ في الكف .
(٨) فلكي ومهندس عربي قديم .
(٩) نصف كلمة (أجود) ـ نصف يوم ـ عاصمة أسيوية ـ للتخيير .
(١٠) سنين ـ الخلق ـ من الامراض .
(١١) نصف كلمة (يموت) ـ طريق ـ غاية .
(١٢) تفريق ـ رسام فرنسي من أعلام المدرسة التأثيرية .
(١٣) من أشهر أمراء النمسا في القرن التاسع عشر ـ من سور القرآن الكريم ـ عليه سياج .
(١٤) للتخيير ـ من المقامات الموسيقية ـ مصائب .
(١٥) الاسم الشائع لكلوريد الصوديوم ـ من الابراج .

كوبون مسابقة العدد ٢٧٧



كلمات رأسية :

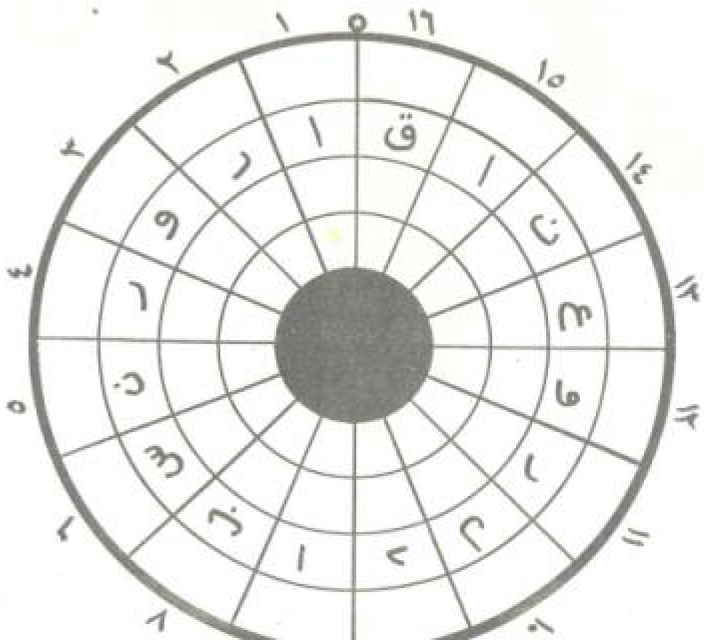
(١) إيطالي اخترع ارسال الرسائل باللاسلكي - شاعر عباسي .
(٢) بحار عربي قديم اعتمد عليه فاسكودي جاما - استعدادات فطرية .
(٣) نصف كلمة (تابع) - ملكة مصرية قديمة - جوهر - يردى .
(٤) استثبت - رئيس أمريكي سابق - يوثق .
(٥) يختبرها - نصف كلمة (جياد) - ثقل .
(٦) شربا - اجناس - تجدها في كلمة (راعى) .
(٧) طائر - جاء زائرا بعد أيام - صفة للصوت .
(٨) فقيه مالكي من القرن الثاني عشر .
(٩) مدينة صناعية ايطالية - كوكب من المجموعة الشمسية اكتشفه هرشل .
(١٠) تقاسي - وقود .
(١١) حرفان متشابهان - من امارات الخليج - نصف كلمة (عائم) - عقل .
(١٢) جدوى - موقد النار - في الصحراء .
(١٣) كح - من المقامات الموسيقية - نصف كلمة (مشلة) - من الارقام .
(١٤) تظن - أديب عالمي من أصل أيرلندي .
(١٥) الاغلال - من الانبياء - موت .

حول الدائرة السوداء

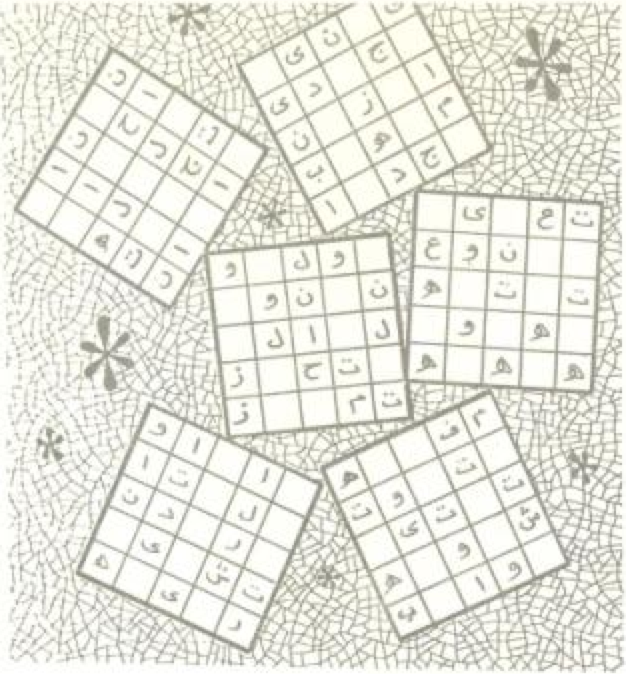
ضع الكلمات ذات الاحرف الأربعة ، والتى تعطيك معانيها ، في أماكنها وفقا للارقام . يساعدك وجود الحرف الثاني من كل كلمة . ستجد حول الدائرة السوداء اسم :

عالم رياضي اغريقى ، أول من كتب عن المقاطع المخروطية

(١) أفلا (٢) دانى (٣) شهر هجرى (٤) يزيد (٥) توجع (٦) من الدهون (٧) أختبر (٨) شهر ميلادى (٩) بسطوا (١٠) طائر مفرد (١١) طائر مكروه (١٢) كنف (١٣) من الماشية (١٤) قناة عالية (١٥) شهر ميلادى (١٦) لبى .

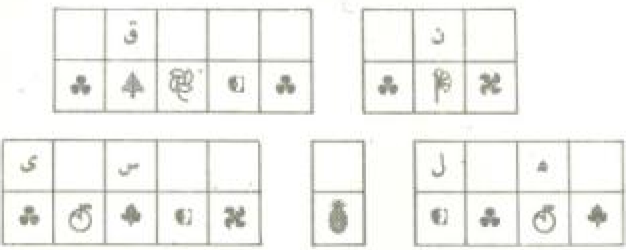


العواصم



أمامك ستة مربعات ذات اطارات ثقيلة . في كل مربع من هذه المربعات خمس كلمات أفقية ذات خمسة حروف ، ينقصها جميعا نفس الحرف . اجمع الحروف الناقصة في المربعات الستة ، ورتب الحروف لتصنع اسم عاصمة عالمية .

مثل عربي



أمامك مثل عربي . يرمز لكل حرف من حروفه أحد الرسوم بحيث يمثل الحرف الواحد نفس الرسم دائما . على سبيل المساعدة نعطيك بعض الحروف من كلمات المثل في موضعها ، هل يمكنك الوصول الى المثل العربي اذا عرفت أنه يضرب للتدليل على :

استحالة التقاء الشيئين

الحلول ١

حول الدائرة السوداء :

أبلونيوس البرجاوي .

العواصم :

مكسيكو .

مثل عربي :

أنى يلتقى سهيل والسها .

العربي

فهرس سنة

١٩٨١

من العدد ٢٦٦ إلى العدد ٢٧٦

اعداد صلاح صادق

حديث الشهر

بقلم : رئيس التحرير / أحمد بهاء الدين

الموضوع	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
العالم يتحول الى اليمن !	٨١/١		٢٦٦	٦
رحل نبي العصر الالكتروني !	٨١/٢		٢٦٧	٦
لابد من صنعا وان طال السفر !	٨١/٣		٢٦٨	٦
طرد العمال العرب من اوروبا ـ المال العربي في الخارج .. والعمل العربي أيضا في الخارج	٨١/٤		٢٦٩	٦
رؤية من لندن : حضارة الغرب بين السماحة والاباحة	٨١/٥		٢٧٠	٦
رؤية من باريس : مشاهد من عالم متقدم تلهث في محاولة تقليده	٨١/٦		٢٧١	٦
مسلمون .. لادراويش !	٨١/٧		٢٧٢	٦
في الانحطاط الثقافي .. داؤه ودواؤه !	٨١/٩		٢٧٤	٦
زينب .. وفتحي غانم .. والعرش !	٨١/١٠		٢٧٥	٦
كيف مات صلاح عبد الصبور ؟	٨١/١١		٢٧٦	٦

دين ورجال دين

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
اقتران القومية بالعلمانية مصدر شكوك الاسلاميين	د . محمد فتحي عثمان	٨١/١		٢٦٦	٦٣
موسى بن نصير مأساة فاتح عظيم !	د . محمد جبر	٨١/١		٢٦٦	١٥١
الفكر الاسلامي ومسئوليات قرن جديد	د . محمد فتحي عثمان	٨١/٢		٢٦٧	١٨
الردة وحرب التدليس الثقافي	د . مصطفى شعبان	٨١/٢		٢٦٧	٦٢
٤وجوه لمأساة الشباب المسلم	د . احمد كمال ابو المجد	٨١/٤		٢٦٩	١٢
الشورى ملزمة في الامر العام	د . محمد الطويل	٨١/٤		٢٦٩	٦٢
حوار حول الاسلام والتقدم	د . عبد العزيز كامل	٨١/٦		٢٧١	٢١
أعظم البنائين في عالم الاسلام :المعمار سنان	د . محمد حرب	٨١/٦		٢٧١	٦٨
لمذا تدهورت مكانة رجال الدين عند المسلمين	حسين احمد امين	٨١/٧		٢٧٢	١٤
بالعلم .. لا بالرؤية تتحدد الشهور العربية	حسين جوزو	٨١/٧		٢٧٢	٩٢
سيف بن عمر الراوية الاشهر للفتوحات الاسلامية	احمد عادل كمال	٨١/٨		٢٧٣	١٣٤
الأزهر الجامع والجامعة	د . نعمات احمد فؤاد	٨١/٩		٢٧٤	٣٤
الدين والعامة	محمد كرد علي	٨١/١٠		٢٧٥	٥٢
هل تدهورت حقا مكانة رجال الدين ؟	ياسر صاري	٨١/١١		٢٧٦	٦٠
الرسول أبا وجدا	رابح لطفي جمعة	٨١/١١		٢٧٦	١٣٢

للمناقشة

بقلم : فهمي هويدي

الموضوع	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
ارفعوا ايديكم عن الاسلام !	٨١/١		٢٦٦	٤٥
المسلمون والاخرون .. اشواك وعقد على الطريق !	٨١/٢		٢٦٧	٤٩
جسور مفتوحة في الارض والسماء	٨١/٣		٢٦٨	٤٨
هم اصحاب حق .. ولسنا اصحاب فضل !	٨١/٤		٢٦٩	٣٨
اهل الذمة : قراءة في النصوص	٨١/٥		٢٧٠	٣٧
مواطنون .. لا ذميون	٨١/٦		٢٧١	٤٥
الاقليات : شهادة للاسلام !	٨١/٧		٢٧٢	٤٥
مساواة نعم .. وتفرقة ايضا !	٨١/٨		٢٧٣	٤٢
التاريخ الاسلامي بين الفقيه المؤرخ والمؤرخ الفقيه	٨١/٩		٢٧٤	٤٨
الانتماء للاسلام ليس ختما ولا علامة مسجلة	٨١/١٠		٢٧٥	٣٨
فصل في غربة العربي	٨١/١١		٢٧٦	٣٢

سياســة واقتصــاد

الموضوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
لعبة السنة الكبيسة !	د . فؤاد زكريا	٨١/١		٢٦٦	١٥
الانتخابات الامريكية والعالم العربي ..	د . جورج طعمة	٨١/١		٢٦٦	٢١
ريجان رئيس امريكا الجديد !	منير نصيف	٨١/١		٢٦٦	٢٤
من الذي يصنع التضخم ؟	حافظ احمد امين	٨١/١		٢٦٦	٥٨
وفاق القطبين والوطن العربي	جميل مطر	٨١/٣		٢٦٨	٢٠
مأزق الاقتصاد العالمي	د . حازم الببلاوي	٨١/٤		٢٦٩	٢٨
فقراء بالنفط وفقراء بدونه !	د . حازم الببلاوي	٨١/٦		٢٧١	٢٧
شيرلي وليامز تقول : السياسة للناس	جمال الكتاني	٨١/٧		٢٧٢	٣٠
ثلاث ظواهر في العالم الثالث	جميل مطر	٨١/٩		٢٧٤	١٧
أسرار اللعبة الدولية لابتلاع فائض المال العربي	د . عارف دليلة	٨١/١٠		٢٧٥	٣٦
ناقلات النفط العملاقة وقناة السويس	جورج حليم	٨١/١٠		٢٧٥	٦٢
الضجة حول اسعار النفط : مناورة ام مؤامرة ؟	د . حميد القيسي	٨١/١١		٢٧٦	٢٢

عروبـــــة

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
دعوة لانشاء مركز عربي للبحوث العلمية	د . فؤاد الزين	٨١/٢	٢٦٧	٥٨
حلم الوحدة بين الحركات الوطنية المصرية والعربية .	اكرم زعيتر	٨١/٣	٢٦٨	٤٣
بلاد العرب للعرب	اسماعيل مظهر	٨١/٣	٢٦٨	٨٦
العرب في ملحمة جورجية قديمة	د . محمد جليل مصطفى	٨١/٣	٢٦٨	١١٨
لقاء مع النساء الفلسطينيات تحت الاحتلال الاسرائيلي .	روز ماري صايغ	٨١/٤	٢٦٩	١٨
من سلبيات الشخصية العربية	د . سامي القباني	٨١/٤	٢٦٩	٥٨
حوار مع صلاح هاشم عن مستقبل الثقافة في الوطن العربي .	مصطفى نبيل	٨١/٥	٢٧٠	٢٠
اوراق اكرم زعيتر شهادة هامة في تاريخ النضال الفلسطيني .	زياد عودة	٨١/٥	٢٧٠	١٣٨
قصة اول وزارة للثقافة في الوطن العربي	فؤاد دواره	٨١/٦	٢٧١	٣٨
من ايجابيات الشخصية العربية	زياد ذياب	٨١/٧	٢٧٢	٩٠
الصرخة الفلسطينية واصداؤها في مصر	اكرم زعيتر	٨١/٨	٢٧٣	١٩
دفاع عن الشخصية العربية	عمر عباس العيدروس	٨١/٨	٢٧٣	٦١
.. وسلبيات اخرى	د . محمد مروان السبع	٨١/٨	٢٧٣	٦٣
الروح العربية في غضبات مصرية	اكرم زعيتر	٨١/٩	٢٧٤	٢٨
محنة البحث العلمي في المجتمع العربي	د . عمر السباخي	٨١/٩	٢٧٤	٦١
التعليم والمستقبل العربي	د . علي عبد المنعم	٨١/١١	٢٧٦	٥٨
« الشخصية العربية » تفاعل بين الفرد والمجتمع	د . معن خليل عمر	٨١/١١	٢٧٦	٦٢

استطلاعات الكويت المصورة

الموضوع	الكاتب	الشهر السنة	العدد	الصفحة
رأس الزور .. كويتية من مواليد عصر النفط	دينا العيسى تصوير : اوسكار متري	٨١/١	٢٦٦	١٣٦
الكويت سنة ٢٠٠٠	منير نصيف تصوير : طالب الحسيني	٨١/٢	٢٦٧	٦٨
اطباء المستقبل في الكويت	يوسف الشهاب تصوير : اوسكار متري	٨١/٣	٢٦٨	٨٨

الموضوع	الكاتب	الشهر / السنة	العدد	الصفحة
عروس الكويت	دينا العيسى تصوير : اوسكار متري رسوم : بهجت عثمان	٨١/٥	٢٧٠	٦٧
الف معلمة تحت الاعداد	يوسف شهاب تصوير : فهد الكوح	٨١/٦	٢٧١	٩٢
سفراء الكويت في الجامعات المصرية	صادق يلي تصوير : صلاح أدم	٨١/٨	٢٧٣	١١٦
البحر ذلك المجهول .. الخليج من القاع	مصطفى نبيل	٨١/٩	٢٧٤	٨٨

الاستطلاعات العربية والخارجية المصورة

الموضوع	الكاتب	الشهر / السنة	العدد	الصفحة
دمشق الفيحاء	مصطفى نبيل تصوير عبد الناصر شقره	٨١/١	٢٦٦	٦٨
في بيوت مسلمي الصين	فهمي هويدي تصوير : اوسكار متري	٨١/١	٢٦٦	١١٦
مجاويش : جوهرة بين الرمال	مصطفى نبيل تصوير : اوسكار متري	٨١/٢	٢٦٧	١١٦
مشكلة النخل والنفط	صادق يلي تصوير :عبدالناصر شقره	٨١/٣	٢٦٨	٧٢
من سبته الى مليله	مصطفى نبيل تصوير : اوسكار متري	٨١/٤	٢٦٩	٦٨
اول مؤسسة عربية اسلامية في سويسرا	منير نصيف	٨١/٥	٢٧٠	٩٠
قناة السويس الجديدة	منير نصيف تصوير :عبد الناصر شقره	٨١/٦	٢٧١	٨٠
جامعة القرويين حصن الثقافة في المغرب	مصطفى نبيل تصوير اوسكار متري	٨١/٧	٢٧٢	٦٧
مدينة مراكش	بهجت عثمان	٨١/٨	٢٧٣	٦٨
رحلة مع اندونيسيا	منير نصيف تصوير : اوسكار متري	٨١/٩	٢٧٤	٦٨
عمان الثمانينات تتربع فوق ١٤ جيلا	فهمي هويدي تصوير : صلاح أدم	٨١/١٠	٢٧٥	٦٨
جامع الزيتونة وريح التغيير في تونس	مصطفى نبيل اوسكار متري	٨١/١١	٢٧٦	٧٦

أدب ولغـــة

الموضوع	الكاتب	الشهر / السنة	العدد	الصفحة
محتالون ولكن شرفاء !	د . علي الراعي	٨١/١	٢٦٦	٤١
من التراث الحديث : في الذوق	د . طه حسين	٨١/١	٢٦٦	٥٦
موت صحيفة	مجدي نصيف	٨١/١	٢٦٦	١٠١
عودة البؤساء	محمد صالح القمودي	٨١/١	٢٦٦	١٠٤
الكتاب صامد امام الفيديو !	عبد المقصود حبيب	٨١/١	٢٦٦	١٠٨
لقاء غير مستغرب بين برناردشو ونجيب محفوظ	د . علي الراعي	٨١/٢	٢٦٧	٢٨
من التراث الحديث : عن الصور والتماثيل	الشيخ الامام محمد عبده	٨١/٢	٢٦٧	٤٢
اين كنوز الادب المغربي ؟	عثمان بن خضراء	٨١/٢	٢٦٧	٥٣
المرأة : ناقدة وكاتبة	د .سامية احمد اسعد	٨١/٢	٢٦٧	١١٠
محنة ادب الاطفال العرب !	د . علي الحديدي	٨١/٣	٢٦٨	٥٦
لماذا نهمل الترجمة الى العربية ؟	م .احمد حسن مأمون	٨١/٣	٢٦٨	٦١
العرب في ملحمة جورجية قديمة	د .محمد جليل مصطفى	٨١/٣	٢٦٨	١١٨
الطوفان عند الامم	د . احسان حقي	٨١/٣	٢٦٨	١٢٦
بيرم التونسي ومقاماته المظلومة !	د . علي الراعي	٨١/٤	٢٦٩	٣٣
كلمات كان يصححها الزيات	عباس خضر	٨١/٤	٢٦٩	٥٦
هل كان كتاب « النبي » اروع ما كتب جبران بالانجليزية ؟	شمس الدين العجلاني	٨١/٤	٢٦٩	٦١
الباحثون عن الثروة في قمامة باريس	محمد صالح القمودي	٨١/٤	٢٦٩	١٠٠
الذين ادركتهم حرفة الادب	طاهر ابو فاشا	٨١/٤	٢٦٩	١٢١
الكتاب والتكنولوجيا	د . عمر الدقاق	٨١/٥	٢٧٠	٢٦
مأساة الانسان عند ديستوفسكي	سليم الصويص	٨١/٥	٢٧٠	٤٢
أذن تبصر وعين تسمع	د . اسحق عبيد	٨١/٥	٢٧٠	٥٨
احياء التراث لماذا وكيف ؟	د . يوسف بكار	٨١/٥	٢٧٠	٦٢
التراث اليمني في المتحف البريطاني	احمد بن محمد الشامي	٨١/٥	٢٧٠	١٣٣
مدام بوفاري بين خيال الاديب وحكم القضاء وعجز القلم .	سليم الصويص	٨١/٦	٢٧١	٣١
حرية الرأي	د . زكي مبارك	٨١/٦	٢٧١	٥٠
أدب المهجر واحياء التراث	عبد الرزاق البصير	٨١/٦	٢٧١	٥٨
رواية من المغرب : الريح الشتوية رواية المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي	احمد محمد عطية	٨١/٦	٢٧١	١٠٣
رواية اميل حبيبي : المتشائل اضحوكة تقطر دمعا ودما !	د . علي الراعي	٨١/٧	٢٧٢	٤١
الهليوكوبتر في الف ليلة وليلة !	عباس خضر	٨١/٧	٢٧٢	٥٤
دفاع عن الغزل الجاهلي	نجمة ادريس	٨١/٧	٢٧٢	١٠٥
الام والطفل في ارجوزة ابن سينا	د .محمود الحاج قاسم	٨١/٧	٢٧٢	١٣٤
ايديولوجية الترجمة	صلاح هاشم	٨١/٨	٢٧٣	١٤
رأي المنفلوطي في كتاب مصر والشام	عجاج نويهض	٨١/٨	٢٧٣	٤٧

الموضـوع	الكاتب	الجزء	السنة	العدد	الصفحة
الاكاديمية العربية للعلوم بدلا من مجمع اللغة العربية .	عبد الوهاب احمد الافندي	٨١/٨		٢٧٣	٥٩
نحو موسوعة علمية	عبد اللطيف السعيد	٨١/٩		٢٧٤	٥٩
اللعب	عباس محمود العقاد	٨١/٩		٢٧٤	٨٦
العرب تركوا الاندلس وبقيت لغتهم	محمد عبد الله عنان	٨١/٩		٢٧٤	١٠٨
ستيف اوستن في الف ليلة وليلة	عباس خضر	٨١/٩		٢٧٤	١١٨
السهم الاسود قصة الحب والمغامرة والفروسية	د .عبد الواحد لؤلؤة	٨١/٩		٢٧٤	١٣٠
وادي العقيق منتزه العرب .. والصيف والملهى	رابح لطفي جمعة	٨١/٩		٢٧٤	١٣٤
ايها المترجم .. ايها الخائن !	محمد عبد الله الشفقي	٨١/١٠		٢٧٥	٥٥
مؤشرات قديمة جديدة في دنيا الثقافة والادب	د . يوسف بكار	٨١/١٠		٢٧٥	٥٨
الاستقلال العلمي	د . احمد عساف	٨١/١٠		٢٧٥	٦٠
الثنائية اللندنية	مجيد طوبيا	٨١/١٠		٢٧٥	١١١
الكاتب الساخر جواناثان سويفت كره الجميع وامتع الجميع .	د . صفاء خلوصي	٨١/١٠		٢٧٥	١٣٥
لماذا تتعثر دائرة المعارف العربية ؟	د . صلاح هاشم	٨١/١١		٢٧٦	١٢
سميح القاسم قاصا : الحب المستحيل بين عربي واسرائيلية .	فؤاد دواره	٨١/١١		٢٧٦	٣٨
الادب العربي في الامريكتين يحتضر	علي شلش	٨١/١١		٢٧٦	٤٨
ازمة المجلات الادبية	د . زكي مبارك	٨١/١١		٢٧٦	٥٦
مؤثرات مصرية في الادب الالباني الحديث	د . محمد موفاكو	٨١/١١		٢٧٦	١١٧

صفحة في اللغة

بقلم : محمد خليفة التونسي

الموضـوع	الجزء	السنة	العدد	الصفحة
زاد عليه ، وزاد عنه	٨١/١		٢٦٦	١٦٤
الحق والحقة	٨١/٢		٢٦٧	١٣٤
المذكر والمؤنث مجازيا « اقتراح »	٨١/٣		٢٦٨	١٣٤
وظائف تاء التأنيث	٨١/٥		٢٧٠	١٣٦
اوزان تلحقها تاء التأنيث	٨١/٦		٢٧١	١٣٤
كل الصفات المشتقة المؤنثة تلحقها تاء التأنيث	٨١/٧		٢٧٢	١١٤
ألف التأنيث .. مقصورة وممدودة	٨١/٨		٢٧٣	١٣٢
السعي بين الصفا وبين المروة	٨١/١٠		٢٧٥	١٠٠
بينا العمر اذ دارت مياسير	٨١/١١		٢٧٦	١٣٠

شعر وشعراء

قصص

الموضوع	الكاتب	الشهر / السنة	العدد	الصفحة
من الأدب الاسباني الحديث بوليفيمو	د . محمد عبد الله الجعيدي	٨١/٣	٢٦٨	١٣٦
رؤية	فاروق خورشيد	٨١/٤	٢٦٩	٦٤
وجهي الحزين	د . ناجي نجيب	٨١/٤	٢٦٩	١٣٤
فرسان الأرض	زينب صادق	٨١/٥	٢٧٠	٦٤
شيء عن الحب	عباس خضر	٨١/٦	٢٧١	٦٤
المدى الضيق	د . عيسى الناعوري	٨١/٦	٢٧١	١٣٦
من الأدب التركي : القطة السعيدة لعزيز نسين	صفوان الشلبي	٨١/٧	٢٧٢	٦٤
الحادثة التي جرت	مجيد طوبيا	٨١/٧	٢٧٢	١٣٨
الفأر	يوسف الشاروني	٨١/٨	٢٧٣	٦٥
مخترق الجدران !	عبد الحميد بن هدوقة	٨١/٨	٢٧٣	١٣٨
الكنز في الدكان !	عبد الله الشبتي	٨١/٩	٢٧٤	٦٥
حياة بلا امل لسمرست موم	حسن بوغنام	٨١/٩	٢٧٤	١٣٨
وتلطخ وجه الحب	سلمى شلاش	٨١/١٠	٢٧٥	٦٤
منزل تحت التفتيش	محمود امين مساد	٨١/١٠	٢٧٥	١٣٨
الحرب الدائمة	احمد عودة	٨١/١١	٢٧٦	٦٤
الأعمى	محمد مصطفى	٨١/١١	٢٧٦	١٤٠

علـــــــوم

الموضوع	الكاتب	الشهر / السنة	العدد	الصفحة
الزحف الى زحل بعد اكتشاف المشتري	د . عبد القوي عياد	٨١/١	٢٦٦	٣٤
موعد ولقاء مع زحل	يوسف زعبلاوي	٨١/١	٢٦٦	٣٩
هل يصبح الجدري سلاح الحرب الجرثومية ؟	د . جوزيف قريط	٨١/١	٢٦٦	٦٠
اكتشاف افيونات المخ ثورة جديدة في علاج آلام السرطـان .	د . السيد عيار	٨١/٢	٢٦٧	١٤
فكرة الخلق واحدة عند الميكروب والقرد والانســان .	د . عبد المحسن صالح	٨١/٢	٢٦٧	٩٣
البترول : هل اتى عصر الندرة ؟	محمود المراغي	٨١/٣	٢٦٨	٦٤
لغز العصافير والغربان مع النمل والنيران	د . عبد المحسن صالح	٨١/٣	٢٦٨	٦٧
في « مايوكلينيت » مغامرة الطب	د . السيد عيار	٨١/٣	٢٦٨	١٠٤
مشكلة السرطان بين الطبيب والمريض والاسرة	د . سليمان قطاية	٨١/٣	٢٦٨	١١٣
رحلة العلماء في كشف اسرار الدماغ والعقل	د . عطوف محمود ياسين	٨١/٤	٢٦٩	٤٤
اجهزة للرصد والتصويب في عالم الحيوان	د . عبد المحسن صالح	٨١/٤	٢٦٩	١١٦
هل يصير العلم الى كهنوتية جديدة ؟	شكري محمد عياد	٨١/٥	٢٧٠	١٤
الانترفيرون نحو علاج لمرضى السرطان	د . سليمان احمد سليمان	٨١/٥	٢٧٠	٣٢

أنباء الطب والعلم

اعداد : يوسـف زعبلاوي

الموضوع	العام	السنة	العدد	الصفحة
اختراع يضرب ثلاثة عصافير بحجر واحد ـ الكولسترول .. جيه فيا تأكل .. يفيد وقد يضر ـ سفن فضاء وقذائف جديدة تبلغ سرعتها ١٥٠كم في الثانية ..	٨١/٢		٢٦٧	١٠٧
سفن الفضاء والمكوك	٨١/٣		٢٦٨	١٢٣
وباء الكبار هل يختفي نهائيا في مستقبل قريب ـ الحل المثالي لازمة السير وازمة اليد العاملة ـ شجرة عجيبة تذكرنا بأشجار قصص الف ليلة وليلة .	٨١/٤		٢٦٩	١١٣
عشبة من الصين تغني عن الجراحة في القضاء على البواسير ـ تعقيم ماء الشرب باليود ـ مرضى السكر : باتوا في غنى عن التحليل في المختبرات	٨١/٥		٢٧٠	٨٨
القهوة وسرطان البنكرياس ـ الصلع باتت ايامه معدودة ـ الكارثة .. والسبيل الى تجنبها ـ القلوب البلاستيكية .	٨١/٦		٢٧١	١١٧
الانسولين البشري النقي سيظهر في الاسواق عما قريب ـ بقيت حية بالرغم من تجمدها ـ عدوان جديد من نوع جديد ـ قطارات اسرع من الطائرات .	٨١/٧		٢٧٢	٩٥
جلد اصطناعي خلقوه من جلد البقر وغضاريف سمك القرش ـ حاسب الكتروني عجيب للسيارات ـ بشرى لهواة التصوير ـ من تحت الدلف الى تحت المزراب .	٨١/٨		٢٧٣	١٠٠
الجلد الطبيعي نجحوا في زراعته ـ عشبة تحول دون تجلط الدم ـ اسعار البن ـ مقعد جديد للعجزة والمقعدين .	٨١/٩		٢٦٤	١٢٣
تلسكوب الفضاء ـ التلفاز والانهار الصناعية ـ الولادة تحت سطح الماء	٨١/١٠		٢٧٥	١٣٢
البكتيريا الجديدة تلتهم البترول وتقضي على التلوث ـ البروتينات نجحوا في صنعها من النشويات ـ اوروبا وصاروخها اريان ـ جهاز جديد وصغير يصور ويسجل الصوت في آن واحد .	٨١/١١		٢٧٦	١١٤

تـــــــاريـــخ

الموضوع	الكاتب	العام	السنة	العدد	الصفحة
مقاومة لا مبرر لها	د . صلاح عبد	٨١/٢		٢٦٧	٦١
الرشوة لها تاريخ : معاشر الفرعان .. لكم الامان	مجيد طوبيا	٨١/٢		٢٦٧	١٠٢
٢٨ ألف صورة للشام قبل قرن من الزمان	د . عفيف بهنسي	٨١/٣		٢٦٨	٢٥
التاريخ الجديد يكتبه الصعاليك	محمد صالح القمودي	٨١/٣		٢٦٨	٩٩
من الغربان الى العنادل	د . حافظ الجمالي	٨١/٥		٢٧٠	٥٢
اول طيار عبر الاطلسي بطائرة ذات محرك واحد دون توقف	د . عدنان رشيد	٨١/٥		٢٧٠	٩٩

الموضــوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
فتح بخاري القصة والعبرة	محمود شيت خطاب	٨١/٥		٢٧٠	١٢٠
الجاحظ والاتراك	د . زكريا كتابجي	٨١/٦		٢٧١	١٢٠
كنز في الحرم القدسي	د . شاكر مصطفى	٨١/٧		٢٧٢	٢٦
لكي يقف التاريخ العربي على قدميه	د . احمد عبد الرحيم مصطفى	٨١/٧		٢٧٢	٨٨
العمامة المملوكية	جمال الغيطاني	٨١/٧		٢٧٢	١٠٩
الديمقراطية على الهواء	فتحي رضوان	٨١/٨		٢٧٣	٦
سموم الاستشراق	محمد صالح القمودي	٨١/٨		٢٧٣	٣٥
وصية بطرس الاكبر المزيفة	د . احمد عبد الرحيم مصطفى	٨١/٨		٢٧٣	٥٥
زنوج وعرب في يوغسلافيا تجربة مثيرة لرحالة تركي قضى ٤٤ عاما في ٢٣ دولة	د . محمد حرب	٨١/٩		٢٧٤	١٠٢
الامراء الرقيق	د . سعيد عبد الفتاح عاشور	٨١/١٠		٢٧٥	٤٤
سلاح الفتاوي في الصراعات السياسية	ابراهيم محمد الفحام	٨١/١١		٢٧٦	٤١
النقود العربية غزت اوروبا في القرون الوسطى	د . امين توفيق الطيبي	٨١/١١		٢٧٦	١٠٨

تاريخ اشخـــــاص

الموضــوع	الكاتب	الشهر	السنة	العدد	الصفحة
موسى بن نصير مأساة فاتح عظيم	د . محمد جبر	٨١/١		٢٦٦	١٥١
في مذكرات الزعيم العربي محمد فريد .. مشكلات طرحت منذ خمسين عاما ولم تجد حلا	فتحي رضوان	٨١/٢		٢٦٧	٢٢
هذا هو اديسون العرب حسن كامل الصباح	عجاج نويهض	٨١/٢		٢٦٧	٣٣
صفية بنت عبد المطلب المرأة التي انقذت وحدها جيشا من الفناء .	محمود شيت خطاب	٨١/٢		٢٦٧	٨٨
ذكريات مع طه حسين	د . عبد العظيم انيس	٨١/٣		٢٦٨	٣٢
سنجور الازمة والتركة	د . محمد عبد الغني سعودي	٨١/٣		٢٦٨	٣٧
كمال الدين بن يونس	قدري حافظ طوقان	٨١/٤		٢٦٩	٤٨

تربية وعلم نفس

فلسفـــــة

الموضوع	الكاتب	الشهر / السنة	العدد	الصفحة
حدود التسامح	د . زكي نجيب محمود	٨١/٤	٢٦٩	١٠
رجع الصدى	د . زكي نجيب محمود	٨١/٥	٢٧٠	١٢
درس نتعلمه من الاوائل	د . زكي نجيب محمود	٨١/٦	٢٧١	١٢
قسمة الحظوظ	د . زكي نجيب محمود	٨١/٧	٢٧٢	١٢
الكتاب اولا .. والكتاب آخرا	د . زكي نجيب محمود	٨١/٨	٢٧٣	١٢

مجتمع واجتمـــــاع

الموضوع	الكاتب	الشهر / السنة	العدد	الصفحة
نصف الساعة الاخير حدود العالم اضيق مما نتصور .	د . حازم الببلاوي	٨١/١	٢٦٦	٥٢
العائلات العشائرية موجودة في اوروبا	محمد موفاكو	٨١/١	٢٦٦	١٤٦
سر الساحر الامريكي	د . جلال احمد امين	٨١/٢	٢٦٧	٤٤
المستقبل ليس مظلما وريح الرخاء قادمة	د . احسان حقي	٨١/٢	٢٦٧	٨٤
ايام لن تعود	منير نصيف	٨١/٢	٢٦٧	٩٨
أم مع الذكريات	منير نصيف	٨١/٣	٢٦٨	١٠٩
الذين قهروا ظلام الحياة	منير نصيف	٨١/٤	٢٦٩	١٠٤
في زمن الادمان على الضجيج	د . فخري الدباغ	٨١/٤	٢٦٩	١٠٨
لباس الراسي	محمد كرد علي	٨١/٥	٢٧٠	٥٦
تعامل غير متوازن	ابراهيم السهان	٨١/٥	٢٧٠	٦٠
زوجي رجل غريب	منير نصيف	٨١/٥	٢٧٠	١٠٢
في بحر الحياة هل تسبح ام تغرق ؟	منير نصيف	٨١/٦	٢٧١	٩٩
مع الخوف تعيش امريكا	منير نصيف	٨١/٧	٢٧٢	٥٩
تطابق مدهش بين دول الطوائف الاندلسية ودول الاحياء الايطالية	محمد عبد الله عنـان	٨١/٧	٢٧٢	٩٩
عناد امرأة !	منير نصيف	٨١/٧	٢٧٢	١٠١
سفاح يوركشاير صوت الرب ام نداء الشيطان ؟	جمال الكناني	٨١/٨	٢٧٣	٢٨
وقت الحب قصير !	منير نصيف	٨١/٨	٢٧٣	١١٢
ابدا لن يفوتنا القطار !	منير نصيف	٨١/٩	٢٧٤	١١١
مجرمون لكن شرفاء	ابراهيم محمد الفحام	٨١/١٠	٢٧٥	٣١
الاباء يزرعون الحصرم	منير نصيف	٨١/١٠	٢٧٥	١٠٢
ماذا يقرأ الشباب في الكويت ؟	د . اسحق يعقوب القطب	٨١/١١	٢٧٦	١٥
ليس بالحب وحده !	منير نصيف	٨١/١١	٢٧٦	١٠٤

كتـــاب الشهـــر

الموضـوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
تولستوي في مذكرات ابنته	هاشم حمادي	٨١/١		٢٦٦	١٧٢
الثقافة الاسلامية والكوميديا الالهية	عبد السميع المصري	٨١/١		٢٦٦	١٧٨
٣ قراءات للانسان بين تشاؤم فرويد وحياد سكنر .. وتفاؤل روجرز	د . عبد الله محمود سليمان	٨١/٢		٢٦٧	١٤٥
من قتل الرئيس كينيدي ؟	امين العيوطي	٨١/٣		٢٦٨	١٤٣
تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي	د . شكري محمد عياد	٨١/٤		٢٦٩	١٤٣
الساحل السواحلي	د . صفاء خلوصي	٨١/٤		٢٦٩	١٤٩
وانهار الصرح	هاشم حمادي	٨١/٥		٢٧٠	١٤٥
مخطوط عربي فريد في ايرلندا : الحدائق الغناء في اخبار النساء لابي الحسن علي بن محمد المعافري .	عائدة الطيبي	٨١/٦		٢٧١	١٤٣
مسرح المقهورين رؤية جديدة تهدم نظرية ارسطو من اساسها	فؤاد دواره	٨١/٧		٢٧٢	١٤٥
بين عملاقين : تولستوي وتشيخوف	هاشم حمادي	٨١/٨		٢٧٣	١٤٧
التعلم وتحديات المستقبل	د . عبد العزيز القوصي	٨١/٩		٢٧٤	١٤٤
اسرار ارتفاع ضغط الدم	د . صبيحة الدباغ	٨١/٩		٢٧٤	١٤٨
بحثا عن فاعلية الانسان	د . عبد الله محمود سليمان	٨١/١٠		٢٧٥	١٤١
سكة حديد الحجاز	سليمان موسى	٨١/١١		٢٧٦	١٤٣

الفنون واللوحـات الفنيـــة

الموضـوع	الكاتب	الرقم	السنة	العدد	الصفحة
الرسم العربي في اسبانيا	د . عبد المجيد وافي	٨١/١		٢٦٦	٩٢
الكوميدي فرانسيز اطفأت الشمعة رقم ٣٠٠ من عمرها	سعد اردش	٨١/١		٢٦٦	١٥٤
السياسة تطارد الرياضة منذ ثلاثة الاف عام	عادل شريف	٨١/١٠		٢٦٦	١٥٩
فيلم سينمائي من تونس : عزبة السهم العام في مرآة السهم الخاص .	الفاروق عبد العزيز	٨١/٢		٢٦٧	١٢٨
مفاتيح (كاريكاتير)	بهجت عثمان	٨١/٣		٢٦٨	٥٢
ماكبث في ثياب فكاهية	مجدي نصيف	٨١/٣		٢٦٨	١٠٢

تذكر فيما يلي الابواب التي اغفلها هذا الفهرس العام لتعذر فهرستها وتذكر الى جانبها اسماء محرريها :

نزهة العقل الذكي .... راجي عنايت
طرائف عربية .... صادق يلي
حوار القراء .... عبد الحفيظ يونس
طرائف اجنبية .... منير نصيف
مقالات في كلمات .... محمد خليفة التونسي
العربي الصغير .... يوسف زعبلاوي
الفهرس العام من اعداد .... صلاح صادق

مِنَ المسرح العالمي

سلسلة ثقافية

تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام في الكويت

أول ديسمبر ١٩٨١

العدد ١٤٧

القلب المحطم

تأليف : جون فورد

ترجمة وتقديم : د. منير الأصبحي

مراجعة : د. عبد الواحد لؤلؤة

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب - دولة الكويت

ديسمبر - كانون أول

١٩٨١م

التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان

تأليف :

د . عبد المحسن صالح

٢٥٠ فلساً

الكتاب الثامن والأربعون

المراسلات :

توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص ب ٢٣٩٩٦ الكويت

نصائح من أكبر مؤسسة لتصدير اللحوم والمواشي في العالم

تعتبر استراليا في طليعة البلدان المصدرة للحوم والمواشي ، وهي تتعامل في هذا المجال مع مايزيد عن مائة دولة في مختلف أنحاء العالم ... وقد بلغت الصادرات الاسترالية من لحوم الابقار والاغنام والماعز المبردة والمثلجة في العام الماضي نحو مليون طن .

وتتولى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تصدير مثل هذه الكميات الكبيرة من اللحوم والمواشي . وللشركة عدد من المكاتب في الشرق الاوسط ، والاسواق العالمية الكبرى .



وتهتم هذه المكاتب بترويج اللحوم وتقديم الاستشارات والمساعدات المباشرة للمستورد .

كيف تساعد الشركة المستورد

يعمل لدى الشركة الاسترالية للحوم والمواشي خبراء متخصصون بالتسويق والاقتصاد والتنمية وفن الاعلان بهدف تنشيط التجارة مع استراليا .



فاذا كنت بحاجة الى بعض المعلومات عن توفر اللحوم والمواشي ونوعياتها واجراءات الشحن والشروط الصحية وسواها من المعاملات والاعلان ، فما عليك الا أن تتصل بالمدير الاقليمي للشرق الاوسط : السيد فيليب روسال أو المدير الاقليمي للمكتب الاوروبي السيد رالف هود .

الشحن

تقوم الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بدراسة وتحديد كميات وأسعار اللحوم والمواشي المراد شحنها وكذلك وسائل الشحن الممكنة عبر الطرق الدولية .

التأكيد على النوعية

ان الشركة الاسترالية للحوم والمواشي تستخدم جهازا من الفنيين داخل استراليا وخارجها لمساعدتك في تقديم طلباتك والتأكد من أن المنتجات التي أرسلت لك تطابق المواصفات المطلوبة بما في ذلك ذبح المواشي على الطريقة الاسلامية

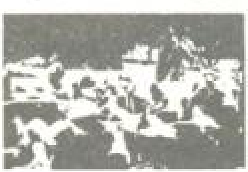
وهناك كتيبات تتضمن معلومات عن كافة اعمال الشركة والاصناف التي تتعامل بها يمكن الحصول عليها من المكاتب الاقليمية للشركة .

أذون التصدير

تطبق الشركة الاسترالية للحوم والمواشي بعض الشروط المالية والانتاجية في تعاملها مع المصدرين حتى تجنب العملاء أي اشكالات أو مضايقات هم في غنى عنها .

أين تجد النصيحة

في امكانك الحصول على أي نصيحة او استشارة في هذا المجال عن طريق :



السيد / فيليب روسال
ممثل
« يانين سنتر »
الشركة الاسترالية للحوم والمواشي
ص . ب (٥٦٢٢)
هاتف ٢٤٤٠٠٩
تلكس ٤٩٠٩٤٧٦ AMLC BN
المنامة / دولة البحرين

أو

MR. RALPH HOOD 9 KINGSWAY LONDON, WC. 2 ENGLAND

AUSTRALIAN MEAT & LIVE-STOCK CORPORATION

AML 0271

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير
الدكتور عبد الله الغنيم

صدر العدد الأول في كانون ثاني (يناير) ١٩٧٥

تصل أعدادها الى أيدي نحو ١٢٥٫٠٠٠ قارئ

يحتوي كل عدد على حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير تشتمل على : -

- مجموعة من الأبحاث تعالج الشئون المختلفة للمنطقة بأقلام عدد من كبار الكتاب المتخصصين في هذه الشئون .
- عدد من المراجعات لطائفة من أهم الكتب التي تبحث في المناحي المختلفة للمنطقة .
- أبواب ثابتة : تقارير - وثائق - يوميات - ببليوجرافيا .
- ملخصات للأبحاث باللغة الانجليزية .

ثمن العدد : ٠٠ فلس كويتي أو ما يعادلها في الخارج .

الاشتراكات : للأفراد سنويا ديناران كويتيان في الكويت ، ١٥ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية : ١٢ دينارا كويتيا في الكويت ، ٤٠ دولارا أمريكيا في الخارج (بالبريد الجوي) .

منشورات المجلة :

تصدر المجلة أيضا دراسات مستقلة متعلقة بشئون المنطقة صدر منها

١- كتاب **التكامل الاقتصادي في الخليج العربي** (د . محمد هشام خواجكية) . ١٩٧٩ .

٢- كتاب **آفاق التنمية الصناعية في دول الخليج العربي** (د . عبد الاله أبو عياش) . ١٩٧٩ .

٣- كتاب **حقوق الطفل في دولة الكويت** (د . بدرية العوضي) . ١٩٧٩ .

٤- كتاب **الاحصاءات الاقتصادية في المملكة العربية السعودية** (بدوي خليل) ١٩٨٠ .

٥- دور جريدة **فتاة الجزيرة في أحداث عام ١٩٤٨ بصنعاء** (سلطان ناجي) ١٩٨٠ .

سلسلة وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام صدر منها :

الكتاب الأول - وثائق الخليج والجزيرة العربية لعام ١٩٧٧ . ١٩٧٩ .

العنوان : جامعة الكويت - كلية الآداب والتربية - الشويخ - دولة الكويت .
ص . ب : ١٧٠٧٣ - الخالدية
الهاتف : ٨١٦٨٠٧ - ٨١٦٧٩٩ - ٨١٦٨٢

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير .